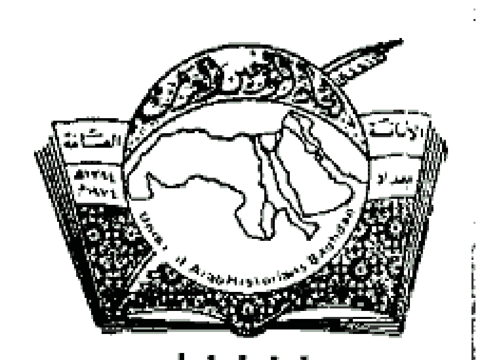


المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الاول

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

المحتويـــات



أخبار الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

ــ باسم المؤرخين العرب تتقدم الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بالشكر الجزيل لمجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقية ثم دعمه السخي بمبلغ (٢٠) عشرين الف دينار كدفعة اولى لتغطية نفقات الاتحاد وتعتبر هذه من المقومات التي ساعدت الاتحاد على انجاز مهماته القومية والعلمية .

ــ تقوم الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بالأعداد الى اقامة مؤتمر في مدينة بنغازي ــ ليبيا ــ لاحياء ذكرى الشهيد عمر المختار في شهر آذار ــ مارس ــ ١٩٧٦ .

ــ تخطط الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب من اجل تنظيم مؤتمر يبحث عن الحضارة العربية . حاضرها ومستقبلها وذلك لأقامته في مدينة الموصل في ربيع ١٩٧٦ .

ــ قامت الامانة العامة بتوجيه الدعوة لعدد من المؤرخين العرب والاجانب لزيارة القطر العراقي ومقرها فيه للتعرف على نشاطات الاتحاد ومهماته العلمية .

ــ بناء على موافقة سمو امير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني فقد تقرر اقامة مؤتمر يبحث في موضوع الخليج العربي في مدينة الدوحة وذلك في شهر ديسمبر ــ كانون اول ــ ١٩٧٦ .

ــ ابلغت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بشكل رسمي عن التبرع المشكور الذي امر به صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني امير دولة قطر بـ (١٠) عشرة آلاف دينار عراقي . والامانة العامة لاتحاد المؤرخين

لا يسعها الا ان تقدم على لسان المؤرخين العرب جزيل شكرها وامتنانها لهذه البادرة الطيبة •

ـ قدمت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب طلبا الى الامانةالعامة لجامعة الدول العربية لقبول الاتحاد عضوا في المؤسسات الثقافية في جامعة الدول العربية •

ـ تقدمت الامانة العامة بطلب الى منظمة اليونسكو بقبول الاتحاد عضوا عاملا في المؤسسات التابعة للمنظمة •

سيعقد المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب في ١٨/١٠/٩٧٥ في مدينة بنغازي ـ ليبيا ـ وسيحضره كل اعضاء المكتب المذكور لبحث شؤون الاتحاد حسب قانونه •







البيروني
عالم ساهم في تقدم العلوم

الدكتور حسين امين

ان تاريخنا العربي الاسلامي ، يزدحم بنخبة كبيرة ونابهة ، من العلماء الافذاذ الذين ساهموا بصدق واخلاص في تقدم العلوم بخاصة والمعارف الانسانية بعامة ، وان لمن مشاهير تلك النخبة العالم العربي الاسلامي محمد بن احمدوالمعروف بابي الريحان البيروني وهذهالمبادرات الكريمة التي نجدها في البلدان العربية والاسلامية والاجنبية لتكريم هذا العالم الجليل وتقييم ماقدم من نتاج علمي واسهامه الكبير في تقدم المعرفة الانسانية ، دليل واضح على المكانة المرموقة التي يحتلها هذا العالم الكبير الذي نحتفل به هذه الايام ونشيد بمساهماته البناءة فيتقدم العلوم وتطويرها .

ولد ابو الريحان البيروني في خوارزم سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م في عصر فيه نضجت العلوم واخذت امكنة التعليم في الانتشار وصار يتعلم المعارف التي اشتهرت في تلك الفترة وبخاصة علم الرياضيات والعلوم الطبيعية وانتهل من اساتذة عصره وعلماء زمنه المعلومات الوافرة في هذين العلمين الاساسيين وقد برز ابو الريحان البيروني علما ذا شهرة واسعة وساهم مساهمة فعالة وناجحة في تطوير العلم وازدهاره .

لقد امتاز البيروني بملكته وقدرته على استيعاب كبير لمواد العلم وفهم عميق لدقائق العلوم ، وقدرة على ايراد الحجج العلمية المقنعة في

اثبات آرائه وافكاره بالدلالة والبرهان ، كما امتاز هذا العالم الفذ بروح النقد المنبثقة من اساسات علمية تعتمد على فهم لاصول الواقع العلمي والمنتهجة مبدأ التحليل والتعليل ، ان هذه المقومات العلمية مؤشرات واضحة لما يتمتع به هذا العالم الجليل من ملكة على الدرس والفهم والاستيعاب ومن ثم الكتابة وتطبيق الافكار والآراء تطبيقا موضوعيا يستهدف الوصول الى الحقيقة العلمية التي تساعد على تثبيت القواعد الاساسية للمعرفة والتي تعمل على تطوير العلم وازدهاره •

خاض البيروني معظم معارف عصره وبرز في الادب والتاريخ والفلك والرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، ومما ساعده على الوقوف على علوم عصره وفهمها معرفته الجيدة للغة الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية اضافة الى تضلعه باللغة العربية والتي كتب معظم تآليفه بها ، وما من شك فان العلوم والآداب كتبت معظمها بتلك اللغات التي اتقنها البيروني فصار يغرف منها كل مفيد ونادر ويضيف اليها من مداركه الواسعة وثقافته الشاملة ما ساعد على تطوير تلك المعارف وتعميقها •

ان البيروني ترك تراثا ضخما من المعارف في شتى فنون العلم ، ولكن البيروني يختلف عن الذين سبقوه فيما كتب فالبيروني عالم اتبع الطريقة العلمية في عرض الموضوع مستقرئا جوانبه واستنتاج النتائج التي تعبر عن سعة افق وعظيم فهم لذات الموضوع •

كتب البيروني في موضوع التاريخ ، فمن يقرأ كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) . وكتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) نجد ان هذا العالم عندما كتب في هذا الموضوع اعتمد اساسا على فهم الجانب العلمي فجاءت المعلومات مقرونة بالارقام والاحصائيات المبنية على المشاهدة والممارسة فافادنا في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة : عن آراء الهنود وافكارهم الدينية والفلسفية ومدارسهم الادبية وما يسود هناك من نظم

وقوانين وما يتعارفه الهنود حول الفلك والتنجيم والجغرافية ووصف حياتهم الاجتماعية وعلاقاتها بمعتقداتهم بالله والموجودات الحسية المختلفة، كما صار يقارن بين ما هو سائد في الهند من معتقدات دينية • ان كتابي البيروني (الآثار الباقية ، وتحقيق ما للهند) من الكتب الممتازة ولا يسع المقام للتفصيل فيهما ، ولكن مما لا شك فيه آن هذين الكتابين يعتبران فتحا كبيرا في تقدمية العلم وازدهار المعرفة التاريخية ، ذلك ان البيروني اوضح ذلك في مقدمة كتابه الاثار الباقية مبينا الدوافع التي دفعته الى كتابة هذا الكتاب التي كانت غايته التوصل الى الحقيقة متبعا طريقة البحث المعتمدة في استقصاء الحوادث فذكر : (وابتدىء فاقول ان اقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة اخبار الامم السالفة وانباء القرون الماضية لان اكثرها احوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لاهل الكتب والملل واصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أسًّا يبنى عليه بعده ، ثم قياس اقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لاكثر الخلق . والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة واشباه ذلك فان الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي الى حاق المقصود وأقوى معين على ازالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ، على ان الاصل لذي أصّلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه ان يكون غير موصول اليه لكثرة الاباطيل التي تدخل جمل الاخبار والاحاديث وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميّز وتهذب لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر بل قد يشاهد ، وشوهد في الاحوال الطبيعية ما لو حكى مثلها

عن زمان بعيد عهدنا به لثبتنا الحكم على امتناعها وعمر الانسان لايفي بعلم اخبار امة واحدة من الامم الكثيرة علما ثاقبا فكيف يفي بعلم اخبار جميعها هذا غير ممكن ، واذا كان الامر جاريا على هذا السبيل فالواجب علينا ان نأخذ الاقرب فالاقرب والاشهر فالاشهر ، ونحصلها من اربابها ونصلح منها ما يمكننا اصلاحه ونترك سائرها على وجهها ليكون ما نعمله في ذلك معينا لطالب الحق ومحب الحكمة على التعرف في غيرها ومرشدا الى نيل مالم يتهيأ لنا وقد فعلنا ذلك بمشيئة الله وعونه ويجب بحسب ما قصدنا ان نبين مادية اليوم والليلة ومجموعهما وابتداءه المفروض اذ هما للشهور والسنين والتواريخ كالواحد للاعداد منه تتركب واليه تحل وباحاطة العلم بهما يسهل السبيل الى درك ما تركب منهما وبني عليهما) •

بهذه المنهجية الواضحة بدأ عالمنا البيروني في تقصي الحوادث التاريخية وتنظيم بحثه العلمي ، انها حقا منهجية بناءة ورائدة كان لها الاثر الكبير في تطوير العلم وازدهاره ، وهذا هو ديدنه في كل ما كتب وصنف ، كتاب المسعودي الذي قدمه للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي والبيروني في هذا الكتاب يقدم للعلم حقائق جديدة ومهمة ، انه نجح ولاول مرة في التاريخ الى استعمال النسب المثلثية بمعناها الحديث وذلك بعد ان كانت الجداول تضرب في معامل ثابت هو ٢ ½ طبقا للنظام الهندي و ٦٠ لما كان معروفا في الرياضيات البابلية ، وفي هذا الكتاب توصل البيروني الى اكتشاف قوانين الاستكمال فيصورتها المبسطة وهي التي نسبت الى العالم اسحق نيوتن الانكليزي المتوفي سنة ١٧٢٧ م عندما اوجد أن الفترات المتساوية بين الزوايا لاتقابلها تغيرات متساوية في الجيوب •

وقدم البيروني للمكتبة الانسانية كتابه تحديد نهايات الاماكن وهو من الكتب المهمة في علم الفلك والتي تعني باستخراج عرض المكانومعرفة

حجم الارض وتعيير اطوال البلدان ، وقد حقق الكتاب المستشرق الروسي بولجاكوف بمساعدة الدكتور امام ابراهيم احمد .

ومن كتب البيروني المشهورة كتاب الجماهير في معرفة الجواهر ، وهذا الكتاب يبحث في موضوع الكيمياء والمعادن ويعتبر هذا الكتاب أقدم مؤلف في علم المعادن وضع في اللغة العربية ، وفي هذا الكتاب تتبين الجهد المبذول للمؤلف وافادته من المصادر التي استعان بها وبخاصة الكتب الهندية والفارسية والعربية القديمة . كما صنف البيروني كتابه الموسوم (التفهيم لاوائل صناعة التنجيم) وهذا الكتاب وان عني في موضوع الفلك فقد حوى فصولا في الجغرافيا والتاريخ ، وقد انتهى من تأليفه سنة ٤٢٠ هـ أي قبل وفاته بعشرين سنة وترجم الى الانكليزية سنة ١٩٣٣ .

والبيروني ساهم مساهمة فعالة في تطوير العلم بمواضيعه المختلفة فقد قدم لعلم الرياضيات ثروة رائعة ، فقد تتجلى فكرة الدالة عند ايجاده مساحة المثلث بدلالة اضلاعه الثلاثة في القانون التالي واضعا نصب عينيه النتائج التي حصل عليها كل من ارخميدس وهيرون بطرق اخرى والقانون المذكور هو Δ أي حـ = $\sqrt{\text{ح (ح – أ) (ح – ب) (ح – حـ)}}$.
كما ابتكر البيروني برهانا لمساحة الشكل الرباعي الدائري على طريقة الهند بالقانون التالي : –

مساحة الشكل الرباعي الدائري أ ب حـ د = (ح – أ) (ح – ب) (ح – حـ) (ح – د) حيث ح = ½ (أ – ب) (ح – حـ) (ح – د) .

وللبيروني الفضل الكبير في ادخال الجبر الى ميدان الهندسة وهذا لعمري من المنجزات الكبيرة التي قدمها البيروني لعلم الرياضيات .

ولاول مرة اوجد طول ضلع المخمس المنتظم باتباعه طريقة الازدواج

بين الهندسة والجبر كما هو واضح في المعادلة التالية :

$$\text{طول ضلع المخمس المنتظم} = \frac{\text{نق} + ٥ \text{ نق } ٢}{٢}$$

وعند استخدام البيروني المعادلة اعلاه أوجد مقدار جا ١٨° وهـــو ٣٠٩١٥ر٠ وفي جداول حساب المثلثات في العصر الحديث فان القيمـــة الحقيقية هي ٣٠٩٠ر٠ ، أي ان الفرق لايكاد يذكر اذ كان بنسبة ١٥ في المئـــة الف •

وقد برع البيروني في علم الكيمياء ، وجاء وصفه علميا لبعض المواد الكيمياوية مما يوضح منهجيته العلمية ، واعتقد انـــه اعتمـــد كثيرا في معلوماته الكيميائية على سلفه الرازي وما سجله في كتابيـــه الشهيرين (سر الاسرار) و (الحـــاوي) ، وقد برع البيروني في ايجاد الاوزان النوعية لبعض المواد والتي جاءت مطابقة أو مقاربة جدا لما هو مقرر في عصرنا الحديث ، ومن امثلة ذلك :

	ما اوجده البيروني	ماهو مقرر في العصر الحديث
البلور الصخري	٥٨ر٢	٥٨ر٢
الحديـــد	٧٤ر٧	٧٩ر٧
زئبـــق	٥٩ر١٣	٥٩ر١٣
زمـــرد	٧٣ر٢	٧٣ر٢
لؤلؤ	٧٣ر٢	٧٥ر٢

ومن الجدير بالذكر ان البيروني هو اول من اخترع الجهاز المسمى اليوم (البكنو ميتر) لقياس الوزن النوعي للمعادن والفلزات •

والبيروني اشتهر شهرة واسعة في علم الفلك فقد دأب هذا العالم على دراسة الظواهر الطبيعية وامكانية الافادة من علم الفلك في تفسيرها

والتدليل عليها ، ويعتبر البيروني هو أول من اخترع الطريقة المعروفة اليوم (ترانسفرسال) Transversal فقد قاس البيروني الزاوية بين خط استواء الارض مع مستوى دورانها حول الشمس ، وحصل على قيمة ثابتة مستنتجا لاول مرة بان هذه الزاوية ثابتة وهي تساوي ٢٣ر٥ تتغير ببطء ، فتصبح ٢٤ر٥ درجة بعد ١٥٠٠ سنة ، بمعدل نصف ثانية في السنة ، ومن الجدير بالذكر فان الفلكيين المسلمين امثال الخجندي والخازن وابن سنان كانوا قد اوضحوا اسباب هذا الانحراف •

وللبيروني فضل كبير في بناء المراصد العلمية في بعض المدن الاسلامية والتي ساعدت على ان تكون تلك المراصد امكنة للتحقيق العلمي والوصول الى معلومات فلكية نادرة ، كما عمل البيروني على اعادة قياس خطوط العرض في عدة مدن في اقليم خوارزم باستعمال اجهزة مختلفة الحجوم ، ومن المعلوم تاريخيا ان المأمون الخليفة العباسي قام بقياس خطي طول وعرض مكة فاقبل البيروني على دراسة ذلك المجهود فوجده صحيحا وان الخطأ لا يتعدى درجة واحدة ، وهذا يدل على براعته واهتمامه العلمي الدقيق باستخراج جزئيات الدرجة لان تلك الجزئيات لها اثرها الكبير في الحساب الرياضي والنتائج العلمية الدقيقة والثابتة ، وان هذا الحرص والاهتمام جعلا البيروني في مقدمة الفلكيين الذين يعنون العناية الفائقة بهذا العلم •

وقدم البيروني معلومات قيمة في موضوع النبات ، ومن اشهر ما قدم في هذا الباب كتابه الموسوم (العقاقير) والذي تضمن وصفا شاملا لخصائص ومنافع الف عقار مستخرج من النباتات والاعشاب والحيوانات والمعادن • ان هذا الكتاب له شهرته الواسعة في القرون الوسطى كما يعتبر موسوعة علمية كبيرة تدل بوضوح على اهتمامات البيروني العلمية وتحقيقاته التي اتسمت بالروح الموضوعية وبالدقة المتناهية في ابراز النتائج النافعة للانسانية •

ان البيروني عالم واسع الافق دقيق الملاحظة غزير الانتاج ، خاض في مواضيع علمية متعددة وبخاصةفي الرياضيات والفلك والطبوالصيدلة والنبات والجيولوجيا اضافة الى العلوم الانسانية كالتاريخ والجغرافيا ، وانه اتصف بالحرص الشديد والاخلاص الكبير للعلم ، وتميز بالدقة المتناهية وبروح النقد البناء الهادف من اجل الوصول الى نتائج علمية ثابتة والى جانب كل ذلك فقد كان هذا العالم الكبير موصوفا بارادته القوية في الدأب والسعي على البحث وبقدرته العالية على جمع الحقائق العلمية بالبحث والتنقيب ومقارنتها بعضها ببعض ووضعها بطريقة مرتبة وفق نظام علمي منسق •

وقد اعجب المستشرقون بهذه الشخصية العلمية النادرة واجمعت آراؤهم انه عقلية فذة خدمت الحضارة وقدمت للانسانية ثروة علمية كبيرة ، وقد اورد المستشرق (سخاو) ان البيروني يعتبر من وجهة نظر تاريخ العلوم أكبر ظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية • وقال (سارتن): ان البيروني سائح وفيلسوف ورياضي وفلكي ، وانه موسوعي وواحد من اعظم علماء الاسلام •

ان البيروني ابرز عالم شهدته الانسانية في القرنين الرابع والخامس الهجريين بعقليته النفاذة وروحيته العلمية الهادفة الى تحقيق اغراض العلم والوصول الى الحقيقة ، وكان شعلة وضاءة لدرب المعرفة ومثلا صادقا للشخصية المدركة لعظم المسؤولية التي يتحملها كأنسان عالم صادق ونزيه •

ان البيروني كتب العديد من المؤلفات في مواضيع متعددة وقد جاء بآراء علمية فذة خدمت العلم خدمة ممتازة وعملت على تقدمه وازدهاره، وان منهجيته المنظمة وروحيته العلمية وسعة معارفه والحرص على الدرس والبحث والنقد وعلو همته واحترامه لكل العلوم والثقافات بعيدا عن التعصب الديني او القومي • كل هذه الصفات الحميدة بوأته المكانة

العلمية المرموقة وصار عالمنا البيروني واحدا من ابـرز واشهـر علماء الانسانية ويشار اليه بالتقدير والاحترام كما اصبح البيروني كما اعتقـد اصدق مثل لتراثنا العلمي ، قدم للعلم خدمات ممتازة فخلدته الانسانيـة واعتبرته من اولئك الذين يتفانون من اجل الوصول الى حقائق المعرفـة خدمة للانسانية وازدهارا للثقافة ، وان ما نشهده من احتفالات تقديرية في العالم لهذا العالم الاسلامي الكبير دليلا على ما يتمتع به البيروني من التبجيل والتقدير ، وان ما قام بـه المجلس الاعلى للعلوم في الجمهورية العربية السورية بالاحتفاء بذكرى هذا العالم الجليل وما نشاهده مـن نشاط الباحثين والعلماء في اظهار مآثر البيروني ، عملا يستحق الاحترام. وفقكم الله لاظهار مآثر الآباء والاجداد اولئك الذين برزوا في ميادين العلم والمعرفة وكانوا الرواد الاوائل واضعي صرح الحضارة وبناة تراثنـا الذي نتغنى به .



اللغة والحضارة

آراء في الوزن الحضاري للغة وتطبيقاتها على اللغة العربية

الدكتور خليل ابراهيم الحماش
أستاذ قسم اللغات الاوروبية
كلية الآداب - جامعة بغداد

اولا : المقدمة

١ ــ هدف الدراسة

تشارك عوامل كثيرة في تطور حياة الامم منها العوامل الاقتصادية والعوامل الجغرافية والمناخية والعوامل الاجتماعية • واللغة عامل أساسي من العوامل الاجتماعية • فلقد اجمع علماء لانثروبولوجيا على أن اللغة جزء لا يتجزأ من حضارة الامة • فاللغات تختلف فيما بينها كما تختلف حضارات الشعوب واللغة أيضا كحضارة الامة تكتسب بتعلم انماط سلوكية واسعة تقع في اطارها وتفسر على اساسها الاحداث الصغيرة المتفرقة • واللغة كالحضارة عرضة للتبدل نتيجة التراكم الضخم لتجارب الشعب الذي خلقها (Hoijer ص ــ ٢٦) •

تحتاج الامة في يقظتها ونموها وتطورها الحضاري الى لغة تعبر فيها عن ذلك التطور والنمو فيسهل عليها الامر نوعا ما اذا ما امتلكت في الاساس لغة عريقة مكتملة النضج وقد يتعثر النمو الحضاري للامة اذا ما افتقرت الى الذخيرة اللغوية الضرورية • وتعاني الشعوب التي استقلت حديثا من مشاكل جمه في هذا المضمار (Dil ص ٥٥) وقد يؤدي الامر

الى خلق صعوبات جادة تتطلب حلولا سريعة ومؤثرة ، وعند عدم توفر مثل تلك الحلول يتعثر النمو الحضاري للامة ويتعرض الى تعقيـدات كبيرة • فما هي صفات اللغة العريقة ؟ وهل بالامكان التوصل الى معايير واضحة تحدد على اساسها درجة عراقة اللغة ومقدار قصورها من هذه الناحية ؟ اين تقف اللغة العربية من هذه المعايير ؟ وهل ان اللغة العربية لغة عريقة ولماذا ؟ تشكل محاولة الاجابة عن تلكم التساؤلات هدف هذه الدراسة وساحاول ان استجمع ما يمكن جمعه من الصفات المميزة للغات الكبرى في العالم محاولا وضع بداية اولية للمعيار المطلوب وساحـاول تطبيقه على اللغة العربية معتمدا على القليل الـذي اعرفة عنهـا تاركا استكمال التقصي لمن تستهويه مثل هذه الدراسة •

واود ان ابين قبل ان انهي هذه التوطئة بأنني لا أزال اتفق مـع علماء اللغة بان اللغات الحية علـى درجة متكافئـة من حيث القـدرة والقابلية على التطور والامكانية في تلبية حاجات متكلميها ، وانه لايمكن تقسيم اللغات الى لغات متقدمة واخرى بدائية • فالمقصود هنـا باللغة العريقة هو مقدار مساهمة اللغة في التفتيح الحضاري للامة وفي مساهمتها (نتيجة لتراكم التجارب كما سبق ان ذكرنا) في الفكر الانساني عامة وفي حضارة البشرية قديمها وحديثها ، أي بكلمة اخرى مقدار وزنها الحضاري عامـة •

٢ ــ تعاريف اساسية :

وردت في المقدمة السابقة تعابير ثلاثة تحتاج الى ايضاح وتحديـد قبل ان ننطلق الى الحديث عن المسائل الاخرى •

آ ــ الامة : من اعقد المسائل التي يتعرض اليها علمـاء الاجتماع تحديد المقصود بالامة وتبيان صفاتها ويفسرها مختلف الباحثين بتفسيرات مختلفة ، وليس هذا مكان النقاش عن هذه الاختلافات ،بل اكتفي بتصور

مفهوم الامة من وجهة النظر اللغوية فقط • فالامة من وجهة النظر هذه مجموعة الاشخاص الذين يعتبرون انفسهم من متكلمي لغة واحدة (أي ان الاساس هو المعتقد وليس التطابق اللغوي) فقد تتكلم مجموعات من الناس لغات متشابهة جدا ولكنهم لا يعتبرون انفسهم متكلمين للغة واحدة وقد يختلف قوم في الاشكال اللغوية التي يستعملونها اختلافا كبيرا الا انهم يعتبرون ابناء امة واحدة طالما اعتقدوا انهم يتكلمون لغة واحدة وهذا بالطبع يتضمن وحدة في التاريخ وفي التقاليد الاخلاقية والادبية والمشاعر وقد يوحدهم نظام كتابي واحد • والايمان بوحدة اللغة يتضمن اقرارا لمعايير لغوية واضحة (Iraguistic norms) وموحدة يصبو الى الوصول اليها المتكلمون جميعا ((order) ص ٥٣)•

ب : الحضــارة :

يوازي تعبير الحضارة « التعبير الانكليزي » (Culture) وهو يختلف عن (civilization) التي تعرف بالمدنية وان حضارة امة لا تعدو ان تكون مجموعة المفاهيم العامة التي يقبلها ويجمع عليها غالبية ابناء تلك الامة وقد تكون تلك المفاهيم موروثة او وليدة الظروف الراهنة وتؤدي المفاهيم تلك الى خلق نظام من الاساليب الواضحة والخفية من السلوك والعيش يتفق عليها الافراد المكونين للجماعة او الامة (Hoijer ص ــ ٢٦) •

ج : اللغــة :

اللغة ظاهرة معقدة وتعريفها امر في غاية الصعوبة فهي من الناحية النفسية سلوك معين يسلكه الفرد استجابة لحوافز معينة وهي ايضا ظاهرة اجتماعية لانها تتضمن حوارا بين اكثر من شخص واحد فهي بهذا ايضا سلوك اجتماعي •

الا ان التفسير السلوكي المحض للغة لا يفي بالمرام لان السلوك

اللغوي يختلف عن انواع السلوك الاخرى كالمشـــي والنـــوم والجلوس وغير ذلك لان السلوك اللغوي يتضمن مادة وحقيقة موضوعية موجودة فعلا فيقال : ان لغـــة فلان نمـــت واضمحلت او قويت ويقـــال ان لغة الجماعة الفلانية تبدلت ٠ فاللغة تختلف عن المشي اذ انها حقيقة موضوعية قائمة بذاتها اضافة الى وجود سلوك لغوي بينما المشي سلوك محض خال من المادة الموضوعية الموجودة خارجه ٠

اللغة في اساسها ومادتها نظام صوتي اجمع متكلموها على دلالات معينة له ٠ ان مادة اللغة الاساسية الصوت وليس اي شيء آخر ٠وتخضع اصوات اللغة الى نظام يمكن اكتشافة وتحديده ووصفه كما يحصل مع بقية الانظمة الاجتماعية ٠ والنظام اللغوي معقد متشابك تتطلب الاحاطة به الماما واسعا بالعوامل المختلفة المؤثرة فيه ٠

مع كل ما ذكر تبقى اللغة امرا اكثر غموضا من الحاجات الماديةالتي يمكن تحديدها موضوعيا ، وذلك يدفعنا في كثير من الاحيان لاستعمال التعابير المجازية لوصف اللغة كأن تقول ان اللغة «اداة» يستعملها الناس للتعبير عن حاجاتهم وما شاكل ذلك من التعابير ٠

ومن الصفات الاساسية للغة الحية التطور والتبدل فهي تتبدل عبر الازمنة المختلفة وتتباين صفاتها الدقيقة جغرافيا اي من منطقـــة لاخرى كما تتباين اجتماعيا وسكانيا اي تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعيـــة التي تستعملها والسؤال المهم هنا يمكن وضعه كما يلي : ما هو مقـــدار التباين المسموح به ضمن لغة واحدة ومتى يؤدي التباين الى خاق لغتين متباينتين ؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في تحديدنا لمفهوم الامةحيث قبلنا بعنصر الاعتقاد والشعور بأن متكلمي لهجات مختلفة يعتقدون بانهم يتكلمون لغة واحدة والاعبرة بمقدار التباين بين تلكم اللهجات ٠

فالتباين داخل اللغة الواحدة يحدث على المستويات التالية :

١ ـ مستوى الاداء الفردي (idiolect) حيث يختلف متحدث عن آخر حتى ولو كانا يتكلمان نفس اللهجة وهما من نفس الطبقة الاجتماعية وفي نفس الحقبة الزمنية والبقعة الجغرافية •

٢ ـ مستوى التباين بين اللغة المكتوبة واللغة الدارجة (Patois) كما يسميها اللغويون الفرنسيون (Haugen ص ـ ٩٠) •

٣ ـ مستوى التباين بين اللهجات المختلفة ويضع علماء اللغة شرط وجود تراث ادبي واضح لاي شكل من اشكال اللغة قبل ان يصبح لهجة متميزة (Haugen ص ـ ٩٠) •

ومن شروط تماسك اللغة ووحدتها رغم ما ذكر من تباين وجود الفصحى(standard language) التي يعترف بها جميع المتكلمين ويلجأون لاستعمالها في مختلف المواقف الى جانب الاشكال الاخرى المتباينة عن بعضها البعض • والفصحى في اية لغة ترمى عادة الى تحقيق هدفين : اولهما ايجاد حد ادنى من التباين اللغوي وثانيهما تحقيق حد اعلى من تباين الغرض والفاعلية •

فاللغة الفصحى المثالية هي التي لا يختلف اثنان في نطقها وكتابتها وتحديد معانيها والتي تستطيع اضافة لذلك ان تعبر عن مختلف حاجات الناس (Haugen ص ـ ١٠٧) •

ثانيا : عناصر الوزن الحضاري للغة :

من الواضح انه كلما زاد عدد متكلمي اللغة زادت اهميتها وزاد الاحتياج الى تكلمها لدوافع مختلفة قد تكون منها دوافع تجارية او استراتيجية او غير ذلك • الا أن هذا وحده لا يعطيها وزنا حضاريا ولا يجعل منها بالضرورة لغة عريقة فقد تعتبر لغة ما لغة عريقة اذا كان عدد

المتكلمين صغيرا نسبيا الا انها تتمثل فيها كافة العناصر التي تعطيها وزنا حضاريا عاليا •

فما هي العناصر الاساسية التي تعطي اللغة وزنا حضاريا وتجعل منها احدى لغات العالم العريقة ؟ للاجابة عن هذا السؤال على الباحثان يقلب ويتمحص صفات اللغات التي اجمع الناس على تسميتها باللغات العالمية العريقة وان يدون ما استطاع من صفاتها المختلفة ولما يمكن ان يعطيها بعدا حضاريا اعمق • لقد فعلت هذا وتوصلت الى قائمة من اثنى عشر عنصرا أذكرها فيما يلي وقد يكون قد فاتني ذكر بعضها او تفصيل بعضها الآخر بما يفي بالمرام •

ولا يمكن التفكير بالعناصر المذكورة هنا على انها صفات تحدد على قطبين فقط (موجودة وغير موجودة) بل هي في الحقيقة متغيرات كمية تختلف لغات العالم في درجة توفرها فيها • اقصد انه يجب الا نفكر لدى تطبيقنا لهذه العناصر ان اللغات المختلفة يمكن تصنيفها الى صنفين طبقا لكل منهما بل ان اللغات تتمايز على سلم متدرج من حيث توفر هذه الصفات فيها •

١ ـ مدى وضوح وثبات الصفات الاساسية للغة ، أقصد بالصفات الاساسية النظام الصوتي والنظام النحوي للغة • فكلما كانت الصفات الاساسية للغة واضحة المعالم اصبحت تتمتع بشخصية متميزة وكانت اثبت في وجه الاعاصير والموجات المختلفة التي تزعزع كيان اللغات الضعيفة وتجرفها في تيار الاندثار والتلاشي • وهذا يعني ضرورة ان تكتسب الانظمة اللغوية رسوخا وقوة على الاستمرار في البقاء (codification) ومن الضروري لتحقيق هذه الصفة توفر الشرطين التاليين :

آ ـ وجود شكل فصيح واضح المعالم يعترف به كافة المتكلمين ويحترمونه ويصبون الى الوصول اليه (Haugen ص ـ ١٠٧) •

ب ــ استعمال الشكل الفصيح في مجال الكتابة بشكل واسع ليتم لمختلف قطاعات الامة ــ الاطلاع عليه واكتسابه والمحافظة عليه (Ramunjan ص ــ ١٥٩) •

٢ ــ مقدار حيويتها وقدرتها على التطور والوفاء بالحاجات المتطورة لمتكلميها على اختلاف مشاربهم ومهنهم وطبقاتهم • فالى جانب صفة الثبات والوضوح يذكر علماء اللغة انه من صفات اللغة الحية قدرتها على الاستجابة المرنة للتبدلات الحضارية في المجتمع Pride and Holmes ص ــ ٨) •

فاذا ما طغت صفة الثبات على نواحي اللغة كافة واغلقت امام التبدلات المطلوبة ادى ذلك الى موتها ، اما اذا طغت صفة التبدل عليها انعدمت فيها الصفة المميزة واصبحت عرضة لان تبتلعها احدى اللغات القريبة منها لانها لغة لا شخصية لها ولا تثبت امام الاعاصير فالقاعدة الذهبية هي ان تظهر اللغة حدا ادنى من تنوع الشكل وحدا اعلى من تنوع الغرض • وبكلمة اخرى ان استطاعت اللغة ان تفي بكل الاغراض المختلفة التي يحتاجها المجتمع في تطوره الحضاري فذلك امر حسن والا فيستحسن الا يدخل في اللغة تطور في الشكل الا بالمقدار الضروري للوفاء بحاجات متكلميها •

٣ ــ وفرة المفردات اللغوية وشموليتها :

رغم قلة اهمية المفردات اذا ما قورنت باهمية النظامين الصوتي والنحوي للغة ، الا ان المفردات في سعتها وتنوعها ودقتها تعتبر من سمات اللغة العريقة فكلما كبرت ثروة الكلمات في اللغة كانت اكثر قدرة على الاستجابة لحاجات متكلميها المتنوعة وكانت اقدر على استيعاب مختلف التطورات في العلوم والفنون والاداب • فاللغة الانكليزية مثلا تحتوي على نصف مليون كلمة كما ترد في قاموس الاوكسفورد

(Corder ص ٢١٤) ولاجل الوصول الى تصور واضح لهذه المسألةعلينا ان نأخذ الاعتبارات التالية في الحسبان :

آ ـ صعوبة تحديد المقصود بالمفردات :

فليس هناك تصور واحد لمفهوم الكلمة وحدودها وليس هناك طريقة واحدة لحساب الكلمات فهل ان كلمة ذهب واحدة في « ذهب الرجل مسرعا » وفي « ذهب في ذلك مذهبا مغايرا لاسلافه » وهل ان يذهب ذاهب وغيرهما من ضمن كلمة ذهب أم انهما كلمتان جديدتان وكذا بالنسبة للغات الاخرى ولذا ارى ان يؤخذ ما يسمى بالمورفيم (الوحدة اللغوية) اساسا لقياس ثروة اللغة من المفردات وليس الكلمة لصعوبة تحديد المقصود بالاخيرة .

ب ـ تقسم مفردات اللغة او وحداتها اللغوية اذا اخذنا بالرأي المقترح الى نوعين رئيسيين .

١ ـ المفردات النحوية الاساسية :

كالضمائر وادوات الربط وحروف الجر والافعال المساعدة في بعض اللغات والناقصة في العربية وادوات النفي والاثبات وادوات التنكير والتعريف والاعداد وادوات الاشارة وما شابهها وهي قليلة العدد عادة قد لا تزيد عن (٥٠٠) في معظم اللغات الا انها عظيمة الاهمية لانها العنصر الاساس في تحريك اللغة ، اذ بدونها لا يمكن للغة ان تؤدي دورها ولذا سميت بالانكليزية (Function words) وهي تؤلف نصف ما نقوله او نكتبه والنصف الاخر يعود للنوع الثاني من المفردات وهي المفردات القاموسية . فلو اجرينا احصائية على اية مجموعة من المفردات المستعملة في الكلام أو الكتابة لتأكدنا من صدق هذه الملاحظة . ولنجرب ذلك على

الفقرة التالية المأخوذة اعتباطا من مقالة بعنوان « مشاكل البيئة من الناحية

الجيولوجية » للدكتور محمد يوسف حسن من مجلة **رسالة العلم** المجلد ١١ العدد ١ مارس / ٩٧٤ في الصفحة ١٥ .

« لم يعد مضمون مصطلح البيئة بالنسبة للانسان يقتصر على المعنى المعتاد من حيث انها مجموعة الظروف الطبيعية المحيطة بنا من هواء وماء وطبيعة ارضية وحسب . او حتى من حيث تأثرنا بالتوزيع السكاني والكثافة السكانية في المناطق المختلفة او ما استجد على كل هذا من دراسات وبحوث تتعرض الى ما يتطرق الى هذه العناصر من تلوث او فساد أو اختلال وما يجب القيام به لاكتشاف هذه التغيرات وقياس معدلاتها باستمرار واجراء الابحاث المستمرة التي تكفل تطبيقاتها تدارك الفساد او ازالة التلوث او استعادة التوازن » .

فلو احصينا عدد الوحدات اللغوية (مورفيم) في الفقرة كلها وجدنا ان فيها ١٢٥ وحدة (مورفيم) وان منها ٦٢ وحدة لغوية من الوحدات اللغوية النحوية و ٦٣ وحدة قاموسية ونفصلها كما يلي :

١ ــ ادوات النفي	١
٢ ــ اداة التعريف	١٨
٣ ــ حروف الجر	١٥
٤ ــ الافعال الناقصة	١
٥ ــ الضمائر	١٢
٦ ــ ادوات العطف	١٥
المجموع	٦٢

ولاهمية المفردات التي هي من هذا النوع فالرأي السائد لدى علماء اللغة ان اللغات كافة لها من الذخيرة اللغوية قدر متساو بما يمكنها من اداء واجباتها الاساسية وليس هناك تمايز في كفاءة اللغات المختلفة في هذه الناحية .

٢ ــ المفردات القاموسية :

تؤلف هذه المفردات الجزء الاعظم من مفردات اللغة من الناحية العددية وتقسم الى نوعين •

آ ــ المفردات الخاصة بالعناصر الحضارية

التي تنفرد بها الامة وحدها وبذا تنفرد اللغة بمفردات تلك العناصر ولا تشاركها بها لغة اخرى •

ب ــ المفردات العامة :

وهنا يكمن التمايز في الثروة اللغوية في مفردات اللغات المختلفة وتقاس ذخيرة اللغة في المفردات على معيارين اثنين هما :

١ ــ مقدار الذخيرة الموروثة من المفردات •

٢ ــ مقدار ما اكتسب حديثا من التعابير والمصطلحات •

٤ ــ مدى تطور النظام الكتابي التابع للغة :

ليس تعلم الكتابة تعلم اللغة نفسها لان الكتابة طريقة نرمز بها للغة ونحاول تصويرها بها • فليس الحرف صوتا بل هو رمز للصوت وتتفاوت اللغات في مدى دقة التطابق بين اصواتها وحروفها فكلما كان التطابق دقيقا كان تعليم الكتابة اسهل واضمحل احتمال الوقوع في الاخطاء التي منشأها الاختلاف بين النطق والرسم •

واللغات على درجات ثلاث ، من هذه الناحية :

آ ــ اللغات التي لم يحاول اهلها تدوينها ولم يتبعوا نظاما كتابيا معينا لهذا الغرض •

ب ــ اللغات التي دونت بنظام كتابي مستعار من اقوام اخرى

وتختلف اللغات هنا في مدى تطويرها للنظام الكتابي المستعار بحيث تعبر عن حاجاتها بدقـة •

ج ـ اللغات التي اكتشف اهلها نظاما كتابيا خاصا بها ووضعوه خصيصا لمطابقة حاجاتها وتختلف اللغات ايضا في مدى التطوير الـذي اجرى على النظام الكتابي وقبل ان انتقل الى نقطة اخرى من الضروري ايضاح المقصود بالنظام الكتابي فالانظمة الكتابية في العالم يمكن تقسيمها الى الانظمة التي تتبع الاسلوب الهجائي والانظمة التي تتبـع اساليب اخرى كالصينية مثلا وفي الانظمة الابجدية يمكن تحديد عناصر النظـام الكتابي كما يلي :

آ ـ حروف الهجاء وتقسم في الغالب الى نوعين النوع المستعمل في الطباعة والنوع المستعمل في الكتابة اليدوية ويكون الاخير عادة بسيط الشكل خاليا من كل ما يعيق سرعة الكتابة •

ب ـ الارقـام •

ج ـ ادوات التنقيط •

د ـ الرموز الاخرى المستعملة في الرياضيات والكيمياء وغيرهـا من العلوم •

هـ ـ الرموز الصوتية المستعملة في علم الصوتيات •

٥ ـ مدى تأثيرها على اللغات الاخرى :

من صفات اللغة العريقة ان تترك اثرا على اللغات الاخـرى سواء القريبة اليها ام البعيدة عنها وتتلخص النواحي الرئيسة لهـذا التأثير في النواحي التالية :

آ ـ اعارة المفردات على اختلاف انواعها •

ب ـ اعارة اساليب التعبير والتراكيب النحوية •

ج ـ اعارة النظام الكتابي او اجزاء منه .

٦ ـ مدى استفادتها من اللغات الاخرى دون ان تفقد شخصيتها :

من صفات اللغة الحية والعريقة ان تعير الى اللغات الاخرى وان تستعير منها . على انه من الواضح انه من الضروري في حالة استعارتها من اللغات الاخرى الا تفقد شخصيتها وكيانتها كلغة قائمة بذاتها فالقول بأن اللغة يجب الا يدنسها الدخيل من اللغات الاخرى امر مستحيل التحقيق لان لغات العالم تتبادل التعابير والمصطلحات كما تتبادل دورالعلم المطبوعات والنظريات الا ان المؤسسة الناضجة التكوين تستطيع ان ـ تستعير وان تهظم ما تستعير بحيث تخضعه للقواعد والاصول الخاصة بها (منتصر ص ٥) .

ومن خصائص اللغة الحيةايضا قدرتها على استيعاب ما يصدر في اللغات الاخرى عن طريق الترجمة اي ان تتوفر فيها امكانية ترجمة ما يصدر في لغات اخرى من علم وادب وفن خصوصا مما له اهمية في مضمار التخصيص الدقيق .

٧ ـ مدى التطور الرمزي للغة :

من الامور المسلم بها ان اللغة نظامدقيق ومعقد منالرموز الصوتية. فبدلا من آن يحمل المتكلم ما يريد طلبه او اصلاحه او اعارته وهذا امر مستحيل في كثير من الاحيان يرمز له بصوت او بعدد من الاصوات ليفهم من يحدثه قصده وغايته .

وقد توصل الانسان الى هذا بسبب رقي جهازه العصبي وسمو قدراته العقلية باستعمال الرمز بدل الشيء نفسه من الخصائص المميزة للانسان الا ان الرموز اللغوية نفسها تحتاج في كثير من الاحيان الى الاختزال والاختصار فبدلا من استعمال كلمة طويلة او تعبير طويل معقد

نسبيا يرمز له بتعبير اقصر منه واسهل على اللسان . فيقال في اللهجة العراقية **ليش** بدلا **من لأي شيء** ويقال بالانكليزية bus بدلا من omnibus كما يقال won't بدلا من will not ويندر ان يشار الى مؤسسة معروفة باسمها الكامل بالانكليزية فيقال U.K بدلا من United Kingdom ويقال USSR بدلا من Union of Soviet Socialist Republics وهكذا .

ب ـ ومن سمات اللغات العريقة وفرة في الانتاج الادبي الذي يحمل السمات الرمزية بشكل او بآخر وما كليلة ودمنة في العربية و Gulliver's Travels في الانكليزية الا امثلة لذلك .

ج ـ تتطور حاجات الناس بتطور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وغيرها فتستحدث في الحياة اشياء يحتاج الناس للتعبير عنها بطريقة او باخرى فان استطاعت اللغة ان تعبر عنها بدقة واختصار نجحت في الوفاء بوظيفتها في المجتمع والا عافها الناس ولجأوا الى استعارة تعبير او تعابير من لغة او لغات اخرى على هواهم فلو فرضنا ان جهة ما قررت تسمية احدى المخترعات الحديثة بجهاز الاتصال السلكي فسوف يعاف الناس هذا ويلجأون الى تعبير التلفون بدلا منه . ولكن لو استعمل تعبير الهاتف لكان وافيا بالغرض بسبب سهولته وقصره ووضوحه نسبيا .

د ـ واخيرا نستطيع اعتبار تطور الاساليب البلاغية في اللغة وقدرتها (بسبب وجود امثلة جيدة في التراث اللغوي) على كسر القواعد النحوية بالاساليب البلاغية الجميلة من السمات المميزة للغة العريقة ان هذا دليل نضج اللغة وعراقتها .

٨ ـ مدى تعرض اللغة نفسها للبحث والتمحيص :

ان اللغات العريقة عادة لغات مشبعة دراسة وبحثا وتتوفر عنها دراسات قديمة وحديثة بسبب اهميتها للفكر الانساني ، وليس هناك حدود لما قد يكتب عن اللغة الا انني ارى ان الانواع التالية من الدراسات

هي التي تعطي اللغة ، على الاقل في عصرنا هذا ، بعدا حضاريا واضحا : ـ

آ ـ **الدراسات الصوتية** وتشمل :

١ ـ تحليل الانظمة الصوتية لكافة اللهجات المهمة فيها .

٢ ـ التوصل الى تحديد الرموز الصوتية للاصوات والصفات الصوتية المستعملة في اللغة .

ب ـ الدراسات النحوية :

وتشمل الدراسات عن التراكيب والصرف والاشتقاق وغير ذلك وتشمل كذلك تحليلا للظواهر النحوية والصرفية لكافة اللهجات الرئيسة .

ج ـ **الدراسات الخاصة بالمفردات** وتشمل عادة

١ ـ المعاجم الدقيقة سواء اكانت وحيدة اللغة او ثنائية اللغة على ان تشمل هذه نواحي اللفظ والمعنى والاشتقاق وغير ذلك من نواحي المفردات .

٢ ـ الدراسات الخاصة بمقدار تردد الكلمات والمسمات (Frequency counts) وفائدة هذه الدراسات تحديد اهمية كل كلمة او مصطلح عن طريق حساب يحدد المرات التي يتكرر فيها استعمال تلك الكلمة في مليون كلمة مثلا .

د ـ الدراسات المقارنة

من صفات اللغة العريقة نظرا لاهميتها خضوعها للمقارنة باللغات الاخرى سواء منها المهم او الثانوي الاهمية وقد تشمل مثل تلك المقارنات ناحية لغوية معينة او اكثر . وهدف مثل هذه الدراسات تحديد نقاط

الالتقاء والاختلاف ـ بين اللغة واللغات الاخرى لكي يتسنى التركيز على نقاط الاختلاف لدى تدريس تلك اللغة للاجانب •

هـ ـ دراسات عن الكتابة المستعملة :

كدراسة انواع الخط واصوله التاريخية ووسائل تحسينه واكمال النواقص فيه وغير ذلك •

و ـ الدراسات العلمية الخاصة بتعليم اللغة :

تشمل دراسات عن تعليمها للصغار او للبالغين او معا وكذلك من الاجانب او لابنائها • وتشمل ايضا دراسات عن تعليم الخط للاجانب ولابناء البلد على السواء •

ز ـ الدراسات الخاصة بالنواحي البلاغية والمحسنات اللفظية وما يقع ضمن ما يسمى بعلم « الستايلستيك » الحديث •

٩ ـ مقدار ما مدون فيها من تراث :

التراث الادبي والعلمي الخالد يعطي اللغة اهمية فوق اهميتها ويجعل منها غاية يقصدها دارسو اللغات لكي يتعرفوا على ذلك التراث في اول صياغته وفي اللغة التي كتب فيها فشكسبير ساهم في خلود اللغة الانكليزية وفولتير مثلا للفرنسية ودستوفسكي مثلا للروسية وكذا بالنسبة للتراث العلمي والمكتشفات والبحوث العلمية البارزة فالعلوم بوجه خاص حتى ولو كانت منقولة نقلا عن لغات اخرى تعطي اللغة بعدا حضاريا وامكانية في الاستعمال لاغراض البحث والدراسة والتعلم •

١٠ ـ مدى استعمالها خارج نطاق الامة :

تستعمل اللغات العريقة عادة خارج نطاق الامة التي تتكلمها في المواقع التالية : ـ

آ ــ للاعمال (التجارة ، والصناعة ٠٠٠٠ الخ) ٠

ب ــ كلغات علمية تدرس فيها العلوم الطبيعية والاجتماعية ٠

ج ــ في المحافل الدولية ووسائل الاعلام العالمية ٠

د ــ كلغة رسمية (Lingua franca) ويحصل هذا عندما يتكلم قوم لغات قليلة الانتشار او يتكلمون عدة لغات يصعب التفاهم فيما بينهم بها فيضطرون لاستعمال احدى اللغات العريقة او الواسعة الانتشار(corder ص ــ ٢٠٨) ٠

هـ ــ في صيغتها المبسطة (pidginized) وتعرف الصيغة المبسطة للغة (pidgin) بانها لغة جرى تقليص مفرداتها وتراكيبها الى درجة كبيرة وهي ليست لغة اصلية لمن يستعملها (Hall ص ١٤٢) ٠

١١ ــ قابليتها على النمو :

للغات العريقة اساليب معقدة ومتنوعة في خلق التراكيب والالفاظ الجديدة واخضاع الدخيل اليها ومن ذلك الاشتقاق والتصريف والقياس والبحث وفي بعض اللغات وسائل مبتكرة تنفرد بها دون غيرها عن اللغات ومثال ذلك التضعيف (reduplication) في الانكليزية في ان يبتدع اصطلاح او يستعار تعبير حتى يخضع لاساليب النمو المختلفة ويتطور الى تعابير متعددة فقد استعارت الانكليزية مثلا كلمة (alcohol) الكحول من العربية وخلقت منها الفاظا عدة منها :

آ ــ alcoholic كحولي

ب ــ non-alcoholic خال من الكحول

ج ــ alcoholic (اسم) مدمن على الخمر

د ــ alcoholics مدمنون على الخمر

هـ ــ alcoholism الادمان على الخمر ٠

وهكذا تحولت الكلمة الواحدة الى تعابير متعددة اضافت للغة الانكليزية ثروة في مفرداتها •

١٢ ــ مدى تمثيلها لشخصية الامة في وحدتها وتفرقها واختلاف اجزائها :

ففي اللغات العريقة تجد لهجة رسمية او فصحى تستعمل في وسائل الاعلام والمجالات الاكاديمية والمواقف الرسمية المختلفة وصيغ محكية تختلف باختلاف طبقات المجتمع وباختلاف المواقع الجغرافية ولكل مهنة او صنعة شكل معين يختلف عن الاشكال الاخرى فاللغة العريقة اذا تكفل لابناء الامة وجود ما يتفقون عليه جميعا وتكفل لهم تباينا يلبي حاجاتهم وظروفهم المختلفة واكثر من هذا فأن اللغة العريقة اصيلة نابعة من كيان الشعب الذي يتكلمها وليست دخيلة عليه فيستطيع السامع ان يميز بين الفرنسية والالمانية وبين الروسية والانكليزية وبين الايطالية والاسبانية وهكذا حتى دون ان يفهم معنى ما يقال اذا كان ما يقال صادرا عن متكلم اصيل لتلك اللغة ، لانه لكل من تلك اللغات العريقة طابعها المتميز والخاص بها •

ثالثا ــ الوزن الحضاري للغة العربية :

لقد اجبت او حاولت الاجابة عن السؤالين من (مجموع ثلاثة اسئلة) اللذين طرحا في مستهل مقدمة البحث وساحاول هنا ان اجيب على السؤال الثالث الذي يتطلب (١) شرحا لموقف اللغة العربية من المعايير التي ذكرتها في القسم الثاني و (٢) تلخيصا لنقاط القوة في الوزن الحضاري للغة العربية وكذا نقاط الضعف و (٣) التوصل الى استنتاج ما يجب ان نسعى اليه لنجعل من لغتنا ارسخ قدما واكبر قدرا بين لغات العالم الكبرى المعاصرة •

١ ــ اللغة العربية التي نستعملها اليوم تنسب الى اللهجة الحجازية تفريقا لها عن اللهجة التميمية وكلتاهما تنسبان الى العربية الباقية (تمييزا

لها عن العربية البائدة) والتي كانت تضم اللهجات الثلاث (اللحيانية والثمودية والصفوية) وهذه تنتسب بدورها الى العربية الشمالية (تميزا لها عن العربية الجنوبية التي تضم المعينية والسبئية والحضرمية والقتباتية والحبشية) وهذه تصنف على انها من اللغات السامية الجنوبية (تمييزا لها عن اللغات الشمالية التي تضم الكنعانية والارامية) وهذه بدورها تنسب الى الفرع الغربي من شجرة اللغات السامية (الصالح ص ٧١) •

لقد اصبحت اللهجة الحجازية اللغة الفصحى لكل العرب بعد ظهور الاسلام ونزول القرآن الكريم بها واصبحت اللغة الرسمية للدولة الاسلامية وللدول الاسلامية والعربية التي اعقبت ذلك فللغة العربية شكل فصيح واضح المعالم من حيث نظامه الصوتي والنحوي بقي مستعملا منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا مع شيء من التطور في المفردات وفي بعض النواحي الصوتية الطفيفة نسبيا وكما ان ظهور الاسلام ادى الى كون اللهجة الحجازية اللغة الرسمية للعرب فقد ادى ايضا الى استعمال تلك اللهجة في الكتابة بشكل اوسع مما كانت عليه سابقا وكان الدافع هو الحفاظ على النصوص القرآنية بشكل مضبوط وسليم من التحريف •

فاللغة العربية اذا واضحة المعالم ولا خوف عليها من الدخيل مهما كبر حجمه لانه يواجه كيانا ثابتا متماسكا يعترف به جميع المتكلفين بها ويصبون للتمكن فيه •

٢ ـ نتيجة للتطور الحاصل في مفردات اللغة العربية وفي اساليب التعبير فقد استطاعت اللغة العربية ان تكون وسيلة للتعبير عن حاجات متكلمها في كافة نواحي الحياة غير انها لم تفلح في ان تصبح لغة التدريس في الكليات العلمية (عدا جامعة دمشق) فهي في هذا المجال « لا تزال وئيدة الخطو » (منتصر ص ٤) لم يدخلها التطور الكافي لان تصبح كذلك •

٣ ـ للحديث عن مفردات اللغة العربية علينا ان نتحدث اولا عن

الذخيرة الموروثة من المفردات وعن الكسب الجديد منها • فمن حيث الذخيرة الموروثة نجد ان اللغة العربية تفوق في غناها في هذا المجال كافة اللغات السامية الاخرى وان معجم العربية من اضخم المعاجم وان المرء ليقف حائرا امام هذا البحر من الالفاظ • وهذا الغنى من المترادفات والاوصاف (فريحه ص ١٢) • اما الكسب الجديد فهو كثير الا انه يقصر عن الوفاء بكافة حاجات العصر خصوصا ما تعلق منها بالعلم الحديث علاوة على كونه مشتت ومتضارب بسبب اختلاف الجهات التي ادخلته الى العربية •

٤ ـ للغة العربية نظام كتابي خاص بها فهي بذلك في اعلى السلم من هذه الناحية بين لغات العالم • ونظامها الكتابي نظام هجائي متطور مكون من (٢٨) حرفا فقد كانت الكتابة العربية الاولى تستعمل الخط المسند ومن ثم الخط النبطي ومن ثم ظهر نوع ثالث مشتق من الرسم النبطي السابق ويمثل الرسم العربي الحاضر في اقدم ادواره •• ومن ثم دخل الاعجام (النقاط) تقليدا للرسم السرياني ومن ثم دخل استعمال الحركات الطويلة (آ ، و ، ى) ومن ثم دخلت الحركات القصيرةوالشدة والسكون ••• ومن المقطوع به ان معظم هذه الاصطلاحات قد دخل الرسم العربي في القرن الاول للهجرة (وافـي ٢٤٦) وتضمن النظام الكتابي العربي الارقام العشرة بضمنها الصفر كما دخلت ادوات التنقيط مؤخرا كالفارزة والشارحة والفارزة المنقوطة وغيرها ودخل الخط العربي عدد من الرموز في الرياضيات وغيرها من العلوم اسوة بما دخل انظمة اللغات الاخرى •

والمكتابة العربيةاشكال منها النسخوالرقعة والمثلث الكوفيوالفارسي وحروف التاج واشكال حديثة اخرى بعضها محلي وبعضها واسع الاستعمال ولمعظم الحروف العربية اشكال اربعة : اولى ووسطى واخير مربوط واخير منفصل •

ومن صعوبات الخط العربي ما يلي : ـ

آ ـ صعوبة الالتزام بذكر الحركات لدى الكتابة مما يخلق صعوبة في القراءة دون معرفة دقيقة بالنحو والصرف كما ان القـراءة الصحيحة تتطلب فهما مسبقا لمـا هو مكتوب في بعض الاحيـان اضف الى ذلك صعوبة قراءة اسماء الاعلام العربية والاجنبية (وافى ص ٢٥٣) •

ب ـ كثرة النقاط المستعملة في الكتابة العربية فالكتابة الانكليزية مثلا تستعمل نقطتين فقط لحرف i , j بينما تستعمل الكتابةالعربية (٢٢) نقطة تتراوح بين ١ ـ ٣ نقاط للحرف الواحد وهذا يؤدي الى اسراف في الجهد عند الكتابة كما انه يؤدي الى صعوبات في الطباعة واخرى في دقة الكتابة •

ج ـ عدم رسوخ نظام التنقيط المكتسب حديثا وعـدم وضوح قواعد واصول استعماله مما يسبب ارباكا في الفهم لدى القراءة في بعض الاحيان ففي دراسة تحليلية صغيرة قمت بها علـى مصدريـن عربيين ومصدرين باللغة الانكليزية احصيت فيهـا ادوات التنقيط المستعملة في المصادر الاربعة وتوصلت الى النتائج المبينة في الجدول التالي : ـ

النصوص العربية	انواع ادوات التنقيط المستعملة	عدد ادوات التنقيط المستعملة	عدد الكلمات	النصوص الانكليزية
فقه اللغـة (عبد الواحد وافي) ص ٢ — ٨	٩	١٦٦	١٧٨٩	
دراسات في فقه اللغة (صبحي الصالح) ص ٧ — ١٥	١١	٢٤١	٢٢٦٤	
المجموع		٤٠٧	٣٠٥٣	
	١٣	٢٤٧	١٨١٠	
	١٤	٢٨٢	٢٢٤١	
		٥٢٩	٤٠٥١	المجموع

ومن دراسة الجدول السابق يمكـن التوصل الـى الاستنتاجات التالية : ــ

آ ــ تستعمل النصوص الانكليزيـة ادوات اكثـر من النصوص العربية (٥٢٩ للانكليزية و ٤٠٧ للعربية) ٠

ب ــ تميل النصوص الانكليزية الى التنوع في استعمال ادوات التنقيط اكثر من النصوص العربية (١٣ ــ ١٤ للانكليزية و٩ ــ١١ للعربية) ومن التمحيص الدقيق للنصوص العربية امكن التوصل الى الاستنتاجات التالية : ــ

آ ــ لا تزال ادوات التنقيط تستخدم لاغراض تشبه الزينة بدلا من كونها جزء أساس من النظام الكتابي العربي ، فتجد مثلا استعمال عـدة نقاط ٠٠٠٠ دون اي سبب يذكر كما نلاحظ استعمال «   » مـع

الطباعة بحروف مائلة في الوقت نفسه ٠

ب ــ تتركز الادوات احيانا في اسطر معينة وتزدحم ازدحاما شديدا وتخلو اسطر عديدة واحيانا فقرات عديدة من اية اداة ، ومثال ذلك ورود ١٦ سطر وثلاث فقرات خالية من اي اداة (الصالح ص ٧ ــ ١٥) ٠

ج ــ خلو الكتابة العربية من بعض الرموز بالعلوم كرموز علم الصوت الحديث « وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة » (منتصر ص ٨) ٠٠٠٠ « عدا اكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغي ان يتفق على رموز من حروف عربية لها » (منتصر ص ٩) ٠

٥ ــ من المعروف ان اللغة العربية في فترات مختلفة من تاريخها اعارت اللغات الاوربية ولغات الشعوب المجاورة لها (الفارسية والتركية وغيرها) كلمات وتعابير تختص بالعلوم والتجارة والفلسفة وتعابير دينية مختلفة كما ان اللغة العربية اعارت اللغات الاوربية نظام الترقيم المستعمل حاليا والذي يسميه الانكليز (الارقام العربية) كما اعارت اللغة التركية في فترة معينة واللغة الفارسية وغيرها من اللغات الشرقية نظامها الكتابي الذي لا يزال مستعملا الى يومنا هذا ٠

٦ ــ سلكت اللغة العربية مسلك اللغات الحية الاخرى فاقرضت واقترضت ٠ فلم يجد العرب القدماء غضاضة في الاقتراض من اللغات الاخرى ٠ وتنحصر نواحي الاقتراض بما يلي : ــ

آ ــ اقتراض الالفاظ :

اخذ العرب من الفرس واليونان الفاظا مختلفة خصوصا تلك التي عبرت عن حاجات لم تكن موجودة في المحيط العربي آنذاك ومنها : المنجنيق والجص ونرجس وساذج والطاجن وآمين ودرهم ودست ٠٠٠٠ الخ (انيس ص ١٠٩) ٠

ب ــ افتراض انظمة جملية جديدة :

لقد تأثر نظام الجملة العربية في الوقت الحاضر بالاساليب الاجنبية من تعابير مثل :

١ ــ كم هو جميل ان ترى .
٢ ــ كثيرا جدا وجدا كثير .
٣ ــ وهو بلا شك ضروري .
٤ ــ سافرت برغم المطر والبرد .
٥ ــ ان احدا لا يستطيع (أنيس ص ٩٨) .

ج ــ افتراض اساليب التعبير مثل :

١ ــ لعل ابرز مثل في هذه الناحية ... مثل .
٢ ــ ذر الرماد في العيون .
٣ ــ يكسب خبزه بعرق جبينه .
٤ ــ لا يرى ابعد من أرنبة انفه .
٥ ــ لا جديد تحت الشمس .
٦ ــ القى المسألة على بساط البحث (انيس ص ١٠١) .

ليس هناك من شك في ان اللغة العربية قادرة بل قد ثبتت قدرتها فعلا على استيعاب كافة انواع النتاج العلمي والادبي عن طريق الترجمة ولعل العقبة الكاداء التي يواجهها المترجم هي مشكلة المفردات الفنية في مجال العلوم بصورة خاصة .

والمشكلة في تقديري هي عدم وجود نظام موحد لاستيعاب المفردات الجديدة في مختلف العلوم والحل لها هو توحيد الجهد العربي في مختلف انحاء الوطن العربي في هذا المجال ومحاولة مكتب تنسيق التعريب في الرباط خطوة جيدة في الاتجاه الصحيح . كما اعتقد ان سياسة ثابتة يجب ان توضح بالتحديد بين الترجمة والتعريب .

فالتعريب ضروري في حالة عدم وجود مقابل جاهز للتعبير الفني الاجنبي فاننا « نكلف العربية شططا ونكلف انفسنا جهدا لا طائل تحته ان نحن صممنا على التنقيب في بطون المعاجم عن اصول عربية للمكرسكوب والالكترون والنترون والميترون وما اليها مما يعد بعشرات الالوف (منتصر ص ٥) فالاجدر بنا ان نلجأ للتعريب والتعريب هو نطق كلمة اجنبية على نهج العربية واوزانها (فريحه ص ١٥) ومثال ذلك اوكسجين بدلا من Oxygen (اي تبديل في بعض الحركات) وكذلك يؤكسد اكسدة .... الخ اما اذا توفر مقابل سهل للكلمة الاجنبية فنلجأ الى الترجمة بدلا من التعريب مثال ذلك المحرار (ترمومتر) والهاتف (تلفون) والمذياع (راديو) وغيرها .

٧ ـ في اللغة العربية خصائص رمزية لا تقل عن خصائص اية لغة عالمية اخرى ففي مجال اختزال الالفاظ نشهد امثلة كثيرة في اللهجات الدارجة فيقال أمانة في اللهجة البغدادية ويقصد بها سيارات امانة العاصمة ويقال عليش بدلا من على اي شيء وفي الفصحى يستعمل تعبير ابجدي اشارة الى ما هو متعلق بحروف الهجاء الا ان اللغة العربية لم يتطور لديها اسلوب استعمال بدايات الكلمات للدلالة على مجموعة من الكلمات كما هو شائع في الانكليزية وفي كثير من اللغات الاوربية .

ومن الخصائص الرمزية للغة العربية ما يسمية علماء اللغة بالتصعيد ومعناه (قدرة اللغة على تجريد الصور المادية ونقلها الى صعيد معنوي) (فريحه ص ١٤) . فكلمة عقل كانت تستعمل اصلا للدلالة على الحبل الذي تربط به رجل البعير ، وكلمة مجد كانت تعني امتلاء البطن للدابة وهكذا ... (فريحة ص ١٤) .

والتوليد صنعة رمزية اخرى ينتج عنها صياغة كلمات جديدة او اسباغ معان جديدة على الكلمات المستعملة وامثلة ذلك اللامركزية ، والانكلسو ـ امريكية والقروسطية ـ (اشارة لما يتعلق بالقرون

الوسطى) واستعمـال القاطرة والمحرك والجريدة وغيرهـا من المعاني الجديدة ٠

ولا حاجة بنا لشرح التطور الرمزي البلاغي باللغة العربية ٠ فعلوم البلاغة فيها قطعت اشواطا بعيدة يندر ان نجد لغة من لغات العالم ترقى الى مستوى اللغة العربية فيها ٠ كما ان التراث الادبي الرمزي في اللغة العربية قديم وعريق ومتطور وحافل بالامثلةالحية واسلوب القرآنالكريم مثال حي على ذلك ٠

٨ ــ تعرضت اللغة العربية قديما الى اعمق الدراسات التي تناولت كافة نواحيها الصوتية واللغوية ودراسة المفردات وغيرها وبرز من علماء اللغة العربية افذاذ يشار اليهم بالبنان ٠ ففي النواحي الصوتية برزالخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠ ــ ١٧٥ هـ) وكتاب العين الذي سبقالدراسات اللغوية الحديثة بالف ومئتي سنة في التوصيل الى افكـار اساسية في الاستناد على الشكل وليس المعنى في التحليل اللغـوي وفي استعمال الرمز بديلا عن الصوت وفي تصنيف الاصوات خصوصا في التمييز بين السواكن والحركات (المعتلة) وفي تحديد طبيعة الشدة في العربية وفي صف الاصوات واتخاذ المخارج اساسا في وصف السواكن وفي وصف تضعيف السواكن وربطها بالشدة وفي مد الحركـات وفي التـرابط بين اصوات اللغة وابراز اهمية ترددها واخيرا في التلميح الى التضاد كأساس للفصل بين الوحدات الصوتية (الحماش ص ٢٠) ٠

وفي الدراسات النحوية كان الغرض الاساس من دراسة النحو أول الامر ضبط القواعد التي يسير عليهـا اعـراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها ٠٠٠٠ ولكي يعصم الناس من اللحن الذي اخذ يتفشى منـذ صدر الاسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجـم ٠٠٠٠ حتى شمل جميع البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها (السنتكس التعليمي) (وافى ص ٢٦٧) ٠

اما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغيير ابنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التي تطلق الفرنجية على مثلها (المورفولوجيا التعليمية) (وافى ص ٢٦٧) .

ومن ابرز النجاة العرب سيبويه (من البصريين) والكسائي والعراء وابن سلام (من الكوفيين المحدثين) والزمخشري وابن الحاجب وابن معطى وابن مالك (صاحب الالفية) والزنجاني والسكاكي وابن هشام (من الكوفيين المتأخرين) . واهتم العرب بعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) وبرز منهم علماء مثل الجاحظ وابي عبيدة وابن المعتز والمبرد وابي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم .

كما اهتم العرب بدراسة فقه اللغة العربية ومسائل علم اللغة العام ومن اشهر الكتاب الاصمعي وابن فارض وابن جنى والثعالبي والسيوطي (وافى ص ٢٧١) .

وقدم العرب دراسات في متون اللغة فدرسوا طوائف معينة من الالفاظ وفرزوا مفردات معينة لاغراض خاصة كالحمل والولادة والرضاع والفطام وغير ذلك . وفي مجال المعاجم التي تشرح معاني المفردات برز (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي ومعجم (الجمهرة) لابن دريد (والبارع) للثعالبي و (التهذيب) للازهري و (المحيط) للصاحب بن عباد و (الصحاح) للجوهري و (اساس البلاغة) (للزمخشري) و (النهاية) لابن الاثير و (لسان العرب) لابن منظور المصري و (المصباح المنير) للفيومي و (مختار الصحاح) للرازي و (القاموس المحيط) للفيروزابادي (وافي ص ٢٧١) ان معظم الدراسات اللغوية العميقة جاءتنا من السلف وان القليل قد كتب في الوقت الحاضر (مما له وزن علمي عالمي) عن اللغة العربية عن الدراسات الاجنبية الحديثة ودراسات

المستشرقين الاجانب وفي رأيي ان اللغة العربية تحتاج الى دراسات علمية في النواحي التالية :

آ ـ تحليل الانظمة الصوتية لكافة اللهجات المهمةفيها مع ما يتضمنه العمل هذا من اعداد لرموز صوتية حديثة دقيقة تصلح لتسهيل دراسة هذه اللهجات وكذلك النواحي النحوية لهذه اللهجات ومقارنتها ببعضها •

ب ـ اعداد معاجم جديدة مرتبة ترتيبا دقيقا تهتم بالدارج من الالفاظ اضافة الى القديم وتبحث في تعقيب معاني الكلمات واصولها وتطوير مدلولاتها فرغم ظهور معاجم حديثة لا بأس بها مثل (محيط المحيط) لبطرس البستاني (١٨٦٩) و (المنجد) للاب لويس معلوف اليسوعي الا ان المعاجم الحديثة لا تزال تقصر عن مباراة المعاجم الاوربية المعاصرة •

ج ـ تفتقر الدراسات اللغوية العربية الى دراسات تقارن بينها وبين اللغات الاخرى خصوصا اللغات الكبرى في العالم كالانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية وغيرها •

د ـ رغم ان دراسات طيبة قد لوحظت مؤخرا في دراسة الخط العربي الا اننا لا نزال قاصرين في تمحيص الخط العربي وبيان ما يصلح منه للكتابة اليدوية وما يصلح منه للمطابع • فلدى تمحيصنا لكراسات الخط المستعملة للمدارس مثلا لم نشعر بوجود تحسس عميق لحاجات المواطن الاعتيادي في تعلمه للكتابة للاغراض اليومية بل لاحظنا خلطا بين اعداد المواطن للكتابة اليومية واعداد الخطاط الفنان •

هـ ـ تفتقر العربية الى دراسات علمية عن اساليب تعليمها للمبتدئين من المتكلمين بها وللاجانب •

و ـ تفتقر العربية ايضا الى دراسات حيوية كاحصائيات تردد

المفردات وتردد النماذج النحوية والصوتية المستعملة وغرض مثل هـذه الدراسات بيان المهم من هذه العناصر لمن ينوي تعلم اللغة اليومية .

٩ ـ يشهد فوكسون ان العربية احدى لغات العالم العظمى وفيها ادب مشهود له بالعظمة لمدة تقارب الف وخمسمائة عام . فالادب العربي قبل الاسلام والمعلقات الشعرية الخالدة اشهر من ان تحتاج الى تعريف وقد كان للعرب قبل الاسلام باع حتى في الملاحم ـ الخالدة التي سميت (بايام العرب) والتي كان ابطالها شيوخ العرب انفسهم (البياتي ص ٦٢) والقرآن الكريم اخلد نص بالعربية وكذا شروحه وتعابيره وما كتب عنه وحوله يعتبر تناجا خالدا ابد الدهر .

وفي عصرنا هذا يندر ان تجد مكتبة من مكتبات العالم الكبرى ليس فيها مجموعة من كنوز المخطوطات العربية من مختلف فروع المعرفة . الا ان العربية في وقتنا هذا رغم غناها بالنتاج الادبي مـن مختلف الانواع لا تزال بحاجة الى جهد كبير لاغنائها بما يوازي ذلك من النتاج العلمي الحديث . فتشتت الامة العربية الى دويلات صغيرة مـن اسباب تشتت الجهد في هذا المضمار، هذا اضافة الى صعوبة توحيد المصطلحات العلمية العربية الحديثة مما يجعل ظهور تراث علمي عربي موحد امر يحتاج الى جهد كبير كما ان الدوريات العلمية العربية لا تزال متخلفة في كثير من التخصيصات وهذا يعوق النتاج العلمي المدون بالعربية ويفقـده عنصرا مهما من عناصر الحيوية .

١٠ ـ تستعمل اللغة العربية في المحافل الدولية اسوة بلغات العالم العظمى وهذا دليل اخر على اهميتها ووزنها الحضاري ، هذا اضافة الى استعمالها في الاجهزة الاعلامية العالمية (الراديو والصحافة) .

وتستعمل العربية في المجالات الدينيـة في طول العالـم الاسلامي وعرضه وتدرس في بلدان عدة لمختلف الاغراض منها الاغراض الدينية

والاغراض الاكاديمية والاغراض التجارية وما شاكلها .

وتستعمل اللغة العربية كلغة رسمية في الحبشة مثلا خصوصا بين المسلمين الاحباش الذين يتكلمون لغات مختلفة (Ferguson ص ١٢٠) كما تستعمل لاغراض مختلفة في تلك البلاد كما تشهد التقارير العلمية ان العربية تستعمل بشكل واسع في افريقيا (الصومال وكينيا) ،فالادب العربي واللغة العربية يجذبان اليها سكان تلك البلاد حتى ان قسما كبيرا من الادب الصومالي الحديث مدون باللغة العربية (Andrzeiewski ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣) كما يذكر فوكسون (ص ١١٧) انه في « مناطق معينة (من افريقيا) وتحت ظروف اجتماعية معينة حيث استعملت العربية لاغراض محدودة من قبل اناس يتكلمون لغات اخرى فقد نما استعمال نوع مبسط من العربية جرى فيها تقليل المفردات والقواعد النحوية البارزة بشكل كبير . ومن اشهر الامثلة على ذلك لغة التركو في منطقة بحيرة جاد واواسط افريقيا والعربية المعروفة (بالبمباشي) التي انتشرت جنوبا من السودان » .

١١ ـ للغة العربية خصائص كثيرة تجعل امكانيات النمو فيها قوية وبارزة فهي تمتلك القدرة على « توليد » التعابير الجديدة بوسائل كثيرة منها ما يلي / =

آ ـ **القياس** : « وهو استنباط مجهول من معلوم فاذا اشتق اللغوي صيغة من مادة من المواد اللغوية على نسق صيغة مألوفة في مادة اخرى ، سمي عمله هذا قياسا » (انيس ص ٩) . ومن امثلة القياس استعمال المصادر القياسية كالجاهلية واللصوصية والرهبانية وغيرها . واستعمال حطاب من حطب قياسا على صيغة المبالغة فعال وكذا تجارة وحداده وسباكه وحياكة (انيس ص ١٦) ويقابل هذا امثلة قليلة مماثلة لهذا في الانكليزية يسمى عادة (analogy) او (back formation)

ب ـ **الاشتقاق** : « وهو عملية استخراج لفظ من لفظ او صيغة

من اخرى والقياس هو الاساس الذي تبنى عليه **هذه** العملية » (انيس ص ٤٦) •

ج ــ النحت : هو اختزال لبنية الكلمات ويعتبر مــن ابرز صفات القدرة على النحو في اللغة العربية ومن امثلته من الافعال •

بسمل اي قال بسم الله الرحمن الرحيم

جعفل اي قال جعلت فداك

ومن الاسمــاء :

المشألة اي ان يقول المروء ماشاء الله

الحسبلة اي ان يقول المروء حسبى الله

ومن الصفــات :

عبشمي اي من عبد شمس

عبدلي من عبد الله

خضرمي من حضرموت وكذلك تحضرم وتبعشم

وامثلة اخرى **كالمشاوز** اي المشمش ذو اللوز الحلو **ودرعمي** اي من درا العلوم **وانفمي** نسبةالى الانف والفم وهكــذا (انيس ص ٧١ ــ ٧٦) •

د ــ الارتجال : اي اختراع الكلمات والتعابير اختراعا تصبح فــي اول الامر مألوفة في محيط ضيق لاتلبث بعدها ان تتسع دائرتهــا ويعم استعمالها وفي العربية امثلة كثيرة على ذلك •

هـ ــ الصرف : وهو ما يسمى بالانكليزية (inflexion) وتعتمــد عليه العربية اعتمادا كبيرا في خلق معان عربية جديدة بينما تعتمد بعض اللغات كالانكليزية مثلا على مواقع الكلم في الجملة بدلا منه •

١٢ ــ العربية لغة اصيلة تطبع متكلميها بطابعها الخاص وتميزهم عن غيرهم بشكل واضح • فالعربية تدرب متكلميها على الفاظ خاصة بها

لا تتوفر في غيرها فهي بهذا لها شخصيتها الفذة ولا نزاع في ذلك والعربية من الناحية الاخرى لغة حيوية كانت وما زالت فيها من المرونة والتنوع ما يكفي للوفاء بالحاجات المختلفة لمتكلميها اينما وجدوا او اي مسلك سلكوا فالعربية الفصحى « او العربية الفصحى الحديثـة » (modern standard) تجمع متكلمي العربية وتسهل التفاهم بينهم وتميزهم عـن بعضهم في الوقت نفسه لهجاتهـم المختلفة وقـد كان هذا ساريا في كـل العصور التي مرت بها العربية خلافا للمعتقد ــ السائد عند البعض بأن العربية الفصحى كانت سليقة على السنة الناطقين بها (وان ظهور اللهجات عند اختلاط العرب بغيرهم كان يمثل انحطاطا حل بالعربيـة) (ابراهيم ص ١) هناك من الدلائل التاريخية الواضحة بان العربية الفصحى لم تكن سليقة على كافة السنة العرب وانها لغة مشتركة التـزم بها لتحقيق التفاهم الدقيق بين ابناء الامة وان وجودها لم يلغ وجود اللهجات وليس صحيحا القول بان اللهجات الحالية تفرعت عن الفصحى بل العكس فلقد كانت اللهجات موجودة ولا تزال وان الفصحى تمثل احدى هذه اللهجات التي من صفاتها استقطابها للعوامل المشتركة بين اللهجات العربية (ابراهيم ص ٧) في الخلاصة ان ظاهرة اللهجات في اية لغة دليل على حيويتها وثقل وزنها الحضاري وقدرتها علـى التكيف بمختلف الاجـواء والحاجات والعربية غنية بهذا ومليئة بالحيوية .

رابعا ــ الخلاصـة :

للغة العربية صفات اللغة العريقة من حيث وضوح صفاتها الاساسية ووفرة مفرداتها القاموسية الموروثة ولوجود نظام كتابي خاص بها ولانها اعارت لغات عديدة مفردات كثيرة ونظاما كتابيا كما انها استعارت مفردات وتعابير كثيرة استطاعت ان تطورها وتخضعها لنظامها الصوتي والنحوي كما اثبتت قدرتها في مختلف الحقب على استيعاب كافة انـواع النتاج العلمي والادبي ، واثبتت قدرتها على التطور الرمزي من حيث الاشكال

اللغوية والمحتوى الادبي كما ساهم ابناؤها والمتكلمون بهـا في تقديم دراسات علمية ودقيقة شملت نواحيها الصوتية والنحوية والبلاغيةوتوفر فيها ادب ــ خالد قديم وحديث واستعملت خارج نطـاق الامة العربية كلغة رسمية لشعوب عديدة وكذا بشكلها المبسط كما انهـا اصيلة في تمثيلها لشخصية الامة العربية ولزيادة وزنها الحضاري يتوجب علىابنائها العمل على تحقيق ما يلي : ــ

١ ــ العمل على اكساب اللغة العربية الفصحى مرونة اكثر وقابلية اعظم على التطور والاقلاع عن التزمت تجاه ما يسمى (بالتيار الدخيل) لانه ليس على العربية خطر ذلك لان ثباتها ورسوخ قدمهـا من أسبـاب ديمومتها •

٢ ــ العمل على زيادة مفرداتها القاموسية الحديثة خصوصـا في حقل العلوم الصرفة والتطبيقية وفي حقل التكنولوجيا الحديثة •

٣ ــ التفكير بطرائف لتلافي نواقص النظام الكتابي العربي وتطوير الشكل المستعمل في الكتابة اليدوية ووضع قواعد واصول له والعملعلى تحديد مواقع ادوات التنقيط الحديثة واغنائها بالرموز الضرورية للعلوم والفنون كافة •

٤ ــ بذل جهد مضاعف لدراستها وتحليل لهجاتها والاحاطة بنظامها الصوتي وابراز ثروتها في المفردات ومقارنتها باللغات الاخرى واجـراء البحوث العلمية والتطبيقية في نواحي الكتابة وتطويرها •

٥ ــ القيام بحملة مركزة لنقل العلوم والفنون والادابوتطوير ثروة اللغة العربية في الدوريات العلمية المتخصصة •

خامسا ــ المراجع :

آ ــ المراجع العربية :

١ ــ انيس ، دكتور ابراهيم • من اسرار اللغة • الطبعة الثالثة •

مكتبة الانجلو المصرية • القاهرة / ١٩٦٦ •

٢ ـ وافي الدكتور علي عبد الواحد • فقه اللغة • الطبعة الخامسة• لجنة البيان العربي • القاهرة ١٨٦٢ •

٣ ـ الحماش ، الدكتور خليل ابراهيم « دراسة مقارنـة للنواحي الصوتية في كتاب العين والنظرية اللغوية الحديثـة » مجلة كلية الاداب المجلد السادس عشر ١٩٧٣ •

٤ ـ منتصر ، الدكتور عبد الحليم ، « خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي » رسالة العلم • المجلد ٤١ • العدد ١ مارس / ١٩٧٤ •

٥ ـ فريحه ، الدكتور انيس • نحو عربية ميسرة • دار الثقافـة، بيروت / ١٩٥٥ •

٦ ـ الصالح ، الدكتور صبحي • دراسات في فقـه اللغة ، الطبعة الثالثة دار العلم للملايين • بيروت / ١٩٦٨ •

٧ ـ البياتي ، الدكتور عادل جاسم • الملاحم العربيـة ومقارنتها بالملاحم الكونية مجلة الكتاب ، العدد الرابع ، ١٩٧٤ •

٨ ـ ابراهيم ، الدكتور محمد حسن « نشوء اللهجـات وحقيقة الفصحى » بحث مطبوع على الآلة الكاتبة ، معد المنشر في مجلة افكار العدد ٢٤ ايلول ٩٧٤ •

ب ـ المراجع الانكليزية :

1. Andrzejewski, B. W. «Poetry in Somali Society», (1963) Cited in **Socio-linguistics.** Edited by J. B. Pride and Janet Holmes. Penguin, Aylesbury, Bucks, 1972 p. 252-259.

2. Bright, W. and Ramanujan, A. K. (1964) «Socio-linguistic Variation and Language Change». Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 157-166.

3. Cazden, C. B. «The Situation: A Neglected Source of Social Class Differences in Language Use», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 294-313.

4. Corder, S. Pit. **Introducing Applied Linguistics.** Penguin Education, 1973.

5. Dil, Anwar, S. «Towards a General Model of Language Policy Planning», **Anthropology and Language Science in Educational Development,** UNESCO, Educational Studies and Documents, No. 11, 1973.

6. Ferguson, C. A. «The Role of Arabic in Ethiopia, A Socio-Linguistic Perspective», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 112-124

7. Hall, Jr., R. A. «Pidgins and Creoles as Standard Languages,», (1972). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 142-154.

8. Hanger, E. «Dialect, Language, Nation», (1966). Cited in **Socio-Linguistics,** pp.97-111.

9. Hoijer, Harry, «The Relation of Language to Culture». Cited in **Anthropology Today: Selections.** Edited by Sol Tax. Phoenix Books. The University of Chicago Press, Chicago, 1962.

10. Labov, W. «The Study of Language in Its Social Context», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 180-202.

11. Pride, J. B. and Holmes, J. «Introduction» to **Socio-Linguistics,** pp. 7-11.

★ ★ ★



ابن خلدون والحقيقة التاريخية

الدكتورة زاهية قدورة
عميدة كلية الآداب
الجامعة اللبنانية

١ ـ رائد الحقيقة :

يقول روبرت بريفو Robert Briffault في معرض كلامه على انعتاق البشرية التدريجي من الهمجية والتوحش :

« اما ان يكون القرد الوحش أبا للانسان المفكر فهو أعجوبة ، وان يكون الهمجي المهذار أبا للاغريقي البركليسي (من عصر بركليس) هو ايضا أعجوبة ولكن ليس دون هذه الاعجوبة أن يكون القرن العاشر أبا للقرن العشرين »[١] .

صحيح ان القرن العاشر حفل بعدد من العمالقة في الفكر والادب والعلم وغيرها من ميادين المعرفة وكلهم تقريبا من العرب والمسلمين ،ولكن ما لا يقل عن تلك المعجزة ان يسبق ابن خلدون فلاسفة التاريخ المعاصرين الى بحث كثير من القضايا التي تدخل في صميم هذا الموضوع .

ولسنا هنا في معرض الاشادة بعبقريته ، فقد كفانا ذلك اعلام الباحثين في مئات الابحاث ، وفي عدد من المؤتمرات . ويكفي هنا ان نورد وصف الاستاذ سارطون بقوله :

« كان ابن خلدون مؤرخا وسياسيا وعالم اجتماع واقتصاد ، ومن أعمق الباحثين في الشؤون الانسانية ، وشديد الولع بتحليل ماضي

1 — Robert Briffault: The Making of Humanity (New York, 1930, p. 7)

البشرية لفهم حاضرها ومستقبلها • لم يكن أعظـم مؤرخ في العصور الوسطى شمخ كالمارد فوق قبيلة من الاقزام فحسب .بل وكان ايضاواحدا من رواد فلسفة التاريخ سبق مكيافلي وبودان وكونت وكيرنوتت •

ولا يقل عن هذا روعة أن ابن خلدون اقتحم ميدان التأمل في ما تدعوه اليوم بأساليب البحث التاريخي[1] •

وقد أدرك ابن خلدون أن هذا العلـم « مستحدث الصنعة »[2] استوى قائما لديه دون ان يعرف الطفولة ولا الفتوة ، فأشار في اكثر من موضوع الى أنه في حدود علمه يستطيع ان يجزم بأن احدا لم يسبقـه اليه • فقال في مستهل حديثه : « واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن ومـا يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها • حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على احوال مـا قبلك من الايـام والاجيال وما بعدك » [3] •

ويعود ابن خلدون الى وضوع الجدة في ما أتى به ، ويعجب لان من سبقه من العلماء لم يفطنوا اليه : يقول : « ولعمري لـم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ما ادرى لغفلتهم عن ذلـك . وليس الظن بهم ، او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا ، فالعلوم كثيرة والحكماء في امم النوع الانساني متعددون ، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل »[4] •

---

1 — Quoted by Charles Issa (ed.) An Arab philosophy of History (London, 1950) p. X-XI.

(٢) عبد الرحمن ابن خلدون : كتاب العبر ، المجلد الاول (دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦) ص ٦٠ .

(٣) عبد الرحمن ابن خلدون : كتاب العبر ، المجلد الاول (دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦) ص ٦٠ .

(٤) المصدر ذاته ص ٦ .

ويأخذ ابن خلدون بعد ذلك على من سبقه انهم اكتفوا من العلم بثمراته وفي الاخبار دون تصحيحها ، مع ان تصحيح الاخبار في كل ميدان من ميادين المعرفة امر أساسي : يقول :

« واذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها ، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه »[1] .

وبهذا أثار ابن خلدون قضية فلسفة المعارف وضرورتها .

وفلسفة المعرفة التاريخية هي التي حفزت ابن خلدون على البحث في الحقيقة التاريخية . وقد وجد حتى فحول المؤرخين يأخذون بظاهر الخبر دون باطنه في حين أن فن التاريخ قائم على محاكمة الاخبار يقول :

« فأن فن التاريخ ... في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ... وفي باطنه نظروتحقيق وتعليل الكائنات ومباديها دقيق ؛وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق »[2] .

وكانت نتيجة ابتعاد اولئك الفحول عن النظر والتحقيق والتعليل أن « استوعبوا اخبار الايام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ،وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن تقدم واتبعوها وأدوها الينا كما سمعوها »[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢ ـ ٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣ .

٢ ـ نظريتنا التطابق والتوافق (١) (او الانسجام)

Correspondence and Coherence

اعجاب الباحث بطريق ابن خلدون الى الحقيقة التاريخية او التمييز بين الحق والباطل لا يقف عند حد عندما يكتشف أنه يطرح قضيتين من قضايا فلسفة التاريخ التي ينطوي عليهـا البحث عـن الحقيقة في دقة ووضوح يحسده عليهما كتابنا المعاصرون • فقد جعل معيـاره الصحيح الذي « يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه » •

التطابق Correspondence وهو مطابقة الخبـر للوقائع • يقول : « وأما الاخبار عن الواقعات فـلا بد في صدقهـا وصحتها من اعتبار المطابقة • فلذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعها »[٢] •

ويشير ابن خلدون في مكان آخر الى مطابقة الخبر لـ « الاحوال » والعوائد والنحل لأن « ذكر الاحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار هو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخبـاره »[٣] ولا يختلف هذا الا من حيث الاصطلاح عن مفهوم نظريـة المطابقة في القرن العشرين • يقول والش : Walsh

« نقول بأن العبارة صحيحة ، اذا طابقت الوقائـع (Facts) ونقول بعكسها أي أنه اذا طابقت الوقائع فهي صحيحة • وعليه تبدو لنا الحقيقة ومطابقتها للوقائع اصطلاحين مترادفين (يمكـن التعبير بأحدهمـا عن الآخر) •• ولكن ما هي الوقائع ؟ ••• هي ما نصفها بقولنـا الصلبة ،

---

(١) راجع بالنسبة الى هاتين النظريتين :

W. H. Walsh: A Introduction to Philosophy of History (London 1951) p. 72 FF.

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٥٩ •

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ •

الثابتة ، او المعطاة »[1] .

ويشير ابن خلدون الى المعيار الآخر للحقيقة التاريخية وهو التوافق (Coherence) فيذكر في مواضع كثيرة ضرورة موافقة الخبر للاستنتاجات والمفاهيم المسلم بها . فهو يرفض مثلا حكاية العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي ، بأن قاس حالها على بنات الملوك في ذلك الزمان[2] ، كما رفض ما جاء في العقد الفريد من أسباب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران بأن « أمرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتانة المحاسن ، فحيته ودعته الى المنادمة ، فلم يزل يعاقرها الخمرة حتى الصباح ، ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الاصهار الى ابيها ... يقول ابن خلدون :

.... وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه ، واخذه بسير الخلفاء الاربعة اركان الملة ، ومناظرته للعلماء ، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه احوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر ... واين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها ، وما كان بدار ابيها من الصون والعفاف » [3] .

ويفضل ابن خلدون تمحيص الخبر بمحاكمته على أساس معياره الذي وصفه ، على سلوك طريق التعديل (تعديل الرواة) ويقول :

« وتمحيصه (الخبر) انما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه واوثقها في تمحيص الأخبار ، وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع ، وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر

---

(1) Walsh: Op. Cit; p.p. 73-74.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣٠ — ٣١ .

في التعديل والتجريح » .[1]

ويعبارة اخرى يرفض ابن خلدون الخبر اذا استحال وقوعه مهما كانت منزلة راويه .

٣ ـ أسباب تشويه الخبر :

كان من الطبيعي ان يولي ابن خلدون قضية تشويه الأخبار قسطا من إهتمامه ، فعرض لأسبابه في أكثر من موضع ، وقدم العديد من الأمثلة عليه ، ويجعل في مقدمة تلك الاسباب **التشيعات** للآراء والمذاهب يقول :

« ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ، واذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ، فتقع في قبوله الكذب ونقله »[2] .

ومن أسباب التشيع للرأي عند ابن خلدون الحسد والانانية،ويضرب لذلك مثل من قدح في نسب الادارسة والفاطميين . « ومثل هذا وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم اجمعين ... ويعرضون تعريض الحسد بالتظنن في الحمل المخلف عن ادريس الأكبر »[3]

ويأتي بعد ذلك **الثقة بالناقلين** . فيحث ابن خلدون على تمحيص

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٨ ــ ٥٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣٦ .

اخبارهم بالجرح والتعديل [1] • ويدين ابن خلدون التقليد بكل صوره في مواضع كثيرة من مقدمته • وهو يعتقد أن « التقليد عريق في الآدميين وسليل » [2] ولهذا فهو يحذر منه وان كان الذي يجري تقليدهم أبرز المؤرخين •

« الا ان الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم ، واقتفاء سننهم في التضيق واتباع آثارهم ، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم ، فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار » [3] •

ثم يورد ابن خلدون « الذهول عن المقاصد » [4] كسبب من أسباب الكذب ومجانبة الصدق فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب » [5] •

ومن أسباب مجانبة الصدق ايضا **توهم الصدق** وهذا في رأي ابن خلدون ناجم في الاكثر من الثقة بالناقلين ومن الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع فينقلها المخبر كما هي دون تمحيص •

ومن الاسباب كذلك تقرب الناس لأصحاب الشأن بالثناء والمديح واشاعة الذكر بذلك •

« فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة ، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة [6] وليسوا في الأكثر راغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها » •

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٢) المصدر السابق : ص ٣ •
(٣) المصدر السابق : ص ٤ •
(٤) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٥) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٦) المصدر السابق : ص ٥٦ •

واخيرا فان اعظم أسباب مجانبة الحقيقة عند ابن خلدون وهي سابقة على جميع ما تقدم هو الجهل بطبائع الأحوال في العمران .

« فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله ، فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض » . (١)

٤ ـ ادوات الباحث عن الحقيقة التاريخية :

أجمل ابن خلدون متطلبات الصناعة التاريخية بقوله :

« فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو يعرف ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها ، واسباب حدوثها ، ودواعي كونها ، واحوال القائمين بها ، وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والازيفة واستغنى عنه » . (٢)

من هذا النص نلاحظ تشديد ابن خلدون على ثقافة المؤرخ التاريخية . فعليه ان يلم بسياسات قادة الأمم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم « وسائر مشاركاتهم من ابناء جنسهم » . اذ لا يكفي ما يجري عليه المؤرخون من « ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٦ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ .

وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره »[1] بل لا بد له من شمول النظرة أو سعة المنظور التاريخي بالنسبة لعوائد الأمم ورسومها (نظمها) وأحوالها .

ويرى ابن خلدون ان يحذو المؤرخ حذو المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر لأنه :

« شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان ، والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه ، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه »[2] .

ويذكر ابن خلدون أن الثقافة التاريخية وحدها هي التي تكشف للمؤرخ تبدل الأحوال في الأمم ، وهذا امر في غاية الأهمية لأن « ...من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الأيام ، وهو داء دوى شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة ، فلا يكاد لا يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة.

وذلك ان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده»[3]

وينبه ابن خلدون الى أن التبدل في أحوال الأمم قد يغيرها تغييرا جذريا ، فتبدو وكأنها خلقت خلقا جديدا .

« واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق : ص ٤٤ .

العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث » [١] .

ولا بد للمؤرخ من أن يفتح عينيه على الحاضر لقياس أخبار الأمم الماضية على ما يسائلها فيه ، ثم يقوم بتعليل اوجه الاتفاق والاختلاف [٢] .

ويرى ابن خلدون ان ثقافة المؤرخ التاريخية تؤدي به الى الوقوف على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها . والأطوار الخمسة التي يشير اليها ابن خلدون هي :

الطور الاول :

« طور الظفر بالبغية .. والاستيلاء على الملك ، وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء .. » [٣]

الطور الثاني :

« طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع ، والاستكثار من ذلك اجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه ، الضاربين في الملك بمثل سهمه » [٤] .

الطور الثالث :

« طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيستفرغ وسعة في الجباية

(١) المصدر السابق : ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣١٣ ــ ٣١٤ .
(٤) المصدر السابق : ص ٣١٤ .

وضبط الدخل والخرج ، واحصاء النفقات والقصد فيها ، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة ••• واجازة الوفود من اشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في اهله ، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه ••• » (١)

الطور الرابع :

طور القنوع والمسالمة ، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لأنظاره من الملوك وأمثاله مقلدا للماضين من سلفه •••• ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده ••• » (٢)

الطور الخامس :

« طور الاسراف والتبذير ، ويكون صاحب الدولة في هذا الدور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناعك اخذان السوء ، وخضراء الدمن ، وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستكفون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها ، مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضغنوا عليه ، ويتخاذلوا عن نصرته ، مضيعا من جنده بما أنفق من اعطياتهم في شهواته •• فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون ، وهادما لما كانوا يبنون ، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض ، المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ، ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض » (٣) ومتى تم له هذا تمكن من كشف زيف الاخبار التي تتنافى مع تلك الاصول والقواعد •

وبعبارة اخرى حاول ابن خلدون ان يكشف عن المتغير والثابت في

---

(١) المصدر السابق : ص ٣١٤ — ٣١٥ •

(٢) المصدر السابق : ص ٣١٥ •

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٥ — ٣١٦ •

احوال الأمم ، واشار الى ذلك بقوله :

« اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر ، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه »[1] ونرى ان ابن خلدون وضع اطارا واحدا لجميع الدول بشكل قاطع دون اعتبار للظروف الجديدة التي يمكن ان تخرج الدول من هذا الاطار .

بهذا دخل ابن خلدون فلسفة التاريخ من أوسع ابوابها . بدأ بالاخبار وطرق استخلاص الحقيقة منها بعد تمحيصها فجاء بما لم يجيء به أحد من قبله بعمق وشمول بالغين . ولو قدر له أن يلقي محاضرة عن الحقيقة التاريخية الآن لما احتاج الى تعديل يذكر في مفهومه واصطلاحاته .



(١) المصدر السابق : ص ٣١٣ .

تغلغل النفوذ الأوربي وأثره في الحياة الإجتماعية في مصر في عصر الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩)

بحث من إعداد
دكتور صالح رمضان
محاضر التاريخ الحديث
بكلية التربية العليا
بعدن

منهج البحث :ــ

يتناول الباحث تلك الفترة بالدراسة والتحليل ، نظرا لما لها من اثـر بعيد المدى في تاريخ مصر الحديث ، بل انه يمكن القول ان الاحداث التي تمت في الفترة موضوع البحث كانت تمهيدا للاستعمار الانجليزي في مصر ١٨٨٢ ، واهم عناصر البحث هي :ــ

١) الامتيازات الاجنبية وانشاء المحاكم المختلطة •

٢) الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر •

٣) عوامل ادت الى زيادة النفوذ الاوربي في مصر •

٤) تغلغل النفوذ الاوربي بصورة فعلية ، وذلك باشراف الدول الاوربيـة على مالية البلاد •

٥) بعثة (كيف)

٦) صندوق الدين والمراقبة الثنائية •

٧) لجنة التحقيق العليـا •

٨) اشتراك الوزراء الاجانب في الوزارة المصرية لاول مرة •

٩) خلـع اسماعيل •

مصادر البحث :

١ ـ الياس الايوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٢٣ .

٢ ـ جاك تاجر وجورج جندي : اسماعيل كما تصوره الوثائق . القاهرة ١٩٤٧ .

٣ ـ نجيب مخلوف : نوبار وما تم على يديه . القاهرة ١٩٠٣ .

٤ ـ عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٣٢ .

٥ ـ ميخائيل شاروبيم : الكافي من تاريخ مصر القديم والحديث (الجزء الرابع) بولاق ١٩٠٠ .

٦ ـ امين سامي : تقويم النيل وعصر اسماعيل (المجلد الثالث) القاهرة ١٩٣٦ .

٧ ـ تيودور روشتين : تاريخ المسألة المصرية (تعريب العبادي) القاهرة ١٩٢٣ .

٨ ـ صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦٠ .

٩ ـ الفريد سكاون بلنت :التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر .
راجع الترجمة الشيخ محمد عبده وبه تمهيدللدكتور عبد القادرحمزة.

١٠ـ د . احمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٥٨ .

١١ـ فؤاد صروف : اسماعيل المفترى عليه (مترجم) لمؤلفه كرابيتس القاهرة ١٩٣٣ .

١٢ـ كرومر : مصر الحديثة ـ ترجمة اسكندر شاهين . القاهرة ١٩٠٨.

١٣ ـ جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى . القاهرة ١٩٢٧

المقـدمـة :

ادى اسراف اسماعيل واعتماده على الاوربيين وشديد ثقته بهم الى تورطه في القروض الباهظة التي ناءت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن في حاجة اليها ، فكانت الذريعة التي توسلت بها الدول الاجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن انشاء صندوق الدين ، الى فرض الرقابة المالية على مصر ، الى تأليف لجنة تحقيق اجنبية لفحص شئون الحكومة المالية والادارية ، الى تعيـين وزيرين اوربيين في الوزارة المصرية ، ثم الى تغلغل نفوذ الاجانب عامة في مرافق البلاد .

وقد اثرت كل تلك العوامل في الحياة الاجتماعية في مصر في عصـر اسماعيل ، فقد ادى تراكم الديون الى فرض ضرائب جديدة باستمرار على مختلف طبقات الشعب ، فقاست طبقات الفلاحين والتجار والصناع بوجه خاص ، من اثر تلك الضرائب ، كذلك ادت الضائقة المالية الى عدم صرف مرتبات الموظفين وكذلك ضباط الجيش عدة اشهر مما ادى الى تذمر هؤلاء الضباط وتجمهرهم ، مطالبين بمرتباتهم المتأخرة ، وذلك يوضح لنا مـدى سوء الحالة التي كان يقاسي منها مختلف الطبقات . هذا بالاضافة الى ان تراكم الديون كان منفذا لتدخل الدول الاوربية مجتمعة ثم انجلترا منفردة وذلك باحتلالها مصر في عام ١٨٨٢ .

الامتيازات الاجنبية وانشاء المحاكم المختلطة :

ان نظام الامتيازات الاجنبية ، الذي منحته الدولة العثمانية للـدول الغربية ، والذي طبعه في مصر التي كانت جزءا من الدولة العثمانية ،يقضي ذلك النظام بان (يكون مرجع رعايا الدول الغربية في شؤونهم التجاريـة

والمدنية والشخصية الى قناصلهم ، والا يفرض عليهم ولا يؤخذ منهم ضرائب الا بعد مصادقة دولهم عليها ، والا يحاكموا امام محاكم السلطة المحلية فيما يتهمون به من جنايات وجنح ومخالفات وفي قضاياهم التجارية والمدنية مع رعايا الدولة ، الا بحضور قناصلهم أو تراجمتهم ، لينالوا من ذلك الحضور حماية من كل ظلم ومساعدة من كل شأن) •

وقد اتصف نظام الامتيازات الاجنبية في مصر بكثير من المساوىء ، مما اضر بمصلحة الدولة والشعب ، خاصة بعد أن ازال محمد علي الحواجز التي كانت موجودة بين الاجانب والهيئة الاجتماعية المصرية ، لاسيما بعد ان فتح باب الهجرة على مصراعيه امام الغربيين بعد حوادث عام ١٨٤٨ السياسية في اوربا التي ادت الى هجرة عدد كبير من هؤلاء الاجانب الى مصر ، وادى ضعف الحكام في مصر ــ بعد محمد علي ــ الى ان يغتنم قناصل الدول ذلك الضعف للاعتداء على حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية حتى هدموا اركانها •

ولم يكتف هؤلاء القناصل بالنظر في شئون رعاياهم المدنية والتجارية فقط ، بل عملوا على انتزاع كل سلطة على رعاياهم من ايدي الحكومة ، وجعلها من اختصاصهم ، وذلك بالنظر في المخالفات والجنح والجنايات المرتكبة من رعايا دولهم ، كذلك عملوا على اجبار الاهالي على المثول امام محاكمهم القنصلية ، واخذوا يتحيزون لرعاياهم حتى اصبحوا مدعين والوطنيون مدعى عليهم ، زاعمين ان حقوق الاجانب لا يؤمن عليها في المحاكم الاهلية وانهم لا يجدون في اخلاق القضاة الوطنيين ما يجعلهم يثقون بهم •

وكان القناصل يتخلفون عن حضور تنفيذ الاحكام الصادرة ضد رعايا دولهم من المحاكم المحلية ، فيعطل التنفيذ فترة طويلة ، حتى يضطر من حكم لمصلحتهم من الاهالي ان يخضعوا للقضاء القنصلي الجائر ، وقد غالى القناصل في تطرفهم ، حتى انهم استدعوا حكومة البلاد امام محاكمهم

القنصلية ، وحاكموها وحكموا عليها لمصلحة رعاياهم طبعا بتعويضات باهظة حتى بلغت تلك التعويضات في المدة ما بين ١٨٦٤ ، ١٨٦٨ ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات •

ومما زاد الحال سوءا . ان تلك المحاكم القنصلية ، كانت كل منها تطبق قوانين دولتها هي ولا تعترف بالاحكام التي تصدر زميلاتها ، وكان القناصل يعملون على نصرة رعاياهم سواءاكان الحق في جانبهم أم عليهم • والغريب في تلك المحاكم انها ابتدائية فقط ، وان استئناف الأحكام الصادرة منها ، كان يجب ان يرفع الى احدى المحاكم في وطن المدعى عليه ، سواء كان هذا المدعى عليه انجليزيا او فرنسيا أو ايطاليا ، فيجب ان تكون الدعوى في وطنه الاصلي مما يكبد المستأنف مصاريف جمة ترهقه ارهاقا شديدا ، وقد يحول المدعى عليه حقه الى شخص ثالث من غير جنسيته ، فيضطر المتقاضي المسكين الى اعادة دعواه ضد الشخص الثالث ، وهكذا مما يؤدي الى ضياع حق المواطنين في النهاية •

وكانت السلطة بمصر لا يمكنها القبض على الجاني الاجنبي ، الا بعد استئذان قنصليته واحضار احد مترجميها ليكون شاهدا على ان القبض لم يتعد فيه الواجب ولم يسبب اهانة لحضرة المجرم فاذا ابتغت عليه سلمته الى قنصليته •

وعهد اسماعيل الى نوبار (رئيس وزرائه) بمهمة توحيد القضاء في مصر ، فوضع نوبار مذكرة في سنة ١٨٦٧ أوضح فيها عيوب ذلك النظام القضائي ، وبرهن على انه عقبة في سبيل المصالح الاجنبية وفي سبيل استقدام اصحاب الكفاءة من الغربيين لتسليمهم زمام الاعمال التي تحتاج الى علم وفن لا وجود لهما في مصر • كذلك ذكر نوبار بان المنتفعين وحدهم من ذلك النظام هم الآثمون المجرمون • وعلى ذلك اقترح نوبار استبدال النظام القضائي السيء المختل بنظام آخر يحافظ على روح الامتيازات الممنوحة للاجانب •

ولقي مشروع نوبار معارضة شديدة من اصحاب الامتيازات الذين اخذوا يحذرون حكوماتهم من الموافقة على تعديله أو تغييره ، بدعوى ان ذلك التغيير يعرضهم الى هوى السلطة المصرية الاستبدادية ، وكانت فرنسا في مقدمة تلك الدول التي عارضت المشروع واصرت على بقاء النظام القديم على ما هو عليه .

وتكونت لجنة من قناصل الدول الاوربية في مصر للنظر في مشروع نوبار وذلك لبحث الاصلاحات الواجب ادخالها على النظام القضائي وكان ذلك في عام ١٨٦٩ واستقر الرأي على استبدال الحالة القضائية الفوضوية المتعددة الجهات بسلطة واحدة تسلم مقاليدها الى ثلاث محاكم ابتدائية في الاسكندرية والقاهرة والزقازيق أو الاسماعيلية ، ومحكمة استئنافية عليا في الاسكندرية ، ومحكمة اخرى عليا فوقها ، وكذلك اتفقت اللجنة على جعل اغلبية القضاة فيها اوربيين غربيين ، وتدفع الحكومة المصرية لهم مرتباتهم . ولهذه المحاكم حق النظر في جميع القضايا التجارية والمدنية والقضايا العينية والعقاريةوالشخصية الا ما كان منها بين أجنبيين منجنسية واحدة ، وان يكون اعضاء كل محكمة ابتدائية خمسة ، ثلاثة اجانب ووطنيان ، واعضاء المحكمة الاستئنافية سبعة : اربعة اجانبوثلاثةوطنيون، وقد عارضت الدولة العثمانية هذا الشرط الاخير ، كذلك نص الاتفاق على حق الدول الموقعة عليه بعد مرور خمس سنوات من تعديله أو الغاؤه ، وتقرر العودة الى الحالة السابقة اذا اتضح لها اصوبية ذلك .

وفي اول يناير سنة ١٨٧٦ افتتح رياض باشا تلك المحاكم وكانتوزارة الحقانية (العدل) قد عهدت اليه ، وبدأت تلك المحاكم عملها في فبراير سنة ١٨٧٦ .

ويتضح من نظام تلك المحاكم ان سيطرة الدولة الغربية ظلت باقية، وذلك بجعل عدد القضاة الاجانب أكثر من القضاة الوطنيين ، وكذلك حق تلك الدول بالغاء المحاكم المختلطة اذا رأت ذلك ، تلك الشروط التيجعلت

تلك المحاكم غير مجدية .

كذلك كان من عيوب تلك المحاكم انها اقتصرت على نظر القضايا التي بين الحكومة والاجانب وعلاقات هؤلاء بالوطنيين وذلك بدلا من ان تكون سلطتها شاملة . والواقع ان هذه المحاكم لم تضع حدا لتغلغل النفوذ الاوربي في مصر ، بل كان لها حق التدخل في شئون الحكومة والدولة بوجه عام ، ويتضح ذلك جليا عندما بلغت الازمة المالية اوجها ، وتوقف اسماعيل عن دفع الديون للاجانب فقاموا برفع الدعاوى ضده في تلك المحاكم التي اصدرت بدورها الاحكام العديدة لمصلحة الرعايا الاجانب ، مما ادى الى احتجاج الخديوي بان ليس من سلطة تلك المحاكم اصدار احكام ضده ، وفي نفس الوقت تمسك الاجانب بتلك الاحكام ، مما كان سببا في اشتداد الازمة المالية وتدخل الدول الاوربية وفي مقدمتها انجلترا وفرنسا بحجة حماية مصالح رعاياها والاصرار على تنفيذ الاحكام التي اصدرتها المحاكم المختلطة .

الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر :

كانت انجلترا وفرنسا من اقوى الدول الاوربية نفوذا في مصر،ولكي يتضح لنا مدى قوة كل من الدولتين في عصر اسماعيل يجب ان نرجع قليلا الى الوراء حتى يمكن فهم موقف كل منهما تجاه مصر في تلك الفترة .

لقد غزت فرنسا مصر في عام ١٧٩٨ وذلك بحجة ان بعض الرعايا الفرنسيين الذين كانوا يعملون بالتجارة في مصر قد أسيئت معاملتهم،ولكن السبب الرئيس لذلك الغزو هو أن نابليون الاول كان يود ان يجعل من البحر الابيض المتوسط بحيرة فرنسية ، وكان يعتبر مصر ـ ليست فقط مفتاح تجارة الشرق ـ ولكنها تعتبر اساسا للانقضاض على الهند الانجليزية . وما لبثت آمال نابليون هذه أن ذهبت ادراج الرياح وذلك

بانتصار انجلترا في ابي قير وتحطيمها الاسطول الفرنسي ممــا ادى الى فشل الخطط الفرنسية •

وكان اهتمام فرنسا بعد تسوية عام ١٨٤١ ان تمحو من ذهن محمــد علي ذلك الشعور السيء الذي كان يكنه لها ، وكان ذلك من الصعب عليها ، ولكنها نجحت في النهاية بفضل مجهودات لويس فيليب ، وكذلك الموظفين الفرنسيين الذين كانوا دائما يشيرون الى نظريات انجلترا العدائية بالنسبة لمصر ، وانها سوف لا تهدأ الا اذا استولت على نصف الطريق المؤدي الى الهند على الاقل ، كما كانوا يشيرون دائما الى تقدمها المستمر في الهنــد، وان علاقاتها التجارية سوف تتحول بالتدريج الى ان تمتلك ذلك الطريق من الناحية الحربية ، كما كانوا يرددون دائما ان فرنسا وحدها هي التي تستطيع ان تنقذ محمد علي من مثل تلك النتائج وان تخلصه من ايــدي الانجليز • وقــد استخدم محمد علي كثــيرا من الموظفين الفرنسيين في خدمته ، حيث كانوا يشغلون دائما الوظائف الرئيسية في جميع الدواويــن الحكومية ، وكان يساعد هؤلاء الموظفين مجموعة من الموظفين المصريين والاتراك الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا ، وهكذا وقفت فرنسا للمصالح الانجليزية بالمرصاد •

وقد كانت انجلترا تهدف الى مد خط حديدي بين البحرين الابيض والاحمر ، ولكن نجحت فرنسا ــ ايضا ــ في الضغط على محمــد علي لاستبعاد المشروع ، وذلك بالرغم من انه كان قد اشترى ثلاثين ميــلا من القضبان الحديدية وظلت تلك الكمية في مخازن الحكومــة اكثر من خمسة عشر عاما بدون استخدام ، ولم يتم انشاء ذلك الخط الحديدي بين الاسكندرية والسويس الا في عام ١٨٥٦ في عهد الخديوي سعيد باشــا •

اما عباس باشا الاول فقد كان يعمل على القضاء على نفوذ فرنسا في مصر وذلك بمجرد توليه الحكم وبدأ في تنفيذ تلك السياسة باستبعاد عدد

كبير من الموظفين الفرنسيين والاوربيين من خدمته • وبعد عباس جاء سعيد الذي عمل على اعادة العلاقات ـ قوية ـ مع الدول الغربية وخاصة فرنسا فمنح فردينان وليسبس مشروع شق قناة السويس •

وكانت السنوات الاولى من حكم الخديوي اسماعيل ، هي الفترة التي أخذ فيها النفوذ الاجنبي يتغلغل في البلاد ، ماليا وسياسية بالغة انقلب هذا النفوذ في اواخر عهده الى سيطرة مالية وسياسية بالغة الخطورة • وقد كان لفرنسا نفوذ كبير على اسماعيل ، وذلك لتربيته الفرنسية أو السنوات التي قضاها في باريس وايضا لصلته الوثيقة بالامبراطور نابليون الثالث ومحاكاتهاياه في مظاهر الابهة والعظمة،ويتضح نفوذ فرنسا جليا من التجاء اسماعيل الى نابليون الثالث لحسم الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس ، مع انه يعلم بالبداهة ان امبراطور فرنسا لا يمكن أن يكون حكما عادلا كذلك استخدام اسماعيل طائفة كبيرة من الموظفين الفرنسيين ، وبلغ هذا النفوذ الفرنسي اقصاه في حفلات افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، فالقناة عمل فرنسي وفاتحها (دلبس) فرنسي وأوجيني امبراطورة فرنسا التي حضرت تلك الاحتفالات كانت تمثل الدولة الفرنسية وهي التي رأست حفلات الافتتاح •

على ان نفوذ فرنسا في مصر اخذ في الاضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ التي كانت بينها وبين المانيا ، وانتهت بهزيمة فرنسا، وأدت الى سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل ، وباضمحلال النفوذ الفرنسي ، اخذ النفوذ الانجليزي في الازدياد حتى انتهى ذلك النفوذ الى الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ وقد كان مشروع الاحتلال مهددا بالاخفاق لو اشتركت فرنسا ، فقد كان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة احداهما على مصير البلاد ولكن هزيمة فرنسا امام المانيا سنة ١٨٧٠ ادى الى انفراد انجلترا في بسط نفوذها في مصر •

ولقد بذل نوبار مجهودا كبيرا لكي يثير الرأي العام في اوربا المعمل

على التدخل في مصر . ولقد تمكن من التأثير لدرجة كبيرة في الرأي العام الانجليزي وذلك بعد نشوب الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ وقد كان يفضل انجلترا على اي دولة اخرى ، ويعتقد ان تدخلها في مصر سيفيدها اكثر من اي دولة اخرى .

من ذلك يتضح لنا أن اسماعيل ووزرائه قد هيئوا الفرصة لتغلغل النفوذ الاوربي في البلاد ولو انهم سلكوا طريقا آخر غير تلك السياسة التي اتبعوها ، لكان من الممكن ان يغير ذلك من مجرى الحوادث التي حدثت في تلك الفترة الهامة من تاريخ مصر .

وقد عملت انجلترا — منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ — على تثبيت مركزها في مصر ، تمهيدا لاحتلالها ، واخذت في الوقت نفسه تتطلع الى السودان تمهيدا لفصله عن مصر وذلك بتعيين السير صموئيل بيكر حاكما لمديرية خط الاستواء ، كذلك اخذت انجلترا تضغط على اسماعيل لعقد اتفاقية لمنع الاتجار بالرقيق والقضاء على النخاسة في السودان المصري . وتم التعاقد على شروط اقل ما فيها من الحيف ان صار لامراء السفن الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما بها من مال ومتاع ومعاقبة اصحابها بالعقوبات الشديدة . وما يوجد من الرقيق سوداني أو حبشي بأي سفينة مصرية ويضبط بمعرفة السفن الانجليزية لدى التفتيش يبقى تحت اذن الحكومة الانجليزية وهي تتعهد باجراء ما يقتضي للحصول على الحرية . وتم توقيع المعاهدة في ٤ أغسطس من عام ١٨٧٧ .

والجدير بالذكر أن ذكر كلمة (رقيق) في تلك المعاهدة ، يأتي دائما مقرونا بكلمتي (السود والحبشيين) ولم تتعرض تلك المعاهدة للرقيق الابيض الوارد من تركيا ، ذلك النوع من الرقيق الذي كان شائعا في مصر في ذلك الوقت ، حتى أنه قد كانت امهات الكثير من الشخصيات

الهامة في مصر حينذاك ضمن ذلك الرقيق الابيض ، ومن العجيب ان ذلك النوع من الرقيق لم يقصد في تلك المعاهدة ولم تهتم الا بالسود والاحباش ، فكانت معاهدة ابطال الرقيق لا خير فيها ولا فائدة منها لمصر، بل اضرت بمصالحها ضررا كبيرا •

ولما تم للانجليز ما ارادوا من أمر تلك المعاهدة ، اوعزوا الى قنصلهم يومئذ بالضغط على الخديوي لارسال احدهم الى مجاهل خط الاستواء ليكمل ما بداه (صموئيل بيكر) ، وكان هذا الانجليزي الذي قام باتمام تلك المهمة وهو (غوردون) الذي سلمه اسماعيل فرمان ولايته على جميع السودان المصري مكرها تحت الضغط الانجليزي •

ولقد عملت انجلترا على عدم زيادة نفوذ اي دولة اوربية في مصر حتى لا يعمل ذلك على اضعاف نفوذها ، وكانت تهدف اساسا الى السيطرة على القناة وذلك بتثبيت نفوذها في مصر حتى يمكنها تحقيق اغراضها • ولقد ادى وقوع اسماعيل في الضائقة المالية الى بيعه نصيب مصر من اسهم شركة قناة السويس الى انجلترا وذلك سنة ١٨٧٥ مقابل اربعة ملايين من الجنيهات •

وكانت فرنسا على وشك شراء تلك الاسهم ، حين ابرق اللورددربي وزير خارجيةانجلترا ــ الى الماجور جنرال (ستاتون)بالتأكد من نيةاسماعيل في بيع تلك الاسهم، وأسرع بدفع الثمن قبل ان تنهي فرنسا مفاوضاتها في ذلك الشأن مع أسماعيل •وقد بلغ مجموع تلك الاسهم ١٧٦٫٦٠٢ سهما من مجموع اسهم الشركةالتي تبلغ ٤٠٠٫٠٠٠سهم ،وقد كتبت جريدة (التيمس) الانجليزية في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ نبأ شراء تلك الاسهم وأشارت بأن الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لا التجارية •

ولقد ربح الخديوي اسماعيل في تلك الصفقة مبلغ ٤٥٠٠٠٠ جنيها ، ولكنه لم يتطلع الى المستقبل ، فقد كانت ارباح تلك الاسهم مرهونة لشركة القناة لمدة ١٥ سنة ، فتعهدت الحكومة المصرية بان تدفع فوائد هذا المبلغ للحكومة الانجليزية بسعر ٥٪ وظلت تدفعها حتى سنة ١٨٩٤ ، وقد بلغت تلك الفوائد حتى تلك السنة مائة وعشرون مليون فرنك ، ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ حتى سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٦ ، ١٧ مليونا اي ٨٥ مليونا ، فيكون مجموع ما قبضتهمن الربح حتى سنة ١٩٠٠ ، ٢٠٥ ملايين من الفرنكات ، اي ضعف الثمن الذي اشترت به من اسماعيل ، هذا غير الربح الذي قبضته من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٥٦ وهو عام التأميم • وان اسماعيل ببيعه تلك الاسهم قد سبب لمصر خسارة كبيرة اضاعت عليها فرصة استعادة النفقات الطائلة التي بذلتها لشق القناة •

وهكذا خسرت مصر خسارة فادحة من تلك الصفقة ، فتلك الاسهم التي باعها اسماعيل لانجلترا باربعة ملايين من الجنيهات بلغ ثمنها سنة ١٩٠٥ ، ٣٢ مليون جنيه ثم صعد الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩ • هذا فضلا عن اهداف انجلترا السياسية التي قصدت بهذه الصفقة ان تجعل لنفسها الكلمة العليا في شؤون القناة ، ومن ثم تمهد لنفسها التدخل في شؤون مصر بواسطة امتلاك القناة ، فقد استخدمت انجلترا القناة عند احتلال مصر ، كما استخدمتها هي وحلفاؤها اثناء الحربين العالميتينالاولى سنة ١٩١٤ والثانية سنة ١٩٣٩ فاصبحت طريقا حربيا بالرغم من اتفاقية الاستانة سنة ١٨٨٨ التي نصت على حياد القناة •

ويقول مسيو (دي مازاد) في مجلة العالمين في عددها الصادر في اول ديسمبر سنة ١٨٧٥ : (ان شراء انجلترا لتلك الاسهم عملا سياسيا بحتا ، وهذا يدعو للاهمية لانه لو ان هذا العمل لم يؤد فيالنهاية الى الاستيلاء التام على الاراضي المصرية فانه يعتبر كخطوة اولى لذلك

العمل ، وانها اصبحت تراقب ذلك العميل الذي لجأ اليها واخذت تبذل له المال من جديد وتطلب ضمانات جديدة) وكأن تنبأ في ذلك الوقت بما سيحدث في المستقبل .

والواقع ان صفقة شراء انجلترا لتلك الاسهم تعتبر خدعة قامت بها انجلترا بالنسبة للشرق عامة ومصر خاصة ، كما ان الفرنسيين شعروا ان تلك العملية تعتبر لطمة قوية بالنسبة لنفوذهم في مصر ، خاصة وان انجلترا اخذت من تلك العملية خطوة لسيطرتها على القناة واستخدامها لاغراضها السياسية ، بل خطوة اساسية للسيطرة على مصر كلها .

وفي حديث للسفير الفرنسي في لندن مع لورد دربي ـ وزير خارجية انجلترا ـ بخصوص مسألة شراء انجلترا لتلك الاسهم ، يتضح الهدف الرئيسي من وراء تلك الصفقة ، وهو عدم ترك الفرصة لاي دولة اجنبية لفرض نفوذها على مصر عامة والقناة خاصة ، وانانجلترا ارادت بتلك الصفقة ان تكون هي صاحبة النفوذ الاول في تلك المسألة دون غيرها من الدول حيث يقول لورد دربي :

(عندما علمت ان هناك مفاوضات مع الحكومة المصرية لبيع تلك الاسهم ، كان امامنا اما أن ندع تلك الفرصة تذهب لغيرنا او نقتنصها نحن ، وانني يمكنني أن أؤكد اننا كنا نعمل على الا يكون لاية دولة اخرى اي نفوذ في مسألة في غاية الاهمية بالنسبة لنا ، فبدلا من أن نعارض « مسيو دلسبس » فهذه فرصة مناسبة لكي تتعاون معه) .

والواقع ان لورد دربي كان يقصد بذلك التعاونالحد من نفوذ فرنسا في مصر ، خاصة وان شركة قناة السويس بالرغم من انها كانت شركة عالمية الا انها في الواقع كانت تعتبر فرنسية ، وذلك لسيطرة فرنسا عليها منذ التفكير في انشائها حتى حفل افتتاحها .

وهكذا يتضح أن كلا من انجلترا وفرنسا كانت أكثر الدول سعيا

لزيادة نفوذهما في مصر حتى يكون لاحداها الغلبة على الاخرى ، فهذا اسماعيل (الخديوي) يلجأ الى انجلترا بعد حرب السبعين سنة ۱۸۷۰ (التي كانت بين المانيا وفرنسا وانتهت بهزيمة فرنسا) ، ولكن ما لبثت ان استجدت ظروف ادت الى ايجاد تقارب بين كل من الدولتين (انجلترا وفرنسا) وهي الضائقة المالية التي ادت الى تغلغل النفوذ الاوربي الفعلي في مصر ٠

عوامل ادت الى زيادة النفوذ الاوربي في مصر :

من المعروف ان ديون الخديوي اسماعيل الباهظة التي اثقل بها كاهل الخزانة المصرية كانت تتيجة للاسراف الزائد عن الحدود والفوائد التي كان يدفعها لكي يحصل على القروض والتي كانت مرتفعة جدا ٠ وفيما يلي بيان لايرادات[1] الدولة في بعض سني حكم اسماعيل مع مقارنتها بالمصروفات تلك المقارنة التي توضح لنا مدى الاضطراب الذي كان سائدا في مرافق الدولة والذي اتاح الفرصة للدول الاوربية للتدخل بحجة تنظيم الحالة المالية للبلاد ٠

السنة	الايرادات	المصروفات
١٨٦٤	٦ر٩٧٢ر٠٠٠ جنيه	١٣ر٥٥١ر٠٠٠ جنيه
١٨٦٥	٥ر٣٦٥ر٠٠٠ =	١٠ر٧٨٥ر٠٠٠ =
١٨٦٦	٥ر٠٥٨ر٠٠٠ =	١٥ر٢٧٨ر٠٠٠ =
١٨٦٧	٤ر١٢٩ر٠٠٠ =	١٠ر٨٥٤ر٠٠٠ =
١٨٦٨	٥ر٠١١ر٠٠٠ =	١٦ر٦٣٧ر٠٠٠ =
١٨٦٩	٥ر٢٥٥ر٠٠٠ =	١٠ر٥٣٠ر٠٠٠ =
١٨٧٠	٥ر٣٨٩ر٠٠٠ =	١٢ر٣٠٩ر٠٠٠ =
١٨٧١	٥ر٧١١ر٠٠٠ =	١٥ر٠٨٤ر٠٠٠ =

من الجدول السابق يتضح لنا ان المصروفات قد بلغت في بعض السنوات ضعف الايرادات ، كما بلغت احيانا ثلاثة اضعافها ، مما ادى باسماعيل الى الاستدانة من دول غرب اوربا التي استغلت الظروف لبسط نفوذها على مصر . ولقد اعترف الاوربيون انفسهم بتلك الحقيقة .فلقد كتب المسيو « فان بملن » ـ وهو قاض هولندي تولى القضاء في المحاكم المختلطة في عهد اسماعيل ـ يقول في هذا الصدد :

« ان علاقات الحكومات الاوربية بمصر لم تقم الا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وان سياستها المبنية على الاثـرة والانانية لم يتخللها اي شعور بالعطف أو بالرأفة او بالواجب نحـو مصر ، ومعظم الاوربيين الذين جاءوا الى هذه البلاد كانوا من احط العناصر ولم يكن همهم الا الاثراء على حساب البلاد » .

وان ثقة اسماعيل المتناهية بهؤلاء الاوربيين كانت من اهم الاسباب التي اضرت بمصالح البلاد كما اضرت اسماعيل ايضا وأدت الى خلعه في النهاية .

ولقد اعترف نوبار بأن ضخامة الديون التي استدانها اسماعيل أدت الى ضرورة التدخل الاجنبي ، ولذا فقد كان يعمل بنفسه ـ أي نوبار الذي كان رئيسا للوزارة في عهد اسماعيل ـ على تنظيم ذلك التدخـل حتى يكون أخف وطأة على مصلحة الاهالي .

وتنيجة لتورط اسماعيل في الديون اصبحت املاكه وأملاك عائلته ملكا للدولة من الناحية الاسمية ولكن كانت تذهب مواردها في الواقع للاجانب الذين كانوا يقومون بالاشراف على مالية البلاد حفظـا لمصالح الدائنين ، واصبحت ادارة البلاد تخرج من ايدي المصريين يوما بعد يوم ، وشغل الاوربيون أهم وظائف الدولة وقاموا باهم الاعمال بها كما اخذوا يمتلكون الاراضي الزراعية وزادت تلك الظاهرة بشكل واضح ، واصبح

هذا الغزو الاوربي ممقوتا للغاية من الشعب المصري مما شجع الصحافة الوطنية الى انتقاد اسماعيل وسياسته ، تلك السياسة التـي شجعت على ذلك التدخل الاجنبي في شئون البلاد • وكان لهذه الصحف فضل كبير في اثارة البصائر ، والافكار وتوجيه الانظار الى العناية بشئون البلاد عامة وانتقاد الاعمال التي تصدر عن الحكومة فكانت اداة الظهور حديةالآراء السياسية •

وأهم تلك الصحف ، صحيفة (ابو نضارة) لصاحبها الشيخ يعقوب صنوع وهو مصري اسرائيلي كان يميل الى الدعابة في الكتابـة واتصل بجمال الدين الافغاني وقيل أنه هو الذي أوعز اليه اصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل ، وقد نفاه اسماعيل مـن مصر ، فذهب الـى باريس واستأنف باصدار جريدته باسماء مختلفة وظل يعارض سياسة الخديوي فينتقد اعماله ، ولم يكن يخلو عدد منها مـن صور هزليـة تنطوي على التعريض الشديد بالخديوي اسماعيل •

وفي اثناء الازمة المالية انعقدت في البلاد عدة اجتماعات بين الاهالي تليت فيها خطب تطعن بشدة في اسماعيـل ، وذهب الخطيب في احداها الى وجوب خلع الخديوي ، وعلقت اعلانات كبيـرة في الاحياء الآهلة بالسكان ، حرض الرأي العام فيها على المطالبة بقلب نظام الحكومة •

كما لجأ الدائنون الاجانب الى قناصلهم في مصر ، وهتفوا بسقوط الخديوي ووزير المالية ، ولكن المظاهرة التي اساءت الـى الخديوي فعلا اكثر من اي مظاهرة اخرى ، تلك التـي حدثت في بورصة الاسكندرية والتي اقترح فيها رجال تلك البورصة نزع تلك الصورة التي كانت معلقة للخديوي في البورصة •

وكتب اللورد فيفيان القنصل البريطاني العام في مصر ـ الى حكومته في ٨ ديسمبر عام ١٨٧٦ حيث يقول :

« انه لمن المتعذر بيان كيف وأين صرفت المبالغ الجسيمة التيوصلت الى يد الحكومة المصرية في العام الماضي ،فان الاربعة ملايين منالجنيهات ثمن اسهم قنـاة السويس والخمسة ملايين قيمـة القرض من الفرنسيين والايراد العام ، كل ذلك قد اختفى بالرغم من تأجيـل دفع « كوبومة » الدين الموحد وعدم صرف مرتبات موظفي الحكومـة وبقاء جملة ديون ثقيلة بدون سداد » .

ولقد بلغت الضائقة المالية بالبلاد لدرجة اناحد تجار محافظةسواكن بالسودان تبرع بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه لفك ضائقة الحكومة ، وهذه لم تكن المرة الاولى التي تبرع فيها ذلك التاجر . كما ان مجتمع اهل الذمة كان يبغض بوضوح ظهور علامات افلاس الحكومة المصرية ليس فقط بسبب أن مجرد ظهور علامات ذلك الافلاس كان يحرمهم من تلك الامتيازات التي كانوا يستفيدون منها بعروضهم التي لا تنقطع ولكن لان ذلك سوف يعرض استعادتهم لتلك المكاسب للنقصان .

ولقد حدث في شهر اكتوبر عام ١٨٧٥ ان توقفت الخزينة العثمانية عن دفع ديونها وحتى ربيع عام ١٨٧٦ لم تتخذ القوى الاوربية اي خطوة لارغامها على الدفع ، ولقد اعتمد اسماعيل على ذلك واراد ان يقوم بما قام به السلطان وهو اعلان الافلاس كما حدث في تركيا ولكنه تـردد على الاقدام على مثل ذلك العمل .

وعندما اخذ الافلاس يتضح يوما بعد يوم بدأ الماليون واهل الذمة من دول اوربا يلحون في الدفع ويحرضـون حكوماتهم لكـي تتدخل للضغط على اسماعيل ،والتجأ الدائنون الى المحاكم المختلطة التياصدرت احكاما ألزمت بها الحكومة والدوائر الخديوية بدفع المستحق عليهـا ، وجعلت احكامها مشمولة بالنفاذ المؤقت ، وكان هذا العمل مما لا يتصور اسماعيل حدوثهفي يوم من الايام فأصدر اوامرهالى عمال التنفيذبالامتناع

عن تنفيذ تلك الاحكام امتناعا تاما ، ونشب نزاع عنيف بين هيئة القضاء المختلط والحكومة ، وتدخل قناصل الدول بمصر في النزاع تدخلا سياسيا وانذروا الحكومة بالويل اذا استمرت متمادية في عنادها واصرارها عليه . وفي ذلك يقول اللورد كرومر :

« اعتقد البارون دي ميشيل ـ ممثل فرنسا السياسي في القاهرة ـ مصلحة حاملي السندات بحرارة وأدار اذنا صماء الى كل البراهين القائمة على احتياجات الخديوي الضرورية وشقاء الامة المصرية . وكانت النتيجة ان الحكومة الفرنسية كلفت سفيرها في لندن فأخبر لورد سالسبوري ـ الذي خلف لورد دربي في وزارة الخارجية ـ انها تعتقد ان الخديوي يستطيع دفع القسط المستحق في مايو عام ١٨٧٨ لو اراد » .

وبناء على ذلك ارسلت الحكومة الفرنسية تعليماتها الى قنصلها في مصر بالاتفاق مع القنصل البريطاني في مصر للعمل المشترك لتلك الازمة وايجاد الطريقة التي يمكن بها سداد تلك الديون . وتكون في البلاد حزب قومي هدفه التخلص من الاجنبي البغيض ، وهكذا تطور النفوذ الدولي في مصر وكان التدخل الغير رسمي في شئون البلاد لاسباب مالية . فهذا مستر جوشن وسير ريفرزولسن ومستر كيف من انجلترا وكذلك جوبير وفيبيه من فرنسا وسنيور سيولوجي من ايطاليا ، كل هؤلاء اتوا بغرض انقاذ مصر من الافلاس ، وكانوا يمثلون مصالح الدائنين في اوربا ولو انهم كانوا يمثلون قوميات مختلفة ، وهكذا كان تورط اسماعيل في الديون من اهم اسباب تغلغل النفوذ الاوربي في مصر .

تغلغل النفوذ الاوربي بصورة فعلية باشراف الدول الاوربية على مالية البلاد :

كان نتيجة تورط اسماعيل في الديون وثقته المتناهية في الاجانب ،

هو تدخل هؤلاء الاجانب في شئون البلاد بصفة رسمية وذلك بالاشراف على موارد الدولة ومصروفاتها ، مما ادى الى القضاء على سلطة اسماعيل وعزله في النهاية ، وقد اتخذ ذلك التدخل اشكالا متعددة ولكنها متحدة الهدف وهو فرض السيطرة الاوربية على مصر ، وذلك باستغلال موقف الخديوي الحرج من الناحية المالية ، ولكي يمكن ادراك موقف الدول الاوربية من اسماعيل ومصر يجب ان تتعرف على الخطوات التي أدت الى ذلك التدخل الفعلي في النهاية .

١ ـ بعثة كيف (ديسمبر سنة ١٨٧٥) :

بدأ ذلك التدخل الاوربي بصفة فعلية عندما طلب اسماعيل من قنصل انجلترا في القاهرة ـ موظف انجليزي له دراية بالنظم المتبعة في مالية انجلترا ليعاون ناظر المالية المصرية في تنظيم مالية البلاد . وما لبث ان عدل الخديوي هذا الطلب وذلك بجعلهما اثنين بدلا من واحد مهمتهما الاشراف على الايرادات والمصروفات وخاضعين لارشاد ناظر المالية في مصر وأمره . وبدلا من ارسال هذين الموظفين ـ حسب طلب الخديوي ـ ارسلت انجلترا بعثة مكونة من خمسة من كبار موظفي حكومتها يرأسهم المستر كيف ـ رئيس الصيارفة ـ وذلك لكي : « تنظر هي والخديوي فيما يسأله من النصح في الشؤون المالية) .

وبالرغم من أن الخديوي لم يسأل نصحا وانما سأل موظفين للحكومة يكونان طوع ارشاد ناظر المالية وأمره ، فان انجلترا حولت طلب الخديوي الى طلب النصح ، وعلى ذلك رأت ارسال بعثة مالية خاصة ، وكان ذلك بعد شراء انجلترا لاسهم مصر في شركة قناة السويس بيومين اثنين ، ولم يكن شراء الاسهم الا عملا سياسيا ، عززته بارسال تلك البعثة وذلك لتنفيذ سياستها في امتلاك مصر .

وكان التجاء الخديوي اسماعيل الى انجلترا بغرض مقاومة النفوذ

الفرنسي ، وهذه سياسة لجأ اليها لحماية نفسه ، وذلك لالغاء الفحص التام للحالة المالية للبلاد ، ولكنه بعمله هذا قد فتح الباب المتدخل الاجنبي والذي لم يتمكن من اغلاقه بعد ذلك • لقد اذن اسماعيل للمستر كيف بالتنقيب في ادارة مصر وماليتها على امل أن تقريره سيظل سرا مكتوبا بين الخديوي والحكومة البريطانية في سبيل تقديم المساعدة المالية للحكومة المصرية • ولكن ما لبث رئيس وزراء انجلترا يهدد بنشر ذلك التقرير ، ووافق اسماعيل على نشر تقرير (كيف) وكان ذلك ضربة قاضية وجهت اليه مما دعى اسماعيل الى ان يقول : (لقد احتفروا لي القبر) واعترف مستر كيف نفسه بأن بعثته (قد اقفلت باب السوق الماليه في وجه الخديوي بدلا من أن تساعده على الاقتراض) •

ولقد كان هذا التقرير بناءا على ما اولى به الخديوي وموظفوه للبعثة بكل امانة ، تلك الامانة التي أدت الى خلعه في النهاية ، لقد اعلن مستر (كيف) في تقريره أن تحرج مركز مصر المالي كان تتيجة الانفاق عن سعة والاسراف الزائد عن الحد والرغبة في تقليد حضارة الغرب والاخلال بالموارد المصرية تنيجة للامتيازات الممنوحة للمغامرين الذين كان معظمهم من الاجانب ، وختم ذلك التقرير بقوله أنه يمكن ان تستقيم امور مصر المالية اذا تدخلت بعض القوى الاجنبية ، وفي ذلك اشارة الى هدف انجلترا من ارسال تلك البعثة الى مصر ، والتي كانت بداية للتدخل الاوربي الفعلي في البلاد ولم تكن لمساعدة اسماعيل المالية كما كان يهدف هو الى ذلك ، فتلك البعثة لم تكتف بالاشارة الى سوء الحالة المالية المصرية ، بل اشترطت لاصلاح مالية مصر اخضاعها للمشورة الاوربية وذلك بأن تنشيء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برئاسة شخص ذي ثقة ، على ان يكون ذلك الشخص انجليزيا بقدر الامكان ، كما اشترطت تلك البعثة ان يحترم الخديوي قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضا الا بموافقتها • وهكذا مهدت تلك البعثة الطريق المتدخل الفعلي في شؤون مصر •

٢ ـ صندوق الدين والمراقبة الثنائية :

وفي ابريل سنة ١٨٧٦ اعلن الخديوي اسماعيل توقفه عن دفع اقساط الديون ،ولو انه لم يعلن ذلك صراحة ، اذ اجل الدفع عن موعد الاستحقاق ثلاثة اشهر ولكن كان ذلك من قبيل المحافظة على الظواهر فقط ، وكان الغرض هو التأجيل الى ما شاء الله . وبذلك تعرض اسماعيل لحملة شديدة من الطعن وذلك من الماليين والمرابين الاجانب • وفي مايو سنة ١٨٧٦ اصدر اسماعيل مرسوما بانشاء صندوق الدين استجابة لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين ويوضع في ذلك الصندوق المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له ايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط وعوائد الدخولية في القاهرة والاسكندرية وايرادات جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش وايراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وايراد المصلح (الملح) ومصايد المطرية (دقهلية) ورسوم الكباري وعوائد الملاحة في النيل وايراد كوبري قصر النيل وايراد اطيان الدائرة السنية • أي أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزينة المصرية •

وبذلك كان صندوق الدين أول هيئة أوربية رسمية انشئت لفرض التدخل الاجنبي في شئون مصر والسيطرة الاوربية عليها ، فقد تولى ادارته مندوبون اجانب انتدبتهم الدول الدائنة وعينهم الخديوي ، وكان على الموظفين المختصين تحصيل الايرادات السابق ذكرها وعليهم ان يوردوا ما يحصلونه الى صندوق الدين لا الى وزارة المالية • وهكذا قيد صندوق الدين سلطة الحكومة المصرية واطلق العنان لبسط نفوذ الدول الاوربية في البلاد ، تلك الدول التي استغلت الموقف واخذت في الضغط على الاهالي بشتى الوسائل لتحصيل الاموال المطلوبة ، وامتنعت الحكومة الانجليزية عن تعيين مندوب لها في صندوق الدين على حين رحبت فرنسا باختيار مندوب عنها وكذلك النمسا وايطاليا وكانت انجلترا تهدف في

الواقع الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلي في ادارةالحكومة المصرية . وبعد الاتفاق مع فرنسا جاء مندوبي الدولتين الى مصر .

٣ ـ المراقبة الثنائية :

بدأت في اكتوبر سنة ١٨٧٦ بحضور جوشن ـ وهو ممثل انجلترا ـ وجوبير ممثل فرنسا ، وطلبا الى اسماعيل قبول التعديلات التي اتفقا عليها واهمها فرض الرقابة الاوربية على المالية المصرية ، وادى ذلك بالطبع الى حركة استياء شديدة في البلاد .

وكانت مهمة (جوشن وجوبير) مراعاة مصالح الدائنين الاجانب في مصر وتدبير المال اللازم لسداد الديون ، وكان كل منهما يختلف عن الآخر اختلافا كليا ، وكان بينهما تناقض ظاهر ، ففي الوقت الذي كان يتصف فيه (جوشن) بالدقة في الامور المالية نظرا لعلاقته بالبيت المالي الكبير الذي اسسه ابوه في انجلترا ، كان (جوبير) مثالا للشخصية المرحة ، فهو لا يتحرى الدقة كثيرا في الامور وكان معرضا للاضطرابات الدائمة في جميع الامور .

وعلى ذلك استعان (جوشن وجوبير) بعدد من الموظفين الغربيين كان لهم سلطات واسعة لم يسبق لغربيين قبلهم تقلدها بمصر ، وكانت اخلاقهم سيئة فأثاروا سخط المصريين العام واحتقارهم ، فمثلا عملوا على ارهاق الفلاح المصري لكي يتمكنوا من جمع المبالغ اللازمة لسداد استحقاقات الفوائد المطلوبة لاولئك المرابين ، ونظرا لان الحكومةالمصرية رأت ان معظم ايرادات البلاد كانت تحول الى صندوق الدين ، وانها كانت تدفع فوائد اسهم شركة قناة السويس للحكومة البريطانية .وكذلك الجزية السنوية للباب العالي ، وانه ليس لديها المبالغ اللازمة للصرف على شئون الدولة ، لجأت إلى عدم صرف مرتبات الموظفين ، ومن ناحية اخرى اخذت في الضغط على الموظفين حتى يوردوا اليها الايرادات بدلا من

دفعها لصندوق الدين ، وفي ذلك مخالفة لما جاء بمرسوم انشاء صندوق الدين والمراقبة الثنائية مما ادى الى حدوث الاضطرابات • وهكذا ضيق الموظفون الاجانب الخناق على الحكومة واصبحت لا تجد ما تصرف منه على مرافق البلاد ، في الوقت الذي كان يبذل فيه هؤلاء الموظفين قصارى جهدهم لجمع الاموال اللازمة لسداد الديون •

٤ – لجنة التحقيق العليا (يناير سنة ١٨٧٨) :

اتهم (جوشن وجوبير) الخديوي اسماعيل بانه يقيم العقبات والعراقيل في سبيل انتظام شئون الحكومة المالية واتفقا مع اعضاءصندوق الدين على المطالبة بتأليف لجنة (تحقيق اوربية) لفحص شئون الحكومة المالية ، وفي ذلك اعتداء على كرامة الحكومة وتدخل فعلي في شئون البلاد ، وبالرغم من ذلك فقد استسلم اسماعيل للامر وسمح بتأليف لجنة اوربية عرفت (بلجنة التحقيق العليا) ومهمتها تحقيق العجز في ابواب الايرادات واسبابه وأوجه النقص في القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب •

وأذن للجنة بالاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزومه لجمع البيانات التي تطلبها ، وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ خول اسماعيل تلك اللجنة الاشراف على حالة الحكومة المالية بجميع عناصرها[١] ، اي لم يقتصر عملها على تحقيق الايرادات فقط بـه شمل اختصاصها المصروفات ايضا وذلك بناء على طلب الدول الاوربية •

وكانت تلك اللجنة برئاسة (فرديناند دلبس) وعضوية مصطفى رياض و (ريفرزولسن) واللورد (كرومر) والمسيو (بارافللي) و (دي بلنيير) واخذوا اقوال النظار (الوزراء ورؤساء المصالح والدواوين كما اطلعوا على دفاتر الحكومة •

وفي ١٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ رفعت اللجنة تقريرها الى الخديوي ،

وذكرت اللجنة في ذلك التقرير ــ الذي وضع خطوطه الرئيسية (ريفرز ولسن) ــ تخبط الحكومة ووجوب ايجاد ضمانات جديدة والعمل على الحد من سلطة الخديوي ، كما اتهم اسماعيل بعجز في الميزانية قدره ٢٥٠ مليون فرنك . وفي مقابل ذلك طالبت اللجنة اسماعيل بتسليم ممتلكاته للدولة ضمانا لسداد العجز ، وعلى ذلك تنازل اسماعيل عن اطيانه المعروفه بأطيان الدائرة السنيةوالدائرة الخاصة وكذلك تنازلأفراد عائلته عن جزء من املاكهم .

٥ ــ اشتراك الوزراء الاجانب في الوزارة المصرية لأول مرة :

وهكذا اخذ النفوذ الاوربي يتغلغل في البلاد ، ولكي تزيد الدول الاوربية من ذلك النفوذ اتفقت انجلترا مع فرنسا على نظام يحل محل الرقابة الثنائية وهو تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار يدخلها وزيران اوربيان ، احدهما انجليزي لوزارة المالية وهو (ريفرز ولسن) والثاني فرنسي لوزارة الاشغال وهو (دي بلنيير) ووافق اسماعيل على تأليف تلك الوزارة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

وهكذا تقاسمت انجلترا وفرنسا النفوذ في مصر ، ثم جاءت ايطاليا والنمسا تطلبان نصيبهما في الغنيمة ، فطلبت الاولى نظارة الحقانيةوالثانية نظارة المعارف ، فعملت انجلترا وفرنسا على استرضائهما وذلك بتعيين ايطالي مراقبا عاما للحسابات ونمسوي مساعدا لناظر المالية .

وهكذا قبضت الدول الاوربية على زمام الحكم في مصر ، واتفق الخديوي اسماعيل والحكومتان الانجليزية والفرنسية على ان تعاد الرقابة الثنائية اذا فصل احد الوزيرين الاجنبيين من منصبه من غير موافقة حكومته .

واخذ نوبار بصفته رئيسا للوزارة الجديد واعتمادا على مبدأ مسئولية الوزارة ــ يعمل على ابعاد الخديوي عن مداولات مجلس

الوزراء ، بحجة ان حضور اسماعيل يعرقل سير تلك المداولات • ووافق على ذلك كل من (ريفرز ولسن ودي بلنيير) • فأقبل الخديوي على وضع العراقيل في طريق الوزارة الجديدة بطريقة خفية ، فأرسل عمالا من قبله الى الاقاليم ليجمعوا — بواسطة المديرين ومأموريهم ونظار الاقسام — كل ما يمكن جمعه من النقود وتحويله الى احد قصوره •

وقد ارتكبت تلك الوزارة افعالا أدت الى اثارة طبقات الشعب ضدها ، من ذلك طرد الموظفين من الاهالي واستبدالهم بغيرهم من الاوربيين وذلك بالرغم من المرتبات الضخمة التي كان يتقاضاها هؤلاء الاجانب •

هكذا تحدى الاوربيون مشاعر الاهالي من المصريين بسيطرتهم على الوزارة الجديدة والمغالاة في بسط نفوذهم في البلاد بشتى الطرق والعمل لمصلحة الدائنين اولا وقبل كل شيء • ويقول اسماعيل في مذكرة ارسلها لابراهام بك في القسطنطينية في مايو سنة ١٨٧٩ :

(لقد اهان الوزيران الاجنبيان الشعب برفضهما التزين بالوشاح الوطني ، فكانا يحضران الى مقري عملهما والى الحفلات الرسمية لابسين القبعة لا الطربوش المصطلح عليه • وقد اعلنا أنهما ناظران فرنسي وانجليزي فهما غير مضطرين الى مراعاة العنصر التركي ، وتبع اثرهما جميع المأمورين الاجانب في دوائرهما) •

وفي ذلك يعترض اسماعيل على سلوك الوزيرين الاجنبيين في الوقت الذي لا يلومن فيه الا نفسه ، لانه هو السبب في تعيين هذين الوزيرين ، وهو الذي وافق عليهما ، ولو أنه سلك مسلكا آخر لما اضطرته الظروف الى الوقوع في مثل تلك الظروف التي أدت الى سيطرة الاوربيين سيطرة تامة على الحكم •

واضطر اسماعيل الى إقالة وزارة نوبار ، وقابلت الدول ذلك العمل

بالاستياء والسخط وزعمت ان الدول نالت حقا مكتسبا بأن يكون لها وزيران يمثلانها في الوزارة المصرية وأجبرت انجلترا وفرنسا اسماعيل على الشروط التالية :

١ ــ لقد تقرر عدم حضور الخديوي جلسات مجلس الوزراء باي حال من الاحوال •

٢ ــ تعيين محمد توفيق (نجل اسماعيل) رئيسا للوزارة الجديدة•

٣ ــ الوزيران الاوربيان في الوزارة لهما حق معارضة كل مايرونه غير مناسب •

وتشكلت الوزارة الجديدة في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٩ ، وفي ٧ ابريل من نفس العام قدم محمد توفيق استقالته وذلك لان الوزيرين الاجنبيين ــ منذ ان عهدت اليه الرئاسة ــ أهملاه تماما ولم يستشيراه في شيء •

وهكذا تغلغل النفوذ الاوربي الاجنبي في البلاد بشكل ظاهر ،فبدأ بارسال بعثة (كيف) الانجليزية ثم بانشاء صندوق الدين الذي شمل مندوبي الدول الأوربية وتلى ذلك فرض الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا ثم تكوين لجنة تحقيق اوربية عليا تدخلت في شئون البلاد ،وكانت الخاتمة باشتراك الاجانب في الوزارة المصرية وفي ذلك اقصى حدود التدخل الاجنبي (الاوربي) •

خاتمة (خلع اسماعيل) :

على اثر استقالة وزارة محمد توفيق ، أمر اسماعيل بتأليف وزارة برئاسة شريف باشا وليس بها وزراء اجانب مما اثار الدول الاوربية جميعا وأدى الى تكاتفها ضد اسماعيل ، وفي الوقت نفسه سعى الماليون لدى رجال السياسة في اوربا ليحملوهم على التخلص من الخديوي كي يطمئنوا على ديونهم •

ولقد جاءت الضربة من حيث لا يتوقع احد . فالمانيا لم تبد أي اهتمام قبل ذلك بالتدخل في شئون مصر ، وان عدد الرعايا الالمان في مصر كان محدوداً جدا ، وكانت سياستها قبل ذلك عدم الاهتمام بالشئون الخارجية التي لا تؤثر بطريق مباشر في مصالحها .وفجأة اندهش العالم لسعي المانيا الشديد لتدخلها في مصر . وان بعض دائني الحكومة المصرية من رعايا المانيا حصلوا على احكام من المحاكم المختلطة ضد الحكومة ولم تقم بتنفيذها فتدخلت المانيا وأصرت على ضرورة تنفيذ تلك الاحكام ، وأخبر القنصل الالماني بمصر اسماعيل بأن حكومته تعتبر مرسوم ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ غير قائم (وينص على تنظيم مالية مصر طبقا لما يراه الخديوي نفسه) وكان تصريح قنصل المانيا بمثابة البداية .

وتبعت المانيا انجلترا وفرنسا في الدفاع عن حقوق دائنيها والاصرار على ما طالبت به المانيا وهو تنفيذ الاحكام الصادرة عن المحاكم المختلطة ، وعندما رفض اسماعيل طلبت اليه كل من انجلترا وفرنسا التنازل مع ضمان مرتب له وابقاء نظام الوراثة كما هو ، ولكنهما في نفس الوقت هددا بارغامه على التنازل ان هو أبى ، وفي تلك الحالة سيحرم من المرتب وعدم وراثة ابنه محمد توفيق للعرش من بعده .

وفي رسالة شرح فيها اللورد سالسبوري الاسباب التي حملت الحكومة الانجليزية على طلب التنازل من اسماعيل يقول :

(لو ان مصر لا حصة للدول في تاريخها الماضي او لو انها بلاد يمكن الاعراض عنها لكان الاولى بالدول ان تتخلى من الآن وتعدل عن كل تدخل فيما يختص حاكم مصر ورعاياه . ولكن هذا امر مستحيل على انجلترا ان لم يكن سواها ايضا ، لان موقع مصر الجغرافي واعمال حكومة انجلترا الماضية في سبيل المحافظة على كيانها يجعل تركها الآن واهمالها من ضروب المحال) .

ومن تلك الرسالة السابقة تتضح اهداف انجلترا الاستعمارية والتي سعت فيما بعد لتحقيقها ، ولو ان ذلك التحقيق كان علـى حساب مصر ومصالحها .

كذلك طلب كل من قنصل المانيا والنمسا من اسماعيل ايضا التنازل عن العرش مؤيدين بذلك طلب انجلترا وفرنسا ، فأجاب بانه عرض الامر على السلطان وانه ينتظر جوابه . وكان اسماعيل يأمل من الانتظار ان تختلف الدول من طلب خلعه وان تنجح مساعيه الشخصية لدى السلطان. وكانت الحكومتان الانجليزية والفرنسية قبل ذلك قد خاطبتا الباب العالي في أمر خلعه ، وأجابهما السلطان بانه مستعد لابداله بحليم باشا .

ولم تفلح مساعي اسماعيل لدى السلطان ، وفي ٢٦ يونيه سنة١٨٧٩ صدر فرمان بخلع اسماعيل وتعيين محمد توفيق نجله خلفا له وغادر مصر في ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ .

وهكذا ادى تغلغل النفوذ الاجنبـي (الاوربي) الـى الاطاحة بالخديوي اسماعيل حتى تنفرد القوى الاوربية بالعمـل في مصر دون معارضة ، وكان محمد توفيق مجرد اداة في ايدي تلك الدول .

وعندما وجدت الدول الاوربية ان انجلترا تود الانفراد بالنفوذ في مصر ، ارسلت حكومة فرنسا الى توفيق تهدده بصفة رسمية ان (مركزه سيكون في خطر اذا استمر زمنا طويلا في الاعتماد على انجلترا . وان السعي الى عودة اسماعيل الى مصر سيكون مؤيدا من وزارات برلـين وسان بطرسبرج وفينا وباريس وان « موسيو هربرت وبسمارك » يأخذ على نفسه ان يشهر الدوائر السياسية « بلوندن » ما يترتب علـى عودة الخديوي السابق من الفوائد) .

وهكذا تضاربت المصالح الاوربية في مصر واصبحت لا تهتم بمصلحة مصر بقدر تنفيذ اغراضها الاستعمارية ، مما جعلهم يسيطرون على حكام

البلاد وتوجيههم لمصلحتهم الشخصية •

وفي الواقع ، كانت سياسة اسماعيل تعتمد على الحكم الشخصي وكان مستعدا لقبول سيطرة اي قوة اجنبية مقابل مساندته ماليا حتى يمكنه اعادة تنظيم ديونه • اما عن سياسته الداخلية فكان مصمما ان يظل (افندينا) الآمر لكل الرعايا والمالك لارواحهم وممتلكاتهم • وقد ضحى اسماعيل بمصالح الشعب في سبيل مصالحه الشخصية ، وكان يستطيع ضمان استمراره في الحكم لو انه كان يضمن مستقبلا زاهرا لرعاياه ، وهذا ما لم يفكر فيه اسماعيل على الاطلاق • وعلى هذا فلم يكن اسماعيل مؤيدا تأييدا قلبيا من الشعب ، لانهم كانوا يعتقدون ان سياسته هي التي أدت الى التدخل الاجنبي ، وقد حاول ان يستثير اخلاص ضباط الجيش لجانبه ولكنه لم يفلح في ذلك •

لقد اخذ اسماعيل الجانب السطحي من المدنية الاوربية ولم يبذل جهدا في وضع الاسس التي تتطلبها تلك المدنية • كما افرط في عقد القروض التي استخدمت معظمها لاغراض غير نافعة حتى اضاع ما يقرب من نصف بليون من الفرنكات في مدى ستة عشر عاما • وعندما عزله السلطان ـ بناء على رغبة الدول الاوربية ـ ترك مصر في حالة يرثى لها بحيث لم تشبهها أية دولة من الدول في هذا المجال في القرن التاسع عشر من حيث التدهور الاقتصادي •

وهكذا نال اسماعيل العقاب الذي استحقه لان اليه وحده يرجع اللوم في عزله لانه اتبع سياسة غير حكيمة أدت في النهاية الى هلاكه • لقد فتح الباب على مصراعيه للتدخل الاوربي واستعان بالموظفين الاوربيين وأفرط في ذلك حتى اصبحوا يكونون قوة لها مصالحها الشخصية . وعندما وجدوا ان اسماعيل اصبح عائقا في سبيل تنفيذ تلك المصالح اوعزوا الى السلطان بعزله حتى يمكن الانفراد بالسلطة في مصر دون معارضة •

كما ادى تغلغل النفوذ الاوربي في مصر في عصر اسماعيل الى الاضرار بمصلحة الشعب لدرجة كبيرة وذلك ان تلك اللجان المالية الاوربية التي أتت الى مصر بغرض بحث الحالة المالية للبلاد وايجاد الحلول لها ، لم تعمل تلك اللجان بالطبع الا لمصلحة الدائنين الاوربيين والمرابين الذين امتصوا دماء الشعب وأخذ اعضاء تلك اللجان يعملون على الضغط على الفلاحين لجمع الضرائب الباهظة حتى يتمكنوا من جمع المبالغ اللازمة لسداد الدين وفوائدها الباهظة ولم يراعوا في ذلك مصلحة هؤلاء الفلاحين الذين قاسوا الامرين من جراء تلك السياسة التي كان اسماعيل يتبعها . فلولا الديون الهائلة (مائة مليون جنيه مصري) التي اقترضها لما تمكنت الدول الاوربية من التدخل في شئون مصرواستغلالها والاضرار بمصالح الشعب الذي لم يفكر اسماعيل مطلقا في العمل على رفاهيته وانما كان يهدف هو ايضا لمصلحته الشخصية اولا وقبل كل شيء ، من نيل الالقاب (الخديوي) وبناء القصور واقامة الحفلات واغداق الاموال على الاوربيين في مصر وغير ذلك من الامور التي أدت الى تلك الازمة المالية والتي كان بنتيجتها عزله في النهاية .

وكان الخديوي توفيق العوبة في ايدي الانجليز فسرعان ما اتفق معهم على اخماد انتفاضة الزعيم المصري احمد عرابي ، بل انه اقام الاحتفالات يوم هزيمة احمد عرابي في التل الكبير على ايدي الانجليز ، وسلم مصر لقمة سائغة لهم وتمكن الانجليز من الضغط على توفيق وضربوا ميناء الاسكندرية بحجة ان توفيق يقوم بعمل ترميمات في الميناء وكان ذلك بداية لاحتلال دام سبعين عاما (من سنة ١٨٨٢ حتى ١٩٥٢) .

مِن أحداث ثورة المتزمتين PURITANS الانكليزية

للدكتور عبد القادر أحمد اليوسف

حركة اهل المساواة

جذورها التاريخية ومسيرتها

تمتد حركة السواسية Levellers التي شهدتها الفترة الكرومويلية خاصة في مرحلتها الزمنية ١٦٤٦ ــ ١٦٥٨ في الماضي الانكليز الوسيط وفي الفترتين لآل تيودور ١٤٨٥ ــ ١٦٠٣ وآل ستيورات ١٦٠٣ ــ ١٦٤٩. ويبدو انها رواسب تحركات فلاحية لوحظت منذ الدعوة الوكلفية والثورة اللولاردية التي قادها جون بول ١٣٨١[1]. وتعتبر ظاهرة تسوير الاراضي الريفية او تسييجها Enclosure وتحويلها الى مراعي للاغنام وما رافقها من ملابسات كانت وراء التحركات الفلاحية والافكار الفلسفية والاقتصادية والسياسية التي تعاظمت في العهد الكرومويلي . والغاية من تربية الاغنام الاستفادة من اصوافها . اذ ادى الطلب المتزايد على الصوف الانكليزي منذ اوائل القرن الرابع عشر بصورة خاصة الى قيام بعض الاقطاعيين المتبرجزين الى تحويل الاراضي الزراعية العائدة لهم الى مراعي للاغنام . ولم يقتصر الامر على الاملاك الاقطاعية الفردية بل تجاوز الاقطاعيون على المنتجعات العامة العائدة لعموم القرية كالغابات

(1) H. Finer, The Theory and Practice of Modern Government (N. Y., 1954) 75.

والمراعي حيث احاطوها بالاسوار وحولوها الى مراعي لتربية الاغنام لجز اصوافها . واسفرت الظاهرة بشكل متدرج وعلى نطاق زمني واسع عن حرمان اعداد غفيرة من الفلاحين من عملهم ورزقهم اليومي واضطروا للجلاء من قراهم طواعية او قسرا [١] . واخذت ظاهرة النسيج تتناسب طرديا مع ازدياد الطلب الخارجي على الصوف . وليس ادل على اهمية تلك المادة التجارية على الاقتصاد الانكليزي في العقدين الاولين من القرن الرابع عشر هو التنافس بين كل من ادورد الثالث (١٣٢٧ ـ ١٣٧٧) وفليب فالوا (١٣٢٨ ـ ١٣٥٠) الفرنسي للاستحواذ على منطقة فلاندرز . اذ كانت هذه تشكل مراكز الاستثمارات الرئيسة للصوف المستورد من انكلترا . لهذا تعتبر مشكلة فلاندرز من العوامل الاولى في قيام حروب المائة عام (الثانية بين انكلترا وفرنسة [٢] ١٣٣٦ ـ ١٤٥٣) .

حقا لقد اخذت انكلترا تشعر بالازمات الاقتصادية الداخلية المتلاحقة منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر . وكانت مشكلة الارض وراء الثورات الفلاحية المتسربلة في معظم الاحيان بالاسمال الدينية . اذ استهدفت تلك التحركات الفلاحية تحرير طاقات عملهم والسماح لهم بممارسة حرياتهم في البقاء على الارض التي وجدوا آبائهم عليها او الانطلاق منها نحو آفاق رزق جديد . بينما استمر تحكم الاقطاعيين باختلاف مراتبهم بقوة العمل الريفي عن طريقي القوة والتشريع البرلماني منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر حتى نهاية النصف الاول من القرن السابع عشر .

مر التحكم الاقطاعي بطاقات العمل الريفي في الفترة المشار اليها اعلاه بمرحلتين اساسيتين . امتدت الاولى منذ ١٣٥٠ حتى ١٤٨٥ .تميزت

---

(2) W. Lunt History of England (N. Y., 1947) 316.

(3) Carton, A History of Europe 1198-1378 (London, 1960) 273-77.

بقوانين تعسفية شرّعت اثر كوارث الطاعون وما حصده من ارواح ١٣٤٩ واسفرت النتيجة عن نقص هائل في الايدي الريفية العاملة الامر الـذي حتم على السلطات الاقطاعية اصدار قوانين تعسفية [١] حاولت فيها اعاقة المسيرة الفلاحية الانعتاقية من قيود القنانة التي بدأت منذ اواخر القرن الثاني عشر . وتلحظ ظاهرة التشريع التعسفي في قوانين العمل لفتـرة ١٣٥١ ــ ١٣٦٨ والذي اعتمد قسم منها ابقاء القنية الموروثة [٢] منذ ان اصدر وليم الفاتح كتاب الاحصاء العام سنة ١٠٨٦ . وكامن ذلك الثورة اللولاردية سنة ١٣٨١ التي كادت ان تعصف بعرش رشـارد الثاني . اذ زحف الثوار من جهات ايست انكليا الى لندن حيث تمكنوا من اقتحامها بقيادة جون بول ومساعدة عمال لندن . غير ان رشارد تمكن من القضاء على جون بول وقيادته وجيشه بطرق الخيانـة والغدر . ومع ذلـك فلم يقضى على اللولاردية عسكريا الا سنة ١٤١٢ اي عند اخماد الثورة التي قادها السير جون اولد كاسل . اذ اشار الملك هنري الخامس في تصريح له سنة ١٤١٤ . بان اللولارد يهدفون الى القضاء عليه وعلى اخوانه وعلى قسم من رجال الكنيسة . كما هدفوا ايضا الى مصادرة الاملاك الدينية واقتسام الاراضي وتعيين السير جون رئيسا لدولة الصالح العام .

استمرت افكار المساواة اللولاردية تستهوي فكريا العديد منحملة الآراء الاشتراكية الانجيلية الاولى . واشار اليهم الملك هنري السادس (١٤٢٢ ــ ١٤٦١) بقوله : (يعلم الله بأن هؤلاء لا يعبـأون باحكام المعبود ولا عبده . ديدنهم الاغارة على الاغنياء وسلب وزهق ارواحهم وتسويد العامة على الاكابر) . هذا وقد تشددت السلطات في مطـاردة تنظيم اللولارد السري في عهد هنري الثامن (١٥٠٩ ــ ١٥٤٧) اذ كان

---

(4) F. Deits, A Political and Social History of England (N. Y., 1937) 125-27.

(5) T. Langmead English Constitution al History (London, 1911) 240.

لهم تنظيم يشاركه (برابطة الاخوة المسيحية) • شملت عضويتها الفقراء وباعة المفرد والصناع وبعض رجال الدين • وقد اشترط في الترشيح للعضوية ان يكون الشخص مستعدا للمجازفة بحياته[٦] •

اما المرحلة الثانية في تحكم الارستقراطية في العمل الريفي فهي الممتدة اصطلاحا من ١٤٨٥ ـ ١٦٥٠ ، فتميزت بظاهرة على النقيض مما تميزت به المرحلة الاولى • اذ كان تحكم الارستقراطية الزراعية بالعمل الريفي عن طريق اجبار الفلاحين على ترك أراضيهم عنوة وعن طريق التشريعات البرلمانية • وذلك للتهافت على تسوير الاراضي الخاصة والعامة من قبل الاقطاعيين المتبرجزين والمتحالفين مع البورجوازية في المدن • ومما زاد الامر تعقيدا زيادة السكان المضطردة منذ اواخر القرن الخامس عشر • فكانت الالوف من عامة الناس لا عمل لهم ولا رزق سوى التسول والاجرام • والى هذا اشار توماس مور في طوباويته ملقيا اللوم في تدهور الاحوال المعاشية لاهل الريف على عاتق الملاكين الذين حولوا الاراضي الزراعية الى مراعي للاغنام اذ قال : (تحولت الاغنام تلك المخلوقات الوديعة الى حيوانات شرسة مفترسة • لاكت البشر وابتلعتهم ثم استهلكت الحقول وخربت البيوت والمدن • ولم تسلم من بيوت القرى المسيحية سوى بيوت الله التي تحولت بدورها الى زرائب للاغنام •)[٧] • وفي هذا السياق يعلق مؤرخو كتاب (المجتمع الرأسمالي) بالقول : (حاول النبلاء ان يقضوا على اراضي الفلاحين المحروثة • وهذا ما آل في آخر المطاف الى انتزاع اراضي الفلاحين بالجملة •••)[٨] •

---

(6) Ibid, 333-4.

(7) T. More, Utopia, Bearbeitet und sengeleitet von (J. K., rehayn) (Berlin, 1955). 72.

(٨) المجتمع الرأسمالي ، عرض اقتصادي تاريخي جـ ٢ ، جامعة باتريس لومومبا ، ٣٠ •

اصبحت مشكلة البطالة الريفيــة من اخطر المشاكــل الاقتصادية والاجتماعية في انكلترا في الفترة المشار اليها اعلاه • اذ قال عنها كيتل Gettell (حظيت مشكلة التملك الخاص وظاهرة الفقر العــام اهتماما كبيرا في فترة التحولات الاقتصادية من نظام الزراعة القديــم الى نظام الرعي الجديد • ومن نظام النقابات الحرفي الديمقراطي الى نظام النقابات التجاري الارستقراطي[٩] • كما اشار الى ذلك Bindoff بقوله (انكلمة الاغنام اصبحت في اذهــان الناس مرادفة لظاهرة تسبيح الاراضي[١٠]• حاول لملك هنري تيودور السابع معالجتها لاول مرة عن طريق البرلمان سنة ١٤٨٧ وادى تفاقم المشكلة الى عدد من الثورات الفلاحية ١٥٣٦ ـ ١٦٠٧ • ويستمر المؤرخ هذا بتعليقه حول الموضوع (بان ظاهرة التسييج مثلت مشكلة خطيرة في القرن السادس عشر لا بل انها اخطــر المشاكل الوطنية كافة)[١١] •

لقد حاول الفلاحون الانكليز مقاومــة محتكري الاراضــي بثلاث ثورات هامة في القرن السادس عشر • يشار الى الاولى بثــورة (الحج المبارك) وكانت في Lincolnshire والاقسام الشمالية سـنة ١٥٣٦ • ويعتقد البعض بان تلك الثورة من ناحية سياسية عبارة عن احتجاج اهل الشمال على حكم اهل الجنــوب • اذ ان آل تيــودور يمثلون الجنوب الانكليزي • ويعتقد البعض الآخر بان الثورة كانت كرد فعــل لسياسة هنري الثامن الدينية لحله المؤسسات الديرية ومصادرة املاكها وتوزيعها على المقربين والمضاربين • وقد ادت الظاهرةالى مزيد من تسويرالاراضي الزراعية الدينية وتحويلها الى مراعي والــى المزيد مــن الهجرة الفلاحية وحرمان العيش[١٢] • ومهما يكن من امــر فان الملابســات الدينية كما

(9) R. Gettell. History of Political Thought (N. Y., 1929) 132.
(10) S. Bindoff, Tudor England (Middlesex 1951) 22.
(11) Ibid., 22.
(12) Ibid., 112.

اسلفنا كانت وراء التحركات الفلاحيـــة • وان سبب ثورة الحـــج المبارك الاساسي حسب رأينا يكمن في المظالم التاريخية المتلاحقــة على الريف الانكليزي من جراء تعاظم ظاهرة التسييج فيمرحلة بدايــة الاستثمارات الرأسماليـــة الحديثـــة • والى هـــذا يشير مؤلفـــو كتـــاب (المجتمع الرأسمالي)(١٣) •

ولربما كان تطور الرأسمالية في الزراعة الانكليزية اشـــد مما في الصناعة • فقد بدأ هذا التطور في القرية قبل ان يبدأ في الصناعة •وكان في القرية اكثر جذرية وهذا ما أضفى طابعا خاصا علـــى عملية التراكم البدائي للرأســـمـــال في انكلترا واضطلع بدور خاص في تـــوزع القوى الطبقية في البلد •

ان ظاهرة التشرد المتزايدة من جراء البطالة الريفية وتدفق العاطلين الى المدن وخاصة لندن ، وغلاء الاسعار والمضاربات بالاراضي الدينيـــة المصادرة واحتكارها وتحويلها الى مراعي ومآسي ثورة سنة ١٥٣٦ هي امور ادت بالسلطات في عهد ادورد السادس الى الالتفات جديا لمعالجة المشكل عن طريق التشريع الانساني • اذ اصـــدرت سنة ١٥٤٨ قانون الاعانات حيث فرض القانون لاول مرة ضرائب على الاغنام والمنسوجات ثم امرت السلطات بتأليف لجان للتحقيق في الاراضي المسيجة منذ سنة ١٤٨٩ ولتسجيل الاشخاص الذين يمتلكون اكثـــر من ٢٠٠٠ رأس من الغنم • ثم أصدر الوصي سومر سيت عن طريق البرلمان اربعة قوانين للحد من ظاهرة التجاوزات على الاراضي العامـــة(١٤) • ولـــم يكتب « لسياسة الصالح العام » التي اتبعها سومر سيت النجاح • وذلك لان قسما من اعضاء مجلس الوصاية وكبار اعضاء البرلمان هم مـــن الفئات المسهمة في تجارة الاصواف لهذا وضعوا كافة العراقيل التي في طاقاتهم

(١٣) المجتمع الرأسمالي جـ ٢ ، ٣٢

(14) Bindoff, op. cit., 133-5.

لعرقلة القوانين في ذلك الصدد[١٥] .

لقد عيل صبر الفلاحين من جراء عدم تنفيذ القوانين الهادفة اصلاح اوضاعهم . لهذا عم الهياج كافة المناطق الجنوبية الانكليزية سنة ١٥٤٨ . وتبلور الوضع المتأزم في اندلاع ثورتين في آن واحد سنة ١٥٤٩ . يشار الى الثورة الاولى بالثورة الغربية في كل من كورنيول وديفون ويشار الى الثانية بثورة روبرت كيث نسبة الى قائدها . في جهات نور فولك . كانت الواجهات الظاهرية للثورة الغربية واجهات دينية اي احتجاج على كتاب الصلاة الجديد[١٦] . اما بواطنها فهي احتجاج على مآسي ظاهرة التسييج المزمنة وقد اتخذت شكل صراع طبقي قاده صغار القساوسة .

اما ثورة روبرت كيث فهي ثورة فلاحية خالصة في بواطنها وواجهاتها الظاهرية . وكيث هذا ارستقراطي ريفي صغير . اندفع لقيادة الثورة من شعوره الانساني تجاه الفقراء حسب مفهوم المساواة ومفهوم دولة الصالح العام الذي آمن به الانسانيون في القرن السادس عشر .

اندلعت الثورة في جهات سومر سيت سنة ١٥٤٩ منتشرة شرقا واصبحت نور فولك من اهم اوكارها حيث تجمع فيها ستة عشر الف فلاح ملتفة حول راية كيث . وشرعت الجموع الثائرة بتحطيم الاسيجة ونهب البيوت الارستقراطية ، ثم شكلوا محكمة لمقاضاة الارستقراطية الزراعية. وقد ادى التعاون بين الثوار الفلاحين والعمال في جهات نوروج الى تأليف حكومة على اسس المشاعية . وانتخبوا القائد كيث واثنين من رجال الكنيسة رؤساء عليهم . والفوا مجلسا تمثيليا يضم عضوين عن كل وحدة ادارية من وحدات (المائة) واشير الى ذلك بالمجلس

---

(15) Dietz, op. cit., 206-7.

(16) Bindoff., op. cit., 136.

الثوري[17] .

حاول كل من ثوار الجبهة الغربية وروبرت كيث الزحف على لندن من مبنى كورنوول ونوروج . وقد فشل ثوار الجبهة الغربية في زحفهم لمقاومة الارستقراطية في اكستر . وكذلك منيت قوات روبرت كيث بخسائر فادحة . وذلك لما انزلته بهم قوات الحكومة المتألفة من مرتزقة الطليان والالمان من هزائم[18] .

لقد حمل مجلس الوصاية الوصي سيمور سومر سيت مسؤولية الثورتين باعتبارها نتيجة عن نتائج تصرفاته السياسية في كيفية معالجة مشكلة الفقراء . وقد حكم عليه بالاعدام فيما بعد .

ان فشل ثورة كيث واسقاط حكم الوصي سيمور يعني انتصار الرجعية على سياسة دولة الصالح العام التقدمية آنذاك . وهذا ما تمثل في تشريع عدة قوانين جديدة ابطلت مفعول قوانين سيمور السابقة . ثم جعلت مشاريع التسييج معترف بها قانونيا كما نص عليه قانون .

واصبحت المعارضة لظاهرة التسييج بموجب ذلك القانون والتذمر من ارتفاع الاسعار من الامور التي تنطبق عليها عقوبة الخيانة العظمى[19] . ثم أمرت السلطات الرجعية باحياء التقاليد العسكرية الاقطاعية اذ اجازت لهم الاحتفاظ بقوات عسكرية على حساب الدولة تتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ فارس لكل اقطاعي حسب سعة املاكه ومواردها . وذلك كاجراء احترازي لقمع أي تمرد فلاحي .

ولم ييأس الفلاحون المحرومون من فرص العيش في تحقيق اهدافهم عن طريق الثورة في عهد الملكة اليزابت الاولى .

---

(17) Lunt., op. cit., 327.
(18) Bindoff, op. cit., 138.
(19) Ibid., 139.

وهذا ما تشير اليه ثورة سنة ١٥٦٩ في جهات ويسمورلاند وثورة تميرلاند • وبالرغم من انها استغلت دينيا وسياسيا من قبل الارستقراطية المحلية وفليب الثاني الاسباني والبابويـة من اجل اقصاء اليزابت عن العرش واعادة الكاثوليكية الا ان اشتراك الفلاحين الشماليين في الثورة كان يهدف ايجاد الحلول لمشكلتهم الاقتصادية • كما حاولت الملكةمعالجة مشكلة الفقراء عن طريق تشريعاتها التيودورية الابوية بدون طائل(٢٠)• اما في عهد جيمس الاول الستيوارتي فقد عبر الفلاحون عن سخطهم في جهات مدلاند بالتمرد وازاحة الاسيجة من المراعي سنة ١٦٠٧ ميلاديـة محاولين اقتسام الارض بالتساوي وتشير لهم بعض المصـادر الانكليزية بالسواسية ايضا(٢١) •

لقد تبوأت ظاهرة التسييج واستشراء دائها وكيفية معالجة الفقر في الارياف والمدن على حد سواء مكانا مرموقا في عهد الثورة البيورتانيـة وخاصة في فترة الصراع الاخير مع شارل الاول ١٦٢٥ ــ١٦٤٩واعدامه• وهذا ما تمثل فيحركة السواسية الثوريين بفرعيهم السياسيوالاقتصادي• اذ استأنفت حركة السواسية وجودها بين مراتب الجيش الثوري الصغرى وتمثل الحركة صراعا بين مراتب الجيش النموذجي العليا والدنيا او بين كتائب الخيالة وفرق المشاة وذلك لما بين الطرفين من فـوارق طبقية • وتضم كتائب الخيالة ابناء الطبقة الارستقراطية الصغيرة الريفية منهـا والمدنية • بينما تألفت فرق المشاة من صغار الحرفيين واصحاب الـرزق اليومي كالحدادين والقصابين والاسكافيين الذين يقدر عددهم بثلاثـة ارباع الجيش الكرومويلي البالغ عدده ثمانون الف مقاتل • ويشيرالمؤرخ Trevelyan الى التصارع الفكري في الجيش الكلر ومويلي بقوله (٢٢) :

---

(20) J. Neale Queen Elizabeth 1, (Middlesex, 1960) 189-93.

(21) Encyclopaedia of Social Sciences, vol., IX-X, p. 421.

(22) G. Trevelyan, England Under the stuarts (Middlesex, 1968) 268.

تعتبر البداية للديمقراطية الحديثةفي انكلترا فيالتحولات السياسية الخطيرة التي حدثت في فترة ١٦٤٧ ـ ١٦٤٨ • ويعود الفضل في ذلـك الى بضعة مفكرين من بين الجيش الثوري لاصحاب الرؤوس المستديرة عقب الانتصار على الفئة البرلمانية سنة ١٦٤٧ • اذ أصبحت موازينالقوى بيد الجيش الذي عزم على ان يكون قائدا للافكار السياسـية بالاضافة الى مهماته العسكرية واسفرت رغبته في المجال الاخير عن ظهور اتجاهات فكرية وسياسية واجتماعية جريئة سابقة لاوانها زالت سريعا بزوال ذلك الجيش • الا انها بعثت مجددا باشكال اخر بعد قـرن ونصف ليس في انكلترا وانما في فرنسة اثناء ثورتها البورجوازية الكبرى •

دعت مراتب الجيش الصغرى الى تساوي الفرص امام الناس ونبذ الامتيازات الطبقية والغاء مجلس اللوردات • حيث رأوا ذلـك المجلس دعامة المعارضة لطموحاتهم • فكان طبيعيا ان يتساءلوا الم يكن هؤلاء الاسياد غير جنرالات وليم الفاتح وضباطه وفرسانـه ؟ لهذا آلـوا على انفسهم التخلص من ورثاء الفاتح الذين استملكوا البلاد بحد السيف • ذلك السيف الذي نبأ عن اكفهم • لهذا يجب ان يـزول حكـم الملك ولورداته • وان يفسح المجال امام فقراء الناس للاسهام في الحكم • ولم تكن تلك الآراء ملائمة لمناخ كرومويل وقيادته العليا • فقد اصبح يشير الى فريق اهل المساواة في جيشه بالسواسـية Levellers • ولم تكن هذه آنذاك كلمة مشرفة لاحتوائها على شتى ضروب الازدراء • ومع ذلك فان قسما من ذلك الفريق اعتبرها شرفا له •

ذكرنا آنفا بان السواسية ينقسمون الى فئتينمن ناحية ايديولوجية• يشار الى الاولى بأهل المساواة السياسية والى الثانية بأهل المسـاواة الاقتصادية او بأهل المساواة الحقيقية •

حاولت الفئة الاولى حل مشاكـل الشعب الانكليـزي بالطـرق

السياسية • وذلك بفسح المجال امام القطاعات الشعبية للاسهام في الحكم بتوسيع الحقوق الانتخابية لمجلس العموم الى اوسع مدى بحيث تشمل كافة الذكور المؤهلين عقليا وبحكم الولادة وسن الرشد والغاء شروط الثروة المتنقلة والثابتة • والغاء مجلس اللوردات ركيزة الملكية والارستقراطية العليا • وقالوا بعدم وجود الفوارق بين الناس فالكل سواسية حسب منطق القوانين الطبيعية •

لا نعتقد بأن فريق اهل المساواة السياسية من مراتب الجيش الثوري الصغيرة ظهر نتيجة رد فعل لقرار البرلمان سنة ١٦٤٧ في تسريح الجيش ، بل ان القرار كان المناسبة لأن يجهر ذلك الفريق بآرائه• فقد اشار رشارد Overton في منشور له تحت عنوان (سهم ضد الطغاة والطغيان) سنة ١٦٤٦ مخاطبا فيه كروموبل وبطانته بما يأتي[٢٣] :

اخبروا برلمانكم ليعجل على خلاصنا ويمكننا من حرياتنا الطبيعية المنسجمة مع ما يذهب اليه العقل والعدالة •ومهما يقال عن آبائنا وجهادهم وانهم اخضعوا بالقوة لسطوة الملوك ، فأننا ابناء هذا اليوم ، علينا ان نتحرر من كافة انواع الظلم والمضايقات والاحكام الارتجالية • وقال ايضا ان كل فرد منا منحته الطبيعة حق التملك ولم يكن ذلك الحق مقتصرا على فرد دون آخر •

كما وقد سبق وان نوه عن ذلك المعنى جون للبورن الزعيم السواسي سنة ١٦٤٦ أيضا •

حقا لقد رفض الجيش النموذجي بكافة مراتبه قرار تسريحه •واشار الى ان الجيش له رسالة اصلاحية لم يؤدها بعد • وكان استياء المراتب العسكرية الصغرى من ذلك القرار عنيفا • ويذكر الاستاذ ساباين عن

---

(23) G., Sabine, A History of Political Theory (N. Y., 1964) **484.**

مدى تأثيرات قرار التسريح بين صفوف الجيش بقوله[٢٤] :

لقد انبعثت في ذلك الجيش مجالس محلية اشبه بالسوفيتات التي انبثقت في روسيا أثناء ثورتها الاشتراكية سنة ١٩١٧ • راحت تناقش مستقبل السياسة البريطانية والضمانات الكافية لسد الطريق امام عودة الحكم السابق ومعالجة العلل الاجتماعية والاقتصادية • وانتخبت مراتب الجيش الصغرى ممثلين عنها لكي يفاوضوا المجلس العسكري الذي ساد فيه كل من كرومويل وصهره •

تشير المناقشات الحادة التي جرت بين ممثلي مراتب الجيش الصغرى والقيادة الرئيسة الى مدى التناقضات في المصالح الطبقية بين فرسان كرومويل ومراتب المشاة للجيش النموذجي التي تمثل الطبقة المتوسطة الدنيا والعمال • ولعل ما دار بين الجانبين حول اتفاقية الشعب الاولى التي رسمها اهل المساواة السياسية والمقترحات الرئيسة Heads of proposale التي رسمها الجانب الكرومويلي خير ما يوضح لنا التناقضات الاديولوجية الطبقية بين الجماعتين المتفاوضتين •

اما بالنسبة (لاتفاقية الشعب الاولى) فقد وضعها Wildman وايلد مان في تشرين اول سنة ١٦٤٧ بالتعاون مع بعض الضباط من ذوي المراتب الصغيرة وبمشورة بعض العناصر الديمقراطية خارج الجيش • وقد اعتبر الاستاذ جورج آدمز بان تلك الاتفاقية كانت لها تأثيرات عميقة فيما بعد في صياغة الدستور الامريكي[٢٥] • وعلى كل فقد دعت الاتفاقية بشكل رئيسي الى السيادة الشعبية اذ جاء فيها : لم يعد الحكم للبرلمان او الجيش وانما لعامة الناس ونصت على حق التصويت العام المطلق المذكور ،

(24) Ibid., 480.

(25) G. Adams, Constitutional History of England (N. Y., 1934) 323.

وتساوي الدوائر الانتخابية ودعوة البرلمان كل سنتين • وان الغاية هي منع تكرار الحرب والعودة الى العبودية • ان سلطـة البرلمان هي دون سلطة ناخبيه • ولا يجوز للبرلمان الجور على حقوق المواطنة • تسـاوي الافراد امام القانون ولهم حرياتهم الدينية • ثم ادرجت في اتفاقية الشعب الاولى مواد اخرى على اثر ظهور كراس تحت عنوان (قضيـة الجيش) احتوى على مطاليب جديدة منها[٢٦] : الغاء الاحتكارات وتشريع دستور جديد واعادة الارض التي سلبت من اهل الريف عن طريق التسييج الـى اصحابها • وبالرغم من ان البرلمان قد رفض اتفاقية الشعب جملةوتفصيلا باعتبارها مطاليب تخريبية الا ان المناقشات التي دارت حولها في مجلس القيادة العسكري تلقي الاضواء الكافية علـى التناقضـات الاديولوجية الطبقية بين كرومويل وبطانته من جهة واهل المساواة من جهة اخرى • اذ اصر جانب اهل المساواة على الغاء شروط الثروة في الانتخابات للبرلمان ، على اعتبار ان الله وهب الناس عموما مؤهلات كافية • وان الفقير على قدم المساواة مع الغني في حقوق المواطنة • ثم تساءل احد اعضاء الوفد المفاوض من اهل المساواة الم يكن من الظلم والعدوان ان يكون الفقراء الذين خاضوا المعارك طوال الوقت من أجل لا شيء ؟

ان الجدل الذي دار بين كل من كرومويل وصهره Ireton من جهة وممثلي اهل المساواة جون وايلد مان والكولونيل رينبورو Rainborow تشير الى ان الجانب الاول اعتقد آنذاك بان الثورة حققت ما تصبو اليه• اذ اعتقد كرومويل وصهره بان المعركة كانت ضد الاستبدادية والتحقيق الحرية الدينية وليست من اجل معالجة مشكلة الفقراء سياسيا واقتصاديا كما يذهب اليه ويلدمان وزملاؤه • وقـد اعترض Ireton بشـدة على تساوي الحقوق الانتخابية مشترطا ان يكون حق الانتخاب مقتصرا على

(26) G., Gooch, Political Thought in England, (London, 1960) 61.

الذين يماكون حدا ادنى من التملك يدر عليهم ٤٠ شلنا سنويا على الاقل. ولا يجوز اعطاء ذلك الحق للخدم والعمال حتى لو كانت ايرادات كل فرد منهم مساوية للمقدار السابق . واشار الى ان الملاكين هم وحدهم اصحاب المصلحة في البلاد والرأي السديد . ان اعطاء حق التصويت لكل من هب ودب يؤدي حسب رأيه الى تسلط العامة وازالة الملكية الفردية وانتشار الفوضى . ثم قال أمن العدالة في شيء تجريد الارستقراطية من ممتلكاتها وتوزيعها على الغير ؟ أين اذن تكمن ارادة الله ؟ هل هي مع هؤلاء ام اولئك ! ؟ وأجاب أهل المساواة ان ارادة الله لم تكن مع اولئك او هؤلاء بل انها مع الناس جميعا . ولا يمكن الكشف عن الارادة الربانية ولا الحق ولا الخير الا في مناقشات مجلس عموم الشعب [٢٧] .

ان المشكلة الاساس في المفاوضات المشار اليها أعلاه كائنة في الاختلاف حول مفهوم القانون الطبيعي . حيث فهمه كروميل وصهره بأنه عبارة عن الوضع المتوارث في النواحي السياسية والاقتصادية ، والتوارث هذا يمثل ارادة الله والقانون الطبيعي . بينما قال أهل المساواة بأن ذلك التوارث بعيد كل البعد عما يأمر به الله وتشير اليه قوانينه الطبيعية . لذا ازدرى كروميل بالقانون الطبيعي وقال متهكما لو سلمنا جدلا باننا وضعنا دستورا بموجب تلك القوانين فما هي عدد تلك القوانين الطبيعية؟ انها بلا شك لا تقع تحت حصر ! وماذا ستكون النتيجة ؟ أهي غير التخطيط العشوائي والفوضى ! ؟ اما Ireton فقد فهم القوانين الطبيعية وما يترتب عليها من حقوق للافراد بانها مقتصرة على حرية التنزه وشم الهواء والمحافظة على أمن الطرقات العامة . ثم خاطب الوفد المفاوض (اقول لكم باسم هذا القانون الطبيعي بأنه ليس لكم حق في هذا الوطن اكثر مما لدى ... وان الذي لا يخلد الى قوانين هذه البلاد فليغادرها .

(27) Finer, op. cit., 59.

اما المقترحات الرئيسة Heads of the Proposals التي اعدها كرومويل وصهره فهي تمثل محاولة من جانب القيادة العسكرية العليا للتوصل الى حل وسط بينهم وبين الملك شارل الاول وكبديل عن اتفاقية الشعب الاولى وعن محاولة التسوية البرلمانية المعروفة (بمقترحات نيو كاسل) • وقد تضمنت المقترحات الرئيسة تحقيق مصالح الطبقة الارستقراطية الصغيرة في الجيش الكرومويلي • وقد انتقد اهل المساواة مسلك كرومويل هذا [٢٨] بمرارة •حيث اعتقدوا بأن الملكية هي آفة الشرور واتهموا كرومويل بأنه « المركوب الملكي » وكادت ان تؤدي المفاوضات بين كرومويل والملك الى حرب اهلية بين صفوف الجيش لولا ان شارل الاول رفض المقترحات الرئيسة • الامر الذي حدا بكرومويل ان يقطع المفاوضات في تشرين ثاني ١٦٤٧ وان يصرح بان الملك يجب ان يعدم والتاج على رأسه • وقد وحدت تلك المناسبة صفوف الجيش النموذجي مؤقتا حيث خاض المعركة الفاصلة والاخيرة مع شارل الاول سنة ١٦٤٨ •

وما ان تحقق الانتصار العسكري النهائي على الجانب الملكي حتى عاد ليصفي الحساب مع أهل المساواة داخل الجيش • اذ اوعز الى القائد Fairfax القيام بالمهمة وخاصة ضد فرقة وليم تومبسون في جهات باتبوري • وتمكن فير فاكس بتطويق تومبسون ورفاقه ليلا في جهات اكسفور[٢٩] سنة ١٦٤٨ وبذلك انتهى الدور العسكري لاهل المساواة حيث انتقلت من المعسكرات الى القطاعات المدنية •

لقد استمر اهل المساواة السياسية بعد اقصائهم من الجيش يزاولون فعالياتهم تحت قيادة جون للبورن • اذ ظهرت اهم نشرة معدلة لاتفاقية

---

(28) Gooch, op. cit.
(29) M. Ashley, England in the 17 Century (1603-1714), (Middlesex, 1954) 90.

الشعب يمكن ان يشار لها باتفاقية الشعب الثانية وذلك اثر اعدام الملك في كانون الثاني سنة ١٦٤٩ • وجاء في الاتفاقية المعدلة[٣٠] :

انا لم نكن كما ينعتنا البعض باناس متوحشين لا تعقل عندنا او اننا مخلوقات خطرة ••• ان هدفنا ان نحظي بحكم يرضاه المحكومون• لهذا يجب آن يتكون البرلمان من ٤٠٠ عضوا • يختارون بموجب حقوق الافراد الطبيعية لكل من بلغ الواحد والعشرين من عمره •••• ولا يجوز للموظف ان يشغل عضوية المجلس ولا يحق للعضو ان يكـون نائبا في برلمانيين متتاليين • لا يحق للبرلمان التشريع في القضايـا الدينية ومنح الاحتكارات او فرض الضرائب على المواد المعيشية • ويجب المساواة امام القانون وتحديد العقوبات والغاء السجن لمن يعجز عن تسديـد ديونه • تحسم الخلافات خلال سـتة اشهر من عرضها علـى المحاكم • ثم الغاء العشور • وان ينتخب السكان المحليون في مناطقهم موظفيهم • ولا يجوز ان يحتل الموظف الوظيفة لاكثر من سنة واحدة • ولا يجوز للبرلمان تغيير اتفاقية الشعب ، وان اية محاولة من هذا النوع تشكل جريمة يعاقب عليها بالاعـدام •

يعتبر جون للبورن Lilburne المحرك الرئيسي لاهـل المساواة السياسية ، فمن هو هذا الرجل يا ترى ؟[٣١] انه من القـادة الشعبيين الثوريين في الفترة الكرومويلية ، حيث استحق لقب (المولود الحر)• ينتمي جون الى الطبقة المتوسطة ماديا حيث اشتغل بالمضاربات الماليـة وصناعة الصابون في بداية امره • وينتمي فكريا الى الطبقة الكادحة •أما من ناحية دينية فهو (استقلالي) الانتماء ولو انه اتهم بأنه متأثـر بآراء فرقة توماس مونز ١٤٨٩ ـ ١٥٢٥ ، ذات الاتجاهات الشيوعية والمسماة

(30) Gooch, op. cit., 63.
(31) J. Frank, The Levellers, A History of the Writings of three Seventeenth Ceutury, Social Demacrats, J. Lilburne R. Overton, Wabuyan (Cambridge, 1955).

فرقة اعادة التصعيد Ansbaptism (٣٢) • لذا كان شديد المقت للكنيسة الانكليكانية • اذ دأب على التهكم عليها • لهذا امرت السلطات الملكية الاستبدادية في عهد شارل الاول بمحاكمته سنة ١٦٣٨ واداتته بعقوبة الجلد والتشهير العلني والسجن لثلاث سنوات • ثم انخرط في الجيش الثوري عند اندلاع الحرب الاهلية ورقي الى رتبة كولونيل الا انه وقع في الاسر الملكي وتخلص من العقاب بانكاره المقاومة • لقد نقم للبورن على كل من الملك والبرلمان والجيش واخذ ينادي بحكم الشعب •توضحت الخطوط العريضة لعقيدته الديمقراطية في نشريات له دبجها اثناء اعتقاله Newqate سنة ١٦٤٥ • اذ اشار الى ان البرلمان هو سفير الشعب ولا يحق للسفير ان يتطاول على سلطات سيده •

استفزت دعوة للبورن للمساواة السياسية كروموبل حيث امر بمحاكمته مرتين • كانت الاولى سنة ١٦٤٩ • وذلك عند اصداره كراسا حال اعدام شارل الاول بعنوان (الاغلال الجديدة لانكلترا) • طالب فيه عدم تنازل البرلمان عن صلاحياته الى « مجلس الدولة » الذي اختاره كروموبل وحاشيته اعتباطا • والقى مسؤولية سوء التصرفات الدستورية على عاتق كروموبل • لهذا القي القبض على للبورن وسيق الى سجن القلعة • وقد استشاط كروموبل غضبا من آراء للبورن ومؤيديه • ففي احدى اجتماعات مجلس الدولة ضرب كروموبل المنضدة بعصبية مخاطبا اعضاء مجلس الدولة بقوله (ليس امامكم غير طريق واحد ازاء هؤلاء اما ان تحطموهم او يحطموكم)(٣٣) •

حقا لقد قلق كل من كروموبل وصهره Ireton بصورة خاصة من دعوة للبورن واتباعه من اهل المساواة • اذ اعتقد الاول بانه لو استجاب

(32) C. Hayes, A Palitieal and Cultural History of Europe, vol., 1 (N. Y., 1944) 178.

(33) Ashley, op. cit., 89-90.

الى دعوة السواسية في تكوين برلمان ديمقراطـي منتخب حسب القانون الطبيعي باقتراع الذكور الراشدين العام فسوف تسفر النتيجة عن تسلط الفقراء على الاغنياء ومصادرة الاملاك •

لذا اعتبر كروموبل آراء للبورن اشد خطرا عليه من مخاطر الملكية المقبورة ، خاصة ان آراءه في المساواة السياسية سرت بين صغار الجند والمدنيين الفقراء في جهات لندن سريان النار في الهشيم • وليس ادل على ذلك من المظاهرة الصاخبة الكبرى التي انطلقت لتشييع جنازة احد اتباع للبورن الذي حكمت عليه السلطات بالاعدام في نيسان سـنة ١٦٤٩ • حيث سارت الجماهير الغفيرة في لندن وراء النعش وهي تحمل « الشريط الاخضر » شعار اهل المساواة[٣٤] •

استدعي للبورن للمحاكمة بعد شهرين من اعدام الملك • وامتنع عن رفع قبعته خلافا للمألوف امام هيئة القضاة • وذلك لعدم اعترافه بأرجحية اي منهم عليه لانه كان عسكريا • اما التهمة الموجهة اليـه فهي الخيانة العظمى لاتهامه حكومة كروموبل بالاغتصاب والطغيان• مثل جو المحاكمة الاولى لجون للبورن ظاهرة فريدةفي بابها في تاريخ المحاكمات الانكليزية• اذ هبت الجماهير المحتشدة في خارج المحكمة وداخلها للبورن بهتافات مدوية متواصلة استمرت نصف ساعة • وقـد اضطر القضاة الى اخلاء سبيله ازاء ذلك الضغط الجماهيري[٣٥] •

استمر للبورن ملهما روحيا لاهل المسـاواة السياسيين المدنيين بعد قضاء كروموبل عسكريا على زعمائهم في جيشه • وعليه فقد شرع(برلمان الحثالة Rump parliement) قانونا سنة ١٦٥٢ أمر بموجبه نفي للبورن من لندن • الا أنه عاد اليها بعد ان أمرت السلطات الكروموبلية باقصاء

(34) Trevelyan, op. cit., 279.

(35) Ashley, op. cit., 280.

ذلك البرلمان • ومع ذلك فقد القي القبض على للبورن حيث سيق للمحاكمة ثانية سنة ١٦٥٣ •

ان السبب المباشر الذي حوكم للبورن من اجله للمرة الثانية هو تصريحه بأن قرار نفيه السابق يشكل خرقا للدستور • ومثلت محاكمته هذه حدثا دراماتيكيا فاق ما حدث في المحاكمة الاولى • اذ قدرت الجماهير المحتشدة في قاعة المحكمة وخارجها بستة آلاف شخص مؤيد الى للبورن • وكان شعار الجماهير (من اجل ماذا سيعدم الرجل الامين للبورن ؟ سوف يعلم ستة آلاف انسان السبب بعد حين(٣٦) •) • هذا وقد تطوع عشرون شخصا في تقديم كفالة عنه بمقدار الفي جنيه • وقد اضطر القضاة في هذه المرة ايضا الى الافراج عنه • ومن الطريف حقا ان يشترك حرس المحكمة وثلة من الجند هناك في مشاركة الجماهير افراحها بقرار الافراج عن للبورن • وقد صرح احد القضاة حينذاك بانه لو قررت المحكمة اعدام للبورن لكان ذلك اليوم اشد الايام سفكا للدماء في انكلترا • اما كرومويل فقد تألم كثيرا من قرار المحكمة حيث اعتبر الافراج عن للبورن هزيمة شخصية بالنسبة له أشد وانكى فيما لو كان قد هزم عسكريا في موقعة من المواقع(٣٧) • ومع ذلك فقد امرت السلطات بنفيه الى جزيرة جرزي Jersey ثم سمح له بالعودة سنة ١٦٥٧ وتوفي قبل بضعة ايام من وفاة كرومويل في ايلول سنة ١٦٥٨ •

اما فرقة اهل المساواة الاخرى التي افزعت كرومويل والارستقراطية الزراعية الحديثة والقديمة هي فرقة أهل المساواة الاقتصادية او كما يشار لهم بالسواسية الحقيقيين او الكرابين(٣٨) • والحق يقال بأن آراء هؤلاء

---

(36) Trevelyan, op. cit., 281.
(37) Gooch, op. cit., 64.

(٣٨) فضلت استعمال كلمة الكرابين وهم الذين يحرثون الارض على كلمة الحفارين Diggers خشية من الالتباس في ذهن القارىء العراقي بصورة خاصة .

لم تكن اقتصادية خالصة وانما هي اقتصادية ـ سياسية بالرغم من ان هدفها الرئيسي الغاء الملكيات الزراعية الفردية واعادة الاراضي المسيجة الى اصحابها من عامة القرويين • حيث ظهر كراس صغير في بداية كانون اول سنة ١٦٤٨ في انكلترا بعنوان (النور يسطع في بكنهامشير Buckinghamshire) بحثت فيه أسباب العبودية في العالم • ومما جاء فيه[٣٩] :

كان الناس احرارا متساويين ••• وليس هناك من تسلط فرد على آخر • الا ان انصياع الانسان لانانيته صيرت منه نهابا مسيجيا للارض • لذا اصبحت الاراضي حكرا على افراد قلة وجعلت الاكثرية عبيدا • ونصب هؤلاء اللصوص عليهم ملكا بصفته اكثرهم استقتالا في السطو على املاك الغير وذلك ليكون حاميا لتصرفاتهم المسفة • يجب ان يكون لكل فرد حصة عادلة لكيلا يضطر الى التسول والسرقة ••• اننا نحكم في الوقت الحاضر من قبل النبلاء والقساوسة • كان نبلاؤنا وفرسانهم في الاصل من خدم وليم الفاتح وحاشيته ، سادوا على حساب خراب الدار • ان قطع دابر هؤلاء يعيد للناس حقوقهم • تحرروا من القساوسة التافهين المخربين الذين يعظونكم تحت شعار القانون الآلهي مصدر السلطات • اياكم والانخداع بآرائهم •

ان الملهم الروحي لاهل المساواة الاقتصادية هو جيرارد ونستانلي Gerard winstanley اذ اصدر في كانون ثاني سنة ١٦٤٩ كراسا بعنوان (قانون العدالة) • هاجم فيه المضاربات في الاراضي واحتكاراتها مناديا بانصاف الفقراء ومهاجما الارستقراطية الزراعية • ومما جاء فيه[٤٠] :

ان بداية المصالح الاثرة هي في ظواهر بيع الارض وشرائها • حينما يقول المرء ان هذا لي ، فكأن الارض قد خصصت سلفا للاقلية لا للاغلبية •

(39) Gooch, op. cit., 93.

(40) Trevelyan, op. cit., 270.

الرجال والنساء كافة في انكلترا هم ابناء هذه الارض • ليس هناك من افضلية لاحد على سواه في الانتفاع من الارض •وان بقي الارستقراطيون الزراعيون يتشبثون بالمبدأ الآثر القائل بأن هذا لي وذاك لكـم فدعوهم يفلحون الارض بايديهم مباشرة • واسمحوا لابناء الشعب الذين يقولون بأن الارض لنا جميعا يتعهدون الاراضي المخصصة للمنافع العامة •

يعتبر قسم من الانكليز ونستانلي بأنه رائد الشيوعية الانكليزيـة آنذاك قولا وفعلا • فبعد أربعة اشهر تقريبا من أصدار المنشور السابق بادر مع قسم من اتباعه الى الاستيلاء على جزء من الاراضـي العامة في جهات (سنت جورج هل) في نيسان سنة ١٦٤٩ وراحو يكربون الارض ويبذرونها للانتفاع جماعية من خيراتها • ولذا أطلقت عليهم كلمة الكرايين التي فضلناها تسمية على الحفارين • وبالرغم من ضيق رقعة تلك التجربـة مكانا وزمانا فانهـا روقبت بدقـة من قبـل السلطات التي اعتبرتهـا في بداية الامر غير جديرة بالاهتمام الا انهـا عدلت عن ذلـك فقررت محقها بعد بضعة اشهر من قيامها • واليك احد التقارير السرية المرفوعة الى مجلس الدولـة عن بدايـة تلك التجربة الجريئـة في ١٦ نيسان ١٦٤٩[٤١] :

في اليوم الاحد من الاسبوع الماضي (لشهر نيسان) جاء الضابط المسرح المدعو ايفرارد معأربعة اشخاص الى جهة سنت جـورج هل في سورى Surrey • وشرعوا في حرث الارض وبذرها ببذور الجزروالبقول •••• ثم عادوا يوم الثلاثاء بعدد اكبر • ثم قدموا الى ذات المكان في يوم الجمعة وعددهم يتراوح بين العشرين والثلاثين • اشتغلوا جميعا في المزرعة طيلة النهار ثم هـددوا برفع كافة الأسيجة من حول الحقـول وزرعها • ثم صرحوا بان عددهم سوف يكون اربعة آلاف أو خمسة آلاف

(41) Gooch., op. cit., 94.

شخص خلال عشرة ايام .

اضطرت السلطات الكروموبلية ازاء احتجاجات الارستقراطية الزراعية ورجال الدين للتدخل عن طريق القضاء في أول الامر . اذ امرت بتقديم كل من ونستانلي ورفيقه ايفرارد ليحاكما امام مجلس الدولة للمرة لاولى بعد بضعة اسابيع من قيام تجربتهما . وقد اقتنع القضاة في تلك المحاكمة على ان الاخبار التي وصلتهم هي مبالغ فيها وان عدد الكرايين في جهات سنت جورج هل لا يزيد على العشرين لذا تقرر الافراج عنهما. والمهم في تلك المحاكمة دفاع ايفرارد حيث اشار فيه(٤٢) :

خسر الناس كافة حرياتهم بمجيء وليم الفاتح . ولاح الآن يوم الخلاص . وسوف يعيد الله للناس حريتهم للانتفاع بما تجود به الارض. وقد خطر له خاطر ان يقوم بحراثة الارض وزرعها لجني محاصيلها انه لم يستهدف التدخل في الاملاك الشخصية او رفع الحواجز عنها . وانما هدف الى الانتفاع مما تبقى من الاراضي التي كانت مشاعة لعموم افراد القرية واعادة الحياة اليها .

واصل أهل المساواة الاقتصادية دعايتهم النشطة بعيد الافراج عن ونستانلي وزميله . حيث صدر لهم كراس بعنوان (الطليعة الحقيقية لاهل المساواة) أو (انفتاح المجتمع لابناء الناس) . وقد استفز هذا المنشور اصحاب المصالح المنتفعة واعتبروا محتوياته عبارة عن فلسفة مخربة .توجه المنشور بنداء الى السلطات الانكليزية والعالم ، شارحين فيه الاسباب التي حدت بابناء الطبقة الفقيرة للقيام بحراثة الارض وزرعها في سنت جورج ، اذ جاء فيه :

جعل الله الارض مصدر رزق الانسان والحيوان . غير ان خرق الانسان وبلادته اوجدا العبودية وصيرا منه مستعبدا لبني جنسه اكثر من

---

(42) Sabine, The works of winstanley (N. Y. 1941) 260.

استعباده للحيوان . لقد دأب الحكام يضاربون بالارض ويسيجونها لهذا قامت الحروب والعداوات . سوف تزول الحروب والحزازات بعودة الارض لعموم الناس . وهذا ما يشير اليه كل من العقل والانجيل .... نقمت عليهم السلطات لمناداتهم بالحرية العامة التي هي ليست حقا مكتسبا بالولادة فقط وانما اشتروها باموالهم ودمائهم في الحرب الاهلية . ان ملاك الأرض كافة يعيشون عيشة منافية لأحدى الوصايا العشر الا وهي وصية (لاتسرق) . لقد غرروا بالانسان الساذج الفقير ليكدح لهم بأجر زهيد ، فاجتنوا الثروات على حساب ذلك الكدح . وقد ساعد كدح الفقير على ظهور الطغاة وسيادتهم على الفقراء .... اعلموا بان يوم الحساب لآت لا ريب فيه حيث تؤخذون على حين غرة . سوف تكون الارض للشعب الذي جرعتموه الهوان ازمانا . وزعوا الارض ان كنتم تطلبون الصفح والرأفة .

قام الجنرال فير فاكس Fairfax في نهاية شهر مايس سنة ١٦٤٩ بزيارة المزرعة في سنت جورج هل ليطلع بنفسه على ما يدور هناك . وشاهد اثني عشر رجلا يتهدون الارض بصبر وثبات . ودار بين الجنرال وبعض هؤلاء نقاش طريف حينما سألهم عما يفعلون ؟ فاجاب احدهم بانهم يزرعون ارض التاج الموات التي قد استحوذ عليها وليم الفاتح . وهي الآن الى الشعب .

لم يستسغ الجنرال ولا السلطات الحاكمة ذلك الجواب حيث سيق ونستانلي وزميلين له الى المحاكم في كنكستون Kingston بتهمة التجاوز على املاك الغير . وحكم عليهم بالغرامة . ولم تعد السلطات الكرومويلية لتتسامح بشكل اوسع مع تجربة الكرابين ، اذ امرت بشن هجوم على المزرعة النموذجية في خريف سنة ١٦٤٩ خربت المنشآت وفرقت العمال[٤٤] وقد وضع ونستانلي بهذه المناسبة ترتيلا يحث فيه زراع سنت هل على

(44) Gooch, op. cit., 97.

الصمود والمقاومة بمطلع (انهضوا الآن انهضوا) واليك نصه [٤٥] :

انهضوا الآن انهضوا
السادة يحيقون بكم انهم يطوقونكم
فانهضوا الآن انهضوا
جاءوا بحكمتهم العميقة لخدعنا في حق ارضنا
فأنهضوا الآن انهضوا
هاهم القساوسة جاءوا لاخباركم بسوء ما تفعلون
لماذا ؟ لشروعنا باسترداد حريتنا
فأنهضوا الآن انهضوا
فالمجـد هنـا .

اصدر ونستانلي بيانا أثر هدم المستوطنة بعنوان (هدية رأس السنة) قال فيه : ان هناك شرائح ملكية لم تزل متسلطة في الجهاز الحكومي... ان العشور قد وهبها وليم الفاتح الى القساوسة ليلهجوا باسمه وحكمه... فان كانت لدينا حكومة جديدة فلتجد قوانين جديدة . انكلترا عبارة عن سجن اسواره وقضبانه . احابيل القانون . وسجانوه هم رجال القانون الذين يجبرون الفقير على الاشتغال طوال النهار باربعة بنسات . ويلجم قساوسة العشور افواه الفقراء بعظةالزهد والراحة الروحانية ... فانكنتم تعيرونني « بالسواسي»فأقول لكم بان المسيح هو على رأس السواسية[٤٦] .

اشار ونستانلي الى كروموبل بانه لا يمكن للثورةالسياسية الاحتفاظ بمكاسبها مالم تستند على اسس ثورية اجتماعية . وقال (ان الكل يعلم لا يمكن ان تكون انكلترا دولة حرة ما لم يكن للفقراء فيها حريةالانتفاع من الارض) . كما حذر ونستانلي الحكومة الكروموبلية ايضا من احتمال حدوث ردة ملكية ضد الثورة . حيث اشار الى ان الارستقراطيةالريفيـة

---

(45) Trevelyan, op. cit., 271.
(46) Gooch., op. cit., 98.

بما فيهم الفرسان ما زالوا في تسلطهم على الضياع وقد يأتي ذلك اليوم الذي يكشر فيه هؤلاء عن انيابهم ، وعبر عن ذلك في احدى قصائده حيث انشد :

فيك يعلو القانون ويسطع يا انكلترا
ان التاج لك ان تشبثت بالقانون
قولا وفعلا
وان تهاونت وهناك وريث حي
فسوف يسلب تاجك ويسلب
المزيد من الاراضي .

بالرغم من خيبة امل ونستانلي في تجربته العملية فقد استمر نشطا في نشر اديولوجيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقد ضمن آراءه في كراسين صدرا له في سنتي ١٦٥٢ و ١٦٥٨ . كان الاول بعنوان (قانون الحرية) اشار فيه :

لم يكن الفضل في الانتصار على الملك يعود الى كروموبل وحده وانما للشعب ايضا . لا تجدي التغييرات الظاهرية نفعا . اذ لم تزل العشور تستهلك رزق الفقراء . واحتيال الفقهاء على القانون ما زال كما كان . ولم يزل اللوردات يصولون ويجولون في الارياف ... (٤٧)

ان الفقر وراء كل انواع العبودية . يفضل الانسان الموت على فقدانه الغذاء . ان الحرية الحقيقية هي في تساوي الفرص امام الناس في استثمار الارض . هناك اتجاهان متناقضان في الطبيعة البشرية ، اولهما حب البقاء العام الذي هو اساس الاسرة والامن والاستقامة ، وثانيهما حب البقاء الفردي الذي هو اساس الطمع والظلم . ينسجم الاتجاه الاول مع الصالح العام حيث ينصف فيه الضعيف من القوى ويتماشى الاتجاه الثاني مع الملكية وقوانين وليم الفاتح . الحكومة الملكية حكومة لص كبير سطا على

(47) I bid., 99.

املاك اخيه الصغير بأساليب الغش في البيع والشراء . أنـه من الضروري الغاء البيع والشراء كخطوة اساسية للاصلاح . ولا يمكن تجميع الثـروة بالطرق الحلال (٤٨) .

يجب ان يستند الانتاج على الجهدين الفردي والتعاوني .وعلى المنتج ان يجلب انتاجه الى مستودع عام يأخـذ منه بمقدار حاجته ... تتـاح للجميع فرص التعليم الثقافي والمهني . يجب ان يكون العمل المنتج اجباريا على كل شخص دون الاربعين ويمكنـه الاستمرار في عمله بعد ذلـك العمر ان رغب . يعهد الى من بلغ من عمره الستين الاشراف على رعاية المجتمع ... على رجال الدين تثقيف الناس ايام العطل في اهم الاحـداث التي جرت خلال الاسبوع وقراءة نصوص من الدستور والقاء محاضرات عامة تهم الجميع . يتم الزواج عن طريق السلطات المدنية ويجوز الطـلاق اذا رغب فيه الزوجان ..... يعاقب بالاعدام كل من يتعاطى البيع والشراء. ان الذي يقول بان الارض ملك شخص ما يجب وسمه بميسم العار (٤٩).

اما كراسه الثاني المعنون بـ (فردوس القديسيين) فقد ذكر فيه : ان الشيطان يعشعش في قلب الانسان الذي يعتقد بانه لا يمكن العيش بدون الدراهم والامتلاك . ان الصوت الطاهر النقي يصرخ بين الجوانح بان على الفردان ينبذ تلك السفاسف .

اما عن حياة ونستانلي الاولى فلا يعرف عنها الشيء الكثـير سوى اشاراته الخاصـة المقتضبة . اذ يقول عن نفسه بانـه كان يمتلك حريته الشخصية الا انه خسر حيثيته وتجارته بوقوعه فريسة للغشاشين المخادعين في المعاملات اللصوصية في البيع والشراء . لهذا اضطر ان يعيش حيـاة قروية وحتى هناك فقد قصمت ظهره الضرائب واستضافه الجند الاجبارية.

(48) Sabine, Political Theory, 493.

(49) Gooch, op. cit., 100.

وقد انتهى به المطاف بالانضمام الى صفوف فرقة الكويكر الدينية. ويشار الى ونستانلي بانه الانكليزي الوحيد آنذاك الذي اهتم برفاه الجماهير المادي والاجتماعي والسياسي . اعتقد بامكانية تغيير الطبيعة فيما اذا امكن تغيير الظروف المحيطية والاستعاضة بعلم الطبيعة عن خزعبلات الاوهام .

يتبادر الى الذهن سؤال قد أراه جديرا بالاهتمام بصدد فريقي اهل المساواة السياسية والاقتصادية الا وهو هل هناك سمات عامة بينهما ؟ يكمن التشابه بين الفريقين في منطلقهما من فكرة حقوق الانسان الطبيعية المستندة على الفلسفة العقلية ذات الاطار المسيحي وفي الاهتمام بشؤون الفقراء وكذلك في مهاجمة الاستغلال باي شكل من اشكاله وخاصة الاقتصادي منه . فقد شن جون للبورن حملة شعواء على (المغامرين التجار) . كما هاجم ولويان weluyn وهو ايضا من اهل المساواة السياسية ، (شركة الليفانت) الاحتكارية . [50] ويمكن القول ايضا بان الاتجاهات السياسية والاقتصادية متداخلة ومتشابكة بالنسبة للجانبين . الا اننا يمكننا القول بان اتجاهات اهل المساواة السياسية هي سياسية اولا واقتصادية ثانيا بينما يؤكد اهل المساواة الاقتصادية على الجانب الاقتصادي اولا وعلى الجانب السياسي ثانيا . كما فضل الجانبان العلمانية في الحكم والسعي لتحقيق دولة الصالح العام على اسس شعبية .

لم تكن حركة اهل المساواة في العهد الكرومويلي حسب رأينا سوى مظهر من مظاهر التناقض الطبقي بين الاغنياء والفقراء بالرغم من ملابساتها الدينية . وقد استوعب ذلك بعض المفكرين السياسيين الآخرين آنذاك وخاصة جيمس هونكتون Harrington [51] فبالرغم من ارستقراطيته فقد حاول ان يعالج المشكلة باسلوب طوباوي (كومونويلث اوفاوقيانا)

---

(50) Bncyclopaedia of Social Siences, IX-X, p. 421.
(51) J. Harrington, The Commonwealth of Oceans (Edn. 1887).

سنة ١٦٥٦ ، ويقصد « باوقيانا » بريطانيا • سار في بحثه على الاسس العقلانية متلمسا ان الاصلاح السياسي لا يتم بمعزل عن الاصلاح الاقتصادي باعادة توزيع الثروة • وكان في ذهن هرنكتون ظاهـرة التسبيح وما ادت اليه من مآسي • لهذا فان نقطة الانطلاق بالنسبة له (توازن الثروة) حيث اشار الى ان استقرار المجتمع يعتمد على كل من توزيع الثروة والعـلاقات القائمة بينها وبين السلطة الحاكمة • وعليه يجب ان يكون قانون الاراضي هو اساس الدولة ذاكرا عدة مقترحات من اجل تلك الغاية • حيث قال بانه لا يسمح للفرد بان يتملك ارضا تدر عليه اكثر من الفي جنيه سنويا في انكلترا وثلثمائة جنيه في سكوتلاند • ولا يجوز للفرد ان يشتري ارضـا اضافية ان كانت له املاك تدر عليه في حدود المبلغين السالفين • ويجب توزيع الارض بالتساوي بين الورثة ••• وان الحروب الاهلية كانت نتيجة للصراع بين الملاكين القدامى والجدد • ثم دعا هرنكتون الى جمهوريـة ارستقراطية مستندة على اسس اشتراكية في تقسيم الارض • ثم اعتقد بان سبب الثورات الرئيس هو عدم العدالة في توزيع الثروة • وان الحكـم الشعبي لا يستقيم مع حكم النبلاء • فان سمح للنبلاء بالتملك الواسـع فسيكون الحكم بيدهم ويضطر العامة للاستكانة لهم معاشيا وسياسيا • كما أن السماح للعامة بالتملك يؤدي الى تحديد سلطة الارستقراطيـة حيث يمهد السبيل لحكم دولة الصالح العام •

لقد كره هرنكتون المساواة الاقتصادية ولم يؤمن بامكانيـة تعايش الارستقراطية وعامة الشعب فيمـا لو وزعت الارض بالتساوي • اذ ان التساوي حسب رأيه يؤدي الى عدم استقرار الحكم ، وسوف يحتم الوضع آنذاك على كل من الارستقراطية والعامة الاشتباك في صراع لا ينتهي الا بابتلاع احدهما للآخـر • ثم راح هرنكتون في طوباويته يضع دستـورا سياسيا واقتصاديا للحكم الامثل كما يتصوره على أسس ارستقراطية • اذ قسم الناس الى احرار وخدم • فالاحرار هم المواطنون • ثم قسم الرجال

الى عسكريين في الخدمة الفعلية والى احتياط حسب فارق العمر • ثم وضع تقسيمات ادارية مستندة الى توازن الثروة بتفاصيل لا تخلو من طرافة •

وعلى العموم فان الآراء السياسية والاقتصادية التي برزت في الفترة الكرومويلية في انكلترا ابتداءا باهل المساواة وانتهاءا بهرنكتون كانت لها تأثيرات بعيدة المدى في تاريخ انكلترا في النصف الاول من القرن التاسع عشر • وذلك حينما زادت الثورة الصناعية في مصائب الفقراء والسعي لايجاد الحلول لها • ويعتقد البعض ان حركة روبرت اون التعاونية وظهور الاتجاهات الليبرالية الراديكالية وكذلك الآراء الاشتراكية هي غرسات من بذور الفكر السياسي والاقتصادي للعهد الثوري الكرومويلي •



مذهب الجبرتي في كتابة التاريخ من خلال كتابه
(عجائب الآثار في التراجم والأخبار)

أعد البحث
الدكتور محمد حسين الزبيدي
جامعة بغداد - كلية الآداب

كانت الحياة السياسية في مصر في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي قلقة لا تستقر على حال من الاحوال وكانت مصر يومها مسرحا لاحداث جسام تعاقبت عليها دول وقامت فيها ثورات وفتن وعمت فوضى الجند في البلاد بسبب عجز الدولة عن دفع مرتباته واستفحل النزاع بين الفرق التركية والعائلات المملوكة وراحت اسر عريقة ضحية للغدر والخيانة بينما حكمت اسر اخرى دخيلة على البلاد لا تمت إليها بصلة جاءت عن طريق الدس والخديعة واضطرمت نار الفتنة حول استلام السلطة واقامت حروبا اهلية طاحنة لا نهاية لها .

وصارت قصور الامراء والحكام في مصر يومها مكانا تحاك فيه المكائد والدسائس والمؤامرات وفي هذا الجو المضطرب عاش الجبرتي وعاصر اهم الاحداث والتقلبات ، فعاصر عصورا ثلاثة ــ اواخر العصر المملوكي وشاهد عيان للاحتلال الفرنسي والسنين الاولى بحكم محمد علي .

كان الجبرتي على جانب كبير من العلم والمعرفة فضلا عن طموحه الشديد فاستطاع بذلك ان يدخل معترك الحياة السياسية فاختاره نابليون عندما استولى على مصر عضوا في ديوان الاعيان وهو الديوان الذي حاول

ان يحكم به مصر . ولما خرج نابليون من مصر تولى وظيفة افتاء الحنفية وموقتا للصلاة ورؤية هلال رمضان وهلال شوال في بلاط محمد علي .

وبهذا استطاع ان يقف عن كثب على سير امور البلاد وفي نفس الوقت هيأ له قربه من السلاطين والامراء ان ينـال خطوة كبيرة ومقاما رفيعـا واصاب نفوذا عظيما غير ان ذلك سرعان ما زال بغضب محمد علي عليه .

لقد ناصر الجبرتي الفرنسيين ثم محمد علي من بعدهم ولكنه رغم كل ذلك كان في الحالتين حر الرأي نافذه وقد نقد في هدوء الاعوام السبعـة عشر الاولى من حكم محمد نقدا لاذعا .

عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي .

ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ م) وهو من اسرة من العلمـاء اخرجت كثيرا من شيوخ رواق الجبرتية بالازهر ولعل اعظم رجال هـذه الاسرة والده الشيخ حسن وقد اشتهر بأنه اخر من درس علم الهيئـة بجامع الازهر .

وقد سار عبد الرحمن على سنة اسرته وما لبث ان تخرج في الازهـر بعد ان درس علوم الدين والفقه واللغة وبرع ايضا في الحساب والهندسة وعلم الفلك . فصار من كبار علماء الازهر بعقد حلقات التدريس لطـلابه ومريديـه .

وقد قتل له ولد فبكاه مر البكاء حتى ذهب بصره ولم يطل عمـره حتى قتل غيبة في شارع شبرا اثناء عودته الى القاهرة في الليلة السابعـة والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ ٢٢ يونيه ١٨٢٢ م خنقا وألقى تبعـة قتله على محمد علي لانه غرف بعض رأي الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجع والاخبار) وكان يقوم بتأليفه اذ ذاك وقد الف عدة كتب هي:

١ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

٢ ــ عجائب الآثار في التراجم والاخبار (٤) اجزاء .

٣ ـ مختصر تذكرة الشيخ داود الانطاكي .
٤ ـ نقد كتاب الف ليلة وليلة .

ان الذي يعيننا من تاريخ الجبرتي الجزء الاول منه موضوع بحثنا وهو مخطوط يوجد في مكتبة متحف الآثار العراقي تحت رقم ١٦٣٦ ويحتو على ٤٠٥ صفحة من القطع الكبيرة وتحتوي كل صفحة على ٢٥ سطرا .

وقد كتب في الورقة الاولى من المخطوط عدة سطور بخط مغاير للاصل . وقيل ان هذه الاسطر كتبها الاب انستاس الكرملي يقول فيها :

(هذا المخطوط بخط مؤلفه الجبرتي وهو يختلف كثيرا عن المطبوع لانه لما طبع حذف منه اشياء كثيرة ما كانت توافق آراء اهل الحل والربط فتصرفوا فيه . اما هذا المخطوط فهو المعول عليه اذ هو الاصل) .

وجاء في الورقة الاخيرة من المخطوط عدة اسطر كتبت بخط مغاير للاصل ايضا . (هذا آخر ما يسره الله لي من تدوينه في هذه السنة بنا الله جل جلاله حسن الخاتمة والحمد لله تبارك وتعالى في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا محمد من هو للانبياء ختام وعلى آله واصحابه الائمة الاعلام . قاله بضمه وحرره بقلمه الفقير الحقير راجي رحمة ربه الغني عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له وعامله بلطفه) ولتاريخ الجبرتي قيمة اجتماعية واقتصادية كبيرة فضلا عن قيمته السياسية فهو صورة مفصلة لحياة الشعب المصري في ذاك الوقت .

وترجع قدرته في رسم هذا المجتمع الى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الاحاطة بما يحدث حوله . وبيئته العلمية التي نشأ فيها والظروف التي احاطت به وهي بلا شك ظروف مناسبة اتاحت له فرصة الانصراف والتفرغ لطلب العلم والمعرفة . فدرس علوما متعددة معتقدا بأن المؤرخ لا بد

له ان يكون ملما بعلوم كثيرة فاذا كان لا يعرف الا التاريخ (رواية الاخبار) كان قاصا فقط •

دون الجبرتي في تاريخه هذا حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه واوائل القرن الثالث عشر على شكل مسودات جمع فيها بعض الوقائع والامور التي شاهدها بصورة اجمالية واخرى محققة تفصيلية ومعظمها محن ادركها وامور شاهدها وكتب ضمن ذلك سوابق سمعها وتلقاها من افواه المشايخ وجاء فيه بعض تراجم الاعيان والمشهورين من العلماء والمفسرين ولمح من اخبارهم واحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفاتهم •

ثم جمع شملها وقيد شواردها ـ كما ذكر ـ في اوراق متسعة النظام مرتبة على السنين ليسهل على الطالب المراجعة والاستفادة وكان يهدف من هذه الاخبار والاحداث الى العظة والعبرة في بعض الاحيان ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ويستفيد من يريد المنفعة ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فلا ييأس اذا اصابته مصيبة ويتعظ بحوادث الدهر •

واهذا سماه (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) •

ولما عزم الجبرتي على جمع ما كان قد سوده اراد وصله بشيء قبله فلم يجد بعد البحث الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الاجناد ركيكة التركيب مختلفة الترتيب والتهذيب وقد اعتراها النقص في مواضيع في سرد بعض الوقائع • فقال فيه (وكنت قد ظفرت بتاريخ من ذلك الفرع لكنه على نسق بالجملة مطبوع لشخص يقال له احمد جلبي بن عبد الغني مبتدأ فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية وينتهي سنة ١١٥٠ هـ) •

ولكن هذا الكتاب استعاره بعض الاصحاب (وزلت به القدم ووقع

في صندوق العدم) فرجع يجمع التاريخ ويدونه مرة اخرى معتمدا على ذكريات الشيوخ والمسنين والوثائق الرسمية وصكوك دفاتر المكتبة والمباشرين والكتابات التي على شواهد القبور ، مدونا بذلك اخبار اول القرن الثاني عشر الى عام ١١٧٠ هـ .

أما ما بعد عام ١١٧٠ هـ فأنه اعتمد في تدوينها على مشاهداته الخاصة حتى تم تأليف الكتاب وقد ذكر المؤلف حوادث مرت به وهو حدث صغير ، ويفصل الكلام عن الحوادث ابتداء من عام ١١٩ هـ ولذلك كان لكتابه شأن الجريدة المعاصرة لهذه الفترة لانه دون فيه كل الحوادث التي شاهدها . ومما لا شك فيه بأن نزاهة احكام الجبرتي أمر اكيد فهو من بيت علم يعرف قدر الرواية المحكمة اذ رواها شاهد عيان .

على ان الجبرتي لا ينكر في مواضع من كتابه أنه استفاد ممن جاءوا قبله وتناولوا كتابة التاريخ بالدراسة والبحث كالاسحاقي والدمرداشي وابن اياس وابن زينل وابن خلدون وان لم يشير اليه بصراحة الا ان ذلك واضح كل الوضوح في ثنايا كتابه وبذلك اتيحت له فرصة كبيرة لمراجعة الكثير من الكتب التي تعني موضوعه ، كمرج الزهور وبدائع الزهور وتاريخ القرماني ومقدمة ابن خلدون وغيرها . فكل هذه كتب اسهمت في تغذية افكاره وتوجيهها .

من ذلك يتضح ان الجبرتي اعتمد في جمع تاريخه على مصدرين اساسيين اولهما كتب التاريخ استعان بها في كتابه التمهيد والمقدمة ولا سيما فيما يتعلق باستعمال العرب للتاريخ الهجري وفي تقسيم المجتمع الى طبقات وغير ذلك . وثانيهما شهود عاصروا الاحداث وهؤلاء ينقسمون الى : اما شهود سماع سمعوا الاحداث ورووها او شهود شاهدوا الاحداث او ساهموا فيها فوصفوها وصفا دقيقا . واهم من هذا

كله ما كتبه الجبرتي للاحداث المعاصرة التي شاهدهـا او ساهم فيهـا وهذا اوثق قسم من الكتاب .

ومن الاشخاص الذين بذلوا المساعدة للجبرتي في كتابة تاريخه هذا وامدوه بمادة غزيرة صديقه اسماعيل الخشاب وكان هذا الصديق مـن عدول المحكمة وقد حوت هذه المحكمة صكوكا كثيرة ووثائق رسميـة ودفاتر الكتبة والمباشرين فطلب منه ان يدون له اسماء الناس واعمارهـم ولم يكتفي الجبرتي بذلك بل طاف في المقابر لقـراءة شواهـد القبور والاتصال بأهل الموتى وذويهم لاستقاء المعلومات الصحيحـة والاستفادة من ثأرهم ومخلفاتهم ان وجدت .

وقد تجنب الجبرتي اخطاء المؤرخين الذين سبقوه وهي الثقةالمطلقة برواة الاخبار فأخذ يمحص كل خبر ويدققه بعناية جيدة واعتقد انالخبر نفسه يحتمل الصدق او الكذب وبذلك اعطانا صورة امينة وموضوعية في تحريه للحقائق التاريخية التي لا يمكن للانسان الوقوف عليها كاملة فقال : (فلا اكتب حادثة حتى اتحقق من صحتها بالتواتـر والاشتهار وغالبها من الامور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف وربما أخرت قيد الحادثة حتى اثبتها ويحدث غيرها وانساها فأكتب في طيارة (فيشة) حتى اقيدها في محلها عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلـك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيـق العطف) .

وقد كتب الجبرتي للحقيقة والتاريخ دون ابتغاء مرضاة الآخريـن وابتعد كل الابتعاد عن الهوى او المصلحة ولم يتأثر كما تأثر غيره مـن المؤرخين في سردحوادث التاريخ بمذهبهالديني او السياسياو الاجتماعي وانما كان نزيها في كل ما كتب ، ولم يتكسب بكتابة التاريخ فيكتب على النحو الذي يرضى الرؤساء والعظماء او الاغنياء تقربا منهم او تزلفا اليهم او منافضا . ومن هنا طغى على كتاباته الجانب الاخلاقي .

وقد اكد هذه الحقيقة في نهاية مقدمة المقدمة حيث قال (ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير أو امير او ان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق لميل نفساني او غرض جسماني) •

وقد تميز الجبرتي فضلا عن ذلك بواقعيته وحبه للحقيقة وتحريه للواقع فلم يجعل من تاريخه كتابا • لعلية القوم او خاصتهم كما لم يوقفه على الامور الجليلة الهامة او الاقتصاد على سرد اسماء الملوك والامراء او وصف المعارك والميل للمبالغة في اعمال الملوك والامراء واعداد الجيوش وغيرها وانما جعله سفرا عاما يؤرخ فيه كل حدث ضخم كبير او تافه صغير ولم يترك شيئا وصل له مهما كان قيمته العلمية الا ودونه في هذا السفر •

فأن هذا القول الذي أورده الجبرتي يدل دلالة واضحة على انه يعلم علم اليقين قيمة هذا البحث وهو يعتز بجهده الذي عالج فيه التاريخ غاية الاعتزاز ، ولا يمنعه التواضع من التنويه عنه بأسلوب المؤرخ القدير الذي يعرف كيف يصل الى اهدافه وغاياته بسهولة ويسر •

وتأتي اهمية هذا الكتاب من ان صاحبه عاصر تلك الحوادث وشاهد اكثرها شهادة عين ودونها بلحظاتها ، ولا سيما اخبار الحملة الفرنسية واوائل ولاية محمد علي •

وبعد هذا الكتاب من حيث الحوادث التاريخية المصرية كالتكملة لتاريخ ابن اياس •

طبع تاريخ الجبرتي سنة ١٢٩٧ هـ وبعدها في اربع مجلدات ويقال انه طبع طبعة قبل هذه السنة صادرتها الحكومة لان فيها طعنا في اعمال محمد علي رأس الاسرة الخديوية ثم اصدرت الحكومة هذه الطبعة بعد حذف الطعن وكل ما اظهر من الطبعات منقولة عنها وقد نقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية شفيق منصور وعبد العزيز كحيل ونقولا كحيل

واسكندر عمون وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ م .

ومن ميزات كتابه هذا انه اسهب واطال في تراجع الاشخاص فقد ترجم هل من عرفهم او لا يعرفهم وبغض النظر عن قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية من امراء واعيان ومن كل رفيع او وضيع . ولقد غالى في الاستشهاد بالشعر والشعراء من متقدمين ومعاصرين حتى زادت على بضعة مئات والذي يبدو انه لا يعاني نظم الشعر وانما يحفظه ويتذوقه .

ولم يهمل الجبرتي الاحوال الاجتماعية والحياة الاقتصادية الفاعلة في سير التاريخ التي كثيرا ما كان يجهلها بعض المؤرخين اما غفلة فهم عن ملاحظتها أو جهلا بتلك الاحوال جملة .

فذكر اسعارالمحصولات الزراعية بشكل دقيقوالازمات الاقتصادية التي مرت في البلد والمشاكل والفتن الاهلية التي كانت تثيرها هذه الازمات .

وتكلم بشكل مفصل عن السكة والنقود فعدد انواع العملة واسماءها وذكر اوزانها .

يحتوي الجزء الاول من تاريخ الجبرتي على فصلين كبيرين .وجعل للكتاب مقدمة ثم جعل لهذه المقدمة مدخلا صغيرا او تمهيدا يقع فياحدى عشرة صفحة عرف في بدايتها التاريخ تعريفا علميا دقيقا وعين بشكل واضح وحدد اغراضه واهدافه ومراميه وبين فائدته .

فعرف التاريخ بأنه علم يبحث فيه معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانسابهم ووفاتهم .

وقال في تمديد موضوعاته (انها تشمل احوال الاشخاص الماضية من الانبياء والاولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم) .وهو من هذه الناحية يختلف في فهمه للتاريخ مع ابن خلدون،

اذ يراه تاريخا بالاشخاص بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية وتأثيرهم في الاحداث في البلد .

في حين ان ابن خلدون رفض المبدأ رفضا قاطعا واكد بقوة على ان التاريخ دراسة للاحداث من حيث اثرها الاجتماعي ومعناها الفلسفي ،اذ انـه نص على ان التاريخ (علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتمـاع الانساني) ثم اوضح سبب ذهابه هذا المذهب حين قال ان دراسة التاريخ تستلزم تعليل الحوادث وربط بعضها ببعض وانه يجب ان يتناول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من تيارات سياسية واحـداث عسكرية وصناعة وتجارة وعلم وفن ومن حركات اجتماعية عامة او دينية او اقتصادية او فكرية .

اما فائدته واغراضه فهي المعبرة بتلك الاحوال والنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحرز العاقل عن مثل احوال الهالكين من الامم المذكورة السالفين ويستجلب خيار افعالهـم ويتجنب سوء افعالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي) .

قال الشافعي : من علم التاريخ زاد عقله .

وتمثل بالابيات الشعريـة قائلا :

اذا عرف الانسان اخبـار من مضـى
توهمته قـد عاش من أول العمـر
وتحسبه قد عاش آخـر دهـره
الى الحشر ان ابقي الجميل من الذكر

فكن عالما اخبار من عاش وانقضـى
وكن ذا نوال واغتنم آخر الدهـر

وقد اوضح في هذا التمهيد موضوع بداية التاريـخ الاسلامي ، واكد على ان اول من وضع التاريخ في الاسلام الخليفة عمر بن الخطاب

(رض) وذلك حين كتب ابو موسى الاشعري الى عمر انه يأتينا من قبل امير المؤمنين كتب لا ندري ايها نعمل فقد قرانا صكا محلـه شعبان فما ندري اي الشعبانيين هو الماضي ام القابل وقيل رفع لعمر صك محلـه شعبان فقال اي شعبان هذا ؟ هذا هو الذي نحن فيه او الذي هو آت ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم • وقال ان الاموال قد كثـرت وما قسمناه غير موقت فكيف التوصل الى مـا يضبط بـه • وبعد ان استعرض الصحابة تواريخ الفرس والروم واليهود وغيرهم استقر الرأي على ان يجعلوا تاريخ دولة الاسلام من وقت هجرة الرسول •

وقد انهي هذا التمهيد بقوله سنورد أنشاء الله تعالى ما ندركه من الوقائع حسب الامكان والخلو من الموانع الى ان يأتي امر الله وان مردنا الى الله ولم اقصد بخدمته خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير او اميـر ولم أدان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق اميل نفسـاني او غرض جسماني وانا استغفر الله من وصفي طريقا ولم اسلكه وتجارتي برأس مال لم املكه) •

ثم استشهد بهذين البيتين من الشعر :

ومن يحدو وليس لـه بعيـر
ومن يرعى وليس لـه سـوام

ومن يسقي وقهوتـه سراب
ومن يدعو وليس لـه طعـام

وبعد التمهيد تأتي مقدمة الكتاب وتقـع في سبـع صفحات وهي محاولة لمحاكات مقدمة ابن خلدون فقد تطرق فيها الى علم الاجتماع حيث تحدث عن ضرورة تكوين المجتمع البشري واهميته واسـباب نشوئه • واوضح فيه انه لا يمكن للانسان ان يعيش بدون المجتمع ان الانسان يولد عضوا في اسرة او قبيلة او انه انضوءة تحت لواء الجماعة بالفطمة

ليوفر على نفسه اسباب العيش فقال :

(ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث بها من كل دابة وقدر اقواتها احوج بعض الناس الى بعض في ترتيب معاشهم ومأكلهم وتحصيل ملابسهم ومساكنهم لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل على ما تحتاج اليه بغير صنعة فأن الله تعالى خلق الانسان ضعيفا لا يستقبل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح فجعلهم الله يتعاضدون ويتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذاك لهذا وعلى هذا القياس تتم سائر امورهم ومصالحهم) .

ومعنى هذا ان الانسان مدني بالطبع او اجتماعي بالطبع وهو نفس الرأي الذي ذهب اليه ابن خلدون وعبر عنه في مقدمته المشهورة قال :

(ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسك بفطرته ربما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير صوفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحين والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري وهب انه يأكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله ايضا حبا الى اعمال اخرى أكثر من هذه الزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة ..) هذا هو كلام ابن خلدون ، وقد استوفاه الجبرتي بعبارة

موجزة مقتضبة ، واخذ منه فحواه ولبه .

ثم ينتهي الجبرتي بعد ان يبرهن على ان الانسان اجتماعي او مدني بالطبع الى حاجة هذا المجتمع بعد تكوينه الى حاكم عادل يدير شؤونه وبالتالي ظهور الدولة والقوانين والانظمة لتحكم هذا المجتمع وتسيره وفق المطلوب . فيقول :

ثم مست الحاجة بينهم الى سائس عادل وملك عالم يصنع بينهم ميزانا للعدالة وقانونا للسياسة يوزن به حركاتهم وسكناتهم وترجع اليه طاعتهم ومعاملاتهم . والجبرتي في هذا يتبع ابن خلدون فيما ذهب اليه من احتياج الناس الى السلطان والحكم ، لتنظيم حياتهم ، وتسييرامورهم فيقول ابن خلدون :

ان الملك منصب طبيعي للانسان ذلك ان البشر لا يستطيعون الحياة الا باجتماعهم وتعاونهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة وقد يطمع كل منهم فيما يملك غيره بما في طبيعة الانسان من ظلم وعدوان ويمانعه الآخر بمقتضى الغضب والانفة والقوة البشرية فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة والهرج وسفك الدماء وانقطاع النوع الذي خصه الباري سبحانه بالمحافظة ومن هنا برزت حاجتهم الى حاكم قوي يسلمون له قيادهم ويخضعون لاوامره ونواهيه ليعيد الى مجتمعهم النظام ويقي الضعيف بطش القوي .

ويرى ابن خلدون انه لا بد لكل حاكم عندما يتولى امر الناس ان يضع قانونا لهم يسيرهم وفق مبادئه لان هذا القانون مما يعجل باستتباب الامور ويجمع القلوب على حبه .

ثم قسم الجبرتي المجتمع الى طبقات خمس سماها اصنافا مستشهدا بالآية الكريمة (رفع الله بعضهم فوق بعض درجات) واستشهد بقوله تعالى ايضا (هو الذي جعلكم خلائق في الارض ورفع بعضكم فوق

بعض درجات) مخالفا بذلك جمهرة علماء الاقتصادالذين يجعلونالتفاوت الاقتصادي اساسا لتقسيم المجتمع • وجعل الانبياء الطبقة الاولى : لانهم عمد الدين وامناء الله في خلقه وهم السرج المنيرة على سبيل الهدى وحملة الامانة عن الله الى خلقه بالهداية وبعثهم رسلا الى قومهم •

أما الطبقة الثانية : فجعلها للعلماء الذين هم ورثة الانبياء وهم احباب الله وصفوته •

وجعل الملوك وولاة الامور في الطبقة الثالثة • لانهم يراعونالعدل والانصاف بين الناس والرعايا توصلا الى نظام المملكة وتوصلا الى قوام السلطنة لسلامة الناس في املاكهم وابدانهم وعمارة بلدانهم ولا قهرهم ولا سطوتهم تسلط القوي على الضعيف والذي على الشريف •• لان الظلم والجور كامن في النفوس ولا يظهر الا بالقدرة ثم استشهد قائلا :

لولا الخلافة ما قامت لنا سبلا

وكان اضعفنا نهبا لاقوانا

أما الطبقة الرابعة : فهم اوساط الناس ، يراعون العدل في معاملاتهم بالانصاف منهم ويكافئون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها •

والطبقة الخامسة : هم القائمون بسياسة نفوسهم وتعديل قواهم وضبط جوارحهم وانخراطهم في سلك العدل لان كل فرد من الافراد مسؤول عن رعايته كما قال الرسول (ص) كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، وكما قيل صاحب الدار مسؤول عن اهل بيته وحاشيته •

وختم الجبرتي هذه المقدمة (بتوضيح) كما سماه ، عرف فيه الانسان تعريفا علميا دقيقا وميزه عن الجماد والبهائم بفضله النطقوالعلم• واشار الى الغرائز وبين تأثير التربية والمران ودورهما على تنشيط هذه الغرائز وتمنحها وتوجيهها الى جهة الخير او الشر ، فقال :

ان الانسان من حيث الصورة التخطيطية كصورة في جدار وانما فضيلته بالنطق والعلم ولهذا قيل ما لانسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة فبقوه العلم والنطق والفهم يضارع الملك وبقوة الاكل والشهوة والنكاح والغضب يشبه الحيوان فمن صرف همته كلها الى تربية القوة الفكرية بالعلم والعمل فقد لحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال الله تعالى (ان هذا الا ملك كريم) ٠

ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوانية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فحقيق بأن يلحق بالبهائم ٠

وينفرد الجبرتي في هذا الفصل عمن سبقه من المؤرخين بما فيهم ابن خلدون في اسداء النصح فيه للحكام والملوك الذين يسوسون الرعية واوضح لهم سبل السياسة واكد عليهم بالتشاور والتعاون مع ذوي الالباب فقال (من استعان بذوي العقول ادرك المأمول) واكد على العدل بين الناس بقوله (من عدل في سلطانه استغنى عن عوانه) وانه يرى ان من استشار ذوي الرأي والالباب اصحاب الصواب وسلك سبيل الرشاد ٠

وحذر الملوك والحكام من ابعاد ذوي الفضائل واصطناع ذوي الرذائل والغرور والاستخفاف بعظمة الناصح أو الاغترار بمدح المادح ومن استغنى بعقله ضل ومن اكتفى برأيه زل ٠

كما حذرهم تحذيرا شديدا من اصطناع السفلة فانهم سبب هلاكهم وزوال نعمتهم ٠

وربط صلاح الامة والشعب بصلاح الملك ضرب لنا امثلة متعددة استخلصها من تاريخنا الاسلامي في وجوب النصح للملك او الامير فقال (كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصري انصحني فكتب اليه ان الذي يصحبك لا ينصحك والذي ينصحك لا يصحبك) ٠

وسأل معاوية الاحنف بن قيس كيف الزمان فقال له أنت الزمان ان صلحت صلح الزمان وان فسدت فسد الزمان .

وأكد الجبرتي على ان آفة الملوك سوء السيرة وآفة الوزير خبث السريرة وآفة الجند مخالفة القادة وآفة الرعية مخالفة السادة .

ثم انتقل الجبرتي بعد ذلك الى الغرائز الانسانية واثر البيئة والتربية فيها . فذكر بأن الاخلاق صفة غريزية في الانسان الا انه يمكن تنميتها وتهذيبها وتوجيهها الوجه المطلوبة بالرياضة والممارسة والتدريب فهي تتأثر بمعاشرة الاصدقاء اما بالصلاح او الفساد فرب طبع كريم افسدته معاشرة الاشرار وطبع لئيم اصلحته مصاحبة الاخيار واستشهد بقول الرسول (ص) (بأن المرء على دين خليله) واستشهد ايضا بقول علي بن ابي طالب يوصي ابنه الحسن (الاخ رقعة في ثوبك فانظر بمن ترقعه) .

وبعد أن طلب من الله ان يسير له حسن الختام ويصرف عنه سوء القضاء انتقل مباشرة الى موضوع آخر لا يمت الى الموضوع الذي سبقه بصلة فدخل الى صلب تاريخ البشر . وسرد الحوادث التاريخيةواعتبرها بداية او مدخلا لموضوعه فقال : (وهذا او ان انشقاق كمائم طلع التاريخ عن زهر مجمل التاريخ ، ثم بدأ بعد هذا يتكلم عن الخلافة والرسل والانبياء واعتبر آدم اول خليفة في الارض ثم توالت بعده الرسل وان واجب هؤلاء الرسل مقررون شرائع الله بين عباده وان محمدا (ص) خاتم الانبياء .

ثم تكلم عن دور الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول واشار الى قول الرسول بأن الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضودا .

وبعدها استعرض الدولة الاموية وثم الدولة العباسية حتى دخول التتر الى بغداد وسقوطها ومقتل الخليفة العباسي .

وبعد هذا العرض الذي قدمه لنا الجبرتي ينتقل الى الدويلات التي انفصلت عن الخلافة العباسية فأحمد بن طولون واولاده بمكة والشام ومصر ثم الاخشيديون •

وقد استعرض في بقية الفصل تاريخ مصر من الاخشيدين الى سنة ١١٤٢ هـ الى السلطان سليم بن السلطان سليمان وكتب عن ملوك هذا الدور اخبارا عن حياتهم واعمالهم واستعرض الحياة السياسية العامة في البلد واوضح التكالب على المناصب والمؤامرات التي تحاك ضد بعضهم البعض وسرد لنا احداثا وقعت في هذا الخصوص ثم ذكر الجبرتي في نهاية الفصل ثبتا كبيرا بمن توفي في هذه السنوات من بداية القرن حتى سنة ١١٤٢ هـ وقد تضمن ثبت الوفيات قصائد كثيرة جدا في رثاء من مات •

ومن أهم ما ذكر في هذا الفصل من احداث مهمة كان لها تأثيرا مباشرا على حياة الناس هو تدهور الوضع الاقتصادي والمالي الذي ساد البلاد في هذه الحقبة من الزمن وارتفاع الاسعار والمجاعات التي حلت بالبلاد نتيجة سوء الادارة الاجنبية وهي سياسة معروفة اتصف بها المستعمرون •

لقد حلت في البلاد مجاعة في الثاني عشر من رمضان سنة ١١٠٢هـ فهاجر اهل القرى والارياف الى مصر حتى امتلأت بهم الازمة واشتد الكرب على الناس حتى اكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من اهاليها • فبيع من الحنطة بستمائة نصف فضة والشعير بثلاثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والارز بثمانمائة نصف فضة •

وخطف الفقراء الخبز من الاسواق ومن الافران من على رؤوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيدهم العصي حتى يخبزوه في الفرن ثم يعودون به •

وظل الامر كذلك الى ان عزل علي باشا في الثامن عشر من محرم سنة ١١٠٧ هـ وتولى بعده اسماعيل باشا • ومن الطف ما اذكر عن اسماعيل باشا طريقة معالجته لهذه المجاعة الرهيبة وهي طريقة مبتكرة وطريفة فقال الجبرتي : (فلما استقر ـ اسماعيل باشا ـ بالولاية ورأى ما فيه الناس من كرب وغلاء فأمر جميع الفقراء والشماتين بأن يحضروا بقرا ميدان • فلما اجتمعوا امر بتوزيعهم على الامراء والاعيان كل انسان على قدر حاله وقدرته واخذ لنفسه جانبا ولاعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء الى ان انقضى الغلاء) •

وقد اعقب هذه موجة الغلاء والقحط هذه وباء عظيم فتك بالآف الناس فأمر الباشا بيت المال ان يكفن الفقراء والغرباء فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان الى ان انقضى امر الوباء • وذلك خلاف من كفنه الاغنياء واهل الخير والتجار وغيرهم •

وفي سنة ١١١٦ هـ ارتفعت الاسعار بشكل غريب فبيع الاردب من القمح بمائتين واربعين فضة والفول كذلك والعدس بمائتين فضة والشعير مائة ونصف فضة والارز اربعمائة نصف فضة وبيع لحم الضان كل رطل بثلاثة انصاف فضة والجاموس والبقري بنصفين والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلاثمائة فضة وخمسين والدجاجة بثمانية انصاف • وكل ثلاث بيضات بنصف ، ورطل الشمع والدهن بثمانية انصاف •

وفي سنة ١١١٨ هـ شح النماس الهندي والبن اليماني حتى بلغ القنطار منه الفين وسبعمائة وخمسين بسبب تأخير وصول مراكب اليمن والهند الى مصر •

اما الفصل الثاني فقد افرده لذكر حوادث مصر وولاتها وتراجم اعيانها ووفياتهم مبتدئا من سنة ثلاث واربعين ومائة والف (١١٤٣ هـ)

ويقع في ١٣١ صفحة . وقد ابرز الجبرتي فيه بعض السمات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي في هذه الحقبة . فذكر ان في سنة ١١٤٦هـ ابطل قابجي باشا سكة الذهب الفندقلي وحزب الرز محبوب كامل وصرفه بمائة نصف وعشرة انصاف وكذلك سكة النصف محبوب وصرفه بخمسة وستين نصف فضة . وزاد الفندقلي الموجود بأيدي الناس فصار يصرف بمائة وستة واربعين نصف فضة ص ٢٧٨ .

وفي هذه السنة رفعت الجزية عن اليهود والنصارى وهي اربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون . والدون مائة .

وفي سنة ١١٤٧ تولى باكير باشا ولايته الثانية وجاء الى السويس يوم السبت رابع عشر من شوال وصرخت العامة في وجهه من جهة فساد المعاملة (العملة) وهي الاخشاو المرادي والمقصوص والفندقلي . فـأن الاحسا صارت بستة عشر جديدا والمراوي بأثنى عشر والمقصوص بثمانية جدد وصار صرف الفندقلي بثلاثمائة نصف والجنزرلي بمائتين . بسبب ذلك الاسعار التي كانت بالمقصوص بالديواني . ص ٢٨١ .

وفي نفس السنة فرضوا ضرائب على قطـاع معين مـن الشعب (فجعلوا على كل عثماني نصف جنزرلي فبلغت ثمانية واربعين الف عثماني فكانت اربعة وعشرين الف جنزرلي ،وقد قسمت بين الحكام وارسلوا الى عثمان بيك ورضوان بيك الف جنزرلي فأبيا من قبولها وقال هذه دموع الفقراء والمساكين فلا نأخذ منها (ص ٢٨٣) .

وفي نفس السنة وقع الطاعون المسمى بطاعون كووسمي ومات كثير من الاعيان وغيرهم بحيث توفي من عائلة واحدة مائـة وعشرون نفسا . وسارت الناس تدفن موتاهم بالليل خلافا عن النهار . (ص ٢٨٩) .

وبعد ان استعرض في هذا الفصل الولاة الاتراك الذين حكموا مصر والفتن الداخلية والمؤامرات ختمت بثبيت من الوفيات ذكر فيه من

مات في هذه السنين من اعيان العلماء والاكابر والعظماء ، مع ترجمة وافية لحياة كل واحد منهم •

وقد اشغل هذا الثبت اكثر صفحات الفصل الثاني •

ثم كتب ثبتا آخر بعد الثبت الاول في ذكر من مات في هذه السنين من الامراء المشهورين والاعيان المعروفين واخبارهم وتراجمهم وقد تخللت هذه التراجم قصائد شعرية لشعراء مختلفين قيلت في رثاء من مات منهم •

المراجع

١ ـ ابن خلدون ـ المقدمة

٢ ـ رضا كحالة ـ معجم المؤلفين • ط دمشق ١٩٥٨ •

٣ ـ جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ط اولى ١٩١٤.

٤ ـ مجلة تراث الانسانية م ٤

٥ ـ عبدالفتاح ابراهيم دراسات في الاجتماع ـ ١٩٥٠

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٧ ـ عبدالرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في التراجم والرجال ـ الجزء الاول (مخطوط) .

٨ ـ عمر فروخ تاريخ الفكر العربي • دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠ .

٩ ـ علي عبدالوحد وافي ابن خلدون منشيء علم الاجتماع ـ القاهرة مكتبة نهضة مصر .

١٠ ـ حسن الاشموني ـ الدولة بن الرأي ابن خلدون ورأي ميكافيلي.

حادثة الأميرة عزة وأثرها في انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦

بقلم الدكتور محمد أنيس

من الأمور التي تدعو للدهشة حقا أن الكثيرين من المهتمين بتاريخ العراق الحديث والذين قدر لي أن ألقاهم لا يعرفون حادثة الأميرة عزه . وحتى أولئك الذين سمعوا عن هذه الحادثة وقت وقوعها يترددون كثيرا في أثر هذه الحادثة على انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ .

لقد حدث الانقلاب في اواخر ذلك العام وهو ليس بأول انقلاب عسكري في الثلاثينيات في تاريخ العراق بل ربما يكون أهمها . وتفاءل به الكثيرون ولا سيما الكاتب اللبناني يوسف يزبك الذي كتب كتابه بعد حدوث الانقلاب مباشرة تحت عنوان (المحررون) كما تشاءم البعض من حدوث هذا الانقلاب ومنهم طالب مشتاق الذي كتب كتابه (أيام النكبة) .

كذلك افاض مجيد خدوري ـ وهو استاذ لتاريخ العراق الحديث في احدى الجامعات الامريكية ـ عن هذا الانقلاب في كتابه الذي كتبه أصلا باللغة الانجليزية تحت عنوان (العراق المستقل) . كما أطال في تحليل وسرد هذا الانقلاب الاستاذ محمد يوسف في رسالته للماجستر من جامعة القاهرة عن (تاريخ جماعة الأهالي) . وهناك حديث طويل للمرحوم الوطني الكبير كامل الجادرجي في مذكراته . هذا الى جانب مارواه الدكتور هاري سندرسون في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٣ تحت عنوان (عشرة آلاف ليلة

وليلة) وكان سندرسون طبيبا خاصا للاسرة المالكة في العراق من أيـام الملك فيصل الأول • هذا كله الى جانب ما ذكره الاستاذ الكبير عبدالرزاق الحسني في تاريخ الوزارات العراقية ولعل أهم ما كتب حتى الآن حول هذا الموضوع ما ورد في مذكرات ناجي شوكت التي يتوقعها الرأي العام العربي بعد بضعة أسابيع • لكن أحد من رواة هذا الانقلاب لم يشر من بعيد أو قريب الى علاقة حادثة الأميرة عزه بانقلاب بكر صدقي • وفي يقيني أن حادثة الأميرة عزه لها أثر على ذلك الانقلاب وهو أثر على كـل حال يفتح الباب أمام المؤرخين والمعنيين بتاريخ العـرب الحديث لمناقشة الموضوع إما بالسلب أو الايجاب • وبصفة عامة فان هذا المقال لا يضـع حكما تاريخيا مرة والى الأبد ولكنه يفتح باب المناقشة أمام المجتهديـن في تاريخ العراق الحديث وتبدأ الأحداث غير المستقرة في تاريخ العـراق الحديث بوفاة الملك فيصل الأول • ذلك لأن فيصل كان مهتما بالسياسة والقضايا السياسية فلم يتفرغ لتربية اولاده وترك ذلك لخدم القصر الأمـر الذي أدى الى تربية ابناءه تربية سيئة وهـذا بدوره أدى الى انحلالهـم وكبتهم على نحو تفجر بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٣ •

تولى الملك غازي العرش بعد وفاة والده وعلى الرغم مما كان يتمتع به غازي من محبة لدى غالبية الشعب العراقي وعلى الرغم من انه كـان يعادي السياسة البريطانية في العراق ـ وقد أنشأ بالفعل في قصر الزهور محطة اذاعية تهاجم هذه السياسة ـ الا أن كافة المصادر تكاد تجمع علـى أنه كـان عابثا في حياتـه الخاصة يكثر **من شرب الخمر ويعاني من شذوذ جنسي حاد** وكان يمارس هذا كله في قصر الحارثية وهو غير بعيد عن قصر الزهور • [illegible]

المهم في هذا كله أن موقف الأسرة المالكة كان قد انهـار الى حـد بعيد بعد وفاة الملك فيصل • وحقيقة ان الملك غازي كان اكبر أبناء فيصل

الذكور ولكن يسبقه في العمر ــ من أولاد فيصل طبعا كل من الأميرة عزه والأميرة راجحة وكان من الضروري أن يشيع جو الانحلال الخلقي على كافة أفراد الأسرة بما في **ذلك الأميرة عزة وان كان هذا الافلاس الخلقي حادا لدى الأميرة عزة بالذات .**

وتروي الوثائق البريطانية المحفوظةفي .P.R.O أن الأميرةالعراقية عزة كانت اكثر ابناء فيصل الأول تذمرا من حياتها ووفق الرواية البريطانية فان الأميرة غزه عام ١٩٣٥ طلبت أن تعالج في أوروبا (النمسا) وفي الطريق الى هناك تعرفت على خادم ايطالي الجنسية يعمل في أحد الفنادق في رودس ويدعى أنستاس هار الافكي ومن الواضح أن علاقة حب عميقة جرت بينهما : أنستاس من جانبه كانت تستهويه فكرة الزواج من أميرة عراقية والاميرة العراقية ــ وقد كانت قبيحة المنظر ــ استهواها جمال هذا الشاب الذي كان أصغر منها سناً فقد كانت في الثلاثين من عمرها وكان أنستاس أصغر منها سنا كما تروي الوثائق البريطانية أنهما تواعدا على أن يطلق اها تدبير هذا الزواج في العام التالي .

وبالفعل في عام ١٩٣٦ طلبت أن تذهب الى أوروبا المعلاج مع اختها راجحة (والاخيرة زوجها بكر صدقي بعد الانقلاب لأحد اصدقائه من ضباط الجيش العراقي) وعند هذه النقطة يحسن أن نترك المجال لفيكتور باحوش ملاحظ الديوان الملكي والذي كان مرافقا للوفد الذي يضم الأميرتين والوصيفات ذلك الوفد الذي كان قد وصل حتى وقوع الحادثة الى رودس وقد رفع فيكتور باحوش تقريره هذا الى رستم حيدر رئيس الديوان الملكي آنذاك .

يقول التقرير بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٣٦ :

حضرة صاحب المعالي رئيس الديوان الملكي المحترم ــ شخصي وسري للغاية .

تحية واحتراماً

امتثالا لأمر معاليكم أعرض فيما يلي بصورة موجزة تفاصيل سفري برفقة صاحبتي السمو الملكي الأميرتين شقيقتي حضرة صاحب الجلالة الى اوروبا والحادثة المؤلمة التي اكتنفت قضية هرب الأمـيرة عزة وزواجها من الرجل المدعو أنستاس خر الامبوس كما تعلمون معاليكم سافرنا من بغداد صباح الاثنين الموافق ٤آيار ٩٣٦ووصلنا دمشق ٥منه• بناء على طلب الأميرة عزة حضر السيد موفق الألوسي قنصل العراق في بيروت وهو الذي اقترح سفرنا الى حيفا عن طريق بيروت بالنظر الى القلاقل الراهنة • بتنا الليلة في بيروت وتوجهنا الى حيفا ظهر اليوم التالي في ٦ منه يرافقنا السيد موفق وقد استقبلنا الشيخ كاظم الدجيلي في الحدود • غادرنا ثغر حيفا عصـرا ووصلنا الاسكندرية في اليوم التالي نحو الساعة السادسة بعـد الظهر • تناولنا طعام العشاء في بيت شيخه هاشم قرطاس باشا وعدنا الى الباخرة ـ بارحنا الاسكندرية صباح ٨ منه وصلنا البيرت (بيرة) ظهر يوم الاحد •

استقبلنا على ظهر الباخرة حسن بك بيكات سكرتير القنصلية التركية العامة في اثينا وتوجهنا معه حالا الى فندق سيسل في كيفيا حسب المنهاج المقرر في بغداد • وكيفيا من أجمل مصايف أثينا تبعـد عنها نحو نصف ساعة • غير انه لشدة البرد هناك ـ وهذا خلاف ما يتوقع عادة في شهر مارس ـ اضطررنا بعد ٣ ايام الى الانتقال الى أثينا نفسها واستقر بنا في فندق اكروبول بالاس حتى يوم عودتنا الى بغداد في ٢ حزيران ١٩٣٦ •

اما سكنانا في فندق سيسل أو في فندق اكروبول فكنا جميعا في جناح واحد وكانت احدى (كلمة غير مقروئة لكن معناها الوصيفات) الثلاث وهي طليعة عمر ملازمة للاميرة عزة •

اما الاميرة عزة فقد بدأت تأكل وتشرب وتنام بكل انتظام سوى انه الليلة الثانية من وصولنا الى كيفيا شعرت بالم في معدتها وكانت الساعـة ١١ تقريبا بحسن الحظ وجدت في الفندق طبيباً اسمه باباس جور جيوس وهو مدير مستشفى المهاجرين قيل لي انه ماهر ولكن الاميرة لم تقتنع من

وصفته واصرت على استدعاء طبيب اخصائي كبير — فلم يكن لدى بُد من ان اطلب حضور البروفسور سيروس ليفيراتوس وهو من اشهر اطباء اوربا وكان طبيبا خاصا لفنزويلس ، فايد وصفة زميله وقد أبدى بعض الاستغراب لاستدعائه بتلك الصورة المستعجلة لهذا الغرض التافه والذي لا يستوجب الاهتمام • اخذت الاميرة عزة بضعة قطرات من الدواء وقضت الليلة بكل هدوء واستقرار وما عدا ذلك فانها كانت تتمتع بصحة كنا نغبطها عليها •

أما من جهة تصرفاتها فاني لم أر منها شيئا يسترعي الانتباه أو الشك غير أني أرى ضرورة ذكر بعض النواحي من احاديثها لاطلاع معاليكم •

عندما جاءنا حسن بك على ظهر الباخرة في البيروت ذكر لنا بأن في انتظارنا جمعا غفيرا من الناس والصحفيين والمصورين علموا بمجيئنا بواسطة برقية سحبت من حيفا وبالرغم من الحيطة التي اتخذتها مع حسن بك فان المصورين تمكنوا من أخذ صورة الاميرتين والانستين راسمة وطليعة ولكن لم ينشر الا قسم منها في جريدة واحدة لا أهمية لها وذلك بفضل المساعي التي بذلها حسن بك وتشبثاتي معه لدى مدير المطبوعات — أما الاميرة عزة فعند سماعها بوجود الصحافيين في الميناء غضبت جداء وفي يوم آخر تطرقت في حديثها الى شؤون العائلة الهاشمية والشرفاء وقضية زواج الأميرة سارة وهرب اختها وأمور عائلية تخص سمو الأمير عبدالله ثم نزلت تقريعا عليه وعلى بقية الشرفاء متمنية تفسخ تلك العائلة • وفي يوم آخر أردنا النزهة بزورق بخاري الى محل يبعد (١٠) دقائق عن أثينا ولم فلم تذهب (ربما لم نذهب) فقالت اذهبوا لوحدكم عساكم تغرقون فاسترح منكم • هذا وعندما كنت الفت نظرها الى بعض النواقص على سفرة الأكل او عندما كانت تتكلم بصوت عال أو غير ذلك كانت تقول لي (لا يهمني ذلك ولا يهمني لقب اميرة) •

وفي اليوم الثاني من وصولنا الى كيفيا أصرت الاميرة عزة على قبض

مبلغ لها من المصرف مقداره (١٥٠) دينارا تقريبا بالرغم من ممانعتي إياها ذلك اذ كان لديها صكوك شركة كوك تبلغ نحوا من (١٠٠٠) دينار وهي بمناسبة أوراق نقدية ولوجود الاضراب في ذلك اليوم رفض المصرف دفع المبلغ ولكن الاميرة قبضته في اليوم التالي •

وما عدا ما ذكرته آنفا فان عيشتنا في اثينا كانت منتظمة كل الانتظام• لم تترك الاميرتان وحدهما يوما ما حتى واننا لم تتعرف على أي شكل اذ كنا مكتفين برفقتنا غير أن القدر شاء خلاف منتظر اذ في صبيحة الأربعاء الموافق ٢٧ آيار جاءت الآنسة طليعة عمر وأخبرتنا بان الاميرة عزة ليست في غرفتها فاخذنا نتحرى عليها في الفندق فلم نجدها وعندما بادرنا بالخروج سلم للاميرة راجحة غلاف معنون اليها ففضته حالا فكان فيه كتاب مخطوط باللغة الانكليزية بتوقيع الاميرة عزة تخبرها فيه بانها بالنظر لفقدانها والدها وانها لم يكن لها بد من أن تلتحق بالرجل الذي تحبه وقد تزوجت منه وتنصرت • وبما أن الكتاب كان مخطوطا على ورق فندق (اطلانطيك) توجهنا حالا اليه ولكن بالرغم من الحاحنا فان الاميرة عزة أبت مواجهة اختها وبعد الانتظار طويلا ارسلت بورقة مكتوبة باللغة الانكليزية أيضا تقول لاختها (عبثا الانتظار لاني تزوجت وانتهى الأمر) •

هناك تشبثات قمت بها أنا وحسن بك والمحامي مافريدي بمساعدة المفوضية البريطانية تجدون التفاصيل عنها في تقرير المحامي اما السيد تحسين قدري ومع (ذلك) نرى ضرورة ذكر ملخص مواجهتنا • أنا الاميرة راجحة والآنسة راسمة ابراهيم والمحامي مع الأميرة عزة في فندق اطلانطيك كانت الاميرة عزة في غرفتها الخاصة يحيط بها زوجها ومحاميهما وبعض المناصرين لهما وقد فهمت بعدئذ بان أحد موظفي المفوضية الايطالية كان بين هؤلاء • لم تتأثر الأميرة عزة قط من رؤيتنا وخاصة من حالة اختها الكئيبة بل أخذت تجيب على اسئلة الشرطة والمحامي بكل جرأة ومنطق وكانت بين آونة وأخرى تتكلم مع زوجها باللغة الانكليزية أما الاميرة

راجحة فلم تتمالك نفسها من رواية أختها بل اغرورقت عيناها بالدموع وأخذت ترتجف ولما هدأت قليلا شجعتها على التكلم مع اختها وصارت تحدثها بكل لطف وحنان ذاكرة لها أعمال المرحوم والدها ومجده وشرف سيدنا الملك والوطن والعائلة ونصحتها لاعادة النظر فيما عملته والعودة الى العراق وعدم اعطاء مجال لهذه الاهانة العظمى . ولكن الاميرة عزة لم تتأثر من كل ذلك وكانت عنيدة وبعيدة عن استماع نصيحة اي كان إذ قالت لاختها (ليس عندي لا أخ ولا أخت ولا أقارب ولا وطن اعتبروني ميتة ـ هذا هو نصيبي فهولي الكل في الكل ـ لقد تنصرت وتزوجت من هذا الرجل الذي أحبه وليس بمقدور أحد ان يفصلني عنه واذا كان عندكم حق ما فعليكم جلبي بواسطة المحاكم وان أعود الى العراق بعد الآن . واذا ما جبرت على ذلك انتحرت أولا .) ولم تتمالك الأميرة راجحة نفسها عند سماعها هذا الكلام وخشية من أن يغمى عليها تركت الغرفة وأنا والآنسة راسمة معها وعدنا الى فندقنا . نوهت الأميرة عزة عند استجوابها من قبل الشرطة عن المجوهرات بان عندها الماس كانت أودعته الى خر الامبوس السنة الماضية في جزيرة رودس .

أما المفوضية البريطانية فانها عملت كل جهدها لمساعدتنا ولكن بصورة غير رسمية . رافقني المستر نيكولس سكرتير المفوضية الايطالية صباح الخميس الموافق ٢٨ ايار وقابلنا سكرتيرها المدعو سيتور سيرامتين طالبين منه تأجيل منح سمة الخروج الى الأميرة عزة (وذلك ريثما تصلني تعليمات من بغداد) إلا أن السنيور لم يقبل أخذ تلك المسئولية على عاتقه فوعد بمفاتحة وزيره حالا عند قدومه الى المفوضية واقناعه (لاجابة مطلبنا . أجل التأشير بالفعل ٢٤ ساعة فقط . قيل لنا بأن المفوضية الايطالية درست خلالها أوراق زواج الأميرة عزة فوجدتها قانونية وبالنظر لذلك رفضت الاستمرار على تأجيل التأشيرة متعذرة بشتى الاعتذارات غير ملتفتة الى رجاءات المفوضية البريطانية لاتخاذ تدابير ادارية لخطورة القضية وصرف النظر من الوجهة القانونية . وهكذا سافرت الاميرة عزة وزوجها الى رودس بعد

ظهر الجمعة الموافق ٢٩ أيار على متن طائرة ايطالية وقد أخذها من الفندق مدير شركة الطيران الايطالية بباقة زهور بيد أحد موظفيها . ومع أن في البيرة مطارا يبعد عن أثينا بضعة دقائق فان طائرة الاميرة عزة حلقت من مطار يبعد عن العاصمة نحوا من ثلاثة أرباع الساعة ومن هذا كله يستدل بان المفوضية الايطالية في أثينا أسدت كل التسهيلات لسفر الزوجين بالسرعة الممكنة وكذا اعتقاد المفوضية البريطانية .

أما السلطات اليونانية فانها أبت ابداء اية مساعدة لقضيتنا ولو منع خروج الأميرة عزة ريثما يصل السيد تحسين قدري وبالرغم من(اقتراحات التي أبدتها المفوضية البريطانية لها لاتخاذ تدابير ادارية فان السلطات المذكورة تمسكت بالوجهة القانونية هذا وان المفوضية عبثا استشارت مشاهير محامي اثينا قصد ايجاد حل أو عذر ترتكز عليه بهذا الصدد .

أما الجرائد فقد أخذت تقص روايات غرامية يقشعر لها البدن وقد فهمت بان الاميرة عزة وزوجها والمناصرين لهما هم الذين أدلوا لارباب الجرائد تلك الاخبار تشويها للوضع الراهن من جهة ومن جهة اخرى استقطاب الرأي العام . اكد لي مصدر بان الأميرة عزة صرفت من خالص ما لها مالا يقل عن (٥٠٠) دينار خلال تلك المدة القصيرة .

ظهر لي جليا من اباحة زوج الاميرة عزة الى الجمهور والصحف وما سمعته أنا من الأميرة راجحة والاوادت (يبدو أن معناها المرافقات) الثلاث عن اوضاع الأميرة عزة بضعة أشهر قبل سفرنا ومما ذكرته انفا أن علاقاتها مع خر الامبوس هي علاقات قديمة تكونت بينهما الصيف الماضي في رودس حيث اتفقا على الزواج فدبرت ألف حيلة وحيلة ووضعت منهاجا دقيقا كان بدعه من نوعه لنيل هدفها .

ومما يزيد هذا الاعتقاد مما نعتها توديعي دراهم الصرف في بغداد وقبضها مبلغ اعتمادها حال وصولنا الى اليونان واقناعها الاميرة راجحة

بعدم وجود ثقة في المصارف لايداع حليهما فيها ولذا أخذت كل منهما حليها معها • ثم عدم قبولها شراء ولا بدله واحدة للتهيــأ للسفرة كما كان مقررا في بغداد وعدم قبولهما شراء حقيبة للالبسة لائقة بمقامها بالرغم من إلحاحي عليها وذلك لان حقيبتها لا تليق لاستعمال أصغر الشخصيات •

أما استمرار اتصالها مع خر الامبوس بعد عودتها من رودس السنة الماضية فكانت مؤمنة بواسطة المراسلة ـ حسب الاعتقاد وعندما كنا نذهب الى دائرة البريد لوضع تحاريرنا كانت الاميرة راجحة والاوانس الثـلاث يعهدن لي بتحاريرهن الا أن الاميرة عزة كانت تأبى ذلك متعذرة بانهـا تأنس من شراء الطوابع ووضع الكتاب في الصندوق بنفسها •

هناك أمور اخرى أترك البحث عنها الى السيد تحسين قدري الذي وصل اثينا على ظهر الباخرة (ايونيا) صباح يوم الاثنين الموافق ١حزيران ١٩٣٦ •

اربط طيه صورة من البرقيات التي تبودلت بيني وبين معاليكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

فيكتور بحوش
ملاحظ الديوان الملكي

في نفس الوقت ـ بعد أن هز الحادث العالم العربي والاسلامي طلب رشيد حيدر رئيس الديوان الملكي من الطبيب الخاص للعائلة المالكة تقريرا عن الحالة النفسية والصحية للاميرة عزة الذي جعلها تقدم على هذه المغامرة فكتب هاري سندرسون التقرير التالي :

بغداد في ١٣ حزيران ١٩٣٦ سري

رئيس الديوان الملكي ـ البلاط الملكي ـ بغداد

سيدي :

الحاقا بمحادثتنا أمس فيما يلي تقريرا عن صحة صاحبة السمو الملكي الاميرة عزة •

كانت الأميرة عزة دائما عصبيةالمزاج وقد جابهت فيالسنوات الأخيرة هزات عقلية نادرة لم تمر دون أن تؤثر في أعصاب رقيقة كأعصابها ؛ لقد سببت وفاة والدها الفجائي المغفور له الملك فيصل قبل ثلاث سنوات اضطرابا نفسيا لازم سموها الملكي وجعلها طريحة الحزن [1] لعدة اسابيع• وقد تلت هذه الصدمة أخرى لم يقل شأنها من الأولى وهي وفاة والدتها جلالة الملكة فجأة أيضا • وذلك قبل سنة ونصف مما سبب لها انحلالا عصبيا شديدا ـ كانت الأميرة عزة شغفة بوالديها غاية الشغف وقد أظهرت منذ وفاتها اضطرابا عصبيا متزايدا • وقد جاءت وفاة شقيقتها وعمها الملك (علي) صدمة اخرى على الصدمات السابقة مما أثر عليها تأثيرا عميقا• وكانت نتيجة هذا الحزن المستمر وتوالي الرجات العقلية التي منيت بها في السنوات الأخيرة أن أصيبت الاميرة عزة منذ ستة أشهر بمرض (هستريا) عنيف، وقد رافق هذه الحالة العصبية انقباض نفس وعدم قابلية ضبط النفس وضعف الارادة وكانت تعاودها هجمات (هستيرية) بصفة عامة •

وبعد عقد سلسلة استشارات طبية (كونسلتا) قر الرأي اخيرا على ضرورة تغيير مناخ ومحيط الأميرة لمدة طويلة • وبالنظر لقرب موسم الحر اشير عليها بالاقامة في مصيف صحي في أوروبا على أن تستشير خلال وجودها في أوروبا اخصائيا فيما يختص بحالتها العصبية •

لا اشك في أن زواج الأميرة عزة ان هو الا برهان اضافي على أصابتها

---

(١) كتبت اصلا طريحة الفراش ثم حرفت في الترجمة بكلمة الحزن.

بشذوذ عقلي وهو حالـة تـلازم اكثريـة الأشخاص المصابين بمـرض الهستريا •

لي الشرف في أن اكون سيدي
خادمكم المطيع
ا • ح • س • سندرسون
الطبيب الخاص لجلالة الملك (١)

في نفس الوقت أرسل الديوان الملكي العراقي الاستاذ تحسين قدري رئيس التشريفات الى اثينا حيث جرى الزواج على الطريقة المسيحية في الكنيسة • وقد بقي تحسين قدري في اثينا يحقق في الموضوع وكتب تقريرا ليس به جديد عما جاء في تقـرير فيكتور بحوش (وهو في نفس الملف السابق الذكر) •

وكان من الواضـح أن السفارة الايطاليـة في اثينا بل والحكومـة الايطالية تعمل على حماية عزة وزوجها انستاس • والواقع أنني حتى كتابة هذا المقال لا أعرف السبب في هذا التشجيع : هل هو سياسي أم شخصي • والغالب أنه سياسي لانه كان تشجيعا حكوميا وشاهدي على ذلك ما ذكره هاري سندرسون في مذكراته التي ذكرناها سابقا من أن الحكومة الايطالية كانت تمنح الاميرة عزة (التي أسمت نفسها انستاسيا) معاشا متواضعـا بعد ان تركها زوجها ـ راجع مذكرات سندرسون في ٢٥١ ـ ٢٥٢) •

كانت سياسة للرد على موقف العراق السلبي ضد احتلال إيطاليا للحبشة

ولقد حاول تحسين قدري إبطال هذا الزواج فلم يفلـح كما جـرت مفاوضات مع الحكومة الايطالية لم تؤد الى نتيجة ـ لذلك لم يكن غريبـا على الاطلاق أن يرسل نوري السعيد وزير الخارجية آنذاك في وزارة ياسين الهاشمي الى ناجي شوكت الذي كان يشكل رئيس المفوضية العراقيـة في انقرة البرقية التالية :

---

(١) هذه التقارير موجودة في دار الوثائق الوطنية في بغداد في ملف : البلاط الملكي ـ الديوان تسلسل ٦٥ •

فخامة السيد ناجي شوكت المحترم

ان المعلومات التي وصلت الينا حول تصرفات المفوضية الايطالية في حادثة الاميرة عزة تدل على وجود تقصد من جانبهم لابد ان يكون موجها لهدف وحيث ان الاطلاع على حقيقة هذا الهدف يهم سياسة الدولة نرجو أن تستعملوا كل ما في امكانكم للحصول على المعلومات اللازمة حول ذلك من المصادر الموجودة في جانبكم بالطرق التي ترونها مناسبة ومن دون احساس الهدف الذي نستهدفه •

والحقيقة أن المهمة كانت جد عسيرة امام ناجي شوكت في انقرة• ذلك أن الصحف التركية دأبت على نشر أدق التفاصيل لحادثة الاميرة عزة • وربما يكون لذلك اكثر من سبب فالمؤكد أن الاتراك كانوا يكرهون الاشراف ومن المحتمل ايضا أن تركيا في هذه المرحلة وهي تتجه ناحية الغرب كانت تريد التشنيع على الاسلام والمسلمين •

غير أن ما فعله ناجي شوكت هو أن قابل وكيل الخارجية التركية سراج أوغلي وناشده ان يوقف الحملة الصحفية بشأن هذا الحادث• ويقول ناجي شوكت أنه بالفعل توقف حديث الصحف من انباء هذا الحادث في الصحافة التركية ، وما يلي جزء من المراسلات بين الهاشمي وناجي شوكت فقد كتب ناجي شوكت الى حكومته يقول :

خارجية بغداد ٢٩/٥/١٩٣٦ الساعة (٢٠)

ما يلي للهاشمي شخصيا مهم جدا • نشرت امس بعض الصحف التركية في استانبول نقلا عن جريدة (ديمقراطيا) الرومية خبرا مفاده ان احدى الاميرات العراقيات أثناء سياحتها في اليونان احبت كارسون يوناني يسمى انستاس هار الامبوس في احد فنادق رودس حيث كانت تقيم الاميرة فيه• قد هربها المرقوم الى اثينا وتزوج بها بعد ان تنصرت باسم (انستاسيا) وان اخت الاميرة عندما علمت بالامر راجعت الحكومة اليونانية طالبة فسخ

العقد المذكور ولكن الحكومة المذكورة لم تتمكن من اتخاذ قرار بهذا الشأن لان الاميرة بالغة سن الرشد وان الكل ينتظرون الاطلاع على نتيجة هـذه الحادثة التي سببت القيل وقال (والقال) في محافل اثينا الراقية •

عندما اطلعنا على هذا الخبر لملاحظتنا احتمال وجود اشتباه في الأمر من جهة ولاجل القيام بما يترتب علينا ازاء هذه النشريات لما لها من الأهمية لمساسها بسمعة العائلة المالكة من جهة اخرى وبالنظر الى أن الامير حسن اخبرنا انه قد بلغه احتمال وجود الاميرتين راجحة وعزة في اثينا الآن رأينا من الواجب تحقيق الخبر من مصدر موثوق فرجونا من المفوضية اليونانية في أنقرة أن تتصل تليفونيا بمدير الأمن العام في اثينا وأن تخبرنا بما نستوصل اليه • نخبركم مع عظيم الاسف أن المفوضية المذكورة قد اعلمتنا بأن الزواج المذكور قد تم بين المرقوم والاميرة عزة (أن الاخرى قد راجعت المحاكم لابطال الزواج ولكن هذا الطلب قد رفض ننتظر تعليماتكم •

عراقيـة ـ ناجي

وكان جواب بغداد ما يلي بالنص :

عراقية ـ انقرة

نشرت الصحف الأوروبية خبر زواج الاميرة عزة بشخص رودس من رعايا الطليان • كانت الأميرة تشكو مرض الأعصاب • ذهبت لاجل ذلك للاستشفاء لليونان [١] وعند مرورها من اثينا اشتدت عليها النوبات ووقع خلال ذلك حادث الاقتوارة [٢] المؤسف بالشخص الذي اعتنق الاسلام [٣] • سافر تحسين جوا لاستطلاع الحقيقة ولكنهما سافرا أمس الى رودس بطائرة

---

(١) الوثائق البريطانية تذكر الاستشفاء في النمسا •

(٢) لعل الكاتب يقصد التعميد

(٣) الصحيح أن عزة هي التي اعتنقت المسيحية ومن الصعب استنتاج كيف وقعت الحكومة العراقية في هذا الخطأ •

ايطالية قبل وصول تحسين • سينظر مجلس الوزراء في القضية منعا لنشر تعليقات صحفية غير صحيحة ، نرجو أن تراقبوا الصحف وتوضحوا الأمر •
خارجية

ويعلق ناجي شوكت على برقية الخارجية بقوله(ولم أر في هذهالبرقية ما يشفي الغليل) فاجبت عليها بالرد الآتي :

خارجية بغداد ١٩٣٦/٦/٣

جوابا على برقيتكم ٣٠ مايس لقد تمادت الصحف بنشر تفصيلات عن الحادثة المؤلمة نقلا عن صحفاثينا التي تصل في يوم‌واحد الىاستانبول ولها مخابريها هناك بالرغم من توضيحنا الامر لبعضهم وفق امركم رأينا أن نشر تكذيب رسمي مما يؤدي الى مناقشة بين المفوضية والصحف وتماديها في النشر اضطررنا لمراجعة وكيل الخارجية التركية ليوعز الى الصحف أن تكف عن هذه النشريات •

اخبرنا بان الايعاز قد حصل •

عراقية •

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد نقل ناجي شوكت القصة كاملة عن جريدة اتن فترورپا ٢٨ ، ٢٩ مايس وأرسل ما يلي الى حكومةالهاشمي•

(عزة ٣٠ سنة

انا ستناسيوس هار الامبى (هار الامبي ليس يونانيا) من الرعايا الطليان • وبواب (البرغود للاروزا) والاميرة ذهبت مع أختها راجحة الى رودس • وهو من جزيرة (السيمي) من الدوديكانيز • ولم يكن (هار الامبى) يتصور ان ذلك مسكن ولكن الاميرة هي التي شجعته على ذلك • وبعد ان بقيت عزة بضعة أسابيع في رودس رجعت الى بغداد • وكانت تراسل هار الامبي من‌بغداد • وفي ٨ مايس حضرنا الىاثينا متنكرتين وبعد بضعة ايام حضر الشاب أيضا وكانتا نازلتين في أوتيل (اكروبول)

وقد سجلتا نفسهما باسمين غريبين • معهذا فقد استخبرت الجرائد انهما أميرتان فكتبت الخبر • وفي ٢٦ مايس عزة ذهبت مع حبيبها الى ضاحيةمن ضواحي أثينا فقاما في كنيسة صغيرة بحفلة الرافيز ثم الزواج وهي سميت باسم (أناستاسيا) ثم رجعا الى أوتيل أطلانطيك وفي ٢٨ مايس اختها كانت قلقة من غياب طوال يومين فراجعت الشرطة طالبة ان يوجدوا لها اختها فذهب بوليس سري الى الاوتيل أطلانطيك وسألها ما الخبر فاخبرته بزواجها وقد قدمت له ورقة الزواج • فوجد الشرطي الأوراق والوثائق صحيحة فخرج من الأوتيل دون أن يعمل شيئا • فراجعت الاخت الشرطة مرة ثانية بانها قد سرقت منها حلى وجواهر بثمن (٦٠٠٠) ليرة انكليزية كما انها سرقت ١٥٠٠ ليرة انكليزية نقدا • وكانت هذهالشكوى مقصودة لتوقيف الأميرة ولكن ذلك كان صعبا بالنظر الى أنها تحمل بسابورت ديبلوماسي • وعليه فقد اعتبر الادعاء العام قضية سرقة بين الاخوة اي غير خطيرة وطلب من دائرة التحقيق تولى الاستنطاق بهذا المال • وفي الاستنطاق قالت عزة أنه ليست هناك أي سرقة وأن الحلى عائدة لها وهي قد ورثتها من امها التي ماتت • والحلى هي قلادة(٢٠٠٠) دينار ٤ دبانداتيف ذات قيمة ثمينة وكوبة وسوار وغيرها وصلا بقيمة (١٥٠٠) دينار وتصرح الاميرة عزة ان هذه الحلى عائدة لها بالضبط •

وقد اخبرت الدائرة نتيجة الاستنطاق الى الاميرة راجحة بيد أنها اصرت أن لها صم (ربما حصة) من الحلى فذهب البوليس مع الاميرة راجحة للمقابلة مع الاميرة عزة • وكان في المقابلة حضر البوليس اليوناني وموظف من المفوضية التركية وأناستاسي وموظف من القنصلية الايطالية وسكرتير الأميرتين ومحامي المتزوجين فتقاسما الحلى وبها انتهت الحادثة وتركت الشرطة الاهتمام بالزوجين وتعقبهما • وقد سعت الاميرة راجحة لاقناع اختها بالرجوع الى بغداد وقد قالت انها يمكن يرجع زوجها ولكن الأميرة عزة رفضت قائلة أنها لا تقصد أن ترجع مرة ثانية الى العراق لانها تخاف على حياة زوجها • ويقال ان (هار الامبى) قد ذهب

الى العراق ثلاثة أشهر وعليه فقد قرر (هر الامبي) السكن بايطاليا .

الى هنا تنتهي المذكرة التي أرسلها ناجي شوكت الى وزارة الخارجية العراقية والتي عثرنا على مسودتها ضمن أوراقه . غير أنه مما يلفت النظر أن ناجي شوكت كتب في آخر هذه المسودة التي ارسلها الى الحكومة العراقية ملاحظة يقول فيها ان صحيفة جمهوريت التركية نشرت مقالا في ٣١/٥/١٩٣٦ اتهمت أناستاس بانه كان يعمل في الجاسوسية الايطالية في رودس [1] .

هكذا انتهت حادثة الاميرة عزة بزواجها من أناستاس ولم تنجح كافة محاولات اختها أو الحكومة العراقية في فسخ هذا الزواج وسافر الاثنان الى ايطاليا .

وكان لدى ناجي شوكت وهو رئيس المفوضية العراقية في انقرة انذاك فكرة في أن يمسح هذا العار وكانت هذه الفكرة تلقى حماسا من أحد موظفي المفوضية وهو الشريف حسين بن ناصر وفي ذلك يقول ناجي شوكت في مذكراته ص ٢٩٩ .

كان الشريف حسين [2] خال الاميرة عزة يشغل وظيفة بسيطة في المفوضية العراقية في انقرة فاخذ يتذمر مما حدث ونشر لاني لم آتخذ اي تدبير لمنع النشر واسكات الصحف . فقلت له اي تدبير تريده مني والصحف تشترى مثل هذه الاخبار بالوف الليرات لتذيعها فتزيد من عدد قراءها ؟

---

(١) ليس ذلك ببعيد ومن المحتمل أن ايطاليا أرادت الاضرار بسمعة الأسرة المالكة التي جاءت بها بريطانيا الى الحكم في العراق وجعلت العراق تحت الانتداب البريطاني ثم وقعت معه معاهدة ١٩٣٠ التي بمقتضاها يدخل العراق بشكل آخر في اطار السياسة البريطانية .

(٢) هو الشريف حسين بن ناصر ابن الملك علي وقد تولى رئاسة الوزراء في الأردن أكثر من مرة .

فان كنت حقا تريد الحفاظ على سمعة البيت المالك فلماذا لا تسكت انفاس بنت اختك ؟ وفي الوقت نفسه قلت له : راجعني اليوم ضابط سوري متقاعد وأعرب عن رغبته في وضع نفسه تحت تصرفي لانقاذ شرف العائلة المالكة فهل أنت مستعد للسفر معه ؟ فنكس رأسه ولم يرد فلما كان اليوم التالي قابلت وكيل وزارة الخارجية التركية [١] ورجوته أن يستعمل نفوذه لاسكات الصحف ومنعها من الاسترسال في نشر انباء هذه الفضيحة فوعدني خيرا وأخذت الاخبار تتلاشى شيئا فشيئا • لكن صرت زمنا أشعر بالخجل كلما دعيت الى المآدب والحفلات فاعتذر عن حضورها لهذا السبب •)

ومن الواضح في مراسلات ياسين الهاشمي رئيس الوزراء مع ناجي شوكت أن رئيس الوزراء كان يستحسن بشدة ان يدبر ناجي شوكت بشكل أو آخر اغتيال الاميرة عزة ولكنه من الواضح أيضا أن ناجي شوكت لم يتمكن من هذا التدبير •

وفي مذكرات هاري سندرسون بقية قصة الاميرة عزة وهي في ايطاليا رواها في آطار روايته لزيارة الوصي على العرش عبد الاله لايطاليا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية [٢] • غير أنه من الواضح أن هذا الحادث قد أحدث ردود فعل صارخة في العراق فعلى الرغم من أن الصحف العراقية لم تتحدث عنه الا أن ثمة ردود فعل خفية قد حدثت :

أولا : لدى الملك غازي فالمعاصرون يشيرون الى أن قصة اخته عزة جعلته اكثر افراطا في الشراب واللهو •

ثانيا ــ عند رئيس الوزراء ياسين الهاشمي الذي كانت تحدوه

---

(١) واسمه سراج اوغلى •

(٢) راجع مذكرات سندرسون تحت عنوان (عشرة آلاف ليلة وليلة) نشره عام ١٩٧٣ وتحدث فيه عن مأساة الاميرة عزة ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ •

الفكرة الايطالية في ان يكون بمثابة موسوليني للعرب وان يحكم العراق مبقيا على الملكية كمجرد رمز ومما لا شك فيه أنه على الرغم من ان هذه الافكار كانت تراود ياسين الهاشمي قبل حادثة الاميرة عزة الامر الذي أدى الى اصطدامه بالملك غازي الا أن حادثة الاميرة قد تغلق الصراع بين الرجلين الى مرحلة اكثر عنفا وآية ذلك القانون الذي صدر في ٦/٦/١٩٣٦ (١) • والقانون برقم ٧٥ لسنة ١٩٣٦ ويعرف بمرسوم الاسرة المالكة •

(من الواضح أن السمة الرئيسية في القانون تستهدف حرمان عزة ومن يخلفها من ابناءها من لقب الامارة • انما يهمنا بصفة خاصة في هذا المجال من ذلك القانون المادة الخامسة التي تنص على ما يلي : (يؤلف مجلس خاص من رئيس الوزراء ومن كل من رئيس مجلس الأعيان والنواب ووزيري الداخلية والعدلية ورئيس الديوان الملكي وينعقد تحت رئاسة الملك أو رئيس الوزراء عندما ينيبه الملك وبحضور ثلاثة من اعضاءه على الاقل) ثم تقول المادة السادسة (ينظر المجلس في الأمور التأديبية التي كانت ناشئة والتي ستنشأ مما لها علاقة بافراد الاسرة المالكة وفي قضايا الأحوال الشخصية التي يكون فيها الطرفان أو احدهما من اعضاء الاسرة المالكة) •

ويشهد هذا القانون على أن ياسين الهاشمي كان يزداد في محاصرته لافراد الاسرة المالكة بما في ذلك الملك غازي نفسه ومن الواضح أن القانون قصد به الحد من تصرفات غازي الشخصية التي كان يمارسها في قصر الحارثية •

وأغلب الظن أن هذا الموقف دفع الملك غازي الى التفكير في الخلاص

---

(١) نشر في الوقائع العراقية عدد ١٥٢٠ في ٦ - ٦ - ١٩٣٦ وفي مجموعة القوانين والانظمة لسنة ١٩٣٦ (تصدرها وزارة العدل) ص ٥١٧ - ص ٥٢١ •

من ياسين الهاشمي • وكان من الطبيعي أن يفكر غازي في انقلاب عسكري يطيح بوزارة الهاشمي ويكون هذا الانقلاب برئاسة بكر صدقي الذي كان مقربا للملك غازي •

وهذا لا يمنع أن بكر صدقي كانت لديه دوافع خاصة في احداث هذا الانقلاب فهناك اجماع بين المؤرخين على ان بكر صدقي كان دائم الشكوى من أنه لم يكافأ كما يجب نتيجة لخدماته الوطنية وابرزها **الحادث الآشوري** • وتدل الوثائق البريطانية على أن غازي كان على علم كامل بالانقلاب قبل حدوثه ويضيف الى هذه الأدلة ما ذكره الدكتور هاري سندرسون في مذكراته التي سبق الاشارة اليها في فصل تحت عنوان (انقلاب عسكري) فيقول :

(دعيت الى قصر الزهور في الساعة العاشرة من صباح ٢٩ نوفمبر ١٩٣٦ ورأيت الملك غازي في زيه العسكري يحمل مسدسا على أحد جانبيه • وبعد أن أجريت الفحص الطبي كاملا سألته لماذا الاضطراب ياسيدي فأشار الى السماء التي أخذ ينظر اليها بمنظار مكبر حيث كانت بعض الطائرات تلقي قليلا من القنابل • لم يكن لدى اي شك في أن الملك كان يعلم بالانقلاب مسبقا وان كل ما كان يخشاه فشل ذلك الانقلاب امام انقلاب مضاد) ولعل هذا يقف دليلا على أثر حادثة الاميرة عزة في الملك غازي وعلى علاقة الملك غازي بانقلاب بكر صدقي للاطاحة بوزارة الهاشمي • وبالفعل تحقق له ما أراده اذ قدم ياسين الهاشمي بعد هذا الانقلاب بساعتين فقط استقالته وتولى الوزارة حكمت سليمان مع بعض وزراء من جماعة الاهالي وبهذا الانقلاب يدخل تاريخ العراق الحديث في مرحلة جديدة • [1]

---

(١) يذكر هاري سندرسون في كتابه السابق الذكر انه حدث ابان زيارة الأمير عبد الاله الوصي على العرش لايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية أن الاميرة عزة طلبت مقابلة عبد الاله في روما بسعي من السفارة البريطانية وقد سمح لها بذلك ورفض عبد الاله مقابلتها وطلب من سندرسون أن يتولى ←

مقابلتها ومعرفة ماذا تريد . وبالفعل قابلها سندرسون وعرف من قصتهـا انها انفصلت عن زوجها وعاشت سنوات في غرفة في مدينة نابولي وانهـا افرطت في الشرب والتدخين وذلك بمعاش ضئيل من الحكومـة الايطاليـة وكانت تضطر احيانا الى بيع شعراتها لأحد حلاقي النساء . وقـد قيل لها انه ليس من المحتمل أن تستمر الجمهورية الايطاليةالجديدة في صرفالمعاش الذي كانت تمنحه لها الحكومة الايطالية السابقة . ورغم تدخل سندرسون لدى عبد الاله فقد رفض الوصي مقابلتها بدعوة انها جلبت العار علىالأسرة المالكة . واضطر سندرسون الى ان يضاعف من ضغطه على عبد الاله الذي وافق اخيرا على مقابلتها شريطة حضور سندرسون المقـابلة ـ ويستطـرد سندرسون في روايته فيقول : ما ان دخلت عـزة على عبد الاله حتى بكيـا الاثنان معا وهنا انسحب سندرسون من الغرفة . وكانتعزةتريد الذهابالى مصر لتقضي فيها بقية حياتها . ولكن سندرسون رأى ان ذهابها الى مصـر قد يفتح ميدانا جديدا للدعاية ضـد الاسرة المالكة العراقيـة بسبب فضول الصحفيين . واستقر الراي على ان تذهب الى عمان . [لا اعرف اذا كـانت قد تركت عمان الى الاسكندرية ولا اعرف اذا كانت لا تزال على قيـدالحياة حتى الآن ـ صاحب المقال] .



الاميرة عزة (انستاسيا)
وزوجها انستاس
عقب زواجهما مباشرة
(صحيفة جمهوريت عدد ٤٣٢٨ بتاريخ ٢ حزيران ١٩٣٦)

البرقيات والرسائل المتبادلة بين الخارجية العراقية والمفوضية العراقية في انقرة عام ١٩٣٦ حول حادثة الاميرة عزة

فخامة السيد ناجي شوكة المحترم

ان المعلومات التي وصلت الينا حول تصرفات الموظفين الايطاليين في حادثة الاميرة عزة تدل على وجود تقصد من جانبهم لا بد أن يكون موجها لهدف • وحيث ان الاطلاع على حقيقة هذا الهدف يهم سياسة الدولة نرجو ان تستعملوا كل ما في امكانكم للحصول على المعلومات اللازمة حول ذلك من المصادر الموجودة في جانبكم بالطرق التي ترونها مناسبة ومن دون احساس الهدف الذي نستهدفه •

بغداد في ١٩٣٦/٦/٢١ وزير الخارجية

خارجية بغداد ١٩٣٦/٥/٢٩ الساعة (٢٠)

ما يلي للهاشمي شخصيا مهم جدا نقطه نشرت أمس بعض الصحف التركية في استانبول نقلا عن جريدة (ديموقراطيا) الرومية خبرا مفاده نقطة ان احدى الاميرات العراقيات اثناء سياحتها في اليونان أحبت كارسون يوناني يسمى أنستاس هارالامبو في أحد الفنادق في رودس حيث كانت تقيم الاميرة فيه وقد هربها المرقوم الى أثينا وتزوج بها بعد ان تنصرت باسم (أناستاسيا) نقطة وأن اخت الايرة عندما علمت بالأمر راجعت الحكومة اليونانية طالبة فسخ العقد المذكور ولكن الحكومة المذكورة لم تتمكن من اتخاذ قرار بهذا الشأن لأن الاميرة بالغة سن الرشد نقطة وان الكل ينتظرون الاطلاع على نتيجة هذه الحادثة التي سببت القيل وقال في محافل أثينا الراقية نقطة عندما اطلعنا على هذا الخبر لملاحظتنا احتمال وجود اشتباه في الأمر من جهة ولأجل القيام بما يترتب علينا ازاء هذه النشريات

لما لها من الأهمية لمساسها بسمعة العائلة المالكة من جهة أخرى وبالنظر الى أن الامير حسين اخبرنا انه قد بلغه احتمال وجود الاميرتين راجحة وعزة في أثينا الآن رأينا من الواجب تحقيق الخبر من مصدر موثوق فرجونا من المفوضية اليونانية في أنقرة ان تتصل تلفونيا بمدير الأمن العام في أثينا وأن تخبرنا بما تتوصل اليه نقطة نخبركم مع عظيم الأسف ان المفوضية المذكورة قد اعلمتنا أن الزواج المذكور قد تم بين المرقوم والاميرة عزة وأن الاخرى قد راجعت المحاكم لابطال الزواج ولكن هذا الطلب قد رفض نقطة ننتظر تعليماتكم نقطة .

عراقية ـ ناجي

وكان جواب بغداد ما يلي بالنص :

عراقة ـ انقرة ١٩٣٦\٥\٣٠ ١٥/١٥

بالقاعدة العامة نقطة يبدأ نقطة نشرت الصحف الاوربية خبر زواج الاميرة عزة بشخص رودي من رعايا الطليان نقطة كانت الاميرة تشكو من مرض الاعصاب ذهبت لأجل ذلك للاستشفاء لليونان وعند مرورها من أثينا اشتدت عليها النوبات ووقع خلال ذلك حادث الاقتران المؤسف بالشخص الذي **اعتنق الاسلام ؟** نقطة سافر تحسين جوا لاستطلاع الحقيقة نقطة ولكنهما سافرا أمس الى رودس بطائرة ايطالية قبل وصول تحسين نقطة سننتظر مجلس الوزراء في القضية نقطة منعا لنشر تعليقات صحفية غير صحيحة نرجو ان **تراقبوا الصحف وتوضحوا الامر كما بيناه** نقطة؟؟

خارجية

ولم أر في هذه البرقية ما يشفي الغليل فاجبت عليها بالرد الآتي :

خارجية بغداد ١٩٣٦/٦/٣

جوابا على برقيتكم ٣٠ مايس لقد تمادت الصحف بنشر تفصيلات عن الحادثة المؤلمة نقلا عن صحف أثينا التي تصل في يوم واحد الى استانبول وعد مخابريها هناك بالرغم من توضيحنا الأمر لبعضهم وفق امركم نقطه رأينا أن نشر تكذيب رسمي مما يؤدي الى مناقشة بين المفوضية والصحف وتماديها في النشر نقطة اضطررنا لمراجعة وكيل الخارجية التركية ليوعز الى الصحف ان تكف عن هذه النشريات نقطة اخبرنا بأن الايعاز قد حصل.

عراقيـة

(برقية الخارجية العراقية الى ناجي شوكت)



تأثير الحركة الوطنية على تطور التشريع التونسي

للأستاذ محمد منصور ★
الجامعة التونسية . مركز الدراسات والأبحاث
الاقتصادية والاجتماعية

تمهيد :

ليس بدعا من التشريع ان يحمل بين نصوصه معالم النهضة او التخلف في أمة من الامم وان تتسرب في مسالكه العادات التي اكتسبتها هذه الامة والانماط الاجتماعية التي تسودها والآمال التي تتمخض بها ، والمناهج التي ترسمها لتحقيق غاياتها الكبرى في مختلف مراحلها التاريخية اذ يمثل التشريع الصورة الاوضح لارادة الامة في الفصل والاختيار والتخطيط والمواجهة .

لذلك كان التشريع ، المسلك الاكثر دقة في رسم حياة الامم وضبط تاريخها ، والانفذ عمقا في تصوير حالاتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية خاصة بعد ان اصبح التشريع في ظل النظام الحديث للدولة المعاصرة حكرا على ارادة الامة ، تعرب من خلاله عما تشاء وعما لا تشاء ازاء مختلف مناحي الحياة القومية والدولية ،مما اكسبه ديناميكية المجتمع الذي ينبثق فيه ، وتراوح النزعات التي تظهر فيه من حين لآخر،

★ القاضي بالمحاكم التونسية والباحث بمركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس

لذلك كانت الرابطة وثيقة بين التشريع الوطني والتحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع التونسي ، ويبرز ذلك على الخصوص فيما كان للحركة الوطنية من تأثير فعال في تبلور ارادة الامة وسعيها الاصيل الى تحقيق ذاتها وبناء كيانها القومي في مواجهة الانحرافات الداخلية والتحديات الدولية .

ولتحقيق الدقة في ضبط العلاقة بين هذين الجانبين من تاريخنا القومي ينبغي وضعهما في الاطار الموضوعي . والحضاري لهما ، فالحركة الوطنية بمفهومها الاصلاحي والسياسي الواسع التي كانت تنطلق منه لمواجهة طغيان حكم الاطلاق في عهد الدولة الحسينية واستبداد الاستعمار التوطيني الدخيل في عهد الحماية ، ومظاهر التخلق الفكري التقني في عهد الاستقلال طلبا لتحقيق العدالة الاجتماعية والاستثمار الكامل للموارد القومية والمواكبة الفكرية لآفاق التطور الحضاري الدولي واقرار مناهج سياسية لعمل وطني سليم ، لم تستعن بالعمل التشريعي كمضمون لمطالبها وسند لتأمين مساعيها الا في القرن التاسع عشر على الخصوص .

الفصل الاول : دواعي الفتور في الحركة التشريعية :

ذلك ان المجتمع التونسي كان حينذاك ـ

١ ـ مستمرا على المستوى الاعتقادي لمناهج التشريع الاسلامي ، ومكتفيا بالمقومات الروحية والمنازع الفقهية والاصولية الشاملة فيه ، وطرائق الحكم والتنظيم للسلطتين القضائية والتنفيذية المعتمدة منه ، باعتبار انه التشريع الازلي الامثل الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه . ولم يكن يشعر قط بالحاجة الى ربط رغبته في الاصلاح ومقاومة الطغيان بتشريع وضعي من صنع ارادته يمكن ان يغير ما بحاله او يعدل ويهيء طرائق جديدة لاصلاح وضعه ، والحال ان في محتوى الشريعة الاسلامية بحسب ما يراه المجتمع آنذاك ـ من ضوابط الملك الصالح والوحدة الاسلامية والعدل الاجتماعي ما يغني عن كل تجديد ،

لذلك كانت الدعوات الاصلاحية التي ظهرت أنذاك تنادي بإحياء الشريعة الاسلامية ، لا بالابتداع عليها . وترفض إزالة النظام الفلكي وان توجهت بالانتقاد او اعلان العصيان في وجه ملك ما — فقد كان البعض على ما يروي احمد ابن ابي الضياف في الجزء الخامس من اتحاف اهل الزمان بالصفحة ١١٣ — ، يرى (أن سيدنا ينظر بنور الله فما يظهـر له ، فهو السداد والاصلاح في نفس الامر ، فهمته العقول او لم تفهمه قياسا على الامـور التعبدية الدينية التي امر بها من له الخلق والامر ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ،) وباطنه لا يعتقد ذلك وشواهد حاله تكذبه ، الا انه يستر قصوره عن اقامة الدليل بهذا الملق البارد .

٢ — معتادا على نظام ملوك الاطلاق ومستكينا لمـا تمضي بـه مناهجهم السياسية الطاغية ، من تعسف ظالم وقهر للارادات الفرديـة او الجماعية الصالحة ، اذا ما تعارضت مع رغباتهم الخاصـة ، المستندة للقوة والحيلة فيما تاتي به من ظلم وجور يلقي سنده فيما يبثه اربـاب الطرق وادعياء الورع من فتاوي بوجوب الطاعة لاولي الامر ، والنزوع عن الفتنة التي هي اشد من القتل والرضاء بالقضاء والقدر خيره وشره، مما يترك الاثر البليغ في نفس الرعية ويخضد شوكتها التلقائيـة الـى مقاومة الطغيان ومراقبة ذوي السلطان فيما يفعلون ، حتى جبلت الرعية على التسليم بالواقع ، والفتور والتخاذل في رد الظلم وعدم السعي الى تغيير ما طبيعة نظام الحكم ، وطريقة التشريع . اذ لا ارادة للامة الا فيما اراده الله لها من حكم جار وملك نافذ .

٣ — منغمسا في خضم من التفكك الاجتماعي ، والانقسام القبلي والطائفي ، والحروب الاهلية المستمرة التي كانت تغذيها عناصر التخلف الذهني . والعصبية الضيقة والبدائية الحضرية . فلـم يشعر بالمفاهيم القومية ولا بالتضامن الجماعي ولا بالكيان الوطني ، وقد انتهبته نوازع الشقاق والثارات من كل جانب ، وركن الى اهواء الملوك ، فلم يلق سمعا

الى التنظيمات السياسية المستحدثة بأروبا آنذاك ، لكل ذلك لم يحس المجتمع التونسي ، بالحاجة الى اصلاح تشريعي وضعي يؤسس هياكله السياسية ، وسلطه الاساسية العامة ، على منهج يمكن الشعب من حقه في العدل والسلامة الاجتماعية . والاعراب عن ارادته في بناء مصيره القومي . وفي تحديد إختياراته الاساسية في التنظيم السياسي والاصلاح الاجتماعي والتخطيط الاقتصادي ، حتى كان مفتتح القرن التاسع عشر حيث استفحل تدخل الدول الاروبية في شؤون الدول الاسلامية عموما لتحقيق اغراضها في كسر شوكة هذه الدول المستضعفة سياسيا ،وجبرها على حفظ مصالح المواطنين الاجانب فيها ، واتخاذها كسوق لبيع منتوجاتها الصناعية ، واستثمار مواردها الطبيعية ، واستغلال طاقتها البشرية ، وفتح حدودها امام التوسع العسكري للامبراطوريات الاروبية الممتدة فيما وراء البحار ، وذلك بعد ان ظهرت موجة الاكتشافات الاقتصادية والعلمية الحديثة ، التي قربت المسافات وطورت التقنية الآلية ، وبعد ان برزت النزاعات الفكرية والسياسية المتحررة من رواسب النظم الملكية في المجتمعات الاروبية المتطورة ،وتبلورت المفاهيم الاساسية للنظم الدولية التي تسود علاقات المجتمع الدولي والحصانة الدبلوماسية والمعاملة بالمثل ، وشخصية قانون المواطن الخ . مما فتح آفاقا جديدة امام النخبة المسلمة ، ودعاها الى مراجعة أحوالها ، وتمحيص قيمها ، بمنظار نقدي جديد كشف لها عما كان يرزح به واقعها المرير من أدواء اجتماعية وسياسية واخطاء اعتقادية لا سند لها من الشرع والعدل او التبصر ، فاتخذت للدعوة الى الاصلاح ومواجهة التخلف ، وطغيان الملكية المستبدة ، وتدخل الدول ذات الامتيازات القنصلية التي بدأ يستفحل امرها بالبلاد وخاصة منها بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، مناهج متعددة تمثلت على الخصوص في عرائض الالتماس حينا وفي الثورة حينا آخر دون ان ينتهوا من ذلك لنتيجة تذكر .

لان الامر كان يقتصر دائما على المطالبة برفع مظلمة او تحديد

جباية او رد غارة ، ولا يطمح قط الى تغيير نظام الحكم ، او ضبط طرق حديثة في تنظيم الدولة وتحديد سلطاتها ، وطرائق البت والتقرير في تكييف ميزانيتها ، وفي مواجهة المظالم الخاصة والعامة ، وفي استبيان ارادة الشعب فيما يعرض له من قضايا ، وما يلتزم به في حقه من معاهدات ومواثيق دولية .

الا ان ذلك لم يحل دون تنبه النخبة الوطنية الى اهمية الاخذ بالاسباب التشريعية الوضعية واقرار الارادة الاصلاحية للشعب في التزامات ذات طابع قانوني يصدرها الباي ويتعهد بتنفيذها وذلك تحت تأثير العوامل التالية :

الفصل الثاني : (الدواعي المباشرة للاهتمام بالنشاط التشريعي)

أولا – ظهور الامتيازات القنصلية بالبلاد التونسية : ومسارعة امرائها – قبل السلطنة العثمانية – الى منح الوافدين من الاجانب ، جملة من الامتيازات التي تحقق لهم الامن والسلامة ، فيما يقومون به من نشاط تجاري واقتصادي بالبلاد التونسية ، وذلك لفقدان الوازع الوطني في الحاكمين ، ولضمان استعانتهم بالاجانب على خصومهم السياسيين – عند الاقتضاء – بدعوى اظهار ما للاسلام من سماحة ، دون الاخذ بما يوجبه الاسلام من حيطة وحذر ، وخاصة ازاء أطماع الدول الاروبية فيما زخرت به تونس من خامات نادرة ، وامكانيات اقتصادية وفيرة وتفتح حضاري اصيل ، او الاخذ بما تستدعيه خطورة هذه المواقف ، من استشارات شعبية . فأبرموا مع امارة (بيتز) ، إتفاقيات سنة ١١٥٧ – ١٣١٣ – ١٣٥٧ – لضبط معاهدة سلم وتجارة ، ومع مملكة أراغون إتفاق سنة ١٣١٤ – ومع إمارة جنوة البندقية جملة من المعاهدات ابرزها معاهدة سنة ١٤٣٣ – ومع امارة البندقية جملة من المعاهدات ابرزها معاهدات سنة ١٢٣١ – ١٢٥١ – ١٢٧٠ – ١٣٠٥ – ومع مملكة فرنسا معاهدات سنة ١٢٧٠ – ١٧٢٨ – ١٧٤٢ – ١٧٦١ – ١٨٢٤ –

١٨٣٠ ـ ١٨٣٢ ـ ١٨٦١ ومع مملكة انكلترا معاهدات سنة ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٥ ـ وهي معاهدات (١) تقضي في غالبيتها ، بأن القناصل يقيمون وسط مواطنيهم بالفنادق ، ولهم حق الرئاسة العليا عليهم على نحو كان القناصل معه يمارسون وظائف ضباط الحالة المدنية لمواطنيهم ، ويدافعون عن مصالحهم التجارية ، تجاه ديوان الرسوم وتجاه السلطة التونسية ، كما كان لهم وحدهم صلاحية النظر في القضايا والنزاعات التي تشجر بين بني جلدتهم سواء كان النزاع مدنيا او جزائيا ، أما اذا شجر خلاف ، بين أجنبي محالف وبين تونسي ، فان كان هذا الاخير مدعيا ، فانه يتوجه بظلامته الى القنصل ، وان كان التونسي مدعي عليه ، فصلاحية القضاء في الامر ، انما هي للحاكم التونسي وحده • وكنتيجة لذلك نمت الجاليات الاجنبية بالبلاد التونسية عن طريق التوسع التجاري والمهني ، واقامة بعض المؤسسات المرفقية لها ، وتزايد تسامح أمراء البلاد في منح الامتيازات لهم ، حتى لقد جاء بالمادة السادسة من الاتفاقية المبرمة بين حسين بن علي والمملكة الفرنسية سنة ١٧٢٨ ـ (ان امتيازات فرنسا يجب ان تكون اعظم من امتيازات اية دولة اخرى ولا يمكن ان يمنح أي امتياز لاية دولة الا اذا منح نظيره لفرنسا في الآونة نفسها) •

كما جاء بالمادة الحادية عشر من الاعلان الرسمي لوثيقة عهد الامان (أن الوافدين على إيالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنية والارضين مثل سائر أهل البلاد) •

ولا شك ان لهذه المعاهدات والمواثيق وما كان ينجز عنها من تصرفات السلطة الحاكمة والقناصل والاجانب في شؤون البلاد بالاستناد لمحتوي نصوصها النافذة •••• أثر كبير في نفوس الوطنيين على نحو مكنهم من ادراك مدى أهمية هذه المشاريع المستحدثة فيما بين الجانبين ، ومدى

---

(١) تراجع محاضرة الاستاذ المدني حول الحصانة الدبلوماسية المنشورة بكراس خاص صدر عن وزارة العدل في ١١ فيفري ١٩٦٥ •

تعلق الدول الاجنبية بتشاريعها الاجنبية ، وما توليه فيهـا لمواطنيها من حقوق وأنظمة فعالة وسليمة • مما هيأ النفوس بعدئذ للمطالبة باصلاح تشريعي يتناول أوجه الضعف والطغيان في المجتمع التونسي بالاصلاح والتنظيـم •

ثانيا ـ **مقابلة أو مواجهة كثرة التراتيب التنظيمية المستحدثة من طرف المشرع الدخيل :**

طرف المشرع الدخيل : لتنظيم الاختصاصات التي اقتطعها من سيادة الشعب التونسي وحريتـه الطبيعية ، واستأثـر بهـا لتدعيـم سياسته الاستيطانية ، وتقوية شوكة مواطنية بالبلاد التونسية ، وتركيز نشاطهـم على حساب الثروة التونسية والعامل التونسي ، فعمد الى تجميع كافـة السلطات الموكولة للمحاكم القنصلية بـين يـدي المحكمـة الفرنسية ، والقضويات الصلحية المتفرعة عنها ، بمقتضى القانون الفرنسي المؤرخ في ٢٧ مارس ١٨٨٣ والنافذ المفعول بتونس بموجب الامر العلني المؤرخ في ١٨ افريل ١٨٨٣ ، وأعتبر أن مواطني الدول الصديقة التي تحذف محاكمها القنصلية بتونس ، يرجعون بالنظر الى المحاكم الفرنسية ، على مقتضـى ما يخضع اليه الفرنسيون انفسهم من الشروط والحالات ، طبق ما جاء به الفصل الوحيد من الامر العلي المؤرخ في ٥ ماي ١٨٨٣ وما ان تهافتت المحاكم القنصلية ـ بتحريض من رجال الكنيسة وخاصة منهـم الكردينال لافيجري ـ على التخلي عن صلاحيتها لفائدة المحاكم الفرنسـية وانفردت هذه الاخيرة بالنظر :

١ ـ في جميع القضايا المدنية والتجارية التي تهم احـد الاروبيين بصفته مدعي او مدعى عليه بموجب الامر العلي المؤرخ في ٣١ جويليـة ١٨٨٤ •

٢ ـ في جميع القضايا الجزائية التي يرتكبها التونسيون ، إما ضد أو بمشاركة فرنسي أو أروبي او مهتم بحماية فرنسا أو إحدى الـدول

الاروبية ، أو كان الفعل الجرمي المرتكب من طرف التونسي حاصلا باحدى قاعات المحكمة الفرنسية ، أو ضد أحد أعضائها ، او بغرض تعطيل نفاذ الاحكام الصادرة عن المحاكم الفرنسية ، كما قررت ذلك فصول الامر العلي المؤرخ في ٢ سبتمبر ١٨٨٢ ـ .

كما إستصدر المشرع الدخيل من الباي ، الاوامر المتتالية لتوسيع صلاحيات نظر المحاكم الفرنسية ، وتخصيصها بالنظر في جملة من الفروع والمواضيع القانونية المختلفة ، ولو كانت النزاعات الواقعية ضمنها بين تونسيين فقط ، ولا تهم أي طرف أجنبي ، كما هو الحال بالنسبة :

١ ـ للامر العلي المؤرخ في غرة جويلية ١٨٨٥ ـ والمتعلق بالاراضي المسجلة .

٢ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨ المتعلق بصكوك الاختراع .

٣ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ جوان ١٨٨٩ المتعلق بالملكية الادبية والفنية .

٤ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٧ جوان ١٨٨٨ المتعلق بصيانة الاسلاك البحرية .

٥ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٦ جويلية ١٨٨٩ المتعلق بصيانة الاسلاك التلغرافية .

٦ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١١ ديسمبر ١٨٨٩ المتعلق بتزويد المواد الغذائية او الطبية .

٧ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١١ جويلية ١٨٩١ المتعلق بقضايا ديوان البريد .

٨ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٦ نوفمبر ١٨٦٤ المتعلق بتزويد الشارات المثبتة للمورد .

٩ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ ديسمبر ١٨٩٦ المتعلق بحفظ الامـن بالبـادية .

١٠ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٦ اكتوبر ١٨٩٧ المتعلق بشرطة السكـة الحديديـة .

١١ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٨ جانفي ١٩٠٤ المتعلق بالمدينين لبنـك الجزائـر .

١٢ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٥ فيفري ١٩١١ المتعلق بحماية الصور والنماذج الصناعية .

١٣ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٤ جـوان ١٩١٢ المتعلـق بشركـة الترامواي .

١٤ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٧ أفريل ١٩٣٣ المتعلق بمسك الحمـام الجـوال .

١٥ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٠ ماي ١٩٣٤ المتعلق بالرهن البحري .

١٦ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ مارس ١٩٢١ المتعلق بحوادث الشغل .

١٧ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٩ جانفي ١٩٢٦ المتعلـق بالجرائـم السياسية .

١٨ ـ وللامر العلـي المؤرخ في ١٨ جويليـة ١٩٢٧ المتعلـق بالدفاتر التجاريـة .

١٩ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٨ جويلية ١٩٢٧ المتعلق بالملك التجاري

٢٠ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٨ فيفري ١٩٣٠ المتعلق بالشركات الخفية الاسم •

٢١ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٥ ماي ١٩٣٠ المتعلق بالشركات المحدودة المسؤولية •

٢٢ ـ وللامرين العليين المؤرخين في ٦ اوت ١٩٣٦ و ٢٨ جوان ١٩٣٨ المتعلقين بالحرية العامة من صحافة واجتماع وتكوين الاحزاب والجمعيات [١] •

الامر الذي ترك أبلغ الاثر في نفس الشعب التونسي وهو يرى مقوماته الذاتية نهبا بين أيدي الدخلاء يغتصبونها الواحد تلو الآخر ، من امراء البلاد ، مرة بالزلفي والمغالطة ، واخرى بالتهديد ، في صورة اوامر علية ، تمنح الشرعية لعمل غير شرعي ، وتلغي إختصاص المحاكم التونسية لفائدة المحكمة الفرنسية ، وتضع تحت مراقبة السلط الفرنسية،صلاحيات السلط التونسية ، وأنشطة المؤسسات القومية ذات الارتباط المتين بعقيدة الامة ، ونظمها الشرعية •

فبعد أن أتاحت مجلة الالتزامات والعقود التونسية مثلا في فصلها ٩٨٠ فيما بين التونسيين ـ واستيناد الفتوى شرعية ـ نظام الانزال الذي يجيز لمستحق الحبس العاجز عن استثمار عقاره المحبس لسبب من الاسباب ان يحيله او يسلمه للغير بوجه الكراء المعين المؤبد ، مع إمكانية الزيادة في القيمة الكرائية له بما يتلائم مع تغيير الاسعار أو تحسن حال العقار ، تدخلت الحكومة الفرنسية لدى الباي ، وأجبرته على إمضاء الامرالعلي المؤرخ في جانفي ١٩٠٥ والقاضي بإلزام أصحاب الانزال بقبول بيع إنزالهم هذا ، مقابل دفع معين الانزال ضمن مدة يختلف امدها باختلاف

(١) راجع الاستهلاك الذي نشره الاستاذ الهادي المدني بالعدد الرابع لسنة ١٩٧١ من مجلة القضاء والتشريع ص ١٤ ـ ١٥ .

قيمة المعين ، فان كان مقداره دون المائة ريال لزم للحصول على شرائـه ورفع يد المالك الاصلي الايدية عنه أن يدفع المستلزم قيمـة الانـزال السنوي مضروبة في خمسة وعشرين عاما ، وإن كـان مقداره يفـوق العشرين فرنكا فان القيمة السنوية تضرب في رقم العشرين فقط ، وبذلك يتخلص العقار من جميع الحقوق الانزالية والحبسية الموظفة عليه ،ويخرج من يدي جمعية الاوقاف التونسية جبرا ليتمحض لفائدة مشتري الانزال، وغالبا ما يكون مستعمرا اجنبيا ، وذلك بعد ان عمدت سلطات الحماية الى استصدار الامر العلي المؤرخ في ١٣ نوفمبر ١٨٩٣ الذي يجبر ادارة الاوقاف التونسية على ان تقدم في نهاية كل سنة قائمة لقسم الاستعمار بادارة الفلاحة تتضمن أسماء ومواقع الهناشر التي يمكن وضع اليد عليها مما ييسر إحالة أغلب أراضي الاوقاف على المعمرين بثمن بخس يدفـع مؤجلا على عشرين سنة بإعانة الصندوق التونسي للقرض •

وفي سنة ١٩٢٦ مثلا وبعد ان اشتكى احد مواطني سوق الاربعاء الى الباي من مظلمة لم ينصفه فيها قائد الجهة ، واستمثل ببيت شعري لاثارة همة الباي اعتبرت السلط الحاكمة ذلـك هضمـا لجانب الحضرة الملكية ، واحالت الرجل من أجل ذلك على المحاكمة لدى المحاكم التونسية. وما إن قررت هذه براءة الرجل وصدق مقالته حتى جن دولاب الاقامـة العامة التي طلبت من الباي انتزاع الاختصاص بالنظر في قضايا الاعتداء على امن الدولة الداخلي والخارجي أو محاولة تغيير نظام الحكم القائم او التعدي على الملك أو أحد أفراد عائلته من صلاحيات المحاكـم التونسية التي لم تدرك مغازي سياسة الحكومة ـ حسب رأيها ـ واحالتها على نظر المحكمة الفرنسية ، فما كان من الباي الا أن أصدر أمره العلي المؤرخ في ٢٩ جانفي ١٩٢٦ بنسخ باب كامل من ابواب المجلة الجنائية التونسية ابتداء من الفصل ٦٠ وانتهاء للفصل ٨٠ منها ، سحب بموجبه من المحاكم التونسية حق النظر في هذه الدعاوي وأوكل أمر البت فيها على حساسيتها

وخطورتها وارتباطها بالكيان القومي لاختصاص المحاكم الفرنسية وحدها[٣] .

مما جعل الوطنيين يعطون أهمية بارزة لهذه التشاريع ويتحسسون من أخطارها ، ويتخذون المواقف العديدة لمواجهتها بالنقد اللاذع وبمشاريع التفتح ، بغرض التخفيف من حدتها .ويطالبون باصدار التشاريع الاصلاحية لرعاية مصالح المواطنين التونسيين ، وحفظ حقوقهم الانسانية والاجتماعية ورعاية القوانين المؤسسة على قيم وطنية من الهدر والتجاوز ، فيهتموا بمناقشة صلاحيات المجلس الكبير وتركيبه وطريقة انتخاب السلط المحلية وتركيب الهيأة البلدية ، وضبط أبواب الايراد والانفاق في مشروع الميزانية العامة ونشر التعليم بين المواطنين التونسيين وتوسيع صلاحيات المحاكم التونسية مما ربط بين الحركة الوطنية والتطور التشريعي برباط وثيق عن طريق زعماء الاصلاح الوطني من خير الدين ومحمد بن حسين وبيرم الثالث وعلي باش والثعالبي والرئيس بورقيبة ... الخ .

ثالثا ــ تأثر زعماء الحركة الوطنية بالنظم الاجتماعية والسياسية السائدة في الدول الاروبية ، ودعوتهم لاقرار تنظيمات صياغية او أو إجرائية مشابهة لما عليه الحال بتلك الدول تستوعب أوجه الاصلاح ، وتضمن للمواطن التونسي حقوقه الوطنية والانسانية الاساسية في وطنه وتفكيره ومكاسبه على نحو يبلور حقه في الحرية السياسية والكرامة البشرية ، مما كان له الاثر الواضح في الحد من اطماع السياسة الاستعمارية والى ان مجموعة من التشاريع التي تحفظ للذاتية القومية كيانها المتميز ولو الى حد ما .

---

(٣) تراجع المحاضرة التي القاها الاستاذ محمد الطاهر السنوسي بطرابلس الغرب في ٣٠ يناير ١٩٥٨ حول موضوع (التشريع التونسي بين القديم والحديث) والمنشورة ضمن كتيب من سلسلة دائرة التشريع التونسي ص ٢٤ وما بعدها .

فالجنرال محمد حسين وشيخ الاسلام محمد بيرم الثالث والشيخ محمود قبادو والوزير الاكبر خيرالدين باشا والوزير مصطفى صاحب الطابع ، والشيخ احمد ابن ابي الضياف ، هالهم ما انحدرت اليه البلاد التونسية من جهالات الحكم الفردي وطغيانه . فجأروا بالشكوى لاحمد باي وطلبوا اليه ان يحرر الانسان من استعباد الانسان ، وان يجري نظاما ديمقراطيا على غرار ما اجراه السلطان محمود ، فأصدر في ديسمبر ١٨٤٢ وفي ٢٦ جانفي ١٨٤٦ أمرين أوجب فيهما تحرير سائر العبيد وتحجير الاسترقاق واعتبار ان كل من يولد بالبلاد التونسية حرا ، غير ان ذلك لم يرض هذه النخبة فألف محمد حسين رسالة في التنويه بمباديء الحرية وذم الحكم الفردي ، كما الف الشيخ محمد بيرم الثالث رسالة في تحبيذ المشورى وفضائلها يسرت على الباي محمد (بالفتح) بن حسين بالاضافة الى مجموعة من العوامل الاخرى .

اصدار منشور في الوعد بابراز قانون عهد الامان، وتشكيل ديواني الجبايات والتجارة . وقد أفاء في ٩ سبتمبر ١٩٥٧ باعلان عهد الامان الموعود . ثم تلاه اخوه الصادق باي الذي التزم عند البيعة بنفاذ قواعد عهد الامان واحترامهما ، وأمر باحداث مجلس الجبايات والاحكام العرفية ومجلس التحقيق ، الذي كان بمثابة محكمة استئناف لاحكام مجلس الجنايات ، وعمم المجالس الابتدائية المنبثقةعن مجلس الجنايات والاحكام العرفية المتمركز بتونس ، بكل من القيروان وسوسة وصفاقس والاعراض وجربة وباجة والكاف وبنزرت والجريد ، تؤازرها مجموعة من محاكم النواحي التي تختص بالبت في القضايا البسيطة والمخالفات . وتدعى بمجالس الضبطية ، كما احدث المجلس الاكبر الذي اوكل اليه قيادة الجهاز العدلي، فأناط بعهدته توضيح المشكلات القانونية وتفسيرالمقاصد الشرعية وبيان عوائص المسائل المغلقة والسوابق القياسية والاجابة عن جميع الاسئلة التي ترد اليه من مختلف مجالس الجنايات ، على ان يتولى الرائد الرسمي التونسي نشر اجوبته عليها وتفسيراته وتوجيهاته القانونية

فوق صفحاته ، وذلك عملا بمقتضيات الفصلين ٢٤ / ٢٦ من دستور عهد الامان[٤] كما اصدر في شوال سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٧١ م) مجموع

(٤) ورد بالمرسوم الملكي المؤرخ في ١٣ رجب ١٢٧٧ الصادر في بيان مدى الاصلاح القضائي ومرجع النظر الحكمي المخول للمجالس المحدثة بمقتضى عهد الامان ، ما نصه :

(واما الحقوق الذاتية بين افراد الناس مما يقع بين المتداعين ، مما لا يخلو الوجود منه من جنايات تعم وتخص كالحرابة والفساد في الارض والخيانة للدولة والوطن وتدليس النقدين وشهادة الزور ونحو ذلك وتعطيل المصالح العامة ، كمجاري المياه وغير ذلك مما لا يخص مجنيا عليه معينا وكقتل النفس والضرب والجرح والنهب والغصب والتعدي على الاموال والمنافع وغير ذلك من المخالفات التي يلزم فاعلها الحكم عليه بالعقاب والحكم بغصبه على رد المتاع ، فلما كانت النفوس البشرية لا تأمن من الغلط والغفلة من حكم فرد ، جعلنا لفصلها والنظر فيها مجالس الجنايات والاحكام العرفية ، وتطمئن نفس المحكوم عليه اذا كان من انظار متعددة في مجلس يحقق طرق الثبوت وينظر في القرائن ويخص الشهود ويستفسرهم وينظر في الحجج المكتوبة من جهة صحتها وشروطها المقررة في القانون ويلزم من ثبت بطلان دعواه وحجته جميع ما صرفه المحقق ، ولزيادة الا من جعلنا مجلسا آخر سميناه مجلس التحقيق اذا اراد المحكوم عليه ان يرفع له نازلته وذلك قبل مضي ثلاثة ايام من يوم الحكم عليه .

كما جعلنا للمحكوم عليه في جناية شديدة ان يرفع نازلته من مجلس التحقيق الى المجلس الاكبر وبه ينقطع عذر المحكوم عليه ، وجعلنا في بعض البلدان بالمملكة وهي القيروان وسفاقص والاعراض وجربة وباجة والكاف وبنزرت والجريد مجالس للجنايات والاحكام العرفية ، ومجلس كل بلد يباشر نوازل الوطن المحدد له تسهيلا لاصحاب النوازل ومن اراد نازلته في مجلس الحاضرة فله ذلك ومجلس التحقيق وراء الجميع ان طلبه المحكوم عليه ، ومجالس بلدان المملكة لا تحكم في الجنايات الشديدة المقتضية للقتل والسجن المشدد ـ ويجب عليها تقرير الدعوى وامعان النظر في طرق ثبوتها من القرائن ، وارسالها الى مجلس الجنايات بالحاضرة ، ولا ينفذ حكم في جناية شديدة ولو من المجلس الاكبر الا بعد عرضه علينا ، ولنا التخفيف والعفو ان لم يكن الحق للغير ـ وقد جعلنا مجلسا للنظر في نوازل التجارة مركبا من رعيتنا وغيرهم ، ثم ان الاجتماع الانساني والطباع البشرية تقتضي كثرة

القوانين المتولدة عن روح عهد الامـان ومنها علـى الخصوص قانـون ترتيبي ذو طابع اجرائي يدعى بقانون الخدمة الداخليـة لمجلس الجنايات ومجلس التحقيق ويحتوي على ٢٧ فصلا ومحلة قانونية جامعـة للمبادىء والاحكام القانونية المدنية والجزائية الواجبة التطبيق من طـرف مجالس القضاء ، ويحتوي ٦٦٤ فصلا منها ١٢٤ فصلا تتعلق بتراتيب اجرائية .

وبالرغم من الدسائس التي حيكت بايحاء من قناصل الدول الاروبية والتي دفعت بالصادق باي في غرة ماي ١٨٦٤ الى الامر بتعطيل سائـر المجالس المحدثة تنفيذا لعهد الامان والذي جاء به (ان المصلحة اقتضت ان المجلس لا يباشر فصل النوازل ، فالعمل ان تنبه على سائر الاعضاء بذلك، والسلام) بعلة ان الرعايا يشتكون من تطويل فصل نوازلهم في مجالس الاحكام ، وتمنوا بسبب ذلك عدم التقيد بتلك المجالس ، لذلك جعلناهم مخيرين في نشر جميع نوازلهـم لدى من شـاؤوا من المحاكم الشرعية ومجالس السياسة والعمال ، ثم من اراد رفع نازلته الى حضرتنا فبـاب محكمتنا مفتوح لكل متظلم كالعادة السابقة ، كما جـاء ذلـك بمنشوره الصادر خلال شهر افريل ١٨٦٤ .

المنازعات لاسيما في الامور الخفيفة الدائرة ، وبكثرتها في مجالس الاحكام تتعطل النوازل المهمة ، فجعلنا لها مجلس الضبطية المحافظ على هناء البـلاد ولهـذا المجلس التمكن على الجاني وايقافه خشية هروبه للحكـم عليه في مجلس الجنايات ، ولا يحكم مجلس الضبطية في المعاملات الاختيارية مثـل الدين والضمان . وانما يحكم في المشاجرات الخفيفة ، وفي كل عمل مـن اعمال مملكتنا مجلس ضبطية متركب من اهل البلد – وكـل مجلس من مجالس الحكم لا يتجاوز القدر المحدد له في القانون ، وحسبه فهم النـازلة وطرق تطبيق ثبوتها وتطبيق الحكم عليها من القانون ، فان لم يجد لها ذكرا او توقف في فهم عبارة من القانون فذلك للمجلس الاكبر ... الخ .

الفصل الثالث :

الفصل الثالث : تأثير الحركة الوطنية على ظهور التشاريع الاصلاحية فان الجذوة الوطنية لم تخبو أمام طغيان الحكم المطلق فاتخذت شكل الاصلاح الاداري على يد المصلح خير الدين الذي انصرف عند توليه الوزارة الى تطهير البلاط من العابثين واخذ على عاتقه إصلاح الامور الادارية والقضائية فكون مجالس قضائية تنظر في مختلف الدعاوي جنائية كانت او مدنية ، وسن لها القوانين : كقانون الفلاحة الذي غير في عهد الحماية بنص لم يدخل عليه من التحوير الا جزءا بسيطا يلائم حاجة المستعمر الى إستغلال أعوان الادارة التونسية في داخل البلاد لتدعيم سطوة معمري الارض من الاجانب ، وقانون الاجراءات لدى المحاكم الشرعية التي خصها بالنظر في الزيجات ، والنفقات والتركات واستحقاق العقار وقانون احداث البلديات[5] .

وخطط برامج عمل وصلاحيات أقسام الوزارة بين وزارة كبرى ووزارة عدل ووزارة تربية ووزارة خارجية- باصطلاحنا الحديث -ونظم طرق الاشراف على معاهد التعليم وخاصة منها جامع الزيتونة ومعهد الصادقية ، كما نظم الجريدة الرسمية وغيرها من المشاريع التي بذل الجهد في ابرازها ، كما اتخذت الروح الوطنية مظاهر اللوم والتحدي مرة ، والنصح والارشاد أخرى ، لاقناع الباي وسلط الحماية بضرورة الحد من طغيان الحكم الفردي ، وتفويض السلط القضائية لهيئات عدلية مختصة ، وتعيين الحقوق الفردية والعامة ضمن مدونات قضائية قارة ، وتخليص أحكام المحاكم العدلية من مراقبة الكاتب العام للحكومة ،ومن أهواء السياسة الملكية ، في الاذن بتنفيذ عرائضها او تعطيل العمل بها ، مما دفع بالكثير من القضاة الى معارضة توجيهات الكاتب العام

(٥) يراجع الاستاذ محمد الظاهر السنوسي في محاضرته المشار اليها سابقا .

للحكومة ، والاصرار على رأيهم في القضايا المعروضة بين ايديهم ، حتى كتبت جريدة الزهرة عند الاعلان عن وفاة القاضي الشهير محمد (بالفتح) بوسن (مات القاضي الذي كان لا يحكم من وراء حجاب) لما عرف به من شجاعة واصر في مواجهة تحديات ادارة الاشراف الاستعمارية .

وكنتيجة لهذه المساعي الدائمة اضطر الباي الى تفويض سلطته في التصريح بالأحكـام الى مجموعـة من المجالس العدلية المنتصبـة لفصل النوازل الجنائية والتي أسست بموجب الامر العلي المؤرخ في ١٨ مارس ١٨٩٦ بعد ان أعترف للخصوم في القضايا المدنية بحق الاطلاع وتسلم النسخ من الأحكام الصادرة فيها وذلك بموجب أمر ٢٧ ديسمبر ١٨٨٤ـ كما أذن بتأليف لجنة لتحرير مشروع مجلة مدنيـة وتجاريـة صيغت بنودها المستمدة في معظم الاحيان من احكـام مجموعة قوانين عهد الأمان ضمن لائحة طبعت سنة ١٨٩٩ لم يؤشر عليهـا بالاصـدار الى أن أصدر الباي في ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ امرا بنشرها وسماها مجلة العقـود والالتزامات ، وقد توفرت على اعداد لائحتها لجنة فنية مختصة من اعلام القانون والقضاء من بينها مقرر اللجنة الاستاذ (د . صانتيلانا) الذي أوضح ان (مهمتها تتمثل في ان تجمع وترتب وتنتقي من التشريع الفرنسي ما تراه صالحا للاستعمال في مهمة التدوين النهائيـة ، على ان تترك جانبا المواد المتعلقة سواء بالاحوال الشخصية أو بنظام الملكية العقارية ، كما كان عليها من ناحية اخرى ان تستخرج من عمل المحاكم الشرعية ومن التشريع التونسي ، كلما يمكن استعماله ، لتماشيه سواء مع مبـادىء القانون العصري او مع الظروف الحالية للمجتمع التونسي[٦] وقد توفر على شرح هذه المجلة وتحليلها الاستاذ (اندري موريل) ضمن كتابـه

---

(٦) يراجـع تقرير الاستاذ (د . صانتيلانا) المنشور بمدونـة مجلـة الالتزامات والعقود المعلق عليها من طرف الاستاذ محمود بالشيخ ص ٣ .

المطبوع في سبتمبر ١٩١١ •

الا أن ذلك لم يشف غلة الوطنيين . فانبرى أعضاء تونس الفتـاة اللذين انضووا تحت راية جمعية قدماء الصادقية سنة ١٩٠٥ بزعامة علي باشا حامية الى ملاحظة (أن الاصـلاح الحق الذي يتمثـل في تفريق السلط والتفويض للقضـاة التونسيين في محكمتي الاستئنـاف المدنيـة والجناحية وفي محكمة الجنايات ، لم يظهر له اثر ، خاصة بعد ان ازداد ضراوة تدخل الكاتب العام للدولة التونسية ومدير العدلية في الاحكام عن طريق المعاريض) والى التنديد (بضعف الاجراءات المدنية والجزائية، وبالهوة التي ما زالت العدلية التونسية ترزح فيها نتيجة لما كانت تعمد اليه السلطات الاستعمارية من انتهاك لحرمة القضاء الوطني واستيلاء علـى اختصاصاته لفائدة المحاكم الفرنسية ، مؤكدين بأن نشر القوانين لا يكفي لاصلاح الأوضاع ان لم تصحبه الضمانـات الكفيلـة بتطبيق مضمون تلك القوانين •

فقد كتب علي باش حامية في جريـدة التونسي (أن القضاء من المؤسسات الاجتمـاعية التي تتأثر اكثـر من غيرهـا بالتطـور الذهني والاقتصادي لشعب ما ، وكل شعب متطـور هو في أشـد الحاجة الى قوانين جديدة والى ضمانات جديدة لتطبيق تلك القوانين •

وقد آزره في ذلك حسن القلاتي الذي طالب على صفحات نفس المجلة (باعداد برنامج كامل في آجال مضبوطة للاصلاحات المزمعانجازها بشأن إعادة تنظيم القضاء الوطني على أن يرتكز الاصلاح على القواعد التاليـة :

١ ــ حتمية التفريق بين السلطتين القضائية والادارية •

٢ ــ أن القضاء الذي يصدر باسـم سمو الباي لا ينبغـي مطلقا أن يظل محبوسا •

٣ ـ وجوب انسحاب وسيلة الطعن بالاستئناف على سائر القضايا .

٤ ـ لا يمكن أن يوجد قضاء بدون مجلات قانونية وبدون قضاة قادرين على فهم تلك المجلات وعلى تطبيقها .

٥ ـ يجب أن يشتمل القضاء التونسي على ثلاثة أصناف للمحاكم .

أ ـ محاكم النواحي .

ب ـ محاكم جهوية .

ج ـ محكمة الاستئناف بالوزارة أو دائرة تعقيب ، وان تطبيق هذه المباديء العامة التي لا يمكن أن تتنازل عنها قيد أنملة ، يمنحنا قضاء سليما[٧] .

واستجابة لهذه الحملة الصحفية وللتدخلات الشخصية التي كان يقوم بها بعض الوطنيين من ذوي النفوذ لدى السلط الحاكمة ، وعلى الخصوص منهم الطاهر خير الدين إبن المصلح خير الدين باشا ، صدر الأمر العلي المؤرخ في ٢٤ ديسمبر ١٩١٠ بنشر قانون المرافعات المدنية المنقح بأمر ٢٦ أفريل ١٩٢١ ، كما صدر الأمر العلي المؤرخ في سنة ١٩٢٠ بتأسيس مدرسة الحقوق لتخريج القضاة الفنيين ، والامر العلي المؤرخ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢١ والقاضي بسن مجلة المرافعات الجنائية وبتفويض الباي لسلطاته في مراقبة معاريض الاحكام الجزائية ، واصدار الأمر بتنفيذها من عدمه ، الى المحاكم المختصة بنظر القضايا الجزائية ، كما صدر أمر علي في ٢٤ افريل ١٩٢١ بتأسيس وزارة العدل وفصل صلاحياتها القضائية عن السلط الادارية ، وفي ١٤ جويلية ١٩٢٢ صدرت أربعة أوامر علية إحداها قاضيا بابطال وضيفة الكاتب العام للحكومة التونسية،

---

(٧) يراجع الاستهلال الذي كتبه الاستاذ الهادي المدني بالعدد الرابع لسنة ١٩٧١ من مجلة القضاء والتشريع ص ١٩ وما بعدها .

واسناد صلاحياتها الى مدير الداخلية ، والى مدير الاقسام العدلية . وإثنان منها قاضيان بضبط وظائف كل من الادارتين ، والرابع قاض بتأسيس إدارة العدلية مستقلة عن الادارة العامة للداخلية اداريا وماديا .

وعلى الرغم من مطالبة النخبة التونسية في تلك المرحلة ــ وضمن إمكانياتها ووسائل عملها المحدودة ــ برفع المظالم الضريبية عن كاهل الشعب التونسي وباصلاح التعليم وتأسيسه على مقومات وطنية وإقرار الحق النقابي للتجمعات العمالية التونسية وإصلاح القضاء الوطني وتوسيع صلاحياته ، وتأكيد حقوقه الأدبية والمادية وايكال السلطة التشريعية لممثلي الشعب ضمن مجلس دستوري منتخب ،وايجاد النصوص التشريعية التي تقتضيها حاجة المجتمع التونسي للاصلاح والرعاية على أن تركز أحكامها على مقتضيات الشريعة الاسلامية والأعراف التونسية ،وما يصحب هذه المساعي أحيانا من مواجهة نقدية وتشهيرية للتشاريع التوطينية المغرضة التي تسنها السلط الاستعمارية مباشرة او بواسطة الباي .

فان عموم التشاريع التي سنت في هذه المرحلة والتي شارك في اعداد بعض مشاريعها مجموعة من القضاة والاطارات القانونية التونسية انئذ كانت تمتاز :

أ ــ بتشتت عناصرها وتوزعها بين أحكام طائفية شرعية او موسوية وأحكام أجنبية أو ملكية تستجيب لأحداث جزئية ومصالح موقوتة مختلفة الطابع والمبنى لا تصدر عن ارادة واحدة ولا لغرض قومي عام .

ب ــ بصدورها عن ارادة فوقية لا ارتباط لها بارادة الشعب واختياراته ومثله ومصالحه ، اذ كانت تنبثق عن نظر فوقي يؤمن بحقه في التوجيه دون معقب ، وبواجب الآخرين في الامتثال له دون مناقشة او

رفض لما يسنه من أوامر عامة أو خاصة تقتضيها ضروفه الملكية والاستعمارية بحسب ما اذا كان مصدر الأمر ملكا او مقيما عاما .

ج ـ بتبلورها في إطار أجنبي عن مصلحة الشعب يهدف الى قهر ارادته وتسخير طاقته وانتزاع ثرواته واذابة شخصيته في بوتقة الاهداف الاستعمارية العليا التي تسعى للمس بمعالم الذاتية الوطنية من لغة ودين وتاريخ ، وتركيز دعائم الاستيطان والتبعية الدائمة للدولة الحامية وجالياتها الاروبية الماسكة بزمام الحظوظ القومية اقتصادية كانت أو ادارية او تربوية .

د ـ بصياغتها في نصوص مستوردة المضمون والبناء لا علاقة لها ، بأرضية المصطلح التونسي ومحتواه تتناول مواضيعها من أفق أجنبي بعيد الصلة عن المؤسسات والمفاهيم التونسية ومبانيها التشريعية الاصيلة .

الفصل الرابع : نشاط الهيكل القضائي للمحافظة على الذاتية الوطنية:

وكانت هذه المشاغل ونداءات الاصلاح تستجيب لأحاسيس القضاة التونسيين اللذين طالما أعنتهم نظام الامتيازات القنصلية والسيادة المزدوجة بما اقتطعه من اختصاصات القضاء التونسي ، وما انتحله من تشاريع لتدعيم المصالح الاجنبية والنيل من الشعور القومي وايكال النظر في قضايا المواطنين لسلطات ملكية غير بصيرة حينا وأجنبية أحيانا[8] وقد ضؤل كيان القضاء القومي وحددت سلطاته بمحاكم البايات والدايات والقواد التي تناولت فصل النوازل بأوجه ما أنزل الله بها من سلطان ، فعممت الاستثناءات والامتيازات وسلبت القضاء الاصلي سلطته التنفيذية وهي روح الصفة الحكمية ، فأصبح بروز آثار الأحكام الشرعية في

(٨) يراجع خطاب السيد موسى الكاظم بن عاشور رئيس محكمة التعقيب بمناسبة افتتاح السنة القضائية وتوحيد القضاء لسنة ١٩٥٧ المنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة .

الحيز الفعلي منوطا بالشهوات والأهواء ، وأمتدت أيدي المكاتب الادارية في الأقسام الى تعاطي القضاء فأرهقت الشعب وسامته الخسف والجور ، وانتصب المحاكم القنصلية من جهتها تذل ابناء البلاد لصولة الأجانب وتعبث بمصالحهم لتحقيق ما للاغيار من منافع غير مشروعة ، وكان الأمل أن يرجع عهد الأمان للقضاء التونسي ما عبثت به سلطة الملك المطلق من صلاحياته وإستقلاله ، إلا أن المكائد السياسية وانتصاب الرقابة الادارية فوق المجالس القضائية ، واستئثارها بحق إبرام الأحكام بطريقة المعاريض الملكية ، حال دون تطبيق أصوله القضائية فبقيت المحاكم القنصلية وأضيفت إليها بدعة المحاكم المختلطة ، وعلى هذا الأساس بنى الاستعمار الفرنسي سياسته في القضاء ، فاعتبر سيادة القضاء التونسي قاصرة محدودة ، فأنشأ على الأرض التونسية محكمة فرنسية يحتج لشطر من حقها بالامتيازات القنصلية وللشطر الآخر بأوهام السيادة المزدوجة التي كانت تسيطر على السياسة الاستعمارية ، فافتكت المحكمة الدخيلة من مراجع نظر المحكمة الاصلية القضايا التي يكون أحد طرفيها غير تونسي وقضايا المنازعات العقارية في الملك المسجل وغير ذلك ، حتى اصبحت المحاكم الفرنسية تقضي بين طرفين مسلمين في نوازل الحالة الشخصية ، وتقضي بين تونسيين في نزاع حول أرض تونسية ، وبعد ان إستأثر القضاء الأجنبي بما خصص به نفسه ، رد الفواضل على القضاء التونسي ، الذي أصبح منهوكا مشطورا بفصل أحد شقيه عن الآخر ، وسلب القوة التنفيذية عن أحكام القضاء الشرعي والزامه في المظاهر والاجراءات أشكالا جامدة بائدة تقضي به طبعا الى الاضمحلال ، بالحط من رتبة المحاكم العدلية وبوضعها تحت رقابة حكام فرنسيين يشغلون مناصب الادعاء العمومي زيادة على إلزام المحاكم العدلية بالصبغة الادارية المنافية لحرمة القضاء » .

فكان ذلك مدعاة للشعور بالغضب والحسرة لدى القضاة التونسيين،

وحافزا لهم على مواجهة مظاهر الاستبداد والتعسف التي يلقاها المواطن التونسي عن طريق السلط المستبدة أو الهياكل الاستعمارية المفتعلة ، بمجموعة من المواقف الوطنية المصممة والمركزة على دفع شبه القصور والاقليمية والتعسف التي كان يلحقها باطلا المؤرخون الاروبيون المغرضون بأحكام التشريع الاسلامي والقضاء الاسلامي ، زعما بأن ما يحتجون به من مظالم الملك المطلق ومن قصص الاستبداد الشخصي الذي يركتبه بعض ملوك المسلمين ازاء بعض الأجانب إنما يجد سنده في أحكام الشريعة الاسلامية ، وهو ما يدعو في نظرهم المغرض الى قصر نظر المحاكم الاسلامية دون تناول أحوال الأجانب وقضاياهم ، وذلك تبريرا لظهور المحاكم القنصلية بالبلاد ، الاسلامية ولما أفرطت فيه من تصرف وتجاوز للسلط حتى لكأنها دول مستقلة داخل الدولة المضيفة .

فأكد أولائك القضاة بأن تلك المزاعم لا سند لها من التشريع الاسلامي وأن ما أتاه النظام القنصلي والاستعماري هو أفحش ظلما وأسوأ قصدا مما أسند لملوك الاطلاق من مظالم لا تبرر على اي حال اغتصاب سيادة الدولة ، واقتطاع ثرواتها لفائدة المصالح الاجنبية خاصة (بعد أن تغيرت الاوضاع ابتداء من ظهور عهد الأمان ، واصبح تشريعنا ونظام محاكمنا يقارب شيئا فشيئا ما هو قائم في الاقطار الاروبية ، مما لم يبق معه مبرر لنظام الامتيازات القنصلية ولا للنظام القضائي الذي انشأه الحكم الاستعماري ولا لسيطرة الدولة الحامية على ميادين التشريع والتنفيذ والقضاء)[٩] ويسعوا جهدهم الى التمسك بالذاتية القومية وابراز معالمها وخصائصها في مختلف تصرفاتهم ومبادراتهم فلم يألوا جهدا في :

---

(٩) يراجع خطاب السيد احمد المستيري وزير العدل بمناسبة افتتاح السنة القضائية وتوحيد القضاء سنة ١٩٥٧ . والمنشور بالمرجع السابق ص ١٣٠ .

أ ـ ابراز شخصية القاضي الوطني :

١ ـ من خلال مواجهتهم المصالح الاستعمارية والكشف عن احابيلها المصطنعة فيما تنشره من قضايا ضد التونسيين بغرض ارهاقهم والضرب على روح المبادرة والرفض فيهم ، فكان القضاة التونسيون يأبون مجاراة السلطة ويحتكمون الى قواعد العدل ومبادىء الضمير القومي فيما يصدرون من قرارات •

٢ ـ ومن خلال تمسكهم بالأحكام الشرعية والعادات القومية فيما يأتونه من أوجه لفصل القضايا المعروضة عليهم ، وفيما يبدونه من أوجه التحليل والنقد لمشاريع القوانين ، ونصوصها بغرض انهاضها على مباديء التشريع الاسلامي ومألوف العرف التونسي ، حتى لا تنسخ الذاتية القومية في التشاريع المستوردة لذلك كانوا لا يترددون في الجهر باعتبار المحاكم الفرنسية ذات طبيعة استثنائية ، وفي التمسك والتنويه بتراتيب واحكام مجموعة القوانين الناشئة عن عهد الامان •

واعتبارها نافذة المفعول[10] وفي المطالبة باسناد سلط الاشراف على

---

(١٠) يراجع القرار الاستئنافي الفرنسي الصادر عن محكمة الاستئناف الفرنسية بالجزائر ـ بموجب احالة من محكمة التعقيب بباريس ـ في ٥ جوان ١٩٤٩ والقاضي : (بان الدستور السياسي يحتفظ بوجوده القانوني ما لم يقع الغاؤه بنص صريح وان الامر العلي الصادر في ٣٠ افريل ١٨٦٤ ، انما جاء بايقاف سير المجلس الاعلى الذي احدثه دستور عهد الامان المؤسس سنة ١٨٦١ ، واننا لو فرضنا ان بعض عناصر عهد الامان قد اخذ عليها الدهر فان ذلك الدستور لم يقع ابطاله ، وان كثيرا من مقتضيات هذا الدستور كقانون ال بيت المملكة الحسينيين والترتيب الوراثي للعرش وسلطة ونفوذ رئيس الدولة ودخل العائلة المالكة من ميزان الدولة لا تزال عاملة نافذة الى اليوم ، الخ ...) حسب ترجمة للاستاذ محمد بن عمار رئيس ودادية الحكام التونسيين ادرجت بنشرة القضاء التونسي لسنة ١٩٥٠ ص ٢٥ .

ويراجع ايضا القرار عدد ١٠٣٤ الصادر عن محكمة التعقيب التونسية في ١٤ـ٣ـ١٩٥٧ والقاضي (بان دستور عهد الامان كان عاملا ونافذا فيما

←

المحاكم التونسية من مدعي عمومي ورئيس محكمة تعقيب وكاتب عـام للعدلية الى حكام تونسيين .

٣ ــ وحرصهم الشديد على تدعيم حرية الاجتهاد القاضي التونسي وتركيز وجهة نظره في مقابلة ما قد يتعرض اله من ضغوط سلط الاشراف القضائي او الاداري على وجدانه سواء كان بصفته عضوا ضمن المحاكم التونسية او ضمن المحاكم المختلطة ، حتى انه كان يؤثر عن بعضهم انـه كان يأبى ابداء رأيه في المجالس المختلطة الا بعد ان تعرب لديه الوثائق ويناقش رأيه في القضايا بكل جديـة ، كما كـان البعض الآخر يرفض الامتثال لتوجيهات الكاتب العام للحكومة المدرجة على لائحـة المعروض فيما يظهر له من اوجه الحكم .

ولتحقيق الاستمرار في هذا المنحى وضمان الـرواج له والتـداول حوله ، احدثت ودادية للقضاة التونسيين تعمل على جمع كلمتهم وتمييـز منحاهم والدفاع عن مصالحهم المهنية والمادية والأدبيـة ، وعلى تدعيـم

يتعلق بالجرائم التي يرتكبها افراد العائلة المالكة ، اذ لم يقع ابطاله بالفصـل الثاني من مجلة المرافعات الجنائية الصادر بها الامر المؤرخ في ٣٠ ديسمبـر ١٩٢١ ولم يقع العدول عن ذلك الدستور بالنسبة لهذا الموضوع الا بالامـر المؤرخ في ٣١ ماي ١٩٥٦ وبذلك لم تقع مخالفة المبدأ القائل بان لا عقاب بدون نص سابق الوضع ، والعقاب المسلط موكول لاجتهاد الملك وحده وبذلك فلا حصانة لافراد العائلة المالكة من العقاب . وانما دستور عهد الامان لسنة ١٨٦١ جاء بضبط الاجراءات الخاصة بتتبعهم ومحاكمتهم ، لكن امر ٣١ ماي ١٩٥٦ نسخ هذه الاجراءات الخاصة وأحال على اجراءات المرافعات بالنسبة لهـم .

(١٠) المعروض هو تلخيص اوراق الدعوى والجواب عنهـا ، والشهادات والقرائن القائمة الفائدة كل واحد من الخصمين والاتيان على بعض ملاحظات الدفاع ، وعرضه من قبل الحاكم في قالب مرسوم ملكي يعرض على ختـم الامير بعد ان ينص الحاكم على نص الحكم مما يجعل الاحكام حتى سنة ١٩٢٢ مقيدة برأي الامير ولا حق للحاكم بالبت فيها (محاضرة حول القضاء التونسي . لعمر الستاري منشورة بنشرة القضاء التونسي لسنة ١٩٤٩ ص ٩٢) .

شعور الكمال والاستكمال في نفوسهم وتحريك كوامن ثقتهم بأنفسهم واعتمادهم على جهودهم والتفافهم حول الودادية التي منحتهم القـوة والاعتزاز •

ب ـ السعي لتطوير القضاء التونسي عن طريق =

١ ـ الدعوة الى توسيع صلاحيات المحاكم الشرعية والوطنيةوتنمية اطارها الفني ومراكز عملها فطالبوا ضمن لوائح قدمت للبـاي ولوزير العدل وللكاتب العام للحكومة ، باسترداد ما للقضاء الوطني من الحـق الطبيعي في النظر في الاملاك المسجلة والقضايا السياسية وقضايا العائلة المالكة ، وقضايا ادارة البريد والسكك الحديدية وقضايا فواجع العمـل والدفاتر التجارية ، وباعتبار وظائف الادعاء العمومي من الوظائفالمفتوحة في وجه الحكام التونسيين ، الى درجة الاحتجاج لدى وزارة الخارجية الفرنسية على القرار السفيري المؤرخ في ٢١ ماي ١٩٥١ والقاضي بقصر تلك الوظائف على ذوي الجنسية الفرنسية ، وبتوسيع المؤسسة العدلية عن طريق احداث دائرة جنائية ثانية ودوائر استئنائية بالآفاق ، ودوائر اخرى بمحكمة الدريبة وبانجاز قانون اعوان التنفيذ ، والقانون الأساسي للحكام التونسيين الخ •[١١] وبتوسيع نطاق اليد العاملة والاكثار فيعدد الحكام لمجابهة الاحتياجات المتزايدة الناشئة عن تطور القضايا وكثرتهـا بالمقارنة لما عليه العدد الحالي من الحكام •

٢ ـ المطالبة بتوفير المهيئات الماديةوالاعتبارية لعمل القضاءالتونسي على اساس التنظير بينه وبين المحاكم الفرنسية ذات الطابع الاستثنائي من جهة تخليص تنفيذ أحكامها من مراقبة سلط الاشراف الاداري وتوسيع افاق الترشح للخطط القضائية خاصة بالنسبة للمحرزيـن على شهـادة

---

(١١) التقرير الادبي لمجلس وداديـة الحكام التونسيين لسنة ١٩٥٠ المنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة ص ١١٣ •

الاجازة في الحقوق التونسية اللذين يجمعون في معظم الحالات بين اللغتين العربية والفرنسية ، واختزال سلم الرتب ، ورفع المرتبات وتقرير غرامة الزي وتضعيف الغرامة الفنية وتعميم وسائل المخاطبة اللاسلكية بمكاتب القضاة ، واستبدال الاثاث المهتري في بعض مكاتب الحكام بأثاث يتناسب مع مهمة القضاء السامية . وتخفيف الاعباء الشكلية للنشاط المهني على القاضي من كتابة محاضر ومتابعة اجراءات التداعي وتلخيص وقائع الدعوى بالاضافة الى الحكم وتسنيد الاحكام .

٣ ـ اثارة دواعي التكافؤ لدى القاضي الوطني فيما بينه وبين القاضي الفرنسي لغويا وفنيا وذلك من خلال التأكيد على رفع المستوى التأهيلي والعلمي للحاكم التونسي عن طريق عقد الندوات العلمية وتنظيم المحاضرات المختصة وتوفير مكتبة للمراجع الشرعية والقانونية وتشجيع حركة البحث والمدارسة وتجميع نصوص القوانين التونسيةوتوسيع نطاق دروس الاجازة في الحقوق التونسية بما يلائم ظروف التطور العالمي وضهور الاحتياج في الاوساط العدلية لتحرير الجنسيات وتأثيرها على مرجع النظر وبعض المسائل المالية والاقتصادية والتجارية(١٢) .

٤ ـ اعداد الاحكام الشرعية في صياغة قانونية فنية مع المقابلة بين أحكام المذاهب الفقهية السائدة ضمن مواد متناضرة العدد والموضوع ، وخاصة في ماضي الاستحقاق والاحوال الشخصية بغرض تعصير المادة الفقهية وتيسير تناولها على قضاة المحاكمالشرعية وفق الارجحمن المذهبين المالكي والحنفي ، وتمكين قاضي المذهب من التعرف على حكم المذهب الآخر من المدونة عند مطالبته بالحكم وفقه ، وبقصد بيان ملاءمةالأحكام الشرعية المنضبطة لمقتضيات العصر في المجالين الاجرائي والموضوعي ، وكنتيجة لذلك اسس قانون للمرافعات الشرعية ، ولائحة الأحكام

(١٢) يراجع التقرير الادبي لمجلس ودادية الحكام التونسيين لسنة ١٩٤٨ الذي اعدهمستشار محكمة التعقيب السيدالصادق الجزيريوالمنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة ص ١٠٧ وما بعدها .

الشرعية لمادتي الاستحقاق والأحوال الشخصيــة في المذهبـين المالكــي والحنفي سنة ١٩٤٩ ٠

الفصل الخامس :

دور الحركة الدستورية في بلورة الاصلاح التشريعي

وقد تدعمت الحركة الوطنية بضهور الحزب الحر الدستوري سنــة ١٩٢٠ الذي كان يطالب بضرورة تفريق السـلط حتى أنه عبـر عن ذلك بواسطة رئيس الوفد الحزبي الذي مثل امام الباي في ٢٠ جوان ١٩٢٠ ضمن خطاب جاء فيه على الخصوص (ان الامة مجمعة الارادة على أن تكون مسيرة على ما كان آباؤها من قبل بدستور محرر يعلن ويضمــن الحقوق والحريات السياسية وفصل السلط عن بعضها) ٠

وما ان ظهرت جماعة الشبان الثوريين بزعامة الاستاذ الحبيب بورقيبة ضمن هيكل الحزب الدستوري حتى برزت معالم جديدة للحركة الوطنية اشد عمقا واصالة مما سبقها ، اتضحت ميزاتها الثورية الخاصة فيما نادت به ضمن جريدة صوت التونسي التي صدرت ابتداء من غرة اكتوبر ١٩٣٠ وجريدة العمل التونسي التي صدرت ابتداء من غرة نوفمبر ١٩٣٢ سواء كان ذلك قبل الانفصال او بعده ، من مقاومة سياسة الاوامر العلية وازالة امتيازات الاروبيين ، وتعميم التعليم ، ومنح التونسيين حق تولي المناصب الادارية ومقاومة حركة تعمير الاراضي ، والقضاء على نظـام الخماسة ، والدفاع عن حرية الصحافة وحرية الاجتماعات ، وحفظ العدلية التونسية باعتبارها المؤسسة الوحيدة التي سلمت من معول الحمايــة ، وضرورة احترام القانون واحترام الافراد الساهرين على تطبيقه ، ومواجهة كــل اعتداء صارخ على القضاء التونسي قد يهدف الى انتزاع صلاحياته(١٣) ٠

---

(١٣) يراجع كتاب (بورقيبة او مولد امة) لفيلكس قاراس ، تعريب عبد القادر المهيري ومن معه ، ص ٥٠ وما بعدها .

ثم لا تلبث هذه الجماعة ان تتساءل ، (لقد حررت فرنسا شعوب أروبا الوسطى فلم لا تحرر شعبا صديقا لها ، منح لها دماءه ، ان الآمال القومية لا تتحقق الا بفضل الشعب نفسه الذي ما أنفكت تخونه أقلية من ذوي الامتيازات اولائك الذين يلبسون ثياب الحرير المرصعة بالذهب والفضة)(١٤) وان تحتج على اتخاذ الفرنسيين لتونس كسوق لتجارتهم (يستوردون من ايطاليا الطماطم المصبرة بينما يبيع سكان الرأس الطيب بضاعتهم بأبخس الاثمان ، كما يستوردون التمر من مدينة البصرة ، بينما يتخبط أهل الجريد في فقر شديد ، وأقامت الزيوت المستوردة مقام زيت الزيتون ، واستوردت الاحذية من تشيكسلوفاكيا ، فاضطر الحذاؤون التونسيون الى البطالة ، اما البنوك فانها لا تمد بالاموال الا الأوروبيين ليشتروا بأثمان بخسة الشركات التونسية المشرفة على الافلاس ، كما يستوردون المصنوعات الأجنبية بأثمان بخسة لتنهار الصناعة التونسية ، ولن يعول على اعضاء المجلس الكبير لازالة الفساد اذ هم اناس ذوو عقلية بالية ، ديدنهم النفاق ، وغايتهم احتلال المناصب العالية ، بل يجب انتنبثق قوى جديدة مثل قوى الطبقة الشغيلة وقوى الشباب)(١٥) .

وقد أعربت هذه الحركة عن تطلعاتها الجديدة في مناهج عملية مستحدثة ، فتحولت عن مخاطبة القصر الملكي والسلط الحاكمة بشاكلها وآمالها ، وتحولت بالدعوة الوطنية من مظهر التحكم والتردد ، وجاوزت حدود الشرعية الصورية التي اتخذت قيدا الارادة الامة ، الى بناء استراتيجية دقيقة شاملة تعتمد : الارادة الصلبة في توضيح الاهداف الاساسية للعمل الوطني ، وضبط خطة ثورية متطورة ومتفتحة له ، وبلورة الارادة الشعبية من خلال المساهمة في العمل الوطني ، وتوسيع

---

(١٤) يراجع العدد الاول من جريدة (صوت التونسي) الصادر في غرة اكتوبر ١٩٣٠ .

(١٥) يراجع العدد الاول من جريدة (العمل التونسي) الصادر في غرة نوفمبر ١٣٣٢ .

آفاق المفاهيم الوطنية وتعميق جذورها في مختلف الطبقات الشعبية ، وتحويل مناهج العمل بين يدي الشعب الى طاقة فعالة مؤمنة ومنضبطة بمبادئها السامية .

الأمر الذي اعطى ابعادا جديدة للعمل الوطني ، بحيث وجد فيه العامل والمزارع والمثقف التونسي أصالته ورسالته وآماله الكبرى بما جعل الحركة الوطنية قطب رحى مختلف الاهتمامات ومنارها ، تستوعب كافة مشاعر القلق والسخط والثورة لدى التونسيين ضد العبودية والتخلف والطغيان ، مما ساعد على تكوين الجامعة القومية وبروز معالمها من خلال نشاط كل الطاقات الحية في الامة ، وقضى على اسطورة التناقضات الطائفية والمعارضات القبلية التي كانت السلط الاستعمارية تستغلها لاثارة الفتن بين المجموعات الوطنية ، وكشف خطر استيعاب الدولة الحامية لارادتنافي التحرر عن طريق الصهر في المؤسسات المزدوجة، والتلويح بالامتيازات والمنافع الخاصة ، وترجم أحاسيس الامة ومثلها الطموحة في مبادىء اساسية واضحة ، تتمثل في المحافظة على مقوماتها الذاتية من لغة ودين وتاريخ وآمال ، وفي تحرير الارادة الوطنية من القيود الخارجية والداخلية التي تكبل مصيرها وتطمس اختياراتها التلقائية ، وفي تخليص الوطن من الاستعمار السياسي والتوطيني للدولة الغاصبة ، وفي تحقيق العدالة الاجتماعية والتحول الاقتصادي لعناصر الثروة القومية ، وفي تسخير دواليب الدولة وهياكلها الادارية والسياسية لبعث تطور اجتماعي وتربوي لكافة وحدات الامة .

وكان الحزب قد اعتمد في توضيح هذه الأهداف ، وتركيزالارادة القومية حولها اربعة مناهج :

١ ــ الاتصال المباشر بالمجموعات الوطنية في مواطن تمركزها ، ومشاركتها أحاسيسها واهتماماتها ، وتقييم أسباب ضعفها وتعاستها وخذلانها ، ومحاورتها حول مبادىء الحزب وطرائق الكفاح الوطني.

٢ ــ تركيز خلايا حزبية في مختلف مناطق البلاد تحقق استمرار العلاقة وحيوية المتابعة بين الحزب والمجموعات الوطنية •

٣ ــ تفاعل الاهداف الحزبية مع مشاعر الطبقات الكادحة والطبقة المثقفة ، وادمان منضماتهما في صلب الحركة الوطنية ، مما اكسبها قوة وامتدادا حيويا في شتى المصالح الادارية والاهلية •

٤ ــ اعتماد الوسائل الاعلامية لكشف الاعيب السلط الحاكمة بين يدي الرأي العام القومي وتوجيهه وطمأنة الجاليات الاجنبية والسلط الدولية بشرعية الكفاح الوطني •

وقد تبلورت معالم الذاتية القومية في النطاق الاصلاحي لدى القادة الوطنيين فشكلوها في جملة من الحلول نادى بها الحزب(١٦) وتبنتها المجموعات الوطنية كالاتحاد العام التونسي للشغل (الذي اقترن كفاحه بكفاح الحركة الوطنية فتعرض مناضلوه الى ما تعرض اليه الزعماء الوطنيون من اضطهاد ونفي في كفاحهم ضد الاستعمار ، ولم يتيسر للحركة النقابية ان تسترجع نشاطها الا بعيد الحرب العالمية الثانية على يد أحد ابنائها وهو المرحوم فرحات حشاد مؤسس الاتحاد العام التونسي للشغل ، والذي عرفته تونس وعرفه العالم لا كقائد نقابي فحسب بل كزعيم وطني امن بان لا حقوق للعمال التونسيين ولا كرامة لهم ما لم يعترف لوطنهم بحقه في السيادة والاستقلال) •

وتتمثل تلك المباديء في المناداة :

١ ــ بضرورة تطوير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية بصفة شاملة تحقق للعمل الاصلاحي الاستمرار والعمق ، وتمكن من تحويل المشاعر الدينية الغزيرة الى طاقة فعالة لتدعيم مناهجنا الاصلاحية ونصرة

---

(١٦) تراجع مجموعة خطب الرئيس بورقيبة المنشورة من طرف وزارة الثقافة والاخبار .

قضايانا الوطنية ، وبان لا شيء يوفر اسباب القوة لأمة من الامم ان لم تستند لطاقات علمية وتقنية تكسبها (القيمة) وتحولها الى ثروة حية نافعة ، خاصة وان الاسلام الذي هو وحدة متماسكة بين شؤون الدنيا والدين ، ودين فكر وعمل لا يحول دون ذالك ، ضرورة أنه حث على إعمال الرأي والاجتهاد في جميع الشؤون الدينية والدنيوية حتى تضمن لحياتنا إطراد التقدم والازدهار ونصون ديننا من التحجر والقصور عن استيعاب شؤون العصر والامة .

٢ ـ وبتركيز الاهتمام بالطاقات الشابة من المجتمع التونسي وتوفير الغذاء الفكري والعاطفي والمادي لها ، على اساس من الاصلاح والواقعية والشمول ، وذلك بمراجعة الدور التربوي للبيئات الثلاث في توجيه الشباب وتنشيط عوامل التكامل بينها ، وتدعيم الشعور فيه بالمسؤولية والأصالة والشخصية ، وتغيير المفاهيم الاجتماعية والآفاق الفكرية لديه ، وتأصيل القيم الأخلاقية والوطنية فيه ، وحمايته من التردي في مواطن الأحقاد والاغراض والشعارات والعواطف المشبوبة ، حتى تجد هذه الأمة من يحفظ مناعتها واستقرارها ، ويكبح جماح النزوات الشاذةفيها عندما تشتبه عليها السبل ، ولا يتم ذلك الا بتهذيب أداة التفكيرواصلاح الأسرة وتعميم الثقافة وتحسين مستوى اغلبية القوى الحية في الأمة ، وتنشيط دور منظمات الشباب في الاستيعاب والحيوية ، وتوخي الصرامة في إصلاح المجتمع عند الاقتضاء صيانة للأخلاق العامة من التدهور والتفسخ .

٣ ـ وبمواجهة المظالم الاجتماعية الناشئة عن اختلال الوظائف الاجتماعية للأفراد والمجموعات سواء كان ذلك على أساس العمل او الجنس او الثقافة او السكنى مما يحتم تغيير النظر الى دور المرأة في المجتمع ورفع المظالم التي كبلت طاقتها مئات السنين وذلك بتوعية المرأة وتعديل نظرة الرجل اليها ، والقيام بتقييم صحيح لحقوقها وواجباتها ،

وتخليصها من استبداد الوالدين وتعسف الزوج ومساعدتها على تحقيق شخصيتها في اختيار منهج الحياة الذي تريد ، دون ارهاق لها بالزيجات المبكرة من الغرباء او انجاب العدد الوفير من الأطفال أو حرمانها من العلم والثقافة وتكبيل ارادتها في خدمة المجتمع ومشاركة الرجل اهتماماته .

كما يتحتم تغيير النظر الى العامل والمزارع وتقدير دورهما في النهضة القومية ، وتنمية الانتاج القومي ، واقرار حقوقهما الأساسية ازاء الممول وصاحب الارض ، ومساعدتهما بمختلف الخدمات الاجتماعية للرفع من مستواهما المهني والفكري والاجتماعي ، وفسح الفرص أمامهما لتحقيق فرحة الحياة لابنائهما .

٤ ـ بتركيز مقومات السيادة الوطنية واقرار هياكل اساسية وتنظيمية لنشاط دستوري يمنح الشعب فيه حق تقدير اختياراته ومتابعة سلطه وتشخيص سيادته من خلال مجلس برلماني منتخب وحكومة وطنية تمثل رغبات الشعب وآماله ، وقضاء وطني يبلور ارادة الامة في عدالة سليمة وأمن دائم وحق محمي ، ومجالس ادارية وانتخابية ذات اشعاع بلدي او قومي ، وتنظيمات ادارية تعمل لفائدة الشعب وتستجيب لحاجياته وتطلعاته وتشاريع اصيلة ناهضة ذات محتوى قومي سليم .

٥ ـ باقرار خطة قومية ذات مضمون اصلاحي تقوم على جملة من التدابير والمعطيات المالية والعلمية والبشرية لتحقيق مراجعة شاملة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة بالبلاد ، بما يمكن من تطوير الثروة القومية وتنمية طاقتها الانتاجية وتكييف وسائل ضبطها وتوزيعها واحكام مناهج استثمارها وصرفها ، وبما يساعد على رفع المستوى الثقافي للامة ، ونشر التعليم بين افرادها وتطوير العلاقات الأسرية والاجتماعية بينهم ، وتكييف حاجيات المواطن وتطعيمها بالوسائل الحضارية المتعددة ، وتوفير مواطن الشغل والاستقرار له وتحقيق الحماية الصحية والمهنية له ولأفراد عائلته .

وهكذا يتضح المنحى الجديد للحركة الوطنية التي لم تعد تطالب النظام القائم بتحقيق اهدافها الاصلاحية وفق المفاهيم القومية بل اتجهت الى البحث عن شرعية النظام نفسه ورفض وجوده الغير الشرعي مستهدفة بذلك تحقيق التحرر الوطني والثورة على الحكمين الاستعماري والملكي ، والسمو بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادي الى اسمى معطياته الوطنية والانسانية •

وان لم يتح لهذه الحركة أن تؤثر على نحو بارز في السير التشريعي للنظام القديم فانها لم تلبث عندما مسكت بزمام الحكم في الدولة التونسية المتحررة أن أخصبت النشاط التشريعي بمجموعة من الولائد التي تنظم جوانب الحياة السياسية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية المواطن التونسي على نحو يتسم بالشمول ويحرص على تحقيق مميزات الذاتية القومية من خلال الأهداف الأصلاحية التي يسعى اليها التشريع القومي والتي انعكست على مجموعة التشاريع الوطنية للارادة عقب تحرر الارادة الوطنية من التحكم الاستعماري في ٢٠ مارس ١٩٥٦ بغرض :

أ ــ تونسة التشريع السائد وتوسيع مشمولاته •

ب ــ تكييف القوانين الجارية بالمعطيات الجديدة للمجتمع التونسي في الميدان السياسي والاقتصادي والاجتماعي على نحو يحقق لها الفعالية والاصلاح •

ج ــ تقنين المواد التي لم يشملها التقنين السابق تيسيرا لمهمة القاضي والمتقاضين •

د ــ توطيد أواصر الصداقة والتعاون بين تونس والبلدان الأجنبية عن طريق تنشيط الاتفاقيات القضائية معها •

هـ ــ توحيد المحاكم وتقريب القضاء من المتقاضين واكساء عمله

طابعا عصريا مرنا[17] .

وقد برز ذلك على الخصوص جملة من التشاريع الاساسية التي تهم حالة الاشخاص المدنية وتنظيم العلاقات الأسرية ومراجعة الوضعية العقارية بالبلاد عن طريق الغاء الأحباس واجبارية المسح العقاري واعادة النظر في أحكام الاستحقاق ، وتنظيم الهيكل القضائي وأجهزته المختلفة من محاكم ومحاماة واشهاد وتنفيذ ، وتنظيم علاقة الدولة بمواطنيها ، وتدعيم النشاط الاقتصادي عن طريق ضمان حق العامل وحمايته من فواجع الشغل وتنظيم علاقة التجار بغيرهم سواء كان ذلك في النطاق الوطني او في النطاق الدولي عن طريق مجلة التجارة ومجلة التجارة البحرية الى غير ذلك مما احتوته مجموعة التشريع التونسي الحديث من قوانين متعددة وهامة تحيط بجوانب نشاط المواطن التونسي في الداخل والخارج ضبطا واحكاما والتي ما زال البعض منها الى الآن قيد المراجعة والتقييم من طرف اللجان الفنية المنكبة على دراستها واعداد المشاريع المختلفة لتعديلها او الغائها وتعويضها بمشاريع اوفر مادة وأدق محتوى .

ويمكن تتبع تأثير الحركة الوطنية على تطور التشريع التونسي وتواكبهما عبر المراحل التاريخية الحديثة للأمة التونسية في مجال الأحوال الشخصية مثلا ، كما يظهر ذلك من الاستعراض التالي :

الفصل السادس :

أ ـ الأحوال الشخصية في عهد الحماية :

لذلك كان تقنين الأحوال الشخصية بتونس نتيجة اختيار ضروري أملته الظروف المصيرية لتقدم الامة وحتمية اقرار العدالة الاجتماعية بين أفرادها واعتبار المحيط الحضاري والدولي للانسان التونسي الجديد ،

---

(١٧) يراجع مجلد القضاء بعد عشر سنوات الصادر عن وزارة العدل لسنة ١٩٦٦ .

فقد كانت تتنازع تـونس سنة ١٩٥٦ جملـة من الظواهـر المتناقضـة الاتجاهات فمن الناحية القضائية بقي المشرع التونسي حتى ذلك التاريخ وعلى الرغم من دعوات ومشاريع اصلاح الاسرة التـي نادى بها دعـاة التحرر ، مغلول اليد بالمصالح الاستعمارية التي عملت على عرقلـة تطور الامة وتفتحها ، وبالاعتبارات الطائفية والدينيـة التي اكدت علـى مزج مصالحها الخاصة بالاصالةالقومية من خلال تمسكها بالتنظيمات الاجرائية، والاحكام الاصلية للأحوال الشخصية ، تلك الأحوال التي كانت تسـود طوائف ونحل المواطنين التونسيينعلى الرغم مما أصاب أحكامها منتشتت في الصلاحية وتناقض في الحلول الشرعية •

اذ كانت هناك ثلاثة انواع من محاكم الأحوال الشخصية :

ـ محاكم شرعيـة •
ـ محاكم يهوديـة •
ـ محاكم فرنسيـة •

فأما المحاكم الشرعية فقد كانت تبت في قضايا الأحوال الشخصيـة للمسلمين من المواطنين التونسيينوفق الأحكام الاسلامية المنبثة فيمضانها من مصادر الفقه ومراجعه ، إلا أن اختلاف المذاهب المعمول بهـا ، وتعدد آراء الفقهاء حتى في الجزئية الواحدة منها ، جعل الأحكام الفقهية غير معلومة لدى المتقاضين • بالاضافة الى حيـرة القاضي في اختيار الاوجه منها رغم جريان العمل بالتنصيصفي أمر توليته على ضرورة الأخذبمشهور المذهب ، ومع ذلك فقد ساد الخلاف بين القضاة في تقدير الأرجح الـى درجة اضطرت الباي في بعض القضايا الى اصدار امـره بالقضاء فيهـا بمذهب دون آخر ولو كان مستنده الفقهيمرجوحا أو ضعيفا وذلك ضمن شبه قانون يصدر عنه ولا ينشر بالجريدة الرسمية يسمى (بالمعروض) ، وكانت المحاكم الشرعية تتخذ شكل المحاكم الفردية بالمـدن الصغيرة ، وشكلالمحاكم المجلسية بالمدنالكبيرة مع محكمة عليا بالعاصمة تتركب من

غرفتين تختص احداهما بتطبيق المذهب الحنفي وتختص الاخرى بتطبيق المذهب المالكي ، وللطالب اختيار التقاضي على أحد المذهبين ، كما للمطلوب اختيار نقل الدعوى للغرفة الثانية مما يضطر قاضي التعهد الافتتاحي الى صرف الدعوى لتلك الغرفة نزولا عند رغبة المطلوب مما يؤدي الى بطء في القضاء وتبدد في الثروات وتصدع في العائلة ، الأمر الذي اضطر المشرع الى اصدار قانونين لتحديد الاختصاص الشخصي والاختصاص الموضوعي لهذه المحاكم ، صدر أولها في ٢ سبتمبر ١٩٤٨ وقضى الفصل الثاني منه بأن قضايا الأحوال الشخصية والمواريث التي تنظر فيها المحاكم الشرعية هي التي تكون بين المسلمين اللذين ليسوا برعايا ولا محتمين بدول غير اسلامية ، او بين تونسيين مسلمين وغيرهم في النزاعات المتعلقة بمواريث الرعايا التونسيين المسلمين أما القضايا الاستحقاقية فتنظر فيها سواء كانت بين الرعايا او بينهم وبين غيرهم ممن ليسوا برعايا . فاذا كانت بين رعايا دول غير اسلامية فلا تنظر فيها .

وأما القانون الثاني فقد صدر في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨ وقضى بتخصيص الغرفة المالكية بالنظر في قضايا الطلاق بالاعسار او بموجب الضرورة وصحة التبرع في المشاع ، والوصية للمعدوم وتخصيص الغرفة الحنفية بالنظر في شفعه الجوار واجبار الاب ابنته البكر البالغة على الزواج ، وصحة الوقف على النفس ، ويبقى حق الخيار للمطلوب في غير هذه الدعاوي ساري المفعول ، وان هذا الموقف نتيجة لدعوات الاصلاح الاجتماعي التي ظهرت بالعالم الاسلامي عامة ونادت بالنظر في بناء الأسرة الاسلامية وإحاطتها بضامانات الاستقرار والتطور وذلك بسبك أحكامها بما يلائم العصر صيغة ومضمونا ضمن مدونات قانونية مستقلة تشمل بالنظر كافة متساكني الدول الاسلامية .

وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى طلائع المثقفين التونسيين الذين عهدوا سنة ١٩٤٣ الى العلامة الشيخ عبد العزيز جعيط بتأليف مجلة

الأحوال الشرعية وتهيئة عناصرها وتحرير فصولها وعرضها على لجنة فنية منتخبة من كبار الحكام والمحامين وأساتذة القانون لتدارسها وابداء الرأي فيها ، وبعد اعداد الشيخ للمشروع وفحص اللجنة[18] له ومصادقتها عليه تداولته الايدي وعملت لأسباب شتى على وضع العراقيل المتنوعة دون إبرازه لحيز الوجود ، الى أن كان الاهتمام به من جديد سنة ١٩٥٦ كمصدر أساسي وتفسيري لمجلة الأحوال الشخصية موضوع حديثنا هذا .

أما محكمة الطائفة اليهودية القارة بتونس فقد كانت تنظر في كل ما يهم الأحوال الشخصية لليهود وفق احكام الشريعة الموسوية يستمدها الحبر من كتب الأصول دون تقيد باجراءات معينة أو تعريف بمصادر الحكم ، وإن كان ملزما باتباع اجراءات التوثيق الوارد بها أمر ٢٨جوان ١٩٣٨ في خصوص المسائل الزوجية والتبرعات بين اليهود ، وقد استمرت هذه المحكمة في عملها الى أن الغيت في مفتتح عهد الاستقلال بقانون ٢٧ سبتمبر ١٩٥٧ .

وأخيرا المحاكم الفرنسية التي كانت تشمل بنظرها مستوطني البلاد من الأجانب غير التونسيين وتجري في ضبط أحوالهم الشخصية القواعد والاجراءات المقررة بالقانون الفرنسي ، وقد ألغيت هذه المحاكم في فاتح جويلية ١٩٥٧ بمقتضى الاتفاقية المبرمة في ٩ مارس ١٩٥٧ بين الدولتين التونسية والفرنسية .

ب ـ مواطن الاصلاح في التشريع الشخصي الجديد ودواعيه : وقد وجدت هذه الدعوة للاصلاح صداها لدى المشرعين الاصلاحيين الذين واكبوا فترة التحرر السياسي في المجتمع العربي فانصرفوا الى اعادة صياغة أحكام الأحوال الشخصية في قوانين منفردة تتسم بسهولة المصطلح

---

(١٨) يراجع بحث (أحكام الزواج المستحدثة بالتشريع التونسي) لمحرر البحث المنشور بمجلة الحق التي صدرت عن اتحاد المحامين العرب لسنة ١٩٧٤ .

وايجاز العبارة ، ونقاوة مادتها من الاستهجان والاعجام ، وبتناول الكليات والمسائل العامة دون الفروع والجزئيات التي طفحت بها المصادر الفقهية في انتظار من يجلوها بالسبر والنظر من رجال القضاء والفقه ، كما تتسم بتطعيم الأحكام الشرعية ببعض المبادىء القانونية العامة التي تقتضيها ظروف الحياة المعاصرة دون ان تنافي الشريعة أو تعطل أحكامها ، وباجراء بعض القواعد الشرعية على وجه اللزوم بعد ان كانت على وجه الاباحة رعاية للمصلحة العامة ؛ وفي حدود ما تقتضيه المبادىء الأصولية للفقه الاسلامي • ففي تونس مثلا جرى تشريع الأحوال الشخصية على هذا النحو الاصلاحي من الشكل والمضمون الذي برز على الخصوص في :

منح المرأة حق التطليق انشاء •

وفي عدم اجبار الزوجة على مساكنة زوجها •

وفي منع تعدد الزوجات سواء على الصيغة القانونية او غيرها •

وفي تحديد اقصى امد الحمل بعام واحد •

وفي تحديد سن الرشد القانوني للرجل والمرأة بعشرين سنة •

وفي تحديد سن أدنى للزواج بسبعة عشر عاما للمرأة وبعشرين سنة للرجل الا اذا كانت هنالك ضرورة متأكدة بالنسبة للمرأة ، وذلك اعتبارا لما يستلزمه البناء الأسري من نضج عقلي وعاطفي لا يظن حصوله فيمن لم يبلغ تلك السن المذكورة ، فضلا عما ينجر عن الزواج المبكر من ارهاق للطاقة المادية والبدنية للعائلة بسبب تكاثر الاطفال الذين تعجز العائلة والمجتمع عن استيعابهم وتوفير حاجياتهم التربوية والصحية في العصر الحديث •

وفي اقرار نظام التبني لتحقيق التربية والعطف العائلي للمتشردين والأبناء الطبيعيين •

وفي تعميم قواعد الارث الواردة بمجلة الأحوال الشخصية على مختلف المتساكنين .

وفي اقرار مبدأ الرد في الميراث عند فقد العصبة .

وفي اعتبار مبدأ شخصية القوانين بالنسبة للاجانب واخضاع أحوالهم الشخصية لقانونهم الوطني .

كما برزت مظاهر هذا الاصلاح من ناحيتي التنظيم القضائي ومراجع النظر الحكمي في الحاق القضاء الشرعي بالقضاء العدلي وجعلهما قضاءا وطنيا موحدا في هيكل واحد ونسق واحد ينسجم مع مقتضيات التنظيم القضائي المقارن ، ويحقق العدالة ويقربها لجميع الافراد ، ويركزها على اسس متينة سليمة ويخضع كافة المواطنين التونسيين لنظر المحاكم الوطنية وقواعد الاحوال الشخصية الواردة بأمر ٣ اوت ١٩٥٦ بعد ان الغيت محكمة اليهود بقانون سبتمبر ٥٧ مما حقق للقضاء التونسي السيادة والاستقلال على الوجه الاكمل في ادق صلاحياته الوطنية ، وهكذا يتضح من استقراء الحلول المستحدثة التي انتهجها المشرع التونسي وسيرها ، ان الاصلاح كان يرمي لتحقيق جملة من الغايات الأساسية للنهوض بالمجتمع، يمكن تعيينها في :

تحديد النسل

استقرار العائلة وتطويرها

ضمان حقوق المرأة

رعاية القصر

الارتباط بمناهج الحضارة القومية

توحيد قانون الاسرة .

وتبرز هذه المقاصد الشرعية على نحو اوضح عند تحليل التعديلات الجديدة واستقصاء اثرها في كل حالة من حالات الأشخاص كما يتضح ذلك بالنسبة لحالة الزواج أو الطلاق او النفقة مثلا [١٩] .



(١٩) لمزيد الدرس والتحليل يراجع بحث الكاتب حول (احكام الزواج المستحدثة بالتشريع التونسي) المنشور بمجلة الحق الصادرة عن اتحاد المحامين العرب سنة ١٩٧٣ .

أهداف الدعوة الاسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الإسلامي منذ عصر مبكر

بقلم الدكتور موسى لقبال
رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الجزائر

لم يكن للدعوة الاسماعيلية التي انتشرت من دار الهجرة في سلمية ، الى الآفاق البعيدة في المشرق ، وفي المغرب هدف مباشر ، ونهائي في دار الاسلام ، غير اسقاط نظام الخلافة العباسية ، واحلال الخلافة العلوية محلها ، احياء لمجد العلويين في المشرق ، وانصافا لهم من العباسيين « المغتصبين »[1] وتحقيقا لمبدأ وحدة الخلافة الاسلامية .

ولما كان هذا الهدف لا يتحقق الا في ظل نظام سياسي علوي قار ، يكون في منطقة ما من بلاد المشرق أو في اقليم وثيق الصلة بها ، مثل مصر ، فقد اتجهت العناية . في المرحلة الاولى من التوسع ، على حساب العباسيين ، لتحقيق الهدف ، نحو تأسيس أنظمة سياسية في الاطراف ، حيث تكون هذه بعيدة عن مركز الثقل العباسي ، وحيث يتوفر الامن ؛ ويوجد استعداد من السكان الذين كانوا يميلون الى تأييد دعوى العلويين بدافع حبهم لآل البيت . وكانت هذه الخطة متقنة وحكيمة ، لان الفاطميين، استغلوا الأوضاع المختلفة ، في المناطق البعيدة ، في التمكين لأنفسهم ، ولحركتهم ، وفي الاعداد ، وفي التهيئة المعنوية ، والمادية . قصد التسرب الى المناطق الأخرى المجاورة ، تدريجيا . كل ذلك في اطار الاحتراز من الاحتمالات السيئة والمفاجآت غير السارة .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ ، ص ٥٣ — س ٣ ط ١٩٧١ .

ومن ثم لم يكن رجال الدعوة الاسماعيلية منذ البدء ، راغبين في استقرار الدولة الفاطمية باليمن ، لفقرها ، وتطرفها ، حتى لو نجحت هجرة المهدي اليها واعلن منها الدولة العلوية ، كما لم يفكر أي خليفة من الخلفاء الفاطميين في الاستقرار نهائيا في بلاد المغرب ، رغم أهمية موقعه ، وغناه ، وسعة مجالاته ، وتفتح أراضيه ، على عالم البحر المتوسط ، وافريقيا ، والارض الكبيرة ، وانما كان الفاطميون يعدون ليوم العودة الى بيئتهم الشرقية التي غادروها ، مضطرين ، وفي المشرق ، أنصارهم ومؤيدوهم ودعاتهم المنتشرون في الجزائر المختلفة ومنها مصر ، وباقي أراضي الخلافة العباسية •

ومن ثم لم يكن للفاطميين خطة أخرى ، ثم حملهم عداء المالكية ، وثورات زناتة ، وفشلهم في حكم بلاد المغرب ، وبعدهم عن المشرق ، على تغييرها ، لان الوجهة المشرقية للحركة الاسماعيلية ، ظهرت منذ عصر مبكر ، على لسان المهدي قبل دخوله أرض مصر أثناء فراره الى بلاد المغرب فقد خاطب احد ولاة مدينة الرملة المتشيعين ، الذي خشى عليه من رقباء العباسين في الطريق ، بقوله « طب نفسا ، وقر عينا ، فوالذي نفسي بيده ، لاوصلوا الي أبدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس ، ولتدوسن خيولي بطونهم[٢] » ومثل هذا القول ، لا يدل إلا على وجود خطة ثابتة ضد العباسيين في المشرق ، كان من المفروض لها فيما يبدو ، أن تنفذ من سلمية ، لولا انكشاف أمر الحركة للعباسيين ، وكانت « هجرة » المهدي الى المغرب ، مفاجأة مذهلة لأخلص رجاله ، وأكبر دعاته ، لأنهم كانوا على علم بالخطة الأصلية وبأهداف الحركة الاسماعيلية ، ولم يكن في نيتها فيما يبدو ، اعلان الامامة العلوية ، في أقصى دار الاسلام ، أي في بلاد المغرب •

وتصرفات المهدي ، بعد اعلان الخلافة الفاطمية في رقادة ، وارساله

---

(٢) اليماني : سيرة جعفر ١١٢ •

الحملات ضد برقة ، ومصر أكثر من مرة ، ومجازفته بحياة ابنه ابي القاسم في ميادين بعيدة عنه ، كانت التزاما بالخطة الاصلية(٣) .

وكان رد المهدي على ابنه ، الذي تردد ، وخاطب أباه « يا أمير المؤمنين قد خولك الله ، وملكك من الدنيا مافيه سعة وكفاية ، فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك . دع هذا حتى يأتي اليه به عفواً » ردا جازما ، وعمليا فقد قبض يده اليسرى ، وقال : نعم هذا المغرب في قبضتي هذه وبسط اليمين وقال ، ولكن كفي هذه من المشرق صفر ، ان ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسي(٤) .

ومثل هذا الرد لا يدل الا على الاصرار على مضايقة العباسيين ، وعلى الرغبة في تعبيد طريق المشرق لمن يأتي بعده ، رغم أنه كان يعلم ، أنه ينطلق من قواعد غير مستقرة ، الى مناطق يسودها الأمن والاستقرار ، في ظل ولاة مصر العباسيين ، وأن الخلافة العباسية في هذه الفترة على جانب كبير من القوة ، تمكنها من الاحتفاظ بأراضيها ، ورد الأخطار عنها .(٥) ولم يشأ ابنه أن يشذ عن الاتجاه العام ، فاستجاب لرغبة ابيه ، رغم اقتناعه بعدم جدوى العمل في هذا الوقت وناضل ضد ولاة العباسيين في مصر ، بالقلم ، وبالسيف ، ولقي الهزائم المنكرة ، وقوبل بالسخرية(٦) ، وعير من طرف السكان(٧) ، وكان المهدى ، يقابل كل ذلك

---

(٣) وقد عبر بعض الباحثين عن بعض أهداف الفاطميين بقوله : فتح مصر كان هدفا رئيسيا Objetif Principal انظر Huaht : Cl Histoire des Arabes T 1 P 340

(٤) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١٩ ـ ٢٠ وقدكان رد أبي القاسم على أبيه « بل أنفذ لما امرت به يا امير المؤمنين واسارع اليه » .

(٥) نفسه وقد عير المعز لدين عن نشاط المهدي ضد مصر بقوله « علم المهدي انه لا يصل الى ذلك لكنه أحب الا يضيع الحزم » .

(٦) المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ٦٩ ، ومن فرط تأثره لهجو الصولي وتجريحه له قال « والله لا ازال حتى املك صدر الطائر ورأسه أن قدرت والا أهلك دونه» ، ومن هذا القول تتضح الأهداف البعيدة للدعوة الاسماعيلية .

بعدم الاكتراث ، لأنه مقيد بخطة قديمة بانت ملامحها في بلاد المغـرب في أول صلاة جمعة دعي له فيها بأمرة المؤمنين « اللهم فانصره على اعدائك المارقين ، وافتح له مشارق الارض ، ومغاربها كما وعدته ، وايده علـى العصاة الضالين[٨] • واهتمـام المهدي وخلفائه باقليم برقة يدخل فـي اطار السياسة الشرقية للخلافة الفاطمية • ومن برقـة ، انطلقت البعوث الاستطلاعية ،ضد حدود مصر ، والحملات العسكرية البرية والبحريةلضم اراضيها في الجنوب ، وفي الشمال ، واليها التجـأت العناصر الموالـية للفاطميين ، أو الثائرة ضد ولاة العباسيين ، في مصر •

وأهمية قاعدة برقة ، باب مصر ، في الاستراتيجية الفاطميـة للنضال ضد العباسيين في المشرق تماثلها أهمية قاعدتـي فاس وطنجـة ، باب الأندلس ، للنيل من الأمويين ، ثم صقلية ، وقلورية باب أوربا ، للنشاط الثغري ضد البيزنطيين • وبينما فشلت قواعد فاس ، وطنجة ، وصقلية ، وقلورية ، على المدى البعيد ، في أداء مهمتها نجحت قاعدة برقة في أداء دورها كاملا غير منقوص •

ولم يرث القائم بأمر الله عن ابيه ، لقب الخلافة فقط ، بـل أصبح ملتزما بنفس سياسته واتجاهاته الشرقية ، وباقلاق راحة العباسيين مـن مركزهم في مصر ، غير انه ــ بعد أن خبر ميدان الحرب في الجبهةالمصرية، كان يميل ايضا لاستخدام اساليب السياسية والدعوة الهادئة لكسب ولاء مصر[٩] ، وجلب ولاتها الاخشيديين للاعتـراف بالسيادة الفاطميـة ، والتعاون مع الفاطميين جيرانهم في المغرب ، ولذلك أرسل الى محمد بن

---

(٧) ابن عذارى البيان ١ ، ٢٦٠ س ١٨ •

(٨) ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان ١ ، ١٢٢ •

(٩) وقـد شغله عن مصر ، اضطراب وضع بلاد المغـرب ، ودسائس الأمويين : انظر ماجد ظهور خلافة الفاطميين ٩٨ ــ ١٠٠ •

طغج الاخشيد الذي انزل هزيمة منكسرة من قبل برجاله ، يطلب منه الاعتراف بالولاء للفاطميين بوصفه تابعا وحليفا ، او جارا صديقا ، ايثار لجانب السلم ، بين الجيران ، واشاعة لروح المودة والألفة ، والتعاون بينهم ضد الاخطار . ولم ينس أن يهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين باعتبار ان الولاء لهم أصبح عادة تقليدية قديمة،فضلا عن كونهم لايقدرون قيمة المخلصين من رجالهم ولقد تضمنت الرقعة التي كتبها القائم بأمر الله بخطه ولم يطلع عليها أحدا قوله يخاطب الأخشيد « وأنا أعلم ان طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك تسكن اليه في أمرك وتعول بمثل ذلك ، واذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطؤ لك وقبول الميسور منك ، انما هو الرغبة فيك ، وانت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته[١٠] .

ورغم ان الاخشيد ، تأثر بمضمون الرسالة ، الا أنه كان بعيد النظر، عندما لم يسارع بالاجابة عنها ، واعتذر بأنه أمي ، ومن الصعب عليه نظرا لعلاقاته الخاصة بالعباسيين ، أن يبوح بسر خطير ، لأي كاتب من كتابه[١١] ،قد يستغله ضده ، وترك نفسه حر التصرف،يتأمل ابعادالمشروع الجديد ، ومكاسبه ، ويبدو أنه مال في فترة مامن صفاء ذهنه ، الى البقاء على موقف التحفظ ، لان ارتباطه بالعباسيين يتيح له قدرا كبيرا من الاستقلال بالتدبير ، أما عندما طلع نجم محمد بن رائق الخزري وقلده

---

(١٠) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ١ ، ١٧٥ وما بعدها وعن قصائد القائم ومكاتباته لاهل مصر ليخذلهم عن التبعية للعباسيين ، انظر عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ٤١ ، ٤٣ ومن ضمنها مارد به الصولي على القائم بأمر الله .

(١١) نفسه ١ ، ١٧٦ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى ١٨٩ .

الراضي الخليفة العباسي ولاية الشام التي تعتبر امتداد النفوذالاخشيديين ومجالا حيويا لتوسعهم فانه هم بقطع الصلة مع الخلافة العباسية ، واعلان الخطبة للخليفة القائم بأمـر الله الفاطمي[١٢] ، لو أن رجالـه نصحوه بالعدول عن تنفيذ هذا الاتجاه الخطير ، الذي سيزيد ، بدون شك ـ من غضب العباسيين ، ويعلي شأن خصمه ابن رائق ، الذي قد ينقلب الـى بطل انقاذ قد يرمي به في ميدان مصر الثائرة ضد السلطة الشرعيـة في بغداد[١٣] واذا كان الاخشيد قد استجاب لرأي المخلصين من نصحائـه فأبقى على الرباط الشكلي مع العباسيين ،واحتفظ باستقلاله عن الفاطميين فانه استجاب الى حد ما ، للعرض الثاني الذي تضمنته رسالة الخليفـة الفاطمي ، حيث اقترح في رده على القائم ، أن يقبل الأخير زواج ابنه ، وحجته ولي عهد المسلمين أبي طاهر اسماعيل بابنته ، فاستجاب القائـم بأمر الله وحبذ الفكرة على أساس انها تتيح فرصة لربط المغرب ، بمصر ، عن طريق المصاهرة ، التي تتضمن الحلف والتبعية في نظره ولذلك نلاحظ أنه عندما انطلق بالفكرة ، الى أبعادها السياسية وأرسل الـى الاخشيد يقول له « وصل كتابك وقد قبلنا مابذلت ، وهي وديعة لنا عندك ، وقـد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فوصل ذلك اليها »[١٤] . لم يرتح لمضمون الرد ، الذي انبى على أساس تبعيتـه للفاطميين ، وكـان ينتظر من الخليفة القائم ، ان يقبل مشروع الزواج ، تشريفا له ، وطريقـا

---

(١٢) نفسه س ٤ وقد عبر عن موقفه بقولـه « قد تأذيت بالراضي ، وبهذا الصبي ابن رائق ، وقد أمرت الخطيب أن يدعو لابي القاسم صـاحب المغـرب » .

(١٣) نفسه ١ ، ١٧٧ ، س ١٦ ـ ١٧ وقد قالوا للاخشيد « لانك اذا عملت هذا كاتبه من مصر ، من يكره هذا ، وكتب بذلك الى العراق فان كان الراضي لم يقلده قلده ، وانفذ اليه الاموال والعساكر ، وصيرت له شيعـة وخاصة ولكن دع هذا الى وقت آخر » .

(١٤)ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١ ، ١٧٧ .

للمصافاة بين البلدين ، وان يهادية باموال ، وألطاف كثيرة ، نظير هـذا العرض السخي ليفاخر بها ويزايد امام بعض خصومه ، وليشعر الخليفـة العباسي بأهمية مركزه ، وعظمته ، وقوته ، فلا يبالـغ في اضفاء كـل الأهمية على خصمه محمد بن رائق .

وما دام الامر لم يتم مع القائم بأمر الله ، كما توقعه الاخشـيد ، مكسبا ماديا وأدبيا ، فانه بقي على تحفظه ، ووضعه القديم واليامستكفيا من طرف العباسيين(١٥) .

وكان يمكن للخليفة المنصور أن يواصل العمـل ، في نفس الخط الذي رسمه أبوه ، وجده ، نضالا بالقلـم ، وبالسيف ، في سبيل نشر الدعوة ، وتنفيذ مشاريع الدولة ، واعلاء كلمتهـا في المشرق العباسي ، لولا التياث أمر بلاد المغرب(١٦) بسبب ثورة أي يزيد وابنه فضل وانتفاض محمد بن خزر ، واضطراب أوضاع صقلية ، وعندما تغلب على معظـم هذه المشاكل(١٧) ، لم يمتد به أجله ، ومع ذلـك فان أهتمامه بارجـاع الحجر الاسود الى مكانه ، أكسب خلفـاء الفاطميين سمعة في الشرق ، فتعاطف معهم جمهور غفير من سكانـه ، وكان خير وسيلـة للأبانة عن أهميتهم ،للابقاء على سلامة المقدسات الاسلامية، بعيدا عن أيدي المغامرين حتى ولو كانوا من بين الاسماعيلية ، وقد أوصى ابنه وحجتـه المعز لدين الله ، بالاهتمام بأمر مصر ، والشرق ، تنفيذ الوصية جده القائـم(١٨)

---

(١٥) وبموت الخليفة الراضي ٣٢٩ هـ : وموت محمد بن رائق ، صفا الجو السياسي للاخشيد ، وخلصت له ولاية مصر وبلاد الشام انظر ابـن سعيد المصدر السابق ١ ، ١٧٩ .

(١٦) ماجد ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩١ ويشير الى أن المنصور الفاطمي ، يشبه في الحزم وتصفية المشاكل ، سميه ابا جعفر المنصور العباسي.

(١٨) نفسه ١ ، ٦٩ .

وباشراف المعزلدين الله ، ثم تنفيذ الخطة الاصلية للحركة الاسماعيليةضد العباسيين في المشرق .

وقد كان هذا الخليفة أوفر خلفاء الفاطميين نشاطا في العمل ضد العباسيين ، فلم يقتصر على ميدان الدعوة ، وارسال الدعاة لتخذيل رعاياهم ، واستفساد ولاتهم ، وتمهيد نفوسهم لقبول التشيع أو الولاء للخلافة الفاطمية ، بل أرسل الجيوش لنجدة سكان جزيرة اقريطس التابعين لهم ، كي يظهرهم على حقيقتهم عاجزين عن حماية الاسلام ، او عن فرض هيبتهم على بعض ولاتهم في مصر الذين تباطأوا في نجدة سكان الجزيرة وعندما استقبل رسول ملك الروم ، في المنصورية ، أوعز اليه بسر خطير « لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها »[١٩] .

وتركزت خطته لتحقيق هذه الغاية ،على التمهيد الكامل لذلك ، في بيئة المغرب ، بحشد القوى وتربية جيل جديد من كتامة وصنهاجة يكون جديرا بأن يمثل رجاله الدور الايجابي في المشرق ، نظير ما فعله أسلافهم في بيئة المغرب . أما التمهيد لذلك في بيئة المشرق ، فيكون بمتابعة نشاط الدعاة ، وتسقط أخبارهم ، والاعتماد على الماهرين منهم في اكتساب ثقة ولاة مصر الاخشيديين ومن هؤلاء ابو جعفر ابن نصر الذي أثر على أحمد بن علي بن طغج ، وحوله الى المذهب الشيعي ، وحمله على مكاتبة المعزلدين الله بعد أن صوره امامه بمثابة والدرحيم ، سوف يخفف عنه مشقات الحكم وعبث الجند[٢٠] ، وبواسطة هذا الداعي وغيره

---

(١٩) نفسه ١ ، ٢٢٦ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨ ، ٢٣٩ – ٢٤٠ وعندما عاد اليه هذا الرسول بعد انتقاله الى القاهرة : قال له : لتدخلن علي بغداد وانا خليفة .

(٢٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ١١ ورقة ٢٤ ، خ دار الكتب رقم ٥٥١ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٤ ، ٧٣ . كامل حسين : في أدب عصر الفاطمية ١٦ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ١٣٩ وقد أصبح ابو جعفر ، من بين المقربين الى المعز لدين الله ، ومن مرافقيه .

كان يعرف المعزلدين الله ، سير الأوضاع في مصر وعن بعض مكاتباتهم ، وردوده عنهم تحدث الى شيوخ كتامة بقوله « واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق ، والمغرب أجيب عليها بخطى[٢١] .

وفي أكثر من مرة ، كان يشرح أمام شيوخ كتامة ما يعلقه عليهم من آمال في ميدان مصر والمشرق بعد أن تحقق الشيء الكثير على أيـدي أسلافهم في المغرب . « واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمرتكم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم[٢٢] .

وشعوره بأن التعبئة المادية ، والمعنوية لم تكتمل بعد ، لم يستجب لرغبة دعاته في المشرق ، بأن ينتقل بسرعة الى مصر لتطـور الأوضـاع في صالح الحركة الاسماعيلية « اننا لم نتخلف عن ذلك الا انتظارا للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها ، ولو حضرت ما تخلفنا » . وكي يوضـح أمامهم أن التأخر لحكمة ، وأن الانتقال الى مصر هدف أساسي الحركـة الاسماعيلية ، ذكرهم بالسابقة التاريخية التي ارتبطت بالمهدي جد الخلفاء الفاطميين تعبيرا عن وجوده السياسي ، وبأنه وإن لم ينجح ـ هو صاحب حق شرعي في هذه البلاد ، وذلك ما أصبح تقليدا متبعا بالنسبة لخلفائه، وأمانة موروثه عنه[٢٣] .

وعندما شعر المعزلدين الله بأنه أصبح في مركز قوة ، بعد اكتمـال الاستعدادات المادية ، والمعنوية ، افتعل حادثة الجارية التي قيـل أن أم

---

(٢١) القريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٥ .

(٢٢) نفسه ١ ، ٩٦ .

(٢٣) المجالس السايرات ٢ ورقة ٤٧٤ وما بعدها ، اما النعمان فقد عبر عن الوضع قبيل فتح مصر بقوله « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ... الا انه لم ير العزم في أمره فاما لو عزم على ذلك ما حال دونه حائل » .

الأمراء ، (زوجة المعز) وجهتها من المغرب ، لتباع في مصر ، فاشترتها أمرأة مثلها هي بنت الاخشيد ، لتتمتع بها ، وقد كانت هذه الحادثة ، محور الحديث دعائي قوي شنع فيه على ولاة مصر ، ونظام العباسيين ، وعلى المجتمع المصري ، امام جمع من شيوخ كتامة وقادتها ، وقد ختمه بقوله « يا اخواننا انهضوا اليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء ، واذا كان قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم »(٢٤) .

وهذا الاسلوب الدعائي الملتهب ، كان جزءا من خطة كاملة ، غايتها التمهيد لغزو مصر ولانتقال الخلافة الفاطمية اليها ، اما الوسيلة ، فكانت التشهير بالمجتمع والاساءة الى عناصر السلطة الداخلية ، والخارجية، حتى كان المعزلدين الله في مجالسه يصف العباسيين بالملاعين ، ويحرص على أن يتحف رجاله بما يحط من قيمتهم كخلفاء ، ومن ذلك مالاحظه من أن كتب التاريخ ، والاخبار ، التي سجلت عن العباسيين ، واطلع عليها ، تذكر ميل بعض الخلفاء الى اللهو ، والشرب ، والتمتع بالغلمان ، وعقب على ذلك بقوله « هذه محاسن القوم فكيف بمساوئهم وهذا قول من قصد بقوله مدحهم ، فكيف بمن قصد ذمهم (٢٥) .

ولم يتورع عن الطعن في مشروعية خلافتهم ، او عن الاشارة الى أن هدف الخطة الاسماعيلية منذ عصر المهدي ، كان القضاء عليهم « لو أراد

---

(٢٤) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠٠ .

(٢٥) النعمان : المجالس١ ورقة ١٧٠ــ ١٧١ ، وقد لاحظ المعز بدهشه كيف أن الكتب التي أهداها اليه بعض العلماء المعاصرين لم تتضمن غير سير بني أمية ، وبني العباس ، واخبارهم ، ولم يوجد فيها ما ينسب الى أي خليفة فاطمي ، مع أن الرجل الذي الف هذه الكتب ، صحب المهدي والقائم ، وكبر في عصر المنصور ، انظر : ورقة ٨٤ ــ ٨٥ منه .

الله بني العباس خيرا لقطع امرهم يومئذ على يديه وهم في عنفوان أمرهم، وتمـام سلطانهم وعزهم »[٢٦] .

وتدل بعض التوقيعات التي اصدرها المعزلدين الله الى النعمـان بن محمد ، يمنيه بالخير الكثير ، والبناء الرفيع في مصر ، ردا على طلبه الحصول على أرض للبناء ليجتمع شمل أسرته بالمنصورية ، على أنه كان يعتبر نفسه مؤقتا في بلاد المغرب ، وأن ساعة الانتقال الـى مصر قريبة ، « فالله ، يهبك السلامة حتى تبتني في أيامنا ، ومعنا ، حيث يختاره الله ويرضاه له من ارض المشرق الأبنية الواسعة المنيفة »[٢٧] .

ومن هذا القبيل قوله أمام جمع من رجاله وجدهم عند جوهر متأثرين لمرضه الشديد ، « لا تغتموا ، فانه يبرأ ، ويفتح مصر بمشيئة اليه[٢٨] . ويرتبط بالخطة الاصلية للحركة الاسماعيليـة ، في عصر المعزلدين الله ، التدخل في شؤون الحجاز ، تمهيدا لفرض الحماية على الحرمين الشريفين، واكتساب مودة الأشراف ، اذ تشير بعض النصوص ، الى توسط المعزلدين الله ، لتحقيق الصلح بين فرعي بني الحسن ، وبني جعفر بن أبي طالب ، الذين اقتتلوا فيما بينهم ، وقد انفذ اموالا ورجالا تحمل ديات القتلى ، وكان أكثرهم من بني الحسن ، « فصار ذلك جميـلا عنـد بني الحسن للمعز » قابلوه بالدعاء له في مكـة عقب فتح مصر ، وتولى ذلك منهـم حسن بن جعفر الحسني ، الذي أرسل اليه المعزلدين الله « بتقليد الحرم وأعماله »[٢٩] .

وكانت مكاتبات الدعاة ، وبعض عناصر المجتمع في مصر ، لا تنقطع

---

(٢٦) نفسه ٢ ، ٤٧٨ وما بعدها .

(٢٧) نفسه ٢ ، ٦٣٤ ـ ٦٣٥ .

(٢٨) لمعة في سيره المعز ورقة ٣ مخطوط مكتبة جامعة القاهرة . رقم ٢٤٠٢٢ .

(٢٩) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠١ .

عن المعزلدين الله ، ومن هؤلاء الوزير ، ابو الفضل جعفر بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، الذي حثه على فتح مصر نكاية في الأميرالاخشيدي الحسن بن عبد الله بن طغج أمير الرملة والشام الذي ضيق عليه ، وآذاه، وقصد به شرا[٣٠] ، وتضمنت بعض المكاتبات تعبيرا عن سهولة فتح مصر وطواعية سكانها للفاطميين ، بعد اختفاء كافور الاخشيدي قولا نصه « اذا زال الحجر الاسود ، ملك مولانا المعزلدين الله مصر[٣١] وكان هذا الخادم المتغلب الذي عرف بالاستاذ وكني بأبي المسك وقلد مصر نهائيا من طرف الخليفة العباسي ، بعد وفاة ابني الاخشيد ،من الدهاء والحكمة، بحيث أدرك قوة تأثير الحركة الاسماعيلية في مصر[٣٢] ، وأحس بثقل الفاطميين المجاورين له في برقة ، فلم يظهر العداء ، لكنه لم يتعاون مع المعزلدين الله لنجدة مسلمي كريت ، خوفا من غضب العباسيين ، واحتفظ بتوازنة أمام القوتين المتصارعتين ، فكان « يهادي المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا بذ عن بالطاعة لبني العباس ، ويداري، ويخدع هؤلاء ، وهؤلاء[٣٣] . وما كان من أمر بقي خافيا في مصر

---

(٣٠) ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية ٦ ، ١٢٠ ــ ١٢١ ، العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٩ ، القسم (٢) ورقات ٢٢١ ــ ٢٢٢ ، و ٥٠٧ ــ ٥٠٨ من القسم ٣ ،

(٣١) العيني : المصدر السابق ج ١٩ (ق٢) ورقة ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ، ٢٣ وفيه « الدنيا كلها » المقريزي: المصدر السابق ١ ، ١٠٢ نقلا عن ابن زولاق وفيه (الارض كلها) .

(٣٢) وكان من جلسائه انشط دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر الذي أثر عنه قوله « كافور الاسود غدا يؤخذ بأذنه انما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ منها التبعة على كل تابع ومتبوع ، وذيل مرفوع تغير فيها الاحوال وتحمل اليها الاموال » ــ انظر كامل حسين : ادب مصر الفاطمية ١٦ .

(٣٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ٤ ، ٦ .

ويريد المعزلدين الله أن يعرفه ، قبل ارسال حملة جوهر الضاربة ، فقد استفاده أخيرا من يعقوب بن كلس ، الذي فر من مصر ، ناجيا بنفسه ، من فتك الوزير ابن الفرات ، الى بلاط المعز لدين الله في المنصورية (٣٤) ، ولم يرجع الى مصر الا في ركابه ، وقد ظهر التعبير العملي عن اهداف الخطة الاسماعيلية في المشرق ، في الاعمال العسكرية التي وجهت ضد مصر ، منذ عصر المهدي واستمرت حتى أواخر عصر المعز لدين الله وكانت مصر في نظر الحركة هي الطريق الطبيعي للنفاذ الى قلب الخلافةالعباسية في بغداد ، بعد التهام اطرافها في الحجاز والشام •

ولم تكن حملة جوهر الناجحة ، في عصر المعزلدين الله ، غير الحلقة الأخيرة ، في سلسلة طويلة من الجهود المختلفة التي انتهت بفتح مصر وبلاد الشام وضمانة ولاء الحجاز واليمن • أما العراق قلب الخلافة العباسية والعالم الاسلامي فقد أصبحت أطرافه هدفا للدعاة الاسماعيلية وللحملات العسكرية وللحركات التخريبية •

ولقد كانت الخاتمة الحميدة لجهود الفاطميين ضد العباسيين ، من اجل الظفر بخلافة علوية شاملة للعراق ولسائر المشرق الاسلامي • في منتصف القرن الخامس للهجرة(١١ م) وبالتحديد يوم الاحد ٨ ذي القعدة ٤٥٠ هـ • وذلك عندما نجح مؤقتا الأمير ابو الحارث ارسلان البساسيري في الدعاء ، وفي الخطبة للخليفة الفاطمي المنتصر بالله من على منبر جامع المنصور في بغداد ، وقطعها عن الخليفة العباسي القائم ، الذي أصبح مضيقا عليه في الأسر •

وتعتبر هذه الحادثة قمة لنجاح الدعوة الاسماعيلية ضد العباسيين ، لكنها من ناحية أخرى ونظرا لكونها وقعت في عصر هرم الخلافة

---

(٣٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ورقة ١٥٢ - ١٥٣ ، العيني المصدر السابق ١٩ (ق٣) ورقة : ٥٠٧ - ٥٠٨ •

الفاطمية ، كانت على حد تعبير بعض المؤرخـين « آخـر سعادة الدولة الفاطمية »[٣٥] .



(٣٥) عن تفاصيل هذه الحادثة واصـدائها انظر : المقريزي : اتعـاظ الحنفا ٢ ، ٢٥٢ وما بعدها ط ١٩٧١ م .

قانون
اتحاد المؤرخين العرب

نحن ممثلي الجمعيات والمنظمات التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية في الاقطار العربية المجتمعين في بغداد في المدة من ١٥ ـ ١٨ أيار (مايو) ١٩٧٤ .

انطلاقا من رسالتنا العلمية وتحقيقا لاهدافنا القومية ،وايمانا بتراثنا الخالد ، وتنفيذا لتوصية المؤتمر الدولي للتاريخ المنعقد في بغداد في اذار (مارس) ١٩٧٣ وتقديرا للواجب الملقى على عاتقنا في توحيد الجهود العلمية العربية لاحياء التراث العربي والاسلامي ،

قررنا تكوين اتحاد المؤرخين العرب .

اولا ـ في انشاء الاتحاد

المادة الاولى :

تنشأ في الوطن العربي منظمة عربية دائمة للمؤرخين العرب تسمى (اتحاد المؤرخين العرب وشعارها العلم ـ والحقيقة ـ والعروبة) ويكون مقرها الدائم في بغداد وينتقل المكتب الدائم اثناء انعقاد المؤتمر الى مكان انعقاده .

المادة الثانية :

يتكون اتحاد المؤرخين العرب من مجموع الاعضاء في الجمعيات

التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية المنتسبين الى الاتحاد في الاقطار العربية التاليــة وهي : الاردن ، البحرين ، تونس ، الجزائر ، سوريــا ، الصومال ، العراق ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، المغرب ، اليمن[1] وكذلك الجمعيات التي تتكون مستقبلا في باقي الاقطار العربية والتــي ستنتسب اليه وفق احكام قانونه وانظمته •

ثانيــا ــ في اهداف الاتحاد

المــادة الثالثة :

أهداف الاتحــاد :

١ ــ العمل لرفعة الوطن العربي عن طريق النهوض بالفكر التاريخي •

٢ ــ العمل على توفير حرية البحث في الحقول التاريخية •

٣ ــ ابراز الوجه المشرق للتراث العربي بأسلوب علمي موضوعي •

٤ ــ السعي الى كتابة تاريخ الامة العربية بشكل موضوعي يبرز الجوانب الايجابية التي ساعدت على نهوضها والعوامل التي أدت الى انهيارها والوسائل التي تعمل على بعثها من جديد •

٥ ــ التعارف بين المؤرخين العرب وتوثيق عــرى الزمالــة والتجاوب العلمي بينهم •

٦ ــ العمل على نشر رسالة المؤرخ العربي من نواحيها العلمية والانسانية في كل مكان من الوطن العربي وربطها بالمجتمع والعمل على نشرها بين جميع ابناء الشعب العربي •

٧ ــ السعي الى تنسيق منهــاج تدريس التاريخ في مراحــل التعليــم المختلفة في الوطن العربي •

---

(١) شارك ممثلان من جمهورية اليمن الديمقراطية وجمهورية اليمــن العربيــة .

٨ ــ العمل على توفير المراجع والمؤلفات التاريخية العربية في مكتبات الاتحاد والجمعيات التاريخية .

٩ ــ اقامة صلات بين اتحاد المؤرخين العرب والمنظمات العربية الفكرية وبين المنظمات الدولية المعنية بشؤون التاريخ .

١٠ ــ عقد مؤتمر للتاريخ كل سنتين بشكل دوري بين الاقطار العربية في أي من الاقطار العربية بشكل يجعله مجالا للاشعاع العلمي والتفاعل والبناء .

١١ ــ العمل على اصدار مجلة دورية سنوية للاتحاد وتكون عنوانا لنشاطه .

١٢ ــ دراسة الموضوعات التاريخية ذات الطابع المشترك بين الاقطار العربية وتبادل المعلومات والخبرة في مختلف الميادين العلمية .

١٣ ــ دعم الجمعيات التاريخية القائمة في الوطن العربي والاسهام في مساعدة المؤرخين على تشكيل الجمعيات التاريخية في الاقطار العربية التي لم يتم فيها تنظيم .

١٤ ــ العمل على تصوير المخطوطات العربية في مكتبات الوطن العربي والعالم والوثائق الرسمية التي تتعلق بالتاريخ العربي وحفظها في مكتبة الاتحاد وتوزيع صور منها على مكتبات الجمعيات التاريخية المنظمة للاتحاد .

ثالثا ــ في اجهزة الاتحاد واختصاصها :

المادة الرابعة :

يباشر الاتحاد اختصاصاته ، ويعمل على تحقيق اهدافه بواسطة هيئاته الاساسية التالية :

١ ــ المؤتمر العام

٢ ـ المكتب الدائم

٣ ـ الامانة العامة •

المادة الخامسة :

المؤتمر :

المؤتمر العام هو الهيئة العليا في الاتحاد التي ترسم سياسته وتوجه نشاطه ، وتتخذ القرارات الكفيلة بتحقيق اهدافه ويتكون المؤتمر العام من ممثلي الجمعيات التاريخية المنظمة الى الاتحاد والباحثين في الحقول التاريخية في الاقطار العربية بحيث يمثل كل قطر عدد لا يزيد على خمسة أعضاء •

المادة السادسة :

ينعقد المؤتمر العام مرة كل خمس سنوات في احدى العواصم العربية في دورة عادية وتجوز دعوته لدورة غير عادية بقرار من المكتب الدائم ، وتنظر هيئته العامة بشكل خاص في الامور التالية :

١ ـ وضع الخطوات الرئيسية لنشاط الاتحاد واصدار القرارات في الامور التي يقترحها المكتب الدائم •

٢ ـ دراسة القضايا العربية المصيرية وتوضيحها ومساندة اهداف الامة العربية ودعم حقوقها الحضارية •

٣ ـ بحث توصيات لجان المؤتمر واتخاذ القرارات النهائية بشأنها ومتابعة تنفيذها •

٤ ـ مناقشة تقرير الامين العام الذي يعده المكتب واقرار الميزانية والحساب الختامي للاتحاد

٥ ـ اقرار القانون الاساسي وتعديله وفق الطريقة الموضحة في هذا

القانون والانظمة الملحقة به •

المادة السابعة :

المكتب الدائم هو الذي يدير الاتحاد ويشرف على اعماله ويعمل على تنفيذ قراراته وتحقيق اهدافه وذلك في نطاق قانونه الاساسي وانظمته وضمن توجيهات وقرارات المؤتمر العام •

ويتكون المكتب الدائم من الامين العام ومن ممثل واحد من كل جمعية تاريخية عضو في الاتحاد او من الباحثين في الحقول التاريخية في القطر الذي ليست فيه جمعية تاريخية وللامين العام صوت مستقل عن صوت القطر الذي ينتمي اليه •

المادة الثامنة :

الامانة العامة وتتألف الامانة من :

١ ــ الامين العام

٢ ــ الامناء المساعدون

٣ ــ امين الصندوق

المادة التاسعة :

١ ــ ينتخب المكتب الدائم امينا عاما وخمسة امناء مساعدين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ويعتبر الامين العام والامناء المساعدين مسؤولين امام المكتب الدائم •

٢ ــ يعهد المكتب الدائم للامانة العامة مهمة تشكيل اللجان التالية حسب الحاجة القائمة :

آ ــ لجنة دراسة قضايا الوطن العربي

ب ــ لجنة الشؤون العلمية والابحاث التاريخية

جـ ــ لجنة المجلة والمنشورات التاريخية

د ــ لجنة التبادل الثقافي في البلاد العربية

هـ ــ لجنة الاعلام

و ــ لجنة الاشراف على تحقيق المخطوطات والوثائق ونشرها •

المادة العاشرة :

ينعقد المكتب الدائم بشكل دوري مرة كل سنة على الاقل في احدى الاقطار العربية بدعوة من الامين العام • ويرأس اجتماعاته رئيس الجمعية في القطر الذي ينعقد فيه وتحصر مهمته فيما يلي :

١ ــ العمل على تحقيق اهداف الاتحاد وتنفيذ قرارات وتوصيات مؤتمراته •

٢ ــ تحديد مكان وزمان انعقاد مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب •

٣ ــ تنظيم المؤتمرات العلمية التاريخية وتعيين شروط الاشتراك فيها وتقرير جدول اعمالها وموضوعاتها ولجانها •

٤ ــ تنظيم الموازنة المالية للاتحاد وتحديد موارده ومصروفاته وتعيين بدل الاشتراك فيه وتعيين مراقب للحسابات والنظر في تقرير مراقبة الحسابات واقرار الحساب الختامي •

٥ ــ البت في طلبات انتساب الهيئات والجمعيات التاريخية في عضوية الاتحاد والفصل فيها وفق احكام انظمته وقبول الباحثين في الحقول التاريخية اعضاء في الاتحاد •

٦ ــ اقتراح الانظمة الداخلية والمالية للاتحاد واصدار القرارات التنظيمية تطبيقا لاحكام القانون والانظمة لعرضها على المؤتمر العام •

٧ ــ **ارسال جدول اعمال المكتب الدائم الى الاعضاء قبل الانعقاد بشهر** واحد على الاقل .

المادة الحادية عشرة :

يختص الامين العام بما يلي :

١ ــ تمثيل المكتب الدائم امام المنظمات والهيئات الحكومية والدولية .

٢ ــ تنفيذ قرارات المكتب الدائم وما يعهد به اليه من اعمال .

٣ ــ تعيين الموظفين اللازمين للاتحاد والمؤتمر والاشراف على اعمالهم وتحديد مكافاتهم ودرجاتهم وفقا للنظام الخاص الذي يقره المكتب الدائم .

٤ ــ دعوة المكتب الدائم الى الاجتماع بالتنسيق مع الجمعيات والهيئات التاريخية العربية المنظمة للاتحاد في دورته العادية وتحديد مكان انعقاده وزمانه ، وعليه دعوة المكتب الى الانعقاد في دورات غير عادية كلما اقتضت الظروف ذلك او كلما طلب اليه ثلثا اعضاء المكتب الدائم او الجمعيات والهيئات التاريخية على الاقل وذلك في موعد لا يتجاوز شهرا من تاريخ وصول الطلب الى الامانة العامة .

٥ ــ تنظيم جدول اعمال المكتب والاشراف على تحضير اجتماعاته وضبط وقائع جلساته ومراسلاته وصيانة المعاملات والمحفوظات والدراسات والوثائق وضبطها وتدوينها في سجلاته الخاصة والقيام بجميع الاعمال الادارية التي تتطلبها هذه الامور .

٦ ــ تقوم الامانة العامة بطبع المحاضرات والابحاث المقررة من قبل المكتب الدائم وكذلك تقارير مقرري اللجان وتوزيعها على المؤتمر قبل انعقاده بشهر على الاقل .

٧ ــ توقيع اوامر الصرف بالاشتراك مع امين الصندوق وفق النظام المالي

الذي يقره المكتب الدائم •

المـادة الثانية عشرة :

ينيب الامين العام احد الامناء المساعدين لتمثيله في حالة غيابه عـن الاتحاد او تعذر قيامه بأختصاصاته وفق قانون الاتحاد وقرارات المؤتمرات والمكتب الدائم •

المـادة الثالثة عشرة :

يختص امين الصندوق بما يلي :

١ ـ حفظ اموال الاتحاد والمؤتمر والاشراف على تنفيـذ الموازنة الماليـة ومراقبة الانفاق في حدود الاعتمادات المفتوحة من قبل المكتب •

٢ ـ اجراء الصرف في حـدود الاعتمـادات المفتوحـة من قبل المكتـب بموجب اوامر صرف توقع منه ومن الامين او من ينيبه الامين العام •

٣ ـ تحصيل الاموال بموجب ايصالات ذات نسخ توقع منـم ومن الامين العام او من ينيبه الامين العام •

المـادة الرابعة عشر :

تحفظ اموال الاتحاد في مصرف رسمي ، ولا يجوز لامين الصندوق ان يحتفظ بأكثر من مبلـغ مائة دينـار عراقي او مـا يعادله لتأمين النفقات العاجلـة •

رابعـا ـ مالية الاتحـاد :

المـادة الخامسة عشرة :

١ ـ رسم تسجيل لكل قطر لايقل عن خمسة دنانير عراقية او ما يعادلها
٢ ـ الاشتراك السنوي ، لا يقل عن عشرة دنانير عراقية او ما يعادلها •

٣ ــ الهبات والتبرعات المالية التي لا تتعارض مع اهداف الاتحاد ونشاطاته
٤ ــ اثمان مطبوعات الاتحاد .

خامسا ــ في تعديل القانون الاساسي :

المادة السادسة عشرة :

يجوز تعديل القانون الاساسي للاتحاد بموافقة ثلثي اعضاء المؤتمر العام للاتحاد وبناء على توصية من المكتب الدائم بأكثرية ثلثي اعضائه الحاضرين في اجتماع قانوني .

سادسا ــ في الانظمة واللوائح التنظيمية :

المادة السابعة عشرة :

يضع المكتب الدائم جميع الانظمة اللازمة لممارسة اجهزة الاتحاد اختصاصها ولتنفيذ قرارات المؤتمر وتحقيق اهداف الاتحاد .

المادة الثامنة عشر :

يقترح الامين العام جميع اللوائح التنظيمية اللازمة لممارسة اختصاصاته وادارة الاعمال الموكولة لاقرارها من المكتب الدائم .

المادة التاسعة عشرة :

في حالة حل الاتحاد تؤول امواله وممتلكاته الى الجمعية التي يكون المركز الدائم في بلدها .

المادة العشرون :

مادة مؤقتة :

عند اول اجتماع يعتبر المجتمعون مهما كان عددهم هم المكتب الدائم ويمارسون صلاحياته وعليهم انتخاب الامين العام والامناء المساعدين وفق الفقرة ١ من المادة التاسعة .

١ ـ الدكتور عوض محمد خليفات
الاردن
مدرس في الجامعة الاردنية وممثل الجمعية التاريخية الاردنية

٢ ـ الاستاذ عبد العزيز فخرو
البحرين
ممثل الجمعية البحرانية للتاريخ والآثار

٣ ـ الدكتور الحبيب الجنحاني
تونس
رئيس الجمعية التونسية للتاريخ والاثار

٤ ـ الاستاذ محمد المسعود الشابي
تونس
عضو الجمعية التونسية للتاريخ والاثار بتونس

٥ ـ الدكتور لقبال موسى
الجزائر
رئيس قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ الجزائر ـ نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية

٦ ـ الاستاذ محمد الدروبي
سوريا
رئيس الجمعية التاريخية السورية

٧ ـ الاستاذ محمد علي عبدالكريم
الصومال
مكتب العلاقات والنشر ـ وزارة التربية (مقديشو)

٨ ـ الدكتور حسين امين
العراق
رئيس الجمعية العراقية للتاريخ والاثار

٩ ـ الاستاذ ابراهيم طاهر البغلي
الكويت
مدير ادارة الاثار والمتاحف

١٠ ـ **الدكتور خالد ناصر الوسمي**	**الكويت** جامعة الكويت
١١ ـ الدكتور يوسف ابراهيم يزبك	لبنـــان مؤرخ
١٢ ـ الدكتور مراجع الغناى	ليبيــا جـامعة بنغازي
١٣ ـ الدكتور محمد زنيبر	المغـرب رئيس قسم التاريخ بجامعة محمـد الخامس
١٤ ـ الاستاذ شايف عبده سعيد	اليمن رئيس قسم التاريخ ـ **كلية التربية** ـ عـــدن
١٥ ـ الاستاذ عبد الرحيم عبدالعزيز	**اليمـن** مدير العلاقات الخارجية في **هيئة** الآثار ودور الكتب ـ صنعاء

بغداد في ١٨\٥\١٩٧٤



المؤرخ العربي



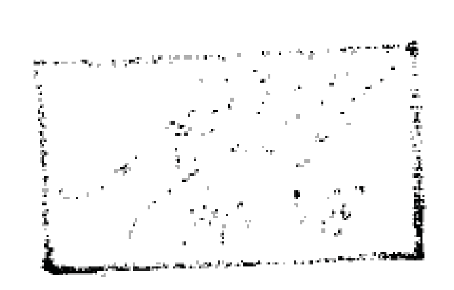
مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثاني

مجلة المؤرخ العربي



رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب



العدد الثاني

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

المحتويـــات



أهداف تربيتنا الوطنية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

نحن نستهدف إعداد جيل صالح من المواطنين ، لذا فان هذا الاعداد يتوقف اولا واخيرا على ما نضع من اسس واهداف تربوية لتحقيق ذلك .

وقبل ان نضع الاهداف من الاجدر أن نعرف المواطن الصالح ، إنه ذلك المواطن الذي أعد اعدادا تربويا صحيحا ، واصبح بمقدوره أن يعيش ويسلك في هذه الحياة بنجاح ، ومتفهما مقومات تلك الحياة ومشكلاتها ، ومسهما بصورة فعالة في تنظيم علاقاته مع بقية افراد المجتمع مساهمة فعالة تقوم على الرغبة في التعاون وخدمة المجموع العام ، ومؤمنا ايمانا صادقا بعقيدته وقوميته ووطنيته ، ومتحسسا بكل ما يدور حوله ، متحليا بالاداب الحسنة والاخلاق الطيبة ، ومدركا على ماله من حقوق وما عليه من واجبات ، محترما قوانين الدولة وخاضعا لانظمتها .

ومدارسنا التي نستهدف منها اعداد مواطنين صالحين مهيئين لخوض معترك الحياة ، حيث نلقنهم مختلف المواضيع العلمية والأدبية لا بد من أن نؤكد في توجيهنا لهذا الجيل ، العمل على توجيهه الوجهة الصالحة التي تخدم مصلحته ومصلحة المجموع العام ، وتعود على الوطن بالخير والنجاح ، هذا التوجيه الذي نريده لا بد من وضع اسس واهداف له كي يتم تحقيقه بشكل مرضي .

ان الحاضر الذي نعيشه والذي تعقدت مشاكله وتعددت اسبابه نتيجة التطور والتقدم الفكري والعلمي والصناعي والاجتماعي واختلاف النظم القائمة في العالم ، واتجاهات الفكر المختلفة ، وتأثيرها على السياسة والاقتصاد وآثارها البليغة في حياة الفرد الاجتماعية والحياتية وتعدد المصالح والمؤسسات في الدولة ؛ اننا حين نعرض هذه المشاكل ، انما نحن مؤمنين من ان هذه وغيرها لها الآثار البعيدة في حياة الفرد والمجتمع ، وبما اننا نستهدف اعداد الجيل إعدادا كاملا لخدمة المجموع العام لا بد لنا من أن نضع امام طلابنا حقيقة الحاضر وكيف وصل المجتمع الى هذه المرحلة خلال التطور الحضاري التاريخي وآثار التعقيد نتيجة التقدم العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وان نبني له بصورة حقيقية ناصعة، النظم المتبعة في العالم مع بيان مميزات وخصائص كل نظام مع الشرح الوافي والتوضيح الكافي لما عليه نظام الدولة التي يعيش فيها المواطن وما هي مؤسساتها وتشكيلاتها السياسية والادارية كي يتعرف على نظام دولته السياسي وجهاز حكومته الاداري ، بحيث نجعله قادرا على ان يسلك في المجتمع سلوكا طبيعيا وناجحا وهو متعرف على إدارات الدولة ومؤسساتها وبهذا نكون قد حققنا هدفا من اهداف البناء الاجتماعي ، ذلك هو كشف الطريق المعقد وتعريف المواطن على كل ما يدور حوله من نظم وتشكيلات إدارية وسياسية واجتماعية .

ونستهدف في مدارسنا غرس الوطنية في نفوس الشيء . اننا نعرض عليه فرديته في المجتمع وأثره فيه ، وتكوينه له ، وعلاقته ببقية الافراد وكيف يجب ان تكون تلك العلاقة من حيث تنظيم المشاعر والاحاسيس والعواطف ، وغرس روح التعاون ، وتفهمه بوطنه، التربة التي يعيش عليها والتي ورثها عن الآباء والأجداد ، ومن يسكن عليها وما علاقته بهم ، وكيف يعيشون ؛ ونبعث في نفسه حب التعاون والمساعدة للمواطنين ، وتوضح له دولته ، مم تتكون ، وما شكل الحكومة ؟؟ قوانينها

ونظمها ، فالوطنية هنا ايجابية لا سلبية . الطاعة لقوانين الدولة والخضوع الطوعي لانظمتها ،ما دامت تلك القوانين قد وضعت واوجدت لتنظيم العلاقات بين افراد المجتمع وحماية المواطنين وامنهم وسلامتهم ولتحقيق حقوقهم التي رسمها الدستور .

هذا ما يتعلق بالوطن الاصغر ، ولكن هناك هدف آخر مهم يجب ان نلتفت إليه بعناية ونؤكد عليه في تربيتنا ، ذلك اننا نعتقد ان العرب لا بد وان توحد كلمتهم ويجمع شملهم وان هدف كل عربي استكمال وحدة الامة العربية وانها والحق لغاية الغايات وحلم كل ذي شرف ووطنية ، فلا بد من ان نربي جيلنا تربية وطنية صحيحة قائمة على تهيئة الجيل لتقبل فكرة توحيد الكلمة وجمع الشمل . ولا يعني هذا ان اذكر بالخير نظام دولة عربية واهاجم بالسوء نظام دولة عربية اخرى ، فان رجل التربية يعلم ان التطور التاريخي مستمر وان الفرصة التي سنحت للشعب العراقي بالانعتاق مثلا ، لم تحن بعد للشعب العربي الآخر لظروف كثيرة، فالواجب يقضي علينا ان نستهدف توثيق العلاقات الطيبة وبث روح التعاون والحب والاحترام بين شعوب وحكام البلاد العربية وهذا هدف سام متى ما تمكنا من تحقيقه نكون قد خدمنا القضية العربية خدمة صادقة لوجه الله والوطن .

ولما كنا طلاب وحدة لابد لنا من ان نستهدف هدفا مهما ذلك هو تكوين رأي عام عربي ، ان نفهم طلابنا بحقيقة الواقع العربي ومتطلبات الشعب العربي وان يكون هذا الرأي العام العربي موحد الشعور والغايات، موجها توجيها صحيحا وبوحدة الشعور وحسن توجيهه نكون قد هيأنا المشاعر والاحاسيس ووجهنا الجيل الوجهة التي نريدها نحو عالم عربي متحرر ، تتفاعل في الجماهير الاحاسيس الوطنية الطيبة المنبثقة من واقع تأريخهم ، وظروفهم وحياتهم الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية، واننا متى ما خلقنا رأيا عاما عربيا مستنيرا واقفا على واقعه ، سوف تتمكن من حل كثير من القضايا والمشاكل التي تواجه وطننا الصغير والكبير ،

وبالرأي العام المستنير سوف تتمتع بحقوقنا والحفاظ على استقلالنا وحرياتنا وسيادتنا ووحدتنا ، وبالرأي العام المستنير نحبط جميع المؤامرات الاستعمارية ، وبالرأي العام المستنير نخلق جيلا عربيا متفهما لاصوله واهدافه ومتطلباته في المعترك الدولي .

مر الشعب العربي في تاريخه الطويل بمراحل تاريخية متعددة ، وقد رزح ذلك الشعب تحت حكم نظام جائر لا يقوم الا على الاستبدادية والحكم الفردي ، ولما كانت الديمقراطية هي النظام الذي تتوخاه الشعوب وتتمنى أن تعيشه ، فلا بد لنا من ان بنين لطلابنا في دراستهم نظم الحكم المختلفة ، وميزات كل منها ثم الوقوف اخيرا على النظام الديمقراطي ذلك النظام الذي يقوم على ان يحكم الشعب نفسه بنفسه ، وتجبر الحكم القائم على ان يخضع الحاكم لحكم الشعب ، ولا يتم ذلك إلا بعد ان نخلق رأيا عاما مستنيرا متفهما لمعاني الديمقراطية ومقدرا قيمها .

والديمقراطية التي كنا نستهدفها وثيقة الصلة بالحرية ، لان الحرية هي من اهم مظاهر الديمقراطية ، ولا بد لنا من ان نعرف الحرية التي يجب أن يفهمها الجيل ، انها التمتع بالحقوق التي كفلها الدستور ، انها الاخلاص بالعمل والنزاهة في اداء الواجب ، انها الشعور بالمسؤولية ، إنها العدالة والحرص على المصلحة العامة ، انها احترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء على تلك الحقوق .

اننا نستهدف بناء جيل ، مواطنين صالحين ، فلا بد في حياتنا الحاضرة في وضعنا الديمقراطي من ان نغرس تلك المبادىء السامية والاخلاق الفاضلة التي تحقق نجاحهم في الحياة العملية .

علينا أن تتدرج في توضيح وتفهم معاني الحرية ومفاهيمها ، وكيف تمكنت الانسانية من الحصول على ثمرات الحرية بعد جهاد طويل ونضال مرير ودائما ابدا تؤكد على وجوب المحافظة لمكاسبنا في الحرية بشكل يتفق

والقوانين السائدة ونغرس في نفوس طلابنا حب تلك الحرية وعدم الأساءة الى مفاهيمها او الاعتداء على حريات الاخرين ، لاننا نستهدف إعداد جيل ، مواطنين صالحين ، يحيون الخير لانفسهم ولمواطنيهم وللبشرية جمعاء ٠

ومن الحرية ومفاهيمها نعرج على مساوىء الاستعمار واهوال الحروب ، فبامكاننا ما دمنا نريد تربية وطنية قائمة على اسس انسانية لا بد لنا من ان نشجب كل محاولة للاستعمار ، وابقاء الشعوب الضعيفة تحت سطوة المستعمرين أيا كان لونهم ، لان الاستعمار معناه فقدان حرية الشعب ، والحرب هي اصل الاستعمار ، والاستعمار والحرب صنوان لا يختلفان تربط بينهما روابط قوية ذات صلات وثيقة ، فبالاضافة الى التخريب والدمار وقتل الاطفال والنساء وضياع ما اتجه الانسان من مدنية وحضارية ، انها ضياع لكرامة الشعب وسيادته ، انها تؤدي الى قتله واستعباده ، من هذا نخرج بالمعاني العظيمة لاخطار الحرب والاستعمار والى اهمية الحرية والحياة فيها ، وكيف ان الآباء والاجداد دافعوا عن لحرية بدمائهم واموالهم لان الانسان بلا حرية هو انسان بلا حياة ٠

إذن فلنغرس في نفوس طلابنا حب الخير والحرية والسلام وبهذا نكون قد حققنا هدفا ساميا من دروسنا في التربية الوطنية يحقق لنا خلق جيل يشعر باهمية الحرية ويحيط بمفاهيمها السامية ٠

والقومية شعور متجانس عند جماعة ما تربط بينهم روابط عديدة منها التاريخ القديم واللغة والعادات وغيرها من المشاعر والاحاسيس ، والقومية العربية بمفهومها الحالي هي تلك الاحاسيس والمشاعر والروابط الاخرى التي تربط بين ابناء الأمة العربية والتي تحفزهم الى مقارعة الاجنبي وتخليص الشعوب العربية من الاستعمار ، وتدفعهم الى تقديم العون الى اخوانهم المناضلين في كل مكان ٠

والقومية المثلى هي تلك التي تحترم القوميات المختلفة ولا تزدريها ولا تعتقد ان عناصرها ازكى من عناصر القوميات الاخرى ، وتعترف بوجود القوميات الاخرى ولا تعتدى عليها ، إذن لا بد لنا من هدف سام عند تدريسنا للتربية الوطنية بعث الشعور القومي الوطني ، موضحين لطلابنا حياة العرب وعناصرهم وتاريخهم وعلاقاتهم وروابط بعضهم بالبعض الآخر ، ونؤكد أنه ليست هناك قومية افضل من الأخرى وان شعوب العالم كلها يسودها الاخاء والسلام واننا حين نستهدف بعث الوطنية والروح القومية في نفوس النشء انما نهذب ذلك بشكل يصبح متجانسا مع التطور العالمي ومبدأ التعايش السلمي والابتعاد عن العدوان ، كما اننا في بعثنا لتراثنا القومي انما نعني بذلك تقوية الشعور الوطني وتوحيد الصفوف والتأكيد على وجوب التعاون بين الاقطار العربية وتخليصها من الاستعمار والرجعية وتهيئة حياة افضل لشعبها ثم السير بها نحو طريقها التاريخي الاصيل ذلك هو وحدة الوطن العربي الأكبر .

والوطن ، تلك التربة التي ورثناها عن الآباء والاجداد ، والتي ضحى من اجلها الاحرار من آبائنا للحفاظ عليها طاهرة ندية ، صالحة للبناء ، وهي وديعة للاجيال يحافظون عليها ويعملون على ازدهارها وتقدمها ، يذودون عنها باموالهم وانفسهم ، والدفاع عن الوطن واجب مقدس ، فمن اهم اهدافنا في التربية الوطنية ان نبذل العناية البالغة في غرس هذا الهدف في نفوس طلابنا وتحبيب الوطن إليهم وتمجيده واعلاء شأنه والعمل على رفع مستواه متعاوناً مع ابناء الوطن الآخرين يدا بيد وكتفا الى كتف ، حتى يصبح الوطن قوياً متماسكا تسود ابناءه المحبة والاخاء وروح التفاني في سبيل كرامة الوطن والمحافظة على سلامته من كل اعتداء .

اننا نستهدف من تدريسنا للتربية الوطنية خلق مواطن عامل ، نشيط ، دؤوب ، يسعى نحو عمله ورزقه وعلينا ان ننمي فيه هذه الرغبة ونشجعه على ذلك كي نخلق منه مواطنا عاملا يكون قادرا على ان يسلك في العمل وسط هذه الحياة العملية .

ونحن نسعى جاهدين الى خلق مواطنين صالحين يعملون لخير الوطن ولخير المجموع العام وهـذا يتم متى ما تمكنا من ان نبرز لطلابنا اهميـة الشعور بالمسؤولية ، عند سلوك الفرد في هذه الحياة ، وواجب الفرد في مجتمعنا هذا يجب ان يتم عن طريق حرصه على المصلحة العامة ، وهو واجب حتمي يتجلى ذلك في المجتمعات التي سارت في طريق الرقي والتقدم وبلغ ابناء تلك المجتمعات شوطا كبـيرا في الثقافة والمدنيـة وانهم ادركوا ان استمرارهم في ذلك الرقي وتلك المدنية انما يتوقف على مقـدار تمسكهم باداء هذا الواجب ، وعندي ان المجتمع يقاس بمقدار ما يشعر به افراده من المسؤولية ومقدار تقبلهم لتنفيذ تلك الواجبات الملقاة على عاتقهم لخدمة المجتمع ، وبذلك فان الاستخفاف بالمسؤولية والاستهتار بالمصلحة العامة من دلائل الانحطاط والتخلف اللذين لابد وأن يؤديا بالمجتمع الى عواقب سيئة ، والعكس ففي تقدير المسؤوليـة والحرص على تنفيذ الواجبـات لخدمة المجموع وتطبيقا للنظام من دلائل التقدم والرقي ويؤدي حتما الى نتائج طيبة ، الى تعاون الافراد في تماسكهم وتفاهمهم وبالنتيجة الى وحدة المجتمع ورصانته وتقدمه كتلة واحدة نحو الاهداف السامية التي نريـد تحقيقهـا .

من اهدافنا في التربية الوطنية ، غرس العـادات الصالحة والسجايا الحميدة في نفوس الطلاب واعدادهم للدخول في معترك الحياة وارشادهم الى السبل القويمة التي ينبغي أن ينبض فيها نشاطهم ، وان تكون تربيتنا توجيه وتثقيف ، وان نهتم بتربيته الجسمانية فلا بد من اشرافنا وتوجيهنا له في مراحل تكوينه الجسمي لنعد جيلا قويا في جسمه ، قويا في اخلاقه، قويا في تفكيره ، وبذلك تكون قد اعددنا اللبنة الصحيحة الصلدة الصالحة لبناء المجتمع، وباشرافنا على حالته الصحية والعقليـة وتوجيهه الوجهـة الصالحة نكون بذلك قد اعددنا الفتى لخوض الحيـاة في مستقبله وانارة ذلك الطريق له بتزويده معلومات ثقافية متعددة الجوانب ، نعرفه نظام دولته ومم يتكون ذلك النظام وما هي المؤسسات الحكومية ، وما سياسة دولته

واتجاهها ، والمجتمع الذي يعيش فيه ، ما هي مميزاته ؟ ما هي اللغات السائدة في وطنه ؟ وما هي العادات المتوارثة وما هو الصالح منها والطالح؟ وتوقفه على واقع حالة امته ، وكيف نرقى بتلك الامة ، وما هي الاهداف التي تستهدفها تلك الامة ؟ ونوقفه على حالتها الاقتصادية ، وما منتجاتها ؟ صادراتها ووارداتها ، وما هي اهم الصناعات فيها ؟

وعلى العموم نعطي للطالب بيانا صادقا لما عليه أمته وحياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، ونضع امامه الحلول الناجعة لتقدم امته، حتى يكون على علم بما عليه وطنه كما يكون على ثقافة تمكنه من التتبع والمشاركة في ابداء الرأي في وضع الحلول لازدهار الوطن ذلك لأن كل فرد مطلوب منه ان يشارك في رفع مستوى مجتمعه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، ويعمل على تقدم وازدهار وطنه .

إذن نحن نستهدف اعداد جيل من النشء يعتز بشخصيته ، له أخلاقه الفاضلة وآدابه الاجتماعية الطيبة ، ومتفهما وطنه وحاجياته مشاركا بروح وطنية صادقة في اعلاء شأن وطنه وامته .

وخلاصة ما تقدم اننا نريد اعداد جيل يؤمن بالوطن ويسعى جاهدا لاعلاء شأنه والدفاع عنه بماله ونفسه ، مزودا بثقافات مفيدة ذات صلة ببيئة وحياته ، وتوجيهه الوجهة الصالحة في الحياة ونعرفه على حقوقه وواجباته مع الاهتمام بمعاني الحرية وكيف يجب ان يمارسها ، ونبين لطلابنا مساوىء الاستعمار واهوال الحروب كما نؤكد في دراستنا على وجوب احترام حقوق الغير ، والتمسك بالنظام الديمقراطي الذي هو اسمى ما وصلت اليه المجتمعات من نظم الحكم الخيرة ، ونسعى الى تكوين رأي عام عربي ، متفق في المشاعر والاحاسيس . وبذلك نكون قد قدمنا خدمة جليلة لابنائنا ووجهناهم الوجهة التي نريدها ، وأدينا واجبنا الوطني .

والله ولي التوفيق ؟

المولى اسماعيل
وتحرير ثغور المغرب

للدكتور جلال يحيى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
جامعة أسيوط

تألق نجم سلطان من اكبر سلاطين المغرب منذ عام ١٦٧٢ ، وهي السنة التي ارتقى فيها المولى اسماعيل عرش بلاده . وكان اسماعيل قد ولد في عام ١٦٤٦ ، وارتقى العرش بعد أخيه المولى الرشيد .

وكان تاريخ المغرب قد تميز ، بعد قرون، باستمرار الجهاد ضد القوى المسيحية ، سواء في شبه جزيرة ايبريا ، او في ثغور المغرب الاقصى نفسه حين جاءت القوات الاسبانية والبرتغالية لاحتلال هذه الثغور ، ومحاصرة العرب في القارة الافريقية ذاتها .

وكان المولى الرشيد ابنا لسلطان تافيلالت ، في جنوب المغرب ، وامتاز بشجاعته وقوة عزيمته ، الامر الذي ساعده ، في وقت ضعف سلاطين الدولة السعدية ، على ان يحتل عواصم المغرب الاربعة ، ويسيطر على فاس وتافيلالت وتارودانت ومراكش . واذا كان المولى الرشيد قد تمكن من تجميل عاصمته فاس ، الا ان حياته لم تمتد بشكل يسمح له بتثبيت دعائم وحدة الحكم على كل اقاليم المغرب الاقصى ، الامر الذي وفر من بعد لاخيه المولى اسماعيل .

وكانت هناك اختلافات واضحة بين سكان الاقاليم المختلفة من المغرب ، ورجع ذلك لاسباب جغرافية أو اقتصادية . فكان سكان جبال الاطلس يتميزون باستقلالهم وبدائيتهم ، ويصعب مقارنتهم بتجار مدينة

فاس ، الذين كانوا يعيشون عيشة ناعمة ، كما كان من الصعب مقارنتهم برجال البحر في سلا ، والذين تميزوا بطموحهم وشهوانيتهم • وكان هناك رجال الحرب الذين كانوا يتمنون وقوعها في كل لحظة ، في الوقت الذي كان فيه تجار فاس يأملون في سيادة السلم ، وبشكل يسمح لتجارتهم بالنمو ، وفي ظل الامن اللازم لذلك • وكان هناك الفلاحون في منطقة الدكالة والشاوية ، والذين كانوا يزرعون القمح والشعير ، ويربون البهائم والجمال ، وتنتشر في اقليمهم الخيام المصنوعة من الصوف الاسود ، وينتجون الزبد والشمع والصوف والحمص ، والعدس والفول ، وكان هناك فلاحون آخرون ، أكثر توطنا واستقرارا منهم ، في منطقة فاس ، وفلاحون آخرون في جبال الريف ، يمتازون بقسوتهم وخشونتهم وبفقر اقليمهم • اما في سهول المغرب فقد كان هناك نوع ثالث من المزارعين ، تمتد اراضيهم الى ساحل المحيط الاطلسي ، والى سلا ، وكان في وسعهم ان يصلوا الى البحر المتوسط عن طريق تطوان ، وبقرب القواعد العسكرية الاسبانية • اما منطقة مراكش ، عاصمة الجنوب ، ومنافسة فاس ، فانها كانت مركزا للعلم والدراسات الاسلامية، في نفس الوقت الذي كانت فيه مركزا تجاريا وحضاريا • وكان اقليمها مملؤا بالنخيل ، الذي يشارك في صنع لوحة رائعة مع اشعة الشمس المتلألئة على قمم الاطلس المغطاة بالثلوج • وازدهرت في هذا الاقليم زراعة اشجار الزيتون • اما منطقة تافيلالت ، فانها كانت واحة في وسط الصحراء ، واحاطت الرمال فيها من كل جانب باشجار النخيل ، وامتاز اهلها بتصميمهم على العمل ، وبثقتهم بانفسهم • وكان في وسع من يسيطر على مراكش ان يفرض نفوذه عبر ممرات الاطلس الاعلى في الجنوب على وادي السوس ، وهو ذلك الاقليم الخصب ، والذي زاد من ثروته دخوله في معاملات تجارية مع الدول الاجنبية ، عن طريق ميناء اغادير ، الذي شهد استيراد الاسلحة والذخائر ، وتصدير خام النحاس وتبر الذهب • وفي اقصى الجنوب ، كان هناك وادي درعا ، الذي امتاز

اهله بالقسوة والخشونة • ويمكننا ان نضيف الى ذلك اقاليم الطوارق، التي كانت تثور احيانا ، وتخضع احيانا أخرى ، والاقاليم السودانيــة ، التي كان يتم غزوها من وقت لآخر ، والتي امتازت بكونها مصدرا للجنود السود ، الذين كان يسهل صيدهــم ، ويسهل تمرينهم وتدريبهــم على الحرب ، والذين كانوا يشتهرون بالولاء ، وحتى الموت •

وكانت القوافل هي وسيلة المواصلات الوحيدة بين هذه الاقاليــم المتجاورة والمتميزة عن بعضها • ولا شك في ان الفوضى والاضطرابات كانت تؤثر اسوأ الاثر على سير هذه القوافل ، ولكنهــا كانت تسير ، بشكل أو بآخر ، رغم العقبات والعوائق ، اذ انهــا كانت تستند الــى ضرورات اقتصادية وضرورات معنوية ، للاتصال بين الاهالي المتجاورين في اقاليمهم ، حتى وان ضعفت السلطة المسيطرة عليهم جميعــا في بعض الاوقــات •

وكان هذا التباين الموجود بين اقاليم المغرب الاقصى المختلفة ، مع سيادة نظام الحكم الاسروي ، الاقطــاعي ، سببا في ثــورات وحــروب داخلية بصفة شبه مستمرة ، وتشتد بشكل خطير ومهدد عند وفاة احــد السلاطين • وكان للمولى اسماعيل اثنين وثمانين أخا ، من والــده المولى علي الشريف ، أعطتهم له ما يقرب من خمسين زوجــة وجارية • ونشــأ هؤلاء الاخوة دون رعاية ابوية كافية ، وفي جو من التشاجــر والتخاصم والتنافس ، وفي جو من المؤامرات وعمليات الاغتيــال ، وفي مناخ من العقوبات البدنية القاسية التي كان الامير يوقعها بزوجاته وابنائه ، وأثــر كل ذلك في تربية « الامراء » وفي روح القسوة وحتى الوحشــية التي تميزوا بها • وظهر ذلك بوضوح بينهم حين تولوا حكم عواصم المغرب ، ومحاولة بعضهم الانفراد بحكم اقليمهم ، ومحاولة البعض الاخر السيطرة على الاقليم المجاور • وكان السلاح هو وسيلتهم لذلك ، وفي شكل حرب اهلية ، ان جاز هذا التعبير ، أو حرب اسروية ، وخاصة اذا ما خلى مركز

السلطنة • وكان اشدهم قسوة وقوة وغلظة ووحشية هو الذي يتمكن من الانتظار ، وكان على كل سلطان جديد للمغرب ان يبدأ حكمه عملية غزو لاقاليمه المختلفة ، وبحد السيف •

ومنذ عهد المولى الرشيد ، تميز أخاه المولى اسماعيل ، بالشدة والقوة والغلظة والوحشية • وعرف المولى الرشيد كيف يفيد من مزايا اخيه الاصغر ، خاصة وان فترة حكمه كانت مليئة بالثورات والحملات العسكرية ، وبالوحشية في تنفيذ الحكم على المتمردين • وكان المولى اسماعيل هو الذي تمكن من اخماد الثورة التي كانت قد نشبت في تازا ، وبشكل جعله يحظى برضاء المولى الرشيد ، ويحصل على منصب امير مكناس ، مكافأة له على تدعيم سلطته ، حتى وان كان ذلك نتيجة للقتل وللوحشية ، بين افراد نفس الاسرة • ومنذ ذلك الوقت اصبحت مكناس هي مدينة المولى اسماعيل المفضلة ، وسيقوم فيها بتشييد القصور والاسوار واصطبلات الخيل ، ويحاول تجميلها ، ويتخذها عاصمة له عند وصوله للسلطنة •

★ ★ ★

وكان المولى الرشيد يقيم في مراكش ، عاصمة الجنوب ، حين وقعت له حادثة في ثاني ايام عيد الاضحى لسنة ١٠٨٢ هـ (٢٤ مارس ١٦٧٢ م)• ودخل المولى الرشيد بستان المسرة وهو على ظهر فرسه ، ليتجول فيه ، ولكن الفرس جمحت به دون أن يأخذ حذره ، فصدمت رأسه باحد الفروع ، وقيل ان فرعا دخل في اذنه ، وسقط على الارض مضرجا بدمائه• وكان في ذلك منيته •

وسرى خبر الحادث بسرعة الى عدد من الامراء • وكانت فرصة فريدة امام المولى اسماعيل ، ولكن بعض اخوته ، الذين كان عددهم يزيد على الثمانين ، كانوا يمنون انفسهم كذلك بالتربع على عرش السلطنة •

وحاول المولى الحران ، وهو الاخ الاكبر للمولى الرشيد ، أن يسبق المولى اسماعيل في الاستيلاء على فاس ، وخاصة وانها كانت العاصمة التي كان المولى الرشيد قد خبأ فيها كنوزه وثرواته .

ولكن انباء الحادث كانت قد وصلت الى المولى اسماعيل في وقت مبكر ، فتمكن من الاستيلاء على فاس ، وعلى مابها من كنوز السلطان السابق . واعترف علماء فاس وطلبة القرويين بالمولى اسماعيل ، ودعوا له في خطبة صلاة الجمعة . وسرعان ما وصلت الانباء بأن المولى احمد ابن محرز قد اعلن نفسه سلطانا في مراكش وانه قد اخذ في الاستعداد للزحف بقواته الى الشمال ، لمحاربة المولى اسماعيل . واصبح على هذا المولى أن يبدأ عملية اعادة غزو اقاليم السلطنة ، الاقليم تلو الاخر ، حتى يتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة .

ولقد زحف المولى اسماعيل بسرعة صوب الجنوب ، والتقى الجيشان ، في موقعة بين ما يزيد على خمسين ألف رجل ، في احد السهول القاحلة ، وفي ميدان امتلأ بسحابة كثيفة من الغبار . وامتاز جيش المولى اسماعيل بأنه قد اشتمل على اربع قطع للمدفعية يعمل عليها عدد من الاسرى المسيحيين . وظهر خوف رجال مراكش من البارود ، وأسرع عدد كبير من جنودهم بالهرب وبالعودة للتحصن وراء اسوار عاصمتهم الحمراء ، وفر اميرهم من ميدان المعركة . ويروي الناصري أن المولى اسماعيل انتصر على اهل مراكش « وهزمهم ، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف ، فعفا عن اهلها ، واجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا »[1] .

وتمكن المولى اسماعيل ، بالشدة والقسوة من اخضاع اقليم مراكش ،

---

(١) الناصري : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى . دار الكتاب ، ١٩٥٦ . جـ ٧ ص ٤٦ .

ورغم ذلك فان سلطنة المغرب لم تكن قد خلصت له بعد • ووصلت الى المولى اسماعيل في ذلك الوقت انباء تعلن نشوب الثورة ضده في مدينة فاس ، وانباء اخرى تعلن أن المولى احمد بن محرز ، الذي فر بعد الهزيمة قرب مراكش ، قد عاد واستولى على تازا ، واخذ يستعد للزحف على فاس • ووصلت انباء اخرى عن نشوب الثورة في الريف كذلك ضد المولى اسماعيل •

ولا يمكننا أن تتناسى أهمية ثورة الريف ، خاصة وان الخضر غيلان كان قد عاد من الجزائر الى وطنه الاصلي تطوان • وكان الخضر غيلان من كبار امراء البحر المجاهدين ضد السفن المسيحية ، وكان على صلات ود وصداقة وتحالف مع حكام الجزائر ، وله كثير من المؤيدين في شمال المغرب • وعاد الخضر غيلان الى المغرب ومعه اثنى عشر سفينة حربية ، بقيادة مصطفى باشا ريس ، امير البحر الجزائري • ولا شك في أن اتجاه رجال البحر في شمال المغرب وفي الجزائر كان يتعارض مع نمو القوة البرية لسلاطين المغرب في داخل البلاد ، ويهدد بخروج من اقاليم المغرب عن سلطة السلطان المغربي ، وفي صالح القوة البحرية التي كانت متحدة مع الدولة العثمانية •

وكان على المولى اسماعيل ان يواجه هذا الموقف بكل حزم ، رغم تعدد الاعداء في كل اتجاه • وعرف المولى اسماعيل كيف يفيد من الفرقة الموجودة بين اعدائه ، حتى يتمكن من ضربهم الواحد بعد الآخر •

وكانت مفاجأة أن يسير المولى اسماعيل من مراكش صوب الشمال مباشرة ، ويترك جناحه الايمن معرضا لثورة فاس ، وللتمرد الموجود في تازا • وكانت جرأة منه ولا شك انه حاول ابعاد هذا الخطر في الشمال ، واستغلال اقليم الريف لتجنيد الرجال اللازمين له في حربه في منطقة فاس وتازا ، وفي الثغور • ولقد استخدم المولى اسماعيل السياسة بين سكان فاس وبعضهم حتى يحصل على الوقت اللازم له لتوجيه ضرباته الى جهات

اخرى • ونلاحظ أن معظم العمليات كانت تحدث في ذلك الوقت في ظل نظام اقطاعي واضح ، يشتمل على قيادات تتحالف أو تتحارب مع بعضها ، وتغير من مواجهاتها طبقا للدسائس أو للمصالح التي يمكنها ان تحصل عليها من هذا الجانب أو ذلك •

واسرع المولى اسماعيل بمهاجمة قوات الخضر غيلان وسط سهول المغرب ، دون أن يترك له حرية اختيار الزمان والمكان اللذين قد يحققان له النصر • وتمكن جيش المولى اسماعيل من هزيمة قوات الخضر غيلان وتشتيتها ، وقتل الخضر غيلان في المعركة ، ولم يتمكن المولى اسماعيل بذلك من استجوابه ومعرفة المكان الذي كان قد خبأ فيه كنوزه ، ونتيجة لسنوات طويلة من صيده البحري •

ولقد سمح هذا النصر للمولى اسماعيل بالسيطرةعلى الجزءالشمالي من المغرب ، وسهلت بذلك مواصلاته مع الدول الاوربيـة ، واصبح في وسعه ان يهدد المراكز والقواعد العسكرية الاوربية في شمال بلاده ،وعلى سواحلها الغربية •

أما في وسط المغرب ، فان المولى اسماعيل قد استخدم السياسـة ونجح بها في فاس كذلك ، خاصة وانها اشتملت على المكر والدهـاء • واستجاب العلماء في فاس لهذا السلطان المنتصر ،والذياعلن ودهواحترامه للعلماء ، رغم قسوته وجبروته على اعدائه في الحرب ، ووجد من العلماء من مدح المولى اسماعيل ومرؤته ، اذ انه اكتفى بأخذ رأس الخضر غيلان بدلا من أن يطلب رؤوس كل امراء تطوان • فخرج علماء فاس وطلبتهـا مهللين للمولى اسماعيل « المظفر بالله » داعين لـه بالنصر ، ومعلنين لـه الولاء ، وطالبين منه العفو • وكان المولى اسماعيل قـد احضر معه من سهول الغرب رأس الخضرغيلان لكي يطاف بها في فاس، ارهابا للاهالي، ولكنه عاد وقبل توسط العلماء في أن يعاد الرأس الـى القصر الصغير ، ويدفن بكل اجلال واحترام ، بعد حياة مليئة بالجهاد من اجل الاسـلام

والمسلمين . ولا شك في ان معاملة المولى اسماعيل للعلماء واستماعه واستجابته لمطالبهم كانت تدعم من حكمه وتثبت من اركان سلطته في البلاد ، وتظهره بمظهر القوي الذي يمنح . ولا شك كذلك في ان اعتماد المولى اسماعيل على العلماء في عملية ضرب القيادات الاقطاعية الموجودة في ذلك الوقت كانت تشبه ما حدث في اوربا في عصر لوي الحادي عشر، وفي عصر نمو الملكيات الحديثة ، اذ ان الطبقة الوسطى الرأسمالية لم يكن لها وجود بالمعنى المفهوم في المغرب في ذلك الوقت . وتمكن المولى اسماعيل عن طريق العلماء والطلبة من القضاء على معارضة كبار الجالية الاندلسية في فاس ، والحصول على ولاء مدينتهم ، وأردف ذلك بنزع الاسلحة والذخائر من سكان فاس .

واذا كان المولى اسماعيل قد تمكن بهذه العمليات من السيطرة على الجزء الاوسط من سلطنته ، فقد كان عليه ان يسرع باخضاع بقيةالاقاليم المغربية ، كما كان عليه أن يعمل على تحرير ثغور المغرب من الحكم الاجنبي ، خاصة وان القوات البريطانية كانت تحتل طنجة ، كما انالقوات الاسبانية كانت تحتل كل من سبتة ومليلة ، والمهدية والعرائش وأصيلة . وسيكتب للمولى اسماعيل النجاح في تحرير الجزء الاكبر من هذه الثغور المغربية من ايدي قوات الاحتلال الاجنبي ، وبشكل يقرن هذه العملية باسمه في التاريخ .



كان وجود الجنود المسيحيين في ارض الاسلام وصمةعار للمغاربة ، وكذلك للمولى اسماعيل . وكانت طنجة من أعز مدن ثغور الاسلام على قلوب المغاربة ، ولكنهم رأوا احتلال البرتغاليين لها منذ سنة ١٤٣٧ حتى سنة ١٦٦١ ، ثم مجيء الانجليز لها بعد ذلك . وكان وجودهم فيها يعتبر طعنة خنجر في هذه المدينة المغربية ، والثغر الاسلامي .

حقيقة ان وجود الانجليز في طنجة لم يكن يعني استمرار الحرب

بينهم وبين المغاربة طول الوقت ، ذلك ان تبادل السلع والتجارة كان يتم بين الطرفين في الفترات الواقعة فيما بين المعارك والعمليات الحربية ، وكانت الاسلحة والبارود تصل الى ايدي المغاربة ومن التجار الانجليز أنفسهم • ولكن هذا الوضع كان لا ينفي وجود حالة الحرب بين الطرفين، او الدولتين ، بشكل مستمر ، حتى وان كانت بعض الهدنات قد تخللت فترة الحروب الطويلة •

وحاول الانجليز ، منذ سنة ١٦٧٤ ، ان يصلوا الى اتفاق مع المغاربة، فوصل وايت حاكم طنجة الى فاس ، ومعه بعض اعيان سلا ، الذين كانت السفن البريطانية قد اسرتهم في عرض البحر ، واصطحبه امير البحر عبد القادر مارينو حاكم سلا ، والذي كان قد ذهب اليه في القصر الكبير ، لكي يصطحبه الى السلطان في فاس • وقابل المولى اسماعيل الحاكم الانجليزي مقابلة طيبة ، ولكن السلطان رفض عقد الصلح • وقبل المولى اسماعيل الاسرى المغاربة الثلاثين ، وزود حاكم طنجة بهدية اشتملت على ثلاثمائة رأس من البقر ، ومثلها من الغنم • ولاشك ان المولى اسماعيل قد اظهر كرما كبيرا في عملية دفع فدية عينية للاسرى ، اذ انه لم يكن من طباعه دفع أية فدية عن اي مغربي يقع في ايدي الاعداء ، ويعتبر انه قد فشل في الدفاع عن نفسه وعن بلاده ، ولا يستحق اي ثمن •

وبعد عامين من ذلك ،بدأت المباحثات من جديد بين انجلترا والمغرب، بشأن اعمال القرصنة والاعتداء على السفن في اعالي البحار • وكان هذا الوقت صعبا بالنسبة للمولى اسماعيل ، وكان مشغولا حينئذ في حملاته العسكرية التي كان يقوم بها ضد ابن اخيه ، المولى احمد بن محرز ، وما ان انتهت هذه العمليات حتى بدأت العمليات الحربية من جديد بين المغاربة والانجليز في طنجة ، منذ يناير سنة ١٦٧٨ • وقاد القوات المغربية المحيطة بطنجة القائد عمر حدو ، الذي يمكن اعتباره على أنه خليفة للخضر غيلان ، بعد ان انتشر صيته وتدعم نفوذه في كل منطقة المغرب •

وأخذت القوات المغربية في مهاجمة الحصون المحيطة بمدينة طنجـة ، وتمكنت من تخريب بعضها • واستخدم المغاربة في هذه العمليات الالغام وبعض الغازات الخانقة ، وبعض النيران والقذائف المحرقة • وربما كانت هذه الاسلحة ، والتمرن عليها ، قد وصل اليهم عن طريـق الجزائـر ، اذ انها المنطقة الوحيدة من المغرب التي ظهر استخدامها فيهـا ، وكانت شائعة الاستخدام عند العثمانيين ، وحتى في الجزائر• وربما اشتمل جيش المغرب المحاصر لطنجة في ذلك الوقت على بعض المتطوعين من الجزائر ، خاصة وان عمليات الجهاد في ذلك الجزء الشمالي من المغرب كانت دائما مرتبطة ببعضها ، وفي كل شمال افريقية ، رغم خضوع بعضها لحكـم العلويين ، والتفاف الاخر حول العثمانيين • ونجحت قوات القائد عمر حـدو في شهر ابيريل سنة ١٦٧٩ في الاستيلاء على قلعتين أخرتين قريبتين من طنجة ، وبشكل زاد من تهديد المغاربة للقاعدة الحربية البريطانية في شمال البلاد • وقام القائد عمر حدو ، في شهر مارس سنة ١٦٨٠ بهجمة كبيرة على طنجة ، وأردفها بهجمة ثانية في شهر ابريل ، ثم جاءته الاوامـر من السلطان بضرورة زيادة الضغط على اسوار طنجـة ، وأعلمه المولـى اسماعيل بقرب وصول بعض وحدات من الجنود السود ، العبيد البخاري، وحرسه الشخصي ، لكي يعاونوه في عملية الهجوم على طنجة •

وتمكن القائد عمر حدو من محاصرة احدى القلاع الجديدة ، ومن تحطيم اسوار قلعة اخرى بالالغام • واضطر الانجليز الى سحب قواتهم من المواقع الامامية ، بدلا من تزويدهم هذه المواقع بقوات جديدة ،فأدى الامر الى تمكين المغاربة من الزحف وزيادة الضغط على القوات الانجليزية المحاصرة في طنجة • وكان الانجليز قد اضطروا عند انسحابهم من بعض هذه القلاع الى اتلاف المدافع الموجودة فيها ، ووضع الالغـام في داخلها حتى لا تقع سليمة في ايدي المغاربة • وعمل تقهقر الانجليـز على رفع الروح المعنوية عند المغاربة ، خاصة وان المولى اسماعيل نشر في طـول

البلاد وعرضها أخبار انتصار قائده عمر حدو على الانجليـز في طنجة . وأمر باقامة الصلوات في المساجد شكراً لله على ذلك .

واذا كان نصر المغاربة حتى ذلك الوقت غير كامل ، فقد كان ممـا يزيد من قوته أن المغاربة قد قاموا بهذه العمليات ضد القوات البريطانية، دون أية معاونة من الدول الاجنبية ، الامـر الذي زاد من هيبـة المولى اسماعيل داخل البلاد ، وفي نظر الملوك الغربيين كذلـك . وظهر تمـرن المغاربة على استخدام الخنادق ، وتمرنهم على استخدام الالغام ، وبشكل لم يكن في حسبان الانجليز . وظهر فشل التحصينات التي كانت القوات البريطانية قد اقامتها حول طنجة بجذوع الاشجار بمجرد استخدام المغاربة للقذائف الحارقة ، بنفس طريقة استخدام العثمانيين لها في كل مكان .

ولا شك في ان انتصار المغاربة على الانجليز في هذه المرحلة الاولى من الحرب كان صدمة قوية للانجليز ، وعمل على خفض روحهم المعنوية ، وبشكل واضح ، حتى انه اصبح يهدد فاعلية الحامية البريطانية، وامكانيات احتفاظها بهذه القاعدة في شمال البلاد . ويمكننا ان نضيف الى ذلك ان تقدم المغاربة في محاصرتهم لطنجة بهذا الشكل قد حرم الانجليز من كل امكانية للخروج من المدينة ، سواء أكان ذلك لمقابلة القوات المغربية ، او للحصول على المواشي ومواد التموين . وكان من الصعب على انجلترا ان ترسل قوات جديدة ، وتنزلها الى ما وراء خطوط المغاربة المحاصرين لطنجة ، حتى تساعد على فك حصار هذه المدينة ، امـا امكانيـة قيام الاسطول البريطاني بالضغط على الموانى المغربية الاخـرى ، وضربهـا بالمدفعية ، فلم يكن من المتوقع لها أن تؤثر على المغاربة أي تأثير . وظل الانجليز داخل اسوار طنجة ، عاجزين عن الخروج منها ، وعجزوا حتى عن ترميم الاسوار التي قام المغاربة بتحطيمها . وكانوا يشاهدون استيلاء المغاربة في كل يوم على قطعان البهائم ، وبشكل يوحي لهم بنقص مواد التموين اللازمة لهم . وكان نقص الخضر والفواكه والنبيذ في طنجـة

أمر يؤثر على معنوية الجنود الانجليز ، الذين اصبحوا يشعرون بانهم حامية محاصرة ، أو موجودة في المنفى وتعمل من اجل دولة ترفض أو تعجز عن امدادهم وفك حصارهم .

وحاولت انجلترا انترسل عددا من الضباط الممتازين الى طنجةلعمل على رفع الروح المعنوية بين الجنود ، ولكن دون جدوى ، ثم قامت انجلترا بعد ذلك بارسال احدى الكتائب الى طنجة ، وسارت سفن الاسطول البريطاني لحراسة السفن التي تقلها وظهر خوف انجلترا من مهاجمة الاسطول المغربي أو الاسطول الجزائري لهذه القوة قبل وصولها الى طنجة ، هذه علاوة على خوف انجلترا من امكانية مهاجمة الاسطول الفرنسي لها ، وكانت حرب معلنة ضد لوي الرابع عشر . ولا شك في ان ارسال انجلترا لهذا المدد قد ارتبط بعملية نجاح المغاربة في غزو قصبة المهدية في المعمورة ، وانتزاعها من ايدي لاسبانيين . وقبلت سبانيا ان تقف الى جانب انجلترا لمحاربة المغاربة ، ومهاجمة قوات المولى اسماعيل وبصفته عدوا مشتركا لهم . وعقدت معاهدة وندسور التي تعهدت فيها اسبانيا لانجلترا بتزويدها بعدد من الفرسان ، وعدد من الخيول اللازمة لطنجة ، ولكن اسبانيا كانت مشتبكة في حرب مع المغرب ، وكان عليها ان تنجد قواتها المحاصرة هنا وهناك ،قبل قيامها بنجدة الانجليزالمحاصرين في طنجة .

وفي شهر سبتمبر سنة ١٦٨٠ انتهت الهدنة المعقودة بين المغاربة والانجليز واعتمد الانجليز على الادوات الجديدة التي وصلتهم ، وخاصة من الفرسان ، وقاموا بهجوم على خطوط المغاربة ، واستخدموا القنابل ، ولكن المغاربة اوقعوا بمعظم رجال القوة المهاجمة ، عن طريق الكمائن ، التي اقاموها لهم في كل مكان ، وقتل القائد الانجليزي في هذه العملية. وحاول الانجليز القيام بهجوم جديد في شهر اكتوبر ، وان كان ذلك لم يثبط من عزيمة المغاربة ، الذين زاد تمرنهم على استخدام المدفعية ، والتي

كانوا قد ثبتوا قطعها داخل كهوف حفروها لها في الجبال • وهكذا عجز الفريقان ، الانجليز والمغاربة ، عن تحقيق اي نجاح واضح في هذه العمليات •

وكتب حاكم طنجة الى كل من المولى اسماعيل والى القائد عمر حدو. ينبئهم أن ملك انجلترا يرغب في عقد الصلح معهم • ووصل القائد عمر حدو ، على رأس كتيبة من الجنود السود ، لاصطحاب « السفير » الانجليزي الى السلطان ، وقام الكولونيل كيرك بهذه المهمة • ومنحه المولى اسماعيل سلاما لمدة اربع سنوات ، ووقف كل عمليات حربية بين الجانبين • ثم وصل مندوب من انجلترا وعقد الصلح النهائي • وكانت شروط هذا الصلح في جانب المغاربة ، اذ أن المغرب رفض اطلاق سراح الاسرى الانجليز الموجودين لديه ، ورفض تطبيق هذا الصلح على عمليات الجهاد البحري بين سفن الدولتين ، وبهذه الطريقة كان هذا الصلح مجرد هدنة مؤقتة محددة بزمن معين ، وفي نطاق معين حول مدينة طنجة وحدها •

وحتى في مدينة طنجة لم يكن السلم سائدا بين الطرفين طوال الوقت ، رغم رفع الحصار عن المدينة • وعجزت سفارة احمد حدو الى انجلترا ، ومقابلته للملك والملكة ، عن وضع حد للصعوبات الموجودة بين البلدين • وكانت معاهدة هوايت هول في ٢٣ مارس سنة ١٦٨٢ هي عبارة عن تأكيد اتفاقية مكناس ، دون ان تصل الى تسوية نهائية لموضوع طنجة • ومع استمرار الوقت شعر الانجليز بان المعاهدة شيء والتعامل بين القوات الانجليزية في طنجة ، والقوات المغربية حولها شيء آخر •واستمر ذلك لمدة سنتين اخرتين •

وكانت الاوضاع الدينية والسياسية والمالية التي سادت انجلترا في ذلك الوقت ، وفي السنوات الاخيرة من حكم شارل الثاني تمثل ظهور الصراع بين انجلترا وبين انصار البابا في البرلمان البريطاني • وكان

البرلمان يخشى من تحول الاسرة المالكة في بلاده من المذهب البروتستانتي الى المذهب الكاثوليكي ، فرفض الموافقة على الاعتمادات المالية التي طلبها الملك من اجل طنجة ، وعلى اساس انها قلعة كاثوليكية ، يسيطر فيها رجال الدين الكاثوليك من الاسبان والبرتغال ، وتعتبر بالتالي مركزا من مراكز تدعيم النفوذ الكاثوليكي ، الذي كانوا يحاربونه • فقرر شارل الثاني ، في نهاية سنة ١٦٨٣ ، هدم تحصينات طنجه ، وهدم السقالات البحرية الموجودة في الميناء ، وهدم الميناء نفسه ، وسحب الحامية والرعايا الانجليز الموجودين فيها واعادتهم لانجلترا • وقام شارل الثاني بتعيين دارتموث للاشراف على هذه العملية ، ومنحه رتبة امير البحر ، رغم انه اعلن في انجلترا انه ذاهب « للتحقيق » في احوال طنجه • وفي ٤ من اكتوبر سنة ١٦٨٣ اعلن الانجليز لسكان طنجه قرار الحكومة الانجليزية ، ثم بدأت الاعمال ، واستمرت عملية هدم السقالة البحرية لمدة ثلاثة اشهر ، كما ان هدم الاسوار والتحصينات استمر طوال فصل الشتاء ، رغم قيام اكثر من الفي جندي بريطاني بهذه العملية •

وفي اثناء ذلك الوقت ، كان المغاربة الذين يحاصرون طنجة يقومون بمحاولات متتالية للهجوم عليها بقيادة القائد علي بن عبدالله ، واظهار العملية على انها عملية استيلاء على مدينة في اثناء الحرب • ويذكر لنا الناصري ان المولى اسماعيل قد « عقد للقائد أبي الحسن علي بن عبدالله الريفي على جيش المجاهدين ، ووجهه لحصار طنجه فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر وتركوها خاوية على عروشها ••• قاله في « النزهة » وقال في « البستان » لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجه ، وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا سوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبدالله الريفي في بناء ما تهدم من اسوارها

ومساجدها » .[1]

وكان استيلاء قوات المولى اسماعيل على طنجه خطوة هامة في سبيل تحرير بلاده وثغوره من الاحتلال الاجنبي . وجاءت هذه العملية بعد عملية تحرير المغاربة لثغر المعمورة أو المهدية .

★ ★ ★

وكان نجاح المولى اسماعيل في اخراج الاسبانيين من عدد من القواعد العسكرية التي كانوا يحتلونها في المغرب من بين أهم الاعمال التي قام بها هذا السلطان والتي ميزت حكمه بالنصر وبتحرير الثغور .

وكان استيلاء الاسبانيين على هذه القواعد في المغرب سببا رئيسيا من اسباب انتشار الفوضى والقلق في المنطقة ، وفي الفترة السابقة لحكم المولى اسماعيل . وكانت العلاقات بين المغاربة والاسبانيين هي علاقات عداء تقليدي ، وظهر ذلك بوضوح في عملية طرد المغاربة من الاندلس ، وفي عملية الاستيلاء على ثغور المغرب نفسه ، مع اعطاء ذلك شكل الحروب الصليبية . واذا كانت جهود العرب والمغاربة قد نجحت في ابعاد الاسبانيين عن ثغور الجزائر ومراسيها ، كما نجحت في ابعادهم عن تونس وطرابلس، بمساعدة الدولة العثمانية ، فان اقدام الاسبانيين قد ظلت ثابتة ومدعمة في عدد من ثغور المغرب الاقصى ، وخاصة نتيجة للضعف الداخلي ، وللانقسام في هذا الاقليم العربي من ناحية ، ونتيجة لقرب هذه الثغور المغربية من اسبانيا نفسها ، من ناحية اخرى . وكانت اسبانيا تحاول التوسع في عملية الاستيلاء على الثغور المغربية حتى بلغ بها الامر ، في سنة ١٦١٤ الى الاستيلاء على قصبة المهدية ، التي تشرف على منطقة المعمورة، وتعتبر من اهم القصبات في سهول المغرب .

وكانت المهدية تبعد بمسافة خمس واربعين كيلو مترا الى الشمال من

---

(١) انظر : الاستقصاء ج ٧ ص ٦٧ .

سلا ، وكانت تمتاز عنها في صلاحية مينائها واتساعه ، وسهولة تحصينها بالمدفعية التي يمكنها ان ترد عنها غارات الاساطيل الاجنبية • هذا علاوة على وقوع المهدية على مرتفع يشبع برج المراقبة ويكشف ساحل المحيط ، والسفن القادمة فيه ، ولمسافة بعيدة • واذا كان نهر ابو رقراق يزود سلا بالمياه ، فان نهر سبو كان يزود المهدية بما يلزمها من المياه • وكان وقوع غابة المعمورة على مشارف قلعة المهدية يسمح لهذه القاعدة العسكرية بالحصول على كميات كبيرة من الاخشاب اللازمة للوقود ، واللازمة حتى لصناعة السفن ، ويسمح لحماية هذه القلعة باتخاذ الغابة منطقة دفاع طبيعية من الطراز الاول بالنسبة للقاعدة •

واتخذ المولى اسماعيل لنفسه سياسة تحرير ثغور المغرب من الاعداء، ولا شك ان مجهودات المولى اسماعيل في هذا الميدان كانت كبيرة ، وانها اخذت جزءا كبيرا من وقته • ومن مجهوده ومجهود قواته المسلحة • ورغم قلة ما اوردته لنا الوثائق ، وضعف ما زودنا به المؤرخون العرب عن تفاصيل هذه العمليات ، وامكانياتها والطرق التي سارت بها ، وعدم اتفاق هؤلاء المؤرخين وبعضهم ، فيمكننا ان نرسم الخطوط العامة المبسطة لها ، مبتدئين بثغر المهدية •

ويذكر لنا « نشر المثاني » ان الاستيلاء على المهدية قد تم بالقوة المسلحة وقت صلاة الجمعة في يوم ١٥ من ربيع الثاني من عام ١٠٩٢ هجرية، ولكنه يذكر في نفس الوقت وجود رواية ثانية تذكر ان هذه العملية الخاصة بدخول جنود المولى اسماعيل الى هذه القصبة قد تمت بدون حرب أو التحام ، ذلك ان المغاربة قد منعوا وصول المياه الى الحامية المسيحية الموجودة هناك ، مما اضطر رجالها الى التسليم ، واستولى المسلمون على القصبة دون أن يضحوا بمسلم واحد • ويدعم هذا الرأي الثاني خطابات بعض الاسرى المسيحيين في المغرب الى الماركيز دي فيلار ، والتي اشتملت على ذكر قوة قصبة المهدية وقلعتها ، وتوفر التموين والذخائر فيها بكميات

كبيرة • ويعادل تاريخ استيلاء المغاربة على المهدية نهاية شهر ابريل سنة ١٦٨١ • وما ان دخل المسلمون ثانية الى قصبتهم حتى قاموا بتحسين الميناء ، واعادة ترميم الاسوار والحصون ، وساعدت اشجار غابة المعمورة على زيادة عدد سفن اسطول المولى اسماعيل • واصبحت المهدية في عصر المولى اسماعيل من بين أقوى وأهم القواعد العسكرية البحرية للسلطنة المغربية •

وكتب احد الفرنسيين الى كولبير ، الوزير الفرنسي ، في منتصف شهر مايو سنة ١٦٨١ ، عن استيلاء المغاربة على المعمورة والمهدية منذ خمسة عشر يوما ، وذكر أن قوة المغاربة المهاجمة بلغت عشرة الاف رجل بقيادة القائد عمر بن حدو ، وان المغاربة قد نصبوا بعض المدافع عند مصب نهر سبو من ناحية البحر لكي يمنعوا وصول اي امداد للاسبانيين ، ثم ابلغوا ذلك للمولى اسماعيل الذي حضر بنفسه على رأس جيش آخر بلغ ١٤٫٠٠٠، ١٥٫٠٠٠ رجل • ووجد قائد الاسبانيين الا امل له في المقاومة ، فاضطر الى التسليم ، وحصل على الامان لنفسه ولاسرته • وكان في المهدية ما يزيد على مائة مدفع وكميات كبيرة من الذخائر والبارود •

ولكن هذه الروايات لاتشف الغليل في معرفة تفاصيل هذه العملية، خاصة وانها قد تمت بسرعة • ولا شك أن المولى اسماعيل قد عرف بطريقة أو باخرى ، وربما عن طريق احد الفارين الاسبانيين من هذه القاعدة ، بنقص مواد التموين فيها ، وربما انتشار بعض الامراض بين رجال الحامية • وكان المولى اسماعيل في ذلك الوقت يستعد للزحف صوب نهرام الربيع ، وعلى رأس قواته المحاربة ابن اخيه المولى احمد بن محرز ، فكلف القائد عمر بن حدو بمحاصرة المهدية ، والاستعانة في ذلك ببعض رجال الحاميات الموجودة في مكناس وفاس وتطوان والقصر الكبير وسلا • وكان المولى اسماعيل بكل تأكيد يحاول بهذه الطريقة اعطاء لون « التطوع الوطني » لهذه القوة التي ستهاجم الاسبانيين في المهدية • ولكن المولى اسماعيل احتفظ

لنفسه بشرف الاستيلاء على هذه القصبة بنفسه • وقام المغاربة بقطع كل الطرق التي يمكن عن طريقها لرجال الحامية المحاصرة أن يتصلوا بأوربا • ووصل القائد عمر بن حدو امام المهدية في ٢٦ ابريل • ولم تكن الاراضي الواقعة بين اسوار المدينة وشاطيء وادي سبو محصنة الا ببعض الحواجز من جذوع الاشجار ، وبشكل سمح للمغاربة بالتغلب عليها دون كبير صعوبة • ثم بدأ المغاربة في مهاجمة البرجين اللذين كانا يدافعان عن الميناء، أو المرسي • واضطرت الحامية الاسبانية فيهما ، وكانت قليلة في عددها بالنسبة للقوات الوطنية المهاجمة الى التسليم • وبدلا من ان يقوم المغاربة بقتل الاسرى ، او ارسالهم الى معسكرات الاعتقال أو للعمل في منشآت السلطان ، تركوهم يذهبون مع بقية الحامية داخل اسوار المدينة • وكان عليهم أن يذكروا لزملائهم ولقائدهم أن المولى اسماعيل سيحضر بنفسه ، على رأس جيوشه ، لمساعدة القائد عمر ، واذا ما قامت الحامية باطلاق مدفع واحد ، فان جميع رجال الحامية سيذبحون •

ومنح المغاربة للاسبانيين هدنة طويلة ، وحتى السليم ، وتعهدوا بالمحافظة على حياة الاسبانيين في حالة تسليمهم ، ولكن على اساس تجريدهم من اسلحتهم ومن كل ما يملكون ، والاحتفاظ بهم حتى تقوم دولتهم بدفع فدية ، ودفع جميع التكاليف العسكرية التي انفقت في هذه العملية •

ولقد نجحت هذه السياسة كل النجاح ، وظهر تأثير الاسبانيين على بعضهم ، كما ظهر خوفهم وهم محاصرون ، وصلتهم مقطوعة ببلادهم ، وبجحافل مغربية منحتهم الحياة ، رغم عدم ترددها في قتل اي عدو • وشعر الاسبانيون انهم امام خصوم شرفاء ، وجنود اقوياء وان فكرتهم عن المغاربة كشعوب همجية ، تعيش على القتل والنهب والسبي ، هي فكرة خاطئة من اساسها ، وان في وسع المغاربة أن يكونوا فرسانا ، ولهم من اخلاق الفرسان وتقاليدهم ما يميزهم عن غيرهم • واصبح الاسبانيون موزعين بين رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن انفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من

انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك ان قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال اسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن انفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك أن قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال اسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في حرب المغاربة • ولا شك كذلك في ان رجال الدين الموجودين في المعمورة قد حاولوا استثارة النخوة في قلب الجنود المحاصرين ، وانهم قد تحدثوا عن الكنيسة وعن النساء والاطفال ، وعن وحشية المغاربة • ولكن هذه المجهودات ذهبت كلها هباءا اذ ان قائد الحامية قد طلب من المغاربة التسليم •

وارتفعت راية بيضاء في اعلى القصبة ، وشعر المغاربة بان القائد الاسباني يرغب في التفاوض ، واستقبل القائد عمر بن حدو قائدين اسبانيين يحملان الهدايا ويعرضان التفاوض • وانتهى الامر باتفاقية اشتملت على احتفاظ قائد الحامية وستة من ضباطه وأسرهم بحريتهم وبممتلكاتهم ، وبحقهم في اخذ احد القسس الموجودين معهم لكي يحمل مالا في الكنيسة الاسبانية التي انشأوها هناك الى اسبانيا ، اما رجل الدين الثاني فكان عليه أن يبقى مع الحامية الاسيرة حتى يقيم لها شعائر الصلاة • وكان على من يذهب الى اسبانيا ان يهتم بعملية دفع فدية الاسرى الذين تركوا بغير قادة • وتصبح هذه الشروط نافذة بمجرد موافقة المولى اسماعيل عليها •

وطار المولى اسماعيل من الفرح لمعرفته بهذه الانباء ، ويقال أنه اعطى مائة من الذهب الى الجندي الذي ابلغه هذه الاخبار • وفي صبيحة اليوم الثاني ، ومع شروق الشمس ، كان المولى اسماعيل على رأس حرسه الشخصي امام اسوار المهدية • وكان قد سار بسرعة ، وأصدر الاوامر لقادة الجيش بالاسراع واللحاق به هناك • وصدق المولى اسماعيل بسرعة على

الاتفاقية وارسلها للقائد الاسباني حتى يسلم مفاتيح المدينة للملك الغازي . وقدم القائد الاسباني لسلطان المغرب التحية العسكرية اللائقة به ، وجعل قواده يقبلون حذاءه . وخرجت الحامية لاسبانية من القصبة واصطفت في الخلاء بدون اي سلاح ، وكانت لحظة تشتمل على الصمت والسكون الذي يمثل صلاة للشكر على هذا النصر الذي كتبه الله للمغاربة .

وبدلا من ان يرسل المولى اسماعيل القائد لاسباني الى طنجة ، ارسله الى ميناء العرائش ، وكانت قصبة ثانية في ايدي الاسبانيين كذلك ، وحين تعلم حاميتاه بتسليم الحامية الاسبانية الرئيسية في لمهدية لسيد البلاد ،وتعلم كذلك بالمعاملة التي عاملها لها . ولكن بدلا من أن ينجح المولى اسماعيل في هذا الجزء الجديد من خطته تدخلت عوامل اخرى في الموضوع . وكان لوجود حاكم عام اسباني في العرائش ، يمتاز بغطرسته وقسوته ، تأثيرا في سير الاحداث ، ذلك انه امر بالقاء القبض على قائد حامية المهدية ،وارساله مكبلا بالسلاسل الى قادس ، وادى ذلك الى وقوف هذا الرجل للمحاكمة امام مجلس التاج الاسباني .

ولا شك ان اسبانيا قد رفضت دفع الفدية عن رجالها الباقين في المعمورة ، ويذكر احد المسافرين في هذه المنطقة بعد ستة عشر عاما من التسليم كيف ان المهدية قد اصبحت قلعة اسلامية لها قوتها ، وان اسبانيا قد دفعت فدية مائة ضابط من ضباط الحامية ، ولكن المهدية كانت لا تزال تشتمل على ما يقرب من الفي اسير اسباني رفضت اسبانيا افتدائهم ،وبقوا في الاسر ، ولكي يعملوا في المغرب ، دون ان تهتم بلادهم بهم .

وكان هذا النصر سببا في ان يذكر صاحب « النزهة » : « ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ، ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسماعيل عدة مدن من يدي النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار » . ويذكر صاحب « البستان » أن الغنيمة كانت من حظ المجاهدين من أهل الفحص والريف

اللذين كانوا مرابطين عليها ، وان السلطان قد رجع الى مكناس بعد ان أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها ، وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة اهل سلا . وبعد ان فرغ المجاهدون من امر المهدية ارتحلوا مع اميرهم عمر بن حدو الذي اصابه الوباء ومات في الطريق ، فتولى رئاسة المجاهدين من بعده أخوه القائد احمد بن حدو ، واقتسمها مع القائد ابو الحسن علي بن عبدالله الريفي .

اما القصبة الثانية التي نجحت قوات المولى اسماعيل في الاستيلاء عليها من اعدائها الاسبانيين فكانت هي العرائش ، وتم هذا الفتح في سنة مائة وألف هجرية ، وفي آخر شهر شوال ، اي في عام ١٦٨٩م .

وكانت العرائش ثغرا يزيد في اهميته كثيرا عن المهدية ، فكانت قلعتها قوية ، ويسهل الدفاع عنها ، كما ان وقوعها عند مصب نهر اللوكوس كان يعطيها منعة وقوة . وكانت تحيط بها الاسوار والحصون القوية والمعدة احسن استعداد ، وكانت تشتمل على الثكنات الجديدة ، ومخازن القمح ، ومصانع للبارود ، وكان يظهر أن في وسعها ان تقاوم مدة طويلة ، خاصة وانها كانت مفتوحة من ناحية البحر ، وكان نهر اللوكوس يزودها بما يلزمها من مياه من داخل الاقليم . والظاهر أن شعور رجال الحامية الاسبانية فيها بقوة موقعهم ، وقلة تقديرهم للمجاهدين المغاربة ، واعتماد الحامية على مدفعية قوية ، جعلهم يغترون بانفسهم ، ولا يلتفتون كثيرا لخطورة زحف المجاهدين المسلمين على هذه القاعدة القوية .

واقد سار القائد ابو العباس احمد بن حدو في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش التي كان الاسبانيون متمركزين فيها منذ عهد الشيخ ابن المنصور السعدي . وينقسم المؤرخون في تقدير فترة حصار المجاهدين المغاربة للعرائش ، وذكر البعض انها ثلاثة أشهر ، وذكر البعض الآخر انها بلغت خمسة اشهر . وزاد على ذلك الناصري لانه اعتمد على المؤرخين الاسبانيين ، وذكر ان لوى الرابع عشر ، طاغية الفرنسيين ، أو عاهل فرنسا

قد ساعد المغاربة ، واعان المولى اسماعيل ، وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة .

ولا شك ان المغاربة قد استخدموا الالغام في عملياتهم ضد العرائش، ويذكر صاحب « النزهة » ان فتح المسلمين لها كان بعد معاناة ، وان المجاهدين قد « حفروا المينات تحت خندق سورها الموالى للمرسي ،وملؤها بارودا ، ثم اوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور ، فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى ما كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيبات .... واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد ابو العباس فنزلوا عليه، فاخذوا اسارى باجمعهم ولم يعتق الا اميرهم وحده » .

وكان عدد النصارى في العرائش قبل الاستيلاء عليها ثلاثة آلاف ومائتين ، ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين، وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة . ووجد المسلمون بها من العدة والبارود الشيء الكثير، فوجدوا بها نحو ١٨٠ مدفع بعضها من النحاس والباقي من الحديد ، ومنها مدفع يسمى « الغصاب » « طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ، ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته اربعة رجال » .

وكان المسلمون قد تمرنوا على اعمال الالغام من قبل مع اسوار مدينة طنجة التي تحصن وراءها الانجليز لعدة سنوات . ولكن اذا كان المغاربة قد افادوا من وجود بعض عناصر الريف ، وبعض ابناء الجزائر في عملياتهم ضد طنجة ، فمما لا شك فيه ان استخدامهم للالغام ضد العرائش قد جاء نتيجة لخبرتهم ضد طنجة ، ونتيجة لمعاونة فرنسا لهم بالبارود والالغام . وكان وجود بعض المجاري الرومانية القديمة تحت مدينة العرائش تسمح للمغاربة بالدخول فيها ، وبعمل الحفر لوضع الالغام تحت المدينة ، دون ان يشعر الاسبانيون بذلك .

وأمر المولى اسماعيل بنقل الاسرى الاسبانيين من العرائش الى

مكناسة ، وكان عـددهم يقرب من الالفين ، واستخدمهم مع غـيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ، اما بالليل فكانوا يبيتون في الدهليز ؛ وهو في عرف المغاربة هرى تحت الارض . واسكن السلطان اهل الريف في العـرائش حتى يعمل على توطين جزء منهم ، ويحد من نزعتهـم الاستقلالية التي اشتهروا بها في جبالهم ، وأمر قائدهم بان يبنى بهامسجدين وحماما ، ويبني داره بقلعتها .

ولا شك ان فتح قوات المولى اسماعيل للعرائش كانت نصرا جديـدا له دعمت من حكمه ، واظهرته في شكل محرر البلاد ، ومجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين . وقال الشاعر عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني في هذا الفتح :

الا ابشر فهـذا الفتح نصور ... قد انتظمت بعزكـم الامور
وضوء النصر ساعـده التهاني ... ونـور الفخـر نحوكم يدور
حميتـم بيضـة الاسـلام لما ... بعين الحـق قد حرس الثغور
وجاهـدتم وقاتلتـم فانتـم ... لديـن الله اقمـار تنير
وأطلعتـم صوارمكم نجوما ... لدى هيجـاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا ... وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي ثغـر العرائش قد تبدى ... لقدركم على الشعري الظهور
لقـد كان الملوك فساوموها ... وراموهـا وبان لهـا نفـور
فلمـا جئتهـا انقادت وقالت ... اليـك بحـق مولانا المصير
ملكت قيـاد عزتهـا بـذل ... فمـا اغنى الحصار ولا العبور
قهرتـم بابطـال ضخام ... على الهيجـاء كلهـم جسور
فكم رأس من الكفـار امسى ... قطيـع الرأس مجرورا يخور
وكـم نحـر قـلادته رماح ... وسن الرمح مركزه النحـور
وكم اسـرى وكم قتلى بارض ... وكم جرحـى دماؤهم تفور
تمر بهـا الطيـور فتنتقيهـا ... وبات الذئب وهو لها شكور

واضحى الناس كلهم نشاوى	على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور	وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا	وقد عظمت به لكم الامور
الا يا معشر الكفار هذا	يبددكم وليس له فتور

ولا شك ان هذا النصر قد اظهر المولى اسماعيل بانه محرر المغرب، وفتح الآفاق امامه لمواصلة عملية الجهاد وعملية التحرير ، ودعم ملكه.

ان الناس قد نظروا اليه على انه سيقوم كذلك بتحرير بقية الثغور في المغرب الاقصى ، وسيخرج الاسبانيين منها ، كما سيخرجهم من سبته ، وحتى من وهران الجزائر ، وحتى اعادة حكم المسلمين الى الاندلس :

الا يا اهل سبته قد أتاكم	بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة في عشي	تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم	متى يأتي الامام متى يزور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبي	وسيف الحق في يده ينور
أيا مولاي قم وانهض وشمر	لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق	جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها	كما قد قيل برا أو بحور
لسان الحال ينشد كل يوم	ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا	ويأتي العز والملك الكبير
وذلكم بعون الله سهل	ومن بركاتكم أمر يسير
أيا مولاي اسماعيل هذا	عبيدكم الضعيف المستنير
يناديكم يناديكم ويدعو	دعاء لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا الهي	ويا رحمن يا نعم المجير
أثب هذا الامير بكل خير	ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه	ولو كرهت زيود أو عمور

وكان على المولى اسماعيل قبل أن يبدأ في مهاجمة سبته ، أو القيام بعمليات ضد وهران الجزائر ، ومحاولة اعادة الاندلس الى المسلمين أن يواصل تحرير بلاده نفسها قصبة بعد قصبة ، وكانت اصيلا هي اقرب الثغور اليه بعد العرائش ، وكان من اللازم أن يخلصها من حكم الاسبانيين كذلك بعد أن نجح المغاربة في تحرير طنجة والمهدية والعرائش .

وكانت اصيلا تقع على المحيط الاطلسي بين العرائش وطنجة ، وكان وقوع هذين الثغرين الذين يحاصرانها من الشمال ومن الجنوب في ايدي المغاربة يوجه الانظار الى أن المولى اسماعيل سيقوم بتحريرها كذلك ، ما دامت قد اصبحت محاصرة بممتلكاته من كل جانب . ويذكر المؤرخون المسلمون انه لما فرغ المجاهدون من امر العرائش عمدوا الى مدينة اصيلا ، ونزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان ، وامنهم المغاربة . ولكن الاسبانيين لم يطمئنوا للعهد ، فركبوا سفنهم ليلا ، ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون الى المدينة وملكوها . وعمرها اهل الريف كذلك ، وبنوا فيها مسجدين ومدرسة ، وبنى قائد المجاهدين منزله بالقلعة كذلك .

وكان من حسن حظ المولى اسماعيل انه اعتمد في هذه العمليات على رجال من المجاهدين ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان الجهاد يجري مع الدماء في عروقهم ، واعتمد على قياد ورجال من ابناء الريف ، الذين كانوا يولدن مجاهدين ، وكانوا ينظرون الى الجهاد على انه الطريقة الوحيدة لترجمة رغبتهم في الكفاح من اجل الحياة نفسها ، وعلى انه اهنة الوحيدة التي يحق للرجل أن يفخر بقيامه بها . وكان هؤلاء الرجال يتدربون على الاسلحة منذ صغرهم حتى اليوم الذي يتمكنون فيه من استخدامها ضد اعداء البلاد . وكانت الطبيعة مع البيئة هي التي تؤهل ابناء الريف المتحول الى مجاهدين من الطراز لاول ،خاصة وان اخلاقهم وظروف منطقتهم كانت تدربهم على الصبر والعيش بالقليل ، مع قوة التحمل ، وارتفاع الروح

المعنوية والحماس ، وبشكل ملحوظ • وكانت سرعة ابناء الريف وخفتهم ، مع قوة مقاومتهم تفوق ما يمكن تصوره في المحارب الهاوي ، وكان تحركهم في الاراضي الوعرة يثير الدهشة ، هذا علاوة على حدة بصرهم ،وانتباههم ويقظتهم حتى يعجز اعداءهم عن الوقيعة بهم في الكمائن • وكان في وسع ابناء الريف أن يفيدوا من طبيعة الارض في مهاجمتهم الاعداء بعد أن يصلوا اليهم ودون ان يشعروا بهم • وكانوا يشبهون ابناء السودان في كفاءتهم الحربية ، وان كانوا قد امتازوا عليهم لعملهم في الجبال وفي المناطق المغطاة بالثلوج وبكل قوة وانتباه ورشاقة في نفس الوقت • وكان من طباع ابناء الريف ، وهو ما يميزهم على غيرهم ، انهم كانوا لا يأبهون بالحياة ، ولا يلتفتون الى الاغنام والاسلاب • وكانت هذه الصفات المادية والمعنوية تعطي لبعض فرق قوات المولى اسماعيل قيمة كبيرة ، يسهل معها تفسير انتصار المغاربة على الاوربيين ، رغم تفاوت الاسلحة بين الجانبين في ذلك الوقت • ورغم تحصن الاوربيين في الثغور والمدن الحصينة التي تحيط بها الاسوار والابراج وتشتمل على الفلاح • وكان هؤلاء الرجال هم الذين حاصروا مدينة سبته لمدة ستة وعشرين عاما ، وان كانوا لم ينجحوا في الاستيلاء عليها ، ولكنهم عادوا من جديد لمحاربة الاسبانيين فيها ، وللهجوم عليها ، ولمدة اثنى عشر عاما جديدا من حكم المولى اسمايل •

وكانت الروح العامة في المغرب تنادي المولى اسماعيل بتحرير سبته ان لم تكن تناديه بطرد الاسبانيين من كل ارض انتزعوها من بلاد الاسلام• والواقع ان المولى اسماعيل قد قام من اجل سبته بما يشبه التعبئة العامة في كل الجزء الشمالي من سلطنته ، وكون لذلك جيشا فريدا من نوعه، قويا في عزيمته على الكفاح والجهاد • ولكن تراجع ملك اسبانيا بشأن المهدية والعرائش ، ثم انسحاب الحامية الاسبانية من اصيلا جعلت الاسبانيين في بلادهم يخشون من فقد قواعدهم في شمال افريقية • ولا شك ان هذا التنافس الموجود بين الملك ورجال الدين الكاثوليك في اسبانيا جعلهم

ينظرون الى فشل القوات الملكية في الاحتفاظ بقواعدها في شمال افريقيــة على انه ضعف مادي ومعنوي من جانب الملك وحكومته ، ومن جانب الشعب نفسه ، فانتشرت في اسبانيا حركة دعائية كبيرة برئاسة رجال الدين الذين خطبوا ووعظوا واهابوا بالاسبانيين ان يحافظوا على المراكز والقواعد التي رفع جنود الملكة المسيحية ايزابيللا الصليب عليها حتى ليمنعوا المسلمــين « الكفار » من العودة لاحتلال اسبانيا بعد ذلك ، واشتملت هذه الحملة الدعائية على كثير من الصلوات والادعية والخطب كما ظهر فيها الشعر الذي يبكي المسيحية ويولول لها امام سيوف وحراب المسلمين المتوحشين • ولا شك ان هذه الحملة الدعائية قد اثرت في الروح المعنوية للحامية الاسبانية الموجودة في سبتة كما اثرت في الحكومة الاسبانية نفسها ، فقررت ارسال الامدادات ، وضرورة الاحتفاظ بسبته باي ثمن • وكان قرب سبتــه من قادس ومن بقية الموانيء الاسبانية ، يسمح لاسبانيا بالاسامرار في تزويدها وامدادها ، ولا طول فترة ممكنة •

وعلينا ان نذكر من ناحية اخرى ان طول مدة الحرب قد اثرت في رجال الجهاد المسلمين ، وفي قوادهم ، خاصة وانهم كانوا قد تركوا اسرهم واراضيهم ومزروعاتهم وبهائمهم منــذ سنوات طويلة ، وكان طول مــدة الحصار حول سبته ، وبدون الوصول الى نتائج واضحة • اكثر من تهديم جزء من الاسوار ، أو وصول بعض قذائف المدفعية الى احد ابواب المدينة، كان يساعد على وصول الملل الى أبناء الريف • هذا بالاضافة الى ان المولى اسماعيل كان قد قام بسحب فرق من أبناء الريف من حول سبته لارسالهم الى البريجة ، مما اضعف قوة الجيش المحاصر لسبته • وكان تجميع جــزء كبير من القوات المحاربة المغربية حول مدينــة سبته ، ولمــدة طويلة يخلي مناطق أخرى من الادارة الاولى لحكم المولى اسماعيل للبلاد ، ويساعــد بالتالي على قيــام بعض القيادات الاقطاعية بالامتناع عن دفع الضرائب أو اعلان الثورة ضد سيد البلاد •

وليس معنى ذلك انه لم تقع معارك حربية ذات قيمة حول سبتة . ذلك انه في السنوات الاولى من الحصار حاولت القوات الاسبانية الخروج من سبته لمواجهة قوات المغرب ، وانهزمت هزيمة ساحقة امام فرسان المسلمين ، ثم قام المشاة من المغاربة بقتل كل من وجدوها حيا على ارض المعركة ، وبعد انسحاب بقية الاسبانيين ورجوعهم الى سبته صمموا على عدم الخروج منها ، وامتنعوا عن الاشتباك من جديد مع المغاربة . وأمد المولى اسماعيل قائده أمام سبته بعسكر من عبيده ، وامر قبائل الجبل بان تعين كل منها حصتها للمرابطة على سبته وكذلك امر اهل فاس . وبلغت قوات المسلمين امام سبته خمسة وعشرين الفا . ويتهم الناصري المولى اسماعيل بانه قد عزا الى قواده المحاصرين لسبته بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيعدوا بلادهم مع انهم قد سئموا كثرة الاسفار ، ومشقات الحروب . وكان طول فترة الحرب قد صرف انظار المولى اسماعيل عن سبته ، وجعله يشتغل بتمهيد المغرب واخضاعه ، ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم . ويذكر الناصري ان الله لم يهيىء امر فتح سبته على ايدي المولى اسماعيل . واذا كانت هذه الجملة تدل على اعطاء المولى اسماعيل مجرد حقه لا اكثر في تحرير المغرب ، فان الرغبة في استخلاص سبته من ايدي الاسبانيين ظلت موجودة في قلوب المغاربة الذين كانوا يشيرون الى آثار ضرب القوات المغربية لابواب سبته على انها مادة يعتبر بها من يأتي بعدهم ، وحتى يزداد احتياطا وحزما ، وعزما وقوة على الاعداء .

ولكن المولى اسماعيل بلغ بهذه العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال الاجنبية الموجودة في بلاده الى نتائج واضحة وثابتة وبدأت باستيلائه على طنجة من ايدي الانجليز ثم استيلائه على المهدية والعرائش واصيلا ، وبشكل يجعل من المولى اسماعيل محررا لثغور المغرب من سيطرة الدول الاستعمارية .

الجامع عنصر وظيفي، عماري ومورفولوجي في المدينة العربية

الدكتور خالص الأشعب
جامعة بغداد

يظهر تأثير الاسلام على طابع المدينة العربية وفي اغلب اجزائها ،سواء كان ذلك قديما أم حديثا ، وان كان ذلك اكثر وضوحا في الاول منها . يمثل انتشار الجوامع في المدينة العربية واينما وجدت اثر الاسلام الكبير على الحياة الاجتماعية ـ الحضارية فيها .

لقد تأثرت مورفولوجية المدينة العربية ، والى حد بعيد ، بعدة انواع من المنشآت التي تطلبها وجود الدين الاسلامي وظيفيا ، والتي كان لا بد من ان تظهر بانواع متباينة ومميزة من الابنية . لقد استطاعت هذه الابنية بما فيها من اقواس ، منارات ، قباب ، وساحات واسعة أن تعبر وبشكل رمزي عن الحياة الروحية لسكان المدينة العربية .

جاء الاسلام صنواً للحياة الحضرية ، حيث لا يمكن بناء الجامع المعد لاقامة صلاة الجمعة الا في مركز حدبي دائمي . وهنا تجدر الاشارة الى ان بناء الجوامع لاقامة صلوات الجمع يتطلب وجود مجتمع لا يقل عدده عن اربعين شخص بالغ ، لكي تصبح طقوس اقامة الصلاة نافذة [1] هذا بالرغم من ان الاسلام يعتبر صلاة الفرد نافذة على اية بقعة طاهرة من الارض .

لقد اتفقت اراء رجال الدين زمن الخلفاء الراشدين على وجوب اقامة صلاة الظهيرة لنهار الجمعة داخل بناء ثابت ذا سقف وجدران . وهكذا

فقد استمر الدين الجديد ذا علاقة متينة مع المستوطنات المدنية التي ولد باحداها رسول هذا الدين نفسه •

تقع الابنية الدينية في المدينة العربية عموما تحت عدة انواع ، منهـا الجوامع (لصلاة الظهيرة في الجمع) ، المساجد(لاقامة الصلوات الاخرى)، المدارس (الدينية) ، المقامات والاضرحة ، وحديثا الابنيـة التي بـدأت تنشؤها دوائر الاوقاف • يحتل الجامع بين هذه الانواع من الابنية اهمها اثرا واكثرها عددا مما جعل له اثره الكبير على مورفولوجية المدينةالعربية•

تميز دوائر الاوقاف في بعض البلدان العربية درجات ثلاث للجوامع هي : جوامع الدرجة الاولى ، الثانية والثالثة ، مستندة في ذلك علـى اعتبارات اداريـة واقتصادية • تقام صـلاة الجمعة في النوع الاول من الجوامع ، وهو لذلك ربما يخدم المدينة كلها وبالتالي فانه يحتل ،وباستمرار، موقفا مركزيا ، ممثلا اهم مظهر عماري في المدينة العربية [٢] • يكون لمثل هذا النوع من الجوامع عادة امام ، مؤذن ، ممجد ، قارىء قرآن وخادم، او ربما اكثر من هذا العدد • إن هذا يعني ان معدل عدد مستخدمي الجامع الكبير ، في المدينة العربية ، لا يقل عن خمسة اشخاص • وبالاضافة الى وظيفة تأدية صلاة الظهيرة ايام الجمع فيمكن اقامة الصلوات الاعتياديـة الاخرى فيها ، كما وتقام في مثل هذه الجوامع صلوات العيد والعديـد من المناسبات الدينية الاخرى •

يتلو جوامع الدرجة الاولى في الاهمية جوامع الدرجة الثانية والتي قد تخدم منطقة ما من المدينة العربية اوسع من حدود المحلة التي توجـد فيها مثل هذه الجوامع• لكل من هذه الجوامع امام ،مؤذن وخادم ، اي يستخدم فيه على الاقل ثلاث اشخاص •

أما جوامع الدرجة الثالثة (المساجد) فتمثل في الواقع مراكز صغيرة للعبادة او مراكز ذات اهمية دينية خاصة ، تخدم السكان المجاورين فقط•

يستخدم في مثل هذه المساجد عادة الامام فقط ، حيث يتعاون ابناء المحلة المجاورة على القيام بشؤون النظافة واحيانا حتى على تأثيثها • ان تواجد الامام عند صلاة أية مجموعة تتعدى اثنين أمر اساسي مما دعا الى وجوده في مثل هذه الجوامع •

إن اهم عوامل تحديد عدد الجوامع في المدينة العربية هي حجمها السكاني ، عدد الاثرياء المؤمنين ، وسياسة الاجهزة البلدية فيها ، ولو انه في حالات عديدة لا يدل تواجد الجوامع في منطقة ما من المدينة سوى على وجود الاثرياء المتبرعين وليس على الكثافة السكانية [٣] • إن ذلك يفسر وجود الجوامع في مناطق غير سكنية من المدن العربية ، مما يدل على توفر عناصر معينة مثل الشخص المتبرع الذي قد حدد بنفسه توقيع الجامع في مثل هذه المناطق •

يبدو انه كان من المفضل زمن الرسول محمد (ص) ان يقتصر على وجود جامع واحد لكل مستوطنة مدنية ، وذلك ميتيسر للخطيب ان يوضح مرة واحدة ولاكبر عدد ممكن من المصلين ، الواجبات الدينية ، السياسية والادارية المراد بثها • ربما كان ذلك احد الاسباب الرئيسية التي جعلت المدينة العربية التقليدية تمتاز باكتظاظ ابنيتها وبالتالي طبع مورفولوجيتها بطابعها المميز •

ولكن وكنتيجة مباشرة للتوسع في الرقع المبنية للمدن العربية ، بفعل نمو عدد المسلمين ، فقد اصبح في غير الممكن الاقتصار على جامع واحد وبالتالي اصبح لا بد من ظهور الجوامع الاخرى •

يمثل الجامع المحور المركزي للحياة المدنية ، الاجتماعية ـ الدينية ، والتخطيط العماري في المدينة العربية • لقد لعب الجامع الكبير ، وغالبا ما يكون مركزيا في موقعه ، الدور الرئيسي في توجيه بوابات أو مداخل المدينة والطرق الرئيسية الداخلة منها • على ضوء ذلك فيمكن ان تؤخذ

الجوامع في المدينة العربية كمعيار لاستقرار اتجاهات توسع الرقع المبنية فيها ، نمو سكانها وتوزيعهم المكاني •

لقد اكد كل من القرآن الكريم والحديث الشريف على مركزية الجوامع وذلك لعدم ورود ما يشجع بناء الجوامع داخل المقابر التي غالبا ما تقع عند اطراف المدينة العربية • ربما كان ذلك لكي يزاد من الروابط بين العابد وربه ، حيث قد تنقطع افكار واحاسيس المصلي اثناء صلاته عند القبور •

هذا وكثيرا ما تمتاز بعض المدن العربية باهميتها الدينية اكثر من غيرها بسبب تواجد اضرحة ائمة أو رجال دين معينين ، ولمختلف الطوائف الاسلامية • إن ذلك يدفع انصار كل مذهب لان يترددوا على زيارة ضريح امامهم او رجلهم الديني ، وبالتالي يعطي تلك المدن اهمية وظيفية تتجاوز حدودها • إن ذلك يحول مثل هذه المدن الى مراكز حج للمسلمين ومن مختلف اصقاع العالم الاسلامي • إن احسن مثل على ذلك هو اهمية بعض المدن العراقية لمسلمي اجزاء كثيرة من العالم حيث توجد مراقد الامام علي ، الحسن ، الحسين ، ابو حنيفة ، الشيخ عبد القادر الكيلاني الخ•• تنعكس مثل هذه الاهمية على كثافة المرور على الطرق المؤدية الى مثل هذه المدن ، فلقد وصلت كثافة المرور على طريق طهران — بغداد ، مثلا ، في مواسم الزيارة الى ٧٠٠٠ زائر باليوم (٤) • هذا بالرغم من ان زخم الزيارة يتأثر بعوامل عدة منها طبيعة العلاقة السياسية بين الدول ، ومواعيد اوقات الزيارات الدينية ، وتوفر طرق المواصلات وتطورها • لقد ارتفعت الاهمية الدينية لعدد من المدن العربية بفعل وقوعها على طريق مكة حيث تؤدي فريضة الحج سنويا •

ان اهم الوظائف التقليدية للجوامع هي الوظائف الدينية ، الثقافية ، السياسية ، الادارية والاجتماعية • لقد استمرت الجوامع تمثل اهم المراكز التي تمارس منها الوظائف الادارية ، وفي العديد من العواصم الاقليمية

للوطن العربي ، وحتى بداية القرن العشرين • هذا اضافة الى وظائف اخرى كان تكون مراكز للقضاء او أماكن لتأبين المتوفين • لقد قلت اهمية الوظيفة التعليمية للجوامع في اغلب المدن العربية بحكم عـدم استمرارية ارتباط نفس العدد من المدارس بالجوامع ، وكذلك نتيجة لتطور التعليم بمفهومه الحديث والذي قد فصل ــ بالقانون ــ عن الجوامع • واكثر من ذلك فلقد طورت الدراسة في بعض المدارس الدينية وفي العديد من المدن العربيـة لتصبح منسجمة ومناهج التعليم الرسمية • وان ذلك يدل على ان الجامع بدأ يفقد اهميته الاكاديمية ليقتصر فقط على الوظيفة الدينية •

لقد استمرت الجوامع وحتى بداية الحكم الملكي في العراق تمثـل المراكز التي تنقل منها التعليمات الادارية والتوجيهات السياسية للولاة • وقبل ذلك فقد كان بالامكان قياس شعبية الحاكم من ملاحظة عدد الحاضرين ، بالرغم من ان المسلمين لا يصوتون ولا يتناقشون في الجامع حول ما يدور في الخطبة ، حيث بامكانهم ان يعبـروا عن مشاعرهم تجـاه الحاكـم إما بحضورهم الجماعي ، الجزئي ، أو أحيانا حتى بغيابهم الكلي •

من وظائف الجامع الاخرى هي وجود « السقاية » فيه ، حيث يوفر الماء لابناء السبيل من المشاة ، إلا ان اهمية ذلك قد قلت كثيرا نتيجة لتطور المدن العربية وانتشار المطاعم ، المقاهي ، الفنادق الخ •• فيها •

الى جانب كل ذلك فكثيرا ما كان الجامع ، وخاصـة الجامع الذي يوجد فيه ضريح رجل دين ما ، المأوى للشحاذين ، المـرضى واليتامى • وقبل الانتهاء من استعراض وظائف الجامع فلا بد من الاشارة الى ظاهـرة معينة تنتشر بين سكان المدن العربية ، وخاصة بين الطبقات الفقيرة منها ، وهي اعتبار الاضرحة والمزارات احدى مجالات التسلية وقضاء الوقت •

بالرغم من اعتبار الجوامع منشآت عمارية عامة ، فانها غالبا ما تبنى من قبل القطاع الخاص ، سواء كان ذلك بقيام الافراد ببنائها او عن طريق جمع

التبرعات من المواطنين وبغض النظر عن منـــاطق اسكناهم • وهنا تجـــدر الاثارة الى امر هام جدا وهو وجوب ايجاد وتعاون متبادل بين بلديات المدن العربية والجهات المتبرعة التي تقوم ببناء الجوامـــع وذلك لتحقيق افضـــل ما يمكن من توقيع لها واتباع طرز عمارية يفضل ان تكون اصيلة ومنسجمة مع التراث العماري والبيئة العربية المحلية •

إن اهم العوامل التي تدفع الافراد لبناء الجوامع هي تشجيع القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك (٥) حيث ان ذلك سيجلب لهم رضاءالله• للاسف الشديد لاتتوفر حاليا الاحصاءات الكافية عن عدد الجوامع في المدن العربية والتي بدون شك قد جاءت لتمثل مراحـــل مميزة من تطور فنون العمارة فيها • مثال ذلك ما نراه في بغداد حيث ان اغلب ما يتوفر من ارقام هو ليس تلك التي قامت بها دائرة الاوقاف ، انما ما جاء بكتب المؤرخين او غيرهم من الكتاب • إن ذلك ينعكس في التناقض الكبـــير في الارقام الواردة عن عدد الجوامع في غالبية المدن العربية •

من استعراض التوزيع المكاني للجوامع في عدة مدن عربية يمكـــن القول بان الاجزاء القديمة منها تحتكر النصيب الاكبر والذي قد يتجاوز نسبة الـ ٥٠٪ كما هي الحال في حلب ، دمشق او بغداد • ونتيجة لذلـــك فلا تزيد معدل مسافة التباعد بين الجوامع في هذه الاجزاء من المدينـــة العربية وفي اية حال عن كيلو متر واحد ، مقارنة مع معدل تباعدها فـــي الاجزاء الحديثة منها والتي غالبا ما تزيد على ٥ كم • اضافة الى ذلك فتمتاز الاجزاء القديمة من المدن العربية في احتوائها على أقدم الجوامع والتي قد ترجع الى القرون الاسلامية الاولى ، مما يوفر وثيقة هامة وصادقة لدراسة فن العمارة العربية • وهنا لا بد من استثناء المحلات التي يسكنها غير المسلمين والتي غالبا ما تخلو من الجوامع •

تمثل الوظيفة الدينية اكثر انواع الوظائف استقرارا في المدينة العربية• مثال ذلك استمرارية وجود الجوامع في مراكز المدن العربيـــة (الاجزاء

القديمة منها) بالرغم من ان اغلبية اهذه لمراكز قد بدلت من وظيفتها السكنية • إن هذا يعني انه بالرغم من ان الجامع قد لعب دور النقطة المركزية او المحور المركزي لسكان المحلة او لمحلات التقليدية فانه استطاع ولاعتبارات روحية ـ دينية ان يقاوم عوامل الضغط والتنافس الاقتصادي بين استعمالات الارض المختلفة في هذه المناطق • إن الزخم الوظيفي المتمثل بالمنافسة بين مختلف انواعها ـ في مراكز المدن العربية ـ قد دفع الغالبية من العوائل الساكنة فيها لان تهجر مساكنها التقليدية لتسكن في الضواحي ـ ظاهرة السكن الجديدة والمتطورة باستمرار ، خاصة في المدن الكبيرة منها • نتيجة لذلك فقد تركت الجوامع في مناطق تستغل بالدرجة الرئيسية من قبل النشاطات التجارية ـ الصناعية وتقديم الخدمات • إلا ان تطور وسائل النقل ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ـ قو حول هذه الجوامع الى جوامع متروبوليتانية ، حيث قد بدأت تجذب العابدين ليس من المناطق المجاورة فحسب بل من مناطق سكنية بعيدة ، قد تزيد احيانا على ٢٥ كم كما نراه في القاهرة وبغداد ، وخاصة ايام الجمع • إن شيوع استعمال السيارة قد اضعف والى حد كبير الرغبة التقليدية لدى العربي في ان يسكن بيتا ذا موقع مجاور او قريب الى الجامع • لذلك فيمكن القول بأن عملية التحضر المرافقة للتطور التكنولوجي الحديث قد ادخلت عنصر المسافة الى حياة العربي مما اثر بالتالي على انماط العلاقات المكانية بينه وبين منشآته الوظيفية المختلفة ومنها الدينية • لقد اصبح لعاملي نوع الخطيب ومستواه، سهولة المواصلات والمستوى الاقتصادي للعابد الاثر الكبير في اختياره للجامع الذي يرتاده ، مما يدل وبشكل بارز انماط شعبية الجوامع في المدينة العربية •

أما اذا انتقلنا الى ضواحي المدن العربية ، فانه بالرغم من رخص الارض هنا مقارنة مع ما هي عليه في المركز ، نجد ان عدد الجوامع يهبط فيها والى حد كبير • وهنا يجب ان ننبه الى ضعف معامل ارتباط الكثافة الكافية وعدد الجوامع في المناطق الحديثة من المدن العربية •

لقد مرت اغلبية المدن العربية بمراحل مورفولوجية ثلاث ★ • تمثل الاجزاء القديمة (المركزية) المرحلة المورفولوجية الاولى والتي غالبا ما تنتهي مع نهاية الحرب العالمية الاولى والتي اوجزنا عن توزيع المواقع فيها • أما اذا انتقلنا الى لمرحلة المورفولوجية الثانية والتي انتهت ـ عموما ـ في منتصف الخمسينات ، فسنرى ان عدد الجوامع فيها يقل عن الاجزاء القديمة بالرغم من زيادة عدد السكان هنا على عددهم في الجزء الاول • قد يزيد سكان المدينة العربية في هذه المناطق المتطورة بين نهاية الحرب العالمية الاولى ومنتصف الخمسينات على نسبة الـ٥٠٪ من مجموع السكان ، إلا انه يندر ان تزيد نسبة عدد الجوامع فيها على ٢٥٪ من مجموع الجوامع في المدينة إن ذلك يعني ان معامل الارتباط في التوقيع المكاني بين عدد السكان والجوامع قدا قل هنا ولكن ليس الى الدرجة التي سنراها في مناطق المرحلة المورفولوجية الثالثة •

لقد بني اغلب جوامع هذه الاجزاء من قبل الافراد (القطاع الخاص) مع مساعدات حكومية تأخذ اشكالا مختلفة ، كان توزع قطع ارض مجانا او تمنح مساعدات مالية الخ •••

تمثل الجوامع في هذه الضواحي ضواهر بارزة لاستهالات ارض ثابتة، جاذبة استعمالات ارض اخرى لخدمة مجتمع هذه المناطق المتزايدة عدديا • اضافة الى ذلك فتمثل هذه الجوامع موشرا لتلاقي الطرق لرئيسية مما يمكن تسميته بفقدية الطرق •

على ضوء ذلك فيمكن القول بهبوط نسبة السكان للجامع الواحد في مراكز المدن العربية وخاصة الكبيرة منها ، وذلك لكثرة عدد الجوامع

(★) يختلف عدد المراحل المورفولوجية التي تجتازها المدن العربية وذلك حسب طبيعة الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية والتنولوجية وضمن الاطار التاريخي لكل مدينة .

هنا من ناحية ، ولنزوح نسبة عالية من السكان الى الضواحي وكما اشرنا قبل قليل من ناحية ثانية .

أما اذا انتقلنا الى مناطق المرحلة المورفولوجية الثالثةمن المدينةالعربية، وهي التي تطورت بعد منتصف الخمسينات ، فسنجدان عدد الجوامع هابطا درجة اكثر مما رأيناه في المرحلة المورفولوجية الثابتة . وهنا يمكن القول بان الجوامع قد جاءت لاحقة (متأخرة) للمساكن حيث لم يلعب الجامع دورا مركزيا في عملية التجاذب السكاني والتي تتصف بها المدينة العربية التقليدية في مراحل تطورها التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

ترتفع نسبة عدد السكان للجامع الواحد في ضواحي المرحلة المورفولوجية الثالثة ، أولا لتزايد عدد السكان هنا ، وثانيا لقلة عدد الجوامع . كما وترتفع هذه النسبة ايضا في المناطق التي يذكر فيها المسيحيين او طوائف اسلامية معينة لا ينتظم ارتيادها للجوامع .

لقد لعبت الوظائف التي اريد لكل جزء من الجامع ان يقوم بها دورا اساسيا في تحديد نوعية تصميمه وطراز عمارته .

تمارس عملية الاذان من على المنارة ، التي ادخلت على تصميم الجامع لهذا الغرض ، او من على سطح الجامع الذي يخلو منها . للاسف الشديد بدأت تمارس عملية الدعاء الى الصلاة (الاذان) باستعمال مكبرات الصوت الكهربائية . إن ذلك شائع الآن في الغالب من المدن العربية بالرغم من كل ما أضافته من تشويه الى رونق الجامع الجمالي وهيبته .

في الواقع إنه لمن الصعوبة البالغة ان يتمكن الانسان من الوصول الى المميزات العمارية للجامع من خلال التصاوير المجردة والرسوم ذات الابعاد المقاسة . لقد جاء الجامع النموذجي في المدينة العربية حصيلة للمناخ السائد في المنطقة العربية ، المتطلبات الوظيفية والدراسات الاكاديمية . لقد اعتبرت الجوامع والاضرحة الفخمة لرجال الدين ، من انبل بيوت العبادة من ناحية

طرز عمارتها في العالم • وغالبا ما لا يمكن التفوق عليها أو مجاراتها في غنائها التلويني والزخرفي[٦] •

بالرغم من التشابه الذي يتراءى لسكان المدن العربية بين جوامعهم، فان لكل من هذه الجوامع خصائصه العمارية الفريدة والتي يمكن تمييزها بسهولة • في الواقع تتباين اشكال وانماط الجوامع العمارية جدا ، حيث تتراوح بين خفيف البناء الى ثقيله ، من البسيط جدا الى ذلك الذي يمتاز بزخرفته العالية وبتنميطه العماري الكبير ، واكثر من ذلك فحتى المنارات نفسها تتراوح بين الانيقة الى تلك الفقيرة بمعالم لاناقة والحذق العماريين• كذلك فتتباني الجوامع في المدينة العربية في حجومها ، فمنها المحلي والذي يمتاز بصغره الى ذلك المتروبوليتاني الواسع جدا •

لقد جاء عنصرا القبة والسطح المستوي في الجامع ليكونا صفة مميزة لتاونسكيب المدينة العربية اينما كانت وبشكل تفتقده مدن العالم الاخرى، مكونين تركيبا عماريا موحدا •

تمتاز المدينة العربية بانها لم تفضل الساحات العامة الواسعة ، مقارنة مع ما يوجد في المدينة الاوربية • ومن هنا فقد اصبح الجامع ، شأنه في ذلك شأن البيت العربي التقليدي (ذا الساحة او الحوش) ، عبارة عن فضاء ضمن جدران معينة ، اكثر منه بين مجموعة من الابنية كما يظهر في قطاعات المدن الاوربية الكلاسيكية والمتأخرة • لم يصبح انشاء الساحات العامة في المدن العربية تقليدا تخطيطا لها سوى في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى •

لقد استمرت تلعب الجوامع ، بساحاتها ومناراتها ، في المدن الروسية وحتى الحرب العالمية الثانية ، دور اكثر المنشآت مركزية ، مما جعلها مراكز جذب لانظار وعواطف ليس سكان تلك المدن فحسب انما انظار المسافرين ومن مسافات بعيدة في البيئات العربية السهلية • لقد لعبت الجوامع

الدور الذي كانت تلعبه الساحات العامة في المدن الاوربية • إن ذلك ــ ولكبير الاسف ــ لم يستمر حيث قد قزمت اكثر الجوامع المركزيةالتذكارية من قبل الابنيةالمتعددةالطوابق والتي قد زرعت في المدينة العربيةالتقليدية، وفي حالات عديدة تقليدا اعمى لنماذج عمارية غربية دخيلة •

تكسى مداخل الجوامع عادة بانواع من الكاشي أو الموازائيك الملون خاصة الاخضر ، الازرق والابيض والذي قد تتخلله حزم من اللون الاحمر• لقد انجز ذلك بطريقة حققت تصحيحا معقــدا ودقيقا يصعب تحليله او ادراكــه •

يقود مدخل او مداخل الجامع (ان كان هناك اكثر من واحد) الى الرحبة ذات الشكل الرباعي ، والتي تشكل عنصــرا اساسيا في تصميم الجامع • ان لهذا الفضاء الجامعي المكشوف علاقة عضوية مع المناخ،حيث يمكن ممارسة العبادة فيها • كما وباستطاعــة الناس ان يدخلوا الرحبــة لقضاء ما يرغبون من وقت مناقشين امور دينهم ، الى جانب وظيفة اخــرى تودي هنا وهي وظيفة توزيع الطعام (في حالات عديدة) لمن هم في حاجة اليه • تصميم الشرفات لتوفير الظلال في العديــد من رحبات الجوامع ، والتي تقام فيها العديد من انواع التجمعات • كما وكثيرا ما توجد سلسلة من الكوات والاواوين محيطة بالرحبة ، مودية وظيفة الغرف والتي تستعمل اوقات المطر وكذلك ايام مواسم الحر ، كمناطق لتجمع العابدين ولسكنى الزوار الغرباء وللدراسة أو قراءة القرآن •

توفر اورقة الجوامع وظيفة حماية العابد من الظروف الجوية غــير الملائمة قبل وصولهم الى قلب الحرم • بالرغم من امكانية اقابة العــابد لصلاته في الرحية ، الرواق أو داخل الجزء المقبب ، فيفضل اقامتها في الاخــير •

يمثل الوضوء احد المستلزمات الرئة لاقامةالصلاة • إن ذلك قد ترجم

عماريا بادخال عنصر حوض الماء الذي اصبح ظاهرة تنسيطية لرحية الجامع رامزة لاهمية الماء والنظافة ، ومضيفة عنصرا جماليا لتصميم الجامع .

يمثل الفضاء المسقوف داخلية الجامع واهم جزء من جسمه ، والذي يقع عادة عند احد جوانب الرحبة . وهو ما يعرف غالبا بالمغطى . كثيرا ما يوجد في الجوامع الكبيرة سلاسل من الاعمدة والاقواس على جدران تسند السقف ، مكونة سلسلة من الاجنحة أو الممرات . إن أهم وظيفة يقدمها الحرم هو حماية فضاء كاف لاقامة الصلوات والتي يفضل ان تودي عند مستوى لا يرتفع عن مستوى الارض .

يوجد المحراب داخل المغطى والا على الاتجاه نحو مكة وغالبا ما يكون ذلك بتثبيت صخرة على جداره . لقد تطور شكل المحراب الرباعي الى شبه دائري وعلى ارتفاع مساو لاحد اضلاع المربع . من هنا باتت القبلة (الاتجاه نحو مكة حيث تقع الكعبة الشريفة) رمزا للشعور بالوحدة الوحدة بالمشاعر الروحية والتوجيه الفيزياوي للمدن العربية . لقد طور اول محراب زمن الامويين حين ادخله الخليفة عمر بن عبالعزيز الى قبر النبي (ص) .

يقع المنبر على الجانب الايمن من المحراب . لقد جاء عنصر المنبر الى الجامع من اجل أن تؤدي منه مواعظ وخطب الخطيب . لقد ظهر اول وابسط منبر في جامع الرسول بالمدينة المنورة وفي زمانه . اضافة الى ذلك فسيتعمل لترويد بعض ما يقوله الامام عند اقامة الصلاة .

يحمي فضاء الصلاة الرئيس ، ويضمنه المحراب والمنبر ، بقبة . تبنى القبة عادة امام المحراب ،وقد جاءت عنصرا عربيا اصيلا خاليا من التأثيرات العمارية البيزنطية . تستند اقواس القبة ، الكروية عادة ، على جدار دائري ، والذي يسمى بالطبل في حالة اقامته على تركيب آخر .تغطي القبة وطبلها فضاء رباعي أو ثماني ، وهنا تتصل قاعة الطبل مع خطوط الجدار الرئيسة باطفاف أو متدليات جميلة الطراز .

بالرغم من ان غالبية القباب في الجوامع العربية هي احادية السقف ، فقد تظهر ثنائيته ، وذلك لمقاومة ظروف المناخ الحارة . لقد ظهرت اول قبة ثنائية (اومركية) السقف فيجامع الغوري بالموصل .وهنا يمكنالافتراض بتطور هذا النوع من القباب حتـى قبل بناء قبة Sta. Mavia Floire في فلورنسا (٧) .

تتباين القباب الخارجية بين شبه الدائرية (كما هي الحال في اغلب قباب جوامع بغداد) الى تلك الطولية المسببة عند نهايتها . تسند هـذه القباب عادة بجدران مبنية على القبة الداخلية المزخرفة . تخـط القباب الخارجية بطرق متباينة غنية بعناصر جمالها العماريـة . تكسي القبـاب بالكاشي أو الموزائيك الملون ويجري ذلـك باستعمـال اقواس خشبية . يستعمل المعمار مادة الجص ومسامير صغيرة تثبت على سطح القبةالخارجية لكي تمسك بالكاشي الذي يمكن استعماله لتكسية السطح السفلي من القبة الداخلية ايضا ، خالقة جوا جماليا جليلا . لم تقتصر الامور الجمالية على ذلك فقد اضاف المعمار العربي الكاشي الملون الى قاعدة القبةمع كتابات عربية ــ كوفية نحتت بطريقة تعكس الاصالة العربية في فن العمارة .

يوفر الضياء في الغالب عن طريق شبابيك صغـيرة صممت خصيصا لذلك ، وعادة توقع عند قاعدة القبة . إن جفاف المناخ في اغلبيةاجزاءالوطن العربي قد اتاح للمعمار العربي ان يوجد مثل هـذه الفتحات في القباب والتي بدورها قد خلقت جوا داخليا رائعا لا يشعر به الا من دخل مثلهذه المنشآت العمارية .

لقد بدأ يستعمل الكونكريت فيبناء الجوامع العديد منالمدنالعربية. إن من جملة المساوىء العديدة لهذا العنصر الغريب على بيئتنا هو صعوبـة تثبيت الكاشي الذي كان يستعمل لأكساء القباب . يعود ذلك الى قابلية الكونكريت الكبيرة على امتصاص الرطوبة مما يجفف مادة الملاط وبالتالي

يسبب تساقط الكاشي وكما حدث في العديد من الجوامع الحديثة في المدن العربية •

إن تطور عنصر المنارة ★ قد ادخل تركيبا جديدا ورشيقا الى تاونسكيب المدينة العربية • تمثل المنارة البرج الذي يدعى منه الى الصلاة ، وجاءت لتصبح هدفا مفيدا للتركيب العماري عند بناء الجامع • توقع المنارة دوما عند احدى زوايا الجامع ، وذلك لكي تبرز الناحية العمودية (الارتفاعية) لهذا العنصر العماري ، وبنفس الوقت لتكون تركيبا انتقاليا من مستوى معين في الجامع الى آخر وبطريقة مريحة للعين • لم تكن المنارة معروفة زمن الرسول محمد (ص) وان اغلب الظن هو ان ابراج الجامع الاموي تمثل اول المنارات في الاسلام •

تتباين عدد شرفات المنارات بين واحدة الى عدة شرفات • تمثل الشرفة اعلى مكان يمكن الوصول اليه في المنارة لاعلان الاذان • لقد كان يرتقى الى المنارة بواسطة سلم خارجي ، إلا ان ذلك تحول الى بناء درج داخل المنارة موديا الى اعلاها • تكتسي المنارة عادة بكاش محجل أو موزائيك احادي او متعدد الالوان ، وبطريقة تنتج انماطا زخرفية جميلة •

لقد كان لفن الخط قيمة كبيرة عند المسلمين ، كما وقد احتل الخطاط مكانة مرموقة ضمن المجتمع العربي الاسلامي وذلك لاستطاعته ممارسة نقل القرآن وما لذلك من فخر كبير • لقد استخدم فن الخط العربي كفاية دينية وتجميلية • تكون معالجات فن صنع المجسمات عند المسلمين بواسطة عملية النحت، مقارنة على ما نراه من فن القولبة الاغريقية والرومانية •

(★) هناك ثلاث كلمات مستعملة للدلالة على المنارة : مئذنة ، صومعة ومنارة . لقد جاءت الاول من آذان ، الدعاء للصلاة ، فهي تفني ببساطة المرتفي الذي يعلن منه الآذان . كذلك فتعني الهادي نحو الفضيلة . اما الثانية فتعني البرج . اما في حالة الثالثة وهي المنارة فتعني اصلا المعارض الذي يرفع (٨) .

ان ذلك ينجز عن طريق تهيأة الواح طينية تجري عليها عمليات نحت تجميلية خاصــة •

تكاد تكون كل الجوامع في المدن العربية مجملة بأقوال قرآنية، نحتت بطريقة عربية رشيقة على مسطحات ذات تربيعات جميلة • لقد جاءت عملية نحت الكتابة القرآنية في الجوامع كوسيلة وأنجاز فلسفي لتحرير مشاعر المسلم الروحية من تقييداتها بعد تحويل ذلك الى اشكال معينة • إن كلمة ارابسك Arabesque (وهي فن الزخرفة العربي) الاصيلة وانتشارها الى اغلبية اللغات الاوربية لدليل واضح على اصالة وجلال هذا العنصر العماري الجمــالي •

لا يفضل الاسلام كما ولا يهتم بالفخفخة العمارية التي تهدف الــى التعاظم والتعالي ، مقارنة مع ما نراه في حالة الكنائس القوطية ، وكذلــك فلا يفضل وجود ما يمثل الكائنات الحية خاصة في المنشآت الدينية • إن ذلك يلقي الضوء على بساطة اغلب الجوامع في المدن العربية والتي تعتبر احدى اهم مميزاتها •

الهـــوامش

1 — **R. Hassan,** Islam and Urdanization in the Medieval Middle East, Ekistics, 33, 95 (1972) 108; **G.E. von Grunebaum,** Islam, Essays in the Nature and Growth of Cultural Tradition, London (1961) 142.

2 — **Xavier de Planhol,** The World of Islam, Le Monde Islamique de Géographie Religieuse, New York, (1959)

3 — **S. A. el-Ali,** The Foundation of Baghdad, reprinted in: A. H. Hourani and S. Stern, The Islamic City, oxford, (1970), 81-103.

4 — **A. H. Al-Samarrail,** Transportation in Iraq, P.H.D. Thesis submitted to Reading University, (1968) 145-146.

6 — **Sir Thomas W. Arnold,** ؤainting in Islam, A Study of the Place of Pictorial Art in Muslim Culture, Oxford (1928).

7 — **G. Rivoira,** Roman Architecture, London (1925) 280.

8 — **Arnold,** op. cit. 4, 91.

معتقدات العراقيين القدماء
في السحر والعرافة والأحلام والشرور

للدكتور سامي سعيد الأحمد
قسم التاريخ - جامعة بغداد

وصلتنا الكثير من النصوص الآشورية ـ البابلية في السحر والعرافة، وغالبيتها مكتوبة باللغة الأكدية حيث اعيدت كتابتها زمن سلالة بابل الاولى. ونجد ذكر لهؤلاء السحرة في الكثير من الأدعية والتعاويذ أمثال المجموعتين المعروفتين بالمقلو Maqln والشوريو Shurpu . فمنذ زمن جودية نجد هناك أوامر ضد السحرة . وفي القوانين الاشورية الوسيطة اتتنا موادا ضد ممارسة السحر (اذا أعد رجل او امرأة معدات سحرية ووجدت في حوزته فانه عند توجيه الاتهام له واثباته يقتل صانع هذه المعدات وكل من شهد صنعها أو سمع بها من فم شاهد عيان قال (أنا رأيتها بنفسي) يتقدم كشاهد سماع ويعلن للملك فاذا انكر شاهد العيان امام الملك ما قاله يعلن ذلك في حضرة الاله الثور ابن الشمس (انه حقا قالها) وعندئذ يصبح حرا . اما شاهد العيان الذي قرر الشيء ثم انكره فان الملك يسأله ويتحرى ماضيه وحين يؤتى بمستحضر الارواح الشريرة يجعل الرجل يتكلم ويقول بنفسه (انه ـ اي الملك ـ سوف لا يبرئك من قسمك الذي أمرت ان تقسم به امام الملك وابنه . انه طبعا لنص اللوحة ، انك دفعت للقسم فاقسمت للملك وابنه) . (1) ففي بلاد آشور كانت عقوبه ممارسة السحر (كيشيو) الموت . وفي قانون حمورابي فالمتهم بالسحر يعرض الى امتحان الماء حيث ورد بالنص (اذا اتهم رجل آخر بالسحر ولم يستطع اقامة الدليل اختبر بامتحان

النهر فيرمي نفسه فيه فان غلبه النهر على أمره استولى خصمه على مملكاته وان أظهر النهر انه بريء وخرج سالما فان المدعي يقتل ويأخذ المدعي عليه املاكه) •[٢]

وفي مجموعة المقلو يعرف الشخص الذي يقرأ التعويذة الساحرة بانها (تلك التي يسكن في قلبها شقائي ويولد من لسانها خرابي ويتأصل على شفافها سمي ويقف على آثار قدميها الموت) • وبذلك فقد عزيت الى الساحر والساحرة جلب الكثير من الشرور والامراض والارواح الشريرة • وكان العراقيون القدماء يعتمدون على الآيشيو لتخليصهم وانقاذ مرتكبي الذنوب وشفاء المرضى • علما بانهم عزوا اوجاع الرأس والعمى والكابوس الى مهاجمة العفاريت أو الى ارواح الموتى [٣] • فلكل مناسبة رقية خاصة • وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم الاله أيا ثم مردوخ • ومن المهم ان نقول بان السحرة الذين يضعون عليهم اللوم عن امراضهم ومآسيهم كانوا بصورة عامة أجانب • فالسحر العراقي الرسمي تشرف عليه الدولة وهو ديني في الهامة وغاياته للخير • فهنالك التعاويذ والطقوس السحرية الكثيرة لأغلب المناسبات والتي تستند على عناصر عامة لغالبية اشغال السحر • فاللون والعقد وقواها ، والدائرة واهميتها والتطهير بالماء ثم النار •[٤] ويمكن اعتبار الطقوس التي نجدها في المقلو من نوع السحر وتكون نوع من ممارسة السحر • ومن الامثال التي لدينا عن السحر الاسود هي رسالة الى اله من قبل بابو ــ أخ ــ إدينا يطلب فيها من الاله انزال انتقاما على هذا الشخص لأخذه أرصدة شماش بلاطو • [٥] وهناك مثل في ايلي إدينوم الذي اعد كمية من الشعير الى ولده لأجل ان يزرع حقلا • ولكن الابن صرف الشعير واجر الحقل الى فلاح • واخيرا رفض الفلاح ان يعطي ايلي ادينوم حصة من المحصول بصفته صاحب الارض ورفع ايلي ادينوم الدعوى عليه في المحاكم • ووقف ايلي ادينوم امام المحاكم ضد ابنه • وأصر الاب بان زوجة ابنه وأمها هن ساحرتين (كشاتيوم) وطلب وضع حد لفعاليتهن •

ودفع الابن اتهاما مشابها ولكن الشهود أيدوا الابن مما جعل الحاكم نركال خازر يحكم له بالقضية • فاستأنف الاب الدعوى في محكمة أعلى وترافع امام هيئة من القضاة • فامرت الهيئة الحاكم لان يأمر الابن وزوجته وامها للمثول امامهم • (٦)

فاعتقد السومريون بان كهنتهم والذين حمتهم الارباب يمكـــن ان يخترقوا الحجب السرية الغيبية وحتى الشرور التي تهدد الكون • وتتلخص مهمتهم في التنبوء بوجود هذه القوى من عناصر وعلامات الفأل المختلفة واخضاعهم في وقت ملائم واستخدامهم لمصلحتهم • وبملاحظة العــلامات التأليفية انار كهنة بابل دونما ادراك الطريق المعلم حيث ان السحر دون شك لعب دورا في تقدم الفكر العلمي (٧) • فالسحر العراقي القديم تدريب علمي مستقل ذا حدود ومبادىء متقنة بتطبيقاته وافكاره وليس نظام كوني يحكم ويسير جميع فروع المعرفة (٨) • فالسحر العراقي غايته دفاعية وخيرة ولم يمنع القانون الا الاسود منه الذي يستعمل للشر والاذى ليس الا • وعلى الساحر معرفة اسم المريض او الشخص الذي يرغب في الخلاص مما يعتقد ان احاطت به قوى الشر فيستلفظ اسمه بالصوت الملائم او كتابته او تمثيله بالشكل • ويتلفظ الساحـــر (الآشيبو أو الماشماشو) التعويذة (الشيبتو) • ويستمد الآشيبو قوته من تكريس نفسه للارباب والمهنة ومن كونه ممثل الآلهة الخاصة بالسحر • ويقول في بدأ العملية (آشيبو الذي خلق اريدو هو) ويتلفظ كلمات الطقس الخاص للتخلص من العفاريت وهو في ملابسه الحمراء (اللون المعارض للعفاريت) او جلد قد السمكة لتأكيد صلته بالاله أيا ، وهي الكلمات التي يستوحيها من الاله • فيدعو باســم الارباب اعداؤه ويستعين بالارباب الخاصة لاحراج العفريت • ويكــون الطقس مصحوب بعدد من الاعمال الرمزية مثل حرق المواد التي تشبه الارواح الشريرة وحل العقد التي يتصور الساحر ان ضحيته قد ورط فيها • وتتألف الرقية من عمل تماثيل صغيرة تعذب وتحطم بتلاوة كلمة عليها • ويعمــل

الآشيبو خلال هذه العمليات دوائر بعصابة السحرية يضع فيها نفسه وأي شخص يريده ويقول (في يد امسك دائرة سحر أيا ، في يدي أمسك خشب الارز ، سلاح أيا المقـدس ، في يدي امسك غصن النخلـة ذات الطقس العظيم) . والساحر هو المسؤول عن نفح القـدسية في لوازم الارباب وتماثيلها وطقوس غسل وفتح أفواه هذه التماثيل . وتألف هذا الطقس من لمس هذه اللوازم والتماثيل بواسطة الآلة الملائمة مع تلاوة بعض العبارات الطقوسة . فتدب بالتماثيل بواسطة هذه العملية الحياة . (٩)

واحيانا يتلفظ الآشيبو (الرب العظيم ، الاله أيا أرسلني ، ووضع رقبته المقدسة في محل رقبتي ووضع فمه المقدس في مكان فمي ولعابـه المقدس في لعابي ودعائه المقدس محل دعائي) . فالساحر العراقي يمكنه ان يحدث شيئا عن طريق تقليد حدوثه او احداث ضرر او خـير في أشياء فعلى الساحر تقع مسؤولية إنقاذ الشخص المريض الذي اعتقد بان روحـا تعود لزبونه امثال شعر رأسه او اظافره او جزء من ملابسه وما الى ذلـك عفريتية شريرة قد حلت فيه . ففن الشفاء بالعراق القديم قد ارتبط بنظام واسع من عـالم العفاريت من جن وارواح معاديـة تسـير في شوارع المدن داخلة من ابواب البيوت او جدرانها . فالخوف من الشياطين بانواعها (الشياطين الصرفة وتلك المركبة من شياطين وبشر والناتجـة عن تزاوج البشر والشياطين) والارواح الشريرة والارباب المهانـة كانت من العوامل المهمة في الحياة البابلية (١٥). ونظروا الى ايا ومردوخ كحماة لهم من هجمات هذه العناصر الغثيثة والساحر خلال عملياته السحرية عليه ان يتلفظ اسـم العفريت الذي يريد خروجـه واقلاعـه عن جسم المريض . ومن ثم يرشوا الماء على المريض ويحيطوه بالطين أو باشياء اخرى حامية نباتية تربط على جانبي فراشه بينما يمسك الساحر في يده عودا من الصفصاف المقـدس (سلاح آنو القوي) خلال قرائته للتعويذة . وان لعنة اويدو (او ما تسمى بلعنة الكفارة سيتو وهي المهمة في اخراج العفريت من جسم المريض) قد

حصلت على قوتها من الماء والتي لم تصلنا كلماتها ولكنها لا بد وان تحوي على اسم أيا •

ويتطلب اخراج العفريت احيانا ذبح خروف او خنزير لتحويل العفريت الى جسم الضحية التي يتلقونها بعد ذلك • وفي نص طقوسي يأمر الاله أيا مردو به لان يأخذ ضحية عوضا عن الملك مثل عنزة وحشية ذات قرون وان يوضع رأسها امام رأس الملك مع قراءة العبارة (هلا يكن الملك طاهرا نقيا فالذي لا يعرف اللعنة التي سيشفى بها ، هلا يترك جسمه ويخرج منه) • ويأخذوا ايضا سبع رغفان من العجين النقي الى البرية حتى يرفعوا القدمين بعد أن يوجه الساحر الى الضحية الشر لذي تنتج عن الذنب المرتكب • وضع الآشوريون من العجين ما يماثل شكل المريض ورشوه بالماء وعاماوه بعد ذلك كعوض عن المريض وحملوه بعد قراءة عبارات خاصة الذنب الذي جر على مريضهم المرض • ويضعوا على رأس وقدم الرجل المريض خيوطا من الصوف الاسود والابيض يلقوها بعد ذلك في البرية كطقس تكفيري[١١] • ونسمع عن اخراج اشيبو لشبح اطيمو (اذا مسك أطيمو بانسان وصرخ قلبه فيجب ان تهيء نفسك في يوم محظوظ طيب واغتسل جسمك بالماء من الحوض واذهب الى البرية واكنس الأرض بسعفة نخل ثم اعمل شكلا من الطين تمثل الرجل المريض كعوض والبسها الملابس اليومية الخاصة به ، وصنع سبع مرات سبعة رغفان لأكله اليومي ومغزل وستار ومسمار واربطها الى رأسه • وضع مذبح أمام الاله شماش مع وجبة طيبة ثم رشها ومبخرة مع عطر من عشب الارز فيه مع جرة صغيرة من البخور عليه ثم صنع تمثال شماش) وبعدها يتلو التعويذة التالية (اب أيا ، الشرق ، الرب أيا الذي يعطي التأثير والقوة الى تعويذه مردوخ ، اين اريدو • مردوخ قد رآه • المسيطر على السموات والارض الذي اعطى الحياة لكل الأشياء ، رش الرجل المريض) • وتقرأ التعويذة ثلاث مرات • ثم قطع عقدة ثوبه ويعطي المريض رغيفا مطبوخا في رماد وكأسين من رغوة البيرة • ثم يؤخذ الشكل

ويربط مع غصني صفصاف وتقرأ عليه التعويذة ويوضع في محل •وتلحقها تعويذة طويلة يستنجد بها بكل ارباب العالم الأسعد الذي يمثل لقوتها الرجل المريض صاحب الشكل الطيني • ثم ينتهي الرقم بالعبارة (انت مقبور، ربما تبدل هيئتك ، ربما تغير نفسك (اي ارجع الى الحياة ثانية) [١٢] • والفكرة العفريت مستندة على التعويض (يوخو) حيث يكون العرض في العادة حيوان خاصة خروف او شكل طيني أو عصا ، ومهما يكن العوض فانه يعامل كشيء ميت وفي العالم السفلي • وتقرأ دوما كون الطقوس السحرية تأخذ عملها خارج المدينة او في المقابر والبرية واللواتي ترمز الى العالم السفلي • ونسمع ايضا عن شد العقد من قبل الآشيبو الى المرأة الحامل والتي تعمل بالطبع لاعطاء قوة الى الشخص ضد عدوه • وتقرأ في نهاية احدى نصوص المقلو الموجهة ضد السحر القول (قد حلت عقدتها وابطل سحرها الذي مليء البرية) •[١٣]

وكانت الرقي شائعة الاستعمال يحملها الناس لوقايتهم من اخطار العفاريت المتنوعة وحتى الأرباب كانت تحملها طلبا للسلامة والقوة • وكان مردوخ ، كما ذكرت اسطورة الخلية البابلية مزودا بالسحر مسلحا به لدى حربة تيامات • وقد امدتنا رقية بصورة مخلوق ربما يمثل الشيطان كما تصوره العراقي القديم حيث ترينا مخلوق مجنح بعضلات قوية وسواعد مفتولة وذيل ملتو وهو يحمل في يده سلاح الصاعقة واسمه يازوزو ابن الاله هابني ملك عفاريت الريح الشريرة كما تنص الكتابة التي في ظهر الرقيم وكانت مثل هذه الرقية تستعمل من قبل النساء عنه الولادة لتسهيلها عليهن ، مثلهن في ذلك مثل رقي اللاماشتي طاردة الشياطين التي تهدد النساء الحبالى منهن والمرضعات • واللاماشتي هذه تحمل بالعادة صورة وحش غريب الشكل ذي رأس أسد وجسم امرأة • [١٤] ويلبس الناس وحتى الارباب التمائم ، وكان مردوخ عند حربه لينامات لابسا تميمة من الطين الاحمر وممسكا في يده نبتا يبطل السم ويوقفه • وعلى أحد التمائم

التي وصلتنا تقرأ (ذاك الذي وصل البيت قد أرعبني من فراشي ومزقني وحملني أرى الكابوس ، فالى الاله بابن ، حارس باب العالم الاسفل ، هلا يقدرون له ، بأمر الاله ننورتا ، امير العالم السفلى ، بأمر مردوخ الساكن في ايساكيلا ببابل • ليعلم القفل والباب باني تحت حماية الربين)(١٥) وشكل التميمة ، والتي كانت بالأصل المحماية من الرياح الغربية صيفا والقاق عامة ، تكون عادة على شكل راس عفريت من الصخر او البرونز بصدر طير واذرع أدنان ماسكا بيده سلاح الصاعقة • وعلى احد التمائم تقرأ (انا الاله يازوزو ابن الاله هابني ملك عفاريت الريح الاشرار • الذي يغضب بقوة في الجبل (جبل العالم السفلى) حتى يأتون • اما تلك الرياح التي ترافقهم ، فالرياح الغربية في مقدمتهم واجنحتهم مكسورة) • والنار والارباب الأخرى تأثيرات هذا السحر الاسود ، وهذه الارباب هي تلك الخاصة بالنار امثال كيرا وكيبيل ونوسكو اللذين تقرأ اسماءهم في تعاويذ الآشيبو ضد العفاريت والسحر • (كيرا الغضب ، ابن آنو ، انت اكثر اخوانك عنفا ، انت الذي تحكم بالقضايا مثل لارباب سن وشماش ، احكم بقضيتي ، توصل الى حكم يتعلق بي • احرق ساحرتي وساحري • يا كيرا استهلك (جسم) ساحرتي وساحري ، ياكيرا احرقهم ، ياكيرا استهلك أجسامهم ، ياكيرا قيدهم ، ياكيرا اهلكهم ياكيرا أطردهم) •

ونقرأ في نص عن العلاقات التي تلاحظ على المريض ثم يسرد كيف ان مردوخ رآه وهرع الى أبيه أيا واخبره الذي نصحه بان يأخذ ماء نقيا وان يحل رقيته ، سواء اكانت تلك لعنة احد افراد اسرة المريض او غيرهم وان يستنجد به (بأيا) ثم يأمر ببطلان مفعول اللعنة وتأثيرها كما يقشر الآشيبو البصلة التي معه ويفتح التمرة التي في يده ويلف الفتيلة التي يحملها • ويطلب الآشيبو عادة هذه المواد (البصل والتمر والفتيلة والصوف وشعر الماعز) التي يرميها احيانا في النار • ووصلتنا تعاويذ لا ماشتو كثيرة تقرأ في واحدة ان يأخذ الشخص طينا من الارض ويضع عنها شكلا

اللاماشتو يضعه عند رأس الرجل المريض بعدها يملأ موقدا بالرماد ويضع خنجرا فيه • ثم يضع الموقد هذا لمدة ثلاثة ايام على راس المريض • وفي نهاية اليوم الثالث على الشخص ان يضرب شكل اللاماشتو بالخنجر ثـم يحرقه في زاوية من زوايا البيت • وفي رقية اخرى الى اللاماشتو يوكـر الآشيبو فيها ان يضع شكلا الى اللاماشتو (اتيةآنو) من طين حفرةوكذلك شكل حمار من نفس الطين • ويقدم سكيبة طعاما من الخبز والبيرة ويذبح خنزيرا صغيرا واضعا منه على فم اتية آنو • ويكرر الوضع لمدة ثلاثةايام قارئا خلالها التعويذات وفي نهاية اليوم الثالث يأخذها الى البرية •(١٦)

ولدينا صنفين من الارواح الاولى الشريرة المعروفـة بالاوتوككي ليمنوتي والثانية بالطيبة من نفس (الاوتوككلي) والمعروفـة بالشيدو ، واللماسو • وتقرأ في تعويذة ضد الاوتوككو الشريرة (نامارتو والتي هي خراب وتدمير قد امسكت به •••• اوتوككو شرير يركض في الحديقة مثل ريح الهايته • آلو الشرير الذي يسير في الشوارع مثـل الريح ، الاطيممو الشرير المعلق على الانسان كالحبل ، العاللو الشرير المنتشر مثل الشبكة والذي لا يتمكن احد ان يمحوه • لقد تحلكت على راسه النامارتو الشريرة ، لقد تملكت على بلعومه الاوتوككو الشريرة ، اقـد تملكت على صدره الآلو الشريرة ، لقد تملكت على يده العاللو الشريرة• لقد تملكت على قدميه الرابيصو الشريرة فلميتمكن من الاكل او الشرب• لقد رآه مردوخ •••• اذهب ولدي ، خذ طحين ذرة مر المقدس عنـد العفاريت وطحين حنطـة المقدس عنـد الارباب ثم خـذ طحين الانفيننو واخلطهما •••) (١٧)

واعتقد العراقي القديم بقدرة الشيدو واللاماسو اللامتناهية على طرد الشرور مهما كانت مصدرها • وقد صوروها على شكل اسود مجنحـة برؤوس بشرية ووضعا عند مداخل القصور الملكية • وعملت لهم اشكال من الطين والخشب وضعت على البيوت وحتى الغرف للحماية والامان من

عناصر الشر وارواحه . وقد عثر في موقع اور على اشكال معمولة من الطين في صناديق من الطابوق باغطية فنت تحت الجدران وبعض هـذه الاشكال مصبوغة بالاسود والاحمر وهي على انواع مختلفـة غالبا رجال بشكـل اسماك في بدلة طويلة مع منعة مدببة وبعض منهم رجال يشبهون الطيور . وبصورة عامة فان امثال هذه الاشغال التي وضعت لحماية المنزل تحوي عددا من المآسي التي قد يتعرض لها البيت ومن فيه وبذلك تعتبر حامية للبيت منها (سواء اكانت شبحا شريرا او روحـا شريرة او غول شرير او الـه شرير ... اولاماشتو او لاباسو أو الماسك او الميلو او ليليت او .. يد اله او يد الهة أو وباء .. أو عفريت طاعون أو عفريت سوء حظ أو الموت أو اكر أو الحمى او القاتل وما الى ذلك والتي تؤذي الانسان في بيت انسان) . وهناك ايضا طقوس خاصة تعمل للشكل الطيني أو الخشبي هذا قبل وضعه في الارض كأن يرشه (طبعا الساحر) بالماء المقدس ويضعه على مرفعة الطقس ويضحي له الخرفان ويضع اللحم والعسل والزبد ويهيء المبخرة مع العشب الطيب الرائحة كيما يحرقه فيها وبعد سكبية الخمـر ووعاء الماء المقدس ويتلو بعدها التعويذة الخاصة . وقد عثر على تمـاثيل طينية عليها كآلات سحرية . وفي كتابة من هذه وجدت على اشكال لكلاب تقرأ لـ .... اسم كلب اسود ، استهلك حياته ، اسم كلب آخر العـالي العواء اسم الكلب الاحمر ، طارد عفريت الاساككو . اسم الآخـر ماسك العفريت العدو ... اسم الكلب الأخضر طارد العدو . اسم الآخـر الذي يعض العدو ، اسم الكلب المرقط ، مقـدم الطيبون ، اسم الاخر طـارد النحسين المؤذين) (١٨) .

وهناك طقس عرفوه بتطهير الدار ، تؤخذ به كافة التماثيل سواء كانت طينية او خشبية الى النهر ويضعها باتجاه الشرق ، وعند شروق الشمس يعمل على التماثيل مرسوم يشتمل على أضاح وسكيبة الى الاله شماش ترجـع بعدها الاشغال الى الدار حيث تقدم لها اضاحي وسكائب اخرى هذه المرة

الى مردوخ ورب وربة الدار والثلاث ارباب العظمى والى الروح الحامية للبيت ثم الى ملكة العالم الأسفل • ثم يلمسو المناطق المهمة من الدار كالزوايا وأعقاب الجدران والسقوف ومجاري الدار الهوائية بمواد كثيرة لتطهيرها بدمونها بعد ذلك في خارج الدار • وهكذا طردت الشرور عن الدار وتقدم الاضاحي ونقرأ التعويذة التالية (ومن اجل الامور الشريرة الموجودة والتي تجلب المآسي لدار فلان بن فلان ••• لقد جعلتكم تقضون خارج الدار يدا وعينا ، لطردهم خارج بيت فلان بن فلان • هلا يطرد اي شيء مؤني وغير طيب لمسافة ٣٦٠٠ ساعة مضاعفة) (١٩) •

هذا وقد تكون المآسي التي تنزل بالانسان من جراء سحر عمله ضده ساحر بتأثير شخص معاد او لتسلط عفاريت شر عليه وربما نتيجة عدم التزام الشخص بالتزام وتقيده بتحريم اي خرقه الممنوعات حيث نعرف ان هناك بعض الاطعمة والفعاليات التي حرمت على العراقي القديم حيث تقرأ في نص (في اشهر تشرين ، اليوم الاول ان لا تأكل الثوم والا فان العقرب سوف تلدغه ، أن لا يأكل بصل والا فسيصاب بالدزاتري • في اليوم التالي يجب ان لا يأكل الثوم والا فسيموت شخص مهم في عائلته •••ان لا يصعد الى سقف والا فان رفيقة الليلو سوف تمسك به •• في اليوم الثالث ان لا يتصل جنسيا مع امرأة والا فان تلك المرأة تأخذ قوته الجنسية • في اليوم الرابع ان لا يعبر نهر والا فسوف يذهب نشاطه ورجوليته • في اليوم الخامس ان لا يأكل لحم خنزير والا فان دعوى سوف تقام ضده • ان لا يأكل لحما مطبوخا او أن العفريت المتجول سوف يضربه، ان لا يأكل لحم بقر والا فان عفريت الاوتوككو سوف يمسك به ••• الخ) • او قد يكون السبب اهماله واجباته نحو رب او ربة او قد تكون نتيجة ذنب ارتكبه هو او ابيه أو اخيه الاكبر أو جده أو اخته الكبرى أو أحد أفراد عائلية وحتى قبيلته • أو قد يكون السبب ايضا بانه خرق تحريما لمدينته او تلفظ فألا سيئا ضد مدينته أو انه قد نام في فراش شخص

ملعون او جلس بكرسي شخص ملعون أو على مائدة شخص ملعون او شرب من كوب شخص ملعون • [٢٠] وحتى بناء البيوت يجب ان تتم حسب طقوس سحرية لاكماله • وجميع المباني العامة والمقدسة وضعت في اسسها اشياء ، وفي العصور اللاحقة صار وضع مثل هذه يصحبه تقديم أضاحي• قد فتت تحت ابواب البيوت الحروز وتماثيل الارباب وحيوانات وعفاريت لحماية اصحابها من ارواح الشر ، وضعت كلها بحضور الآشيبيو الذي يقرأ عادة عليها التعويذة الصحيحة • فعندما تكمل البناية يأتي الآشيبيو ويضع شكلا من الطين يمثل رب الطابوق مع اشياء على قارب صغير يحمله ويقرأ التعويذة (رب الطابوق انشدك ، بالسماء والارض انشدك ، انشدك بحق ألالا وبيليلي ، انشدك بلخمو ولا خامو ، انشدك بأرباب السماء ، انشدك بأرباب الارض ، انشدك بأيسو ، انشدك بالارباب التي تسكن دوكو (الجبل المشرق) هلا تمزق ، تخرج وتذهب وتضعف وترحل من هنا ، انشدك ان لا ترجع) [٢١]

فاعتقد العراقي القديم بوجود العفاريت الكثيرة الطيبة منها والخبيثة• والأخيرة هم اولاد ارباب الشر الذين دحرهم مردوخ بينما الطيبون فقد نسلوا من الارباب التي لا تزال تعيده والجن الطيبة معروفة متميزة باجنحتها والثيران المجنحة او انها غير منظورة • وعرفوا أيضا باسم ثلث عشتار او ثلثي عشتار اي برقم ٥ او ١٠ لان رقم الربة عشتار ١٥ • وان الجن الخبيثة اكثر بكثير عددا من تلك الطيبة • واعتبرت الطيبة اولاد آنو أو انيل وامهم ربة العالم السفلي وحتى اولاد أيا من دامكينا • وعرفوا ايضا باسم طحال أيا • وقد صوروا هذه العفاريت كمخيفة وكوحوش ذات اشكال غريبة غير اعتيادية • وهم في جماعات منهم الاوتوككو الاشرار المعروفين أيضا بالسبعة والذين يختلف عددهم احيانا حيث ورد في النص (سبعة انهم سبعة ، في الاعماق انهم سبعة ، في السماء أنهم سبعة ، موضوعين في الاعماق انهم سبعة ، ليسوا بذكور او اناث ، رياح عاتية هم ، ليس لهم

زوجات ولا ينجبون اطفالا ، لا يعرفون الرحمة والشفقة ولا يسمعون التماسا ولا دعاء . انهم خيول ربيت في الجبال ، معادين الى أيا ، انهم حاملي عرش الارباب ولعرقلة الطريق يرمون انفسهم في الطريق انهم اشرارا اشرار انهم سبعة عددهم سبعة مرتين سبعة » وتقرأ أحيانا عن كونهم قبيلة ويضموا حولهم عفاريت كثار منها الاشباح (الاطيمبو) والنامارتو (عفريت لمرض) ، ويكون نباحهم في بعض الأحيان أشد من عضتهم . يتمكنون من دخول البيوت والصفير به والكلام وقلب أثاثه على بعضها وحتى يذهبوا الى الاصطبلات لقتل الحيوانات وأذاها . يدخلون البيوت مهما كانت محكمة القفل ويجعلوا افرادها تتخاصم . وهناك السبعة الآخرون الذين بالاشتراك مع العفريتة انية آنو الذين يمنعون الاطفال من الولادة في الوقت المعين أو يقتلوا الطفل الحديث الولادة . وهناك العين الحاسدة التي لا يصيب الرخاء أحد او أمر تحت تأثيرها . فقد يقف تأثيرها المطر في السماء ولا ينمو الحشيش و لاتتكاثر الحيوانات في الاصطبل . ونوع آخر من العفاريت الخبيثة هم الاشباح (الأطيممو) وهم ارواح اولئك الذين لم يعيشوا بسعادة في هذه الحياة أو ماتوا موتا عنيفا وهم كثيرون تقرأ عنهم في نص (ذاك الذي ترك جسمه في السهل ، وذاك الذي لم يدفن ، وتلك التي ماتت عذراء او في مهدها أو التي مات طفلها او ذاك الذي وقع النخلة او غرق) . او الذين لم يدفنوا دفنا صحيحا حسب الاصول او الذين لم يجلب لهم أهلهم واصدقائهم منذ موتهم العطايا الجنائزية (٢٣) .

والعفاريت اعطيت اسماء كثيرة وهي في احوال متعددة تحمل معاني القوة أو المسك امثال الاوتوككو . آلو ، الشيدو ، العاللو . او انها تحمل اسما وصفيا مثل الأخنحازو (الماسك) والرابيصو (المنتظر) واللاباسو (الداحر) والليلو والانثى اليلتو (الروح الليلية) واعطوا اوصافا مختلفة امثال القساة ، لمتعطشين للريح ، الطائرين في الفضاء . ومنهم الأدمو والتي هي في الواقع ارواح الموتى اللواتي تركت أجسامهم الأصلية حالا بعد

الموت وبدأت في انزال الأذى بالاحياء ولاضرار بهم • ثم النامارتو عفريت الطاعون والامراض الخبيثة ومبعوث الاله من كمال اله الموت والعـالم السفلي • وغيرهم الاوتوكو التي تعيش في المقابر والصحاري والجبال • والعاللو وهي العفاريت غير المتميزة الجنس والتي تقطن الخرائب والمحلات الخالية غير المأهولة ، والرابيصو التي تختفي اثنـاء النهار وتخرج ليـلا لارهاب الناس • والأساكو التي تتغلغل في أجسام النـاس ، والأخازو واللابرتو واللاباسو التي تهاجم الأطفال على الاكثـر • وهناك محلوقات مركبة نضعها بشر والنصف الاخر شيطان مثل الليلو ذكوردوغا زوجات فنراهم على الدوام يطاردون النساء ويلحقون الاذى بهن ويزرعون الفزع في قل بهن • ويقابل هؤلاء الأردات ليلي وهم من النساء دونما ازواج لذا أصبحوا في ملاحقة مستمرة للرجال من اجل الظفر بهم واشباع رغبتهن منهم • ومن العفاريت الطيعو ، الذي يسبب امراض الرأس والحمى • والتعاويذ ضد هذه العفاريت كما صنفت وسميت من قبل الباحثين المحدثين تقع في اصناف اهمها الشوريو والمقلو المستندتان على الحرق والاخـرى الاوتوككي ليمنوتي والأشاككي مارصوتي (مـرض اشاككي) وسلسلة لا بارتو •

وان طقس الاله ايا يدور حول استعمال الماء في شتى الاصناف •ثم حرق شكلا يمثل العفريت مع قراءة تعويذة امثال (انا أحمل الشعلةواحرق اشكالهم ، اشكـال الاوتككو والشيدو والرابيصو والأتيمو واللابارتو واللاباسو والاحنخازو والليلو والليليت ورفيقة ليلو • وجميع الشر الذي يملك الرجال • أو جناذب ودخانكم يرتفع الى السماء واعضاؤكم سيشمها اله الشمس وهلا يحطم قوتكم مردوخ الساحر الكبير ابن أيا) (٢٤) • ثـم يتحولوا الى الساحر والساحرة (في هذا اليوم تقدم لمساعدتي ، اخمـد المضطرب واقهر الشر • وكما ان هذه الاشكال ترفرف وتذوب وتتلاشى• هلا ترفرف وتذوب ويتلاشى الساحر والساحرة) (٢٥) • ولهذا فان المـاء والنار يشكلون العنصرين الرئيسيين لطرد العفاريت • ففي طقس أيا السالف

الذكر يأخذ الساحر ماء من دجلة أو الفرات ويرشه على جسم زبونه مع قراءة (بماء طاهر نظيف ، وبماء صافي لامع سبع مرات وسبع مرات ،رش وطهر ونظف ، هلا ترحل الرابيصو الشريرة ، هلا يتنحى جانبا . هلا تبقى في جسمي الشيدو الطيبة واللاماسو الطيبة . اؤكد بالارض) [٢٦]ويعملوا الاشغال كما اسلفنا القول من القامة أو الطين او العجين . او البرونز . وتشتمل طقوس الحرق ايضا حرق موادا أمثاله تمر ، بصل ، صوف وبذور أو رميها في النار مع قراءة صيغة سحرية مثل (ومثل البصل المقشروالمرمي في النار ، المستهلك في النار المشتعلة ، لا يزرع في البستان ، في الاخدود والحفرة لا توضع ، وجذرها لا تثبت في الارض وساقها لا ينمو ولا يرى الشمس ولا تأتي الى مائدة رب أو ملك ، هلا تؤلم وتؤدي ونفذت اللعنة، مرض ، اوجاع ، ذنب، اخطاء ، تعدي ، المرض في جسمي وجلدي وعضلاتي يقشر مثل هذه البصلة ويحرق اليوم في النار المستعلة ، هلا كل العقدة وهلا أرى الضوء [٢٧] . هذا وترمي احيانا الاشغال في الماء بعد قراءة صيغ سحرية عليها . واحيانا يقيد الشكل من الايدي والاقدام وتوخز عيونه وتملأ باللعاب ويخرج لسانه او يربط ويغطي فمه او يمليء سما او ترابا او يشفوا جسمه . [٢٨]

واحيانا يدهن الساحر جسم زبونه بالزيت وسلو عليه صيغة سحرية مثل (زيت نقي ، زيت لامع ، زيت مشرق ، زيت يجعل الأرباب مشرقة ، زيت يلطف عضلات الانسان ، زيت تعويذة أيا مع زيت تعويذة مردوخ ، اصب عليك مع الزيت المشافي الممنوح من قبل أيا لتخفيف الآلام ،امسحك اعطيك زيت الحياة ، وبواسطة تعويذة ايا ، رب أربو ، ساطرد منك المرض المصاب انت به [٢٩] . هذا والى جانب التمائم التي ذكرناها والتي هي على شكل احجار وصخور توضع بحلقة وتربط الى الأيدي والاقدام ، هناك خيوط يغزلونها من خرفان صغيرة ويعقدونها ويربطونها بالمراس او الرقبة أو الايدي أو اعضاء جسم المريض وحتى حوالي فراشه . [٣٠]

وربما يكون اساس تفكير العراقي واعتقاده هذا عدم ثبات بيئته وتغيرات محيطه العنيفة المستديمة والفجائية احيانا . فالفيضانات الخطير المدمرة والحرارة الشديدة التي تبدأ منذ وائل ما ليس وتنتهي باواسط تشرين الاول والرياح العاصفة الرملية تشكل بعض ما قدمته بثبته اليه . الى جانب شكوى الزراع من ضعف قوة الارض الانتاجية وعملهم على ترك نصف أراضيهم بوراً على الاقل كل سنة أو طلبهم مناطق جديدة تجنبا لاملاح التربة (الشورة) . فالعراقي القديم ليس كاخيه المصري الذي أمده محيطة بشعور قوي بالطمأنينة والرضا وعلمه النظام وأشعره بالسعادة. فقد كان المصري القديم يعرف بالضبط مقدرات طبيعته فيعلم من يفرض النيل ومتى عقب ريح الخماسين القوية فانتظمت لذلك اوقات حصاده وزرعه . ولكن العراقي القديم لم يجد اي سبب يحمله على الثقة بالطبيعة التي هي بنظره مليئة بقوى مدمرة مهلكة لم تنج منها حتى تربة حقله . فليس من المدهش اذن ان نجده خائفا من القوى غير المنظورة التي اهتم كثيرا بارضاءها وعمل على تجنبها بشتى الوسائل خاصة عن طريق السحر والشعوذة وجعلته مولعا أيما ولع بالفأله والعرافة . فلم تترك عناصر الشر حتى القمر الذي ينظره ربا من الارباب حيث تصور العراقي القديم الخسوف نتيجة المقر من قبل بعض العناصر الشريرة حيث ورد في النص (لقد اخترقت الارباب السبعة الشريرة طوق السماء وتجمعت بغضب حول هلال الاله سن) .[٣١]

ولكن قوى الشر في العالم باجمعها في نظر العراقي القديم ، تظهر في شخص الشريرة تيامات . ولو ان تيامات نفسها في الأصل ربة أنجبت الكثير من الآلهة العظمى القديمة فقد ارتبطت بالشر واصبحت المخلوق الالهي الذي يتجسم فيها الشر ، شيطانة حقا ارادت الموت والفناء للكل حتى للشبان من الآلهة ، والذين هم أحفادها من أجل راحتها وسلامة الاقربين لها ليس الا ولكن الاله الشاب ، مردوخ جرأ على النزال معها والحرب مع اعوانها

وجنودها ولأجل امه تتصدى تيامات للتحدي الجديد هذا وتهديدات مردوخ المستمرة لها يذكر النص (فقد أحضرت الافعى والتنين والأسد ذو الرأس البشري والسبع الضخم والكلب المسعور والانسان العقرب والعفاريت الضخمة يشكل الاسود والذبابة التنين والحصان برأس وصدر انسان وهم حاملين اسلحة لا تترك أحد (دون اذى) ولا تهاب المعامع[٣٢] ورغم كل ذلك فقد استطاع مردوخ ، الذي حصل على منازلته أمر المجلس الالهي (بوخور اياني) وتشجيع والده انيل له ، دحرها وقطع جسمها الى نصفين خالقا من أحدها السماء ومن الاخر الارض وصانعا من دمها البشر . فعلى أساس ما جاء في هذه الاسطورة(الانوما ايليش ــ من هو في العلى أو قصة الخليقة البابلية) فان المادة الأصلية التي خلق منها الانسان هي جزء من شيطان خطر . فلما كان البشر قد خلقوا من دم تيامات والتي وان كانت ام الارباب ولكنها شيطانة نفسها مليئة بالكراهية وحب الانتقام والعطش للقتل وسفك الدماء فانهم بذلك مخلوقات يجري الشر في عروقهم . ويمكن النظر الى يتامات ايضا كاله مغضوب عليه واندحارها امام مردو ربما يفسر في حقيقة كون الشر مقدر من الارباب العظام من ناحية وانه بذات الوقت عنصر زائل في النهاية لا محالة . وان انتصار مردوخ كان ماحقا اكتسب شهرة واسعة جعلته يمجد سنويا في عيد الاكيتو (زاك موك) المشهور الذي يتفق والايام الاولى من شهر نيسانو (آذار ــ نيسان) في تقويمهم .

وان تعاظم اسم مردوخ وقوته ، حسب ما تذكر الاسطورة ، يرجع سببه الى ما حققه من نصر في معركته مع تيامات الذي حفظ بها جميع الارباب الاخرين من الخطر وجعلته بطل الحق والمدافع الحقيقي وخالق البشر . وقد يعمدوا أحيانا خلال هذا العيد لاختيار وتنصيب ملك عوض (شاريوخي) تعطي له جميع سلطات وقوى الملك الحقيقي وصلاحياته من يوم واحد الى مائة يوم ثم يقتل في آخر النهار ويدفن عند غروب الشمس

في احتفالات ضخمة بعد تشييع فخم •(٣٣) وهذه العادة في نظرهم تجبر جميع القوى الشريرة والارواح الشيطانية على عدم الاضرار بالملك الحقيقي طيلة ايام السنة الجديدة ويلجئوا اليها أيضا اذا ما ظهرت هناك علامة فسرها الكهنة بخطر محدق بالملك الحاكم تتطلب تقديم فدية بشرية له بهذه الوسيلة •

فالرؤوس الكبرى للشر في نظر العراقي القديم سواء اكانت تيامات نفسها مبدئيا أو الشياطين السبعة هم أرباب قبل كل شيء • فمصدر الشر آلهة معينة اذن لا يمكن رد اوامرها وهي ذات قوى خارقة والعفاريت والارواح الشريرة تتمكن حسب رأي العراقي القديم في اي وقت من انزال الاذى بالناس والحاق الضرر بهم كاصابتهم بامراض متنوعة واحلال الرزايا فيهم وانبات الخوف في قلوبهم وهد سعادتهم • وتتمكن الارباب التي لا تستقر على رأي واحد ثابت من ان ترسل الكثير من العلامات والامارات والحوادث الطبيعية وحتى البشرية لتنذر الناس عن كوارث وشيكة الوقوع امثال البرق والبرد ولصقيع والمطر وحتى تكسر اثاث البيت ولدغة النحل وسقوط فرد من العائلة من محل مرتفع الخ • واطلقوا على كل هذه الأصوات النبوية (الاشايوت) يمكن تفسيرها بسهولة من قبل الاشايو • (٣٤)

أما العرافة فقد برز العراقيون القدماء بروزا ملحوظا واستنسخت نصوصهم في شوشة ونوزي وحاتتوشا وقطنه وخاصور وما الى ذلك وترجمت الى اللغات المعروفة آنذاك امثال العلامية والحيثية • والعرافة تمثل طريقة فنية للاتصال بالقوى الميتافيزيقية التي لها الاثر الكبير في صنع التاريخ سواء جماعة او الفرد ، وذلك عن طريق وسائط متنوعة ، وهذه العراق كانت تختلف من وقت لاخر وحتى من منطقة لثانية • علما بان هناك ما هو خاص بالملك فقط والفقير وما الى ذلك • وما هذه الانواع كما سنرى ملاحظة الدخان المتصاعد من المبخرة ودوائر الزيت عند صبه في الماء

ورمي القرعة مثلا ان القرعة قد استعملت في العصر البابلي القديم لتقسيم حصص مقاطعة بين الورثة من الاولاد • (٣٥)

فاقدم النصوص العراقية الخاصة بالشجم والعرافة وصلتنا من العصر السومري حاملة عناوين امثال (اذا كانت مدينة على ارتفاع معين) و (عندما الاله آنو وانيل) و (اذا خرب او بنى إيقفور إيبوش) • وقد صور اوتو نايبثتوم متبعا العرافة وكيف ان ملك سيار السومري أنمين دورانكي قد اعتقد بانه حصل على فنون الفأل ومعرفـة المستقبل من الارباب (٣٦) ، فالعرافة بواسطة صب الزيت بالماء معروف منذ زمن اوروكاجينا ، امـا الفأل عن طريق مخص كبير الحيوان المضحي فانه كان معروف على حـد رأيهم منذ زمن الملك أنميلو أننا من ملوك ما قبل الطوفان • (٣٧) ولم يكن بجسم الملك انمين دورانكي اي نقص فلهذا من الامور الهامة في العراق القديم ان يكن العراق (البارد) خاليا من كل عيب جسماني حيث ورد في النص (العراق الذي من أب غير نقي ونفسه غير كامل الأعضاء أو الملامح كان تكن عيونه غير سليمة أو أحد اسنانه مكسور او غير كامل الأصابـع أو ذا شكل مريض أو بدمله ، لا يمكن ان يكون حافظا لأوامر شمـاش وأادا (ارباب العرافة) • وعليه أن يمر بمدة طويلة من الدراسة والتحضر وان يكون حاق الراس تماما أو بشعر خفيف جدا حيث ورد في النص (الحلاق قد آكمل عليه عمله) وكانوا مرتبطين بالقصر وفي أية لحظـة يستدعون اليه وكان عليهم تقديم القسم حيث نعرف عن وضعه في نـوع من الشبكة • (٣٨)

وعرف الباروتي (العرافين) في لكش منذ أزمنة بعيدةوهممنقسمون الى اقسام متعددة حسب الانواع المختلفة للظواهر التي يلاحظونها • ففي زمن اورنانشة نسمع بان رأس البارو (PA. Azo) قد استنجد يأنكي لان يحصل على وحي منه حول بناء معبد كرزو • ونعرف ايضا ان في العهـد الذي سبق اوروكاجينا اذا اراد الرجل ان يسقط قطرة من الزيت في ماء

لمعرفة ارادة الأرباب فيجب عليه ان يدفع خمس شقـلات من الفضة الى الاشاكو وشقل واحد الى الحاكم وشقل آخر الى الايكاللو الذي كرس نفسه لهذه المهمة • ونعرف بان الملوك كانوا يشاوروهم حتى فـي الامور التافهة احيانا • فعمو لهتانا مثلا قد اخذ نصحهم مرة في ارسال ارسالية من الحنطة • ومهنة البارو وراثية لانه يجب ان يكون (من نسل كاهـن وخارج من كاهن طاهر) • وعليه ان يلبس الملابس النظيفة في وقت اخذه العرافة ونعرف من الرقم البدائيـة الاولى من تعز ومن صور الاختـام الاسطوانية بانهم كانوا يؤدون واجبهم عراة الجسم •

فمن الطرق التي اتبعوها هي تلك الخاصة بفحص كبـد الحيوان الهضمي • فاعتبروا الكبد مركز الحياة والتي فيها يرى العراف ارادات الارباب كالمرآة • ويجب ان تكون الضحية لهذا الغرض ودنما ثمة عيب• ففي العنجر يقبل الاله نصيحة ويضع الموقد وعلى المنضدة خلف الموقـد اربع اواعي من زيت السمسم و ٣٦ رغيف وخليط من العسل والزبد والملح• وبعد رش الموقد يمسك الكاهن بالشخص المضحي من يده ويقـرأ الدعاء التالي (فلان هلا يقدم لك الا ضحية في الصباح ، هلا يقدم نفسه امام عظمتك الملكية ، هلا يكن مسرا لعظمتك بفضل النعجة المتألقة من جلد أمل واقسام تامة) • ثم يأخذ الكاهن حصة الاله وهي الساق اليمني والكلي وقطعة من اللحم • وفي المتحف البريطاني كبد من الطين مقسم الى خمسين قسما توازي العلامات المختلفة (٣٩) • فبمطابقة لارباب مع الحيوانات يجعل الحيوان المضحي له قدسية ويكتب الصفات المرتبطة بالرب فتصبح روحي الاثنين متطابقة • فبملاحظة الحيوان من المحتمل ان نلاحظ خطط الارباب المستقبل على الارض • وهنا يمسح البارو جسمه بالدهن ويلبس الاردية الخاصة ويرتل الادعية الى شماش وأداد • فاذا كانت جميع العلامات طيبة ففي هذا الكفاية واذا كانت العلامات مشكوك فيها فيضمن خروف آخر• واذا استمرت العلامات النحسة فيذبح آنذاك خروف ثالث • وان انتفاخ

الجانب الايمن من الكبد علامة طيبة ، واذا كانت المرارة ممسكة بالكبد فمعناه (ن العدو قد امسك به) واذا كان الانبوب الكبدي طويل فمعناه حياة طويلة او عهد طويل • [٤٠] حيث عرف البارو العراقي القديم اقسام الكبد امثال قصبه الاعلى والأسفل و ائدتيه وانبوب المثانة والمرارة وانبوب الكبد وباب الكبد • اجزاء الكبد باسماء مبتدعة لمشابهتها الاشياء التي سميت بها مثل الاصبع والطريق والفم والقصر والباب والعرش الخ • فالعلاقات على الجانب الايمن طيبة وعلى الايسر نحسة ، بينما المثانة المنتفخة معناه زيادة القوة وانخفاض انبوب الكبد وهبوط في القوة [٤١] •وتنص التعليمات بان (اذا كانت العلاقات الطيبة كثيرة والنحسة قليلة فان النتيجة طيبة) • وقد وصلتنا واحدة لاسر حدوث يسأل فيها عن صلاحية زواج ابنته من بارتاتوا ملك السيثيين وكانت نتيجة الفحص الاول غير طيبة ولكن الثانية كانت طيبة وبذلك زوج ابنته • [٤٢] ووردنا اول نص من نصوص فحص الكبد من العصر الكاشي وتلك لحمورابي دونما شروح وكلها تلك من مكتبة اشور بانبيال والعصر البابلي الجيد جاءت مليئة بالشروح • وان الظواهر الهرمية في الكبد سمية باصابع الكبد كان تقرأ (عندما يكون اصبع الكبد مثل رأس الأسد فان الخدم سوف يطردون الامير) و (واذا كان اصبع الكبد مثل اذن الاسد فان الامير سوف لا يكون له منافسين) و (اذا كان اصبع الكبد مثل راس الخروف فسوف يكون الامير ناجحا [٤٣] وكانوا قبل الدخول في معركة أو وضع اساس لعب او قصر او عقد معاهدة مع دولة اخرى او في حالة أزمة او وباء فآنذاك يؤمر الكهنة بفحص كبد خروف مضحى [٤٤] •

ثم الفأل المستند على تصرفات وطيران الطيور والكواسر الاخرى ، كأن نقرأ (اذا مر النسر من جانب الملك الايمن الى الايسر فان الملك سوف ينتصر اينما ذهب) • وقد وصلتنا الكثير من هذه في نصوص قوينجق ، وهناك نص في المتحف البريطاني نرى منه ان هناك ستة انواع من الطيور

تحمل التنبأ وهي طير المالكالحزين IGirn وطير اليسوككو وطير الجبل (إصصور شيدي) والنسر (إيرو) ونسر الصيد (كاسسوسو) وطير مكسور اسمه : (اذابنى مالك الحزين عشا ٠٠ فان الشخص سوف يكون فقيرا ٠٠٠ اذا رأى الناس طير جبل لم يره أحد من قبل فيسوق المدينةفان موجة عالية سوف تقدم ٠٠٠ اذا صارت النسور تحوم باستمرار فيالمدينة فان المدينة سوف تحاصر ، واذا طارت النسور على طريق الجيش فسوف يحدث اندحار له ٠ اذا امسك نسر بحمامة في شباك بيت رجل فان الشر سوف يدخل ذلك الدار ، اذا امسك نسر بسمكة او بطير ثم طلق بعيدا ثم اكل فريسته امام رجل فان هذا الرجل سوف يتعارض الى خسارة ، واذا أكل نسر حمامة فوق سقف بيت رجل ثم ينذ منها ، فان الرجل سوفيزداد ثرائه ٠٠٠٠ واذا حلقت نسور كثيرة في المدينة بنفس الوقت فان المدينة سوف تهجر) (٤٥) وان مراقب الطيور (داجيل إصصوري) كان عرافا (٤٦) لآرائه وزنها ٠ وقد وصلتنا نصوص كثيرة مأخوذة من مراقبة الطيور اثناء طيرانها عثر عليها في حران (سلطان تيه) ٠

وهناك حيوانات اخرى غير الطيق استمد من تصرفاتها مختلف انواع الفأله ، مثل الحية خاصة حركاتها في شهر نيسان (اذا سقطت حيةخلف انسان في اليومالاول ــ ١٣ نيسان فان صديقه سيكونعدوه) (٤٧) و(اذا لمحت امضى رجل في بداية السنة ، في اليوم الاول من نيسان او اليوم الاول من ايار وخلال النهار أو في الليل فان هذا الرجل سوف يموت في نفس السنة ٠ اذا لمحته الافعى في اليوم الاول حتى اليوم الخامس عشر من شهر ايار فان ايامه تصبح قصيرة وسوف يلاقي اذى ٠ اذا سقطت افعى خلف أو أمام رجل في شهر حزيران فستحدث له خسارة ٠ اذا صادف رجل امضى في شهر شباط خلال فصل البرد ، فان الناس سيبعون اطفالهم واملاكهم من أجل الفضة ٠ اذا صادف رجل افعى في شهر آذار فان الظلمات سيغمرها الضوء) ٠(٤٨) و (اذا هاجمت حية انسان وامسكت به وعضته

فان عدو هذا الشخص سيصبه الاذى . اذا مرت حية من جانب الانسان الايمن الى الايسر فسوف يكون له اسم طيب . واذا مرت حية من جانب الانسان الايسر الى الايمن فسوف يكون له اسم سيء . اذا ظهرت حية في مكان يقف به امرآة وزوجها يتكلمان فانهما سوف يتطلقان ، اذا استمرت حية تحفر في بيت انسان ، فان ذلك البيت سوف يتهدم او يخرب) ويستمر نفس النص بذكر علامات فأل اسردت من حركات حيوانات اخرى غيرها امثال الكلب والنحل والحصان والثور والعقرب والثعلب وابوعرس (اذا قتلت عقرب حية في بيت انسان ، فان اولاد صاحب البيت سوف يقتلوه وسوف يموت . اذا قتل ابو عرس حية في بيت انسان فان هذا معناه وصول شعير وفضه . اذا سارت عقرب في فراش رجل فانه سوف يثرى . اذا وقفت عقربة على راس فراش رجل مريض فان مرضه سوف يتركه . اذا وطأ انسان دونما شعور على ام بريص وقتلها فانه سوف ينتصر على اعداؤه . اذا كانت النمل كثيرة عند مدخل البوابة الكبيرة فان هذه معناه سقوط المدينة . اذا كان النمل يقتل بعضه البعض ، عاملا معركة تعدم للعدو وسيكون فشل لجيش عظيم . اذا كانت هناك كثرة في النمل الاسود المحتج بمعناه كثرة مطر وفيضانات . اذا كان القرن الايسرلجاموس يبرز باستقامة اكثر من الايمن فان الا مطبل سوف يصبح واسعا . اذا كانت هناك دموع تخرج من عيني الجاموس فان الشر سوف يصل صاحب الجاموس . اذا ركب حمارا انسان فمعناه آن ذاك الرجل سوف يباع او ستصيبه ايام صعبة ... اذا دخل حصان بيت رجل وعض حماره او رجلا فان صاحب الدار سوف يموت واثاث بيوته يتناثر ... اذا ركض ثعلب في الساحة العامة ، فان تلك المدينة سوف تتخرب ، اذا صار الخنزير يصر باسنانه فان تلك المدينة سوف تتبعثر ، اذا حملت انثى الخزيروولدت ثلاث برؤوس بيضاء وذيول سوداء فان اثاث منزل ذلك الرجل سوف يرهن على فضة . اذا ... رفع كلب ابيض ترد على رجل فان ذلك الرجل سوف يصادف اوقات صعبة ، واذا بول كلب أحمر على رجل فان ذلك الرجل

سوف يسعد • واذا اعتلى كلب على كلب آخر فان النساء سوف يكـن سماقيات ••• اذا كان السمك كثير في الماء فان البـلاد سوف تحيـا بسلام ••••) (٤٩)

وفي نص آخر تقرأ عن اشارات سحريـة اخرى تحملهـا الحيوانات والحشرات الخ ، (اذا دخل كلب أحمر الى المعبد فان الآلهة ستهجره،اذا وجد كلب مصطجع على عرش الملك فالقصر سوف يحترق ، اذا دخل كلب ابيض المعبد فان المعبد سوف يبقى عامرا لمدة طويلة ، اذا دخل كلب أصفر قصر الملك فالقصر سوف يهدم)• (٥٠)

والطريقة الاخرى التي يلجيء لها البارو هي للزيت في وعاء للماء يحمله في حضنه كيما يعرف منها ارادة الارباب سواء بالنسبة للبلاد او الفرد وذلك بمراقبته لحركات الزيت بالماء سواء في علاقته مع السطح او مع حافة الوعاء • وقد وصلتنا ثلاث رقم من العصر البابلي القديم يظهـر انها لم تستنسخ ثانية بل أقتطف منها في نص آشوري (٥١) • فاذا كونت دائرة كاملة مثـلا وتحركت نحو الشرق فهـو فأل حسن واذا انكسـرت فسيء •(٥٢) وفي احد النصوص من سلالة بابل الاولى نقرأ (اذا كونالزيت حلقه واتجهت نحو الشرق وبقت غير مكسورة ــ فاذا كانت المسألة متعلقة بسفر فاني سوف اذهب بها وآكل جزء (آخذ حصة من الربح) وبالنسبة لمريض فسوف يشفى) و (عندما تتكون حلقتين ، واخرى صغيـرة فان الزوجة ستلد ولدا وسوف يشفى المريض ، وعندما ينتشر الزيت ويملىء الكوب فان المريض سيموت وسينتهي السفر بموت) (٥٣)

وان معلوماتنا مع الاسف عن فن العرافة المستندة على حركاتالدخان المتصاعد من مبخرة يضعها البارو في حضنه قليلة جدا لا تلقى ضوء كافيا على اصوله وتعاليمه • فقد وردتنا عنه نص قديم من نعـز وآخر يعود سلالة بابل الاولى • (٥٤)

ثم طريقة الفأل بفحص أعضاء البـدن الداخلية الاخرى مثل الرئتين والقصبات الهوائية والامعاء والمثانة والمرارة والكلى • وتسمى طريقة اخراج والأحشاء للفحص باسم الأحشاء المطوية (إيرري ساخيروتي) • فمن شكل ولون وعدد الاحشاء وحالة القلب يستنتج العراف نتائجه واحيانا تظهـر الأحشاء وكأنها وجه مكفهر ويطلق عليها آنذاك اسم وجه خومبابا • ونقرأ مثلا (عندما تضم الأحشاء المرارة فانها علامة فأل ظهرت اسرجون الذي على قوة هذا الوحي أخضع عيلام وأحاطهم وقطع تجهيزاتهم (٥٥) • وفي نص حول الكلية تقرأ (عندما تكون الكلية اليمنى مخربة فان الامير سيموت) و (عندما تكون الكلية اليسرى مخربة فان اميرة العدو ستموت) (٥٦)

والى جانب هذه العلامات التي تظهر عند الولادة ، فان كان هناك شكل غريب في الرأس فيقولون ان المرأة ولدت أسدا • وهذا يقترح فكرة فكرة القوة وهي علامة طيبة للبيت والارض • واذا كان رأس مولود يشبه ذاك لحمار أو خروف فهو علامة طيبة ، اما اذا كان يشبه ذاك لكلب اوجه فعلامة غير طيبة • (٥٧) واذا كان للمولود اقدام بطة فسوف يصبح قويا اي ان قدميه عريضة ومليئة طينا تحمله من الارض • (٥٨) وقد اطلق على هـذه النصوص الفأليه اسم شومما إزبو على اسم اول عبارة فيها • وان الاربع رقم الاولى من هـذه السلسلة تسطر الى جانب المستمدة من الاطفـال المشوهين اخرا من ولادة اكثر مولود واحد او حوادث عند الولادة وبعض اشعال الافراد المجزة امثال العميان والطرش والمقعدين ، او كثرة التجـار او الطباخين أو العرافين بالمدينة وفي واحدة يذكر وجود نساء في المدينـة بلحى مثل الرجال • (٥٩)

ووردتنا مجموعة من نصوص الفأل المستمدة من البيوت حيث نقرأ (اذا كان تأسيس البيت في شهر نيسان فان هذا البيت لن يجلب الفـرح لصاحبه • اذا كان تأسيس البيت في النصف الثاني من شهر نيسان كـان حوادث الموت تكون متتالية فيه • اذا كـان تأسيس البيت في شهر أيار

فسوف تحدث كوارث فيه • اذا كان تأسيس البيت في شهر حزيران فسوف يعظم صاحبه • اذا كان تأسيس البيت في شهر تموز فسيكون نصيبه الكمال • اذا كان تأسيس البيت في شهر آب فسيكون لصاحب البيت أطفال • اذا كان تأسيس البيت في شهر ايلول فان الربة عشتار سوف تمهله في سلب ثروته • اذا كان تأسيس البيت في النصف الثاني من شهر ايلول فانه سوف يتهدم • اذا كان البيت في شهر تشرين الاول فان اله صاحب البيت لن يكلف عن حراسته • اذا كان تأسيس البيت في شهر تشرين الثاني فان استثار امواله سوف ينجح • اذا كان تأسيس البيت في شهر كانون الثاني فان صاحب البيت سوف يرض ويكون عليل الصحة • اذا كان تأسيس البيت في شهر شباط فان البيت سيظل بلا سقف • اذا كان تأسيس البيت في شهر آذار فسوف يحرز صاحبه انتصارا • اذا كان تأسيس البيت في نهاية شهر آذار فسوف يكون صاحب البيت سعيدا جدا) (٦٠) علما بان شهر نيسان خاص بالاله آنو وانيل ، أيار خاص بالاله أيا وشهر حزيران خاص بسن وشهر تموز خاص بنيتورتا ، وشهر آب خاص بنكيشزيدا وشهر ايلول خاص بالربة عشتار ، وشهر تشرين الاول خاص بشماش وتشرين الثاني خاص للاله مردوخ ، وشهر كانون اول خاص بزكال وشهر كانون ثاني شهر الاله بايسوكال وزير الاله آنو وشهر آذار شهر الآلهة السبعة العظام اما شهر آذار شهر الآلهة السبعة العظام اما شهر آذار الاضافي فهو شهر الاله آشور •

ونجد في سلسلة أنوما أنا بيت مارحي آشيبو !يلليكو عددا من نصوص الفأل المأخوذة على الشخص المريض منها (اذا رأى الآشيبو)في الطريق الى المريض جرة موضوعا فهذا فأل يهب • واذا وجد منقلة فان المريض سيمون • اذا رأي خنزير اسود فان المريض سيمون ، اذا رأى خنزير ابيض فسوف يعيش المريض • واذا رأى خنزير يذيل واقف فان المريض لا يخاف شيء اذا رأى رجل أعمى فان مرضه سوف يزيد ، اذا سار

صقر الى جانبه الايمن فان المريض سيشفى • اذا كان نسر يسير على جانبه الايسر فان المريض سيموت • اذا نبح الذئب الى يسار الرجل فان المريض سيشفى واذا نبح الذئب عند الفجر الى يمين الرجل فان المريض سيموت• اذا وقفت حية على فراش المريض فانه سوف يشفى • اذا وقعت حية على فراش المريض في اليوم الثالث فسوف يموت • اذا وقعت حية على المريض نفسه فان مرضه سوف يطول ولكنه سيشفى (٦١) •

وهناك نصوص فأل مستمدة من امور كثيرة غير ما ذكرنا امثال تلك المستندة على ملاحظة خيول عربات الملك لمختلف انواع الفأل الخاصة بالبيت المالك •

التنجيم : بالواقع ان التنجيم والتنبوء عن المستقبل اتى متأخرا في تاريخ العراق القديم ولو ان البروج اليونانية الاثنى عشر ما هي الا تحوير للرموز البابلية الاولى • فاقدم خارطة لبروج السماء Horoscope ترجع الى حوالي سنة ٤١١ ق•م• وربما تعود مجموعة عندما آنو وانيل الى العصر السومري بدليل ذكرها تقيم العالم الى اربع اقسام (اكد ، عيلام ،سوبارتو وعيلام) والذي لا نجده في العصور التالية وذكرها للملوك امثال ريموش وابي سي والحيثين والأخلامو ، علما بان اضافات قد كفت بها في العصور التالية • فكانت الزقورات تستخدم في العابد لملاحظة الكواكب ، وكان في المعابد ايضا غرفة خاصة للنجمين تسمى بيت تامارتي (بيت المراقبة) حيث تقرأ مثلا (في اليوم ٢٩ من الشهر راقبنا القمر انه يوم تتلبد بالغيوم لم تر القمر فيه • وان المقالة السابقة (انوما آنو انيل) جاءت في اربعة فصول خصصت الى الحركات الفلكية والشمس والزهرة (فينوس ،عتار) وأداد • وتشرح معنى حركة النجوم ومواضعها في السماء والاضطرابات الفضائية (٦٢) •

وطابقوا المشتري مع مردوخ والزهرة مع عشتار ومارس معمزكال

والمريخ مع نابو وزحل مع الاله ننورتا ، واعتبروا بعضهـا نحس وآخـر حسن الطالع مالحريخ يرمز للذكاء وزحل حسن الطالع ومارس سيءالطالع وما الى ذلك .[٦٣] فالابراج الاثنىعشر لها اسماءها فالحمل (Kn,Sarikkn Inmisara كو ، ساريككا ، إنمي سارا) والثور (Te-Te,Gud-Anna) والجوزاء (تواما) والسركان (يوموككو ، أللول) والأسـد (آرو ، اورماخ ، اوركولا) والعذراء (شـيرو ، ديلكان) والميـزان (زيبانيتو) والعقرب (أقرابو)، القوس (با ، بابيلكاك) والجدي (أنزو) والدلو (كو ، كو أننا) والحوت (نونو ، نون شامي (؟) .[٦٤]

فالقمر غالبا ، اول الكواكب التي راقبها العراقي القديم لقربـة من الارض وتغيراته الملحوظة والاعتيادية علاقة في ذلك . فهناك الكثير من نصوص الفأل المستندة على القمر وحركاتـه واشعالـه وخسوفه وعلاقته بالشمس الخ . تتوأ :

اذا ظهر القمر في اليوم ٢٧ كما في اليوم الاول فهو شؤم على علام. وفي اليوم ٢٨ فهو شؤم على عمورو .

اذا ظهر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٢ فمعنا ،نهاية حكمالسلالة، خراب للرجال وان السارق سوف يقطع الراس .

اذا ظهر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٣ فمعناه عدم استقـرار والتجارة سوف لا تزدهر في البلاد .

اذا ظهر القمر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٤ فمعناه رجاءوالبلاد سوف تكون سعيدة وتنظر الارباب لأكد بسعادة والنهوض يستبشرالناس وتنام القطعان بسلام في حقول بلاد اكد .[٦٥]

وعندما يكون القرن الايمن من القمر عند ظهوره طويلا وقرنه الايسر قصراً فان الملك سوف يغزو بلادا اخرى .

وعندما يكون القمر كبيرا عند ظهوره فان خسوفا سوف يحدث واذا كان لامعا جدا عند شروقه فان محاصيل البلد سوف تنتعش .

وعندما يظهر القمر في اليوم ١٣ من تموز فسوف يحدث خرابا في البلدان .

وعندما تكون (شاورو) لامعة جدا فان الملك اكد سوف تنتهي اعماله .

وعندما يكون القمر كاملا عند شروقه فان الملك سوف يزداد علواء

وعندما ظهر القمر في الاول من كساليف فان ملك أكد سوف يدمر الاراضي .

عندما يختفي القمر فسوف يقع شر على البلاد .

عندما يكون القمر غير مرأي مع وجود هلالين (ظاهرين منه) فستكون عداوات في البلاد .

عندما تقف الشمس ضمن هالة القمر فسوف تتكلم البلاد جميعها الصدق . وعندما تحيط الهالة القمر والسرطان يقف ضمنها فسوف يطول عمر ملك أكد .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي وسطها المشترى فسوف تغزو البلاد جيوش أخاررو .

عندما تحيط هالة القمر وفي وسطها مارس وكرت موت في القطعان ولا تنجح زراعة النخل .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي وسطها زحل ويكون كلام الصدق في البلاد .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي منجم وسطها فان جيوش الملك سوف تحاصر .

اذا احاطت هالة كبيرة بالملك فان طراب عظيم سجل بالبلاد •

عندما يظهر القمر في اليوم الذي تتوقعه فسوف تنخفض (اسعـار الاسواق) •

اذا ظهر القمر والشمس في يوم ١٣ فسوف تكون البلاد في هدوء ، اما في اليوم ١٥ فان عدوقديم سوف يشهر سلاحه ضد البلاد •

عندما يكون ظهور القمر مصحوبا بهبوب ريح جنوبية فسوف يكون ذبح ٤ اخاررو •

عندما لا يرى الشمس مع القمر في يوم ١٤ أو ١٥شباط فمعناه فيضان عظيم • وعندما لا نرى القمر مع الشمس في ١٤ آذار فخراب الاور (٦٦)• وخسوف القمر فأل سيء (لقد عين أنيل كـل من سن وشماش وعشتار ليسيروا السموات بالطريق الصحيح ولكن الشياطين السبعة أحاطوا القمر وبذلك جروا عليه الخسوف • فرأى انليـل كرب سن فارسـل رسوله نوسكو لاخبار أيا بذلك فعرف بالموضوع • وعندما سمع أيابذلك في المحيط امتلأ فمه حزنا • وعض شفتيه) • ويعتبر خسوف القمر خيـر مناسبة للقيام بطقوس لحماية المدينة من الشرور المتصلة بهـذه الظاهرة • وفي يوم خسوف القمر يضع كهنة معابد تيرانا مذبحا (كاراككو) في باب معبد اربابهم • وعندما يتلاشى ضوء القمر يصيحون بان لا يقترب القتـل والثورة والمصائب والخسوف الى الوركار • وكان الكهنة في يوم خسوف القمر يخرجون الآلات الموسيقية من المعبد وذلك لزرع الأمان وعدم الخوف والقلق في نفوس الناس خلال تلك الازقة والكلام غيـر الاعتيادي • ويدقوا على الطبل الصغير (ليليسسو) ومن الالات التي يخرجوها البوق (الخالخا لاتو) والعود المقدس (ايرشيما) • والوان القمر في الخسوف مهمة وتكون مصادر للفأل •

ووردتنا الكثير من الفؤول المستندة على القمر في الرسائل الملكية من

العصر الآشوري المتأخر • فظهور القمر باول الشهر عندما يكون النهار طويل هو فأل طيب عندما يظهر القمر باليوم الاول فان قلب البلاد سيكون مسرورا • وعندما يكون اليوم بالنسبة لقياسه طويلا فسيكون هناك حكم طويل وعندما يكون القمر عند بزوغه كأن يحمل تاجا فان الملك سوف يصل عنفوان مجده (٦٨) • وظهور القمر في نيسان مع الزهرة اعتبر فألا طيبا ايضا (عندما تظهر الزهرة في بلاد بابل مع القمر في شهر نيسان او اي يوم لا يتقرب فيه فانه بنفس الوقت فأل حسن) • (٦٩) وفي رسالة اخرى تقرأ (اذا ظهر القمر وكان العقرب قرب قرنه الايمن فان الجراد سوف يعبث طوال السنة ويأكل محصول الحصاد وسوف يقتل ملك علام وينتهي حكمه ويأتي عدوه ضده وينهب بلده وسوف يقع في يد الملك صولجان عظيم ويطول حكمه واذا اعتدى عليه عدو فسوف يقهر) (٧٠)

وترينا الفؤول من الرسائل الاشورية كون التفاؤلات من الشمس كلها معادية فالكسوف شر وخروج ما يشبه الدخان من الشمس عند شروقها بالربيع نذير شر حيث ان اداد سوف يفرق البلاد وعندما تصعد الشمس في مدارها فمعناه الحرب • (٧١)

وتقرأ ايضا في نصوص اخرى مع ان احاطة الشمس بهلة معناه سقوط المطر وعندما تقف الشمس في محل القمر فان الملك سوف يستقر على عرشه • (٧٢)

ثم التفاؤلات المأخوذة من حركات الكواكب المختلفة حيث تقرأ مثلا (عندما يقترب العقرب من امام القمر ويقف مان الملك سيطول عمره وان عدوه سوف تقدم عليه • وعندما يظهر المريخ لمدة شهر لمدة شهر طعناه فيضان ومطر • وعندما يظهر المريخ في شهر ايلول فسوف تنشط حركة السوق وتصعد اسعار المحصولات • وعندما يقترب مارس من القمر ويقف فان القمر سوف يسبب شر الى سكان البلاد • عندما يقترب مارس من العقرب فسوف يموت الامير بلدغة عقرب ويأخذ اليه العرش بعده (٧٣)

وفي الرسائل من العصر الاشوري المتأخر نقرأ عن علامات فأل طيبة تتحصل من مركز المشتري عند ظهورها في طريق آنو وانليل ، وبرسالةتقرأ عن مقابلة المشتري للكسوف الشمسي وكونه فأل طيبللملك ويتوقف الباطل في البلاد ، وعندما يكون المشتري خلف القمر فسوف يكون هناك عداء في الارض . (٧٤)

وتقرأ عن النقمة لظهور المريخ (ان ظهور المريخ سوف يتم قريبا ، ستأتي نقمة عظيمة ان الاله اداد قد فتح فمه) (٧٥) ولعب زحل دورا ثانويا رؤية الزهرة ، اما بشارة خير على الدوام واذا كانت الزهرةمرتبطة مع ظهور القمر في نيسان فهو فأل طيب ايضا (٧٦)

والتفاؤلات المأخوذة من الرعد والبرق والمطر والرياح . (فاذا أسمع الاله أداد صوته للكل في عيد نيسان فان العدو سوف يوقف اما اذا كان بتموز فان الزراعة سوف تزدهر) . (٧٧) فاهمية الرعد تعتمد على الشهر الذي سمعت فيه (اذا سمع الاله أداد صوته في شهر آذار فان البلادسوف تثور على الملك وعندما ترعد مثل الكلب الكبير فان الشبيون سوف يهجمون) . وعن البرق (اذا كان هناك برق ليلا في الجنوب فان أداد يسبب فيضانات ، اما اذا كانت بالليل في الشمال فان اداد سوف يسبب فيضانات في بلاد الكوبتين) . واهمية المطر تعتمد على يوم حدوثه من الشهر ، وظهور قوس قزح في المدينة فسر كفأل طيب على المدينة نفسها والملك والنبلاء .(٧٨) وتقرأ عن العواصف انها مقرونة بالتفاؤلات الحسنة على الدوام (٧٩) وفسرت الريح الجنوبية كفأل حسن لانها فعلا تحمل دوما المطر في العراق بينما فسرت ريحالشمال كفأل سيء لانها جافةفيالعراق(٨٠) واعتبرت الزلازل تفاؤلات سيئة نحسة حيث تقرأ (عندما تهز الارض طول النهار فسيكون خراب للارض وينهب العدو الارض . وعندما تكون هناك هزة أرضية في نيسان فتتكون هناك ثورة ضد الملك وعندما تكون هزة العدو سوف يهجم ويجلس على العرش أمير جديد) (٨١) . و (عندما

تحفز الارض طول النهار فان الأمير سوف يحمل بعيدا) • (٨٢) واعتبروا ولادة الخنثى (السينيشتو اوو زاكارو) فأل سيء ليودي بالقبض على الملك • (٨٣)

واعتبرو بعض الايام نحسة واخره طيبة حيث نقرأ في احدى الرسائل المرسلة الى الملك الآشوري ما نصه (عن الأيام الحسنة التي تكلم عنها سيدي الملك هي اليوم العاشر ، الخامس عشر ، السادس عشر ، الثامن عشر ، العشرون ، الثاني والعشرون ، الاربع والعشرون، السادس والعشرون كلها ثمانية ايام في شهر ايار وانها حسنة للسؤال وعبادة الارباب ، ومنها اليوم العاشر طيب للمحاكمة والخامس عشر للحرب والسادس عشر لواحة القلب والثامن عشر لمعرفة المستقبل وليقتل ثعبانا في اليوم العشرون واليوم الثاني والعشرون طيبا للسفر والرابع عشر لالتماس الاله والطلب منه (٨٤). واعتبروا شهر ايلول حسنا واليوم الثاني منه يوم طيبا لأخذ الفأل حيث كانوا يراقبون الطيور من على سطح المعبد (٨٥) •

الذنب : ونقرأ في النصوص الطقوسية كالأدعية والرقي والتي منها سلسلة الشوريو بان مختلف الاسباب لدخول المرض الى الانسان وغضب الارباب هم تنائج ذنب الشخص • ففي نص تقرأ عن اسباب الذنب التي وضعت على شكل أسئلة (هل انه أذنب ضد الاله ، هل ان جريمة ضد ربه هل هو عمل خاطيء ضد سيده ، او كره ضد أخيه الأكبر أو ارذري ابا واما ، أو أهان اخته الكبرى ، هل اعطى قليلا تملك كثيرا ، هل قال لا لنعم ، نعم للا ؟ هل استعمل أوزانا مزيفة ؟ او أخذ ما ليس له دون اخذ حقه ؟ هل وضع حدا مزيفا أو أزاد حدا •• هل استحوذ على زوجة جار له ؟ هل سرق لباس جاره ؟ هل انه صريح بكلامه ولكنه كاذب في قلبه؟ هل يقول نعم في فمه ولا في قلبه) وتذهب القائمة الى تعداد اكثر من مائة ذنب دعي مردوخ لتخليص صاحب الدعاء منها • وهذه دون شك ما اعتبره العراقي القديم ذنوبا ولكنها ربما وصفت في عصور متأخرة

عندما ظهرت هناك مبادىء عليا للحق والباطل • ولكن المزج بين المبادىء الخلقية والطقوس المقدسة هي ميزة بابلية وآشورية • فالدعاء الى عشتار والتي يسأل المتعبد فيها الربه لان (تعفو عن ذنبي ••• واعمـالي المخجلة وذنبي وتصفح لي عن ذنبي وتتقبل دعائي) وينتهي بصب الماء الطاهروحرق الاعشاب الذكية الرائحة وبعض الأضاحي • ثم الدعاء (الذي اقترفتهحواله الى طيب ، والاعتداء الذي عملته اجعل الريح لتحمله بعيداً ، لقد نزعت عني ذنوبي كما اخلع الرداء ، ياربي ان ذنوبي سبع مرات سبعة انـزع عني ذنوبي) •

واعتقد العراقيون القدماء باحتمال ترك الارباب المدن (كما يعتقـد الصائبة في العراق اليوم يترك الارباب الماء خلال ايام عيد الكرصة لذا يغدو الماء غير صالح لاي استعمال لخلوه من عنصر الطهارة) نتيجة اقتراف مكانها ذنوبا لذا فتعلن حالة الحزن العام بطقوسه المعروفة منذ اقدم الازمان وفرض على الناس فيها احيانا الصوم وطقوس السحر الحزينة (٨٦) ويتكلم الملك في مثل هذه المناسبة عادة وينطق الحزن بلسان شعبه على الكثير من الأدعية والتعاويذ والالتزامات المرفقة • وفي الكثير من الأحيـان نسمع الفرد بدعائه يستنجد لان يعرف ذنوبه (لا أعرف الذنب الذي ارتكبته ولا الخطأ الذي اقترفته) ويظهر منها بان أقل الأشياء التي قد لا يعرفها الشخص ربما تجد عليه غضب الرب • ونقرأ ايضا من قصة ايوب البابلي بان ما قد يكون خيرا في عين الانسان ربما يكون شرا في نظر الله وبالعكس •وهذه تؤيد القول بكثرة الامور التي قـد تجلب غضب وسخط الارباب علـى الفرد • (٨٧)

وبوسط ما تصور الانسان نفسه محاطا بشتى انواع القوي المؤذية التي تهاجمه بنتيجة اقترافه شتى انواع الذنوب فقد حمى نفسه لنظاميكن من الطقوس والتطهير والغفران والسحر والعرافـة مركزة كما أسلفنـا حول مدينة اريدو وربها أيا ، المدينة الطيبة كما عرفها البابلي حيث مركـز

وهي أيا وحيث الشجرة كيشكانو المقدسة في ذلك الربع الطاهر (الانكوررا) كما اوحي لأداء الانسان الاول وملك أريدو الكاهن • ومن مياه هـذه المدينة تكونت السيبتو (Siptu) اي لعنة الكفارة والتي أهم رقيـة في السحر • (٨٨)

وان الاله الحامي في نظر العراقي القـديم هو المسؤول عن الذنوب التي يرتكبها الفرد • فكاتب لكش عندما يندب خراب مدينته وانكسار اروكاجينا تقرأ قولـه (ليس هناك من ذنب ارتكبه اوروكاجينا ، هـلا تتحمل الربه نيسابا ذنب لوكال زاكيزي على رأسها •) وعندما يغضب الرب الحامي عن عبده ينسحب عن حمايته ، بالطبع نتيجة اقتراف الفرد ذنبا ، وآنذاك تنقض عليه العفاريت • حيث اعتقدوا بان الرب يعيش طيلة مـدة حمايته لعبده في جسمه • وتقرأ (فالذي لا اله له تدخل جسمه العفاريت جالية معها الآلام والأحزان) (ان الذي لا اله له فان وجع الرأس يغطيه كالرداء عند سيره في الشارع) ،ولأجل ان يرجع الى حالته الاولى الاعتيادية فيكون ذلك عن طريق السحر والاضاحي وطقوس التطهير •(٨٩)

الأحلام : اعتقد العراقي القديم بان ما يراه الشخص في حلمه عبارة عن حدث سيقع عليه • وعلى الفرد ان يجتهد بالحصول على من يفسر ذلك الحلم له • والمفسر للحلم آنذاك يجب ان يكون ذا اتصال بالأرباب نفسها عن طريق الكهنة ذوي الاختصاص (السقالو ، السقاليتو) • او كما في حالة كلكامش الها آخر يعرف نوايا اخوانه الارباب واسرار المستقبل •والاحلام ترسل من الآلهة نفسها الذي يتمكن من ان يرد شرورها بالالتماس الـى الأرباب نفسها بالدعاء الخاص • ومن الأدعية المعروفة في العراق القـديم بهذا الخصوص الدعاء التالي الذي يخاطب به الشخص الحالم الهه قائـلا (وعن الحلم الذي تعرفه أنت ولا أعرفه أنا ، فان كان طيبا فلا تحرمني من طيبة وان كان سيئا فلا تجعل شره يصلني) • وكثيرا ما كانوا ينظرون الى الأحلام كحوادث حقيقية واقعة • ولنا من الفلكي البابلي بيـل ادانو

من العصر الأخميني خير مثل حيث دون رؤيته باحلامهالنجوم Bel-Idannu وكواكب مختلفة خمسة مرات خلال ثلاثة اشهر (مع تواريخهم) كحقائق ثابتة • وهناك نص من العصر الكاشي عثر عليه في مدينة نفر يحوي على سلسلة من الخبرات لوحظت جميعها في الأحلام •

فالأحلام التي اتتنا من العراق القديم بصورة عامة سواء مفسرة ام لا يمكن تقسيمها الى ثلاثة اصناف هي :

١ ــ أحلام تظهر بها الأرباب ارادتها والتي تحتاج أو قد لا تحتاج الى تفسير •

٢ ــ أحلام تعكس لنا وضع الشخص الحالم العقلي وسلامتهالروحية والجسمية •

٣ ــ أحلام تنبؤية •

وان غالبية الأحلام التي وردت الينا هي من النوع الاولوالتيقسمت الى نوعين إخبارية ورمزية • ونلحظ بان الأحلام الاخبارية (سواء كانذار أو أمر الهي) قد وضعت في عبارات مفهومة واضحة لا تحتاج معها الى أي تفسير • فينادي الاله الشخص الحالم باسمه (حيث يكون واقفا عند رأسه جميل الشكل وبحجم غير طبيعي) ويملي رسالته عليه • اما العملية الرمزية بحد ذاتها فهي وظيفة تدل على صلة مع العالم الخارجي حيث ان حدود الانسان التفكيرية دائبة الحركة تمتد الى ما هو أعمق من ظاهرغلافه الخارجي • ونجد في ملحمة كلكامش التأكيد على اطاعة الوصايا والرسائل التي تحملها مثل هذه الأحلام • فعدم اهتمام كلكامش لانذار أتاه فيحلمه مرة يعود الى اقناع انكيدو له بذلك • وعندما أصرأنكيدو على كلكامش بعدم الالتفات لانذارات الرب الجبل نزل على أنكيدو نفسه العقاب بان اصيب بمرض غامض أدى اخيرا الى وفاته • فرويت لنا الكثير من الاحلام من العراق القديم حلها الملوك والامراء وبعض الأفراد التي ظهر صدمتها

فيما بعد حسب رواياتهم ، فاتى الاله أيا الى اوتونايشتوم في نومه واخبره بنبأ تصميم الأرباب على وجوب معاقبة البشر بطوفان كرم واعطاه الاوامر في بناء الفلك وساعة فوران التنور . وقبل ان يقابل كلكامش صديقه انكيدو كما تروي الملحمة كان قد رأى حلما فسرته اليه امه الربة ننسون يقرب تعرفة على صديق سيكون عزيز عليه . فقد رأى سقوط شهاب من السماء عليه ثقل عليه رفعه وعندما اجتمع الناس من اوروك حوله انحنى هو عليه ورفعه وجعله نظيرا له) . وفي حلم ثان رأى كلكامش ان قد عثر على فاس غريبة المنظر في اوروك . وفسرته له امه بقرب تعرفه على رجل سيكون له صديقا يعينه بالضيق . ففي البداية نرى الاحلام في ملحمة كلكامش تفسرها ام كلكامش من بعدها يحللها له انكيدو وبعد موت الأخير صار كلكامش نفسه يفسر أحلامه . (٩٠) .

فتتميز الأحلام بتكوين لا شعوري للحلم واستخدام شعوري للغرض الذي يقصده الحلم حسب التفسير . وهي دون شك تحمل قارئها على تصديق أحداث لا تعود بالواقع الى الحياة اليومية المألوفة . فليس من المعقول لبطل الوركاء وهو القوي الشجاع ، حسب ما تصفه الملحمة ، ان يتحداه بربريا ساذجا ومن ثم يرتبط به مدى حياته . ولهذا الارتباط أهمية ولأجل ان يجعله مقبولا استخدم الكاتب وسيلة الحلم ـ وجعلت الأحلام العلاقة بين كلكامش وأنكيدو محتملة . ولكن عندما فقد كلكامش انكيدو وصلت الأحلام الى الحد الذي كشفت به عن العالم الآخر . ولهذا فانها ليست فقط قد تنبأت بالموت ولكن كشفت العالم الأسفل . فشخصيات ملحمة كلكامش حسب ما يظهر تكشف عن خيرة حلمية صحيحة . فالجبل الذ تهاوى وظلام النهار وشخصيات العالم السفلي هي في الواقع رؤى يمكن ان تظهر للحالمين . (٩١) واخبرنا كايتي ايلاني مردوخ (موا) ١٧٢٨ ـ ١٦٥٨ ق.م) بان الاله إيشوم قد أفصح له عن قصيدته بايرا .(٩٢)

واخبرنا جودية بانه استلم الأمر باعادة بناء الاي ـ نيننو ، المعبد

الرئيسي في لكش ، في حلم وبعد ان قدم الأضاحي الى نينكرزو والربه، تومدوك ونينا خاطب الاخيرة بدعاء منه (••• ايتها الام ، مفسرة الاحلام، ففي منتصف حلمي ، رأيت شخصا ، تصل قامته السماء والارض وعلى رأسه التاج ، انه اله وعلى جانبه الطير الالهي الامكيك ، وعند قدميه الصاعقة وعن يمينه ويساره يجلس اسد ، أمرني إن البني بيتي • لم اعرفه ولكن الشمس خرجت من الأرض ، وطلعت منها امرأة في يدها القلم ولوح نجمة السحوات الطيبة •••وظهر رجل اخر يحمل في يده لوح من اللازورد، واضعا خطة معبد وضع (بعدها) امامي •••) •وكان تفسيرها عن كونه الاله الذي تصل قامته السموات والارض هو نينكرزو ، والشمس الخارجة هو نينكيش زيدا وحاملة القلم نيسابا والأخير هو الاله نيندوب •[٩٣] ومن قبل نقرأ عن حلم !يانانا توم أنسي لكش عند هجوم جيوش مدينة اوما على مدينته • فقد وقف الاله نينكرزو في الحلم عند رأسه واخبره من ان الاله بيار سوف يسير الى جانبه واوعده بالنصر [٩٤] • وكان حكام المدن الخاضعة لمدينة ماري يكبتون الى عاهلهم ما يرويه الأفراد لهم من أحلامهم مما يعتقدون بارتباطه بمستقبل المملكة • ثم حلم كومايا **Kummaya** ذلك الأمير الاشوري الذي وصف لنا ما رآه في رحلته التي قام بها اثناء نومه الى عالم الأموات • فقد رأى ملك الموت برأس تنين ـ افعوان بيدين بشريتين ، وشاهد فركال على عرش ملكي وتشفع له عند الاخير الاله ايشوم فركال الشفيع • [٩٥]

ووصلتنا من العصر الآشوري المتأخر نصوصا تدون الكثير من الاحلام المهمة • ففي رسالة بكت ملردو رشوم ـ اوصور الى الملك آشوربانيباب ما نصه (في حلم قال الاله آشور الى (سنحاريب) جد سيدي الملك ، ايها الحكيم ، الملك ، سيد الملوك ، نسل الحكيم وادايا • لقد فقت في معرفتك أيسو وجميع المهرة • وعندما ذهب والد سيدي الملك (اسرحدون) الى مصر • رأى (في الحلم) لمنطقة حران معبدا من خشب الارز وفيه الاله

سن متكئا على عصا بتاجين على رأسه وامامه الاله نوسكو • فدخل سيدي الملك ووضع (الاله) التاج على رأسه وقال له ستذهب الى الاقطار ، و (ستغزو) •[٩٦] واخبرنا الملك بنونيذ بانه قد رأى حلما ظهر له به الارباب مردوخ وسن ، اخبره الأول ان يهيء الطابوق ليبني معبد حران ويعيد سن الى عرشه السابق •

أو حلم اله نفسه مثل حلم دموزي [٩٧] • وفسرت أخته كشتين أننا Geshtin Anna حلما له كفأل يعلمه عن قرب موته ونصحته بان يجتهد على اخفاء نفسه من العفاريت • [٩٨]

ومن ارباب الأحلام في العراق القديم كان الاله زاقيقو Zaqiqu والربة مامو Mamo أو ماخير Makhir وهي الربة التي كان لها مزار في بلاوات • ثم زاكار Zakar الذي اعتبر رسول الاله سن • وقد اطلق على شماش اسم رب الأحلام (بيل بيري Bel Biri) •

ووصلنا رقيم حوى تفسير لبضع أحلام نستنتج منها بان كاتب الرقيم (ان كان هو المفسر) قد فسر العكس مما هو تعارف عليه كتفسير المظواهر التي يراها الحالم • فالمعروف على سبيل المثال ان الحجة اليمنى كانت هي الحسنة ويكون فألها بذلك حسنا وكذلك الجبهة العليا ولذلك صرنا نسمع في التفسير اعتباره الحجة اليسرى اتي رآها الحالم حسنه والسفلى هي الطيبة حيث نقرأ (اذا نظر نحو يساره فانه سوف يدحر العدو ، اذا رجفت عينه اليمنى فسوف يظهر عليه مرض ، اذا رجفت عينه اليسرى فسوف يفرح فؤاده ، اذا عض لسانه من اليمين فسوف فسوف يعارض بعداوة واذا عض لسانه من اليسار فسوف ينشرح فؤاده • اذا عض شفته العليا سوف يكتظم • اذا عض شفته السفلى سوف ينشرح • [٩٩] والمعروف ان الارض اعتبرت عند العراقيين القدماء مصدر الظلمة والسماء مصدر النور ولكن صارت رؤية الارض في الحلم الذي رواه • الرقيم حسنا (على العكس)

والسماء طيبا (اذا نظر الى السماء سوف يأتي له كرب . اذا نظر الى الارض سوف يحصل له سرور) ونقرأ في نفس الرقيم ما قد نستنتج منه اعتماد المفسر على الارتباط المنطقي حيث ورد (اذا مسكه رجلا أحدبا فان لعنته سوف تنصب عليه . اذا مسكه رجلا أحدبا من انفه وكاد ان يخنقه فسوف يأتي له عار [١٠٠] . فالأحدب نظر اليه في الغالب كرجل لم تمنحه الأرباب شكلا مقبولا وهيئة حسنة فلهذا صارت مسكته في الحلم تجلب لعنة الآلهة وسخطها . ونقرأ أيضا (اذا كان يحمل بيرة في الشارع فان قلبه سوف ينشرح . اذا كان يحمل ماء في الشارع فان ذنوبه سوف تكفر) . [١٠١] فشرب البيرة يجلب الانشراح والماء دون شك نظر اليه كعنصر بل ومقدس . و (اذا كان ماسك قوسا في يده فلسوف يحصل على غنمة) فالقوس هو آلة حرب فمن الطبيعي ان نجده مقرونا في الحلم تبعا للارتباط المنطقي مع الغنيمة . وفي الشطر التالي نجد مزجا بين الارتباط المنطقي والعكسي حيث جاء (اذا كان ماسكا بقوس ، في يده ثم سقط منه على الارض فسوف يحصل على غنيمة له شخصيا [١٠٢] . وقد أتحفنا الاستاذ أ . ليو اوينهايم بترجمة لكتاب الأحلام الاشوري الذي يعود زمنه الى العصر المتأخر . فاذا قرأنا الاحلام المدرجة في الكتاب نجد ماهو شاذ وغريب بينها . فالواح كتاب الاحلام الاشوري الاحدى عشرةوربما الاثنى عشرة كانت جزء من مجموعات مكتبة الملك اشوربانيبال . وهي مكونةمن حوالي ثمانين قطعة تدور حول تفسير الاحلام . وان الاول والاخير من هذه الالواح تشمل على ادعية وتعاويذ وطقوس الفرض منها طرد عناصر الضر والشرور المذكورة في الالواح المتبقية اي من اثنين الى تسعة .اما الألواح التسعة السالفة الذكر والتي ينقصها اللوح السادس الآن فقد اعطيت عناوين مختلفة مثل الاله زقيقي رب الاحلام للوح الاول و (اذا صنع رجل في حلمه بابا) للوح الثالث و (اذا كان رجلا مرتدياالفضة) للوح الرابع و (اذا رأى رجلا في حلمه الاله انليل) للوح الثامن و(اذا دخل رجل من البوابة الرئيسية لمدينته) للوح التاسع و (اذا نام رجل على

جانبه الايسر وكان حلمه مشوشا) للوح العاشر و (اذا كانت أحلام الرجل مرتبكة) للوح الحادي عشر (١٠٣) •

ففي القسم الاول من اللوح الثالث نقرأ عن البناء والعمل في الحياة اليومية • فرؤية رجل لنفسه ان يضع بابا ماكرسيا ، سريرا ، مصطبة، منضدة أو قاربا فان تفسيرها ان عفريتا سيتجه اليه • واذا رأى فيحلمه انه يعمل بشغل ليلى فان الهه الحامي سوف يجرده من ثروته ، او سراحا فان ثروته ستتضاءل او في عمل قامع ختم الكاهن الاعلى الاسطواني فان ابنه سيموت • (١٠٤) ويمكن ان تؤخذ هذه كشكل نموذجي لتفاسيرالأحلام الأولية وذلك لوجود التكرار الكثير والنمطية في التنبؤات مع ظهور عبارات متعارف عليها • وهذه جعلت الاستاذ اوينهايم يستنتج السبب بقلة الاهتمام في تفسير الأحلام عند الناس آنذاك نظرا لاعتمادهم الأكبر على العرافة ونتائجها • ويظهر من النص الفائت ان المؤلف قد ربت الحرف في تسلسل منطقي حيث ان تفاسير الأحلام فيها كانت سقيمة وتختلف درجة تعاستها من واحد لآخر من ناحية ولا بد وان تكون حرفا ذات منزلة واطئة اجتماعيا • وفي اللوح السابع نقرأ رؤية الرجل لنفسه في الحلم (اذا توسعت بولته امام عضوه التناسلي و (شملت) الحائط والطريق فانه سوف يرزق باولاد • أما اذا توسعت بولته امام عضوه التناسلي وسجد امامها اجلالا فانه سوف يرزق بولد وسيكون هذا الولد ملكا واذا تبول على حائط (••• مكسور •••) فسوف لا يكون عنده اولاد • واذا تبول على قصب صغير فسوف لا يكون عنده أولاد • واذا (••• مكسور •••) بولته يقدمه فسوف يموت ابنه الاكبر • واذا غسل يديه فيبولته فسوف يكون تمتعه قليلا • واذا وجه الرجل بولته نحو السماء فان هذا الرجل سوف يرزق بولد يكون له شأن كبير ولكن ايامه ستكونمعدودات واذا تبول الرجل في النهر فان محصوله سيكون كثيرا • اذا تبول الرجل في بئر فانه سوف يخسر ممتلكاته • اذا تبول رجل في قناة للري فان

الاله أداد سوف يغرق محصوله • واذا بول الرجل على ربه الحامي أو ربته الحامية فانه سوف يجد ممتلكاته المفقودة • اذا شرب رجل بول زوجتهفان هذا الرجل سوف يتمتع بالرخاء) (١٠٥) وفي هذه التفاسير نجد تأكيدا لنظرية سيجموند فرويد في الرمزية العالمية Universal Symobolism فبصورة لاشعورية ربط العراقي القديم بين البول (الحيامن) وانتاج الأطفال • وبهذا فانها توافق تماما نظرية فرويد في اتجاهات الطفل الجنسية الاولى Infantile Sexuality : فكميات كثيرة من البول معناها ان الرجل الحالم سوف يحصل على ولد أو أولاد كثيرون ، والشيء المهم ايضا هو رمزاة الانحناء أمام البول احتراما حيث ترمز بوضوح الى الرغبة والحاجة الى الأطفال وخاصة الذكور منهم • وان قلة البول كما يدل عليه رمز القصب الصغير يدل على العقم • والبول بذاته يدل رمزيا على تدنيس وتلويث النفس ، وبذلك يفسر كفأل غير حسن (وعلى الأخص في وفاة الابن الأكبر وحدوث قحط او جوع) وتوجيه البول نحو السماء ينتج في صيرورة الابن ذا قيمة وأهمية والسبب في ذلك يعود بالطبع الى ارتباط السماء مع الأرباب حيث كان الاعتقاد القديم بان الآلهة تسكن هناك•ولكن حياته سوف تصبح قصيرة بتقدير الآلهة نفسها وذلك يعود ربما للوقاحة البالغة التي بينها في عمله هذا والذي ربما أراد من ورائه الاتصال جنسيا مع بعض الربات • وان وطأ الحالم بولته معناه احتقاره لها ورؤيادالة على خسارته لاعز ابنائه وهو الابن الأكبر بالطبع • واذا ما غسل يديه في بولته ، ذلك الغسل الذي سيؤدي حتما الى ضياع قسم كبير منه في الأرض واستشاره لكمية قليلة منه فسيؤدي الى تتيجة مشابهة الا وهي تمتعه القليل بالحياة • والعبارات الاربع التي تلي هذه مهمة أيضا • فهنا نلحظ حظا سعيدا يأتي بعد التلقيح الرمزي لكثيرين آخرين (البول في ماء جاري مثل النهر) • ولكن الحظ التعس يتأتى بعد البول في ماء البئر حيث سوف يضيع لكون البئر مقفلا • اما اذا بول في قناة اروائية وهي

بالطبع صغيرة بطيئة الجريان في الغالب فان خسارته سوف لا تشمل كل ممتلكاته كما في حالة البئر بل محددة على محصوله لتلك السنة بالذات فقط • وأن صب بول الرجل الحالم على الرب الحامي له علاقة مع تضحية النفس وهي أعلى تضحية يمكن ان يقدمها انسان الى ربه الشخصي وبذلك فسرت بعثوره على ما فقده من ممتلكات • اما العبارة الأخيرة فواضحة • فان شربه بول الزوجة سوف يؤمن للرجل التمتع بذرية تؤمن له حياته في الكبر والشيخوخة • هذا وان البول والتبول هما رمزيان للغاية •

ونقرأ في الرقيم الثامن العبارة التالية (اذا رأى رجل في حلمهالاله انليل فانه سوف يتمتع لعمر طويل (١٠٦) • وهذه ربما تمثل نعمة خاصة مسداذة الى رجل نقي متدين تؤمن له طول العمر • وتقرأ فيالرقيمالتاسع (اذا رأى انسان نفسه في الحلم ذاهب الى مدينة تعز فمعناه حزن أو صحة لمدة سنة ، ولباسل فمعناه تحسرات أو صحة لمدة سنة أو لهيت فانه سيكون ذا عمر طويل وتكثر املاكه) (١٠٧) فهذا الرقيم كما يظهر مخصص للاسفار • فهناك تناقض واضح في العبارتين الاوليتين بين الحزن والصحة والتحسر والعافية وربما ترجع الى افتخار الكايت واعتزازه أو تعصبهحيث جعل السفرة لتلك المدينة يعطي اما حظا سعيدا او ثنيئا معتمدة على كون الشخص المسافر من مدينته التي اتى منها هو ام لا • والأخيرة ترمز بالطبع الى مسافة بعيدة بالنسبة للكاتب لان هيت بعيدة عن كل من الجنوب أو الشمال ان كان الرقيم قد كتب في واحدة منهما • فالبعد في المسافة هنا يرمز الى طول العمر حيث ان الحياة ما هي الا رحلة •

وذكر اوينهايم ثلاثة رقم اخرى غير مرتبطة كليا مع كتاب الأحلام الآشوري ولكنها تبحث في نفس الموضوع (١٠٨) • وهذه تلائم الطبيعة الاساسية لكتاب الاحلام الا وهي التكاثر البشري • فبصورة عامة نرى ان أكل لحوم الحيوانات الوحشية ينتج حظا سيئا كما يولد الاخير ايضا اللحوم غير المألوفة ولحوم الاناس الغرباء • وأكل لحم الاصدقاء(ماعدا

أكل لحم اليد) يشير بصورة عامة الى حظ سعيد وخير سيجلبه الحلم • فالعراقي القديم بذلك سيأخذ لنفسه حسن سريرة وطيب صديقة ثم يعكسها الى العالم • وأكل الانسان الى لحم يده قد يجلب حظا تعسا لان اليد عضو على غاية الأهمية للانسان وهو في حلمه ينوي انزال الاذى بها أو لان اليد هو العضو غير المحظوظ من الجسم الذي تظهر عليه انفعالاته بسرعة • فعلى سبيل المثال اذا اختلف رجل مع آخر فان اليد هي التي تضرب اي انها الجزء من البدن الذي يورط صاحبه في النزاع أولا فيكسر الصداقة ويجلب الحظ السيء (١٠٩) • ويظهر التناقض في (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل عضوه التناسلي فان ابنه سوف يموت) و (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل عضو صديقه التناسلي فمعناه انه سيرزق بولد) (١١٠) • وبالنسبة الى فرويد فالأكل عموما له علاقة باتصال جنسي محرم (مع اخت أو ام أو بنت او بنت أخ الخ) وبذلك يكون أكل الانسان لعضوه التناسلي مجلبة لسوء حظ اليه بينما أكل الشخص لعضو صديقه التناسلي لا يحمل بين طياته اتصال جنسي محرم • وبذلك يكون مجلبة لحسن حظ • ونفس التفسير يصدق على (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل لحم يديه فمعناه ان ابنته سوف تموت) و (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل لحم قدمه فمعناه ان ابنه الاكبر سوف يموت) (١١١) فالعراقي القديم حسب ما تظهر هذه الأحلام وتنسياتها ، ادرك بصورة لاشعورية خطر عدم النسل واتخذ الاحتياطات (ايضا بصورة لاشعورية) لتجنبها • وبالواقع فان من الصعب جدا الافتراض بان أكل لحوم البشر قد حدث فعلا في العراق القديم •

وهناك عبارتان تتعلقان بأكل الغائط وكيف انه ذو حدين يجلب سوء الطالع حينا وحسنه حينا آخر باختلاف الاشخاص • (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل غائط صديقه فتفسير ممتلكاته سوف تزيد ويكون حسن الحظ وسيقول عن ثروته اين سأضعها ؟ اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل

براز الحيوانات الوحشية فسيكون ثريا) (١١٢) فبراز البشر عند الاقوام البدائية يقرن دائما مع الثروة وكأنها شيء قد انتج من قبل الفرد ونتيجة لجهود بذلها الى جانب ذلك فان التغوط بذاته عمل مريح ملذ للنفس الآمر الذي يجب ان يكون مقرونا مع حسن الحظ .

واذا ما اتينا على العبارات المتعلقة بالاختام الاسطوانية بكتاب الاحلام الآشوري هذا (١١٣) ، فنرى في تفسير الاحلام ان اعطاء شخص لختم اسطواني الى آخر له علاقة بانجاب الاطفال . ولهذا تفسيران . فالختم الاسطواني مهم في الكشف عن الهوية وبذلك يمثل الحظ المباشر الذي يربط الاب مع الابن . او ان هذه الاختام ربما كانت قد انتقلت من الاب الى الابن في حالة الوفاة ساندة بذلك التفسير التعريفي (الكشف عن الهوية) . وربما تكون العلاقة بين الختم الاسطواني والأطفال متأتية من تشابهها مع عضو الاخصاب عند الرجل . وبذلك تكون ممثلة للعلاقة وعملية التخصيب المباشر وفكرة انجاب الأطفال . ومن المهم ان نذكر بان اكثر الرموز المستخدمة في الاختام كالاسود والسهام والارباب لها تعابير صريحة وواضحة للقوة والاخصاب والنشاط . وهناك فقرات تتعلق بالتسليم (اذا رأى رجل نفسه في الحلم وقد اعطي لحم خنزير يفني سوء الصحة) (١١٤) . حيث ان الخنزير نفسه معروف كحيوان قذر يأكل كلما يجد وربما انهم عن خبرة (ولو انه ليس لنا دليل على ذلك) قد عرفوا بان أكل لحم الخنزير قد يعرض الانسان الى امراض . اما اذا كان اللحم المعطى غير مطبوخ فمعناه ان الحيوان نفسه سوف يهاجم الرجل الحالم أو يلم به مرض أو يموت . ونعرف عن مهاجمة الخنزير الوحشي للكثيرين من الناس وخاصة في مناطق الاهوار و الزراعة الكثيفة وقتله اياهم في تلك العصور . ثم تقرأ (اذا رأى رجل في حلمه أن شخصا قد اعطاه شحم أسد فسوف لا يتمكن أحد من منافسته . وهنا ايضا عندما تحاول تطبيق قانون التأثير يبرز للحلم معناه فالأسد معروف بالقوة وخوف الحيوانات الأخرى منه

وحتى البشر ، فبذلك يكون أخذ الشخص الحالم لدهنه يعني اخذه لقوة الأسد وصفات ذلك الحيوان الاخرى الامر الذي سيجعله قويا لا يتمكن أحد من منافسته .

وفي عبارات الفأل نقرأ : (اذا رأى رجل في حلمه ان رجلا آخر يسلمه عجلة فتفسيره بان سوف يرزق بتوأمين . واذا كان درعا من الجلد بان كآبته سوف تنفرج . واذا كان منغزا فتفسيره بان سوف لا ينافسه أحد . واذا كان مزلاج باب فتفسيره بان سوف لا تنفضح أسراره .[115] فالعجلة بلا شك تأتي في زوجين اثنين على الدوام وبذلك اقترنت هنا بولادة التوائم ، اما الدرع فمعناه الوقاية والحماية من اي خطر فسيكون بذلك قويا لا يقوى أحد على منافسته والتغلب عليه . اما المنغز فهو اداة دفاعية وبذلك له علاقة بتقوية الانسان لنفسه بالوقت الذي يستعمل مزلاج الباب لغلقها فلا يتمكن بعد ذلك أحد من فتحها بسهولة وبفعل قانون التشابه .

وفي مكان آخر نقرأ (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يعطي كأسا فارغا فمعناه بانه سوف يصبح فقيرا . واذا كان مملوء فمعناه بانه سوف يصبح ذا اسم مشهور ونسل كثير ... واذا رأى رجل في حلمه ان احدا يعطيه دهن أسد فالمعنى بانه سيكون انسانا كاملا ، واذا كان دهن بغل فالمعنى بانه سوف لا يكون انسانا كاملا . واذا رأى ان احدا يعطيه ماء فان عمره سوف يطول ... واذا كانت بيرة فمعناه سوف ينس ... واذا كان خمرا فمعناه ان عمره سيكون قصيرا)[116] فتسلم الحالم للكأس الفارغ معناه تقبله الفقر وبذلك سيكون متجها نحوه واذا كان الكأس مملوء فسيكون طريقه نحو الثراء وهنا يتوضح قانون التشابه . ولما كان البغل حيوانا عقيما فلا تتوقع ان يكون تفسير الحلم الكمال بالنسبة للشخص الحالم . اما البول والماء منهما من رموز الخصب والتكاثر فلا بد ان يكون تفسير الحلم مقترن بطول العمر وكثرة الأطفال او زيادة المال بالنسبة للحالم . وكما ان الفرد أثناء شربه للبيرة ينسى او يتناسى مشاكله وآلامه وقد يصيب

فرح وقتي ، فقد قرن الحلم بين النسيان وشرب البيرة • اما الخمرة فلكونها لا تجعل شاربها ثملا الى مالا نهاية ومفعولها يتلاشى بعد مدة من الزمن تقصر او تطول بالنسبة للكمية التي شربها الشخص وبذلك يكون تفسير الخمرة وشربها هنا سرعة زوال وقرب نهاية العمر •

وان الواح التعويذة هي الاولى والعاشرة والحادية عشرة • (١١٧) وهناك أدلة على ان الالواح الثلاثة كانت بالأصل مجموعة منفصلة عنوانها (تحويل الأحلام السيئة الى حسنة) وهي مرتبطة مع نصوص لفأل من كتاب الأحلام لعلاقتها به • وتشمل هذه النصوص على دعوات وسحر وطرد شرور استعملت في مناشدة الارباب لنعم وفضائل ومن هذه الدعوات نقرأ بنص (اذا رأى رجلا حلما سيئا فيجب ولأجل ان لا تصيبه نتائجه السيئة آن ليقول لنفسه قبل آن يضع قدمه على الارض (في الصباح) ان الحلم الذي رأيته كان طيبا ، حقا طيبا امام الاله سن وشماش وبذلك سيوقل ذلك ويضع آجر من النوع الجيد واحدة لنفسه وحتى لا يقرب منه شر الحلم (الذي رآه) • وفي نص نقرأ شعيرة لاجل التخلص من نتائج الأحلام السيئة والتي عليه بموجبها ان يقرأ هذا الدعاء وهو مرفوع اليدين امام الاله شماش و « سوف يحصل على مايريد» (شماش انت الحاكم احكم في قضيتي ، انت الذي تصدر الأحكام ، اصدر حكمك في دعوتي ، بدل حلمي الذي رأيته الى حلم طيب ، هلا أسير في الطريق المستقيم ، هلا احصل على مساعد ، ياشماش ، هلا يكون حلمي طيبا طول النهار ، يا شماش هلا يكون حلمي طيبا طول الشهر) • ونجد تعاليما في هذا الباب في الرقيم المسمى (اذا رأى رجلا حلما سيئا واراد ان لا يتأثر بنتائجه السيئة) نقرأ فيه (اذا رأى رجلا حلما سيئا في الليل فيجب ان يأخذ••• (مكسور) ••• ويلطخ به كل جسمه (وهو متجه) نحو الشرق •••وعلى قطعة من الفخار ثم يقول الى القطعة ، ايتها القطعة هي تركيبك قد امتزج تركيبي ، في تركيبك قد امتزج تركيبي ، ثم عليه ان يخبر قطعة الفخار

(يشارو) كل الحلم الذي رآه ثم يرميها في الماء ويقول (وكما اطاق هذه القطعة في الماء وتتحطم وتتلاشى جميع اجزاؤها ، هلا تكون جميع نتائج الحلم الشريرة التي رأيتها • تختفي وتذوب وتبتعد عن يدي مسافة ستين ساعة مضاعفة • وهـذا ما يجب ان يقوله الى القطعة التي يرميها في الماء وآنذاك سوف يذهب عنه الشر) (١١٨)

فهذه الدعوات هي بالواقع ستائـر وتعاويذ الغاية منها طرد نتائج الاحلام الشريرة واستحصال أحلام حسنة بدلها • ومن هذه الامثلة الثلاثة التي ذكرناها ، أعلاه فالأولى تطرد شر حلم سيء وذلك عن طريق محاولة اقناع الأرباب بان الحلم كان طيبا لا سوء فيه • وهو بهذه الوسيلة يحاول تظليل الآلهة • وهذه الطريقة بالواقع معروفة في مختلف الأديان البدائية• اما الطريقة الثانية فهي نتاج عقلية اكثر تعقيدا كما يظهر وتحوى التماسا الى الاله لان يحكم ويغيره الى حلم حسن • اما في الثالثة فنجد طريقة جديدة فعوضا عن محاولة الشخص التهرب من نتائج حلمه السيء المخيفة• فانه قد وجه شر الحلم الى قطعة من طين الارض يرميها لتذوب في الماء ومعها شرور الحلم الذي يقاسيها الحالم وبذلك يكون قد خلص نفسه حسب اعتقاده من النتائج •

ووصلتنا من العراق القديم أدعية يتوسل بها المقيد الى الارباب كيما ترسل له أحلاما طيبة امثال (يارب القمر الجديد الذي لا يوازيه احد في القوة والذي لا يتمكن أحد ان يحصل مشورته ، لقد قدمت اك سائلا طاهرا كتضحية ليلية ، قدمت لك شرابا طاهرا ، انحني عليك ، اقف امامك، استرشدك ، وجه افكارك الحسنة والعادلة نحوي حتى يصطلح معي ربي وربتي اللذين غضبن علي منذ ايام في الحق والعـدل وسيكون الحظ الحسن نصيبي وطريقي مستقيما ويرسل لي زاكار رب الاحلام في منتصف الليل كيما يغفر لي ذنوبي) • (اكشف نفسك لي ودعني ارى حلما طيبا، هلا يكون الحلم الذي سأحلمه طيبا ، هلا يكون الحلم الذي سأحلمه

صحيحا • هلا تقف مامو ربة الأحلام عند فراشي ، دعني ادخل ايزاكيـلا بيت الحياة) •(١١٩)

فالأحلام هذه قد تحملنا على ضرورة النظر العراقي القديم نظرة اكثر تعقيدا • فهو شخص كانت للرمزية في المعاني والاستعمالات بالنسبة اليـه مكان لا يستهان به • فاحلامه تبين بكل وضوح استعماله الرمزية اللاشعورية فيها وتنوع خبراته في تفسيرها •



الهوامش

١ ـ الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، المجلد ٦ (القاهرة ، ١٩٦١) ص ٩٢ مادة ٤٧ .

٢ ـ قانون حمورابي ، مادة ٢ ، المصدر اعلاه ص ٥٩ .

3 — Hooke, **Babylonian and AssYrian Religion**, (London, 1953) Translated by A.J. Powerans, pp.69-70

5 — Erich Ebeling, «Ein Babylonische Beispiel Schwarzer Magic», **Orientalia**, vol. 20 (1951) pp. 167-170.

6 — Stanley D. Walters, The Sourceress and her Apprentice» **JCS**, vol. 23 (1970) pp. 27-28.

7 — A. Ray, **La Science Orientale Avant Les Grecs**, (Paris, 1947) pp. 40-47.

8 — Rene Taton, Ed. **op. cit.** p. 70.

9 — Contenau, **Every Day... Life in Babylon and AssYrin**, (N.Y., 1966).

10 — Hooke, **op. cit.** p. 77.

11 — H. Zimmern, **Die Keilinschriftliche und Das Alte Testament** (Leipzig, 1903), II, p. 33; James, **op. cit.** p. 238.

12 — E. Ebeling, **Tod und Leben Nach Den Vorstellungen Der Babylonier**, (Leipzig, 1931) pp. 76-78.

13 — Hooke, **op. cit.** p. 81.

١٤ ـ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، الاصول الاولى لأفكار الشر والشيطان ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ٢٤ .

15 — H.W.F. Saggs, **The Greatness That was BabYlon**, (N. Y., 1963),

16 — **Ibid,** pp. 305-307, 311

17 — E. E. Kundsen, Two Nimrud Incantation of The Utukku Type» **Irak,** vol. 27, 27, part 2, Fall 1965, pp. 167 FF.

18 — H. W. F. Saggs, The Greatness... **op. cit.** pp. 313-315.

19 — **Ibid,** pp. 315-316.

20 — **Ibid,** pp. 318-320.

21 — Bruno Melssner, **Babyloniens und Assyrians** (Heidelberg 1925), II, pp. 235-236.

22 — Morril Jastrow, **The Civilisation of Babylonia and Assyria** (Philadelphia, 1915) **op. cit.** p. 243.

23 — Contenau, **Every Day...** op. cit. pp. 254-255.

24 — **Maqlu,** Tablet I, 135-143.

25 — **Maqlu,** Tablet II, 132-135.

26 — Paul Haupt, **Akkadische und Sumarische Keilinschrif-texte** (Leipzig, 1892), p. 90.

27 — **Shurpu Series,** Tablet V-VI, 60-72.

28 — **Maqlu Series,** Tablet III, 89-103 and Tablet VII, 97-107.

29 — **Maqlu Series,** Tablet VII, 31-38.

30 — Jastrow, **The Civilisation... op cit.** pp. 253-254.

٣١ ـ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، الاصول الاولى ... المار ذكره ص ١٨ ـ ص ٢٠ .

32 — T.B. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** (New Jersey, 1955), Story of Creation, p. 62, Tablet I, Lines 139-143, George Barton, «Tianat», **Jaos,** vol. XV (1893), pp. 1-27.

الدكتور سامي سعيد الأحمد ، **الاصول الاولى ... المار ذكره** ، ص ٢٠

33 — Sami Said Ahmed, **Southern Mesopotamin in the Tire of Ashurbanibal,** (The Hague-Paris, 1968) pp. 71 FF.

34 — Kurt Selingmann, **The Mirror of Magic** (Cambridge, Mass., 1948) pp. 23-31.

35 — A. Leo Oppenheim, **Ancient Mesopotamia,** (Chicago, 1964) pp. 206-208.

36 — H. Zimmern, **Beitrage zur Kenntnis der Babylonischen Religion** (Leipzig, 1901) p. 116, No. 24, lines 1, 23.

37 — E.O. James, **The Ancient Gods,** (N. Y., 1960) p. 232.

38 — Contenau, **Every Day... op. cit.** p. 281.

39 — Delaporte, **Mesopotamia,** (London, 1925) pp. 152-154.

40 — Sami S. Ahmad, **Characteristics of Ancient Mesopotamain Religions Thought Ametzqr,** vol. 79 (1967) p. 127.

41 — Morris Jastrow, **Die Religion Babyloniens und Assyrien** (Giessen, 1905-12), pp. 213 FF. Morris Jastrow, «The Liver As The Seat of The Soul», in **Studies in the History of Religions, Presented to C.H. Toy** (New York, 1912) pp .143-168.

42 — Melssner, **Babylonien** (Heidelberg, 1925), II, pp. 270-1.

43 — **Ibid,** p. 273.

44 — Jastrow, **The Civilisation... op. cit.** pp. 255-256.

45 — David Weuberg, An Old Babylonian Forunners to Shumma Alu, **Huca,** vol. XL-XLI (1969-1970), pp. 87-94.

46 — Erica Reiner, «Fortune Telling/in/Mescpotamia», **JNES,** vol. 19, (1960) pp. 28 FF.

47 — Hooke, **op. cit.** p. 88.

٤٨ ــ الدكتور وليد الجادر ، نظرات في مباحث ومؤلفات ، سومر مجلد ٢٦ (١٩٧٠) ، ص ٤٠٩

49 — Saggs, **The Greatness... op. cit.** pp. 322-324.

٥٠ ــ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، **الاصول الاولى . . . المار ذكره** ص ٢٣ .

51 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** p. 212.

52 — Sami S. Ahmed, **Characteristics... op. cit.** p. 127.

53 — Melssner, **Babylonien... op. cit.**, II, 275 FF.

54 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** p. 212.

55 — Melssner, **BabYlonien... op. cit.** II, p. 275.

56 — Hooke, **op. cit.** p. 92.

57 — Delaporte, **op. cit.** p. 154.

58 — F. R. Kraus, **Die Physiognimischen Omina der Babylonier** (Leipzig, 1935) p. 63.

59 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** pp. 222-223.

٦٠ - الدكتوور الجامد ، **نظرات ... المار ذكره**،ص ٤٠٨ - ص ٤٠٩

61 — F. W. Goors, A Babylonian Omen Text, **AJSL**, vol. 43, (1927) pp. 22 FF.

62 — Rene Taton Ed. **A General History... op. cit.** pp. 71-72.

63 — Sami S. Ahmed, **Characteristics... op. cit.** p. 127.

64 — R. Campbell Thomson, **The Reports of The Magicians and Astrologers of Nineveh and Babylon in the British Museum** (London, 1900) p. xxiii.

65 — Melssner, **Babylonien... op. cit. II**, pp. 248-249.

66 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** Texts No. 30, 31, 38, 43, 48, 85, 86, 90, 91, 99, 100, 101, 112, 119, 120, 156, 157, 166, 170, 171.

67 — Hooke, **op. cit.** p. 96.

68 — Leroy Waterman, The Royal Correspondance of The Assyrian Empire (Ann Arbor,) vols. 1-4, Letter No. 1373.

69 — **Ibid,** Letter No. 1383.

70 — **Ibid,** Letter No. 1214.

71 — **Ibid,** No. 1435, 405, 1391.

72 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** pp. No. 173 and 176.

73 — **Ibid,** No. 213, 222, 234, 239.

74 — Waterman, **op. cit.** Letters, No. 744, 46, 565.

75 — **Ibid,** No. 657.

76 — **Ibid,** No. 1383.

77 — Meissner, **BabYlonien und... op. cit.** II, pp. 258 FF.

78 — Hooke, **op. cit.** p. 97

79 — R. Campbell Thompson, **The Repport... op. cit.** No. 250

80 — Waterman, **op. cit.** No. 1237.

81 — R. Campbell Thompson, **The Reparts... op. cit.** No. 263, 265, 267.

82 — Waterman, **op. cit.** No. 34.

83 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** No. 276.

84 — Waterman, No. 1140.

85 — **Ibid,** No. 1278.

86 — Morris Jastrow, **Aspects of Religions Belief and Practice in Babylonia and Assyria** (London, 1911) pp. 319 FF.

87 — H. Zimmern, **Die Keilinschriftliche und das Alte Testament** (Leipzig, 1903) pp. 609 FF.

88 — James, **op. cit.** pp. 268-270.

89 — Delaporte, **op. cit.** p. 167.

٩٠ ــ طه باقر ، **ملحمة كلكامش** ، سلسلة الثقافة العامة رقم ٨ (بغداد ١٩٧١) ص ١٢٨ ، ص ٦١ ــ ص ٦٣، ص ٨٥ ، ص ١٠٢ ، ص١٠٤

91 — Raymond de Becker, **The Uuderstanding of Dreams and Their Influence Upon History of Man,** Translated By Michael Heron (New York, 1964) pp. 107-108.

92 — Nels M. Baikey, A Babylonian Philosophy of History,

Osiris, vol. IX (1950), pp. 109 FF.

93 — Francois Thurcan-Dangin, **Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad,** (Paris, 1905) pp. 137 FF.

94 — **Ibid,** p. 27.

٩٥ ــ الدكتور فيصل الوائلي ، من ادب العــراق القديم ، **سومر** ، مجلد ٢٣ (١٩٦٧) ص ٩٦ – ص ٩٩ .

96 — Hooke, **op. cit.** pp. 86-87.

97 — Th. Jacobsen, The Dumuzi Dream, **JNES,** vol. XII (1953), pp. 165-166.

98 — Bendt Alster, Who is Dumuzi's Friend (Ku-Li)?, **Acta Orientalia,** vol. XXXIII, (1971) pp. 335-336.

99 — Steven Langden, A Babylonian Tablet on the Interpretation of Dreams, **Museum Journal,** vol. VIII, (June, 1917) p. 119 FF.

١٠٠ ــ **نفس المصدر** ص ١٢٠ .

١٠١ ــ **نفس المصدر** ص ١٢١ خط ٦٧ .

١٠٢ ــ **نفسه**

103 — A. Leo Oppenheim, **The Interpretations of Dreams in Ancient Near East With a Translation of an Assyrian Dream Book,** (Philadelphia, 1956), p. 262.

104 — **Ibid,** p. 263.

105 — **Ibid,** pp. 264-265.

106 — **Ibid,** p. 266.

107 — **Ibid** p. 267.

108 — **Ibid,** 269.

109 — **Ibid** 270-271

110 — **Ibid,** p. 271

111 — **Ibid.**

112 — **Ibid**, p. 273.

113 — **Ibid**, pp. 276-277

114 — **Ibid**, p. 278.

115 — **Ibid**, p. 279.

116 — **Ibid**, pp. 279-280.

117 — **Ibid**, p. 295.

118 — **Ibid**, p. 300-302.

119 — H. F. Lutz, «An Omen Text Referring to the Action of A Dreamer», **AJSL**, vol. XXXV (1919) p. 145.



مصادر تاريخ الحضارة اليمنية القديمة والإسلامية وبعض الملاحظات حولها

سلطان ناجي
محاضر التاريخ اليمني
كلية التربية العليا ــ عدن

كما نعرف تقسم مصادر اية فترة من الفترات التاريخية الى نوعين ، مصادر اساسية ومصادر ثانوية . فالمصادر الاساسية هي التي يكون عليها الاعتماد بالدرجة الأولى لأنها عادة تكتب اثناء أو بعد وقوع الأحداث التاريخية مباشرة ، وتمثل بطريقة أو بأخرى وجهة نظر صانع الاحداث ذاته. اما المصادر الثانوية فيكتبها عادة من ليس له علاقة مباشرة بالاحداث ، وقد يتم تدوينها بعد مضي وقت لا بأس به من وقوع تلك الحوادث بحيث يمكن أن يشوبها شيء من الغلط في الرد أو التحليل نظرا لبعد الشقة بين وقوع الحدث وزمن تدوينه .

المصادر الثانوية لتاريخ اليمن القديم :

١ ــ هذه المصادر متنوعة ولكنها جميعا تشترك في انها كتبت باقلام غير معاصرة وبعد مضي فترات طويلة عن مسرح الأحداث . فهناك اولا المصادر اليونانية والرومانية التي تعرضت لذكر اخبار اليمن القديمة قبل الفترة المسيحية أو في عصورها الأولى . ومعظم هذه الاخبار عامة وتحتوي غالبا على معلومات جغرافية عن اليمن حصل عليها عادة عن طريق السماع أو قام بتسجيلها بعض اليونان أو الرومان الذين زاروا المنطقة اثناء

وجود الصلات التجارية أو السياسية بينهم وبين اليمن • ومن هذه المؤلفات نذكر ماكتبه (سترابو) الذي قيل أنه صحب غزوة (جالوس الوس) الى اليمن عام ٢٤ قبل الميلاد • أو كتاب « البريبلوس » الذي كتبه رحالة مجهول فيما بين القرنين الأول والثالث وضمنه الكثير من المعلومات الجغرافية القيمة • ومعظم هذه الكتب اليونانية أو الرومانية هي الآن مترجمة باللغات الاوربية الحديثة كالانجليزية ويمكن الرجوع اليها بسهولة في هذه المظان •

٢ ــ اما فيما يتعلق باخبار المسيحية واليهودية في اليمن القديم فهي ايضا توجد في المصادر المسيحية أو اليهودية المعاصرة للفترة خارج اليمن• الا أنه بالنسبة للوثائق السريانية كرسائل المطران (سيمون) ، التي اكتشفت في الستينات بواسطة الاسقف (بهنام) رئيس الارثوذوكس في بغداد قبل وفاته وذلك في (ديرسانت مارك) حول تعذيب نصارى نجران وكانت موضوع ترجمة ودراسة ممتازة نشرها عرفان شهيد في بروكسل بالانجليزية عام ١٩٧١ تحت عنوان (ذي مرتيرس أوف نجران) أو « شهداء نجران» • بالنسبة لهذه الرسائل فقد رفعها دارسها الى منزلة المصادر الاساسية واثبت انها وثائق معاصرة كانت قد كتبت في الأصل باللغة « النجرانية » التي هي اللغة العربية وليست الحميرية • ومن ناحية لغوية بحتة فان هذا الاكتشاف يعتبر اعظم اكتشاف يخص اللغة العربية • وبهذا الصدد يقول عرفان شهيد ما نصه :

« ان هذا يثبت ان العربية ، التي سبق أن برزت كلغة شعرية أدبية منذ القرن الخامس الميلادي ، قد برزت ، على الاقل مئة سنة قبل هجرة محمد الى المدينة ، كلغة مكتوبة بالمعنى الواسع ، وليس فقط بالمعنى المحدود للغة تستخدم للتعبير عن عواطف « النقوش » • ان هذه حقيقة في غاية الأهمية لحل بعض القضايا الكبرى عما إذا كانت هناك رواية عربية للانجيل قبل الاسلام وكوجود ظاهرة تدوين للشعر الجاهلي » •

والحيققة انني بعد ان اطلعت على هـذه الوثائق المعاصرة لتعذيب النصارى في كتاب (شهداء نجران) ذهلت من مدى تطابقها مع ما قص علينا القرآن عن اصحاب الاخدود .

٣ ـ وعندما نأتي إلى الفترة الاسلامية نجد ان كتب التاريخ العامـة التي الفها المؤرخون العرب خاصة في العصور العباسية تتعرض هي ايضا ، ولكن باقتضاب الى اخبار اليمن القديمة وذلك كجزء من الخطة العامـة التي كان اولئك المؤرخون يتبعونها اثناء تأريخهـم للعالم منذ الخليقـة وللشعوب التي سبقت الاسلام كمقدمة ضرورية لكتبهم التي كان الهدف منها أن تؤرخ للامة الاسلامية منذ قيام البعثة النبوية ليس الا . وعلى اية حال فكل مانجده في امثال هذه الكتب من الفترات السابقة للاسـلام يجب أن نأخذه بالحذر الشديد لأسباب كثيرة منها بعد الصلة ولتـداخل الاسطورة بالحقيقة التاريخية خاصة وان رواياتهم اعتمدت علـى السماع قبل اي شيء آخر .

٤ ـ ثم ان هناك بعض الكتب الخاصة التي ألفت في صدر الاسـلام أو في عهوده الاولى حول تاريخ اليمن . ومؤلفو هـذه الكتب هم من اليمنيين كوهب بين منبـه مؤلف (كتاب التيجان في ملوك حمـير) أو الهمداني صاحب كتاب (الاكيل) . وهو عبارة عن تاريخ اليمن القديم في عشرة اجزاء لم توجد حتى الآن منه سوى اربعة اجزاء هي الأول والثاني والثامن والعاشر ـ وقـد حقق الجزء العاشر منـه المرحوم الاب انستاس الكرملي من العراق ـ واخيرا سعيـد بن نشوان الحميري مؤلف (ملوك حمير واقيال اليمن . وعلى العموم فبمقارنتها مع كتب التاريخ العامة فهذه الكتب تعتبر أفضل وبالذات مؤلفات الهمداني منها حيث ان هذا الاخير قد شاهد بعض الآثار اليمنية الباقية في عهده (القرن الرابع الهجري) وقام بوصفها في كتابه هذا . ويظهر ان الهمداني كان يجيد قراءة حـروف المسند ولكنه لم يفقه كل معاني لغتها . وكيفما كان الحال فان جميع هذه

الكتب اليمنية تبقى هي أيضا مصادر ثانوية فقط إذ أنها ألفت بعد مضي عدة قرون من سقوط الحضارة اليمنية القديمة وبعد ان اصبحت اللغة الحميرية نفسها لغة ميتة وحلت اللغة العربية محلها •

المصادر الاساسية لتاريخ اليمن القديم :

٥ ــ تتلخص هذه المصادر الاساسية بالنقوش والآثار اليمنيةالقديمة فالنقوش مكتوبة بخط ولغات اليمن القديمة المندثرة أو بالخط المسند حسب الاصطلاح العربي أو الحميري حسب المفهوم الحديث الشائع • وهذه النقوش تؤرخ للاحداث التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والدينية خلال عهود اليمن القديمة قبل الاسلام • وهي منقورة بالحروف الحميرية على الأحجار الملساء في جدران السدود والهياكل والمباني العامة والخاصة • اما الاثار فهي بقايا تلك الأبنية أو التماثيل والحلي والنقود والرسوم التي وجدها المنقبون • وعن طريق مثل هذه الآثار نستطيع أن نكوّن فكرة عن الحياتين الاجتماعية والثقافية للشعب اليمني القديم•

٦ ــ كجزء من الحركة العلمية في بداية القرن التاسع عشر للبحث عن النقوش القديمة والسامية ، بدأت البعثات العملية تتقاطر على اليمن بحثا وراء نقوش الحضارة اليمنية القديمة • ومن جهود العشرات من الرحالة العلماء والبعثات العلمية خلال القرنين الماضيين تجمعت لدينا عشرات الالاف من هذه النقوش وكشف النقاب عن الآلاف من القطع الأثرية الثمينة في مدن اليمن القديمة مثل (صرواح) و (ومأرب) و (تمنع) و (حقة) و (حاز) و (قانا) و (مكيراس) و (شبوة) و (العقلة) و (حريضة) و (ظفار) و (نقب الهجر) و (مسورة) •

٧ ــ وبعد عدة محاولات فكت طلاسم الابجدية الحميرية في منتصف القرن التاسع عشر من قبل العلماء الألمان بالذات • واصبح في الامكان بعد ذلك التاريخ القيام بترجمة النقوش اليمنية الى اللغات الحية الحديثة

كالانجليزية والالمانية والفرنسية • وفي البداية صادفت العلماء صعوبات في ترجمة بعض الالفاظ والمعاني الحميرية • ولكن بعد محاولات جادةدؤوبة من قبلهم ومع التقدم في الزمن وزيادة المران في ترجمات النصوص الجديدة ، بدأ الخلاف تدريجيا يقل بين العلماء في ترجماتهم وتفسيراتهم لتلك الالفاظ والمعاني الحميرية • ولا شك ان هذه الاختلافات ستنمحي في المستقبل بعد أن يتم وضع قاموس شامل متفق عليه للغة الحميرية وعندئذ سيكون هو المرجع الأخير في هذا الشأن • ومما يثلج الصدر أن نعرف ان مؤرخا عربيا هو الدكتور محمود الغول استاذ الساميات بالجامعة الامريكية في بيروت والاخصائي بلغة اليمن القديمة ينوي نفسه وضع مثل هذا القاموس الذي لا شك ان يكون المرجع الأخير في هذا الشأن •

٨ ـ وفيما يلي موجز لأهم الرحلات أو البعثات الأثرية التي جاءت تبحث عن الآثار والنقوش اليمنية منذ منتصف القرن التاسع عشر مع تبيان للمناطق التي زارتها والنتائج التي حصلت عليها والعلماء الذين ترجموا نصوصها للرجوع اليها كمصدر أساسي أول في تاريخ اليمن القديم :ـ

أ ـ توماس ارنو : فرنسي • كان أول من زار (مأرب) عام ١٨٤٣ وبلغت النقوش التي استنسخها منها ومن (صرواح) (٥٦) نقشا • ترجم هذه النقوش الى الفرنسية العالم فرينسل •

ب ـ جوزيف هاليفي : وهو فرنسي ايضا • جاء الى اليمن عام١٨٦٩ موفدا من قبل اكاديمية النقوش والفنون الجميلة في باريس • وقد استطاع ان ينسخ من (مأرب) و (الجوف) و (نجران) حوالي (٦٧٦) نقشا حميريا • وبعد ان عاد الى بلاده قام باجراء دراسات حولها • كما ان علماء آخرين قاموا من بعده بترجمة الكثير من نصوصها •

ج ـ ادورد جلازر : وهو نمساوي وقد قام بين عامي١٨٨٢ ـ ١٨٩٢ بأربع زيارات الى اليمن موفدا ايضا من قبل بعض الهيئات العلمية • وقد

استطاع ان ينسخ حوالي (٢٠٠٠) نقش من مناطق (همدان) و (الجوف) و (ظفار) و (مأرب) و (تمنع) • قام هو بترجمة بعض منها واشترك علماء آخرون فيما بعد بترجمة بعض آخر منها وخاصة العلامة النمساوي (رودوكاناكيس) الذي ركز على النقوش القتبانية منها • ويعتبر بحق من طليعة علماء اليمنيات •

د ـ بعثة راتجنز وفيسمان : من المانيا • وقد قامت بأول حفر للاثار في المناطق المجاورة لصنعاء عام ١٩٣١ • نشرت ابحاث البعثة الجغرافية والاثرية في مؤلف بالالمانية عام ١٩٣٤ •

هـ ـ بعثة الجامعة المصرية : عام ١٩٣٦ • وقد قامت ببعض الحفائر الأثرية في (ناعط) و (مشهد) • قام عضو البعثة الدكتور خليل نامي بترجمة النقوش التي تجمعت من منطقة (همدان) الى اللغة العربية •وقد بقي الدكتور نامي طيلة فترة عمله كاستاذ لليمنية في جامعة القاهرة يترجم عشرات النقوش اليمنية في مجلة كلية الاداب • ولهذا فهو ابرز مؤرخ عربي عمل في ترجمة النقوش اليمنية الى العربية •

و ـ جون فيلبي : وقد قام برحلتين ، الأولى عام ١٩٣٧ والثانية عام ١٩٥١ وزار فيهما (نجران) و (شبوة) و (العقلة) • واستطاع أن ينسخ آلاف من النقوش من هذه المناطق • وقد قام الاستاذ بيستون من اكسفورد بترجمة بعض من نقوش الرحلة الأولى ، كما قام العلامة الهولندي ريكمنز بترجمة بعض نقوش الرحلة الثانية •

ز ـ بعثة الدكتورة كاتن ـ تومبسون : قامت عام ١٩٣٧ بعمل حفائر اثرية في مدينة (حريضة) في حضرموت ، اكتشفت معبد القمر (سن) هناك وقنوات للمياه ووسائل للري قديمة • نشرت الدكتورة تومبسون نتائج تنقيب البعثة في كتاب بالانجليزية عام ١٩٤٤ •

ح ـ محمد توفيق : هو عالم حشرات مصري زار (الجوف) بين

عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ • وقد استطاع ان يجمع حوالي (١٦٠) نقشا من (خربة معين) و (خربة براقش) ، هذا بالاضافة الى تصوير كثير من الاثار والزخارف اليمنية التي رآها هناك • قام بترجمة هذه النقوش الى العربية الدكتور خليل ناجي ونشر الكتاب المعهد الفرنسي للاثار بالقاهرة عام ١٩٥١ •

ط ـ أحمد فخري : وهو عالم اثار مصري جاء الى اليمن عام ١٩٤٧ وزار كلا من (صرواح) و (مأرب) واستطاع أن يعثر على نحو (١٢٠) نقشا جديدا من هناك • وقد قام بترجمة النصوص العلامة الهولندي ريكمنز •

ي ـ بعثة مؤسسة دراسة الانسان : بلغ مجموع حملاتها التنقيبية بين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ اربع حملات • كانت الأولى والثانية إلى (تمنع) عاصمة (قتبان) • والثالثة الى (مأرب) والرابعة الى (ظفار) في (عمان)• ففي (تمنع) كشفت البعثة عن كثير من الفخار والتماثيل وبقايا المعابد والقصور والحلي • اما النقوش والمخربشات التي جمعتها البعثة فقد بلغت حوالي (٥٠٠٠) نقش حوالي (١٠٠٠) منها من جنوب منطقة (مكيراس)• وفي (مأرب) عثرت على مئات من النقوش والآثار البرنزية والرخامية ، وكشفت ايضا عن معبد الاله القمر (المقه) وعن سد مأرب • وفي (ظفار) اكتشفت تماثيل برونزية وآثار معابد ونقوش • وقد نشرت الاثار العلمية والدراسات التاريخية لهذه البعثة في كثير من المجلات العلمية المتخصصة ولكن اهمها اربعة مجلدات ضخمة بالانكليزية اصدرتها حتى الآن جامعة هوبكنز بما في ذلك مجلد خصص لترجمة النقوش السبائية قام بها العلامة البلجيكي جام • ولا تزال هذه البعثة تعتبر اهم البعثات الاثرية التيزارت اليمن •

ك ـ لانكستر هاردنج : أوفد من بريطانيا عام ١٩٥٩ لاجراء مسح عن الآثار والمواقع الاثرية في جنوب اليمن (عدن والمحميات وقتذاك) •

وقد بلغ عدد المواقع الأثرية التي فحصها ووصفها (٣٩) موقعا اثريا • ومن هذه المواقع (حصن الغراب) و (مشغا) و (ريبون) و (تمنع) و(صبر)• كذلك قام بتسجيل وفهرسة مجموعة (منشرجي) في متحف عدن •وهذه المجموعة تعتبر أهم مقتنيات المتحف في عدن • وقد تم تجميعها ، على مدى فترة طويلة من الزمن ، من الاعراب الذين كانوا يأتون بها الى المدينة من المناطق الريفية • وهي تشمل تماثيل ومجوهرات ونقوش واختام • ومعظمها جاء من المنطقة شمال (مكيراس) من (مسورة) و (هجرالناب) في أرض دولة (أوسان) القديمة • والوصف للمواقع الاثرية التي قام بمسحها هذا العالم الاثري • موجود في كتابه الذي اصدره بالانجليزية عام ١٩٦٤ •

ل ــ بعثة فان بييك : في عام ١٩٦١ ترأس هذا العالم بعثة أثرية أوفدها معهد اسميثسونيان الى وادي (حضرموت) لاجراء مسح أثري للمنطقة هناك • واهم ما وجدته البعثة ادوات وأسلحة قديمة من الفلنت (الصوان) تعود الى قبل حوالي (١٥٠٠٠) • كذلك قام أحد اعضاء البعثة هو الدكتور جام بنسخ حوالي (٩٧) نقشا من (العقلة) قرب (شبوة) • وقد نشر فيما بعد بحثا قيما وترجمة لها بالانجليزية أسماه « نصوص العقلة » •

م ــ بريان دو : كان مديرا لادارة الاثار في عدن في الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧ حتى مجيء الاستقلال • وقد قام خلال هذه الفترة باجراء مسوحات أثرية لكثير من المواقع والاثار في عدن والارياف منها (دار العرائس) و (كودام سيلة) في المحافظة الثانية • و (امعادية) و (وادي شرجان) و (وادياحور) فيالمحافظة الثالثة • و (وادي ميفعة) و (قانا)و(جردان) و (وادي مرخة) و (حيد بن عقيل) في المحافظة الرابعة • (شبوة) و (العقلة) و (حريضة) و (حصن الغراب) في المحافظة الخامسة • وقد

خصص القسم الأكبر من كتابه الصادر بالانجليزية عام ١٩٧١ لوصف هذه المواقع الاثرية .

ن ــ بعثة الدكتور موللر : وقد ترأس الدكتور موللر استاذ الساميات باحدى جامعات المانيا الغربية بعثة مكونة من عدة علماء في الاثار واللهجات وزار المناطق الشمالية من اليمن عام ١٩٧٠ . وقد عاد مرة ثانية الى صنعاء في آخر هذا العام (١٩٧٤) . ونحن لانزال في انتظار ظهور النتائج العلمية لهذه البعثــة .

س ــ سيرجي شيرنسكي : وهو السكرتير العلمي للعلاقات الدوليــة بمعهد علم الاثار التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وقد قضى الفترة ما بين مارس ــ مايو ١٩٧٢ للتعرف على مجموعات الآثار في متحفي (عدن) و (المكلا) . وكذلك في المعاينة المباشرة للاثار في سائر محافظات الجمهورية . وقد نشر تقريره في اربع حلقات بعنوان (اليمن : مركز هام من مراكز الحضارة الانسانية) وذلك في مجلة (الثقافة الجديدة) العدنية، اعداد اغسطس ــ نوفمبر ١٩٧٤ . وبالاضافة الى ان الباحث قد استطاع أن يتحقق من وجود معبد فريد فوق (حصن الغراب) على أرض احدا قدم موانيء اليمن وهو (قانا) الذي يعود الى القرن الأول قبل الميلاد ، فان اهم الاستنتاجات التي جاء بها المؤلف هي كما يقول بالنص : ص ٥٤ عدد نوفمبر ٧٤ .

« اثبتت اعمال التحقيق ان هناك عددا كبيرا من المعالم الاثرية المثيرة جدا في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وهذه المعالم تصور تطــور الحضارة في هذه المنطقة خلال نصف مليون سنة على الأقل . والمعــالم المذكورة تلعب دورا هاما لا من أجل اعادة تكون الصورة الموضوعيــة للتاريخ القديم لسكان (اليمن) فحسب بل ان لها معنى خاصا من حيث حل بعض القضايا النظرية العامة لعلوم التاريخ الحديث وتاريخ تطــور الحضارة العالمية ككل . »

٤ ــ بعثة جامعة باريس ١٩٧٤ ــ ١٩٨٤ : وستركز هــذه البعثة أعمالها في مدينة (شبوة) عاصمة حضرموت القديمة • ولأن شبوة تقــع في قلب الصحراء فسيتم البحث خلال الثلاثة شهور الاولى الباردة من كل سنة لمدة عشر سنوات • والشخصية العلمية الديناميكيةوراءهذا المشروع هي الدكتورة (جاكلين بيرين) المتخصصة بالاثار اليمنية • فبالاضافة الى الدراساتالاكاديمية التينشرتها حول الحضارة اليمنية فقد قامتبدراسات ميدانية في (مسورة) أو (هجر الناب) واثبتت انها كانت عاصمة دولــة (أوسان) • اما مشروع (شبوة) الحالي فهو من اجل المحاولة لأن تثبت افتراضا علميا أوليا جاءت به وهو ان ما عرف (بالمحافد) الذي ترجمه العلماء بالحصو نــ ليس الا اماكن لتقطير مياه الندى في الصحراء • فهي تعتقد ان ما تقوم به اسرائيل الآن من مشاريع التقطير في صحراء (النقب) مبني في الاساس على هــذا الاكتشاف اليمني القــديم • واذا ما اثبتت التحقيقات نظريتها هذه فستكون ممــا لا شك فيه من أهــم الاكتشافات العبقرية اليمنيين القدماء • في هذا المضمار بالاضافة الى عبقريتهم في بناء المدرجات الزراعية وأقامة السدود وهندسة وسائل الراي •

٩ ــ والمصدر الاساسي الثاني الذي يجب أن نرجع اليه في بحثنــا عن تاريخ الحضارة اليمنية القديمة بجانب ترجمات النصوص الحميرية هذه هي الأبحاث والكتب الخاصة أو العامة التي كتبت حولها • فهذه الابحاث والكتب هي في الحقيقة مصادر أساسية لأنها اعتمــدت في مرتكزاتهــا وتحليلاتها واستنتاجاتها على النصوص الحميرية المترجمة وهي التي تكوّن المادة عند الباحث أو المؤرخ •

١٠ ــ وهذه الابحاث والكتب تبلغ المئات وقد كتبها علماء مختصون في مختلف فروع الدراسات اليمنية القديمــة من تأريخية واثرية وفنيــة وحضارية ولغوية • وهي منشورة في كثير من المجلات العلمية الأثرية أو السامية أو على شكل كتيبات أو كتب • ومن أهم هذه الدراسات فياللغة

الانجليزية ابحاث ومؤلفات الاساتذة (البريت) و (بييك) و (بيستون) و (براون) و (كاتن تومبسون) و (كليفلانـد) و (محمود الغـول) و (أرفين) و (جام) و (فلبي) و (ولكر) و (بنت) •اما في اللغة اليمنية فتلك التي (الجلازر) و (جر وهمان) و (هوفنر) و (راتجنز) و(فيسمان) و (رودوكاناكيس) و (هومل) و (موورثمان) • وفي اللغة الفرنسية مؤلفات (بيرين) و (ريكمنز) •

١١ ــ اما الابحاث التي يمكننا الرجوع اليها في اللغة العربية لمعرفة شيء عن الحضارة اليمنية أو التاريخ اليمني فهي لا تتجاوز اصابع اليـد الواحدة • فبالاضافة إلى ترجمات الاستاذ خليل يحي نامي لبضع مئات من النصوص الحميرية الى اللغة العربية ، هناك أولا كتاب (لتاريخ العربي القديم) الذي ظهر في الالمانية عام ١٩٢٧حول تاريخ اليمن القديم وحضارته لمؤلفيه (نيلسن) و (هومل) و (رودو كاناكيس) • وقد قام بترجمته إلى العربية عام ١٩٥٨ الاستاذ فؤاد حسنين استاذ الساميات في جامعـة القاهرة وقتذاك • ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب الاستكمالات والاضافات التي اضافها المترجـم الى الكتاب • الا ان البروفيسور (بيستون) فـد اثبت مؤخرا ، في بحث نشـره في « جورنال أوف ايكونميك أند سوشيل هستري أوف ذي اوريان » مجلـد ١٥(١٩٧٢) ، بأن كـلا من (هومل) و (رودوكاناكيس) قد وقعا في خطأ فاحش عند ترجمتهما للفظتين اليمنيتين (شعب) و (مكرب) بمعنى (قبيلة) و (الحاكم الديني) • على التوالي• فقد اصبح هذان المفهومان المحور للكتاب ومن هناك تنوقل هـذا الرأي الخاطىء في المؤلفات الأخرى وبذلك اصبح مفهوم نظام الحكم في اليمن القديمة عند العلماء غير ما كان هو في واقع الحال • فقد اثبت البروفيسور (بيستون) في دراسته هذه عن « طبيعة النظام الملكي في الحضارة اليمنية القديمة » (كينج شب إن انشينت ساوت اريبيا) أن لفظة (شعب) اليمنية ليست هي (القبيلة) وانما هي عبارة عن مجموع اثنين أو اكثر من المجتمعات

القروية الزراعية • كما ان كلا من لفظتي (ملك) و (مكرب) هما لقبان لشيء واحد • وقد أتى بنصوص يثبت فيها حالات يكون فيه (الملك) هو نفس (المكرب) • وفي الأخير يثبت البروفيسور (بيستون) خطل مفهوم (رودوكاناكيس) عن شكل الدولـة في اليمن القديمة وذلك بسبب انـه ـ اقصد رود وكاناكيس ـ اتخـذ النظام البيروقراطي الشديد المركزيـة لمصر الرومانية نموذجا له • فقدسية الملك كانت غريبة عن الحضارة اليمنية القديمة • « فقد كانت السلطة التشريعية العليا في اليمن بيد هيئة تشريعية كان الملك احد اعضائها فقط • لقد كانت وظيفة الملك في الحضارةاليمنية القديمة تتلخص بأخذ المبادرة لاقامة ثم رعاية الاعمال العامة الكبرى وكانت من مسئوليته ايضا التأكد من ان قوانين المجلس التشريعي قد نفذت ثـم معاقبة كل من يخرق مثل تلك المراسيم والقوانين • وفي محيط التجـارة كان الملك يعمل سوية مع شيـخ السوق من أجل ضمان تنفيذ الأنظمـة والقوانين التي سنتها الهيئتين التشريعية وتأديب المخالفين لها • وباختصار فا نالملك على الأقل في المرحلة الأولى من التاريخ اليمني القديم كـان عبارة عن كبير المنفدين للشعب ولم يكن حاكما مطلقا » •

١٢ ـ الا ان اهم الكتب الشاملة هو كتاب الدكتور جواد علي عـن (تاريخ العرب قبل الاسلام) الذي صدر في طبعته الأولى في الخمسينات في ٨ أجزاء • فقد اراده الأستاذ الفاضل أن يكون بمثابة الموسوعة فـي الجاهلية والجاهليين تتناول كل نواحي الحياة عندهم من سياسية واجتماعية ودينية وعلمية وأدبية وفنية • وقد اعتمد المؤلف على كل من الاخبار بيـن العرب والابحاث والدراسات الاكاديمية الأجنبية في تأليف هذا الكتاب• وهذا الاعتماد واضح من اسماء الكتب والمؤلفات التي رجع اليها والتـي عادة تظهر في حواشي كل صفحة من صفحات الأجزاء الثمانية من الكتاب• وفي اواخر الستينات وبعد ان تكشف للمؤلف مواد اجنبية جديـدة في تاريخ العرب قبل الاسلام وبالذات فيما يخص التاريخ اليمني منه نظـرا

للاكتشافات الاثرية ولبعض التفسيرات الجديدة للنقوش اليمنية ، فقد بدأ المؤلف بعد ١٩٦٨ يعيد اخراج الكتاب بشكل جديد تماما تحت اسم (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) بحيث أصبح مختلفا عن السابق من حيث الحجم والانشاء والتبويب والترتيب والاحكام المتضمنة فيه • وعلى كل حال فالكتاب يبقى صالحا كمرجع لتفصيلاته الكثيرة في أية قضية ترد حيث يقوم المؤلف بتلخيص لآراء العلماء الأجانب المختلفين حول اي من تلك القضايا • الا ان الحاجة تبقى قائمة دائما لمواكبة ما استجد من الاكتشافات والتفسيرات الجديدة حول تاريخ اليمن وحضارته القديمة • وقد رأينا في الفقرة (١١) أعلاه ماذا طرأ مثلا بالنسبة لمفهوم نظام الحكم أو شكل الدولة اليمنية القديمة في غضون السنتين الماضيتين وهو المفهوم الجديد الذي فاتت حتى الطبعة الجديدة من هذه الموسوعة أن تستوعبه •

١٣ ــ وعن العلاقات بين اليمن القديمة والحبشة فهناك كتاب الأستاذ عبد المجيد عابدين (بين الحبشة والعرب) • الا انه عندما تتم ترجمة أو تلخيص كتاب عرفان شهيد ــ المذكور في (٢) أعلاه ــ(شهداء نجران ــ وثائق جديدة) ، عندما يتم أي من ذلكما الى القارىء العربي الذيلا يجيد الانجليزية ، فان كتاب عابدين لن يبقى ذا اهمية في موضوعه بعد ذلك • هذا وقد صدر في العام الماضي (١٩٧٣) كتابان لمؤلفين يمنيين الأول باسم (في تاريخ اليمن) لمطهر الإرياني والثاني باسم (تاريخ اليمن القديم) لمحمد عبد القادر بافقية • والاول عبارة عن ترجمة لمجموعة من النقوش اليمنية بينما الثاني هو محاولة لتعريف القارىء العربي واليمني بالذات بالهيكل العام للتاريخ اليمني اقديم المستمد أساسا من المراجعلاجنبية• وبالنسبة لطريقة الهوامش التي اتبعها المؤلف الثاني (كما فعل من قبله المستر دو) فقد كان من الأفضل ان لا تأتي بمثل ذلك التعقيد حيث اصبحت كلها ارقاما في ارقام للمؤلف والكتاب والصفحة معا لا تساعد الا في ارهاب القارىء العام الذي من اجله كتب الكتابان •

بعض الملاحظات العامة حول المصادر الاساسية لتاريخ اليمن القديم :

١٤ ـ بالمقارنة مع فترتي تاريخ اليمن في العصرين الاسلامي والحديث ، فان الصعوبات التي تقابل المؤرخ أو الباحث في فترة تاريخ اليمن القديم اكثر منها من الفترتين الاخريين والسبب في ذلك يعود الى نوعيته وطبيعة مصادر الفترة القديمة حيث انها كما رأينا ذات طبيعة خاصة وتعتمد اساسا على النقوش الحميرية ٠

١٥ ـ حتى الآن لم تكتشف جميع النقوش الحميرية ٠ فكثير من مصادر الفترة لا تزال مفقودة وبذلك فالحقائق التاريخية التي نعرفها عن تلك العهود لا يمكن ان تكون كافية ٠

١٦ ـ ثم ان هناك صعوبة اخرى وهي ان جميع النقوش التي اكتشفت حتى الآن لم تترجم كل نصوصها بحيث يستفيد المؤرخ من مادتها ٠ ان كثيرا منها لا تزال مغلقة تنظر بشوق ولوعة من يدرسها ويشرحها وينشرها للملأ ٠ وهذه النقوش غير المشروحة موجودة نصوصها في المدونات العلمية المعروفة ٠ وكل واحدة منها لها رقم تعرف به عند العلماء ٠ فالعادة أن توسم النقوش باسماء مكتشفيها أو جامعيها ٠ فمثلا الـ (١٥٨) نقشا التي استنسخها محمد توفيق من منطقة الجوف (شرق اليمن) اصبحت تعرف باسمه فيقال نقش رقم : توفيق ١ ، ٢ وهكذا حتى نصل الى رقم : توفيق ١٥٨ ٠

١٧ ـ ثم ان تلك النقوش التي شرحت وعرّبت قد اختلف العلماء في بعض نصوصها والفاظها ٠ وهذه الاختلافات في الشروح عائدة بطبيعة الى افتقارنا الى وجود قاموس كامل شامل لمعاني الفاظ هذه اللغات اليمنية ٠ واذا وجدت مثل هذه الاختلافات في الالفاظ والمعاني والتفسيرات فان ذلك سينعكس بلا شك على فهمنا للحقائق التاريخية عن الفترة ذاتها ٠ وقد رأينا كيف ادى خطأ تفسير لفظتي (شعب) و (مكرب) اليمنيتين الى قلب مفهوم نظام الحكم ٠

١٨ ــ كذلك فالنقوش التاريخية الموجودة منها قليلة . واطول نقش تاريخي وجد هو نقش (صرواح) أو نقش النصر . وهو يحتوي على حوالي (٢٠٠٠) كلمة (يوجد نص النقش بالانجليزية في كتاب الدكتور فخري عن رحلته الاثرية الى مأرب المنشور بالقاهرة ١٩٥١ وقد لخصه الى العربية محمد عبد القادر بافقية في كتابه الصادر العام الماضي بعنوان: تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٦٥ ــ ٧٦) . وهذا النقش يتعلق باخبار سبأ وبحروب أحد ملوكها (كرب ايل وتر) . وان وجدت مثل هذه النقوش التاريخية فهي عادة قصيرة وموجزة وتتضمن الكثير من اسماء الملوك والقبائل . ان معظم النقوش التي وجدت تتعرض لاشياء شخصية تتعلق بتقديم الهبات أو النذور للمعابد أو الآلهة عرفانا بالجميل لشفاء من مرض أو لعودة سالمة من سفر أو لمنح ذرية أو لزيادة في الغلال أو لهطول في الأمطار أو لانتصار على الأعداء . كذلك فهناك عدد لا بأس بها من النقوش الخاصة باصلاح السدود ووسائل الري وشئون الزراعة . وكثير من المصطلحات الزراعية القديمة لا تزال تستخدم في اليمن الى يومنا هذا . وفي الناحية الاقتصادية فقد وجدت نقوش طويلة تنظم الضرائب وشئون التجارة واعمال البيع والشراء . وكذا في النواحي التشريعية والقانونية لتنظيم شئون المجتمع .

١٩ ــ واخيرا فالذي يزيد من صعوبة معرفتنا معرفة صحيحة بالاخبار التاريخية وترتيبها ترتيبا زمنيا هو تجاهل تلك النقوش لذكر التواريخ التي كتبت فيها ، وان ذكرت عليها بعض تلك التواريخ فتكون باسماء اشخاص كانوا يعيشون آنذاك وهم قد يكونون مهمين ومعروفين في ايامهم ولكننا لا نستطيع الآن تحديد عصرهم . وكنتيجة حتمية لهذا القصور في التواريخ فانه يصعب تحديد بدايات الدول اليمنية القديمة ونهاياتها وكذلك ترتيب سني ملوكها ترتيبا زمنيا .

مصادر اليمن الاسلامية وبعض الملاحظات العامة حولها :

٢٠ ـ مصادر تاريخ اليمن الاسلامية ذات طبيعة خاصة وتختلف عن مصادر اليمن القديمة • وهي عبارة عن مئات من المؤلفات كتبها مؤرخون يمنيون عاصروا الاحداث خلال العصور الوسيطة • والجزء الأكبر من هذه المؤلفات لا يزال مخطوطا وموجودا في ماكتبات لجامع الكبير بصنعاء ، او المكتبات العامة في الخارج مثل : الامبر وزيانا والفاتيكان والمتحف البريطاني وليدن ودار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات بالجامعة العربية واستابتول أو في المكتبات الخاصة في بعض المدن اليمنية الأخرى كتريم وسيئون وزبيد وحجة وصنعاء وتعز وذمار • والمنشور من هذه المخطوطات لايزال قليلا ، وللعلماء الأجانب فضل الزيادة في تحقيق ونشر وترجمة اولى المخطوطات اليمنية التاريخية في مطلع هذا القرن ، بل وفي المحافظة على آلاف من المخطوطات اليمنية الأخرى في أنواع المعارف الأخرى وذلك في المكتبات العامة في الخارج حيث يستطيع الرجوع اليها كل دارس أو يطلب نسخا مصورة منها من اراد ذلك •

٢١ ـ وانواع هذه المخطوطات التاريخية مختلفة من حيث الشكل والمضمون • فمن حيث محتوياتها فهناك أولا المؤلفات العامة التي تؤرخ لجميع الدول اليمنية التي تداولت حكم اليمن الاسلامية حتى زمن المؤلف عادة • من هذه الكتب (تاريخ اليمن) لعمارة ، و (بهجة الزمن) لعبد الباقي ، و (غاية الاماني في اخبار القطر اليماني) ليحي بن الحسين • والنوع الثاني من هذه المصادر اكثر تفصيلا وخاص بدول معينة ككتاب الخزرجي (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) ، أو مؤلف المحلي (الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية) ، أو (كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة) للحماري ، أو (السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز في اليمن) لابن حاتم ، أو البرق اليماني في الفتح العثماني) للنهرولي • اما النوع الثالث فخاص بالمدن مثل (تاريخ ثغر عدن) لبا

مخرمة ، أو (تاريخ صنعاء) للرازي ، أو (بغية المفيد في اخبار زبيد) لابن الربيع ، أو (بهجة السمر في اخبار بندر سعاد (يعني الشحر) المشتهر لبا سباع • ويختص النوع الرابع بتاريخ لشخصيات حاكمة مثل (الدرة المضيئة في السيرة القاسمية) للجرموزي ، أو (سيرة الامام الهادي يحي ابن الحسين) • اما النوع الخامس فهو كتب التراجم مثل (الجامع الوجيز في وفيات العلماء ذوي التبريز) للجنداري ، أو (مطلع الأقمار ومجمع الانهار في تراجم علماء ذمار) لحيدرة ، أو (البدر الطالع) للشوكاني ، أو (طبقات فقهاء اليمن) لابن سمرة •

٢٢ ـ ومن حيث الشكل أو الاسلوب في تدوين هذه المؤلفات التاريخية فقد تنوع هو ايضا • فبعض المؤرخين اتبع اسلوب الحوليات في رصد الاحداث سنة بسنة كمؤلفات يحي بن الحسين والخزرجي وبامخرمة (في قلادة النحر) • والبعض الآخر اتبع الاسلوب الاخر في التأريخ للدول والشخصيات كالجندي وعمارة وعبد الباقي عبد المجيد • ولجأ فريق ثالث الى تدوين تاريخ اليمن الاسلامية شعرا ، ومن ذلك قصيدة (البسامة) لابن الوزير و (بلوغ المرام شرح مسك الختام فيمن ملك اليمن من ملك وامام) للعرشين ـ وقد قام بتحقيقها ونشرها المرحوم الاب انستاس الكرملي من العراق عام ١٩٣٩ •

وعلى العموم فالمستوى اللغوي العام لهذه المؤلفات التاريخية اليمنية لا يختلف كثيرا عن المستوى اللغوي للمؤلفات التاريخية في البلدان الاسلامية الاخرى خلال العصور الوسطى • الا ان المستخدم لهذه المصادر اليمنية يجب أن يكون قادرا على فهم مفردات ومعاني بعض نصوصها ذات الطابع المحلي الصرف وكذلك اسماء البقاع والاماكن ومواقعها الجغرافية • وفي بعض الحالات فان رداءة الخط لهذه المخطوطات أو عدم استخدامه للتنقيط يكون عائقا لقراءة النصوص وفهمها • وعلى اية حال فان معظم المخطوطات مجلدة تجليدا انيقا وصفحاتها متينة مصقولة وذات خطوط

جميلة متنوعة بحيث يمكن قراءتها والاستفادة منها بسهولة •

٢٣ ـ من حيث المنهج أو الخط العام لهذه المؤلفات اليمنية ، فهي لم تؤرخ عموما الا للنواحي السياسية أو الحربية ، اما النواحي الاجتماعية والثقافية والحضارية فتكاد ، باستثناء بعض الاشارات المقتضية هنا أو هناك ، ان تكون معدومة • لذا فان الباحث الحديث الذي يركز على تتبع تاريخ تطور الافكار والحركات الاقتصادية لن يستطيع أن يخرج بصورة متكاملة عن الموضوع مدعومة بالنصوص والاسانيد • الا انه بالرجوع الى المؤلفات اليمنية الأخرى في الأدب والشعر ومعاجم الاسماء والاماكن والتقاليد والفقه والشريعة والفتاوي والزراعة ، سيتمكن الباحث من ملافاة بعض النقص في الجوانب الثقافية والاجتماعية من التاريخ اليمني • ومع ذلك فان هذه الطريقة الثانية مضنية للغاية لأن اعداد هذه المؤلفات الأخرى تبلغ الالاف ولا يزال معظمها مخطوطا أو غير مفهرس بحيث يصبح على الباحث قراءة مادة الكتاب كاملا كي يتصيد بعض تلك الاشارات الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية القليلة المبثوثة في بطونها •

٢٤ ـ ثم أن معظم هذه المؤلفات التاريخية هي مؤلفات رسمية أو شبه رسمية لمختلف الدول التي تداولت حكم اليمن خلال العصور الوسيطة • فهي عموما تسجل لوجهة النظر التي يقرها ويرضى بها الحاكم ويجازي عليها • والواقع ان المؤرخين اليمنيين لم يمارسوا الكتابة التاريخية الا في ظل الحكومات المستقلة بعد مطلع القرن الثالث الهجري • اما في الفترة التي كانت البلاد تحت الخلافة الاسلامية فان معلوماتنا عنها مستمدة من الكتب التاريخية العامة التي ألفت حول التاريخ الاسلامي خارج اليمن • والمادة المتعلقة باليمن شحيحة ولا تتعدى في غالب الاحيان اسماء الولاة الذين كان الخلفاء يندبونهم اليها • ولما بدأت الدول اليمنية المختلفة تظهر وتتصارع على الساحة اليمنية ، بدأ المؤرخون يظهرون لتسجيل نشاطات الدول خاصة في الميادين الحربية • والمطلع على تاريخ هذه الدول خلال

السبع مئة عام تقريبا بين القرن التاسع والقرن السادس عشر سيجد انه لم تخل سنة من هذه السنوات من المعارك والحروب • فقد وجد مؤرخ أو مؤرخون لكل دولة من هذه الدول تقريبا ، فللدول السنية مؤرخوها وللدول الشيعيةمؤرخوها • وبعض الكتب عامة تؤرخ لجميع الدول ولكنها في الأخير تركز على احداث الدولة التي يعيش المؤرخ في ظلها أو توافق هواه • بل اننا نجد ان بعض المؤرخين من أفراد الأسر الحاكمة ذاتها أو انهم اصحاب الامر فيها كمؤرخي الدولة الزيدية والدولة النجاحية والدولة الرسولية • وكيفما كان الأمر فان التواريخ اليمنية عموما تبقى معتدلة وغير متحيزة تحيزا كاملا عند التاريخ للدول الأخرى • فاذا اخذنا مثلا أحسن واشمل التواريخ العامة التي تؤرخ لمختلف دول اليمن من عهد الرسول حتى طرد الاتراك في بداية العصور الحديثة في القرن السابع عشر، سنجد أن مؤلفه يحي بن الحسين ، بالرغم من أنه زيدي المذهب ومن افراد الأسرة الحاكمة ، فقد كان موضوعيا في اكثر ما كتبه عن الدول السنية التي عاصرت الدولة الزيدية • ونفس هذا الحكم يمكن أن يقال عن كتاب عمارة المؤرخ السني ، الذي ارخ فيما أرخ ، للدول الفاطمية وآل نجاح من الاحباش •

٢٥ ــ بجانب هذه المخطوطات التاريخية اليمنية التي تعتبر المصدر الأساسي الأول لتاريخ اليمن الاسلامية ، هناك مصدر أساسي ثاني هو الدراسات الجامعية الاكاديمية التي قام بها بعض الباحثين العرب والاجانب من أجل الحصول على شهادتي الماجستير أو الدكتوراة في احدى فترات تاريخ اليمن الاسلامية • وقد بدأت هذه الدراسات في الجامعات الأجنبية عن طريق تحقيق ونشر وترجمة بعض المخطوطات الى اللغات الأجنبية كما فعل العلامة الانجليزي كاي بالنسبة (لتاريخ عمارة) عام ١٨٩٢ ، والاستاذ براون بالنسبة لكتاب الخزرجي (العقود اللؤلؤية) والدكتور ماضي بالنسبة لقسم من تاريخ (انباء الزمن في أخبار اليمن) ليحي بن الحسين، والدكتور شومان بالنسبة لقسم من مخطوطة (قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر)

لبا مخرمة عن فترة من حكم الدولة الطاهرية • ومحمد صالحية بالنسبة لمخطوطة (الفضل المزيد على نعمة المستفيد في أخبار مدينة زبيد ــ جامعة عين شمس ١٩٧٠) • وآخر هذه المخطوطات عند الفترة اليمنية الاسلامية التي تحقق وتترجم هي مخطوطة الملك الرسولي العباس بن علي ابن داود الغساني المتوفي ٧٧٨ هجرية بعنوان (بغية الفلاحين) • ويقوم بتحقيقها حاليا (١٩٧٤) البروفيسور سارجنت من جامعة كمبردج •والنوع الآخر من الدراسات الاكاديمية الجامعية عن تاريخ اليمن الاسلامية التي قام بها بعض الباحثين العرب والاجانب من أجل الحصول على شهادتي الماجستير والدكتوراة تركز حول تاريخ دولة واحدة يمنية او فترة من فترات كما فعل الدكتوران فان ارن دونك وتريتون بالنسبة لـ (ظهور الامامة الزيدية في اليمن) أو (أئمة صنعاء) على التوالي • أو (تاريخ الدولة اليعفرية)لجايدز أو (الصليحيون في اليمن) لحسن سليمان محمود ــ وقد ساعد المجمع العراقي الدكتور محمود في نشر كتاب اكاديمي عام يغطي كل الفترة بعنوان (تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي ، ١٩٦٩) ــ أو (الحياة السياسية في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين) لصابر دياب ، أو (الايوبيون في اليمن) لمحمد عبدالعال• ويقوم أحد الطلبة العراقيين الآن (١٩٧٤) بالاعداد لشهادة جامعية عليا من جامعة بغداد في موضوع القبائل اليمنية المهاجرة الى مصر في صدر الاسلام •

ان كل هذه الدراسات الاكاديمية وامثالها تكون اذن المصدر الاساسي الثاني لتاريخ اليمن الاسلامي ، وعلى الباحث في تاريخ اليمن ان يرجع اليها • الا ان معظمها لا تزال مخطوطة ومحفوظة في مكتبات الجامعات التي أجريت الدراسة فيها • وبما ان العدد الأكبر من هذه الدراسات باللغات الاجنبية فان معرفة اللغة الأجنبية ضروري لمن يريد ان يستفيد منها•

سلطان ناجي

سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس

للدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة الاسكندرية

استئصال شافة بني أمية في المشرق :

لم تضع معركة الزاب حدا لمقاومة الأمويين ، فقد أعلن أنصارالأمويين الثورة على العباسيين في حمص وقنسرين والجزيرة وحوران ، واتخذ الثوار الأعلام البيض شعارا لهم ، ولكن ابا العباس السفاح تمكن من اخماد هذه الثورات بالقوة حينا وبالتسوية السلمية [1] حينا آخر ،واضطر أبو العباس الى تسيير أخيه أبي جعفر المنصور لمساعدة الحسن بن قحطبة في حصاره لابن هبيرة في واسط ، فاستمر العباسيون يحاصرون هذه المدينة نحوا من ١١ شهراً لاقوا خلالها مقاومة عنيفة من ابن هبيرةوقواته، وحاول العباسيون حرق واسط عن طريق سفن ملأوها حطبا وأضرموا فيها النار ثم وجهوها الى المدينة لتحرق ما يقابلها ، ولكن ابن هبيرة كان يبادر بسحب هذه السفن بواسطة حراقات مزودة بكلاليب [2] تجر تلك السفن ، وعمد أبو العباس الى التفريق بين قوات ابن هبيرة ، وأبت

---

(١) وذلك عن طريق الوعود والاموال .

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، ج ٩ ص ١٤٤ .

اليمنية أن تقاتل لتعين مروان بن محمد ، فقالت : « لانعين مروان وآثاره فينا ظاهرة » ، بينما رفضت النزارية أن تقاتل حتى يقاتل معها اليمنية ،ثم ان أبا العباس أخذ يكاتب اليمانية من اتباع ابن هبيرة ، وأطعمهم بالوعود، فأجابه اليمنية وعلى رأسهم زياد بن صالح الحارثي عامل ابن هبيرة السابق على الكوفة وأقرب أصحابه اليه ، وعلى هذا النحو خذل اليمنية ابن هبيرة، وتخلى عنه النزارية ، ولم يبق معه سوى الصعاليك والفتيان (٣) .

ولم يجد ابن هبيرة بدا من فتح باب التفاوض مع العباسيين خاصة وقد وصلته الانباء بمصرع مروان بن محمد ، فطلب الصلح مع الأمان، فاجيب الى طلبه ، وصدر له كتاب أمان شرط له فيه ما سأل ، وختمه أبو العباس (٤) ، ولكن العباسيين لم يفوا بعهودهم له ، فقد وقع في يد أبي العباس كتب من ابن هبيرة الى محمد بن عبدالله بن حسن يبايع له فيها ويعلن أن لديه أموالا وعدة وسلاحا وأن معه عشرين ألف رجل ، فكتب أبو العباس الى أبي جعفر المنصور يأمره بضرب عنق ابن هبيرة ، كما كتب أبو مسلم الخراساني يحرض المنصور على قتله ، وينصحه بأن يتخلص منه ،لأن أمر العباسيين لا يستقيم مادام ابن هبيرة حيا ، فوجه المنصور لقتله رجلا مضريا يقال له حازم بن خزيمة التميمي ، أتاه في جماعة وهو جالس في رحبة القصر بواسط فقتلوه ، وقتلوا قواده وأصحابه عن آخرهم (٥) . وبذلك تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري ، ولكن بقي عليه أن يتخلص من بقايا البيت الأموي ، ليتحقق له بذلك القضاء على كل نفوذ لهذا البيت بين أنصاره والمتعصبين له ، فلا يفكر هؤلاء الأنصار في البحث عن أمير أموي يستعيد سلطان الأمويين من جهة ، وليشبع انتقامه الشخصي منهم لما فعلوه ببني هاشم عامة من قتل وسجن وتعذيب وتشريد .

---

(٣) نفس المصدر .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادرة بيروت ، ج٢ ص٣٥٣

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .

وتنفيذا لهذا المبدأ تتبع العباسيون بقيادة عبدالله بن علي العباسي مروان بن محمد بالشام حتى فر إلى مصر مارا بالأردن وفلسطين ، وكان عبدالله بن علي قد وجه وهو على نهر ابي فطرس بفلسطين صالح بن علي في طلب مروان بن محمد ، فسار صالح الى الرملة ، ومنها الى ساحل البحر حيث جمع السفن ، « وتجهز يريد مروان وهو بالفرماء ، فسار على الساحل والسفن حذاءه في البحر حتى نزل العريش » ، ولكن مروان فر منها الى الفسطاط ثم عبر النيل وقطع الجسر ، وصالح يتتبعه من موضع لي موضع حتى أحاط به في كنيسة نزل بها في أبي صير ، فقتلوه واحتزوا رأسه ، وبعث بها صالح بن علي الى أبي العباس [6] . ولما وصل رأس مروان الى أبي العباس ـ وكان بالكوفة ـ ورآه ، سجد ، ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك ، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني [7] »

فطلب الثأر من البيت الاموي كان هدفا من أهداف العباسيين من وراء تتبعهم للامويين ، بدليل ما رواه المسعودي اذ يقول عندما تعرض لذكر مصرع مروان بن محمد : « فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه وهجموا على عسكره ، وضربوا بالطبول وكبروا ، ونادوا : يا لثارات ابراهيم » [8] . وذكر أيضا أنه لما أتاه رأس مروان ووضع بين يديه سجد وأطال السجود ثم حمد الله وقال : « ما أبالي متى طرقني الموت ، فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم » [9] .

---

(٦) الطبري ، ج ٩ ص ١٣٦ ـ ابن الأثير ، طبعة صادر ، ج ٥ ص٤٢٧

(٧) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٨) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة محي‌الدين عبد الحميد ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٥٧ .

ومثل آخر نسوقه للاستدلال على هدف آخر من أهـداف العباسيين سالفةالذكر وأعني به الرغبةفي القضاء على بني أميةقضاء مبرما واستئصال شأنتهم حتى يفقد أنصارهم كل أمل في إحياء دولتهم ، فقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد استأمن الى أبي العباس ، « فقدم معه بابنين له، فأكرمه أبو العباس وبره وأجلسه وابنيه على النمارق والكراسي . فكان أبو العباس يجلس بالعشيات ، ويأذن لخواصه وأهل بيته ، فدخل عليـه أبو الجهم ليلة وقد أذن لأهله وخواصه ، فقال له : « ان أعرابيا أقبـل يوضع على ناقة ، حتى أناخها بالباب وعقلها ، ثم جاءني وقال : استأذن لي علي أمير المؤمنين » فقلت له : اذهب وضع عنك ثياب سفرك . وعد علي ، سأستأذن عليه . فقال : اني آليت ألا أضع عني ثوبا ولا أحـل لثاما حتى أنظر الى وجهه . قال (أبو العباس) : فهل أنبأك من هو ؟ قال: نعم ، زعم أنه سديف مولاك ، فقال : « سديف ؟ أئذن له »، فدخل أعرابي كأنه ممجد ، فوقف ، فسلم عليه بامرة المؤمنين ، ثم تقدم فقبل بين يديه ورجليه ، ثم تأخر ، فوقف مثله ثم اندفع فقال :

أصبح الملك ثابت الأســاس ... بالبهاليل من بنـي العبـاس

يا أميـر المطهريـن من الرجـ ... ـس ويا رأس منتهى كل رأس

أنت مهدي هاشم وهداهـا ... كم أناس رجوك بعـد أياس

لا تقيلن عبـد شمس عثـارا ... واقطعن كل رقلـة وغـراس

افنهـا أيها الخليفـة واحسم ... عنك بالسيف شأنة الأرجاس

انزلوهـا بحيث أنزلهـا الله بـدار الهـوان والاتعـاس

ولقد سـاءني وسـاء قبيلي ... قربهم من نمارق وكراسي (١٠)

---

(١٠) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٦٠ . وروى ابن الأثير هذا الخبر مع تعديل طفيف في الأبيات الشعرية فذكر أن سديف دخل على السفاح وعنده سليمان ابن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه ، فقال سديف :

لا يغرنـك ما ترى من الرجـال ... ان تحت الضلـوع داء دويـا

فأمر أبو العباس أبا الجهم باخراجهم وضرب أعناقهم ، ففعل وأتاه برؤوسهم وتتبع عبدالله بن علي العباسي بالشام بقايا البيت الأموي رجالا وأطفالا بالقتل تمهيدا للقضاء عليهم وتصفية البيت الأموي من أمرائه الأحياء، بل أمر أبو العباس بتعقب هؤلاء الأمراء حيث كانوا وقتلهم أينما وجدوا ، وقد أمر بقطع يدي أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ثم طيف به في كور الشام ينادي على رأسه : هذا أبان بن معاوية فارس بني أمية ، حتى مات. كذلك قتلوا النساء والصبية ، فذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا [11] ؛ وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية ، وأمر بهم فسحلوا في طرقاتها حتى ماتوا فأكلتهم الكلاب ، كما قتل يحيى بن محمد العباسي أعدادا كبيرة من أهل الموصل [12] ، ولهذا تفرق بنو أمية في الآفاق للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد ابن سليمان ، والعمر بن يزيد ، وعمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان ، فعمد بنو العباس الى التظاهر بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام في حق بني أمية ، وبسطوا لهم أمانا يخدعونهم ، حتى يجمعوهم ثم يضربوا رقابهم جميعا فيقضوا عليهم بذلك دفعة واحدة. وعلى هذا النحو وزع عبدالله بن علي المنشورات في كور الشام بأن « أمير

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان : قتلتني ياشيخ ، فدخل السفاح وأخذ سليمان فقتل (ابن الأثير ج ٥ ص ٤٢٩) . أما الأبيات المذكورة بالمتن فينسبها ابن الأثير الى شبل بن عبدالله — مولى بني هاشم — على عبدالله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا على الطعام ، فأنشده شبل الابيات المذكورة ، فأمر بهم عبدالله فضربوا بالعمد حتى قتلوا (نفس المصدر ، ص ٤٣٠).

(١١) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ٤٧.

(١٢) وسبب ذلك ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس (ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٤) .

المؤمنين قد ندم على ما كان في بني أمية وأحب البقاء ، وقد أمرني بتأمينهم، فقد أمنتهم ، فلا أعلمن أحدا يعرض لهم بمكروه » [١٣] . فاستأمن أبو العباس بذلك بضعا وسبعين رجلا ، وقيل ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان والغمر بن يزيد والأصبغ بن محمد بن سعيد . وهكذا أخذ العباسيون كلما أتاهم أموي قربوه وأنزلوه معسكر صالح بن علي بالقرب من نهر أبي فطرس بفلسطين ، وأعطوه العهود والمواثيق ، وتسامع بذلك أمراء بني أمية الفارين في انحاء الأرض ، وكانوا قد ملوا حياة التشرد ، وأمضهم تعب التنقل مستتكرين لصاحبهم الرعب والخوف من الوقوع في أيدي السلطات العباسية ، فتداعوا من كل فج أملا في الظفر بالأمان وبدء حياة يسودها الاطمئنان ، ولكن نفرا من أمراء بني أمية ـ أكثر حذرا ـ تشككوا في صدق هذا الأمان ، فلم يضطربوا مع من اضطرب في المعسكر من بني أمية ، ولم يتعجلوا الذهاب طلبا للأمان وأثروا التريث والانتظار وترقب الأحداث على مقربة من المعسكر العباسي ، فاذا ما حصل الجميع على الأمان أمكنهم أن يقدموا أنفسهم وينالوه بدورهم ، ومن بين هؤلاء المترقبين المتحرزين الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي قدر له أن يحيي دولة بني أمية في الأندلس [١٤] . فلما اكتمل بنو أمية في معسكر عبدالله بن علي أمر بهم فقتلوا وكان فيمن قتل : محمد بن عبد الملك بن مروان ، والغمر بن يزيد ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ،وسعيد ابن عبد الملك ، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك . فلما فرغ عبدالله ابن علي منهم قال :

بني أميــة قد أفنيت جمعكم	فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم	عوضتم من لظاها شر معتاض

---

(١٣) اخبار مجموعة ، ص ٤٧ .

(١٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس . بيروت ١٩٦٢ ص ١٧٤ وما يليها .

منيتم ، لا أقال الله عثـرتكم   بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد   منيت منكم بما ربي به راض[15]

وفي الحجاز قتل داود بن علي العباسي من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينـة [16] .

ويأتي المسعودي برواية تعبر عن كراهية العباسيين للامويين وارتياحهم بالتخلص منهم ، فقد ذكر ابن دأب [17] ، قال : « دعاني الهادي في وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله ، فدخلت اليه ، فاذا هو جالس في بيت صغير شتوي ، و قدامه دفتر صغير ينظر فيه ، فقال لي : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : اني أرقت في هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتملت علي الهموم ، وهاج علي ماجرت إليه بنو امية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبدالله ابن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطرس فلانا حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهـم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبدالله بن علي ، وهو القائل بعد سفكه دمائهم :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها   أخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ليت شيخي شاهد   سفكي دماء بني أبي سفيـان

قال ابن دأب : فسر والله الهادي ، وظهرت منه أريحية ، فقال : ياعيسى داود بن علي هو القائل ذلك والقائل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتنيهما

---

(١٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣١ .

(١٦) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤٤٨ . وذكر اليعقوبي انه أوثق جماعة منهم في الحديد ووجههم الى الطائف حيث قتلهم (اليعقوبي ، ج٢ص٣٥٢).

(١٧) هو عيسى بن دأب من اهل الحجاز ، وكان أكثر أهل عصره أدبا وعلما ومعرفة بأخبار الناس وايامهم ، وكـان الهادي العبـاسي يـدعوه لمسامرته ، فيدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك (المسعودي، ج ٣ ص ٣٢٥) .

حتى كأني ما سمعتهما . قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل إنهما لعبدالله ابن علي ، قالهما على نهر أبي فطرس . قال : قد قيل ذلك [١٨] .

قيام دولة بني أمية في الأندلس على يد الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل:

رأينا كيف غدر العباسيون بالأمويين في أبي فطرس وتتبعوا بقايا البيت الأموي بالقتل اما اشباعا لغريزة الانتقام أو رغبة في التخلص منهم فتستقر دعائم دولة بني العباس ويصفو لهم الأمر ، الا أن أميرا من البيت الأموي البائد هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام نجح في الافلات من قبضتهم رغم المحاولات العديدة التي بذلها المسودة لاقتناصه ، واستطاع أن يصل سليما الى كورة فلسطين ، وهناك التقى بغلامه بدر وبسالم بن شجاع غلام شقيقته [١٩] ، وكانا يحملان اليه نفقة وشيئا من جوهر ،وانطلق معهما من موضع الى موضع متخفيا حتى وصل الى مصر ، ثم تابع سيره من مصر الى برقة حيث أقام بعض الوقت مستترا ، ثم واصل سيره غربا حتى أوغل في إفريقية ، وقد توافى بها نفر من أهل بيته ، وكان يلي افريقية والمغرب الأوسط منذ أيام مروان بن محمد في سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف بعبدالرحمن بن حبيب الفهري استقل بولايته منذ أن قتل مروان وسقطت دولة بني أمية ، فخرج عن طاعة الخليفة العباسي السفاح ثم المنصور ،وكان ابن حبيب يخشى من وفود العناصر الأموية الى بلاده ولوذها بأرضه ،وكان يخاف بوجه خاص من الأمير عبد الرحمن بن معاوية الذي كان يحدوه الأمل في احياء دولة بني أمية بأرض المغرب تحقيقا لنبوءة تنبأ له بها مسلمة بن عبد الملك ، فرسخت في أعماق نفسه وهو ابن عشر سنوات وكبرت مع الأيام حتى أصبحت هدفا يسعى ابن معاوية الى تحقيقه ، فجد ابن حبيب في مطاردته للتخلص منه .

---

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٢٩ .

(١٩) المقرى ، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ج ١ ص ٣١٢ .

وقاسى عبد الرحمن بن معاوية مرارة العيش في أرض المغرب طريدا شريدا ، واحتمل آلام الفرار والاختفاء دون ضعف أو استسلام ، الى أن استقر به المطاف عند أخواله من قبيلة نفزة ، وكانت تنزل قريبا من سبتة[20] معبر الأندلس . وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية ، وهنا لاحت لابن معاوية بارقة من الأمل ، فلا بد له وهو سليل خلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يجدد فيه دولة أجداده ، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع في استغلال هذا الوضع لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التي أخفقت في المغـرب .

واتصل وهو بأرض المغرب بموالي المروانية في الأندلس وهو حزب كان مواليا للامويين ، وتم الاتصال عن طريق مولاه بدر ، وبفضل هـؤلاء المروانية استطاع أن يعتمد على العصبية اليمنيـة الموتورة من المضريـة والقيسية ، وكان اليمنية يتلهفون لنيل ثأرهم من المضرية الذيـن أطاحوا بسلطانهم ، فلما عرض عليهم بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية رغبة مولاه في دخول الأندلس بشرط أن تساعده اليمنية وتنصره ، رحبوا به ترحيبا بالغا [21] ، وأبدوا استعدادا طيبا لقبوله أميرا على الأندلس بلا منازع، وما أن وصلت هذه الانباء الى الأمير عبد الرحمن حتى بادر بركوب البحر الى الأندلس فدخلها في آخر ربيع الثاني سنة ١٣٨ (٧٥٥م) ونزل بالمنكب، واستقبله موالي المروانية استقبالا حافلا أنساه ما عاناه في تغريبه من آلام التشريد ومشقة المطاردات ، وأقبل اليه اليمنية من كور الأندلس ،واستطاع ابن معاوية بفضل المعيته وذكائه أن يقتحم وحده من أمراء بني أمية المشردين هذه البلاد في وقت نشبت فيه الاحن بين اليمنية والمضريـة ، فأصفقت

---

(٢٠) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٦٦٤ .

(٢١) راجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٧٩ — ١٨٢ .

اليمنية على أمره وآزرته ، وبايعه كثير من جند الأندلس ، وتوافت إليه جنود الأمصار ، وتضخم عدد أنصاره ، واستمال قلوب الناس بحسن سياسته ، ورجاحة فكره وحيويته ونشاطه ، حتى انقاد له كل أبي ، وأطاعه كل عصي ، واستطاع أن يهزم يوسف الفهري والي الأندلس ومن اعتمد عليهم من القيسية بزعامة الصميل بن حاتم بن ذي الجوشن في موقعه المصارة التي جرت في ظاهر قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ، وتعتبر هذه الواقعة أخت واقعة مرج راهط التي وقعت في أرض الشام في سنة ٦٤ هـ • وبانتصار عبد الرحمن وفريقه من اليمنية أمكن له أن يؤسس دولة بني أمية في الأندلس (٢٢) •

وشهدت الأندلس في بداية عهد الداخل صراعا متواصلا بين الأمير الأموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية الموتورين واليمنية المنقلبين عليه ، ولكن الأمير الداخل كان ينتصر على أعدائه ومناوئيه بفضل ما أوتي من دهاء وقوة شكيمة ومضاء عزم ، كل ذلك دون أن يتراخى عن تجديد ما طمس لبني أمية في المشرق من معالم الخلافة : فشيد الدور ، وأقام القصور ، وبنى المسجد الجامع بقرطبة ، وحصن المدينة بسور يدور حولها • وإليه يرجع الفضل الأعظم في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الادارة والحكم فيها• ويشير ابن حيان الى ارتقاء الأندلس في عهده من مجرد ولاية تابعة للخلافة في المشرق الى مصاف الدول الكبرى ، وإلى التطور الذي طرأ على شؤون الادارة والحكم في ظل هذا الأمير فيقول : « لما ألفى الداخل الأندلسي ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك، عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية ،وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند

---

(٢٢) ارجع الى المرجع السابق ص ١٨٣ ــ ١٩٣ ، ولنفس المؤلف قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ بيروت ١٩٧١ ص ٤٥ •

الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الاوتاد . فأقام للملك آلته ، وأخذ السلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها » [٢٣] .ويرجع الفضل في نجاح سياسته وتوطيد ملكه الى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيارهم وانتقاهم من بين من أدخلوه الأندلس من مواليه وأيدوه ونصروه وأخلصوا له ، وعمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فزود حاضرته قرطبة بروائع المنشآت والعمائر ،وقامت فيها حركة عمرانية ومعمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بأن تكون دمشق الأندلس .

سعي المنصور العباسي الى اسقاط الدولة الأموية في الأندلس :

ولكن أبا جعفر المنصور لم يترك الأمير الأموي يهنأ بهذه الامارة ، فيسعى سعيا حثيثا الى خلعه واسقاطه وتحويل الأندلس الى ولاية عباسية ، ففي سنة ١٤٦ هـ سير اليه المنصور قائدا من قواد العباسيين في إفريقية هو العلاء بن مغيث اليحصبي ، عبر بحر افريقية ونزل بالأندلس ولبس السواد ، ودعا لأبي جعفر المنصور في باجة بغرب الأندلس مستغلا العواصف السياسية التي أثارها خصوم الداخل في طليطلة . واشبيلية ولبلة وغيرها، وكان المنصور قد بعث إليه سجلا ولواء ، فاجتمع اليه حشد كبير من اتباع من اليمنية والمضرية على السواء ، وتطلع أكثر أهل الأندلس الى خلع عبد الرحمن [٢٤] ، ويبدو أن العلاء بن مغيث اختار اللحظة المناسبة للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية ، فقد كانت الثورات تجتاح البلاد الأندلسية

---

(٢٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢٤) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ — أخبار مجموعة ص ١٠٢ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٥ . ابن عذارى المراكشي ،ج٢ ص ٧٧ .

في شمالها وجنوبها ، وكان الأمير وقت انتزاء العلاء مشغولا باخماد احدى ثورات القيسية بطليطلة ، وقد بلغه نبأ حركة العلاء أثناء قيامه بمحاصرة طليطلة ، فبادر من فوره لمواجهة العلاء ، ولكن هذا الأخير أسرع بالزحف إليه وقصده بجموع كثيفة ، فاضطر الأمير الداخل الى التحصن في قرمونة الواقعة بالقرب من اشبيلية ، مع مواليه وثقات رجاله ، ولم يلبث العلاء أن أقبل بمجموعة فنازله بقرمونة وحاصره بها ما يقرب من شهرين حتى ساءت حالة الأمير الأموي ، ونفذت مؤونته ، ودب اليأس في نفوس رجاله. وكان أنصار العلاء يحسبون أن الأمر لن يطول ، فلما طال الحصار انخذل عنه أكثر أنصاره ، وأدرك الأمير ابن معاوية أن هذه هي فرصته المواتية لمهاجمة العلاء هجوما مفاجئا ، وكان عليه أن يتحرك سواء رضي أم كره ويغامر بمصيره ومصير الدولة التي جهد في تأسيسها ، فجمع قواته وكانوا لا يتجاوزون السبعمائة ، وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية أحد أبواب قرمونة ، ثم أمر بأغماد السيوف فطرحت في النار ، وصاح برجاله يأمرهم بالخروج معه لهذه الجموع المحتشدة خارج الباب خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع (٢٥) ، ثم إنه سل سيفه في مقدمة أصحابه ، واندفع من باب المدينة ومن ورائه رجاله ، وقد بلغ بهم الحماس واللهفة الى القتال مبلغا عظيما ، وانقضوا على جيش العلاء فمزقوه شر ممزق ، حتى بلغ عدد القتلى من عسكره نحو سبعة آلاف (٢٦) ، وسقط العلاء نفسه صريعا ، فأمر عبدالرحمن مبالغة منه في السخرية من خصمه المنصور أن يبعث اليه رأس العلاء ، فأخذه وصبره ولفه في السجل واللواء ، ووضعه في سفط ، وبعث به مع رجل من أهل قرطبة كان قاصدا الى مكة ، لأداء الحج ، وأوصاه بأن يضع السفط في مكة أمام سرادق المنصور الذي كان يحج في هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به الأمير ، فلما نظر اليه المنصور ارتاع ، ثم

---

(٢٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ ص ٧٧ .

(٢٦) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١١ .

علق على ذلك بقوله : « إنا لله !! عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (٢٧) .

وقد شهد أبو جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل بقوة الحيلة وشدة البأس وطول المراس ، فذكروا أنه قال يوما لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين (٢٨) الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان .قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودن الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه . وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، فأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين » (٢٩) .

وكان المنصور يعترف أمام جلسائه بذكاء الأمير الأموي ويعلل فشله في تدمير دولة بقوة مراسه ويقول : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة

---

(٢٧) ابن القوطية ، ص ٣٤ – ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٢٨) يقصدونه هو اي المنصور .

(٢٩) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ – المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصية، وقمع بعضهم بعضا بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه ، ان ذالك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه » [٣٠].

لقد فشل أبو جعفر المنصور في اسقاط الدولة الأموية في الأندلس في حين نجح في استرجاع افريقية وتحريرها من سيطرة الخوارج الاباضية [٣١] ، أما المغربين الأوسط والأقصى فاستعصيا عليه ،وظل المغرب الأدنى (او افريقية) مواليا للعباسيين حتى بعد قيام دولة بني الأغلب التي كانت ترتبط اسميا بالخلافة العباسية ، وقد تحكم هذا الوضع في توجيه السياسة العباسية نحو المغرب والأندلس ، فكانت سياسة عدائية بالنسبة للدويلات المستقلة التي قامت فيما وراء إفريقية بالاضافة الى الاندلس بينما كانت ودية نحو دولة الاغالبة لأن هذه الدولة كانت تدين بالولاء لبني العباس ، وقد ساعد الرشيد على قيامها بعهد منه لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية والقوى غير السنية في المغربين الأوسط والأقصى سيما قوة الأدارسة الذين كانوا يتطلعون الى توحيد المغرب والمشرق الاسلاميين تحت لوائهم [٣٢] ومع فشل المحاولة العباسية الأولى للقضاء على دولة الأمويين في الأندلس في خلافة أبي جعفر المنصور ، فقد تجددت محاولات من تلاه من خلفاء بني العباس لتحقيق نفس الهدف سواء بالنسبة للدولة الأموية في الأندلس على النحو الذي نراه في الصفحات القادمة،

---

(٣٠) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٣١) راجع التفاصيل في : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٣٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالمغرب ، تحقيق د . مختار العبادي ، ص ١٧ هامش رقم ٢ .

أو بالنسبة لدولة الرستميين في المغرب الأوسط [٣٣] أو بالنسبة لدولة الأدارسة [٣٤] .

المحاولة الثانية في خلافة المهدي العباسي :

وفي خلافة المهدي العباسي بن المنصور (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ / ٧٧٥ ــ ٧٨٥م) بدأت محاولات الدولة العباسية من جديد القضاء على امارة عبدالرحمن الداخل في الأندلس . واستفادت الدولة العباسية في هذه المرة من التجربة الأولى الفاشلة ، فلم تبعث داعية من دعاتها هذه المرة ، ولا جيشا من إفريقية لغزو الأندلس ، وانما اعتمد المهدي على الدهاء والدس ، فقد اتفق مع بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للوجود الأموي على أن يعلنوا ثلاث ثورات في آن واحد في مناطق مختلفة من الأندلس ، فينتهز شارلمان بن ببين القصير ملك الفرنجة الذي كانت تربطه بالخليفة العباسي علاقات ودية [٣٥] الفرصة ويغزو الأندلس ،فيسقط النظام الأموي .

---

(٣٣) أبو الربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ الاباضية ، تونس ١٩٣٨ ص ٣٤ ــ كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية ،ص١٤٤ .

(٣٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر ١٩١١ ص ١٢٢ ــ ابن الخطيب ، ص ١٩٣ ــ الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص ١٠ .

(٣٥) رغم صمت المصادر العربية عن ذكر أي اشارة لثمة علاقات بين الدولة العباسية والدولة الكارولنجية ، فاننا نميل الى تأكيد قيام مثل هذه العلاقات ، فالاوضاع السياسية في العالم شرقية وغربية منذ قيام الدولة العباسية بخلافة السفاح في سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ) والدولة الكارولنجية بتتويج ببين القصير ملكا على دولة الفرنجة في سنة ٧٥١ م حتم قيام أحلاف دولية بين الدولتين ضد الدولة الاموية في الأندلس التي كانت تعتبر في نظر خلفاء بني العباس دولة غير شرعية ، والدولة البيزنطية التي اصبحت في نظر الكنيسة الغربية والغرب المسيحي مناهضة لمبادىء هذه الكنيسة بسبب سياسة أباطرتها اللا آيقونية خاصة في زمن الامبراطور الايسوري قسطنطين

وتلتزم المصادر العربية واللاتينية الصمت عن ثمة قيام اتصالات بين العاهلين العباسي والكارولنجي ومع ذلك فنحن نجزم بوجود مثل هذا التحالف بينهما استنادا على المؤامرة الكبرى التي تدخل بمقتضاها شارلمان حربيا في الأندلس ، فان تدخل شارلمان لا يمكن أن يحدث مالم يكن هناك اتفاق مسبق بينه وبين أصحاب المصلحة في هذا التدخل وأعني بهم العباسيين الذين ـ بحكم بعد الأندلس عن متناول أيديهم ـ اعتمدوا على العملاء من الثوار والمنتزين لتحقيق مآربهم ، بدليل أن أحد هؤلاء الثوار

الخامس (٧٤١ ــ ٧٧٥) مما أدى الى لجوء البابوات الى ملوك الفرنجة لمساعدتهم ضد هجمات اللومبارديين بدلا من التوجه الى بيزنطية نفسها . وهكذا ساعدت الخصومات القائمة بين العباسيين والامويين في الأندلس من جهة وبين الفرنجة والامويين من جهة ثانية ، وبين الفرنجة والبيزنطيين من جهة ثالثة وبين البيزنطيين والعباسيين من جهة رابعة، على التقاء أهداف مشتركة بين الأطراف المتنازعة وتكوين محورين متعاديين في آن واحد ، فبيزنطة تقاربت مع قرطبة ، وبغداد تقاربت مع أخن ، واذا كانت الصلات السياسية بين الدولة البيزنطية والأموية في الأندلس قد قامت متاخرة منذ سنة ٨٣٩م بسبب العداء القديم بين الأمويين في المشرق والبيزنطيين ، فان الصلات بين الولة العباسية والفرنجة سبقتها بعهد طويل ففي سنة ٧٦٥ أوفد ببين القصير (٧٤١ ــ ٧٦٨) سفارة الى بلاط الخليفة ابي جعفر المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥م) عادت بعد ثلاث سنوات مصحوبة برسل من المنصور الى ببين يحملون اليه عددا من الهدايا وقد أشار الطبري الى ورود رسول من قبل الروم (وصحتها الفرنجة) بعد تأسيسه لمدينة بغداد يسميه الطبري « بطريقا من بطارقة الروم » ، وقد أمر المنصور وزيره الربيع بن يونس بأن يطوف به بغداد وما حولها (انظر الطبري ، ج ٩ ص ٢٦٢ ــ ابن الأثير ، ص ٥٧٤) . ونعتقد أن الهدف من هذه السفارة هو توكيد الشعور بالتقارب السياسي والأهداف المشتركة منذ أن أرسل المنصور الى الأندلس القائد العلاء بن مغيث اليحصبي في سنة ٧٦٣ أي قبل وصول السفارة الكارولنجية بعامين ، لقلب الحكم الأموي بحكم اشتراكهما في العداء لبني أمية في الأندلس . ثم توقفت هذه العلاقات الودية بعد وفاة ببين القصير فترة ، واستمرت راكدة حتى أيام شارلمان ، عندما تجددت هذه العلاقات بينه وبين المهدي العباسي .

وهو الرماحس الكناني لجأ الى بغداد بعد فشل ثورتـه ، وأن سليمان الأعرابي اتصل بشارلمان ليدعوه الى غزو الأندلس [٣٦] .

والظاهر أن الأمير الداخل كان يفكر جديا في الانتقام من العباسيين بعد نجاحه في ايقاع الهزيمة بالعلاء اليحصبى ، صنيعة العباسيين ، فأظهر في سنة ١٦٣ هـ عزمه على التجهز للخروج الى الشام ، فقد أشار ابن الأثير الى أن الأمير عبد الرحمن الأموي أعلن عن عزمه في هذه السنة على قصد بلاد الشام « بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منهم ، فقضى عليـه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيـد الأنصاري بسرقسطة واشتد أمرهما ، فترك ما كان عزم عليه » [٣٧] . وأغلب الظن لو كان هذا الخبر صحيحا أنه نمى الى السلطات العباسية سواء في افريقية أم في بغداد، فبادرت بتدبير هذه المؤامرة للقضاء عليه قبل أن يقوم بأي محاولة والواقع أن عبد الرحمن الداخل لم يكن لديه من الامكانيات العسكرية ما يسمـح له بالقيام بأي مغامرة في الشام أو حتى في افريقية ، ولعله كـان ينوي مساعدة الدولة الرسمية التي قامت حديثا بالمغرب الأوسط ضد أعدائهـا في افريقية وطرابلس أو قد يكون قد أعلن ما أعلنه تنفيسا عن غضبه على العباسيين بسبب سعيهم لاسقاطه فنقل أحد عملاء العباسيين هـذا الخبر ، فبادروا هم لتوجيه ضربة قوية الى قلب دولة قبل أن يشرع هو لمناوءتهم.

وأيا ما كان الأمر فان شخصيات عربية أربعة مناهضة للامير الأموي أعلنت ثوراتها في ثلاث مناطق مختلفة من الأندلس في أوقات متقاربة ، مما

---

(٣٦) ذكر ابن الأثير ان سليمان الأعرابي استدعى « قارلة ملك الافرنج ووعده بتسليم سرقسطة وثعلبة . (قائد الأمير عبدالرحمن الداخل وكان قد وقع في أسر سليمان الأعرابي) اليه . فلما وصل اليه لم يصبح بيده غـير ثعلبة فأخذه وعاد الى بلاده وهو يظن انه يأخذ به عظيم الفـداء ، فأهمله عبدالرحمن مدة ثم وضع من طلبه من الفرنج فأطلقوه » (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٤) .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

يقطع بوجود اتفاق مسبق بين الأطراف المعنية . هذه الشخصيات التي اعتمد عليها المهدي هي :

١ ــ عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي ، وسمي بالصقلبي لأنه كان طويل القامة أشقر الشعر ، أزرق العينين [٣٨] ، وهو شخصية أخرى غير شخصية ابن حبيب الفهري الذي كان قد استقل بافريقية بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق . وقد ثار ابن حبيب الفهري الصقلبي بتدمير في آخر سنة ١٦٢ هـ .

٢ ــ سليمان بن يقظان الاعرابي والى برشلونة .

٣ ــ حسين بن يحيى الانصاري من ولد سعد بن عبادة الأنصاري ، وقد ثار بسرقسطة مع سليمان سالف الذكر .

٤ ــ الرماحس بن عبدالعزيز الكناني والى الجزيرة الخضراء وقد ثار في بداية سنة ١٦٤ هـ .

أما شارلمان فلم يكن يزهد في امتلاك الأندلس أو حتى اقتطاع قسم منها ، فقد كان قد فرغ من حروبه في أوروبا ، وضم اليه لمبارديا وسكسونيا وبافاريا ، وامتد ملكه حتى بلغ الدانوب [٣٩] . وكان قارله حسبما تسميه المصادر العربية يحلم بطرد المسلمين من الأندلس [٤٠] طمعا في ضم مملكة

---

(٣٨) أخبار مجموعة ص ١١٠ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٣٩) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Leiden 1950, t. I, p. 120.

(٤٠) في رؤيا رآها شارلمان ناداه القديس جيمس قائلا : ان جثمانه الذي لا يعرفه المسلمون والمسيحيون يرقد في تلك الأرض النائية ، ثم أمر شارلمان بان ينهض ويستخلص جليقية من أيدي المسلمين . وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع شارلمان الا أن يلبي النداء في المرة الرابعة (انظر : كارلس ديفيز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٩٨) .

القوط القديمة الى امبراطوريته .

ومما لا شك فيه أن المؤامرة دبرت بعلم المهدي وموافقته،وليس أدل على ذلك من التجاء الرماحس بن عبد العزيز الكناني الثائر في الجزيرة اليه بعد فشل ثورته على الأمويين ، وهناك دليل آخر على تورط المهدي في هذه المؤامرة الكارولنجية العربية ضد الأمويين في الأندلس ، هذا الدليل هو رسالة أرسلها الأمير عبد الرحمن الداخل الى الخليفة المهدي العباسي ثلبه فيها (٤١) وسبه ولعنه بفاحش القول ، فرد عليه المهدي برسالة

---

(٤١) أورد الطبري رواية لمحمد بن عمر عن حفص مولى مزينة عن ابيه انه قال : « كان هشام الكلبي صديقا لي ، فكنا نتلاقى فنتحدث ونتناشد ، فكنت أراه في حال رثة وفي أخلاق ، على بغلة هزيلة والضر فيه بين وعلى بغلته ، فما راعني الا وقد لقيني يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها ، في ثياب جياد ورائحة طيبة فأظهرت السرور ، ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة . قال لي نعم أخبرك عنها فاكتم . بينا أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر اذ أتاني رسول المهدي، فسرت اليه ، ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد ، وبين يديه كتاب . قال : ادن يا هشام . فدنوت ، فجلست بين يديه ، فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ، ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه . قال : فنظرت في الكتاب ، فلما قرأت بعضه استفظعته فألقيته من يدي ، ولعنت كاتبه . فقال لي : قد قلت لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره . قال : فقرأته ، فاذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا عجيبا لم يبق له فيه شيئا فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب ؟ قال : **هذا صاحب الأندلس** . قال ، قلت : فالثاب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وفي أمهاته . قال : ثم اندرأت أذكر مثالبهم . قال : فسر بذلك وقال : اقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب . قال : ودعا بكاتب من كتاب السر فأمره مجلس ناحية وأمرني فصرت اليه فصدر الكاتب من المهدي جوابا، وأمللت عليه مثالبهم فأكثرت ، فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ، ثم عرضته عليه فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم ، وجعل في خريطة ، ودفع الى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله الى الأندلس . قال ثم دعا لي بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب وعشرة آلاف درهم وهذه البغلة بسرجها ولجامها فأعطاني ذلك وقال لي اكتم ما سمعت » الطبري ، ج ١٠ ص ١٣ .

مماثلة عدد فيها مثالب بني امية وبدأ عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي بالعبور الى افريقية ، ثم عاد بجيش كبير من البربر نزل بـه في مدينـة تدمير (الموضع الذي قامت عليه مدينة مرسية) وبادر بمكاتبة سليمان بن يقظان بالدخول في أمره ومحاربة عبد الرحمن الأموي والدعاء الى طاعـة المهدي [٤٢] ، وكان سليمان ببرشلونة ، فلم يجبه ، فاغتاظ عليه ، وقصـد بلده فيمن معه من البربر ، فهزمه سليمان ، فعاد الصقلبي الى تـدمير . وكانت مهمة سليمان بن يقظان الزحف الى سرقسطة واعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصاري . أما الرماحس فكان عليه أن يعلن ثورته في جنوب الأنـدلس في نفس الوقت حتـى يتعذر علـى عبد الرحمن الداخل أن يقضي على هذه الثورات جميعا .

ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم ، واختلفوا في توقيت ثوراتهم كما أن بعضهم حارب البعض الآخر كما حدث بين الصقلبي والأعرابي ، أو ما حدث بين الأعرابي والأنصاري فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضي على كل ثورة على حدة .

وبدأ الأمير الداخل بأخطرهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهـري الصقلبي ، فسار اليه في العدد والعدة ، وأحرق السفن تضييقا عليـه في الهرب [٤٣] ، فلاذ الصقلبي بجبل منيع بناحية بلنسية ،ومن هناك أرسل الى سليمان بن يقظان ببرشلونـة يدعوه الى الدخول في أمره ، ويسأله أن يمده بمعونته ، ولكن سليمان لم يجبه الى طلبه ، فامتعض الفهري ، ولجـأ إلى رجل من البربر يقال له مشكار البربري فاطمأن اليه الفهري ، وكـان عبد الرحمن قد أعلن أنه يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله مشكار طمعا في المكافأة ، وأتى برأسه ،وتم ذلك في آخر سنة ١٦٢هـ (٧٧٨م) [٤٤]

---

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٤ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٥٤ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٤٤) اخبار مجموعة ، ص ١١١ .

ثم صرف عبد الرحمن الداخل همه بعد ذلك لمقاتله الرماحس ، فأرسل اليه وزيره عبدالله بن خالد على رأس جيش باغته بالهجوم على قصره في الجزيرة الخضراء ، ففر الرماحس على مركب جاز به البحر حتى قدم الى الخليفة العباسي .

وأما سليمان الأعرابي ، فقد ثار بسرقسطة وثار معه فيها حسين بن يحيى الأنصاري في أواخر سنة ١٦٣ هـ ، فبعث اليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف فقاتلهما ثعلبة قتالا عنيفا ، وعاد يوما الى مخيمه ، فاغتنم سليمان غرته ، فخرج عليه وأسره ، فتفرق عسكره . وعمل على الافادة من أسيره ، فترك على سرقسطة صاحبه حسين ابن يحيى الأنصاري ومضى هو وأسيره الى افرنجة حيث قابل شارلمان وسلمه ثعلبة وحرضه على دخول الأندلس (٤٥) .

وأيا ماكان الأمر فقد كان شارلمان ملتزما بالاتفاق المعقود بينه وبين المهدي ، ولعله أبطأ في تنفيذ المهمة التي تعهد القيام بها لمشاغله السياسية فكان ذلك سببا لخروج سليمان الأعرابي اليه لاستقدامه في صحبة ثعلبة قائد الجيش الأموي تشجيعا له على الاشتراك في المؤامرة ، والظاهر أن سليمان نجح في مهمته ، فقد خرج شارلمان على رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها الى جبال البرانس ، فاجتازها الى رنشفالة ، وهاجم بنبلونة واستولى عليها ثم واصل زحفه الى سرقسطة وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، اذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن

---

(٤٥) ويرى ليفي بروفنسال أنه من المحتمل ان يكون سليمان قد توجه الى افرنجة وفي صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو ثور ، وكان واليا على وشقة ، ويستند ليفي في ذلك على فقرة من الحوليات الملكية لدولة الفرنجة تروي أن ملك الفرنجة تلقى في سنة ٧٧٨م (١٦٣ هـ) من أبي ثور صاحب وشقة وابن الأعرابي صاحب برشلونة وجرندة عددا من الرهائن

(voir Lévi-Provençal, op. cit. p. 123)

حسين بن يحيى الأنصاري قد طمع في الانفراد بولايتها فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان ، وأصم أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان ،وقد يكون الأمير عبد الرحمن المعروف بدهائه قد اتصل سرا بحسين الأنصاري وأقنعه بالامتناع في سرقسطة أمام جيوش شارلمان ولوح له بمكافآت مجزية ، فليس هناك تفسير آخر لانقلابه على زميله وتجرئه على شارلمان الا أن يكون مدفوعا الى أداء هذا الدور .

وطال انتظار شارلمان خارج المدينة حتى يئس من فتحها ، وأدرك أن المؤامرة قد فشلت فاضطر الى رفع الحصار عنها وقفل عائدا الى بلاده ، وقد تكون قد وصلته انباء مزعجة كقيام اضطرابات وفتن في بلاده أرغمته على القفول ، وان كنا نرجح التفسير الأول بدليل أنه أرغم سليمان الأعرابي على التراجع معه ، واحتفظ كذلك بثعلبة الجذامي لنفسه ، ولو أن قضية اشتراكه كانت مجرد استجابة لدعوة الأعرابي لما كان قد حرص على أن يتراجع معه ، ولكن المسألة أبعد من ذلك ، اذ يبدو أنه كان يهدف التحقيق في الأمر ودراسة أسباب الفشل .

انسحب شارلمان بجيشه الى غالة ، ولما بلغ بنبلونة سحب حاميتها الفرنجية ، وهدم أسوار المدينة ، ولكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل في سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس [٤٦] ،وكانوا ينقمون على شارلمان تخريبه لعاصمتهم بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعاب رنشفالة وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرما ، وقتل في رنشفالة عدد كبير من عسكره على رأسهم قائدان من أشهر قواده هما إيجيهار Eggihard وأنسيلم Anselme كما قتل صفيه رولان Roland فخزن شارلمان لمصرعه ، وكان ذلك موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسي تعرف بأنشودة رولان .

---

(٤٦) اخبار مجموعة ، ص ١١٤ .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان الأعرابي من تخليصه ، ورجعا به الى سرقسطة . وهكذا انتصر الامير عبد الرحمن على المتآمرين عليه، واضطر شارلمان الى مهادنته ليتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفي ذلك يقول المقري : « وخاطب عبد الرحمن قارله (أي شارلمان) ملك الافرنج ،وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة،فأصابه صلب المكسر، تام الرجولية، فمال معه (أي شارلمان) الى المداراة ، ودعاه الى المصاهرة والسلم ،فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » (٤٧) .

وهكذا فشلت المؤامرة الدولية الكبرى التي دبرها المهدي بالاتفاق مع ثوار الأندلس وشارلمان وأيقن شارلمان نفسه أنه لن يتمكن من بسط نفوذه على الأندلس طالما لا يرتكن فيها على قوى مناوئة للامير الأموي، كما وضح لديه استحالة تغلبه على الاسلام في الأندلس ما لم يؤمن بلاد الفرنجة والغرب المسيحي .

ومع هذا الفشل المتواصل فان سلسلة المؤامرات والمكائد العباسية لم تنته بعد (٤٨) ، واستمرت في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل ممثلة في تأييد

(٤٧) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٤٨) يبدو أن الخليفة المأمون كان يسعى الى اجراء مضاد للامويين في الاندلس ، فكما سعى الى تدمير الامبراطورية البيزنطية عن طريق تعضيده للثائر توماس الصقلبي على الامبراطور ميشيل العموري ، ودفعه غزاة البحر الأندلسيين الى غزو جزيرة اقريطش وانتزاعها من بيزنطة التي كانت ترتبط بروابط ودية مع الأندلس يشير المسعودي الى انه أمر في سنة ٢١٢ هـ بلعن معاوية على منابر بغداد ، وأعد الكتب الى الحواضر الاسلامية يأمر فيها عما له بذلك ، فاعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما له بذلك ، فاعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما كان هم به (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٥٤) واعتقد أن لعن معادية على بناء بغداد لم يكن ليثير على المأمون ثائرة العامة من الأهالي ، على النحو الذي أورده المسعودي ، الى الحد الذي يدعوه الى العدول عما شرع فيه ، كما أعتقد أن معاوية انما كان يقصد بني امية الذين كان يمثلهم في الأندلس في عهده الأمير عبد الرحمن الاوسط .

الأغالبة في إفريقية ـ صنائع العباسيين ـ لثوار الأندلس الناقمين على أمرائها والمناوئين للسلطة المركزية ، وعلى الأخص الثائر عمر بن حفصون الخارج على الأمير الاموي عبدالله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ) ، وكان ابن حفصون يطمع في الاستيلاء على الأندلس كلها وولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بني أمية بدليل أنه أظهر الميل الى الدعوة العباسية وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (٤٩) . ولكن هذه المحاولة فشلت كسابقاتها ، وفقد العباسيون الأمل نهائيا في اسقاط الحكم الأموي بالأندلس .

رد الفعل الأموي على المؤامرات العباسية :

وكان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة مع خصوم الدولة العباسية فتقوم بينهم صلات ودية ، على النحو الذي حدث بين ثوار الأندلس الخارجين على الدولة الأموية وبين الأغالبة التابعين للعباسيين ، فنشهد على هذا الاساس تحركا ملموسا في السياسة الأموية نحو دولة الرسميتين من جهة ونحو الدولة البيزنطية من جهة أخرى ، ويشير المؤرخون الى أن أبا اليقظان محمد بن أفلح الرستمي كان « لا يقدم و لا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأي الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمير قرطبة » (٥٠) . أما فيما يتعلق بالدولة البيزنطية فقد رأى أباطرتها تدعيم صلاتهم بقرطبة على الرغم من استحالة التعاون العسكري بينهم وبين مسلمي الأندلس ، فقد كانت هزيمة تيوفيل في ٢ أغسطس سنة ٨٣٨م على يدي المعتصم في موقعة عمورية كارثة كبرى أطاحت بهيبة الدولة وكانت السبب المباشر في توجهه بطلب العون الى الأمير الاموي عبدالرحمن

---

(٤٩) راجع التفاصيل في كتابي: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت ١٩٦٢ .

(٥٠) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، كتاب اعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، ص ٢٤.

الاوسط (٥١) ، وحملت هـذه الهزيمة الامبراطور البيزنطي على المبادرة بالاتصال بامير قرطبة ، فأرسل سفارة برئاسة قراطيوس الرومي في سنـة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ ـ ٨٤٠ م) الى قرطبة ، وحمل رسوله الى الامير الاموي هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ، ويبدي رغبته في أن يعمل الأميـر على استرجاع الشام انتقاما من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بـلاده، وعبر عنهما بابني مراجل وماردة ، وفي هذه الرسالة يطلب الامبراطور أيضا لنفسه جزيرة اقريطش التي كان قد نزلها الربضيون واحتلوها في عهـد ميشيل الثاني العموري بعد خروجهم من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ . وقد رد الأمير عبد الرحمن الأوسط على هذه السفارة بسفارة مماثلة مثلـه فيها الشاعر يحيى الغزال ، ويحيى صاحب المنيقلة ، وبعث معهما رسالـة ناقش فيها ما جاء في رسالة الامبراطور فقرة فقرة (٥٢) . ثم تطورت العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة وقرطبة في عصر الخلافة الأموية بقرطبة ،وتبودلت بين العاصمتين السفارات والهدايا (٥٣) .

دكتور السيد عبد العزيز سالم
جامعة الاسكندرية

---

(٥١) Ch. Diehl, Histoire du Moyen âge, pp. 312, 323

(٥٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٠١ – تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص٣١٦

(٥٣) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس ص ٦٧ وما يليها .

تراث العرب الفكري والعلمي
في فلسطين
في ظل الحكم الإسلامي

الدكتور عواد مجيد الأعظمي
الاستاذ المساعد
كلية الآداب - جامعة بغداد

تراث العرب الفكري والعلمي في فلسطين واسع الافق غزير المادة ، وبالرغم من سعته ، وغزارته ، فان الادلة والشواهد التي سوف نوردها هنا ، سوف تفي بالغرض المقصود ...

وسنحاول هنا كشف بعض جوانب التراث الفكري ، في مجالات اللغة والادب ، والفقه والتاريخ والجغرافية ، والطب والتي خلدها العرب والمسلمون على ربوع هذه البلاد المقدسة .

فلما دخل العرب المسلمون فلسطين لقيهم فيها ، وفي مشارفها قومهم، وابناء لغتهم .. ولما تم لهم فتحها استأنس الاراميون او السريان من اهلها باللغة العربية لقربها من لسانهم .. وقد بدأ اختلاط العرب باهل البلاد ، فقد اطلق الخليفة الثالث عثمان بن عفان العنان لقريش وغيرها من القبائل العربية ليخرجوا من ديارهم ، فانتشروا في مختلف الاقطار المفتتحة ، واستقروا فيها .. وفي عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي نزلت بطون كثيرة من مختلف انحاء الجزيرة العربية بلاد الشام واستقرت فيها. وفي تقاليد بدو سيناء انه قد هاجر من العرب المسلمون ٧٥ قبيلة من نجد

والحجاز في سنة واحدة فسكنوا مصر ، وسيناء وجنوب فلسطين [١] .

والمعروف ان معظم القبائل التي نزلت فلسطين هي قبائل يمانية تنتسب الى طيء . وقضاعة ، وبني عدى [٢] .

وعن طريق هذه القبائل العربية ، وبداية انتشار الاسلام في مختلف المدن الفلسطينية ، وسيادة لغة القرآن العربية ، بدأت تسود اللغة العربية على جميع بلاد فلسطين .. كما ساعد على ذلك ، كما اوضحت سابقا اللغة الارامية ــ السريانية التي تمتد جذورها التاريخية الى اللغة الكنعانية (الام) بحروفها الابجدية .

كما لعبت المساجد والجوامع العديدة ــ الى جانب المدارس ، دورا هاما في سيادة اللغة العربية وديمومتها كتراث خالد حي في بلاد فلسطين..
حفلت المدن الفلسطينية المتعددة ــ منذ دخولها حضيرة العالم الاسلامي ــ بالعديد من الفقهاء ، والعلماء والمحدثين . وكان على رأس هذه المدن ــ مدينة القدس ...

وسنذكر هنا جماعة من اعيان التابعين ، والعلماء والزهاد ممن دخلوا بيت المقدس ، وترعرعوا في ربوعها وتركوا آثارا خالدة بعد الفتح العمري[٣] .. وعمارة عبد الملك بن مروان [٤] حتى القرن الخامس الهجري ...

---

(١) انظر : شقير ، نعوم ، تاريخ سيناء القديم والحديث ، القاهرة ١٩١٦ . ص ١٠٨ ، ومصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ،ج ١ ، ق ٢ ،ص٣٨٥

(٢) تفصيل القبائل العربية وبطونها ، انظر ، القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، وكتابه صبح الاعشى .

(٣) المقصود دخول مدينة القدس ضمن حضيرة العالم الاسلامي على يد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب صلحا عام ١٥ هـ ــ ٦٣٦ م .

(٤) المقصود بناء عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة ، والمسجد الاقصى..

اشتهر في مدينة القدس اثناء الفتح العمري وبعده كلا من العلماء والفقهاء الاتية اسماؤهم [٥] ..

يعلى بن شداد بن ثابت ـ من الطبقة الثانية من نايقي الشام، حضر فتح بيت المقدس ، وكان ثقة روى عنه جماعة ..

وابو نعيم المؤذن ، اول من اذن ببيت المقدس ، فكان عبادة بن الصامت واليا على ايليا (القدس) ..

وخالد بن معدان الكلاعي العبد الصالح الفقيه الكبير .. ومحارب ابن دثار ، وكان قاضيا ، وهو من العلماء والزهاد ، وحديثه مخرج في كتب الأسلام ..

كعب الاحبار ابن مانع الحميري ابو اسحاق .. كان يهوديا ، فاسلم في خلافة ابي بكر ، وقيل عمر .. سكن الشام ودخل بيت المقدس ، وروى عن جماعة من الصحابة كأبي هريرة ..

ومالك بن دينار من الأئمة الاعلام روى عن أنس ، واخرج له اصحاب السنن ابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ..

وام الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عقيل الصالحة المشهورة ، كانت من اعيان عصرها واخيارها في الصلاح والعبادة مشهورة .. وكانت تقول في مناجاتها : « يا الهي اتحرق بالنار قلبا يحبك » ، فهتف بها مرة هاتف : « ماكنا نفعل هذا فلا تظني بنا ظن السوء . » .. ومن وصاياها ، اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم .. واورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردي ، في كتاب عوارف المعارف :

انى جعلتك في الفؤاد محدثي وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

(٥) انظر تفاصيل هؤلاء العلماء والفقهاء في كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، لمجير الدين الحنبلي ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ ـ ٣٠٢ .

توفيت سنة خمس وثلاثين ــ وقيل وثمانين ــ ومائة ، وقبرها على رأس جبل طورزيتا في بيت المقدس •

والاوزاعي عبد الرحمن بن عمر واحد الائمة الاعلام فقيه الشام ،كان رأسا في العلم والعبادة قدم بيت المقدس فصلى فيه ثمان ركعات والصخرة وراءه ••

وسفيان الثوري ، هو ابن سعيد بن مرق الامام العالم المجمع علـى جلالته ، وزهده وورعه ، أتى المسجد الاقصى فصلى فيه بموضع الجماعة، واتى قبة الصخرة الشريفة وختم فيها القرآن ••

والامام الاعظم والحبر الاكرم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي ، أحد الأئمة المجتهدين الاعلام وامام اهل السنة ركن الاسلام ، ولد بغزةمن بلاد الشام على الاصح سنة خمسين ومائة ، وهي التي توفي فيها الامام الاعظم • ابو حنيفة ••

خرج كتاب الام وكتاب السنن ••• وتوفي الامام الشافعي بمصر سنة اربع ومائتين ، وقبره مشهور يزار ••

ومحمد بن كرام المتكلم التي تنسب اليه الفرقة الكرامية (٦) ،توفي ببيت المقدس ودفن بباب اريحا ، وله ببيت المقدس عشرين سنة ••

وشيخ الاسلام العالم الحبر ابو الفرج عبد الواحد بن احمد بن محمد ابن علي بن احمد الشيرازي ، قدم الشام فسكن ببيت المقدس ، وهو الذي نشر مذهب الامام احمد •• له تصانيف منها المبهج ، والايضاح ، والتبصرة في اصول الدين ،ومختصر في الحدود في اصول الفقه ومسائل الامتحان، ويقال : ان له كتاب الجواهر في التفسير وهو ثلاث مجلدات ••

---

(٦) بهذا الخصوص انظر البحث «نشوء مذهب الكرامية في خراسان» ترجمه ونشره الدكتور عواد مجيد الاعظمي المجلة التاريخية ، خريف ١٩٧٠.

والشيخ العلامة ابو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي الشافعي شيخ المذهب بالشام صاحب التصانيف مع الزهد والعبادة .. اقام بالقدس مدة طويلة .. ومن تصانيفه ، التهذيب ، وكتاب التقريب ، وكتاب الفصول ، وكتاب الكافي ...

والشيخ الامام ابو المعالي المشرف بن المرجا بن ابراهيم المقدسي، كان من علماء بيت المقدس ، لم كتاب : فضائل بيت المقدس والصخرة ...

والغزالي الامام زين الدين حجة الاسلام ابو حامد محمد بن احمد الغزالي الطوسي الشافعي . ولد سنة خمسين واربعمائة . ولم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله .. اقام بدمشق ثم انتقل الى بيت المقدس .. واخذ بالتصانيف المشهورة ببيت المقدس ، ويقال انه صنف في القدس احياء علوم الدين .. واقام بالنصرية شرقي بيت المقدس بالغزالية نسبة اليه : توفي بطوس سنة خمس وخمسمائة للهجرة ..

والامام الحافظ ابو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن احمد المعروف بابن القيسواني كذا اسمه في تاريخ ابن خلكان .. وقيل اسمه علي بن احمد بن محمد بن طاهر المقدسي الجوال في الآفاق الجامع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف .. ولد ببيت المقدس سنة ثمان واربعين واربعمائة .. وكان من المشهورين بالحفظ والمعرفة بعلوم الحديث ، وله في ذلك مصنفات مجموعات تدل على غزارة علمه وجودة معرفته ، وصنف تصانيف كثيرة منها : اطراف الكتب الستة ، وهي صحيح البخاري ، ومسلم ، وابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه (٧) .. ومنهم من اشتهر في الجغرافية نذكر منهم المقدسي (بفتح الميم) نسبة الى القدس أو المقدسي (بضم الميم) وتشديد الدال نسبة الى بيت القدس وهو

---

(٧) انظر تفاصيل علماء وفقهاء اخرين في كتاب الانس الجليل لمؤلفه مجير الدين الحنبلي ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ — ٣٠٢ .

شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري ويرجح أن وفاتـه كانت سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ ــ ٩٩٢ م ــ وكتابـه المشهور في الجغرافية [٨] « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » • نشره دي غويه، ليدن ، ١٨٧٧ ••

وقد برز في العهد الايوبي ، والعهد المملوكي العديد من العلماء والفقهاء في مدينة القدس تركوا آثارا خالدة في مؤلفاتهم وكتبهم •• كما شيدت في هذه الفترة العديد من المدارس ، والزوايا ، والمشاهد ، ودور الحديث والقرآن ، كلها تنطق عن عمق التراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين على ارض هذه البلاد المقدسة ••

ويشير مجير الدين الحنبلي في كتابه الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ــ الجزء الثاني ــ بشيء من التفصيل والدقة الى هؤلاء العلماء والفقهاء والقضاة الذين ظهروا في هذه الفترة ، كما يشير الى العدد الكبير من المدارس والزوايا ، والربط التي شيدت في مدينة القدس [٩]•

ولا بأس ان نذكر هنا عددا من هؤلاء العلماء والفقهاء ، وعدد من المدارس والزوايا وغيرها لكي تبرز المعالم الحقيقية للتراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين في بلاد فلسطين ••

اسس الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب المدرسة الصلاحية ، لما فتح بيت المقدس على يديه ، وجعلها للشافعية •• ونكتفي هنا بذكر بعض اسماء الفقهاء والقضاة الذين شغلوا المناصب في هذه المدرسة منهم:

---

(٨) أنظر ، عدي يوسف مخلص ، المقدسي البشاري ، النجف ، ١٩٧٣ ص ٢١ و ٢٥ •

(٩) يراجع بخصوص ذلك الانس الجليل ــ جـ ٢ ، ص ٣٣ ــ ٤٨ ،وص ١٠١ ــ ٢٩٨ •• لغرض الاطلاع على اسماء العلماء والفقه ، واسماء المدارس والزوايا والربط وغيرها بشيء من التفصيل •

شيخ الاسلام بهاء الدين •• بن تميم الاسدي الموصلي المولد والحلبي المنشأ المعروف بابن شداد •• اتصل بخدمة صلاح الدين سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس • توفي بحلب سنة اثنتين وثلاثين وستمائة •• ومن تصانيفه دلائل الاحكام على التنبيه •• وكتاب الموجز الباهر في الفقه ، وكتاب ملجأ الحكام في الاقضية ، وسيرة الملك صلاح الدين ••

ومنهم شيخ الاسلام مجدالدين طاهر بن نصر بن جهيل الحلبي الشافعي، كان اماما في الفقه ، والحساب ، والفرائض • صنف كتابا في فضل الجهاد، وهو اول من درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس الشريف •• توفي بالقدس في سنة ست وتسعين وخمسمائة •

وشيخ الاسلام تقي الدين ابو عمر عثمان •• وكان احد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه •• ومن تصانيفه ، مشكل الوسيط . وكتاب الفتاوى ، وعلوم الحديث ، وكتاب ادب المفتي والمستفتي •

ومن مشايخ الصلاحية ، الامام العالم الفاضل محي الدين ابو حفص عمر بن القاضي السعيد عزالدين •• وكان متوليا قضاء غزة ، وكان قضاء القدس من مضافاته ••

وشيخ الاسلام صلاح الدين ابو سعيد •• الدمشقي ثم المقدسي ، الامام البارع المحقق •• اقام بالقدس مدة طويلة يدرس ويفتي ويحدث ويصنف •• ومن تصانيفه القواعد مشهورة ، وهو كتاب نفيس يشتمل على علمي الاصول والفروع •• وجمع الاحاديث الواردة في زيارة قبر النبي (ص) •• ومن كتبه منحة الفرائض بعلوم آيات الفرائض وكتاب سماه تنقيح المفهوم في صيغ العموم •• توفي بالقدس الشريف سنة احدى وستين وسبعمائة ••

وقاضي القضاة شيخ الاسلام برهان الدين ابو اسحاق •• ابن جماعة

الكناني قاضي مصر والشام وخطيب الخطباء وشيخ الشيوخ وكبير طائفة الفقهاء •• انقطع ببيت المقدس ثم اضيف اليه تدريس الصلاحية وله مجاميع وفوائد بخطه وجمع تفسيرا في نحو عشر مجلدات ••

شيخ الاسلام رحلة الافاق والمحقق على الاطلاق عزالدين بن عبدالسلام ابن داود بن عثمان السعدي المقدسي •• مولده بقرية كفر الماء من عجلون في سنة احدى او اثنتين وسبعين وسبعمائة •• وحفظ كتبا من فنون شتى وحصل وبرع في العلوم ، وولى تدريس الصلاحية •• توفى سنة خمسين وثمانمائة ••

وغير من عشرات بل مئات العلماء والفقهاء عاشوا ارض فلسطين — ارض القدس — وتركوا فيها تراثهم الحي الخالد ••

ولقد لعبت المدارس ، والزوايا ، والربط وغيرها ، والتي اسست في العهد الايوبي ، والمملوكي — دورا كبيرا في ارساء قواعد التراث العربي — الاسلامي في فلسطين ••

ولا يسع المجال هنا الى ذكر جميع هذه المدارس لانها تتجاوز المئات •• ولا بأس ان نشير الى اسماء بعضها ••

المدرسة الصلاحية بالقدس : على المذهب الشافعي ..

المدرسة الفارسية : بداخل المسجد الاقصى

المدرسة الناصرية : على برج باب الرحمة

الرباط الخاتونية : واقفها افل خاتون

المدرسة الجاولية : واقفها سنجر الجاولي

المدرسة الباسطية : واقفها عبد الباسط بن خليل

المدرسة الطولونية : انشأها الظاهر برقوق

الزاوية الشيخونية : واقفها سيف الدين قطيشا

المدرسة البارودية : واقفها الست سفرى خاتون (١٠)

ويلاحظ من اسماء هذه المدارس ووقفيتها ان المرأة المسلمة كانت تلعب دورا كبيرا في خلق التراث الفكري والعلمي في مدينة القدس .. وبلاد فلسطين عامة .

لم يقتصر ظهور العلماء والفقهاء على مدينة القدس فقط ، وانما تعداه الى مدن فلسطينية اخرى ـ كغزة وعسقلان ، وطول كرم وغيرها .. وقد تركوا جميعا تراثا فكريا زاخرا حيا في مختلف مجالات اللغة والفقه والحديث والعلم والطب وسوف نعرض هنا بعض اسمائهم بدقة وايجاز..

لقد ذكرت سابقا الامام الشافعي ، ولا بأس هنا ان اذكره ثانية باعتباره من علماء غزة ، ومؤسس المذهب الشافعي .. وكان ادريس والد الشافعي قد اتى غزة واتخذها مقرا له ومات فيها .. واما امه فالمشهورة انها يمانية من الازد .. ولد الشافعي بغزة في العام الذي توفى فيهالامام ابو حنيفة النعمان ..وحياته من (١٥٠ هـ / ٧٦٧م ـ ٢٠٤ هـ /٨٢٠م).. وكان الشافعي ذكيا مفرطا برع في اللغة وايام العرب ، كما برع في الفقه والحديث : ويروي له بذكر موطنه غزة قوله :

واني لمشتاق الى ارض غـزة   وان خانني بعد التفرق كتماني
سقىالله ارضا لو ظفرت بتربتها   كحلت من شدة الشوق اجفاني

وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب الام في الفقه ، وهو كتاب ضخم ،وله ايضا المسند في الحديث ..

ومن مشاهير غزة في العهد المملوكي :

عمر بن محمد بن علي بن فتوح سراج الدين حفص الغزي ، برع في النحو والقراءات والحديث والفقه .

---

(١٠) لغرض الاطلاع على اسماء العديد من هذه المدارس يراجع كتاب الانس الجليل جـ ٢ ، ص ٣٣ ـ ٥٠ .

واشتهر ايضا في غزة كل من :ـ

الحسن بن الفرح الغزي ، فقيه ورواية من رواة القرن الثامن للهجرة ..

وابو عبدالله محمد بن الجراح الغزي ، من رواة الحديث وفقهاء القرن الثالث للهجرة [11] وابو بكر محمد بن العباس بن وصيف الغزي، عالم فقيه توفى عام ٣٧٢ هـ [12] .

وابراهيم بن عثمان الكلبي الاشهبي الغزي ، ابو اسحق ٤٤١ هـ ـ ٥٢٤/١٠٤٩م ـ ١١٣٠م ويعد من مشاهير من انجبتهم غزة ، فهو شاعر مجيد ، يضرب المثل بجودة شعره ، ذكره الحافظ الذهبي بقوله : «شاعر العصر ، وحامل لواء القريض » وله ديوان شعر في نحو (٥٠٠٠بيت)[13]

ومن ابرز نواب غزة ، الذي مر ذكره سابقا ، هو الجاولي الشافعي ، والجاولي هذا هو الذي رتب « مسند الشافعي » ترتيبا حسنا ، وشرحه في مجلدات ...

ومن العلماء الاخرين الذين اشتهروا في الطب ـ محمد الريس[14].. وكان طبيبا حاذقا ، وقد اشتهر في طبه وحكمته ، وله تأليف في الطب، واشتهر في سوريا ومصر ، وتوفي بالقدس عام ١١٣٠ هـ /١٧١٨م .

ومنهم ايضا كمال الدين البكري ١١٤٣ هـ ـ ١١٩٦هـ / ١٧٣١ م ـ ١٧٨٢م ، وهو شيخ علامة صوفي واديب شاعر من فقهاء الحنفية بفلسطين،

---

(١١) انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤\٢٠٣ .

(١٢) انظر ابو الفلاح الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ٣/٧٩ ..

(١٣) انظر الحافظ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، الكويت ،١٩٦٣، ١\٥٥ .

(١٤) انظر ، المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر القاهرة ، ٤\٥٩ .

ولد في القدس وتوفي في غزة ، له مؤلفات وديوان شعر .

وفي مدينة عسقلان اشتهر عدد كبير من العلماء نذكر منهم :

ابان بن صالح بن عمير القرشي ، من رواة الحديث ولو سنة ٦٠هـ، ومات بعسقلان سنة بضع عشرة ومائة [١٥] ..

وعمر بن محمد بن يزيد بن عبدالله بن عمر العمري من الرواةوالعباد، وكان افضل اهل زمانه ، توفي في عسقلان سنة ١٥٠ هـ [١٦] ..

واحمد بن حجر العسقلاني الاصل ، المصري المولد والمنشأ ٧٧٢هـ ــ ٨٥٣هـ /١٣٧٢م ــ ١٤٤٩ م وهو الفقيه والمحدث والمؤرخ ، ويعرف بابن حجر العسقلاني من أئمة العلم والتاريخ ، واما تأليفه فقد زادت على المئة وخمسين كتابا منها :الاصابة في تمييز الصحابة ، والدرر الكامنة فياعيان المئة الثامنة ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ، ولما توفي مشى في جنازته في القاهرة اكثر من خمسين الف انسان .

وفي طول كرم ، برع علماء وفقهاء كثيرين ، نذكر منهم :ــ

الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي ، تصدر للافتاء في الجامع الازهر، ذكره المحيي محمد بقوله : « احد اكابر علماء الحنابلة بمصر ، كان اماما محدثا فقيها ذا اطلاع واسع » له نحو سبعين مؤلفا ، توفي في عام ١٠٣٣هـ

ويوسف بن يحي بن مرعي الكرمي ، اخذ العلم منعلماء مصر ،تصدر للافتاء في بلاد نابلس ، توفي عام ١٠٧٨ هـ .

وفي قلقيلية ــ ينسب اليها الكثير من رجال العلم والفضل ، ومن اقدم علمائها الشيخ شمس الدين محمد بن احمد بن ابراهيم مفلحالقلقيلي

---

(١٥) عن تهذيب بن عساكر ، ٢/١٣٠

(١٦) عن شذرات الذهب ، ١\٢٠٩ .

٧٧٦هـ ـ ٨٥٢ هـ كان شيخا صالحا ، عالما كثـير العبادة ، ونزل ببيت المقدس ، وبها توفي ••

وفي نابلس اشتهر محمد بن احمد بن سالم السفاريني شمس الدين ابو العون (١١١٤ هـ ـ ١١٨٨ هـ) عالم بالحديث ، والاصول والادب ، درس وافتى بنابلس ، وفيها توفى ، له مؤلفات وشعر رقيق ••

من هذا العرض الدقيق الشامل تبرز لنا قيمة التراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين على ارض فلسطين العربية •

ولنا وطيـد الامل ان تبرز بحوثا ودراسات اخرى في هـذا المجال ومجالات اخرى ، لكي نوضح بشكل علمي موضوعي معالم تراثنا الخالد على كل ارض وبلد من هذه المعمورة •

والله ولي التوفيق

ملامح من تاريخ :

حركة الخوارج الاباضية

كما تكشفها مخطوطة الأزكوي

الدكتور فاروق عمر فوزي
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة :

لقد اضافت البحوث التاريخية الحديثة الى معلوماتنا عن الحركة الاباضية خاصة وحركة الخوارج عامة اكثر مما اسهم به ولها وزن وقبله برونو [١] . وممن برز في هذه البحوث الحديثة مستشرقين امثال Rubinassi و Watt و Gabsicli و Vaglievi و Lewicki و Wilkinson و Scascia [٢] . وقد استطاعت هذه البحوث ان تلقي ضوءا

---

(1) Wellhausen, **The Arab Kingdom and its fall**, Calcutta, 1922.
Idem, **Die religios-politischen Oppositions parteren in alten Islam**, Berlin 1901 (Arabic trans).

(٢) R. Rubinacci - Califfa Abd al-MaliK b. Marwan egli lbaditi, ALON, 1953 pp. 99 - 121
M. watt Khazijite thought in the Umayyad period, D. I., 35, 1961.
F. Gabrieli - La Poesia Harigita nel Secola degli Omayyade, R. S. O., 20, 1943.

جديدا باعتمادها على مصادر لم تكن معروفة سابقا وخاصة ما يخص منهـا وجهة النظر الخارجية التي كانت مغمورة او غامضة لحد الآن بسبب معارضة هذه الحركة للخلافتين الاموية والعباسية معا . ومعلوم ان المؤرخ المحقق لا يمكنه ان يكون صورة اقرب ما تكون الى الحقيقة الا اذا قرأ «ماتحدث به او كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعا » (٣) بشرط الا يسخر ما يقرأه الي تطبيق نظرية مسبقة في ذهنه لأنه سيصل حتما الى نتيجة بعيـدة عن الواقع ذلك ان « البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم اذا سخرت لأيـة نظرية او رأي سابق » (٤) . ان اهم المصادر التي وصلتنا عن تاريخ الحركة الاباضية وخاصة في اقليم عمان هو مخطوطة سرحان بن سعيد الازكوي الموسومة (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) والتي ألفها حوالي سنـة

→

L. Vaglieri - Le Vicende Del Harigismo in epoca Abbasside, R. S. O., 24, 1949,

idem - L'imamats ibadita dell 'Oman, ALUON, 3, 1949.

T. LewiciKi - Les lbadites en Tunicie au Moyen Age, Conference BAPR, 1958.

wilKinson - The Origins of the Omani State (in Arabian peninsula), London 1972.

Scarcia - Lo scambio di letters... ALVON, xiv, 1964.

E. Salem - Political theory and Institutios of the Khawarij, (J. H. U. S.), series XLLIV, no: 2. 1966.

د . محمود اسماعيل عبد الرزاق ــ جدل حول الخوارج وقضيـة التحكيم المجلة التاريخية المصرية ، ٢٠ ، ١٩٧٣ .

R. Bathurst, The Ya'rubi dynasty of Oman, D. phil, Oxford, 1976 (see also The Arabian Peninsula, pp. 89 - 107) .

(٣) راجع طه حسين ، الشيخان ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٨ـ٩ .

(٤) إتيين دينيه ، **الشرق في نظر** الغرب ، ترجمة عمر فاخوري (اراء غربية في مسائل شرقية) دمشق .

١٧٢٨م /١١٤١هـ وتتألف المخطوطة من اربعين بابا تشتمل الأبواب الثلاثة الاولى على ذكر اخبار الجاهلية واعتقادات اهل الشرك وذكر ملوك العرب والعجم واخبارهم • ويختص الباب الرابع في ذكر انتقال الازد الى عمان وطرد الفرس منها •

اما الابواب التالية حتى الباب السادس والعشرون فيشمل على اخبار الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده • ويختص الباب السابع والعشرون بذكر جواب عبدالله اباض لعبد الملك بن مروان •

اما الباب الثامن والعشرون فيشتمل على الفرق الاسلامية وهو لاشك مهم لأنه يظهر بوضوح رأي الاباضية في الفرق الاخرى وموقف الاباضية من فرق الخوارج الأخرى (الفصل الثالث) ويفصل الباب التاسع والعشرون في اعتقادات الاباضية وهي وجهة نظر مهمة لأنها منبعثة عن مؤلف خارجي العقيدة يتكلم عن فرقته• ولا شك فانه يندر ان نجد في مصادرنا التاريخية روايات تعبر عن وجهة نظر الخوارج انفسهم •

وتعود اهمية الباب الثلاثين في كونه يبحث في اخبار الدولتين الاموية والعباسية فيعطي وجهة نظر الخوارج الاباضية فيهم !!

اما الابواب التالية من الباب الحادي والثلاثين الى الباب الثامن والثلاثون فهي تركز على الحركة الخارجية الاباضية وانتشارها في المغرب وعمان • والواقع ان بابا واحدا منها خصص للمغرب وهو الموسوم (في ذكر انتشار المذهب الاباضي بارض المغرب وذكر ائمتهم وعلمائهم) • وتبدأ الابواب الاخرى في سرد تاريخ عمان من انتشار الاسلام فيها حتى حكم اليعاربة •

اما الباب التاسع والثلاثون ففيه ذكر لتواريخ بعض الصحابة وعلماء الاباضية في عمان وغيرها ويختتم المؤلف كتابه بالباب الاربعين التي تتعلق بامور دينية عقائدية بحتة ولا شك ان وجهة نظر المؤلف ـــ وهو خارجي ـــ

في هذه الامور مهمة ايضا لأنها تعكس موقف الخوارج الاباضية منها.[٥]

ان مقارنة هذه المخطوطة بغيرها من التواريخ المحلية القليلة عن عمان يظهر لنا بوضوح ان (كشف الغمة) يعتبر من احسن ماكتب في التاريخ المحلي تكاملا ووثوقا فيما يتعلق بتاريخ هذا الاقليم .[٦]

الأباضية والدولة الأموية :

يشير كتاب (كشف الغمة الجامع لاخبار الامة) الى مراسلات تمت بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومؤسس الاباضية عبدالله بن اباض وتؤكد هذه الرسائل مصادر اباضية اخرى . ولا تهمنا هنا المسائل التي دارت حولها الرسائل ولكن يبدو ان عبد الملك بن مروان افلح في اقناع ابن اباض باتباع سياسة (العقود) بل نجح كذلك في اشغاله بامور الفكر والعقيدة عن امور الحرب والسياسة[٧] . على ان الحركة الاباضية لم تستمر في منهجها هذا بل نشطت بعد عهد عبد الملك بن مروان كبقية الحركات الخارجية الصغرية والنجدات فشغلت الدولة الاموية عن مجابهة نشاط الحركات السرية الاخرى كالدعوة العباسية مثلا التي نشطت في العراق وخراسان منذ حوالي سنة ٩٨هـ / ٧١٦م .

وفي سنة ١٢٩هـ /٧٤٦ ـ ٧٤٧ م كان خوارج الجزيرة من اقوى الجماعات الخارجية ، وقد انتخبوا شيبان[٨] بن عبدالعزيز اليشكري

---

(٥) المخطوطة كبيرة في حجمها وقد بدات فعلا بتحقيقها ، وارجو ان تظهر في المستقبل لتكشف لنا معلومات جديدة عن تاريخ الاباضية عامة وتاريخ عمان خاصة ، وكذلك الارتباط الوثيق بين اباضية المغرب العربي وعلماء الاباضية في المشرق (خاصة البصرة) .

(٦) فاروق عمر ، ببليوجرافيا في تاريخ عمان ، **مجلة المورد** ، ١٩٧٥

(٧) Rubinacci, Codiffo Abd al-Malik..., **AIUON,** 1954, p. 104

(٨) الطبري القسم الثاني ص ١٩٤٨ ، ١٩٧٢ ، ١٩٩٥ ـ١٩٩٧ .

الحروري اماما لهم ثم زحفوا نحو الموصل واحتلوها وطردوا والي الامويين عليها • وفي الوقت ذاته انبثقت حركة اباضية في حضرموت [٩] واحتلت صنعاء ثم زحفت من هناك الى مكة والمدينة • ولكن الضربات المتتالية التي الحقها مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين على الخوارج كانت ذات اثر فعال في شلها واعاقتها ربما عن تأسيس كيان خاص بها فقد تبعثرت الجماعات الخارجية في اقاليم مختلفة من الدولة بعيدة عن المركز مثل عمان وسجتان وكرمان وافريقيا • وقد نجح مروان في طرد شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي هرب الى منطقة الخليج العربي وتشير روايات الى انه قتل في البحرين او عمان • اما زعماء الاباضية في اليمن والحجاز فقد لاحقوا حتفهم كذلك وتفرقت جموعهم •

ورغم النكسات السياسية والعسكرية التي حلت بالخوارج في العصر الاموي فقد ظلت ارائهم وعقائدهم تنتشر وتجد لها اذنا صاغية • وقد لعبت البصرة في القرن الاول الهجري وخاصة في العصر الاموي دورا فعالا في بلورة العقيدة الخارجية ذلك لانها كانت مركزا مهما للنشاط الفكري عامة• بل ان نشاط الجماعات الخارجية فكريا في البصرة استمر خلال السنين الاولى من العصر العباسي الاول [١٠] • وليس أدل على ذلك من ان عبدالرحمن بن رستم تلقى علومه واصول عقيدته الاباضية على يد فقهاء الاباضية من البصرة ثم عاد الى المغرب ومعه جماعة من الاباضية احدهم ابو الخطاب الذي اصبح بعد ذلك بمدة وجيزة اول امام اباضي في المغرب•

فمن البصرة ترك ابو الخطاب وعبدالرحمن بن رستم لنشر المذهب الخارجي في المغرب وقد صادف الاثنان ظروفا جيدة ونجحا في تنفيذ خطتهما في البدء • رغم ان الامور ساءت بالنسبة لابي الخطاب فيما بعد •

---

(٩) الازدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦ ص ٧٧ فما بعد .

(١٠) الازكوي ، **كشف الغمة** ، مخطوطه في المتحف البريطاني .

وهذا يوضح الارتباط الفكري الوثيق بين خوارج المغرب وخوارج المشرق العربي • بل ان البصرة كانت البؤرة لفكرية التي كان زعماء الاباضية في المغرب يعتمدون عليها •

الامامة الاباضية في عمان :

إن دراسة التاريخ السياسي لاقليم عمان لا يمكن ان يتم ، كما يشير الى ذلك البروفسور ولكنسون [١١] ، دون دراسة اصول التنظيمات القبلية وانماطها وعلاقة ذلك بالامامة الاباضية • ذلك لان هناك ثلاثة ظواهر تتحكم في تاريخ هذا الاقليم وهي : القبلية ـ الامامة ـ ثم الصراع بين العمانيين والاجانب للسيطرة على الساحل العماني لأهميته الاقتصادية •

وقد قبل بنو الجلندي العمانيون الاسلام ، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ازداد انتشار الدعوة وزادت قوة بنو الجلندي الازديون الذين استطاعوا طرد الفرس من الاقليم والسيطرة على الداخل بما فيه من جبال وصحارى بينما بقيت جماعات فارسية غازية تتمركز على الساحل • [١٢]

ولا تشير مصادرنا بصورة دقيقة حتى اصبحت الاباضية العقيدة الواسطة الانتشار في عمان ويرى الدكتور باثيرست [١٣] انه ربما كان هناك ائمة خوارج قبل الاباضية •

على أننا نعتقد بان تأسيس الامامة الاباضية يعود في الاعم الاغلب الى الاندحارات التي قاست منها الحركة الاباضية في اليمن والحجاز وهرب الخوارج الذين اشتركوا في هذه الثورات الى اقليم عمان • ولم يتم تكوين

---

(١١) Wilkinson, op. cit., p. 67   Ibadiyya **E. I. (2)**

(١٢) الازكوي **المصدر** السابق ، (الباب الرابع) •

(١٣) Bathurst, Maritime trade and imamate government (The Arabian peninsula) p. 90.

هذا الكيان السياسي الاباضي الا بعد سقوط الامويين ويحيي العباسيين حيث انتخب خوارج عمان الجلندي بن مسعود اماما اولا حوالي سنة ١٣٥ هـ /٧٥٢ او قبل ذلك بقليل .(١٤)

ولكن لماذا اقليم عمان ...؟؟

ربما سيرد ذلك كما ذكرنا الى وجود جماعات خارجية في هذا الاقليم قبل هذا التاريخ والى انتشار العقيدة الخارجية هناك .

هذا اضافة الى ان قبائل الازداليمانية اعتادت على نوع من الاستقلال وعدم الخضوع للسلطة المركزية ولعل الشواهد الكثيرة في صدر الاسلام تثبت صعوبة السيطرة على قبائل هذا الاقليم . (١٥)

ولكن الاهم من هذا وذاك الموقع الجغرافي وصعوبة الطبيعةووعورتها في هذا الاقليم . فلعمان موقع جغرافي ممتاز يتحكم بمدخل الخليج العربي ويقابل البحر العربي الذي يتصل بالمحيط الهندي ذو الاهمية التجارية والاستراتيجية . اما في الداخل فالاقليم يختلف في طبيعته من جبال شاهقة وعرة الى سهول منبسطة خصبة الى صحراء جرداء قاحلة ولهذا فيمكننا تشبيه عمان بجزيرة كبيرة يحدها البحر من الشرق والجنوب وتحدها الصحراء (البحر الرملي) من الغرب فتفصلها عن بقية اجزاء الجزيرة العربية .

لقد اثرت هذه الطبيعة الجغرافية على اهل عمان فقد اخذوا على البحر

---

(١٤) F. Omar, The Abbasid Caliphate 750-786 A.D., Baghdad, 1969, p. 289

(١٥) الازكوي ، المصدر السابق ، ورقة ٣٢٧ أ .ـ خليفة بن خياط ، تاريخ ، بغداد ، ١٩٦٧ ج ١ ص ٢٧٧ . ص ٣٠٠

(١٦) P. Harrison, The Arabs of Oman, M.W., 24, 1934 pp. 262-70

وعرفوا بكونهم ملاحين مهرة ولكن لم يشغلهم البحر عن ارتباطاتهم الوثيقة باخوانهم ببلاد العرب وخاصة حضر موت واليمن فكانت هناك اعداد كبيرة من ابناء القبائل اليمانية المهاجرة الى عمان قبل الاسلام وبعده (١٧) .

وقد ساعدت الجبال الشاهقة والوعرة سكان هذا الاقليم الاعتصام بها في حالة هجوم اجنبي غازي عبر الخليج العربي. وبعد ان ينظم العمانيون انفسهم ويستعدوا للمجابهة يهاجموا الغزاة ويجبروهم على ركوب البحر والعودة من حيث اتوا . وفي هذا المجال اتبع العمانيون اساليب وطرق بحرية للدفاع عن بلدهم والتصدي للمعتدين !!

منعطفات مهمة في تاريخ الامامة الاباضية بعمان :

ومنذ تأسيس الامامة الاباضية او كما يسمونها هم «الامامة الاسلامية» بانتخاب الامام الاول الجلندي لم تشهد عمان استقرارا كافيا بل تناوبت فيها السلطة بين الائمة الاباضية وبين ولاة السلطة العباسية .

فقد استطاعت الخلافة العباسية في عهد ابي العباس ان تعيد سلطتها على عمان سنة ٧٥٣م/١٣٦هـ حين ارسلت جيشا بقيادة خازم التميمي استطاع ان يسقط الامام الجلندي ابن مسعود (١٨) .

ثم عادت الامامة الاباضية لتحكم الاقليم في حوالي سنة ١٧٧ هـ ٨٩٣ ــ ٧٩٤م او قبل ذلك بقليل حيث حكم البلاد خمسة ائمة متتابعين حتى سنة ٨٨٧م/٢٧٤هـ ، استطاعوا خلالها ان يردوا هجمات السلطة العباسية والقراصنة على الساحل العماني .

الا ان العصبيات القبلية والاضطرابات الداخلية ادت الى سقوط آخر

---

(١٧) الازكوي ، المصدر السابق ، (الباب الرابع)

(١٨) الازكوي Op. cit. (الباب ٣١ ــ ٣٨).

هؤلاء الأئمة الخمسة فتردت البلاد الى حالة من الارتباك وعدم الاستقرار كان نتيجتها استنجاد النزارية بوالي البحريـن العباسي سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤ م ٠

ان المنعطف المهم في تاريخ الامامة الاباضية في عمان يعود الى حملة سنة ٢٨١ هـ آنفة الذكر فقد اعد الخليفة العباسي المعترض جيشا قويا اعطى قيادته الى والي البحرين الذي اجتاح الاقليم واعاد النفوذ العباسي اليه[19]

ولكن سيطرة العباسيين كانت وقتية فقـد أقصي الوالي العبـاسي وتعاقب على حكم الاقليم ثمانية ائمة اباضية جاءوا بطريق الانتخاب حتى سنة ٩٣٠ ـ ٩٣١م /٣١٩هـ حينما نجح القرامطة في مد نفوذهم الى عمان. ومع ذلك فقد بقيت اجزاءا من عمان تحت حكم الأئمة حيث حكم خـلال هذه الفترة بالذات ثلاثة ائمة آخرين ٠

ثم استطاعت قوة عباسية جديدة ان تتحكم بالاقليم سنة ٩٤٣م/٣٣٢هـ بصعوبة حيث جابهتها ثورات خارجية اباضية متعددة ٠ وقد تميزت هـذه الفترة الاخيرة بصراع حاد بين ائمـة الاباضية من حين وبيـن البويهيين والقرامطة من جهة أخرى للسيطرة على عمان ٠ وقد نجحت السلطة العباسية او من يمثلها [البويهيون] في ايجاد الاعوان من زعماء القبائل والشيوخ المحليين ليكونوا سندا لها ضد الاباضية ٠ ورغم ذلك فان شيعة الخوارج وانصارهم كانوا كثرة في هذا الاقليم وبقوا كذلك الى فترة متأخرة ٠

ان الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار ومضايقات السلطة العباسية والقرامطة لم تؤثر كثـيرا على تجارة عمان [20] فقـد استمرت التجارة في ازدهارها وجلبت لهذا الاقليم أحيانا وفرة ورضاءا ٠

---

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) Bothurst, op. cit, p. 91

نشوء الامامة الاباضية في المغرب العربي :

تؤكد مخطوطه الازكوي اثر المشرق وخاصة البصرة في بث العقيدة الخارجية الاباضية بالمغرب العربي كما اشرنا الى ذلك سابقا ، ويخصص المؤلف بابا في (ذكر انتشار المذهب الاباضي بارض المغرب وذكر ائمتهم وعلمائهم) • (٢١)

وقبل ان نستشهد بنصوص تاريخية من هذه المخطوطة نود أن نشير بان ارض المغرب كانت ارضا خصبة لنشر العقيدة الخارجية حيث انتشر المذهب الاباضي والصفري في مناطق شاسعة رغم انها متنارثة • وبقدر ما يتعلق الامر بالاباضية ، موضوع بحثنا ، فقد انتخب ابو الخطاب اول امام للاباضية سنة ١٤٠هـ/٧٥٧ ــ ٧٥٨م • وبعد ذلك باربع سنوات (سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١م) اسس عبد الرحمن بن رستم حكما اباضيا في تاهرت كتب له في المستقبل ان يؤثر على مجموع الحركة الخارجية في افريقيا ، وتمتع ائمة تاهرت شبوة واسعة وصلت المشرق العربي • وتشير روايات عديدة الى بعثات ذهبت من المشرق الى ابن رستم محملة بالهبات المالية والهدايا العينية (٢٢) • ويظهر ان خوارج المشرق العربي من الاباضية خاصة الذين رأوا في تأسيس الدولة الخارجية في المغرب العربي امكانية احياء العقيدة الخارجية وبعث تراثها القديم • وترى الاستاذة فاكاتيري بان خوارج البصرة « الذين يخشون السلطة العباسية القريبة منهم والذين اعتادوا ان يخفوا معتقداتهم تقية ، ارتأوا مساندة الحركة الخارجية في المغرب بالمال والنصح منذ السنين الاولى للحكم العباسي » •

وفيما يلي نصوص مخطوطة (كشف الغمة الجامع لاخبار الامة)

---

(٢١) الازكوي ، المصدر السابق ، (الباب الثاني والثلاثون) . ــ قارن محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، ١٩٦٣ ، ص٤٣٢ •

(٢٢) راجع Vaglieri, Le Vicende..., R.S.O., 1949, p. 33

تنشر لأول مرة ، وهي من الباب الثاني والثلاثون وتتعلق بانتشار المذهب الاباضي في ارض المغرب :

« قيل ان اول من مضى بالمذهب الاباضي من البصرة سلمة بن سعيد قدم لي قيروان افريقية هو وعكرمة مولى ابن عباس وهما راكبان على جمل واحد . سلمة يدعو الي الاباضية وعكرمة يدعو الي الصفرية . وقيل ان سلمة قال وددت ان يظهر هذا المذهب بارض المغرب يوما واحدا من غدوه الي الزوال فما ابالي ضربت عنقي ..

ثم ان عبدالرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي كان اصله من العراق وكان ابوه رستم عنده من العلم ان ذريته تسلي ارض المغرب . فاقبل متوجها من العراق ومعه ولده عبد الرحمن وامه وزوجته ام عبد الرحمن ، فلما كان قريبا من مكة ادركه صمامه فانقضت ايامه ، فالتقا عبد الرحمن وامه مع الحجاج من ارض المغرب بمكة فتزوجت ام عبد الرحمن رجلا من اهل المغرب من القيروان ، فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وافصح واجتهد في طلب علم الدعوة الاباضية فقال له رجل من اهل هذه الدعوة يافتى ان كنت تريد علم هذا الامر الذي كلفت به وعلقته ببالك فدونك ارض البصرة فان بها عالما يكنى ابا عبيدة واسمه مسلم بن ابي كريمة التميمي فانك تجد عنده ما تطلبه .

وقيل ان امه قالت له ذلك فلما اراد الخروج الى البصرة خرج معه اربعة انفار احدهم ابو الخطاب عبد الاعلا بن السمح المغافري ومغافر قبيلة من العرب ، وعاصم

السدراني واسماعيل بن داران القدامسي وابو داود القبلي •

فلما التقوا بابي عبيدة صافحتم وسالهم عن احوالهم ومن اين اقبلوا فأخبروه انهم من اهل المغرب وانهم ارادوا تعلم العلم فاجابهم الى ذلك فسكثوا عنده سنين عدة •

وكان الشيخ ابو عبيدة مستخفيا متخوفا من بعض امراء البصرة وادخلهم سربا وجعل فيه سلسلة وقعد على باب السرب يعمل القفاف فاذا رأى احدا حرك السلسلة فيسكتون • فاذا مضى حركها فيأخذون في قراءتهم •

وكان عبد الرحمن شابا جميلا حدث السن • وكان ابو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا لئلا يشغلهم بجماله، فلما بلغوا من العلوم ما قدر الله لهم وارادوا الانصراف الى بلادهم استأذن العجائز ابا عبيدة وطلبن ان يريهن عبد الرحمن يدعون له فاجابهن وادخلهن عليه وكن ثلاثا ودعت له واحدة وقالت بارك الله فيك كما بارك في عين الشمس وقالت الثانية بارك الله فيك كما بارك في البصر وقالت الثالثة بارك فيك كما بارك في طيب الطعام من الملح•

فلما ارادوا المسير كلموا ابا عبيدة واستشاروه في شأنهم فقالوا يا شيخنا اذا كانت لنا في بلادنا قوة ووجدنا من انفسنا طاقة تتولى على انفسنا رجلا منا أو ما ترى قال فتوجهوا الى بلادكم فان حان امر دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على انفسكم رجلا منكم فان ابى فاقتلوه واشار الى ابي الخطاب (رض)

فلما رادوا الخروج من عنده تهيأ الشيخ للركوب لموادعتهم وجعل رجله في الركاب سأله اسماعيل عن ثلاثماية مسئلة من مسائل الاحكام قبل ان يستوي على متن ركابه فقال له ابو عبيدة أتريد ان تكون قاضيا يا ابن داران قال أرأيت ان ابتليت به يرحمك الله .

ثم توجهوا الى بلادهم فلما قدموا طرابلس اهتم بامور المسلمين من له نظر فيهم من المشايخ فاجتمع جماعة من المسلمين بعدما اقتتل الحارث وعبد الجبار والناس في الكتمان، فكانوا يجتمعون ويذكرون عقد الامامة فاجالوا النظر واطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه وهل يكون لهم قوة على عدوهم وكان اجتماعهم في موضع يقال له صياد غربي مدينة طرابلس فيظهرون انهم انما يجتمعون في امر رجل وزوجته اختصما فاذا اجتمعوا او فرغوا من كلامهم توجهوا الى عامل المدينة فيسلمون عليه مداراة .

ثم انهم عرضوا الامامة على عبد الرحمن بن رستم فاعتذر اليهم بأماين كانت عنده للناس ثم اتفق رأيهم على ابي الخطاب وجعلوا بينهم يوما معلوما ليجتمعوا فيه بالصياد وتعاهدوا على ان يأتي كل واحد منهم بمن تبعه من الرجال بالسلاح ويجعلون الدرعة في الغرائر ويحشونها بالتبن . وكانت بينهم وبين مشايخ المسلمين من اهل المدينة ومن لا يقدر على النهوض معهم علامة اذا رأوهم دخلوا المدينة بحمايتهم ان يشهروا السلاح ويظهروها . واخبروهم ان الامام ابو الخطاب في السر .

فلما كان بالموعد اجتمعوا فيه بعامة المسلمين من شيوخ البربر من بقوسة وهوارة وحريشة وغيرهم من افناء

القبائل فلما توافوا بصياد وقد اخرجوا ابا الخطاب حين خرجوا وقالوا له امض معنا على بركات الله وعونه في هذا الامر الذي تحيرنا فيه منذ زمان فخرج معهم ولم يدر ما يريدون منه وهو غافل عن مرادهم فلما وصلوا الى صياد تكلم متكلمهم فقال : أليس قد اجتمع رأينا على ماعلمتموه قالوا بلى قال فأتموا امركم فقامت منهم طائفة بناحية فتكلموا فيما بينهم ثم رجعوا فقالوا لأبي الخطاب ابسط يدك لنبايعك على ان تحكم فينا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واثار الصالحين من عباده • فقال لهم استغفلتموني وليس لهذا خرجت اليكم • فقالوا له لا بد لك من الدخول في امور المسلمين • فلما رأى الحقيقة منهم والجد قال لهم لا اقبل امامتكم الا بشرط فقالوا كل شرط يجوز فنحن معطوكه ونطيعك فيه • قال شرطي عليكم الا تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار خوفا منه عليهم ان يكون في جماعة المسلمين فرقة واختلاف •

وحدث بعض اصحابنا ان مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت الى أرض المشرق ، وكان بينهم فيها اختلاف وفرقة • وفي المغرب اشد من ذلك حتى كتب اليهم ابو عبيدة مسلم ابن ابي كريمة وابو مودود صاحب رحمهما الله يأمرانهم بالكف عن ذكرهما فاراد ابو الخطاب ان يقطع الاحقاد من جماعة المسلمين بامانة ذلك •

فقالوا له لك ذلك علينا وبايعوه على الاقامة بحق الله على مافي الكتاب والسنة واتباع الأئمة المهتدين فقبل مبايعتهم وذلك على رأسماية واربعين سنة من الهجرة •

ثم اجتمع رأيهم على دخول مدينة طرابلس وكان بها عامل لابي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس فعمدوا الى جواليق فادخلوا فيها الرجال بسلاحهم وجعلوا افواه الجوداليق مربوطة من داخلها فحملوا على كل حمل رجلين بسلاحهما ومضوا كأنهم قافلة جاءت من البرية حتى توسطوا المدينة ولم يفطن لصنيعهم احد فاناخوا ركابهم وخرجوا الرجال من الجواليق بايديهم السيوف المصلتة فنادوا لاحكم الا لله لاطاعة الا طاعة أبي الخطاب وقصدوا نحو العامل ليقتلوه فابى عليهم الامام وقال انما دخلنا عليهم بامان .

ولما نظر اليهم اهل المدينة وقد اشهروا السلاح قالوا هذه غدرة قال المسلمون ليس هذا بضرر لا بأس عليكم فمن اراد منكم العافية فليقم في منزله وخير ابو الخطاب العامل في الاقامة بالمدينة وينخلع من العمالة او الخروج بامان فاختار الخروج ودفع الى ابي الخطاب مفاتيح بيت المال فأخذها منه واستقام الامر لأبي الخطاب واحسن السيرة في رعيته وعدل في حكمه وقضيته .

ثم كتبت اليه امرأة من القيروان تشكو اليه جور الورقمومة وكانت ورقمومة مستولية على القيروان ،فكتبت اما بعد يا امير المؤمنين ان لي ابنة لم احرزها الا في حفرة حفرتها تحت سريري مخافة عليها من الورقمومة ان يفسدها فوصل اليه كتابها وهو يتوضأ فقرأه وصار يبكي رحمة لها لما نزل بها فأمر فنودي بصلاة جامعه فاجتمع اليه الناس فصلى بهم وصعد المنبر وقام خطيبا فحمد الله واثنى عليه

خيرا ورغب اصحابه في الجهاد وامر رعيتـه بالاستعـداد للحرب وخرج من المسجد فلما وصل باب المسجد سل سيفه وكسر غمده وقال لا حكم الا لله ترغيبا منه المسلمين للجهاد وغضبا منه لله ولدينه •

وبلغنا من طريق آخر ان ورقمومة اخرجوا من القيروان امرأة وهي تصبيح وتقول اعينوني معاشر المسلمين فلم تجد احدا يرفع عنها ما بها فلما بلغ ابا الخطاب رضي الله عنـه اجابها واغاثها بمعاشر المسلمين •

وذكر بعض اصحابنا ان امرأة من اهل القيروان ظلمها ورقمومة فصاحت من القيروان يا ابا الخطاب اغثني فأمد الله صوتها وسمعها ابو الخطاب من مدينة طرابلس فقـال مجيبا لها لبيك يا اختاه لبيك فعند ذلك امر مناديه بالنفيـر وخرج عسكر على طرف المدينة حتى اجتمع اليه من اصحابه جموع كثيرة ثم خرج بمن اتبعه واتبعه عبد الرحمن بـن رستم رضي الله عنـه وخرجوا في سنـة محلة ذات جوع وجدب فأمرهم فيهـا بالخراج فاذا نزلوا نزل عليهـم واذا ارتحلوا ارتحل معهم •

وبلغنا ان ابا الخطاب رضي الله عنه لما خرج امر مناديه فنادى ايها الناس من كان لـه ابوان كبيران او اب واحـد فليرجع ومن كانت له عروس صغيرة فليرجع ومن كـانت له عروس قريبة العهد فليرجـع ومن اراد منكم الرجوع فليرجع بليل فلما جنهم الليل رجعت طايفة من عسكره فلم يزل ينادي فيهم ثلاث ليالي كل ليلة ترجع طائفة وبقي من له

رغبة في الجهاد وعدتهم ستة الاف ولم يرجع بعد الثلاث احد ....

وبلغنا ان ابا الخطاب مر على مدينة قابس فحاصر اهلها حتى صفقوا واذعنوا له بالطاعة فجعل عليهم عاملا ولما وصل لأرض القيروان حاصرهم أشد الحصار ما شاء اللهثم ان عاصم السدراني مرض مرضا شديدا وكان من خيار العسكر وهو احد الخمسة الذين حملوا العلم وهو اشد شوكة على اهل القيروان فعلم اهل القيروان بمرضه وانه اشتهى قثاة فبعثوا [من سمه بها] ... فاستشهد رحمه الله . وصاح اهل المدينة اين عاصم السدراني المقتول بالسم . وقالوا مات عاصم يابربر فعلم ابو الخطاب انهم خدعوه وبلغ فيه موت عاصم مبلغا عظيما وقال لأصحابه انهم خدعونا وغررونا .... فأمر اهل عسكره ان يأخذوا اسلحتهم ويحلوا اجنيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق مثل المنهزمين فاصبح المعسكر خاليا فظن اهل القيروان انهم انهزموا وقالوا أنهزمت البربر ومضوا فياثرهم وابو الخطاب وأصحابه دخلوا الوادي الذي وراء فحص رقادة وكمن فيه بخيله ورجاله واخذ اهل المدينة في طلب ابي الخطاب حتى لحقوهم فوجدوهم معسكرين في ذلك الوادي فخرج اليهم ابو الخطاب واصحابه فولوا منهزمين وابو الخطاب واصحابه في آثارهم يقتلونهم حتى دخلوا المدينة ودخل قوم ابي الخطاب معهم فخلصت لهم المدينة سنة أحدى واربعين ومائة من الهجرة . وكان ابو الخطاب

تقدم على اصحابه يوم الحصار لا يفسدوا زرعا لأهل المدينة ....»

يتبين من هذا النص المهم مدى الصلة الوثيقة للبصرة وعلمائها من الخوارج بالحركة الاباضية في المغرب فان الذي زرع هذا المذهب في المغرب قبل مجيء ابي الخطاب وابن رستم دعاة من البصرة . ثم ان ابن رستم وابي الخطاب تلقوا علومهما وتفقههما بالعقيدة الخارجية الاباضية على يد فقهاء من البصرة ولم تنقطع هذه الصلة بعودة الاثنين الى المغرب العربي بل استمر المشاورات والاستشارات بين علماء البصرة ورجال الدعوة في المغرب . بل ان اهل البصرة من الخوارج لم يكتفوا بالمساندة المعنوية في مجال العلم والفقه والنصيحة والارشاد وانما تعدوا ذلك الى الدعم المادي حيث ارسلوا للدعاة قبل وبعد تأسيس الامامة هبات واموال مساهمة منهم في تقوية امر الدعوة الاباضية وتثبيت قدمها في هذا الاقليم خاصة بعد ان انتقلت الدعوة من دور النضال السري الى النضال الايجابي العلني بعد اعلان امامة ابي الخطاب والاستيلاء على طرابلس .

ويظهر هذا النص كذلك مدى اعتدال الخوارج الاباضية في معاملتهم المسلمين الذين لم يعتنقوا المذهب الخارجي ، فأبو الخطاب لم يقتل والي طرابلس وكان يأمر اتباعه بعدم التخريب او افساد الزرع حين دخولهم المدينة . وهذه صفة تميزت بها الاباضية على فرق خارجية متطرفة اخرى مثل الازارقة فقد كان الازارقة منذ نشأتهم اكثر اعتدالا من بقية الفرق الخارجية ولذلك كانت هناك مشاورات كلامية ومجادلات فكرية بين مؤسسي هذه الفرقة والفرق الاخرى

تشير اليها مخطوطه كشف الغمة ومصادر اخرى ايضا .

ويشير هذا النص كذلك الى مبدى انتشار المذهب الاباضي في مناطق شاسعة متفرقة من المغرب ومدى تقبل البربر لهذا المذهب وسرعتهم بالانضواء تحت لواء ابي الخطاب . والواقع فان ابا الخطاب كان اول من نجح في تفجير هذه الحركة بين صفوف البربر في المغرب العربي.

وقد ظلت بلاد المغرب مرتعا لمذهب الاباضية ومذاهب خارجية اخرى كالصفرية ، حتى استطاع الاغالبة سنة ٢٨٣هـ ٨٩٦م ان يدفعوا الاباضية الى الداخل دون ان يقضوا عليهم قضاءا مبرما ، ثم تمكن الفاطميون ، كما هو معروف ، من القضاء على الدولة الرسمية الاباضية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م والتجأ الكثير من الخوارج الاباضية الى الصحراء .

واخيرا وليس آخرا فان تزعم ابي الخطاب المغافري لأول امامة اباضية في المغرب واستقطابه البربر يدل على ان العرب لما يزالوا يحتلون مراكز القيادة والرئاسة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري كما كانوا في القرن الاول الهجري ، وهم الذين ينضمون حركات الموالي ويقودونها ويوجهونها الوجهة التي يرتأوونها واحيانا يستغلونها لاغراض سياسية وطموحات شخصية ، تماما كما حدث في حركة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث . كما وان غالبية الموالي الذين انضموا للدعوة العباسية في خراسان لم يفعلوا ذلك الا بتأثير رابطة الولاء ذلك لأنهم مرتبطين بالقبائل العربية من شيعة العباسيين برابطة الولاء وهذا يعني انهم ينقادون الى هذه القبائل في مواقفهم واتجاهاتهم فالولاء كما هو معروف ، « لحمة كلحمة النسب » .

نظام الضرائب في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
وأثره في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

دكتور محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

لا شك ان للنظام المالي والضريبي اوثق الارتبــاط بنظم الحكم والادارة في مصر تحت الحكم العثماني • فاذا ما انتظمت الحالة المالية والضريبية دل ذلك على استقرار الحكم والادارة ، واذا ما فسد نظام الحكم اضطربت الأحوال المالية والضريبية ، وتنوعت الضرائب ،وكثرت الاستثنائية منها ، وتباينت طرق الجباية ، وتفشت الرشوة ، وقل ما يصل الى خزانة الدولة من ايرادات ، واستغل الجباة وظائفهم ، فأثقلوا كاهل دافعي الضرائب بالكثير منها •

وتشتمل فترة البحث على ثلاث مراحل متميزة :

المرحلة الاولى : وتشمل نظام الضرائب في مصر العثمانية خــلال القرن الثامن عشر •

المرحلة الثانية : تضم فترة الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وهي مرحلة متميزة عن سابقتها وعن لاحقتها ايضا •

والمرحلة الثالثة : تشمل تطور النظام الضريبي في مصر في عصــر محمد على آي في النصف الأول من القرن التاسع عشر •

واذا تناولنا المرحلة الأولى من البحث نجد أن النظام الضريبي الذي ساد مصر خلال القرن الثامن عشر كان من وضع السلطان سليم في اعقاب غزوة لمصر في عام ١٥١٧م [١] . وقد اقتبس السلطان سليم كثيرا من النظام الضريبي الاسلامي الذي كان موجودا بمصر وقتئذ [٢] : فهو اذن نظـام خليط من النظامين الاسلامي والعثماني .

وجـد العثمانيون أرض مصر عنـد فتحها مقسمة على النحـو التـالي [٣] :

أ ـ الاحباس (الأوقاف) السلطانية المخصصة للحرمين ولأعمال الخير .

ب ـ الأحباس الأهلية .

جـ ـ الملكيات الخاصة المشتراة من بيت المال .

د ـ اراضي الديوان ، وتضم أغلب اراضي الزراعيـة ، ومنهـا يجبى الخـراج Kharaj

ونظرا لأن الأقسام الثلاثة الأولى كانت معفاة من دفع الضرائب ، فقد وقع عبء الضرائب كله على القسم الرابع وحده .

---

(١) ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين افندي احد افندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية ـ مصر في مفترق الطرق ، نشر المؤرخ محمد شفيق غربال ـ مجلة كليـة الآداب بالجامعـة المصرية ، المجلد الرابع ، جـ ١ ، مايو ١٩٣٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٥ ، ص ١٨٩

-- Selvester de Sacy; Bibliothèque des Arabisants Français: Premiere serie, T. II pp. 1-278

(٣) راشد البراوي وعليش : التطور الاقتصادي في مصر في العصـر الحديث ص ١٩ .

وقد اوضح ابن اياس [٤] قيمة المتحصل من الخراج في السنوات الأولى من الغزو العثماني بنحو ٠٠٠ر٣٠٠ر١ دينار (٠٠٠ر٧٨٠ جنيه مصري) نقدا ، ٠٠٠ر٦٠٠ اردب قمحا ، ٠٠٠ر٣٠٠ اردب شعيرا • واذا قدرنا ثمن الأردب من القمح في ذلك الوقت بخمسة وثلاثين قرشا ، كان ثمنها ٠٠٠ر٢١ جنيه مصري [٥] بالاضافة الى ثمن الشعير ، يكون مجموع المتحصل ما يقرب من المليون جنيه مصري •

وقد اسهم علماء الحملة الفرنسية من أمثال Poussielgue في رسم الاطار العام لما كان عليه النظام الضريبي في مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، بالاضافة الى ما كتبه حسين افندي روزنامي مصر ابان الحملة الفرنسية [٦] ، وهو ما اعتمد عليه علماء الحملة في كتاباتهم الى حد كبير ، فضلا عما دونه الجبرتي [٧] •

ومن جملة ما كتبه هؤلاء نستطيع ان تتبين ان الادارة المالية في مصر في ذلك الوقت كانت تتركز في ديوانين [٨] :

الاول : الديوان الدفتري ، ويرأسه موظف كبير يسمى الدفتردار ، يعينه السلطان العثماني ، ومهمته الاشراف على شئون مصر المالية ،ويعاونه وكيل وموظفون •

الثاني : ديوان الروزنامة ، وهو تابع للديوان الأول ، ويرأسه

---

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٢٢٦ •

(٥) عمر طوسون : كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة الى الان ، الاسكندرية ١٩٣١ ، ص ٢٦٩ •

(٦) Estève: compte rendue p. 354

(٧) الجبرتي : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ٤ أجزاء •

(٨) راشد البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ، ص ٣٥ •

الروزنامى [٩] واختصاصه جمع الضرائب ، والاشراف على انفاقها فيما خصصت له • وتتميز أعمال هـذا الديوان بالسرية التامـة ، الى حـد استخدام نوع من الخط لا يعرفه سوى موظفوه ، ويصفه Deny بقوله[١٠]:

«Sorte d'ecriture destinée aux mandarains de l'ancienne administration et dont le déchiffrement présente les difficultés, que l'on sait, pour ceux qui n'en ont pas la routine».

ويشترط فيمن يتولى وظيفة الروزنامة ان يكون مسلما ، عاقلا ، ذا عقل وتدبير ، وان يشير على ولاة مصر بما فيه المصلحة العامة [١١] ، ويقوم بتعيينه والى مصر بالاشتراك مع شيخ البلد • ويصفهم Estève فـي كتابه [١٢] بانه كانت لهم مكانة كبيرة بين قومهم •

كانت تقوم بجباية الضرائب هيئات مختلفة ، على ان القدر الاكبر من الضرائب كان يأتي عن طريق نظام الالتزام • والالتزام نظام قديم لم يستحدثه العثمانيون ، وانما كان سائدا في مصر قبل مجيئهم [١٣] اليها• وتلجأ الحكومات الضعيفة التي لا يقوم رجالها على جمع الضرائب الى تلك الوسيلة التي تتلخص في ان يتعهد احـد الأعيان ويسمى المتـزم multazim بجمع الخراج المفروض على الأرض الزراعية لصالح الحكومة،

---

(٩) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، ص٣٠

(١٠) Deny, Sommaire des Archives Turques du Caire — p. 33

(١١) ترتيب الديار المصرية ــ مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية المجلد ٤ ، جـ ١ مايو ١٩٣٦ •

(١٢) Estève: Memoire sur les finances de l'Egypt... Descrip- tion de l'Egypt. Etat moderne 2e edition T-12 pp. 41-248

(١٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ، ص ٣٦ •

اما بطريق المزايدة او الاتفاق بينه وبين الروزنامة نيابة عن الحكومة ، فيدفع لها ضريبة سنة مقدما وتمنحه تقسيطا أي « عقد تلزيم » بعد موافقة شيخ البلد ـ وهو كبير امراء مصر من المماليك ـ صادرا للاهالي الداخلين في دائرة التزامه لتأدية ما عليهم من ضرائب اليه • ويحرص الملتزم على تحصيل ما دفعه الى ديوان الروزنامة مضافا اليه الفوائد التي يقدرها حسبما يريد دون رقيب (١٤) •

وكان يقوم بمهمة الالتزام عدد كبير من المماليك والموظفين ومشايخ البدو (١٥) وعدد من كبار العلماء (١٦) • ويعاونهم في اداء هذه المهمة عدد كبير من العاملين قدرهم Girard بنحو ٣٠ ألف شخص •

ونظرا لقصر مدة الحملة الفرنسية فلم يستطع علماؤها ان يتحروا الدقة في بحثهم بصدد الالتزام بالذات • فقد اعتقدوا أن الملتزمين يماثلون طبقة الاشراف في فرنسا في ظل النظام الاقطاعي • مع أن هناك فارقا كبيرا بين الالتزام والملكية • فالالتزام نظام مالي ، الهدف منه تسهيل جباية الضرائب بالنسبة للدولة (١٧) •

ورغم ان هذا النظام قد أغنى الدولة العثمانية عناء جمع الضرائب بواسطة موظفيها ، الا أنه كان يشتمل على عيوب كثيرة نجملها فيما يلي:

اولا : أن هذا النظام قد أعطى الملتزم حقوقا واسعة ـ لا سيما في أواخر القرن الثامن عشر ـ تشبه الى حد ما الحقوق التي كانت لأمراء

---

(١٤) Artin, J., Institut Egyptien - La propriete foncière en Egypte p. 85.

(١٥) Baer, G., A history of landownership in modern Egypt p. 2.

(١٦) الجبرتي : عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٦٢ .

(١٧) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ١٨ .

الاقطاع في العصور الوسطى في أوربا . اذ كان الملتزم هو السيد في دائرة التزامه ، والفلاحون ارقاءه . فله حق نزع الأرض منهم اذا تأخروا في دفع الايجار ، ولا يستطيعون مغادرة القرية الا بأذنه ، وله انيعاقبهم بالحبس والجلد ، بل وبالقتل في بعض الاحيان .

ثانيا : انه في ختام القرن الثامن عشر لم يصبح الالتزام يمنح لمدة عام أو عدة أعوام ، وانما لمدى الحياة . بل لقد توارثه الأبناء عن الآباء كالملكية تماما [١٨] .

ثالثا : أن ما كان يدفعه الملتزم اقل بكثير مما كان يقوم بجمعه . فما كان يدفع للخزينة يتراوح بين [١٩] ٤٠٪ و ٤٪ مما يحصلون عليه من الفلاحين .

رابعا : خضع الفلاح للكثير من الضرائب الاستثنائية التي أرهقته.

خامسا : يقوم الملتزم بتسخير [٢٠] الفلاحين لزراعة الأرض الخاصة به والمعفاة من دفع الضرائب .

سادسا : نظرا لكثرة الضرائب المتنوعة التي كان يدفعها الفلاح أنقل ما يتبقى في يديه من أموال . فلجأ الى الاستدانة من الملتزم بفوائد باهظة . وبذلك ظل تحت رحمته بصفة مستمرة .

سابعا : أن هذا النظام يضعف من سلطة الحكومة على الفلاحين ، فسلطان الملتزم يفصل بينهم وبين الخضوع المباشر لسلطان الحكومة .

ثامنا : في ختام القرن الثامن عشر اصبح الملتزمون ملاكا بحكم الامر

---

(١٨) Baer, A history. - p. 2
والجبرتي : عجائب الآثار . . . جـ ٤ ص ٨٨ .

(١٩) Poliak, Feudalism in the Middle East p. 52 & 73

(٢٠) Baer, A history of landownership p. 2

الواقع de facto وليسوا من الناحية القانونية de jure وبذلك لم يصبح للحكومة أي سلطان على اراضيها التابعة لها من الناحية الاسمية [٢١].

تاسعا : ان هذا النظام لم يكن يسمح للفلاح بان يعرف مقدار الضرائب المفروضة عليه بالضبط ، ولا الميعاد الذي يجب عليه أداؤها فيه . كما انها كثيرا ما كانت تجبى منه قبل نضوج المحصول ، وقبل ان يتمكن من بيعه . وفي هذه الحال يضطر الى الاقتراض بفوائد باهظة لسداد الضريبة [٢٢] .

عاشرا : كانت عملية جباية الضرائب معقدة الى أبعد حد مما زاد في مصاريفها .

حادي عشر : كان يستخدم الملتزمون عددا كبيرا من الجباة بلغ حسب تقدير Girard ٣٠ الف شخص ، كانوا يستعملون في جباية الضرائب العينية من الفلاحين كيلا أكبر من الكيل الرسمي . مما اوجد لديهم فرقا بين الكيلين وصل في بعض الأحيان الى ٢٥٪ أو ٣٠٪ من الكمية المجباة [٢٣] .

وهناك ثلاثة أسباب اخرى لم تنشأ عن نظام الالتزام ، ولكنها ترجع الى سوء تدبير الحكومة في ذلك الوقت :

السبب الأول : انه من الناحية القانونية لا يحق للفلاح دفع ضريبة عن الارض التي يقوم بفلاحتها الا اذا غمرتها مياه الفيضان ليتمكن من زراعتها واستثمارها . ولكننا وجدنا انه في سنوات الفيضان المنخفض الذي

---

(٢١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ــ ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢٢) Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, vol. I, pp. 259-60.

(٢٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٠

لا تستطيع مياهه الوصول الى الارض لم تعف الحكومة الفلاحين من دفع الضريبة كاملة ٠

والسبب الثاني : أن الضريبة كانت تجبى طبقا للقياس الذي يسجله عمال المساحة للارض الزراعية التي في حوزة كل فلاح ٠ ولم تكن هـذه المقاييس مضبوطة ، بل كانت مدعاة للتلاعب والغش والرشوة ٠

ويمكننا ان نقسم الضرائب الى قسمين : ضرائب عقارية ، وضرائب غير عقارية ٠

الضرائب العقارية : وهي ما تفرض على الأرض الزراعيـة وتسمى بالمال الحر ويذكر [٢٤] Lancret بان العثمانيين عندما فرضوا الخـراج على ارض وزعوه على القرى دون نظر الى عدد الافدنة في كل قريـة ٠ ويضيف [٢٥] Estève الى ذلك بان السلطان سليم عندما غزا مصر وجـد أن المماليك قد أحرقوا سجلات الضرائب ، فأخذ يستقي معلوماته عنها من الموظفين ، ولكن هذه الطريقة لم تفده كثيرا ٠ فأمر بمسح اراضي القطـر لمعرفة المساحة المنزرعة ولكن المسح لم يتم على الوجه الأكمل فظلت هناك اراض مجهولة للحكومة حتى مجيء الحملة الفرنسية ٠ ويقوم الملتزمـون بتحصيلها من الفلاحين ٠ وكانت من ثلاث فئات [٢٦] : الأطيان من الدرجة الأولى يتراوح المال الحر للفدان بين ٩٠ ، ٣٠٠ ميدي [٢٧] ، واطيان الدرجة الثانية بين ٦٠ و ١٥٠ ميديا ٠ وأطيان الدرجة الثالثة بين ٣٠ و ١٢٠ ميديا ٠

---

(٢٤) Lancert, Desc. d'Egypte p. 236

(٢٥) Estève: Memoire sur les finan. Desc. d'Egypte, III, p. 306

(٢٦) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٣١ ٠

(٢٧) القرش يساوي ٤٠ ميديا ، والميدي = ٤ فضة ٠

ثم يقسم المتحصل على النحو التالي [٢٨] :

اولا : نصيب السلطان واسمه المال الميري ، وكان يرسل للآستانة في احتفال كبير .

ويقسم المال الميري حسب رأي Lancret [٢٩] الى قسمين رئيسيين المال الشتوي والمال الصيفي ويؤخذ الاول من محاصيل الفول والشعير والقمح وتزيد قيمته عن المال الصيفي . وتنفق حصيلته على الشئون الداخلية . واما حصيلة المال الصيفي فتؤخذ من مزارع الارز وتخصص للمصروفات الخارجية .

ثانيا : نصيب جهات مختلفة كالخفر والجنود وغيرهم .

ثالثا : نصيب الادارة المحلية واسمه الكشوفية .

رابعا : ما يتبقى للملتزم واسمه الفائض faiz

وقد زادت الضريبة زيادتين غير رسميتين آخرتين هما : البراني والكشوفية المستجدة .

وكانت الضرائب تجبى اما نقدا أو عينا ، أو جزء من هذا وجزء من ذاك . وفي الوجه القبلي كانت تجبى عينا نظرا لقلة استخدام النقود هناك [٣٠] .

والضرائب غير العقارية ، كانت عدة أنواع نجملها فيما يلي :

١ ــ الرسوم الجمركية وكانت تجبى من مواني بولاق ، ومصر القديمة ، واسنا والسويس والقصير ، وكانت غير ثابتة . والدليل على

---

(٢٨) ترتيب الديار المصرية .

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٣٧ .

ذلك أن فرنسا عقدت مع مصر في يناير سنة ١٧٨٥ ثلاث معاهدات تجارية تحدد مقدار الضريبة التي تجبى على البضائع الفرنسية أثناء مرورها بمصر بـ ٦ ½ ٪ • غير ان هذه الاتفاقات لم تمنع ابراهيم بك ومراد بك (حاكمي مصر عند مجيء الحملة الفرنسية) من ارهاق التجار الأجانب بالضرائب الباهظة ، فزادت شكايات التجار الفرنسيين في مصر [٣١] •

كذلك استطاع الرحالة الانجليزي James Bruce نيابة عن شركة الشرقية التجارية الاتفاق مع ابي الذهب (حاكم مصر) على تحصيل ضريبة مقدارها ٨٪ من قيمة البضائع الواردة الى ميناء السويس • هذا بالاضافة الى تحصيل ٥٠ ريالا أسبانيا عن كل سفينة ترسو في هذا الميناء •

كذلك عقد Warren Hastings (الحاكم البريطاني على البنغال بالهند) في سنة ١٧٧٥ مع أبي الذهب معاهدة تنص على تخفيض الرسوم الواردة من البنغال ومدراس بالهند الى ٦ ½ ٪ والواردة من سورات وبمباي الى ٨٪ [٣٢] • ولم يكن حظ هاتين الاتفاقيتين بأحسن من حظ الاتفاقات الفرنسية الثلاث ، اذ تعرضتا للانتهاك من قبل حكام مصر من المماليك •

ب ـ الضرائب المفروضة على الوكائل والقوافل والاسواق والملح والصيد •• الخ •

جـ ـ الضرائب المفروضة على الصناعات والحرف المختلفة ،بالاضافة الى ٥٪ ضريبة على المنتجات نفسها • وكان يتولى تحصيلها مشايخ الطوائف •

---

(٣١) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

ويذكر المسيو Girard ان الضريبة المفروضة على جماعة النساجين كانت عشرين الف بارة (٣٣) •

د ــ ضرائب وقتية في مناسبات معينة او لأغراض معينة •

هـ ــ الجزية المفروضة على الذكور البالغين من النصارى واليهود• وكانت من ثلاث فئات : الفئة العالية ٤٤٠ فضة على كل فرد ، والوسطى ٢٢٠ فضة ، والدنيا ١١٠ فضة (٣٤) •

و ــ الأوتاوات التي كان يفرضهـا الحكام المماليك على التجـار والأجانب •

ومما سبق استطاع المسيو Estève ان يقدر دخل الحكومة المصرية من هذه الضرائب في أواخر القرن الثامن عشـر بحوالي ١٫٢٠٣٫٤٦٧ جنيهـا (٣٥) •

اهم اوجه المصروفات (٣٦) :

١ ــ نفقات الوالي والحكام المماليك ومرتبات الجنود وموظفـي الادارة المالية •

٢ ــ نفقات اوجه الخير ، مثل مخصصات الأرامل والأيتام وصيانة المساجد وغيرها •

٣ ــ نفقات المؤن والذخائر •

---

(٣٣) Description de l'Egypte, T. 17 pp. 214 & 215

(٣٤) Estève: Compte rendu... pp. 192-194

(٣٥) Estève: Memoire sur les finances. T. 12, pp. 41-248

(٣٦) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٣٩ •

٤ ــ نفقات المحمل (قافلة الحج) ومخصصات الحرمين •

٥ ــ الجزية التي ترسل سنويا للسلطان العثماني • وقد انخفض مقدارها الى حد كبير قبيل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، فبلغ ٥٥٠ر٢٦٤ فرنكا أي ما يعادل ٥٨٠ر١٠ جنيها [٣٧] •

وقدر حسين الروزنامي الميري المخصص للسلطان العثماني بمبلغ [٣٨] ٤٤٣ر٦١٤ر١١٧ فضة ، ويخصم منها ٦٢٨ر٢٣٨ر٨٩ فضة التزامات ،فيكون المتبقى للسلطان هو ٨١٥ر٣٧٥ر٢٨ فضة •

وقدر المسيو Estève الميرى بمبلغ ٧٢٧ر٦٥١ر١١٦ فضة [٣٩] يخصم منه ٢٧٦ر٨٢٨ر٨٨ فضة التزامات • فيكون المتبقى للسلطان هو ٤٥١ر٨٢٣ر٢٧ فضة • وهذا المبلغ لا ينقص كثيرا عما قدره حسين الروزنامى •

تحليل (٤٠) اجابات حسين الروزنامي :

اذا قارنا بين ما اجاب به حسين الروزنامى وبين ما دونه كل من Estève والجبرتي نلاحظ على اجابات حسين افندي ما يلي :

اولا : أن ما ذكره حسين عن نظام الضرائب كان من الناحية النظرية، اي ما يجب ان يكون كما وضعه السلطان سليم الأول فاتح مصر ، وليس كما كان في الواقع • ويدلنا على ذلك أننا لا نجد أية أشارة الى اضطراب الأمور في مصر واعتداء الأقوياء على الضعفاء ، واختلال سجلات الضرائب،

---

(٣٧) المصدر السابق ص ٣٩ •

(٣٨) ترتيب الديار المصرية •

(٣٩) Estève: Compte rendu... p. 196

وجرجس حنين : الاطيان والضرائب في القطر المصري ص ١٢ •

(٤٠) ترتيب الديار المصرية ، تعليق الاستاذ محمد شفيق غربال •

ولم تكن كل هذه الأمور بخافية عليه ولا على معاصريه .

ثانياً : تقرر اجاباته حقيقة هامة ، وهي ان نظم الضرائب التي وضعها السلطان سليم لم تكن جديدة كل الجدة ، وانما كانت ترجع الى عصور سابقة ، وهذا يدل على اصالة السياسة المالية والضريبية في مصر ، والتي كانت تتفق مع واقع ظروف الحياة المصرية في مختلف العصور .

ثالثا : انه رغم شقاء المصريين من قسوة الضرائب في اواخر القرن الثامن عشر فان من السلاطين العثمانيين العظام من كان يرغب في الاصلاح واحقاق الحق .

اثر النظام الضريبي على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القرن ١٨ :

على أثر احتلال العثمانيين مصر قام صراع طويل بين الحاكم الجديد وهو السلطان العثماني وبين طبقة المماليك الحكام القدامى ، امتد من مطلع القرن السادس عشر الى اواخر القرن الثامن عشر . وأصبح الوضع في مصر على النحو التالي (٤١) :

١ ـ العثمانيون ويمثلون السلطة العليا في البلاد .

٢ ـ امراء المماليك وهم أصحاب الاقطاعيات الكبيرة ، وجامعو الضرائب والمسيطرون من الناحية الفعلية على الناحيتين السياسية والادارية .

٣ ـ الشعب المصري ، ومعظمه يعمل في الحقول في ظل نظام اقطاعي رهيب لا يقل قسوة عن الاقطاع الأوربي في أقسى صوره . يعمل في الأرض طوال العام ليسلم محصوله لصاحب الاقطاع ، لاينال من خيرات الأرض الا النذر اليسير بعد سداد ما عليه من الزامات ضريبية ، وما اكثرها .

---

(٤١) امين مصطفى عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث ص ١٩ .

وترتب على ذلك انخفاض مستواه الاجتماعي الى حد رهيب .هذا بالاضافة الى اهمال الدولة له ، اذ لم تكن هناك مشروعات عمرانيـــة أو ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية تخدم مصالحه .

ونظرا لاعتماده في الزراعة على فيضان النيل ، فان انخفاض هـــذا الفيضان في أي سنة معناه قلة المحصول الى حد المجاعة في بعض الأحيان. ورغم ذلك فلا يعفى الفـلاح من دفع الضرائب (٤٢) . فالعلاقة اذن بين الحاكم والمحكوم كانت تقوم على الأنانية والاستبداد من جانب والفاقـــة والعيودية من الجانب الآخر .

والى جانب السواد الأعظم من الزراع توجد طبقة التجار ، وكانت من أغنى طبقات المجتمع المصري ، ومن أقلها تعرضا لفداحة الضرائب وظلم الحكام . وهي بفضل غناها كانت أرقى مستوى من الطبقات الأخرى.

ورغم ثراء هـــذه الطبقة وسعة امكانياتها ، فانها كانت مهـــددة في مصالحها ، وذلك لعدم استقرار الأوضاع في مصر ، وعدم وجود حكومـــة ثابتة ، وللرسوم الباهظـــة المفروضة على التجار . هذا فضـــلا عن سوء المواصلات ، واختلال الأمن ، وضعف القدرة الشرائية لكل هذه الأسباب مجتمعة اضمحلت التجارة في أواخر القرن الثامن عشر .

ولذا كانت هذه الطبقة من أكثر الطبقات ثورة على الأوضاع في مصر . فقامت بدور هام في مساندة محمد علي ـ في مطلع القرن التاسع عشر ـ للوصول الى الحكم واقامة نظام حكم مستقر في مصر .

وهناك أيضا طوائف الصناع guilds أي أصحاب الحرف والصناعات وكانوا أيضا ساخطين على الحكم العثماني ، وذلك لاستبداد طبقة المماليك، ولفرضها القيود على الصناعة ، اذ كان لكل طائفة من الصناع شيخ مهمته

(٤٢) Estève: Memoire sur les fin. (Desc. d'Egypte) T. I, p. 331.

تحديد الأجور وأثمان السلع ، وتقدير الرسوم والضرائب المقررة على كل فرد [٤٣] . بالاضافة الى الضرائب المفروضة على السلعة نفسها .

وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتي العلماء الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة ، أي الطبقة « البرجوازية المستنيرة » . وقد أكسبتهم ثقافتهم الدينية التي تلقوها في الأزهر مكانة كبيرة في نفوس الشعب . فأصبحوا بحكم مكانتهم هذه قادة الأمة فكريا وسياسيا منذ أواخر القرن الثامن عشر [٤٤] .

وقد اكتسب هؤلاء نفوذهم بالتدريج ، اتخذ ــ في أول الامر ــ صورة النصح والمشورة للحكام لرفع الغبن عن كاهل الشعب . وتطور في أواخر القرن الثامن عشر الى مواجهة سافرة للحكام المماليك وذلك لحماية الأهالي من فداحة الضرائب ، الى حد ارغام ابراهيم بك ومراد بك(حاكمي مصر عند مجيء الحملة الفرنسية) على قبول (حقوق الشعب) تضمنتها وثيقة وقع عليها الجانبان ، يلزمهما بالحكم بالعدل دون ارهاق الأهالي بالضرائب .

فمنذ ذلك الوقت أصبح العلماء يمثلون مدرسة جديدة هي «البرجوازية المستنيرة التي استقطبت الأهالي حولها ، وخلقت منهم قوة ثورية ضد طغيان الحكام . وحاول كل من العثمانيين والمماليك جذبها اليه لتدعيم وجوده وللتغلب على خصمه [٤٥] .

من هذا كله نرى أنه كانت هناك رغبة في قيام عهد جديد في أنظمته السياسية والاقتصادية والاجتماعية . واتفقت هذه الرغبة مع توقيت مجيء الحملة الفرنسية الى مصر وهي التي ستزازل أركان النظام القديم .

---

(٤٣) Description de l'Egypte, T. 17, pp. 214 & 215

(٤٤) الرافعي : تاريخ الحركة القومية ج ا ص ٥٠ .

(٤٥) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٢٨ .

الحملة الفرنسية ونظام الضرائب :

تعتبر الحملة الفرنسية على مصر في ختام القرن الثامن عشر نقطة تحول هامة في تاريخ مصر في العصر الحديث ، فبالرغم من قصر مدة الحملة الا أن نتائجها غير المباشرة كانت عميقة الأثر في مستقبل البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فلاول مرة في تاريخ مصر الحديث تخضع البلاد لنظام حكم أوربي مستنير ، وتغزو الحضارة الغربية المسيحية مصر الاسلامية ، وتتعايش النظم الغربية مع النظم الشرقية جنبا الى جنب . ويحاول نابليون بونابرت أن يطعم النظم الشرقية القديمة بالنظم الغربية الحديثة لخلق حضارةجديدة تستمد أصولها من الحضارتين الشرقية والغربية .

وقدمت الحملة الفرنسية أجل الخدمات لمصر حينما قضت علىمعوقات التقدم ومصدر الرجعية والتأخر ممثلا في سلطة المماليك من ناحية ، وفي اضعاف سلطة العثمانيين من ناحية أخرى . وكانت هذه المهمة ضرورية تمهيدا لقيام نظام جديد يحل محل النظم القديمة البالية .

وبعد أن استقر الأمر للفرنسيين في مصر اخذوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة احوال مصر من جميع [٤٦] النواحي ، ولا سيما الادارة المالية ونظام الضرائب . وقد واجه الفرنسيين مشكلة معقدة عند دراستهم لنظم الضرائب وطريقة جبايتها ، وذلك لفرار المماليك المباشرين للشئون المالية والضريبية .

وجد الفرنسيون ضالتهم المنشودة في حسين افندي الروزنامي(كبير الادارة المالية) فاستبقوه ، ومنه عرفوا النظام المالي والضريبي في مصر وعينوا أحد رجال الادارة الفرنسيين ويدعى Poussielgue مديراً لمالية

(٤٦) فسرت كل تلك الدراسات في كتاب Description d'Egypte

مصر ، وخلفه بعد ذلك Estève وكلاهما كتب عن هذا الموضوع . كما اهتم به أيضا العالمان الفرنسيان Girard و Lancret المهندسان وعضوا المجمع العلمي المصري ، بدراسة هذا الموضوع ايضا .

واولى التغييرات التي ادخلها الفرنسيون على نظام الضرائب وقتئذ هو ابطال عمل ديوان الروزنامة ، واسناد اختصاصاته الى لجنة مكونة من خمسة اعضاء ، منهم الشيخ المهدي وحسين افندي والمعلم فلقاؤوس [٤٧].

ثم بدأ بونابرت بتوجيه أولى ضرباته الى المماليك وذلك بمصادرة كل ما يملكون بما في ذلك حصصهم في الالتزام التي بلغ مجموعها ثلاثة ارباع مجموع الحصص كلها . أي أن ما بقي بايدي الأهالي لا يزيد عن ربع الحصص فقط [٤٨] . وبذلك سهل على بونابرت الغاء نظام الالتزام.

ويقول كلوت بك بانه عند مجيء الحملة الفرنسية الى مصر وجدت أن الشطر الاكبر من الاراضي ملكا للمماليك والحكومة . أما الشطر الآخر فكان « في حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين . أما ما بقى من الاراضي فكان موقوفا على المساجد ويعرف باسم الاوقاف او الرزقة»[٤٩]

على أن الغاء الالتزام استلزم بالتبعية اعادة النظر في أراضي الالتزام. وقد انقسم الرأي بشأنها الى وجهتي نظر ، الأولى تعتبر أن أراضي الالتزام تماثل أراضي الاشراف التي قضت عليها الثورة الفرنسية ويجب ضمها للدولة . والثانية ترى اعتبار تلك الأراضي من الأراضي المملوكة لحائزيها [٥٠] .

---

(٤٧) Estève: Compte rendue... p. 354

(٤٨) ترتيب الديار المصرية .

(٤٩) Glot, Aperçu... p. 193

(٥٠) Poliak, Feudalism... p. 75

كانت الغلبة لوجهة النظر الثانية في أول الأمر ، فعومل الملتزمون على اعتبار كونهم ملاكا حقيقيين ، وأعطيت لهم اشهادات رسمية بملكيتهم للارض .

ولكن أمام ثورات الفلاحين أخذت السلطات الفرنسية في عهد مينو تميل الى الأخذ بوجهة النظر الأولى . وبناء عليه أخذت في ضم أراضي الملتزمين الى الدولة بشيء من التدريج [٥١] .

ولكن أهم ما استحدثه بونابرت في نظام الضرائب الخاصة بالأرض هو اصداره أمراً في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بانشاء ديوان خاص أطلق عليه اسم (محكمة القضايا) للنظر في كل ما يختص بتمليك الأرض،على أن تتخذ الاجراءات الآتية [٥٢] :

١ ــ لاثبات [٥٣] ملكية الفلاح لأرضه يجب الكشف عنها فيسجلات الروزنامة نظير رسم معين .

٢ ــ اذا ثبتت ملكية الفلاح للارض من واقع السجلات يكتب له سند جديد (تمكين جديد) بذلك .

٣ ــ يعاد تقدير ثمن الأرض ويدفع صاحبها رسم تسجيل لها حسب الثمن الجديد وقدره ٢٪ .

٤ــ اذا لم يستطع الفلاح اثبات ملكيته للارض تصادر لصالح الدولة [٥٤] .

---

(٥١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٥.

(٥٢) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ١٢٢ و ١٢٣ .

(٥٣) تقصد بالملكية هنا هو ملكيته الانتفاع وليست ملكية الرقبة.

(٥٤) الجبرتي جـ ٣ ص ٥ .

٥ ـ ظل نظام المواريث الاسلامي معمولا به ، ولكن لكي ينتقل الميراث من المتوفى الى الوارث يجب دفع رسوما متعددة • فرسم يدفع عند الوفاة ، ورسم آخر عند حصر التركة ، وثالث عند اثبات الوراثة، ورابع عند تمكين الوارث من الحصول على ميراثه ، وخامس اذا أراد اثبات دين له في ذمة المتوفى وهكذا

هذا بالاضافة الى فرض ضرائب على تسجيل العقود وضرائب على أرباب الحرف ، والمباني ، كالمنازل والحمامات والحوانيت (٥٥) •

ولهذا لا نعجب اذا ما نظر الأهالي الى تلك الضرائب المتعددة ، لا على أنها تنظيم جديد ، ولكن على أنها طرق للحصول على الأموال بأية وسيلة لسد نفقات الحملة • وكانت الضرائب الجديدة ـ دون ريب ـ السبب الرئيسي في قيام ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) ضد الفرنسيين •

وبالرغم من أن الضرائب في عهد الحملة الفرنسية لم تقل عما كانت عليه في عهد المماليك ـ بل العكس هو الصحيح ـ الا أن الحملة قد نجحت في تغيير نظم الحكم في مصر من النظام الاوتوقراطي الى النظام الديمقراطي الذي أتت به الثورة الفرنسية ، ونجحت أيضا في تبديل نظم الاقتصاد من « الرأسمالية الاقطاعية » الى « البورجوازية الاقتصادية » القائمة على العدالة الاجتماعية والحرية الاقتصادية • وقد أحدث هذا ـ دون شك ـ هزة عنيفة في الاقتصاد المصري • فالغاء الالتزام مكن الفلاح من أن يصبح مالكا لأرضه وأن ينتفع بغلاتها • وما يترتب على ذلك من تحرير الفلاح من سلطة المماليك ، وهدم للسيادة الاقطاعية (٥٦) •

---

(٥٥) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٦ •

(٥٦) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٣١ •

أثر عودة الحكم العثماني بعد خروج الحملة :

كان طبيعيا أن تعود النظم الرجعية في النواحي السياسيةوالاقتصادية والاجتماعية بعودة الحكم العثماني مرة ثانية عقب خروج الفرنسيين من مصر • فما كان العثمانيون ممثلو الرجعية يؤمنون بثورة التجديد التي أوجدتها الحملة ، وما كانوا يدرون أيضا أثر تلك النظم الجديدة على المجتمع المصري •

بدأ العثمانيون عملية الهدم بالغاء قانون الملكية الذي أصدره نابليون في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وبذلك رجعت « الرأسمالية الاقطاعية » من جديد ، واختفت « البورجوازية الاقتصادية » • وعاد الالتزام الى سطوته الأولى بعودة المماليك مرة ثانية الى مراكز السلطة والحكم •

ومن الناحية السياسية تراجع النظام الديمقراطي ليفسح المجال للنظام الأوتوقراطي من جديد •

فقد الفلاح بعودة العثمانيين أرضه وما أنفقه من أموال لاثبات ملكيته لها ، وعاد عبدا من جديد للملتزمين بل أكثر من ذلك فقد فرض العثمانيون ضريبة جديدة على الأرض أطلق عليها اسم مال الحماية (٥٧) mal al-himaya في مقابل تخليص البلاد من الحكم الفرنسي • فلا عجب اذا ما رفض الشعب هذا التغيير ، وعبر عن هذا الرفض في مقاومته للمماليك، ووقوفه الى جانب محمد علي •

نظام الضرائب في عهد محمد علي (النصف الأول من القرن ١٩):

لا شك أن الحملة الفرنسية على مصر قد مهدت الطريق أمام محمد علي للقيام بتنظيماته الجديدة من الناحيتين المالية والضريبية • فالهزة

---

(٥٧) Girard; Description p.

العنيفة التي أحدثتها الحملة في النظم الاقتصادية والمالية القديمة قد أضعفتها الى حد كبير بحيث أنه عندما عادت تلك النظم الى الظهور بعد خروج الحملة • لم تقو على الصمود أمام ضربات محمد علي ، فمكنه هذا من القضاء عليها بصفة نهائية (٥٨) •

كانت مصادر المال بالنسبة لمحمد علي تنحصر فيما يلي (٥٩) :

أولا : الأرض وما يتعلق بها من شئون الملكية والاحتكار الزراعي •

ثانيا : الاحتكار التجاري وما يرتبط به من ضرورة الاشراف على وسائل النقل وطرق التجارة •

ثالثا : الضرائب وتتضمن ما جمعه محمد علي من احتكاراته المتعددة الزراعية والصناعية • أما فيما يختص بالأرض ، فما كان حاكم مصر الجديد أن يبقى نظاما قائما يحول بين الفلاح وخضوعه المباشر لسلطان الحكومة دون وساطة المماليك الملتزمين •

كما انه لم يقبل استغلال الفلاح لصالح الملتزمين ، فما كان يدفعه الفلاح من ضرائب كثيرة لا يصل منه الى خزانة الدولة الا أقل القليل • مما تسبب عنه فرار الفلاحين من الأرض وتناقص عدد السكان في الريف (٦٠)

كذلك كانت حاجة محمد علي الى المال لتثبيت مركزه في مصر (٦١)، ومحاربة أعدائه ، والقيام بالاصلاحات اللازمة تتطلب منه تغيير هذا النظام •

---

(٥٨) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٧ .

(٥٩) محمد فؤاد شكري وآخرون : بناء دولة مصر ص ٢٧ .

(٦٠) G-Baer, A History of Landownership, p. 5.

(٦١) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٦٥ .

ولذا فقد أعلن محمد علي في سنة ١٨٠٩ الغاء الالتزام ، ووضع نظام جديد لجباية الضرائب ، فقبل ملتزمو الوجه البحري الوضع الجديد ، ورفضه زملاؤهم بالوجه القبلي ، فأخضعهم محمد علي بالقوة وضم أراضيهم للحكومة [٦٢] .

وفي سنة ١٨١١ دبر محمد علي مذبحة القلعة ، فقضى فيها على معظم المماليك واستولى على ما كان في حوزتهم من أراضي الالتزام ، وبذلك لم يبق من أراضي الالتزام في أيدي الأهالي الا القليل .

أما الملتزمون من غير المماليك فقد سحبت منهم الأرض ، وخصص [٦٣] لهم راتب سنوي عرف باسم الفائض Faiz تعويضا لهم عما خسروه . كما منحهم اراضي السوسية طول حياتهم [٦٤] ، وأعفاها من الضرائب [٦٥] ، وأعطاهم الحرية في [٦٦] زراعتها أو تأجيرهم أو بيعها للحكومة فقط [٦٧]

وقد حاول الملتزمون وعلماء الأزهر القيام بحركة مضادة ضد تصرفات محمد علي ولكنها باءت بالفشل [٦٨] ، واستقر الأمر لمحمد علي وفق ما أراد .

وفي سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ وضع محمد علي يده على أطيان الرزق

---

(٦٢) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٥٠ .

(٦٣) Mengin, Hist. vol. II, p. 339; Clot, aperçu II, p. 195.

(٦٤) Cattauix La règne de Mohamed Ali d'après les Archives Russes I. III p. 255.

(٦٥) 12 - Mengin, Histoire de l'Egypte... Vol. II, p. 339

(٦٦) Poliak, Feudalism. p. 77

(٦٧) احمد الحته : تاريخ مصر ص ٦٧ .

(٦٧) الجبرتي ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الموقوفة على المساجد وأعمال الخير ، وفرض عليها ضريبة أسوة بأطيان الالتزام ، بعد أن خصص معاشا سنويا لمالكيها أو مستحقيها . على أن تتولى الدولة الانفاق على المساجد وأعمال البر . وبذلك نظم محمد علي الوقف بما يتفق مع مصلحة الواقفين ومصلحة الدولة . وقد احتج علماء الازهر على هذا الاجراء أيضا ، ولكن لم يكن لاحتجاجهم أي أثر(٦٩).

وأصبحت الأراضي المعفاة من دفع الضرائب تنحصر في الأوسية كما سبق أن ذكرنا . وكذلك الابعاديات (٧٠) والجفالك (٧١) في مقابل ما ينفقه أصحابها من أموال في اصلاحها ، والاراضي المعطاة لشيخ البلد نظير خدماته للحكومة ، وتقدر بنحو ١/٢٠ من زمام القرية (أي خمسة أفدنة في كل مائة فدان) (٧٢) .

استبدل محمد علي نظام الالتزام الملغى بنظام آخر أطلق عليه أسم « نظام التضامن » . وخلاصته (٧٣) أن يتضامن اهل كل قرية في دفع الضريبة المفروضة عليها الى الحكومة (٧٤) مباشرة ، وذلك في أعقاب الروك (القياس) الذي أجراه للاراضي الزراعية في عام ١٨١٤ . ولا شك أن هذا النظام الجديد يتنافى مع أبسط مبادىء المساواة والعدالة

---

(٦٩) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٧٠) أراضي تمنح لكبار موظفي الدولة مكافأة لهم على خدماتهم وقدرها كلوت بك بنحو مليون فدان .

(٧١) أراضي تمنح لأعضاء أسرة محمد علي طبقا لما اورده أرتين .

(٧٢) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥.

(٧٣) Baer, A history of Landownership... p. 6

(٧٤) Nahas, Situation économique et sociale du fellah Egyptien p. 44.

ويغرى على التراخي [٧٥] والاهمال •

ونظرا لمساوىء هذا النظام فقد الغاه في عام ١٨٤٠ واستبدله بنظام العهدة Al-uhda وهو نظام يشبه الى حد ما نظام الالتزام الملغى • وخلاصته أن يتعهد أفراد معينون بتوريد الضرائب لخزانة الدولة بعد تقديم الضمانات اللازمة للحكومة [٧٦] وتتراوح مساحة العهدة بين ٣٠٠ و ٨٠٠ فدان [٧٧] •

وقد حرص محمد علي على ألا يتحول نظام العهدة الى نظام الالتزام السابق ، ولذا فقد حرم على أصحاب العهدة أن يأخذوا ضرائب من الأهالي أكثر مما هو مفروض عليهم [٧٨] • أو أن يكون لهم من الامتيازات مثل ما كان للملتزمين من قبل • مثل تسخير [٧٩] الفلاحين لزراعة اراضيهم الخاصة •

وكانت الحكومة قبل فيضان النيل في كل عام تطرح أطيان كل بلد للمتزايدين واذا رسا المزاد على أحد الأفراد يصرح له بزراعة أرضه ، ثم ترسل الحكومة من لدنها مندوبين لقياس الأرض الزراعية التي في حوزة كل فرد ، ويسجلونها في سجلات تتخذ أساسا لجباية الضرائب [٨٠] •

ومما تجدر الاشارة اليه أن ضرائب الأرض الزراعية تعرضت للزيادة

---

(٧٥) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥ •

(٧٦) Artin, Propr. fonc. pp. 128-30

(٧٧) Bowring, Egypt. pp. 16 & 45

(٧٨) Baer, A History of land... p. 13.

(٧٩) Artin, Essai sur les causes de renchèrissement au Caire. pp. 72-73.

(٨٠) جرجس حنين : الأطيان والضرائب في القطر المصري ص ١٩٠ •

في أحيان كثيرة ، لا سيما في أوقات الحرب [٨١] ، وتحت ضغط الحاجة الى المزيد من الاموال . ولكنها بصفة عامة تقدر بنحو ٤٠ قرشا في المتوسط للفدان الواحد . وتختلف حسب درجة خصوبة التربة ، ومدى سهولة ريها أو صعوبته ، وتتدرج الضريبة فيما بين ١٥ قرشا و ٧٨ قرشا [٨٢] . وقد بلغت الضريبة على الأرض الزراعية في عام ١٨٣٣ نحو ٤٥٪ من مجموع الايرادات .

وتنيجة لسياسة محمد علي في توسيع رقعة الأرض الزراعية أنزادت مساحة الأرض المنزرعة من ٢٫٠٣١٫٩٠٠ فدان في سنة ١٨٢١ الى ٣٫١٢٣٫٩٩٧ فدان في سنة ١٨٣٣ ، مما ترتب عليه زيادة الضريبة العقارية من ٦٦٠٫٥٤١ جنيه الى ١٫٠٨٤٫٩٢٢ جنيه [٨٣] .

اما عن الضرائب المباشرة

١ ـ ضريبة (فردة) الرؤوس ، وقد فرضت على كل فرد حسب مركزه ومهنته ، فبالنسبة للموظفين وذوي الرواتب تعادل الضريبة مرتب شهر . وعلى التجار والصناع كل حسب ظروفه وامكانياته . وعلى الفلاح تتراوح الضريبة بين ٣٠ ، ١٠٠ قرش . وهناك حدا أدنى لا تقل عنه وهو ١٥ قرشا ، وحدا أعلى لا تتجاوزه وهو ٥٠٠ قرشا between 4 fr. 750. and 125 fr. وقدر كلوت بك [٨٤] حصيلة هذه الضريبة بنحو ١٦٪ من مجموع الايرادات .

٢ ـ الجزية التي يدفعها غير المسلمين وتتراوح قيمتها بين ثمانية

---

(٨١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥ .

(٨٢) Cattaui, Le Règne de Mohamed Ali d'après les Ar... I. II p. 405.

(٨٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٦٥ .

(٨٤) Clot, aperçu = PI p. 205

قروش وعشرة قروش على الفرد الواحد [٨٥] •

٣ ـ فردة (ضريبة) النخيل وقسمت الى ثلاث درجات بالنسبة للمحصول • فعلى النخلة من الدرجة الاولى قرشا ونصف ، ومن الدرجة الثانية قرشا واحدا ، ومن الدرجة الثالثة عشرين بارة (نصف قرش) • أما في مدينة رشيد حيث تجود زراعة البلح ، فكانت على النحو التالي على الترتيب : قرشان ، وقرش ونصف وقرش •

وفي سنة ١٨٣٥ تقرر عدم فرض ضريبة على النخيل الا بعد عشر سنوات من غرسه تشجيعا للزراع • وأعفيت النخيل المغروسة في أراض معفاة من دفع الضرائب ـ مثل الحفالك ـ من دفع الضريبة •

٤ ـ ضرائب على بعض الحيوانات ، وقد قررت في عام ١٨٢٠ بواقع ٢٠ قرشا على الرأس من الجاموس ، ٦٠ قرشا على الجمل ، وقرشا على الشاة ، و ½ ٢٧ بارة على الرأس من الماعز ، ١٥ قرشا على البقرة و ١٥ بارة على الفرس • ومما تجدر الاشارة اليه أن الضرائب على الحيوانات لم تكن معروفة في كل اجزاء الدولة العثمانية فيما عدا مصر [٨٧] •

٥ ـ ضريبة على المراكب بالنيل بواقع ٢٠٠ قرش على المركب الواحدة•

٦ ـ ضريبة على آلات النسيج وقدرها ٣٦ قرشا في الشهر [٨٨]•

اما عن الضرائب غير المباشرة فتشمل :

١ ـ الرسوم الجمركية ، وتفرض على البضائع في جمارك بولاق

---

(٨٥) احمد الحته : تاريخ مصر ص ٣٢٩ •

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ •

(٨٧) المصدر السابق ص ٣٢٨ •

(٨٨) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٩ •

ودمياط والاسكندرية ورشيد ومصر القديمة والسويس • ويلاحظ ان دخلها لم يكن كبيراً • وذلك لسببين :

الأول :احتكار الحكومة نحو ٩٥٪ من الصادرات وثلث الواردات[٨٩]

والثاني : التزام الحكومة المصرية بتنفيذ السياسة الجمركية المقررة في الدولة العثمانية طبقا للامتيازات الاجنبية • اذ كان الاجانب المتمتعون بتلك الامتيازات يدفعون ضريبة على الواردات مقدارها ٣٪ ، بينما يدفع المسلمون ٤٪ • هذا بالاضافة الى بعض الاتاوات الجبرية وعوايد مرور لا يدفعها الاجانب [٩٠] •

وقد حاول محمد علي زيادة الرسوم الجمركية على الواردات الاجنبية لحماية الصناعات الوطنية • ولكن السلطان العثماني رفض ذلك والزمه بضرورة مراعاة الامتيازات الأجنبية عند تنفيذ المعاهدات التجارية •

بالاضافة الى الرسوم الجمركية توجد رسوم أخرى على التجارة العابرة بين الشرق والغرب عن طريق مصر • وكانت تلك التجارة قليلة الحجم في اوائل القرن التاسع عشر ، ولكن بفضل الجهود التي بذلتها مصر في تسهيل المواصلات والعناية بطريق مصر البري من ميناء السويس الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية أن قدرت قيمة التجارة المارة بمصر في سنة ١٨٤٠ بنحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ جنيه سويا [٩١]

هذا فضلا عن قافلة الحج التي تمر بمصر سنويا الآتية من مراكش وتونس والجزائر وطرابلس في طريقها الى مكة والتي تتكون من قرابة أربعة آلاف جمل حيث كانت الحكومة تفرض رسوما على مرور تلك

---

(٨٩) المصدر السابق •

(٩٠) احمد الحتة : تاريخ مصر ص ٣١٠ •

(٩١) المصدر السابق ص ٣١٤ •

القافلة بمن فيها من حجاج وبضائع .

ب ـ عوايد الدخولية : وتفرض على بعض البضائع عند انتقالها من بلد الى أخرى داخل القطر . مثل المأكولات والاغذية عند دخولها الاسكندرية ودمياط ورشيد والغلال عند دخولها القاهرة ، والمواشي القادمة الى القاهرة والمرسلة الى الاسكندرية . وفي سنة ١٨٤٠ كانت عوايد الدخولية على النحو التالي (٩٢) :

٧٤ قرشا عن كل رأس من الثيران المعدة للذبح .

٢٤ ½ قرشا عن كل رأس من الجاموس المعدة للذبح .

٣ ½ قرشا عن كل رأس من الاغنام المعدة للذبح .

٢٠ قرشا عن كل أردب من القمح .

١٥ قرشا عن كل أردب من الشعير والفول والذرة والبقول .

وعلى العموم فكانت الضريبة تعادل ١٢٪ من قيمة السلعة (٩٣) .

جـ ـ رسوم مختلفة ، على الصيد والمراكب ، على كل مركب ٢٠٠ قرش . وعلى الأسماك ثلث حصيلة الصياد من السمك ، وعلى الأسواق بطريق الالتزام ، وغير ذلك .

د ـ أرباح الاحتكار : وكانت تقدر بنحو ٢٨٪ من الايرادات ، ففي سنة ١٨٣٦ كانت الحكومة تحتكر ٩٥٪ من مجموع الصادرات ، ولكنها لم تستطع أن تحتكر كل الواردات ، اذ بلغت الواردات في تلك السنة ٤٠٪ من مجموع الواردات لمصر فعلى سبيل المثال كانت الحكومة تحتكر تجارة البن ، فتشتريه بسعر ١٤٠ قرشا القنطار وتبيعه بسعر ٤١٢ قرشا (٩٤)

---

(٩٢) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(٩٣) لبراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٩ .

(٩٤) Cattaui, La Règne de Mohamed Ali d'après les Archives Russes T. II p. 405.

والقمح تشتريه بثلاثين قرشا للاردب وتبيعه بخمسين قرشا ، وتشتري الفول بعشرين قرشا للاردب وتبيعه بثلاثين قرشا ، وتشتري الذرة وهو عماد غذاء الفلاح الرئيسي بعشرين قرشا وتبيعه باثنين وثلاثين قرشا .

وتتيجة لذلك أصبح دخل الحكومة من الاحتكار ٣٤٠ر٠٠٠ جنيه مصري في سنة ١٨٢١ من مجموع الايراد البالغ ١ر١٩٩ر٧٠٠ جنيه مصري . وزاد هذا الدخل الى ٧٥٠ر٠٠٠ جنيه مصري في سنة ١٨٣٦ من مجموع الايراد وقدره ٣ر٠٦٤ر٣٠٠ جنيه مصري [٩٥] .

اثر النظم الضريبية على مصر من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في النصف الأول للقرن التاسع عشر :

ان انشاء حكومة قوية في مصر ــ لا شك ــ كان من أجل الاعمال التي قام بها محمد علي ، اذ كان لهذا العمل أبعد الاثر في استتباب الامن والنظام اللذين لم تعرفهما مصر طوال الحكم العثماني المملوكي . ومكنت محمد علي من القيام باصلاحاته الواسعة والاستفادة من الخبرات الاوربية . وكان استقرار الاحوال في مصر موضع ثناء واعجاب الكتاب الأوربيين المعاصرين .

ولكن الى جانب هذه الاعمال فان محمد علي لم يتجه في حكمه اتجاها دستوريا ، بل حكم مصر حكما مطلقا . وبذلك حرم الامة من المشاركة في مسئوليات الحكم . ولم يكن لها من دور سوى أن تعمل فقط لتذهب ثمرة جهودها في صورة ضرائب متعددة الانواع والاشكال الى خزينة الدولة .

واذا تناولنا موضوع الغاء محمد علي نظام الالتزام الذي يمثل « الرأسمالية الاقطاعية » فانه لا يعني ملكية المزارعين للأرض التي يقومون بزراعتها ، وانما يعني انتقالها من يد الملتزمين ، فأصبحت الحكومة هي

(٩٥) أحمد الحته : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

المالكة للارض • وقد علق المسيو مانجان (صديق محمد علي) على الغاء الالتزام بقوله ان هذا الالغاء كان أبعد ما يكون عن الاصلاح ،فالتعديلات التي أدخلها حاكم مصر في نظام الملكية لم تكن منفعته مع الصالح العام، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا اعترف بها (٩٦) •

واذا قلنا انتقال ملكية الأرض من يد الملتزمين الى الدولة ، التي تقوم بتوزيع زراعتها على الفلاحين في حدود ثلاثة أو أربعة أفدنة لكل فلاح ، فلا نقصد بذلك الملكية التي نعرفها في عصرنا هذا ، وانما نقصد ملكية الانتفاع usufruct right فقط وهي التي كانت تتفق مع الاتجاه العام لسياسة محمد علي الاقتصادية القائمة على الاحتكار (٩٧) •

وجد نظام محمد علي هجوما عنيفا من قبل الكتاب المعاصرين مثل الجبرتي ومانجان وغيرهما • وحتى الذين دافعوا عنه من أمثال (٩٨)كلوت بك بانه نظام مؤقت يمهد السبيل أمام الملكية الحقيقية • على أن ملكية الفلاح للارض لم تتقرر الا في سنة ١٨٥٨ بعد وفاة محمد علي •

واذا لم تكن للضرائب قاعدة ثابتة قبل عهد محمد علي ــ اذا استثنينا عهد الحملة الفرنسية ــ حيث كان النظام المتبع أن الحكومة كانت تفرض أتاوات جديدة أو تزيد الأوتاوات القديمة كلما احتاجت الى المال ، فان الضرائب في عهد محمد علي لم تثبت على حال ، اذ كانت دائبة الارتفاع، نظرا لحروب محمد علي المتلاحقة ، كالحرب الوهابية ، وفتح السودان وحرب المورة وحرب الشام •

وكان من نتائج الزيادة المستمرة في الضرائب أن تأخرت قرى كثيرة

---

(٩٦) Mengin, Hist... vol. II. p. 337

(٩٧) Baer, A history of ... p.7

(٩٨) Clot, Aperçu p. 197

في دفعها والتجأ فلاحوها الى الفرار من الأرض . وازاء هذه الظاهرة أصدر محمد علي قرارا في سنة ١٨٣٩ بأن تتضامن القرية في خراج القرية المجاورة لها . وكذلك يضمن الاهالي الموسرين خراج المعسرين . وهذا يتنافى تماما مع العدالة الاجتماعية ، ويؤدي في نفس الوقت الى افقار القرى القادرة باجبارها على دفع الضرائب أضعافا مضاعفة (٩٩) .

واذا كان محمد علي أحل نظام العهدة محل نظام التضامن ، فان هذا النظام أيضا لم يخل من عيوب . فالمتعهد الذي يقوم بدفع ما على الفلاح من ضريبة مقدما للحكومة يعتبر الفلاح مدينا له ، ولذا فكثيرا ما كان يستغل ذلك في تسخيره لاطماعه الخاصة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اذا هجر الفلاح أرضه وهرب كان على الحكومة أن تتعقبه وأن تعيده الى أرضه مرة ثانية استيفاء لما دفعه المتعهد من ضرائب . وفي هذا ارهاق وامتهان لحرية الفلاح .

ونظرا لما ترتب على هذا النظام من مساوىء شبيهة الى حد ما بمساوىء نظام الالتزام أن أقدمت الحكومة على الغائه في سنة ١٨٥٠ ، ولكن بعد أن حمل الفلاحين الكثير من العنت والارهاق .

وبذلك يمكننا القول أن حالة الفلاح المصري في ظل نظام محمد علي لم تتغير عما كانت عليه خلال القرن الثامن عشر ، وهي أنه لا يمتلك سوى حق الانتفاع بالأرض فحسب (١٠٠) . وهذا الحق مشروط بمقدرته على سداد ما عليه من التزامات ضريبية قبل الحكومة . فاذا عجز عن دفعها نزعت منه الأرض وأعطيت لغيره (١٠١) . واذا مات المنتفع بالأرض كان

---

(٩٩) الرافعي ، جـ ٣ ص ٥٩١ .

(١٠٠) Baer, A history of... p. 6.

(١٠١) المصدر السابق ص ٦ .

يتولى أولاده زراعتها بدلا منه ، ولكن ليس بحق الوراثة (١٠٢) .

فالفلاح في عهد محمد علي كان اما اجيرا لدى الحكومة أو منتفعا بأطيانها وكان الأجير يتقاضى قرشا واحدا في اليوم (١٠٣) ، اما نقدا أو عينا . وكانت الحكومة في أحيان كثيرة تنزع الأرض ممن تشاء دون أن تمنحه تعويضا عن ذلك .

ومع ذلك يمكننا القول بأن حالة الفلاح قد تحسنت نسبيا عما كانت عليه في عهد الحكم العثماني المملوكي (١٠٤) . ولكنها في الجملة كانت تدعو الى الالم والاشفاق فحرمانه من حق التملك ، ووقوعه فريسة الضرائب المتعددة ، واستغلال نظام الاحتكار له جعله في حالة سيئة .

هذا بالاضافة الى أن زيادة الحاصلات الزراعية ، واقامة المشروعات العمرانية الكبيرة لم تقترن بارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية . وخير وصف لحالته في ذلك الوقت ماكتبه Mongiu (١٠٥) اذ يقول :

«S'il est vrai de dire qu'il n'ya pas de contrée plus riche que l'Egypte dans ses productions territoriales, il n'en est peut-être pas dont les habitans (1832) soient peus malheureux».

ولكن مهما قيل في مظالم هذا العصر ، فهي في الحقيقة لا تذكر بجانب مظالم الحكام المماليك .

واذا تركنا طبقة الفلاحين وانقلنا الى طائفة الصناع في ظل هذا النظام الجديد نجد أن هؤلاء الذين عملوا في المصانع والترسانات الحربية والبحرية

---

(١٠٢) الرافعي : تاريخ الحركة الوطنية ج ٣ ص ٥٨٦ .

(١٠٣) Clot, Aperçu vol. II, p. 196

(١٠٤) الرافعي ج ١ ص ٥٩١ .

(١٠٥) Mengin, Hist. de l'Egypte vol. II, p. 342

التي أنشأها محمد علي قد تدربوا على تلك الصناعات الجديدة واتقنوها. وكونوا طبقة من العمال الفنيين التي سيكون لها أبعد الاثر في تقدم مصر الصناعي في القرن التاسع عشر .

أما طبقة التجار فقد اضمحلت الى حد بعيد نتيجة سياسة الاحتكار التي سارت عليها الحكومة واحتكارها للتجارة الداخلية والخارجية على السواء . والظاهرة الغريبة التي نلاحظها في ذلك الوقت أن ازدياد حجم التجارة المصرية ازديادا كبيرا صحبته قلة في الثروات الشخصية ، وقلة أخرى في عدد التجار (١٠٦) ، وفقر الأهالي ، وسبب ذلك أن ثمرةازدهار التجارة كانت تعود كلها على الحكومة وعلى الوسطاء من الأجانب .

أما العلماء فقد تضاءل نفوذهم في عهد محمد علي بعد أن كان له النفوذ الواسع والقيادة الفكرية والأدبية والسياسية في العهد المملوكي العثماني وعهد الحملة الفرنسية ، لا سيما بعد أن استطاع محمد علي القضاء على زعامتهم في شخص السيد عمر مكرم .

ومما زاد في تضاؤل نفوذهم تمسك الازهر بنظامه القديم ، فلم يساير حركة التقدم والاصلاح التي قامت في مصر وقتئذ . وبذلك انتقل مركز الثقافة من الأزهر الى المدارس والمعاهد والبعثات . وانطوى العلماء على أنفسهم ولم يساهموا في حركة التجديد والانشاء التي شملت مختلف النواحي .وترتب على ذلك أن فقدوا مالهم من هيبة واحترام لدى الحاكمين.

ومع أن محمد علي لم يفكر في اصلاح الأزهر ، كما لم يفكر علماؤه في ذلك ، الا أنه ظل المورد والمعين الذي استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها . وبعد أن أتم هؤلاء دراستهم كان لهم القسط الاوفى في نهضة مصر العلمية والاجتماعية . ولذا فالأزهر من هذه الناحية كان له الفضل الكبير في النهضة العلمية الحديثة في مصر .

---

(١٠٦) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

أما جماعات البدو الضاربة في الصحراء المصرية وعلى حافة الدلتا فكانت مثار تعب شديد لمحمد علي . اذ دأب هؤلاء على مهاجمة المناطق الزراعية ونهبها ، وكذلك قطع الطرق على التجار والمسافرين .فحاول محمد علي أول الامر أن يعقد معهم اتفاقات حسن جوار ، ولكنهم نقضوها . فما كان منه الا أن أخضعهم بالقوة لسلطان الحكومة (١٠٧) .

وفي نفس الوقت لجأت الحكومة الى تعويد هؤلاء حياة الحضارة ، فأقطعتهم اراضي واسعة لاستغلالها مع اعفائها من الضرائب كلية (١٠٨) .

كما رغبهم محمد علي في الانتظام في سلك الجندية ، ونجح في ذلك. وبهذه الوسائل استطاع والي مصر ادماج القبائل البدوية في جسم الهيئة الاجتماعية . وكان ذلك من أهم أعمال العمران .

وخلاصة القول فان هذا النظام الجديد قد خلق لمصر شخصيتها المنفصلة عن السلطة العثمانية حكما وسياسة وعملا . واذا كانت البلاد لم تصل في ذلك الوقت الى درجة كافية من النضج في الادارة المالية والضريبية ، الا أن الفترة من وفاة محمد علي (منتصف القرن ١٩) الى الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ قد شاهدت تغيرات واسعة ، فقلت سيطرة الدولة على نواحي النشاط الاقتصادي والمالي للافراد ، وقلت القيود المفروضة عليهم.

ولا شك أن هذه الظاهرة تتفق مع الاتجاه الذي ساد أوربا وقتئذ حيث علا سلطان المبادىء الحرة liberalism في ميادين الاقتصاد والسياسة. فما كانت مصر تستطيع أن تعيش بمعزل عن التيارات الجديدة في العالم الغربي بعد أن اتصلت بـه وبحضارته (١٠٩) . وسيهىء لها هذا تحسنا في الادارة المالية والضريبية بحيث تصبح الضرائب أدنى الى العدالة ، وأكثر انطباقا على مقدرة دافعي الضرائب فيما بعد .

---

(١٠٧) جرجس حنين : الأطيان والضرائب ص ١٩٧ .
(١٠٨) الرافعي ج ٣ ص ٦١١ .
(١٠٩) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٩٠ .

المراجع العربية

١ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦١ .

٢ ـ أحمد أحمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر الاسكندرية ١٩٦٧ .

٣ ـ محمد شفيق غربال : مصر في مفترق الطرق (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ـ ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية ـ مجلة كلية الآداب . الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ج ١ مايو سنة ١٩٣٦ .

٤ ـ جرجس حنين : الأطيان والضرائب في القطر المصري ، القاهرة ١٩٠٤ .

٥ ـ راشد البراوي ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٩ .

٦ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٤ القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٧ ـ عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (جزءان) القاهرة ١٩٢٩ .

٨ ـ عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ـ القاهرة ١٩٢٩ .

٩ ـ محمد فؤاد شكري : وعبد المقصود العناني : بناء دولة مصر محمد علي القاهرة ١٩٤٨ . وسيد محمد خليل :

١٠ ـ يعقوب ارتين :الاحكام المرعية في شأن الاراضي المصرية (ترجمة) القاهرة ١٣٠٦ هـ .
القاهرة ١٩٣٦ .

١١ ـ يوسف نحاس : الفلاح «حالته الاقتصادية والاجتماعية »



★ ★ ★

المراجع الاجنبية

— Bear, G., A history of landownership in modern Egypt 1800 — 1850 London, 1962.

— Blunt M. S., The secret history of the British occupation of Egypt, 1923

— Cromer, Lord, Modern Egypt. 2 vols. London 1908.

— Cromer Lord, Abbas II, London 1915.

— Dodwell, H. The founder of Modern Egypt: A study of Muhammad Ali, Camb. 1967.

— Ghorbal, S. The beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemet Ali, London 1928.

— Holt, P. M., Political and social change in modern Egypt: historical studies from the Ottoman conquest to the United Arab Republic — London 1968.

— Hoskins, H. British routes to India N. Y. 1928.

— Marlowe, J. The Anglo-Egyptian relations: 1800-1953 L. 1954.

— Safran, N. Egypt in search of political Community. An Analysis of intellectual and political evolution of Egypt. 1804-1882.

— Silvester de Sacy: Bibliothèque des Arabisants Français: Première serie 2 tomes. Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, T. II.

الأثر الاقتصادي في الحياة السياسية
في صدر الإسلام والعصر الأموي

الدكتور ناجي حسن

شكلت القبائل العربية التي تقدمت للفتح عماد الجيش الاسلامي في صدر الاسلام ، ومن ثم كان عليها ان تقوم بالعمل ذاته في الدولة الأموية ، التي استندت في قيامها الى تظافر جهود تلك القبائل وولائها خاصة السورية منها للامويين • لا ريب ان هذه القبائل المتقدمة لم تكن بحاجة الى نفقات باهضة التكاليف او ان تكون عبئا ثقيلا على بيت المال ، وذلك بسبب المواهب الحربية والقدرة القتالية التي امتاز بها رجالها ، وقد عبر عن هذا الاحنف بن قيس حين سئل : ما بقاء ما فيه العرب ، قال : « اذا تقلدوا السيوف ،وشدوا العمائم ، وركبوا الخيل ولم تأخذهم حمية الاوغاد»[١]• والى هذا يمكن ان يعزى السر في سرعة تقدم العرب في البلاد المفتوحة بشكل يبعث على الدهشة ويثير الاعجاب اضافة الى عوامل اخرى لسنا بصدد الحديث عنها •

لقد ادرك قادة المسلمين في المدينة ذلك الأمر ، ومن هنا كانت الأوامر تقضب بأن تتجه تلك المجموعات القبلية نحو مواطن الفتح الجديدة ، فكان ان تسارع الناس اليها بين محتسب استهواه الجهاد في سبيل الله

---

(١) البيان والتبيين ٢\٨٨ ٠

وطامع منى نفسه بالغنيمة [٢] .

يمكن القول ان انشاء الديوان زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، يعد البداية الاولى للتنظيم المالي في الاسلام ، وهي محاولة قصد بها ربط القبائل العربية بالسلطة السياسية في المدينة واخضاعها لسيطرتها ، حيث اصبحت تعتمد اعتمادا كليا على العطاء في امور حياتها الاقتصاديةاضافة الى الغنائم والاسلاب التي تتركها المواقع الحربية . ويظهر التطور المالي السريع في حياة هذه القبائل بأجلى مظاهره اذا عقدت مقارنة بين البدايات الاولى للفتوح ونتائجها . ففي حملة تبوك عام ٨هـ لم يجن المسلمون سوى ثلثمائة دينار حينما صالحوا يحنة بن رؤبة صاحب ايله عليها [٣] . ولم يستطع خالد بن الوليد ان يحصل على اكثر من ستين الف درهم من فتوحه في العراق ، كذلك نجد ان عمر بن الخطاب يندهش حين يخبره والي البحرين بانه قد حمل مبلغ خمسمائة الف درهم ، حتى قال له : أتدري ما تقول [٤] . ويظهر ان افراد هذه القبائل لم تعرف المبالغ الطائلة حتى اصعب على حريم بن اوس بن حارثة الطائي المرافق لحملة خالد بن الوليد على الحيرة أن يصدق ان كان هنالك ما هو اكثر من الألف [٥] .

ان موقعة القادسية وما تلاها من فتوح كانت البداية الحقيقية لتدفق الأموال على القبائل المقاتلة بشكل لم يعهده العرب من قبل خاصة بعد مهاجمة المدائن عاصمة الدولة الساسانية وضواحيها ، حتى يجد المتتبع لاحداث الفتح ان بعض المبالغ قد تدخل في عداد الخيال . فيقال ان سعد ابن وقاص وجد في المدائن قبابا تركية مملوءة بسلاسل مختمة بالرصاص ،

---

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٥ .
(٣) فتوح البلدان ص ٧١ .
(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٩٩ .
(٥) فتوح البلدان ص ٢٤٥ ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢ ، ابن الطقطقى : الفخري ص ٦٧ .

فظنوا انها طعام ، فاذا هي آنية من الذهب والفضة فقسمت بين المسلمين [٦] . وباع هلال ابن علفه اسلاب رستم بتسعين الف دينار ، واستطاع زهرة بن حوته التميمي ان يحصل على ثمانين الف دينار حين باع منطقة حالينوس [٧] . وبولغ في راية الفرس المعروفة بـ « درفش كاويان » حتى قيل انها كانت مزينة باللؤلؤ والياقوت ، وقد اصابها رجل من النخع فقومت بالفي الف دينار ، غير أن عمر بن الخطاب ابى ان تكون من حصة هذا النخعي فاخذ المال ودفع اليه ثلاثين الف درهم [٨] . واصاب المسلمون يوم جاولاء ثلاثين الف الف مثقال ، واثنتي عشرة الف جارية وغلام [٩] . ويبالغ ابو عبيدة في مقداد الاموال التي حصل عليها المقاتلون بعد وقعة اليرموك حيث اصاب الفارس اربعة وعشرون الف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية آلاف [١٠] .

من كل هذا نجد أن تطورا اقتصاديا هائلا قد طرأ على حياة الجماعات المتقدمة للفتح ، ويكفي ان نشير الى ان بعضهم لم يعرف قيمة ما اصابه من هذه الغنائم ، حتى كان الرجل يوم دخل المسلمون المدائن يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول : « من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء ، يرى أن الفضة خير من الذهب » [١١] . ومن هنا تم انشاء الديوان لفرض ربط القبائل ومن تبعها بالسلطة الحاكمة بالمدينة ، وكذلك لتنظيم عملية الفتح على اساس ثابت وسبيل واضح . ومع ان معلوماتنا عن الديوان تكاد تكون موجزة وغير وافية لما نحن بسبيل بحثه ، الا انها تلقي ضوءا خافتا على الجماعات التي ضمها الديوان ، والاسلوب الذي اتبع في

---

(٦) القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ص ١٥٨ .
(٧) نفس المصدر ص ١٥٦ .
(٨) نفس المصدر ص ١٥٧ .
(٩) القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ص ٢٤٥ .
(١٠) الواقدي : فتوح الشام ٢\٢١١ .
(١١) الذخائر والتحف ص ١٥٨ ، الفخري ص ٦٧ .

التوزيع . الا اننا لا نعلم على وجه التحديد ان كان قد شمل جميع القبائل ام انه اقتصر على تلك التي تقدمت للخدمة في الدولة الاسلامية . يروي الماوردي ان الخليفة الثاني فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل منهم من الفين الى خمسمائة الى ثلثمائة ولم ينقص احد منها (١٢) . وينقل الطبري نصا فريدا في هذا الباب حين يقول « وعرفوهم على مائة الف درهم ، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلا وثلاثا واربعين امرأة ، وخمسين من العيال لهم مائةالف درهم ، وكل عرافة من اهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة الاف ، وعشرين امرأة عيل على مائة الف درهم . وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امرأة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على الف وخمسمائة على مائة الف درهم ، ثم على هذا الحساب ، وكان العطاء يدفع الى امراء الاسباع واصحاب الرايات فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والاقناء فيدفعونه الى اهله في دورهم » (١٣) . كما فرض للمنفوس مائة درهم فاذا ترعرع بلغ مائتي درهم فاذا بلغ زاده (١٤) . اما اولئك الذين شاركوا في القادسية فقد حصل كل واحد منهم على الفين درهم اضافة الى خمسمائة لاؤلئك الذين كان لهم بلاء كبير في الاحداث (١٥) ، وهو ما يسمى بشرف العطاء (١٦) . ولم يقف الأمر على العرب حسب وانما تعداه الى بعض كبار الفرس الذين دخلوا الاسلام فقد فرض لمائة منهم في الفين ، ولستة منهم في الفين وخمسمائة (١٧) . من هذا يظهر ان حالة العرب الاقتصادية اخذت تتطور تطورا سريعا باعتمادها على العطاء ، اضافة الى الغنائم الهائلة التي

---

(١٢) الاحكام السلطانية ص ٢٠٢ .
(١٣) الطبري ٤\١٩٤ .
(١٤) الاحكام السلطانية ص ٢٠٢ .
(١٥) الطبري ٤\١٦٢ . انظر الاشتقاق ص ٤٩٣ ، الاغاني ١٥/٢١٤.
(١٦) الطبري ٤\٢١٩ ، القالي : الامالي ٢/١٥٤ .
(١٧) الطبري ٤\٢١٩ .

تم الاستيلاء عليها في مناطق الفتح [١٨] ، مما جعل هنالك تفاوتا واضحا بين الافراد وظهور طبقة متميزة دفعت عمر بن الخطاب الى التصريح بالعدول عن هذه السياسة والرجوع الى مبدأ المساواة وكان يقول : « والله لئن بقيت الى هذا العام المقبل لا لحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحدا » [١٩] لكنه اغتيل دون ان يحقق مشروعه هذا حين نفذت الايدي التي خافت على مصالحها الاقتصادية وعيدها فيه قبل ان ينفذ وعده فيها، اما الصاق التهمة على عناصر اجنبية فلا يدعمه برهان واضح أو يؤيده دليل قاطع . اذ ان قاتله كان مولى للمغيرة بن شعبة احد اطراف المؤامرة هذه ، ومن اجل طمس معالم الجريمة فان القاتل قد قتل في الحال ، وبذلك ضاع الامل في الحصول على صورة واضحة لما حدث [٢٠] .

---

(١٨) لم تقف اطماع القبائل التي قام الفتح على سيوفها عند حد ، وانما ارادت ان تستحوذ على الارض خاصة مناطق السواد ، ولهذا طالبوا بتوزيعه عليهم اسوة بالغنائم ، خاصة بجيلة التي اشترطت ان تحصل على ربع السواد . ويتضح من رواية الحسن بن صالح ان عمر صالحهم بعد ذلك على ان يفرض لهم في الفين من العطاء (البلاذري : فتوح ص ٢٦٧ ، وحسنا فعلت السلطة في المدينة حين ابت اعطاء المقاتلة شيئا من الارض بل اكتفت بتعويضهم بعض المال . وقد بررت المدينة ذلك بكونه يعني سيطرة فئة قليلة على هذا المورد الهام ، ومن ثم فلا مجال لمن يأتي بعدهم . والحق انه لم يكن كذلك ، بل خشيت ان يحول ذلك دون تأدية ما عليهم لبيت المال . بل اكثر من هذا اذ ان استيلاء القبائل على الارض يعني بالتالي تدميرها بفعل المنازعات القائمة بينهم .

(١٩) ابن سعد : الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٢٠) رواية الطبري عن المسور بن مخرمة تذكر ان ابا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة شكى لعمر ما يعانيه من تعسف بقوله : يا امير المؤمنين اعدني على المغيرة بن شعبة فان علي خراجا كثيرا ، فقال له : فما ارى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال » فتوعده وقتله (الطبري ١٩١/٤) ويشارك المسعودي الطبري فيما يروي ، لكنه يثير مشكلة اخرى وهي انه عمر بن الخطاب لم يترك لاحد من العجم يدخل المدينة لكن هذا دخلها بوصية من

وبمجيء عثمان بن عفان الى الخلافة ازدادت اعباء بيت المال بسبب كثرة الهبات والعطايا [٢١] ، وكانت الدولة في بداية الامر غير شاعرة بما يحدث بسبب كثرة الفتوح ، وتدفق الاموال دون حساب . كذلك الحال بالنسبة للمقاتلين الذين استغلوا المناطق المفتوحة لجني اكبر نفع ممكن. فعلى سبيل المثال اعتبرت الري واذربيجان مناطقة هامة لمغازي اهل الكوفة حيث « كان لهم بالثغرين عشرة آلاف مقاتل ، ستة الاف في اذربيجان، واربعة بالري . وكان بالكوفة اذ ذاك اربعون الف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة ، فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنوات غزوة » [٢٢] . غير أن هذه الاماكن سرعان ما قلت اهميتها بسبب نفاذ طاقتها ، وعدم قدرتها على تلبية طلبات المغيرين هناك ، وعلى هذا يمكن تعليل بعض مشاكل الكوفة مع الخليفة عثمان بن عنان حين شعروا بعد فوات الاوان ، بأن فتوحهم استغلت لصالح فئة خاصة في المدينة بينما لم ينالوا مع كل ما بذلوه من جهد سوى عطايا قليلة ذهبت مع الأيام،

المغيرة بن شعبة . كما لا نجد عند الطبري اي اثر لما حدث للقاتل على حين يذكر المسعودي انه قتل نفسه ، (مروج الذهب ٢/٣٢٩) . واذا انت تدبرت ماروي تجد أن هذا المولى يجب ان يصفي حسابه مع مولاه وليس مع عمر . بل اكثر من هذا فان دخوله الى المدينة بهذه الصورة لا بد وان يستتبعها الكثير من التساؤلات . والسؤال هنا هل يعني اغتيال الخليفة اعفاء هذا المولى من تلك الضريبة الى ان ذلك العمل سيدفع برأسه كثمن له .

(٢١) لقد استغل بيت المال لضمان سكوت المعارضة لسياسة عثمان ، حتى انه قال لأبي ذر : كن عندي تغدو عليك وتروح اللقا ، ابن سعد ج٤ ق ١ ص ١٦٧ .

(٢٢) الطبري ٥/٤٥ . لا يخفى أن تلك الغزوات لم تكن مضمونه الفائدة او اكيدة النفع ، وانما غنائمها تخضع لظروف المناطق فقرها او غناها ، وقد يعود الفارس خالي الوفاض بعد طول انتظار يربي على اربع سنوات كانت امانيها في مخيلته .

وزاد في صعوبة الأمر ان الموارد العامة اخذت بالتناقص حتى غدا بيت المال لا يستطيع الايفاء بتعهداته الخاص امنها والعام مما اضطر الولاة الى انقاص العطاء في الامصار لملافاة هذه الظاهرة الخطيرة ومن ذلك ما قام به سعيد بن العاص والي عثمان في الكوفة حين حط عطاء نساء الكوفة الى مائة بعد ان كان مائتين ، مما اثار تذمرا واسعا بين اهلها [٢٣] . ويظهر ان هنالك اتفاقا مسبقا بين الخليفة وسعيد هذا حول ذلك الامر ، ولم يقتصر ذلك على النساء حسب ، وانما شمل الرجال ، حين رد اهل البلاء الى الفين بدلا من الفين وخمسمائة [٢٤] . لكن ذلك لم يدفع العجز المالي الذي بات وشيكا حدوثه ، مما جعل التفكير منصبا على انتزاع الملكيات الخاصة التي اصبحت بأيدي الأفراد من الناس . فاذا علمنا ان عدة اهل الكوفة ثمانون الفا ، ومقاتلتهم اربعون الفا [٢٥] ادركنا ما سيلحقه ذلك العمل من اضرار اقتصادية بالغة بهذه المنطقة ، وهو يعكس ذلك الموقف العنيف الذي اتخذه اهلها بوجه الخليفة عثمان وولاته [٢٦] ، وكان احد ابرز العوامل التي طوحت بسلطة الخلافة ، بل وضعت نهاية لحياة عثمان نفسه .

وهكذا كانت الرؤيا بكل ابعادها المختلفة واضحة لدى الامام علي

---

(٢٣) الاغاني ١٤٣/١٣ .

(٢٤) الطبري ٩٣/٥ . ليس لدينا معلومات واضحة ان كان مثل هذا قد حدث في مناطق اخرى من الدولة الاسلامية ، الا انه من المؤكد ان هذه المنطقة كانت في مقدمة من وضعت عليهم تلك الالتزامات المرهقة دون الاعتراف بحقوقها بسبب شدة معارضتها لسياسة المدينة .

(٢٥) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٦٥ .

(٢٦) عن الشعبي : قال سعيد بن العاص : انما السواد بستان قريش ، فقال الاشتر : اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد او فاكم فيه نصيبا الا ان يكون كاحدنا . الطبري ٣٢٣/٤ .

الذي اعلن قبل موافقتــه على البيعة « اني قــد كنت كارها لأمركــم فأبيتم الا ان اكون عليكم ، الا وانه ليس لي ان منه درهما دونكم ! رضيتم ؟ قالوا : بلى [٢٧] » . وبذلك ادركت الطبقة المتنفذة ما يــدور في خلد الأمام فيما يتصل بالتوزيع المالي ، ومن هنا جاءت المعارضــة القوية حيث كبار الملاك واصحاب الثروة كطلحة والزبير [٢٨] دون سلك نهجهما كزيد بن ثابت [٢٩] ، وكعب بن مالــك [٣٠] وسعــد بن ابي وقاص [٣١] وغيرهم [٣٢] . واذا تدبرنا طبيعة المعارضة السياسيــة هذه نجد ان كوامنها الاقتصادية كانت المحرك لاتجاهات هذا التكتل سواء اكان ذلك بشكل فردي او انه احساس جماعي عــام . وتلقي قائمــة المسعودي الضوء على تلك المدخولات الكبيرة التي كانت تتمتع بها تلك الطبقة ، فقد بلغ مال الزبير خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس ، والف عبد وامه ، وكذلك طلحة بن عبدالله الذي كانت غلته كل يوم الف دينار . اما زيــد بن ثابت فخلف حين مات من الذهب والفضة ما كان يكســر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار [٣٣] ، ومن هنا سلك الأمام سياسة مالية جديدة تحول دون اكتناز المال لصالح فئة خاصة على حساب جمهور الأئمــة ، فهو وان سوى بين النــاس في

---

(٢٧) الطبري ٤/٤٢٨ .

(٢٨) نفس المصدر ٤\٤٣٠ .

(٢٩) لم يبايع زيد بن ثابت عليا لان عثمان ولاه بيت المال ، ولهــذا قال له ابو ايوب : ما تنصره – يعني عثمان – الا انه أكثر لك من العضدان (النخلة المثمرة القصيرة الجذع) . الطبري ٤/٤٣٠ .

(٣٠) كعب بن مالك استعمله عثمان على صدقة مزينه وترك ما اخــذ منهم له . الطبري ٤/٤٣٠ .

(٣١) الطبري ٤\٤٢٨ .

(٣٢) الاغاني ١٦/٢٣٤ .

(٣٣) مروج الذهب ٢\٣٤٢ .

العطاء الا انه لم يحاول الاحتفاظ ببيت للمال بصورة دائمة اعتقاداً منه ان في ذلك خبرا للمسلمين ، وان حزن المال لا مسوغ له او مبرر ، كما وانه لم يكتف بعطاء واحد وانما تعددت عطاياه . ففي رواية ابي حكيم « ان عليا اعطى العطاء في سنة ثلاث مرات ، ثم اتاه مال من اصفهان فقال : اغدوا الى عطاء رابع اني لست لكم بخازن (٣٤) » . لكن الامام لم يعش طويلا لنشهد نتائج تلك السياسية المالية ، حيث وضع اغتياله حدا لاستمرارها .

وبمجيء الامويين الى السلطة اصبح العطاء وما يتبعه من هدايا وهبات من الوسائل الهامة للسيطرة على الجماعات المختلفة وصفحات ولائها لمساندة الحكم القائم ، خاصة وان فيضا من المال اخذ يتدفق على دمشق بشكل لم يعرف له سابق او مثيل . فقد جبى معاوية ابن ابي سفيان الكوفة وسوادها خمسين مليون درهم (٣٥) ، على حين بلغ خراج البطائح خمسة ملايين درهم كما يذكر قدامة (٣٦) ، اما هدايا النوروز والمهرجان فبلغت عشرة ملايين درهم من البصرة وحدها (٣٧) . وسدت الجزية مكانا واسعا في بيت المال رغم قلة معلوماتنا عنها ،(٣٨)

---

(٣٤) ابن سلام : الاموال ص ٥٧٠ .

(٣٥) اليعقوبي ٢/٢٥٨ .

(٣٦) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٠ .

(٣٧) اليعقوبي ٢\٢٥٩ ، وانظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

(٣٨) نستطيع القول ان معلوماتنا عن واردات الجزية تكاد تكون معدومة بسبب نقص الروايات المتعلقة بهذا الباب من ناحية وصعوبة تحديد صنف وعدد اولئك الذين كانوا يؤدونها من ناحية ثانية ، الا أن البلاذري (فتوح ص ٢٧٠) يذكر ان ٥٥٠ الف كانوا يؤدون الجزية زمن عمر ، ترى كم يدفعون ، وعلى اية طبقة يحاسبون : اغنياء ، متوسطي الحال ام فقراء ؟

هذا في العراق وحده ، فما بالك بمصر وخراسان (٣٩) .

وهكذا تمتع بيت المال بقدرة مالية كبيرة استطاعت ان تثبت كيان الامويين في بداية تكوين سلطتهم . لقد استطاع معاوية ان يضمن قبائل الشام بما كان يغدقه عليها من اموال طائلة ليتمكن بها من فرض سلطة دمشق على الاقطار التابعة لها حتى غدت تشكل في كثير من الاحيان نوعا من المساومة بين هذه القبائل والسلطة الحاكمة . اذ اشترط حسان بن مالك وكان زعيم قحطان وسيدها بالشام ، على معاوية ان يفرض لألفي رجل الفين الفين وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه كثمن لولائه للامويين (٤٠) . اما الحجاز ، مركز الصحابة ومنطلق الاتجاهات المعادية للامويين ، فقد اغدق معاوية عليها المال بسخاء لامتصاص كل ما من شأنه تعكير العلاقات القائمة بين المدينة ودمشق ، وقطع السنة المعارضة هناك (٤١) . وهكذا لم يستطع بيت المال رغم ضخامة وارداته ان يفي بتلك الالتزامات الباهضة التكاليف ، وهذا ما دفع معاوية الى ايجاد موارد اخرى لسد ذلك العجز الخطير ، ولهذا كتب الى عامله على مصر ان « زد على كل رجل من القبط قيراطا » ، حتى استنكر العامل هناك ما امره به مولاه قائلا : وكيف ازيد عليهم وفي عهدهم الا يزايد عليهم (٤٢) » . مما حملهم على اعلان الثورة حيث اخمدها الامويون بحد السيف . وفي المدينة حاول واليها عاصم بن ابي هاشم بن عتبة اصلاح طريقة العطاء لتوفير بعض الموارد لبيت المال وذلك حين قال:

---

(٣٩) ليست هنالك معلومات وافية عن واردات كلا المصرين ، لكنهما اديا لدمشق مبالغ لا يستهان بها .

(٤٠) مروج الذهب ٣/٩٥ .

(٤١) اتخذ الانصار موقفا معاديا للامويين ، حتى انه لم يكن مع معاوية منهم سوى النعمان بن بشير وكان عثمانيا . الاغاني ١٦/٢٨ .

(٤٢) فتوح البلدان ص ٢١٩ .

« يأتيني اهلها فادفع الى كل رجل عطاءه في يـده [٤٣] » وكان العرفاء يأخذونها فلا يغيبون غائبا ولا يميتون ميتا ويصدقون اهلهـا يعطونهم بعضها ويأخذون بعضها ، فكره الناس ذلك لما يصيبونه مـن حظ الموتى والغيب فامتنعوا من اتيانه [٤٤] . ويظهر ان هنالك محاولات جرت في اماكن اخرى لتعديل العطاء غير ان معلوماتنا عنها تكاد تكون نادرة الا ان هنالك بعض الاخبار المتفرقة تشير الى بعض من حط الولاة منعطائهم لأغراض سياسية او شخصية [٤٥] .

لقد تحمل العراق عبئا ثقيلا جراء موقفه المعارض خاصة بعـد ربطه بالشام ، وحال هذا دون استمرار تمتعه بتلـك الامتيازاتالمالية التـي حصل عليها ايام الامام علي ، بل اكثر من هذا فا ناهله اصابهـم حيف وتعنت شديدين [٤٦] . ولهذا غدت هذه المنطقة مسرحا للصراع الضاري بين الامويين والعراقيين عكس في بعض زواياه التذمر الواسع الانتشار الذي عم المنطقة كنتيجة لسوء التوزيع المالي وكثـرة التجاوزات علـى السكان هنا ، حتى اخذ معاوية الزكاة من اعطياتهم ، وهو امر لم يعرف في الاسلام من قبل [٤٧] . وشهدت خراسان سياسية مالية مجحفةحيث

(٤٣و٤٤) الزبيري : نسب قريش ص ١٥٤ .

(٤٥) عيون الاخبار ٢/٤٤ .

(٤٦) المقدسي : البدء والتاريخ ٦\٥ ، فلها وزن الدولة العربية ص ٥١ ـ ٥٢ . لا صحة لما يرويه الاصفهاني في ٢٩/١٦ « ان معاوية امر لأهـل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في اعطيتهم ، وعامله على الكوفة النعمان بنبشير ، وكان عثمانيا ، وكان يبغض اهل الكوفة لرأيهم في علي ، فابى ان ينفـذها لهم . فلم يجيزها ولا نفذها » . ومرجع الشك في روايته يعود الى طبيعة العلاقات المتوترة بين الكوفة ودمشق والتي يصعب والحالة هـذه ان يراب صدعها حفنة من مال تعطى على شكل هبة أو عطاء من ناحيته ، ومن ناحيـة اخرى نجد من الصعوبة التصديق بأن يأمر خليفة مقتدر ولا ينفذ وآل متكل .

(٤٧) اليعقوبي ٢/٢٠٨ .

ضاعف عليهم اسلم بن زرعة ، والي معاوية هناك ، الخراج مائة الف درهم [٤٨] ، مما زاد التذمر هناك .

نستطيع القول ان العراق يكاد ينفرد عن كل من مصر وخراسان بظاهرة ازالة الأعباء الثقيلة عن كاهله بفضل الثورة تارة والانفصال عن الشام تارة اخرى ، وذلك لقدراته المالية والعددية اضافة الى اعدائه المستحكم لسلطة دمشق . وهكذا حل الزبيريون في الكوفة عام ٦٥ هـ مستغلين فترة الفوضى التيمزقت بلاد الشام خلال الحرب الاهلية ، غير ان سياسة عبدالله بن الزبير المالية الرامية الى السير حسب النهج الذي سلكه عثمان بن عفان والذي يقضي بان ترسل فضل اموالهم الى المدينة ، جوبهت بمقاومة شديدة وكان جواب اهل الكوفة « انا لا نرضى ان يحمل فضل فيئنا عنا ، والا يقسم الا فينا ، والا يسار فينا الا بسيرة علي بن ابي طالب التي سار بها في بلادنا ولا حاجة لنا في سيرة عثمان فينا [٤٩] » . وبهذا وضعت حكومة آل الزبير بدايةالنهاية لوجودها ، ومهدت السبيل لاستيلاء المختار بن ابي عبيد على الكوفة عام ٦٦ هـ معلنا استقلال العراق والمحافظة على ثروته بعيدا عن الشام وأهله . لقد انتشل المختار الموالي من اوضاعهم المزرية واعتمد عليهم وساداهم اجتماعيا وماليا بالعرب مما دفع زعماء القبائل الى مناصبته العداء ، وقد احتجوا قائلين : « عمدت الى موالينا وهم في افاءة الله علينا فاعتقنا رقابهم نأمل الاجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترضى بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا [٥٠] » . وهكذا استطاع مصعبان يضمن ولاء بعض العراقيين بما كان يغدقه من اعطيات حتى انه لم يكتف

---

(٤٨) البدء والتاريخ ٦\٤ .

(٤٩) الطبري ١١/٦ .

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ٩١/٤ .

بعطاء واحد بل دفع لهم عطاءين [٥١] . لكنه اصطدم بسياسة اخيهعبدالله المالية التي اتصفت بالبخل والتقتير مما حملهم على وضع ايديهم بيد عبد الملك بن مروان وهو ما فعله اهل الحجاز للغرض نفسه .

لقد كان الاعتقاد ان يصاحب العهد الجديد تطور في حياة القوم الاقتصادية في جميع المناطق الخاضعة لدمشق ، لكن الامر لم يبدوكذلك وانما اقتصر على طبقة معينة ، على حين اهمل الملأ الاكبر من الناس. فالحجاج كان يفرض في ثلثمائة ويشترط ان يكون من فرض له صاحب فرس وسلاح شاك [٥٢] . كما وان هنالك من لم يتجاوزعطاؤهالمائتين[٥٣]، بينما يحصل عكرمة بن ربعي صاحب شرطة بشر بن مروان [٥٤] ، مائة الف درهم [٥٥] . ويورد الثعالبي نصا فريدا للحالة المعاشية ومن الحجاج حين يذكر ان « الحجاج كان يجري لكاتبه يزيد بن اسلم كل شهر ثلثمائة درهم ، وكان يعطي منها لأمرأته خمسين درهم ، وينفق في ثمن اللحم خمسة واربعين درهما ، وينفق باقيها في ثمن الدقيق وباقي نفقاته، وان فضل منه شيء ابتاع به ماء وسقاه المساكين وربما ابتاع قطفا الثمار المقطوفة ـ ففرقها فيهم [٥٦] . من هذا نستطيع ان نستشف الضيق الشديد في الحالة المعاشية لأولئك الذين لم يتجاوز عطاؤهم مبلغا محترما وهو ما يختص بالمقاتلة من العرب ، فكيف تتصور حالة اهل البلاد الاصليين

---

(٥١) ابن اعثم : الفتوح . ج٢ورقة ٩٧ (مخطوطة المغرب).

(٥٢) البلاذري : انساب الاشراف (نشره اهلواردت) ص ٢٧٣.

(٥٣) ابن حبيب : المحبر ص ٣٤٠ .

(٥٤) تولى الكوفة لعبد الملك بن مروان عام ٧٣هـ ثم ضمت اليهالبصرة، وكانت وفاته عام ٧٥هـ حيث تولاهدا بعده الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥ ـ ٩٥ هـ) .

(٥٥) انسان الاشراف ٥/١٧٧ .

(٥٦) لطائف المعارف ص ٦٢ .

وهم غالبية الموالي ؟ وفي العراق حذف الحجاج الزيادة التي منحها مصعب للعراقيين باعتبارها زيادة ملحد منافق فاسد (٥٧) ، فكانت من نتائجها ان أعلنت الثورة ضد الحجاج بخاصة والشام بعامة قادها عبدالله ابن الجارود في البصرة وفي السنة الثانية لحكمه (٥٨) . ودفعه شدة الحاجة الى المال ان فرض الجزية على من اسلم ، وارهق اصحاب الارض فوق طاقتهم مما جعلهم يتركون قراهم والالتجاء الى المدن ، فنفاهم منها وارغمهم على الرجوع الى قراهم ونقش على يد كل واحد منهم اسمه واسم قريته (٥٩) . وبهذا مهد للثورة التي قادها عبد الرحمن بن الاشعث عام ٨٢ هـ والتي زعزعت السيطرة الاموية في العراق حتى يذكر ابو مخنف ان ابن الاشعث استطاع ان يحشدمائة الف مقاتل بوجه الحجاج دلالة على اتساع الثورة وقوتها (٦٠) ويعطي ابن خرداذبة صورة كاملة لتدهور الوضع الاقتصادي في العراق حين يقارن فترة الحجاج بما كان قبلها وما تم بعدها ، وذلك حين جبى عمر بن الخطاب (١١ ــ ٢٣ هـ) السواد ١٢٨ مليون درهم ، وجباة عمر بن عبد العزيز ١٢٤ مليون درهم، وجباة الحجاج ١٨ مليون درهم (٦١) .

ان الأوضاع الاقتصادية في العراق وصلت حدا بعيدا من التدهور مما عاد باضرار بالغة على الافراد خلال ولاية الحجاج واستمرت كذلك

---

(٥٧) الطبري ٧\٢١٤ .

(٥٨) انساب الاشراف (نشره اهلواردت) ص ٢٨٢ .

(٥٩) المبرد : الكامل ١\٤٤٠ .

(٦٠) الطبري ١٥/٨ .

(٦١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٤ ــ ١٥ . ومن الطريف هنا انه يقول : وجباه الحجاج ثمانية عشر الف الف درهم ليس فيها مائة الف الف ، وذلك لازالة ما قد يقع للقاريء من وهم فيظن انه نسي المائة مليون وهو الفرق بين جباية العمرين والحجاج .

الاحوال بعده ، مما ساعد على اذكاء نار الثورة حين استغلها يزيد بن المهلب عام ١٠٢هـ لتحدي الدولة الاموية • ويبرز الأثر الاقتصادي هذا من خلال الخطبة التي القاها في واسط بعد الاستيلاء عليها اذ قال : « يا اهل العراق ، يا اهل السبق والسباق ومكارم الاخلاق ، ان اهل الشام في افواههم لقمة دسمة قد زبدت لها الاشداق ، واقاموا لها على ساق ، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدل ، فالبسوا لهم جلود النمور » (٦٢) •

لقد استغلت الطبقة المتنفذة موارد العراق بوسائل مختلفة على حساب اكثرية الشعب ، دونما وازع من ضمير او خشية من عقوبة • فهذا مسلمة بن عبد الملك يستحوذ على مساحات غير قليلة من تلك الاراضي • فالبلاذري وقدامة يرويان ان البثوق انبثقت ايام الحجاج فكتب الحجاج الى الوليد انه قدر لسدها ثلاثة ملايين درهم فاستكثرها الوليد ، فقال مسلمة انا انفق عليها على ان تعطني خراج الارض المنخفضة التي يبقى فيها الماء فحصلت له ارضون وطساسيج كثيرة » (٦٣) • ولم يختلف يزيد بن الملك (١٠١ ـ ١٠٥) عن سواه حين فرض ضرائب جديدة على العراقيين ، واضر باهل الخراج واعاد السخرة والهدايا والنوروز والمهرجان (٦٤) • ولم يكتف يزيد بهذا ، بل كتب الى عامله في العراق عمر ابن هبيرة انه ليس لأمير المؤمنين بارض العرب خرصة (٦٥) فسر على القطائع فخذ فضولها لامير المؤمنين فجعل عمر يأتي القطعة فيسأل عنها ثم يمسها » (٦٦) •

---

(٦٢) البيان والتبيين ١/٤١٠ •
(٦٣) فتوح البلدان ص ٢٩٢ ، قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤١ •
(٦٤) اليعقوبي : ٢/٣٧٦ •
(٦٥) خرصة : شيء • اي ليس له شيء •
(٦٦) فتوح البلدان ص ٣٥٨ •

اما عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) فالباحث في تلك الفترة لا يعدم ان يجد جذورا عميقة لهذا التذمر يتصل اتصالا وثيقا بحياة الناس الاقتصادية انذاك • فعماد الحياة الاقتصادية في العراق انذاك قائم على الزراعة (٦٧) وعلى رخص الاسعار وقلة اثمان المواد الغذائية (٦٨)، فاذا علمنا ان الخليفة هشام كان قد احتكر مساحات واسعة من الاراضي الزراعية لنفسه (٦٩) واخذ يتحكم بأسعار الغلال فيها مما ادى الى ارتفاع تكاليف المعيشة ، ادركنا سبب التذمر جراء ذلك الغلاء • ولما كان خالد ابن عبدالله القسري (١٠٦ ــ ١٢٠ هـ) عاملة على العراق هو الاداة المنفذة لعملية الاستغلال هذه فقد اتجهت نقمة الناس اليه ، ولما كان الخليفة هو المحتكر والمستغل في واقع الامر فقد اضطر خالد الى مصارحتهم بالحقيقة ليبرى ساحة نفسه ، فلما شكوا اليه الغلاء قال لهم: « زعمتم اني اغلي اسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله (٧٠) » • ويعني بذلك الخليفة هشام • لكن خالدا بما جبل عليه من سجايا الكرم والحرص على كسب الثناء دونما اعتبار لمال او طمعا في سلطانه (٧١) ، ادرك الثقل الكبير الذي ينوء تحته قطاع كبير من الناس فعمد الى ما عنده من غلال (٧٢) •

---

(٦٧) مختصر كتاب البلدان ص ١٦٤ ، الخراج وصنعة الكتابة ص ٣٤٠ •

(٦٨) مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ •

(٦٩) الطبري ٨/٢٤٩ ، ابن خلدون ٣\٢٠٥ •

(٧٠) ابن الاثير ٥\٨٧ •

(٧١) العقد الفريد ١/٣٠٨ •

(٧٢) كانت الحالة الاقتصادية شغل خالد الشاغل بعد الركود الذي اصابها خلال عهد الحجاج الطويل المملوء بالحروب والفتن والثورات (الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٤٩ ، ابن الاثير ٥/٤٩) ، فقد اصلح الاراضي وسد البثوق وحفر الانهار فكثر الانتاج الزراعي وزادت الثروة العامة ، وكان خالد نفسه في جملة من حصل على ثروة كبيرة حتى بلغ

فباعها بثمن معتدل وربح منصف مما عرض غلات الخليفـة هشام الى خسائر يبدو انها كانت كبيرة ، فكتب اليه مغاضبا : « لا تبيعن من الغلات شيئا حتى اتباع غلات امير المؤمنين » • بل ذهب ابعد من ذلـك حين عزله ليتولى العراق مكانه يوسف بن عمر عام ١٢٠ هـ •وكانت خاتمـة مطاف المشاكل بكل ابعادها في هذه المنطقة اندلاع ثورة زيد بن علي عام ١٢٢ هـ كنتيجة لمعاناة مرهقة ابتدأت بأفول نجم الكوفة كعاصمة للدول الاسلامية ، لكن فشلها وضع حدا لنهاية المقاومة العراقية تجاه الشام •

وفي مصر وشمال افريقية تكاد الحالة لا تختلف عن ذلك الذي الفناه في العراق ، فقد اصبحت هذه المنطقة كما يقول عمرو بن العـاص [٧٣] « خزانة تدفع حسب حاجة ومشيئة عامل الخلافة عليها ، الا أن السمـة الظاهرة لاوضاعها الاقتصادية تدل على ارهاقا بينا اصاب اهلها ، وسوء تقدير مجحف أضر طاقاتهم الانتاجية حيث يصفها عروة بن الزبير بقوله: « أقمت بمصر سبع سنين وتزوجت بها فرأيت اهلها مجاهيد قد حمـل عليهم فوق طاقتهم [٧٤] » • ولهذا اشيعت بسبب تلك الأوضاع المزريـة احاديث مرفوعة الى النبي ترحب بالرفق بهم والتخفيف عنهم [٧٥] ، وهي

ما يحصل عليه العام الواحد ثلاثة عشر مليون درهم ، وزادت غلة ابنه على عشرة ملايين درهم (اليعقوبي ٣٨٧/٢ الطبري ٨\٢٥٠ ، ابن الاثير ٥\ ٨). وتظهر الارقام ضخامة الأموال التي استغلت والارباح التي جناها المستغلون من خلال مطالبة هشام بن عبد الملك خالدا بعشرة ملايين درهم على ما يقوله الدينوري (الاخبار الطوال ص ٣٤٤) بينما يذكر اليعقوبي (٣٨٧/٢) انـه طالبه بـ ستة وثلاثين مليون درهم .

(٧٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧ قال عمر بن العاص : انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم .

(٧٤) فتوح البلدان ص ٢١٩ .

(٧٥) من ذلك قوله : « اذا فتحتم مصر فاسترصوا بالقبط خيرا فان

توضح بشكل جلي احوال السكان هناك ومدى الالتزامات الباهضة التي كانوا يؤدونها لذا وجدوا في مثل هذه الاحاديث خير متنفس لهم ورادع لحكامهم وكالعادة لا تعطي المصادر على اختلافها صورة واضحة عن طبيعة الاوضاع الاقتصادية واحوال السكان ومشاكلهم نتيجة لتلك الاوضاع ، الا بقدر محدود .

لقد استغلت مصر منذ الأيام الاولى للفتح لتزويد مناطق الحجاز وغيرها بما تحتاجه من مواد غذائية ، خاصة القمح الذي اشتهرت به منذ القديم حتى جعلتها روما وبيزنطة مركزا هاما لاستيراد تلك المادة[٧٦] ومن هنا كانت رسائل الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وفي السنة نفسها يحثه فيها على ارسال الخراج وما تنتجه الارض دون تأخير او تباطىء . فابن عبد الحكم يروي عن الليث بن سعد ان عمر ابن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص في استبطاء الخراج « ... فاني فكرت في امرك والذي انت عليه ، فاذا ارضك واسعة عريضة رفيعة، قد اعطى الله اهلها عدد وجلد وقوة في بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب [٧٧] » . واذا تدبرنا رسالة الخليفة الثاني هذه رأيناها تلمح الى ناحيتين هامتين : الاولى ان عامل مصر قد

لهم ذمة ورحما (فتوح البلدان .) وقوله : « استوصوا بالقبط خيرا فانكم ستجدونهم الاعوان على قتال عدوكم » (ابن عبد الحكم : فتن مصر والمغرب ص ٤ ، وقوله : الله ، الله في قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ،ويكونون لكم عدة واعوانا في سبيل الله » فتوح مصر والمغرب ص ٤ .

(٧٦) بتلر : فتح العرب لمصر (ترجمة محمد فريد ابو حديد ، القاهرة ١٩٣٢) ص ٤٦ .

(٧٧) فتوح مصر والمغرب ص ٢١٣ .

دفع ما ترتب عليه من خراج الى حاضرة الخلافة ، لكن ذلك لم يكن كافيا بالقدر الذي كانت عليه عمارة المنطقة ورخاؤها ، والثانية ان هنالك احتجازا ظاهرا للمال بفعل تلاعب عامله ومن معه في المنطقة . ويظهر ان الخليفة كان غير راغبا في احراج عمرو بن العاص او اتهامه ولهذا كتب له : « وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا عمالك ، عمال السوء اتخذوك كهفا ، وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه [78] » . وكان عمر قد سأل بعض من له علم بجباياتها فاخبره ان المقوقس قد جباها قبل الفتح بسنة فبلغت عشرين مليون ، في حين ادى عمرو بن العاص انها بلغت اثنى عشر مليون [79] . وهكذا توالت رسائل الخليفة الثاني الى عامله على مصر « فقد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج ... وقد علمت اني لست أرضى منك الا بالحق المبين ، ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك [80] » . وكانت شدة حاجة الحجاز الى مادة مصر ومعونتها واضحا في الحاح عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص [81] ،

---

(٧٨) نفس المصدر ص ٢١٣

(٧٩) نفس المصدر ص ٢١٥ .

(٨٠) نفس المصدر ص ٢١٥ .

(٨١) لسنا على يقين من طبيعة العلاقة السائدة بين الخليفة الثاني وعامله عمرو بن العاص ، والذي يبدو ان الاخير حاول ان يثبت مركزه في هذه المنطقة على حساب المدينة حاول من هذا يستقل عن الخلافة ، فنراه يعمد تارة الى تأخير خراجها وبحجج واهية ، والمحافظة على ما فيها من مادة تارة اخرى . لكن شدة طلب عمرو ابن الخطاب جعاته يعدل عن تلك السياسة ، ويتضح ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين الرجلين والتي تعتبر خير وسيلة لتفهم تلك العلاقات . فقد كتب اليه : « الى العاص بن العاص ، فانك لعمري لاتبالي اذا سمنت انت ومن معك ان أعجف انا ومن قبلي ، فياغوثاه ثم ياغوثاه » . فكتب اليه عمرو بن العاص : اما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، اتتك عير ، أولها عندك وآخرها عندي ، مع اني اجد السبيل الى ان احمل اليك في البحر » . لكنه ندم على ذلك الكتاب وقال : « ان امكنت عمر من هذا خرب

مما اضطر الاخير الى ان يحمل الناس كثيرا لسد تلك الحاجة .

وتظهر ولاية عبدالله بن سعد بن ابي سرح (٢٥ ــ ٣٥ هـ) حقيقة الأحوال الاقتصادية في مصر حيث جباها لعثمان بن عفان اربعة ملايين دينار ، بينما جباها عمرو بن العاص قبله مليونين ، ولهذا قال له عثمان بعد عزله : « ان اللقاح بمصر بعدك قد درت لبانها ، فقال له : ذاك لأنكم اعجفتم اولادها [٨٢] » . ولا نعلم على وجه التحديد من هو المحق، ومن هو على جانب الخطأ ؟ وعندي ان حجة عمرو بن العاص هي الاقوى، فقد حملها ابن سرح فوق طاقتها فجنى ما يريد دونما اعتراض من السكان بسبب عدم قدرتهم على القيام بعمل ما .

وهكذا لم تكن هنالك خطة مدروسة ، او نهجا واضح المعالم للقرارات الاقتصادية العامة ، وانما كانت تصدر حسب الظروف وتبعا لمقتضيات الاحوال .

ان الغاية الاولى لتقدم القوات الاسلامية كان يستهدف عدم استيطان العرب هناك ، بل يبقوا امة عسكرية تجبي وغيرها يعمل ، ويتضح ذلك مما قاله الخليفة الثاني للجيش المتقدم لاحتلال مصر : « اني لا احب ان ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف [٨٣] » . وهذا يعني عدم الرغبة في الاستيطان لكن غنى المنطقة ورخاءها دفع الفاتحين

مصر ونقلها الى المدينة ، فكتب اليه : « اني نظرت في امر البحر فاذا هو عسر لا يلتام ولا يستطاع » . فكتب اليه عمر : « الى العاص بن العاص ، فقد بلغني كتابك ، تعته في الذي كنت كتبت الي به من امر البحر ، وايم الله لتفعلن او لأقلنك باذنك او لابعثن من يفعل ذلك » . فعرف عمرو ان الجدون عمر بن الخطاب ، ففعل

انظر فتوح مصر والمغرب ص٢٢٢.

(٨٢) فتوح البلدان ص ٢١٧ ، الطبري ٢٥٧/٤ .

(٨٣) فتوح مصر والمغرب ص ١٣٣ .

الى عدم الموافقة على ذلك الاتجاه وتشجيع من قائد الحملة عمرو بن العاص الذي استغل ذلك للاستقلال بهذه المنطقة .[٨٤]

وفي عصر بني امية غدت مصر وشمال افريقية مناطق هامة للاستغلال الشخصي اضافة الى تزويد بيت المال بما يسد حاجته من مال، والاتفاق بين معاوية وعمرو بن العاص جعل من مصر طعمة يستغلها الاخير الى آخر يوم في حياته ، وهو ثمن وقوفه ومساندته لحاكم الشام اثناء نزاعه مع علي بن ابي طالب ، ذلك الاتفاق الذي قطع كل وصل بين دمشق والفسطاط من الناحية المالية حيث كان عمرو بن العاص « لا يحمل الى معاوية من مالها شيئا ، يفرق الأعطية في الناس ، فما فضل من شيء اخذه لنفسه[٨٥]» . لكن عقد الاتفاق بين الرجلين لم يسد باب المداهنة التي عرف بها معاوية، سيما وان الاخبار تترى عما يجنيه صاحبه من مال وفير له ولأهله من هذا الاقليم ، لذا سلك له طريقا اسمح وايسر بحيث يدع عواطف ابن العاص تسبق عقله لتلبية مطالب دمشق ، فكتب اليه : « اما بعد فان سؤال اهل الحجاز وزوار اهل العراق قد اكثروا علي ، وليس عندي فضل من اعطيات الجنود ، فاعني بخراج مصر هذه السنة . فكتب اليه عمرو :

---

(٨٤) لم يكن سبب هبوط الضريبة في مصر اثناء ولاية عمرو بن العاص عائدا الى اي نوع من الاختلاس ، اذ ليس ذلك سبيله ، سيما وانه اعد نفسه للهيمنة على هذا الاقليم وأهله ، ويظهر ان هنالك عوامل عديدة ادت الى ذلك الانخفاض منها ان التجارة قد شلت بفعل الحروب التي تعرضت لها المنطقة من ناحية ، وكذلك قلة عدد دافعي الجزية لاعتناقهم الاسلام من ناحية ثانية . ويبدو ذلك جليا من مجموع الضرائب المستحصلة قبل الفتح وبعده ، حيث بلغت عشرين مليون دينار زمن المقوقس ، على حين جباها عمرو بن العاص اثني عشر مليونا ، ثم ارتفعت ثانية الى اربعة عشر مليونا في ولاية عبدالله بن سعد بن ابي سرح ولكنها مالبثت ان هبطت زمن الأمويين . المقريزي : الخطط ١/٩٨-٩٩ .

(٨٥) اليعقوبي ٢\٢١١ .

معاوية ان تدركك نفس شحيحة فما ورثتني مصر امي ولا ابي
وما نلتها عفوا ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي آلا شعري وصحبه لا لفيتها ترغو كراغية السقب

فلم يعاوده بعد ذلك في شيء من امرها .[٨٦]

وبموت عمرو بن العاص عام ٤٣ هـ اعيدت تلك الثروة الى الشام ، واضحى ما يفيض عن عطاء الجند وارزاقهم ، يرسل الى معاوية رغم معارضة العرب الشديدة هناك حيث نجد اشارة الى ان الديوان ضم اربعين الفا من المقاتلة كان اربعة آلاف منهم في مائتين من العطاء[٨٧] . وهذا يبعث على الاعتقاد ان بعضهم كان في ضيق مال كبير مما اجبر دمشق على فرض ضرائب جديدة على السكان لملافاة مصروفات الخلافة الخاصة من ناحية ، وسد باب النقمة المتأتية من اهل الديوان من ناحية اخرى ، اذ ان اخوف ما تخافه الشام هو العرب المستوطنة لاسكان البلاد الاصليين بسبب عدم قدرتهم على المقاومة .

لقد ابتدأت هذه الزيادة في عهد معاوية واستمرت من بعده حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) الذي خفف كثيرا عن هذه المنطقة وامر بالزيادة في اعطيات الناس عامة[٨٨] لكن مجيء يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) حال دون استمرارها ، اذ امر بقطع تلك الزيادة مما ادى الى تذمر واسع في صفوف العرب هناك ، وقد حدث ذلك بفعل حاجة الدولة الى المال لاضطراب امر العراق خاصة بعد احداث آل المهلب ومشاكلهم . ويظهر ان وضع يزيد المضطرب ترك لهشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) دولة مثقلة بالتزامات مالية لا تستطيع

(٨٦) الاخبار الطوال ص ٢٣٢ .

(٨٧) المقريزي : الخطط ١٤١/١ .

(٨٨) الكندي : الولاة وكتاب القضاة ص ٦٨ .

الايفاء بها ، وهنا يكمن السبب في حرصه على جمع المال وخزنه ،وارهقت مصر بضرائب لم تكن تعرفها من قبل في العهد الاسلامي .فالبلاذري يروي ان الضريبة على الاسكندرية كانت ثمانية عشر الف دينار فبلغت في عصر هشام ثلاثين الفا [٨٩] . وفي ولاية الحر بن يوسف لهشام كتب عبدالله بن الحجاب صاحب خراجها بان ارض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قراطا ، مما أدى ثورة عامة للقبط قضى عليها الامويون بشدة عام ١٠٧هـ [٩٠] . وهكذا توسلت دمشق بمختلف الوسائل لزيادة الضريبة ودعم بيت المال المتداعي ، حتى ان عبيدالله بن الحجاب مسح الاراضي المصرية سنة ١٠٧ هـ واستطاع ان يضمن لبيت المال اربعة ملايين دينار نتيجة لذلك المسح [٩١] ، مما اجبر اصحاب الاراضي الى تركها والنزوح الى المدن بسبب فداحة الالتزامات التي وضعت عليهم ، وعدم القدرة على الايفاء بها .

وهكذا واجهت الدولة الاموية او على الاصح ولاتها في مصر، مشكلة خطيرة كادت ان تعصف بجميع الجهود التي بذلها هشام للتغلب على الازمة المالية الخانقة ، جراء ترك اصحاب القرى لقراهم . لذا كتب اليه الوليد ابن رفاعة عامله على مصر سنة ١٠٩ هـ بنقل بعض القبائل القيسية من البادية ليحلوا محل السكان المحليين في زراعة الارض واستثمارها وضمن له خراجها [٩٢] . وكانت موافقة هشام مشروطة بعدم سكنى هؤلاء في الفسطاط ، وانما في منطقة الحوف الشرقي حيث موطن الثورة ضد

---

(٨٩) فتوح البلدان ص ٢٢٥ .

(٩٠) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٤ ، ولاة مصر ص ٩٥ . لم يقف الامر على السكان المحليين في حملة هشام بن عبد الملك التقشفية هذه ، بل شملت المقاتلة من العرب ايضا حيث انقصت ارزاقهم التي كانت اثني عشر اردبا فجعلها عشرة (الولاة وكتاب القضاة ص ٨٢) .

(٩١) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٨ .

(٩٢) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٧ .

الامويين • لكن هؤلاء سرعان ما اشتغلوا بالتجارة الى جانب الزراعة[٩٣]، ولم يجن الأمويون ما كانوا يتوقعونه منهم • لذلك زيدت الضريبة مجددا على القبط فاعلنوا الثورة عام ١٢١هـ ، لكنها اجهضت بعنف وقوة [٩٤].

وبهذا التقت مصالح السكان المحليين والعرب المستوطنة على مقاومة السلطة الاموية ، وكانت الدعوة العباسية خير متنفس لذلك الاتجاه، فمالوا اليها ، وانضموا الى صفوفها للتخلص مما يعانونه ، فاظهروا خلع الامويين وطردوا عمالهم [٩٥] • ويعطي الكندي صورة واضحة لأيام بني امية الاخيرة في مصر بقوله « وقدم مروان بن محمد مصر سنة ١٣٢ ، وسود اهل الحوف الشرقي ، واول من سود هناك شرحبيل بن مزيلة الكلبي ، ولحق الاسود بن نافع الفهري بالاسكندرية فسود بها ، وسود عبد الاعلى بن سعيد بصعيد مصر ، وسود يحيى بن مسلم باسوان ، وثار القبط في رشيد » [٩٦] •

والصورة بشأن شمال افريقية والاندلس لا تختلف عما الفناه في مصر للصلة السياسية والادارية الوثيقة بين هذه الاقاليم • فرواية الواقدي تذكر ان عمرو بن العاص اتجه بجنده نحو المغرب بعد فتح مصر ، فاستولى على برقه ، فصالح اهلها الجزية وهي ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه » »[٩٧] وفي رواية يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاص كتب في شرطه على اهل لواتيه من البربر من اهل برقه « ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » [٩٨] ولا نستطيع ان تتصور تعسفا وجورا اشد من هذا

---

(٩٣) نفس المصدر ص ٧٦ •
(٩٤) نفس المصدر ص ٨١ •
(٩٥) ولاة مصر ص ١٠٩ ، الولاة وكتاب القضاة ص ٨٧ •
(٩٦) الولاة وكتاب القضاة ص ٩٥ ، ٩٦ •
(٩٧) فتوح البلدان ص ٢٢٥ •
(٩٨) نفس المصدر ص ٢٢٦ •

الذي حدث ونفذ في هذه المناطق المحتلة دون ان تأخذ الحاكمين شفقه بهم او رحمة •

ان مجيء عمر بن عبد العزيز حال دون الاستمرار بهذا الاسلوب المنافي لكل القيم الاخلاقية والاجتماعية والدينية ، لاستحصال الجزية ، بل ذهب الرجل الى اكثر من ذلك حين كتب الى عماله : « ان من كانت عنده لواتيه فليخطبها من ابيها او فليردها الى اهلها [٩٩] »• لكن موته حال دون استمرار تلك السياسة ، والتي يبدو انها عادت الى سابق ايامها زمن خلفائه •

لقد غدت هذه المناطق وصدرا للنهب والأستغلال المكشوف ،ومثالا صارخا لفساد الأدارة حيث أستتبع ذلك مضاعفات سياسية خطيرة كان لها ابعد الأثر في كيان الدولة الاموية • فهذا بشر بن صفوان عامل المغرب عرف كيف يستغل منصبه خلال خلافة يزيد بن عبد الملك ، وما ان اعتلى هشام بن عبد الملك السلطة حتى بعث له بشر باموال عظيمة وهدايا فأقره على منصبه [١٠٠] • ويصف اليعقوبي الحالة المروعة لنهب ثروات البلاد من قبل الولاة وجنيهم للاموال الطائلة على حساب اهل البلاد المفتوحة بقوله : « ولي هشام افريقية عبيدة بن عبد الرحمن بعد بشر بن صفوان فغنم غنائم كثيرة فخرج الى هشام باموال عظيمة وعشرين الف عبد» [١٠١] ويعطي ابن عذارى صورة أخرى لذلك الاستغلال حين يقول « ان الخلفاء بالمشرق كانوا يستحبون البربربات السنيات ، فلما افضى الأمر الى ابن الحجاب مناهم بالكثير ، وكلف لهم او كلفوه اكثر مما كان فاضطر الى التعسف وسوء السيرة [١٠٢] » • فلا غرو ان شهدت تلك الاماكن انواعا

---

(٩٩) نفس المصدر ص ٢٢٧ .

(١٠٠) اليعقوبي ٣\٦١ .

(١٠١) نفس المصدر ٣/٦١ .

(١٠٢) البيان المغرب ١\٥٢ .

غريبة من المساومات ، حيث يتولاها اولئك الذين يستطيعون ان يجزلوا العطاء لدمشق ، دونما اعتبار لحالة البلاد ، او اهتمام بسكانها ، حتى ان عبيدة بن عبد الرحمن حين خرج من افريقية كان فيما خرج به من العبيد والأماء ومن الجواري المتخيرة سبعمائة وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية » [١٠٣] .

وفي طنجة اساء عمر بن عبدالله المرادي (١١٦/١٢٢ هـ) السيرة وتعدى في الصدقات والعشر ، واراد تخميس البربر ، وزعم انه في فيء المسلمين فقاموا عليه وقتلوه [١٠٤] .

وهكذا اشعلت نار الثورة في كل مكان من شمالي افريقية عام ١٢١ حين قادها البربر للتخلص مما كانوا يعانونه من استغلال لا طاقة لهم بتحمله او استيعابه ، وانتقلت ريحها الى الاندلس كنتيجة لاوضاعها الاقتصادية الشاذة لاستئثار العرب بالاراضي الخصبة من تلك البلاد الواسعة الارجاء تاركين مناطق الجبال في الشمال والغرب للبربر الذين كانوا يشكلون غالبية الجند ، والى سيوفهم الفضل في الاستيلاء على هذه البلاد [١٠٥] . ويمكن القول ان البربر شعروا بفداحة ما قدموه من تضحيات دون ما تعويض عادل مقابل تلك التضحيات ، فاتحدوا ضد العرب واجبروهم على النزوح الى وسط الأندلس [١٠٦] .

وتكشف الرسالة التي قدمها وفد شمال افريقية الى دمشق ، حقائق

---

(١٠٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢٩١ ـ ٢

(١٠٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٠ ، المؤلف : اخبار مجموعة ص ٢٨ ، وفي سنة ١٠٢ هـ حاول يزيد بن ابي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك ان يفعل فعل الحجاج بالعراق حين اعاد اهل القرى الى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم وهم مسلمون ، فلما عزم يزيد على ذلك قتلوه . الطبري ٦١٧/٦ .

(١٠٥) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٤٦٣ .

(١٠٦) المؤلف ابلهول : اخبار مجموعة ص ٣٨ .

مذهلة لاستغلال اقتصادي بشع ، واجحاف مرهق لا فسوغ للسكوت عليه او مهادنته ، بل مقاومته بكل سبيل خاصة بعد رفض الخليفة هشام بن عبد الملك استقبال ذلك الوفد او سماع شكواه . تقول الرسالة «ان اميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا اصاب نفلهم دوننا ، وقال : هم احق به ، فقلنا : هو اخلص لجهادنا ، ولا نأخذ منه شيئا ، ان كان لنا فهم منه في حل ، وان لم يكن لنا لم نرده . واذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا واخر جنده ،فقلنا: تقدموا فانه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى اخوانه ، فوقيناهم بأنفسنا، وكفيناهم . ثم انهم عمدوا الى ما شيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون الف شاة في جلد ، فقلنا : ما ايسر هذا الأمير المؤمنين ما حتملناه ذلك وخليفاهم وذلك . ثم انهم ساموناان يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنة ، ونحن مسلمون ، فاحببنا ان نعلم : اعن رأي امير المؤمنين ذلك ام لا ؟ » (١٠٧) .

واذا انتقلنا الى المشرق حيث املاك الدولة الساسانية ، فان اقاليم واسعة منها اجتاحتها خيول المسلمين بيسر ، مما دعاها الى تنظيم علاقاتها مع الفاتحين بمعاهدات للصلح دفعت بموجبها مبالغ محددة من المال اضافة الى بعض التعهدات الاخرى التي تتصل بأمن المنطقة وحماية الجند الاسلامي (١٠٨) . ومع هذا نجد ان تلك المعاهدات غير واضحة المعالم فيما يتعلق بتنظيم الشؤون المالية بين الجانبين ، ولا تعطي الصورة الكاملة لتلك الالتزامات ، ولا توضح طبيعة العلاقات التي سادت بين الجانبين . واذا كان هذا يصدق على بداية الفتوح في صدر الاسلام ، فتكاد الحالة تنطبق على العصر الاموي خلا بعض المقاطعات وفي فترات القى عليها ضوءا اكثر من سواها . ويظهر ان تلك المقاطعات كانت غالبا ما تعلن العصيان للتخلص

---

(١٠٧) الطبري ٢٥٥/٤ .

(١٠٨) فتوح البلدان ص ٣٢١ ، الطبري ١٣٧/٤ ، ١٤١ ، ١٥١ .

من تلك الالتزامات كما حدث لجرجان حين ارهقت كما يبدو ، بضرائب لا طاقة لها بها .[109]

يظهر ان ليست هنالك طريقة واضحة المعالم استند عليها الفاتحون لاستحصال الضريبة في هذه المناطق ، كما لم يكن هنالك مقياسا واحدا عوملت بموجبه لتنظيم احوالها الاقتصادية . فالبلاذري يشيرالى أن الفاتحين اخذوا الخراج عن الارض والجزيةعلى الرؤوس[110] ، وهو ماجرت عليه العادة في السواد ، على حين يتبين من روايات اخرى ان تلك المناطق كانت تدفع ضريبة واحدة هي ضريبة الرأس [111] بدلا من ضريبتين .

ومع ان عصر الراشدين رأى حالة تلك البلاد وظروفها المختلفة ، فانها ادت مبالغ كبيرة من المال اضافة الى احتوائها مجموعات غفيرة من اولئك الذين هجروا الجزيرة واندفعوا للاستيطان في تلك الأماكن .

وفي عصر بني امية شهدت تلك الاماكن وضعا يكاد يكون صعبا ان لم يكن مجحفا ، من حيث تعسف الولاة وعمالهم دونما رقيب او حسيب . فهذا اسلم بن زرعة والي معاوية على مرو يضاعف الخراج على اهلها مائة الف درهم » وبحجة واهية هي غاية في الغرابة [112] . وتعد اذربيجان مثالا فريدا للتعسف المرهق الذي حاق بالسكان هناك ، فالبلاذري يروي ان عشائر من المصرين ــ الكوفة والبصرة ــ والشام نزعت لهذا الاقليم « وغلب كل قوم على ما امكنهم ، واتباع بعضهم من العجم الارضين ، والجئت اليهم القرى للخفارة ، فصار اهلها مزارعين لهم [113] » . هذه هي

---

(١٠٩) الطبري ٢٧١/٤ .

(١١٠) فتوح البلدان ص ٣٠٦ .

(١١١) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

(١١٢) يروي المقدسي (البدء والتاريخ ٤/٦) انه اخبر اهل مروان يكفوا عنه نقيق الضفادع فاخبروه بان ذلك غير ممكن فضاعف عليهم الخراج.

(١١٣) فتوح البلدان ص ٣٢٤ ــ ٥

الصورة التي يرسمها البلاذري لما حدث هناك وهي ، وان حاولت ان تخف بعض ملامحها القاسية ، فان امعان النظر فيها يقود الى حقيقة لا سبيل لانكارها او تخطيطها وهي ان السكان اصبحوا عبيدا لسادتهم الجدد ،فاذا علمنا ان الكثير منهم كانوا قد اسلموا قبل هذا الوقت بزمن يكاد يكون بعيدا [١١٤] صح ما يذكره فان فلوتن عن فكرة الفاتحين ورؤسائهم فيما يتعلق بمهمتهم في هذه المناطق ، « فقد كان واحد منهم يجعل نصب عينيه مصلحته الشخصية قبل كل شيء ، اما الاسلام والعمل على نشره فقد ظل امرا ثانويا [١١٥] » .

وبرزت ظاهرة جديدة كتلك التي شهدناها في بعض مناطق السواد ، وهي حصول المتنفذين على اقطاعات واسعة لا جدال ان عددا غير قليل من الناس استخدم في سبيل استغلالها لصالح تلك الصفوة التي اثرت على حساب الآخرين [١١٦] . كما اصبحت خراسان موطنا للاثراء وسد الحاجة ، وغدت نعمها مصدرا للتكالب والتنافس العنيف بين الفاتحين انفسهم ، حتى نجد ان بعضا من رجال بكر بن وائل يأبى عليهم ان ينافسهم فيها رجال من قيس ، فيعلنون استياءهم وبشكل مفضوح « على ما يأكل هؤلاء خراسان دوننا » [١١٧] . فاذا كان الامر كذلك فما حال اولئك الذين لا حول له ولا قوة من سكانها الاصليين ؟

لقد لعب آل المهلب دورا كبيرا في خدمة بني امية وتثبيت حكمهم وتركيز سلطتهم في تلك المناطق ، وهذا ما دعا الى سلبها الكثير من خيراتها وارهاق اهلها بانواع مختلفة من الالتزامات الباهضة نتيجة للسلطة المطلقة

---

(١١٤) نفس المصدر ص ٣٢٤ .

(١١٥) السيادة العربية ص ٢٤ .

(١١٦) فتوح البلدان ص ٣٠٥ .

(١١٧) نفس المصدر ص ٤٠٤ .

التي تمتع بها هؤلاء لقاء تلك الخدمات التي قدمت لدمشق (١١٨)، حتى كان مع يزيد بن المهلب بعد غزو جرجان خمس وعشرون مليون درهم حسب ما يروي المدائني (١١٩)، مما حمل اهلها على الثورة تارة والعصيان تارة اخرى للتخلص من تلك الاعباء الثقيلة التي فرضت عليهم وتحملوها مكرهين (١٢٠). ويصف المقدسي ما حل بهم بعد هذا العصيان بقوله ان يزيد بن المهلب فعل بهم الاعاجيب حتى لم يبق من اهلها الا من هرب او توارى وقتلوا أجمعهم » (١٢١).

وفي عهد عمر بن عبد العزيز تكشفت امور في غاية الخطورة للاوضاع المزرية في مناطق المشرق، واولا، لبقيت طي الكتمان لا سبيل للكشف عنها. فهنالك شكوى اهل سمرقند من غدر قتيبة وظلمه لهم، واحتلاله لبلادهم (١٢٢)، ولم تنج من النهب حتى مرافقهم العامة واماكن عبادتهم (١٢٣) ومن خراسان يرتفع صوت في حاضرة الخلافة، قائلا لعمر بن عبد العزيز « عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يأخذون بالخراج (١٢٤) ». فلا عجبا ان يفزع الخليفة لما سمع، وهكذا كانت اوامره المشددة الى عماله باسقاط الجزية عمن اسلم، وهو يعلم ان تدابيره هذه قد تؤثر على موارد بيت المال، فلم تكن غايته ومنتهى امله سوى تحقيق العدل ومنع الظلم دون سواهما.

---

(١١٨) يذكر الطبري (٥٥٧/٦) ان عمر بن عبدالعزيز كان يبغض يزيد ابن المهلب وأهل بيته ويقول هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم.

(١١٩) فتوح البلدان ص ٣٣٢.

(١٢٠) نفس المصدر ص ٣٣١.

(١٢١) البدء والتاريخ ٤٣/٦.

(١٢٢) فتوح البلدان ٤١١، الطبري ٥٦٨/٦.

(١٢٣) فتوح البلدان ص ٤١١.

(١٢٤) الطبري ١٣٤/٨

لكن مشاريع عمر بن عبد العزيز الخاصة بالاصلاح المالي سرعان ما ذهبت ادراج الرياح بمجيء خلفه يزيد بن عبد الملك الذي كتب الى عماله « ان عمر كان مغرورا ، غررتموه انتم واصحابكم ، قد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة ، فاذا اتاكم كتاب هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، واعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى اخصبوا ام أجدبوا ، احبوا ام كرهوا » [١٢٥] .

لم تعد خراسان تكفي متطلبات اولئك الذين كانوا ينشدون الغنى السريع منذ الايام الاولى لدولة بني امية ، وهذا يعكس الالحاح الدائم من العرب المستوطن للاستمرار بالغزو الذي يعتبر المصدر الرئيسي للثراء وحصولهم على اسباب الرفاة المتباينة الاخرى ، حتى انهم شكوا امية بن عبدالله عامل عبد الملك بن مروان حين ترك الغزو فأضر ذلك بالاجناد هناك [١٢٦] . بل جاوزوا ذلك الى عدم تنفيذهم اوامر عمر بن عبد العزيز التي قضت باقفالهم من اقاليم ما وراء النهر وعودتهم الى خراسان ، فاحتجوا بان مرو ضاقت عن ان تسعهم [١٢٧] ، ولم يكن الامر كذلك ، بل اصبحت بابا واسعا للغنى بعد ان جفت منابع الثروة في خراسان ، فلا غرابة ان نقلوا معهم حتى ذراريهم للاستيطان في تلك الاقاليم .

وغدت مناطق الترك هدفا للغزو وشن الغارة ، حتى ان الجراح بن عبدالله الحكمي غزا سنة ١٠٤ هـ بلنجر « وهزم الترك وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء ، وسبوا ما شاءوا ، وفتح الحصون التي تلي بلنجر وجلا عامة اهلها » [١٢٨] . وبلغت غنائم الحرشي في خلافة هشام ابن عبدالملك مبالغ لا تحصى ، حتى حصل كل مقاتل منهم على الف وثمان مائة سوى

---

(١٢٥) العقد الفريد ٤/٤٤١ — ٢ .
(١٢٦) ابن اعثم : فتوح ج ٢ ورقة ١٠٩ .
(١٢٧) اليعقوبي ٣/٤٧ ، الطبري ٦\٥٦٨ .
(١٢٨) الطبري ٧/١٥ .

الاثاث والدواب [١٢٩] » ، ولم يكن امام السكان سوى الاستمرار بالمقاومة حتى يذكر البلاذري ان اهل سجستان وطبرستان خاصة ، كانوا يؤدون الصلح مرة ويمتنعون من ادائه أخرى حتى نهاية الامويين [١٣٠] .

وفي زمن اشرس بن عبدالله السلمي (١١٠ ـ ١١١ هـ) والي الامويين في خراسان جرت محاولة للاصلاح المالي ، استهدف التخفيف عما ينوء تحته الحشد الاكبر من الناس ، وذلك حين دعا اهل سمرقند وما وراء النهر الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية ، فلما اسلموا طالبهم بها [١٣١] ، واستخف بالدهاقين وزاد وظائف خراسان [١٣٢] . وقد هيأ هذا كله لثورة الحارث بن سريج الذي استطاع ان يحشد تحت لوائه ستين الفا من الجند اضافة الى دهاقين تلك الاقاليم المختلفة ، وأن يستولي على مرو والجوزجان والغارياب والطالقان ومرو الروذ ، مما اضطر عاصم بن عبدالله (١١٦ ـ ١١٧ هـ) امير خراسان الى طلب المساعدة العاجلة من دمشق

---

(١٢٩) ابن اعثم : فتوح ج٢ ورقة ٣٩ .

(١٣٠) فتوح البلدان ص ٣٢٣ .

(١٣١) الطبري ٨/١٩٦ ، ابن الاثير ٥\٥٨ .

لا سبيل للدفاع عن الاسباب التي ادت به الى اعادة الجزية على من اسلم ، وان ما يذكره مؤيدوا هذا الاتجاه من ان نقص الضريبة ، وشكه في الدوافع التي حملتهم الى دخول الاسلام لا يشكل حجة يستند عليها في هذا الباب . ويبدو لي ان الاصلاح المالي هذا لا اساس له من واقع ، وكل الذي حدث انه جند العدد الغفير منهم بحجة اسقاط الجزية عنهم ، فلما اصبحوا مقاتلين اعتبرهم غير مسلمين ، لمنع العطاء عنهم ، ومطالبتهم بالجزية اذا ما تركوا جيشه .

(١٣٢) فتوح البلدان ص ٤١٧ .

(١٣٣) فتوح البلدان ص ٤٢٩ ، الطبري ٨/١٩٦ . يحكى عن الحسن ابن ابي العمرطة نائب اشرس في سمرقند انه قال : اتيناهم وغلبناهم على بلادهم ، واستعبدناهم . الطبري ٧/٣٨ .

لصد زحف الحارث [١٣٤] .

ولا نبالغ في محاولة نصر بن سيار الاصلاحية في اواخر الدولة الاموية ، فان الرجل لم يقم بعمل يذكر سوى الغاء الجزية عمن اسلم ،وهو قاعدة اسلامية سارت مع الفاتحين ، وحلت في جميع البلاد التي وطأتها اقدامهم ، واذا كانت قد اندرست ومحيت في عهد الأمويين ، فان عمر ابن عبد العزيز قد اعاد العمل بها ، وهو أسبق من نصر بن سيار في التوكيد عليها والعمل بموجبها .

لقد قاست مناطق المشرق كغيرها من تلك البقاع التي خضعت لبني اميه ، من شتى المضايقات الاقتصادية التي ارهقت سكانها ، حتى لم يعد هنالك من سبيل المعودة او طريق التفاهم بعد ان ركب الحاكمون رؤوسهم ، فكانت الثورة هي الملجأ الاخير لزوال ذلك الطغيان ، والى هذا يشير فان فلوتن « ان زوال حكم بني امية قد اصبح محتوما منذ اللحظة التي برهنت فيها الحوادث على ان النظام الذي كان يتشبث به الامويون لم يعد ثمة ما يبرر بقاءه » [١٣٥] . وهذا احد شيوخ بني امية ومحصليها يشرح اسباب زوال دولتهم بقوله « انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت اموالنا » [١٣٦] .

---

(١٣٤) الطبري ٨\٢١٩ — ٢٠

(١٣٥) السيادة العربية ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٣٦) مروج الذهب ٢/٢٤١ .

المصادر

ابن الاثير : تاريخ الكامل ــ القاهره ١٢٩٠ هـ

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ــ ايدن ١٨٨٩ م

ابن سعد : الطبقات الكبرى ــ ليدن ١٩٣٢

ابن الطقطقى : الفخري في الاداب السلطانية ــ بيروت ١٩٦٠ م

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ــ مصر ١٩٥٤ ، ١٩٦١

ابن عبد ربه : العقد الفريد ــ القاهرة ١٩٤٠ ، ١٩٦٥ .

ابن عذاري : البيان المغرب ــ ليدن ١٩٤٨

ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ القاهرة ١٩٦٣

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ــ بيروت ١٩٥٧

البلاذري : فتوح البلدان ــ القاهرة ١٩٥٩

الجاحظ : البيان والتبيين ــ القاهرة ١٩٤٨

الجهشياري : الوزراء والكتاب ــ القاهرة ١٩٣٨

الدينوري : الاخبار الطوال ــ القاهرة ١٣٣٠ هـ

الزبيري : نسب قريش ــ القاهرة ١٩٥٣

الطبري : تاريخ الامم والملوك ــ القاهرة ١٩٦٥ ، الحسينية

قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ــ ليدن ١٨٨٦

الكندي : الولاة وكتاب القضاة ــ بيروت ١٩٠٨
ولاة مصر ــ بيروت ١٩٥٩

المبرد : الكامل في اللغة ــ القاهرة ١٩٣٧م

المسعودي : مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٥٨
المقدسي : البدء والتاريخ ـ باريس ١٨٩٩
المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ـ بولاق
مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الاندلس ـ مدريد ٨٦٧ ١م
الهمداني : مختصر كتاب البلدان ـ ليدن ١٣٠٢هـ
اليعقوبي : التاريـخ ـ ليدن ١٨٨٣م ، النجف ١٣٣٢ هـ
فان فلوتن : السيادة العربية ـ القاهرة ١٩٣٤ .



★ ★ ★



المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثالث

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثالث

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

كلمة العدد

بكل اعتزاز تواصل مجلة المؤرخ العربي مساهمتها البناءة في نشر الوعي التاريخي والتعريف بالنشاط العلمي للمؤرخ العربي والعمل على ازدهار الدراسات التاريخية .

ومما يزيدنا شرفا ما احدثه الجزءان الاول والثاني للمجلة من أثر محمود وقبول حسن من لدن الباحثين والمؤرخين العرب والاجانب .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب اذ تواصل عملها العلمي ترجو من الاخوة الباحثين والمؤرخين مواصلة بحوثهم وكتاباتهم واسهامهم في تحرير مجلتهم الأولى في ميدان البحث التاريخي ، وتقدم جزيل شكرها وتقديرها لكل الذين ساهموا بالتحرير والاعداد والنشر .

والله ولي التوفيق .

الدكتور حسين امين
رئيس التحرير


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرست



المولى اسماعيل وتحرير ثغور المغرب

للدكتور جلال يحيى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ - جامعة أسيوط

تألق نجم سلطان من أكبر سلاطين المغرب منذ عام ١٦٧٢ ، وهي السنة التي ارتقى فيها المولى اسماعيل عرش بلاده • وكان اسماعيل قد ولد في عام ١٦٤٦ ، وارتقى العرش بعد أخيه المولى الرشيد •

وكان تاريخ المغرب قد تميز ، منذ قرون ، باستمرار الجهاد ضد القوى المسيحية ا سواء في شبه جزيرة أيبيريا ، أو في ثغور المغرب الأقصى نفسه حين جاءت القوات الاسبانية والبرتغالية لاحتلال هذه الثغور ، ومحاصرة العرب في القارة الافريقية ذاتها •

وكان المولى الرشيد إبنا لسلطان تافيلالت ، في جنوب المغرب ، وإمتاز بشجاعته وقوة عزيمته ، الأمر الذي ساعده ، في وقت ضعف سلاطين الدولة السعدية ، على أن يحتل عواصم المغرب الأربعة ، ويسيطر على فاس وتافيلالت وتارودانت ومراكش • واذا كان المولى الرشيد قد تمكن من تجميل عاصمته فاس ، الا أن حياته لم تمتد بشكل يسمح له بتثبيت دعائم وحدة الحكم على كل اقاليم المغرب الأقصى ، الأمر الذي توفر من بعد لأخيه المولى إسماعيل •

وكانت هناك اختلافات واضحة بين سكان الأقاليم المختلفة من

المغرب ، ورجع ذلك لأسباب جغرافية أو اقتصادية • فكان سكان جبال الأطلس يتميزون باستقلالهم وبدائيتهم ، ويصعب مقارنتهم بتجار مدينة فاس ، الذين كانوا يعيشون عيشة ناعمة ، كما كان من الصعب مقارنتهم برجال البحر في سلا ، والذين تميزوا بطموحهم وشهوانيتهم • وكانهناك رجال الحرب الذين كانوا يتمنون وقوعها في كل لحظة ، في الوقت الذي كان فيه تجـار فاس يأملون في سيادة السلم ، وبشكل يسمح لتجارتهم بالنمو ، وفي ظل الأمن اللازم لذلك • وكان هناك الفلاحون في منطقـة الدكالة والشاوية ، والذين كانوا يزرعون الشعير والقمح ، ويربونالبهائم والجمال ، وتنتشر في اقليمهم الخيـام المصنوعة من الصوف الأسود ، وينتجون الزبد والشمع ، والصوف والحمص ، والعدس والفول • وكان هناك فلاحون آخرون ، أكثر توطنا واستقرارا منهم ، في منطقـة فاس ، وفلاحون آخرون في جبال الريف ، يمتازون بقسوتهم وخشونتهم وبفقر إقليمهم • أما في سهول الغرب فقد كان هناك نوع ثالث من المزارعين ، تمتد أراضيهم الى ساحل المحيط الأطلسي ، والى سلا ، وكان في وسعهم أن يصلوا الى البحر المتوسط عن طريق تطوان ، وبقرب القواعدالعسكرية الاسبانية • أما منطقة مراكش ، عاصمة الجنوب ، ومنافسة فاس ، فانها كانت مركزا للعلم وللدراسات الاسلامية ، في نفس الوقت الذي كانت فيه مركزا تجاريا وحضاريا • وكان اقليمها مملوءا بالنخيل ، الذي كان يشارك في صنع لوحة رائعة مع أشعة الشمس المتلألئة على قمم الأطلس المغطاة بالثلوج • وازدهرت في هذا الاقليم زراعة أشجار الزيتون • أما منطقة تافيلالت ، فانها كانت واحة في وسط الصحراء ، وأحاطت الرمال فيها من كل جانب بأشجار النخيل ، وامتاز أهلها بتصميمهم على العمل، وبثقتهم بأنفسهم • وكان في وسع من يسيطر علـى مراكش أن يفرض نفوذه عبر ممرات الأطلس الأعلى في الجنوب على وادي السوس ، وهو ذلك الاقليم الخصب ، والذي زاد من ثروته دخوله في معاملات تجارية مع الدول الأجنبية ، عن طريق ميناء أغادير ، الذي شهد إستيراد الأسلحة

والذخائر ، وتصدير خام النحاس وتبر الذهب • وفي أقصى الجنوب ، كان هناك وادي درعا ، الذي امتاز أهله بالقسوة والخشونة • ويمكننا أن نضيف الى ذلك أقاليم الطوارق ، التي كانت تثور أحيانا ، وتخضع أحيانا أخرى ، والأقاليم السودانية ، التي كان يتم غزوها من وقت لآخر، والتي امتازت بكونها مصدرا للجنود السود . الذين كان يسهل صيدهم، ويسهل تمرينهم وتدريبهم على الحرب ، والذين كانوا يشتهرون بالولاء، وحتى الموت •

وكانت القوافل هي وسيلة المواصلات الوحيدة بين هذه الأقاليم المتجاورة والمتميزة عن بعضها • ولا شك في أن الفوضى والاضطرابات كانت تؤثر أسوأ الأثر على سير هذه القوافل ، ولكنها كانت تسير ، بشكل أو بآخر ، رغم العقبات والعوائق ، اذ أنها كانت تستند الى ضرورات اقتصادية وضرورات معنوية ، للاتصال بين الأهالي المتجاورين في أقاليمهم ، حتى وان ضعفت السلطة المسيطرة عليهم جميعا في بعض الأوقات •

وكان هذا التباين الموجود بين أقاليم المغرب الأقصى المختلفة ، مع سيادة نظام الحكم الأسروي ، الاقطاعي ، سببا في ثورات وحروب داخلية بصفة شبه مستمرة ، وتشتد بشكل خطير ومهدد عند وفاة أحد السلاطين • وكان للمولى اسماعيل اثنين وثمانين أخا ، من والده ، المولى على الشريف ، أعطتهم له ما يقرب من خمسين زوجة وجارية • ونشأ هؤلاء الاخوة دون رعاية أبوية كافية ، وفي جو من التشاجر والتخاصم والتنافس ، وفي جو من المؤمرات وعمليات الاغتيال ، وفي مناخ من العقوبات البدنية القاسية التي كان الأمير يوقعها بزوجاته وابنائه ، وأثر كل ذلك في تربية « الامراء » وفي روح القسوة وحتى الوحشية التي تميزوا بها • وظهر ذلك بوضوح بينهم حين تولوا حكم عواصم المغرب، ومحاولة بعضهم الانفراد بحكم اقليمهم ، ومحاولة البعض الآخر السيطرة

على الاقليم المجاور • وكان السلاح هو وسيلتهم لذلك ، وفي شكل حرب أهلية ، ان جاز هذا التعبير ، أو حرب أسروية ، وخاصة اذا ما خلى مركز السلطنة • وكان أشدهم قسوة وقوة وغلظة ووحشية هو الذي يتمكن من الانتصار ، وكان على كل سلطان جديد للمغرب ان يبدأ حكمه عملية غزو لاقاليمه المختلفة ، وبحد السيف •

ومنذ عهد المولى الرشيد ، تميز أخاه المولى اسماعيل ، بالشدة والقوة والغلظة والوحشية • وعرف المولى الرشيد كيف يفيد من مزايا أخيه الأصغر ، خاصة وأن فترة حكمه كانت مليئة بالثورات والحملات العسكرية ، وبالوحشية في تنفيذ الحكم على المتمردين • وكان المولى إسماعيل هو الذي تمكن منأخماد الثورة التي كانت قد نشبت في تازا ، وبشكل جعله يحظى برضاء المولى الرشيد ، ويحصل على منصب أمير مكناس ، مكافأة له على تدعيم سلطته ، حتى وان كان ذلك تنيجة للقتل وللوحشية ، بين افراد نفس الأسرة • ومنذ ذلك الوقت أصبحتمكناس هي مدينة المولى اسماعيل المفضلة ، وسيقوم فيها بتشييد القصور والاسوار واصطبلات الخيل ، ويحاول تجميلها ، ويتخذها عاصمة له عند وصوله للسلطنة •



وكان المولى الرشيد يقيم في مراكش ، عاصمة الجنوب ، حينوقعت له حادثة في ثاني أيام عيد الأضحى لسنة ١٠٨٢ هـ (٢٤ مارس ١٦٧٢م)• ودخل المولى الرشيد بستان المسرة ، وهو على ظهر فرسه ، ليتجولفيه، ولكن الفرس جمحت به دون أن يأخذ حذره ، فصدمت رأسه بأحد الفروع ، وقيل أن فرعا دخل في أذنه ، وسقط على الأرض مضرجا بدمائه • وكان في ذلك منيته •

وسرى خبر الحادث بسرعة الى عدد من الأمراء • وكانت فرصة

فريدة أمام المولى اسماعيل ، ولكن بعض اخوته ، الذين كان عددهم يزيد على الثمانين ، كانوا يمنون أنفسهم كذلك بالتربع على عرش السلطنة • وحاول المولى الحران ، وهو الاخ الأكبر للمولى الرشيد ، أن يسبق المولى اسماعيل في الاستيلاء على فاس ، خاصة وانها كانت العاصمة التي كان المولى الرشيد قد خبأ فيها كنوزه وثرواته • ولكن أنباء الحادث كانت قد وصلت الى المولى اسماعيل في وقت مبكر ، فتمكن من الاستيلاء على فاس ، وعلى مابها من كنوز السلطان السابق • واعترف علماء فاس وطلبة القرويين بالمولى اسماعيل ، ودعوا له في خطبة صلاة الجمعة • وسرعان ما وصلت الأنباء بأن المولى أحمد بن محرز قد أعلن نفسه سلطانا في مراكش وانه قد أخذ في الاستعداد للزحف بقواته الى الشمال ، لمحاربة المولى اسماعيل • وأصبح على هذا المولى أن يبدأ عملية اعادة غزو اقاليم السلطنة ، الاقليم تلو الآخر ، حتى يتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة •

ولقد زحف المولى اسماعيل بسرعة صوب الجنوب ، والتقى الجيشان ، في موقعه بين ما يزيد على خمسين الف رجل ، في أحد السهول القاحلة ، وفي ميدان امتلأ بسحابة كثيفة من الغبار • وامتاز جيش المولى اسماعيل بانه قد اشتمل على اربع قطع للمدفعية يعمل عليها عدد من الأسرى المسيحيين • وظهر خوف رجال مراكش من البارود ، واسرع عدد كبير من جنودهم بالهرب وبالعودة للتحصن وراء أسوار عاصمتهم الحمراء ، وفر أميرهم من ميدان المعركة • ويروى الناصري ان المولى اسماعيل انتصر على أهل مراكش « وهزمهم ، ودخل مراكش عنوه يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف ، فعفا عن أهلها ، وأجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا » (١) •

---

(١) الناصري : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى . دار الكتاب ، ١٩٥٦ . جـ ٧ ص ٤٦ .

وتمكن المولى اسماعيل ، بالشدة والقسوة من اخضاع اقليم مراكش ، ورغم ذلك فان سلطنة المغرب لم تكن قد خلصت له بعد • ووصلت الى المولى اسماعيل في ذلك الوقت أنباء تعلن نشوب الثورة ضده في مدينة فاس ، وأنباء أخرى تعلن أن المولى أحمد بن محرز ، الذي فر بعد الهزيمة قرب مراكش ، قد عاد واستولى على تازا ، وأخذ يستعد للزحف على فاس • ووصلت أنباء أخرى عن نشوب الثورة في الريف كذلك ضد المولى اسماعيل •

ولا يمكننا أن تتناسى أهمية ثورة الريف ، خاصة وأن الخضر غيلان كان قد عاد من الجزائر الى وطنه الأصلي تطوان • وكان الخضر غيلان من كبار أمراء البحر المجاهدين ضد السفن المسيحية ، وكان على صلات ود وصداقة وتحالف مع حكام الجزائر ، وله كثير من المؤيدين في شمال المغرب • وعاد الخضر غيلان الى المغرب ومعه اثنتي عشر سفينة حربية، بقيادة مصطفى باشا ريس ، أمير البحر الجزائري • ولا شك في أن اتجاه رجال البحر في شمال المغرب وفي الجزائر كان يتعارض مع نمو القوة البرية لسلاطين المغرب في داخل البلاد ، ويهدد بخروج جزء من أقاليم المغرب عن سلطة السلطان المغربي ، وفي صالح القوة البحرية التي كانت متحدة مع الدولة العثمانية •

وكان على المولى اسماعيل أن يواجه هذا الموقف بكل حزم ، رغم تعدد الاعداء في كل اتجاه • وعرف المولى اسماعيل كيف يفيد من الفرقة الموجودة بين اعدائه ، حتى يتمكن من ضربهم الواحد بعد الآخر •

وكانت مفاجأة أن يسير المولى اسماعيل من مراكش صوب الشمال مباشرة ، ويترك جناحه الأيمن معرضا لثورة فاس ، وللتمرد الموجود في تازا • وكانت جرأة منه ولا شك أنه حاول ابعاد هذا الخطر في الشمال، واستغلال اقليم الريف لتجنيد الرجال اللازمين له في حربه في منطقة فاس وتازا ، وفي الثغور • ولقد استخدم المولى اسماعيل السياسة بين سكان

فاس وبعضهم حتى يحصل على الوقت اللازم له لتوجيه ضرباته الى جهات أخرى • ونلاحظ أن معظم العمليات كانت تحدث في ذلك الوقت في ظل نظام اقطاعي واضح ، يشتمل على قيادات تتحالف أو تتحارب مع بعضها ، وتغير من مواجهاتها طبقا للدسائس أو المصالح التي يمكنها أن تحصل عليها من هذا الجانب أو ذلك •

وأسرع المولى اسماعيل بمهاجمة قوات الخضر غيلان وسط سهول المغرب ، دون أن يترك له حرية اختيار الزمان والمكان اللذين قد يحققان له النصر • وتمكن جيش المولى اسماعيل من هزيمة قوات الخضر غيلان وتشتيتها ، وقتل الخضر غيلان في المعركة ، ولم يتمكن المولى اسماعيل بذلك من استجوابه ومعرفة المكان الذي كان قد خبأ فيه كنوزه ، وتتيجة لسنوات طويلة من صيده البحري •

ولقد سمح هذا النصر للمولى اسماعيل بالسيطرة على الجزءالشمالي من المغرب ، وسهلت بذلك مواصلاته مع الدول الأوربية ، وأصبح فيوسعه أن يهدد المراكز والقواعد العسكرية الأوربية في شمال بلاده ، وعلى سواحلها الغربية •

أما في وسط المغرب ، فان المولى اسماعيل قد استخدم السياسة ونجح بها في فاس كذلك ، خاصة وأنها اشتملت على المكر والدهاء • واستجاب العلماء في فاس لهذا السلطان المنتصر ، والذي أعلن ودهواحترامه للعلماء ، رغم قسوته وجبروته على أعدائه في الحرب • ووجد من العلماء من مدح المولى اسماعيل ومروءته ، اذ أنه قد اكتفى بأخذ رأس الخضر غيلان بدلا من أن يطلب رؤوس كل امراء تطوان • فخرج علماء فاس وطلبتها مهللين للمولى اسماعيل « المظفر بالله » ، داعين له بالنصر ،ومعلنين له الولاء ، وطالبين منه العفو • وكان المولى اسماعيل قد أحضر معه من سهول الغرب رأس الخضر غيلان لكي يطاف بها في فاس ، ارهابا للاهالي ، ولكنه عاد وقبل توسط العلماء في أن يعاد الرأس الى القصر الصغير ،

ويدفن بكل اجلال واحترام ، بعد حياة مليئة بالجهاد من أجل الاسلام والمسلمين . ولا شك في أن معاملة المولى اسماعيل للعلماء واستماعه واستجابته لمطالبهم كانت تدعم من حكمه وتثبت من اركان سلطته في البلاد، وتظهره بمظهر القوى الذي يمنح . ولا شك كذلك في أن اعتماد المولى اسماعيل على العلماء في عملية ضرب القيادات الاقطاعية الموجودة في ذلك الوقت كانت تشبه ما حدث في أوربا في عصر الحادي عشر ، وفي عصر نمو الملكيات الحديثة ، اذ أن الطبقة الوسطى الرأسمالية لم يكن لها وجود بالمعنى المفهوم في المغرب في ذلك الوقت . وتمكن المولى اسماعيل عن طريق العلماء والطلبة من القضاء على معارضة كبار الجالية الأندلسية في فاس ، والحصول على ولاء مدينتهم ، وأردف ذلك بنزع الاسلحة والذخائر من سكان فاس .

واذا كان المولى اسماعيل قد تمكن بهذه العمليات من السيطرة على الجزء الأوسط من سلطنته ، فقد كان عليه أن يسرع باخضاع بقية الاقاليم المغربية ، كما كان عليه أن يعمل على تحرير ثغور المغرب من الحكم الأجنبي، خاصة وأن القوات البريطانية كانت تحتل طنجة ، كما أن القوات الاسبانية كانت تحتل كل من سبته ومليلة ، والمهدية والعرائش وأصيلة . وسيكتب للمولى اسماعيل النجاح في تحرير الجزء الأكبر من هذه الثغور المغربية من أيدي قوات الاحتلال الأجنبي ، وبشكل يقرن هذه العملية باسمه في التاريخ .

★ ★ ★

كان وجود الجنود المسيحيين في أرض الاسلام وصمة عار للمغاربة ، وكذلك للمولى اسماعيل . وكانت طنجة من أعز مدن وثغور الاسلام على قلوب المغاربة ، ولكنهم رأوا احتلال البرتغاليين لها منذ سنة ١٤٣٧ حتى سنة ١٦٦١ ، ثم مجيء الانجليز لها بعد ذلك . وكان وجودهم فيها يعتبر طعنة خنجر في هذه المدينة المغربية ، والثغر الاسلامي .

حقيقة أن وجود الانجليز في طنجة لم يكن يعني استمرار الحـرب بينهم وبين المغاربة طول الوقت ، ذلك أن تبادل السلع والتجارة كـان يتم بين الطرفين في الفترات الواقعة فيما بـين المعارك والعمليات الحربية ، وكانت الاسلحة والبارود تصل الى ايدي المغاربة ومن التجار الانجليـز أنفسهم • ولكن هذا الوضع كان لا ينفي وجود حالة الحرب بين الطرفين، أو الدولتين ، بشكل مستمر ، حتى وان كانت بعض الهدنات قد تخللت فترة الحروب الطويلة •

وحاول الانجليز ، منذ سنة ١٦٧٤ ، أن يصلوا الى اتفاق مع المغاربة، فوصل وايت حاكم طنجة الى فاس ، ومعه بعض أعيان سلا ، الذين كانت السفن البريطانية قد أسرتهم في عرض البحـر ، واصطحبه أمير البحـر عبد القادر مارينو حاكم سلا ، والذي كان قد ذهب اليه في القصر الكبير، لكي يصطحبه الى السلطان في فاس • وقابـل المولى اسماعيل الحـاكم الانجليزي مقابلة طيبة ، ولكن السلطان رفض عقد الصلح • وقبل المولى اسماعيل الأسرى المغاربة الثلاثين ، وزود حاكم طنجة بهدية اشتملت على ثلاثمائة رأس من البقر ، ومثلها من الغنم • ولا شك أن المولى اسماعيل قد أظهر كرما كبيرا في عملية دفع فدية عينية للاسرى ، اذ أنه لم يكن من طباعه دفع أية فدية عن أي مغربي يقع في أيدي الأعداء ، ويعتبر أنه قد فشل في الدفاع عن نفسه وعن بلاده ، ولا يستحق أي ثمن •

وبعد عامين من ذلك ، بدأت المباحثات من جديد بين انجلترا والمغرب، بشأن أعمال القرصنة والاعتداء على السفن في أعالي البحار • وكان هـذا الوقت صعبا بالنسبة للمولى اسماعيل ، وكان مشغولا حينئذ في حملاتـه العسكرية التي كان يقوم بها ضد ابن اخيه ، المولى أحمد بن محرز ، وما أن انتهت هذه العمليات حتى بدأت العمليات الحربية من جديد بين المغاربة والانجليز في طنجة ، منذ يناير سنة ١٦٧٨ • وقاد القوات المغربية المحيطة بطنجة القائد عمر حدو ، الذي يمكن اعتباره على أنه خليفة للخضر غيلان،

بعد أن انتشر صيته وتدعم نفوذه في كل منطقة الغرب • وأخذت القوات المغربية في مهاجمة الحصون المحيطة بمدينة طنجة ، وتمكنت من تخريب بعضها • واستخدم المغاربة في هـذه العمليات الألغـام وبعض الغازات الخانقة ، وبعض النيران والقذائف المحرقة • وربما كانت هذه الأسلحة، والتمرن عليها ، قد وصل اليهم عن طريق الجزائر ، اذ أنها المنطقة الوحيدة من المغرب التي ظهر استخدامها فيهـا ، وكانت شائعة الاستخدام عنـد العثمانيين ، وحتى في الجزائر • وربما اشتمل جيش المغرب المحاصر لطنجة في ذلك الوقت على بعض المتطوعين من الجزائر ، خاصـة وأن عمليـات الجهاد في ذلك الجزء الشمالي من المغرب كانت دائما مرتبطة ببعضهـا ، وفي كل شمال افريقية ، رغم خضوع بعضها لحكم العلويين ، والتفاف الآخر حول العثمانيين • ونجحت قوات القائد عمر حدو في شهر أبريل سنـة ١٦٧٩ في الاستيلاء على قلعتين أخرتين قريبتين من طنجـة ، وبشكل زاد من تهديد المغاربة للقاعدة الحربية البريطانية في شمال البلاد • وقام القائد عمر حدو ، في شهر مارس سنة ١٦٨٠ ، بهجمة كبيرة على طنجة ، وأردفها بهجمة ثانية في شهر أبريل ، ثم جاءته الأوامر من السلطان بضرورة زيادة الضغط على أسوار طنجة ، وأعلمه المولى اسماعيل بقـرب وصول بعض وحدات من الجنود السود ، العبيد البخارى ، وحرسه الشخصي ، لكي يعاونوه في عملية الهجوم على طنجة •

وتمكن القائد عمر حدو من محاصرة احدى القلاع الجديدة ، ومن تحطيم أسوار قلعة أخرى بالألغام • واضطر الانجليز الى سحب قواتهـم من المواقع الأمامية ، بدلا من تزويدهم هذه المواقع بقوات جديدة ، فأدى الأمر الى تمكين المغاربة من الزحف وزيادة الضغط على القوات الانجليزية المحاصرة في طنجة • وكان الانجليز قد اضطروا عنـد انسحابهم من بعض هذه القلاع الى اتلاف المدافع الموجودة فيها ، ووضع الالغام في داخلهـا حتى لا تقع سليمة في أيدي المغاربـة • وعمل تقهقر الانجليز علـى رفع

الروح المعنوية عند المغاربة ، خاصـــة وان المولى اسماعيل نشـــر في طول البلاد وعرضها أخبار انتصار قائده عمر حدو على الانجليز في طنجـــه ، وأمر باقامة الصلوات في المساجد شكرا لله على ذلك •

واذا كان نصر المغاربة حتى ذلك الوقت غير كامل ، فقد كان مما يزيد من قوته أن المغاربة قد قاموا بهذه العمليات ضد القوات البريطانية ، دون أية معاونة من الدول الأجنبية ، الأمر الذي زاد من هيبة المولى اسماعيـــل داخل البلاد ، وفي نظر الملوك الغربيين كذلك • وظهر تمرن المغاربة على استخدام الخنادق ، وتمرنهم على استخدام الألغام ، وبشكل لم يكن في حسبان الانجليز • وظهر فشل التحصينات التي كانت القوات البريطانيـــة قد أقامتها حول طنجة بجذوع الاشجار بمجرد استخدام المغاربة للقذائف الحارقة ، بنفس طريقة استخدام العثمانيين لها في كل مكان •

ولا شك في أن انتصار المغاربة على الانجليز في هذه المرحلة الأولى من الحرب كان صدمة قوية للانجليز ، وعمل على خفض روحهم المعنوية، وبشكل واضح ، حتى أنه أصبح يهدد فاعلية الحامية البريطانية ،وامكانيات احتفاظها بهذه القاعدة في شمال البلاد • ويمكننا أن نضيف الى ذلك أن تقدم المغاربة في محاصرتهم لطنجه بهذا الشكل قد حرم الانجليز من كل امكانية للخروج من المدينة ، سواء أكان ذلك لمقابلة القوات المغربية ، أو للحصول على المواشي ومواد التموين • وكان من الصعب على انجلترا أن ترسل قوات جديدة ، وتنزلها الى ما وراء خطوط المغاربة المحاصرين لطنجة ، حتى تساعد على فك حصار هذه المدينة ، أما امكانية قيام الاسطول البريطاني بالضغط على الموانى المغربية الأخرى ، وضربها بالمدفعية ، فلـــم يكن من المتوقع لها أن تؤثر على المغاربة أي تأثير • وظل الانجليز داخل أسوار طنجة ، عاجزين عن الخروج منها ، وعجزوا حتى عن ترميم الأسوار التي قام المغاربة بتحطيمها • وكانوا يشاهدون استيلاء المغاربة في كل يوم على قطعان البهائم ، وبشكل يوحى لهم بنقص مواد التموين اللازمة لهم •

وكان نقص الخضر والفواكه والنبيذ في طنجة أمر يؤثر على معنوية الجنود الانجليز ، الذين أصبحوا يشعرون بأنهم حامية محاصرة ، أو موجودة في المنفى ، وتعمل من أجل دولة ترفض أو تعجز عن امدادهم وفك حصارهم .

وحاولت انجلترا أن ترسل عددا من الضباط الممتازين الى طنجة للعمل على رفع الروح المعنوية بين الجنود ، ولكن دون جدوى . ثم قامت انجلترا بعد ذلك بارسال احدى الكتائب الى طنجة ، وسارت سفن الاسطول البريطاني لحراسة السفن التي تقلها ، وظهر خوف انجلترا من مهاجمة الاسطول المغربي أو الاسطول الجزائري لهذه القوة قبل وصولها الى طنجة ، هذا علاوة على خوف انجلترا من امكانية مهاجمة الاسطول الفرنسي لها ، وكانت في حرب معلنة ضد لوى الرابع عشر . ولا شك في أن ارسال انجلترا لهذا المدد قد ارتبط بعملية نجاح المغاربة في غزو قصبة المهدية في المعمورة ، وانتزاعها من أيدي الاسبانيين . وقبلت اسبانيا أن تقف الى جانب انجلترا لمحاربة المغاربة ، ومهاجمة قوات المولى اسماعيل ، وبصفته عدوا مشتركا لهم . وعقدت معاهدة وندسور التي تعهدت فيها اسبانيا لانجلترا بتزويدها بعدد من الفرسان ، وعدد من الخيول اللازمة لطنجة ، ولكن اسبانيا كانت مشتبكة في حرب مع المغرب ، وكان عليها أن تنجد قواتها المحاصرة هنا وهناك ، قبل قيامها بنجدة الانجليز المحاصرين في طنجة .

وفي شهر سبتمبر سنة ١٦٨٠ انتهت الهدنة المعقودة بين المغاربة والانجليز ، واعتمد الانجليز على الامدادات الجديدة التي وصلتهم ، وخاصة من الفرسان ، وقاموا بهجوم على خطوط المغاربة ، واستخدموا القنابل ، ولكن المغاربة أوقعوا بمعظم رجال القوة المهاجمة ، عن طريق الكمائن ، التي اقاموها لهم في كل مكان ، وقتل القائد الانجليزي في هذه العملية . وحاول الانجليز القيام بهجوم جديد في شهر اكتوبر ، وان كان ذلك لم يثبط من عزيمة المغاربة ، الذين زاد تمرنهم على استخدام المدفعية ،

والتي كانوا قد ثبتوا قطعها داخل كهوف حفروها لها في الجبال • وهكـذا عجز الفريقان ، الانجليز والمغاربة ، عن تحقيق أي نجاح واضح في هـذه العمليات •

وكتب حاكم طنجة الى كل من المولى اسماعيل والى القائدعمر حدو، ينبئهم أن ملك انجلترا يرغب في عقد الصلح معهم • ووصل القائد عمـر حـدو ، على رأس كتيبـة من الجنود السود ، لاصطحاب « السفير » الانجليزي الى السلطان ، وقام الكولونيل كـيرك بهذه المهمة • ومنحـه المولى اسماعيل سلاما لمدة أربع سنوات ، ووقف كل عمليات حربية بيـن الجانبين • ثم وصل مندوب من انجلترا وعقد الصلح النهائي • وكـانت شروط هذا الصلح في جانب المغاربة ، اذ أن المغرب رفض اطـلاق سراح الأسرى الانجليز الموجودين لديه ، ورفض تطبيق هذا الصلح على عمليات الجهاد البحري بين سفن الدولتين • وبهذه الطريقة كان هذا الصلح مجرد هدنة مؤقته ، محددة بزمن معين ، وفي نطاق معين حول مدينة طنجـة وحدهـا •

وحتى في منطقة طنجة لم يكن السلم سائـدا بين الطرفيـن طوال الوقت ، رغم رفع الحصار عن المدينة • وعجزت سفارة أحمد حـدو الى انجلترا ، ومقابلته للملك وللملكة ، عن وضع حد للصعوبات الموجودة بين البلدين • وكانت معاهدة هوايت هول في ٢٣ مارس سنة ١٦٨٢ هي عبارة عن تأكيد اتفاقيـة مكناس ، دون أن تصل الى تسوية نهائيـة لموضوع طنجة • ومع استمرار الوقت شعر الانجليز بان المعاهدة شيء ، والتعامل بين القوات الانجليزية في طنجة ، والقوات المغربية حولها شيء آخـر • واستمر ذلك لمدة سنتين أخرتين •

وكانت الأوضاع الدينية والسياسية والمالية التي سادت انجلترا في ذلك الوقت ، وفي السنوات الاخيرة من حكم شارل الثاني تمثل ظهور الصراع بين انجلترا وبين أنصار البـابا في البرلمان البريطاني • وكـان

البرلمان يخشى من تحول الاسرة المالكة في بلاده من المذهب البروتستانتي الى المذهب الكاثوليكي ، فرفض الموافقة على الاعتمادات المالية التي طلبها الملك من أجل طنجة . وعلى أساس أنها قلعة كاثوليكية ، يسيطر فيها رجال الدين الكاثوليك من الاسبان والبرتغال ، وتعتبر بالتالي مركزا من مراكز تدعيم النفوذ الكاثوليكي ، الذي كانوا يحاربونه • فقرر شارل الثاني ، في نهاية سنة ١٦٨٣ ، هدم تحصينات طنجة . وهدم السقالات البحرية الموجودة في الميناء ، وهدم الميناء نفسه ، وسحب الحامية والرعايا الانجليز الموجودين فيها واعادتهم لانجلترا • وقام شارل الثاني بتعيين دارتسوث للاشراف على هذه العملية ، ومنحه رتبة أمير البحر ، رغم انه أعلن في انجلترا انه ذاهب « للتحقيق » في احوال طنجة • وفي ٤ من اكتوبر سنة ١٦٨٣ أعلن الانجليز لسكان طنجة قرار الحكومةالانجليزية، ثم بدأت الأعمال • واستمرت عملية هدم السقالة البحرية لمدة ثلاثة أشهر ، كما أن هدم الأسوار والتحصينات استمر طوال فصل الشتاء ، رغم قيام أكثر من الفي جندي بريطاني بهذه العملية •

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان المغاربة الذين يحاصرون طنجة يقومون بمحاولات متتالية للهجوم عليها بقيادة القائد علي بن عبدالله ، واظهار العملية على أنها عملية استيلاء على مدينة في أثناء الحرب • ويذكر لنا الناصري أن المولى اسماعيل قد عقد للقائد أبى الحسن علي بن عبدالله الريفي على جيش المجاهدين ، ووجهه لحصار طنجة فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر وتركوها خاوية على عروشها ••• قاله في « النزهة » وقال في « البستان » لما ضاق الأمر على النصارى الذين بطنجة ، وطال عليهم الحصار ضربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين على بن عبدالله الريفي في بناء ما تهدم

من أسوارها ومساجدها . (٢)

وكان استيلاء قوات المولى اسماعيل على طنجة خطوة هامة في سبيل تحرير بلاده وثغوره من الاحتلال الأجنبي . وجاءت هذه العملية بعد عملية تحرير المغاربة لثغر المعمورة أو المهدية .

★ ★ ★

وكان نجاح المولى اسماعيل في اخراج الاسبانيين من عدد من القواعد العسكرية التي كانوا يحتلونها في المغرب من بين أهم الأعمال التي قام بها هذا السلطان والتي ميزت حكمه بالنصر وبتحرير الثغور .

وكان استيلاء الاسبانيين على هذه القواعد في المغرب سببا رئيسيا من اسباب انتشار الفوضى والقلق في المنطقة ، وفي الفترة السابقة لحكم المولى اسماعيل . وكانت العلاقات بين المغاربة والاسبانيين هي علاقات عداء تقليدي ، وظهر ذلك بوضوح في عملية طرد المغاربة من الاندلس ، وفي عملية الاستيلاء على ثغور المغرب نفسه ، مع اعطاء ذلك شكل الحروب الصليبية . واذا كانت جهود العرب والمغاربة قد نجحت في ابعاد الاسبانيين عن ثغور الجزائر ومراسيها ، كما نجحت في ابعادهم عن تونس وطرابلس، بمساعدة الدولة العثمانية ، فان أقدام الاسبانيين قد ظلت ثابتة ومدعمة في عدد من ثغور المغرب الأقصى ، وخاصة نتيجة للضعف الداخلي ، وللانقسام في هذا الاقليم العربي من ناحية ، ونتيجة لقرب هذه الثغور المغربية من اسبانيا نفسها ، من ناحية أخرى . وكانت اسبانيا تحاول التوسع في عملية الاستيلاء على الثغور المغربية حتى بلغ بها الأمر ، في سنة ١٦١٤ الى الاستيلاء على قصبة المهدية ، التي تشرف على منطقة المعمورة ، وتعتبر من أهم القصبات في سهول الغرب .

---

(٢) أنظر : الاستقصا ، جـ ٧ ص ٦٧ .

وكانت المهدية تبعد بمسافة خمس وأربعين كيلو مترا الى الشمال من سلا ، وكانت تمتاز عنها في صلاحية مينائها واتساعه ، وسهولة تحصينها بالمدفعية التي يمكنها أن ترد عنها غارات الأساطيل الأجنبية • هذا علاوة على وقوع المهدية على مرتفع يشبه برج المراقبة ، ويكشف ساحل المحيط ، والسفن القادمة فيه ، ولمسافة بعيدة • واذا كان نهر أبو رقراق يزود سلا بالمياه ، فان نهر سبو كان يزود المهدية بما يلزمها من المياه • وكان وقوع غابة المعمورة على مشارف قلعة المهدية يسمح لهذه القاعدة العسكرية بالحصول على كميات كبيرة من الأخشاب اللازمة للوقود ، واللازمة حتى لصناعة السفن ، ويسمح لحامية هذه القلعة باتخاذ الغابة منطقة دفاع طبيعية من الطراز الأول بالنسبة للقاعدة •

واتخذ المولى اسماعيل لنفسه سياسة تحرير ثغور المغرب من الأعداء • ولا شك أن مجهودات المولى اسماعيل في هذا الميدان كانت كبيرة ، وأنها أخذت جزءا كبيرا من وقته • ومن مجهوده ومجهود قواته المسلحة • ورغم قلة ما اوردته لنا الوثائق ، وضعف ما زودنا به المؤرخون العرب عن تفاصيل هذه العمليات ، وامكانياتها والطرق التي سارت بها ، وعدم اتفاق هؤلاء المؤرخين وبعضهم ، فيمكننا أن نرسم الخطوط العامة المبسطة لها ، مبتدئين بثغر المهدية •

ويذكر لنا « نشر المثاني » أن الاستيلاء على المهدية قد تم بالقوة المسلحة وقت صلاة الجمعة في يوم ١٥ من ربيع الثاني من عام ١٠٩٢ هجرية ، ولكنه يذكر في نفس الوقت وجود رواية ثانية تذكر أن هذه العملية الخاصة بدخول جنود المولى اسماعيل الى هذه القصبة قد تمت بدون حرب أو التحام ، ذلك أن المغاربة قد منعوا وصول المياه الى الحامية المسيحية الموجودةهناك ، مما اضطر رجالها الى التسليم، واستولى المسلمون على القصبة دون أن يضحوا بمسلم واحد • ويدعم هذا الرأي الثاني خطابا تبعض الأسرى المسيحيين فيالمغرب الى الماركيز دي فيلار ،

والتي اشتملت على ذكر قوة قصبة المهدية وقلعتها ،وتوفر التموين والذخائر فيها بكميات كبيرة • ويعادل تاريخ استيلاء المغاربة على المهدية نهاية شهر أبريل سنة ١٦٨١ • وما أن دخل المسلمون ثانية الى قصبتهم حتى قاموا بتحسين الميناء ، واعادة ترميم الأسوار والحصون ، وساعدت أشجار غابة المعمورة على زيادة عدد سفن أسطول المولى اسماعيل • وأصبحت المهدية في عصر المولى اسماعيل من بين أقوى وأهم القواعد العسكرية البحرية للسلطنة المغربية •

وكتب أحد الفرنسيين الى كولبير ، الوزير الفرنسي ، في منتصف شهر مايو سنة ١٦٨١ ، عن استيلاء المغاربة على المعمورة والمهدية منذ خمسة عشر يوما ، وذكر أن قوة المغاربة المهاجمة بلغت عشرة آلاف رجل بقيادة القائد عمر بن حدو ، وأن المغاربة قد نصبوا بعض المدافع عند مصب نهر سبو من ناحية البحر لكي يمنعوا وصول أي امداد للاسبانيين، ثم أبلغوا ذلك للمولى اسماعيل الذي حضر بنفسه على رأس جيش آخر بلغ ١٤٫٠٠٠ ، ١٥٫٠٠٠ رجل • ووجد قائد الاسبانيين ألا أمل له في المقاومة ، فاضطر الى التسليم ، وحصل على الامان لنفسه ولأسرته •وكان في المهدية ما يزيد على مائة مدفع وكميات كبيرة من الذخائر والبارود •

ولكن هذه الروايات لا تشفي الغليل في معرفة تفاصيل هذه العملية، خاصة وأنها قد تمت بسرعة • ولا شك أن المولى اسماعيل قد عرف بطريقة أو بأخرى ، وربما عن طريق أحد الفارين الاسبانيين من هذه القاعدة ، بنقص مواد التموين فيها ، وربما انتشار بعض الامراض بين رجال الحامية • وكان المولى اسماعيل في ذلك الوقت يستعد للزحف صوب نهر ام الربيع ، وعلى رأس قواته لمحاربة ابن اخيه المولى أحمد بن محرز، فكلف القائد عمر بن حدو بمحاصرة المهدية ، والاستعانة في ذلك ببعض رجال الحاميات الموجودة في مكناس وفاس وتطوان والقصر الكبير وسلا • وكان المولى اسماعيل بكل تأكيد يحاول بهذه الطريقة اعطاء لون

« التطوع الوطني » لهذه القوة التي ستهاجم الاسبانيين في المهديــة • ولكن المولى اسماعيل احتفظ لنفسه بشرف الاستيلاء على هذه القصبــة بنفسه • وقام المغاربة بقطع كل الطرق التي يمكن عن طريقها لرجال الحامية المحاصرة أن يتصلوا بأوربا • ووصل القائد عمر بن حدو امام المهدية في ٢٦ أبريل • ولم تكن الاراضي الواقعة بين أسوار المدينة وشاطىء وادي سبو محصنة الا ببعض الحواجز من جــذوع الاشجار ، وبشكــل سمح للمغاربة بالتغلب عليها دون كبير صعوبــة • ثم بدأ المغاربة في مهاجمــة البرجين اللذين كانا يدافعان عن الميناء ، أو المرسي • واضطرت الحاميــة الاسبانية فيهما ، وكانت قليلة في عددها بالنسبة للقوات الوطنية المهاجمة، الى التسليم • وبدلا من أن يقوم المغاربة بقتل الاسرى ، أو ارسالهم الى معسكرات الاعتقال ، أو للعمل في منشآت السلطان ، تركوهم يذهبون مع بقية الحامية داخل أسوار المدينة • وكان عليهم أن يذكروا لزملائهــم ولقائدهم أن المولى اسماعيل سيحضر بنفسه ، على رأس جيوشه ، لمساعدة القائد عمر ، واذا ما قامت الحامية باطلاق مدفع واحد ، فان جميع رجال الحامية سيذبحون •

ومنح المغاربة للاسبانيين هدنة طويلة ، وحتى التسليم ، وتعهــدوا بالمحافظة على حياة الاسبانيين في حالــة تسليمهم ، ولكن على أســاس تجريدهم من أسلحتهم ومن كل ما يملكون ، والاحتفاظ بهم حتى تقــوم دولتهم بدفع فدية ، ودفع جميع التكاليف العسكرية التي أنفقت في هذه العمليــة •

ولقد نجحت هذه السياسة كل النجاح ، وظهر تأثير الاسبانيين علــى بعضهم، كما ظهر خوفهم وهم محاصرون ، وصلتهم مقطوعة ببــلادهم • وبجحافل مغربية منحتهم الحياة ، رغم عدم ترددها في قتل أي عــدو • وشعر الاسبانيون أنهم أمام خصوم شرفاء ، وجنود أقوياء ، وان فكرتهم عن المغاربة كشعوب همجية ، تعيش على القتل والنهب والسبي ، هي فكرة

خاطئة من أساسها ، وأن في وسع المغاربة أن يكونوا فرسانا ، ولهم من أخلاق الفرسان وتقاليدهم ما يميزهم عن غيرهم • وأصبح الاسبانيون موزعين بين رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن أنفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك أن قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال أسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في حرب المغاربة • ولا شك كذلك في أن رجال الدين الموجودين في المعمورة قد حاولوا استثارة النخوه في قلوب الجنود المحاصرين ، وانهم قد تحدثوا عن الكنيسة وعن النساء والاطفال ، وعن وحشية المغاربة • ولكن هذه المجهودات ذهبت كلها هباءا اذ أن قائد الحامية قد طلب من المغاربة التسليم •

وارتفعت راية بيضاء في أعلى القصبة ، وشعر المغاربة بأن القائد الاسباني يرغب في التفاوض ، واستقبل القائد عمر بن حدو قائدين اسبانيين يحملان الهدايا ويعرضان التفاوض • وانتهى الأمر باتفاقية اشتملت على احتفاظ قائد الحامية وستة من ضباطه وأسرهم بحريتهم وبممتلكاتهم ، وبحقهم في أخذ أحد القسس الموجودين معهم لكي يحمل ما في الكنيسة الاسبانية التي انشأوها هناك الى اسبانيا ، أما رجل الدين الثاني فكان عليه أن يبقى مع الحامية الاسيرة حتى يقيم لها شعائر الصلاة• وكان على من يذهب الى اسبانيا أن يهتم بعملية دفع فدية الأسرى الذين تركوا بغير قادة • وتصبح هذه الشروط نافذة بمجرد موافقة المولى اسماعيل عليها •

وطار المولى اسماعيل من الفرح لمعرفته بهذه الانباء ، ويقال أنه أعطى مائة من الذهب الى الجندي الذي أبلغه هذه الاخبار • وفي صبيحة اليوم الثاني ، ومع شروق الشمس ، كان المولى اسماعيل على رأس حرسه الشخصي أمام أسوار المهدية • وكان قد سار بسرعة ،وأصدر

الأوامر لقادة الجيش بالاسراع واللحاق به هناك • وصدق المولى اسماعيل بسرعة على الاتفاقية وأرسلها للقائد الاسباني حتى يسلم مفاتيح المدينة للملك الغازي • وقدم القائد الأسباني لسلطان المغرب التحية العسكرية اللائقة به ، وجعل قواده يقبلون حذاءه • وخرجت الحامية الاسبانية من القصبة واصطفت في الخلاء بدون أي سلاح ، وكانت اللحظة تشتمل على الصمت والسكون الذي يمثل صلاة للشكر على هذا النصر الذي كتبه الله للمغاربة •

وبدلا من أن يرسل المولى اسماعيل القائد الاسباني الى طنجة ، أرسله الى ميناء العرائش ، وكانت قصبة ثانية في أيدي الاسبانيين كذلك ، وحتى تعلم حاميتها بتسليم الحامية الاسبانية الرئيسية في المهدية لسيد البلاد ، وتعلم كذلك بالمعاملة التي عاملها لها • ولكن بدلا من أن ينجح المولى اسماعيل في هذا الجزء الجديد من خطته تدخلت عوامل أخرى في الموضوع • وكان لوجود حاكم عام اسباني في العرائش ، يمتاز بغطرسته وقسوته ، تأثيرا في سير الاحداث ، ذلك أنه أمر بالقاء القبض على قائد حامية المهدية ، وارساله مكبلا بالسلاسل الى قادس ، وادى ذلك الى وقوف هذا الرجل للمحاكمة أمام مجلس التاج الاسباني •

ولا شك أن اسبانيا قد رفضت دفع الفدية عن رجالها الباقين في المعمورة ، ويذكر أحد المسافرين في هذه المنطقة بعد ستة عشر عاما من التسليم كيف أن المهدية قد أصبحت قلعة اسلامية لها قوتها ، وان اسبانيا قد دفعت فدية مائة ضابط من ضباط الحامية ، ولكن المهدية كانت لاتزال تشتمل على ما يقرب من ألفي أسير اسباني رفضت اسبانيا افتدائهم،وبقوا في الأسر ، ولكي يعملوا في المغرب ، دون أن تهتم بلادهم بهم •

وكان هذا النصر سببا في أن يذكر صاحب « النزهة » :

« ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ،

ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسماعيل عدة مدن من يدي النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار • » ويذكر صاحب « البستان » أن الغنيمة كانت من حظ المجاهدين من أهل الفحص والريف اللذين كانوا مرابطين عليها ، وان السلطان قد رجع الى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها . وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا • وبعد أن فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو الذي اصابه الوباء ومات في الطريق ، فتولى رئاسة المجاهدين من بعده أخوه القائد أحمد بن حدو ، واقتسمها مع القائد أبو الحسن علي بن عبدالله الريفي •

أما القصبة الثانية التي نجحت قوات المولى اسماعيل في الاستيلاء عليها من اعدائها الاسبانيين فكانت هي العرائش ، وتم هذا الفتح في سنة مائة والف هجرية ، وفي آخر شهر شوال ، أي في عام ١٦٨٩ م •

وكانت العرائش ثغرا يزيد في أهميته كثيرا عن المهدية ، فكانت قلعتها قوية ، ويسهل الدفاع عنها ، كما أن وقوعها عند مصب نهر اللوكوس كان يعطيها منعة وقوة • وكانت تحيط بها الأسوار والحصون القوية والمعدة أحسن استعداد ، وكانت تشتمل على الثكنات الجديدة ، ومخازن القمح ، ومصانع للبارود ، وكان يظهر أن في وسعها أن تقاوم مدة طويلة، خاصة وأنها كانت مفتوحة من ناحية البحر ، وكان نهر اللوكوس يزودها بما يلزمها من مياه من داخل الاقليم • والظاهر ان شعور رجال الحامية الاسبانية فيها بقوة موقعهم ، وقلة تقديرهم للمجاهدين المغاربة ، واعتماد الحامية على مدفعية قوية ، جعلهم يغترون بأنفسهم ، ولا يلتفتون كثيرا لخطورة زحف المجاهدين المسلمين على هذه القاعدة القوية •

ولقد سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش التي كان الاسبانيون متمركزين فيها منذ عهد الشيخ ابن

المنصور السعدي • وينقسم المؤرخون في تقدير فترة حصار المجاهـدين المغاربة للعرائش ، وذكر البعض أنها ثلاثة أشهر ، وذكر البعض الآخر أنها بلغت خمسة أشهر • وزاد على ذلك الناصري لأنـه اعتمد على المؤرخين الاسبانيين ، وذكر أن لويس الرابع عشر ، طاغية الفرنسيين ، أو عاهـل فرنسا ، قد ساعد المغاربة ، وأعان المولى اسماعيل ، وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة •

ولا شك أن المغاربة قد استخدموا الالغام في عملياتهم ضد العرائش، ويذكر صاحب « النزهة » أن فتـح المسلمين لها كان بعـد معاناة ، وأن المجاهدين قـد « حفروا المسنيات تحت خندق سورهـا الموالي للمرسي، وملؤها بارودا ، ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقـط جانب من السور ، فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى مـا كان من النصارى علـى الأسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيات ••• واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجـزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد أبو العباس ، فنزلوا عليه ، فأخذوا اسرى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا أميرهم وحـده • »

وكان عدد النصارى في العرائش قبل الاستيلاء عليها ثلاثـة آلاف ومائتين ، ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين ، وقتلوا منهـم أثنتي عشرة الف • ووجد المسلمون بها من العدة والبارود الشيء الكثير، فوجدوا بها نحو ١٨٠ مدفع بعضها من النحاس والباقي من الحديد ، ومنها مدفع يسمى « الغصاب » • « طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ،ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته اربعة رجال •»

وكان المسلمون قد تمرنوا على أعمال الألغـام من قبل مـع أسوار مدينة طنجة التي تحصن وراءها الانجليز لعدة سنوات • ولكن اذا كـان المغاربة قد أفادوا من وجود بعض عناصر الريف ، وبعض ابناء الجزائر في عملياتهم ضد طنجة ، فمما لا شك فيه أن استخدامهم للالغام ضد العرائش

قد جاء نتيجة لخبرتهم ضد طنجة ، ونتيجة لمعاونة فرنسا لهم بالبارود والألغام • وكان وجود بعض المجاري الرومانية القديمة تحت مدينة العرائش تسمح للمغاربة بالدخول فيها ، وبعمل الحفر لوضع الالغام تحت المدينة، دون أن يشعر الاسبانيون بذلك •

وأمر المولى اسماعيل بنقل الأسرى الاسبانيين من العرائش الى مكناسة ، وكان عددهم يقرب من الألفين ، واستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ، أما بالليل فكانوا يبيتون في الدهليز ، وهو في عرف المغاربة هرى تحت الارض • وأسكن السلطان أهل الريف في العرائش حتى يعمل على توطين جزء منهم ، ويحد من نزعتهم الاستقلالية التي أشتهروا بها في جبالهم ، وأمر قائدهم بان يبنى بها مسجدين وحماما ، ويبنى داره بقلعتها •

ولا شك أن فتح قوات المولى اسماعيل للعرائش كانت نصرا جديدا له دعمت من حكمه ؛ وأظهرته في شكل محرر للبلاد ، ومجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين • وقال الشاعر عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني في هذا الفتح :

الا أبشر فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزكم الأمور
وضوء النصر ساعده التهاني ونور الفخر نحوكم يدور
حميتم بيضة الاسلام لما بعين الحق قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فانتم لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا وفي يوم الوغا الأسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدى لقدركم على الشعري الظهور
لقد كان الملوك فساوموها وراموها وبان لها نفور
فلما جئتها انقادت وقالت اليك بحق مولانا المصير

ملكت قيـاد عزتهـا بـذل فما أغنى الحصار ولا العبـور
قهـرتهـم بابطـال ضخام على الهيجـاء كلهـم جسور
فكم رأس من الكفـار أمسى قطيع الرأس مجـرورا يخـور
وكـم نحـر قـلادته رمـاح وسن الرمح مركزه النحـور
وكم أسـرى وكم قتلـى بأرض وكم جرحى دمـاؤهـم تفـور
تمر بهـا الطيـور فتنتقيهـا وبات الذئب وهو لهـا شكور
واضحى الناس كلهم نشـاوى على طرب ومـا شربت خمـور
فبشراكم بهـذا الفتـح نـور وبشـراكم بمـا من الغفـور
بـه زادت مـآثركـم علـوا وقد عظمت به لكـم الأمـور
الا يا معشر الكفـار هـذا بيددكـم وليس لـه فتـور

ولا شك أن هذا النصر قد أظهر المولى اسماعيل بأنه محرر المغرب، وفتح الافاق امامه لمواصلة عملية الجهاد وعملية التحرير ودعـم ملكه أن الناس قد نظروا اليه على أنه سيقوم كذلك بتحرير بقية الثغور في المغرب الاقصى ، وسيخرج الاسبانيين منها ، كما سيخرجهم من سبته ، وحتـى من وهران الجزائر ، وحتى اعادة حكم المسلمين الى الاندلس :

الا يا أهـل سبته قـد أتاكـم بسيف الله سلطـان وقـور
اذا ما جـاء سبتـه فـي عشى تنـاديه اذآ كـان البكـور
ووهـران تنـادى كـل يوم متى يأتي الامـام متى يـزور
فيهزمهـم ويقتلهـم ويسبى وسيف الحـق في يـده ينـور
أيا مولاي قم وأنهض وشمـر لاندلس فأنت لهـا الأميـر
وجاهدهـم وحاربهـم وفرق جموعهـم فربكـم النصيـر
ولا يمنع بفضـل الله منهـا كما قد قيل بـرا أو بحـور
لسان الحال ينشـد كل يوم ومعنى الحـال تفهمـه الصدور
بقرطبـة تنـال المجـد طـرا ويأتي العـز والملـك الكبير
وذلكـم بعـون الله سهـل ومن بركاتكـم أمـر يسيـر

أيا مولاي اسماعيل هذا — عبيدكم الضعيف المستنير
يناديكم بناديكم ويدعو — دعاءا لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا الهي — ويارحمن يا نعم المجير
أثب هذا الأمير بكل خير — ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه — ولو كرهت زيود أو عمور

وكان على المولى اسماعيل قبل أن يبدأ في مهاجمة سبته ، أو القيام بعمليات ضد وهران الجزائر ، ومحاولة اعادة الاندلس الى المسلمين أن يواصل تحرير بلاده نفسها قصبة بعد قصبة ، وكانت أصيلا هي أقرب الثغور اليه بعد العرائش ، وكان من اللازم أن يخلصها من حكم الاسبانيين كذلك بعد أن نجح المغاربة في تحرير طنجة والمهدية والعرائش •

وكانت أصيلا تقع على المحيط الاطلسي بين العرائش وطنجة ، وكان وقوع هذين الثغريين اللذين يحاصرانها من الشمال ومن الجنوب في ايدي المغاربة يوجه الانظار الى أن المولى اسماعيل سيقوم بتحريرها كذلك ، مادامت قد أصبحت محاصرة بممتلكاته من كل جانب • ويذكر المؤرخون المسلمون أنه لما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة أصيلا، ونزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، الى ان بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان ، وامنهم المغاربة • ولكن الاسبانيين لم يطمئنوا للعهد ، فركبوا سفنهم ليلا ، ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون الى المدينة وملكوها • وعمرها أهل الريف كذلك ، وبنوا بها مسجدين ومدرسة ، وبنى قائد المجاهدين منزله بالقلعة كذلك •

وكان من حسن حظ المولى اسماعيل أنه اعتمد في هذه العمليات على رجال من المجاهدين ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان الجهاد يجري مع الدماء في عروقهم ، واعتمد على قياد ورجال من أبناء الريف ، الذين كانوا يولدون مجاهدين ، وكانوا ينظرون الى الجهاد على أنه الطريقة الوحيدة لترجمة رغبتهم في الكفاح من أجل الحياة نفسها ، وعلى أنه

المهنة الوحيدة التي يحق للرجل أن يفخر بقيامه بها • وكان هؤلاء الرجال يتدربون على الاسلحة منذ صغرهم حتى اليوم الذي يتمكنون فيه من استخدامها ضد اعداء البلاد • وكانت الطبيعة مع البيئة هي التي تؤهل أبناء الريف للتحول الى مجاهدين من الطراز الاول ، خاصة وان اخلاقهم، وظروف منطقتهم كانت تدربهم على الصبر والعيش بالقليل ، مع قوة التحمل ، وارتفاع الروح المعنوية والحماس ، وبشكل ملحوظ • وكانت سرعة ابناء الريف وخفتهم ، مع قوة مقاومتهم تفوق ما يمكن تصوره في المحارب العادي ، وكان تحركهم في الاراضي الوعرة يثير الدهشة ، هذا علاوة على حدة بصرهم ، وانتباههم ويقظتهم حتى يعجز اعداءهم عن الوقيعة بهم في الكمائن • وكان في وسع ابناء الريف أن يفيدوا من طبيعة الارض في مهاجمتهم الاعداء بعد أن يصلوا اليهم ودون أن يشعروا بهم• وكانوا يشبهون ابناء السودان في كفاءتهم الحربية ، وان كانوا قد امتازوا عليهم بعملهم في الجبال وفي المناطق المغطاة بالثلوج وبكل قوة وانتباه ورشاقة في نفس الوقت • وكان من طباع ابناء الريف ، وهو ما يميزهم على غيرهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بالحياة ، ولا يلتفتون الى الاغنام والاسلاب • وكانت هذه الصفات المادية والمعنوية تعطي لبعض فرق قوات المولى اسماعيل قيمة كبيرة ، يسهل معها تفسير انتصار المغاربة على الاوربيين ، رغم تفاوت الاسلحة بين الجانبين في ذلك الوقت•ورغم تحصن الاوربيين في الثغور والمدن الحصينة التي تحيط بها الأسوار والابراج وتشتمل على القلاع • وكان هؤلاء الرجال هم الذين حاصروا مدينة سبته لمدة ستة وعشرين عاما ، وان كانوا لم ينجحوا في الاستيلاء عليها ، ولكنهم عادوا من جديد لمحاربة الاسبانيين فيها ، وللهجوم عليها ، ولمدة أثنى عشر عاما جديدا من حكم المولى اسماعيل •

وكانت الروح العامة في المغرب تنادي المولى اسماعيل بتحرير سبته ان لم تكن تناديه بطرد الاسبانيين من كل أرض انتزعوها من بلادالاسلام•

والواقع أن المولى اسماعيل قد قام من أجل سبتة بما يشبه التعبئة العامة في كل الجزء الشمالي من سلطنته ، وكون لذلك جيشا فريدا في نوعه ، قويا في عزيمته على الكفاح والجهاد • ولكن تراجع ملك اسبانيا بشأن المهدية والعرائش ، ثم انسحاب الحامية الاسبانية من أصيلا جعلت الاسبانيين في بلادهم يخشون من فقد قواعدهم في شمال افريقية • ولا شك أن هذا التنافس الموجود بين الملك ورجال الدين الكاثوليك في اسبانيا جعلهم ينظرون الى فشل القوات الملكية في الاحتفاظ بقواعدها في شمال افريقية على أنه ضعف مادي ومعنوي من جانب الملك وحكومته، ومن جانب الشعب نفسه • فانتشرت في اسبانيا حركة دعائية كبيرة برئاسة رجال الدين الذين خطبوا ووعظوا واهابوا بالاسبانيين أن يحافظوا على المراكز والقواعد التي رفع جنود الملكة المسيحية ايزابيلا الصليب عليها حتى يمنعوا المسلمين « الكفار » من العودة لاحتلال اسبانيا بعد ذلك ، واشتملت هذه الحملة الدعائية على كثير من الصلوات والادعية والخطب كما ظهر فيها الشعر الذي يبكي المسيحية ويولول لها أمام سيوف وحراب المسلمين المتوحشين • ولا شك أن هذه الحملة الدعائية قد أثرت في الروح المعنوية للحامية الاسبانية الموجودة في سبتة كما أثرت في الحكومة الاسبانية نفسها ، فقررت ارسال الامدادات ، وضرورة الاحتفاظ بسبتة بأي ثمن • وكان قرب سبتة من قادس ومن بقية المواني الاسبانية ، يسمح لاسبانيا بالاستمرار في تزويدها وامدادها ، ولأطول فترة ممكنة •

وعلينا أن نذكر من ناحية أخرى أن طول مدة الحرب قد أثرت في رجال الجهاد المسلمين ، وفي قوادهم ، خاصة وأنهم كانوا قد تركوا أسرهم واراضيهم ومزروعاتهم وبهائمهم منذ سنوات طويلة ، وكان طول مدة الحصار حول سبتة ، وبدون الوصول الى نتائج واضحة أكثر من تهديم جزء من الاسوار ، أو وصول بعض قذائف المدفعية الى أحد أبواب المدينة ، كان يساعد على وصول الملل الى ابناء الريف • هذا بالاضافة

الى أن المولى اسماعيل كان قد قام بسحب فرق من ابناء الريف من حول سبته لارسالهم الى البريجة ، مما أضعف قوة الجيش المحاصر لسبتـه •
وكان تجميع جزء كبير من القوات المحاربة المغربية حول مدينة سبتـه ، ولمدة طويلة يخلي مناطق اخرى من الاداة الاولى لحكم المولى اسماعيـل للبلاد ، ويساعد بالتالي على قيام بعض القيادات الاقطاعية بالامتناع عن دفع الضرائب أو اعلان الثورة ضد سيد البلاد •

وليس معنى ذلك أنه لم تقع معارك حربية ذات قيمة حول سبتـه • ذلك أنه في السنوات الاولى من الحصار حاولت القوات الاسبانيةالخروج من سبته لمواجهة قوات المغرب ، وانهزمت هزيمـة ساحقـة أمام فرسان المسلمين ، ثم قام المشاة من المغاربة بقتل كل من وجدوه حيـا على أرض المعركة وبعد انسحاب بقية الاسبانيين ورجوعهم الى سبته صمموا علـى عدم الخروج منها وامتنعوا عن الاشتباك من جديد مع المغاربة • وأمـر المولى اسماعيل قائده أمام سبته بعسكر من عبيده ، وأمر قبائل الجبل بأن تعين كل منها حصتها المرابطة على سبته ، وكذلك أمر أهل فاس • وبلغت قوات المسلمين أمام سبته خمسة وعشرين الفا • ويتهم النـاصري المولى اسماعيل بأنه قد عزا الى قواده المحاصرين لسبته بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم مع أنهـم قد سئموا كثرة الاسفار ، ومشتقات الحروب • وكان طول فترة الحرب قد صرف أنظار المولى اسماعيل عن سبتـه ، وجعله يشتغل بتمهيد المغـرب واخضاعه ، ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم • ويذكر الناصري ان الله لم يهيىء أمر فتح سبته على ايدي المولى اسماعيـل • واذا كانت هـذه الجملة تدل على اعطاء المولى اسماعيل مجرد حقه لا اكثر في تحرير المغرب، فان الرغبة في استخلاص سبته من ايدي الاسبانيين ظلت موجودة فيقلوب المغاربة الذين كانوا يشيرون الى آثار ضرب القوات المغربية لأبواب سبته

على أنها مادة يعتبر بها من يأتي بعدهم ، وحتى يزداد احتياطا وحزما ، وعزما وقوة على الاعداء .

ولكن المولى اسماعيل بلغ بهذه العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال الاجنبية الموجودة في بلاده الى نتائج واضحة وثابتة وبدأت باستيلائه على طنجة من ايدي الانجليز ثم استيلائه على المهدية والعرائش واصيلا ، وبشكل يجعل من المولى اسماعيل محررا لثغور المغرب سيطرة الدول الاستعمارية .

الدكتور جلال يحيى



الاقتصاد في الاسلام

الأستاذ خير الله طلفاح
رئيس مجلس الخدمة العامة - بغداد

المشكلة الاقتصادية تتبوأ مركز الصدارة في العالم اذ هي تشغل بال المفكرين من رجال الاقتصاد لان الاضطراب السائد في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والتطاحن القائم بين عوامل الانتاج عقد هذه المشكلة وازم الموقف بين العامل ورأس المال حتى بات ينذر بشر مخيف ، ولتجنيب العالم من كارثة حرب قد تؤدي في الحضارة العالمية اصبح لزاما على كل عاقل ومفكر ان يسعى الى ايجاد الحلول السلمية لها . ولعل في الاسلام حلا لهذه المشكلة لما فيه من مقومات توفق بين العامل ورأس المال وقبل ان نستعرض خصائص الاسلام لا بد لنا من القاء نظرة فاحصة على النظامين الاقتصاديين الرأسمالي والاشتراكي .

اولا ـ الاقتصاد الرأسمالي :

يقوم الاقتصاد الرأسمالي على اساس حرية العامل فيما يختاره من عمل فله مليء الحرية ان يكون تاجرا ام صانعا ام فلاحا وله أيضا ان ينتج النوع الذي يشاء والكمية التي في وسعه ان ينتجها . وان يتعامل مع غيره بكل مافي الحرية من مجال وبعبارة اصح (يرتكز الاقتصاد الرأسمالي على سياسة الباب المفتوح في الداخل والخارج) . ويقول علماء الاقتصاد الرأسمالي لكي تكون الحياة الرأسمالية صحيحة وسليمة لا بد ان تستند على اسس ثلاثة هي :ـ

١ ـ المصلحة الشخصية :ـ ان العامل يهدف في الواقع ان لا يعمل عملا الا اذا كانت له مصلحة شخصية فيه تدفعه الى العمل .

٢ ـ المزاحمة :ـ تسير العامل اخلاقه وطبيعته اكثر مما يسيره عقله وذكاؤه فلاجل ان يقتحم مصائب ومصاعب العمل لابد له من مزاحم يدفعه الى ذلك .

٣ ـ الحرية :ـ الحرية في العمل تخلق المنافسة والمنافسة تضاعف النشاط إذ أن المنفعة الشخصية لا تتحقق الا بدافع الحرية .

ان ترك الناس في مثل هذا الجو من الحرية الاقتصادية المطلقة قد ولد جملة مشاكل اقتصادية خطيرة كتضخم الانتاج وكتكدسه في الاسواق وانخفاض سعره خصوصا بعد ان حلت الالة محل العمل اليدوي ومن تلك المشاكل ما يلي :ـ

١) اقفال باب المعامل والمصانع والاستغناء عن العمال .

٢) ان هذا الاجراء يسبب لبطالة وينتج عن لبطالة عدم حصول لعامل على ما يوفر به عيشه بشكل رضي كالطعام واللباس والسكن .

٣) وهذا بدوره يدفع العمال الى المظاهرات والاضطرابات والثورات وقد تكون تلك المعامل مستهدفة لشر العمال من هدم وحرق وتدمير وغير ذلك .

٤) يلحق اضرارا باصحاب رؤوس المال ويجعل بينهم وبين العامل عداوة تفقد ثقة احدهما بالاخر وحيث ان الاعمال التجارية هي ائتمان ، ففقدان الائتمان مفسدة للمهنة .

ثانيا ـ الاقتصاد الاشتراكي :

في مثل هذا الجو المفعم بالفواجع والكوارث قام انصار العمال

وهاجموا النظام الرأسمالي واوضحوا مساؤه وكان من جملة ما قالوه :ـ (ان مبدأ المصلحة الشخصية في الاقتصاد لا يمكن ان يؤول الا الى تكديس الثروة بيد الاقلية واخضاع الاكثرية الى الانقياد لاوامر هذه الاقلية فتتحكم فيها وتستغلها) . وقالوا ايضا : (ان النظام الرأسمالي يشيع الفقر والبؤس والظلم بين الطبقات) ويضيفون الى ذلك قولهم بـ (آن المزاحمة الحرة لا تؤول الى تبديد القوى الانتاجية واشاعةالافلاس بين المضاربين ومن عيوب المزاحمة ايضا عدم تكافؤ فرص المتزاحمين وان الحرية الاقتصادية في نظرهم لا تعني سوى الفوضى لانها تجعل الفرد حرا في انتاج ما يشاء كيفما يشاء كما ونوعا فتنشأ الازمات الاقتصادية ولهذه الاسباب والمبررات نادى انصار الاقتصاد الاشتراكي بالشعارات التالية :ـ

١ ـ محو الملكية الفردية الواسعة للارض ورأس المال وتسليمها للدولة لتتصرف بها لمصلحة المجموع وعلى الافراد ان يؤدوا الاعمال للدولة لقاء اجر يتقاضونه بالتساوي على اساس قيمة العمل الذي ينتجه كل منهم .

٢ ـ توزيع السلع الاستهلاكية على الافراد كل حسب حاجته وكل حسب انتاجه .

٣ ـ وضع منهاج للانتاج تحدده حاجة المجتمع من حيث النوع والكم.

وهذه الاسباب بنظرهم تزيل التفاوت بين الافراد وتمحي الطبقات الاجتماعية فيتساوى ابناء المجتمع في كل شيء وعندها فلا ازمات اقتصادية ولا شحناء على المال ولا تباغض ولا تحاسد انما هناك اخوة وتعاون وسلام.

مساوىء النظام الاشتراكي :

ومع احتواء هذا النظام على ماذكره من محاسن الا انه لا يخلو من

مساوىء خطرة على الحياة الاقتصادية العامة للمجتمع الانساني ومن تلك المساوىء ما يلي :ـ

١ ـ اماتة المواهب والقابليات التي يتميز بعض الناس فيها عن البعض الاخر ما دام اجر الجميع واحدا ومعلوما •

٢ ـ تميت العوامل المحفزة في الانسان لكثرة الانتاج وتحسينه وهي عوامل فطرية غريزية فكبحها يؤدي الى موتها وبالتالي يحرم المجتمع من تلك القابليات التي لو اطلق لها العنان لكانت سببا لكثرة الانتاج وتحسين نوعه •

٣ ـ يجعل النظام الاقتصادي الاشتراكي منتسبيه آلة صماء تتحرك بدوافع خارجية هي ضغط السلطة ومحاسبتها وليس بدافع داخلي هو حب الكسب الذي اوجده الله في الانسان فطرة •

ثالثا ـ النظام الاقتصادي في الاسلام :

يختلف النظام الاقتصادي في الاسلام عن الانظمة الاقتصادية الوضعية وعلى رأسها النظامان الاشتراكي والرأسمالي فهو فريد في بابه ووحيد في كنهه وهو نظام وسط لا افراط فيه ولا اسراف ولا تقتير اذ جمع من النظامين محاسنهما ولفظ الى غير رجعة مفاسدهما ومساؤهما وفيه قال الله سبحانه وتعالى :ـ (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وجاء عن رسول الله (ص) قول (الحسنة بين السيئتين) • وجاء قوله تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) • فقد حوى من الرأسمالية احسن مافيها ولفظ عيوبها ومساؤها ومن الماركسية خيرها ووقى الناس شرها •

فأول ما نراه في الاسلام في نظامه الاقتصادي انه يحترم الملكية

الفردية ولكنه يقيدها ويراقبها فهو يقرها بقيود عديدة لينقيها من اوضارها فهو يختلف عن الرأسمالية فيما يلي :ـ

١ ـ يحارب تكديس الثروة ويحرمها ويمنع تجمعها في يد واحدة او عند فئة قليلة بل يجنح الى جعلها رأسماليات متوسطة او صغيرة وهناك قوله تعالى :ـ (وما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الاغنياء منكم وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) •

٢ ـ يحفظ بما سنه من تشريعات اموال الامة والفرد حيث جعل الملكية الفردية مصونة ولا تنتزع الا بتشريع وبتعويض عادل وعندما تدعو الضرورة لذلك لان للضرورات حكمها اذ يقول الفقهاء (الضرورات تبيح المحضورات وتقدر بقدرها) •

٣ ـ دعا الاسلام الى العطف والبر بالطبقات الفقيرة والطبقات المعدمة وجعل ذلك من صلب العبادات فقال جل شأنه :ـ (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) وقال في اية اخرى : (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال في ذلك رسول الدعوة الاسلامية : (ان يدخل الجنة من بات شبعانا وجاره يتضور جوعا) وقال : (كلكم عيال الله واحبكم الى الله انفعكم لعياله) وقال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا •• الخ) •

عوامل تفتيت رأس المال :

لقد لجأ الاسلام الى عوامل اقتصادية واجتماعية حكيمة مبنية على دراسة علمية واسعة لتفتيت رأس المال ومحاربة تكديس الثروة بيد شخص او اشخاص قلة لئلا يتحكموا في الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب او

يستغلوهم لان الاسلام يحرم استغلال الانسان لاخيه الانسان ومن تلـك العوامل ما يلي :ـ

اولا ـ الزكـاة :

جعل الاسلام الزكاة ركنا من اركان الاسلام الخمسة وهي : الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة وقصده في ذلك اشباع حاجة المعوزيـن من جهة وتفتيت الملكية الكبيرة من جهة اخرى ومن لم يؤدها عـد مقصرا في اداء ركن من اركان الاسلام الخمسة وهذه الزكاة حق معلوم في اموال الاغنياء للمعوز والمحروم وهي نسبة معينة في اموال الغني يؤديها لمستحقيها جبرا ان لم يؤدها طوعا وهذه النسبة تتفاوت وتختلف باختلاف نوع المال ففي النقود مثلا هي واحد من اربعين اي اثنان ونصف في المائة ، وفـي الحبوب اذا سقيت بالواسطة واحد من عشرين واذا كانت سيحا او مطـرا كانت واحدا من عشرة واذا كانت غنما فهي واحد في المائة وهكذا .

وتعطى الزكاة ايضا عن عروض التجارة ويشترط في الاموال المزكاة ان تكون فائضة عن الحاجة وان يمضي عليها عند صاحبها عام كامل وتنفق عادة على الفقير وهو الذي يملك شيئا يقل عن حاجته والمسكين وهو الذي لا يملك شيئا وابن السبيل وهو المسافر عن اهله ولا يملك ما ينفق في السفر وتنفق ايضا على من يطلبها وله فيها حاجة ماسة وعلى الذين غرموا ولم يملكوا ما يدفعونه لجهة الغرامة وفي حالة عتق الرقبة وهي غير موجودة في الوقت الحاضر وللذين يعملون على جبايتها كقوله تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .وكانت الحكومة تجبيها وتوزعها على مستحقيها كمـا تفعل الحكومات الحالية في جمـع الضرائب .

ثانيا ـ الارث :

وقد شرع الاسلام قانون الارث لمنع تكديس الاموال في ايدي قليلة لتقليص الفوارق بين طبقات المجتمع الانساني اذ ساعد هذا القانون على توزيع الثروة على اكبر عدد ممكن من ذرية الميت • ووسع دائرة الانتفاع بها ، اذ يرث من تركه المتوفي جميع ابنائه ذكورا واناثا بعد سداد دين المتوفي وهذا بعكس القانون الانكليزي الذي يورث اكبر الاولاد ويحرم الباقين من حقهم الشرعي وما ينطبق على القانون الانكليزي ينطبق على القوانين الوضعية الاخرى في بلاد اخرى •

وقد شرع الارث في الاسلام نعمة للوارث لا نقمة عليه وذلك باعفاء الوارث من تسديد ما زاد من ديون الموروث على التركة اذ (لا تركة الا بعد سداد الدين) فتخرج الديون من التركة فان بقي منها شيء قسم على الورثة بنسبة حصصهم الشرعية وان استغرق الدين كل التركة فلا ميراث للورثة وان فاض شيء من الدين على تركة المتوفي فلا يتحمل الورثة منه شيئا ولهذا قلنا الميراث نعمة وليس نقمة وقد قسم الاسلام الورثة الى طبقتين الاولى طبقة الاولاد والاباء والازواج والثانية طبقة الاخوة والاخوات ويسمى جميع من ذكر في الطبقة الاولى ورثة مباشرين اما ورثة الطبقة الثانية فلا يرثون شيئا الا اذا انعدم ورثة الطبقة الاولى او معظمها وقد يتفرق من الطبقتين المتقدمتين طبقة ثالثة هي طبقة الاحفاد عند انعدام الابناء والاجداد فعند فقدان الاباء يحل الاعمام واولاد الاخوة والاخوات وهكذا تنفتت ثروة الثرى عند موته •

ويقول لدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسي المشهور في كتابه (حضارة العرب) ما نصه (•• ومبادىء المواريث التي نص عليها الاسلام في القرآن على جانب عظيم من العدل والانصاف فالشريعة الاسلامية منحت الزوجات ــ اللواتي يزعم ان ازواجهن من المسلمين لم يعاشروهن

بالمودة ــ حقوقا في المواريث لانجد لها قبلا في قوانيننا • راجع ص ٤١٦ الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعيتر • اذ جعل الاسلام حق الزوجة ربع تركة الزوج المتوفي اذا لم يكن له اولاد والثمن عند وجود الاولاد •

والآيات التي فصلت الميراث هي قوله تعالى : (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك • وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصي بها او دين • آباؤكم وابناؤكم لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا • فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما • ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد • فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين • وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس • فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم) النساء الاية ١١ــ١٢ • وقوله تعالى :(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة • ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك • وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم ان تضلوا انه بكل شيء عليم) النساء آية ١٧٦ •

ومن يتأمل حكمة الاسلام في احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث عرف ان هذا من اكبر الدوافع التي تحفز اصحاب الاموال الى استثمار اموالهم في مجالات الانتاج لانمائها وتكثيرها وهذا يحمي تلك الاموال من ان تطالها يد الاسراف والتبذير •

والملكية الفردية تشجع وتدفع اصحابها او من يستثمرها الى الابتكار

والابداع لانه يعرف ان عائداتها سترجع له وتزيد ثروته اذ الانسان الذي يعرف ان هذه الاموال التي صرف على جمعها عقله وصحته ستصير الى الدولة ولا ينتفع منها ، فلا يكون هناك ما يحفزه الى ادخارها والمحافظة عليها ومن ثم يميل الى الكسل والخمول ما دام يقبض راتبه على الدنيا العفى •

ولهذا رأينا روسيا عندما الغت الملكية الفرديـة فشلت في انجاح اشتراكيتها • اذ ظهر لها ان الناس الذين امنوا حاجتهم بالرواتب التي دفعتها لهم لم يوجد ما يحفزهم الى العمل الجدي والابتكار ومالوا الى الكسل والخمول ما دام كل امرىء مجزيا على عمله بما يكفل حاجته • واصبحوا يفضلون الاعمال غير المجهدة لذلك عمدت روسيا الى اصدار تعديل لنظامها فكان دستور ٩٣٦ الذي سمح للملكية الفردية الصغيرة ان تنمو ولهذا تغير تالقاعدة من (كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) الى (كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل ، ومن لا عمل له ليس له الحق في أن يأكل) •

ثالثا ـ الوصيـة :

ومن العوامل التي اتخذها الاسلام في تفتيت رأس المال ومكافحة مساوىء التكديس الوصية اذ اباح الاسلام لكل مسلم أن يوصي بجزء من ماله لينفق على الفقراء وعلى المشاريع التي تدر النفع والخير على ابناء المجتمع • وقد جعل القرآن للوصية مرتبة سامية بالتشريعات التي سنها وقد اوجب اداءها وقرن اهمية الاداء مع اهمية سداد الدين حيث قال الله تعالى : (من بعد وصية توصون بها او دين) • وقوله ايضا : (من بعد وصية توصين بها او دين) • وقال رسول الله (ص) : (لا تركة الا بعد سداد الدين) والمقصود بالدين هو الدين الحقيقي والوصية اذ ان الوصية دين بذمة الموصي يجب على الورثة ان يؤدوه ، غير ان الاسلام لم يجعل الوصية مطلقة بل حددها بثلث التركة في حدها الاعلى وحرمها على الورثة

حيث قال رسول الله (ص) : (لا وصية لوارث) وذلك لئلا يظفر الوارث بنصيبين الوصية وحصته من التركة وهو ضرب من ضروب تكديس الاموال التي حاربها الله •

وجعل الشارع الميراث اجباريا في الثلثين الباقيين بعد اخراج لوصية وهي كما قلنا ثلث الميراث في حدها الاعلى بخلاف بعض القوانين المدنية التي يعمل بها في الوقت الحاضر عند بعض الدول والتي تجيز الوصية لأي كان ويجمع المال سواء كان الموصى له وارثا او غير وارث • وقد جوزوا الوصية لغير الانسان حيث اجازوها للكلاب والقطط وسائر الحيوانات الاخرى بخلاف النظام الاسلامي الذي يأمر بتوزيع حصص الارث توزيعا واسعا فيعطي للاقارب حصصا بشكل واسع ومتفاوت اعطاء اجباريا ولا يسمح لصاحب التركة ان يتصرف بها وصاية الا بحدود الثلث والمقصود من ذلك هو الحفاظ على التوازن الاقتصادي •

رابعا ـ نصيب الفقراء من الفيء والغنائم :

ومن وسائل التخفيف من طغيان رأس المال التي لجأ اليها القرآن انه اجبر رجال الحرب والغزاة ان يشركوا معهم بالغنائم المستضعفين من الامة الذين لم يتمكنوا من اداء مهمة القتال فقال عز من قال : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) صورة الانفال الاية ٤١ •

فاليتامى والمساكين وابن السبيل وغيرهم ممن ذكرتهم الاية المتقدمة هم ولا شك مستضعفون وهم قاعدون اي عاجزون عن الاشتراك في الجهاد لعلل واسباب متنوعة ومختلفة ولذلك فان الله سبحانه وتعالى لم يجز حرمانهم من الفيء والغنائم بل جعل لهم نصيبا مفروضا مع المجاهدين الذين يخوضون غمار الموت من اجل العقيدة •

ولهذا كان الرسول (ص) يأخذ خمس تلك الغنائم ليوزعها على

الاشخاص الوارد وصفهم بالاية المتقدمة •

اما الاخماس الاربعة الاخرى فتوزع على منتسبي الجيش كل بنسبة مجهوده هذا بالنسبة للغنائم اما اذا كان الغنم فيئا وهو الذي يحصل عليه المسلمون بلا قتال فالقرآن لا يكتفي بالخمس بل يوزع المال كله على تلك الاصناف التي ذكرناها فيما تقدم وهذا قول الله تعالى مصداق على ذلك: (ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم متداولا وملكا لهم لان ذلك تكديس للمال وهو محرم اذ تكون فيه الحركة والاستغلال والاستبداد وكلها محرمة في شرع الاسلام •

خامسا ـ تحريم كنز الاموال :

حرم الاسلام بشكل واضح وصريح كنز الاموال والكنز هو منع المال من التبادل والتداول الاقتصادي الذي لا بد منه لحاجة المجتمع الماسة اليه وذلك بقصد استخدامه في الانتاج الاقتصادي وفي مشاريع الاستثمار الاقتصادية المختلفة بزيادة الدخل القومي وتنمية الثروة القومية ، لكل هذا حرم الاسلام كنز الاموال وتوعد الفاعلين لان اموالهم المكنوزة ستكون في الاخرة نارا تحرق اجسامهم وتأكل اعضاءهم وهذا قول الله العليم : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون)•التوبة الايتان ٣٤ ، ٣٥ •

والمقصود من التحريم في هذه الاية هو خزن الاموال وعدم اخراج زكاتها فالفرد اذا علم انه يتوجب عليه ان يخرج مما كنزه في كل عام ربع العشر من ماله فانه سيعمل عندئذ الى استثمارها خشية ان تفنيها الزكاة مع طول عمرها،واذا علمنا أن ثروة الامة هي عبارة عن ثورة الافراد منضمة

الى بعضهـا ادركنا انه يتحتم علـى الاثرياء ان لا يجمدوا اموالهـم بل يستثمرونها لمنفعة المجموع •

واذا اصر الاغنياء على كنز اموالهم وعدم استثمارها لمصلحة المجموع حق للدولة الاسلامية ان تصادر تلك الاموال المكدسة وتستثمرها بالشكل الذي تختاره وحفظ اصل المال لصاحبه مع اعطائه حصة من الربح كما انه يتحمل قسطه من الخسارة • ولهذا نجد ان غرض الاسلام هو اعداد نظام للملكية الصغيرة ليقي المجتمع من اوضار الرأس المال الكبير وطغيانـه وليسعف الطبقة المحتاجة علما بان النظام الاسلامي اقام الملكيات الصغيرة على معيار قانوني واخلاقي يجعلها مقيدة بالمصلحة العامة بصورة واضحة وقد حرص الاسلام على اموال الافراد والجماعات من التبدد كما يتبين ذلك من الاجراءات التالية :

اولا ـ الحجر على السفهاء :

السفهاء هم المبددون للاموال في غير الوجوه الصحيحة اما لفسـاد اخلاقهم وضعف عقولهم او لسوء تدبيرهم • ولمنعهم وضع الحجر عليهم بقوله تعـالى : (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعـل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) النساء آية ٥ •

فالاية نهت المسلمين ان يطلقوا ايدي السفهاء في الاموال ليبعثروها ولا يحسنون التصرف فيها • وفي الاية اشارتان مهمتان تحث المسلمين على المحافظة على اموال السفهاء وصيانتها من اسرافهم وتبذيرهم وهما : جاء في قوله تعالى : (اموالكم) ولم يقل: (ولا تؤتوا السفهاء اموالهم) بل قال : (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم) ليلفت النظر الى ان مال السفيه هو في الوقت نفسه مال الامة • فيجب المحافظة عليه وعدم افساح المجـال للسفيه لتبديدها لان تبديدها خطر علـى المجتمع ، فالتضامن الاجتماعي يعتبر مال السفيه مال المجتمع لانه جزء من الثروة القومية وفي قوله تعالى:

(التي جعل الله لكم قياما) لان الاموال تقوم باعاشة المجتمع وتبني بهـا مصالحهم المشتركة اذ بها قوام وعماد الحياة الاقتصادية ففي تضييع السفيه لها ضياع لهذا القوام الذي هو عماد الحياة •

فالسفيه اذا بدد ماله على الفساد او في مواطن ليست له ولأمته فيها مصلحة فعمله هذا يعتبر تبديدا لاموال الامة او الدولة التي ينتسب اليها السفينة لان الفرد جزء من المجتمع وماله جزء من مال المجتمع كله • وبالتالي يؤدي عمله هذا الى افقار نفسه ومجتمعه وخصوصا اذا تسرب هذا المـال الى ايد اجنبية كما نلاحظه في الوقت الحاضر على الذيـن يسافرون او يذهبون للاصطياف في بلاد اجنبية ومن وسائل تبديد المال تعاطي المعاقرة والمقامرة ومعاشرة الغواني فهي فجوة كبيرة تنبدد فيها الاموال وتنتهـك فيها المحرمات ويغضب لها الله لانها وسائل لهو وعبث لذلك على السلطـة ان يحجروا على هؤلاء المبددين ويعطوهم من اموالهم قدر حاجتهم وليس لهم الحق بالتصرف باكثر من ذلك لانهم سفهاء توجب حجرهم ومن المؤسف ان نرى كثيرا من المسلمين يبددون ولا يلتزمون ولا حجر ولا حساب لان الحكومات تحكم بقوانين وضعية تاركة الشريعة الاسلامية وراء ظهرها •

ثانيا ــ اختبار الايتام قبل تسليمهم اموالهم :

وهذا اسلوب آخر من اساليب الاسلام لحفظ اموال الناس افرادا وجماعات فلمنعهم من تبديد اموالهم في طـرق غير مشروعـة وخصوصا القاصرين منهم قبل تسليم أموالهم اليهم حيث ورد قول الله عز وجـل : (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ولا تأكلوها اسـرافا وبدارا ان يكبروا • ومن كان غنيـا فليتعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا) النساء آية ٦ • ومعنى الاية يا أيها الاوليـاء اختبروا من كان تحت ولايتكم من اليتامى فاذا وجدتم انهم قد بلغـوا

رشدهم فادفعوا اليهم اموالهم واذا كانوا دون ذلك فاستمروا في ولايتكم عليهم • ثم يشير من جهة اخرى الى انه يجوز للوالي اذا كان فقير الحال ان يأكل من اموال اليتامى ممن هم تحت ولايته بقدر حاجته واذا كان غنيا فليترفع عن ذلك تطبيقا لقوله تعالى : (ومن كان غنيا فليتعفف) •

ثالثا ـ كتابة العقود المالية :

لكتابة العقود في العصر الحاضر فائدة كبرى ذلك ليعلما طرفا العقد او ورثتهما او أي شخص تخصه تلك العلاقة في الحاضر والمستقبل حقوقه وواجباته ، لان مرور الزمن مدعاة للنسيان وموت الشهداء او الشهود مدعاة للانكار وان عدم تسجيل الاموال يتيح الفرصة المنكرين من اكلة اموال الناس بالباطل ، فلأجل عدم الوقوع في مثل هذه المزالق توجب تسجيل الاموال في حالة الاستدانة او الرهن او الاجر او غيرها لان تسجيل هذه العقود حرز لها وصيانة من الضياع • ويقاس على ما تقدم جميع العقود المالية لانها لا تقل اهمية عن الدين وفي ذلك جاء قوله تعالى :ـ (يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه • وليكتب بينكم كاتب بالعدل • ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله • فليكتب وليمل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسألوا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله • ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى ان لا تكتبوها • واشهدوا اذا حاضرة يديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها • واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد • وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم • وان كنتم على سفر ولن تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة • فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن امانته

وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانـه اثم قلبه) البقـرة آية ٢٨٢ و ٢٨٣ .

يتبين من الايات مارت الذكر في سبيل حفظ الحقوق المالية مايلي:-

١ - كتابة الدين المؤجل الى تاريخ معين وهذه النظرية اخذ بها القانون الفرنسي في اواخر القرن الثامن عشر اذ اشترط ان يكون الديـن مكتوبا ولا تسمع فيه البينة الشخصية اذا تجاوز العشرة دنانير وكـذا فعل القانون المدني العراقي . وبهذا ايضا اخذت بعض القوانين الاوربية.

٢ - ان يكتب وثيقة الدين او الحق المالي كاتب عدل خبير بشؤون التوثيق عالم باحكام الشريعة وهذا يستلزم وجود العلم عند هذا الكـاتب بالاضافـة الى صفة التمرس بشؤون توثيق الحقوق بيـن الناس وهـذا ما ندعوه بالاختصاص .

٣ - ان الذي يملي على الكاتب هو المدين وليس الدائن والمقصود من ذلك ان يكون الاملاء بحضوره واخذ اعترافه ليكون ما يكتب فـي الوثيقة حجة عليه ملزم ان يبرزها الدائن عند حلول اجل الدين او عنـد الاستحقاق . واذا كان المدين لا يستطيع ان يمـل كأن يكون عاجزا او جاهلا بشؤون التعامل واصوله ناب عنه وليه بهذا الواجب خشية ضيـاع الحقوق او الاساءة فيها .

٤ - وبعد الفراغ من كتابة الوثيقة يجب ان يشهد عليها شاهـدان من الرجال العدول على الاقل ، فان تعذر وجود رجلين فرجل وامرأتـان ممن ترضون من الشهداء ، والحكمة من جعل امرأتين بدل الرجل الواحد ذلك ان المرأة يغلب عليها النسيان فان نسيت احداهما ذكرتها الاخـرى بالاضافة الى ان ممارسة المرأة لشؤون المعاملات المالية غير مألوفةوقليلة.

٥ - لقد استثنى القرآن الدين التجاري واجاز اثباته بغير الكتابة بواسطة البينة الشخصية وعلة ذلك ان الصفقات التجارية تقتضيالسرعة

ولا تحتمل التأخير فاشتراط الكتابة فيها بعطل المعاملات التجارية ويلحق بها الاضرار وقد تضيع فرصة الكسب على المشتري وهذا ما اخذت بـه القوانين الوضعية في وقتنا الحاضر •

٦ ـ لقد اشارنا القرآن الى نوع آخر يحفظ لنا حقوقنا وهو الرهن فاذا كانت المعاملة قد جرت في سفر ولم يجدوا كاتبا عوض الرهن عـن الكاتب والشهود وبذلك جاء القرآن يقول (وان لم يكن كاتب فرهـان مقبوضة) • ويروي ان الرسول (ص) رهن درعه عند يهودي لاثبـات دينـه •

٧ ـ ولقد حرم القرآن على الانسان ان يمتنع عن الشهادة اذا دعي اليها • لان المصلحة العامة تحتم تعاون ابناء المجتمع الواحد لحفظ حقوقهم من الضياع وهذا ما يجري شبيهه في المحـاكم التي اخذت بالقوانـين الوضعيـة •

رابعا ـ تحريم الربا :

حرم الاسلام على اتباعـه تعاطي الربا في المعاملات المالية حيث قال : (واحل الله البيع وحرم الربا) لانـه يميت مشاعر الشفقة والرحمـة في الانسان ، لان المرابي يكون مصاص دماء لا يرحم ولا يتردد عن تجريـد المدين من امواله كلهـا لان المراباة تجعل منه مخلوقا قاسيا خارجا علـى مألوف الجماعة التي تربط بينها اوشاج الرحمة والعطف والمودة •

فالمال في عرف الاسلام ملك الله اودعه في الانسان ليوظفه في خير الجماعة ومنفعتها العامة فاذا اساء التصرف فيها اغضب الله وخسر عطف الجماعة ومحبتها وهو ممنوع من ان يتحين فرصة حاجتهم ليأخذ منهم اكثر مما اعطاهم (فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) •

وقد حتم الاسلام على اتباعه الاثرياء ان يعطوا الى المحتاجين قروضا

بلا فائدة لان هذه السلوكية هي تمتن المودة وتشيع التكافل والتضامن بين ابناء المجتمع الواحد ، بينما الربا يمحق المودة ويثير العداوة والبغضاء بين الغني والفقير • وقد اعتبر الاسلام الربا منكرا اقتصاديا غليظ الاثم لانه يتنافى مع تعاليمه التي تحض على المعاونة الصادقة والمساعدة لمن يحتاجها اذ قال جل شأنه : (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) آية ٢٧٦ من سورة البقرة •

ويقول الله جات قدرته في التحذير من الربا : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله • وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون • وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) البقرة آية ٢٧٨ — ٢٨٠ •

حرمت هذه الايات الربا تحريما قاطعا بقوله تعالى : (فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) ثم قال : (فان تبتم فلكم رؤوس اموالكم) وفي هذا نص صريح على ان الدين يستحقه صاحب الدين من دينه انما هو رأس ماله فقط بدون زيادة • ثم قال : (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) ومعنى ذلك اذا كان المدين معسرا فمن الواجب الديني والوطني امهاله ريثما يتيسر لديه المال ليسدد دينه • وجاء في القرآن ايضا في تحريم الربا قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي اعدت للكافرين واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) آل عمران ١٣٠ — ١٣٢ •

هذه الآيات وغيرها نص قاطع على تحريم الربا لما فيه من ظلم شديد للانسان من اخيه الانسان ، لانه يجيز للدائن ان يأخذ من المدين اضعافا مضاعفة لما اعطاه له من دين وقد تسبب الربا في اضاعة املاك المدينين بعد ان استغرقها الدين فاصبح فقيرا معسرا بعد ان كان غنيا موسرا ولهذا حرمه الاسلام ولهذا اوعد الله فاعلي الربا بعذاب شديد •

والربا الذي حرمه الاسلام وحاربه هو ربا النسيئة : اي التأخير بالدفع مقابل زيادة الدين • وفي ذلك يقول « الجصاص » في كتابه احكام القرآن ما نصه : (الربا الذي كان الناس يعرفونه ويتعاطونه انما كان اقراض الدراهم الى اجل بزيادة على مقدار القرض بنسبة يتراضون عليها) ويقول ايضا : (انه معلوم ان ربا الجاهلية انما كان قرضا مؤجلا بزيادة مشروطة من المال فكانت هذه الزيادة بديلا عن الاجل فابطل الله تلك الفعلة وحرمها بقوله تعالى : (وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم) وقوله تعالى: (وذروا مابقي من الربا) •

وربا النسيئة يعرف ايضا : ـ بربا الجلي فيقول ابن القيم في كتابه اعلام الموقعين الجزء الثاني ص ٩٩ : (الجلي او ربا النسيئة كما كان يسمى هو الذي كان يفعله الجاهليون في عصر الجاهلية كأن يؤخر دينه على المدين مدة من الزمن فيزيد في المال المقترض مقدارا وكلما اخره زاد المال حتى تصبح المائة عنده آلاف مؤلفة) •

وهناك نوع آخر من الربا ذكرته السنة تفصيلا ويطلق عليه : ربا الفضل وهو مبادلة عين بعين مع زيادة في المال يأخذها احد المتبادلين بدون تأجيل كأن يتبادل احمد بناقة مع عمر بناقة اخرى ويشترط عمر على احمد ان يدفع له عشرة دنانير زيادة على ناقته بدون تأجيل العين المتبادل بها وهذا النوع من المعاملات التجارية قليل التداول في زماننا هذا فلسنا بحاجة الى تفصيله •

مضـار الربا :

حرم الاسلام الربا لاسباب كثيرة منها :ـ

١ ـ انه يسبب العداوة والبغضاء بين افراد المجتمع •

٢ ـ ويمنع قيام التعاون بينهم اذ التعاون اساس المجتمع الناهض اذ

الفرد عاجز عن القيام بواجباته الاجتماعية منفردا مهما اوتي من قوة وقديما قيل (الانسان مدني بالطبع) •

٣ ـ وقد هدف الاسلام من تحريم الربا الى الحيلولة دون المحاباة برأس المال على حساب الجمهور لان الربا ضرب من ضروب تكديس المال عند القلة •

٤ ـ والربا يجعل صاحبه طفيليا استغلاليا يعيش على كد الكادحين ويمنعه من العمل النافع المجدي للجماعة كلها وقد رد القرآن على من قال : انما الربا بيع بقوله : (ذلك لانهم قالوا انما البيع مثل الربا • واحل الله البيع وحرم الربا) البقرة الاية ٢٧٥ •

وسبب الاختلاف ان البيع مهنة احلها الله لانها تستلزم عملا ومهارة واخلاقا عالية لان العمل اذا خلا من الضابط الخلقي ربما تجاوز الحد الى حقوق الغير وذلك ما تحرمه شرائع السماء بالاضافة الى القوانين الوضعية الصحيحة •

٥ ـ منع الربا شرعا لانه يؤدي الى خلق طبقة مترفة مستغلة مستبدة تتحكم في رقاب الغير دون عمل نافع تؤديه للمجتمع فتتضخم اموالها وتتكدس الثروة بين أيديها دون جهد ولا عمل وهو محرم عرفا وتشريعا •

٦ ـ ومن مساوىء الربا ايضا انه يحمل اصحابه على الدخول في مغامرات في صفقات تجارية كبيرة ذلك ان التاجر بدلا من ان يحدد تجارته في رأس المال الذي بحوزته يأخذ مالا بفائدة من المرابين ليوسع تجارته وقد يكسب منها ولكن كم تكون العاقبة مهلكة عندما تنزل بتجارته نازلة كأن تحترق تلك البضاعة او تغرق او تهبط قيمتها فيصبح المدين عاجزا عن الايفاء بالتزاماته نحو الدائن ومن ثم يؤدي به ذلك الى الافلاس وهنا تثور العداوة والبغضاء بين المقرض والمقترض وتشغل المحاكم بدعاوى هي في غنى عنها لولا الربا والمرابون ناهيك عن السمعة السيئة والمصير الاظلم

الذي يحيق بمعلن الافلاس وكثيرا ما يضطر الى الانتحار تخلصا مما يحيق به من شقاء وعذاب .

٧ — ومن اوضار الربا انه يوجد اضطرابا نفسيا وقلقا ذاتيا مستمرا بالنسبة للمرابي والمدين على حد سواء .

٨ — والربا وسيلة جيدة وناجحة لغزو الاستعمار الاقتصادي الى البلاد الفقيرة جملة وتفصيلا فكم من دولة فقيرة اقترضت مالا من دولة غنية عجزت عن تسديد الفائدة فتضاعف المال المقترض بسبب التأجيل على الدولة المقترضة مما هيأ الفرصة المقرضة ان تستعمر الدولة المدينة بحجة استرجاع مالها المقترض فتضع يدها على مصادر الثروة في تلك البلاد لجمعها وابتزازها بحجة سداد دينها ولذلك قال رسول الله (ص) : (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وهم سواء) فآكل الربا هو صاحب المال الذي يقرضه بفائدة وموكله هو المدين الذي اقترض المال بفائدة يعطيها لصاحب المال المقترض منه يستحقان اللعنة . اما كاتب الربا وشاهداه فانهما ملعونان لانهما اعانا على عمل حرمه الله وقد يعترض البعض على ما بيناه من الربا ومساوئه وعيوبه قائلا : اننا نعيش في زمن ليس فيه دول اسلامية قوية تقيم الاسلام وتستغني عمن يخالفها في احكامها بل هناك دول مادية علمانية قبضت على ناصيت الثروة في العالم حتى صارت تتحكم فيها فما هو موقف الاسلام من ذلك والجواب على هذا يتلخص فيما يأتي :

١ — ورد تحريم الربا في القرآن والسنة نصا . والقاعدة الفقهية تقول : (لا اجتهاد في مورد النص) .

٢ — وهناك استثناء للقاعدة ورد ايضا في القرآن (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) .

٣ — ان للضرورات احكامها فقد اباح العلماء اللجوء الى تخطي

الحدود عند الضرورات على ان يكون ذلك مقيدا بقيود حيث ورد (الضرورات تبيح المحضورات وتقدر بقدرها) •

سبل القضاء على الربا :

بالرغم من تفشي الربا في وقتنا الحاضر ووجود من يشجعه اخذا وعطاء فان هناك بعض الوسائل اذا عمدت الدولة مخلصة في تنفيذها استطاعت ان تحد من فحشاء الربا او تقضي عليها ومن تلك الوسائل ما يلي :

١ ـ فريضة الزكاة : تستطيع الدولة ان تحصي اموال الاغنياء وتستلم فريضة الزكاة منهم وتوزعها على مستحقيها من المعوزين •

٢ ـ القرض بدون فائدة : وباستطاعة الدولة ان تقرض المعوزين او تسلفهم ما يحتاجونه من رأس مال بدون فائدة لغرض استغلالها في مشاريعهم النافعة •

٣ ـ انشاء تعاونيات زراعية وصناعية وتجارية تساهم الحكومة بقسم من رأسمالها عوضا عن المواطنين الذين لا يملكون رأس مال وهم اعضاء في مثل هذه التعاونيات على ان يسترجع المال المقترض من مقترضيه بآجال وبدون فائدة من ارباح هذه التعاونيات •

انواع الربا :

الربا نوعان استهلاكي وانتاجي وكلاهما في الاسلام محرمان ويقول العلامة شارل جيت (ان تحريم الربا كان من الضروريات في العصور الغابرة وان اباحته في هذا العصر من الضروريات ايضا لان الدين فيما مضى كان للاستهلاك واما الان فهو للانتاج) راجع كتاب الاقتصاد السياسي الجزء الثاني •

لقد اعترض العلامة المذكور فقال : ان الربا الذي يكون للاستهلاك

واجب التحريم كما جاء به القرآن ولكنه اباح الربا الانتاجي ونحن نقول للعلامة : هل ان جميع الربا في عصرنا الحاضر يذهب للانتاج اذ قسم منه يذهب للاستهلاك هذا من جهة ومن جهة اخرى اذا سلمنا جدلا ان الدين بالربا للانتاج مفيد فكيف نفرق بين دين الانتاج ودين الاستهلاك ؟ واذا فرقنا بينهما فما هو العوض الذي تقدمه لمقرض الدين الاستهلاكي اذا جوزنا تعاطيه واذا منعناه فباي شيء ومن اي مصدر نسد حاجة المقترضين في حالة الدين الاستهلاكي ؛ لهذه الاسباب وهذه الصعوبات حرم الاسلام الربا بنوعيه صراحة بقوله تعالى : (واحل الله البيع وحرم الربا) دون ان يذكر ان هذا التحريم وقع على ربا الاستهلاك دون ربا الانتاج والصراحة لا تقبل التأويل والتفسير اذ (لا اجتهاد في مورد النص) .

وقد يؤيد بعض الناس مشروعية الربا الانتاجي ويقولون (انه يحصل او ينشأ وليدا من التزاوج بين عمل المدين ورأس مال الدائن) وجوابنا على هذا ان تعاطي التجارة والحرف الاخرى برأس مال يقدمه الثري وعمل يقوم به العامل وهذا ما هو معروف بعروض التجارة يغني عن اللجوء الى القرض بفائدة اذ يتحمل كل منهما خسارة المشروع ويقتسمان ربحه.

فائدة المال المذخر في البنوك وصناديق التوفير :

يذهب البعض الى تحليل الفائدة المأخوذة عن المال المذخر في مصارف او في صناديق التوفير باعتبار ان تلك الفائدة هي جزء من ربح المذخر وقبل ان نبدي رأينا بالموضوع ننقل نص الفتوة الصادرة عن مشيخة الازهر والتي تقول : (ان اخذ فائدة من رأس المال المودع في المصارف او صندوق التوفير محرم لانه من الربا المحرم في الكتاب والسنة والاجماع ويرى فضيلة الشيخ محمود شلتوت رأيا آخر في الفائدة التي تؤخذ من صندوق التوفير فيقول (يرى بعض علماء الحلال والحرام ان هذا الربح حرام لانه اما فائدة ربوية للمال المودع او منفعة جرها قرض . والذي نراه تطبيقا لاحكام الشريعة والقواعد الفقهية السليمة انه حلال ولا حرمة فيه.

ذلك ان المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير ولم يكن قرضا اقترضته دائرة صندوق التوفير من صاحبه وانما تقدم به صاحبه من تلقاء نفسه الى مصلحة البريد طائعا مختارا ملتمسا قبول المصلحة اياه وهو يعرف انها تستغل الاموال المودعة لديها بمواد تجارية ويقدر فيها ان لم يكن معدما الكساد او الخسران ، وقد قصد في هذا الايداع :

١ ـ حفظ ماله من الضياع وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد •

٢ ـ وقصد امداد المصلحة بزيادة رأس مالها ليتسع نطاق معاملتها وتكثر ارباحها لينتفع العمال والمواطنون وتنتفع الحكومة بفاضل الارباح• فاذا ما عينت المصلحة قدرا من ارباحها منسوبا الى المال المودع اي نسبة تريد وتقدمت به الى صاحب رأس المال كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاوني عام ليس فيه ادنى شائبة بظلم احد او استغلال لحاجة احد وانما هو تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع) •

اما نحن وان كنا نرى في وجهة نظر الاستاذ شلتوت رأيا مقبولا تجوزه الضرورات فان لنا رأيا آخر يتلخص من نقطتين :

١ ـ الاولى : ايداع الاموال الفردية والجماعية لدى المصارف وصناديق التوفير امانة بدون فائدة وذلك لان ايداعها في مثل هذه المؤسسات اكثر امنا من حفظها في البيوت فما دام الامر بقصد الائتمان عليها فلتودع بدون فوائد •

٢ ـ والنقطة الثانية : اذا كان المقصود من ايداعها الحصول على الفائدة فلتدخل رأس مال في تلك الصناديق والمصارف تتحمل اوضارها وتنتفع من مكاسبها هذا صريح رأينا ولنا فيه الحجة والبينة •

تحريم اكل اموال الناس بالباطل :

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في تحريم اكل اموال الناس

بالباطل : (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون) البقرة آية ١٨٨ .

ومعنى الاية ان الله يقول : يا ايها الناس لا يأكل بعضكم مال بعض لان ذلك جناية على نفس الآكل وعلى الامة التي هو احد ابناءها اذ لا بد ان يصيبهم سهم من كل جناية تقع عليها ولذلك اختار الله عز وجل لفظ (اموالكم) للاشعار في وحدة الامة وتكاتفها فمال البعض هو مال الجميع لان المال عصب حياة الامة فكان لزاما على افراد الامة جميعا ان يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه .

اما معنى قوله تعالى : (وتدلوا بها الى الحكام) اي ولا تعطوها للحكام رشوة (لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون) ان الاستعانة بالحكام بعد ارشائهم على اكل مال الغير بالباطل محرم لانحكم الحكام لا يعتبر الحق ولا يحل للمحكوم له بطلا .

وفي الوقت الذي نرى الله جل جلاله يحرم اكل اموال الناس عامة نراه في مواضع اخرى يشدد هذا المنع على اموال فئة او فئات خاصة منها تحريم اكل اموال اليتامى ظلما ووعد الفاعل بعقوبة النار فقال جل شأنه : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) النساء آية ١٠ .

وذم الله بعض رجال الدين من المسيحيين الذين يأكلون اموال الناس بالباطل فقال : (يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس في الباطل ويصدون عن سبيل الله) التوبة آية ٣٤ .

هذه الآية حذرت الاحبار والرهبان الذين يأكلون اموال الناس بغير حق ويقاس على هذا التحريم ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون فيه العبادة ليدعو لهم عند الله في قضاء حاجاتهم فالدعاء من الله مطلوب ومقبول ولكن بدون ثمن وعلى هذا ايضا يقاس ما يأخذه سدنة قبور

الاولياء الصالحين من الهدايا والنذور التي تحمل الى ساكني تلك القبور اذ حارب الاسلام هذه الظواهر ما ظهر منها وما بطن .

تحريم القمـار :

ورد ذكر القمار في القرآن الكريم باسم الميسر وهو معروف عند العرب في جاهليتهم فكل ما يتراهن الناس فيه من معاملة فيها خطر الكسب المطلق او الخسارة المطلقة سمي قمارا او ميسرا ويدخل في مسميات الميسر اليوم اوراق اليانصيب أو الرهان في سباق الخيل وغيرها وقد حرم الاسلام الميسر بانواعه فقال تعالى : (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) المائدة ٩٠.

وسميت المقامرة قمارا لخروجها عن الطريق القويم لكسب العيش ويعود الناس الكسل وانتظار الرزق من السبل الوهمية ويضعف مواهب العقل بترك الاعمال المفيدة كالزراعة والتجارة والصناعة التي ترقي المدارك الفكرية وتدر على الامة رزقا حلالا كريما ويضيع الوقت بدون فائدة حقيقية وفي القمار تخريب البيوت وهدمها وكم من غني اصبح فقيرا ، وكم من اسرة نشأت في الغنى والعز فاضاع القمار ثروتها وهدم الميسر عزتها وكرامتها فاصبحت فقيرة تتكفف ايدي المحسنين او ربما انحرف فاعلوها الى طريق الجريمة قتلا ونهبا وسرقة فاضحى من سكان القبور او نزلاء السجون .

تحريم التلاعب بالكيل والميزان :

ومما شرعه الاسلام للحفاظ على اموال الناس وتأمين حقوقهم كاملة غير منقوصة هو ما امر به وحض عليه بخصوص تنظيم الموازين والمكاييل وعدم التلاعب بها وقد حذر الاسلام اتباعه من ان يبخسوا الناس اشياءهم فينقصوهم حقهم حيث قال : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وقال : (واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) الاية ٩ من سورة

الرحمن • ويمنع التلاعب بالاوزان ووعد فاعليه بعذاب النار فقال : (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس برب العالمين) سورة المطففين الآة ١ ــ ٦ •

ومن هذا يظهر لنا ان الاسلام منع التلاعب بالارزاق والمكاييل وقياسا على ذلك كافة المقاييس والمعايير التي يبيع الناس بموجبها ويشترون لان هذا فضلا عن انه حرام تعاقب صاحبه القوانين الشرعية والوضعية فهو خيانة اجتماعية لانه يزيل الثقة بين المتعاملين ويدخل الشك والريبة الى قلوبهم فتتفكك عرى المجتمع وتشيع العداوة والبغضاء بين ابناء المجتمع الواحد بدلا من ان تشيع بينهم الود والمحبة والصفاء • ولهذا اوكل الاسلام في الدولة الاسلامية امر محاسبة اولئك وفرض العقوبة عليهم الى السلطة فقد خولت امر مراقبة الباعة وفحص وسائل الوزن والكيل والقياس وانزال العقوبات الرادعة بحق العابثين والمفسدين ليقضي على الغش وفاعليه لان الغش عامل مهم من عوامل افساد المجتمع الاسلامي ولذلك قال رسول الله (ص) : (من غشنا فليس منا) اي ان المجتمع الاسلامي يرفض ويأبى ان يكون الغشاشون من ابنائه ومنتسبيه•

النهي عن الاسراف :

ولحفظ اموال الافراد والجماعات من التبديد والاسراف في طرق الانفاق في غير مواضعها فقد نهى الاسلام عنها لان الاسراف يؤدي بصاحبه في النهاية الى الافلاس الذي بسببه تضيع اموال المسرف وتنحط قيمته الاجتماعية وربما كان سببا في ضياع اموال الغير اذا كان ممن اقترض مالا من غيره ولعظم مسؤولية المسرفين والمبذرين فقد قرنهم الله تعالى بالشياطين الذين يعملون على اضلال الناس والعبث في الارض فسادا فقال تعالى في محكم كتابه : (ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) الاسراء الاية ٢٦ و ٢٧ •

فالمبذرون يفسدون في الاسراف نظـام عيشهم ومعيشتهم ويكفرون بالنعمة التي حباها الله لهم وكان عليهم ان يحفظوها ولا ينفقوها الا في مواضع صرفها شاكرين من نعمته مقدرين عليهم فضله شاعرين بما الناس في اموالهم من حق يؤدونه الى مستحقيه كما جاء في قوله تعالى : (انمـا الصدقات للفقراء والمساكين) .

وقد وصف الباري جلت قدرته عاقبة المسرفين والمبذرين ووضع قاعدة للصرف معتدلة قائمة بين التبذير والتقتير وقال جلت حكمته : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعـد ملوما محسورا) الاسراء آية ٢٩ .

ومعنى الآية ان الله سبحانه وتعالى يحرم الاسراف بالانفاق ويحرم كذلك البخل والتقتير فالانفاق يجعل صاحبه ملاما من الناس محتاجا الى عونهم متحسرا على ما فرط من امر ثروته وقانا الله شر المبذرين والمقترين وجعلنا من المقربين اليـه والمقبولين وقل الحمد لله رب العالمين والصـلاة والسلام على سيد الاولين والآخرين امام الهدى نبي المتقين وعلى آلـه واصحابه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

خير الله طلفاح



الملك الأفضل العباس الغساني مؤرخاً

شاكر محمود عبد المنعم
كلية الآداب - جامعة بغداد

اسمه ونسبه :

الملك الافضل العباس [١] بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي ابن رسول الفتح بن هارون بن نوحي بن ابي الفتح بن نوحي بن جبلة بن الحارث بن جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ابي جبلة بن الحرث بن ثعلب بن عمرو بن علية جفنة ، ويتصل نسبه بيشجب بن يعرب بن قحطان بن الازد ويسمى يقطن بن عاد بن شح بن ارمحشد بن سام بن نوح [٢] .

(١) انظر ترجمته في : ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٥ ق٥ ص ١٠٩٥ الخزرجي ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣١٣ ــ ٣٢٤ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٨٥ . العقود اللؤلؤية ، ج٢ ص ١٥٧ ــ ١٦٠ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣٢ . ابن المقرىء ، عنوان الشرف ، الورقة : ٩٥ ــ ٩٧ . ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ الورقة : ٤٩ والمطبوع ، ج ١ ص ٢١٠ ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ٨ ــ ١١ . وقرة العيون (نسخة مكتبة المتحف العراقي) الورقة : ٢٩٢ . ابو مخرمه ، تاريخ ثغر عدن ، ج٢ ص ١٠٥ ــ ١٠٧ الكبسي ، اللطائف السنية ، الورقة : ٢٠٨ ــ ٢٠٩ . وآخرون لا مجال لذكرهم .

(٢) انظر : الملك الافضل العباس ، نزهة العيون . مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٣٥١) تاريخ ، الورقة : ١٢٣ أ . والخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٦ ــ ٢٧ .

ويتفق المؤرخون اليمنيون جميعا على هذا النسب ، وبناء على ذلك فهو عربي اصلا باعتبارهم . غير ان هذا الاجماع بين المؤرخين اليمنيين وجد خروجا عليه من لدن مؤرخين ليسوا يمنيين ذهبوا الى القول ان آل رسول الذين ينتسب اليهم الملك الافضل العباس انما هم من اصل تركماني [٣] . وانفرد المقريزي بالقول ان نسبهم كردي [٤] . وذهب بعض المؤرخين الى ذكر النسبين (التركماني والغساني) . دفعا للاحراج كما ذهب ابن تغري [٥] بردي الى ذلك مثلا . ولقد اصعد الملك الاشرف عمر بن رسول ــ الجد الثالث للملك الافضل ــ نسبهم الى جبلة بن الايهم وهو بهذا يؤكد ان اصلهم عربي [٦] . واوضح الخزرجي السبب الذي كان يدفع كثيرا من الناس الى الظن بانهم من التركمان ، وذلك ان جدهم جبلة بن الايهم انتقل الى بلاد التركمان فسكن وقبيلته هناك مع قبيلة يقال لها (مَجك) فاقاموا بينهم وتكلموا بلغتهم وبعدوا عن العرب فانقطعت اخبارهم عن كثير من الناس ، فلما خرج اهل هذا البيت الى العراق نسبهم من يعرفهم الى غسان ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان [٧] . وقال العرشي انهم نسبوا الى التركمان لانهم سكنوا مع قبيلة منهم يدعون (بَجنَك) فاختلطوا بهم وقيل هم تركمانيون [٨] .

---

(٣) انظر الحوادث الجامعة ، ص ١٢٣ . ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ . الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ . وتابعهم عدد من المحدثين في اعتبار اصل بني رسول تركمانيا ومنهم حسين بن احمد العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٤٤ . وعمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

(٤) انظر : الذهب المسبوك ، ص ٧٩ .

(٥) النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٧١ .

(٦) طرفة الاصحاب ، ص ٨٨ ــ ٩٠ .

(٧) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ . والكفاية والاعلام ، الورقة : ٩١

(٨) بلوغ المرام ، ص ٤٤ .

مما تقدم يمكن القول ان نسب آل رسول يكتنفه بعض الغموض • وخاصة اذا علمنا ان اغلب المصادر سكتت عن ذكر الاسم الحقيقي لجدهم رسول • كما لم تذكر المصادر اسم الخليفة العباسي الذي قربه منه وادناه واختصه برسالته فسُمي رسولا • والغريب ان الذين ذكروا اسم رسول هــذا ، وهم قلة ، اختلفوا في ايراد اسمه . فسماه الافضل العباس [٩] (الفتح بن هارون بن نوحي) وسماه الخزرجي [١٠] « محمد بن هارون» •

ومع ذلك فلم اجــد من مؤرخي اليمن ، وهم اعلم بتأريخ هــذه الاسرة من غيرهم ، من جعل نسبهم تركمانيا او كرديا . فضلا عن تأكيد افراد هذه الاسرة انفسهم على انهم من اصل عربي لذلك فان ما أوضحه الخزرجي هو الراجح حينما قال : « فلما خرج اهل هذا البيت الى العراق نسبهم من يعرفهم الى غسان ومن لا يعرفهم الى التركمان » [١١] • على ان تاريخ هذه الاسرة يبدو واضحا في أيام الايوبيين في اليمن ، واشتهر من بينهم الامير الكبير شمس الدين علي بن رسول بن هارون بن ابي الفتح الغساني من نسل جبلة بن الايهم [١٢] •

اسرتـــه :

يتصل نسب الافضل عباس برسول ، واسمه محمد بن هارون على الارجح ، وكان احد وزراء الايوبيين بمصر • ثم اصبحت له حظوة عند الخليفة العباسي • ولا تشير المصادر الى اسم هذا الخليفة ولا الى عصره واكتفى الخزرجي بالقول : « فقربــه الخليفة العباسي صاحب بغــداد وادناه منه واختص به ورفع عنه الحجاب •••• » [١٣] • وراسل بــه

(٩) نزهة العيون ، الورقة : ١٢٣ ا .

(١٠) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ . والعرشي ، بلوغ المرام ص٤٤. واحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٢١ .

(١١) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ .

(١٢) طرفة الاصحاب ، ص ٨٩ .

(١٣) الكفاية والاعلام ، الورقة : ٩١ .

الملوك ثقة به ، بما يريد من الامور من غير كتاب ويرجع بالجواب على لسانه ايضا من غير كتاب .

ومن هنا جاءت تسميته بـ (رسول) . وتشير المصادر الى ذكائه وفطنته وهذا أمر طبيعي لأن مهمة الرسول صعبة تقتضي ذلك ، وكان لا بد للرسول من ان تتوفر فيه ميزات خاصة كالوقار وثبات العقل والصبر وما الى ذلك (١٤) . فكان محمد بن هارون جليل القدر (١٥) تتوفر فيه الشروط الواجب توفرها في الذين يتراسل بهم الملوك . ويبدو أن ما حصل عليه من جاه وحظوة قد افاد منه ابنه الامير علي بن رسول فاصبح وزيرا للايوبيين (١٦) .

والمشهور من بني رسول باليمن هو المنصور نور الدين عمر (١٧) بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية بتعز وقد انابه الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل عندما توجه الى مصر سنة ٦١٥ هـ . ولما وصله نبأ وفاة المسعود بمصر سنة ٦٢٦ هـ استقل بالامر لنفسه وضرب السكة باسمه وامر الخطباء بذكره على المنابر واعلن سلطانه على البلاد وتلقب بالمنصور بعد أن طلب الاذن من الخليفة العباسي وقتئذ . وهكذا يطوى التاريخ صفحة من تاريخ بني ايوب في اليمن ليفتح صفحة

---

(١٤) راجع ان شئت ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، ص ١٠ ــ ٢٠ .

(١٥) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧ .

(١٦) طرفة الاصحاب ، ص ٨٩ .

(١٧) ترجم له كثيرون منهم : الحوادث الجامعة ص ١٢٣ . بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، ص ٨٥ . العطايا السنية : الورقة ٤٠ أ العسجد المسبوك ، مطبوع على الآلة الكاتبة بتحقيقنا ص ٤٧٧ . العبر ، مجلد ٥ ق٥ ص ١٠٩٦ ــ ١٠٩٧ . صبح الاعشى ج٥ ص ٣٠ . تحفة الكرام ، الورقة : ٨٧ . عنوان الشرف ، الورقة : ٩٤ ــ ٩٥ . الذهب المسبوك ، ص ٧٩ ــ ٨١ . وغير ذلك كثير لامجال لذكرهم .

اخرى جديدة لبني رسول [١٨] .

وتعاقب ملوك بني رسول على اليمن منذ التاريخ المذكور ، واتسم عصرهم بتشجيع العلوم والاداب وبناء المدارس ورعاية العلماء . كما برز منهم مؤلفون في الطب والفقه والحديث واللغة . فكان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر المتوفي سنة ٦٩٤هـ قد اخذ من كل فنٍ بنصيب ... وكانت له معرفة بالطب [١٩] . كما ان ابنه الاشرف عمر بن يوسف المتوفي سنة ٦٩٦ هـ من العلماء بالطب وله عدد من المصنفات منها : شفاء العليل في الطب ، وطرفة الاصحاب في معرفة الانساب ، والتبصرة في علم النجوم ، وجواهر التيجان ،والمغني في البيطرة ، كما الف كتابا في الاسطرلاب بعد ان زاول عمله واتقنه [٢٠] وتنسب اليه كتب اخرى . وكان اخوه المؤيد ابو المظفر هزبر الدين داود ابن الملك المظفر يوسف محبا لجمع الكتب والتحف جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة الف مجلدة وحملت اليه الكتب والتحف من كل جهة وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ

---

(١٨) انظر ان شئت تفاصيل عن ذلك مع اختلاف بين المؤرخين في تحديدهم لقيام الدولة الرسولية والمؤسس الحقيقي لها في الذهب المسبوك، ص ٧٩ ـ ٨٠ . وغاية الاماني ، ص ٤١٠ . اللطائف السنية ، الورقة : ١٨٥ . وصبح الاعشى ، ج ٥ص٣٠ ـ ٣١ . انباء ابناء الزمن الورقة : ٦٨.

(١٩) انظر مثلا : بهجة الزمن ، ص ٨٨ . العسجد المسبوك ، حوادث سنة ٦٤٨ ص ٤٧٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٠٠ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ الذهب المسبوك ، ص ٨٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٧١.

(٢٠) انظر على سبيل المثال لا الحصر عن ترجمته وعن كتبه : ـ العطايا السنية : الورقة : ٤٠ أ . الكفاية والاعلام ، الورقة ١٢٨ وما بعدها . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ . تاريخ تعز عدن ، ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٣ انباء ابناء الزمن ، الورقة : ٧٤ وما بعدها . غاية الاماني ، القسم الاول ، ص ٤٧٧ . العقود اللؤلؤية . ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . القاموس الاسلامي مجلد ١ ص ١١٥ . معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص ١٩٨ .

ينسخون الكتب وترفع الى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها وكان فاضلا سائسا شجاعا عالما يحفظ التنبيه وغير ذلك • واخذ الحديث عن علماء عصره • وتوفي سنة ٧٢١ هـ (٢١) • وكان المجاهد علي بن داود متجها نحو الادب نظما ونثرا وله ديوان شعر ومعرفة بعلم الفلك والنجوم وبعض العلوم الشرعية ويقال انه اعلم بني رسول (٢٢) •

وكانت وفاته سنة ٧٦٤ هـ على الارجح (٢٣) •

الافضل ملكا :

وبعد وفاة المجاهد اجتمع امراء دولته على قيام ولده الملك الافضل العباس (٢٤) بن داود ولم يكن في اولاد المجاهد من هو ارشد منه ولا اعقل ولا اولى للامر منه وان كان فيهم من هو اكبر منه سنا •

ولا جدال في ان الافضل عباس نشأ في بلاط ملكي ووسط ثقافي

---

(٢١) انظر حول ترجمة : بهجة الزمن ص ١٣٢ . مرآة الجنان ، ج ٤ ص ٢٦٦ . نزهة العيون ، الورقة : ١٢٣ أ الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٣٠ — ١٥٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٤٤١ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ . تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٧٢ . إنباء أبناء الزمن ، الورقة : ٦٨ . غاية الاماني ، القسم الاول ، ص ٤٩٤ .

(٢٢) انظر مثلا : — مرآة الجنان ، ج ٤ ص ٢٦٦ . اللطائف السنية، الورقة : ٣٥ ب العبر ، ج ٥ ص ١٠٩٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٥٥ أ . تاريخ تعز عدن ، ج ٢ ص ١٣٩ — ١٥٠ .

قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٣٠٩ . ونسخة دار الكتب ، الورقة : ١١٠ أ .

(٢٣) هناك اختلاف في سنة وفاته فقد جعلها ابن خلدون والقلقشندي سنة ٧٦٦ هـ . اما الخزرجي وابو مخرمة فقد جعلها سنة ٧٦٤ وحددها المقريزي سنة ٧٦٩ . واكد زامباور ما ذهب اليه الخزرجي وابو مخرمة . راجع الحاشية اعلاه .

المعت اليه فيما فات • وجريا على عادة الملوك في تأديب ابنائهم وتعليمهم لا يستبعد انه تتلمذ على شيوخ كفاة • ولا يستبعد أيضا انه قرأ القرآن ودرس الحديث وبعض الفقه والتاريخ والادب •••• والراجح انه تثقف ثقافة خاصة قيضتها له ظروفه الخاصة •

ويلوح لي من خلال البحث ان المسؤوليات التي تقلدها ، من ادارة وحرب وتنظيم وسياسة لم تقض على طموحه الثقافي • وقد يكون من الضروري ان اشير هنا الى ثقافة اسلافه من بني رسول • واهتمامهم بالعلم والعلماء • فلقد ظهر من بينهم مؤلفون وقفنا على اهمهم ورأينا كيف أن كلا منهم كان مشتهرا بعلم او فن معين وملم بعلوم اخرى • وعلى العموم فلقد كانوا على معرفة تامة بثقافة عصرهم ، مهتمين ببناء المدارس•

وقد قويت في ايام الافضل شوكة الخارجين في زمن ابيه فبدأ حكمه باعمال عسكرية استهدفت القضاء على الاضطرابات واخضاع المخالفين ففرق كلمتهم واستأصل شأفتهم (٢٥) ثم قام باعمال عمرانية كبناء المدارس في مكة وفي تعز ورتب بها المدرسين والمعيدين وايتاما يتعلمون القرآن الكريم والشريعة واوقف عليها الاوقاف وجدد سور زبيد وعمر خنادقها(٢٦)

---

(٢٤) انظر ترجمته : في العبر ، مجلد ٥ ق ٥ ص ١٠٩٥ . العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك ، الورقة : ٣١٣ — ٣٢٤ . الكفاية والاعلام الورقة: ١٨٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ — ١٦٠ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣٢ . عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ٩٥ — ٩٧ . انباء الغمر ، ج ١ الورقة : ٤٩ والمطبوع ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ . بغية المستفيد ، الورقة : ٨ — ١١ .

قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٩٢ . تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ اللطائف السنية الورقة ٢٠٨ وغير ذلك.

(٢٥) العقود اللؤلؤية ، ج٢ ص ١٥٩ . وعنوان الشرف الوافي ، الورقة : ٩٨ .

(٢٦) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ . تحفة الكرام الورقة : ٨٧ ب .

الافضل مؤرخا :

وكان الافضل ذكيا مشاركا للعلماء في عدة فنون من العلم عارفا بالنحو والآداب واللغة والانساب وسير العرب والملوك . واشتهر من بين ملوك آل رسول بما صنفه من مؤلفات قيمة لا تزال مخطوطة لا تمتد اليها الا أيدي بعض المتخصصين وفيما يلي أستعرض أهم هذه المؤلفات :

١ ـ العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية (★)

رأيت هذا الكتاب في دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥١ اثناءوجودي في القاهرة عام ١٩٦٩ . ويقع في ٥٧ ورقة ذات لوحين . مخطوط بقلم معتاد ذكر فيه طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها وعلمائها وذكر مناقبهم ، فذكر فضائل اليمن ثم بدا بايراد التراجم مرتبة على حروف المعجم مبتدءا بحرف الالف . ولاحظت كنى المترجمين في هذا المخطوط مكتوبة بالحبر الاحمر . وثمة ملاحظة تسترعي الاتنباه وهي انه يترجم حتى اولئك الذين ماتوا في زمنه . وينتهي هذا المخطوط بالورقة ٥٧ . وكان الفراغ من نسخه في العشرين من المحرم سنة ٩٠٤ هـ وحرى بي ان اذكر انني اعتمدت على هذا الكتاب اثناء تحضيري لرسالة الماجستير قبل ست سنوات ولاحظت ان الكتاب ليس هو كل ما اراده المؤلف تحت عنوان (العطايا السنية) فلعله مهذب عن الاصل او ان اقسامه الاخرى ضائعة . ومع ذلك فان الكتاب ذو قيمة تاريخية لا يستهان بها ، ويصح ان يكون بين كتب التراجم والسير المهمة .

٢ ـ نزهة العيون في تاريخ طوايف القرون (★)

اطلعت على هذا الكتاب ايضا في دار الكتب المصرية في مجلد واحد مع اللطائف السنية تحت رقم ٣٥١ تاريخ ويبدأ بالورقة ٥٨ ب بمقدمة

(★) في مكتبتي الخاصة نسخة مصورة عنه .

اوضح فيها نهجه في كتاب العطايا السنية وانه دون فيه تواريخ واخبارا عن الرجال والنساء واسمائهم ومدد اعمارهم من عصر آدم (ع) الى عصر من ذكرهم في كتابه العطايا السنية ، وانه اراد ان يذكر في نزهة العيون ما اغفله في كتابه الاول ويجعله ذيلا متمما ولم يبسط القول فيه بسطا ولم يختصره اختصارا مخلا . فتعرض الى « ارباب التأريخ» كما سماهم ، وطرائقهم ومقاصدهم في التدوين واوضح رأيه فيها على شاكلة تمثل خطا وسطا بين الاسهاب والاختصار ثم بين مصادره في تأليف كتابه فذكر انه جمعه من نيف وثلاثين كتابا ورتبه على حروف المعجم . وقد دونت على الصفحة الاولى التي تضمنت العنوان اسماء الكتب التي استقى منها المؤلف مادته . ولقد اثنى الخزرجي على كتاب نزهة العيون بقوله : ـ « لم يحذ على مثاله ولم ينسج على منواله »[٢٧] وما بين الورقة ٦٠ ب حتى الورقة ٩١ ب ، تحدث عن النبي (ص) وحياته وغزواته ووفاته ثم ذكر آدم وابراهيم وايوب واسحق عليهم السلام من الانبياء ، وافلاطون وابقراط وغيرهم ممن تبدأ اسماؤهم بحرف الالف ثم يتابع ذكر التراجم على حروف المعجم ... وبعد ان يترجم الافضل في نزهة العيون لمن وقع اسمه تحت حرف الياء يكون قد وصل الى الورقة ٢٦٣ . ثم يفرد بابا يتعلق بالانساب حيث ينتهي بالورقة ٢٧٨ . وهو مدون بقلم معتاد وعلى هامشه تقييدات كثيرة ويرجع تاريخ نسخه الى اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٩٠٤ هـ .

٣ ـ مختصر تاريخ ابن خلكان الذي سماه الدرر والعقيان المختصر من تاريخ ابن خلكان :

وقال عنه « اثبتنا فيه جماعة من العلماء وكبار العظماء .... واثبتنا

---

(٢٧) العقود اللؤلؤية ، جزء الثاني صفحة ١٥٨ .

رواياته في مدرستنا بتعز » [٢٨] وقد ذكر هذا الكتاب اغلب الذين ترجموا للافضل • وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان مشهور ومدروس ولا فائدة من تحصيل ما هو حاصل الا انني ارى من الضروري الاشارة الى ان هناك ستة مختصرات لوفيات الاعيان والدرر المذكور احدها •

٤ ـ نزهة الابصار في اختصار كنز الاخيار

اصل هذا الكتاب من مصنفات الشريف عماد الدين ادريس بن علي الحمزي [٢٩] المتوفى سنة ٧١٤ هـ واسمه الكامل : « كنز الاخيار في معرفة السير والاخبار » واغلب الظن انه مفقود في الوقت الحاضر ، ولم استطع العثور عليه بعد مراجعة فهارس المكتبات المختلفة • ويقع في اربعة اجزاء، فالاول منها في سيرة النبي (ص) والخلفاء من بعده • والثاني في اخبار بني امية من معاوية الى قريب المائة الثانية • والثالث في اخبار بني العباس وغيرهم • والرابع في ذكر ملوك حمير التبابعة قبل النبوة [٣٠] •

ولقد اعتمد على كتاب كنز الاخيار كل من الافضل عباس وابنه الاشرف اسماعيل والخزرجي وغيرهم •

---

(٢٨) انظر : نزهة العيون ، الورقة ٥٨ ب . والعطايا السنية ، الورقة : ١ ب .

(٢٩) وكان اميرا على القحمة ولحج في زمن الدولة الرسولية بايام الملك المؤيد . اعتمد في كتابه كنز الاخيار ويرد احيانا (الاخبار) على تاريخ الطبري والمسعودي وابن الاثير . ثم اضاف اليه اخبار العراق ومصر والشام الى سنة ٧١٣ هـ واخبار اليمن الى سنة ٧١٤ هـ . واعتمد عليه ـ كنز الاخيار ـ الخزرجي في مؤلفاته واشار الى ذلك تصريحا في تضاعيف مؤلفاته . انظر : غاية الاماني ، ص ٤٩١ . نزهة الافكار ، الورقة :١٥٨. تاريخ آداب اللغة ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣٠) غاية الاماني في اخبار القطر اليماني / القسم الاول ص ٤٩١ـ ٤٩٢ .

٥ ـ بغية ذوي الهمم في انساب العرب والعجم :

وهو كتاب خاص بالانساب. ذكره الخزرجي[٣١] في العقود اللؤلؤية وقال عنه جرجي [٣٢] زيدان مختصر مفيد منه نسخة في برلين . ولقد كانت كتب الانساب ، وما تزال ، تمثل حقلا من حقول التاريخ المهمة واذا كان معاصروا الافضل قد اهتموا بانساب العرب . فلقد وسع دائرة معارفه الى الالمام بانساب العجم . ولذلك فالكتاب جدير بالدراسة والتحقيق.

٦ ـ دلايل الفضل في علم الخط والرمل :

وقد انفرد يحيى بن الحسين في ذكر هذا الكتاب ولم استطع في الوقت الحاضر الحصول على تفاصيل عنه .

هذه هي اهم مصنفات الملك الافضل التي ذكرها مترجموه [٣٤].

ولقد سبقت الاشارة الى مشاركته العلماء واهتمامه بهم . ثم وجدت تشابها بين بعض التراجم والحوادث التي اوردها الافضل في كتابه نزهة العيون وبين ما أورده ابنه الملك الاشرف اسماعيل في كتابه العسجد المسبوك . بل ان الاشرف اعتمد على بعض مصنفات والده ومنها : نزهة العيون واشار الى ذلك في مواضيع عديدة [٣٥] من العسجد المسبوك

---

(٣١) انظر / ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢١٩ .

(٣٣) انباء ابناء الزمن ، الورقة : ٩٤ .

(٣٤) انظر المصادر في الحاشية (١) التي تقدمت سلفا وانظر

Brockelman , Geschichte Der Arabischen Litterature (5 vols), Zweiter Supplementband Leiden , E. J Brill, 1958 , P. 236

(٣٥) انظر على سبيل المثال : دار الكتب المصرية رقم ٢١٨٩ميكروفليم تاريخ : الورقة : ٤٩ ب ، ٦٩ ب ونسخة دار الكتب المصرية رقم ٣٨٦٣ تاريخ . الورقة ٥ ب ، ٤٣ أ ، ٦٣ ب ، ٦٦ أ ، ١٣٣ ـ ١٤٠ أ . وفي الورقة : ٤٣ أ قال (ذكر ذلك مولانا الوالد في كتابه نزهة العيون عن مشايخه) .

والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك كما اشار الى اعتماده على كتاب نزهة الابصار •

لذلك فان الافضل لم يترك لمن جاء من بعده نفوذا سياسيا وحسب، بل ترك وراءه ثروة فكرية متمثلة بمصنفاته التي لاحظنا اعتماد ولده الاشرف عليها • كما ترك مجاميع المصنفات التي كانت تأتيه من كل جهة ومن هذا المنهل ارتشف الاشرف فاستفاد وافاد ، وترك لنا مؤلفا ضخما غنيا بمادته التاريخية هو العسجد المسبوك الذي سنحدثك عنه في مقال آخر •

وكانت وفاة الملك الافضل يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (٣٦) • فحصل الاجتماع على قيام ولده الملك الاشرف اسماعيل بن العباس ابن رسول •

ويمكن تقويم كتابات الملك الافضل التأريخية بصورة اجمالية كما يلي :

١ ــ اهتمامه بتأريخ اليمن ، الذي ما زال دارسوه يعانون من قلة المصادر عنه لاستجلائه •

٢ ــ ان اهتمامه بتراجم الرجال كان كبيرا ، وعندما يكون هذا الاهتمام صادرا عن ملك يكتسب اهمية خاصة ولك ان تفسر ذلك كما تشاء •

٣ ــ لقد اعتمد على موارد اولية ومهمة وبعضها يعتبر مفقودا حتى هذه اللحظة وهذا يضفي على كتاباته التأريخية اصالة واهمية كبيرة •

٤ ــ وكان له وجهة نظر خاصة في تدوين التأريخ •

ولذلك فان تلك الكتابات بحاجة الى دراسة مستقلة قد تترتب عليها نتائج مهمة من الناحية التأريخية •

---

(٣٦) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ . وبغية المستفيد ، الورقة: ١١٣ أ .

المصادر والمراجــع

أولا : الخطيــة :

ابن حجر ، احمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)

١ ــ إنباء الغمر بأنباء العمر ، نسخة مكتبة الاوقاف العامة ببغــداد رقم ٥٨٨٣ .

ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني (ت ٩٤٤ هـ)

٢ ــ بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيدة مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١١م تاريخ

٣ ــ قرة العيون في اخبار اليمن الميمون ، نسخة دار الكتب المصريــة رقم ٢٤٤ تاريخ . ونسخة مكتبة المتحف العراقي رقم ١٧٥٠ .

ابن المقرىء ، شرف الدين اسماعيل بن ابي بكر اليمني (ت ٨٣٧ هـ).

٤ ــ عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ١٤٢٧ .

الانف ، ادريس بن الحسن بن عبدالله (؟)

نزهة الافكار وروضة الاخبار وفي ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الاخيار ، جـ ١ ، نسخة دار الكتب (رقم ٢٢٥٣) ميكرو فيلم .

الحسني الكبسي ، محمد بن اسماعيل بن محمد الكبيسي الحمــري (ت ١٣٠٨ هـ) .

٦ ــ اللطائف السنية في اخبار الممالك اليمنية ، نسخة المكتبة التيمورية رقم ٧٢٤ تاريخ .

الخزرجي ، ابو الحسن علي بن الحسن الخزرجي المعروف بابــن وهاس (ت ٨١٢) .

٧ ــ طراز الزمن في اعيان اليمن ، جزءان ، نسخة المكتبة التيمورية رقم ٧٨٣ تاريخ .

٨ ـ العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢١٥ ميكرو فيلم المصورة عن مكتبة الامام يحيى في اليمن رقم ٥٢ تاريخ .

٩ ـ العقد الفاخر الحسن في طبقات اعيان اهل اليمن ، الجزء الثاني والثالث نسخة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ٣٣٧ ميكرو فيلم مأخوذة عن نسخة كيمبرج .

١٠ ـ الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام . نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ميكرو فيلم .

العباس بن رسول ، الملك الافضل عباس بن علي (ت ٧٧٨ هـ)

١١ ـ العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ .

١٢ ـ نزهة العيون في تاريخ طوايف القرون ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ .

العيني ، نور الدين ابو محمود بن احمد (ت ٨٥٥ هـ) .

١٣ ـ عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رقم ١٥٨٤ الفاسي ، تقي الدين محمد بن احمد الحسيني (ت ٨٣٢ هـ) .

١٤ ـ تحفة الكرام في اخبار البلد الحرام ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٦٤٦ خصوصية .

يحيى بن الحسين ، (ت ١١٠٥ هـ (★)) .

١٥ ـ إنباء ابناء الزمن في تاريخ اليمن ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ثانيا المطبوعة :

ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت٨٧٤هـ)

١٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة / ١٩٢٩ ـ

(★) وجعل بعضهم وفاته سنة ١١٠٠ هـ

١٩٥٦ . ابن حجر ، ابو الفضل شهاب الدين احمــد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .

١٧ ــ إنباء الغمر بأنباء العمــر ، جزءان ، تحقيق الدكتور محمــد عبد المعيد خان مطبعة مجلس دائرة المصارف ، حيدر آباد /١٣٨٧/١٩٦٧ .
ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد المغربي (ت ٨٠٨ هـ)

١٨ ــ العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربــر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ .

ابن عبد المجيد اليماني ، تاج الدين عبد الباقي (ت ٧٤٣ هـ) .

١٩ ــ بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ،مطبعة مخيمر ، ١٣٨٤ ــ ١٩٦٥ .

ابن العماد الجنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ) .

٢٠ ــ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠ ــ ١٣٥١ هـ .

ابن الفراء ، ابو علي الحسين بن محمد (ت ؟) .

٢١ ــ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة / ١٣٦٦ ــ ١٩٤٧ .

ابو مخرمة ، الطيب عبدالله بن احمد (ت ٩٤٧ هـ) .

٢٢ ــ كتاب تاريخ ثغر عــدن ، جزءان . تحقيق اوسكارلو فكرين ، مطبعة بريل ، ليدن / ١٩٣٦ .

باوزير ، سعيد عوض .

٢٣ ــ معالم تاريخ الجزيرة العربية ، الطبعة الثانية ، عدن / ١٣٨٥ــ ١٩٦٦ . جرجي زيدان .

٢٤ ــ تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة التي راجعها الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة / ١٩٥٧ .

الخزرجي ، ابو الحسن علي بن الحسن المعروف بابن وهاس (ت ٨١٢ هـ)

٢٥ ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان ، تحقيق محمد بيسوني عسل ، مطبعة الهلال بالفجالة / القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ / ١٩١١ ـ ١٩١٤ .

الدلجي ، احمد بن علي (ت ٨٣٨ هـ) .

٢٦ ـ الفلاكة والمفلوكون ، طبع على نفقـة مكتبة ومطبعـة الشعب ، القاهرة / ١٣٢٢ هـ . زامباور .

٢٧ ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ،جزان، اخرجه الدكتور زكي محمد حسن بيك وحسن احمد محمود واشترك في ترجمته آخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الاول / القاهرة ١٩٥١ .

السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ).

٢٨ ـ الضوء اللامع لاهل القـرن التاسع ، نشرته مكتبـة القدسي القاهرة / ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ .

العرشي ، القاضي حسين بن احمد .

٢٩ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختـام ، عني بتحقيقه انستاس ماري الكرملي ، مطبعة البرتيري ، القاهرة / ١٩٣٩ .

عطية الله ، احمد .

٣٠ ـ القاموس الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة/١٣٨٣ـ ١٩٦٣ عمر بن رسول ، الملك عمر بن يوسف بن رسول (ت ٦٤٧)

٣١ ـ طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، تحقيق ك . و. سترستين، دمشق / ١٣٦٩ ـ ١٩٤٩ .

عمر رضا كحالة .

٣٢ ـ معجم المؤلفين ، المكتبة العربية بدمشق ، مطبعة الترقي،دمشق ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧ / ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ .

الغساني ، ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣هـ)

٣٣ ـ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، مطبوع على الالة الكاتبة (رسالة ماجستير) ، تحقيق ودراسة شاكر محمود عبد المنعم ، بغداد / ١٩٧٠

القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي القاهري (ت ٨٢١ هـ).

٣٤ ـ صبح الاعشى في كتابة الانشا ، القاهرة / ١٣٣١ ـ ١٣٣٨ / ١٩١٣ ـ ١٩١٩ .

مجهـول .

٣٥ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، بغداد /١٣٥١هـ.

المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

٣٦ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيـق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة / ١٩٥٥ .

اليافعي ، عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي(ت٧٦٨هـ)

٣٧ ـ مرآة الزمان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبـر من حوادث الزمان ، حيدر آباد الدكن / ١٣٣٨ .

يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠ هـ) .

٣٨ ـ غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة /القسم الاول/ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة / ١٣٨٨/١٩٦٨ .



دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس

الدكتور عبد الجليل عبد الرضا الراشد
قسم التاريخ - كلية الآداب - بغداد

قام البربر بدور كبير في نشر الاسلام في الاندلس وجعله من أقطار الدولة الاسلامية ، فهم اول من دخل الجزيرة على شكل غزاة عندما قاد طريف الطالعة الاولى لاختبار امكانية فتحها ، فعندما استشار موسى ابن نصير الخليفة الوليد في فتح الاندلس ، وافق الخليفة بشرط أن يختبرها بالسرايا لأنه كان يخاف على المسلمين ، وعمل موسى بما أوصاه به الوليد ، فبعث طريفا في مائة فارس وأربعمائة راجل وعبروا المضيق ونزلوا بالجزيرة التي سميت (جزيرة طريف) وكان أغلب أفراد هذه المجموعة من البربر [١] .

وبعد هذه العملية الناجحة قاد طارق جيشا كله من البربر ولم يكن فيهم من العرب الا القليل ، هم الذين تولوا مناصب القيادة فيه بناء على ما رواه المقري [٢] .

وقد تعددت الروايات في نسب طارق فأرجعه بعضهم الى همذان في فارس وأنه ليس بمولى لموسى بن نصير [٣] ولاحظ هذا الاختلاف الكثير ، ابن عذاري ، وذكر ان الغالبية تنسبه الى (بربر نغزة) [٤] وقد اختلف الرواة في عدد البربر الذين عبروا مع طارق ، فهم ما بين سبعة آلاف وعشرة الاف أو اثنى عشر الف [٥] ويظهر ان البعض يخلط بين

جيش طارق والمدد الذي بعثه له موسى بن نصير عندما طلب مساعدته بعد أن علم أن القوط قدموا عليه بأعداد هائلة لامثيل له بهـا ، وربمـا بنى البعض فكرته على ما ذكره ابن خلدون من ان جيش طارق كان كله من البربر فان القبائل البربرية التي شاركت في جيش طارق هي مصغـرة مديونة ، مكتاسة ، هواره ، وكلها متفرعة من زناته فلا عجب أن ينسب البربر فضل الفتح لهم وهم يرون أن الجيش وقائده منهم [٦] .

ومن الغريب أن الخلافات بين البربر والعرب بدأتمنذ الايام الاولى لنزولهم في الجزيرة ، فان العرب الذين وصلوا الاندلس بعد فتحها قـد استأثروا لأنفسهم بخيرات الجزيرة ، وأحسن الأراضي ، وجعلوا أنفسهم حكاما للجزيرة ، يصرفون وحدهم امورها ، فلم تذكر المصادر التاريخية أن بربريا تولى امارة الاندلس [٧] ولعل هذا الامر جاء من شعور العرب بأنهم سادة المغرب ، وطبيعي أن يكونوا هـم سادة الاندلس ، وأهـم المناطق التي نزلها البربر من الأندلس هي الشمال الغربي والوسط وهـي مناطق جبلية وعـرة المسالك ، فكانت مناطقهم وادي الحجارة وشرقي اشبيلية ، وقد ذكر ابن حزم مناطق سكنى بعض القبائل البربريةفينورزين بالسهلة ، وذو النون بوبذه ، وبنو الفرج ، بوادي الحجارة [٨] وهـذه المناطق الوعرة هيأت لهم مواقعا حصينة شجعتهم على اعلان الثوراتضد حكامهم العرب [٩] .

ان سكنى البربر لم تقتصر على هذه المناطق ، فالبعض منهم استقر في أخصب نواحي الاندلس ، والجنوب الشرقي والغرب ، بل ان شبـه الجزيرة الخضراء كادت أن تكون مقصورة عليهم [١٠]

ويبدو ان هذا الرأي صح فان بعض الامارات البربرية قد تأسست في هذه المناطق عند حدوث الفتنة وقد اعتمدت هذه الامارات على الجذور البربرية التي اتخذت هذه المناطق سكنا لهم وخاصة الجزيرة الخضراء ومالقة وغرناطة [١١] ويبدو أن مسألة الاراضي لم يكن لها الاثر الكبيـر

وان كانت سببا ثانويا ولكن السبب المهم هو أن العرب لم يكونوا ينظرون البربر على قدم المساواة ، بل أنهم كانوا يعتبرونهم دونهم مكانة ، فكان لهذه النظرة والمعاملة غير اللائقين أثر سيء على علاقات البربر والعرب.

ولم تكن هذه المعاملة السيئة من جانب العرب وليدة اليوم ، فان علاقات البربر بهم في أفريقية لم تكن على ما يرام ، منذ أيام الفتح الاولى، واضطر العرب الى صرف السنين الطويلة حتى استطاعوا فرض سيطرتهم على البربر . وطالما ثار البربر ثورات دموية هائلة ضد حكامهم العرب وخاصة في سنوات الحكم الاموي الأخيرة .(١٢)

وكانت مقدارت اسبانيا مرتبطة بمقدرات المغرب ، فالحوادث التي كانت تجري في العدوة نجد لها صدى قويا في الأندلس ، فان بربر الأندلس ـ على فرض انهم لم يكونوا مضطهدين ولكنهم على الاقل شاطروا اخوانهم بربر أفريقيا في كرههم للعرب ، وكانوا دائما يشعرون أن فضل الفتح كان يعود لهم وان العرب لم يقوموا بأكثر من الاستيلاء على المدن التي كانت مهيأة للفتح . وحينما كانت المسألة مسألة اقتسام خيرات الفتح ، فقد أخذ العرب لانفسهم حصة الاسد واصبح في حوزتهم أثمن ما في الجزيرة من خيرات . وقد ثار البربر عدة ثورات ولعل أهمها ثورتهم ضد الوالي عبد الملك بن قطن الفهري سنة ١١٦ هـ ، واستعان عبد الملك بجنود الخليفة من أهل الشام في افريقية بقيادة بلج القشيري، ودار تمعركة رهيبة عند وادي سليط ، انتهى أمرها بهزيمة نكراء للبربر وظل الشاميون وجند عبد الملك يلاحقونهم ويقتلونهم (١٣) ، وانتهت ثورة البربر ومزقت جموعهم وطوردوا في مكان من الاندلس ، وكان من نتيجة هذه العلاقات السيئة والحوادث المؤسفة أن أصبح البربر دائما يمثلون الجماعات المهيئة للثورة وظلوا يستغلون كل فرصة للانتفاض على العرب ومحاولة انتزاع السلطان منهم ، ولكنهم لم تقم لهم قائمة في عهد الدولة الاموية التي أسسها عبد الرحمن الداخل حتى جاء للخلافة هشام المؤيد بن

الحكم المستنصر وحفيد الناصر العظيم وكان المؤيد صغيرا ، فاستولى على اموره محمد بن أبي عامر وتولى السلطة الفعلية ،وابن عامر من شخصيات التاريخ الفذة ، وقد تدرج في المناصب ، حتى أصبح الحاكم الفعلي للاندلس . وحجر على الخليفة هشام وقد ظهر ابن أبي عامر منذ أيام الخليفة المستنصر ، فقد رأى فيه من الذكاء والمقدرة وقوة الشخصية . ما جعله يؤثره على غيره ، وقد ساعدته السيدة « صبح » أم هشام لاعجابها به، وكان لها التأثير الكبير على سيدها الحكم [١٤] .

وعند وفاة الحكم لعب ابن ابي عامر دورا كبيرا في حفظ الخلافة لهشام ، وشعر هذا بفضله عليه ، فولاه وزارته وفوض اليه أموره ، وازدادت علاقته بالسيدة (صبح) [١٥] وابن ابي عامر من الرجال الذين قل أن يجود الدهر بمثلهم ، وقد استعان بكل وسيلة بعد وصوله الى منصب الوزارة لأزاحة منافسيه عن طريقه بأسلوب دل على ذكائه . فقد استعان بهؤلاء المنافسين التخلص من بعضهم حتى تم له ازاحتهم جميعا من طريقه دون أن يشعر هؤلاء بالخطر الداهم الذي عرضهم له . حتى انفرد بالأمور وحده (وجرى بذلك مجرى المتغلبين على سلطان بني العباس بالمشرق من امراء الديلم) [١٦] . وكان ابن ابي عامر يرى في الأسر العربية العريقة المتنفذة في قرطبة عائقا يقف في سبيل تنفيذ مشاريعه ، فرأى أن يعتمد على قوى خارجية يستعين بها على مواجهة خصومه واعدائه في الداخل ، فوجد في بربر المغرب خير من يعينه على مشاريعه، فأستجلب منهم اعدادا كبيرة وكون جيشا تحت أمرته [١٧] وقد خدمته الظروف ، فعندما أحس عامل الخليفة الفاطمي على أفريقية ان المغرب قد هجرته القوات الاموية سار على رأس قواته فأكتسح المغرب وأخذ يزيح بكل سهولة اولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطة قرطبة والجأهم الى اسوار سبته فوجدها المنصور فرصة طيبة لان يحصل مرة واحدة على مئات الفرسان البارعين ، فكتب اليهم مرفقا كتبه بالاموال والوعود بالحياة

الرغيدة في الأندلس ، وسرعان ما استجابوا لدعوتـه التي كانوا ـ بـلا شك ـ يتمنونها للخلاص من الحال التي آلوا اليها [١٨] وقد ادرك ابـن ابي عامر أنه لا يسكنه الاعتماد على العناصر العربية في الاندلس ، فاتجه ببصره عبر البحر الى المغرب الذي كان كالمخزن الذي لا ينضب معينه من المتطوعين الراغبين في سبيل الجهاد وجمع الأموال والحصول علـى الغنائم . لذلك اتبع سياسة التقارب مع زعماء زناته باذلا الاموال دون حساب ، [١٩] وظل البربر يتوافدون علـى الأندلس حتى كونوا أغلب جيشها وهم الذين أحرزوا للمنصور النصر في جميع غزواتـه في أرض الاعداء [٢٠] ولم يكن المنصور ولا البربر يجهلون شعور أهل قرطبـة المزوج بالخوف والكره ، لهؤلاء الذين أعتبروهم دخـلاء على بلدهم ، والذين عانوا منهم الكثير واعتبروهم السند القوي للمستبد الأندلسي.[٢١] الذي سيطر بيد حديدية على البلاد وارهب الأعداء في الشمال وسارعوا الى طلب صداقته ورضاه ، ورغم ذلك فقد كانت الامور تنـذر بتحول خطير فلم تكن الارستقراطية العربية ، التي فقدت نفوذها مؤقتا ولا أفراد البيت الاموي ، يرضيهم حصر السلطة كلها في يد شخص من غيـر أفراد البيت الحاكم ، او حتى سليل أسره لها مجدها وسابقتها في الزعامة غيـر أن قوة المنصور وجبروته وقسوته اتجاه خصومه حالت دون القيام بأي حركة ضد سلطته وبطانته ، وساد الاندلس جو من الهدوء ولكنه كـان مشوبا بالترقب الذي يسبق العواصف السياسية والحروب الاهلية [٢٢].

فالأرستقراطية العربية التي كانت تمسك زمام الامور في الأندلس، والتي فقدت مراكزها وامكانياتها في عهد المنصور ، ظلت تنتظر الفرصة لتأخـذ دورها وتستعيـد مكانتها ، التي احتلها الآن نوع جديـد من الارستقراطية وهي ارستقراطية العبيد الجديدة التي نمت وترعرعت بحماية دكتاتور الأندلس الذي كان يسنده البربر [٢٣] وجاءت الفرصة بعد وفاة المنصور وأبنه المظفر عبد الملك ومجيء عبدالرحمن الناصر بن ابي عـامر

الى الحكم الذي كان يختلف اختلافا كبيرا عن أبيه وأخيه من حيث الشجاعة والمقدرة الادارية فان البربر لم يكونوا على استعداد للتخلي عن مراكزهم التي كسبوها بدمائهم ، وهم على استعداد لعمل أي شيء وركوب المخاطر حتى لا يعودوا فئة مهملة كما كانوا ايام الدولة الاموية، فعندما شعروا أن مركزهم بدأ يتمرج ولمسوا ضعف عبدالرحمن بن ابي عامر ، سرعان ما أنقلبوا عليه واسلموه لخصومه ، وراحوا يبحثون عن شخص يلتفون حواله .

لقد ساهم عبد الرحمن بن ابي عامر على انهاء حكم اسرته ، وذلك عندما استشار المحافظين من اهل الأندلس الذين لا يرون لهم انتقال الخلافة من البيت الأموي – بطلبه من الخليفة هشام المؤيد أن يعينه وليا لعهده فلم يجد هؤلاء بدا من الثورة والقضاء عليه [٢٤] ووجد هؤلاء في شخص محمد بن هشام من أحفاد الناصر ، الشخص المنشود ، ولم يكن صعبا على محمد هذا أن يجد المؤيدين من أهل قرطبة ، هؤلاء الذين عرفوا بسرعة تقلبهم ، ولعل محمد بن هشام ، قد اصابته الدهشة من هذا التأييد الواسع ، وربما لم يكن يتوقع أن يتخلى البربر بهذه السرعة عن أبن سيدهم ، ولم يفق محمد (الذي لقب نفسه بالمهدي) واتباعه من دهشتهم الا عندما قدم لهم رأس عبد الرحمن بن ابي عامر [٢٥] الذي انتهت بمقتله فترة من أروع فترات الحكم الاسلامي للاندلس ، واكثرها قوة ورهبة وقسوة ، وسرعان ما خابت آمال البربر الذين غدروا بقائدهم ، والذين توقعوا أن تكون لهم الغنائم ، ويعترف الحاكم الجديد بفضلهم ، ويكون لهم المركز المفضل في الدولة الجديدة ، ولعل هؤلاء تناسوا ما قاساه منهم أهل قرطبة ، الذين صبوا جام غضبهم على هؤلاء الدخلاء الذين أذاقوهم سوء العذاب وتحكموا في مصائرهم زمنا طويلا والآن وقد جاء يوم الحساب ، فقد نهبت دورهم وصودرت أموالهم وقتلوا في كل مكان [٢٦] وتحول البربر الذين كوفئوا أسوأ مكافأة الى ثوار دائمين ، لاتهدأ لهم

حال . وقد وجـدوا ضالتهم في سليمان بن الحكـم ، فبايعوه وسموه (المستعين) ، وكان سليمان لا يثق بالبربر ولا يمكنـه الاعتماد عليهـم بصورة مطلقة ، فآثر أن يستعين بنصارى الشمال ، الذين أسرعوا بتقديم العون له ، وهم متأكدون أنهم بعملهم هذا يضعفون الجانبين . ويكـون الربح لهم أخيرا وكان هؤلاء عند حسن ظن سليمان ، فقد مهدوا لـه الطريق لدخول قرطبة على جثث عشرين الف قتيل من أهلها ، (٢٧) ولـم يهنأ المستعين بنصره هذا ، فقد استطاع أهل قرطبة طرده هو والبربـر الذين تحولوا بقيادته الى لصوص وقطاع طرق واستطاعوا أخيرا أجبار أهل قرطبة على الرضوخ لتعين سليمان خليفة (٢٨) ورأى أن يكرم البربر الذين أوصلوه الى الحكم فعين رجلا منهم ـ علي بن حمود ـ حاكمـا على سبتة والجزيرة الخضراء ، وكان علي يطمـح الى أكثر من ذلـك . فزحف على قرطبة بجموع البربر ودخلها بعد أن قتل سليمان الذي أحسن اليه (٢٩) وليس هذا الأمر بغريب ، ففي عصر كهذا عندما تضطرب الأمور وتسود روح الغدر والخيانة ، لا يمكن اعتبار الغدر وقطع اليد المحسنة أشياء يعاب عليها ، فالقيم الاخلاقية لا تجد من يطالب بها .

الآن وقد أضحى البربر الاحتياطي الدائم لأي ثائر أو متمرد منهم في خدمة من يدعوهم اذا ما شعروا أن الغنائم ستكون وفيرة على يديه ، ولكنهم سرعان ما ينقلبوا ضد من أيدوه . (٣٠)

وضاعوا وسط هذه الفوضى ، فلم يعودوا يفكرون في تصرفاتهـم فسيوفهم في خدمة من يطلبها ، ورأى أهل قرطبة أنهم تحملوا اكثر مما يجب من البربر وآل حمود ، ووجدوا العون من أخوانهم أهل اشبيلية، الذين كانوا لا يقلون كرها للبربر ، فعندما وصلت الانباء الى اشبيليـة بأن أهل قرطبة قد انتقموا من البربر وأخذوا منهم بثأرهم وطردوا آل حمود ، أغلقوا مدينتهـم بوجه القاسم الهـارب معلنين أنهم سيتولون شؤونهم بأنفسهم ، وطولوا ثلاثة من زعماؤهم الادارة امور مدينتهم وعلى

رأس هؤلاء القاضي اسماعيل بن عياد التنوخي [٣١] واستقر القاسم هو والبربر الذين آثروا ملازمته في (مالقة) [٣٢] .

ازاء هذا الوضع المرتبك الذي أصبح فيه أهل قرطبة ، بعد هذه الفترة العصيبة ، استقر رأي الجماعة فيها ، دون مشاورة بقية الولايات الأندلسية ، حيث لم يكن هناك متسع من الوقت للتشاور ، رد الأمر لبني أمية لعلهم يعيدون الهدوء والأستقرار للاندلس ، والواقع أن هذه العائلة قد انتهى أمرها ولم يعد فيها الرجل الذي يصلح لهذه الظروف أو أنه يستطيع حكم الجزيرة الممزقة ، وأثبتت الحوادث لسكان قرطبة ضآلة تفكيرهم وأنهم كانوا مخطئين بمجرد التفكير في اعادة ال أمية للحكم فالخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم بعد طرد ال حمود المستظهر بالله والمستكفي وأخرهم المعتد بالله [٣٣] لم يكونوا فقط لا يستحقون هذه الثقة بل ان مجيئهم زاد الأمور تعقيدا ، مما أوحى لأهل العاصمة أن الخلافة أصبحت عبئا ثقيلا ، وأنهم من الآن فصاعدا عليهم أن يفكروا بمصير مدينتهم فقط ولتتعرف الولايات الباقية حسبما يحلو لها وبما تراه مناسبا . وفوض أهل قرطبة أمرهم الى شيوخهم الذين اصدروا مرسوما أعلنوا فيه زوال رسوم الخلافة نهائيا ، وتضمن المنشور الرغبة في الا يبقى أحد من آل أمية في المدينة ، وكان تاريخ هذا المنشور ١٣ ذي القعدة سنة ٤٢٢ هـ ٣٠ نوفمبر (تشرين) سنة ١٠٣١ م [٣٤] وسرعان ما استجابت بقية المدن الكبيرة لدعوة أهل قرطبة الذين كانوا بلاشك ينتظرونها وتتأهب الزعماء والمتنفذون البلاد ، وتفرق أهل الاندلس فرقا (وتغلب في كل جهة متغلب وتقسموا القاب الخلافة) [٣٥] لقد أثارت هذه الحوادث الدهشة والجدل ، ذلك لأنها جاءت بعد دور المجد والعظمة الذي وصلت اليه الدولة الأموية في عهد المنصور والمظفر فقد كانت الأندلس أقوى دولة في تلك المنطقة ، وكان نصارى الشمال يتجنبون التحرش بها ويقدمون فروض الطاعة والولاء ، وكان الامن الداخلي مستتبا وازدهرت التجارة والحياة

الفكرية [٣٦] ولكن هل كانت اسباب التصدع بفعل عوامل خارجية ؟ من المؤكد انها لم تكن كذلك ، لأن كل الدول المجاورة للأندلس تتسابق لطلب صداقتها ورضاها والعيش معها بسلام فاذا كانت هناك أسباب وعوامل داخلية كامنة في جسم المجتمع الأندلسي نتيجة للتناقضات التي سادت مجتمع الأندلس ، والتي تمتد جذورها الى سنين بعيدة ولكن قوة الحكام منعت الانفجار او على الاقل آجلته الى حين . [٣٧] فالعرب الذين كونوا أغلبية أقسام المجتمع والذين غلبوا على أمرهم زمن المنصور شعروا أن دورهم قد جاء بعد وفاته وأنهم لا بد أن يستعيدوا مكانتهم. والعنصر الثاني البربر الذين لم يكونوا على استعداد للتخلي عن مراكزهم التي كسبوها بقوتهم ومساندة المنصور لهم ، ولم يكن الصقالبة بأقل من البربر خوفا على مراكزهم ، وهناك فئة أخرى هم النصارى والمولدون وهؤلاء كانوا دائما محل شك من قبل السلطات الحاكمة ، وقد اطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم (الفتنة البربرية) [٣٨]

اما هذا الدور فقد اطلق عليه المؤرخون (عصر الطوائف) ويعد من أكثر أدوار التاريخ الأندلسي تشعبا واضطرابا ، وقد شغلت هذه الفترة ما يقرب من سبعين عاما أنقسمت فيها البلاد الى وحدات سياسية، تقوم في كل منها دولة . [٣٩]

وكان للبربر بعنادهم وتصلبهم وحقدهم اليد الطولى في وصول الأندلس الى هذه الحالة وكما كان لهم الدور الأفضل في فتح الأندلس لعبوا الدور الأسوأ في سقوط الدولة الأموية واضعاف المسلمين هناك .

الحواشي

(١) ابن عذاري المراكشي ـ البيان المغرب حـ ١ ص ٤٥ . السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ص/٢٩٠ .

(٢) المقري ـ احمد بن محمد ـ نفح الطيب ـ ٣١٦/١ .

(٣) مجهول ـ أخبار مجموعة ـ ص ـ ٦

(٤) ابن عذارى ـ البيان المغرب ـ ٧/٢

(٥) مجهول ـ اخبار مجموعة ص ـ ٦ ، المقري ـ نفح ـ ٢١٦/١ ابن الاثير ـ الكامل ـ ١١٩/٤ ابن خلدون . تاريخ ٤٣ ص ٢٥٤ .

(٦) ابن خلدون ـ تاريخ م ٤ ص ٢٥٤ .

(٧) محمد عبدالله عنان ـ دولة الاسلام في الأندلس ـ ص ـ ٨٦ ـ

(٨) ابن حزم ـ علي بن احمد الاندلسي ـ جمهرة انساب العرب حـ ٢ ص ٤٩٩ .

(٩) محمد عبدالله عنان ـ دولة الاسلام ـ ص ـ ٢٠٣ .

(١٠) حسين مؤنس ـ فجر الاندلس ـ ص ـ ١١٥ .

(١١) ابن بسام ـ علي بن بسام الشنتريني ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة مخطوط دار الكتب ـ ورقة ٢٧١ .

(١٢) حسين مؤنس ـ فجر الاندلس ـ ص ١٥٦

(١٣) ابن عذاري ـ البيان ٤٣/٢ ، مجهول ـ اخبار مجموعة ص ـ ٤٠

(١٤) ابن عذاري ـ السابق ـ ٢٥٨/٢

(١٥) ابن خلدون ـ تاريخ جـ ٤ /ص ـ ١٤٧

(١٦) ابن عذارى ـ البيان ـ ٢٦٥/٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ السيد عبدالعزيز سالم ـ تاريخ المسلمين ـ ص ـ ٣٢٣ / ٣٣١ .

(١٧) ابن خلدون ــ تاريخ ١٤٧/٤ .

(١٨) ابن عذاري ــ البيان ــ ٢٩٤/٢ ،

Dozy., Histoire des Musulmanes d, Espagne, P. 644.

(١٩) بالنثيا ــ انخل جنثالث ــ تاريــخ الفكر الاندلسي ــ الترجمــة العربية . ص ــ ١١ ــ

Pronencal., Histoire de 2, Espagne Musulmane,. T. 2. P. 261.

(٢٠) الامير عبدالله بن بلقين ــ التبيان ــ ص ــ ١٦ ، ١٧

(٢١) ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٧٩/٦

سعيد عاشور ــ اوربا في العصور الوسطى ــ ٤٩٨/٢ .

(٢٢) Provençal., op. cit., P. 275.

(٢٣) Ibid., P. 274.

(٢٤) عبد الواحد المراكشي ــ المعجب ــ ص ــ ٨٦

(٢٥) المقري ــ نفح الطيب ــ ١٣/٤ ــ ١٤

ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٤٩/٤ ــ ١٥٠

(٢٦) المراكشي ــ المعجب ــ ص / ٨٨ ــ ٨٩

المقري ــ نفح الطيب ١٧/٢ ــ ١٨

الضبي ــ احمد بن يحيى بن احمد

بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ــ ص ــ ٢١

ابن الاثير ــ الكامل ــ ٧ ص ٨٤

(٢٧) ابن الآبار ــ الحلة السيراء ــ ٦٧/٢

المراكشي ــ المعجب ــ ص/٨٩

ابن بسام ــ الذخيرة ــ ق١ م ١ ص ــ ٤٢

(٢٨) ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٥١/٤

الضبي ــ بغية الملتمس ــ ص ٢٤

(٢٩) المراكشي ــ المعجب ، ص ٩٠ Dozy., Histoire., P. 710.

(٣٠) محمد عبدالله عنان ـ عصر الطوائف ـ ص ـ ١٤

(٣١) ابن بسام ـ الذخيرة ـ ق ١ م ٢ ص ١٣ ـ ١٤
المراكشي ـ المعجب ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠
الضبي ـ بغية الملتمس ـ ص ٢٨/٢٩

(٣٢) المراكشي ـ المعجب ـ ص ـ ٣٠

Dozy., op. cit., P. 718.

(٣٣) المقري ـ نفح جـ ٤ ص ٤٤/٤٨/٤٩

ابن خاقان ـ مطمح الانفس ص ١٦ / ١٧
شكيب ارسلان ، آخر بني مراج ص ـ ٨٣
ابن سعيد المغربي ـ المغرب في حلي المغرب ٢/٥٥

Dozy., Hist des Musulmanes., P. 720.

(٣٤) ابن عذارى ـ البيان ـ ٢/١٥٢

Dozy., op. cit., 247.

عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين ص ـ ٣٦٣

(٣٥) المراكشي ـ المعجب ـ ص ١٢٣

Dozy ., op . cit , P. 704

(٣٦) صلاح خالص ـ اشبيلية في القرن الخاص الهجري ص ـ ٢/٢١

(٣٧) صلاح خالص ـ السابق ـ ص ـ ٢١

(٣٨) ابن حيان ـ المقتبس ـ ص ١٨٩

صلاح خالص ـ اشبيلية ـ ص ٢١

(٣٩) محمد عبدالله عنان ـ دول الطرائف ـ ص ١٣

المعز لدين الله وجيل جديد من كتامه

الدكتور اقبال موسى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي .
بكلية الآداب - جامعة الجزائر

لقد عانت الخلافة الفاطمية في بداية عهدها في بلاد المغرب أزمة ثقة أعقبت حادث التصفية الذي راح ضحيته الداعي الشيعي واخوه وانصارهما من قادة كتامة التاريخيين : الأخوان عروبة وحباسة ، والقربيان : ابو زاكي وماكثون .

وكذلك عانت أزمة أخرى كانت ذات طابع قبلي ومذهبي أعقبت حركة النكارية بقيادة ابي يزيد شيخ المؤمنين .

وكانت الازمة الأخيرة أكبر حدث امتحنت أثناء الخلافة الفاطمية بخطر الزوال وامتحن الأولياء وأنصار الدولة من كتامة وطبقة الفتيان الصقالبة بخطر التلاشي كقوة عسكرية نشيطة ومترابطة .

وقد وضح للمهدي عقب الازمة الأولى ، أي خطأ جسيم ارتكب في حق بناة الدولة والرجال المؤسسين للنظام ، كما وضع لخلفائه اثناء وبعد المأزمة الثانية ما صار اليه وضع هؤلاء الرجال المؤسسين ، بسبب سياسة التصفية ، والتجاهل والاهمال ، واصطناع وجوه جديدة ممن مسهم الرق من غير أولى الطول والعصبية . واذا كان النكارية بقيادة ابي يزيد ، قد هددوا النظام القائم لفترة ، انتقاما لحادث سقوط الامامة الرستمية وردا

على الحملات الانتقامية ضد مراكزهم السياسية والثقافية في افريقية وجبال نفوسة . وتسببوا بحركتهم التخريبية في احياء فصل محزن من الصراع القديم بين البتر والبرانس ، فان الحقيقة التي ظهرت جلية بعد انتهاء هذا الصراع أن هؤلاء النكارية لم يستطيعوا رغم بعض الانتصارات ان يصلوا الى هدم ما بنته عصبية الدولة التاريخية ــ وهم قبيلة كتامة التي هب رجالها جميعا على ما في نفوسهم يدافعون عن الشرعية ويبذلون جهدا لكي يبقى النظام مستمرا وسليما .

واذا كان الخليفة القائم قد غدا أسيرا لنبؤة حسب رواية النعمان بن محمد ، ومن ثم صمد فترة في المهدية حتى « مات محصورا وفي نفسه مقهورا » [١] ، فان حجته ولي عهد المسلمين المنصور [٢] استطاع بمساعدة كتامة أن يصفي هذه الحركة التخريبية ويعيد الدولة هيبتها ، وللخلافة تكاملها السياسي ، بفضل جهوده المركزة ، واعتماده على عصبية الدولة من جند كتامة الذين بدأ يعيد اليهم اعتبارهم كحماة للنظام ، وكشركاء في المسؤولية وقد اتضح كل ذلك عندما خاطبهم اثناء نعي أبيه القائم،

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١٣ ، وعندما استشير اثناء الفتنة في امر جرى ، ترك الحرية لشيوخ كتامة ، وقال للنعمان « مايمنعني من الراي أحملهم عليه وان كنت أرى وجه الصواب والا يكون عناء » . وعن هذا القول عقب النعمان بقوله « كان القائم قد علم أن امر تلك الفتنة لا ينقطع علي يديه » .

(٢) تنبأ المهدي قبل ميلاد المنصور بأنه الذي يقضي على ابي يزير بقوله « صاحب هذا الامر في هذا الوقت حمل في بطن امه وعن قريب بولد» : النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦١٩ . .

وعندما سئل المنصور بعد انتهاء الفتنة عن سبب فتور القائم ونحاجه هو في تصفية الحركة أنكر السؤال ، وقال « ما كان للقائم ان يفعل الا ما قد فعله ، ولا كان لي أن أفعل الا ما فعلت » . وعن هذا القول عقب النعمان بن محمد بقوله « فقام المنصور بالامر في أوانه ، وتركه القائم لانصرام امره وانقطاع زمانه » . انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١١ ــ ١٢ .

وغداة انتهاء حركة النكارية بقوله « يا أهل دعوتنا يا أنصار دولتنا يا كتامة . أحمد والله واشكروه على ما خصكم به من نعمته » [٣] .

وكي يبعث عندهم مزيدا من الاعتزاز بأنفسهم ، ومن الارتباط بالدولة ، ويضمد جراحهم مما أصابهم أثناء الفتنة وقبلها ، ولكي ينسيهم ما حصل لقادتهم التاريخيين في عهود خلت أوضح أمام الملأ بقوله « اللهم اني أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء » [٤] .

والذي يبدو أن المنصور الفاطمي لم يكي مجاملا لكتامة ، ولا مبالغا في الثناء على جندها عندما نوه بأهميتهم أثناء حركة النكارية ، لان دورهم اثناء هذه المحنة كما يسميها المعز لدين الله كان رائعا [٥] . فلم يشأ رجالها رغم قوتهم ، أن يستغلوا الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الخلافة عهدي القائم والمنصور لتحقيق أهداف خاصة ، أو لشفاء ما في نفوسهم من جراح بل وقفوا ضد بعض الانتفاضات المضادة للخلافة اثناء الفتنة ، هذا مع ان مبررات تحركهم ضد القائم خاصة كانت كثيرة لأنه المسؤول عن الكثير مما حل ببلادها ، وبرجالها التاريخيين من كوارث ومن نكبات . وعلى نهج المنصور الذي كان عهده ارهاصا ببداية حقبة ازدهار لكتامة مرة أخرى ، سار حجته ولي عهد المسلمين ، المعز لدين الله رابع خلفاء الدور المغربي ، وأول خلفاء الدور المصري للخلافة الفاطمية.

فقد اغتنم فرصة نعي ابيه المنصور وخص جند كتامة بقول معبر منه

---

(٣) العزيري الجوذري : سيرة الاستاذ جوذر ٥٥ وما بعدها .

(٤) نفسه ، وعن خطبة المنصور ينعي أباه انظر : ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد ٢٢ ــ ٢٣ .

(٥) المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ٧٩ ، وفية اشارة الى هذه الحقيقة (ثم وصلت كتامة فنزلت بقسطنطينة فاخاف أبو يزيد) . النعمان : المصدر السابق ٢ ، ٦١٦ ــ ٦١٧ .

« أخص اولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك وموالاة اوليائك ومعاداة أعدائك » (٦) وقد اردف هذا القول بالعمل فاسبغ عليهم نعما ، ومنحهم امتيازات (٧) ، وأعاد الى قادتهم المسؤولية ، والى بلادهم اعتبارها في نظر الدولة ، بل أكثر من الاتصال بمختلف فئات كتامة ليسألهم عن احتياجاتهم ، وعن وجهية نظرهم فيما يجري ، وليشرح امامهم ما تطلبه الدولة منهم في هذا العهد بحيث دخلت كتامة بولايته بداية عصر جديد هو بحق عصرها الذهبي الثاني الذي لم تعرف نظيرا له الا في فترة قصيرة من حياتها السياسية بعد قيام الخلافة في بلاد المغرب ، ثم بعد انتقالها الى مصر .

ومن دراسة أهم وثيقة فاطمية معاصرة وهي كتاب « المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات عن الامام المعز لدين الله وعن آبائه صلوات الله عليهم (٨) » التي سجلها عنه مجتهد الاسماعيلية ومؤرخ الدعوة معاصر المعز لدين الله وقاضيه على المنصورية والمهدية وسائر افريقية وهو النعمان بن محمد بن حيون التميمي نلاحظ : كيف أن المعز لدين الله لم يأل جهدا في خلق روح جديدة ، وفي التمهيد لجو جديد بين فروع كتامة ، بل سخر كل مواهبه الفذة وحيله وقد رأته الخاصة في الاقناع والتوجيه بل في التلبيس عليهم احيانا كي يشعرهم بأنهم في عهده كل شيء في نظام الخلافة كما كانوا ، وان العلاقة بينهم وبينها موغلة في القدم ، أو أبدية حسب تعبيره ، وقد وجدت لتبقى سليمة . « وهؤلاء

---

(٦) الجوذري العزيزي : المصدر السابق ٨٠ وما بعدها .

(٧) نفسه ١١٦ .

(٨) يوجد مخطوطات حتى الآن في عدة مكتبات عامة وخاصة وقد اعتمدت على مخطوط مكتبة جامعة فؤاد الاول المحفوظ تحت رقم ٢٦٠٦٠ وقد تضمنت هذه الوثيقة مجمل اراء واقوال وتقول ومواقف ، واجتهادات المعز لدين الله وقاضيه النعمان بن محمد .

كتامة أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا ، وكذلك يكون اعقابهم مع أعقابنا الى يوم الدين » [٩] .

وبين المعز لدين الله في مناسبة اخرى كيف ان رجال الدعوة الاسماعيلية ، وقادة الخلافة الفاطمية يعترفون بجهود قادة كتامة ، وباخلاصهم ووفائهم ، وتعلقهم بالولاء ، وبصبرهم في عصر المحنة ، بقوله « والله ماوفت أمة من الامم لنبي عن الأنبياء ، ولا لأمام من الأئمة ولا لملك من ملوك الدنيا ولا وفي لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم الا وقد تداخل أولئك الفشل واعتراهم الخلل وحال عليهم ملوك الدنيا واستأثروا غيرهم دونهم واطرحوهم واوقعوا بهم » [١٠] .

ومن ذا الذي يجزؤ على ادعاء مالكتامة من منزلة في الدواة ، او يدرك مالفرسانها من حسن الهيئة وجمال المراكب [١١] ، وقدرة على تحمل المكروه ، أليسوا هم الذين اشتدوا على اعداء النظام ، وحاصروا ابا يزيد ورجاله في أعالي الجبال حتى « أذاقوهم طعم الموت وأحلوهم محل الذلة واخرجوهم قسر بظباء السيوف وحد الرماح حتى ألحقوهم بفنن الجبال من أطراف البلاد ثم استنزلوهم منها قسراً وأبادوهم قتلا بنصر الله لوليه

---

(٩) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ورقة ٤ .

(١٠) نفســه .

(١١) نفسه : وبمناسبة الاحتفال بعيد الاضحى سأل المعز عن مجيء قادة كتامة من مختلف اي‌عمال لحضور المناسبة وعندما عرف أنهم جاءوا قال « بارك الله فيهم وكثر اعدادهم فما أسرني بهم وباحتفالهم وماحت الي اشخاصهم وازين في عيني مناظرهم » . ثم خاطب القاضي النعمان بقوله « أرأيت مثلهم في بهائهم وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم ، ربما أغالي فيهم لبى لهم فرد النعمان » هم كما وصفت عند الولي والعدو . اما رجال أبي يزيد فكانوا يقولون « اما ركوب كتامة وجمالهم فيه فما ندعيه، ولا ننازعهم فيه » . انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقتا ٢ ــ ٣ .

وبركة مقامه وسعادة جده واايامه » [١٢] .

ولقد كان المعز لدين الله يؤكد في كل مناسبة ، وحتى عن طريق القسم أيضا ما يكنه لرجالات كتامة من محبة وتقدير ويبالغ أحيانا فيصفهم بالأقربين وبالابناء ، والأخوة ، وبحزب الله وأنصاره وجنده وأحبائه. وهذه بادرة منه « أنتم البنون والاخوة والاقربون ما يعد لكم عندي أحد ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر وما ذلك الا لمالي في قلوبكم » [١٣].

ويقرر المعز في مجلس آخر أن استمرار كتامة جيله على الانتصار للدولة وخدمة أهدافها ان هو الاصدى لموقف الآباء والأجداد ، وامتداد طبيعي له فيقول « مانصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصركم لنا ، على ذلك مضى اولكم ، وعليه أنتم » [١٤] .

أما سلامة أخلاق رجال كتامة المقربين منه ، وبعدهم عن مظان الشبهة، وتنزهم عن التعرض لسير الناس بالدس لهم وبالطعن فيهم عند الائمة الذين كانوا يقربونهم وينادمونهم فقد كانت من دواعي اعجابه بهؤلاء الرجال ، على أساس أن غيرهم من أولياء الدولة وانصارها انما كانوا يتقربون الى الخلفاء بالمخامرة على غيرهم وبالوشاية بهم والطعن فيهم [١٥].

ومع أن المعز لدين الله حرص على ايجاد توازن بين أنصار الدولة والمخلصين للنظام بارضائه لطبقة الفتيان أيضا ، فانه كان صريحا وواضحا

---

(١٢) نفسه ورقتا ٢ ــ ٣ .

(١٣) النعمان : المصدر السابق ١ ، ورقتا ٢٨ ــ ٢٩ .

(١٤) (نفسه : ١ ، ورقات ١٠ ، ٢٦ ، ٢٩) .

(١٥) النعمان : المصدر السابق ١ ، ورقة ٧ وما بعدها . وهنا يشير النعمان الى مجاراة المعز لدين الله لاحد جلسائه من شيوخ كتامة ليظفر منه بشيء عن حالة غيره فلا يجد عنده غير حديث البر والاصلاح .

معهم عندما عرف أنهم نفسوا على كتامة مكانتها في الدولة [١٦] ، وفضلها وانتعاش أمرها بسبب اكثاره من مدح رجالها وثنائه عليهم دون غيرهم في أكثر المناسبات ، ولكي يقنعهم ركز كلامه معهم على بعض ما يميز كتامة عنهم في نظره ومنها أن كتامة كانوا أحرارا وفي وضعية طبيعية ومع ذلك استجابوا للدعوة ونصروها مختارين وضحوا بلدانهم واهليهم وهاجروا بدافع الاخلاص للمذهب الاسماعيلي والولاء للنظام ، ولثبوا على نهجهم رغم تغير الأحوال وتعاقب الخلفاء فهم « لا نظير لهم ولا سواء بهم [١٧] على حد تعبيره .

واذا فشتان في نظر رجال الدولة ، بين من يأتي للدولة طائعا مختارا وعن اقتناع ، وبين من تملكه عن طريق الشراء او الحروب في ظروف خاصة وتتعهده في كل وقت وحين [١٨] . ومع هذا الاعتراف بامتياز كتامة فان مكانة قيصر ومظفر من طبقة الفتيان الصقالبة وجوهر الكاتب الصقلي كانت لا تعد لها أية مكانة اخرى في واقع الامر خاصة في عهدي المنصور والمعز الذي تعلم في صغره الخط على يد مظفر الصقلبي [١٩].

ولقد أصبح وضع قيصر ومظفر في الدور المغربي للخلافة ، كما أضحى وضع جوهر في مصر فيما بعد محل غيرة من الأولياء بما فيهم

---

(١٦) وقد تجلى ذلك عندما خاطبوا المعز لدين الله بقولهم « فنحن يا امير المؤمنين فما ترى أنا قصرنا ، وقد كان لنا من العناد والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ، فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا » انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقات ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ .

(١٧) نفسه ١ ، ورقتا ٣ ـ ٤ .

(١٨) نفسه ، العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٤١ ـ ٤٢ وكان جوذر يشرف على بعضهم وقد بالغ مرة في عقوبة من انحرف منهم وسجنهم ولم يطلق سراحهم الا بعد تدخل ابي طاهر اسماعيل حجة القائم بأمر الله .

(١٩) (المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ١٠١ س ٨ ـ ٩) .

كتامة ، لأن قيصر ومظفر استبدا بشؤون الحكم [٢٠] • وتصرفا باستقلال في الرأي عن الخليفة المعز لدين الله ، وكانا طريقا اليه بالنسبة لكل من يريد أمرا حتى قادة كتامة وشيوخها كانوا يلتجئون اليهما ، ويواسطونهما في المهمات الصغرى والكبرى • وعندما شعر المعز لدين الله بالآثار السيئة لاستبدادهما وسمع أنباء عن قلق أنصار الدولة ورجالها ، ومن قول قيصر لأحدهم « انما تقضي حوائج الرجال اذا احتيج اليهم ، اما اليوم فليس لمولانا عدو يحتاج معه الى الرجال » نكبهما [٢١] وشهر بهما في بعض مجالسه ووصفهما « باللعينين » ونفى أن يكون لأي منهما سلطان عليه او على كبار رجال الدولة وشيوخها ، بل اعتبر التجاء الانصار اليهما أو الى أية واسطة أخرى لقضاء شأن مادي او معنوي من الامام يحط من قدرهم ويسيء الى سمعتهم وقد وضح ذلك في قوله « وربما تعلقوا بمن دوننا ليجعلوا ذلك وسيلة الينا ، لا والله ما جعلنا لأحد عليهم من ذلك من سبيل [٢٢] وبعد أن نهى المعز لدين الله أنصار الدولة عن الالتجاء الى استخدام اسلوب الوساطة واتخاذ الولائج للوصول الى سدة الامامة وحثهم على الاتصال المباشر به في كل حين مثلما جرت عادته من قبل معهم ، تظاهر بأنه كان دائما مستعدا لاستقبال وفودهم وقضاء حاجاتهم، وانه لم يرفض لأي أحد منهم طلب رؤيته في أي شأن من الشؤون الخاصة

---

(٢٠) (ابن خلدون : العبر ٤ ، ٩٦ ـ ٩٧ ط بيروت . ابن ابي دينار : المؤنس ٦٣ ـ ٦٤) .

(٢١) ابن خلدون : المصدر السابق ٤ ، ٩٦ ـ ٩٧ ، وقد امر بقتلهما سنة ٣٤٩ هـ . قارن ذلك بما ورد سهوا في سيرة الاستاذ جودر . ص١٥٧ تعليق ٣٠ ، وهو من تحرير المحققين .

(٢٢) النعمان : المصدر السابق ورقة ١٥٦ ـ ١٥٧ وقارن ذلك بما ورد ايضا في القسم الثاني من كتاب المجالس والمسايرات ورقة ٦٦٦ وما بعدها .

أو العامـــة (٢٣) .

ولادراك المعز لدين الله بأن كتامة امتحنت في عهد المهـــدي وزالت عنها الرئاسة الفعليـــة وتخطتها المسؤوليات المباشرة حتى حمل ذكرها ، وفني جيلها الاول في حروب الدعوة والتوسع ، وأثناء الفتن الداخليـــة ، بينما نشأت نواة جيلها الموالي ، بعيدة عن السلطة وعن المراكز الرئيسية في الدولة ، فقد أراد أن يعدل الحال ويرجح كفة الميزان لفائدتها ويعيـــد وضع كتامة سيرته الأولى ، حفظا لمبـــدأ التوازن بين العناصر المستبدة بشؤون الدولة واظهرهم صنهاجة وكتامة ثم طبقة الفتيان الصقالبة.واستهل اعماله في هذا الاتجاه ، بالبدء بتعيين شباب كتامة في الوظائف ، وتكليفهم بالمهمات وتوليتهم على الاعمال التي كان يليها آباؤهم واقرباؤهم من قبل، هذا مع قيامه بتوجيههم توجيها خاصا لفـــائدة الدولة . ولم يكن يشترط عليهم أثناء التكليف غير الطاعة والامتثال ، ورعاية حقوق الامام الفاطمي في ضرورة اطلاعه على كل ما يجري في ارجاء البلاد ويتضح ذلك من قوله لأحد ولاة كتامة « طالعنا بأمورك ما عسى أن تريد العمل به قبل أن تعمله فما اتاك منه فامض على ما نأمرك به تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة وتزول الحجة عندك » (٢٤) .

ولتخوف المعز لدين الله مما قد يظهر في عهده أيضا من حركـــات انفصالية قد يقوم بها بعض قادة كتامة ثأرا لما حل من قبل بآبائهم وأقربائهم، كان يوضح امامهم بأن ما حصل لرجالهم وشيوخهم في عهـــد المهدي انما كان يقصد به تطهيرهم من الذنوب وتربية غيرهم من العامة وبسطاء الناس حفظا للنظام ورعيا لمبدأ الانسجام بين اتباع الدولة وأوليائها .

« وان قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه ولا يسعنا ان نبقيه

---

(٢٣) نفسه : ٢ ، ورقتا ٥١٢ ، ٥٥٧ .

(٢٤) نفسه ٢ ، ورقات ٦٠٠ ــ ٦٠٣

فما ذلك منا فيه الا تطهيرا له وتمحيصا لذنوبه ، وكل ما تجري به أمورنا فيكم فهو صلاح لعامتكم (٢٥) .

ومبدأ الانسجام بين رعايا الدولة حرص المعز لدين الله على تحقيقه حرصا كبيرا حتى في المناسبات الاجتماعية أيضا . ومن ذلك انه أمر في ١ ربيع الاول ٣٥١ هـ ـ ٩٦٢ م باعذار الأطفال في كامل ارجاء الدولة بمناسبة ختان ابنائه عبدالله ونزار وعقيل ، وبتوزيع الهدايا والارزاق على سائر السكان في المناطق القريبة والبعيدة ومنها صقالية التي نالت من ألطاف الخلافة خمسين حملا (٢٦) .

وقد قصد المعز لدين الله أن تكون ايام الختان ـ التي استمرت شهرا ـ مناسبة افراح وسرور ووحدة مشاعر بين سائر السكان .

وقد اغتنم هذه الفرصة كي يستخلص العبرة من مغزى هذا الحدث أمام وفد من شيوخ كتامة وكان من بين أوائل الوفود التي حظيت بلقائه بعد انتهاء ايام الختان ، ثم ليؤكد امامهم مرة أخرى بأنهم البطانة والخاصة واساس وجود النظام واستمراره منذ عهد الاسلاف ، وان عليهم أن يصدروا في اعمالهم وفي علاقاتهم الخاصة مع بعضهم على نهج سليم غير ضار بسمعتهم ، او بمصالح الدولة التي كانت وما زالت تعتمد عليهم كقوة موحدة الأهداف بعيدة عن ريح النفاق والشقاق ، لتحقق أهدافها العليا على حساب الأمويين في قرطبة والعباسيين في بغداد ..

وكل هذه المعاني ضمنها في قوله للكتاميين « أنتم خاصتنا وبطانتنا واحب الخلق الينا لو اعتنمونا بسمع وطاعة وامتثال أمر ، وان كنا لانشك في حسن اعتقادكم لولايتنا وصفو نياتكم لنا ، ولكي الدنيا بما استمالت

---

(٢٥) نفسه ٢ ، ورقات ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ، ٥٨٤ وما بعدها .

(٢٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٤ ، النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦٠٣ وما بعدها .

كثيرا منكم بحطامها والهوى والحمية ربما مال بكثير منكم عن امرنا لا سيما ما يعتري بعضكم لبعض من الحسد والمنافسة حتى تصيروا في مواضعكم الى الحروب والقتل وهتك الحريم ، وذلك وان يشفى به بعضكم من بعض فانه مما يغمنا وينكينا فيكم وكان الواجب أن تدعوا ما تحيونه من شفاء غيظكم وبلوغ شهواتكم لما نحبه من حقن دمائكم وصلاح أموركم وبقاء نعمة الله عليكم » (٢٧) .

ان الذي يلفت النظر في احاديث المعز لدين الله وفي مجالسه الخاصة عن كتامة استخدام القسم لحملهم على التصديق ، والتكرار للتأكيد ، اما المبالغة في تصوير فضائل كتامة وميزاتهم، ووصفهم بمعدن الولاية (٢٨)، واما الحرص على مجيء وفودهم الى المنصورية في المناسبات الهامة (٢٩) وتبسطه في الحديث معهم عن وضعهم في الدولة وعن نظرتها اليهم ، واستطلاعه لمعرفة رأيهم في عمالهم واستفساره المستمر عن شيوخهم وشبابهم ان كانوا يواظبون على ارتياد المجالس الحكمية التي كانت تعقد في المساجد او في القصر ، لسماع الذكر والحكمة وعلوم آل البيت (٣٠).

فيستنتج منها : أنه لم يكن مطمئنا اليهم ، وأن رجال كتامة كان يعتريهم شيء من الفتور والتهاون في نصرة الخلافة الفاطمية ، وكان احيانا

---

(٢٧) النعمان : المصدر السابق ٢ ، ٦٦٦ وما بعدها .

(٢٨) ومع ذلك فقد وصفهم مرة بالسفلة في قضية خاصة عرفها من جوذري ، الذي كان « مثقفا على كتامة رؤوفا بهم لمكانهم في هذه الدولة الطاهرة » انظر : العزيزي الجوذري : المصدر السابق ١٢١ ــ ١٢٢ .

(٢٩) النعمان : المصدر السابق ١ ورقة ٢ ــ ٣ .

(٣٠) نفسه ٢ ، ورقتا ٥١٢ ، ٥٥٧ وعندما عرف مواظبتهم قال «هذا الذي نريده منهم ومن غيرهم مما فيه حظهم وصلاح احوالهم » ، اما هدفه من ذلك فقد اوضحه في قوله « نحب أن نجعل جميعهم أعلاما يهتدى بهم وسرجا يستضاء بنورهم وعلماء تقتبس الخلائق منهم » .

يخامر بعضهم الشك في المذهب الاسماعيلي ثم في حقيقة وجهـة الخلفاء الفاطميين ، وتصرفاتهم تجاه القيادات المحلية ، ولذلك اجتهد المعز لدين الله بما أوتي من قدرة ولقانة كي يحاصرهم ويجعلهم في اطار المذهب وفي الخط السياسي الذي كان يريده كي يبقوا عدة لما يعتزم القيام بـه من مشروعات ضد العباسيين والروم البيزنطيين ، «لا ترتاب بوافينا ولا تشكوا فيما نأتيه ونذره من أموركم كيفما جرت الأحوال » [٣١] .

وزاد هذا المعنى توضيحا وتأكيـدا في مناسبة أخرى بقوله « أحب لكم ولغيركم خاصة ولجميع من تمسك بولايتنا عامة ، ان يكون ما تكنه صدوركم لنا موافقا لما تنطق به ألسنتكم عندنا » [٣٢] .

ولما كان المعز لدين الله يشتد أحيانا على كتامـة في بعض مجالسه ويعنف ويؤنب ويلمح بالتهديد والوعيد فقد كان جليسه ومدون أحاديثه، النعمان بن محمد ، يتدخل أحيانا ، لتهدئة الموقف وتلطيف الجو ، ومن ذلك ان المعز لدين الله شعر مرة بتأثر الكتاميين مما سمعوه منه ،فاستدرك أمامهم بما يبعث الاطمئنان في نفوسهم وقال للنعمان « لو لم يكونوا عندي بمحل من نحب صلاحه ونشتهي رشـده ، لم أقل لهم مثلما قلت ، ولولا ما أخشاه عليهم لعرفتهم مكانهم عندي ، وكيف محلهم من قلبي ، ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله ، ولقتلت من يجب في صلاح الدولة قتلهوأبقيت من ينتفع فيها به ، ولكني حملت الامر على ما اوجب الزمان لي ، وجرت به عادة الله الجميلة عندي » [٣٣] . وامام جموع كتامة الذين أتوا بأعداد

---

(٣١) نفسه ٢ ، ورقة ٥٨٤ .

(٣٢) نفسه ٢ ورقة ٥١٢ .

(٣٣) نفسه ٢ ورقات ٦٧٠ ــ ٦٧٣ وكان تعقيب النعمان بن محمد علي احاديث المعز لدين الله مع شيوخ كتامة قوله « لقد وعظ المعز عبيده وأبلغ في الموعظة ، ونبههم ، وتفضل عليهم » .

كبيرة من بلادهم للاشتراك في تأديب ابن واسول وانهاء انفصال سجلماسه السياسي والمذهبي أشار ضمنا الى ظاهرة تثاقلهم من قبل وعدم استجابتهم لنداء اسلافه من قبل على هـذا النحو الهائل ، عندما استصرخوا ضد ثورات زناته ، وحركة الذكارية بقيادة أبي يزيد . بقوله « بارك الله فيكم وأحسن صحابتكم ، والخلافة عليكم فقد صدقتم ظني فيكم وأملي عندكم ، وانتم من معدن البركة وعنصر الخير بكم بدأ الله اظهار امرنا وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته وقد علمت مسارعتكم الى ما ندبتكم اليه واجابتكم لما اردتكم له ، وأرجو ان تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ويرفع الله درجاتكم ويعلي ذكركم » (٣٤) .

وكي يعتذر اليهم عما دبره ، ويوصيهم بالفتيان خيرا ، ويبرر أمامهم تقديم جوهر الصقلي للقيادة على حملة سجلماسة دون أحد رؤسائهم البارزين ، قال « لولا السنة ما قدمت عليكم أحدا منكم ولا من غيركم ، اذ كل واحد منكم يستحق عندي أن يكون المقدم ولكن لا يصلح الناس الا برئيس ، وقد وليت عليكم مني شخصا أقمته مقام نفسي وجعلته معكم كأذني وعيني ، احسنوا عشرة بعضكم وعشرة من تصحبون من غيركم واحسنوا معاملة عبيدي فهم أخوتكم وموالاتي تجمعكم » (٣٥) .

والذي يبدو أن ظاهرة التثاقل ، وعدم الاستجابة بالقدر الكافي قبل عصر المعز شيئان لا ينازع فيهما بعد كل التطورات التي مرت بالدولة وبعصبيتها التاريخية عهدي المهدي والقائم ، ومن المسلم بـه أن مستوى الحماسة للدعوة الاسماعيلية ولنظام الخلافة الفاطمية لا يمكن ان يظل على حاله نظرا لاختلاف وجهة نظر الخلفاء الفاطميين حول انصار الدولة ولتقلب أهواء القبائل المغربية .

---

(٣٤) نفسه ١ ، ورقة ٢٦ وما بعدها .

(٣٥) نفسه ١ ، ورقة ٣٠ ـ ٣١ .

وادراك المعز لدين الله لما حصل هو الذي حمله على تقصي أخبار كتامة في بلادهم وتتبع ما طرأ عليهم من تحول في نظرتهم نحو الدولة، ولقد كانت فرحته شديدة عندما علم عن طريق وفودهم الكثيرة .

ان الطاعة للامام المعصوم من عترة الرسول هي الظاهرة العامة التي يستوى فيها الكبير والصغير ، والسيد والمسود ، وان الكتاميين يقسمون باسمه ذكورا واناثا شبابا وشيبا ، وسادة وعبيدا . وما ذلك فينادون بنينا وخدمنا وعبيدنا ، والله ما تحلف أطفالها وعبيدنا وخدمنا الا بحق مولانا وفضله ولا على السنتهم ولا لهم غيره ولا يعرفون لهم مولى سواه » (٣٦).

ولأن هذا الاعتراف الصريح أعطاه اطمئنانا لما يجري في مجتمع كتامة الصغير وزوده بمادة طيبة يستغلها في الحديث مع وفود أخرى فقد أوضح في مناسبة أخرى مدى تعلق سكان منطقة كتامة بجميع فئاتهم بالولاء لنظام الخلافة العلوية الفاطمية بقوله « والله والله ما يتخالجني الشك في اعتقاد صغيركم وكبيركم وحرمكم وعبدكم وذكركم واناثكم » (٣٧) .

وان صرفنا النظر عن تفنن المعز لدين الله في اصطناع الأساليب ، والمواقف المختلفة للتأثير على كتامة واشعار رجالها بأنهم وحدهم المسؤولون عن مصير الدولة ، والقوامون على بقائها وسلامتها ، وعلى مد نفوذها في الآفاق المشرقية البعيدة ، فانه يلاحظ أيضا أن المعز لدين الله في اطار هذه السياسة ، جرى في معاملته لهم أحيانا على غير الرسوم المألوفة مع غيرهم بقصد التأنيس ، وتأكيد المواقف اذ تشير بعض النصوص (٣٨) الى

---

(٣٦) نفسه ١ ، ورقات ١٥٠ ــ ١٥٣ .

(٣٧) نفسه ١ ، ورقة ١٥٤ وما بعدها .

(٣٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٥ ، ماجد عبد المنعم : أصل حفلات الفاطميين بمصر ٢٥٣ ــ ٢٥٤ مقال صحيفة معهد الدراسات ــ مدريد ــ مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ م .

أنه دعا بعضهم الى الاجتماع به في يوم شات وسمح بادخالهم عليه من غير الباب الذي جرى الرسم بدخول العامة ، ورجال الدولة منه على الخلفاء قبله ، وكان لحظة دخولهم ، على هيئة متواضعة ، منصرفا الى كتابة رسائل الى الدعاة في المشرق ، والى الولاة والعمال في المغرب ، يجيبهم فيها بنفسه على بعض مشاكل الدعوة الاسماعيلية [٣٩] ومصاعب الحكم الفاطمي في بلاد المغرب [٤٠] .

وكان هدفه من هذه الحركة التمثيلية أن يشعرهم بأنه عندما يحتجب عن رجاله لا ينصرف الا لتدبير شؤون المجتمع ، ولما يحفظ الدعوة ، ويضمن استمرار الدولة ، كل ذلك مع زهد كامل في شتى مباهج الدنيا وملذات الحياة الباذخة . وفي ذلك ايماء الى أن رجاله المقربين منه يجب عليهم بمقتضى مبادىء المذهب الاسماعيلي ــ اسوة بأمامهم ان يكرسوا جهودهم لخدمة المصلحة العامة ، ولتخفيف المشاكل عن الضعفاء ، ولاشاعة جو العطف والرحمة على البؤساء ، حتى يشعر الجميع بالاطمئنان وبالراحة في ظل الخلافة العلوية العادلة وإلا يتيحوا لانفسهم ولحياتهم الخاصة الا قدرا مما تستحقه في نطاق القصد والاعتدال خاصة في أمر النساء[٤١]

(٣٩) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقات ، ٣٣١ ، ٣٣٦
G. Jarcain la Monde ohentoile de 395 - 81 P. 155.

(٤٠) نفسه ١ ، ورقات ١٧٩ ــ ١٨٣ ، ٢٠٣ ــ ٢٠٧ ، ٢٩٤ وما بعدها .

(٤١) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٥ ــ ٩٦ ومما قاله لهم « افعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما افعله ولا تظهروا التجبر والتكبر .... وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينشر العدل ، واقبلوا بعدها على نسائكم ، ولا تشر هوالي التكثير منهن ... فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . وأعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت ان يقرب الله علينا امر المشرف كما قرب امر المفرب بكم » .

ان جهود المعز لدين الله في سبيل تقويم سلوك الكتاميين ،ومواعظه الكثيرة بهدف توجيههم ، وأحاديثه في مجالسه الخاصة عن كتامة ومبالغته في الثناء عليها وفي اطراء اخلاف رجالها ، ونشاطه من أجل بث روح جديدة في نفوسهم ، وخلق مناخ ملائم في ربوعهم ، قد أثمرت في نهاية الامر ، وآنت تمرها شهبا ، اذ هيأت لظهور نواة جيل جديدة من كتامة يمتاز بميزتين بارزتين هما :

١ ــ الاعتزاز بماضي الاسلاف في مجالي نشر الدعوة ، وتوجيه حركة التوسع في بلاد المغرب •

٢ ــ ثم الادراك الكامل لمدى أهمية استمرار الخلف على سيرة السلف ، وترسم طريقهم واحياء دورهم من جديد ، وذلك بالعمل على دعم مسيرة الدولة ، لتدرك في عصرهم أهدافها في عالم مصر ، وغيره من بلاد المشرق العربي الاسلامي ، بعد أن عمل اسلافهم من قبل ، على انجاح حركة الدعوة الاسماعيلية • ونشرها وتعميمها ، ثم تحويلها الى نظام دولة مستقرة ، وخلافة جامعة في بلاد المغرب وملحقاتها •

واذا كان الجيل الأول من كتامة ، قد زانه قادة رواد مثل عروبة بن يوسف والي تاهرت والجزء الغربي من الخلافة الفاطمية في عهد المهدي ، وأخيه حباسة قائد فتح طرابلس ومساعد القائم بأمر الله ، في قيادة الحملات التمهيدية التي وجهت لاستطلاع اوضاع مصرالاخشيدية• وابى مديني بن فروج اللهيص والي برقة ومنطقة الاطراف مما يلي مصر وأبي زاكي تمام بن معارك الأجاني أخص مساعدي أبي عبدالله الداعي الشيعي • ثم عمه ماقنون بن ضبارة والي طرابلس الغرب ، فان جيل كتامة في عهد المعز لدين الله برز منه قادة ساروا على نفس الخط واستعادوا سيرة اسلافهم في ميادين نشر الدعوة وتوجيه الحرب وتسيير الادارة ،ومن بين هؤلاء : ابن عطاء الله والي قابس ، وصولة متولي ديوان خراج افريقية ، وعبدالله بن يخلف عامل طرابلس المستقل بشؤونها عن نفوذ

الزيريين ، وعسلوج بن الحسن الدنهاجي أخص خواص المعز لدين الله ولذلك اطلعه على سر النص على حجته وولي عهـده ابنه عبدالله (٤٢) ، وجبر بن القاسم الكتاني ، الذي بلغ منزلة كبرى في مصر لدرجة أنـه ولى شؤون الدولة نيابة عن الخليفة العزيز بالله منصرفة لقتال القرامطـة وافتكي الشرابي ، أبو علي جعفر بن فلاح أبي مرزوق ، مساعد جوهـر الكاتب في قيادة أضخم حملة ناجحة وجهت ضد مصر الاخشيدية (٤٣) ، الذي أدرك هو الاخر مجدا كبيرا في بلاد المغرب ثم في مصر بعد الفتـح ويبدو أن ما كان بينه وبين جوهر من منافسه في بلاد المغرب تجديد في مصر ، ولذلك أبعده جوهر بوصفه القائد الآمر الى بـلاد الشام برسم الفتح وتتبع فلول الاخشيدية والكافورية ، وتركه هناك ـ في دمشق دون نجدة رغم علمه بتحرج الموقف بسبب قوة الاحلاف المغامرين (٤٤) .

ولشهرة جعفر بن فلاح كقائد محنك درب ، كان أحد الجعفريـن اللذين ألبسهما ابو القاسم محمد بن هاني شاعر الدعوة الاسماعيلية برود مدحه حيث يقول فيه بعد أن رآه :

كانت مسألـة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فـلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري (٤٥)

---

(٤٢) العزيزي الجوذري : المصـدر السابق ١٣٩ س ١١ ، ابن ابي دينار : المصدر السابق ٦٣ .

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١ ، ٣١٥ ـ ٣١٦ ط المناهل ـ ابن خلدون : المصدر السابق ٤ ـ ٦٧٣ ـ ٦٧٤ حسن ابراهيم حسن : تاريـخ الدولة الفاطمية ١٥٣ هامش ١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيـان ١ ، ١١٣ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ١ ، ٣١٧ ط ٢ ، ١٩٦٥ ، مفاخر البربـر (المجهول) ٥٧ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ٤ ، ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤٤) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ١ وما بعدها ، ابن تغري بردي: المصدر السابق ٤ ، ٣٢ وما بعدها جمال سرور النفوذ الفاطمي في الشام ١٧ وما بعدها .

وكان الشاعر الدمشقي ، أوضح بيانا واكثر تأثيرا عندما رثاه بعـد موته بقوله :

يا منـزلا عبث الزمـان بأهلـه فأبادهم بتفـرق لا يجمـع
اين الذيـن عهدتهم بـك مسرة كان الزمان بهم يضر وينفع (٤٦)

ومن بين أشهر قادة هذا العصر أيضا : أفلح بن ناشب عامل برقـة منذ سنة ٣٤٢ هـ /٩٥٣م (٤٧) وقد ادرك هو الاخر في برقة مجدا كبيرا ، واشتهر بين قادة الخلافة حتى طمحت نفسه لمنافسه جوهر القائد الذي كان أول من مارس مهمات واختصاصات الوزيـر (٤٨) دون تلقيب ، فأبى أن يترجل له انفة واستعلاء بنفسه رغم أن جميع رجال الدولة وأنصارها بما فيهم رجال البيت الفاطمي ، كانوا كما رسم المعز لدين الله ، يترجلـون لجوهر وحاول بتلطف مع الخليفة المعز ، أن يعفيه من هذا العمل الثقيـل

---

(٤٥) ابن تغري بردي : المصدر السابق ٤ ، ٣١ هامش ٣ ، ابن خلكان: المصدر السابق ١ ، ١١٣ ، الجيلالي : المرجع السابق ١ ، ١١٨ .

(٤٦) ابن تغري بردي : المصدر السابق ٤ ، ٥٨ ـ ٥٩ .

(٤٧) ابن ابي دينار : المصـدر السابق ٦٣ . القلقشندي : صبـح الاعشى ٣ ، ٣٤٩ ، لمعة من اخبار المعز (المجهول) ورقة ٤ . وقد وصف أفلح بموله المعز وغلامه مما يشعر بأنه قد يكون من الفتيان الصقالية . ويبدو أنه من كتامة ، وهو احد اخوة ثلاثة واصغرهم ايضا : فأكبرهـم فيما يبـدو هو الذي ورد في بعض النصوص باسم الحكم بن ناشب (ناسب) الذي عينه الداعي الشيعي نآئبا عنه في قلعـة ايكجان غـداة مغادرته اباها بعد حدوث قتته الى قلعة تازروث . وكانت مهمته رعاية انصار الدعوة الاسماعيلية في ايكجان . واوسطهم هو جبر بن ناسب الذي ازدهر في عهد المهدي ، وهو الذي تولي باذنه قتل ابي العباس المخطوم بتسع عشرة طعنة بالرمح انظـرا : ابن عذارى : المصـدر السابق ١ ، ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ، النعمان ـ افتتاح الدعوة ورقة ٦٢ .

(٤٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٣ .

على نفسه لقاء تعويض مادي ضخم ، ولما أشعر بالرفض ، وبضرورةالالتزام بما رسم نحو جوهر امتثال للامر ، على مافي نفسه ــ طاعة للخليفة ،وترجل لجوهر وقبل يديه (٤٩) •

وبسبب نشاطه الجم استقر الامن والنظام في منطقة برقة التي كانت معبرا الى مصر كما أخلد عرب الاطراف من ناحية مصر ، الى الراحة •

واستقرار الامن النظام انعكست آثاره الايجابية في النشاط الثغري ضد موانىء البحر المتوسط التابعة للروم •

ومن ميناء طينة على ساحل برقة انطلقت النيجدات الفاطمية الـى مسلمي جزيرة آقريطش الذين هددوا من طرف الامبراطورية البيزنطية•

ووجود أفلح كان بدون شك مفيدا للحملة التي مرت ببرقة وفتحت أثناءها مصر وضمت الى بلاد المغرب (٥٠) •

ولقد كانت صلات أفلح برجال الدولة وبالاستاذ جوذر ، ثم بالخليفة المعز لدين الله قوية ومتينة لدرجة أن الاستاذ جوذر على ما بلغه من قيمة وشأن ونفوذ في الدولة المعز لدين الله لما طلب من أفلح ارسال عشـرة

---

(٤٩) لمعة من أخبار المعز لدين الله ورقة ٤ ، خ مكتبة جامعة فؤاد ١ رقم ٢٢ ، ٢٤٠ ، القلقشندي المصدر السابق ٣ ، ٣٤٩ ، ابن ابي الضياف: اتحاف أهل الزمان ١ ، ١٢٦ ــ ١٢٧ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافـة الفاطميين ٢٤٥ .

(٥٠) النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ورقة ٤١٧ وما بعدهـا ، العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٩٥ تعليق ١٠١ ، ابن الاثير : المصدر السابق ٨ ، ١٩٦ (أحداث ٣٥١ هـ) ، الدشراوي : قضية اقريطش في عهد المعز لدين الله ٢٧ وما بعدها ، انظر : عن هذه النصوص التي اقتبسها الدشراوي من نسخة خطية لكتـاب المجالس والمسايرات كانت في حوزة المرحوم حح . عبد الوهاب : حوليات الجامعة التونسية عدد ٢ لسنـة ١٩٦٥ .

جمال من برقة ، وأرسل اليه ضعفها اي عشرين ، تحرج من رد ما زاد على الطلب ، ومن مراجعته في هذا الشأن ، وتطلب الأمر عرض الوضع على الخليفة نفسه لأخذ رأيه ، فيما اذا كان يمكن للأستاذ جوذر أن يرد مثل هذه الهدية آلى أفلح فكان توقيع الخليفة ـ بالموافقة دون تردد أو ابطاء [٥١] .

ومثل ذلك لا يعني الا التقدير المتبادل ، والأهمية الكبرى التي كان يحظى بها أفلح بن ناشب في نظام الخلافة وبين ولاة آلدولة في عصر المعز لدين الله ، وفي شطر من عصر ابنه العزيز بالله اذ كان أحد الثلاثة الذين طلبوا من المعز لدين الله في أخريات حياته ، أن يقضي اليهم بسر النص ، اي بقضية تعيين حجته من بعد وفاة ابنه الامير عبدالله في مصر [٥٢].وبلغ من قيمته وشهرته ، أن غدا ضمن ممدوحي ابن هانيء الافريقي ، شاعر القصر الفاطمي [٥٣] .

ان هؤلاء القادة وامثالهم ممن لم نتعرض لذكرهم ، وازد هربهم النصف الاول وشطر من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانوا حقيقة ، نتاج عصر وثمرة جهد فكري بذله المعز لدين الله بسخاء ، وتفان في سبيل تحقيق الأهداف العليا للاستراتيجية الفاطمية ، ولاحساس المعز لدين الله بضخامة الجهد ، وأهمية الرجال خاطبهم بقوله :

---

(٥١) العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٩٥ .

(٥٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٢٢٩ س ٩ط ١٩٦٧ وعندما كان يأتي افلح الى القاهرة ، كان يستقبل استقبالا فخما ولقد استمر واليا في برقة حتى بعد سنة ٣٧٩ هـ . انظر ص ٢١٦ ، ٢٤٩ من اتعاظ الحنفا .

(٥٣) الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ١٩٣ هامش ١ ، اليعلاوي: قصائد لابن هانيء لم تنشر حوليات الجامعة التونسية ، وقد وصف افلح هنا بقاضي برقة خطأ ،ومن شعر ابن هانيء نتبين انله اپنا يسمى محمدا .

فوالله ما هيأ الله لأمة من الأمم ماهيأه لكم ، ولا فتح على احد مثلما فتح فيه عليكم وأن أمركم معنا لما فيه برهان لمن تأمله ، ودليل على امامتنا ، وذلك لطول صحبتكم ، آباءنا ، اجدادكم مع أجدادنا ، وآباؤكم مع آبائنا ، وانتم معنا وكذلك يكون أعقابكم مع أعقابنا ،لايموت أحد حتى يخلف من ولده الجماعة ممن يخلفونه وبدون مكانه ، ويفضلونه ويسعدون بولايتنا ، ويشرفون بطاعتنا ، ولأنت اليوم بما نلت من رضانا عنك أفضل من أبيك بالأمر مع آبائنا ، وان كانت السابقة له والفضل والجهاد ، فما امة من الأمم كانت هكذا مع أئمتها قبلكم مثلكم ، وما ذلك الا للحق الذي نحن عليه (٥٤) .

ان المعز لدين الله من خلال هذا القول ، بمن على كتامة بسبب ما أدركوه من مجد بسبب تعلقهم بالولاء . ويوضح أن أساس التفاضل بين الاجيال انما يكون بالجهاد الذي أراده مبدأ يتمسك به الكتاميون في عهده ، كما وضح ان خلاص كتامة جيله ، وفضلهم ، وتعلقهم بالولاء الذي ورثوه عن آبائهم . واولي السابقة منهم ، انما يقوم برهانا ساطعا على أحقية الفاطميين في الامامة ، وعلى شرعية حكمهم لسائر المسلمين .

وهكذا لم يبق أمام كتامة بسبب التعبئة المعنوية ، والتنظيم المادي ، الا ان يتصرفوا وفقا لما وصل اليهم وضعهم في الدولة في عهده ، ويترجموا أقوال المعز ، حول أهميتهم وفضلهم واعتماد الدولة عليهم ، الى حقيقة واقعية ، والى تصرفات فعلية ، وفي هذا الصدد تشير بعض النصوص ، الى أن المعز لدين الله نفسه واجه موقف الرفض والاعتراض من شيوخ كتامة

---

(٥٤) النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٣٢٩ — ٣٣٠ ،واكد هذا المعنى في مناسبة أخرى بقوله « ولقد سبق من آبائكم مع الآباء واجدادكم مع الاجداد ، من يقول الناس انهم سبقهم أفضل منكم ما أقول أنا الا أنكم أفضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به في أيامي ورحمتي وحياتي انظر : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦٧٠ وما بعدها .

جيله ، عندما رغب منهم ، واقترح عليهم قبول تعيين عمال (٥٥) المصدقات يقيمون في بلادهم ليكونوا مندوبين عن الخليفة في جمع الاموال والزكوات والاشراف على ارسالها الى دار الخلافة في المنصورية للاستعانة بها في تحقيق مشروعات الدولة في المشرق • وكانت الاستعدادات جارية لتجهيز حملة جوهر الى مصر الاخشيدية (٥٦) ، والنية معقودة منذ فترة على اتخاذها مقرا دائما للدولة الفاطمية للاشراف من قرب على شؤون المشرق علي والنضال ضد العباسيين ، والروم البيزنطيين •

وعندما استفسر المعز لدين الله ، شيوخ كتامة الذين حضروا بناء على طلبة عن حقيقة قولهم وما نقل اليه عنهم (٥٧) وكان ممتطيا صهوة جواده قالوا : « نعم هو جواب جماعتنا ، ماكنا يامولانا بالذي يؤدي جزية تبقي علينا » •

وبهذا برروا موقفهم المعارض لاقتراح الخليفة على أساس تاريخي واضح طالما تغنى به هو في مجالسه الخاصة معهم •

ومعنى كل ذلك : أن الكتاميين فهموا اقتراح الخليفة على أنه محاولة اذلال لهم ، وحط من قيمتهم ، وقضاء على بعض امتيازاتهم التاريخية

---

(٥٥) ونص كلامه كما نقله رسوله « يا اخواننا : قد راينا أن ننقذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويتحفظونها علينا في بلادهم ، فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله » انظر : المقريزي : اتعظ الحنفا ١ ، ٩٨ .

(٥٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٧ . وكان خفيف الصقلبي صاحب الستر ، وهو رسول المعز لدين الله الى شيوخ كتامة .

(٥٧) ومما رووه على خفيف الصقلبي قولهم « قل لمولانا : والله لافعلنا هذا أبدا . كيف تؤدي كتامة الجزية ، ويصير عليها في الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب » . انظرا : المقريزي المصدر السابق ١ ، ٩٨ . أ س ٥ ــ ٧ .

في الدولة ، ولذلك رفضوه بقوة ، وبمنطق سليم ، بحيث بهت المعز لدين الله ، ولم يسعه ـ وهو المسؤول عما حصل الا ان يتظاهر بالسرور والرضا ويتصنع الاغتباط لوقفهم القوي ويقول في حكام مجلسه معهم « باركـ الله فيكم ، فهكذا اريد ان تكونوا ، وانما اردت أن أجربكم فانظروا كيف انتم بعدي اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا او تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ؟ والآن سررتموني بارك الله فيكم » (٥٨) .

ومبعث سروره فيما يبدو هو أن تمنع كتامة عن دفع الجباية ، وتمسكهم بهذا الامتياز الذي أقره المعز لدين الله حديثا ، نتيجة موقف الاعتراض ، سوف يؤدي الى حركة النضال المرير بينهم ، وبين الأمراء الزيريين ـ نواب الغيبة ـ اي الى حركة المواجهة بين حلفي كتامة وصنهاجة ، ذلك لأن عقد التقليد الذي ظفر به ابو الفتوح بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي ، ثم الوصية الخاصة التي زود بها من طرف المعز لدين الله في سردينية ـ من ضواحي القيروان ، لم يتضمنا استثناء كتامة من الجباية ولا امتيازا لأحد .

ان غاية المعز لدين الله ، أن يبقي ظل الخلافة السياسي ، ووجودها المعنوي مستمرين في بلاد المغرب بعد رحيله ، الى مصر . وهذا يتأتى في ظل وضع مضطرب باتصال القبلى تبقي فيه الخلافة الفاطمية تمثل دور الحكم الفصل وصاحب السيادة الشرعية .

ومن اجل هذه الغاية ، اضطرب المعز لدين الله في قضية الاستخلاف في بلاد المغرب فكان يريد استخلاف ابي أحمد جعفر بن علي (الامير) الاندلسي (٥٩) رغم ضعف عصبيته ومخامرته عليه لفائدة أموي الاندلس ، لأنه كان يعرف عداء صنهاجة لأسرته . وقد قيل أنه فكر ايضا في استخلاف

---

(٥٨) نفسه : ١ ، ٩٨ .

(٥٩) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٩ .

جوذر الصقلي (٦٠) ، رغم أنه كان طاعنا في السن ضعيف الحال فاقـدا للعصبية ، لمجرد أنـه من أخلص رجال الدولة وأخبرهم بشؤون الحكـم وبسياسة القبائل المغربية .

وللحفاظ على مكاسب الدولة وحقوقها السياسية الثابتة ، لم يفكر المعز لدين الله في استخلاف أحد شيوخ كتامة ، كما لم يفكر في ترشيح رجل له مكانة قبلية ، قد تشجعه سريعا على فك الارتباط التاريخي بيـن المغرب ، وخلفائه الفاطميين (٦١) .

ولهذا السبب لم يدع احدا يظهر في ميدان القيادة باستقلال في بلاد المغرب ، من غير الصقالية وقد تمتع جوهر الصقلي بمكانة كبرى، واضفى عليه المعز لدين الله قيمة وبالغ في تكريمه واستمر على هذا النهج في مصر أيضا لفترة ، ولئن كان زيري بن مناد قد ولي بعض المهمات رفقة جوهر، فاكتفي ، ولئن كانت عصبية صنهاجة قد حصلت على ترضية كافية عندما استخلفت على شؤون المغرب ، فان جعفر بن فلاح وعصبيته الكتاميـة قد هضمت بعض امتيازاتها ، فاحست بالجـرح لكبريائها ورافقها هـذا الاحساس الى مصر ، فترجمته الى مكايدة جوهر (٦٢) ، ومساندة جعفر

---

(٦٠) العزيزي الجوذري : المصدر السابق ، ١٠٩

(٦١) ابن ابي الضاف : المصدر السابق ١ ، ١٩٨ ــ ١٣١ ، وقـارن بما ورد في المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٩ ، عن المحاورة التي جرت بين المعز لدين الله وبين أبي طالب أحمد بن المهدي عما بين قول جعفر بـن حمدون ، ويوسف بن زيري من فروق وكيف أن المعـز كان مقتنعا بأن مصر بلاد المغرب الافلات من قبضة الفاطميين ، خلفاء مصر .

(٦٢) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ٢١٦ علي ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي
encyclopédie de I'slam Art djawhart. 104 - 103 1 P. 508.

(٦٠) نفسه : ١ ، ٢٤٢ ، وقد تركته كتامة يلقي الهزيمة والذل في قتاله ضد أفتكين في بلاد الشام . وموقف كتامة منه كان تعله افادته في الاعتذار للعزيز بالله عن هزيمته .

ابن فلاح الذي نافس جوهر ، وكاتب المعـز لدين الله مباشرة من بـلاد الشام بعد فتحها ، دون وساطته أشعارا بأنه ليس أقل منه قيمة واخلاصا في واقع الامر .

ولئن كان المعز لدين الله قد استوحى في موقفه من جعفر بن فـلاح وامثاله مصلحة الدولة ومبـدأ الحفاظ على تكاملهـا وسلامتها . فهو معذور . وحسبه من العمل بعث جيل جديد من خيرة جند الدولة ودعاتها التاريخيين ، الذين نشروا ظل الخلافة السياسي والحضاري في مصر نافذة المشرق ، وعملوا على مده الى بـلاد الشام ، وهي بوابة العراق . امـا العراق العباسي ، في حـد ذاته ، فكان هـدفا رئيسيا للدعوة ولدعاة الاسماعيلية منذ عصر مبكر (٦٣) .

وبكتامة جيله ، ازهر الامل وتحققت أهم مشروعات الدولة ، وقطف ابو تميم المعز لدين الله ثمار دعاء جده المهدي ، وجهود القائم ، والمنصور ، وائتلفت بلاد المغرب وملحقاتها بعالم شا مصر وملحقاته في مظهر وحـدة سياسية مذهبية رفعت شعاري الدفاع عن دار الاسلام والمسلمين ، والنضال ضد المغتصبين والمتكالبين .

---

(٦٣) نفسه ٢ ، ٥٣ س ٣ ط ١٩٧١ م . وانظر ج ١ منه ص٢٢٦، ابن الاثير : المصـدر السابق ٨ ، ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، ولتحقيق مبدأ وحـدة الخلافة وحصرها في العلويين ، ناضل الفاطميون من موقعهم في بلاد المغرب ضد العباسيين ، فجعلوا مصر هدفا رئيسيا أوليا فلما تحقق لهم فتحها وفتح بلاد الشام ، وتوا ببصرهم نحو العراق والمشرق الاسلامي انظر :
Huart (CL): Histoire des arabes T. 1 P. 340.

بواكير التنوير في الفكر الديني المصري

دكتور محمود اسماعيل
قسم التاريخ - جامعة عين شمس

من الشائع في حياتنا الثقافية ربط التطور الفكري المصري بعجلة الفكر الأوروبي ، فأية حركة تنويرية أو انعطافة ايجابية في مسار حياتنا الفكرية نبحث عن أصولها الأوروبية ونلتمس لها قرائن ونظائر من الغرب اكثر من التنقيب عن جذورها في التراث • ولعل تلك الظاهرة تبدو أكثر وضوحا فيما يتعلق ببواكير التنوير في الفكر المصري الحديث التي اعتبرت تقليدا واقتباسا عن الفكر الليبرالي الغربي •

وهذا الخطأ المنهجي يرجع اساسا لعدم الاحاطة والفهم للتراث من ناحية ، والانسياق وراء مفكري الغرب الذين أعمتهم دعاوى القومية فنسبوا كل ما هو خلاق في ثقافتنا الى الحضارة الاوروبية من ناحية أخرى • وان كان من الانصاف أن ننوه بفضل نفر من المستشرقين الذين تناولوا الفكر المصري الحديث والمعاصر دون أن يتأثروا بعقدة «الأوربة» والتزامهم موضوعية البحث لعل من أشهرهم شارلز آدمز Charles Adams في كتابه :

Islam and Modernism in Egypt. وسير هاملتون جب Gibb في كتابه : Modern Trends in Islam خالفت هذه الثلة من المستشرقين جمهرة الدارسين الأوروبيين المتعصبين الذين اعتبروا حضارة العالم

«أوروبية» خالصة على أساس أن أصول هذه الحضارة وضعها اليونان ، وأن ما بلغته من شأوفى العصر الحـديث انما يعزى الى الغرب • ولسنا بصدد دحض هذا الزعم الذي فنده جورج يارتون في كتابه «تاريخ العلم» وأثبت فيه دورا لكافة شعوب العالم في بناء صرح الحضارة ومن ثم تنتفي دعاوى كثير من المستشرقين من أمثال جولد تسمهر وجريجوار وارنست رينان وغيرهم ممن غمطوا العرب فضلهم واعتبروهم مجرد نقلة ومقلديـن بل ومشوهين للفكر الكلاسيكي •

ونحن لا نستطيع ان ننكر افادة العرب من التراث الهلليني الذي ترك بصماته على الفكر الاسلامي ان سلبا وان ايجابا ، لكن الثابت أن الفكـر الاسلامي كان له أصوله العربية الاسلامية القحة التي تفاعلت مع منجزات العلم الانساني في الشرق والغرب على السواء ، وهذا التفاعل بين الأصول والمؤثرات أسفر عن اضافة جديدة اسهم بها العرب المسلمون في الحضارة العالميــة •

ونفس الشيء يقال عن حركة الاستنارة الفكرية التي بدأت ارهاصاتها على يد الأفغاني ومحمد عبده، فقد أفادت الى حد كبير من الفكر الليبرالي، ولم يكن بوسع هؤلاء الرواد أن يصموا آذانهم عن ضجيج الفكر الليبرالي المتعاظم وتياراته الجارفة التي تسربت الى الشرق مع الموجه الاستعمارية، غير ان تأثير الفكر الليبرالي لم يتعد حد احداث صدمة خلخلت الفكـر التقليدي وهزتــه بعنف فأيقظت الاذهان لضرورة المراجعة والاصــلاح بالتنقيب في التراث وتجديد الفكر القائم •

وعلى ذلــك يمكن القول أن المؤثرات الغربية تباينت أصداؤهــا واختلفت الاستجابة لها في حركة التنوير في القرن التاسع عشر عنهــا في العصور الاسلامية الأولى ، فالفكر الاسلامي في العصر العباسي انفتــح على الفكر الهلليني طواعية واختيارا بنقله وتمثله ومقارنة ما انطوى عليــه من قيم بما في الاسلام من عقائد ومبادىء وانتقاء ما يتفق وترك مايتعارض،

ثم اقامة بناء نظري قوامه التوفيق بين النقل والعقل ؛ وكانت هذه العملية مناط الابتكار والابداع في الفكر الاسلامي فيما يرى ليولد جوتييه •

وفي المرة الثانية وفد الفكر الأوروبي في ركاب حملات عسكرية غازية ، أو فرض فرضا لخدمة اغراض عملية من قبل حكام طموحين ، في وقت كان الفكر السائد من القصور والتخلف بدرجة لم تمكن من احداث تفاعل حضاري طبيعي • والذي حدث أن اللقاء بين فكر متقدم وآخر متخلف أسفر ــ مع ذلك ــ عن عملية دينية قادها نفر من المستيرين من رجال الدين الذين راعهم ما آل اليه مصير العالم الاسلامي من ضعف وتخلف ، فانبروا لمواجهة التحدي بحركة احياء سلفي أشبه ــ في تصورنا ــ بالنهضة الأوروبية التي ارتكزت أساسا على احياء التراث الكلاسيكي • على أن السلفية في هذا المقام كانت تعني تبني التيار العقلاني في الفكر الاسلامي الذي يمثل جانبه المشرق لمواجهة الفكر الأوروبي الليبرالي • وكان مجرد التنقيب عن هذا التيار وسط ركام من الغيبيات والتقليد والطلسمات والدردشة ، ثم اظهاره على أنه الفكر الاسلامي الأصيل محاولة تنويرية فذة تمثل انعطافة كبرى في تطور الفكر الديني في مصر •

كانت المؤثرات الغربية ــ كما قلنا ــ حافزا على احداث تلك الانتفاضة الفكرية ، ومن ثم لا محل لتجاهلها كعامل فعال في تكوين الظروف الموضوعية التي أفرزت صحوة الاستنارة • فالغزو الفرنسي فضلا عما صاحبه من تسرب ثقافي ، أسهم الى حد كبير في تقليم اظافر الاقطاع الحكوكي وبالتالي في تغيير الكيان الاقتصادي المصري وخلخلة بنيته الاجتماعية التقليدية وبقيام الدولة الحديثة على يد محمد علي تم اعادة صياغة المجتمع المصري على أسس جديدة تماما فقد انهار النظام الاقطاعي كدعامة للحياة الاقتصادية ، وظهرت رأسمالية الدولة لتحل محله ، وما قام به محمد علي من حركة تصنيع واسعة وما حدث من نمو تجاري مضطرد ، وما ترتب على ذلك كله من انهيار النظام الاقتصادي القائم على

الاكتفاء الذاتي ليحل محله اقتصاد السوق وما واكب ذلك من تغيير في البناء الطبقي وصعود قوى اجتماعية جديدة وهبوط أخرى واختفاء ثالثة، هذا التغيير آسفر بالضرورة عن صياغـة جديدة للبناء القومي وبصورة علاقات انتاجية جديدة عملت عملها في ضعضعة القوالب الفكرية التقليدية.

هذه المتغيرات أتاحت ظروفا مناسبة لتصحيح الفكر الديني على يد أئمة التنوير ، ومن الانصاف أن نشير الى أن محاولات في هذا الصـدد كانت تطل برأسها بين الفينة والأخرى طوال عصور الظلام التي بـدأت بضرب الفلسفة الرشدية وغلبـة التصوف الذي تحول الى تاريخيـات وطلسمات وما صحب ذلك من اضطهاد الفلاسفة وتكوين « كهنسوت » اقطاعي ديني فرض وصايته على الفكر ووجهه لتبرير سياسة الجائرين من الحكام . ويمكن تتبع محاولات التصحيح تلك في جهود ابن تيمية وابن القيم الجوزية في العصر المملوكي ، ثم الشيخ حسن الجبرتي والشيـخ حسن العطار ابان الحملة الفرنسية ، ثم رفاعة الطهطاوي في عصر محمـد علي . وبرغم التباين الواضح في فكر هؤلاء جميعا واختلافهم ما بيـن السلفية والتجديد الا أن اجماعهم علـى رفض الفكـر التقليدي الديني السائد أمر لا شك فيه .

وبديهي أن تتيح المتغيرات التي ألمحنا اليها آنفا لهذا التيار أن ينمو ويزدهر في شكل حركة اصـلاح ديني تصدى الأفغاني ومحمد عبـده لقيادتها ترمي الى رفض التقليد والمحاكاة سواء عن الفكر القائم أو الفكر الوافد ، ثم بلورة فكر اسلامي عصري قادر على مجابهة تحديات العصر . وعلى ذلك لم تكن تلك الحركة ذات طابع لاهوتي بحت انمـا انسحبت الى كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحق لشارلز آدمز القول بان جهود المصلحية الدينية كانت « تتضمن محاولة لتحرير الاسلام من قيود التقليد الممعن في الجمود ، والقيام باصلاحات تجعله منسجما مع مطالب الحياة المعقدة » .. وقد ربط الاستاذ جب بين ثورية الحركة وبين

ثورية بعض الفرق الاسلامية الأولى كالخوارج ، وانتهى الى أن الفكر الاسلامي منذ البداية انطوى على « تيارات خاصة دائمة ومتجددة » تمثل حركة التنوير في القرن التاسع عشر احدى حلقاتها دونما ضرورة لربطها بالفكر الغربي ، وهذا يبطل زعم بروكلماني بدمغها « بالاقتباس من ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية » .

فالثابت حقا أن حركة الاصلاح الديني في مصر الحديثة كانت ذات طابع اسلامي خالص قام بها نفر من رجال الدين أنفسهم لتجديد الاسلام بتحريره من الأوهام واعادة طرحه على أساس عقلاني ، وهي من هذه الزاوية شبيهة بحركة الاصلاح الديني في أوربا القرن الخامس عشر . واذا كان حظ الحركة المصرية من النجاح أكثر ضآلة من نظيرتها في أوربا ــ رغم ما حققته من تنوير ــ فذلك يعزي الى ضراوة التحديات التي اعتورت طريقها ، فالظروف التي ولدت فيها حركة الاصلاح الديني في أوربا كانت ممهدة تماما ، وذلك ان أوربا بأسرها كانت تعيش نهضة شاملة أدبية وفنية وقانونية ودينية ، كما وأن الصراع بين الكنيسة والسلطة الزمنية حمى المصلحين الدينيين من اضطهاد الكنيسة فوجدوا في السلطةالسياسية سندا وحاميا ، ويبدو أن فصل العقيدة المسيحية بين الدين والدولة « اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » سهل من مهمة دعاة الاصلاحالذين تحدوا الكهنوت وحسب وراموا تحرير العقيدة من اساره .

اما حركة الاصلاح الديني في مصر فقد اصطدمت بكافة القوى الدينية والسياسية والاجنبية والجماهيرية فالاسلام في نظر المصلحين « لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية ... بل هي كما كانت جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود » كما ورد بالعروة الوثقى.

فقد اصطدم الأفغاني ومحمد عبده « بالكهنوت » المحتكر للعلم

« فلم تكن دراسة الدين الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة .. كانت هي العلة في وقوفهم بل الموجب لتقهقرهم » وهذه الفئة « بعيدة عن مفاخر الابداع مبتلية بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق » على حد قول الكواكبي . وبديهي أن تقف موقف المعارضة لحركة قوامها التجديد فاعتبروا روادها زنادقة من « أهل البدع والضلالة » .

كما اصطدم المجددون بالسلطة السياسية ممثلة في الخديويةوسلطات الاحتلال ، فالاسلام الصحيح يحض على الشورى ويبغض الحكم الاستبدادي وقد دعا المصلحون الى الأخذ بتعاليم الاسلام في هذا الصدد فلاقوا عنتا واضطهادا ، فالأفغاني وصمته السلطة « بالأفاق » وذكرت في المنشور الذي أصدرته بأنها « أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية لازالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين » . وحين تجاسر تلميذه محمد عبده على المضي في الشوط قدما كان مصيره النفي الى خارج البلاد ردحا من الزمن . وبديهي ألا تلقى تعاليم المجددين حظا من الاقبال لدى شعب أمي ، وبديهي أيضا أن تقف الأقلية المثقفة ذات الموقف لتأثرها بالفكر الليبرالي ، أو للاختلاف في العقيدة ، ومناظرة الامام محمد عبده مع فرح أنطون خير شاهد في هذا الصدد .

هذا عن المشكلات العامة التي واجهت حركة التنوير في الفكر الديني ، لكن مشكلة أخرى كانت اكثر تعقيدا وهي كيف السبيل الى التوفيق بين الشرائع الالهية بما تتضمنه من نواميس ثابتة وبين مشكلات الواقع الاجتماعي المتغير ؟؟ لم يجد المصلحون الدينيون تعارضا البته بين الاسلام كعقيدة وشريعة وبين دعوتهم العقلانية الصادعة الى الأخذ باساليب المدنية الحديثة . وقديما وجدت القضية حلا على يد الفيلسوف ابن رشد حسين كتب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » بنفق

المنهج اعلن داعيتا الاصلاح في العروة الوثقى ان الاسلام « دين قويم الاصول محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ... منور للعقول باسراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحفظ وجودها ، وينادي معتقديه الى جميع فروع المدنية » .

فالعلم الالهي اذن لا يتعارض مع العلم الوضعي ، والعقيدة الاسلامية تلزم معتنقيها « بالتبصر » في الفنون والعلوم كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها ... » .

وبهذا المنهج أسدى المصلحون ـ كما ذكر الشيخ مصطفى عبدالرزاق « خدمة للدين والعلم معا بما أبدوا من حرية العقل من وجه ديني ، وبما حسوا من أسباب عداوة بين الدين والعلم » .

وقوام هذا المنهج التوفيقي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وتأويل النصوص بما لا يمسى الأصول ، وجدير بالذكر أن الاجتهاد يمثل ركنا ركينا في الشريعة الاسلامية تتسع آفاقه في عصور التقدم وتضيق أو تغلق في عصور التخلف والتعصب ، فيتمسك اللاحقون باجتهادات السابقين ولا يأخذون بمنهجهم في الاجتهاد .

ولقد نمى الافغاني على رجال الدين في عصره اهدار قيمة العقل وتشويه الدين بالتقليد الأعمى للسلف دون مراعاة لطبيعة العصر وملابساته، كما هاله ما شاهد من ممارسات صوفية حادت بالفكر الاسلامية عن جادة الصواب . لذلك فقد دعى الى اتباع منهج المجتهدين بغض النظر عن نتائج اجتهاداتهم وذلك باطلاق العنان لحرية الفكر واعمال العقل في الفروع مع صدق الايمان بالاصول .

وبنفس الدرجة التي هاجم بها تقليد السلف هاجم تقليد الغرب والاقتباس الأعمى عنه دون تبصر وروية ، مع شدة ايمانه بضرورة الانفتاح

على العلوم العصرية • فالتقليد والاقتباس عن السلف أو من الغرب مضيعة للكيان الذاتي للمجتمع الاسلامي ومدعاة لاصابته بالجمود أو الخلل وفي هذا الصدد يقول « ان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم ببعض الاصول التي كان عليها اباء الشرقيين وأسلافهم ••• ولا ضرورة في ايجاد المنفعة الى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجيء الشرقي من بداية أن يقف موقف الأوروبي في نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك » ، هذا على الرغم من احاطته بالثقافتين الاسلامية والاوروبية وتدريسه العلوم الاسلامية جنبا الى جنب مع علوم الغرب ، فقد أثر عنه حماسه لكتاب تاريخ الحضارة الفرنسية لجيزو ليقف تلامذته على أسباب يقظة الشعوب بتأكيد دور النظر العقلي في احداث هذه اليقظة • ولا غرو فقد أحدثت دعوته تأثيرا ايجابيا « فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخفى حجاب الغفلة » على حد تعبير تلميذه محمد عبده •

واذا كان الأفغاني يمثل مرحلة الثورية المثالية في حركة التنوير الديني، فان تلميذه محمد عبده يعد رائد ارساء دعائم تلك الحركة ومنظرها دون مدافع ، وان شئت تشبيها فالأفغاني هو سقراط ومحمد عبده أفلاطون • ومع أن محمد عبده لم ينجز نظرية متكاملة في الاصلاح الديني ، الا ان آراءه المسطورة في رسائله وشروحه وتفسيراته تمثل في مجموعها نظرة مستنيرة في تجديد الفكر الديني يمكن تحديد أبعادها فيما يلي :

أولا : تحرير الفكر من قيد التقليد وضرب احتكار « الكهانة » المرتبطة بالسلطة للقول الفصل في أمور الدين •

ثانيا : التوفيق بين الدين والعلم واتساقهما معاني اداء وظيفة روحية اجتماعية •

ثالثا : التمسك بالأصول وتأثير السلف باعتبارها الينبوع الأول للفكر الاسلامي •

وفيما يتعلق بالنقطة الاولى كانت تعاليمه تستهدف عزل العقائد الدينية عن الخلافات السياسية بطريقة تتيح تحرير الفكر من تأثير الحكام وتأثير الكهنوت ، ثم تعرية كل منهم على حدة بالدعوة الى العودة للشورى الاسلامية ورفض التقليد الأعمى « الذي ذمه الاسلام وحرم اعتباره مادة خالصة للايمان ، كما ذم القيام الآلي بالواجبات الدينية ، فالاسلام ينبع من العقل ويقع كله تحت الادراك » . وهذا الرأي لمحمد عبده يمثل « حجر الزاوية في حركة التحرير العلمانية » كما ذهب الاستاذ جب . ومن هنا شجب محمد عبده الآراء المرتجلة وحمل على دعاة الجهل معلنا ان الانسان فطر على انصياعه للعلم والمعرفة وطبع على الاستطلاع ودراسة العلم الدنيوي ، فليس للعقل أن يتوقف الا أمام الله وحده وما عدا ذلك من حدود وقيود تعد حائلا بين العقل وانطلاق حيويته . فبالعقل يمكن الوصول الى استدلال عن حقيقة المعارف الدينية والدنيوية سواء بسواء ذلك أنه يدرك الظواهر Thenomene وادراك مسبباتها يقود الى معرفة هويتهاNomena. فغاية كمال العقل الانساني ــ كما جاء برسالةالتوحيد ــ « الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان أو جدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها » . والتشابه كبير بين هذه الرؤية وبين فلسفة كانت وان كان من المحقق أن تأثر في صياغتها بفكر المعتزلة بالدرجة الاولى .

وفيما يتعلق بالتوفيق بين الدين والعلم في فكر محمد عبده نجد أنه رغم سلفيته وأعجابه الشديد بابن تيمية الا أنه خالفه في نظرته الى المعارف الدنيوية ، فابن تيمية يرى أن العلم الصحيح ما كان مأخوذا عن نبي ، وما عداه علم لا ينفع ، أما محمد عبده انطلاقا من حص الاسلام على اعمال العقل ، وما أثر عن الرسول (ص) من حض على طلب العلم أنى وجد وأينما كان ، فقد دعى للانفتاح على كافة ــ ظروف المعارف وفي

هذا الصدد يقول « .. ليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه وتربت في حجره وتقلدت في ايوائه منذ زمو يزيد على ألف سنة ، فما حالنا الى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان لا بد لنا من اكتسابها وبذل الجهود في طلابها .. » . وهذا ينفي اعتقاد البعض بان هذه النظرية المستنيرة نتاج تأثيرات غربية ليبرالية .

حقيقة ان محمد عبده اطلع على الفلسفة الغربية واستوعب كثيرا من جوانبها في قراءاته لرينان وجبوب وجوستاف لوبون وماكس توردا وغيرهم ، لكن مصدر الهامه كان في الفكر الاسلامي اكثر من فكر الغرب. ومناظراته مع كبار المستشرقين من أمثال رينان وهافوتو تؤكد تلك الحقيقة بما لا يدع للشك سبيلا ، وحسبنا أنه نعى على الفلسفة الغربية اغرافها في الماديات وفي مناقشة له مع الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر قال قالته المأثورة « هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان أعجزهم ان يكتشفوا طبيعة الانسان ... الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » ..

وحتى تلك الحقيقة وقف عليها من استيعابه لمقدمة ابن خلدون الذي اعتبر الدين أمرا لاغنى عنه في تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية ، كما أفاد من فلسفة الغزالى في اعتبار الدين مسألة مرتبطة بالقلب ، لكنه تجاوزه الى ضرورة كبح جماح العاطفة الدينية باصطناع العقل حتى لو ركب متن الشطط « فمن يسلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ولم تجب عصمته فهو معرض المخطأ ، لكن خطأه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى الحق ويدرك مستقر اليقين » ..

لذلك يمكن القول أن محمد عبده كان مفكرا بورجوازيا ناضل ضد

سيادة الاقطاعيين بقدر كونه مصلحا دينيا رام تخليص العقيدة الاسلامية من عقبات الجمود والخرافة في منهج يجمع بين المثالية والواقعية .

وبفضل جهوده خلف مدرسة ، أخلصت لفكره وطورته من بعده رغم اختلاف اتجاهاتها وتعدد تياراتها ، فالكواكبي ورشيد رضا واصلا لجهوده التنويرية في تجديد الفكر الديني رغم انماء فكرهما للافغاني اكثر من ارتباطه بفكر محمد عبده . والشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى عبد الرزاق والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت وغيرهم كثيرون من مشايخ الازهر الذين ناضلوا لارساء دعائم التنوير ناهجين نهج الامام سالكين على منواله .

الا أن الفكر التقليدي قدر له أن يكبح جماح تيار الاستنارة بتعضيد من السلطة ، ولاقى المجددون أهوالا في النصف الاول من هذا القرن لا تقل بحال عما لاقاه رواد التنوير من عنت واضطهاد وحسبنا في هذا الصدد الاشارة الى المحن التي تعرض لها على عبد الرزاق ومحمد زيد وطه حسين وخالد محمد خالد وغيرهم على يد عتاة التقليد وأرباب الاقطاع الكهنوتي .

المراجع :

(١) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ القاهرة ١٩٤٨

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : افكار جمال الدين الافغاني السياسية المجلة التاريخية المصرية مجلد ٩ ، ١٠

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث . القاهرة ١٩٧١ .

(٤) امين الخولي : المجددون في الاسلام ج ١ القاهرة ١٩٦٥ .

(٥)
Adams, C: Islam and Modernism in Egypt. London, 1933.

(٦) Amin, Osman: Muhammad Abduh, Le Caive, 1944.

(٧) Gibb, H: Modern trends in Islam, Chicago, 1945.

(٨) Gibb and Bowen: Islamic Society and the West
Oxford, 1953.

(٩) Hourani, A: Arabic thought in the Jiberal Age
London, 1962.

(١٠) Lewis, B: The Middle East and the West, London, 1963.



الحقيقة التاريخية عند البيروني

(٩٧٣ - ١٠٤٨)

بين المفهوم وتطبيقه

«فقولوا الحق ولو على أنفسكم»

البيروني

الدكتور محمود زايد
أستاذ التاريخ العربي والاسلامي
الجامعة الأمريكية - بيروت

١ - البيروني (١) والاصالة والتجديد :

اذا كانت الاصالة هي الاسهام الذي يتسم بالابداع في ميدان من ميادين الثقافة بمعناها الواسع ، أو الاسهام الذي يجمع بين الابداع والمعاصرة فان البيروني صاحب ، اصالة بالمعنى الثاني •

---

(١) ولد ابو الريحان البيروني عام ٩٧٣ م في قرية من قرى خوارزم وذلك في ايام السامانيين . وقد قربه الامير نوح بن منصور الساماني . وعندما ذهب ملك السامانيين وفد البيروني مع ابن سينا على بلاط أمير جرجان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي . وهناك التقى هذان العملاقان بعدد من أعلام الفكر والادب . وفي جرجان الف البيروني كتابه « **الآثار الباقية من القرون الخالية** » واهداه الى شمس المعالي . وعندما سقط هذا الامير عاد البيروني الى مدينة جرجانية عاصمة الدولة الخوارزمية (حوالي ٤٠٠ هـ /١٠١٠م) واشتغل هناك مع ابن سينا وابن مسكويه في مجمع العلوم الذي كان قد اسسه أمير خوارزم مأمون ابن مأمون . وفي عام ٤٠٧ هـ انتقل البيروني الى غزنه ، ورافق السلطان محمود الغزنوي في حملاته على الهند . وقد تمكن من تعلم السنسكريتية ودرس عقائد الهنود واحوالهم . وكانت درة ابحاثه الهندية كتابه المشهور **في تحقيق ما للهند** . وقد قضى بقية حياته على ما يبدو في غزنة .

ولا تكمن الصعوبة في تقرير ما اذا كان فكره أصيلا او غير أصيل ، فقد سلم باصالته وعبقريته عدد من أعلام زمانه وزماننا ، وانما تكمن في تقدير مدى عبقريته واصالته . وليس من سبيل في الوقت الحاضر الى تقديرهما تقديرا كاملا أولا لانه بحث في اكثر من ميدان من ميادين المعرفة شملت التاريخ والاجتماع وعلم الديانات المقارن والرياضيات والفلك والصيدلة .

وثانيا : لان بعض جوانب فكره لا تزال في حاجة الى بحث أو مزيد منه ! وحتى لو انصب رهط من العلماء على دراسته لامتنع ايضا تقدير اصالته تقديرا كاملا وذلك لانه لم يصلنا بعد من تآليفه وترجماته ومصنفاته الا القليل . ويعلق أحد الكتاب المحدثين على فكره الرياضي بقوله :

« ما أشد الدهشة التي يثيرها لدى الرياضيين المحدثين رجل عاش قبل ألف سنة وانتج هذا العمل الأصيل العظيم بالرغم من قلة ما كان في متناوله من مصادر ، وفي الوقت ذاته أسهم اسهاما كبيرا في ميادين مختلفة بدقة وعقلية رياضية تدعوان الى العجب .

لا يزال ما يعرفه العالم قليلا جدا عن البيروني العالم الرياضي العظيم ، وكثير من اسهاماته الاصيلة في الرياضيات لا يزال تحت الغطاء في مؤلفه الفريد القانون المسعودي وفي كتب أخرى كثيرة قد لا ترى النور ! » (٢)

٢ ـ موضوع هذا البحث والغرض منه :

الغرض الرئيسي من كتابة هذا البحث هو القاء ضوء على جانب من

2) M. Kazim: «Al-Biruni and Trigonometry» quoted by Sayed Hasan Barani in his «Al-Biruni and his Magnum Opus-al Qanun al-Mas'udi» with which he intreduces the same work (Hyderabad, 1954) P. XXVI.

فكر البيروني لم يلق بعد ـ على ما أعلم ـ ما يستحقه من اهتمام الباحثين والمفكرين وهو آراؤه في فلسفة التاريخ • ولعل السبب الرئيسي في ذلك ان انجازات هـذا العام الفلكية والرياضيـة طغت على شهرته كمؤرخ، وصرفت النظر بالكلية تقريبا عن تلك الآراء • وقد يكون مما ساعـد على ذلك ان اكثر ماكتبه البيروني في التاريخ ليس في متناولنا • فالبيهقي يشير الى كتاب له بعنوان المسامرة في أخبار خوارزم ، [٣] ، والبيروني ذاتـه يشير الى كتاب له بعنوان في أخبار المبيضة والقرامطة [٤] ، كما يشير في قائمة كتبه التي ذكرها الى عدة كتب ورسائل توحي عناوينها بوفرة مادتها التاريخية مثل في تكميل حكايات عبد الملك الطبيب البستي في مبـدأ العالم وانتهائه في قريب من مئة ورقـة ،ورسالة بعنوان كلام في المستقر والمستودع في ١٠ اوراق ، وترجمة كتاب شامل في الموجودات المحسوسة المعقولة ، وكتاب تنقيح التواريخ ، ورسالة في دلالة اللفظ على المعنى [٥]•

لكن بالرغم من قلة عدد ما وصلنا من كتبه فان آراءه المبثوثة فيهـا عن فلسفة التاريخ كفيلة بان تجعله أول رائد من رواد هذا الميدان !

ولم يخصص البيروني في ابحاثه التي وصلتنا كتابا ولا رسالة في هذا الموضوع كما فعل ابن خلدون في مقدمته ، وانما عرض آراءه في مقدمات كتبه وخاصة في كتابية في تحقيق ما للهند والآثار الباقية وفي ثنايا ابحاثه الاخرى • لكن عادته في التقديم لكتبه تجعلنا نطمع فيالوقوف على مزيد

---

(٣) البيهقي ، ابو الفضل ، **تاريخ البيهقي** ترجمـة يحي الخشاب وصادق نشأت (مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٥٦) ص ٧٣٤ •

(٤) البيروني ، ابو الريحان : **الآثار الباقية عن القرون الخالية** نشر ادوارد سخاد (ليبزج ، ١٨٧٨) ص ٢١١ •

(٥) رسالة للبيروني في ملحق **المصدر ذاتـه** .

من آرائه فيما يكتشف في المستقبل من ابحاثه المفقودة .

٣ ـ **الحقيقة نسبية :**

لم يبحث البيروني الحقيقة التاريخية بحثا مفصلا ، وانما تعرض لها باشارات مقتضبة ، غير ان هذه الاشارات تدل على انه أدرك بوضوح أن الحقيقة نسبية ، وان ما يفهم في حين على أنه هو الحقيقة قد يتغير مفهومه فيما بعد . فهو يعلق على سؤال أحد الادباء له عن التواريخ التي تستعملها الأمم بقوله :

« فعلمت ان ذلك صعب المتناول بعيد المأخذ غير منقاد لمن رام اجراءه مجرى الضروريات التي لا تخالج قلب الواقف عليها شبهة فيها » . [٦]

واقبل بتأييد من علو « دولة مولانا الامير السيد الاجل المنصور ولي النعم شمس المعالي أدامه الله » باستفراغ الوسع واستنفاد الجهد ، أو بعبارة أخرى ، بالاجتهاد ، على الابانة عن حقيقة التواريخ ولكن « على حسب ما بلغه علمي ان بسماع وان بعيان أو قياس » . وعبارة « على حسب ما بلغه علمي » لا تدع مجالا الشك بانه أدرك ان معلوماته قد تقصر عن توفير المعطيات (الوقائع) التي تفي بكشف الحقيقة [٧] .

ويقول بعد ذلك بان اسلوبه في كشف الحقيقة « ليس بقريب المأخذ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه » [٨].

ولهذا رأى بعد ذلك أن يصلح ما يمكنه اصلاحه وأن يترك سائر ما لا يمكن اصلاحه للمستقبل [٩] .

---

(٦) البيروني : الآثار الباقية : ص ٤
(٧) **المصدر ذاته** : ص ٤
(٨) **المصدر ذاته** : ص ٤ ـ ٥
(٩) **المصدر ذاتـه**

ويكرر هذه الآراء مرة أخرى في مقدمه القانون المسعودي حتى بالنسبة الى الحقيقة العلمية فيصف من تقدمه بالمجتهدين ثم يقول :

وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان ، ان يعلمه في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة ، وتصحيح خلل انعثر عليه بلا حشمة ،وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات ، وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده .

وقرنت بكل عمل في كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ما يبعد به التأمل عن تقليدي فيه ويفتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه، أو الاصلاح لما زللت عنه ، أو سهوت في حسابه ، لان البرهان من القضية قائم مقام الروح من الجسد ، وبجملة النوعين يحصل العلم بالاستيقان لاقتران الحجة والتبيان ، كما يقدم بمجموع النفس والبدن شخص الانسان كاملا للعيان [10] .

لم ينف البيروني هنا الحقائق المسلم بها التي يثبتها البرهان القاطع كما هو واضح من النص ، ولكنه يعتبر كل حقيقة أخرى لم يقم البرهان عليها بعد شكل قاطع خاضعة للاجتهاد .

٤ ــ التزام الحقيقة :

اتخذ البيروني من توخي الحقيقة شعارا له التزم به التزاما صارما الى حد يثير الاعجاب . وقد استهل دراسته للهند بطرح هذا الشعار [1]. فقال « قولوا الحق ولو على انفسكم » وقد التزمه ما وسعه ذلك في اطار

---

(١٠) البيروني : **القانون المسعودي** ج ١ (حيدر اباد ، ١٩٥٤) ص ٤ ــ ٥ .

(١١) البيروني : **في تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة** (حيدر اباد ، ١٩٥٨) ص ٢

العصر الذي عاش فيه .[١٢]

ويذهب الاستاذ سارطون الى انه كان تقريبا نسيج وحده فيالعصور الوسيطة في حبه للحق وفي جرأته الفكرية [١٣] .

ويرى البيروني ان المرء ينشد الحقيقة لذاتها لا لغرض آخر يقول :

« وكما ان العدل في الطباع مرضي محبوب لذاته مرغوب في حسنه، كذلك الصدق الا عند من لم يذق حلاوته أو عرفه وتحاماه كالمسؤول من المعروفين بالكذب : هل صدقت قط ؟ وجوابه : لولا اني أخاف أن أصدق لقلت : لا ، فانه العادل عن العدل ، والمؤثر للجور وشهادة الزور ، وخيانة الامانة ، واغتصاب بالاملاك بالاحتيال والسرقة ، وسائر ما به فساد العالم والخليقــة » [١٤] .

ويرى البيروني أن على المرء أن يقول الحقيقة مهما اعترضت طريقه من صعاب ، حتى وان عرضه قولها للموت . واستشهد بالمسيح الذي قال ما معناه : « لا تبالوا بصولــة الملوك في الافصاح بالحق بيــن أيديهم ، فليسوا يملكون منكم غير البدن ، واما النفس ليس لهم عليها يد » [١٥] ،

---

(١٢) قارن بما ورد عند الشحات ، علي احمد : **أبو الريحانالبيروني ـ حياته ـ مؤلفاته ابحاثه العلمية** (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨) ص ٧٠ حيث يقول : « هذا مما دعا البيروني الى البحث عن وسيلة ينفذ بهــا الى قلب السلطان » . واذا قارنا بين ما جاء في كتاب البيروني **الآثار الباقيــة** الذي الفه بجرجان وبين ما في كتابه في **تحقيق ما للهند** الذي الفه فيمــا بعد في غزنة ، وجدنا انه في اكثر تحفظا في الكتاب الثاني منه في الاول.

Sarton, George: **Introduction to the History of** vol. I (Baltimore, 1927) P. 707.

(١٤) البيروني في **تحقيق ما للهند** ، ص ٣

(١٥) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ٣

ويضيف الى هذا بان ما أورده عن المسيح هو « أمر بالتشجع الحقيقي » ويقضي بالاستهانة بالموت • (١٦)

٥ ـ الاخبار وتمحيصها :

يستخدم البيروني اصطلاح الخبر للدلالة لا على الوقائع المروية أو المشاهدة فحسب ، بل وأحيانا على التعميمات والمفهومات التي تبني او تستنتج من الوقائع • يقول في تمييز الخبر عن العيان :

« وليس الخبر كالعيان لان العيان هو ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله • ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان ، وتناول الخبر اياها وما قبلها من الازمنة وبعدها من مقتبلها ، حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعلوم معا » (١٧) •

وواضح من النص ان الخبر هنا تنتظم فيه الوقائع الجزئية •

ويجد البيروني صعوبات جمة تعترض طريق تمحيص الاخبار عن تواريخ الامم ، وذلك لانه لا يمكن الاستدلال عليها بالمعقولات والمحسوسات ، وانما بأخبار أصحاب الكتب والمقالات عن الأمم الماضية ، وما تبقى من أحوال هذه الأمم ورسومها • يقول :

وابتدىء فأقول : ان أقرب الاسباب الى ما سئلت عنه (وهو التواريخ التي تستعملها الامم) هو معرفة اخبار الامم السالفة وأنباء القرون الماضية لان اكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم • ولا سبيل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لاهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل

---

(١٦) **المصدر ذاته .**

(١٧) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١

المستعملين لذلك . وتعيير ما هم فيه أسا يبني عليه ما بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض (١٨) .

ومما يزيد في صعوبة تمحيص تلك الاخبار كثرة ما فيها من أباطيل خاصة وان بعض هذه الاباطيل ممكنة الوقوع ولهذا تؤخذ مأخذ الخبر الحق . هذا في حين اننا نشاهد وقائع لو قيل قبل وقوعها انها حدثت في زمن مضى لحكم الناس بامتناع وقوعها .

ومن الصعب كذلك الاحاطة بجميع الاخبار ! فعمر الانسان لا يفي بأحبار أمة واحدة فكيف يكون الحال اذا أريد الوقوف على أخبار جميع الأمم ؟ (١٩) ولهذا يقترح البيروني :

« ان نأخذ الأقرب فالأقرب، والأشهر فالاشهر ، ونحصلها من أربابها ونصلح منها ما يمكننا اصلاحه ، ونترك سائرها على وجهها ليكون ما نعمله من ذلك معينا لطالب الحق ومحب الحكمة على التصرف في غيرها ،ومرشدا الى نيل ما لم يتهيأ لنا » (٢٠) .

لكن بالرغم من هذا كله فالبيروني يقرر أن الوصول الى الحقائق أمر يكاد يكون مستحيلا :

« على أن الأصل الذي أصلته ، والطريق الذي مهدته ، ليس بقريب المأخذ ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه آن يكون غير موصول اليه» (٢١)

وازاء جسامة مهمة المؤرخ يفترض البيروني فيه صفات أجملها في :

« تنزيه النفس عن العوارض المردئة لاكثر الخلق والأسباب المعمية

(١٨) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٤

(١٩) **المصدر ذاته** : ص ٥

(٢٠) **المصدر ذاته**

(٢١) **المصدر ذاته** ، ص ٤ ــ ٥

لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغالب بالرئاسة ، واشباه ذلك » (٢٢)

ومهما يكن من أمر فان البيروني يؤكد ضرورة ورود الاخبار في مظانها لتبين وجه الحق فيها • ولهذا دفعته دراسته للهنود واحوالهم الى تعلم اللغة السنسكريتيةللوقوف على ما في كتبهم ذاتها من معلومات• ويبدو أنه كان أول عالم مسلم تعلم تلك اللغة في سبيل البحث العلمي• وأقام لذلك في الهند والتقى بعلمائهم وناقشهم في شتى جوانب حضارتهم • يقول في هذا :

« اني كنت اقف من منجميهم مقام التلميذ من الاستاذ لعجمتي فيها بينهم وقصوري مما هم فيه من مواصفاتهم ، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير الى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية فيالحسابات ، فانثالوا على متعجبين ، وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه ، وانا أريهم مقدارهم وأترفع عن جنبتهم مستنكفا ، فكادوا ينسبونني الى السحر • وقد أعيتني المداخل فيه مع حرصي الذي تفردت به في ايامي وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان واستحضار من يهتدي لها من المكامن ••• » (٢٣)

ولم يدخر البيروني جهدا في الحصول على المراجع مهما طال زمن بحثه عنها • ومن ذلك انه قضى اكثر من أربعين سنة وهو يفتش عن نسخة من كتاب سفر الاسرار الباني : يقول البيروني :

« وبقيت في تاريخ الشوق نيفا واربعين سنة الى ان قصدني بخوارزم بجند من همذان متوسل بكتب وجدها من جهة فضل بن سهلان

---

(٢٢) **المصدر ذاته** ص ٤

(٢٣) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١٧ ــ ١٨ .

وعرفني بحبها •••• وفي جملتها طلبتي سفر الاسرار فغشيني له من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب • » [٢٤]

٦ ـ **آفات الخبر :**

يبين البيروني ان الأخبار يلحقها الصدق كما يلحقها الكذب بسبب المخبرين • ويذكر خمسة انواع من المخبرين كذبا :

١ ـ من يخبر عن أمر كذب يقصد فيه مصلحته ، فيعظم جنسه لانتمائه اليه أو يزري بغير جنسه فيحصل على النتيجة ذاتها » ومعلوم ان كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين •

٢ ـ هناك من يخبر كذبا عن أناس يحبهم لأمر يشكرهم عليه ، او يبغضهم لأمر ينكره منهم •

ويرى البيروني ان المخبر الثاني من نوع الاول « لان الباعثعلى فعله من دواعي المحبة والغلبة » •

٣ ـ مخبر يريد بدناءة طبعه التقرب الى خير أو يريد اتقاء شره

٤ ـ مخبر لا يستطيع الا ان يجانب الحقيقة كأنه مضطر الى ذلك، ومرد هذا الى « دواعي الشرارة وخبث مخابيء الطبيعة » •

٥ ـ مخبر يجانب الحقيقة بسبب الجهل « وهو المقلد للمخبرين وان كثروا جملة او تواتروا فرقة بعد فرقة » • وفي هذه الحالة يكون هو وهم (المقلد والمخبرون) وسائط بين أول من تعمد تحريف الخبر وبين سامعه [٢٥] •

ولعل اسوأ هؤلاء في نظر البيروني هم الذين يتعصبون لذاتهم ويتحاملون على غيرهم ، يقول :

---

(٢٤) البيروني الآثار الباقية ، ص ٣٩ من المقدمة

(٢٥) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ٢ •

« فان الاعادي أبدا مولعون بالطعن في الانساب والثلب في الأعراض والوقعة في الأفاعيل والآثار • كما أن الاولياء والمتشيعين مولعون بتحسين القبيح وسد الخلل واظهار الجميل والنسبة الى المحاسن كما وصفهم من قال :

وعين الرضا عن كل عين كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا » (٢٦)

ويقول في موضع آخر :

« وانما ذكرت هذا لما عليه الناس من التعصب لمن أحبوه والطعن على من أبغضوه حتى ربما يكون افراطهم في كلا المعتقدين سببا لافتضاح دعاويهم » (٢٧) ويأخذ البيروني على البراهمة تعصبهم لأنفسهم الأمر الذي تسبب في جهلهم وحمقهم •

« وذلك انهم يعتقدون في الارض أنها أرضهم وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين أنه نحلتهم ، وفي العلم أنه ما معهم ، فيترفعون ويتبظرمون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون ، وفي طباعهم الضن بما يعرفونه ، والافراط في الصيانة • له عن غير أهله منهم، فكيف عن غيرهم • على أنهم لا يظنون أن في الارض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها وأن للخلق غيرهم علما ، حتى انهم ان حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ، ولم يصدقوه للآفة المذكورة ، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم » (٢٨) •

وفي موضع آخر يدين البيروني صاحب كتاب « مأخذ اليواقيت » لتعصبه للهند على الروم • فقد زعم ان الروم لجأوا الى سني الهند

---

(٢٦) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٣٧

(٢٧) **المصدر ذاته** ، ص ٤ .

(٢٨) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١٧ ــ ١٨

« فكبسوا في سنتهم الزيادة بين السنتين ، فعاد دخول الشمس الى برج الحمل أول نيسان » (٢٩) • ويستبعد البيروني أن يفعل الروم ذلك لانهم «من بعد الغورو التمهر بالهندسيات وعلم الهيئة والتمسك بالبراهين » بحيث لا يلجأون الى غيرهم (٣٠) •

ويشير البيروني الى التحامل على ماني ويذكر انه لم يجد في كتبه ما يثبت اتهامه بأنه حلل « قضاء الشهوة في الغلمان » ويضيف الى ذلك أن ما وجده في سيرته يدل على خلاف ذلك • (٣١)

وبالرغم من ان البيروني كان من اشد انصار العربية (٣٢) والعروبة ، فانه حذر من الغلو في التعصب لهم الى حد ينسب معه اليهم ما ليس لهم• ويأخذ على ابن قتيبة أنه يهول ويطول في كتبه وخاصة في كتابه (تفضيل العرب على العجم) وينتقده لاعتباره العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها ، ويقول :

« ولا أدري أجهل ام تجاهل ما عليه الزارعون والأكرة في كل موضع وبقعة من علم ابتداء الاعمال وغيرها ومعرفة الأوقات على مثل ذلك• فان من كان من السماء سقفه ، ولم يكنه غيرها ودام عليه طلوع الكواكب وغروبها على نظام واحد علق مبادىء اسبابه ومعرفة الاوقات بها » (٣٣)• ويأخذ على ابن قتيبة تحامله في كتابه المذكور على الفرس فيقول :

---

(٢٩) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٥١

(٣٠) **المصدر ذاته**

(٣١) **المصدر ذاته**

(٣٢) راجع مثلا ما جاء في البيروني : **كتاب الصيدنة** (كراتشي، ١٩٧٣) ص ١٤ حيث يقول : « ديننا والدولة عربيان توأمان ... والهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية » .

(٣٣) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ •

« وكلامه في هذا الكتاب المذكور يدل على احن وتراث بينه وبين الفرس اذ لم يرض بتفضيل العرب عليهم حتى جعلهم أرذل الأمم وأخسها وأذلها ، ووصفهم بالكفر ومعاداة الاسلام بأكثر مما وصف الله به الأعراب في سورة التوبة . او نسب اليهم من القبائح ما لو تفكر قليلا وتذكر اوائل من فضل عليهم لكذب نفسه في أكثر ما قاله في الفريقين تفرطا وتعديا » (٣٤) . ويصف البيروني الخوارزميين بأنهم أعرف من العرب بالبروج (٣٥) ولكنه مع هذا ينسب الى العرب فضل تخليد ما عرفوه حقا كان أو باطلا ، حمدا كان أو ذما بالأشعار والأرجوززة والأسجاع ، وأنهم كانوا يتوارثونها فتبقى عندهم أو بعدهم . (٣٦)

٧ ـ التعصب والتحامل في معالجة العقائد الدينية :

يفترض البيروني فيمن يعرض للعقائد الدينية ألا يقصد الى الحجاج ومنابذة أصحاب العقائد ، بل الى اظهارها . ويقدم لدراسته للهند في كتابه في تحقيق ما للهند بقوله :

« وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بايراد الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق ، وانما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف اليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم ... ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم الا ان يكون للصوفية او لأحد أصناف النصارى لتقارب الامر بين جميعهم في الحلول والاتحاد » (٣٧) .

ويرى البيروني انه قل أن تخلو نظرة أحد في الامور الدينية الى مخالفيه وخصومه من الزراية بهم .وهذا ، كما يقول ، هو أوضح ما يكون

---

(٣٤) **المصدر ذاته**

(٣٥) **المصدر ذاته**

(٣٦) **المصدر ذاته**

(٣٧) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ٥

في المذاهب التي يجمعها دين واحد ونحلة واحــدة ، وانه اكثر اختفاء في الملل المتفرقة ، وخاصة مالا يتشارك منها في أصل وفرع » وذلك لبعدهــا وخفاء السبيل الى تعرفها » .

ويلاحظ البيروني ان الهوى يغلب على معظم ما كان معروفا من كتب في المقالات وأبحاث في الآراء والديانات . ويدين اولئك الذين يغترفون من هذه الكتب دون ان يعرفوا حقيقة الحال فيها . وكل من هؤلاء يغترف « ما لا يفيده من أهلها والعالم بأحوالها غير الخجل » [٣٨] بل يجد البيروني انه حتى اولئك الذين عرفوا حقيقة الحال توخوا ان يجعلوها من الاسماء والأساطير ليس القصد من الاستماع اليها تصديقها ، وانما الالتذاذ بها .

ويضرب البيروني مثلا على زيف الأخبار عن العقائد فيذكر ان أكثــر ما هو مسطور في الكتب عن أديان الهند منحول وبعضها « منقول وملقوط مخلوط غير مهذب » ويضيف الى هذا انه ما وجد من أصحاب كتب المقالات أحدا قصــد الخبر المجــرد من غير ميل ولا مداهنــة غير أبي العباس الايرانشهري الذي أحسن في الأخبار عن اليهود والنصارى وما في التوراة والانجيل . ولكنه بالغ في ذكر المانوية ، وضل سهمه عن الهدف عنــدما بلغ أديان الهند [٣٩] .

وانتقد البيروني ابن سنكلا النصراني الذي الف كتابا قصد به نقض نحلة الصائبة الحرانية « فحشاه بالكذب والأباطيل » ومنها انهم يقولون لا بان ابراهيم عليه السلام انما خرج عليهم لانه ظهر في قلفته برص فاصبح لذلك بخسا تجوز مخالطته ، فلما اختتن اعتبــروا ان عيبــه صار عيبين . ويقول البيروني عنهم :

« ونحن لا نعلم منهم الا انهم يوحدون الله وينزعونه عن القبــائح

---

(٣٨) **المصدر ذاته :** ص ٤

(٣٩) **المصدر ذاته :** ص ٤ ــ ٥

ويصفونه بالسلب لا الايجاب كقولهم : لا يحد ، ولا يرى ، ولا يظلم ، ولا يجور • ويسمونـه بالاسماء الحسنى هجازا • اذ ليس عندهم صفـة بالحقيقة • وينسبون التدبير الى الفلك واجرامه ••• ويصلون على طهر ووضوء ، ويغتسلون من الجنابة ••• واكثر أحكامهم في المناكح والحدود مثل أحكام المسلمين [٤٠] •

٨ ـ **الاصول الاجتماعية للنظم والعادات والمعتقدات :**

وكان من ثمرات التزام البيروني بالموضوعية واقبالـه على البحث للوقوف ما أمكن على الحقيقة ، أن كشف الأصول الاجتماعية لعدد من النظم والمعتقدات والعادات والمواقف من معتقدات الآخرين •

لاحظ أن المرء في العادة يستغرب ما ليس متعوداً عليـه ، وما هو خارج عن العادات الطبيعية ، يقول :

« •••• فمعلوم أن غرابة الشيء تكون لعزة وجوده وقلة الاعتيـاد في مشاهدته ، وأن ذلك اذا افرط صار نادرة وآبدة ثم تشتهر الأعجوبـة ممـا هو خارج عن العـادات الطبيعية فيكون مستحيل الكون قبـل المشاهدة » [٤١] • ثم يبين أن في عادات أهل الهند ما كان يبدو أعجوبـة لدى المسلمين ، لانها قلب لما هو مألوف لديهم • ولكنه يضيف بأن أهل الهند من غير المسلمين والمسلمين متساوون في نظر كل منهما الى ما عنـد الآخر بأنه أعجوبة •

وقد وجد فرقا بين ما يعتقده الخاصة وما يعتقده العامة فقال :

« انما اختلف أعتقاد الخاص والعام في كـل أمة بسبب أن طبـاع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق في الأصول • وطباع العامة يقف

---

(٤٠) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٤١) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١٤٤

عند المحسوس ، ويقتنع بالفروع ، ولا يروم التدقيق وخاصة فيما افتنت فيه الآراء ولم تتفق عليه الاهواء » (٤٢)

ويشير البيروني في مكان آخر الى ان العامة يعزفون عن المعقول (المجرد) لأنه يتخذ شكل المثال • ويرى في نزعتهم هذه السبب الذي دفع كثيرا من أهل الملل الى استخدام الصور في الكتب والى اتخاذ الأصنام•

« السبب الباعث على ايجاد الأصنام بأسامي الاشخاص المعظمة من الأنبياء والعلماء والملائكة مذكرة أمرهم عند الغيبة والموت ، مبقية آثار تعظيمهم في القلوب لدى الفوت ، الى أن طال العهد بعامليها ودارت القرون والأحقاب عليها ، ونسيت اسبابها ودواعيها وصارت رسما وسنة مستعملة• ثم داخلهم أصحاب النواميس من بابها • اذ كان ذلك أشد انطباعا فيهم ، فأوجبوه عليهم » • (٤٣)

ويرى ان الحائل الأعظم بين الهندوكيين والاسلام هو انقسامهم الى الطبقات الاجتماعية الأربع وهي البراهمة وكشترو بيش وشودر ، ومنافاة المساواة الاجتماعية في الاسلام لهذا التمييز الطبقي (٤٤) •

ويدحض البيروني الرأي القائل بأن تحريم قتل البقر في الهند كان سببه الرغبة في التسهيل على الناس لضعف الناس عن القيام بالواجبات بتقديم القرابين ومنها البقر • ويرى ان تحريمه لم يكن بتخفيف ولا رخصة للتسهيل على الناس ، وانما كان تشديدا وتضييقا عليهم • ويضيف بأنه قد يكون ناشئا من أن البقرة تخدم في الأسفار بنقل الأعمال والأثقال في الفلاحة وتؤخذ منها الألبان ، ولهذا حرم قتلها • ويشبه هذا بما فعله

---

(٤٢) **المصدر ذاته :** ص ٢٠ . راجع ايضا ص ٢٧٤ حيث يعرض ما يعتقده العامة والخاصة في النوم واليقظة.

(٤٣) **المصدر ذاته :** ص ٨٤ ـ ٨٥

(٤٤) **المصدر ذاته :** ص ٤٦٨

الحجاج بن يوسف الثقفي عندما شكا الناس اليه خراب السواد • (٤٥)

وأورد البيروني تفسير الهنود لاحراق الميت فذكر أنهم يعتقدون بأن في الانسان نقطة (روحا) يكون بها الانسان انسانا • وانها لدى حرق الجسم وتبدد أمشاجه تصعد اما بشعاع الشمس أو بلهيب النار • وهي تصعد بالنار في خط مستقيم لانها ترتفع الى أعلى • كما يذكر أن الهنود يستنظفون قاتل طالبة الموت لقاء أجرة بتغريقها أو بحرقها • (٤٦)

وفسر البيروني طائفة من عادات الهند « المستبدعة» : فهم لا يحلقون شيئا من الشعر لشدة الحر ، ويطولون الأظافر « فخرا بالتعطل فان المهن لا تتأتى معها ، واستروحا اليها في حك الرأس وفكي الشعر » •

ويفضلون أصغر الابنين وخاصة في مشارق أرضهم (الهند) لزعمهم ان أكبرهما جاء بسبب شهوة غالبة ، وأن الأصغر جاء بسبب قصد وفكرة وتؤدة • (٤٧)

٦ ــ البيروني والتزام الموضوعية :

ان الموضوعية التامة في كتابة التاريخ أمر عسير التحقيق • ويكاد يكون من المسلم به الآن انه مهما تجرد المؤرخ من عواطفه وميوله الشخصية ومهما كان مدركا لحقيقة هذه الميول والعواطف فانه لا بد متأثر بها • وقد يقف هذا التأثر الى حد لا تختل معه أصول صناعته ، وقد يتجاوز به الى الحد الذي يخرجه عن الاتزان • يقول الاستاذ قسطنطين زريق :

« ونحن نخطىء اذا اعتقدنا ان الماضي شيء مجرد وخارج عن الانسان مستقل عن نزعاته وميوله وآماله

---

(٤٥) **المصدر ذاته :** ص ٧٦ ــ ٧٧

(٤٦) **المصدر ذاته :** ص ٤٧٧

(٤٧) **المصدر ذاته :** ص ١٤٤ ــ ١٤٧

الحاضرة . وهذا هو الخطأ الذي ينطوي عليه موقف المدرسة الموضوعية التي ركزت ايمانها بـ « الصناعة التاريخية » وذهبت بها الى أبعد حدودها . فليس من الممكن ــ مهما حاول رانكه وسواه ــ أن ينعزل الانسان عن حاضره انعزالا تاما » (٤٨) .

فالى اي حد من التجرد بلغ البيروني في سعيه وراء الحقائق التاريخية؟ ان الاجابة اجابة كاملة على هذا السؤال أمر غير ممكن بالنظر الى أن الكتاب الذي يبحث البيروني فيه تواريخ الأمم وصلنا ناقصا . ومن سوء الحظ ان الساقط منه يبحث في موضوعات ليس من السهل على مفكر مسلم أن يمر بها دون تعليق مثل شطر من أخبار مسيلمة الكذاب . فهو يبدأ مباشرة بكتابه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٩) . وقد أشرنا من قبل الى أن كتابه عن المبيضة والقرامطة وغيره من الأبحاث التاريخية لا يزال مفقودا .

لكن لا يسع من يتأمل في أدبه التاريخي وغير التاريخي المنشور الا وان يحكم بأنه من ناحية عامة بلغ غاية من يمكن لمؤرخ ان يبلغه من التجرد، وأنه في اطار عصره كان غاية في التجرد . وفي اجزاء كثيرة من ابحاثه يصعب على القارىء ان يكتشف أنه مسلم .

واذا كان هناك هوى واضح في تعليقاته فهو ميله الى الشيعة . عندما يذكر يوم عاشوراء يقول :

---

(٤٨) قسطنطين زريق : **نحن والتاريخ**
(دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩) .

(٤٩) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٠٩
وقد وجد ادوارد سخا وفضلا ناقصا منه وهو عن اوروستر.
C. E. Sachb (tr.) The chronology of Nations (London 1979) P. XIII .

« وهو يوم مشهور الفضل ... وكانوا (أي الشيعة) يعظمون هذا اليوم الى ان اتفق فيه قتل الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم ، وفعل به وبهم ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق من القتل وبالعطش والسيف والاحراق وصلب الرؤوس ، واجراء الخيول على الاجساد، فتشاءموا به . فأما بنو أمية ، فقد لبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات وجرى الرسم في العافة على ذلك آيام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله عنهم . » (٥٠).

ويقول بانه عندما أدخل رأس الحسين « عليه السلام » مدينه دمشق وضعه يزيد بن معاويه بين يديه ونقر ثناياه بقضيب كان فيده وهو يقول:

« لست من خندق ان لم آنتقم — من بني أحمد ما كان فعل
ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحا — ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا القرن من أشياخهم — وعدلناه ببدر فاعتدل » (٥١)

على انه يبدو أكثر اعتدالا عندما يذكر مقتل الامام زيد بن علي فيقول :

« وقد قتل الامام زيد بن علي وصلب على شاطىء الفرات ، ثم أحرق وذر رماده في الماء » (٥٢) .

ويستنزل البيروني اللعنة على « الملعون » عبد الرحمن بن ملجم

(٥٠) المصدر ذاته : في **الآثار الباقية** ، ص ٣٢٩

(٥١) **المصدر ذاته** : ص ٣٣١

(٥٢) **المصدر ذاته**

المرادي قاتل علي بن ابي طالب . [٥٣]

ويبدو تحامله علـى الامويين من بعض ما ذكرو من تعليقه علـى موقعة الحرة . يقول :

« ... وقعة الحرة ، وهي التي قتل فيها بنو أمية أهل المدينة وانتهبت اموالهم وهنكت ستور المهاجرين والأنصار، وفضحت نساؤهم ، فلعن الله من لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله من المحدثين في المدينة وجعلنا غير راضين بالفساد في ارض الله .... » [٥٤]

وكذلك فان البيروني يستنزل اللعنة على المتنبئين [٥٥] ويصب جام غضبه على أصحاب ما في كابـن المقفع وعبد الكريم ابن ابي العوجـاء « وامثالهم » يقول عنهم :

« فشككوا ضعاف الغرائز في الواحد الأزل من جهة التعديل والتجوير وأمالوهم الى التثنية ، وزينوا عنـدهم سيرة ماني حتى اعتصموا بحبله ، وهو رجل غير مقتصـر بجهالاته في مذهبه دون الكلام في هيئة العالم بما يبين من تمويهاته » [٥٦] .

هذا مع انه دافع عن ماني في اكثر من موضع كما سبق وذكرنا .

على اننا لا يمكن ان نوافق الدكتور سخاو فيما ذهب اليه من ان كتاب الآثار الباقية الذي ترجمه الى الانكليزية ينم عن كراهية للعرب ، ويأخذ جانب الفرس يقول :

---

(٥٣) **المصدر ذاته :** ص ٣٣٢
(٥٤) **المصدر ذاته :** ص ٣٣٥
(٥٥)
(٥٦) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ٢٢٠.

« انه ينم عن نفور شديد من العرب الذين حطموا مجد الساسانيين ، وميل واضح لكل ما هو فارس أو ايراني الجنسية . لم يكن السنة قد صاروا بعد من القوة بحيث يهددون بالخطر حياة رجل مسلم أو غير مسلم يدرس الديانات الاخرى ويصرح علنا بانه يميل اليها » (٥٧) .

وليس لما ذهب اليه سخاو في الشطر الاول من هذا الاقتباس وفي الشطر الثاني منه سند قوي من التاريخ . ومن يتأمل تعليقه على اللغة العربية والعروبة يستبعد مثل تلك التهمة . يقول عن العربية :

« ديننا والدولة عربيان وتوأمان ، ترفرف على احدهما القوة الالهية ، وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجيل والديلم في لباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم يتفق لهم في المراد سوق ...

والى لسان العرب فقلت العلوم من اقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها ، واستعملتها في مآربها مع ألافها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ...

« والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية . وسيعرف مصداق قولي من تأمل في كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزل الانتفاع به . اذ لا تصلح هذه اللغة للاخبار الكسروية والأسمار الليلية » . (٥٨)

---

(٥٧) C.E. Saehab : Op. cit ., P. XIII .

(٥٨) البيروني : **كتاب الصيدنة** ، ص ١٢ .

وتكشف ابحاث البيروني عن ثقافة عربية رفيعة . وكثيرا ما يستشهد بالاشعار والامثال العربية القديمة وأقوال العرب المأثورة . وألف كتابا في أشعار أبي تمام ذكره في قائمة كتبه التي أشرنا اليها في بداية هذا المقال وعنوانه :

قافية الألف من الاتمام في شعر أبي تمام . [٥٩] ويقول ياقوت :

« وانما ذكرته ههنا لان الرجل كان اديبا أريبا لغويا ، له تصانيف في ذلك رأيت انا منها : كتاب شرح شعر ابي تمام رأيته بخطه لم يتمه » [٦٠]

ويضيف ياقوت بانه كان يقول شعرا « ان لم يكن في الطبقة العليا فانه من مثله حسن » وأورد له قصيدة يمدح فيها أبا الفتح البستي في كتاب سر السرور جاء فيها :

مضى اكثر الأيام في ظل نعمة	على رتب فيها علوت كراسيا
فآل عراق قد غدوني بدرهم	ومنصور منهم قد تولى غراسيا

* * *

ولما مضوا واعتصنت منهم عصابة	دعوا بالتناسي فاغتنمت التناسيا
وخلفت في غرنين لحما كمضغة	على وضم للطير للعلم ناسيا
فأبدلت أقواما وليسوا كمثلهم	معاذ الهي أن يكونوا سواسيا [٦١]

---

(٥٩) صلاح الدين المنجد : « البيروني واللغة العربية » بحث قدمه للمؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي ٢٦ نوفمبر – ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ للاحتفال بالعيد الالفي للبيروني ، ص ٨ .

(٦٠) ياقوت الحموي : **معجم الادباء** ، ج ١٧ (القاهرة ، ١٩٣٦) ص ١٨٥ .

(٦١) **المصدر ذاته** ص ١٨٧ .

ولــه ايضــا :

ومن حام حول المجد غير مجاهد ثوى طاعما للمكرمات وكاسيـا
وبات قرير العيــن في ظل راحة ولكنه عن حلة المجد عاريا (٦٢)

لكن كيف توصل سخاو الى ذلك الرأي ؟ قـد يكون استنتجه من مما أوردناه فيما سبق من مناقشته لمعرفة العرب بالبروج وما ذهب اليه من ان الخوارزميين أعلم من العرب بهذا الشأن • ومن هذا القبيل ايضا ما ذكره البيروني عن عرب الجاهلية من أنهم :

« أميون لا يكتبون ولا يحسبون ، وانما يعولون على العدد والعيان اذ لا يعرفون غير الرؤية ، ولا يجدون المنازل بغير الكواكب التي فيها من الثوابت » • (٦٣)

وفي مكان آخر يقول البيروني معلقا على عادات الهند :

« ولست أفرد الهند بالتوبيخ على الجاهلية فقد كان العرب في مثلها يرتكبون العظائم والفضائح من نكاح الحيض والحبالى ، واجتماع النفر على اتيان امرأة واحدة في الطهر الواحد ، وادعاء الادعياء ، واولاد الضياف ، ووأد الابنة ، دع ما في عباداتهم من المكاء والتصدية ، وفي طعامهم مـن القذر والميتة ، وقد فسخها الاسلام كما فسخ اكثر ما في أرض الهند التي أسلم أهلها والحمد لله •» (٦٤)

ولكن ما ذهب اليه البيروني في وصفه لعرب الجاهلية لا يقيم الدليل على كرهه للعرب • فلم يعد البيروني هذه الاشارات فيما عثرنا عليـه •

---

(٦٢) المصدر ذاته ص ١٨٩ .
(٦٣) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ٤١٢
(٦٤) **المصدر ذاته** ، ص ١٤٨ .

وهي لا تزن شيئا مقابل امتداحه للعرب والعروبة في الاشارات السابقة وتحمسه للغة العربية وتفضيلها على الفارسية بالرغم من أنه فارسي•

١٠ ـ بين البيروني وابن خلدون :

هناك اكثر من وجه شبه بين مؤهلات العملاقين التي مكنتهما من التأمل في التاريخ واختلاف عوائد الأمم وأحوالها • فكلاهما كان مؤرخا وفيلسوفا في التاريخ ، وبحاثة في علم الاجتماع والاقتصاد والجغرافيا• ويتميز البيروني بكونه اكثر توسعا في الديانات وعالما بالفلك والرياضيات والطبيعيات • ويفوق ابن خلدون البيروني بمعارفه التاريخية الواسعة التي مكنته من تأليف موسوعته الضخمة العبر • وبينما خصص ابن خلدون المقدمة لعرض منهجه التاريخي وفلسفته التاريخية ، فان البيروني على ما يظهر مما وصلنا من تآليفه ، اكتفى بعرض آرائه الموجزة في مقدمات كتبه وفي ثنايا ابحاثه •

ومن أوجه الشبه بين آراء هذين العملاقين المصطلحات المشتركة التي يستخدمانها في عرض آرائهما ومنها : الأحوال ، والسنن ، والنظر ، والتحقيق ، والقياس ، والتعليل ، والتقليد ، والأسس (الأساس أو القاعدة) والخبر ، والأصول ، والمبتدع ، والممكن ، والممتنع ، والمستحيل والتشيع ، والهوى ، والانتقاد ، والوهم (والتوهم) •

على ان ابن خلدون أغنى في المصطلح وأوسع أفقا في تصوره التاريخ وأكثر تحديدا من البيروني • فمصطلحه يشمل فيما يشمله التمحيص ، والمفهوم ، والمطابقة (بين الأخبار والأحوال والوقائع من جهة ، وبين الحقيقة من جهة أخرى) والتوافق (بين الحقيقة من جهة وبين المفهوم أو الاستنتاج) ، والذهول عن المقاصد ، والعمران ، والقواعد (الأصول عند البيروني) والاصطلاح ، والغلط الخفي •

ويتفق كلا المؤرخين أن التواريخ تشتمل على كثير من الأباطيل وأنه

لتنقيتها من الشوائب لا بد من تمييز ما يصيب الأخبار من تحريف وتشويه . فخصص كلاهما مكانا لمناقشة الموضوع نجدها في « اوهام المؤرخين » عند ابن خلدون وفي « آفات الأخبار » عند البيروني . كلاهما يبحث في كذب الخبر ومجانبته للصدق ، ويدين التشيع للآراء والمذاهب ، والتقليد والمحاكاة ، وتوهم الصدق ، وحب الثناء والطمع في الدنيا . على أن ابن خلدون يضيف الى ذلك الجهل بطبائع العمران والتبدل في أحوال الأمم عندما تنتقل من طور الى طور ، وهي النقطة التي انطلق منها ابن خلدون الى نشأة الدول والعصبية وانتقال الدولة من حال الى حال . كما يضيف ابن خلدون (الذهول عن المقاصد وهو الجهل بما يقصده المؤرخون أو المخبرون بأخبارهم ، كما يتوسع في التقليد فيشير الى الثقة بالناقلين .

وكان ابن خلدون اكثر توسعا وأعمق نظرة في بحثه عن طبيعة الحقيقة . وأتى في هذا الميدان بما لم يأت من قبله ولا من بعده الا بعد قرون من الزمن . لكنه بيسما يوحي في مقدمته بان الحقيقة تخضع لما يجد من الاخبار والظروف ، وخاصة في ابحاثه الأصيلة عن تأثير البيئة في أحوال الناس وطباعهم ، فانه في أكثر من موضع يميل الى الجزم وذلك لأنه يرفض كل ما لا يوافق « القواعد والأصول » التي يستخلصها من دراسته لنشوء الأمم وأطوارها وتغير عوائدها ورسومها في كل طور . يقول :

« حينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والأزيفة واستغنى عنه » .

لكن البيروني الذي يقول بصراحة ، كما مر معنا ، بنسبية الحقيقة التاريخية ، فانه يميل الى ابقاء الباب مفتوحا لظهور أخبار أخرى ، لأن هناك أخبارا لا يمكن التسليم بصحتها قبل وقوعها ، ولأن هناك اخبارا

باطلة تصدق لامكان وقوعها ما لم يقم شاهد على بطلانها !

اما بالنسبة الى النظرة الشمولية للتاريخ فان البيروني لا يحاول فيما وصلنا من ابحاثه كابن خلدون دراسة نشوء الدول وأطوارها والوقوف على المتغير والثابت في أحوال الأمم والتأمل في معنى التاريخ. وعليه فان فلسفة التاريخ عند ابن خلدون أكثر اكتمالا وأقرب الى المفهوم الحديث لهذا الموضوع .

١١ ــ الخلاصة :

اصالة البيروني أمر مسلم به . فقد أسهم في عدة ميادين أدبية وفكرية وعلمية اسهاما يتصف بالابداع ولا تبلى جدته . ومن الصعب الآن تقدير اصالته حق قدرها وذلك لأن أكثر ما كتبه لا يزال مفقودا .

والغرض من هذا البحث هو القاء ضوء على جانب من فكر البيروني لم يلق بعد ــ على ما أعلم ــ ما يستحقه من اهتمام الباحثين ، وهو آراؤه في فلسفة التاريخ التي تجعله أول رائد من رواد هذا الميدان .

والحقيقة التاريخية عند البيروني نسبية ، وعليه فانها تظل محل أجتهاد . وعلى المؤرخ ان يصلح منها ما يمكن اصلاحه ، وان يترك الباقي للمستقبل .

وكان شعار البيروني هو « قولوا الحق ولو على أنفسكم » . وقد التزم بهذا الشعار التزاما يدعو الى الاعجاب ، وأكد ان الحقيقة تطلب لذاتها .

وللوصول الى الحقيقة التاريخية بحث البيروني في الأخبار وطبيعتها وسبل تمحيصها . فأكثرها فاسدة بسبب كثرة ما فيها من الأباطيل ، وبسبب تشيع المخبرين ، وخاصة فيما يخص العقائد الدينية .

واشترط البيروني في تمحيص الأخبار ورودها في مظانها . على ان

البيروني لم يستطع أن يخفي ميوله وأهواءه الشخصية اخفاء تاما • فقد ظهر ميله للعلويين في اكثر من موضع • لكن اتهام الدكتور ادوارد سخاو له بانه كان يكره العرب ليس له ما يبرره •

ولدى مقارنة آراء البيروني في فلسفة التـاريخ بآراء ابن خلدون فيهـا يتضح انهما استخداما اصطلاحات بعينهـا وانهما طرقا موضوعات متشابهة لكن ابن خلدون أوسع أفقا واكثر تجربة في السياسة والادارة وأغنى معرفة بتاريخ العرب والبربر وأغنى مصطلحا ، وأكثر شمولا •

١٢ ـ في مصطلح البيروني :

١ ـ معطيات المؤرخ

المصطلح	المعنى	المرجع والصفحة
١ ـ الاحوال	وخاصة العادات	الآثـار ٤
٢ ـ الرسوم	النظم والمؤسسات	الآثـار ٤
٣ ـ النواميس	القوانين والشرائع سماوية وغير سماوية	الآثـار ٤
٤ ـ السنن	القوانين سماوية وغير سماوية مدونة وغيرمدونة	في تحقيق ٨٠
٤ ـ الآثـار	وهو أصطلاح شامل	الآثار عنوان
٥ ـ المظـان	المراجـع	في تحقيق ١٧ ـ ١٨
٦ الكتب		الآثـار ٤
٧ ـ المقالات	المذاهب والدعاوى	الآثـار ٤
٨ ـ الأس	الاساس أو القاعدة	الآثـار ٤
٩ ـ الاصول	القواعـد	في تحقيق ٢٠
١٠ ـ الفـروع	ما تفرع من الاصل	في تحقيق ٢٠
١١ ـ الخبـر	بمعنى الواقعة (الجزئية واحيانا بمعنى المفهوم او الاستنتاج	في تحقيق ١
١٢ ـ الاقاويل	ما قيل : بمعنى الخبر	الآثـار ٤
١٣ ـ الانبـاء	بمعنى الاقاويل والاخبار	في تحقيق ١
١٤ ـ الاسماء	بمعنى قصص التسلية	في تحقيق ٤
١٥ ـ الاساطير		في تحقيق ٤
١٦ ـ الاعجوبـة		في تحقيق ١٤٤

٢ ـ في الصناعة التاريخية

		المرجع والصفحة
١٧ ـ المشاهدة		في تحقيق ٥
١٨ ـ العيان		في تحقيق ١
١٩ ـ النظر		في تحقيق ١
٢٠ ـ السماع		الآثار ٤
٢١ ـ التقليد		الآثار ٤
٢٢ ـ القياس		الآثار ٤
٢٣ ـ الاستدلال		الآثار ٤
٢٤ ـ الاستقراء		في تحقيق ٣٥٢
٢٥ ـ الاستصواب		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٢٦ ـ الاستيقان	الوصول الى اليقين	القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٢٧ ـ الاستشفاف	التبين والوقوف على	في تحقيق ١٣
٢٨ ـ التبيان	(البرهنة)	القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٢٩ ـ التحقيق		في تحقيق ـ العنوان
٣٠ ـ الاجتهاد	استفراغ الوسع واستنفاد الجهد	الآثار ٤ والقانون ج ١ ص.
٣١ ـ الاقتباس		في تحقيق ٨٠
٣٢ ـ التعديل		في تحقيق ٢٢٠
٣٣ ـ تحريف الخبر		في تحقيق ٢
٣٤ ـ التجوير		في تحقيق ٢٢٠
٣٥ ـ المبالغة		في تحقيق ٤ ـ ٥
٣٦ ـ الاصلاح		الآثار ٥
٣٧ ـ التصديق		في تحقيق ٢٢٠
٣٨ ـ التدقيق		في تحقيق ٢٠
٣٩ ـ المطابقة		في تحقيق ٢٢٠
٤٠ ـ التنقيح	عنوان رسالة	مقدمة كتاب الآثار
٤١ ـ التنزيه		في تحقيق ٨٥
٤٢ ـ التشكيك		في تحقيق ٢٢٠
٤٣ ـ النزوع		في تحقيق ٨٤
٤٤ ـ الحجاج		في تحقيق ٥
٤٥ ـ الجدل		في تحقيق ٥
٤٦ ـ التمهر	اكتساب المهارة	الآثار ٥١
٤٧ ـ التجاهل		الآثار ٢٣٨ ـ ٢٣٩
٤٨ ـ الحجة		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٤٩ ـ البرهان		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٠ ـ المثال		في تحقيق ٨٤

		المرجع والصفحة
٥١ ـ الزلل		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٢ ـ السهـو		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٣ ـ الخلـل		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٤ ـ الخـاص	الصفوة	في تحقيق ٢٠، ٨٤، ٢٢٠، ٢٧٤
٥٥ ـ العام والعامة	عامة الناس	في تحقيق ٢٠، ٨٤، ٢٢٠، ٢٧٤

٣ ـ الخبـر

٥٦ ـ المحسوس		في تحقيق ٢٠ ، ٢ ، ٨٤ ، ٢٧٤
٥٧ ـ المعقـول	بمعنى المجرد احيانا	في تحقيق ٨٤ ، ٢٧٤
٥٨ ـ الخبر الحق		الآثـار ٥
٥٩ ـ الموجود		في تحقيق ص ١
٦٠ ـ المعلوم		في تحقيق ١
٦١ ـ ممتنع الكون		الآثـار ٥
٦٢ ـ غير الموصول اليه		الآثار ٥
٦٣ ـ صعب المتناول		الآثـار ٦
٦٤ ـ بعيد المأخذ	(والمتنـاول)	الآثـار ٦
٦٥ ـ غير منقـاد		الآثـار ٦
٦٦ ـ منحول		في تحقيق ٤
٦٧ ـ منقول		في تحقيق ٤
٦٨ ـ ملقـوط		في تحقيق ٤
٦٩ ـ مخلوط		في تحقيق ٤
٧٠ ـ غير مهذب		في تحقيق ٤
٧١ ـ غير مشذب		في تحقيق ٤
الزعـم		
٧٢ ـ المجرد		في تحقيق ٢٧٥
٧٣ ـ الراي العلمي		في تحقيق ٤
٧٤ ـ الضروري	لا شبهـة فيـه	في تحقيق ٢٧٤
		الآثـار ٦
٧٥ ـ الراي الملي		في تحقيق ٣٩٣
٧٦ ـ الاقرب		الآثـار ٥
٨٨ ـ الاشهر		الآثار ٥
٧٨ ـ المألوف		الآثـار ٤
الراي العامي		
٧٩ ـ الشبهة		في تحقيق ٢٢٠
		الآثـار ٦
٨٠ ـ النادرة		في تحقيق ٥
٨١ ـ الآبـدة	(الامر العجيب الذي يستغرب له)	في تحقيق ٥

٤ ـ آفات الاخبــار

		المرجع والصفحة
٨٢ ـ العوارض	(العوارض المردئة للنفس)	الآثــار ٤
٨٣ ـ التمويــه		في تحقيق ٢٢٠
٨٤ ـ الــزور		في تحقيق ٣
٨٥ ـ الاحتيال		في تحقيق ٣
٨٦ ـ التشيع		الآثــار ٣٧
٨٧ ـ الجــور		في تحقيق ٣
٨٨ ـ الكــذب		في تحقيق ١ ـ ٢
٨٩ ـ الازراء		في تحقيق ١٧ ـ ١٨
٩٠ ـ اتباع الهوى		الآثــار ٤
٩١ ـ الادعــاء		في تحقيق ١٤٨
٩٢ ـ التظــافر		الآثــار ٤
٩٣ ـ التعصب		الآثــار ٤
٩٤ ـ التغالب بالرئاسة		الآثــار ٤
٩٥ ـ الزائغ	(عن الحق)	في تحقيق ٥
٩٦ ـ الاسباب المعمية	(عن الحق)	الآثــار ٤
٩٧ ـ دواعي المحبــة		في تحقيق ٢
٩٨ ـ دواعي الغلبة		في تحقيق ٢
٩٩ ـ دواعي الشرارة	(الشد)	في تحقيق ٢
١٠٠ ـ الطعن	(بالانساب)	الآثــار ٣٧
١٠١ ـ الثلب	(في الاعراض)	الآثــار ٣٧
١٠٢ ـ دناءة الطبع		في تحقيق ٢
١٠٣ ـ الاحن		الآثار ٢٣٨ ـ ٢٣٩
١٠٤ ـ التراث		الآثار ٢٣٨ ـ ٢٣٩
١٠٥ ـ الوقعة	(في الافاعيل ـ مهاجمتها)	الآثــار ٣٧
١٠٦ ـ العجمــة	(عدم المعرفــة)	في تحقيق ١٧ ـ ١٨
١٠٧ ـ الباهت	(على الخصم ، قاذفةبالباطل)	في تحقيق ٥

١٣ ـ مراجع البحث :

أ ـ مؤلفات البيروني

١ ـ كتاب القانون المسعودي	٣ مجلدات (حيدر اباد ، ١٩٥٤)
٢ ـ في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة	(حيدر اباد ، ١٩٥٨)
٣ ـ ابو ريحان بيروني ـ الاسئلة والاجوبـة	تحقيق سيد حسين نصر ومهدي محقق (ايران ، ١٩٧٢)
٤ ـ الآثار الباقية من القرون الخالية وترجمته الانجليزيـة	نشرة الدكتور ادوارد سخاو (ليبزج ، ١٨٧٨) ترجمة ادوارد سخاو (لندن ١٨٧٩)
٥ ـ رسائل البيروني	وهي اربع رسائل : استخراج الاوتار ، وافراد المقال وتمهيد المستقر ، وراشيكات الهند (حيدر اباد ، ١٩٤٨)
٦ ـ الجماهر في معرفة الجواهر	(حيدر اباد ، ١٣٥٥ هـ)
٧ ـ كتاب بتنجلي الهندي في الخلاص من الامثـال	نقله البيروني الى العربية (لا تاريخ)
٨ ـ كتاب الصيدنة	تحقيق حكيم محمد سعيد ورانا : حسان الهي (كراتشي ، ١٩٧٣)
٩ ـ تحديد نهايات الاماكن	حققه ب . بولجاكوف ، مجلة معهد المخطوطات العربية عدد مايو ـ نوفمبر ـ القاهرة ١٩٦٢

ب ـ المراجع الاولية والثانوية العربية المختارة

١ ـ البيهقي ، ابو الفضل	تاريخ البيهقي . ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (القاهرة ، ١٩٥٦)
٢ ـ زايد ، محمود	بعض جوانب من ثقافة البيروني بحث قدم الى المؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي١٩٧٣
٣ ـ زريق ، قسطنطين	نحن والتاريخ (دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٩)
٤ ـ الشحات ، علي احمد	البيروني ـ حياته ـ مؤلفاته ـ آراؤه العلمية (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨)
٥ ـ شهاب الدين ، ياقوت الحموي	معجم الادباء ، ج ١٧ (القاهرة ، ١٩٣٦)

٦ ـ المنجـد ، صلاح « البيروني واللغة العربية » بحث قدم الى المؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي (١٩٧٣).

ج ـ بالانجليزيـة

1 - Sarton, George: «Introduction to the History of Sciences». vol. I (Baltimore, 1927).

2 - Papers presented on the occasion of al-Biruni International Congress, Nov. 26-Dec. 12, 1973-Pakistan.

a) Brohi, A. K.: «Abu Raihan al-Biruni International Congress - Philosophy Session - Presidential Remarks».

b) Heinen, Anton: «Al-Biruni and Ibn al-Haytham: A Comparative Study of Scientific Method».

c) Nasr, Hossein: «Abu Rayhan Biruni - Scientist and Scholar Extraordinary».
«Al-Biruni as Philosopher».

d) Qudsi, Obaidallah: «Al-Biruni's Methodology and its Sources».

نبذة عن تاريخ مدينة لبدة

الأستاذ محمود الصديق أبو حامد
مراقب آثار لبدة . ليبيا

لقد أجريت في ليبيا عدة حفريات في المدن الأثرية القديمة حيث تم الكشف على معالم تاريخية مهمة وما زال العلماء والمتخصصون في علم الآثار يركزون جل اهتمامهم الى الآثار التي لم تكتشف بعد ، وقد حددت أعمال الحفريات هذه والدراسات الأثرية المختلفة التي بدأت منذ سنة ١٩٢٠ م تقريبا على بعض معالم المدن القديمة بطرابلس ، وقد أخذت لبدة النصيب الأكبر من اهتمام العلماء والدارسين • فظهر الى العيان منشآت عمرانية مهمة تدل على مكانة هذه المدينة وأهميتها التاريخية •

ومدينة لبدة هذه تبعد عن مدينة طرابلس من الناحية الشرقية بنحو ١٢٣ كم وقد ورد اسمها في المصادر التاريخية القديمة بهيئة لبتس مقنا (Leptis Mangna) وبصيغة لبسيس مقنا (Leptis Magna) ويعتقد أن الأخير اشتق من اسم المدينة الفنيقي ليبقى ، وأقدم ذكر لهذا الاسم الفنيقي ورد في النقود الفنيقية من القرن الأول قبل الميلاد وبعضها من أوائل القرن الأول الميلادي ، وسماها اليونان بجانب لبتس (نيابوليس) أي المدينة الجديدة •

ومدينة لبدة هذه كانت أول الأمر عبارة عن مركز تجاري يلتجأ اليه الفنيقيون عند ابحارهم من سواحل سوريا الى شواطىء البحر الأبيض

المتوسط للتجارة مع اسبانيا وذلك حوالي القرن الثاني عشر ق٠م ومن المرجح انها لم تكن مدينة كبيرة ثابتة وانما استخدمها الفنيقيون كمحطة تجارية أو ميناء مؤقت لارساء السفن وتبادل البضائع المختلفة مع أهالي البلاد الذين كانوا يجلبون معهم البضائع الثمينة من أواسط افريقيا عن طريق القوافل عبر ممرات كان التجار الليبيون يسلكونها في تنقلاتهم •

وقد استطاع الفنيقيون أن يؤسسوا لهم مراكز تجارية على طول الساحل الافريقي الشمالي ويرجح بعض علماء الآثار أن مدينة لبدة هذه قد أسست بعد تأسيس عاصمة القرطاجنيين وهي قرطاجنة القريبة من مدينة تونس الحالية سنة ٨١٤ ق٠م ، ومن المحتمل في القرن السادس ق٠م حيث عثر على قطع من الفخار تعود الى هذه الفترة بالحفريات التي أقامتها جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٦١ م قرب الميدان القديم بلبدة •وقد استطاع القرطاجنيون خلفاء الفنيقيين بشمال افريقيا من تأسيس عدة مدن على الساحل من بينها لبدة ، وأويا ، وطرابلس الحالية ، وصبراتة •

هذا ولم يعثر الى حد الآن على مباني مدينة لبدة في عهدها الفنيقي ، الا أن كل ما أكتشف من آثار لهذه المدينة في عهدها الفنيقي هو عبارة عن عدد من المقابر البونيقية تحت منصة مسرح لبدة الروماني ، تحتوي على أواني فخارية مختلفة ترجع الى القرن الرابع والخامس قبل الميلاد ، وقد عرض بعض منها بمتحف لبدة وهي من حفريات البروفسور كابوتو سنة ١٩١٢ م ، ويعتقد أن مقبرة المدينة الفنيقية تقع خارج المدينة القديمة ويحتمل انها قائمة على احدى المرتفعات ما بين الميدان القديم ومصب وادي لبدة وهي منطقة لم يتم الكشف عنها بعد ، وكانت لبدة في العهد القرطاجني تعتبر المركز الاداري لمدن طرابلس ، وكانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتي في شئونها الداخلية ولها قوانينها الخاصة • وقد شارك سكان البلاد الأصليين القرطاجنيين في الحياة اليومية وتعلموا لغتهم كما تعلموا في مدارسهم حتى أن الأستاذ الكعاك في كتابه (البربر) يشير الى أن الرومان

عندما انتصروا على البونيقيين واستولوا على مدينة قرطاجنة ، انتزعوا ما يوجد في المكتبات من كتب مكتوبة بلغة القرطاجنيين ووزعوها على أهالي البلاد الأصليين من البربر وهذا يدل دلالة واضحة على مشاركة أهالي بلاد شمال افريقيا الحضارة (البونيقية) ، ولهذا حافظت مدينة لبدة على التقاليد والعادات القرطاجنية ،كما ظل الأهالي يستعملون اللغة البونيقية في معاملاتهم اليومية •وقد نشاهد حتى اليوم ببقايا حفريات لبدة بعض الكتابات البونيقية بجانب الكتابات اللاتينية ، مثل اللوحة التذكارية الموجودة بأعلى مدخل المسرح الرئيسي ، وفي الميدان القديم فقد بقي الأهالي يستعملون اللغة البونيقية حتى دخول الرومان واستقرارهم في مدن طرابلس في القرن الأول الميلادي كما تبين لنا ذلك •

وقد أشار البروفسور (ريناتو برتوتشيني) في كتابة الميناء الروماني بلبدة سبب انشاء مدينة لبدة وازدهارها وهو يرجع سبب انشائها الى شيئين رئيسيين :ــ أولا طبيعة المكان وثانيا غزارة مياه العيون المتدفقة في وادي لبدة والذي كان في حيازته (أربعمائة) متر من الأرض • وقد كون الوادي مصبا واسعا يقع على الساحل متقوسا على شكل خليج ومتدفقا الى البحر برأس صخري يسمى رأس لبدة وكانت تتبعه سلسلة من الجزر الصخرية ، كأنها رصيف طبيعي لحماية المصب من هيجان البحر وكانت تلك البقعة صالحة لانشاء مرفأ ، ولهذا السبب قام الفنيقيون والليبيون فاختاروها مركزا للتجارة ، ويذكر المؤلف المذكور كذلك أن وسط الهضبة هو الموقع الذي شيدت عليه مباني لبدة الأولى ، وفيما بعد تحولت هذه المباني الى المدينة الرومانية التي من بقاياها الميدان القديم وما يجاوره من منشآت عمرانية أخرى •

ومن المرجح أن النفوذ الروماني بلبدة بدأ بعد أن قضت روما على قرطاجنة في نهاية الحرب البونيقية الثالثة سنة ١٤٦ ق•م• وفي أثناء الحروب البونيقية استطاع (ماسينسا) الملك النوميدي التي هي الجزائر

الحالية من أن يضم اليه مدينة لبدة وبقية المدن الطرابلسية وذلك بمساعدة حلفائه الرومان ، كما احتل سهل الجفارة عــام ١٩٣ ق٠م الا أن الرومان تضايقوا من تغلغل النفوذ النوميدي بشمال افريقيا • لهذا رأوا أن يقوموا بالتدخل في شئون مدن طرابلس وأثناء النزاع بـين الرومان والنوميديين طلبت مدينة لبدة ابرام معاهدة صداقة مع الرومان حيث نالت قسطا مــن الاستقلال الذاتي تحت حماية روما ، وظلت الى منتصف القرن الأول ق٠م حينما التحقت هي وبقية بلدا نالشمال الافريقي عن طريق الحكم المباشـر الى أملاك الامبراطورية الرومانية ، وفي أثناء النزاع والحرب بين (بومبي ويوليس قيصر) استطاع هذا الأخير بعد انتصاره على خصمه بومبيسنة ٤٧ ق٠م أن يضم اليه بلدان الشمال الافريقي وأزال المملكة النوميديـة من الوجود ، وجعل الجزء الأكبـر من أقاليمها ولايـة رومانية باسـم (Africa Nova) افريقيا الجديدة • وقد فرض قيصر على مدينة لبدة التي ساندت خصمه وآوت القائد الروماني كاتو غرامة باهضة وذلك بأن تؤدي سنويا ثلاثة ملايين رطل انجليزي من زيت الزيتون ، وبعد اغتيال قيصر عام ٤٤ ق٠م نشب نزاع بين (انطونيوس) ضـد قتلة قيصر وبعد أن انتصـر (اكتافيوس قيصر) سنة ٣١ ق٠م وافق مجلس الشيوخ على الحاق حكـم بعض الولايات الرومانية لمجلس الشيوخ ومن بينها ولايـة افريقيا ، وأعاد أغسطس وهو لقب اكتافيوس الجديد بتكوين المملكة النوميدية ووضع على عرشها يوبا الثـاني ووضع في عام ٢٥ ق٠م الفيلق الثالث لحمايـة ولاية افريقيا بعد أن أضاف اليها المملكة النوميدية •

وعقب اغتيال الامبراطور (نيرون) ٥٤ ــ ١٦٨ استقل بعضالقواد الرومانيين ونشب نزاع بين بعض المدن حيث حدث نزاع بين لبـدة وأويا طرابلس واستنجدتأويا بالجرامنتيين في فزان واستطاع الجرامنتيونحصار مدينة لبدة ونهب مزارعها وحقولها ، فاضطر قائد الفيلق الاغسطسيالمسمى فلاريوس فاستوس الى التدخل العسكري وأرسل نجدة عسكرية الى لبدة

استطاعت طرد الجرامنتيين ، وقد حازت لبدة أهمية كبرى في أوائل القرن الأول الميلادي وخاصة في عهد الامبراطور أغسطس وتيبريوس ثم في القرن الثاني الميلادي في عهد الامبراطور سبتيميوس سويروس ١٩٣ — ٢١١ م الذي يرجح أنه من أصل ليبي ونالت لبدة مسقط رأسه أحسن ازدهار في تاريخها حيث شيدت في عهده كثير من المنشآت الضخمة ومنحت لبدة في عهده حقوقا دستورية اضافية في ملكية الأراضي التابعة لها ، مثل الحقوق الايطالية في الأراضي مما يعرف باللاتينية بمصطلح (Ius Italicus) واستمر هذا التقدم والازدهار في عهد الأباطرة من الأسرة السويرية حتى نهاية عهد الاسكندر سويروس ٢٢٢ ـــ ٢٣٥ م آخر أباطرة تلك الأسرة وفي سنة ٣٦٣ م ٣٦٧م أصاب مدينة لبدة الدمار اثر غزوات قبائل الاستوريين الليبية وأتلفت مزارعها وأهملت سدود الري في وادي لبدة .

وبعد ان احتل الوندال قرطاجنة سنة ٤٣٩ أصبحت مدينة لبدة تابعة لهم حيث لم يهتموا بمدن طرابلس ولم يعثر على آثار من العهد الوندالي الا مجموعة من النقود ترجع الى تلك الفترة وجدت في سوق مدينة لبدة ، وقد هدم الوندال أسوار المدينة الا أنهم طردوا من البلاد من طرف البيزنطيين في عهد الامبراطور (جوستيان) ٥٢٧ ـــ ٥٦٥ م وجعلت لبدة في هذا العهد عاصمة الاقليم الاداري وحولت كثيرا من الباسلكيات الشهيرة الى كنائس وأعيد بناء الأسوار في لبدة وصبراتة وقد نلاحظ حتى الآن أثر التغييرات التي طرأت على بعض المنشآت في لبدة كبسيلقة (سبتيميوس سويروس) وبقايا آثار الأسوار البيزنطية التي أقاموها لحماية المدينة من الغارات المفاجئة ، وأنتهى الحكم البيزنطي بمجيء العرب المسلمون سنة ٦٤٣ ـــ ٦٤٤ م حيث احتل المسلمون بلدان الشمال الافريقي بعد أن احتل مصر وبرقة ، ويستدل من المصادر التاريخية أن لبدة في هذه الفترة لم يكن لها شأن يذكر وقد أشار بعض المؤرخين في بعض الحملات العسكرية التي اجروها المسلمون ضد ثورات القبائل البربرية ولا سيما قبيلة (هوارة)

ما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين ٠

واتخذت حصنا أو قلعة لصد هجمات بعض القبائل البربرية التي ظلت تقاوم الفتح العربي الى أن تم اخضاعها في أواخر القرن السابع الميلادي وانتقل مركز الحماية من لبدة الى القرية القريبة منها وهي الخمس الآن فازداد خرابها ويقال أنه حل بها خراب كبير أثر هجرة قبيلتي بني هلال وبني سليم كما تظافرت عوامل الطبيعة للقضاء عليها نهائيا وغطتها الرمال وقد بدأ السياح يتعرفون عليها من القرن السابع عشر عندما كانت بقاياها مطمورة واستخدمت بعض احجارها وأعمدتها في بناء بعض المساجد كما حدث بالنسبة المجامع الذي شيده الوالي التركي مراد آغا في القرن السادس عشر الميلادي ، وقد أشار اليها الرحالة المغربي العياشي الذي زارها في ٢١ مارس ١٦٦٢ م وروى بعض الأساطير عنها ووصفها أيضا الفرنسي (جيرارد) الذي كان يقيم في طرابلس ما بين عام ١٦٦٨ ـ ١٦٧٦ م وقد أخذ بعد ذلك قناصل الدول الأجنبية ينهبون ما يحصلون عليه من آثارها القيمة حيث استطاع القنصل الفرنسي ليمير ١٦٨٦ م الى نقل عدد من الأعمدة لبناء قصر لويس الرابع عشر في عام ١٦٨٧ م وقد استمر بعض ممثلوا الدول الأجنبية في نهب ما يحصلون عليه من أحجار وأعمدة منحوتة وخاصة في القرن الثامن عشر وقد تتابع الرحالة الأجانب في وصف خرائب مدينة لبدة كالرحالة (دوران) والرحالة الايطالي (ديلاشيلار) ١٨١٧ م ورحلة الأخوين بيشي ١٨٢١ م ، ورحلة الألماني بارت ١٨٤٨ ـ ١٨٥٥ م ٠ هذا وقد بدأت الحفائر المنظمة بلبدة منذ سنة ١٩٢٠ م وقد توقف النشاط الأثري في أثناء سني الحرب الثانية وانتهت الحفائر سنة ١٩٥٤ م وأعمال الصيانة والترميم في بعض المعالم الأثرية المهمة كقوس سبتيميوس سويروس والملعب المدرج الذي يعتبر من أهم المعالم الباقية بمدينة لبدة ٠

وعند القيام بجولة بين أطلال مدينة لبدة يمكننا الآن مشاهدة مظاهر الحضارات القديمة كالحضارة الرومانية ٠ ويحتمل أن تظهر الى الوجود

فيما بعد بقايا الحضارة الفنيقية ، وعند التأمل فيما خلفه الرومان في هذه المدينة يتبين لنا أن مدينة لبدة كان لها شأن كبير حيث لعبت دورا كبيرا في تقدم البلاد ونهضتها ولا نستبعد أن سكان البلاد الأصليين شاركوا الرومان في بناء هذه المنشآت الضخمة التي تمتاز بها مدينة لبدة ، ويتضح لنا من الخريطة العامة للمدينة أن لبدة تشبه في تخطيطها المدن الرومانية من ناحية تقسيمها الى أرباع أو حارات مما يسمى بالـلاتينية (Regiones) و (Insulae) وتمتاز مدينة لبدة بضخامة مبانيها المشيدة من احجار قوية • ويمكننا مشاهدة الشوارع الرئيسية العرضي منها (Decamonus) والشارع الطولي (Cordo) ثم الشوارع الأخرى المتفرعة عنها ، كما أقيمت أقواس النصر والمعابد والميادين الواسعة والملاعب المختلفة والحمامات التي بنيت على الطراز الروماني ، فنلاحظ عند جولتنا بين اطلال المدينة الميدان القديم الذي كان يعتبر مركز المدينة الأصلية قبل اتساعها في القرن الثاني والثالث الميلاديين ، ثم السوق الذي شيد ٩ ـ ٨ ق•م والكلكيدكوم ١١ ـ ١٢ م الذي من المحتمل أنه كان سوقا لبعض أنواع البضائع ثم المسرح الذي بنى سنة ١ ـ ٢ م هذا وقد توسعت المدينة في القرن الثاني الميلادي حيث بنيت حمامات هادريان التي أنشأت سنة ١٢٣ م وميدان الالعاب الذي كانت تقام فيه الالعاب الخفيفة ، أما في بداية القرن الثالث حيث زادت المدينة توسعا فأنشأت في لبدة مباني أخرى كالشارع المعمد الذي يمتد حتى ميناء لبدة ومعبد حوريات الماء (Nymphaeam) ثم الميدان الجديد والبازيليكا التي كانت محكمة عدل وقاعة اجتماعات ثم حولت في العهد البيزنطي في القرن السادس الميلادي الى كنيسة حيث يمكننا ملاحظة الحجرة الغربية وقد حولت الى معمدنية (Baptistery) على هيئة صليب •

متحف لبدة : نعود الآن بعد هذه المقدمة السريعة عن تأسيس لبدة ووصف مختصر عن أهم معالمها الباقية نبدأ معا في القيام بجولة بمتحف لبدة

حيث نستعرض معا ببعض محتوياته التي عثر عليها أثناء اجراء الحفريات في المنطقة الأثرية والتي بدأت سنة ١٩٢٠ م حيث تم العثور على بعض التماثيل الرخامية التي ترمز الى بعض المواهات الرومانية التي انتقلت عبادتها الى الرومان عن طريق اليونانيين الذين كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة ، وتماثيل لبعض الأباطرة الرومانيين وكذلك بعض الأواني الفخارية والزجاجية وقطع الفسيفساء الملونة ، وعرضت بالمتحف كذلك محتويات بعض المقابر التي عثر عليها خارج مدينة لبدة ، كمحتويات المقابر الرومانية التي عثر عليها سنة ١٩٦٠ م غربي وادي الزناد وشرقي وادي الرصف ، ومحتويات مقبرة بدر الرومانية التي عثر عليها بمصراتة سنة ١٩٦٠ م وعرضت بداخل المتحف كذلك بعض النقوش الكتابية منها اللاتينية ومنها الكتابات البونيقية التي ظل استعمالها كما أشرت اليه من قبل ، حتى دخول الرومان منذ القرن الأول ق٠م هذا وقد أسس المتحف منذ سنة ١٩٢٧ م وأقيمت للمتحف فيما بعد تعديلات كثيرة خلال فترات متوالية وتم نقل بعض التماثيل الرخامية وبعض قطع الفسيفساء حيث عرضت بمتحف طرابلس ووضعت بالمتحف بعض اللقيات الموجودة بالمخزن وبعض التماثيل الموجودة من قبل ٠

أما في سنة ١٩٧٢ م أضيفت للمتحف حجرات الاستراحة القديمة المجاورة له حيث تم اضافة خمسة قاعات احداها كبيرة الحجره الذي سوف يعرض بداخلها بعض التماثيل المكتشفة في الحفائر والموجودة الآن بمخزن الآثار ولبدة والمنحوتات الرخامية التي تم كشفها في السنوات الأخيرة بالملعب المدرج ٠ وقد تم أخيرا تجهيز خزانات عرض وضعت في بقية الحجرات الأخرى حيث عرض بداخلها ما تم العثور عليه بمقبرة (بدر) الرومانية بمصراتة والمقابر البونيقية المكتشفة تحت مسرح لبدة ، وبعض ما اكتشف بفيلا النيل ، وما أكتشف بالمقابر الرومانية غربي وادي الزناد هذا وقد استعنت في وضع هذا الدليل على بعض الشروح القديمة الموجودة على بعض اللقيات الأثرية الموجودة بالمتحف ، كما اعتمدت أيضا على بعض

الكتب والمراجع المولفة عن تاريخ الحفائر بمدينة لبدة ، وكذلك على بعض الكتب المتعلقة بالأساطير القديمة الى تخيلها الانسان في العصور القديمة حيث كثرت المعابد وتماثيل الآلهة • فقد كان الاغريق ثم من بعدهم الرومان وغيرهم من الشعوب الأخرى يعتقدون بوجود كثرة من الآلهة لكل منهم اهتمامه الخاص فكان هناك آلهة الغابات والصيد والهة المعرفة والبحر والخمر وكان لكل أسرةالهها الخاص بها ، وكانلكل اقليم من بلاد الاغريق الهه الخاص الذي يحميه ، ونحن الآن نطلق على الذين يعبدون آلهة متعددة اسم المشركين أو المؤمنين بتعدد الآلهة (Pyios and Theos) وهو مشتق من كلمتين اغريقيتين معناهما تعدد الآلهة (Polytheists) وكانت جميع الشعوب القديمة تعتنق تعدد الآلهة بوجه عام •

هذا ونلاحظ داخل المتحف تأثير هذه الخرافات والأساطير القديمة على حياة سكان مدينة لبدة حيث عبدوا بعض الآلهة التي انتقلت عبادتها على طريق الرومان عند احتلالهم لمدن طرابلس واستقرارهم بها • هذا وقد تأثر الأهالي من قبل بعبادة بعض الآلهة الفنيقية التي يمكننا أن نرى ذلك في احدى اللوحات المصنوعة بالفسيفساء بمتحف صبراتة وهي تمثل الالهة الفنيقية (تانيت) وقد اله الرومان كذلك حكامهم فأنزلوهم بمنزلة الآلهة ، لهذا صنعوا تماثيل من الرخام لأباطرتهم وقد عثر على كثير من تماثيل الأباطرة داخل معالم المدينة كالامبراطور أغسطس وتيبريوس وكلاوديوس وسبتيميوس سويروس وغيرهم من الأباطرة الآخرين ونجد تماثيل لبعض أفراد الأسرة الحاكمة ولزوجات الأباطرة وأبنائهم هذا وقلت عبادة الآلهة المتعددة بلبدة وبقية المدن الطرابلسية عند دخول البيزنطيين في القرن السادس الميلادي حيث تغيرت بعض المعالم الى كنائس كما أشرتالى ذلك من قبل ، وقل بالتالي تفكير الناس بالأساطير القديمة التي شغلتبالهم لفترة طويلة •

يوحنا بن حيلان معلم الفارابي في المنطق

الأب الدكتور يوسف حبي
عضو مجمع اللغة السريانية

الفارابي من اعاظم الفلاسفة المسلمين • ولد في وسيج بالقرب من فاراب في تركستان • نشأ في بغداد واقام في الشام وزار مصر • توفي بدمشق بعمر يربو على الثمانين سنة ٣٣٩هـ ــ ٩٥٠م (١) •

يؤكد المؤرخون ان ابا نصر محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ الفارابي درس على يوحنا بن حيلان • ويقدم لنا بعضهم اشارات خفيفة لا تكشف لنا سوى جوانب طفيفة من شخصية معلم الفارابي هذا ، وتلمح الى التعليم الذي اعطاه يوحنا لتلميذه ابي نصر • ونظل حيال غموض عميق يكتنف حياة معلم الفارابي ، وشخصيته ، وعلمه ، واسلوبه في التعليم ، وقيمة العلم الذي نفحه لتلميذه • ولم يعرض احد الباحثين الذين درسوا الفارابي وحققوا كتبه ما فيه الكفاية لنستشف ما نرمي اليه في بحثنا هذا ، لا بل نراهم يتحاشون التركيز على يوحنا بن حيلان ، بينما يسقط غيرهم في أخطاء شتى في هذا المجال (٢) •

لذا فان غايتنا من هذا البحث : أولا ، التأكد من أن يوحنا بن حيلان هو معلم الفارابي حقا • ثانيا ، التعرف على مكان الدراسة وزمنها • ثالثا ، التوصل الى المادة العلمية او الكتب التي درسه اياها • رابعا ، محاولة الاطلاع على الطريقة التي كان يتبعها في تدريسه • واخيرا ، تقييم العلم الذي أخذه الفارابي عن يوحنا معلمه • ولا يخفى ما في ذلك من أهمية بالغة

في التعرف علـى جانب من جوانب حيـاة الفارابي وشخصيته ومنزلته العلميـة .

يوحنا بن حيلان معلم الفارابي

يقول المسعودي ، معاصر الفارابي ، ان ابا نصـر محمد بن محمـد الفارابي هو « تلميذ يوحنا بن حيلان » (٣) ومما لا شك فيه ان شهـادة المسعودي هذه هي في غاية الاهمية .

ويفيد صاعد الاندلسي ان الفارابي « فيلسوف المسلمين » قد «اخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلاني (حيلان) » (٤) .

ويؤكد ابن الاثير ايضا ان الفارابي « الحكيم الفيلسوف ... كان تلميذ يوحنا بن حيلان » (٥) .

ويضيف القفطي الى ذلك بقوله ان الفارابي « قرأ بها (بغـداد) العلم الحكمي على يوحنا بن جيلاد (حيلان) » (٦) .

وينقل لنا ابن ابي اصيبعة قول الفارابي عن نفسه في كتاب لـه في الفلسفة وسبب ظهورها (٧) « انه تعلم من يوحنا بن حيلان » (٨) . كما انه يعيد شهادة القاضي صاعد المذكورة اعلاه .

اما ابن خلكان فيقول ان الفارابي « اخذ طرفا من المنطق على يوحنا ابن حيلان » (٩) .

ويعيد ابن العبري ما جاء لدى القفطي (١٠) .

فثابت هو اذا ان الفارابي درس على يوحنا بن حيلان . ولكن ، من هو يوحنا هذا ؟ وأين درس الفارابي عليـه ؟ لنحاول ان نستجلي الامور بقدر ما يتيسر لنا الامر .

يوحنا بن حيلان حكيم نصراني في بغداد

يذكر المسعودي ان وفاة يوحنا بن حيلان كانت « بمدينة السلام في ايام المقتدر » [١١] • ويعيد ذلك القاضي صاعد [١٢] ، ويكرر القفطي [١٣] وابن العبري [١٤] الامر عينه • اما ابن الاثير فلا يذكر محل الوفاة وانما زمنها فقط اذ يقول « وكانت وفاة يوحنا في ايام المقتدر بالله » [١٥] •

الا ان وفاة يوحنا في بغداد لا تعني ضرورة انه مولود فيها ومن اهاليها • بل اننا نستشف غير ذلك مما يذكره المؤرخون •

فالمسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » يلخص ما كان قد ذكره باسهاب في كتابه المفقود والموسوم بـ « فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف » ، حول قصة ظهور الفلسفة وانتقالها من اليونان الى العرب « ولاية علة ابتدىء بالفلسفة المدنية من سقراط ثم افلاطون ثم ارسطاليس ثم ابن خالته ثاوفرسطس ثم أوذيمس ، ومن تلاه منهم واحدا بعد آخر ، وكيف انتقل مجلس التعليم من اثينة الى الاسكندرية من بلاد مصر ، وجعل اوغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين الاسكندرية ورومية ، ونقل تيدوسيوس الملك الذي ظهر في ايامه اصحاب الكهف التعليم من روميه ، ورده اياه الى الاسكندرية ؟ ولأي سبب نقل التعليم في ايام عمر بن عبد العزيز من الاسكندرية الى انطاكية ، ثم انتقاله الى حران في ايام المتوكل ؟ وانتهى ذلك في ايام المعتضد الى قويري ويوحنا بن حيلان، وكانت وفاته بمدينة السلام في ايام المقتدر ، وابراهيم المروزي ، ثم الى ابن محمد بن كرنيب وابى بشر متى بن يونس تلميذي ابراهيم المروزي، وعلى شرح متى لكتب ارسطو طاليس المنطقية يعول الناس في وقتنا هذا ، وكانت وفاته ببغداد في خلافة الراضي ، ثم الى ابي نصر محمد بن محمد الفارابي تلميذ يوحنا بن حيلان ، وكانت وفاته بدمشق في رجب سنة ٣٣٩ • ولا اعلم في هذا الوقت احدا يرجع اليه في ذلك الا رجلا واحدا

من النصارى بمدينة السلام يعرف بابن زكريا بن عدي » [١٦] .

لقد تعمدنا ان نستشهد بهـذا النص الطويل للمسعودي كمحاولـة لتبديد شيء من الغموض الذي يكتنف شخصية معلم الفارابي . وليس لنا سوى ان نربط ما بين رواية المسعودي هذه وبين ما جاء لدى ابن ابي اصيبعة نقلا عن لسان الفارابي عينه . وهو ما فعله قبلنا البروفسور مايكس ماير هوف [١٧] ، مستنتجا بان الروايتين ــ روايـة الفـارابي ورواية المسعودي ــ كغيرها من روايات عربيـة مماثلة ، تعود برمتها الى تقليـد ومصدر واحد يقول بانتقال مدرسة الاسكندريـة الى انطاكية ، فحـران ومرو ، فبغداد . غير انها روايات فيها الكثير من الاختلافات المصطنعة ، فلا الانتقال واقعي ، ولا طرقه هي الوحيدة ، وليس ثمة من تبرير للفتـرات الزمنية المفتعلة .

فبعد ان يورد الفـارابي ــ حسبما ينقل ابن ابي اصيبعة كلامه ــ اخبارا خيالية عن مدرسة الاسكندرية القديمة ومكتبتها ، محاولا تضييق دراسة كتب ارسطو المنطقية فيها بسبب انتشار النصرانية ، يأتي الى القول: « الى ان كان الاسلام بعده بمدة طويلة ، فانتقل التعليم من الاسكندريـة الى انطاكية وبقي بها زمنا طويلا ، الى ان بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب . فكان احـدهما من اهل حران والاخر من اهـل مرو . فاما الذي من اهل مرو فتعلم منه رجلان ، احدهما ابراهيم المروزي ، والاخر يوحنا بن حيلان . وتعلم من الحراني اسرائيـل الاسقف وقويري وسار الى بغداد ، فتشاغل ابراهيم بالدين ، واخذ قويري في التعليم . واما يوحنا بن حيلان فانه تشاغل ايضا بدينه . وانحـدر ابراهيم المروزي الى بغداد فاقام بها . وتعلم من المروزي متى بن يونان ، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت الى آخر الاشكال الوجودية . (وقال) ابو نصر الفارابي عن نفسه انه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان ... (وحدثني) عمى رشيد الدين ابو الحسن على بن خليفة رحمـه الله ان الفارابي توفي

عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وكان اخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد في ايام المقتدر ، وكان في زمانه ابو بشر متى بن يونان ، وكان أسن من ابي نصر وابو نصر احد ذهنا واعذب كلاما . وتعلم ابو البشر متى من ابراهيم المروزي وتوفي ابو البشر في خلافة الراضي فيما بين سنة ثلاث وعشرين الى سنة تسع وعشرين وثلثمائة . وكان يوحنا بن حيلان وابراهيم المروزي قد تعلما جميعا من رجل من اهل مرو » (١٨) .

نفهم من المسعودي ان يوحنا تعلم في حران ، وفيها تعلم ايضا قويري وابراهيم المروزي . وبينما علي ابراهيم المروزي درس كل من ابي بشر متى بن يونس وابي محمد بن كرنيب ، درس الفارابي على يوحنا بن حيلان.

اما رواية ابن ابي اصيبعة فتقربنا الى واقع اكثر معقولية من رواية المسعودي . اذ انه بعد انتشار الفكر اليوناني من الاسكندرية الى انطاكية، دون ان يعني ذلك انتقالا لمدرسة الاسكندرية او ركودا للفلسفة والعلوم في الاسكندرية (١٩) ، تلاه انتشار آخر في حران ومرو وغيرهما من المناطق. وفي حران يتعلم الاسقف اسرائيل وقويري ، ثم يقصدان بغداد ، بينما يأخذ الحكمة من مرو كل من ابراهيم المروزي ويوحنا بن حيلان ، ويقصدان بغداد كذلك . وفي بغداد ، على الارجح ، يدرس الفارابي على يوحنا بن حيلان ، بينما يدرس ابو بشر متى بن يونس على كل من ابراهيم المروزي ويحيى المروزي وروبيل . فاقرب الى الصحة اجتماع هؤلاء الحكماء جميعا في بغداد ، عاصمة الحضارة ومحط رجال الفكر والعلم . كما ان وفاة يوحنا بن حيلان في بغداد تدعم ذلك ، بينما يظل الغموض يغشى منشأ يوحنا ، فهل هو مروزي ام حراني ؟ وهل درس في مرو ام حران ؟

هنا تطالعنا شهادة ابن خلكان التي تضاعف الاشكال والالتباس ، اذ يقول بان ابا نصر الفارابي «ارتحل الى مدينة حران، وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني ، فاخذ عنه طرفا من المنطق ايضا ، ثم قفل راجعا الى

بغداد ، وقرأ بها علوم الفلسفة » [٣٠] .

أمر واحد ثابت الآن هو ان يوحنا بن حيلان فيلسوف او حكيم ، وهو نصراني او مسيحي ، فاسمه يدل على ذلك ، وشهادات المؤرخين ، لا سيما ابن خلكان وعبارة ابن ابي اصيبعة « تشاغل بدينه » . لكننا نجهل مذهبه المسيحي ، فهل هو نسطوري ، كما يرجح الباحثون عادة ، ام هو مونوفيزيتي ؟ وهل هو رجل دين ، كما كان معظم المعلمين المسيحيين يومذاك ، ام انه شخص عادي ؟ كلها أمور تبقى غامضة ، ولا يسعفنا المؤرخون المسيحيون البتة في الكشف عنها . من المؤكد ان يوحنا من عداد الناطقين بالسريانية ، لان مسيحيي حران ومرو والمناطق المجاورة هم من الناطقين بالسريانية ، فهو يدخل ضمن صفوف من خدموا الفلسفة والعلوم والآداب في ميدان السريانية والعربية الشقيقتين ، على غرار الكثيرين ممن عملوا على تكوين الحضارة العربية الزاهرة بفضل نقولهم من اليونانية الى السريانية فالعربية ، كما بفضل انفتاحهم على العالم العربي الاسلامي واندماجهم فيه .

ليس لنا في هذه العجالة استعراض المسيرة برمتها التي قادها الناطقون بالسريانية في أشهر عواصم الشرق الاوسط ومدنه ومدارسه ، قبل الاسلام ثم خاصة منذ ان شجعهم المسلمون على العمل الفلسفي والعلمي ، وافرد الخلفاء والاعيان مبالغ طائلة لنقل كتب اليونان الى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية ، فقامت دوحة الحضارة العربية نضرة زاهرة .

لقد كانت ثمة مدارس سريانية متقدمة في العلوم والحكمة منذ القرن الثالث الميلادي فما بعده ، لا بل منذ فجر المسيحية شرع الناطقون بالسريانية يولون اهتماما بالغا بالحكمة وعلومها وكتبها ، نظرا لمحاولتهم التعمق في الكتاب المقدس واسرار الديانة ، فنشط علم اللاهوت لديهم ، واخذوا يستعينون بالعلوم الانسانية ، وفي مقدمتها النحو والبيان والمنطق والفلسفة ، للاستزادة في التبحر والاستنارة ، فلم يترددوا في دراسة فروع المعرفة

هذه ، بينما مال بعضهم الى العلوم الاخرى ايضا ، كالطب والرياضيات والموسيقى والفلك ، دون ان يروا في ذلك أي ضير • ولتحقيق مأربهم الحميد هذا لجأوا الى التراث اليوناني الزاخر ، فدرسوا هذه العلوم اولا في نصوصها اليونانية الاصلية ، ثم لغرض تعميمها اكثر ، شرعوا يترجمون مصنفات اليونان الى لغتهم السريانية • وحين انتشرت اللغة العربية في البلاد ، أخذوا ينقلونها الى العربية ، فنشطت حركة الترجمة ، واحتل العلم مكانة مرموقة منذ العهد الاموي ، حتى لقي ازدهارا كبيرا في العصر العباسي الذهبي •

واشهر مدارس الناطقين بالسريانية ، منذ القرن الرابع الميلادي وحتى القرن العاشر ، مدارس الرها ونصيبين والمدائن وجنديسابور ، نسبة الى اتباع كنيسة المشرق اي النساطرة ، ومدارس الرها وانطاكية وآمد ، نسبة الى اتباع كنيسة انطاكية أي المونوفيزيتيين • كما قامت مدارس عديدة بجوار الكنائس والاديرة الشهيرة ، يتعذر علينا تعدادها نظرا لكثرتها [٢١]• وقد كانت هذه المدارس عادة دينية لاهوتية ، الا انه كان يسمح فيها تعليم العلوم الانسانية والدنيوية الاخرى • وكان جل معلميها من رجال الدين ، اساقفة كانوا ام كهنة ام رهبانا ، كما برز فيها احيانا اشخاص عاديون •

منذ القرن الثاني الميلادي اشتهر برد يصان وتلاميذه ، ثم نبغ مار افرام وربولا وهيبا وبروبوس ويوحنا برافتونيا واحودمه ونرساي ومار آبا ويعقوب السروجي في القرنين الرابع والخامس خاصة ، ومنذ اواسط القرن الخامس كانت الفلسفة المشائية مزدهرة في مدرستي نصيبين والرها ، ثم كان سركيس الراسعيني في القرن السادس وهو صاحب كتاب في المنطق اهداه الى تيوذوروس أسقف مرو ، كما ألف كتبا فلسفية اخرى ونقلا لارسطو وفرفوريوس • ثم لمع نجم ساويرا سابوخت وحنا نيشوع الجاثليق وايوس الرهاوي ويعقوب الرهاوي ويوحنا الافامي وجرجس اسقف العرب ويوسف حزايا ومار طيمثاوس والشيخ ابو نوح الانباري

وغيرهم كثيرون . حتى اشتهرت مدرسة جنديسا بور في خوزستان واختصت بالطب ، فكان آل بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وغيرهم من الاطباء ، ولقرب جنديسا بور من بغداد انتقلت حركة الطب اليها . وشهيرة هي قصة استدعاء الخليفة المنصور للطبيب جيورجيس بن بختيشوع من جنديسا بور الى بغداد ، وتسلم آل بختيشوع رئاسةالطب في العاصمة العباسية ، ثم قيام بيت الحكمة البغدادي ، وازدهار حركة ترجمة الكتب الطبية والفلسفية والعلمية الاخرى من اليونانية الى السريانية فالعربية ، ونبوغ حنين بن اسحق ومدرسته وعلى رأس تلاميذها ابنه اسحق وابن اخته حبيش بن الحسن الاعسم ، فكانت مدرسة كاملة المترجمة ذات نهج علمي واتناج زاخر ، وعرف العالم العربي أقوى حركة للترجمة بفضل بيت الحكمة على عهد المأمون والمتوكل ، وتكاثر بيوت ودور الحكمة والعلم في سائر انحاء العالم الاسلامي .

وعلاوة على بغداد ، فان لمدينة حران القريبة من الرها ، دورا في التعريف بالفكر اليوناني وتطويره . وقد عنى الحرانيون خاصة بالمذهبين الفيثاغوري الجديد والافلاطوني المستحدث ، وامتاز اهاليها بالرياضيات والفلك . وكان جل مشاهير حران من الصابئة الناطقين بالآرامية ، ومنهم سلم الحراني الملقب بصاحب بيت الحكمة ، وهو معاصر للمأمون . وقد لمع خاصة ثابت بن قرة الذي انتقل من حران الى بغداد فاتخذه المعتضد صديقا له حتى ترقى في اسمى المراتب في عهد خلافته ، وبرز بعده ابنه سنان الطبيب الشهير .

وقامت في مرو في خراسان مدرسة لاهوتية وفلسفية مهمة ، برز فيها تيودوروس المروزي في القرن السادس ، وقد كان على صلة بسركيس الراسعيني ، وانكب على الفلسفة الرواقية ، ثم ايليا مطران مرو في القرن السابع ، وايشو عداد المروزي في القرن التاسع ، ثم ابراهيم المروزي وغيرهم (٣٢) .

فهل يوحنا بن حيلان حراني ام مروزي ؟ اننا نرجع اصله المروزي ، كزميله ابراهيم المروزي . وانه هو وزميله ابراهيم تعلما على حكيم مجهول من مرو ، على حد شهادة المؤرخين . على كل حال ، فان يوحنا استوطن في بغداد ، وفيها درس الفارابي عليه .

وزيادة في التعرف على المعلم والتلميذ معا ، ولغرض تقديم ايضاح اكبر عن معالم شخصيتيهما ، نضيف فذلكة وجيزة تخص حكماء آخرين كان لهم أوثق الصلة بالفارابي ومعلمه يوحنا . وقد افرد ابن النديم فذلكة لمعظمهم وكذلك ابن ابي اصيبعة دون ان يتطرقا الى يوحنا نفسه [٢٣] ، لمعظمهم وكذلك ابن ابي اصيبعة دون ان يتطرقا الى يوحنا نفسه[٢٣] ،واورد بسيط لكل منهم [٢٥] .

ابراهيم المروزي — لا يخصص له المؤرخون القدامى ولا مايرهوف نبذة عن حياته ، وليس من مبرر لاعتباره هو عينه ابو يحيى المروزي ،الذي سيأتي ذكره . تعلم هو وزميله يوحنا بن حيلان من حكيم من اهل مرو ، حسب روايتي المسعودي وابن ابي اصيبعة . ثم انحدر الى بغداد فاقام بها ، وصار له تلاميذ ، منهم ابو بشر متى بن يونس وابو محمد بن كرنيب [٢٦] .

اسرائيل الاسقف — يأتي على لسان الفارابي في رواية ابن ابي اصيبعة [٢٧] على انه الذي تعلم الحكمة من الحراني بمعية زميله قويري . وهو فيلسوف استوطن بغداد وانصرف الى العلوم الدينية واللاهوت ، ولم يترك آثارا مكتوبة .

قويري — يأتي في روايتي المسعودي وابن ابي اصيبعة على انه تعلم وزميله اسرائيل من الحكيم الحراني في ايام المعتضد . وهو نصراني ، قصد بغداد واخذ في التعليم . ويفرد له ابن النديم فذلكة ناعتا اياه ابا

اسحاق ابراهيم ، ويقول انه اختص بعلم المنطق ، وكان مفسرا • عليه قرأ ابو بشر متى بن يونس • ولقويري عدة تآليف مذكورة في الفهرست هي : كتاب تفسير قاطيغورياس مشجر ، كتاب باريرمينياس مشجر ،كتاب انا لوطيقا الاولى مشجر ، كتاب انا لوطيقا الثاني مشجر • وكتبه «مطرحة مجفوة ، لان عبارته كانت عفطية غلقة » • وينسب اليه تفسير كتاب سوفسطيقا لارسطو (٢٨) •

ابو يحيى المروزي ــ يقول ابن النديم أن ابا بشر متى بن يونس قرأ عليه • ويحدد ابن ابي اصيبعة بان ابا بشر قرأ كتاب القياس عليه • اما القفطي فيذكر عالمين بهذا الاسم ، احدهما منطقي وطبيب وهو صاحبنا ، والآخر طبيب وعالم بالهندسة ، وكلاهما ببغداد • ويؤكد القفطي بان ابا بشر متى قرأ على ابي يحيى ، ويتشكى ابن النديم والقفطي من ان ابا يحيى « كان سريانيا ، وجميع ماله في المنطق وغيره بالسريانية » • ويذكران ان له كلاما في انا لوطيقا الثاني او ابود تيطيقا (٢٩) • نرى من المستبعد ان يكون هو عينه ابراهيم المروزي الذي درس عليه ابن كرنيب •

ابن كرنيب ــ يسميه ابن النديم ابا احمد الحسين بن ابي الحسين ابن اسحق بن ابراهيم بن مزيد الكاتب ويعرف بابن كرنيب الكاتب اما القفطي فيسميه ابن اسحق بن ابراهيم بن يزيد الكاتب ، وهو ابو الحسن ابن ابي الحسين ، وقيل ابو احمد ، ويكتفي المسعودي بتسميته ابن كرنيب • فهو مسلم وابن واخ لرياضيين مشهورين هما اسحق وابو العلاء • كما انه وتلميذا الكندي احمد بن الطيب الرضي وابو زيد احمد البلخي من الفلاسفة المسلمين من الدرجة الثانية • يذكره المسعودي كرئيس مدرسة في بغداد، ويقول ابن النديم انه « من جملة المتكلمين ويذهب مذهب الفلاسفة الطبيعيين » ، ويعيد القفطي ذلك ، ويؤكد المؤرخون انه معلم ابي بشر متى بن يونس• ألف كتابين فلسفيين صغيرين ،احدهما رد على

ابن الحسن ثابت بن قرة في الاجناس والانواع ، كما له كتب اخرى في الهندسة [٣٠] .

ابو بشر متى بن يونس ـ يقول ابن النـديم انه من اهل ديرقني ، الواقعة على دجلة في الجنوب الغربي من بغداد . تلقى تربيته الاولى في اسكول مار ماري الذي بناه مار عبدا حوالي سنة ٤٠٠ . فهو نصراني، كما يصرح القفطي ، ونسطوري النحلة ، كما يؤكد ابن العبري . سكـن بغداد ، وقرأ على قويري وروفيل وبنيامين وابراهيم المروزي وابن كرنيب وابي يحيى المروزي . وقد جاء ذكر ابراهيم المروزي وقويري وابي يحيى وابن كرنيب . اما روفيل ، او روبيل ، وبنيامين فراهبان مونوفيزيتيان، على حد قول ابن العبري . ويذكر ابن ابي اصيبعة ان متى قرأ ايساغوجي فرفوريوس على « انسان نصراني » ، نرجح انه بنيامين المذكور ، وقـرأ قاطيغورياس وباريرمينياس ارسطو علـى روبيل (روفيل) ، والقيـاس لارسطو على ابي يحيى المروزي . ويسمي المؤرخون ابا بشر متى بالمنطقي، لا بل « اليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره » ، اذ انه على « شرح متى لكتب ارسطوطاليس المنطقية » ، وعلى كتبه الشخصية ، يعول الناس في زمانه في الدراسة ، سواء في بغداد ام في سائر امصار المسلمين بالمشرق. توفي ابو بشر متى بن يونس ، او يونان ، في خلافة الراضي في ١١ رمضان ٢٣/٣٢٨ حزيران ٩٤٠ ، فهو معـاصر للفارابي ، وهـذا دونه في السن وفوقه في العلم ، لا بل ان ابا نصر « أحد ذهنا واعذب كلاما » من ابي البشر ، كما يقول ابن ابي اصيبعة . « ولما دخل (الفارابي) بغداد كـان بها ابو بشر متى يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ، وكان يقـرأ الناس عليه فن المنطق ، وله اذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية » ، على حد شهادة ابن خلكان .

ولمتى تفسير من السرياني الى العربي . من تفاسيره : كتاب تفسيـر الثلث مقالات الاواخر من تفسير ثامسطيوس ، والكتب الاربعة في المنطق

« وعليها يعول الناس في القراءة » • وله نقول : كتاب البرهان الفص ، كتاب سوفسطيقا الفص ، كتاب الكون والفساد ، كتاب الشعر الفص • وله من الكتب : مقالة في مقدمات صدر بها كتاب انا لوطيقا ، كتاب المقاييس الشرطية ، كتاب ايساغوجي لفرفوريوس (٣١) •

ومن اكابر تلاميذ ابي بشر ابو زكريا يحيى بن عدي المتوفي سنة ٩٧١ م بعمر أحدى وثمانين سنة •

درس الفارابي المنطق على يوحنا

يبان جليا مما تقدم انه كان ثمة نشاط فلسفي في مرو وحران وبغداد والمراكز الاخرى التي تهم الفارابي سواء في زمانه او قبله ، وقد كان للناطقين بالسريانية مكانة علمية كبيرة فيها بفضل نقلهم التراث اليوناني الى العرب والاكثار من المدارس •

وكان لهؤلاء اهتمام خاص بعلم المنطق وكتبه ، نظرا لفوائدهالجزيلة باعتباره مفتاحا للعلوم الاخرى كلها ، سواء الدينية اللاهوتية ام المدنية المختلفة (٣٢) • وهو المنطق بالذات ما أخذ الفارابي عن يوحنا معلمه •

يقول صاعد ان الفارابي « اخذ صناعة المنطق عن يوحنا » (٣٣) ، ويعمم القفطي وابن العبري ذلك بقولهم انه قرأ ببغداد « العلم الحكمي على يوحنا » (٣٤) • ويوضح ابن ابي اصيبعة الامر فيقول ان الفارابي « تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان » ، لا بل انه « اخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد في ايام المقتدر » (٣٥) • اما ابن خلكان فيعطي هو الوحيد دورا مهما لابي بشر متى في حياة الفارابي العلمية ، اذ يقول : « ولما دخل (الفارابي) بغداد ، كان بها ابو بشر متى يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ، وكان يقرأ الناس عليه فن المنطق ، وله اذ ذاك صيت عظيم وشهوة وافية ، ويجتمع في حلقته كل يوم المئات من المشتغلين بالمنطق ،وهو يقرأ كتاب ارسطوطاليس في المنطق ويملي على

تلامذته شرحه . فكتب عنه في شرحه سبعين شعرا . ولم يكن في ذلك الوقت مثله في فنه ، وكان حسن العبارة في تآليفه ، لطيف الاشارة ، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن ما ارى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر ، يعني المذكور . وكان ابو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته . فاقام ابو نصر كذلك برهة ، ثم ارتحل الى مدينة حران وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني ، فاخذ عنه طرفا من المنطق ايضا، ثم انه قفل راجعا الى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة ... » (٣٦) .

ليس من شك انه كان للفارابي اكثر من معلم واحد ، منهم ابن السراج الذي قرأ عليه الفارابي صناعة النحو ، بينما قرأ عليه السراج صناعة المنطق (٣٧) . غير اننا نود التأكيد على ان الذي علم الفارابي صناعة المنطق هو يوحنا بن حيلان ، ولا بأس ان يكون الفارابي قد حضر مجلس ابي بشر احيانا ، فقد كان ممن يحبون الاستفادة من اكثر من شخص ومكان وبشتى الوسائل للتبحر في العلوم الحكمية ، وفي مقدمتها علم المنطق . لذا نراه يقصد بلدانا عديدة لتحقيق مأربه هذا .

لا يحق لنا ان نظلم يوحنا بن حيلان اكثر مما ظلمه التاريخ ، فلم يترك لنا شيئا نستدل منه على مقدار علمه وطريقته في التعليم ، وهل له تآليف ام لا . ولا يسعنا الا ان نجاهر بفضله على الفارابي في تعليمه صناعة المنطق . ولتقييم عمله هذا يجدر بنا ان نثبت شيئا من اهتمامات الناطقين بالسريانية والعلماء الآخرين بالمنطق ممن سبقوا يوحنا والفارابي او عاصروهما .

نصطدم هنا بالاقتباس الذي استقاه ابن ابي اصيبعة من كتاب الفارابي المذكور آنفا في ظهور الفلسفة ، وفيه خبر يضيق دراسة كتب ارسطو المنطقية في مدرسة الاسكندرية ، ولدى المسيحيين بالتالي ، ولا سيما لدى اولئك الذين اخذوا عن الاسكندرانيين هذا العلم ، وفي مقدمتهم

الناطقون بالسريانية • فنحن نقرأ ما يأتي : « وبطل التعليم من رومية ، وبقي بالاسكندرية • ثم نظر ملك النصرانية في ذلك واجتمعت الاساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل ، فرأوا ان يعلم من كتب المنطق الى آخر الاشكال الوجودية ، ولا يعلم ما بعده لانهم رأوا في ذلك ضررا على النصرانية ، وان فيما اطلقوا تعليمه يستعان به على نصرة دينهم • فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار ، وما ينظر فيه من الباقي مستور ، حتى كان الاسلام بعده بمدة طويلة ، فانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية ••• » (٣٨)

غير انه ليس في التاريخ ما يؤيد هذا القول • اذ لم يقم مجمع كنسي حرم تدريس اي جزء كان من اجزاء المنطق (٣٩) ، بل العكس هو ما كان قائما ، فقد كان يستعان بالفلسفة اليونانية للتعمق في العلوم الدينية ، وقد كان ارسطو بالنسبة للناطقين بالسريانية رجل منطق بصورة خاصة(٤٠) • وثمة شيء من الصحة في قول الفارابي ، الذي أخذه حتما عن معلمه يوحنا ، وينقله ابن ابي اصيبعة الينا ، في أن كتب ارسطو المنطقية لم تكن كلها تقرأ وتدرس ، لا سيما قبل الاسلام فيقول الفارابي « انه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان • وكان يسمى ما بعد الاشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ الى أن قرىء ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الامر الى معلمي المسلمين ان يقرأ من الاشكال الوجودية الى حيث قدر الانسان ان يقرأ • فقال ابو نصر انه قرأ الى آخر كتاب البرهان » (٤١) •

فما هي الكتب المنطقية التي كانت متداولة في عهد الفارابي وقبله؟

يقصد بالكتب المنطقية كتب ارسطو في المنطق ، وقد جمعت بمجلد ضخم تحت اسم « الاورغانون » (٤٢) ، ويسميها المؤرخون القدامى « المنطقيات » • ويختلف عددها بموجب تصنيفها وترتيبها ، فهي ثمانية

ان عدت اجزاؤها واحدا واحدا ، او ستة ان حذف منها كتابا الشعر والخطابة ، و خمسة في حالة دمج جزئي التحليلات . وهي [٤٣] :

١ ـ قاطيغورياس أي المقولات

٢ ـ باريرمينياس او باري ارمينياس أي العبارة

٣ ـ انالوطيقا الاولى أي تحليل القياس او القياس

٤ ـ انا لوطيقا الثانية او ابوذ يقطيقا أي البرهان

٥ ـ طوبيقا أي الجدل او المواضع الجدلية

٦ ـ سوفسطيقا أي المغالطون او الاقوال المغلطة او الحكمة اللموهة

٧ ـ ريطويقا أي الخطابة

٨ ـ ابو طيقا او بويطيقا أي الشعر

ولنستمع الى الفارابي عينه يشرح لنا سبب تقسيم علم المنطق الى الاجزاء المذكورة آنفا فيقول :

« واما اجزاء المنطق فهي ثمانية : وذلك ان انواع القياس وانواع الاقاويل التي يلتمس بها تصحيح رأي أو مطلوب في الجملة ثلاثة .وانواع الصنائع التي فعلها بعد استكمالها ان تستعمل القياس في المخاطبة في الجملة خمسة : برهانية وجدلية وسوفسطائية وخطبية وشعرية ... فتصير اجزاء المنطق بالضرورة ثمانية ، كل جزء منها في كتاب . الاول فيه قوانين المفردات من المعقولات والالفاظ الدالة عليها ، وهو في الكتاب الملقب اما بالعربية فالمقولات ، وباليونانية « قاطيغورياس » . والثاني فيه قوانين الاقاويل البسيطة التي هي المقولات المركبة من معقولين مفردين معقولين مفردين والالفاظ الدالة عليها المركبة من لفظين لفظين . وهو في الكتاب الملقب اما بالعربية فالعبارة ، وباليونانية باري ارمينياس .

والثالث فيه الاقاويل التي تسبر بها القياسات المشتركة للصنائع الخمس، وهي في الكتاب الملقب اما بالعربية فالقياس ، وباليونانية انالوطيقا الاولى. والرابع فيه القوانين التي تمتحن بها الاقاويل البرهانية ، وقوانين الامـور التي تلتئم بها الفلسفة ، وكل ما تصير به افعالها أتم وافضل واكمل .وهو بالعربية كتاب البرهان ، وباليونانية « انالوطيقا الثانية » . والخامس فيه الاقاويل التي تمتحن بها الاقاويل الجدلية وكيفية السؤال الجدلي والجواب الجدلي ، وبالجملة قوانين الامور التي تلتئم بها صناعة الجدل وتصير بها افعالها اكمل وافضل وانفذ . وهو بالعربية كتـاب المواضع الجدليـة ، وباليونانية طوبيقا . والسادس فيه اولا قوانين الاشياء التي شانهـا ان تغلط عن الحق وتلبس وتحير ، واحصاء جميع الامور التي يستعملهـا من قصد التمويه والمخرفة في العلوم والاقاويل ، ثم من بعدها احصاء جميع ما ينبغي ان تتلقى به الاقاويل المغلطة التي يستعملها المشنع والمموه، وكيف تفسخ ، وباي الاشياء تدفع ، وكيف يتحرز الانسان من ان يغلط في مطلوباته او يغالط . وهذا الكتاب يسمى باليونانية « سوفسطيقـا » ومعناه الحكمة المموهة . والسابع فيه القوانين التي تمتحن وتسبر بهـا الاقاويل الخطبية واصناف الخطب واقاويل البلغاء والخطباء ... وهـذا الكتاب يسمى باليونانية « ريطوريقا » وهو الخطابة . والثامن فيه القوانين التي تسبر بها الاشعار واصناف الاقاويل الشعريـة ... وهـذا الكتاب يسمى باليونانية « بويوطيقا » وهو كتاب الشعر .

« والجزء الرابع هو أشدها تقدما بالشرف والرياسة . والمنطق انما التمس به على القصد الاول والجزء الرابع ، وباقي اجزائه انما عمل لاجل الرابع : فان الثلاثة التي تتقدمه في ترتيب التعليم هي توطئات ومـداخل وطرق اليه ، والاربعة الباقية التي تتلوه فلشيئين : احدهما في كل واحد منها ارفاداما ومعونة ، على انها كالآلات للجزء الرابع ، ومنفعة بعضهـا

اكثر وبعضها أقل » [٤٤] .

ويؤكد الفارابي ذلك في كتاب آخر بقوله: « واما عدد اجزاءالصناعة (صناعة المنطق) فهو على عدد اصناف انقياد الذهن ، وعلى عدد الاشياء التي شأنها ان تتقدم تلك الامور . واصناف تلك الامور فهي خمسة على ما بين . والاشياء التي تتقدمها ثلاثة ..... فاجزاء صناعة المنطق ثمانية » [٤٥] .

وان نحن عرفنا ما الكتب المنطقية التي كانت متداولة في الاوساط الشرقية ، الهلينية والسريانية والعربية والفارسية وغيرها ، في ايامالفارابي ومعلمه ، كان بوسعنا تكوين فكرة جيدة عما اعطاه يوحنا بن حيلان من تعليم لابي نصر الفارابي .

يفيدنا ابن النديم [٤٦] والقفطي [٤٧] وابن ابي اصيبعة [٤٨] ، اكثر من سواهم ، في التعرف على الترجمات السريانية والعربية خاصة ، كما وعلى الشروح اليونانية وغيرها التي قام بها العلماء لكتب ارسطو فيالمنطق ننقلها هنا معتمدين ترتيب ابن النديم والقفطي .

١ ــ المقولات (قاطيغورياس) نقول : حنين بن اسحق الى العربية .

ضروح وتفاسير : فرفوريوس ، اصطفن الاسكندري ، امونيوس ، يحيى النحوي بطريرك الاسكندرية ، ثامسطيوس ، ثاوفرسطس ، سنبليقوس ، تيون بالسريانية . وقد نقل ابو زكريا تفسير الاسكندر الافرودويسي . وبالعربية ابو بشر متى بن يونس وابو نصر الفارابي .

مختصرات وجوامع : ابن المقفع ، حبيب بن بهريز ، الكندي ، اسحق ابن حنين .

٢ ــ العبارة (باريرمينياس) نقول : حنين الى السرياني ، واسحق ابنه الى العربي من الاصل .

تفاسير : الاسكندر ، يحيى النحوي ، امليخس ، فرفوريوس ، جالينوس .

جوامع : اصطفن . وفسره قويري . ابو بشر متى ، ثاوفسطوس ، الفارابي .

مختصرات : حنين بن اسحق ، ابن المقفع ، الكندي ، ابن بهريز، ثابت بن قرة .

٣ ــ القياس (انالوطيقا الاولى) نقول : حنين قطعة منه ، واسحق الباقي الى السرياني ، تيادروس الى العربي مع اصلاح حنين .

تفاسير : الاسكندر الى الاشكال الحملية تفسيران ، ثامسطيوس فسر المقالتين بثلاث مقالات ، يحيى النحوي حتى الاشكال ، قويري الى الثلثة الاشكال ، ابو بشر فسر المقالتين ، الكندي .

ولا ننسى ان سركيس الراسعيني يذكر مسألة « الشكل » في الاقيسة [٤٩] .

٤ ــ البرهان (ابوديقطيقا او انالوطيقا الثانية) نقول : حنين بعضه، اسحق الكل الى السرياني والى العربي .

شروح وتفاسير : ثامسطيوس ، الاسكندر ، كلام فيه لابي يحيى المروزي ، ابو بشر متى ، الكندي ، الفارابي .

٥ ــ الجدل) طوبيقا (نقول : اسحق الى السرياني، وهذه الترجمة نقلها يحيى بن عدي الى العربي ، ابو عثمان الدمشقي سبع مقالات ،ونقل ابراهيم بن عبدالله الثامنة .

تفاسير : الاسكندر لقسم من المقالة الاولى ، وكل المقالات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ثم نقل امونيوس الاولى والمقالات ٢ ، ٣ ، ٤ . ونقل اسحق

تفسيري الاسكندر وامونيوس الى السرياني ، وابو عثمان الدمشقي الى العربي ، وفسر ثامسطيوس المواضع منه ، وللفارابي تفسير وتلخيص .

٦ ـ المغالطون (سوفسطيقا) نقول : ابن ناعمة الحمصي ، ابو بشر متى الى السرياني ، يحيى بن عدي الى العربي ، اصلح ترجمة ابن ناعمة ابراهيم بن بكوس العشاري .

تفاسير : (الاسكندر) ، قويري ، الكندي .

٧ ـ الخطابة (ريطوريقا) نقول : نقل قديم ، اسحق الى العربي ، ابراهيم بن عبدالله . تفاسير : الفارابي .

٨ ـ الشعر (بويطيقا) نقول : متى بن يونس من السرياني الى العربي ، يحيى بن عدي تفاسير : كلام لثامسطيوس .

مختصرات : الكندي .

يبان من هذا الاستعراض ان كتب ارسطو في المنطق ، كان بعضها معروفا بالسريانية قبل حنين ومدرسته ، وقد غدت معروفة كلها بالسريانية في عهده وعهد ابنه اسحق (٥٠) ، كما ان الترجمات العربية لهذه الكتب كانت معظمها متوفرة في هذه الفترة ، حتى اكتملت في زمن الفارابي بالذات او قبله بقليل (٥١) . فقد كان « اورغانون » ارسطو جاهزا بالعربية ايام الفارابي . سؤالنا الآن هو التالي : ألم يكن ليوحنا بن حيلان معلم الفارابي فضل في ذلك ، سيما ونحن سنرى كم كان عظيما دور الفارابي في استكمال الكتب المنطقية ودفع هذا العلم خطوات كبيرة الى الامام ؟

يسعفنا صاعد الاندلسي بقوله ان الفارابي اخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان « فبذ جميع اهل الاسلام فيها ، وأتى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

في كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة ، منبها الى ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعليم ، واوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وافراد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » (٥٢) . ويؤكد ذلك القفطي ايضا مع ورود ايضاحات اخرى في كلامه ، لذا فاننا ننقله لزيادة الفائدة والكشف عن الامور . يقول القفطي ان الفارابي قرأ « العلم الحكمي على يوحنا ... واستفاد منه وبرز في ذلك على اقرانه ، واربى عليهم في التحقيق ، وشرح الكتب المنطقية ، واظهر غامضها ، وكشف سرها ، وقرب متناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعليم ، واوضح القول فيها عن طرق المنطق الخمسة ، وافاد الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف يصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » (٥٣) . ويعيد ذلك ابن ابي اصيبعة وابن العبري (٥٤) .

فالفضل اذا ليوحنا في تنشئة الفارابي وتعليمه منطق ارسطو ،سواء بالاستعانة بالنقول العربية ، ام بالرجوع الى النص اليوناني الاصيل ، ولربما بالاسترشاد بالترجمة السريانية احيانا ، لان الفارابي ، ومعلمه كذلك ، كان يجيد اكثر من لغة ، واللغات المذكورة من ضمنها (٥٥).

كما بوسعنا استنتاج مدى تأثير يوحنا على تلميذه ابي نصر من الآثار التي تركها لنا الفارابي في المنطق . فانه ولو ان التاريخ لايذكر لنا نقولا أو شروحا او تصانيف في المنطق ليوحنا بن حيلان ، فهو يطلعنا بكل اسهاب على آثار الفارابي في هذا العلم .

ويذكر كتب الفارابي في المنطق كل من ابن النديم وصاعد والبيهقي والقفطي وابن ابي اصيبعة .

يكتفي صاحب الفهرست بذكر كتب الفارابي التاليـة التي تخص المنطق : مراتب العلوم ، تفسير كتاب ارسطو في القياس ، وقاطيغورياس، والبرهان ، وانا لوطيقا الثانية ، والخطابة ، والمغالطين على جهة الجوامع. وله جوامع لطاف لكتب المنطق (٥٦) . ويذكر له صاعد احصاء العلـوم وفي اغراض فلسفة افلاطون وارسطو . وفي هذا الاخير وصف لاغراض ارسطو في تآليفه المنطقية والطبيعية كتابا كتابا ، والكتابان المـذكوران لا مثيل لهما (٥٧) . ويقول البيهقي ان للفـارابي المختصر الاوسط في المنطق ، والمختصر الموجز ، وكتاب البرهان ، وجوامع كتب المنطق(٥٨). اما القفطي وابن أبي اصيبعة (٥٩) . وبعدهما كثيرون ، فيقدمان لنـا لائحة طويلة باسماء شروح او جوامع او تصانيف الفارابي ، نرتبهـا كمـا يلي :

اولا ـ الشروح والتفاسير والمختصرات

١ ـ شرح كتاب المقولات على جهـة التعليق ، شرح المواضـع المستغلقة من كتاب قاطيغورياس ويعرف بتعليقات الحواشي .

٢ ـ شرح كتاب باريمينياس علـى جهة التعليق ، مختصر كتـاب باريمينياس .

٣ ـ شرح كتاب القياس وهو الشـرح الكبير ، كتـاب القياس الصغير ، احصاء القضايا والقياسات التي تستعمل على العموم في جميع الصنائع القياسية ، تعاليق على كتاب القياس ، كتاب المقاييس مختصر .

٤ ـ شرح كتاب البرهان ، شرح كتاب البرهان على طريقةالتعليق

٥ ـ شرح المقالة الثانية والثامنة من كتاب الجدل ، كتاب المواضع المنتزعة من المقالة الثامنة في الجدل .

٦ ـ شرح كتاب المغالطـة .

٧ ــ شرح كتاب الخطابة .

٨ ــ شرح كتاب ايساغوجي لفرفوريوس .

٩ ــ جوامع لكتب المنطق .

ثانيــا ــ التآليف

١ ــ كتاب المختصر الكبير : كتاب المختصر الصغير

٢ ــ كتاب المدخل الى المنطق او التوطئة في المنطق

٣ ــ كتاب احصاء العلوم والتعريف باغراضها او ترتيبها ، كتاب مراتب العلوم

٤ ــ كتاب غرض المقولات

٥ ــ كتاب القياس الصغير ، كتاب شروط القياس ، كتاب اكتساب المقدمات وهي المسماة بالمواضع وهي التحليل ، كلام في المقدمات المختلطة من وجودي وضروري ، كتاب اصناف الاشياء البسيطة التي تنقسم اليها القضايا في جميع الصنائع القياسية .

٦ ــ كتاب البرهان ، كتاب شرائط البرهان

٧ ــ كتاب الجدل ، كتاب الرد على ابن الراوندي ، في ادب الجدل

٨ ــ كتاب المواضع المغلطة

٩ ــ صدر لكتاب الخطابة ، كتاب في الخطابة كبير بعشرين مجلدا

١٠ ــ كلام في الشعر والقوافي

١١ ــ كتاب عيون المسائل على رأي ارسطو

١٢ ــ كتاب اغراض ارسطو في كل واحد من كتبه (المنطقية)

١٣ ــ كتاب اغراض افلاطون وارسطوطاليس

١٤ ــ كتاب اسم الفلسفة ، في الفلسفة وسبب ظهورها .

١٥ ــ في ما ينبغي ان يتقدم الفلسفة او في الا شياء التي يحتاج ان تعلم قبل الفلسفة .

فهو تراث ضخم ما خلفه لنا الفارابي في المنطق ، فضلا عن اهتمامه بالعلوم الفلسفية الاخرى .

غير اننا لا نملك حاليا من شروح وتآليف الفارابي في المنطق سوى الاثار التالية :

١ ــ شرح كتاب العبارة ، وقد نشره اليسوعيان واهلم كوتش وستانلي مارو في بيروت عام ١٩٦٠ .

٢ ــ تفسير المقولات ، مخطوطتا الاسكوريال ٦١٢ ومونيخ ٣٠٧ .

٣ ــ تفسير الانالوطيقا الاولى ، مخطوطة الاسكوريال ٦١٢ ؛ مع مختصر (مخطوطة مانشستر ٣٧٤) .

٤ ــ تفسير الايساغوجي لفرفوريوس Bodl. 1, 457.

٥ ــ احصاء العلوم ، نشره الدكتور عثمان امين في القاهرة سنة ١٩٣١ ، وطبع طبعة ثانية سنة ١٩٤٨ . وكان قد نشره المستشرق انجيل غنصليس بلانسية في مدريد سنة ١٩٣٢ وطبع طبعة اخرى سنة ١٩٥٣ .

٦ ــ كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، نشره الاستاذ محسن مهدي في بيروت سنة ١٩٦٨ .

٧ ــ وقد طبع شتاينشنيدر ، مع ترجمة عبرية ، الكتب التالية : شرح القياس ، كلام (قول) في شرائط اليقين (انالوطيقا الثانية) ، طوبيقا ، سوفسطيقا ، فصول يحتاج اليها في صناعة المنطق

M. STEINSCHNEIDER, Al-Farabi, des Arabischen Philosophen Leben und Schriften, St. Petersbourg 1869.

٨ ــ وثمة باللاتينية تفسير في الخطابة لارسطو :

Declaratie Compendiosa supra libris rethericorum Aristetelis, Venet. 1464; Rethorica Aristotelis cum fundatissimi artium et theologiae doctoris Egidij de Roma... nec non Alpharabij compendiesa declaratione, addita ejusdem Arist. Poetica magni Averroys in eamdem Summa, Venet. 1515. (٦٠)

٩ ــ وقد طبع ديتيريتشي عدة مقالات للفارابي

F. DIETERICI, Leiden, 1895. (٦١)

١٠ ــ وكذلك طبعت للفارابي مقالات ومسائل في حيدر آباد يهمنا منها : رسالة في مسائل متفرقة سنة ١٣٤٤/ ١٩٢٥ ، رسالة في فضيلة العلوم والصناعات سنة ١٣٤٠/١٩٢١ .(٦٢)

طريقة تحصيله العلم ووضعه تاليفه

يصف لنا حنين بن اسحق الطريقة التي كان يسير عليهـا المتعلمون منذ ايام الاسكندرانين وحتى ايامه . وليس من المستبعد أن تكون هي الطريقة التي اتبعها يوحنا بن حيلان في تدريسه المنطق . فبعد أن يـورد اهم كتب جالينوس الحكيم يقول حنين : « كانوا يقرؤنها (الكتب) على هذا الترتيب الذي اجريت ذكرها عليه ، وكانوا يجتمعون في كل يوم على قراءة امام منها وتفهمه ، كما يجتمع اصحابنا اليوم من النصارى في مواضع التعليم التي تعرف بالاسكول في كل يوم على كتاب امام ، اما من كتب المتقدمين ، واما من سائر الكتب . وانما كانوا يقرؤونها الافراد كل واحد على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التي ذكرت ، كما يقرأ اصحابنـا اليوم كتب المتقدمين » (٦٣) . ويضيف مايرهوف انه « على هذا النحو

بقيت الدراسة في الشرق والغرب طوال العصور الوسطى ، بل لا تـزال باقية حتى اليوم في الشرق الاسلامي • ويكفي ان يدخل المرء مسجـدا من هذه المساجد التي تعقد فيها حلقات الدرس ليرى امامه الدراسة على هذه الصورة الموجودة بالاسكندرية : يقرأ التلميذ امام استاذه قطعة من كتاب رئيسي ، وحينئذ يتقدم الاستاذ بالشرح والقاء الاسئلة » (٦٣)•

ويفيدنا ابن خلكان بما يشبه ذلك لدى تعرضه لمجلس ابي بشر متى ابن يونس ، فيقول انه كان « يجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق ، وهو يقرأ كتاب ارسطوطاليس في المنطق ، ويملي على تلامذتـه شرحه ••• وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن ما ارى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلـة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر » . فقد كان الفارابي ــ حسب رواية ابن خلكان ــ يحضر حلقة متى بن يونس في غمار تلامذته ، وذلـك قبل ان يأخذ « طرفا من المنطق » على يد يوحنا (٦٤) •

كان المعلم يقرأ النص ، باصيله اليوناني ، او بترجمته العربيـة ، او يوعز الى احد تلامذته فيقرأه على مسمع من الجميع ، ثم يأخذ بتفسيره شارحا فحواه ، وقد يملي على التلاميذ شرحه للنص •

ولزيادة في التعرف على النهج المتبع في التحصيل المنطقي ، بوسعنا ان نتناول شرح الفارابي لكتاب العبارة لارسطو ، كمثال لاغير • فان ابا نصر ، بعد أن يعرض بمقدمة وجيزة غرض المعلم الاول ارسطو من كتابه هذا ، يأخذ في سرد اجزاء الكتاب ذاكرا ما يحتوي عليه كل جزء ، دون ان يغفل العنوان كاملا مع تعليق عليه وارجاعه الى الفرع من العلوم الذي ينسبه اليه واعلان مرتبته من الكتب الاخرى • ثم يشرع بعد ذلك بتفسير اقوال الحكيم اليوناني قطعة فقطعة ، قد تطول او تقصر وفقا لمعناها •وهو للتمييز بين كلامه وشرحه وكلام ارسطو وعبارته ، يستخدم كلمة «فقال» او « قوله » وما شابه ذلك للدلالة على كلام ارسطو ، وعبارة « ويريـد

بقوله » او « اراد » او « يقصد » او « يعني » للدلالة على شرحه هو •

اما في التآليف فيعرض الفارابي غرضه من الكتاب او المقالة ، ثم يبدأ بحثه معددا الفصول او الاقسام التي يشتمل عليها ، ثم يأخذ بتناولها شيئا فشيئا حتى يختم الموضوع •

الفارابي يقيم صناعة المنطق

ان تضلع ابي نصر الفارابي من علم المنطق على يد يوحنا معلمه خاصة كان بمقدار كبير ، كما يشهد له بذلك المؤرخون • فصاعد يعتبره متفوقا على جميع اهل الاسلام في صناعة المنطق (٦٥) ، ويخلد البيهقي اربعة فلاسفة عظام ، ارسطو والاسكندر الافروديسي قبل الاسلام، والفارابي وابن سينا بعده (٦٦) • ويضعه القفطي في مرتبة تفوق سائر اقرانه في التحقيق وشرح الكتب المنطقية (٦٧) . وكذلك البيهقي وابن ابي اصيبعة وابن العبري ، منبهين الى ان من سبقوه كانوا يتعلمون الصناعة حتى الاشكال الوجودية ، بينما تعلم الفارابي الى آخر كتاب البرهان، ونبه الاخرين الى ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاءالتعليم وشرح الكتب المنطقية كلها • حتى انه ـ يضيف ابن ابي اصيبعة ـ عندما سئل : من أعلم، انت امارسطو ؟ اجاب: لو أدركته لكنت اكبر تلاميذه(٦٨)

ولكن لم كل هذا الاهتمام بالمنطق ؟ وما قيمة هذا المعلم ؟

سبق وان ذكرنا بعض الشيء فيما يفسر ذلك • نضيف أنه من اهتمامات العرب الاولى بالعلوم ، اهتمامهم بعلم المنطق • ويفيدنا المؤرخون المسلمون انه في مقدمة العلوم التي ركز عليها العرب في صدر الاسلام ، ثم في عهد الخلافة العباسية وفي عهد المأمون خاصة ،علم الطب، وبجانبه من علوم الفلسفة علم المنطق، وعلم النجوم او الفلك ؛ ثم الرياضيات وغيرها (٦٩)• وقد اقتبسوا هذه العلوم من اليونان بواسطة نقول متعددة قام بها الناطقون بالسريانية خاصة ، ثم طوروا هذه العلوم ونهضوا بصرح

الحضارة العربية خير نهوض .

ولنترك الكلام للفارابي عينه يحدثنا عن المنطق في اكثر من كتاب له.

ففي كتابه الشهير الموسوم (في احصاء العلوم) ، والذي كان فتحا في باب تصنيف العلوم وتقييمها ، يعقد الفارابي فصلا خاصا في المنطق ، هو الفصل الثاني ، يذكر فيه منفعة المنطق ، وموضوعاته ، واجزاءه .

« المنطق » مشتق من النطق . وهذه اللفظة تقال عند القدماء على ثلاثة معان : احدهما القول الخارج بالصوت ... والثاني القول المركوز في النفس ... والثالث القوة النفسانية المنظورة في الانسان ، التي بها يميز التمييز الخاص بالانسان دون ما سواه من الحيوان ، وهي التي بها يحصل للانسان المعقولات ... (٧٠) ، وان المنطق يعطي قوانين في النطق بانواعه الثلاثة المذكورة .

و « صناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي شأنها ان تقوم العقل وتسدد الانسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن ان يغلط فيه من المعقولات ، والقوانين التي يمتحن بها في المعقولات ما ليس يؤمن ان يكون قد غلط فيها غالط » . او ، كما يقول في (كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق) « الغرض في هذه الصناعة هو تعريف جميع الجهات وجميع الامور التي تسوق الذهن الى ان ينقاد لحكم ما على الشيء انه كذا أو ليس كذا » (٧١) .

لذا فان هذه الصناعة تناسب صناعة النحو « ذلك ان صناعة المنطق الى العقل والمعقولات كصناعة النحو الى اللسان والالفاظ » ، وهي « تناسب ايضا علم العروض » (٧٢) .

ويشبه الفارابي القوانين المنطقية بآلات « يمتحن بها في المعقولات ما لا يؤمن ان يكون العقل قد غلط فيه او قصر في ادراك حقيقة تشبه الموازين والمكاييل التي هي آلات يمتحن بها في كثير من الاجسام» (٧٣) .

مما سبق تبدو جلية فائدة هذه الصناعة ، فهي « وحدها تكسبنا القدرة على تمييز ما تنقاد اليه اذهاننا هل هو حق او باطل » (٧٤) .

فالمنطق ضروري « في كل ما نلتمس تصحيحه عند انفسنا ، وفيما نلتمس تصحيحه عند غيرنا ، وفيما يلتمس غيرنا تصحيحه عندنا ... واذا جهلنا المنطق كانت حالنا في جميع هذه الأشياء بالعكس وعلى الضد ... فانا ان جهلنا المنطق لم نقف من حيث يتقن على صواب ما اصاب منهم كيف أصاب ومن اي جهة اصاب ، وكيف صارت حجته توجب صحة رأيه ... وهذه الاشياء تعرض لنا من الناس الذين يدعون عندنا الكمال في العلوم . فانا ان جهلنا المنطق ولم يكن معنا ما نمتحنهم به ، فاما ان نحسن الظن بجميعهم ، واما ان نتهم جميعهم ، واما ان نشرح في ان نميز بينهم ، فيكون كل ذلك منا بلا تثبت ومن حيث لا تيقن » (٧٥).

اما موضوعات المنطق « فهي المعقولات من حيث تدل عليها الالفاظ ، والالفاظ من حيث هي دالة على المعقولات » ، فنحن انما نصحح الرأي بواسطة التفكير والامعان والتقييم ، لذلك نحتاج «الى قوانين تحوطنا في المعقولات وفي العبارة عنها ، وتحرسنا من الغلط فيها » ، لذا فالمنطق يقدم لنا القوانين سواء في ما نعقله ام في ما نعبر عنه بالنطق . والمنطق في ذلك « يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الالفاظ ، ويفارقه في ان علم النحو انما يعطي قوانين تخص الفاظ امة ما ، وعلم المنطق انما يعطي قوانين مشتركة تعم الفاظ الامم كلها » (٧٦) .

واجزاء المنطق ثمانية : « وذلك ان انواع القياس وانواع الاقاويل التي يلتمس بها تصحيح رأي او مطلوب في الجملة ثلاثة . وانواع الصنائع التي فعلها بعد استكمالها ان تستعمل القياس في المخاطبة في الجملة خمسة : برهانية وجدلية وسوفسطائية وخطبية وشعرية » . ويشرح الفارابي ذلك بقوله : « فالبرهانية هي الاقاويل التي شأنها ان

تفيد العلم اليقين في المطلوب الذي نلتمس معرفته ، سواء استعملها الانسان فيما بينه وبين نفسه في استنباط ذلك المطلوب ، او خاطب بها غيره .... والاقاويل الجدلية هي التي شأنها ان تستعمل في أمرين: احدها ان يلتمس السائل بالاشياء المشهورة التي يعترف بها جميع الناس ... والثاني ان يلتمس بها الانسان ايضاح الظن القوي في رأي قصد تصحيحه ، حتى يخيل انه يقين من غير ان يكون يقينا .والاقاويل السوفسطائية هي التي شأنها ان تغلط وتضلل وتلبس وتوهم فيما ليس بحق انه حق ... والاقاويل الخطبية هي التي شأنها ان يلتمس بها اقناع الانسان في اي رأي كان ، وان يميل ذهنه الى ان يسكن الى ما يقال له ويصدق به تصديقا ما ، اما اضعف واما اقوى ... والاقاويل الشعرية هي التي تركب من اشياء شأنها ان تخيل في الامر الذي فيه المخاطبة ». لذا فان اصناف القياسات والصنائع القياسية وانواع المخاطبات خمسة : يقينية ، وظنية ، ومغلطة ، ومقنعة ، ومخيلة « وكل واحدة من هذه الصنائع لها اشياء تخصها ، ولها اشياء اخر تشترك فيها»، وهي اما « مركوزة في النفس » ام « خارجة بالصوت » ، كما انها «مركبة» من « اقاويل بسيطة » (٧٧) .

وبصدد اجزاء المنطق نلقي التقسيم عينه في « كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق » اذ يقول : « واما عدد اجزاء الصناعة فهو على عدد اصناف انقياد الذهن ، وعلى عدد الاشياء التي شأنها ان تتقدم تلك الامور . واصناف تلك الامور فهي خمسة ... والاشياء التي تتقدمها ثلاثة ... فاجزاء صناعة المنطق ثمانية » . يتناول الجزء الاول منها المعقولات المفردة او المقولات (قاطيغورياس) ويتناول الثاني المقدمات او العبارة (باريرمينياس) . وفي الثالث يتبين امر القياس المطلق او التحليلات الاولى (انالوطيقا الاولى) . بينما يتبين في الجزء الرابع امور البراهين او التحليلات الاخيرة (انالو طيقا الثانية).ويبحث الجزء الخامس في الاشياء الجدلية (٧٨) .

فالمنطق يبدأ بالبرهان الاستدلالي ، ولكنه غير ممكن اذا لم ينسنى للقياس السلجستي ان يسوق اليه ، وهذا يفترض القضية . والقضية تتألف من حدود يوافق كل منها احدى المقولات . ويقوم الى جانب القياس السلجستي القياس الجدلي ، ويأتي « المغالطون » لاثبات ما يمكن ان ينشأ من غلط [٧٩] .

« فاما مرتبة هذه الصناعة بحسب قياسها الى سائر الصنائع فانها تتقدم جميع الصنائع التي تشتمل عليها صناعة الفلسفة » [٨٠] .

ويقول الفارابي ان لارسطو كل الفضل في ابداع المنطق ، فهو « المنشيء لهذه (الصناعة) والمثبت لها » [٨١] . وهذا ما يذكرنا بكل ما كان متداولا في عهد الفارابي وقبله في الاوساط العربية والاسلامية وغيرها [٨٢] .

وكما فعل فرفوريوس الصوري فألف مدخلا الى المنطق بعنوان الايساغوجي ، والذي عرفه العرب واستفادوا منه كثيرا ، كذلك صنف الفارابي كتابا سماه « المدخل الى المنطق » او « التوطئة في المنطق »، واننا نظنه « كتاب الالفاظ المستعلمة في المنطق » الذي استشهدنا به اكثر من مرة . اما اول كتاب منطقي فهو المقولات ، يليه كتاب العبارة، فالقياس ، والبرهان ، والجدل ، والمغالطون ، والخطابة ، فالشعر [٨٣].

« وليس منطق الفارابي مجرد تحليل للتفكير العلمي ، بل هو يشتمل الى جانب هذا على كثير من الملاحظات النحوية ، كما انه يشتمل على مباحث في نظرية المعرفة » [٨٤] .

اما ما كان يأتي بعد كتب المنطق ، حسب الفارابي ، فالكتب الثمانية التي تبحث في الطبيعيات ، وفي مقدمتها « السماع الطبيعي » او كما يسميه الفارابي «سمع الكيان» او «في ما ينبغي ان يتقدم الفلسفة»[٨٥].

الهوامش والمصادر

(١) عن حياة الفارابي انظـر :

المسعودي ، التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨/١٣٠٧ ، ١٠٥ ــ ١٠٦ .

ابن النديم ، الفهرست ، (ط فلوجل ، ٢٦٣) ، تحقيق رضـا ــ تجدد ، ٣٢١ ــ ٣٢٢ (وسنعتمد هذه الطبعة) .

صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، ط الاب شيخو ، بيروت ١٩١٢، ٥٣ ــ ٥٤ .

البيهقي ، تتمة صوان الحكمة ، ط محمد شافع ، لاهور ١٩٣٥ ، ١٦ ــ ٢٠ .

القفطي ، تاريخ الحكماء ، ليبسك ١٩٠٣/١٣٢٠ ، ٢٧٧ ــ ٢٨٠.

ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطبـاء ، تحقيق نـزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ، ٦٠٤ ــ ٦٠٩ (اننا نستشهد بهذه الطبعة . امـا حسب المطبعة الوهبية لسنة ١٨٨٢/١٢٩٩ فهي في الصفحات ١٣٤ ــ ١٤٠) .

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، القاهرة ١٩٤٨ ، رقم ٦٧٧ ، ٢٣٩ ــ ٢٤٣ .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٣٨٧ /١٩٦٧ ، ج ٦ ، ٣٣٧ (اي تحت سنة ٣٣٩ هـ) .

ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ، مصر ، ج ١١ ، ٢٢٤.

ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٧٠ .

الشهرزوري ، نزهة الارواح وروضة الافراح ، مخطوطة ، نسخة في مكتبة المتحف العراقي .

هذا عدا مصنفات المحدثين التي سيأتي ذكر أهمها في الهوامش اللاحقــة .

(٢) ان الاستاذ ماكس مايرهوف وحده حاول اماطة اللثام عن هذه الشخصية المغمورة ، الا انه لم يترك لنا سوى بضعة اسطر لا تشفي غليلا. انظر : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٥ ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٣٧ ــ ١٠٠ ، وخاصة ص ٧٥ .

(٣) التنبيه والاشراف ، ١٠٦

(٤) طبقات الامم ، ٥٣

(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ٣٣٧

(٦) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(٧) « كتاب في الفلسفة وسبب ظهورها » (القفطي ، ٢٨٠) ، او « كتاب في اسم الفلسفة وسبب ظهورها واسماء المبرزين فيها وعلى من قرأ منهم » (ابن ابي اصيبعة ٦٠٨ ، وانظر كذلك ص ٦٠٥)

(٨) عيون الانباء ، ٦٠٥

(٩) وفيات الاعيان ، رقم ٦٧٧ ، جـ ٤ ، ٢٣٩

(١٠) تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(١١) التنبيه والاشراف ، ١٠٥

(١٢) طبقات الامم ، ٥٣

(١٣) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(١٤) تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(١٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٨ ، ٤٩١

(١٦) التنبيه والاشراف ، ١٠٥ ــ ١٠٦

(١٧) ماكس ، مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٦٣ ــ ٦٤

(١٨) عيون الانباء ، ٦٠٥

(١٩) مايرهوف ، المصدر السابق ، ٤٥ ـ ٤٦ و ٦٥ ـ ٦٧

(٢٠) وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ٢٣٩

(٢١) كانت مدرسة الكنيسة او الدير « اسكولا » ، واصل اللفظة يونانية . وعن دور الناطقين بالسريانية ومراكزهم الثقافية في تكوين الحضارة العربية كتب الكثيرون ، سيأتي ذكر بعضهم . وانظر خاصة: حسين قاسم العزيز ، دور المراكز الثقافية في تفاعل العرب والمسلمين الحضاري ، مهرجان افرام وحنين ، بغداد ١٩٧٤ ، ٣٨٣ ـ ٤١٣ .

(٢٢) عن هذا كله راجع أمهات الكتب في تاريخ الآداب والعلوم السريانية بشتى اللغات واهمها بالعربية : المطران ادي شير ، تاريخ كلدو واثور ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩١٣ .

البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم ، تاريخ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية ، ط١ ، حمص ١٩٤٣ ، ط ٢ ، حلب١٩٥٦

مراد كامل ـ محمد حمدي البكري ، تاريخ الادب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي ، القاهرة ١٩٤٩ .

الاب البير ابونا ، ادب اللغة الارامية ، بيروت ١٩٧٠

وبالسريانية : جدول عبد يشوع الصوباوي ، ط ابراهيم الحاقلاني، روميه ١٦٥٣ ، وتكملة السمعاني ، المكتبة الشرقية ، م ٣ ، ج ١ ، ثم مخطوطة الانبا شموئيل جميل . واننا نعد دراسة وطبعة له .

باللغات الاخرى :

A. BAUMSTARK, Geschichte der syrischen Literatur, Bonn 1922;

R. DUVAL, La littérature syriaque, Paris 1899;

J. - B. CHABOT, Littérature syriaque, Paris 1934.

Ortiz de URBINA, Patrologia Syriaca, Romae 1965.

(٢٣) الفهرست ، ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، عيون الانباء ، ٣١٦ ـ ٣١٧

(٢٤) تاريخ الحكماء ، في مواضع شتى

(٢٥) مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٧٠ فما بعدها

(٢٦) المسعودي ، التنبيه ، ١٠٥ ، ابن ابي اصيبعة ، ٦٠٥

(٢٧) عيون الانباء ، ٦٠٥ ، مايرهوف ، ٧٤

(٢٨) ابن النديم ، ٣٢١ ، القفطي ، ٧٧ ، ابن ابي اصيبعة ، ٣١٦

(٢٩) ابن النديم ، ٣٢٢ ، القفطي ، ٢٣٥ ، ابن ابي اصيبعة ٦٠٥ و ٣١٦

(٣٠) ابن النديم ، ٣٢٢ ، القفطي ، ١٦٩ ، ابن ابي اصيبعة، ٣١٦

(٣١) الفهرست ، ٣٢٢ ، تاريخ الحكماء ، ٣٢٣ ، عيون الانباء ، ٣١٧ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٦٤ ، التنبيه والاشراف ، ١٠٦

(٣٢) ويشط او ليرى اذ يقول بان اهتمامهم كان مقتصرا على المنطق وحده ، انظر : د . لاسي او ليري ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٩٣ .

راجع الهامش ٢٢ ، وايضا :

E. RENAN, De philosophia peripatetica apud Syros, Paris 1852; A. BAUMSTARK, Aristoteles bei den Syrern ven V. bis VIII. Jahrhunderte, Leipzig 1900.

(٣٣) طبقات الامم ، ٥٣

(٣٤) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(٣٥) عيون الانباء ، ٣١٧

(٣٦) وفيات الاعيان ، ٢٣٩

(٣٧) ابن ابي اصيبعة ، ٣١٧

(٣٨) عيون الانباء ، ٣١٧

(٣٩) مايرهوف ، ٤٤

(٤٠) بول كروس ، التراجم الارسطالية المنسوبة الى ابن المقفع، تراث الاسلام ، ١٠٩ ، دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ت محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ ، ٢٠

(٤١) عيون الانباء ، ٣١٧

(٤٢) L'Organon d'Aristete chez les Arabes, Paris 1934.

تعريب عبد الرحمن بدوي بعنوان « منطق ارسطو » ، القـاهرة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢

(٤٣) ابن النديم ، ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، القفطي ، ٣٤ ـ ٣٨ ، ابن ابي اصيبعة ٩٢ ـ ٩٣

(٤٤) الفارابي ، احصاء العلوم ، تحقيق الدكتور عثمان امين ،مطبعة الاعتماد بمصر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٦٣ ـ ٧٢ . ولنلاحظ ان كلامه هذا ينقله المؤرخون الانفو الذكر (هامش ٤٣) بنوع يكاد يكون حرفيا .

(٤٥) الفارابي ، كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، تحقيق محسن مهدي ، بيروت ١٩٦٨ ، ١٠٤

(٤٦) الفهرست ، ٣٠٩ ـ ٣١٠

(٤٧) تاريخ الحكماء ، ٣٤ ـ ٣٨

(٤٨) عيون الانباء ، ٩٢ ـ ٩٣

(٤٩)
A. Baumstark, Geschichte der syrischen Literatur, 168

(٥٠) عن آثار حنين بن اسحق (المتوفى ٢٦٠/٨٧٣) وابنه اسحـق (المتوفي ٢٩٨ ـ ٢٩٩ / ٩١٠ ـ ٩١١) ونقولهم لكتب المنطق خاصة انظر: ابن النديم ، ٣٥٢ و ٣٥٦ ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ، ٦٨ ، صاعد ، ٣٧ ، البيهقي ، ٣ ـ ٤ ، القفطي ، ٣٥ ـ ٣٦ ، ابن ابي اصيبعة، ٢٥٧ ـ ٢٧٥ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ٢ و ٥ والخ .

وانظر : عامر رشيد السامرائي ـ عبد الحميد العلوجي ، آثار حنين ابن اسحاق ، بغداد ١٩٧٤ ، ومقالات كتاب مهرجان افـرام وحنين ، بغداد ١٩٧٤ .

(٥١) راجع جدول عبد يشوع الصوباوي وفيه اكثر من اشارة الى اشتغال بعض المؤلفين الناطقين بالسريانية بالمنطقيات وترجمتهم لبعض كتب ارسطو . كما يأتي تأكيد المؤرخين بان كتب ابي بشر متى بن يونس في المنطق هي المعول عليها في زمانه في كل بلدان المشرق ، مطابقا لما قلناه. كل ذلك يحملنا على القول ان الناطقين بالسريانيـة كانوا ، حتى العصـر

العباسي ، يعنون بكتب المنطق الثلاثة الاولى ، لكنهم شرعوا يعنون بها كلها ، سيما بعد قيام بيت الحكمة في بغداد ونبوغ آل حنين في الترجمة. اما الترجمات السريانية القديمة للاورغانون فكانت تقف عند الفصل السابع من التحليلات الاولى (انالو طيقا الاولى) . فنحن نقرأ ص ٢١٢ من مخطوطة رقم ٣٣٨ محفوظة في مكتبة جامعة القديس يوسف بيروت « تم كتاب انولو طيقا وليس بعده من هذه الكتب الا كتاب افود الطبيعي (أي السماع الطبيعي) ولم منعنا من استقرائه الا ما قدمنا في صدر الكتاب جماعا رأينا كافيا عن التفسير » . انظر :

FURLANI, Di una presunta versione araba d'alcuni scritti di Porfirio ed'Aristotele, Rendic, d. R. Accademia Naz. dei Lincei, Cl. di sc. stor. efil. II (1962), 205-13; M. STEINSCHNEIDER, Al'Farabi, des Arabischen Philosophen Leben und Schriften, Memeires de L'Académie imp. des sciences de St, Petersbourg XIII, 4, 1869.

(٥٢) طبقات الامم ، ٥٣ . وينقل ذلك ابن ابي اصيبعة ايضا ، ٦٠٥

(٥٣) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(٥٤) عيون الانباء ، ٦٠٦ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(٥٥) يقول ابن خلكان ان الفارابي « يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي » ، ويروي عنه دخوله الى مجلس سيف الدولة بدمشق وادعاؤه انه يحسن « اكثر من سبعين لسانا » (وفيات الاعيان ، رقم ٦٧٧ ، جـ ٤ ، ٢٣٩ و ٢٤١) .

H. CORBIN, Histoire de la philosophie islamique, Paris 1964, 223.

(٥٦) الفهرست ، ٢٦٣

(٥٧) طبقات الامم ، ٥٤

(٥٨) تتمة صوان الحكمة ، ١٧

(٥٩) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، عيون الانباء ، ٦٠٨ ـ ٦٠٩

(60) A. NAGY, Notizie intorno alla retorica d'Al Farabi.

Rendi Centi dell'Accademia R. d. Lincei 1893, 11, 684-91

(61) Cfr. C. BROCKELMANN, Geschichte der arabischen Literatur, I, 210; SI, 375; I. MADKOUR, La place d'Al-Farabi dans l'école philosophique musulmane, Paris 1934; R. WALZER, Al-Farabi, Encyclop. of Islam, New Ed., II, Leide-London 1965, 778-81.

(62) Cfr. L. LECLERC, Histoire de la médecine arabe, I, Paris 1876, 359-61; S. M. PLESSNER, Al-Farabi über Medizin, eine übersehene und eine neuentdekte Quelle, XXI Congr. Intern. St. Med. 1970, 1533 - 9; F. SEZGIN, Geschichte des Arabischen Schrifttums, III, 298-300; IV, 288-9.

خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ط ٣ بيروت ١٩٦٩ ، جـ ٧ ، ١٤٢.

(٦٣) مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٥٢

(٦٤) وفيات الاعيان ، جـ ٤ ، ٢٣٩

(٦٥) طبقــات الامم ، ٥٣

(٦٦) تتمة صوان الحكمة ، ١٦

(٦٧) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ . وكذلك ابن العبري ، ١٧٠

(٦٨) عيون الانباء ، ٦٠٦

(٦٩) انظر مثــلا : صاعد ، ٤٩ ، اوليري ، علوم اليونان وسبــل انتقالها الى العرب ، من ٢١٢ الى الاخير ، محمد عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ، بيروت ١٩٧٠ ، محمــد علي ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، بيروت ١٩٧٠ ،اسماعيل مظهر ، تاريخ الفكر العربي ، بيروت ، ادوارد جي براون ، الطب العربي، ت داود سلمان علي ، بغداد ١٩٦٤ ، احمد فريد رفاعي ، عصر المأمون، القاهرة ١٩٢٨ ، حميد موراني ــ عبد الحليم منتصر ، قراءات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٤ .

(٧٠) احصاء العلوم ، ٦٢ . والكثير من اقوال الفارابي هذه ينقلها المؤرخون العرب حرفيا . انظر ابن ابي اصيبعة ، ٩٢ ــ ٩٣

(٧١) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٢) احصاء العلوم ، ٥٤ و ٥٩

(٧٣) المصدر السابق ، ٥٤

(٧٤) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٥) احصاء العلوم ، ٥٥ ــ ٥٨

(٧٦) المصدر السابق ، ٥٩ ــ ٦٠

(٧٧) المصدر عينه ، ٦٣ ــ ٦٤ و ٧٠

(٧٨) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٩) لويس غرديه ــ ج . قنواتي ، فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، ت صبحي الصالح ــ فريد جبر ، بيروت ١٩٦٧ ، ١٧٥ــ ١٧٦

(٨٠) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٨

(٨١) المصدر السابق ، ١٠٩

(٨٢) المسعودي ، ١٠٠ ، صاعد ، ٢٤ ــ ٢٦ ، ابن ابي اصيبعة ، ٩٢ والخ .

(٨٣) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١١١ ، احصاء العلوم ، ٦٢ ــ ٧٢

(٨٤) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ١٣٥

(٨٥) المصدر السابق ، ١٣٢ هامش ٢

دراسات في العصر السلجوقي
(الأمير جاولي سقاوة) (١)

الدكتور رشيد الجميلي
كلية الآداب - جامعة بغداد

ظهرت خلال العصر السلجوقي شخصيات هامة لعبت دورا بارزا في احداث التاريخ السلجوقي ومن بين تلك الشخصيات . الوزراء والحجاب وأمراء العسكر وحكام الاقاليم وأمراء الاطراف . وسنحاول في هذه الصفحات التعريف باحدى الشخصيات السلجوقية التي شاركت في رسم احداث التاريخ السلجوقي في اواخر القرن الخامس الهجري وحتى مطلع القرن السادس الهجري ، تلك هي شخصية الأمير جاولي سقاوه .

والواقع أن المصادر العربية والفارسية لم تمدنا باية معلومات عن حياة هذا الامير قبل توليه حكم الاقاليم الشرقية الخاضعة للدولة السلجوقية ، لذا فقد ظل تاريخ مولد جاولي غير معروف لدينا ، ولا نعلم سيئا عن حياته الاولى أو تدرجه في المناصب حتى اصبح من كبار كبار الامراء السلاجقة في عهد السلطان ملكشاه ثم في عهد ولديه

---

(١) هكذا ورد الاسم في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٥٦ ، وقد ورد الاسم بصور مختلفة في بقية المصادر . فجاء في المنتظم لابن الجوزي ج ٩ ص ١٢٢ «جاولي شقاوه» في حين ذكر ابن الاثير في الكامل ج ١٠ ص ٢٩٨ جاولي شقاوه ، أما في المختصر لابي الفدا فقد جاء الاسم مطابقا لما ورد في ذيل تاريخ دمشق .

بركياروق ومحمد من بعده (٢) .

على أن اسم جاولي اخذ يتردد من خلال الصراع الذي تفجر بين السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه في سنـــة ٤٨٥ هـ ، حين اشتـــد النزاع حول السلطة بين اولاد ملكشاه من جهة وبينهم وبين اعمامهم من جهة اخرى (٣) .

ويستفاد من الروايات التاريخية التي تناولت اخبار الصراع السلجوقي أن جاولي هذا كان من مؤيدي السلطان بركياروق بن ملكشاه ووقف الى جانبه في صراعه ضد اخيه السلطان محمد بن ملكشاه ، وكان من بين امراء الاطراف الذين سارعوا للانضمام الى بركيا روق عقب هزيمته أمام عمه سنجر في سنة ٤٩٣ هـ . وكان جاولي آنذاك يتولى حكم البلاد الواقعة بين رامتهرمز وأرجان ، ويبدو أنه ظل على اخلاصه لسيده بركياروق حتى وفاة الأخير ، عام ٤٩٨ هـ . (٤)

جاولي والباطنية :

تفاقم خطر الباطنية وعظم شرهم في أخريات القرن الخامس الهجري وباتوا يشكلون مصدر قلق كبير للدولة السلجوقية ، فقطعوا الطرق في اقليم خوزستان وفارس ، فأخذ جاولي على عاتقه معالجة هذا الأمر بحكم قربه من مناطق تواجدهم في بلاد فارس ، فأعد العدة لقتالهم ووضع حد لنشاطهم المتزايد الذي يهدد سلامة وامن البلاد .

وقد استعمل جاولي الحيلة والدهاء للايقاع بالباطنية لعلمه مدى

---

(٢) ذكر المؤرخ ابن الجوزي ان جاولي كان رجل الترك وراسا فيهم (ج ٩ ص ١٨٥)

(٣) تفجر الصراع بين اولاد السلطان ملكشاه : بركياروق ومحمـــد ومحمود وبينهم وبين تتش بن الب ارسلان وسنجر بن الب ارسلان .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٢٩٨ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٤ .

ما يتمتع به هؤلاء من قوة وما يحيط مواقعهم من حصانة بالاضافة الى ما عرف من تفانيهم في القتال • فاتفق مع جماعة من اصحابه ليظهروا الشغب في ولايته ليكون ذلك مبررا لطردهم من البلاد وانصرافهم الى الباطنية • وتم تنفيذ هذه الخطة ووفد اصحابه على الباطنية معلنين الموافقة لهم ونددوا بحكم جاولي سقاوه • فسمح لهم هؤلاء بالمقام عندهم حتى وثقوا بهم (٥) •

ولما اطمئن جاولي الى نجاح اصحابه في الوصول الى قلاع الباطنية وتقربهم الى زعمائهم بدأ في تنفيذ المرحلة التالية من مخططه فاشاع أن الامراء بني برسق عازمون على مهاجمة بلاده • وانه قرر الرحيل الى همذان لعجزه عن التصدي لهم ، وخرج على رأس قواته سالكا طريق همذان ، فلما علم اصحابه المقيمين عند الباطنية اشاروا على هؤلاء باغتنام هذه الفرصة وقطع الطريق على جاولي والاستيلاء على امواله (٦) •

فلقي هذا العرض استحسانا لدى الباطنية ، فساروا اليه في ثلثماية من اعيانهم ، « فلما توسطوا الشعب عاد عليهم ومن معه من اصحابه فقتلوهم فلم يفلت الا ثلاثة نفر تسلقوا في الجبال فغنم خيلهم واموالهم وتهذبت الطرق بهلاكهم » (٧)

وعاد جاولي الى ولايته بعد الفراغ من قتال الباطنية ، فاقام بها عدة سنوات ، عكف خلالها على القيام باعمال التحصينات وبناء القلاع، ويبدوا ان علاقة جاولي بامراء الاطراف كانت سيئة وانه يخش قيامهم بمهاجمة بلاده ، كما أن جاولي لم يكن محببا الى أهل ولايته بسبب سياسة التعسفية ضدهم • فقد ذكر المؤرخ ابن الاثير ان جاولي اقترف اعمالا عدائية ضد

---

(٥) ابن الجوزي المنتظم ج ٩ ص ١٢٢ •

(٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٣٢٠ •

(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٩ ص ١٢٢ •

السكان فقطع ايديهم وجدع انوفهم وسمل اعينهم . [8]

عزل جاولي عن ولاية فارس :

لم تستمر ولاية جاولي على بلاد فارس طويـلا . فقد كانت وفاة السلطان بركياروق سنة ٤٩٨ هـ وانفرد اخوه محمد بالسلطنة ايـذانا بنهاية حكمه في تلك البلاد بسبب موقفه السابق من الصراع بين الاخوين وانحيازه الى بركيا روق .

والواقع أن جاولي شعر بحراجة موقفه بعد وفاة سيده بركياروق ، وخشي من انتقام السلطان محمد ، وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله: «فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة خافه جاولي» [9] ، والحقيقة أن السلطان لم ينس لجاولي مواقفه العدائية منه فبادر الى عزله عن الولاية ، وانفذ اليه العساكر بقيادة الأمير مودود [10] فتحصن جاولي ورفض المثول لأوامر السلطان محمد ، فدام الحصار ثمانية أشهر ، ادرك جاولي بعدها عدم جدوى العصيان ، فارسل الى السلطان يقول : « انني لا انزل الى مودود . فان أرسلت غيره نزلت » [11] ، فانفذ اليه خاتمه مع أحد الامراء . فنزل جاولي وسلم البلد ، وقصد خدمة السلطان في اصفهان ، فاقام معه الى شهر المحرم من سنة ٥٠٠ هـ ، حيث اقطعه مدينة الموصل وعهد اليه بانتزاعها

---

(٨) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ .

(٩) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ .

(١٠) كان الامير شرف الدين مودود بن التونتكين من ابرز قادة السلطان محمد بن ملكشاه ، وقد تولى امارة الموصل في سنة ٥٠٢ هـ ولعب دورا كبيرا في الجهاد ضد الصليبيين ، ولقي مصرعه بجامع دمشق في عـام ٥٠٧ هـ . ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢

من الأمير شمس الدولة جكرمش . [١٢]

فرحل الى بغداد وبقي الى بداية ربيع الأول من سنة ٥٠٠ هـ توجه بعدها الى الموصل فتمكن من الاستيلاء عليها ، غير ان جاولي لم يلبث ان استبد بشئون الامارة وعصى على السلطان محمد ، فبادر الأخير الى عزله عن الامارة وانفذ اليه الأمير مودود الذي نجح في انتزاع الموصل واستقر في حكمها في شهر صفر من سنة ٥٠٢ هـ ١٣ .

واضطر جاولي للرحيل عن الموصل بعد صدور الأمر بعزله عن الولاية، واخذ معه بلدوين الثاني أمير الرها الذي كان اسيرا في الموصل منذ سنة ٤٩٧ هـ [١٤] ، وحاول جاولي التماس الحلفاء في ديار بكر والجزيرة لمساعدته على مواجهة قوات السلطان محمد ، الا انه فشل في ذلك واضطر للمسير الى الرهبة ، ولم يبق امام جاولي بعد ذلك سوى الاستعانة بقوى الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة مستغلا في تحقيق اهدافه بلدوين امير الرها الذي لا يزال اسيرا عنده ، فعقد معه اتفاقا ينص على اطلاق سراح

---

(١٢) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ ، ابن خلدون ، ج ٥ ص ٧٨ ـ ٧٩ ، العيني ، عقد الجمان ج ١٥ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦

(١٣) الفارقي ، تاريخ ميافارقين ص ٢٧٥ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩

ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٩ ، وعن ولاية جاولي على الموصل انظر امارة الموصل في العصر السلجوقي ، رسالة دكتوراه في التاريخ الاسلامي ، رشيد الجميلي بيروت ١٩٧٥

(١٤) العيني : عقد الجمان ج ١٥ ص ٥٦٩

Foucher of charter, P. 59.

كان بلدوين قد وقع في الاسر خلال معركة حران التي دارت رحاها على ضفاف نهر البليخ في شعبان من سنة ٤٩٧ هـ وقد حمل جكرمش اسيره بلدوين الثاني الى الموصل في حين اخذ سقمان بن ارتق اسيره جوسلين امير تل باشر الى حصن كيفا .

الأمير الصليبي مقابل التعهد بمساعدة جاولي والوقوف الــى جانبه في صراعة ضد السلطان السلجوقي كما تضمن الاتفاق على ان يدفع بلدوين الثاني فدية كبيرة وأن يطلق من لديه من الاسرى المسلمين .(١٥)

وتقرر وضع بلدوين الثاني في قلعة جعبر ريثما يتم تسليم مبلغ الفديه، فبقي هناك حتى قدم اليه ابن خالته جوسلين أمير تل باشر الذى كان قد افتدى نفسه واطلق من الأسر ، فأقام رهينة عوضا عن بلدوين الثاني ليتيح له تدبير الفدية ، ويبدو أن جاولي كان في حاجة سريعة الى المال فعمد الى اطلاق سراح جوسلين ليستحث بلدوين الثــاني على تنفيذ اتفاقه مــع جاولي (١٦) .

وتوجه بلدوين الثاني الى الرها بعد اطلاق سراحه ، وكـان حليفه تنكرد أمير انطاكية قـد دخلها بعد هزيمة حران وتولى الوصاية علــى المدينة ريثمايتم اطلاق سراح بلدوين الثاني من الأسر ، ويبدو ان تنكرد رفض في بادىءالامر اعادة الرها الى بلدوين الثاني مما أدى الى نشوب القتال بينهما (١٧) .

أما جاولي فقد سار الى الرحبة . حيث اتصل به هناك ابو النجم

---

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٠ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٣٩، ذكر المؤرخ السرياني المجهول ان مبلغ الفدية سبعون الف دينار ، انظر:
The Frist and Second Crusades from An Anonymous Syriac chronicle Journal of the Royal Asiatic Sociaty, London 1933 P. 81

(١٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٠ ، ابن خلدون ، ج ٥ص٤٠، ذكر ابن الاثير ان جاولي استبقى لديه اخا زوجة بلدوين الثاني واخــا زوجة جوسلين .

(١٧) Anonymous, op. cit, P. 80.
ذكر المؤرخ السرياني المجهول ان تنكرد أمضى في الرها بضعة ايام حصل خلالها على اموال عظيمة ثم عاد الى انطاكية تاركا في الرهــا احد رجاله المدعو ريتشارد .

بدران وابي كامل منصور ابني سيف الدولة صدقة بن مزيد وكانا مقيمان في قلعة جعبر بعد مصرع أبيهما في الحرب التي اندلعت بينه وبين السلطان محمد سنة ٥٠١ هـ (١٨) . فالتمسا العون من جاولي لاستعادة امارة ابيهما (الحلة) ، فأبدى موافقته للمضي معهما الى العراق. وشرع في الاستعداد ، وقد تم الاتفاق بين الحلفاء على ان يكون بكتاش بن تكش بن الب ارسلان قائدا لهذه الحملة ، وبينما هم كذلك قدم عليهم اصبهذ صباوه أمير الرحبة ، فاجتمع الى جاولي واوضح له خطورة العمل الذي يزمع الاقدام عليه ، وحذره من رد فعل السلطان محمد اذا تعرض للعراق ، ونصحه بتحويل نشاطه الى بلاد الشام لخلوها من العساكر السلطانية حيث تتاح الفرصة له لفرض سيطرته على اجزاء من هذه البلاد . ويبدو ان جاولي لم يشأ التورط في مواجهة السلطان فعدل عن مهاجمة العراق (١٩) .

ثم ان سالم بن مالك أمير قلعة جعبر ارسل يستنجد بجاولي على بني نمير الذين استولوا على مدينة الرقة وقتلوا ولده عليا (٢٠) ، فمضى جاولي لمساعدته في طرد بني نمير واستعادة المدينة ، فحاصر الرقة مدة سبعون يوما ، لم يتمكن خلالها من اقتحام البلد ، فراسله بنو نمير في الصلح وتعهدوا بدفع مبلغ من المال وعدد من الخيل ، فوافق جاولي على ذلك ورفع الحصار عن المدينة بعد ان وجد أن الاشتغال بحرب بني نمير لا يعود عليه بفائدة كبيرة وان هدفه الذي يسعى الى تحقيقه هو استعادة الموصل ودفع عساكر السلطان التي احاطت بالمدينة ، ويتضح ذلك من خلال رسالته

---

(١٨) ابن القلانسي ، ص ١٥٩

(١٩) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٢ — ٤٦٣

(٢٠) ذكر ابن الاثير أن الملك رضوان صاحب حلب اسرع الى الرقة بعد استيلاء بنو نمير عليها ، فاعترض في طريقه جماعة من الفرنج كانوا يحملون فدية بلدوين الثاني الى الامير جاولي ، فاخذها منهم وأسر عددا من رجالهم ، ثم تقدم الى الرقة فصالحه بنو نمير على مبلغ من المال وعاد الى حلب ، (ج ١٠ ص ٤٦٢ — ٤٦٣)

الى سالم بن مالك والتي جاء فيها :

« انني في أمر أهم من هذا ، وانا ازاء عدو ويجب التشاغل به دون غيره وانا عازم على الانحدار الى العراق فان تم امري فالرقة وغيرها لك ولا اشتغل عن هذا المهم بحصار خمسة نفر من بني نمير » (٢١) .

تجدد الحوار بين السلطان محمد وجاولي سقاوه :

زاد الصليبيون من تهديهم لطرابلس وضيقوا الخناق حول المدينة ، مما دفع أميرها فخر الملك ابن عمار الى طلب العون من السلاجقة ، فلما تأخر وصول العساكر اضطر للتوجه الى بغداد بنفسه ليستحث السلطان محمد على انقاذ طرابلس ، وكان الأخير قد انفذ معظم عساكره الى الموصل لمحاربة جاولي وعزله عن الولاية ، وقد استبد القلق بأمير طرابلس خوفا على المدينة من السقوط بايدي الفرنج ، فعمد السلطان الى اعادة الحوار مع جاولي ودعاه الى ترك العصيان والانضمام الى العساكر للدفاع عن طرابلس ، وقد أبدى جاولي استعداده للمثول لأوامر السلطان على أن يرحل مودود عن الموصل ويرسل السلطان من يتولى امرها . فمضى رسول السلطان الى الموصل ليطلب الى الامير مودود رفع الحصار عن المدينة والانضمام الى جاولي للجهاد ضد الصليبيين ، الا ان مودود رفض الانسحاب الا بأمر من السلطان محمد نفسه ، واقام على الموصل حتى تم له الاستيلاء عليها في شهر صفر من عام ٥٠٢ هـ (٢٢)

ولما بلغ جاولي سقوط الموصل في يد مودود شرع في التقدم غربا نحو بلاد الشام . فهاجم مدينة (بالس) من اعمال حلب ، ونجح في الاستيلاء عليها بعد حصار دام خمسة ايام ، واقدم جاولي على اعدام جماعة من اعيان المدينة بينهم القاضي محمد ابن عبدالعزيز بن الياس ، ثم قام بنهبها

---

(٢١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٣

(٢٢) الفارقي ، تاريخ ميافارقين ، ص ٢٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٣/٤٦٤ . ابن خلدون ، ج ٥ ص ٨٦ .

واخذ منها اموالا كثيرة .[٢٣]

الحرب بين جاولي والصليبيين :

أثار هجوم جاولي على مدينة (بالس) مخاوف الملك رضوان وخشي أن يكون ذلك مقدمة للهجوم على حلب نفسها لا سيما وان جاولي كان يسعى الى تأسيس امارة في بلاد الشام ، وأراد رضوان أن يجعل من الصليبيين طرفا في نزاعه ضد جاولي ولم يتردد في محالفتهم والاتفاق معهم على تحقيق هذا الهدف ، فحذر الصليبيين من اطماع جاولي في بلاد الشام ومدى الخطر الذي سينجم عن مجاورته لهم فيما لو نجح في الاستيلاء على حلب ، ودعاهم الى ضرورة التصدي له والخروج لقتاله ، فاستجاب تنكرد أمير انطاكية لهذه الدعوة ، وخرج على رأس قواته لقتال جاولي ، فأمده رضوان بـ ٦٠٠ فارس من قوات حلب ، ولما علم جاولي بذلك استنجد بحليفه بلدوين الثاني أمير الرها ، تنفيذا للاتفاق الذي أبرمه معه بعد اطلاق سراحه ، وقيل ان جاولي اطلق له ما بقي من مال الفدية ، ولم يتأخر بلدوين الثاني في تلبية نداء جاولي فسارع للانضمام اليه في مينبج ، وكان الأخير قد تفرق عنه بعض اصحابه بعد سقوط الموصل وعادوا الى بلادهم ولم يبق مع جاولي سوى الف فارس ، ثم انضمت اليه فيما بعد جماعات من المتطوعة [٢٤] فزحف نحو تل باشر حيث اشتبك مع تنكرد ومن انضم اليه من قوات حلب ، واسفر اللقاء عن هزيمة جاولي وحلفائه ، ونهب تنكرد اموالهم . وعاد جاولي الى الرحبة وتراجع حليفه بلدوين الثاني وجوسلين نحو تل باشر .[٢٥]

---

(٢٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٤

(٢٤) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٤/٤٦٥

(٢٥) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٦

Anonymous, op. cit, P. 82.

عودة جاولي الى طاعة السلطان وتوليه بلاد فارس :

تحرج موقف جاولي بعد هزيمته امام الصليبيين وادرك انه لا يمكنه المقام بعد ذلك بالجزيرة أو الشام فلم يجد امامه سوى طلب العفو من السلطان محمد والعودة الى خدمته ، وكان السلطان مقيما آنذاك بالقرب من اصفهان ، فرحل متخفيا لئلا يكشف أمره ، واتصل باحد اصحابه ليكون واسطة الصلح بينه وبين السلطان وهو الأمير حسين بن قتلغتكين. فدخل جاولي وكفنه تحت يده وطلب العفو من السلطان . فامنه وعفا عنه ، شرط أن يسلمه بكتاش بن تكش بن الب ارسلان فسلمه اليه فاعتقله باصفهان (٢٦) . ويبدو ان الاحوال في بلاد فارس كانت مضطربة فقرر تكليف جاولي بمهمة اخضاع امراء الأطراف واصدر أمره بتوليته امارة بلاد فارس وسلم اليه ولده جغري ليكون اتابكا له . (٢٧) وما ان استقر جاولي في منصبه الجديد حتى شرع في معالجة الامور في بلاد فارس ، وأعد العدة للتخلص من اعدائه الواحد تلو الآخر ، فبدأ باقوى هؤلاء وهو الأمير (بلدجي) (٢٨) . الذي كان يحكم عدد من القلاع مثل : كليل واصطخر وسرماه ، ووضع جاولي خطة لتنفيذ هذا الهدف ، فلجأ الى الحيلة وارسل الأمير بلدجي يطلب اليه الحضور لمقابلة جغري ولد السلطان محمد ، وكان جاولي قد اتفق مع جغري على ان يقول بالفارسية (خذوه) حين يدخل اليه الأمير بلدجي ، فيثب عليه الجند عندئذ ويقتلوه ، كما هي العادة عند السلاطين والملوك ، وقد تحقق ذلك فعلاً عندما دخل بلدجي فقتل ونهبت امواله (٢٩) ، وبهذه السهولة تخلص جاولي من كبار الامراء الذين كان يخش بأسهم كما تمكن من استعادة قلعة اصطخر التي كان استقل

---

(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٦

(٢٧) ابو الفدا ، المختصر ج ٢ ص ٢٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٥ص٤٣

(٢٨) كان بلدجي من كبار امراء السلطان السلجوقي ملكشاه

(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧

بها (الجهرمي) وزير بلدجي فأخذها جاولي وجعلها مركزا لحفظ امواله وخزائنه [٣٠] .

ويبدو أن نجاح جاولي في القضاء على بلدجي قد شجعه على مواصلة اتنهاج هذه السياسة مستغلا في ذلك وجود جغري معه ، فارسل الى الحسن بن المبارز أمير (نسا) المعروف بخسرو ودعاه لخدمة ولد السلطان . الا أن خسرو هذا فطن الى ما كان يرمي اليه جاولي وكشف نواياه ، فرفض الحضور وأرسل يقول : « انني عبد السلطان ، وفي طاعته فأما الحضور فلا سبيل اليه ، لأنني قد عرفت عادتك مع بلدجي وغيره ، ولكنني احمل الى السلطان ما يؤثره » [٣١] وأثار موقف حسرو هذا غضب جاولي وصمم القضاء عليه باية وسيلة قبل ان يستفحل امره ويفقد جاولي سيطرته على اقليم فارس ، فتظاهر بالرحيل لمواجهة السلطان الذي كان مقيما آنذاك ببغداد فحمل اثقاله على الدواب ، وعاد رسول خسرو يخبره برحيل جاولي فاطمأن خسرو وانصرف الى ملذاته « وقعد للشرب وأمن» ، فأسرع جاولي عندئذ بمهاجمته ، فتمكن خسرو من الهرب واللجوء الى احد الحصون القريبة ، فتقدم جاولي الى المدينة وتسلمها ونهب عددا من مدن فارس ثم عاد للقبض على خسرو فحصره مدة دون ان يظفر بشيء لحصانة موقعه وكثرة ذخائره ، مما دفع جاولي الى مراسلته في الصلح ليتفرغ لاخضاع باقي امراء الاطراف . فرحل الى شيراز حيث اقام بها هناك مدة توجه بعدها الى مدينة (كازرون) فنجح في دخولها وتحصن أميرها ابا سعد محمد بن مما بعلقها . فحصره مدة عامين ، اضطره بعدها الى طلب الأمان بعد ان نفذ ما عنده من المؤن والطعام وتسلم الحصن [٣٢] واقام أبا سعد

---

(٣٠) المصدر السابق ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧ ، ابن خلدون ، ج٥ ص ٤٤ ، ذكر ابن خلدون ان اسم الوزير الخيمي

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧

(٣٢) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٨ .

بصحبة جاولي حتى أساء الأخير معاملته فهرب الى شعب جبل ، الا انه لم يلبث أن وقع بيد جاولي وأمر بقتله .(٣٣)

وواصل جاولي سياسته باخضاع اقاليم فارس فزحف نحو مدينة (دارا بجرد) فهرب أميرها الى كرمان ، حيث التجأ الى صهره الملك ارسلان شاه ، ودعاه الى توحيد جهودهما لقتال جاولي وصده عن البلاد ، وحاول جاولي اقتحام (دارا بجرد) وكان عليه ان يجتاز مضيق (رننه) الذي تحميه قلعة منيعة على قمة جبل عال ، وقد درج أهل دارا بجرد التحصن به عند تعرضهم لأي هجوم خارجي ، فأقاموا به وحفظوا مدخله ، فلما رأى جاولي صعوبة اقتحامه عمد كعادته الى المكر والخديعة ،فتظاهر بالتراجع سالكا طريق كرمان ، ثم عاد الى (دارا بجرد) ليوهم اهلها انه جاء نجدة لهم من ملك كرمان ، فاذنوا له بالمرور عبر المضيق ، فانقض على اهل الحصن وقتل عددا كبيرا منهم . ثم عاد الى موقعه السابق استعدادا لمواجهة عساكر كرمان ، وقد ادرك جاولي انه بحاجة الى مساعدة عاجلة فراسل خسرو ودعاه للحضور على رأس عساكره لمهاجمة كرمان فحضر خسرو خوفا منه . وذكر ابن الاثير ان جاولي نجح في استمالة رسول ملك كرمان وجعله عينا له . وطلب اليه اقناع ملك كرمان بسحب قواته من موضع السيرجان حيث كانت تتمركز بقيادة الوزير ، فعاد الرسول واجتمع الى الوزير واوضح له أن جاولي لا يضمر السوء لكرمان الا انه استشعر من اجتماع العساكر بالسير جان والحكمة تقضي بالرحيل لاثبات حسن نيتنا تجاه جاولي،فاقتنع الوزير بذلك واصدر اوامره بالرحيل .(٣٤) فاتاح ذلك لجاولي تنفيذ مخططه وزحف نحو كرمان وهاجم مدينة (فرج) الواقعة على الحدود بين فارس وكرمان وشدد حصار، عليها ، فلما علم ملك كرمان بذلك تكشفت لديه نوايا جاولي وعذره ، فأمر باحضار الرسول

---

(٣٣) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٨ .

(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٩

وأنكر عليه اعادة العسكر ، فاعتذر اليه ، وكان مع الرسول فراش لجاولي ينقل اليه الاخبار ، فارتاب الوزير به وأمر بالقبض عليه وتعذيبه فاعترف على خيانة الرسول ، فأمر الوزير باعدامهما . واستعد لمواجهة جاولي .(٣٥)

وأشار أحد الامراء على الوزير الكرماني بترك الطريق المسلوكة والتقدم بالعسكر عن طريق آخر غير معروف ليضلل جاولي الذي كان آنذاك يحاصر مدينة (فرج) . فارسل الأخير احد أمرائه ليرقب الطريق ويرصد تحركات قوات ملك كرمان . فلم ير الأمير المذكور أثرا لأي عسكر لأنهم سلكوا طريقا آخر ، فعاد الى جاولي واخبره بعودة عساكر كرمان الى بلادها خوفا من لقائه ، فاطمأن وانصرف الى شرب الخمر (٣٦) .

ووصلت قوات كرمان ليلا وفاجأه جاولي بالهجوم وكان نائما فانهزم وتفرق عسكره بعد أن قتل وأسر عددا كبيرا منهم وذلك في شوال من سنة ٥٠٨ هـ ، ودخل جاولي مدينة (نسا) واتصل به المنهزمون من اصحابه بعد أن اطلق ملك كرمان من لديه من الأسرى . (٣٧)

ولم توقف هذه الهزيمة جاولي عن مواصلة الحرب ضد اعدائه . فشرع في الاستعداد من جديد لمهاجمة كرمان والأخذ بثأره . وبينما هو كذلك توفي الملك جغري بن السلطان محمد في ذي الحجة من سنة ٥٠٩ هـ « فضت ذلك في عضده » (٣٨) وافقده سندا شرعيا كان يستمد من قوته ونفوذه في بلاد فارس باعتباره اتابكا لولد السلطان السلجوقي ، وكانت وفاة جغري هذا قد شجعت امراء الاطراف على التخلص من حكم جاولي ، فارسل ملك كرمان رسولا الى السلطان محمد يطلب اليه منع جاولي عنه ،

---

(٣٥) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢٠.

(٣٦) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢٠ - ٥٢١

(٣٧) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١

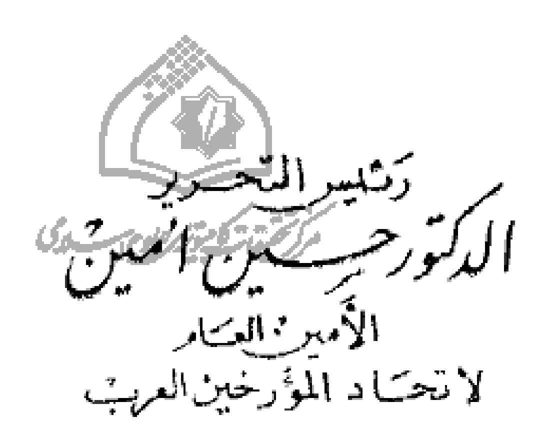
(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١

الا ان السلطان التزم جانب جاولي لئلا يطمع به صاحب كرمان وغـيره وتخرج البلاد من يده فاشترط على ملك كرمان ارضاء جاولي بتسليمه مدينة (فرج)، فعاد الرسول في ربيع الاول من عام ٥١٠ هـ . فتوفي جاولي بعد ايام قليلة وتنفس اعدائه الصعداء، واضطر السلطان محمد الى التوجه بنفسه الى بلاد فارس لمعالجة الموقف الذي نشأ عقب وفاة جاولي سقاوه والسيطرة على الامور هناك [٣٩].وانتهت بذلك حياة هذا الأمير السلجوقي المليئة بالمغامرة والطموح والسعي لفرض سيطرته على اوسع رقعة مـن البلاد، وكانت ظروف التي مرت بها دولة السلاجقة بعـد وفاة ملكشاه قد هيأت لهذا الأمير وامثاله العمل على الاستغلال في مناطق حكمهم بـل والتطاول على السلطنة السلجوقية ذاتها .



(٣٩) نفس المصدر، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١

مجلة المؤرخ العربي



رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

١٩٧٧

العدد ٤

طبع بمطبعة الجامعة ـ بغداد ـ هاتف ٨٨٨٨٥١٣



رقم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغــداد ٢١٢ لسنة ١٩٧٧

١٠٠٠/١

المحتـــــويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة :

بكل اعتزاز تقـدم للقارىء العربي مجلته « المؤرخ العربي » والتى صـار لهـا صـدى كبيرا في الاوسـاط الاكاديميـة بفعـل الخطـة التى انتهجتها في مسيرتها الموضوعية وعنايتها الكبيرة في اتباع الطريقـة العلميـة أساسـاً للبحث ونهجا في الكتابة التاريخيـة •

والامانة تعتذر للقراء الكرام عن تأخر هـذا العـدد وذلك بسبب احتجاز العـدد الثالث في بيروت بسبب الحوادث المؤسفة والذى لا نعلم عنه أى شيء برغم كل المحـاولات والجهود المبذولة لاخراجه الى حيز الوجود ، لذا فنحن بادرنا الى تهيئة هـذا المجلد الجـديد من مجلتكم ليعوض عن ذلك العـدد الذى نرجو ان نفلح في تقديمه اليكم في القريب العاجـل باذن الله •

ان الامانة العـامة لاتحـاد المؤرخين العرب ، تتقـدم بخالص شـكرها وعظيم تقـديرها الى كل الذين اسهموا في تحرير هـذا العـدد كمـا تتقـدم الى جميع الحكومات العربيـة التى سـاهمت في دعم الاتحاد واسناده ليكون عاملا مهما من عوامل البنـاء والتطور في المجالين القومي والعلمي •

ونسـأله تعـالى ان يوفقنا لمـا فيه خير العروبة وأزدهار تاريخها المجيد •

الدكتور حسين أمين
الامين العـام لاتحـاد المؤرخين العـرب


مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

نشأة الحركة التعليمية في العراق وأثرها

في نهضــة الآداب والعــلوم

الدكتور حسين امين
الامــين العــام
لاتحــاد المؤرخين العرب

العراق مهد الحضارة الانســانية في تاريخــه البعيــد ، وقــامت في ربوعه اقدم المنشــآت الحضــارية ، وحفل تاريخــه بأروع الصفحــات ، وساهم مســاهمه كبيرة في بناء المدنية التى نعيشــها اليوم ، والاثار الخالدة التى خلفها الانســان العراقي القديم تنطق بما وصلت اليه الحضارة العريقة من الرقي والتقدم ، فالسومريون والاكديون والبابليون والأشوريون عناوين ضخمة ومواضيع مهمة في سجل الحضارة الانســانية .

وكان للعراق نصيب وافر وكبير في تاريخ الامــة العربية الاسلامية ، فقد كــان نقطة انطلاق العرب الفاتحين الى المشرق ، كمــا اصبحت الكوفة عاصمة الخليفة الامام على بن ابى طالب الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين ، وكان للعراق اثر كبير في نقل تراث العروبة الى المشرق الاسلامى ، كما كانت للبصرة والكوفة التاثيرات الحضارية الكبيرة خاصة في الدراسات اللغوية وقــد ظهــرت تلك الدراســات لاول مــرة في كلتــا المدينتين العظيمتين الخــالدتين ، وما القواعد التى تعلمناها ودرسناها في مدارسنا وكلياتنــا الا قبس من جهود اثار اجدادنا الكوفيين والبصريين ، كما كــان العراق مركزا من مراكز المعارضة السياسية الشديدة ، وفي ربوعه ظهرت الفرق والجماعات السياسية والمذهبية ، فالشــيعة والخوارج والمعتزلــة والقرامطــة والزنج واخوان الصفا وغيرها من الفرق ، انطلق عنانها في عراقنا الخــالد وكان لتلك الفرق ومبادئها النتائج الخطيرة في تاريخنا السياسى والاجتماعى .

والعراق اصيل في عراقته الحضارية ، وقد أثبتت اثاره الشاخصة والتى ظهرت نتيجة التنقيبات الاثرية ان العراقيين لعبوا دورا مهما وخطيرا في نشر التعليم وازدهار العلوم ، وان العراقيين القدماء منذ فجر السلالات شيدوا المدارس ، وقد دلت التنقيبات على اثبات ذلك في مدينتى نفروسبار وغيرهما من المدن العراقية القديمة عدا المدارس الخاصة بالمعابد ، وكان الطلبة يتعلمون الخط اى الكتابة المسمارية ، وكان على الطالب العراقى القديم ان يتعلم اللغتين البابلية السامية وشؤون القانون ، وكان الطلاب يتعلمون تلك المعارف بأختصاصات معينة في معاهد خاصة ومؤسسات للبحث العالى كانت تعرف بالبابلية (بيت — مومى) مما يقابل معنى الاكاديمية ، كما كانت هناك بيوت الكتب اى المكتبات الكثيرة والتى أمدتنا بمعلومات قيمة عن اتجاهات العلم والتعليم في العراق القديم(١) فقد احاطتنا تلك المكتبات بما توصل اليه العراقيون القدماء من المعرفة الكبيرة للطب والفلك والعلوم الرياضية كافة والتاريخ والجغرافية والادب والفنون ، وقد نجحوا في تشييد حضارة مزدهرة معروفة وشهيرة في تاريخ الانسانية .

وفي القرن السادس الميلادى ظهرت المبادىء الاسلامية التى دعا اليها الرسول محمد (ص) ومنذ انبثاق الدعوة الاسلامية كان التعليم قرينا لها وكانت اولى الايات القرآنية تشير الى العلم وبعض ادواته ، قال تعالى : « اقرأ بأسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ومن الجدير بالذكر ان القرآن الكريم فيه ايات عديدة تدعو المسلمين الى طلب العلم وتحثهم على التعليم، قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات(٢)» كما كانت تلك الايات القرآنية الكريمة ترفع من قدر العلم وتعلى شأن

---

(١) راجع كتاب الاستاذ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة .

(٢) القرآن الكريم : سورة المجادلة : آية ١١ .

العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل واهله وكثيرا ما تقرنه بالعمى وتشبهه بالضلالة والظلمات الحالكة ، كما اعتبر القرآن الكريم ، التعليم من وظائف النبي (ص) ، قال تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم(٣)»

وما من شك ان التعليم من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانساني وهو في ابسط مظاهره ليس سوى تكييف الفرد مع ضروريات الحياة ولوازمها في بيئته ، واذا كان الاسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره فقد كان فهمه ودراسته امرا لابد منه لافراد الجماعة الاسلامية ، فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التى تهدف اليها الدعوة الاسلامية ، ومن الواضح ان الرسول (ص) كان يستهدف بناء امه جديدة وانشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمه في عصره فلابد من وجود طبقه متعلمة متنورة تتحمل عبء الدعوة ولها قوة الحجه والمقدرة على الاقناع بالطرق العلمية ، وتذكر المراجع التاريخية انه لم يكن بين العرب عدد كبير من الذين يتقنون القراءة والكتابة ، ويذكر القلقشندي : ان عدد الكاتبين من بين العرب عند بعث النبي (ص) لم يكن يزيد على بضعة عشر نفرا (٤) ، ولهذا كان من اهداف النبي (ص) العمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده •

وواكب المسجد الدعوة الاسلامية ولازمها ، كما كانت المعاهد الاولى للتعليم في صدر الاسلام ، كما اصبح المسجد المكان الطبيعي والملائم لتلقى العلوم ، روى عن مكحول انه قال : حدثنى عشرة من اصحاب رسول الله (ص) قالوا : كنا ندرس في مسجد قباء ، اذ خرج علينا رسول

---

(٣) القرآن الكريم : سورة البقرة : آية ١٢٩ •

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ١٥ •

الله (ص) فقال: تعلموا ما شئتم ان تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا(٥)• وفي حديث آخر للرسول (ص) : انه مر بمجلسين في مسجده فقال : كلاهما خير واحدهما افضل من صاحبه ، فأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه فأن شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم،ويعلمون الجاهل منهم افضل ، وانما بعث معلما ، قال : ثم جلس فيهم(٦) •

وانتشرت المساجد في جميع انحاء العالم الاسلامى وقامت بدورها ورسالتها الدينية والتهذيبية والتعليمية ، وبرز في العراق مسجد البصرة ومسجد الكوفة ثم جامع المنصور في بغداد وغيرها من المساجد التي شيدها المسلمون في مختلف العصور الاسلامية •

ولاشك فأن المسجد في صدر الاسلام كان هو المنتدى الوحيد في اى مدينة اسلامية فيه يلتقى العرب المسلمون الفاتحون بغيرهم من ابناء الشعوب المختلفة وهذا الالتقاء ادى الى ان يتعرف الفرس مثلا في العراق على الافكار الدينية الجديدة ويتلقفها باللغة العربية الفصحى كما يتعرف على تراثهم الفكرى وبخاصة التراث الادبى ، ونتيجة الاختلاط بين العرب والشعوب الاخرى بعد الفتوحات الاسلامية ، برزت مشاكل حضارية مختلفة اجتماعية واقتصادية وثقافية ، فتعرضت اللغة العربية السليمة للوثة العجمة ، كما ظهر بين العرب من لايحسن العربية ، كما تعرضت عقيدة البعض منهم لشىء من الشك ، فظهرت بعض الافكار والمبادىء تحمل لونا جديدا من التعليل والتسبيب ، فأدى هذا الى ظهور الدراسات اللغوية كالنحو مثلا ، وتشير الاخبار التاريخية ان الامام على ابن ابى طالب (ع) هو واضع علم النحو وان ابا الاسود الدؤلى اخذ ذلك العلم من الامام على (ع) ، ونحن نرجح ان الامام على (ع) املى ذلك العلم

---

(٥) الغزالي : قائمة العلوم ص ١٩ •

(٦) الكتاني الادريسي : التراتيب الادارية ج ٢ ص ١٩ •

على ابى الاسود في مسجد الكوفة ايام اقامته في تلك المدينة العريقة

وفي مسجد البصرة برزت فكرة المعتزلة اثر الجدل الحاصل بين الشيخ حسن البصرى وبعض من كان ملازما حلقته امثال واصل بن عطاء وعمر بن عبيد وانصارهما واللذين كونوا حلقة جديدة في مسجد البصرة كانت تنادى بأفكار واراء يعافها الحسن البصرى وانصاره ، ولاشك ان حركة المعتزلة الفكرية ، احدثت اثرا كبيرا في التفكير الاسلامى بخاصة وفي الفكر الانسانى بعامة لما اتت بـه من افكار واراء تستند الى العقل وتفسر الحوادث والظواهر والافعال الانسانية بالروح العلمية وبالاسلوب المنطقى المعتمد على قوة الحجة والاقناع ، وكان ذلك عاملا مهما في نشر الافكار الحرة وعملت على ازدهار الحركة العلمية في مطلع النصف الاول من القرن الثالث الهجرى .

وفي مسجد البصرة كان الشعراء والادباء يجتمعون ، وذكر الجاحظ انه ادرك بالبصرة رواة المسجديين المربديين ، واتخذ الخليل ابن احمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٤ هـ المسجد مقرا له ، ويعتبر الخليل اول من رسم علم اللغة واول من صنف فيه ، ويذكر ابن خلكان سبب موته ، انه دخل المسجد فصدمته سارية وكان يقطع بحرا من العروض(٧) . كما يعتبر الخليل اول من وضع علم العروض وفن المعاجم في العربية ، وقد عاش معظم حياته في البصرة متزهدا متعففا ومن اشهر طلابه سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ والذى يعتبر امام البصريين في النحو .

واشتهر مسجد الكوفة بأنه كان مدرسة لاقراء القرآن ففي هذا المسجد كان شيوخ الاقراء يجلسون فيلقنون طلاب العلم القراءات التى رووها بأسانيدهم . ومن اشهر قراء الكوفة عبدالله بن حبيب بن ربيعة الضرير ، وكان اول من جلس لاقراء القرآن الكريم في مسجد الكوفة ،

---

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٩ .

ولد في حياة النبي ولابيه صحبة واليه انتهت القراءة تجويداً وضبطا(٨) ، (اخذ القراءة عن علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود (رضي الله عنهم) ، وبرز في مسجد الكوفة ايضا قارىء كبير هو حمزة بن حبيب ابن عمارة الكوفي التميمي احد قراء القرآن الكريم السبعة ، واليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والاعمش وكان اماما حجة ثقة ثبتاً ، وتوفي حمزة بن حبيب سنة ١٥٦ هـ(٩)).

كما كان مسجد الكوفة مركزا من مراكز دراسة الفقه وازدهاره، ففي هذا المسجد ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبنى على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، كما ظهرت في مسجد الكوفة ايضا مدرسة لتفسير القرآن الكريم واشتهر من رجالها سعيد بن جبير المقتول سنة ٩٤ هـ ، وكان سعيد بن جبير عالما بالتفسير ، وعلي بن حمزة الكسائي الذي انتهت اليه رياسة الاقراء بعد حمزة بن حبيب وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسي ثم يتلو عليهم القرآن الكريم ويسمعون ويضبطون عنه(١٠) ، ويحيى بن زيد الفراء الذي عنى بدراسة القرآن وتفسيره ، ويعتبر الفراء من نحاة الكوفة وشيوخها في العربية ، قال ثعلب : لولا الفراء لما كانت اللغة لانه حصلها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية لانها كانت تتنازع(١١) . وذلك لان العربية تأثرت باللغات الاخرى وبذلك كادت أن تفقد خصائصها الاصيلة ، لذا ابدى امثال الفراء الى وضع قواعد الضبط في اللغة للحفاظ على تلك الخصائص كما نجحوا نجاحا بعيدا في جعل اللغة العربية سهلة المنال لمن يريد تعلمها وضبطها ، ومطاوعة لارادة الكتاب

---

(٨) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ٤١٣ .

(٩) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٣ .

(١٠) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٣ .

(١١) الانباري : نزهة الادباء : تحقيق الدكتور السامرائي ص ٦٥ .

للتعبير عن ارائهم وافكارهم ، اعنى بهذا انهم نجحوا فى جعل اللغة العربية متطورة وقادرة على مواكبة التطور الحضارى والمعايشة بين لغات الانسانية عـامة .

وهكذا اصبحت المساجد الاسلامية في العراق معاهد مهمة تشد اليها الرحال للدرس والتدريس ، وكان التدريس في جامع المنصور مثلا من المراكز المهمة فقد ذكر ياقوت : ان الكسائي كان يجلس في جامع المنصور ليقرأ اللغة وتتلمذ عليه الفراء وابن السعدان(١٢) ، كما كان يطمح العلماء في ان ينالوا منصبا تدريسيا فيه لمكانته العلمية ، ذكر الخطيب البغدادى : انه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل ان يحقق له ثلاث حاجات احداها ان يحقق له املاء الحديث بجامع المنصور(١٣) وفي المساجد العراقية صنفت الكثير من الكتب في مختلف مواضيع الادب والعلم ، ومن يتصفح الكتب المخطوطة المنتشرة فى انحاء العالم يجد اشارات واضحة بأن قسما كبيرا منها صنف في المساجد العراقية ، وكتب تاريخ التراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والادباء الذين اتخذوا من المساجد العراقية امكنة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف وفيها يقيمون ويعيشون ، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون اثارهم العلمية والادبية ، ومن اجل ان يحقق المسجد مطامع مريديه وتيسير عملهم العلمى فقد الحقت في كل مسجد مكتبة عامرة تضم عددا وفيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وقد تسابق الناس الى تزويد تلك المساجد بالكتب وان بعض المسلمين كان يوقف كتبه على المساجد ، طلبا للاجر او الحفاظ عليها من ان تبددها الايدى ، وهكذا صارت بعض المساجد اشبه بالاكاديميات

---

(١٢) ياقوت : معجم الادباء جـ ٤ ص ٢٤٣ .

(١٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٨ .

الثقافية ، وكان لهذا الاثر الكبير في نجاح الدرس والتدريس والبحث والتصنيف .

والى جانب المسجد كمعهد للتعليم كانت توجد اماكن اخرى لتعليم الاطفال ، وهى الكتاتيب ومفردها (كتاب) وفي الكتاب يتعلم الطفل القراءة والكتابة ومبادىء الدين الاسلامى وبعض المعلومات من الحساب والنحو وشيئا من اشعار العرب ، وتوجه العناية في الكتاب بشكل خاص الى تحفيظ الصبيان القرآن الكريم .

وكانت تعقد في قصور الخلفاء والامراء حلقات العلم وفيها يتناظر العلماء في اللغة والادب والشعر والفقه والحكمة والمنطق وعلم الكلام ، وكانت عناية خلفاء العباسيين واضحة واشهر من عقدت حلقات المناظرة فى قصره من خلفائهم هارون الرشيد الذى كان قصره كعبة العلماء والادباء وكان يحضر مجلسه ابو نواس وابو العتاهية ودعبل ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف وابراهيم الموصلى والاصمعى والكسائى والواقدى وغيرهم(١٤) ، فقد كان نفسه اديبا عالما ، قرب العلماء وشجعهم على البحث والمناظرة وقد اعتنق المأمون مذهب المعتزلة الذين اعتمدوا على الجدل وقوة الحجة ، ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد وانفصلت الاطراف وقامت بها دول مستقلة تتنافس سلاطين هذه الدول وامراؤها في اجتذاب اشهر العلماء والادباء الى مراكز حكمهم وقصورهم ، واصبحت القصور في العواصم المختلفة مراكز ثقافية خصبة (١٥) .

وظهرت في العراق دور العلم ، وهى كما نرى انها دور خاصة بالدرس والبحث ، ولعل من اشهرها بيت الحكمة ببغداد ودار العلم في الموصل

---

(14) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261.

(15) Khuda Bukhsh : Contribution to the history of Islamic Civilization. p. 184.

وبيت الحكمة اشبه ما تكون بأكاديمية مختصة بالدرس والبحث وترجمة نادر الكتب العلمية والادبية ، كما كانت تعقد فيها مجالس العلم للمناظرة من اجل التوصل الى حقائق العلم ، ومن مشاهير من اشتغل في بيت الحكمة ابو سهل الفضل بن نوبخت وكان قد عهد اليه بترجمة كتب الحكمة من الفارسية الى العربية(١٦) ، كذلك كان ابو جعفر محمد بن موسي الخوارزمي ملازما خزانة بيت الحكمة ، وقد اشتهر الخوارزمي بالعلوم الرياضية ، وصاحب الزيج المشهور بالسند هند وكتاب العمل بالاسطرلاب ، كما اشتهر بنو موسى بن شاكر وهم اخوة ثلاثة : محمد واحمد والحسن ، وكان هؤلاء من رواد بيت الحكمة فى العلوم الرياضية والفلك والفلسفة ، وقد اشتهر احمد بن موسي بن شاكر بكتابه الحيل واشتهر محمد بن موسى بكتابه (الجزء) كما اشتهر الحسن ن موسى بكتابة (الشكل المدور المستطيل)(١٧) .

وهناك اشارات في كتب التاريخ توضح ان عددا كبيرا من الادباء والعلماء من فى شتى الاختصاصات اجتمعوا في بيت الحكمة ببغداد ، وكانت نتاجاتهم كثيرة وعالية ساعدة على تطوير عملية البحث العلمى وتنشيطها ، ومن ثم ازدهار الاداب والعلوم ، ومما يجدر الاشارة اليه ان بيت الحكمة ببغداد كان يضم العلماء المسلمين والمسيحيين والمجوس ، وحتى من الشعوبيين المغالين في بغض العرب ، فكان علان الشعوبى واصله من بلاد فارس وهو ضليع بمعرفة الانساب ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وصنف كتاب الميدان في المثالب الذى هتك فيه العرب واظهر مثالبها ، ابتداء ببني هاشم قبيلة بعد قبيلة على الترتيب الى

---

(١٦) ابن النديم : الفهرست ٣٩٦ .

(١٧) الفهرست ، ص ٣٩٣ .

آخر قبائل اليمن على ترتيب كتاب ابن الكلبى(١٨) ، وهــذا ان دل انما يدل على انســانية العلم والتعليم في بغــداد حــاضرة الخــلافة العباسية ومركز الاشعاع الفكرى الانســانى في القرون الوســطى •

وفي الموصل شيد ابو القاسم جعفر بن حمدان دار علم كان لها شأن كبير في نشر العلم وازدهاره ، وابو القاسم من فقهاء الشــافعية اشــتهر في الاصول والحكمة والهندســة وقول الشعر ، وكان مجلســة في الموصــل عامرا بالادباء والشعراء والعلماء ، وداره التى انشأها كان ملتقى الاديــاء والعلماء الذين يتباحثون ويتناظرون في شؤون العلم والادب ، وكان جعفر ابن حمدان صــديقا للمبرد وثعلب(١٩) •

واسس ابو نصر ســابور بن اردشير وزير بهاءالدولة البويهى ، دار علم في الجانب الغربى من بغــداد ، وذكر ابن الاثير انها شيدت سنة ٣٨٣ هـ ووقف فيهــا كتبا كثيرة على المســلمين المنتفعين بهــا(٢٠) ، وكانت هــذه الدار مركز بحث ودراســة يفد اليها الادباء والعلماء والفلاسفة والحكمــاء ، ومن اشهر من قصدها الشــاعر الفيلسوف العربى ابو العلاء المعرى ، ولابى العلاء قصيدة مشهورة من بحر الطويل ، اشار فيها الى دار العلم تلك قوله :

وغنت لنا في دار سابور قينة من		الورق مطراب الاصائل مهياب

وكان ســابور من اكابر الوزراء واماثل الرؤســاء جمعت فيه الكتابة والدراســة ، وكان بابه محط الشــعراء ومجلسه ملتقى الادباء والعلماء•

وكانت لشيخ الامامية الكبير محمد بن محمد بن النعمــان المعروف بأبن المعلم والمشهور بالشــيخ المفيد ، دار بدرب رياح يحضرها اهــل العلم

---

(١٨) ياقوت : معجم الادبــاء جـ ٥ ص ٦٦ •

(١٩) المرجع السابق : جـ ٧ ، ص ١٤١ •

(٢٠) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ١٦٢ •

والمعرفة يتناظرون في علوم الفقه والكلام والجدل ، ومن اشـهر تلامذتـه الشريف المرتضى والشريف الرضى ، وبعد وفاة الشـيخ المفيد سـنة ٤١٣ اصبحت دار الشـريف المرتضى موئل الادباء والعلماء وكان الشريف المرتضى يدرس في علوم كثيرة ويجرى على تلامذته رزقا فكان للشـيخ ابى جعفر الطوسى ايام قراءته عليه كل شهر اثنى عشر دينارا وللقاضى ابن البراح كل شهر ثمانية دنانير وهكـذا •• وتوفي الشريف المرتضى لخمس بقين من شهر ربيع الاول سـنة ست وثلاثين واربعمائة للهجرة ، فأنتقل مجلس العلم الى دار ابى جعفر الطوسى ، وكانت داره بالكرخ مقصد الادباء والعلماء ، وكان الشيخ يناقش المواضيع العلمية ويناظر في الامور الكلامية ويوضح مبادىء الدين ، وقد امتاز بالنبوغ والذكاء وقوة الحجـة وزاد عـدد تلامذته على الثلاثمائة فى الشـيعة والسـنة ، ولشهرته ومكانته الرفيعة جعل له الخليفة العباسى القائم بأمر الله كرسى الكلام والافـادة تقديرا لعلميته واعترافـا بسمو مكانته •

هكذا كانت المظاهر الثقافية بارزة في العراق بعامة وبغداد بخـاصة وتجلت بوضوح النواحى العلمية التى برزتها وهذبتها وصقلتهـا حلقـات المسـاجد ومجالس العلم وانتشرت الكتب العديدة فى شتى مواضيع العلم والمعرفة ، وكان سوق الوراقين ببغداد من مراكز نشر الثقافة وملتقى العديد من الادباء والعلماء •

وفي سنة ٤٥٧ هـ شرع نظام الملك الوزير السلجوقي ببناء المدرسة المعروفة بالنظامية وتكامل بناؤها في العـاشر من ذي القعـدة سنة ٤٥٩ هـ ، وتعتبر المدرسة النظامية اول مدرسـة بوشر في بنائها ببغداد ، وقد اسست لتدريس الفقه الشـافعى ، وشرط الواقف ، ان يكون المدرس بهـا والواعظ ومتولى

(٢٢) ياقـوت : معجم الادبـاء ج ٥ ص ٤١٥ •
(٢٣) الاربلي : خلاصـة الذهب المسـبوك ص ٢١٢ •

الكتب من الشافعية اصـلا وفرعا(٢٢) ، وانتشرت المساجد في بغـداد مثل مدرسـة مشهد ابن حنيفة والمدرسة التاجية والبشيرية والتتشية وغيرها من المدارس والتى كانت في معظما تختص بتدريس مذهب واحـد .

وفي سـنة ٦٣٠ تكامل بناء المدرسة المستنصرية التى امر بأنشـائها الخليفة المستنصر العباسى ، ولهذه المدرسـة اهمية خاصة ، اذ المعروف ان المدارس السـابقة للمستنصرية كانت تشيد كل واحدة منها لدراسـة مذهب واحد بعينه ولكن هذه المدرسـة هى اول مدرسـة عرفها العالم الاسـلامى كله بنيت لتدريس المذاهب الاربعة ، وقد عاصرت هذه المدرسـة المدارس الاخرى التى انشئت في بغـداد والبصرة والموصـل وواسط .

كانت المدارس العراقية امكنة صالحة للعلم والتعليم وقد عنيت تلك المدارس في تدريس العلوم والاداب وتربية المواطنين تربية صالحة واعدادهم الاعداد الذى يليق والمجتمع الاسـلامى . وقد عنيت المدارس العراقيـة بالاختصاص فقد كان لكل موضوع مدرسـه المختص وكان هذا واضحـا كل الوضوح في المدرسـة النظامية والمستنصرية ، فعندما توفى ابو زكريا التبريزى استاذ الادب في النظامية ، اصبح على بن محمد الفصيحى صاحب ذلك الكرسى(٢٣) لاشتهاره بالادب ، هذا ونصت شروط المدرسة المستنصرية ان يكون لكل طائفة من المذاهب الاربعة مدرس واربعة معيدين ، وان يكون بالمدرسـة طبيب حاذق يشغل عشرة انفس يعلمهم الطب(٢٤) .

وكان مجال المناقشة مفتوحا امام الطـلاب ، وكانت للمناقشـة بين الاسـتاذ وطلابه اداب خاصة ، تكفل للاسـتاذ وقاره وهيبته ومكانتـه كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعليم ، ذلك ان طالب العلم لاينال العلم ولاينتفع به الا بتعظيم العلم واهله وتعظيم الاستاذ وتوقيره(٢٥) .

وكان الاستاذ هو الذي يضع برنامج التدريس وهو الذى يختار المـادة

---

(٢٤) الزرنوجي : تعليم المتعـلم طريق التـعلم ص ١٨ .

العلمية التى يلقيها على طلابه ، وكانت الدراسة حرة اى ان الطالب هو الذى يختار الاساتذة الذين يرغب فى مصاحبتهم وحضور دروسهم •

واتبعت المدارس العراقية في سلم درجات التدريس مرتبة المعيد ، ووظيفته ان يساعد المدرس او الشيخ ويوضح مايصعب على الطلبة من امور في مادة الدرس •

ان المدارس العراقية قامت بأداء رسالتها التعليمية ، وقدمت خدمات جليلة في نهضة العلوم الدينية ، التفسير والحديث والفقه والفرائض ، والعلوم الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاداب ، والعلوم الرياضية والعلوم العقلية كالمنطق وعلم الكلام والاصول والعلوم الطبيعية كالطب والصيدلة وعلم الحيوان ، واصبحت لتلك المدارس شخصية بارزة في عالم الثقافة وفي تربية النشيء واعدادهم لحياة افضل •

كما ان تلك المدارس كانت مركزا للتطور الفكرى فظهرت المؤلفات والتصانيف في شتى مواضيع الفكر والمعرفة ، مما ادى الى تطوير الاداب والعلوم وازدهارها ، وكانت تلك المدارس بحق مصادر الاشعاع الفكرى ومنبع الثقافة الانسانية في العصور الوسطى الاسلامية ، حيث انتشر طلابها ومدرسوها في انحاء العالم شرقا وغربا ونقلوا تراث بغداد والمدن العراقية الاخرى كما اصبحت تآليف اساتذة المدارس العراقية المعين الذى يغترف منه المتعلمون في جميع انحاء العالم ، كما اصبحت مدارس العراق مثلا يحتذى في نظام البناء وطريقة التدريس صورة الجهاز العلمى • كما كانت مكتبات تلك المدارس مراكز لالتقاء العلماء والادباء وامكنة للبحث والتأليف ، كل ذلك بلاشك ساعد على تطوير العلوم والاداب وعمل على ازدهارها خدمة للعلم والثقافة الانسانية •

وهكذا سارت جنبا الى جنب المساجد والكتاتيب ومجالس العلم الخاصة ودور العلم والمدارس التى انشأها الخلفاء والامراء والخاصة ، وصارت

الكتاتيب مثلا تمد المدارس بالطلبة كما اخذ طلبة النظامية او المستنصرية ارتياد مجالس العلم والمساجد للمشاركة في البحث والمناقشة التى تدور في تلك الامكنة ، ونلاحظ ان المدارس لم تقتصر مواضيعها على العلوم الدينية الصرفة بل صارت العلوم العقلية والطبيعية والرياضية تدرس فيها ، كما شمل المدارس نظام يحدد مواعيد الدروس وحياة الطلبة في المدرسة وتوحيد لباسهم ومنحهم الرواتب العينية والنقدية ، وهذا بلاشك عمل على ربط الطلبة وتوثيق صلاتهم بالمدرسة الاسلامية .

واصبحت المدارس الاسلامية والشهيرة منها بخاصة كالنظامية والمستنصرية امكنة يفد اليها الطلبة من انحاء العالم الاسلامى وهذا بلاشك ادى الى نشر التقاليد والانظمة والثقافة السائدة في المدارس العراقية بعامة والبغدادية بخاصة في بلدان العالم الاسلامى ، كما صارت تلك المدارس تمد جميع المدن الاسلامية بطبقة مثقفة بثقافة متطورة كانت عاملا مهما في تطوير الحياة الثقافية وازدهارها ، فتجددت الافكار وتنوعت الاراء في طريقة البحث والتأليف كما تنوعت المواضيع واصبح الناس يغرفون من مكتبات المساجد والمدارس ودور العلم ما يرغبون من مواضيع ادبية وعلمية .

ان نكبة بغداد في هجوم المغول عليها وانتشار الفوضى في الاقطار الاسلامية ادى الى ضياع الكثير من التراث العلمى الاسلامى كما ادى الى تقلص المدارس العلمية وكان هذا من مظاهر ركود حركة التطور الثقافي بعد عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م أى بعد سقوط مدينة بغداد وتحكم المغول في العراق.

التنافس بين بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط
بعد شق قناة السويس

د • محمد محمود السروجي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بكلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

أثارت حملة نابليون بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، واوائل القرن التاسع عشر اهتمام بريطانيا بما لهذه البلاد من اهمية خاصة بالنسبة للمصالح البريطانية في شرق البحر المتوسط ، لاسيما وان نابليون اثناء اقامته بمصر ، حاول اثارة القوى المحلية بالمشرق العربى ضد بريطانيا •

ولهذا فقد صممت بريطانيا بعد اخراج الفرنسيين من مصر على عدم السماح بوقوع مصر في يد اية دولة اجنبية قوية او قيام حكم محلى قوى يستطيع الحاق الضرر بالمصالح البريطانية في تلك المنطقة • ولقد نجحت في هذا ايما نجاح فمنعت كل الدول من الاقتراب من مصر ، كما قضت على قوة محمد على عندما تمكن من اقامة نظام حكم قوى مستقر في مصر لا يتفق والمصالح الانجليزية •

ونظرا لان بريطانيا كانت تدرك بان لفرنسا ذكريات قديمة لايمكن ان تنساها في البحر المتوسط ، ترجع الى ايام الحروب الصليبية ، ثم حصولها على معاهدة الامتيازات الشهيرة من الدولة العثمانية في عام ١٥٣٥ ، فقد راقبت تحركات فرنسا في هذا البحر بكل يقظة وحذر ، فلم يهنأ لها بال حينما انزلت فرنسا بقواتها في الشام في عام ١٨٦٠ اثر المذابح التى قامت في تلك البلاد بحجة حماية ارواح المسيحيين حتى سحبت فرنسا قواتها منها •

كما أنها عارضت ضم جزيرة كريت لمصر عقب ثورتها في عام ١٨٦٦

خشية ان يمتد نفوذ فرنسا اليها ، نظرا للتقارب الواضح بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت(١) .

ولما كانت بريطانيا حريصة على الا يتفوق نفوذ دولة على نفوذها في الدولة العثمانية(٢)، فقد انتهجت سياسة تقوم على مصادقة تلك الدولة وعدم تقسيم ممتلكاتها بين الدول الاوربية الطامعة .

فسياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية طوال الثلاثة الارباع الاولى للقرن التاسع عشر تمثل حجر الزاوية في سياسة بريطانيا الخارجية ازاء تلك الدولة . فمنع الروس من السيطرة على المضايق والوصول الى مياه البحر المتوسط الدفيئة تمثل الاستراتيجية البريطانية قبل شق قناة السويس(٣) .

بل ان آسيا الصغرى ـ وليست مصر ـ كانت تعتبر في نظر ساسة بريطانيا هي خط الدفاع الاول عن الطريق المؤدية الى الهند . ولذا فهم يرون ان احتلالهم لمصر اذا ما قسمت ممتلكات الدولة العثمانية ـ لايعادل احتلال الاستانة وسيطرة الروس على المضايق ، بل لاقيمة له(٤) .

وعندما نشبت حرب القرم في منتصف القرن الماضي ، ادرك الانجليز ـ رغم كونها حربا برية ـ اهمية القوة البحرية وقتذاك . اذ لولاها لما استطاعت بريطانيا نجدة الدولة العثمانية ، ولا المحافظة على ممتلكاتها .

واذا كان تفوق البحرية البريطانية على البحرية الفرنسية قد بدا واضحا خلال الحملة الفرنسية على مصر ، فانه قد تعرض للاهتزاز بعد ذلك ، فمنذ تسوية فينا عام ١٨١٥ اصيبت البحرية البريطانية بشيء من الاهمال ،

---

(١) السروجي : مصر والمسألة الشرقية ص ٣١ ، ١١٨ .

(2) Marlowe, Cromer in Egypt p. 8.

(٣) رتنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ص ٣٣٢ .

(4) Seaton - Datson ; Disraeli, Gladston and the Eastern

نتيجة لشعور بريطانيا بنشوة النصر على فرنسا من جهة ، ولاطمئنانها على مركزها البحرى من جهة اخرى ، ولاعتقادها بتضعضع قوة منافستها فرنسا من ناحية ثالثة •

استمر هذا الاهمال مايزيد عن الاربعين عاما ، الى ان تنبهت بريطانيا الى خطورة هذا الوضع في عام ١٨٥٩ عندما وجدت فرنسا في عهد نابليون الثالث تنشىء اسطولا جديدا من السفن الحربية المصنوعة من الحديد •

ولذا فقد عملت بريطانيا فيما بين عام ١٨٥٩ وعام افتتاح القناة ١٨٦٩ على اعادة انشاء بحريتها من جديد لمواجهة التهديد الخطير من قبل فرنسا•

كان هذا هو موقف الدولتين البحريتين بريطانيا وفرنسا قبل شق قناة السويس ، وهو موقف اتسم بالمنافسة بينهما ، نظرا لمحاولة كل منهما الاحتفاظ بقوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط ، وستزداد تلك المنافسة بعد انشاء القناة ، لازدياد اهمية الدور الذى يلعبه هذا البحر في مجالى السياسة والاقتصاد •

وقد صاحب انشاء القناة في النصف الثاني للقرن التاسع عشر تطور هائل في بناء السفن الحربية من حيث استخدام الحديد والصلب بدلاً من الخشب ، ومن حيث تزويدها بمدافع اكثر قوة ، وابعد مدى ، ومن حيث الخطط والتكتيكات الحربية •

هذا بالاضافة الى ظهور انواع جديدة من السفن الحربية ، مثل قوارب الطوربيد • بحيث يمكننا القول بأنه قد حدثت ثورة في فن بناء السفن ، جعلت من الاساطيل الحربية قوة خطيرة في الدفاع والهجوم •

ومن العوامل التى ساعدت على زيادة الاهتمام بالشئون البحرية انتماء كثيرين من رجال البحرية والجيش والسياسة الى المؤسسات الصناعية المتعلقة بصناعة السفن ، كصناعات الحديد والصلب ، واسهامهم في ادارة تلك المؤسسات • ويبدو هذا واضحا بصفة خاصة في بريطانيا • اذ نجد

في السنوات الاخيرة للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عددا من رجال البحرية يسهمون في شركة فيكرز **Vickers** وعددا آخر من رجال السياسة مثل سولسبرى ، وبرايس ، ودفنشر ، ولانزدون يسهمون في شركة ارمسترنج اكبر شركات صنع الاسلحة .

وليس تطوير السلاح البحرى الانجليزى بما يتلائم مع طبيعة العصر ، وتقدم الاختراعات الحديثة ، من المسائل الدفاعية فحسب ، بل هو — على حد تعبير فيشر اكبر رجال البحرية الانجليزية في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العشرين — مسألة حياة او موت بالنسبة لبريطانيا ، فهى كدولة تعتمد في حياتها وقوتها على التجارة ، ويمكن ان تموت جوعا ، اذا ما استطاعت دولة اوربية ان تنتزع منها السيادة البحرية . ومن ثم نشأ الاعتقاد في بريطانيا بأنه بالاسطول تستطيع بريطانيا ان تبقى او ان تسقط .

By the navy we must stand or fall.

ومن هنا جاء الاهتمام بالبحرية في بريطانيا ، فالبحرية في نظر البريطانيين القوة المدافعة الاولى عن الامبراطورية ، ويأتى الجيش في المرتبة الثانية ، ولكن لاغنى لاحدهما عن الاخر .

وهم يقولون بأن البحرية كالدرع الواقى واما الجيش فكالرمح الضارب .

The navy is the shield to guard, the army is the spear to strike,

والاهتمام بالبحرية لا يتطلب بناء السفن الجديدة المتطورة ، وتدريب رجال البحرية التدريب اللائق فحسب ، وانما يتطلب ايضا اعداد القواعد البحرية ، واعتناق مبدأ حرية البحار ، وهذان الامران لا تستطيع بريطانيا البت فيهما دون الدخول في منافسات مع الدول الاخرى .

استمرت حركة بناء وتجديد الاسطول البريطاني تجرى بهمة ونشاط الى مجيء وزارة جلاد ستون الاولى الى الحكم • فنظرا لاعتناقها سياسة ضغط النفقات العامة ، وخاصة في البحرية ، ان انكمشت تلك الحركة بشكل لم يقبله الرأى العام الانجليزى •

ويرجع السبب ــ على الارجح ــ في عدم اهتمام الوزارة الانجليزية كثيرا بقوة الاسطول انه على الرغم من تفوق اسطول فرنسا على اسطول بروسيا من ناحية القوة ونجاحه في محاصرة الشواطيء الالمانية في الحرب البروسية الفرنسية ، الا ان تفوق الجيش البروسى على الجيش الفرنسى اكسب بروسيا الحرب ••

على ان السبب الرئيسى لذلك هو سياسة العزلة وعدم التوسع التى انتهجتها تلك الوزارة •

وترتب على ذلك انه في سنة ١٨٦٩ ، سنة افتتاح القناة ، لم يكن نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط متفوقا تماما على نفوذ فرنسا ، فأسطول فرنسا في هذا البحر احدث ، وربما كان اقوى من الاسطول الانجليزى، ويتمتع بقاعدة طولون(٥) البحرية التى لايوجد لها نظير لدى بريطانيا في هذا البحر • فمالطة وجبل طارق لم تكن بحرية بمعنى الكلمة ، وان كانت بريطانيا قد ادركت خطورة موقع جزيرة مالطة بعد فتح قناة السويس ، فقامت بتوسيع مينائها لاستيعاب السفن المارة بالبحر المتوسط(٦) •

كذلك كان لدى فرنسا من القوات الكثيرة العدد في الجزائر ما يجعل اسمها محترما في شاطيء البحر المتوسط الجنوبى ، واصبح لاسمها دوى كبير في العالم بعد افتتاح قناة السويس • فالقناة مشروع قومى فرنسى وستكون نقطة ارتكاز للنفوذ الفرنسى في شرق هذا البحر •

---

(5) Marder ; British .... p. 145.

(6) Laferla. British Malta vol. 1, p. 240.

ولكن كان يحد من نفوذ فرنسا نمو قوة المانيا الحربية على الضفة الشرقية لنهر الراين وازدياد قلق فرنسا واضطرابها من اندحار قوات النمسا في موقعة سادوفا في سنة ١٨٦٦ امام قوات بروسيا ، ووقوف الروسيا موقف العطف على الآمال الالمانية • كل ذلك لم يجعل فرنسا في مركز يسمح لها بتحدى قوة بريطانيا في البحر المتوسط او اثارة شكوكها في ذلك الوقت • فبريطانيا حتى سنة ١٨٧٨ كانت مطمئنة على قوتها البحرية في هذا البحر ، خصوصا وان منافسة فرنسا لها قد ضعفت بعد كارثة سيدان سنة ١٨٧٠ • هذا فضلا عن اشغال فرنسا في اعادة بناء جيشها ، وقد استمر هذا العمل حتى سنة ١٨٨٠ •

توطد نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط(٧) بعامة ، وفي شرقيه بخاصة بعد نجاح دزريلى في شراء اسهم الخديو اسماعيل في قناة السويس في سنة ١٨٧٥ وحرمان فرنسا منها • ولقد ادركت الدول الاوروبية عظم الصفقة ، فاعتبرها ليوبولد ملك بلجيكا كاعظم حادث في السياسة الحديثة ، كما انها قد اثلجت صدر المستشار الالماني بسمرك لانها اضافت اذلالا جديدا لفرنسا نتج عن اذلال سيدان • وادرك دزريلى نفسه اهمية هذا العمل الذى قام لتدعيم المصالح البريطانية في مصر فكتب يقول للملكة فيكتوريا « ان الفرنسيين غلبوا على امرهم ، ولقد قدم دى لسبس عرضا للخديو ، ولو نجح لاصبحت القناة ملكا لفرنسا ، ولاغلقتها امام انجلترا»•

بل ان هذه الصفقة قد نالت اعجاب المعارضين للحكومة الانجليزية ، من امثال هارنجتن وهو من زعماء حزب الاحرار ، وعبر عن اعجابه هذا بقوله بأن حقوق سيادة الخديو على القناة قد انتقلت الى يد بريطانيا •

---

(7) Hallberg; The Suez Canal, Its history and diplomatic impoitance p. 249.

اثبتت هذه الصفقة ـ بما لايدع مجالاً للشك ـ ان بريطانيا قد هجرت نهائيا سياســة العزلة والسلبيــة التى انتهجها جلادستون في وزارته الاولى الســابقة على وزارة دزريلى ، واصبحت تؤمن بضرورة اتبــاع سياســة خارجية قوية ، ستؤدى في السنوات التى اعقبت ســنة ١٨٧٨ الى احتلال مصر ، والتصميم على البقاء فيها ، وتقسيم افريقية ، والاشراف على منــاطق كبيرة في آســيا .

لقد عرفت فرنســا بعظم الخســارة لضياع تلك الاسهم ، ولانتقالها الى يد منافستها بريطانيا ، وادركت المغزى الحقيقى مــن وراء اســتحواذ بريطانيا على هذه الأسهم ، وهو لايخرج عن احد امرين : التمهيد لاحتلال مصر ، او على الاقل التدخل في شئونها المالية لا سيما وان الامر الأول ينال تأييد وموافقة المستشار الالمــانى بسمرك .

اما بالنســبة لاثر هذه الصفقة على مصر ، فمما لاشك فيه انها كانت وبالا عليها ، فرغم ان القناة مصرية ، وتسير في ارض مصرية ، وانهــا قامت على تســخير العمال والفلاحين المصريين ، وهدار حقوقهم ، وحرمان الزراعة المصرية منهم مدة طويلة ، كل هــذا في مقابل لاشىء ، بل لقــد اصبحت القنــاة منذ ســنة ١٨٧٥ كارثة عليهــا ، وعلى مســتقبلها قرابة خمســة وســبعين عاما .

لقد جعلت القناة لمصر مركزا استراتيجيا خاصا(٨) في الشرق الادنى ، فجبل طارق ومالطة وقبرص ومصر هى القواعد البحرية الحصينة للاسطول البريطانى في البحر المتوسط من اجل السيادة والسيطرة على هــذا البحر ، وتعتبر مصر اهم حلقــة في هذه السلســلة من القواعد ، ومصــدر خطر شديد على الامبراطورية البريطانية اذا ما تعرضت لغزو خارجى .

---

(8) Silva, A. Arthur, The expansion of Egypt pp. 101-2.

كما ان هذا المركز الاستراتيجي لمصر اثار اهتمام الدول الامبرياليـة به الى حـد ان ضحت هذه الدول بمصالح مصر ونموها واسـتقلالها فى سبيل الاشراف عليه والتحكم فيه • وهذا الاهتمام من جانب بريطانيا والدول الاخرى بمركز مصر يشبه الى حـد ما اهتمام بريطانيا بالعراق لوقوعـه على رأس الخليج العربى وعلى الطريق المؤدية الى الهنـد وكانت توليه بريطانيا حتى سنة ١٨٨٠ اهمية اعظم من اهمية قناة السويس ، لان ديزريلى حتى ذلك التاريخ كان يرى ان اسـيا الصغرى هى التى تشرف على الطريق الى الهند لا مصر ، ولا قناة السويس ، ومن هنا جاءت اهمية العراق بالنسبة لبريطانيا •

وترتب على عـدم ادراك ديزريلى لعظم اهمية القناة في المواصلات العالمية حتى سـنة ١٨٨٠ ، انه لم يوجـه اهتماما كبيرا لعروض المستشـار الالماني بسمرك خلال الازمة الروسية التركية بأخذ مصر ، نظير سـيطرة الروس على شرقى البلقـان •

كما ان ديزريلى وزملاؤه الوزراء لم يصغوا لنوبار باشا حين ذهـب الى لنـدن يطلب بسط حماية بريطانية على مصر ، واهملوه الى حد قوله لمنستر سفير المانيا في لندن « بان الاسـد البريطانى مستغرق في نومـه ، وان اظفاره ستسرق منه دون ان يستيقظ » •

ورغم ان حكومة المحافظين في بريطانيا كانت تدرك اهميـة مصـر لبريطانيا ، وبأنها سـتحتلها في يوم ما قرب ام بعـد ، الا انها خشـيت في ذلك الوقت ان تفقد صداقة فرنسـا اذا ما اقدمت على احتلالها ، لاسيما وانها كانت في عزلة سياسية تحتم عليها المحافظة على هذه الصداقة •

وبمجيء سولسبرى الى وزارة الخارجية الانجليزية خلفا لدربى في وزارة المحافظين ان بدأ تغير جوهرى في السياسة الخارجية الانجليزية بأزاء الدولة العثمانية ، فقد غادر نهائيا السياسة التقليدية الرامية الى المحـافظة على كيـان تلك الدولة ، واتجه الى الاخـذ بوجهة نظر بسمرك • ولكنـه

اسـتعاض عن احتلال مصـر وقناة السويس بأحتـلال جزيرة قبرص التى تشرف على آسيا الصغرى ومدخل القناة معـا(٩) •

ولا يهمنا هنا الدخول في تفاصيل المسألة الشرقيه ، واضطراب العلاقات بين تركيا وروسـيا الى حـد اعلان الحرب ، الا بقدر ما تثيره من تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وهل سيتم هذا دون حرب ام بحرب ، وهـل سـتدخل بريطانيا الحرب ضد روسيا دفاعا عن مصالحها في منطقة الشـرق الادنى ••

على اى حال حاولت بريطانيا في التسوية التى تمت في برلين سـنة ١٨٧٨ الا تمس الموقف كثيرا في البحر المتوسط ، ووقفت بريطانيا وفرنسا امام تقدم الروسـيا الى هذا البحر ، ولكن كان هـذا على حسـاب ازدياد ضعف الدولة العثمانيـة •

وخارج قاعات المجلس اثناء انعقاد مؤتمر برلين تمت مقابـلات بين سولسبرى وزير خارجية بريطانيا ، ووادنجتون وزير خـارجية فرنسـا ، والمستشار الالمانى بسمرك • وكان وادنجتون قـد غضب حين علم بنبـأ الاتفاقية التى فرضتها بريطانيا على السلطان العثمانى وانتزاعها جزيرة قبرص، وسيطرتها بالتالى على شرق البحر المتوسط وقناة السويس • وقد اسـتبد بالوزير الفرنسى الغضب الى حـد اعتزامه مغادرة برلين وعدم الاشتراك في المؤتمر •

كان بسمرك وسولسبرى على استعداد لاسترضاء وزير الخـارجية الفرنسية ، وعلى استعداد ايضا للمسـاومة طالما كان في ذلك تحقيق وجهـة النظر الالمانية في تقسـيم ممتلكات الدولة العثمانية والتى كانت تجد تأييدا من وزير الخارجية الانجليزى وقتذاك • فأبديا عدم اعتراضهما على مايفعله

---

(9) Stamp, Dudley, A commercial geography, pp, 245-6.

الفرنسيون بتونس في مقابل قبول الوضع الجديد في شرق البحر المتوسط. وكان هذا كافيا من وجهة نظر الوزير الفرنسى لاعادة التوازن الذى اختل بسيطرة البريطانيين على قبرص . وهذا يدلنا على مدى اهتمام فرنسا بمركزها في هذا البحر(١٠) . ولذا في ربيع سنة ١٨٨١ فرض الفرنسيون حمايتهم بالقوة على تونس ، واصبحوا من هذا الموقع الاستراتيجى الجديد يشطرون البحر المتوسط الى شطرين . ولادراك بريطانيا لهذه الحقيقة بعد فوات الاوان حاولت ان تقلل من خطر الوجود الفرنسى في تونس على المصالح البريطانية في هذا البحر الى حد ما ، وذلك عن طريق اخذ وعد من الفرنسيين بالا ينشئوا قاعدة حربية بحرية في هذا المكان . ومع ذلك فقد شعرت بأن هذا الوعد لن يكون له قيمة كبيرة ، ومن ثم فقد صممت على ألا تقع مصر ألا في يدها وحدها تعويضا لها عن صفقة تونس .

حقيقة حين تأزمت الامور في مصر فى سنة ١٨٨٢ طلبت بريطانيا من فرنسا وايطاليا الاشتراك معها في احتلال قناة السويس ، وفي اخماد الثورة ولكن جلادستون رئيس الوزارة البريطانية كان واثقا تماما من تقاعس الدولتين ، فالبرلمان الفرنسى لن يسمح لحكومته بأن تدخل في مغامرة عسكرية ولم يمر اكثر من عام على احتلالها تونس . أما من ناحية ايطاليا فأن حكومتها ما كانت تستطيع التحرك دون ان تتلقى اشارة من برلين ، ولم تكن برلين راغبة في التدخل ، فعروض جلادستون اذن كانت عروض مجاملة .

وحين استدعى تحرج الامور في مصر اجتماع مؤتمر الاستانة لمناقشة الموقف ، رأت بريطانيا الا يصبح المؤتمر عائقا دون تحقيق ماتسعى اليه ألا وهو احتلال مصر ، فاشتركت في جلساته ومناقشاته ولكنها قررت عدم

---

(10) Renouvin, P., La politique d' expansion imperialiste, p. 11.

التقيد بما يسفر عنها من قرارات لا تتفق مع المصالح الانجليزية • فاهتمامها كان مركزا على مصر فى المقام الاول • فراقبت تحركات المصريين واعتبرت تحصين بلادهم عملا عدائيا موجها للسفن الحربية الانجليزية الراسية في الميناء ، وضربت الاسكندرية واحتلتها • وقد حاولت بريطانيا ان تصور هذا العمل على انه خدمة للمصالح الاوربية ، فحينما وجد سفير بريطانيا في روما اغسطس باجت شيئا من الضيق والقلق يجتاح ايطاليا اعلن « بأنه يجب على دول اوربا ان تشكر هذه الظروف ، وان تحمد الحكومة الانجليزية على اتخاذ خطوات من شأنها رفعة مركز اوربا في الشرق الادنى » •

كان حل المسألة المصرية كما فهمته بريطانيا هو في احتلال قناة السويس، واتخاذها قاعدة لتحركاتها العسكرية في زحفها نحو العاصمة • ولم تعر بريطانيا احتجاجات شركة القناة ادنى اهتمام ، بل وانذرت الحكومة الفرنسية حينما وجدت بعض العراقيل من جانب دى لسبس •

وبنجاح الغزو البريطانى لمصر استطاعت بريطانيا ان تعيد التوازن الدولى في البحر المتوسط وكذلك الاشراف على قناة السويس • وحتى عام ١٨٨٤ كان النفوذ البريطانى متفوقا في البحر المتوسط ، ولكن كان يثير قلق بريطانيا نمو الاسطول الفرنسى بسرعة كبيرة • هذا فضلا عن احتمال انضمام دولة بحرية اخرى مثل المانيا الى جانب فرنسا • ولو تم ذلك لاصبح موقف بريطانيا جد خطير ، لان قوة الدولتين البحرية تفوق قوة بريطانيا في هذا البحر •

لم تنظر بريطانيا بعين الارتياح الى نمو قوة دول اوربا البحرية مثل الروسيا وايطاليا والمانيا ، وخصوصا الدولة الاخيرة التى اتخذت من تقوية بحريتها سياسة مقررة بعد ان عزمت على الدخول في مضمار الاستعمار • فهذه الدول مجتمعة تستطيع ان تهدد مصالح بريطانيا في البحر المتوسط بعامة ، وفي مصر بخاصة • وهذا هو سر تسليم بريطانيا بمطالب المانيا

وفرنسا الاستعمارية ، وتسوية المسألة المالية في مصر بطريقة ترضى فرنسا ، بل الاستجابة لمطلب فرنسا بتحديد مركز قناة السويس في معاهدة دولية •

ونظرا لاستمرار توتر العلاقات بين بريطانيا وفرنسا بشأن مصر من ناحية ، وبين بريطانيا والمانيا بشأن المسائل الاستعمارية من ناحية اخرى ان زاد الخطر على بريطانيا ، وطالب الرأى العام البريطانى حكومته بضرورة زيادة الاعتمادات البحرية اللازمة لايجاد اسطول بحرى كبير • خصوصا وان تقارير رجال البحرية الانجليزية اوضحت بأن الاسطول البريطانى في البحر المتوسط غير مستعد وغير كاف لمواجهة اى خطر مفاجيء من جانب فرنسا • وزاد الموقف خطورة مطالبة الرأى العام الفرنسى حكومته بضرورة عقد تحالف مع روسيا •

وحتى سنة ١٨٨٨ ظل اسطول فرنسا في البحر المتوسط متفوقا على الاسطول الانجليزى ، واصبحت طولون اعظم ترسانة ، واقوى قاعدة للعمليات البحرية في هذا البحر • كما كان الاسطول الفرنسى على اهبة الاستعداد دائما للحرب •

ولم تكن قوة الاسطول الفرنسى تفزع بريطانيا وحدها ، بل كانت تخيف ايطاليا ايضا ، اذ كان الايطاليون يعتقدون بأن اسطولهم لن يستطيع الصمود امام الاسطول الفرنسى اكثر من ثمانية واربعين ساعة •

ولقد صاحب اهتمام الانجليز بتقوية بحريتهم زيادة اهتمامهم بالبحر المتوسط ، فمصالح بريطانيا ليست استراتيجية فحسب ، وانما اقتصادية وسياسيا كذلك ، فعبر قناة السويس تمر ١٦٪ من واردات بريطانيا و٢١٪ من صادراتها ، وفقدان هذه التجارة او تعطيلها خسارة كبيرة • ثم هناك مسألة على جانب عظيم من الاهمية، الا وهى سلامة المواصلات الامبراطورية البريطانية ، وممتلكات بريطانيا في البحر المتوسط ، في جبل طارق ومالطة ،

بالاضافة الى احتلالها لقبرص ومصر ، ومصالحها التى تدعيها في قناة السويس• وأصبح البحر المتوسط الطريق الرئيسية التجارية لبريطانيا ، وكلما مرت الايام تكشفت بريطانيا ازدياد اهميته ، فالحرب الصينية اليابانية (١٨٩٤ـ ١٨٩٥) وجهت الاهتمام الى الصين كأهم اسواق المستقبل ، وبالتالى توجه الاهتمام الى الطريق المؤدية اليها ، الا وهى طريق البحر المتوسط •

كذلك ادركت بريطانيا ان بالقوة البحرية في ذلك البحر تستطيع اقناع دول التحالف الثلاثي ، ولاسيما ايطاليا بالوقوف الى جانبها ، فبالقوة البحرية يمكن لبريطانيا ان تنال احترام الدول المطلة على البحر المتوسط ، بأستثناء فرنسا بطبيعة الحال • كما ان بريطانيا كانت ترى في قوة بحريتها في ذلك البحر خير ضمان لعدم قيام حرب اوربية في غير صالحها•

ومن الناحية الاستراتيجية ، فوجود الاسطول البريطاني يجب ان يكون حيث يوجد العدو لبريطانيا • وليس هناك عدو لها سوى فرنسا في الدرجة الاولى وروسيا في الدرجة الثانية • وحيث ان فرنسا تحتفظ بمعظم قواتها البحرية في البحر المتوسط ، فوجود اسطول بريطاني قوى فى مواجهتها امر ضرورى • كما ان نجاح بريطانيا في اقتحام البحر الاسود في حرب القرم يذكر روسيا دائما بقوة بريطانيا كدولة بحرية عظمى •

ثم هناك ماهو اسمى من المصالح الاقتصادية والسياسية ، الا وهى هيبة بريطانيا وسمعتها اللتين اكتسبتهما منذ مائتى عام ، لابد من المحافظة عليهما ، مهما كلفها ذلك من تضحيات • واعتبرت بريطانيا ان العمل على اضعاف قوتها البحرية او اخراجها من هذا البحر بمثابة « القاء عود ثقاب مشتعل في برميل بارود اوربا »(١١) •

وفي الجانب الاخر نرى نمو مركز فرنسا في البحر المتوسط يسير

(11) Marder, British naval policy (1880-1905) p. 145.

مطردا ، ففرنســا لها مصالح مهمة في هذا البحر بعد استيلائها على الجزائر ونمو نفوذها في ســوريا وبعد فرض حمايتها على تونس ، وبعد انشــائها لامبراطوريتها الاستعمارية الشرقية في مدغشقر والهند الصينيــة • بل ان روستان قنصل فرنسا في تونس كان يعتبر البحر المتوسط بحيرة فرنسية(١٢)•

فمصالح فرنســا الامبراطورية الاستعمارية والتنازع مع بريطانيــا بشأن الجلاء عن مصر ، وتأزم العلاقات بينها وبين ايطاليا ، كل هذه العوامل جعلت فرنســا تركز نشاطها حول تدعيم قوتها في البحر المتوسط ، وتركز معظم ســفنها الحربية الكبرى في قاعدة طولون ، وخصوصا بعد ان اطمأنت الى تحديد مركز قناة السويس في معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ •

وفي مواجهة هذا الاجراء من جانب فرنسا قررت الادميرالية البريطانية ان ينضم اسـطول القنال الانجليزى الى الاســطول الانجليزى في البحر المتوســط لتعزيزه وقت الخطر • ولكنهما مع ذلك لم تصل قوتهما حتى عام ١٨٩١ مســاوية لقوة الاسطول الفرنســي في ميناء طولون •

ولما وجدت بريطانيا ألا قبل لها على مجــاراة فرنســا في قوة بحريتها في هذا البحر ، تركت سياســة التفوق البحرى الى حين • ولم يكن ذلــك لقصور مادى او فنى ، ولكن لعدم وجود قواعد بحرية كبيرة صالحة لرسو الاعداد الكبيرة من السفن مثل ما لدى فرنســا ، فجبل طارق ليس فيهــا المرفأ المناســب ، ولاتحتمل عتادا حربيا كبيرا ، ولا وقودا كافيا ،وهي فوق هذا وذاك مهددة في تأمينه الى حــد كبير على صداقة اسبانيا لبريطانيا •

ولذا وجدت بريطانيا اخيرا ان من الخير لاسطولها الا يلتجىء لجبل طارق في حــالة حرب مع فرنســا اذ يستطيع اســطول طولون المتفوق ان يكسر شوكته ، بل عليه ان يغادر البحر المتوســط طلبا للنجاة • ولكن تنفيذ

---

(12) Safwat, M., Tunis and the Crest Powers. P. 111.

هذا القرار محفوف بالمخاطر ، اذ انهروبه سيهبط بأسم بريطانيا ، ولايحفظ مالها من مركز كبير في العــالم •

ثم هناك مشــكلة بنزرت (بيزرته) وهو ميناء يشرف على جزئى البحر المتوسط : الشرقى والغربى ، ويتســع لاكثر من اسطول ، ويصلــح قاعدة هائلة للعمليات الحربية البحرية • ولكن فرنســا حتى سنة ١٨٩٠ لم يكن لها قاعدة بحرية واحدة في شــمال افريقية ، لانها قد التزمت حتى ذلك الوقت بالوعد الذى قطعته على نفسها لبريطانيا بعدم انشاء قاعدة بحريــة في هــذا الميناء الكبير ، لان انشــاء مثل تلك القاعدة سيقلب ميزان القوى البحرية في البحر المتوسط لصالح فرنسا ، وتهديد لايطاليا في نفس الوقت •

وخطورة اقامة تلك القاعدة في بنزرت كبيرة على المواصلات البريطانية والتجارة البريطانية عبر البحر المتوسط • وان كان البعض يرى في انشــاء تلك القاعدة تقسيم لقوى الاسطول الفرنسى بينهــا وبين طولون •

وفي منتصف عام ١٨٩٥ افتتحت قاعدة بنزرت ــ لاكقاعدة حربيــة كبيرة ــ ولكن كرد فعل من جانب فرنســا على افتتاح قناة كيل • وهنــا بدأت تتحقق مخاوف بريطانيا بأن وعد فرنســا لم يكن الا من قبيل التمويه• وازداد اضطراب بريطانيا عندما علمت بنبأ زيادة قوة الاسطول الروسى في البحر الاسود ، وما ينطوى عليــه هــذا العمل من تهــديد للاستانة ، وما سيلقيه هذا التهديد من اعباء جديــدة على الاســطول الانجليزى في البحر المتوسط • لاسيما وان احتمال اجتماع الاسطولين الفرنسى والروسى ضد الاسطول الانجليزى امر محتمل الوقوع ، بعد ان اصبح التحالف الفرنسى الروسى حقيقة غير خافية على بريطانيا •

ولذلك كتبت صحيفة التميز اللندنية في سنة ١٨٩٣ تصف الموقف في البحر المتوسط تقول :

British supremacy in the Mediterranean was already an affair of the past; her t ade route to Egypt and India through the Suez - Canal was entirely indepenent on the good will of the French whose Mediterranean fleet could wipe out or drive into port the English Mediterranean fleet. Toulon suggested the possibility even the probabil'ty of a Franco-Russian naval coalition againsh England, a combination whose overwhelming superiority and strategic location could only result in a decisive British defeat.

طالب الرأى العام البريطانى بالحاح شديد بزيادة الاعتمادات المخصصة للبحرية لمواجهة هذا الموقف ، وقد وافق اعضاء وزارة جلادستون على ذلك ، الا جلادستون نفسه الذى انسحب من الوزارة ومن الحياة السياسية كلية.

لقد شغلت مسألة مرور السفن التجارية الانجليزية في البحر المتوسط في حالة حدوث حرب مع فرنسا اذهان الساسة الانجليز ، فوجود الجزائر، واوران ، وبنزرت ، ومراكز قوارب الطوربيد في يد فرنسا يجعل هذا الامر في غاية الخطورة . وخيل لهؤلاء الساسة ان الفرنسيين قد يتمكنون من اغلاق القناة . واذا ماتم ذلك فليس امام الانجليز الا ترك هذه الطريق كلية .

وقد زادت هموم الانجليزى في سنة ١٨٩٥ على وجه الخصوص ، فقد عانت من ازمات عديدة في اماكن مختلفة من العالم ، بعضها يتعلق بالدولة العثمانية ، وهذا ما يعنينا في هذا البحث ، والاخر يختص بفنزويلا وبأفريقية الجنوبية .

ففيما يتعلق بالدولة العثمانية ، فقد استطاع الروس السيطرة سيطرة تامة على البحر الاسود . ومدوا نشاطهم الى الشرق الاقصى حيث عقدوا مع الصين معاهدة تنازلت لهم بمقتضاها عن ميناء بورت آرثر لاتخاذه كقاعدة بحرية تشرف على مدخل بكين . وكان ذلك يمثل خطرا هائلا على المصالح البريطانية .

اما في جنوب افريقيا فكانت المانيا تعطف على مطالب البورز وتؤيد استقلالهم ، وفكرت هي وفرنسا وروسيا في التدخل لصالح البورز ضد بريطانيا • واما ايطاليا التي كانت بريطانيا تعتمد على صداقتها ـ رغم عدم ثقتها في كفاية رجال البحرية الايطالية ـ فان فشلها في موقعة عدوة امام الاحباش جعل الاعتماد عليها امرا غير محسوب •

ولذا كان على بريطانيا ـ امام كل تلك الصعاب ، ويأتي على رأسها عزلتها السياسية التي تكاد تكون تامة ـ ألا تعتمد الا على نفسها ، لا المحالفات • وقد نفذت هذه الفكرة الجديدة في برنامج سنة ١٨٩٧/٦ البحري الذي سيعطي لبريطانيا مستوى أقوى قوتين بحريتين •

Two Powers-standard

كانت اعتمادات البحرية الانجليزية حاسمه في تقرير مصير البحر المتوسط ، فلقد فصلت في مصير مصر بعد ان تحرجت الأمور بين بريطانيا وفرنسا الى ان بلغت ذروتها في فاشودة •

كان اللقاء بين كتشنر ومارشيان في فاشودة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ نهاية المناقشة الحامية بين بريطانيا وفرنسا طوال ثلاثين عاما تقريبا ، وحين رفضت بريطانيا المفاوضة في أول الأمر ، وتحرجت الامور بين الدولتين وضعت الحكومة الفرنسية اسطول طولون على اهبة الاستعداد • وكان الرأي العام الانجليزي متحمسا للحرب ، لأنه كان موقنا بعد التعزيزات البريطانية الأخيرة ، من احراز نصر على فرنسا يضاهي نصرهم في الطرف الأغر ، ففي البحر المتوسط ، الميدان الحربي الاول ، لدى بريطانيا ٤٥٠ر٢٣٩ طن من حمولة السفن الحربية ، بينما لم يكن لدى الفرنسيين سوى ٠٨٥ر١٧٠ •

بدأت بريطانيا تركز أسطولها في المناطق الحساسة ، فراقبت حركات الاسطول الفرنسي ، وأرسلت اسطول القنال الانجليزي الى قرب جبل طارق ،

وأسطول البحر المتوسط الى جزيرة كورفو للمحافظة على مصر والقناة ، وأسطول الشرق الأقصي الى هنج كنج •

ومما زاد من حرج مركز فرنسا ، ومن أولا لها ان حليفتها روسيا رفضت تقديم اية مساعدة ، ولم تكن ـ في الواقع ـ تستطيع تقديم اية مساعدة ، فاسطول البحر البلطى جامد في موانيه المتجمدة ، وأسطول البحر المتوسط لم يكن على أهبة الاستعداد للحرب • هذا في نفس الوقت الذى لم يكن لروسيا مصلحة في ان تزج بنفسها في حرب مع بريطانيا من أجل مطامع استعمارية فرنسية •

وقد عزمت بريطانيا على ضرب موانى فرنسا ، وعلى اخراج الاسطول الفرنسي الى عرض البحر ليصلى نار حرب حامية ، وأدرك الفرنسيين خطورة موقفهم ، فاتخذوا موقف الدفاع دون الهجوم ، خصوصا وأن الحالة الداخلية في فرنسا كانت توشك على الانفجار نتيجة القضية دريفوس •

اما من ناحية الحكومة البريطانية ، فكان عدد من اعضائها مثل جوشن وتشمبرلين ودفنشر يرون انتهاز هذه الفرصة للتخلص نهائيا من فرنسا كمنافس عنيد ، ولكن هذا الفريق لم يجد تأييدا كافيا ، خصوصا بعد ان اعلنت فرنسا بانها ستنسحب من فاشودة • وبذلك تنتهى الأزمة •

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ تصل الدولتان الى اتفاق يتعلق بالسودان ، وفيه اعترفت فرنسا باتفاقية السودان المشهورة بين مصر وبريطانيا • وكان الفاصل في ازمة فاشودة ، بل وفي أمر العلاقات الفرنسية الانجليزية في البحر المتوسط هو القوة البحرية ، وحق للانجليز ان يقولوا :

Whatever may have been the pressing consideration which prompted the French to maintain so humiliating a diplomatic defeat, there was no doubt in the minde of the English people that the obvious superiority of the royal navy, in numbers, efficiency and readiness had been the sole factor in saving the country from a great war.

بعد انتهاء الأزمة البريطانية الفرنسية ، حاولت فرنسا التحول نحو دول التحالف الثلاثي ، فعلا اخذت تتقرب من المانيا ، ولكن مسألة الالزاس واللورين كانت عائقا دون اقامة تفاهم بين الدولتين لمدة طويلة • كذلك حاولت فرنسا تحسين علاقاتها بايطاليا ، وحثت ايطاليا على زيادة قواتها البحرية حتى تستطيع الدولتان السيطرة على البحر المتوسط ، ولكن ايطاليا لم تكن مستعدة بالتضحية بعلاقاتها الودية ببريطانيا من اجل فرنسا •

كانت ازمة فاشودة درسا قاسيا وعته فرنسا بعمق ، وعرفت مدى اثر القوة البحرية ، وادركت في نفس الوقت انها لا تستطيع ان تجارى بريطانيا في حركة بناء السفن ، وخاصة الكبيرة منها ، وبالتالى ايقنت بأن المنافسة مع بريطانيا يجب ان تهدأ ، وان تنتهى الى غير رجعة • وبانتهاء الخطر الفرنسي على بريطانيا ومصر ، استقرت الأمور في البحر المتوسط الى حين •

وحل محل التنافس الفرنسي بالنسبة لبريطانيا التنافس الألمانى ، فاذا حدث واستطاعت المانيا التفاهم مع فرنسا لنال بريطانيا الخسران المبين وخاصة اذا مالت الروسيا الى مثل ذلك التفاهم • ولذا اسرعت بريطانيا في منطقة الشرق الأقصي • كما عملت في نفس الوقت على اصلاح ذات البين مع فرنسا كي تطمئن على سلامة مرور تجارتها امام الشاطىء الافريقى •

ورأت بريطانيا ان خير حل يمكن الوصول اليه لتسوية مشاكلها مع فرنسا ان تتنازل لها عن حقوق لا تملكها في مراكش في مقابل تنازل فرنسا

لها عن حقوق تملكها في مصر بمقتضي الاحتلال • وكانت فرنسا مستعدة لقبول مبدأ التعويض • وبالفعل قامت المفاوضات في لندن بين لورد لانزدون وزير الخارجية البريطانية وبين كامبون سفير فرنسا في انجلترا وكانت فرنسا مترددة في اول الأمر لادراكها بأن بريطانيا ستتنازل لها عن حقوق لا تملكها في مقابل حقوق تمتلكها امتلاكا حقيقيا • ولكنها ادركت اخيرا بأن حقوق فرنسافيمصر مهما كانت أحقيتها فيها فقد تلاشت وعفى عليها الزمن، وأن من الأفضل لها ان تتطلع الى اكتساب حقوق جديدة في بلاد أخرى على البحر المتوسط نفسه •

وطالت المفاوضات بسبب رفض الفرنسيين التسليم ببقاء الانجليز في مصر لأجل غير محدود ، وبتمسك الانجليز بان تتنازل فرنسا عن مطالبة بريطانيا بالجلاء عن مصر • وحسم الموقف بتوقيع الاتفاق الودى بين الدولتين في ربيع سنة ١٩٠٤ ، وفيها تركت فرنسا لبريطانيا حرية التصرف في مصر ، وتركت بريطانيا لفرنسا حرية التصرف في مراكش •

وبهذه الاتفاقية اطمأنت بريطانيا الى مركزها في مصر ، والى تفوقها البحرى في البحر المتوسط ، وتقرر آن تكون الاسكندرية اهم قاعدة في البحر المتوسط للأسطول البريطانى •

وهنا يجدر بى — قبل ان اختتم هذا البحث — بآن اذكر ان هذه الاتفاقية وآن كانت قد وضعت حدا فاصلا للمعارضة الأوربية للاحتلال البريطانى لمصر ، الا انها لم تغير من مركز مصر السياسي ، ففرنسا لا تستطيع ان تعطى ما ليس حقا لها ، ثم ان بريطانيا نفسها وافقت على عدم تغيير مركز مصر ، فهى لم تضم مصر اليها ، بل لقد اعترفت بأن كل مالها في مصر هو حماية فعلية مستورة مؤقتة • ولكن الاتفاقية لم تلق اليأس في قلوب المصريين ، فلم يعترف المصريون بالموقف الجديد ، وازدادوا ايمانا بحقوقهم واستمساكا بقضيتهم وقضية الاستقلال •

مراجـــع البحث :

ـ العربيـــة :

بطرس بطرس غالى (دكتور) : قناة السويس ومشـكلاتها (١٨٥٤ ـ ١٩٥٧) القـاهرة ـ الجمعيـة المصرية للقانون الدولي ١٩٥٨ •

راشـد البراوى (دكتور) : مجموعة الوثائق السياسية ـ المركز الدولي لمصر والسـودان وقنـاة السويس • القاهرة ـ مكتبة النهضة ـ الجزء الاول ١٩٥٢ •

رينوفـان ، بييـــر : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـ ١٩١٤ • ترجمة د • جـلال يحيى ـ القـاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٨ •

عبد العزيز الشناوى (دكتور) : قنـاة السويس والتيـارات السياسية الدولية التى احاطت بانشائها • القاهرة ـ معهد البحوث والدراسـات التاريخيـة والجغرافية • الجزء الاول ١٩٧١ •

عبد الله رشوان (دكتور) : المركز الدولي لقنـاة السويس ونظائهـا • القاهرة ـ مطبعة حجازى ١٩٥٠ •

محمد محمود السروجى (دكتور) : مصر والمسـألة الشرقية في النصف الثـانى من القـرن التاسـع عشر ـ الاسكندرية ١٩٦٦ •

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتـلال الانجليزى لمصـر وموقف الـدول الكبرى ازاءه ، الاسـكندرية ١٩٥٢ •

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقنــاة الســويس ١٨٥٤ ـ ١٩٥٦ ، الاسكندرية ١٩٥٦ ٠

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البــلاد العربيــة ، معهد الدراســات العربيــة العالية ، القاهرة ١٩٥٦ ٠ ٨

الأجنبيـــة :

- Arthur, Silva White The expansion of Egypt under the Anglo-Egyptian condominium. London 1899.
- Hollberg, C.W.. The Suez Canal. Its history and diplomatic importance. N.Y. 1931.
- Hoskings, H.L., British routes to India. London 1928.
- Laferla, A.V., British Malta. Vol. 1 Malta, 1938.
- Marder, A.J., British Naval Policy (1880-1905) U.S.A. 1940.
- Marlowe, J., Anglo-Egyptian relations (1880-1953) London 1954.
- Renovin. Pierre. La Politique depension imperialiste. Paris. 1939.
- Safwat, M.M., Tunis and great Powers (1878-1881). Alex 1943.
- Seaton-Watson, Disraeli, Gladston and the Eastern Question, Londno, 1935.
- Stamp, Dudly. A commercial geography. London, 1937.

ندوة

احياء ذكرى الرازي
جامعة عين شمس ـ القاهرة
١٥ ـ ١ نوفمبر ١٩٧٦

الرازي
في
مراسلات البيروني وابن سيناء

الدكتور صالح الحمارنه
قسم التاريخ والآثار
الجامعة الاردنية ـ عمان

لم تثر شخصية كبيرة في الحضـارة العربيـة الاسـلاميه من خصـام واختـلاف مثلمـا أثارت شخصية الرازي ويعـود ذلك الى الرازى نفسـه وما يتحلى به من شجاعـة في الرأى وأصـالة في التفكير وابتكـار في الطب وتعمق في شتى علوم عصره هـذا اولا ، وثانيـاً يعود ذلك الى الفترة نفسها ففي بغـداد عاصمة الخلفاء وتحت رعايتهم قامت حركة علمية مباركة للترجمة والتـآليف والتوزيع لا نظير لها في تاريـخ العصور الوسطي قاطبة ، وقـد أضـاءت هـذه الشعلة ليس في انحـاء العـراق وبلدان شـرقي الخـلافة فحسب بل في طول وعرض الامبراطورية العربيـة ، من بغداد ومرو وبخارى وري وغزنه الى دمشق والقـاهرة والقيروان وفاس وقرطبة .

ففي دار السـلام قامت حركـة الترجمـة وفيها انشيء اول المستشفيات في الاسـلام وفيهـا نشـأ أو اليها تقاطر العلماء والاطباء والحكماء . وعلى رأسهم فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكنـدى العـالم الكبير في شتى الفنون وكان من أسـاطين هـذه النهضة خاصـة في الترجمـة وعلوم الطب حنين بن اسـحق العبـادى (٨٠٩ ــ ٨٧٣) الـذى أسس مدرسـة كبيرة في الترجمـة والنقـل .

وما ان قارب القرن التاسـع على نهايتـه واهـل القرن العـاشر حتى سطع في سماء ري ثم بغـداد نجم الرازى (٨٦٥ ــ ٩٣٢) بانتاجـه الكبير والاصيل في علم الطب السريرى والكيميـاء والطب الروحـاني والمـداواة النفسية والفلسفة الاجتماعيـة فكانت تآليف الرازى الكثيرة سببا في نضوج وأكتمال ما نقدر بحق ان ندعوه الطب العربي المتميز حينئذ بخصائصـه الفنية واصطلاحاته ومناهجـه التعليمية والتطبيقية وقـد صـهر في بوتقتـه علوم الاغريق الطبيـة مع الثقافات المحلية والتجـارب الشرقيـة مكونا منها مادة

جـديدة(١) ٠

ففي هـذا الجو العلمي المزدهر وهـذه النهضـة الثقافية الكبيرة قامت في بغـداد وفي غيرها من عواصم الامصـار تيارات كثيرة متباينة ومتضاربة وأزدهرت مختلف المدارس في شتى العلوم والفنون تـذهب شتى الاتجاهات وكثرت معها ايضـا الخصومات والانتقادات ، وكان نصيب الرازى من هـذا كله وفير وخصب ٠

فقد انتقد الرازى آراء معاصره سهيل البلخي هـذا الفيلسوف المتطرف اذ نقض الرازى كتـاب البلخي في اللـذة وكتـابه الآخـر في نقض العـلم الالهي والمعـاد(٢) ٠

ثم وقعت المناظرات الشهيرة ما بين الرازى وبين ابي حاتم الرازى المتوفي (٣٢٢ هـ) الذى كان من كبار دعاة الاسماعيلية واشتهر بدعوته الى المذهب الفاطمي وقـد ردّ ابو حاتم هـذا على الرازى في كتـابه المعروف « بأعلام النبوة » ٠ كذلك نقض عـلى بن اليمان أو (ابن التمـار) كتـاب الرازى « الطب الروحاني » وانتقد الكتاب نفسه حميد الدين الكرماني(٣) ٠

أما ابرز الانتقادات للرازى فكانت ضمن المراسـلات التى قامت ما بين الاستاذ ابو الريحان محمد بن احمد البيروني / ٣٢٦ ـ ٤٣٢ هـ / ٩٧٢ ـ ١٠٥١ م / ومعاصره الطبيب الفيلسوف ابو على الحسين بن عبد الله بن سيناء الشيخ الرئيس / ٩٧٢ ـ ١٠٣٨ م / ٠ هـذه المراسـلات التى دارت حول أمور مختصـة بالفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة والفلك والرياضيات والطب

---

(١) سامي حمارنه : تـاريخ الطب والصيدلة عند العـرب ، القـاهرة ، مطبـعة دار التجليد الفنية ١٩٦٧ ، ص ١٩ ـ ٢٠ ٠

(٢) سامي حمارنه : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، دمشق ١٩٦٩ ، ص٨١ ٠

(٣) الرازي : رسائل فلسفية جمعها وحققها ب كراوس ، القـاهرة ٠ص١٥ ـ ١٧ وص ٢٩٠ وما بعدهـا ٠

وغيرها(٤) . ففي هـذه « الاسئلة والأجوبة » هاجم كـل منهمـا الرازى الطبيب وانتقد أرائه ، بل نرى ان ابن سيناء يحقر الرازى ويشهر به بشـكل يثير الغرابة والدهشـة ، فهو يستكثر على الرازى تدخلـه في أمور الفلسفة لأن العمل فيها مرتبة أعلى لم يصـل اليها الرازى ويتساءل لم لا يبذل الرازى جهده في فحص أبوال مرضـاه والنظر الى برازهم لتشخيص عللهم وتركيب الـدواء النـافع لهم فهو يقول عنـه : ـ « محمد بن زكريا الرازى المتكلف الفضول في شروعـه من الالهيات وتجـاوز قـدره في بطّ الجراح والنظر في الأبوال والبرازات ـ لا جـرم فضـح نفسـه وأبـدى جهلـه فيمـا حاوله ورامـه (٥) » .

ويرد أبو ريحـان البيروني في مكـان آخـر « في المسـألة الرابعـة » يقول : هـذا جواب محمـد بن زكريـا فمتى صـار مأخوذا برأيـه وهو مكلّف فضولي(٦) .

ولا مجال للشك ان مثل هذا النقد القاسي والمرّ لا يقلل البته من مكانة الرازى الكبيرة وفضله المشهور في الطب العربي والثقافة الاسلامية في القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب . نحن نعلم من مطالعتنـا لكتـاب « الاسئلة والأجوبة » وغيره ان البيروني يختلف عن الشيخ الرئيس ، فالرجـلان لهما اتجاهات متباينة فكريا وعلميا وحتى خلقيـا .. ومع هـذا اتفقا على انتقـاد الرازى واتهماه بأنه متكلف فضولي ترى ما وراء ذلك ؟ .

معروف ان البيروني قـد كتب رسـالة « في فهرست كتب محمد زكريا

(٤) ابو ريحـان البيروني وابن سـيناء ، الاسئلة والاجـوبه ، تحقيق سـيد حسـين نصر ومهدي محقق .

(٥) ابو ريحـان البيروني ، طهران ١٣٩٣ ـ ١٩٧٢ ن.م ص ١٣ .

(٦) ابو ريحـان البيروني ، ن . م . ص ٥٣ .

الرازى » وأعتنى بنشرها وتصحيحها بـ كراوس(٧) ثـم مهـدى محقق من طهران وقـد كتبها البيروني بناء على طلب بل والحـاح من صـديق له وكان ذلك سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وعمر البيروني آنذاك ٦٥ سنة قمرية / ٦٣ سنة شمسية • ويقول البيروني مخاطبا صديقه في مطلع الرسـالة « انك تشوقت الى الاحاطة بزمان محمد بن زكريا الرازى على كمية كتبه التى عملها وأسمائها لتتطرق بذلك الى طلبها ، وأن ما تحقق لديك من ذكاء قريحته وذكاء فطنته وبلوغه من الصناعة أقصى مداها ، شوقك الى معرفة أول من ابتـدأ بالطب واستنبطه وهذا وان كان بحثا خيريا فأنك لم تأت بالنزاع نحوه شيئا فريًّا(٨)•

ويظهر ان البيروني كان مترددا كثيرا بقبول ما طلبـه الصـديق فأعتذر في البدء وقال انه ليس بكفء لمثـل هـذا الأمر الجلل ولكنه بالتـالي يذعن لطلب الصـديق ويقول « وأثبت لك من كتب أبي بكر ما شاهدته أو عثرت على اسمه ••• ولولا احترامي لك لما فعلته لمـا فيه من اكتساب البغضاء من مخالفيـه وظنهم أنى من شيعته » ، اذن يذعن البيروني وهو يحس بالحرج ذلك « ان الرازى عمل على الارشـاد الى كتب ماني واصحابه « كيادا للاديان والاسـلام من بينها » ويقول البيروني « ويوجـد مصـداق قولي في آخر كتابه في النبؤات(٩) وفي نهـاية الرسـالة نحس ان البيروني يعود متئـدا في حكمـه على الرازى اذ يختم قوله مؤيـدا اياه : « ولست اعتقـد فيـه مخادعة بل انخداعا » ••• وجره الحـال الى الاشتغال بالطب ••• وبلـغ من الصناعة مبلغـا عاليا واحتاج اليـه كبار الملوك واستحضروه مبجلا » • ويصف لنا البيروني طريقة الرازى في الدرس والتحصيل فيقول « كان ـ دائم

---

(٧) البيروني : فهرست كتب محمد بن زكريـا الراوي ، تحقيق ب كراوس ، باريز مطبعـة الـقلم سـنة ١٩٣٦ •

(٨) البيروني : ن • م • ص ١ ـ ٣ •

(٩) البيروني : ن • م ص ٥ •

الدرس شديدا ... » يضع سراجه في مشكاة على حائط يواجهه مسندا كتابه اليه كيما اذا غلبه النعاس سقط الكتاب من يده فأيقظته ليعود الى ما هو فيه(١٠) وفي النهاية يذكر لنا كتب الرازي وهو يقسمها حسب ما جاء في تحقيق كراوس الى : كتب في الطب ، وفي الطبيعيات وفي المنطقيات وفي الرياضيات والنجوميات وفي التفاسير والتلاخيص والاختصارات ، وفلسفية وتخمينية وفي ما فوق الطبيعة والالهيات والكيميائيات ، والكفريات وفنون شتى ، حتى يصل الرقم الى ١٨٢ كتاب . في حين ان ابن أبي اصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » يصل عدد كتب الرازي عنده الى ٢٣٢ كتابا(١١) .

لم يقتصر نقد البيروني للرازي على النواحي الفلسفية والمذهبية بل هناك له نقدا آخر ، فحسب انه مصيب فيه وهو في الأمور الهندسية وما يتعلق بأنقسام الخط المنحني وما شاكل فنقرأ في رسالة البيروني « في استخراج الاوتار الدائرة لخواص الخط المنحني الواقع فيها ما يلي » وقفت على ما استعلمتينيه من السبب الداعي أياي الى الولوع بتصحيح دعوى لقدماء اليونانيين في أنقسام الخط المنحني في كل قوس بالعمود النازل عليه من منتصفها والتنفير عن خواصه حتى نسبتني لأجله الى الاشتغال بما يذكره محمد بن زكريا الرازي من فضول الهندسة من غير ان يشعر بحقيقة الفضول التى هي الزيادة على الكفاية في كل شيء فأنه لو شعر بها لوجد نفسه مرتبكة في فضول الوسوسة التى أفسد بها قلوبا متجافية عن الديانة أو شرهة بفضول الدنيا الى العتاد والرياسة وليس مقدار الكفاية من الهندسة ما ظنه الرازي وأشار بفلسفته اليه ، ثم عادى باقية

---

(١٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ص ٤١٤ ــ ٤٢٧ .

(١١) البيروني ابو ريحان : رسالة في استخراج اوتار الدائرة ، حيدر آباد الركن ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٨م ص٣ .

ولم يزل الناس اعداء ما جهلوا(١٢) •

في انتقـاد البيروني للرازى يجب ان نلاحظ الأمور الجوهرية التاليـة ، منها ان كثيرا من كتب الرازى قـد فقدت وبهذا سقط من يدنا الدليل المادى القاطـع لكي نحكم فيما يذهب اليـه خصوم الرازى أو مريدوه وايضـا لا شـك انه قـد نسب الى الرازى كتب أو رسـائل لم يكتبهـا وليس هو بمؤلفهـا • وهـذا الأمر كان كثير الشيوع في تلك الفترة ، حتى ان البيروني نفسـه قـد نسبت اليـه كتب لم يؤلفها •

فهو يقول صراحة « ان ما عددته من كتبي مما عملته في حداثتي وازدادت المعرفة بعـد ذلك لم أطرحه ولم استرذله فانها جميعاً أبنائي والأكثر بأبنه ••• مفتون ، ومما عملـه غيرى باسمي فهو بمنزلة الربائب في الحجور والقـلائد على النحور لا أميزبينها وبين الابناء »(١٣) •

اذن فان الهجوم القاسي والمركز على الرازى من البيروني وأبن سيناء ومن سبقهما ، كان من أسبابه على ما يبـدو كتب نسبت الى الرازى وحملت اسمه ولم تكن من بنـات أفكاره وبقلمه • فقصد نسبوا اليـه مثـلا كتـابا أظهر فيـه عيوب الانبياء ألفه بعض الدساسين على الرازى ويحمل الكتـاب اسم « مخـاريق الانبياء » ويقول عن هـذا الكتـاب ابن أبي اصيبعه : وهـذا الكتـاب ان كان قـد ألف ــ والله اعلم ــ فربما ان بعض الاشرار المعـادين للرازى قـد ألفـه ونسـبه اليـه ليسيء من يرى ذلك الكتـاب أو يسمع به الظنّ بالرازى ، والا فالرازى أجـل من ان يحـاول هـذا الأمر • وان يصنف في هـذا المعنى وحتى ان بعض من يـذم الرازى بل ويكفره كعلي بن رضوان المصرى وغيره يسمون ذلك الكتـاب « كتاب الرازى في مخاريق

(١٢) البيروني : فهرست كتب الرازي ص ٤٣ •

(١٣) ابن ابي اصيبعه : طبقات الاطبـاء ص ٤٢٦ •

الانبيـاء »(١٤) ٠

الأمر الـذى يثير الاستغراب ان الاستاذ البيروني عـالم عصره الكبير والذى كان من دعاة التفتح والانطلاق يضيق بتفتح الرازى وانطلاقه خاصـة اشتغاله بالفلسفة والرازى عاش في القـرن التاسـع ميـلادى الـذى معـه دخلت الى علوم الطب النظريات الرياضية والطبيعية والمنطقية ايضـا ٠ وصار يوجب على الطبيب معرفـة الفلسفة كمـا كان يجب عليـه الألمـام بطبائع الاغذية والاطعمة والادوية وأمزجة الجسـم وكان الطبيب اخا للمنجم وعلى الطبيب ان يتخرج على أيدى علماء الكيمياء(١٥) ٠

اذن كان لابـد للرازى وهو أشهر اطبـاء عصره ان لا يلم بكـل هـذه العلوم فحسب بل ان يكون استاذا فيها ٠ ومن هنا فقد اشتهر الرازى كأكبر الاطبـاء الفلاسفة الذين اتبعوا الفلسفة الطبيعية في الاسـلام ٠ وقـد اخذ العـرب عناصر فلسفتهم الطبيعيـة ــ كما يقول بور من مؤلفات أوقليدس وبطليموس وبقراط وجالينوس ومن بعض كتب ارسطوو أخذوها الى جـانب هـذا من كتب كثيرة ترجع الى المذهبين الفيثاغورى الجـديد والافلاطونى الجـديد وهـذه الفلسفة الطبيعية هي فلسفة الجمهور ٠ وقـد نالت قبولا لدى الشيعة ولـدى غيرهم من الفرق وأكبر من عمـل عـلى نشرها بينهم صـائبة حرّان(١٦) ٠

فقـد أشـار المسعودى في كتـابه التنبيه والاشراف الى ان الرازى كان يؤلف عـلى رأى الفيثاغوريين في الفلسفة الاولى وتحت تأثير الافلاطونيـة

---

(١٤) ت دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، تعريب محمد عبد الهـادي ابو ريـده القـاهرة ٠ مطبعة لجنـة التاليف والنشر ١٩٣٨ ص ٨٨ ٠

(١٥) بور : ن ٠ م ص ٨٥ ــ ٨٨ ٠

(١٦) المسعودي : التنبيـه والاشراف ص ١٠٦ ، بغداد ، مكتبـة المثنـى ١٩٣٨ ٠ سامي حمارنه : فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية «الطب والصيدلة» دمشـق ــ مطبـعة الترقي ١٩٦٩ ص ٩١ ٠

الجـديدة وتعاليمهـا في سـنة (٩٢٣) • سبق في هـذه الاراء والطـرق أبو زكريا ابن عدى النصرانى وأشهر فلاسفة بغـداد في عصره(١٧) •

والرازى وهو الضليع بالثقافة اليونانية يقف موقف الناقد لنواحي فيها فهـو يخـالف أصحاب ارسطو بقوله ان الجسـم يحـوى في ذاتـه مبـدأ الحركة ــ وذكر ابن أبى أصيبعه كتابا للرازى في هـذا المعنى وفكرة الرازى هـذه فكرة جـديدة تعـارض الفلسفة القديمه الموروثة وهي تشبه ما ذهب اليـه ليبنتز في القرن السـابع عشر وحسب رأى دى بور لو ان الرازى وجد من يؤمن به ويتم بناءه لكان نظرية مثمرة في العلم الطبيعي(١٨) •

كذلك فقد شك الرازى في كتابات جالينوس وارائه في التشريع والمداواة ، مع تقديره لنبوغه ومركزه العلمي ، وقـد أوضـح ذلك في كتابه الشـكوك والمتناقضات ، التى في كتب جالينوس ، وهـذا ما حـدا ببعض الاطباء الذين كانوا يجلون كلا الطبيبين ان يحاولوا التوحيد بين وجهتي نظرهما كمـا فعل عبد الله بن يوسف البغـدادى في كتابه حـل شيء من شـكوك الرازى على كتب جالينوس(١٩) •

ونستطيع القول ان البيروني الـذى خالف الرازى بل انتقـده بشـدة في الالهيـات والمسـائل الفلسفية نـراه هو نفسـه من المعجبين بالـرازى والمتأثرين به فيما كتب في العلوم الأخرى مثـل الكيمياء والطب ، وما اضافة البيروني لكتبه هو نفسـه ضمن فهرست كتب الرازى الذى أعـده الا دليلا ماديا قويا على انه يعتبر نفسـه تلميذا روحيـا لطبيب المسلمين غير مرافـع

---

(١٧) دي بـور : تـاريخ الفلسـفة ص ٩١ •

(١٨) سـامي حمارنه : فهرست مخطوطات الظاهرية ص ٩١ •

(١٩)

Martin plessner, The legaey of islam Ed. J. schaehtand c. Bos worth second Edition oxford Lg 74. P. 434-438.

الرازي العظيم(٢٠) •

اما بالنسبة للشـيخ الرئيس ابن سيناء فالدكتور سـامي حمارنه يقول « وقـد اتضح لي من دراسـة التآليف الطبية وغيرها لكلا الرجلين انه وان كان ابن سيناء يفوق الرازي ذكاء ودراية بأصول المنطق والفلسفة والالهيـات وما وراء الطبيعة فالرازي يفوقه بكثير كطبيب وكعالم كيماوي بالاضـافة الى ما يملكه من حريـة الرأي ولا سيما في توجيهـاته الاجتماعيـة التقدميـة الرفيعـة »(٢١) •



---

(٢٠) سـامي حمارنه : فهرست مخطوطات الظاهرية ، دمشق ، ص ١٢٥ •

المراجـــــع :

ابن أبي أصيبعـه ، عيون الانباء في طبقـات الاطبـاء ، تحقيق نزار رضا بيروت ١٩٦٥ .

ادوارد جي براون ، الطب العربي ، تعريب داود سلمان على بغداد ، مطبعة العاني ١٩٦٤ .

ت ج ، دى بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام،تعريب محمد عبد الهادى أبو ريده ، القـاهرة ـ مطبعـة التأليف والترجمـة والنشر القـاهرة ١٩٣٨ .

البيروني أبو ريحان محمد بن أحمد ، رسالة في فهرست كتب الرازي تحقيق وتصحيح ب كراوس ، باريز . مطبعة القـلم ١٩٣٦ .

الأثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق ادوارد سخاو بغداد ـ مكتبة المثنى .

ــــــــــ وابن سيناء ، الاسئلة والاجوبـة ، تحقيق سيد حسين نصر ومهدى محقق ، طهـران ١٩٧٢ .

ــــــــــ ، رسالة في استخراج الاوتار في الدائرة حيدر رآباد الركن ـ مطبعة جمعيـة دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٨ .

سـامي خلف حمارنـه ، أبو الفرج ابن القف ، القـاهرة ـ مطبعة اطلس ١٩٧٤ .

سامي خلف حمارنه	، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية « الطب والصيدلة » ، دمشق الترقي ١٩٦٩ .
سامي خلف حمارنه	، تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، القاهرة مطبعة دار التجليد الفنى ١٩٦٧ .
الرازى أبو بكر محمد بن زكريا	، رسائل فلسفية ضمنها ـ كتاب الطب الروماني ـ والمناظرات بين أبي حاتم الرازى وأبي بكر الرازى جمعها وحققها ب كراوس القاهرة .
فؤاد سزكن	، تاريخ التراث العربي « المجلد الاول تعريب فهمي أبو الفضل ، القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .
الصفدى صلاح الدين خليل	، الوافي بالوفيات ، اسطنبول ـ وزارة المعارف ١٩٤٩ .
مهدى محقق	، فيلسوف الرى ، محمد بن زكريا الرازى ، طهران .
المسعودى أبو الحسن على بن الحسين	، التنبيه والأشراف ، بغداد ـ مكتبة المثنى « طبعة الافست » ١٩٣٨ .
ـــــــــــ	، كتاب مروج الذهب ، الطبعة الثانية ، طهران ١٩٧٠ .
القفطي جمال الدين أبو الحسن	، اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) .

ابن النديم محمد ابن اسحق ، الفهرست ، تحقيق جوستاف فلوجل ليبزج ۱۸۷۲ .

Carl Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, 2 Vols. Weimer-Berlin 1898-1902 und supplement Leiden, Brill 1937.

Hamarneh Sami,

- Al Biruni's Book on pharmacy pakistan, Karaehi1973.
- Origins of pharmacy and Therapy in Near East Tokyo, The Naito Foundation 1973.

George Sarton, Introduction to the History of Science 3 vols. Baltimore 1927-1949.

Je Schacht, and C. Bosworth The Legaey of Islam Oxford 1974.

Campbell Donald, Arabian Medicine and Its influence on the Middle Ages (2 vols.) London 1926.

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

سكرتارية مجلس الرئاسة

ندوة الحضارة اليمنية



٢٢ ـ ٢٧ فبراير ١٩٧٥ م

عدن

الاصـول التاريخيـة للملاحم القحطانية

بقلـــم
ميخائيـــل بتروفســـكي
« معهـد الاستشراق •• لينينغراد »

ان دراســة الاخبار عن اليمن القديمة التى احتفظت بها المؤلفات العربية الاســلامية تكتسب أهميــة كبيرة في مجــال الأبحــاث اليمنيــة • وكثيرا مـا استخـدم هـذه المعلومات في عملهـم ولكن طابـع هـذه الاخبـار وتركيبها وأصولها لا تزال حتى الان غير معروفة بصورة كاملة وواضحة •

ومن الممكن تقسيم كافة الاخبار العربية والاســلامية حول اليمن القديمة الى مجموعتين الاولى بقايا الحضــارة اليمنيــة التى لم تــزل تعيش ضمن الحضــارة الاســلامية في اليمن • وتحتوى هــذه المجموعــة على معلومات حول الخط المسند واللغــة اليمنيــة القديمــة ووصف الخــرائب الآثارية (الهمداني) ومنهــا بقايا بعض التقــاليد والطقوس الماضية (انظر أبحــاث ديمكاس و سارجينتر) وبعض النماذج من الفولكلور اليمنى وبعض انســاب القبائل •• ومنها التقاليد الزراعية الظــاهرة في الاعراف وفي التقويم اليمنى الزراعي (مثــلا القصيدة الزراعية) التى تشير الى الاسماء الحميرية للأشهر التى درسها (بيستون) • وقــد بدأ العمل من اجل جمع هــذه المعلومات من مؤلفات الطبرى وياقوت الحموى والهمداني ويقوم بهذه العملية القسم العربي في معهد الاستشراق في لينينغراد • والى نفس الاتجــاه يرمي مشروع اختيار الألفاظ اليمنية من كتب اللغويين العرب الذى اقترحتها (بيرين) •

ولا يحتــاج استخدام مثــل هــذه المعلومات الى الأبحــاث الادبيــة التاريخية التمهيدية لانهــا بقت كرواسب الحضــارة الماضية ولم تتغير كثيرا

تتيجة لانضمامها الى الحضارة الاسلامية •

ولا يمكن ان نقول نفس الشيء عن المجموعة الثانية وهي مجموعة الاخبار التى تكون التاريخ الاسطورى لليمن القديمة والنى سماها (كريمر) « الملاحم العربية الجنوبية » • وقد أصبحت هذه الاخبار جزءا لا يتجزأ من تاريخ العرب العام وقد تعرضت للتأثيرات الثقافية والسياسية العديدة • ولذلك لا يمكن استخدامها في الأبحاث التاريخية بصورة واسعة قبل ايضاح أصولها التاريخية وعلاقاتها الحقيقية من واقع اليمن القديم • ويستهدف تقريرنا هذا الى تقديم بعض هذه الملاحم والاخبار شبه التاريخية •

ويشابه تحليل هذه الاخبار تنقيب البناية الآثارية التي يوجد فيها كثير من الاضافات والتغيرات من مختلف مراحل حياة البناية والتى استخدمت لتشييدها اجزاء المباني القائمة سابقا في نفس المكان أو مكان آخر • ويتلخص هدف الباحث في تمييز بين العناصر لتلك الطابع المختلف وفي تحديد أصولها وتاريخها والترابط بينها •

وقد حاولنا ان نحقق مثل هذه العملية بنسبة الى الملاحم العربية الجنوبية أو القحطانية • وأنها وصلت الينا ضمن الكتب العربية العديدة مثل (كتاب التيجان) و (سيرة النبى) لابن هشام و (تاريخ) و (تفسير) للطبرى و (اخبار عبيد بن شرية) و (سيرة دغفل الشيباني) و (وصايا الملوك من ولد قحطان) وفي المؤلفات الكثيرة لهشام الكلبى والهمداني ونشوان الحميرى •• الخ ••

وتضمن هذه الكتب مجموعة الاساطير والملاحم المركز حول المحور التاريخي الوحيد • وتبدأ سلسلة الأجدات الاسطورية من عهد يعرب وعبد شمس ـ سبأ وقصة لقمان الحكيم وبنى عاد • كان تقسيم السلطة بين بنى عبد شمس : حمير وكهلان نقطة الانعطاف التاريخي وبعدها جاء

التبابعة وهم الملوك من ولد حمير وكانوا بينهم الغزاة الكبار مثل الحارث الرائش وأبرمة ذى المنار وأفر وعمرو ذى الادعار والأخرين • وانقطع حكم التبابعة في وقت بلقيس ملكة سبأ • وعادت السلطة الى الأسرة التقليدية في عهد ياسر ينعم ومن أولاده المشهورين : شمر يرعش الذى دمر سمرقند وأسعد الكامل صاحب الأيمان بالله • وبعد ذلك جاءت مرحلة الصراعات الداخلية وخرجت سد مأرب وهاجرت قبيلة الأزد الى الشمال والمرحلة التالية كانت وقت حكم ذى نواس والاحتلال الحبشي ووقت حملة ابرهة الاشرم على مكة وبطولة سيف بن ذى يزن والغزو الفارسي لليمن •

وتشير الدراسة الدقيقة لهذه المؤلفات انها أخذت اخبارها عن الكتب والاشخاص من الفترة ما بين القرن السابع واوساط الثامن الميلادى وهذا هو وقت تدوين وتثبيت الملاحم القحطانية • وما هي الظروف التى جرى فيها هذا التدوين ؟ والى أى درجة قد تستطيع هذه الظروف الخارجية ان تأثر على تغيير الاخبار الاصلية ؟ •

ان هذا العصر ، عصر الدولة الاموية ، كان يتميز بالصراع العنيف بين تجمع القبائل اليمنية (القحطانية) وتجمع القبائل الشمالية (العدنانية) وجرى النضال من أجل حصول على المواقع القيادية في الدولة الاسلامية • وأن الاحداث السياسية وأهمية هذا الصراع معروفة للجميع معرفة جيدة • وبالنسبة الى هدفنا من الضرورى ان تشير فقط الى بعض الوقائع المهمة •

اولا : ان القحطانية كانت تجمعا غير منسجمة وكانت تتكون من القبائل التى خرجت من اليمن مع الاسلام (حمير • كنده) ومن القبائل العربية السورية (كلب • جزام) وكان الاصل اليمنى القحطاني لهذه القبائل الثانية موضع الشك والنقاش وكان يحتاج الى الدلائل الثابتة •

ثانيا : ان مجد اليمن القديم وتقليد سيطرة الملوك اليمنيين على

جميع العرب كانت الحجة الرئيسية لتثبيت حق القحطانيين الى الدور السياسي القيادي في الدولة العربية الجديدة • وقد خلقت هذه الظروف الخاصة الطلب الاجتماعي لتدوين ونشر الاخبار التاريخية حول اليمن وانها سببت حفاظا على التراث من الجانب التاريخي وأدت الى تغييره وتكييفه للأوضاع السياسية الجديدة من الجانب الآخر •

وأن اليمنيين الذين اشتركوا في انشاء العلوم العربية الجديدة مثل علم التاريخي وعلم الانساب وعلم التفسير وعلم الحديث (كعب الاحبار ووهب بن منبه ومعاويه بن صالح •• الخ ••) والذين قاموا بتطوير الشعر السياسي والشعر العاطفي • (اعشى همدان ويزيد بن مفرغ)(وعلقة بن ذي جدن ووضاح البن •• الخ ••) انهم جمعوا اخبار عن ماضي بلادهم واستخدموها للأغراض السياسية عندما كانوا يمدحون الثروة والجبروت والايمان والتقوى للقحطانيين القدماء وهكذا تشير تحليل الحياة السياسية والثقافية في عهد الدولة الاموية الى ان العملية التى هاجرت في القرن السابع والثامن لم تكن تدوينا عاديا فحسب بل انها كانت تحولا ابداعيا وللاخبار عن اليمن القديمة •

ولكى بأية الطرق قد حققت هذه العملية الابداعية لازم تنظر على النصوص الشعرية والنثرية • وقد اخترنا أوسع وأشهر مجموعة من الملاحم القحطانية وفحصنا استنتاجات دراستها بمفارتنها من كافة الملاحم الأخرى • والمجموعة التى اخترناها هي الملاحم عن اسعد الكامل الذى كان مشهورا كالغازى العظيم وفتح الجزيرة العربيه كلها والعراق وسورية ومصر وايران واسيا الوسطى وكان معروف في الاساطير ايضا كالملك المؤمن الذى حارس الوثنيين وقدم القرابين للكعبة وعبد الله وأعتنق دين التوحيد • وقد نسبت اليه قصائد عديدة وكان الناس يزعمون انه تبع الذى ذكره القرآن الكريم في سورة « الدخان » (اية ٣٧) •

وتنعكس الخطوط العريضة لهذه الاساطير الظروف التاريخية الواقعية في عهد الملك الحميرى أبو كرب اسعد (الفترة ما بين نهاية القرن الرابع وأواساط القرن الخامس الميلادى) أن نقوش من تلك الفترة تثبت أهمية المرحلة في التاريخ اليمني • وقد توسعت الدولة اليمنية الموحدة الى أقصى حدودها التاريخية وأخذ الملك اللقب الجديد • ملك سبأ وذى زيدان وحضرموت ويمنت اعرابهم طورا وتهامه •وقامت الدولة بالسياسية النشيطة في المناطق الوسطى والشرقية من الجزيرة العربية وقد تعزز نفوذ القبائل البدوية وظهر الاعيان الجدد (الاقطاعيون) • وفي تلك الفترة بدأ في اليمن التنقل من الديانة القديمة الى التوحيد وتظهر في النقوش العبارات التوحيدية وانتشرت الديانات المسيحية واليهودية • ولذلك كان عصر حكم أبو كرب اسعد مرحلة مهمة في حياة جنوب الجزيرة العربية ولعبت الظواهر الجديدة التى نشأت في هذا الوقت دورا كبيرا في تطور البلاد اللاحق • وتأكد المعلومات التاريخية المكانة البارزة التى احتلها أبو كرب اسعد الكامل في الملاحم القحطانية ويشير هذا الى وجود الأسس التاريخية والواقعية لهذه الملاحم والاخبار •

وتحكي الملاحم القحطانية عن المواضيع والمواد المشابهة • وكان موضع القدر من أهم المواضيع في اشعار اسعد الكامل والتابعة الآخرين وفي وصايا الملوك والنصوص الأخرى • ويكشف التحليل الدقيق ان هذا الموضع في الاخبار القحطانية كان يتميز بالوظيفة الخاصة وكان الكلام حول القدر يرمي الى تبرير شعوب الوثنيين القدماء والى تأكيد حق الاخلاف على مجد الاسلاف وكانت هذه الوظيفة الفكرية تخدم مصالح القحطانيين السياسية • ان هذا وطريقة استخدام الكلمات القدرية تشير الى ان هذه الملاحم قد اتخذت شكلها النهائي والثابت في العهد الاسلامي في فترة القرنين السابع والثامن •

ومن مواضع الملاحم الاساسية وصف الحملات العسكرية وتحتوى هذه القصص على كثير من الاخبار الخيالية الرامية الى تعزيز ومدح الملوك اليمنيين القدماء وقد اثبتت هذه القصص من المصادر المختلفة العديدة • والمصدر الاول هو حكايات حول الفتوح الاسلامية • ومن هذه الحكايات مثلا ولدت قصة تدمير سمرقند واحتلال الثبت في عهد شمر يرعش • والمصدر الآخر هو الرواية المشهورة عن الاسكندر الأكبر وقد دخلت اساطير من هذه الرواية الى ملاحم لأسعد الكامل (حملة الى أرض الظلمات) ولياسر ينعم (حملة الى وادى الرمل) ولعمر ذى الادعار (لقاء مع الناس الذين كانت عيونهم في صدورهم) وللأقرن (سير الى منبع الحياة) • وحتى الاسكندر نفسه كان يعتبر ملكا يمنيا تحت لقب ذى القرنين • وأصبح اسعد الكامل بطل القصص العربية الشمالية التى كانت أصلا مرتبطة بالأشخاص والعصور الاخرى • وان قصة حصار يثرب هي الشكل الجديد للاسطورة المحلية عن أبو كرب بن جبلة (القرن السادس) •

وقصة غزو العراق ليست الا الرواية الأخرى للأحداث التاريخية من القرن السادس ايضا عندما كانت الحيرة محتلة من قبل الملك الكندى الحادث بن عمرو • والتحقت قصة غزو الفيل (القرن السادس) في الملحمة حول حملة اسعد الحجازى • وأصبحت الأحداث الواقعية من حكم ملك تدمر اذينه (القرن الثالث) جزء من الترجمة الاسطورية لحياة الملك الحميرى شمر يرعش •

وقد أعلن ان اسعد الكامل مذكور في القرآن الكريم تحت اسم تبع وأن الملاحم القحطانية بصورة عامة قد اشتملت على كثير من القصص والشخصيات القرآنية وحتى على تلك التى كانت أصلا غير مرتبطة بـ (ارم ، لقمان ، شعيب ، ذو القرنين) •

ولكن بعض الاخبار مثلا الاخبار عن حملة اسعد الحجازية ، وعن اعتناق دين التوحيد تناسب الوضع التاريخي ومن المحتمل انها انبثقت من التراث اليمني الاصلي الذي تعرض فيما بعد للتوسع والتشويه والحجاز وسورية •

وتهتم جميع الملاحم بوصف الجيوش الحميرية وان قائمة القبائل التي اشتركت في الحروب غير واقعية وتنعكس في الحقيقة العلاقات القبلية التي نشأت في العهد الاسلامي فقط • ولكن المصادر والرسوم القديمة تثبت صحة وصف الاسلحة ونظام الجيش الحميري (مثلا تنسيق بين الخيل والمشاة او بين وحدات البدو ووحدات الحاضر • وهذا يشابه عبارة النقوش : خمس واعرب او خمس وافرسن) •

وتثبت دراسة اسماء الاماكن واعلام المذكورة في الملاحم وجود الاصول اليمنية العميقة لهذه الاخبار • وان هذه الاسماء هي يمنية حقا وكثير منها مذكور ايضا في النقوش •

وتتميز الطبقة اليمنية الحقيقة داخل الملاحم القحطانية بالخاصية المهمة • ان جميع الاخبار التاريخية الواقعية عن اليمن القديم مرتبطة بمرحلة تعزز دور القبائل البدوية في حياة البلاد • والمحور الاساسي لتاريخ اليمن الاسطوري هو تقسيم السلطة بين حمير وكهلان الذي كان جدا لجميع القبائل اليمنية البدوية • ولاتعرف الملاحم الملوك من الفترة مابين القرن الثالث والسادس الميلادي وتبرز بصورة خاصة الملوك الذين قاموا بالسياسة النشيطة في المناطق الشمالية من اليمن وخارجها • (شمر يرعش وابو كرب اسعد) • ولم تذكر الملاحم اية الاحداث في جنوب اليمن ولا الحروب الاولى مع الاحباش وانها قد نست حتى غز حضرموت ويمنت في عهد شمر يرعش • ويتركز وصف الجيش على القبائل البدوية بالدرجة وتشير هذه الخصائص الاخرى الى ان اصول الملاحم القحطانية البدائية الاولى كانت مرتبطة بالفئات الجديدة في المجتمع اليمني • بالقبائل

البدوية وبالاعيان الاقطاعيين الجدد والى درجة باليمنيين المتهودين •

وتتيح هذه الاستنتاجات الفرصة لنعيد تاريخ تشكيل وتكوين الملاحم والاخبار القحطانية • وانها نشأت اولا اثناء المرحلة المتأخرة من حياة الحضارة اليمنية القديمة • في عهد الحميريين الاخرين عهد السياسة النشيطة في الجزيرة العربية عهد تعزز قبائل البدو وظهور الاعيان الجدد في عهد التحول الفكرى نحو التوحيد •

وقد نقلت هذه الاخبار الاصلية الى الحجاز مع اليمنيين الذين اسلموا وهناك انضمت اليها بعض الاخبار العربية الشمالية وبعض القصص القرآنية• وان جزء من هذه الاخبار الجديدة كان في الحقيقة تحكى عن اليمن ولكن الجزء الكبير منها كان لا يملك اية علاقة مع اليمن القديمة وتاريخها • وحدثت هذه عملية توسيع الملاحم اليمنية في ظل الصراع بين المهاجرين والانصار (القحطانية) وانها كانت جزءا من نشاط اليمنيين في مجال تفسير القرآن حسب مصالحهم السياسية والاجتماعية •

وبعد تعاظم الصراع بين القحطانيين والعدانيين في سورية اتخذت الملاحم القحطانية التوجه السياسى والفكرى الواضح وانها ازدادت مواضع جديدة مقتبسة من رواية عن الاسكندر الاكبر ومن قصة الفتوحات الاسلامية• وفي نفس الوقت (في نهاية القرن السابع واواسط القرن الثامن) بدأت عملية جمع وتدوين هذه الملاحم من قبل الناس مثل عبيد بن ثرية ووهب بن منبه ويزيد بن مفرغ •••الخ •

وعندما انخفض الصراع بين التجمعات القبلية في نهاية القرن الثامن انتهت معه تطور ونمو الملاحم • وعادت الى اليمن في فترة بين القرن العاشر والثانى عشر واغتنت هناك بالاخبار الجديدة التى بقت في عقول سكان البلاد • (مثل بعض قطاعات من الفولكلور في شرح القصيدة الحميرية وبعض الاشعار التى تذكر اسماء الملوك العديدة في (الاكليل للهمدانى) • وقد

اتخـذت الملاحم القحطانية شـكلها الادبى النهائي التام في مؤلفات نشوان الحميرى .

وفي نهاية هـذا الموجز يمكن ان نشير الى مجال التاريخ اليمنى الـذى يسـتطيع الباحث ان يسـتخرج معلومات عنه من الملاحم القحطانية . وهو المعلومات عن الاحداث والظواهر السياسية من الفترة مابين القرن الرابع والسـابع وبصورة خاصة عن عصر بين نهاية القرن السـادس واواسـط القرن السـابع ولاتوجد لدى العلماء اية نقوش من هذا الوقت . ويشـير بحثنا ايضا الى ان قبل استخدام الملاحم كمراجع تاريخية من الضرورى فرز طبقاتها العليا .. يعنى المعلومات ذات التوجيه السياسى الواضح وقصـة الفتوح الاسلامية والاخبار العربية الشـمالية واجزاء من رواية للاسكندر الاكبر .

وتكتسب الملاحم القحطانية اهمية كبرى كمراجع للدراسات التاريخية الثقافية . وانها قد ربطت بين حضارة العرب قبـل الاسـلام وحضارتهم الاسلامية واصبحت هذه الملاحم اساسا لتاريخ العرب العام وكانت ايضـا مصدر لكثير من القصص والاخبار الخيالية والذكريات التاريخية التى تمتلأ بها الكتب العربية في العصور الوسـطى سـواء الادبيـة او التربوية او التاريخية او الفلسـفية او الجغرافية او الدينية . واصبحت هذه المجموعة من الاشخاص والحكايات التاريخيـة صفة من الصفات المميزة للحضـارة الاسـلامية .

وفي اعتقادنا تشير هذه الاستنتاجات ليس الى اهمية الملاحم القحطانية لتاريخ اليمن فحسب بل والى الافق الواسـع لدراساتها المقبلة ..

روابط الايمان بين مصر وأفريقيا

بقلم
الدكتور عبدالمنعم ماجد
استاذ التاريخ الاسلامى
ورئيس قسم التاريخ بآداب عين شمس

لقد كانت لمصر مكانة في تاريخ افريقيا الخاص ، مساوية بمكانتها في التاريخ العام • فبالاضافة الى دورها المعطاة في الحضارة الانسانية ، فأنها اختصت افريقيا من دون القارات الاخرى ، بحمل رسالة الدين اليها •

وافريقيا نفسها ، في الزمن القديم او الوسيط ، لم تكن تعرف الا مقرونة بأسم مصر • فقد كان الجغرافيون اليونان ومن بعدهم المسلمون ، يقسمون المعمور من الارض ثلاث قارات(١) اذ لم تكن الامريكتان واستراليا ونيوزيلندا قد اكتشفت بعد ، وهى : اوربا او مايسميه المسلمون اورفي ، وهى تسمية محرفة لاوربا ، وذلك لعدم وجود الباء في لغة الضاد ، مثلما يقولون عن بلاتون افلاطون ، وآسيا ووصفوها بالكبرى ، لان رقعتها واسعة ولوبيه التي بها مصر ، وهذه الاخيرة هى تسمية افريقيا ، التى لا تعرف الا بمصر ، على اساس انها مجتمع القارات في رأيهم •

حقا ، ان جغرافيي المسلمين اطلقوا اسم افريقية ـ بكسر الالف والتاء المربوطة ـ لتعنى البلاد الملاصقة لمصر ، وفرقت(٢) بينها وبين بلاد المغرب ، الواقعة في الشمال من القارة فهى مطابقة للتسمية اللاتينية القديمة

---

(١) ياقوت معجم البلدان : ٧ ص ٣٤١

(٢) نفسه : ١ ص ٣٠٠ •

التي اطلقها الرومان على هذه البلاد ايضا ، كتقسيم اداري ، ثم اصبحت افريقيا تطلق بعد ذلك ، على كل جزء كان يتم كشفه ، الى ان عممت على القارة كلها .

اما غير مصر وافريقية والمغرب ، فكان يسمى السودان ، ليشمل البلاد التي تمتد من جنوب مصر الى خط وسط الارض ـ الاستواء ـ ومن البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي ، ويعيش فيها السود او الأساود ، ويشقها نهر النيل الذي اصبح اسما لكل نهر في افريقيا ، اذ لم يكن يتصور وجود غيره ، وان روافده تمتد الى كل ناحية فيها ، حتى ان الرحالة المشهور ابن بطوطة ، سمى النيجر نيل مصر ، ووصفه وكأنه ينحدر من بلاد النوبة في جنوب مصر .

اما جنوب السودان ، فلم يكن يعرف عنه شيء ، واعتبر من الخراب ، يسكنه الهمج (٣) الذين يشبهون التتر في تدوير وجوههم(٤) ، وان منهم قوما يأكلون لحم البشر . ومع ذلك ، فنذكر ملاحظة المؤرخ المسعودي(٥) ، الخاصة بخرائط المصريين القدماء ، ومن بعدهم اخذ اليونان والمسلمون ، بتقسيم الارض الى سبعة اقاليم ، جنوب وشمال خط الاستواء ، مما قد يعني ان القارة الافريقية تمتد الى ما بعد خط الاستواء .

وفي الزمن القديم أو الوسيط كانت مصر وحدها تحرس منفذي أفريقيا الوحيدين ، وهما طريقا البحر الأحمر وسيناء ، اذ أن أفريقيا من الناحية الجغرافية تعتبر قارة مغلقة ، بسبب أن السلاسل الجبلية الضخمة تحيط بسواحلها ، والشعاب المرجانية تطوق مياهها ، فضلا عن أن أغلب أنهرها لا تنفذ الى البحر . فما دامت مصر قوية ، كانت أفريقيا في مأمن ، ودليل ذلك ، أنه لما فقد أسطول مصر في أيام المماليك ، بهزيمته أمام البرتغاليين ،

---

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٩ ص ٢٧٣ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٣٧ .

(٥) التنبه والاشراف : ص ٣١ .

فان ذلك أتاح للاستعمار الأوربي تثبيت قدمه في القارة ، حيث كان الأسطول المصرى ، يقف بالمرصاد لكل من يدنو منها •

ومنذ أن أشرقت حضارة مصر القديمة على القارة ، وكانت أساطيل مصر تجوب موانى البحرين الأبيض والاحمر والمحيط الاطلسي • بل ان ملوك مصر العليا ، حكموا في وقت ما مصر والنوبة والحبشة ، كما كان الأثيوبيون — وهم سكان الحبشة — يكتبون بالهيروغليفية قبل كتابتهم بلغتهم الحالية ، وأن معتقدات مصر الدينية كانت وحدها السائدة •

أما في العصر المسيحي ، فأن دور مصر في القارة ظل كبيراً أيضا ، اذ عن طريقها انتشرت المسيحية الى أنحاء متعددة فيها ، وأضحت أفريقيا المنتصرة تدين بالولاء الديني لكرسي الاسكندرية المصرى ، من دون كراسي المسيحية الأخرى ، فلم يكن تصح ولاية أى ملك في النوبة أو الحبشة الا بموافقة بطرك الاسكندرية ، بحيث كان بطاركة الاسكندرية في رأى المؤرخ المصرى القلقشندى ، هم ملوك النصرانية في أفريقيا(٦) ، وكان ملوك النوبة والحبشة يدعون حفظ مجارى النيل المنحدر الى مصر •

فلما جاء الفتح العربي لمصر ، فأن ارتباط مصر الديني بالقارة ازداد عن ذى قبل ، فهي من دون أى بلد آخر ، ارتبطت بالنوبة المسيحية ، بمعاهدة عرفت بالاسم المشهور : « البقط » ، وهي كلمة من أصل فرعوني أو غيره ، تعني « الاتفاق » الذى بمقتضاه تبقى النصرانية في النوبة في أمان ، مما هيأ لكنيسة مصر أن تنشر مذهبها الأرثوذكس أو اليعقوبي — كما كان يسمى في العصور الوسطى — بين السود في جنوب مصر على نطاق واسع ، شملت مناطق متعددة امتدت الى الحبشة • ومن ناحية أخرى ، فان « البقط » كان يسمح بتنقل الناس والتجار ، مما ترتب عليه وفود كثير من السود الى مصر ، حتى أنه من كثرتهم ، أصبح الخليفة الفاطمي يعرف

---

(٦) صبح الاعشى : ٥ ص ٣٠٨ •

بصاحب السودان ، مثلما كان يعرف بخليفة المصريين •

ولا شك أن دور مصر في نشر الاسلام في القارة ، لا يقل عن دورها في نشر المسيحية ، ولا سيما منذ أن فتح المماليك النوبة ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، وتوغلت القبائل العربيه الوافدة من مصر في نواحي متعددة من السودان شرقاً وغرباً ، بحيث زحف الاسلام من النوبة زحفا سريعا ، ولكنه لم يفلح في ان يشمل الحبشه كلها • فكان فقهاء مصر ، يذهبون الى أنحاء مختلفه من السودان ، لتعليم الدين والفقه ، كما وجدت في الأزهر أماكن مخصصة للسود ، يتعلمون فيها علوم الاسلام ، ومدرسة مالكية لهم في الفسطاط •

ولا مجال للمقارنة بين أثر الاسلام في أفريقيا في العصور الوسطى ، وأثر أي دين آخر ، انتشر فيها من قبل أو بعد ، وذلك لأن الاسلام بطبعه ، عقيدة للبشر جميعاً كانت تحمل معها للسود العزة والكرامة ، وتذوق الحضارة • وفي الواقع ، لم يكن يوجد قبل الاسلام في أفريقيا السوداء ، حضارة جديرة باسمها ، كما أن المستعمر الأوربي فيما بعد ، لم يجد مقاومة في هذه القارة ، الا من قبل المسلمين • فالاسلام بذرة ، أينعت شجرة باسقة ، زرعت لها جذور عميقة في مصر ، امتدت فروعها الي ما حولها •

وقد ترتب على انتشار الاسلام في أفريقيا ، ظهور ممالك وأمبراطوريات للسود ، لأول مرة فيها ، شملت السهول الفسيحة في حوض السنغال والنيجر ، لها أنظمة حضاريه ذات طابع أسلامي ، مثل ، غانة التي لعلها اسم عاهل عربي مسلم ، حكم هو وسلالته شعوب السوننكة او الساراقوليين ، ومالي او التكرور ، التي حكامها من شعب المندنجو ، الذى هو من أوائل الشعوب التى اعتنقت الاسلام في غرب أفريقيا ، وامتدت سيطرته من المحيط الى نواحي دارفور في السودان الحالي ، فشملت أقاليم

غانه ومالي والتكرور وصوصو والبرنو وكانم ، وسنغى أو سنغاى ، التى تأسست من شعوب السوركو والجابيبى في القرن السابع الميلادى ، وأمتدت نفوذها على الأقاليم السابقة التى كانت ضمن مملكة مالي ، حتى بلاد الحوصا أو الهوسا ، في وسط القارة ، واستمرث الى القرن السادس عشر الميلادى في العصر الحديث •

وليس أدل على ارتباط مصر بهذه الرقعه الاسلامية الكبيرة في السودان ، من سعى ملوكها ان يقلدوا سلطتهم الشرعية من قبل خليفة مصر العباسي ، الذى انتقلت خلافته الى مصر ، بعد سقوط بغداد في أيدى المغول ، اذ كان من المصطلح عليه عند المسلمين وقتذاك أن لا سيادة بدون تفويض من خليفة المسلمين • فكان الخلفاء العباسيون في مصر ، يصبغون الشرعية على حكم ملوك السود المسلمين في السودان ، مثلما يفعلون بالنسبة للسلاطين في مصر ، أو الحكام المسلمين في جميع بلاد الأسلام • فكان ملوك السودان يجدون في هذا التقليد الشرعي من خليفة مصر نوعا من التبرك ، يكسبهم الهيبة والجلال بين رعاياهم ، حتى أن أحدهم تلقب(٧) : سيف الخلافة ، ظهر الامامة ، عضد أمير المؤمنين ، مما يبين الارتباط الوثيق بخليفة مصر •

وقد ترتب على ذلك ، زيارات ملوك السود المسلمين لمصر باستمرار ، ولا سيما وهم في طريقهم الى الحج ، حيث ينزلون في دار الضيافة في القاهرة ، المسماة : « الدار السلطانية »(٨) ليشاركوا في موكب الحج العام الى الحجاز ، الذى كانت تحتفل به مصر ، بسبب أنها كانت ترسل الكسوة الشريفة الى الكعبة ، التى اشتهرت باسم : المحمل الشريف ، حيث كانت

---

(٧) انظر • بعده •

(٨) انظر • ماجد ، نظم المماليك ورسومهم بالجزء الثاني •

تصنع من القماش المصرى ، الـذى يسمى : القبـاطى ، لأنه نسب صنعه الى القبط • فكانوا في أثناء اقامتهم في مصر ، يستقبلون استقبالا رسمياً حافـلا ، من قبل سلطان المماليك ، الذى يجلس على تخت الملك ، الـذى هو على هيئـة منبر الجـامع ، في القاعـة الفخمـة ذات الأعمـده « الايوان » في القلعـة في القـاهرة ، وقـد اصطف الأمـراء المماليك، ورجـال الـدولة المـدنيين من ارباب الاقلام ، ومن رجال الدين من القصـاد ، وعلى راسهم الخليفـة ، لمـا يوجـد التراجمـه ليترجموا عند اللزوم ، حتى عرف استقبال ضيوف مصر ، من رسوم القصر المملوكي باسم . « موكب الايوان » •

ولعل اشهر من زار مصر من ملوك السودان المسلمين ، اثنين أحدهما ملك مالي ، المسمى : كنكان أو كونجو او منسـاموسى • وان عرف للمصريين باسم : ملك التكرور ، الذى هو أقليم في امبراطوريته الواسعه في عام ٧٢٤/١٣٢٤(٩)، والآخر الأسقيا محمد الاول الكبير ، أو ممادو « محمد » تورى ، ملك سنغى أو سنغاى ، في عـام ٨٩٩/١٤٩٥(١٠) ، حيث حضـر مـع الأول أكثـر من ستين ألفـا ، بينهم فقط اثنتا عشـرة وصيفة(١١) ، بعـد رحلـة دامت سبعة أشهر ، وخرج الى القـاهرة عند أهرام مصر •

ولقـد قابلت منساموس بالذات ، في زيارته لمصر ، مشكنة تقبيل الأرض أمام سـلطان المماليك ، محمد بن قلاوون • فقـد كان من رسـوم البـلاط المماليكي ، أن يقبل الضيف الأرض أمام السـلطان من بعيـد ، عنـد أوائل البسـاط ، الممتد الى تخت الملك ، وأن يعود الى تقبيـل الأرض مرة ثانيـة وثالثـة ، كلمـا اقترب من السـلطان • وفي أول الأمر تردد منسـاموسى ،

---

(٩) ابن ايـاس ، بدائع الزهـور ، ١ ص ١٦٣ •

(١٠) انظر ، نفسـه عـام ٨٩٩/١٤٩٥ • حضر معه اثنا عشر الفـا •

(١١) صـبح الاعشى ، ٥ ص ٢٩٦ •

في أن يقبل الأرض(١٢) ، على أساس أنه مسلم لا يسجد الا لله • ولكن تحت تحريض أحد الموجودين في الايوان ، فانه قال في نفسه : ان سجوده لله ، وليس لشخص ، ثم قبل الأرض • وما لبث السلطان المملوكي أن قدّر منزلة ضيفه السوداني الكبير ، فقام له بعض القيام ، وأجلسه الى جانبه ، وتحدث معه طويلا ، وكان يزوره في قصر الضيافة ، طوال مدة اقامته في مصر ، قبل ذهابه الى الحج ، وحتى بعد عودته منه ، كما أوصى أمير الحاج وأمير مكة به •

ومن الطريف أن نذكر ، أنه كان من مراسم استقبال ضيوف مصر أيضا ، أن تصرف لهم الخيل والجرايات والمرتبات ، وأحياناً ترسل لهم جوارى أبكاراً ، وعلى الخصوص الملابس المسماة : « تشريفة » أو « خلعة » ، لتعني ملابس رسمية ، لأنها تحمل بالضرورة اسم السلطان ، وحتى اسم خليفة مصر ، فقد أرسلت الى منساموس المذكور خلعة(١٣) ، تتكون من رداء من القماش الحرير ، الذى عليه رسم وحوش « طردوحش » ، محلّى بقصب كثير « مقصب » ، وبشعر « سنجاب » ، وفرو « مقندس » ، ليلبسه فوق ثوب آخر مشقوق « مفرج » من الحرير أيضا ، مصنوع في الاسكندرية « اسكندرى » ، كما أرسلت له طقية « كلوتة » ، مطرّزة « زركش » ، لها زوائد « كلاليب » من ذهب ، تلف حولها عمامة « شاش » من الحرير ، موصول طرفها بحرير أبيض مزخرف « رقم » ، عليها بارزاً اسم خليفة مصر العباسي « خليفتي » ، وكأنها تاج على رأسه من خليفة مصر ، وحول وسطه حزام « منطقة » من ذهب مرصّع ، وسيف محلي •

---

(١٢) نفسه ، ٥ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ •

(١٢) نفسه : ٥ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ •

(١٣) نفسه : ٥ ص ٢٩٥ •

ولدينا وصف، لاستقبال آخر ، لقصاد ملك الحبشة ، وهم من النصارى ، حيث كانوا يدينون بالولاء لبطرك اليعاقبة في مصر ، الذى صار لديهم الخليفة على دين النصرانية عندهم ، فكانوا يستقبلون أيضا استقبالا رسمياً حافلا من قبل السلطان المملوكي ، وفي القاعة الفخمة ذاتها بالقلعة • فقد كان عددهم ستمائة شخص ، بعضهم عرايا مكشوفي الرأس ، في أذن كل منهم حلق من ذهب ، وفي أيديهم أساور ذهب ، ورئيسهم عيله الحرير الملون ، ويلبس على رأسه خوذة من المحمل الحمراء ، فيها صفائح ذهب ، ثبت فيها درة كبيرة مثمنة ، وكانت معهم طبول يضربونها على الجمال ، وأعيانهم تركب الخيل ، والبقية مشاة ، كما يحملون كراسي حديد للجلوس بحضرة السلطان ، الا أن المشرفين على القاعة لم يمكنوهم من ذلك •

ولقد ساعدت هذه الصلات والروابط الدينية مع ممالك السودان ، تثبيت الايمان في قلوب شعوبها • وليس أدل على ذلك ، من أنه قد نشأت في بلادهم مراكز اسلامية ، لا تقل عن مثيلتها في بلاد الشرق الاسلامي ، من حيث الأشعاع الاسلامي ، والثقافة العربية ، فقد أصبحت : كومبتي وتمبكتوا أو تمبكت وجاو ، من أهم مدن السودان الغربي الاسلامية ، التى اجتذبت اليها الفقهاء (١٤) ، ومفسرى القرآن ، والقراء المصريين ، كما ذاعت فيها كتب المالكية والشافعية ، التي وردت اليها من مصر ، مع غيرها من الكتب الدينية •

ومن ناحية أخرى ، فان ذكرى هذه الصلات والروابط الأيمانية ، لا تزال باقية في مصر ، في وجود حيّ من أحياء القاهرة الحالية ، اسمه : بولاق الدكرور ، نسبة الى أحد الصالحين ، الذى وفد الى مصر من بلاد

---

(١٤) نفسه : ٥ ص ٢٩٧ •

التكرور ــ وهي مالي ــ دلالة على وفاة المصريين للصالحين من عباد الله ، دون تمييز للجنس أو اللون ، وعلى الروابط الايمانية الوثيقة بين مصر وأفريقيا .

وبعد : فهذا دور مصر في أفريقيا ، لم يكن على الاطلاق دور المستعمر وانما بالأولى دور السلام والحضارة والايمان ، وهذه هي رسالة مصر الخالدة أبداً في القارة ، التي لا تزال تقوم بها الى الآن ، بحيث استحقت أن تلقب : « بأم أفريقيا » .

دكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الاسلامي
ورئيس قسم التاريخ
بآداب جامعة عين شمس

الوجه النصراني للحضارة العربية

بقلم

الدكتور الاب رشيد حداد

الجامعة اللبنانية ـ بيروت

لكل حضارة وجهها الخاص ، وسماتها الفريدة ، كما لكل ملامحه الفارقة وحضارة الشعوب الحية في تطور دائم كوجه الانسان الحي ، لا ينفك يتبدل رويدا رويدا ما دام حيا ، لا وجه له ثابت الا متى اطبق عليه الموت ، فتتحجر حينئذ الملامح كما تتحجر في صخر التمثال أو في خطوط الصورة • فصورة الانسان مثلا لا تبرز الا خطوطه المتجلية في برهة معينة ، وهي ، بذلك ، كأنها تعزله عن الزمن ، وبالتالي عن الحياة المتطورة • هكذا الانسان الذى ينكب على درس وتحليل حضارة معينة فان اخطر مجازفة يركبها هى ان يعزلها عن سنة التطور والحياة ، وبالنتيجة فانه لا يمسك بيده الا حضارة ميتة قد تحجرت • فالحياة في دراسة حضارة الشعوب الحية تتبخر تحت الكلمة ولا يشعر بها الا من اندمج حياتيا بتلك الحضارة • فوصف الحضارات لا يتناول حتما الا قشورها ، ولا يلم بروحها الا من عاشها من الداخل(١) •

وحضارتنا العربية اخذت في تاريخها المديد ، وجوها عدة برزت من خلالها على العالم وقد رمقها كل ناظر من وجهة خاصة وشغف بمظهر واحد وتخيلها كما بانت لعينيه وغاب عن باله ان هذا الوجه لا يقدم له الا عنصرا فردا من عناصر الحضارة العربية المختلفة ، وأن الألمام

(١) هرسكوفتش : اسس الانترو بولوجيا الثقافية (بالفرنسية) ، باريس ١٩٦٧ •

بالعناصر الأخرى يقتضي ان يزيح ولو برهة عن وجهة نظره هذه • كرائد المتحف يتطلع الى جوهرة كريمة داخل خزانة زجاجية يدور حولها ليكحل عينيه بكل قسماتها ، فلا تفوته منها نظرة • اما اذا بقي مكانه لن يرى الا جزءا منها يسيرا ، رغم كونه وجها صحيحا لها • فهلم بنا تنتقل من الامكنة التى اعتدنا الوقوف فيها الى أمكنة أخرى ، فعسى ان الدوران حول جوهرة حضارتنا العربية يسمح لنا بالتطلع اليها من كل جهاتها لندرك مدى أبعادها ونعي سعة غناها •

الحضارة مواد وبناء هي اولا معطيات حضارية ترثها الشعوب عما سلفها فتبني بها صرحها الحضارى • فتاريخ كل حضارة يشمل اجمالا نشأة الحضارة ثم اكتمالها فانحطاطها • هذا الشعب الناهض يأخذ ، بالمرحلة الاولى التركة الحضارية لشعب تقدمه ثم يطبعها بطابعه الخاص وينميها بما يبتكر وفقا لنفسيته الخاصة • وبعد ان يكملها يعيش فيها ويحييها • وكما الناس هكذا الحضارات تدخل طور الشيخوخة والانحلال ، حتى يتاح لها من ينفخ فيها روحا جديدة فيها من الجديد ما ينسجم مع تجددات الانسان الحي المتطور ، وفيها من القديم ما يجسم روح تلك الحضارة التي ابدعتها نفسية الشعب الاصيلة • هذه هي المراحل الاساسية التي تمر بها الحضارة • ففي نشأتها تأخذ عما سبقها وترتبط به • لا ضير على حضارة اذا ارتبطت بالتراث البشرى العام ، فالانسان يستفيد بما انتجته العصور الغابرة • تعالوا نستقصي ما أخذ العرب عن الشعوب السالفة ونرى كيف تمت عملية الصهر والابتكار • ولكي تبقى هذه الصورة قريبة من الواقع تنتطلع الى الحضارة العربية

كما تبدو لاعيننا في القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى(٢)٠

للشعب العربي ميزة استيعاب نادرة ومحبة استطلاع فريدة ٠ فهو لم يترك فنا الا زاوله ولم يلتق بآدب الا وتطرق اليه ٠ فقد أخذ عن الشعوب السالفة أرفع ما أبدعت وما كان يتلاءم وروحه العربية وحاجاته الأجتماعية ٠ وبعد ان صهرها في بوتقة نفسه العربية اخرجها الى العالم حضارة أصيلة تعبر اجلى تعبير عما يخالج روحه من النزعات الشرقية السامية(٣) ٠

حكى لنا المؤلفون العرب كأبن أبي اصيبعة(٤) والقفطي(٥) وأبن النديم(٦) والبيهقي(٧) وغيرهم(٨) قصة اطلاع العرب على الأدب الهندى والفارسي وشيئا من اقتباساتهم للادب اليوناني والسرياني ٠ كما ان ابن جبل(٩) يذكر بعض المؤلفات التي ترجمت عن اللاتينية الى العربية في الاندلس في القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه المؤلف ٠ اننا لن نتوقف عند ما حمله الينا

---

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله الى العربية محمد عبد الهادي او ريدة) بجزئين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧م ،
رفائيل بابو اسحق : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٠
حبيب الزيات : الروم الملكيون في الاسلام ، حريصا لبنان ، ١٩٥٣ ٠

(٣) راجع ما كتبه في هذا الصدد موريس لومبار : الاسلام في اول مجده (بالفرنسية) ، باريس ١٩٧١ ، ص ١٢ ـ ١٣ ـ صلاح الدين خودا بخش : حضارة الاسلام (ترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي) ٠
بيروت ١٩٧١ ، ص ١٧٥ ـ ١٨١ ٠
حضارة الاسلام (ترجمة وتعليق الدكتور على حسني الخربوطلي)

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء (طبعة مولار الالماني تحت لقب امرىء القيس بن طحان) القاهر ١٨٨٢ ٠

(٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء (طبعة الخانجي) القاهرة ١٣٢٦ ٠

(٦) الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ٠

(٧) تاريخ حكماء الاسلام ، دمشق ١٩٤٦ ٠

(٨) عبد الرحمن بدوى : التراث اليوناني في الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٤٦ ٠

(٩) طبقات الاطباء والحكماء (نشره فواد السيد) القاهرة ١٩٥٥ ٠

هؤلاء المؤلفون العرب اذ لايجهله احـد • بل نريد ، في هـذه العجـالة ، ان ننوه ببعض الكتب النصرانية المعربة عن اليونانية والسريانيـة والقبطية التي عثرنا عليهـا في ابحاثنا ، مما لم يذكره من تقدمنا أو لم يعبأ به لخروجـه عن نطـاق اشغاله • ثم نورد اسماء الكتاب النصـارى الذين سـاهموا بأقلامهم بأقامة الصرح الحضـارى العربي وهو وليد الجـامع والكنيسـة معا •

في التراث اليوناني أنصب أهتمام النصـارى على تعريب الفكر اللاهوتي للآباء(١٠) ما عـدا انشغالهم بترجمة الكتب الفلسفية والطبية •

اقـدم كاتب تعرض له المترجمون هو اكليمنضوس ، تلميـذ بطرس أول الحواريين وبابا روميـة • له رسـالتان نقلتـا الى العربيـة(١١) ، وينسب له ايضـا كتـاب الاسـرار وهو محفوظ في مخطوط في طورسينا يرتقي الى القرن التاسـع أو العـاشر الميـلادى وقـد نشـرته السيدة جبسون(١٢) • ويعـرف لاغناطيوس الانطـاكي (+ ١١٧ ؟) عـدة رسـائل(١٣) شـاعت بنصها العربي قبل القرن العـاشر ، اذ ان ساويروس ابن المقفـع القبطي مطران الاشمونين في مصر يذكرها ويستشهد بها(١٤) •

---

(١٠) يعتبر النصـارى « آبــاء » للكنيسـة المؤلفـين الذين ظهروا في العصور الاولى المسـيحية وكانت كتاباتهم مقـبولة عنـد كل الفرق النصرانيـــة •

(١١) مصباح الظلمة في ايضـاح الخـدمة ، لشمس الرئاسـة ابي البركات ابن كبر القبطي (نشره سمير خليـل قسيم) القـاهرة ١٩٧١ •

(١٢) الدراسـات السينائيـة ، ج ٥ ، لنـدن ١٨٩٦ ، ص ١٤ ــ ٣٠ •

(١٣) راجع مقـال باسـيل : « مصدر عربي قـديم لرسـائل اغناطيوس الانطاكي » بالفرنسـيـة) في مجـلة « كلـمة الشرق » (ملتسو) : ٤ (١٩٦٨) ، ص ١٠٧ ــ ١٩١ و ٥(١٩٦٩) ، ص ٢٦٩ ــ ٢٨٧ •

(١٤) تـاريخ المجامع ، نشره مع ترجمة فرنسـية بطرس في سلسلة الابـاء الشرقيين ، باريس ، ج ٣ (٥ ــ ١٩) ، ص ١٢١ ــ ٢٣٢ • وردت مقاطع من رسـالة اغناطيوس الانطاكي في ص ١٨٤ ومـا يتبـع •

عرفف العرب ايضـا بوليكربوس اسقف ازمير (+ ١١٥ ؟) من خـلال رسـالته حول المسيح • اما ايريناوس اسقف مدينة ليون في فرنسـا ، وهو من النصف الثـاني من القرن الثـاني ، فان مؤلفاته قـد ترجمت الى السريانية ومنهـا الى العربيـة والجزء الاكبر منها محفوظ في اربعة مخطوطات فاتيكانية ترتقي الى القرن الثـالث عشر(١٥) • ولاكليمنضوس الاسكندرى (+ قبل ٢١٥) تفسير للاناجيل نقـل الى العربيـة وما زالت بعض اثـاره محفوظـة في مخطوطات الفاتيكان(١٦) • ومن مؤلفات هيبوليطس انروماني (+ حوالي ٢٣٦) نقل الى العربيـة شرح التوراة ، وتفسير انجيل القـديس متى وتفسير سفر الرؤيا(١٧) • اما غريغوريوس العجـائبي (+ ٢٧٥ ؟) فلنا منـه منقولا الى العربيـة كتـاب الايمان ودحض الهرطقـات وبعض الخطب والرسـائل العقـائدية • للاسكندرانيين : ديونسيوس (+ ٢٦٤) والشـهيد بطـرس (+ ٣١١) واسكندر خليفتـه على كرسي الاسكندرية (+ ٣٢٨) مؤلفـات عدة معربة ، منها ما هو منشور والجزء الاكبر ما يزال طي المخطوطات(١٨) • واما اتناسيوس الاسكندرى (+ ٣٧٣) ويعـد من أكابر اللاهوتيين في مصر فقـد لاقت مؤلفاته المعربة منذ القرن التاسـع الميـلادى رواجا كبيرا عنـد النصـارى ، خصوصـا رسـالته ضـد الاريوسيين وتفسيره لكتاب الزبور

---

(١٥) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي رقم ١٨٧ ، صحيفة ٦٥ وما تتبـع — رقم ١٧ صحيفة ١٩٤ •

(١٦) انظر مخطوط رقم ٤١٠ و ٤٥٢ •

(١٧) ابن كبر : مصباح الظلمة ، ص ٢٨٨
I d BRATKE, "Ein arabisches Bruchstuck aus Hippolyt's schrift uber den Antichrist", dans zeitschrift fur die wissenschaftliche Theologie, 36, 1(1892), PP. 282-289; G.GRAF, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, Citta del Vaticano, 1944, t. I, P. 306-308.

(١٨) راجع المصادر التي نـوه عنـها غراف في كتابه المذكور آنفا ، ص ٣٠٩ — ٣١٠

ورسائله ، والقسم الأكبر من خطبه الدينيه وقد اربت على الستين خطبة(١٩) • تلميذه تيوفيلوس الاسكندرى (+ ٤١٢) عرب له الاقدمون بعض الاقوال الروحية وقسما كبيرا من خطبه اللاهوتية • وثمة بعض تفاسير للاناجيل منها قسم لاوسابيوس القيصرى (+ ٣٤٠) وديديموس الاعمي (+ ٣٩٨) وتيطس اسقف البصرة المتوفي قبل سنة ٣٧٨ • معربو هذه الكتب مجهولون ، ولا يستبعد ان يكون بعض هؤلاء ممن تصدوا لكتب فلاسفة اليونان ، كما يثبت لنا ذلك تعريب الكاتب النصراني المشهور اسحق بن حنين (+ ٨٧٣) لكتاب طبيعة الانسان وقد نسبه لغريغوريوس نيصص وورد ذكره عند ابن النديم(٢٠) ، وهو في الحقيقة لناسيوس الحمصي • مؤلفات باسيليوس الكبير رئيس اساقفة قيصرية الكابادوك (+ ٣٧٩) اللاهوتية والنسكية ظهرت في اللغة العربية منذ القرن التاسع الميلادى وقام بتعريب الجزء الكبير من خطبه الروحية الشيخ عبد الله ابن الفضل النصراني في القرن الحادى عشر(٢١) •

وهنالك رسالة روحية يغلب عليها الطابع الفلسفي ظهرت في القرن الرابع الميلادى باللغة اليونانية ثم نقلت الى العربية ، ويرجح ان التعريب كان عن السرياني وشاعت بعنوان « مسائل وأجوبة باسيليوس وغريغوريوس » ، فقد كثر نساخها في العراق وسوريا وخصوصا في مصر(٢٢) • ولغريغوريوس هذا ، ويعرف بغريغوريوس اللاهوتي

---

(١٩) ذكر له ابن كبر (مصباح الظلمة ، ص ٢٩٢) خمسة كتب معربة •

(٢٠) الفهرست ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ص ٣٥٧ • ذكره ايضا ابن كبر في مصباح الظلمة ص ٢٩٠ •

(٢١) راجع لويس شيخو : المخطوطات العربية لكتبه النصرانية ، بيروت ١٩٢٤ ، ص ٥٢ ـ ٥٤ و ٢٣٥ ـ ابن كبر : مصباح الظلمة ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ •

(٢٢) نشرها جرجس يعقوب : رسائل دينية قديمة ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٩٤ـ٥٥

الانطاكي في أواخر القرن العاشر الميلادى • وأما عبد الله ابن الفضل فقد عرب لغريغوريوس نيصص (+ ٣٩٤) شرحه لستة أيام الخليقة • ومواعظ كيرللس الاورشليمي (+ ٣٨٦) نقلت الى العربية قبل القرن الثاني عشر الميلادى(٢٣) ويوحنا الملقب بالذهبي الفم وهو كاتب وخطيب ذائع الصيت ، وقد سلخ قسما كبيرا من حياته في انطاكية قبل ان ينتقل الى القسطنطينية فانه نال قسما وافرا من عناية المترجمين العرب الذين نقلوا له عدة خطب وعظية ومقالات لاهوتية ورسائل كتابية • وأنك لا تجد مجموعة مخطوطات عربية في دير أو مكتبة مسيحية خالية من مؤلفات هذا اللاهوتي(٢٤) • ولكيريللس الاسكندرى (+ ٤٤٤) كتاب الكنوز ، ومجادلة مع نسطوريوس والحرومات ومقتطفات عدة من كتب لاهوتية وكتابية نقلت كلها الى اللغة العربية ولاقت أوسع انتشار بين المسيحيين(٢٥) •

لقد طالت اللائحة وتوجب علينا الاختصار • فلنذكر عابرين المؤلفين الآخرين الذين نقلت كتبهم من اليونانية الى العربية(٢٦) وهم بركلس بطريرك القسطنطينية (+ ٤٤٦) وتيودوتوس اسقف انقرة (+ قبل ٤٤٦) وتيودوربطوس القورشي (+ حوالي ٤٥٨) وأنسطاسيوس الانطاكي (+ ٥٦٩) وأوستراتيوس الكاهن القسطنطيني (آخر القرن السادس) ،

---

(٢٣) راجع غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ص ٣٣٠ ـ ٣٣٧

(٢٤) . قسطنطين الباشا : « القديس يوحنا فم الذهب في الادب العربي » (بالفرنسية) في كتاب دراسات وابحاث حول القديس ياحنا فم الذهب ، رومية سنة ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ، ص ١٧٣ ن ١٨٧ •

(٢٥) غراف : الكتاب المذكور ، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٥ •

(٢٦) راجع ما ورد عن هوءلاء الموءلفين في كتاب غراف المذكور ، ص ٣٦٥ ـ ٣٧٧•

والكاتب المعروف بديونسيوس الاريوباجي وصفرونيوس المقدسي الذى حضر فتح بيت المقدس والمتوفي سنة ٦٣٨ ومكسيموس المعترف (+ ٦٦٢) وأنسطاسيوس رئيس دير طورسينا (+ حوالي ٧٠٠) وأندراوس الدمشقي اسقف كريت (+ ٧٤٠) وجرمانوس بطريرك القسطنطينية (+ ٧٣٣) وخصوصا يحيى أو يوحنا الدمشقي (+ ٧٤٠) • وهذا الكاتب نديم الخلفاء الامويين قبل ترهبه(٢٧) عاش في بيئة عربية بيد انه حصل على ثقافة يونانية وفيها الف كتبه التى نقلت الى العربية في القرن العاشر والحادى عشر • من مؤلفاته المعربة كتاب في الفلسفة والمنطق وفي علم الكلام(٢٨) •

زد على هذا التراث العلمي الضخم مجموعات مهمة من المؤلفات الصوفية أو النسكية المغفلة ككتاب بستان الرهبان وكتاب مفتاح باب فردوس الله وآخر بعنوان فردوس الرهبان وأيضا كتاب البستان في اخبار الرهبان والمؤلفات المنسوبة لمكاريوس المصرى ويوحنا التباقيسي (أى الاسيوطي) وكذلك اسطفانوس التبائيسي وموسى الحبشي (+ حوالي ٣٩٥) وأفاغريوس البنطي (+ ٣٩٩) والانبا نيلس (+ حوالي ٤٣٠) ومعاصره مرقس الناسك وأشعيا المتوحد (+ ٤٨٨) ودانيال الاسقيطي (القرن السادس) وسمعان العامودى الجديد (+ ٥٩٢) والانبا دوروثاوس (+ حوالي ٥٤٠) ، وقد عربت ميامره منذ القرن التاسع ، ومعاصره برصنوفيوس ، ومن القرن السابع ثالاسيوس ويوحنا الكرباتي وغيرهم • ولا تنسى يوحنا السلمي (+ حوالي ٦٤٩) رئيس دير طورسينا صاحب الكتاب المشهور « سلم الفضائل » وأنطيوخميس الراهب الذى من دير مار سابا مؤلف كتاب

---

(٢٧) ابو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغاني ، القاهرة ١٩٢٨ ـ ١٩٥٠ ، ج ١٦ ، ص ٧٠

(٢٨) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي رقم ١٢٢٣ ، صحيفة ٧ ـ ٦٣ •

الحـاوى(٢٩) ٠

وقـد ظهرت عـدة مقاطع من مؤلفات أبوليناريوس اللاذقي (+ ٣٩٢) وتلميذيـه فيتاليس وتيموتاوس اسقف بيروت في مجموعـة لاهوتيـة تعرف بكتـاب اعتراف الابـاء ٠ وأمـا يحيى النحوى ، وهو من النصف الاول من القرن السـادس فقـد عني النصـارى بتعريب الكثير من مؤلفـاته الفلسفية والدينيـة حتى ارتفعت منزلته كثيرا عند العرب وحيكت حوله عـدة روايات حكى لنا البعض منها القفطى(٣٠) وسرد لنا شيئا من مؤلفـاته مثـل رده على نسطوريوس ، انما اغفل ذكر رسـالة له في النسك(٣١) ٠ ومن هـذه الحقبـة نذكر ايضـا البطريرك الانطاكي ساويروس (+ ٥٣٨) ، الذى اهتم اليعاقبـة والاقباط بتعريب مؤلفاته العقائدية وخطبه الدينية ورسـائله وكتبه الطقسية ، فانه كان من أكبر المناصرين للكنيسـة اليعقوبية(٣٢) ٠

تلك هي اهم المؤلفات النصرانيـة التى نقلها العرب من اليونانية الى لغتهم العربيـة ٠ وهي ، اذا قوبلت بالمؤلفات اليونانيـة المعربـة في الطب والفلسفة كانت أوفر منها عددا ولا تقل عنها شـأنا ، انما ردحا طويلا من الزمن مطموسة في مخطوطات الديارات النصرانيـة ٠ فالتعريب عن اليوناني كان ذلك التيـار الذى حمل الى العرب سيلا من الكتب اليونانية ، المسيحية منها وغير المسيحية ٠ والملكيون هم الـذين اشتغلوا في هـذا المضمار وكـانت لهم اليـد الطولى بالتعريب عن اليونانيـة ، فكنيستهـم هي امتـداد البطريركيـة الانطاكيـة

---

(٢٩) غرف : الكتـاب المذكور ص ٣٨٠ ـ ٤١٤ ٠

(٣٠) القفطي : اخبـار العـلماء باخبـار الحكماء ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ٠

(٣١) راجـع لائحـة مخطوطات دير السريـان المحفوظة في المتحف القبطي التي اعدها يسى عبد المسيح ولم تنشر بعد رسـالة يحتى النحـوي مخـفوظة في : المخطوط رقم ٦٠ من الدير المذكور ٠

(٣٢) غـراف : الكتـاب المـذكور ، ص٤١٨ ـ ٤٢٠ ٠

والاسكندرية من العالم البيزنطي الى العالم العربي • اما النساطرة واليعاقبة فلهم الفضل الأكبر بخلق تيار مماثل نقل الكثير من الكتب السريانية الى العربية(٣٣) •

أول الكتبة السريان الذين عربت مؤلفاتهم هو أفرام السرياني(٣٤) (+ ٣٧٣) ، فلنا منه في مخطوطات القرن التاسع الميلادى عدة كتب • وما ان انقضى القرن العاشر حتى كان القسم الأكبر من انتاجه الادبي بين أيدى النصارى العرب تحتل المقام الاول في الصوامع والديارات ، الى جانب مؤلفات يوحنا سأبا المعروف عند العرب بالشيخ الروحاني وقد نسك في بيت دلياطا ، ومؤلفات مار اسحق السرياني وكتب يعقوب السروجي • هؤلاء الأربعة هم الكتبة السريان الكبار الذين انتشرت كتبهم أوسع انتشار بين أيدى النصارى عموما والرهبان خصوصا • وتجدر الاشارة الى كتاب آخرين نقلت مؤلفاتهم السريانية الى العربية نظير يوحنا الرهاوى وابراهيم النفترى وقرياقوس النصيبيني وشهدون الاسقف، وزيد ابن شمعون طيبوته(٣٥) وفيلوكسانس المنبجي (+ ٥٢٣) وبولس متروبوليت نصيبين (+ ٥٧١) ، طبيب الفرس الساسانيين ويعرف ايضا ببولس البصرى مطران نصيبين ، ويعقوب البرادعي (+ ٥٧٨) وماروتنا التكريتي (+ ٦٤٩) ويعقوب الرهاوى (+ ٧٠٨) وداود ابن فولس وهو من القرن الثامن •

اما الادب القبطي فقد نال نصيبه من التعريب اذ انتشرت في مصر مؤلفات انطونيوس أبي الرهبان (+ ٣٥٦) وباخوميوس (+ ٣٤٦) وشنودا

---

(٣٣) خليل الجر : قاطيغوريات ارسطوطاليس في ترجماتها السريانية العربية (بالفرنسية) بيروت ١٩٤٨ ، ص ٢٩ — ٣٢ •

(٣٤) راجع العدد الخاص بهذا الكاتب الذي اصدرته مجلة « كلمة الشرق » وهو الجزء الاول والثاني من السنة الرابعة ، سنة ١٩٧٣ •

(٣٥) ذكره ابن ابي اصيبعة (جزء اول ، ص ١٠٩) ودعاه طيبوته •

(+ ٤٥١) وتيموتاوس الاسكندري (٤٧٧ +) وبيزنتيوس القفطي (+ حوالي ٦٣٢) وقسطنطين الاسيوطي ويوحنا البرلسي ، وهما من اوا القرن السابع ، والبطريرك بنيامين الذي استقبل عمرو بن العاص في الاسكندرية وحظي منه باكرام بارغ،وقرياقوس البهنسي وعيرهم كثيرين(٣٦).

اننا نضرب صفحا عن مؤلفات سير الاولياء والنساك التي ظهرت في اليونانيه والسريانية والقبطية ومنها انتقلت الى اللغة العربية ، فانها اكثر من ان تحصى . كما اننا نمر مر الكرام على كل تلك الرتب الطقسية المختلفة التي ينقرب بها المصلون النصارى من الله وقد عربت كلها من اللغات القديمة التى كتبت فيها . وعلم القوانين أو الفقه نشا عند النصارى العرب مما سنه الاقدمون في مجامعهم المسكونية أو المحلية وقرره القديسون والحكام قبل الفتح العربي ، ومما زيد عليه بعد الفتح حسبما اقتضت الحاجة الى اقراره ونشره بين المؤمنين .

تدلنا هذه اللمحة على اهم الاسماء التي انتقلت الى العربية وساعدت على خلق ذهنية مسيحية عربية لها أبعادها الثقافية وأصولها الحضارية . كل هذا التراث القديم انتقل الى أيدى العرب فأعملوا فيه الفكر واستلهموه وراحوا يكتبون بهديه اصفحات رائعة خلدت ذكرهم هكذا نشأت ، الى جانب المكتبة المعربة ، مكتبة ثانية خلفها الكتبة النصارى العرب وهي تمثل ابهى تمثيل الادب المسيحي العربي الأصيل .

ان النصارى العرب جزء لا يتجزأ من الامة العربية . فقبل ظهور الاسلام كانوا منتشرين في اصقاع مختلفة من الجزيرة العربية وبادية

(٣٦) غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ج ١ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٧٨

فطاحل(٣٩) ، وبرز فيهم اساقفة كبار حضروا المجامع المسكونية منذ القرن الرابع الميلادى (٠) وكانت الحياة المسيحية زاخرة بالتقوى والصلاة بدليل قيام جماعات رهبانية كان لها اطيب الاثر عند العرب في الجاهلية الشام(٣٧) وقد دان بدين النصرانية عدة قبائل عربية جزيلة العدد ورفيعة المقام لبني كلب وتنوخ وسليح من قضاعه وقبيلة جذام وتغلب وبكر وتميم والحارث بن كعب وكنده وغيرها(٣٨) ، وقام منهم شعراء وصدر الاسلام ولم تقتصر الحياة الرهبانيه على الرجال فحسب(٤٠)

73J. RYCKMANS, "Le christianisme en Arabie du Sud preislamique", dans "Accademia Nazionale dei Lincei" CCCXI (1964) Quaderno 62, pp. 413-454; S. VAILHE, "La province ecclesiastique d'Arabie", dans "Echos d'Orient" II (1899), pp. 166-177; R. BELL, "The origin of Islam in its Christian environment", London, 1926, pp. 1-63; F. NAU, "Les Arabes Chretiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIIe s, "Paris 1933, H. CHARLES," Le cheistianisme des Arabes Nomades ....", Parise 1936; R. DEVREESSE, "Le Christianisme dans la province d'Arabie", dans "Vivre et Penser", 2e serie, 1942, pp. 110-146; Tor ANDRAE, "Les Origines de l'Islam et le Christianisme", traduit de l'allemand par J. ROCHE, Paris 1955, surtout aux pp. 1-38, etc....

(٣٨) راجع ما كتبه الجاحظ في « الرد على النصارى » (طبعة فنكل) القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٥ .

(٣٩) لويس شيخو : النصرانية وآدابها قبل الاسلام بجزئين ، بيروت ١٩١٩ — ١٩٢٣

(٤٠) هنرى لامنس : الديارات القديمة في حوران (بالفرنسية) بمجلة « الشرق المسيحي » ج ٨ (١٩٠٣) ، ص ٤٧٨ — ٤٨١ ، — ارنست هنغمان : الديارات في سوريا الشمالية قبل الاسلام (بالالمانية) بمجلة الدراسات السامية ، ج ١ (١٩٢٢) ص ١٥ — ٣٢ .

بل قامت ايضا ديارات نسائية أشهرها دير هند الصغرى(٤١) أى هند بنت النعمان الاصغر ودير هند الكبرى(٤٢) أى هند بنت الحارث بن عمر بن حجر، وقد بني هذا الدير الأخير في زمان كسرى انوشروان وأفريم الاسقف .

ولما خرج العرب من جزيرتهم لفتح سوريا كان الكثير من أخوانهم النصارى يجوبون بادية الشام أو كانوا أخذوا يتحضرون في حوران وعلى مشارف دمشق . وما ان شاعت اللغة العربية في الشام والعراق ومصر . وتقلصت اللغات السابقة ، حتى دخل في جو الحضارة العربية شعوب كثيرة غلبت عليها النصرانية وكانت تنعم بحضارة عريقة وفكر متطور كالادب السرياني والادب اليوناني ، وكان من الطبيعي ان يبدل هذا القوم لغته القديمة بلغة العرب في التخاطب والكتابة . على هذا النحو برز عند النصارى جمهرة ضخمة من المؤلفين نكتفي بذكر الكبار منهم الذين عاشوا قبل القرن الحادى عشر .

أول الملكيين ، في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، تيودوروس أبو قره اسقف حران (+ ٨٢٥) . له كتابان في اليونانية والعربية(٤٣) والسريانية . مذهبه الفلسفي شبيه بمذهب معلمه يحيى الدمشقي . تبعه

(٤١) ابو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج ٢ ، ص ٣٣ — ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار في الممالك والامصار (طبعة احمد زكي باشا) القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٣٧٧ .
البكرى : معجم ما استعجم (طبعة وستنفلد) غوتنجن ١٨٧٦ ، ص ٣٦٢-٣٦٣

(٤٢) البكرى : معجم ما استعجم ، ص ٦٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان (طبعة وستنفلد) ج ٢ ، ص ٧٠٩ .

(٤٣) نشرها قسطنطين الباشا بعنوان : ميامر تاودرس ابي قرة أسقف حران ، بيروت ١٩٠٤ .

في أوائل القرن العاشر قسطا بن لوقا البعلبكي الذى ناظر ، مع حنين بن اسحق ، ابا الحسن على ابن يحيى المنجم (+ ٨٨٨)(٤٤) وفي مصر عاش سعيد ابن البطريق وهو افتيخيوس الاسكندرى ، كان بطريركا على الملكيين في الاسكندرية (+ ٩٤٠) له كتاب التاريخ دعاه « نظم الجوهر »(٤٥) • ومن المعاصرين له محبوب ابن قسطنطين المنبجي صاحب كتاب « العنوان » وهو كتاب تاريخ تقف حوادثه عند سنة ٩٤١ ميلادية(٤٦) • اما انطونيوس(٤٧) رئيس دير مار سمعان العمودى قرب انطاكية (النصف الثاني من القرن العاشر) ، فقد اشتهر كمترجم اذ عرب عن اليونانية ميامر غوريغوريوس اللاهوتي وعظات يوحنا فم الذهب والفصول الفلسفية وشرح الامانة المستقيمه ليحيى الدمشقي وكتبا أخرى له مع بعض تعاليم روحانية للآباء • نعرف من معاصريه ابراهيم ابن يوحنا الانطاكي(٤٨) وقد نقل عن اليونانية ٥٢ كتابا للقديس افرام السرياني كما انه عني بتعريب ثلاثين ميمرا لغريغوريوس النزينزى ، والقس نظيف ابن يمن الكاهن والفيلسوف والطبيب البغدادى ، وقد اشتهر بتعريب كتب فلسفيه من اليونانية ، وله مقالة في ماهية اعتقاد النصارى(٤٩) • من انطاكية خرج يحيى بن سعيد صاحب كتاب الذيل لتاريخ سعيد بن البطريق الذى كانت تربطه به قرابة على ما اخبر ابن ابي اصيبعة(٥٠) • وتمتد حوادث الذيل من سنه ٩٣٨ الى سنة

---

(٤٤) راجع محاضرتنا في موءتمر المستشرقين الدولي المنعقد في باريس (١٦ — ٢١ تموز ١٩٧٣) وهي قيد النشر في مجله A AB.CA

(٤٥) نشره لويس شيخو بجزئيه في بيروت سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٩ •

(٤٦) نشره لويس شيخو في بيروت سنة ١٩٠٢ واسكندر فاسيليف في باريس في سلسلة الآباء الشرقيين •

(٤٧) غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ٤١ — ٤٥ •

(٤٨) ابو البركات ابن كبر : كتاب مصباح الظلمة ، ص ٢١٤ •

(٤٩) راجع مخطوط ١٧٣ ، صحيفة ٩٢ — ٩٩ من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس •

(٥٠) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٨٧ •

١٠٢٨(٥١) • وليحيى ايضا ثلاثة كتب لاهوتية(٥٢) •

وتيوفيلوس ابن توفيل الدمشقي اسقف الملكيين في القاهرة (النصف الاول من القرن الحادى عشر) اعاد تعريب الاناجيل عن الأصل اليوناني ، كما حكى أبو الفرج هبة الله ابن العسال في مقدمة كتابه عن الاناجيل • اما الشيخ أبو الفتح عبد الله ابن الفضل الانطاكي(٥٣) المتوفي بعد سنة ١٠٥٢ بقليل فكانت له اليد الطولى في اعلاء شأن الادب النصراني بما عرب والف على السواء • فمن معرباته سفر الزبور وخطب يوحنا فم الذهب وبعض مؤلفات باسيلس القيصري وغريغوريوس نيصص ومكسيموس المعترف وأندراوس اسقف كريت ويحيى الدمشقي واسحق السرياني • اما نتاجه الخاص فنذكر منه كتاب المنفعة وهو ضخم يجمع بين دفتيه زبدة العلوم الكلامية والفلسفية والعلمية •• وكتاب بهجة المؤمن يقدم به المؤلف الادلة الفلسفية لمعتقدات النصرانية وكتاب الروضة وهو يضم اقوالا اقتطفها ابن الفضل من الكتب المقدسة ومن خمسة وثلاثين فيلسوفا يونانيا تقريبا ومن اكابر آباء الكنيسة حول واحد وسبعين موضوعا اخلاقيا لتهذيب النفس • هذا ما عدا كتبا أخرى وصلت الينا واغفلنا عن ذكرها او ضاعت ولم تصل •

لا نعرف احدا من الموارنة في هذه الحقبة سوى المؤرخ قيس الماروني وله كتاب تاريخ العالم تنتهى حوادثه في خلافة المقتفي (+ ٩٠٤ — ٩٠٨) وهذا الكتاب الذي ضاع ، واستفاد منه المسعودى(٥٤) •

اما المؤلفون النساطرة فعددهم وفير ومقامهم رفيع • أولهم تلك الأسرة الراسخة في علم الطب والفلسفة آل بختيشوع من جنديسابور وقد

(٥١) نشر كتاب الذيل في باريس سنة ١٩٢٤ مع ترجمة فرنسية بعناية اغناطيوس كراتشوكوفسكي وفاسيليف •

(٥٢) راجع بولس سباط : الفهرس ، رقم ٢٥٢٧ — ٢٥٢٩ •

(٥٣) غراف : الكتاب المذكور ، ج ٢ ، ص ٥٢ — ٦٤ •

(٥٤) كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دى غويه) ليدن ١٨٩٤ ، ص ١٥٤ •

تناقل العلم من جيل الى جيل على مدى ثلاث قرون تقريبا في عهد العباسيين . مؤسسها جوارجيس ابن جبرايل وابنه بختيشوع وحفيده جبرايل وابن حفيده بختيشوع وحفيد حفيده يوحنا . من أبناء هذه الاسرة جبرائيل بن عبيد الله . وابنه ابو سعيد عبيد الله هؤلاء كلهم خدموا الطب والفلسفة والمنطق والديانة النصرانية بما عربوا والفوا . نقل الينا اخبارهم ابن ابي اصيبعة(٥٥) وابو الفرج ابن العبرى(٥٦) والقفطي(٥٧) من القدماء . وشيخو(٥٨) وسليمان صائغ(٥٩) ويوسف غنيمه(٦٠) من المتاخرين . وماكس ميرهوف(٦١) وبرغستراسر(٦٢) وبروكلمان(٦٣) ودائرة المعارف الاسلامية ...

من المترجمين النصارى نكتفي بذكر اسماء : أبي الحسن عيسى بن حكم المسيحي الدمشقي(٦٤) والراهب هارون بن عزور(٦٥) وأبي زكريا يحيى ابن

---

(٥٥) عيون الانباء ، ج ١ ، ص ١٢٣ — ١٤٨ .

(٥٦) تاريخ مختصر الدول (طبعة انطون صالحاني) بيروت ١٨٩٠ ، ص٢١٣—٢١٥ و ٢٢٥ — ٢٢٨ و ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٥٧) تاريخ الحكماء (طبعة جوليوس ليبرت) ليبزك ١٩٠٣ ، ص ١٠٢ — ١٠٤ و ١٤٦ — ١٥١ .

(٥٨) مجاني الادب في حدائق العرب ، بيروت ١٩٠٠ ، ج ٤ ، ص ٢٩ — ٣٠٠ .

(٥٩) راجع مقال عن اسرة بختيشوع في مجلة « النجم » ، ٤ (١٩٣٢) ص٣٦٦ وما يتبع .

(٦٠) راجع مجلة المشرق ٨ (١٩٠٥) ص ١٠٩٧ — ١١٠٧ .

(٦١) راجع مجلة ايزيس ٨ (١٩٢٥) ص ٧١٧ وما تتبع .

(٦٢) حنين بن اسحق ، حول ترجمات كتب جالينوس السريانية والعربية (بالالمانية) ليزك ١٩٢٥ .

(٦٣) تاريخ الادب العربي (بالالمانية) انظر الفهارس .

(٦٤) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، الذيل ج١ ، ص ٤١٦ .

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ٧٢ .

البطريق المترجم(٦٦) ويوسف بن ابراهيم الحاسب ابن دايه(٦٧) وقد بزهم جميعا في علم الطب يوحنا ابن ماسوية (+ ٨٥٧) • كان طبيبا مقدما عند المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل واخباره مشهورة(٦٨) • وجاثليق النساطرة تيموتاوس الكبير(٦٩) (+ ٨٢٣) • ما عدا ترجمته لكتاب ارسطو في الشعر له محاورة معروفة مع الخليفة المهدي حول العقائد النصرانية وموقف النصارى تجاه الاسلام ، حول هذا الجاثليق نرى صديقه ابا نوح ابن الصلت الانباري (٧٠) وكاتبه ابا الفضل على ابن ربان النصراني(٧١) وخليفته على كرسي الجاثليقية يشوع بن نون(٧٢) وكلهم من الكتبة المبدعين • واما حبيب ابن بهريز فكان اولا اسقفا على حران ثم انتقل الى كرسي الموصل وعاش في زمن المأمون ولهذا الخليفة عرب كتبا في المنطق والفلسفه وللاسقف حبيب ابن بهريز عدة نظريات قريبه من الاسلام(٧٣) وفتيون ابن ايوب الترجمان الشامي نقل الى العربية بعض الاسفار المقدسة

---

(٦٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٩ — ابن ابي اصيبعه : عيون الانبياء ، ج ١ ، ص ٢٠٥ •

(٦٧) انظر المراجع في بركلمان : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٣٢ والذيل الاول ص ٤١٦ •

(٦٩) رافائيل بيداويد : رسائل البطريرك النسطوري تيموتاوس الاول (بالفرنسية) الفاتيكان ١٩٥٦ — هانس بوتمان : الكنيسة النسطورية في بطريركية الجاثليق تيموتاوس الاول (اطروحة بالفرنسية غير منشورة قدمها المؤلف في جامعة ليون سنة ١٩٧٠) •

(٧٠) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ — بولس سباط : الفهرس ، الذيل ، القاهرة ١٩٤٠ ، رقم ٢٥٣٠ — ٢٥٣٢ •

(٧١) بولس سباط : الفهرس ج ١ ، القاهرة ١٩٣٨ ، رقم ٤١٨ •

(٧٢) ادوارد ساخاو : كتب الفقه السريانية ج ٢ ، برلين ، ص ٢١ — ٢٤ (من المقدمة) و ١٢١ — ١٧٧ •

(٧٣) ابن ابي اصيبعه : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٠٥ •

وعاش في بغداد في نصف القرن التاسع الميلادى • كانت تربطه صداقة حميمة بعبد الله ابن كلاب ، كما اخبر ابن النديم(٧٤) ، وكبير علماء قومه هو دون شك حنين ابن اسحق(٧٥) الذى ادى الى الحضارة العربية خدمات جليلة بما عرب هو وابنه اسحق(٧٦) وتلميذه حبيش بن الحسن الاعم الدمشقي(٧٧) واصطفان ابن باسيل(٧٨) وعيسى بن يحيى بن ابراهيم(٧٩) وعيسى ابن على(٨٠) وثمة جمهرة من الاطباء النصارى من القرن التاسع والعاشر أخذناهم عن كتب القفطي وابن النديم وابن ابي اصيبعة نكتفي بذكر اسمائهم وهم : سلموية ابن بنان ، وسابور ابن سهل من جنديسابور وتيودوروس اسقف الكرخ وعيسى ابن ماسه من مرو ويحيى ابن سرابيون وخالد بن يزيد بن رومان النصراني والقس يوسف الساهر وأبو الحسين ابن كشكرايا ولوقا ابن سرابيون وعيسى ابن يوسف ابن العطار النصراني الموصلي وغيرهم •••

واذا كان الجاثليق يوحنا بن عيسى ابن الاعرج(٨١) (+ ٩٠٥) لم يترك اثرا في كتب المؤلفين المسلمين ، رغم كونه كاتبا كنسيا مشهورا في عالم الفقه ، فان ابا بشر متى بن يونس ينعم بشهرة نادرة • حكى عنه القفطي فقال :

---

(٧٤) الفهرست ، ج ١ ، ص ٢٤ و ١٨٠ و ٢٤٤ •

(٧٥) انظر المراجع عن هذا المؤلف في غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ج ٢ ، ص ١٢٢ و ١٢٩ •

(٧٦) راجع ايضا المؤلف المذكور ، ص ١٢٩ — ١٣٠ •

(٧٧) القفطي : اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٢٢ •

(٧٨) بركلمان : تاريخ الادب العربي ، الذيل الاول ، ص ٣٧٠ •

(٧٩) برغشتراسر : حنين ابن اسحق ومدرسته (بالالمانية) ، ليدن ، ١٩١٣ ، ص١٤ •

(٨٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ٢٤٧ •

(٨١) راجع تاريخ ميخائيل السرياني الكبير (طبعة شابو ٤ ، باريس ١٩٠٥ ، ج ٣ ، ص ١٢١ و ٤٦٣ وما يتبع •

« عالم بالمنطق ... وعلى كتبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره »(٨٢) . وقد شهد عنه ابن النديم فقال : « اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره(٨٣) . هو من اكابر شراح الفلسفة الارسطية وقد تعلم في مدرسة مار ماری في دير قنى حيث كانت تدرس علوم المنطق والنحو والشعر والهندسة والفلك والطب والفلسفة وعلوم الدين باللغة العربية الى جنب اللغتين السريانية واليونانية »(٨٥) . وقد قام بين النساطرة في القرن العاشر والحادی عشر عدة اساقفة الفوا او عربوا كتبا هامة خلدت اسماءهم وهم جرجس متروبولبت الموصل(٨٦) واسرائيل اسقف كشكر(٨٧) وأيليا الاول الجاثليق (+ ١٠٤٩)(٨٨) وخطوط ايليا مطران نصيبين (+ ١٠٤٦) (٨٩) صديق ابي القاسم الحسين ابن على المغربي وله معه مجالس مشهورة . ولمطران نصيبين مؤلفات كثيرة في العقائد الدينية

(٨٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ٢١٢ .

(٨٣) الفهرست ، ص ٣٦٨ .

(٨٤) ترى عدة مراجع حوله في كتاب غراف الانف المذكور ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٨٥) راجع الشابشتي : كتاب الديارات ، مع الذيل للناشر كوركيس عواد ، طبعة ثانية ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٣٩٥ .

(٨٦) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي ، رقم ١١٠ .

(٨٧) انظر كتاب المجدل لماری ابن سليمان (طبعة جيسمندی) رومية ١٨٩٦ ، ١٨٩٩ ، ج ١ ، ص ٨١ وما يتبع و٩٨ — ج ٢ ص ٧٣ وما يتبع و ٩١ .

(٨٨) يولاف سمعان السمعاني : المكتبة الشرقية (بالاتينية) ج ٣ ، قسم ١ رومية ١٧٢٥ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٥ .

(٨٩) غراف/ تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ١٧٧ — ١٨٩ . يزاد على المراجع كتاب عما نوئيل كريم دللي : لاهوت ايليا برشنايا ، دراسة وترجمة مجالسه (بالفرنسية) رومية ١٩٥٧ .

والتاريخ والاخلاقيات والفقه واللغة السريانية والعربية . لا نغفل عن ذكر الراهب قورياقوس ابن زكريا الحراني وجبرائيل ابن نوح وعيسى ابن علي النصراني صاحب قاموس سرياني - عربي وأبي الحكيم يوسف ابن البحيرى من ميافارقين وبشر ابن السرى الدمشقي مفسر الكتب المقدسة(٩٠) . اما أبو الفرج عبد الله ابن الطيب(٩١) فكان من الرجال البارزين في عصره وبين قومه ، فهو الفيلسوف والطبيب والقس الذى شغل منصب كاتب الجاثليق أيام يوحنا بن نازوك (+ ١٠٢٢) وتوفي سنة ١٠٤٣ . اليك ما كتب عنه القفطي :

« فيلسوف فاضل مطلع على كتب الاوائل وأقاويلهم ، مجتهد في البحث والتفتيش ... قد احيى من هذه العلوم (اى فلسفة ارسطوطاليس وطب جالينوس) ما دثر وأبان منها ما خفي ... وشيخنا أبو الفرج عبد الله ابن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها ... »(٩٢) فهذا الذى قدم شروحاً قيمة لكتب ارسطوطاليس وفرفوريوس الصوري وجالينوس وابقراط اهتم ايضا بتفسير الكتب المقدسة النصرانية بأجمعها ، كما ان له عدة كتب عقائدية وأخلاقية وفقهية ، قسم منه نشره علماء أوروبيون(٩٣) وقسم ما زال طي المخطوطات .

هؤلاء هم المؤلفون النساطرة وقد كانوا من نخبة القوم علميا

---

(٩٠) راجع ما ورد حول هؤلاء المؤلفين في كتاب غراف المذكور ، ص ١٥٤-١٥٩

(٩١) الكتاب المذكور ، ص ١٦٠ - ١٧٦ .

(٩٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٩٣) اهتم بنشر مؤلفات ابن الطيب العالم الهولندي سندرز الفرنسي جيران ترويو ، خاصة في مجلة « كلمة الشرق » .

واجتماعيا (٩٤) • اما اليعاقبة فقد برز منهم مفكرون كبار يتقدمهم ابو رايطة حبيب ابن خدمة التكريتي ، المعاصر لابي قره اسقف حران وتيموتاوس الكبير الجاثليق • له عدة رسائل دينية نشرها العالم جورج عراف مع ترجمة المانية(٩٥) وقد اهتم بتربية نسيبه نونوس رئيس شمامسة نصيبين الذى الف تفسيرا لانجيل مار يوحنا ، ما عدا كتاباته باللغة السريانية (٩٦) ، اشهر منه كان عبد المسيح ابن ناعمة الحمصي معرب المغالطات السفسطائية والسماع الطبيعي لارسطو والكتاب المنحول « ايثولوجيا »(٩٧) • وبعد ان نذكر ذكرا عابرا موسى ابن الحجر صاحب التفاسير الكتابية والخطب الدينية ومعاصره يوحنا الداراني(٩٨) وله مقالة عن الشياطين وكتاب في الكهنوت ، نصل الى قمة الفكر النصراني اعني يحيى بن عدى التكريتي نزيل بغداد(٩٩) (+ ٩٧٤) • اعطى القفطي(١٠٠) لائحة كتبه الفلسفية وأهمل كتبه اللاهوتية النصرانية • وحوالي سنة ١٩٢٠ اهتم العالم الفرنسي اغوسطينوس بريه ، بدراسة هذا الكاتب اذ خصه بكتاب لنيل درجة الملفنة من السوربون •

---

(٩٤) لويس ماسينيون : السياسة الإسلامية المسيحية للكتاب المناطقة (بالفرنسية) في موءلفاته الصغرى ، ج ١ بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٥٠ — ٢٥٧ •

(٩٥) موءلفات حبيب ابن خدمة ابي راقطة اليعقوبي ، لوفان (بلجيكا) ١٩٥١ •

(٩٦) نشرة شراخيان بالارمنية في البندقية (ايطاليا) ١٩٢٠ •

(٩٧) بركلمان : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٢٢ — والذيل الاول ص ٣٦٤ وما يتبع و ٩٥٦ •

(٩٨) السمعاني : المكتبة الشرقية (باللاتينية) رومة ١٧٢١ ، — ٢ ، ص ١١٨ ١٢٣ راجع ايضا مقالة يوسف فرلاني : نفسية يوحنا الدراني (بالايطالية) في مجلة « الدراسات الشرقية) رومية ١١ (١٩٢٦) ، ص ٢٥٥ — ٢٧٩ •

(٩٩) ترى في غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ — ٢٤٩ عدة مراجع قديمة ومتاخرة حول هذا الكاتب •

(١٠٠) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ •

وكانت مؤلفـات يحيى الفلسفية مفقودة آنذاك • فما كان من الباحث الا ان درس مذهب يحيى من خلال كتبـه اللاهوتيـة فقط • الا اننا عثرنا في هـذه السنوات الاخيرة على مخطوطـات في طهران وأصفهان تحتوى عـلى كتبـه الفلسفية وهي في غايـة الخطورة ، ولا عجب فشهادة القفطي بحقـه واضحة : « اليه انتهت رئاسـة اهل المنطق في زمانه » • ومن تلاميذه الفيلسوف فرج بن جرجس ابن افريم اليعقوبي وأبو الخير الحسن ابن سـوار وأشهرهم أبو على عيسى ابن اسحق ابن زرعـه(١٠١) (+ ١٠٠٨) « احـد المتقـدمين في علم المنطق والفلسفة »(١٠٢) وأحـد النقلة البـارعين • كتبـه المعربة في الفلسفة أو المؤلفة تحتل مقاما سـاميا بين المؤلفـات العربيـة • عنـه كتب معـاصره أبو حيـان التوحيدى ما يلي : « انه كان حسن الترجمـة صحيح النقل كثير الرجوع الى الكتب : محمود النقل الى العربيـة ، جيد الوفاء بكـل ما حـل من الفلسفة »(١٠٣) • وتلميذه أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي (+ حوالى ١٠٨٠) كان كثير الاطلاع في العلوم وذا فضـل في صناعـة الطب • له كتب في الطب وعلـم النجوم ذكرها ابن أبي اصيبعة(١٠٤) وكتـاب المرشـد وهو مختصر مفيد لاهم العقائد النصرانيـة •

من الاقباط نكتفي بذكر ابي بشر ساويروس ابن المقفع اسقف الاشمونين (بمركـز ملـوى) (+ بعـد ٩٨٧) • هو أول كـاتب قبطي الف باللغـة

---

(١٠١) كيرللوس حـداد : عيسى ابن ذرعه ، فيلسـوف عـربي ولاهـوتي نصراني ، (بالفرنسية) بيروت ١٩٧١ • ترى في هـذا الكتاب دراسة وافية عن المؤلف مع كل المراجـع المعروفة •

(١٠٢) القفطي : الكتـاب المـذكور ، ص ١٦٣ •

(١٠٣) كتاب الامتـاع والمؤانسـة ، القـاهرة ١٩٣٩ ، ج ١ ، ص ٣٣

(١٠٤) عيـون الانبـاء ، ج ١ ، ص ٢٤٣ •

العربيـــة ناشرا عقـائد الايمـان ومدافعـا عن انتقـادات الغرباء • ذكر له ابن كبر ٢٦ مؤلفا(١٠٥) •

نخلص الى الاستنتاج مما تقـدم ان وجه الحضـارة العربيـة الكامل لم ينجل بعـد ، فاذا كان الوجـه الاسـلامي ناصعا ، فالمـلامح النصرانية تنبىء عن غنى حضـاري لا يستهان به • فالنصـارى ، وقـد ترجموا اكبر قسـم من الكتبة اليونانيين والسريان والاقباط الذين تقدموهم ، اضـافوا عليها من وحي أقلامهم ، حتى اضحت مؤلفاتهم من العنـاصر الاساسية التي سـاعدت على خلق الحضـارة العربيـة • فهذه لا تبدو لعين الباحث كصورة تعلق على الحـائط فتزينه وترمق بنظرة واحـدة ، انها لعمرى اشبه بتمثال رائع يجذب المتأمل والباحث حتى يستجلي ملامحه من كل جهاته • فوجهة النظر النصرانية تكمـل تلك للاسـلام ، وكلاهما لا ينبذان حضـاريا الشعوب الأخرى التى سـاهمت بخلق الفكر العربي ، هـذا الفكر الذى يرتفع حتى ينصب في خضم الحضـارة الانسـانية الكاملة •

(١٠٥) مصباح الظلمة ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

سـيناء : كنوزها وآثارها التاريخية في العصـور الوسطى

للدكتـور

جوزيف نسيم يوسف

نظرة سريعة الى منطقة سـيناء وتاريخها :

اذا أردنا أن نكون فكرة سريعـة وواضحة عن تاريخ شبه جزيرة سيناء ، نجـد في كتب المسـالك والممالك ومؤلفـات الرحالة والجغرافيين العـرب معلومات قيمة ومادة من الطراز الأول • فهى تقـع في صحراء التيه بين القلزم وأيلة • وهى تعرف ايضـا باسـم جبل حوريب ، وتتميز بقممهـا وجبالهـا المرتفعة الشـاهقة • واذا ألقينا نظرة الى خريطـة سيناء ، نجـد أن الطريق الذى يربط فلسطين بمصر ، يخترق الجزء الشمالى منها • أما الجزء الجنوبي فقـد اشتهر بثرواته المعدنيـة ، وعلى وجـه الخصوص الـذهب والنحـاس والفيروز(١) •

وسيناء اقليم مجـدب جبلى ، لا سيما في الجنوب حيث توجـد الجبـال الشـاهقة الارتفاع ، ومن أهمها جبل القديسـة كاترينة وارتفاعه ٢٥٩٧ مترا ، وجبل موسى وارتفاعه ٢٢٤٢ مترا ، وقمم سربال وارتفاعهـا ٢٠٥٧ مترا وتعتبر هـذه المنطقـة الأخيرة من أشـد البقـاع وعورة •

وجبل القديسـة كاترينة هو أكثر الجبال ارتفاعا في شبه الجزيرة • ويقال انه هو الـذى حملت اليـه الملائكـة جثمان الشـهيدة القديسـة كاترينـة

---

(١) انظر ابن الفقيـه الهمذاني : مختصر كتاب البـلدان ــ ليـدن ١٣٠٢ هـ ــ ص ٦٩
ياقوت : معجم البـلدان ــ المجلد الثـالث ــ ليبزج ١٨٦٨م ــ مادة « طورسـينا »
ياقوت : معجم البـلدان ــ المجلد الثالث ــ ليبزج ١٨٦٨م ــ مـادة « طورسـيا »
ص ٥٥٨ •

السكندرية ، الذى نسب دير سيناء اليها ، فعرف باسم دير القديسة كاترينة . وقد دفن رفاتها في كنيسة الدير الكبرى(٢) .

وفي المنطقة العديد من المعابد التى ترجع الى التاريخ القديم ، مثل معابد وادى مغارة وسيرابيت Serapit . وجبالها عامرة بالكتابات القديمة ، ووديانها اليانعة تكاد تكون موجودة في كل مكان ، مثل وادى فيران ووادى الأربعين ووادى ليان .

منطقة سيناء تكتسب شهرتها الحقيقية فى العصر الوسيط :

والمعروف أن شبه جزيرة سيناء التى امتازت بالعزلة والوحشة في الماضى ، قد اكتسبت شهرتها الحقيقية في الحقبة الوسيطة من التاريخ . ويرجع ذلك الى النساك والمتعبدين المسيحيين الذين لجأوا اليها هربا من اضطهاد الحكام الرومان لهم في القرون الأولى من المسيحية ، في وقت اشتد فيه الصراع بين الأباطرة الرومان والديانة الجديدة التى وجدوا فيها منافسا خطيرا لهم وتهديدا مباشرا لسلطانهم ولوحدة الامبراطورية الرومانية التى كان يرمز لها بكلمة « السلام الرومانى » Pax Romana . وقد أقام أولئك النساك والمتعبدون في جبال شبه الجزيرة الجنوبية ، حيث كانت الوديان

---

(٢) عاشت القديسة كاترينه السكندرية في فجر المسيحية ، وكانت تدين بالوثنية ، ولكنها تركت عبادة الاوثان واعتنقت المسيحية واخذت تدعو لها ، فانزعج الوثنيون وضايقوها الى ان انتهى الامر باستشهادها . فلما اقيم الدير المذكور بامر الامبراطور جستقيان في حوالى منتصف القرن السادس الميلادي ، نقلوا اليه رفاتها ، ومن ثم سمي باسمها ، وكان ذلك في القرن الثامن ، اي بعد وفاة هذه القديسة بمئات من السنين . وللمزيد من التفاصيل ، انظر جوزيف نسيم يوسف : « دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه في سيناء » مقال بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ــ العدد ٢٢ ــ الاسكندرية ١٩٦٩ ــ ص ٩٥ و ح ١ .

الخصيبة وعيون المـاء ومجاريها • وسهل ذلك عليهم زراعة الحبوب والخضر وأشجار الفاكهة على وجـه الخصوص •

وكان أول ناسـك يلجـأ الى هـذه المنطقـة أشـارت اليـه المصـادر القديمـة ، قديس يدعى اونوفريوس Onophrius • وقـد التجـأ الى مغـارة في وادى ليـان الى الجنوب من جبل موسى • وكان ذلك في بدايـة القـرن الرابـع الميـلادى ، في وقت كـان فيـه التاريـخ القـديم يطوى صفحته بانهيار الامبراطورية الرومانيـة بمثلها ومفاهيمها وفلسفتها ، وفي وقت بدأ فيـه عصر جـديد في تاريخ البشرية بأوضـاع ومفاهيم جـديدة مغايرة ، ونعنى بذلك العصر الوسيط الذى اقتطع من عمر التـاريخ حوالى عشرة قرون من الزمان • وبعـد القـديس اونوفريوس تتابـع النسـاك في شبه الجزيرة يتعبدون ويتأملون في ذات الله العلية ، وقد خلفوا آثارا في كل مكان • واستتبع ذلك تكوين مراكز في كل منهـا برج يلجـأ اليـه النسـاك عندمـا تداهمهم المخـاطر • ومن هـذه الأبراج برج مهـدم في وادى الاربعين ، وبرج آخر في موضـع يعرف باسم « العليقة المتوقدة » Buisson Ardent (٣) الذى

(٣) اصـل هـذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبـات من الشكوك المتوقد والنبـات لا يحترق • وتقع هذه العليقة المشتعلة على مقـربة من المكان الذى فيـه دير القديسـة كاترينـه • وقـد ورد ذكرهـا في القرآن الكريم في سورة طه ، الايـات ٩ ـ ١٢ ، « وهل اتـاك حـديث موسى اذ راي نـارا فقـال لاهلـه امكثـوا ، اني آنسـت ـ نـارا لعـلي آتيـكم منـها بقبس او اجد على النار هدى • فلمـا آتاهـا نودي يـا موسى اني انـا ربـك فاخلع نعليـك ، انـك بالواد المقدس طوى » • ووردت الاشـارة اليـها ايضـا في سـورة القصص ، الايتـان ٢٩ ـ ٣٠ ، « فلمـا قضى موسى الاجل وسـار باهله آنس من جانب الطور نـارا ، قـال لاهله امكثـوا اني آنسـت نارا لعـلي آتيكم منها بخبر او جـذوة من النـار لعلكم تصطلون • فلما اتـاها نودي من شـاطىء الواد

يقال ان هيلانه Helena أم امبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ ـ ٣٣٧ م) قد بنته في القرن الرابع . وهذا البرج الأخير يقع على مقربة من دير القديسة كاترينة .

قصة دير سيناء وتاريخ بنائه ، وانتقال حوزة المنطقة الى السيادة العربية

هكذا كانت سيناء منذ بواكير العصور الوسطى ، غنية في تاريخ القديسين والشهداء ، في وقت اشتهرت فيه هذه العصور باسم « عصور الايمان » . وكان اولئك المتعبدون المتنسكون على جبال طورسينا يتعرضون لغارات المغيرين بين وقت واخر . فتوسلوا الى امبراطور دولة الروم وقتها ، وكان يدعى جستنيان الاول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ، ان يبنى لهم ديرا يؤدون فيه فروض العبادة ويحتمون بداخله ، وكانت سيناء وقتذاك داخلة في نطاق دولة الروم . فاجابهم الامبراطور الى طلبهم ، وأمر ببناء دير محصن على قمة الجبل الذى يوجد في سفحه المكان المعروف باسم « العليقة المشتعلة » . ولكن مندوب الامبراطور الذى أوفده للقيام بهذه المهمة ، أمر ببناء الدير عند سفح الجبل ، مراعيا في ذلك رداءة الجو وضيق المساحة وانعدام الماء بأعلا الجبل . ويقال ان جستنيان قتل مندوبه لمخالفته أوامره . وقد تم بناء الدير في هذا المكان باعتباره من الأماكن المقدسة ، فضلا عن وجود الماء فيه(٤) . وكان ذلك في أواسط القرن السادس الميلادى .

وفي نفس الوقت تذكر الرواية أن امبراطور الروم أرسل الى طورسينا

= الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله رب العالمين » . وورد ذكرها ايضا في الاصحاح الثالث من سفر الخروج . وجاء في معجم البلدان لياقوت (مجلد ٣ ـ ص ٥٥٧) « ... وبالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين جبل يسمى الطور ولا يخلو من الصالحين ، وحجارته كيف كسرت خرج منها صوب شجرة العليق . » .

حوالى مائتين من أسر العبيد مع نسائهم وأولادهم من منطقة البحر الأسود ومن مصر للقيام بحماية الدير ورهبانه • ولايزال خلف أولئك القوم بسيناء حتى اليوم ، يقوم الرهبان باطعامهم من خيرات الوديان المبعثرة هنا وهناك ، بينما يتولون هم حمايتهم(٥) •

على أى حال ، ظلت سيناء وديرها في حوزة دولة الروم حتى بدايات القرن السابع الميلادى • وفي العقود الأولى من هذا القرن ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة الى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف • واستجابت القبائل العربية لهذه الدعوة الجديدة التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها • وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية فتية ناهضة ، وخرجت من جزعتها الصغيرة للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود • وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين دولة الروم الذى انتهى في سنوات قليلة باستيلاء العرب على الولايات الشرقية التابعة لهذه الدولة ، وهى بلاد الشام وفلسطين ومصر • ولم ينته القرن السابع حتى غدت منطقة شبه جزيرة سيناء منطقة عربية ، وأصبح ديرها

---

(٤) انظر عن ذلك المراجع التالية :

Rabino, M.H.L." Monastere de :;
Sainte Catherine du Most Sinai, Le Coire, 1938, 11ff.; Bassili, W.F., Sinai and St. Catherine, Cairo, 1957, 77; Forsyth, G.H., "Island of Faith in the Sinai Wilderness," National Geogravhic Magazine, January, 2964. 84 ff.

(٥) انظر الوثيقة رقم ٦٩٢ سيناء ــ عربي ، مكتوبة على ورق ، مقاس ٣٢×١٩سم ، موضوعها « حجة » •

ورهبانها يتمتعون بحماية السلطات العربية ورعايتها لهم(٦) •

اهتمام سلاطين مصر فى العصر الوسيط بمنطقة سيناء :

وكانت منطقة سيناء ، لاهميتها الجغرافيه والاستيراتيجية ، موضع عناية سلاطين مصر وحكامها في العصر الوسيط • وبدأ هذا الاهتمام واضحا في عصر مؤسس الاسرة الايوبيه بمصر في أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) • وكانت هناك وقتذاك حركة افاقة عربية في منطقة الشرق الادنى ، تستهدف تكتيل القوى العربية في المنطقه لتطويق الصليبيين الدخلاء في الأراضى المقدسة والعمل على اجلائهم عنها • ولهذا أقام مؤسس الأسرة الايوبيه في سيناء عدة مراكز حصينة على طول المنطقة الفاصلة بين مصر والكيان الصليبى في البيت المقدس • وأهم هذه القلاع تلك التى تعرف باسم قلعة الجندى في قلب سيناء في طريق أيلة ، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم • وكذاك قلعة أيلة بجزيرة فرعون(٧) •

واستمر اهتمام حكام مصر بسيناء مع العمل على تحصينها وتعزيزها بالقلاع والاستحكامات ، طوال العصر الأيوبى وفي عهد المماليك ، في وقت كانت فيه شعوب الشرق الأدنى العربى تجاهد ضد الصلبيين الدخلاء

---

(٥) Ostrogorski, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussty, Oxford, 1956, 98 ff.; Baynes, N.H. & Moss, H. St. L.B. (eds.), ByZonyium ... ford, 1953, 308 ff.; Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New, York, 1960, 26 ff.; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920, 52 ff.

(٧) ايلة هي حصن من حصون الكرك الهامة ، تقع على راس خليج العقبة فى اول الشام • وللمزيد من المعلومات عن قلاع سيناء ، انظر عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ــ القاهرة ١٩٦٠ ــ ص ١١٧ وما بعدها •

الذين طرقوا أبوابهم • وكانت سيناء خلال تلك الفترة من الزمن ، وعلى وجه التحديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، صخرة تحطمت فوقها كثير من هجمات أولئك الغزاة الوافدين من الغرب •

رهبان دير سيناء ونظمهم وحياتهم :

وما دمنا نتحدث عن شبه جزيرة سيناء وأهميتها في الحقبة الوسيطة من التاريخ ، باعتبارها المكان الذى كان الناس يلجأون اليه للتعبد والتقشف والصلاة بعيدا عن الحياة الدنيا وملذاتها ، في وقت كانت فيه الظروف مهيأة لذلك ـ يحسن أن نشير الى سكان تلك المنطقة النائية من العباد والنساك ، والى نظمهم وحياتهم ومعيشتهم وأحوالهم •

لقد اختلف عدد رهبان سيناء ، سواء المقيمون منهم بالدير ، أو الموزعون على الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم الجبال ، اختلافا كبيرا باختلاف الأزمنة • ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل القرن الخامس الهجرى) كان عددهم حوالى ثلاثمائة • وفي بدايات القرن الرابع عشر (وأوائل القرن الثامن الهجرى) بلغ عددهم أكثر من أربعمائة • وفي أواخر القرن الرابع عشر (أواخر القرن الثامن الهجرى) وصل عددهم الى مائتين من الرهبان • وظل هذا هو العدد التقريبى للرهبان بالمنطقة حتى أواخر العصر الوسيط • ولكن عددهم تضاءل في العصر الحديث بسبب تأسيس العديد من الأديرة في المراكز المسيحية المعروفة ، مثل قبرص وكريت وأثينا ، مما كان له أكبر الأثر في اجتذاب عدد من رهبان سيناء • يضاف الى ذلك أن الحماس الذى صاحب حركة الرهبنة والديرية في بدايتها ـ كما هو معروف في التاريخ الأوروبى الوسيط ـ بدأ يخبو ويفتر ويتقلص مع الزمن •

وأما هيئة رجال الدين بدير سيناء فتتألف من المطران(٨) وخمسة قسوس وشماس واحد وعدد من الرهبان الجدد يتراوح بين أربعة وثمانية ، خلاف الخدم من غير المترهبين • ويقيم المطران بالدير ، وهو الذى يتولى ادارته ، يساعده في ذلك مجمعا يتكون من نائب وأمين صندوق وأمين مخازن • وفي حالة غياب المطران ، كأن تضطره الظروف الى التواجد بالقاهرة لأعمال تتعلق بطائفته ، يحل محله النائب • وللرهبان جميعا ، فيما عدا المبتدئين ، حق انتخاب الرئيس • ويجرى الانتخاب بدير سيناء نفسه • ومن اختصاص المطران والمجمع نقل الرهبان من وظيفة الى أخرى ومن دير الى آخر •

ويتبع رهبان سيناء القواعد التى وضعها لهم قديس يونانى يدعى بازيل(٩) St. Busil عاش في دولة الروم في القرن الرابع الميلادى • وكان

---

(٨) تطلق الوثائق العربية المحفوظة بدير سيناء على رئيس الدير لقب « اسقف » • انظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء ـ عربي ، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم ، تاريخ ربيع ثاني ٥٥١ هـ (مايو ـ يونيو ١١٥٦م) ، سطر ٢١ ـ ٢٢ • راجع ايضا جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق مقال بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ١٨ ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١٩٠ ـ ١٩٢ •

(٩) المعروف انه على يد القديس بازيل بدات الحياة الديرية تاخذ شكلها النظامي في شرق اوروبا •وكان بازيل قد ترك الحياة الدنيا وقام بزيارة الاماكن التى ظهرت وترعرعت فيها الحياة الرهبانية ، وبخاصة مصر وفلسطين وبلاد الشام • ثم عاد الى بلاده ولديه فكرة واضحة عن الرهبنة والديرة اكتسبها من رحلاته ، وقد افادته عندما قام بنشر نظامه الديري • انظر هذا ، Baynes & Moss, Byzantium, 141 ff. ويوجد بمكتبة دير سيناء العديد من المخطوطات عن بازيل وقوانينه باللغتين اليونانية القديمة والعربية • انظر ، مثلا ، مخطوطة رقم ٥٩٨ سيناء ـ عربي باسم « مختصر من القوانين ، قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل » ، ورقة ٤٦ ب ـ ١٥٣•

الرهبان في خلوتهم . والمعروف أن حساب الزمن عند أولئك الرهبان يبدأ من غروب الشمس(١١) .

زوار سيناء في العصر الوسيط :

هذا ، وقد توافد على منطقة سيناء وديرها طوال العصر الوسيط العديد من كبار الزوار من الشرق والغرب على السواء ، وبصفة خاصة اثناء العدوان الصليبي الذي تعرض له المشرق العربي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاد (القرنان السادس والسابع من الهجرة) ، ذلك العدوان الذي كان يستهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة لتكون نقطة ارتكاز يتوسع منها على حساب البلدان العربيه المجاورة ، تحقيقا لأطماعه واتجاهاته التوسيعية . وكان المحاربون الصليبيون يقومون عادة بزيارة هذه المنطقة المقدسة وديرها وهم في طريقهم الى الشرق تيمنا وتبركا . ولا تزال آثارهم من رموز وشعارات منقوشة على جدران الدير يمكن للزائر مشاهدتها حتى يومنا هذا . كذلك كان الحجاج المسيحيون من كل بقاع العالم يتوافدون على دير سيناء وهم في طريقهم الى كنيسة القيامه في بيت المقدس رغبة في الحصول على الغفران . وكانوا يقومون بحجهم الى الدير وهم آمنين مطمئنين في ظل سياسة التسامح الاسلامى التى سارت عليها السلطات الاسلاميه في المنطقة حيال الحجاج المسيحيين(١٢) .

---

(١١) انظر

Meistermann, B., Guide du Nil an Jourdian Par le Sinai [illegible], Paris, [illegible]9, 137.

(١٢) انظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٨٤ وما بعدها ، حسن حبشي : « التسامح الاسلامي تجاه دير سانت كاترين » ــ مقال بمجلة السياحة المصرية ــ العدد ١١٦ ــ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٧ وما بعدها ، جمال الدين الشيال : مجموعة

هـذا الرجل قـد زار مصر وبلاد الشـام وفلسطين ، واكتسب من رحـلاته خبرة واسعة فيما يتعلق بالحيـاة الديرية • وكان الرهبـان داخـل دير سيناء يحيون حيـاة الزهـد والتقشف ، ولا يأكلون اللحم الا نادرا • ومن عاداتهم أيضـا ألا يتناولونه في غرفة الطعام حتى ولو كان اليوم عيـدا ، فانهم يأكلون سمكا ، ثم يخرجون في المسـاء الى حديقة الدير ، وهناك فقط يأكلون اللحم ، وربما يكون ذلك تحايلا او امعانا في التقشف والتقرب الى الله •

والمعروف أيضـا ان نظـام الحيـاة اليومية لدى اولئك الرهبان يتلخص في أنهم يستيقظون جميعا في الثانية والنصف صباحا ، ويؤدون صـلاة السحر في الرابعـة • وفي الاعيـاد الكبيرة يقـام قـداس في الكاتدرائيـة الكبرى بالدير • اما في الاعيـاد الصغرى وايام الاحـاد فيقام القـداس في الكنائس الصغرى التي يشتمل عليهـا الدير • واما في اليـوم المعـروف عندهم بيـوم الأموات ، وكذلك في أيام السبت الخاصـة بالصيام الكبير ، يقـوم قسيس باداء القـداس في المقبرة الملحقـة بالـدير والتي تعرف أيضـا باسم « بيت الجماجم » • ومن الطريف أن هنـاك أمـاكن شرف في تلك المقبرة لرؤسـاء الدير ، حيث توجـد جماجمهم وعظامهم في ارفف مستقلة مرتبـة بعناية فوق قطـع من القماش الفاخر ، بينما تكدست جماجم وعظـام بقيـة الرهبان فوق بعضها في غرفة واحـدة(١٠) • ومن عادة الرهبان أيضـا أنهم بعـد انتهـاء القـداس يتناولون فنجانا من القهوة التركيـة ، ثم يتوجهون الى أعمـالهم • وفي العـاشرة والنصف يدعون جميعا الى الفطور معا • وفي الثالثة بعـد الظهر يؤدون صـلاة المغرب ، وبعدها يحين موعد تنـاول العشـاء الـذي يتناوله

---

(١٠) انظر عـزيز سـوريال عطيـة : الفهارس التحليليـة لمخطوطات طورسـينا العربية ـ ترجمة جوزيف نسيم يوسـف ـ ج ١ ـ الاسـكندرية ١٩٧٠ ـ لوحة رقم ٥ ص ٥٢ ولوحـة رقم ٩ ص ١٢٧ •

ومن بين كبار زوار الدير من رجال الفكر والقلم والسياسة في العصر الوسيط شخص يدعى بيتر رودلف وفريسكو بالدى ، ونيقولا دى مارتونى وبيرو طافور ، وفيلكس فابرى Felix Fabri • وقد سجل بعضهم مشاهداته وملاحظاته في كتب ومؤلفات لا تزال باقية الى اليوم • وهى تشهد بعظمة سيناء من ناحية ، وسعة صدر السلطات العربية وحسن معاملتها لاولئك الحجاج والزوار من ناحية أخرى(١٣) •

الاثار الاسلامية فى سيناء :

رأينا فيما سبق كيف أن شبه جزيرة طورسينا كانت تتمتع بأهمية كبيرة في تاريخ العالم الدينى منذ أقدم العصور ، وكيف أصبحت في العصر الوسيط ملجأ للزهاد والعباد والمتنسكين ، وقد وردت كلمة طورسينا في القرآن الكريم باسم « طور سينين » • جاء في سورة التين « والتين والزيتون وطور سينين • وهذا البلد الأمين »(١٤) • كما وردت الاشارة اليها في قوله تعالى في سورة المؤمنون « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين »(١٥) • والطور في اللغة العربية يعنى الجبل الذى يكسوه الشجر ، ولا يقال للجبل الأجرد طور ، أما سينين فمعناها الشجر • وعلى هذا فطور سيناء معناها منطقة الجبال التى تكسوها الأشجار

الوثائق الفاطمية ـ ط • ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١١ وما بعدها • وسنتحدث عن هذه الناحية في شيء من التفصيل عند استعراض مجموعة الوثائق الخطية العربية المحفوظة بدير سيناء في آخر البحث •

(١٣) مما يذكر انه بدير سيناء دفاتر زيارات يرجع تاريخها الى هذا العهد السحيق ، وقد وقع كل زائر في الدفتر مع اثبات تاريخ الزيارة وملاحظاته • ولهذه الدفاتر اهمية كبيرة يمكن للدارس ان يستخلص منها معلومات قيمة •

(١٤) القرآن الكريم ـ سورة التين ـ الايات او ٢ و ٣ •

(١٥) القرآن الكريم ـ سورة المومنين ـ الاية ٢٠ •

والنباتات(١٦) •

في هذه المنطقة الجبلية التى تكسوها الأشجار والنباتات ، تتجلى وحدة الداين في أبهى صورها وأروعها • فعند سفح أحد جبالها ، على مقربة من الموضع الذى يقال له « العليقة المشتعلة » ، يتعانق الهلال والصليب في وحدة متينة راسخة ، حيث يوجد دير القديسة كاترينة ، والى جانبه مسجد يرجع تاريخه الى بداية القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) •

والمعروف أن هذا المسجد أقيم حوالى سنة ٥٠٠ هـ ، وهى توافق سنة ١١٠٦ م ، في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى (٤٩٦ — ٥٢٤ هـ)• وقد بنى هذا المسجد ليصلى فيه المسلمون الذين يسكنون في ضواحى الدير ويقومون بحماية رهبانه • وبناؤه يرتفع ما يقرب من سبعة أمتار عن الجدار الشمالى الغربى من السور الدائر بالدير ، ويبعد ما يقرب من ستة أمتار عن واجهة الكنيسة الكبرى بالدير • ويبلغ طوله حوالى عشرة أمتار ، وعرضه سبعة أمتار ، وأرضيته من لوحات حجرية متراصة ، وتكسو جدرانه طبقة من الجير الأبيض • ومن كنوز المسجد وآثاره التاريخية القيمة ، أعمدته ، والمحراب ، والمنبر ، والمئذنة ، والكرسى وهو على شكل هرمى غير متكامل من أعلا • هذا ، بالاضافة الى زخارف المسجد من التوريقات النباتية ، والنقوش الكتابية التى يبدو فيها جمال الخط العربى من كوفي ونسخى وثلث •

---

(١٦) جاء في ياقوت : معجم البلدان — مجلد ٣ — ص ٥٦ « الطور في كلام العرب الجبل • وقال بعض اهل اللغة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقال للاجرد طور ... » وجاء في نفس المصدر — ص ٥٥٨ ، ان سينين معناها شجر ومفردها سينية •

ويمتاز منبر الجامع بلوحته الخشبية التى تسجل بالخط الكوفي تاريخ انشائه سنة ٥٠٠ هـ ، أيام الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى • ونص النقش الكتابى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير • نصر من الله وفتح قريب • لعبد الله ووليه ابى على المنصور الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه المنتظرين • أمر بانشاء هذا المنبر السيد الأجل الافضل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ،ابو القاسم شاهنشاه ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المسلمين ، وأدام قدرته ، وأعلا كلمته ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمس مائة »(١٧) •

والى جانب هذا المسجد ، الذى لا يزال باقيا الى اليوم ، يوجد عدد من المساجد الصغيرة بمنطقة سيناء ، مثل المسجد المقام بجبل موسى ، وآخر بجبل وادى فيران ، وثالث عند حصن الساحل بأيلة • ويكاد يوجد مسجد صغير فوق قمة كل جبل من جبال سيناء ، والى جانب كل مسجد توجد كنيسة صغيرة ، معبرة عن وحدة الدين وروح التسامح الاسلامى •

---

(١٧) للمزيد من التفاصيل عن مجد سيناء ، انظر السيد عبد العزيز سالم : « الاثار الاسلامية في دير سانت كاترين بطورسينا » ـ مقال بمجلة العلوم بيروت ـ العدد الاول يناير ١٩٦٥ ـ ص ٣ وما بعدها •

واذا كنا قد تحدثنا عن مسجد سيناء باعتباره من أهم الآثار الاسلامية في شبه الجزيرة ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، فلا شك أن أهم الآثار المسيحية في المنطقة هو دير القديسة كاترينة ، الذى أمر امبراطور الروم جستنيان الأول بتأسيسه في أواسط القرن السادس الميلادى ، لحماية الرهبان المنقطعين هناك من اغارات المغيرين • وقد سبق الاشارة الى تاريخ الدير وقصته والى رهبانه وحياتهم وعاداتهم ومعيشتهم • ونضيف أن هذا الدير يعتبر من روائع سيناء ، وهو يقع على ارتفاع ١٥٦٠ مترا من سطح البحر ، وتحيط به أكثر جبال المنطقة ارتفاعا وكأنها تحتضنه • وداخل هذا الدير وبين جدرانه يعيش الرهبان المسيحيون الذين يتبعون طائفة الروم الأرثوذكس ، منقطعين للصلاة والعبادة والتأمل في ذات الله العلية • يعيشون لربهم وهم يتمتعون بعطف وحماية السلطات العربية لهم منذ الفتح العربى وحتى اليوم ، مما يكشف عن تسامح الاسلام ورعايته الصادقة للأديان السماوية(١٨) •

ويعتبر هذا الدير من أقدم أديرة العالم ، ومن أكثرها شهرة ، حتى أصبح مكانا يؤمه الحجاج والسياح من كل مكان على مر العصور • ويتخذ سياج الدير ، أي سوره ، شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع • وقد أصيب هذا السور بأضرار جسيمة بسبب الزلازل التى كانت المنطقة تتعرض لها بين وقت وآخر ، وبخاصة الزلزال الذى وقع سنة ١٣١٢ م (بدايات القرن الثامن الهجرى) • وكانت السلطات العربية في مصر تبعث من يقوم بأعمال الترميم والاصلاح كلما تهدم قسم منه •

ويضم الدير عددا كبيرا من الأبنية والمنشئات • منها الكاتدرائية

---

(١٨) انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٥ـ٩٦

أو الكنيسة الكبرى التى تشغل وسط الدير ، ثم المقبرة الملحقة بها ، وعددا من الكنائس الصغرى ، الى جانب مخازن الغلال ، والمطاحن ، والمعاصر ، والمطابخ ، وغرف النزلاء ، وغرف الرهبان ، وبعض القاعات ، والمكتبة التى تحوى كنوزا لا تقدر بمال من الوثائق والمخطوطات بمختلف اللغات لم تر النور بعد .

ولا يزال هذا الدير شاخصا حتى اليوم يروى قصة قرون عديدة خلت . وهو يعتبر آية من آيات الفن والمعمار في العصر الوسيط ، من حيث ما احتواه من القباب والمبانى الرائعة ، والصور الجميلة ، والفسيفاء ذات الألوان الزاهية ، التى لا زالت تحتفظ بجمالها وألوانها حتى يومنا هذا . فضلا عما يحويه من الكئوس والأوانى والآثار المقدسة من ذهبية وفضية(١٩) . ومن أروع آثاره ذلك التابوت الفضى الذى بعثت به روسيا الى الدير لحفظ رفات القديسة كاترينة بداخله ، وعليه شكل يمثل القديسة وقد طعم بالذهب والأحجار الكريمة(٢٠) . ومع ما للدير من أهمية ، فانها لا تقاس بجانب مجموعة الصور الدينية التى توجد به ، والتى لا مثيل لها في العالم ، خاصة اذا عرفنا أن حركة محطمى الصور والتماثيل في دولة الروم في القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) ، والتى لم تسلم منها كنيسة أو دير في العالم المسيحى وقتها ، لم تمتد الى دير القديسة كاترينة ، فحفظ تراثا يتميز بأهميته(٢١) .

ومما يستحق الذكر هنا ، أن دير سيناء يضم بعض العناصر الفنية ذات

---

(١٩) انظر جوزيف نسيم يوسف : نفس البحث السابق ، ص ٩٦ .

(٢٠) انظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية ج ١ ـ لوحة رقم ٤ ص ٣٣ .

(٢١) انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٦ .

التأثيرات الاسلامية الواضحة • تتمثل بصفة خاصة في الأبواب الخشبية للكنيسة الكبرى ، وفي التكوينات الهندسية والزخارف النباتية والنقوش العربية الجميلة التى تزدان بها الكنيسة • وكل هذا يكشف عن مدى تأثر دير سيناء ومبانيه بالفن الاسلامى عقب حركة الفتح(٢٢) •

واذا كنا قد تحدثنا عن أهم الآثار الاسلامية والمسيحية في سيناء التى تتمثل في كل من المسجد والكنيسة ، نقول ان اقامة الجامع الى جانب الكنيسة يعكس وحدة أزلية رائعة يتعانق فيها الهلال مع الصليب • فبينما المسلمون يؤدون فروض الصلاة في المسجد أيام الجمع والأعياد ، يؤدون المسيحيون شعائر العبادة في كنيسة الدير في أيام الآحاد والمناسبات الدينية المقررة • وكان كل منهما يكن للآخر حبا ومودة واحتراما على مدى الأجيال والقرون • هذا ، بينما أسبغت السلطات العربية حمايتها على الدير ورعايتها لرهبانه الذين يقومون بايواء العرب المقيمين في ضواحيه ، ويتولى أولئك العرب بدورهم حماية الرهبان من الاغارات التى كانوا يتعرضون لها بين وقت وآخر(٢٣) •

---

(٢٢) حول اهم التاثيرات الاسلامية في دير سيناء ، انظر السيد عبد العزيز سالم : الاثار الاسلامية في دير سانت كاترين ، ص ٦ ــ ٨ •

(٢٣) تلقى الوثائق العربية التي ترجع الى العصور الفاطمي والايوبي والمملوكي ، والمحفوظة بمكتبة دير سيناء ، اضواء ساطعة على هذا التماسك المتين بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة ، وعلى سياسة التسامح التي عاش في ظلها رهبان الدير • انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي ، ص ١٨٤ وما بعدها و ١٨٧ وما بعدها •

المخطوطات العربية فى سـيناء واهميتها :

بعـد أن أشـرنا الى أهم الآثـار الاسـلامية والمسيحية التى توجـد في شبه جزيرة سيناء ، والتى ترجـع الى الفترة الوسيطة من التاريـخ ، نلقى بعض الأضواء على المجموعة الخطيـة العربية المحفوظة بمكتبة الدير ، والتى تمتاز بقيمتها التى يصعب تقديرها •

تحتوى المكتبة على مجموعة نادرة من المخطوطات التى دونت فيمـا بين القرنين الثـامن والتاسـع عشر للميـلاد • ويبلـغ عـددها حـوالى ٤٥٠٠ مخطوطـة مكتوبة باثنتى عشرة لغـة هى : العربيـة ، واليونانيـة القديمة ، والسريانيـة ، والقبطية ، والجورجيانية ، والحبشية القديمـة ، والتركيـة ، والفارسية ، والأرمينية ، واللاتينية ، والسلافونية ، والبولونية(٢٤) • وتحتل مجموعة المخطوطات العربيـة التى يبلغ عـددها ٦٠٠ مخطوطـة مكانة بارزة من بين هـذه المخطوطات(٢٥) • اذ تتنـاول دراسـات تمتاز بقيمتها البالغـة في النواحى العلمية والتاريخية والفلسفية والفكرية والثقافيـة • وهى تضـم كتبا عـديدة فريدة في نوعها تزود الدارس المتخصص بقدر كبير من المعلومات في شتى أفرع الحضـارة الانسـانية ، كمـا تزوده بالعـديد من الموضوعات

---

(٢٤) يدل تعدد لغـات المجموعة الخطيـة المحفوظة بمكتبة سيناء على تعـدد الاجناس التى عاشـت فى الديـــر في مختهف العصـور • انظر احمـــد محمد عيسى : « مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بســيناء » ــ مقـــال بالمجـــلة التاريخية المصرية ــ المجلد الخامس (١٩٥٦) ــ القاهرة : ١٩٥٦ ، ص ١١٩ ٠

(٢٥) عدد مخطوطات المجموعة العربيـــة اصلا ٦٩٧ مخطوطة ، منـها ٣٦ فـــاقد و ٥٩ كتابا مطبـوعا ادرج ضمن المخطوطات ، ومخطوطات قبطية اخـرى فارسية ادرجتـا ايضـا خطا ضمن المجمـوعة العربيـــة • وعلى هـذا يكون مجمـوع المخطوطات العربية المتبقية بالدير ٦٠٠ مخطوطة فقط • انظر جـوزيف نسـيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٩ ٠

في ميادين متشعبة من الدراسات الانسانية مثل التاريخ والقانون والفلسفة ، الى جانب الطب والعلوم والفلك والموسيقى وغيرها •

وقد دون غالبية هذه المخطوطات في الفترة الوسيطة من التاريخ ، وهي تشمل على كتب مدونة بأنواع عديدة من الخطوط العربية ، تمدنا بقدر كبير من المعلومات المتعلقة بالخطوط العربية ، وتزودنا بمادة قيمة عن نمو هذه الخطوط وتطورها والأشكال المختلفة التى كانت تكتب بها ، من كوفي ونسخي ورقعة ونستعليق وثلث وتعليق • كذلك تتميز أغلفة بعض هذه المخطوطات بزخارفها ونقوشها وحلياتها التى يبدو فيها الأثر العربى واضحا • وتنتهى معظم هذه المخطوطات أيضا بخواتيم ، أى نهايات ، تلقي الضوء على قصة الدير وتنظيمه الادارى على مر العصور ، وتمدنا بسجل حى متحرك لكثير من التفاصيل الهامة المتعلقة بالحوادث العامة أو المحلية في فترات عديدة من التاريخ ، أغفلتها المصادر التاريخية أو مرت عليها مر الكرام • كما أنها تعرفنا أحيانا بأسماء كتاب هذه المخطوطات أو مترجميها أو ناسخيها أو ناقليها ، وما الى ذلك من بيانات ومعلومات هامة قيمة مثل مصادر المخطوطات ، وهل هى أصليه أو منسوخة • ثم أن هذه الخواتيم الواردة في كثير من المخطوطات العربية ، تعدد مختلف التقاويم أو التآريخ المعروفة حسب تسلسلها زمنيا وهى : تاريخ العالم المعروف بتاريخ آدم أو الخليقة ، وتاريخ الاسكندر اليونانى ، والتقويم الميلادى اللاتينى ، والتاريخ القبطى المعروف بتقويم الشهداء ، والتقويم الهجرى • وهذه التقاويم تشكل عناصر هامة لدراسات خصبة لموضوعات نادرة •

ولا تقتصر أهمية المجموعة الخطية العربية على ما ذكرنا فحسب ، فجانب كبير من مخطوطاتها مليء بالتعليقات الاضافية الهامة المحشورة بين السطور أو المدونة بالهوامش الجانبية • وهى تمتاز بقيمتها الفائقة ، اذ تتناول معلومات عامة من أخبار وحوادث ، ومواليد ووفيات ، وسير وتراجم ، ووقائع

تاريخية ، ووصفات طبية ، ونبذ في الفلسفة والموسيقى والفلك والعلوم ، وما الى ذلك من نواحي المعرفة .

ويلاحظ أن معظم هذه المخطوطات مدون على ورق ، ولكن عددا قليلا منها مكتوب على رق غزال . ويوجد في المجموعة العربية عدد من هذه المخطوطات العتيقة المكتوبة على الرق ، وقد غسلت صحائفها من الحبر القديم لتكون معدة للكتابة عليها من جديد . وقد تصل طبقات الكتابة في عدد منها الى ست طبقات فوق بعضها يمكن التعرف على مضمونها . ونجد آثار المحو والازالة لا تزال باقية في عدد من هذه المخطوطات التى تعرف اصطلاحا باسم « المخطوطات المغسولة » . وهذه الظاهرة الهامة لا تزال بحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث(٢٦) .

ولعل أهم ما يلفت النظر في معظم المخطوطات العربية ذات الطابع المسيحى ، هو وجود التأثيرات العربية الاسلامية فيها . وتبدو هذه التأثيرات واضحة بعد أن أصبحت شبه جزيرة سيناء بديرها وآثارها تابعة للسيادة العربية . فكان كثير من المخطوطات العربية المسيحية العتيقة تستهل بالبسملة وتختتم بالحمدلة وتؤرخ بالتقويم الهجرى . والأمثلة على ذلك كثيرة . اذ تبدأ أسفار الكتاب المقدس عند المسيحيين في كثير من هذه المخطوطات كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم نبتدى بعون الله ونكتب أول سفر ... ان أول ما خلق الله السما والأرض .. الخ »(٢٧) .كما أطلق

---

(٢٦) تناولت هذه النقاط في شيء من التفصيل والتحليل في بحث لي بعنوان « دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء » ص ٩٨ ـ ١٣٦ . انظر ايضا عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسيناء العربية ـ ج ١ ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٢٧) انظر مخطوط رقم ٢ سيناء ـ عربي ، موضوعه « سفر التكوين » ، تاريخه سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٠م ، كاتبه مجهول ، ورقة ٢ ا ، وكذلك مخطوط رقم ٣١ سيناء ـ عربي ، موضوعه « مزامير وتسابيح » ، تاريخه ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م ، كاتبه مجهول ، ورقة ٣ ب .

على كثير من الرسـل والقديسين المسيحين اسم « المصطفى » بدلا من كلمة « البشير » أو « الانجيلى »(٢٨) . كذلك ازدانت كثير من تلك المخطوطـات وأغفلتها بنقوش ورسوم وزخارف ملونة ، على هيئـة طيور وورود وأزهـار وتوريقات نباتيـة أو اطارات وأفاريز على النسق العربى(٢٩) . والخلاصـة أن اللغـة العربيـة بحصيلتها اللغوية الخصبة وأسلوبهـا الجزل وتعبيراتهـا السلسة المتدفقة ، ومفرداتها الغنيـة ، قـد طعمت المخطوطات العربيـة ذات الطـابع المسيحى ، فأكسبتها رونقا وبهاء وتعبيرا سليما قويا كانت تفتقر اليـه من قبـل .

هـذه أضواء جـديدة تسلط لأول مرة على مخطوطات طورسينا العربية ، يصـح أن تكون مجـالا لدراسـات مستفيضـة قائمة بذاتها ، تخدم ناحية من نواحى البحث العلمى ، وتضيف الكثير الى العلم والتاريخ(٣٠) .

وثائق سـيناء العربية وقيمتها التاريخية :

واذا كنا قـد تحدثنا عن المجموعة الخطية العربيـة بسيناء وأهميتها التى تتمتع بها ، فهنالك مجموعة أخرى لا تقـل عنها أهمية هى الوثائق التى تحتفظ بها مكتبة الدير ، والتى تتميز بجدتها وأصالتها ، فضـلا عن أن الجانب الأكبر

---

(٢٨) انظر جوزيف نسيم يوسـف : « بسـتان الرهبـان : عرض وتحليل نسخه الخطيـة العربيـة غير المنشـورة المحفوظة بمكتبـة دير سـيناء » ـ مقـال بمجلة كليـة الاداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٣ ـ الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥٩ ح ١٠

(٢٩) انظر ، على سـبيل المثـال ، المخطوطات العربيـة بسـيناء التي تحمل رقـم ٦١ و ٦٨ و ٧٦ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٤ و ٨٧ و ٩٠ و ٩٢ و ٩٥ و ١٠٠ الخ . والتي يبدو فيـها الطابع العـربي جليـا وضحا . راجـع مقـالي « دراسات في المخطوطات العربيـة » ، ص ١١٠ و ١١٢ ومـا بعدهـا .

(٣٠) حول الجـديد في المجموعة الخطيـة العربيـة بطورسـينا ، انظر مقالي « دراسات في المخطوطات العربيــة » ، ص ١٠٣ ومـا بعدهـا و ١٣٦ .

منها لم ينشر بعد • ويبلغ عددها ١٧٤٢ وثيقة ، منها ١٠٧٢ وثيقة باللغة العربية و ٦٧٠ وثيقة باللغة التركية • وهى تشتمل على عهود ومراسيم وصكوك ومنشورات وفرمانات ومعاهدات وفتاوى وحجج ومحاضر وأوامر ادارية ومتنوعات(٣١) • وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بصور ميكروفيلم لها يمكن للباحث المتخصص الرجوع اليها والافادة منها(٣٢) •

وأهم الوثائق العربية هى تلك الصادرة من ديوان الانشاء بمصر في عهود الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين الى الدير ورئيسه ورهبانه • وهي تلقى الضوء على طبيعة العلاقات بين رهبان الدير وبعضهم البعض ، وبينهم وبين العرب المحيطين بالدير ، وبين هذه الأطراف والسلطات المسئولة في مصر • ثم أنها تكشف عن الوضع الاقتصادى لمنطقة سيناء في العصر الاسلامى الوسيط • وهى ، فوق هذا وذاك ، تكشف عن سياسة التسامح التى سارت عليها السلطات العربيه حيال أهل الذمة • لقد أوضحت بجلاء أن رهبان طورسينا كانوا يعيشون في ديرهم النائى ، وهم هادئين آمنين مطمئنين ، دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه ، مع تأمين طريق الحجاج الذين كانوا يقومون بحجهم الى هذا المكان المقدس • لقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق في أمور الدين وفي الحريات الشخصية • وذلك يرجع لما انطوى عليه الدين الاسلامى من روح التسامح والمحبة لا سيما مع أهل الذمة • ويبدو هذا بجلاء في جميع الوثائق العربية المشار اليها •

---

(٣١) انظر مراد كامل : فهرست ديرسانت كاترين بطورسيناء ــ الجزء الاول ــ القاهرة ١٩٥١ ، ١٢٩ ــ ٢٣٣ •

(٣٢) جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٨١ ، و « دراسات في المخطوطات العربية » ، ص ٩٧ •

ففي منشور يرجع الى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) ، صادر من ديوان الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) الى اسقف طورسينا ورهبانه ، جاء ما يلى :

« ••• انه لما كان من شيمنا ازالة المحرمات وتعقبة إثارها ، والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من يحتوى عليه نطاق مملكتنا من اهل الدمة ، واعتمادهم بما يسبغ عليهم ملابس الحنو والرحمة • تساوى في عدلنا الصغير والكبير ، وشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير ••• »(٣٣) •

وفي منشور آخر صادر بتاريخ ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م من ديوان الملك العادل ابى بكر بن ايوب الى رهبان طورسينا ، جاء بعد البسملة والافتتاحية :

« ••• انا لم نزل ولله الحمد نذب عن الرعايا الذين فوض الله تعالى أمرهم الينا ، وأحالت الشريعة الطاهرة في حياطتهم علينا • فنكف كف الأذى عنهم ، ونجازى على الاحسان من سلك طريقه منهم • فنقيل عثرتهم ، ونكشف كربتهم وغمتهم ، ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم ومسيسيهم ، وساكنى الصوامع من زهادهم ، والمنقطعين بالأديرة من عبادهم ••• »(٣٤) •

دور جامعة الاسكندرية فى الكشف عن اثار سيناء وكنوزها :

لقد اجتذبت الكنوز والآثار الاسلامية والمسيحيه في سيناء ، أنظار الدارسين والباحثين من مختلف أنحاء العالم الذين يغدون الى المنطقة بقصد

---

(٣٣) انظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء ــ عربي ، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم ، تاريخ ربيع الثاني ٥٥١ هـ (مايو ــ يونيو ١١٥٦ م) ، الاسطر ١٢ ــ ٢٠ •

(٣٤) انظر الوثيقة رقم ١١ سيناء ــ عربي ، مقاس ٥٤٢ × ١٩٫٥ سم ، تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) ، الاسطر ١٤ ــ ٢٣ •

الدراسة والبحث • ولجامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية دور كبير في تسليط الأضواء على تلك النفائس من النواحي التاريخية والاثرية والفنيه • اذ أسهمت في منتصف هذا القرن بدور بارز في هذا المضمار • ففى سنة ١٩٥٠ م قامت بعثة علمية من كلية الاداب بالاسكندرية بتصوير اهم مخطوطات الدير ووثائقه • وكان على رأسها المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادي أول عميد لاداب الاسكندرية • وقامت البعثه بالفعل بعمل صور ميكروفيلم لاهم هده الوثائق والمخطوطات •

وتوالت بعد ذلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع بعض الهيئات العلمية بالخارج ، لاستكمال العمل الذى بدأته بعثة سنة ١٩٥٠ م •وكانت آخرها بعثة سنة ١٩٦٣ م التى قامت بها كلية الآداب ، وكان على رأسها المرحوم الدكتور احمد فكرى استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بآداب الاسكندرية سابقا • وكان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصة الاشتراك في هذه البعثة الأخيرة ، حيث قمت بزيارة منطقة سيناء وآثارها مرتين في أواخر سنة ١٩٦٣ م • وتهيأت لى فرصة مشاهدة معالم المنطقة ، والاطلاع على عدد غير قليل من الوثائق والمخطوطات التى تحتفظ بها مكتبة الدير(٣٥) •

بحوث ودراسات جادة قيمة عن سيناء واثارها وكنوزها

ولقد أثمرت تلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية الى منطقة سيناء ، اعتبارا من سنة ١٩٥٠ م وحتى أواخر سنة ١٩٦٣ م ، بظهور العديد من البحوث والدراسات الجادة القيمة ، عن سيناء وآثارها ووثائقها ومخطوطاتها • ونشرت هذه البحوث في المجلات والدوريات

(٣٥) للمزيد من المعلومات عن هذه البعثات العلمية وتواريخها وما حققته من انجازات ، انظر مقالى « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٧٩ ح ٢ و ١٨٠ ح ٢ •

العلمية ، وزودت المكتبة العربيـة بمادة قيمة من الطراز الأول ، عن المنطقـة وجغرافيهـا وتاريخهـا وآثارها • كذلك ظهرت مقـالات عـديدة باللغـات الأجنبية في الخارج ، بقلم علماء زاروا المنطقة وقاموا بدراسـات أثرية وفنية وتاريخية فيها ، وهي تكشف عن عظمة تراثنا القومي العربي في هـذه المنطقـة الهامـة من الوطن العربي(٣٦) •

وأخيرا ظهر في المكتبـة العربيـة الجزء الأول من الفهارس التحليليـة لمخطوطات طورسينا العربيـة • وهو يتضمن فهارس كاملة مع دراسـة وصفية تحليليـة دقيقـة لثلاثمائة مخطوطة تشـكل نصف عـدد المجموعة الخطيـة العربيـة • وقـد قمنـا باعـداده وتزويـده بكشـاف علمي مصنف يسهل للباحثين عمليـة البحث فيـه(٣٧) • وسوف يصـدر الجزء الثـاني والأخير متضمنا فهارس باقي المجموعة في القريب باذن الله •

---

(٣٦) من الصعب عمل حصر شامل للعـلماء الذين زاروا المنطقة واثروا المكتبـة العربيـة بدراساتهم الجـادة عن مخطوطات سـيناء ووثائقها وكنوزها وآثارها الفنيـة والمعمارية • ولكن نذكر من بين هؤلاء الاسـتاذ كورت فايتزمـان Kurt Weitzmann ، والاسـتاذ جـورج فورسايث George Forsyth ، والاسـتاذ عزيز سـوريال عطية • كما ظهرت بمجـلة كليـة الاداب بجامعـة الاسكندرية في اعـدادها المتعاقبة عـدة بحوث لاسـاتذة متخصصين في الميـادين التاريخيـة والاثرية والفنية ، من بينـها اكثر من دراسـة لكاتب هذا البحث •

(٣٧) انظر عزيز سـوريال عطيـة : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية : فهارس كاملة مع دراسـة تحليلية للمخطوطات العربيـة بدير القديسـة كاترينه بطورسـينا ــ ترجمة وتقديم وتعليق د• جوزيف نسيم يوسف ــ الجزء الاول ــ الاسـكندرية ١٩٧٠ • وقد ظهر عرض وتقريظ لهذا المجـلد في احدى الدوريات العلميـة التي تصـدر في المـانيـا واسمها « الاسلام » • انظر :

Der Islam: Zeitschriff fur Geschichte und Kultur des islamischen Orients, Band 49, Heft 1, Berlin, Juni 1972, P. 140.

وتمثل هـذه الفهارس الجامعة المانعة التى ترى النور للمرة الأولى ، لتحتل المكانة اللائقة بها بين المجموعات البيليوجرافية المعاصرة ، تمثل أول دراسة تفصيلية نقدية كاملة لمحتويات المجموعة الخطية العربية بسيناء التى تتميز بشهرتها العالمية الفائقة . فضلا عن أنها تسجيل علمي دقيق لهذا التراث الانسانى القيم وحفاظا له من العبث أو الضياع . وسوف تضع هذه الفهارس في متناول الباحثين والمستشرقين ، والمعنيين بالدراسات العربية والتاريخية والفلسفية واللاهوتية ، في شتى أنحاء العالم ، أتم وأدق معلومات تتعلق بهذا التراث الدائم العظيم . وسوف تتيح لكل منهم امكانيات خصبة واسعة في مختلف مجالات البحث العلمى .



أضواء على مؤلفات علي بن الحسن الخزرجي المؤرخ اليماني

بقلم/ القاضي اسماعيل بن علي الاكوع

رئيس الهيئــة العــامة للآثار ودور الكتب

حينما ذهبت الى بريطانيـا في ربيع سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ملبيا دعوة قسـم الدراسـات العربيـه في جامعـه كمبردج للاقامـة بهـا سـتة اشهر متفرغا . كنت اقضي معظم ايام الاسبوع في مكتبه الجامعة الشهيرة للاستفاده مما يوجـد فيها من مخطوطات عربيـه نادرة ومطبوعات عربيـه ايضـا ـ فبحثت في فهارس المخطوطات العربيـه عما يوجـد فيها من مؤلفات يمانية .. فكان أول ما وقع عليـه الاختيار هو (العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اهل اليمن) رقم (٧٢) من مخطوطات كلية الملك (King Coiloge ms12) فطلبت من القيم على المخطوطات احضاره ـ وسرعان ما وضعه أمامي فاخذت أتامله فاذا هو الجزء الثاني من (العقد الفاخر الحسن) لشمس الدين على بن الحسن الخزرجي المعروف بابن وهاس المتوفي سنة ٨١٢ ـ ويبدأ هـذا الجزء بحرف الظاء من منتصف الصفحة الاولي في الكتـاب وينتهي بنهايـة البـاب الثـلاثين وهو باب النسـاء ، ويحتوى على ذكر جمـاعه من أعيـان نسـاء اليمن . فاعتقدت بادى ذى بدء ، انه كتـاب جـديد غير معـروف للنـاس ، ولكن كيف يخفى مثـل هـذا الكتـاب وهو في مكتبـة مشهورة وفهرس مخطوطاتها متداول ؟ ، وبعـد طول تأمل وجدته شبيها بكتاب (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيـان اليمن) للخزرجي نفسـه في اسـلوب تبويبه وترتيب تراجمه ومنهجه ، وأنه لا يختلف عنه ألا في التسمية فقط .

ثم رجعت الى ترجمة المؤلف في ابنـاء العمر ٤٤١/٢ للحافظ ابن حجر ، وشذارات الذهب ٩٧/٧ للحنبلي . والضوء اللامع ٢١٠/٥ للسخاوى للتأكد

من معرفة مؤلفاته ـ فوجدت أنهم متفقون على انه اشتغل بالأدب ، ولهج بالتاريخ فمهر فيه ، وجمع لبلده تاريخا كبيرا وآخر على الحروف وآخر في الملوك ، ولم يدر اسماء تلك الكتب الا آن السخاوي آضاف عند ذكره وآخر على الاسماء فقال : يعني المسمي (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) وسماه أيضا (العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اهل اليمن) ..
كما رجعت بعد عودتي الى صنعاء الى ترجمته في تاريخ البريهي من أعيان المائة التاسعة فقال في ترجمته : وله بعد الثلاثين وسبعمائة(١) وعمل في زخرفة المدارس والدور الملوكية وأسمه مثبت في بعض المدارس كالمدرسة الأفضلية ، وربما فوض اليه مباشرة العمارة من السلطان وذكر أنه من جملة المزخرفين في دار الديباج بثعبات .. ثم قرأ في الأدب ونظم الشعر خصوصا في التعصب للقحطانية .. ثم قال وصنف العسجد يشتمل على تواريخ عدة أدخل بعضها في بعض ، وله ترتيب فقهاء اختصار الجندى(٢) أجاد فيه ورتبه على الحروف فجاء في ثلاثة مجلدات ، ولم يذكر اسم هذا الكتاب(٣) .
ثم رجعت الى ترجمته في « هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين » لاسماعيل باشا البغدادى ٢/٧٣٨ .

فقال : من تصانيفه تاريخ اليمن مرتب على السنين . ديوان شعره ، طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن(٤) (العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن) (العقد اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية) (مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن) وغير ذلك فذكر (العقد الفاخر) على

---

(١) مولده سنة ٧٣٢ كما اخبره عن نفسه في كتابه (العقد الفاخر الحسن) في ترجمة علي بن احمد بن موسي بن علي الجلاد .

(٢) اى (السلوك في طبقات العلماء والملوك) .

(٣) هو طراز اعلام الزمن .

(٤) سماه البغدادى طراز اعلام اليمن نقلا عن السخاوى وهو خطا . والصحيح في اسمه (طراز اعلام الزمن) كما ذكره موءلفه في ديباجته .

أنه كتاب آخر غير (طراز أعلام الزمن) .. وكنت قد رجعت الى كتاب (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) نسخة المتحف البريطاني رقم (٢٤٢٥ شرقي) لأستبين منه الرشد في معرفة حقيقة التسميتين فقال في مقدمته : فصل في تقرير قواعد الكتاب ، أعلم ايها الناظر ـ وفقنا الله واياك ـ أن اول ما بدأنا به في كتابنا مقدمة في ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ هو المقصد الأسنى ، والغاية الحسنى الى أن يقول : وبعد ما يتفق من تمام ذكره وانقضاء عمره أذكر خلفاء الاسلام فأبدأ بأبي بكر الصديق رضي الله عنه .. واختتم بالمعتصم عبد الله بن المنتصر العباسي ، واحدا بعد واحد على ترتيبهم المعروف . لكل منهم فصل أذكر فيه تاريخ وفاته وما حدث في أيام مدته ، وأختتم المقدمة المذكورة بفصول أخرى أذكر فيها من ولي الخلافة بعد المعتصم ان شاء الله تعالى وبه التوفيق . ثم أشرع بعد ذلك في مضمون الكتاب ، وأرتب الاسماء المذكورة على ترتيب حروف المعجم في اصطلاح اليمن ـ فأبدأ بالألف التي هي صورة الهمزة ، ثم الباء ، ثم التاء ، ثم الثاء ، ثم الجيم ، ثم الحاء ، ثم الخاء ، ثم الدال ، ثم الذال ، ثم الراء ، ثم الزاى ، ثم السين ، ثم الشين ، ثم الصاد ، ثم الضاد ، ثم الطا ، ثم الظاء ، ثم العين ، ثم الغين ، ثم الفاء ، ثم القاف ، ثم الكاف ، ثم اللام ، ثم الميم ، ثم الواو ، ثم النون ، ثم الهاء ، ثم الياء .

ثم قال ـ وجعلت المسمين بالكنى كأبي بكر . وأبي الغيث ، وأبي السرور ، وأبي عمر ، وأبي زيد في باب آخر بعد أبواب الحروف المذكورة ، ثم أختم الكتاب بباب أذكر فيه مشاهير النساء فيصير الأبواب ثلاثين باباً لحروف المعجم ، وباب للمسمين بالكنى ، وباب للنساء ، ثم قال : فصل ، وأعلم الناظر الناظر ، وفقنا الله واياك ، أن كتابنا هذا انما هو مأخوذ

في الغـالب من كتـاب الفقيـه الامام الفاضـل وحيد عصره ، وفريد دهره ابي عبد الله محمد بن يعقوب ابن يوسف الجندى الملقب بهاء الدين صـاحب التاريخ المعروف ، فأنه امامنا المشهور ، وشيخنا المذكور ــ وأنما تبعنا أثره ، وصـدقنا خبره ، واغترفنـا من فضـالته ، وشربنا بدلائه • ولولاه ما خضنا هـذا البحر ألعميق ، ولا وجدنا الى هـذا المنزل طريق • فرحم الله مثواه ، وبل بوابل الرحمة ثراه ، مـع ما فيـه من التسـامح في العبـارة ، والتجوز في اللفظ • والـذى يظهر لي أنه اخترم قبـل تهذيبه ، وعوجـل قبل تنقيحه وترتيبه ، فصار كالرمال المجتمعة في الفلاة المتسعة لا يعلم السالك فيها سبيلا •

ولا يجـد أحذ من الناس دليلا ، فاستخرت الله تعـالى في ترتيب مبانيه ، وتقريب معانيـه وجمع منتشرة ، وانتقاء دوره وجوهره ، مع ما اضم اليـه من زيادات حسنة ، وروايات مستحسنة ليسهل فتشـه ، ويظهر نفعـه ، وتعم فائدته ، ويحسن وضعه • وسميته (طراز أعـلام الزمن في طبقـات أعيـان اليمن) •• وقـد انتهى هـذا المجلـد الاول الموجود في المتحف البريطـاني عند نهاية حرف الحـاء •

وهـذا الوصف الذى ذكره في مقدمـة الكتـاب كمنهج له هو ما سـار عليـه وما ينطبق على العقد الفاخر فتبين أن المؤلف لم يقتصر على تلك التسمية التى وردت في ديباجة الكتـاب • بل انه سماه ايضـا (العقد الفاخر الحسن في طبقت أعيـان اهل اليمن) • وأن التسميتين كلتيهما هما اسـم لكتـاب واحـد ، وليس لكتابين مختلفين •• كما يوحي اختـلاف التسميتين ــ الأمر الذى دعا اسماعيل باشـا البغـدادى في كتابه (هدية العـارفين) أن يذكر للخزرجي في ترجمتـه في صـدد ذكر مؤلفـاته • مؤلفين أحـداهما باسـم (طراز أعـلام الزمن) والأخر باسـم (العقـد الفاخر الحسن) ، كما تقـدم ذكر ذلك ثم تبين لي بعـد عودتى الى صنعاء أن نسخة مكتبة جامعة كمبردج ليست الوحيـدة للجزء الثـاني للعقد الفاخر •• فهناك في المكتبة الغربيـة

في الجامع الكبير بصنعاء نسخة قديمة تبدأ بترجمة (ابو العلا بن عبد الله بن محمد بن العلا) وتقع في ٤٦٥ صفحة : كتب اكثرها الى صفحة (٣٣٦) بخط أقرب ما يكون شبيها بخط المغاربة ، وبقية الكتاب كتب بقلم مؤلفها . وقد فرغ المؤلف من تبييض آخر الكتاب سنة ٨٠١ أي قبل وفاته بأحدى عشر سنة .

وما دام قد انتهى اللبس في قضية (العقد الفاخر الحسن) فلابد لنا من وقفة قصيرة عند مؤلفات الخزرجي الأخرى . فقد سبق ذكر ما قاله مترجموه بأنه جمع لبلده تاريخا كبيرا ، وآخر على الحروف ، وآخر في الملوك . فالتاريخ على الحروف أو الاسماء هو (طراز أعلام الزمن) (والعقد الفاخر الحسن) اذا فما اسم تاريخه الكبير ؟ وتاريخه في الملوك ؟ . أغلب الظن أن التاريخ الكبير هو (الكفاية والأعلام من ولى اليمن وسكنها في الاسلام) — مع أن له كتابا آخر اسمه (العسجد المسبوك ، والجوهر المحبوك(٥) في اخبار الخلفاء والملوك) ينسب اليه وهو مثل (الكفاية والأعلام) ولعل تاريخه في الملوك هو (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) .

وهنا تبرز قضية خطيرة وهي (أن العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤية) منسوبان الى الملك الاشرف اسماعيل بن العباس المتوفي سنة ٨٠٣ فقد روى السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٢/٢٩٩ في ترجمة الاشرف قوله : وصنف (العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك) و (العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية) .

في حين أن بعض النسخ من (العسجد المسبوك) منسوب الى الخزرجي والبعض الآخر منسوب الى الملك الاشرف . فكيف يمكن الاهتداء الى الحكم الصحيح في هذا الأمر ؟ .

لقد كان الخزرجي معاصرا للملك الاشرف، ومن رجال دولته ، وقد طلب

---

(٥) وفي بعض النسخ والجوهر المحكوك .

أى ملك الاشرف من الخزرجي ـ كما يقول في مقدمـه كتابه (طراز أعـلام الزمن) .. أن اجمع له في كتـاب أعـلام اليمن وكبرائها وملوكها وأمرائهـا وعلمائها وعبادها ورؤسـائها وزهادها . ثم قال الخزرجي فلمـا صـار ـ أى الكتـاب ـ بين يديه أدار نظره فيه وتأمل .. ثم تمثل بقول الأول :

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء .

ثـم ذكر عـددا كبيرا من عزب عنى ذكره ، وشذ عني خبره ومخبره . ثم قال له : صنف الجميع كتابا ، ورتبه فصولا وأبوابا .. ثـم سـاق كـلامه الى أن يقول الخزرجي : وشرعت في جمعه كما رسم ، ووضعه كما أمر وألزم .

ولا يبعد أن يكون الملك الاشرف قـد أمر الخزرجي بتصنيف (العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤيـة) فقـام بذلك ، وفق خطـة رسمها له الملك الاشرف .. فالسخاوى يـذكر في كتابه (الضوء اللامع) في ترجمـة الملك الاشرف بعـد أن ذكر أنه صنف (العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤية) ما يلي : ـ وذلك أنه كان يضـع وضعا ، ويحـد حـدا . ثم يأمر من يتمه على ذلك الوضـع ويعرض عليه . فما ارتضـاه أثبته ، وما شذ عن مقصوده حذفه ، وما وجده ناقصـاً أتمه .

فهـذا يجعلنـا نميـل الى أن الخزرجي قـد صنف الكتـابين للملك الاشرف وقـد مهما اليه ، بعـد أن فرغ منهما معا ، أو من كل واحـد منهما على حـدة ليرى رأيه فيهما .. ولعل السخاوى قـد رأى الكتـابين في مكتبة الملك الاشرف يحملان اسمه حينما قـدم الى اليمن في عصـر الملك الاشـرف فنسبهما اليـه واجتمع السخاوى ايضـا بالخزرجي .. واعتقد ان الخزرجي قـد احتفظ لنفسـه بنسخة مماثلة من العسجد المسبوك ، وأضاف اليه ما جد من الأخبـار بعـد وفاة الملك الاشرف حتى آخر عهد للخزرجي بالتأليف .. ونسبه اليـه بعـد أن أدخل عليـه بعض التعديل مثـل قال على بن الحسن الخزرجي عامله الله بما هو اهله ، بدلا من قال الملك الاشرف .. الخ .

فما تقل عن نسخة الملك الاشرف نسبت اليه • وما تقل عن نسخة الخزرجي نسبت اليه ومن هذا جاء اللبس في انتساب (العسجد المسبوك) الى الملك الاشرف تارة • والى الخزرجي تارة أخرى •

وهناك كتاب آخر منسوب الى الملك الاشرف اسمه « كتاب فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب ـ والفن في أخبار من ملك اليمن » رأيته وأطلعت عليه في مكتبة (جون ريلاندز) في مدينة مانشستر تحت رقم (١٩) ٢٥٣ عربي • وقد صدره بالفصل الثاني في ذكر اسلام اهل اليمن وذكر عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم • وبدأه بحديث « عليكم باليمن اذا هاجت الفتن » الحديث وختمه بالفصل الثاني عشر من ذكر دولتنا وحوادث حدثت في صدر مدتنا « كما يقول الاشرف نفسه وقد انتهى بحوادثه الى سنة ٨٠٢ أى قبل وفاته بمدة يسيرة • • وقال الناسخ للكتاب نجز التاريخ المبارك بمدينة صنعاء اليمن • وذلك في يوم الجمعة المشهورة فضلة أول شهر ذى القعدة الحرام سنة ٩٨٥ •

ولم يكن في الكتاب خطبة • كما ان اسم الكتاب ونسبته الى الملك الاشرف مكتوب بخط مغاير لخط الكتاب • فاذا كانت هذه التسمية صحيحة ـ فأغلب الظن أن الملك الاشرف قد أمر من يستنسخ له نسخة مختصرة من نسخته من العسجد المسبوك لأنه شبيه به في منهجه وسياق كلامه وترتيب فصوله وعباراته ـ وسماها (فاكهة الزمن) مع أني أرجح أن التسمية طارئة وانها ليست من كلام الملك الاشرف • لان المترجمين له لم يذكروا له هذا الكتاب بتاتا وأما العقود اللؤلؤية ـ فأني أرى ـ اذا كان السخاوى قد اطلع عليها منسوبة الى الملك الاشرف فذكرها له في ترجمته ـ أنها اختفت أو فقدت ولم يبق الا ما احتفظ به الخزرجي لنفسه منها وأضاف اليها ذكر وفاة الملك الاشرف حيث ختم بها الكتاب ، ونسبها الى نفسه •

هذا ما وصل اليه اجتهادى • والله أعلم بالصواب •

دور ابن زيـدون السياسي والدبلوماسي

في الاندلـــــــس

في عصر ملوك الطـوائف



الدكتور محمد حسين الزبيدى
أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الآداب بجامعة بغداد
وعضو اتحـاد المؤرخين العرب

الفصــل الاول

شهد القرن الرابــع والخــامس للهجره (القرن العاشر والحــادي عشر) للميــلاد في الاندلس احداثا جســاما وتطورات خطيرة فكانت بداية لغروب شمس الخلافة الاموية التى امتدت قرونا عــدة في شبه الجزيرة بلغت فيــه قمة المجد والحضــارة وقامت على انقاضها دول صغيرة سميت (دول ملوك الطوائف) حيث قسمت الاندلس الى اقاليم صغيرة مستقلة متنافرة كل مدينة تحــاول ان تمد نفوذها على الأخرى .

وقــد غلب كثير من هــذه الدويلات الاســلامية عــلى أمرها فأنقســم المسلمون على أنفسهم وأستنصروا اعــداءهم على بعضهم البعض . وســلموا البلاد والقــلاع والحصون واحــدا تلو الآخر الى اعدائهم وأمدوهم بالمعونة على اخوانهم ، وهكذا أودت تلك الأمور بذلك الملك العظيم .

لقــد كانت بدايــة انحــلال هــذا الملك العظيم من أول يــوم تولى فيه المستعين الخــلافة في منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ وكانت أيــام المستعين كما يقول ابن حيــان(١) شــداد نكرات صعابا مشئومات كريهات المبــدأ والفاتحــة قبيحــان المبــدأ والمنتهى) وقــد اقتصر حكمــه على قرطبــة وثلاث مــدن أخرى .

ثم جاء المستكفي الى الخلافة بعــد المستظهر وكان ضعيف الرأى ســاقط المرؤة يقول ابن حزم (انه لم يجلس للامارة منذ تلك الفتنة اسقط منه ولا انقص اذ لم يزل معروفا بالتخلف والبطالة اسير الشهوة عاهر الخلوة)(٢) .

وقــد صور لنا ابن حزم(٣) انقســام الدولة الى ممالك تصويرا دقيقــا فقال (فضيحة لم يقع الدهر مثلها اربعــة رجال في مسافة ثــلاثة ايام في مثلها

---

(١) ابن حيــان : الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥ .

(٢) البيــان المغرب جـ ٣ ص ١٤١ .

(٣) البيــان المغرب ج ٣ ص ١٤٣ .

يسمى كل واحـد منهم بأمير المؤمنين ويخطب له في زمن واحـد) : احدهم خلف الحصرى باشبيلية على انه هشام بن الحكم المؤيد والثانى محمد بن القاسم حمود بالجزيرة الخضراء والثالث محمد بن على بن حمود لمدينة مالقا والرابع ادريس بن يحيى بن على بسبته وقـد اراد هؤلاء الملوك ان ينفصموا انفسهم فتسموا ألقاب الخـلافة كما تناهبوا اشلاءها فكان منهم المعتضد والمـأمون الحسن ابن رشيد القيرواني فقال مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد الحسن ابن رشيد القيرواني فقال مما يؤهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسـد .

ولم يزل هؤلاء ملوك الطوائف في قتال مستمر يستعينون بعد وهم جميعا على بعضهم الى ان تولاها الضعف واستولى فرناند ملك قشتالة وليون عـلى قسـم من البـلاد ودفعوا بعض ملوك الطوائف الجزية وتبع فرناند الفونس السـادس وقـد اشغل البـلاد بحروبه وجيوشـه فأستغاث المعتمد بن عباد زعيـم ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغـرب فأغاثـه بجيش كبير هزم المسيحيين هزيمة منكرة في موقعـة الزلاقة .

كان الى جـانب هـذه الفوضى السياسية في البـلاد فوضى اجتماعيـة آخرى غذت الفوضى السياسية واشعلت نارها .

كانت العصبية القبليـة مستشرية في بـلاد الاندلس فكانت فروع القبائل القحطانيـة والعدنانية في نزاع مستمر ؛ وقـد حمـل العرب الفاتحون معهم هذه الحزازات واغرقوا الاندلس بثورات وفتن شغلت معظم تاريخ الجزيرة .

وفضـلا عن ذلك فقـد كانت هناك عصبية أخرى اعنف منهـا وأبعـد أثرا هي العصبية بين العرب والبربر . كان العرب ينظرون الى غيرهم من الامم نظرة استعلاء . فلمـا اعتنق البربر الاسـلام وأسهموا في فتوحاتهم سـاءهم استعلاء العرب عليهم واستغلالهم اياها . الامر الذى اثر في نفوسهم تأثيرا سيئا فقاموا بثورات عنيفـة عـديدة مدمرة لم يخل منها عصر امير أو خليفـة حتى

استقلوا أخيرا ببعض الاقاليم •

يضاف الى ذلك الخصومة الدينية والعنصرية التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا خاضعين لحكم المسلمين ام مستقلين عنهم على تخوم البلاد الشمالية ، وقد استغل هؤلاء سماحة الاسلام والمسلمين في التآمر على الاسلام والكيد له وانتهاز كل فرصة سانحة لذلك حتى تمكنوا من الاستيلاء على اطراف الاندلس فأبتلعوها أخيرا • وتاريخ الاندلس هو تاريخ صراع طويل ومرير بين المسلمين والمسيحيين سواء بأسبانها أو غيرها • وفي هذين القرنين (الرابع والخامس الهجريين رجحت كفة المسيحيين وفرضوا سلطانهم على المسلمين وقد رأينا كيف ان بعض افراد المسلمين كانوا يدفعون لهم الجزية أو يستنصرهم على بعضهم الآخر) •

والى جانب ذلك كانت هناك خلافات طائفية بين المسلمين أنفسهم فقد قامت دعوة شيعية قوية يناصرها الفاطميون في مصر والمغرب ضد الامويين في الاندلس وقد قامت ثورات حملت لواء هذه الدعوة ومنها ثورة شقي بن عبد الواحد(٤) وقد ظل عشر سنوات يناهض الامويين وقد سلبهم فيها الاستقرار والاطمئنان وقد ايده خلق كثير • وقامت حروب رهيبة بين الناصر والفاطميين ثم بينهم وبين الحاجب المنصور وقد تمكن الشيعة من تأسيس امارة لهم في عصر الطوائف سميت دولة بني حمود حكمها بنو حمود في هذا الجو المضطرب الهائج ولد ابن زيدون وعاش فيه فجاءت حياته مضطربة هائجة مثقلة بالاحداث العظام •

الفصل الثاني

ولد ابن زيدون(٥) في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ (في زمن الدولة العامرية في اول عهد المظفر بن المنصور) من اسرة كريمة تنتمي الى قبيلة بني مخزوم —

---

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ٥ ص ٣٤ ، ٣٥ •

(٥) هو احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي • ابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٣ •

وهي بطن من لؤي بن غالب من بطون قريش (٦) ــ في بيت من بيوت اعيانها وفقهائها • المعرفة باللغة والادب وكان ابوه من فقهـاء قرطبة المعدودين وكان غزير العلم واسـع الادب فصيحا جميل الاخـلاق واسـع الثـراء • كل ذلك مكنه من ان يكون ذا شـأن خطير في قرطبـة • فكان اولو الامر يستشيرونه في امورهم الخطيرة ويستفتونه في المشاكل من شؤونهم(٧) •

وكان جـده لامه صـاحب الاحكـام الوزير ابو بكر محمـد بن محمد ابن ابراهيم وكلمة صـاحب الاحكام تعني انه اشتغل بالفقه والقضاء(٨) •

اهتم هـذا الفقيـه العظيم بأبنـه منـذ نعومة اظفاره فاحضر له الادباء والمثقفين ووصـله بالعلمـاء والفقهـاء من اصحابـه وكان هو نفسـه اول اساتذته اذ كان متفنناً في ضروب العلم جم الروايه والمعرفة باللغة والاداب ، على ان تلمذته لم تطل فقـد توفي وابنـه في الحـادية عشرة من عمره سـنة ٤٠٥ هـ ــ ١٠١٤(٩) •

ثم لزم صديق ابيه العباس بن ذكوان من علمه وفقهه فقد كان عالي قرطبة الاول وامتـدت حيـاته بعـد ابيـه الى سنة ٤١٣ للهجرة • ومن اسـاتذته المشهورين ابو بكر مسـلم بن احمد وكان نحويا اديبا منفـدما في علم اللغـة والادب ورواية الشعر وقـد اعجب ابن زيدون وعكف على محل دروبه •

ومما لا شك فيه ان عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم بل هو من صنع قرطبة (سـاحة العلوم والآداب) او جامعتها الكبيرة وما كان يلقي فيهـا من الدروس وضروب العلم اذ كـان يختلف كثيره من شباب عصره الى العلماء والادباء هنـاك فينهل من معـارفهم وثقافاتهم ويأخـذ من آدابهم

---

(٦) النـويري : نهاية الادب ص ٣٣٥ •

(٧) ابن بشكوال : الصـلة ص ٢٥٤ ، ابن الابـار ــ التكملة ج ٢ ص ٤٤٥ •

(٨) شـوقي ضـيف ــ ابن زيدون ص ١٥ •

(٩) شـوقي ضيف ــ ابن زيدون ص ١٦ •

وعلومهم ما يتخذ به فكره ويصقل به لسانه(١٠) .

وعلى هذا نرى ان ابن زيدون كان موفقا غاية التوفيق في المهمة التى كان يوكلها اليه ابن جهور ، ولما رآه ابن جهور اهلا للوزارة رقاه اليها بل جعله ذا الوزارتين فكان منه بمنزلة السمير والوزير والمشير والسفير فكم انقذه الى ملوك الطوائف لامور سياسية ولمخابرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التى يوجهها او تدعو اليها علاقاته معهم او مع ملوك الأحيان . فأحسن ابن زيدون التصرف في ذلك وادام الصلة بينه وبين الامراء الآخرين وطور العلاقات ومتنها لذكائه ودهائه وقد ارتبط بصلات ودية مع عدد من امراء الطوائف كعبد العزيز صاحب بلنسية وباريس صاحب غرناطة والمظفر صاحب بطليوس وادريس بن حمود صاحب ملقة . وغلب على قلوب الملوك حتى كان كل ملك يخطب وده ويتمنى ان يقيم عنده ولكنه بعد انقضاء مهمته يرجع الى قرطبه . ويرجع سبب نجاحه في امور السفارة هذا النجاح الكبير الى تجاربه الكثيرة وسعة ثقافته وقوة عارضة وافتنانه ووسامة مظهره وجلال اصله .

وظل ابن زيدون في خدمة ابن جهور يخدمه بأخلاص وتفان فلم يبخل عليه بجهد او رأى او مشورة او عمل يؤديه ارضاء له وظل يشرب كؤوس الود صافية مترعة حتى قلب الدهر له ظهر المجن .

لقد اغاض الحاسدين مكانة ابن زيدون من ابن جهور وقربه من قلبه واعتماده عليه فبدأت تدب عقارب السعاية والوثاية والغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته . وبين من كانوا ينفون عليه شهرته الذائعة وفصاحته البارعة أو كانوا ينافسونه في غرامه أو فوزه بحب ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله . وقد نقموا عليه لانه نالهم بلاذع لسانه وسخريته منهم .

---

(١٠) شوقي ضيف : ابن زيدون ص ١٧ .

وتكالب عليه الحاسدون والحاقدون وتآمروا عليه حتى نجحوا لدى ابن جهور فحبسه وبقي في الحبس خمسمائة يوم .

الفصل الثالث

دور ابن زيدون الدبلوماسي :

لقد اسهم ابن زيدون في احداث عصره اسهاما فعالا في مدينة قرطبة وقد ادى دورا بارزا في الاحداث السياسية لمكانته المرموقة بين شباب قرطبه واصالة نسبه وانه ابن من ابناء سيوخها الاعلام . وان هؤلاء الشباب سئموا تلك الحياة القلقه المضطربة لكثرة القلق والفتن والاضطرابات

ومما لا شك فيه ان هذه الصفوة المختارة احدث تعطى رايها بتلك المتلاحقه التي نزلت بمدينة قرطبة .

الاحداث وتنتقد اساليب الحكم وسيطرة السلطان وسيطرته ، وكان لها راى مسموع بين الناس وسلطان على الشعب وقد هيا لها هذا المركز الاجتماعى المرموق الذى تمتعت به ان يؤثروا بسير الاحداث تاثيرا مباشرا فقد استطاعوا ان يعزلوا وينحوا امراء ويولوا آخرين غيرهم وان ينقلوا الحكم من اسرة الى اسرة وخير شاهد على ذلك اعادتهم سقوط الخلافة الاموية ومناداتهم بجمهورية يحكمها الشعب وترجع الى الشعب في احكامها .

ويبدو من ذلك ان ابن زيدون اسهم بنصيب كبير في هذه الاحداث والثورات المتلاحقة بل تزعم وقاد الثورة على خلافة بني امية واسقط الخليفة المعتمد آخر خلفاء الامويين في الاندلس واشترك بأقامة الحكم الجمهورى الذى جاء بابن جهور اميرا على قرطبة . ولعل لنكبه جده لأمه على يد اتباع الامويين وانصارهم اثرا هاما في الثورة عليهم والقضاء على حكمهم .

وقد أكد ابن بسام اسهام ابن زيدون في هده الاحداث بصورة مباشرة ومقالة « كان ابو الوليد من ابناء وجوه الفقهاء في قرطبة ايام الجمعة والفتنة وبرع ادبه وجاد شعره وعلا شأنه وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب »(١١) .

---

(١١) ابن بسام ـ الذخيرة . ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

على ضوء ذلك نستطيع ان نحدد دور ابن زيدون السياسي في تلك الاحداث اسهم بفصاحته وبلاغته النادرة وسعة علمه وثقافته في تفويض الجماهير وتأليبها في الثورة على السلطان وابراز عيوب الحكم والحاكمين والدعوة لابن جهور وجمع الناس حوله والتمسك به في تسلم الحكم وكان ذلك يتم بالاشادة بفضله وعدله وحكمته . وكان ابن زيدون خير من يجيد هذا الامر باسلوب جميل وتيق وبلاغة ممتازة وفصاحة نادرة . وقد ذكر ابن خاقان ما يؤيد هذا الراى بان عده (زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجمهورية)(١٢) .

واننا نميل الى الاعتقاد بان ابن زيدون اسهم في احداث هذه الثورات وهو في الثامنة عشر من عمره وكانت اهم الثورات المعاصرة له في هذا السن المبكر هي :

١ ـ ثورة اهل قرطبة سنة ٤١٤ هـ على القاسم بن حمود وطرده من قرطبة .

لم يوفق القاسم في سياسة تجاه اهل قرطبة لانه اصطفى البربر ومكنهم من اهل قرطبة فأشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم وضاق اهل قرطبة في النهاية ذرعا تلك الحالة فثاروا على البربر واستعدوا لقتالهم واعلنوا خلع القاسم واستمرت المعارك حينا من الزمن حتى استطاع القرطبيون ارغام القاسم على مغادرة القصر وذلك في جمادى الثاني سنة ٤١٤ هـ (ايلول / ١٠٢٣ م) فأنقلب البربر الى محاصرة المدينة بعد ان اغلق اهل قرطبة الابواب واستمر الحصار خمسين يوما والمعارك في كل يوم تتجدد واخيرا خرج اهل قرطبة واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة وقاتلوهم قتالا شديدا حتى هزموا البربر ومزقوهم وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم فثار القاسم في نفر من اصحابه الى اشبيلية(١٣) .

---

(١٢) ابن خاقان ـ قلائد العقيان ص ٧٣ .

(١٣) البيان المغرب ج ٣ ص١٣٤ ـ ١٣٥ ـ اعمال الاعلام ص ١٣٣ .

وكان اهل قرطبة قد سئموا حكم البربر واتباعهم واجمعوا على رد الامر الى بني امية فعقدوا البيعة الى عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله في السادس عشر من رمضان ٤١٤ ديسمبر منه ١٠٢٣ م واتخذ لقب المستظهر بالله(١٤) .

ثورة القرطبيين سنة ٤١٤ على الخليفة المستظهر بالله وقتله :

لقد تولى المستظهر الخلافة وهو فتى في الثالثة والعشرين من عمره . وقد قدم لنا ابن بسام(١٥) المؤرخ الاندلسي المعاصر صورة للظروف التى صاحبة ولايته . في الواقع ان هذا الخليفة كان يتمتع بخلال باهرة وكان ممكنا ان يكون معقد الآمال لو اتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طلب ولكن الظروف عاجلته وغلبته على امره وكان قد بدأ حكمه بان ارسل الى الثغور والمدن يطلب تأييد البيعة له فلم يستطع وقبض على عدد من الوزراء وصادر اموالهم وكان يعتقد ان سلطانه سيقوى بأزالتهم .

ثم اعتقل عدد من ابناء المروانية . كانت هذه البوادر تذكي سخطا الخاصة والعامة عليه ثم وقع حادث زاد الطين بله وكان نذير الثورة عليه وذلك انه استقبل عددا من الفرسان البربر فاكرم وقادتهم وانزلهم في القعر فأغضب ذلك الاعيان والاشراف وآوغروا صدور العامة قائلين لهم : اننا حاربنا البربر وقهرناهم الخليفة يسعى في ردهم الينا وتمكينهم من امرنا فهاجت العامة وثارت وزحفت جموعهم على القصر واقتحموه على غرة وقتلوا البربر حيث وجدوا وفتحوا المطبق (السجن) واخرجوا منه من كان من المعتقلين ووثبوا الى جناح الحرم وايقن الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله انه هالك لا محالة فأختبأ في اتون الحمام واعتدى الثوار على اهله وحرمه وكانت مناظر شنيعة ومروعة وحملوهن الى منازلهم علانية .

---

(١٤) الحميدي ـ محمد بن فتوح ، جذوة المقتبس ص ٢٤ .

(١٥) ابن بسام ـ الذخيرة ـ القسم الاول ص ٣٨ ـ ٣٩ .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر وكان مختبئا ، فأخذه الثوار الى القصر واجلس مجلس الملك وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ ١٧ يناير ١٥٢٤ م وتلقب بالمستكفي بالله • وقد فتش الثوار عن المستظهر فعثروا عليه في اتون الحمام في حالة مزرية فأخذ الى الخليفة فأعدمه فقتله • وكانت امارته منذ توليته الحكم حتى مقتله سبعة وأربعين يوما •

وكان المستكفي يوم ولايته في الثانية والخمسين من عمره وكان خاليا من الصفات الحسنة مولعا بالمجون والشراب سيء الرأى عاجزه وقد شبهه ابن حزم في سوء صفاته وفي مجونه وفسقه وخضوعه لشهواته بسميه المستكفي العباسي • وقد كان كلاهما في نفس السن وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة اشهر(١٦) •

اضطهد المستكفي معظم السياسيين القدماء والمفكرين وقد هجر قرطبة كثيرون منهم ولجاوا الى بلاط يحيى بن حمود بماله • وهدم القصور الناصرية وخربت قصور المنصور بالزاهرة فسادها الخراب •

وقد نقل هؤلاء المهاجرون ليحيى بن حمود سوء الاوضاع في قرطبة والخراب الذى حل بها والرزء الذى لحق باهلها • وقد سئم اهل قرطبة ولاية المستكفي فثاروا ونادوا بخلعه • فدخل عليه الوزراء والاشراف واغلظوا له في القول وطلبوا منه التنازل عن الخلافة • فتنازل ثم غادر قرطبة متخفيا في زى امرأة ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ ــ مايو ــ ١٠٢٥ وصار المستكفي صوب الثغر في نفر من صحبه ووصل الى اقليج من احواز قرطبة وهنالك اغتاله بعض مرافقيه لاعتقادهم

---

(١٦) ابن حزم ــ البيان المغرب ٣٢ ص ١٤١ •

ابن الخطيب ــ اعمال الاعلام ص ١٣٦ •

انه يحمل مالا(١٧) .

٢ ـ ثورة اهل قرطبة سنة ٤١٧ هـ ضد البربر واسقاطهم حكم العلويين من بني حمود وارجاع الملك الى بني امية :

مضت بضعة اشهر على خلع الخليفة المستكفي والحكومة في قرطبة فوضى والشعب في فتنة عارمة . الامر الذى شجع يحيى بن حمود العلوى ان يستولي على العاصمة قرطبة فقصدها في جيش كبير ودخل قصر الخلافة . في الخامس عشر من رمضان في نفس العام (٤١٦ هـ) ٩ نوفمبر ١٠٢٥ م وبقى بها الى نهاية العام ثم تركها في أوائل محرم سنة ٤١٧ هـ قاصدا مالقه واناب فيها وزيريه احمد بن موسى ودوناس بن ابى روح لادارة شؤون البلاد ومعهما حامية من الف رجل من البربر لضبط البلاد .

ولم يمض شهران على ترك يحيى البلاد حتى اضطربت الاحوال وساء الوضع في قرطبة وقد استغل بعض الاشخاص من بني عامر كرد اهل قرطبة للبربر فحرضوهم على قتل البربر فثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية وفر احمد بن موسى ودعه الى مالقه وكان ذلك في العشرين من ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ .

وقد اجتمعت كلمة القرطبيين بعد ذلك على رد الخلافة لبني امية وكان ابرز قادة هذا الرأى الوزير ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر وكان قد هرب مع قليل من اصحابه بعد ان قتل اصفرة عبد الرحمن المرتضى في سنة ٤٠٩ هـ هرب من قرطبة واستجار بحماية والي البونت عبد الله بن قاسم الفهرى وبعث اهل قرطبة بالبيعة اليه وهو بمقره بحصن البونت فتلقاها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ وتلقب بالمعتمد بالله وظل بمقره بمدينة البونت مدة سنتين وسبعة اشهر وهو يخطب له بقرطبة ثم قدم اليها

---

(١٧) ابن حزم ـ البيان والغرب ـ ج٣ ص ١٤٢ .

في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ فجددت له البيعة •

٣ ـ ثورة القرطبيين سنة ٤٣٢ هـ ضد الخليفة المعتمد واسقاط الخلافة الاموية ونفي الخليفة الى لا ردة آخر خلفاء بني امية واقامة حكومة ثورية بزعامة ابن جهور في ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ(١٧م) •

لقد ذكرنا سابقا ان المعتمد قدم الى قرطبة سنة ٤٢٠ فجددت له البيعة وفرح اهل قرطبة بمقدمه اشد الفرح واعتبروه منقذا لهم من جور الخلفاء ولكنه ما لبث هذا الخليفة ان القى زمام وتقاليد الامور الى رجل عن الموالي الوزير حكم بن سعيد القزاز فاستبد بالسلطة واستأثر بها واطلقت يده في اموال الدولة وكان اخرق متعسفا ، فجمع حوله عصبة من الجهلاء والسفهاء والعاطلين عن كل اخلاص وحزم واطلق العنان لغوايته ورغباته فأضطربت شؤون الدولة وعمت الفوضى فامتعن وجهاء البلد وزعماء البيوتات الكبيرة وتحسسوا بما نالهم على يده من انواع الاهانة والنيل من حقوقهم •

وفضلا عن ذلك فقد احاط هذا الوزير الماجن الخليفة برجال من عصبته واعوانه وابعد عنه العلماء واهل المشورة والراى ودفعه بالرغم من شيخوخته الى الشراب والمجون والفسق والفجور حتى ساءت امور الدولة وفقدت الخلافة والحكومة كل حب واحترام وثار الناس وطالبوا بوجوب ازالة هذه الحالة والتخلص منها • وقد اتجه الناقمون والثائرون الى فتى من ابناء عمومة هشام هو امية بن عبد الرحمن العراقي من احفاد الناصر • وكان هذا جاهلا متهورا طموحا وقد تربصت به ذات يوم تلك الجماعة الناقمة الثائرة بالوزير حكم بن سعيد وقتلته وطافت برأسه في المدينة معلنة الثورة على الطغاة واعوانهم • ثم سارت الجموع الثائرة الغاضبة الى قصر الخليفة والخليفة هشام بين نسائه وغلمانه يشرب الخمر فنهب الثائرون بعض اجنحة القصر ، وقد تصدى الوزير الشيخ ابن جهور لهم وصدهم

(١٧م) بغية الملتمس ص ٢٤ •

بالقول والنصح ولولاه لما بقي في القصر شيء .

ولما شعر هشام المعتمد بخطورة الامر وخشي على نفسه من غضب العامة هرب من القصر مع عائلته وحاشيته وقد اجمع الثائرون على خلعه والتخلص منه ومن بني امية وابطال رسم الخلافة وقرروا نفي بني امية واجلاءهم جميعا عن المدينة . وكان رائد هؤلاء الجماعة وناصحهم فيما اتخذوه من قرارات ابو الحزم ابن جهور . وكان هذا الوزير النابه يحظى بمحبة الشعب وثقته وتأييده لما له من ارومة عريقة وما من مشرف .

وانتهى الثائرون الى خلع هشام المعتمد وابعاده واهله الى الحصون القريبة حيث التجأ الى سليما بن هود صاحب لاردة من اعمال الثغر الاعلى . وقضى هناك بقية حياته .

وابعد امية بن عبد الرحمن عن القصر واختفى وغادر قرطبة ونودي في قرطبة وجميع انحائها بأن لا يبقى بها احد من بني امية ولا يؤويهم احد . وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الامر بمنتهى الحزم والشدة حتى اجلاءهم عن المدينة ومحا رسومهم(١٨) ونادى الثوار بابي الحزم بن جهور حاكما على قرطبة .

وبخلع الخليفة هشام المعتمد ينتهي حكم بني امية بصورة نهائية الى الابد في ربوع الاندلس والمغرب الاقصى وقد اشارت المراجع الى ان ابن زيدون كان من زعماء تلك الثورة التي زلزلت دولة بني امية وقضت عليها وقيام ملوك الطوائف في الاندلس وقد انقسمت الاندلس بعد سقوط الدولة الاموية الى تسع عشرة مملكة .

---

(١٨) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٥ .

الفصل الرابع :

دور ابن زيدون السياسى

ولما انتقل الملك الى ابن جهور ادنى ابن زيدون منه وقربه اليه وأعلى قدره اعترافا بفضله ودوره وهو في الخامسة والعشرين من عمره • وصار يحبوه بوده وان كان لم ينعته بلقب الوزير على حين كان يقوم بأعبائها لما له من المكانة المرموقة في المجتمع القرطبي لبلاغته ورجاحة عقله وفزارة علمه فكانت الكتب والرسائل تنفذ من انشائه الى شرق الاندلس فيقال كانت تأتي اتبيلية كتب هي بالنظم الخطير اشبه منها بالمنشور وصار وكيلا وموثوقا لابن جهور حاكم قرطبة ثم عينه للنظر على اهل الذمة في بعض الامور المعترضة وقصره بعد على مكانة من المخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك(١٩) •

وقد ايد الصفدى ذلك فقال (وكان اولا قد انقطع الى ابن جهور احد ملوك الطوائف المتغلبين على الاندلس فخيف عليه وتمكن منه واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الاندلس فأعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعة وحسن سيرته)(٢٠)

اقترنت الوزارة في الاندلس بالادب فكان الوزير كاتبا وشاعرا وكان اشهر الكتاب والشعراء وزراء وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الادب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة فكان للوزراء اثر عظيم في سير البلاغة والادب واصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء انفسهم في الدولة وظهر في الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك وتقبلوا في مراكز الدولة وغلبوا على شؤونها وهم جميعا من الادباء والعلماء

---

(١٩) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ف١ ج١ ص٢٩٠ •
ابن الابار ـ اعقاب الكتاب ص ٧٩ •

(٢٠) الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٧١ •

والكتاب والشعراء واصحاب الثورى واعلام الحياة العقلية .

ومن اشهر هؤلاء الوزراء والادباء والشعراء المجيدين ابو الوليد احمد بن زيدون المخزومي(٢١) .

وقد نسبت الى ابن زيدون تهمة خطيرة نسبها اليه الوزير ابن عبد ومنافسه في حب ولاءه هي التآمر على قلب الملك واعادته الى بني امية والدعوة للخليفة هشام بتشجيع حبيبته ولادة بنت الخليفة الاموى المستكفي بالله . فوضعت في يده الاغلاق والقيود وقدم الى المحكمة بتهمة اخرى غير تهمة التآمر وهي (الاغتصاب) اغتصاب مال الغير وقد تولى القاضي ابو محمد عبد الله بن احمد المعروف بأبن المكوى محاكمته(٢٢) وقد ولي قضاء قرطبة في المحرم من سنة اثنين وثلاثين واربعمائة (٤٣٢ هـ) ولما عرض امره على القاضي امر بسجنه وشدد فيه وكان هذا الحاكم من الحاقدين عليه وأودع السجن وقد لقى ابن زيدون في سجنه صنوفا من الاذلال والهوان لم يخطر على بال احد .

وكتب ابن زيدون من سجنه قصائد يناشد فيها ابا الحزم بن جهور ان يعفو عنه وان يرعى حرمته معه وان لا يعفي الى ما قاله الوشاة ولم يكتف ابن زيدون بالقصائد الاشعار يطلب العفو بها فدبجه لابي الحزم رسالة اشتهرت بأسم (الرسالة الجدية) يستعطفه فيها ويطلب العفو عنه . ولكن ابي الحزم لم يعف ولم يلن .

تحول الى ابي الوليد بن ابي الحزم يمدحه ويتخذه وسيلة الى ابيه لعله يعفو عنه او يصفح فلم يوفق وعبثا توسل ابن زيدون بصديقه ابن برد فقد كان الجميع يرهبون ان يجرى اسمه على لسانهم . ولما سدت جميع الابواب في وجهه صمم على الهرب والفرار من سجنه ففر ليلة عيد الاضحى

---

(٢١) احمد ضيف ــ بلاغة العرب في الاندلس .

(٢٣) ابن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ .

الى اشبيلية واتصل بالمعتضد بن عباد فلقى حفاوة واكراما ومكث في جواره عاما او بعض عام ولكنه كان يتطلع الى قرطبة يجذبه اليها هواه المشبوب فظلا عن اهله وخلانه ومصالحه المالية فكر اليها مستهينا واخذ يبذل مساعيه حتى ظفر برضا ابي الحزم وربما كان لابنه ابي الزيد الفضل الاول في ذلك ٠

ولم يلبث ابو الحزم ان توفي سنة ٤٣٥ هـ ــ ١٠٤٣ م وخلفه ابو الوليد ابنه فعينه للنظر على اهل الذمة ثم رفعه الى مرتبة الوزارة فعلا نجمه في السماء ثم اتخذه سفيرا اه بينه وبين ملوك الطوائف (وقدمه في الذين اصطنع لدولته وارفع راتبه وحلله كرامة)(٢٣) ٠

ولما تولى الشاعر امور السفارة نجح فيها نجاحا كبيرا فقد كان له من تجاربه السابقة وسعة ثقافته وقوة حجته ووسامة مظهره وعراقة اصله ما يؤهله للنجاح وقد كان مقام السفير في ذلك العصر اكبر من مقام الوزير ويعطى لقب ذي الوزارتين ٠

لقد وجد ابن زيدون راحة كبيرة اثناء تنقله في السفارة والاتصال بالملوك الذين تنفق مشاربهم ومشربه ٠ وكان من ابرز هؤلاء الملوك الذين اتصل بهم :

ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وقد اعجب به بصورة خاصة ٠

ثم المظفر صاحب بطليوس وقد اثنى عليه وعلى آبائه وكرم ضيافته له وحسن استقباله ٠

ثم اتصل بادريس بن يحيى بن حمود وهو ادريس الثاني الملقب بالعالى ملك ملقا ٠ وكانت في ادريس العالي صفات تجذبه الى الشاعر يجذب الشاعر اليه فقد كان متأدبا حسن اللقاء وله شعر جيد ، فأطال ابن زيدون مكنه عند هذا الخليفة واقترب منه وخف على نفسه واحضر مجالس انسة(٢٤)

---

(٢٣) ابن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ٠ ج١ ص٢٩١ ٠

(٢٤) بن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ ٠

ويذكر ابن بسام ان الامير ابن جهور لم يرتح الى تصرف سفيره ولعله استدعاه فلم يتنجب وما طل في العودة وعتب عليه ابن جهور فلم يستجب للعتاب فعزله عن منصبه قبل رجوعه الى قرطبة(٢٥) •

ولما رجع الى قرطبة وجد ابا الوليد غاضبا متجهما معرضا عنه فأخذ يتردد اليه ويمدحه بقصائد كثيرة ولكن الامير عفا عنه ثم عاد الى جميل رأيه فيه فارجعه الى السفارة بينه وبين رؤساء الاندلس • فيما يجرى بينهم من المراسلة والمداخلة •

وقد خشى ابن زيدون عاقبة الامر وخاف ان ينال معه ما نال من ابيه حين زجه في السجن • فقرر مغادرة قرطبة بعد ان ضاق ذرعا بها • فأخذ يتنقل بين بلنسية وطرطوشة وبطليوس وظل يتنقل من بلد الى آخر حتى استقر ببلنسية فترة من الزمن وقد اشار ابن خاقان الى فترة التنقل والترحال هذه • بقوله :

« ولم تزل الايام تدنيه وتبعده وتسؤوه وتسعده وتقذف به الى كل نازخ وتطرف امله بعين اللاعب المازح ، حتى احاته بلنسية وهلال ذكائه كما اقمر وغصن نباهته يانع قد اثمر • وبنو عبد العزيز غرر ملكها ودرر ملكها ، فحل منهم محل الحميا من الكوس ووقع منهم وقع البشائر في النفوس • واقام بين مرة تواصله ، ومرة تغازله ، ومكارمة تعاديه ، ومجاملة كرائم القطر وتاديه ••• »(٢٦) •

في بلاد بني عباد :

لم تستقر نفسه الثائرة في بلنسية فغادرها الى اشبيلية في سنة ٤٤١ هـ حيث حب به اميرها المعتضد فأعجب به اعجابا عظيما وقربه اليه وغره

(٢٥) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ •
(٢٦) ابن خاقان ، قلائد العقبان ـ ص ٧٦ •

بأفضاله وهش لمديحه فيه وتمتع معه بليالي سحر لطيفة .

وكان ملوك الطوائف يتشوقون الى ان يزينوا ملكهم بعظماء الكتاب والشعراء ويتنافسون في الحصول عليهم وضمهم اليهم وكان المعتضد في مقدمة هؤلاء الملوك عرفانا بأقدار الشعراء في عصره .

وكان المعتضد يعلم عن ابن زيدون انه يتقن فنون السياسة والدبلوماسية مما يؤهله لبذل النصح الثمين ويعرف عنه انه اتصل بملوك الجزيرة وخبر احوالهم ودرس طبائعهم وعرف مكامن القوة والضعف فيهم ، فهو جدير بأن يبصر المعتضد بالخطة المثلى في معاملتهم في الحروب او السلام .

ولهذا غمره بحفاوته وبره وجعله من خواصه يجالسه في خلوانه ويركن الى اشاراته في صورة وزير(٢٧) .

ولقد تولى ابن زيدون مناصب عديدة في بلاد المعتضد وقد نجح في جميع المناصب التى تولاها بفضل دبلوماسيته الهادئة وسياسته الرزينة . واهم هذه المناصب هي :

اتخذه المعتضد ناصحا في مرتبة وزير . ولقد جرى المعتضد مشورته فشكرها واطمأن اليها وقد بذل ابن زيدون جهودا كبيره في توطيد هذه الدولة واتساع رقعتها مما جعل المعتضد يثق به ثقة كبيرة ، واشار ابن زيدون الى ذلك في شعره شاكرا فقال :

حسبي النصح والوداد وشكر عصر الدهر منه مسك ففض(٢٨)

ثم رفعه المعتضد الى مرتبة ذى الوزارتين (المشورة والحكم) وهو لقب يختص به الملك افرادا معدودين يشركونه في التدبير فضلا عن المشورة . وقد ايد ذلك ابن بناته فقال (فتلقاه المعتضد بالقبول والاكرام وولاه وزارته

---

(٢٧) الصفدي ــ الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٧١ .

(٢٨) الديوان ص ٨٨ .

وفوض اليه امر مملكته)(٢٩) • وقد سماه صاحب المعجب ذا الرئاستين(٣٠ •

عهد المعتضد الى ابن زيدون بالسفارة بينه وبين امراء الطوائف في اهم رسائله لفضل ما اوتيه من اللسن والعارضة(٣١) وبذلك استحق لقب ذي الوزارتين • وقد اظهر براعة فائقة في هذا المنصب عند بني عباد كما أظهر براعة في بلاد ابن جهور من قبل •

عهد المعتضد الى ابن زيدون منصب الكتابة وكان يتشوق الى هذا المنصب وهو منصب خطير يشبه منصب رئيس الديوان الملكي في عصرنا هذا ـ الى جانب انشاء الرسائل الديوانية الهامة وانفاذها وكان صاحب هذا المنصب يلم بجميع اسرار الدولة وعلاقاتها الخارجية ويكاد يمسك بيده جميع ازمتها وكان لا يتولى ذلك الا وزير خطير وقد وفق في هذا المنصب توفيقا كبيرا(٣٢) •

وبذلك اجتمعت اهم امور الدولة موكولة اليه وقد نجح فيما اضطلع به من شؤون ، فما كاد يتصل بالمعتضد حتى توالت فتوحاته واتسعت رقعة مملكته وكان ابن زيدون في ذلك حكيما لبقا يتحرى مواضع اهدافه ورغباته مستفيدا بما اكسبته الايام والتجارب من خبرة طويلة في تمرسه بأعباء الحكم واتصاله بالملوك والامراء •

وقد قضى ابن زيدون في كنف المعتضد ما يناهز العشرين عاما •

لقد ظلت روح الحنين الى قرطبة تشد ابن زيدون وتذكي لواعج الشوق والوجد فيه (فهي موطنه وموطن حبه الاول وموطن حبيبته

---

(٢٩) سرح العيون ص ٦ •
(٣٠) المعجب ص ١٠٥ •
(٣١) اعتاب الكتاب ص ٧٩ •
(٣٢) ابن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ج١ ص ٢٩٠ •

ولادة . فأخذ يشجع المعتضد ويزين له فتحها ويسهل عليه امر اقتحامها ويدبر له وسائل نيلها فشرع المعتضد يدبر لها الوسائل ويحيك الدسائس ولكنه مات قبل ان يصل الى مبتغاه حيث توفي سنة ٤٦١) .

وقد تسلم ابنه المعتمد مقاليد الحكم بعد ابيه ، قد استدعى اليه ابن عمار (وقربه اشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه اخاه ولا اباه)(٣٣) .

فرأى حساد ابن زيدون وخصومه ان الفرصة سانحة وان هوى الامير الجديد انصرف كله الى ابن عمار ولعل ابن عمار لم ينس ان ابن زيدون لم يلح في الشفاعة له عند المعتضد عندما حبسه وهو لهذا لم يدافع عنه لدى الامير الجديد ان لم يحرض عليه . وكان كثير من هؤلاء الخصوم يحملون ابن زيدون نصيبا كبيرا من المسؤولية في فتك المعتضد بوزرائه وأوليائه ورجال بلاطه وادعو ان المعتضد ما كان يقدم على امر الا بعد استشارة مشيره الاكبر ووزيره الاول ابن زيدون(٣٤) .

وقد ايد ابن خاقان ذلك فقال (اظهر صولته ودبر دولته .... واغراه بأعدائه وزين له الايقاع بعماله ووزرائه ، فغدا شجا في صدورهم ونكدا في سرورهم)(٣٥) ولكن الامير كان وفيا لاستاذه وارعى بشاعره فأعرض عن هذه التهمة واظهر وفاء عظيما واريحية مشكورة فأقر ابن زيدون على ما كان عليه في عهد ابيه وزاد في اكرامه(٣٦) .

وفي الحقيقة ان الامير المعتضد كان بحاجة قوية الى ابن زيدون يستفيد من خبرته وحنكته وتجاربه ويتم التدبير الذى بداه لفتح قرطبة لان فتحها كان

---

(٣٣) المعجب ص ١١٧ .
(٣٤) على عبد العظيم ـ ابن زيدون ـ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .
(٣٥) ابن خاقان ـ قلائد العقبان ص ١٤ .
(٣٦) ابن الابار ـ اعتاب الكتاب ص ٩٧ .

من اكبر اماني بني عباد العظام ظلت تراودهم اكثر من ثـلاثين عاما • وما تبنوا دعوة هشـام الا للوصول الى هـذا الهـدف، الكبير • وكانت قرطبـة كنز حاضرة الاندلس ولن تتم السيادة على الاندلس الا لمن ظفر بها واستولى عليها وعلى هـذا فقـد زحف المعتضد لاحتلالها وقـد تم له ما اراد ودانت قرطبة له بفضـل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته وانتقل المعتضد وابن زيدون اليهـا وجعلها عاصمة ملكة فوصـل اليها وانس اهلها وبث المعروف فيهـا واحسن السيرة في اهلها فسروا بولايته وولي عليها ابنه الحاجب سراج الدين عباد بن محمد بن عباد فوصلها يوم الثـلاثاء السـادس من شوال سنة ٤٦٢ هـ ودخلها دخولا فخما تضـاعف له سرور ابيه(٣٧) •

وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٤٦٢ هـ حدثت فتنة في اشبيلية بين المسلمين واليهود فأرسـل ابنـه سراج الدولة في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله فأنتهز خصوم ابن زيدون ابن عمار وابن مرتين (قائد الجيش وانصارهما) هذه الفرصـة لابعاده واقصائه عنهم وعن الخليفة المعتمد حتى يسهل الكيد به وفي مقدمتهم ابن عمار الـذى كان اقرب الناس الى قلب المعتمد وانه بلغ من المنزلة عنده ما لا يبلغـه اخ او صـديق • فشـار ابن عمار على المعتمد ارسال ابن زيدون في معية سراج الدولة لمـا له من خبرة وتجارب وكياسـة ولباقة وحسن تدبير ولمـا له معرفة سابقة بشؤون الذميين وشـدة تعلق اهلها به واستغلال حبهم في ازالة الاضطراب وتهـدئة الخواطر ولكنه حق اريد به باطل فقد ارادوا ابعاده عن الامير •

وهكذا ارسـل المعتمـد ابن زيـدون مع ابنـه على الرغم من مرضـه واعتذاره • وقـد ترك ابن زيدون في قراطبة ابنـه ابا بكر محمد وكان هـذا على جانب كبير من الذكاء والمقـدرة ورث عن ابيه مواهبه السياسية وتدرب

(٣٧) ابن الخطيب ـ اعمـال الاعلام جـ٣ ـ ١٧٥ •

على يده احسن تدريب • وقـد استطاع ابن عمار اقناع المعتمد بأبعاده ايضـا عن قرطبة الى اشبيلية حيث كان ابوه هناك تأنقذه المعتمد خلف ابيـه • وقـد بقى ابن زيدون في اشبيلية الى نهاية عمره فقد جهده المرض والهرم حتى فاضت روحه في مستهل شهر رجب سنة ٤٦٣ هـ(٣٨) •

وبذلك انطوت صفحات من ملاحم الشعر والادب والسياسة بعـد ان ترك بصمات واضحة في تاريخ هـذا القطر العزيز •



(٣٨) ابن بسـام ـ الذخـيرة في محاسن اهـل الجـزيرة ق ١ جا ص ٣٥٥ •

المصـــادر

١ ـ ابن خاقان (٥٣٩ هـ) الفتح

قـلائد العقبـان جـ ١ القـاهرة .

٢ ـ الصـفدى ـ صـلاح الدين

الوافي بالوفيـات .

٣ ـ ابن بناته ـ جمال الدين (٧٦٨ هـ)

سرح العيون شرح رسـالة ابن زيدون .

٤ ـ عبد الواحـد المراكشي

المعجب الاستقامة القـاهرة ١٩٤٩ م .

٥ ـ ابن زيـدون

ديوان ابن زيـدون .

٦ ـ ابن بسـام ٥٤٢ هـ ـ ابي الحسن علي

الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (القسم الاول) .

٧ ـ ابن الآبار (٦٥٩ هـ) محمد بن ابي بكر القضـاعي

اعتاب الكتـاب ـ مخطوطه ـ رقم ٧٧٨ تاريخ تيمور (دار الكتب المصرية) .

٨ ـ على عبد العظيم

ابن زيدون عصره وحيـاته وادبه ١٩٥٥ .

٩ ـ ابن الخطيب ـ لسـان الدين

اعمـال الاعـلام . الرباط ١٩٤٣ .

١٠ ـ ابن خلكان ت (٦٨١ هـ)

١١ ـ القلقشندى ـ ت (٨٢١ هـ) أبو العباس احمد

وفيـات الاعيـان ـ القـاهرة .

نهاية الارب في معرفة قبائل العرب جـ ١ بغـداد .

١٢ ـ ابن بشكوال ت (٥٧٨ هـ) خلف بن عبد الملك
الصلة جـ ١ مدريد ١٨٨٢ ٠

١٣ ـ ابن الآبار ـ محمد ابن ابي بكر القضاعي سنة ت (٦٥٩ هـ)
التكملة لكتاب الصلة ، مدريد ١٨٨٧ ٠

١٤ ـ شوقي ضيف
ابن زيدون (سلسلة نوابغ الفكر العربي)
دار المعارف ١٩٥٣ ٠

١٥ ـ ابن حزم
البيان المغرب ٠

١٦ ـ الحميدى ـ ت (٤٨٨ هـ) ، محمد بن فتوح
جذوة المقتبس (مخطوط) مصورة عن اكسفورد رقم
١١٩٧٥ ٠

١٧ ـ الضبي ـ ت (٥٩٩ هـ) احمد بن يحيى

١٨ ـ احمد ضيف
بغية الملتمس ، مدريد ١٨٨٤ ٠
بلائمة العرب في الاندلس ـ القاهرة ١٩٢٤ ٠

كتـــاب النبي

صلى الله عليــه وســلم

الدكتور شاكر محمود عبد المنعم

كلية الاداب قسم التاريخ


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كتاب النبي

صلى الله عليه وسلم

الدكتور شاكر محمود عبد المنعم
كلية الاداب ـ قسم التاريخ

لم يهتم المؤرخون في الماضي كثيرا بموضوعات كهذه ، كما اهتموا بغيرها مما يتعلق بالنبي (ص) . فلم يؤلفوا فيها كتبا كثيرة . ولقد أشارت المصادر الى كتابين عن كتاب النبي (ص) الأول : هو « الكتاب » لعمر بن شبة النميري(١) (ت ٢٦٢) والثاني : للقضاعي(٢) ولكنها لم تصل الينا حتى الوقت الحاضر .

وفي الربع الاخير من القرن الثامن الهجري عكف الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن على بن احمد بن حديدة الانصاري(٣) (ت ٧٨٣) على تدوين كتابه الموسوم « المصباح المضيء في كتاب(٤) النبي الامي ورسله الى ملوك الارض من عربي وعجمي » . وجعله على قسمين : الأول في كتابه ، والثاني في رسله ومكاتباته الى الملوك . وقد فرغ من تاليفه في دى القعدة سنة ٧٧٩ هـ . ويقع في (١٦٠) ورقة ومنه نسخة

---

(١) انظر : الاستيعاب ، ج١ ص٣٠ .

(٢) الاصابة ، ج١ ص٣٣٨ .

(٣) هو جمال الدين عبد الله بن محمد بن على بن حديدة الانصاري . ولد سنة ٧٢١هـ . وعني بالحديث وكتب الاجزاء والطباق وجمع كتابه المذكور الذى سماه ابن حجر « المصباح المضيء في معرفة كتاب النبي » . وكان خازن الكتب بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة . انباء الغمر ، ج١ ص ٢٤٦ .

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، مجلد ٢ ص ١٧١٠ . وبروكلمان (٧٢/٢) واورد له الدكتور لطفي عبد البديع وصفاً في : فهرس المخطوطات المصورة /ج٢ ص ٢٥٠ .

خطيـة بالمكتبـة الاحمدية بحلب تحمل رقم (٢٨٠) وعنها نسخة مصـورة في معهد المخطوطات العربية بجامعه الدول العربيه تحت رقم (ف ٥٩ ، ٦٠) وآشـار الكتاني الى كتاب في الكتاب انفه بن ابي الجعد(٥) •

امـا كتب السـير والكتب التاريخيـه العـامة ، فهي ان تعرضت الى الكتـابة أو الكتـاب فهي تذكر دلك بصورة عرضية وباقتضـاب • وقـد جمع الغساني(٦) كتـاب النبي (ص) في فصـل من كتابه الضخم ، الا أنه لم يستوف قائمة عـددا ولم يوسـع المذكورين فيها ترجمـة أو تفصيلا • وهكذا قل عن القائمة التي أوردها الشيخ حسين الديار بكري (ت ٩٨٢ هـ) وغيره من المتأخرين •

لذلك ينبغي للباحث في موضوع كهـذا أن يقرأ المزيد ويجمـع تتف الاخبـار من بين ملايين السطور •

لقـد اختلف المؤرخـون في عـدد كتـاب النبي (ص) ، وفي نوع المهمات الكتابيـة التي القيت على كل منهم • ولم يوضحوا ما اذا كـانت الكتـابة على مستويات معينـة أم لا ؟

فـذكر البعض منهم عـددا محـدودا جـدا لا يكـاد يعقل • وذكر البعض الآخر عـددا معقولا ولكنه لم يسـم لنا هؤلاء الكتـاب ، فأوقعنا في حيرة وتسـاؤل •

والسؤال الذي يطرأ على البال في هـذا المجـال هو : هـل أن جميع

---

(٥) التراتيب الادارية/ ج١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ •

(٦) هو ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني الرسولي (ت ٨٠٣) وكتابه العسجد المسبوك في طبقات الخلفاء والملوك ، نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم ٢١٨٩ تاريخ ميكروفيلم : الورقة : ٣٣ ب فما بعد •
وجدير بالذكر اننا حققنا منه قبل سبع سنوات حوادث وتراجم من سنة ٥٧٥هـ ـ ٦٥٦ هـ • اما القسم الاول من ١ ـ ٥٧٥هـ فهو قيد التحقيق •

الكتـاب كانوا يكتبون باستمرار أم انهم كانوا يتنـاوبون فيمـا بينهم ؟ وهل استبدل بعضهم وحل محلـه البعض الآخر • !

ذكر البـلاذري(٧) أسـماء أحـد عشر كاتبـا هـم : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن سعيد بن أبي‌سرح ، وعثمان بن عفان ، وشر حبيل ابن حسنه ، وجهيم بن الصلت ، وخـالد بن سـعيد ، و أبان بن سـعيد ، والعـلاء بن الحضرمي ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وحنظلة بن الربيع •

أما الطبري(٨) فلقد ذكر أسماء عشرة من كتـابه (ص) • مضيفا : علي ابن أبي طالب ومختزلا شر حبيل بن حسنه وجهيم بن الصلت •

وذكر المسعودي(٩) أسماء ستة عشرة كتابا مضيفا الى قائمة البلاذري والطبري الاسماء التاليـة : المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير وعبد الله بن الارقم والعلاء بن عقبة والزبير بن العوام وحذيفة بن اليمان ومعيقيب الدوسي• وقال المسعودي مبينا وجهة نظره في عـدد الكتـاب الذين ذكرهم : « وانما ذكرنا من أسماء كتـابه (ص) من ثبت على كتابتـه ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدتـه ، وصحت الرواية على ذلك من أمره ، دون من كتب الكتـاب أو الكتابين والثلاثة ، اذ كان لا يستحق بذلك أن يسمي كاتبا ويضـاف الى جملة كتـابه »(١٠) •

ولعلك تلاحظ معي بأن ذهن المسعودي انصـرف ـ وهو يدون هـذه العبارة ـ الى ناحيـة واحـدة من الكتابة أو قل نوعا واحدا منها ان شئت الا وهو كتـابة الرسـائل • غير أنه كان للنبي (ص) كتـابا ليس للرسائل فقط بل هناك من كتب الوحي أو الرسـائل أو الصـدقات او المعـاملات

(٧) فتـوح البـلدان ، ص ٦٦٤ •

(٨) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ •

(٩) التنبيـه والاشـراف ، ص ٢٤٥ •

(١٠) ن • م السـابق ص ٢٤٦ •

أو المداينات أو الخرص أو المغانم او لاغراض احصائية وما الى ذلك مما سنذكره في أدناه .

وفي السيرة الحلبية وردتنا أسماء ثمانية عشر كاتبا . أما ابن عبد البر(١١) القرطبي ، فقد سمى لنا ثلاثة وعشرين كاتبا(١٢) . واذا استبعدنا من قائمته الذين ذكرهم البلاذري والطبري والمسعودي ، نجد أن قائمته تزيد على قائمتي الطبري والمسعودي بالاسماء التالية : أبو بكر الصديق (رضى) وعمر بن الخطاب (رضى) ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحه ، ومحمد بن مسلمه ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول ، وعمرو بن العاص .

وذكر الديار بكري أسماء أربعة وثلاثين كاتبا استوعبت القوائم المشار اليها مع زيادة متمثلة في : طلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص والأرقم بن ابي الارقم وعبد الله بن زيد بن عبد ربه وسعيد بن العاص وحويطب ابن عبد العزى العامري وأبي سلمة بن عبد الأسد وحاطب بن عمرو بن حنظلة وقال : « وقيل أن كتابه نيفا وأربعين واكثرهم ملازمة له زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان بعد الفتح »(١٣) . وأشار الديار بكري الى ان مصدره في ذلك مزيل الخطأ .

وقلد صاحب بهجة المحافل ابن عبد البر في عدد الكتاب فأوصلهم الى العدد المذكور في ترجمة زيد من الاستيعاب وأوصلهم القرطبي في تفسيره الى (٢٦) وأوصلهم الشبراملسي في كتاب القضاء من حاشية على المنهج في فقه الشافعية الى أربعين وأوصلهم العراقي الى اثنين

---

(١١) الاستيعاب ، ج ١ ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١٢) وكذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق .

(١٣) تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ١٨١ ــ ١٨٢ .

وأربعين(١٤) • وقد نظم زين الدين عبد الرحيم(١٥) العراقي (ت ٨٠٥ هـ) فيهم قصيدة ذكر أسماءهم في تسعة عشر بيتا من نظمه(١٦) •

وايا كان الامر ، فان المصادر تشير بان عدد الكتاب تراوح بين ستة وعشرين وثلاثة وأربعين كاتبا • وكانت كتابة جلهم بالمناوبة وكان اكثرهم مداومة على كتابة الوحي زيد بن ثابت بعد الهجرة ومعاوية ابن ابي سفيان بعد الفتح •

ولم يكن جميع الكتاب يكتبون الوحي ، والواقع أن هذه مسألة مهمة جدا في معرفتها • غير ان المصادر لا تسعفنا بهذا السبيل • فلقد ذكر الشبلنجي(١٧) المدعو بمؤمن عشرة من كتاب الوحي هم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابى سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وابان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع وعبد الله بن سعد بن أبي سرح • وقال الشبلنجي : « وفي حياة الحيوان : وكان المداوم على الكتابة زيد أو معاوية »(١٨) •

ويفهم من النص الذي أورده الغساني(١٩) أن كتاب الوحي المعتمدين هم علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وابي بن كعب وزيد بن ثابت ، فان غاب هؤلاء كتب له من حضر من الكتاب وهم • معاوية بن ابي سفيان وخالد بن سعيد وابان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع

---

(١٤) انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٥ ــ ١١٦ •

(١٥) الامام الاوحد العلامة الحجة الحبر الناقد حافظ الاسلام عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي الكردي الرازياني ثم المصري الشافعي ••• له المؤلفات المفيدة المشهورة في علم الحديث والتخاريج الحسنة .

(١٦) انظرها ان شئت في التراتيب الادارية ، ج ١ ص ١١٦ ــ ١١٧ •

(١٧) نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١٨) ن • م السابق ، ص ٤٨ •

(١٩) العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٣ ب •

وكتب له عبد الله بن سعد بن ابي سرح ثم ارتد عن الاسلام ثم راجع الاسلام يوم فتح مكة وحسن اسلامه .... هؤلاء هم الذين اشارت المصادر الى أنهم كتبوا الوحي . وكان اكثرهم كتابة ومداومة زيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان ، كما مر . وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتابه (ص) اذا غاب عن عمله(٢٠) .

ويأتي في مقدمة الكتاب الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم . وسوف لن اتحدث عنهم بمثل هذه الدراسة الموجزة ، لان ما سأذكره عنهم لن يكون الا معروفا . وسيرتهم فيما أخمن يعرفها الحاضر والباد ، فهم أئمة الحق والهدى . ولكنني أود ان اشير هنا الى انهم رضي الله تعالى عنهم ثبتت كتابتهم بين يدى النبي (ص) بتأكيد المصادر(٢١) .

ويظهر من خلال البحث أن أول من كتب للنبي (ص) أبي بن كعب ، وكان اذا غاب كتب له زيد بن ثابت(٢٢) . وذكر محمد بن سعد ان أول

(٢٠) انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٨ نقلا عن العقد الفريد ج٢ ص١٤٤ .
(٢١) انظر على سبيل المثال وليس الحصر :
تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ .
التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ ـ ٣٠ .
الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ .
تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ .
التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٤ ـ ١١٥ .
مجموعة الوثائق الاسلامية ، ص ٥٥ ، ص٦٠ ـ ٦١ ، ص ٦٧ ص ٦٩ ص٨٥ ص ١٢٧ ص ١٧٨ ص٢١٣ ، ص ١٩٣ ، ص ٢٥٢ .

(٢٢) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ .

من كتب للنبي (ص) عند مقدمه المدينة أبي بن كعب ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب « وكتب فلان »(٢٣) . وأول من كتب له في قريش عبد الله بن سعد بن ابي سرح . ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم رجع الى الاسلام يوم فتح مكة(٢٤) .

وذكر الكتاني في التراتيب الادارية(٢٥) : أنه ورد في كتاب « أنباء الانبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الملوك والامراء » أن عثمان بن عفان وعلى كانا يكتبان الوحي . فان غاب أحدهما كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وكان أبي أسبق الى الكتابة بين يدي رسول الله (ص) من زيد ، كما انه استمر بالكتابة مع زيد أيضا . على أن زيدا كان ألزم الصحابة لكتابة الوحي(٢٦) . واذا غاب زيد وأبي كتب من كان موجودا من الصحابة الذين سميناهم فيما فات .

ويتضح لدى الاستقراء أن ثمة تخصص كان موجودا في الكتابة والكتاب . وهذا لا يعني ضرورة أن ينفرد كاتب كخالد بن سعيد بن العاص أو حنظلة الأسيدي بالكتابة بين يديه (ص) في سائر ما يعرض من أموره(٢٧) .

على أن أهم أنواع الكتابة وأعظمها شرفا هي كتابة الوحي . التي ألمحت أن زيد بن ثابت الانصاري كان ألزم الصحابة لكتابتها . ويمكن أن نصنف الكتابة في زمن النبي (ص) على الشكل الآتي :

---

(٢٣) الاستيعاب ، ج١ ، ص ٣٠ .

(٢٤) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ .

(٢٥) التراتيب الادارية ، ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢٦) المحبر ، ص ٣٧٧ والاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ .

(٢٧) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ . وغيره .

١ ــ كتــابة الوحي •
٢ ــ كتابة رســائله(٢٨) وما يعرض من حوائجه (ص) •
٣ ــ كتابة المداينات بين الناس والعقود والمعــاملات •
٤ ــ كتــابة أموال الصــدقات •
٥ ــ كتــابة الخرص (ص)(٢٩) •
٦ ــ كتــابة المغــانم •
٧ ــ كتابة العهود والمواثيق والصلح •

وفضــلا عن ذلك فقــد وردنا عن حــذيفة (رضى) أنه قال : قــال النبي (ص) « اكتبوا لي من تلفظ بالاســلام من النــاس فكتبنا له الفــا وخمسمائة رجل فقلنا نخــاف ونحن الف وخمسمائة ! ! فلقــد رأيتنا ابتلينا حتى ان الرجل ليصلى وحــده وهو خــائف ! ! »(٣٠) • يستنتج من ذلك أنهم كتبوا المسلمين لاغراض احصــائية • ولا مشاحة انهم كانوا يحتاجونها في السلم والحرب •

ومن نافلة القول التأكيد على أمانة الكتــاب ومــدى الثقة بهم • لأنهم أصحاب رسول الله (ص) • واذا صــح أن وجــد بينهم من لم يكن أمينا فسرعان ما يتضــح أمره • فوردنا عن أنس (رضى) خادم النبي (ص) أنه كان رجل نصرانيا فاسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي (ص) ، ثم عاد الى نصرانيته • فكان يقول ما يدري محمد الا ما كتبت له ، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقــد لفظته الأرض ، ثم أعمقوا له ثلاث مرات فيصبح وقد لفظته الأرض ، فعلموا أنه ليس من عمل الناس فتركوه(٣١) • وتبدو هــذه الرواية قليلة الاهمية تماما بجــانب قوله تعــالى « لا يأتيه الباطــل من بين

---

(٢٨) وتشمل الرســائل الى الملوك والرســائل فيما بينــه وبين العرب •
(٢٩) الخــارص : هــو الحــزر والمقــدر للثمر وغيره •
(٣٠) راجع صحيح البخــاري ، والتجريد الصريح ، ج٢ ص ٢٦ •
(٣١) التجــريد الصريح ، ج٢ ص ٥٤ •

يـديه ولا من خلفـه »(٣٢) وقوله تعـالى « انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون »(٣٣) .

ويروق لي وانا أتحـدث عن التخصص في الكتـابه ــ وقـد لا اكون موفقا كل التوفيق ــ أن أقول ، آن من الكتـاب من القيت عليه مهمة تعليم القراءة والكتابة التي صورت لنا المصـادر ، أن الأسـلام كان حفيـا بهـا في بواكير محنته مع الشرك والضلال . وكيف آن النبي (ص) قبل من اسرى بدر تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتـابة(٣٤) . كفداء لأسرهم ان هـذا يعكس دون أدنى ريب الوجـه الثقافي والحضـارى الصـاعد في شريعـة الاسـلام الخـالدة .

فكان مصعب بن عمير قـد نزل ــ عند مقدمه الى المدينة ــ على اسعد بن زرارة فكـان يطوف به عـلى دور الانصـار يقرئهم القـرآن ويدعوهم الى الله عز وجل(٣٥) . واستعمل النبي (ص) عمرو بن حزم بن زيد على نجران وهو ابن سبع عشرة سـنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخـذ صدقاتهم وكتب له كتابا فيه الفرائض والصـدقات والديات ... وكتـاب عمرو بن حزم مشهور يحتج به العلماء(٣٦) .

---

(٣٢) سـورة فصلت / الايـة (٤٢) .

(٣٣) سـورة الحجر / الاية (٩) .

(٣٤) الطبقـات ، ج٢ ق١ ص ١٤ (طبعـة ليدن / ١٣٢٥ هـ) الروض الانف ، ج٢ ص ٩٢ . التراتيب الادارية ، ج١ ص ٤٨ .

(٣٥) الاسـتبصار ، ص ٥٧ .

وكان مع مصعب بن عمـير عبد الله بن ام مكتـوم . ونزل في رواية بـدار القـراء وهي دار مخـرمة بن نوفـل . انظـر . الطبقـات الكبرى ، ج٤ ص ١٥٠ وفي سنن ابي داود عن عبادة بن الصامت قال : علمت ناساً من اهل الصفة والكتـابة والقـرآن .

(٣٦) ن . م السـابق ، ص ٧٤ .

وتجدر الاشارة هنا الى اولئك الذين كانوا يدونون احاديث النبي (ص) أو خطبه • وفي حديث مسند الى ابي هريرة انه لما خطب النبي (ص) في فتح مكة ، قام اليه رجل من اليمن يقال له أبو شاة وطلب ان يكتبوا له الخطبة فقال (ص) « اكتبوا لابي شاة »(٣٧) • وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب الاحاديث • وكان لعلي (رض) صحيفة فيها العقل وفكاك الأسير والا يقتل مسلم بكافر • وتسمى الصادقة • كما ورد عنه (ص) انه قال « قيدوا العلم بالكتاب »(٣٨) ومع ذلك ، فهذا ما يمكن ان نسميه اهتماما عاما بالكتابة • لكنه يقع في اطار ما نسميه التخصص وقد يعتبر نوعا من الانواع السبعة التي ثبتناها فيما فات •

ولكي تتضح تلك الانواع المتخصصة بالكتابة أرى من الضروري ايراد استعراض سريع للكتاب *

ابان بن سعيد الاموي(٣٩)

ابو الوليد ابان بن سعيد بن أحيحة بن العاص الاموي • أسلم بين الحديبية وخيبر وحسن اسلامه • واستعمله النبي (ص) على بعض سراياه ، منها سرية الى نجد ، ثم ولاه البحرين برها وبحرها • بعد أن عزل عنها العلاء بن الحضرمي سنة تسع للهجرة • فكان يأخذ منها ـ البحرين ـ الصدقات ، والجزية على من لم يسلموا ولم يزل عليها حتى توفي النبي (ص)•

---

(٣٧) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ص ٨٤ •

(٣٨) ن • م ص ٨٥ وما بعدها •

* في الواقع ان هذا البحث اولي تجمعت له مادة مهمة ارجو منه تعالى ان تتاح لي الفرصة لنشره مع تحليل جديد ودقيق •

(٣٩) انظر ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ٤٦ • معجم بني امية ، ص ٣ •

اعتبره البلاذري(٤٠) والطبري(٤١) من كتاب النبي ، غير أنهما لم يبينا لنا نوع الكتابة التي تولاها . وقال المسعودي(٤٢) : « وربما كتب بين يديه(ص)»

استشهد في يوم أجنادين بأرض الشام في خلافة الصديق (رض) أو في اليرموك والاول هو الراجح على ما يبدو .

الارقم بن ابي الارقم

ابو عبد الله الارقم بن أبي الارقم(٤٣) بن أسد بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، من المهاجرين الأولين ، قديم الاسلام ، قيل انه سابع سبعة وقيل بل اسلم بعد عشرة أنفس . وفي داره كان النبي (ص) مستخفياً من قريش بمكة يدعو الناس الى كلمة الله ، طيلة المدة التي كانت الدعوة فيها سرية .

وكان ممن كتب للنبي (ص) . كما وصلت الينا نصوص مكاتيب كتبها بين يديه(٤٤) (ص) . ويتوهم البعض ، فيحسبه والد عبد الله بن الارقم الزهري . والارقم والد عبد الله بن الارقم هو : الارقم بن يغوث الزهري . أما صاحبنا فهو مخزومي . أسلم في داره كبار الصحابة في ابتداء الاسلام . واختلف في تاريخ وفاته ، فقيل انه توفي يوم وفاة الصديق ابي بكر (رض). وقيل بل كانت وفاته بالمدينة سنة ٥٥ هـ وهو ابن بضع وثمانين سنة(٤٥) .

---

(٤٠) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ .

(٤١) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . وانظر ان شئت تاريخ الخميس ج٢ ص ١٨١ . والتراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٥ .

(٤٢) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ .

(٤٣) اسم ابي الارقم هو عبد مناف .

(٤٤) انظر : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . ومجموعة الوثائق الاسلامية ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٦ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٣٢ .

(٤٥) الاستيعاب ، ج١ ص ٩٧ فما بعدها .

أبي بن كعب الانصاري(٤٦)

ابو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد زيد بن معاوية الانصاري الخزرجي . حدث عنه الكثيرون .

ومر بنا قبلا ، أنه أول من كتب للنبي (ص) ، وكان اذا غاب أبي لأمر ما كتب له زيد بن ثابت(٤٧) . فكان مؤتمناً على الوحي ، وسيد القراء ، وأول من كتب له من الانصار . والى جانب كتابة الوحي فانه كتب الرسائل(٤٨).

وهو من الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد النبي (ص) وكلهم من الانصار : معاذ بن جبل وأبي كعب وزيد بن ثابت وأبو زيد وأبو الدرداء وأبو الدرداء وسعد بن عبيد(٤٩) .

وقال (ص) : « اقرأكم أبي » . وقال له مرة : ان الله أمرني ان اقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا »(٥٠) قال : وسماني ؟! قال نعم . فبكى أبي سروراً

---

(٤٦) انظر ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦١ ، الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ ، ص ٧٧ — ٧٨ . تذكرة الحفاظ ، ج١ ص١٦ . سير اعلام النبلاء ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٤٧) فتوح البلدان ، ص ٦٦٢ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . وقيل ان شرحبيل بن حسنه كان اول كاتب . وقيل بل ابي بالمدينة وعبد الله ابن سعد بمكة . التراتيب الادارية ، ج١ ص١٢٨ .

(٤٨) مجموعة الوثائق الاسلامية ، الصفحات ، ٢٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٢٨ ، ٢٥٣ ، ٩٧ ، ١٩٠ ، ٢٠١ .

(٤٩) انظر : المحبر ، ص ٢٨٦ . وقد جعلهم بعض المؤرخين اربعة فقط كما فعل اليافعي فاستثنى منهم ابا الدرداء وسعد بن عبيد . انظر : مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ .

(٥٠) وفي الاستبصار انه (ص) قرا عليه : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما تجمعون » بالتاء . يونس/٥٨ .

واستصغاراً لنفسه عن تأهله لهذه النعمة العظيمة والمنزلة الكريمة . وقال له (ص) : « ليهنك العلم أبا المنذر » . (٥١)

هناك اختلاف في سنة وفاته فذكر سنة ١٩ هـ كما ذكر سنة ٢٢ هـ وقيل في خلافة عثمان (رض) . وقد كلفه مع اثني عشر رجلا من المهاجرين والانصار لجمع القرآن . غير أن الذهبي ناقش هذه الرواية ، ورجح ان وفاته كانت سنة ٢٢ هـ (٥٢) .

ثابت بن قيس الخزرجي(٥٣)

أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن ثابت بن قيس بن شماس بن زهير ابن مالك الخزرجي . كان خطيب الانصار ويقال له خطيب(٥٤) رسول الله (ص) . وكان من نجباء الصحابة . شهد احد وبيعة الرضوان وما تلاها من المشاهد . واخوته لامه عبد الله بن رواحة وعمرة بنت رواحة وهو زوج جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول .

آخى النبي (ص) بينه وبين عمار بن ياسر ، وقيل بل المؤاخاة بين عمار وحذيفة . وكان جهير الصوت خطيباً بليغاً . قال عند مقدم النبي(ص) الى المدينة « « نمنعك ما نمنع به أنفسنا وأولادنا »(٥٥) وقال عنه (ص) :

---

(٥١) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ .

(٥٢) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٨٧ .

(٥٣) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ١٩٣ . الاستبصار ، ص ١١٧-١١٨ سير أعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ الاصابة ، ج١ ص ١٩٧ .

(٥٤) الاستيعاب ، ج١ ص ١٩٣ .

(٥٥) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٢٤ .

« نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس » . وعندما نزلت الآية الكريمة : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(٥٦) » جعل يبكي . فطمأنه (ص) . وكان ممن كتب(٥٧) للنبي (ص) . ووردت بعض نصوص المكاتيب (الرسائل) التي كتبها بين يديه (ص) .

جهيم بن الصلت(٥٨)

هو جهيم بن الصلت بن المطلب (ويقال مخرمة) بن عبد مناف المطلبي . أسلم بعد الفتح . قال البلاذري : كان يعلم الخط في الجاهلية ، فجاء الاسلام وهو يكتب . فكتب للنبي(ص)(٥٩) . وعندما انتهى النبي(ص الى تبوك أتاه يحنه بن رؤبة(٦٠) ، فصالحه النبي (ص) وكتب له كتاباً وفي آخره : كتب جهيم بن الصلت(٦١) . وكان جهيم بن الصلت والزبير بن العوام يكتبان أموال الصدقات(٦٢) ، وكيفية تقسيمها على ما جاء في القرآن الكريم .

ابو عبد الله حذيفة بن حسيل أو حسيل (واليمان لقب له) بن جابر

---

(٥٦) سورة الحجرات ، الاية (٢) .

(٥٧) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص٣٠ . الاصابة ، ج١ ص ٢٥٧ .

(٥٨) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ٢٥٧ .
الاستبصار ، ص ٢٣٣ .

(٥٩) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣.

(٦٠) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص ٩٥٢ .

(٦١) مجموعة الوثائق ، ص٥٥ ، ص٨١ .

(٦٢) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ . نور الابصار ، ص ٤٨ .

(٦٣) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٣ . الاستيعاب ج١ ص٢٧٦ . الاصابة ، ج١ ص ٣١٦ . مرآة الجنان ، ج١ ص٧٧ ، ص ١٠٠ .
ص١٠٠ .

ابن عمرو بن ربيعة • أحد الصحابة المشهود لهم • كان يكتب خرص الحجاز(٦٤) • والخارص هو المحزر والمقدر للثمر وغيره • شارك في معارك الاسلام الخالدة • ومنها تحرير العراق في معركة نهاوند سنة ٢١هـ •

استعمله الفاروق (رض) على المدائن • ولم يزل بها حتى مات بعد استشهاد عثمان (رض) وبعد بيعة علي (رض) بأربعين يوماً • وقيل أيضاً ان وفاته كانت سنة ٣٥ هـ • وهو القائل : « لاتقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها » • وكان أعلم اصحاب رسول الله (ص) بالمنافقين وبأخبار الفتن •

الحصين بن نمير(٦٥)

هناك اشتباه وقع فيه المؤرخون في تحديد من هو هذا الصحابي لتشابه الاسماء • فهناك الحصين بن نسير الانصاري والحصين بن نمير السكوني • وقد ذكر المؤرخون من كتاب النبي (ص) الحصين بن نمير ولم يوضحوا نسبه • قال المسعود كان « الحصين بن نمير والمغيرة بن شعبة يكتبان فيما يعرض حوائجه »(٦٦) • وقال الشيخ الشبلنجي كان « المغيرة بن شعبة والحصين ابن نمير يكتبان المداينات والمعاملات »(٦٧) •

ولقد خلط ابن عساكر بين حصين بن نمير السكوني والحصين بن نمير الانصاري • وكان الاول أميراً ليزيد بن معاوية على قتال أهل مكة وحاصر عبد الله بن الزبير • وكان ابراهيم بن الاشتر قد هاجم هذا الجيش الذي تحت

---

(٦٤) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ • نور الابصار ، ص ٤٨ •

(٦٥) انظر : معجم بني امية ، ص ١١٩ • الاصابة ، ج١ ص ٣٣٨ ، مرآة الجنان ، ج١ ص ١٤٢ •

(٦٦) انظر التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(٦٧) نور الابصار ، ص ٤٨ ، كماذكر ذلك القضاعي في كتاب الانباء وابن حزم في كتاب جوامع السيرة • انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ٢٧٥ •

امرة السكوني سنة (٦٦ - ٦٧هـ) وقتل الأمير وعدد من معاوئيه وبعث برؤوسهم الى المختار .

وذكر ابن حجر حصين بن نمير الانصاري الذي أغار على تمر الصدقة في غزوة تبوك سنة ٩ هـ . ثم ذكر حصين بن نمير آخر وقال : ما أدري الذي قبله أو غيره ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال كان عامل عمر على الاردن .. .. ثم اميراً ليزيد بن معاوية نسبه ابن الكلبي فقال : حصين بن نمير بن فاتك بن لبيد بن جعفر بن الحارث بن سلمة بن سكانه وقال أنه كان شريفاً بحمص وكذا ولده . الى ان يقول : فلا أدري أراد هذا أو أراد الذى قبله . وكأنه أراد الذي قبله(٦٨) .

حنظلة بن الربيع(٦٩)

حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رباح بن مخاشن الأسيدي التميمي ابن أخ اكثم بن صيفي الحكيم المشهور . وكان يلقب بحنظلة الكاتب .

كتب بين يدي النبي (ص) في جميع الامور ، اذا غاب واحد من كتابه فهو ينوب عنهم(٧٠) . وهذا يشير على ما يبدو الى امكانيته الفذة من ناحية وانه لم يختص بنوع معين من الكتابة . ومن ناحية اخرى فهو موضع ثقة نظراً لما كان يتولاه من امور الكتابة وبهذا الشكل .

شهد القادسية . وتوفي في خلافة الفاروق (رض) بعد ان فتح الله

---

(٦٨) الاصابة ، ج١ ص ٣٣٨ .

(٦٩) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . الاستيعاب ، ج١ ص٢٧٨-٧٩ الاصابة ، ج ١ ص ٣٥٩ .

(٧٠) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ . الاصابة ، ج١ ص١١٨ تارتخ الخميس ، ج٢ ص١٨١ .

على المسلمين البلاد • فتفرقوا فيها • فصار حنظلة الكاتب الى الرها(٧١) فمات فيها ورثته امرأة من قومه وقيل زوجته بقصيدة منها البيت الذي نصه :

ان سواد الرأس أودى به حزني على حنظلة الكاتب

وقد وهم الديار بكري فقال استشهد في احد(٧٢) • لان الذي استشهد في أحد انما هو حنظلة بن ابي عامر غسيل الملائكة(٧٣) كما سماه المسلمون آنئذ •

خالد بن سعيد بن العاص(٧٥)

أبو سعيد خالد بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الاموي أحد السابقين الأولين •فهو قديم الاسلام • وكان من مهاجرة الحبشة هووأخوه عمرو ، وأقام بالحبشة ، اذ هاجر اليها في الهجرة الثانية وكانت معه امرأته وابناه سعيد وخالد اللذان ولدا بأرض الحبشة •

كان خالد يكتب للنبي (ص) في سائر ما يعرض من اموره هو وحنظلة الكاتب(٧٥) •

---

(٧١) الرها : من مدن الجزيرة بين الموصل والشام ، سميت باسم الذي استحدثها وهو الرها من البلندي بن مالك بن دعر • معجم البلدان ، ج٤ ص٣٤٠ •

(٧٢) تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ١٨١ •

(٧٣) انظر : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٥٩٤ •

(٧٤) انظر ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٦ • الاستيعاب ، ج١ ص ٣٩٨ ــ ٩٩ الاصابة ، ج١ ، ص٤٠٦ • معجم بني امية ، ص ٢٩ ــ ٣٠ • سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٨٨ •

(٧٥) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ • تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ • التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ مجموعة الوثائق ، ص ٤١ ، ص ٤٢ ، ص٢٠٨ ، ص٢٣٢ ، ص٢٣٩ ، ص ٢٤٤ •

قدم على النبي (ص) في يوم خيبر سنة ٧ هـ • وأسهم له النبي (ص) ثم رجع معه الى المدينة وبعثه عاملا على صدقات اليمن • وتوفي النبي(ص) وهو عامله على صنعاء اليمن • وأقره الصديق (رض) أميراً على جيش فتح الشام لتحريرها من الروم • فحاربهم في مرج الصفر(٧٦) فقيل انه قتل به وقيل انه بقي حتى شهد اليرموك •

روي عن أم خالد بنت خالد أنها قالت : « كان أبي خامساً في الاسلام وهاجر الى أرض الحبشة ، واقام بها بضع عشرة سنة وولدت أنابها وكان ابي أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم » •

وجاء في الاستيعاب أنه استشهد يوم أجنادين اما في الاصابة فقال أنه استشهد في مرج الصفر •

خالد بن الوليد (٧٧)

أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي • أحد أشراف قريش في الجاهلية واليه كانت القبة والأعنه(٧٨) • ذكره ابن عبد البر(٧٩) • مع الذين كتبوا للنبي (ص) •

اختلف في تحديد وقت اسلامه وهجرته ، فقيل هاجر خالد بعد

---

(٧٦) مرج الصفر : مرج قبل دمشق من بلاد الشام بين الكسوة وغباغب • معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٠٨ •

(٧٧) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٧ • الاستيعاب ، ج١ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٨ • الاصابة ، ج١ ص ٤١٢ ــ ٤١٤ •

(٧٨) القبة والاعنة : كانوا يضربون قبة في الجاهلية ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش • واما الاعنة فهي قيادة الجيش ومن كانت له الاعنة كانت له الرئاسة على فرسان قريش في الحروب •

(٧٩) الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨٢ • سيرة الرسول للعاملي ، ص ٤١ •

الحديبية ، وقيل بل كان اسلامه بين الحديبية وخيبر . وذهب بعضهم الى القول ان اسلامه كان سنة ثمان للهجرة مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، ولما رآهم النبي (ص) قال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها »(٨٠) . حسن اسلامه وولاه (ص) أعنة الخيل وسماه سيفاً من سيوف الله . وشهد فتح مكة مسلماً . وبعثه (ص) الى بيت العزى ـ وكان مما تعظمه قريش وكنانة ومضر بنخلة ـ فهدمها وجعل يقول :

كفرانك اليوم لا سبحانك   اني رأيت الله قد أهانك

وقال بعضهم : لا يصح لخالد مشهد مع الرسول (ص) قبل الفتح .

ومضى أميراً على الجيوش التي ذهبت للقضاء على المرتدين ولما حضرته الوفاة قال : شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم ها أنذا أموت كما يموت البعير . فكان (رض) يطمع بالشهادة في سبيل الله . وكانت وفاته بحمص وقيل بل توفي في المدينة سنة ٢١ أو ٢٢ في خلافة عمر الفاروق (رض) .

الزبير بن العوام(٨١)

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي الاسدي . حواري(٨٢) رسول الله (ص) وابن عمته صفية . وأول من سل سيفاً في سبيل الله .

كان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان للنبي (ص) في أموال

---

(٨٠) ويروى انه قال ذلك (ص) في احدى المعارك مع قريش .

(٨١) ترجمته في : المعارف ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . الاستيعاب ، ج١ ص ٥٦٠ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٩٨ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٧ ـ ٤٥ . الاصابة ، ج١ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨ .

(٨٢) الحواري : ذكر في معانيه كثيراً من الالفاظ : كالناصر والخاصة والمستخلص والخليل . انظر مصادر تخريج ترجمته ، الحاشية (٨١) .



الصدقات(٨٣) • ويقومان بتصنيفها وتوزيعها على ما ورد في الآية الكريمة « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل »(٨٤) •

أبلى الزبير بلاء عظيماً في معارك الاسلام الخالدة ، وفي اليرموك على وجه التحديد • وقال عنه النبي (ص) : « لكل نبي حواري وحواريي الزبير » • وهو من العشرة المبشرين بالجنة •

استشهد سنة ٣٦هـ • في وقعة الجمل : قتله ابن جرموز بوادي السباع(٨٥) ، منصرفاً تاركاً للقتال طالبا للنجاة من الفتن • فأخذ ابن جرموز سيفه بعد أن قتله وأخبر علياً (رض) فبشره بالنار • لما ورد عنه (ص) انه قال : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » • فقال ابن جرموز متهكماً : يا ويلنا ان قاتلناكم ويا ويلنا ان قاتلنا معكم فنحن في النار(٨٦) •

وكان الامام علي (رض) يقول : « والله اني لأرجو أن اكون انا وطلحة والزبير من أهل هذه الآية : ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين »(٨٧) •

زيد بن ثابت الانصاري(٨٨)

وهو زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي • كاتب الوحي للنبي

---

(٨٣) انظر : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ •

(٨٤) سورة التوبة ، الاية (٦٠) •

(٨٥) وادي السباع : على سبعة فراسخ من البصرة او حوالي ٤٢ كم انظر : معجم البلدان •

(٨٦) مرآة الجنان ، ج١ ص ٩٨ •

(٨٧) سورة الحجر ، الاية (٤٧) •

(٨٨) ترجمته في : المحبر ، ص ٣٧٧ ، ص ٢٨٦ • المعارف ، ص ٢٦٠ • الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٢ ــ ٣٤ • الاستبصار ص ٧١ ــ ٧٢ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢١ فما بعدها • تذكرة الحفاظ ، ج١ ص ٣٠ • سير اعلام النبلاء ، ج١ ص٣٤٩ • الاصابة ، ج١ ص ٥٤٣ •

(ص) . قتل ابوه في يوم بعاث(٨٩) .

وعندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً الى المدينة . كان زيد صبياً ذكيا نجيبا وعمره احدى عشرة سنة ، فأسلم . وأمره (ص) أن يتعلم خط يهود فأجاد الكتابة وحفظ القرآن الكريم وأتقنه . وكان مع أبي يكتبان الى جانب الوحي ، كتب النبي (ص) وما يقطع(٩٠) . كما كتب زيد مغانم(٩١) النبي قبل أن يتولاها معيقيب بن فاطمة الدوسي . ثم كتب الكتب الى الملوك وأجاب عنها بحضرة النبي (ص) وكان يترجم من الفارسية والرومية والقبطية والحبشية . وكان قد تعلمها في المدينة من أهل هذه الألسن . وروي عن النبي (ص) أنه قال : « يا زيد تعلم كتابة يهود فاني ما آمنهم على كتابي»(٩٢) . وكانت ترد للنبي (ص) كتب بالسريانية فأمر زيداً فتعلمها .

روي عنه بسند انه قال : كنت الى جانب النبي (ص) فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذي فما وجدت شيئاً أثقل منها . ثم سري عنه فقال لي اكتب : فكتبت في كتف « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون »(٩٣) فقام عمرو بن ام مكتوم فقال كيف بمن لا يستطيع ، فما انقضى كلامه حتى غشيت رسول لله (اص) السكينة ثم سري عنه فقال اكتب : غير أولي

---

(٨٩) يوم بُعاث : اليوم الذي كانت فيه الحرب بين الاوس والخزرج قبل هجرة النبي (ص)الى المدينة بخمس سنين . وبعاث اسم موضع من نواحي المدينة تابع لبني النظير ، تاريخ الخميس ، ج١ ص ٢٩٧ .

(٩٠) فتوح البلدان ص ٦٦٢ .

(٩١) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ والتنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ . ومصادر تخريج ترجمته .

(٩٢) فتوح البلدان ، ص ٦٦٤ : تاريخ الخميس ، ج١ ص ٤٦٤ .

(٩٣) النساء الاية (٩٥) .

الضرر »(٩٤) .

وكان النبي (ص) يخاطب الصحابة قائلا : أفرضكم زيد(٩٥) . وحكى صاحب السيرة الحلبية أن معاوية وزيد بن ثابت كانا ملازمين لكتابة الوحي وغيره لا عمل لهما غير ذلك . وقال ابن حجر في الاصابة ـ نقلا عن المدائني ـ ان زيداً كان يكتب الوحي وكان معاوية يكتب للنبي (ص) فيما بينه وبين العرب . وقد ألمعت الى شيء من هذا القبيل في صدر هذا المقال .

على ان ابن عبد البر أوضح(٩٦) ان زيداً كان ألزم الصحابة لكتابة الوحي مع أنه كان يكتب كثيراً من الرسائل . وسبقت الاشارة الى ان أبي بن كعب كان أول من كتب للنبي (ص) ، فاذا لم يكن حاضراً دعي زيد بن ثابت . وكانا يتناولان الكتابة في الوحي ، كما كتبا كتبه الى الناس وما يقطع(٩٧) .

وعد ابن حبيب(٩٨) زيد بن ثابت من الذين جمعوا القرآن على عهد النبي (ص) . وناقش ابن عبد البر ذلك مبيناً الطريقة التي جمع فيها زيد القرآن من العسب والرقاع وصدور الرجال . فلو كان قد جمع القرآن على عهد النبي (ص) لأملاه من صدره(٩٩) .

على انه انتدب في زمن الصديق (رض) لجمع القرآن . ثم عينه عثمان (رض) لكتابة المصحف وثوقاً بحفظه ودينه وأمانته وحسن كتابته وكتب بعد النبي (ص) لابي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما

---

(٩٤) التجريد الصريح / ج٢ ص ١٧ .

(٩٥) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ .

(٩٦) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٩٧) ن . م السابق ، ج١ ص ٣٠ وتاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٢٤١ .

(٩٨) المحبر ، ص ٢٨٦ .

(٩٩) الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ . وقد كتبت بحثاً عن تاريخ جمع القرآن لا يزال مخطوطاً . ناقشت فيه معظم الروايات . وتثبت منها .

كما كتب لهما معيقيب الدوسي معه(١٠٠) .

وكان زيد عالماً بالفرائض وله القراءة . فقرأ عليه القرآن جماعة منهم ابن عباس وابو عبد الرحمن السلمي ، وحدث عنه ابنه خارجة وأنس بن مالك وابن عمر ومروان وعبيد بن السباق وعطاء بن يسار وغيرهم . وكان ابن عباس يأتي بابه وينتظر خروجه ليسمع منه العلم (١٠١) . فاذا ركب أخذ بركابه فيقول ما هذا يا ابن عباس ؟ ! فيقول هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا . وكان عمر (رض) ، يستخلفه على المدينة اذا حج ونال شرف العلم والصحبة للنبي (ص) .

وقد اختلف في وفاته فقيل سنة ٤٥ هـ وقيل سنة ٥٤ هـ وقيل سنة ٥٥هـ. كما قيل غير ذلك(١٠٢) .

شرحبيل بن حسنة(١٠٣)

قال القاضي الرامهرمزي : هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو من كنده وامه حسنة مولاة معمر بن حبيب الجمحي . واخبرنا أبو خليفة عن الجهم عن الجمحي قال : هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع وحسنة امه من بطن حمير وكان سفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح تزوجها بعد عبد الله بن المطاع وتبنى ابنها في الجاهلية .

وقال ابن هشام هو شرحبيل بن عبد الله أحد بني الغوث بن مر أخي تميم بن مر ، وقال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب هو شرحبل

---

(١٠٠) الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ . الاصابة ، ج١ ص ٥٤٣ .

(١٠١) مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

(١٠٢) راجع ان شئت مضان ترجمته المذكورة في الحاشية رقم (٨٨) .

(١٠٣) ترجمته في : المعارف ، ص ٣٢٥ . المحدث الفاصل ، ص ٢٦٩ . الاستيعاب ، ج٢ ص ١٣٧ ــ ١٣٨ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٣٨ . الاصابة ، ج٢ ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

ابن عبد الله من بني جمح وامه حسنة .

على حين نرى ان ابن اسحق اكد على ان ام شر حبيل وهي حسنة امرأة عدولية كان ولاؤها لمعمر بن حبيب الجمحي ، حالفه وتبناه وزوجه من حسنة وقد كان لها من غيره شرحبيل ، فولدت له جابراً وجنادة ابني سفيان ، فلما قدموا من الحبشة نزلوا على قومهم من بني زريق في ربعهم ونزل شر حبيل مع أخويه لامه ، ثم هلك سفيان وابناه في خلافة عمر بن الخطاب (رض) فتحول شر حبيل بن حسنة الى بني زهرة فحالفهم(١٠٤) .

وكان ممن كتب للنبي (ص) (١٠٥) . وهناك من ذهب الى أنه أول كاتب للنبي (ص) كما في المواهب(١٠٦) . وكان شر حبيل يكتب التوقيعات الى الملوك بأمر النبي(١٠٧) (ص) . ويبدو أنه كان مختصاً بكتابة الرسائل ، فلم تشر المصادر التي وقفت عليها الى مهمة كتابية غيرها . وكان من مهاجرة الحبشة مصدراً في وجوه قريش ، ثم أصبح أميراً مجاهداً في تحرير الشام . كما ولاه الفاروق (رض) ربع أرباع الشام وكانت وفاته شهيداً في طاعون عمواس سنة ١٨هـ وهو ابن سبع وستين سنة(١٠٨) .

---

(١٠٤) انظر المراجع المذكورة اعلاه في الحاشية (١٠٣) .

(١٠٥) انظر : فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ . مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٥ ص ٦٦ .

(١٠٦) انظر : التراتيب الادارية ، ج١ ص ١٢٨ . وقد مر معنا ان اول كاتب للنبي (ص) ابي بن كعب بالمدينة وعبد الله بن سعد بن ابي سرح بمكة .

(١٠٧) انظر : نور الابصار ، ص ٤٨ .

(١٠٨) تراجع مضان ترجمته المذكورة سلفاً في الحاشية (١٠٣) اعلاه .

عـامر بن فهيرة(١١٠)

هو مولى ابي بكر الصديق (رض) وأحد السابقين . وكان ممن يعذب في الله ... وأوضح ابن اسحاق، أنه كان مولوداً من الأزد للطفيل بن عبد الله ابن سخبره ، فاشتراه الصديق (رض) وأعتقه فأ سلم وحسن اسلامه .

وهو من الذين كتبوا للنبي (ص) قبل الهجرة(١١١) . وكان له دور مهم في هجرة النبي (ص) مع أنه كان راعياً لأغنام ـ وهذا شأن المجتمع الاسلامي ـ فكان يريحها ليحتلب منها النبي (ص) والصديق (رض) ما يشاؤون مدة لبثهم في غار ثور ، مختفين عن أعين المشركين ، ثم يسير بغنمه ليعفي على آثار عبد الله بن أبي بكر الذي كان يواصل النبي (ص) باخبار قريش ، وآثار اخته ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر التي كانت تأتي بالطعام للنبي (ص) وصاحبه .

وكانت وفاته سنة ٤هـ عند بئر معونة ، وكان النبي (ص) قد بعث أربعين رجلا في السنة المذكورة الى أهل نجد المدعوة الى الاسلام ، عندما قدم اليه ابو براء عامر بن مالك بن جعفر بن ملاعب الأسنة وهو في المدينة . فعرض عليه الاسلام ، فلم يسلم . وقال للنبي (ص) : أنا جار لهم ... فذهب عدد من خيار المسلمين وأميرهم المنذر بن عمرو ومنهم عامر بن فهيرة ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم فغدروا بهم(١١٢) رحمهم الله . وكان مما كتبه عامر عهداً من النبي (ص) لمالك

---

(١١٠) ترجمته في : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٦٧٨ ـ ٧٩ . الاستيعاب ، ج٣ ص ٧ . الاصابة ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(١١١) انظر : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . سيرة الرسول : ص٤١ . مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٢ .

(١١٢) ما اوردته ملخصاً راجعه ان شئت في سيرة ابن هشام ، ج٣ ص٦٧٨ فما بعدها .

ابن سراقة بن جشعم في رقعة من أديم(١١٣) • وفي بعض الروايات ان الذي كتب ذلك العهد هو أبو بكر الصديق(١١٤) •

عبد الله بن الارقم(١١٥)

هو عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث الزهري • أسلم عام الفتح وكتب للنبي (ص) ثم لابي بكر الصديق (رض) واستكتبه عمر الفاروق (رض) • وكان يجيب الملوك عن النبي(١١٦) (ص) • وبلغ من أمانته عنده أن يكتب الى بعض الملوك ، فيكتب ويأمره أن يطينه ويختمه وما يقرأه ثقة به • وقال ابن اسحاق : كان اذا غاب زيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم واحتاج النبي (ص) أن يكتب الى بعض أمراء الاجناد أو الملوك او الى انسان بقطيعة أمر من حضر ان يكتب له(١١٧) • على ان المسعودي اشار الى ان عبد الله بن الارقم ••• والعلاء بن عقبة كانا يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات(١١٨)•

ويلوح لي ان عبد الله بن الأرقم كان من المواظبين على كتابة الرسائل فقد « ورد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال من يجيب عني ؟فقال عبد الله بن الأرقم : أنا ، فأجاب عنه واتى به اليه فأعجبه وأنفذه وكان عمر (رض) حاضراً فأعجبه ذلك من عبد الله بن الأرقم فلم يزل ذلك له في نفسه ، يقول أصاب ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١١٩)•

---

(١١٣) التجريد الصريح ، ج٢ ص ٦٩ • التراتيب الادارية ، ج١ ص ١٢٣ •

(١١٤) نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١١٥) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥١ • الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(١١٦) الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥١ فما بعد و ج١ ص ٣٠ • سيرة الرسول ، ص٤١

(١١٧) الاستيعاب ، ج٢ ص٢٥٢ • الاصابة ، ص ٢٦٥ •

(١١٨) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ •

(١١٩) الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥٢ •

فلما ولي عمر (رض) استعمله على بيت المال في خلافته . واستمر في خلافة عثمان (رض) سنتين حتى استعفاه من ذلك فأعفاه . وكانت وفاته في خلافة عثمان (رض) .

عبد الله بن رواحة(١٢٠)

أبو عمرو وأبو محمد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس الانصاري الخزرجي البدري . كان نقيباً في بيعة العقبة الثانية . وكان شاعراً ... وهو أخو أبي الدرداء لامه . شهد بدراً والعقبة .

ويعتبر من كتاب الانصار المشهورين كتب للنبي (ص) واستخلفه على المدينة في غزوة بدر الموعد . وبعثه على سرية ، كما بعثه خارصاً على خيبر . وقال ابن سعد كان يكتب للنبي (ص) (١٢١) .

واستشهد في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ . بعد صاحبيه زيد بن حارثة وجعفر ابن ابي طالب صاحب الهجرتين وذو الجناحين . وكان ابن رواحة قوي الايمان راسخه ، وهو القائل : (١٢٢)

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام ان لاقينا
ان العدى قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا

وكان احد شعراء النبي (ص) الذين كانوا ينافحون عنه وفيه وفي صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزلت « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

---

(١٢٠) ترجمته في : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٣٨٠ فما بعد . الاستبصار ص ١٠٨ مرآة الجنان ، ج١ ص ١٣ ـ ١٥ . سير اعلام النبلاء ج١ ص ١٦٠ فما بعد : الاصابة ، ج٢ ص ٢٩٨ .

(١٢١) انظر : الاصابة ، ج٢ ص ٢٩٨ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ سيرة الرسول ، ص ٤١ .

(١٢٢) مرآة الجنان ، ج١ ص ١٤ .

ذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا »(١٢٣) . ومن شعر عبد الله بن رواحة قوله :

لكني أسأل الرحمن مغفرة — وضربة ذات فرغ(١٢٤)تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة — بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتي يقال اذا مروا على جدثي — أرشده الله من غاز وقد رشدا(١٢٥)

فتأمل صلابة ورسوخ الايمان في أصحاب النبي الكرام صلى الله عليه وسلم ورضي عن أصحابه نجوماً في سماوات التضحية والاخلاص لله وحده .

عبد الله بن سعد(١٢٦)

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري من بني عامر بن لؤي بن غالب. أسلم وكتب للنبي (ص) . قال الطبري : هو أول من كتب للنبي (ص) من قريش في مكة . ثم ارتد ولحق بالمشركين . وكان يقول كنت أصرف محمداً حيث أريد . كان يملي عزيز حكيم فأقول أو عليم حكيم فيقول نعم(١٢٧) . ونزل فيه قوله تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل

(١٢٣) الشعراء ، الاية (٢٢٧) .
(١٢٤) ذات فراغ : واسعة .
الزبدا : هنا الدم .
(١٢٥) سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٨٣٠ .
(١٢٦) ترجمته في : المعارف ، ٣٠٠ ـ ٣٠١ . الاستيعاب ، ج٢ ص ٣٨١ . مرآة الجنان ، ج١ ص ١٠٠ . سير اعلام النبلاء ،ج٣ ص ٢٣ . الاصابة ، ج٢ ص ٣٠٩ .
(١٢٧) فتوح البلدان ، ص ٦٦٢ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ . سيرة الرسول ، ص ٤١ .

الله »(١٢٨) • أمر النبي (ص) بقتله يوم الفتح ••• فاستأ من له عثمان (رض) من النبي (ص) وكان اخوه من الرضاعة •

ثم حسن اسلامه وله رواية وحديث • ولاه الفاروق (رض) الصعيد ، كما ولي مصر لعثمان (رض) وقيل شهد صفين • والذي يبدو أنه اعتزل الفتنة ، وانزوى الى الرملة ، لم يبايع علياً ولا معاوية وهو الذي فتح افريقيا وقتل جر جير صاحبها • وغزا ذات الصواري ثم قاد غزوة الأساود • وكانت وفاته سنة ٥٩ هـ • والارجح في خلافة على (رض) •

عبد الله بن سعد الاموي(١٢٩)

هو عبد الله بن سعيد بن أحيحة بن العاص بن امية الاموي • له صحبة ، وكان اسمه الحكم فسماه النبي (ص) عبد الله واستعمله على سوق المدينة •

ولما اسلم أمره النبي (ص) ان يعلم الكتابة بالمدينة(١٣٠) ، وكان كاتباً قبل اسلامه • روى عنه ابن أخيه سعيد بن عمرو بن سعيد • وذكر ابن سعد أنه استشهد في غزوة مؤته سنة ثمان للهجرة • وذكر أبو مخنف أنه خرج مع اخوته خالد وعمرو وابان الي الشام مجاهداً • وقال غيره انه استشهد في بدر وقيل انه استشهد في اليمامة • غير انه نسب اليه أنه قال يوم مرج الصفر(١٣١) :

من فارس كره الكماة يعيرني رمحاً اذا نزلوا بمرج الصفر

فان صح هذا فيكون قد استشهد في مؤتة بأرض الشام •

---

(١٢٨) سورة الانعام / الاية (٩٣) •

(١٢٩) انظر ترجمته في : معجم بني امية ، ص ٨١ (نقلا عن تاريخ دمشق لابن عساكر • المخطوط : الورقة (١١٩ ا ــ ١٨٠ ب) •

(١٣٠) التراتيب الادارية ، ج١ ص ٤٨ • واحال الى الاصابة والاستيعاب ونسب قريش •

(١٣١) عن مرج الصفر انظر الحاشية (٧٦) اعلاه •

العلاء بن الحضرمي (١٣٢)

العلاء بن عبد الله بن عباد بن اكبر بن ربيعة . كان من حلفاء بني أمية ومن سادة المهاجرين . ولاه النبي(ص) البحرين ثم وليها لابي بكر وعمر(رض). وتروي المصادر أن الفاروق (رض) بعثه اميراً على البصرة فمات قبل ان يصل اليه .

ونقل الذهبي(١٣٣) عن محمد بن سيرين أن العلاء كتب للنبي (ص) وقال المسعودي(١٣٤) « ربما كتب بين يديه » . وعده البلاذري والطبري من كتاب النبي (ص) (١٣٥) .

ومن فضائله ما رواه أبو هريرة قال : رأيت ثلاثة أشياء في العلاء لا أزال أحبه أبداً . قطع البحر على فرسه بوادارين ، وقدم يريد البحرين فدعا الله بالدهناء فنبع لهم ماء فارتووا ، ونسي رجل منهم بعض متاعه فرد فلقيه ولم يجد الماء . ومات ونحن على غير ماء فأبدى الله سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ودفناه ولم نلحد له . وكانت وفاته سنة ٢١ هـ (١٣٦) .

محمد بن مسلمة(١٣٧)

أبو عبد الرحمن محمد بن مسلمة بن سلمة من بني حارثة بن الحارث ابن الخزرج حليف لبني عبد الأشهل .

---

(١٣٢) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٨٣ ـ ٨٤ . مرآة الجنان ، ج١ ص٧٧

(١٣٣) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٩٠ . وتاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨٢ .

(١٣٤) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ .

(١٣٥) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ . وتاريخ الخميس : ج٢ ص ١٨٢ .

(١٣٦) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٩٠ .

(١٣٧) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٩ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ . الاستبصار ، ص ٢٤١ ـ ٤٢ . مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢٠ .

وكان يقال له فارس رسول الله (ص) • وكان من كتاب النبي ايضاً(١٣٨)• واستخلفه في غزوة (قرقرة الكدر) على المدينة وشهد مع النبي (ص) بدراً والمشاهد كلها • ولم يشهد الجمل ولا صفين • ولا حارب بل اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله في جفن : وذكر أن النبي (ص) أمره بذلك وأقام بالربذة •

ومن مآثره انه عندما شبب كعب بن الأشرف اليهودي بنساء المسلمين آذاهم ذلك • فقال النبي (ص) من لي بابن الاشرف قال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله • أقتله ؟ قال افعل ان قدرت على ذلك • فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب الا ما تعلق به نفسه ، الى أن استدعاه النبي (ص) وسأله فقال له : لا أدري أفي لك يا رسول الله أم لا !! فقال له انما عليك الجهد(١٣٩) • فتأمل وفاء واخلاص أصحاب رسول الله (ص) • وكانت وفاته في سنة ٤٣ أو ٤٦هـ في المدينة •

معاوية بن ابي سفيان(١٤٠)

معاوية بن أبي سفيان ابن صخر بن حرب بن امية الخليفة الاموي أسلم قبل ابيه في عمرة القضاء • ولم يظهر اسلامه الا يوم الفتح سنة ٨ هـ وهو أخو ام حبيبة (رض) وابن عم النبي (ص) •

روى عن النبي (ص) وعن ابي بكر وعمر وام حبيبة رضي الله تعالى عنهم ، وروى الحديث عن غيرهم • كما روى عنه خلق من الصحابة والتابعين

---

(١٣٨) الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ ؛ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ • سيرة الرسول ، ص١ ٤ •

(١٣٩) الاستبصار ، ص ٢٤٢ •

(١٤٠) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٥ ـ ٧٨ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٣٠ • سير اعلام النبلاء ، ج٣ ص ٧٩ فما بعد • الاصابة ، ج٤ ص ٩٢ • مهجم بني امية ، ص ١٦٧ ـ ٦٩ •

منهم ابن عباس وأبو سعيد الخدري وابو ذر الغفاري وجرير بن عبد الله البجلي وغيرهم •

تولى كتابة الرسائل فيما بين النبي (ص) وعرب البادية • وعن ابن عباس انه كان كاتبا للوحي(١٤١) • قال البلاذري : كتب له بعد اسلامه عام الفتح •وقال المسعودي : كتب له معاوية قبل وفاته بأشهر(١٤٢) • وقال أبو نعيم الحافظ : كان معاوية من الكتبة الحسبة الفصحة • وقال الخطيب البغدادي : واستكتبه رسول الله (ص) (١٤٣) •

وتجمع الروايات على ان معاوية كتب الرسائل والوحي • وكان هو وزيد بن ثابت ملازمين للكتابة بين يدي النبي (ص) في الوحي وغيره • وذهب بعضهم الى القول بانه لم يكن لهما عمل غير ذلك (١٤٤) •

وقد ولاه الفاروق (رض) الشام بعد أخيه يزيد ، وكان اذا رآه يقول كسرى العرب • وقال (رض) : تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية !(١٤٥) • غير أنني أتحفظ كثيراً في قبول رواية كهذه منسوبة الى الفاروق • على ان دهاء معاوية لا يخفى على متصفح لتاريخه والياً وأميراً وخليفة •

---

(١٤١) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ • تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ • الاستيعاب ، ج١ ص٣٠ وج٣ ص ٣٧٥ فما بعد • معجم بني امية ، ص ١٦٧ ــ ٦٨ ــ سير اعلام النبلاء ، ج٣ ص ٨١ • مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٦٩ ص ١٩١ ، ص ٢٣٣ • سيرة الرسول للعاملي ، ص ٤٢ •

(١٤٢) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ •

(١٤٣) تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(١٤٤) سيرة الرسول ، ص ٤٢ ومجموعة الوثائق ، ص ٨٩ ، ص ١٢٨ • ونور الابصار ص ٤٨ •

(١٤٥) معجم بني امية ، ص ١٦٨ ــ ٦٩ •

وكانت وفاته بالشام سنة ٦٠ هـ • ودامت خلافته تسع عشرة سنة وأربعة أشهر •

معيقيب بن ابي فاطمة(١٤٦)

هو معيقب بن أبي فاطمة الدوسي بن عدثان بن عبد الله الازدي كان حليفاً لبني أسد • هاجر الى الحبشة وشهد بدراً •

كتب للنبي (ص) ويبدو أنه كان مختصاً بكتابة مغانم النبي (ص) ، وكان عليها قبله زيد بن ثابت(١٤٧) • وهو صاحب خاتم النبي (ص) • كما كتب بعد النبي (ص) للصديق والفاروق رضي الله تعالى عنهما •

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ •

المغيرة بن شعبة الثقفي(١٤٨)

أبو عبد الله المغيرة بن شعبة الثقفي • شهد بيعة الرضوان واليمامة وفتوح الشام واليرموك •

وكان حازماً ذا رأي ودهاء كبير • ذكره المؤرخون كواحد من كتاب النبي (ص)(١٤٩) • فذهب بعضهم الى القول انه كان يكتب مع الحصين بن نمير فيما يعرض من حوائجه (ص) • والذى يظهر انه كان يكتب الرسائل في

---

(١٤٦) ترجمته في : المعارف ، ص ٣١٦ • سيرة ابن هشام ، ج٣ ص٨١٩ الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٠٧ •

(١٤٧) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ـ ٤٦ : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٠ الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ ، ج١ ، ٣٠ •

(١٤٨) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٤ ـ ٩٥ • مرآة الجنان ، ج١ ص١٢٤

(١٤٩) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ، الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ • الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ • سيرة الرسول ، ص ٤١ •

الغالب(١٥٠) . وقال الشبلنجي(١٥١) انه مع الحصين كانا يكتبان المداينات والمعاملات .

وكانت وفاته بالكوفة وهو أمير عليها سنة (٥٠هـ) بالطاعون .

يزيد بن ابي سفيان(١٥٢)

يقال له يزيد الخير بن ابي سفيان بن حرب بن امية الاموي . هو أخو معاوية من أبيه وأخو ام المؤمنين ام حبيبة (رض) .

كان من العقلاء الألباء والشجعان المذكورين . اسلم يوم الفتح وحسن اسلامه . وشهد حنيناً وأسهم له النبي (ص) من غنائمها . كتب للنبي (ص) في مراسلاته ، واستعمله على صدقات بني فراس(١٥٣) .

توفى فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ . وكان قد استعمل أخاه معاوية . الذي أقره الفاروق (رض) احتراماً ليزيد وتنفيذاً لتوليته ، لمكانته عنده . وقيل ان وفاته كانت سنة ١٩ هـ .

ومن الذين ورد ذكرهم من الكتاب : العلاء بن عقبة ، وكان يكتب في المدانيات بين الناس وسائر العقود والمعاملات(١٥٤) . وعمرو بن العاص(١٥٥)

---

(١٥٠) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٢ ، ٢٢١ .

(١٥١) نور الابصار ، ص ٤٨ .

(١٥٢) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٩ ، ص ٦١٢ . مرآة الجنان ، ج١ ص٧٤ ، سير اعلام النبلاء ، ج١ ص٢٣٧ – ٣٨ . الاصابة ، ج٣ ص٦١٩ .

(١٥٣) الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٩ . سيرة الرسول ، ص ٤١ .

(١٥٤) انظر : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ : تاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨١ مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٠ .
العقد الفريد ، ج٢ ص ١٤٤ .

(١٥٥) استيعاب ، ج١ ، ص ٣٠ .

وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول(١٥٥) . واضاف الديار بكري اسماء آخرين(١٥٦) هم : طلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص وحويطب ابن عبد العزى العامري وأبو سلمة بن عبد الاسد وعبد الله بن زيد بن عبد ربه. وحاطب بن عمرو بن حنظلة . وزيد(١٥٧) بن أرقم .

ولاحظت كتاباً يتضمن معاهدة بين النبي (ص) مع نصارى نجران كتبه عبد الله بن ابي بكر(١٥٨) ، وكتاباً آخر كتبه قيس بن شماس (١٥٩) وربما كان هذا وهماً لان الذي كتب للنبي (ص) هو ثابت بن قيس بن شماس كما مر معنا في هذه الدراسة .

وأخيراً ليعفو القارىء ما قد يعثر عليه من لبس أو غموض ، وأرجو ان أوضح أن هذه الدراسة أولية أسأله تعالى ان يقيض لي التبسط بها مستقبلا . والله من وراء القصد ومنه استمد العون والتوفيق .

د. شاكر محمود عبد المنعم

بغداد ـ العراق

---

(١٥٦) تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(١٥٧) العقد الفريد ، ج٢ ص ١٤٤ .

(١٥٨) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

(١٥٩) ن . م السابق ، ص ١٨٥ .

مصـــادر البـحث

القـــرآن الكريم :

ابـن حـبيب ، ابو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥) ، المحـبر (رواية أبي الحسن السـكري) ، تصحيح الدكتورة ايلزة ليحتن شتيتر ، حيـدر آبـاد/ ١٣٦١ .

ابـن حجـر ، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢) ، الاصـابة في تمييز الصحابة ، القـاهرة/ ١٩٣٩/١٣٥٨ .

.. .. .. ، انبـاء الغمر في أنبـاء العمر ، ٣ أجزاء ، تحقيق الدكتـور حسن حبشي ، القاهرة / ١٣٨٩/١٣٦٩ – ١٩٧٢/١٣٩٢ .

ابـن سـعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠) ، كتـاب الطبقات الكبرى ، ليـدن / ١٣٢١ .

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت ٤٦٣) ، الاستيعاب في اسماء الاصحاب ، القـاهرة/ ١٩٣٩/٣٥٨

.. .. .. ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايتـه ، جزءان ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان،المدينة المنورة/١٩٦٨/٣٨٨

ابن قتيبـــة ، أبو محمد عبد الله بن مسـلم (ت ٢٧٦) ، المعـارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة/١٩٦٠ .

ابـن قـدامة ، موفق الدين عبد الله بن قـدامة المقـدسي (ت ٦٢٠) ، الاستبصار في نسب الصحابة من الانصـار ، تحقيق الاسـتاذ علي نويهض ، دار الفكر ، بيروت/١٩٧٢ .

ابن هشـــام ، أبو محمـد عبد المـلك بن هشـام الحميـدي (ت ٢١٨) ، سـيرة النبي (ص) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القـاهرة/ ١٣٨٣ .

البـــلاذري ، ابـو العباس أحمـد بن يحيى بن جـابر (ت ٢٧٩) ، فتوح البـلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطبـاع وعمر أنيس الطبـاع ، دار النشر للجامعين /١٣٧٧/١٩٥٧ ·

حاجي خليفة ، مصـــطفى بن عبـــد الله كاتـب جـلبي (ت ١٠٦٧) ، كشف الظنــون عن اسامي الكتب والفنــون ، ط ٣ ، طهران ١٣٨٧/١٩٦٧ ·

الحيدر ابادي ، الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، والخلافة الراشدة ، القـاهرة/١٣٧٦/١٩٥٦ ·

الديار بكري ، الشيخ حسين محمد بن الحسن (ت ٩٨٢) ، تـاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس /القاهرة/١٢٨٣

الـذهـبي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت٧٤٨) · تذكرة الحفاظ ، ط ٧ ؛ حيدر ابـاد/١٣٧٥/١٩٥٥ ·

·· ·· ·· ، سـير اعـلام النبـلاء ، ج١ ، تحقيق صـلاح الدين المنجـد القـاهرة/ ١٩٥٦ · و ج٣ تحقيـق محمد اسـعد طلس ، القـاهرة/ ١٩٦٢ ·

الرامهرمزي ، القـاضي الحسن بن عبد الرحمن (ت ٣٦٠) ، المحـدث الفاصل بين الراوي والواعي ، تحقيـق الدكتـور محمد عجـاج نويهض ، دار الفكر /بيروت/١٣٩١/١٩٧١

الزمخشـري ، جـار الله محمود بن محمد (ت ٣٥٨) ، كتاب خصائص العشرة الكرام البررة ، تحقيق بهيجة الحسني؛ بغـداد/ ١٣٨٨/١٩٦٨ ·

الشبلنجي ، الشيخ سيد الشبلنجي المدعو بمؤمن ،
نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار ، القاهرة/ ١٣٨٠ - ١٩٦٠ .

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠) ،
تاريخ الامم والملوك ، القاهرة/١٩٣٩ .

العاملي ، محسن الامين ،
سيرة الرسول (عن طبقات بن سعد وسيرة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس والسيرة الحلبية) ، بيروت / ؟

عبد البديع ، الدكتور لطفي ،
فهرس المخطوطات المصورة ، ج٢ القاهرة/١٩٥٦ .

الغساني ، ابو العباس اسماعيل بن رسول (ت ٨٠٣) .
العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، (مخطوط) نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢١٨٩ تاريخ ميكروفيلم وعنها نسخة مصورة بالفوتوستات في المجمع العلمي العراقي . ونسخة في مكتبتي .

الكتاني ، محمد بن عبد الحي ،
التراتيب الادارية ، بيروت / ؟

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥) ؛
التنبيه والاشراف ، بيروت ، ١٣٨٨/١٩٦٨ .

المنجد ، الدكتور صلاح الدين ،
معجم بني امية (استخرجه من تاريخ دمشق (لابن عساكر)، دار الكتاب ، لبنان/ ١٩٧٠

اليافعي ، عبد الله بن سعد بن سليمان (ت ٧٦٨) ،
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، حيدر آباد/ ١٣٣٧ .

ياقوت ، ابو عبد الله ياقوت الحموي الرومي (ت ٦٢٦) ،
معجم البلدان ، تحقيق محمد أمين الخانجي ، القاهرة/ ١٩٠٦/١٣٢٣ .





تعقيب على بحث
(الجـــامع عنصر وظيفي)

بســـم الله الرحمن الرحـــــيم

السيد الاستاذ الدكتور / حسين امين

الامين العـــام لاتحـــاد المؤرخين العرب

ورئيس تحرير مجلة المؤرخ العربى •

تحيـــة طيبـــة صـــادقة وبعـــد :

لقـــد ملأت نفسي بهجـــة وسعادة تلك المجلة الوليـــدة العمـــلاقة التى اضافت الى حقل الدراســـات التاريخيـــة جـــديدا ، واننى لعلى ثقة من انها سوف تثري الفكر التاريخى العربى بالمزيد من الافكار والابحاث ومن هنا ، ومن احســـاسى بالفخر بهـــذه المجلة القيمـــة فاننى ابعث الى ســـيادتكم شخصيا ، والى هيئة تحرير المجلة كل تحية وتقدير ، واسمحوا لنا ان نرســـل لسيادتكم بهـــذا التعليق البسيط على مقـــالة الدكتور : خـــالص الاشعب والمنشورة في العـــدد الثـــانى بعنوان « الجامـــع عنصر وظيفى ، عمارى ، ومورفولوجى » يقول الدكتور الاشعب في صفحة ٤٢ : تقـــع الابنية الدينية في المدينـــة عموما تحت عـــدة أنواع منها الجوامـــع (لصـــلاة الظهيرة في الجمع) ، المســـاجد (لاقامة الصلوات الاخرى) ، المـــدارس (الدينيـــة) المقامات والاضرحة • ثم قام بعـــد ذلك بالتفرقـــة بين هـــذه الانواع بنـــاء على التقسيم الادارى لدوائر الاوقاف في بعض البـــلاد العربيـــة فجعـــل الجامـــع ينقسم الى ثـــلاث درجـــات اهمها واكبرها ما يقـــام فيـــه صـــلاة الجمعة ولعله يخـــدم المدينـــة كلها ولذلك فان عـــدد مستخدميه لا يقـــل عن خمســـة افراد ، وفيـــه تقـــام صـــلاة العيدين ، والعديد من المناسبات

الاخرى حتى يصل الى القول « اما جوامع الدرجة الثالثة (المساجد) فتمثل في الواقع مراكز صغيرة للعبادة او مراكز ذات اهمية دينية خاصة ، وتخدم السكان المجاورين فقط ويستخدم في مثل هذه المساجد عادة الامام فقط » ، ومن هنا فبعد ان فرق الكاتب في بداية المقال بين الجامع والمسجد فقد عاد وادرج المسجد كنوع من انواع الجامع وجعله النوع الاقل اهمية ولعمرى من اين جاءت الافكار التى تعتبر المسجد من اقل الانواع في بيوت العبادة او التى تفرق فتجعل الجامع لاقامة صلاة الجمع والمسجد للصلوات الاخرى .

ان القرآن الكريم لم يستخدم على الاطلاق كلمة جامع كمرادف لكلمة مسجد على الحرمين الشريفين في مكة والقدس حين قال في سورة الاسراء « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصا » « ولقد اورد القرآن الكريم اسم المسجد الحرام في سورة البقرة وحدها اكثر من خمس مرات ولم يستخدم مرادفا لها مثلا « الجامع الحرام » واذا قلنا ان للمسجد الحرام صفة خاصة فاننا نجد ان كلمة مسجد قد ترددت في القرآن الكريم في كل من سورة « الانفال » ، « التوبة » ، « الاسراء » ، « الكهف » ، « الحج » ، « الجن » .

ولم يرد في القرآن الكريم مرادف لكلمة مسجد الا كلمة « بيت » والمقصود هنا هو بيت الله حيث قال في سورة آل عمران ٩٦ « ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ، وهدى للعلمين » وقال ايضا « فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » الآية ٩٧ وقال في سورة الانفال « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصديقة » الآية ٣٥ وقال جل علاه على

لســان ابراهيم الخليل « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصـلاة » هـذا بالاضافة الى الآيتين ٢٦ و ٢٩ في سورة الحج و ٣٦ في سورة النور والتى اطلقت كلمة بيت على ما يقصد به المكان الذى يعبد فيه الله « المسـجد » •

ولننتقل الان الى العوامل التى جعلت اللغة الحالية في العربيـة تستخدم كلمة الجـامع كمرادف لكلمة مسجد ، لقـد وردت كلمة جـامع في منجـد اللغـة معرفا لها بانها كلمة تطلق على معـابد المسلمين ولست اتفق ايضـا مع هـذه التسمية وذلك لان كلمة جـامع انما هى صفة للمسـجد وليست مرادفا لها فعندما حوت المدينـة العربية اكثر من مسجد او قل ضمت عـددا كبيرا من المسـاجد اطلق لقب المسجد الجـامع على اكبر هـذه المساجد وهو المسجد الذى عادة ما كان يضـم بين المصلين الحاكم العـام للمدينـة وفي هـذا المسجد اقيمت معظم الاحتفالات الدينية دون ان يعنى ذلك عـدم قيـام هـذه الاحتفالات في بعض المسـاجد الاخرى ، حتى صـلاة الحاكم أو الخليفة لم يكن من الضرورى قيامها في المسجد الجامع لان التاريخ يحدثنا بان الخليفة عبد الرحمن الناصر حينما ضـايقه كلام القاضى سعيد بن المنذر في خطبة الجمعة بمسجد الزهراء تركه وانصرف الى الصـلاة بمسجد قرطبة • بعـد أن كان قـد ترك المسـجد الجـامع في قرطبـة وذهب للصـلاة في مسـجد الزهراء •

اذن بـدأت كلمة الجـامع كصفة تطلق على المسـجد الكبير ثم نتيجة للاختصار والسهولة في الكلام استخدمت كلمة « جامع » للدلالة على المسجد

بصرف النظر عن قيمته الدينية او عن المساحه المكانية التى يشغلها هـذا الجامع فقيل مثلا الجامع الازهر وهنا اضيفت الى كلمة الجامع صفة اخرى وهى نسبة الجامع الى السيدة فاطمة الزهراء وهنا اصبح من المستحيل او قل من الصعب لغويا القول « بالمسجد الجامع للزهراء » فعرف تاريخيا بالجامع الازهر واعتقد ان الاختصار لاسماء المساجد الجامعة في الكثير من المدن العربية هو الذى اشاع استخدام كلمة جامع نوعا ما فقيل مثلا « جامع قرطبة » اختصارا لكلمة « المسجد الجامع لقرطبة » .

ولم اجد ايضا ما يؤيد القول بان المساجد هى اماكن صغيرة للعبادة في القرى وليس بها الا مستخدم واحد فهناك مسجد الحسين رضى الله عنه بالقاهرة يضم العشرات من العاملين ويقام به من الاحتفالات الدينية مالا يقام في الجامع الازهر مثلا ، والامر كذلك في مسجد السيدة زينب مثلا : كما انه يوجد الكثير من المساجد الصغيرة جدا في الاقاليم والقرى ويطلق عليها لقب جامع .

من هنا اريد ان اوضح ان التسمية لا تعنى على الاطلاق الاشارة الى المكانة الدينية ، ولا المساحة ولا نوعية البناء بل انهما كلمتان يدلان على مكان اقامة الصلاة يشاركهما في ذلك كلمتا « مصلى » و « زاوية » وان كان لكل منهما نوع من الخصوصية .

في موضع آخر يقول الدكتور الاشعب « لقد اكد القرآن الكريم والحديث الشريف على مركزية الجوامع وذلك، لعدم ورود ما يشجع على بناء الجوامع داخل المقابر والتى غالبا ما تقع عند اطراف المدينة العربية »(*) .

ولقد حاولت استخراج كل الآيات التى وردت في القرآن الكريم عن

(*) المقال المذكور ص ٤٤ .

المسجد او المســاجد أو بيوت الله فلم اجــد فيها ما ينهى المسلمون عن بناء مساجدهم في أى مكان كان ، أو يأمرهم أو يؤكد لهم بناءها في آخر • ولقــد جاءت المســاجد دائما في مركز المدينــة العربيــة نتيجة لمكانتها الروحيــة في نفوس المسلمين ومن هنا حرص الحــاكم الاســلامى عند قيامه بتأسيس مدينــة ما أن يكون أول شيء هو القصر الذى يقيم فيــه ، والمسجد الجامع الذى يضــم المسلمين حوله ، بل انه من المعروف قديما أنه كان لكل قبيلــة مضــاربها ، ومسجدها الخــاص بها •

ولست أتفق مــع الكاتب في تلك التسمية الجــديدة التى اطلقهــا على المســاجد • وفي قوله : الا أن تطور وســائل النقل ، خاصــة بعــد الحرب العالمية الثانية ــ قــد حول هــذه الجوامع الى « جوامــع متروبوليتانية » حيث قــد بدأت تجذب العابدين ليس من المناطق المجــاورة فحسب ولكن من المناطق البعيدة(١) •

فلست أعرف استخداما لكلمة « بوليتان » الا للشركة صاحبــة امتياز استغلال خطوط قطارات الانفاق في مدينة مديريد والمسماة « متروبوليتان »•
واخيرا فلقد لجأ الكاتب الى استخدام كلمات أوروبية في مقاله مع وجود المقابل السهل في اللغــة العربية على سبيل المثال كلمة :

مورفولوجية : وهى تعنى ببســاطة التركيب • أو التخطيط بالنســبة للمدن • فلقد كان من السهل عليه قول « لقد تأثر تركيب المدينة العربيــة » بدلا من قوله « لقد تأثرت مورفولوجية المدينة العربية » •

وفي موضــع آخر من الصعب الفهم كيف أن القبلة بانت رمزا للشعور بالوحــدة الوحــدة بالمشــاعر الروحية والتوجيه الفيزياوى للمدن العربية •

وفي النهاية فانني أمل مراجعة المقالات قبل الطبع حيث ان المقال السـابق ملىء بالعشرات من الاخطـاء المطبعيـة ..

وشـكرا جزيلا ...

محمد عبد الحميد عيسى
الدراسـات العليا في التاريخ
جامعة الاوتونوما ــ بمدريد

نشــاطات اتحــاد المؤرخين العرب

انبثقت الامانة لاتحــاد المؤرخين العــرب بعــد الاجتماع الأول الذى عقــده المؤرخون العــرب في مايس (مايــو) عــام ١٩٧٤ وقرروا قيــام منظمة اتحــاد المؤرخين العرب وأن تكون بغــداد المقر الدائم لها وانتخبوا بالاجمــاع ايضــا الدكتور حسين امين امينــا عــاما لهــا ، وبدعــم من حكومة الثورة في العراق رسخت الاسس الاولى لتكويناته وشق طريقه من اجل تطوير الدراسات التاريخية وتوحيد جهود المؤرخين العرب في المجــالين القومي والعلمي وبذل الامين العــام جهدا كبيرا وكرس لها من فكره ووقته غير اليسير متابعــا احتياجاتها مشجعا المؤرخين والباحثين الــذين يقدمون ابسط خدمة لها كما وأنه يواصل قصــارى جهــده في سبيل تطوير منهاجها الذى يرمي الى رفع المستوى الثقافي لكل العــاملين في الحقول التاريخيــة ، وكان على اتصــال مبــاشر وغير مباشر مع المؤسسات الثقافيــة ومع بعض الشخصيات العلميــة العالمية والعربيــة المتعاطفة مع قطرنا الناهض والمثمنة لمنجزات حكومتنا الثورية ومع العاملين في حقل الحضــارة العربيــة ومع اولئك الذين كتبوا مواضيع في التراث العربي وقدموا بحوثا قيمــة ، ان تلك النشاطات من الاهــداف الرئيســة التى وضعها الاتحــاد امامــه لتكوين صــلات ثقافية متينة بين مؤرخي العرب والعالم ولتثبيت المفاهيم والمبادىء الاساسية لكبار علماء العــالم وايمانا منه بالحضــارة العربية ودورها الكبير في بنــاء المجتمع الانســاني وتطويره وازدهاره في شتى حقول المعرفة والعلم والعمران واعتزازا منه بتراثنا الخــالد ومدى اهميته العظيمة في حيــاة الامة العربيــة باعتبــاره ابرز وجه لنشــاط وفاعليــة الشعب العربي ومساهمته

في تخليد تراث الانسانية . فقد قام الاتحاد بعقد واقتراح ندوات ومؤتمرات عالمية وعربية شارك في قسم منها الامين العام للاتحاد الدكتور حسين امين مشاركة فعلية وفي قسمها الآخر ارسل وفودا لتمثيل الاتحاد هناك لغرض بحث ومناقشة ما يدور على ألسنة الباحثين الحاضرين في تلك الندوات ، كما قام الاتحاد بنشاطات اخرى وفيما يلي اهم النشاطات والندوات والمؤتمرات التي قام بها الاتحاد منذ ولادته وحتى الوقت الحاضر :

١ ـ ندوة احياء ذكرى الرازى التى عقدت في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٧٦ في جامعة عين شمس بالقاهرة .

٢ ـ اجتماعات الاتحادات العربية الدورية التى عقدت في مقر الجامعة العربية لتنسيق الخطط والبرامج الاعلامية .

٣ ـ مؤتمر الحضارة العربية الذى عقد في الاسكندرية بجمهورية مصر العربية وساهم الاتحاد بمنحة مالية للهيئة التحضيرية للمؤتمر ليمكنها من اداء مهمتها القومية والعلمية .

٤ ـ اقامة موسم ثقافي في تونس وليبيا والجزائر تلقى فيه مواضيع مختلفة منها (سمات وملامح الحكم الوطني التقدمي في العراق بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي) و (القضية الكردية وتمرد الملا مصطفى وما هي الدوافع الاساسية التى ادت الى تمرده) .

٥ ـ اقامة ندوة عالمية يحضرها رؤساء الجمعيات التاريخية في ارجاء العالم العربي وكبار الباحثين والمؤرخين العرب والاجانب وقادة السياسة والفكر في الوطن العربي موضوعها « الوحدة العربية »

سياسيا واجتماعيا وثقافيا وذلك هو الهدف الرئيسي الذى نادى به حزب البعث العربي الاشتراكي وأن تكون المناقشة بأسلوب موضوعي وبروح علمية بناءة تخدم الغرضين القومي والعلمي •

٦ ـ مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية لبحث ومناقشة عروبة الخليج العربي والذى سيعقد في دولة قطر وفي العاصمة الدوحة يحضره قادة الفكر في الوطن العربي والعالمي وذلك في ٢١/٣/١٩٧٧ • وبرعاية سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثان امير دولة قطر •

٧ ـ اقترح اقامة مهرجان عربي كبير في اسبانيا لمدة اسبوعين في ربوع غرناطة ومعالم اشبيلية وبين آثار قرطبة حواضر العرب الزاهية ، تساهم الدول العربية والاسلامية بهذا المشروع الكبير ذى الأثر الكبير في تعريف اوربا والعالم بمآثرنا الخالدة وتاريخنا المجيد وذلك في صيف ١٩٧٨ •

٨ ـ اقترح عقد حلقة ودراسة حول تنسيق مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي •

٩ ـ الاتصالات التى قام بها الامين العام لاتحاد المؤرخين مع المسؤولين بقصد توضيح اهداف الاتحاد وخططه المستقبلة ودعوته للمسؤولين لدعم الاتحاد واسناده معنويا وماديا لتمكينه من تحقيق اهدافه في المجالين القومي والعلمي •

١٠ ـ نجحت الامانة العامة في عقد المكتب الدائم كما ينص قانون الاتحاد في الجمهورية العربية الليبية وفي مدينة بنغازى في ١٨/١٠/١٩٧٥ وفي مدينة الدوحة بدولة قطر في ١٨/٣/١٩٧٧ وكان برنامجه ينص

على تشجيع وتعضيد البحث العلمي الذى يقدمته المؤرخون والباحثون العرب •

١١ ـ قدمت الامانة العامة مساعدات مالية للجمعيات التاريخية في الوطن العربي •

١٢ ـ قام الاتحاد بشراء الكثير من الكتب من المؤرخين وايداع نسخة منها في مكتبة الاتحاد وتوزيع ما تبقى منها على الجمعيات التاريخية والمؤسسات الثقافية في ارجاء العالم العربي •

١٣ ـ قدم الاتحاد مساعدات ثقافية للمدرسة العربية في غرناطة •

١٤ ـ اتاح الاتحاد فرصة للاعضاء لحضور المؤتمرات العربية والعالمية والمشاركة فيها •

١٥ ـ استضاف الاتحاد عددا من الاساتذة الباحثين العرب والاجانب من المعنيين في التراث العربي والاسلامي •

١٦ ـ أصبحت سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية ممثلتان كعضو في اتحاد المؤرخين العرب •

١٧ ـ تنفيذاً لأهداف الاتحاد نجحت الامانة العامة باقامة مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية والذى يحضره المؤرخون العرب والاجانب والذى سيبحث ويناقش مواضيع تاريخية مهمة •

وبالاضافة الى ما ذكر فقد شرع اتحاد المؤرخين العرب بتدوين

الفكر العربي الذى تجود به اذهان المؤرخين وبمواضيع مختلفة بمطبوعاته التى قام بطبعها منذ ولادته كمجلة المؤرخ العربي التي تشتمل على بحوث قيمة ومختلفة ومنها المتناول بين ايدينا ، وطبع كتاب عروبة الاحواز وأسس الاتحاد مكتبة تظم كثيرا من المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة لتكون ملتقى الباحثين والمؤرخين ودعمها ماديا لتستطيع اقتناء العدد الكافي من الكتب ، وهناك امور مهمة انتهجها الاتحاد هي الدعوات التي وجهها الى بعض الشخصيات العالمية والعربية لزيارة العراق لغرض اطلاعها على معالم وادى الرافدين الحضارية والاثرية وعلى منجزات حكومة الثورة التي قام بانجازها حزبنا القائد حزب البعث العربي الاشتراكي منذ تسلمه قيادة السلطة • وأخيرا عسى ان يستلهم القارىء أو الباحث ما يروق له من البحوث المنشورة في هذا العدد الذى بين يديه •

بهجت كيطان بشير
سكرتير اتحاد المؤرخين العرب



المؤرخ العربي

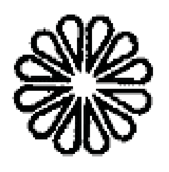
مجلة تصدرها الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق



رئيس التحرير

الدكتور حسين أمين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



العدد الخامس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هيئة التحرير


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس المواضيع



مقدمة

الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب يسعدها ان تقدم للقارىء الكريم هذا العدد الجديد من مجلته الموضوعية (المؤرخ العربى) وهى حافلة بالمواضيع والبحوث التاريخية التى ترمز الى وحدة الجهود المخلصة التي يبذلها المؤرخون العرب فى اخراج مجلتهم في اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها فى سمتها الاكاديمية العالية •

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب وهى تقدم هذا العدد الجديد يشرفها ان تتقدم باخلص الشكر واجزله الى وزارة الاعلام والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (في دولة الكويت) على تفضلهما بالموافقة على طبع هذا العدد تشجيعا للاتحاد وتقديرا منها لجهود المؤرخين الكبيرة في الحقلين القومى والعلمى •

تحية مخلصة الى كل من اسهم ويساهم فى دعم واسناد اتحاد المؤرخين العرب وتمكينه من اداء مهماته وتحقيق اهدافه ، وتحية الى جميع اخواننا وزملائنا المؤرخين العرب، ونعاهدهم على اننا سنبقى الامناء على العهد نعمل من اجل وحدة الهدف ووحدة الكلمة ووحدة التاريخ والحفاظ على تراث الأمة الخالد •

والله ولي التوفيق •

د. حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الصلة بين النظم الإسلامية للماوردي والنظم في العصر السلجوقي

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد

اتسعت حضارة الاسلام فى عصر الماوردى اتساعا كبيرا ، شمل ميادين الحياة كافة ، لا سيما ميدان النظم والقوانين • وقد كان هذا نتيجة للتجارب التي مرت بها الدولة الاسلامية عبر العصور الطويلة ، وللتقدم العلمي الذى حققة المجتمع الاسلامي فى السنين السابقة ، بعد أن تم اللقاء بين الشعوب التي تخضع لسطان الخلافة العباسية ، سواء كانت عربية أو غير عربية ، فقد تعاونت هذه الشعوب على اختلاف قابلياتها ومواهبها ، وتراثها الحضارى وتنافست في مجال الحركة العلمية وفى السياسة والادارة والتشريع فكان لذلك كله تأثير عظيم فى تطوير المجتمع ، ودفعه الى العمل من اجل التقدم الحضارى •

وكان لعصر الترجمة ، ولحركة الاعتزال يد فى هذا التطوير الشامل ذلك انهما أمدا رجال العلم بمعين لاينضب من الاراء والمذاهب فى مجالات الفقه والفتيا والنظم بوجه عام •

وكان للجدل الذى أثير في تلك السنين تأثير عظيم فى نضوج الفكر الادارى والسياسي أيضا •

وجاء عصر تحديد المذاهب الفقهية فى مجالات معينة فكان مكملا لتلك الخطوة ذلك انه وان حصر مجال النظر فى اطار ضيق لا يتعداه ،

الا انه فتح الباب للنقاش والجدل ضمن ذلك الاطار الضيق ، وكان سببا فى ظهور آراء جديدة ، دونتها كتب الفقه والفتيا والنظم •

وكان لعلماء الفقه يد بارزة في هذا السبيل ، فقد توسعوا فى الاجتهاد، وأتوا بتعليلات قيمة ، واحكام دقيقة ، نسج على منوالها كثيرون من علماء الاقطار الاسلامية الاخرين •

وكان قد قام القضاة بدور بارز فى التوصل الى آراء جديدة فى مجال الادارة والنظم وأتوا بآراء صائبة وبتخريجات مبتكرة لا نظيرلها • وقد غذى الخلاف فيما بينهم في مجالس النظر ، مادة التشريع والنظم ، وكان السلاطين الذين حكموا بلاد الاسلام آنذاك ــ فيما يبدو ــ يشجعون الخلاف فى امور الفقه والنظم ،ليصرفوا الناس عن الاشتغال بامور السياسة، ويباعدوا بينهم وبين الحركات الفكرية التى اثارت كثيرا من المشكلات التي زعزت حكمهم • وكانت الخلافة العباسية على ما يبدو تشاطر السلاطين فى هـذا الرأى •

كان اكثر الفقهاء والقضاة فى هذا الدور يعرضون مذاهب من تقدمهم، ويرجحون بعضها على بعض،ويدونون ذلك في كتبهم ، وقد انصبت معظم جهودهم على الجمع والتصنيف مع قليل من الآراء الجديدة ، أظهروها في باب « التخريجات » والماوردى كان احد اولئك القضاة الذين جمعوا آراء من سبقوه في باب النظم والفتيا •

والماوردى هو ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى ، ولد بالبصرة ونشأ فيها ثم استوطن بغداد وفوض اليه القضاء في بلدان كثيرة ، وكان جليل القدر متقدما عند السلطان ، دينا تقيا ، وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم ومن أهم مصنفاته الاحكام السلطانية وكتاب أدب الدنيا والدين وقانون الوزارة وسياسة الملك وكتاب الحاوى وغيرها •

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الاول سنة ٤٥٠ هـ ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد ، ومقبرة باب حرب ، فيما يبدو لي ، تقع فى الشمال الغربى من مقابر قريش (المشهد الكاظمي) وفيها دفن الامام احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ والصوفى البغدادى بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ، والمؤرخ الكبير الخطيب البغدادى المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ،وكثير من اعلام المسلمين •

وكان له دور بارز فى نشر مبادىء الفقه الشافعي فى اوساط العالم الاسلامى
وكان له دور بارز فى نشر مبادىء الفقه الشافعي فى اوساط العالم الاسلامى
وتعميقها الامر الذى يدل على كبير منزلته وعلو مكانته بين رجال السلطة والناس معا • وكان سلاطين الدولة البويهية وهم من الشيعة الزيدية تثق به ويعتمدون عليه وكانت له صلة ودية بهم • وقد لقبوه بلقب (أقضى القضاة) تقديرا له واعترافا بفضله •

وقد كتب الماوردى فى الفقه الشافعى كتبا لها اهميتها في توضيح وتبيين احكام الفقه الشافعي ، مثل كتاب الحاوى الكبير ، وكتاب الاقناع وهو مختصر لكتاب الحاوى ، وقد نشر فتاوى مستمدة من روح مبادىء الفقه الشافعي فى الاحوال الشرعية المختلفة • وهذا الجهد الفقهى الواسع كان له اثره البالغ فى تعميق مبادىء الفقه الشافعي فى العراق بخاصة ، والعالم الاسلامى بعامة ، قد مهد الطريق ــ على ما اعتقد ــ للوزير نظام الملك لجعل المدارس النظامية ميدانا خاصا للمذهب الشافعي •

اما الاثر الآخر للماوردى فيظهر جليا في موضوع الاقطاع الذى كانت مظاهرة بارزة فى العصر البويهي ، ذلك ان الأمراء البويهيين اقطعوا القواد وكبار الموظفين اقطاعات استهدفوا من ورائها استرضاءهم • وقد اقتفى الملاحقة اثر البويهيين فى هذا الباب ، وزادوا عليهم • ولا يبعد أن يكون العصر السلجوقى قد تأثر كثيرا بما كتبه الماوردى فى هذا العدد •

وقد أظهر نظام الملك الوزير السلجوقي نشاطا كبيرا في تثبيت الاقطاعات العسكرية لجميع الجند السلجوقي ، وادرك ان الفرسان المدرجين في ديوان الجند لم توزع عليهم الا اقطاعات قليلة مبعثرة في سائر الاقاليم ، كما انه عارض فكرة تقليص عدد الجيش السلجوقي البالغ تعداده ٧٠ الف مقاتل ، ويذكر العماد الاصفهاني : ان الملك قد اختل نظامه والدين قد تبدلت احكامه في أواخر دولة الديلم (البويهيين) واوائل السلاجقة ، وقد خرجت الممالك بين اقبال هذه وادبار تلك ، ولم يكن لاحد من قبل اقطاع ، فرأى نظام الملك ان الاموال لا تتحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الاجناد اقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوافرت ، دواعيهم على عمارتها ، وعادت في اقصر مدة الى احسن حالة من حليتها ... وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه في أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض .

مما سبق يبدو ان نظام الملك كان قد تأثر تأثرا كبيرا بالتنظيمات البويهية الخاصة بالاقطاع الا انه اظهر كفاءة كبيرة في تنظيمه وتنفيذه بشكل يعود على الدولة السلجوقية بما يجعلها تواكب مسيرتها لبلوغ اهدافها المرسومة ، ويمكن أن نقول ان نظام الملك كان أول من نفذ النظام الاقطاعي الحربي بشكله العام المنظم ، اذا ما علمنا ان هذا النظام كما قلت كان موجودا ومعمولا به في عصر البويهيين ، ولكن بشكل غير منتظم وسبب فوضى كبيرة كما انه لم يكن ليشمل جميع العسكريين .

وهناك نقطة مهمة لذلك النظام تلك هي ان الاقطاع البويهي امتلاك الارض . اما في العصر السلجوقي فان طبيعة الاقطاع فيه ، هو ان حق المقطع يتعلق بخراج الارض لا بالارض ذاتها ، فليست له سيطرة على المشتغلين بها ، كما انه يخضع لسلطة الحكومة وعليه أن لا يسيء استعمال اقطاعه ، كما يجوز نزع الاقطاع من المقطع اذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه ، وكان الاقطاع السلجوقي محدود الامد ، فالتعديلات التي اجريت في العصر السلجوقي زمن نظام الملك أدت الى تنظيم الاقطاع واستهدفت ضمان

عدم الاساءة في استخدامه،لهذا نرى أن المقطعين كانوا يعملون جهدهم الى تحسين اقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها وتنفيذ الالتزامات المفروضة عليهم كي يكسبوا ارضاء الحكومة ويستمروا فى استثمارها •

هذا ولا يخفى ان الماوردى قد تناول هذا الموضوع وأسهب فيه ، والباحث المتعمق فى أحوال الدولة السلجوقية،وتوزيعها للاقطاعات ومعالجتها لمشكلات الاقطاع ، يرى بوضوح التشابه القوى بين آراء الماوردى وما طبق في العصر السلجوقى •




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه

الدكتور عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من قسمين : يعرض القسم الاول مراحل نشوء هذا العلم كما يتصور الغربيون ويبرز القسم الثاني **سبق ابن خلدون** الى هذا الميدان بايضاحه علاقات العامل السكاني بجملة « متغيرات » اقتصادية وحضارية وثقافية الى جانب اعتماده هذا العامل مقياسا فى دحض بعض المزاعم التاريخية .

(١)

عقدت بباريس صيف ١٩٦١ الدورة الثالثة عشرة لمعهد الاحصاء العالمى بحث خلالها بعض العلماء الديمغرافيين تاريخ ميلاد علم السكان فنسبوا انشاءه الى التاجر الانكليزى جون غرونت John Graunt وبعد امد نشر بوريس اولانس احد الاساتذة فى معهد الاقتصاد باكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى مقالا فى مجلة بريد اليونسكو بعنوان « ميراث جون غرونت » (١) تحدث فيه عن ميلاد ذلك العلم • لنتعقب اولا ملامح هذا المقال • يرى مؤلفه من الصعب معرفة تاريخ ميلاد علم من العلوم معرفة دقيقة تامة ، اذ يكون غالبا مبعثرا او مطويا فى غياهب الماضى السحيق • ولكنه يستثنى من هذا التعميم علم السكان او « الديمغرافية » اذ اعتبر العلماء الحديثون كانون الثانى سنة ١٦٦٢ تاريخ ميلاد ذلك العلم حين نشر جون غرونت احد رجال الاعمال فى لندن كتابا بعنوان « ملاحظات طبيعية واجتماعية حول لوائح الوفيات

Natural and political observation made upon the Bills of Mortality.

(السياسى Political هنا بمعنى اجتماعى)

فكان هذا السفر اول عمل علمي في مجال الديمغراطية • ويكون قد مضى على نشوء هذا العلم ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة •

لقد عكف ذلك التاجر فى ساعات فراغه جالسا قرب موقده ليلا على دراسة كشوف اسبوعية بالوفيات الواقعة فى لندن • ومن دراسته تلك وتحليله نجم ذلك الكتاب • وكان لغرونت صديق جميم هو وليم بتي William Petty عمد الى بعض الحسابات في هذا النطاق ، والف كتابا بعنوان « الحساب الاجتماعى » "Political Arithmetic" فدفع هذا الكتاب تلك البحوث بعض الخطوات الى الامام • لقد وجد بتى ان ثلاثة آلاف وفاة كانت في اكبر مستشفي بباريس من وراء سوء تنظيمه • هذا ولا احد بمعصم من الخطأ •

فقد اعتبر بيتى ان سكان لندن سوف يستمرون فى الازدياد حتى سنة ١٨٠٠ فقط • ولكن مجرى التاريخ اظهر خطل حكمة اذ ازداد اهالى لندن ثمانية اضعاف فى خلال مائة وخمسين سنة تلت ذلك التاريخ •

وجرى على آثارها فى هذا المضمار الفلكى الانكليزى ادموند هلي Edmund Halley • فاعتمد الاحصائية المتوافرة فى مدينة برسلاو Breslau (التب اصبح اسمها اليوم فركلو Wroolaw) فأنشأ سنة ١٦٩٣ اولى جداول وفيات • وقد نشرتها له الجمعية الملكية التي تأسست عام ١٦٦٠ وهي اقدم الجمعيات العلمية فى انكلترة •

ثم انتقلت هذه البحوث الى اليابسة باوروبة ابان القرن الثامن عشر ، حيث اهتم بها العلماء من مختلف الاقطار • فقد الف الاسف زسملش Süssmilch في جند فريدريك الكبير كتابا سنة ١٧٤٢ بعنوان « العناية الالهية في تطور النوع البشرى
Die Gottliche ordnung in den Veraderung des Menschlichen Geschlechts
وسلك نهجه فى فرنسة ديبارسبو Deparcieux وموهر Moheau

وفي ذلك العهد ظهرت تباشير علم السكان في روسية على يد ميخائيل لومونوسوف ذي الفكر الموسوعي • فلقد كان فيزياويا وكيماويا وشاعرا وجغرافيا واقتصاديا واحصائيا • انما عرض آراءه في قضايا السكان خلال رسالة كتبها فى ١ تشرين الثانى سنة ١٧٦١ الى صديقه الكونتشلافالوف خدن البراطورة اليزابت • أبان فيها مختلف العوامل التى تؤثر في السكان فتكبح نموهم ووصف التدابير التى تستطيع أن تحول دون ذلك الكبح ، وأشار فى رسالته من خلال تلك العوامل الى تفاوت اعمار الزوجين والى ارتفاع وفيات الرضع والى اثر ادمان الخمور فى ارتفاع معدل الوفيات عامة كما أشار الى قضية الهجرة من روسية واعتبر النازحين بمثابة « جثث ميتة » • وبحوثه هذه تدخل فى نطاق السياسة الديمغرافية •

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر في انكلترة كتاب صغير اغفل مؤلفه اسمه فيه بعنوان « بحث فى مبدأ السكان » وازن صاحبه فيه بين ازدياد القوت او ما ندعوه الثروة في العصر الحاضر وتكاثر النوع الانسانى وخلص الى ان فقر الفقراء ناجم عن غريزة الانسال لا عن سوء النظام الاقتصادي والسياسى القائمين اذ ذاك • مؤلف هذا الكتاب الذى راج رواجا كبيرا هو القس الانكليزى توماس مالتس ، فوسعه واعلن اسمه وطبعه عدة مرات •

ثم جاء الباحث البلجيكى كيتلى Quételet فى القرن التاسع عشر فوطد دعائم الاحصاء عامة ، ومع انه لم يكن ركنا بارزا فى الرياضيات فقد توفق الى تطبيق حساب الاحتمال والاحصاء على القضايا الانسانية من ولادات و زواج ووفيات وغيرها •

وكان تعداد السكان قد اصبح امرا يزاوله بعض الدول مزاولة دورية منتظمة (اول تعداد جرى فى السويد سنة ١٧٤٩ وكانت تشمل فنلنده ولكن التعداد الدورى المنظم بدأ فى الولايات المتحدة الاميركية منذ سنة ١٧٩٠ كل عشر سنوات ، وفى بريطانية منذ سنة ١٨٠١ ، وفى بروسية منذ

١٨١٠ ، وفى النمسا والمجر منذ ١٨١٨ وهلم جرا •) وكذلك توطدت دوائر ضبط النفوس واحصاء الاحوال المدنية في مختلف البلاد • فقدم كل ذلك مادة غزيرة للعلماء الحديثين الذين توالوا وتعاقبوا في هذا الميدان•

ومن المعلوم ان الباحثين اعتادوا ان يطلقوا على هذا النوع من دراسات السكان لفظ « الديمغرافية » كما سلف • واول من استعمل هذا اللفظ المفكر الفرنسي آشيل غيار Achille Guillard سنة ١٨٥٥ فى كتابه المسمى « مبادىء الاحصاء البشرى او الموازنة في الديمغرافية • „Eléments de sttistique humaine ou démographie comparée

وكان الباحثون قبلا يقولون احصاء السكان ومن الواضح ان لفظ الديمغرافية مؤلف من عنصرين يونانيين Demes ومعناه الشعب و Graphein ومعناه الوصف •

واريد تغيير هذا اللفظ المتضمن معنى الوصف ، فاستبدل به لفظ الديمولوجية Démologie اشارة الى الناحية العلمية فى هذه الدراسات فلم يتح لهذا اللفظ الانتشار ولا البقاء •

ولما اتى العالم الاجتماعى اميل دركهايم Emile Durkheim قسم علم الاجتماع اقساما عدة ، وجعل من هذه الاقسام بحثا اطلق عليه لفظ « المرفولوجية الاجتماعية » "Morphologie sociale" او علم التشكل الاجتماعى يتناول موضوعه اشكال المجتمعات وارتباط السكان بالارض وتوزعهم عليها وخصائصهم الديمغرافية والهجرة الداخلية والخارجية وسبل المواصلات وانماط المساكن وما تعلق بذلك • ولا يخفى ان هذا القسم عند المدرسة الاجتماعية الفرنسية واسع تدخل فيه المباحث التى يدل عليها لفظ الديمغرافية • وكان امام علماء الاجتماع ان يختاروا احد اللفظين الاخيرين دفعا للبس واختصارا للمصطلحات • وقد آثر موريس هلفكس Maurice Halbwachs وهو من اتباع دركهايم المقتفين لآثاره

لفظ المرفولوجية الاجتماعية على الديمغرافية • وحجته في ذلك ان تعبير دركهايم يتضمن معنى العلم ، ولفظ الديمغرافية يفيد الوصف المحض ، وكتب كتابا وسمه بعنوان « المرفولوجية الاجتماعية » يبحث اغلب فصوله قضايا السكان من توزع على الارض واعمار وجنسي ذكور واناث وولادات وزواج ووفيات وهجرة وما الى ذلك متقيدا فيه بالمنهج الدركهايمي •

وانشأ بعض علماء الاجتماع الامريكيين امثال ردريك د • ماكنزي Roderick D . Mackenzie دراسات اجتماعية دعوها الايدلوجية البشرية Human écology ولفظ الايكولوجية في علم الاحياء يفيد دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته • فاطلق هذا اللفظ بالتوسع على دراسة النظم الاجتماعية وعلاقتها بتجمع السكان وبيئاتهم • ويدخل هذا الاعتبار كثيرا من هذه البحوث فيما يريده دركهايم من لفظ المرفولوجية الاجتماعية •

وهكذا يبدو ان لفظ المرفولوجية الاجتماعية اوسع واعم من لفظ الديمغرافية حتى اطلق بعض الباحثين على دراسة السكان وقضاياهم من حيث الزواج والمواليد والاعمار والوفيات والهجرة لفظ المرفولوجية الديمغرافية •

وشاع اصطلاح الاحصاء الحيوي Vital statistics في اللغة الانكليزية ، وهو يقابل في الفرنسية Statistique de l'état civil ويعني ضبط الاحوال المدنية وتطبيق الطرق الاحصائية عليها • وثمة في الانكليزية لفظ آخر وهو Civil registration له الدلالة نفسها •

على ان لفظ الديمغرافية غدا اشيع هذه المصطلحات في هذا المجال • وقد اصبحت الديمغرافية في العصر علما يتسع نطاقه شيئا فشيئا ، ويشمل على فروع عدة ، نذكر منها :

١ ـ انسـاب الناس •

٢ ـ التعداد اى جمع احوال السكان الشخصيـة والاقتصاديـة والثقافية والصحية وغيرها ، وتقوم به الحكومات عادة •

٣ ـ ضبط الاحوال المدنية كالولادات والزواج والطلاق والمرض والوفيات والهجرة وامثالها وتطبيق الطرق الاحصائية عليها •

٤ ـ المسموح السكانية ، وهي طرق تعتمد (عينات) جزئية تختار بين السكان للحكم على المجموع ومعرفة بعض خصائصه •

٥ ـ القياسات الحيوية التى تتناول بالدراسة والرموز نمو الانسان وخصائصه من قوة وقامة وابعاد جمجمة وتركيب دم وتعمـير وتعـرض للامراض وما الـى ذلك •

٦ ـ تسجيل الامراض الانسانية ، وتقوم دوائر الصحة والمشـافى وشركات الضمان وامثالها ودراسة احتمال التعرض لهـا •

٧ ـ بحوث تحسين السلالات الانسانية وقضايا الوراثة المتعلقة بها •

٨ ـ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والثقافية والنفسية المرتبطة بما سلف ذكره •

(٢)

لقد عرضنا عرضا يكاد يكون وافيا تاريخ نشوء الديمغرافية ومراحل توطدها في العصر الحديث • ويجب ان نشير اول الامر الى اننا نجـد شذرات متفرقة من تلك الفروع فيما كتبه الاقدمون من يونان كافلاطون في « الجمهورية » وارسطو فى « السياسة » ومن مؤلفين عرب عدة • ومن المعروف ان العرب كانوا يعنون بالانساب وتسجيلها وانهم انتبهوا للعوامل المؤثرة فى نمو السكان وتنقلهم ووفياتهم • ولكن كل ذلك كان متصـلا باعتبارات فكرية مختلفة فلسفية او دينية او حربية او غيرها ، ولم تكـن

له الصفات العلمية المتطلبة • وقد تغير الامر تماما حين جاء ابن خلدون ، فعالج في مقدمته التى كتبها عـام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م مختلف القضايا التاريخية والاجتماعية والادارية والاقتصادية واولى الشؤون السكانية عناية فائقـة •

ولما اراد ابن خلدون فى مقدمة « مقدمته » ان يلمح ــ على حد تعبيره ــ لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام ، وينبه على وجوب تمحيص اخبارهم وان بلغوا القمة من الشهرة والذروة من الحصافة اورد مثلا على ما نقله المسعودى وكثير من المؤرخين غيره فى جيوش بنى اسرائيل من « ان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف او يزيدون » ثم ينقد هذه الرواية من جملة وجوه احدها عدم احتمال ذلك العدد بالقياس الى ما يمكن ان تعبئه مصر والشام • ان « لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ••• ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه » • ثم هنالك ايضا عدم الاحتمال لازدياد بنى اسرائيل الى هذا الحد في الفترة الواقعة بين اسرائيل وموسى • والمسعودى نفسه يروى ان قد « دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة » • ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة اجيال الى مثل هذا العدد • وكذلك يبعد ان يتشعب النسل الى ذلك الحد لو ان احصاء الجيش وقع في زمن سليمان •

ان المؤرخين العرب كالمسعودى وامثاله نقلوا معلوماتهم تلك من « العهد القديم » جاء فى الفقرة ٤٦ من الفصل الاول من سفر العدد « كان

جميع المعدودين ست مئةوثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » (٢) وورد هذا الرقم ايضا فى الفقرة ٣٢ من الفصل الثاني من السفر نفسه •

بيد ان العهد القديم كتاب ديني • ولذلك أخذ المسعودى الخبر منه على عواهنه • ولم يعرض ابن خلدون لهذا الكتاب الذى له صفة خاصة ، وانما انتقد المؤرخين الذين لم يمحصوا الخبر من الوجهة العلمية •

ومن السهل بيان عدم الاحتمال لذلك التناسل بشتى الارقام • وقد ابان الباحثون بعد مئات السنين من عهد ابن خلدون امتناعه • جاء فى كتاب « تاريخ سكان العالم » لمؤلفيه الاستاذين رنهار وارمنغوه ما يلى (٣) « ولهذا كان اولئك الذين فحصوا كشوف اعداد السكان بمجموعها او على الاصح عدد القادرين على حمل السلاح مما جاء فى التوراة استغربوا جواز احتمالها • فالكشوف تستلزم كون السكان يبلغ مجموعهم خمسة ملايين نسمة كسكان مصر وما بين النهرين على الرغم من ضآلة مساحة المنطقة وقلة غناها بالنسبة لذينك القطرين • ثم ان سرعة التناسل تبدو غير مقبولة فى تلك التواريخ المعروضة •

وجرى على نهج هذين الاستاذين غيوم وبوسو فى كتاب لهما حديث بعنوان « الديمغرافية التاريخية » فالحا على امتناع ارقام التوراة حين ننظر الى تاريخ البلد او المنطقة فى ذلك العصر « فذلك العدد يتضمن وجود اكثر من خمسة ملايين نسمة • وهذا غير ممكن • وقلة دقة الارقام يثبتها علم السكان نفسه لان معدل النمو اذ ذاك اسرع مما هو ممكن ، كذلك توزع الجنسين والاعمار ممتنع (٤) » •

او ليس مؤلف المقدمة في موقعه المتأمل لمدى ازدياد السكان واعتماده اياه مقياسا لدحض بعض الارقام التاريخية هو واضع حجر الاساس قبل مئات السنين فى الصرح الحديث للديمغرافية التاريخية •

ان الحياة الاجتماعية تتألف من جملة « متغيرات » واهمية ابن خلدون انه نوه بهذه المتغيرات ، وربط بينها ربطا اقرب ما يكون الى الموقف الذى تعتمده فلسفة العلوم في العصر الحاضر • وذلك ان فلسفة العلوم المعاصرة تعتبر تلك المتغيرات ذات اشتباك وتداخل على شكل « دالة » او « تابع » بالمعنى الرياضى للتابع والدالة دون ان تلح على سببية وحيدة الجانب كما فعل بعض المفكرين امثال « تارد » فى التقليد و « فرويد » فى مشـكلة « الليبيدو » وغيرها •

يحبو ابن خلدون عدد السكان مكانة كبيرة ويربط بينه وبين سعة الرزق ورفاهية الناس وازدهار التجارة • فقد عقد فصلا فى « ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة » وينبغى ان نفهم من لفظ العمران هنـا عدد السكان مع كثرة الاعمال التى يقومون بها والتنظيم الذى يشملهم • ولا بد من ايراد شطر من هذا الفصل • يقول ابن خلدون ، « والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجياته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك • والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا • فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه • واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقائم على البقر و واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فان حينئذ قوت لاضعافهم مرات • فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم • فأهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال ، وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف في حالات الترف وعوائدة وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضة وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى ، وقد

تبين .... ان المكاسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم ، فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التألق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها اعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل اعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونفقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول ، وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لان الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش . فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه وتيرة واحدة فى الاصناف .

ثم يقول : « واما حال الدخل والخرج فمتكافىء فى جميع الامصار . ومتى عظم الدخل عظم الخرج ، وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر .

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تفكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيــه » .

لقد اطلنا فى ذكر هذا النص . ويشفع لنا فى الاطالة اهميته فى الديمغرافية الاقتصادية التى تتبين العلاقة الواشجة بين السكان والاقتصاد . والاقطار عند ابن خلدون كالامصار تقدما او تأخرا بسبب العمران واتساع السكان. فهو يعقد فصلا آخر « فى ان الاقطار فى اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار » فيقول : « ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم فى

جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم . والسبب فى ذلك ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما يأتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته » ويضرب مثلا اقطارا فى المشرق وفي المغرب لعهده : « واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم .

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر افريقية وبرقة (تونس وليبيا) لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها ، وانتهوا الى الفقر والخصاصة ، وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها » .

ونجد ابن خلدون فى هذا الصدد يتنبه لتفاوت اسعار المدن فى الضرورى والكمالي بتفاوت اتساعها « فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضرورى من القوت وما فى معناه ، وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها . واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس » .

وتعليل ذلك ان الدواعى تتوفر على اتخاذ الضرورى فى الامصار الواسعة وعلى تأمينه للحاجة الملحة اليه ، فيفضل وفر منه وترخص اسعاره ، على حين ان الكمالي فيها يشتد الطلب عليه فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون له وهو قليل فى ذاته نسبيا فيقع فيه الغلاء .

وعلى خلاف ذلك « الامصار الصغيرة القليلة الساكن . فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه فى ايديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه . واما مرافقهم فلا تدعو اليها حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال ، فلا تنفق لديهم سوقه ، فيختص بالرخص فى سعره » .

ومن المناسب هنا ان ننوه « ان ابن خلدون حين يتحدث في » حقيقة الرزق والكسب « ويشرحها يرى ان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية • فهو يقترب من نظرية ماركس في العمل والقيمة • انه يقرر ان « ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد والمقتنى منه قيمة عمله ، وهو القصد بالقيمة ، اذ ليس هناك الا العمل « وعلى هذا فان المفادات والمكتسبات كلها أو اكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانية » ولا يغفل ابن خلدون دخول الضرائب في قيمة السلع فيقول •

« وقد يدخل ايضا فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمضارم للسلطان فى الاسواق وابواب المصر وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم » (٥) •

كذلك يربط صاحب المقدمة بين اتساع العمران وتقدم الحضارة ورسوخها ويولي الدولة شانا فى هذا المجال « واكثر ما يقع ذلك فى الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى اهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة » (٦) ولا شك ان المال عنصر اساسي فى هذا التقدم •

ثم ان « العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة (٧) وذلك » ان الصنائع انما تكثر فى الامصار • وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصة الانسان وهى العلوم والصنائع •ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعي لفقدان الصنائع فى اهل البدو كما قدمناه •ولا بد من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها •

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار

العلم ، وتفننوا فى اصطلاحات التعليم واصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين • ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام » •

هذا وللدولة اعمار ، وللعمران مراحل • وهذه المرحلة متصلة بالظواهر الديمغرافيه • ان الدولة فى اول امرها اذا كانت « رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر ، ويكثر النسل » (٨) حتى اذا انتهت الدولة الى غايتها فى الترف والنعيم تقع المجاعات بسبب عوز الاقوات لقبض الناس ايديهم عن الفلح للعدوان في الاموال والجبايات وللفتن كما يكثر الموتان بسبب المجاعات انفسها والفتن والازدحام وانتشار الامراض (٨) •

اما قضية الازدحام وانتشار الامراض فهذا صحيح • لقد كان معدل الوفيات لامد قريب فى الريف بحيث تنبسط الحقول وتشتبك الغابات اقل منه فى المدن • بيد ان الامر قد انقلب فى عقود السنين الثلاثة الاخيرة ، فاصبح فى المدن اقل منه فى الارياف بوجه عام او لاعمار معينة (٩) •

ذلك ان احوال المدن فى العصر الحاضر قد تغيرت عنها في غابر الدهر • فقد أتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرت المياه النقية الى البيوت وانتشرت النظافة واخذت الهيئات المسؤولة تبذل جهودها فى تنظيم الخطط المناسبة لانشاء المدارس والحوانيت فى افضل الاحوال المريحة •

وقد نبه ابن خلدون قديما على ان تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات وياتي بالهواء الصحيح ، ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير » (٨) •

ان ذكر ابن خلدون لفظ مخالطة الحيوانات التي كانت مطايا الركوب لعهده ينبغي ان نستبدل به فى عصرنا مخالطة السيارات وما تنفثه فى الجو من بقايا المحروقات . واذا كان معدل الوفيات قد تبدل فى العصر الحاضر فنقص بالمدن عنه بالريف فلقد كان ذلك العالم العربى حريصا على الاحتياط والتنبيه الى اختلاف الاحوال حين كتب فى مقدمة « مقدمته » هذه الفقرة الرائعة « وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تـدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على مر الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصـار فكذلك يقع في الافاق والاقطار . »

واما المجاعات فيهمنا هنا من بعض اسبابها التي ذكرها ابن خلـدون الاسراف فى العناية بزراعة ما ليس فيه ليس فيه فائدة غذائية للشعب المزدحم لنترك هذا المؤلف يتحدث ايضا فيقول: «وهذا معنى ما يقول بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب . حتى ان كثيرا مـن العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا انه خاصية فى النارنج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا اشكالها فقط ، ولا تغرس الا بعد التفنن فى مذاهب الترف . وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلي . وهو من هذا الباب ، ان الدفلي لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف (١٠) يمكن مقايسة هذه الاراء الاخيرة المتعلقة بزراعة الارض ما لا يغذى بما جاء عند فريق من الاقتصاديين الغربيين ، نختار منهم اقتصاديا طريفا هو اوتو افرتز

لقد ارتكز هذا الاقتصادى الحديث الى قول المفكـر الانكليزى وليم بتي الذي مر ذكره والذى عاش فى القرن السابع عشر وهو « ان العمل ابو الثروة والارض امها » فاعتبر ان « الانسان يتغذى من التراب » وان « الانسان يأكل ترابا » على حد تعبيره • وحقا تندر السلع الغذائية التي لا تأتى من الارض •

فاستهلاك الخيرات التي تعتمد خاصة على الارض ولا ينفع استهلاكها الناس انما هو « تحطيم لارواح بشرية « على حد دعواه ، اذ لو لم تستهلك تلك الخيرات فى تربية خيل السباق مثلا او حدائق التجميل لعاشت بها الناس فاستهلاكها يحرمهم من الوجود • وهنا تنجلى بعض العبارات المستغلقـة التي يوردها اوتو افرتز فيقول مثلا : « ان الاسرة المتأنقة التي للزوج فيها رياضته وللزوجة زينتها لتزرع الموت والاستعباد بين طائفة من الكائنات الانسانية » (١١) •

وهكذا تتفهم موقف ابن خلدون في الحكـم علـى المغالاة فى ترف المزروعات التجميلية عند ازدحـام الشعب فى اكتمال الحضارة ووقـوع المجاعات •

الخلاصة

والخلاصة انه لبيان مكانة ابن خلدون قد تفيد مقارنته ولو لماما بآخرين من المشاهير في هذا الميدان •

لقد شاع اسم مالتس فى عالم الاقتصاد والسكان • وهو الوجه المنيف فى مراحل نشوء هذين العلمين • رأى هذا القس الانكليزى ازدياد النوع البشرى أشد من ازدياد الثروة،كما رأى الارتباط حتميا بين هذين المتغيرين ورد على مبادىء غودوين الاشتراكية وعلى مزاعم كندورسي المتفائلة في تطور الانسان وادعى ان القوانـين الثابتة للطبيعة البشريـة تجعل من المتعـذر تخليص طبقـات المجتمع الدنيا مـن نير الفاقة • فلاح كتابـه لا يدعـو الى الفلاح ، وكانه نعيب غراب على شرفات جدران المدنية •

وفي المقابل نجد ابن خلدون اكثر نفعا في تفهم عناصر المجتمع واوسع اتباعا لمختلف « التغيرات » الاجتماعية وارجح موقفا في بيان العلاقات المتطورة بينها واصدق تحديدا لمعالم الحضارة واكد تمييزا لمقاييسها وذلك في سياق بحثه للحوادث التاريخية والظواهر الانسانية . وانه لمن الظلم لابن خلدون على تقدم عهده ان يوازن بينه وبين مالتس واشباهه او ليس جديرا بعد ما قدمناه ان يعتبر مؤلف المقدمة واضع الحجر الاساسي في الديمغرافية الاقتصادية ايضا ان لم تقل في الديمغرافية كلها .

لقد ترجمت مقدمة ابن خلدون منذ امد الى بعض اللغات الاجنبية . وعلى هذا ليس صحيحا انه من السهل الحسم بتاريخ ميلاد الديمغرافية كما فعل بعض الباحثين ، بل انه من الضروري الانتباه للتراث الحضاري الانساني اجمع لا الى جزء ضئيل وضيق منه . ولما كانت الديمغرافية تهتم بالاعمار وجب ان نصحح لها عمرها .

وهكذا يكون ميلادها الحقيقي مقرونا بميلاد مقدمة ابن خلدون قد مضى عليه خمسمائة وثمان وتسعون سنة لا ثلاثمائة وثلاث عشرة .



المصادر والمراجع

(١) Boris Ourlamis, Le Courrier, Unesco, février, 1967.

(٢) نحافظ هنا على طريقة كتابة العهد القديم . وهي طريقة اهل الكوفة فى كتابة الرقم ١٠٠

(٣) Marcel R. Reinhard et André Armengaud, Histoire de la pulation mondiale, Ed, Montohrestien, 1961, p. 26.

(٤) Pièrre Guillaume et Jean Poussou, Démographie historique Librairie A. colin, 1970, p. 39.

(٥) اعتمدنا فى ايراد نصوص المقدمــة طبعة الاســتاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي وقد ذكر الاستاذ التحريف الكبير الذى اصاب هذه الجملة فى « فصل اسعار المدن » اذ وردت وابواب الحفر والحياة . ولكن المحقق صححها على النسخة الخطية التيمورية . هذا ونرى ربما كان الاصـــل « وابواب الخفر والجباة » والخفر هو الحراسة .

(٦) فصل فى ان الحضارة فى الامصار من قبل الدول

(٧) عنوان فصل فى المقدمة

(٨) فصل فى وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

(٩) انظر فى بيان ذلك كتابنا « فصول فى المجتمع والنفس » ص ٩٧ ، ٩٨.

(١٠) فصل فى ان الحضارة غاية العمران

(١١) Otto Effertz, Théorie ponophysiocratique de la population Revue d'Econo mie politique, 1914

وانظر ايضا

Pierre fromont, D emographie Economique Payot 1974

وكتابنا فى علم السكان جامعة دمشق ١٩٥٩ .



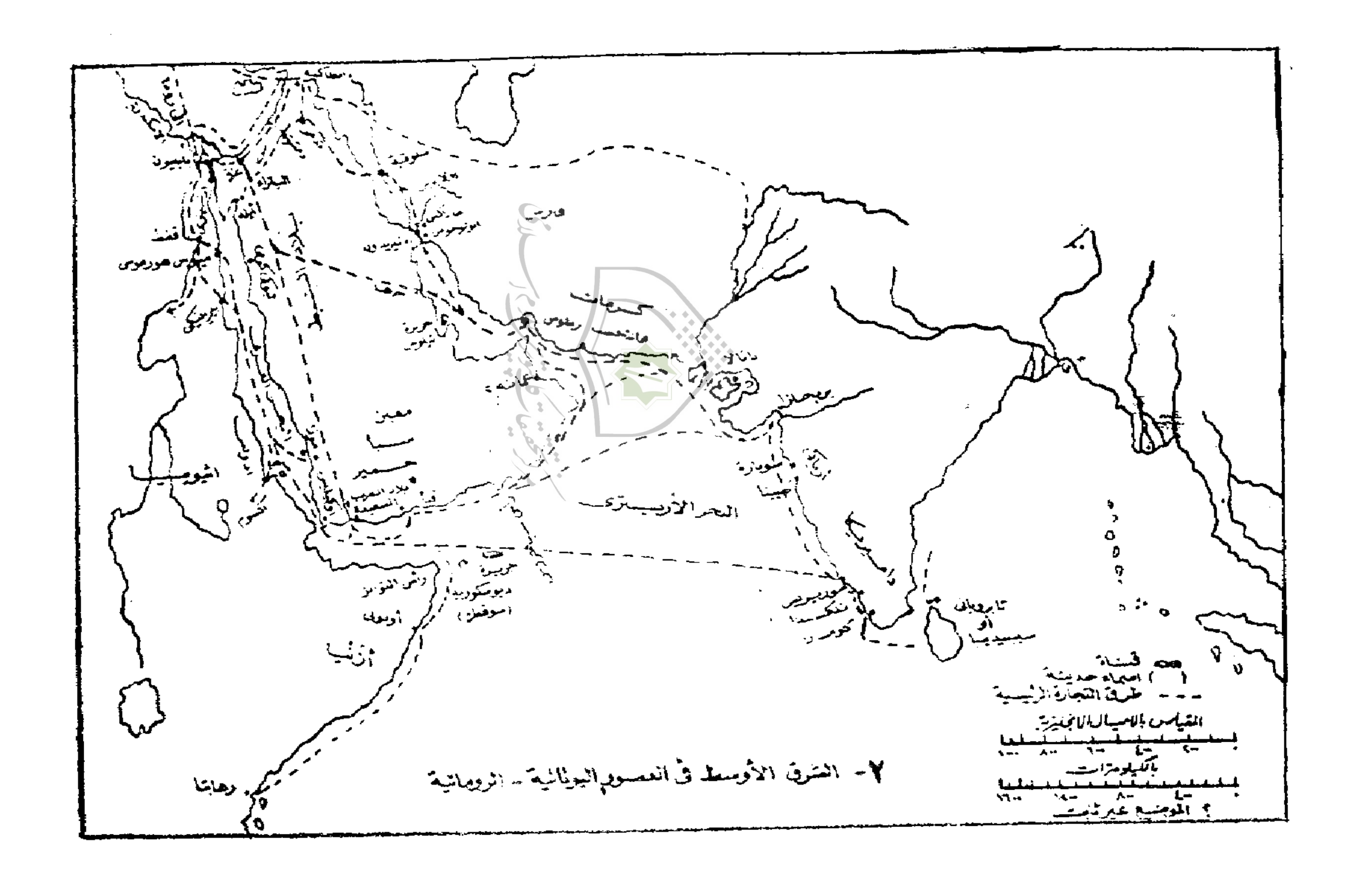
دور الأبلة في تجارة الخليج

الدكتور صالح الحمارنه
الجامعة الاردنية ـ كلية الآداب
عمـان

لقد كان الابله اليوناني Apologos معروفا في المئة الرابعة قبل الميلاد فقد ذكره نيار خوس Near chus البحار الاقريطشي فقد كان هذا البحـار قائدا لاسطول الاسكندر وقد اختاره الاسكندر للتعرف على الطريـق البحرى من نهر السند الى مصب الرافدين ، فأعد لذلك اسطولا ضخمـا فبدأت رحلته عام ٣٢٦ ق٠م٠ من ميناء الاسكندر ، الواقعة على مقربـة من كراتشى الحالية ٠ وقد طالت رحلته خمسة شهور ومما ذكره بالنسبة لمدينة ابو لوخوس « فيها مستودع تجارات خليج فارس » وان ابولو خوس هي الابله عند العرب و ubulum فى النقوش الآكاديه (٣) ٠

والظاهر ان اليونانيين بعد الاسكندر قد تكاثروا في اقليم البطائح وفى البصرة حيث كانت تقوم مدينة تريدون (تردن) وكانت الابله بمثابة الميناء لهذه المدينة وكان اليونانيون يشتغلون بالملاحة والتجاره ٠

وهناك كتاب صغير من تأليف تاجر يونانى كان يعيش فى مصر فى القرن الاول للميلاد واسم هذا الكتاب مترجم الى الانكليزية Periplus of the Erythraeam Sea وقد سماه الاستاذ نقولا زيادة بـ « دليـل البحر الاريثرى (٤) » ٠



٧- الشرق الأوسط في العصور اليونانية - الرومانية

يذكر المؤلف فيه بالنسبة للخليج العربي اسمين فقط وهما ابو لوخوس (الابله) وشراكس سباز ليني (المحمره) • ويكتفى بالاشارة الى عمان بالنسبة الى الخليج الآخر • ويذكرنا بان عمان فيها تمر ونبيذ وسفن مخيطه أو كما يبدأ من الكلمة التي يذكرها « مادراتا » مدرعه على ما ارتأى غلازر ، ولكن عمان الميناء كانت متجرا كبيرا اذ كان يأتيها النحاس وعود الند وخشب التيك والأبنوس والخشب الاسود (من الهند) والبخور (من قنا) ، كما نها كانت تصدر بالمقابل القوارب والسفن المدرعه (من جذوع النخل) واللؤلؤ (الآتي من الخليج العربي) والثياب وبعض النبيذ والذهب والرقيق (٥) •

أما بالنسبة الى الابله فيقول عنها أنها مدينة من أسواق « بارتيا » أي اقليم فارس ، تصدر الى اليمن الكثير من اللؤلؤ والارجوان والخمور والبلح والذهب والعبيد وربما كان سكان هذين الميناءين التوأمين (اى ابولوغوس وشراكس) مزيجا من العرب والكلدانيين والفرس وكان أحدهما او كلاهما نقطة بداية لرحلات حول الجزيرة العربية (٦) •

من هنا نرى ان تجارة الخليج العربي طوال عهد الامبراطورية الرومانية كانت من أيدى مدن صغيرة مثل الابله وشراكس • يضاف اليهما مدينة تدمر السورية فى الصحراء وكان لها معهما اتصال وثيق (٧) •

ومن المحتمل ايضا ان الفرس كانوا يسيرون السفن من الابله الى الصين قبل الاسلام ، فلقد كانت جزيرة سيلان مركز التجارة البحرية فى الفترة الساسانية ما بين الصين والشرق الادنى • اذ ثمة تجارة مباشرة كانت قائمة ما بين الامبراطورية الساسانية والصين (٨) ، وكان المشتغلون بالملاحة والتجارة في الابله عرب وفرس ، فلقد شكا من نشاط التجار العرب والفرس المتسلطين على متاجر الخليج العربي وموانئة منذ وقت بعيد انطيوخوس الرابع (١٧ ــ ١٦٤) ق•م السلوقى (٩) •

ولا غرو فان الطبرى يذكر « ان الابله كانت تسمى قبل الاسـلام ـ فرج الهند ـ (١٠) فقد كانت العلاقات البحرية بين هذا الميناء والهند وثيقة الى حد بعيد حتى ان حاكمها الفارسى كان قد حارب الهند في البحر • مما يدل على وجود قراصنه من الهنود فى الخليج العربى أو خليج عمان (١١) •

من هنا نرى ان الابله كانت عند الفتح الاسلامى للعراق مرفأ السفن من عمان والبحرين ومن الهند والصين ، فكيف تم فتح هذا الميناء وكيف كان مصيره في العهد الجديد فى ظل الدولة العربية الاسلامية •

لقد كان يقطن في الابله قبيل الفتح بجانب العرب والفرس كثير من النبط ونصارى ويهود ففى السنوات (٥٢٤ ـ ٥٣٥) م كان فى الابلـه مركز لمطرانية النصارى النساطره (١٢) •

ومن بين العشائر العربية التى كانت مستوطنة قرب الابله كانت قبيلة بكر الباسلة والتى كانت قد انتصرت عن الفرس قبل الاسلام فى معركة ذى قار وقد شجعها هذا الانتصار فاخذ بعض رجالها يقومون بغارات علـى الاطراف الغربية للدولة الساسانية (١٣) يشرح البلاذرى في كتابه «فتوح البلدان » فتح الابله بشيء من التفصيل لا نرى ضرورة نقله هنا ولكنـه يذكران عتبه (ابن غزوان) غزا الأبله وفتحها عنوة • وكتب الى عمر بن الخطاب (٦٣٤ ـ ٦٤٤) م يعلمه ذلك ويخبره أن الابله فرضة البحريـن وعمان والهند والصين (١٤) •

ويذكر الشيخ نعمان بن العراق وهو من المؤرخين المتأخرين (القرن العاشر/السادس عشر م) فى كتابه « معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر تفاصيل جمه حول فتح الابله منها انه لما نزل عتبة الخريبه كان فى الابله خمسة من الاساوره (فرس) وكانت مرفأ الصين وما دونها ، خرج اليـه اهل الأبله فناهضهم عتبة •• وبعد ايام القى الله في قلوب اهلها الرعب

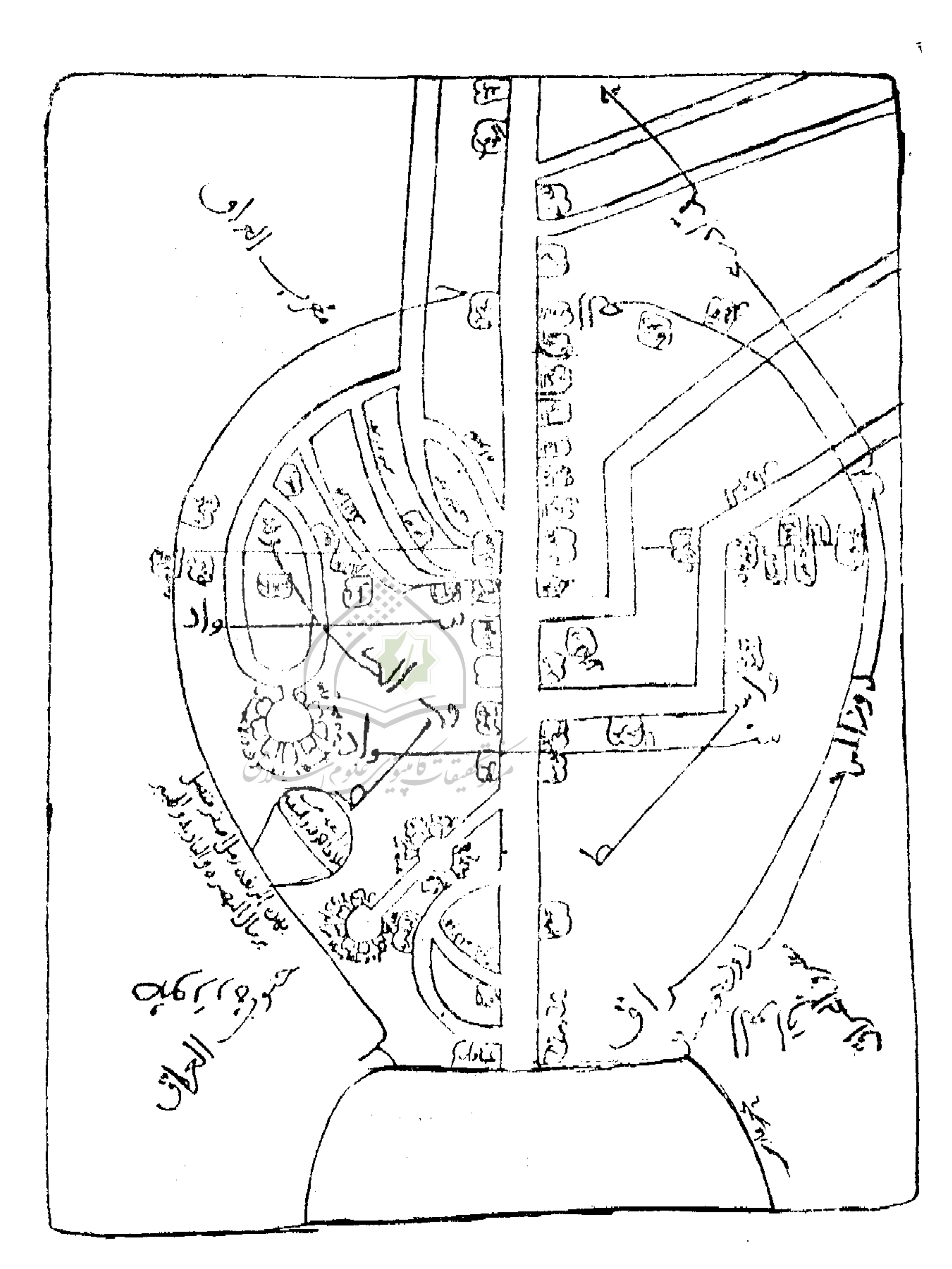
فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خف وعبروا الفرات وخلوا المدينة فدخل المسلمون فأصابوا متاعا وسلاحا وسبيا وعينا ..

يذكر الشيخ نعمان : لما فتح المسلمون الأبله لم يجدوا قساما يقسم بينهم وكان زياد (ابن ابيه) الذى شارك بالفتح معهم) قاسمهم وهو ابن اربع عشرة سنة وله ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » .

وقال أحدهم « شهدت فتح أبله مع عتبة بن غزوان فأصبنا سفينه مملؤة جوزا فقال رجل ما ما هذه الحجارة ؟ وكسرناها فأكلنا منها ، فقلت هذه طعام طيب » . ويضيف الشيخ النعمان فيقول « والأبله صغيرة المقدار حسنة الديار واسعة العمارة مستقلة البساتين عامرة بالناس (المياسير) وأهلها من أخصب العيش ورفاهيته ... وهم ابخل قرية وابعدها عن السخاء (١٥) .

مثل هذا الوصف قد سبق اليه الجغرافيون والمؤرخون العرب منذ نهاية القرن الثالث فالرابع الهجرى وما بعد ذلك التاريخ ، فمثلا نرى الاصطخرى يقول « الأبله مدينة صغيرة خصبة عامرة ... » ويزيد فيصف الميناء ونهر الابله فيقول وللبصرة نهر يعرف بنهر الابله طوله اربعة فراسخ ما بين البصرة والابله ، وفي حافتى هذا النهر قصور وبساتين متصلة وكأنها بستان واحد .. » (١٦)

ويزيد فى هذا الوصف ابن حوقل فيقول « وكان لبساتين بضفاف الأبله » قد مدت على خيط ، ورضعت بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والابنية الفاخرة والعروش العجيبة والاشجار المثمرة والفواكه اللذيذة ، والرياحين الغضة المركب منها مثل الحيوان والبرك الفسيحة المرصوفة . ولا تخلو من المتنزهين بغرائب الملاذ وتحف المتطرفين منحدرين ومصعرين » ومشهورة فى التاريخ « المناديل البليه والعمائم » (١٧) .



صورة العراق

من هنا نرى ان الأبله هي مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحرية •
وكان نهر الابله مرصوفا بالسفن بصورة مستمرة وقد صرفت مبالغ كبيرة لانشاء ادراج صخرية على ضفاف نهر الابله ليمكن النزول الى مستوى النهر الواطىء وقت الجزر تسهيلا لشحن السفر بالبضائع أو لتفريغها (١٨)•
وقد ظلت الابله مركزا للتجارة البحرية حتى بعد حفر قناة الابله التى كانت تربط هذا الميناء بالبصرة نظرا لأنه كان في فوهة هذه القناة دوارة تمنع مرور السفن (١٩) •

أما ناصر خسرو والذى أتى بعد الاصطخرى وابن حوقل فيما يقارب القرن فيذكر في كتابه سفرنامه حينما زار بنفسه الابله والبصرة وفى التحديد فى عام ٤٤٢هـ/١٠٥١م فيقول : ــ

« والابله التي تقع على النهر المسمى بها ، مدينة عامرة وقد رأيت صورها وأسواقها ومساجدها واربطتها وهي من الجمال بحيث لا يمكن حدها أو وصفها ، والمدينة الاصلية تقع على الجانب الشمالي للنهر وعلى جانبه الجنوبي يوجد من الشوارع والمساجد والاربطة والاسواق والابنية الكبيرة ما لا يوجد أحسن منه فى العالم • وهذا الجانب الجنوبى يسمى شق عثمان والشط الكبير الذي هو دجلة والفرات مجتمعين والمسمى شط العرب يقع شرقي الابله والمدينة فى الجنوب ويلتقي نهرا الابله والمعقل عند البصرة (٢٠) •

أما حول الميناء نفسه فيذكر ناصر خسرو « انه كان من المتعذر فى وقت ما ان تمر سفينة في فم الابله لعظم عمق مائه ، ثم يروى هذه القصة التى يكررها غيره بشكل آخر (٢١) فيقول •• « أمرت امرأة من أثرياء البصرة بتجهيز اربعمائة مركب ملاتها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد احكام سدادها فارتفع القاع وتيسر عبور السفن (٢٢) •

أما الشيء المهم الذى يذكره ناصر خسرو فهو الخشاب (المنار) الذى أنشيء في ميناء الابله من أجل ارشاد السفن فيقول : ـ « يتكون الخشاب من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق وهــو مربــع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ويرتفع عن سطح أربعين ذارعا قمته حجارة مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ومن فوقها أربعة يقف بها الحراس ، وكان الغرض منه (اى الخشاب) شيئين : أحدهما انه بنى في جهة ضحلة يضيق البحر عندها فاذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالارض ، ففي الليل يشعلون سراجا فى زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون •• والثاني : ليعرف الملاحون الاتجاه وليروا القرصان ان وجدوا وذلك بتحويل اتجاه السفينة • ويستمر فيقول ، ولما اجتزنــا الخشاب ، بحيث اصبح لا يرى رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحة قبة لأنهم لم يستطيعوا اكماله (٢٣) •

وابن حوقل يورد ذكر الابله ضمن مدن البصرة فيقول : ـ

« ولها (أى البصرة) من المدن عبادان ، والابلة والمفتح والمــذار في مجارى دجلة ، وهي مدن صغار متقاربة فى الكبر عامرة ، والابلة اكبرهــا وأفسحها رقعة وهي أحد حدود البصرة من جهة نهرها •••• والابله مــن بينها عامرة وبها اسواق صالحة ولها حد آخر من عمود دجلة مكان يتشعب منها النهر المعروف بنهر الابلة ، وينتهي عمود دجلة الى البحر بعبادان بعد أن يضرب الى نهر الابله (٢٤) •

قد رأينا ان ميناء الابله قد استسلم للقوات العربية الاسلامية بسرعة وبدون مقاومة تذكر رغم صغر القوات العربية التي هاجمتها وفتحتها عنوة مما يدل على أن الساسانيين قد اخلوها(٢٥) وفيما بعد اصبحت الابلة مركزا اداريا لطوج وعين لها عامل خاص وقام فيها مركز لجباية العشور •

أما حجم التجارة فالراجح انه لم يكن ثابتا ، بل تعرض لتغييرات كبيرة ، فى القرن الاول الهجرى ، ويروى الحسن البصرى انه جاء رجل الى ابن عباس فقال أتقبل منك الابله بمائة الف ، فضربه ابن عباس مائة وصلبه حيا « ولما كانت العشور هي حوالي ١٠٪ من ثمن البضاعة ، لذا يمكن القول بان هذه التجارة كانت تبلغ حوالي مليون درهم سنويا (٢٦) •

وأود هنا أن أذكر اسماء بعض ولاة مدينة الابله مستقاة من المصادر :

ابر ابي بكره ــ البلاذرى فتوح ٣٨٥ ،

خبيبه بن كناز (يعمر) اشتقاق ص ٢١٣

كلاب بن اليه (لزياد ابن أبيه) أغانى ج ١٨ ص ١٥٦ •

أمية بن عبد الله بن خالد (البلاذرى) انساب ج ٤ قسم ٢ ص ١٥٢

أنس بن مالك (لابن الزبير) سعد ج٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ •

كراز السهمى (للحجاج) البلاذرى انساب الاشراف ، ص ٣٣ ، طبعة ١ هلورث ابو المليح الهزلى ( ) سعد ج ٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ (٢٧) •

يذكر الدكتور صالح العلي : « ان انشاء مدينة البصرة أدى الى تضاؤل أهمية الابله فاصبحت ميناء ثانوى لتجارة البصريين (٢٨) وصحيح ايضا أن أحوال البصرة فى أوائل العهد الاسلامي كانت أقل توفيقا من الكوفة خاصة فى جذب المهاجرين من العرب ، ففتوحاتها كانت بطيئة ودخلها قليل ، لذلك قرر الخليفة عمر بن الخطاب ان يخصص للبصريين دخل بعض المقاطعات التي فتحها اهل الكوفة ••• ويبدو ان هذا كان من العوامل التي شجعت البدو المقيمين فى أطراف منطقة البصرة على الهجرة اليها (٢٩) بل نرى انه أثناء امارة عبد الله بن عامر (٢٥ــ ٣١هـ) قد اتسعت جبهة القتال التي يقوم بها البصريون فأصبحت قواتهم مسؤولة عن الفتوح فى كافة المقاطعات الواقعة شرقي الخليج الفارسي ، والتي كانت حتى ذلك الوقت تقوم بها الجيوش الاسلامية من قاعدتها في البحرين ، فبعد فتوح اقليم فارس وسجستان وكرمان شارك فيها البصريون وكذلك فتوح خراسان (٣٠) •

ازداد دخل البصرة وانتشر الرخاء الاقتصادى الامر الـذى شجـع التجار ورجال الاعمال على التقاطر وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو نموا سريعا ، وكان للبصريين وملاحي الابله الدور الكبير فى التجارة البحرية •

على انه يجب الانتباه ان مركز البصرة الكبير والذى ازداد مع الايام كبرا واهمية فى ظل الدولة الاسلامية قد اعطى هذا الامر بالذات أهميـة خاصة على الابله نفسها كونها كانت ميناء مدينة البصره العظيمه ، وقد اثنى الجاحظ عى همةالبصريين التجارية وحبهم للمغامرة : يقال أنه ليس فى الارض بلده واسطة ولا بادية شاسعة ، ولا طرف من الاطراف ، الا وانت واجد بها المدينى والبصرى والحيرى (٣١) •

وقد اتفقت كلمة أصحاب الرحلات على علو همه البصريين وبعدهم فى التجارة (٣٢) حتى قال ابن الفقيه : « وابعد الناس نجعه فى الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الاقصى ، فلا بد أن يـرى فيها بصريا أو حميريا (٣٣) ففي الحديث عن ماسة المينا في شمالي افريقيـة يذكر ياقوت » قرية على البحر تحمل اليها التجارات وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول وفيه الرباط على ساحل البحر ويلقي البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطية التي تعمل بالابلة التي يركب فيها الى الصين •

ويذكر الافغانى ان البضائع كانت تحمل الى البصرة من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت بأنها « قبة الاسلام » (٣٤) وليس من باب المصادفة ان يكون مؤلف أول كتاب فى التجارة وهو الجاحظ (توفى ٢٥٥هـ/٨٦٩م) بعنوان « التبصر فى التجارة » من اهل البصرة فكانت البصرة باب العراق ومحط التجارة الشرقية ثم تجارة القوافل البرية الآتية من الصحراء ولقـد لعب المربد سوق البصرة الشهير الذى يقع غربي المدينة وجهة الصحراء دورا كبيرا فى تسويق المنتوجات الصحراوية خاصة الابل ، كذلك لعـب دوره المعروف فى الحياة الثقافية في البصرة مما كان له الاثر العميق في الثقافـة

العربية الاسلامية هذا فضلا عن ان سوق المربد كان مجمعا للناس عند الاحداث السياسية الهامة فى تاريخ العرب المسلمين (٣٥) وقد بدأ الانحلال فى المربد ــ بعد مراحلة المزدهرة منذ الفترة الراشدية فالاموية فالقرن الثالث الهجرى من العصر العباسي في القرن الرابع الهجرى ، وما جاء زمن ياقوت (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) حتى أضحى بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة على بعد ثلاثة أميال منها (٣٦) •

قال ابن قتيبة : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة (٣٧) ،ونضيف نحن فنقول والابلة ميناؤها •

اذن فقد كان فى تولي العباسيين للخلافة قوة جديدة دفعت الى الامام التجارة البحرية الواردة الى الخليج العربي ، والصادرة عنه ، وذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد اذ يشير اليعقوبي اشارة واضحة الى ان المنصور كان عالما بالميزات الاقتصادية التي ينطوى عليها موقع بغداد ، ويضع على لسانه هذا القول « والا فجزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها شرعة لدنيا كل ما يأتي من دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها ترقي وبهاترسى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذر بيجان وارمينية مما يحمل من السفن في دجلة وما يأتي من ديار مضر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل فى السفن فى الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجه اهل الجبال واصبهان وكور خرامان فالحمد لله الذى ذخرها لي واغفل كل من تقدمني والله لابنينها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدى من بعدى ثم لتكونن أعمر مدينة فى الارض (٣٨) •

من هنا نرى ان موقع بغداد بل العراق كله قد ساعد على نمو التجارة اذ اصبح العراق جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب من الجانب الآخر وهكذا قدر

لسكان العراق ــ عند توفر الظروف ــ ان يصبحوا وسطاء فعالين في تجارة العالم المتمدن (٣٩) •

فتوسط بغداد بين الطرق التجارية بين الشرق الاقصى والهند من جهة وبين اوروبا من جهة أخرى ، قد جعل لها اهمية دولية كبيرة ، وعلى هـذا الطريق في القرن الثالث الهجرى كانالتجار الرهدانية* الذين يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يأتون بعداد ثم يركبون دجلهالى الابله ومن الابله الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (٤٠) •

يضاف الى ذلك العلاقات الاقتصادية والتجارية التي كانت قائمة بين بلد وآخر من بلدان ان الخلافة الشاسعة المساحات والتي كانت مـن ذلك الحين بين محيطين الهندى شرقا والاطلسى غربا ، فكانت شواطىء هـذه الامبراطورية تغتسل بمياه أربعة بحار : ــ

البحر الابيض المتوسط ، والبحر الاسود والبحر الاحمر والخليـج الفارسي وكانت هذه التجارة الناشطة تقوم على الصناعات المتقدمة المتطورة وعلى الانتاج المعدنى (٤١) • فابحتلال العرب لسواحـل الخليج الفارسي كلها قد وحدوا فى امبراطوريتهم من جديد ، ما بين بـلاد غربـي آسيـا (ما عدا الاناضول) ومصر • وكان حلفاء الاسكندرقد شطروا هذه المنطقة الاقتصادية شطرين ، فالخليج العربي والبحر الاحمر لـم يعودا طريقـين متنافسين وقد استعملا جنبا لجنب طوال احتفاظ الدولة الاسلامية بوحدتها فقد راجت التجارة فى الخليج العربي من الابله وعمان وايران والبحرين مع موانىء الهند والصين أيما رواج في عهد العباسيين ، طوال المدة التي كانت فيها بغداد أولى مدن الشرق الاوسط (٤٢) •

وكان من الابله ميناء البصرة مبدأ الطرق البحرية فيذهب اولها الى الهند والصين ، بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية الى البحر

الاحمر والى شمالي افريقية • ولما كان الخليج ضحلا ـ كما ذكرنا ـ عند مصب دجله العوراء ، فقد انشىء منار من البحر تسترشد به السفن القادمة الى البصره •

وقد استعمل العرب المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية ، بينما استعملوا مراكب كبيرة لعرض البحار ، وكانت الواح مراكب البحر الابيض تربط بعضها بالمسامير ، وتلمع بالفحم ، (منذ ايام الحجاج) أما مراكب البحر الاحمر والمحيط الهندى فاتبعوا طريقة أخرى في بنائها ، اذ كانت تخاط بحبال من الليف • وقد وصف لنا ابن جبير طريقة ذلك فيقول : هي مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء المركب عى هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، او بدهن الخروع ، او بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر (٤٣) •

وكانت مراكب البصرة بيضاء لانها « مشحمة بالشحم والنوره وكانت المراكب التي تذهب الى الصين كبيرة جدا » اذ يبلغ ارتفاعها عن سطح الماء حدا يضطر الناس الى استعمال سلالم يبلغ ارتفاعها نحو العشرة اقدام ليصعدوا الى سطحها (٤٤) •

وقد اخذ البحاره البصريون/يخرجون من الابله/يرتادون جميع الجزر الواقعة فى الخليج العربي وتعرفوا الى الموانىء الطبيعية فيه ، وبعد ذلك انطلقوا الى المحيط الهندى واسسوا لهم مراكز تجارية فى سقطره وزنجبار وفى الشاطىء الشرقي لافريقيا ، وكانت السفن البصريه تحمل من افريقيه العبيد الزنج والعاج والاخشاب الثمينة والتبر والحجارة الكريمة • وبعد ان تم اتصال التجار البصريين بجزيرة سيلان وتجارها شرعت البصره تشترى العاج والحجاره الكريمة (وخاصة العقيق) والتوابل ويأخذون اليها البضائع ومنها النبيذ العراقي •

وعلى الشاطىء الغربي للهند (في ملبار) كانت عدة مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب من رعايا الخليفة العباسي لهم مساجدهم وقضاتهم (٤٥) .

لقد رأينا النمو الاقتصادى الكبير لميناء البصره ولكن هذا القول قد حدث تدريجيا فقد ظلت اليمن محتفظة بمركزها التجارى الهام طوال القرن الاول الهجرى/١٤٦ كما كان فى الخليج عدد غير قليل من المراكز الهامة التي استفادت ايضا من تحول التجارة الهندية . فلم يكن لميناء البصرة ان يصبح من الموانيء الرئيسية وان يلعب دوره الخطير في التجارة البحرية مع الشرق الاقصى دون الاعتماد على ميناء صحار فى عمان (الميناء الذى حلت محله مسقط فيما بعد) هذا الميناء الذى كان أعمر مدينة بعمان واكثرها مالا ، ذات اسواق عجيبة وبلده ظريفه دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق .... وبها متاجر البحر ومقصد المراكب والسوق فيها سوق تجارية محضة . ويعشر الناس فى هذه السوق للجلندى صاحبها (٤٧) . ولقد كانت صحار أقرب الموانىء العربية لرسو السفن الاتية من الهند الى الابله ، الامر الذى ساعدها ان تصبح (فوق كونها ميناء) مركزا للتجارة مع الهند وافريقية . وقد نمت فيها بعض الصناعات وخاصة النسيج الذى يصدر حتى الحجاز فى عهد الرسول ، ولكن نظرا لموقعها الجغرافية المنعزل فان الحياة الاقتصادية فيها لم تنم لدرجة تهدد معها سيادة البصرة ، فظلمت مجرد محطة لوقوف السفن التجارية مع الهند (٤٨) .

أما ميناء دارين الذى كان في اوائل العصر الاسلامى من المراكز العربية الهامة للتجارة وخاصة تجارة المسك ، فلقد كان للمسك الدارى شهرة فى كافة انحاء الجزيره . وكان التجار الداريون يصدرونه الى البصره ومدن شرقى الجزيره وحتى الى الحجاز . حيث كان للداريين فى المدينة المنورة جالية كبيرة ، ولكن يبدو ان دارين اخذت تضعف تدريجيا بعد انشاء البصرة التى أصبحت المركز الرئيسى لتجارة الهند (٤٩) .

ومن الموانيء المزدهرة ايضا فى ذلك الحين كان ولا شك ميناء سيراف (الطاهرة اليوم) في كرمان الواقعة على الشاطىء الايرانى جنوب شيراز والمحاذى للخليج العربى وان المضاحل الخوانه عند مصب نهر الابله والتى كانت تعترض الملاحـة هناك قد سببت فى نمو ميناء سيراف حتى بلغت التجارة فيه مبلغا جعل منه منافسا للبصرة وميناءها الابله في الغنى والثروة . رغم ان هذه المدينة كانت تقوم على شاطىء حار ومجدب شأنها شأن عدن. وكانت سيراف تعيش عى ما يرد اليها من مؤن عبر البحر . فكان الفضل لوجودها كله لتجارتها البحرية . ويصف الجغرافيون العرب دور التوف التى كان يقيم تجارها واصحاب سفنها فكانت مبنيه من طوابق مـن خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الاخشاب المجلوبه من شرق افريقية . وان الشحنات كانت تجلب عامة فى سفن صغيرة من الابله ميناء البصره الى سيراف حيث تنقل الى السفن الكبيرة تنقلها الى الصين (٥٠) . وقد اصاب ملاحو سيراف حظا وافرا من الغنى حتى ان أحدهم بلغ ملكه أربعة ألف دينار ، وكانت أبنيتها ذات الطبقات العديدة تصنع من خشب الســاج الثمين والآجر وكانت الدار الواحده تشترى بما يزيد عـن المئـة الـف درهم (٥١) .

وهكذا فقد كانت الرحله الى بحار الهنـد والصين او الى شرق أفريقية تبدأ من الأبله ، وتجتاز عبادان بارشاد الناطور الساكن فى الخشبات وفى سيراف تتجمع السفن، وقد تحمل سفن صغيرة التاجر والبضائع من البصرة الى سيراف حيث تنقل الى السفن الكبيره هناك . فاذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها ان تتجنب المتلصصه ، (٥٢) . لذلك كثيرا ما كانـت السفن تحمل النفاطين والمقاتلين (كما كان بفضل البحارة الصينيون) . وكانت اكثر السفن تعرج على صحار أو مسقط لتحمل بضائع جديدة وتتزود بالماء . وكان بعض السفن يتبع الطريق في محاذاة شواطىء فارس ثـم شواطىء مكران فشواطىء السند .

ويجب هنا الحذر كذلك من القراصنة الذين كانت سوقطره من أوكارهم (٥٣) • وأن بعض السفن تتجه من عمان الى شرقى افريقية ، ولعل أقصى ما وصلته فى تلك الجهات جزيرة مدغشقر (٥٤) •

ويقول المسعودى (٥٥) ان الموسم الذى كان العرب يبحرون فيه عامة من الجزء الغربى من المحيط الهندى هو عندما تكون الشمس فى القوس Sagittarius اى النصف الثانى من تشرين ثانى (نوفمبر) والنصف الاول من كانون أول (ديسمبر) فالسفن نادرا ما كانت تبحر فى حزيران (يونيه) ويذكر الحورانى نقلا عن كتاب أخبار الصين والهند هذه الازمنه عن الرحلات الى الصين :ـ

من مسقط الى كولم ملي	شهر قمرى (٢٩ ـ ٣٠ يوما)
من كولم الى تله بار	شهر
من كله الى صنف فولاو	شهر
من صنف فولاذى الى كانتون	شهر

فالرحلة من مسقط الى كانتون ميناء الصين العظيم تستغرق ١٢٠ يوما ، عدا فترات الوقوف فى الموانىء ، ولهذا يجب ان تقدر ستة شهور أو اكثر للرحلة كلها من البصرة أو سيراف ، واذا ربطنا هذا القول بالحقائق الثابتة عن المناخ فى البحار الشرقية توافر لنا ما يفى بالغوص (٥٦) •

فالسفن القاصدة الى الصين كانت تهبط الخليج العربى قبل أن تشتد عواصفه ، اى في شهر ايلول (سبتمبر) أو شهر تشرين أول (اكتوبر) وتعبر المحيط مسقط الى ساحل ملبار على الشاطىء الغربى للهند ، مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية كما تفصل اليوم (٥٧) وفى ملبار هذه مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب ، لهم مساجدهم وقضاتهم • وكانت الهند تصدر الى بلدان الخلافة البهارات والانسجة بما

في ذلك أفخر الاقمشة الحريرية ، وكذلك نشأت على الشاطىء الجنوبى الشرقى للهند (كورومانـدل) مراكز تجارية للتجار المسلمين ، وكانت هذه المراكز التجارية تستورد سنويا عشرات الالوف من الجياد العربية (٥٨). ثم بعد الوصول الى كانتون وقضاء الصيف هناك تعود السفن مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فتكون الرحلة فى الذهاب والاياب معا قد استغرقت عاما ونصف عام (٥٩) .

وبالمناسبة جميل ان نذكر ان القصص التى جاءت في « كتاب عجائب الهند » والتى حكيت حول السندباد البحرى والتى تحدرت الينا من قصص الف ليله وليله ما هي سوى صدى لهذه الرحلات البحرية التى يقوم بها أهل التجارة من المسلمين في البحار الجنوبية انذاك ومن المرجع ان يكون السندباد قد بلغ فى تسفاره البحرى مدينة كالا فى شبه جزيرة ملقه حيث كان التجار يجلبون الذهب والقصدير وكان التجار المسلمون يستوردون سلعا وبضائع غالية الاثمان من سومطره ، وعى الاخص الذهب والبحار والبخور والنباتات الطبية والكافور (٦٠) .

وكان البحارة العرب وقبلهم كثير من أهل العراق ، يسترشدون بخرائط من رحلاتهم (٦١) فيذكر المقدسى : ورأيت معهم (التجار) دفاتر .... يتدارسونها ويعولون عليها ويعلمون بما فيها (٦٣) .

وفي فترة لاحقة استعمل البحارة العرب البوصلة التى لهم الفضل في اشاعة استعمالها (٦٣) .

ويذكر بليابيف ان التجار العرب والمسلمين قد أخذوا يستوطنون فى مدينة كانتون (كان ـــ فو) وقد بنوا فيها المساجد واصبح لهم قاض يحكم بينهم بحسب الشريعة الاسلامية ، وفي سنة ٧٥٨م ثار أهل مدينة كانتون ضد امبراطور الصين وحكومته ، ولكى يقمع هذه الثورة لجأ « ابن السماء » اى الامبراطور الى مرتزقة من الفرس كانوا فى خدمته ، ابان هذه الثورة عاد المسلمون من رعايا الخليفة العباسى القاطنين فى تلك

المدينة الى بلادهم حاملين اليها مغانم كثيره جاؤا بها من الصين ، ولكن لم تطل غيبتهم فعادوا الى كانتون وبنوا المساجد وعاد قاضيهم ليحكم بينهم حسب الشرع الحنيف • وقد توغل بعض التجار فى داخل الصين نفسها حاملين معهم بضائعهم وسلعهم ، وبدأوا يستوردون الخزف الصينى الجميل الصنعة والاقمشة الحريرية الغنية (٦٤) •

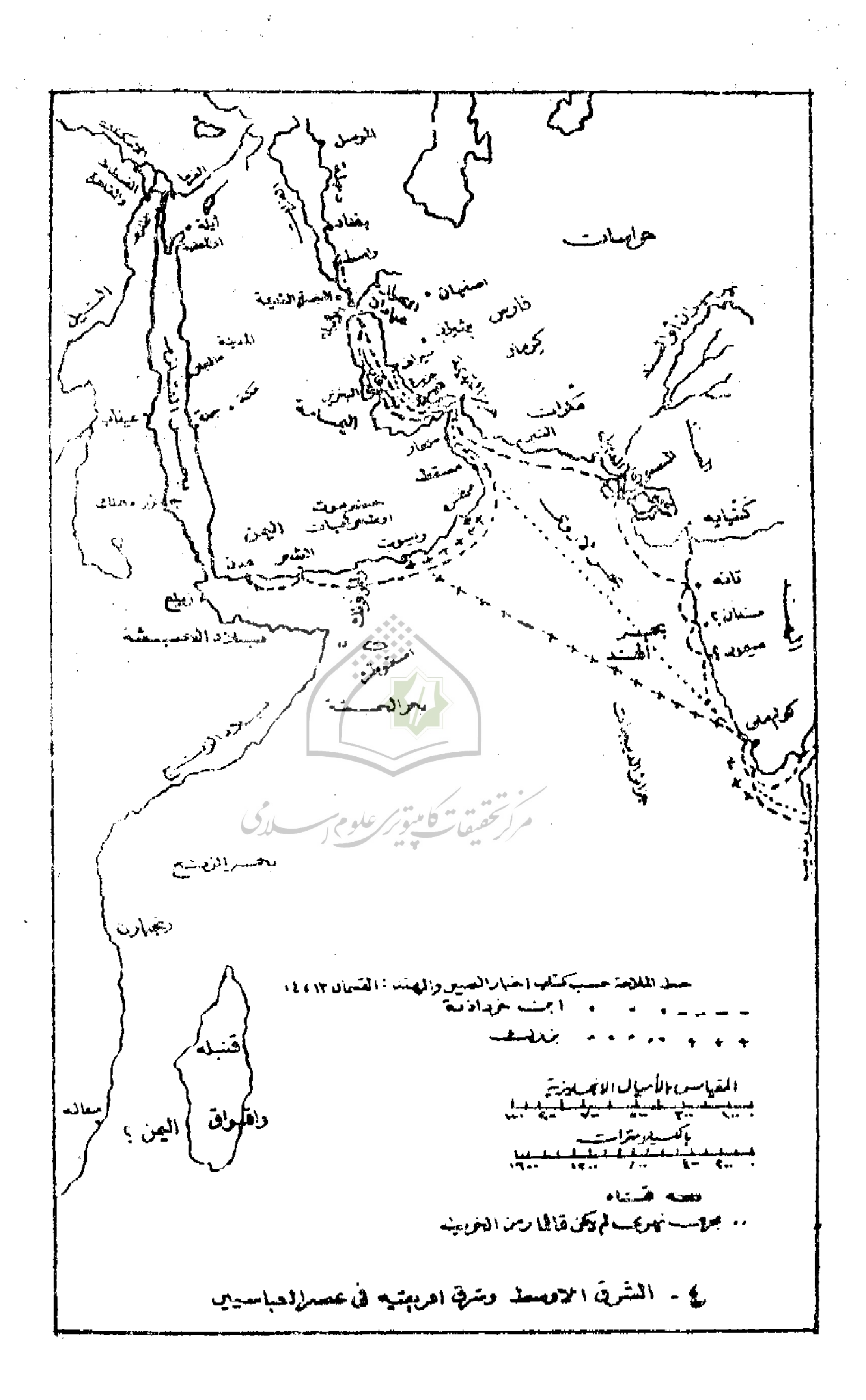
ان هذا الطريق البحرى الممتد من ميناء البصره على الخليج حتى كانتون هو اطول طريق مائى استعمله الانسان وعلى شكل منتظم قبل التوسع الاوروبي فى القرن السادس عشر للميلاد • فسلوك مثل هذا الطريق العظيم عمل جليل جدير بالعناية والاهتمام ويذكر الدكتور حورانى ان الفضل في قيام تجارة بحرية بين الخليج والصين فى هذه الفترة من التاريخ يعود الى قيام امبراطوريتين معا • وعلى طرفى هذه الطريق • فقد اتحد العالم الاسلامى كله من الاندلس الى السند ايام الخفاء الامويين (٦٦٠ ــ ٧٤٩م) ثم اكثر من قرن فى ظل العباسيين (٧٥٠ ــ ٨٧٠م) (باستثناء اسبانيا وقسم من شمالى أفريقية) وفى الصين ملكت اسرة تانج Tcang (٦١٨ ــ ٩٠٧م) على امبراطورية متحدة حتى آخر ايامها/٩٦٥• هذا وقد ورد فى أخبار تانع الصينية هذه أسماء بعض الخلفاء العباسيين واما عن قيام علاقات ديلوماسية بين العباسيين والصين فأمر لا نعرف عنه شيئا ثابتا ولاتذكر المصادر العربية شيئا عن وصول سفراء عن الصين الى بغداد أو سامراء (٦٦) ، وتشير التواريخ الصينية الى ذهاب عدة سفارات عربية الى البلاط الصيني فى القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Ham-Mi Mo-Mini) الى أمير المؤمنين ابي العباس (A-bu-lo-ba) ومن ابي جعفر المنصور (A-pu Ch' a - fo) ومن هارون الرشيد (A-lun) وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل احدها سنة ٧٩٨م (٦٧) والاستاذ الدورى يرى ان هذه الوفود كان يرسها تجار العرب مع هدايا طريفه الى البلاد لرفع مكانتهم (٦٨) •

ولذلك نرجح ان التجار العرب المسلمين عند وصولهم الى الصين كانوا يحظون بمقابلة الامبراطور الصينى بشكل رسل من قبل الخليفة وذلك بغية الحصول على بعض الامتيازات الجمركية أو حفاظا على بضائعهم من النهب والسلب من قبل الموظفين الصينيين (٦٩) •

ومع الاسف فقد تعرضت مدينة البصرة وميناؤها الابله الى الكثير من الحروب والدمار والخراب عبر الفتن الكثيرة التى المت بتاريخ المنطقة •

ففى سنة ٨٧١/٢٥٧ حين كانت ثورة الزنج على أشدها خرب صاحب الزنج البصرة واحرق معظم أقسامها ، وكان الجامع مما خرب وانتهب جنده المدينة ثلاثة أيام ، وفى سنة ٣١١هـ/٩٢٣ نهب زعيم القرامطه مدينة البصره • وقد خربوا الابله والبصره وقطعوا بغداد عن الخليج (٧٠) والقزوينى فى المئه السابقة (١٣)م يذكر ان هذه المواضع قد آلت الى الخراب (٧١) •

وبعد ذلك بقرن وصف ابن بطوطه الابله فقال « هي الآن (٧٢٧هـ) قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها (٧٢) » •



٤ - الشرق الاوسط وشرق افريقيه في عصر العباسيين

المصـــادر والمراجع

١ ــ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية والتجاره بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندى . دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤ ص ٧٥ .

٢ ــ The voyage of Nearchus from the Indus to the Euphrates. Ed. W. Vincent London 1797.

ــ جورج حوراني : العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . الترجمة العربية ــ يعقوب بكر القاهرة ، المكتبة الانجلو مصرية ص ٤٥ ــ ٤٦ .

٣ ــ حوراني : العرب والملاحة نقلا عن جلازر ص ٤٦ .

٤ ــ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٨٠ .

٥ ــ نقولا زيادة : ن.م ص ٩٠ .

٦ ــ جورج حوراني : العرب والملاحة ، ص ٤٧ .

٧ ــ ن.م ، ص ٢٤٥ .

٨ ــ جورج حوراني : ن.م ، ص ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .

٩ ــ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٧٦ .

وايضا انظر : Pliny VI. 149-9

١٠ ــ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جزء III ص ٢٠٢٣ .

١١ ــ حوراني : العرب والملاحة ص ٢٩٨ ، ١١٠ .

١٢ ــ ت. : المصادر العربية لتاريخ الصقالبة ، كراكوف ١٩٥٦ ج ص ٣٠٣ .

١٣ ــ C. Becker, Combridge Mediaeval History VOL. II p. 329

١٤ ــ البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة ابريل ١٩٦٨ ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

* فى مكان الخريبة ثم تمصير البصرة .

١٥ ــ الشيخ نعمان بن محمد بن العراق ، كتـاب معـدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، تحقيق د.محمد عبد الله ١٩٧٣ مجمع البحـوث الاسلامية ــ اسلام آباد ص ٢٢ ، ٧٥ ــ ٧٦ .

١٦ـ الاصطخرى ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، طبعة ابريل ١٩٢٧ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

* الفرسخ يساوى ستة كيلومتر واحيانا ثمانية .

١٧ـ ابن حوقل ، ابو القاسم : كتاب صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ص ٢١٢ ـ ٢١٣ . حدود العالم « ورقة ١٣ م (مخطوط) .

١٨ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى « فى القرن الرابع الهجرى » دار المشرق ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٣٦ .

١٩ـ النويرى : نهاية الارب ج ١٢ ص ٣٤ ، ٤٤ .

٢٠ـ ناصر خسرو علوى : سفر نامة ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٩٤٥ من ٩٩ .

٢١ـ ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢١٣ .

٢٢ـ ناصر خسرو : سفر نامة ص ١٩ ـ ١٠٠ .

٢٣ـ ناصر خسرو : ن.م ، ص ١٠٠ .

٢٤ـ ابن حوقل : صورة الارض : ص ٢١٤ .

٢٥ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٢٦ـ صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

٢٧ـ سلام أبو عبيد : الاموال ـ القاهرة ـ ص ٧٠ .

صالح العلي : التنظيمات ، ص ٣٣١ .

٢٨ـ صالح العلي : ن.م ، ص ٤٠ .

٢٩ـ صالح العلي : ن.م ، ص ٤٢ .

٣٠ـ الجاحظ : كتاب البخلاء المكتب العربي بدمشق ، سنة ١٩٣٨ .

٣١ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٩٨ ـ ١٣٠ .

٣٢ـ ابن الفقيه : كتاب البلدان ، طبعة ميدن ، ج ٥ ، ص ٥١ .

٣٣ـ سعيد الافغاني : اسواق العرب ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٥١ .

٣٤ـ صالح العلي : سومر ، بغداد ١٩٥٢ ، ص ٢٨٢ ـ ٣ ٢ .

٣٥ـ عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ١٣٥ ـ ١٣٦ .

٣٦ـ المقدسي : احسن التقاسيم ، طبعة ليدن ، ص ١١٨ .

ياقوت : معجم البلدان ليبزج ١٨٦١ ـ ١٩٧٠ ، ج ١ : ٤٨٤ .

٣٧ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ : ٢٢٢ .

٣٨ـ اليعقوبي : البلدان ، طبعة بريل ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

٣٩ـ عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١١٩ .

الجاحظ : كتاب البخلاء ، ص ٣٩ .

التنوخي : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٩٠٤ ، ج ٢ ، ص ١١ .

٤٠ـ ابن قرد اذبه : المسالك والممالك ، مطبعة ليدن ج VI ص ١١٤ .

* الرهدانية :

كان هناك رأى سائد ان مرجع هذه التسمية يأتي من الكلمة الفارسية راه دان بمعنى قائد أو دليل ، وهذه التسمية تنطبق على ما امتاز به هؤلاء التجار من معرفة للطرق التجارية المائية والبرية .

وهناك اعتقاد آخر عند سيمسون أن هؤلاء التجار (الرهدانية) كانوا يأتون من شواطىء البحر الابيض المتوسط قرب ممتلكات كارول الكبير والتسمية اذن جاءت من الموانىء الواقعة اعلى ضفاف الرون ، ومن التعبير اللاتيني Nautae Rhedanic الملاح الرهداني ارتبط فيهم والملاح الرهداني مذكور فى المصادر الاوروبية فى القرون الوسطى . ورأى آخر ـ خاطىء ـ جاء به S. Katz ينسبهم الى مدينة الري فى شمال بلاد الفرس. والخطأ هنا واضح اذ ان التسمية لمدينة الري رازي .

ويذكر الاستاذ لفيتسكي انه كان يوجد فى قرطاجه (تونس اليوم) سوق تسمى سوق الرهدانية وكانت هذه السوق عامرة حتى قبل ٩٦٧م وبجانبه سوق اخرى للرفائيين والكتانيين ولذلك يمكن القول ان تعبير الرهدانية لصق بهؤلاء التجار لانهم غالبا ماكانوا يتجرون بالكتان ويتبادلون ذلك مع التجار المسلمين وهذا مايؤكده المقدسي من ان اهم بضائع الرهدانية كانت الكتان .

لفيتسكي : **المصادر العربية** جزء ١ ، ص ١٢٠ ، جزء ٢ ، ص ٧٧ .

آدم متز : **الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى** ـ ترجمة ابو ريده ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ .

صالح الحمارنه : مجلة دراسات ، مجلد ٢ ، ١٩٧٥ ، العدد ١ الجامعة الاردنية عمان ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٤١ـ ي : بيليابيف : العرب والاسلام والخلافة العربية ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٦ .

٤٢ـ جورج حوراني : العرب والملاحة ص ١٧٤ .

٤٣ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٤٥ .
Islamic Celture F. 909-910

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باريزج ١ ، ص ٣٦٥ .

ابن جبير : رحلة باعتناء دى حمرية ١٩٠٧ ، ٦٧ ـ ٦٨ ، ٧٠ ـ ٧١ .

٤٤ـ الدورى : ن.م ص ١٤٥ .
ابن رسته : الاعلاق النفيسه طبعة ليدن ، ص ١٩٦ .

٤٥ـ ي يلياييف : العرب والاسلام ص ٢٨٧ ـ ٤٨٨ .
عبد العزيز الدورى : تاريخ الاقتصاد العراقي ص ١٤٧ .
ابن قرداذبه : المسالك ، ص ٦٧ .

٤٦ـ الاصفهاني : كتاب الاغاني ج ١ ص ٦٤ .

٤٧ـ الافغاني : اسواق العرب ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

٤٨ـ صالح العلي : التنظيمات ، ص ٢٥٨ .

٤٩ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٨٤ .
النويرى : نهاية الارب ج ١٢ : ص ١٤ .
ياقوت : معجم ج ٢ ، ص ٥٣٧ .
صالح العلي : تنظيمات ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

٥٠ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٣٤ ، ١٢٧ .

المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

جورج حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٠٧ .

٥١ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ، ١٣٨ ـ ١٣٩ .
نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت سنة ١٩٦٢ . ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ .

٥٢ـ حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢١٨ .

٥٣ـ حوراني : ن.م ، ٢١٠ .

٥٤ـ نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ .

٥٥ـ المسعودى : مروج الذهب ، ١ : ٣٢٥ ـ ٣٢٧ .

٥٦ــ حوراني : العرب والملاحة ، ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

٥٧ــ حوراني : ن.م ، ٢٢٠ .

٥٨ــ ى بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .

٥٩ــ حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٢١ .

٦٠ــ I. Krachkovski
Arabic geographical Literature Moscow 1957 pp 280
وما بعدها

ى : بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٩ .

جورج حوراني : الملاحة والعرب ، ٢١٨ ــ ٢١٩ .

اليعقوبي : البلدان ، ٣٦٥ ــ ٣٦٦ .

٦١ــ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٤٦ .

٦٢ــ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٠ .

٦٣ــ S. Madavi,
Arab Navigtion
Islamic Culture VOL, XVI pp 407
Hyderabad Deccam, 1942, p. 407.

٦٤ــ ى.بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ .

٦٥ــ ى.بليايف : ن.م ، ص ٢٩٠ .
ج.حوراني : العرب والملاحة ، ص ١٩١ .

٦٦ــ ى.بليايف : العرب والاسلام ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

٦٧ــ عبد العزيز الدورى : بغداد ١٩٤٥ العصر العباسي الاول ، نقلا عن
Brtohmeider Medieval Researches
London 1937 Vol. I p. 264-5

٦٨ــ عبد العزيز الدورى : ن.م ، ص ١٤٩ .

٦٩ــ ى.بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

٧٠ــ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، بغداد ص ٦٦ .

٧١ــ قزويني : عجائب المخلوقات ، ٢ : ١٨٠ ، ٢ : ١٩٠ .

٧٢ــابن بطوطة : رحلة ج ١ : ص ١١٧ .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

علوم الانسان وأهميتها فى دراسة اليمنيين القدماء

دكتور يوسف شلحد

قد عقدت هذه الندوة بادىء بدء لدراسة النقوش والمساند . ويخال لاول وهلة أن الباحث الاجتماعى كالمتطفل فيها على موائد العلـم الصحيح اذ هو يستند الى النتائج التي يحصل عليها علماء النقوش ليربط الماضى بالحاضر وهم لا يستفيدون منه الا القليل .

ولكن ماذا تعلمنا النقوش ؟ انها تعلمنا عن اسم العاهل أو القيل صاحب النقوش وعن زمن حكمه احيانا وعما بناه وشيده وعن غزواته وفتوحاته وعن اسماء بعض الالهة وعن بعض العادات الاجتماعية والمراسيم الدينية .. ولست بهاضم لحقوق علماء النقوش ولا جاحد لفضلهم اذا قلت ان غيوما كثيفة تخيم على الحضارة اليمنية وما هذه المعلومات الا اوتاد متباعدة وكلنا نامل ان تصبح دعائم يعاد عليها بناء المجتمع اليمني القديم . الا اني اشك فى ان تتحقق يوما هذه الامنية القصوى مهما تعددت المساند لان صاحب النقش كان همه ان يشيد بما فعله فى مناسبة معينة . اللهم الا اذا ابتسم الحظ بالكشف عن مكتبة او عن قانون مثل قانون حاموربى والى ان تجود الايام بمثل هذا الكنز الدفين الا يسعنا ان نعكس الآية ونطلب من علوم الانسان ان تساهم مساهمة فعالة بالتحقيق عن اليمنيين القدماء ؟ ومن المؤكد ان علماء النقوش لم يهملوا هذه المصادر اهمالا تاما ولكنهم لم يستغلوها كما يجب ولم يعطوها حقها من الاهمية وقد يكون السبب فى

ذلك عدم الثقة بها • الا ان النقوش نفسها تكون احيانا مدعاة للشك فكم من هزيمة سجلت كنصر على العدو ولنا فيما كتبه استربون عن حملة اليوس جالوس اصدق شاهد على صحة ما قدماه •

ليس هنا مقام البحث عن علوم الانسان وطرائقها وارتباطها بعلم التاريخ وهو منها ولكني لا أجد بدا من ابداء ملاحظة خاطفة عن الاتنولوجيا ــ وهي تحليلية استنتاجية ــ لانها متهمة بالبحث عن البدائي • والواقع انها لا تهتم بالبدائي بحد ذاته ولكنها تتوخاه لسهولة البحث ليس الا • اما موضوع دراستها فهي الخصائص الاجتماعية لتتبين من خلال ليس فقط ما يميز بين شعب وشعب ولكن ايضا يتوافق بين الثقافات •• وبسبب العزلة التي عاشت فيها هذه البلاد حافظت على عادات وتقاليد وانظمة اجتماعية لها طابعها الخاص قد تستكشف من خلالها معالم مجهولة منها ما يعود الى عهد الممالك اليمنية القديمة •

من الشائع والمصطلح عليه مثلا ان اليمن من اليمن ولذا قالوا « العربية السعيدة » نقلا عن بطليموس • ولكن الحقيقة ان اليمن او اليمانه أو يمنت مشتق من اليمن الذى هو ضد الشمال •• وفى النقوش تدل كلمة يمنت على الجنوب ويقابلها لفظة شامت اى شمال ويقول اهل صنعاء في كلامهم عن قبيلة خولان الواقعة في منطقة صعدة خولان الشام كما ان اهل حضرموت يطلقون كلمة شام على الحجاز،واليمين فى المعتقد العام السائد بين الشعوب هو مكان تشمله النعمة ويعمه الفلاح ويتفاءل به ولذا قدموه على الشمال الذى يتشاءم به فأصحاب الميمنة هم اهل الجنة واصحاب المشئمة هم أهل الجحيم • والسبب فى هذا التفاضل ديني محض وهو قائم على عبادة الشمس والى الشمس عند طلوعها كانت توجه الصلوات •• وهذا ما نهى عنه الاسلام وبما أن الجنوب يقع في هذه الحالة على يمين المصلى وهو مكان تشمله الشمس بنعمتها اصبح مرادفا لليمن والسعادة • اما الشمال فغدا مثالا للظلمات والتشاؤم وعدم الفلاح،ونجد فى « لسان العرب » لابن

منظور شاهدا على ذلك اذ يقول ولقد دعى اليمن يمنا لوقوعه عن يمين الكعبة • ونسي اناس الصلة بين الجنوب واليمين ولكن ظلت المعتقدات قائمة على هذا الاساس •• واذا رجعنا الى الديانة اليمنية القديمة لوجدنا الشمس تحتل المصاف الثالث بين الالهة مما يدل على تطور فى العقائد قد تكون له صلة بانتهاء عهد الامومة أي بالنسبة الى الام واصبح الاب القيم على الاسرة وسأعود الى موضوع الامومة خلال هذا الحديث •

وتعلمنا النقوش أيضا أن اليمنيين القدماء يعددون خطاياهم عليه لنيل الصفح عنها من الآلهة وهنا أيضا قد تساعدنا الاتنولوجيا على فهم أصل هذا المعتقد الذى يربط الاقرار بالمغفرة لاننا نجده عند عدد من الشعوب بل كان شاذا ايضا عند بدو سيناء وقد وصف ابن ناظم الجيش عـادة « دفن الذنوب » وصفا مسهبا فى مخطوطة تحفظها مكتبة الاسكوريل فى اسبانيا ولا زال بدو الحويطات يعملون بمثل هذه العادة عند عقد الصلح ولعلها وصلت اليهم والى بدو سيناء من الانباط وهم يمنيو الاصل كما هو معلوم •

أما المجتمع السبئى وبالاولى اليمنى القديم فلم يصلنا عنه الا القليل خاصة فيما يتعلق باحكام الاسواق ونظام العائلة والزواج واني على ثقة بان الابحاث الاتنولوجية تساعد علماء النقوش على فهم الاوضاع الاجتماعية السابقة للاسلام ففي منطقة مثل اليمن عاشت فى شبه عزلة خلال مئـات السنين الحاضر شاهد على الماضى بل انه الماضى الذى لم يزل حيا • ولا تسالوا عن تعجبي عندما وجدت في بعض الاماكن في اليمن الشمالى وخاصة فى قبائل حاشد وبكيل ومذحج نظما تعود بنا الى ما قبل الاسلام واهمها احكام السوق فظننت نفسى قد انتقلت فجأة الى سوق عكـاظ ومجنة والطائف فهناك حاكم السوق وشاعره اى الدوشان وهناك ايضا الحماية التي تشمل كل من دخل السوق مدة ثلاثة ايام اى يوم السوق واليوم الذى سبقه واليوم الذى يليه يكون خلالها آمنا ولو كانت عليه دماء يطالب بها وان تجاوز احد على هذه الاحكام ووقع منه اعتداء مهما

كان سببه فان شيخ القبيلة هو الذى يطالب بالحق او بالادب كما يقولون وادانة الجانى وليس صاحب الدم .. أما الجزاء فيكون في هذه الحالة من الصرامة بمكان ويبلغ أضعاف الدية المألوفة. وما قلته عن الاسواق استطيع ان اقوله عن بعض الأشخاص الذين تشملهم حماية القبيلة فلا تمتد اليهم يد بالسوء وعلى عكس ذلك فان لهم من النفوذ والحصانة ما يجعلهم يقفون بين صفوف المتحاربين ليحولوا دون سفك الدماء .

أنى لم اطلع الا على القليل من النقوش ولا ادرى اذا جاء فى بعض المساند اشارة الى لاسواق ولكن مانعلمه عن الجاهلية واحوالها يدل دلالة واضحة على وجود صلة وثيقة بين المجتمع القبلى قبل الاسلام المجتمع القبلى اليمني المعاصر فكلا هما يخضعان لاحكام تقليدية يطلق عليها كلمة طاغوت مما يدل على انها مستقاة من نبع واحد . فليس من المستبعد أن تكون الاسواق عند اليمنيين القدماء قائمة على الاسس نفسها لا سيما واننا نجد لديهم طبقات محافظة تكاد لاتختلف عما هو شائع بين القبائل اليمنية الشمالية اذ قسموا المجتمع على ما يقول لنا جل علماء النقوش الى اقيال وكهنة وحملة سيوف ومزارعين . وكان على الابن ان يمشي على خطوات ابيه فى العمل ونجد تقسيما مماثلا فى اليمن الشمالى فهو يميز بين السيد والفقيه والبائع والصانع والخادم وكانت الانكحة ممنوعة بين هذه الطبقات . وكلمة دوشان وهو خادم القبيلة ورسولها وشاعرها تدل على قدم هذه الانظمة فهى وسيلة يجهلها اصحاب المعاجم وفى لغة اهل الشام العامية نجد الدوشة ومعناها الضوضاء والانزعاج الذى يحدث عند المستمعين من كثرة الكلام وهذا هو شان الدوشان فى المدح .

اما نظام الاسرة القديم فلاتعلمنا عنه النقوش الى القليل وهنا ايضا تستطيع الانتولوجيا ان تقدم خدمات جمة الى علماء النقوش ليس فقط استنادا الى المخلفات ولكن ايضا استنادا الى التحليل البنيوى Structuralisme

وفي دراسة طويلة قمت بها عن القرابة والزواج عند العرب يتضح ان هناك صلة قوية بين نظام الزواج ونظام المعيشة والحياة • فالاندوجمي او الزواج من داخل العشيرة نجده خاصة عند اصحاب الخيم بسبب الانفراد واختلال الامن • واذا كان البدوى يؤثر الزواج من ابنة عمه بل له عليها حق فليس طمعا بميراثها وحفظا له ليبقى ضمن نطاق الاسرة فالبدوية لا ترث اصلا على حسب الاحكام القبلية لانها هى نفسها كانت تدخل في جملة الميراث • انما زواجه منها هو نوع من الوراثة ولذا لا يحق للعم ان يطلب من ابن اخيه اى مهر فى هذه الحالة • اما الاكزوجمى او الزواج من الاباعد فيحدث بعد الاستقرار بالارض • وهناك ايضا صلة بين الحياة الزراعية ونظام الانتساب الى الام الذى يؤدى احيانا الى بوليندرى أي تعدد الازواج • ويؤكد لنا الاسترابون ان هذا النظام كان مألوفا عند السبئيين اذ كان جميع الاخوة وكان لكل واحد منهم عصا يضعها امام مدخل البيت عند الاختلاء بالزوجة الا ان المضاجعة ليلا كانت من حق الاخ الاكبر • وهذا ما حمل بعض العلماء مثل روبرتسون سميث ومونجومرى وات على القول ان عهد الامومة كان سابقا لعهد الابوة عند العرب القدماء وانا لا اسلم بصحة هذه النظرية فيما يتعلق بسكان البادية ولكن اميل الى تصويبها فيما يخص بعض المناطق اليمنية ويقول لنا البحاثة واستر مارك استنادا الى كلاسر وونكر ان فى النقوش السبئية اشارة الى ما اعادة استرابون • وهذا ما ذهب اليه ايضا العالم الالماني جوزف هننجر والباحث الاتنولوجى البرنس بيتر • ولكن علماء النقوش الذين استنطقهم يجهلون هذه النصوص •

ومما لا جدل فيه اننا نجد عند بعض القبائل قبل الاسلام عادات هي من مخلفات النظام البوليندرى منها نكاح المقت ونكاح المتعة وجاء في سيرة الامام الهادى انه طلب من عملائه ان يعاقبوا بشدة كل من يقدم فتاة للضيف اذ كانت العادة على ما يقول المؤلف ان يقدم صاحب البيت اخته او ابنته الى الضيف بعد ان يزينها فكانت تبقى معه صباحا ومساء وكان يداعبها ويلمس

جسمها وبطنها وما تحت البطن وذلك امام والديها ولكنه ما كان يتمادى الى حد الفسق • وقد اكد لى بعض اليمنيين ان مثل هذه العادة كانت متبعة في بعض قبائل الجوف الى سنوات خلت •

هذه بعض ملاحظات خاطفة عن العلاقات بين المجتمع اليمنى القديم والمجتمع القبلى اليمنى بعد الاسلام ولا اود الاطالة فى موضوع الانظمة لا سيما فيما يتعلق باحكام الزواج فقد كتبت عدة مقالات فى هذا الصددوكلها ترمى الى هدف واحد الا وهو ان اليمن قد حافظ على طابع ثقافى خاص بالاضافة الى ثقافته العربية الاسلامية واننا في بحثنا عن اليمنيين القدماء لا يمكننا ان نوفيهم حقهم بالاستناد الى النقوش فقط ولكن ايضا بالاستقصاء عن خصائص المجتمع القبلي على ان نفهم الثقافة بمعناها الواسع كما تحددها علوم الانسان ولذا لا نستطيع ان نكتفي بالادب والفلسفة والعلوم الدينيه ولا بد لنا من ان نتخطاها لتتناول شتى النواحى الاجتماعية • ان الانسان في المجتمع وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية هو نوع من الثقافة • وهى ماثلة فى الادب الشعبى والقضاء القبلى واغنية الفلاحين والصناعات اليدوية فاذا فهمناها بهذا المعنى الواسع استطعنا ان نجد الصلة بين الماضى والحاضر لاسيما اذا اعطينا كل نظام اجتماعي حقه من البحث اى اذا اعتبرناه حادثا اجتماعيا تاما له تفاعليه فى مختلف مظاهر الحياة •

يتبين لنا مما سبق ان معلوماتنا ضئيلة عن المجتمع اليمني القديم وان البحث الاتنولوجي يستطيع ان يساعد علماء النقوش فى البحث عن الانظمة والعادات والاحكام التي كانت سائدة يومئذ • الا ان جهلنا يبلغ اشده عندما نحاول ان نكشف النصيف عن اصل الانسان اليمنى • فمن اين اتى اصحاب هذه المبانى والسدود ؟ ابوسع العالم اليوم ان يكتفى بأقوال النسابة ؟ ان العلم الحديث يلقى السؤال بعد السؤال للتحقيق عن الماضى • وليس لنا لاضاءة هذه المجاهل سوى اللغة وعلم ما قبل التاريخ والانترويولوجيا والبالينتويوجيا •

اما اللهجات التي كتبت بها المساند فليست من خصائصي وهي موضوع نقاش حاد بين المتعصبين للعربية والمتعصبين للحبشيه بل قد ذهب بعضهم الى ان اصل اليمنيين من الحبشة وان الحبشة كانت مهد الساميين والحاميين • الا ان هذا الادعاء تنقصه الادلة العلمية ولا يكفى لاثباته وجود تشابه لغوى ضعيف بين السامية والحامية • ومما لا شك فيه ان اقدم الهياكل العظمية شبه الانسانية التي اكتشفت الى اليوم موطنها الحبشة فمنها ما يعود الى مليونين من السنين كما فى منطقة الاومو ومنها ما يعود الى ثلاثة ملايين من السنين كالذى اكتشفته مؤخرا البعثة الفرنسية ــ الاميكية واطلقت عليه اسم « لوسي » ولكن اين نحن من الحاميين والساميين والزمن الذى يفصل بينهم وبين هذه الهياكل العظمية يعد بمئات الالاف مع السنين• ومع اني اميل الى التسليم بان اللهجات التي كتبت بها النقوش هي عربية لا بدلى من الاضافة ان اللغة وحدها ــ من الوجهة العلمية البحتة ــ ليست بدليل قاطع على جنس اصحاب البلاد الاصليين فقد تكون لغة الفاتح الغالب وقد تختلف لغة التخاطب عن لغة التدوين فعلى الباحث ان يحتفظ باحكامه ولا يجعل من المقياس اللغوى حجة حاسمة على اصل السكان • واميل الى الاعتقاد بان توحد اللهجات في الجزيرة العربية قد بدأ قبل الاسلام بمدة طويلة بينما بقيت لغة البلاط سائدة لتدوين الحوادث • وعلينا الا ننس أن امرأ القيس المتوفى نحو سنة ٥٣٩ ميلادية كان من قبيلة كندة اليمنيه وفي ديوانه من الجمال فى السبك والاتقان والمجاز ما يدل على انه ليس اول من ابتدع القصيدة ولا شك فى انها قديمة العهد اذ لا يمكن ان يتم لها فجأة مثل هذا النضوج ومن البديهي ان يكون النضوج اللغوى سابقا لها • فقد اتقن الناس لسانهم وتنبهوا الى قواعد سابقة قبل ان يضعها النحاة على حد قول الشاعر البدوى :

ولست بنحوى يلوك لسانه   ولكن سيلقي اقول فاعرب

وبما ان اول قصيدة وصلتنا يمنية المنشأ فاني اميل الى الظن ان اللغة

توحدت أو تكاد منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وظلت السبئية لغة الدواوين والتسجيل .

ومهما تكن نتائج ابحاث علماء النقوش فهي لا تتعدى الالف الأول قبل الميلاد ولذا فهي لا تفيدنا في شيء عن اليمن السابق لهذا العهد ، فهل نضرب عنه صفحا لعدم وجود المساند وليس من المعقول ان تظل هذه المنطقة على اهمية موقعها الجغرافي خالية من الناس آلاف عديدة من السنين . ومن المؤسف جدا ان اليمن لم ينل حظه من التحقيق فى ميادين علوم الانسان ولذا يجد الباحث نفسه امام مجاهل مظلمة يحاول ان يبددها العلماء بنظريات تحتاج الى مزيد من التحقيق والاثبات . فقد ذهب بعضهم الى ان تأهيل الجمل ذي السنام الواحد قد تم على ايدي اليمنيين وان اليمن كان موطن ثقافة هامة سابقة للثقافات الاسيوية والافريقية؟ اننا نجهل كل شيء من مبتدعي هذه الثقافة وهم يمنيون طبعا بحكم موطنهم فلعلهم اتوا من القوقاز ولعلهم جاءوا من اسيا الوسطى مقتفين خطوات الجمل ومن بديع الاتفاق ان الزامل وهو غناء شعبي يمني تشبه بعض الحانه الاغاني المغولية وهذا لاشك دليل ضعيف على الصلة بين الشعبين . ولكن الدراسة الهيموتيبولوجيه (اى عن فصائل الدم والكرويات الوراثية) التي قامت بها البعثة الفرنسية العام الماضى فى اليمن الشمالي كشفت عن صلة اكيدة بين اليمن من جهة وبين القوقاز والمغول من جهة ثانية . ويستفاد ايضا من الدراسات الانتروبولوجية ان ابناء الجنوب اى القحطانيين تختلف بنيتهم عن اهل الشمال اى العدنانيين فهؤلاء مستطيلوا الاقحاف اما سكان اليمن فمستديروها ونجد في اليمن بالاضافة الى العنصر العربي عنصرا حبشيا مائلا الى السواد وجنسا البياوجنسا فدويا وهذان الجنسان لاصلة لهما باقوام البحر الابيض المتوسط . ودفعا للقيل والقال والنقاش البيزنطي العقيم ليسمح لي بابداء ملاحظة هي بديهية ولكنني افضل بسطها لتبديد كل التباس : اني فى كلامي عن نتائج البحث الانتروبولوجي لا احاول ان اميز بين امة شعب وشعب اذ ليس للوطنية من علاقة بعلم الاجناس البشرية فلبنان الفينيقى وفلسطين الكنعانية وسوريا

الآرامية •• اصبحت كلها عربية منذ الفتح الاسلامي ولكن هذا لا يمنع الباحث الانتروبولوجي ان يبدى بنتائج ملاحظاته عن الانسان القديم دون ان يأبه بجنسية احفاده اليوم •

اما الابحاث عن الاعصر الحجرية فلم تزل في مهدها • فقد قامت البعثة الفرنسية في نهاية العام الماضي بمسح شامل لليمن الشمالي ووجدت بعض الاوائل الحجرية التي قد تعود الى مئة الف سنة قبل الميلاد • وفى جبل تلع ، فى المحافظة الثانية ، عثر سيرجي شيرنسكي على فؤوس اليد الشيلية وهي تدل على وجود الانسان فى هذه المنطقة قبل مئات الالآف من السنين • بقي علينا ان نستنطق الباليونتولوجيا • الا اننا امام ظلمات تامة اذ لم يكشف الى اليوم عن أى هيكل عظمي انساني يعود الى العصر الحجري •

بعد هذه الجولة الخاطفة نجد انفسنا امام مشاكل علمية جمة لا يهتم بها علماء النقوش والآثار وهي تمت بصلة وثيقة الى الحضارة اليمنية القديمة • ولا نستطيع ان نجد لها حلا الا بعد بحث وتنقيب طويلين والفائدة من هذا الجهد ليس ان نستكشف فقط معالم الثقافة اليمنية القديمة ولكن ايضا ان نجد الحلقات الضائعة من سلسلة تمتد من ايامنا الى زمن كان يعيش الانسان خلاله فى الكهوف وعلى المناهل متنقلا من مكان الى مكان ليؤمن معاشه من الصيد والنبات • وليست الكهانة من خصائصنا لنتنبأ عن نتائج هذا العمل الشاق ولكن لعله يكشف النقاب عن اصل البشرية •

لنضع الخيال جانبا ونظل في مجال البحث العلمي • واعتقادى انه لن يتم لنا الوصول الى نتائج علمية صحيحة الا اذا وفينا النقاط التالية حظها من التحقيق •

١ ــ التنقلات القديمة والوسائط التي استخدمها الانسان فى حله وترحاله بما فيها الملاحة •

٢ ــ الانسان اليمني القديم فى الاعصر الحجرية وقبل الممالك اليمنية •

٣ ـ الممالك اليمنية القديمة .

٤ ـ اليمن موكب الاسـلام .

٥ ـ الانسان اليمني عامة من الوجهة الانتروبولوجية والايكولوجية .

٦ ـ الانظمة الاجتماعية والعائلية والحقوق والتقاليد .

٧ ـ الثقافة بمعناها الواسع اى الادب الكتابي والشعبي واللهجات والفنون والموسيقي والصناعة والهندسة المعمارية .

٨ ـ العلاقات الثقافية بين اليمن والمناطق التي امها اليمنيون سابقا او كانوا على علاقة بها مثل الهند والحبشة والبلاد العربية واندونيسيا والاندلس .

٩ ـ تطور المجتمع اليمني المعاصر وما نتج عن ذلك من تطاحن قيمي بين القديم والحديث .

واذا كتب لهذه الابحاث التوفيق استطعنا ان نضع مؤلفا شاملا عن اليمن ليس فقط فى نطاق محصور على النقوش والآثار ولكـن كمركـز ثقافى هام يعود الى ما قبل التاريخ اخذ عنه اهل الشمال وشعت اضواؤه فى واحة تيماء ووادى موسى وغوطة دمشق وعلى ضفاف دجلة والفرات ثم انتقلت الى افريقيا الشمالية والاندلس .

الدكتور يوسف شلحد
مسؤول برنامج البحث العلمي
عن اليمن والجزيرة العربية فى المركز
الوطني الفرنسي للابحاث العلمية

الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

الدكتور محمود يوسف زايد

الجامعة الاميركية ـ بيروت

ارجو ان أبين اولا أن ما سأتناوله آراء قابلة للجدل والمناقشة، والى أنني مدين بالكثير منها لطائفة من الكتاب والمؤرخين من العرب والاجانب، ولكنها في موضوع لا اتصور ما هو اولى باهتمام الجامعيين والمعنيين بشئون الاسلام وتاريخنا وعروبتنا، وهو « الحاجة الى اعادة كتابة التاريخ الاسلامي » . فتاريخ الامة هو المرآة التي يرى فيها الفرد ذاته، فتتضح له معالم هويته، وهو مصدر الهامه واعتزازه بنفسه وبأمته وبتراثه، وخير معين في جلاء الحاضر واستشراف المستقبل، وهو سلاح من أسلحة الصمود في وجه الكوارث والنكسات .

ولا يجمع الزملاء الذين حظيت بمقابلتهم بين المحيط والخليج، وغيرهم من المعنيين بالشئون الاسلامية من ديار الاسلام، على شيء اجماعهم على ضرورة النظر في تاريخنا، سواء أعددناه للقارىء العادى، أم لرجل العلم . وقبل قدومي بقليل تكرم علي زميل في لبنان فاطلعني على جهود الجزائر في هذا المضمار، اعترافا من اخواننا الجزائريين بأنه لولا الاسلام وتراثه، لكنا في الراجح نبكي ضياع الاندلس .

فغالبية المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريخنا منذ أوائل هذا القرن، ينتمون في الاكثر الى فئتين : وهما فئة التقليد، وفئة التجديد . وبالرغم مما

فى حشر غالبية المؤرخين فى هاتين الفئتين من تبسيط وتجوز وتعميم ، فـان فيه كثيرا من الحق الذى نحب أن نتبينه • أما جهود المقلدين من أصحـاب المختارات والكتب المبسطة والمختصرات فهي في الغالب جهود ضائعة تتمنى لو تصرف في سد أبواب النقص فى تواريخنا الاولى ، من حيث افتقارها الى التحليل ، والتعليل ، وتلمس البواعث الخفية وراء الاحداث والتطورات التاريخية والحضارية • ثم يجدر بنا ان نذكر أننا نعيش في عصر يتطلب خبرات ومهارات لم تكن معروفة أو اساسية فى العصور الماضية •

كان الاولون ــ على سبيل المثال ــ يعيشون في عالم لم يكن فيه للرقم الحسابي من الأهمية ما له اليوم • لم يكن الكم يتحكم فى حياتهم كما يتحكم اليوم فى كل مظهر من مظاهر حياتنا • كان الطالب يرحل فى سبيل العلم ويطلبه متى شاء ، ويقضي فى التحصيل ما شاء من السنين ، حتى ولو أجيز فيمـا نسميه اليوم بسن التقاعد • وكان الرجل يتزوج دون التفات كبير الى السن • وكان يذهب الى الجهاد فى سبيل الله متى شاء ، فلا تصده نقطة حراسة ولا أسلاك شائكة • وكان في الغالب لا يعرف عمره بالضبط • وكان السبيل الى الاحصاء تقدير عدد من تتسع لهم الجوامع او الحمامات أو تقدير عدد من يأكلون ذبائح الجزارين •

لكن منذ الثورة الصناعية اخذت الذهنية الكمية على حد تعبير المؤرخ نيف تسود العالم انطلاقا من البلدان الصناعية • واخذ الرقم يتحكم في حياة الانسان منذ ولادته حتى وفاته ، وفي بعض البلدان الاوروبية حتى تتـم مواراته في مثواه الاخير • بل لقد بلغ الحال في بعض البلدان ان صـار الانسان رقما لا يعرف الا من خلاله • لا يكفى في القرن العشرين ان نقول في كتاب تاريخى : « كانوا كثيرين ، ويبعد المكان مسيرة يوم وليلة، والبلدة الفلانية وراء كذا ، وهي من اعمال كذا ، على ما اورده هذا الجغرافـي او

ذاك » . نجد لكاتب الامس عذرا لا نجده لكاتب القرن العشرين ولنا فيما حل بنا ـ نحن العرب ـ عبرة واى عبرة . لابد للمؤرخ من ان يتبين الابعاد الزمنية لما يعالجه .

اننا نعيش اليوم في عصر الالة والحاسبات والفضاء ، ولا يجوز عند تعليلنا لنصر او كارثة ان نردها الى الشجاعة او الجبن فحسب . ولنا الآن من حالنا مع العدو عبرة واى عبرة . ينبغي على المؤرخ ان يلم بكل اطراف الصورة وان يتبين الاسباب مادية كانت او غير مادية . ويكفي هنا ان اشير الى ان كثيرا من الانتصارات الحاسمة في التاريخ ما كانت لتتحقق لولا الاختراعات والوسائل والمهارات الجديدة . هل كان من الميسور مثلا لقائد من اشهر قواد التاريخ وهو نابليون أن يحرز انتصاراته الاولى التى غيرت خارطة اوروبا لولا المدفع المتنقل ؟ وهل كان يتأتى للمغول ان يقطعوا المسافات الشاسعة ويأخذوا اعداءهم على حين غرة لولا اطلاق الاعنة لخيولهم وتمرسهم في ركوب الخيل ؟ وهل كان سيطول عمر العالم بوصفه عالما ، لولا اختراع النظارات ؟

ينبغي على هؤلاء المقلدين ان يأخذوا بعين الاعتبار اهتمامات الناس في القرن العشرين ، بغية توسيع مدارك القارىء ، وغرس جذور هذه الاهتمامات في نفسه . هناك قضايا كبرى تشغل كل المجتمعات الحاضرة : كالاسرة ومستقبلها ، والسكان وما يدعى بالانفجار السكاني ، والتكنولوجيا ، والاختراعات ، والعلم والتعليم ، والبيئة ونضوب مواردها وتلوثها ، ومتوسط عمر الانسان وطوله ، والتخطيط وادارة المدن . هناك مشكلات اجتماعية لم يعرفها الاولون كمشكلة المسنين ، وما ينبغي عمله لاشعارهم بانهم لا يزالون افرادا نافعين للمجتمع . فلقد بلغت نسبة المسنين فى بعض الدول المتقدمة اكثر من ١٥٪ من عدد السكان بينما لم تنجح الحضارات الكبرى الاقدم منها في ان تستبقي اكثر من ٢ الى ٣٪ من المسنين . وبالرغم من ان اكثر هذه الاهتمامات لها اصول وتراتيب ادارية

في تاريخنا ، فان المؤرخين التقليديين يتناسونها لعدم ادراكهم لها ، او لضيق آفاقهم العلمية وقصور مداركهم عن تصورها ، او لعجزهم عن تقصيها وجمع شتاتها من بطون المراجع وحواشيها وذيولها • فمثلا ينادى منظمو الاسرة في القرن العشرين بضرورة الاتجاه نحو الاسرة الاحادية ، وانا لا اعرف امة شددت على هذه الناحية كالمسلمين • والذى اراه ان اعظم الانجازات التي تحققت بعد اشراق شمس الاسلام هي الثورة الاجتماعية ، وخاصة الثورة على وضع الاسرة في المجتمع القبلي والسير بها الى الاسره الاحادية التي ترى المجتمات المتقدمة السير باتجاهها ، وتصرف الملايين من الجنيهات في سبيل اقناع المجتمعات ، وخاصة النامية منها ، بالاخذ بها •

واحب ان اضرب مثلا آخر ، وهو تنظيم المدن وادارتها • قلما تجد بحثا لعربي عن ادارة المدينة في العصور الاسلامية مع ان المسلمين نجحوا فى هذه الناحية نجاحا منقطع النظير • ولست اشك فى ان ادارة مدينة فاس فى المغرب كانت اكثر تنظيما واكثر فعالية من عواصمنا في الوقت الحاضر •

أما فئة المجددين فى كتابة التاريخ فهى فئة الذين قد اخذوا بالمنهج العلمي فى الكتابة تأثرا منهم بالغرب • ولهؤلاء فضل لا ينكر فى اعداد دراسات علمية لجوانب عديدة من تاريخنا وحضارتنا • لكن غالبية هؤلاء ايضا مقلدون لا للمؤرخين المسلمين ، ولكن للغربيين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم • ولتقليد الغربيين محاذير كثيرة اخطرها فى رأيى تطبيق مقاييس الحضارة الغربية على حضارتنا ، واتخاذ القيم الغربية اساسا لمحاكمة قيمنا •

ووجه الخطورة فى هذا أننا بتطبيق مقاييسهم تتجنى على منجزاتنا ، واحيانا نشوهها ، ونشغل أنفسنا بقضايا تصرفنا عن التوفر على ما ينبغى أن تنصب عليه جهودنا • لقد شهد الغرب انفجار ثورة على الكنيسة قامت في اعقابها حركة الاصلاح الدينى • هل معنى هذا أن نقول ـ كما قال البعض ـ بأنه لا بد لنا من ثورة دينية ؟ سمعت صديقا قبل يومين يقول

بأننا في حاجة الى لوثر مسلم • هل نحن حقا بحاجة الى مثله ؟ لقد ثار لوثر على تحكم الكنيسة فى الحياة والموت والمعتقدات • وأراد لوثر أن يكـون للمسيحى حق فهم النصوص الدينية • لكن اين الكنيسة فى الاسلام حتى تثور عليها ؟ واين هم رجال الكهنوت ؟ ان ما نادى به لوثر هو فى صلب الاسلام وجوهره وتعاليمه •

وشهد الغرب فصل الكنيسة عن الدولة ، فأخذ بعضهم على الاسلام كونه دينا ودولة • بل ان أحد المؤرخين المعاصرين حكم على الاسـلام بالتدهور منذ وضع الرسول صلى الله عليه وسلم اسس حكومته وأمته فى المدينة • وأغرب من هذا أن هذا المؤرخ نفسه يأخذ على الغربيين تخليهم عن الدين ، ويطلق على عصر ما بعد النهضة والثورات الدينية « عهد ما بعد المسيحية » •

وقاس بعض الغربيين ظهور الاسلام ومسيرته ومعتقداته على المسيحية دون فهم لطبيعة الاسلام والظروف التى بزغت فيها شمسه • أخـذت المسيحية فى الانتشار فى ظل الامبراطورية الرومانية ديانة مشتبها فى أمرها من قبل الاباطرة ، ووقع الكثير من المسيحيين ضحية للظلم والاضطهـاد والموت بسيوف الجلادين • وأحكم رجال الاقطاعات الكبرى قبضتهم على الفلاحين فهجروها الى المدن ، وسقطت اعداد كبيرة من العبيد ضحية للثورات • فكان أمرا طبيعيا أن يقول مفكرو المسيحية بقرب فناء العالم ، وحلول الآخرة • وكان أمرا طبيعيا أن يحكموا على طبيعة الانسان بأنها مجبولة على الخطيئة ، وان ينادوا بالمحبة ولين الجانب والتجـاوز عن الاساءة • لم يكن أمام المسيحية وسط تلك المشاهد المفجعة الا أن تحمل العزاء للناس ، وأن تبشرهم بجنات الآخرة ونعيمها ، وبعبارة موجزة أن تعلمهم كما قال أحد المؤرخين كيف يموتون •

أما بالنسبة الى الاسلام فكان الوضع مختلفا كل الاختلاف ، ولا وجه لقياس ولا مقارنة • فالاسلام حمل للعالم رسالة للحياة وللبناء ، لصلاح

أحوال الناس فى دنياهم وآخرتهم ، وعليه اندفع المسلمون لتبليغ الرسالة وتوحيد الناس في ظل الاسلام • وقالوا بأن الانسان يولد على الفطـرة ، وأن صلاحه وفساده متوقفان على النظام الذى يعيش في ظله• وفسر الاسلام للانسان طبيعة الكون الذى نعيش فيه ، فوضع حدا فاصلا بين العالم المادى والخالق عز وجل ، وحث الناس على النظر فى ظواهر الكون فدفع عجلة العالم بقوة أدت الى تلك النهضة الكبرى التى تزعم بها المسلمون ميادين الفكر والعلم •

وشغلنا بعض الغربيين بتطبيق مقاييسهم علينا فى ميدان كانت منجزات العرب فيه ولا تزال موضع اعجاب العالم كله وهو ميدان الفنون ، فعالجوه من الناحية السلبية ، وافتقدوا فيه تصوير الانسان • وأود هنا ان اتساءل كيف يجوز ان نحكم على الفن الاسلامي بما لم يكن من مقاصد أصحابه • أليس فى هذا عمى منهجي ــ مقصودا كان أو غير مقصود ؟ لقد كان الفنان المسلم ينشد المثال لا المثل : كان يستهدف الجوهر لا العرض ، واللامحدود لا المحدود • انظر الى أى نسق زخرفى أو نباتي تجده تجريديا لا يمثل شيئا بعينه • وتجد الشكل مطواعا فى الامتداد قابلا لتوليد مختلف الاشكال •

ثم هناك قضية الاصطلاحات الغربية واستخدامها دون تمعن فى دلالاتها كلنا على سبيل المثال نعرف اصطلاح الديمقراطية ، أخذنا فى المزايدة على أصحاب الاصطلاح ووضعه فى غير موضعه • أخذنا ندس الاصطلاح مثلا في جوانب دينية لا تجوز معها الديمقراطية • أنا اعلم ان الذين تحمسوا له وحاولوا زجه في قرائن دينية ، فعلوا ذلك على سبيل الدفاع عن الاسلام • لكن غاب عنهم أنه لا ديمقراطية فى الدين ، فالدين يرتكز على الوحي ، وكل مسلم لا يمكن ان يتشرف بحمله هذا الاسم الا اذا سلم بالوحي •

واخطر من هذا كله ان نقبل على كـل رأى غربي أو نظريـة عربية فنعتبرها أمرا مسلما بصحته ، ونحاول أحيانا اثبات جذورها واصولها فى

أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فى القرآن ، أو فى النصوص الجغرافية والتاريخية • مضى عهد احل الناس فيه مذهب روسو في الانسان الطبيعي المحل الاسمي فى تفكيرهم وأدبهم ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يوجد هناك انسان طبيعي • فالانسان هو المخلوق الوحيد الذى لا يستطيع ان يعيش بعد الولادة الا اذا تكفل انسان برعايته • وفى هذه الاثناء تتكون طبيعة الانسان الثانية • يذكرني هذا بما حدث خلال الحملة الفرنسية على مصر حين تحمس بعض رجالها لرؤية الانسان الطبيعي فى الصحراءفي الطريق من الاسكندرية الى القاهرة،وقصدوا بذلك البدو• فلما انقض البدو عليهم، علق أحدهم على البدو بقوله انه كره الانسان الطبيعي منذ ذلك الحين •

وشهد القرن التاسع عشر ظهور دعـــاوى تفوق بعض الاجناس على البعض الاخر، وذلك بسبب تفوقهاالعسكرى ، ثم لم‌تلبث النظرية أن تهاوت في أعقاب انحسار الاستعمار باستقلال المستعمرات • وشهد القرن‌التاسع عشر ظهور فكرة التقدم Progress ، ثم انهارت فى اعقاب اندلاع الحرب العالمية الاولى التي حطمت آمال العالم فى السلام على الارض •

يفترض‌فيمن يتصدى‌لاعادة كتابة التاريخ‌الاسلامي أن يحدد اولامعالم الاطار او النسق Pattern الذى يتبعه • فليس هناك مؤرخ يكتب بدون نسق قائم على تصور كلي للموضوع • فالحكم على الشيء كما هو معروف فرع من تصوره • صحيح أن هناك من ينكر على المؤرخ‌ان يكتب وفق نسق كالمؤرخ هـ • أ • ل • فيشر • ولكن عدم وجود النسق ، كما رد عليه‌النقاد هو فى حد ذاته نسق ويتعين على المؤرخ ممن يحملون الاسم بجـدارة ان تكون لدية نظرة واضحة الى الانسان والكون •فقـد سبقت الاشارة الى اختلاف الاسلام عن غيره من الاديان فى مفهومه لطبيعة الانسان والخلق •

ويفترض الاطار الكلي رؤية واضحة لموقع تاريخنا من التاريخ العالمي لقد جرى الغرب على تشويه تاريخنا وتواريخ أمم ، بل وقارات باكملها ،

بجعلها حاشية على تاريخه ، هذا مع ان عصر السيادة الاوروبية على أكثر بقاع العالم يستمر أكثر من أربعة قرون ابتدأت بالاكتشافات الاوروبية ، هذا بينما استمرت الدولة الاسلامية والدول الاسلامية المستقلة فى السيطرة أكثر من عشرة قرون بدءا بالخلفاء الراشدين ، وانتهاء بالاتراك العثمانيين • يكاد المرء لا يصدق ان تاريخ الاسلام كله لا يحتل فى بعض التواريخ العالمية اكثر من صفحات محدودة •

ومن الامور الاساسية في رسم الاطار الكلي قضية قسمة التاريخ الى عصور او التعصير كما يقترح البعض تسميتها • وهنا لا بد أن نذكر بان الطريقة الاوروبية في تقسيم التاريخ خاصة بأوروبا • أخطر ما فى هذا التقسيم علينا أن عصور الازدهار الاسلامية توافق عندهم ما يعرف بالعصور الوسيطة ، وعبارة العصور الوسيطة ما أطلعت في أوائل القرن السادس عشر الا للدلالة على انها لم تكن سوى معبر من العصور الكلاسيكية ــ اليونانية والرومانية ــ الى العصور الحديثة • لقد وقر فى ذهن الاوروبي ان هذه العصور كانت الى حد كبير عصورا مظلمة، مع ان الظلام لم يكن فى العصور بقدر ما كان فى أذهان من أطلقوا التسمية • والاشارة الى أن الاسلام ظهر فى هذه العصور توحى بأن العهود الاسلامية الاولى كانت مظلمة او شبة مظلمة كالغربية •

لسنا فى حاجة الى هذا التقسيم ، وحسبنا القول بما قبل الاسلام وما بعد الاسلام • وهنا لا بد لي من الاشارة الى قضية هامة ، وهى مسألة اعتبار العهود الاسلامية التى تلت القرن الحادى عشر عهود انحطاط • هذه الكلمة الاخيرة ترجمة لما دعاه اكثر الغربيين بكلمة Pecline • ولو أن كتابنا ومؤرخينا تمعنوا فى منجزات الشعوب الاسلامية خلال ما اسموه بعصور الانحطاط لوجدوا ان أكثر من بقعة فى العالم الاسلامى شهدت نهضة فى هذا الجانب او ذاك من الحضارة • وابرز الامثلة على ذلك منجزات المغول في الهند ، والاتراك العثمانيين في ميادين الفن والعمارة • ومما

يستلفت النظر أنه فى حين أن بعض كتاب الغرب أنفسهم قد أخذوا يتخلون عن فكرة الانحطاط هذه ، فان كتابنا ومؤرخينا يصرون عليها •

يحتاج القول بالانحطاط أو التدهور الى اعادة النظر فيه فى ضـوء واقع مسيرة الحضارة الاسلامية ، وفى ضوء تطور غيرها من الحضارات • ولو فعلنا ذلك لوجدنا ان حضارتنا كغيرها من الحضارات مرت فى أدوار ثلاثة : دور النشأة وارساء الجذور والقواعد ، ودور النقل والانتقاء من كل مصدر فى متناول العلماء المفكرين ، ثم اخيرا دور التوطيد والتبلور • ويوافق الدور الاول زمن البعثة النبوية والخلفاء الراشدين • ويقع الثاني خلال القرون الثلاثة التالية ثم تلا ذلك دور التوطيد وتحديد المعالم والمفهومات وتبلورها • ما خيل الى البعض انه انحطاط لم يكن الا توطيدا وبلورة للمذاهب والآراء والمعتقدات ، واستمساكا بها • صحيح أن بعض انحاء العالم الاسلامي تعرضت فى هذه الاثناء لنكسات وكوراث ولكنه عموما استمسك بما عنده ولم يتدهور • واقع الحال ان معطيات الحياة وظروفها لم تتغير ، ولم يضع العرب ايديهم على علم جديد يقلبون به وجه الحياة • ومما ينبغى تذكره هو ان الغرب ذاته كان فى هذه الاثناء بلدا ناميا او متخلفا • وجاء الانقلاب الحقيقى فى الموازين بالثورة الصناعية التي مكنت الغرب من الانتقال من الاستعمار القديم الى الاستعمار الحديث والسيطرة على مقدرات الشعوب • ولم يكن الغرب ليتمكن من التطور بسرعة فى ذلك الطريق لولا استغلال الشعوب وخيراتهم •

في هذه الاثناء شهد العالم الاسلامى تطورات يغفلها مؤرخونا : يتناسون المغول فى الهند والعثمانيين ومنجزاتهم ، ويتناسون انتشار الاسلام فى افريقيا ويتناسون الحركات الاصلاحية • كان كل هذا امتدادا للعصر الاسلامى الذى لا نزال نعيش فيه برغم جميع الفلسفات الاجتماعية الجديدة أو الايديولوجيات • لقد بقى المسلم فى شتى بقاع الارض مسلما لـه شخصيته المستقلة ، صامدا فى وجه الكوارث • فى هذه الاثناء قضى على

شعوب برمتها دون رحمة ، وتغيرت خارطة العالم مرة ومرات ، والمسلم مسلم ــ عربيا كان أو غير عربي • وتلمس الغرب سر هذا الصمود الغريب فوجدوه فى الاسلام • فانبرى الكثيرون من المبشرين والمستشرقين لدراسة الاسلام لا بقصد الدراسة وانما لزعزعة أسس الاسلام ذاته•فذهب بعضهم الى انه لا يصلح المسلمون الا اذا تخلوا عن الاسلام أو شكوا فى الوحي او رجعوا الى فرعونيتهم أو اصولهم السابقة على الاسلام • ووقع نفر منا تحت تأثير هذه الدعاوى • لكنهم لم يلبثوا ان اعادوا النظر فى مواقفهم ومنهم ــ على سبيل المثال ــ المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنويةوحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لأى أنني أضع البذر في غير منبته ، فاذاالارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه • وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحي هــذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة • فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ، ولابناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين » •

لست أرى سببا للتشاؤم ولا لليأس ــ وأعتقد أن مهمة تعميق الهوية العربية الاسلامية هي بالدرجة الاولى مسئولية المؤرخ • لم يكن الطبرى او اللاذرى أو اليعقوبي فى حاجة الى تأكيد العروبة او الاسلام لانهم كانوا يعيشون فى جو عربى اسلامى • اما اليوم فنحن نعيش فى عصر الايديولوجيات والمذاهب « والتقاليع » ولا معدى لنا عن أن نضع القارىء فى الجو الصحيح الذى يولد فيه الشعور بالاعتزاز بنفسه وبقومه وبتراثه •

ولن يتولد فيه هذا الشعور الا اذا أغنينا تاريخنا بالابحاث التي تدور حول عروبة البلاد وتحولها الى الاسلام ، واغنينا كثيرا من معالجاتنا للمنجزات بالمحتوى • هناك كما أشرت نقص فى الموضوعات التي نعالجها • لقد تعربت بلاد كانت قد خضعت لامم أجنبية ، وتعرضت لتأثير حضاراتنا ، لكنها صمدت في وجه هذه التأثيرات مثل شمال افريقيا • أليس نقصا فينا الا ندرس قضية تعريبة وتحوله الى الاسلام • ألا نقول باستمرار بأننا من المحيط الى الخليج ؟ كيف صرنا من المحيط الى الخليج ؟ وقصدت بمحتوى المنجزات الا نكتفى بقولنا مثلا ان العرب انشأوا المستشفيات • ما هى الصورة التي نكونها لدى القارىء بمجرد ايراد هذه الحقيقة مع ذكر مبلغ ما صرف عليها ؟ أليس الواجب علينا ان تتعدى ذلك الى البحث فى ادارتها ، وفي عملية التعلم والتعليم والتدريب فيها ؟

يقودني هذا الى القول بان كل مؤرخ للحضارة أولا وآخرا • ولا يمكن لابحاثه ان تأتي غنية الا اذا أدرك وجوه حضارة القوم الذين يؤرخ لهم ، وكان بصيرا بالترابط بين مختلف مظاهر حياة المجتمع على اختلاف فئاته ، وبالعلاقات بين التطورات المختلفة المحلية منها والعالمية • أبسط الامثلة واقربها على سبيل المثال اكتفاؤنا عند بحث حروب الفتح الاولى فى الاسلام بتمجيد شجاعتنا وانتصارنا على الفرس ومن بعدهم الترك وغيرهم • هناك أبعاد اخرى للفتح لا يمكن للكاتب تبينها الا اذا كان ملما بعض الشيء بتاريخ هذه الامم التي انضوت تحت لواء الاسلام ، وعلاقاتها بعضها ببعض • هنـاك فرق كبير بين الاكتفاء بخبر الفتح وبين تجاوز ذلك الى ادراك ان العرب كانوا الامة الوحيدة التي حطمت حاجز الفرات بين الشعوب السامية ولايرانية ، وحاجز نهر جيحون الذى كان يفصل بين الشعوب الايرانية والتركية ، وأن النتائج الحضارية التى ترتبت على تحطيم هذين الحاجزين كانت اعظم بكثير مما يتصوره المرء • بتفسير هذه

الابعاد نغني الموضوع ، ونوسع مدارك القارىء ، ونعمق ادراكه لمدى الانجاز الضخم الذى حققه قومه، وبالتالى نعزز فيه شعوره بالاعتزاز بنفسه وبتراثه .

لست ادعو الى تحميل التاريخ ما لا يطيق ، ولا الى تزييف الوقائع . أنا أدعوا الى تبينها فى نطاق أبعادها الصحيحة . وهذا بالمناسبة لا يتسنى لاتباع التفسيرات التاريخية ذات الوجه الواحد ، ولا أتباع الدكتاتوريات الفكرية ، ولا اتباع المقارنات والمقابلات التي تنتزع الامور من قرائنها التاريخية . فالحكم بأن المسببات كلها مادية أو روحية أو سيكولوجية او اقتصادية او سياسية فحسب ، يشوه المنظور التاريخى . فلا بد من انفتاح الذهن واعتماد التحليل العلمى الدقيق .

ولا يتسنى هذا ايضا لمن لا يلتزمون بالمنهج العلمي التزاما كاملا . وهذه نقطة أحب أن أؤكدها لان اكثر كتابنا لا يأخذون من الجانب العلمى سوق الشكليات . يسمح مثلا كانت او آخر لنفسه ان يجتر اجترارا ، أو أن يكتب دون اطلاع كاف . لا بأس في أن نأخذ بالطريقة الغربية . فالكاتب الغربى لا يكتب فى الغالب الا اذا كان عنده جديد يقوله ، أو اذا كان لديه تفسير جديد لموضوعه . ولو فعل كتابنا ومن يشتغلون بالتاريخ عندنا مثلهم ، لاختفت اكثر الكتب التي ألفناها .

وأود ان أقف قليلا عند خطأ يرتكبه عدد من كتابنا ومؤرخينا فى حق أنفسهم وحق أمتهم ، ألا وهو غلبة الاسى على كتابتهم عندما يتصدون لتاريخنا وخاصة عند بدء الفتن والحروب ، وعند قيام الدول المستقلة . وان دل هذا على شيء فهو على عدم تفهم كامل لطبيعة العصور التي قامت بها الدول الاسلامية ، ثم الدول المستقلة . اذ لم يكن في مقدور دولة مترامية الاطراف كالدولة الاسلامية ، ولا أمبراطورية مثل امبراطورية شارلمان مثلا أن تظل متماسكة لفترة طويلة من الزمن . لقد قامت الدولة الاسلامية فى عصر

كان معين البشر فيه محدودا ، وكانت المسافات شاسعة ، والاسلحة وأدوات الحصار ذات اشكال بسيطة • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى : لماذا لا نركز على الانجازات الكبرى التي كان تحقيقها ولا يزال أقرب ما يكون الى المعجزات ، وفي مقدمتها خلق هذا العالم العربى والعالم الاسلامى • فلا أعرف الى الان ما يقرأ أكثر من القرآن الكريم ، ولا اسما يردد مثل اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم • فلماذا نكتب عنهم بروح والحزن • اذا كان لا بد من الاسى والحزن ، فليكن علينا نحن العرب المعاصرين • لا عليهم هم • لقد قاموا بدورهم خير قيام •

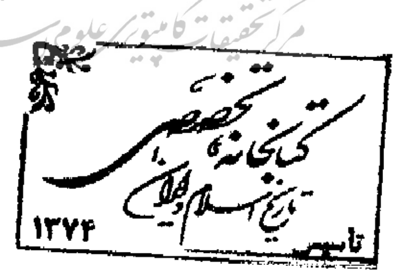
• • •

قد يتساءل احدكم عما يجب علينا ان نفعله لنعيد كتابة تاريخنا على الوجه الصحيح • هذه مسئولية الجامعات العربية والاسلامية ، فالجهد الفردى وحده لا يكفي • لا بد من جهد جماعي منسق لسد النقص فى أبحاثنا ، وعلى أساس مثل هذا الجهد يمكن لنا ان نعيد الكتابة •

الدكتور محمود يوسف زايد

أستاذ التاريخ الاسلامي

الجامعة الاميركية فى بيروت





تجديد في ظل الأصالة

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة الكويت

من الحقائق المسلم بها ان نسبة كبيرة من العرب اليوم غير راضين عن وضعهم واحوالهم ٠ فرغم هذه المظاهر البراقة التي نلمسها فى بعض جوانب الوطن العربي الا ان نظرة جادة امينة في ضوء المقارنة بين أوضاع المجتمع العربى من ناحية واوضاع العالم المتحضر من ناحية اخرى ، تجعلنا ندرك ان هذا المجتمع يعاني فعلا من حالة تخلف خطيرة ، فكريا واجتماعيا واقتصاديا ٠

ومن حق العرب اليوم ان يألموا لهذا الوضع ويعيدوا النظر فى حقيقة امرهم ، ويتدارسوا اسباب هذه الكبوة التي ألمت بهم ، والاسلوب الصحيح للنهوض منها ٠ ذلك ان العرب لم يكونوا مطلقا من تلك الامم التي عاشت على هامش تاريخ البشرية ، دون ان يسطروا فيه أثرا بناء ، وانما كان العرب أصحاب رسالة خالدة ، وبناة حضارة هي باعتراف كافة الباحثين اعظم حضارة شاهدها العالم اجمع ــ مشرقه ومغربه ــ طوال العصور الوسطى ٠

ومن هذا المورد استقى الغرب منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، عندما أفاق اهل الغرب من ظلمة العصور الوسطى ليفتحوا اعينهم على حضارة عربية شامخة البنيان لم تترك فنا ولا علما ولا ضربا من ضروب المعرفة الانسانية الا اسهمت فيه بجديد ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية ، ولم يترك الاوربيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كتابا عربيا في الاداب او العلوم او الفنون الا تلقفوه فى نهم وعكفوا على ترجمته الى اللاتينية ليتعلموا فيها ويتتلمذوا على ايدى مؤلفيها من اعلام الفكر

العربي • حتى القرآن الكريم عندما وقعت منه نسخة مخطوطة في ايديهم ترجموها الى اللاتينية فى وقت مبكر يرجع الى النصف الاول من القرن الثانى عشر للميلاد •

لم يتردد ريموند رئيس اساقفة طليطله في انشاء مكتب كبير للترجمة قام بترجمة عديد من امهات ثمار الفكر العربى الى اللاتينية • بل لقد ظهر من ملوك اسبانيا الذين عرفوا بتعصبهم الشديد فى ذلك الدور ضد العروبة والاسلام ، من قدر الثقافة العربية وادراك الا امل فى صحوة الغرب دون الوقوف على تراث العرب والافادة منه ، ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون الملقب بالحكيم (٢٥٢ ـ ١٢٨٤) •

وعلى هذا الاساس قامت النهضة الاوربية فى القرن الخامس عشر ، وهى النهضة التى استمرت فى تطور وازدهار الى ان بلغت ما بلغته اليوم من تفوق وازدهار • اما الاصل ، واما المنبع الذى استقت منه الحضارة الحديثة فلم يلبث ان تعرض للجفاف والذبول ، ووقف العرب اليوم على مفترق الطرق ، بين اسفين على مجد ولى ومترحمين على أيام انقضت ، وبين متشككين فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وبين مفتونين بحضارة الغرب بلغ من شغفهم بها ان اقبلوا عليها فى نهم مالا يلتهمون الا مساوئها ولا يقدسون الا سيئاتها • ولننظر فى امر كل فريق من هذه الفرق الثلاث •

اما المترجمون على الحضارة العربية وامجادها ، فيحلو لهم بين حين وآخر ان يقيموا لها عزاء في شكل مؤتمر او ندوة او غير هذا وذاك ، ينعون فيه مجد الآباءو وآثار الاجداد ، وغالبا ما يقف دورهم عند التغني بامجاد الماضى ، لعلهم يجدون في ذلك نوعا من السلوى يعوضهم عما يشعرون به من اسى عند المقارنة بين ما كانوا عليه وما صاروا اليه •

ويعبر هذا الفريق عن وجهة نظره بشتى الطرق العلنية الواضحة ، اما بالكتابة او الخطابة التى يتحدثون فيها عن ازمة الحضارة العربية ، وهم

في جميع الحالات يرددون كلاما مكررا يستعرضون فيه ما حققته تلك الحضارة من منجزات فى مختلف العلوم والفنون ، وما اسهمت به من نصيب كبير فعال فى بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وكيف ان العـرب على هذا الفريق وقوفه عند هذا الحد ، وعدم محاولة تخطيه الى العمل على ايضاح الحقيقة الخاصة بان الحضارة العربية ذبلت ولكنها لم تمت ، وانها كالشجرة الراسخة اصلها ثابت وجذورها قوية متينة ممتدة فى الاعماق ، لئن جفت اوراقها نتيجة لعدم العناية بها ، فان بعض الرعاية ومزيد مـن العناية كفيلان بان يعيدا الى هذه الشجرة نضرتها وخضرتها ، لتصبح اعظم مما امست فيه ، ويعود الى الاستظلال بظلها ليس العرب وحدهم وانما البشر كافة ، مثلما حدث فى سالف الزمان . اجل ، علينا ان ندرك وان نعترف بأن ذبول شجرة الحضارة العربية لا يرجع الى عدم قدرتها على مسايرة التطور الحديث ، او ــ كما يدعي البعض ــ الى بذور ضعف كامنة بين ثنايا تلك الحضارة اشبه بالجراثيم التى تنخر فى جسم حتـى يتساقط وتتهاوى اعضاؤه تحت تأثيرها . وانما جاء ذبول تلك الشجرة نتيجة لسبب رئيسي واحد هو تقاعس اصحابها عن العناية بها والالتزام بجوهرها ، والاستمرار برعايتها . ومع هذا فان شجرة الحضارة العربية رغم كل ما يحيط بها اليوم من مظهر جاف مجدب ، ما زالـت محتفظة باسباب الحياة تنظر الى ابنائها نظرة الم وامل ، وكأنها تترقب اليوم الذى يقومون فيه بمحاولة جدية مخلصة لرعايتها ، حتى تنهض من كبوتها وتقدم لهم وللبشرية جمعاء اضعاف ما يقدمونه لها .

واما الفريق الثاني الذى يضم عصبة المتشككين فى ماضي العروبة وحاضرها وربما مستقبلها ، فيمثل الجانب الهدام الذى لا يرى فى ماضي الحضارة العربية الاجمودا ، ولا فى حاضرها الا عجزا ، ولا في مستقبلها الا ظلاما . وفى الوقت الذى تستثير عظمة الحضارة العربية مفكرى العالم اجمع في الشرق والغرب ، فيعكفون على دراستها ، وبيان اصالتها ، وايضاح

عناصر القوة فيها ، وشرح فضلها على الحضارة البشرية جمعاء ويبذلون جهودا متواصلة لاحياء تراثها ٠٠٠٠ فى هذا الوقت نسمع صوتا خافتا غير برىء يستهدف فى صورة مباشرة او غير مباشرة ــ عن علم او جهل ــ التشكيك فى قدرة العرب على الانطلاق ، وفى استطاعة حضارتهم النهوض بل فى قيمة تراثهم الخالد واهميته بالنسبة للحاضر والمستقبل ٠

نعم ، فى الوقت الذى تفاجئنا فيه دور النشر كل يوم بمطبوعات جديدة عن التـراث العربي تبرز عظمته وقوته وتصـدر عن المهتمين بالاستشراق فى روسيا وهولندا وفرنسا وانجلتـرا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها ، اذا باصوات ــ ماكرة او غافلة ــ تنبعث من جوف الوطن العربي نفسه تقلل من قيمة التراث العربي بل تنـدد به ، وترى فى احيائه نوعا من الردة غير المستحبة ، وتتهم الجهود الحريصة على احياء ذلك التراث بانها جهود رجعية ٠ ولعل هؤلاء فاتهم ان الحضارة العربية تمثل اكبر حركة تقدمية شهدها التاريخ ، زمن ازدهارها ، وان هذه الحضارة تحوى من امكانيات الانطلاق والتقدم ومسايرة التطور من اجل سعادة البشر مالا تحويه حضارة اخرى ، واننا عندما ننادى باحياء تراث الحضارة العربية فاننا لا ننادى بالتمسك بالاساليب العتيقة فى الانتاج كما يحلو لذلك الفريق ان يتشدق ، ولا نطلب بالوقوف عند اساليب الماضي وعدم الاخذ بمحاسن الحاضر ٠ اننا عندما ننادى باحياء التراث العربي ، انما نستهدف استخلاص ما في هذا التراث من قيم بناءة ــ فكرية وخلقية واجتماعية واقتصادية ــ وهي قيم مثالية لاترتبط بالماضي وحده ، وانما هي صالحة لكل زمان ومكان ، ومن الممكن ان تكون اداة طيبة ووسيلة فعالة للنهوض والانطلاق والوصل الى ما بعد مرحلة القمر ٠ علينا ان نذكر ان روجـر بيكون رائد البحث العلمي والمنهج التجريبي الحديث في العالم الغربي عندما توصل الى ان الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتآلفة تآلفا يؤدى الى وحدة الطبيعة ، وعنـدما قال بـان الطبيعيات والكيمياء والفلـك

والرياضيات تؤدى الى وظائف مختلفة لشيء واحد هو الطبيعة ، وعندما تنبأ بامكان الوصول الى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة الى مجداف او شراع ، طائرات يحرك الانسان اجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقعات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الاثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصابيح تضيء دون ان ينفذ وقودها .... الى غير ذلك من الارهاصات التي توصل اليها الانسان فعلا فيما بعد ، والتي غدت اساس التطور الحضارى الحديث .... علينا ان نذكر ان بيكون الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد عندما توصل الى هذا القدر من المعرفة وتنبأ بتلك المعلومات انما كان قد تعلم اللغة العربية ، وتلقى العلم فى جامعة اكسفورد الناشئة على ايدى اساتذة كانـوا قـد تتلمذوا بدورهم على ايدى العرب فى اسبانيا ، وأنه دأب دائما على حث تلاميذه ومعاصريه على علم اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ان اتسام الحضارة العربية بمسحة من الايمان لا ينبغى ان يكون سببا لادانتها بالجمود والرجعية ، فالاديان السماوية نزلت من اجل تحرير البشر لا تقييدهم ، وبهدف تطوير المجتمع البشرى نحو الافضل والاسمى ، لاتجميدة . والايمان ليس معناه مطلقا تقبل الحقائق تقبلا اعمى دون تميحصها ودراستها دراسة حرة تستهدف الوصول الى كنهها . فها هو القرآن الكريم يستعرض آيات الله من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وسماوات وارض ، ومد للظل ..... ثم يطالب المؤمنين بان يتدبروا هذه الآيات ، واذا ذكروا بها لم يخروا عليها صما وعميانا . اذا وجدت فئة من رجال الدين — فى المسيحية والاسلام سواء — اتصفت منذ العصور الوسطى بالتزمت والرغبة فى حصر الفكر البشرى داخل دائرة محدودة ضيقة فان هذه الفئة لا يمكن ان تعبر عن رحابة صدر الاديان السماوية وما تحوية من قدرات خلاقة على طريق التحرر والانطلاق .

وفيما عدا هذه الفئة المتزمتة التى تمثل نسبة قليلة من رجال الدين ، نجد اعلام الحضارة العربية وبناتها اكثر ما يكونون تحررا في تفكيرهم واتساع أفقهم . أليس ابراهيم بن سيار النظام هو أول من قرر ان الشك بداية لكل معرفة ، ثم جاء الغزالي من بعده فاكد هذه النظرية وافاض فيها فى كتابه « احياء علوم الدين » وذلك قبل ان يولد ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت بقرون ؟ اليس ابن تيميه فى كتابة « نقد المنطق » هو الذى نادى بان الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة الى اليقين ؟ اليس بن حيان هو الذى قال العبارة الشهيرة بان المعرفة لاتحصل الا بالعمل واجراء التجارب ؟ اليس ابن رشد هو الشارح الاعظم لفلسفة ارسطو ، الذى اطلق لتفكيره العنان وضرب مثلا فريدا لحرية الفكر بعيدا عن كل قيد ديني أو غير ديني ؟ اذا كان هؤلاء وغيرهم من اعلام الحضارة العربية والفكر العربي قد سبقوا زمانهم فكريا بعدة قرون فكيف تعتبر الحضارة العربية جامدة ؟ وكيف نعتبر العودة الى التراث والعمل على احياء ما فيه من قيم ومثل ضربا من الرجعية ؟؟؟ .

اما الفريق الثالث الذى يشمل المفتونين بحضارة الغرب ، فقد بهرهم ضوء الحضارة الغربية الحديثة ، فاقبلوا عليها في نهم شديد يتمسحون بها ويحاولون الانتساب اليها متنكرين لاصولهم الحضارية .

ولو كان هؤلاء تدبروا امرهم ليميزوا بين الغث والسمين ، ويحرصوا على اختبار العناصر الطيبة من الحضارة الغربية لهان امرهم ، ولكنهم فى حماستهم لكل ما هو غربي اندفعوا ليأخذوا عن الحضارة الغربية مساوئها ورذائلها . لقد اغمضوا أعينهم عما فى الحضارة الغربية من حرص على الانتاج والتزام باصول العمل وقواعده وغير ذلك من الجوهر ، وفتحوا اعينهم واسعة على ما ابتلى به المجتمع الغربي اليوم من رذائل ومفاسد . والغريب ايضا بشأن هذا الفريق انه فى الوقت الذى تنبعث اصوات من الغرب تبدى اعجابها بروحانية الشرق ، اذا بهم يتطرقون فى

تمجيد مادية الغرب . لقد فات هؤلاء ان المعجبين بروحانية الشرق ضاقوا ذرعا بعبادة المادة ، وادركوا انه لا حياة لجسد بلا روح ، فاتجهوا بقلوبهم نحو الشرق ينشدون روحانياته ويتلمسون فيها القيم والمثل .

• • •

فاذا اردنا بعد ذلك ان نطرق باب المشكلة التي نحن بصددها لتجديد ما ينبغي ان تكون عليه الحضارة العربية بين تيارى الاصالة والتجديد ، فاننا نجد ان الحل فى حقيقة امره ليس صعبا ولا مستعصيا وذلك اذا حددنا المقصود بالاصالة والمقصود بالتجديد . اذا كان المقصود بالاصالة والعراقة والاحتفاظ بما تحويه من قيم ومثل ، فان الاصالة في هذه الحالة ينبغي ان تكون اساس التقدم بالحضارة العربية ونقطة الانطلاق لاية حركة تستهدف نهضتها داخل اطار مرن بعيد عن الجمود الذى تتبرأ منه تلك الحضارة . اما التجديد ، فاذا كان المقصود به التخلى عن الجوهر ونبذ القديم لا لشيء سوى انه قديم والتمسح بالجديد لا لشيء سوى انه جديد ، ففي هذه الحالة تصبح الدعوة الى التجديد خطرا على كيان الحضارة العربية واصالتها ومثلها وكيانها . والتجديد مرفوض رفضا قاطعافي هذه الحالة . ولكن اذا كان المقصود بالتجديد احياء ما ذبل من المثل والقيم والاستفادة من الجوانب البناءة في الحضارات الاخرى التى من شأنها ان تزيد تلك المثل والقيم اصالة ورسوخا وتمد البناء الحضارى العربى بمزيد من الصلابة ومزيد من القدرة على الحركة ، فمرحبا بالتجديد فى هذه الحالة ، لانه لا يتعارض مع الاصالة ولا يقف منها على طرف نقيض ، وانما يتفق مع خصائص الحضارة العربية وسماتها الاساسية ، وهو الامر الذى لا يتضح الا بالقاء نظرة سريعة نحدد فيها تلك الخصائص والسمات تحديدا دقيقا يلقى اضواء على مشكلة خلقناها ، ثم اجتمعنا لدراستها : ـ

لعل اول ما تتصف به الحضارة العربية هو انها حضارة تقدمية متطورة بعيدة عن الجمود . فالعرب الذين بدأوا بناءهم الحضارة من نقطة الصفر غداة انطلاقهم من شبة جزيرتهم فى القرن السابع للميلاد

وانتهوا بان دونوا شروحا على فلسفة ارسطو فاقت كل ماكتب عن تلك الفلسفة حتى العصور الحديثة ، وسبقوا غيرهم في وضع نظريات فى الصوت والضوء ، والصور فى المرايا المقعرة والمحدبة وتحليل المواد تحليلا كيماويا، ووصف كثير من المركبات الكيماوية وخصائصها ، التمييز بين القلويات والاحماض ، وتأليف موسوعات فى الطب ظل يعول عليها فى دراسة الطب فى الجامعات الاوروبية حتى القرن التاسع عشر ، والتوصل الى نتائج في الفلك والعلوم الرياضية لم يعرفها العالم من قبل ... هؤلاء العرب لا يمكن ان تكون حضارتهم جامدة ، وانما هي تقدمية متطورة ، بدأت باستخدام الرماح والسهام وانتهت بوصف القنبلة والطوربيد واستعمال القوة الدافعة للبارود ،

بدأت بتلقين الفقه والحديث في المساجد والجوامع وانتهت بانشاء المدارس والجامعات لاستيعاب كافة العلوم العقلية والنقلية . واذا تتبعنا هذا المشوار الطويل لوجدنا انه لم يستغرق من الزمان اكثر من ثمانية قرون . فهل توصف مثل هذه الحضارة بعد ذلك بالجمود وعدم القدرة على التطور ؟ وهل يوصف الرجوع الى مثل هذه الحضارة وقيمها بانه نوع من الرجعية او الردة كما تدعى قلة من الناس ؟

وبعد ذلك تأتي صفة ثانية للحضارة العربية هي الحيوية والاستمرار. فهذه الحضارة منذ مولدها مرت بادوار متباينة بين يقظة وسبات ، وتعرضت لهجمات عديدة من الداخل والخارج ، ولكنها ظلت بروحها وقيمها ومثلها وجوهرها حية قائمة شامخة ، لم تمت مطلقا لندعي انها فى حاجة الى بعث جديد ، ولم ينفذ معينها لنقول انها تفتقر الى احياء ، ولم تذبل جذورها الاصيلة لنطالب باستبدالها بغيرها . لئن كانت اوراقها قد جفت وذبلت فان جذورها ما زالت حية يتوافر لها من اسباب القوة ما يضمن اخضرار الاوراق من جديد لتعود كما كانت بل اكثر مما كانت عليه فى الماضي . وحسبي ان اشير الى مثال واحد فى هذا الصدد للتدليل على

حيوية الحضارة العربية واستمرارها • فالجزائر البلد العربي الاصيل تعرضت فيه الحضارة العربية لاعنف وابشع ما يمكن ان تتعرض له حضارة فى التاريخ من محاولة لاقتلاع جذورها على ايدى الاستعمار الفرنسي • ولكن ماذا حدث بعد تلك الجهود الطويلة المضنية التي بذلتها فرنسا من اجل فرنسة الجزائر ومحو مقوماتها العربية واستئصال شافة لغتها وعقيدتها ؟ •

قامت الجزائر عربية مرة اخرى مثلما كانت قبل الاستعمار الفرنسى ، تفخر بحضارتها العربية ، واسرعت قبل غيرها الى تعريب جامعاتها ومعاهدها التى فرنسها الاستعمار • بل لا نبالغ ولا نتجامل اذا قلنا ان الجزائر اليوم غدت زاوية اساسية من زوايا القومية العربية وركنا بارزا من اركان الحضارة العربية وجبهة شريفة من اشرف جبهات النضال العربى • فهل هناك صورة ابرز من هذه الصورة للتدليل على حيوية الحضارة العربية وقدرتها على الاستمرار والبقاء والصمود فى وجه القوى المعادية •

وما يقال عن الجزائر يقال اليوم عن فلسطين الحبيبة وارضها العربية الطيبة التي شهدت صفحة من اروع صفحات الحضارة العربية واكثرها ازدهار والتى تتعرض اليوم لابشع جريمة عرفها تاريخ البشر فى محاولة اثمة لطمس معالمها العربية ، ولكنها تقف بسواعد ابنائها العرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ صامدة مرفوعة الرأس لتضرب اروع مثل على حيوية شعب وحيوية حضارة •

وبعد ذلك تأتي صبغة ثالثة للحضارة العربية تبدو فى اتساع افقها وانفتاحها على العالم اجمع وعلى الحضارات كلها • فالحضارة العربية منذ مولدها حتى اليوم لم تكن ابدا منغلقة على نفسها ، وانما هي قابلة للاخذ والعطاء • وحسب الحضارة العربية انها عند قيامها افادت من الحضارات القديمة السابقة لها زمنيا مثل حضارات اليونان والرومان والفرس بل

الهنود والصينيين . وهي في ذلك حرصت كل الحرص على ان تحسن الاختيار والانتقاء ، كما اظهرت قدرة على تكييف الالهام الدخيل وفق حاجاتها ، وفي خلقها اياه خلقا جديدا يسبغ عليها طابعها الخاص . وبعبارة اخرى فان الحضارة العربية لم تلتقط كل ما صادفته من عناصر الحضارات الاخرى ، وانما عرفت كيف تتخير غذاءها ، فتقبلت كل ما من شأنه ان يساعدها على الاحتفاظ بجوهرها ومثلها وقيمها وطابعها ، ونبذت كل ما لا يقبل التكيف وكل ما لا يتفق مع اصولها ومبادئها . ولا يقلل من شأن الحضارة العربية مطلقا انها افادت من غيرها ، لان سنة التطور البشري والرقي الحضاري تتطلب دائما ان يستفيد الخلف من جهود السلف . ولو كان لزاما على كل جيل او على كل حضارة ان تبدأ بوضع اساس البناء الحضاري من جديد لوجدنا البشر اليوم في مستوى اقرب الى العصر الحجري القديم ، ولكننا توصلنا الى القداحة اليوم بعد ان بدأ الانسان الاول بحك قطعتين من الحجر بعضهما ببعض لتوليد شرارة يشعل منها النار ، وما زالت جهود الاجيال تتعاقب حتى توصل الانسان الى عود الثقاب فالقداحة ويكفي الحضارة العربية فخرا انها لم تقف عند حد الاخذ عن الغير والنقل عن السابقين وانما ابتكرت واضافت وجددت ، ثم اعطت الحضارات الاخرى اللاحقة اضعاف ما اخذته عن الحضارات السابقة .

اما الصفة الرابعة للحضارة العربية فهي التسامح المطلق . الحضارة العربية حضارة محبة وأخاء . محبة بين مختلف الاجناس واخاء بين مختلف الاديان السماوية . لا تعصب اعمى ولا كراهية ممجوجة ، ففي ظل المحبة والاخاء يكون التعاون محكما والتقدم ممكنا . الا يكفي ان يكون بناة الحضارة العربية واعلامها من العرب والفرس والترك والبربر وغيرهم من ابناء الشعوب والجنسيات التي انصهرت داخل بوتقة العروبة وفكرت بعقليتها وانتجت بوحي من مثلها وفي ظل قيمها وما وفرته لهم جميعا من حياة آمنة مطمئنة . الا يكفي الحضارة العربية ان يكون يكون من بين

اعلامها وبناتها جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن رشـد والطبري والبيروني والخوارزمي والفارابي وابن سينا والبتاني وابن خلدون ؟ الكل سواء مع اختلاف الدماء التي تجرى فى عروقهم والكل يسيرون فى موكب واحد هو موكب العروبة • ومن ناحية اخرى الا يكفي الحضارة العربية ان تحتضن بين ذراعيهاوداخل صدرها المسلم والمسيحي واليهودى بل ربما الصابئي ؟ يكفي ان نعلم انه من بين اعلام الحضارة العربية كان ثابت بن قرة وسنان بن ثابت ، وحنين بن اسحق وجورجيوس بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وموسى بن العازار واسحاق بن موسى وابن العبدى • بل يكفى الحضارة العربية فخرا ودليلا على تسامحها ان الفيلسوف اليهودى الشهير ابن ميمون الذى يفخر به الفكر الاسرائيلي تلقى تعليمه على ايدى اساتذة ومشايخ من العرب المسلمين ، في جامع قرطبة الكبير ، حيث سمح للجميع على اختلاف اديانهم ومللهم ونحلهم بالدخول وتلقى العلم دون تفرقة او تمييز • وهكذا ضربت الحضارة العربية اروع مثل فى التسامح والاخاء والمحبة •

واخيرا فان الحضارة العربية تتصف بانها حضارة ايمان • ففي ظل الايمان نشأت ، وبين ربوعه ازدهرت وترعرعت ، وبفضله وهديه اكتسبت اسمى قيمها ومبادئها ومثلها • فمن الايمان كان التسامح والمحبة ، ومـن الايمان نبعت مكارم الاخلاق •

والحضارة العربية عندما اتصفت بالايمان واتخذت منه دعامة لها لم تهمل المادة بل اعطتها حقها من التقارير لمـا لها من اهميـة في بنـاء العمران وسعادة البشر • ومن ناحية اخرى فان الحضارة العربية عندما اتخذت من الايمان ركيزة لها استهدفت فى المقام الاول أن تحمى كيانها بسياج منيع من المبادىء الخلقية والمثل الكريمة لان الاديان السماوية كلها تتفق فى رسالة واحدة هى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • والايمان لا يتعارض مع العلم مطلقا بل على العكس الايمان هو الذى يتوج العلم

بهالة من الخير والبركة تجعل منه علما نافعا . فلا خير في علم دون اخلاق ، ومكارم الاخلاق هى جوهر الاديان السماوية ومحور رسالتها . وحسبنا دليلا على الترابط بين الايمان والعلم ما جاء في الحديث الشريف « العلم علمان علم الاديان وعلم الابدان » وهكذا غدا علم الطب – او علم الابدان – صنوا للايمان وعلم الاديان . واذا كانت بعض المذاهب الحديثة تدعى بانه فى التمسك بالايمان بعدا عن الخط الاشتراكى ، فاننا نجد فى مبادىء الاديان السماوية خير اشتراكية تأخذ من الغنى للفقير . ها هو القرآن الكريم يحتم اخذ الزكاة ويفرضها فرضا على القادر فيقول « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وها هو العهد الجديد يردد فى سفر اعمال الرسل أن « جميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شيء مشتركا ، والاملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج !! » فهل هناك بعد ذلك اشتراكية اقوى واعمق من اشتراكية الايمان هذه ؟ ! .

واخيرا فاننا عندما نقول ان الحضارة العربية حضارة ايمان لا نعنى بذلك – كما يدعى المغرضون – ان يتحول المجتمع الى حلقات ذكر ويترك الانتاج والعمل . فالحضارة العربية حضارة ايمان ومثل واخلاق ، وهى حضارة كد وعمل وانتاج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

كربوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين

بقلم : ابراهيم خليل
مدرس مساعد ـ قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

كربوغا قبل توليه السلطة :

كان موت ملكشاه ، بداية لانحلال دولة السلاجقة وتفككها ، حيث بدأت سلسلة من الصراعات بين العائلة الحاكمة السلجوقية نفسها ، كان ابرزها الصراع الذى نشب بين بركياروق وتركان خاتون زوجة ملكشاه الاخيرة ، والتى كانت انجبت ولدا سنة ١٠٨٧م أسمه محمود . وقد حاولت تركان خاتون ان تكتم نبأ وفاة زوجها حتى تكون انتهت من تدابيراتها الخاصة فى تدعيم موقف ابنهـا .

لعب قوام الدولة أبو سعيد كربوغا بن عبد الله الجلالي الامـير ، دورا مهما في الدعوة لمحمود (١) ويبدوا انه كان يعمل فى خدمة تركان خاتون حيث ارسلته الى اصبهان بخاتم السلطان « فاستنزل مستحفـظ القلعة وتسلمها » (٢) . ثم اخذت تتصل بالامراء وتبذل لهم الامـوال سرا وتأخذ منهم البيعة لابنها محمود . ومن هؤلاء الامراء اسماعيـل بن ياقوتي خال بركياروق . وكان اميرا على اذربيجان فأرسلت اليه تطمعه بالزواج منها وتدعوه لمحاربة بركياروق . وكان كربوغا قد ساهم في تلك المهمـة .

توجهت تركان خاتون الى اصبهان حيث حسم الصراع بان يحتفظ ابنها محمود بأصبهان وفارس ، وتكون بقية الدولة السلجوقية من نصيب بركياروق • ولكن الاقدار تدخلت فتوفي محمود سنة ١٠٩٤ وعندئذ سار بركياروق الى أصبهان « فدخلها وتملكها » (٣) •

نشب صراع آخر على العرش • اذ دخل بركياروق فى نزاع مع عمه تتش الذى اخذ يطالب بالسلطنة • وكان ممن ساعده في هذا الصراع قسيم الدولة آقسنقر ، صاحب حلب • وكان آقسنقر يبرر هذه المساعدة بان « أولاد ملكشاه صغار ، وان الملك لا يستقيم لهم لصغرهم وللخلف الواقع بينهم » (٤) • بالاضافة الى عدم استطاعة آقسنقر نفسه الوقوف بوجه تتش ، الذى كان يسيطر على دمشق وما جاورها • وقد أدخل آقسنقر معه فى هذا الحلف كل من بوزان صاحب حران ، وياغى سيان صاحب انطاكية مقنعا اياهم بنفس الحجة وحتى « ينظروا ما يكون من أولاد ملكشاه » على حد قوله • (٥)

استطاع تاج الدين تتش بذلك التحالف من احتلال الرحبة ونصيبين سنة ١٠٩٣م • وتطلع الى الموصل بعد ذلك حيث كان العقيليون يحكمونها، وقد طلب من ابراهيم بن قريش العقيلي أن يعترف به سلطانا وان يسهل له المرور عبر الموصل نحو بغداد لاسقاط بركياروق • ولكن ابراهيم رفض مطلب تتش • والتقى الجيشان عند « المضيع » وهي قرية قرب الموصل • وكان ابراهيم فى ثلاثين ألفا وتتش فى عشر آلاف • وقد انتهت المعركة بانتصار تتش وهزيمة ابراهيم وحلفائه من الشيوخ العرب فقبض عليهم جميعا • ويذكر ابن الاثير كيف ان كثيرا من نساء العرب قتلن انفسهن خوفا من السبي والفضيحة • (٦)

دخلت الموصل فى حوزة تتش ، فعين عليها علي بن شرف الدولة نائبا عنه ، ثم اتجه بعد ذلك نحو ميافارقين وديار بكر واذربيجان حيث

احتلها . أما بركيا روق فقد احتل الري وهمذان وما بينها ، والتقى الطرفان، وهنا انحاز قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب الى بركياروق مذكرا بوزان صاحب حران « بانا اطعنا هذا لننظر ما يكون من اولاد صاحبنا ، والآن وقد ظهر بركياروق والرأي والمروءة تقتضي بأن نقصده ونكون معه » .(٧) ويورد ابن العديم (٨) في « زبدة الحلب » سببا آخر لانحياز آقسنقر وهو أن تتش أخذ يقرب ياغي سيان اليه ، ولم يول آقسنقر وبوزان شيئا من البلاد التي فتحها . ثم وجد تتش نفسه وحيدا فآثر الانسحاب وهو في أشد الغيظ من تصرفات حليفة السابق وقرر ان ينتقم منه .

قدم بركياروق الى بغداد ، وأرسل الى الخليفة المقتدى بالله يطلب الخطبة ، فأجيب طلبه ، ولقب بـ « ركن الدين » (٩) .

أما تتش فقد عاد الى الشام ، وبدأ يتحرش بحلب في صيف ١٠٩٤م . وفي مواجهة ذلك تحالف آقسنقر مع بوزان وارسل لهم السلطان بركياروق الامير كربوغا،الذى كان قد مال الى جانبه ايضا بجيش كبير،وقد التقى الطرفان عند نهر سبعين ، واشتد القتال ودارت الدائرة على آقسنقر وحلفائه واحضر عند تتش أسيرا « فقال له : لو ظفرت بى ماكنت صنعت . قال : كنت اقتلك . فقال له (تتش) أنا احكم عليك بما تحكم على » .

اتجه تتش بعد ذلك الى حلب ، حيث اعتصم بقلعتها كل من قوام الدولة كربوغا وبوزان منتظرين النجدة من بركياروق « وتحير أهل حلب فيما يفعلونه » (١٠) . فأخذ بعضهم زمام المبادرة ففتحوا الابواب ودخل تتش وسلمت المدينة اليه وقبض على بوزان فقتله . ثم أخذ كربوغا حيث اعتقله بحمص . (١١)

ويعلل ابن الاثير عدم قتل تتش لكربوغا فى انه أبقى عليه طمعا فى استصلاح حمية الامير « أنر » .. زيادة على ذلك انه لم يكن له بلد يملكه اذا قتله ، كما فعل بالامير بوزان . (١٢) .

استولى تتش بعد ذلك على الرها وحران وسار الى ديار بكر قاصدا فارس لملاقاة بركياروق • وقد دارت رحى معركة قتل اثنائها تتش بعد خيانة بعض اعوانه المقربين اليه « فقطع رأسه وطيف به في المعسكر ثم حمل الى بغداد وطيف به فيها » (١٣) •

اكتفى بركياروق بذلك الانتصار ، ولم يحاول ضم الشام الى فارس وبغداد • فتوزعت املاك تتش بين ولديه رضوان ودقاق فسيطر الاول على حلب وأخذ الثاني دمشق • ثم جرت اتصالات بين بركياروق ورضوان حول مصير كربوغا فوافق رضوان على اطلاق سرحة (١٤) •

توجه كربوغا ، بعد اطلاق سراحه ، مع أخيه التوتتاش وجميعا حولهما عددا من « العساكر البطالين » (١٥) احتلوا بهما حران ونصيبين واتصل بها هناك محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش ، وثروان بن وهيب وأبو الهيجاء الكردى لطلب مساعدتها ضد الامير علي بن شرف الدولة صاحب الموصل •

وافق كربوغا على تقديم المساعدة، فالتقى بمحمد بن شرف الدولة واتجها سوية نحو الموصل، لكنه لم يتمكن من فتحها فتركها الى « بلد » وفي الطريق قتل محمد بن شرف الدولة • فعاد كربوغا الى حصار الموصل ونزل بقرية « باحافلا » • وحاول على بن شرف الدولة الاتصال بجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر ولكن التوتتاش علم بذلك فقاتله وانسحب جكرمش ثم عاد الى بلاده • وقد عاد التوتتاش ليشترك مع اخيه كربوغا فى حصار الموصل •

واجه اهالي الموصل الحصار الاقتصادى الذى ضربه كربوغا حولها على الرغم من انعدام الاقوات والمؤونة بها بحيث أنه لم يعد هناك « ما يوقدونه فأوقدوا القير وحب القطن » (١٦) فاضطرت الى الاستسلام بعد تسعة اشهر • وقد نجح كربوغا فى حكم المدينة « واحسن السيرة فيها » (١٧) الى درجة انه قتل اخاه التوتتاش لانه « قبض على اعيان البلد وطالبهم بودائعهم » • (١٨) واستمر كربوغا فى حكم الموصل حتى وفاته سنة ١١٠١م

٢ ـ احتلال انطاكية من قبل الصليبيين :

فى الوقت الذى كان فيه بلدوين يوعاد نفوذه في الرها وما جاورها من المناطق ويؤسس أول امارة صليبية فى الشام كانت اكثرية الجيش الصليبي التي انفصلت عن الحملة الكبرى قد اتجهت نحو شمال الشـام قاصدة انطاكية • وقد وحد الصليبيون ، وهم في طريقهم نحو انطاكية مساعدة قوية من جانب سكان تلك المناطق وبخاصة الارمن (١٩) وقد تألف هذا الفريق من بوهيموند النورماندى • وروبرت ، وأتين دى بلوا وريموند واديمار وجونموى • وكان يمثل الامبراطور البيزنطي فى الحملة القائد « تاتيكيوس » على أساس ان هناك اتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين أقسموا فيها للامبراطور بأن يسلموا اليه انطاكية • (٢٠)

احدثت انباء تقدم الصليبيين قلقا كبيرا بين اهالى الشام • وبدأ الصليبيون زحفهم على انطاكية فوصلوا مدينة « مرعش » فخف سكانها لاستقبالهم فرحين غاية الفرح وحملوا اليهم ذخيرة وفيرة ، وكان ذلك فى كانون الاول ١٠٩٧ م • ثم دخلوا مدينة المعرة (٢١) الجديدة واستولوا على قلعة ارتاح (٢٢) وتجمعوا عند نهر الاورنت (العاصى) (٢٣) عند الجسر الجديد ، (٢٤) وبعد قتال شديد مع بعض الاهالي شقوا طريقهم عبر النهر منتصرين • وبفضل هذا الانتصار « غنموا غنيمة هائلة من قافلة كانت تحمل المؤونة الى باغى سيان (٢٥) وهكذا اضحى الطريق امامهم مفتوحا الى انطاكية (٢٦) •

كانت انطاكية من اقوى المدن المحصنة فى ذلك الوقت ، (٢٧) ومن الصعوبة جدا اقتحام اسوارها وقلاعها • ويظهر ان الصليبيين قدروا أهميتها من الوجهتين العسكرية والتجارية ، وساعدتهم على ذلك الظروف السياسية التى كانت تسود الشام حينذاك ، ففى الوقت الذى كان الصليبيون يشقون طريقهم عن الاراضي الاسلامية كانت الحروب الاهلية بين ولدى تتش : رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق قد دخلت مرحلة حاسمة •

ولعب ياغي سيان صاحب انطاكية دورا في هذا الصراع ، فهو تارة مع رضوان واخرى مع دقاق ، الامر الذى كان له اثر سلمى على الوضع العام الاسلامى ، وعلى وضع ياغى سيان نفسه الذى حرم من الحصول على أقرب القوى الاسلامية اليه ، وهى حلب التي لم تكن تبعد عنه اكثر من (٦٠) ميلا . (٢٨) .

اما موقف سكان انطاكية ، فلدينا روايتين احداهما اسلامية والاخرى لاتينية ، حيث تذكر الرواية الاولى بأن ياغي سيان « خاف من النصارى » . (٢٩) الذين في داخل انطاكية فأخرجهم بحجة حفر الخندق ، وكان اخرج المسلمين من قبلهم ، فلما أرادوا الدخول منعهم ، ولكنهوعدهم بأن ينتظروا حتى يحسم الصراع بين الطرفين . وأمنهم على نساءهم واطفالهم . أما الرواية الثانية فتذكر بأن « الارمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة قد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار » . وكانوا موجودين بيننا (اى بين الصليبيين) كل يوم بينما بقيت نساءهم في المدينة (٣٠) ويضيف المصدر اللاتيني الى قوله هذا بأنهم كانوا ينقلون الاخبار بين الصليبيين وقوات المدينة ، حتى ان المحاصرين اخذوا يخرجون من المدينة جماعة جماعة دون أن يعترض الصليبيون طريقهم .

يبدو من هاتين الروايتين ان ياغي سيان اتخذ بعض الاجراءات التي تحتمها ظروف المعركة ، وحتى لا يتحول اولئك الى « رتل خامس » علما بأنه قد قام ببعض الاستحكامات واحتاط للامر وظهر من شجاعته وجودة رأيه ما لم يشاهد من غيره ، كما يقول ذلك ابن الاثير . هذا ولا يعدم ان يكون قد بالغ هو أو بعض جنده في القيام باجراءات أمن مشددة اتسمت احيانا بالتعسف لا سيما اذا أخذنا برواية المؤرخ المجهول بأنهم كانوا يتقصون الاخبار من الجانبين الامر الذى يجعل من المنطق اخراجهم من المدينة مهيئا نفسه لحصار قد يطول ، وقد طال فعلا .

بدأ الصليبيون فى الاغارة على بعض القرى القريبة لنهبها والحصول على المؤن ، واضطروا لذلك ان يترك بعضهم مواقعه ، فترامى الخبر الى باغى سيان فخرج يغير على الصليبيين بنفسه ، « ولا يكاد يخرج ويعود الا ظافرا » • (٣١) وقد فطن الصليبيون الى ذلك وأنبهم بوهيمند على ترك مواقعهم • (٣٢)

أخذت حالة الصليبيين تسوء • لا سيما وان الارمن والسريان قد أخذوا يشترون الحنطة والاطعمة من القرى المجاورة ويبيعونها للصليبيين بأثمان فاحشة (٣٣) وفى هذا الوضع السىء ، حيث الفقر والبؤس والجوع ، بدأ بوهيموند يلعب لعبته ، ويعمل لنفسه ، فيكون بذلك قد ارغم باقى الزعماء الصليبيين على التنازل له عن انطاكية بعد فتحها من جهة ، والتخلص من ممثل الامبراطور البيزنطى القائد تاتيكيوس والذى ينتظر بدوره ايضا توزيع الغنائم من جهةاخرى • لا سيما وان بطرس الناسك قد تسلل المعسكر ليلا ولكن قبض عليه وأعيد (٣٤) اما الجنرال البيزنطي تاتيكيوس فقد ترك المعسكر ايضا في شباط ١٠٩٨ لكي يثير البيزنطين لارسال امدادات اكثر للصليبيين (٣٥) وقدكان رحيل تاتيكيوس بتأثير من بوهيموند الذى ارتاح بعد رحيله وصفا له الجو • وقد أورد المؤرخ المجهول بأن تاتيكيوس قد سمع بنبأ زحف جيش تركي كبير فأستبد به الفزع الشديد فراح ينتحل شتى المبررات (٣٦) ويظهر ان بوهيموند قد استفز القائد البيزنطى واعلمه بأن الصليبيين يتهمونه بالخيانة وبانه يتفاوض سرا مع الاتراك ، وعندئذ فكر تاتيكيوس بالانسحاب • (٣٧)

التفت بوهيموند بعد ان تخلص من تاتيكوس لتنفيذ القسم الاخرمن خطته وهى التأثير على بقية الزعماء الصليبيين وكان قد اتفق مع رجل ارمنى الاصل اسمه فيروز يعرف بالزراد من أهل انطاكية وغلمان له برج كانوا يتولون حفظه (٣٩) على أن يفتح له باب البرج الذى فيه بعد أن بذل له بوهيموند « مالا واقطاعا » (٤٠) ويذكر ابن العديم سببا لخيانة فيروز

فيقول « ان ياغي سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته فحمله هذا على ان كاتب بوهيموند (٤١) ولما تأكد بوهيموند من دخوله المدينة عقد اجتماعا لكبار القادةوبين لهم الصعوبات التي تعترض الصليبيين والحالة السيئة التى وصلوا اليها « من عدم القوت ومن حور الشتاء ومن طول مدة الحصار » (٤٢) وطلب منهم أن ينفرد أحدهم باالقيادة فان تمكن من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمساعدة الاخرين اصحب المدينة له • (٤٣) ولكنهم اختلفوا وكل طلبها لنفسه • فقال : « الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمعة فمن فتحت في جمعته فهى له فوافقوا على ذلك » (٤٤) ويبدو من هذه الروايات بأن بوهيموند كتم سر اتفاقه مع فيروز الزراد ، لاكمايورد (الدويهى) بأن بوهيموند أطلع قواد جيوش الصليبيين على السر الذى كان بينه وبين صاحب البرج فأقبل عليهم لهرب حزيل • (٤٥)

تجمع الصليبيون بعد ساعات من المؤتمر المذكور فى السهل ، واقام جماعة منهم على الجبل ، وما أن انبلج الفجر حتى اقتربوا من الابراج « فدلى الزراد حبلا فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا » (٤٦) وهجم قسم منهم على الحراس فقتلوهم وتسلم بوهيموند البرج ، وعندما تكامل عددهم وأصبح يزيد على خمسمائة ضربوا االبوق عند السحر فاستيقظ ياغى سيان وسأل عن مصدر البوق فقيل له انه القلعة ففتح الباب «وهرب ياغى سيان فى نفر يسير وترك بها اهله وماله » (٤٧) حيث سقط عن فرسه بالقرب من ارمناز ومعه خادم من غلمانه فحمله الخادم واركبه ولكنه عاد فسقط ثانية وادركه الارمن وقتلوه وحملوا رأسه الى الصليبيين • أما انطاكية فقتل منها وأسر وسبى من الرجال والنساء والاطفال ما لا يدركه حصر وهرب الى القلعة ثلاث الاف تحصنوا بها (٤٩) « كما نهبت الاموال والالات والسلاح » (٥٠) وقد أحدث استيلاء الصليبيين على انطاكية هلعا بين سكان المناطق المجاورة « فوصل الخبر الى عم (٥١) وأنب (٥٢) فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الارمن » • (٥٣)

هذا وقد استغرق حصار انطاكية حوالي ثمانية أشهر من وصول الصليبيين اليها وحتى ٣ حزيران ١٠٩٨ أى قبل أربعة ايام من وصول كربوغا صاحب الموصل بجيش كبير لنجدتها • (٥٤)

٣ ـ التحالف الاسلامي :

ترجع المحاولات الاولى للتحالف الاسلامي الى كانون الثاني سنة ١٠٩٧ أى بعد ان وصل الصليبيون انطاكية بشهر وتسعة أيام • فقد تجمعت عند شيزر(٥٥) حمله اسلامية لنجدة انطاكية على رأسها دقاق صاحب دمشق ، وجناح الدين حسين بن ملاعب أمير حمص • وقد اصطدم هذا التحالف بقوات صليبية بقيادة بوهيموند كانت تتقدم نحو نهر العاصي فقرروا اعتراضها فى موقع يعرف باسم البارة (٥٦)وانتهت المعركة بانزال خسائر فادحة بالقوات المتحالفة فعاد المسلمين الى حماه • (٥٧)

كما جرت محاولة اخرى حيث وجد رضوان صاحب حلب انه لايستطيع ان يغمض عينيه عن هذه الحوادث • وانه لابد من يهرع لنجدة ياغى سيان لاسيما وأن الاخير قد ارسل ولده شمس الدين برسالة يعتذر فيها عما بدر منه ويطلب النجدة • وبالفعل تحرك رضوان فى شباط ١٠٩٨ وانضم اليه سقمان بن أرتق صاحب ديار بكر وأرسلان تاش صاحب سنجار وتقدموا نحو انطاكية ، ولكن الارمن نقلوا تحركات الجيش الاسلامي الى الصليبيين فاستعد هؤلاء وعسكروا بين نهر العاصي وبحيرة العمق(٥٨) فدارت معركة بين الطرفين استبسل فيها سقمان بن أرتق وكانت نتيجتها ان تخادل المسلمون وتفرقوا • (٥٩)

أما الصليبيون فقد استولوا على حصن حارم (٦٠)بد أن انسحب منها المسلمون الى حلب • وبسقوط حارم بايدى الصليبيين اصبحت جبهة انطاكية من جهة حلب آمنة •

وكما فشل دقاق صاحب دمشق فى نجدة ياغي سيان فشل رضوان صاحب حلب ايضا ،فكان لابد لياغي سيان من أن يمد بصره الى القوى

المحيطة به لعله يظفر بتحالف اكثر قيمة واهمية • ولكن أين يتوجه ؟ •كان من الطبيعي ان لايتصل بمصر في هذه الفترة لاسيما وان الوزير الافضل ابن بدر الجمالى كان بعيدا عن ادراك قيمة التحالف الاسلامى والخطر الذى يتهدد الامة الاسلامية • ففي الوقت الذى كان السلاجقة فى خضم الصراع مع الصليبيين عمل هذا على استغلال ذلك ، وانشغال السلاجقة فأرسل جيوشه الى ناحية الشام ونزل في بيت المقدس مطالبا الامير سقمان والامير ايل غازى ابنا أرتق يلتمس فيهما تسليم بيت المقدس اليه من غير سفك دم ولما (٦١) رفضا طلبه استعد للقتال ونصب المجانيق وهاجم بيت المقدس وتسلمها من سقمان •

لم يكتف ابن بدر الجمالى بذلك بل ارسل وفدا مصريا الى معسكر الصليبيين أمام انطاكية في شباط ١٠٩٨• وبالفعل دخلت الفاطمية في مفاوضات مع الصليبيين في الوقت الذى كان السلاجقة يشددون الضغط عليهم•(٦٢) والظاهر أن الصليبيين قد تحسسوا بذلك الانقسام « فكتبوا الى صاحب حلب ودمشق باننا (اى الصليبيين) لانقصد غير البلاد التي كانت للروم ، لانطلب سواها » (٦٣) حتى لايساعدوا صاحب انطاكية • وهنا ادرك ياغي سيان خطورة الموقف فوجه نداءا الى بركياروق وتابعه قوام الدين ابو سعيد كربوغا الذى يدرك ببصيرته وحكمته ما يهدد العالم الاسلامى من مخاطر ثم انه كان من ابرز امراء اعالي الجزيزة ، وفوق ذلك ان هذه النجدة قد تتيح له تحقيق طموحه بضم حلب اليه والتى كان يتطلع اليها منذ زمن بعيد • واذا ما استولى كربوغا على انطاكية فسوف يكون من السهل عليه ضم حلب •(٦٤)

تهيأ كربوغا للسير فى سنة ١٠٩٨ حين ارسله بركياروق على رأس جيش كبير • (٦٥) ولكنه لم يلبث ان توقف فى الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع ، فاعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح انطاكية وقد تم لهم ذلك • ولو أن كربوغا انفذ الى انطاكية مباشرة لاسلمه ياغى سيان مدينة انطاكية وتغيرت ظروف المحاصرين • (٦٦)

سمع كربوغا بسقوط انطاكية ، وهو يهم بعبور الفرات • واقام فى مرج دابق حيث اجتمع بدقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكين التركمانى اتابك دمشق وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسقمان بن أرتق وغيرهم من الامراء من ليس مثلهم « على حد قول ابن الاثير • » (٦٧)

تحرك الجيش الكبير نحو انطاكية عن طريق نهر العاصى وكان يعلم بان قلعتها لازالت بيد المسلمين ، واقترب من انطاكية وشدد الحصار عليها ومنع عنها الطريق برا وبحرا • (٦٨) وقد تغير موقف الصليبيين ،فبعد ايام من دخول المدينة وجدوا انفسهم محاصرين من قبل قوات كربوغا (٦٩) التي عسكرت فى السهل الممتد جنوبى انطاكية عند باب البحر • (٧٠) وبعد مناقشة بين كربوغا وشمس الدين بن ياغى سيان حول تسليم القلعة أرسل كربوغا قائدا من قواده هو احمد بن مروان لتسلم القلعة •

أما الصليبيون فقد تعرضوا داخل انطاكية لازمة قاسية ، اذا اخذ اليأس يدب الى نفوسهم ، بسبب قلة الغذاء « فليس لهم ما يأكلونه •• وتقوت الاقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » • (٧١) واصبح من المحتمل جدا ان يعم الوباء المدينة • أضف الى ذلك ، ان السكان المسيحيين انفسهم فقدوا الثقة بقدرة الصليبيين على تحصين المدينة والاحتفاظ بها ، خاصة وان قلعة المدينة كانت لا تزال بيد المسلمين • (٧٢) ولم يكن ثمة أمل سوى وصول الامبراطور البيزنطي الكسيوس كوفين ، حيث كانوا قد أرسلوا اليه نداء لنجدتهم ، فخرج الامبراطور المذكور على رأس جيش قاصدا انطاكية عبر اسيا الصغرى ، ولكن الامور لم تكن تجرى لصالح الصليبيين ــ على ما يبدو ــ فقد التقى الامبراطور بـ « اتين دى بلوا » وجماعته فاخبروه بان انطاكية قد استردت من قبل المسلمين وان جيشا اسلاميا كبيرا في طريقة للقضاء على قوات الامبراطور البيزنطي قبل وصولها • ومع انه ــ اى الامبراطور ــ تلقى الخبر بحذر ويأس ، وقرر

الانسحاب على اعتبار انه كانت انطاكية قد سقطت فمن الحماقة التقدم اكثر في ارض الاعداء ، وانه من الخير له ولامبراطوريته ان ينسحب تجنبا للمخاطر ، فقد بدأ باستشارة كبار قادة جيشه ، فنصحوه بالتراجع ايضا .
ومع ان انسحاب الكسيوس كومنين ، كان من الوجهة الستراتيجية ، اجراءا حكيمـا ، الا انه كان مـن الناحية السـياسية خطأ فظيعا فت عضد الصليبيين ، الذين وضعوا اللوم على « دي بلوا » باعتباره يتحمل مسؤولية كبيرة ازاء اخوانه المحاصرين الذين ضعفت معنوياتهم ، (٧٣) وبلغوا درجة من اليـأس ، اضـطرتهم الى ارسـال وفـد الى كربوغا « يطلبون منه الامان ليخرجوا » (٧٤) وكان الوفد المذكور يضم رجلين هما بطرس الناسك وآخر اسمه هيرليون ، وهو شخص فرنسي يحسن العربيـة والفارسية . ولكن الوفد المذكور عاد خالي الوفاض بعد ان رفض كربوغا طلبهم (٧٥) وقال لهم « لاتخرجون الا بالسيف » . (٧٦)

ازدادت حالة الصليبيين سوءا . وخارت قواهم ، وضعفت معنوياتهم وسيطرت عليهم حالة من اليأس والكآبة ، ولعل هذه الحالة النفسية هي وراء اختلاق بوهيموند « قصة الحربة المقدسة » . وتفصيل ذلك أن رجلا اسمه بطرس بورثلميو ادعى انه شاهد في الحلم مكان الحربة التي طعن بها السيد المسيح في الكاتدرائية ، (٧٧) ولا شك في ان مثل هـذه الاسطورة وغيرها من التي انتشرت بين الصليبيين كان لها اثر كبير في رفع معنوياتهم والتفافهم حول زعاماتهم . كما جاءت عاملا حاسما في القضاء على روح اليأس الذي وجد طريقه اليهم . وبالتالي كانت سببا في احرازهم النصر . (٧٨) وكان لبوهيموند دور كبير في نشر خبر الحربة المقدسة ، وعلى الرغم من ان « ادهمار » المندوب البابوي وبعض الامراء شككوا بالقصة المذكورة. الا انهم سرعان ما اكتشفوا الحربة المقدسة (٧٩) فارتفعت معنوياتهم ودفعوا في صفوف متراصة وتقدمهم « هيم دي فرماندو » و « روبرت النورماندي » و « كودفري » ورجال بروفانس يتقدمهم ادهمار حاملا الحربة . ثم تنكرد وبوهيموند . اما ريموند فقد ظل في الداخل ليراقب الحصن . (٨٠)

بدأ الصليبيون بالخروج وكربوغا لم يصــدر لقواته امرا بالهجوم عليهم وهنا اشار « وثاب بن محمود » بأن يبادر بالهجوم ، في حين قــال بعض الامراء ينبغي ان تقف على الباب فنقتل كل من يخرج فان امرهــم الان وهم متفرقون سهل • (٨١) ولكن كربوغا امرهم بعدم المبادرة بهجوم وقال لاتفعلوا ، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » • (٨٢) وقد حاول بعض الجنود قتل جماعة من الخارجين الا ان كربوغا نهرهم •

تكامل خروج الصليبيين ، واحتشدوا في صف عظيم ، فتردد كربوغا أزاءهم • وقد ذكرت بعض المصادر المسيحية انه بعث اليهم رسولا يعرض عليهم انه على استعداد لبحث شروط الهدنة لكنهم تجاهلوه ، فلجــأ الى الانسحاب الى ارض وعرة بعيدة ، (٨٣) على أمل ان ينقض عليهم هناك ، ولكن الهزيمة سرعان ما لحقت بالجيش الاسلامي وكان آخر من انهزم سقمان بن ارتق وجناح الدولة • (٨٤) وعندما وجد كربوغا ذلك انهزم هو أيضا ، واعتقد الصليبيون ان في الأمر مكيدة ، فلحق به فرسان النورمان الذين انقضوا على الاموال والاقوات والامتعة • (٨٥) وذكر ابن الاثير بان جماعة من المجاهدين ثبتوا وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة » •

لقد ابدى الصليبيون وحشية كبيرة • فقتلوا الآلاف من المسلمين وغنموا ما في المعسكر ، وهكذا لم يستطع كربوغا ــ في الحقيقة ــ لا أن يوجد جيشه ، ولا ان يجنب النساء والاطفال المذبحة ، ولا حتى خيمته من النهب (٨٧) • كانت هزيمة كربوغا في ٢٨ حزيران سنة ١٠٩٨ • (٨٨) اما قلعة انطاكية فقد استسلمت بعد ان راسل الصليبيون احمد بن مروان وأمنوه ومن كان معه واطلقوا اصحابه ، فخرج الارمن وقتلوا بعضهم واخذوا بعضهم ولم يسلم منهم الا القليل •

٤ ــ نظرة في اسباب الهزيمة :

لنتساءل عن اسباب هزيمة كربوغا ، التي لم تكن عسكرية وحسب بل تداخلت جملة عوامل كان لها اثر كبير في توجيه الاحداث نحو المصير

الذى آلت اليه • بامكاننا القول أن حملة كربوغا كانت تحمل منذ البدء جذور انهزامها وتقهقرها • ونجمل هذه الاسباب بما يأتي :

اولا ــ عدم زحف كربوغا الى انطاكية مباشرة : اذا أردنا أن نلقي نظرة على جيش كربوغا ، الزاحف نحو انطاكية تبين لنا انه وصل في ٧ حزيران • علما بانه كان قد خرج قبل ذلك بثلاثة اسابيع ، وهي التي قضاها في حصار الرها (٩٠) مما اعطى لاعدائه فرصة الاستعداد والتأهب لملاقاته • ويقول كراى ان بلدوين امير الرها كان له فضل كبير على الصليبيين حيث أعاق كربوغا مدة ثلاثة اسابيع (٩١) ويعلل رونسيمان ستراتيجية كربوغا ان كربوغا كان يقصد حماية جناحه الايمن ، ولكنه ــ اى كربوغا ــ لم يدرك ان بلدوين كان ضعيفا الى الحد الذى لايستطيع فيه القيام بالهجوم (٩٢) • ومهما يكن من أمر فقد اضاع كربوغا هذه الاسابيع سدى •

ثانيا ــ الحوار الذى جرى بين كربوغا وابن ياغي سيان حول القلعة : ان هذا النقاش يدل دلالة واضحة على عدم وجود الثقة بين الاثنين • فقد أصر كربوغا على تسلم القلعة على اساس أن تكون خط دفاع ينسحب اليه المسلمون ، ولكن شمس الدين بن ياغي سيان فضل ان يحتفظ بالقلعة ريثما يتم احراز النصر • ومع ان كربوغا حسم الموقف بأن أرسل من يستولى على القلعة الا ان هذا الجدل كان له أثر كبير في اضعاف معنوية المسلمين من جهة وتضييعهم الوقت من جهة أخرى •

ثالثا ــ ارتفاع معنوية الصليبيين بعد عثورهم على الحربة المقدسة : عندما ساءت حالة الصليبيين داخل انطاكية ، وأفرط الجوع فيهم واضطر بعضهم الى اكل الميتة ، (٩٥) وانهارت قواهم • ادركوا انه لابد من حدوث معجزة • وتحت وطأة هذا الشعور شاعت بعض القصص عن الحربة المقدسة ، وكيف ان الله ادركهم ، ووجه اليهم رجلا قرويا اسمه بورثلميو ، والذى ذهب الى ريموند واخبره بقصة الحربة التى كان المسيح قد طعن بها (٩٦)

وانها مدفونة بكنيسة « القسيان » في الكاتدرائية وانهم ان وجدوها فان النصر سيكون حليفهم والا فانهم مقبلون على الهلاك • وبعد ثلاثة ايام من الصوم اتجهوا الى الموضع المذكور ، وبالفعل وجدوا الحربة فأبشروا بالنصر • ومهما يكن من أمر ، فان هذه القصة كانت عاملا مهما في رفع معنويات الصليبيين فتعلقوا بحدث ألهى ألهب حماسهم ووضعهم تحت حالة من الحماس الجمعى ، جعلهم يتدفقون الى خارج المدينة بكل قوة ونشاط الامر الذى كان له أثر في نصرهم •

رابعا ــ عدم تجانس جيش كربوغا : لقد كان عدم التجانس هذا الصفة التى ميزت جيش كربوغا • فقد تنازعته الخلافات بين الامراء العرب والترك • (٩٨) فأيد حمص على عداء مع امير فيح يوسف بن آبق • كما تفرق كثير من التركمان بتدبير رضوان ، (٩٩) على ما يبدو • وقد احس كربوغا بذلك فعمد الى الاتصال برضوان صاحب حلب • وعندما « ترادفت رسل الملك رضوان في اثناء ذلك الى كربوغا توهم دقاق من ذلك » • وهكذا كان النزاع مخيما على جيش كربوغا • ومع أن هارولدلامب يذكر بان هؤلاء الامراء ، على الرغم من تنازعهم مستقلين لسنوات بعيدة ، الا ان السبب العام الذى جمعهم هو دفاعهم عن الاسلام ، فان روح النهب والسلب والحصول على الغنائم كانت تسيطر على بعض قطاعات جيش كربوغا وبخاصة عرب بنى كلاب • (١٠١) لذلك بقوا يعانون خللا فى صفوفهم كان له اثره فى هزيمتهم • (١٠٢)

خامسا ــ عدم وجود خطة عسكرية واضحة فى ذهن كربوغا : من خلال هذا الاستعراض للاحداث يظهر لنا ان كربوغا كان لا يملك خطة عسكرية يستطيع بموجبها قيادة جيشة • ولعل ابرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبته فى توجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون من انطاكية • (١٠٣) لربما خشى اذا اسرع بضربهم فسوف لا يقضى الا على مقدمتهم • (١٠٤) وهنا ارتكب خطأ عسكريا حيث ان الهجوم فى بعض الحالات افضل وسيلة

للدفاع • وما أن شاهد كربوغا تراص الطيبيين حتى اصيب بالذعر ولجأ الى الارتداد واستدراج العدو الى ارض مكشوفة ، وابلغ احد قواته بأن يعلن الانسحاب حالما يرى النار حيث انها ستكون اشارة الى ان المعركة قد اصبحت ليست من صالحهم • (٢٠٥) ولكن الصليبيين شددوا هجماتهم ، وتم لهم النصر •

سادسا ـ معاملة كربوغا لمعينته من الامراء : لقد ذكر بعض المؤرخين ان سوء معاملة كربوغا لمن معه من الملوك والامراء كانت سببا من اسباب هزيمته • فقد شعر بنوع من الاستعلاء على هؤلاء « وتكبر عليهم ظنا منه انهم يقيمون معه على هذا الحال » • (١٠٦) « فخبثت نياتهم » • (١٠٧) وقد ساهم ملوك كربوغا هذا وغطرسته فى السير نحو الكارثة • (١٠٨) علما بانه ليس من بين هؤلاء الزعماء من كان يستسيغ ان يكون تحت امرة كربوغا الذى ليس الا اميرا مثلهم • (١٠٩) هذا وقد يكون للجو الذى خيم على المعسكر الاسلامى اثر فى اقدام كربوغا على مثل هاتيك المواقف حيث بلغ النزاع والمنافرة بين الزعماء اشده ، فشعر كربوغا بان جيشه سيتمزق ، فاراد ان يحفظ النظام باستخدام سلطة مستبدة • (١١٠)

٥ ـ خاتمة :

وبعد ، لا بد أن نقول بان كربوغا قد ادى دوره فى الدفاع عن العالم الاسلامى ،مدركا مايتعرض له هذا العالمحينذاك من اخطار متمثلةبالعدوان الصليبي • وقد فتح الباب بذلك امام عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ليكملا المسيرة من بعده • وتتجسد امامنا هذه الحقيقة اذا ما علمنا بان عماد الدين ـ بالذات ـ قد عاش فى كنف كربوغا بعد مقتل والده ، حيث تعهده ، (١١١) •وقد يكون عماد الدين قد تحسس الخطر الصليبى خلال ملازمته لكربوغا •

لقد توجه كربوغا ، بعد الهزيمة ، الى الموصل ، حيث ساهم مرة اخرى فى الصراعات الاسرية التى نشبت بين بركياروق ومحمد • وفي سنة ١١٠٠

أرسله السلطان بركياروق الى اذربيجان فاستولى على معظمها • (١١٢) وعندما وصل الى مدينة خوى (١١٣) سقط مريضا • وبعد ثلاثة عشر يوما توفى فى منتصف ذى العقدة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١م) في بلدة خوى نفسها حيث دفن هناك • (١١٤)

أما الموصل فقد تولاها من بعده موسى التركماني وهو نائب كربوغا فى حصن كيفا الذى كاتبه الموصليون بعد سماعهم بنبأ وفاة الامير قوام الدولة ابو سعيدكربوغا • (١١٥) •



الهوامش

(١) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب فى معجم الالقاب ، جـ ٤ ، ص ٨١٩

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠

(٣) ابن القلانس ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢١

(٧) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣ .

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٨

(٩) الذهبي ، العبر فى خبر من غبر ، جـ ٣ ، ص ١٠

(١٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٩

(١١) ابو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، جـ ١ ، ص ١٢٣

(١٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨

(١٣) ابن القلانس ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(١٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١١٨ .

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٩ .

(١٧) ابو الفداء ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٣

(١٨) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨

(١٩) حسن حبش ، الحرب الصليبية الاولى ، ص ٤٨

(٢٠) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩١

(٢١) المعرة : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماه.

(٢٢) ارتاح : اسم حصن منيع من اعمال حلب .

(٢٣) ويسمى لذلك نهر حماه . وقد سمي بالعاصي لان غالب الانهر تسقى الارض بغير دواليب ونواعير . ماعدا نهر حماه لايسقى الا بنواعير تنزع

الماء منه . ويسمى ايضا النهر المكوب لجريه من الجنوب الى الشمال واسمه القديم نهر الاورنت (الاورنط) انظر : ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٢٤) الجسر الحديد : يقع فى الشمال الشرقي من انطاكية على مسافة نصف يوم سيرا على الاقدام بين حارم وانطاكية .

(٢٥) المؤرخ المجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د. حسن حبشي ، عن اللاتينية وسنشير اليه بـ « اعمال الفرنجة فقط » .

(٢٦) رونسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢٧) انطاكية : بناها الملك انطيفونيا على نهر اورنطس وسماها على اسمه انطيوفيا . وقد وصفها المؤرخ المجهول (ص ١٠٣) بانها مدينة رائعة عظيمة . اذ يوجد داخل اسوارها اربعة جبال ضخمة ويقوم على اعظمها ارتفاعا حصن حصين . وعلى السفح تمتد المدينة وهي محاطة بسورين وفيه (٤٥٠) برجا .

(٢٨) Oldenbourg., The Crusades, P. 106.

(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٤

(٣٠) اعمال الفرنجة ، ص ٥٠

(٣١) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٢

(٣٢) اعمال الفرنجة ، ص ٥٥

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥

(٣٤) Mayer, H. E., The Crusades, P. 71

(٣٥) Ibid., P. 71

(٣٦) اعمال الفرنجة ، ص ٥٦

(٣٧) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٠٩

(٣٨) اختلفت المصادر العربية فى رسم اسم فيروز هذا فهو عند ابن الاثير فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ « روزبة » وعند ابن القلانس ص ١٣٦ « فيروز » وعند ابن العديم وعند ابن العديم « فيروز » . ولم يذكر ابن الاثير ولا ابن العديم جنسه وذكر ابن القلانس انه « ارمنى » اما المؤرخ المجهول فيذكر انه « تركى » وذكر الدويهى فى تاريخ الازمنة ص ٨ « قيل انه كان نصرانيا » .

(٣٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٤٩٨

(٤٠) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤

(٤١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٣

(٤٢) الدويهي ، تاريخ الازمنه ، ص ٨

(٤٣) اعمال الفرنجة ، ص ٦٦

(٤٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٣

(٤٥) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨

(٤٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٤

(٤٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٥٥ .

(٤٨) ارمناز ، قرية من ناحية انطاكية بالشام . انظر الحموى : معجم البلدان نجـ ١ ص ١٥٧ .

(٤٩) ابن القلانس ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥١) عم : قرية بين حلب وانطاكية . انظر : الحموى ، المصدر السابق . جـ ١ ص ١٥٧

(٥٢) انب : حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . انظر : الحموى :المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٠

(٥٣) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥٤) Atiya, Crusade, Commorce and Culture, P. 61.

(٥٥) شيزر : قلعة تشتمل على كوره بالشام قرب المعره ، بينها وبين حماه يوم : انظر : الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٥٦) البارة ، بليدة وكوره من نواحى حلب وبها حصن . انظر الحموى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ .

(٥٧) رونسيمان ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٥٨) بحيرة العمق او بحيرة عذبه المياه بينها وبين انطاكيه ثلاثة اميال فى موقع يقال له « العمق » انظر : الحموى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥١

(٥٩) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٦٤

(٦٠) حارم : حصن حصين وكوره تجاه انطاكية : انظر : الحموى ، المصدر السابق حـ ٢ ، ص ٢٠٥

(٦١) ابن القلانس ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٦٢) Krey, The first Crusade, P. 164.

(٦٣) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤

(٦٤) رونسيمان : المصدر السابق ، ص ٣٠٥

(٦٥) The Encyclopadia of Islam ,,Art "Kurbouka," P. 1129.

(٦٦) اعمال الفرنجة ، ص ٧١

(٦٧) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٦

(٦٨) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨

(٦٩) Brundage, op. cit., p. 57

(٧٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

(٧١) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٦

(٧٢) Brundage, op. Cit., P. 57

(٧٣) Sctton, A history of Crusades, P. 320.

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧ وكذلك ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٦

(٧٥) Stton, or Cit. 320

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٧

(٧٧) Kerr, The Crusades, P. 25.

(٧٨) Krey, op. Cit., p. 163.

(٧٩) Brundage, op. cit., p. 61

(٨٠) Archer, The Crusades, P. 74.

(٨١) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٢) المصدر نفسه ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٣) Archer, op. cit., p.75

(٨٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٥) Camp, The Crusades: Iron men and Saints. P. 167.

(٨٦) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٧) Mills, The history of the Cruasde for the recovery and possess ion of the Holy P. 213

(٨٨) ويذكر الدويهى فى تاريخ الازمنة ان الهزيمة وقعت فى ١٨ حزيران سنة ١٠٩٨

(٨٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، حـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(٩٠) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٩١) Krey, op. Cit., P. 103.

(٩٢) رونسيمان ، المصدر السابق ، ص ٣٢٨

(٩٣) اعمال الفرنجة ، ص ٧٢

(٩٤) لربما ان احمد بن مروان كان على صلة بالصليبيين ، خاصة وانهم قد اعطوه الامان واستخدموه فيما بعد ، اذ دخل فى خدمتهم .

(٩٥) Mayer, op. cit., P. 55

(٩٦) Brundage, op. Cit., P. 57

(٩٧) ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ١٩٦

(٩٨) Keed, op Cit., P. 25.

(٩٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

(١٠٠) Seteon, op. Cit., P. 322.

(١٠١) Comp. op. Cit., P. 163

(١٠٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، حـ ١ ، ص ٢٠٩

(١٠٣) اشار بعض الامراء ومنهم وثاب بن محمود على كربوغا بوجوب ضرب الصليبيين اولا فاول فرد عليهم كربوغا بان « امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » انظر : ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١ ، ص ٢٧٧ وكذلك ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(١٠٤) رونسيمان ، المصدر السابق ، حـ ، ص ٣٥٠

(١٠٥) Archer. op. Cit., p. 75

(١٠٦) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ، ص ٢٧٧

(١٠٧) ابو الفداء ، المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ١٢٥

(١٠٨) he Encyclopedia of Islom vul, II, P. 29

(١٠٩) Setion, op. Cit., 322,

(١١٠) رونسيمان ، المصدر السابق ، حـ ، ص ٣٥٠ .

(١١١) ابو شامه ، الروضتين فى اخبار الدولتين ، حـ ١ ، ص ٢٧ .

(١١٢) ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ، ص ٦١

(١١٣) خوى : بلد مشهور من اعمال اذربيجان .

(١١٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٣٤١

(١١٥) العمرى ، منهل الأولياءومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، ورقة ٢٩ .



المصـــادر والمراجع

ابن الاثير الجزرى ، ابو الحسن علي بن ابى الكرم الملقب عز الدين (ت ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٤)

التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية فى الموصل ، تحقيق الدكتور أحمد طليمات ، (القاهرة ، ١٩٦٣)

الكامل فى التاريخ ، حـ ١٠ ، (طبعة بيروب ١٩٦٦) .

ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **العبر وديوان المبتدأ والخبر فى اخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم مـن ذوى السلطان الاكبر** ، المجلد الخامس (بيروت لا . ت) .

ابن العبرى ، غريفورس ابو الفرح الملطي (ت ١٢٨٦)

تاريخ مختصر الدول ، (بيروت ، ١٩٥٨)

ابن العديم ، كمال الديـن ابـو القاسم عمر بن احمد بن هبـة اللـه (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م)

زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق د . سامى الدهان ، حـ ٢ ، (دمشق ، ١٩٥٤) .

ابن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ) ، **تلخيص مجمع الآداب فى معجم الالقاب** ، حـ ٤ ، حققه د . مصطفى جواد ، (دمشق ، ١٩٦٧) .

ابن القلانس (ت ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م) ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي بن محمد : **ذيل تاريخ دمشق** ، (بيروت ، ١٩٠٨)

ابن كثير الفرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفداء بن كثير : **البداية والنهاية فى التاريخ** ، حـ ١٢ ، (القاهرة ، ١٣٥٨ هـ)

ابو شامه (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان : **الروضتين فى خبر الدولتين** : حـ ١ ، (القاهرة ، ١٢٨٧ هـ) .

ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) عماد الدين ابو الفداء اسماعيل : **المختصر فى اخبار البشر** ، حـ ١ ، (بيروت ، لا . ت) .

الحموي ، ياقـوت (ت ٦٢٦ هـ) ، **معجـم البلدان** ، حـ ١ ، حـ ٢ ، (بيروت ١٩٥٥) .

الديهى (ت ١٧٠٤ م) ، البطريك اسطفانوس الدويهى :
تاريخ الازمنة : نشرته مجلة المشرق ، السنة ٤٤ ، بيروت ١٩٥١ .

الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م) الحافظ الذهبي
العبر فى خبر من غبر ، حـ ٣ ، تحقيق فؤاد سيد ، (الكويت ـ ١٩٦١) .

العمرى ، (ت ١٢٣٢ هـ) ياسين بن خير الله الخطيب ،
منهل الاولياء ومشرب الاصفياء فى سادات الموصل الحدباء ، مخطوطة فى المتحف العراقي ببغداد تحت رقم ١٥٦٤ .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) ، ابي العباس احمد بن علي :
صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، حـ ٤ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) .

المؤرخ المجهول (كان حيا سنة ١٠٩٥ م)
اعمال الفرنجـة وحجاج بيت المقـدس ، ترجمـة د . حسـن حبش ، (القاهرة ، ١٩٥٨) .

رونسيمان ، ستيفى ، **تاريخ الحروب الصليبية** ، ترجمة د . السيـد الباز العريني ، حـ ١ ، (بيروت ، ١٩٦٧) .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، **الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى** ، حـ ١ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) .

يوسف ، جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى (القاهرة ، ١٩٦٣)

Atiya, A.S., **Cr sade, Commerce and Culture,** (Bloomington, 1962).
Archer, T.A., **The Crusades, The story of Nation** (London,s1894).
Barker, E., The **Crusades, The Crusades,** (London, 1949).
Brundage, J.A., The Crusades, (Wiscon-Sin, 1962).
Krey, A.C., The first Crusade, (Princeton, 1958).
Kerr, J.C., The Crusades, (London, 1760).
Lamp, H., The Crusades, Iron men and saints, (London, 1935).
Mills, C., **The history of the Crusades for the Recovery and possession of the Holy land,** Vol, L, (London, 1820).
Mary, H.E. **The Crusades,** Tr, by John gillinghem, (Oxford, 1972).
Oldenbonrg.z., **The Crusades,** Tr by F.A. Carter, (New York, 1965).
Setton, K.M. (ed) **A History of the Crusades,** (Philadelphia, 1955).
The Encyclopadia of Islam, Vol, II, Art (Kurbuka) London, 1921.



اللقاء الحضاري في الأندلس

دكتور عبد العزيز الأهواني
مصر

كل من يدرس تاريخ الحضارة في العصر الوسيط يعرف ويسلم بأن الاندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين حضارةاسلامية عربية مشرقية من جانب ، وحضارة مسيحية لاتينية اوربية من جانب آخر • ويسلمون ان هذا اللقاء كانت له آثاره التي يمكن رصدها في حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر وفى حياة اوربا الغربية فى آخر القرون الوسطى وفى عصر النهضة • وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبا وابحاثا عديدة، لعل اشهرها لقرب العهد به ولما أثاره من نقاش ومعارضة ماكتبه العالم الاسبانى Américo Castro (١) فى هذا السبيل • وكذلك كتب الباحثون الاوربيون عن تأثير الحضارة الاسلامية في الغرب الاوربى وسجلوا ماترجم الى اللاتينية من مؤلفات عربية ومادخل عن طريق اسبانيا العربية الى ذلك الغرب من آثار فى فروع العلم المختلفة وفي نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية • ويعتبر كتاب السيدة الالمانية Sigrid Hunpse (شمس الله على الغرب) (٢) من الكتب الحديثة في هذا المجال ويمتاز بالشمول وان لم يلتزم فيه المنهج الاكاديمى الدقيق • وآخر ماصدر محاضرات لمنتجمرى وات عن الموضوع •

ولكن القضية التي لم تكد تطرق هو قضية التأثير العكسى ، أى تأثير الحضارة المسيحية اللاتينية فى الاندلس العربية •

افرد ابن خلدون فصلا قصيرا في مقدمته بعنوان « فصل فى ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فيشعاره وزيهونحلته وسائر احواله وعوائده» وكان ابن خلدون قد زار غرناطة وعاش فيها فتره قبل تأليف المقدمة . فاتخذ من الاندلس مثالا تطبيقيا لهذا المبدأ الذى ذكره فقال : « حتى انه اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبيه والاقتداء حظ كبير كما هو فى الاندلس لهذا العنصر مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى فى رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمه انه من علامات الاستيلاء والامر لله » ص ١٤٠ طبعة بولاق ١٣٢٠ هـ .

ولايهمنا في هذا المجال بحث اسباب الاقتداء والتشبه وتفسير ابن خلدون لهما ، وانمايهمنا ماسجله ابن خلدون من مشاهدته لتأثير المجتمع الاسبانى المسيحى في المجتمع الاسلامى الاندلسى ، ثم لنسأل هل اقتصر على الجانب المادي والاجتماعى من الحياة ام شمل جوانب أخرى عقلية وروحية؟

ذلك هو الموضوع الذى لم يجد بعد مايستحقه من عناية المؤرخين والباحثين حقا . لقد كانت الحضارة العربية في الاندلس اكثر ازدهارا وتقدما من الحضارة اللاتينية فيكثير من الجوانب، وذلك يفضي بطبيعة الحال الى ان يكون العطاء من الطرف الاكثر تفوقا وان يكون الاستقبال ممن هو دونه .

ومع ذلك فان الظروف التاريخية للحضارة العربية فى الاندلس كانت تتيح اتصالا وثيقا لابد ان تكون له بعض النتائج في الحضارة الاندلسية ذاتها . منها أن المنطقة الاسلامية من اسبانيا كانت تشتمل على جماعات ضخمة من المسيحيين يعيشون داخل المجتمع الاسلامى حيث يمارسون شعائرهم الدينية ، ويحتفلون باعيادهم ومواسمهم ، ويحتفظون بتقاليدهم الشعبية ، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية حسب اعرافهم القديمة ــ ومنها ان

اللغات الاعجمية ظلت حية داخل المنطقة العربية ، وان كثيرا من العرب ومن المسلمين المستعربين كانوا يعرفون الاعجمية ويتكلمون بها فىحياتهم اليومية بجانب اللهجات العامية العربية . ومنها ان الاندلس العربية كان يعيش فيها عدد من علماء المسيحية الذين يعرفون اللاتينية ويتدارسونها ويعتبرون أنفسهم حملة لهذه الثقافة اللاتينية . ولم يكن الجدال الدينى لينقطع بين العلماء من اهل الملتين . الى ظروف اخرى لعل اهمها ان الحدود بين المنطقتين العربية واللاتينية لم تكن ثابتة ، وانما ظلت متأرجحة ، بحيث يفاجأ كثير من سكان الدولتين الاسلامية والمسيحية بتغير تبعيتهم السياسية نتيجة الحروب والتوسع او التقلص فى حدود الدولتين . ومن هذه الظروف ايضا اعتماداهل الدولتين الاسلامية والمسيحية على مناصرة اخوانهم فى الدين ممن هم خارج حدود اسبانيا ، فاعتمد المسلمون على المغاربة واعتمد المسيحيون على دول العالم المسيحى في اوربا الغربية فكان يتدفق على كلا الجانبين انصارهما من الجنوب والشمال طلبا للجهاد او التماسا للمغانم .

وقد كان لهذا كله آثاره الواضحة فى الحياة السياسية في الاندلس ، وفي انواع الفتن والثورات التى قامت . وفى النظم الادارية وفى الحياة الاقتصادية .

ومع ذلك فان المؤرخين السياسيين لاسبانيا خلال العصر الوسيط لايكادون يبرزون في وضوح اثار هذه الظروف وابعاد هذا اللقاء او الصراع فى كتاباتهم التاريخية والاقتصادية ، فضلا عن الاجتماعية والثقافية ، وهم ـ اميل الى ان يعالجوا قضايا التاريخ السياسى فى كل منطقة على حدة ، منفصلا عن مشاكل المنطقة الثانية ، ويتناولوا الغزوات والمعارك الحربية بين الطرفين فى اطار العلاقات الخارجية بين الدول اكثر من تناولهم لها باعتبارها جزءا من التكوين الداخلى للمجتمعين المتحاربين . وكذلك نجد العناية بالجانب الاقتصادي من حيث تأثره المباشر بهذا اللقاء الحضارى ، ضيق النطاق محدود الابعاد .

واذا عدنا الى القضية الاولى وهى تأثر الاندلس الاسلامية حضاريا بأسبانيا المسيحية وجدنا ان مجال الدراسة كان ولا يزال شديد الضيق • ولا أعرف لاحد جهدا كبيرا في هذا السبيل الا جهد المستشرق الاسبانى سيمونت • .Simonet في الجانب اللغوى • فانه فى كتابه او معجمه عن الالفاظ اللاتينية الاصل الذى استخدمها المستعربون (٣) يقدم احصاء لتلك الالفاظ كماوردت فى المؤلفات العربية • وقد اضيف الى هذا الجهد جهد آخر للمستشرق الهولندى دوزى فى تكملته للهجات العربية ، كما اضاف كاتب هذه السطور الى القائمة ما استخدمه من كتاب ابن هشام اللخمى عن لحن العامة • كانت هنالك اضافة اخرى صدرت عن اكتشاف الخرجات الاعجمية وعن دراسة ديوان ابن قرمان واسهم فيها كثيرون وعلى رأسهم المستشرق الاسبانى جارثيا جومث ، كما كان لكاتب هذه السطور جهد في ذلك •

فاذا تجاوزنا الجانب اللغوى ، أو جانب المفردات اللغوية بعبارة ادق فان دراسة اساليب التعبير اللغوى لم تدخل فى نطاق هذه الجهود ــ الى جوانب اخرى وجدنا جهد الاستاذ جارثيا جومث فيمجال الاوزان الخاصة بالموشحات والازجال ومحاولته اثبات ان هذه الاوزان تأثرت باوزان اسبانية قديمة ، وانها تسير على غير النمط العربى الكمى ، بل على عدد المقاطع ومواضع النبر •

وليس من شك فى أن هنالك صعوبات موضوعية وعقبات تحويل دون اكتشاف تأثير الحضارة الاسبانية فى الحضارة العربية ، اهمها في نظرنا ضياع كثير من النصوص وخاصة النصوص النثرية التى تتصل بالاداب شبه العامية من قصص واساطير ، وخلو المكتبة الاندلسية من مؤلفات تصف الحياة اليومية للناس وتتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم وانماط معيشتهم • فمن المعروف ان المثقفين القدامى كانوا يحتقرون هذه الانواع الادبية غير الكلاسيكية • فلما قرأنا ديوان ابن قزمان وجدنا فيه ما يدل

مثلا على احتفال الاندلسيين برأس السنة الميلادية (ينير) ، وما يدل على الاحتفال بزمن العصير بما يشبه ما يعرف فى اوربا باسم Vendimia

وسبب آخر اقرب لان يكون سببا نفسيا لـدى الباحثين العـرب المحدثين فانهم ـ فيما يبدو ـ يعتقدون ان القول بتأثر الحضارة الاسلامية العربية بالحضارة المسيحية اللاتينية مما ينقص من قدر ثقافتنا القومية،وهم اميل لان يجعلوا تطورها وما يستحدث فيها صـادر من داخلها أو من ذاتها، لا من تأثير اجنبى وافد عليها من الخارج. ولاأرى داعيا لهذا التحرج ولا أجد ان الاخذ عن الاجنبى ينتقص من شأن الاخذين مادامت الحضارة الآخذة لا تفقد شخصيتها ولا تقع في التقليد الاعمى .

وبناء على هذا أرى انه مما يفيدنا علميا لاستكشاف تطورنا الحضارى ورصد دقائقه فى الاندلس وغيرها من مواطن اللقاء الحضارى أن يكـون الدارس متنبها الى احتمال هذا التأثر وهو يقرأ ما بين يديه من نصوص .

وقد حاولت شيئا من هذا اثناء قراءتى للادب الاندلسي ، وخرجت بأشياء قليلة اضعها بين أيدى الدارسين لعلها تفتح بعض النوافذ في هـذا الجدار الاصم القائم بين الحضارتين اللتين عاشتا معا في أسبانيا خـلال قرون طويلة ، لا سيما فيما يتصل بتأثر الحضارة العربية ، نظرا لان تأثيرها اكثر معرفة ووضوحا .

أولا ـ الترجمة عن اللاتينية :

(أ) معروف ان حركة الترجمة الى اللغة العربية قديما كانـت فى المشرق من اليونانية فى المرتبة الاولى ، ثم من الفارسية والهندية . ولا نكاد نعرف شيئا ترجم عن اللاتينية . وقد استفادت الحضارة الاندلسـية من هذه الترجمات المشرقية . ولكنها التفتت بحكم المجاورة والمعايشة الى اللغة اللاتينية .

ومن الثابت ان كتابا للمؤرخ اللاتينى (هروشيين) Paulus Orosius من أهـل القـرن الخـامس الميـلادى قد ترجـم الى العـربية في عهد عبد الرحمن الناصر او الحكم المستنصر وهو الكتاب الذى عنوانـه فى اللاتينية Historoarum aduersus paganos. (٤) وتوجـد الترجمة العربية لهذا الكتاب محفوظة في مكتبة جـامعة كولومبيـا في نيويورك (٥) وقد استفاد ابن خلدون والمقريزى من هذه الترجمة واشار الى الكتاب ابن جلجل (٦) .

وفي الترجمة العربية لهذا الكتاب اضافات تكمل تاريخ القوط الى دخول طارق بن زياد عليهم ، وقد نقلت هذه الاضافـات عـن مؤرخين لاتينيين .

(ب) وحين يتحدث العذرى (احمد بن عمر بن انس المعروف بأبن الدلامى ت ٤٧٨هـ) عن مدينة طالقة Italica القريبة من اشبلية ويذكر حكامها قبل الفتح الاسلامى نجد مثل هذه العبـارة « ويذكر فى بعـض الكتب المؤرخة للاخبار القديمة ان أشبان بن طيطش ... الخ » (٧) وحين يذكر الملك القوطى شفغوط Sisabuto (٦١٢ ـــ ٦٢١ حكمه) يقـول « وكان بصيرا بالكلام عارفا بالكتاب . وكان عصره عصر علوم . وأهـله اهل تهمم وفي ايامه كان اشيذر العالم يعلم الكتاب » .

والشيذر الذى يشير اليه هو san Isioloro اسقف اشبلية المشهور صاحب المؤلفات المعروفة (توفى ٦٣٦) بما يدل على ان المسلمين في اسبانيا عرفوا كتب هذا العالم لا سيما ما يتصل بالتاريخ . وفي الحـق ان مراجعة ما كتبه العذرى عن ملوك القوط على ما أورده اسقف اشبلية عنهم يوحى بأن العذرى كانت بين يديه نصوص للقديس ايزيدور .

(هـ) ومما ترجم أيضا الى العربية من كتب لاتينية تلك المجمـوعة التى تشتمل على قرارات المجامع الكنسية الكاثوليكية • وهى المجموعة التى تحمل فى العربية هذا العنوان « جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس » وهى من محفوظات المكتبة الاهلية بمدريد (رقم ٤٨٧٩) وقد ترجمت هذه المجموعة في عهد الطوائف •

حقا ان هذه الترجمة الاخيرة قصد بأن ينتفع بها رجال الدين المسيحى ممن تعربوا فى اسبانيا ، ولكن الصراع الدينى في الاندلس والحواربين الملتين كان يدعو المسلمين الى الاطلاع على النصوص المسيحية •وقدكان بين يدى ابن حزم نصوص مسيحية ، هى غالبا مما ترجم عـن اللاتينيـة فى الاندلس ، يستغلها فى كتابه (العضل) •

وكذلك توجد اشارات فى نصوص عربية الى اللسان اللاطينى والى كتب الاعاجم ورواة العجم مما يدعو الى مزيد من التفتيش والبحث والتعقب لتوضيح هذا الجانب من الثقافة العربية وما اقتبسته عن اللاتينية او عـن الاسبانية •

ثانيا ــ على ان قضية التأثر بالثقافة المسيحية او الاسبانية لا ينبغى ان يقتصر فيها الى بحث مترجم من اللاتينية او اللغات الرومانسية الى العربية • ولعل هذا ان يكون أقل الجوانب تأثيرا ، وانما ينبغى ان يشمل الامر الثقافة الحية او الثقافة الشعبية التى تسربت مشافهة الى الثقافـة الاندلسية ــ فاذا وضعنا هذا في الاعتبار ونظرنا الى بعض ماورد في التراث الاندلسى وجدنا الكثير :

(أ) هذه الالفاظ الاعجمية التى استخدمها العرب والتى سجلتها كتب لحن العامة ، لها أو لبعضها دلالات بعيدة • مثل كلمة ــ ذتيلة ــ التى ذكرها ابن هشام اللخمى حيث يقول :

« ويقولون للطعام الذى يصنع عند نبات الاسنان للاطفال الذتيلة باللام والصواب الذتينة بالنون ، وهواسم اعجمى • وحكى الزبيدى فى كتاب طبقات النحو واللغويين قال : اخبرنى بعض الشيوخ انه نبت سن لبعض ولد الامير عبد الرحمن بن الحكم رحمه الله ، فاحدث فيه ما يحدث الناس عند نبات اسنان الصبيان • فقال الامير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالاعجمية الذنتينة هل روى عن العرب فيه شيء ••• الخ » (٨) •

ومثل الفاظ ببطيرو فيجه و مرنده و كنبوش وهى فى الاسبانية Cambuj - Merienda - Faja - to abadero يضاف الى ذلك لفظ (ينير = يناير) عند ابن قزمان للدلاله على عيد رأس السنة الميلادية وكلها تدل على نفوذ المرأة المسيحية في المجتمع الاسلامى وعلى تقاليد اسبانية انتقلت الى مسلمى الاندلس •

(ب) وحين تتجاوز الالفاظ الى الاخبار والقصص سنجد في كتب التاريخ الاندلسي امثال قصة البيت المقفل فى طليطلة وكيف اصر لنديق آخر ملوك القوط على فتحه فكان نذيرا بدخول العرب الى اسبانيا • وقصة بنت يوليان صاحب سبتة مع ذلك الملك وكيف غيرت التاريخ • وكلها قصص اخذت بغير شك من التراث الشعبى المسيحى • وسيجد من يبحث نظائر لهذا فى كتب التراث الاندلسى ، وخاصة فى كتب الجغرافيا وما ورد فيها من عجائب البلاد والاثار القديمة والحقائق السحرية لبعض العيون والاشجار والازهار وفيما اورده العذرى ، وفيما نقله القزوينى عن الاندلسيين قدر صالح من هذا • وكذلك سيجد الباحث فى الكتب التى تتحدث عن صوفية الاندلس وكرامات بعض اوليائه ما يستشف ماوراءها من أساطير اسبانية الاصل (٩) •

(جـ) والشعر العربى ، لانه التراث الاصيل عند العرب ، يفترض انه الحصن الممتنع على التأثير الاجنبى ، والشعر الاندلسي بغير شك كان

يسير في فلك الشعر العربى • ومع ذلك فاننا نلمح احيانا في هذا الشعر ما يجعلنا نتوقف ونفكر فى قضية التأثر بالثقافة الاسبانية القديمة ، وان اختلفت الطرائق •

فقول الشاعر الاندلسي ابى عبد الله محمد بن مسعود (١٠)

حيران من دهشة كأنــي   قلبــق خانه الغديــر

وذكر ابن عبد ربه للدب وتحطيمه خلايا العسل ، وان ارتد ذلك الى امثال عامية فهو لا ينفى ان هذه الامثال فى بعض الاحيان ثمرة لقاء حضارى مرتبط بلغات عامية تعايشت وتبادلت التأثير •

هذا التراث الشعبى المشترك بين الثقافتين هو في نظرنا وفي نظر بعض الباحثين هو المصدر الذى انبثقت عنه الموشحات الاندلسية • ولا تزال الخرجة العامية او الاعجمية فى موشحات الاندلسيين تحمل من المعاني والاخيلة والاساليب ما يجعلها نمطا مختلفا عن الشعر العربى التقليدى (١١) • ويكفى ان يكون اكثر الغزل في الخرجات على لسان الفتاة تتغزل فى الفتى وتشكو حبها لامها لندرك مدى مخالفة هذه الخرجات من الغزل فى القصيدة العربية ومدى قربه من الاشعار البرتغالية القديمة التى تعرف باسم (Cantigas de Omigo) مما يدل على تراث محلى مشترك •

ثالثا ــ أما من حيث الفنون ، فقد أوردنا نص ابن خلدون عن التماثيل او الصور في بيوت الاندلسيين ، وهنالك نصوص كثيرة تذكر التماثيل في حمامات المدائن الاندلسية والصور على الابسطة ،فضلا عما وصل الينا من ادوات مصنوعة من العاج •

ولدينا فى الموسيقى نص صريح للتيناشى عن نوعين من الغناء عاشا فى الاندلس نوع اعجمى ونوع عربى • (وذلك في كتابه المخطوط ، متعة الاسماع في علم السماع (١٢) وان ابن باجه وافق بينهما •

وفي تجويد القرآن يقول الطرطوشي استنكارا لما يفعله المجودون حين يبلغ القراء فيه ذكـر المسيح « فمثلوا اصواتهم فيـه باصـوات النصارى والرهبان والاساقفة في الكنائس » (١٢) •

ان كل ماقصدته بهذه الاشارات السريعة هو التنبيه الى ان الدارسين للحضارة العربية في الاندلس ينبغي لكي يستكشفوا الصورة الدقيقة لتلك الحضارة العظيمـة ان يعيد بعضهم قراءة التراث العربى الاندلسى لعلهم يجدون فيه ما يزيديا معرفة باثار هذا اللقاء الحضارى الخصب الذى حدث على تلك الارض الغنية التى كانت حلقة اتصال بين عالمين وحضارتين •



المصـــادر والمراجع

(١) صدر الكتاب بالاسبانية فى بيونس ايرس بالارجنتين سنة ١٩٤٨ بعنوان :
Espana en su Historia.
ثم صدرت بعد ذلك طبعات مجددة بالانجليزية والاسبانية .
Cristionos, Morosy Iudios
حسنى عبد الوهاب (هامش ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) ترجم الى الفرنسية بعنوان : باريس سنة ١٩٦٣
Le Soleic D'Allh Brille sur.

ثم ترجم اللغة العربية .

(٣) Fn. J. Simonet, Slesorio de Voces Ibericas y latnes usadas pntre los Mozàrales. Nadrid I888

(٤) B. Sànchez Alonso, Historia de la historiografia espanola Atadrid 1976 ـ الجزء الاول ص ٦١ . ولد هورشيوس فى طركونه اوبرانة حوالى سنة ٣٩٠ .

(٥) انظر دراسة المستشرق الايطالي Y. Leui Della Viola عن المخطوط في مجلة Al-Anolalus (سنة ١٩٥٤) ص ٢٥٧ وما بعدها volxix Face 2 ـ ويشير الكاتب الى أن نسخة غير كاملة من ترجمة هروشبيش توجد فى مسجد عقبة بالقيروان بناء على مكاتبة من حسن

(٦) انظر طبقات الاطباء لابن جلجل ـ تحقيق فؤاد سيد ص ٢ (القاهرة المعهد الفرنسي ١٩٥٥) .
ـ نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهوانى ـ مدريد ١٩٦٥ .

(٧) نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهواني ـ مدريد ١٩٦٥ .

(٨) انظر : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٥٧ ـ المجلد الثالث ـ عبد العزيز الاهواني .

(٩) انظر على سبيل المثال ما نقله الدميري في حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩١ عن كتاب النصائح لابن ظفر عن راهبين اسلما ، وما رواه ج ٢ ص ١١٢ عن ابن بشكوال عن طائر فى بلاد الروم يحفظ دعاء .

(١٠) الذخيرة ١ ـ ٢ ص ٧٨ .

(١١) ناقشنا هذه القضية بشىء من تفصيل فى كتابنا (الزجل فى الاندلس ـ القاهرة ١٩٥٧) .

(١٢) المخطوط حسبما ذكر جارثيا جومث فى مكتبة ابن عاشور بتونس . وهذا الكتاب جزء من تأليف ضخم للتبفاشى بعنوان « فصـل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لاولى الالباب » والمؤلف احمد ابن يوسف التيفاشى من اهل القرن السابع (ديوان ابن قزمان ج ٣ ص ٣٥ . وقد نشر النص الخاص بالموسيقى فى مجلة (الفكر) التونسية بتحقيق حسن حسنى عبد الوهاب عدد يونيو ١٩٥٩ .



بناء الانسان العربي الجديد

دكتور بروفسور كارل بتراچك
Prof. Dr. Karel Petracek
Prague Czechoslovakia
الاستاذ بجامعة براغ

لا شك أن مفهوم الانسان في التعاليم الانثروبولوجية الاسلامية مبنى على علاقته مع الله • اذ بينما كانت نقطة ارتكاز نظرة الجاهلية الى العالم هي الانسان ذاته نرى ان الاسلام ينطلق من وجهة نظر اخرى ، فعلاقة الله التبادلية مع الانسان ، تشمل مستويات عديدة ، منها المستوى الانطولوجي ، الاتصالي الاخلاقي ، وال Hierarchy كما في علاقة السيد بالعبد •

واذا تطرقنا الى المستوى الانطولوجي بالذات نرى ان هنـاك علاقة الخالق بالمخلوق ، وهي علاقة ذات شكل واحد اى ان الله هـو المصدر الاول والاخير للوجود الانساني ، وهذا مؤكد في القرآن الذي يربط على جوانب الحياة الانسانية بمشيئة الله •

ان الاسلام الحديث ايضا يتخذ نفس الموقف من هـذه المسألة ، اذ لم يستغن قط على شكل علاقة الخالق بالمخلوق، وهذا ما يلاحظ بشكل جيد من خلال المناظرة الدائرة حاليا مع الدارونية (محمود شلتوت ١٩٦٦ وآخرون) •

ان علاقة الخالق بالمخلوق لا تقتصر على الله والانسان فقط ، بل تشمل الكون بكامله • وكل ما هو على الارض ــ هو خالق كل شيء

(١٠٢،٦) • أى أن الله خلق حتى البيئة والظروف الخارجيـة التي تحيط بالانسان ، وبذلك الغى امكانية تأثير الظروف على الانسان وعلى تطوره • الخالق •

اذن برمج وجود الانسان وظروفه ، اى انه لا وجود لاى علاقة سببية بين الانسان والظروف لان العلاقة الوحيدة هى بين الانسان والله ، وبين الله والظروف • يشهد على ذلك التفسير المعروف للتسبب عنـد الاشعرى وتلاميذه خاصة الباقلاني (انظر P. Antes, 1970 واخرون) •

غير انه بالرغم من ذلك ، نرى ان لمفهوم الظروف وجود فى الاسلام ، فقبل كل شيء يكون الرسول محمد بنشاطه واعماله عصرا نبويا جديدا ، ويحيط الانسان بظروف جديدة ، وينعكس ذلك (فى غير ما ينعكس) بحقيقة كون الرسول عربيا وكون الوحي قد نزل عليه باللغة العربية • وكذلك هو الحال فى التشريع الاسلامى الذى اخذ الكثير من الشرع المحلي (العرف ، والعادة) محترفا بذلك بتأثير الظروف •

والى جانب ذلك فان ممثلوا الاسلام الحديث يقبلون بدون تردد تأثير الظروف مثلا على تطور العلم (محمد الباهي ١٩٦٥ ، ٣٩٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣) • وعلى العلاقة بالدين الذى لا يتغير بحد ذاته (٤٥٧) • وفي بعض الاحوال الى حد حين تؤثر على تطور الانسان فى المدار الذى انتهى فيه الوحي وبدأ الانسان بالسير وحده حسب امكانياته الشخصية حتى وصل الى الاختلاف الممكن ظهوره مع الدين والوحى (محمد الغزالي) ان التغيير فى الظروف الاجتماعية يمكن ان يغير كذلك الرأى حول تعيين بعض ممثلي الشريعة الاسلامية (ابراهيم اللبان ١٩٦٤ ، ٢٥٦) • وبالمثل يقبل محمود شلتوت فى اعماله تفسير الكثير من الظواهر بدون الرجوع الى الاسلام ــ عندما لا ينوه عنها مباشرة في القرآن او السنة ــ ويسمح

فى مثل هذه الحالات ان يرجع الى العقل الانسانى ، وان يكون لزمن الظروف اعتبار • بينما يحتفظ الاسلام فى كل الاحوال بشمول مفهومه للزمن •

وفي المقابل نرى أن الكثير من المحدثين الذين لا ينطلقون من وجهات النظر الاسلامية يؤكدون بشدة على اهمية الظروف لحياة وتطور الانسان ولحل الكثير من المسائل الاجتماعية ومسائل اخرى (انظر العروى ١٩٦٧ ، زكي نجيب محمود ١٩٦٨ ، واخرون من اللذين يكتبون عن الاشتراكية العربية من امثال عصمت سيف الدولة ١٩٦٥) انظر
K. Petracek, 1969/a, 1968/b.

ان هؤلاء المحدثين يأخذون مواقف معروفة فى تيارات العلم والفلسفة الاوروبية التى تجهل من حقيقة تفاعل الانسان مع البيئة احد العوامل المهمة لتطور الانسان والحياة برمتها • ويكون الدور الرئيسي فى هذا التفاعل للعمل ، الذى يترتب عليه تغير الظروف الطبيعية بالاضافة الى تغير الانسان ذاته • ان بناء فكرة الانسان على العمل وعلى الانسان نفسه هى مقولة معروفة في تيارات الفكر الماركسي F. Engles وكل الفكر الماركسي المعاصر •

هذا وقد اعطى الباحثون الغربيون اهمية كبرى للعلاقة بين الاسلام والعمل ، فهناك فرضيات ماكس ويبر Max Weber التي انتقدها الاسلامى Mexime Rodinson (١٩٦٦) ، ولدينا ايضا تحليل روذنتال F. Rosenthal (١٩٧٠) لمفهوم العلم والمعرفة وعلاقته بمفهوم العمل (او الممارسة) •

وبالرغم من ان الاسلام التقليدى مثلا (الغزالي فى كتابه ميزان العمل) يقيم العمل ايجابيا لا يظهر ابدا اى تأسيس انطولوجى للانسان فى العمل • وهذا بالطبع عائد الى الانثروبولوجية الاسلامية التي سبق الكلام عنها •

ان تقييم العمل فى الاسلام الحديث يبدأ في مؤلف رفاعة الطهطاوى الذى يرى فى العمل اصل كل القيم (انظر انور عبد الملك ١٩٦٥) • واداة لتحسين احوال المجتمع البشرى ، ومصدر للثروة التى لا يتم توزيعها بشكل عادل (رفاعة السعيد ١٩٦٩) وهكذا نرى لاول مرة فى تاريخ الفكر العربى تقييم (على طريقة الاشتراكيين الاوروبيين) للعلاقة بين العمل والقيم ورأس المال ، فينتقد الاستغلال برأسمالي • ويطالب بتدخل الدولة لحماية العمال امام استغلال الملاكين او الرأسماليين (لويس عوض ١٩٦٩) •

وهناك تقييم آخر انساق فى تيارين مختلفين ، احدهما تيار الفكر الاسلامى الحديث ممثلا بجمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، رشيد رضا ••• واخرون والاخر تيار يمثل الليبرالية الحديثة المتصلة بتطـور الفكر العلماني والمجتمع الحديث • الا ان ما يهمنا هنا ليس تتبع هذا التطور وانما ما وصل اليه فى الوقت الحاضر ، وسنعتمد بشكل خاص على المراجع المصرية •

نستطيع ان نقسم تيارات الفكر الحديث الى ثلاثة اقسام وذلك نسبة الى الملامح التي يعطوها للانسان العربى المعاصر (انظر K. Petracek ١٩٧٣) فهناك الانسان الاسلامى والانسان القومى العربى الاشــتراكى والانسان الطبقى • ان النموذج الاول موجود فى مخطوطات مفكرى الاسلام اما الثاني فعند كتاب الاشتراكية العربية والثالث هو خـاص بالماركسيين (في اوروبا كما فى العالم العربى) •

ولعله من المستحسن ان اقدم باختصار التحليل الذى قمت به فى مكان آخر (K. Petracek ١٩٧٣) عن مواقف هذه النماذج من ظاهرة العمل •

شخصية الانسان الاسلامي والعمل

ان الفئر الاسلامي المعاصر (O. Carre ١٩٧٠ ، جمال الدين العياد ١٩٦٧ ، عبد المنعم خلاف ، محمد الغزالي ١٩٦٣ ، ١٩٦٠ محمد الباهى ١٩٦٥) يؤكد على قيمة العمل ويرفع منها في نماذج الانسان الاسلامى المعاصر معتمدا فى ذلك على نصوص وامثلة من القرآن والسنة ويشير أيضا فى هذا المجال الى تجارب اوروبا الناجحة والى روح العصر ، ويطالب بتقييم جديد للعمل والوقت الذى هو احد ابعاد العمل • ان العمل هنا يرتبط بشكل رئيسي بالاخلاق ومن حين الى آخر بالمعرفة وتصبح لـه قيم ميتافيزيكية اذ ينادي به كقيمة لها وزنها في هذا العالم وفى العالم الاخر ايضا • ويتطرق موضوع العمل فى ناحية اخرى الى المسألة الانطولوجية فهو ـ اى العمل من مميزات الانسان كمخلوق اجتماعي ، وتتيجة لطبيعة عقله وغريزته ، يسبب له السرور ويزيده بالنفع • الا ان الانسان لا يملك القدرة على الخلق لان هذه القدرة هى لله وحدة ، وعليه فان انطولوجية الانسان ليست فى العمل ، ان اساس الانسان يكمن فى الله والدين الاسلامى لا يتخطى حدود هذه الفرضية •

شخصية الانسان الطبقي والعمل

ان هذا النموذج يمثل المفكرين الماركسيين في العالم العربى وهم مخلصين للمفهوم الماركسي الذى هو باختصار ـ الانسان ذو قيمة نوعية فى عملية تحويل العالم المادى والانتاج هنا هو حياة ذات نشاط نوعى ، ومن خلال هذا النشاط تظهر الطبيعة كما لو كانت من صفة وتتيجة لنشاطه (الانسان) •

ونظر الى الاتفاق العام لمفكر هذا التيار في العالم العربى نرى ان نرجع الى أعمال بعضهم فقط (فؤاد مرسي ١٩٦٧ ، راشد البراوى ١٩٦٣) • اذا كان التاريخ من صنع الانسان وتتيجة للعمل والتعاقب الزمني ، ولان الطبيعة تسخر خلال ذلك بشكل متزايد لخدمة الانسان ، يظهر الدليل

على ان الانسان خلق نفسه ، وهذا ما جاء على لسان فؤاد مرسي معبرا عن اهمية وفعالية العمل فى الوجود الانسانى • ان انصار الفكر الاسلامي لا يمكن ان يقبلوا بهذا الموقف •

ان النشاط الانساني هو ايضا عامل مهم لتغير الاحوال المتأخرة فى العالم العربي • وهكذا يدخل العمل الى الهيكل البنائي للمجتمع • والجدير بالذكر ايضا ان العلاقة بين النظرية والممارسة لا تزال احدى المسائل الراهنة فى مختلف اعمال الفئات الماركسية فى العالم العربى (B. Tibi ١٩٦٩) •

شخصية الانسان القومي العربي الاشتراكي والعمل

ان كمية الكتب التي تتناول موضوع الاشتراكية العربية لا تحصر لذلك سنقتصر عنها على بعض المراجع • —

ففي المواثيق الرسمية (مصر ١٩٦٢ ، السودان ١٩٧٠ ، العراق ١٩٧١) نجد ان العمل يقيم دائما ايجابيا ، وفى بعض الاحوال يوصف كالطريق الوحيد للوصول الى اهداف المجتمع •

وتقف الدوائر ذات الاتجاهات اليسارية (من حول مجلة الكاتب انظر Hanna Gardner ١٩٦٩) كموقف عصمت سيف الدولة المتأثر بـ Sarter, Bergson (٩٦٥ و ٩٦٨) معطية للعمل قيم ايجابية • فالمؤلف عصمت سيف الدولة يربط بين الحرية والعمل ، ويرى ان ميزة الانسان هو في انه يغير الظروف التي تحيطه • وهو — اى الانسان — يقوم بذلك من خلال تعرفه على القوانين الطبيعية واستعماله لها لخدمة مصالحه الخاصة • العمل هو اذن تعريف نوعي للانسان اى ان له قيمة انطولوجية • وينسب راشد البراوى (انظر S. Wild ١٩٦٩) للعمل قيم انسانية واقتصادية • اما عبد الحميد مرسي وعدلي سليمان (١٩٦٢) فيتكلمان عن الجانب الاخلاقي للعمل ، ونجد ذكر اهمية

العمل فى الاعمال المخصصة للدعاة (احمد جمال الدين كاشف) وكذلك في المطبوعات الاقتصادية ذات الاتجاه الاشتراكى (علي البارودى ١٩٦٧ ، جلال احمد امين ١٩٦٦ ، موسوعة الهلال الاشتراكية ١٩٦٨) وفيما عدا ذلك فى مطبوعات الاعداد السياسي (رشدى ابراهيم حسان ١٩٦٣) وحتى فى الصحف اليومية مثلا فى الاهرام ١٩/٥/١٩٦٧ ص ٧ يوجد مقال عن شخصية مصر واهمية العمل •

وهكذا نجد ان نموذج الانسان القومي العربى الاشتراكى يقيم العمل ايجابيا فى مستويات النصوص التي قدمناها ، وكما هو الحال فى نموذج الانسان الطبقى (الماركسي) يكون للعمل قيمة انطولوجية بشكل ان الانسان يبني نفسه من خلال بقائه لتاريخه وتؤكد صفات العمل الاجتماعية والاقتصادية ويربط بينه وبين الاشتراكية •

وغالبا ما يقيم العمل اخلاقيا ونفسيا ، وتكرر الاشارة الى موقف الاسلام الايجابى من العمل •

وفى ليبيا ايضا نجد ان للعمل قيم ايجابية فى جميع الاتجاهات (الاقتصادية ، الاجتماعية ، النفسية ، والاخلاقية) وينظر اليه كاثبات للوجود الانساني • وهو ـ العمل ـ يفسر من وجهة نظر اسلامية ، ولكن المجال هنا لا يتسع لتقديم الامثلة •

ان مثل هذه المواقف هى بدون شك موجودة في انحاء اخرى من العالم العربي • وفى الختام يمكننا ان نلخص العلاقة بين ما ذكرناه عن التيارات الفكرية (والنماذج التى تمثلها) بالشكل التالى ـ بالنسبة لتقييم العمل تختلف نماذج الانسان الطبقى ، والانسان القومى العربى الاشتراكى مع النموذج الاسلامي في المستوى الانطولوجي ، اما فى المستويات الاخرى فتلتقى جميع النماذج على تقييم العمل تقييما عاليا (اخلاقيا واجتماعيا) •

وينفرد النموذج الطبقي والنموذج القومي العربى الاشتراكى فى رؤيتهم للعمل كأساس للوجود الانساني ، والانسان عندهم يخلق نفسه بنفسه ، بينما لا يمكن ان يقبل مثل هذا الرأى فى الاسلام الذى يبقى محتفظا بالعلاقة التقليدية بين الانسان والله كما سبق ان اشرنا .

ان هذا التركيب للفكر العربي كما نظرنا اليه من خلال علاقته بالعمل هو بالطبع نتيجة التطور التاريخى والتحرك الاجتماعى والفكرى فى العصر الحديث ، ولا شك ان هناك مصالح اجتماعية وطبقية فى خلفية هذه الظاهرة ، ومن المؤكد ايضا أن أحد تلك النماذج ذو عمل اوربى ــ ونقصد النموذج الطبقى فى الفكر الاوروبى الاشتراكى (الماركسي) الذى يرى فى العمل اساس الوجود الانسانى ، وهذا ما استحال وجوده في النموذج الاصلي لفكر المجتمع العربى (الفكر الاسلامى) . واذ نجد الآن مثل هذه الاراء عند النموذج العربي القومي الاشتراكي فيسعنا بالتالي ان نحكم على ان هذه الظاهرة تعنى تحرك الفكر العربى من ذاتيته الاسلامية الى فكر أوروبى الشكل ولا يكون على الاقتباس الفكرى هنا اى مأخذ ،اذانه يستعمل لحل مشاكل عربية خالصة .

ان تقيم العمل الجديد كما اورده الفكر العلماني العربي فى شكل نموذج الانسان القومى العربى الاشتراكى هو في محله .

ان الانسان العربى الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق نفسه بنفسه من خلال الصراع مع الطبيعة وبذلك يستطيع ان يقف الى جانب آلهته ليقول ــ انا الحق .

ان الانسان العربى الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق للعمل كما تقره حدود ميتافيزيكية معينة من الفكر العربى القديم وبالاضافة الى ذلك يمكنه ان يمتد أيضا على مايقدمه الفكر الثورى الاوروبى .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية
في
سجلماسة عاصمة بني مدرار

دكتور الحبيب الجنحاني
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية

(أ) الفلاحــة :

يكاد ينحصر النشاط الفلاحي في سجلماسة وضواحيها في ميدانين :

أولا : الزراعة في بساتين الواحـة •

ثانيا : تربية الماشية •

يذكر الجغرافيون العرب البساتين الجميلة بواحة سجلماسة المقسمة الى احواض ترويها مياه الوادى بفرعيه الشرقي والغربى ، وهى التى تمـد سكان المدينة بأنـواع الخضر والثمار ، وقـد اشتهر منها العنب ، وزبيبها المعرش ، يقول البكري : « وهي كثيرة النخل والاعناب • وجميع الفواكه ، وزبيب عنبها المعرش الذى لا تناله الشمس منـه زبب فى الشمس » (١) • ويزرعون القطن ، والكمون ، والكرویاء والحناء التى يصدرونها الى سائر بلاد المغرب (٢) ، وأشهر انتاج الواحة هو أنواع تمورها طبعا ، وقد بلغت فى سجلما سة ستة عشر صنفا ، قال ياقـوت متحدثا عن رستاق النخيـل بضواحى سجلماسة : « وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقـل وأكثر أقوات سلجماسة من التمر وغلتهم قليلة (٣) • وتمثل انواع التمور هذه أبرز صادراتها الفلاحية الى جانب الحناء والماشية •

ان الاراضى المحيطة بالواحة هى اراضى صحراوية لا تسمح بزراعة الحبوب مثل سهول وادى شلف بالقرب من تاهرت ، ولذ فاننا نجد السلجماسيين يزرعون الحبوب السقوية في البساتين المقامة على الوادى ، ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتى النيل قائلا : « •• فيزرع بمائه حسب زروع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تلك الارض سنة فى عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب صلب المكسر ، ولذيذ المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب اخضر من السلق فى غاية الحلاوه » (٤) • ويسمى البكرى هذا القمح بالصينى ، ويسع مد النبى (صلعم) من خمسة وسبعين الف حبه •

اما معلوماتنا عن نوع الملكية العقارية في امارة سجلماسة اندر من الكبريت الأحمر ، وهي لا تختلف فيها عن نظام الملكية العقارية الذي نعرفه فى مناطق اسلامية في نفس العصر ، ولا سيما ما نعرفه عن ملكية الاراضى ببلاد الشام والعراق • ولكن يبدو ان هنالك تفرقة بين ملكية بساتين الواحة، وهى ملكية خاصة واضحة ، وبين ملكية المناطق خارج الواحة ، وهى تفرقة تفرقها طبيعة الارض فى منطقة صحراوية من جهة ، ونظام المراعى فى بيئة قبلية تعتمد تربية الماشية دعامة اساسية فى حياتها الاقتصادية ، هنالك اشارة سريعة اوردها ابن حوقل سمحت لنا بطرح هذه النقطة ، فهو يخبرنا : « انهم يبيحون البلاد للمراعى والزرع والمياه لورود الابل والماشية (٥) ، فالميدان الثانى للنشاط الفلاحى في اماره سجلماسة هو اذن تربية الماشية ، وقد ساهم الانتجاع الى واحتها بالمواشي فى اختيار مكان تأسيسها ، ان صحت الرواية التي تذكر ان ابا القاسم سمكو كان صاحب ماشية ينتجع بها الى براح سجلماسة قبل تاسيس المدينة •

(ب) الحـرف :

ان المركز التجاري الذى اصبحت تحتله سجلماسة ابتداء من نهايـة القرن الثاني الهجرى ، وما رافقه من تطور ديمغرافى ، وتقدم عمرانى قـد ساعد كل ذلك على نشوء انواع من الحرف وازدهارها، وابرز هذه الصناعات اليدوية صناعة النسيج المعتمدة على قطن الواحة ، وعلى الصوف المتوفر بمنطقة تافللت ، ولاسيما صوف حصن برارة في الطـريق بـين فارس وسجلماسة ، ويحدثنا عنه البكري قائلا : « وهو بلد يحسن فيه الغنم ... وصوفها من اجود الاصواف ، ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثـوب منها ازيد من عشرين مثقالا » . (٦) وقد اشتهر اللباس السجلماسى فى المشرق ، والمغرب ، والاندلس وهو يشبه الدرجيني فى ثوبه ولونه ، ولكنه يفوقه جودة (٧) .

وذاع صيت السجلماسيات بمهارتهن في صناعة النسيج : « ولنسائهم يد صناع فى غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا ، واكثـر كأرفع ما يكون من القصب الذى بمصر ، ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ، ويصبغونها بانواع الاصباغ (٨) .

والى جانب انواع الحرف المتعلقة بالبناء اشتهرت ايضا صناعة الاوانى الخشبية بسجلماسة ، وهى من شجر يعرف باسم الموضع الذى بنيت فيه أي التامجاثت«، ويصفه البكري قائلا : وهو شجر يعظم ورقه هدب كورق الطرفاء ، ومنه آنية سجلماسة ودرعة ، وما والاهما » (٩) .

ولا شك ان هنالك بعض الصناعات المتصلة بوفرة الذهب المجلـوب الى سجلماسة من بلاد السودان ، وهي باب تبرها ، وبما يستخرج من معادن درعه التى وظف عليها ابو المنتصر اليسع بن ابى القاسم الخصى ، وقـد رأينا وجود معدن للفضة بجبل مجاور لسجلماسة .

(ج) التجـارة :

سجلماسة هى اولا وقبل كل شىء مدينة تجارية ، ويعود الفضل في ازدهارها ، وتقدمها المعمارى ، ومظاهر الترف فى حياتها الاجتماعية ،وهجرة الناس اليها من البصرة على شط العرب الى الاندلس ، وبلاد السودان الى نشاطها التجاري ، ومركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة في تاريخ التجارة المغربية في العصر الاسلامى الوسيط ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا عصرئذ ، فالتجارة ــ اذن ــ هــى مصدر الثروة الكبيرة التى تجمعت بالمدينة ، ولاسيما الثروة الذهبية التى كانت بايدى سكانها ، وخاصة فئات التجار بينهم ، ويقول عنهم ياقــوت : « واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا ، لانها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ، ولاهلها جراة على دخولها » (١٠) .

ويعرب البكرى عن استغرابه من ان الذهب عند سكان المدينة جزاف عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لاعددا (١١) . ويروي ابن حوقل قصة طريفة عاشها بمدينة اودغست تصور مدى الثراء الذى بلغته فئه التجار بسجلماسة ، فبعد ان تحدث عن سكنها من تجار البصرة والكوفة وبغداد ، وعن الحركة التجارية الدوءبة بها قال عن اهل سجلماسة : « .. وسائــر ارباب المدن دونهم فى اليسار وسعة الحال ، وتتقارب بالعصبية اوصافهم ، وتتشاكل احوالهم ولقد رايت باوغست صكافية ذكر حـق لبعضهم على رجل من تجارا اودغست ، وهو من اهل سجلماسة مائتين واربعين الـف دينار وما رايت ، ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخرسان فاستطرفت » (١٢) .

وقد كانت التجار ، مصدر القوة المالية وبالتالى السياسية والعسكرية للامامة المدرارية الصفرية ، فنجد مبلغ المكوس التى وظفها اميرها المعتز على القوافل الخارجة والوردة و على مايباع بها ويشترى يصل مع العشــر والخراج اربعمائة الف دينار ، وهذا المبلغ جباية المدينة وعملها فحسب ،

ويقوم ابن حوقل بمقارنه فيذكرنا بمبلغ جباية المغرب كله من اوله الى آخره فيقول : « انها بلغت من ثمانمائة الف دينار الى مازاد على ذلك بيسير ، وربما نقص الكثير ، ويحدد جغرافيا منطقة سجلماسة وعملها التى جمع منها هذا المبلغ فتكون خمسة ايام في ثلاثة (١٣) .

اما علاقاتها التجارية فقد كانت متنوعة تنوع المسالك التى تربط بينها وبين المراكز التجارية نحو الشمال الشرقى : من سجلماسة الى وجده ، والى تلمسان ، عن طريق قفصه ، ثم الى مدن الساحل التونسى من جهة ، او الى طرابلس عن طريق نقزاوة ، ثم برقة ، فمصر ، فالمشرق الاسلامى ، وغربا نحو اغمات وريكه ثم الى مدن ساحلية تقع على البحر المحيط مثل نول لمسطه وشمالا نحو فاس،ثم الى مدن المرافىء على البحر الابيض المتوسط .

وقد راينا ان سجلماسة لم تكن تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل ، فهى تتجه اليها باعتبارها مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان ، فهى اذن باب لمعدن التبر ، او ميناء صحرواى تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان من بضائع العصر : الذهب والرقيق . ان جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية المذكورة ، والمتجهة نحو بلاد السودان او العائدة منها تمر بسجلماسة ، فهى ــ كما ذكر سلفا ــ مركز حساس من مراكز التجارة العالمية عهدئذ .

يصف لنا البكري المسلك بين وحدة سجلماسة فيقول : « وعلى مدينة وحدة طريق المارة ، والصادرة من بلاد المشرق الى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب والطريق منها الى سجلماسة تخرج من وجدة الى صاع وهى قرية ذات نهر وثمار ومزارع ، ومنها الى تاملت ، ومنها الى جبل بنى برنسيسيان ، ومنه الى قير ، ومنه الى الاحساء (١٤) . ومنها الى لامسلى ، ومنه الى دار الامير ، ومن دار الامير الى سجلماسة (١٥) .

ومن تلمسان فى اتجاه الجنوب الغربى نحو سجلماسة تمر القوافل بقلعة ابن الجاهل ، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والانهار ، ويتصل بها جبل

تارنى ، وهو وما يليه جبال معمورة الى مدينة تبزيل ، وهى أول الصحراء، ومنها يسافر الى مدينة سجلماسة ، والى وارجلان (١٦) •

ومن فاس فى اتجاه الجنرب نحو باب الصحراء : سجلماسة فتمـر القوافل بمدينة صفروى مرحلة ، ثم الى الاصنام مرحلة ، ومنها الى موضع يسمى المزى مرحلة ، ثم تاسغمرت مرحلة ، ثم الى مكان يقال امغاك مرحلة كبيرة نحو الستين ميلا » ومنها تدخل في عمل سجلماسة بين أنهـار وثمار ثلاث مراحل الى مدينة سجلماسة (١٧) ، ويصف البكرى مسلكا آخر بين فاس وسجلماسة نقلا عن محمد بن يوسف الوراق (٢٣٢ هـ ٣٦٢ هـ)•

ويمر الطريق من سجلماسة الى اغمات بموضع يسمى تيحمامين ، وفيه معدن للنحاس ، ثم منه الى وادى درعة ، ثم الى مكان اسمه اذامست، ومنه الى ورزازات فبلد هسكورة،ثم منطقة قبيلة هرزجة ، ثم اغمات(١٨)•

أما في اتجاه الجنوب فهنالك مسلك صحراوى نحو بلاد السودان طويل وصعب يقول عنه ابن حوقل : « وبين المغرب والبلدان التى قـدمت ذكرها وبلد السودان مفاوز وبرارى منقطعة ، قليلة المياه ، متعذرة المراعى، لا تسلك الا فى الشتاء وسالكها فى حينه متصل السفر دائـم الورود والصدر (١٩) ، وهو طريق تجارة الذهب مع اودغست وغانه بالخصوص •

ونود الاشارة الى البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية المتجهة الى سجلماسة ، أو المنطلقة منها ، وقد رأينا أن الضرائب الموظفة علـى صادرات ، وواردات المدينة ، وعلى ما يباع ويشترى من البضائع فى سوقها تمثل المورد المالى الرئيسى لخزينة الدولة المدرارية • اننا لا نملك قائمـة كاملة بأنواع البضائع ، ولكن ما نقلته لنا كتب الجغرافيين العرب تعطى فكرة واضحة عن هذه البضائع •

ويلوح لنا أن اهم صادرات سجلماسة من المنتوجات الزراعية ، ومتنوجات الحرف اليدوية المختلفة كان نحو بلاد السودان ، وخاصة نحو مدينة اودغست ، وغانة ، وتكرور ، ومن هذه المنتوجات :

- القمح
- الثمار المجففة
- انواع التمور
- الزبيب
- المنسوجات
- النحاس المصنوع
- الخـــرز
- المـــلح

ويجلب من بلاد السودان : الذهب والرقيق ، والعنبر ، واشجـار الصمغ من جبل يشرف على مدينة اودغست ، ويصمغ بها الديباج ، ويصدر هذا الشجر عن طريق سجلماسة الى الاندلس (٢٠).

يتحدث الحميرى عن تكرور فيقول : « واليها يسافر أهل المغـرب الاقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم (٢١). ويحدثنا البكرى عن ثراء سكان اودغست قائلا : « وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم الف خادم واكثر (٢٢) ، ومن المعروف أن العملة المتداولة فى اودغست هى التبر الخالص ولا يستعملون الفضـة الفضة ، فالقوافل التجارية القادمة من سجلماسة بأنواع البضائع المذكورة تعود ببضاعتين أساسيتين : الذهب والرقيق .

ويصدر الى أودغست القمح ، والثمار ، والزبيب ، كما يتجهز اليها بالنحاس المصنوع وبثياب مطبغة بالحمراء والزرقة مجنحة ، ويجلب منهـا

العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة ، وذهب اودغست اجود من ذهب الارض واصحة » (٢٣) وينقل لنا صاحب الاستقصا نصا عن الشريشي يصور لنا بدقة اهمية نوع التبادل التجارى بين سجلماسة وغانة ، فيقول : « وقـال الفقيه الاديب ابو العباس احمدبن عبد المؤمن القيسى الشريشيفي شرح المقامات الحريرية، ما نصه : غانه بلد من بلاد السودان ، واليها ينتهى التجار يعنى من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ، ومن سلجماسة اليها ذهابا ميسرة ثلاثة اشهر، ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسييرة شهر ونصف ، وذون ذلك • وسبب ذلك ان الرفاق تتجهز اليها من سلجماسة بالامتعة والاثقال فتباع فى غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة احمال ، أو بحملين : واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التى في طريقها ، حدثنى غير واحد من تجارها انهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل ، فأثمان احمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يجعل فى مزود واحد فيطوون المراحل للخفة (٢٤)•

ولا نغفل في حديثنا عن نوع البضائع المتبادله بين المغرب الاقصى ، سرورا بسجلماسة ، وبين بلاد السودان عن الاشارة الى بضاعة ثمينة ونادرة فيالمناطق الافريقية جنوب الصحراء،وهي الملح وكان مصدر اللربح الوافرة، والحصول على كميات من الذهب ، (وربما بلغ الحمل الملح فى دواخـل بلد السودان واقاصيه مابين مائتين الى ثلاثمائة دينار » (٢٥) •

اما العلاقات التجارية مع بلاد المشرق والاندلس فهي تشمل البضائع المتبادله بين التجارية فى ذلك العصر ، ويحتل الذهب والرقيق المكانة الاولى فى صادرات سجلماسة نحو الشمال والشرق ، وقد اشتهر الثياب السجلماسى بين المنتوجات الصناعية للمدينة ، ويبدو ان تطور صناعة النسيـج بهـا جعلها تحتاج الى توريد القطن الاشبيلى الشهير بالرغم من اننا نجد القطن ضمن المنتوجات الزراعية للواحة ، يقول الحميرى متحدثا عن أشبيليـة

« والقطن يجود بارضها ، ويعم بلاد الاندلس ، ويتجهز به التجار الى افريقية ، وسجلماسة ، وما والاها » (٢٦) .

ونجد ميناء تابحريت على شواطىء البحر الابيض المتوسط من الموانيء الشهيرة التى استعملت فى تصدير البضاعة الواردة من سجلماسة ، يقول عنها الحميرى : « وهي محط للسفن ، ومقصد لقوافل سجلماسة وغيرها » (٢٧) .

ويتساءل المرء في هذا الصدد عن نقطة ذات شأن فى حركة التبادل التجارى ، ونعنى هنا نوع العملة المتداولة ؟

فقد مرت بنا اشارة الى ان الشاكر لله تلقب بامير المؤمنين ، وضرب الدنانير والدراهم الشاكرية ، وتحدث بان حوقل عن دار الضرب في عهد المعتز .

وقد كانت عملة سجلماسة قوية وشهيرة تجاوز التعامل بها حدود الواحة واعمالها ، حيث اننا نجد الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر يدفع للتجار الذين تعهدوا بجلب الرخام من قرطاجنة وتونس الى مدينة الزهراء بقرطبة ، بعد ان شرع فى بنائها سنة ٣٢٥هـ ،مقابل عملتهم الدينار السجلماسي. قال ابن عذارى : « وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية » (٢٨) ، وتحافظ العملة السجلماسية على شهرتها عدة قرون ، فبعد ان رأينا الخلافة الاموية فى قمة مجدها تستعمل الدينار السجلماسى ، نجد الاندلس في عهد السعيدين الرشيد الموحدى تتعامل بالدنانير السجلماسية المعروفة بالدنانير العشرية (٢٩) .

ان التعرف بدقة على هذا الدور الخطير الذى لعبته التجارة في هذه المدينة الاسلامية ، وما ادى اليه من تجمع لرأس المال ، وترف اجتماعى

تمثله فئات اجتماعية جديدة يعتمد نشاطها الاقتصادى اساسا على التجارة ، متحرره من السيطره الاقتصادية لهياكل الاقطاع الاسلامى يسمح لنا فى المستوى التنظيرى بطرح التساؤل التالى :

ألا تمثل فئات التجار هذه الملامح الجنينية للمجتمع الرأسمالى التجارى المبكر ؟

الحياة الاجتماعية :

ولا مناص من التعرض الى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى نهاية هذه الدراسة ، بالرغم من ندرة المعلومات الواردة خلال وصف بعض الجغرافيين العرب والتى تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية. واول ما يعترض سبيلنا فى هذا الصدد العناصر السكانية للمدينة ، فقد رأينا الفئات الطاغية بينهم تتألف من البربر ، وقد انحدروا اليها من البادية المجاورة للمدينة الجديدة ، ونقلوا اليها كثيرا من عاداتهم وطباعهم ، يحدثنا البكرى عن القبائل التى قسم عليها أبو منصور اليسع بن مدرار سنة ٢٠هـ احياء المدينة فيقول : « وهم يلتزمون النقاب فاذا حسر احدهم عن وجهه لهم يميزه احد من أهله » (٣٠) ، ولكن التقدم العمرانى السريع الذى عرفته المدينة خلال القرن الثالث الهجرى ، واستقرار فئات اجتماعية جديدة نزحت اليها من مدن شرقية شهيرة مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد أثر كل ذلك مع تعاقب الاجيال فى أخلاق سكانها الاولين ، وجعلهم يتطبعون بطباع أهل المدر ، بل بطباع سكان المدن الكبرى المزدهرة عصرئذ ، ويتحدث ابن حوقل عن مظهرهم وأخلاقهم بعد ان زار المدينة سنة ٣٤٠هـ فيقول : « ... وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمرؤة وسماحة ورجاحة » (٣١) ، ثم يواصل وصفه للازدهار التجارى وخلق الاهالى قائلا : « ...

مع تجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان ، وسائر البلدان ، وارباح متوافرة ، ورفاق متقاطرة ، وسيادة في الافعال ، وحسن كمال في الاخلاق والاعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب فى معاملتهم وعاداتهم الى عمل بالظاهر كثير ، وتقدم في افعال الخير شهير ، وحثو بعض على بعض من جهة المروءة والفتوة ، وان كانت بينهم الحنات والترات القديمة تواضعوها عند الحاجة ، واطرحوها رئاسة وسماحة ، وكرم سجية تختصهم ، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم ، وطول تغربهم عن ديارهم وتعزبهم من اوطانهم ، ودخلتها سنة أربعين فلم أر بالمغرب اكثر مشائخ في حسن سمت ، وممازحة للعلم وأهله الى سعة نفوس عالية ، وهمم سامقة سامية » (٣٢) .

ومن مظاهر الترف الاجتماعي انتشار الحمامات بها ، وقد وصفها البكرى بانها رديئة البناء ، غير محكمة العمل ، ولم يحدد لنا عددها ، ووفرة الرقيق ، وهو أمر طبيعى ، لانه كان يمثل البضاعة الاساسية الى جانب الذهب في العلاقات التجارية للمدينة مع بلاد السودان ، ولا سيما مع أودغست (أو اودغشت) (٣٣) ، وغانة .

واشتهر جوارى اودغست بمزايا كثيرة منها المهارة فى الطبخ . يقول الحميري : « ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد لحسن عمل الاطعمة الطيبة ، ولاسيما اصناف الحلاوات مثل الجوزينيات واللوزينجات ، والقاهرات ، والكنافات ، والقطائف والمشهدات ، واصناف الحلاوات ، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن » (٣٤) .

وهكذا اصبح الفرق شاسعا بين حياة المدينة ، وقد أثرت الثروة التجارية فى مبانيها ، وفنها المعمارى ، وفى الحياة الاجتماعية لسكانها التى عرفت أنواعا من الترف ، وحياة القبائل الرحل في البوادى الصحراوية ، تلك الحياة التى يصفها بن حوقل بدقة ، بعد ذكره للمدن والمناطق المسكونة

فى أرض المغرب ، فيقول : « ... وما عداه وأوغل في براري سجلماسة ، وأودغست ، وتادمكة الى الجنوب ، ونواحى فزان ، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ، ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ، ولاشيئا من الحبوب ، والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء ، وقوام حياتهم باللبن واللحم » (٣٥) .

ان نص ابن حوقل المذكور ــ وهو شاهدعيان ــ يكشف بوضوح مظاهر الترف والتقدم الاجتماعى الذى بلغته سجلماسة في القرنين الثالث والرابع ، ولاغرو فى ذلك اذا عرفنا اهمية الفئات التجارية فى المدينة ، وهي مدينة تجارية اولا وبالذات ، كما سنرى ولم يقتصر الجغرافي الشيعي على وصف مظاهر الثراء ، بل نقل لنا معلومات عن سمو الاخلاق وحسن سمت شيوخها ، وعن جمال سكانها .

ويبدو ان كثرة الفتن التي عاشتها المدينة ابتداء من نهاية القرن الرابع الهجري ، وتدهورها الاقتصادي ، وغارات القبائل الرحل عليها بعد ان فقدت قوتها العسكرية التي كانت تحميها أثرت كل هذه العوامل في مظاهر الحياة الاجتماعية التي يقدم لنا عنها الشريف الادريسي في النصف الاول من القرن السادس الهجري صورة قاتمة بالمقارنة الى اللوحة الوصفية التي نقلها لنا ابن حوقل قبلة بقرنين (٣٦) .

لمحنا قبل قليل الى استقرار فئات اجتماعية جديدة بالمدينة تتمثل فى التجار المسلمين الذين أتوا اليها من مدن اسلامية شهيرة في المشرق مثل البصرة والكوفة وبغداد ، وقد أمها أيضا تجار من مدن المغرب والاندلس ولكننا نجد الى جانب هذه الاقليات الاسلامية اهل الذمة ، ولاسيما اليهود، وقد اصبح لهم دور فعال فى الحياة التجارية ، ولاسيما فى تجارة الذهب خلال القرن الثالثالهجرى أدى الى سيطرتهم على الحياة الاقتصادية بالمدينة من جهة ، والى نقمة السكان عليهم ، وقد استغلوا دخول الجيش الفاطمى للمدينة بقيادة عبد الله الشيعى سنة ٢٩٥ هـ للانتقام منهم ، ومر تجارهم

بمحنة شديدة ، فقد أمر ابو عبد الله بقتل اغنيائهم ، واخذ اموالهم ، وفرض على جميع سكان المدينة من اليهود الذين يرغبون في الاقامة بها :

امتهان احدى الحرفتين : الكنافة أو البناء ، ويعلل صاحب الاستبصار ذلك قائلا : « والسبب في تسخير اهل سجلماسة لليهود فى هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم مجين فى سكنى بلدهم للاكتساب لما علموا ان التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بالمعدنة ، فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقة وانواع الخدائع ، ولما علم منهم ابو عبد الله الداعي ماهم عليه من ذلك عند استخراج عبد الله من سجن اليسع بن مدرار بها ، وكان الذى نص عليه ، ونم به لليسع يهودى . وحكى عبيد الله لابن عبد الله ماجرى له معه قتل منهم الاغنياء ، واخذ اموالهم بالعذاب ، وامر من شاء ان يقيم منهم بالبلد فى ان يتصرف في هاتين الخلتين ، فمن دخل في الكنافين من اصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود ، وقصروا البناء عليهم خاصة لانهم خائفون أبدا من أن يخون احدهم المسلم فيهلكه ، فهم ينصحونهم فى البناء ، ويلازمون الخدمة دون خروج لفرائض الصلوات ، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات ، فتأتى خدمتهم موفرة سريعة ، وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم ، وهو العز الذي كانوا يرتقبونه في سالف الازمان ، وبعده الزلة الدانية القاصمة ان شاء الله لظهورهم المستأصلة لشأفتهم عما قريب » (٣٧) .

ان المحنه التى مربها يهود سجلماسة بعد استيلاء الفاطميين عليها لم تدم طويلا حسب نص صاحب الاستبصار ، قد عادوا الى دورهم البارز فى الحياة الاقتصادية ، وقد استمر هذا الدور ، ويبدو أن الزلة الدانية التى انتظرها الجغرافي المراكشي لم تحدث ، لاننا نجد خازن المال بسجلماسة أيام الخليفة الموحدى السعيد هو ابن شلوخة اليهودى ، كما ان صمويل الفاسى حبر

مراكش الذى اعتنق المسيحية ايام المرابطين ، وسمى Sommel Marrochitanus قد شغل منصبا ذا شأن في بيعة سجلماسة (٣٨) •

أما أهل الذمة من النصارى في سجلماسة فلم تنقل لنا المصادر عنهم شيئا ، ولا سيما ايام الدولة المدرارية ، والاشارة الوحيدة عـن وجودهـم بالمدينة ما ذكرناه من الفتنة التى أثارها انصار الخليفة الموحدى السعيد سنة ٦٤٢ هـ بين النصارى والمسلمين قرب باب التحصبة ليتمكنوا من الدخول اليها ، والقضاء على ابن زكريا الهزرجى الثائر على السلطة الموحدية •

ان ما نأمله من عثور الدارسين يوما على كتب طبقات علماء سجلماسة ، والمصنفات المذهبية والفقهية التي ألفها علماء دعـوة الخـراورج الصفريين بسجلماسة سيسمح بالمزيد من التعرف الدقيق والشامل للحياة الاجتماعية في هذه المدينة الاسلامية التي احتلت مكانة بارزه في عصور ازدهار المغرب الاسلامى •

المصـــادر والمراجع

(١) المغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، ص ١٤٨ .

(٢) انظر : نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٠٤ ، ص ٦٠ وما يليها .

(٣) معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٣ ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٤) صورة الارض ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٩٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

(٦) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

(٧) الدرجينى نسبة الى درجين ، وهى مدينة قديمة بقرب نقطة ، وهى آخر بلاد الجريد ، انظر : الاستبصار ، سبق ذكره ص ١٥٩ .

(٨) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٩) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

(١٠) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ص ١٩٢

(١١) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥١

(١٢) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .

(١٣) نفس المصدر .

(١٤) موضع رملى فى بلدزناته يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه ، انظر البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٨٨ انظر ايضا : الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٠٨ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٧٧ .

(١٧) نفس المصدر ، ص ١٤٥ وما يليها .

(١٨) راجع نفس المصدر ، ص ١٥٢ وما يليها .

(١٩) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
يصف البكرى طريقا صحراويا بـين تادمكت والقيروان عـن طريق وارجلان ، ثم قسطيلية ، وطريقا صحراويا آخـر بـين تادمكت ،

وغدامس ، ثم جبل نفوسة فطرابلس ، انظر المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٨٢ . ويبدو ان طريق تجارة الذهب والرقيق ولا سيما نحو اودغست وغانة كان يمر بصورة اساسية بسجلماسة فى العصر المدرارى ، فهو الطريق الذى تكاد تقتصر عليه معلومات الجغرافيين العرب فى القرنين الثالث والرابع .

(٢٠) راجع : ابكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٨ .

(٢١) الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ .

(٢٢) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ولعل الصواب « من اجود ... » .

(٢٤) الاستقصا ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ص ٩٩ وما يليها .

(٢٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٨ .
انظن : البكرى ايضا ، سبق ذكره ، ص ١٧١ .

(٢٦) ابروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٩ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، انظر البكري ايضا ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ٨٧ .

(٢٨) البيان المغرب ، بيروت ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢٩) راجع : عبد العزيز بنعبد الله سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٣٠) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٣١) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٠

(٣٢) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، وما يليها .

(٣٣) راجع عن « اودغست » البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٦ وما بعدها ، الاستبصار ، سبق ذكر ، ص ٢١٥٦ وما يليها ، الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٣ وما يليها ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج ١ ، ص ٧٨٥ مع قائمة مراجع .

(٣٤) الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٤ .

(٣٥) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٣٦) انظر : نزهة المشتاق ، سبق ذكره ، ص ٦١ .

(٣٧) الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ، ونجد نفس النص تقريبا فى « الروض المعطار » سبق ذكره ، ص ٣٠٦ .

(٣٨) وهو مؤلف كتاب ''De deventin Messiaequem'' وقد ترجم لاول مرة من العربية الى اللاتينية عام ١٣٣٩ م بباريس بقلم الدومينيكان Alfphonse Bonhomme ، انظر : عبد العزيز بنعبد الله : « الموسوعة المغربية ، للاعلام البشرية والحضارية « معلمة الصحراء » ، الرباط ١٩٧٦ ، ص ١٢١ .





العصور الوسطى الاوروبية
حدودها الزمنية والنظريات التى قامت حول بدايتها

دكتور جوزيف نسيم يوسف
استاذ تاريخ العصور الوسطى

جاءت العصور الوسطى الاوروبية بعد العصر القديم لتقطع من تاريخ الانسانية حوالى عشرة قرون من الزمان . وهناك كثير من الآراء والافكار والنظريات التى قامت حول بداية تلك العصور ونهايتها . ولكنها تبدأ ، عادة، بالقرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى . تبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على ايدى الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م وتنتهى بسقوط القسطنطينية في ايدى الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، او بحركة الاصلاح الدينى فى الغرب التى تزعمها مارتن لوثر فى القرن السادس عشر .

ويقسم المؤرخون الغربيون الحدثون تلك العصور الى حقبتين متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة او الستة التالية . والحقبة الثانية تنقسم بدورها الى فترتين لكل منهما خصائصها وسماتها وان كانتا متصلتين بطبيعة الحال : الفترة الاولى وتشغل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وتقع فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر للميلاد . والثانية وتشغل القرنين او القرون الثلاثة التالية ، وهى التى تعرف بالعصور الوسطى المتأخرة . والجدير بالذكر ان هذا التقسيم لا يعنى على الاطلاق انه يوجد خط فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة وان تميزت كل

فترة منها بخصائص معينة • ثم انه لا يجوز القول بأنه يوجد تمييز محدد واضح بين التاريخ الوسيط من ناحية وبين كل من العصر القديم والعصر الحديث من ناحية اخرى ، اذ تداخلت عناصر الفكر فى بعضها فى مختلف عصور التاريخ (١) •

لقد بدأت العصور الوسطى فى اوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات المتبربرين على الدولة الرومانية القديمة، وكانت آنذاك شبحا متهالكا، ثم انهال اولئك القوم آخر الامر فى جوف هذه الدولة المحتضرة ، وقضوا عليها وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على انقاضها ممالك جديدة جرمانية لها انظمة وحضارة جديدة مغايرة (٢) •

كان هذا يعني ــ بكلمة مختصرة ــ نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وتقاليده وحضارته ، وبداية عصر جديد له نظمه وقوانينه الخاصة به • فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من اساسه ذلك الصرح الشامخ في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله انظمة مغايرة وامم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها (٣)

وقبل تناول موضوع التحديد الزمنى للعصور الوسطى الاوروبية ، والنظريات التى قامت حول بدايتها ، يحسن ان نمهد لذلك بكلمة سريعة عن تقسيم التاريخ نفسه الى حقب وعصور •

ان مسألة تقسيم التاريخ الى عصور وتحديد بداية ونهاية لكل عصر، مسألة صعبة معقدة ثار حولها الكثير من الجدل بين المؤرخين وواضعي النظريات، ولم يصلوا فيها الى نتيجة حاسمة قاطعة • ولقد اتضح بعد دراسات طويلة مضنية ان التاريخ ليس له بداية او نهاية ، وان تحديد البدايات والنهايات لمختلف العصور التاريخية انما هو محاولة اجتهادية تقليدية جرى عليها الكتاب والمؤرخون بقصد تسهيل دراسة التاريخ وتقريبه الى الافهام قدر الاستطاعة •

وعلى هذا يواجه الباحث الذى يتناول بالدراسة اى فترة تاريخية مشكلة التحديد الزمنى لها ، واين يضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها • وليس هذا بالامر الهين او اليسير ، لان التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والاحداث المتراصة المترابطة التى لا يمكن تفتيتها او تجزئتها او فصلها عن بعضها ، وان كل فترة من فترات التاريخ ما هى الا عصر تغير وانتقال من السابق الى اللاحق • ومع ذلك فقد اتفق على تقسيم التاريخ الى ثلاثة عصور رئيسية هى : القديم والوسيط والحديث ، كما اتفق على تحديد كل عصر تحديدا زمنيا دقيقا • ولكن يجب ان نفهم جيدا ان هذا التحديد الجاف لايعنى بحال من الاحوال ان فترة ما تنتهى في يوم معين معلوم وان فترة اخرى تعقبها فى اليوم التالى تختلف عنها فى قوانينها وانظمتها من سياسية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية وغيرها •

فعندما نقول ، مثلا ، ان العصور الوسطى تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر للميلاد ، او انها تقع على وجه التحديد بين عامى ٤٧٦ م و ١٤٥٣ م فان ذلك لا يعنى بحال ان التاريخ القديم بحضارته وانظمته فى الدين والفلسفة والفكر والقانون والاقتصاد والاجتماع قد انتهى فجأة وبدون سابق انذار سنة ٤٧٦ م ، او أن العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها قد زالت نهائيا سنة ١٤٥٣ م • فلا يمكن ، فى الواقع ، تحديد يوم بالذات او سنة بعينها كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط او كنهاية للقرون الوسطى وبداية لعصر النهضة والعصر الحديث • فمما لا شك فيه أن عناصر التاريخ القديم قد استمرت بعد سنة ٤٧٦ م لتؤثر في العصر الوسيط ، وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انهيار الامبراطورية الرومانية القديمة • كما ان عناصر التاريخ الوسيط قد استمرت ، هى الاخرى ، بعد سنة ١٤٥٣ م لتؤثر فى عصر النهضة وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انتهاء العصور الوسطى •

ولا يضاح هذه المسألة نقول ان دراسة اى عصر تعنى القاء الضوء على النظم والحضارة السائدة فيه ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وعسكرية وفكرية وغيرها • وليس من الحكمة القول بأن كل هذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية ، خصائص اخرى جديدة مغايرة • وعلى هذا فان قيام العصور والحركات الهامة فى التاريخ ، وان قيام الدول والامبراطوريات وانهيارها ، وان الاحداث الخطيرة التى تؤثر تأثيرا بالغا فى سير مجرى التاريخ البشرى — كل هذه لا يمكن ان تكون فجائية او بنت يوم وليلة ، انما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج الى فترات من الوقت ممتدة متباعدة •

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى ابحاثهم ودراساتهم • وكانوا يختارون حادثة معينة او واقعة لها دلالتها او تاريخا له أهميته ،ليكون نقطة البداية او النهاية لفترة ما • والامثلة على ذلك عديدة • اذ يعتبر بعض المؤرخين سنة ٤٧٦ م التى قضى فيها البرابرة بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية القديمة كبداية للقرون الوسطى الاوروبية ونهاية للتاريخ القديم • بينما يرى البعض الآخر ان عصر النهضة يبدأ بالشاعر الايطالى المعروف دانتى اليجييرى وملحمته الشعرية الكوميديا الالهية في القرن الرابع عشر للميلاد ، او بحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر • ويجعل بعض الكتاب الثورة الفرنسية او نتائج مؤتمر فينا بداية للعصر الحديث ، وهكذا (٤) •

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن ان ندرس العصور الوسطى الاوروبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالى عشرة قرون من الزمان • فيجب ان نعرف كيف ومتى بدأت ؟ وكيف ومتى انتهت ؟ ويجب ان نضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان من المسلم به بداهة ان عصور التاريخ عبارة عن حلقات فى سلسلة واحدة تمتد منذ القدم وحتى يومنا هذا •

ولقد تعددت النظريات والافكار فى هذا الصدد ، واختلفت آراء المؤرخين المعنيين بالتاريخ الاوروبى الوسيط حول هذه المسألة اختلافا عجيبا بينا ، وعلى رأس هؤلاء جورج جوردون كولتون G. G. Coulton وسيدنى بينتر S. Painter ، وجون لامونت J. LaMonte ، وستيفن رانسيمان S. Runciman ونورما بينز N. Baynes ، و و • ب • كير W. P. Ker ، فضلا عن الكثيرين غيرهم • وسنحاول فيما يلى عرض اهم النظريات التى قامت حول بداية العصر الاوروبى الوسيط •

الواقع انه توجد حدود فاصلة عديدة بصلح كل منها ان يكون بداية لدراسة تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى • ولكل حادثة او واقعة او تاريخ ، ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ او ذاك يأخذ برأى أو باخر كبداية لتلك العصور • وفيما يلى أهم النظريات التى أثيرت حول هذا الموضوع •

النظرية الأولى :

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤ م كنهاية لتاريخ الدولة الرومانية القديمة وبداية للعصور الوسطى الاوروبية ، وهى السنة التى تولى فيها الامبراطور الرومانى دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥ م) عرش الامبراطورية • وهناك اكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار • منها ان الامبراطور الرومانى اوغسطس Augustus (٣٠ ق • م — ١٤ م) كان قد وضع اساس القاعدة بأن الامبراطور هو اول رومانى حر في روما • ولكن دقلديانوس نحا نحوا مغايرا • اذ اعتنق مبادىء الملكية الشرقية التى تجعل من الملوك اشخاصا فوق القانون وفوق الشعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر • فهم اقرب للالهة منهم الى الناس • فالملك فى نظره نصف اله يجب انيؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبادة والولاء• وهذا يعنى ان الاسس التى قام عليها التاريخ القديم بدأت تنهار لتحل محلها مثل وافكار وقيم جديدة •

ثم ان حكم دقلديانوس يرتبط بتلك الفظائع التى ارتكبها ضد المسيحية التى ظهرت في اخريات التاريخ القديم باعتبارها منافسا خطيرا لعبادة الامبراطور التى كانت سائدة وقتذاك ، وباعتبارها تهديدا لوحدة الامبراطورية ودولة داخل الدولة ومن الدواعي الاخرى التى دعت الى اختيار بداية حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط انه يعتبر حدا فاصلا بين زمنين منفصلين تقريبا . فقد كان هذا الرجل اول من فكر ، ولو نظريا ، فى امر تقسيم الامبراطورية الرومانية الى قسمين : احدهما شرقي والاخر غربي ذلك التقسيم الذى لم يأخذ شكله النهائى الطبيعي الا في عهد قسطنطين الكبير في اوائل القرن الرابع للميلاد . ومع ذلك يجب ان نفهم ان وجود حاكم فى الشرق وآخر في الغرب في عهد خلفاء دقلديانوس لم يضعف من وحدة الامبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك . بل كان هذا ، فى واقع الامر ، عبارة عن انفصال ظاهرى فقط . فقد كانت نفس القوانين والانظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آنئذ من كلا الحاكمين وفي كلا القسمين (٥) .

النظرية الثانية :

ويحدد بعض المؤرخين سنة ٣٢٣ م كبداية للعصور الوسطى ، وهى السنة التي اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine I. TheGreat **(٣٠٥ ــ ٣٣٧ م) عرش الامبراطورية بعد قضائه على خصومه ومنافسيه في الشرق والغرب . ومن اهم الاسباب فى الاخذ بهذه النظرية ما يلي :**

اولا ــ التغييرات الاجتماعية والدينية الهائلة التي حدثت فى عهده كنتيجة لاعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة رسمية للدولة بموجب مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ م ــ الذى اجاز رسميا اعتناق الدين الجديد واصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الدولة والامبراطور هو الرئيس الدينى الاعلى لها . وكانت هذه الخطوة انقلابا عظيم الشأن ترك آثاره

البالغة فى مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية •
مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية •

ثانيا ــ اقدام قسطنطين على خطوة لا تقل عن سابقتها شأنا ، وهــي تأسيس مدينة القسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمره، لتفى بمطالب العصر وحاجياته بعد أن فقدت روما أهميتها الكبيرة التى كانت تتمتع بها • ولذلك آثار بالغة الاهمية في مجرى التاريخ البشرى وقتئذ لان نقل الامبراطورية من الغرب الى الشرق ، وترك القياصرة الاقدمين روما الى القسطنطينية عند طرف أوروبا الاقصى ، كان معناه تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة اكثر من عشرة قرون ، ونعنى بذلك الامبراطورية الرمانية الشرقية او الدولة البيزنطية التي كــان مقرها القسطنطينية او روما الجديدة تمييزا لها عن روما الغرب •ومن النتائج التى ترتبت أيضا على نقل كرسى الامبراطورية الى الشرق هو ترك روما وهجرها فأمس الكرسي الامبراطورى في روما القديمة خاليا ، وبدأ الرومان ينظرون في زعامتهم الى البابا وكان وقتئذ اسقف روما • وهذا يفسر قوة البابوية فيما بعد وتطلعها الى زعامة العالم المسيحي دينيا ودنيويا ، ومحاولتها الاستيلاء على كل ما كان للامبراطور من حقوق وامتيازات في التاريخ القديم • كما ادى هذا دخولها فى كفاح عنيف مع القوى العلمانية فى الغرب الاوروبي بعد احياء الامبراطورية الغربية فى عصر شارلمان في القرن التاسع وتجديدها فى عهد اوتو الكبير في القرن العاشر الميلادى • وغني عن الذكر الاثار الوخيمة التي ترتبت على الكفاح المريرين عاهلى المسيحية الغربية حــول المسائــل الدنيوية •

ثالثا ــ يلاحظ ان السياسة الادارية والمالية التى استسنها قسطنطين، وكذلك تشريعاته وقوانينه واصلاحاته العسكرية ، قد ساعددت على تدعيم الامبراطورية الشرقية ، بينما انحدرت الامبراطورية الغربية امام سيل الجرمان البرابرة المتدفقين من الشمال والشرق (٦) •

النظرية الثالثة :

ويحدد فريق آخر من المؤرخين ، وعلى رأسة ستيفن رانسيمان ، سنة ٣٣٠م بالذات كبداية للتاريخ الاوروبى الوسيط بوجه عام. اذ ان قسطنطين الكبير بدأ فى تشييد مدينته فى نوفمبر سنة ٣٢٤م ، وتم تأسيسها بعدخمس سنوات ونصف عندما دشنها تحت اسم «روما الجديدة» أو «روما الثانية» فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ، تمييزا لها عن روما الغرب . ومع ذلك فضل المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، ان يسموها « القسطنطينية » نسبة الى مؤسسها (٧) .

النظرية الرابعة :

وثمة فريق آخر من المؤرخين يحدد سنة ٣٦١م كبداية للقرون الوسطى وهى سنة اعتلاء الامبراطور جوليان المرتد Julian, the Apostate (٣٦١ — ٣٦٣ م) عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية، ومحاولته الفاشلة القضاء على الديانة الجديدة وهى المسيحية ، واعادة الوثنية من جديد كدين رسمى للحكومة . ويدل اخفاقة على ان تطورا خطيرا قد طرأ على العالم الاوروبى ، وعلى ان الديانة الجديدة كانت قد تأصلت جذورها فى كيان هذا العالم بشكل لايسمح لاحد حتى ولو كان الامبرطور نفسه ان يعود به الى الماضى الوثنى . وغير خاف ان تأصل الدين الجديد فى اوروبا ترك آثاره البالغة على مجريات الامور والاحوال فيها لمدة تزيد عن الف عام . وبكلمة اخرى تمثل هذه الفترة الصراع الرهيب بين الوثنية والمسيحية ، وبكلمة اوضح في التعبير ، بين نظامين مختلفين تماما عن بعضهما : اولهما يمثل القديم بكل مفاهيمه وافكاره ، والاخر يمثل الوسيط بكل اوضاعه وفلسفته (٨) .

النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة ٣٧٦ م كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط على اساس انها كانت السنة التي تحول فيها احد العناصر الجرمانية ، وهو عنصر القوط الغربيين Visigoths من الوثنية الى المسيحية على يد

اسقف اريوس اسمه اولفيلاس Ulfilas • وترجع أهمية هذا التاريخ في نظر المؤرخين الى اهتمامهم الزائد بموضوع الجرمان البرابرة وما كان لهم بعدئذ من القوة والجبروت في غزواتهم التى اكتسحوا بها روما ، ويمكن الاخذ بهذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام • فاعتناق القوط الغربيين المسيحية ، جعل اباطرة الدولة الرومانية الشرقية يسمحون لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الامبراطورية • وكان هذا من البدايات التى تدل على غزوات البرابرة في أوروبا فيما بعد وما ترتب عليها من آثار (٩) •

النظرية السادسة :

ويضع بعض المؤرخين المعنيين بهذا الموضوع سنة ٣٧٨ م كمدخل للتاريخ الاوروبي الوسيط ، وذلك لوقوع معركة من المعارك الهامة الحاسمة في التاريخ الاوروبي بين القوط الغربيين وبين جيوش الامبراطور البيزنطى فالنس Valens (٣٦٤ ــ ٣٧٨ م) بجوار مدينة ادرنة • وقد سميت الموقعة باسم تلك المدينة ، وفيها الحق القوط الغربيون هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطى كانت لها مضاعفاتها واثارها الخطيرة • وقد اعتبرت هذه المعركة لفترة طويلة احدى المعارك الفاصلة في التاريخ (١٠) • ويرى احد المؤرخين الحديثين ، وهو سولومون كاتز S. Katz ، ان سنة ٣٧٨ م تعتبر البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية فى أوروبا ، وبالتالى حدا فاصلا بين العالمين القديم والوسيط (١١) •

النظرية السابعة :

بينما تضع فئة أخرى من المؤرخين سنة ٣٩٥ م كنقطة التحول الى التاريخ الاوروبي الوسيط ، على اساس ان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير Theodosius I, the Great (٣٧٩ ــ ٣٩٥ م) قسم في هذه السنة التى اختتم بها حكمه ، الامبراطورية الرومانية التى كانت لا تزال تحت حكم شخص واحد ، الى قسمين منفصلين مستقلين تماما عن بعضهما ،

وليس كما سبق في عهد دقلديانوس لان تقسيمة هو واتباعه للامبراطورية كان تقسيما صوريا فحسب . اذ كانت الامبراطورية تحت حكم ثيودوسيوس لا تزال وحدة واحدة في مجموعها على الرغم من انقسامها انقساما فرعيا الى فرعين . ولكن ثيودوسيوس قسمها الى قسمين : احدهما غربي والاخر شرقي . وقد اعطى الجزء الشرقي لابنه اركاديوس Arcadius ، والجزء الغربي لابنه الاخر المسمى هونوريوس Honorius . واصبح كل منهما مستقلا عن الاخر ، واسس لنفسه دولة واسرة قائمة بذاتها . وهذا يعني ــ بكلمة مختصرة ــ بداية دولة جديدة في الشرق في الوقت الذي كانت فيه دولة الغرب في طريقها الى التدهور والانهيار امام جحافل الجرمان البرابرة (١٢) .

النظرية الثامنة :

فكرة اخرى قال بعض المؤرخين ، هي ان سنة ٤١٠ م تعتبر بداية العصور الوسطي ، على اساس القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى الاريك Alaric يكتسحون مقدونية وما وراءها من الاراضي اليونيانية في سنة ٤٠٠ م . الا أن القائد الروماني المدعو ستيليكو Stilichol قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من البرابرة وهزمهم شر هزيمة سنة ٤١٠ م . فاضطر هؤلاء ان يبحثوا لهم عن موضع اخر يلتمسون فيه سبل الرزق والاقامة ، فاتجهوا غربا الى ايطاليا . وكان دخول القوط الغربيين ايطاليا له اهميته الكبرى في التاريخ ، بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة في بداية التاريخ الاوروبي الوسيط . وذلك انه في سنة ٤١٠ م تمكن هؤلاء البرابرة من اكتساح ايطاليا بما فيها روما نفسها ، وهذا يعني نهاية عصر وبداية عصر اخر في تاريخ أوروبا (١٣) .

النظرية التاسعة :

ويرى غالبية المؤرخين ان سنة ٤٧٦ م هي اصلح وانسب بداية لتاريخ القرون الوسطى الاوروبية ، لان هذه السنة تعتبر اخر العهد بالامبراطورية الرومانية القديمة في الغرب . فاستيلاء البرابرة على روما نهائيا وقضاؤهم

على شبح الامبراطورية الرومانية الغربية في شخص آخر اباطرتهاالضعاف وهو روملوس اوجستولوس Romulus Augustulues في تلك السنة عندما ارسل القائد الجرماني أدواكر Odoacer شارات تلك الامبراطورية من روما الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق ، وهو وقتذاك الامبراطور زينو Zeno (٤٧٤ ــ ٤٩١ م) ــ كان يعني انتهاء الانفصال الظاهرى الذى حدد خطوطه دقلديانوس ومن جاء بعده من الاباطرة ، ثم عززه قسطنطين الكبير في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير فى اواخر ذلك القرن . وهكذا اصبح الانفصال في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير في اواخر ذلك القرن . وهكذا اصبح الانفصال حقيقة واقعة . والنتيجة ان حقوق الحاكم الغربي انتقلت الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق . وبذلك تنتهي الامبراطورية الرومانية القديمة بحضارتها ونظامها العتيق ، وبنهايتها تبدأ العصور الوسطى بأفكارها وفلسفتها (١٤) .

النظرية العاشرة :

وترى مجموعة اخرى من المؤرخين ان عهد الامبراطور جستنيان الاول Justinian I (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) هو الذى يميز نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط في اوروبا .

ذلك أن حكمه اتسم بسمة هامة اضفت عليه طابع الوحدة ، ونعنى بذلك محاولاته لاسترداد املاكه الضائعة التى استولى عليها الجرمان فى غرب اوروبا ، وهى ايطاليا التى كانت تحت سيطرة القوط الشرقيين ، واسبانيا التى كانت في قبضة القوط الغربيين ، وشمال افريقية التى كانت في ايدى الوندال Vandals ، وجهوده في هذا المضمار لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه ايام اسلافه الرومان القدماء ، وبمعنى اخر اكثر وضوحا تعتبر هذه الفئة من المؤرخين ان جستنيان ، عند تقيم محاولته

هذه ، يعتبر اخر اباطرة الرومان وبداية عهد جديد • ويكفي ان المعاصرين له اعتبروا ، بعد نجاحه في حملاته في ايطاليا واسبانيا وشمال افريقية ، انه أحيا الامبراطورية من جديد ، وان اثبت الواقع بعد موته خلاف ذلك(١٥)

النظرية الحادية عشرة :

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تجعل مدخل التاريخ الاوربى الوسيط ما بعد عهد جستنيان الاول ، اى ما بعد سنة ٥٦٥ م • اذ وضح للعيان منذ اواخر ذلك العهد انه لم يعد هناك امل على الاطلاق في احياء الدولة الرومانيةالتى قضى البرابرة عليهاوعلى معالمها وحضارتها ، وانشئوا دولا وممالك جديدة على انقاضها لها نظم وحضارة جديدة مغايرة • لقد اثبتت الاحداث ان الامل تلاشى في استرجاع ممتلكات تلك الدولة في الغرب الاوروبى • واصبح من واجب الدولة الرومانية في الشرق التحول عن الطريق القديم الى طريق جديدة ترتبط بالوضع الجغرافي للجزء المتبقى من الدولة الرومانية • ولم يكن امامها الا أن تسلك هذا السبيل ، بمعنى انه كان يجب على تلك الدولة ان تتجه اتجاها شرقيا بيزنطيا طبقا لمقتضيات الظروف والاحوال الجديدة • ويكفى للتدليل على صحة هذا الرآى ، ان الاباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب وممالكه الجرمانية تتكون تكوينا جديدا وتنمو على اساس يخالف الاساس الكى قامت عليه دولة الرومان القدماء • وقد حاول الامبراطور جستين الثانى Justin II (٥٦٥ ــ ٥٧٨ م) الذى خلف جستنيان اعادة الكرة ، لكنه فشل فشلا ذريعا ، وكانت النتيجة ان ذهب عقله (١) •

النظرية الثانية عشرة :

يذهب عدد آخر من الكتاب • وعلى رأسهم جون لامونت ، ان العصور الوسطي تبدأ في ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠ عندما تم تتويج شارلمان او شارل العظيم Charles, the Great (٧٦٨ ــ ٨١٤ م) امبراطورا على الغرب على يد احد بابوات روما هو البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ ــ ٨١٦ م) ، وعندما تم احياء

الامبراطورية القديمة ، التى كانت قد انهارت في اخريات القرن الخامس ، تحت اسم جديد هو «الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة» ، لتتلائم مع مقتضيات الظروف والاوضاع الجديدة المغايرة ، بعد قضاء الجرمان والمسيحية على الوثنية والدولة الرومانية القديمة .

لقد كانت هذه هي الدولة الرومانية الجرمانية المسيحية الناشئة في الغرب . وحجة الفئة التى تأخذ بهذا الرأى ان شارلمان كان ـ فى الواقع ـ آخر اباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم، وان فشل مشروعه لاحياء دولة القياصرة القدماء بضم الجزء الشرقى الى أملاكه، لهو برهان واضح على أن ظروف العالم الأوروبي قد تغيرت تغيرا تاما لا يمكن العودة بها الى الوراء (١٦) . ويرى المؤرخ نورمان بينزان هذه النظرية ، وان كانت تشبع رغبة مؤرخ النظريات السياسية او الباحث في تاريخ اوروبا الغربية ، الا انه ليس لها قيمة كبيرة بالنسبة للباحث المدقق في تاريخ الدولة الرومانية الشرقية (١٧) .

ومن عرضنا لهذه النظريات ، يتضح لنا انه في مثل هذه الموضوعات يدلى الكتاب والمؤرخون وواضعو النظريات السياسية كل بدلوه . فيحدد كل باحث التاريخ الذى يراه انسب من غيره من وجهة نظره ، مدعما اياه بالحجج والاسانيد . ولكل رأى ، بطبيعة الحال ، اعتباره ، وهناك ، الى جانب ما ذكرنا ، نظريات اخرى اقل اهمية لها من يؤيدونها ويأخذون بها وهناك من يقفون منها موقف المعارضة وعدم التأييد .

ولكن، مهما يكن الخلاف بين المؤرخين والدارسين على تحديد النقطة التى ينتهى اليها التاريخ القديم ويبدأ منها العصر الوسيط فى اوروبا ، الا اننا نخلص مما سبق انه كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة معقدة متداخلة في بعضها ، بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ، والبعض جوهرى

والآخر ثانوى ، هيأت الجو لقيام العصور الوسطى • ولم تكن مثل هذه العوامل وليدة الساعة ، وانما استغرقت سنين ذات عدد قبل ان تبدأ تلك العصـور نفسها • ونستنتج ايضا ان اقرب الفروض الى الصحة والواقع، والى الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية التى قامت في اوربا آنذاك ، ان العصور الوسطى في اوروبا تبدأ بلا نزاع فى القرن الخامس الميلادى • كما انها انتهت حوالي القرن الخامس عشر للميلاد لأسباب اخرى مغايرة سنعرض لها في دراسة تالية • ولذلك تكون تلـك العصور قد اقتطعت من تاريخ الانسانية حوالي عشرة قرون تميزت بنوع من المدنية والحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن التى قامت كجسر بين المدنية الرومانية الزاهرة وبين الحضارة العملاقة التى ترتبط بالتـاريخ الحديث •

والأخذ بالرأى : ان العصور الوسـطى الاوروبية تبدأ فى القرن الخامس ، مبنى في الواقع ، على الاتجاهات التاريخية التى نشأت فى أوروبا حينذاك • اذ شاهد الانسان الذى عاش في القرن الخامس من التغييرات الهامة والاحداث الخطيرة فى مجرى التاريخ البشرى ما يبين بصفة حاسمة تغييرا جذريا في طبيعة اوروبا يدعو الى الاعتقاد بأن العالم القديم قـد انتهى وان عصرا جديدا قد حل • لقد شاهد رجل القرن الخامس انتهاء الدولة الرومانية بحضارتها ونظمها وبداية البربرية في التاريخ الأوروبي ، كما شاهد زوال الوثنية وعبادة الاباطرة وتأصل المسيحية على حد قول احد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ادوارد جيبون (١٨) •

لقد كانت الدولة الرومانية القديمة ، بحضارتها وقوتها وعظمتهـا المعروفة تنهار بسرعة مذهلة في ذلك الوقت ، كما بدأت العناصر المتبربرة تتدفق داخل حدودها لتؤسس ممالك لها على انقاضها لها نظمها وتقاليدها

الخاصة بها • بينما أخذت الديانة المسيحية في الظهور والانتشار والاستقرار في اوروبا وفي روما نفسها على انقاض الوثنية وعبادة الأباطرة • وهكذا يتداعى النظام القديم من اساسه في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر والحرب ، وتقوم على انقاضه أمم جديدة ذات حكومات مغايرة لما كان معروفا عند الرومان القدماء • ولقد كان لهذه الامم وحداتها الاجتماعية وحضارتها وانظمتها الخارجية وتفكيرها الخاص بها ، كما كان مشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية التى تختلف عما كان حادثا عند الرومان • كل هذا يؤكد ، بما لا يدع مجالا للشك ، ان التاريخ القديم قد انتهى ، وحل محله عصر آخر فى اوروبا •

ويلاحظ ان هذه التغييرات التى تحدثنا عنها لم تكن فجائية ، وانما كانت عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة في فترات غير قصيرة من الزمن • اذ لايمكن الاخذ بفكرة التحديد الرياضي للانتقال بين التاريخ القديم والعصر الوسيط في سنة معينة او يوم بذاته يكون ما قبله قديم وما بعده وسيط ، كما لو يسدل الستار على الماضي في ساعة معينة ويكشف عن الجديد بعدئذ على الطريقة المسرحية • فتحديد السنين والتواريخ ـ حسبما اسلفنا ـ مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الأذهان قدر المستطاع •

المراجع والمصادر

(١) Cf. Coulton, G. G., The Medieval Scene, Cambridge, 1961, 1-2 ; Ker, W. P., The Dark Ages, London, 1955, If.

Cantor, N. F. (ed.,) The Medieval World : 300-1300, New York, 1963, I.

انظر ايضا كونتون (ج . ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ــ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ــ ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٥ و ٣٥ ــ ٣٦ . هذا ، ويذكر المؤرخ نورمان كانتور ان فريقا من المؤرخين يميل الى تقسيم الفترة الممتدة بين عامى ٣٠٠ و ١٣٠٠ م الى مرحلتين متميزتين هما : العصور الوسطى المبكرة وتمتد من بداية القرن الرابع الميلادى حتى اواسط لقرن الحادى عشر . وخلال تلك الفترة من الزمن بدات تظهر حضارة جديدة هى خليط من الديانة المسيحية وبقايا التراث اليونانى والرومانى وحضارة الجرمان وانظمتهم . وعلى هذا تعتبر تلك القرون السبعة او الثمانية التى تميز العصور الوسطى المبكرة ، بمثابة فترة الطفولة او مرحلة الصبا للعالم الاوروبى . وهى تتميز بالقلاقل والاضطرابات والكوارث التى حلت بالغرب بسبب غزوات العناصر الجرمانية المتبربرة التى كانت دون لعالم لرومانى مدنية وحضارة . واما المرحلة الثانية فهى التى تعرف باسم العصور الوسطى الحقيقية . انظر عن ذلك :

(٢) Cf. Painter, S., A History of the Middle Ages : 284-1500, London, 1966, 26 ff.; Le Goff, J., La Civilisation de l'Oceident Médiéval, Paris, 1965, 27 ff.

(٣) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, 13 ff.; Painter, p. cit., 10 ff.

(٤) حول تقسيم التاريخ الى حقب وعصور وتحديد بداية ونهاية كل حقبة وعصر ، انظر :

Gwatkin, H.M. & Whitney, J.P. (eds.), The Cambridge Medieval History, Vol. I, Cambridge, 1936, 1-2 ; Davis, H. W. C., Medieval Europe, London 1941, 5-9.

(٥) Baynes, N. H., The Byzantine Empire, London, 1939, 1-2; Runciman, op. cit,. 20 - 24 ; Lamonte, J., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 8-9.

(٦) Runciman, op-cit., 24 - 28 ; Cantor, op. cit., i ff.

(٧) Runciman, op. cit., 14 ; Previté - Orton, C.W., The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. II, Cambridge, 1952, 10 ff,; Lamonte, op. cit., 5.

(٨) Cf. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans, by J. Hussey, Oxford, 1956, 45 - 46.

(٩) LaMonte, op. cit., 42 ; Painter, op. cit., 21.

(١٠) LaMonte, op. cit., 42.

(١١) Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, New York, 1960, 88 - 89.

(١٢) Katz, op. cit.,90; Hussey, J.M., The Byzantine World. London,1957,14

(١٣) Katz. op. cit., 91-92.

(١٤) Katz, op. cit., 93 ; Baynes, op. cit., 8.

هذا ، ويعارض المؤرخ جون لامونت هذه النظرية قائلا : « عندما خلع ادواكر فى سنة ٤٧٦م الشاب رومولوس اوجستولوس عن العرش ، ووحد رسميا شطرى الامبراطورية الغربى والشرقى ، قد اتخذ خطوة اعتبرها المؤرخون لاجيال طويلة بمثابة نهاية الامبراطورية الرومانية . ولا شك انه لم يحدث شىء من هذا القبيل . وواقع الأمر ان عام ٤٧٦م تاريخ لا يستحق الذكر على الاطلاق ، لان مسالة اعادة توحيد شطرى الامبراطورية لم تكن امرا غير عادى . فمنذ ايام دقلديانوس كان القسمان يتحدان وينفصلان عن بعضهما بصورة تلقائية ، بحيث لم يكن هناك جديد فى الموضوع » . انظر .

(١٥) LaMonte, op. cit., 41.
Baynes, op. cit., 8 ; LaMonte, op. cit., 51 ff.

(١٦) Katz, op. cit., 115 ; LaMonte, op. cit., 67-68.
LaMonte, op. cit., 41-42.

(١٧) Baynes, op. cit., 8.

(١٨) أنظر رأى جيبون وتعليق المؤرخ كولتون عليه فى : كولستون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٧ و٤٦ و ٥٠ . انظر ايضا راى كل من ديفز ولامونت :
Davis, op. cit., 7 ; LaMonte, op. cit., 38.



مكة المكرمة
مركز الدعوة العباسية

الدكتور على عبد الرحمن ابا حسين
مدير مركز المحفوظات ـ البحرين

اعتبر المؤرخون ان (الحميمة) و (الكوفة) و (خراسان) مراكز الدعوة العباسية سواء فى دور السر والكتمان حتى دور الظهور واعلان شخصية الخليفة العباسي على منبر الكوفة سنة ١٣٢ هـ .

ولدى بحثي المتواصل اهتديت الى أن هناك مركزا مدبرا ورئيسا تتصل به هاتيك المراكز الثلاثة وفيها يختفي الامام تحت ستار من التعبد في البلد المقدس مكة المشرفة وهناك ملتقى الدعاة والنقباء ومن مكة يوجه الامراء واليها ترسل الاموال من سائر الامصار للامام القابع هناك بعيدا عن انظار الأمويين .

ان هذا المركز هـو مكة المكرمـة حيث ولد العباس جد الخلفـاء العباسيين واليه تسببت الدولة العباسية فقد كانت له المكانة التى ورثها عن أبيه عبد المطلب وجده هاشم وفي المكان المناسب من الديار المقدسـة من أرض الحجاز كان الفكر السياسى يحرك الدعاة ويهيىء الرأى العام لنجاح دعوة سرية تمخضت عن الدعوة العباسية وكان موعدهم فى موسم الحج **مع كبيرهم الامام فيعطونه ويأخذون منه وهم يقدمون له ما لديهم من غرس غرسوه في نفوس الناس في المراكز الاخرى وفي الامصار الاسلامية** الدانية والقاصية .

لقد كان للعباس عم النبي (ص) منزلة كبيرة في مكة قبل الاسلام اذ كان بيده (السقاية) وهي احدى الوظائف التي توزعتها بطون قريش • وظلت سقاية الحجيج بيد العباس بن عبد المطلب ولم تزل بيده في الجاهلية وصدر الاسلام اذ اقرها رسول الله (ص) بيده لما دخل النبي عليه السلام مكة يوم افتتح في السنة الثامنة للهجرة •

ولما توفي العباس ولي السقاية بعده ابنه عبد الله واستمرت في عقبه الى أن آلت الخلافة لبني العباس فعهدوا بها الى آل الزبير لانشغال بني العباس في الحكم (١)• وعهد للعباس وظيفة أخرى هى (عمارة المسجد الحرام) ومهمته فيها ان لا يدع احدا يسب احدا في المسجد الحرام في مكة المشرفة ولا يقول فيه هجرا (٢) •

هاتان الوظيفتان كانتا بيد العباس بن عبد المطلب مما يدل على مكانته بين قومه ، فسقاية الحجاج في بلد تفتقر الى الماء وهو غاية في الاهمية • ثم عمارة البيت الحرام يحتاج الى سلطة تحافظ على الامن فيه فلا يدع احدا يعتدى على أحد • وكانت العرب قبل الاسلام وبعده تجل الكعبة وتقدسها وللمسجد الحرام في نفوسهم مكانة محترمة حيث يسود الامن فيه فلا يجوز أن يقول المرء كل ما من شأنه ان يعيب الآخر كان ذلك في بيئة تسود فيها العصبية القبلية وما ينجم عنها من قطيعة وهجر وذم • وقد عهد للعباس بن عبدالمطلب بهذه المهمة وهى مهمة حفظه النظام والأمن • مع ماكان للعباس من مكانة مالية فهو من كبار اصحاب المصارف اذ قال عنه النبي (ص) في خطبة الوداع (كل ربا في الجاهنية موضوع واول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب (٣) والعباس مكان يقع في زاوية زمزم على يسار من دخل يسمى (موضع العباس) ويبعد هذا الموقع عن (الحجر الاسود) خمسة وتسعون ذراعا (٤) •

وذكر الدارقطنى في الموقف ان أول من كسا الكعبة الديباج هى والدة العباس (تتيله) بنت حيان • كانت اضلت العباس صغيرا ـ وقيل ضرار شقيق العباس ـ فنذرت ان وجدته ان تكسو الكعبة الديباج (٥) • وهذا ان دل على أمر فأنما يدل على مكانتها بين قومها وثروتها بحيث استطاعت ان تكسو الكعبة الديباج ولم يكسها في التاريخ امرآة بل كساها الخلفاء والسلاطين •

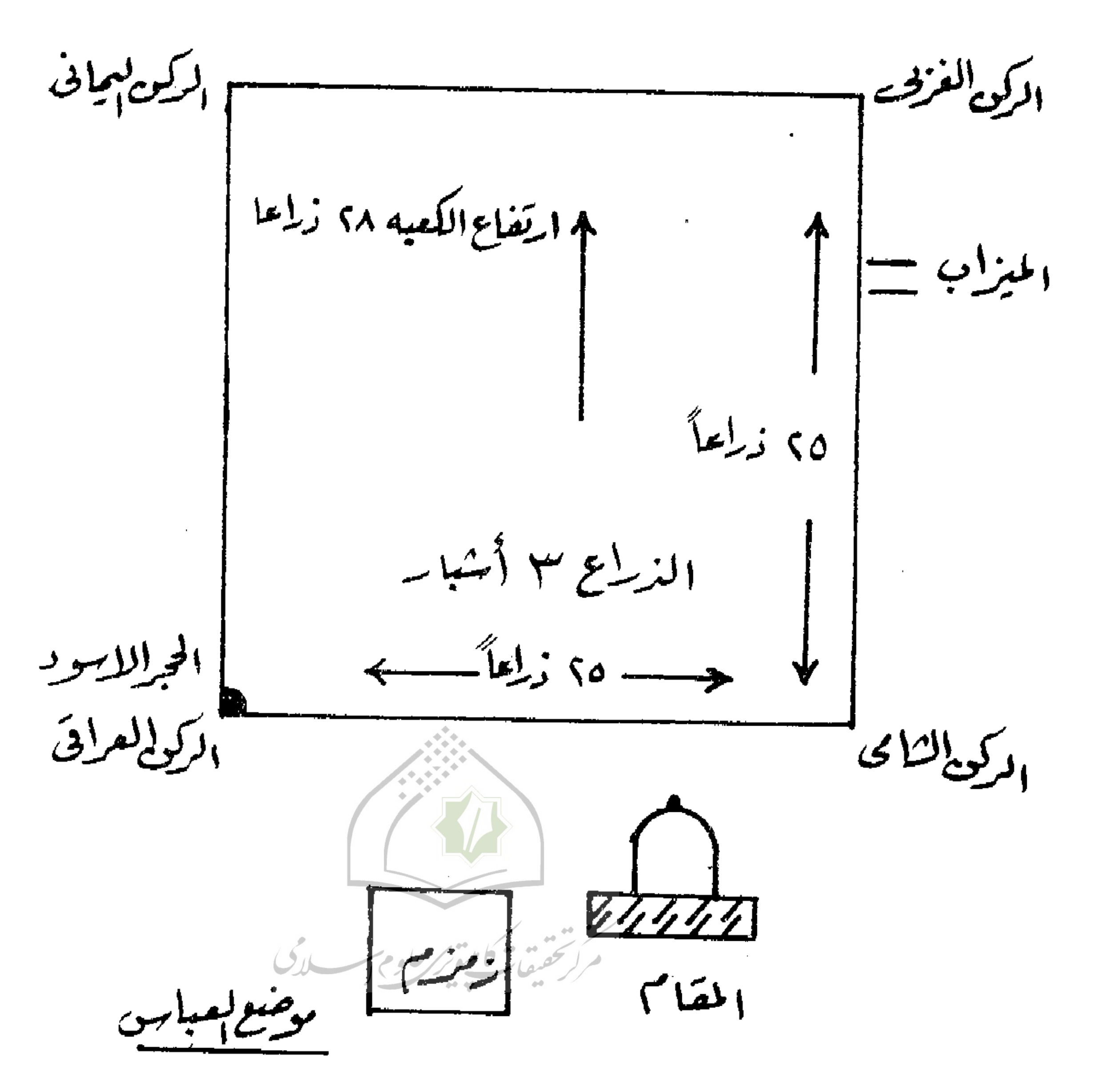
وللعباس بن عبد المطلب (دار) فى مكة تقع في المسعى بين الصفا والمروة جنب الدار التي بيد جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس • ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العلم الذى يسعى منه من جاء من المرورة الى الصفا بأصلها ويزعمون انها كانت لهاشم بن عبد مناف • وفي دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما : اساف ونايله: وهما صنمان كانا يعبدان فى الجاهلية وهما ركن الدار (٦) •

ودار العباس تقابل باب العباس وهو من ابواب الحرم المكي الشريف وكان يسمى باب الجنائز (٧) ويقع باب العباس عند علم المسعى من خارج وفيه ثلاث مداخل ودعى بباب الجنائز لان الجنائز يصلى عليها فيه (٨) وباب العباس أو باب النعوش أو باب الجنائز يقع قرب الصفا (٩) •

وتوفى العباس بن عبد المطلب في سنة ٣٢ هـ عن عشرة ذكور سوى الاناث • ومن اولاده عبد الله بن عباس رضي الله عنه •

واصبحت دار العباس رباطا يسمى (رباط العباس) على ما ذكره الاسدى بتاريخه في القرن الحادى عشر الهجرى (١٠) •

مخطط تقريبى للكعبة المشرفة وما حولها (١١) •



تلك مكانة العباس بن عبد المطلب اورثها لابنه (عبد الله بن عباس) رضي الله عنه ابن مكة البار ولد فيها قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين ايام قاطع المشركون من أهل مكة مسلمي بني هاشم و بني عبد المطلب وغيرهم (١٢) وشب في حجر النبى (ص) وترعرع فى مكة وكانت له مكانته العلمية بحكم صلة القرابة وكثرة اتصاله بالرسول (ص) • ولما انتقل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى كان لعبد الله بن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل كان في الخامسة عشرة (١٣) •

لقد اهتم عبد الله بن عباس بجمع الحديث والتفسير ثم اخذ يجلس للعلم فى الحرم المكى الشريف وازدحم رجال الحديث والتفسير خاصة

فى موسم الحج بمجلسه • واتخذ من موضع ابيه العباس مكانا له على يسار الداخل الى الحرم في زاوية زمزم التى تلى الصفا والوادى • وهاجر ابن عباس الى المدينة في العهد الأموى ، ثم عاد الى مكة • وهو الذىأشار على الحسين بن علي رضي الله عنه ان لا يخرج الى الكوفة في ايام يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان سنة ٦١ هـ وبقى ابن عباس بمكة ينشر معارفه وعلومه وحلقت حوله حلقات واسعة في المسجد المكى الشريف (١٤)• ثم انتقل الى الطائف وفيها توفي سنة ٦٨ هـ وقيل فى سنة ٦٩ هـ (١٥) وخلف عبد الله بن عباس من الاولاد (علي) و (العباس) و (عبيد الله) و (الفضل) و (عبد الرحمن) ومن الاناث (لبابة) و (اسماء) (١٦) •

ورغم اهتمام ابن عباس بنشر العلم والمعرفة الا انه تمسك بوظيفة (السقاية) : سقاية الحاج في المسجد الحرام التي ورثها عن ابيه فقد احتفظ بها وجعلها في ذريته •

وجلس علي بن عبد الله بن عباس مجلس ابيه فكان اذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلس على بن عبد الله بن العباس اعظاما واجلالا وتبجيلا فأن قعد قعدوا وان نهض نهضوا وان مشى مشوا جميعا حوله وكان لا يرى لقريش في المسجد الحرام مجلس يجتمع فيه حتى يخرج علي بن عبدالله من الحرم المكى • حدث عنه أولاده (محمد) و (داود) و (عيسى) و (سليمان) و (صالح) واسند عامة حديثه عن عبد الله بن عباس (١٧)•

كيف لا يكون لعلي بن عبد الله بن عباس مكانة وهو الذى نهل العلم النبوى عن ابيه الذى لازم الرسول (ص) ففي علمه اصالة وليس بينه وبين رسول الله الا والده عبد الله بن عباس وهو قريب عهد بالنبوة عاصر صحابة الرسول وآل بيته رضوان الله عنهم اجمعين فلا غرو اذا ما لازم المكيون ومجاورو المسجد الحرام مجلس ابن عباس وعلى بن عبد الله

ابن عباس وهما قد تخصصا في حفظ حديث الرسول (ص) وتفسير أي القرآن المجيد • واصبحت لعلي مكانة في نفوس اهل مكة تلك المكانة العلمية التي تمتع بها والده والمنزلة الاجتماعية التي اتصف بها جده العباس ابن عبد المطلب فأصبحت قريش تعظمه وتجله مع ما كان يتحلى به من صفات فتنقاد اليه الناس كل هذا مهد للزعامة السياسية فى المستقبل لابنائه واحفاده وان لم نعلم عنه نشاطا سياسيا بقدر ما علمنا نشاطه العلمي وشخصيته المرموقة والمحترمة بين اهل مكة فقد ذكر عطاء بن أبى رباح — تلميذ ابن عباس — فضل عبد الله بن عباس كما ذكر على بن عبدالله بن عباس وابنه محمد وشخصية ابن عباس وابنه على وكيف أجاب رجلا من هذيل جاء يسأله فأثنى عليه الرجل واشار الى الشبه بجده عبد المطلب بجماله وهيبته وطول قامته (١٨) وتوفي على ابن عبد الله بن عباس فى سنة ١١٨ هـ في (البلقاء) من بلاد الشام كان معتقلا هناك اعتقله الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٩) • وسكت المؤرخون عن سبب اعتقاله • فهل ان الخليفة الأموى اوجس في نفسه خيفة منه لما يتمتع به من مكانة في نفوس المكيين وتعاظم نفوذه فأراد ابعاده عن مكة وهي الترمومتر السياسي للعالم الاسلامي اذ يؤمها الحجاج والمعتمرون ورجال السياسة والقيادة والطامعون في الخلافة فكان الخليفة الأموى يريد ان يضعه تحت نظارته • أو أن الخليفة وجد عنده نشاطا سياسيا فأعتقله وربما ان بعض بني العباس قد استقروا في الحميمة بعد ان اقطعهم معاوية فيها فسالموه (٢٠) • لقد توفى على بن عبد الله بن العباس وخلف ابناءه الذين سيكون لهم شأن عظيم في عالم السياسة وسينهضون بالدعوة العباسية ومنهم : —

سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أول من بنى القبة التى على زمزم فى موضع مجلس جده ابن عباس وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك وكان والى مكة يومئذ خالد القسرى (٢١) • وهنا دلالة على أن بني العباس كانت لهم مكانة في مكة منذ ظهور الاسلام فأنهم يقومون

بعمران في المسجد الحرام في أيام عنفوان الدولة الاموية في الشام • والدارس للتاريخ العباسي يجد ان عمران المسجد المكى لم يتم الا على ايدى الخلفاء والوزراء والامراء والسلاطين فكيف يقوم سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس فى عمران بالمسجد الحرام وخلافة الامويين لازالت قائمة وليس له من الحكم شيء فى عهدهم ؟ ان دل هذا الامر فأنما يدل على مركزه وزياده ثروته وتمهيده للحصول على تأييد الرأى العام الاسلامي متخذا من مكة المكان المناسب وفيها ملتقى المسلمين من كل فج عميق • كما انه اراد الحفاظ على مكانة جده العباس فبنى قبة تبقي اثرا قائما يذكر اهل مكة ووفود بيت الله الحرام بسكانة العباسيين • واستقر بنو العباس أو بعضهم في مكة قبل ظهور الدولة العباسية وكانت لهم (دور) ذكرها مؤرخوا البلد الحرام ومن دور العباسيين فى مكة : ـ

دار العباس بن عبد المطلب التي عندها العلم الذى يسعي منه من جاء من المروة الى الصفا (٢٢) •

ودار عبد الله بن عبيد الله بن العباس وتقع على جبل الراحة والذى يشرف على شعب الصفى أو صفى السباب فوق شعب عامر (٢٣) •

ودار عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس قرب المروة •

ودار لبابة ابنة على بن عبد الله بن العباس التى عند القواسين بفم شعب الخوز كانت لحنظلة بن ابى سفيان وكانت اذا قدمت العير من السراة والطايف وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل تحط امام هذه الدار في رحبة تقع امامها فتباع فيها (٢٤) • وبنت لبابة بنت على بن عبد الله بن عباس مسجدا على باب شعب على رضى الله عنه وسمى المسجد (مسجد الكبش) وقيل ان مسجد الكبش يقع على يسار الذاهب الى عرفات وفى شمالى جمرة العقبة (٢٥) •

ودار محمد بن داود بن على بن عبد الله بن العباس وهي الدار التي صارت لجعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وتقع بالحتمة وكان موضع بيت الازلام مما يلي دار ادريس في مبطح السيل بأسفل مكة (٢٦) ويشرف على جبل الصيرة الذى عند الميل على يمين الذاهب ، الى مني ، ولمحمد بن داود بن علي دار اخرى على الطارمة عند الغزالين (٢٧)لجعفر ابن سليمان دار في زقاق العطارين (٢٨) ،

ودار لمحمد بن سليمان بن علي بن عبد اللهبن‌العباس بفم شعب الخوز على طريق منى وطريق العراق ويشرف على حايط مورش وكان فى شعب الخوز المسمى (النوية) يشرف على جبل حراء ويحتمل ان يكون قرب المعابدة(٢٩)اذاجاوزت المقبرة على يمين الذاهب الى منى(٣٠)وسكنت‌زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس فى مكة وأمرت بحفر بئر عكرمة بأصل الخندمة (٣١) وجدير بالذكر ان هذه البئر التي امرت زينب بحفرها تذكرنا بتاريخ الامويين ايام فتح الرسول (ص) مكةفى‌السنة الثامنة للهجرة وعن هذه البئر قال الشاعر : ـ

انك لو شهدت يوم الخندمه ــ اذ فر صفوان وفر عكرمه

وصفوان من بني امية وقد فر مع عكرمة بن ابي جهل ،

اما العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فأن داره (بالمروة) على الصيارفة وتسمى الدار البيضاء ابتناها معاوية بن أبى سفيان وبابها من ناحية المروة ووجهها شارع على الطريق العظمى ، وكانت فيها طريق الى جبل الديلمي ، فلم تزل حتى اقطعها العباس العباس بن محمد بن علي (اخو السفاح والمنصور) فسد ذلك الطريق وسميت (البيضاء) لانها بنيت‌بالجص‌ثم طليت به فكانت‌كلها بيضاء(٣٢) وهنا نتساءل كيف أصبحت دار معاوية بن ابى سفيان الخليفة الاموى التى بناها على المروة للعباس بن محمد بن على العباسى ؟ ثم‌كيف استطاع العباس ان يسد الطريق المؤدى

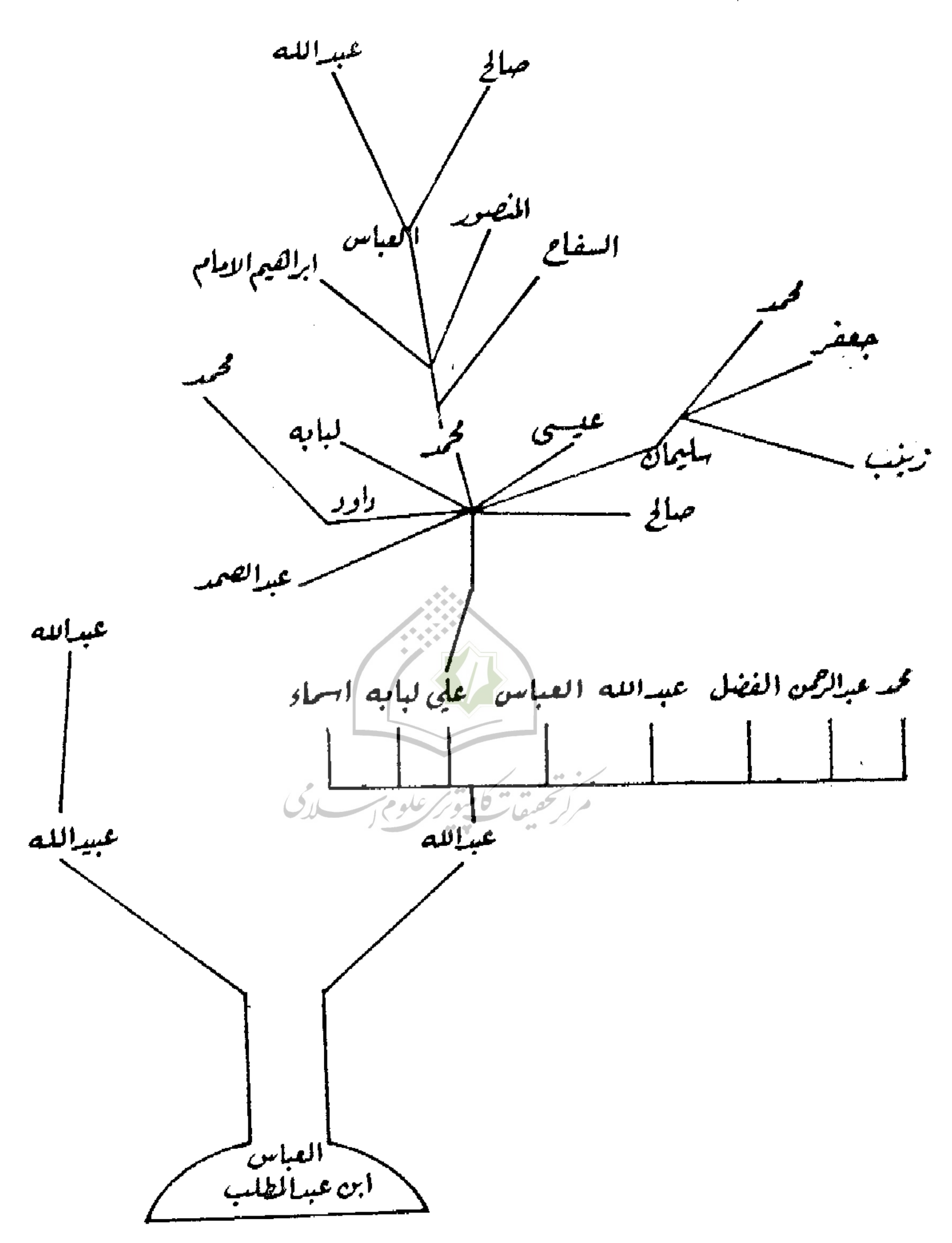
الى جبل الديلمي ؟ لا بد وان له من المال والجاه والسلطان بمكة بحيث استطاع هذا الرجل العباسى ان يشترى تلـك الدار وهـى دار خليفـة أموي وله من النفوذ بحيث استطاع ان يسد الطريق. ولعل الدار التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام وهي دار العباس بن محمد بناها وامر قومه ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وان يجعلوا اعلاها دون الكعبـة المشرفة لتكون دونها ، اعظاما للكعبة واورد الازرقي : قال جدي فلم يبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة الا هدمت أو ـ خربت الا هذه الدار فانها بقيت الى الآن (٣٣) .

ونلاحظ مكانة العباس بن محمد تلك المكانة الاجتماعية بين اهـل مكة قبل نجاح الدعوة العباسية ومكانته عند ولاة مكة فهو يأمر وينهى وامره نافذ فقد هدمت كل الدور التى كانت اكثر ارتفاعا من الكعبة الا دار العباس التى على الصيارفة وكان له قوم يأمرهم وهم يأتمرون بأمره حتى لقد أمرهم ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وقد فعلوا ما اراد . أما داره ـ فانها بقيت الى ايام الازرقي الذي عاش في القرن الثالث الهجري ثم ادخلت في توسعة الحرم مع دار الازرقي ودور اخرى (٣٤) .

وبنى عبد الله بن العباس بن علي بن عبد الله بن العباس ـ (مسجد الراية) وهو من المساجد التي صلى فيه الرسول (ص) ويبعد عن جدار باب بني شيبة ـ وهو من ابواب الحرم الشريف ـ نحو سبعمائة ذراع واربعة وعشرين ذراعا بذراع الحديد وبذراع اليد أكثر من الف ذراع وخمسين ذراعا (٣٥) . لقد بنى عبد الله بن العباس بن محمد المسجد الذى ركز فيه رسول الله (ص) رايته حين فتح مكة وهذا مما له كبير الاثر في نفوس المسلمين عامة وسكان مكة اذ يعمروا مساجد الله وفى ذلك تأييد لهم من الرأى العام اذا ما نادى المنادي بدعوة عباسية .

ودار صالح بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العبـاس

وتدعى الخالصة وتقع في طريق منى • وقيل ان داره تقع عند دار خالصة مولاة الخيزران (٣٦) •



شكل يوضح بعض اصحاب الدور بمكة من البيت العباسي
ابان الدعوة العباسية

وابتاع صالح بن العباس قصر جعفر بن يحيى البرمكي فابتنى عليه وزاد فيه ويقع هذا القصر بأصل جبل (سقر) او (ستار) كما يدعى في الجاهلية ثم صار هذا القصر للمنتصر بالله الخليفة العباسى (٣٧) •

ودار ربطة بنت ابي العباس السفاح وهي دار ابي سفيان والتي فتح معاوية فيها بابا من دار ابيه ابي سفيان على بيت ام المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٣٨) •

هذه بعض دور العباسيين فى مكة ابان الدعوة العباسية وكانت بعض دورهم وقصورهم قريبا من المسجد الحرام ونستدل على عظمتها انها كانت ملكا لخليفة كمعاوية او اتخذها خليفة له دارا كما فعل المنتصر العباسي •ثم انهم قاموا بحفر الآبار وبناء المساجد واتخذوا في أحياء مكة المهمة دورهم وفى طريق منى • وساهمت المرأة العباسية مع الرجل فى المشاريع العمرانية فى مكة المشرفة وهذا له كبير الاثر في بلد مقدس يرتاده المسلمون فى كل زمان ومن كل مكان •

وسكن ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وهو والد كل من ابراهيم الامام وعبد الله السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وتوفي فيها سنة ١٢٥ هـ وهو من دهاة بني العباس وساستهم يكاتبونه ويلقبونه بالامام (٣٩) •

وتظاهر النقباء والدعاة بالتجارة واتخذوا طريق الكوفة ــ خراسان التجاري لايهام الامويين انهم تجار وكان الاتصال بالحميمة غير مسموح الا عن طريق المشرف فى الكوفة • وهكذا لم ينكشف امر الحميمة الا في آخر مراحل الحركة العباسية (٤٠) •

وتبدو القيادة السياسية عند محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كاول شخصية عباسية في التاريخ السياسي لدعوة بني العباس اذ كان داهية

من دهاة زمانه وكان قومه يلقبونه (الامام) • والامامة نيابة عن النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا (٤١) وهو لقب من القاب الخليفة •

ولا يعلم شخصية الامام الا المقربين • وقد اتخذ من مكة المركز الذي يتصل به بالنقباء والدعاة الذين يفدون الى مكة للحج والعمرة او التجارة وكان هناك مشرف على الدعوة فى الكوفة يأتمر بأمر الامام القابع فى مكـة ومثل ذلك فى الحميمة وبذلك ظلت الدعوة العباسية تحت ستار الدين تارة والتجارة اخرى فأن انكشف امر الامام فى الحميمة فلـم نعلم انـه عرفت شخصيته فى مكة رغم اتصالاته المستمرة بالامصار الاخرى •

ثم ترك محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وصار في الحميمة واستطاع ان يستغل تنازل ابي هاشم عن الامامة • وابو هاشم هو عبد الله ابن محمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب كرم‌الله‌وجهه حينما مر به في سنة ٩٨هـ وأوصى لمحمد بن علي العباسي بقيادة الحركـة السرية الهاشمية هذا ما اذاعه العباسيون واكدوه فقالـوا : ان ابـا هاشم العلوي أوصى لمحمد بن علي العباسي بالامامة اثر دعوة ابي هاشم من الشام ــ متوجها الى الحجاز بعد زيارته للخليفة الاموي سليمان بن عبد الله وقد تمرض ابو هاشم اما بسبب السم الذى دسه الخليفة الاموى أو بسبب مرض طبيعي وانه عرج على ابن عمه العباسي وبذلك حول محمد بن علي المنطقة الهاشمية الى منطقةعباسيةصرفة(٤٢)واختار محمد بن على العباسى خراسان مركزا تنطلق منه الثورة العباسية ضد الامويين بعد ان مهد لها وهو يوصي الدعاة بقوله : « اما مكة والمدينة فغلب عليهما ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ــ ويعني انهما شهدا عهد ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اصلح العهود وبعد عهد رسول الله(ص)فلا يرضى اهلها بسواه•أو قد يعني ان مكة والمدينة قرشية ويريد ان يعتمد على الموالي فيستعين بهم حين يقول « : وعليكم بخراسان » واوصى من بعـده لابنه ابراهيم الملقب بالامـام •

وفصل ابن قتيبة ذلك التنازل وهو يقول : اما ابو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وبوصيته منه بعد أن اجتمع العلويون في المدينة ومكة الى محمد بن الحنفية وبا يعته على طلب الخلافة ان امكنه ذلك وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب على فرصته فيما يحتاج من النفقة على مجاهدته فقبلها وولى على شيعة كل بلد رجلا منهم وأمره باستدعاء من قبل منهم في سر وتوصية اليهم الا يبوحوا بمكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى القيام موضعا • فأقام محمد بن الحنفية امام العلويين قابضا لزكاتهم حتى مات فلما حضرته الوفاة ولى ابنه عبد الله وهو المدعو (ابو هاشم) من بعده وامره بطلب الخلافة ان وجد الى ذلك سبيلا واعلم العلويين بتوليته اياه فاقام عبد الله على امرهم حتى بلغ سليمان بن عبدالملك ـ الخليفة الاموى أن العلويين بايعوا عبدالله ابن محمد بن الحنفية بعد ابيه فبعث اليه وقد أعد له فى افواه الطريق رجالا ومعهم أشربة مسمومة وأمرهم اذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب فلما دخل على سليمان اجلسه الى جانبه وسأله وقال له : بلغني أن قومك بايعوك فانكر ذلك • ثم خرج من عنده فى وقت شديد الحر فقدم له البعض شربة لبن فشرب منه ثم مضى فوجد ان السم فيه واتجه من العراق الى الحميمة وبها جماعة آل عباس ونزل على محمد بن على بن عبد الله بن عباس واخبره الخبر وقال له اليك الامر والطلب للخلافة بعدى فولاه واشهد له من العلويين رجالا وأدلى اليه باسرار الدعوة التي اودعها اياه ابوه محمد بن الحنيفة واعلم ابو هاشم ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله العباس اعلمه اسماء الدعاة من العلويين وسلمه كتبا يرسلها الى دعاته فى الكوفة كما اوصاه ان تكون الامامة من بعده لابنه • ثم مات فاقام محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ووصف الاتباع والاصحاب وصفهم له(٤٣)اما قول السنجاري « ان سبب قيام بني العباس ان العلويين كانوا يعتقدون بأمامة محمد بن الحنفية بعد أخيه الحسن بن على رضى الله عنهما ونقلوه بعده الى ابى هاشم الذى أوصى حين حضرته الوفاة الى ولده ابراهيم الامام » (٤٤) •

هذا القول يخالف ما أورده المؤرخون الذين اجمعوا على ان التنازل والوصية كانت لمحمد بن علي العباسي وليس لابراهيم الامام ابن محمد ابن محمد بن علي العباسي • وجدير بالذكر ان تتساءل لماذا سكن محمد بن علي العباسي الحميمة من بلاد الشام ؟ •

هل لأن والده اعتقل في بلقاء الشام واراد ان يكون قريبا منه • أم ليتخذ من الحميمة موقعا مناسبا لبث الدعوة العباسية وهي على ممر القوافل التجارية والحجاج فيمكنه الاتصال بهم أو بنقبائه ودعاته بيسر وامان بعيدا عن عيون الخليفة الامـوي •

ويجوز ان يكون جد العباسيين هذا قد استوطن الحميمة لأن الخليفة الاموي اراد منه ذلك لكي لا يكون في مكة موطن اجداده العباسيين وحول انصاره واقربائه وبعض وجهاء بني العباس •• وخلاصة القول ان محمـد ابن علي بن عبد الله العباس قد استفاد من اتخاذ الحميمة مقرا للدعوة بعد أن كانت مكة هي المقر للعباسيين وستعود مكة ثانية تحتل مكانتها السياسية في ايام ابنه ابراهيم الامام • وقد استفاد محمد بن علي العباسي من وجوده بالحميمة ذلك التنازل من امام العلويين بالامامة له من بعده وبذلك كسب جبهة علوية اضافها الى جبهتهم العباسية وضمهم تحت شعار الدعوة لآل بيت النبي (ص) •

وقدم الدعاة من خراسان للحج ومعهم (قحطبة بن شبيب) ومـروا بواسط فالتقوا بأبي مسلم الخراساني ومنها نحو مكة على طريق البصرة فوصلوا مكة وقد وافاها الامام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس حاجا فلقوه وسلموا عليه واخبروه بما غرسوا في جميع خراسان من الغرس واخبروه دخولهم على اخوانهم المحبوسين بواسط في العراق ووصفوا له ابا مسلم وهذا ما يدل على أن الخلافة الاموية اخذت تحسب حسابا للدعوة والدعاة فحسبت بعضهم بواسط •

وأوصى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الدعاة بابنه ابراهيم اذا حدث له أمر فانصرفوا الى خراسان وبعد وفاته خلفه ابنه ابراهيم الامام فأرسل ابراهيم الى ابي مسلم الخراساني ان يسير يبلغ لدعاة في العراق ـ وخراسان بوفاة ابيه محمد الامام أو قيامه بالامر من بعده (٤٥) ٠

من هنا نلاحظ أن محمد بن علي بن عبد الله ين العباس اتخذ من الحج وسيلة للاتصال بالدعاة فى البلد الامين وفي مكة تكون الاجتماعات السرية ويكون اللقاء بينهم وبين الامام وتعقد الاتفاقات لدعوة تريد قلب نظام الحكم فى الدولة الاموية ٠ وكان محمد بن علي يجتمع بالدعاة ويطلع على اخبارهم حول ما سموه بالغرس أى غرس روح الثورة العباسية ضد الأمويين ٠

والى مكة كانت تنقل زكاتهم من خراسان ومن العراق وغيرها لتحفظ الى حين الوثوب أو ساعة الصفر التي يقررها الامام وقد جعل من مكة مركزا للدعوة ضد الأمويين ٠

وفى سنة ١٢٥ هـ توفى محمد بن على والد السفاح والمنصور مات وهو في المعتقل وكان من دعاة بنى العباس يكاتبونه ويلقبونه بالامام مات في عهد هشام بن عبد الملك أو الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك (٤٦) لقد اعتقل ابوه من قبله وتوفي هو الآخر في الاعتقال وسكت المؤرخون عن سبب اعتقال ابيه لانه لم يكن له نشاط سياسي ملحوظ بقدر ما كان له من مكانة علمية واجتماعية عند اهل مكة بصورة خاصة ولكنه كان يخفي وراء ذلك نشاطا سياسيا محتملا باقامته في مكة ٠

اما ابنه محمد بن عبد الله بن العباس فقد اسهب طائفة من المؤرخين في ذكر نشاطه السياسي وهو يستقبل الدعاة ويوصيهم ويوجههم الى الامصار متخذا من مواسم الحج خير زمان ومن مكة المكان المناسب لتحقيق اغراضه السياسية تحت ستار الدين ٠

ويبدو ان النصوص التاريخية تؤكد على اتخاذ مكة مركز الدعـوة العباسية ففي عام ١٢٥هـ حج (شبيب ابن شيبة التيمي) وكان في حاشية المنصور وولده المهدي وبينما هو يستريح فى المسجد الحرام اذ عرف رجـلا عثر فى المقام فساعده واصطحبه الى بيته واعلمه انه عبد الله بن محمد بـن علي بن عبد الله بن عباس (ابو جعفر المنصور) وانه يسكن باعلى مكة وله رجال واعلمه بقوله : « ان انصار دولتنا وامراء جيوشنا فهم مواليهم وموالي القوم من انفسهم فاذا وضعت الحرب اوزارها صفحنا عن المسيء ووهبنا للرجل قومه » وسأل ابن شيبة عن ساعة الصفر بقوله : أترقب لظهور الامر وقتا ؟ فقال عبدالله (الله المقدر للوقت • وارسل معه كسوة مـع مولى لعبد الله كان يتبعه الى منزله فأخذ ابن شيبة الكسوة (٤٧) •

هذا النص يدل على أن مكة المركز الاول للدعوة العباسية وفيها رجال من بني العباس فى عهد بني امية وكان لهم انصار ورجال وامراء للجيوش وان لهم قوم وموالي كلهم ينتظرون ساعة الوثوب أو الثورة ووجهتهم نحو الامام القابع بمكة ولكن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (المنصور) لم يفصح عن الساعة بل كان حذرا فلم يعلمه عن موعدها ، كما يدلنا على ان لعبد الله بن محمد بن علي بيت باعلى مكة فلم يعد بنو العباس يتخذون بيوتا لهم قرب المسجد الحرام فحسب بـل وفي اعلاها بيـوت لهم اتخذوها كمراكز سرية للدعوة واللقاء بالدعاة بعيدا عن انظار الأمويين وولاتهم فى مكة •

وفى عام ١٢٦ هـ حج (سليمان بن كثير ولاهز بن قرط ومالك بـن الهيثم وقحطبة بن شبيب) حجوا متنكرين حتى اتوا مكة وقد وافاهم الامام ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فاخبروه بما اجتمع لـه الناس بخراسان وقد حملوا له ما بعثت له الشيعة عشرة الاف دينار ومائتا الف درهم ثم ولي امرهم ابا مسلم وقال لهـم : « فاسمعوا لـه واطيعـوا فانصرفوا (٤٨) • وهكذا انتقلت الامامة الى ابراهيم وقد جمعت له الاموال

واخذ يعين الامراء بعد ان علم أن اهل خراسان اجتمعوا له ، وهنا برزت شخصية ابي مسلم الخراساني .

وفى سنة ١٢٧ هـ اجتمعت جماعة من الدعاة الى بني العباس عند ابراهيم بن محمد الامام العباسى وكان معهم ابو مسلم الخراسانى فدفعوا له نفقات كثيرة واعطوه خمس اموالهم ولم ينتظم لهم أمر السنة لكثرة الشرور المنتشرة والفتن الواقعة بين الناس (٤٩) .

لقد اعطيت خمس الاموال لابراهيم الامام العباسى فهو ولي امرهم مع أموال كثيرة اخرى فان سليمان ابن كثير ولاهز بن قرظ وقحطبة توجهوا الى مكة في سنة ١٢٧ هـ فلقوا ابراهيم بن محمد الامام واوصلوا الى مولى له عشرين الف دينار ومائتى الف درهم ومسكا ومتاعا كثيرا وكان معهم ابو مسلم فأمر ابراهيم أبا مسلم على خراسان (٥٠) .

وهنا تبدو عبقرية ابراهيم الامام السياسية حين بعث من كل بلد اميرا من اهلها فأبو مسلم أمره على خراسان وأبا سلمة الخلال على الكوفة لميل العلويين له وميله اليهم وكان بعض الدعاة يطلبون من ابراهيم الامام أن يوجه من قبله واليا معهم الى بعض الامصار فهو والحالة هذه يقوم مقام الخليفة وأن مكة مركز الدعوة وفيها الامام الذى يولي الولاة ويبعثهم الى خراسان والكوفة والولاية من الوظائف أو المهام المعهودة للخليفة وان كان هناك خليفة أموى في بلاد الشام .

وفى مكة حدث اجتماع سرى ضم أقطاب بنى العباس والطالبيون فكونوا جمعية سرية واسندوا الرئاسة في أول تشكيلها الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم الملقب بمحمد النفس الزكية ثم تخلوا عنه ونقض العباسيون عهد هذه الجمعية السرية والتي انعقدت بمكة واسندوها لابي العباس السفاح (٥١) وذكر ابن خلدون أن المنصور العباسى ممن بايع محمد النفس الزكية في تلك الليلة والتي عقدوا لمحمد النفس الزكية بالخلافة (٥٢) .

وهكذا كانت البيعة الخاصة للخليفة الاول من آل بيت النبى (ص) حدث بعد اجتماع سري ليلا في مكة المكرمة وقيل ان اجتماع بني هاشم هذا كان بالابواء وهو مكان بين مكة والمدينة وضم ابراهيم الامام وأخويه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وصالح ابن علي وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب وابناه محمد وابراهيم ومحمد بن عمرو بن عثمان بن عفان فبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بمحمد النفس الزكية فما كان منه الا ان بعث الحسن بن معاوية واليا على مكة وبعث القاسم بن اسحق واليا على اليمن (٥٣) .

وقيل حدث ذلك فى خلافة المنصور ، أما الاجتماع الاول الذى ضم وجهاء بنى هاشم من عباسيين وعلويين فقد حدث في مكة وليس بالابواء . وما ذكر عن ممارسة محمد النفس الزكية سلطة الخليفة فقد حدث في أيام المنصور . ومن الدلالات الواضحة على أهمية مكة في الدعوة العباسية أن ابراهيم الامام ارسل وهو بمكة الراية وتدعى (السحاب) واللواء ويدعى (الظل) ارسلهما الى ابى مسلم بخراسان . وكان ابو مسلم قد سار نحو الامام بمكة من خراسان ليظهر الحج واجتمع به فأمره ابراهيم الامام بالرجوع واظهار الدعوة ونشرها وامر ابو مسلم قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الاموال والتحف الى ابراهيم فيوافيه في الموسم بمكة فرجع ابو مسلم الى خراسان وكانت الفرصة مناسبة لانشغال نصر بن سيار والي بنى امية على خراسان بقتال الخوارج والذين يقودهم (الكرماني) و (شيبان بن سلمة الحرورى)(٥٤).

ففى سنة ١٢٩ هـ بينما الناس بعرفة ما شعروا الا وقد طلعت عليهم اعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم على مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب

منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا احق وعليه أشج فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الاول فوقفوا بعرفة على حده ودفع الناس عبد الواحد ونزل في منزل السلطان ونزل أبو حمزة الخارجى مقدم الفريق الاخر بقرن الثعالب . ويقال له (قرن المنازل) وهو ميقات أهل نجد قال ياقوت (تلقاء مكة على يوم وليلة) ، فلما كان النفر الاول نفر فيه عبد الواحد وخلى مكة فدخلها ابو حمزة الاباضى بغير قتال (٥٥).

ونرى أن الدعوة العباسية ظهرت في مكة وعقد لواءها وشعارها من هناك وكان موسم الحج بمكة هو الزمان الملائم في المكان الامين للاتصال بالامام في البلد الامين حيث تنقل الاموال اليه من كل مكان بقصد الحج حتى اذا ما دقت ساعة العمل ظهرت الرايات والعمائم السود العباسية هناك في مكة وقد حدث ذلك قبل اعلان الدعوة بثلاث سنين .

وفي سنة ١٢٩ هـ كتب ابراهيم الامام وكان بالحميمة الى ابى مسلم يسأل عن أخبار الناس فسار نحوه في النصف من جمادي الاخرة مع سبعين نفسا من النقباء فلما صار بالدانقان من ارض خراسان عرض له كامل (ابو كامل) فسأله عن مقصده فقال الحج ثم خلا به أبو مسلم فدعاه فأجابه ثم ان ابا مسلم بقى فى خراسان ووجه قحطبة الى الامام ابراهيم بما معه من الاموال والعروض وفي نيسابور عرض لهم صاحب المسلحة فسألهم فقالوا : اردنا الحج فبلغنا عن الطريق شيء خفناه (٥٦) .

وهكذا ينفذ ابو مسلم اوامر امامه شأن النقباء والدعاة وكان ابراهيم الامام على اتصال دائم بالناس في خراسان واتضح امر ابراهيم حين وجد الخليفة الاموي مروان بن محمد كتابا من ابراهيم الى أبي مسلم وفيه يأمره ابراهيم أن يناهض نصر بن سيار ولا يترك هناك في خراسان من يحسن العربية الا ويقتله فما كان من مروان الا أن أمر يقتل ابراهيم الامام فقتله شر قتلة (٥٧) .

وقيل أن ابراهيم الامام اشتهر فى موسم حج سنة ١٣١ هـ حـــين وقف فى ابهة عظيمة ونجائب كثيرة وحرمة وافرة فأنهى أمره الى مروان فأرسل عليه وقتله وكان مع ابراهيم حين حج اخواه ابو العباس وجعفر وولده وعمه ومواليه على ثلاثين نجيبا عليهم الثياب الفاخرة والرجـــال والاثقال فشهرة اهل البوادى والشام والحرمين معهما مع ما انتشر في الدنيا من ظهور امرهم وبلغ مروان خبر حجهم فكتب الى عامله بدمشق بتوجيه خيل له وكان مروان بأرض الشام ووجه العامل خيلا فهجموا على ابراهيم فأخذوه وحملوه الى سجن حران فأثقلوه وقيدوه حتى مات ولما احس ابراهيم بالطلب أوصى الى أخيه ابى العبـــاس ونعى نفســـه اليه وأمره بالسير من (مكة) الى الكوفة بأهل بيته فسار معه اخوه ابو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين (٥٨) • وهنا نلحظ اتباع ابراهيم اولئك الذين قدموا معه على ثلاثين نجيبا وهم من الموالى فقط سوى اقرباء • من بنى العباس ممن كانت لهم مكانة اجتماعيـــة واقتصادية علاوة على الاهمية السياسية وكان لهـــم الولاء في البوادي وفي مكة والمدينة وحتى في بلاد الشام • وقيل ان ابا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم الامام ويسمونه الخليفة فلما علم مروان طلبه لانه على ان دعوة ابى مسلم له وانه يؤهل لهذا الامر (٥٩) •

وفي هذا الوقت خرج اخواه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور خرجا الى الكوفة على انفسهما ومعهما داود بن علي (٦٠)

والارجح انتقال ابراهيم الامام من مكة الى الحميمة كان بعد أن رأى اجتماع اقطاب بنى هاشم على رئاسة محمد النفس الزكية وتعيين ـــ وال على مكة من قبله فلم يعد له مكانا هناك فرحل الى الحميمة حتـــى اذا ما انكشف أمره كان فى ذلك حتفه •

ولما علم ابو مسلم الخراساني بقتل ابراهيم الامام قدم من خراسان الى الكوفة فعزى السفاح والمنصور ثم قال لابي العباس مد يدك ابايعك فمد يده فبايعه ثم سار الى مكة ثم انصرف اليهما (٦١) .

لقد كان المنصور اكبر سنا من السفاح اذ ولد السفاح سنة ١٠٥ هـ أما ولادة المنصور ففي سنة ٩٥ هـ فمبايعة ابي مسلم للسفاح قد يكون لعهد ابراهيم له أو لما كان بين المنصور وابي مسلم الخراساني من وحشة فأراد ابو مسلم ان تكون الخلافة لاخيه السفاح .

وسار ابو مسلم الى مكة لكي يضلل عيون الخلافة الاموية انه قادم الى الحج فلا ترصد حركاته ونلحظه ان هناك بيعة وهي من شروط الامامة أو الخلافة رغم ان خلافة الامويين لا زالت قائمة وهذا يدل على نشاط الدعاة وتفانيهم في سبيل الدعوة الجديدة .

ودخل ابو مسلم (مرو) سنة ١٣٠ هـ وكان يدعو للرضا من آل بيت النبي (ص) ونص البيعة (ابايعكم على كتاب الله وسنة نبيه والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله وعليكم بذلك عهد وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يتبؤكم به ولاتكم (٦٢) .

في هذه البيعة تعاقد على الحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة من يرتضونه من آل بيت رسول الله (ص) دون أن يفصح عن شخص الخليفة . اما الدعاة والنقباء فهم يعرفون شخصية الامام وان كانوا يدعون للرضا من آل محمد فالدعوة غامضة بالنسبة للعلويين الذين يظنونها انها من اجلهم وكذلك الخراسانيون دعوا الى (صاحب الحق) واحسن العباسيون استخدام الفريقين في تعمية الامويين الامويون ان الدعوة والقائمين عليها من آل بيت علي رضي الله عنه . واختار العباسيون انصارا لهم من الفرس بدليل قول محمد الامام اذ يقول (وعليكم بخراسان) .

ومن نصيحة ابراهيم الامام الى ابي مسلم (ان استطعت ان لاتدع بخراسان لسانا عربيا فأفعل) • وتطرق ابراهيم كثيرا في اذكاء نار العصبية القبلية في خراسان خشية تجمع اهل يمن فيها فأوصى ابا مسلم في اهل يمن يريد فتنة ربيعة ومصر وهذه من مبادىء ابي مسلم التي اشاعها بين جنده بقوله (اكثروا ذكر الضغائن فانها تبعث على الاقدام) • (٦٣) •

ومما يجدر ذكره ان القائمين بالدعوة جلهم من العرب وان كان العنصر الفارسي له دوره في اعلان الدعوة العباسية • واكد ابو مسلم على عدم مخالفة الخليفة المنتظر بأن جعل الايمان والمواثيق عليهم اذا هم خالفوه وزاد بعدم المطالبة بالمال حتى يقدمة اولي الامر لهم بينما اعلن ابراهيم الامام وهو يوصي الدعاة بأن ابا مسلم من اهل البيت العباسي بقوله (يا عبد الرحمن انك منا اهل البيت) • وقال له (عليك بهذا الحي من اليمين) وحذره من بقية الاحياء وقال له : (ان استطعت ان لا تدع بتلك البلاد عربيا فافعل) (٦٤) •

ولما تمكن ابو مسلم وقوي أمره ادعى انه من سليط بن عبد الله بن عباس وكان من أوليه هذا الزعم ان نصر الامويون سليط على اخيه في اثبات حقه بالميراث لاسباب سياسية وقيل ان ابا مسلم ولد باصبهان ونشأ بالكوفة فاتصل بابراهيم الامام فغيراسمه وكناه بابي مسلم وامره على خراسان(٦٥) وابراهيم الامام هو الذى اكد ان ابا مسلم من اهل البيت العباسي وهذا ما تقتضية الدعوة وهي في مهدها لكسب اكبر عدد ممكن من الرجل الاشد اذ والذين عرفوا بالدعاء والشجاعة والنفوذ وابو مسلم قد تميز بهذه الصفات المهم ان ابا مسلم هو الذي اظهر الدعوة العباسية من السر الى العلن وهو الذى استلم شعار العباسيين وهو السواد من ابراهيم الامام العباسى ارسله اليه من مكة مركز الدعوة العباسية وارسل معه اللواء وهو (الظل) ـ أو (السحاب) •

وكانت هناك عوامل كثيرة تداخلت مع بعضها البعض فأدت الى نجاح

الدعوة العباسية سواء في مكة المكرمة أو خراسان او الكوفة او غيرها فقد رسم بنو العباس ابان دعوتهم خططهم على اساس الاستعانة بكل القوى الممكنة لانجاح دعوتهم ومنها استغلالهم اخطاء الامويين والقضاء على مصادر القوةمن افراد أو جماعات وعرفوا اهداف العلويين ومن تكتل معهم واهداف الفرس واخيرا قدروا السياسة لاقامة خلافتهم العباسية (٦٦) واكد العباسيون حركة تنازل ابي هاشم واذاعوه • وساعدهم انقسام البيت الاموى على نفسه واذكاء نار العصبية القبلية وللعامل الاقتصادى كبير الاثر فى انتشار سخط الجماهير ضد الامويين ومنهم الموالي والخوارج الذين لعبوا دورا خطيرا في اسقاط الامويين وبصورة غير مباشرة في نجاح الدعوة العباسية • ومن الخوارج ابوحمزه بن عوف الازدى البصرى المختار وهو من الاباضية وهي فرقة فرق الخوارج • وكان يوافي مكه كل موسم يدعو الى خلاف مروان وانضم اليه عبد الله بن يحيى المعروف(بطالب الحق)سنة ١٢٨ هـ وهو من حضرموت وقال له انطلق معي فاني مطاع في قومي فأنطلق معه الى حضرموت وبايعة على الخلافة وبعثه عبد الله سنة ١٢٩ هـ مع (بلج بن عقبة الازدى) فى سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف وعامل المدينة يومئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فطلبهم بالموادعة حتى ينقضي الموسم واقام الناس حجهم ونزل بمنى واحكم نفر من الصحابة مع الخارجي والموادعة ونفر عبد الواحد مع النفر الاول فمضى الى المدينة وزاد في عطاء اهلها ثم دخل حمزة المدينة سنة ١٣٠ هـ في شهر صفر بعد ان الحق عبد الواحد بالشام واحسن السيرة باهلها ثم ارسل مروان من يقتل ابا حمزة فقتله وانهزمت الخوارج واستخلف على مكة والمدينة وقتل طالب الحق وتوجه والى مروان الى مكة ليقيم الحج فلقيه قوم ونهبوهم وقتلوهم وركد ريح الخوارج من يومئذ الى أن ظهرت الدعوة العباسية وبويع المنصور بعد السفاح (٦٧) •

واضاف السعودى ان عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق خوطب بأمير المؤمنين وكان اباضى المذهب من الخوارج فارسل مروان قائده

عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى فقتل ابو حمزة واكثر من معه من الخوارج وذلك فى سنة ١٣٠ هـ ولحق القائد عبد الملك هذا مع جيش مروان الى اليمن ونزل صنعاء سنة ١٣٢ هـ (٦٨) .

لقد كانت مكة فى هذه الفترة التاريخية ــ وهى فترة انتقال كانت مضطربة شأن أى مدينة اخرى خاصة وقد جعلت الخوارج كل منها ومن المدينة واليمن وحضرموت مسرحا للحروب وادى ذلك الى توزيع جهود مروان آخر خلفاء الامويين في الوقت الذى يعلن فيه ابو مسلم الدعوة العباسية فى خراسان . والسفاح والمنصور واعوانهما يهيئون لظهور الخليفة واعلان اسمه تحت ظروف سياسية وحربية مضطربة تجاه الامويين .

حتى ابو حمزة الخارجي لما قدم الحجاز كان يظهر الحج في سنة ١٢٩ وهي السنة التى طلعت على الحاج واهل مكة اعلاه وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم بعرفة وكان عدتهم نحو سبعمائة وقد راسلهم عبد الملك والى مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة وتمت الهدنة ثم احتل ابو حمزة مكة بعد هروب واليها عبد الملك وحدثت معركة بين جيش الخوارج وجند مروان سنة ١٣١هـ (بقديد) قرب مكة فهزم مكة جيش مروان حرورية الخوارج (٦٩) .

هكذا واجه مروان الفتن من كل جانب ففى الشرق ابو مسلم الخراساني وقد اعلن الثورة واحتل خراسان . ومن الغرب كتائب من طبرية والاردن تهاجمه تحت قيادة نعيم بن ثابت الجذامي ومن الجنوب من ارض ــ اليمن رجفت اباضية الخوارج تدعو لزعيمها عبد الله بن يحى الكندى وخوطب بأمير المؤمنين واحتلت هذه القوات مكة والمدينة ودانت اليمن وحضرموت لها وسارت لقتال جيش مروان وتمكن مروان من رد هذه القوات الا جيش ابي مسلم (٧٠) .

كل هذه الفتن اوهنت قوى الامويين ومهدت لنجاح دعوة ــ

العباسيين ولكن مكة وما حولها كانت مسرحا لحروب الخوارج مع الجيوش الاموية التى بلغت نحو خمسة عشر الف مقاتل وقد فرق القائد الاموى الخيل على الخوارج من اسفل مكة ومن اعلاها فاقتتلوا الى نصف النهار فقتل والي مكة من قبل ابي حمزة الخارجي وهو ابرهة ابن الصباح الحميرى عند بئر ميمون في مكة وقتل حمزة وخلق كثير من جيش الخوارج وعادت مكة الى الحظيرة الاموية (٧١) .

خلاصة القول : ان ظهور الخوارج في اواخر ايام الدولة الاموية وعلى راسهم ابو حمزة وغيره من قادتهم كان قد اشغل الدولة الاموية فى سني احتضارها . كما انضم الى الخوارج كل ساخط على الامويين وبعض القبائل من يمن وحضر فحاربت الامويين نحو ثلاث سنين واخمدت حركتهم الا ان لهذا اثره فى اضعاف الدولة الاموية وتهيئة الظروف لنجاح الدعوة العباسية وهى تزحف من جهة الشرق ثم لا تلبث ان تعلن الخلافة العباسية فى شهر ربيع الاول سنة ١٣٢هـ وبويع السفاح عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بعد قتل مروان بن محمد الاموي بثمانية اشهر (٧٢).

وهكذا كانت الدعوة العباسية استغلالا ذكيا للحركات الظاهرة والخفية ضد السياسات التى اتبعها الخلفاء الامويون وعمالهم وكان قيام الدعوة العباسية نتيجة مباشرة لتطور هذه الحركات التي ناوأت الامويين تحت شعارات علوية أو خارجية او غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر السياسى والمركز المهم فى الدعوة العباسية ففيها الامام العباسى وبويع فيها الخليفة الهاشمى المنتظر وكان علويا هو محمد النفس الزكية . وكان امام العباسيين يرسل الدعاة ويستقبل النقباء دون علم الامويين لتسترهم
تحت شعارات علوية أو خارجية او غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر

هكذا ينبغى ان يضاف الى مراكز الدعوة العباسية مكة المكرمة مع الكوفة وخراسان والحميمة .

المصـادر والمراجع

(١) الازرقي . اخبار مكة ٢/٨٥ المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٧ و ١/١١٤ دار الثقافة بمكة سنة ١٣٨٥ .

(٢) الزركلي : الاعلام ٢/٣٥ ط ٢ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام . المقدمة . مصر ١٩٥٦ .

(٤) السنجاري : منايح الكرم باخبار البيت وولاة الحرم ١/١٨٠ وما بعدها مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف . ومفتاح الاوائل مخطط مجهول المؤلف . الباب الخامس . مخطوط بمكتبة ازاد بالهند . والفاسي . شفاء الغرام ١/٢٥٩ .

(٥) الازرقي ١/١٧١ .

(٦) نفس المصدر ٢/١٨٨ و ٢١٣ .

(٧) القطبي . الاعلام ص ٢٨٩ والازرقي ٢/٧٠ .

(٨) الديار بكرى : رسالة اذرع الكعبة . مخطوطة فى الهند .

(٩) باسلامة ص ١٢٠ ــ ١٣١ .

(١٠) الاسدى . اخبار الكرام ص ٨٧ مخطوط فى الهند .

(١١) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ١١٥ بيروت ١٩٦٠. واليعقوبي . البلدان ص ٧٤ ط ٣ .

(١٢) الزبيرى : نسب قريش ص ٢٨ . والمسعودى . مروج الذهب ٣/١١٠ .

(١٣) العصامي : سمط النجوم العوالي ١/٣٢٨ .

(١٤) الازرقي ٢/٦٠ .

(١٥) المسعودى : مروج الذهب ٣/١٠١ .

(١٦) نسب قريش ص ٢٨ .

(١٧) ابن دحية . النبراس ص ٦ بغداد ١٩٤٦ .

(١٨) الازرقي ١/٢١٣ .

(١٩) الذهبي : دول الاسلام ١/٥٦ حيدر اباد الهند .

(٢٠) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٢٨ مصر ١٩٥٩ .

(٢١) مفتاح الاوائل : الباب الخامس . مخطوط .

(٢٢) الازرقي ١٨٨/٢ و ٢١٣ .

(٢٣) الفاسي : شفاء الغرام ٢٦٠/١ مصر ١٩٥٦ والازرقي ٢٢١/١ .

(٢٤) الازرقي ١٨٤/٢ و ١٩٢ و ١٩٥ .

(٢٥) الازرقي ١٤١/٢

(٢٦) الازرقي ٢٩١/٢

(٢٧) نفس المصدر ١١٨/٢

(٢٨) نفس المصدر ٢٠٥/٢

(٢٩) شفاء الغرام ٢٧٩/١ والازرقي ١٨٤/٢ و ١٩٥

(٣٠) الازرقي ٢١٧/٢

(٣١) الازرقي ٢٩١/٢

(٣٢) نفس المصدر ٢٣٧/٢

(٣٣) القطبي : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١١ . والازرقي ١٩٠/١

(٣٤) ابراهيم رفعت . مرأة الحرمين ٣٢٠/١ – ٣٢١

(٣٥) شفاء الغرام ٢٦١/١

(٣٦) الازرقي ٢٢١/١ و ٢٢٣/٢ و ٢٢٤

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ٢٢٦/٣ والازرقي ٢٣٢/٢ و ٢٨٧

(٣٨) الازرقي ١٦١/٢

(٣٩) الذهبي العبر فى خبر من غبر ص ١٦٠ . الكويت ١٩٦٠

(٤٠) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣٠

(٤١) ابن خلدون المقدمة والماوردى . الاحكام السلطانية ص ١٣

(٤٢) الدكتور فاروق عمر . طبيعة الدعوة العباسية ص ١١٦ ط ١ بيروت ١٩٧٠ .

(٤٣) ابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٢٢/٢ ط ١ القاهرة ١٩٠٩ والطبرى ٢٢٣/٩ . وابن طباطبا . الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٤٣ . والصباغ . بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الاول ص ١٥ بغداد ١٩٦٩ .

(٤٤) السنجارى : منايح الكرم ١٨٠/١ وما بعدها مخطوطة فى مكة المكرمة .

(٤٥) الدينوري : الاخبا رالطوال ص ٣٣٩ ليدن ١٨٨٨

(٤٦) الذهبي : دول الاسلام ٦٠/١

(٤٧) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٥ — ٣٧ مصر ١٩٦٥
وابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٥٦/٢ ـ ٣٥٨ القاهرة ١٩٠٩

(٤٨) الدينوري . الاخبار الطوال ص ٣٤٣ .

(٤٩) ابن كثير . البداية والنهاية ٢٥/١٠

(٥٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ . وابن خلدون تاريخه ١٠٢/٣ ـ ١٠٣ وابن كثير ٢٧/١٠ والامامة والسياسة ٣٢٢/٢

(٥١) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٩

(٥٢) ابن خلدون . تاريخه ٣٩٨/٣ بيروت ١٩٥٧وابن الاثير ٥١٣/٥ بيروت ١٩٦٥ .

(٥٣) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٠٦ القاهرة ١٩٤٦ .

(٥٤) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ وابن كثير . البداية والنهاية ٣٥/١٠ طبع مصر .

(٥٥) الفاسي . شفاء الغرام ٢١٥/٢ .

(٥٦) ابن الاثير . الكامل ٣٥٦/٥ بيروت ١٩٥٦ وابن كثير ٣٠/١٠

(٥٧) ابن كثير . البداية والنهاية ٣٣/١٠

(٥٨) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ — ١٢٠

(٥٩) اليعقوبي . تاريخ اليعقوبي ٣٤٢/٢ بيروت ١٩٦٠

(٦٠) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٥٧ ليدن ١٨٨٨

(٦١) نفس المصدر ص ٣٥٨

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ٣٨٠/٥

(٦٣) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣١ — ٣٢

(٦٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧/١٠

(٦٥) ابن العبري ص ١١٩

(٦٦) الخلافة والدولة العباسية ص ٣٧

(٦٧) ابن خلدون تاريخه ٢١٨/٣ بيروت ١٩٥٧ وابن كثير ٣٤/١٠ مصر

(٦٨) السعودى : مروج الذهب ٦٦/٦ باريس ١٨٧٧ .

(٦٩) ابن الاثير ٣٧٣/٥ واليعقوبي ٣٣٩/٢ وياقوت ٣١٣/٤ وشفاء الغرام ١٧٥/٢

(٧٠) رستم . ابو جعفر المنصور ص ١٦ والسنجارى ١٨٠/١ وما بعدها (مخطوط) واليعقوبي ٣٣٩/٢ والطبرى ٩٦/٦ طبع مصر ١٣٥٨ هـ وابن الاثير ٣٥٢/٤ .

(٧١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٧١/٦ القاهرة ١٣٥٨ هـ

(٧٢) ابو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ٢١٠/١ ــ ٢١٤ مصر

(٧٣) محمد حلمي : الخلافة والدولة فى العصر العباسي ص ٦ ــ ٧ مصر ١٩٥٩





مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي

الدكتور عبد الامير محمد أمين

جامعة الكويت

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباى بمجموعة كبيرة من الوثائق التى تحتوى على معلومات كثيرة وقيمة تخص الجزيرة العربية وشرق الجزيرة ومنطقة الخليج العربى والبحر الاحمر • وسجلات بومباى فى الاساس هي سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية The English East India Company » وسجلات السلطات البريطانية التى ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها •

وتوصف سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بأنها أفضل مادة تاريخية في العالم (١) • ولعل ليس في هذا القول كثير من المبالغة ، اذا عرفنا العدد الهائل من المجلدات التى تتألف منها السجلات وطبيعة المادة التاريخية التى تحتويها •

وتتوفر سجلات شركة الهند الشرقية فى اماكن متعددة • فتحتفظ مكتبة دائرة الهند India Office Library في لندن بجزء كبير منها • كما وان هناك جزءا كبيرا آخر فى دور الوثائق المتعددة والمتناثرة في شعبة القارة الهندية • وأخص بالذكر منها « دار الوثائق الوطنية الهندية (٢) National Archives of India » ودار السجلات الحكومية في بومباى • والاخيرة هى موضوع هذا البحث •

وسجلات بومباى ذات مكانة متميزة كمصدر هام لتاريخ الجزيرة العربية ، اذ كانت بومباى مقرا لاحدى مديريات الشركة الثلاث فى الهند(٣) وقد عهد اليها بالاشراف المباشر على جميع الوكالات Agencies والمقيميات Residencies والممثليات البريطانية التى اوجدتها الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية، منها تلك التى اقيمت فيمنطقة الخليج العربيوالجنوب العربى والعراق وفارس (٤) . واعتبرت بومباى مسؤولة كذلك عن رعاية مصالح الحكومة البريطانية اضافة الى مسؤوليتها في رعاية مصالح شركة الهند الشرقية في كل تلك الاماكن . وبعد هذا فليس من الغريب ان يتوقع المرء العثور على المعلومات التاريخية الكثيرة ذات الصلة لما نحن بصدده فى سجلات بومباى ووثائقها . ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان سجلات بومباى هذه هى من خيرة السجلات البريطانية في الهند من حيث الوفرة والتنظيم . ومن الغرابة بمكان ان سجلات بومباى لم تستخدم (حسب علم الباحث) بشكل فعال من قبل الباحثين العرب . وارجو ان يساهم هذا البحث في تشجيع هؤلاء الباحثين للاستفادة منها في بحوثهم في المستقبل وان يمهد لهم السبيل في هذا المجال ، وذلك بما سيوفر لهم من مسح موجز لتلك السجلات وعن طبيعتها ومادتها .

وتحتفظ سجلات بومباى فى الوقت الحاضر في مبنى Elphiston College فى قلب مدينة بومباى . وتضم هذه ٩٨،٠٠٠ مجلد و٣٠٠،٠٠٠ اضبارة من هذه ٦٠٠٠ مجلد تخص الفترة السابقة لعام ١٨٢٠ (٤) . ويعكس هذا القدر الضخم من السجلات والمعلومات التى تحتويها فعاليات الشركة والسلطات البريطانية التى تلتها لفترة من الزمن تزيد على ثلاثة قرون .

لقد كانت التجارة هى موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من قيامها(٦) ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر في أية فترة من فترات تاريخها الطويل

على التجارة وحدها ، بل كثيرا ماكانت تتجاوزها الى المجالات السياسية والعسكرية ، وذلك بحجة الرغبة في توسيع التجارة وحمايتها •

واعتاد موظفو الشركة ومستخدموها تسجيل كل تلك الفعاليات والكتابة عنها الى مستخدميهم في لندن وبومباى ، بل كثيرا ما سجل اولئك الموظفون والمستخدمون ما يقع تحت سمعهم وبصرهم من احداث محلية فى الاماكن التى كانوا يتواجدون بها ، وان لم يكن لتلك الاحداث صلة مباشرة بهم وبمصالح الشركة • وان هذا ليفسر كثافة المعلومات التاريخية في وثائق الشركة وسجلاتها •

وتتناثر المعلومات الخاصة بالجزيرة العربية بأصناف عديدة من سجلات بومباى ، ولكن هناك اصناف معينة من تلك السجلات تتميز بغزارة المادة ووفرتها ومن هذه : (٧)

أولا ــ سجلات المقرات التجارية والمقيميات

Records of Factories and Residencies

ثانيا ــ سجلات مدينة بومباى

The Presidency and Records

ثالثا ــ سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions Committees, Institutions etc.

رابعا ــ مختارات من الرحلات والرسائل والاوراق الرسمية المحفوظة عند سكرتيرة بومباى

Selections from the Travels and Journals preserved in the Bombay Secretriat, edited by George W. Forrest.

خامسا ــ مختارات من سجلات حكومة بومباى

Selections from the Records of the Bombay Government Consultations

وجاءت أغلبية سجلات الاصناف الثلاثة الاولى بشكل « يوميات دون فيها ممثلو الشركة جميع المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبينهم وبين مدراء الشركة فى لندن وبينهم وبين الحكام المحليين • كما سجلوا

فيها المناقشات والمشاورات Consvltations التى تجـرى في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والاجراءات والقرارات التى تتخذ تبعا لذلك. واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل مايقع لهم وما يقع في المنطقة التى يقيمون بها من احداث في يومياتهم • وكثيرا ماكتبوا في تلك اليوميات أنباء واخبار تطرقت الى سمعهم فى اماكن بعيدة نسبيا عن اماكن اقامتهم • وبعـد هذا الوصف الموجز لمدلول اليوميات نأتى على ذكر كل صنف من الاصنـاف الخمسة المذكورة لتبين مدى أهمية محتوياتها ليحثنا هذا •

أولا ــ سجلات المقرات التجارية والمقيميات :

ونجد فى هذا الصنف من سجلات بومباى نوعين متميزين هما : « يوميات المقرات التجارية Factory Dfaries وبومبـاى المقيميـات Residency Diaries وضمن هذين النوعين من اليوميات نجد تلك السجلات الخاصة بمخا والبصرة وبندر عباس وبوشهر • وفي كل هـذه السجلات معلومات قيمة تخص الجزيرة العربية خاصة بالنسبة للفترة السابقة للقرن التاسع عشر •

فبالنسبة الى يوميات مخا ، هناك يوميات المقر التجـارى في مخـا Macha Factory Diaries ويوميات المقيمية من مخا Macha ResidencyDiaries

وتحتوى يوميات المقر التجارى على أربعة مجلدات (مجلد رقم ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦) وتغطى الفترة من عام ١٧٢٢ الى عام ١٧٩٥ مع كثير من الفجوات • (٨) وفي طياتها معلومات تجارية تخص القهوة وكل مايتعلق بتجارة هذه السلعة الهامة •

وكانت مخا خلال القرن الثامن عشر السوق التجارى الرئيسي لتجارة هذه المادة • وكانت سوقها رائجة والارباح المتأتية منها كبيرة ومغرية وقد قامت كل من شركة الهند الشرقية الانكليـزية وشركة الهنـد الشرقية

الهولندية (٩) يفتح مقر دائم لها فى هذا الميناء • وعلى هذا كان التنافس على أشده بين ممثلى هاتين الشركتين • كما كان هؤلاء جميعا فى خصام دائم مع السلطات المحلية التى كثيرا ما وصفها الاوربيون بالتعسف مدعين انها ترفع اسعار القهوة دون مبرر ، وتفرض ضرائب باهظة على بضائعهم وسفنهم • ان يوميات المقر التجارى في مخا تغطى هذه الجوانب المختلفة، كما تورد انباء محلية اخرى كثيرة (١٠) •

اما يوميات المقيمية فهذه في الحقيقة ليست يوميات بقدر ما هى وسائل كتبها المقيمون البريطانيون في مخا وربان السفن الى رؤسائهم في بومباى « رسائل صادرة Outward Letters ورسائل تلقوها من اولئك الرؤساء » ورسائل واردة Inward Letters وفى هذه وتلك معلومات تجارية كثيرة الى جانب معلومات أخرى تخص نشاط البريطانيين وصلاتهم مع السلطات المحلية • كما ان فيها تغطية لبعض أحداث المنطقة •

وتقع يوميات مقيمية مخا فى تسعة مجلدات (مجلد رقم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) للفترة بين عام ١٨٢٠ وعام ١٨٢٨ • (١١)

ويوميات البصرة هى من اليوميات المهمة لبحثنا هذا ونجد فيها هى الاخرى يوميات مقر البصرة التجارى Bussora Factory Diaries ويوميات مقيمية البصرة Bussora Factory Diaries ومجموع مجلدات الاولى احد عشر مجلد والثانية تسعة مجلدات •

وتغطى هذه المجلدات العشرين الفترة من عام ١٧٦٣ الى عام ١٨١١• مع قليل من الفجوات • والمادة التاريخية التى تحتويها يوميات البصرة كثيرة ومهمة ، وهى تخص البصرة ، وولاية بغداد ، والجزيرة العربية ، والخليج العربى ، والقوى المحلية ، والحكام المحليين لكل تلك الاماكن •

ومن اليوميات المهمة الاخرى التى تحتفظ بها سجلات بومباى هى **يوميات بندر عباس** Gombroon Diaries وتضم هذه سبعة مجلدات (من رقم ١١٢ الى رقم ١١٨) وتغطى مادتها الفترة من آب عام ١٧٤١ الى آب عام ١٧٥٧ • وقد سجلت هذه من بين أمور اخرى تحركات القبائل العربية في منطقة الخليج العربى في منتصف القرن الثامن عشر • واحداث الخليج العربى • ويقال الشيء نفسه عن يوميات بوشهر ــ هى مجلد واحد يحمل رقم ٣٥ ويحتوى على رسائل صادرة واخرى واردة للفترة بين عام ١٧٨٩ وعام ١٧٩٨ •

ثانيا ــ سجلات مديرية بومباى Bombay Presidency ecords

وتصنف سجلات مديرية بومباى تبعا للاقسام التى كانت تتألف منها المديرية • ووحتى عام ١٧٥٥ لم يكن لمديرية بومباى الا قسم واحد هو « القسم العام Public Department وفي التاريخ المذكور انشيء قسم آخر هو « القسم السياسي والسرى Political and Secret Department ثم تتالت الاقسام• فانشيءالقسم التجارى والقسم البحرى وقسم الايرادات والقسم الصحى والى آخره • وذلك نظرا لتوسع مهام المديرية وتشعب مسؤولياتها • (١٢)

وكان القسم السياسي والسرى يفصل الى قسمين « سياسي » و « سرى » فى بعض الاحيان ويدمج في قسم واحد فى احيان اخرى • وقد نجد المعلومات التاريخية التى تهمنا متناثرة في سجلات أغلب تلك الاقسام • ولكن المادة الاساسية تتوفر في سجلات القسم العام للفترة السابقة لعام ١٧٥٥ وفي القسم السياسي والسرى للفترة التى تلت عام ١٧٥٥ •

ووردت المعلومات في سجلات كلا القسمين (أى القسم العام والقسم السياسي والسرى) ضمن اليوميات • وقد استمر نظام اليوميات هذا معمولا به حتى عام ١٨٢٠ حين أبدل النظام برمته •

وهناك فى القسم السياسى والسرى وللفترة مابين عام ١٧٥٥ وعـام ١٨٢٠ مايزيد على ١٠٠ مجلد تضمنت يوميات ادخلت فيها موضـوعات تخص عدن ، والبحرين ، ومسقط ، ومخا ، واليمن ، وقبائل القواسـم ، والدولة السعودية ، ومواضيع أخرى ذات صلة لما نحن بصدده • فهنـاك على سبيل المثال : أربعة مجلدات وردت فى يومياتها امور ذات علاقة بعدن منها محاولة شركة الهند الشرقية لفتح قصر تجارى لها في هذا الميناء •(١٣) ومنها أيضا محاولة البريطانيين احتلالها واخضاعها لهيمنتهم • (١٤) والى جانب هذا فان هناك سبعة مجلدات وردت فيها معـلومات متنـوعة عن البحرين • اما مسقط فقد غطيت اخبارها في يوميات وردت في اربعـة وثلاثين مجلدا • وتناولت تلك الاخبار النشاط الفرنسي في مسقط (١٦) وعلاقة حكام مسقط بشركة الهند الشرقية (١٧) وبباشـا بغـداد (١٨) وبالسعوديين • (١٩) والحرب مع حكام البحرين (٢٠) والصراع مع القواسم • (٢١) وحصار اسطول مسقط للبصرة (٢٢) والبحرين (٢٣) وهناك مجلدات وردت فيها أنباء عن شريف مكة وعلاقته بالبريطانيين (٢٤) والفرنسيين (٢٥) •

كما توجد ستة مجلدات تتوفر في يومياتها معلومات عن امام اليمن وعلاقته بالبريطانيين وامور اخرى • (٢٦) اما الدولة السعودية فقد غطتها يوميات وردت في أربعة عشر مجلدا تضمنت علاقات السعوديين بباشا بغداد وبحكام مسقط (٢٨) وصـلاتهم مع شركة الهنـد الشرقية (٢٩) ومعلومات كثيرة ومتنوعة اخرى • (٣٠) وتوجد مجلدات كثيرة وردت فيها اشارة الى القواسم ورأس الخيمة والصراع بين القواسم والبريطانيين ولا يفوتنا بعد كل هذا أن نذكر أن هناك اكثر من تسعين مجلدا وردت في يومياتها اخبار بغداد والبصرة ، ومع أن اغلب المعلومات التى وردت في هذه المجلدات تخص ولاية بغداد الا ان المعلومات الاخرى ذات الصـلة بالجزيرة العربية والخليج العربى ذات أهمية لايمكن الاستهانة بها •

لقد ذكرنا ان نظام اليوميات قد أبطل في كل الاقسام وبالنسبة لجميع سجلات واجراءات الشركة بعد عام ١٨٢٠ • وصارت السجلات والمجلدات التى تضمها تصنف حسب الحروف الهجائية تبعا للموضوعات • وبالنسبة لمجلدات القسم السياسى والسرى فقد ووضعت سجلات خاصة بهـــا ومستقلة تخص كل مكان وموضوع ذى شأن • لذا نجد السجلات التى تهمنا قد صنفت مجلداتها تحت العناوين الاتية : الخليج العربى ، مخا ، مسقط ، أبو شهر ، التجارة ، تجارة الاسلحة ، البحرين ، عدن ، القواسم والى آخره • (٣١) وتتميز الفترة التى تلت عام ١٨٢٠ بكثرة المعلومات وغزارة المادة التاريخية التى تضمنتها سجلات بومباى • وقد زاد عــدد المجلدات ذات الصلة بالجزيرة العربية والخليج العربى زيادة هائلة • ولعل التطورات السياسية تعطى التفسير الملائم للوضع الجديد •

شهدت بداية هذه الفترة نهاية الصراع المرير بين قبائل القواســم والبريطانيين ومهدت تلك النهاية السبيل لسيطرة بريطانيا سيطرة فعليــة على الخليج العربى •(٣٢) وقد ارتبطت بعض القوى المحلية فى المنطقــة ارتباطا وثيقا بالبريطانيين • وزاد هذا فى اهتمام هؤلاء بكل احداثها • وشهدت الفترة ايضا تحركات المصريين في جزيرة العرب • وكان هنــاك احتمال في اندفاعهم الى سواحل الجزير العربية وتعرضــهم للمصــالح البريطانية هناك واحتل البريطانيون عدن عام ١٨٣٩ •

وصمم البريطانيون على احكام سيطرتهم على الخليج العربى والممرات المائية المؤدية للمحيط الهندى فاوجدوا المبررات واختلقوا الحجج للتدخل في شؤون هذا الجزء من الوطن العربى أو ذاك • فحاربوا القبائل العربية بدعوى مكافحة القرصنة ومقاومة تجارة الرقيق ومنع تهريب الاســلحة وحماية امن المنطقة ضد اطماع القوى المحلية من فارسية وعثمانية ومصرية وضد القوى الاوربية الاخرى من فرنسية وروســية والمــانية • وربط البريطانيون اغلب حكام المنطقة بمعاهدات واتفاقيات تضمن المصــالح

البريطانية وانتشر القناصل والدبلوماسيون والممثلون فى كل ناحية وميناء • (٣٣)

لقد اقتضى هذا التوجه الجديد زيادة في النشاط البريطاني وتطلب مضاعفة البريطانيين لاهتمامهم بكل شأن من شؤون الخليج العربي والجنوب العربى وشرق الجزيرة العربية والاقاليم المجاورة • فكتبت التقارير المفصلة لكل جانب من جوانب النشاط السياسي والاقتصادي والاداري في تلك الاماكن • ومسحت السواحل ، وتوغل الرحالة والمغامرون من قلب الجزيرة العربية • (٣٤) وغطي كل حدث بشيء كثير من التفصيل•فتراكمت المعلومات وتضاعف عدد المجلدات الخاصة بكل جزء من اجزاء المنطقة • ويكفى ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان هناك ستة مجلدات عن عدن لعام ١٨٤٠ وهناك خمسة مجلدات عنها لعام ١٨٤١ وسبعة مجلدات لعام ١٨٥٦ • كما توجد ستة مجلدات عن مسقط لعام ١٨٦٧ وتسعة مجلدات عنها لعام ١٨٦٩ • (٣٥) ومجمل القول ان هناك مايقرب من خمسمائة مجلد للفترة ١٨٢٠ ــ ١٨٨٠ لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالجزيرة العربية ، متوفرة في القسم السياسي والسرى في دار السجلات الحكومية في بومباى • (٣٦)

ويلاحظ الباحث تناقضا ملحوظا فى سجلات القسم السياسي والسرى خلال فترة السبعينات وبعدها• وينحصر التفسير لهذا التناقض في تضاؤل الدور الذى أخذت تلعبه حكومة بومباى في الشؤون الخارجية •

سبق أن ذكرنا في بداية هذا البحث ان مديرية بومباى كانت مسؤولة عن رعاية مصالح شركة الهند الشرقية ، بل ومصالح الامبراطورية البريطانية عن اجزاء مهمة من العالم تقع الى الغرب من شبه القارة الهندية مثل : منطقة الخليج العربى والجنوب العربى والجزيرة العربية والعراق وفارس وفي عام ١٧٧٣ سن البرلمان الانجليزى ما يعرف « قانون التنظيم » The Regulating Act الذى منح مديرية البنغال ومقرها كلكتا الاشراف

على شؤون المديريتين الاخريين بومباى ومدراس • (٣٧) ولكن بومباى استمرت في رعاية الشؤون الخارجية للمصالح البريطانية فى الاماكن الانفة الذكر • وبقى الوضع على ما هو عليه حتى بعد انتهاء دور شركة الهند الشرقية وتولي •• حكومة لندن الاشراف الكامل على شؤون الهند في عام ١٨٥٧ •

وكان هناك شعور متزايد لدى الاوساط الحاكمة البريطانية سواء فى انكلترا او في الهند بأن استقلالية الحكومات المحلية في الهند بادارة الشؤون الخارجية لايخدم مصالح الامبراطورية البريطانية على الوجه الافضل • ان تطور وسائل المواصلات وسرعتها واستخدام التلغراف ازال المبررات التى كانت قائمة والتى أعطت المديريات الثلاث في الهند حق الاشراف على الشؤون الخارجية كل فى مجالها الخاص • وانه آن الاوان لاخضاع جميع الشؤون الخارجية لسلطة حكومة الهند المركزية •

واخيرا وبعد مفاوضات مطولة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند وحكومة بومباى تمت الموافقة فى عام ١٧٧٢ م على نقل الاشراف على الشؤون الخارجية الى حكومة الهند المركزية • على أن ترسل نسخ من كل المراسلات للوكالة البريطانية في الخليج الى حكومة بومباى لاحاطة المسؤولين في تلك الحكومة بالمعلومات الضرورية من جهة وللاستفادة من ملاحظاتهم وخبراتهم من جهة أخرى • (٣٨)

واستمرت حكومة بومباى لسنين عديدة تشارك حكومة الهند المركزية في ادارة الشؤون الخارجية ولكن دورها كان فى تناقص مستمر • وما أن حل القرن العشرون حتى انتقلت ادارة تلك الشؤون برمتها الى حكومة الهند المركزية • وهكذا انتقلت المادة التاريخية الاساسية الى اماكن اخرى من الهند • ولم تعد بومباى هى المكان الملائم تماما للبحث عنها •

ولا اريد الانتقال الى بحث الاصناف الثلاثة التالية من سجلات بومباى دون التطرق الى الميزة الاخرى للصنفين اللذين سبق الكلام عنهما (سجلات المقرات التجارية والمقيميات ، وسجلات مديرية بومباى). وهذه هى اهميتها الخاصة كسجل مهم لتحركات القبائل العربية . ولعل سجلات هذين الصنفين هى من افضل المصادر التاريخية في هذا المجال . (٣٩)

فقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر فعاليات عربية واسعة النطاق في قلب الجزيرة العربية وعلى جانبى الخليج العربى . واظهرت القبائل العربية من الحيوية والنشاط والقدرة البحرية والقوة ما ليس له مثيل في تاريخ العرب الحديث .

ولعل اندفاع قبائل عمان في عهد اليعاربة في النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وتحرك القبائل العربية من وسط الجزيرة العربية في اطار الدعوة الاصلاحية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ونشاط القبائل العربية فى الجزء الشمالى من الخليج العربى (عرب بوشهر ، وبندر ريق ، وجزيرة خارج ، وقبيلة كعب ، وعرب العتوب) ، ثم النمو الهائل في قوة القواسم في نهاية القرن وصراعهم الطويل المرير مع الانكليز ، ونجاح عرب العتوب وعرب عمان والجنوب العربى فى المجال التجارى (اضافة الى نشاطاتهما السياسية والعسكرية) وسيطرتهم على التجارة بين الهند من جهة والخليج العربى والبحر الاحمر من جهة أخرى . كل هذه مظاهر واضحة للحيوية والنشاط العربيين .

واشتبكت القبائل العربية في صراع طويل مع العثمانيين والفرس طيلة القرن الثامن عشر ، وذلك للتخلص من نير هؤلاء وهيمنتهم . وزج الانكليز والهولنديون بأنفسهم في هذا الصراع . وادى تدخل الهولنديين الى جانب الفرس ضد مير مهنا حاكم ميناء بندر ريق وجزيرة خارج الى قيام الحرب بينهم وبين هذا الرئيس العربى ، وانتهت الحرب بانتصار الاخير وسقوط جزيرة خارج آخر معاقل الهولنديين في الخليج عام ١٧٦٧ وكانت هذه نهاية الوجود الهولندى في الخليج العربى .

وتدخل البريطانيون في الحرب الدائرة بين قبيلة كعب من جهة والفرس والعثمانيين من جهة اخرى وذلك بحجة حماية الملاحة في شط العرب والحفاظ على تجارة البصرة • ودارت الدوائر على العثمانيين والفرس وحلفائهم الانكليز ، وتوالت عليهم الهزائم والنكبات • ويكفى ان نذكر هنا أن الاسطول الذى أرسلته السلطات الانكليزية الى الخليج العربي في عام ١٧٦٦ لمحاربة كعب يمثل اعظم قوة بحرية بريطانية دخلت مياه الخليج منذ قدوم الانكليز الى هذه المياه في اوائل القرن السابع عشر وحتى قيام تلك الحرب •

وخلال الفترة ١٧٦٦ ـ ١٧٧٢ كان الاسطول الانكليزى في الشرق مشتبكا برمته تقريبا في الحرب ضد كعب وضد ميرمهنا • تطلب الأمر اخيرا الاستعانة بالاسطول الملكي فى اوربا للمساهمة فى الحرب ضد القبائل العربية •

كل تلك الجوانب من النشاط العربي السياسي والعسكرى والتجارى وكل هذه الحيوية للقبائل العربية ، دونت يوما بيوم في كثير من الاحيان • وسجلت بشيء كثير من التفصيل ، ووصفت بقسط كبير من الاثارة فى يوميات بندر عباس ويوميات البصرة ويوميات بوشهر وفى سجلات القسم السياسي والسرى • هذا وقد نستطيع القول بشيء قليل من التحفظ ان أية دراسة جادة لتاريخ الجزيرة العربية والتحركات وفعاليات القبائل العربية لا يمكنها تجاهل سجلات بومباى هذه •

ثالثا ـ سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions, Committees, Institutions, etc.

ونجد في هذا الصنف من السجلات مجلدا واحدا فقط يهمنا في هذا البحث وهذا المجلد هو (٤٠) •

Mission to Arabia with a Route from Kutteef to Yanbo.

ومحتويات هذا المجلد هي عبارة عن وقائع رحلة جـ • سادلر الذى انتدب من قبل السلطات البريطانية الى ابراهيم باشا وكذلك بعثة كابتن بروس المقيم البريطاني في مخا •

ومر سادلر بكثير من موانيء الخليج واعطى وصفا مفصلا للقطيف ولقراها وللموارد المالية والسكان • (٤١) كما اورد رسائله الى رئيس بنى خالد والى شيوخ البدو • (٤٢) والمجلد بجملته تسجيل لوقائع الرحلة يوم بيوم •

رابعا ـ مختارات من الرسائل والاوراق الرسمية الاخرى (٤٣) : ـ

Selections from the Letters, Despatiches and other State papers, by George W. Forrest.

ويتضمن هذا الصنف من السجلات كثيرا من الرحلات قام بها عدد من المغامرين كان اغلبهم في خدمة شركة الهند الشرقية ، وقد قام جورج فورست باختيارها وطبعها لاعتقاده باهميتها • وفيما يخص جزيرة العرب نجد اربعة من هذه المختارات هي :ـ

I. Narrative of a Journey from the Tower of Ba-L. Haff on Southern Coast of Arabia to the Ruins of Nab-al-Hajor ; in April 1835, by Welested, Indian Navy.

لقد كان ولستد وزميله (كروتندن Capt. Cruttenden) على ظهر سفينة الشركة الاستطلاعية (بالتزر Palinurus) بالقرب من ساحل رملي يدعى (رأس الاسد Ras-ul-Asseida) عندما تطرق الى سمعهم من بعض البدو بوجود خرائب وبقايا مدن كان قد اقامها الكفار في سابق الزمن وهي لاتبعد كثيرا عن موقع سفينتهم • فما كان من ولستد وكروتندن الا ان ملآ قربهما بالماء وامتطيا الجمال وسارا قدما مستصحبين معهما بعض البدو العارفين في المنطقة وكانت الرحلة شاقة ولكن النجاح الذى حققاه استحق ذلك العناء • (٤٤) لقد كانت رحلة جريئة حقا• وكان القائمون بها روادا لمن جاء بعدهم من المستكشفين •

٢ ــ والرحلة الثانية في هذه المختارات هي :

Account of an exurstion in Hadramount by Adolphe Baron Wrede.

وبارون رد هذا مغامر بافاري من اسرة كريمـة • قام برحلـة من عدن الى المكلا فى ٢٢ حزيران ١٨٤٣ • وفي ٢٦ منه بدأ تـفي التوغل الى الداخل • وقد استعان ببعض البدو الاشداء لحمايته • واستغرقت رحلته ١٢ يوما وصل خلالها الى منطقة بحر Bahr-el-Saffi ، وترك وصفا ممتعا لهـذا الموقع وللمنطقة المحيطة به • وقـام الكابتن هينـز Capt. Haines بارسال وصفة هذا الى حكومة بومباى • وارسلته هذه بدورها الى الجمعية الملكية الجغرافية • واثارت رحلته رد الاقاويل فقد اشيع ان وصفه جاء عن طريق السماع دون المشاهدة الحقيقية للمواقع التي ذكرها • وتوفرت الادلة بعد وفاته بصحة كل ما جاء في روايته وانه قد قام حقا بتلك المغامرة الجريئة • (٤٥)

٣ ــ والرحلة الثالثة هي :

Narrative of journey from Mooha to Sana by Charles J. Cruhendeu.

ففى ١٣ تموز عام ١٨٣٦ غادر كروتندت مخا متوجها الى صنعـاء وكان بصحبته الدكتور هالتن Dr. Halton وخادمان وكان الجميـع مسلحين ووصل العاصمة اليمانية ومكث فيها شهرين • وقد ترك وصفا شيقا للطريق الذى سار فيه وللعاصمة • وشهد موكب الامام عند تأديته صلاة الجمعة • وعثر كروتندن عندما كان في صنعاء على بعض النقوش الحميرية ، عرف انها نقلت من مأرب • وقد قام باستنساخ بعض تلـك النقوش •

٤ ــ والرحلة الرابعة هي :

Memoir of the South Coast of Arabia from the entrance of the Red Sea to Misena't by Captain S.B. Haines.

لقد قيل ان هناك قلة من الناس يفوقون الكابتن هينز مهارة فـي فن الملاحة ووصف هينز رحلته بانها محاولة لاعطاء وصف لخمسمائـة

ميل من الساحل الجنوبي لجزيرة العرب • التي لا يعرف عنها الا النزر اليسير • وشمل وصفه الحكومات والسكان والتجارة والزراعة •

والمعلومات التى اوردها هينز كان قد جمع البعض منها بنفسه ،عما قام بجمع البعض الاخر عدد من ضباط. وبحارة سفينة الشركة الاستطلاعية (بالنرز) خلال الاعوام ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٦ • (٤٦)

خامسا ـ مختارات من سجلات حكومة بومباى :

Selections from the Records of the Bombay Government.

ويتضمن هذا الصنف تقارير ودراسات ورحلات متنوعة قام بها اشخاص بريطانيون وغير بريطانيين فى أوقات متفاوتة • واختارتها حكومة بومباى ، لاعتقادها بأهميتها ، وقامت بطبعها ونشرها ، وهناك عدد من هذه المختارات تخص جزيرة العرب جمعت كلها في مجلد واحد ، ويحتوى هذا المجلد على هذه المختارات :

1. A History of Arabia Felix or Yemen from the Commencement of the Christian Era to Ihe Present Time, Including Settlement of Aden by Capt. R. Playfair.

2. Description of Arabia, made from personal observations and information collected on the spot, by Garsten Niebuhr. Translated into English by Major C.W. Sealy (1889).

3. Hadrthramut and the Arab colonies in the Archipeloge, by L.W.C. Van Den Berg. Translated into English by Major C.W. Sealy (1887).

الهوامش

1. Guide to the Records in the National Archieves in India, Part I (Introductory), National Archieves of India, New Delhi ; 1959, p. 9.

(٢) للاطلاع على المزيد من المعلومات عن هذه ، انظر المصدر السابق .

(٣) اما المديريتين الاخرتين فهما مديرية مدارس ومديرية كلكتا .

(٤) للاطلاع على تنظيمات الشركة فى منطقة الخليج العربى والجنوب العربى . انظر — ج لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ، طبعة جديدة معدلة ومنقحـــة .

V.G. Dighe, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Department Series 1755-1820, Bombay 1954.

(٥) للاطلاع على المزيد من فعاليات الشركة وتجارتها انظر :

H. Furber, John Company at work, Cambridge ; Harward University Press, 1948 ; F. P. Robinson, The Trade of the East India Company, Company Cambridge : 1912 ;

الدكتور عبد الامير محمد امين

(التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية فى منطقة الخليج العربـــى والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر) مجلة كلية الاداب ، بغداد ١٩٦٣ .

A.F. Kindersley, A Handbook of the Bombay Government Records, Bombay ;1921.

(٨) لا توجد يوميات لعام ١٧٢٣ — ١٧٢٤ وكذلك ١٧٢٤ — ١٧٢٥ وللفترة من آب عام ١٧٢٦ — آذار عام ١٧٣٠ ومن آب عام ١٧٣٠ — نيسان عام ١٧٣٣ ومن آب ١٧٣٣ — آذار عام ١٧٥٢ ومن تموز عام ١٧٥٢ — نيسان عام ١٧٩٥ ومن حزيران عام ١٧٩٣ — نيسان عام ١٧٩٥ .

(٩) لمعرفة المزيد عن النشاط الهولندى فى مخا انظر : —

Kristof Glamann, Asiatic Trade 1620-1740, Copenhagan ; Danish Science Press, 1958.

See Bombay Government Records, Records of Factories and Residencies Mooha Factory Diaries Vols ; 64, 74, 75, 76.

مجلد رقم ٦٤ يغطى الفترة ١٧٢٢ ـ ١٧٢٣ وفيه ٨٢ صفحة وهو فى حالة رديئة غلافة متأكل وكذلك الحال بالنسبة لكثير من صفحاته .

مجلد ٧٤فى حالة افضل . وقامت دار الوثائق فى بومباى بترميمه واعادة تغليفه . وقد لاحظ الباحث ان عملية ترميم المجلدات واصلاحها سائرة قدما فى الدار المذكورة . وشملت عملية الاصلاح هذه اعداد كبيرة من المجلدات التي تآكلت اغلفتها واوراقها لتقاوم الزمن وبفعل الرطوبة والاتربة وعدم اتباع الاساليب التعليمة الحديثة فى الصيانة .

مجلد رقم ٧٥ لا يزال فى وضع رديىء للغاية . ومن مجلد رقم ٧٦ (وهو فى حالة افضل) معلومات كثيرة عن القهوة والضرائب المفروضة عليها . كما انه يحتوى على اخبار تجارية طريفة تشمل أسعار السلع الهندية والبنغالية فى اسواق مخا بشكل مفصل . وكذلك حمولة بعض السفن القادمة الى مخا والخارجة منها .

See Mooha ffiesidency Diaries Vols. 65-73.

ويحتوى مجلد رقم ٦٥ على رسائل متفرقة للفترة ١٨٢١ ـ ١٨٢٦ وهي رسائل واردة الى مقيمية مخا . والمجلد فى حالة جيدة قابل للقراءة ومجلد ٦٦ يحتوى هو الاخر على رسائل واردة . مجلد ٦٧ يحتوى على رسائل واردة للفترة ١٨٢١ ـ ١٨٢٧ . وترتيب الرسائل فى المجلد الاخير مضطرب جدا واوراقه وغلافه فى وضع سيىء للغاية وتصعب قراءة اغلب ماجاء فيه .

اما مجلد ٦٨ فيضم رسائل صادرة من مخا الى بومباى للفترة ١٨٢١ ـ ١٨٢٨ وهو فى حالة جيدة قابل للقراءة .

المجلدات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ تضم اوراقا متنوعة تشمل حسابات المقيمية وكشوف وبيانات وتقارير تجارية والمنشئات والبضائع المتبقية والغير قابلة للبيع وفضلات الاقمشة والخ .

See Kinderaley, op. cit.,

See Bombay Government Records, Bombay Presidency Records, Secret and Political Department, Vol. 87, Diaries (8, 9, 10) ; Diary (26) ; Vol. 106, Diary (10).

14. Ibid., Vol. 123, Diary (5).

15. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
41	13
299	5
300	1
307	1
431	14
432	12
439	6

16. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
52	27
147	14
150	15
197	8

17. Ibid., Vol. 74 — Diary 8

18. Ibid., Vol. 84 — Diary 24

19. Ibid., Vol. 113 — Diary 3

20. Ibid., Vol. 116 — Diary 9

21. Ibid., Vol. 115 — Diary 3

22. Ibid., Vol. 398 — Diary 14

23. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
406	14
411	13

24. Ibid., Vol. 86 — Diary 1

25. Ibid., Vol. 402 — Diary 10

26. Ibid., Vol. Diary

Vol.	Diary
316	12
411	15
473	7
490	8
491	4
494	9

27. Ibid., Vol. Diary

Vol.	Diary
207	1

28. Ibid., Vol. Diary

Vol.	Diary
113	3
135	3
140	10
146	16
147	1.14

29. Ibid., Vol. Diary

Vol.	Diary
148	20
150	15

30. Ibid., Vol. Diary

Vol.	Diary
151	4
152	2
227	7
238	8
405	7

31. See Bombay Government Record, Secret, and Political Department.

(٣٢) للاطلاع على المزيد عن الصراع بين الانكليز والقواسم ولمعرفة المزيد من وقائعه انظر : صالح محمد العابد ، دور القواسم فى الخليج العربي ، بغداد : ١٩٧٥ .

(٣٣) لمعرفة المزيد عن دور البريطانيين فى المنطقة خلال القرن التاسع عشر انظر : J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795-1880 London 1964

(٣٤) انظر مابعده ص

35. See Bombay Government Records, Secret and Political Department.

ومما يجدر ذكره ان اغلب المجلدات الخاصة بعدن وصلت الى عدن نفسها لتحفظ هناك .

Ibid., 39

37. W. Hunter, A Brief History of the Indian People (24th ed.,) Oxford 1909, p. 186-7.

(٣٨) لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ص ص ٤٢٣ — ٤٢٥ .

(٣٩) عالج الباحث موضوع تحركات القبائل العربية ومغالباتها فى عدد من المقالات والكتب منها : القوى البحرية فى الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ ، اضواء جديدة على تاريخ الخليج العربي الحديث ، المجلة التاريخية ، بغداد . العدد الاول ، السنة الاولى ، دور القبائل العربية فى صد التوسع الاوربي فى الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . بحث القي فى المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد : ١٩٧٣ . ويقوم الباحث الان باعداد دراسة موسعة ومتكاملة فى هذا الشأن .

40. Bombay Government Record, Records of Mission, Committees, Institutions, etc., Vol. 323.

وهذا المجلد بشكل جيد غلافة سليم واوراقه مربوطة مع بعضها البعض بشكل محكم . ولكن الكتابة فى بعض صفحاته غير واضحة وتحتاج الى مران وتمرس فى القراءة .

41. Ibid P. 22,

42. Ibid P. 40,

(٤٣) وردت سجلات هذا الصنف فى Kindersley كملحق E

ولكن الارقام والمعلومات التي اوردها الدليل لاتساعد كثيرا فى العثور على هذه السجلات . وقد بذل الباحث جهودا كبيرة للحصول عليها واخيرا وجدها وقد كتب من الغلاف المعلومات التالية :

(٤٧) ورد هذا الصنف من السجلات كملحق F فى Kindersley ولكن المعلومات التى اعطيت فى هذا الدليل لاتساعد فى العثور عليها. وقد وجد

Selections from the Recors of the bombay Goveament No. 398318

48· Ibid

49. Ibid

50. Ibid







المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد السادس (٦)



تقديم

يسر وزارة الاعلام في المملكة المغربية ان تضع بين يدي القراء والباحثين العرب العدد السادس من مجلة «المؤرخ العربي» التي تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب الذي يوجد مقره ببغداد بـ العراق .

ان التاريخ العربي كل لايتجزأ . ذلك ان مختلف الاحداث التي عرفها بلد عربي كان لها التأثير الواضح على باقي البلدان العربية الاخرى .

ونظرا ـ لما للتاريخ العربي من أهمية قصوى في حياتنا جميعا باعتباره نبعا ننهل منه الكثير من العبر والتجارب وعنصرا حيويا يحفز هممنا ويحرك طموحنا بما تطويه صفحاته من مجد تالد ، وحضارة عريقة . طالما أنارت دياجي الظلام في اوربا في حقب متفاوتة من التاريخ ـ كان لابد من مجلة تستقطب نشاطات المؤرخين العرب . فكانت مجلة «المؤرخ العربي» .

لقد كثرت الدراسات والابحاث في العصر الحديث عن دور الحضارة العربية في النهضة المعاصرة ، وطلعت علينا كتب مختلفة باقلام كتاب وباحثين اجانب لاتربطهم بالعرب او الاسلام أقل الصلات ، ومع ذلك جاهروا بالحق لانه حق ، ونشروا كتبهم وابحاثهم بلغاتهم وترجم بعضها الى كثير من لغات الارض ، وهكذا رأينا امثال : دوزي ، وبروكلمان ، وادوارد فون ديك ، وبروفنسال ، واندري ميكيل ، وزنجريد هانكه ، وتوينبي ، وفيشر ، وماسينيون ، وبلاثيوس ، وغيرهم . كلهم وقعوا تحت سحر هذه الحضارة التي فجرها عرب خرجوا من الصحراء ، كانوا يديرون الجمة جمالهم ، فاذا بهم يديرون دولاب التاريخ ويغيرون مجراه في حقبة من الزمن . حينما بسطوا نفوذهم حول العالم المعروف في ذلك الابان في فترة وجيزة من الزمن .

وبعد ان استتب الامر للعرب اثر فتوحاتهم الكبرى ، اثبتوا للامم التي غزوها انهم يحملون بين أعطاف قلوبهم احساسا مرهفا يتجلى في اشعارهم الرقيقة الخالدة ، وفي ادابهم العربية الاصيلة التي تحفل بجميل القيم ، وحميد الخصال وبليغ الحكم . كما اثبتوا للعالم كذلك انهم امة متفتحة قابلة للتأقلم والتطور والمطاوعة والانصهار والتجانس فاذا بهم

ينكبون على ثقافات غيرهم من الامم ، هندية ، ورومانية ، ويونانية وفارسية وغيرها ينقلون منها واليها ، ويترجمون ويحللون ويناقشون ويعلقون ولايحارون في اختيار فن دون اخر او علم دون علم ، فكانت الحكمة تدرس بجانب الفلسفة والمنطق ، والطب والفلك والصيدلة ، والرياضيات، بجانب الاداب . بحكاياتها وقصصها وأساطيرها وأمثالها وأشعارها بجانب العلوم اللغوية والمعجمات أضف الى ذلك العديد من النظم والفنون والعادات وهلم جرا . تلكم كانت البيئة العربية مرآة لايعلوها الصدأ شفافة نقية تنعكس عليها كل المظاهر الحضارية والفكرية والاجتماعية وغيرها للامم الاخرى . ولقد كانت «اللغة العربية» هي الاداة التي تم عن طريقها تحقيق هذه النهضة العربية الكبيرة ، أجل عن طريق «الحرف العربي» مرت كثير من ثقافات وفلسفات وعلوم الامم وهنا اثبتت هذه اللغة مدى طواعيتها ومرونتها في الاخذ والعطاء ، في الترجمة والنقل ، في التعريف والتعبير . لقد كان لامتزاج هذه الحضارات وتجانسها أكبر الآثار على تطوير اللغة وتزويدها بطاقات اكبر وامكانات اوسع بسبب التاثيرات الخارجية النابعة من لغات اخرى متعددة ، فبرهنت اللغة العربية حينئذ انها فعلا قادرة على هضم كل غريب وقبول كل جديد وتلوينه باللون العربي ، بل انها اخذت واعطت بدورها العديد من الكلمات والتعابير والتراكيب والصيغ والابنية الى غيرها من اللغات سواء السامية كالسريانية او الهندو اوربية كالفارسية واليونانية الخ ،، كما طبع هذا التاثير فيما بعد كثيرا من اللغات الحية التي تعيش بين ظهرانينا اليوم ،،

وفي هذا العدد من «المؤرخ العربي» سيجد القارئ الكريم الكثير من مظاهر هذه الحضارة المشرقة باقلام أساتذة وباحثين ذوي باع في ميادين تخصصهم .

ونظرا للخط العلمي الذي تنتهجه هذه المجلة التي اصبحت محط عناية البيئات والاوساط الثقافية في الوطن العربي فاننا نرجو لها اطراد التوفيق والتطور حتى تصبح منتدى علميا نشيطا للمؤرخين العرب والباحثين على اختلاف مشاربهم واهتماماتهم . كما نرجو لاتحاد المؤرخين العرب الساهر على هذه المجلة مزيدا من التقدم والنجاح في اداء مهمته القومية .

والله نسأل العون والرشاد لما فيه خير العروبة والاسلام .

المدارس الاسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد - كلية الآداب

ان من ابرز مايميز الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي هو ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الثقافي ومابلغته المعرفة من تطور كبير وما اصاب التعليم من ازدهار واسع . وانشاء المدارس في الاسلام من المنجزات العظيمة التي حققت الاهداف العلمية والتربوية وقدمت الخدمات الجليلة للانسانية جمعاء .

وتشير المؤشرات التاريخية ان مدينة نيسابور كانت رائدة المدن الاسلامية في انشاء المدارس ، فقد شيد أهلها مدرسة للفقيه الشافعي ابي اسحق الاسفراييني المتوفي سنة ثماني عشرة واربعمائة للهجرة (1) . كما تشير المصادر ان مدرسة اخرى انشئت في تلك المدينة للعالم ابي بكر البيهقي المتوفي سنة ثمان وخمسين واربعمائة للهجرة (2) .

نلاحظ ان اهتمام أهل نيسابور كان منصبا على العناية بالمذهب الشافعي ودراسة أصوله ومن هنا على ما اعتقد كانت سببية انشاء المدارس فيها كمعاهد للدرس والعلم ، ونيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة والشافعية بخاصة ، وبرزت فيها طائفة من كبار اصحاب الحديث واعلام الفقهاء كالبيهقي والحاكم النيسابوري . فالحركة المدرسية في الاسلام على ما ارجح نشأت في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم وذلك ان الشافعية عندما رأوا ضعف مركزهم وانصراف الحكام في هذا القسم الشرقي من العالم الاسلامي عنهم واعتمادهم في نفس الوقت على الفقهاء الحنفية ببغداد ، بدأوا يعملون لدراسة وتدريس المذهب الشافعي واصول فقهه والدعوة له فنشأت بهذا حركة هدفها الاول العناية بالمذهب الشافعي واصول ذلك المذهب لم تكن الدولة تعترف به وتتذاك في تلك المناطق .

---

1) ابن خلكان : وفيات الاعين ج أ ص 9

2) المرجع السابق ج أ ص 57 ـ المقريزي ـ الخطط ج 2 ص 363

ان انشاء المدارس في الاسلام يظهر انها مبادرات شعبية حققت للناس طموحاتهم في ان تكون تلك الامكنة مراكز علمية تدرس فيها مختلف العلوم والاداب . وهي في عهدها الاول وان لم تستكمل شروط المدرسة فقد تكونت من بيت له رحبة واسعة فيه بعض الغرف للدرس ، وقد تختلف المدرسة من حيث السعة ومن حيث الوقوف التي توقف للصرف عليها ، وكذلك من حيث الشيوخ الذين يدرسون بها ومكانتهم العلمية واشتهارهم .

وفي سنة 459 هـ شيد الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية في الجانب الشرقي من بغداد . والحق ان المدرسة النظامية تعتبر من اقدم مدارس بغداد واشهرها ، وقد انشئت لتدريس الفقه الشافعي وشرط الواقف ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية اصلا وفرعا (3) ، وكان نظام الملك قد امر بانشاء عدة مدارس في العالم الاسلامي اصبحت نموذجا للمدارس الجديدة وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذى به كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء في انشاء المدارس ، كما ان اهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة اذ اصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس كما ان تكوين المدرسة على الوضع الذي رسمه نظام الملك وما الحقه من اقسام داخلية لاقامة الطلاب اصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به في سائر المدارس التي انشئت في العصور التالية (4) .

ويبدو ان نظام الملك كان اول من خصص الرواتب والاجور للمدرسين وكل العاملين في مدارسه كما تكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم . ومن الجدير بالذكر ان علماء ماوراء النهر ، اصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد والتنظيمات التي استحدثها نظام الملك فيها . فاقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فياتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . واذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسل (5) .

ان الدافع على مارجحه من تأسيس المدارس النظامية كان مذهبيا وسياسيا . لقد كان نظام الملك شافعيا اشعريا حريصا على مذهبه وعاصرت نظام الملك اراء وافكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الاسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من اصحاب الملل

---

3) ابن الجوزي : المنتظم ج 9 ص 6 .

4) ENCYCLOPEADIA OF ISLAM : Art Masjid.

5) حاجي خليفة كشف الظنون ج 1 ص 53 .

والنحل وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة الى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث علي الاستقرار والسكينة والامن ، لذا كان هم نظام الملك التأكيد في مواضيع الدراسة على افهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة ، ولما كان نظام الملك شافعيا ، كان يرى ان يدرس الفقه والاصول المستمدة من افكار وأراء الشافعية . وكان من شروط النظامية ان يكون المدرس من الشافعية اصلا وفرعا .

ولما كانت المدارس الحكومية هي في الحقيقة امتداد لحركة التعليم في المساجد لذا نرى ان التعليم في بداية امره في مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية ، واعتقد ان هذا انما كان استجابة لروح العصر الذي شيدت لاجله المدرسة النظامية . وقد اعتمدت النظامية في تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعي واعتمت بتدريس القرآن والحديث والادب واللغة . ثم اخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم واخذت العلوم الرياضية طريقها الى هذه المدرسة .

ونلاحظ في المدرسة النظامية نوعا من الاختصاص فنجد مثلا ابازكريا التبريزي المتوفى سنة 502 هـ استاذا للفقه والادب في المدرسة (6) ثم اصبح علي بن محمد الفصيحي المتوفى سنة 516 هـ صاحب ذلك الكرسي بعد وفاة التبريزي (7) .

وكان ابو المبارك الملقب بالوجيه النحوي متفقها حنفيا ولما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف ، ان لايفوض الا الى شافعي المذهب فانتقل ابو المبارك الى مذهب الشافعي وتولاه (8) . اي تولى تدريس النحو في المدرسة النظامية ومن هذا نستدل على ان بعض الاساتذة كانوا ينتقلون من مذهب الى مذهب في سبيل الحصول على منصب رسمي . كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية، وهناك اساتذة اختصوا في تدريس الفقه والحديث والاصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم .

أما كيفية التدريس في النظامية . فان ابن جبير اعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة اواخر القرن السادس الهجري وحضر مجلس وعظ في الخامس من صفر سنة 580 هـ ووصف مجالس العلماء انها مجالس علم

---

6) ياقوت : معجم الادباء ج 19 ص 27
7) ياقوت : معجم الادباء ج 15 ص 67
8) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 562

ووعظ ، وقال عنهم ان لهم طريقة مباركة ملتزمة (9) . وكان التدريس مرتبطا على الاكثر باوقات الصلاة ، خاصة بعد صلاة العصر ، بعد ان يتفرغ اكثر الناس من أعمالهم ، ـ اقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس ـ . يقول ابن جبير : «وأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعه (10) . وطبيعي ان المدرس كان يجلس على مكان عال وهو متطيلس (اي يرتدي الطيلسان) والطريقة المتبعة ان الطلاب يجلسون امامه على شكل نصف حلقة ، ويبدأ الطلاب بالقراءة ، وكانوا يقرأون بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة (11) (ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس) ويتصرف في أفانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله عليه الصلاة والسلام والتكلم على معانيه (12) .

وتعددت المدارس في العالم الاسلامي وتنوعت في دراساتها وتخصصاتها وصارت بعض الموضوعات تدخل التدريس في قاعاتها كالطب والصيدلة وعلم الفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من المواضيع . ولعل من أبرز واشهر المدارس التي انشئت في أواخر الدولة العباسية المدرسة المستنصرية والتي امر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسي وافتتحت للتدريس في سنة 30 هـ . والمدرسة المستنصرية لها اهمية خاصة لانها تعتبر خطوة جديدة في تطور تاريخ المدارس في العالم الاسلامي ، اذ المعروف ان المدارس السابقة كانت كل واحدة منها تبنى لدراسة مذهب واحد بعينه، ولكن هذه المدرسة هي اول مدرسة عرفها العالم الاسلامي كله تشيد لتدريس المذاهب الاربعة ، ويبدو ان الخليفة المستنصر استهدف من عمله ذلك جعل مدرسته محط انظار أهل السنة جميعا فلايقف شرط مذهبي امام الطالب كما جعل نظام الملك من شروط القبول في النظامية ان يكون الطالب شافعيا اصلا وفرعا (13) .

وهذا يعني ان عامة الناس سواء كانوا من الحنفية او الشافعية او المالكية او الحنابلة لهم حق الدخول في المدرسة المستنصرية وطبيعي فان

---

9) ابن جبير : الرحلة ص 174

10) ابن جبير : الرحلة ص 174

11) المصدر السابق

12) المصدر السابق

13) ابن الجوزي ـ المنتظم ج 9 ص 66

الخليفة المستنصر وهو الذي انشأ المدرسة فمن غير المعقول ان يخصصها لطائفة دون اخرى .

ومن الجدير بالذكر ان بناء المدرسة المستنصرية يعتبر من أجمل الآثار العباسية وسط مدينة بغداد في الجانب الشرقي منها والبناء يمثل نوعا من الطراز العباسي الذي يمتاز باستخدام الاجر والتأثر بالاساليب المعمارية الساسانية وتفضيل الاكتاف او الدعامات على الاعمدة في حمل البوائك كما يمتاز بالاقبال على استخدام الجص في كسوة العمائر (14) .

ولاول مرة في تاريخ المدارس الاسلامية يلحق الخليفة بالمدرسة اربعة معاهد ، معهد لتدريس القرآن وآخر للحديث النبوي الشريف ومدرسة للطب واخرى للصيدلية . وانخرط بالمدرسة الطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي .

وعنيت المدرسة المستنصرية كما عنيت المدارس الاسلامية المنتشرة من مشرق الخلافة الى مغربها بالمكتبات الفخمة واغمارها بالكتب النفيسة، وكانت المكتبة عصب المدرسة ، وكانت الكتب تبوب وترتب حسب فنونها ليسهل على المطالعين تناولها واذا اراد احدهم نسخ بعض مخطوطاتها فان الموظفين كانوا يمدونه بما يحتاج اليه من الاقلام والورق (15) ، وكان للمكتبة خازن ومشرف ومناول . واعتقد ان اعظم مكتبة كانت في مدارس بغداد ايام العباسيين هي مكتبة المدرسة المستنصرية فقد ذكر ابن عنبة ان مكتبة المستنصرية كانت تحوي ثمانين الف مجلدا (16) .

ان المدارس الاسلامية في العصر العباسي ادت دورها البناء في الحفاظ على التراث العربي الاسلامي وتطوير وازدهار الدراسات الدينية والادبية والعلمية وقدمت خدمات جليلة للثقافة الانسانية .

ومما لاشك فيه ان المدارس الاسلامية في أول نشأتها بذلت عناية فائقة في دراسة العلوم الدينية وكان لهذا الامر الاثر الكبير في تطوير وتعميق المواضيع الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه ، وقد ساعد هذا على تفهم الناس لتلك المواضيع وظهور الدراسات العلمية والتي تميزت بالمتانة والوضوح وبالجدية واصالة البحث . ثم دخلت المواضيع الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاخبار والادب الى المدارس الاسلامية وكانت العناية فائقة بتطوير تلك الدراسات وبذل مجهودات

---

14) زكي حسن ـ فنون الاسلام ص 54 .

15) لسترانج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 226 .

16) ابن عنبة ـ عمدة الطالب ص 195 .

قيمة من اجل خدمة التراث الادبي العربي وتقديم البحوث القيمة في هذا المجال . كما عنيت المدارس بالعلوم الرياضية وهي تشمل الحساب والجبر والهندسة والمساحة . وبالعلوم العقلية التي تضمم المنطق وعلم الكلام الحيوان . وقد ارتقى مناصب التدريس لهذه المواضيع نخبة من علماء العرب والمسلمين وبذلوا مجهودات قيمة من اجل دراسة تلك العلوم وتوسيع مدارك الطلبة وتقديم البحوث القيمة في مجالات العلم المختلفة مما اضاف حصيلة ممتازة في الميدان العلمي .

والمدارس الاسلامية التي عنيت بالدراسات الدينية والادبية والعلمية قامت بتخريج اعداد كبيرة من الطلاب الذين انتشروا في العالم الاسلامي وصاروا ينقلون ما تعلموه في تلك المدارس وارتقى العديد من خريجي تلك المدارس الوظائف السامية في مختلف الامصار الاسلامية .

ان المدارس الاسلامية والتي على ما اعتقد كان هدفها واحدا هو العناية بالمواضيع الدينية اساسا ومن ثم الاهتمام بالدراسات الادبية والعلمية . ان هذه المدارس ساعدت على اشاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة . وان اتاحة الفرصة للمسلمين القبول في اي مدرسة في بغداد أو البصرة أو القاهرة أو تونس أو الرباط او اصفهان كان له الاثر المحمود في توحيد الفكر الاسلامي وزيادة الترابط الانساني مما يساعد على اتاحة الفرص للعراقي والمصري والسوري والمغربي والفارسي والتركي ان يتعارفوا وان تتماس العقول وتحتك الافكار وتنصهر جميعا في بوتقة العلم لتبرز افكارا مدروسة واراء مجدية في حقول الادب والعلم . وهذا على ما اعتقد من ابرز ما قدمته تلك المدارس في ذلك العصر من خدمة للانسانية ولتراثها الخالد . كما ساعد ذلك اللقاء بين البلدان المختلفة . في تعرفهم على عادات وتقاليد بعضهم البعض وانتشار اللغة العربية والتي أصبحت لغة الدراسة والثقافة والعلم . مما ادى الى الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها وازدهارها .

ان الانظمة الحية المتطورة والتي جاءت بها المدارس الاسلامية كان لها الاثر المحمود في تطوير الدراسات في العالم الاسلامي بخاصة والعالم بعامة . ونلاحظ ان النظام التعليمي في المدارس الاسلامية ونأخذ المدرسة النظامية على سبيل المثال انها عنيت بالتنظيم الذي يمكن ان نسميه بالجامعي . فالهيئة التدريسية فيها تتكون من المدرسين والمعيدين . ويحدد القلقشندي وظيفة المدرس بانه الذي يتصدى لتدريس العلوم

الشرعية من التفسير والحديث واللغة والنحو والتصريف ونحو ذلك (17)
وكان تعيين المدرس في اول تأسيس النظامية من صلاحية الوزير نظـــام
الملك كما كان ذلك عندما عين نظام الملك ، ابا اسحق الشيرازي للتدريس
في نظامية بغداد (18) وكما عين هو الامــام الغزالي للتدريس في المدرسة
ذاتها بعد ذلك (19) . وان المدرسة كانت حريصة على التخصص العلمي
ويختار المدرس من الذين عرفوا بالعلمية الواسعة والشهرة في تخصصهـم
الـدقيـيـق .

اما وظيفة المعيد ، فوظيفه حضارية تؤكد اهمة التعليم وتطوره عند
المسلمين ومن المعتقد ان هذه الوظيفة ، ظهرت في القرن الخامس الهجري
وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ ، وارجح ان هذه الوظيفة
ظهرت وهي على علاقة وثيقه بوظيفة المدرس بعد تأسيس النظاميـة ،
والطريف في هذه الوظيفة ومحفزاتها انها جعلت الطلبة في المدرسة النظامية
يتنافسون تنافسا علميا من اجل الحصول على الدرجات العلمية الممتازة التي
تؤهلهم لوظيفة المعيد ، وهذا بالطبع سيؤدي الى رفع المستوى العلمي لطلاب
المدرسة الاسلامية والى ابتكار المواضيع العلمية المختلفة وهناك اسمـاء
كثيرة من الذين كانوا طلبة في النظامية او المستنصرية عينوا معيديـن
لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية الممتازة .

كما ان المعيد اذا ما اثبت جدارة واهلية واصالة بحث رقي الى درجة
مدرس وهذا عامل آخر مهم تساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل
على تطوير العلوم الاسلامية كافـــة .

وكانت مجالس المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلميـن
وتلقي العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوي الرابطة الدينيـة
ويعمل على وحدة الفكر الاسلامي .
ان ابنية المدارس الاسلامية والتي تبارى في اظهار جمالها ورائـع
رونقها الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والموسرون كانت امثلـة
رائعة للفن العربي الاسلامي ، فالمدرسة المستنصرية ببغداد والتي انشئت

---

17) القلقشندي ـ صبح الاعشى ج 5 ص 464 .
18) ابن الاثير ـ الكامل ج 8 ص 105 .
19) ابن خلكان ج 1 ص 587 .

سنة 630 هـ اتفق المؤرخون المعاصرون لها انه ما بني على وجه الارض احسن منها (20) . وانها جاءت في نهاية الحسن (21) ، وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء (22) ، وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها (23) ، وحقا فان هذه المدرسة العربية الاسلامية هي اليوم من اجمل الاثار التي خلفها العباسيون ببغداد تشير الى سلامة الذوق الفني وجمال الهندسة وتعبر عن مجد بني العباس الزاهر . وهي اضافة الى جمال بنائها تمتاز بالزخارف الرائعة التي تتكون من قطع من الآجر المهندسة باشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت في الحجم والعمق ، وهذه القطع بعد ان تتم زخرفتها على انفراد تجمع بعضها الى بعض وتلصق على الجص في واجهة الجدار او السقف المراد زخرفته كما امتازت بالكتابات العربية الفريدة والتي مازالت واضحة مقروءة حتى عصرنا هذا والتي تدل بوضوح على سلامة الذوق وروعة الخط وقدرة الخطاطين البغداديين وقتذاك

ان المدارس الاسلامية والتي برزت بشكلها المنظم في النصف الثاني من القرن الخامس وامتدت من المشرق وحتى المغرب كانت تطورا كبيرا في الحياة الثقافية والتعليمية وادت رسالتها من أجل تطوير وازدهار التعليم في العالم الاسلامي كما كان لها دورها البارز في تنشيط الاداب والعلوم وساهمت باخلاص في توحيد الفكر الاسلامي والحفاظ على التراث الثقافي والاهتمام باصول البحث والعناية بالفرد من الناحية الاجتماعية كما كان انشاء المدارس مساهمة فعالة وبناءة في رقي البناء واظهار روعة العمارة الاسلامية باساليبها الجميلة .

20) القرماني ـ اخبار الدول ص 180
21) مجهول ـ انسان العيون ورقة 249 مخطوط
22) الاربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 212
23) ابن الطقطقي ـ الفخري ص 242

الحياة الدينية والدنيوية في مملكة غرناطة الاسلامية

دكتور أحمد مختار العبادي
- مصر -

المراد بلفظ الاندلس هو اسبانيا الاسلامية بصفة عامة . اطلق هذا اللفظ في بادىء الامر على شبه جزيرة ايبيريا كلها ، على اعتبار انها كانت في يد المسلمين ثم اخذ لفظ اندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الاسلامية في شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الاندلس اخر الامر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهي اخر مملكة اسلامية في اسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا .

وكلمة اندلس اشتقها العرب من كلمة واندلوسي وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت اسبانيا من الشمال في بداية القرن الخامس الميلادي واستقرت في سهولها الجنوبية (Baetica) التي صارت تعرف باسمهم واندلوسي وهي التسمية التي عربها المسلمون بعد ذلك الى اندلس . ولازالت الولايات الجنوبية الاسبانية تعرف الى اليوم باسم اندالوثيا ((Andalucia)

ان موضوع الاندلس حديثه كثير وتاريخه الاسلامي طويل استمر لما يقرب من ثمانية قرون ، وهي مدة طويلة ترك فيها المسلمون اثارا مادية وروحية عميقة مازالت تبدو مظاهرها بوضوح حتى اليوم . لهذا لم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الاسلامية الى الشمال ثم هبطت الى الجنوب مثل ميزان الحرارة أو الترمومتر ، بل كان حدثا حضاريا هاما امتزجت فيه حضارات سابقة كالفينيقية ، والرومانية والقوطية ، مع حضارة جديدة لا حقة وهي الحضارة الاسلامية ونتج عن هذا المزيج حضارة اندلسية مزدهرة وصلت الى الفكر الاوربي المجاور .

واسبانيا بلاد جبلية وعرة ، وقد استغل المسلمون هذه الطبيعة الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية . فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الانهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب او العكس ، خطوطا واثرت فيه .

دفاعية ضد اي هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال . فقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت قواعد عسكرية لهذه الخطوط . فمدينة سرقسطة (Zaragoza) كانت مركزا للخط الدفاعي الاول في الشمال وهو وادي الايرو ، ولهذا كانت مرقسطة تسمى بالثغر الاعلى وكانت ثغرا على اراجون وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا ، وتليها جنوبا مدينة طليطله (Toledo) التي كانت مركزا للخط الدفاعي الثاني وهو وادي التاجو (Tajo) ، ولذا سميت بالثغر الادنى وكانت ثغرا على الجلالقة ومنطقة القلاع في شمال غربي اسبانيا . وفي الجنوب نجد نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) خطا دفاعيا ثالثا تقع عليه العواصم الاندلسية

مثل قرطبة واشبيلية وقادس كما تقع غرناطة على احد فروعه

وفي اقصى جنوب اسبانيا يقع جبل طارق الذي يعتبر قاعدة الوصل بين الاندلس والمغرب ، ويبلغ ارتفاعه في بعض اجزائه حوالي 438 مترا وكان يسمى قديما بالاسم الفينيقي (Mons calpe) اي الجبل المجوف نسبة الى مغارة كبيرة فيه سماها الاسبان فيما بعد مغارة القديس ميخائيل (San Miguel) ثم اطلق عليها الانجليز بعد احتلال هذه القاعدة (سنة 1704) اسم مغارة القديس جورج ولعل هذا الغار هو غار الاقدام الذي ورد ذكره في بعض المراجع العربية التي وصفت هذا الجبل لوجود آثار أقدام فيه .

وبعد الفتح العربي لاسبانيا اطلق المسلمون على هذا الجبل اسم الصخرة المجاز . وجبل الفتح وجبل طارق . وهذا الاسم الاخير هو الاسم المعروف به حتى اليوم في جميع اللغات نسبة الى فاتح الاندلس طارق بن زياد

اما المضيق نفسه فقد كان يعرف قديما باعمدة هرقل (Columnasde Hercules) نسبة الى الجبال المحيطة به . اذ كان يظن في القديم ان هذه الجبال هي نهاية العالم وان هرقل العظيم استطاع بقوته الخارقة ان يفصلها عن بعضها كي تتصل مياه البحر المتوسط بمياه البحر المحيط . ولما فتح المسلمون هذه الجهات اطلقوا عليه اسم مضيق المجاز او خليج الزقاق او البحر الزقاقي او مضيق جبل طارق . ويبلغ طول هذا المضيق حوالي 80 م . كما يبلغ عرضه في اضيق جهاته حوالي 15 م وهي مسافة ضيقة اي يمكن في يوم صحو رؤية الشاطئ الاسباني من الشاطئ المغربي او العكس . ومن الطريف ان المسافر من المغرب الى اسبانيا عبر المضيق يرى جبل طارق من بعيد وكأنه سرج فرس . وقد علق على هذا الخطـ

المؤرخ الاندلسي ابن سعيد المغربي بقوله :

انظر الى جبل الفتح ... راكبا متن لجج

وقد تفتح مثل الـ ... افنسان في شكل سرج

وهكذا نرى ان مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الاندلس . مسافة ضيقة لاوزن لها من ناحية الانتشار العسكري او الثقافي او الاقتصادي . فكل من القطرين يعتبر منطقة امان للاخر وامتدادا له في الدم والجوار والاخذ والعطاء وفي الصلات التاريخية والجغرافية والمواقع الاستراتيجية . ومن هنا نشأ صراع تقليدي من قديم الازل بين السلطتين الافريقي والاوربي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق المعروفة باسم العدوتين : عدوة المغرب وعدوة الاندلس والعدوة معناها الشاطيء او الجانب . ولقد استطاعت الدولة الاموية في الاندلس ان تسيطر على مضيق جبل طارق في الجنوب وان تحتل بعض ثغور العدوة المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلية لاحكام السيطرة على المضيق ولمنع اي غزو خارجي ياتيها من الجنوب . كذلك استطاعت ان تسيطر على القوى المسيحية الاسبانية في الشمال وتتحالف معها ضد اي تدخل اوربي ياتيها من هذه النواحي الشمالية فسياسة الخلافة الاموية بالاندلس كانت مثل المغناطيس الذي يسد ابواب جبال البرتات شمالا . ومضيق جبل طارق جنوبا في وجه اي تدخل اجنبي .

ولما سقطت الدولة الاموية بالاندلس سنة 1031 م 422 هـ وتفككت الى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة . زال هذا المغناطيس شمالا وجنوبا . واخذ النفوذ الفرنسي بشتى صوره واشكاله السياسية والثقافية والدينية يتغلغل في شمال اسبانيا باعثا روحا صليبية جديدة ضد المسلمين

ومن سوء طالع الاندلسيين في ذلك الوقت انه كان يحكم شمال اسبانيا رجل واسع الطموح وهو الملك الفونسو السادس . فاستجاب لهذه النزعة الصليبية الفرنسية وطرد مستشاريه المستعربين وتزوج اميرة فرنسية تدعى كونستانس واحاط نفسه بعدد كبير من الرهبان والقساوسة الفرنسيين اتباع نظام كلوني الذين انتشروا في شمال اسبانيا يحرضون الاسبان ضد المسلمين .

وانقاد الملك الفونسو السادس لهذه السياسة الصليبية الفرنسية وسارع بجيوشه لضرب الخطوط الدفاعية الاسلامية . ومن العجيب انه

هاجم الخط الدفاعي الثاني ، خط التاجو ، أو الثغر الادنى ، واستولى على قاعدته طليطلة سنة 1085 م (478 هـ) ، فانهار الخط بسقوط قاعدته واستطاع الاسبان بذلك ان يدقوا اسفينا في قلب الاندلس ويفصلوا شماله عن جنوبه . وفي ذلك يقول الشاعر المعاصر ابن عزنون المعروف ابن العسال الطليطلي :

شدوا رواحلكم يا أهل اندلس
فما المقام بها الا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وارى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ولم يكتف الفونسو السادس بهذا النصر الكبير الذي احرزه بل سارع بجيوشه نحو مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى للمسلمين فحاصرها بغية الاستيلاء عليها والقضاء على الخط الدفاعي الاول وامام هذا الخطر الداهم استنجد الاندلسيون باخوانهم المرابطين الذين جاءوا من صحراء موريتانيا وكونوا دولة عرفت بدولة المرابطين الفتية في المغرب فلبوا نداءهم وعبروا الى الاندلس فلبت نداءهم واستطاعت بقيادة ملكهم يوسف بن تاشفين الذي انتصر على الاسبان في موقعة الزلاقة سنة 1086 م وانقذ الاندلس من ضياع محقق . واوصلت الدولة المرابطية انتصاراتها على الاسبان في مواقع عديدة مثل اقليس (Uclés) 1108 م وطلبيرة ويابرة وغيرها ولكنها مع ذلك لم تتمكن من استرداد طليطلة قاعدة خط التاجو او الثغر الادنى . بل انها في اواخر ايامها لم تستطع الدفاع سقطت مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى فاستولى عليها يد ملك اراجون الفونسو الاول سنة 1118 م وانهار بسقوطها خط وادي الابرو وهو الخط الدفاعي الاول . وكان لهذا الحادث أثر كبير في سقوط دولة المرابطين وقيام دولة مغربية اخرى مجاهدة وهي دولة الموحدين .

واستطاع الموحدون ان يكونوا امبراطورية كبيرة شملت المغرب العربي الكبير والاندلس كما تمكنت جيوشهم ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ـ ان تحرز نصرا كبيرا على الاسبان في وقعة الارك (Alarcos) سنة 1195 م وان تصل في زحفها الى اقصى شمال اسبانيا ، غير ان الموحدين مع ذلك لم يتمكنوا من استعادة هذه الخطوط

الدفاعية في الثغرين الاعلى والادنى ، بل نجد ان الدول الاوربية بزعامة البابا انوسنت الثالث قد تحالفت ضدهم ووجهت الى الاندلس حملة صليبية التي شبهها المؤرخون بالجراد المنتشر انتصر الصليبيون على الموحدين في موقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة 1212 م (609 هـ) ولم تتحمل دولة الموحدين هذه الكارثة فانهارت دولتها في الاندلس وانهار معها الخط الدفاعي الثالث وهو الوادي الكبير بما عليه من مدن كبرى مثل قرطبة واشبيلية وجيان وقادس وانسحب المسلمون الى الركن الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث جبال البشرات (Alpyjarras) وجبال شلير (Sierra) (Nevada) فتحصنوا بها ودافعوا عن هذه المنطقة دفاع اليائس المستميت ، وتمكنوا بزعامةقائد شجاع منهم اسمه محمد بن يوسف بن نصر ان يؤسسوا هناك سنة 1238 م (635 هـ) اخر مملكة اسلامية في اسبانيا وهي مملكة غرناطة او مملكة بني

الاحمر او بني نصر هذه الدولة التي من موضوع حديثنا اليوم مملكة صغيرة مجاهدة كانت هذه المملكة الصغيرة تشتمل على عدة ولايات وهي غرناطة ومالقة والمرية بالاضافة الى جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف ورندة، وكانت عاصمتها مدينة غرناطة (Granada) مدينة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير (Sierra Nevada) ويخترقها نهر شنيل (Genil) احد فروع الوادي الكبير ويلاحظ وجود تشابه في الاسم بينه وبين النيل . وهو يعتبر واديا صغيرا (حوالي 211 م) اذا قورن بوادي النيل 6500 ل م . ومع ذلك فان الغرناطيين تدروه بالف نيل . لان الشين عند المغاربة تعني الالف في العدد وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب : وما لمصر تفخر بنيلها والف منه في شنيلها ؟ .

وفي جنوب غرب دولية غرناطة تمتد مروجها الخصبة التي كانت تسمى بالمرج او الفحص اي البقاع ومن هذه الكلمات جاءت التسميات الاسبانية (Las Vegas or Vega, Alfoz) وكانت قصبة مدينة غرناطة هي مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالحمراء (La Alhambra) وهذا الاسم قديم في غرناطة وقد ورد ذكره في القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي في عهد الامير عبد الله الاموي . وواضح ان هذا الاسم راجع الى لون تربة الهضبة التي بنيت عليها ولهذا سميت ايضا بالسبيكة اي مثل سبيكة الذهب في لونها تحت اشعة الشمس . وفي ذلك يقول الشاعر الغرناطي ابن مالك الرعيني :

ترى الارض فضة فاذا اكتست

بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

ومن هذا نرى انه ليس هناك علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الاحمر الذين حكموها بعد ذلك منذ القرن السابع الهجري او الثالث عشر الميلادي ، فتشابه الاسمين محض مصادفة .

اما بنو الاحمر او بنو نصر سلاطين هذه المملكة فيرتفع نسبهم الى سيد الخزرج سعد بن عبادة الذي عاون الرسول في دار الهجرة اما تسميتهم بني الاحمر فنسبة الى جد لهم يدعى عقيل بن نصر الذي لقب بالاحمر لشقرة فيه . وقد استمر هذا اللون الاشقر يظهر في بعض افراد هذه الاسرة مثل السلطان محمد السادس الذي لقب في المصادر الاسبانية بالبر منجو ومعناه اللون البرتقالي الضارب الى الحمرة وهو لون شعره ولحيته .

وهكذا نرى انه ليس هناك علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الاحمر ، الاول يرجع الى لون التربة ، والثاني يرجع الى لون شعر شقرة بعض افراد احد جدود الاسرة فتشابه الاسمين اذن محض مصادفة

ومع ذلك فان ملوك غرناطة قد اتخذوا من اللون الاحمر شعارا لهم في لون قصورهم واعلامهم وقبابهم بل وفي لون الورق السوس يلبسون عليه رسائلهم السلطانية .

هذا ، ويلاحظ ان الوضع الجغرافي لهذه المملكة الصغيرة بين عدة دول تفوقها قوة ، وتحيط بها من كل جانب ، وهي : مملكة قشتالة شمالا والبرتغال غربا ، واراجون شرقا ، ودولة بني مرين في الغرب جنوبا ، قد جعل سياستها مرتبطة بتلك التيارات السياسية التي حولها . ولهذا لم تلتزم في سياستها على جانب واحد من هذه القوى المحيطة بها بل كانت سياستها تتبدل وتتغير في حذر وحرص من يوم الى يوم حسب الظروف الخارجية المحيطة بها وتمشيا مع سلامة مصالحها مع جيرانها : فتارة تتقرب من قشتالة ضد اراجون وتارة اخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وتارة ثالثة تتقرب من ملوك البرتغال او اراجون ضد قشتالة وهكذا ، فهذه السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة قرنين ونصف من الزمان ، لانها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد اشاد المؤرخون الاوربيون بالدبلوماسية الغرناطية ووصفوها بصفة تدل على المرونة والمهارة وهي سياسة اللعب بالثلاث ورقات (Juego de Tres Basajas)

على ان هذه المهارة السياسية لم تكن كافية للدفاع عن كيانهـــا فوجودها بين هذه الدول قد جعلها في حالة حرب او استعداد دائم للحرب ضد اي عدوان يقع عليها . وقد اشار الوزير الغرناطي ابـن الخطيب لهـذا الاعداد الحربي للشباب الغرناطي بقوله : «والصبيان تدرب على العمـل بالسـلاح وتعلـم المناقضـــة كمـا يعلـم القـرآن في الالـــواح ومن الطريف ان هذه العبارة تتفق مع ما جاء في المدونات الاسبانيـــة المعاصرة من ان جميع افراد الشعب الغرناطي حتى الاطفال منهـم قـد اشتهروا بمهارتهم في القتال ولعـل الاحتفـالات الشعبيـــة التي تقـام حتى اليوم في اسبانيا ويمثل فيها القتال بين المسلمين والمسيحيين او ما يعرف باسم (Morosy Cristianos) تعطينا صورة فكرة عن هـــذه الحياة الحربية التي سادت اسبانيا في العصر الوسيط ولقد تعاون المغرب مع شقيقته غرناطة في هذه الاعمال الجهادية ، فالى جانـــب الجيـش الغرناطي وجد في العاصمة جيش من فرسان زناتة المغاربة عرفوا باسم الغزاة . وكان يرأسهم امير من الاسرة المالكة في المغرب اسرة بني مرين

او بني عبد الحق ويلقب بشيخ الغزاة . وكان لهؤلاء الزناتيين فن حربـــي خاص يقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر والالتفاف مـــع اللـــي واستعمال الدروع الجلدية والخيول الخفيفة ذات الركـاب المرتفـــع . وهـذا الفـن الزناتي يختلف عن طريقة الاسبـان الذيـــن استعملـــوا الدروع الحديدية الثقيلة والخيول المدرعة ذات الركـــاب الطويـــل المنخفض . وكل هذه الاشياء كانت تعوقهم عن الحركة امام رشـــات الزناتيين وخفة حركتهم .

وقد اضطر الاسبان الى اقتباس هذا الفن الحربي الزناتي وتطبيقـه على بعض فرقهم العسكرية التي سموها بنفس الاسم (Zenetes) اي الزناتيون ثم لم يلبث هذا اللفـظ ان تطور في اللغـة الاسبانيـة الـــى (Jinete) ومعناها الفارس .

كذلك يؤثر عن الغرناطيين انهم توصلوا الى استخدام المدفع والاسلحة النارية قبل الاوربيين حسب النصوص التي لدينا ، فالمعـــروف ان اول استعمال للمدفع في غرب اوربا كان خلال حرب المائة عام في موقعـــة (Creasy) بفرنسا سنة 1342 بين فيليب دي فالوا ملك فرنســا وادوارد الثالث ملك انجلترا الذي كتب له النصر باستعمالـــه الالات النارية . اما في غرناطة فالنص الذي اورده الوزير الغرناطي ابن الخطيب

في كتابة (اللمحة البدرية) ،ونازل سلطان غرناطة (اسماعيل الاول) قلعة اشكر (Huescar) سنة 724 هـ (1324 م) .. ونشر الحرب عليها ، ورمي بالالة العظمى ، المتخذة بالنفط طاقة البرج المنيع ، فعاشت عباب الصواعق السماوية ، ونزل اهلها قسرا على حكمه وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم ابو زكريا بن هذيل :

وظنوا بان الرعد والصعق في السما

فحاق بهم من دونها الصعق والرعد

غرائب اشكال سما هرمس بها

مهندمة تأتي الجبال فتنهد

الا انها الدنيا تريك عجائبا

وما في القوى منها فلابد ان يبدو

ومن الغريب ان المصادر الاسبانية المعاصرة ايدت هذا الاختراع واشارت اليه كسلاح جديد رهيب ، ففي حوليات ثوريتا

(Zurita : Anales II P. 51 Nota 1.)

) نجد العبارة الاتية :

Se entendia el rumor en alicante que el rey' de Granada èstaba en posesion de una nueva arma mortifera

اي : وانتشرت الاشاعات في مدينة لقنت بان ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مبيدا : وتجدر الاشارة هنا الى ان دولة بني مرين في المغرب استخدمت المدفع ايضا في حصار سجلماسة 1273 م 672 هـ قبل الغرناطيين وقد نص على ذلك ابن خلدون في الجزء السابع من تاريخه المعروف بكتاب العبر . وكل هذا يدل على ان المسلمين استخدموا المدفع قبل الاوربين .

كيفما كان الامر ، فانه يتضح لنا مما تقدم ان هذه المملكة الصغيرة البسيطة التي نشأت في منطقة جبلية وعرة ، استطاعت ان تثبت وجودها كدولة قوية مزدهرة في جميع المجالات السياسية والحربية والاقتصادية الى غير ذلك من المجالات العلمية الحربية التي لا يتسع المجال للخوض فيها الان .

على اننا اذا تركنا جانبا هذه الحياة الجدية والجهادية القاسية التي اشتهر بها الشعب الغرناطي ، وجدنا ان لهذا الشعب حياة اخرى تتسم بطابع البهجة والمرح والسرور ولهذا رد فعل طبيعي للحياة الحربية التي عاشوها . ويظهر ذلك بوضوح في اعيادهم واحتفالاتهم التي كانوا يحتفلون بها في المناسبات المختلفة .

وقد اعطانا المؤرخ الغرناطي ابن الخطيب صورة جميلة في وصف بني وطنه اهل غرناطة فقال : كانوا سنيين على مذهب الامام مالك بن انس ، وكانت اخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وانوفهم معتدلة ، وشعورهم سود مرسلة ، قدودهم متوسطة تميل الى القصر والوانهم بيضاء مشربة بحمرة ، والسنتهم فصيحة عربية ، تغلب عليها الامانة ، واخلاقهم ابية والعمائم تقل فيهم الا ما شذ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم . واعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغناء بمدينتهم فاشي حتى في الدكاكين التي تجمع كثيرا من الاحداث وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا ان الطول ميدرفيهن ، وقد بلغن من التفنن في الزينة ، والتماجن في اشكال الحلى الى غاية نسأل الله ان يغض عنهن فيها عين الدهر .

وكانت الاحتفالات والاعياد في غرناطة كثيرة ومتنوعة ، نذكر منها الاعياد الدينية مثل عيدي الفطر والاضحى ، وعيد المولد النبوي في 12 ربيع الاول وموسم عاشوراء في 10 المحرم ثم هناك عيد العصير الذي كان يقام عند جني محصول العنب وعصره ، وهو المحصول الرئيسي في البلد فكان الاهالي يغادرون ديارهم ويتنقلون الى حقول الكروم حيث يقيمون عدة ايام لجمع المحصول في جو يسوده المرح والرقص والغناء وهي عادة مستمرة حتى اليوم ويشير ابن الخطيب الى ان هؤلاء الغرناطيين كانوا يحملون اسلحتهم معهم دائما لان هذه الحقول كانت مكشوفة ومجاورة لحدود العدو .

ثم هناك الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة الانتصارات الحربية او بمناسبة اعذار ابناء السلطان او ازواجهم . كذلك شارك الغرناطيون اخوانهم المسيحيين في اعيادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح ، وعيد العنصرة او عيد سان خوان الذي يحتفل به في اسبانيا في 24 يونيو ، وهو يقابل عيد النيروز في الشرق الذي يحتفل به في شهر سبتمبر . وهذه

المشاركة الروحية ترجع الى الحياة المشتركة التي عاشها المسلمون والمسيحيون في الاندلس جنبا الى جنب قرونا طويلة . كما ترجع ايضا الى نظرة الاحترام التي يكنها المسلمون نحو السيد المسيح كما ورد في القرآن الكريم .

ولقد جرت العادة ان يحتفل الغرناطيون باعيادهم بوسائل مختلفة اهمها :

1) العاب الفروسية ومصارعة الوحوش وحفلات الصيد .

2) الغناء والموسيقى والرقص

3) الاحتفالات الدينية

اما العاب الفروسية ومصارعة الوحوش . فكانت تقام في حلبات او مساحات متعددة في مدينة غرناطة مثل ساحة باب الرملة ، وساحة باب الطوابين ، ومكانه اليوم طريق العذراء (Carretera de la Virgen) وكذلك في قلعة الحمراء نفسها امام برج الغدر (جمع غدير) ، ويسمى اليوم (Torre de los siete suelos) فيروى ابن الخطيب انه كانت تقام في احدى الساحات دائرة خشبية في الهواء تسمى الحلبة ثم تأخذ الفرسان في قذفها برماحهم اثناء ركضهم بخيولهم . كذلك كانت تقام المبارزات الفردية والجماعية التي تمثل معركة حقيقية قد يصاب فيها البعض بجراحات . وهذا ، الى جانب الاحتفال بعرض قوات الجيش امام السلطان وعدد من الضيوف الاجانب من البلاد المجاورة سواء أكانت اسلامية ام مسيحية . وكان يوجد بجوار قصر الحمراء ، قصر خاص اعد لاقامة هؤلاء الضيوف ويعرف بدار الضيافة .

اما مصارعة الوحوش ، فكانت تدور حول مصارعة الثيران ، ومرجعنا فيها هو لسان الدين بن الخطيب . والواقع ان ما اورده هذا المؤرخ الغرناطي عن هذه المصارعة لم يرد في الموسوعة الكبرى التي كتبها عن الثيران خوسي ماريا كوسيو (Jose Maria Cossic) اذ ان مؤلف هذه الموسوعة يرى ان مصارعة الثيران بدأت في اسبانيا بعد انتهاء الحكم الاسلامي في اسبانيا اي في القرن 16 م ، في حين ان ابن الخطيب الذي عاش في القرن 14 م يذكر صراحة في كتابه الاحاطة ، بان هذه المصارعة كانت موجودة على ايامه وانها كانت على طريقتين :

الطريقة الاولى ، كانت حربا بين الثور والاسد ، وانه شاهدهـــا بنفسه ، وقد اسفرت عن انتصار الثور ، وجرح الاسد ، وعندئذ خرجــت طائفة من الرجال المسلحين ، اخذوا يناوشون الاسد الجريح الى ان قتلوه بعد ان افترس بعضهم .

اما الطريقة الثانية ، فكانت بين الثور والانسان ، وكانت منتشرة بين علية القوم من اهل غرناطة . وهذا اقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة . وكانت الطريقة كما يصفها ابن الخطيب هي ان يطلق الثور او البقر الوحش كما يسميه ثم نطلق عليه كلاب اللان المتوحشة ، فتأخذ في نهش جسمه واذنيه ، وتتعلق بها في صورة القرط من اذانها . وهذا العمل التمهيدي كان الغرض منه هو الحد من قوة الثور وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقامه اليوم عمل رماة السهام ، (Banderillercs) ، وطاعن الرمح (Picador) وذلك تمهيدا للقاء المصارع . وكان المصارع الغرناطي كما يصفه ابن الخطيب ، فارسا مغوارا يصارع الثور على فرسه المدرب ثم يقتله في النهاية برمحه ، وهذا النوع من المصارعة لايزال قائما الـــى اليوم في اسبانيا ، ويسمى الفارس المصارع باســـم (Rejoneador) نسبة الى الرمح القصير الذي يستعمله في قتل الثور واسمه (Rejon)

وقد اعطانا الشاعر المعاصر عبد الله بن زمرك صورة لذلك عند قوله في مدح سلطان غرناطة محمد بن يوسف الغني بالله : ـ

وطـاردت مقـدام الصوار بـجـارح

يصاب بـــه منه الصمـــاخ او الابط

متين الشوى في رأسه سمهرية 1

مقصرة عنهن مـــا ينبت الخط ( )

وقـد كان ذا تـاج فلمـا تعلقــــا

بسامعـنـيـة زان منهما قـــــرط

) السمهرية : نوع من الرماح العربية

)الخط : موضع في خليج البحرين كانت تباع فيه الرمـــاح الخطيـة المستوردة من الهند

ويقول ايضا في نفس المعنى :

وطاردت الصوار ( ) بكل ضـــار
كـمـا انبـعـث عفريتا شهابـــا
ضربـت بـه على الاذان منهــا
فـلـم تسطـع حراكـا واضطرابـا

ومعصوب الجبين بتـاج دوق ( )
يـروع خـواره الاسـد الغصابـيـا
تـعـرف ان تحت الارض ثـــورا
فـرام بـــان يشق لـه الترابـا

كذلك يذكر ابن الخطيب ان سلطان غرناطة ابا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان وليا للعهد خرج للصيد يوما فقابله خنزير جبلي (Jabali) فطرح نفسه عليه ، فكبابه فرسه واستقبله ذلك الخنزير ، فاستل الاميـر سيفه وعاجله بضربة تحت عينيه ابانت فكيه واطارت محل سلاحه وتلاحق به فرسانه وقد يئسوا من خلاصه ، فراوا مابهتوا له . وبشروا بذلك والده السلطان محمد الفقيه فسر سرورا عظيما .

الى جانب حفلات الصيد والفروسية ومصارعة الوحوش ، كان الغناء والموسيقى يمثلان عنصرا بارزا في الاحتفالات والاعياد الغرناطية . ويلاحظ ان اسبانيا عموما تعتبر في طليعة الدول التي برزت في ميدان الموسيقى والغناء في عصورها التاريخية المختلفة ، ففي العصر الاموي مثلا نجد انها رغم استقلالها عن المشرق من الناحية السياسية الا أنها فتحت ابوابهـا لجميع الوان الفنون والاداب والتجارة التي ظهرت في المشرق . فالمدارس الموسيقية الاسلامية الاولى التي ظهرت في الحجاز ولاسيما في مكـــة والمدينة في القرن الثاني للهجرة لم تلبث ان انتقلت الى الاندلس على ايدي الفنانين والفنانات الذين هاجروا اليها . ويكفي ان نتصفح كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني نجد امثلة عديدة لهؤلاء الفنانين الحجازيين الذين انتقلوا الى الاندلس في اوائل العصر الاموي مثل عجفاء وقلم والثنائـي علون وزرقون وغيرهم . كذلك يؤثر عن عبد الرحمن الاوسط انه بنى قصرا

) الصوار : والصوار والصيار قطيع البقر والجميع صيران (اي ثيران)
) الروق ، القـرن

حاجا لمقتنياته المدنيات عرف بدار المدنيات وحينما بنى العباسيون مدينة بغداد ، وظهرت فيها المدارس العراقية الموسيقية على يد ابراهيم الموصلي وولده اسحاق وتلميذه ابى الحسن بن نافع الملقب بزرياب ، لم يلبث هذا اللون من الموسيقى ان انتقل الى الاندلس علي يد زرياب نفسه الذي هاجر بأولاده وزوجاته الى قرطبة في القرن الثالث الهجري واسس هناك مدرسة موسيقية لم تلبث ان طغت شهرتها على الموسيقى المدنية وانتشرت في جميع انحاء اسبانيا الاسلامية والمسيحية على السواء .

وحينما انحصر ملك المسلمين في مملكة غرناطة ، حافظت هذه الدولة الصغيرة على ذلك التراث الموسيقي الاندلسي العريق بل واخذت تصدره كما يقول ابن خلدون الى البلاد المغربية التي حافظت عليه بدورها حتى اليوم فالموسيقى الاندلسية التي نسمعها اليوم في كل من الجزائر والمغرب وتونس . ماهي الا رواسب موسيقى زرياب القديمة . ففي مقال عن الموسيقى للعالم التونسي الراحل حسن حسني عبد الوهاب عن الموسيقي التونسية ، يذكر أنه لايزال يوجد في تونس لون من الغناء الشعبي التونسي يعرف بلحن غرناطة ، مما يدل على ان غرناطة كانت مركز اشعاع فنـي وثقافي في البلاد المغربية خصوصا وان عددا كبيرا من أهلها هاجر الى تلك البلاد واستقر فيها واعطاها طابعا اندلسيا فـي مختلف النواحي الاجتماعية والفنية والثقافية . وبطبيعة الحال هذه المجالات المرحة الصاخبة، كان يصاحبها في كثير من الاحيان شرب الخمر كوسيلة من وسائل الترفيه والمشاركة في هذه الاحتفالات والاعياد والنصوص التي لدينا تدل دلالة واضحة على ان اهالي غرناطة قد زرعوا الكرم بكثرة وتفننوا في عصره وتخميره ، كما اقبلوا على شربه شرب عصيره الحلال والحرام ولعل وفرة المحصول من جهة وبرودة الجو من جهة اخرى ، كانا من العوامل التي دفعتهم الى ذلك . وقد سبقت الاشارة الى ان مملكة غرناطة كانت ومازالت من أهم البلاد التي تزرع الكرم ولاسيما مدينة مالقة التي يصفها الشقندي بقولـه :

«وأما مالقة : فانها جمعت بين منظر البحر والبر وبين الكـروم المتصلة التي لاتكـاد ترى فيها فرجة لموضـع غامر ، وقـد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل يضرب بالشراب المالقي . وقيل لاحد الخلفاء ، وقد اشرف على الموت ، أسأل ربك المغفرة فرفـع يـده وقال «يارب اسألك من جميع مافي الجنة خمر مالقة» .

كذلك يقص علينا ابن الخطيب نادرة تدل على انتشار هذا الشـراب

في غرناطة وذلك في ترجمة الطبيب ابى عبد الله محمد بن ميمون الخزرجي (القرن 8 هـ) ويعرف بلا اسلم لكثرة صدور هذا اللفظ عنه في المسائل الطبية . فيقول . «كانت للحكيم الاسلم خمر مخبأة في كرم له بالمرية عثر عليها بعض الخلعاء ، فسرقوها له . فعمد الطبيب الى جرة وملاها بخمر اخرى ودفنها بالحمه وجعل فيها شيئا من العقاقير المسهلات ، واشاع ان الخمر العتيقة التي كانت له لم تسرق ، وانما هي باقية في موضع الحمه . فعمد اليها اولئك الخلعاء ، واخذوا في استعمالها ، فعادت عليهم بالاستطلاق القبيح المهلك . فقصدوا الحكيم المذكور ، وعرضوا عليه ما اصابهم ، فقال لهم ادفعوا الي ثمن ما اخذتموه ، وحينئذ اشرع لكم في الدواء ويقع الشفاء بحول الله . فجمعوا له اضعاف ماكان يساويه خمره ، وعالجهم حتى شفاهم

كذلك يلاحظ ان برودة الجو في غرناطة في فصل الشتاء ، لوقوعها على سفح جبل شلير او جبل الثلج (Sierra Nevada) ، كان له دخل كبير في اقبال الاهالي على شرب الخمر ، وفي ذلك يقول الشاعر ابن صدرة يصف برد ، برد غرناطة :

أحل لنا ترك الصلاة بارضكم
وشرب الحميا وهو شيء محرم

فرارا الى نار الجحيم لانها
أرق علينا من شلير وارحم

لئن كان ربي مدخلي في جهنم
ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

آفة اخرى انتشرت في غرناطة ولاسيما في خلال هذه الاعياد الصاخبة وهي الحشيش . وذلك ان الحشيش قد بدأ انتشاره في المشرق ثم انتقل بعد ذلك الى المغرب في وقت متاخر . ويبدو ان المغرب والاندلس كانا في مأمن من تلك الافة حتى القرن السابع الهجري ، والدليل على ذلك تلك الملاحظة التي أبداها الرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي حينما زار مصر في القرن السابع الهجري (13 م) اذ عاب على المصريين اكلهم للحشيشة مبينا ان امثال تلك العادات القبيحة لاتوجد في بلاده .

كذلك يلاحظ ان النصوص والاشعار التي تكلمت عن انتشار الحشيش في غرناطة ترجع كلها الى القرن الثامن الهجري (14 م) مما يدل على ان انتشاره في الاندلس كان منذ ذلك الوقت . في أواخر العهد الاسلامي

بالاندلس حينما لاحت النهاية واخذ الناس يهربون من واقعهم باستعمال فن المغيبات والمخدرات .

ومن امثلة تلك الاشعار قول ابن الوحيد الغرناطي (ت 711 هـ) :

وخضراء بل لاتفضل الخمر مثلهـــا
لهمـا وثبات فـي الحشا وثبـات
تؤجج نـارا فـي الحشا وهي جنـة
وتـبـدي لذيذ العيش وهـي نبـات

ولاشك ان انتشار مثل هذه الافات راجع الى الاضطراب السياسي والخمول الذي كانت تعانيه غرناطة في ذلك العهد . ويقص علينا ابن الخطيب نادرة عن انتشار الحشيش في بلده بقوله :

وبلغت الاندلس لهذا العهد (اي عهد السلطان ابى سعيد البرمنجسو (Bermejo) من خمول الامر واختلال السيرة مالافوقه ، حدثني صاحب شرطته ، وهو لاباس به ، قال اطريته باجتناب الناس الخمر في أيامه ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لي اي الملا المشهور ، والحشيش كيف حالها ؟ قلت ماعثرت على شيء منه . فقال هيهات ، انزل الى بيت فلان ، وفلان ، وفلان ، وعد كثيرا من الساسة والاوغاد والصفاعين ، ورسم مكامنتهم واخذ ينسبهم نسبة الاصمعي لافخاذ العرب وبطونهما ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفة وربما دعا مشيختهم بالعمومة . قال صاحب الشرطة : وانصرفت الى ماذكر . فوالله ما اخطأت شيئا عما رسمه ، ولافقدت شيئا مما ذكره ، وذلك لغشيانه (اي السلطان نفسه) بيوتهم وانخراطه في جملة منتابيهم ، فهو والله استاذي في الشرطة .

والى جانب هذا المظهر الدنيوي الصاخب المرح ، كان لهذه الاحتفالات مظهر اخر ديني يحتفل به في المساجد والزوايا والرباطات بل وفي قصر السلطان نفسه اي قصر الحمراء حيث كانت تقام الصلوات ، وتتلى ايات بينات من الذكر الحكيم ، وينشد الشعراء القصائد المناسبة للمقام ، الى جانب الاناشيد والموشحات الدينية ، وحلقات الذكر التي كان يصاحبها العزف على بعض المزامير التي تسمى بالشبابة او البراعة .

وفي اخر الليل تقدم الاطعمة والحلوى ويستمر الاحتفال حتى مطلع الفجر . وكانت مدينة غرناطة محاطة بسلسلة من الرباطات تقام فيها مثل هذه الاحتفالات الدينية في مواسم معينة . وقد زار بعضها الرحالة الطنجي

المشهور ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن الهجري (14 م) مثل رابطة بني المحروق المعروفة باللجام في مكان مرتفع بالسبيكة ، ورابطة العقاب على جبل من جبال غرناطة (Sierra Elvira) وهي رابطة قديمة ورد ذكرها في شعر ابي اسحاق الالبيري في القرن الخامس الهجـري . ولاحظ ابن بطوطة وجود جالية كثيرة من الايرانيين في الروابط ومن أهم هـذه الاحتفالات الدينية الاحتفال بليلة المولد النبوي ، وهذا الاحتفال لم تصبح له صبغة رسمية في المغرب والاندلس الا في وقت متأخر في اواخر القـرن السابع الهجري . قبل ذلك التاريخ كانت الشعوب تحتفل به دون الحكومات ثم استن صاحب سبتة وطنجة الشريف ابو القاسم العزفـي (ت 677 هـ) سنة جديدة وهي جعل هذا اليوم المبارك عيدا وطنيا رسميا في امادتـه ، فشاركت الدولة في الاحتفال به وبذلت الاموال عن سعة فاكسبته روعـة وبهجة . كذلك الف الشريف ابو القاسم العزفي كتابا حول هـذه المناسبة اسماه الدر المنظم في مولد النبي المعظم .

ولم تلبث هذه العادة ان انتقلت بعد ذلك الى بلاطات فاس وغرناطة وتلمسان وتونس حيث شاركت حكومات هذه الدول في الاحتفال بالمولـد النبوي بما يليق بمقامه العظيم ولازالت هذه العادة متبعة في المغرب حيث اختصت مدينة سلا بجوار مدينة الرباط باعداد موكب كبير يعرف بموكب الشموع يخرج منها في مساء هذا اليوم (12 ربيع الاول) ويسيـر فـي مقدمته نائب السلطان .

هذه لمحة عن الحياة في غرناطة ، حياة جهادية ملؤها الجهاد والبـذل والتضحية والفداء من ناحية ، وحياة دنيوية مرحة صاخبة من ناحية اخرى، وحياة دينية صوفية ورعة من ناحية ثالثة ،، صور متعددة متناقضـــة تجعلنا نشبه هذا الفصل الختامي للاندلس بالثمالة الاخيرة او العصـرة الاخيرة لليمونة فهي حلوة ومرة في ان واحد .

دور الفكر في عملية "التكيف"

الدكتور محمد الهاشمي
- جامعة بغداد -

اجتاحت العالم ، خلال القرن الماضي ، موجة من يقظة الفكر ، كان من آثارها ان برزت الى الوجود أمم لم يكن لها شأن يذكر في العالمين : القديم والوسيط ، فاحتلت الواجهة الامامية في العلم والمال والجاه ، وصارت قوة فعالة في ميدان الحضارة ، وفي الشؤون الدولية ، لها الامر والنهي ، وفي يدها الاخذ والعطاء ، وقد كان هذا في جملة مادفع بالامم الاخرى ، لاسيما تلك التي لها جذور تاريخية عريقة ، كالامة العربية ، الى التفكير الجدي في اسباب تخلفها في العصر الحاضر ، والعمل من اجل دفع تلك الاسباب للنهوض بحياتها . وقادها هذا التفكير الى اعادة النظر في اسس حياتها الحاضرة : نظمها وتقاليدها ومناهج تعليمها ، وما الى ذلك مما يتصل بكيانها الحالي ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، وقد ظهر هذا الاندفاع الفكري في لونين مختلفين : عنف ، يبغي الاصلاح بطريق هدم القديم ، واحلال الجديد محله ، وتبصر يهدف الى تحقيق هذا الغرض نفسه بطريق الحفاظ على الصالح من القديم ، وتكييفه ليكون على وفاق مع الجديد والاول هو الثورة الحامية التي تنطلق بشدة ، والثاني هو التحرك الهادىء البطيء .

ومرد هذا الاختلاف الى ان الامم المتخلفة تتفاوت تفاوتا كليا في خصائصها العرقية المكتسبة ، وماضيها الحضاري ، ونضجها السياسي ، وانتشار التعليم بين ابنائها ، ومدى تأثير الرواسب القديمة فيها . هذا الى العوامل الخارجية المؤثرة في حياتها . فهذه الامور ، مجتمعة ، هي التي تدفع بالامم الى اختيار احد هذين السبيلين .

والذي يحدث ، في العادة الجارية ، ان الذين يصرون على القيم القديمة ، ايمانا منهم بانها خير وسيلة لضمان مصالحهم ، اذا تشددوا في مواقفهم وقاوموا حركة التطوير والتغيير ، واستخدموا العنف والقسر في الابقاء على الرواسب القديمة ، وافتعلوا الحيل والاباطيل لابقاء ماكان

على ماكان، فان ذلك يؤدي بطبيعته ، الى الانفجار والثورة ، أما اذا لانوا وفتحوا اذانهم لخصومهم ، واثروا الحوار والجدال ، فانهم يستطيعون بذلك عزل المعاصر اللامعقولة من الثورة ، وبهذا تأخذ الامور مجراها الطبيعي السيادي» .

نترك العنف في مجالاته الوعرة الملتوية المحفوفة بالمخاطر والمشاكل والنجاح والاخفاق ، ولنبحث في الوجه البادي، السليم الذي يقصد «التكيف» وفق متطلبات الحياة ، وأول مايواجهنا في هذا الصدد ان دعاة التكيف ، في بعض اقطار بلاد العرب ، اندفعوا بتأثير سحر الماكنة ، وقوة العلم المعاصر ، وسلطانه على الطبيعة ، الى الارتماء في احضان الجديد ، والاخذ به ، أخذا مطلقا ، بدون تفريق او تفصيل ، وحجتهم في ذلك ان الحضارة المعاصرة وحدة كاملة ملتحمة برهنت على تفوقها في مجالات الحياة كافة ، وهي غير قابلة للتبعيض ، ثم ان الفجوة الواسعة التي تفصل ما بيننا وبينها لا يمكن ان تملأ الا بهذا الاخذ الشامل السريع . وخطر هذا الرأي أن عملية « التكيف » لا تعدو أن تكون تغييرا في تركيب «القديم» وفي أداء وظيفته ليكون ملائما للظرف «الجديد» والاخذ الشامل السريع يخرج هذه العملية عن طبيعتها المزدوجة ، فيقضي على القديم كلية ، ويأتي بشيء جديد ، مستورد ، لا علاقة له بشخصية الامة ، ورسالتها الحضارية التي كانت مصدر خير للبشرية جمعاء ، من أجل هذا كله كان من الضروري أن يبدأ «التكيف» من الداخل ، في نطاق جزئي يجمع بين القديم والجديد ، وان يأخذ طريق السير البطيء

ويأتي بعد هذا تحديد الاطار الذي يتفاعل فيه القديم والجديد ، سواء من حيث تركيبه ، أو من حيث صياغته . أينظر اليه من الزاوية الضيقة التي نشأ فيها ، وتبلور ، اول مرة ، حين واجه ظروفا خاصا ، ذات تحديات معينة ، تلك فرضت عليه استجابة خاصة ، تمخضت عن صورة محددة ، طبعت الحياة بطابع معين ، او ينظر اليه نظرة أخرى ، ومن زاوية تختلف عن تلك ؟ .

لاشك أن أيّ تركيب او صياغة انما هو ثمرة تفاعل الانسان وبيئته ، وهذه الثمرة لا تصلح ، وهي في صورتها الاصلية ، الا لتلك البيئة التي نشأت فيها ، ولهذا كان من الضروري وضع القديم والجديد في اطار يحافظ على جوهرهما ، مع ابعاد الخصائص المحلية المميزة لهما ، والا تعذرت عملية التكيف . ولنذكر ، على سبيل المثال ، مسعى بعض المجددين من

الجيل الماضي اعتماد النظم القديمه ، على اختلاف منابعها ، اساسا لحل مشاكل العصر الحاضر ، والاخذ بالحلول التي نبعت من تلك النظم ، في حين أن تلك النظم ، والحلول التي تمخضت عنها انما تصلح لظروف تباعدت عنا كثيرا ، وقد آل الامر بها أن «تحجرت» وصار في وضع لا يلائم عصرنا الحاضر ، ونظير هذا ما يدعو اليه بعض المفكرين المعاصرين اليوم من الاخذ بالنظم الحديثة ، والحلول التي تمت في ضوئها ، اعتقادا منهم أنها ، في الصورة التي تبلورت فيها ، كفيلة بحل مشكلاتنا الآنيه المستعصية ، يقال في هذا ما قيل في ذاك ، وهو أن الالتزام بقوانين خاصة واعتماد «الابجدية المحددة» يناقض طبيعة الحياة التي تقوم على التغيير والتطوير هذا الى «الرؤية الضيقة» تنافي «التطور» .

نعم يمكن اعتماد جوهر بعض القوانين القديمة والحديثة التي ظهرت في مجتمعات أخرى ، واتخاذها منطلقا لحل مشكلاتنا في العصر الحديث ، شريطة انتقاء الاصول العامة فيها ، كمبدأ «العدالة الاجتماعية» و «حق العمل» وغيرهما من الاصول المشتركة بين جميع الامم في جميع العصور ، وهناك أمران تجدر الاشارة اليهما في هذا الصدد ، وهما : المادة التي تغذى المجتمع في دور التكيف ، والقاعدة التي ينطلق منها . أما الاول فيكمن في التجربة والممارسة الفعلية ، ذلك أن فيها واقعية وقوة ، فالنظم الراقية ، واساليب المعيشة المتفوقة ، والمنجزات الكبرى التي تقوم عليها الحضارات ، ويكتب بها الخلود للامم انما هي ثمرة التجربة التي تندفع فيها الغريزة اندفاعا قويا ، ويطغى الطموح الشخصي طغيانا ظاهرا ، يدفع بالانسان الى ان يزج بنفسه في ميدان المنافسة ، فيخوض المعركة ، اذا اقتضى الحال ذلك ، ومن هنا نشأت الحاجة الى «التعقل» ليحد من هذا الاندفاع والطغيان والاستسلام الى الانانية «اللاواعية» التي تقود الناس الى الفوضى ، وتهيؤهم لتقبل أي بديل للنظام القائم ، مهما كان لونه ، ودور «الفكر» هنا واضح . ذلك أنه ، بالاضافة الى الحد من الغريزة ، يستطيع أن يسمو بالانسان الى مستوى أرقى من الغريزة ، والطموح الفردي ، الى حيث يشعر أنه جزء من عالم واسع ، واذ ذاك يندفع الى انجاز الاعمال التي تعود بالخير على «البشرية» كافة .

واما القاعدة التي ينطلق منها هذا التكيف ، أهي القلة المستنيرة ، ذات القدرة والكفاية ، أم هي الكثرة الغالبة ؟ والسبب في هذا التساؤل أن العلاقة بين طبقات المجتمع تعرضت ، منذ القرن الماضي ، الى تغيير جذري . فقد كانت المنجزات الكبرى في العصور الماضية تنطلق من

القلة المستنيرة ، وكانت القاعدة التي تستند اليها تلك المنجزات هي تلك القلة التي تسوق الطبقات الاخرى الى العمل ، وتدفعها اليه ، بوعي وبلاوعي . ومنذ القرن الماضي انتقل مركز الثقل الاجتماعي ، في كثير من الامور ، والى حدما ، من القلة الى الكثرة ، وصار رأي هذه الكثرة ذا شأن كبير فيالحركات والاعمال ، من أجل هذا كان لابد في عملية «التكيف» من ان يراعي جانب الكثرة ، وان يتعرف على نواياها ، وطموحها ويعتمد اسهامها الحقيقي في المشروعات الكبرى التي لها علاقة بالمجتمع وهذا هو السر في أن الضمان الاجتماعي و«العدل» و «الرفاه العام» صار في صلب المناهج والخطط التي يراد تنفيذها في كل أمة ، وصار مبدأ «تدخل الدولة» في كل صغيرة وكبيرة من الامور المألوفة ، ذلك ان الدولة ، بما لديها من قوة وامكانات ، تستطيع تنظيم جهود الافراد ، وتنسيقها ، وجعلها أداة استمرار بقاء هذا الهدف في وجه التحديات المستمرة . وبهذا يظهر ان «الفكر الجماعي ، ذو أهمية عظمى في هذا العصر ، عصر الاشاعة والشمول ، لا عصر الاحتكار والقلة .

ومن الضروري هنا الاستعانة بالتاريخ لتوضيح «دور الفكر» في «عملية التكيف» ذلك أن التاريخ ميدان التجربة الحقيقي ، والمحك الذي يكشف جوانب الضعف ، وجوانب القوة في كل نظرية . ثم انه اداة ثقافة ، ينمي المعرفة ، ويكثف حجم الادراك والوعي . هذا الى أنه يجعل الباحث في مأمن من الارتباك والتعثر ، ولولا هذه الامور لما كانت هناك فائدة من دراسته ، وكان الاجدر حذف هذه المادة من مناهج التعليم .

فاذا أخذنا بهذا المبدأ نجد ان العرب تعرضوا ، خلال القرن السابع للميلاد ، ليقظة فكرية حادة ، كان من آثارها انتصار الاسلام الذي دفع بهم الى الانصراف عن القيم «القبلية» الضيقة ، والاستعاضة عنها بالقيم «الانسانية» الواسعة . وقد اصطدم هذا الفكر الواعي الجديد بالفكر المتحجر القديم ، ونشأت عنه حروب داخلية ، تبددت فيها طاقات كثيرة في المال والانفس . والذي أفاد منها هو انتصار الفكر الجديد ، واندحار القديم وقد كان هذا احد العوامل التي مكنت العرب من الاندفاع في تيار الهجرة ، والخروج من الجزيرة ، ومواجهة العالم المتحضر انذاك . ولما استقر العرب في الاقطار التي اندفعوا اليها ، ورأوا فيها لونا جديدا من الحياة لم يكن مألوفا لهم من قبل ، اخذوا به ، وكيفوا ، بدافع من الفكر الواعي ، أنفسهم لمتطلباته . وكانت اولى بوادر هذا التكيف انهم تركوا ادارة البلاد المفتوحة في يد ابنائها ممن توسموا فيهم الكفاية والمقدرة ،

لتسير الامور سيرها الطبيعي ، وصاروا ، وهم سادة ، يتقبلون كل تغيير يقوم به رعاياهم ، واذا ما ايقنوا ان ذلك في صالح الدولة والمجتمع ، وصالح الحضارة .

وقد شمل هذا التغيير كل شأن من شؤون الحياة ، سواء في ميدان السياسية أو المال او العلم ، وبهذا ضمنوا استمرار الحضارة على الوجه الذي تقضيه ظروف ذلك العصر ، وكان ذلك من أهم الاسباب في انعاش التراث القديم ، وانمائه ، ودفعه دفعا قويا ، وجعله مادة لحياة جديدة قوامها : العربية والدين والعلم والفنون الاخرى .

وحين تعرض المجتمع لظاهرة الانتكاس ، ووقفت عملية التكييف ، بتأثير الرواسب المتحجرة ، وبدأ الصراع بين القديم والجديد ، في صورة عنيفة ، اختلت فيها الموازنة ، مال الفكر الى الركود ، وصارت شؤون الحياة والدولة تخضع لمؤثرات ضيقة خاصة ، لاتمت الى الفكر والتعقل بصلة ، واذ ذاك وقف فعل الثقافة والعلم ، وحلت بالمجتمع العربي الكارثة . تلك هي بعض ما يجب ان نتعلم من دروس التاريخ ، ولا يسعني وأنا في ختام هذا البحث ، الا ان أعيد ما قاله ارسطو ، قبل اكثر من ثلثمائة والفي عام : «وعلة بقاء طول عمر الانسان من قبل اعتدال مزاجه ، ومشاكلته الجزء المحيط به» .





طريقة تدريس الطب عند الرازي

الدكتور خالد ناجي أستاذ الجراحة السريرية
بكلية الطب جامعة بغداد

كانت مناسبة سارة ان يبلغني صديقي الفاضل الدكتور حسين أمين الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ( ) دعوتي لحضور ندوة جامعة عين شمس التي ستقام احياءا لذكرى الحكيم ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (2) مما يتوجب علي ان أقدم كلمة في هذا المقام .

واذ اجد نفسي وسط موضوع يخص كبار حملة الاقلام واساتذة الادب ولست املك من هذه الصفة غير كوني استاذ الجراحة السريرية في كلية طب ببغداد ونصيبي من الحياة العناية بالنواحي العلمية الحديثة لهذا العلم في حضارة العصر المزدهرة بدلا من عنايتي بنشأة تلك الحضارة وتاريخها والكتابة عنها مستقلا . تجارب من سبقني في هذا المجال الواسع . وكيف بي وقد سلخت ثلث قرن من عمري ورفيقي المفضل المبضع لا القلم .

انني ضد تمجيد التراث بدافع الاعجاب لان ذلك يؤدي الى الشعور ازاءه بالضعف والعجز .. ولكنني مع الذين يبتغون دراسته للاطلاع عليه وفهمه بالطرق العلمية مبتعدين جهد الامكان عن طريق المعرفة القديمة واساليبها لان غايتنا الابداع والتجديد لا النقل والتقليد .

العلم غال جدا ولا يثمن رغم ان العالم المحترف الماهر قد ينال قسطا كبيرا من العطاء الخارجي الزائل كالمال والمنصب . ولا اراني مغاليا عندما أقول ـ مع «الاسف» ان اغلب العلماء عندما يشتغلون كمحترفين يصبحون علماء خبثاء .

اما العالم الذي يعمل لفنه وللعلم فان سعادته ابقى واكثر رسوخا .

---

(1) كتاب اتحاد المؤرخين العرب رقم 400 بتاريخ 29ـ6ـ1976

(2) كتاب . عبد الحافظ حلمي مقرر اللجنة كلية العلوم جامعة عين شمس

ان الجنس البشري لا يستطيع ان يتقدم او حتى ان يقف على قدميه فـي هذا الوجود من دون العلم وهو متأكد من ضعفه ويعرف ما يحيط به من نزة الجهل الذي يسير مختالا نحو هاوية الحـروب المدمرة باسـم العلم . (3)

لقد اخترت طريقة تدريس الرازي للتركيز على النقاط التالية :

1 ـ اصالة طريقة تدريسه للطب رغم انها حصيلة التأثر مع التراث القديم لاسيما التراث اليوناني والهندي وحتى الفارسي (4) تلك الطريقة التي ارساها الرازي على اسس فكرية ومنطقية كانت وما تزال تشكـل الحجر الاساسي للطب السريري . (5)

التواضع الذي كان يبديه في مناقشته للاعراض المرضية لزملائـه ولطلابه مما يعطي فكرة عدم الاستبداد في الطب والسير قدما في سبيـل تقدم العلم لا لمنفعته الشخصية (6) .

3 ـ الحنان والعطف الذي يمنحه لمرضاه ومساعدتهم من ماله الخاص اضافة الى ما يقدم لهم من جهد ومعرفة (7) .

4 ـ نزعته العلمية التي لا تنفصل عن شخصيته الطبية اذ لم يكـن الرازي طبيبا فحسب بل كان عالما (8) .

نبذة عن الطب في العراق في عهد الرازي :

نقل الطب اليوناني الى العراق النساطرة اتباع نسطورس الـذي كان بطريركا للقسطنطينية عام 428 م اي في زمن اختلاف المذاهب بين الطوائف المسيحية (9) وكانت الممارسات الطبية عند العـرب فـي الجاهلية لاتتجاوز ثلاثة اشياء الادعية ،، العسل ،، والكي (10) .. وعند

(3) ان ـ ارجيفون العلم مراقب بالانجليزية
(4) ابن ابي اصيبعة 473 .
(5) كامبل الطب العربي ج 1 ص 65 الانجليزية .
(6) العربي العدد 86 د . احمد زكي .
(7) ابن اصيبعة ج 1 ص 11 3 .
(8) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 19 بالانجليزية .
(9)هاشم الوترى تاريخ الطب في العراق ص 12 .
(10) ا ، براون الطب العربي ترجمة د . داود سلمان علي .

ظهور الاسلام اهتم النبي محمد بالصحة اهتماما بالغا . وكان من المعاصرين للنبي الكريم الحارث بن كلدة (11) ـ وهو من تلامذة جند يسابور وتدل سلسلة ابن ابي اصيبعة على ان الاطباء العرب ظهروا باستمرار حتى بزوغ الطب العلمي زمن العباسيين (12) حيث دخل الطب العربي مرحلة جديدة من التقدم في عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور فقد اخذ يد اطباء جند يسابور ورعاهم رعاية مكنتهم من ادخال الترجمة اليونانية الامر الذي جعل من بغداد قبلة انظار اساتذة الطب من جند يسابور وغيرها . وكان أول هؤلاء الطبيب جورجيس رئيس اطباء جند يسابور الذي استقدمه المنصور لمعالجته (13) حيث انزله منزلة كبيرة واكرمه وامر بأن يجاب الى كل ما يطلب وبفضل ذلك استطاع جورجيس ان يشكل مع الوافدين من الاطباء الى بغداد نواة علم الطب العربي . حيث انتقل مركز العلم من جند يسابور الى بغداد . وعندما تولى الهادي الحكم جلب جورجيس ابنه جبرائيل بن بختيشوع (14) ووصل هذا الى هارون الرشيد وجعله رئيس اطباء بغداد .

وبقي في خدمته وخدمة زوجته السيدة زبيدة والمتربين من الحاشية حتى بلغ ما جمع من مال قرابة ثمنمائة وثمانين الف درهم اي ما يعادل ثلاثة ملايين ونصف مليون باون في زمنه (15) وحظى بمنزلة رفيعة في نفس الخليفة هارون الرشيد الى درجة انه قال :

«من كانت له الي حاجة فليخاطبني بها جبريل بن بختيشوع لاني افعل كل ما يسألني ويطلب مني (16) مما ادى الى تنافس بعض الاطباء على الامتيازات والتقرب من رجال الحكم . واستأثرت اسرة بختيشوع بخيرات الخلفاء (17) وكان منهم يوحنا بن ماسوية الذي ترعرع في كنف الرشيد

---

(11) هاشم الوتري تاريخ الطب في العراق .

(12) القفطي تاريخ الحكماء 158 .

(13) هاشم الوتري تاريخ الطب في العراق 16

(14) ابن ابي اصيبعة الى 133 .

(15) تاريخ الطب في العراق ، هاشم الوتري ص 17 .

16) براون الطب العربي ترجمة د ، داود سلمان علي

17) القفطي ، تاريخ الحكماء 158

ونبغ في الترجمة حيث ولاه الخليفة امانة الترجمه (18) وامتدت خدماته الى خلافة الامين والمأمون حتى زمن المتوكل وكانت الامتيازات التي حصل عليها سببا في افساد ذمته فأخذ يتدخل في الامور السياسية التي حد أنــه تواطأ مع المعتصم (19) على الفتك بالمأمون نفسه وقد تمكن من تحقيـــق مآربه عندما اصيب المامون في رقبته وهو في طرسوس فقد أمر يوحنا احد تلامذته بأن يفتح الخراج في رقبة المامون قبل نضوجها ورغم تمنع التلميذ قال له

«امض وافتحها كما اقـول ولاتراجعـنـــي» وهكذا ادت العملية بهـذا الشكل الى وفاة المأمون (20) أن المال والحظوة مسخا ابن ماسويـــه وجعلا منه انسانا عديم المروءة والدين فقد خان الامانة (21) ولم يدانــه بذلك عاقل او يركن اليه حازم .

حتى ان الناس اخذت تقول ان هؤلاء القوم من جند يسابور اخذوا يعتقدون انهم وحدهم أهل لهذا العلم ويعملون على ان لايتسرب الى غير ابنائهم وذويهم وقد تعصبوا كثيرا لابناء جنسهم (22) حتى انه عندمـــا قدم حنين بن اسحق من الحيرة لدراسة الطب ببغداد (وهو معاصر للرازي) سعى يوحنا الى مضايقته واغلاق ابواب التحصيل بوجهه . وحدث ان سأل حنين يوحنا عن بعض ما يقرأ وكان حنين شديد الانتباه كثير المطالعة فشعر يوحنا ببعض الاحراج فأمر باخراجه ومنعه من حضور مجلسه وهو يقول : «ما لاهل الحيرة من دراية بأمور الطب وصناعته» فخرج حنيـــن مكروبا ورحل بعدها الى بلاد الروم لطلب العلم (23) ولما عاد وله المام كبير في الطب ابعد الى البصرة حيث اشتهر هناك .

ان صيرورة الطب نوع من التجارة وخضوعه للاهواء السياسية قـد أثار بلبلة واسعة في هذا الوسط حيث تصدى للمعالجة والتحصيـــل والترجمة اشخاص ليسوا مؤهلين وهم اقرب الى الاحتراف منهم الـــى العلم ولم تكن للطب قواعد معينة تحكم تحصيله وممارسته ولم يكن هناك امتحان للاطباء يجيز لهم ممارسة المهنة حتى زمن الخليفة المقتدر (24)

---

18) هاشم الوتري ، تاريخ الطب في العراق
19) عيون الانباء ـ ابن ابي اصيبعه ج ا ص 182
20) تاريخ الحكماء للقفطي (182) ج 1
21) تاريخ الحكماء للقفطي 158
22) تاريخ الحكماء للقفطي ص 191 ج 1
23) الطب العربي ـ براون ـ ترجمة د ، داود سليمان علي
24) اليعقوبي ص 46

استميح القاريء الكريم عذرا لانني كحال الذي يدخل ابواب التاريخ يجد نفسه منجرا الى ذكر حوادث واخبار قد تكون بعيدة عن صلب الموضوع، فابتعدت عن تناول طرق تدريس الطب عند الرازي لاطلع حضراتكم على الحالة التي كانت سائدة انذاك .

«نبذة عن حياة الرازي وتحصيله»

ولد ابوبكر محمد بن زكريا بن يحيى (25) الرازي (26) في مدينة الري سنة 865 م اي بعد قرن من ولادة الرشيد فيها في عهد الدولة العباسية الثاني وقد مات فيها عام 933 م (27) . اشتغل اول ايامه بالصيرفية حتى ان اول كتبه كان يحمل اسم محمد بن زكريا الصيرفي بخط يده ( ) وقد درس الفلسفة على يد ابن زيد البلخي (28) واهتم بالفلسفة الافلاطونية وقراءة كتبها كما درس نظرية ديمقراطس الذرية وايدها حيث خالف رأي ارسطو طاليس فيها (30) ثم اشتغل في صناعة الكيمياء (31) حتى رمدت عيناه من ابخرتها فاستهوته صناعة الطب عند مباشرته بمعالجة رمده ( )

(ابو الحسن علي بن سهيل بن ربن الطبري)

وفي ذلك الوقت كان في الري ابو الحسن علي بن سهيل بن ربن الطبري من أسرة العلماء بمدينة (مرو) حيث اشتهر بتدريسه الفلسفة والطب وبالاستقامة وعزوفه عن جمع المال فيعينه المازيار امينا للخزانة في طبرستان في بلاد فارس ولما خرج المازيار على المعتصم هرب الطبري الى مدينة الري حيث عكف بداره على تأليف كتابه (الجامع في الطب)

---

25) كتاب الاسرار وسر الاسرار ، تحقيق محمد تقي الدين دانشي بردة ـ طهران ـ 64 لابي بكر الرازي

26) الرازي نسبة الى الري حيث كانت تدعى راز نسبة للملك راز الذي شيدها مع أخيه

27) الموسوعة البريطانية 9 ص 1019

28) عيون الانباء لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 420

29) ابن النديم الفهرست ص 299

30) ابن ابي اصبيعة)412) عيون الانباء

31) ابن ابي اصبيعة (42) عيون الانباء

32) تاريخ الحكماء للقفطي

ليكون مرجعا لمن يتخذ الطب مهنة له غير ان ظروفه لم تسعفه لاتمام كتابه هذا خاصة بعد ان استدعاه الخليفة المتوكل ودخل بغداد حيث اسلم ، فانخرط في خدمة الخليفة وفي هذه الفترة انجز كتابه الفريد (فردوس الحكمة) ، وكان يعرف اليونانيه والسريانية (33) .

وفي المدة التي كان فيها الطبري لاجئا في الري كان الرازي مبتدءا في دراسة الطب ولتقارب الصفات الشخصية وحب العلم ازدادت الالفة بين الاستاذ وتلميذه لاسيما وان الرازي كان ملما بعلوم الفلسفة والفيزياء والكيمياء والادب اضافة الى مواهبه الفنية الاخرى كالشعر والموسيقى والغناء (34) فاستحسن الطبري في تلميذه هذه المواهب وخاصة الموسيقى التي كان يعشقها (35) ولسهولة تدريس الرازي اصبحت بينهما رابطة قوية مكنت الرازي من الاستفادة من علوم استاذه الغزيرة (36) والوقوف على منابع العلم دون الرجوع الى التراجم والوقوع باخطائها وربماكانت لهذه الالفة الفضل في تأليف كتابه (الحاوي) اسوة باستاذه الطبري في اخراج كتابه (فردوس الحكمة) . وقد اخذ منه ان الفضيلة تربي وتزرع وكان الرازي لا يؤمن بوجود الفضيلة غريزيا تمسكا بآراء افلاطون (37) ولكنه يعلم انها تمرس وتنمو كالعلم ينمو مع الزمن .

مكث الرازي في الري بعد مغادرة استاذه لها واستمر في جمع مشاهداته الخاصة في المستشفيات والدراسة على طريقة التثقيف الذاتي (38) ثم رحل الى بغداد ودرس على يد بن ماسوية (39) وكان حينذاك وصل الى مرحلة متقدمة من الثقافة الطبية (40) وكان يقضي كل اوقاته في المستشفيات لتسجيل ملاحظاته ومشاهداته عن المرضى اذ لم يكن يكفي روحه العلمية بناء طبه على تشريح بسيط وفلسفة عقيمة وباثولوجيا

33) عيون الانباء لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 314

34) عيون الانباء ، لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 314

35) تاريخ الحكماء للقفطي وعيون الانباء لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 414

36) الدين والدولة تحقيق عادل نهيض ص (2) وص (253) محمد علي كشرد و (9) الدكتور سامي حداد ومنه

37) الموسوعة البريطانية ج 3 ص 644 بالانجليزية

38) وفيات الاعيان لابن خلكاني 175

39) تعليق مصطفى جواد على كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي البغدادي ص 1

40) الموسوعة البريطانية ج 3 ص 644 بالانجليزية

خيالية (41) لانه يرى ان العلم الناقص هو اخطر من الجهل الكامل فكان يقرأ بكثرة ويعلق على الكتاب ويضيف اليه مشاهداته (42) وكان الرازي عفيف النفس محبا للفقراء الذين لقوا منه العناية الكثيرة حتى انه يمكن القول ان رجال السلطة لم يستفيدوا من طبه قدر استفادة الشعب منه وهذه تتمثل في بعض الكتب التي الفها للشعب كتابه (من لايحضره الطبيب) الذي عرض فيه العلاجات التي يمكن للفرد ان يجريها بنفسه في حالة غياب الطبيب وللرازي كتاب آخر في نفس الغرض سماه (برء الساعة) يحتوي على علاجات سريعة يمكن استخدامها في بعض الحالات (وان كنت أشك في بعض الفقرات التي احتواها هذا الكتاب لما فيها من مجازفات ومبالغات لاتتناسب مع منهجه العلمي وقد تكون مقحمة على الكتاب) .

وهكذا خلق وعيا صحيا بين عامة الناس وعندما اشتهر الرازي استدعاه الخليفة المعتضد بالله ليتولى الاشراف على المستشفيات في بغداد حتى صار كبير اطباء المدينة للمدة 908 ـ 912 (43) عاد بعدها الى مدينة الري حيث تطبب عليه صغار الملوك السامانيين (44) الذين اشتهروا بالعدل ورعايتهم للعلوم .

وقبل وفاته بعامين اصيب بالعمى ولم يمنعه من مزاولة هوايته اذ سخر من يقرأ له ويكتب مايملي عليه (45) .
ولدينا مايشير الى ان الرازي عرف اللغتين السريانية واليونانية (46)

انتهت حياة الرازي بعد عمر تجاوز الثمانين (47) عاما ترك خلالها

---

41) براون ـ الطب العربي ـ ترجمة د . داود سلمان علي
42) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ص 419
43) كتاب الاعلام ـ خير الدين الزركلي
44) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 1019 بالانجليزية ، وابن ابي اصيبعة ص 419

45) وفيات الاعيان لابن خلكان ج 4 ص 246
46) ابن ابي اصيبعة 419
«كما جاء في كتابه الحاوي ان المنطق باللغة اليونانية ان ننطق الجيم غينا وكافا اذ يقال في جالينوس ـ غالينوس وكالينوس وقد تجعل الالف واللام لاما مشددة ـ فيكون ذلك اصلح في اليونانية .
47) ابن ابي اصيبعة عن ابن جلجل 420

246 كتابا ومقالة صنفت تصنيفا علميا (48) وتداول الاطباء تعاليمه وكتبه لفترات طويلة (49) من الزمن فقد درس بن سينا علوم التشريح على طريقته وكذلك الزهراوي في كتابه التصريف (5o) .

بدأت ترجمة كتب الرازي الى اللاتينية عام 1228 من قبل David Jew واخذت تدرس في كافة جامعات اوربا وتعتبر كمرجع للتشريح (52) وكان النصيب الاوفر لكتابه المنصوري خلال القرن السابع عشر حيث طبع عدة مرات في كل من ميلانو ـ وفينيسيا وباسل وليون وبادوا (51) وقد استمرت جامعات اوربا تعتمد على طريقة الرازي السريرية في التدريس بمستشفياتها (53) .

اشهر كتبه الطبية هو الحاوي الذي يقع في عشرين مجلدا ويعود الفضل في اخراجه الى حيز الوجود الى ابن العميد (54) الذي سعى للوقوف على مخلفات الرازي بعد وفاته فطلب الى شقيقه ابى بكر عرض مالديه من مسودات ومخطوطات وقد بذل لها مالا كثيرا في سبيل كسر تمنعها وعندما تم له ذلك جمع تلامذة الرازي الذين كانوا يلازمونه بالري وعملوا جميعا على ترتيب الكتاب بشكل لم يخل من الاضطراب (55) وتمت ترجمته الى لغات عديدة وقد قدم لنا كرين هل طبعة ممتازة عام 1848 من هذا الكتاب الذي جمع فيه مايستطيع الطب وصفه في عصره فكان اميبا

---

48) ابو بكر الرازي : د . فائق فرات

49) د . امين خير السليه ص 107

5o) كاميل ـ الطب العربي ج 1 ص 81 بالانجليزية

51) كاميل ـ الطب العربي ج 2 ص 5 بالانجليزية

52) كاميل ـ الطب العربي ج 1 ص 175

53) مجلة الاخبار الطبية امريكية ج 22 عدد (5) مارس 16 ص (104)

54) د . امين خير السليه ص 107

55) ابن ابي اصيبعة ص 413

على تدوين المعلومات ومصادرها واسماء الاطباء ( ) الذين نقل عنهم رغم علمه بوجود اشياء لااظن انه يعتقد بصحتها وقد تكون من المحرمات ولكنه ربما ذكرها مع مصادرها حفظا للامانة ( ) .

طريقة تدريسه :

تأتي طريقة تدريسه للطب من أقواله التي جاء فيها : «من لم يعن بالامور الطبيعية والعلوم الفلسفية المنطقية يكون مشكوكا في علمه لاسيما صناعة الطب، هذا بالاضافة الى ايمانه المطلق ان المجتمع بما فيه علم الطب كائن حي(58) في نمو مستمر وأن الانسان في قرارة نفسه

---

56) هذه بعض اسماء الاطباء الذين ذكروا في الحاوي :

ببوطراط ـ ارسطوطاليس ـ ابن ماسوية ـ روفس ـ جساليتوس اركاغانيس ـ هوادس ـ اراس طراطس ـ ابوجريج ـ كناش ـ اشليمن قليقوريون ـ قسطا ـ دنقوريدس ـ ابن سرافيون ـ تذكـرة عبدوس أينما الطبري ـ مسيح ـ ارجيمانوس اليهودي ـ أهرن الدوار ـ بولس الاسكندر ـ شمعون ـ الخوز ـ ومجهول ـ يوفلس ـ المرضى انفسهم الافروديس ـ ابيلوس ـ أغلوق ـ اسحـق بيد القوى ـ ارجيجانـي طيماوس ـ جورجيس ـ بختيشوع ـ اريبلوس ـ ثيماذون ـ اركاغانيس قلطيطريون ـ بوكالس ـ فاطوطس ـ قرانيطس ـ قادس البرعس .

57) وصف الغرغرة لمريض (الغائط المعسل)

بول الانسان المعتق لمنع سيلان القيح من الاذن (ج 513) الحـاوي بعض قشور الرمان المحشوة بالبول لاخراج الدودة من الاذن

لعاب الصائم يقطر في الاذن ـ استعمال دماء الحيوانات ـ استعمال الخمرة الصرف للصداع حاوي ج 3 ص 237

للخناق الكائن من رطوبة شديدة : يطلى داخل الحلق بخرة كلـب ومرارة ثور او بغائط انسان مر العسف .

استعمال رائب البقر في الفواق ج 1 ـ 271 الحاوي

58) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ص 420 .

مرآة ماضيه يضاف اليه ذلك الذر اليسير الذي يذهبه قرنا بعد قرن . هكذا يدعو الى الاستمرار بالتعليم لا يهمه ماذا يتعلم طالما يتعلمه باتقان (59) واضعا نصب عينه الطريق قبل الغاية (60) مستغلا جميع علومه للتعليلات الفكرية والمنطقية للاعراض المرضية التي يطلع عليها خلال مشاهداته الطبية (61) .

كان عامل الوقت في مهنة الطب عنده مهما جدا ، اذ يقول : ان الاطباء يحرزون مهارة عظيمة اذا قرنوا منذ الحداثة بدرس الطب ومعالجة عدد وافر من شمر الحوادث المرضيه واختبروا في اشخاصهم كل انواع المرض (62) فاختيار الطالب منذ حداثة السن يفسح المجال أمامه لمشاهدة الوقعات وتعويده على المثابرة في المستشفيات وقد حرص على ان يغرس الفضيلة في نفوس طلابه ليدفعهم بذلك الى التعلم والتعليم بعيدا عن الانانية . وكان يشجعهم على هواية كالموسيقى والغناء لقتل النزعات (63) التي تعانيها النفس والتمسك بالصبر والاخلاق الفاضلة .

اما تدريسه فيأتي على نوعين :

التدريس النظري : يتم هذا باسلوب نقاش علمي يجمع الطلبة على ثلاث حلقات (64) اقربهم اليه انضجهم علما وخبرة ويليه الصف الثاني ممن هم أقل خبرة ثم الصف الاخير الذي يضم المستجدين فيقرأ عليهم ويفسر لهم ويناقشهم ويصغي الى حوارهم مجيبا على اسئلتهم وكلما توسم نباهة باحدهم ندمه الى حلقة أقرب اليه . (65) وكان يهدف في الوقت ذاته الى تعويدهم الاعتماد على النفس وذلك يترك الصف المتقدم يقرأ ويشرح للصفوف الاخرى من كتب الاستاذ وغيره وبهذه يجعلهم يفهمون الموضوع فهما وافيا .

وانا ارجح ان الطالب كان يبقى يتعلم معه على هذه الحالة مدة ثلاث سنوات اي انه يمضي سنة في كل حلقة .

---

59) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 1019 وحاوى ج 3 ص 230 .
60) كاميل الطب العربي ج 1 ص 5 .
61) الحاوى ج 1 ص 164
62) نظرية لوك .
63) 166 عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ج 1 ص 214 .
64) الاعلام خير الله الزروكلي .
65) الحاوى ج 10 ص 154 .

وكانت الدروس النظرية تشمل :

- علم التشريح : وهو يوليه اهمية كبيرة حيث يقول : لا تستطيع أن تفهم أفة عضو ما لم تعرف طبقاته (66) ورغم ما يعترض هذا الدرس من عقبات دينية تحرم (67) تشريح الجثة في ذلك العهد فقد حاول ابن ماسويه تشريح جثة ولده الذي اصيب بالبلادة منذ حداثته ليقف على اسبابها مثلما كان يفعل جالينوس في تشريح من تستوجب حالته المرضية لكنه كان يخشى بطش الخليفة (68) بمخالفته لاحكام الدين . لذا اعتمد الرازي على التشريح المحدود لجالينوس واضاف اليه من خبرته في تشريح الحيوانات (69) ومشاهداته في حياته العملية ومما وثق الصلة بين الطب والتشريح عنده يجسد ذلك قوله (اذا حدثت افة في حس اللسان وذوقه فهو من الزوج الثالث من ازواج العصب واذا كانت الافة في حركته ففي السابع) (70) .

وقوله عن الثرب :

«اما الحجاب الباطن الذي هو الثرب فلا يمكن ان ينصب تحته الماء دون ان يحدث فيه ضربا من التأكل وذلك لان الغشاء منفصل في جميع نواحيه لا جوف فيه ولا ثقب ولا يمكن ان يدخل فيه شيء من عضو من الاعضاء سوى المعدة والقولون والطحال (71) وهل هناك حاليا ابدع من هذا التحرى والوصف . وله في هذا الموضوع كتب متعددة (72) اضافة الى كتبه المطولة كالمنصوري والحاوي التي يتكلم فيها عن تشريح كل عضو عند بحثه ذلك العضو .

الفزيولوجي او خصائص الاعضاء : وقد اهتم الرازي بها وطورها فمثلا عندما يتكلم عن العصب يقول : «ينبغي ان تكون عالما بالعصب الذي يأتي الى كل واحد من الاعضاء منها عصب الحس ومنها عصب الحركة فالعصب

---

66) كامـل ج 10 ص 154 .
67) تاريخ الحكماء القفطي 158 .
68) تاريخ الطب في العراق هاشم الوتري ص 23 .
69) الحاوي ج 3 ص 215 .
70) الحاوي ج 10
71) طبقات المفاصل والاوتار والعضلات .
72) الحاوي الكبير ج 7 ص 176 .

الذي ينبت في الجلد يحس والذي يكون منه الوتر يحرك ، ويعل العصب يبطل اما ببترة في العرض او مرضه او شده او لورم يحدث فيه او لبرد شديد يصيبه الا ان الورم والمدة والبرد قد يمكن ان يرتق فصلته اذا ارتفعت علته وان حدث وتقطع العصب عرضا لم يتحرك ... التي في تلك الناحية وان شق العصب بالطول لم يذل الاعضاء التي في تلك الناحية ضرر البتة فاقصد ابداء عند بطلان حس عضو او حركته الى اصل العصب الجائي اليها فاذا كان قد برد فاسخنه بالاضمدة وان كان قد ورم فاعمل عليه المحللة وان كان قد قطع فلا حيلة له ( ) .

طبقات الاذن .
طبقات الخصية .
طبقات العين .
طبقات الكبد .
طبقات القلب .
الحاوى الكبير 10 ص 3 .
من تلك الكتب .
منافع ومضار الحمام — حاسة اللمس
منافع الاعضاء . الى الفواكه الافضل اولا واخيرا في المعالجة
قوانين النظر .
العطش . — النوم
رد كتاب جالينوس النبض . — الذوق
العادة .
الجماع كثرته والاعمار .
تبعات الجماع .
— الحدس
التغذية .
الحليب .
النظر .
لماذا تتقلص الحدقة في الضوء وتنبسط في الظلام .
منافع الاجفان .
تفضيل العين على الاعضاء الاخرى .
منافع الغذاء والوقاية من مضاره .
الرياضة .

وله مباحثات عديدة في هذا الموضوع لكل عضو بصورة خاصة والجسم بصورة عامة (74) .

الباثولوجيا : رغم انه اسماها خيالية (75) اذا ماقسمناها بنظريـــات ابيقراط وجالينوس ولكنه تمكن من صبها في قالب فكري ومنطقي بعــد التتبع والاستقصاء من مشاهداته حتى غدت له الاساس في الطب فهو يوجب معرفتها قبل البدء بالمعالجة لانه يدعو الى تفسير الاعراض المرضيـــة بالتغييرات العضويـــة والوقـوف علـى اسبابهـــا ، مثـــلا تعليلـــة

لليرقان : «اليرقان هو احمرار البول وعدم ذهاب الصفـراء الـــى الامعاء ولكنها تبقى في الدم وتفرز عن طريق البول» .

كان الرازي شديد الملاحظة لا تفوته ظاهرة دون أن يقرنها بخبرته سواء في الحيوان او الانسان (76) فهو يقول مثلا في ملاحظاته في النفاخات المائية :

«انه قد يحدث نفاخات ماء في ظاهر الكبد اكثر من حدوثه في سائر الاعضاء» .

ويستطرد فيقول : «نرى في كثير مما نذبح من الحيوانات نفاخـات في اعلى الكبد مملوءة من ذلك الماء فان اتفق في بعض الاوقات ان تتفجر هذه النفاخات فان ذلك الماء ينصب فيصير في الفضاء الذي في جـــوف الغشاء الممتد على البطن في الموضع الـذي يجمع فيه المستسقين الماء» . وفي البحث نفسه يقول :

«من انخرقت كبده ادى الى وجع مع حكة مستديمة في فمه ومؤخرة راسه وابهامي رجليه وظهر في قفاه بثر شبيه بالباقلاء ومات في اليـــوم الخامس من طلوع الشمس ، ومن اعراض هذا الوجع اعتراء المريـــض حالة من عسر البول والتقطير» وهو خير وصف لانفجار الاكيـــــاس الهايداتيكية وتوقف عمل الكلي (77) .

---

74) لماذا السمك الطري يؤدي العطش .

75) براون الطب العربي ترجمة د . داود سلمان علي .

76) الحاوي الكبير ج 7 ص 147 .

77) د . فائق فرات ـ الرازي .

وفي رسالة عنوانها : لماذا الثلج يحرق ويقرح (78) درس للتاثيرات الفيزياوية على حياة الانسجة وتقلص الشرايين .

وفي دراسته للامراض وقف على ما هي وراثية (79) وما تحدث منها من : خارج الجسم والتي مصدرها معدي حيث كان يحوم حول اسبابها وربما كان يفكر في شيء اشبه بالبكتريا التي نعرفها ونصنفها اليوم موعزا بان الاعراض ظاهرة لمرض مسبب خفي .

فحين يصف الحصبة والجدري يقول : انهما فوران الدم اشبه بفوران الخمر عند تخمره (80) .
وفي كتابه الامراض التي تحدث في الخريف وتشفى وتزول في الربيع (81) يتحدث الرازي عن الرطوبة والجفاف كسبب للامراض وعلاجها . وله كتاب في صفات المستشفيات وطريقة اختيار مواقعها في المدينة وضرورة بعدها عن المناطق الرطبة التي تسبب الكثير من الامراض (82) وتساعد عليها .

وله رسالة في الفرق بين الماء بالثلج والماء المغلي اولا ثم المبرد على الثلج (83) يعطي فيها الدليل المقنع على طريقة التعقيم للماء .
وكذلك عندما يتكلم عن الاوبئة وصحة المسافر (84) يمثل كيفية انتشار مثل هذه الامراض . وهكذا نجد الرازي خلال مناقشته للطلاب ورده على اسئلتهم يتعمق للوصول الى الاسباب المرضية التي تصيب كل عضو من الاعضاء . وبهذه يجعل من اسئلة الطالب خير معين ومدرس للاستاذ نفسه .

أما الكيمياء والعقاقير : فقد اهتم الرازي اهتماما كبيرا بهما في تدريس الطب حيث يقول : من لم يكن له المام واسع بالكيمياء لا يستطيع ان يكون فيلسوفا (85) ورغم انه اول من استعمل المادة الكيمياوية

---

78) قصص وحكايات ـ الدكتور محمود نجم ابادي .
79) الاقلام العدد الاول سنة 65 فيصل دبدوب .
80) د . امين خير الله ص 107
81) د . فائق فرات .
82) د . امين خير الله 197 ص .
83) د . فائق فرات 130 ص .
84) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة .
85) الطب العربي كامبل ج 1 ص 66 .

للمعالجة فقد كان يعرف خطورة تلك العقاقير على الجسم على مستقبل المريض الصحي حتى بعد الشفاء . لذلك نجده يقول «متى قدرت ان تعالج بالاغذية فلا تعالج بالادوية (86) ويقول ايضا العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الارض فعليك بالاشهر ممن اجمع عليه ودع الشاذ واقتصر على ما جربت وذلك الاستكثار من قراءة كتب الحكماء والاشراف على اسرارهم (87) متداركا الاخطاء ومستفيدا من خبرة الاخرين ومن هـذا يبدو انه كان يريد ايقاف اندفاع الطلاب التجريبي وعدم استخدام الانسان كحقل تجارب .

ونراه افرد في كتابه الحاوي فصلا لذكر انواع النباتات والاغذية التي يمكن استعمالها في علاج مرض معين مع رأي كل عالم في ذلك النبات مشفوعا بتوصيته الشخصية كان يقول «لي» ماء البحر نافع للاستسقاء (88) بعد ان ذكر انواعا من الادوية لعدد من الاطباء وهو دائما يرشد طلابه باستعمال دواء واحد معين هو اصلح للمرض اذا استطاع الطبيب تشخيص ذلك المرض لذا نراه يقول :

«مهما قدرت ان تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب» (89) .

وعند عدم معرفة التشخيص يقول «اذا كانت الدلائل مختلفة فأجمل الدواء كثير التركيب مختلفا فان امثال هؤلاء ينتفعون بهذه الادوية وانتقل في مثل هذه العلة من دواء الى دواء ما لم ترد الاول ينجح فانه أخرى ان يوافق النافع ومن علاج الى علاج مخالف او مضاد ولاتد من علاج واحد لاسيما اذا لم ير العليل في ذلك منفعة منه فانه كثيرا ما ينفع الدواء عضو واحد ولاينفع عضوا اخر به تلك العلة بعينها واعجب من ذلك انه ربما نفع الدواء العضو الواحد مرات كثيرة ثم يضر قليل ويلهب به وربما حارا (90) من هذا الوصف تبين كيفية انتخاب الادوية او الداء المفضل والتشخيص بالمعالجة وملاحظة تأثير الادوية على قسم من الاعضاء دون الاخرى والادمان وحساسية الجسم لتلك الادويـة .

---

86) وفيات الاعيان لابن خلكان 158 .
87) ابن ابي اصيبعة 159 .
88) حاوي الكبيرج 7
89) وفيات الاعيان لابن خلكان
90) الحاوي الكبيرج 11 ص 136

ولم يغفل الرازي الاستفادة من التجارب على الحيوانات (90) قبل تجربتها على البشر للوقوف على مضار تجاربه وتأثير جسم الانسان بالادوية الكيماوية ومدى تحمله لها فكان اول من اجرى تجربة استعمال (السليماني) الزئبق على القرود فوصف طريقة التسمم به بأحلى وصف للموت (91) وهكذا توصل الى استعمال الزئبق على شكل مراهم في معالجة كثير من الامراض الجلدية وغيرها .

أما الدروس العلمية فكانت مثل جلساته النظرية تتم على شكل حلقات من طلابه حول سرير المرض في المستشفيات شارحا لهم الحالات النادرة واحدة بعد اخرى (92) وهو في ذات الوقت يعلمهم طريقة التثقيف الذاتي والاعتماد على النفس حتى بالنسبة للطلاب الجدد الذين كان يكلفهم بفحص الحالات البسيطة ويدعوهم الى وصف العلاج اللازم (93) وعرضه على من هو أقدم منهم من زملائهم وفي حالة الخلاف حول تحديد المرض يراجع الاستاذ لتحديد الحالة امامهم فبهذه الطريقة يمهد الرازي لطلابه التعمق والاستقصاء واللجوء الى ذوي الخبرة والاستفادة من علومهم وخبرتهم فتراه يؤكد على قوله «ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازما للبيمارستانات ومواضع المرضى كثير المداولة بأمورهم واحوالهم مع الحذاق من الاطباء كثير التفقد ويتخلق بالاخلاق ولايتهانون بها ( ) ان استشارة من هو اكثر خبرة والتتبع الحقيقي لصالح المريض هي الاخلاق السامية للعلم وهو يرى من تطبب عند كثير من الاطباء يوشك ان يقع في خطأ كل احد منهم (95) فاستشارة الطبيب لزميله بنفسه يمنع زميله من السقوط بذات الغلط وربما تعاونا في الكشف عن سر المرض وبهذه الطريقة يستفيد كل واحد من علم زميله مع كسب ثقة المريض (96) وقد حذر من الجهل ونقص الخبرة فقال : «الاطباء الاميون المقلون والاحداث

---

90) ابن خلكان وفيات الاعيان

91) د ، أمين خير الله 107 بالانجليزية

92) ابن ابي اصيبعة 420

93) الاعلام ـ خير الدين الزركلي

94) ابن ابي اصيبعة 420

95) د ، أمين خير الله

96) أمين خير الله 106

الذين لاتجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون (97) .

لذلك دعا الرازي الى تنمية الخبرة العلمية الحقيقية والابتعاد عن الشهوات المادية والعمل على الابداع والتجديد فكان قدوة لطلابه في هذا المجال اذ انه اعطى لفنه ولطلابه كل شيء (98) وعني عناية فائقة بالفقراء وانفق عليهم من أمواله الخاصة ، كانت عيادته غاصة بالمرضى والطلاب (99) وكان ايضا يدعو الى اطاعة الطبيب والتقيد بتعليماته حيث يقول «اذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة (10o) فكيف يكون عالما من لم يتتبع ويستشر وكيف لايكون المريض مطيعا متى ماشاهد ان طبيبه مهتم بصحته وتتبع مرضه واستشارة زملائه اكثر من اهتمام ذويه»

وكان الرازي يدون مشاهداته ويعطي خبرته بطريقته السريرية الخاصة وان معظم كتبه تحمل طابعه العلمي الذي اتخذ من المريض خير كتاب يستنسخه عن استجواباته وفحصه ومعالجته مسجلا جميع مشاهداته وخبرته الخاصة في خدمة الطب (101) مثال ذلك : حدث ان شاهد اثناء عودته من بغداد الى الري مرعى فيه بركة ماء وفيها من العلق الشيء الكثير واثناء ترحاله إستدعي لفحص شاب في كامل صحته الا انه يتقيأ دما بغزارة حتى كاد ان يهلك فسأل الرازي ذلك الشاب قائلا « هل كنت تريبا من بركة ماء المرعى القريب ؟ أجاب نعم وقد شربت منها فأمر بان يطعم الشاب من الطحالب بكميات كبيرة حتى بدأ يتقيأ الطحالب ومعها العلق من معدته (102) .

ومما يقوله الرازي لطلابه مهما عمر الانسان فانه لايستطيع تحقيق جميع ماشوهد بتعاقب الازمنة في مختلف بقاع الدنيا فلابد له ان يقوى بصيرته بعلم الاخرين «ومن هذا المنطلق وصفه كامبل» بانه ابداع كاتب عربي ذي اصالة كبيرة ابدع في تصوير الامراض على سرير المريض وطور الطب بتتبعه السريري الى الاستنتاج الفكري والمنطقي فاضاف اليه الشيء الكثير من خبرته السريرية حيث كون الحجر الاساسي لما يسمى الان بالطب

---

97) ابن ابي اصيبعة

98) الطب العربي ـ كامبل ج 661

99) حاوي ج 1 ص 311 وابن ابي اصيبعة

10o) ابن ابي اصيبعة 420

101) د ، فايـق فـرات

102) د ، امين خير الله 107

البيمارستاني (103)
وكان الاطباء والمؤرخون يصفون الرازي بالبيمارستاني (104) لكثرة تعلقه بالمستشفيات وقضائه الوقت الكبير الى جانب المرضى اخذا بنظر الاعتبار ان المريض هو المعلم الاساسي للطالب وللطبيب على حد سواء .

وجاعلا للطالب المحاسب والمحذر للخطأ والفشل مبتعدا عن الدجل والشعوذة غارسا الفضائل في نفوس طلابه وكيف يمارس الدجل من كان حوله طلابه يسألونه الصغيرة والكبيرة ؟

وعند فحصه للحالة : التي تعرض عليه من قبل طلابه كان يشرحها عليهم بالطريقة الاتية مسجلا جميع اسئلته ومشاهداته في صفحة خاصة مبتدئا باستجواب المريض (105) والطلاب من حوله سائلا عن اسمه وعمره وبلده وعما الم به واليوم الذي شعر فيه بالمرض وموضع الالم والاعراض التي رافقته بالترتيب والتسلسل الزمني لها مؤكدا على ان المريض خير راوية لشرح ابعاد المرض الذي يعانيه شخصيا كما كان يسأل عن عائلته وافرادها وهل انهم شعروا بنفس الادوار التي يكابدها هو . وبهذه الطريقة توصل الرازي الى اثر الوراثة (106) في العديد من الاصابات المرضية حيث قال عند فحصه لمريض لم يعلم بسر مرضه ، وقد كان كثير التبول يقوي ظني بالخراج في الكلى وكنت لاحكم ان اباه ايضا ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء فينبغي ان الا تغفل بعد ذلك غاية النقص انشاء الله (107)

ويقول في حالة حمى مثلا :

لنضع ان حمى حدثت ونريد معرفتها من اي جنس فاقول ان اول مايحتاج ان ننظر اليه هل كان لها سبب باد ام لا ؟ وهل ابتدأت بنافض وكيف صوره نفضه وكيف مزاج ذلك البدن (108) الامر الذي يدفعه الى التأكد من الاعراض للوصول الى مسببات تلك الحمى .

---

103) الطب العربي ـ كامبل ج 1 ص 66
104) الطب العربي ـ براون ـ ترجمة د ، سلمان داود علي
105) ابن ابى اصيبعة 420
106) حاوي كبيرج 16 ص 189
107) قصص وحكايات المرض ـ الرازي ـ د ، محمد نجم ابادي
108) ج ك ج 14 ص 189

وهو يبدأ بفحص المريض معتمداً على ان جسم المريض كل واحد يجب فحصه كاملا وتشمل هذه الطريقة على :

1) الفحص العام (2) الفحص الخاص .

وعند تطبيقه مرحلة الفحص الشامل يقول : ابدأ بدراسة حالات المريض وتأثير المرض عليه وهل انه يستطيع السير منفردا ام مستندا وعلى اية جهة يستند ووضع يديه اثناء السير وهل هما على اعلى البطن ام اسفلها ام على الرأس ام على الصدر وتكلم معه لمعرفة هل هو مالك لقواه العقلية ام في حالة خمول وهل حالته تنذر بالخطر ام لا بمجرد القاء نظرة عامة على المريض (109) كل هذه تسجل في صفحة المريض .

ويقول مثلا في حالة حمى : يجب ان تعرف الحالات المصاحبة للحمى من النبض والتنفس ويشرح التنفس هل هو سريع ام بطيء عظيم ام صغير متفاوت ام متواتر وفي الاخير يستعمل للتفريق بين تسمم الدم بالبولة او كسور الجمجمة (110) . ويستطرد يسأل عن النفس والعرق وكيفية الحرارة ومقدار النوائب وكيف تنوب والعطش وحالة الاحشاء والقيء والبراز والحالات اللاصقة كالسهر والصداع والتشنج (111) وفحص العين لليرقان وتفريقها بالغائط (112) .

بهذا الشرح المسهب يجلب انتباه طلابه ويدفعهم للتنقيب والتعليل على كل مايشاهدونه بأسئلتهم المتبادلة .

وانا اعتقد ان الرازي كان يتفاهم مع طلابه امام مرضاه باللغة السريانية محبذا عدم التكلم امام المريض باللغة التي يفهمها حفظا على صحته مما يعتريه من حالات نفسية من جراء وقوفه على حالته المرضية التي قد تكون خطيرة عند سماعه النقاش لذا نراه يقول :

ينبغي على الطبيب ان يوهم المريض ابدا بالصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لاخلاق النفس (113) .

---

109) د . فائق فرات ـ ابوبكر الرازي ص 37

110) الحاوي ج 3 ص 286

111) الحاوي ج 14 ص 123

112) الحاوي ج 7 ص 143

113) ابن ابي اصيبعة 420

ومن الاطباء الذين درسوا على يد الرازي ابوبكر بن قارن ، ويوسف بن يعقوب وابو زكريا يحي بن عدي (114) ومحمد بن يونس (115) وعليا بن زبن (116) وكلهم يتكلمون السريانية .

الفحص الخاص :

يبدأه بالجس فيقول مثلا في حالة تقيوء دموي «انظر اولا في الدم هل الكبد والطحال عليلان» (117) ويقول ايضا كان طبيب به وجع في كبده فدخلت اليه فرأيته مرابت مع علامته طستا فيه براز صديدي كأنه ماء اللحم المذبوح وهي علامة صحيحة على ضعف الكبد غاية الصحة فلم التفت الى ذلك وتغافلت كأن لم أره ثم ضربت بيدي على عرق العليل ليظهر هل به ورم في كبده ام انما ذلك لضعف فقط (118) .

واستعمل القرع : للتحري ففي الاستسقاء مثلا حيث صنفه الزقي والطبلي واللحمي (119) ويقول « اذا شككت في الاستسقاء واي نوع هو فاقرع البطن . وتفقد الصوت فان الزقي واللحمى لاصوت لهما والطبلي له صوت وللزقي اذا قلبت العليل من جنب الى جنب واذا خصصته بيدك بشدة (120) اما اللحمي فيعرف هذا بغرس الاصبع ويبقى اثره فيه ويكون في جميع انحاء البدن .

واستعمل الاصغاء : ففي حالة انسداد الامعاء يقول ان الالم مع المغص وتردي القيء وكثرة الاصوات في البطن (121) .

ثم يأخذ بفحص جميع مايمكن جمعها من مواد مرضية او طبيعية كالبول (122) والخروج والقيح وغيرها من السوائل الخارجة من الجسم .

---

114) المسعودي القاهرة 1938 ص 106

115) الاسرار وسر الاسرار محمد تقي دانش ص 1 وص 118

116) المستشرق هابر بريستال

117) الحاوي ج 5 ص 28

118) الحاوي ك 7 ص 121

119) الحاوي ج 7 ص 188

120) الحاوي ج 7 ص 268

121) د ، فائق فرات ــ الرازي

122) الحاوي ج 7 .

بعدها يبدأ بالتعليل : لجميع هذه الاعراض لمعرفة التشخيص ورغم ذلك يبقى مشاهدا اسير المرض اليومي ويسجل على ورقة المريض جميع التغيرات التي تحدث على المريض حتى اثناء المعالجة لمعرفة الانذارات التي قد تحدث وكذلك لمعرفة البحران (123) .

فيقول في وصف الجدري : «سرعة بثور الجدري الصغار المتقاربة خطر والكبار المبددة سليم (124) .

لايستطيع المرء ان يكتب هذه المشاهدات ومعرفتها مالم تكن مقرونة بمراقبة المريض اليومية مراقبة دقيقة لكي تبدو هذه الاعراض بصورة واضحة . وكان تشخيصه دقيقا جدا وقصته المشهورة التي حدثت لعبد الله ابن سوادة (125) خير دليل على اهتماماته بسير المرض ومن رأيه ان يشخص الطبيب اولا ماهو عام يتئد في تشخيص الحالات الشاذة الا بعد درس وتمحيص .

وفي حالة المعالجة يجب ان يكون حذرا فانه يوصي باستعمال الادوية الشائعة والمجربة وعدم التسرع في وصف الادوية المعقدة الا بعد خبرة طويلة فيها وهكذا نراه يردد بعد خبرته الطويلة بالسرطانات :

اذا كان السرطان خفيا اي غير متقرح او نازف فمن الافضل تركه وعدم التدخل به اذ كلما كثرت المداخلات الطبية اسرعت في انتشاره ونموه (126) (127) .

اما الطرق الجراحية : فكان متريثا في تدريسه لها حيث يقول «عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة (128) .

وهو اول من استعمل الاحزمه لمعالجة الفتق» (129) مبعدا

---

123) الحاوي ج 17 ص 3
124) الحاوي ج 17 ص 3
125) الحاوي ج 19 ص 3
126) الحاوي ج 12 ص 251
127) هارفيلد القول الى سلس سرطان الثدي 1962 بالانجليزية
128) وفيات الاعيان لابن خلكان 158 .
129) د . امين خير الله ص 107 (بالانجليزية) .

الادوات الحديدية في تدريسه للطلاب حيث يقول : «اما العلاج بالقساطر فلست احتاج الى ان اقول انه لن يستطيع احد ان يعالج بها علاجا جيدا دون ان يكون عارفا بموضع المثانة وخلقها معرفة جيدة (130) ويقول : متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس والقراءة للكتب خذل (131) وكان متريثا في استعمال السكين فيقول :

«فان كان الخراج حادثا في غشاء الكبد فانه اذا انفتح يتصبب ما بين الحجاب والامعاء في الوضع الذي فيه يجتمع الماء في المستسقى فافتح الى جانب الاربية اليمنى فاذا سالت المدة فواضب على الخروج (132) .

وما طريقته بفتح الاحليل من العجان الا وسيلة جيدة لمعالجة تضيق الاحليل (133) ولا يغفل عن مراقبة تغذية المريض اثناء المرض وفي ادوار نقاهته خوفا من الانتكاسات (134) وكذلك استعمل الموسيقى كمعالجة نفسية خاصة لمن كان مصابا بالملونخوليا او الهستريا (135) ورغم كل ذلك يردد ويقول بتواضع :

ان كل ما اعرفه انما مدين فيه فقط لمثابرتي في قراءة الكتب القديمة ولرغبتي في فهمها ولتناسبها لهذا العلم ومن ثم اضيف مشاهداتي وخبرته التي لمستها في حياتي اجمعها (136) .

وكان اذاقال رايا فقيل له ولكن من قبلك راوا ذلك فيجيب هؤلاء رجال ونحن رجال .

130) حاوي ج 10 ص 154 .

131) ابن ابي اصيبعة ص 420 .

132) حاوي ج 7 ص 140 .

133)هارتن جراحة التجميل للعجان ص 19 (بالانجليزية) .

134) حاوي كبير ج 11 ص 136 .

135) حاوي1 ص 67 .

136) الحاوي في قوله (لي)

التكامل في شواهد تاريخ اليمن القديم

الدكتور يوسف عبدالله - اليمن -

نستقي شواهد التاريخ اليمني القديم من مصادر ثلاثة . نسميه وهي
التي خلفها لنا في فترة تمتد الف عام قبل الميلاد وبعده بالتساوي تقريبا
أجدادنا اليمنيون من سبئيين ومعينيين وقتبانيين وحضارم وغيرهم ، وهي
نقوش رسمت بمنتهى الدقة والعناية بلغة يطلق عليها اصطلاحا اللغة
العربية الجنوبية القديمة وهي ذات لهجات مختلفة تحمل كل منهما
اسم قبيلتها او دولتها . وميزة هذه النقوش انها تحتفظ بشكلها الذي
حفرت به على الحجر اذا هي وصلتنا سالمة بخلاف الشواهد الكتابية وهي
المصدر الثاني التي وصلتنا في الكتب التي دونت بعد الاسلام على شكل
أساطير وقصص وتاريخ. سجلت ما نقله الناس من روايات شفهية عن
امجاد اسلافنا قبل الاسلام . بعضها كان مازال قائما في عصر المؤلف .
وربما كانت تلك الاستمرارية التاريخية حافزا على تأليف بعض هذه الكتب .
ولاتزال هناك شواهد تاريخية حية تنبيء باستمرارية التاريخ اليمني
القديم . في مجالات عدة من اليمن اليوم شعبا وارضا ولغة وهذه هي
المصدر الثالث .

على ان هذه الشواهد التاريخية تكمل بعضها بعضا تكميلا بينا ،
وهذا مايمكن تدارسه تدارسا قصيرا وقاصرا .

وربما كان خيرطريق يسلكهو ضرب المثل . وسأختار أمثلة من
كتاب الاكليل لابي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المتوفى في
حوالي أواسط القرن الرابع الهجري في الاعلام واسماء البطون والقبائل
والامكنة اليمنية واضعا نظائرها في ما وصلنا من نقوش كثيرة مارا ببعض
ما يدل على ذلك من اثار اليمن الحاضر .

وبذلك نستدل على ان كتبنا التاريخيه ليست كلها أساطير وانما فيها
من الحقيقة شيء كثير .

1 ـ ان حكاما يمنيين مشهورين مثل ابي كرب أسعد وابنه حسان
بن أسعد وشمر يهرعش وياسر ينعم ويوسف ذو نواس كلها شخصيات

تاريخية كبيرة ظل ذكرها في اليمن عالقا في أذهان الناس الى اليوم كما نسجت المصادر المكتوبة كثيرا من القصص حولها . وقد اثبتت المصادر المنقوشة أنّ هذه الشخصيات قد عاشت في اليمن قبل الاسلام وربما كان ما نسب اليها ليس بعيدا عن الحقيقة .

2 ـ يحدثنا الاكليل عن المثامنة وهي ثمانية أبيات كانت ملوكا وأقوالا في حمير تساعد في الحكم وترث الملك اذا خلا العرش . وقد أكد ذكرها نشوان في شرح القصيدة الحميرية حيث يقول لا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حمير الابهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية وان اجتمعوا على عزله عزلوه . والمثامنة هم ذو خليل وذو سحر وذو جدن وذو حزفر وذو ثعلبان ، وذو عثكلان وذو مقار وذو صرواح ، وربما حلت ذو قيفان وذو مناخ في محل حزفر وذو صرواح وذو خليل وذو حزفر وذو سحر وذو عثكلان وذو مقار .

ويورد الهمداني في كتابه مرارا صيغة جمع تكسير لا ترد في صيغة جمع التكسير العربية وهي صيغة الافعول كقوله الاحلول ، الاحمسوس ، الاحنوش ، الاسروع الاسلوم . الاعبول . الاشبوم ، والاودوع وهي جموع لحليل ، واحمس ، وحنش ، وسارع ، وسالم ، وذي عابل وشايم ووداع ولما كانت هذه الاعلام قد اصبحت اسماء بطون وربما قبائل فان جمعها على وزن الافعول يفصل بوضوح بين العلم واسم القبيلة . وهذه الظاهرة وردت في النقوش ايضا . فهناك وزن أفعولن في النقوش حيث تنوب النون عن ال التعريف مثل أريومن اي الاريوم ، أزاونن اي الايزون افيوشن اي الافيوش ، أيدوعن اي الايدوع ، ابكولن اي الابكول ، ارحوبن اي الارحوب . الخ . وهذه جموع تكسير لكل من ريام ، وذويزن ، وذو فائش ، ويداع وبكيل ، وذو مرحب ، او اوحب .

واثبات الهمداني لهذه الظاهرة في كتابه جعل ممكنا ضبط نطق هذه اللفظة التي ترد ألفا وفاء وعينا ولا ما ونونا ، دون حركات ، وكانت تقرأ خطأ مثل قولهم افعلان . ويؤكد ما أثبته الهمداني كتابة استعمال هذه الصيغة في اليمن الى اليوم فنحن نسمع بالاخمور ، والاعروق ، والاقدوس والاحكوم والاعبوس ،، الخ وهذا دليل على التكامل بين شواهد اليمن التاريخية الثلاثة ، النقوش والكتب التاريخية واليمن اليوم . كما أنه شاهد على استمرارية التاريخ اليمني وبقائه صامدا عبر الاجيال .

وقد تساعدنا الشواهد النقشية احيانا على تصحيح الشواهد الكتابية فكثيرا ما اعتاد اخباريو التاريخ اليمني المكتوب ومن يؤلف فيه ان يضبطوا خطأ اعلاما يمنية قديمة فنسمع معد يكرب وصحيحه معدي كرب ونسمع ملكيكرب وصحيحه ملكي كرب ، ونسمع السميفع والسميدع وصحيحهما سم يفع وسم يدع اي اسم يفع واسم يدع وهي صيغة حميرية مركبة معروفة ونقرأ في كتبنا التاريخية لهيعة ولختيعة ولحيفة ، وخيعة ، ولحيئة وكلها تصحيفات للعلم الحميري المعروف لحي عث وعث اختصار لـ ــلاله اليمنـي القديم آله الزهرة عثتار او نقرأ نبت عم وصحيحه في النقوش نبط عم غير ان نبط عم هي المقابل في العربية لنبت او تأران ينعم والصحيح تأران ينعم وهكذا . قد تنبهنا النقوش لبعض هفوات مؤرخينا القدامى فتألب ريام عند الهمداني شخص ولذا فقد الحقه بسلسلة نسب طويلة بينما يرد تالب ريام في النقوش اسم اله معروف .

ويعتبر الهمداني ان الاسماء التي تسبقها ذو (الاذواء) هي اسمـاء أشخاص على وجه العموم فيفرد بابا في اكليله لمن غلبت عليه الاذئيـة من حمير . وعنده ذو تعني كما هي بالعربية صاحب فيقول ومعنى ذوبيح نظره هو ذوخيرة القوم وشرفهم وذو بيح عنده هو ابن ذو قيفان .

والهمداني كغيره مـن المؤرخين القدامى يلتبس عليه الامـر فيكون الاذواء حينا اشخاصا وحينا بطونا ، وكثير من أذواء الهمداني مثبتة في النقوش ، فهناك ذو اصبح ذو أقيان ، ذو اوسان ، ذو جدن ، ذو غيمان ذو معاهر وغيرهم ولكنهم بخلاف ماينص عليهم الهمداني يردون في النقوش اسماء بطون وقبائل ، فذو في النقوش تقابل في العربية الشماليـة آل وأهل وبذو ، ذو معاهر مثلا هم آل معاهر والقيل ذو معاهر ينبغي ان يكون القيل من آل معاهر . والملك ذو ثات يجب ان يكون احد الملوك الـذي سقط اسمه الاول وينتمي الى آل ثات وهكذا . على ان الاكليل قد يصحـح بعض النقوش المنشورة ايضا . فخولان الاجدود اي خولان أجدودن نشرهاأحد علماء النقوش خولان آل دودن اذا التبس عليه اللام والجيم وهما متقاربان في الشكل في الحميرية وبدون الاكليل ربما صعب تلافي غلطة كهـذه . ومثل ذلك ذو هل والصحيح ذهل او ربيعة ذوايل ثور ملك كندة والصحيح ربيعة ذو آل ثور ملك كندة ، آل ثورهم كندة فـي المـوروث اليمنـي والعربي .

ومن ناحية اخرى فان الهمداني قد ينقل العلم الينا صحيحا ولكنـه

يفهمه ويفسره تفسيرا خاطئا فمثلا عليان نهفان عنده علم على شخصين وليس شخص ويوجد لذلك تخريجا لطيفا ، فيقول فلما لم يمكن ان يقول العلهانان كماتقول العرب العمران في ابي بكر وعمر والبصرتان في البصرة والكوفة قال علهان نهفان بينما اثبتت النقوش ان عليان نهفان كان ملكا من ملوك سبأ وهو شخص وليس شخصين .

على ان اليمن اليوم تؤكد اسماء بعض القبائل التي وردت في النقوش وفي كتاب الاكليل تأكيدا لا يدع مجالا للشك ، فقبائل خولان ، وهمدان ، وسيبان وردمان ، ومراد مثلا مازالت موجودة وربما في امكانها القديمة نفسها ، كما يؤكد يمن اليوم اسماء اماكن كثيرة ذكرتها النقوش وهي لازالت تحمل الاسماء نفسها الى اليوم مثل سيئون . تريم . شبوه رداع ونجران .

وهكذا نجد سلفا في النقوش السبائية من مئات اسماء الاماكن والقبائل والعشائر التي عرفها العصر الاسلامي ومازالت قائمة حتى اليوم ومن هذه الامثلة البسيطة نستدل على ان دراسة تاريخ اليمن القديم ترتكز على دعائم ثلاث شواهد النقوش والشواهد المكتوبة وشواهد التاريخ الحية الى اليوم وان هذه المصادر تكمل بعضها بعضا .

وكثير من علماء النقوش اهملوا المصدرين الاخرين كما ان محققي الكتب التاريخية اليمنية قد اهملوا اعتماد النقوش وان كان بعضهم قد اعتمد بعض الشيء على اليمن اليوم فكان ذلك فضله .

ان استمرارية التاريخ اليمني ليس لها مثيل آخر في بلدان الشرق الادنى بأسره وما ذكرناه مثال على ذلك ان خير مثال حي على استمرارية حضارة هذا الوطن هو ان الشعب اليمني الذي بنى السدودفأبدع واحترف التجارة فلم يجاره احد وبنى البنايات العالية فكان مثلا يحتذى ، ومن السرائح فكان اليمني خير من قضى هذا الشعب الذي نقش على اديم ارضه مجده وكفاح شعبه هو الشعب نفسه الذي استطاع ان يطارد المستعمر ويزيل اثار الظلم وفي بضع سنوات استطاع ان يبني يمنا جديدا شامخا . انه الشعب نفسه هو الذي حطم في فترة قصيرة أحدث فكر انتجه الانسان وطبقه بجرأة وصبر وحزم واباء .

الإمبراطورية الرومانية : العصر الأخير 284-602 م

تأليف : أ.هـ.م. جونز

عرض وتحليل د. مصطفى العبادي
أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية
- جامعة الاسكندرية

عرض وتحليل د . مصطفى العبادي

استاذ الدراسات اليونانية والرومانية (جامعة الاسكندرية)

مؤلف الكتاب وأعماله :

مؤلف هذا الكتاب A. H. M. Jones أو هيوجو جونز ، كما عرف بين زملائه وتلاميذه ـ من مؤرخي القرن العشرين ، وممن احتلوا مركز الصدارة العالمية في دراسة التاريخ القديم ، خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية ، اي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى وفاته فجأة في ابريل سنة 1970 وهو في السادسة والستين .

وما من شك ان المكانة الرفيعة التي احتلها هيوجو جونز بين الدارسين للتاريخ القديم ، لا ترجع الى أنه أحدث ثورة في فن كتابة التاريخ ، أو أنه استحدث فلسفة جديدة لتفسير التاريخ . بل لعل القيمة الحقيقية لكتاباته ، هو انه استطاع ان ينضج مناهج البحث التاريخي بأساسيه العلمي والعملي ، وان يمارسه على أرقى قدر من الكفاءة عرفتها كتابة التاريخ في القرن العشرين . ولعل فضله الاكبر على كتابة التاريخ أنه فصل بينه وبين النظريات الفلسفية نهائيا ، الا في مجال واحد وهو علم المنطق ومناهج بحثه الدقيقة . ولقد اتاحت لي الفرص معرفة ذلك عن قرب ، تلميذا له أولا وزميلا في حقل العمل العلمي بعد ذلك . فكان اذا وجد رأيا او عبارة تاريخية غير واضحة المدلول مباشرة يحولها الى قضية منطقية ، ليرى ان كانت تصح او لاتصح . أما بالنسبة لاسلوب كتابة التاريخ ، فقد استخدم الاسلوب العلمي الذي اصبح الان اكثر شيوعا في بمبدأ سلامة العبارة ووضوحها ، مضحيا في غير تردد برشاقة الاسلوب الكتابة التاريخية الراقية . ففصل بينه وبين الاسلوب الادبي ، والتزم

ورنين الكلمة . وليس غريبا اذن ان شاع في اسلوبه شيء من الجفاف العلمي . فاذا كان الجدل قد احتدم بين المؤرخين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حول حقيقة التاريخ ـ هل هو علم أو فن . فسان جونز ـ دون أن يخوض في الجدل ـ مارس التاريخ على أساس أنه علم ، ولا مجال للتاريخ غير ذلك ، وأن مقياس العلم هو ممارسة المنهج العلمي . وكما سبق أن ذكرنا ليس في ذلك ثورة ، فقد عرفت دراسة التاريخ ـ والتاريخ القديم بالذات ـ المنهج العلمي منذ أكثر من قرنين من الزمان . فنحن نعرف ان من أسرار عظمة المؤرخ الكبير جيبون ، صاحب الكتاب الخالد عن «اضمحلال وسقوط روما» ، ترجع الى قدرته العقلية الفذة على استخدام المنهج العلمي بامكانيات عصره في القرن الثامن عشر ، ولكن جيبون ظل واقعا تحت تأثير فلسفة العصر اللادينية ، كما اهتم بالاسلوب الادبي في الكتابة اهتماما كبيرا .

ومن بعده جاء مريفيل Merivale في منتصف القرن التاسع عشر ، ومارس المنهج العلمي في كتابه عن «الامبراطورية الرومانية» ولكن لم يكن له نفاذ بصيرة جيبون ، كما أنه شغل بالقضايا السياسية والدينية في المجتمع اكثر من اهتمامه بجوانب الحياة الاخرى الاجتماعية والاقتصادية والقانونية .

وما من شك ان المؤرخ الالماني مومسن Mommsen يمثل أعلى قمة وصلت اليها دراسة التاريخ القديم في القرن التاسع عشر ، فارتفع بدراسة المصادر ونقدها ارتفاعا لم نعرفه من قبل . ظهر ذلك في اشرافه على نشر موسوعة النقوش اللاتينية ، واهتم بالنظم القانونية اهتماما كبيرا في كتابه عن «نظم القانون الروماني» الذي كتب له الخلود بين عظماء المؤرخين . وما من شك أنه أنضج منهج البحث التاريخي الى درجة رفيعة ، لولا بقية من فلسفة رومانتيكية تظهر في «كتابة تاريخ روما» كما ان مومسن ظل بعيدا عن دراسة المشاكل الاقتصادية بصفة خاصة في التاريخ القديم .

حتى اذ اكان القرن العشرين ظهر المؤرخ الروسي العملاق روستفتزف Rostovtzeff الذي يمكن ان يقال أنه أحدث ثورة في كتابة التاريخ القديم بكتابيه «التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية الرومانية» ، الذي أفاد فيه من جهود سابقيه وأضاف اليها مادة جديدة وهي استخدامه للمصادر البردية والفنون والآثار بمهارة هائلة ، وبمعرفة

واسعة للمصادر ومنهج علمي دقيق ، وأسلوب في الكتابة سهل ، استطاع روستفتزف أن ينقل كتابة التاريخ نقلة كبيرة ، هي النقلة التي نلحظها في الفارق بين مؤرخي القرن التاسع عشر ومؤرخي القرن العشريـــن . واذا كان كتاب روستفتزف عن الامبراطورية الرومانية قد تأثر بعض الشـــيء بسبب تجربته السياسية بين الاتجاهات العامة التي حدثت في الربـــع الاول من القرن العشرين واصطدامه بالثورة البلشفية في الروسيا ، فانه استطاع ان يخلص نفسه من هذا العيب في كتابه الآخر عن «التاريـــخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلليني » الذي يعتبر ارقى ما كتب الى الآن في مجال الدراسات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الفترة .

واذا كان جونز لم يلتق ولم يتتلمذ على روستفتزف ، فانه كان يقول أنهيعتبر نفسه التلميذ الروحي لروستفتزف . وفي ذلك وفاء كبير لقيمة كتابات روستفتزف التاريخية .

يتضح من هذه الامثلة القليلة ان جونز حين تصدى لدراسة التاريـخ القديم كان يقف على أكتاف عمالقة ، وتسلم دراسة التاريخ في أرقـــى مراحلها . ويبدو أنه منذ بداية حياته العلمية قد حدد موقفه ومجالـــه الدراسي اما موقفه فهو ان يفيد من جهود سابقيه جميعا وان يزيد دراسة التاريخ كما وجدها عمقا وقوة في الاتجاه العلمي المحض ، اما مجالـــه الـــدراسي الذي اختاره لنفسه فهو العصر الاخير مـــن الامبراطوريـــة الرومانية ، وهي فترة لم تلق معالجة شاملة كبرى منذ ان كتب جيبـــون «اضمحلال وسقوط روما» . ولكن مجال الدراسة التاريخية متشعب شديد التعقيد . فهناك جوانب التاريخ السياسي والعسكري والديني والاقتصادي والاجتماعي والاداري والفكري وما الى ذلك . ويبدو ان جونز حدد لنفسه أيضا منذ البداية مجال تخصصه من هذه الجوانب جميعا ، وهو مجـــال «النظم» . فهو مؤرخ للنظم قبل كل شيء ، ادراكا منه أن النظم أخطـــر دلالة على طبيعة الفترة التاريخية . ولم يقصر نفسه على جانب من النظـم دون الآخر ، ولكن اهتمامه الاكبر انصب على النظم الاجتماعية والاقتصادية والادارية بفروعها المختلفة .

وما ينبغي ان يتبادر الى الذهن أن جونز كان مـــن المؤرخيـــن المحدودين في مجال تخصصاتهم الضيقة ، فهو من اكثـــر المؤرخيـــن المتخصصين تنوعا ووفرة انتاج . فأول كتبه صدر سنة 1935 عن تاريـخ اثيوبيا . وهو كتاب مبسط ، بمثابة مدخل لدراسة تاريخ اثيوبيا . ويقال أنه كتبه في ستة اسابيع فقط ، ومع ذلك لم يوجد كتاب آخر يحل محلـــه حتى الآن ، وظل يعاد طبعه حتى سنة 1966 .

اما جهوده الاكبر ، خلال الخمسة عشرة سنة الاولى من حياته العلمية (قبل الحرب العالمية الثانية) ، فقد اتجه لدراسة نظام الحكم في التخم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (من الاسكندر الاكبر الى جنتيان) . وظهرت نتائج هذه الدراسة في كتابين لازالا عماد الدراسات في هذا المجال حتى الآن . الاول وهو «مدن الولايات الرومانية الشرقية» سنة 1937 (واعيد طبعه بعد تنقيحه سنة 1971) . والكتاب الثاني هو (المدينة اليونانية) من الاسكندر الاكبر الى جنتيان . ونلحظ في الكتابين ان شخصية جونز المؤرخ قد نضجت واكتملت معالمها ، فرغم ان الفترة التي يعالجها ممتدة بين العصرين الهلينستي والروماني كاملين وتتناول ثلاث عشرة ولاية ، الا ان تمكنه من المصادرجميعها واضح تماما ، بأنواعها المختلفة الادبية والوثائقية من نقوش وبردى وعملة ، يتناولها جميعا في سهولة وألفة ، ومنهج علمي مكتمل . ولجونز من المصادر موقف معروف ، ظهر في هذين الكتابين والتزم به طيلة حياته العلمية . فهو يهتم بالمصادر القديمة اهتماما كبيرا جدا ، عارضا ومحللا وناقدا ثم مستنتجا بعد ذلك مايراه من رأي وهو من غلوائه في هذا الاتجاه وحرصه عليه ، كثيرا ماضحي بالاشارة الى الكتابات العلمية الحديثة ومناقشتها ، وكثيرا أيضا ما تعرض للنقد بسبب ذلك . وكان رده دائما هو أن الدراسات الحديثة منها ما هو جيد وأنه قد أفاد من جودته ، واثبت ذلك . ولكن منها ماضل سواء السبيل . ولو أنه شغل بتصويب أو معارضة أخطائها لما استطاع ان يكمل ما أخذ نفسه به . ولذلك فهو عادة يثبت رأيه دون ان يحفل بآراء معارضيه .

ومن كتابات هذه الفترة الاولى ، كتاب صغير آخر عن «حكم آل هيرود في فلسطين» ، وفيه يتناول تاريخ فلسطين من 80 ق . م . الى 70 ميلادية ، أي في الفترة التي ظهرت فيها الحركة المسيحية ، وهو في مقدمة الكتاب يقول عن اهمية هذه الفترة ، أنه حدث اثناءها الصراع بين أفكار اليهود الدينية وبين الاتجاهات العلمانية المتأثرة بالثقافة الهللينية ، وان هذا الصراع بلغ ذروته انذاك وادى الى اندلاع نار ثورة اليهود اليائسة ضد الرومان ، «وفيها هلكت دولة اليهود القومية . ربما الى الابد» . وهي عبارة يضيق بها اليهود اليوم ، الذين يحرصون على ان يشيعوا ان لفلسطين طابعا يهوديا دائما . ومما يدل على ان جونز يقصد مدلول هذه العبارة باعتباره رأيا تاريخيا يلتزم به ، وليس جملة عفوية تناسب الاحوال في سنة 1938فقط ، هو انه احتفظ بها حين اعاد طبع كتابه سنة 1967 ، بعد قيام دولة اسرائيل وما أعقبه من احداث .

ومنذ سنة 1940 تبدأ المرحلة الثانية ، وشملت الثلاثين سنة الاخيرة من حياة جونز العلمية والتي كان محورها الاساسي دراسة العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية واهتمامه بالجوانب الاجتاعية والاقتصادية بصفة خاصة . ولكن تنوع انتاجه وتعدد جوانبه ظل واضحا أيضا في هذه الفترة . فنجده يخرج عدة دراسات عن مدينة أثينا ونظمها جمعها فيما بعد في كتابه «الديمقراطية الاثينية» الذي ظهر سنة 1957 ، وأعقب ذلك بكتاب عن «اسبرطه» سنة 1967 . ولعل هذا الكتاب الاخير عن اسبرطه هو اضعف كتب جونز جميعا ، ويبدو انه كتبه في فترة كان يعاني منها صحيا ، نتيجة لشدة الارهاق الذي اصابه أثناء توفره على كتابة الكتاب الكبيرعن العصر الاخير من ا لامبراطورية الرومانية . وقد حذره كثير من اصدقائه من نشر كتاب اسبرطه ، ولكنه دفع به الى المطبعة ، معتذرا فيمقدمةالكتاب عن بعض عيوبه ، بأنه كتبه اثناء وجوده في مصر شتاء 1964 ـ 1965 . وانه لم يكن في متناول يده كثير من الكتب والدراسات . ولكن هذا اعتذار مردود ، لان عيوب الكتاب الحقيقية هو أنه أقام بعض مواقفه وآرائه في النظم الاسبرطية على دليل غير مقنع ، كما هو الحال بالنسبة لقضية تقسيم الارض في اسبرطة .

اما في مجال الدراسات الرومانية فقد اخرج في سنة 1949 بالاشتراك مع فكتوراهرنيبرج «مجموعة من الوثائق توضح عصر اغسطس وتيبريوس» وكلها مستمدة من النقوش ووثائق البردى اليونانية واللاتينية . كما انه أعد قبل وفاته كتابا عن الامبراطور اغسطس وهو لازال تحت الطبع .

ومن كتب الثقافة التاريخية العامة كتابه عن «قسطنطين وتحول اوروبا للمسيحية» . وهو من كتب السير الممتازة ، الذي يمتاز بسهولة الاسلوب وبساطة العرض مع الدقة العلمية .

وبعد تحليل دقيق لشخصية قسطنطين وحكمه وعصره ، ينتهي الى القول «بأن قسطنطين لا يستحق لقب العظيم» الذي خلعته عليه الاجيال المتعاقبة بعد ، سواء من حيث شخصيته او من حيث قدراته ومواهبه» .

وفي مجال الكتب الدراسية التي تصلح لطلبة الجامعات أخرج في سنة 1968 كتابا آخر من كتب الوثائق وهو «تاريخ روما حتى القرن الخامس» .ويقع في جزئين : الاول للعصر الملكي والجمهورية والثاني

للامبراطورية . وهو عبارة عن مجموعة من الوثائق استمدها من كتابات المؤرخين القدماء ومن النقوش والبردي والقوانين ، ورغم أن الكتاب يتكون أساسا من نصوص الوثائق الاصلية ، الا ان شخصية جونز واضحة تماما في كل أجزائه . «فهو كتاب في النظم وليس عن احداث التاريخ» . ويظهر في هذا الكتاب ولع المؤلف الشديد وتمكنه من القانون الروماني في شتى مراحله وأبوابه . ولا غرو فقد كان يستظهر كثيرا من نصوص القانـــون الروماني، قد نشر ، فعلا ، عددا من الدراسات في الدستور والقانـــون الروماني في عدد من المجلات العلمية ، ثم جمعها في كتابه (دراسات فـــي نظم الحكم والقانون الروماني) «1960» . وبعد وفاته نشر له كتـــاب عن نظم المحاكم الرومانية

The Criminal Courts of the Roma Republic and principale «1971»

وكـــلا هذين الكتابيـــن يـدل على علو كعبه في مجال الدراسات القانونية الرومانية . وبعد أن نشر جونز كتابه الكبير عن العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية ، تبين للجميع أنه فوق مستوى القاريء العام المثقف او حتى طلبة الجامعات ، ولذلك استجاب لمن طلبوا منه ان يخرج كتابا مختصرا مبسطا عن هذه الفترة ، فكتب الكتاب الذي يحمل عنـــوان «اضمحلال العالم القديم» (1968) . ورغم أن هذا الكتاب الاخير يعتبـــر مختصرا للكتاب الكبير ، الا انه اكتسب اهمية مستقلة بمجرد ظهوره . وذلك لان جونز من الافراد الذين لا يعيدون أنفسهم ، ويكرهون ذلك أشد الكره . فما ان هم بكتابة الكتاب المبسط المختصر . حتى أقبل عليـــــه بحماسه المألوف ، وكأنه أمام عمل جديد . واذا بالاسلوب يزداد سهولة ويكاد يختفي منه الجفاف العلمي الصارم ، ولكن أهم من ذلك اذا ببعض آرائه واتجاهاته تزداد وضوحا وبلورة وكأن كل نقطة تعرض لها قد عاناها عقله من جديد .

هذا مجمل لاهم مؤلفات مؤرخنا الكبير ، ولكن هذه المؤلفات ترتكز على عدد كبير ، يبلغ المئات ، من المقالات والدراسات العلميـــة المنشورة في شتى الدوريات العلمية في أرجاء العالم ، هذا عدا بعـــض الفصول التي أسهم بها في بعض المؤلفات مثل فصله عن «مصر الرومانية» في كتاب تراث مصر ، وفصل عن أثينا واسبرطه في كتـــاب «العالـــم الاغريقي» نشر H. Loyd - Jones (في سلسلـــة Penguin وفصل «معالم الحضارة الاغريقية في سوريا وفلسطين» في كتاب «بوتقـــة المسيحية» .

أشرف على نشره المؤرخ ارنولد توينبي ، وفصلين عن قسطنطيـــن

وجسنميان في دائرة المعارف اليابانية .

أما عن حياة المؤلف فهي مثل سير كثير من العلماء ، تكاد تكون خالية من عوامل الاثارة والاحداث الهامة . وانما هي حياة علم وبحث ، فكما أن العالم يعمل في معمله أو مختبره ، كذلك كان جونز يعمل في مكتبته ، يرفض الحياة العامة ويعزف عنها . ولد سنة 1904 وامضى السنوات الخمسة الاولى من حياته في الهند حيث كان أبوه يعمل بالصحافة . ثم عاد الى انجلترا في سن الخامسة ليلتحق بالمدارس ، وتخرج من جامعة اكسفورد متخصصا في الدراسات القديمة . وفي سنة 1926 عين لتفوقه زميلا في كلية All Souls التي تقتصر عضويتها على الباحثين الذين يتفرغون للبحث العلمي دون التدريس والقاء المحاضرات . وفي هذه المرحلة شارك في اجراء بعض الحفائر الاثرية في جرش بالاردن وفي القسطنطينية مع Talbot Rice ولكنه أدرك أن الآثار وحفائرها ليست المجال الذي هيئ له . فقد كان «يضيق بساعات وأيام الانتظار التي تنقضي في ازاحة الرمال» رغم أنه ظل طيلة حياته مهتما بالآثار دراسة وزيارة لاحفرا وتنقيبا ، وكان يفاخر دائما بأنه زار معظم مواقع الآثار الرومانية في العالم . ويبدو انه في هذه المرحلة قرر أن يتجه الى دراسة الامبراطورية الرومانية ، فحضر الى مصر وعمل أستاذا مساعدا في التاريخ القديم في جامعة القاهرة من سنة 1928 الى 1933 . وكثيرا من كبار أساتذة التاريخ المصريين تتلمذوا عليه في هذه الفترة ، ويروون الكثير من النوادر عن تشدده وانخفاض درجاته في الامتحانات ، وهي حقيقة عرف بها طيلة حياته كأستاذ في شتى الجامعات التي عمل بها . ولكنهم يتحدثون أيضا عن روحه الانسانية وعطفه الذي شمل به كل من عرفه . وظل بعد ذلك يذكر تلك الفترة التي قضاها في مصر بكل حب واعزاز وفي سنة 1934 عاد الى أكسفورد ليقوم بتدريس التاريخ القديم ، وبدأ في اخراج كتب الفترة الاولى التي سبقت الاشارة اليها .

وأهمها كتابا المدن . حتى اذا كانت سنة 1939 نشبت الحرب العالمية الثانية ، فألحق بالعمل في وزارة العمل البريطانية ، مع بيفين الذي أصبح وزير خارجية حكومة العمال بعد الحرب . ولابد أنه أفاد كثيرا من العمل في وزارة العمل ، فان تحوله للاهتمام بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية حدث في ذلك الوقت . ورغم بغضه الشديد للاعمال الادارية ويراها مملة ومضيعة للوقت . الا أن لعمله الاداري في فترة الحرب

منزلة خاصة عنده ، يذكرها ويضرب منها أمثلة مختلفة . فمن ذلك أنه عهد اليه بتدبير الاعداد الكافية من عمال مناجم الفحم (ولعل انتسابه الى اقليم ويلز الفني بمناجم الفحم كان سببا في ذلك) وكانت المشكلة التي واجهته هي تناقص أعدادهم بسبب من التحقوا بالجيش في الحرب . فكان يقارن بين تلك الحال ومشكلة نقص الايدي العاملة في نهاية الامبراطورية الرومانية .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارهااختير سنة 1946 أستاذا لكرسي التاريخ القديم في جامعة لندن ثم تركها في سنة 1951 لتولى كرسي التاريخ القديم في جامعة كمبردج الذي ظل يشغله حتى توفي سنة 1970 .

وتعتبر هذه الفترة الاخيرة أخصب فترات حياته انتاجا ، فأخرج مجموعة مؤلفات الفترة الثانية أي ما بعد الحرب .

وفي هذه الاثناء دعى لالقاء المحاضرات كأستاذ زائر في كثير من الجامعات الكبرى في شرق اوروبا وغربها وأمريكا . كما حضر الى مصر استاذا زائرا لجامعتي الاسكندرية والقاهرة في شتاء 1964 ـ 1965 فجدد صلاته بأصدقائه وتلاميذه القدماء وتتلمذ عليه جيل جديد لم يكن يعرفه .

وكان جونز محبا للحركة والرحلات الاثرية ، لا يدع فرصة تفوته في هذا المجال . فأثناء زيارته الاخيرة لمصر زار بعض المواقع التي لم يكن قد زارها من قبل مثل معبد ابي سمبل ودير سانت كاترين وكان يطمع في ان يزور واحة سيوه ولكن الظروف لم تمكنه . وذات يوم طلب مني أن أزور معه موقعا به آثار رومانية قرب الاسكندرية ، هو كوم تروجه فأخبرته بمشقة الوصول اليه لبعده عن العمران في داخل الصحراء ، وأن هذه الرحلة تستلزم سيرا على الاقدام مسافة سبعة كيلومترات ذهابا ومثلها ايابا من أقرب مكان يعمر بالسكان . وكنت أقول له هذا مشفقا عليه وهو في سن الستين . ولكن تحذيري لم يجد معه ، وكان رده أنه يسير عشرين كيلو مترا .

اما عن شخصيته وموقفه من الحياة العامة ، فقد اتسم بالصفة الانسانية البعيدة عن التحيز القومي او الديني . وقصده التلاميذ من شتى البلاد . كما أنه تميز بالتواضع الشديد وانكار الذات ، وتشدد في الرأي للموقف الذي يتخذه . كما كان ميالا للوحدة ، قليل الكلام ، ينأى عن

الحياة العامة والصخب . اما عن موقفه من الحياة العامة ، فهو مثل غيره من اليساريين المثقفين ، يغلب عليه طابع التحرر والاعتدال . حيث أنه حين اعتدت بريطانيا على مصر في سنة 1956 كان من بين الاساتذة الذين وقعوا عريضة احتجاج واعتراض على عمل حكومة المحافظين آنذاك . وهو من المؤمنين بالديمقراطية أشد الايمان . فحين عرضت عليه بعض الجامعات الامريكية أن تعينه أستاذا بها رفض قائلا انني لا أترك انجلترا الا اذا قامت الدكتاتورية .

الامبراطورية الرومانية العصر الاخير (284ـ602 م) : دراسة اجتماعية واقتصادية وادارية .

A.M.M. Jones, The Later Roman Empire (284-602) A Social, Economic and Administrative Survey, 3 vols., Black well, Oxford, 1964)

للامبراطورية الرومانية منزلة خاصة في التاريخ يختلف عن منزلة غيرها من الدول والامبراطوريات . ولا ترجع اهمية هذه الامبراطورية تاريخيا الى أتساع رقعتها ، اذ أنها أمتدت من بريطانيا غربا الى الهند شرقا ومن نهر الراين في المانيا شمالي الى السودان جنوبا ، ولاترجع لطول امتدادها التاريخي ، اذ ابتدأت في القرن الثالث ق.م. واستمرت الي القرن الخامس في الغرب والى القرن السابع في الشرق ، ولا ترجع ايضا الى انها حققت قمة حضارية في تاريخ الانسانية تفوق ما حققته الدول والامبراطوريات الاخرى . فما من شك ان مصر القديمة والعراق القديم واليونان ، حققوا جميعا انجازات حضارية تفوق انجازات الامبراطورية الرومانية في اكثر من وجه . وانما السبب الحقيقي لاهميتها هو انها تجربة فريدة في التاريخ لم تحدث من قبل في التاريخ القديم ولم تتكرر بعد ذلك في العصور الوسطى او الحديثة الى الآن . وذلك لانها حققت الى حد بعيد فكرة الدولة العالمية ، وهي فكرة طالما راودت عقول المفكرين ولعبت برؤوس القواد ، ولكنها لم تتحقق الا في الامبراطورية الرومانية ، وقد نتج عن ذلك ان احتوت الامبراطورية جميع الحضارات القديمة السابقة عليها باستثناء الهند والصين . ونظرا لوقوع الامبراطورية الرومانية تاريخيا في نهاية العصور القديمة ، فقد اعتبرت ممثلة للعالم القديم وحضارته أيضا . ومن ثم كان سقوطها يعني نهاية العالم القديم بأسره . وبعده جاءت العصور الوسطى بمعالم سياسية وحضارية مختلفة أشد الاختلاف عما عرف في العصور القديمة جميعا .

واذا كان الاوروبيون قد اهتموا بدراسة الاغريق والرومان منذ

بداية عصر النهضة الاوروبية ، لقيمتها الذاتية ولانهما يمثلان الاساس الحضاري القديم لاوروبا ، الا انه مع نضج النظرة العلمية للدراسة التاريخية في اوربا ، وجدنا الامبراطورية الرومانية بالذات تحتل منزلة فريدة تفوق غيرها من الدراسات التاريخية الاخرى . فمع نضج النظرة العلمية للتاريخ ، أدرك المؤرخون أن الحلقات الكبرى في التاريخ هي حلقات حضارية شاملة ، وليست لدول وشعوب محدودة . ومنذ أن اتضحت هذه الفكرة ، أصاب المؤرخين الاوروبيين قلق حول مستقبل حضارتهم الحديثة التي لا يريدون لها الاضمحلال والسقوط . ولعل هذا هو الدافع الذي حفز عددا من أفذاذ المؤرخين الاوروبيين للتوفر على دراسة الامبراطورية الرومانية وأسباب اضمحلالها وسقوطها ، باعتبارها ممثلة لحضارة العالم القديم لعلهم يتعرفون من وراء ذلك على بعض العوامل التي تعمل في المجتمعات الانسانية قوة وضعفا ، فيفيدون من عوامل القوة ويتخلصون من عوامل الضعف في مجتمعهم الحديث .

وأول من فطن لهذا المعنى المتمثل في العصر الاخير للامبراطورية الرومانية هو مؤرخ القرن الثامن عشر جيبون في كتابه الخالد «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية»
E. Gibbon, The Decline and Fall of Roman Empire

حتى اذا كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تصدى المؤرخ الالماني سيك للفترة ذاتها :
O. Seeck, G. eschichte des Un Tergangs der Antiken welt
(1897 ــ 1921) . واعقبه بيوري (1923)
J.B. Bury, A History E. Stein : His

ومن بعده بكفاءة أعلى شتاين (1949 ــ 1959) وفي الوقت نفسه نشر لو كتابه (1951) E. Stein : Mis Torve du Bas - Empire
F. Lot, La Fin du Monde Antique
ولكن رغم هذه الدراسات التاريخية الراقية ومثيلاتها ، ظلت هناك فجوة في دراسات العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية . فهذه الدراسات جميعا رغم جودتها تكاد تكون قاصرة على التاريخ السياسي والعسكري والديني ، ومنها ما يتعرض لقضايا الادارة والنظم او يلم المامة سريعة ببعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية . وبعبارة أخرى ظلت النظم الاجتماعية والاقتصادية والادارية بمشاكلها وتعقيداتها ، وتأثيرها في الحياة العامة السياسية والحكم والحرب والدين في حاجة لمعالجة شاملة كبرى .

وهذه هي المهمة التي تصدى لها مؤرخنا هيوجو جونز .

بعد هذا التقديم بحالة الدراسات للعصر الاخير للامبراطورية الرومانية ، لعل أحسن وسيلة لتقديم الكتاب الجديد هو أن ندع المؤلف يتحدث بنفسه ، حيث يقول في المقدمة :

«ليس هذا الكتاب تاريخا للعصر الاخير من الامبراطورية الرومانية انه عرض تحليلي واقتصادي واداري للامبراطورية ، معالجا تاريخيا . ولذلك سأتحدث قليلا عن الحروب ، ولكن كثيرا عن نظام ومصادر التجنيد وأحوال الخدمة في الجيش . ولا أشغل نفسي كثيرا بالسياسة ، ولكني أبحث في تكوين الطبقة الحاكمة ، والجهاز الاداري وبناء طائفة موظفي الحكومة . وكذلك سأتحدث قليلا عن الانقسامات المذهبية المسيحية ، ولكن كثيرا عن نمو كهنوت الكنيسة . واني لاهمل اكبر الانجازات العقلية لهذا العصر وهما الفقه والقانون ، ولكني ابحث نظم الكنيسة وماليتها ، ونظم اقامة العدالة ، والحالة الاجتماعية لرجال الكنيسة ورجال القانون . وبالمثل لا يشتمل الكتاب الا على القليل من الادب والتعليم والفن والعمارة ، ولكنه يشتمل على الحديث عن الجامعات والمدارس والمهندسين والفنانين وصناعة البناء» .

يتضح من هذه الافتتاحية اي نوع من الكتب هذا الكتاب الجديد ، ذو الثلاثة أجزاء وجزء رابع خاص بالخرائط . فهو كتاب للنظم بشتى أنواعها قبل كل شيء . ولكن دراسة النظم ليست غيرها من الدراسات ، كما ان طريقة تنظيمها تختلف عن طريقة تنظيم تواريخ الدول السياسية والحروب . ويحدثنا المؤلف مرة ثانية عن كيفية معالجته لهذه المشكلة . فيقول : (المقدمة) «لقد وجدت مشقة كبرى في عرض وتقديم ما لدى من مادة . من الناحية المثالية يجب ان يكتب العمل التاريخي على اساس التسلسل الزمني ، الذي لا يقتصر فقط على اظهار التطور الذي طرأ في وقت معين على كل عنصر في البناء العام بل كذلك التداخل والتفاعل بينها . ولقد ثبت في مجال دراستي هذه استحالة تحقيق ذلك . ففي كثير من مجالات الحياة كادت الاحوال ان تكون غير متغيرة – أو لعلها تبدو كذلك لنقص الادلة التفصيلية . وفي اكثر الحالات كانت الحركة من البطء بحيث ان خيط الاستمرار في كل منها لايكاد يتضح ، اذا أنا قمت بدراسة الموضوع برمته في كل عقد او حكم او حتى قرن من الزمان . ولهذا قمت بتنظيم مالدى من مادةحسب الموضوعات ، معالجا كل موضوع حسب التسلسل الزمني قدر المستطاع . ولكني شعرت ان القاريء الذي ليست لديه ألفة بالعصر ، قد تغمض عليه معالم التطور العامة ، فرأيت أن أسلك

طريقا وسطا ، بأن يسبق القسم الخاص بالفصول التحليلية للنظم ، قسم يشتمل على سلسلة من الفصول القصيرة للسرد التاريخي . في هذا القسم قمت بعرض للتاريخ السياسي والحربي والديني ، مع تأكيد العاملين الاجتماعي والاقتصادي» .

على أن العقبة الكبرى بالنسبة للدراسات الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ هي الحصول على المعلومات الاساسية الصالحة لمثل هذه الدراسات . وهي وان كانت ممكنة بالنسبة للدراسات الحديثة ، فذلك راجع الى وجود الاحصاءات والاسعار والمعلومات اللازمة لتفسير الظواهر الاجتماعية والاقتصادية . ومع ذلك فكثيرا ما لاتتوفر هذه المعلومات حتى بالنسبة للعصور الحديثة ، وكثيرا ايضا ما تكون هذه المعلومات حتى بالنسبة للعصور الحديثة ضعيفة، فيسهل الزلل ويقع الخطأ، فاذا حاولنا تطبيق هذه الدراسات بالنسبة للتاريخ القديم ، اصبح الامر اكثر مشقة والخطأ اكثر احتمالا . ونحن نعرف أن المؤرخين القدماء قلما اهتموا بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية ، وما لديهم من معلومات من هذا القبيل ، فهي ترد عرضا دون ان تقصد لذاتها . ونتيجة لذلك كانت المعلومات ذات القيمة الاجتماعية والاقتصادية مبعثرة في المصادر وقد نعثر عليها حيث لا نتوقع وجودها . ولذلك كان لزاما على الدارس الحديث ان يستقصي المصادر القديمة بعناية شديدة ، وعليه ان ينقد ما يجد من معلومات وارقام نقدا صحيحا حتى يتيقن من قيمتها .

وكان على مؤرخنا ان يفعل هذا بالنسبة لمصادر عصره . وليس ذلك بالامر الهين ، فهي من الوفرة بحيث «ان حياة بأسرها لا تكفي لقراءتها جميعا» . وهو قول لا مبالغة فيه ، فان سير الاباء المسيحيين فقط تكاد تتعدى المئات من المجلدات ولذلك يخبرنا المؤلف انه استبعد من كتابات العصر كتب الفقه المسيحي وشروح التوراة ، باستثناء ماله قيمة تاريخية منها . عدا ذلك قرأ جميع كتب التاريخ سواء اليونانية أو اللاتينية او السريانية (الاخيرة مترجمة) ، وكذلك جميع الخطب والرسائل وقصائد وخطب المدح ، وكل البردى الذي تم نشره وبعض ما لم ينشر ، وكذلك النقوش الكتابية على الحجر ، أما المجموعات والمنشورات القانونية ، فيقول أنه قرأها واعاد قراءتها مرات عديدة . وبالنسبة للعملة استقصى كل مانشر منها وافاد من علماء العملة الذين استشارهم ، أما بالنسبة للاثار فانه زار المواقع الاثرية في 94 ولاية من مجموع الولايات الرومانية البالغ

عددها 119 ولاية . بل لعل حرصه على زيارة اكبر عدد ممكن من المواقع الاثرية للامبراطورية كان من اسباب تأخر صدور الكتاب . وحتى الاماكن التي لم يتمكن من زيارتها ، فقد كان ذلك راجعا لظروف خارجة عن ارادته . بسبب الاضطرابات السياسية او الحربية ، أو لان بعضها يقع في مناطق عسكرية . .

من هذه المقدمة يتضح لنا أولا سعة احاطة المؤلف بمصادر عصره ، حتى لقد قيل انه لم يوجد شخص اخر اكثر منه دراية وعلما بأحوال الامبراطورية الرومانية . ويتضح لنا ثانية مقدار استعداده العقلي لمعالجة موضوعات الاجتماع والاقتصاد والادارة بصفة خاصة . أما من حيث التنفيذ العلمي لمشروعه ، فقد قسم كتابه الى قسمين ، كما جاء في المقدمة ، قسم للعرض التاريخي (ص 3 الى 318) وقسم للوصف التحليلي للنظم (ص 321 الى 1068) .

وهو يبدأ القسم الاول بفصل تمهيدي عن الامبراطورية قبل دقلد يانوس ، اي في القرون الثلاثة الاولى . وفي هذا الفصل يحدد مراكز القوة . في بناء الامبراطورية ، وهما مجلس السناتو (مجلس الشيوخ) والجيش . كان السناتو لايزال ايطاليا في اكثرية اعضائه ، وعدد قليل من الولايات اللاتينية الغربية ، وعدد أقل من الولايات اليونانية الشرقية . وكان يمثل الطبقة الارستقراطية الاكثر ثراء في الامبراطورية . لذلك لم يكن غريبا أن تعلقوا بالمبادئ الجمهورية الرومانية ـ رغم تقادم العهد عليها ، ومن ثم كانوا يميلون الى الاخذ بمبدأ اختيار الامبراطورية

ويقاومون الاخذ بمبدا الوراثة فيمن يلي العرش (ص 3 و 21) .

أما الجيش فكان يمثل المواطنين العاديين في انحاء الامبراطورية ولا يحفل كثيرا بالمبادئ والقواعد الدستورية ، وكان ولاؤهم لشخص الامبراطور واسرته . ونظرا لان اكثرهم لم ير ان له مصلحة شخصية مباشرة في الحياة السياسية لذلك كانوا يفضلون الاخذ بمبدأ شرعية الامبراطور عن طريق الوراثة . ويتضح هذا الاختلاف بين موقفي السناتو والجيش في عدة مناسبات مثلما حدث عندما قتل الامبراطور كاليجولا ، أعد السناتو الخطة لاستعادة الجمهورية ، بينما أفسد عليهم الجيش خططهم باعلان كلوديوس امبراطورا ، لا لصفة يتميز بها غير انه من اسرة الامبراطور . ولكن موقف الجيش هذا وتعلقه بالاشخاص اكثر من حرصه على الدستور او النظم ، احيانا ما كان يفوز به قائد ماهر ، فيكتسب

ولاءهم في فترات الاضطراب ، كما حدث للقائد تسبسيان الذي نال ولاء جنوده واعلن نفسه امبراطورا . وبعد ذلك بقي الجيش على ولائه لابنائه (ص 3 ـ 4ـ) . لذلك لم يكن غريبا ان مال الاباطره الي جانب الجيش واغدقوا عليه الهبات ، بينما ناصبوا السناتو العداء ، وحاولوا الاضعاف من نفوذ اعضائه : ضمن ذلك استبعاد تعيين القواد العسكريين من بين صفوف السناتو ، وتفضيل الطبقة المتوسطة في ذلك (وهي الطبقة التي عرفت اصطلاحا باسم طبقة الفرسان) (ص 24) .

أما من حيث الظروف الاقتصادية التي سادت الامبراطورية ، فما من شك ان القرن الثاني الميلادي كان اكثر عصور الامبراطورية سلاما ورخاء وازدهارا .ولكن ما أن اقترب القرن الثاني من نهايته حتى بدأت تنتاب الامبراطوريه هزات عنيفه ، هجمات المتبربرين بعنف على الحدود الاوروبية ، وتصدع النظاما لاداري في الولايات ، وزيادة في الضرائب للانفاق على الحروب . وتتابعت الازمات في القرن الثالث ، حين انقسم ولاء الجند بين ادعياء العرش ، مما ادى آخر الامر الى تعاقب الحروب الاهلية . وقد أطلق على هذه الفترة اسم المحنة الكبرى للامبراطورية فانهار الوضع الاقتصادي للامبراطورية وكان من اكبر ، مظاهره حدوث التضخم المالي في القرن الثالث وارتفعت الاسعار بشكل لم يؤلف من قبل . وهو يستشهد على هذه الحالة ـ بوثيقة بردية ، نادرة المثال ، عثر عليها في البهنا بصعيد مصر . وفيها يطالب النساجون في تلك البلدة بزيادة الاسعار لانتاجهم بسبب زيادة اسعار المواد الخام ، وزيادة اجور العمال » (ص 28) . ونتيجة للتضخم المالي وانخفاض سعر العملة هجرت الدولة الاقتصاد المالي الذي كانت العملة اساس التعامل فيه ، الى الاقتصاد العيني الي حد بعيد ، بحيث اصبحت كثير من الضرائب تجمع عينا من السلع والمحاصيل ، وكذلك جزء كبير من الرواتب كان يدفع في صورة مواد تموينية وثياب (28 ـ ـ 31) .

ومما زاد الامر اضطرابا تفجر موجات الاضطهاد والتنكيل ضد المسيحيين ، الذين كانوا لايزالون أقلية دينية ، رغم زيادة انتشارهم . وكان موقف الحكومة الرسمي هو ان اسباب الكوارث وان العناية الالهية (Pax deorum) قد تخلت عن الامبراطورية لانها سمحت بوجود المسيحيين الذين لا يتعبدون لالهة الامبراطورية . ومن ثم كان لابد من القضاء على الحركة المسيحية ، وقد تمثل هذا الموقف في اضطهاد الامبراطور ديكيوس ضد المسيحيين (33 ـ 34) .

بعد هذا التحليل لفترة المحنة الكبرى في القرن الثالث ، يعقد المؤلف فصلا عن دقلد يانوس فقد استطاع من بين صفوف الجند ان يكتسب ولاءهم وان يعلن نفسه امبراطورا . ويعتبر جونز حكم دقلد يانوس بداية العصر الاخير للامبراطورية نظرا لما استحدثه من نظم سارت عليها الامبراطورية بعده حتى عصر جستنيان . ولعل أعظم انجازات دقلد يانوس - في نظر جونز - هي انه حكم احدى وعشرين سنة واعتزل الحكم باختياره وقضى باقي ايامه في سلام (40) . وقد يبدو عند الوهلة الاولى ان في هذا القول شيئا من المبالغة . ولكن هذا الرأي يصبح اكثر اقناعا بالنظر الى الفترة السابقة عليه ، حين بدا ان تحقيق الاستقرار السياسي امر مستحيل : الامبراطور جالبينوس فشل في القضاء على حركات التمرد والعصيان ، والامبراطور اوريليان قتل بعد خمس سنوات من الحكم ، والامبراطور تاكيتوس حكم ستة اشهر فقط ، وأخوه غير الشقيق فلوريان هزم بعد ثلاثة أشهر فقط امام مدعي آخر للعرش وهو بروبوس . ودام حكم بروبوس ست سنوات واجه فيها أربع ثورات ، ثم مات مقتولا بواسطة وزيره كاروس . وكاروس بدوره مات في ظروف غامضة بعد أقل من سنة واحدة ، ولحق به ابنه على يدي وزيره أبير . وأخيرا قتل أبير بواسطة دقلد يانوس الذي اعلنه الجند امبراطورا .

ودقلد يانوس من كبار المصلحين الذين عرفتهم الامبراطورية الرومانية ولكنه مصلح من النوع المحافظ ، أي انه كان يريد ان يعيد الامبراطورية الرومانية الى سابق شأنها ، ولذلك لم يكن غريبا أن تحمس للالهة القديمة التي رعت الامبراطورية من قديم ، وشن اكبر وآخر اضطهاد عرفه المسيحيون . ولكن أعماله الاخرى كانت اجدى على الامبراطورية وأبقى .

في علاجه لعصر دقلد يانوس يتبع المؤلف منهجه التقليدي الذي التزم به في فصوله الاخرى ، فهو يبدأ بعرض وتقييم مصادره ، منبها القارئ لمواطن القوة والضعف في كل منها . فرغم أن أخبار دقلد يانوس قد وصلتنا عن طريق عدد من المصادر القديمة ، الا اننا لازلنا نفتقر لمؤرخ سياسي معاصر لدقلد يانوس في حين أن المؤرخين المعاصرين او الذين كتبوا بعد عصره مباشرة ووصلتنا كتاباتهم وهم من مؤرخي الكنيسة الذين يجب أخذ كلامهم عن دقلديانوس بحذرشديد . وذلك مثل تواريخ يوسيبيوس ولكتانتيوس Lactantius فكلاهما يكتب من وجهة نظر مسيحية محضة ويجعل الاضطهاد الديني الذي تعرض له المسيحيون هدفا أساسيا لكتاباتهما ومع ذلك فقيمة كتاباتهما الحقيقية فيما تضمنه من أخبار

معاصرة تلقى ضوءا كثيرا على الظروف والحياة العامة للعصر . وكذلك الحال بالنسبة لكتب « الشهداء » ، التي وصلنا عدد منها . ثم هناك الكتابات المتأخرة ـ غير المعاصرة ـ وهي أقل قيمة ولكنها لا تخلو من فائدة بطبيعة الحال . ولكن هذا الضعف بالنسبة للمصادر الادبية تعوضه المصادر القانونية بعض الشيء . فقد اشتمل العمل القانوني الذي قام به جستنيان والمسمى «المنتخب» (Degest) على نحو ثلاثمائة

قام به جستنيان والمسمى «بالمنتخب» (Degest) على نحو ثلاثمائة

المجموعة من القوانين ذات قيمة محدودة بالنسبة للمؤرخ ، لانها جميعها تنتمي الى العقد الاول من حكم دقلد يانوس . غير أن هذا النقص في المصادر القانونية يلقى تعويضا لابأس به في الوفرة من النقوش والبردي التي عثر عليها من عصر دقلد يانوس ، ويضاف اليها اخيرا كتاب :

Notitia Dignitatum «اي سجل المناصب الكبرى في الامبراطورية» .

وهكذا بعد أن يطلعنا المؤلف على أحوال مصادره ، يبدأ في العرض لعصر دقلد يانوس . موجزا الاحداث والحروب اولا الى اقل حيز مستطاع . وهنا يشعر القارىء كأن المؤلف مضطر الى ذلك اضطرارا ، ولهذا تتسم فقرات الحروب بطابع السرد ، وهو لايكاد يحفل بالجوانب الحربية أو العسكرية المحضة ، استراتيجية أو تكتيكية ، ولكنه لايغفل أبدا تكوين الحمله الاجتماعية وأعوادها وأسماء قوادها وطبقاتهم وجنسياتهم ، ثم تكاليف الحملة ومصادر الانفاق عليها ، كلما توفرت لديه مثل هذه المعلومات . ولكن حيوية المؤلف الذهنية تتألق وتكتسب كتابته أسلوب التحليل العلمي الدقيق حين يتجه الى تحليل الشخصية التاريخية ودوره التاريخي بالنسبة للنظم بصفة خاصة . فبالنسبة لشخصية دقلد يانوس يقول :

«وتظهر قصة احداث هذه السنوات أيضا أن الاجهاد من الحرب ليس ضمانا كافيا ضد الحروب الاهلية ، وأن فريق الاباطرة (الذين أشركوا في الحكم) لم يكن بالضرورة متناسقا . في الواقع انها تظهر بقوة أن شخصية دقلد يانوس المسيطرة هي التي منحت الامبراطورية عشرين سنة من السلام النسبي . وان العمل الذي أنجزه ليبدو اكثر روعة ، نظـرا لان دقلد يانوس ـ مع كونه جنديا قديرا ـ لم يكن قائدا عظيما ، وعهد بحكمه الى زملائه في الحكم بقيادة الحملات الكبرى . أما عبقريته فتتجلى في مواهبه التنظيمية ، وأثناء سني حكمه العشرين أقام بناء اداريا محكما منح الامبراطورية فرصة جديدة للحياة» .

وتظهر جهود دقلد يانوس التنظيمية في مجالات ثلاثـــة : الادارة والجيش والمال . وكانت أعظم انجازاته في مجال الادارة ، بعد أن رأى النظام السابق قد تعرض للتفكك والانهيار . ورأى أن من العسير أن تدار أمور الامبراطورية على اتساعها عن طريق ادارة مركزية واحدة . فاتخذ الخطوة الاولى نحو تقسيم الامبراطورية الى قسميها الاساسيين الشرقي والغربي . وبدلا من أن يستأثر بالسلطة العليا في القسمين ، أقام زميـلا له ومكافئا له في السلطة في القســم الغربـي وهــو مكسيميـان

(Maximianus) ومنحـــه اللقــب الامبراطـــوري «أغسطس» (Augustus) واقتصرت مسؤولية دقلد يانوس على القســم الشرقي ، واقتصر تميزه على زميله باعتباره (Sinior Augutus) ولكن العلاقة بينهما تتمثل بصورة أوضح في الاسماء المقدسة التـــي اتخذها كل منهما ، وهما جوفيوس Jovius هرقلويــس Herculuis

فدقلد يانوس هو الممثل على الارض لجوبيتـر (Jupiter Optimus Maximus) رب الالهة والناس ، ومكسيميـان

هو الممثل لهرقل ، رسوله البطل لنزع الشرور التي اصابت العالم . وبعد ذلك ألحـق بكـل امبراطور «اوغسطس» وكيـل مساعـد يلقب «قيصـر» (Caesar) (ص 38) وهكذا يمكن ان يقال أنه وجد أربعة حكام للامبراطورية .

ثم انه استبعد أعضاء السناتو من التعيين لمنصب حكام الولايات ، واعتمد على الطبقات الاقل . وفي الولايات التي بها حاميات عسكرية فصل بين السلطتين المدنية والعسكرية . ومن أجل أحكام العمل الاداري وعملا بمبدأ اللامركزية ، قسم كلا من قسمي الامبراطورية في الشرق والغـرب دوقياس Dioeceses تشتمل كل منها على عدد من الولايات .

هذه هي المعالم الرئيسية لاصلاحات دقلد يانوس الادارية في أبسط خطوطها وما من شك أنها حققت قدرا كبيرا من الكفاءة الادارية ، ولكنها حققت ذلك بقدر أكبر من التكاليف ، لان سياسة تفتيت المناصب الكبرى وانشاء ادارات جديدة لاقسام الامبراطورية الجديدة ، أضافت عبئا ماليا جديدا على المالية . ويقدر المؤلف تكاليف هذا الاصلاح الاداري بما يعادل تكاليف خمس فرق من الجيش تقريبا . وهو يعتبر ذلك عبئا ثقيلا علـــى امبراطورية منهكة (ص 43 ـــ 51) .

أما بالنسبةلاصلاح الجيش فيبدأ المؤلف حديثه باقتباس فقــرة معروفة للمؤرخ زوسيموس Zosimus) يقارن فيها بين موقف كل من دقلد يانوس والامبراطور قسطنطين من الجيش ، حيث يقول :

«بفضل نظرة دقلد يانوس الثاقبة ، حشدت حدود الامبراطورية في كل مكان بالمدن والحصون والقلاع ، كما سبق أن ذكرت (الفقرة مفقودة) ، واقيم الجيش باسره عندها ، بحيث كان من المستحيل على المتبربريــن اقتحامها ، لان قوات الدفاع صدت المعتدين في كل مكان . أما قسطنطين ، فدمر هذا النظام الدفاعي ، لانه سحب معظم الجنود من الحدود ، وأقامهم في المدن التي لم تكن في حاجة الى الحماية» . ولكن المؤلف لا يقبل مثل هذه التعميمات في لغة المصادر ، ويضيف انه وجدت في عصر دقلد يانوس وكذلك من قبله ـ في الاعم الاغلب ـ قوة متحركة تحت قيادة الامبراطور مباشرة ، وكانت تصاحبه في كل تنقلاته ، ومن ثم سميت «قوة المعيــة» (Comitatus) ولا ثبات وجود هذه القوة تحت دقلد يانــوس ، يستشهد الملف بثلاثة نقوش لاتينية وبوثيقة برديـــة ويكتب أعمـــال الشهداء المسيحيين . أما بالنسبة لوجودها قبل دقلد يانوس فيستنتجـه المؤلف من سجلات محاكمات الشهداء في شمال افريقيا على النحـــو التالي :

يسأل الموظف المختص بالمحاكمة المتهم المسيحي ، واســـم فكتور ، عن حاله وعمله . ويرد فكتور بقوله انا استاذ للادب والنحـــو اللاتيني .. وكان والدي عضو المجلس في مدينة قسطنطينة ، وكان جدي جنديا وكان قد خدم في قوة المعية (Comitatus) لان اسرتي مــن بربر شمال أفريقيا «ولما كان فكتور أستاذا للنحو وقارئا في الكنيســة في سنة 303 ، عام الاضطهاد الاكبر ، فلابد أن جده خدم في قوة العمية قبل عصر دقلد يانوس ومما يزيد في اهمية هذا النص انه يطلعنا على جانــب من تكوين قوة المعية اجتماعيا ، وأنها اشتملت على وحدات من بربــر شمال أفريقيا .

هذا مثال من طريقة المؤلف في نقد المصادر ومناقشتها . وبعد ذلك يستمر في تحليل تكوين «قوة المعية» وطرق تدعيمها عند الحاجة لتوجـــه بسرعة الى منطقة مضطربة . ويضيف اليها قوة الحرس الامبراطـــوري Scholae التي يعتقد ان دقلد يانوس هو مؤسسها ، رغم أنهـــا تظهر في المصادر الاولى في نهاية عصر قسطنطين ، مستخدما المنهج ذاته .

وأخيرا يعود المؤلف الى عبارة زوسيموس السابقة ويقول أنها ـ بعد النقد السابق ـ صحيحة في أساسها ، وان اهتمام دقلد يانوس الاكبر اتجه الى تحصين حدود الامبراطورية ، يؤكد ذلك النقوش والدليل الاثري الذي يوضح جهوده في بناء الطرق العسكرية والحصون . في شمال افريقيا وسوريا وحدود شبه الجزيرة العربية وعلى الراين والدانوب (55 ـ 56) .

بعد ذلك يدخل المؤلف في دراسة تفصيلية محاولا معرفة حجم الجيش على عصر دقلد يانوس ، مستخدما المصادر بشتى انواعها الادبية والوثائقية من نقوش وبردى وكذلك النصوص القانونية . وينتهي الى ان الجيش زاد حجمه الى الضعف على عهد دقلد يانوس . ولكن اذا كانت هذه الزيادة قد حققت السلام على الحدود والامن في الداخل ، فان المؤلف ينبهنا الى أن هذه الزيادة كان لها نتيجتان اخريتان بالنسبة لمستقبل الامبراطورية . والنتيجة الاولى أن الزيادة التي استحدثها دقلد يانوس ألقت عبئا كبيرا على القدرة البشرية للامبراطورية . وعلى سبيل التخفيف على الامبراطورية ، لجأ الى التوسع في استخدام المتبربرين من وراء حدود الامبراطورية ، من الفرنجة والالمان والسكسون والوندال والقوط وغيرهم . وخصص لاستيطانهم مساحات من الارض في ايطاليا والغالة ، بشرط ان يصبحوا هم وأبناؤهم ملزمين بالخدمة العسكرية . ولكن أعداد المتبربرين الذين استطاع استخدامهم في الجيش لم تكف ، وظل العدد الاكبر من المجندين يجمع قسرا من بين أهالي الامبراطورية .

أما النتيجة الثانية لزيادة حجم الجيش فهي العبء الاقتصادي والمالي .

ويوضح المؤلف هذا الموقف بجملة ذات دلالة للمؤرخ لكتانتيوس Lactantuis
«أن اعدادمن تسلموا رواتب واجورا بدأ يفوق اعداد دافعي الضرائب انفسهم» (ص 61) .

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى الحديث عن محاولة دقلد يانوس في اصلاح نظام العملة . وهو يجمل رأيه في هذه المحاولة على هذا النحو «بذل دقلد يانوس جهودا صادقة في سبيل اقامة نظام سليم للعملة ، لعله يتحكم بذلك في الاسعار . فأصدر عملة جديدة من الذهب والفضة ، معلمة بأوزانها ، وكذلك اصدر كمية كبيرة من العملة البرنزية المطلية بالفضة . وما من شك أنه كان يقصد الى ايجاد نظام موحد للعملة من الذهب والفضة

والبرنز ، مثل ذلك الذي وجد قبل فترة التضخم . وما من شك أنه فشل . لان ما أصدره من الذهب والفضة كان قليلا قطعا . بينما استمر في اصدار عملته البرنزية بكميات كبيرة . ومن ثم استمرت الاسعار في الارتفاع ، واكتسبت العملات الذهبية والفضية قيمة أعلى من قيمتها الاسمية» .

وفي سنة 301 حاول دقلد يانوس وقف هذا التيار ببيانه المشهور عن الاسعار (Edictum de Pretiis) الذي حدد فيه حدا أعلى للاسعار والاجور بكل تفصيل ، وأنذر بالاعدام كل من يتعداها أو يخبىء سلعته من السوق . ورغم تنفيذ احكام الاعدام بقسوة . فان هذا العمل – كما يقول لكتانتيوس – فشل تماما : فاختفت السلع وسرعان ما اصبح البيان مجرد حبر على ورق» .

رغم هذه المحاولات الفاشلة ، سارع دقلد يانوس الى حماية مصالح الدولة المالية عن طريق اصلاح نظام الضرائب . فقام بمسح شامل لكل ما تقع عليه الضريبة من أرض ودواب وسكان ، وأعاد تقييم الضرائب حسب مساحة الارض وما عليها ، وتوسع في نظام الضرائب النوعية ، حتى لا تتأثر قيمة الضرائب بالتضخم وانخفاض سرعة العملة . ولكن كان من النتائج الخطيرة لهذا الاصلاح – التي ستظهر فيما بعد – هو الاتجاه الى ربط الافراد الذين تستحق عنهم الضريبة بالارض التي يسجل عليها (ص 68) .

حاولت في هذا العرض أن أبين منهاج المؤلف في معالجة عصر دقلد يانوس ، وسوف يلتزم بهذا المنهاج في العصور التالية أيضا ، التي سوف لا اتعرض لها ، كما فعلت بالنسبة لفصل دقلد يانوس . ولقد التزمت في ذلك بالاختصار الشديد الذي يتناسب مع طبيعة هذا العرض والتحليل . ولابد للقاريء أن يرجع الى الكتاب الاصلي ، لان التفصيلات التي يوردها المؤلف وطريقة عرضه لها وتحليلها ونقدها ثم الخروج بنتائجه هي التي تمنح الكتاب قيمته الحقيقية . فالمؤلف لا يحيد عن موضوع مهما بلغت صعوبته ، ويستهويه بصفة خاصة تناول الموضوعات غير المطروقة ، واذا بها في يديه تكتسب أهمية تاريخية لم يلتفت اليها احد من قبل .

قسطنطين هو موضوع الفصل الثالث من الكتاب . وهو فصل له طرافته نظرا لاهمية قسطنطين بالنسبة لتاريخ الكنيسة ، وجونز ليس من مؤرخي الكنيسة بحال . والكنيسة التي يتحدث عنها في فصول كتابه لا تعدو ان تكون مؤسسة اجتماعية اقتصادية ، اما كونها مؤسسة دينية ،

فان ذلك لا يستهويه كثيرا . ومن ثم لا يعتبر دور قسطنطين المسيحي من الاعمال العظيمة . وليس سبب ذلك الموقف أنه يشك في صدق عقيدة قسطنطين اوانه اصطنع المسيحية لاهداف سياسية ، بل يعتقد ان قسطنطين كان صادقا حين اعلن المسيحية . ولكن المؤلف يقيم موقفه من قسطنطين على اساس أنه شخصية تاريخية قبل كل شيء ، وعلى هذا الاساس يصف شخصيته بهذه العبارة : «ان شخصية قسطنطين كما يتضح من أعماله وأقواله تدل على رجل سريع الانفعال ، حاد الطبع ، شديد التدين بأسلوب ساذج ، ولكنه فوق كل شيء طموح للسلطة وشديد الثقة في حسن طالعه» .

ولكن اذا كان مؤلفنا يسلم بصدق عقيدة قسطنطين الدينية ، فهو غير مستعد للتسليم بكل تفاصيل تجربة الامبراطور الدينية . فمن ذلك ماروا‌ه قسطنطين نفسه ، أنه رأى ـ وهو في طريقه الى الحرب سنة 311 ـ علامة في السماء على هيئة صليب من الضوء يعترض قرص الشمس . ويعقب المؤلف على ذلك بأن ليس هناك ما يدعو الى الشك في قوله ، لان الصليب ، رغم كونه ظاهرةنادرة الحدوث ، هو احدى أشكال «ظاهرة الهالة» ، واعتبره وعدا بالنصر . أما قوله انه رأى الكلمات اللاتينية Moc Signo vince (بهذه العلامة انتصر) مكتوبة بالنجوم حول الصليب ، فهو من نسج خياله دون ريب .

على أي حال يعتقد المؤلف ان اعتناق قسطنطين للمسيحية كان حاسما بالنسبة لمستقبل الدين الجديد ، ويرى أنه «لولا اعتناق قسطنطين للمسيحية بمحض الصدفة ، ربما استمرت المسيحية دين أقلية ، كما حدث في الامبراطورية الفارسية حيث لم يعتنق أي ملك المسيحية .. »

أما جهود قسطنطين في مجالات الدولة ، فكانت ذات طابع محافظ وعملي فبالنسبة للجيش كان قسطنطين قائدا قديرا ، وتجربته الشخصية جعلته يعتقد أن الفتن الداخلية أكثر خطرا على الحكم من الغزوات الخارجية . وهو موقف يختلف كما رأينا عن موقف دقلديانوس الذي كان أبعد نظرا وربما أكثر ثقة بنفسه . لذلك اتجه قسطنطين الى زيادة «جيش المعية» تلك القوة الضاربة المركزية التي كانت تتحرك مع الامبراطور حيث تدعو الحاجة . في حين أنه لم يهتم بحاميات الحدود ، وما ينبغي أن نصدق عبارة المؤرخ الوثني زوسموس مهاجما قسطنطين باعتباره مسؤولا عن أضعاف دفاع الحدود . فلعل هذا الضعف كان نتيجة لسياسة قسطنطين دون أن يقصد الى اضعافها أو سحب الجنود من الحدود (97 وما بعده) .

على أن أهم اصلاحات قسطنطين الداخلية هي اصدار عملة ذهبية جديدة تسمى الصوليدوس Solidus ، والتي حافظت على وزنها ونقائها الى القرن الحادي عشر (107) . أما عن مصادر الذهب لعملته الجديدة فكانت عن طريق جمع الضرائب بالذهب ، أو شراء الذهب من الاسواق ، ولكن اهم مصدر من غير شك هو ما صادره من أملاك المعابد التي توسع فيها بصورة مضطردة . ونحن نعرف مقدار ثراء المعابد القديمة .ولكن مهما تكن اهمية العملة الذهبية الجديدة لاقتصاد الامبراطورية على المدى الطويل ، بنتائجها المباشرة كانت محدودة . ولعل السبب في عدم تحقيق فائدة مباشرة منها هو جنوح قسطنطين الى البذخ والاسراف . وكان يسره أن يتملقه المادحون بالكرم . وهكذا لم يكفه ماكان مدخرا في خزائن الدولة ، وانفق كل ما صادره من المعابد في غير طائل اقتصادي . فكثير منها تحول من المعابد القديمة الى الكنائس الجديدة . وحين استنفد كل ما تجمع لهمن الذهب فرض ضريبتين جديدتين تجمعان من الذهب (109 ـ 110) .

لذلك لم يكن غريبا انصاغ مؤلفنا حكمه على قسطنطين بهذه العبارة : «لقسطنطين انجازات عظيمة كثيرة . فهو الذي اقام دعائم المسيحية باعتبارها دينا للامبراطورية . كما أنه أنشأ عاصمة جديدة (القسطنطينية) التي قدر لها ان تستمر الف سنة بعد سقوط روما . ونظم جيشا متحركا قويا ، وأرسى قواعد نظام الذهب للعملة . ولكنه من ناحية أخرى ضرب بسلوكه مثلا للاسراف في النفقات والاستهتار المالي ، مما زعزع استقرار الامبراطورية اقتصاديا » . (ص 111) .

وحتى بعد قسطنطين ، خلال القرن الرابع استمرت سياسة الاسراف الحكومي ، وكانت نتائجها شديدة الخطر . فكلما وجدت الدولة نفسها في حاجة الى المال ، اتجهت الى فرض مزيد من الضرائب على سكان الامبراطورية الى درجة مرهقة كل الارهاق بدافعي الضرائب (ص 130) .

ويمكننا ان ننتقل الان الى موقف المؤلف من سقوط روما في القرن الخامس . كان المتوقع ان يرجع مؤلفنا ، الذي يهتم في المحل الاول بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية من التاريخ ، سقوط روما الى أسباب اقتصادية واجتماعية أيضا . ولكن يبدو أن موقفه النهائي غير ذلك ـ فرغم ادراكه وتحليله لمظاهر الفساد التي اصابت الامبراطورية اداريا واقتصاديا واجتماعيا ، فيعتقد أنها وحدها لم تكن كافية لسقوط روما . فمن الناحية

الادارية انفصل غرب الامبراطورية عن الشرق حيث اصبحت القسطنطينية مركزا للحكم الحقيقي . ولم يوجد «قسما الامبراطورية» منذ نهاية القرن الرابع الى القرن السادس على يدي جستنيان . معنى هذا أن روما فقدت مركز الصدارة السياسية ، الذي اصبح يتمثل في القسطنطينية . ثم هناك مشكلة الضرائب التي زادت زيادة كبيرة . اعجزت كثيرين من دافعي الضرائب ، فهجر كثير منهم ما يمتلكون من أرض . وعاد ذلك بالضرر على الدولة ، لانها لم تتمكن من جمع الضرائب المطلوبة ، فلجأت الى وسائل تعسفية أخرى وهناك التضخم المالي ، حتى أن الدولة وجدت أن الضرائب المالية فقدت قيمتها . فلجأت الى الضرائب العينية ، وهو حل مكن الدولة من ان تحصل على القيمة الحقيقية لما تريد من الضريبة ، ولكنه شكل قيدا على الحياة الاقتصادية ، كما زادت من ضعف المزارع ، وخاصة المزارع الصغير . وأخيرا هناك استنزاف أعداد القادرين على الخدمة العسكرية بسبب كثرة الحروب ، سواء الحروب الاهلية او الخارجية . كما أن الاصرار على تجنيد أعداد كبيرة بصورة مستمرة من السكان ، معناه استنزاف الايدي العاملة اللازمة للزراعة بصفة خاصة . وحتى لا تتورط الدولة في هذه الكارثة ، اعتمدت بصورة متزايدة على تجنيد افراد القبائل المتبربرة ، واستيطانهم في الاراضي المهجورة على الحدود او في بعض أقاليم الداخل ويعتقد مؤلفنا أن هذه السياسة كانت مجدية على صيانة قوة الامبراطورية العسكرية الى حد ما .

هذه العوامل مجتمعة أثرت من غير شك على قدرة الامبراطورية ، ولكنها ، منفردة او مجتمعة ، لم تشكل العامل الحاسم في سقوط روما والامبراطورية الرومانية في الغرب في القرن الخامس في أيدي القبائل المتبربرة . اما العامل الحاسم في رأيه هو تكاثر هجمات المتبربرين على القسم الغربي من الامبراطورية في أثناء القرن الخامس على نحو لم يسبق له نظير . فاستطاع الاريك ملك القوط الغربيين من احتلال روما سنة 410 ، واستطاع جيزريك ملك الوندال من احتلال شمال افريقيا بين سنتي 435 ـ 442 ، وكذلك هاجم اتيلا ملك الهون الامبراطورية الشرقية بنجاح بين 441 ـ 449 ، الى درجة أنه طالب بنصف الامبراطورية ، وحين رفض طلبه تحول الى مهاجمة ايطاليا . يتضح من ذلك مقدار العبء العسكري الذي وقع على ايطاليا والغرب عامة ، في الوقت الذي لم تسلم فيه الامبراطوريه الشرقية من هجمات المتبربرين ومن الحروب ضد الفرس في شرق الامبراطورية . ولاثبات وجهة نظره في مدى الخطر العسكري الذي

تمثل في غزوات المتبربرين ، يورد لنا تقديرات لقوة جيوشهم مستمدة من المصادر . ومؤلفنا يعرف مدى المبالغة التي قد يجنح اليها بعض الكتاب القدماء في تقدير الارقام . وبعد تحليل دقيق للارقام ، يخرج بأن متوسط جيوش القبائل المتبربرة يتراوح بين 20000 و 25000 وفي ظروف أحسن قد يصل الى 40,000 للجيش الواحد . ولكن الامبراطورية كانت مواجهة بعدد كبير من هذه الجيوش الصغيرة نسبيا في وقت واحد وفي جبهات متعددة ، وأحيانا استطاع كبار قواد المتبربرين من ضم عدد من القبائل الاخرى تحت قيادته ، كما فعل أتيلا وبذلك اصبح لديه جيش كبير فعلا . ولكن بعد تقدير قوة الغزاة المتبربرين لابد من معرفة قدرة الجيوش الرومانية ذاتها . ويقدم لنا المؤلف تقديرا لها معتمدا على القوائم الواردة في كتاب (Notitia Dignitatum) فمن هذه القوائم الرسمية يمكننا أن نعرف أن الجيش في الامبراطورية الغربية سنة 425 اشتمل على 375 وحدة أي أقل من 250,000 رجل . وقد يبدو لنا عند النظرة الاولى ـ كما يقول المؤلف ـ أن هذا الرقم كفيل بمقاومة قبائل المتبربرين ، غير أن جزءا صغيرا من هذه القوات كان يمكن تجميعه وتوجيهه لاي حملة . فأولا أكثر من نصف هذه الوحدات (195 وحدة أو نحو من 135,000 رجل) كانوا يكونون حاميات الحدود ، ولا يمكن سحبهم من مواقعهم دون تعرض الحدود للخطر . وهذه الحدود نائية مترامية من الدانوب الى شمال البلقان فايطاليا فالراين والغالة وبريطانيا وشمال افريقيا . أما الجيش الميداني ويشتمل على نحو 180 وحدة أو 115,000 رجل فكانوا ايضا موزعين في الولايات الغربية كلها ، وكثير منها كان مرهقا بالحروب الاهلية والقضاء على الفتن . يتضح من ذلك انه لم يمكن في واقع الامر تجميع جيش كبير في مكان معين بسرعة ، الا على حساب الاقاليم الذي تسحب منه الجنود . وفعلا يستشهد المؤلف بمثال من سنة 405 أن الجيش الروماني الذي واجه احدى غزوات المتبربرين كان يتكون من 30 وحدة أي حوالي 23,000 رجل . وهو عدد مماثل لمتوسط جيش قبيلة واحدة أو أقل . فماذا حدث أن تعددت هجمات القبائل في أماكن متعددة في وقت واحد ـ كما وقع في القرن الخامس ـ أو كانت جيوشهم من الحجم الكبير ، اصبح التفوق

العسكري في جانب التبربرين (ص 183 ـ 186) . ومثل هذه الظروف هي التي مكنت الاريك ملك القوط الغربيين من الاستيلاء على روما سنة 410 ، وبعده استطاع أفيتوس ملك الغاليين ـ ان يغزو روما سنة 455 ومن بعده ريكيمر سنة 456 ، ثم اودوكر سنة 476 ثم تيودريك ـ ملك القوط الشرقيين سنة 493 (ص 240) .

من أمتع فصول الكتاب قراءة الفصل التاسع الذي يتحدث فيه المؤلف عن جستنيان . ويتضح ذلك بمقارنته بالفصل الخاص بقسطنطين حيث يبدو المؤلف غير مقتنع بكمال شخصية قسطنطين التاريخية . أما بالنسبة لجستنيان فيعتقد المؤلف انه من اكثر شخصيات التاريخ نضجا واكتمال شخصية . ومن حسن الحظ ان مصادر عصر جستنيان من اكثر عصور الامبراطورية الاخيرة وفرة وارتفاع قيمة (ص 266 ـ 267) مما مكن المؤلف من النفاذ الى شتى حقائق عصره مهما دقت . وهو يفتتح دراسته هذه بقوله :

«مهما يكن الحكم على سياسته وأعماله ، فلا شك أن جستنيان كان شخصية فذة ومن أشد الناس احساسا بمسؤولية الحكم ، كما كان موفقا فيمن عاونه من القواد والوزراء الاكفاء ، ولكن يرجع اليه الفضل على الاقل في أنه أحسن اختيارهم ، ورفعهم في كثير من الحالات من وظائف شديدة التواضع ، ووجه سياستهم ، وطالبهم بالولاء التام . ربما لم تكن مواهبه الشخصية من الطراز الاول ، ولكنه سخرها الى أقصى مدى لصالح الامبراطورية . وكان ذا قدرة هائلة على العمل ، يعمل الى ساعة متأخرة من الليل بصورة منتظمة ، وتشريعاته تظهر أنه اهتم بجميع أقسام الحكومة ، وأنه كان على علم تام بكل دقائق الحكم ومشاكله . كما تدل قوانينه على أنه كان شديد الاهتمام بمصالح رعاياه . واجتهد في أن يمنحهم حكام شرفاء ، يحمونهم من الابتزاز المالي ، ويضمنون لهم عدالة غير فاسدة» (ص 269) .

كان لجستنيان عاطفتان أساسيتان ترتفعان على كل اعتبار آخر ، عاطفة سياسية جعلته يعتقد ان رسالته هي ان يعيد الامبراطورية الى سابق عهدها باستعادة الولايات الغربية التي كان قد اغتصبها المتبربرون ، وأن ينقذ روما ذاتها من رق مشين . وعاطفة دينية ، اذ كان مسيحيا مخلصا ، ولذلك شعر ان واجبه ان يسحق الهرطقة والوثنية وأن يفرض العقيدة الصحيحة على جميع رعاياه .

وقبل أن ينتقل الى أحداث العصر ، نجده يحرص على أن يطلعنا على جانب رومانتيكي من شخصية جستنيان ، وهو علاقته بزوجته ثيودورا . وليس هدفه في ذلك تسلية القاريء أو الترويح عنه بقصة غرامية ، بل أنها جزء أساسي من دراسته لموضوعه ــ ولذلك فهو يعرض لها بأسلوبه العلمي الهاديء ليعرف القاريء منها على نوع شخصية جستنيان او جانب منها على الاقل ، ثم ليلقي ضوءا على الجو الذي أحاط بهذا الامبراطور في

قصره .و أعتقد أن من الانسب أن اترك المؤلف يتحدث بنفسه مرة ثانية :
«قبل ان يصل جستنيان الى العرش ، كان قد وقع في حب احدى الممثلات وهي ثيودورا ، وخالف العرف السائد واتخذها زوجة شرعية له ، بعد أن أقنع عمه (الامبراطور جستينوس) سنة 522 بالغاء القانون الذي يحظر الزواج بين أعضاء السناتو والممثلات . كانت ثيودورا موضع كراهية النبلاء ، ويصورها المؤرخ بروكوبيوس في كتابه «التاريخ السري» كامرأة شريرة سيطرت على زوجها ضعيف العقل . ما من شك أن جستنيان كان مولعا بها ، وفي أحد قوانينه يعترف صراحة بنصيحة «زوجتنا النقية الورعة التي وهبها الله لنا» . ولكن من المشكوك فيه أنه كان لثيودورا من التأثير على السياسة العامة بالقدر الذي يدعيه بروكوبيوس . بطبيعة الحال كان في استطاعتها في كثير من الحالات ان ترعى مصالح اصدقائها ، وأن تلحق الضرر بخصومها ، ولكن ـ حتى في المسائل الشخصية ـ كان تأثيرها على زوجها محدودا . فرغم أنها كانت تمقت يوحنا الكبادوقي ، فانه تولى الوزارة لمدة عشر سنوات ولم تتمكن من اسقاطه آخر الامر الا عن طريق مؤامرة شديدة التعقيد ، أقنعت جستنيان بخيانته . وبالنسبة للقضية الواحدة الكبرى التي اصطدمت فيها آراء ثيودورا مع آراء جستنيان ، لم تستطع التأثير في سياسته . اذ كانت ثيودورا شديدة التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة Monophysite ولكن جستنيان ـ رغم أنه حاول انتهاج أساليب مختلفة لاستمالة المعتدلين من اصحاب هذا المذهب ـ فانه لم يضعف أبدا في تأييده لعقيدة خلقيدون والبطش بخصومها . وأقصى ما استطاعته ثيودورا هو أن تمنح حمايتها لمن تعرض للاضطهاد من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة . وأن تشجعهم على الصمود بالتأييد الادبي» (ص 270) .

بعد هذا التعريف لشخصية جستنيان ، يتناول المؤلف أحداث عصره ، الذي يعتبر من أكثر عصور الامبراطورية ازدحاما ونشاطا وخصبا . ففي خلال الثلاثة عشر عاما الاولى من حكمه شرع جستنيان في تحقيق مطامحه من استعادة اجزاء من المتبربرين وتأمين الحدود المهددة ، فحارب الفرس في الشرق والوندال والبربر في شمال افريقيا والقوط الشرقيين في ايطاليا ، كما شغل بالقضاء على الفتن ضده في الداخل . وفي هذه الحقبة ذاتها لم تستأثر الحروب والفتن بكل عنايته . فكان يعين لها القواد الاكفاء ، وبقي هو يباشر الاصلاح في الداخل بنفسه . واتجه أولا الى اصلاح القانون ، فعين في 13 فبراير سنة 528 لجنة لعمل مجموعة قانونية جديدة ، لتحل محل المجموعات السابقة التي كانت اشهرها مجموعة

الامبراطور ثيودوسيوس الصادرة قبل بقرن من الزمان سنة 438 ، ولتضم ما صدر بعد ذلك التاريخ من تشريعات . في المجموعة الجديدة أسقطت جميع القوانين التي بطل العمل بها ، وأما القوانين التي استمر العمل بها اختصرت اختصارا شديدا ، او عدلت عند الضرورة . وصدرت المجموعة الجديدة في 7 ابريل سنة 529 ، وفي 15 ديسمبر من السنة التالية تكونت لجنة اخرى لتجميع اعمال المشرعين القدماء كذلك حوفظ على ملخص القوانين التي كانت لاتزال صالحة ، بعد تعديلها وتنظيمها حسب موضوعاتها استغرق هذا العمل ثلاث سنوات وصدرت في 16 ديسمبر 533 المجموعة المعروفة باسم المنتخب Digest كما صدر كتاب للقانون لاستخدامه في الجامعات (Institions في الفترة ذاتها ، 21 نوفمبر سنة 533 .

بعد صدور المجموعة القانونية Codex سنة 529 ، أصدر جستنيان . عددا كبير من التشريعات ، مبسطا أو مجددا القانون القديم ،وفي 16 نوفمبر 534 صدرت النشرة الثانية لمجموعة جستنيان القانونية Codex Justinianus)وهي التي نمتلكها الان . ولكن ذلك لم يضع حدا لاعمال جستنيان التشريعية . فهو لم يكتف بتعديل القوانين السابقة او توضيح ما غمض فيه من جوانب قانونية أصدر عددا من «القوانين الحديثة» (Institiones Novellae) مدعما بها القوانين في عدة نقط ، ربما يقصد عمل تجميع شامل للقانون ليحل محل المجموعة القانونية والمنتخب معا .

كثير من تشريعات هذه الفترة كانت ذات طابع اداري لاصلاح الاداره .

في انحاء الامبراطوريه المختلفه . ومن بينها أعادة تنظيم مصر في سنة 539 ـ على أكثر الاحتمالات . وفيه اعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية بالنسبة للمنصب الاول في الولاية الذي اصبح من يشغله يحمل لقبي Dux et Augustalis ولا يمكننا هنا أن نتعرض لشتى التفصيلات الادارية لهذا الاصلاح ، ولكن يرى المؤلف ان الرغبة في التبسيط والاقتصاد هي التي أملت التعديل . ولكن هذا الاصلاح ـ في رأي المؤلف ـ تميز بعيب خطير ، هو انه أضعف من قدرة الادارة المحليه من المحافظة على القانون والنظام ، كما أن فصل الولايات ـ اداريا ـ بالغاء نظام دقلد يانوس الخاص بالدوقيات عمليا ـ سمح للمجرمين بالهروب من ولاية الي أخرى حيث لا يقعون تحت طائلة القانون . ويقترح المؤلف

لعله كان من الاحكم الارتقاء بمستوى الادارة عن طريق زيادة المرتبات .
أما بالنسبة لسياسته الدينية في هذه الفترة ذاتها ، فقد اتسمت بالحزم التام ضد الوثنيين واليهود والسامريين والهراطقة ، أما حيال مذهب الطبيعة الواحدة فقد كان وسطا بين الضغط والاستمالة الى عقيدة خلقيدون التي اعتبرها العقيدة الصحيحة .

ولكن القسم الثاني من حكمه (540 ــ 565) فقد شغلته سلسلة من أحداث اخرى . ففي سنة 542 انتشر وباء الطاعون ، الذي اجتاح مصر وفلسطين وسوريا ثم تفشى في الامبراطورية وفي فارس ايضا . وكان هذا الطاعون من اكبر الكوارث التي اصابت العالم في القرن السادس ، وراح ضحيته اعداد كبيرة من الناس طيلة سنتين وفي موجات لاحقة . فزاد من مشكلة قلة الايدي العاملة واضر بالقدرة الانتاجية بصفة عامة .

وبعد ذلك تلاحقت عليه الحروب في الشرق والغرب بصورة مستمرة ضد الامبراطورية الفارسية على عهد الملك ، خسرو ، وفي ايطاليا والغالة واسبانيا وافريقيا وطراقيا والليريا . وفي فارس استطاع ان يصل ــ بعد فترة من القتال ــ الى صلح مع خسرو ، على ان يدفع لهجستنيان 3000 رطل من الذهب . أما في سائر الميادين الاخرى فقد استطاع أن يتفرغ لقتالها وأن يحقق انتصارات أكدت سلطانه في الغرب بصفة عامة .

وبعد أن يتعرض المؤلف لجوانب هذه الفترة الاخرى ، الادارية والمالية والدينيّة ، يحاول عمل «كشف حساب» لعصر جستنيان بأسره .

فيقول أن جستنيان استطاع زيادة رقعة الامبراطورية زيادة كبيرة ، باستعادة (المانيا وايطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا وشمال افريقيا وجزر البليار ومعظم شبه الجزيرة الاسبانية . ولكنه يعلق على ذلك «بأنه من المشكوك فيه اذا كانت هذه الفتوحات كانت سببا في اضعاف الامبراطورية أكثر من تدعيمها . ويمكن تقسيم المشكلة الى نقطتين ــ أولا يمكننا أن نتساءل ، اذا كانت حروب جستنيان العدوانية في الغرب لم تنهك الامبراطورية في الشرق ماليا وبشريا ، لدرجة أضعفت من قدرتها الدفاعية في منطقة الدانوب والجبهة الشرقية . ثانيا ، يمكننا أن نتساءل أيضا اذا لم تصبح البلاد التي استردها كانت عالة على الدولة لامكسبا

لها ، لانها احتاجت الى جنود من الشرق لحمايتها ، في حين انها لم تجلب دخلا يكفي للانفاق عليها . ونظرا لعدم توفر الاحصاءات اللازمة ، فانه لا يمكن الرد ردا قاطعا على أي السؤالين . ومع ذلك فهو لا يتركنا بغير محاولة للاجابة التقريبية ، والتحليل الذي يعرضه للموقف يبين ان الضرر كان بالغا ، وخاصة من وجهة نظر الاستنزاف المالي . (ص 298 ـ 302) .

حاولت في الصفحات السابقة أن أعرض لمنهج مؤلفنا جونز في دراسة تاريخ العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية . وهو الذي يشتمل عليه القسم الاول من كتابه . أما القسم الثاني من الكتاب فيشتمل على عرض تحليلي لنظم عصره المختلفة ، ويتكون من خمسة عشر فصيلا (الفصول من 11 الى 25) وتتناول الموضوعات التالية : الحكومة ، الادارة ، المالية ، القضاء ، اعضاء السناتو والنبلاء ، موظفو الادارة ، الجيش روما والقسطنطينية ، المدن ، الارض ، الصناعة والتجارة والنقل ، الكنيسة ، الدين والاخلاق ، التعليم والثقافة ، اضمحلال الامبراطورية . وقد يكون من العسير أن أعرض لكل هذه الفصول واحدا واحدا ـ لذلك سوف اقتصر فيما بقي من صفحات في هذا المقال على العرض باختصار لفصلين أساسيين فقط ، وهما فصلا المالية والاراضي ، لاعتقادي أنهما من اهم فصول الكتاب ، اذ أن الاقتصاد هو أهم الاسس التي تقوم عليها دراسة الكتاب بأسره . ولا أملك للقارئ المستزيد الا ان احيله على فصول الكتاب الاصلية .

أما بالنسبة لمالية الامبراطورية ، فنجد انها كانت تنقسم الى ثلاثة أقسام ادارية . وهي ـ ادارة الاملاك الخاصة بالامبراطور Res Privata) ، والادارة المالية العليا Res Summae وأصبحت تسمى فيما بعد الخزانة العامة المقدسة (Sacrae Largitiones) ورئيس الادارة الامبراطورية ((Praefectus Praetor) . وكل واحدة من هذه الادارات مسؤولة مباشرة أمام الامبراطور . ولكل مصادر أموالها وخزانتها وهيئة خاصة من الموظفين .

أما الادارة الاولى وهي «الخاصة بالامبراطورية» Res Privata فكانت تتولى ادارة جميع املاك الدولة ممثلة في شخص الامبراطور من الارض والمباني ، والمطالبة وضم جميع الممتلكات التي تؤول الى الدولة . كما كان من اختصاصها بيع او منح الممتلكات العامة للافراد . ويرأس

هذه الادارة الخاصة رئيس تغيرت القابه في العصور المختلفة ، مثل comes rei privatae Rationalis Magister وتتبعه هيئة مكتب من الموظفين officium ينقسم الى فروع مختلفة تختص بأعمال السكرتارية ومنح الارض والايجارات وعمل الايصالات ودفع الاموال لمستحقيها . كما كان للخاصة موظفون في الولايات المختلفة للاشراف على أملاك الامبراطور فيها . كما كان لها جهاز خاص للنقل (212 ـ 214) .

أما عن تكوين املاك الخاصة ، فكانت نواته ضياع الاسر المتعاقبة التي تولى افرادها منصب الامبراطور ، وكثير منهم كانوا على جانب كبير من الثراء ثم اضيف الى هذه النواة الممتلكات التي ورثها الاباطرة من أقاربهم وأصدقائهم ومواليهم وغيرهم . اذ كان المألوف بين كبار الشخصيات او اخرين ممن ارادوا ان يظهر بمظهر الرجال المهتمين ، ان يتذكروا الامبراطور في وصاياهم . بالاضافة الى هذه المصادر الخاصة ، اعتاد الاباطرة منذ وقت مبكر ان يضعوا أيديهم على الاملاك الخاصة التي تصادرها الدولة لسبب او لاخر مثل أملاك الخونة او من صدرت ضدهم أحكام بالمصادرة ، او أملاك الافراد الذين يموتون دون وصية او وريث ، كما استحوزت ممتلكات الامبراطور على ماكان يتبع الدولة الرومانية من الارض العامة (Ager publicus) ونتيجة لتراكم هذه الممتلكات على مدى ثلاثة قرون على هذا النحو ، لابد ان الممتلكات الخاصة بالامبراطورية قد شملت في نهاية القرن الثالث مساحات شاسعة منتشرة في شتى الولايات . ومن العسير ان نقدر مساحة املاك الامبراطور الخاصة التي تجمعت على هذا النحو ، ولكن المؤلف يجمع لنا بعض الاحصاءات التي تدل على مدى انتشارها . فمثلا في شمال افريقيا بلغت املاك الخاصة حوالي 18ر5 في المائة من مجموع ارضها الزراعية . ولكن يجب ان نذكر ان هذه الارض عادة كانت من النوع الجيد وليست من ارض الجبال او الصحراء . أما في الشرق فلدينا أخبار ان أقاليم بأسرها (regiones, saltus, tractus) كانت ملكا للامبراطور . وفي القرن الثالث كان معظم ارض كبادوفيا Cappadocia ملكا للامبراطور . نخلص من ذلك ان مساحة املاك الامبراطور تفاوتت احجامها باختلاف الولايات ، ولكنها بصفة عامة كانت كبيرة جدا (415 ـ 416) .

وبعد ذلك يتناول المؤلف اوجه الانفاق التي كانت توجه اليها ايرادات الخاصة ويبادر الى القول ان المصادر القديمة لم تذكر اوجه الانفاق هذه .

على ان باب الانفاق الاساسي منها هو نفقات القصر الامبراطوري . وعدا ذلك لم تكن الخاصة مسؤولة عن نفقات اخرى محددة او منتظمة . ولكن الامبراطور في بعض الاحوال كان يمول من مالية الخاصة على بعض اوجه الانفاق الرسمية التي كانت مالية الدولة مسؤولة عنها . فنجد مثلا الامبراطور فالنتينيان الثالث يفخر بانه مرارا ما انفق على حاجيات الدولة ولكن المألوف ان تتكفل ميزانيات الدولة بنفقاتها الرسمية . اما امـــــوال الخاصة فكان يدفع منها هبات الامبراطور او يصرف منها على اعماله الخيرية ولم يكن ذلك بالقليل ، لان من اهم سمات الامبراطور الصالح هو سخاء ذات اليد . وكثير من عطاء الامبراطور اتخذ مظهرا مدخلا ، فضلا عن انه لم يكن من اللائق ان يمنح الامبراطور سائلا ، ويحسن ان يكون عطاؤه لائقا بشخصه . ويورد المؤلف قصة توضح هذا التقليد . وهي ان احد رهبــان مذهب العقيدة الواحدة حظي بمقابلة جستنيان وثيودورا ، وحدث تهجم من هذا الراهب عليها بغليظ الالفاظ . ورغم ذلك فقد امرت بان يعطى منحة مالية ، ولكن الراهب قذف بها في وجه الامبراطورة ، واعتقد معظـــم الحاضرين لقوة الراهب البدنية اقل من دهشتهم لثبات جنانه . فقد كانت المنحة كيسا ذا مائة رطل من الذهب . (بطبيعة الحال كانت مثل هذه المنحة الكبيرة لصالح الطائفة التي ينتمي اليها الراهب) (ص 425) .

أما الجهاز الثاني من الادارات المالية وهو الادارة المالية العليا او الخزانة المقدسة (Sacrae largitiones / res summae) فكانت مختصة

بالاشراف على دار السكة ومناجم الذهب والفضة ، ومصانع الدولــــة (للاسلحة خاصة) وجميع الضرائب المالية وضرائب الذهب والفضة وهي التي تتولى دفع الهبات الذهبية والفضية للجنود . والرواتب الماليـــة للجنود والموظفين . وكذلك تشرف على جمع وانتاج الملابس للقصر والجنود ورجال الادارة .

وبعد ذلك يدرس المؤلف تفصيلا مصادر ايرادات «الخزانة المقدسة» من الضرائب المالية على اختلافها عددا ونوعا : مثل ضرائب الجمارك التي تجمع عند الحدود وفي الموانيء ، وضريبة التاج الذهبي aurum coronarum مرة كل خمس سنوات ، وهبة السناتو للامبراطور aurum oblaticum مرة كل خمس سنوات ، وضرائب جديدة فرضها قسطنطين على السناتو Collatic glebalis كل سنة ، وضريبة Collatio follis Collatio lustralis من الذهب والفضة على المهـــ

الحرة . ولكن أعفى منها الاطباء والمعلمون والجنود وكبار رجال الادارة ، ثم ضريبة aurum tironicum بدل الجندية ، وكذلك ضريبة مالية فرضت على الارض ، واخيرا ضرائب الثياب .

وفي مجال اعمال «الخزانة المقدسة» يتناول المؤلف اصدار العملة ، ويرى ان من أعظم اعمال الادارة الامبراطورية هو المحافظة على اصدار عملة ذهبية منتظمة ، وهي المعروفة باسم الصوليدوس Solidus ولكن هذه العملة الذهبية اقتصر استخدامها في العمليات الكبيرة ، أما في المعاملات اليومية فكانت العملة البرنزية او المقايضة هي الوسيلة للتعامل. ومن ثم كان وقع الغلاء اشد على الفقراء ، ويحاول ان يبين ذلك بتقدير اسعار السلع الاساسية مثل القمح والنقل واللحوم والزيت والملابس ، وعلاقة ذلك بمستوى معيشة الجندي والعامل (445 ـ 446) .

واخيرا يتناول المؤلف الجهاز المالي الثالث وهو الادارة المالية التي يشرف عليها Praefectus Praetor الذي كان بمثابة وزير المالية . وهذا الجهاز كان اكثراهميةمن الجهازين السابقين ، لانه كان يختص بالضرائب العينية التي ازدادت أهميتها كثيرا نتيجة للتضخم المالي . واهم الضرائب النوعية على الاطلاق هي الضريبة المعروفة باسم annona وكانت تصيب الارض الزراعية وتؤخذ من المحصول وقد اختلف نوع هذه الضريبة باختلاف الولايات ، حسب المحصول الذي تنتجه كل ولاية . فمصر مثلا كانت غنية في انتاج الغلال بصفة خاصة ، ولذلك فرض على مصر ان ترسل الى القسطنطينية سنويا ثمانية ملايين اردب سنويا (الاردب القديم يعادل تقريبا سدس الاردب المصري الحديث) . فاذا اضفنا لذلك ان مصر كانت تدفع ايضا مقدارا من الذهب تعادل قيمة ضريبة الـ annona من الغلال . ويقدر المؤلف ضريبة مصر من الذهب فقط بحوالي خمس ضرائب الامبراطورية الشرقية من الفضة ، وربما زادت ضرائبها العينية باكثر من ذلك (ص 463) .

هذا القدر الكبير من الضرائب النقدية والعينية ارهق المزارعين ارهاقا شديدا ، خاصة وان الزراعة كانت العماد الاساسي لاقتصاد الامبراطورية ومواردها . ولكن مما زاد الحالة سوءا هو ان الضريبة لم تصب الجميع بقدر واحد . اذ لم تكن الضريبة بصفة عامة تصاعدية ، بمعنى ان المزارع الصغير دفع النسبة ذاتها من المحصول التي كان يدفعها المالك

الكبير ذو الضياع الواسعة من أفراد طبقة السناتو مثلا . حقيقة ان أعضاء السناتو كانوا مثقلين بمنصب البريتورية (وكان يشترك في توليه عدد من الافراد في وقت واحد للادارة المالية والتشريع) ، وهي وان لم تكن ضريبة بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تكلفة تفرضها الدولة على الشخص مرة واحدة في حياته ، كما ان نفقاتها الضرورية لم تكن ثقيلة بالنسبة لثراء اعضاء السناتو . كذلك كان اعضاء السناتو ملزمين بضريبة الذهب المعروفة باسم gleba التي فرضها قسطنطين وكانت تصاعدية ، ولكنها في مجموعها كانت تافهة القدر . وكذلك فرضت على أعضاء السناتو ضريبة ذهبية تجمع كل خمس سنوات هدية للامبراطور aurum oblaticium

ولم تكن لذلك محددة وتفاوتت حسب الظروف . ولكن في الشرق (بعد سقوط روما) جعل الامبراطور ماركيانوس البريتورية اختيارية ، والغي ضريبة الذهب gleba كما اختفت هدية الامبراطور Aurum oblaticium من مصادرنا . وهكذا يبدو ان أعضاء السناتو بعد عام 450 في الشرق لم يعودوا ملزمين بدفع ضرائب استثنائية او تحمل أية أعباء خاصة . ومن ذلك يتضح مقدار العبء الذي كانت ترزح تحته طبقة صغار المزارعين من الملاك . (465) في حين استمرت أجهزة الضرائب تعمل بكفاءة بالغة وكانت قادرة على جمع مقدار متزايد من الدخل ، بلغ في عصر جستنيان الى مايقرب من ثلث ماتنتجه الارض ، ما كان له اوخم العواقب (469) .

يتضح من الحديث عن المالية ان القدر الاكبر من ميزانية الدولة وايراداتها النقدية والعينية اخذ من الزراعة ، ويتبع ايضا ان الجزء الاكبر من الدخل القومي للامبراطورية اعتمد على الحياة الزراعية . وبعبارة اخرى كانت الارض هي الركيزة الاولى للاقتصاد وهو قول يصدق على جميع عصور التاريخ السابقة على عصر الثورة الصناعية في اوروبا . ولذلك تحتل دراسة الارض مكان الصدارة بين الدراسات الاجتماعية والاقتصادية للعصور السابقة . ويخصص المؤلف الفصل العشرين من كتابه لدراسة الارض في الامبراطورية الرومانية الاخيرة . وهو يحاول في هذا الفصل ان يتتبع الفئات والطبقات التي كانت تمتلك الارض ، ثم يعرض لها فئة بعد فئة . فاذا تركنا أملاك الامبراطور – التي سبق الحديث عنها عندما تناول املاك الخاصة الامبراطورية res privata نجد ان اكبر فئة من ملاك الارض بعد ذلك هي طبقة السناتو سواء في روما او القسطنطينية ثم طبقة أعضاء المجالس المحلية في شتى مدن الامبراطورية ، فهي حسب

تعريفها الاقتصادي طبقة ملاك الارض في الولايات . ثم هناك كثيرون من كبار رجال الادارة وصغارهم ورجال الجيش ورجال المهن الحرة من محامين واطباء وكبار رجال العلم ، فمعظم هؤلاء امتلكوا مساحات متفاوتة من الارض في شتى ارجاء الامبراطورية . ويجيء بعد ذلك ـ منذ عهد قسطنطين الكنيسة ورجال الدين المسيحي . فأملاك الكنيسة نافست املاك المعابد القديمة ، سواء عن طريق تلقي المنح المختلفة من الامبراطور او عن طريق الاوقاف التي كانت توقف على الكنائس بواسطة اثرياء الافراد الاتقياء . أما كبار رجال الكنيسة ـ وعلى رأسهم الباباوات ـ سرعان ما اصبحوا أيضا من كبار الملاك . اما صغار رجال الكنيسة فقد تفاوتت املاكهم حسب أحوالهم الشخصية . ويورد المؤلف نماذج مختلفة من القرن الرابع الى القرن السادس . وبعد ذلك تأتي فئات التجار واصحاب الصناعة والنقل فكثير منهم كلما تجمع لديه مبلغ من المال اشتروا به قطعة من الارض ، فهي اثبت انواع الملكية قديما . واخيرا يذكر سكان المدن الذين عاشوا في مدنهم وامتلكوا ارضا في الريف ، ويضرب على ذلك مثالا من مدينة هرموبوليس (الاشمونين) بمصر ، التي وصلتنا منها بردية تمثل اصحاب الارض فيها . ويستنتج المؤلف من هذه البردية ان نحو الف شخص من سكان مدينة هرموبوليس (الاشمونين) في القرن الرابع يقيمون في المدينة ويمتلكون ارضا في ريف النوموس (Nomos اي المحافظة بأسرها) . وثمانية وعشرون فقط تزيد ملكية الواحد منهم على الف فدان تقريبا ، ويمتلك هؤلاء الثمانية والعشرون اكثر من نصف الارض الزراعية التي في ريف هذه المحافظة .

ويمكننا ان نستنتج من هذه الاحصائية ايضا ان هؤلاء الملاك الالف كانوا من نوع اصحاب الارض الذين لايقيمون على الارض التي يمتلكونها ولايقومون بزراعتها واستغلالها بأنفسهم ولكن عن طريق وكلاء عنهم او عن طريق تأجيرها للغير . وهناك من الادلة الاخرى مايكفي لاثبات انتشار هذه الظاهرة في اكثر ارجاء الامبراطورية ، اي ان معظم الاض كانت ملكا لاشخاص يقيمون في المدن والعواصم بعيدا عن ارضهم .

ويقوم المؤلف في هذا الفصل بعدة دراسات لظروف الزراع الاجراء كانوا يعملون في ضياع الملاك الكبار والصغار ، ويبين ان الزراعة في مصر كانت يقوم بها اجراء احرار . اما في اكثر البلاد الاخرى فكان يقوم بها العبيد . ثم ينتقل الى دراسة كيفية ادارة الضياع الكبيرة والصغيرة ، موضحا سوء حالة الملاك الصغار الذين ارهقتهم الضرائب وما قد يحل بها

من كوارث مفاجئة مثل مواسم الجفاف او تخلف فيضان الانهار ، ممــا ينتهي بعجزهم عن دفع الضرائب المستحقة عليهم مما يضطرهم الى رهــن الارض او بيعها او التعاقد مع جار كبير تولى أمرها على ان يعمل صاحبها الصغير في الارض على اساس تقسيم المحصول ، ويتولى الجار الكبير دفع الضرائب عنها . وأحيانا اخرى يعجز المزارع الصغير عن ذلك كله فيهجر الارض ويفر منها . وقد نتج عن ذلك كله حالة خطيرة جدا ، وهي تزايــد مساحة الارض المهجورة agri deserti التي اصبحت احدى مشاكــل الدولة الكبرى . وهكذا أصبح من المؤكد ان الارض الزراعية انكمشــت رقعتها بقدر كبير . ورغم جهود الدولة في استصلاح الارض المهجورة وردها للزراعة عن طريق تكليف الملاك بزراعتها والزامهم بضرائبها ، الا ان جهود الدولة في هذا المجال كان مصيرها الفشل . وتستمر رقعة الارض الزراعية في الانكماش . ويحاول المؤلف ايراد الاسباب المختلفة لهذه الظاهــرة مثل اجهاد الارض وتعرية التربة ونقص الايدي العاملة بسبب التجنيــد للجيش بصورة مستمرة والطاعون وحركة الرهبنة) ، او بسبب الضرائب الباهظة وهجرة الارض . ولكنه يهمل سببا ، ربما بدأ ظهوره في نهايــة الامبراطورية وهو انخفاض منسوب المياه الجوفية فهو ظاهرة ملحوظــة في صحراء مصر الغربية بين القرن السادس والقرن التاسع ، حين جفت كثير من الابار الرومانية وقل منسوب بحيرة قارون في الفيوم ، ومهما يكن من امر فيعتقد المؤلف ان الضرائب الباهظة كانت اكثر العوامل جميعا في الحاق الضرر بالحياة الزراعية للامبراطورية . ولم يكن الاهالي بقادرين على دفع هذا الظلم لان القوة العسكرية كانت تساند جامعي الضرائب ، وتلجأ الى أعنف الوسائل في قهر الناس على الدفع . ويقدر المؤلف مساحة الارض التي هجرت بحوالي 20 في المائة من مجموع مساحة الارض الزراعية في الامبراطورية . ورغم انه يحاول التخفيف مــن خطورة هذا الرقم ، باعتبار ان هذه الارض كانت عبارة عن الاراضي الجانبية القريبة مــن الصحراء اي انها من النوع الفقير على اي حال ولكن محاولته هذه غيــر مقنعة ، فهي نذير ضعف اقتصادي عام ، كانت له نتائج مباشرة على قدرة الدولة العسكرية بصفة خاصة .

الفصل الاخير من الكتاب ــ اي الفصل الخامس والعشرين ــ هــو بمثابة خاتمة ، يطلق عليه المؤلف اسم «اضمحلال الامبراطورية» ويتناول فيه مختلف النظريات التي ظهرت لتفسير اسباب سقوط الامبراطوريــة الرومانية ، ويرد على أهمها . ثم يستأنف حديثه ممسكا في يــده بخيوط الكتاب الاساسية ، مجملا تقديره لمظاهر الحياة المختلفة في الامبراطورية

وما اشتملت عليه من قوة او ضعف : عسكريا واداريا واقتصاديا وماليا واجتماعيا . ولكنه يخلص منها جميعا الى القول «ان اكثر مظاهر الحياة كآبة ومدعاة لليأس في العصر الاخير من الامبراطورية هو ما يتضح من اختفاء روح الحرص على الصالح العام . فيبدو ان القوى المحركة اصبحت اما الارغام او الطموح الشخصي في أقبح أشكاله ، وهو الرغبة في ارتقاء السلم الاجتماعي والاثراء السريع» (ص 1048) ... «ودليل اخر اكثر تاكيدا لانعدام الحرص على الصالح العام هو ظاهرة عدم المبالاة بين السكان المدنيين ـ على اختلاف طبقاتهم ـ حيال الغزو الاجنبي» (1059) ويضرب مثالا على ذلك بأحد سكان المدن الذي فضل الحياة بين الغزاة والمتبربرين مبررا موقفه بمهاجمة الضرائب والظلم تحت الرومان (ص 1061) .

أما عن تاثير المسيحية على الحياة في هذا العصر ، فيعتقد المؤلف أنه بالنسبة للاكثرية الساحقة من السكان لم يكن للمسيحية تأثير كبير على حياتهم العملية . ولكن هناك قلة من الافراد أقبلوا على المسيحية بحماس فائق ، فأهملوا الحياة الدنيا ، حرصا على الفوز في الحياة الخالدة فلجأ الاف الافراد الى الصحاري وعاشوا حياة عبادة وزهد وتقشف طلبا للخلاص . واخرون اخذوا رغما لخدمة الكنيسة ، كقساوسة وأساقفة . ويعلق المؤلف على هذه الظاهرة بقوله : انه من ناحية الكم لم يترك انسحابهم من الحياة العامة اثرا ملحوظا ... ولكن من ناحية الكيف كانت الخسارة اكثر خطورة ، لان من انجذبوا الى الحياة الروحية كانوا رجالا ذوي احساس رفيع بالقيم الاخلاقية ، ومن ثم كان انخراطهم في سلك الحياة الدينية خسارة للعمل في الدولة .

... وهكذا ترك العمل في الدولة للانتهازيين الطموحين ، وبذلك ـ وكنتيجة عكسية ـ ادت المسيحية الى زيادة فساد الحكومة (ص 1063).

وأخيرا يقارن مؤرخنا هيوجو جونزبين قسمي الامبراطورية ، مبررا سقوط الامبراطورية في الغرب منذ احتلال الاريك روما سنة 410 ، بينما استمرت الامبراطورية في الشرق الى القرن السابع او بعد ذلك . فيقول ان الغرب تعرض لاستنزاف اقتصادي اشد ، كما ان تركز غزوات المتبربرين كان أعنف . أما الشرق فربما كان يتمتع باقتصاد أقوى ، كما كان في وضع اكثر حماية ضد غزوات المتبربرين . ولهذا استطاع تحمل ضغوط الحروب الخارجية قرنين اخرين على الاقل ضد الفرس في الشرق وضد الصقالبة في حوض الدانوب ، حتى استطاعت الجيوش العربية اخر الامر اجتياح الجزء الاكبر من الامبراطورية الشرقية في القرن السابع .

ورغم ان جونز يصر في اخر عبارة في كتابة الكبير على ماسبق ان قاله وهو ان مظاهر الضعف الداخلي في الامبراطورية لم تكن العامل الاكبر في اضمحلالها، الا ان القاريء لكتابه العظيم يخرج في واقع الامر بنتيجة مختلفة ، فان جميع ما اورده من تحليل لشتى مظاهر الحياة والنظم فـــي الامبراطورية ، تدل على ان الامبراطورية الرومانية كانت قد فسدت مـــن الداخل قبل ان تسقط ، او انها كانت قد فسدت بالقدر الذي افقد معظـــم سكان الولايات الحرص على بقائها . ومـــن ثم كان انتشار شعور عـدم المبالاة بين الاهالي أمام موجات الفتوح العربية السريعة المتلاحقة .





تأسيس مدينة الكوفة

للدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب - جامعة بغداد -

تتفق المراجع العربية في ان الكوفة هي ثاني المدن التي اقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية (1) ، واذ كنا نعرف ان الباعث العسكري كان المحفز لبناء البصرة ، فان الباعث نفسه يصح ان يقال بشأن تمصير مدينة الكوفة .

اذا كان بناء مدينة البصرة يخدم رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تركيز القوة العسكرية الاسلامية في جنوب العراق لكي تكون قاعدة تجمع القوات العسكرية ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي قهر العرب المسلمون شوكتها في القادسية والمدائن والحيرة فانحسرت عن هذه المواقع وبدأت تلملم شملها في شرقي دجلة لتثار من المسلمين ، فان اتخاذ مركز عسكري اخر في وسط العراق يحقق هدف القوات الاسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تجمع فصائلها في مكان اشبه بمعسكر ترحيل ، كما يطلق العسكريون عليه اليوم فتجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الاعداء ثم تؤوب اليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها .

لم يكن هذا التصور بعيدا عن الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكي يحقق هذا التصور في المجال العملي على امتداد رقعة المعركة كما حققه في البصرة كتب الى قائده سعد بن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للجيش الاسلامي المحارب

---

1) مصرت الكوفة سنة 17 للهجرة ، كما يشير البلاذري في فتوح البلدان صفحة 338 ، وهناك من يرى انها مصرت سنة 15 للهجرة كما ذهب المسعودي في مروج الذهب ــ صفحة 211 ــ 212 .

مركزا يقيمون فيه وقت السلم ، وينطلقون منه حين تأذن الحرب ، كما قال في رسالته الى قائده سعد : «ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا» (2).

وكان القائد سعد بن ابي وقاص ، يرى بعد انتصاره على الفرس في المدائن واستيلائه عنوة على اسبانبر وكرد بغداد (3) ، ان ينزل بجنده في هذه المدينة الكبيرة التي تتوافر فيها وسائل المنعة فضلا عن كونها مدينة متكاملة المرافق العمرانية والاجتماعية وانها لاتحتاج الى عمل وجهد من الجند الفاتحين لتكون محل سكناهم ، فأمر جنده نزول المدائن .

وقد درج قادة فتح العراق والشام ومصر ان يشعروا الخليفة عمر بكل ما يحدث من معارك وفتوحات واستيطان . وكان الخليفة عمر قد الـــزم جيوشه بان لايتخذوا اي قرار مهم الا بعد استشارته . وانطلاقا من هــذا المبدأ كتب القائد سعد بن ابي وقاص ، باخبار الفتــح والاستيلاء علــى المدائن الى الخليفة عمر معلما اياه نزوله مع الجند في المدينة واتخاذها محلا لسكناهم .

وتشير بعض النصوص التاريخية ان المسلمين اقاموا في المدائــن فترة من الزمن وانهم اختطوها وبنوا المساجد فيها (4) .

واذا كان القائد سعد يميل الى سكنى المدائن ، فانه كان يزن ميلــه هذا بنظرة القائد الذي يحرص على توفير الوقت للجند ومنحهم الوقــت الكافي للراحة بعد الانجاز الكبير الذي حققوه في جميــع المعــارك التــي خاضوها فان نظرة الخلافة في مركزها بالمدينة كانت ابعد في تقديرهـــا ، واشمل في قراراتها ، اذ كما هو معروف عن الخليفة عمر ، انه كان شديـد الحرص في ان يترك للقادة العسكريين اتخاذ القرارات الاتية التي تتعلــق بالقتال ، وفق ما يتطلبه مكان المعركة وزمانها اما تلك القرارات التــي تتعلق بقضايا مصيرية للأمة [illegible] ، وفي الالتزام الكامل بالابقاء علــى ارواح المجاهدين بعيدا عن خطر الاعداء جسديا وفكريا ، فان البت فيها مرهون [illegible] .

(2) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .
(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .
(4) [illegible]

ومن هذا المنطلق ، اقبل رسول الخليفة الى القائد سعد يستدعي عدم رغبة الخليفة في سكنى المدائن (5) ومن المؤكد ان الخليفة عمر كان يدرك كل الادراك ان الجند العرب المسلمين انذاك كانوا جنودا محاربين تحت السلاح ، وانهم سوف يبقون كذلك حتى تصل مبادئ الدين الجديد الى اوسع رقعة جغرافية ممكنة ، وانه من الافضل ابقاءهم في اماكن عسكرية بحتة لكي يشعروا دائما ان المهمة التي اقدموا لاجلها من الجزيرة العربية لم تنته بعد . لذلك حظر عليهم الخليفة الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ، ولئلا يميلوا الى الرخاء فيفقدوا بذلك صفتهم العسكرية وحماسهم الحربي ، غير انه سمح لهم باعمال الارضين التي لاحق لاحد فيها وفي جزاء ذلك اعلن لجيوشه ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم جار (6) .

وعامل اخر حفز الخليفة عمر الى تحويل العرب المسلمين عن المدائن ، هو وخومة جو هذه المدينة (7) ، الذي لا يلائم ما اعتاد عليه العرب في الحجاز من جفاف ونقاء الذي يوفره جو المناطق الصحراوية . وقد لاحظ الخليفة عمر تغير الوان وسحن الوافدين الى المدينة من العرب المسلمين الذين نزلوا المدائن ، فاستفسر منهم عن اسباب ما اصابهم من تغيير في صحتهم والوانهم كما ارسل الى قائده سعد بن ابي وقاص مستوضحا عن السبب فكتب اليه قائده يقول :

«ان العرب خددهم وكفى الوانهم وخومة المدائن ودجلة» . وهناك عامل ثالث شجع الخليفة عمر في الايعاز لقائده بضرورة ترك المدائن ، هي ان الخليفة لم يكن يأمن جانب الفرس من سكنى هذه المدينة ، اذ من المحتمل ان يتجمعوا من جديد وينقضوا على الجند العرب المسلمين في المدائن التي يعرفون مواطن القوة والضعف في قدراتها الدفاعية .

واستجاب سعد الى رغبة الخليفة فاتجه نحو الغرب مسترشدا بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه بقوله في ماكتب اليه : «ان تنزلهم

---

5) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .

6) ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحة 26 .

7) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

8) الطبري ، حوادث سنة 12 .

منزلا غريبا، (9) حتى وصل الانبار (10) وبنى فيها مسجدا (11) .

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التاريخية ان سبب تحوله كثرة الذباب (12) ويرى باحث عراقي ان هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحت . اذ ان الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن العاصمة المدينة ، مما يؤخر ويعرقل ارسال المدد اذا ما تجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل (13) .

وتحول سعد عن الانبار ، واقبل نحو كويفه ابن عمرو ، والظاهر انها لم تعجب القائد سعد لان الماء محيط بها فتركها (14) ، ثم توجه نحو

9) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

10) الانبار ، وتقع على الضفة اليسرى او الشرقية من نهر الفرات ، وهي الان اطلال واسعة فوق مدينة الفلوجة ويقول جغرافيو العرب انها على مسيرة اثنى عشر فرسخا من بغداد اي ما يقرب من (68) كيلو مترا اذا اعتبرنا ان الفرسخ يساوي 5/7 كيلو متر ويقال ان الذي اختط هذه المدينة هو الملك الساساني سابور الثاني (310 ـ 379 م) ومن المرجح ان هذه الرواية لم يقصد بها تخطيط مدينة جديدة وانما قد تشير الى اعادة مدينة كانت قائمة في الموضع وتحصينها وبقيت الانبار يقطنها اناس مختلفون حتى احتوى سكانها العنصر العربي اثناء الفتح الاسلامي . وجاء ذكر فتح الانبار ضمن الفتوحات التي تمت في العراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وبعد مضي فترة من قيام الدولة العباسية انتقل ابو العباس الى الانبار وبنى مدينة اطلق عليها الهاشمية في عام 134 هـ . وتوفي فيها الخليفة ابو العباس عام 136 هـ ودفن فيها بقصره . ومر بها الرحالة بن بطوطة عام 748 هـ ـ 1347 م . ويبدو ان الانبار بدأ خرابها بعد تاريخ 124 هـ ـ 1421 م لكثرة ما اصابها من الحروب فانتقل فوج من اهلها الى الكاظمية ولاتزال محلتهم تعرف بمرحلة الانباريين .

11) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 288 .

12) نفس المصدر .

13) كاظم الجنابي ، تخطيط الكوفة ، صفحة 25 .

14) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

موضع الكوفة فانتهى الى الظهر وكان يدعى «خد العذراء» ينبت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق ، فأختطوها (5) .

ويشير البلاذري ان ابن بقيلة ارشد سعدا على موضع الكوفة (16) الحالي اذ قال له :«ادلك عليَ ارض ارتفعت عن البق وانحدرت عن العلاة» وهذا الانتقال من مكان الى آخر يثبت من دون شك ان العرب كانوا يحرصون بان يكون المحل المختار لبناء مدنهم صحيا خاليا من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء وان تكون مناظره ما ترتاح له النفس وهذا ثابت ومؤيد ببعض النصوص التاريخية التي اوردها المؤرخون العرب في مصنفاتهم ومؤلفاتهم ، والظاهر ان ابن خلدون يتجنى على العرب اذ يتجاهل النصوص الواردة في المصادر العربية فيقول معللا السبب في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها الخراب ويعلل ذلك الىَ عاملين ، اولا : هو بداوة العرب وبعدهم عن الصنائع ، والثاني : قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي (17) .

وما اوردناه في الصفحات السابقة ، وما اورده المؤرخون العرب عند بحثهم عن تخطيط الفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء ، يناقض رأي ابن خلدون وغيره من الذين يتجاهلون النصوص التاريخية الثابتة ، ويثبت على ان اختيار العرب لمواضع تلك المدن لم يكن امرا غير مدروس وانما يثبت ان الاختيار تم بعد تحريات دقيقة عديدة .

موضع الكوفة :

من الاهمية بمكان ان نعرف موضع الكوفة قبل بناء المسلمين معسكرهم فيه ، ونرى هل ان الموضع معروفا ومسكونا قبل ان يختاره القائد سعد لانشاء مدينة ام انه غير معروف ولا مسكون قبل ذلك التاريخ .
واذا استعنا ببعض الابحاث الحديثة فانها تشير بانه ليس في موضعها ما يثبت او يدل على انها كانت في يوم من الايام مستوطنا من

---

15) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .
16) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 276 ، الطبري 3/598 .
17) مقدمة ابن خلدون ، 1/646 ـ 647 .

المستوطنات الانسانية القديمة ، اذ لم يسبق ان عثر في التنقيات او في ارضها على اثار او ابنية تعود الى عصور ما قبل التاريخ او بعده (18) .

وقبل تمصير الكوفة ، كان الموضع الذي أقيمت عليه المدينة جزء من الضفة اليمنى لنهر الفرات او ما كان يسمى بنهر العلقمي (19) ، وهي اليوم على شاطيء شط الهندية القديم والى الشرق من مدينة النجف بنحو 16 كيلو مترا (20) .

وارض الكوفة مرتفعةسهلة (21) لاتطالها مياه الفيضان ترتفع عن سطح البحر بنحو 22 مترا ، بعيدة عن مناطق الاهوار والمستنقات (22) والى الغرب من موضع الكوفة يقع منخفض يؤلف بحيرة ضحلة مالحة هي بحيرة النجف (23) .

وكان العرب يسمون ظهر الكوفة «باللسان» فكان ما يلي الفرات فهو الملطاط (24) وماكان يلي الظهر فهو «النجف» (25) .

---

18) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 11 ، ويضيف بان المنقبين يعثرون بين الحين والاخر على آلات صوانية من الحجر كالفؤوس والمقاشط والسكاكين في بادية كربلاء قرب قصر الاخيضر يرتقي زمنها الى عصور ماقبل التاريخ .

19) قدامة بن جعفر ـ الخراج ، صفحة 234 . عندما يمر نهر الفرات بمدينة هيت ينقسم الى قسمين ، نهر يمر بالكوفة وهو الذي يعرف بنهر العلقمي ، واخر يمر بمدينة سورا يجتازها الى النيل ويتصل به ويسمى نهر سورا .

20) يتفرع نهر الفرات بواسطة سدة الهندية الى فرعين الاول ويدعى نهر الهندية الذي يتفرع بدوره الى فرعين ـ فرع الكوفة وتقع عليه مدينة الكوفة وابو صخير والثاني فرع الشامية . اما الفرع الثاني لنهر الفرات فهو نهر الحلة الذي تقع عليه مدينة الحلة والهاشمية . (انظر جاسم محمد الخلف ، جغرافية العراق الطبيعية صفحة 174) .

21) ذكر ابن الفقيه في كتابه البلدان صفحة 164 بان محمدا بن عمر بن عطارد كان يقول : «ان ارض الكوفة سفلت عن الشام وعملها ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها وهي مريئة مريعة .

22) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 32 .

23) اليعقوبي ، البلدان ، صفحة 79 .

24) الملطاط هي المنطقة التي تقع بين الكوفة والحيرة كما يشير البلاذري ، في فتوح البلدان ، صفحة 341 .

25)ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، الجزء الاول ، صفحة 218 .

ويبدو ان منطقة النجف لم تكن مأهولة بالناس عند اختطاط العرب لمدينة الكوفة ، واغلب الظن انها كانت مستوطنا صغيــرا يتبـــع الحيرة (26) .

واذا كان موضع الكوفة ،الذي اقيمت عليه منشآت المدينة العربية الاسلامية غير مستوطن ولا مأهول ، فان النصوص التاريخية تشير ان ظاهر المدينة كان يشمل على عدة اديرة للنصارى .

من هذه الاديرة ، ديارات النجف بظاهر الكوفة ، وهي قباب وقصور تسمى ديارات الاساقفة ، ويخترقها نهر يعرف بـ «الغدير» عن يمينه قصر ابي الخصيب مولى ابي جعفر وعن شماله السدير (27) .

والسدير ـ قصر عظيم ، من ابنية ملوك لخم (28) من قديم الزمـان وما بقي الان منه فهو ديارات وبيع للنصاري (29) . ومن الاديرة ـ ديــر زرارة ، وهو دير حسن يقع بين جسر الكوفة وحمام اعين (30) ، ناحية عن الطريق على يمين الخارج من بغداد الى الكوفة ، وهو موضع نزه حســن ـ كثير الحانات والشراب عامر بمن يطرقه لا يخلو ممن يطلب اللعب ويؤثر البطالة (31) .

---

26) الدكتور كاظم الجنابي ـ نفس المصدر صفحة 32 .

27) السدير : من اشهر قصور الحيرة ويقترن اسمه في اكثر الاحيان بـ «الخورنق» والسدير معرب «سه دير» لانه كان في داخله ثلاث قبب فان «دير» بكسير الدال باللغة البهلوية معناها القبة (انظــر الالفــاظ الفارسية المعربة صفحة (86) . وعن الخورنق والسدير ـ يرجع كتــاب الحيرة ليوسف غنيمة ، صفحات 19 ـ 24 وكتاب الديارات ، لشابشتي صفحة 236 .

28) هم الملوك الذين حكموا الحيرة بين سنة 268 و 632 للميــلاد (انظر يوسف غنيمة ، الحيرة صفحة 249 ـ 250) .

29) الشابشتي ـ الديارات ، صفحة 236 .

30) حمام اعين : بالكوفة ينسبونه الى اعين مولى سعد بن ابــي وقاص ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثاني صفحة 329 .

31) الشابشتي : الديارات ، صفحة 247 .

ومن الاديرة ـ دير سرجس ـ وكان بطيزناباد (32) وهو بين الكوفة والقادسية (33) علىحافة الطريق بينها وبين القادسية ميل ـ وكانت ارضه محفوفة النخيل والكروم والشجر والحانات والمعاص (43) .

وموضع الكوفة ، من الناحية الستراتيجية ، يوفر للمدينة المنشاة الحماية العسكرية الكافية ، اذ ان موقعها في طرف الصحراء العربية وعلى ضفاف احد فروع نهر الفرات يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في أن لا يفصل بين المدن المقامه وبين مركز الدولة الاسلامي في المدينة المنورة حاجز طبيعي ، حتى يكون في مقدور الجنود العرب التراجع الى الصحراء اذا مابوغتوا بهجوم كبير من القوات الفارسية القادمة من جهة الشرق . كما ان وقوع المدينة في مكان مرتفع يبعدها عن اخطار الفيضان ويسلم ارضها من تجمع المياه الا سنة التي تزيد في كثرة البعوض والحشرات والهوام .

هذا اضافة الى توفر المياه الجارية الكثيرة في المنطقة مما يجعل

---

32) طيزناباد : وهي من اقدم المدن العربية قبل الاسلام في العراق ، كانت تقع بين الكوفة والقادسية بينها وبين القادسية ميل ـ وتعرف اطلالها اليوم باسم «طعير يزات» وهي على نحو تسعة كيلو مترات من شمال شرقي النجف .
(انظر الهامش رقم ـ 2 ـ من كتاب الديارات للشابشتي صفحة 233) .

33) القادسية : اعطى هذا الاسم لمكانين في العراق ، الاول كما اشار ياقوت في معجمه 7/4 هو المكان الذي يبعد 15 فرسخا عن الكوفة ، حيث جرت المعركة الكبيرةبين المسلمين والفرس في عام 16 للهجرة كما اشارياقوت في معجمه 9/4 بانه قرية كبيرة بين حربي وسامراء حيث يصنع الزجاج . وفي سامراء حصن كبير كتب عنه «روس» عندما زار المنطقة في عام 1834 بمجلة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية المجلد السادس صفحة 127 ما يلي : «على بعد 45 ميلا جنوبي غربي القائم يقف الحصن الساساني القديم القادسية .. وهو بناء مثمن من الطابوق بحت قيادة سعد بن ابي وقاص في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، والثاني ، المفخور بالشمس يسمك كل طابوقة 4 انجات وارتفاعها قدم واحد ويقف في كل زاوية برج كبير (انظر الدكتور طاهر العميد ، العمارة العباسية في سامراء صفحة 21) .

34) الشابشتي ، الديارات ، صفحة 233 .

الارض صالحة للزراعة ، مما يسهل على العرب الفاتحين استغلال الاراضي المحيطة بهم بكل يسر وسهولة .

اسم الكوفة :

لم تكن الكوفة تعرف بهذا الاسم قبل ان يمصرها المسلمون ، اذ لم يرد هذا الاسم على هذا النحو في اللغتين السريانية والارامية ، بل انه عرف بهذه الصيغة عند بناء العرب للمدينة التي حملت هذا الاسم .

واذا اردنا ان نبحث في اصل كلمة «كوفة» فانه ينبغي علينا ان نستعرض الاراء التي قيلت بهذا الخصوص لدى اللغويين والمؤرخين العرب اضافة الى ما كتبه الباحثون المحدثون ثم نبدى رأينا فيما كتبوا من آراء .

ويبدو ان هناك بعض الباحثين من يرجع كلمة الكوفة الى الاصل السرياني والارامي .

ولعل الذين يقولون ان اصل كلمة «كوفة» سرياني قد تأثروا بما اورده المستشرق الفرنسي «لويس ما سينيون» في انها عرفت عند طائفة السريان التي كانت تنزل الديارات في اطراف الكوفة عند النجف والحيرة باسم «عاقولا» او «ياكيولا» وكلمة «عاقولا» تعني بالسريانية حلقة او دائرة (35) .

والظاهر ان هذه النسبة غير صحيحة وغير دقيقة ، اذ يشير باحث عراقي (36 بان الرأي الذي يورده ماسينيون بسريانية كلمة «كوفة» لم تصل الى حد اليقين لان كلمة «عاقولا» او العاقول فيما يبدو منطقة كانت خارج موضع الكوفة وقد اعتمد في رأيه هذا على رواية اوردها الطبري حيث يقول فيها «كان لعمر اربعة الاف فرس .. اذ كان يشتيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته ومن اجل ذلك يسمى ذلك المكان الآرى الى اليوم ويربعها فيما بين الفرات والابيات من الكوفة مما يلي : «العاقول» فسمته الاعاجم اخر الشاهجان . يعنون معلف الامراء وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من اهل الكوفة يضمع سوابقها ويجريها في كل عام» (37) .

---

35) ماسينيون : خطط الكوفة ، صفحة 25 .

36) كاظم الجنابي : تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 15 .

37) الطبري ، حوادث سنة 17 .

هذا اضافة الى ان هناك فرقا غير قليل في التقارب اللفظي بين كلمتي «عاقولا» و «ياكيولا» وكلمة «الكوفة» التي عرفت بها المدينة التي اختطها القائد سعد بن ابي وقاص . ويصبح من غير المعقول تطور هاتين الكلمتين الى كلمة كوفة عشية دخول العرب الى المنطقة ، اذ المعروف ان جميع النصوص التاريخية تشير ان سعدا كان يسمى الموضع الذي اختاره في مراسلاته الى الخليفة عمر بن الخطاب بـ «الكوفة» .

وهناك فريق اخر ينسب الكلمة الى الاصل الارامي ، فقد كتب يعقوب سركيس بان اسم الكوفة ارامي محرف من كلمة «كوبا» (38) ، فقد اشار الى ان هذه الكلمة وردت في احدى التقاويم للكنيسة السريانية أن الكوفة كان يقال لها «كوبا» دون ذكر او تفسير لمعناها .

ونرى ان العرب ليسوا بحاجة الى تعريف كلمة «كوبا» اذ ان مفردات لغتهم غنية بكلمة «كوف» واشتقاقاتهاكما سوف نرى في الاسطر التالية .

ولئن كانت كلمة «كوفة» قد وردت في معاجم اللغة العربية ولدى تصانيف المؤرخين وفي صيغ مختلفة ، فانهم قد اختلفوا في تحديد معناها ، وفي وسعنا ان نستعين بما اورده ياقوت في معجمه عن الكلمة اذ جمع كل ما قاله المعرب عن الكلمة : قال ابو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها ، اخذا من قول العرب ، رأيت كوفان ، وكوفان بضم الكاف وفتحها الرملة المستديرة .
وقيل سميت الكوفةلاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل .. يتكوف تكوفا اذ ركب بعضه بعضا .

ويقال اخذت الكوفة من الكوفان ، يقال هم في كوفان أي في بلاء وشر ، وقيل سمت كوفة لانها قطعة من البلاد في قول العرب ، قد اعطيت فلانا كيفه أي قطعة .

ويقال كفت اكيف كيفا اذا اقطعت فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واوا لسوكنها وانضمام ما قبلها .

---

38) سومر ، المجلد 10 ، لسنة 1954 ، صفحة 153 وما بعدها .

قال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في امر يجمعهم .

وقال ابو القاسم : قد ذهب جماعة . الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة .

وقال آخرون سميت كوفة لان جبل ساتيدما يحيط بها والكفاف عليها وقال ابن الكلبي ، سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان وعليه اختطت مهرة موضعها ــ وكان هذا الجبل مرتفعا عليها فسميت به (39) .

فيماأورده آراء واضحة وكثيرة ، بسطها اللغويون والمؤرخون العرب بسطها ياقوت الحموي في معجمه ، تدل على ان كلمة ، كوفة وكيفه ، وكوفان وكوفان معروفة لدى العرب ، وقد استخدمها الشعراء في اشعارهم وقد قال جحدر اللص (40) .

يارب ابغض بيت انت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سفر

ونميل نحن الى ان اصل كلمة «كوفة» عربي ــ ذلك لغنى قواميس اللغة العربية في مفرداته بهذه الكلمة ، كما اشرنا وما عرف عن العرب منذ العصر الجاهلي ، انهم كانوا يتأثرون بالطبيعة فيصفونها اصدق وصف ، وقد نقل لنا شعراء هذا العصر احساس العربي بكل ما يحيطه من طبيعة صامته او طبيعة حية (41) فنجده يطلق الاوصاف على ما يقع عليه نظره في صحراء الجزيرة ، وقد توسعت مخيلته في الوصف فشملت الاماكن والمواضع التي ذهب اليها، وقد تجلى ذلك بشكل واضح ابان الفتوحات الاسلامية حيث خرج الجند العرب الى مناطق العراق والشام ومصر وبلاد فارس . فقد اطلق العرب على العجم اسم «الحمراء» لبياض بشرتهم واحمرار وجوههم وسموا الفرس الذين نزلوا الكوفة ايام سعد بن ابي وقاص بـ «حمراء ديلم» نسبة الى نقيبهم ديلم (42) .

وتشير النصوص التاريخية ان ضمن خطط الفسطاط ، في عهد التأسيس خطة .

---

39) ياقوت : معجم البلدان ، 295/7 .

40) البكري : معجم ما استعجم 141/4 .

41) نوري حمودي القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، انظر الصفحات 235 ــ 305 .

42) البلاذري : فتوح البلدان ، صفحة 279 .

تعرف بـ «الحمراوات» وهي على الاغلب محل سكن جند الشـــام وعوائلهم ، وقد دعوا كذلك لاحمرار وجوهرهم وبياض بشرتهم . ومثل آخر يمكن ان نشير اليه مؤكدين رأينا الذي ذهبنا اليه ، وهو ان العــرب اطلقوا اسم «السواد» على جنوب العراق ووسطه الكثرة نخيله واشجاره وزرعه وما فيها من اخضرار داكن اقرب الى السواد (43) .

ونظرا لاهمية المسجد في حياة العرب المسلمين فان القائد سعــد بن ابي وقاص توجه الى تخطيط المسجد وتنفيذ بنائه قبل الشروع فـــي اقامة مرافق المدينة الاخرى كما اهتم في تشييد دار الامارة وبيت المال .

مسجد الكوفة :

على الرغم من اهمية مسجد الكوفة ، اذ انه يعتبر ثاني المساجــد التي اقامها المسلمون في العراق ، بعد مسجد البصرة ، فان المؤرخيـن العرب لم يفصلوا في الكتابة عنه عند مرحلة تأسيسه ، ماعدا روايتيــن مقتضبتين رواهما البلاذري والطبري ورواية رواها ياقـوت ، وســـوف نعتمد في بحثنا عن المسجد على هذه الروايات الثلاثة .

روى البلاذري بان سعد بن ابي وقاص عندما «انتهى الى موضــع مسجدها امر رجلا غلا بسهم قبل مهب الشمال واعلم على موقعه ، ثـــم غلابسهم قبل مهب الشمال واعلم على موقعه ، ثم غلابسهم قبل مهـــب الجنوب واعلم على موقعه

ثم غلابسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ثم وضع مسجدهـــا ودار امارتها في مقام الغالي (44) .

اما الطبري فانه قال عن المسجد مانصه : «اول شيء خط بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد .. قام رجل في وسطه رام شديــد النزع ، فرمى عن يمينه فأمر من شاء ان يبني وراء موقع ذلك السهم ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء ان يبني وراء موقع السهمين ، فتـرك المسجد في مربعه علوة من كل جوانبه وبني ظلة في مقدمة ليست لهـــا

---

43) الدكتور طاهر مظفر العميد ، بحث «نشأة مدينـة البصـــرة ، المجلة التاريخية ، العدد الخامس ، صفحات 174 ـ 175 .

44) ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 339 .

مجنبات ولا مؤخرة والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا .. وكانت ظلته مائتي ذراع على اساطين رخام .. وعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه احد بنيان (45) » .

ومن النصين المذكورين اللذين اوردهما البلاذري والطبري نستطيع ان نرسم ملامح التخطيط العام لمسجد الكوفة في عهد التأسيس . ولابد لنا ان نشير بان تحديدجدران المسجد كانت منوطة برمية الغالي ، وعلى الرغم من ان المسافة في رمياتَ الغالي للاتجاعات الاربع للجدران توحي بالاختلاف ، اذ ان تحديد تربيع‌المسجد وفق هذا الاسلوب يبدو غير عملي وعملي ، فان الفرق في هذه المسافات كما اظهرتها التنقيبات الاثرية في المسجد كان قليلا(46) .

وتوضح رواية البلاذري ، ان مخطط مسجد الكوفة ، عين اولا جدار القبلة ، وحدد لتجاهه وبعده (47) .

ونستشف من رواية الطبري ان جدران المسجد حددتها رميات سهم الرامي ، مؤيدة بذلك الرواية التي اوردها البلاذري ، وتوضح الرواية ايضا ان مسجد الكوفة عند التأسيس لم يكن له مؤخرة ومجنبات كما ان المسجد

---

45) الطبري ، حوادث سنة 17 .

46) ـ دلت الحفائر الاثرية التي اجريت في مسجد الكوفة وما حوله على ان المسجد المذكور كان قد اقيم على ارض مربعة الشكل تقريبا بانحراف قليل عنزاوية القبلة بمقدار سبع عشرة درجة ، وكشفت المجسمات التي قامت بها مديرية الاثار العامة سنة 1938 م ان بين جدران المسجد الاربعة مروق يسيرة ، فالضلع القبلي منه يبلغ 110 م (اي ان رمية السهم كانت عند تحديد المسجد حسب رواية البلاذري 55 مترا) وكذلك وجد ان جدار المؤخرة المقابلة للضلع القبلي يبلغ 109 م (اي ما يعادل 541 مترا . برمية السهم) والجواران الاخران المجنبان يبلغ طول كل منهما 116 م (اي ما يعادل 58 مترا برمية السهم) .

47) ان تحديد جدار القبلة مهم جدا في تخطيط المساجد الاسلامية اذ من غير تحديد هذا الجدار ـ كما يقول الدكتور احمد فكري في كتابه ،

لم يدعمبسور يفصله عن المنطقة التي تحيط به (48) .

لا توضح نصوص المؤرخين مساحة الكوفة في عهد بانيه سعد بن ابي وقاص الا ان ياقوت الحموي يورد نصا يتضمن عدد المصلين الذين تكفيهم مساحة المسجد فيقول : «كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص «ان اختط موضع المسجد على عدة مقاتليكم ، فخطه على اربعين الف انسان» (49) .

هذا ما نعرفه عن مسجد الكوفة الاول ، اما تخطيطه بعد التأسيس وتطوره ـ البنائي والمعماري فسوف نخصص لذلك بحثا منفردا عندما نتناول مساجد العراق الاولى .

اما دار الامارة التي شيدهاسعد بن ابي وقاص لاقامته فان المؤرخين امسكوا عن التفصيل بها ، ما خلا اشارات عابرة وموجزة لا تفيد الباحثين في تصور تخطيطها الاول (50) .

مساجد القاهرة ومد ارسها المدخل صفحات 299 و 307 و 33 ـ كان يستحيل اجراء اي تخطيط للمسجد سواء في جملته او جزيئاته لان جدار القبلة هو بداية مرحلة تخطيط المسجد والمحور الذي يشيد عليه التخطيط . انظر ايضا ، كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 110 .

(48) يؤيد ذلك ما يرويه الطبري عن عطاء ابي محمد مولى اسحق بن طلحة قال : وكنت اجلس في المسجد الاعظم قبل ان يبنيه زياد وليست له مجنبات ولا مؤخرة فاري منه دير هند وباب الجسر .

49) ياقوت ، معجم البلدان 297/7 .

50) تراجع رواية البلاذري في فتوح البلدان في صفحة 339 والتي ذكرناها عند الحديث عن المسجد .

تخطيط المدينة :

كان تخطيط مدينة الكوفية يقوم على اساس قبلي اذ ان كل مجموعة من قبيلة واحدة افردت لها خطة لتسكن فيها ، وقد اتبع هذا النظام ايضا في تخطيط مدينة البصرةفقد قسمت خططها على القبائل (51) .

ويروي البلاذري ان مهمة تنظيم خط المدينة وتقسيمها على النـاس قد اسندت الى ابي الهياج عمرو بن مالك بن جنادة الاسدى (52) .

وقد قسمت خطط المدينة للناس حول المسجد ودار الامارة وبيـت المال ويبدو ان الخليفة عمر بن الخطاب اقطع لبعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مواضع قريبة من المسجد (53) .

---

51) البلاذري . فتوح البلدان . صفحة 339 . وروى الطبري 593/3 عن تخطيط البصرة بانها «اختطت على نحو من خطاط الكاوفة» .

52) فتوح البلدان ، صفحة 339 .

53) يشير اليعقوبي في كتابه البلدان ، صفحات 310 ـ 311 الى الاراضـي التي اقطعها لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر «واختط سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجبة الفزاري وناس من قيس حيال دار ابن مسعود . واختط عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمرو بـن حريث الدور حول المسجد ، واقطع عمر جبير بن مطعم فبنى دارا ثـم باعها من موسى بن طلحة ، واقطع سعد بن قيس عند دار ـ سلمان بـن ربيعة بينهما الطريق . واستقطع سعد بن أبي وقاص لنفسه الدار التـي تعرف بدار عمر بن سعد اقطع خالد بن عرفطة وخباب بن الارت ـ وعمرو بن الحارث بنّ ابي ضرار وعمارة بن رويبه التميمي ، واقطع ابا مسعـود عقبة بن عمرو الانصارى ، واقطع بني شمخ بن فزارة مما يلي جهينه واقطع هاشم بن عتبة بن ابي وقاص شها رسوج خنيس واقطع شريح بن الحارث الطائي ، وقطع عمر اسامه ، بن زيد دارا بين المسجد الى دار عمرو بـن الحارث بن ابي ضرار واقطع ابا موسى الاشعري نصـف الارى وكـان فضاء عند المسجد ، واقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصـف الارى وهو فضاء كانت فيه خيل المسلمين واقطع ابا جبيرة الانصـارى وكان على ديوان الجند واقطع عدى بن حاتم وسائرطي ناحية جبانه بشر واقطع الزبير بن العوام ، واقطع جرير بن عبد الله البجلي وسائر بجيله قطعة واسعة كبيرة ...» .

وتفيد رواية للطبرى ، ان الخليفة عمر بن الخطاب قد وجه كتابا الى القائد سعد بن ابي وقاص يحدد له ، تنظيم المناهج والطرق والازقـــة وذرعها فقال : «ارسل سعد الى ابي الهياج فأخبره بكتاب عمر في الطرق ، انه امر بالمناهج اربعين ذرعا ومايليها ثلاثين ذراعا ، وما بيـن ذلـك عشرين ، وبالازقة سبع اذرع ، ليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستيـن ذراعا الا الذي لبني ضبة» (54) .

وانزل سعد كل قبيلة في المكان الذي خصص لها ، واسهم لنـزار واهل اليمن بسهمين على انه من خرج بسهمه اولا فله الجانب الا يسـر وهو خيرهما ، فخرج سهم اهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي ، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات وتــرك مادونها فناء للمسجد ودارا الامارة (55)



54) الطبري ، حوادث سنة 17 هجرية .

55) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 339 .

أ ـ المراجع :

ابن رستة (ابو علي احمد بن عمر)
الاعلاق النفسية ـ طبع بريل 1811 م
ابن منظور (جمال الدين ابو الفضل محمد بن جلال) لسان العرب
البلاذري (ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر
فتوح البلدان
البكري (ابو عبيد الله بن عبد العزيز)
معجم ما استعجم ، طبع القاهرة 1951
الشابشتي (ابو الحسن علي بن محمد)
الديارات ، نشر كوركيس عواد طبع بغداد 1951
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الامم والملوك

الفيروز أبادي (مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب)
قاموس المحيط ، طبع القاهرة 1344 هـ
المقدسي (شمس الدين ابو عبدالله محمد بن محمد احمد)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبع بريل 1906 م
ياقوت (شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي)
معجم البلدان ، طبع لايزك 1866 م
اليعقوبي (أحمد بن ابي يعقوب بن واضح)
البلدان مطبوع مع كتاب الاعلاف النفسية لابن رستة طبع بريل 1892 م

ب ـ المصادر الحديثة :

أحمد فكري (الدكتور احمد فكري)

المدخل . مساجد القاهرة ومدارسها ، طبع بدار المعارف في مصر سنة

1381 هـ ـ 1961 م

الجنابي (الدكتور كاظم)

تخطيط مدينة الكوفة ، بغداد 1967

الخلف (الدكتور جاسم محمد)

جغرافية العراق الطبيعية ، طبع القاهرة 1959 م

العلي (الدكتور صالح احمد العلي)

منطقة الحيرة ، دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية

بحث نشر في مجلة كلية الاداب لسنة 1962

العميد (الدكتور طاهر مظفر)

تخطيط مدينة البصرة ، بحث نشر في المجلة التاريخيـة العـدد الخامـس

القيسي (الدكتور نوري حمودي علي)

الطبيعة في الشعر الجاهلي 1970 بيروت

ماسينيون (لويس) .

خطط الكوفة .ترجمه وعلق عليه المصعبي

مطبعة العرفان في صيدا بلبنان سنة 1946 م

معروف (الدكتور ناجي معروف)

عروبة المدن الاسلامية)

مطبعة العاني ، بغداد سنة 1384 هـ ـ 1964 م

غنيمة (رزق الله غنيمة)

الحيرة ، طبع بغداد 1936 م

سركيس (سركيس)

مباحث عراقية الجزء الثاني طبع بغداد 1945 م

نهاية العصور الوسطى الأوربية والنظريات التي قامت حولها

للدكتور جوزيف نسيم يوسف
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تحدد نهاية العصور الوسطى الاوربية ظروف تختلف تماما عن تلك التي حددت بدايتها . لقد شاهدت العصور الوسطى المتأخرة ، وبصفة خاصة القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديان ، انواعا شتى من الانقلابات التي انتفض لها كيان العالم الوسيط . لقد كان كل شيء في اوربا في تغير تدريجي مستمر ، ولم يكن هناك شيء ثابت على حاله . كانت الدماء الساخنة تجري في العروق معلنة نهاية عصر وبداية عصر اخر

ففي اخريات العصور الوسطى حاول رجال الفن التخلص من قيود العصور المظلمة التي جعلت هذا الفن فنا مسيحيا خالصا لايعبر الا عما هو موجود في الاناجيل والكتب المسيحية . واستمدوا فنهم من عناصر شتى ، منها الحياة الواقعية التي كانوا يحيونها وقتذاك ، ومنها ايضا تراث وآثار اليونان والرومان القدماء الذي كانت أساليبه تختلف عن الفن الذي ساد العصر الوسيط . وكان ان وجد فن انساني رائع في النقش والنحت والصور والتماثيل ، اصبح يصور شتى المعاني والموضوعات ويعبر عن مختلف المشاعر والاحاسيس التي كانت المسيحية وفلسفتها تحرمها تحريما باتا . كما اصبح يمثل تحرك الروح الانسانية من قيود وأوضاع العصور الوسطى المبكرة الى اوضاع جديدة مغايرة .

كذلك خرج رجال الادب عن التفكير المسيحي المحدود الضيق وحاولوا التحرر من تقاليده التي كانت تحد من نشاطهم وانتاجهم الى حد بعيد ، وعادوا الى التراث الكلاسيكي القديم محاولين احياءه . وكـ

للعرب فضل كبير في نقل هذا التراث من الشرق الى الغرب . ففي ايطاليا . مثلا ، وقد كانت اسبق من غيرها الى عصر النهضة ، وجدنا اديبا مثل دانتي اليجييري Dante Alighieri (1265 ـ 1321 م) يتمسك بعض الشيء بالافكار الوسيطة ، وان كان قد بذر في كتاباته بذور الفكر الحديث ويجيء بعده شخص مثل بترارك Petrarch (1304 ـ 1374 م) فيحاول كسر قيود العصر الوسيط . ونعرف انه كان مولعا بجمال الطبيعة وهو الامر الذي حرمته المسيحية التي كانت تدعو الى العالم الاخر والبعد عن ملذات الحياة الدنيا . ثم يجيء اديب مثل بوكاشيو Boccaccio (1313 ـ 1375 م) لينتقد رجال الدين نقدا مرا لاذعا.

واخيرا يأتي شخص مثل لورنسو العظيم Lorenzc الذي دعا الى الحرية والتمتع بالحياة في شتى صورها ومظاهرها ، وهو امر لم يكن مألوفا في القرون السابقة . وكانت جهود امثال اولئك الادباء والشعراء كفيلة بخلق عصر جديد من عصور الثقافة الاوربية ، على حد قول احد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ج . أ سيموندز J. A. Symonds

وفي الق[illegible] عصر يحاول رجال الفكر الخروج على تعاليم الكنيسة اللاتي[illegible] الكاثوليكية التي كانت قد تسلطت على عقول الافراد ومقدراتهم وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الامر والنهي ، وعلى الجميع السمع والطاعة . ويتادى هذا الى قيام النهضة العلمية الحديثة التي يرجع فيها الانسان الى الدراسات الكلاسيكية القديمة والى المدنية الرومانية ، من حيث تحرير الفكر ، والبحث والتنقيب في الكتب التي كان قد نبذها العصر الوسيط لما كانت تحويه من عناصر وثنية . ولهذا تميزت القرون الاخيرة من العصر الوسيط بصفة عامة ، بحرية التفكير ، والتأثر في ذلك بما كان موجودا عند قدماء اليونان والرومان في ميداني السياسة والدين وغيرهما . وكانت النتيجة هي الخروج على تعاليم العصر الوسيط المبكر ، وعلى تعاليم الكنيسة اللاتينية نفسها التي كانت تحد من انطلاق الفكر . كما بدأت المذاهب الفلسفية القديمة في الانتشار ، مثل الافلاطونية الجديدة والارستطالية الجديدة وغيرهما . وأخذت كل جماعة تتعصب لمذهب من هذه المذاهب ، مما ادى الى الصراع الفكري وتطور عقلية الفرد في اخريات العصر الوسيط .

وتميزت هذه الفترة ايضا بالتغيير الذي شمل كافة الاسباب

السياسية والتاريخية . ويبدو هذا بوضوح في المبادىء التي نادى بهـا شخص مثل نيقولا مكيافيللي Niccolo Machiavelli 1469 ـ 1527م) الذي يمثل ذروة عصر النهضة في اوروبا . والذي يعتبر كتابه الاميـر خلاصة فلسفة الاستبداد وقتذاك . ويقوم الكتاب على مبدأ ان الغاية تبرر الوسيلة .

كذلك كان للتقدم الذي احرزه الانسان في ميدان العلم والاختـراع اثره في القضاء على الاسس التي قامت عليها العصور الوسطى المبكرة ، وفي تهيئة الجو لعصر جديد مغاير . اذ تم اكتشاف الدورة الدمويـة ، وتشريح جسم الانسان والحيوان والنبات . كما اخترعت البوصلة التـي تم استخدامها في الملاحة البحرية . واخترع التلسكوب أيضا ، وظهـرت النظريات الفلكية مثل نظرية جاليليو Galileo الذي اثبـت ان الارض ماهي الاحد الاجرام السماوية . وتم كذلك استخدام الـورق واختراع الطباعة على يد جوتنـبـرج Gutenberg سنة 1450 م ، وظهرت الكتب تحمل الى الناس العلم والمعرفة ، الامر الذي ترتب عليـه اتساع المدارك والافاق مما هيأ الجو لعصر جديد . كما اخترع المدفـع والبارود ، وكان لهما اثرهما في دك اخر معاقل وحصون رجال الاقطاع في الغرب الاوروبي . وزوال الاقطاع يعني زوال عصر بكل مفاعيمه وأوضاعه وبداية عصرجديد بمفاهيم واوضاع جديدة مغايرة .

ويجب الا يعزب عن البال ان رجال العلم والاختراع ، شأنهم شـأن رجال الفن والادب والفكر والسياسة والتاريخ ، لقوا الكثير من المضايقات والاضطهاد من المتزمتين من رجال الدين . ولكن هذا لم يكن ليوقف عجلـة الزمن عن السير في طريقها بعد ان بدأ أفق الانسان الضيق المحدود يتسع تدريجيا ،وبعد ان انطلق هذا الانسان من الدائرة المغلقة التي كـان يعيش أسيرها طوال قرون عديدة الى مجالات رحبة واسعة .

وفي نهاية العصور الوسطى تظهر كذلك شخصية الفرد التي لم يكن لها وجود في عصر الاقطاع في المجتمع الغربـي الوسيط الا في صلـب الطبقات المختلفة التي ينتمي اليها الفرد . بمعنى ان شخصية الفرد تذوب وتنمحي في صلب الطبقة التي ينتمي اليها . فهو اما سيد او مسود ، تابع او متبوع ، له مكانه في السلم الاقطاعي تبعا لما يرتبط به من سعة الاقطاع، اما في بدايات عصر النهضة تبدأ شخصية الفرد في الظهور ، ويبدأ الفرد في التعبير عن أرائه وفي المطالبة بحقوقه وحرياته .

كذلك بدأت حركات الاصلاح الديني التي اخذت تنادى باصـلاح الجهاز الكنسي البابوي بعد ان استشرى فيه الفساد ، من رشوة وبيـع

صكوك الغفران وزواج رجال الكنيسة والانغماس في المسائل الدنيويـة وتدهور الرهبنة والديرية . واصبح الرجل العادي يجرؤ على مساجلـة المذهب الكاثوليكي الغربي الذي ساد العصور الوسطى والذي كان الخروج عليه يعتبر هرطقة لها اثارها المفجعة من حيث الحكم باعدام المهرطق حرقا بالنار . وكلنا يعرف محاكم التفتيش والدور الخطير الذي قامت به فـي اخريات العصر الوسيط بالنسبة لمن تحوم حوله شبهة الهرطقة . وكانت النتيجة هي قيام حركات الاصلاح الديـنـي مثل حركـة يوحنا ويكلـف الانجليزي John Wiclif (1324 ـ 1384 م) في انجلترا وغـرب اوربا وحركة زميله يوحنا هس البوهيـمـي John Huss (1369 1415 م) في بوهيميا وشرق اوروبا . وكان ذلك في القرن الرابع عشـر وبداية القرن الخامس عشر الميلادي . وكذلك قيام المذاهب المسيحيـة الحديثة ، وأعمها المذهب البروتستانتي او المعارض في القرن السادس عشر الميلادي ، والذي انتشر منذ قيام مارتين لوثر Martin Luther (1483 ـ 1546 م) بحركته في دول متعددة في غرب اوروبا . وكانـت النتيجة اضمحلال الكنيسة اللاتينية وزوال هيبتها وقدسيتها وانفضاض الناس من حولها . وتدهور الكنيسة يعني انهيار ركن اساسي من الاركان التي ارتكزت عليها العصور الوسطى .

كذلك شاهد القرن الخامس عشر بالذات من الحوادث السياسـيـة البالغة الاهمية والتي كان لها اثرها في مجرى التاريخ ، عددا كبـيـرا . ولعل أهمها اثرا وخطرا دخول الاتراك العثمانيين في اوروبا كعنصـر غريب عليها من حيث الجنس والدين ، واستيلاءهم على مدينة القسطنطينية بصفة نهائية سنة 1453 م . وبسقوط تلك المدينة التي تتمثل فيها تقاليـد وفلسفة وافكار ومثل العصور الوسطى ، يتهدم اخر صرح من مؤسسـات التاريخ الاوربي الوسيط بصفة عامة والدولة البيزنطية بصفة خاصـة . كذلك تنتهي في نفس هذا الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (1338 1453 م) التي تعتبر هي الاخرى من مميزات العصور الوسطى وخصائصها العامة . بمعنى ان هذه الاحداث السياسية كانت تعني زوال عصر وبداية عصر جديـد .

وفي نفس هذا الوقت نجد ان قيام الممالك الحديثة المستقلة يأخـذ اتجاها اخر غير الاتجاه الذي كانت تخضع له تلك الممالك ـ ولو نظريا ـ في اوروبا في العصور الوسطى ، الى سلطان الامبراطور مـن الناحية الزمنية والى سلطان البابا من الناحية الدينية . ولكن هذه الوحدة تضعف في اخريات العصر الوسيط نتيجة لـظـروف وعـوامـل عديدة متعـددة .

والنتيجة ان كل حاكم اخذ يجمع اليه كل افراد شعبه ، تاركين الاعتبارات العالمية العتيقة التي تتعلق بنظم اوروبا في العصور الوسطى وبمبـــدأ عالمية الكنيسة اللاتينية . وبدأت الاداب القومية تظهر بلغات تلك الدول بدلا منحصرها في اللغة اللاتينية . وكان هذا تغييرا له دلالته ومغزاه فيما يتعلق بالاسس التي قامت عليها العصور الوسطى .

كذلك قامت في أواخر العصر الوسيط الجامعات التي اصبحت فـــي عصرنا الحالي اساس التعليم العالي ، ومن بين جدرانها تخرج الشباب المثقف المستنير . وقد بزغت شمسها مبكرا في القرن الثاني عشر للميلاد ونهضته العلمية المعروفة بالنهضة العلمية الاولى التي ادت الى احتكاك الفكر الانساني بين عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين وتتذاك من امثال الفيلسوف بطرس ابيلارد Peter Abelard والقديس برنارد اوف كليرفو St. Bernard of Clairvaux فهذه الجامعات هي التي حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير اذهان الناس وزيادة عدد المثقفين . واخرجت الكثير من العلماء في شتى فروع المعرفة الذين اخذوا ينادون بالاصلاح الشامل في النظم والتعاليم الوسيطة ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه من القيود البالية المتزمته ، مما هيأ الجو لهذا التغيير الكبير الذي شهدته أوربـــا في اخريات العصر الوسيط(1) .

---

(1) حول هذا التغيير الهائل الذي شهدته أوربا في شتى مجالات الحياة في اواخر العصر الوسيط ، انظر المراجع التالية :

Brinton, C. and others, A History of Civilization, Vol. I, New Jersey, 1967, 303 ff., 381 ff., 409 ff., 425 ff. ; Baker D.N. and Fasel G.W. (eds.) Landmarks in Western Culture, Vol. I, New Jersey, 1968, 345 ff. ; Waugh, W.T., A History of Europe from 1378 to 1494, London, 1932, 1-9 ; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris 1965, 445 ff. ; Stone, D., France in the Sixteenth Century, New Jersey, 1969, 6 ff. ; Stephenson, C., Medieval Feudalism, New York, 1942, 102-109 ; Paetow, L.J., A Guide to the Study of Medieval History, London, 1931, 330 - 1, 483-484, 493 ff., 512 ff.

وللمزيد من المعلومات عن هذه النواحي ، انظر ما يلي :

Lodge, R., The Close of the Middle Ages, London, 1922 ; Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance in

واستنادا على كل ما سبق ، يمكن تلخيص اهم النظريات التي قامت حول نهاية العصور الوسطى الاوربية وبداية التاريخ الحديث ، فيما يلي :

النظرية الاولى :

تدور هذه النظرية حول الشاعر الايطالي دانتي اليجييري والكوميديا الالهية . اذ اعتبر بعض المؤرخين ان حياة دانتي وكتاباته باللغة الايطالية المعاصرة له بدلا من لاتينية العصر الوسيط ، والتي لخص فيها اهم ما وصل اليه التاريخ الوسيط ، والتي بذر فيها ايضا بذور الفكر الحديث في القرن الرابع عشر الميلادي – اعتبرها بعض المؤرخين نهاية للعصر الوسيط وبداية لحركة النهضة العلمية التي استمرت في القرن الخامس عشر وبلغت ذروتها في القرن السادس عشر للميلاد . وعلى هذا يكون في رأيهم ان القرن الرابع عشر الميلادي هو نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث(2) .

النظرية الثانية :

تدور هذه النظرية حول الاصلاح الديني الذي بدأ في القرن الرابع عشر . اذ قامت كثير من الحركات تنادي بالخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية التي كان قد دب فيها الفساد ، وباصلاح الجهاز البابوي بعد أن تدهورت البابوية وبعد البابوات انفسهم عن التعاليم الاولى للمسيحية. ومن اهم هذه الحركات الحركة اللولاردية الانجليزية التي قامت للاحتجاج على كل ما اخرجته الكنيسة والبابوية في العصر الوسيط من نظم وتعاليم ، والتي تزعمها العالم اللاهوتي المعروف يوحنا ويكلف (1324 – 1384 م) في انجلترا وغرب أوربا . وكذلك حركة يوحنا هس (1369 – 1416 م) في بوهيميا وشرق أوربا . واستمر نشاط الهسيين حتى قيام ثورة مارتين لوثر البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي ، تلك الثورة التي افقدت البابوية سلطتها وهيبتها والكثير من اتباعها

في اجزاء عديدة من أوربا بعد اعتناق الكثير من الكاثوليك لمبادئها . وبخاصة في انجلترا والمانيا(3) .

النظرية الثالثة :

ويرى فريق آخر من المؤرخين ان سنة 1453 م هي التي تحدد نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة ، لسببين هامين ، اولهما : انه في تلك السنة انتهت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (1338ـ1453م) تلك الحرب التي امتلا بها التاريخ الوسيط ، واعتبرت من مظاهره ومميزاته العامة كالعدوان الصليبي على العالم العربي ، وغير ذلك من الانظمة والحركات الاجتماعية والدينية مثل الرهبنة والديرية والاقطاع والفروسية. اما الحدث الثاني الذي وقع في تلك السنة فهو سقوط القسطنطينية في قبضة الاتراك العثمانيين . وبسقوطها ينهار آخر صرح من مؤسسات الدولة البيزنطية التي تمثلت فيها نظم وتقاليد وفلسفة وافكار العصور الوسطى . وبذلك ينتقل العالم الاوربي من تقاليد العصر الوسيط الى اوضاع جديدة مغايرة(4) .

النظرية الرابعة :

تدور هذه النظرية حول حركة الاستكشافات الجغرافية في اخريات القرن الخامس عشر الميلادي . واصحابها يرون ان سنة 1492 م تحدد نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث ، باعتبارها السنة التي

Italy Oxford, 1944 ; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages, London, 1955.

Paetow, op. cit., 541 - 552 ; Baker and Fasel ; op. cit., (2) Vol. I, 284 ; Les Utopies à la Renaissance, Colloque international (avril 1961) sous les auspices de la Fédération Internationale des Instituts et Sociétés pour l'étude de la Renaissance et du Ministère de l'Education nationale et de la Culture de Belgique, Bruxelles, 1963, 23 ff.

اكتشف فيهاكريستوفر كولومبس Christopher Columbus (1451 ــ 1506 م) امريكا . وفي نفس هذه السنة يقع حادث آخر هام في تاريخ الغرب الاوربي وهو استيلاء اللاتين الغربيين على مملكة غرناطة من الخلفاء المسلمين . وحدث بعد ذلك بست سنوات ان تمكن فاسكودي جاما Vascoda Gama من تطويق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول طرف افريقية الجنوبي في طريقه الى الهند . وكان لهذا آثاره الخطيرة في التاريخ والاقتصاد العالمي . اذ ان اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجاري الجديد من ناحية افريقية ادى الى انزعاج المماليك في مصر وضياع الثروة الهائلة التي كانوا يجذونها من وراء التجارة . وقد قاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم . ولكنهم فشلوا في ذلك ، اذ كان الزمام قد افلت من ايديهم بعد ان انتقلت الثروة الى المحيط الغربي واممه . وكان لهذا اثره الضخم ، فبينما ضعفت دولة المماليك بمصر ، وجدت الفرصة امام الاغنياء والتجار من اهل ايطاليا لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، الامر الذي عجل بزوال العصر الوسيط وبداية عصر النهضة في أوربا(5) .

لقد كانت هذه الاحداث الخطيرة التي تعرض لها العالم الاوربي الوسيط في اخريات قرونه والتي اهتز لها كيانه بعنف ــ كانت مظهرا من مظاهر عالم متغير قلق غير ثابت ، احتكت فيه الآراء والمباديء الجديدة المتحررة بالتقاليد والافكار القديمة البالية . ثم اشتبك الجديد والقديم في صراع عنيف امتد فترة قصيرة من الزمن ، الى ان اندمجا وتآلفا في اتجاهات جديدة . وكان هذا ايذانا بانتهاء عصر بكل فلسفته واوضاعه وانبلاج عصر جديد بمفاهيم وآراء جديدة مغايرة .

وكيفما كان الامر ، فان هذه التغييرات الهائلة التي اشرنا اليها ، والتي ادت الى الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث ، انما كانت مثل التغييرات بين العصرين القديم والوسيط . بمعنى انها كانت

---

(3) Brinton and others, op. cit., Vol. I, 391., 303 f., 460 ff.

(4) La Monte, JL., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 619

(5) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, 60 ; Brinton and others, op. cit., Vol. 1, 383-388 ; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, 507-508; Baynes, N.H. and Moss, H. St. L.B. (eds), Byzantium, Oxford, 1953, 49.

عبارةعن عملية تطور بطيء مستمر لا يشمل حادثة معينة او واقعة بالذات فحسب ، بل يشمل جميع الحوادث والوقائع التي اشرنا اليها ، والتي تدور بصفة خاصة حول القرون : الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلاديه ، والتي يبدأ بها عصر جديد له نظمه وحضارته التي تختلف عما كان سائدا من قبل .

ولعلنا نستنتج مما تقدم ، انه مهما كان اختلاف المؤرخين حول النقطة التي تبدأ منها العصور الوسطى الاوربية ، وتلك التي تنتهي عندها ، الا انها من الناحية التقليدية الشكلية تبدأ في القرن الخامس وتنتهي في القرن الخامس عشر الميلادي ، وان كانت الاسباب والعوامل التي مهدت لها والتي ادت الى زوالها تسبق في الواقع قيامها وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة .



Brinton and others, op. cit., Vol. I, 542, 550-552. '(5)



الجزيرة العربية في أخبار المؤلفين الصينيين

الدكتور نقولا زيادة
أستاذ التاريخ في الجامعة الأردنية

مع ان المصادر الصينية المتعلقة ببلاد العرب ، والتي ستكون موضع عنايتنا في هذا البحث تخص القرنين السادس والسابع للهجرة (اي القرنين الثالث عشر والرابع عشر) ، فاننا نرى ان نشير اشارة موجزة لتاريخ الصين في الفترة السابقة لذلك ايضا ، اذ قد تكون ثمة حاجة الى مثل هذه المعرفة .

كانت بلاد الصين قد عانت من غزوات خارجية ادت الى انقسام في اجزائها المختلفة . لكن في العام 581 م قامت اسرة سوى sui التي اعادت الى البلاد وحدتها . الا ان هذه الاسرة لم تعمر طويلا بسبب سوء التصرف الذي بدا من الامبراطور الثاني فيها (يانغ تي Yang Ti) ولما زالت خلفتها اسرة تانغ .

وقد حكمت اسرة تانغ T'ang من سنة 618 الى سنة 907 وكان اشهر ملوكها تاي تسونغ T'ai Tsung الذي تولى العرش من سنة 629 الى سنة 649 . وفي هذه السنة تولى العرش الامبراطوري كاو تسونغ Kao Tsung الذي ظل على العرش الى 683 . لكن الحاكم الفعلي للبلاد في ايامه والى بعد وفاته بسنوات كانت الامبراطورة ووتسي تيان Wu Tse T'ien وكانت ذات شخصية قوية . وقد نظمت الجيوش وقادتها في مجال المعارك ، كما انها كانت راعية للفنون والاداب . وكان من مشاهير اباطرة هذه الاسرة ايضا هسوان تسونغ Hsüan Tsung الذي حكم من 712 الى 756 . وفي ايامه حدثت معركة الطراز (على نهر طلس وراء النهر) بين الجيوش العربية وجيش صيني ، وقد كتب فيها النصر للعرب (751 م) .

وضعف شأن اسرة تانغ ، وتردت البلاد في حرب اهلية ثم انقذت مرة ثانية على ايدي الاسر الخمس (907 ـ 960) . ثم تولت أمور الصين عندئذ اسرة سونغ SUNG التي ظلت تتمتع بالسلطة من 960 الى سنة 1279 . على انه من الواجب الاشارة الى ان هذه الفترة بالذات

تتكون من قسمين ـ الاول فترة سونغ الشمالية (960 ـ 1126) والثاني عصر سونغ الجنوبية (1126 ـ 1279) . وهذه الاسرة قضى عليها جنكيز خان لما اجتاح بلاد الصين ، كما اجتاح غيرها .

وقد برز بين اباطرة اسرة سونغ كونغ ـ يـن (K'uang - Yin) من سنة 960 الى سنة 976 وتشن تسونغ (Chen Tsung) من سنة 998 الى سنة 1022 وهوى تسونغ (Hui Tsung) من سنة 1100 الى سنة 1175 .

وتعتبر فترة اسرتي تانغ وسونغ من اهم الفترات في تاريخ الصين بالنسبة الى الكثير من الانجازات الحضارية . وها نحن اولاء نجمل هذه النواحي في النقاط التالية :

1 ـ في ايام اسرة تانغ تم الفصل بين الادارة المدنية والحكـم العسكري ، فاصبح اختيار موظفي الدولة المدنيين يتم عن طريق الدراسة والامتحانات الخاصة ، فلم يعد بامكان الضباط والعسكريين ان يصلوا الى المناصب الادارية . وهذا النظام ظل معمولا به حتى العصور الحديثة .

2 ـ في ايام تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامـة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الاسلامي عبر اواسـط اسية . ولذلك فان الثروة التي كانت تحصل عليها من ذلك كانت عظيمة. وكان ان اعتمت الصين في هذا الوقت بتصدير الشاي والصيني والورق. كما اخترع الصينيون الطباعة في هذا العصر .

3 ـ واذا كانت التجارة الاسيوية البرية قد افلتت من ايدي الصين في زمن اسرة سونغ فان التوسع التجاري البحري عوض اهل البلاد عن خسارتهم . وقد بني اول اسطول بحري في هذه الفترة . وبين سنتـي 1130 و 1237 ارتفع عدد سفنه من احدى عشرة سفينة الى عشرين سفينة، ومن ثلاثة الاف بحار الى 52 000 بحـار .

4 ـ في الفترتين عرفت الصين تقدما في العلم والتكنولوجية والفن والادب على شكل لم يجار . ولعل الفترة التي بلغ التقدم في هذه الامور اوجه هي القرنان العاشر والحادي عشر .

5 ـ كان بعض الرحالين الصينيين قد وصلوا الى الخليج العـربي في العصور السابقة لذلك ، وكان بعض التجار والرحالة قد جاءوا الصين من بلاد ساسان وبلاد الشام ورومه . لكن الاتصال المباشر لم يتم حتى في ايام تانغ وسونغ . الا ان الامر المهم هو ان كثرة التجار الوافدين الى الصين من فارس وبلاد العرب وغيرهما اثارت في نـفوس الصينييـن اهتماما بالتعرف ـ بطريقة غير مباشرة ـ الى تلك البلاد .

6 ـ وكانت الموانىء الصينية الرئيسة فيها مراقبون للتجارة والتجار . وكان هؤلاء يدونون ما يصل الى البلاد بشيء كثير من التفصيل (راجع 2 ـ مراقبة السفن والتجار) وقد وصلتنا بعض هذه المدونات التي ورد فيها ذكر الموانيء والبلاد التي نقلت منها المتاجر الى الصين وانواع هذه المتاجر ومصادرها ووجوه استعمالها(1) .

2 ـ مراقبة السفن والتجار

يبدو انه منذ القرن الثامن كانت السفن التي ترد كنتون (خانفو) بقصد نقل البضائع الصينية تخضع لتسجيل في مكتبمراقب التجارة البحرية (Shi-po-shi) وكان على ربابنة هذه السفن ان يقدموا الى المكتب المذكور بيانات عن البضائع التي ينوون نقلها الى الخارج . ولا يسمح لهم بالخروج من الميناء قبل ان يدفعوا رسوم التصدير والنقل (2) .

وقد ورد مثل هذا في وصف سليمان التاجر للتجارة البحرية في كنتون (خانفو اوكوانغ ـ تشو (Kuang-chou) . فهو يقول «واذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في

---

(1) راجع
C.P. Fitzgerald : History of East Asia (London, 1974) pp. 69-87
L.c. Goodrich : A Short History of the Chinese People (New York, 1959) pp. 120, 137, 151
Jannette Mirsky : The Great Chinese Travelers (Chicago, 1964) pp. 13 - 23, 237-248.
F. Needham : History of science and Technology in China (Cambridge,) vol I, pp. 120 ff.
K. Pratt : Visitors to China (London, 1968), pp. 26-46.
C.G.F. Simkin : The Traditional Trade of Asia (London, 1968 pp. 85-99.
E.H. Warmington : The Commerce between the Roman Empire and India, 2ne ed. (London, 1974) pp. 84 ff.

Chau-Ju-Kua - Chu-tan-chï
trs. andeds Friederich Hirth and W.W. Rockhill (St. Peters burg, 1911, neprint, New York, 1966), p. 9.

البيوت وضمنوا الدرك الى ستة اشهر الى ان يدخل اخذ البحريين» (3) . وقد وضع سليمان اخبار رحلته هذه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .

ويبدو ان تنظيم هذه المكاتب اعيد النظر فيه في القرن الرابع (العاشر) ، كما ان الموانيء التي فتحت فيها هذه المكاتب زاد عددها . فقد كان ثمةمراقبون في هانغ ـ تشو (Hang-chou) ـ ومنغ ـ تشو (Ming-chou) وتوسوان ـ تشو (Ts'uan-chou) الذي ورد اسمها زيتون ، اما كنتون فقد تعطل العمل فيها (14) .

وفي القرن الثاني عشر عادت كنتون الى ما كانت عليه بالاضافة الى الموانيء الثلاث المذكورة فوق واضيف على ما يبدو ، مكتب في فوتشو (Foochow) . وكان يطلق على هذه المدن الموانيء الرسمية (5) .

والواضح من مدونات المراقبين ان الشخص المسؤول ، والذي كان يعمل نفر من الرجال تحت امرته ، كان يتولى الاشراف على دخول السفن الى الموانيء وخزن المتاجر وتحصيل الرسوم المتوجبة عليها . وبعد ذلك يختار صاحب السلطان ، بواسطة عملائه ، ما يريد من البضائع يسمح ببيعها (6) . ولعل هذا كان بالاضافة الى ما ذكر قفلا من مراقبة البضائع المصدرة .

وبسبب من العناية التي كان يوليها هؤلاء المراقبون لمصادر المتاجر الواردة عليهم ، وصلت الينا ، على ما اشرنا الى ذلك قبلا ، اخبار منتقاة من التجار الاجانب عن البلاد المتعددة التي كانوا يأتون منها .

3 ـ مدونة تشاوجو ـ كاو

وصلتنا ثلاث مدونات رئيسية من النوع المذكور والتي تعطينا صورة جغرافيا يشمل فيما يشمل بعض موانيء الجزيرة العربية وبعض

اخبار الصين والهند لسليمان التاجر تحقيق Sauvaget (باريس ، 1948) ص 16 ، من رحلات العرب (نقولا زيادة) (بيروت 1974) ص 31

Ju-Kua, p. 20

Ibid., p. 22; Miksin. p.98

الجزر المحيطة بها . والمدونات الثلاث اثنتان منها تعودان الى القرن الثاني عشر ، والثالثة تعود الى القرن الثالث عشر ، وهي التي ستكون موضع اهتمامنا الخاص في هذه الدراسة المتواضعة .

اما المدونة الاولى فاسمها بينغ ـ تشو ـ كو ـ تان (Ping-chou - K'o - tan) وهي من وضع تشو يو (Chu Yu) . وقد تم له ذلك بين سنتي 1111 و 1117 ، على نحو ما يتضح ذلك من الاشارة الى احداث تاريخية تقع في هذه الفترة ، وهي آخر ما دون فيها . وقد كان والد المؤلف موظفا في كنتون في اواخر القرن الحادي عشر وان كان الباحثون لم يعرفوا طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها تماما ، لكن المؤلف كان دقيقا في وصف ما كان يقوم به موظفو المال والجمارك من اعمال وما يدفعه التجار من رسوم تبلغ 30 بالمائة ، وان كان الغالب عليها 10 بالمائة . والتفاوت بين قيمة الرسوم يتوقف على طبيعة البضاعة ، فكلما ارتفع سعر المتاجر زادت الرسوم المدفوعة عليها (7) .

على ان هذه المدونة لا تفيدنا كثيرا فيما يتعلق ببلاد العرب .

والمدونة الثانية هي لنغ ـ واي ـ تاي ـ تا (Ling-wai-tai-ta) وقد وضعها تشو كثوي ـ فـي (Chou K'u-fei) حول سنة 1978 . وقد كان المؤلف من اهل ونتشو (Won-chou) ولما وضع كتابه كان مساعدا اداريا في عاصمة ولاية كوانـغ ـ سي (Kuang-si) . ويبدو انه جمع مادته لمدونته لما مر بكنتون في طريقه الى مقر عمله (8) .

اما المدونة الثالثة فهي تشو ـ فان ـ تشي (Chu-fan-chi) التي كتبها تشاو جو ـ كوا (Chau Ju-Kua) وذلك في القرن الثالث عشر .

واذا نحن قبلنا بالتفسير الذي تقدم به هرث (Hirth) وركهل (Rockhill) كان معنى هذا ان جو ـ كوا وضع هذا المؤلف بين سنتي 1242و1258 .

والمؤلف متحدر من نسل احد الاباطرة الذي عاش في اوائل القرن الحادي عشر . وكان المؤلف يشغل منصب «مراقب التجارة الخارجية»

Ju-Kua pp. 16, 21 - 22

Ju Kua pp. 16 - 21 - 22. (7)

وقد دفعت رسوم بلغت 40 ـ (سنة 1144 م) و 50 ـ (سنة 1175).

Ibid., p. 22 (8)

في ميناء تسوان ـ تشو (Ts'üan-ch'ou) على شاطيء فوكيين (Fu-Kien) شرق الصين . وهذا العمل هو الذي يسر له الحصول على المعلومات اللازمة من التجار الصينيين والغرباء على السواء . والذي دونه جو ـ كوا كان يتعلق بالبلاد الاجنبية ومن ثم فاسم كتابه ، مترجما الى العربية ، هو «وصف الشعوب الاجنبية» (10) .

ومع ان هذا الكتاب نقل عنه كثير من المؤلفين الصينيين اللاحقين ، فقد ظل امره مغمورا . ويعود السبب في ذلك الى انه كان من المألوف عند الكتاب الصينيين ان ينقلوا عن سابقيهم دون الاشارة الى اسمائهم او اسماء كتبهم (11) .

وقد افاد المؤلف كثيرا مما اورده تشوكو ـ فيي في كتابه ، اذ نقل عنه جملا أو فقرات او حتى فصولا كاملة . لكن الذين انصرفوا الى دراسة مقارنة لهذا النوع من الادب الجغرافي التجاري يرون ان جو ـ كوا قد حصل على مادة جديدة كثيرة من التجار اودعها كتابه وكان فيها فائدة كبرى لدراسة طرق التجارة والبلاد التي ارتبطت بالصين تجاريا والمتاجر التي كانت تنقل وحتى انواع السفن وبعض المعلومات عن البحارة (12) .

ينقسم كتاب جو ـ كوا الى قسمين الاول يتناول الاقطار والشعوب التي كانت لها علاقات تجارية مع الصين والثاني يبحث في المتاجر نفسها .

والقسم الاول يبدأ فيه المؤلف بتونكنغ وينتقل بعد ذلك الى انام فكمبوديا فالملايو فبورما واندونيسيا وسيلان (سري لانكا اليوم) والهند والبلاد العربية والصومال ومصر وبعض مناطق البحر المتوسط وجزره كالمغرب وجزيرة صقلية . ويختم القسم بفصول عن جزر الفليبين وكوريا واليابان . وفي هذا الحديث يهتم المؤلف بالموانيء او المدن التي يرتادها التجار اكثر من اهتمامه بالوصف العام للبلاد نفسها .

[illegible] البلاد العربية من هذا القسم حظا لابأس به . فالموضوعات [illegible] اما عن العرب ومكة وصحار وعمان وبغداد والبصرة [illegible] والقاهرة) والاسكندرية والمغرب الاقصى . واذا تذكرنا ان [illegible] في وقته كان الاسلام قد انتشر في رقاع اوسع من الرقعة [illegible] يعتبر بلاد العرب وبلاد الاسلام شيئا واحدا (على ما

(10) Ibid., pp. 35-36
(11) Ibid., p. 36
(12) Ibid., p. 41

سندري فيما بعد) فانه يتحتم علينا ان نضيف ما ذكره عن زنجبار والصومال وجزيرة كيش (قيس) وغزنة واسية الصغرى وجنوب اسبانية وصقلية ، وبذلك توفر لنا ست وثلاثون صفحة من اصل 135 صفحة هي جماع ما كتبه في القسم الاول . وليس ذلك بغريب فان اشتغال العرب والمسلمين بالتجارة في البحار الشرقية في ذلك وتبادلهم السلع مع الاقطار الواسعة امر معروف .

اما القسم الثاني من الكتاب فهذا الذي يتداول المؤلف فيه اصناف البضائع التي كانت تحمل الى الصين ، ويعنى بذكر خصائصها ومنافعها وحتى اوجه استعمالها احيانا . فعندما يحدثنا عن اللبان يذكر انه يوجد منه ثلاثة عشر نوعا مدرجة على اساس ما في كل نوع منها من الجودة وقوة الرائحة ،ثم يوجز هذه الانواع جميعها مركزا على اجود ثلاثة منها (13) . اما خشب السابان (sopen-wood) ، وهو المعروف عربيا باسم البقم ، فيذكر انه يستعمل في الدباغة (14) . ويذكر ان زيت الستوراكس ، وهو صمغ يشبه المر ، كان يستعمل في تهيئة المستحضرات الطبية (15) . وعندما يتحدث عن اللؤلؤ يصف الغوص عليه في الخليج العربي (16) .

وقد ضم كتاب جو ــ كوا الى مجموعة كبيرة من الاعمال الادبية الصينية التي اعدت في اوائل القرن الخامس عشر وهي سنة 1783 طبع الكتاب لاول مرة بالصينية ثم طبع ثانية في سنة 1805 . والطبعتان تكادان ان تكونا متطابقتين .

وكان ج . بوتيه (G. Pouthier) اول باحث غربي اهتم بهذا الكتاب اذ نقل فصلا منه يتحدث فيه المؤلف الصيني عن بطريرك النساطرة (1857) كما نقل هوك (Huc) الفصل نفسه حول الوقت ذاته . وقد ترجم فردرك هيرث (Friedrich Hirth) الكتاب باكمله (1885 ــ 1895) . وفي سنة 1911 ظهرت ترجمة انكليزية كاملة مع الهوامش المفصلة هي نتيجة العمل المشترك الذي قام به هيرث وزميله و . و . روكهل ((W.W. Rockhill)) ونشرت في مدينة بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) . وهذه هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث معاد طبعها في نيويورك (1966) .

---

(13) Ibid., pp. 195-6
(14) Ibid., p. 217
(15) Ibid., p. 200
(16) Ibid., pp. 229-230

٤ ـ العرب عند جو ـ كوا

يستعمل جو ـ كوا كلمة تاشي (Ta - shi) بشكل عام بحيث انها تعني العرب او بلاد العرب او المسلمين او بلاد الاسلام ، (17) بل يستعملها احيانا في اشارته الى الجاليات العربية او الاسلامية التي كانت تقيم في جنوب شرق اسية وخاصة في جاوة وسومطرة (18) . ولعل خير ما يمكن ان يقال في هذه المناسبة هو تلخيص هذا الفصل المتعلق ببلاد تا ـ شي وتوضيح دلالة اللفظ المختلفة ، مشيرين الى ما في اخبار جو ـ كوا ، المنقولة عمن سبقه وعن التجار الزائرين لبلاده ، من اخطاء .

(1) يقول المؤلف بان بلاد تا ـ شي تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين لكنهما لا تتجاوران ، بل ان المسافة بين المنطقتين بعيدة . اذ ان السفينة تحتاج الى اربعين يوما الى مدينة لان لي (في جزيرة سومطرة) ثم الى ستين يوما حتى تصل الى مدينة على ساحل حضرموت (جو ـ كوا ص 114 و 119 هامش 2) .

(2) بالنسبة الى المناخ يذكر شيئا واحدا وهو ان البرد في تا ـ شي شديد وان الثلوج [illegible] فيها بكثرة (ص 115) . وهذا يدل على ان المؤلف جمع نتفا تتعلق [illegible] عرف عندهم باسم تاشي وضمه بعضه الى البعض الاخر ، ومن هذا كانت لديه هذه الاشارة الوحيدة الى المناخ .

(3) يعدد جو ـ كوا المناطق التي تتبع تاشي او تعتمد عليها (ص 168 ـ 117 و 121 هـ) (11 و 12 و 13) . وسنرى من الجدول التالي انه لم تكن لديه ذكرة واضحة عن المنطقة العربية الاسلامية بكاملها ، بل ان الذي فعله هو انه جمع في هذا الجدول كل الاماكن ـ موانيء او مدن او مناطق صغيرة ـ التي تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين . وهذا هو الجدول الذي وضعه جو ـ كوا .

Ibid., pp. 114-119

Ibid., pp. 204, 205 n. 1, 124, n. 25

لا يتحدث جو ـ كوا عن مثل هذه الجاليات في الصين لانه معني اولا وآخرا بالتجار الذين يفدون على الصين .

الاسم الصيني بالحروف العربية	بالحروف الافرنجيه	ما يقابله بالعربية
مرباط	Ma-lo-mo	ما ـ لو ـ مو
الشحر	Shi-ho	شي ـ هو
ظفار	Nu-fa	نو ـ فا
خوارزم	Lo-ssï-mei	لو ـ سي ـ ميي
مكران	Mu-Kü-lan	مو ـ كو ـ لان
قلهات	K'ie-li-ki	كي ـ لي ـ كي
افريقية (اي المغرب العربي)	P'i-no-ye	يي ـ يو ـ يي
العراق	I-lu	ا ـ لو
بغداد	Pai-ta	باي ـ تا
سيراف اوشيراز	Ssi-lien	سي ـ لين
البحرين	Pai-lien	باي ـ لين
ميناء في مكران	Tsi-ki	تسي ـ كي
جزر القمر	Kan-mei	كا ن ـ ميي
بخارى	P'u-hua-lo	يو ـ هوا ـ لو
زنجبار	Ts'ong-pa	تسونغ ـ با
بربرا (الصومال)	Pi-p'a-lo	بي ـ با ـ لو
صحار (؟)	Wu-Pa	وو ـ با
عمان	Wöng-li	وونغ ـ لي
ـ ـ	(Yung-man)	(يونغ ـ ما ن)
جزيرة قيس	Ki-shï	كي ـ شي
مكة المكرمة	Ma-Kia	ما ـ كيا
البصرة	Pi-ssi-lo	Pi-ssi-Lo
غزنة (؟)	Ki-tz'i-ni	كي ـ تسي ـ ني
الموصل او مصر	Wu-ssi-li	وو ـ سي ـ لي

(4) ومع ان جو ـ كوا يبدو متخطبا او مضطربا فـــي معلومات الجغرافية ، فانه اكثر اضطرابا فيما يتعلق بالتاريخ بالنسبة الى العا الاسلامي . وقد ابدى هيرث وروكهيل استغرابهما لقلة ما وصـــل المؤلفين الصينيين من معرفة عن هذه القضية مع وجود هذا الاتصـ التجاري الواسع مع العرب والمسلمين (ص 122 هـ 14) . والذي نجد

جو ـ كوا ، فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي هو انه يذكر الرسول الكريم (ص) باسمه باللفظ الصيني ما ـ هيا ـ وو (Ma-hia-wu) . ويقول ان المسلمين يصلون الى السماء (طبعا لم يكن باستطاعة جو ـ كوا ان يعبر عن عبادة الله بغير هذه العبارة) . وانهم يصلون خمس مرات في اليوم وانهم يصومون ويحجون (116) . لكنه يقول ان الصيام يتم في بدء السنة ولسنا ندري هل قصد السنة القمرية الهجرية (وهو خطأ طبعا) او قصد التقويم الصيني (وعندها تكون عبارته غير تامة لان موقع شهر رمضان يتغير بالنسبة للسنة الشمسية) . ويذكر تبدل الدولة من الامويين الى العباسيين . فبنو مروان يسميهم يون ـ تي ـ مو ـ هوان (P'ön-ni-mo-huan) ويسمي ابا العباس ا ـ بو ـ لو ـ با (A-P'o-lo-pa) . ويقول ان بني مروان كانوا يسمون « المتشحين بالبياض» وان الذين جاءوا بعدابي العباس كانوا يسمون «المتشحين بالسواد» .

(5) يصف سكان بلادتا ـ شي بانهم ممتازون وشجعان (ص 115) وهذا بطبيعةالحال تعميم قد يكون له ما يبرره .

(6) يشير جو ـ كوا الى عاصمة تا ـ شي ويصفها (ص 115) ولكنه لا يعينها بالاسم (ص 120 هـ5) . ويقول عن العاصمة (؟) انها مركز كبير للتجارة وان عرض الشوارع فيها نحو خمسة عشر مترا ، وان وسط الشارع فيه مسار خاص بالدواب ، كما ان الارصفة توجد على جوانبها لمصلحة المشاة ورجال الاعمال . ويقول عن البيوت انها تشبه بيوت الصينيين ، الا ان اهل تا ـ شي يستعملون الحجارة بدل الطوب (الاجر) . ويذكر ان اهل تا ـ شي يأكلون الارز وغيره من الحبوب ولحم الضان ويصنعون منه اصنافا مع المعجنات . ويأكل الكثيرون منهم السمك والخضر والفواكه . ويفضلون المآكل الحلوة على الحامضة . ويشربون عصير العنب اما طازجا او مخمرا . ويتناولون شرابا ساخنا مصنوعا من الافاويه بالسكر او بالعسل ، وهذايمنحهم الدفء .

(6) يصف المؤلف قصر سلطان تا ـ شي . ولكن لاننا لا نعرف العاصمة التي يقصدها فاننا لانستطيع ان نعرف اي قصر يصف ! هل الاخبار التي بلغته عن القاهرة الفاطمية او بغداد العباسية او حتى دمشق . ويرى محققا (ومترجما) جو ـ كوا ان الوصف الذي اورده للعاصمة وللقصر (بمافي الوصف من فخامة وابهة مثل الاشارة الى عرش فخم وثياب مصنوعة من الحرير المزوق بخيوط الذهب واعمدة من المرمر) هو جماع ما بلغه عن اكثر من مدينة من مدن منطقتنا ، ضمه الى بعضه البعض دون ان ينتبه الى ما فعل تماما . كما ان وصف القصر مأخوذ

مما رواه احد الوفود (التجارية) التي جاءت الصين للتجارة بين سنتي 1111 و 1118 (ص 120 هـ 5) .

(7) ويحدثنا جو ـ كوا عن الوفود التي ذهبت من بلاد تا ـ شي الى بلاط امبراطور الصين ، وهي طبعا وفود تجارية وكانت عديدة . فقد ورد ذكر عدد منها وصل بلاد الصين في سنوات 968و971و973و1974و975و976 و 977 و 999 و 1003 و 1004 و 1008 و 1011 و 1019 . والذي يجب ان يذكر دائما ان المؤسسات الصينية الرسمية كانت تشير الى هذه الوفود التجارية بانها كانت تفد على الصين حاملة هدايا ، وان الامبراطور كان يقبل هذه الهدايا ويجزي حامليها بالذهب او الفضة او الحرير او الصيني . ذلك بان المؤلفين الصينيين ، جريا على ما كان ملوكهم يرون ، لم يكونوا يعتبرون هذه الوفود تجارا يحملون بضائع يودون مبادلتها بمتاجر صينية (كان هذا ينطبق على التجار الآتين من البلاد الاخرى طبعا) ، بل انها تتودد الى الصين عن طريق الهدايا . ولم تكن لهذه الوفود صبغة رسمية ، بمعنى ان احدا من اولى السلطة في بلاد تا ـ شي الواسعة قد ارسلها لاسترضاء البلاط الصيني . لكن مصادر صينية اخرى تذكر ان الوفد الذي وصل البلاط الصيني سنة 976 جاء من قبل كبير البلاد (اي الخليفة) الملقب كو ـ لي ـ فو (K'o-li-fu) . وان الوفد كان برئاسة يو ـ لو ـ هي (Pu-lo-hai) اي ابو حامد . كما ان وفدا ذهب الى الصين من البلاط الساماني في بخارى (1003) (ص 117 ـ 118 ، 120 هـ 5 ، ص 122 ـ 3هـ17و18و 19 و 123 .

(8) يصف جو ـ كوا ميناء كبيرا في تا ـ شي يبلغ عمقه ما يزيد عن ستين مترا ، ومفتوح على جميع الجهات ويقيم السكان على جانبي الميناء وتقام هناك الاسواق وترسو السفن المحملة بكل انواع المتاجر (ص 116) . اما اين يقع هذا الميناء ، فلا يعرف . وقد اقترح الباحثون القلزم (مصر) او الابلة او البصرة (ص 121 هـ 9) .

(9) من حيث ان جو ـ كوا كان يتحدث عن منطقة واسعة ومن حيث ان جغرافية المنطقة قد اختلطت عليه ، فان ما ذكره عن ما تغله او تنتجه المنطقة اختلط عليه ايضا ، لذلك فهو ، اذ يعدد ما تنتجه المنطقة (حتى في اوسع حدودها) يذكر اشياء سيلانية او هندية او اندنوسية اصلا . فهو يورد اللؤلؤ واللبان والمرودم الاخوين والبلور والقماش بين ما ينتج في المنطقة وهذا صحيح . لكنه ذكر ما كان ابناء المنطقة يتاجرون به على انه من منتوجات تا ـ شي مثل العاج وقرن وحيد القرن والكاسيا والزنجبيل وجوزة الطيب وغيرها ، وهذا خطأ (ص 116) .

ـ 5 مدن الجزيرة العربية وموانئها الوارد ذكرها

الاماكن التي ورد ذكرها في كتاب جو ـ كوا والتي هي من مناطق الجزيرة هي مكة وصحاروعمان والشحر وظفار ومرباط ، وقلهات وجزيرة سقطرى . وها نحن اولا ننقل اهم ما ورد في الكتاب عن هذه الاماكن .

(أ) مكة المكرمة وترد عنده باسم ما ـ كيا (Ma-Kia)

ويقول عنها انها تبعد مسيرة ثمانين يوما عن مرباط (في حضرموت) . وهذا الطريق الذي يشير اليه دون ان يصفه هو الطريق القديم لتجارة البخور . ويقول جو ـ كوا ان محمدا (ص) ولد في مكة ويورد اسمه هكذا ما ـ هي ـ وو (Ma-hi-wu) . وان فيها بيت العبادة (ويقصد الكعبة المشرفة) ، وانه يقام فيها الحج مرة في العام (ولكنه يخطىء اذ يربط بين تاريخ الحج ووقت وفاة الرسول (ص) . ويذكر ان كسوة جديدة تعلق على الكعبة ، وان هذه الكسوة تصنع من الخز المزخرف بخيوط الذهب . ويضيف انه على مسافات ابعد من ذلك يوجد قبر الرسول (ص) ، دون ان يسمي المدينة المنورة بالذات (19) (ص 124 ـ 125) .

(ب) يرد في الكتاب اسم ميناء هي وو ـ با ويقول (Wu-pa) عنها المؤلف انها على الساحل وان طريقا بريا يصلها ببلاد ـ تا ـ شي (ص 130) . وعبارة يصلها ببلاد تا ـ شي لا تعني شيئا محددا بسبب ما ذكرنا من قبل من اختلاط الامور الجغرافية والتاريخية على جو ـ كوا . ولكن مترجمي الكتاب يريان ان هذا المكان قد يكون صحار لانه يتفق مع اوصاف اخرى لاماكن ذكرت بهذا الشكل (ص 117 و 122 هـ 13) .

(ج) يذكر المؤلف بين المناطق التابعة لتا ـ شي ما ـ لو ـ مو ، وشي ـ هو ، ونو ـ فا ، وكي ـ لي ـ كي (راجع الجدول في الصفحتين السابقتين) . وهذه الاماكن هي على الترتيب مرباط والشحر وظفار وقلهات

وقد جاء في مدونة تشو ـ كو ـ فيي ان مرباط فيها بيوت تتكون من خمسة ادوار وفي الميناء تتجمع السفن الكبيرة ويلتقي التجار الاغنياء . ويرد اسم هذه المدينة عند المؤلف المذكور ما ـ لو ـ يا ويقول انها هي

---

(19) يبدو ان تشو ـ كوا ـ في كان اول مؤلف صيني كتب عن مكة ، وعنه نقل جو ـ كوا . وثمة اشارة في مصدر صيني سابق (تانغ ـ شو (T'ang-shu) الى محمد (ص) والمدينة المنورة والحجر الاسود ، لكن دون ذكر مكة .

راجع Ju-Kua, p. 125m.1

ما ـ لي ـ يا نغمدها . وهذه التسمية اقرب الى مرباط ـ نما ـ لو ـ مـو الواردة عند جو ـ كوا (ص 121 هـ 11) . وتو ـ فا يرد اسمها في مصـدر صيني آخرتسو ـ فا ـ ار ((Tsu-fa-ïr)) (ص 121 هـ 12) .

(د) وهناك اسم يرد بشكلين هو يونغ ـ مان (Yung-man) وونغ ـ مان ((Wöng-man)) والمنطقة هي عمان . وقد ورد في رحلة سليمان التاجر فاما المواضع التي يردونها (التجار ويرقون اليها فذكـروا ان اكثر السفن الصينية (لعل المقصود المصنوعة في الصين) تحمل مـن سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرهما الـى سيـراف . فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الامواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائـة وعشرون فرسخا . فاذا عبي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها اهل البحر : يعني يقلعون ـ الى موضع يقال لـه مسقط وهو آخر عمل عمان . والمسافة من سيراف اليه نحو مائتـي فرسخ .. وفي هذا البحر جبال عمان» (20) .

ويذكر المسعودي ان سفن سيراف وعمان كانت تزرع بحار الصين والهند والسند والزنج واليمن والحبشة والقلزم (21) . كما ان جو ـ كوا يعيد الى الاذهان ان عمان كانت تتاجر مع البصرة (ص 137) . ويقـول ابن بطوطة ان اسرع الخيول التي كانت تحمل الى الهند كانت تأتي من اليمن وعمان وفارس (22) . ولعل المقصود بالنسبة الى اليمن وفارس ان موانئها كانت نقاط تجمع للخيول المنقولة من اماكن اخرى .

(هـ) يقول جو ـ كوا (ص 131) انه على مقربة من الصومال يوجد جبل او جزيرة (فالاشارة الصينية للاثنين كانت واحدة هي (4) . والمقصـود بالجزيرة سقطرى التي يبلغ محيطها نحو 4000 لي (وهو قياس للمسافة يبلغ طوله نحو 535 مترا) . واذا صح هذا التفسير فالجزيرة اولى ان تعتبر جزءا من الجزيرة العربية . والجزيرة مشهورة بدم الاخوين ((dragon's blood) . وقد جاء عن سقطرى في ياقوت ما يلي :

---

(20) اخبار الصين والهند لسليمان التاجر ، طبقة سوفاجية ، ص 7 ، من رحلات العرب (نقولا زيادة) 22 ـ 23 .

(21 المسعودي ، مروج الذهب ، ج 1 ص 281 .

(22) ابن بطوطة طبق باريس ج 2 ص 374

«سقطرى .. جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها وهي الى بر العرب اقرب .. والممالك الى بلاد الزنج يمر عليها .. يجلب منها الصبر ودم الاخوين وهو صمغ شجر لا يوجد الا في هذه الجزيرة ، ويسمونه القاطر وهو صنفان : خالص يكون شبيها بالصمغ الا ان لونه احمر .. والصنف الاخر مصنوع من ذلك» (24) .

6 ـ المتاجر : ما ينتج في الجزيرة نفسها

يبدو انه في الوقت الذي وضع فيه جو ـ كوا كتابه ان المتاجر التي تنتجها الجزيرة العربية والتي كان التجار الصينيون يعنون بالحصول عليها لم تكن كثيرة . ونود ان نذكر الزملاء بامرين : الاول ان التاجر الصيني المقيم في بلده كان يعني ، بالدرجة الاولى ، بالاشياء الكمالية ، اذا جاز التعبير . والثاني اننا ، في هذا البحث المقتضب ، ننقل اخبار المؤلف الصيني بالنسبة الى اجزاء معينة من بلاد العرب او ديار الاسلام ، اي الموانيء او المدن او المناطق الواقعة في الجزيرة العربية نفسها ، اي اننا لا نتعرض للتجارة الصينية مع بلاد العرب والاسلام عامة .

ولعل المادة الكبرى التي كانت الجزيرة تزود بها الصين والبحار الشرقية بعامة هي اللبان (البخور من الصنف الجيد) . وكان اللبان الذي يحصل عليه من جنوب الجزيرة افضل انواع البخور قاطبة . يقول جو ـ كوا بان اللبان الذي يمكن الحصول عليه من مرباط والشحر وظفار ، والذي يجمع من المناطق الجبلية الداخلية ، هو اجود الاصناف . وكان هذا اللبان ينقل من موانيء حضرموت الى بالمبانغ (Palembang) في سومطرة حيث يحمل الى الصين . وشجرة اللبان هذه مثل شجر الصنوبر . اما اللبان فهو عصارتها (ص 195ـ197) .

وكان ثمن نوع ادنى من البخور هو المعروف بالمر الذي كان ينتج في جنوب الجزيرة ، لكن الصنف الموجود هناك لم يكن جيدا ، وانما الجيد منه كان يأتي من الصومال (ص 197) (23) .

---

(23) راجع : نقولا زيادة « تطور الطرق التجارية البحرية والتجارة بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي » في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، السنة الاولى ، العدد الرابع ، ص 69 ـ 94 وخاصة 83 .

(24) ياقوت ، معجم البلدان (ليبزغ ، 1868) 3ـ101ـ2 .

راجع ايضا 4 ـ 168 و 481 ـ 482 عن قلهات ومرباط واللبان .

وكان دم الاخوين يمكن الحصول عليه من سقطري راجع فوق) . ومن سقطرى كان يمكن الحصول على ال (aloes) (ص 231 و 225 .
كما كان جنوب الجزيرة العربية وبخاصة مناطق ظفار ينتج ال Aloes .

وهناك الزبد ، هو مسك يفرزه حيوان خاص يوجد في منشوريا وما اليها ، كما يوجد في جنوب الجزيرة وفي الحبشة (234) . ومنطقة قلهات في عمان كانت تنتج نوعا جيدا من الزبد (ص 235) .

وكان الذبل يكثر في سقطرى (ص 238) ، ولكن بلاد العرب نفسها لم تكن فيها السلاحف الكبيرة التي يمكن الحصول على الذبل منها .

واخيرا فهناك اللؤلؤ . وكان الجيد منه ، بالنسبة الى الجزيرة العربية ، الذي يناس عليه في جهات جزيرة اوال (البحرين) وهو افضل اللؤلؤ اطلاقا (ص 229) . ويصف جو ـ كوا الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي وصفا دقيقا مما يدل على ان التجار كانوا دقيقين في نقل المعلومات لتأكيد جودة اللؤلؤ الذي يحملونه (ص 229 ـ 230) .

7 ـ المتاجر : ما كان تجار الجزيرة يقومون بنقله

كان تجار الجزيرة العربية ينقلون الكثير من المتاجر والبضائع بين الشرق والغرب . وقد اورد جو ـ كوا من المعلومات ما يؤيد الدور التجاري الكبير الذي كان هؤلاء التجار يقومون به

فقد كانوا ينقلون من الصومال المر (ص 197) والعاج (ص 127 و 232) والعنبر (ص 237) . كما كانوا يحملون الذبل من الاماكن المذكورة انفا (ص 238) ، وكذلك قرن وحيد القرن (ص 233) .

ومع ان المر كان من منتوجات جنوب الجزيرة العربية (الى الشرق من خليج عدن) فان المر الذي كان يأتي من الصومال كان اجود . وكان الطلب عليه كثيرا في البلاد الشرقية ، لذلك كان ينقل من الصومال على ايدي التجار العرب من الحضارمة وغيرهم اما رأسا الى سيلان مثلا او الى موانيء الجزيرة اولا ثم يحمل منها الى الهند وغيرها .

والعاج كان يجمع من الصومال وزنجبار وهما المورد الرئيسي للعاج الجيد ، ويحمل الى مرباط ومنها الى الهند والصين (ص 127 و 232) هذا مع العلم بان العاج كان يمكن الحصول عليه من الملايو وجاوه وسومطرة .

اما العنبر فكان يجمع في بحر الزنج وبحر العرب (أو بحر عمان كما يسمى احيانا) . والعنبر يفرزه الحوت الذي يعيش في البحار الدافئة وهذه المادة المفرزة تتجمع على شواطيء افريقية الشرقية كالصومال وما اليها . وهناك كان يجمع ويحمل الى الموانيء العربية . ثم ينقل الى البحار

الشرقية . ومن رأس الحوت الذي كان القوم يصطادونه هناك ، كان يستخرج دهن يستعمل في طلي السفن الامر الذي كان يعرفه البحارة في اليمن وعدن وفارس . وكان العنبر يستعمل في الطب من قبل . لكن استعماله الاساسي في ايام جو ـ كوا كان ، على ما يبدو ، في صنع العطور (25)

وكان قرن وحيد القرن مادة يمكن الحصول عليها من مناطق مختلفة في المشرق مثل تونكنغ وانام والملايو وجاوة والهند وزنجبار . ولكن اجود انواعه ما كان يأتي من الساحل الافريقي . وكان القرن الواحد منه يزن كتيات اي نحو ستة كيلوغرامات . (ص 233) . اما سن الفيل فكان واحده يزن نحو ستين كيلو غراما (26) .

والذبل ، وهو بيت السلاحف ، كان يأتي من الشاطىء الافريقي ، ولو ان جزيرة سقطرى وغيرها من الاماكن كانت تعده للبيع (ص 238) وعلى كل حتى الذي كان يجمع من الشاطىء الافريقي كان يحمل الى سقطرى لنقله الى الخارج .

وأورد جو ـ كوا اسماء بضائع اخرى كانت تمر بالموانىء العربية المذكورة آنفا وهي اللبان الجاوي الذي كان التجار يحملونه من بلاده الاصلية الى الهند وغيرها وموانىء الجزيرة العربية (ص 198 ـ 199) . كما ذكر الزبد (civet) الذي عرف في قلهات وغيرها من اقطار الجزيرة العربية الجنوبية (ص 234) . والستوراكس السائل كان يؤتى به من بغداد واسيا الصغرى (ص 201) ومثل ذلك يقال بالنسبة الى صمغ يجمع في فارس وما اليها ويسمى اسما فوتيدا وينقله تجار العرب الى المشرق (ص 224 ـ 225) .

والشاه بلوط وهو شجر تركي فارسي كان ينقل الى المشرق في سفن تخرج من موانىء الجزيرة (ص 215 ـ 216) .

وكان اجود انواع المرجان هو الذي يصطاد من البحر المتوسط ، وبخاصة عند السواحل الافريقية ، وان كان ثمة انواع تجمع في جهات اخرى مثل البحر الاحمر (ص 226 ـ 227) .

وكانت صناعة الزجاج المزخرف منه والبسيط ، منتشرة في اماكن مختلفة من المشرق العربي كمصر وبلاد الشام وبغداد . ويبدو ان جو ـ كوا قد عرف شيئا عن صناعة الزجاج هناك لذلك فانه يصفها ويقول ان الطريقة لا تختلف عن طريقة صنعها في الصين ولكنه يضيف الى ذلك

(25) Mirsky, p. 245
(26) Ibid., p. 239

قوله بأن صناعة الزجاج في الصين تعتمد على نترات البوتاس واوكسيد الرصاص والجبس ، اما في بلاد تا ـ شي فان الصناع يضيفون البوراكس ومن ثم فان ما يصنعونه هو اجود مما يصنع في الصين (ص 227) .
ويرى مترجما الكتاب ان كلمة ليو ـ لي (liu - li) الصينية كانت تعني اصلا الزجاج (او البلور) الملون . وكان هذا الصنف من الزجاج مما يرغب الصينيون في الحصول عليه .

وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كان الزجاج البغدادي ، ولعل المقصود ما كان ينقل عن طريق بغداد ، يعتبر اجود من غيره (ص 227 ـ 228) . وحري بالذكر ان المؤلف وسابقه تشو ـ كوا يشيدان بالزجاج الذي كان يصنع في بلاد الاسلام (ص228) . ومن المؤكد ان الزجاج والبلور في زمن جو ـ كوا كان ينقل بحرا على ايدي التجار العرب ، ولعل المواني العربية التي مر ذكرها كانت تعمل على تجميعه ونقله .

8 ـ خاتمة

هذه خلاصة لما جاء في كتاب جو ـ كوا عن الجزيرة العربية وموانئها ومدنها ومنتوجاتها والمتاجر التي كانت تنقل عبرها الى الصين . وقد يبدو من هذا ان المتاجر كانت قليلة ، ولكن الواقع هو انها كانت كثيرة في كميتها ثمينة في اسعارها ، بحيث ان الصين شعرت بأن الفضة والذهب والحرير والشاي والصيني الذي كان يدفع ثمنا لها كان كبيرا .

والذي اود ان اقوله بهذه المناسبة ان المؤلفات والنقوش الصينية القديمة (ومثلها ما وضع في الهند) التي يمكن ان يفاد منها في دراسة تاريخ الجزيرة العربية لا يستهان بها . والى ان يقوم بيننا من يدرس اللغة الصينية دراسة وافية لمتابعة النصوص في مظانها فلا بأس من ان نعتمد الترجمات الى اللغات الاجنبية . فتاريخنا طويل في الزمان متسع في المكان ، وحري بنا ان نفتش عنه حتى « ولو في الصين » .



الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة العربية في تونس

الدكتور رشاد محيي الدين الإمام
- تونس -

المصادر الاصلية المتعلقة بتاريخ الجزيرة العربية في تونس نادرة - سواء بالنسبة للكتب المخطوطة أو الوثائق الرسمية المخطوطة أيضا - ، خاصة بالنسبة للعصر الحديث والمعاصر . ولعل من ابرز اسباب ندرة الوثائق الرسمية المخطوطة ثلاثة عوامل رئيسية :

1) حداثة تأسيس خزينة الوثائق بتونس .
2) هيمنة الدولة العثمانية .
3) انتصاب الاستعمار الفرنسي .

1) خزينة الوثائق التونسية على أهميتها هي حديثة العهد نسبيا ، فاذا علمنا أن خير الدين باشا (توفي سنة 1889) ، الوزير الاكبر لتونس منذ سنة 1873 الى سنة 1877 ، هو الذي أمر بحفظ وثائق الدولة التونسية في خزينة خاصة بها ، أمكننا أن نتصور أن وثائق العهود السابقة لذلك التاريخ كانت مهملة غير محفوظة .

2) واقع كون تونس والحجاز كانتا تمثلان ولايتين عربيتين تحت حكم الدولة العثمانية المركزي في اسطنبول جعلهما مرتبطتين رسميا بمركز الحكم في اسطنبول أساسا ، سواء في مراسلاتهما أو في تبادل الوفود والزيارات ، لذا كانت اتصالات هاتين الولايتين في شؤونهما مباشرة قليلة ونادرة . لذا يمكننا أن نقول ان وضع هيمنة الحكم العثماني المركزي على ولايتي الحجاز وتونس حد كثيرا من الاتصال المباشر وربط العلاقات الوطيدة بين مختلف الولايات العربية الشقيقة .

3) وقوع تونس تحت نفوذ الاستعمار الفرنسي منذ سنة 1881 أسدل الستار بصفة تكاد تكون نهائية عن كل أنواع النشاطات والعلاقات بين البلدين الشقيقين مدة ثلاثة أرباع القرن من تاريخنا المعاصر . هذا بالاضافة الى ما فقد من ملفات ووثائق عديدة في عهد الاستعمار الفرنسي حيث أتلفوا منها ما أتلفوا واستولوا على العديد منها واخذوا معهم الى فرنسا كميات كبيرة منها .

ولهذه العوامل وغيرها نجد الوثائق الرسمية والشبه الرسميـــة المتعلقة بتاريخ أوضاع الجزيرة العربية عامة قليلة ونادرة . وهذا القليل النادر تغلب عليه الصبغة الدينية البحتة في مظاهر واعتبارات مختلفة . والوثائق المتعلقة بموضوعنا في هذه الخزينة مرتبة على أسس لا تنسيق ولا اطراد فيها ، نجد بعضها مرتبا حسب موضوعاتها ، وبعضها على أساس عهود بعض حكام تونس من البايات . والبعض الاخر تحت أسماء رجالات أو قضايا معينة ، غير أنني وجدت العديد من المعلومات الاولية الاصليـة الهامة . وجميعها مخطوط باليد وأصلي سواء ماكان منها باللغة العربيـة أو غيرها . وهي وثائق هامة لانها حفظت لنا معلومات لا توجد في مكـان آخر ، وذلك يصدق بصفة خاصة على الملفات التي تضم المراســلات والبيانات والاوامر العلية المتعلقة بمواضيع عديدة اهمهـــا الترتيبــات المتعلقة بموسم الحج وتنظيمات تخص الحجاج . ومن أهم هذه الوثائق ما يتعلق بشرح مداخيل اوقاف الحرمين الشريفين مع اثباتات مفصلـة ودقيقة لاوجه تلك الحسابات ، وتجدر الاشارة الى أن أغلب الوثائق التي استقيتها من تلك الخزينة اصلية ، وبعيدة عن التأويلات والتخمينـات والمفاهيم الاجتهادية التي تجدها في مراسلات أخرى ذات صبغة سياسية .

وبنظرة عامة الى تلك الوثائق المختلفة ، يمكننا أن نحصرهـــا مبدئيا في المواضيع التالية :

1) كل ما يتعلق بأوقاف الحرمين الشريفين بكامل البلاد التونسية مع ذكر مداخيلها ومصاريفها والمقادير المالية المتبقية والمراسلة الـى مكة والمدينة سنة بسنة . وهي وثائق كثيرة متراكمة في ملفات عديــدة يرجع تاريخ بعضها الى القرن السابع عشر وهي معلومات هامة جــدا وأساسية لتتبع تطوركم وحجم أوقاف الحرمين الشريفين في تونس مـن ناحية ثانية ، وتكون دراسة مثل هذه الملفات عنصرا علميا متينا لبحـث تطورات الاوضاع الاقتصادية والمعيشية بالبلاد التونسية في تلك الفترات التاريخية الطويلة التي تضم عدة قرون .

2) أسماء أعضاء الوفود الرسمية المكلفة من الحكومة التونسيـة بتسليم (الصرة) التي تحتوي على مداخيل أوقاف الحرمين الشريفيـن بتونس ، واحيانا تصاحب الصرة الاصلية صرة أخرى بها هدية باي تونس الى حاكم مكة لزيادة توطيد علاقات الود بينهما . وأحيانا تجد في هـذه الملفات أسماء كافة الحجيج التونسيين لسنة معينة . وهي أيضا معلومات هامة اذا استغلت علميا لابحاث تاريخية اقتصادية واجتماعية من خـلال دراسة المسؤولين عن تلك الوفود وهوياتهم وطبقاتهـــم الاجتماعيـة

والعلمية والسياسية . وحجم تلك الوفود ونوعيتها ... وحجم الصرة كل سنة وكذلك الهدايا مع المقارنة والتحليل ، لاشك أنها تفضي الى كشف حقائق تاريخية وطيدة تتعلق بتاريخ كل من المملكة العربية السعودية وتونس في فترات تعز فيها حتى المعلومات التاريخية العامة .

3) معلومات دقيقة عن طرق سفر الحجاج برا ، وبحرا من تونس ذهابا وايابا مع ذكر أهم المدن والموانيء التي يمرون بها ومدة بقائهم في كل منها مع ذكر ما يتبع ذلك وينجر عنه من تكاليف ومصاريف تعتبرها هذه الوثائق كحد أدنى لكل حاج . هذا بالاضافة الى الاجراءات والمصاريف المترتبة على استخراج جوازات السفر . وقد كانت شركات النقل الفرنسية هي التي تأخذ امتياز نقل الحجاج التونسية بحرا الى الاراضي المقدسة ، بتناسق مع وكالات السفر اليهودية في تونس ، ونظرا للسفن الصغيرة والعتيقة التي كانت تستعملها هذه الشركات كانت السفرات في مختلف اجزائها صعبة جدا وشاقة . وكذلك كانت تكاليفها مشطة بسبب سرقات شركات النقل والعاملين بها . هذا بالاضافة الى عدم توفر الشروط الصحية والوقاية والعلاج . ويذكر احد التقارير أنه ليس هناك شركة نقل واحدة استطاعت أن تحافظ على التزاماتها المختلفة مع الحجاج والحكومات غير الشركة المصرية الخديوية للنقل ، ثم يشرح التقرير أسباب ذلك . ويقدم مشاريع للحكومة الفرنسية لاعطاء امتياز نقل حجاج تونس الى شركة معينة واحدة فرنسية دائما لتنظم عملها ، وتقوم بكل واجباتها من جميع الوجوه باتقان وكفاءة .

4) من الوثائق التي تهم موضوع دراستنا هذه مجموعة هامة تتعلق ملفاتها بـ «قطار سكة الحديد الى مكة» خاصة سنة 1902 ، وهي في معظمها مراسلات بين وزارة الخارجية الفرنسية والمقيم الفرنسي العام بتونس ، في هذه المراسلات وثائق عديدة تسلمها وزير خارجية فرنسا من قنصل فرنسا العام لجدة تتعلق بقرار ملك الحجاز لاصلاح على حسابه الخاص سكة الحديد بين المدينة ودمشق ، ومن هذه الوثائق ترجمات لاخبار ومقالات صدرت بجريدة «القبلة» يوم 3 جانفي 1913 تقتضي ان تلك السكة ستكون جاهزة تماما في موسم الحج القادم . ووزير خارجية فرنسا يكشف في احد تقاريره عن خوفه الشديد من أن اصلاح تلك السكة سيشجع المسلمين في كل من تونس والجزائر على القيام بمناسك الحج وهو ما لا يتماشى مع المصالح الاستعمارية الفرنسية . وبهذه الملفات وثائق من قنصل فرنسا ببيروت تشرح نشاط النقل البحري بين جدة وبيروت فيما يتعلق بنقل حجاج شمال افريقيا الى الحج وارجاعهم . مع ملاحظة ان

الاخوان الجزائريين منعوا نهائيا من القيام بمناسك حجهم وحجر عليهم ترك البلاد الجزائرية في مواسم الحج .

وتذكر هذه الوثائق ان اصلاح سكة الحديد سيمكن الحجاج بعد نزولهم من السفن في جدة لا يرجعون الى سفنهم الا في بيروت فينتقل الحجاج من جدة الى مكة ثم الى المدينة على طريق البر . ومن المدينة على سكة حديد الحجاز الى دمشق ومنها على سكة حديد دمشق بيروت ومنها الى سفنهم المنتظرة لهم وبذلك تقل التكاليف والمصاريف جدا بالنسبة للحجاج ولشركات النقل معا . ومن الوثائق ما يشرح بالتفصيل تكاليف السفر ومدته على مختلف الطرق المستعملة لنقل الحجاج عندئذ وهي وثائق تشتمل على معلومات فريدة وهامة جدا . ومنها مايشير الى التبرعات التي قدمت للمساهمة في اصلاح السكة الحديدية الحجازية . ومن هؤلاء سلطان المغرب الاقصى (750000 فرنك فرنسي على طريق السلطان عبد الحميد في أفريل 1858) ، وبعض اعيان اسطنبول . اما بالنسبة لباي تونس فقد وقعت مراسلات بينه وبين أمير مكة تتعلق بمساهمة تونس في اصلاح السكة الحديدية وهي وثائق عديدة وهامة وبها معلومات انفردت هذه الملفات بذكرها .

5) كما توجد في خزينة الوثائق عدة ملفات بها وثائق تتعلق خاصة بالاجراءات الصحية التي يجب ان يقوم بها كل مسافر الى الاراضي المقدسة ، اعتبارا بالتعليمات التي بعثت بها السلطة بمكة الى تونس .

6) كذلك من الملفات المتعلقة بالحج والحجيج وثائق عديدة تتعلق بأمرين هامين : الاول ينص على التنظيمات والترتيبات الجديدة التي ادخلت على عمل المطوفين بتاريخ سنة 1921 ، الامر الثاني : يتعلق بتوضيح الدعاة السعوديين في شمال افريقيا سنة 1930 .

7) المؤتمر الاسلامي في مكة سنة 1937 . ومن اهم وثائق هذا الموضوع مراسلة دبلوماسية في شكل تقرير من سفير فرنسا في الشام ولبنان الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 26 مارس 1937 ، يعلمه فيه بان المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في مكة انهى أعماله بدون الوصول الى حلول للمشاكل والقضايا المعروضة عليه . وحتى اعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر رجعوا الى بلادهم ومدنهم بدون اتفاق وشبه اعداء ويذكر التقرير ان طلعت بك مصري الجنسية استقر في مكة ويعمل مع بنك مصر، والهدف من هذا النشاط تدويل الاراضي المقدسة بالجزيرة العربية على الاقل بين البلاد العربية والاسلامية وتحت ادارتهم ، ويقول صاحب التقرير في الآخر ولكنه لا يعتقد ان شيئا من هذه المخططات سينجح لان حكم الملك

ابن سعود أقوى بكثير من كل هذه المؤامرات الخافتة .

8) دفاتر وملفات تشتمل على وثائق وكسوف لاسماء التونسيين الذين استوطنوا الاراضي المقدسة بالعربية السعودية ، وهؤلاء قسمان : قسم سافر افراده من تونس بقصد المجاورة والاقامة بصفة دائمة ونهائية والقسم الثاني سافر افراده بقصد القيام بفريضة الحج لاغير وقرروا البقاء بالحجاز لسبب من اسباب عديدة .

ولاتخفى أهمية مثل هذه الوثائق في علم الانساب وأصل العائلات التونسية في المملكة العربية السعودية . وكذلك يمكن ان تكون مواد علمية لدراسات اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية لبحث اسباب واوضاع هؤلاء المجاورين والمهاجرين من ناحية ونتائج هجرتهم على المدى القريب والبعيد من ناحية ثانية .

كذلك في هذه المجموعة من الوثائق نجد بعض الوثائق تتعلق بالمجاورين والمقيمين والمهاجرين من الجزائر الى الحجاز . وكذلك بعض المهاجرين منهم الى تونس حيث استقروا فيها بصفة نهائية .

هذه من ناحية الوثائق الرسمية بارشيف الدولة التونسية ــ أما المخطوطات الموجودة خاصة في المكتبة الوطنية ، فهي محدودة العدد ولكن بعضها هام لاصالته من ناحية ولتركيزه على مواضيع قلما تناولها المؤرخون والكتاب من ناحية اخرى . ومن هذه المخطوطات نذكر مايلي : مرتبة على حسب سنوات وفاة مؤلفيها .

عبد الملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (كان حيا سنة 575 ــ 1179 الاكتفاء في أخبار الخلفاء (155 ورقة حجم 21 ــ 30 مسطرة 29 خط مغربي جميل ، توجد منه عدة نسخ بالمكتبة . اوله «الحمد لله الواحد القهار العزيز الجبار ذي المن والانعام ، وبعد فان هذا كتاب أثبت فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ،، وأمر الامة الاسلامية من الخلفاء الامويين والعباسيين جيلا بعد جيل وترنا بعد قرن ،، وأصل بذكر بني أمية بعض اخبار الاندلس وولاتها ،، واخره » المأمون هو محمد بن عبد الله المقتفي ،، أمه جارية يمنية اسمها علم» .

ــ القاضي تقي الدين محمد بن احمد الحسيني الفاسي ، نزيل مكة المكرمة (833 ــ 1428) ، تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام ، من محتوياته الموضوعات التالية : في اسماء مكة ، وذكر حرم مكة ، الاحاديث الدالة على حرمة مكة وحرمها . في فضل مكة : في المجاورة ،،، في بيان مصلى النبي ، في ثواب دخول الكعبة وأدابها ،، في فضايل الحجر الاسود . في

الايات المتعلقة بالكعبة ثم ذكر مقامات الانبياء والرسل بالمكتبة عدة نسخ من هذا المخطوط .

ـ مخطوط بن علي بن محمد الشيبي المكي (ت 837 ـ 1433) ، الشرف الاعلى في ذكر قبور مقبرة المعلي (بمكة) . (ورقات 57 من مجموع به 425 ورقة ، مقاس 12 ـ 16 ، مسطرة 15 ، خط مشرقي) . وأوله «الحمد لله الباقي بعد فناء جميع خلقه ،،، وبعد فقد خطر لي ان أكتب في هذه الاوراق بعض ما قرأته على القبور التي بمقبرة مكة المسماة بالمعلا ، وما قدرت عليه ، فان في ذلك تخليد ذكرهم واسمائهم وحفظ وفاتهم ،، «اخر المخطوط» ومنها حجر عليه بعد البسملة ،،، هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى رحمه الله السعيد الشهيد محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد المعروف بالمعدم توفي يوم الخميس 11 ذي الحجة سنة 583» .

أبو عبد الله محمد الفاكهي :

تاريخ مكة شرفها الله (1) (350 ورقة انتهى مؤلفه منه في 7 ربيع الاول 985ـ1577) فيه ذكر مفصل لكل ماقام به السلاطين العثمانيون من انجازات في مكة و «جمع بين لطائف تاريخية واحكام شرعية ومواعظ نافعة وقواعد بارعة وسميته باعلام مكة الله الحرام وخدمت به خزاين كتب هذا السلطان الاعظم» (2) به مقدمة وعشرة ابواب وخاتمة ، والابواب الى فصول حسب الاحتياج اليها ، الباب الاول في ذكر وضع مكة المشرفة. وحكم بيع دورها واجارتها وحكم المجاور بها ـ الثاني في بناء الكعبة المعظمة ،، الثالث في وضع المسجد الحرام في الجاهلية وصدر الاسلام ، الرابع في ذكر مازاد العباسيون في المسجد الحرام الخامس في ذكر الزيادتين اللتين زيدتا في المسجد الحرام بعد تربيعه الذي أمر به المهدي . السادس في ذكر ماعمرته ملوك الجراكسة في المسجد الحرام السابع في ظهور ملوك آل عثمان ، الثامن في دولة السلطان الاعظم سليمان خان ، التاسع في دولة السلطان سليم خان الثاني ـ العاشر في سلطنة السلطان مراد خان .

الخاتمة في ذكر المواضيع المباركة والاماكن المأثورة بمكة المشرفة :

ـ محمد بن أحمد النهرواني المكي (990 ـ 1582) ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام (304 ورقات مقاس 15 ـ 19) مسطرة 17 ، منه عدة نسخ في المكتبة الوطنية خط المخطوط مشرقي) في المقدمة ،،، وتشوقت الى فن التاريخ وعلم

---

1) في بعض المخطوطات ورد العنوان : الاكتفاء في سيرة الخلفاء .

2) يقصد السلطان مراد العثماني والكتاب مهدى له .

الاخبار ولاشتماله على حوادث الزمان . وما ابقاه الدهر من أخبار ووقائع الدوران» .

ـ محمد كبريت بن عبد الله المدني (1070ـ1659) ، الجواهر الثمينة في محاسن المدينة (166 ورقة مقاس 15ـ20) ، مسطرة 21 ، خطه مشرقي بالكتبة عدة نسخ منه ، أوله «الحمد لله الذي حبب الينا المدينة ، وجعلها من أفضل البقاع الامينة ،، أما بعد فلما كانت المدينة مسقط رأسي ورياضها الوريقة منبت غرسي ،، خطر ببالي ولاح في خيالي ان أذكر محاسنهـــا وأتعرض لذكر بعض أماكنها ،، ويبدأ المؤلف في تركيزه على ذكر محاســن المدينة بما أحدثه فيها السلطان العثماني محمد خان ابن السلطان مراد خان ثم يفصل القول في ذكر محاسن المدينة وتاريخها بالتفصيل . وخاصــة ما انجزه السلاطين العثمانيون فيها . ومما ورد في الكتاب ـ ماتميزت به المدينة الشريفة عما سواها ،، في ذكر المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين ،، والاحاديث النبوية الواردة في كل ما يتعلق بالمدينة ، وأبواب في ذكر المصلى والنقا ولعتيق والسلع والمساجد باب في ذكر العالية . ثم ذكر فضائل المدينة . الشهداء بها ، مع ذكر لطائف واشعار كثيرة مع قصص ونكت .

ـ ابراهيم بن محمد بن عيسى الميموني المصري (3) (1079ـ1668) تهنئة أهل الاسلام بتجديد بيت الله الحرام (206 ورقات ، مقياس 16ـ27، مسطرة 25 خط مشرقي جميل ـ الصفحة الاولى مزركشة جدا ومذهبة ـ ، به نقص في الديباجة ومنها «فمن ذلك انه في شهر شعبان المعظم المنتظم في سلك سنة 1039 ، قد عمد السيد الى عقود البيت الحرام فنسخهـــا والى محكم أيات بذاته فنسخها ،، وهو مهدى الى السلطان مراد العثماني أيضا . ورتبه مؤلفه على ثلاثة مباحث : البحث الاول في الجواب ، عــن اسئلة مبتكرة ،، المبحث الثالث في فضل الحجر الاسود وكلها في قالــب أسئلة مبتكرة ،، المبحث الثالث في فضل الحجر الاسود (وكلها في قالــب يذكر فضل المدينة المنورة ايضا وكذلك فضل مدينة جدة ، انتهى من تأليفه سنة 1046 هـ 1636 .

ـ نسخ احمد بن عبد الكريم (4) (مصر رواق المغاربة بالجامــع

---

3) وفي مخطوط ثان ورد اسم الناسخ منصور بن ستيم ابن حســن الدمناوي الازهري .

4) في بعض النسخ الاخرى من المخطوط ورد اسم الناسخ احمد بــن عبد الكبير المراكشي .

الازهر 1120 هـ 1708) ، رسالة في التاريخ (61 ورقة ، مقاس 17ـ26 ، مسطرة 33 ، خط مغربي جميل جدا) ، يبحث هذا المخطوط المواضيع التالية : ذكر مابين هبوط أدم عليه السلام الى مبعث محمد (ص) ، ثم ذكر تاريخ ملوك كندة وملوك الحجاز وملوك السريان والصابيون وأمة القبط وأمة الفرس واليونان واليهود وأمة النصارى ثم يركز على ذكر التاريخ الاسلامي من عهد الرسول بكل التفاصيل يوما بيوم وشهرا بشهر وسنة بسنة اعتمادا على السنوات الهجرية وكذلك تاريخ الامويين والعباسيين ، وانتهى بتاريخه الى سنة 797 هـ 1394 ، وارخ كذلك الى بعض سلاطين آل عثمان وانجازاتهم في الاراضي المقدسة .

ـ محمد السنوسي الحفيد التونسي (1318ـ1900) ، الرحلة الحجازية (مخطوط له نسخة واحدة بتونس توجد بالمكتبة الوطنية 479 ورقة ، في أجزاء) قام محمد السنوسي بهذه الرحلة بتاريخ 1882 م عن طريق ايطاليا واسطنبول ذهابا وعن طريق دمشق وبيروت وبورسعيد ومالطا ايابا . ولما رجع الى تونس بدأ في تحرير هذه الرحلة الهامة جدا . ولكن ادارة السلط الفرنسية بتونس صادرت مكاسب ذلك العالم الوطني الغيور والمصلح المشهور ، وكان من جملة ما وقع حجزه وامتلاكه ماحرره من كتاب الرحلة الحجازية ، ثم يركز نهائيا على تأليفه الا بداية من سنة 1885 ، هذه الرحلة قسمت الى ثلاثة اقسام كل قسم في جزء ، في الجزء الاول يذكر مشاهداته عند الذهاب خاصة في ايطاليا ، الجزء الثاني يتحدث فيه عن كل ماشاهده بعد ذلك الى ان رجع الى تونس ، الجزء الثالث خصصه المؤلف للتراجم وللتعريف بأهم الرجالات والاعيان الذين قابلهم وتعرف عليهم في كامل الرحلة خاصة في الحجاز ، واهتم اكثر شيء برجال العلم والمعرفة ، وبحث فيها مواقف رجال العلم المسلمين من الاختراعات الغربية مع وصف دقيق لتلك الاختراعات . وله قصيدة فيها ويذكر في رحلته عادات البلدان التي زارها وعلومهم واوضاعهم المدنية والعسكرية بالتفصيل وكذلك المؤسسات والادارات ، وبحث موقف الاسلام من الحضارة الاوربية واختراعاتها ومشاكل دينية اخرى كثيرة ، خاصة منها التي تعترض المسافر المسلم للبلاد غير الاسلامية .

كذلك يصف ويحلل المؤسسات العلمية والتعليمية ، ثم يصف مكة والمدينة وصفا مدققا بديعا ، ويذكر العلماء فيهما والحكام والمؤسسات العلمية ، وكان شاعرا فسجل كثيرا من الاحداث التي شاهدها شعرا جميلا رائعا . وهذه الرحلة تعتبر من أهم رحلات التونسيين الى الحجاز لانها كتبت بقلم احد علماء تونس في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، في

وقت احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 . وكذلك كان محمد السنوسي من كبار المؤرخين والمصلحين الوطنيين . وله في هذه الرحلة مقارنات وتحليلات وبحوث تجعلها من أهم ما انتجه رجال الفكر في تونس في القرون الحديثة، وهي رحلة تستحق كل العناية العلمية لاخراجها من ظلمات المكتبة الى النور

وقبل ان انهي هذا البحث اريد ان أتقدم ببعض الاقتراحات للمسؤولين عن هذا المؤتمر الحافل بانجازاته العلمية . هذه الاقتراحات ترمي الى اعانة البحاثين على تحرير كثير من المخطوطات والوثائق الهامة من خزائنها القديمة واخراجها مشروحة في كتب منشورة تكون في متناول الراغبين في الاطلاع والدراسة . وعلى الرغم من ان جامعة الدول العربية كانت انشأت منذ سنة 1946 م ، معهدا خاصا بالمخطوطات فاني الح على اعتبار النقاط التالية :

- جمع فهارس المخطوطات العربية الموجودة في دور الكتب العامة والخاصة وفهارس المخطوطات التي يمتلكها الافراد لتوحيدها فيفهرس عام
- تصوير اكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة .
- وضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء اولا بعرضها لمن يطلبها للاطلاع والاستفادة منها .
- طبع صور المخطوطات القيمة ونشر نصوص المخطوطات ذات الاهمية .
- تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسسات العلمية في سبيل نشر المخطوطات وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التي يعنون بها .



ظاهرة التراكب بين تاريخ المشرق والمغرب العربيين

الأستاذ محمد زنيبر - المغرب -

الاستاذ محمد زنـيبر ـ المغرب

تحديد المشكلـة :

اعتاد المربون والاساتذة ، كلما تعرضوا لتاريخ العالم العربي ، ان يتناولوا تاريخ كل قطر او كل دولة على حدة ، بحيث نجد هنالك تاريخ العراق وتاريخ الشام وتاريخ مصر وتاريخ المغرب وتاريخ الاندلس او نجد دراسة عن العباسيين او الفاطميين او المرابطين او الادارسة الخ

ويحق لنا ان نتساءل اليوم ، بعد البحوث والدراسات الكثيرة التي نشرت في الموضوع ، هل تستطيع هذه النظرة التجزيئية ان ترضى كل الرضى مقتضيات المنهاج العلمي الصحيح ؟ اليس في هاته التجزئة نوع من التحكم الذاتي في الواقع ؟ وهل من الضروري ان تكون الحدود الجغرافية للاقطار المعنية هي ، في نفس الوقت ، فواصل فعلية في تاريخها ؟ (1) .

وقد يكون لهذه النظرة التجزيئية فائدة علمية فتساعد اساتذة التاريخ في المدارس والكليات على حصر موضوعاتهم وترتيبها ، كما تساعد الباحث على تركيز نظره في حيز جغرافي محدود او في فترة قصيرة من الزمن . ولكن ، اذا انتقلنا الى الواقع التاريخي ذاته ، نجده يرفض مثل هذه التجزئة فهي بمثابة انتزاع قطعة لحم من جسم حي بدمها وعروقها واعضائها فلايمكن معرفتها على حقيقتها دون ربطها ببقية الجسم ومشاهدة عوامل الحياة فيها وهي مندمجة في المجموع .

---

1) عن الطريقة التي درس بها تاريخ الاسلام والعرب ، توجد مراجع كثيرة نكتفي هنا بذكر البعض منها :

J. Sauvaget : Introduction à l'histoire du monde Musulman (édition complétée par Q. Cahen) Adrien Maisouneuve Paris 1961.

- ع ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب .
- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال 1957 .

ولا ادل على ذلك من الارتباك الذي يقع فيه اصحاب النظرة التجزيئية في دراساتهم كلما انتقلوا من وصف الاحداث المجردة الى تعليلها . فظاهرة الازدهار العلمي ، مثلا ، ليست خاصة بقطر عربي واحد بل هي معممة ، ولذلك فلايمكن الاقتصار في تفسيرها على الاسباب المحلية . وقل مثل ذلك في ظاهرة الانحطاط وغيرها من الظواهر التاريخية الجوهرية التي انطبعت بها حياة العالم العربي في الماضي (2) .

وهذا لايعني مطلقا ان التاريخ المحلي مستحيل او عديم القيمة ، وانما يعني فقط ان التاريخ المحلي كثيرا مايطرح على الباحث مشاكل تتجاوز ابعاده المحدودة ولايمكن فهمه بدون الانتقال من الجزء الى الكل وهذا مايظهر لنا بكامل الجلاء عندما نقوم ببعض المقارنات التاريخية داخل مانسميه اليوم ، العالم العربي . وقد اعتاد المؤرخون ان يقسموا هذا العالم الى مشرق ومغرب ، حسب المقاييس الجغرافية . ويمكننا ، لوشئنا ، ان نغلو في التقسيم حسب نفس المقاييس او حسب مقاييس اخرى ، ولكن لنحتفظ بهذا التقسيم التقليدي لفائدته العملية ولكونه سيبرز بصورة انصع ، الفكرة التي اريد توضيحها الان (3) .

فالمشرق والمغرب طرفان يمثلان اكثر ما يمكن من التباعد الجغرافي داخل العالم العربي . والانتقال من هذا الطرف الى الطرف الاخر يمثل رحلة طويلة وشاقة ، وبخاصة في العصور الغابرة . فهو تحول من قارة الى قارة اخرى . ومع ذلك ، فما نشاهد تاريخان يسيران سيرا متوازيا مثل تاريخ المشرق وتاريخ المغرب اذا نظرنا اليهما بنظرة المقارنة .

هذا السير المتوازي بين تاريخ المغرب والمشرق العربيين هو ، في اعتقادي ، ظاهرة اساسية لم تنل كل ما تستحق من العناية من لدن الباحثين . وتفسيرها مع تحليلها بالطرق العلمية هو الذي يمكننا من معرفة العوامل التي ربطت تاريخيا ما بين المشرق والمغرب منذ ظهور الاسلام ومن استكناه اسس الوحدة العربية التي نعيشها اليوم بفكرنا ووجداننا ان

---

2) المشكلة تطرح بحدة عند تناول الجوانب الحضارية بالخصوص ، لان المد الحضاري لايقف عند الحدود السياسية .

3) تقسيم العالم العربي الى مشرق ومغرب وارد ايضا عند المؤرخين والجغرافيين القدامى أمثال المقدسي ، وابي عبيد البكري ، وابن سعيد المغربي ، فهم يميزون بين الجهتين ويحرصون على دراسة كل جهة ، على حدة

لم نكن نعيشها في واقعنا (4) .

وان تحليل هذا التواكب بين التاريخين في كل مظاهره وبكامل شواهده امر طويل لا يتسع له المقام هنا . وكل ما في وسعي هو ان اجتزىء ببعض الجوانب التاريخية الاساسية التي تساعدنا على تكوين فكرة اولية عن الموضوع .

وأول ما يطالعنا في هذا الباب هو التواكب الواضح في الاطوار التاريخية . ولئن كان المؤرخون غير متفقين على تحديد هاته الادوار في تفاصيلها ، فيمكن ان نعتبر انهم وصلوا الى نوع من الاجماع في التمييز بين ثلاثة اطوار رئيسية بالنسبة لتاريخ الشرق . فهنالك عصر نهوض حضاري يمتد من بداية الاسلام الى اواسط القرن السابع الهجري عند سقوط بغداد في ايدي المغول . وهناك عصر انحطاط يمتد من هذا التاريخ الآخر ليدوم ستة قرون تقريبا اي الى بداية القرن التاسع عشر . والطور الثالث هو الذي اعتدنا ان نسميه عصر الانبعاث وهو الذي ينطلق من القرن التاسع عشر ومازلنا نعيش فيه الى اليوم . ومهما اثير من اعتراض على هذا التوزيع الزمني ، فقد ظل هو المعمول به الى اليوم لانه يستوعب كثيرا من الحقائق التاريخية ويصور لنا التطور في منعرجاته البارزة .

فاذا انتقلنا الى بلاد المغرب ، نجد ان نفس التصنيف ينطبق عليها . فقد عرفت هي ايضا ، حركة نحو النهوض والازدهار الى اواخر القرن السابع الهجري . ثم دخلت منذ ذلك الحين في طور التدهور والانحطاط الى اواسط القرن التاسع عشر حيث بدأت تستيقظ ودخلت في طور الانبعاث . ولئن كانت هنالك بعض الاختلافات او الاستثناءات ،

4) نضيف الى ذلك ان التاريخ المقارن بين البلاد والمناطق العربية هو الذي يساعدنا حتما على ابراز الاسس التاريخية لما نسميه اليوم ، الوحدة العربية او «العروبة» .

فهي لا تمس بالهيكل العضوي الجوهري ، وانما تظل في مستوى الجزئيات والحالات المفردة (5) .

التواكب في عصر النهوض

ولكن هذا التواكب في التوقيت التاريخي لا يأخذ معناه الكامل الا اذا عرفنا محتويات كل طور ومميزاته . فما سميناه بطور النهوض يعني اشياء كثيرة اهمها اثنان :

ـ تماسك الكيان العربي الاسلامي ، سواء في وضعية الوحـــدة او التجزئة .

ـ استمرار النشاط الحضاري باوجهه المختلفة ، مهما كانت التطورات السياسية .

فاذا حللنا النقطة الاولى بشيء من التفصيل ، نجد ان تماســـك الكيان يعني هنا قوة الامة العربية الاسلامية وقدرتها على الدفاع عـــن نفسها وعلى تبوأ مرتبة اولى بين امم العالم . وقد استطاعت مجموعـة الدول العربية الاسلامية خلال هذا الطور الاول ان تفرض بالفعل احترامها على دول اوربا المسيحية سواء في الشرق او في الغرب . ففي الوقت الذي كان فيه العباسيون يعبئون الطوائف تجاه بيزنطة ، كان المروانيـــون بالاندلس يقومون بنشاط مماثل تجاه القوات المسيحية المتربصة فـي شمالي اسبانيا ، والاغالبة بدورهم يغزون صقلية وجنوبي ايطاليا .

وكانت البحرية الاسلامية سواء في البحر الهندي او البحر المتوسط تمارس نشاطا متزايدا وسيطرة تكاد تكون تامة حتى ان ابن خلـــدون استبعد ان يكون للامم المسيحية مجال في الملاحة بالمتوسط (6) . وفـي نفس القرن العاشر الميلادي كان الغزنويون يتوغلون داخل الهند بقصد

---

5) تحديد ادوار التاريخ العربي يطرح مشكلة دقيقة مازالت في طور النقاش ، اذ ليس هنالك اتفاق بين المؤلفين على توقيت العصور وتحديد محتواها وصفاتها وهذا مايظهر ، مثلا ، من المناقشات التي دارت بيـن المستشرقين في ندوة «بوردو» .

Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du Symposium international d'histoire de la civilisation musulmane : Bordeaux 25-29 Juin 1956.

ومن المفيد ، ايضا ، النظر الى الطريقة التي يحاول بها المستشرق «اندري ميكيل» تحديد أطوار الحضارة الاسلاميـة في كتابه «الاسلام وحضارته» .

A. Miquel. L'Islam et sa civilisation Armand Colin.

6) ابن خلدون : المقدمة : قيادة الاساطيل ص 447ـ454 .

ربط ذلك القطر الكبير بدار الاسلام ونشر الدين الحنيف بربوعه ، وكان صنهاجة الملثمون بالغرب ينطلقون من الصحراء نحو افريقيا السوداء تحدوهم نفس الاهداف . وبالجملة ، فاذا نظرنا الى الاسلام كدين وقوة سياسية معا ، فاننا نجد له نفس الوجه ونفس الملامح في الشرق كما في الغرب . ففي اتجاه الشمال ، حاول ان يتوغل داخل بلاد الصقالية او السلاف عبر بلاد الخزر ، من جهة الشرق ، كما حاول ان يتوغل داخل بلاد الفرنج عبر جبال البيريني من جهة الغرب . وفي كلتا المحاولتين لم يستطع ان يسير بعيدا . اما في اتجاه الجنوب ، فقد استطاع ، في الشرق ، ان يدخل الى عالم الهند وينتشر في اقاليمه ، وفي الغرب ان ينفذ بعيدا داخل بلاد الزنوج ، وامكنه ان يحقق مكاسب ويغير مجرى التاريخ في الهند وافريقيا . مما يدفع بالباحث الى التساؤل هل لانتشار الاسلام ارتباط بالمناخ والجغرافية ـ ، سؤال نطرحه ، ولكن لانعالجه لانه يخرج عن موضوعنا .

بل اننا نجد هذا التواكب يظهر حتى في تاريخ الانتصارات والهزائم التي عاشها العالم الاسلامي . وللنظر قليلا الى بعض الاحداث الحربية في القرن الحادي عشر الميلادي . فنجد من جهة ، استيلاء ملك قشتالة الفونسو السادس على طليطلة بالاندلس سنة 1085 ، واستيلاء الصليبيين على القدس سنة 1099 لكننا نجد من جهة اخرى السلاجقة ينتصرون انتصارا كبيرا على البيزنطيين في «ملازجرد» سنة 1071 م ، في حين يلحق المرابطون هزيمة منكرة بالفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة 1086 م . فاذا انتقلنا الى ما بعد ذلك بقرن من الزمان ، نجد صلاح الدين الايوبي ينتصر في معركة حطين ويسترد القدس سنة 1187 م ، بينما يكبد يعقوب المنصور الموحدي نصارى الاندلس هزيمة كبرى في معركة الارك سنة 1187 م .

واذا كانت نهاية العباسيين في الشرق سنة 656 ـ 1258 نذيرا بالدخول في عهد التدهور والانحطاط ، فان نهاية الموحدين في سنة 1269/668 تعني نفس الشيء بالنسبة للغرب الاسلامي ، جملة وتفصيلا ، برغم بعض المنجزات الحضارية التي تحققت ، مثلا على يد المرينيين او الحفصيين فيما بعد . فكل القرائن والاحداث تشير الى تقلص العالم الاسلامي كقوة سياسية وانطوائه على نفسه تجاه التطورات التي بدأت تعرفها اروبا الغربية قبيل عصر النهضة .

هنالك ، اذن ، تواكب في اهم الاحداث التاريخية التي تمس بكيان الدولة العربية الاسلامية ، سواء في المشرق او المغرب اللذين عاشا

نفس المواجهة مع اوربا المسيحية متقلبين بين النصر والهزيمة . فـاذا نظرنا الى هذا الكيان من الداخل نجد مظاهر اخرى للتواكب . ففي الوقت الذي قامت فيه الثورة ضد الامويين بالمشرق في بداية القرن الثانـي للهجرة وانتهت بادالة دولتهم واحلال العباسيين محلهم ، اندلعت الثورة في المغرب بشكل عارم مرتكزة على المذهب الخارجي وانتهت بقيام عـدة امارات خارجية وفي الاخير بتأسيس دولة الادارسة التي اعتمدت علـى برابرة المغرب كما اعتمد العباسيون على الخراسانيين . نعم ، ان ميزان القوى لم يكن متكافئا بين الدولتين . ومع ذلك ، فقد كان هنالك تشابه في الحركتين التاريخيتين ، فالعباسيون يحتجون بقرابتهم من النبي وكذلك يفعل الادارسة . والعباسيون يؤسسون عاصمتهم المجيدة بغداد وكذلـك الادارسة حينما يشيدون عاصمتهم مدينة فاس (7) .

وفي هذا الطور ، ايضا ، نجد العالم الاسلامي يتقلب بين ظاهرتـي التوحيد والتجزئة . فالدولة العباسية عاشت في عصرها الذهبي فترة من التوحيد ، ثم دبت فيها حركة الانفصال في اواسط القرن الثالث وتجـزأت مملكتها الى دويلات . وفي هذه الفترة بالذات انطلقت حركة التوحيد من المغرب على يد الفاطميين الذين استطاعوا ان يبسطوا حكمهم على جـزء كبير من العالم الاسلامي . لكنهم لم يحتفظوا ، هم ايضا ، بوحدة مملكتهم الواسعة وتلتها المحاولات التي قام بها السلاجقة والمرابطون في المغرب والتي تقلبت بين مد وجزر . فالاتجاه الى توحيد دار الاسلام عرف فـي المغرب كما عرف في المشرق ومر من نفس التطورات .

ومهما يكن ، فان العالم الاسلامي في طور النهوض ، سواء اكان في وضع الوحدة او التجزئة ، استطاع ان يحافظ على كيانه ويرد عنه كل الاعتداءات ، ويتمتع بمنزلة ممتازة في العالم المعاصر . كما استطـاع

---

7) فيما يخص الثورة العباسية ومعناها التاريخي ، من المفيد مراجعة دراسة حديثه هي «طبيعة الدعوة العباسية» للمؤرخ العراقي الدكتـور فاروق عمر ، دار الارشاد بيروت .

وفيما يخص المقارنة بين العباسيين والادارسة ، نحيل القـاريء ، اولا ، على التصريحات التي فاه بها كل من السفاح وادريس الاول عنـد تسلم الامر والبيعة ، وثانيا على المراجع الخاصـة بدراسـة المذاهـب الاسلامية ، وبالاخص :

H. Laoust : Les Schismes dans l'Islam Payot 1965 pp. 48-119

ان يكون واثقا من نفسه ، قادرا على منافسة خصومه والتفوق عليهم (8) .

فاذا نظرنا الى عصر النهوض من وجهة الحضارة ، نستطيع ان نكشف عن عدة مظاهر للتواكب بين المشرق والمغرب . وسنجتزيء هنا ، ايضا ببعض الامثلة :

1 ـ ارتكز الاقتصاد العربي في عصر الخلفاء الكبار اي في القرون الثلاثة الاولى لتاريخ الاسلام على التجارة . وبرغم قلة مصادرنا عن هذا الموضوع فقد وصل التحقيق التاريخي الى ابراز الدور الكبير الذي لعبه الشرق الاسلامي في تنشيط التجارة العالمية ، ووضعت الخرائط للطرق التجارية الكبرى التي كانت تنطلق منه الى جهات مختلفة . فتربط بحريا بين البصرة او الابلة على شاطيء الخليج العربي والهند الصينية والصين . كما تربط بين الخليج العربي وشواطيء افريقيا الشرقية . كما تربط الشرق العربي مع آسيا الوسطى والصين او بلاد الفولجا بواسطة طرق برية كانت تخترق اقليم خرسان وبلاد ماوراء النهر . وكان البحر المتوسط يلعب دورا كبير في ربط التجارة العربية ببلاد اوربا الغربية .

وفي نفس الاتجاه ، سارت بلاد المغرب التي نشطت هي الاخرى في توسيع شبكة الطرق التجارية ، سواء نحو الشمال تجاه بلاد اوربا عبر البحر المتوسط او تجاه الشرق الاسلامي ، او نحو الجنوب ، تجاه افريقيا السوداء الغربية ، وقد بدأت الابحاث الاخيرة تبرز الدور الكبير الذي لعبه المغرب في ربط افريقيا السوداء بالتجارة العالمية وعرفت الطرق الصحراوية التي كانت تسلك منها القوافل ، متخذة من سجلماسة مركزها الرئيسي الذي تتفرع منه شبكة طرق ذاهبة في كل الاتجاهات (9) .

---

8) هذا هو الانطباع الذي يخرج به الباحث من قراءة بعض المراجع العامة مثل :

ح ـ ابراهيم حسن : «تاريخ الاسلام» في 4 مجلدات .

هـ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية .

— C. Cahen : l'Islam des origines au début de l'empire ottoman

ع ـ عنان : دولة الاسلام في الاندلس .

— ch A Julien : Histoire de l'Afrique du Nord

— A. Laroui : Histoire du Maghreb

وكان من نتائج هذا النشاط التجاري الاهتمام الخاص الذي حظى به النقد ، سواء في المشرق والمغرب ، والحرص على صياغته من المعدنين النفيسين : الذهب والفضة . وكما كان الخلفاء العباسيون يبحثون بالحاح عن مناجم الفضة والذهب في المشرق وغيره ، كان الامراء في المغرب يجتهدون في الحصول على هاتين المادتين بكل الوسائل . ومازالت لدينا في المغرب ، شهادات حية عن دور سك النقود التي اقامها الادارسة ، مثلا ، في عدد من الاقاليم . كما لازالت هنالك مناجم للفضة يعود عهد استغلالها الى ذلك العصر (10) .

فاذا القينا نظرة خاطفة على الانشطة الاقتصادية الاخرى نجد دلائل كثيرة وقوية على التواكب في شأنها بين الشرق والغرب . وقد امتد هذا التواكب الى التطورات التي اجتازتمنها تلك الانشطة والى اصناف الانتاج وبضاعة الاستهلاك .

فالفلاحة تقدم لنا نفس المظاهر هنا وهناك : زراعة الحبوب في المساحات الكبرى ، الاعتماد على الرعي والانتجاع في مناطق الجفاف ، خلق حزام من الاراضي المسقية حول كبريات المدن لتزويدها بالخضروات والفواكه . كما ان هنالك تشابها في التقنيات الزراعية المستعملة ، وبالاخص في اساليب الري ووسائله . ولنا ان نقول مثل ذلك عن التطورات التي حدثت بالنسبة لاستعمال بعض المزروعات الجديدة المهمة ففي نفس الوقت الذي ظهر فيه الارز ، مثلا ، بالشرق العربي ، لم تمض عليه مدة طويلة حتى انتقل الى المغرب ،

وكذلك كان الشأن بالنسبة لقصب السكر والقطن وغيرهما من

---

9) ابراهيم أحمد العدوى : الاساطيل العربية في البحر المتوسط ، القاهرة 1957 .

ـ صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط

ـ ابن خلدون : المقدمة ص 447ـ454 .

— H. Lombard : l'Islam dans sa première grandeur

— A. Miquel : L'Islam et sa civilisation

10) ابحاث الاستاذ «دانييل اوستاش» عن النقود الادريسية (بالفرنسية) وكذلك كتاب «موريس لومبارد» .

M. Lombard : L'Islam dans sa première grandeur Flammarion pp. 103 - 121

E. W. Bowill : The Golden trade of the Moors

نقل الى العربية بقلم زاهر رياض وعنوان «الممالك الاسلامية في غرب افريقيا واثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى» .

النباتات العطرية او بعض الاصناف من الخضروات والفواكه التي انتقلت من الشرق الى الغرب (11) .

وكذلك كان الشأن بالنسبة للصناعة والسكافة أي ما يسمى ، بتعبير آخر ، الصناعة التقليدية ، حيث تبين لنا المصادر المكتوبة والاثار المتبقية ان نفس الانشطة الصناعية كانت قائمة بالمشرق والمغرب ، وكانت تخضع لنفس الاعراف والتقاليد ، وتعرف تنظيمات مهنية ونقابية متشابهة . وهذا ما تبرزه المقارنة التاريخية بين اسواق بغداد ودمشق والقاهرة وفاس ، مثلا ، وان كان هذا موضوعا مازال في حاجة الى المزيد من البحث والاستكشاف . نعم ، هذا التواكب لا يعني انه لم يكن هنالك تنوع في الاسلوب ، وبروز شخصية كل بلد في ما ينتجه من مصنوعات ، وبالخصوص في الصناعات التي لها طابع فني مثل صياغة المعادن النفيسة والمجوهرات والهندسة المعمارية والزخرفة على الخشب والجبس ، وصناعات الجلد والزرابي والانسجة الخ (12) .. ولهذا امكن لمؤرخي الفن الاسلامي ان يتحدثو ا، مثلا ، عن اسلوب مغربي اندلسي ، وآخر مصري وسوري ، آخر فارسي ، وآخر هندي . لكن هذا الاختلاف لا يمس بالتواكب الذي اكدناه منذ البداية لانه لا يتجاوز الشكل الى الجوهر بحيث يظل المسجد هو المسجد ، والمدرسة هي المدرسة والفندق هو الفندق ، مثلا ، وان اختلفت هاته الابنية في بعض اشكالها الهندسية ومظاهرها الزخرفية .

3 ـ لنا ان نلاحظ نفس التواكب في الحياة الثقافية . حيث نجد في كلا الجناحين الشرقي والغربي سلما واحدا للقيم الثقافية ، تأتي في درجته العليا العلوم الدينية وتليها علوم اللسان ، ثم تأتي بقية العلوم الاخرى التي تعتبر ذات منزلة دنيوية . واذا نظرنا الى المدرسة في المشرق والمغرب نجدها على نمط واحد من حيث البرامج وطرق التلقين والمتون المستعملة احيانا . كما ان المسجد كان يلعب هنا وهناك نفس الدور في تنشيط الحياة العقلية .

ومن الممكن ان يلاحظ معترض بعض الاختلاف او التفاوت بين الشرق والغرب من حيث كمية الانتاج او قيمته في هذا الميدان . ولكنه تفاوت لم تكن له أي صبغة نهائية ، وانما برز في القرون الاولى من تاريخ الاسلام ، نظرا لكون بلاد المغرب كانت في حاجة الى فترة زمانية أطول

---

11) A. Miquel : L'Islam et sa civilisation
D. et J. Sourdel : La civilisation de l'Islam classique.

21) M. Lombard : ouvrage cité p 153 - 159
C. Cahen : L'Islam des origines...

لتتبنى اللغة العربية وتهضم جملة من التقاليد الحضارية والثقافية الواردة من الشرق . ولكن ، لما تم ذلك في القرن الخامس الهجري ، على أوسع نطاق ، بدأ التجاوب بين الشرق والغرب يقدم كل ثمـاره (13) .

ونستطيع أن نقيس على هذه الامثلة ما كان يجري في ميادين أخرى من الحياة العامة لم نتعرض لها .

التواكب في طور الانحطاط

مفهوم الانحطاط يحتاج الى تحليل واسع وتوضيحات عديدة . وهو لا يعني انعدام الانتاج والابتكار بالكلية . ففي هذا العهد ظهرت عقـول جبارة عند العرب ، ولكنها ظلت حالات فردية واستثنائية . فالانحطـاط يعني ، قبل كل شيء ، الاطار العام الذي اصبح يعيش فيه المجتمع العربي ووزن هذا المجتمع داخل العالم المعاصر .

فقد اخذ هذا الوزن يتناقص ابتداء من القرن السابع الهجـري أي الثالث عشر الميلادي امام صعود دول اوربا والشرق الاقصى . وجـاءت غارة المغول لتؤكد الانهيار وتضع حدا لوجود الدولة العربية ، بمعناهـا الكامل . ولعل المغرب استطاع في هاته الحقبة أن يحتفظ باستقلاله مدة أطول . فلم تلحق به غارة من نوع الغارات المغولية ، وبقيت فيـه دول قائمة تواصل عملها بنوع من التوفيق ، احيانا ، مثل الحفصيين والزيانيين ، والمرينيين . ومع ذلك ، فان هذا الفارق لم يكن الاسطحيا . فقد نشأت كل هاته الدول من تجزئة المملكة الموحدية التي استطاعت ، في عهدهـا الزاهر ، ان توحد المغرب العربي ، واصبحت تعيش في نزاع مستمر فيما بينها . وعجزت عن مواجهة الدول المسيحية في اسبانيا التـي كانـت تكتسح تدريجيا ارض الاندلس العربية : ففي كلتا الحالتين ، في الشرق كما في المغرب ، اصبحت الاقطار العربية في موقف ضعف تجاه العالـم الخارجي ، مما جعلها تفقد منزلتها وهيبتها وتثير طمع الطامعين .

ونحن لو أردنا ان نمعن النظر بالتفصيل في هذا الانتقال من القوة الى الضعف ، يمكننا ان نشاهد المنعطفات الكبرى التي جرى فيها هـذا التطور بالتدريج . فقد استطاع الاسلام في أول فترة من تاريخه أن يكتل كل قواه ، في نطاق وحدة سياسية شاملة ، ثم انتقل الى الانقسام البسيط الى كيانات محدودة ، ثم تحول ذلك الانقسام الى تجزئة لامتناهية مـع انشاء كيانات اقطاعية وتكريس الشتات السياسي وتفكيك التضامن الاطي وخلق صراعات داخلية كانت سببا في تقلص ظل العرب بالاندلس ، مثلا ،

---

13) عبد الله كنون : النبوغ المغربي 1ـ43ـ107 .
د ـ احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبة .

أو بالعديد من أقطار الشرق الاسلامي فاذا قمنا بتاريخ مقارن للعالمين الاسلامي والاوربي المسيحي . نجد الاول بدأ بوضعية تفوق شامل ، انتقل منها بالتدريج نحو وضعية تكافؤ تحولت ، في النهاية ، الى وضعية تخلف وانحطاط ، لان المجتمعات الاسلامية بصفة عامة ، لم تكن واعية بهاته التطورات قادرة على تلافي اخطائها وانحرافاتها (14) .

وهنا يظهر التواكب ، بالخصوص ، في الروح التي صارت تهيمن على اجهزة الحكم في تلك الاقطار . فقد اصبحت الدولة تعيش في خوف وحذر ، مما جعلها تعيش في نوع من الانكماش والانطواء متخوفة من كل اتصال وتفتح . وعقلية الخوف هذه دفعتها الى سد الابواب والركون الى الجمود ورفض كل تجديد . فكان لذلك ، بالطبع أثره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ويكفي أن نشير ، مثلا ، الى أن حالة التعليم ، شكلا ومضمونا ، لم يدخل عليها اي تغيير منذ القرن الثالث عشر الى التاسع عشر وأن التطورات الكبرى التي عرفتها الحياة العلمية بأروبا منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر لم تؤثر بقليل ولا بكثير في الاوساط العلمية عندنا ، سواء في الشرق او في الغرب . وهذا المثال يشير الى القطيعة التامة التي عاش فيها العالم العربي مع اروبا طيلة قرون عديدة دون أن يستفيد من تجربتها في أي ميدان من الميادين ، والمقارنة بين المشرق والمغرب تبرز أوجها كثيرة للشبه في كل مظاهر الحياة الفكرية .

ونجد امثلة أخرى في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . واذا أردنا ان نعرف اليوم اصول تخلفنا بالنسبة للدول المتقدمة ، فيجب ان نعود لتلك العصور ، اذ بدأت أقطارنا تتردى في هوة الفقر دون ان تجد وسيلة ناجعة لتدارك الحالة . فقد فقد العالم العربي دوره التجاري الكبير بالنسبة لبقية العالم . فكان اكتشاف الطريق البحرية لرأس الرجاء الصالح مع حصار البرتغال للتجارة العربية في البحر الهندي سببا رئيسيا للقضاء على الازدهار الاقتصادي في الشرق العربي . كما ان الطريق نحو افريقيا السوداء عبر الصحراء لم تعد تلعب دورها التجاري الكبير

---

14) ليس من السهل تحديد مفهوم الانحطاط وتوضيح محتواه لانه مفهوم معقد ويدخل في جدلية تاريخية تحتضن عدة تناقضات ، ومن المفيد الرجوع الى ماكتبه في هذا الصدد مؤلفون عرب مثل ابن خلدون في نظريته عن أعمار الدول او جرجي زيدان واحمد أمين الخ ،، أو ما اثاره المستشرقون في مؤتمرهم المنعقد ببوردو والمشار اليه آنفا ، ونستطيع على اي حال ، ان نتصور هذا المفهوم اذا قلنا انه يعني تدهور المجتمع في أهم مقوماته ومظاهر حياته .

حينما لم يقر له قرار مع‌شعب بغداد ، ان ينتقل بجيشه ودواوينه الى «سامرا» دون ان يكون لذلك تأثير كبير في حياة المجتمع .

والذي يؤكد لنا هذه الظاهرة هو ان علاقة الدولة بالمجتمع كانت في النهاية علاقة قوة وهيبة ينتفى معها كل حوار . ولاشك ان العاطفة الدينية لعبت دورا كبيرا في استقرار الدول واستمرارها ، وبخاصة الدولة العباسية . ولكن تحليل الواقع بموضوعية يؤدي بنا حتما الى تسجيل هاته السطحية في العلاقات بين الجانبين ، التي ترجع قبل كل شيء ، الى ميزان القوى ، دون ان يقدم لنا التاريخ شواهد قاطعة عن تعاطف مستمر بينهما (19) .

ويترتب عن هذا اننا حين ننظر لتاريخنا من زاوية الدول وحدها ، فاننا نضع انفسنا في موقع لا نرى منه الا الاشياء الظاهرة ، في حين ان البواطن المهمة تفلت بين أعيننا . وبعبارة أوضح ، اننا نرى المدار الذي تدور فيه الدولة ، ولكننا لا نرى المدار الذي يدور فيه المجتمع . ولذلك فلا يمكننا أن نربط جوهر التاريخ بوضعية الدول . الشيء الذي يظهر لنا بكامل الوضوح اذا امعنا النظر في القرون 4 و 5 و 6 للهجرة حيث نجد ان الحضارة العربية الاسلامية بلغت أوج ازدهارها في حين أن الدول ضعفت وفقدت استقرارها .

معنى كل هذا أنه لم‌تكن هنالك روابط بنيوية ولا تأسيسية قوية بين الدولة والامة .فالروابط البنيوية هي التي تنشأ عن مؤسسات تمثيلية : جماعات استشارية أو تشريعية قائمة في النطاق المحلي والمركزي ، تنظيمات شعبية مختلفة مهنية ، نقابية الخ .. والروابط التأسيسية هي التي تنشأ عن التسليم المبدئي ، عن طريق العرف او عن طريق القانون المكتوب ، بنوع من التنظيم السياسي القائم على حقوق عمومية يحترمها كل من الحاكم والمحكوم ، وهذا يفسر لنا كون ابن خلدون حينما اراد ان يحلل أصل الدولة استنادا الى تجربة المجتمع الاسلامي الذي كان يعرفه اكثر من غيره ، خرج باستنتاجه المشهور وهو أن الدولة تنبني على العصبية ، قبل كل شيء . ومفهوم العصبية حينما نحلله يبرز لنا :

1 ـ الجانب الاعتباطي في أصل الدولة حيث انها تتمثل في تسلط

---

19) اننا نتحدث هنا بالطبع عن الحالات العادية ولاندخل فيها بعض الفترات القصيرة والاستثنائية التي سادت فيها البطولة او غلب عليها الحماس الديني .

تتحكم في مصائر المجتمعات العربية آنذاك كان من مصلحتها ان تحارب كل تجديد ، وكل تفكير صحيح ، وكل تفتح ذهني ، فتعمل على تركيز الجمود والعقلية الخرافية من وراء ستار الدين ، وترك العامة ضحية للشعوذة والتدجيل . نعم ، لقد صدرت في هذا العصر تآليف مهمة تدل على علم وتفكير ، ولكنها قليلة بالقياس الى عدد من التآلف التي تدل على الفقر الفكري او التخلي عن التفكير ، بالمرة . وبدل أن تكون موحية بالعمل والجد والمثابرة والابتكار ، فانها تدعو الى التخلي عن الدنيا والقناعة بالقليل ، والاستسلام للقدر والتواكل . وكل هذا كان من شأنه أن يصرف العامة عن التفكير في مصالحها ومحاسبة الحكام على تصرفاتهم .

من هذه الامثلة القليلة والمجملة ، نأخذ فكرة عن طور الانحطاط وتشابه مظاهره في المشرق والمغرب العربيين . وقد جاء الوقت الان لنحاول تأويل هذا التواكب وتوضيح أسبابه ، تاركين الكلام عن عهد الانبعاث للاخير

التأويل التاريخي لظاهرة التواكب

ان استعراض مختلف المظاهر الدالة على وجود تواكب تاريخي بين المشرق والمغرب ، تجعلنا ننتهي الى هذا الاستنتاج وهي أن أشحر الدول المختلفة التي حكمت الاقطار العربية في مختلف الاطوار كان سطحيا ، حيث انه لم يمس بحركات التطور الكبرى التي عاشها المجتمع العربي الاسلامي من الشرق الى الغرب .

وهذا يدفع بنا الى اعادة تقييم تأثير الدولة في ذلك المجتمع ، من جهة ، والى البحث عن العوامل الاخرى التي كانت تؤثر فيه والتي لم تكن صادرة عن جهة الدولة .

وبالفعل ، اننا حين نحلل علاقات الدولة بالمجتمع نجدها محدودة . فتركيب الدولة لم يكن مبنيا على أساس تمثيلي للمجتمع في أي شيء . بل أن الدولة في كل اشكالها من خلافة وسلطنة وامارة كانت تمثل جهازا مفروضا على المجتمع العربي الاسلامي الذي لم يكن له اي خيار في قبوله او رفضه . ومن جهة أخرى ، لم تظهر الدولة أي حرص كبير في مؤسساتها على أن تحيط نفسها بممثلين عن القطاعات الاجتماعية المختلفة بقصد الاطلاع على رغبات العامة واحوالها . وهذا ما كان يجعل الدولة تعيش جنبا الى جنب ازاء المجتمع دون ان يكون هنالك ارتباط وثيق ، ما عدا رابطة العلاقات الادارية التي كانت تنحصر غالبا في الجبايا ، بحيث ان التداخل بين الدولة والمجتمع كان سطحيا . فالخليفة المعتصم مثلا ، يستطيع ،

حينما بدأت السفن الاوربية ترسو على شواطئ افريقيا وتتعامل معها مباشرة . وكان هذا أهم الاسباب في اندثار مدينة سجلماسة الشهيرة التي كانت مركزا تجاريا رئيسيا في بلاد المغرب طوال عدة قرون (15) .

وفي نفس الوقت بدأ الاقتصاد الرعوي يطغى على الاقتصاد الزراعي في الارياف ، نتيجة لطغيان عشائر الرحل على الاقاليم المجاورة للصحراء ، وللاهمال الذي اصبحت تعيش فيه المناطق الفلاحية بوجه عام من تخل عن ضبط الامن والعدل في البوادي والارياف ، وتفريط في وسائل الري التي أصابها الخراب ، وعدم حماية الاراضي الزراعية من تسلط أصحاب الرعي والمواشي . وفي مثل هذا الجو بدأت تتكون اقطاعيات محلية تتزيى بشتى الاشكال ، ولكنها على اي حال تضعف الكيان العام وتمس باستقرار السكان والمجتمع نظرا لما ينشأ بينها من تكتلات متعادية . وفي هذا المحيط ، لم تعد المدينة عامل توحيد واستقطاب للارياف المجاورة لها ، بل كانت علاقاتها مع سكان الريف مبنية على النزاع المستمر مما يجعل التكامل الاقتصادي بين الجانبين غير قار . وكل هذه ظواهر عامة نلحظها سواء في تاريخ المشرق او تاريخ المغرب في عهد الانحطاط (17) .

وأمام تردي الاوضاع وضعف السلطة المركزية ، ظهرت بعض الحركات الاصلاحية في شكل زوايا صوفية تحاول تربية العامة على المبادئ الدينية وتكتل الناس ، في بعض الاحيان من اجل الدفاع عن الوطن ورد غارات الاستعمار . ولكن هذه الزوايا ظلت مرتبطة بالماضي من الوجهة الروحية ولم تستطع أو لم ترد أن تكون عامل تغيير وتطور ، بحيث انها في الوقت الذي كانت ترد العدوان الاستعماري ، كانت تحارب كل فكرة جديدة ، مما جعل منها في النهاية قوة محافظة . وفي هذا المضمار أيضا ، نجد تواكبا بيننا بين المشرق والمغرب (18) .

على أن الاتجاه الثقافي ، بوجه عام ، تأثر ، اثناء هاته الفترة ، بالمصالح القائمة في المجتمع . ذلك أن الاقطاعيات التي كانت

15) J. Pirenne Les grands courants de l'Histoire universelle pp 277 - 367
F. Brandel La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II

16) نفس المراجع .

17) C. Cahen : op cit pp 239 - 263
ك ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : 345ـ399 .

18) H. Laoust : Les Schismes dans l'Islam pp. 282-299
ع ـ الفاسي : التصوف الاسلامي في المغرب .

جماعة قوية بعصبيتها على مجتمع بكامله محاولة أن تسيطر على كل مقوماته .

2 ـ عزلة الجهاز الحاكم الناشيء عن العصبية داخل المجتمع فتجعل منه بنية سطحية وطفيلية في عدد من الحالات ، مما ينجم عنه عدم استقرار الحكم وقصر «أمد الدولة» (20) .

من ثم صح لنا أن نعتبر أن سيطرة الدولة تظل محدودة في بعض المستويات من الحياة الاجتماعية ، بينما تظل مستويات أخرى ذات كثافة وعمق قائمة بذاتها وخارجة عن تأثيرها ، فلا يمكننا ، اذن ان نفسر التواكب التاريخي بين الشرق والغرب بوضعية الدول واجهزة الحكم التي كانت هامشية ، من بعض الوجوه ، بالنسبة للمجتمعات ، بل يجب ان نبحث عنها في تلك المستويات التي تعكس بنياتها حياة الجماعة بروابطها وتناقضاتها وتظهر فيها الثوابت والمتغيرات الحقيقية المتصلة بالعوامل الاساسية للتطور التاريخي ، وهذا يتطلب ، بالطبع ، اعادة النظر في الطريقة التي اعتدنا بهاأن ننظر الى التاريخ الاسلامي ، وبناء نظرية جديدة تستطيع أن تفسر وتستوعب ذلك القسم الجوهري من تاريخ المجتمعات الاسلامية الذي لا يرتبط بكيان الدولة ، ولعلنا لا نستغنى عن الرجوع الى المنهاج السوسيولوجي في التحليل لننفذ الى تلك المستويات الاساسية التي نرى فيها المجتمعات الاسلامية من خلال التاريخ ككل متماسك .

ونحن اليوم ، محتاجون الى مباشرة هذا التحليل بهذه النظرة الشمولية واعتقد ان مفهوم الامة الذي أتى به الاسلام لعب دورا كبيرا في التاريخ ، ومازال لحد الساعة لم ينل نصيبه من البحث والدرس ، بالمنهاج العلمي الصحيح ، وان كان بعض المستشرقين تفطنوا لاهميته ، فالاسلام نفى القومية الضيقة المبنية على الرقعة الجغرافية المحددة او على الروابط السلالية ودعا الى فكرة الامة الاسلامية التي تجمع بين اجناس وشعوب مختلفة برابطة العقيدة واعتبر ان الارض الاسلامية او دار الاسلام كما ورد في الاصطلاح التقليدي تكون وطنا واحدا يخضع لشريعة واحدة ويؤمن بنفس القيم ومهما تجزأ هذا الوطن بين دول مختلفة ، فانه يبقى متصلا في العمق والجوهر ، اذ لا تمس هذه التجزئة بمقومات المجتمع الاساسية .

---

20) ابن خلدون : المقدمة .
م.ع. الجابري : العصبية والدولة .

ولقد حاول الامويون أن يسلكوا سياسة قومية عربية ازاء الشعوب المفتوحة ، ولكن فكرة الامة الاسلامية التي بدأت تتمكن آنذاك في مختلف الاقاليم قضت على اتجاههم وانجبت ثورة جديدة هي التي اصعدت العباسيين الى الحكم ، على اساس محو كل الفوارق التي اقامها الامويون .

وتنشأ عن هذه الفكرة مجتمع شمولي أو كما يسميها العالم الاجتماعي الفرنسي «مارسيل موس» ظاهرة اجتماعية كلية هي التي تعبر عنها كلمة أمة ، بمفهومها التقليدي عند العلماء المسلمين ، وهذا المجتمع الشمولي هو الذي يساعدنا على فهم كثير من ظواهر التاريخ الاسلامي ، ومن بينها ظاهرة التواكب التي هي موضوعنا .

وترتبط بفكرة الامة الاسلامية مبادىء اخلاقية اجتماعية ، فهي أمة «وسط» لا تنزع الى الغلو والتطرف في اي شيء ، وهي مبنية على التقارب و «التعارف» بين القبائل والشعوب ، بتنحية العصبيات واقامة سبل اللقاء والتبادل ، كما تلتقي في الاعتصام «بحبل الله» أي بالكتاب المنزل الذي هو القرآن ، ومن ثم كان شعارها هو الوحدة «ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون» .

حقا ، ان هاته المبادىء كونت مثلا اعلى لم يكن من الممكن تحقيقه على وجه الكمال ، ولكن تاريخ الاسلام جسم ، من بعض الوجوه ، مجهودا قويا نحو ترجمته الى الواقع فكانت هنالك دار الاسلام التي لا تعرف حدودا داخلية ، برغم تكاثر الدول والكيانات السياسية داخل رقعتها وكانت فكرة «الاخاء» الاسلامي أسمى من «المواطنة» الاقليمية في سلم القيم الاخلاقية والاجتماعية المتعارف عليها داخل العالم الاسلامي ، وكانت هنالك تقاليد مشتركة في شؤون الحياة المختلفة ، ورغم الهزات والصراعات التي عاشتها الامة الاسلامية بسبب الخلافات المذهبية والسياسية ، فانها لم تنل من وحدة الكيان والتضامن الجماعي حتى ان عددا من الملاحظين الاوروبيين شبهوا في عصرنا هذا العالم الاسلامي بصندوق «الرنين» بمعنى أن اي حادث يقع فيه الا ويكون له صدى في جميع انحائه القريبة والبعيدة ، ولابد لنا هنا من التنويه بدور أهل السنة والجماعة في المحافظة على الوحدة والانسجام ، فقد ناضلوا طوال قرون متعددة ، تارة في صفوف الحكم ، وطورا في صفوف المعارضة من اجل الوصول الى هاته الغاية ، واستطاعوا ، في النهاية ، أن يجتذبوا اليهم الاغلبية الساحقة .

فهذا المجتمع الشمولي ليس فكرة نظرية او فرضية وانما هو الواقع يلمس في الاحداث على تنوعها ، ولا يمكننا في هذه العجالة أن نتحدث عن طريقةتكوينه ، وانما يجب ان نشير الى ان بعض المبادئ التي أتى بها الاسلام كالمساواة والتضامن عملت كثيرا في خلق روابط متينة بين سائر الشعوب التي اسلمت ، كما ان المواجهات المختلفة التي تعرض لها العالم الاسلامي في تاريخه قوت هذه الاواصر وجعلت منها موقفا تلقائيا لدى سائر الشعوب الاسلامية .

وقد ظهرت شمولية هذا المجتمع في مستويات عديدة :

- في مستوى التشريع الذي ينظم حياة الفرد والاسرة والمعاملات على اختلاف مناحيها مما كان له أثره البين على النظام الاقتصادي والمالي ، ومهما اختلفت المذاهب الفقهية فقد ظل التشريع في جوهره موحدا .

- في مستوى الحياة الاقتصادية حيث ان الجغرافية والمناخ اوجدا كثيرا من اسباب التشابه والتقارب بين المشرق والمغرب ، مما جعل ظروف الحياة بالنسبة للانسان في كلا الجناحين على شاكلة واحدة .

- في مستوى الحياة الحضرية ، اذ نجد المدينة العربية في الشرق أو في الغرب تحمل نفس الطابع وتقدم نفس الصفات ويكاد يكون تصميمها واحدا ، كما ان اسواقها وحرفها تتشابه الى حد كبير .

- في مستوى الحياة الاقتصادية حيث ان الجغرافية والمناخ اوجدا للمجتمع الشمولي نفس المثل والافكار والقيم ومزجها بالحياة الروحية والعبادات التي تحتل مكانا مهما في الحياة اليومية وجعل من الحج ملتقى سنويا لابناء الامة الاسلامية يتم فيه الالتقاء والتعارف بين مشارقة ومغاربة .

- في مستوى الحياة الثقافية ، حيث ان الثقافة العربية الاسلامية لم تكن ثقافة بلد معين ، بل كانت منذ اول يوم ثقافة «دولية» ، ان صح هذا التعبير وكان العلماء يمثلون ، في هذا المضمار ، رابطة دولية ، فعلماء المغرب يتصلون بعلماء المشرق ، كما ان هؤلاء يفدون على المغرب رابطين بين التيارات والمذاهب الفكرية في كلا الجهتين ، ولنذكر على سبيل المثال دور رجال أمثال مالك ، والبخاري ، والغزالي والشيخ خليلفي تاريخ المغرب والغريب أننا نجد خوارج البصرة يتصلون بخوارج المغرب في «تاهرت» وغيرها منذ القرن الثاني ولنذكر ، على سبيل المثال ايضا ، التيارات الفكرية التي سرت مع الحركات الصوفية في مجموع العالم الاسلامي على يد رجال امثال الشاذلي وابن العربي

والكيلاني وغيرهم ، ونتج عن هذه الاتصالات المستمرة وهذه التيارات السارية بواسطة الدروس والتآليف ، تكوين طريقة موحدة في التفكير والملاحظة والتقييم لانها تستند الى نفس الاصول والمبادىء ، ورغم اننا نجد كل بلد يفخر بعلمائه ويفضلهم احيانا ، فما هذا الا موقف عاطفي يستجيب لنزعة انسانية معروفة ، ولكنه لا يمس بتاتا بجوهر الاشياء وبالاطار العام الذي كان يعيش فيه هذا المجتمع الشمولي وحتى في عصر الانحطاط الذي غلب عليه التقليد وران عليه الجمود ظل هؤلاء العلماء يستقون من معين واحد ويرجعون الى نفس المصادر .

تلك بعض المستويات الاجتماعية التي جعلت من الامة الاسلامية في تلك العصور مجتمعا شموليا واحدا تحركه نفس الدوافع وتجمعه نفس المشاعر ، وهذه الوحدة لم تؤثر فيها النزاعات الداخلية ولا الحروب فيما بين الدول الاسلامية ، وذلك راجع الى كون الحياة السياسية التي كثيرا ماكانت تسيطر عليها النزعات الفردية والمطامح الشخصية لم تكن منسجمة مع هذا الكيان الاجتماعي الشمولي او هي ان انسجمت معه في بعض الفترات ، فانها لم تستطع ان تضع لنفسها ركائز قارة تضمن لهذا الانسجام استمراره ورسوخه ، وهذا نلمس بصورة عابرة المشكلة الكبيرة التي طالما اسالت الاقلام الا وهي المقابلة بين الاسلام كدين والاسلام كدولة ، وعلى اي ، فاني اكرر هنا ما قلته آنفا وهو ان الكيانات السياسية المتعددة التي اقتسمت دار الاسلام في تلك العصور المنصرمة ظل اثرها محدودا سطحيا بالنسبة للعوامل الاقتصادية والروحية والثقافية التي كانت تجعل من الامة مجتمعا واحدا ، نشاهد وحدته سواء في النظر الى الكل او في النظر الى الجزء .

وهاته النتيجة التي انتهينا اليها ليست بدعا في التاريخ اذا اعتبرنا التحليلات التي انتهى اليها علم الاجتماع المعاصر ، برغم اختلاف نظرياته واتجاهاته ، فنحن لو انطلقنا مع المادية الجدلية ، سنجد التمييز واضحا بين بنيات تحتية وبنيات فوقية وسنجد ان الكيان السياسي يدخل في ضمن هاته الاخيرة بمعنى ان الدولة ليست هي العامل الفعال في تطور المجتمع ، بل ماهي الا صورة للمجتمع المدني الذي ليس بدوره الا انعكاسا لدرجة من تطور الانتاج والتجارة والاستهلاك (21) ويطالعنا العالم الاجتماعي الالماني «تونس» بنظرية تكاد تنطبق حرفيا على الواقع التاريخي الاسلامي حينما يميز بين الامة (LA COMMUNAUTE) والمجتمع (LA SOCIETE) فالاولى تجسم مايسميه الارادة العضوية اي الارادة الطبيعية ، التلقائية التي

(21) رسالة ك.ماركس الى ب.ارمانكوف .

تلتقي فيها كل العناصر النفسية والتي نجد اثرها في الارياف والقرى والاوساط الشعبية ، بوجه عام ، أما الثانية فهي تمثل ارادة التفكير ، وهو مايجعلها اصطناعية وسطحية (22) ، وهذا ماتقودنا اليه ، ايضا نظرية العالم الاجتماعي الفرنسي «موس» عن المجتمع الشمولي ، وكذلك التحليلات التي قدمها «جورفيتش» عن ماسماه «سوسيولوجية الاعماق» ، فهو يقول ، مثلا :

«ان المجتمعات الشمولية هي اوسع الظواهر الاجتماعية الكلية واضخمها واغناها مضمونا وتأثيرا على اي واقع اجتماعي ، فالمجتمعات الشمولية تتجاوز بثقلها وسلطتها ليس فقط التجمعات الوظيفية ، والطبقات الاجتماعية بل كذلك هرمياتها المتنازعة» (23) .

الواقع اننا ندخل هنا في موضوع شيق بابحاثه ومناقشاته ونظرياته المختلفة ونحن لاندعي اننا طرقناه كما يجب ، وانما كان يهمنا ان نبرز حقيقة تاريخية ، وهي ان البنيات السياسية ليس لها ، في بعض الحالات ، من الكثافة والعمق ، ما يجعلها تفسر واقع المجتمع في كل ابعاده وتطوراته وهذا ما نلمسه ، بدلائل كثيرة ، عندما نحاول ان ندرس تاريخ الاسلام بتعمق ، وليس المراد ان نأخذ بهاته النظرية او تلك التي برزت في بيئة اوربية لها معطياتها الخاصة ، ولكن ان ننطلق من تلك النظريات المختلفة، في نطاق دراسة للتاريخ المقارن ، حتى نخرج بنظرية صالحة لتفسير تاريخ الاسلام .

ولايسعني هنا الا ان اذكر ، بنوع من التقدير ، بعض النظريات التي تعتبر فعالية التاريخ ككل في تكوين الامم وتطورها وتوجيهها الحضاري ، دون الالحاح على جانب ونسيان الجوانب الاخرى ، حقا ، ان الاقتصاد لعب دورا اساسيا في تاريخ العرب وحضارتهم ، وما زلنا في حاجة الى دراسات ودراسات تتصل بهذا الموضوع ، ولكن هنالك عوامل اخرى لايسوغ لنا ان نهملها لانها تفسر ظواهر اساسية في تاريخهم مثل الدين واللغة والثقافة والاصالة ، بمعناها العلمي ، والعلاقات مع الخارج والجغرافية الخ ،،

وقد سبق لي ان بحثت جانب الاصالة كأساس لتكوين الشخصية القومية والثقافة القومية ، مبررا بالخصوص ، ان الاصالة ليست ارتباطا بالماضي ، كما يحاول ان يؤولها بعض الباحثين ، بل انها تعبر عن الارادة في المحافظة على الحرية الذاتية وانقاذها من الذوبان في المؤثرات الخارجية ومن الوقوع في مهاوي الاستلاب ، فهي في مفهومها الصحيح ، لاتتنافى

---

22) F. Tönnies : communauté et société
23) G. Gurvitch : Vocation actuelle de la Sociologie 1/443

مع فكرة التقدم في ابعد مداها (24) . ولطالما تحدث الباحثون الاجانب عن «الاصالة العربية» وبالاخص «جاك بيرك» ، وانها في اعتقادهم مزيج من وفاء للتاريخ والتقاليد ورفض للخضوع والاستسلام وتفضيل للخيال علـــى الواقع ، ذلك الخيال الذي يجعلهم يحتفظون بابائهم وانفسهم ويتجاهلون واقع التخلف الذي مازالوا يعيشون فيه موقفا سلبيا ، ولكنه مع ذلك يعبر عن همة وطموح وهو الذي ربط ويربط العرب بعضهم الى بعض مهما تباينت أقطارهم واختلفت مذاهبهم (25) .

وقد ذهب انور عبد الملك في كتابه الجدلية الاجتماعية وفي مقال لــه نشر بمجلة «قضايا عربية» الى ان النهضة الحضارية ترتبط باطـــــارات تاريخية ثلاث هي الحضارة والمنطقة الثقافية والامة ، فالعالم العربي جزء من الدائرة الحضارية ـ الثقافية الاسلامية التي تتكون من العالم العربي وامتداده في افريقيا .

كما ان العالم العربي من جهة اخرى ، يكون المركز الحركي الاول بهذه الدائرة الحضارية ، الثقافية الاسلامية وهو ايضا يكون النقيض التاريخي والعصري لعملية التناقض الجدلي بين التحرك الغربي وتحرك الشـــرق الناهض لن نتعرض الان لاستنتاجات انور عبد الملك بالنسبة للمستقبل ولفكرة النهضة (26) وانما سنقف عند معناها التاريخي ، انها تقدم لنـــا ارضية عملية صحيحة مدعمة بحجج متعددة ، فالعالم العربي يكون جـــزءا من حضارة لها ملامحها الخاصة ، وهو في نفس الوقت يكون منطقة ثقافية ويتطلع الى ان يكون تشكيلة قومية موحدة فاذا اضفنا الى هذا انه تعرض شرقا وغربا لنفس المواجهات والصراعات التاريخية فهمنا كيف انه نحـــا نحو الوحدة في مواقفه الاساسية .

وهذه الوحدة هي التي تفسر في اعتقادي ، ذلك التواكب الواضح بين تاريخ المشرق والمغرب العربيين في طوري النهوض والانحطاط ، والعوامل التي عملت على انحطاطه هي أنه بعد التجارب العديدة التي اجتاز منها في طور النهوض اخذ يفقد شيئا فشيئا حماس الاندفاعات الاولى التي كانت

---

24) م. زنيبر : مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية مجلة «أقـــلام» أعداد 2ـ3ـ4ـ5ـ6ـ7 من يونيو 1972 الى دجنبر 1973 .

25) J. Berque : Les Arabes d'hier à demain - l'Orient second etc.

26) انور عبد الملك :

«النهضة الحضارية» مجلة «قضايا عربية» عدد 1 نيسان 1974 .

ينظر كتابه المنشور باللغة الفرنسية .

La dialactique sociale   Editions du Seuil

مرتكزة على نوع من الايمان والثقة بالنفس وتسربت اليه ادواء خطيرة من تفشي الاقطاعية وفساد الحكم وتفوق الاعداء ويأس من الاصلاح ومع ذلك، فقد احتفظ هذا المجتمع بوحدته حتى في المواقف السلبية التي عرف بها في حالته المتدهورة من جموده وانطوائه على نفسه ورفضه الاتصال بالعالم الخارجي .

ولكن الانحطاط يدل على ازمة داخلية في المجتمع تعني انه لم يعد قادرا على الاستمرار في البقاء مادام على صورته الحالية ، وتعني ، بالتالي أنه لابد له من ثورة عميقة تخرج به الى صورة جديدة تتغير فيها كثير من الاسس البالية المنهارة التي كان يرتكز عليها فيما سبق وتأتي بفكرة جديدة تتحمس لها كل النفوس ، الا ان الشعوب العربية كانت قد وصلت درجة من اليأس والاتكالية جعلت من المتعذر عليها ان تفكر في ثورة اصلاحية شاملة من تلقاء نفسها ولا ان تجد بين مفكريها ورجالها من يقودها في طريق اليقظة والتحرك الفعال بل كان لابد لها من ان تصطدم مع الاستعمار الاجنبي لتدرك ثمن الحرية وتستيقظ من غفلتها ، وتحاول ان تتدارك القرون الضائعة .

هذا الاصطدام مع الغرب الاستعماري ومافتح عنه من ردود فعل وطنية وما تولد عنه من تحول في الرؤيا والتفكير هو الذي اعتدنا ان نسميه عصر الانبعاث .

طور الانبعاث :

الا ان هذا الانبعاث لايشبه في شيء النهضة الاوربية ، لانه انبعاث وقع وسط الدموع والدم بسبب تسلط الاستعمار على الاقطار العربية ، فهو انبعاث لم ينطلق من موقف قوة وانما من موقف صراع ودفاع عن النفس ، ولذلك فقد كان انبعاثا في النفوس والعقول قبل ان يكون انبعاثا حقيقيا في الاشياء ، فالثورة الكاملة الشاملة ، الكفيلة ببعث الحماس وابراز الطاقات الخلاقة لم تحدث ، وانما الذي حل محلها هو اليقظة التدريجية والوعي بالاهداف والعراقيل ونحن اليوم امام بلاد عربية لم تعرف الاستعمار ، مثل اليمن ، وأخرى كثيرة عرفته عن كثب والملاحظ هو ان الوعي بلغ أعلى مستواه في البلاد التي كان عليها ان تواجه الاستعمار ، ولايمكن لاي نهضة ان تتحقق دون وعي شامل وجرأة على رؤية الواقع وتحليله من كل الجوانب .

وفي هذه المرحلة ، ايضا يتراءى لنا التواكب واضحا بين المشرق والمغرب ، سيما واننا نجد في هذا التاريخ القريب منا مايكفي من المصادر

والوثائق والشهادات الحية فنحن اذا اردنا ان نرسم لوحة عن حالة العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر ، سنجد نفس السمات في المشرق والمغرب وهي التي تلخص في كلمة «انحطاط» المحللة آنفا ، لكن اليقظة التي نشأت مع الصراع ضد الاستعمار اثناء القرن التاسع عشر احدثت تطورات مهمة في الفكر العربي ، كان ابرزها ظهور فكرة القومية العربية .

وقد رأينا آنفا كيف ان مفهوم الامة الاسلامية خلال الاطوار السابقة كان هو المحرك الاساسي للمجتمع العربي الاسلامي بحيث كان يغطي كل التجزئات السياسية وكل القوميات ويربط بين سائر الاقطار الاسلامية بنفس التيارات الفكرية والروحية ، لكن فكرة الامة الاسلامية في اواخر عصر الانحطاط تعرضت لازمات وانحرافات كثيرة ، فقد استغلتها الدولة العثمانية لتكون بها امبراطوريتها الكبيرة التي جعلت فيها النفوذ الاكبر للعنصر التركي بينما فرضت على العرب وضعية الشعوب الخاضعة ، كما ان «ايران» سارت في اتجاه قومي واضح منذ قيام الدولة الصفوية ، فلما استيقظت الشعوب العربية ونشدت حريتها ، وجدت نفسها ، أمام هذه المعطيات التاريخية الجديدة ، منساقة هي الاخرى في طريق القومية ، ولاشك ان تيار القوميات الذي طغى بأوربا اثناء القرن التاسع عشر كان له اثره على تكوين الاتجاه القومي عند العرب .

وعلى اي ، فان المطالبة بالحرية كان لابد وان تجد صياغتها في تيار القومية ، فقد شعر العرب انهم استضعفوا واخضعوا كعرب ، ومن ثم جاء النداء بشعار العروبة كسلاح فكري وروحي لمكافحة كل انواع التسلط والاستعمار التي انطبع بها تاريخهم المعاصر فالتطور الاساسي الذي اتسم به طور الانبعاث هو هذا التحول من مفهوم الامة الاسلامية الى مفهوم الامة العربية وفي هذا الاطار الجديد ، اصبحت الامة العربية تكون من وراء الدول والحكومات مجتمعا شموليا واحدا ، كما كان الشأن من قبل بالنسبة للامة الاسلامية ، ولا ادل على ذلك من قضية فلسطين حيث تجد الشعور العام بالتضامن مع شعب فلسطين واحدا لدى سائر الشعوب العربية ، مهما كانت المواقف الرسمية هنا او هناك .

ولكن فكرة القومية العربية ينحصر معناها في تحديد العلاقات مع الغير ومكافحة الاستعمار ، بل ان لها مضمونا اساسيا يعني الشعوب العربية في حياتها الداخلية ، انها تستهدف ، اولا ، تحقيق النهضة العربية التي كانت هي فكرة الانطلاقة الاولى عند بداية الانبعاث في القرن التاسع عشر ، وقد تعرضت هاته النهضة ، كما هو معلوم ، لتشويش الاستعمار وعراقيله ،ولكن مازال موضوعها مطروحا أمام الشعوب العربية ، وان

تغيرت مقاييسها تبعا للتطور العالمي ، كما تستهدف تحرير المواطن العربي من كل العبوديات والتبعيات ، وفتح آفاق جديدة أمامه سواء على صعيد الحياة الفردية او الحياة الجماعية ، انها تعني بناء امة قوية من الداخل بالالتفاف العام حول اهداف ومباديء ، عن رضى واقتناع جماعي وهنا ايضا تتجاوب الافكار بين جناحي العالم العربي ، كما تعكس ذلك كل المؤتمرات واللقاءات الجماعية المبنية على حوار صريح .

وهكذا فنحن اذا حللنا المشاكل التاريخية التي ابرزها طور الانبعاث سواء في المشرق او في المغرب ، نجد التواكب واضحا تماما ويكفي ان ننظر الى مطالب اي شعب في المشرق لنجدها تعبر عن مطالب اي شعب في المغرب ، ولنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- الرغبة في التحرر الكامل من سيطرة الاستعمار بكل اشكاله .
- الرغبة في اقامة ديموقراطية سياسية واجتماعية .
- الرغبة في الاصلاح الزراعي .
- الرغبة في التصنيع ،،، الخ .





أخبار علمية

● تقيم وزارة الاعلام في دولة قطر موسما ثقافيا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1977 ويستمر حتى شهر ايلول (سبتمبر) 1978 ويشتمل على عدة امسيات شعرية وندوات ثقافية واسابيع فنية الى جانب العديد من المعارض التشكيلية لفنانين قطريين عرب واجانب ومن الشخصيات البارزة الذين سيشاركون في هذا الموسم الدكتور حسن نعمة سفير دولة قطر في الهند والدكتور علي الكواري - رئيس قسم النقليات والتسويق بالمؤسسة القطرية العامة للبترول .

● قام وفد من الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بزيارة الى الجماهيرية الليبية برئاسة الدكتور حسين امين - الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ويتشرف بمقابلة الاخ العقيد معمر القذا في - الامين العام لمؤتمر الشعب العام وذلك في الفترة من 24 - 9 ولغاية 28 - 9 - 1977 حيث قام السيد الامين العام بتوضيح اهداف الاتحاد ومهماته الثقافية وفكرة مهرجان التراث العربي المزمع اقامته في الاندلس للاخ العقيد القذافي ولعدد من المسؤولين في الجماعيرية الليبية .

- تلقى اتحاد المؤرخين دعما من جامعة قاريونس في الجماهيرية الليبية قدره (5000) دينار عراقي ، والامانة العامة للاتحاد تقدم جزيل شكرها وتقديرها لرئاسة الجامعة المذكورة وتهيب بالجامعات العربية ان تحذو حذوها في دعم واسناد اتحاد المؤرخين العرب .

● صدر العدد الاول والثاني من المجلد (الثاني والعشرون) من مجلة معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدل العربية كما صدر الجزء الاول من المجلد (الثالث والعشرون من المجلة المذكورة وهو طافح باخبار المخطوطات وكتب التراث .

● أقامت وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب مهرجانا تذكاريا للمؤرخ البريطاني ارنولد توينبي تقديرا لمواقفه الانسانية وانصافه للحضارة العربية وتكريما لمكانته العلمية . وقد وجهت الدعوة الى عدد من المؤرخين والباحثين في العالم ،

وقد بدأ المهرجان في 25 ـ 10 ـ 1977 في بغداد ولمدة خمسة ايام .

ـ صدر كتاب مدينة القدس في العصر الوسيط تأليف الاستاذ الدكتور رشاد الامام من الجامعة التونسية ، وقد تناول المؤلف في كتابه لمحة موجزة عن تاريخ مدينة القدس قبيل العهد المملوكي ، ثم تناول اوضاع القدس في العهد المملوكي ، كما خصص فصلا للادارة والوظائف في مدينة القدس ، وافرد فصلا اخر لدراسة سكان المدينة والحياة الدينية منها كما تناول موارد المدينة وعمرانها والحياة العلمية بفصول وافية ، والكتاب مهم للباحث العربي ويعتبر من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه المدينة ، قامت بطبعه ونشره الدار التونسية للنشر .

ـ من منشورات وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية صدر كتاب (المنسوجات العراقية الاسلامية من الفتح العربي الى سقوط الخلافة العباسية ببغداد تأليف السيدة فريال داود المختار والكتاب بالاصل رسالة قدمت الى جامعة بغداد لنيل درجة الماجستير ، وقامت مطابع دار الحرية بطبعه .

● من الكتب الوطنية التي اصدرتها وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية كتاب (فارس القسطل) عبد القادر الحسيني بقلم السيد عاصم الجندي ، والكتاب وثيقة مهمة في تاريخنا المعاصر .

ـ انعقد في انقرة مؤتمر علمي في شهر تموز (يوليو) 1977 وقد كرست البحوث التي قدمت في المؤتمر عن تاريخ تركيا الاجتماعي والاقتصادي ، وقد حضر المؤتمر عدد من المختصين ونوقشت فيه بحوث في تاريخ تركيا من البدايات الاولى للوجود التركي وحتى الحرب العالمية الثانية .

ـ اختير الاستاذ الدكتور حسين امين عضوا في اللجنة الاستشارية في معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وستجتمع اللجنة المذكورة في القاهرة لتعرض عليها شؤون المعهد .

ـ صدر في بغداد كتاب (نصرة مذاهب الزيدية) للصاحب ابن عباد 326 ـ 385 هـ تحقيق الدكتور ناجي حسن ـ الاستاذ المساعد في قسم التاريخ بكلية الاداب ـ جامعة بغداد ، وهو من كتب التراث وقد قامت مطبعة الجامعة بطبعه .

ـ عقد في مدينة المهدية مؤتمر تحت عنوان (ملتقى القاضي النعمان) للدراسات الفاطمية من 4 ـ 6 آب (اغسطس 1977) واهم المواضيع التي طرحت في المؤتمر هي :

1 ـ مصادر التاريخ والفكر الفاطمي قبل الانتقال الى مصر .
2 ـ التنظيمات السرية والدعوة المبكرة .
3 ـ الاوضاع التي مهدت لقيام دولة الفاطميين في افريقيا وباقي المغرب .
4 ـ مقومات الفكر الاسماعيلي المبكر (الفلسفة ـ الفقه) .
5 ـ حركة التمرد ضد الفاطميين في افريقيا وخلفياتها .
6 ـ الادب الفاطمي ، اصوله وتطوره ايام الخلفاء الاربعة الاول .
7 ـ الفنون الفاطمية المبكرة : العمارة والفنون الصغرى .
8 ـ العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية في افريقية .

● انعقد في شهر كانون الاول (ديسمبر) 1977 في جامعة عين شمس مؤتمر حضاري تحت عنوان ابن خلدون المؤرخ الاجتماعي العربي ، شارك فيه عدد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب .

ـ صدر عن دارة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية كتاب (سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب تأليف امين سعد ، والكتاب يبحث في سيرة الامام محمد بن عبد الوهاب وحقيقة الدعوة الوهابية ويتطرق الى تأسيس الدولة السعودية كما يبحث في سيرة الدعوة وجهاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويبين اراء العلماء الغربين وتقييمهم لشخصيته .

● صدر عن نفس الدار كتاب (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ وهو من الكتب التي تعنى في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتوسع الوهابي في الجزيرة كما يتطرق الكتاب الى سلطنة الامام محمد بن سعود وابنه عبد العزيز كما يذكر القبائل النازلين نجدا واسماء قبائل عمان ومسائل فقهية متفرقة .

ـ من منشورات وزارة الاوقاف العراقية صدر الجزء الاول من (المصباح المضيء في خلافة المستضيء) لابن الجوزي المتوفي سنة 597 هـ . بتحقيق الآنسة ناجية عبد الله ابراهيم وطبع في مطبعة الاوقاف ويقع في 603 صفحات من القطع المتوسط .

ـ من منشورات دار الشعب القاهرية صدر كتاب (امير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، تأليف الاستاذ ابراهيم محمد حسن الجمل والكتاب دراسة مفصلة لحياة الامير يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، ودوره في توحيد المسلمين وانتصار الرائع في موقعة الزلاقة على الفرنج .

ـ صدر عن جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض

كتاب (القصص الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين) جمعهـا وحققها احمد بن حافظ الحكمي باشراف الدكتور عبد الرحمن الباشا ، والكتاب يقع في جزئين كبيرين ، يتناول بالدراسة والبحث القصص الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين .

ـ بناء على طلب وزارة التراث القومي في سلطنة عمان من الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب العمل على تحقيق ونشر (ديوان جواهـر السلوك في مدايح الملوك للشاعر العماني علاين سعيد بن عراية ، وقـد عهدت الامانة العامة للاتحاد القيام بتلك المهمة الى الاستاذ الدكتور داود سلوم ـ رئيس اللغة العربية في جامعة بغداد وقد قام بالواجب وحقـق المخطوط وهو الان في طريقه الى النشر .



الفهرس العام





المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد السابع

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد السابع

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة جامعة قاريونس في الجماهيرية العربية الليبية

محتويات العـــدد

مقدّمة

بكل اعتزاز نقدم للباحث العربي مجلته العلمية (المؤرخ العربي) في عـدد جديد يبرز المكانـة الحضارية للمؤرخين العرب وقدرتهم الفائقة على منهجية البحث الذي تتمثل فيـه الروح الموضوعيـة .

اننا اذ نقدم هذا العدد الجديد لعلى ثقـة كبيرة من ان مجلة المؤرخ العربي والتي أخذت مكانها المرموق في الأوساط العلمية العربيـة والعالميـة ، ستكون هي الاولى في ميدان البحث التاريخي والمرجع الرئيسي لكل طلاب العلم .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تحيي هـذه الروح العلميـة التي يتحلى بها المؤرخون والباحثون العرب في كل مكان وتعاهدهم على ان تبقى وفية لمبادئهم ومخلصة لكل طموحاتهم من أجل تقدم الدراسات التاريخية وازدهارها.

والله ولي التوفيـق ..

الدكتـور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

مفهوم التاريخ الاسلامي في العصر الحديث

بقلم الدكتور عبد المنعم ماجد
استاذ التاريخ الاسلامي
ورئيس قسم التاريخ بآداب عين شمس

تميزت حضارة المسلمين في العصور الوسطى ، بأنها حضارة عالمية ، نتيجة أنها ثمرة لانصهار حضارات شعوب متعددة ، في بوتقة واحدة ، فتحقق على يد المسلمين ، ما لم تستطع بيزنطة وريثة الرومان أن تحققه ، كما ان الفرس بدورهم ، لم يكونوا حلقة لانصهار الحضارات ونشرها ، في عزّ دولتهم .

والتاريخ بحق يعتبر علم المسلمين ، اذ تطور على ايديهم بطريقة ذاتية ، تظهر أصالتها وصدقها ، ولذا يعد عندهم من العلوم الشرعية أو النقلية ، أي المستمدة من الدين الاسلامي . ولا غرو ، فقد ظهرت طوال فترة الحضارة الاسلامية ، طبقات للمؤرخين المسلمين ، اذ يكفي الرجوع ، لكتابي : الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، لنعد منهم المئات ، بينما المؤرخون في العصر القديم نخبة ضئيلة يعدون على الأصابع ، فأبناء هيردوت كانوا قليلين جدا .

حقا ان التاريخ بدأ عند العرب بالحفظ في الذاكرة ، فكان تاريخ العرب الاول وهو وقائع وايام وغزوات ، محفوظا في الذاكرة ، يرددونه على ألسنتهم ، وأعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة ، التي ليس فيها تعقيد . ولكن بعد أن أسلم العرب ، وتفوقوا في الأرض للفتح والغزو ، بين شعوب لا تتكلم لغتهم ، ضعفت ملكة الحفظ عندهم ،

وظهرت الحاجة الى التدوين ، بخاصة وانهم كانوا في حاجة ملحة الى ضبط ونقل أحاديث النبي والسير والأحوال ، ليصلح الناس في أمور دينهم ، وكا نهذا بداية تدوين التاريخ الاسلامي .

ومع ذلك ، فان التدوين في التاريـــخ الاسلامي ، لم ينتشر الا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، حينما أقبل أهالي البلاد المفتوحة على الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العربية . فكان المؤرخين الأوائل في الاســلام ، هم المستعربون من العجـم ، لأن العرب في أول الأمر ، كانت تلحقهم أنفة من انتحال العلم ، لكونه من جملـــة الصنائع . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك ، فذكر في مقدمته ان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجـم .

وكان أول ما دوّن في التاريخ الاسلامي ـــ بطبيعة الحال ـــ يعتمد على الذاكرة الانسانيـــة ، لبعد التدوين عن اخبار الجاهليـــة والعصر الاسلامي الأول . وان من يقرأ ما دوّن من الذاكرة العربية ، يتجلى لـــه أن أغلب التاريخ الأول ، مستمد من السماع والمشاهـــدة . ولذا لجـأ المؤرخون الأوائل الى تدوين ما استوعبته الذاكرة ، بالنقل من فـــلان عن فلان ، من الحفاظ الموثوق بهم ، وهو ما عرف بالأسانيد ، جمع سند بمعنى رفع القـــول الى قائله . فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبـــر والمؤرخ ، وهي طريقة للاجماع على صحة الخبر .

فكانت طريقة الأسانيد للتحقق من صحة الخبـــر ، أول ما ظهرت على أيدي المسلمين ، اذ كانت مستلهمة من الطريقة نفسها ، التي كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية ، ليطمئن جامعو الأحاديث الـــى اتصال الأحاديث بالرسول ، مما يبين ان التاريخ أخذ طريق الحديث في أول تدوينه . بل ان التاريخ ، كان يجمع من نفس رواة الحديث ، في سلسلة من الأسانيد الموثوق بهم ، ومن ناحية اخرى ، اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث ، في الجرح والتعديل .

ولكن بعد انتشار التدوين ، وتمكن التاريخ في النفوس ، لم تعد

الرواية المسندة ، التي اعتبرت في أول الأمر من الدين ، تكفي في نقل الحقيقة التاريخية ، لأنها لم تكن تحمل من الحقيقة الا صداها ، دون أن تحيط بظروفها ، لضعف الذاكرة الانسانية • وعلى هذا تحول المؤرخ الاسلامي ، من مجرد ، « اخباري » أو « راوية » ـ كما كان يطلق عليه في أول الأمر ـ غرضه استيعاب الاخبار ، والمحافظة على كيفية اتصالها من حيث رواتها ، الى البحث عن الخبر في ذاته ، زيادة في تحري الحقيقة • وبذا تخلص التاريخ من طريقة الحديث ، الى مجال أوسع مستقل ، ازدهر فيه منهاجه •

فهكذا وجد تطور ثان على يد المسلمين في كتابة التاريخ ساعد على ابراز شخصية المؤرخ وذاتيته في البحث العلمي ، حتى أن ابن خلدون هاجم المؤرخين الأوائل ، لاعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه أو سمعوه ، وعدم تأمل الحقيقة التاريخية في ذاتها ومناقشتها • فلم يعد التاريخ في رأيه اخبارا وحوليات ، ولكنه نقد للحقائق ، وبحث عن أسبابها • فكان نص ابن خلدون على ذلك ، مما لم يسبق اليه من قبل في علم التاريخ •

ومع ذلك ، فان المؤرخين المسلمين ، لم يكونوا في أي وقت ، يستطيعون ان يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها معلوماتهم ، وبدلا من قولهم فلان وفلان ، ذكروا الكتب التي أخذوا منها حقائقهم ، وظهر بدل العنعنة الكتب ، أو حتى ما يعرف بأسانيد الكتب ، فكان هذا دلالة جديتهم في دراسة هذا العلم ، بخاصة وان ابن خلدون قد لاحظ بفطنة في مقدمته ان الكذب يتطرق الى الخبر بطبعه ، فكان حرص المؤرخين المسلمين على ابراز مصادرهم في معظم تآليفهم ، اضافة ثالثة لابداعهم في هذا العلم •

ولكن بانتهاء فترة العصور الوسطى ، ضعف علم التاريخ عند العرب وكأنه مقياس لاحوالهم • فقد تدهوروا سياسيا وحضاريا بخضوعهم للترك العثمانيين ، ولا سيما ان لسان هؤلاء كان التركية ، مما أضعف التأليف

في التاريخ بالعربية • فترتب على ذلك انتقال مشعل هذا العلم الى غيرهم، وبخاصة علماء التاريخ في اوروبا الذين تلقفوا الاسس التي وضعها العرب وزادوا فيها ، مما ساعد على تطور المنهاج العلمي للبحث التاريخي على أيديهم • وزاد من تفوق علماء التاريخ في وأوروبا ، انهم لم يقتصروا مثل علماء العرب على تاريخهم وحده،وفي النادر على تاريخ الشعوب ملتي اتصلت بهم كالروم والقوط والمغول والخزر والفرنجة ، وانما اهتموا بتاريـخ غيرهم ، بتفصيل لا يقل عن الاهتمـام بتاريخهم الخاص • وقد كـان اهتمام علماء من غير العرب بتاريخ العرب وبأصناف علومهم هو ما عرف في وقتنا بالاستشراق •

فلما عادت للعرب نهضتهم الحديثة ، بمجيء القرنين التاسع عشر والعشرين ، نتيجة لتيقظ الشعور بالقومية العربية ، عاد حبهم للتاريخ • وفي أول الأمر تقصوا بحثه على الاسس التي كان اجدادهم يكتبون بها في العصور الوسطى ، دون أن يحاولوا اقتباس طرق البحث الحديثة • ثم كان اتصال العرب بمراكز الحضارة الغربية بارسال بعثاتهم الى أوروبـا، وفتح جامعات ومدارس على النسق الاوروبي ، مما جعلهم ينقلـون طرق البحث العلمي في التاريخ ، ويخلطونها بطرقهم القديمة • وأخيرا ظهر من علماء العرب في وقتنا ، فئة من الباحثين في التاريخ ، أخذت تسهم فـي تقدم هذا العلم العربي العتيد ، بنفس المستوى الذي يسهم فيه غيرهم من العلمـاء •

فبالنسبة لمصادر التاريخ الاسلامي ، لم تعد المشاهدة او السماع أساس كتابته ، مثلما كان الحال من قبـل ، وانما زاد الاهتمام بمصادر اخرى ، لم تكن تدخل في حساب مؤرخي الاسلام في العصور الوسطى • فقد زاد الاهتمـام بالوثائق والآثـار والنقوش والعملة ، وذلك علـى أساس أنها تعتبر من أوثق مصادر التاريخ ، لاحتوائها على المادة الخام ، الحية النشيطة ، القابلة للتشكيل،والبعيدة عن المؤثرات والعواطف • كما أصبح يميز بجلاء في المصادر القلمية ، بين ما يعرف بالمصادر الأصلية ، والمراجع الفرعية ، فالأولى هي الانتـاج الاصلي ، لمؤرخي الاسـلام

القدامى ينقلون فيها اخبارا معاصرة ، أو يعتمدون على أخبار معاصرة ، ليس من السهل الرجوع اليها ، أما الثانية ، فهي الكتب الحديثة ، التي ألفها المستشرقون ، أو الحديثون في الشرق .

ثم ان التاريخ الاسلامي في عصرنا ، لم يعد كما كان مجرد نقل الحقائق ، أو تجري صحتها ، وانما أصبح أيضا المؤرخ نفسه ، حتى يصبح الماضي حيا في الحاضر ، وهذا هو الربط بين الماضي والحاضر . وقد زاد دور المؤرخ الاسلامي على اساس انه هو الذي يكشف الوقائع والمادة التاريخية ، التي تبقى غير مستعملة الى أن يظهرها ، ثم هو الذي يرتب تسلسل أحداث الماضي ، وما يستخلصه منها بعد تمثلها في فكره ، ليس على أساس انشائي ، وانما بالاولى على أساس العلية ، أي العلة والمعلول، والسبب والمسبب ، أو بمعنى آخر على أساس البواعث والحيثية .

وقد جر ذلك ، الى ان مؤرخي الاسلام أضحوا مثل غيرهم يتبعون مدارس التفسير الحديث . فكثير منهم من ينهج في تفسيره على أساس ديني ، لأن التاريخ الاسلامي ارتبط بظهور الاسلام . وان قدر الانسان قد خط في لوح محفوظ ، وأن التاريخ هو برهان للخير والشر . وعلى العكس ، فقد ينهجون في تفسيره منهجا علمانيا محضا ، بمحاولة البعد عن العواطف الدينية ، أو أي شيء سوى الحقائق العلمية ، أو على اساس مادي وهذا هو التيار الماركسي او الفلسفة المادية ، فالعلاقات الاقتصادية هي محاور التاريخ ، وانها هي التي تحتم الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية والدينية والسياسية والحضارية أو حتى على أساس الحتمية او الجبرية، او المصادفة ، او غير ذلك من مذاهب التفسير .

وفوق ذلك ، لم تعد الأغراض السابقة ، التي كان من اجلها يكتب التاريخ الاسلامي في العصور مقبولة لدى مؤرخي الاسلام الحديثين ، فهم لا يقبلون ان يكتب التاريخ بقصد المنفعة والعبرة والحصول على ملكة التجارب ، حيث كان المؤرخون القدامى يقتدون بالقرآن الكريم ، الذي قص كثيرا من أخبار الامم الماضية للتذكرة والعبرة ، ولذلك كانت

المؤلفات الاسلامية الاولى ، يتوسع فيها لبدء خلق الارض ، حتى انهم رددوا هذه الجلسة المعروضة : من حفظ التاريخ في صدره أضاف اعمارا الى عمره ، فهم الآن لا يقنعون بجمع تجارب الغير ، فضلا عن ان التجربة الانسانية غير محدودة ، وانما هم بالأولى لا يرون في مادة التاريخ ، الا محاولة للكشف عن حقيقة الانسان في الماضي ، لزيادة معرفته في الحاضر، وان كان هـذا لا ينفي وضع دروس الماضي في خدمة المجتمع الانساني الحديث .

كذلك ، لم يعد مؤرخو الاسلام الحديثون يقبلون كتابة التاريخ لابقاء الذكر ، ومثلما كان سابقا ، بالعمل على تسجيل أخبار الصفوة وبخاصة الملوك ، حتى انهم كانوا يرددون من أقوال النبي : من ورّخ مؤمنا ، فكأنما أحياه ، ذلك لانهم لا يرون ان التاريخ للصفوة وحدهم ، وحتى اذا تعرضوا لهم ، فانهم يضعونهم تحت المجهر ، حتى ولو كانوا من الأنبياء ، ذلك لأنهم بشر ، وان حياتهم ملك التاريخ ، والتاريخ لا يجامل أو يكذب ، وأن السرد على أساس المناقشة قبل كل شيء .

وحتى القالب الذي يصاغ فيه العرض التاريخي الحديث ، فقد اختلف عن ذي قبل ، حينما كان يكتب في جمل قصيرة جافة ، الواحدة بجانب الاخرى ، بدون ربط ، او حتى على اساس اسلوب انشائي أو أدبي ، يستخدم فيه السجع أو غيره ، فانه أصبح يستخدم في كتابته اسلوبا واضحا بسيط وممتعا ، وخاليا من الاخطاء اللغوية ، في دقة وايجاز وضبط واحكام ، في فترات متعددة ، يعني قبل كل شيء بابراز الفكرة ، وينهج منهج الدقة والاحتياط ، بحيث تكون لكل كلمة دلالتها وقصدها ، كذلك ، لم يعد هناك داع ، لأن تذكر صيغة الاجلال، كلما ذكر احد الانبياء المرسلين ، لأن المؤرخ قاض محايد ، ببراهينه يحكم في كل شيء يتعلق بالانسانية ووجودها . هذا وان عدم ذكر ، مثل هذه الصيغ ، لا ينتقص من قيمة الاحترام للانبياء ، أو يشكك في ايمان المؤرخ .

وفوق ذلك فان المؤرخ الاسلامي اضحى يهتم بالتهميش ، الـذي أصبحت له قواعد تكتيكية محكمة ، بحيث أصبح صنعة ، تحتاج الـى تمرس بمعرفتها ، وهو الذي يوجد في أسفل الصفحة ، أو في آخر الفصول أو الكتاب ، أو ما يسمى أيضا بالحواشي ، ويحتوى على المصادر والمراجع وبعض الملاحظات • فالتهميش بشكله الحالي ، لم يكن له وجود مـن قبل ، وحل محل السنـد أو أسانيد الكتب • والواقع ان الاهتمـام بالهوامش في وقتنا ، أصبح لا يقل عن الاهتمام بالمتن •

ومع هذا التجديد ، الذي حدث في منهج التاريخ الاسلامي ، فانه في رأيي يجب على مؤرخي الاسلام الحديثين أن يأخذوا حذرهم في كل منهج تفسيري ، اذ ان مهمتهم الاولى هي تعمق طابع الحياة الاسلامية وقيمها في وقتها ، فيكونون معبرين عنهـا ، حتى لا يجعلـوا الوسيط حديثا ، والاسلامي أوروبيا ، فالموضوعية مهمة ، والا جعلوا تاريخهم سطحيا لا أصالة فيه • حقا ان ماركس وانجلز هما اللذان ابرزا التفسير المادي ، ولكن أيا منهما لم يتعرض للتاريخ الاسلامي ، الذي هو قطاع في التاريخ مختلف عن القطاع الاوروبي ، كما أن الاقتصاد وان كان هو الذي يحرك كل شيء في عصرنا ، الا أن الدين كان هو المحور المهـم في العصـور الوسطى ، وكل شيء يدور في فلكه • ومع ذلك ، فان مؤرخي الاسـلام يجب ان يتحرروا الى حد ما من الارتباط البيئي والديني ، اذ ان المؤرخ جزء من عصره ، وان معنى التاريخ في أي زمن ، هو الزاوية التي ينظر منها الى مجتمع في زمان ومكان محددين ، وذلك دون القطيعة طبعا مع البيئة ، والا وجد معارضة شديدة من رجال الدين المتزمتين في الشرق ، وهم كثيرون •

ثم أن مؤرخ الاسلام الحديث ، أصبح أشد فئة المؤرخين اقتناعا بأن التاريخ لا يكتب الا اذا تبلور ، والا أصبح في نظره صورة بدائية ، لا

تعني شيئا في سيرة الانسان ، ولأن التبلـور هو الغربلـة التي تتم عبر السنين ، وهو الأقرب الى الوضوح الشفاف وذلك على عكس ما كان مفهوما سابقا من أن التاريخ الحقيقي هو ما كان يكتب في وقته ، بالسماع والمشاهدة • ولذا فهو يتردد كثـيرا في ان يعترف بما يسمى التاريـخ الاسلامي المعاصر ، وان كان المستشرقون قـد أوجدوا هذا الفرع مـن التاريخ عندهم في بلادهم • فالمؤرخ الاسلامي الحديث يفضل ان يقوم بالتاريخ الاسلامي المعاصر من يشتغلون بالاولى بالتاريخ الحديث •

كذلك ، يجب ان نهتم باتجاه لابن خلدون ، تجاهله مؤرخو الاسلام مع أهميته ، وهو دراسة التاريخ على أساس حضاري ، اذ ان هذا من شأنه ان يجعل نظرتنا الى احداث التاريخ على أساس حضاري ، اذ ان هذا من شأنه ان يجعل نظرتنا الى أحداث التاريخ أكثر تعمقا • ولكـن هذا لن يتأتى الا اذا اهتممنا أكثر بالتعبيرات الاصطلاحية الاسلامية ، التي هي في الواقع كما التاريخ ، أو أشبه بالأرجل للانسان • وقد وجـد من تناولها بالاهتمام في العصور الوسطى مثل ابن سيده ، وفي العصر الحديث مثل المستشرق الكبير دوزي • ولكن بعد ان ظهرت ابحاث تاريخية عديدة، تتناول النظم والرسوم وصنوف الحضارة ، أصبح لزاما الاهتمام بهذه الاصطلاحات ، واعادة تأليف المعاجم فيهـا ، حتى يتهيأ للمؤرخ فهـم أعمق للتاريـخ •

وعلى العكس ، لا بد من ايجاد مفتاح آخر للتدهور والازدهـار في الحضارة ، غير ما قاله ابن خلدون ، الـذي جعل لكل حضارة عمرا معلوما ، وانه لا بد أن ينزل بها الهرم ، بل يحدد لها ثلاثة أجيال ، والجيل عمر شخص واحد ، فكل حضارة في رأيه ، تحمل في طياتها جرثومـة عدم الكمال ، وفي اللحظة التي تبلغ فيها الحضارة أوجها يبدأ الانحلال والسقوط • ثم انه يرى أيضا ان أشد أعداء الحضارة الترف ، اذ ان خلال الخير تذهب ويزداد الشر • فالحضارة تتدرج من الخشونة الى الترف الناعم ، وان الخشونة وحدها هي التي تحفظ الحضارة • ولكن في وقتنا

اذا نظرنا الى أي حضارة بصفة عامة ، نرى ان الحضـــارة ليست فقط مسألة عمر ، وانما هي بالاولى أسلوب لحل مشاكل الحياة ، وذلك فان مجيئها وذهابها يكون بسبب تطور الحياة • ثم أليست الحضارة بتقدمها وتدهورها دليلا جديدا على ان الخير والشر من مستلزمات الانسان ، فالتقدم دليل على عمله واجتهاده ، والتدهور دليل على تقصيره ، مما يدعو الى العمل والاجتهاد من جديد •

مما سبق ، يتبين ان التاريخ الاسلامي علم له أصالة عربيــة وان التجديد الذي حدث له ــ مبنيا على أصالته العربية هذه ــ دليل علــى الأصالة والتجديد فيه •



القضايا الافريقية المعاصرة في التراث المكتوب للعلامة توينبي

د. عبد القادر زباديه
أستاذ كرسي الدراسات الافريقية
ورئيس قسم التاريخ / جامعة الجزائر

يجد المتتبع للقضايا الافريقية في التراث المكتوب للعلامة توينبي، أن الرجل بدأ يكتب ويهتم أكثر بالقضايا الافريقية حينما أصبح في سن الشيخوخة ، وهو ربما كان يتتبع ويهتم بهذه القضايا قبل ذلك بزمن طويل أو قصير ، الا أن التطورات السريعة التي رأتها القارة الافريقية منذ الستينات من هذا القرن لفتت انتباهه أكثر على ما يظهر ، وبدأ يكتب عنها مع بداية السبعينات . فقد زار توينبي الجمهورية العربية المتحدة (مصر) في الفترة ما بين ٢ الى ٢٢ كانون الاول ١٩٦١ ، وزار المغرب الأقصى في الفترة ما بين ٦ الى ١٣ حزيران ١٩٦٢ ثم زار كلا من الجمهورية العربية المتحدة للمرة الثانية وبعدها نيجيريا والسودان وأثيوبيا وليبيا في الفترة ما بين ١٩ شباط الى ٢٢ نيسان ١٩٦٤ . وقد صرح توينبي على أثر هذه الزيارات بأنه اكتشف تلك البلدان الافريقية حسب تعبيره[(١)] .

وعلى أثر تلك الزيارات كان توينبي يكتب انطباعاته الى عدد من المجلات والجرائد البريطانية ، غير أن معظمها كان قد خص به جريدة الأوبسرفر Observer الاسبوعية . ثم جمعت تلك المقالات في كتاب اصدرته مطابع اكسفورد الجامعية في لندن سنة ١٩٦٥ تحت عنوان بين

(١) A. J. Toynbe - Afrique Arabe Afrique Noir, Paris (Sindbad), 1972 (Aver- tissement de l'édition originale).

النيجر والنيل • وقد ترجم هذا الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية وطبعته مؤسسة السندباد سنة ١٩٧٢ تحت عنوان آخر « افريقيا العربية وافريقيا السوداء » •

وقد جاءت فكرة هذا العنوان الأخير على ما يبدو من المقدمة القصيرة التي كان قد كتبها توينبي للطبعة الانجليزية سنة ١٩٦٥ ، والتي جاء فيها : (ان هذه النصوص « أي نص الكتاب » لها محور أساسي هو التنازع بين العروبة والزنجية في افريقيا الذي سيكون دون شك عنصرا مهما في السياسة العالمية في المستقبل) (١) • انتهى النص •

والحقيقة أن كلا من العنوانين لهذا الكتاب له أهميته هنا ، فقد زار توينبي أفريقيا واهتم خاصة بالمنطقة المعروفة لدى العرب منذ العصور الاسلامية الزاهرة بمنطقة السوادين ، (جمع سودان) ، وهي المنطقة التي يشير اليها عنوان الكتاب في أصله بالانجليزية بما بين النيجر والنيل ، فكان لذلك معناه الجغرافي ، أما المحتوى التحليلي الأهم فيما يتعلق بالنظرة الى المستقبل والماضي والذي كان توينبي يرمي اليه فهو ما ينطبق عليه عنوان الطبعة الفرنسية للكتاب •

ان منطقة السوادين هي المنطقة التي دخلت في ظل الحضارة العربية الاسلامية وامتزجت فيها بالتدريج أكثر من أي جزء آخر في أفريقيا السوداء ، فلما بدأت الفترة الأوروبية في القارة السوداء مع نهاية القرن الماضي ، خضع السكان في السوادين لتوجيهات أخرى كما هو معروف ، ولكنهم أظهروا صلابة فيما يتعلق بالتصاقهم العقائدي والحضاري السابقين كمجموعات أحيانا وكأفراد في أحيان أخرى ولو لبعض الوقت ، وقد نجح الأوروبيون في جميع افريقيا الى الجنوب من حدود السوادين في كسب السكان لعقيدتهم ولأهدافهم الحضارية الأخرى ، فأعطوهم من حظوظ التثقيف ما جعل النخبة من بينهم تتفوق في ميدان الثقافة الحديثة

---

(1) Ibid.

على سكان السوادين الذين كانوا خلال الفترة السابقة للاحتلال والتوسع الأوروبيين هناك ، أكثر من غيرهم معرفة والماما به •

ولما جاءت فترة الاستقلال وجدت هناك أسباب لوجود منطقة أو مناطق للتوتر على هذا الأساس ، وقد تتبعها توينبي بالشرح الوافي وحلل دواعيها البعيدة والقريبة على طريقته المعهودة في التعميم الشامل ، وذهب في تحليلاته تلك الى حد انتكهن أحيانا بما كن سيحدث في المستقبل القريب •

يقول توينبي في مقدمته التي كتبها للطبعة الفرنسية : (ان السبع سنوات التي تفصلنا عن الطبعة الأولى قد رأت لسوء الحظ تحقيق بعض التوقعات المتشائمة المسجلة في هذه الصفحات ، ففي نيجيريا وقع الصراع الأكثر مأساة ، وقد كان لي الشعور أثناء زيارتي (لها) بضغوطه القائمة في كل مكان •••

وفي أثيوبيا كنت أحس بالتصادم القائم الى الآن ، والذي يعارض فيه الوطنيون الامهريون رفض صوماليي الشرق للأمبراطورية ، ولكنني لم أكن أتوقع قيام حرب العصابات في أريتريا ، أما تغيير نظام الحكم في ليبيا فانه لم يفاجئني ، فقد كان واضحا خلال زيارتي الى أن الحكومة الملكية لم تكن تقبل متطلبات وقائع الحياة العصرية [1] •

ويستطرد توينبي في تعليقه على حرب ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل ونتائجها خاصة فيما يتعلق بمصر العربية وموقعها الافريقي فيقول : (وفي مصر كنت مقتنعا بصورة واقعية بطبيعة حدة التصادم الذي يتعارض فيه العرب والاسرائيليون ولكن لم يتبادر الى ذهني أن يقوم الاسرائيليون بهجوم حزيران ١٩٦٧ ضد الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والاردن ، وقد كان من نتائج ذلك الاعتداء احتلا لمسلح مرة أخرى لأراضي عربية هامة واخضاع آلاف من العرب الى القوانين العسكرية لاسرائيل بعد أن كانوا أحرارا الى وقت قريب قبل ذلك ، وهؤلاء العرب هم اللاجئون

---

(١) Toynbee, op. cit., (préface de l'édition Française).

أنفسهم من جراء اعتداءات اسرائيلية سابقة ، كما أني لم أكن أتوقع أن تتوقف قناة السويس من جديد عن العمل) .

ويشير توينبي بعد هذا الى قضية الشمال والجنوب التي عرفها السودان بصورتها الانفصالية المعروفة فيرى ان الشماليين ألحقوا بالجنوبيين من الآلام ما يلحقه الاسرائيليون بالعرب في المناطق المحتلة ، ثم يرى في الاتفاق الذي عقده الجانبان بهدف التصالح الوطني حلا عادلا (مما كان يشير بسلم دائمة لتلك البلاد) على حد تعبيره [١] .

وبعد أن يقرر توينبي في مقدمة كتابه ، هذا في طبعته الفرنسية بأن القارة الافريقية كانت تشهد على أيامه ولا تزال تطورات سريعة تفوق في سرعتها ما كان يجري على ساحة أية قارة أخرى ينتهي الى النتيجة التالية وهي (أن أعمق ما تحتاج اليه افريقيا والعالم معها هو تغيير جذري في المفاهيم)[٢] .

ان المتتبع لما كان يجري وما هي الأوضاع الحقيقية في بلدان افريقيا المستقلة الآن يدرك ولأول وهلة الى أي حد تبدو هذه العبارة عميقة وصادقة فيما كتبه توينبي عن افريقيا ، فلقد خلقت طبقة « النخبة » الجديدة أثناء الفترة الأوروبية وأعطي لها الحكم لتخدم كما معلوم اهدافا خاصة وتنتقم من كل من يعارضها أبشع انتقام [٣] .

لقد صنف توينبي نفسه في كتابه (العالم في مارس ١٩٣٩) بين أولئك الذين يهتمون بالقضايا العالمية وذلك لأنه حسب تعبيره (يكون مخطئا

---

(١) Toynbee, op. cit.

(٢) Ibid.

(٣) Cf. Samir Amin, New Colonialisme in W-Africa, N. York, 1972; Lucy Mair, «New elites in East and W. Africa» in Victor Turner, Ed., *Colonialism in Africa 1870-1960*, London 1971, Particularly pp. 180 ff.; AJAYI et al., Christian missions in NIGERIA 1841-91, the making of a new elite, EVANSTON, 1965; Georges Hardy, Une Conquête Morale = L'enseignement en Afrique Occidentale Française, Paris 1917.

من ينظر حوله ويتناسى أن يلقي بنظرة نحو المستقبل والماضي معا) (١)

وانطلاقا من هذه الفكرة كان توينبي يكتب عن القضايا الافريقية بروح المؤرخ الفيلسو فمبينا أخطاء الاوروبيين نحو الافارقة ، ففي كتابه (المسيحية والديانات الاخرى للعالم) كان يرى بأن عالم اليوم عالم مادي ويرى أن على المسيحيين أن يبشروا بدياناتهم على أساس التسامح الحقيقي وليس على أساس التعالي (٢) .

وفي كتابه (العالم والغرب) أكد هذا الانطباع : (ان الشعوب غير الغربية يمكن أن تختلف حول الجنس أو اللسان أو الحضارة أو الديانة ، ولكنها تتفق اتفاقا كليا حول نقطة هي أنه اذا سئلت من طرف أحد الغربيين عن رأيها حول الغرب فانها تفضل كلها جوابا واحدا . فتقول كلها ان الغرب كان معتديا كبيرا خلال العصور الحديثة ، وكل شعب يستطيع اثارة تجاربه ليعلل هذا القول) ، وبعد أن يأتي توينبي على تعداد نوعية الأجوبة التي يثيرها في هذا الصدد كل من الآسيويين والأميركيين ، ينتقل الى ما يجيب به الأفارقة فيقول : (يتذكر جميع الأفارقة بأنهم كانوا قد أنزلوا الى العبودية وحملوا الى الطرف الآخر من المحيط ليخدموا الأوروبيين الذين كانوا قد استعروا الاميركتين وأصبحوا بين أيديهم مجرد آلات مكلفة بالسهر على الثروات التي كانوا متعطشين لها) (٣) .

لقد كان توينبي في كتاباته عن القضايا الافريقية ينطلق دائما من فكر انساني واسع الافق ، فهو يؤكد دائما على الجانب الانساني كأساس للحياة ، وهذا يظهر بجلاء من كتابه (المدن في التاريخ) الذي أكد فيه توينبي على ضرورة العناية بالانسان كأساس للحياة القومية على الأرض (٤) .

---

(١) Toynbee et Aston Frank, Le Monde en Mars 1939 (trad. Marie Todd, Paris 1958) - introduction.

(٢) Toynbee - Le Christianisme et les autres religions du monde, Paris 1959.

(٣) Toynbee - Le Monde et l'Occident, Paris 1953, p. 72 f.

(٤) Toynbee - Les Villes dans l'Histoire, Paris, 1972.

كما أنه في المحاضرات الاربع التي ألقاها في كليات القاهرة سنة ١٩٦٦ كان يدعو الى وجود التخلي عن جميع الأفكار الضيقة ، ويحث على وجوب الاهتمام بالنظرة العالمية الشاملة التي تتناسب وتضايق المسافات بين الامم والشعوب وكل أجزاء الكرة الأرضية،ويدعو كذلك الى وجوب خلق البرامج المناسبة لتغيير أفكار الفرد التقليدية المتعصبة ، وقد كانت كتاباته عن القضايا الافريقية تتسم دائما بهذه الميزة [1].



(١) راجع محاضرات توينبي ـ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ـ القاهرة ١٩٦٦ .

التأثير الشرقي على الفن المسيحي المبكر في ايطاليا

الدكتور سامي سعيد الأحمد
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

ان تاريخ القرون الاولى للمسيحية مبعثر ، غير منظم ومعقد للغاية . فهو زمن تفكك الامبراطورية الرومانية والعالم القديم . ويعكس لنا الفن المسيحي حقا هذا التعقيد والفوضى التاريخية بصورة بينة . ولما كانت المسيحية قد نشأت في عالم سيطرت عليه روما وكون معالم النظم المسيحية الجديدة لم تتوضح وتتكامل فجأة بل بصورة تدريجية فمن المتوقع ان نشاهد الامثلة الأولى من الفن المسيحي قد تأثرت كثيرا بمعالم حضارة العالم القديم المتأخر . ولكن الفن المسيحي المبكر لا يمكن ادراكه كاستمرار او ترد لفن تلك العصور اللاحقة من التاريخ القديم . فالتأثير اليوناني على الفن المسيحي ، على سبيل المثال ، كان فعالا ومؤثرا ولكنه تأثيرا واحدا حيث تستحيل على أنماط الفكر اليوناني أو تغيراته ارضاء العقل المسيحي . فالمسيحية شرقية في الروح والادراك . فقد ابتدأت مع المسيح في خبرته وخلاصه . ففي الفن مثلا نرى المسيحية قد عملت على اظهار معنى روحيا للامور التي يمكن رؤيتها وهذا في الواقع يمثل الاتجاه الشرقي في التوصل الى مبدأ الحقيقة . والهيلينية التي ركزت اهتمامها على حقيقة كون الاشكال الظاهرة خادعة للبصر لا يمكن أن تكون المصدر الوحيد لأي تعبير في المسيحية المبكرة .

وقد كتب الشيء الكثير عن أدوار فنون الامم المختلفة في بناء وتكوين بدايات الفن المسيحي ، ولكن الباحثين لا يزالون مختلفين حول

تعيين المنطقة التي لعب فنها الدور الاكبر في التأثير عليه • فقد تحمست فئة لقوة تأثير روما واعتبروا الفن المسيحي المبكر تطورا لفن ايطاليا الوثني ليس الا • ووضع غيرهم الثقل على منطقة شرق البحر المتوسط خاصة فنون سوريا وفلسطين • فالافكار الجديدة التي يمكن ملاحظتها في الفن قد تغلغلت الى مناطق اخرى مع الدين الجديد الذي ولد وترعرع في تلك الأصقاع • وأعطى آخرون دورا حيويا الى آسيا الصغرى حيث وعظ القديس بولس وحيث كان موطن غالبية آباء الكنيسة الاوائل ومحل تدريبهم لأتباعهم • في وقت أعطت فئة أخرى الأهمية الى فن بلاد الرافدين وايران حيث نشأ وتطور نوع مستحدث من الفن يخدم البلاط الفارسي أو حكامه في المقاطعات أو الأديان المعروفة آنذاك والتي منها على سبيل المثال المثرائية • وأصرت جماعة على عدم تشجيع المسيحية الاولى للرسم والتصوير وبذلك لم يبرز الفن المسيحي ، حسب رأيها، الى الوجود الا بعد فترة من الاعتراف بها رسميا • والواقع ان كل منطقة قد تبنت معالم الفن المعروفة فيها لدى اعتناقها المسيحية وأخضعته الى استعمالات وعرف هذا الدين الجديد • وبتزايد الاتصالات بين مختلف المناطق قوت حركة تبادل الأفكار واختلطت العناصر الفنية التي أدت أخيرا الى تبادل في الفنون المحلية وعملت على تطويرها •

وبصيرورة المسيحية دينا رسميا أخذ الفن المسيحي يظهر علنا في روما• فالصور التي كانت مقتصرة من قبل على تزيين جدران المدافن والغرف الصغيرة والمصليات أخذت الآن ترسم علنا في الكنائس الجديدة حال بنائها • وفي الوقت ذاته خرجت الرعاية من أيدي الطبقات الفقيرة من الناس الى الثرية منهم وتم استخدام الفنانين ذوى الكفاءات العالية الآن • واضيف الى تصوير الجدران أيضا المنحوتات والفسيفساء الجميلة•

وكان دخول معالم الحضارة الشرقية الى الغرب مكثفا للغاية وعلى غاية من الأهمية في القرون الثلاثة الاولى • وكان من نتائج هذا التغلغل الشرقي الواسع حلول الفن اليوناني ــ الاسيوي للشرق المسيحي محل الطراز اللاتيني المضمحل • وكان لسكنى الكثير من اليونانيين والسوريين

في الغرب اللاتيني خلال القرون الميلادية الاولى أهمية قصوى في هـذا الباب . فمنذ القرن الرابع زادت حركة الاتصال نشاطا خاصة في الدوائر الدينية . والكتابات اليونانية من فينا وترير Trier ومراكز تشيرالى كثرة الشرقيين بين السكان .

فالفن المسيحي المبكر في شمال ايطاليـا مثلا كان متأثرا الى حد كبير بالشرق [1] . فقـد كانت عناصر فنه الأساسيـة مستمدة من فنون مناطق سيرميوم Sir Mium (حاليا ميتر وفيتز) في بانونيا (مقاطعة رومانية بين الدانوب (نهر ايستر Ister قديما) والألب وأراضيها الآن موزعة بين هنغاريا والنمسا ويوغوسلافيا) وسالونيك وبيثينيـا في آسيا الصغرى واجزاء اخرى من شبه جزيرة الاناضول . فجميع المطارنة في رافينا Ravenna ، بشمال ايطاليا حتى بطرس (٣٩٦ ـ ٤٢٥) كانوا سوريين . وكانت موانيء كلاس Classe وأكويليا نشطـة للغاية في التجارة بين مدن سواحل شرق البحر المتوسط والادرياتيك . وفي الوقت الذي كانت فيه كاللا بلاسيديا Galla Placidia (ابنـة تيودوسيوس) تعيش في رافينا وتعني على اصلاح البنايات القديمة بروما كانت هـذه التأثيرات الشرقية من منطقـة غرب آسيا المسيحية مؤثـرة للغايـة .

وبمجيء القوط ازدادت الارتباطات الشرقية لشمال ايطاليا . وكانت علاقة هذه المنطقة على وجه الخصوص مع كبادوكيا ، تلك المنطقـة التي تعتبر نقطة التقاء للتأثيرات الايرانية والآرامية والأرمنية . وقد اعتنق القوط أنفسهم المسيحية نتيجة اتصالهم بآسيا الصغرى كما ان سكناهم شمـال البحر الأسود جعلهم يتأثرون بالحضارة الايرانية وتلك لبيزنطة . وانتج حرفيهم بعض المصنوعات التي تظهر عليها التأثيرات الشرقية بكل وضوح. وهناك من يؤكد جلب القوط لصناع من أرمينيا وسوريا وآسيا الصغرى معهم [2] . والى هؤلاء الصناع الأجانب يعزى دخول البنايات المعقودة Vaulted الى ايطاليـا لأول مـرة والتي منهـا دخلت الأقطـار الأوروبية الاخرى .

وبعد الاعتراف رسميا بالكنيسة سنة ٣١٣ صار من الممكن تشييد محلات مسيحية للتعبد . ولكن لم يمض وقت طويـل حتى صرنا نلحظ البنايـة المستطيلة الخطة ذات الأبعاد المختلفة قد شيدت لهذا الغرض في الكثير من مناطق الامبراطورية . ففي روما شاع هذا النوع من العمارة في القرن الرابع وهي التي صارت تعرف بالباسيليكا المسيحيه المبكرة . ولا يزال أصل الباسيليكا مختلف عنه في تاريخ الفن والذي ربما اخذت بعض الأفكار عنه من البيوت الرومانية الخاصـة حيث كان يجتمـع المسيحيون الأوائل أو ربما من الباسيليكا الرومانية الرسمية السابقة . ومهما اختلفت الآراء حول أصل الباسيليكا فان المتفق عليه انها غربية الأصل [٣] .

ولرؤية التأثيرات الشرقية فلنتفحص شكلا آخر من البناء استعمل بالعصور المسيحية الاولى وهي الكنيسة المركزية الخطة بأنواعها المختلفة الدائرية التي تشبه التولوس القديم ، والمربعة أو الصليبية ذات الصليب ذو الأبعاد المتساوية كما في الصليب اليوناني ثم الخطـة الكثيرة الأضلاع. ومهما اختلفت الخطة المستعملة فان القسم المركزي للكنيسة كانت تغطيه قبة Dome . وهناك طراز آخر تصل فيه القبة الى الأسفل دونمـا سبندل Spendrel (وهو الفسحة المثلثة الشكل التي تقع بين المنحنى الخارجي الأيمن والأيسر من القوس) بين الأقواس الساندة . ويمكـن ملاحظة امثلة هذا في جرش Gerasa في شرق الاردن وقصر النويس En-nueiyis في حمام الصراخ Es-sarakh بسورية من القرنين الثاني والثالث . وكان هذا النوع من العمارة سائدا في آسيا الصغرى وربمـا وصل الى رافينا من القسطنطينية حيث يعطينا مدفن كاللا بلاسيديا خير مثال لذلك [٤] . وهو عبارة عن عمارة صغيرة مخروطية معقودة على شكل صليب مع قبة Cupola على تتوئات Pendentives كروية أو متصلة . وقد شيدت بقنوات فخارية أخفيت من الخارج بالجدران والسقف الهرمي الشكل . وهذا النوع دفين Sepulchral وربط البعض أصله بالمدافن الصليبية الخطة من تدمر [٥] . وذهب آخرون الى اعتبار أصل القبة التي التي تبنى على قاعدة مربعة في أرمينيا وهناك دليل عن وجوده في كنيسـة

القديس جميس بنصيبين في شمال العراق الغربي (حاليا في تركية) التي بنيت في سنة ٣٥٩ . واعتبر البعض هذه الكنيسة اقدم بناية دينية مسيحية في العراق .وبذلك تكون الأمثلة الاولى من طراز عمارة الكالا بلاسيديا (سقف على شكل قبة يبنى داخل برج مربع) موجود في تاكار Tekar بأرمينيا ونصيبين في شمال العراق [٦] . وان بيت المعمودية في نابولـي الذي شيده المطران سوتير Soter بعد سنة ٤٦٥ حوى على قبـة شيدت فوق بناية مربعة ذات ايسقنشات (مفرد ايسقنش Sauinch وهو قوس يبنى عبر زاوية الغرفة لتدعيم ما فوقه) . ويتحمس البعض الى كون الايسقنش شرقي الأصل ظهر في الغرب نتيجة الاتصال مع منطقـة كامبانيا Campania بايطاليا والشرق [٧] . وهناك من يرفض هـذا الأصل الشرقي ويذهب الى كونها ايطالية المنشيء وان بيت المعمودية هذا بالذات هو أقدم بناية في ايطاليا موجودة الآن بايسقنشات[٨] ، وحتى البناية ذات القبب المتعددة فقد عزا البعض أصلها الى الشرق وجعلها نوعا متقدما من البيت الايراني . فالقصر عند فيروز اباد بايران حوى على ثلاث قبب على طول المحور المستعرض Transverse Axis للبناية بين الغرف عند المدخل في الامام والساحـة الخلفيـة . وتمثل كنيسـة الرسـل في القسطنطينية مزجـا من الخطة الطولانيـة والعرضية ووضـع القبب على المحاور . وترينا كنيسة القديس لورينزو Lorenzo في ميلانو بايطاليـا خطة الحلبة ذات الاربعة فصوص Quater Foil والداخل مثمن الخطة ذا ثمان دعائم بينها أعمدة [٩] . وهناك من جعل هذه الكنيسة حلقة أخيرة من سلسلة تبدأ من الطراز الأرمني المتوضح في زوار ثنوتس Zwarthnots وتتوضح في الكنيسة الحمراء في بيروشتيتزا Perushtitza (حاليا في بلغاريا) وهي مـن المناطق التي اعتنقت المسيحية في وقت مبكـر [١٠] . وتشبه خطة كنيسة القديس فيتالي Vitale في رافينـا تلك للقديس لورنيزو . ورغم هذا التماثل فان البعض ربطها بطراز بيت المعموديـة السالف الذكـر وحتى بطرز بناية المينرفا ميديكـا Minerva Medica (الليكينياذ نيمفيوم Licinian Nymphaeum) على أساس وجود الجدار

الخارجي الثماني الأضلاع [١١] .

واذا انتقلنا الى فن التصوير نرى بأن التصوير المسيحي المبكر يظهر في اسلوبين واضحين : طراز الفسيفساء المرسومة على الجدران وتلك بالحبر والقلم ((Tempera) المعروفة باسم المصغرات (Miniatures) لرسم المخطوطات الدينية الاولى.وقد دعى الفنان لرسم صور على الجدران وهي طريقة أقل تكليفا من الفسيفساء ولكن مع الاسف فان ما وصلنا من هذه الصور من خارج المدافن قليل . ويمكن ملاحظة الانفصال عن التقاليد الوثنية القديمة منذ حوالي ٢٧٠ م . فالتصاوير الجصية Frescoes على جدران عقادة امبلياتوس Vault of Ampliatus ومدفن دوميتيلا Domitilla ترينا مبدأ فنيا جديدا . والتمثيل في صور مدفن بريسكيلان أورانس Priscillan Orans يرينا الخلاص في الوسط ثم فيلسوف واثنين آخرين على اليسار وصورة مريم العذراء وطفلها على اليمين في الاسلوب الخطي . واشكال الاشخاص متباعدة على سطح مستوي دون ابراز أي حجم . أما الصورة الجصية التي ترينا المسيح بين حواريه في مدفن دوميتيلا (من أواسط القرن الرابع) يعرض نفس التصوير الخطي الصلب المبسط [١٢] ، ويمكن رؤية الأمثلة المشاكية لهذه الصور والسابقة لها بالزمن في الشرق . فالصور من معبد الأرباب التدمرية في دورا يوروباس (تل الصالحية على الفرات) بالعراق (حاليا في سورية) من القرن الاول الميلادي تعتبر أحد الأمثلة [١٣] . فصور المدافن منها تمتاز باشكالها الصارمة المظهر رسمت في سبع وقفات أمامية في بعدين منظورين Perspective وألوان براقة . وكذلك الصور الجدرانية في كنيسة دورا والتي تعود الى سنة ٢٤٥ . وترينا هذه اسلوبا معبرا حقا ولكن في طريقة بعد لا تزال بدائية . ولو ان هذه الصور تشابه تلك من المدافن الرومانية الا أن هناك اختلافات عدة واضحة بينها . وقد اقترح بأن لا بد وان كان هناك طراز شرقي في التصاوير والمنحوتات الدينية أثر الى حد على طراز الفن المسيحي الذي تطور قبل أواسط القرن الثالث الميلادي [١٤] . واستنتج آخر بمقارنة التصاوير الجصية المسيحية من دورا بتلك من المدافن

الرومانية بأن الطرز الفنية الاولى التي اعطيت الى مواضيع مستمدة من العهد الجديد هي هي في الشرق والغرب مع فارق واحد نلحظه في تأكيد الطرز الغربية على الاختصار في التفاصيل [١٥] . والمخطوطات الدينية المصورة ذات علاقة وثقى بالصور الجدرانية . ومن المخطوطات المصورة التي وصلتنا في نسخ عدة مختلفة هي مصغرات الكرونوغراف من سنة ٣٥٤ [١٦] . وهذه عبارة عن مجموعة متنوعة حوت قائمة القناصل Fasti حتى ذلك الوقت وقائمة بأسماء مدراء شرطة روما ثم النوتيتيا ريكيونوم (Notitia Regionum) (وهن قائمتين حوتا المناطق الأربعة عشر التي قسم الامبراطور اوغوسطوس لها روما مع أهم البنايات فيهما) والشهداء ثم قائمة بمطارنة روما ودليل فلكي شهري يحوي على الكثير من الصور . وتظهر التزينات أصلا شرقيا حتى في اسم خطاط الكتابة (فوريوس دايونيسيوس فيلوكالوس) . وان طرز حواشي المخطوطة وصور الأوراق التي تتوج النقوش المرسومة واساءة استعمال الاجزاء العمارية وما الى ذلك جميعها تشابه الطرز التي نلحظها في مخطوط رابريلا Rabrilla للكتاب المقدس [١٧] . والأخيرة عبارة عن مصغرات في الكتاب المقدس السرياني المخطوط رسمها الراهب العراقي رابريلا من شمال العراق سنة ٥٨٦ ــ ٥٨٧ . فالحلية الحلزونية Volutes المزدوجة للاعمدة معروفة في طرز التوابيت الشرقية وتناوب الجمليون والأقواس ربما تكون أساس القوس والجملون بأعلى نص التقويم في كرونوغراف سنة ٣٥٤ . والمخطوطة الثانية التي نلحظ فيها التأثير الشرقي هي مخطوطة ايتالا كويدلينبورك Itala of Quedlinburg التي ربما تعود (على أساس خط الكتابة) الى القرن الخامس الميلادي [١٨] . وطرازها يشابه تلك لفرجيل الفاتيكاني . ولليوم الاثنين تشابه تلك في منحوتات عمود تيوديسيوس بالقسطنطينية والعاجيات الايطالية ــ الغالية Italo-Gallic مما يجعلنا نصف هاتين المخطوطتين كجزء من منتجات المدرسة اللاتينية المتأثرة بالشرق من القرن الخامس الميلادي [١٩] .

واذا انتقلنا الى الفسيفساء فنجد ان الكثير من المواضيع الوثنية

السابقة قد استمرت خلال العصر المسيحي المبكر • فالفسيفساء التي زينت جدران الكنائس بايطاليا خلال القرن الرابع ترينا تأثر قليل بالشرق بل انها تستمر في التوسع بمواضيع الفن المسيحي اللاتيني مع اضافات يونانية – اسيوية نلحظها في طرز وفن ايقونات القرن الخامس • ولكن فسيفساء القديس كوستانزا (Costanza) (قبر شيده الامبراطور قسطنطين الى ابنته بروما من القرن الرابع الميلادي) يعتبر أقدم دليل للطراز الايراني رغم وجود بعض العناصر الهيلينية المتطفلة • وان العقادة البرميلية Barrel - Vaulting للجناح الدائري في الكنيسة مقسم الى اثنى عشر قسما متميزا بعضها نقشت بطرز هيلينية وأحدها يوضح طرازا ايرانيا شائعا وصل دون شك عن طريق سورية • ويتألف هذا الطراز من أغصان أشجار منفصلة من نوع الرمان مع مزهرية أو برعم بكل غصن منها • وان احد عقادات قصير عمره البرميلية بسورية يحوي نفس الطرز ولكن ضمن مضلع معيني كما نراه في مخطوطات الكتب الأرمنية المقدسة [٢١] وكذلك في التعاليم الكنسية اليوزيبسية Eusebian Canons في سورية وكتاب الراهب العراقي رابريلا المقدس [٢٢] •

وقد مضى قرن من الزمان بين تشييد قسطنطين للكنيسة وبناء بيت التعميد في رافينا بايطاليا نرى خلالها اختفاء الطرز الهيلينية ولكن السورية الخالصة منها قد استمرت في البقاء•وبقت التزيينات بالفسيفساء والزخارف المجصصة Stucco ايرانية بالشكل • وقد ملؤت المنطقة الوسطى من القبة بالأقواس العمياء من الزخارف المجصصة مع الطرز الخاصة التي تتوجها والتي نلحظها شائعة بالبنايات الايرانية الشرقية في كشمير • كما ملؤت مجالات الأعمدة حول المثمن عند القاعدة بطراز لولبي يحيط بطرز وسطي تشبه الاوراد التي نلحظها في واجهة قصر مشاقة بشرق الاردن [٢٣] •

ففي كنيسة سان آكويلينو بميلانو (ايطاليا) نرى صورة المسيح مع حواريه في جناح الكنيسة النصف الدائري (Apse) الايمن نلحظ فيها التأثير الشرقي بكل وضوح • وترينا ألوان الصور الانطباعية تشابها

مع كسرات في هوسيوس داود Hcssios David في سالونيك (٢٤) .
ونـرى في قبـة بيت التعميـد الارثوذوكسي (أو القديس جيوفـاني Giovanne) في فونتي Fonte من القرن الخامس (٢٥) صورة التعميد في شريط وسطي مع حاشية ستارة منقوشة . وتحته نجـد استعراض الحواريين رسمت في منطقة أضيق من الفسيفساء مع أجزاء من داخـل الكنيسـة (الهيكل أو المصلى) . ويمكن مقارنة هذه مـع الفسيفساء العمارية في بناية القديس جورج بسالونيك (٢٦) . وكنيسة المهد في بيت لحم (٢٧) . وبالاضافة الى الصور الجصية التي توضح الوجه الشرقي هناك أيضا صورة الشمعدان الورقي الشكل ذو الشعب العدة وكذلك في الستائر حول الشريط الوسطي . ويحوي بيت التعميد أيضا على جانبي الشبابيك صورة شهيد واقفا حاملا الاكليل وبملابس ترينا تأثير الطراز الشرقي ذا الخطوط المستقيمة كما نشاهد التأكيد على جفن العين الأسفل الذي نرى ما يماثله واضحا في فسيفساء هرميس من انطاكيـة (٢٨) .
وهذه توضح لنا التأثيرات السورية وتلك للعاجيات القبطية المتأخرة من مصر (٢٩) . وتوضـح صور المسيـح في بنايـة ابوليناري نيوفـو Apollenari Nuovo في رافينا التي شيدت زمن ثيودوريك (٤٩٩ ــ ٥٢٦) وكرست سنة ٥٠٤ الى القديس مارتين Martin الصفات المزدوجة لفن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس من رافينا والتي نراهـا واضحة في تصوير كل من المسيح الملتحي (على الطراز السوري) وبالوجه المحلوق الذي دخـل من آسيا الصغرى الى ايطاليـا ليحل محل الرأس القصير الشعر بمدافن القرن الرابع (٣٠) . فقد رسم المسيح حتى وقت تعذيبه Passion كشباب دونما لحية ولكن منذ العشاء الأخير صار يرسم بلحية . ويظهر من دراسة التفاصيل ان هناك يد واحدة عملت على رسم هذه الفسيفساء (٣١) . وحتى اذا ما أسلمنا القول بأن أكثر من فنان واحد قد أنجزوا هذه الصور فان الصور توضح دون ريب بأنها من انتاج ورشة فنية واحدة . ولنا ان نعرف بأن صورتي المسيح في هذه الرسوم تمثل الفكرة الايروسية Arian للمسيح والتي ترفض كونه ابن الرب

منذ البداية • وقد اعطت اللحية لصورة المسيح هيبة وجلالا وجعلته أكثر شبها بالأب • والتأثير الشرقي هنا واضح في طراز الفسيفساء • فالأوجه والأعين المدورة الشاخصة قد تحررت الآن من الاتجاه الهيليني الذي يبرز ثلاثة ارباع الشكل وصارت تبرز الامامية الكاملة Frontality وهذه الامامية في التصوير حسب ما يظهر قد تبلورت بالفن السوري ـ الحيثي وولع به الفرثيون فنشروه • ولم يكن جميع الباحثون يؤيدون كون هذه الصور متأثرة بالشرق ففسيفساء بناية القديس ابوليناري نيوفو في رافينا تظهر اتفاقا مع النماذج الرومانية مثل صورة قيام لازاروس والتنبوء برفض بطرس التي تشابه الصور من المدافن الرومانية وبعض المنحوتات على التوابيت المسيحية المبكرة من القرن الرابع الميلادي • وأكد هؤلاء على ان الامبراطور ثيودوريك لا بد وان جلب فنانين من روما للعمل على تزيين المباني التي بناها في رافينا وليس من الشرق كما بين كاسيودوروس Cassio Dorus (٤٨٠ ـ ٥٧٥) [٣٢] •

وان تشييد بناية سان فيتالي San Vitale في رافينا قد بدأ زمن رئيس المطارنة أكليسيوس Ecclesius (٥٢٤ ـ ٥٣٤) وأكملت زمن ماكزميان Maximian رئيس مطارنة الامبراطور جوستنيان سنة ٥٤٧ • ونعرف ان ماكزميان هذا قد قام برحلة الى القسطنطينية قبل تعيينه مطرانا وربما جلب معه لدى عودته جماعة من الصناع • واذا كان هذا الغرض صحيحا فانه يفسر عنصر المحافظة الذي نلحظه في الجناح النصف الدائري Apse وكذلك الفرق بين الرسوم الأولى وصور الالواح التي نرى فيها تقدما ملحوظا بالصنعة • وقيل انه جلب معه ايضا بعض العاجيات التي دخلت في تركيب العرش الذي يحمل اسمه [٣٣] •

وتمثل بناية سان فيتالي قمة الفن البيزنطي المبكر • فالجناح النصف مدور Apse قد بني في الطراز البيزنطي الصلب ونشاهد فيه المسيح الشاب يتوج بين اثنين من رؤساء الملائكة وقديسين • ونرى في الجدران الجانبية صورة الامبراطور قسطنطين والامبراطورة ثيودورة • فالصور رسمت مواجهة للناظر والملابس في طيات صلبة متوازية مهلهلة مع اهتمام

في اللون والنموذج والزينة • والزينة التي استعملت بهذه الحالةلم تستعمل (على حد معرفتنا) بأي انتاج فني من قبل بايطاليا (٣٤) • وتسربت العناصر الفنية الدخيلة من شمال ايطاليا ورافينا الى روما حيث نلحظها في فسيفساء الجناح النصف المدور Apse وقوس كنيسة القديسين كوسماس Cosmas ودامیان Damian في الفورم الروماني • فقد صور المسيح الآن بدينا باسلوب انطباعي ذا شعر طويل ولحية سوداء • وبين القديسين الذين صوروا كان القديس ثيودور وهو قديس كان بالغ الشعبية في الشر حتى ذلك الوقت مما يدل على مدى تأثر الطقس الذي عرف في روما بالشرق (٣٥) • وتبلور الطراز الشرقي هنا تبلورا جعل معه هذه الفسيفساء تمثل نهاية العصور القديمة بالطرز الفنية في روما • واستمر الفن في العاصمة الرومانية حتى الانبعاث القوطي ما هو الا نسخة محلية شديدة التأثر بالشرق •

وأهم الأمثلة المتوفرة من النحوت المسيحية الأولى هي المنحوتات على الصخر والمرمر والعاج • أما ما وردنا من النحوت المدورة فقليل وربما يكون سبب قلتها ندرة انتاجها لمشابهتها للتماثيل الوثنية السابقة • ومن الأمثلة كانت تمثال الراعي الطيب في متحف لاتيران Laterran بروما والتماثيل الخشبية التي نراها في أبواب بناية سانتا سابينا Santa Sabina بروما (٣٦) •

وتعود التوابيت في رافينا الى الفترة من النصف الأول للقرن الرابع الى السنين الاولى من القرن السادس • ويكن ان نلاحظ بعض العناصر الهيلينية من آسيا الصغرى في تلك التوابيت • والبعض منها تحت التأثير السوري الكثيف كما في تابوت بيكناتا Pignatta من القرن الرابع وتابوت اسحق من القرن الخامس (٣٧) • وما نحوت هذه التوابيت الا تكرار للصور الايقونية من سورية وفلسطين • ويمكن ملاحظة هذه في الوقفة الصلبة والاشخاص البديني الأجسام والملابس الثقيلة • ولا تزال المنحوتات في هذه الأمثلة من النحت البارز دون اظهار الاشكال مواجهة للناظر • ولكن منذ أواسط القرن الخامس صارت المنحوتات أقل عمقا

واضمحل التناسق بين الاشكال والاعضاء وصارت الوقفات مزواة Angular (بزوايا) وصارت الوقفة الآن مواجهة للناظر في الغالب .
ونرى من ذلك في لبارباتيانوس ورينالدوس Barbatianus و Rinaldus [٣٨] وايكسوبيرانتيوس Exsperantius . كما نلحظ العنصر الشرقي في توابيت بوابة المدينة التي يظهر انها بدأت في شمال ايطاليا [٣٩] .
وتستخدم هذه طراز المنحوتات المعروفة برسالة الرسل التي فيها الرسل جالسين على جانبي المعلم مرسومين في الاتجاه الواحد الذي فضله الذوق اليوناني ـ الشرقي . واشتق اسم المجموعة هذه من فتحات أبواب المدينة التي قدمت الشكل العماري التقليدي للخلفية . وقد تأثر رسام نهاية القرن الرابع الميلادي بالرسام الذي صور التوابيت المزينة من الامام بصور عبور البحر الاحمر[٤٠] . وقدم لناهذا المنظر مريم ترقص في ملامح آسيوية على رأس مجموعة من الناس . ويعاصر الفنان الذي صور الرأس الآسيوي والشعر والملابس في الأشكال الرسام الآخر الذي أنتج صور توابيت بيت سيدا[٤١] . وفي الطراز الآسيوي نرى الشعر ينتهي عند الحواجب ويتوسط البؤبؤ كرة العين ويحيط طيلسان الاسقف Pallium بالجسم من فوق ركبة واحدة وتظهر منطقة كبيرة من خلال الرداء الاغريقي الطويل Tunic للرائي . وان الالهام الشرقي لرسم الاشكال هنا والتأثر بصور توابيت بيت سيدا نراها واضحة الآن لأول مرة في الغرب كما في منظر الصرع من موقع دورا يوروباس ، العراق القديم[٤٢] .
وتحت يمكن رؤية الرجل المشلول على فراشه وفوق نشاهد المسيح يوعز اليه بالخروج حاملا فراشه .

فالصلات بين توابيت راميتا والفن البيزنطي قوي ومتشعب[٤٣] .
وبالنسبة الى الفن الايقوني فيظهر المسيح في هيبته السماوية بجلال لا متناهي واقفا او يتوج بين رسولين مهمين . وان امامية الاشخاص وتفرقتهم على السطح القليل العمق وطيات الملابس المتميزة تظهر كلها والمنحوتات عند قاعدة مسلة ثيودوسيوس [٤٥] . وعلينا ان لا ننس هنا تأثير الهيلينية الشرقية .

وأهم الاتجاهات بطرز الفن المسيحي المبكر يمكن رؤيتها في عرش ماكزيميانوس Maximianus العاجي من القرن السادس في رافينا • فطراز النحوت ليس واحدا وقد ميز البعض أربع أياد فنية عملت على صنعه[٤٦] • فالفنان الذي صور الألواح الأمامية (يوحنا المعمدان ومؤلفي الأناجيل) كان متأثرا كل التأثير بالمدرسة الآسيوية • ورسم يوحنا المعمدان في طراز سوري مع خلفية عمارية تماثل التوابيت من ليديا • والصور من حياة يوسف تحوي اتجاهات شرقية صرفة • والطراز مفعم بالحركة والشعور والملابس فارسية والمحاريب عميقة حيث تشير الأشكال الى تأثير فن قندهار (اليوناني ـ البوذي) • والبعض مشابهة الى المنحوتات القبطية • وان منحوتات العهد الجديد على الظهر اكثر صورا ولو أن الطراز الشرقي الانطباعي الشامل قد استخدم • وتقترح لنا الشرائط التي تزين المناظر علاقة وثقى مع سوريا •

وهناك منحوتة عاجية سورية الأصل من القرن السادس تظهر العناصر التي أخذها الغرب من الشرق • وهذه المنحوتة العاجية حوت منظرين الأول تعبدي والثاني لميلاد المسيح • وتشمل طراز العاجيات السورية الواضحة في هذا الشكل تشمل تصوير العذراء وهي تواجه المشاهدين بكل صرامة برؤوس كبيرة وحركات مرتبكة غير منتظمة مع كبر حجم الشخص الرئيسي بالنسبة الى الأشكال الأخرى مع استعمال الثقب لتمثيل بؤبؤ العين •

فالفن المسيحي المبكر خلال القرون الستة الأولى بايطاليا عرض لنا تأثره الكبير بالفنون الشرقية • وبينما كان هذا غير مهم في السنين الأولى ولكن بتدهور روما السياسي التدريجي ورفعة القسطنطينية زاد التأثير عبر القرون • ولما احتل بيلزاريوس Belsarius الضابط البيزنطي رافينا وبقية ايطاليا سنة ٥٤٠ وقعت عاصمة العالم القديمة تحت سيطرة الشرق • ومن الآن صار فن رافينا والفن الروماني تحت تأثير الفن

البيزنطي الكامل • وكانت العناصر الفنية اليونانية ـ الرومانية مؤثرة للغاية في الفن المسيحي المبكر وشكلت بالواقع الاساس الذي ردت عليه دعائم العناصر الشرقية التي صارت تشتد قوة حتى غدت العنصر المحرك والأكثر أهمية في الفن المسيحي المبكر •

الحواشي والمراجع :

1 — O.M. Dalton, East Christian Art, (Oxford, 1925), p. 27.

2 — ibid, p. 58.

3 — W. Lowrie, Monuments of the Early Church, (New York, 1906), pp. 89 ff.

4 — Dalton, op. cit., p. 85.

5 — ibid, p. 157.

6 — J. Strzygowski, Origin of Christian Church art, (Oxford, 1923), pp. 59, 91.

7 — Dalton, op. cit., p. 156.

8 — G.T. Rivoira, Lombardic Architecture, (London, 1910), p. 129.

9 — Strzygowski, op. cit., p. 60.

10 — Dalton, op. cit., p. 156.

11 — Rivoira, op. cit., p. 56.

12 — W.F. Volbach, Early Christian Art, (New York, 1962), p. 13.

13 — D.T. Rice, The Beginnings of Christian Art, (Nashville, 1957), p. 31.

14 — ibid, p. 33.

15 — C.R. Morey, Early Christian Art, (Princeton, 1942), p. 66.

16 — ibid, p. 130.

17 — ibid, p. 115.

18 — ibid, p. 154.

19 — ibid, p. 155.

20 — Strzygowski, op. cit., p. 133.

21 — ibid, p. 135.

22 — Morey, op. cit., p. 116.

23 — Strzygowski, op. cit., p. 134.

24 — W.F. Volbach, Early Christian Mosaics, (New York, 1946), p. 10.

25 — Dalton, op. cit., p. 274.

26 — ibid, p. 280.

27 — ibid, p. 292.

28 — Strzygowski, loc. cit.

29 — Morey, op. cit., p. 135.

30 — ibid, pp. 159 ff.

31 — A.M. Cetto, The Ravenna Mosaics, (Greenwich, Connecticut, n. d.), p. 33.

32 — G. Bovini, Ravenna Mosaics... op. cit., p. 33.

33 — Rice, op. cit., p. 80.

34 — ibid.

35 — Morey, op. cit., p. 170.

36 — ibid, p. 145.

37 — Dalton, op. cit., p. 184.

38 — ibid.

39 — M. Lawrence, «City-Gate Sarcophagi», Art Bulletin, Vol. X, (1927), 1 ff.

40 — C.R. Morey, «Notes on East Christian Miniature», Art Bulletin, Vol. XI (1929), pp. 40 ff.

41 — M. Lawrence, «Columnar Sarcophagi», Vol. XIV, (1932), pp. 121, 175.

42 — Morey, Early...op. cit., p. 66.

43 — Volbach, Early Christian Art, op. cit., p. 31.

44 — ibid, p. 25.

45 — ibid, p. 24.

46 — Rice, op. cit., p. 56.

سيرة الفكر التاريخي عند توينبي

بقلم محمود زايد
الجامعة الامريكية - بيروت

توينبي مؤرخ عظيم بأي مقياس ومن أي زاوية كان النظر اليه . ولعله ظاهرة هذا العصر بين المؤرخين . فقد اجتمع له في تراثه التاريخي ما لم يجتمع لغيره من أسباب الضخامة والصناعة وسعة الاطلاع وشمول النظرة . وكان من الممكن له ان يقول عن تراثه ما قاله الشاعر الروسي بوشكين عن آثاره في قصيدة له بعنوان « لقد أقمت أثرا لنفسي » .

لقد أقمت أثرا لنفسي لم تشيده
يد انسان . وهناك طريق سوف يسلكها الناس اليه
وليس نصب الاسكندر بأعلى من عمودي
الذي يرفع رأسه الرائع في شموخ[1] .

ولقد اعترف حتى أقسى النقاد عليه[2] بعدد من الملامح شبه

---

(١) A. Yarmolinsky, ed., *The Poems, Prose and Plays of Alexander Pushkin*, New York, 1964, p. 88.

(٢) كتب بيتر جيل يقول : « ان ما قدمه لنا توينبي الى الآن (وكان تسع مجلدات) انجاز جليل . ان احدا من سابقيه

المعجزة التي تميز تراثه وفي مقدمتها ثقافته الكلاسيكية الدقيقة واطلاعه الواسع وبصيرته النافذة ، ونظرته الشاملة وديباجته المشرقة ، وثروته الهائلة من المقارنات والمقابلات التاريخية الرائعة ، ولقد احدثت فلسفته التاريخية من الدوي ـ وبخاصة في الغرب ـ ما لم يحدثه مؤرخ آخر ! وانتشرت أفكاره في محيط بشري واسع ، وتوافر على دراستها العديد من الكتاب والباحثين .

لكن بالرغم من هذه الشهرة الواسعة التي حظي بها ، فقد تفاوت الاهتمام بمختلف جوانب تراثه . ففي حين أن نظرته الى الحضارة والدين حظيت بالكثير من الاهتمام ، فان هناك جوانب لم تحظ الا بالقليل منه ومن هذه الجوانب سيرة فكره التاريخي ـ أي منابت أفكاره ، والظروف التي تبناها فيها ، والمكانة التي احتلتها نظرته الى التاريخ والحضارة ، ومصيرها في كتاباته عبر حياته المديدة ، وما اعتراها في تلك الأثناء من تعديل طفيف او كثير ومن تغيير جزئي أو كلي !

ولا حاجة بنا الى المبالغة في التأكيد على أهمية سيرة فكره . فهي قبل كل شيء مفتاح لفهم نظرته ، بل لا يمكن فهم نظرته بدونها . وفضلا عن

لم يبلغ ما بلغه هو في علمه وسعة اطلاعه . انه يصول ويجول في الحضارات الآسيوية الصينية والهندية كما يفعل في الحضارة الاميركية . فمعرفته وثيقة بالتاريخ الروماني وأعظم منها معرفته بتاريخ الاغريق . انه يعرف الادب الكلاسيكي . وعندما اقول « يعرف » أعني انه عميق الاطلاع ، ويستطيع ان يفيد منه بحرية تمكنه ان يقيم حججه وتأملاته على اساس أعمق . وما عنده من هذا يعدوه الى التوراة . فتوينبي يعيش مع التوراة التي ترصع صفحاته بكثرة . وفضلا عن هذا فهو يطلق لنفسه العنان أيضا في اقتباس جوته وشكسبير ومارفل وشلي وبليك ومردث . ويعرف كيف يستند في حججه الى المفهومات الاثنولوجية والسوسيولوجية والفلسفية والسيكولوجية . وهو الى هذا صاحب اسلوب مشرق مطواع متقن وهو قبل كل شيء منتبه أشد الانتباه الى الاطار الذي ينتظم جميع أفكاره . انه مفكر عظيم لا مثيل له بين من نعرفهم من المؤرخين .

Pieter Geyl, Debatates with Historians, New York, 1958, pp. 109-110.

هذا فهي تلقي ضوء على تجربة تاريخية غنية بالايحاء والالهام . وهي الى هذا كله تلقي ضوءا كبيرا على الفكر التاريخي في عصره . ومن حسن حظ المعنيين بها انهم يجدون في كتابات توينبي نفسه خير عون لهم على تتبعها ! فقد عني توينبي أشد العناية بولادة المؤرخ في شخصه ونشأته ومساره وثمرات بحثه وفيما يلي عرض موجز هذه السيرة الفريدة .

كيف صرت مؤرخا ؟ :

قلما طرح اعلام المؤرخين هذا السؤال ، وأجابوا عنه بالدقة والوضوح اللذين اتسمت بهما اجابته . وقد نسب الفضل في توجيهه الى التاريخ الى امه . قال :

« لماذا درست التاريخ بالذات ؟ ان حب الاستطلاع يجرف امامه كل شيء وفي الكون امور كثيرة يمكن ان تثير حب الاستطلاع عند البشر وتثيره فيهم بالفعل ! لكن لماذا تركز حب الاستطلاع عندي في التاريخ دون غيره ؟ اعرف الجواب على هذا السؤال معرفة أكيدة . انني مؤرخ لأن أمي كانت من قبلي مؤرخة ! ولم يحدث يوما أن شككت في أنني سأكون مؤرخا ! »[٣] .

لقد وقع توينبي تحت تأثير أمه التي نشرت كتابا يشتمل على قصص حقيقية من تاريخ اسكتلندا لكنه يضيف الى ذلك ان تأثير توجيه امه له كان توجيها عاما فقط .

ففي حين أنها كانت تحب الوقائع التاريخية لذاتها فانه احبها لا لذاتها، وانما لدلالاتها على أمور وراءها . أحبها لأنها تكشف ما استغلق فهمه من طبيعة الكون ومعناه . قال :

« نحن نحب أن نعرف مكاننا في الكون . اننا ندرك اننا لن نفهم سوى قبس منه لكن هذا لا يردنا من السعي الى القاء أعظم قدر من الضوء عليه »[٤] .

---

(٣) Arnold Toynbee, Experiences, London, 1969, p. 89-90.

(٤) *Ibid.*

لكن كيف بدأ توينبي يشتغل بالتاريخ ؟ يقـول بأن ذهـن المؤرخ كالطائرة النفاثة التي لا بد لها من الدافع لانطلاقها • وانطلاق المؤرخ لا يكون الا بمثل ذلك ، لكن انطلاقه يتأتى من الشرارة التي تثير حـب استطلاعـه •

فاذا أثير حبه للاستطلاع

« ••• يتم الانتقال من الركود الى الفعل • وهذا الانتقال هـو الذي يوحي للمؤرخ المبتدىء بأخذ زمام المبادرة ، والبـدء بالعمـل والقيام برحلات استكشافية في سماوات غير معروفة »[٥] •

مثل هذه الشرارة كانت قد أذكت روح الاستطـلاع عنـد فولنـي وجونز وبيلي وشليمان • وقد أذكته عنده هو في عـام ١٨٩٨ • وقـد انطلقت من أربع مجلدات من سلسلة تاريخ الامم تدور بالترتيب حول مصر القديمة ، وآشور ، وميديا وبابل وفارس ، والعرب[٦] •

« ففي صباح أحد الايام من عام ١٨٩٨ وحين غمرت الحضارات المصرية والبابلية والسورية نظر الشاب بأنوارها الطاغية كانت اللحظـة الحاسمة في التجربة الفكرية عند هذا الشاب الذي كان يراقب اجـواء التاريخ فان ظهور هذه الاجرام السماوية المجهولة هو الذي نقله من حالة الركود الى حالة الفضول ـ الفضول الـذي لا يزال الشاب سعيـدا بتدفقه في ١٥ سبتمبر من عام ١٩٥٤ ، أي بعـد ذلك بأربـع وخمسين سنة »[٧] •

مراحل الفكر التاريخي عند توينبي :

يمكن القول بأن الفكر التاريخي عند توينبي مر في ثلاثة مراحـل تمتد الاولى الى عام ١٩١٩ تقريبا ، وتمتد الثانية من هذا التاريخ الـى أواخر الثلاثينات ، ثم تبدأ الثالثة وتستمر حتى وفاته •

---

(٥) Arnold Toynbee, Study of History, Vol. X, London, 1954, p. 7 ff.

(٦) *Ibid.*, pp. 18-19.

(٧) *Ibid.*, p. 19.

المرحلة الاولى

تعكس ذهنية توينبي خلال الجزء الأكبر من هذه المرحلة ثقافة أبناء جيله والتيارات السائدة ةفي عصره •

الديـن :

فمن حيث المعتقد الديني نجد توينبي في أول نشأته مؤمنا مثل والديه بتعاليم كنيسة انجلترا البروتستانتية في اطاريها اللاهوتي والاخلاقـي • لكنه منذ وقت مبكر في حياته لم يحدده هو فقد ايمانه ببعض المعتقدات مثل ولادة المسيح دون أب • وفي مرحلة دراسته الجامعية بكليتي بمبروك Pembroke وباليول Balliol , ١٩٠٧ ـ ١٩١١) تحول الى «لاادري» aganostic واستنتج من تحوله هذا الى ان الدين ذاته ليس الا وهما عديم الاهمية (٨) •

التاريخ القومي :

نشأ توينبي في جيل ركز اعلام مؤرخيه اهتمامهم بالتاريخ القومي باعتباره ألصق بحياة الناس وأقرب الى افهامهم ، ولم يهتموا بغيره مـن التواريخ الا من حيث اتصالها به • وعليه فقد اتخذوا من التاريخ القومي وحدة للدراسة التاريخية • وتأثر توينبي ذاته بهذا الاتجاه وكتب عـام ١٩١٥ يقول :

« وبالتالي فان الثقافة القومية حيثمـا تجلت هي قـوة أساسيـة كالديمقراطية القومية وان محاربتها هي بمثابة محاربة الله ذاته • وينبغي أن لا تنازعها اية ثقافة اجنبية على أحقيتها بمركز الصدارة • بل حتى على

---

(٨) Toynbee: Experiences, p. 125 ff.

الثقافة الام ان تتوارى وراءها » [٩] •

الحضارة الاوروبية :

ونشأ توينبي كذلك تحت تأثير النظرة السائدة بين الغربيين من جيله الى الحضارة الاوروبية على أنها حضارة متفوقة ، لا سبيل الى الشك في انتصارها وانتشارها في العالم كله يقول :

« هذه هي الحالة التي كان عليها عالمي أيام نشأتي • كان ظل الامن والاستقرار وارفا وفي امتداد مستمر • وبدا كل الناس سوف يعيشون الى أن يروا اليوم الذي يمتد فيه فوق العالم كله • وسلم الناس بأن الحضارة الغربية ستكون اطارا للمجتمع العالمي • كان غربيو ما قبل عام ١٩١٤ ، بما فيهم الغربيون البريطانيون يشعرون قبل كل شيء ان العالم لم يعرف ناسا مثلهم وأن الغربيين « متحضرون » لكن غير الغربيون «وطنيون» بمعنى انهم مجردون من الحقوق الانسانية » [١٠] •

كان معاصروا توينبي من الجيل الفكتوري شديدي الثقة بأنفسهم وبحضاراتهم بالرغم من أنهم كانوا بفضل دراستهم للغات والآداب الكلاسيكية (الرومانية واليونانية) يعرفون بأن الحضارة اليونانية انتهت نهاية محزنة وان الامبراطورية الرومانية تدهورت وسقطت فانهم اعتقدوا بأن حضارتهم غير قابلة للسقوط والانهيار • لقد تساءل ادوارد جيبون (Edward Gibbon) : « هل يمكن للكارثة التي أصابت القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية في القسم الخامس الميلادي أن تصيب يوما العالم الغربي القائم في عام ١٧٨١ ؟ » وأجاب على تساؤله بأن ذلك امر لا يمكن تصوره [١١] •

---

(٩) Toynbee: *The New Europe*, London, 1915, p. 52.

(١٠) Toynbee: Experiences, pp. 199-201.

(١١) *Ibid.*

ويلاحظ توينبي ان الدراسات اليونانية واللاتينية المقررة في انجلترا في زمنه كانت تقف بالنسبة للتاريخ اليوناني عند وفــاة ديموسثينس Demosthenes وبالنسبة للتاريخ الروماني عند آخر سطور تاسيتوس وبليني الاصغر وجوفينال واما ما وراء ذلك فكان نصيبه الاهمال لأن علماء القرن التاسع عشر كانوا يرون في دراسته عيبين : عيبا ظاهرا كانوا يدركونه وينصحون عنه وهو اسفاف الكتاب لغة واسلوبا بشكل يخرجون به عن حدود اللياقة ويجرحون الشعور ، وعيبا خفيا كانوا يحسون بــه لاشعوريا ولا ينصحون عنه وهو انه يؤلف قصة فشل لا قصة نجاح لأنه في جــوهره تاريخ تدهور الحضارتين اليونانية والرومانية وانهيارهما ، الأمر الذي يوحي لهما بأن الحضارات الاوروبية قد تلقى المصير ذاته!(١٢)

المرحلة الثانية

في أوائل هذه المرحلة أخذ توينبي يفكر جديا في كتابة دراستـــه للتاريخ • ويقول بأن الفكرة كانت تدور بذهنه في صيف عام ١٩٢٠ • وفي العام التالي وضع الخطوط العريضة لمخطط الدراسة •

« ففي يوم السبت الموافق السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٢١ كنت مسافرا مع صديق عمر وزميل في الدراسة ••• وكنت قد دونت في نصف صفحة قائمة موضوعات تطابق من حيث الاساس مخطط الدراسة محتوى ونظاما » (١٣) •

على انه لم يشرع في الكتابة الا في صيف عام ١٩٣٠ بعد ان كان قد وسع مخططه فأغناه بالتفصيلات والعناوين الفرعية • وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية بواحد واربعين يوما كان قد نشر المجلدات الستة الاولى منــه •

على انه كان خلال الفترة بين نشوب الحرب العالمية الأولى وشروعه

---

(١٢) *Ibid.*

(١٣) *Ibid.* p. 101., *A study of History*, Vol. VII, London, 1954, p. X.

في الكتابة قد انعتق من عدة أفكار ومفهومات تاريخية رئيسية واعتنق عددا آخر اما بتأثير مجرى الأحداث او بتأثير المؤرخين وغيرهم • وفيما يلي تعليق موجز على أهم هذه الأفكار والمفهومات •

الحرب :

كان موقف توينبي من الحرب قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى الموقف التقليدي الذي يقوم على التسليم بضرورة الحرب وان كان تسليمه يشوبه عدم الرضى ويغلب عليه التعذب بالذنب •

ويقول توينبي بأن عواطفه كلها كانت في عام ١٩١٢ مع شعوب اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الاسود في حروبها ضد تركيا للتخلص من سيطرتها • لكن لم يكد ينسلخ عام ١٩١٤ حتى كان قد انعتق من هذا الموقف التقليدي وذلك بعد أن طحنت عجلة الحرب أكثر من نصف زملائه في الدراسة بونشستر وبأكسفورد • لقد اقتنع بأن الحرب ليست مؤسسة تستحق الاحترام ولا خطيئة عابرة وانما هي جريمة [١٤] •

الحضارة لا التاريخ القومي وحدة الدراسة التاريخية :

من أهم التطورات في فكر توينبي خلال هذه المرحلة هو تحوله من التاريخ القومي الى المجتمع او الحضارة كوحدة للدراسة التاريخية • ويقول بأنه ما حل صيف عام ١٩٢٠ حتى وجد نفسه متفقا مع اشبنجلر على هذه الفكرة • [١٥] كان اذ ذاك قد اقتنع بأن عبارة الدولة القومية والايمان بتفوقها قد أفسدت منظور الاوروبيين التاريخي وجعلتهم يتمحورون على انفسهم ويتخذون من تاريخهم نقطة الدائرة ومن تاريخ الأمم الأخرى حواشي لها[١٦] •

---

(١٤) *Ibid.* in *Experiences*, pp. 207-9.

(١٥) Toynbee, *Civilization On Trial*, New York, 1948, p. 7-8.

(١٦) Albert Hourani, *A Vision of History*, Beirut, 1961, pp. 2-3.

على ان فكرة توينبي هذه لم تكن بنت ساعتها • في الارجح انها تبلورت بعد مخاض طويل وبفعل عدة روافد جانبية في مقدمتها اقتناع توينبي بوحدة التجربة الانسانية • وهذا ما دعاه الى القول الحضارات متساوية ومتعاصرة فلسفيا ويرجع توينبي اصول قوله هذا الى عام ١٩١٤ يقول : (١٧)

« وقعت حرب عام ١٩١٤ وانا اقوم بتدريس ثيوكيديدس لطلبة كلية باليول (بأكسفورد)••• وفجأة غير النور فهمي (لمجريات الامور)

ان التجربة التي كنا نمر بها عندئذ هي ذات التجربة التي مر بها ثيوكيديدس ••• وبذلك أثبت عالمانا انهما متعاصران فلسفيا » •

وقد غذى فكرة توينبي هذه من التعاصر الحضاري وتساوى الحضارات فلسفيا عدد من المؤرخين منهم الفرد زمرن Alfred Zimmern الذي ذهب في محاضرات ألقاها من التاريخ الهليني الى ضرورة الغاء الحواجز التي أقامها المؤرخون بتقسيمهم التاريخ الى عصور : الى قديم ومتوسط وحديث • ومما يذكر ان زمرن نادى بهذا عام ١٩٠٩ ، أي قبل ثماني سنوات من قيام فيلسوف التاريخ الايطالي بنديتو كروتشي Benedetto croce باطلاقه قوله المشهور بأن «جميع التاريخ الحقيقي هو تاريخ معاصر » • يقول توينبي :

« وبينما كنت استمع الى كلمات (زمرن) المزلزلة تلاشت من ذهني التقسيمات التقليدية الى ماضي وحاضر ، وبين قديم وحديث وذهبت مع آمس الدابر ولم تعد تعيقه •

ومن أولئك المؤرخين أيضا ف • ج • تيجارت Teggart الذي أنار السبيل أمام توينبي بقوله : « ان الخطوة الاولى في دراسة الانسان ينبغي ان تكون بالرجوع الى الحاضر » وان نقطة الانطلاق هي بالضرورة

---

(١٧) Toynbee, *Civilization On Trial*, pp. 7-8.

(١٨) Toynbee: *Study of History*, Vol. X, p. 232.

ملاحظة الاختلافات التي تتسم بها ظروف البشرية في مختلف أنحاء العالم وضرورة فهم أسباب تلك الاختلافات ! [١٩]

ومن الروافد التي غـذت شموليـة نظرة توينبي الى الحضـارة دراسته العميقة الشاملة للتاريخ الاغريقي الروماني •

« فاذا نظرنا الى التاريخ اليوناني الروماني من بدايته الى نهايته وجدنا ان الاتجاه السائد فيه كان الى الوحدة • وبعد ان استمعت مرة الى هذه السيمفونية العظيمة لم أعد معرضا لخطر التنويم من قبل الموسيقى الجافيـة ذات اللحن المنفرد التي كانت تنطلق من تاريخ بلادي المنغلق والتي كانت تطربني عندما كانت امي تقرأه لي جزء جزء وليلة بعد ليلة » [٢٠] •

كما غذت شمولية نظرته آراء عدد كبير من الساسـة والمفكرين والكتاب والمؤرخين قـال :

« فالشمول كان مفتاح عظمة سمتس • وكان مفتاح عظمـة اينشتاين والسير ونستون تشرشل عظيم آخر انصرف عـن ضيق النظرة الحديثة •• وليس هؤلاء هم كل الابطال الغربيين المحدثين •• فديني عظيم جدا لعدد من المؤرخين المحدثـين بينهم كلارندون ، وجيبون وفريمان وبيدري وثيودور مومسن وادوارد ماير • لقد كانت رؤية فريمان قائمة على الوحـدة والعالمية • كان لتفكير فريمان مثل فيلسوف التاريخ المسلـم ابن خلدون موهبة تمكنهما من رؤية العالم في ذرة رمل » [٢١]

التحدي والاستجابة ودور الاقلية المبدعـة :

لم يكن توينبي في صيف عام ١٩٢٠ قد اهتدى بعد الى تفسير مقبول

(١٩) Toynbee: *Study of History*, Vol. X, p. 232.

(٢٠) Toynbee: *Civilization On Trial*, pp. 4-5.

(٢١) Toynbee: *Experiences*, pp. 108-109.

للنشأة الحضارية وفي ذلك العام وضع الاستاذ نامير Namier بين يديه نسخة من كتاب اشبنجلر عن انحطاط الغرب • لكن توينبي رفض تفسيره لنشأة الحضارة لأنه وجد عقائديا عقيما • ولم يلبث بعد ذلك ان وجد ضالته في مسرحية « فاوست » للشاعر الالماني جوته فقد استمد من تحدي مفستوكليس Maphistocles لله بأن يطلق يديه لافساد أروع صنعه ، وقبول الله لهذا التحدي ، فكرته عن التحدي والاستجابة (٢٢) •
اما الصيغة اللغوية ذاتها للفكرة فقد استمدها من بيت شعر لروبرت براونج Browning يقول فيه :

« الا يمكنك ان تتحداهم ، ولا استجابة » (٢٣) •

وبذلك صار لدى توينبي تفسير لنشأة الحضارات ، واتخذ من تتالي التحديات والاستجابات نمطا يفسر انتقال الحضارة من حال الى حال ، ويفسر كذلك سقوطها في النهاية وذلك عندما تعجز عن الاستجابة بشكل صحيح للتحديات •

والى جانب مفهوم « التحدي والاستجابة » نبت في ذهن توينبي مفهومان آخران مكملان له وهما مفهوم « الاقلية المبدعة » التي اسند لها الدور الاكبر في الاجابة على التحديات التي تواجه الحضارة ! والارجح ان هذا المفهوم نشأ في ذهنه بتأثير المؤرخ الانجليزي توماس كارليل الذي آمن بدور البطل في التاريخ وبأن ما أنجزه الانسان في التاريخ هو في أساسه تاريخ العظماء الذي ظهروا على مسرحه • ورأى توينبي ان عمل الاقلية الخلاقة يتصف بحركة مزدوجة من الاعتكاف «Withdrawal» لتحقيق الصفاء الذاتي واستلهام الحق ثم العودة (return) للهداية والتوجيه •

واعتبر توينبي عجز الاقلية المبدعة عن تقديم حلول صحيحة

(٢٢) Toynbee: *Civilization On Trial,* p. 9.
(٢٣) *Ibid.,* p. 11-12.

للمشكلات التي تواجه المجتمع سببا في سقوطها decline وبالتالي في انحلالها disintegration :

« عندما تتدهور الاقلية الخلاقة في تاريخ أي مجتمع من المجتمعات الى أقلية مسيطرة ، تحاول ان تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله ، وهذا التبدل الهدام في طبيعة العنصر الحاكم يحفز البروليتاريا « الاكثرية » عن الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب اليه ومحاكاته ، ويدفعها استكراهها على طاعته والمنزلة الوضيعة الجافية التي أنزلها فيها أي الارتداد عنه والثورة عليه وتتشعب هذه البروليتاريا عندما تتعفن لتؤكد وجودها الى طائفتين البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية المكونة من البرابرة الذين يكونون قد أخذوا يقاومون الانضمام الى الحضارة المنهارة مقاومة عنيفة وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النمو الحضاري منقسما على ذاته انقسامات حادة ولا منفصلا عن جيرانه بابعاد لا يمكن عبورها » (٢٤) .

وبهذا تم لتوينبي تحديد مجال (أو وحدة) الدراسة التاريخية ووضع مخطط دراسته للتاريخ التي نشرها في ستة مجالات قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . وعلى اساس هذا المخطط وجد توينبي ان الحضارات التي شهد العالم ظهورها خلال الستة آلاف سنة الماضية قد تجاوزت دور الانهيار الى الانحلال واختفت عن الوجود .

المرحلة الثانية

نشر توينبي المجلدات الاربع الباقية من دراسته في هذه المرحلة التي تبدأ من نشوب الحرب العالمية الثانية وتمتد الى حين وفاته . ومن

(٢٤) العبارة لتوينبي والترجمة للاستاذ منح خوري : **التاريخ الحضاري عند توينبي** ، دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٠ ، ص ٦١ .

الملاحظ ان توينبي في هذه الاثناء اعتمد يد التعديل والتغيير في أكثر من مفهوم له • ففي هذه الاثناء خفف من حدة حتمية انهيار الحضارات التي توحي به دراسته للحضارات التي ظهرت في العالم خلال الستة آلاف سنة الماضية ، فأكد انه كان في الامكان انقاذ الحضارة الاوروبية وغيرها من الهلاك او الاندثار الكلي ولكن بشرط العودة الى الدين • وقد نجم عن هذا التعديل في نظرته الى حتمية انهيار الحضارات عن تغير كلي في نظرته الى دور الدين في الحضارة • فحتى نشوب الحرب العالمية الثانية كان دور الدين في نظره ثانويا • كان يرى ان الدين موصل حضاري ينقل جذوة الحضارة وبذلك يبقيها حيه • قال :

« وللديانات الجامعة مبرر وجودها لانها تحفظ استمرار النوع الحضاري من المجتمعات اذ تستبقى بذرة التنمية حية خلاله (زمن الانتقال) الخطر الذي يمر به النوع من دور تزول فيه احدى حضاراته الى دور آخر تنشأ فيه مكانها حضارة جديدة • ان الديانات الجامعة نافعة وربما كانت ضرورية في عملية التوالد الحضاري المتكرر ولكنها ظاهرة ثانوية انتقالية، وظيفتها أشبه بوظيفة البيضة أو دودة القز بين فراشة وفراشة » (٢٥) •

لكن توينبي لم يلبث أن غير مفهومه هذا • ويشير الى هذا التعبير بقوله :

« على صاحب هذه الدراسة ان يعترف بأنه هو الآخر كان راضيا لمدة سنوات عن هذا المفهوم الشائع لدور الديانات وطبيعتها ••• ولكنه انتهى الى الاعتقاد بأن هذا المفهوم •• لم يكن في الواقع يمثل غير جانب يسير من الحقيقة كلها » (٢٦) •

---

(٢٥) الترجمة لصاحب **المصدر ذاته** ، ص ٥٠ .
(٢٦) **المصدر ذاته** .

الحضارات، وتندثر يقول :

ونجم عن هذا التغير ان صارت الحضارة ذاتها ثانوية بالنسبة الى الدين وصارت حركـة الدين قبلـة الحضارة وغايتهـا ، بينما تتعاقب

« اذا كنا نبحث عن سرطان اجتماعي ، فسوف تجده لا فـي الكنيسة (الدين) التي تحل محل حضارة ، وانما في الحضارة التي تحل محل الكنيسة (الدين) ، واذا كنا قد اعتبرنـا الدين شرنقة تتجدد الحضارة من خلالها في غيرها ، فينبغي لنا الآن أن نفكر بصورة عكسية » (٢٧) .

ويضيف الى هذا قولـه :

« اذا كانت الديانة عربة فأنه يبدو ان العجلات التي تسير بها نحو السماء هي تعاقب الحضارات على الأرض » (٢٨) .

وبهذا انتهى توينبي الى ان حركة التاريخ هي الى السماء ، وانها تصاعدية لا دائرية وانتهى به العمل كله الى ان صار مؤرخا متصوفا .

(٢٧) Toynbee, *A Study of History*, Vol. VII, p. 526.

(٢٨) Toynbee, *Civilization on Trial*, p. 233-236.

عيذاب
من الثغور العربية المندثرة

الدكتور أحمد دراج
رئيس قسم التاريخ / جامعة القاهرة

شهد العصر الاسلامي بمصر نشأة ثغر عيذاب على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر ، وقد استمدت عيذاب شهرتها من أهمية الدور الذي قامت به عدة قرون كقاعدة بحرية تجارية لتجارة الشرق الاقصى عبر مصر الى أوروبا ، وكمرحلة هامة في طريق قوافل الحجاج الى المقدسات الاسلامية بالحجاز عبر البحر الاحمر نظرا لموقعها مقابل ثغر جدة .

ويمدنا مؤرخو مصر الاسلامية بالكثير عن الحقائق المتصلة بتاريخ عيذاب بصفتها قطعة من الوطن المصري ، وزخرت أيضا كتب الجغرافيين العرب بوصف عيذاب وصحراء عيذاب الواقعة بينها وبين النيل ، الا ان معظم ما جاء في هذه الكتب خاصا بها كان عن طريق النقل او السماع عن الغير ، وليس عن طريق المشاهدة العينية ، اذ لم يقدر لغير القليلين منهم المرور بها ، ومن هؤلاء ناصري خسرو ، وابن جبير ، وابن بطوطة . ولقد أمدنا هؤلاء بنصوص شيقة من ادب الرحلات في العصور الوسطى الاسلامية . وكذلك عرف الرحالة الاوروبيون وبخاصة الايطاليين منهم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ثغر عيذاب كمرحلة رئيسية في طريق رحلاتهم الى البعثة التبشيرية الكاثوليكية

بدنقلة او الحبشة أو بحثا عن طريق الوصول الى الهند • وكانت هذه المقاصد الثلاثة من الأهداف الرئيسية للسياسة الاوروبية في العصور الوسطى • وكان من نتيجة هذه الرحلات ان ظهرت عيذاب على الخريطة الجغرافية التي وضعها دالورتو (Dallorto) عام ١٣٢٥ والكتلان (Al-Catalan) في عام ١٣٧٥ •

كل هذه المصادر تاريخية كانت او جغرافية ، شرقية أو غربية تصمت تماما عن اخبارنا بأي شيء عن نشأة هذه الميناء ، وتتضارب جميعها فيما يختص بتجريد موقعها ، نظرا لاندثارها وزوالها من الخريطة الجغرافية لمصر وليس لدينا عن نهاية هذه الميناء الا نص واحد وامد اها الرحالة (ليون الافريقي) في أوائل القرن السادس عشر عما سمعه من أهالي المنطقة المحيطة بها عن تدميرها منذ قرن مضى أو على وجه التحديد عام ١٤٢٦ في عهد السلطان المملوكي برسباي •

وهناك شواهد تاريخية اخرى أيدت هذا النص في أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر •

وما نكتبه اليوم ما هو الا محاولة لتعريف القارىء بهذه الميناء ، بقدر ما تسمح به معرفتنا وبكل ما كتب عنها ولنبدأ بما ذكره الجغرافيون العرب عن موقعها •

فالاصطخري لا يذكرها ضمن المدن المصرية ، بل كقلعة من قلاع المملكة الحبشية •

وابن حوقل يحدد موقعها على بعد عشر مراحل من أسوان •

وياقوت يحددها بأنها على بعد خمس عشرة مرحلة من أسوان وعلى مسيرة ثمانية أيام من القصير ، وابن جبير لا يتكلم عن موقعها وانما نعرف من قراءة رحلته انه وصل اليها عن طريق قوحي بعد مسيرة تسعة عشر يوما •

اما ابن بطوطة فقد وصل اليها بعد مسيرة خمسة عشر يوما من

ادفو ، ويذكر انه يوجد بين سواكن وعيذاب ، ميناء يعرف برأس دواير، وهذه تقع على بعد خمسة ايام من عيذاب وهي عند المقريزي على مسيرة سبعة عشر يوما من قوص •

وأبو الفدا يحددها على بعد سبع مراحل من سواكن وهي تقع على خط عرض ٢١ شمالا اما اسوان فتقع على خط عرض ٢٢ر٣٠ وجدة على خط عرض ٢١ر٤٥ •

أما أمين واصف وهو أحد الذين اشتغلوا بجغرافية العالم العربي حديثا ، فيذكر انها تعرف في أيامنا عند أهالي المنطقة المحيطة بها باسم (سواكن القديمة) وهي تقع على خط عرض ٢٢ر٢٠ • أما سواكن الحالية فتقع على خط عرض ١٩ •

وكذلك تضاربت آراء من كتب عنها من الأوروبيين المحدثين •

فاملينيو Amélineau يفترض انها احد الميناءين القديمين (بيرنس) Berenice •

و (ميوس هرموس) Myos Hormos اللتين كانتا على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر منذ عصر البطالمة •

ولكن ايفيتس (Evetts) يستبعد ان تكون (سيوس هرموس)•

أما فلوير (Floyer) فيذكر ان هناك جبلا قريبا من هذه المنطقة يعرف بجبل عيداب (بالدال) وانه كان هناك مرسى صغير في العصر القبطي يعرف أيضا باسم عيداب كما هو شائع بين الاهلين هناك ويحدد موقعه على ساحل البحر عند خط عرض ٣٥ ـ ٢٢ شمال (بيرنيس) ويحتمل ان يكون هذا المرسى هو ميناء عيذاب نفسها بالرغم من أن الاهالي هناك يعرفونها باسم (سواكن القديمة) •

وقام (كويات) Coyat برحلتين الى صحراء عيذاب ، حوالي عام ١٩٠٩ و ١٩١٠ وتتلخص مشاهداته في ان اهالي هذه المنطقة لا يعرفون على وجه التحديد موقع عيذاب ومع ذلك فهم لا يزالون يسمون

الصحراء المجاورة لها بصحراء عيداب (بالدال) . اما كويات فيميل الى تحديد موقعها عند (رأس علبه) الى الجنوب من بيرنس ، وبالتحديد عند خط عرض ٢٢ قريبا من مدينة الحلايب الحالية .

الا ان (بيكر) Becker يحدد موقعها بمكان قرية عيديب الحالية التي تقع الى الجنوب قليلا من خط عرض ٢١ .

وقام (مري) Murray في نهاية عام ١٩٢٥ بدراسة هذه المنطقة وانتهى من دراسته ، الا انها تقع على خط عرض شمال ١٩٫٤٧ر٢٢ وخط طول ٣٢ر٩/٣٦ .

أما خرائب (برانس) القديمة فتقع على خط عرض ٢٤ أو ٥٠ر٢٢ قريبا من رأس بيناس الحالية .

وفي ضوء هذا التحديد لموقـع (بيرانس) يمكننا ان نعرف علـى وجه التقريب ان مكان عيذاب بالنسبة اليها الى الجنوب منها بقليل .

اما عن تاريخ نشأة ميناء عيذاب في العصر الاسلامي ، فانه يرجع في الغالب الى أواخر القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري متأثرا في ذلك بتطور تاريخ الملاحة في البحر الاحمر . وكانت الموانيء الرئيسية للسفن الى تحمل تجارة الشرق الاقصى تتغير تبعا لمجريات الحوادث السياسية في الشرق الأوسط ، فكانت على التوالي القلزم ثم عيذاب والقصير ، ثم الطور ، وأخيرا جدة . ولم يمنع هذا من قيام بعض الموانيء بدور ثانوي بجانب الميناء الرئيسي الذي يتركز به النشاط البحري ، ضمانا لجمـع المكوس بواسطة السلطات الرسمية .

ففي صدور الاسلام كانت القلزم هي الميناء الرئيسية لمصر في البحر الاحمر ، ولم يغير الاسلام من واقع الأمر شيئا ، فمنذ منتصف القرن الخامس الميلادي كان النشاط التجاري قد انتقـل اليها من البيرانس ، وميوس هرموس وادت اعادة حفر خليـج أمير المؤمنين الواصل بـين الفسطاط والقلزم الى زيادة أهميتها نظرا لما تقوم به من عملية الوصـل

بين مصر والحجاز وقد تأيد ذلك بما عثر عليه من أوراق البردى اليونانية في القرن السابع الميلادي ، وبما نعرفه من بناء بعض سفن الاسطول الاسلامي بها في هذه الفترة ، على يد الصناع القيط وامتد هذا النشاط حتى منتصف القرن التاسع ، فابن خرداذبة يذكر ان التجار اليهود كانوا يأتون من بلاد الفرنج قاصدين مصر ، فينزلون بالفرما ، ثم يعبرون برزخ السويس الى القلزم ومنها يركبون البحر الى الجار (ميناء المدينة وقتئذ) ثم الى جدة ومنها الى عدن في طريقهم الى سواحل الهند •

الا أن هذا النشاط التجاري في البحر الاحمر عن طريق القلزم وعدن، ما لبث ان أخذ في الضعف بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الخلافة العباسية ببلاد العراق فقد بدأ هذا النشاط ينتقل تدريجيا الى الخليج العربي وبخاصة بعد ان أمر الخليفة العباسي ، ابو جعفر المنصور ، بردم خليج امير المؤمنين على أثر خروج محمد النفس الزكية بالحجاز سنة ١٤٥ هـ مطالبا بالخلافة • ومن ثم حلت موانيء الخليج العربي مثل سيراف والبصرة والأبلة هاتين الميناءين السابقتين في استقبال سفن الشرق الاقصى •

وشهد القرن الثامن الميلادي ، الثاني الهجري ، نوعا جديدا من الأدب العربي المتصل بتطور طرق الملاحة الخاصة بتجارة الشرق الاقصى، وظهر هذا الادب في قصص الرحالة العرب في طريقهم الى الصين مثل قصة التاجر سليمان ، وقصة السندباد البحري •

ونتيجة لذلك أصبح دور البحر الاحمر ثانويا عن طريق الرحلات الفرعية التي كان يقوم بها تجار الخليج العربي لنقل منتجات الشرق الاقصى على سفن صغيرة ذات حمولة ضعيفة وكانت هذه السفن لا تحتمل صعوبة الملاحة حتى القلزم، بسبب شدة الرياح وكثرة الصخور المرجانية ولذلك كانت تؤثر الرسو بميناء جدة •

وفي أواخر القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري أثرت ثورة الزنج وثورة القرامطة – اللتان نشبتا في جنوب العراق ، وفي منطقة

البحرين ـ على الحركة التجارية بالخليج العربي ومن جهة ثانية وجدنا التجار العرب بدأوا يحجمون منذ أوائل القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري ـ عن الوصول برحلاتهم الى ميناء كانتون بالصين ، بسبب سوء معاملة السلطات الصينية لهم ، وأصبحت شبه جزيرة ملقا آخر مرحلة لسفنهم في هذه البحار •

ومن ثم بدأ البحر الاحمر يستعيد مركزه السابق في تجارة الشرق الاقصى ونشطت عدن من جديد ، بعد ان عرفت سفن الهند والصين طريقها اليها • وعملت الاسرة الزيدية التي كانت تحكم اليمن وقتئذ على تشجيع التجار الهنود والصينيين ومن عدن كان يقوم اليمنيون بنقل هذه البضائع على سفن خاصة ، تعرف بجلاب القلزم الى كل من جدة على الساحل الشرقي وعيذاب والقصير التي قامت مكان الميناء القديم Leukos Limen على الساحل الغربي •

وزادت أهمية عيذاب وبخاصة في العصر الفاطمي ابتداء من ٤٦٠ هـ ١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ م بسبب الشدة التي قاستها مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله وذلك نتيجة لخراب الدلتا وتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء الى طريق النيل حتى قفط أو أدفوا أو أسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب • وأدت حوادث الحروب الصليبية الى ان يظل هذا الطريق تعبره قوافل الحجاج، حتى فتح الطريق القديم في عهدالسلطانالمملوكيبيبرس ٦٦٦ هـ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ م •

وفي العصر الفاطمي يمدنا الرحالة الفارس ناصري خسرو بأول نص عن مشاهداته في عيذاب اثناء مروره بها ، فيذكر ان المكوس كانت تجبى بعيذاب على البضائع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن بطريق الهجر ، ومن عيذاب تنقل عبر الصحراء الشرقية الى اسوان ومن هناك في السفن النيلية الى الفسطاط •

واهتم الفاطميون بميناء عيذاب وعملوا على حماية القوافل الملاحية التي ترسو به من سراق بحر القلزم فأعدوا اسطولا يتكون من خمسة

مراكب صارت ثلاثة فيما بعد وحرصوا أيضا من الناحية المذهبية على نشر الدعوة الاسماعيلية بها ، فأقاموا هناك داعيا اسماعيليا .

وفضلا عن هذه الظروف الخاصة بالشرق الاوسط ، فان الظروف العالمية لعبت دورا هاما في ازدياد نشاط عيذاب الذي بلـغ أوجـه في العصر الفاطمي . اذ أدت سياسة التسامح الديني التي انتهجها الفاطميون ازاء التجار الاوروبيين الى تسابق هؤلاء من جنوة وبندقة وبيزنة واما لفيين وصقليين الى اسواق الاسكندرية ودمياط والقاهرة وحصلوا من الخلفاء الفاطميين عن طريق المعاهدات التي عقدوها معهم على حقد اقامة الفنادق وتخفيض المكوس .

ولقد ظلت عيذاب مزدهرة طوال العصر الايوبي ، كمرحلة هامـة في طريق قوافل الحج الى جدة وقاعدة أساسية لتجارة مصرفي البحـر الاحمر ويخطيء من يظن ان الحروب الصليبية والحرب الاقتصادية التي اعلنتها البابوية على مصر قد اضعفت من تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الأراضي المصرية وبالتالي من نشاط ميناء عيذاب . حقيقة ان هذا النشاط التجاري المصري تأثر كثيرا في بضع سنوات ، الا انه استؤنف من جديد بعد ان تمكن صلاح الدين من القضاء على مشروعات البرنس (ارناط) صاحب امارة الكرك الصليبية في البحر الاحمر ، ومنذ انتزاع امارته التي كانت تتحكم (بحكم موقعها مكان شرقي الاردن الحاليـة ومنطقة النقب) في طريق القوافل بين مصر وسوريا والحجاز ، وفي الملاحة بخليج العقبة هذه المشروعات بدأت عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م بتفكير ارناط في الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة . وفشلت محاولتـه الاولى لأن القوات البرية التي زحفت نحو بلاد الحجاز توقفت عند تيماء واضطرت الى التراجع نظرا لقلة الماء وشدة الحرارة التي لم يتحملهـا الصليبيون ، ولذلك تحول نشاطه المعادي في العالم التالي الى البحـر الاحمر ، وهاجم اسطوله ميناء عيذاب ونزل ببعض رجاله بها واستولوا على احدى القوافل التي كانت مقبر صحراء عيذاب متجهة الى قوص ، ثم تحولت الى مهاجمة الساحل الحجازي تجاه المدينة واسرع الاسطـول

المصري بقيادة الحاجب لؤلؤ الى مطاردة الاسطول الصليبي ، ووفق في ايقاع الهزيمة بأرناط ، وأسر معظم جنوده الذين اقتيدوا الى مكة • وهناك ضحى بهم قربى الى الله ، وجزاء على تجربتهم بمهاجمة الاراضي المقدسة يوم عيد الاضحى (١٠ من ذى الحجة ٥٧٨ هـ / ١٦ من ابريل ١١٨٣) • وفي عام ١١٨٧ م تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على امارة الكرك ، وبذلك عادت هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة الى حوزة المسلمين • وزال الخطر الصليبي نهائيا عن البحر الاحمر •

وقد سبقت هاتان المحاولتان محاولة صليبية اخرى لسرقة يد النبي صلى الله عليه وسلم من الروضة النبوية الشريفة على يد اثنين من الاسبان تخفيا في زي المغاربة ونزل الاثنان بأحدى الدور المجاورة للروضة وتظاهرا بأنهما جاءا ليقضيا بقية حياتهما في جوار الرسول ، ثم اخذا ينقبا سردابا يصل الى الروضة ، وشاءت العناية الآلهية الا يتمما مهمتهما اذ اسرع السلطان نور الدين زنكي الى المدينة بعد ان رأى الرسول في منامه يستغيث به وتمكن من اكتشاف هذه المحاولة الدنيئة • وكان ذلك سببا في بناء المقصورة الشريفة وتعيين الخدام بها الذين زاد عددهم فيما بعد صلاح الدين وأوقف على مصالح المقصورة ومصالحهم بعض الاوقاف في مصر •

هذه المحاولات من جانب الصليبيين كان لها أثر كبير في اتجاه السياسة المصرية الى منع التجار الاوربيين من مزاولة نشاطهم التجاري في البحر الاحمر ولم يكن لهذا الاجراء أي تأثير على تجارة المرور بين الشرق والغرب اذ شهد عصر صلاح الدين ازدياد نشاط التجار المسلمين الذين عرفوا بالتجارة الكارنية في نقل تجارة الشرق الاقصى وبخاصة تجارة البهار والتوابل من عدن الى عيذاب ، وانتقل نشاطهم الى قوص التي أصبحت مركزهم الديني بالصعيد وايضا الى الفسطاط التي بنى بهما فندقا لهم (فندق الكارم) عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ونتيجة لهذا التطور عنى الايوبيون بأمر قوص وضموا اليها الولاية على عيذاب •

ومن ثم شهد عهد صلاح الدين عودة التجار الاوروبيين ولا سيما الايطاليين اذ عادوا الى التردد على الموانيء المصرية بالبحر الابيض . ويكفي دليلا على ذلك كتاب صلاح الدين الى الخليفة العباسي سنة ١١٨٣م والذي يشير الى مجيء التجار الجنوبية والبنادقة والبيازنة الى مصر محملين بالبضائع الاوربية أهمها الاسلحة ومعدات القتال ، وفي هذا اعلاء لشأن الاسلام والمسلمين وكان هذا الكتاب ردا على النقد الذي وجهه اليه الخليفة بشأن الاتجار مع الاوربيين على الرغم من حالة الحرب القائمة بين الاسلام والمسيحية بل ذهب صلاح الدين الى أبعد من هذا فعقد ثلاث معاهدات مع هذه الجمهوريات الايطالية الثلاث وشاهد الرحالة ابن جبير آثر هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة عند وصوله الى ميناء الاسكندرية عام ١١٨٣م وان لم يفقه ان يدون لنا في اسلوب لاذع ما يقاسيه المسلمون والمسيحيون على السواء من تشدد رجال الجمارك وغلظة الاجراءات التي اتبعوها في جباية المكوس وفي طريقه الى الحج اتبع الرحالة طريق النيل من الفسطاط حتى قوص ، ومن قوص عبر الصحراء الى عيذاب في تسعة عشر يوما ووصفه لصحراء عيذاب ومراحل الطريق بين قوص وعيذاب قطعة ممتازة من ادب الرحلات ومن الوصف الجغرافي لهذه المنطقة . ففي لهيب صحراء عيذاب سما ابن جبير بايمانه السطحي الذي شهدته حياته الاولى بالاندلس فحفظ القرآن كله وتصوف قربى الى الله ودون مشاهداته الخاصة بنشاط الحركة التجارية عبر صحراء عيذاب. ويكفينا في هذا الصدد ما ذكره عن رؤيته لاحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك ملقاة بها ، والقوافل صاعدة هابطة لا يعترضها احد الى أن يأخذها صاحبها .

ولا ريب في أن هذا النشاط التجاري لعيذاب ازداد اضطرارا مع ازدياد النشاط التجاري لمصر مع الجمهوريات الايطالية ، بقية العصر الايوبي ، بسبب سياسة التسامح التي اتبعها الايوبيون ازاء الاوربيين .

ولم يكن يجبى من المكوس بعيذاب سوى الزكاة فقط ، أي ربع

العشر ، ومرة واحدة في العام واثبت التجار الكارم رضاءهم عن صلاح الدين وحسن مشاركتهم له في جهوده الحربية ، بأن دفعوا بعيذاب ، عن طيب خاطر عام ٥٧٧ هـ / ١١٧١ م زكاة اربع سنوات دفعة واحدة • وكان يوجد بعيذاب واليان احدهما يمثل زعيم قبائل الهجبة ، والثاني يمثل السلطة المصرية ، وكانا يقسمان بينهما هذه المكوس مناصفة ، اما أهل عيذاب فكان لهم من الحجاج والتجار فوائد كثيرة مقدرة على نقلهم عبر صحراء عيذاب وعلى ما يحملون من احمال الدقيق وعلى نقلهم في الجلاب من عيذاب الى جدة •

واستمرت عيذاب في بداية عهد الدولة المملوكية تزاول نشاطها التجاري السابق ، وحرص السلطان بيبرس ، في أوائل سلطنته على تأمين هذه المنطقة التي تخدم مصالح تجارية لمصر ، وخاصة بعد ان ترامى الى سمعه سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٦٣ م اغتصاب صاحبي (سواكن) و (دهلك) لأموال من يموت من التجار الكارمية في بلادهما • واضطر بيرس بعد سنتين الى ارسال تجريدة عسكرية الى سواكن نجحت في ضمها الى الممتلكات المصرية ، ووجه بيبرس عنايته الى عيذاب عند تنظيمه لشبكة البريد للدولة المملوكية ، فكان هناك الطريق الذي يبدأ من القاهرة الى قوص ، ثم يستمر الى أسوان والنوبة ومن قوص يتفرع طريق ثان الى عيذاب وانشأ على طول الطريق منازل البريد والخانات تيسيرا لخدمة مصالح الدولة ولمصالح التجار •

الا ان سياسة بيبرس ، بعد اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة • تحولت الى تثبيت سيادة مصر على بلاد الحجاز ، هذه السياسة التي كانت تنازعها اياها الدولة الرسولية باليمن • وكان من اولى نتائجها اعادة الطريق البري للحج عبر شبه جزيرة سيناء سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ولذلك حرمت عيذاب من جانب كبير من نشاطها •

ولم يمنع هذا التطور عيذاب من ان تستمر في استقبال سفن اليمن حاملة الجزء الباقي من تجارة الشرق الاقصى ، ومن استقبال الكثيرين

من المغاربة الذين يفضلون طريق عيذاب البحر الاحمر نظرا لقصره وحرصت السلطنة المملوكية على استقرار علاقتها الطيبة باليمن ، ضمانا لمصالحها التجارية اذ كانت عدن هي المستودع الرئيسي لتجارة الشرق الاقصى وكانت السفن الهندية والصينية تقوم بتفريغ حمولتها بهاء، ولا تتعداهما الى البحر الاحمر ، ومن عدن تقوم السفن اليمنية بنقلها الى عيذاب وعملت السلطات اليمنية من جانبها على الابقاء على هذه العلاقات الطيبة حتى تستطيع القيام بالوساطة التجارية بين الشرق الاقصى ومصر وقام تجار الكارتن بتصفية ما كان يحدث من خلافات بين الحكومتين حرصا على مصالحهم •

وظلت السلطنة المملوكية تعمل جاهدة على استتباب الامن في منطقة عيذاب : تأمينا لهذا الشريان التجاري فحرص السلطان كلاوون ، عندما نشب قتال بين عرب جهينة وعرب رفاعة في صحراء عيذاب سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م على التوفيق بينهما خوفا على فساد الطريق وذكرت المراجع المعاصرة اضطراب الامن في هذه المنطقة ابتداء من سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م بسبب خروج اهلها على رسل صاحب اليمن واستيلائهم على الهدايا التي كانوا يحملونها الى الناصر محمد بن كلاوون وتكرر منهم هذا الاعتداء في السنة التالية ضد رسل صاحب اليمن وضد التجار ، مما دعا الى ارسال حملة عسكرية لتأديبهم وبعد ثلاث سنوات ثاروا مرة اخرى على الامير المصري المقيم بعيذاب واستدعى ذلك ارسال تجريدة عسكرية ثانية لاخضاعهم ولتقييم ذلك في عيذاب الا ان هذه القوة فشلت في السيطرة على الامن واستمر تمردهم عدة سنوات •

ويمدنا الرحالة ابن بطوطة بمشاهداته اثناء مروره بعيذاب في هذه الفترة ، فعند وصوله الى عيذاب سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م عن طريق ارفو لم يتمكن من الابحار الى جدة ، نظرا لحالة القتال الناشبة بين قبائل البجة والقوات المملوكية • ومن ثم اضطر الى العودة الى القاهرة ثم استأنف السير مع قافلة الحج عبر شبه جزيرة سيناء • وفي رحلته الثانية الى مكة

سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م لم يتوجه الى عيذاب وانما اتجه الى القصير ولم يتمكن من الابحار الى عيذاب في رحلته الثالثة سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م. وفي السنة التالية مر ايضا بعيذاب ابن الوردي وذكر لنا بمشاهداته عن نشاط هذا الميناء .

وكانت المكوس قد ارتفعت بعيذاب خلال القرن السابع الهجري الى العشر وهو المبدأ الضريبي الذي سارت عليه الدولة المملوكية في جميع موانيها دون تفرقة بين المسلمين والمسيحيين ولعل أهم ما ذكره ابن بطوطة هو أن السطنة المملوكية لم تكن تتقاضى من المكوس سوى الثلث تاركة الثلثين لزعيم قبائل البجة .

واستمرت عيذابه تقوم بهذا القدر من النشاط حتى عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م أو حتى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م على قول آخر . ومن هذا التاريخ أو ذلك انتقل معظم نشاطها البحري الى ميناء الطور حتى اصبحت الميناء الرئيس للدولة .. هذا التحول الذي أثر كثيرا على مصير عيذاب أدى اليه عاملان : الاول : هو ان ميناء جدة بدأ يستعيد دوره القديم كميناء رئيس في طريق المراكب اليمنية من عدن الى شمال البحر الاحمر ، وكان هذا في العشرينات الاخيرة من القرن الثامن الهجري بفضل جهد شريف مكة حسن بن عجلان . والثاني : هو سوء الاحوال الاقتصادية في الوجه القبلي التي ترتب عليها وتلاشى أمن قوس عاصمته وقتئذ والقاعدةالخلفية التي تخدم نشاط عيذاب ، وذلك بسبب تعدد انخفاضات النيل في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وما ترتب عليها من مجاعات كثيرة ولعل اخطر هذه المجاعات تلك التي حدثت في اوائل القرن التاسع الهجري وما صحبها من غزو « تيمورلنك » للاراضي الشامية ، واستعداد السلطات المصرية لقتاله ومغالاتها في جميع الاموال من الرعية .

منذ هذه الفترة حتى تدمير عيذاب عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م بأمر السالطان الملوكي برسباي اقتصر دور عيذاب على خدمة مصالح الاهلين المستقربين على الساحل العربي للبحر الاحمر عن طريق اتصالها بجدة

عبر البحر أو بقوص عبر الصحراء ، وكذلك على خدمة من يمر بها من الرحالة ، ولا سيما الايطاليين في طريقهم الى الحبشة او الارسالية الكاثوليكية من نقلة .

وشهد القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي عددا من هؤلاء الرحالة نذكر منهم « فرانسسكو بلدوي Francisco Baldui » و « بيجولوتي انغلورنس Pegolotti » حوالي عام ١٣٢٥ ؛ و « نيقولاري بوجيبوني البندقي Nicolo de Poggibonni » بين عام ١٣٤٥ ، ١٣٤٧ » و « بيزيجاني Pizzigani » عام ١٣٦٧ ، وفي أواخر القرن الرابع عشر شهد أحد الرهبان الذي ترك لنا وصفا لرحلته من البندقية الى اكسوم مارا بقفط وعيذاب وسواكن ، وكذلك برتراند ميجنانلي من اهالي مدينة سيين Bertrand Mignanelli de Sienne وفي أوائل القرن الخامس عشر انطونيو برثولو ميوانغلورنس Antonio Bartolomeo وأخير اسلموا دوقية بري الى ملك الحبشة ١٤٣٠

ولنا ان نتساءل عن السبب الذي دفع برسباي الى تدمير عيذاب ؟ ان ذلك يرجع في الحقيقة الى تغير طرق الملاحة في البحر الاحمر في أوائل الربع الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي والى حرص مصر الشديد على المحافظة على مصالحها التجارية ، فلقد ظلت « الطور » مركزا للنشاط البحري التجاري المصري حتى ظهرت عوامل جديدة غيرت الموقف وأدت الى أن تخلفها جدة ، وكان لزاما على السلطات المصرية ان تعدل سياستها ازاء الحجاز فبدلا من اكتفائها بالسيادة الرمزية سعت الى السيادة الفعلية واحتلال مدن الحجاز الرئيسية ، مكة والمدينة وجدة بقوات مصرية مع الابقاء على النفوذ المحلي للاشراف .

وضمانا لحصولها على المكوس وتنفيذ سياستها التجارية فيما يختص بتجارة المرور بين الشرق والغرب فقد وضعت جدة تحت الادارة المصرية المباشرة واذا كان ازدهار جدة قد ادى الى ان يصبح دور الطور ثانويا ، فقد أدى الى ازدهار السويس لاستقبال مراكب الانكليزية التي كانت

تقوم بعملية النقل البحري بينها وبين جدة • واقتصر دور « الطور » على أهميتها كمرحلة هامة من مراحل الطريق البري للحجاج ومن يصحبهم من التجار ، وتجبى المكوس عن البضائع التي تنقل بالطريق البري قبل دخولها الاراضي المصرية •

فما هي العوامل التي سببت هذه التغييرات الملاحية بالبحرالاحمر ؟

لقد رفعت المظالم وارتفاع المكوس وسوء المعاملة التي كان يقاسيها التجار الهنود بعدن الى محاولتهم التحرر من تحكم اليمنيين في تجارتهم • وحتى ذلك الوقت كانت عدن هي نهاية الخط الملاحي للمراكب الهندية والصينية في رحلتها نحو الشرق الاوسط ، ولم يسبق ان تعدتها من قبل • وحدث هذا التحرر بفضل جرأة تاجر هندي مسلم يدعى ابراهيم اندفع بسفينته الى داخل البحر الاحمر عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م وهداه اسلامه الى الرسو بميناء جدة حيث عومل معاملة طيبة من رجال شريف مكة حسن بن عجلان •

وخشيت السلطنة المملوكية من أن تفلت منها هذه المكوس التي كانت تكون في ذلك الوقت المورد الرئيس لاقتصادياتها وبخاصة بعد الازمة الاقتصادية العنيفة التي شهدتها مصر في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس الميلادي • وكانت الأحوال السياسية في الحجاز توحي بهذه النتيجة ولهذا عملت جاهدة على استكمال سيادتها التامة على بلاد الحجاز ، اذ ازداد نفوذ شريف مكة حسن بن عجلان وامتد سلطانه على مدن الحجاز جميعها واهتم باعداد ميناء جدة للقيام بدوره القديم ثم عملت التطورات الملاحية الجديدة على ان تتركز فيها تجارة البحر الاحمر الا ان الشريف حسن بن عجلان اساء الاستفادة من هذا التطور،وارتفعت شكوى الحجاج والتجار من ظلمه وتعسفه • ووجدت مصر في ذلك فرصة للتدخل في تنفيذ سياستها فاستدعته الى القاهرة الا انه رفض المثول لدى الابواب السلطانية مما أوجب ارسال حملة عسكرية الى مكة لتأديبه • وفشلت هذه الحملة في القبض عليه ، فلقد سارع بالهرب الى

الصحراء بمجرد سماعه بمقدم القوات المملوكية ونفعت الحيلة معه في النهاية وجاء الى القاهرة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م واجبر على قبول شروط السلطان برسباي من دفع مبلغ معين الى السلطنة المملوكية ، والتنازل عن المكوس التي تجبى بجدة من التجار الهنود .

الا ان السلطان برسباي وكان المكر والخداع والجشع من أبرز خصاله لم يشأ ان يعتمد على الوعود ومن ثم قرر اقامة قوة مملوكية بمكة تحمي السيادة المملوكية هناك ، وتمنع تمرد الاشراف وتسهر على مصالح مصر التجارية بالبحر الاحمر . اما جدة فقد وضعت تحت الادارة المصرية المباشرة وصار يتوجه اليها كل عام قبيل بداية الموسم التجاري عند وصول المراكب الهندية اليها امير مملوكي يعاونه « شاد » لجباية المكوس بها فضلا عن اتصال جدة اتصالا منظما سريعا بمصر عن طريق خط ملاحي بينها وبين السويس ، وعن طريق الحمام الزاجل .

وبدأت مصر منذ عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م تجبي هذه المكوس وترتب على هذا الحق واجب العناية بهذا المرفق والعمل على ازدهاره بحسن معاملة التجار الهنود وقيام العلاقات الودية مع سلاطين الهنود وأباطرة الصين ، وكان عليها أيضا واجب حماية من منافسة الموانيء الاخرى التي تقوم باستقبال تجارة الشرق الاقصى مثل عدن وهرمز عند مدخل الخليج العربي . الا ان الجشع الذي اشتهر به برسباى دفعه الى اتخاذ اجراءات مشددة فيما يختص بجمع المكوس من الحجاج والتجار بجدة وبمكة وعلى طول الطريق البري للحج ، ثم أخيرا قبل دخول القافلة المصرية القاهرة ، وقبل دخول القافلة الشامية دمشق .

وكانت أقسى هذه الاجراءات الضربة القاضية التي انزلها بعيذاب بسبب هذا القدر القليل من النشاط المخلي الذي ظلت تحتفظ به في هذه الفترة ، والذي نتج عن ان بدأت تفلت من بين يديه بعض المكوس وتعتبر هذا الاجراء وصمة في تاريخ برسباى فقد دفعه الجشع الى ان

يزيل مدينة من ارض الوطن لتحقيق سياسته المالية . ولم تذكر المراجع المعاصرة شيئا عما حل بعيذاب على يديه بالرغم من كثرة المؤرخين المعاصرين له ومنهم الناقم عليه والمقرب اليه ولقد اشار المعتريزي الى توقف نشاطها أعوام بضعة وعشرين وثمانمائة ولكنه لم يتكلم عن تدميرها . والنص الوحيد الذي يعتبر هذا الحادث هو ما ذكره الرحالة لهون الافريقي في كتابه « وصف افريقية » عن عيذاب اثناء زيارته لمصر حوالي عام ١٥٢٦ م فيذكر ان منذ مائة عام قام سلطان مصر (برسباي) بتدمير ميناء عيذاب لأن بعض التجار كانوا ينزلون بها بدلا من جدة واضطر اهلوها الى الهرب الى نقله والى سواكن . وتبعتهم قواته حتى هذه المدينة الاخيرة وذبح منهم على أبوابها زهاء خمسة آلاف .

هذه الحقيقة المرة التي ذكرها ليون الافريقي أيدتها شواهد اخرى فابن الجيعان صاحب كتاب « التحفة السنية » باسماء البلاد المصرية الذي ألفه في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي أوردها ضمن قطاع احد كبار الامراء المماليك دون ان يذكر شيئا عن بلادها (دخلها المالي السنوي) كما فعل فيما يختص ببقية البلاد التي يتكون منها اقطاعه . وهذا دليل حاسم على توقف نشاطها نهائيا وعدم جباية آية مكوس بها ، وان ظل اسمها مدرجا في كتب (روك) البلاد المصرية .

الا ان عيذاب ، أو على الأصح مكان عيذاب ، استمرت له أهميته بالنسبة الى مشروعات الاوروبيين الصليبية والتجارية ضد المملوكية كمرحلة هامة في طريق السفر الى الحبشة ، أو في طريق الرهبان الى الارسالية الكاثوليكية أو التجار والرحالة في بحثهم عن طريق الوصول الى الهند وساعدت السياسة المالية القصيرة النظر التي اتبعها برسباي على ان تقوم عيذاب بخدمة المتآمرين على مصالح البلاد العليا وعلى سلامتها وكان برسباي بعد ان نجح في تأمين وجوده بجدة وفي تركيز

جباية المكوس بها قام باحتكار تجارتها فأصبح هو المشتري الرئيس لواردات الهند والصين عن طريق مبادلتها بالواردات الاوروبية التي احتكر أيضا شراءها من التجار الاوروبيين الذين يفدون الى دمياط والاسكندرية • وقد رفعه الى ذلك ما عرف به من جشع زائد وكذلك الازمة الاقتصادية التي اشتدت خلال سنوات حكمه ، وحاجة الدولة الملحة الى المال للقيام بالتزاماتها وبخاصة دفع رواتب الجند ونفقاتهم •

وأثارت سياسة الاحتكار هذه في البحر الاحمر والابيض ، ثائرة التجار المسلمين « تجار الكارم » والتجار الاوروبيين ، فاندفع كل في ميدان نشاطه الى حماية مصالحه التجارية وبقينا الآن ان نشير الى ان اهتمام الاوروبيين اخذ يتجه منذ هذه اللحظة ، الى تفويض هذه السياسة الاحتكارية التي اتبعها خلفاؤه من بعده ، وذلك عن طريق التحالف مع الحبشة للقيام بهجوم مشترك ضد الدولة المملوكية ، أو البحث في كيفية الوصول الى الهند • وتنبه برسباي الى هذه الاخطار بعد ان اكتشف تآمر اسحاق ملك الحبشة مع الفونسو الخامس ملك اراجون بعد عودة رسلها من « بلنسيه » ومرورهم بالقاهرة في جمادي الاول ٨٣٢ هـ / فبراير ١٤٢٩ م ، وبعد ان وقع في قبضة السلطات المصرية بجدة أحد التجار البنادقة « نيقولا دي كونتي » Nicolas di Conti في طريق عودته بين الهند ولم ينج نيقولا وزوجته من القتل الا بفضل اعتناقهما للاسلام • وفي عهد السلطان بقمق قبض على البرتوري سرتانو Alberto di Sartano رسول البابا اوجين الرابع الى ملك الحبشة •

ولذلك اتجه برسباي الى التشدد في خطر دخول الاوروبيين ، رحالة وتجار واقتصاد منطقة البحر الاحمر وهو المبدأ الذي كان قد تقرر من أيام صلاح الدين الايوبي بسبب المشروعات الصليبية التي قام بها البرنس ارناط في خليج العقبة وفي البحر الاحمر ، الا ان برسباي وسلاطين المماليك من بعده وجهوا عنايتهم فقط الى مراقبة الموانيء التي يرتكز بها

النشاط التجاري في هذه الفترة ، وهي السويس والطور وجدة واهملوا مراقبة موانىء الشاطيء الغربي للبحر الاحمر • وهكذا اتيحت الفرصة للاوروبيين لمواصلة خططهم ومؤامراتهم ضد الدولة المملوكية واتخذوا من مكان ميناء عيذاب الذي اهمل بسبب الاحداث الاخيرة نقطة هامة يتسترون بها •

ويذكر لنا التاريخ من هؤلاء : « بدروكو فلهام » و « الفونسو بايفا » رسولي ملك البرتغال الى ملك الحبشة حوالي سنة ١٤٨٧ م و « سانتو سيفانو » أحد التجار الجنوبيين الذي تمكن من الوصول الى ميناء « كنباية » بالهند سنة ١٤٩٠ م وأيضا « فريدوس » الذي وضع سنة ١٤٩٩ م خريطة جغرافية ظهر عليها مكان مدينة عيذاب •

وزال اهتمام الاوروبيين بمكان عيذاب بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغال الى شاطيء الهند • وهذا مما أدى الى ضياع معالم هذا المكان بمرور الزمن •

وعندما قام « دور جوان دي كاسترو » البرتغالي برحلة الى البحر الاحمر سنة ١٥٤١ م زار موانيء البحر الاحمر زيلع ، وسواكن ، والقيصر ، والسويس ، والطور ، وجدة ، واما مكان « عيذاب » فلم يتعرف عليه اذ يبدو ان معالمه قد اندثرت ، بل اقلع مماليك علي بك الكبير من القصير الى جدة ، في طريقهم الى غزو الحجاز مما اثبت ان الاذهان قد انصرفت عن عيذاب •

الصّراع الإنجليزي الفرنسي في مصر

"١٨٦٣ - ١٨٨٢"

دكتور/ صالح رمضان محمود

كلية التربية/ جامعة عدن

مقدمـــة :

اهتمت فرنسا في القرن السابع عشر الميلادي باحياء الطريق البري بمصر كي تنجح في المنافسة التجارية والسياسية بينها وبين انجلترا وهولندا اللتين تتنازعان السيطرة على الطريق البحري حول افريقية .

واستمر الفرنسيون متمسكين بمصالحهم التجارية في مصر وبخاصة منذ المعاهدة الانجليزيـة المصرية سنــة ١٧٧٥ . وفي سنة ١٧٧٧ نقـل الفرنسيون مركز تجارتهم وقنصليتهم من القاهرة الى الاسكندرية رغبة في التخلص مما كان يفرضه المماليك من الاتاوات والمغارم على التجـار الاجانب فيالقاهرة . وبفضل وساطة شارل مجالون Charles Magallon التاجر الفرنسي في مصر والمشرف على مصالح الفرنسيين في القاهرة ــ تمكنت فرنسا من عقد ثلاثة معاهدات مع مصر في يناير ١٧٨٥ الاولى مع مراد بك وفيها تعهد مراد بك بصيانة التجارة الفرنسية عنـد مرورها في مصر وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢ ٪ للوالي على مصر ، ٤ ٪ للبك الحاكم او ٣ ٪ فقط اذا كانت هذه المتاجر مصدرة الى فرنسا . وقد وقع هذه المعاهدة بعد ذلك بقليل ابراهيم بك ، والمعاهدة الثانية مـع يوسف كساب ــ ملتزم الجمارك العـام ــ وفيها تعهد يوسف بعـدم

زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ½ فقط من قيمة المتاجر المفرغة في السويس ، المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد ـ أحد شيوخ الاعراب ـ وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان في طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل . غير ان هذه الاتفاقيات لم تمنع ابراهيم ومراد بك من المضي في المظالم وارهاق التجار الأجانب وابتزاز الأموال بكل الوسائل ، مما كان سببا في تعدد شكاوى التجار الفرنسيين في مصر [1] .

والواقع ان السياسة البريطانية لم تتجه الى مصر الا بعد ان هدد نابوليون طريقها الى الهند بمحاولة احتلال سوريا ومصر وتهديد امبراطوريتها . ولم يكد نابليون يستقر بمصر حتى أخذ الانجليز والاتراك في مطاردته وتم لهم بعد زمن يسير طرده من سوريا ثم من مصر [2] .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية ان أخذ الفرنسيون يكتبون عن مصر الكتب الكثيرة . مما لفت اليها انظار العالم الاوروبي وجعل لها شهرة كبيرة ، وجذب اليها كثيرا من السائحين والعلماء والباحثين [3] . ومن أهم تلك الكتب كتاب (وصف مصر) الذي شمل معلومات متنوعة عن مصر ، مثل الري والزراعة والحرف وعادات الناس وتقاليدهم . وأدى فشل الحملة الفرنسية على مصر الى انهيار احلام نابليون انهيارا تاما ، وفتحت الحملة صفحة جديدة من التنافس الاستعماري الانجليزي الفرنسي على مصر .

وظل النضال مستمرا بين فرنسا وبين انجلترا وحلفائها مدة طويلة ،

---

(١) احمد الحتة (دكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر . ص ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) محمد عبد الباري : الامتيازات الاجنبية . ص ١٣٢ .

(٣) نجيب توفيق ـ الثائر العظيم عبدالله النديم . ص ١٠ .

حتى انتصر الانجليز وحلفاؤهم في معركة ووترلو Waterloo في يونية سنة ١٨١٥ . وفي اثناء هذا النضال ظلت مصر تحتل مكانا ظاهرا من تفكير ومجهودات السياسيين والعسكريين من كلا الفريقين بصورة جدية على الأقل حتى عام ١٨٠٧ (١) .

عصر محمد علي :

ازدادت مخاوف الانجليز من وقوع مصر فريسة في ايدي الفرنسيين ، وطلبت انجلترا من الباب العالي اتخاذ الوسائل اللازمة بالاشتراك مع الانجليز لتأييد سلامة مصر . وكان استلام محمد علي للحكم في مصر مصدر قلق للانجليز ، وقام الوكيل الانجليزي في مصر — ويدعى (مسيت) — بمناوئة محمد علي ، وعمل على توثيق علاقاته بالمماليك وتعطيل حركة محمد علي وكان يأمل في اقصائه عن الحكم(٢) .

وعهدالانجليز الى صديقهم (الالفي بك)، بانشاء حزب يدعو لمصادقة الانجليز ولكنه فشل . كما فشل الانجليز في الحملة التي ارسلوها الى مصر سنة ١٨٠٧ (٣) .

وترجع أسباب انتصار محمد علي على الحملة الانجليزية (حملة فريزر) سنة ١٨٠٧ ان الانجليز انتظروا مساعدة المماليك دون طائل وكان من أهم نتائج فشل حملة فريزر استيلاء محمد علي على الاسكندرية التي كانت خارج نطاق نفوذه (٤) .

وكان محمد علي — قبل توليته الحكم — قد حاول الاستعانة

---

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) محمد عبد الباري — نفس المصدر ص ١٢٣ .

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٩٢ .

بالفرنسيين ضد المماليك ولكن كان اهتمام فرنسا ينحصر في التعجيل بسحب جنود انجلترا من مصر • اما بعد تولية محمد علي فقد تحولت فرنسا عن سياستها السابقة وأصبحت تؤيد محمد علي وذلك بعد حادثة المناداة بولاية محمد علي في مايو ١٨٠٥ وكذلك لانضمام الباب العالي الى فرنسا وقطع علاقاته مع روسيا ، ويرجع ذلك الى تأييد دروفتي - المندوب التجاري الفرنسي في الاسكندرية ونائبه فليكس مانجان وكانت سياسة دروفتي تهدف الى تعطيل أي اتفاق وتفاهم بين الالفي ومحمدعلي ومنع أي اتفاق بين محمد علي ومسيت الوكيل الانجليزي في مصر ومحاولة استمالة محمد علي الى جانب فرنسا وطلبت تاليران من دروفتي عدم الاعتراف بأي سلطة في مصر الا اذا تأيد سلطانها (١) •

ولقد رجحت كفة فرنسا على انجلترا في عهد محمد علي بصورة واضحة وذلك لأن محمد علي استعان بالخبراء الفرنسيين في شتى المجالات • من ذلك ان محمد علي عهد الى المسيو (تورنو Tourneau أحد تجار الاسكندرية بمهمة البحث في فرنسا عن مدربين لجيشه من بين ضباط الجيش الامبراطوري السابق ، على أن يفضل عند الاختيار ، أولئك الذين خدموا في مصر ابان الحملة الفرنسية بحيث تتألف البعثة المطلوبة من ضابط واحد برتبة (جنرال) اما سائر افرادها فيكفي ان يكونوا من الضباط العاديين (٢) •

وعلى ذلك حضرت البعثة الفرنسية العسكرية الى مصر في ٢٤ نوفمبر ١٨٢٤ برئاسة (بوابيه) ، واحسن محمد علي استقبالهم ، وأخذ (بوابيه) يعني بتشكيل الآليات الجديدة وتنظيم القيادة العليا وسلاح المدفعية وسلاح المهندسين (٣) •

---

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٨٧ •
(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : بناء دولة مصر محمد علي ص ١٥٥
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٧ •

ومن الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمـــد علي في تدريب جيشه الكولونيل (سيف) الذي أصبح يدعى فيما بعد باسم (سليمان باشا الفرنساوي) [1] • كذلك استخدم محمد علي الفرنسيين في البحرية، وقد أدى ضباط البحر الفرنسيون للبحرية المصرية خدمات على أعظـم جانب من الاهميـة ، ونخص بالذكـر منهم (سيريزي) Cerisy الذي تولى الاشراف على دار الصناعة بالاسكندرية سنوات طويلـة ، كذلك (بسون) Besson الذي كان يشغل المركز الثاني في قيادة الاسطول [2] •

وقد لاقت الصحافة الفرنسية قبولا لدى محمد علي ، فقد صدرت صحيفة اسبوعية في الاسكندريـة في سنـة ١٨٣٣ تسمى (المونييتر اجبسيان) ، واختفت باختفاء النفوذ الفرنسي سنة ١٨٣٤ [3] • وكانت الحكومة المصرية تمدها بالمعونة ، على الرغم من انها لـم تكن واسعـة الانتشار • وقـد ذكر القنصـل الفرنسي (ميمو Mimaut) بعض المعلومات عن هذه الصحيفة ، فقال في رسالة بعث بها من الاسكندريـة الى الدوق (دي بروجلي De Broglie) في ١٧ اغسطس ١٨٣٣ ان اول اعداد جريدة (المونيتير) ظهر في ذلك اليوم ، وكان يوم سبت ، كمـا ارسل الى حكومته نسخة من هذا العدد •

ويؤخذ مما قاله (ميمو) و (بورنج) ان حكومة محمد علي كانت تحتضن هذه الصحيفة رغبة منها في ان يكون لديها جريدة تكتب بلغة اجنبية ، على غرار الصحيفة الشبيهة بالرسمية التي كانت تصدر وقتئذ في الاستانة ، باسم (المونتيير او تومان Le Moniteur Ottoman) وهي

---

(1) A.H. Amy , B. A. Oxon , History of Modern Egypt P. 30 .

(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ٤٨١ .

(٣) Madden : Egypt an dMoh. Aly p. 80

صحيفة كان هدفها مهاجمة محمـد علي في كل مناسبة ، حتى لقد ذكـر (روهاميل) في احدى رسائله الى (روكمان Ruckman) رئيس البعثة الامبراطورية الرسمية الروسية في القسطنطينية في ٢٦ فبراير ١٨٣٤، ان الغرض من حملات تلك الجريدة ، انما هو جرح كبرياء محمد علي ، ولهذا كانت مهمة (المونيتير اجيسيان) الدفاع عن محمد علي وتفنيـد الاتهامات التي كانت تكيلها له صحيفة القسطنطينية ، بيد ان حكومة محمد علي لم تكن شديدة الحرص على استمرار هذه الصحيفة التـي اظهر الفرنسيون اهتماما بالغا بأمرها ، خدمة لمصالحهم قبل كل شيء •

وفي ٩ مايو ١٨٣٤ ، كتب القنصل الروسي (دوهاميل) الىحكومته، ان الصحيفة لم تستأنف ظهورها لأن (بوغـوص يوسف) لـم يهتـم بتشجيعها وقـد تنبأ (دوهاميل) بأن الصحيفة سوف تحتجب نهائيـا لهذا السبب • ولما كان آخر عدد منها قد صدر في يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٨٣٤ وكان العدد الاول قد ظهر في ١٧ اغسطس سنة ١٨٣٣ فان الاعداد التي ظهرت من هذه الجريدة في ثمانية شهور تبلغ ٣١ عددا ثم احتجبت بعد ذلك من الظهور الى الابد [١] •

وامام هذا العدد الكبير من الفرنسيين الذين استعان بهم محمد علي في شتى المجالات كان عدد الانجليز المقيمين في مصر قليلا بالنسبة لباقي الجاليات الاجنبية [٢] •

ويقول (كرومر) انه بالرغم من اقامة الانجليز في الشرق مدة طويلة فانه من الصعب ان نقول انهم اصبحوا لهم صفات الاجانب الشرقيين ولأنهم كانت لهم صفات مميزة فانهم ظلوا يحتفظون بتلك الصفات كاملة وهـم

---

(١) محمـد فؤاد شكـري (دكتـور) : نفس المصـدر السابـق ص ١٢٣ ـ ١٢٥ •

(٢) A. A. : Vol. 3. Desp. 7. 61

كطبقة لا يختلفون كثيرا عن زملائهم في انجلترا [١] .

ويتجلى الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر من خلال عرض تنفيذ مشروع قناة السويس ، حيث قام الفرنسيون بعرضه على محمد علي ولكنه أصر على ضرورة اشراف الحكومة المصرية على تنفيذه وتمويلها له وضرورة ضمان الدول الكبرى لحيدة القناة ، ولكن محمد علي صرف النظر عن تنفيذ هذا المشروع وبدلا منه عمل على العناية بفتح الطريق البرية التي تمر عبر مصر من الاسكندرية الى القاهرة ومن القاهرة الى السويس وكانت الحكومة البريطانية تؤيد افتتاح الطريق البرية وتفضله على مشروعه القناة من الناحية السياسية . وعلى ذلك بذلت بريطانيا جهدها لمنع الفرنسيين من الحصول على امتياز من محمد علي بانشاء قناة السويس [٢] .

وفي النزاع الذي نشب بين محمد علي وكل من تركيا وبريطانيا كان محمد علي يعتمد على صداقة فرنسا ، بينما كان يسعى دائما لاستمالة الانجليز بمختلف الوسائل ولكنه لم يوفق في حين انه لم يلق التأييد الكافي من فرنسا بسبب الخطة السياسية التي اتخذتها حيال المسألة الشرقية وخصوصا عندما وجهت عنايتها الى انقاذ السلطنة العثمانية من خطر روسيا القيصرية بعد معاهدة هنكار اسكلسي Unkiar Skelessi في سنة ١٨٣٣ [٣] .

وبعد ان استطاع المصريون هزيمة الاتراك في موقعة نصيبين في ٢٤ يونية ١٨٣٩ قررت حكومة السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) ان تتناسى الماضي وان تحسم الخلاف مع باشا مصر الا ان محمد علي رفض

---

(١) Cromer : Modern Egypt. Vol. 2 p. 248

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ص ١٧ .

(٣) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ٢٣٥ .

الصلح وطالب بالوراثة في كافة الجهات التي يحتلها بمقتضى اتفاقية كاتاهية وأبدى الصدر الاعظم استعداده لاجابة مطالب محمد علي الا ان الدول الاوروبية سرعان ما تدخلت في المفاوضات ، وأصدرت الدول الخمس الكبرى (بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا) في ٢٨ يوليو ١٨٣٩ مذكرة مشتركة بعثت بها الى السلطان حتى لا يبرم صلحا مع محمد علي من غير موافقة الدول (١) .

واقنعت فرنسا الدول بحسم القضية سلميا والتنازل الى محمد علي عن حكم وراثي في مصر وسوريا . وأبدت روسيا التي كانت حريصة على الاحتفاظ بالحالة الراهنة عدم المبالاة . اما انجلترا فانها ذهبت أبعد من الجميع اذ اقترحت انتزاع سوريا بأكملها من محمد علي وفي مايو ١٨٤٠ أفلحت فرنسا بأن تعقد اتفاقية بين تركيا ومصر ومنح السلطان بموجب هذه الاتفاقية محمد علي ملكا وراثيا في مصر وسوريا ، وتوصل مؤتمر السفراء في لندن في صيف ١٨٤٠ الى قرار حول شروط تسوية الأزمة الشرقية وفي ١٥ يوليو ١٨٤٠ وقعت انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وكذلك تركيا على الاتفاقية التي قررت مصير محمد علي وممتلكاته(٢).

وكان عقد اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ نصرا كبيرا للدبلوماسية الانجليزية وانعزلت فرنسا انعزالا تاما ، واقتربت انجلترا من تحقيق هدفها المنشود ، اذا استندت الى دعم ثلاث دول لها وقادت الكفاح ضد محمد علي .

وفي ١٩ اغسطس طلبت الدول الكبرى من محمد علي قبول شروط اتفاقية لندن التي قضت بتسليم محمد علي مقاليد مصر كملك وراثي ويتولى حكم فلسطين (ولاية عكا) مدى الحياة فقط واعادة جميع

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢) لوتسكي — تاريخ الاقطار العربية ص ٢٤٤ — ٢٤٧ .

الممتلكات الاخرى الى السلطان وفي حالة عدم موافقة محمد علي على تلك الشروط خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها وان لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يعمل على عزله بجهود الدول الكبرى . الا ان محمد علي رفض انذار الحلفاء وأعلن انه ينوي أن يبقى بالقوة ما ربحه بالقوة وردا على ذلك بدأت انجلترا والنمسا بالاشتراك مع تركيا بعمليات حربية ضده ووصل الى سواحل سوريا اسطول انجليزي ونمساوي وفي ١١ سبتمبر ١٨٤٠ انزل الاسطول الانجليزي قواته في شمال بيروت وقامت ثورة ضد محمد علي في لبنان واعتمد محمد علي على معونة فرنسا الا انها لم تفعل شيئا سوى التهديد بالسلاح ولم تمد مصر بأية مساعدات فعالة وادركت الحكومة الفرنسية بأن المساعدة المسلحة للدفاع عن مصر تعني حرب اوربية واسعة النطاق ولذا لم تشأ ان تغامر وتركت مصر وحدها في كفة القدر (١) .

وفي ٣٠ يناير ١٨٤١ ارسلت الدول الاربع (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) مذكرة الى الباب العالي لاعطاء محمد علي واسرته الحكم الوراثي في مصر على أساس ان هذا الحكم (منحه) من الباب العالي . ولكن الباب العالي اعترض وأراد أن يحرم محمدا عليا من الوراثة في مصر ذاتها . ودارت مفاوضات في لندن اشتركت فيها فرنسا واضطر الباب العالي الى الرضوخ لمشيئة الدول ، واصدر بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ فرمانين أولهما بخصوص مصر والثاني بخصوص السودان ولكنه تضمن قيودا بشأن ترتيب الوراثة وتقرير الجزية فتدخلت الدول ثانية وارغمت الباب العالي على تعديله في مصلحة محمد علي فأصدر بموافقة الدول فرمانا نهائيا في أول يونية ١٨٤١ يجعل الولاية من حق الأكبر وأحفاد محمد علي الذكور (٢) .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر السابق ص٢٧٩ ، ٢٨٠

وازدادت تبعية مصر الى الباب العالي ، الذي فقد مع ذلك مصر فعلا عام ١٨٤١ حينما وقعت برمتها تحت النفوذ الانجليزي ، ومنذ ذلك الحين تبعت مصر الانجليز أكثر من أي جهة اخرى .

عصر عباس الاول وسعيد :

كان عباس الاول يخاف الاوروبيين وكان لا يتكلم بأي لغة اوروبية وكان دائما يكره قناصل الدول الاجنبية الذين كان يراهم نادرا [١] . وعزل عباس كثيرا من الموظفين الفرنسيين في مصر وعندما احتج قنصل فرنسا في مصر (بنديتي Benedetti) على ذلك أجاب عباس بلهجة قاسية : (ألست أنا سيد تلك البلاد ؟ وهؤلاء الموظفون خدمي ؟ فأنا اذن القانون » [٢] .

ويعزو البعض طرد عباس الاول للموظفين الفرنسين بأنه كان يخشى لو حدث حادث يعكر العلاقات الودية بين مصر وفرنسا ان يشجع ذلك فرنسا على ان تحتل مصر بمساعدة رجالها الاقوياء الذين كانوا يسيطرون على مراكز ممتازة في مصر [٣] .

لقد شاهد عباس مدى تغلغل النفوذ الفرنسي في مصر في عهد محمد علي نتيجة لاستخدام الاخصائيين الفرنسيين في تنظيم برنامج الدولة في التجديد والاخذ عن الغرب وراءه تأثر كبار رجال الحكومة المصرية بالآراء والاتجاهات الفرنسية نتيجة لدراستهم في فرنسا [٤] .

وأثار عباس باقصائه الفرنسيين من خدمته وابعاده الوطنيين المتأثرين

---

(١) De Leon (Edwin) : The khedive's Egypt pp. 81, 82

(٢) Brehier (Louis) : L'Egypte de 1798 à 1900 p. 151

(٣) محمد علي (الامير) : مجموعة خطابات واوامر عباس الاول ص ٢

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر السابق ص ٢٨٩

بالحياة الفرنسية من البلاد عداوة فرنسا التي بدأت لأول مرة منذ ايام محمد علي تعمل على تعطيل المصالح المصرية في الاستانة والتعريض بسمعة الوالي وحكومته وحملت صحافتها حملات عنيفة ضد عباس واتهمته بالظلم والاستبداد والعجز عن ادارة شئون الحكم (١) .

واستمرت في عهد عباس المنافسة بين انجلترا وفرنسا حول المفاضلة بين الطريقين البري والبحري بين اوروبا والشرق كما كان الحال في عهد محمد علي . غير ان عباس كان في اول حكمه معاديا لكلا المشروعين : لا يرغب في شق القناة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر (المشروع الفرنسي) أو مد السكة الحديد بين الاسكندرية والسويس (المشروع الانجليزي) ولهذا تضامنت المصلحة بين فرنسا وانجلترا لمعارضة عباس والكيد له . وادرك عباس ان من مصلحته التفاهم مع انجلترا وترضيتها والاستعانة بالنفوذ الانجليزي لاجتياز الازمة . وعلى هذا النحو عاونت انجلترا عباس في الاستانة ولم تحفل باحتجاجات فرنسا التي اشتدت مساعيها ضد الوالي في الاستانة يدفعها الى ذلك الخوف من استئثار الانجليز بالنفوذ في مصر ونجاح الطريق البري ووقوعه في قبضتهم (٢) .

وبدأ النفوذ الانجليزي يزداد تدريجيا في مصر وخشيت الدول الاوروبية ان ينتهي الامر باحتلال الانجليز البلاد بيد ان عباس لم يرتح قطعا لتمتع الانجليز بهذا النفوذ الكبير ، وشعر بضعف مركز الباشوية . لدرجة اشتد به القلق فقد تمثل امام عينيه الخطر الذي ينتظر مصر اذا انهارت الدولة العثمانية ولا ريب ان هذا هو السبب الذي دعا عباس للتمسك بتبعيته للسلطان صاحب السيادة الشرعية .

ولقد استجاب عباس الاول لتنفيذ المشروع الانجليزي وبدىء في عام ١٨٥٢ في مد السكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة وعبدت الى جانب

---

(١) نفس المصدر ص ٢٩٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٩

ذلك الطريق البري الواقع بين القاهرة والسويس •

وبالرغم من ذلك اخذت المعارضة الفرنسية ضد عباس تخف حدتها ، ويرجع ذلك الى نشاط الدبلوماسية الانجليزية في العواصم الاوروبية من جهة الى الانقلاب الذي أسفر عن استيلاء لويس نابليون على زمام الحكم في فرنسا ومهد لانشاء امبراطورية نابليون الثالث الذي بدأ سياسة التفاهم مع انجلترا (١) •

وبموت عباس الاول خلفه محمد سعيد (١٨٥٤ – ١٨٦٣) الذي اشتهر بحبه للاجانب وتساهله معهم فعظم نزوحهم الى مصر في عهده ، واسترعى تدفقهم على البلاد ونشاطهم غير المشروع انتباه القنصل الفرنسي (ساباتييه) الذي كتب في ٢ اكتوبر ١٨٥٤ بعد مضي حوالي ثلاثة اشهر فحسب من بداية حكم سعيد :

لقد تدفق على البلاد من جميع انحاء اوروبا بمجرد ذيوع الخبر عن وفاة عباس باشا جمهور كبير ، انقض على مصر كما لو كانت هذه (كاليفورنيا) جديدة (٢) •

وقد زاد عدد الاجانب في مصر زيادة كبيرة في عهد سعيد حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧١ : ٧٩ر٦٩٦ نسمة منهم ١٧ر٠٠٠ فرنسي ، ستة آلاف انجليزي والباقي من جنسيات مختلفة (٣) •

ومن العوامل التي أدت الى زيادة النفوذ الفرنسي في مصر في عهد سعيد انه منح فرديناند دلسبس مشروع قناة السويس وكانت انجلترا تنظر الى مشروع قناة السويس كمشروع فرنسي قبل كل شيء من شأنه ان

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠١

(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان ص ٥١

(٣) احمد الحتة (دكتور) : الاجانب في مصر والسودان ص ١٨٧

يجعل للفرنسيين نفوذا كبيرا في مصر يمكنهم من التحكم في طريق عالمية لخدمة أغراضهم الخاصة [١] .

وتم توقيع عقد امتياز القناة الاول في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ والعقد الثاني في ٥ يناير ١٨٥٦ وعملت انجلترا الكثير لعدم تنفيذ المشروع . ولقد كان وقـع الامتيازات التي منحها سعيد (للشركة العالمية لقناة السويس) لدى انجلترا حينذاك لا يقل عن وقع حملة بونابرت على مصر [٢] .

وبدأت انجلترا تسعى لدى الباب العالي لمنع تنفيذ المشروع فأرسل الباب العالي خطابا شديد اللهجة الى سعيد يحذره فيه من عواقب عملـه الجريء . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر للمشروع الفرنسي البقاء نتيجة للجهود الفرنسية ولدور (دلسبس) نفسه في التأثير على والي مصر [٣] .

غير ان معارضة الانجليز لم تلبث ان خفت شدتها . فقد خرجت فرنسا ظافرة من حربها مع النمسا ، وخشيت انجلترا العزلة السياسية عندما اخفقت مساعيها لاستمالة الروسيا والنمسا الى سياستها حيال القناة ، بينما لـم يشأ الشعب الانجليزي نفسه الاشتباك في حروب عاجلة تماثل في اضرارها الاليمة التجارب التي خبروها في حرب القرم . ولهذه الأسباب امتنعت انجلترا عن الاصطدام مع فرنسا ، وخفت معارضتها فانتهز دلسبس هذه الفرصة لمضاعفة جهوده وعمل لاستعادة ثقة ومعاونة سعيد . وحمل الوالي على عقد اتفاق جديد مع الشركة في ٦ اغسطس ١٨٦٠ لسداد ثمن الاسهم التي اضافها لحساب مصر [٤] .

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٢

(٢) Sabry M. : L'Empire Egyptien sous Ismil p. 80

(٣) محمد مصطفى صفوت : نفس المصدر ص ٢٨

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٣٨

وفي عصر اسماعيل كان بمصر اكثر من مائة الف اوروبي [١] . ولقد نزح اكثر المغامرين في اوروبا الى مصر ليقينهم ان اسماعيل باشا في ضائقة مالية ، وانهم يستطيعون ان يكونوا ثروات كبيرة من وراء ذلك [٢] .

وفي ظل الامتيازات الاجنبية أصبحت الجاليات الاجنبية مستقلة تماما عن السلطات المحلية وتتبع كل جالية منها تماما القنصل الذي تتبعه[٣] .

وكانت مغامرات اسماعيل في الاقتراض من المرابين في اسواق اوروبا مؤسفة للغاية ولم يتمكن دائما من تقديم الضمانات الكافية وكان في جميع الأحوال ضحية للمغامرين والمستغلين الذين يسعون وراء الثراء السريع ويعملون لمصلحتهم الشخصية فقط وحصل كل من (جوشن واوبنهايم وروتشلد) على أعظم ربح من مغامراتهم المالية في مصر فمثلا حصلت مصر من القرض المالي الذي كانت قيمته ٣٢ مليون جنيه في عام ١٨٧٣ بفائدة ٣٣ ٪ حصلت على ١١ مليون فقط [٤] .

وكان اسماعيل لا يحسب حسابا للتدخل الاوروبي ، وما ينطوي عليه من المطامع التي تهدم كيان الاستقلال . وهذا الخطأ الجسيم في سياسة اسماعيل ناشيء الى نزعته الاوروبية فان هذه النزعة جعلته يثق بالاوروبيين والدول الاوروبية والجاليات الاوروبية ثقة عمياء ويركن اليها ويعتقد فيها حسن النية ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية ففتح ابواب البلاد على مصراعيها للتدخل الاجنبي وسمح للاوروبيين ان يتغلغلوا في مرافقها ويتولوا المناصب الرفيعة في حكومتها [٥] .

---

(١) تيودور روثستين : المسألة المصرية ص ٦١ ، ٦٢ .
(٢) Dicey : The story of the Khediuate
(٣) Mc. Coan : Egypt. as it is p. 36
(٤) Elgood : Egypt p. 81
(٥) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل جا ، ص ٧٦

والمعروف ان ديون الخديوي اسماعيل الهائلة التي اثقل بها اسماعيل الخزينة المصرية كانت نتيجة الاسراف الزائد عن الحد والمشروعات غير الضرورية والفوائد الباهظة التي كان يدفعها ليحصل على القروض (١) .

وكانت انجلترا وفرنسا من أقوى الدول الاوروبية نفوذا في مصر ، كان اهتمام فرنسا بعد تسوية سنة ١٨٤١ هو ان تمحو من ذهن محمد علي الشعور السيء الذي يكنه لها ، وكان ذلك من الصعوبة بمكان ، ولكنها نجحت في النهاية بفضل مجهودات لويس فيليب Louis Fhilip (٢) .

وقد كان لفرنسا نفوذ ادبي كبير على اسماعيل وذلك لتربيته الفرنسية والسنوات التي قضاها في باريس وأيضا لصلته الوثيقة بالامبراطور نابليون الثالث ويتضح نفوذ فرنسا جليا في التجاء اسماعيل الى نابليون الثالث لحسم الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس مع انه يعلم بالبداهة ان امبراطورر فرنسا لا يمكن ان يكون حكما عادلا (٣).

وواجهته انجلترا تحكيم (نابليون الثالث) في موضوع قناة السويس بحملة عدائية غير انها لم تستطع ان تعارض رسميا في التحكيم وازداد مركز شركة قناة السويس قوة وزادت الثقة بها وتمكنت من ان تسير في تنفيذ المشروع حتى النهاية . بل ان الباب العالي اضطر بعد ذلك الى الموافقة على المشروع . ولم تعد انجلترا قادرة على مهاجمة المشروع من هذه الناحية مما أدى الى تقوية مركز الشركة ، ولقد قدرت انجلترا الاهمية البالغة لقناة السويس منذ افتتاحها بالنسبة لها ولامبراطوريتها وتجارتها ولا شك ان طريق القناة كانت تحت رحمة القوة البحرية المتفوقة لانجلترا وخاصة بعد الكارثة السياسية والحربية الكبرى التي حلت بفرنسا في الحرب الفرنسية

---

(١) Dicey : Op. cit. p. 172

(٢) De Malortie (Baron) : Egypt p. 288

(٣) عبد الرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٨٩

الالمانية في سنة ١٨٧٠ • كما قدرت انجلترا أهمية القناة في وقتي السلم والحرب على السواء اذ أصبحت القناة الطريق الرئيسية لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية الخاصة بها الى الشرقين الاوسط والاقصى والى شرقي افريقيا واستراليا ونيوزيلندة • ولا شك ان اهتمام انجلترا بالقناة أدى الى زيادة اهتمامها بمصر التي تخترق القناة اجزاءها الشرقية ، وقد ربطت انجلترا لمدة طويلة مصير مصر ومستقبلها بمصير القناة ، وطالب البعض بأن الواجب على انجلترا شراء شركة القناة والاشراف اشرافا تاما على اذارتها • كما اشيع أيضا في سنة ١٨٧٤ ان الخديوي والباب العالي كانا يفكران جديا في بيع القناة لبريطانيا وان (ستانتون) قنصل انجلترا العام في مصر قد خاطب حكومته في هذا الشأن وأيده في ذلك بعض اعضاء وزارة الاحرار البريطانية غير ان (جلادستون) الذي كان رئيسا للوزارة ومعه (لورد جرانفيل) وزير الخارجية عارضاه في ذلك • على ان اللورد (دربي) وزير الخارجية في عهد وزارة المحافظين في سنة ١٨٧٤ كان يرى ان مصلحة انجلترا ان تدير القناة شركة دولية لا فرنسية الصبغة ، غير أن هذه الأفكار لم تخرج الى حيز التنفيذ وظلت شركة القناة على حالها [١] •

ولقد بذل نوبار باشا رئيس وزراء مصر في عصر اسماعيل مجهودا كبيرا لكي يثير الرأي العام في اوروبا للعمل على التدخل في مصر ولقد تمكن من التأثير لدرجة كبيرة في الرأي العام الانجليزي ذلك بعد نشوب الحرب الروسية ـ التركية سنة ١٨٧٧ وقد كان يفضل انجلترا على أية دولة اخرى ، ويعتقد ان تدخلها في مصر سيفيدها أكثر من أي دولة اخرى [٢] •

وعندما علم (دزرائيلي Disraeli) ـ زعيم حزب المحافظين

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) نفس المصدر ص ٤٨ ـ ٥٢ •

(٢) Dicey : Op. cit p. 169

ورئيس الوزراء في انجلترا ـ بوجود مفاوضات بين الحكومة المصرية وشركة فرنسية لرهن اسهم الخديوي اسماعيل في شركة القناة في سنة ١٨٧٥ ادرك اهمية الصفقة لانجلترا من الناحيتين السياسية والاستعمارية وحرص على اقناع زملائه في الوزارة باهمية الصفقة حتى نال موافقتهم جميعا على مبدأ شراء الحكومة لتلك الاسهم ولهذا ابرقت حكومة لندن الى معتمدها في مصر (ستانتون) ليؤكد للحكومة المصرية ان انجلترا لن تسمح برهن هذه الاسهم لدى أي شركة فرنسية ، ولم تعمل الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت على عرقلة هذه الخطوات دفاعا عن الشركة الفرنسية وذلك نظرا لشدة حرصها على صداقة انجلترا التي وقفت الى جانبها في أزمة ربيع سنة ١٨٧٥ وانقذتها من الخطر الالماني الذي كان يتهددها ويكاد يطيح بمركزها في اوروبا واستطاعت انجلترا شراء نصيب الخديوي اسماعيل في اسهم قناة السويس نظير اربعة ملايين من الجنيهات وبشراء انجلترا لأسهم الخديوي اسماعيل في شركة القناة اصبحت تملك الاسهم وبذلك صارت أكبر مساهمة في شركة القناة وترتب على ذلك ان قبلت الشركة ٣ أعضاء من الانجليز في مجلس ادارتها [١] .

ولقد كتبت جريدة التيمس الانجليزية في ٢٦ نوفمبر ١٨٧٥ نبأ شراء تلك الاسهم واشارت بأن الجمهور في هذا البلد وغيره ينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لا التجارية [٢] .

ولقد ربح اسماعيل في تلك الصفقة مبلغ ٤٥٠ر٠٠٠ جنيه [٣] . ولكنه لم يتطلع الى المستقبل ، فقد كانت ارباح تلك الاسهم مرهونة لشركة قناة السويس لمدة خمسة عشر عاما فتعهدت الحكومة بأن تدفع فوائد هذا المبلغ للحكومة الانجليزية بسعر ٥ ٪ وظلت تدفعها حتى سنة ١٨٩٤ [٤].

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) نفس المصدر ص ٥٨ ـ ٥٩
(٢) تيودور روثستين : نفس المصدر ص ٧
(٣) الياس الايوبي : تاريخ مصر في عصر الخديوي اسماعيل ج ٢ ص ٣٢٥
(٤) صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر ص ٢٩

وبالرغم من ربح اسماعيل في تلك الصفقة الا ان خسارة مصر كانت فادحة فتلك الاسهم التي باعها انسماعيل لانجلترا بأربعة ملايين من الجنيهات بلغ ثمنها ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٥ ثم ارتفع الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩ [١] .

ويقول (مسيو دي مازاد De Mazade) في مجلة العالمين في عددها الصادر في أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، ان شراء انجلترا لتلك الاسهم عمل سياسي بحت ، وهذا يدعو للاهمية لأنه لو ان هذا العمل لم يؤد في النهاية الى الاستيلاء التام على الأراضي المصرية فانه يعتبر كخطوة اولى لذلك العمل وانها اصبحت تراقب ذلك العميل الذي لجأ اليها وأخذت تبذل له المال من جديد وتطلب ضمانات جديدة [٢] .

ولكن اسماعيل عندما باع تلك الاسهم لانجلترا قد جرح بفعله هذا كبرياء فرنسا ولقد كان الغرض من بيع تلك الاسهم خدمة مصالح الفرنسيين أصحاب السندات (سندات الديون) ومع ذلك فقد اعتبر هذا البيع ضربة شديدة موجهة الى فرنسا التي لم تغفر للخديوي ذلك ابدا وما من شيء فعله الخديوي او كان في مقدوره ان يفعله منذ خريف سنة ١٨٧٥، استطاع ان ينال رضاء الفرنسيين ومنذ ذلك الحين انعدمت كل (رحمة) في قلوبهم وتأثرت جميع اعمالهم التالية بالعداوة التي شعروا بها نحو الخديوي [٣] .

الازمة المالية وأثرها على الصراع الانجليزي الفرنسي في مصر :

عندما علم (دزرائيلي) أن اسماعيل يعتزم اعادة تنظيم شئون مصر المالية ارسل على الفور (مستر ستيفن كيف Cave) [٤] . وقد ساء

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٦٤ .

(٢) De Frecynet (c) : La Question d'Egypte p. 154

(٣) محمد فؤاد شكري واخرون نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٢٥٣

(٤) Zananiri (G) : Le Khedive Ismail et l'Egypte p. 145

فرنسا ان توفد انجلترا بعثة الى مصر وان تنفرد بالنفوذ لدى اسماعيل والتدخل في شئون مصر ، فأرسلت هي الاخرى أحد موظفيها ويدعى (فييه Villet) ليساعد الحكومة المصرية على تنظيم ماليتها وقد قدم مشروعا أراد اسماعيل الأخذ به فاستاءت الحكومة الانجليزية من ميله للمشروع الفرنسي [1] .

واعلن مستر كيف في تقريره ان تدهور مركز مصر المالي كان نتيجة الانفاق ببذخ والاسراف الزائد عن الحد والرغبة في تقليد حضارة الغرب ونتيجة الاخلال بالموارد المصرية نتيجة للامتيازات الممنوحة للمغامرين الذين كان معظمهم من الأجانب . وختم ذلك التقرير بقوله انه يمكن ان تستقيم شئون مصر المالية اذا تدخلت بعض القوى الاجنبية [2] .

ولم يلبث ان بدأ التدخل السياسي في شئون مصر حينما ارغم اسماعيل على الموافقة على تسليم موارد البلاد المخصصة للديون (لصندوق الدين العمومي) الذي صدر مرسوما بانشائه في ٢ مايو ١٨٧٦ ، وكان هذا الصندوق عبارة عن خزينة تتسلم ايرادات المصالح المحلية المخصصة للديون : الجمارك والسكك الحديدية وبعض المديريات وغير ذلك مما يبلغ دخله في العام ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه ، بالاضافة الى دخل الدائرة السنية وقدره ٦٨٤ر٠٠٠ جنيه وكانت ادارة صندوق الدين تتألف من اجانب يعينهم اسماعيل بعد ان ترشحهم حكومتهم [3] .

وفي الواقع كانت انجلترا تهدف الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلي في ادارة الحكومة المصرية وبعد الاتفاق مع فرنسا جاء مندوبي الدولتين الى مصر في اكتوبر سنة ١٨٧٦ وهما (جوشن Goshen) وهو ممثل انجلترا ، (جوبير Joubert) ممثل فرنسا وطلبا الى

---

(١) احمد الحتة (دكتور) نفس المصدر السابق ص ٣٧٣

(٢) Dicey : op. cit. p. 140

(٣) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر ص ٣٧٦

اسماعيل قبـول التعديلات التي اتفقا عليها وأهمها فرض الرقابة الاوروبية على ماليـة مصر [1] .

واقترح المندوبان انشاء نظام (المراقبة الثنائية) على المالية المصرية وذلك بتعيين مراقبين عامين غير هيئة صندوق الدين العمومي أحدهما لمراقبة ايرادات الحكومة والآخر لمراقبة مصروفاتها ويشتركان في اعداد الميزانيـة على ان يسلم المراقبات الانجليزي والفرنسي الايرادات الى لجنة للدين العام ، فتضع هذه ما كان مخصصا من تلك الايرادات لخدمة الديون في بنكي انجلترا وفرنسا [2] .

وعلى الرغم من تنفيذ مقترحات (جوشن وجوبير) فان حالـة مصر المالية لم تتحسن بل ازدادت ارتباكا ، مما ادى الى اتفاق المندوب الانجليزي والمندوب الفرنسي وأعضاء صندوق الدين العمومي على مطالبة اسماعيل بتأليف لجنة تحقيق اوروبية لفحص الشئون المالية للحكومة المصريـة ولا شك ان في تنفيذ هذا المطلب اعتداء صريح على استقلال مصر وتدخل في شئونها الداخلية غير ان اسماعيل وافق على الطلب تحت ضغط الحكومات الاوروبية فأصدر مرسوما في ٢٧ يناير ١٨٧٨ بتأليف (لجنة التحقيق العليا الاوروبية) من (فردينان دلسبس) رئيسا (ريفرز ولسن Rivers Wilson ورياض باشا وكيليين وأعضاء صندوق الدين وقدمت اللجنة تقريرا مبدئيا الى اسماعيل شرحت فيـه الحالة الماليـة وبينت عيوبها وذكرت ما تراه لاصلاحها واقترحت اللجنة تنازل اسماعيل عن اطيانه واطيان عائلته لسد عجز ميزانية الحكومة وان يتنازل عن سلطته المطلقة وذلك بتأليف نظارة (وزارة) مسئولة عن الحكم ووافق اسماعيل على مقترحات اللجنة ، وفي ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ اصدرت مرسوما بانشاء مجلس النظار وتكليف نوبار باشا بتأليف تلك النظارة التي اشترك فيها (ريفرز ولسن) الانجليزي ناظرا

---

(١) عبد لرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٦٩

(٢) السيد رجب حراز دكتور : نفس المصدر ص ٣٧٦

للمالية (دي بلنيير) الفرنسي ناظرا للاشغال [1] .

وفي ذلك الحين لم تكن الوزارة الاخيرة (وزارة الاشغال) وزارة مهمة فأبدى الفرنسيون عدم رضاهم وقالوا ان التعيين لا يتناسب مع كرامتهم ومجد أمتهم فلارضائهم ضمت عدة مصالح اخرى الى وزارة الاشغال العمومية حتى صارت هذه الوزارة في النهاية من الوزارة ذات الأهميــة العظمى [2] .

وهكذا اخضعت الحكومة المصرية لنفوذ ممثلي انجلترا وفرنسا فلم تعد مهمة الوصاية الدولية مقصورة على ملاحظة (الوضع) الذي أوجدته أصلا تسوية سنة ١٨٤٠ / ١٨٤١ وذلك من حيث بقاء علاقــة التبعية التي تربط مصر بالدولة العثمانية والاحتفاظ بها بل صارت مهمتها الآن ممتدة الى فرض السيطرة على شئون الخديوية الداخلية وقد ارتكبت تلك الوزارة افعالا ادت الى اثارة طبقات الشعب ضدها من ذلك طرد الموظفين المحليين واستبدالهم بغيرهم من الاوروبيين وذلك بالرغم من الرواتب الضخمة التي كان يتقاضاها هؤلاء الاجانب [3] .

وحاول اسماعيل ايقاف هــذا التدخل الاجنبي واسترداد سلطتــه المسلوبة مستعينا ببعض العناصر الوطنية التي بدأت تتحرك بسبب الازمة المالية ومن ثم كان الانقلاب الذي احدثه اسماعيل في ابريل ١٨٧٩ عندما قال الوزارة الاوروبيــة الثانية (برئاسة محمد توفيق وفيهــا العضوان الاجنبيان) وكلف محمد شريف بتأليف وزارة مصرية تكون مهمتها وضع لائحة أساسية او دستور يقر مبدأ المسئوليــة الوزاريــة الصحيحة أي مسئولية الوزارة امام مجلس شورى النواب .

وقبل ذلك كان اسماعيل قد اضطر الى اقالة وزارة نوبار وقابلت الدول ذلك العمل بالاستياء والسخط وزعمت ان الدول نالت حقا مكتسبا

---

(١) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٧٨ ، ٣٧٩
(٢) دكتور محمد فؤاد شكري واخرون : نفس المصدر ص ٢٥٥
(٣) Mc. Goan : Egypt Under Ismail p. 236

بأن يكون لها وزيران يمثلانها في الوزارة المصرية واجبرت انجلترا وفرنسا اسماعيل على عدم حضور جلسات مجلس الوزارة وتعيين ابنه محمد توفيق رئيسا للوزارة بشرط ان يكون للوزيرين الاجنبيين حق معارضة كل ما يرونه غير مناسب • وشكلت الوزارة الاوروبية الثانية في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٩ وفي ٧ ابريل قدم محمد توفيـق استقالته وذلـك لأن الوزيرين الأوروبيين منذ ان عهدت اليه رئاسة الوزارة اهملاه تماما ولم يستشيراه في شيء [١] •

وكما سبقت الاشارة تألفت الوزارة الوطنية برئاسة محمد شريف في ٨ ابريل سنة ١٨٧٩ ولما كان تأليف الوزارة الوطنية والنشاط الذي بدا من جانب شورى النواب معناهما ان مصر قد صح عزمها على التخلص نهائيا من نوع الوصاية الدولية الذي فرض التدخل الاجنبي في شئونها أي التحرر من النفوذ الانجليزي ـ الفرنسي فقد صار كذلك متوقعا ان تعمد هاتان الدولتان الى ابطال هذا السعي وان تتخذا ذريعة لذلك نفس الدعوى التي تدعم بها التدخل الاجنبي وهي دعوى المحافظة على مصالح اصحاب الديون الذين كان أكثرهم من الرعايا الانجليز والفرنسيين [٢] •

ولقد وجدت فرنسا ان السبيل الوحيد لابطال سعي مصر للتحرر من النفوذ الأجنبي عموما ولاسترجاع نفوذها المتفوق خصوصا انما هو التعجيل الخديوي اسماعيل نفسه في حين لم تكـن انجلترا ترى من الضروري ان يترتب على السعي من اجل احتفاظها هي بنفوذها المتفوق حينئذ في البلاد خلع الخديوي لسبب جوهري هو ان اسماعيل منذ بدأت الازمة المالية كان قد أخذ يظهر انحيازا واضحا نحو انجلترا من شأنه ان يكفل لهذه ان يستعلى نفوذها في مصر ولقد كان هذا الانحياز الظاهر لانجلترا هو نفسه السبب الرئيسي الذي جعل فرنسا تصر على خلع الخديوي •

ولكن في هذه اللحظة بالذات حدث ان دخلت المانيا الميدان كالحليف

---

(١) Adams (J) : L'Angleterre en Egypte p. 42

(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان ص ١٥٥

الظاهر لفرنسا واستطاعت فرنسا تحريك انجلترا عندما ذاع نبأ الموقف الذي أزمعت المانيا اتخاذه • فقد ادركت انجلترا انه صار عليها ان تسير مع فرنسا والا سارت فرنسا في الطريق وحدها او متحدة مع المانيا ونالت فرنسا بذلك مركزا في مصر يضر بالمصالح الانجليزية • ففرنسا هي التي أوجدت (خلع اسماعيل) • واصبح القنصل الفرنسي في ذلك الوقت ، هو الحاكم الفعلي لمصر فاذا قال اطردوا هذا الامير وعينوا هذا الرجل او ذاك في مكانه نفذ ما يريد خلال ٢٤ ساعة [١] •

وكان اسماعيل يأمل ان تختلف الدول في طلب خلعه وان تنجح مساعيه لدى السلطان وفي ليلة ٢٤ يونية سنة ١٨٧٩ ذهب الى اسماعيل قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا وطلبوا اليه ان يتنازل عن العرش فرفض • وفي آخر الأمر أصدر السلطان العثماني بناء على قرار مجلس الوزراء أمرا بخلع اسماعيل وتنصيب محمد توفيق باشا خديوي لمصر وذلك اجابة لطلب الدول فأرسل الصدر الاعظم برقية بذلك الى كل من اسماعيل وتوفيق في ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ [٢] •

وكان السلطان يريد تعيين الامير حليم بدلا من توفيق استنادا الى أن خلع اسماعيل يلغي امتيازات وراثة الابن الاكبر والذي سبق الحصول عليه ولكن لم توافق كلا من انجلترا وفرنسا على ذلك لانهم لم يعرفوا شيئا عن الامير حليم ولكنهما كانا يعرفان توفيق خير المعرفة ، ولم يشاءا ان يخوضا التجربة مع اسماعيل آخر [٣] •

وكان توفيق مجردا من كل سلطة او قوة او نفوذ وكان مجرد صورة تحت الحماية الانجليزية الفرنسية وكان توفيق يقول دائما : « اننا لا

---

(١) د. محمد فؤاد شكري واخرين : نفس المصدر ص ٢٥٨

(٢) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٨٦

(٣) Elgood : Egypt p. 86

نستطيع العيش بدون اوروبا والاكثر من ذلك لماذا تفعل هذا ؟ » [١] .

ويسخر يعقوب صنوع من الخديوي توفيق سخرية لاذعة قاسية تجاوز بها الحد وان لم تخل من طريف تميزت به صحف ابي نظارة فيقول : « وردت الينا رسالة من مكاتبنا في القاهرة يقول فيها ان توفيق توفى لكون أهل مصر حذفوا حرف القاف من اسمه والحدق يفهم ، ويقول أيضا ان شبابنا وجدوا في اسم حليم احرف يتركب منها لفظ مليح فلذلك الاهالي بمصر بتسلم على بعضها بهذه الجملة المليح جاي لنا عن قريب » [٢] .

لقد نص مرسوما ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ ، ٢٩ اغسطس ١٨٧٨ على ايقاف الرقابة الاوروبية على مالية البلاد طالما يباشر الوزيران الاوربيان سلطاتهما على ان يكون مفهوما ان تسترجع فاعليتهما في حالة اقالة احد الوزيرين دون سابق اتفاق مع حكومة بلاده وقد فكر توفيق بعد توليه في اعادة المراقبة واخطر القنصلين الانجليزي والفرنسي برغبته واشترط ان يستشار في تعيين المراقبين ولما كانت فرنسا تريد ان تنتهز فرصة خلع اسماعيل لتدعيم نفوذهما في مصر فقد عملت اعادة المراقبة الثنائية بحيث يكون وضعها فيها مخالفا لما كانت عليه الاحوال من قبل فلا يصبح المراقب الفرنسي مجرد موزع للدخول على حين يتمتع المراقب الانجليزي بالاشراف على ادارة مصر وسياستها المالية لهذا ابدت فرنسا رغبتها منذ البداية ان يتمتع المراقبان بنفس اللقب والاختصاصات وان يلغى التمييز بين مراقب الدخل الانجليزي ومراقب المتصرف الفرنسي مهما كان التمييز اسميا واخطرت الدولتان الخديوي بأنهما قد وقع اختيارهما على (دي بلنيير ، بارنج) بصفتهما مراقبين عموميين وانهما ــ أي المراقبين

---

(١) De Maiortie (B) : op. cit. pp. 200, 204

(٢) ابراهيم عبده (دكتور) : ابو نظارة ص ١٥٠ نقلا عن العدد ١٣ من السنة السادسة .

سيمتنعا عن التدخل في الادارة المصريـة (حتى ترسـل اليهما تعليمات جديدة) [1] .

وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ صدر مرسوم بنظام المراقبـة الثنائية ، واعطي للمراقبين الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء بشرط أن يكون رأيهما استشاريا وان على ناظر المالية ان يقدم للرقيبين في كل اسبوع كشفا مفصلا عن ايرادات الخزانة العامة ومصروفاتها وان الحكومة المصرية لا حق لها في عزلهما الا برضاء حكومتيهما [2] .

والمعروف ان انجلترا وفرنسا عندما اتفقا على خلع اسماعيـل كان هدفهما اجراء تصفية عامة لديون مصر كما اتفقا على تدويل التصفية . وفي ٣١ مارس ١٨٨٠ صدر مرسوم خديوي نص على تشكيل لجنة التصفية على ان تتألف من مندوبين عن كل من انجلترا وفرنسا ومندوب عن كل من المانيا والنمسا وايطاليا ومنذ ذلك الوقت اصبح مرسوم التصفية هو قانون مصر المالي او ميثاق ميزانيتها واهم ما يميزه أنه جاء برمته نتيجة للضغط الاجنبي وبذلك استلمت مصر للمرة الثانية في اربعين عاما لادارة اوروبا التي فرضت وضعها الدولي في سنة ١٨٤١ ثم فرضت وضعها المالي في سنة ١٨٨٠ [3] .

وكان التدخل الاجنبي احد الاسباب الرئيسية للثورة العرابية وانتشر التذمر بين رجـال الجيش منذ أواخر عصر اسماعيل بسبب تصرفات عثمان رفقي الجركسي ناظر الجهادية في وزارة رياض والذي استأثر الاتراك في عهده بالترقيات دون الضباط المصريين .

ودعى عرابي الأعيان ــ الذين كانوا متذمرين بسبب الغاء (المقابلة)

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى دكتور : مصر والمسألـة المصريـة ص ١١٦ ، ١١٩

(٢) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٨٧

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : نفس المصدر ص ١٢٥ ـ ١٢٨

بموجب قانون التصفية فاحتشدوا يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ في ميدان عابدين حيث خاطب عرابي الخديوي باسم الشعب وطالب الخديوي باقالة الوزارة واعلان الدستور وزيادة عدد الجيش وخضع الخديوي لتلك المطالب فوافق على سقوط الوزارة وأرسل في طلب شريف باشا لكي يقوم بتشكيل الوزارة (١) .

وفي ٢٥ مايو ١٨٨٢ قدمت مذكرة في شكل بلاغ نهائي من معتمدي فرنسا وانجلترا لمجلس الوزراء وصورة منها للخديوي طلبا فيها نفي عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي مع حفظ رتبتهم ونياشينهم ومرتباتهم (٢) .

واقترحت فرنسا على انجلترا عقد مؤتمر في الاستانة يدعى اليه مندوبو الدول وقبلت انجلترا هذا الاقتراح وحضرته المانيا والنمسا وروسيا وايطاليا بالاضافة الى انجلترا وفرنسا وفي ٢٧ يونية ١٨٨٢ اقترح سفير ايطاليا بالمؤتمر ان تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد في مصر ما دام المؤتمر منعقدا ولكن اقترح اللورد دوفرين (انجلترا) اضافة عبارة (الا عند الضرورة القاهرة) (٣) .

وعلى حين كان مؤتمر الاستانة يتحرك ببطء دلت عدة ملابسات على ان الحكومة البريطانية تود ان تقوم بعمل منفرد وبالفعل بدىء في ضرب الاسكندرية في صبيحة ١١ يولية ١٨٨٢ والحق ان ضرب الانجليز للاسكندرية اجراء لا مبرر له فهو يتضمن تجاهلا للمؤتمر الذي كان لا يزال منعقدا (٤) . وصدرت ارادة سنية من توفيق لناظر الجهادية مقتضاها (ان لا حزب بيننا وبين الانجليز) (٥) وبعد ذلك صدر امر من الخديوي

---

(١) De Malortie : op. cit. p. 183

(٢) احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٥

(٤) محمد مصطفى صفوت : نفس المصدر السابق ص ٦٤

(٥) د. محمد فؤاد شكري وآخرون : نفس المصدر ص ٢٧٥

توفيق الى احمد عرابي بعزله من نظارة الجهادية وذلك في ٢٠ يولية ١٨٨٢ [١] • وكانت نهاية الحرب بين احمد عرابي والانجليز باستيلاء الانجليز على مركز التل الكبير في ١٣ سبتمبر [٢] •

وما أتى شهر نوفمبر ١٨٨٢ حتى كان (اللورد دوفرين) في القاهرة يؤدي مهمة خاصة هي درس المركز السياسي والاداري ووضع قواعد نظام مصر الجديد العام تحت رقابة انجلترا وحدها ووجه اللورد (جرانفل) في اول عام ١٨٨٣ الى الدول ذات المصالح في مصر بلاغا مبهما ابهاما مقصودا بيانا لنيات الحكومة البريطانية (ستبقى مصر قوة حربية لحماية النظام العام، وحكومة جلالتها راغبة في استدعائها طالما تسمح بذلك حالة البلاد وتم اعداد ما يلزم لضمان سيادة الخديوي) [٣] •

وهكذا انتهى الصراع الانجليزي ــ الفرنسي في مصر بانفراد انجلترا ببسط نفوذها وذلك بالاحتلال العسكري الذي دام اكثر من سبعين عاما •

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٨٢ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٠٧
(٣) روجيه لا مبلان : في سبيل الاستقلال ص ٤٤

أولاً : المراجع العربية :

١ ـ ابراهيم عبده (الدكتور) : ابو نظارة امام الصحافة الفكاهية وزعيم المسرح في مصر القاهرة ١٩٥٣

٢ ـ احمد احمد الحتة (الدكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٧

٣ ـ احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن الجزء الاول القاهرة ١٩٣٤

٤ ـ احمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) مصر والمسألة المصرية (١٨٧٦ ـ ١٨٨٢) القاهرة ١٩٦٥

٥ ـ السيد رجب حراز (الدكتور) : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٨٢ القاهرة ١٩٧٠

٦ ـ الياس الايوبي : تاريخ مصر في عصر الخديوي اسماعيل ـ الجزء الاول القاهرة ١٩٢٣

٧ ـ تيودور روثستين : تاريخ المسألة المصرية (تعريب عبد الحميد العبادي) القاهرة ١٩٢٣

٨ ـ روجيه لا مبلان : في سبيل الاستقلال (تعريب ميخائيل بشاره) القاهرة ١٩٢٣

٩ ـ عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٣٢

١٠ ـ صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٦٠

١١ ـ لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية الحديث موسكو ١٩٧١

١٢ ـ محمد عبد الباري : الامتيازات الاجنبية القاهرة ١٩٣٠

١٣ ـ محمد علي (الامير) مجموعة خطابات واوامر عباس باشا الاول القاهرة ١٩٣٩

١٤ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور وآخرون : بناء دولة مصر محمد علي القاهرة ١٩٤٨

١٥ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور وآخرون : مصر والسودان (١٨٢٠ ـ ١٨٩٩) القاهرة ١٩٦٣

١٦ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور ، دكتور محمد انيس ، دكتور السيد رجب حراز نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة

١٧ ـ محمد مصطفى صفوت دكتور : انجلترا وقناة السويس الاسكندرية ١٩٥٢

١٨ ـ نجيب توفيق : الثائر العظيم عبد الله النديم القاهرة ١٩٥٧

ثانيـا : المراجع الاجنبيـة :

1 — Adams (J) : L'Angleterre en Egypte — Paris 1922

2 — A.H. Amy, B.A. Oxon : Notes on the History of Modern Egypt — Cairo 1942

3 — Bréhier (Louis) : L'Egypte de 1798 a 1900. — Paris 1900

3 — De Freycinet (C) : la Question d'Egypte. — Paris 1905

4 — De Leon (Edwin) : The Khedive's Egypt. — London 1877

5 — De Malortie (Baron) ; Egypt. — London 1883

6 — Dicey (Edward) : The Story of the Khedivate. — London 1902

7 — Earl of Cromer : Modern Egypt. (2 Vols) — London 1908

8 — Elgood (P. G.) : Egypt. — Cairo 1949

9 — Satery (Mohammed); L'Empire Egyptien sous Ismeil. — Paris 1933

10 — Madden (R. R.) ; Egypt under Mohammed Ali. — London 1841

11 — Mc. Coan (J. C.) : Egypt as It Is. — London 1877

12 — » » (» ») : Egypt under Ismail — London 1889

تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل العشرين .

دكتور صالح العمرو
جامعة الرياض
قسم التاريخ / كلية الآداب

لقد كان هناك في جــدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أكثر من قنصل يمثل دولة أجنبية ولكنه يبدو أنهم لم يلعبوا نفس الدور الذي لعبه قناصل بريطانيـا من حيث اهتمامهم في المنطقة بل وتدخلهم في شئونها الداخليـة في أكثر من مناسبـة . كانت بريطانيـا دولة استعمارية ولها مصالح في مناطق كثيرة مـن الجزيرة العربية ولذلك فانه كان يهمها أن تعرف ما يجري في محيط القنصلية بل حتى في المناطق المجـاورة أو البعيدة مثل نجد وعسير وحائل واليمـن ما أمكن ذلك . والقناصل وهم يعرفون هذه الرغبة لم يألو جهدا فـي الكتابة عن كل ما رأوه وسمعوا عنه من أحداث وما وصل اليهم مـن معلومات وسواء كان لهذه المعلومات علاقة مباشرة بالمصالح البريطانية أو كانت على غير ذلك .

ان اهتمام بريطانيا في الجزيرة العربية يعود الى أكثر من عامل : فموقعها الاستراتيجي على الطريق الى الهند أعطاها أهمية لا يمكـن تجاهلها ، وأول من لفت نظر البريطانيين الى هذه الأهمية هم الفرنسيون عندما استولوا على مصر وأخذوا يحاولون اقامة علاقات بينهم وبـين بعض امراء غرب الجزيرة العربيـة [١] . ولو أن بريطانيـا تنبهت الـى مخططاتهم فأحبطتها في مهدها بل وأخرجتهم من مصر ، الا أن الامر لـم

ينته عند ذلك الحد ، فظهور محمد علي باشا ـ حاكم مصر والموالي لفرنسا ـ على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية وأطماعه التوسعية فيها قادت الى اصطدامه ببريطانيا التي حاولت في بادىء الامر تحديد مناطق النفوذ معه ولكن عندما لم يحدث شيء من هذا بسبب أطماعه اللامحدودة كان لا بد لها من فعل شيء يوقفه عنده فنصبت من نفسها حاميا لمصالح السلطان ضد تابعه الخارج عليه الى أن أدى الامر في الأخير الى دخولها معه في حرب كان من بين نتائجها تجريده من جميع ممتلكاته في الجزيرة العربية ما عدا الشريط الساحلي الممتد من الوجه الى العقبة والذي ظل بصفة عامة تحت الحكم المصري حتى نهاية القرن التاسع عشر (٢) .

أما العامل الثاني الذي حدا ببريطانيا في أن تهتم بالجزيرة العربية فهو عامل اقتصادي ، فموانىء البحر الأحمر المؤدية الى الهند كانت مهمة للسفن البريطانية التي تجد فيها الملجأ والوقود اضافة على ما تقوم به معها من تجارة رائجة . فمثلا قدرت قيمة الواردات الى جدة وحدها في سنة ١٩٠٧ بمليوني جنيه استرليني وكان نصف هذه الواردات من الهند كما قدر أن ربع هذه التجارة كانت بيد رعايا بريطانيين . وأما العامل الأخير والأهم فهو أن بريطانيا وهي تحكم ملايين المسلمين في الهند وفي غيرها كان لها اهتمام خاص بما يجري في البلاد الاسلامية المقدسة ، ففي كل سنة يأتي من مناطق تحت نفوذها الآلاف من المسلمين لتأدية فريضة الحج ، هذا اضافة على وجود جالية اسلامية كبيرة من رعايا فريضة الحج ، هذا اضافة على وجود جالية اسلامية كبيرة من رعاياها تقيم في هذه البلاد بصفة دائمة وتزاول مختلف الأعمال . اذا كان لا بد لها من ممثل في هذه البلاد لكي يرعى شئونهم ويسعى لدى السلطات المحلية من أجل ايجاد كل ما من شأنه ضمان سلامتهم وأمنهم وحفظ حقوقهم (٣) .

لقد كان حق تعيين من سيقوم برعاية المصالح البريطانية حتى سنة ١٨٢١ في جدة محصورا بيد شركة الليفانت The Levant Company

ولذلك فانه مسئول امامها وليس امام وزارة الخارجية التي ليس لهـا سلطة مباشرة عليه . هذا الوضع تغير بعد انحلال الشركـة سنة ١٨٢١ م فأصبح القنصل يتعين من قبل شركة الهند الشرقية East India Company ولكنه مسئول امام وزارة الخارجية ومرتبط بها لا بالمصدر الذي عينه . على أن ذاك لم يستمر طويلا فبعد مـدة وجيزة من مقتل المستر بيـج Page ممثل الشركة والذي يشغل في نفس الوقت منصب نائب القنصل أثناء اضطرابات حدثت في جـدة سنة ١٨٥٨ م ـ صار تعيين القناصل وعزلهم ومسئوليتهم تنحصر في يد وزارة الخارجية [٤] .

لقد قام بتمثيل بريطانيا في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى واحد وعشرون قنصلا أو نائب قنصل تركوا حصيلة وافرة من المعلومات القيمة عبر تقاريرهم التـي كانـوا يرسلونهـا ـ ما عدا في بعض الحالات القليلـة * ـ الـى سفرائهـم في العاصمة العثمانية ، هذه المعلومات كانت عبارة عن سجل لما كـان يجري في منطقة الحجاز ـ وفي المناطق المجاورة بدرجة أقل ـ من أمور سياسية واقتصادية واجتماعية . وبما أنني لن أستطيع في بحث صغير كهذا أن استعرض اسماء وأعمال جميع هؤلاء القناصل ، لذا فسوف اقتصر في كتابتي على اعطاء نماذج من تقارير اولئك الذين اتسمت كتاباتهم بالشمول وتنوع المواضيـع ووفرة الانتاج . على أنه يجب أن لا يقلل هذا من شأن الآخرين والذين حفلت تقاريرهم بالعديـد من الحقائـق التي لا غنى عنهـا في نظري ـ لمن يريـد ان يكتب عن المنطقة وفي هذه الفترة .

كان على رأس هؤلاء القناصل ومـن أنشطهـم جيمز زوهراب Jamez Sohrab الذي عين قنصلا لبريطانيا في جدة في الفترة ما بـين

---

* في بعض الحالات القليلة ارسل القناصل تقاريرهم راسا الى وزير الخارجية في لندن كما هو واضح من بعض الامثة التي سنسوقها في هذا البحث .

الخامس من اكتوبر سنة ١٨٧٨ ، والأول من يوليو سنة ١٨٨١ [٥] . فعلى الرغم من قصر المدة التي أقامها هذا القنصل في جدة الا أنه أرسل الى سفارته تقارير كثيرة تطرقت الى مواضيع شتى كان لبعضها مساس مباشر بمهمته ومصالح دولته ، ولا صلة واضحة لمصالح دولته في بعضها الآخر . ففي الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٨٧٩ أرسل زوهراب تقريرا الى السفير البريطاني في استانبول أوستن لايارد Austin Layard يحدثه فيه عن ميناء جدة وأنها الميناء التجاري الرئيسي للحجاز وأن فيها تجارة رائجة تزيد قيمتها عن ثلاثة ملايين جنيه استرليني . وقد تشكى القنصل في تقريره هذا بقوله أنه رغم هذه الأهمية وكونها مقر الاقامة لقناصل ثلاث دول كبرى الا أن حاكم الحجاز لم يقم حتى بزيارتها والذا فان ادارة شئونها تركت بيد القائمقام كما أنيط أمر المحافظة على أمنها بوحدتين صغيرتين من المشاة لا يتجاوز عدد أفرادهما على المائة والعشرة رجال [٦] .

وفي تقرير آخر أرسله زوهراب الى نفس السفير في السابع من يوليو سنة ١٨٧٩ م تحدث القنصل عن مركز السلطان ودولته في الحجاز فأكد أن السلطات التركية في محاولتها للمحافظة على سلطتها هناك تواجه العديد من المصاعب . على رأس هذه المصاعب كون هذه السلطات تعيش بين شعب متوحش ، مثير للقلاقل ، ويناصبها العداء من غير أن تمتلك الوسيلة لقمعهم أو اجبارهم على مراعاة النظام فلا يوجد في الحجاز ـ على حد قول القائمقام له ـ الا أربع كتائب من المشاة . لذا فليس غريبا أن ينعدم الأمن في جميع أنحاء البلاد وان يكون الاعتداء على القوافل والمسافرين من الامور التي تحدث كل يوم . وقد أوضح القنصل أن الرشاوي وحدها هي التي تجعل البدو يقبلون بذلك الظل الخافت للسيادة العثمانية التي توجد في الحجاز ، فهناك مبالغ طائلة تمنح للاشراف والمشائخ ومقادير من الحبوب توزع على سكان القرى اضافة الى ما يصل الحجاز من هبات تدخل تحت ستار الدين . ان هذه المصروفات تكلف الحكومة

التركية في السنة ما يزيد على خمسمائة ألف جنيه استرليني • مقابل ذلك فان الحكومة التركية لا تحصل على أي شيء بسبب كون الحجاز مستثنى من كل من الضرائب والتجنيد ، ولذا فان هذه المنطقة لا تتميز بكونها عديمة الفائدة للسلطان فحسب بل انها تشكل عبئا ثقيــلا على موارد الامبراطورية • وفي نهاية التقرير يذكر القنصل أنه بالامكان تغيير وضع المنطقة الى ما فيه فائدة الدولة العثمانية لو أن الاخيرة قامت بأحكــام سيطرتها عليها وأجبرت السكان على أن يتحملوا نصيبهم من الضرائب بدلا من الدفع لهم لشراء هدوئهم (٧) •

وفي تقرير عن ضرورة انشاء تمثيل قنصلي لبريطانيا في منطقــة البحر الاحمر أشاد زوهراب بالأهمية الكبرى للمنطقة البريطانية ومستعمراتها وخاصة الهند كما أشاد بالاهمية التجارية التي تحتلها هذه المنطقة وعلى رأسها ميناءي جدة والحديدة وقد أعطى في هذا التقرير دراسة شاملة للنواحي التجارية والسياسية وتجارة الرقيق في المنطقة ، كما اعطي تقريرا لعدد رعايا بريطانيا هناك • كذلك أوضح أن الدلائل كلها تؤكـد أن لدول كبرى مثل المانيا وفرنسا وايطاليا مطامع في المنطقة • ثم تعرض بعد ذلك في تقريره الى مواضيع أخرى مثل أهمية الحجاز والأماكن المقدسة بصفة عامة ولبريطانيا بصفة خاصة ، نظرة السكان من بدو وحضر الى ادعاءات السلطان بالخلافة ونظرتهم للاتراك ككل ، علاقة الشريف عبد المطلب بتركيا ومدى الصلاحيات التي في يده ونظرة كل منــه والسلطان الى الآخر (٨) • على أن زوهراب لم يجعل تقاريره وقفـا على السفير فـي استانبول وانما ارسل البعض الـى وزير الخارجية الماركيز ساليزبري The Marquiz of Salisbury هذه التقارير واحدا أرسله في الثاني عشر من مارس سنة ١٨٧٩ م عن شريف مكة الحسين بن محمد بن عون مبينا فيه مركزه الديني واستعداده المطلق لاستخدام مركزه هذا في أي أمــر من شأنه خدمة الحكومــة والمصالح البريطانيــة شريطة ألا يضر ذلك بمصالح السلطان وأن تكون الاتصالات معه تتم بصورة سرية ولا يعلــم بها أحد حتى الحكومة التركيــة حسب استنتاج القنصل (٩) •

وفي تقرير آخر الى وزير الخارجية كتب زوهراب عن مجييء والي الحجاز حالت باشا الى جدة وأن هذه الزيارة تمت بعد خطاب أرسله اليه بهذا الخصوص . وقد أفاد في تقريره آن زيارته لجدة كانت مفيدة وأن الوالي نفسه اقتنع بأنها كانت ضرورية . وذكر أنه عقد مع الوالي مباحثات مطولة وأن الأخير أخبره بأنه فوجيء بحالة الاضطراب واللانظام اللذين كانا يسودان الجهاز الاداري في جدة ، وان هذا الامر لا يمكن اصلاحه الا بتعيين أناس مؤهلين هناك . وقد شملت المباحثات نقاط أخرى أثارها القنصل تخص جدة منها تنظيم وتدعيم قوة الشرطة وتنظيف المدينة والحجر الصحي والمرسى والاهتمام بمصادر المياه وايجاد مجالس قضائية مناسبة وايقاف تجارة الرقيق . وقد بين الوالي للقنصل أنه لا يستطيع تنفيذ هذه الرغبات جميعها في آن واحد بل انه لن ينفذ أي منها في الحال ولكنه وعد بأنه سيولي جميع هذه النقاط اهتمامه (١٠) .

لم تقتصر تقارير زهراب كلها على الامور التي كان معاصرا لها وانما كتب عن أحداث سبقته بأكثر من نصف قرن . ففي تقرير مطول بلغ احدى وعشرين صفحة أرسله لوزير خارجيته ساليزبري كتب عن تاريخ اشراف مكة منذ سنة ١٨٢٣ ، فصَّل فيه عن الخلافات التي كانت تنشب بين الأشراف من ذوى زيد وعون ، هذه الخلافات التي كثيرا ما قادت الى مجازر راح ضحيتها الكثير من أفراد الاسرتين . وقد أوضح كيف كانت الشرافة تنتقل من أسرة الى اخرى وموقف الحكومة التركية غير الثابت نحو الاسرتين . ثم تطرق بعد ذلك الى موقف كل من الاسرتين تجاه بريطانيا مؤكدا أن أسرة عون لا تنظر دوما الا بعين الود والصداقة للحكومة البريطانية على عكس اسرة زيد المناصبة للبريطانيين العداء ، ذلك الموقف الذي تمثل في شريفهم عبد المطلب . لقد كان زوهراب يكره عبد المطلب كرها شديدا لذا فلا عجب أن يصفه في تقريره هذا بالغدر والتعصب والسوء في كل شيء ، بل انه في الحقيقة جرده من كل الصفات الانسانية آملا في أن يستطيع اقناع وزير خارجيته المتدخل في منع تعيينه للشرافة للمرة الثالثة . ولكي يؤكد وجهة نظره فيما يقوله عن

عبد المطلب فقد أكد لوزير خارجيته أن هذه هي نظرة جميع المسئولين في الحجاز وعلى رأسهم الوالي وقائمقام جدة اللذين توسلا اليه لكي يمنع عنهم وقوع هذه الكارثة • وكان يمتدح ذوى عون ويحبذ تولية أحدهم مذكرا الوزير بما قدموه من خدمات جليلة لبريطانيا (١١) •

من القناصل الذين زودونا بالعديد من التقارير القيمة المستر توماس جايجو Thomas Jago الذي شغل منصب القنصلية في الفترة ما بين سبتمبر ١٨٨٣ ويوليو ١٨٨٨ • ففي تقرير أرسله في الخامس من مارس ١٨٨٤ م الى سفيره في استانبول ايرل دوفرين The Earl of Dofferin فكر أنه لم ير الوالي عثمان باشا في جدة طيلة المدة التي كان القنصل قد أقامها في جدة والتي تقارب الستة أشهر • بعد ذلك تحدث عن سلطات الوالي الواسعة التي يمارسها على جميع الامور صغيرها وكبيرها وسواء كانت ادارية وعسكرية أو اقتصادية وأنه قضى على سلطات قائمقام جدة الذي صار يرجع اليه في كل شيء • لقد صار الوالي الذي يشغل في نفس الوقت منصب القائد الاعلى للجيش يتصرف في امور كانت في السابق من اختصاص الشريف الذي لم يبق له من سلطة الا تلك التي تدور حول شئون القبائل البدوية بما يدخل في ذلك من حفظ لأمن الطرق وحل خلافاتهم • اما بخصوص القبائل البدوية فانهم على الرغم من كونهم يرتبطون برباط الدم والزواج مع زعماء مكة والمدينة ، الا أن هذه الروابط تزعزعت في السنوات الاخيرة بسبب ما تعرض له هؤلاء البدو من ظلم على يد الأشراف الامر الذي أدى بالتالي الى تلاشي تلك الروابط التي جمعتهم في سبيل مصالحهم المشتركة ضد الدولة الحاكمة • ان هؤلاء البدو يعتمدون غالبا في معيشتهم على ما يحصلون عليه مقابل سماحهم لمرور الحجاج عبر أراضيهم في موسم الحج، وما يحصلون عليه من اعانة سنوية من الدولة ــ عينية ونقدية تقدر قيمتها بحدود خمسة وثلاثون الف جنيه استرليني ــ من أجل حمايتهم لطرق مكة والمدينة • وقد حصل البدو على هذه الاعانة لأول مرة من محمد علي بعد استيلائه على الحجاز ولو أن الدولة العثمانية استمرت

تدفعها لهم الا أن السلطات المحلية لا تعطيهم جميع ما قرر لهم فلا يصلهم تقريبا الا نصفها • لقد أعطي في تقريره هذا أيضا بعض المعلومات عن قبيلتي حرب وعتيبة ، مواقع القبيلتين واعداد أفرادهما ، وعلاقة هاتين القبيلتين ببعض وعلاقتهما بالدولة العثمانية ، كما بين أن ما يدعى بثورة البدو التي حدثت في سنة ١٨٨٣ كانت باتحاد القبيلتين ضد السلطات المحلية • وأكد ثانية على سلطات الوالي الواسعة وأنه استطاع بعد مدة قصيرة من مجيئه الى الحجاز ان يقلم سلطات الشريف عبد المطلب وبالتالي عزلهعن الشرافة ، وبما أن الشريف الجديد عون الرفيق يعرف مدى قوة مركز الوالي لذا فانه لم يحاول أن يستعيد السلطات التي كانت أحيانا لسابقيه • ويذكر أن الشريف الجديد وهو يعرف مدى كره السلطات التركية للقصلية البريطانية لذلك فانه يحرص على الابتعاد عنها خوفا من أن يتهم بأن له صلات بها• وقبلنهاية التقرير تطرق الى الجيش التركي في الحجاز ، أعداده وكفاءته مبينا أن الكثير من أفراده جيىء بهم من سجون سوريا وفلسطين لتحملهم جو الحجاز الحار ولتأديبهم ، كما تطرق الى ميزانية الحجاز [١٢] •

وفي تقرير آخر كتب جايجو بالتفصيل عن مصادر الدخل والضرائب في ولاية الحجاز ضمنه معلومات كثيرة عن مواضيع شتى من ضمنها نبذة عن تاريخ الاشراف والغزو السعودي للحجاز واستيلاء محمد علي عليها الذي أدى الى اضعاف مركز الشريف • وقد امتدح في تقريره هذا الشريف عبدالله بن محمد بن عون وأعطى وجهة نظره عن أسباب عزل الشريف عبدالمطلب ، كما تحدث عن المخصصات التي تدفعها الدولة العثمانية للاشراف والبدو وسكان المدن • ولكن من أهم المواضيع التي كتب عنها القنصل بالتفصيل في هذا التقرير هي مصادر الدخل في الحجاز، من أين تأتي ، مفردا لكل من جدة ومكة باب على حدة • وقد قدر أن مجموع دخل الشريف لوحده يبلغ أربعة وثلاثون ألف ومائتان وثمانون جنيه استرليني [١٣] •

أما « آرثر الباني » Orthur Alban الذي جاء الى جدة ليقوم بأعمال القنصل في سنتي ١٨٨٥ م ، ١٨٨٦ م فقد أرسل الى سفارته عدة تقارير كان من أهمها ذلك الذي كتبه في الثالث من أغسطس سنة ١٨٩٦ م ، والذي تحدث فيه عن سلطات الشريف عون الرفيق الواسعة والمؤيدة من جانب السلطان في استانبول ، وأن هذا قاد الى زيادة طغيانه وفساده اللذين تقاسى منهما جميع الطبقات في الحجاز ، كما أن جميع الولاة الذين حاولوا وضع حد لاستهتاره كان جزاؤهم عزلهم . لقد ذكر القنصل أن من سوء حظ هذه الولاية أن الوالي الحالي أحمد راتب باشا عندما جاء الى الولاية كان يعرف مدى سلطة الشريف وفساده ولذلك فقد كان عليه اما أن يسايره ويجاريه أو يستعد للابعاد عن مركزه . وقد اختار السبيل الاول له طريقا ولذلك فقد أصبحت حالة الولاية ليس لها نظير بين الولايات الاخرى اذ بدلا من رئيس واحد للولاية كما هي العادة في جميع الولايات فان هناك في الحجاز رئيسين ، كل معه زمرة من التابعين الذين لا بد من اشباع رغباتهم وارضاء نهمهم . ان الرأي العام في الحجاز قد يتباين حول محاسن ومساوىء الولاة السابقين ولكن بالنسبة لأحمد راتب باشا فليس هناك مجال للخلاف اذا أن الكل مجمع على أنه أسوأ وأفسد والي عرفه الحجاز خلال السنوات العشرين الماضية على الاقل . وقد أسهب القنصل في تقريره هذا في تعداد مساوىء الوالي التي شملت جميع الناس تقريبا كما بين عدم جدارته لما انيط به من مسئولية واهماله لاعماله الرسمية ، كما عدد مساوىء الشريف عون وأوضح الحالة السيئة التي انحدر اليها الوضع من جميع النواحي في عهد الاثنين . كما أعطى فكرة عن الشريف عون وادارته وصفات القائمقام الحميدة وعلاقته الودية بالقناصل والتي كانت السبب في النهاية في عزله . وبما أن الشكاوى قد كثرت من طغيان الوالي والشريف وفسادهم لذلك قامت الحكومة التركية بارسال العديد من البعثات لاستقصاء الحقائق ومدى صحة هذه الشكاوى ، الا أن الشريف أحبط مساعي هذه البعثات بما كان يقدمه لها من رشاوي جعلها تأتي وتعود لتكتب تقارير مرضية

عن وضع الحجاز • كان من أشد القناصل كرها للوالي والشريف القنصل عبد الرزاق (١٨٨٢ ـ ١٨٩٥ م) الذي كرس جهده للوقوف في وجه طغيانهم • هذا القنصل هوجم على حدود جدة وقتل مشكوكا ان للشريف يد في هذا الاعتداء • وقد حاول القناصل كلهم دون جدوى ازاحة الشريف عون عن مركزه مما زاد في سلطته التي عانى الحجاج والبدو منها أكثر من غيرهم لما فرضه عليهم من ضرائب • لقد أدى موقف الشريف هذا من البدو الى ازدياد هجومهم على الحجاج والمسافرين يشجعهم على ذلك عدم اطلاق الحراس عليهم النار مدعين بأنهم لم يعطوا أوامر بهذا الخصوص • كما اشتمل تقرير الباز هذا على معلومات عن الجيش وكثرته وسوء حاله وتأخر رواتب أفراده ، وفي نهاية البحث يقترح ازالة كل من الشريف والوالي (١٤) •

على أن أبرز هؤلاء القناصل ــ في نظري ــ على الاطلاق هما القنصل جورج ديفي George Devey الذي كان قنصلا في جدة من الاول من ديسمبر سنة ١٨٩٦ م الى الخامس من ديسمبر سنة ١٩٠٥ والرجل الذي عاصره وشاركه مهمته معظم الوقت الشيخ محمد حسين Shaikh Mohammad Hussain الذي عمل كنائب قنصل ثم وكيل قنصل من ١٢ مارس ١٨٩٦ الى ١٩٠٨ م • لقد تميزت تقارير هذين القنصلين بغزارة المادة وتنوع المواضيع وكثرة التفاصيل • وربما ان هذا يكون راجع الى طول المدة التي قضياها في الحجاز الامر الذي أعطاهما الفرصة لمعرفة الوضع في الحجاز وما حولها من مناطق عن كثب • فمن بين تقارير ديفي التي ركز فيها على بعض المواضيع تقرير مؤرخ في الثامن من يوليو سنة ١٩٠٠ م تحدث فيه بالتفصيل عن الجيش النظامي التركي في الحجاز مبينا نوعية وحداته وعتاده وأين يتركز ، وعن الجيش الغير نظامي هناك (١٥) • أما في تقرير آخر فقد كتب هذا القنصل بالتفصيل أيضا عن ميزانية جدة ايراداتها ومصروفاتها والحالة المالية فيها على ضوء هذه الميزانية (١٦) • كما لم يفته أن يكتب عن الشريف عون الرفيق ، الرجل الذي شغل بال الكثير من القناصل والذي قلما تجد تقرير في هذه الفترة

بالذات الا وفيه شيء عنه . فقد أوقف عليه تقريرا كاملا مكون من سبع صفحات مبينا فيها مقالبه وصلاحياته وحالة سجونه السيئة التي اقترح تفتيشها ، هذا بالاضافة الى امور اخرى كثيرة[١٧]. وفي تقرير آخر اعطى معلومات وافرة عن الاسعار والضرائب والتعليم والصحة والبدو وشغبهم وأمن الطرق والقرصنة وعدد جيش الشريف والسبب في عدم تحسن الادارة في الحجاز وقلة السفن التي تحرس الشواطيء والتي تستعمل أيضا في نقل من انتهت خدمتهم من الجنود [١٨] .

وأخيرا نجد في تقريره الذي أرسله في التاسع من سبتمبر سنة ١٩٠٣ معلومات مفصلة عن المدارس في كل مدينة من مدن الحجاز الرئيسية ونوعيتها وعدد طلابها [١٩] . أما نائب القنصل حسين فقد أرسل الى سفارته تقارير كثيرة عالجت نفس المواضيع التي تطرق اليها ديفي أحيانا واختلفت عنها في بعض مواضيعها أحيانا اخرى .

على أن تقارير القناصل لم تقتصر كما أشرت على الأمور التي تحدث في الحجاز وانما تطرقوا أحيانا الى اعطاء بعض المعلومات التي كانت تحدث في المناطق المجاورة . مثال ذلك التقرير الذي أرسله ديفي في الثاني من نوفمبر سنة ١٩٠٣ م عن التحركات العسكرية التركية في عسير وعدد الجيوش التي تحارب هناك ومدى الخسائر التي تعرضوا لها [٢٠] . وتقرير القنصل ريتشاردسون G. Richardson الذي قام بعمل القنصل في سنة ١٩٠٩ م والذي ارسل في الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٠٩ الى سفارته يذكر فيها نجاح الامير محمد الادريسي في تثبيت قدمه في عسير وازدياد أتباعه وبدأ العمليات الحربية بينه وبين الاتراك [٢١] .

ومن تلك التقارير ذلك الذي كتبه نائب القنصل حسين عندما كان يحدث أي من تطاحن على السلطة في نجد بين الملك عبدالعزيز آل سعود وآل الرشيد وموقف الأتراك المعادي لابن سعود ، ومحاولة الأخير كسب

الاتراك الى جانبه عندما طلب من الشريف حسين التوسط بينه وبينهم مذكرا الاخير بأنه ليس ثائر ضد الدولة العثمانية وانما ضد آل رشيد الذين اغتصبوا ملك آبائه واجداده وأنه هو الحاكم الشرعي لنجد [٢٢] •

تقييم وتحليل هذه التقارير والى أي مدى يمكن الاعتماد عليها :

ان أهمية هذه التقارير تكمن في أكثر من ناحية :

أولا : انها تعرضت لمواضيع كثيرة لم تسجلها أية مصادر اخرى • فقد أحصى القناصل من الناحية السياسية على الاشراف والولاةحركاتهم وسكناتهم ، مدى سلطتهم وصلاحياتهم ، محاسنهم ومساوئهم ، صلاحهم وفسادهم ، علاقتهم ببعضهم وبالآخرين • ومن الناحية الادارية نجد أنهم كتبوا لنا الكثير عن الجهاز الاداري في الحجاز وسواء كانت تخص جهاز الأتراك أو الأشراف ومحاسن هذه الاجهزة ومساوئها • اما الامور العسكرية فقد كان لها نصيب وافر من هذه التقارير ، فقد كتبوا عن الجيش ونوعية وحداته وأفراده وتسليحه وتدريبه وحالته ومواقعه ومدى انضباطه، كما تطرقوا بالتفصيل الى تحركات الاتراك العسكرية في المنطقة وسواء كانت مع البدو أو الاشراف أو السكان أو كانت مع المناطق الأخرى المجاورة • كذلك كتبوا بشيء من التفصيل عن الامور المالية من موارد ومصروفات واعانات ، عن التجارة في الحجاز ، عن المدارس والمستشفيات ومصادر المياه ، عن الموانيء البحرية والسفن الحربية وغير الحربية • وباختصار فقد شملت كتاباتهم كل شيء رأوه أو سمعوا عنه أو حدث في عهدهم بل حتى أحيانا عن امور حدثت قبلهم ـ لدرجة أن أي باحث لن يخرج خلو اليدين من هذه التقارير •

ثانيا : صحة المعلومات التي وردت في هذه التقارير ، فما من شك أن القناصل حاولوا ـ وهذا واضح في كثير من تقاريرهم ـ أن يتحروا الصدق فيما يكتبون عنه وان يشعروا سفرائهم ووزراء الخارجية بذلك ، فتراهم كثيرا ما يستخدمون الصيغ التالية : لقد أكد لي ••• أخبرت من

مصدر موثوق ... فلان أخبرني . أخبرت من قبل أشخاص معلوماتهم أكيدة ... ان هذا الأمر حقيقة معروفة .. واذا لم يتأكدوا من مصادرهم فانهم يوضحون ذلك أحيانا فتراهم يكتبون : ان الشائعات رائجة عن ... وان الاخبار التي وصلت هنا ... وقد سمعت ... ويظهر .. وان الموضوع بقدر ما أستطيع أن أعرف . ومن الدلائل على صحة الكثير من المعلومات التي ترد في هذه التقارير ما كان يوليها اياه السفراء أحيانا من اهتمام وما يبدونه تجاهها من ثقة . مثال ذلك التعليق الذي أرسله السفير فيليب كاري Philip Currie الى دزير خارجيته ساليزبري عن عون الرفيق وبناءا على التقارير التي وصلته عنه « ان هذا الشريف وغد من نوع فريد حتى في الحجاز » (٢٣) . وتعليق آخر هذه المرة من السفير نيقلاس اوكونور N. O'Conor على تقرير ديفي الذي يمتدح فيه الشريف علي باشا والذي يبدي فيه ارتياحه لتعيينه للشرافة اذ قال : « ان علي باشا كما تشير معلوماتنا الحالية يبدو أحسن مرشح لهذا المنصب» (٢٤) .

على أن هذا لا يمنع من كوننا نجدهم أحيانا يقعون في بعض الأخطاء والمبالغات التي قد تكون مقصودة أو غير مقصودة ، والتي قد يعود سببها الى امور منها عدم تأكدهم من صحة معلوماتهم أحيانا أو تحكم علاقاتهم وعواطفهم الشخصية في كتاباتهم أحيانا أخرى . هذا بالاضافة الى بعدهم في بعض الاحيان عن مكان وزمان وقوع الحادث مما يجعلهم يعتمدون على الرواة الذين قد يصدقون وقد يكذبون أو يبالغون .. ولذلك فاننا نجد السفير أحيانا ـ ولو انها قليلة ـ يبدي شكوكه في صحة بعض هذه المعلومات . مثال ذلك ما ورد في تقرير القنصل زوهراب عن تعيين عبد المطلب للشرافة وأن الرأي العام والسلك الدبلوماسي في الحجاز يعتبر هذا تحديا لانجلترا ، وأن السلطان انما يريد في هذا بقوله ان مثل هذا الرأي قد لا يوجد ومبالغ فيه (٢٥) . ومن أمثلة تلك التقارير التي لعبت العلاقات الشخصية دورا في عدم دقتها ما كتبه ديفي عن الوالي أحمد راتب باشا عندما كانت علاقته به وثيقة ، فقد أوضح نائب القنصل حسين أن ديفي

يضحي بمصالح الرعايا البريطانيين في سبيل علاقته الودية مع الوالي ، الامر الذي يمكن أن يستنتج منه أن ديفي ـ ان صح اتهام حسين ـ لم يعط السفير أحيانا صورة صحيحة لما يقع في المنطقة والتي تخص المصالح البريطانية (٢٦) . كما أن ذلك واضح من تضارب تقارير بعض القناصل أحيانا حول حكمهم على والي أو شريف ، فبينما نجد أن هذا يسرف في ذمه نجد الآخر الذي يأتي بعده وحال استلامه العمل يبدأ في كيل المدح لذلك المذموم (٢٧) .

أما الاخطاء التي تقع أحيانا بسبب البعد عن زمن الاحداث فمن أمثلتها ذلك التقرير الذي كتبه زوهراب عن تاريخ الحجاز خلال النصف قرن الذي سبقه ، فقد ذكر أن ثورة الشريف عبد المطلب ضد السلطان بدأت في سنة ١٨٥٣ وان سببها كان الخلاف بين الشريف والوالي اذ أن هذا طبعا من الأخطاء الواضحة (٢٨) .

ولكن على الرغم من تلك الأخطاء التي لم تحدث الا في حالات نادرة والتي لا يجب ان تؤخذ كدليل على التقليل من قيمة هذه التقارير ، ففي الحقيقة أن مدى صحة هذه التقارير قد تفوق أي كتاب اهتم في تحري حقائقه كاتب عصري محايد ، ولا أرى قيمة حقيقية لأي عمل يكتب عن هذه المنطقة وفي هذه الفترة دون الرجوع الى هذه التقارير .

ان هذه التقارير موجودة في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية في لندن Public Record Office وغالبا في مجلدات وغير مفهرسة ولكن وثائقها مرتبة حسب تاريخها وبشكل تنازلي أي من الأقدم للأحدث . ومعظم هذه الوثائق أو التقارير تقع تحت الرقمين :

F.O. 195/ 151 - 2363 (Embassy and Consular. Archives)

F.O. 78/1694 - 5484 (General Correspondence).

المراجع

1 — Hoskins, H., British Routes to India. N.Y. 1928. p. 65.

2 — Al-Amr, S., The Hijaz Under Ottoman Rule, 1869-1914, The Ottoman. Vali, The Sharif of Mecca & The growth of British influence. PH.D. Thesis presented to the University of Leeds, Feb. 1974. p. 264-293.

3 — Monahan, Jamez, Jid. No. 27. July, 3, 1908. 195/2286. For details see Al-Amr, OP. cit. pp. 212-216.

4 — Marston, T., Britain's Imperial Role in the Red Sea Area from 1800-1878. U.S.A. pp. Xi, 157f, 282, 500.

5 — Formore details about the Consuls and the Vice-Consuls who occupied the Consulate, see the F.O. Lists for the years. 1861. 1869, 1880, 1883, 1895, 1898, 1905, 1906, 1921, 1925.

6 — Sohrab to A. Layard. Jid. No. 12. May 12, 1879. F.O. 185/1251.

7 — Ibid. Jid. No. 28. July 17, 1879. F.O. 185/1375.

8 — Sohrab. Jid. June 1, 1881. F.O. 195/1375.

9 — Sohrab to Salisbury. Jid. March 12, 1879. F.O. 195/1251.

10 — Ibid. No. 28. April, 7, 1879. F.O. 78/2988.

11 — Ibid. Jid. March. 17, 1880. F.O. 195/1482.

12 — Jago to Dufferin. Jid. March 5, 1884. F.O. 195/1482

13 — Jago. Report on the Revenue of the Hijas. Jid. Jan 4, 29 1886. F.O. 195/1547.

14 — Alban to Herbert. Jid. Aug. 3, 1896. F.O. 195/1943.

15 — Devey to O'Conor. July 18, 1900, F.O. 195/2083.

16 — Devey. Budget Estimate for the Jeddah District. 1902. F.O. 195/2126.

17 — Devey. Memorandum. Inc. No. 3. in his desp. No. 82. Oct. 14, 1902, F.O. 195/2126.

18 — Devey. Jid. No. 82. Oct. 14, 1902. F.O. 195/2126.

19 — Devey. No 84. Sept. 9, 1903. F.O. 195/2148.

20 — Devey to O'Conor. No. 107, Nov., 2, 1903. F.O. 195/2148.

21 — Richardson to Lowther. No. 48. Sept. 13, 1909. F.O. 195/2320.

22 — Hussein, Memorandum. Jan. 3, 1905. Inc. in Devey's disp. to O'Conor, No. 5, Jan. 4, 1905. F.O. 195/2198.

23 — Currie to Salisbury. Cons. Sept. 19, 1895. Salisbury Papers (Christ Church) Vd. A. 135/49.

24 — O'Conor to Lansdowne. No. 766. Therapia. Oct. 31, 1905. F.O. 406/24.

25 — Layard to Salisbury. Pera. March. 31, 1880. Salisbury P. vol. A/ 17/ 99.

26 — Hussein to O'Conor. Jid. March 22, 1900. F.O. 195/2083.

27 — Al-Amr, Op. Cit. p. 218.

28 — Zoharb to Salisbury. Jid. No. 2. March 17, 1880. F.O. 195/1313.

التنظيم العسكري لجيش صاحب الزنج

الدكتور عبد الجبار ناجي
كلية الآداب / جامعة البصرة

تحمل الدراسات المتعلقة بالتنظيمات العسكرية لجيوش عدد من الامارات الاسلامية كالصفارين والبويهيين والغزنويين والايوبيين والمماليك ... الخ. التي قام بها نفر من الباحثين عرب واجانب[1] اهمية تاريخية متميزة . اذ انه عن طريق هذه الدراسات وامثالها المتصلة بالجوانب الحضارية لتراثنا العربي الاسلامي تتضح للمرء سعة الحادثة

---

(1) انظر كمثال على ذلك :

C.E. Bosworth: (1) «The Armies of the Saffarids» in *BSOAS*, 1968, pp. 534 - 54.

وقد ترجمت المقالة تحت عنوان « جيش الصفاريين » في مجلة كلية الآداب — جامعة البصرة عدد ٧ — ١٩٧٢ .

(2) Ghaznavids Military Organization in *Der Islam*, Vol. XXXVI (1960), p. 37-77.

(3) « Military Organization under the Buyids of Persia and Iraq» in *Oriens*, Vol. 18-19, p. 143.

وقد ترجمت المقالة تحت عنوان « التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وايران » في مجلة المورد — المجلد الرابع — العدد الاول سنة ١٩٧٥ ص ٣٣ — ٥١ .

Hamilton A.R. Gibb : Studies on the Civilization (ch. 5) on the armies of Salah al-Din; Ayalon: Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom (London 1956); Mayer: «Studies on the Structure of Mamluk Army» in *BSOAS*, 1953, Vol. XV, p. 204.

التاريخية وديناميتها وعمقها على الرغم من انهـا قد حدثت في المـاضي وعفى عليها الزمن • فضلا عـن ان امثال هـذه الدراسات ترسم للفرد العربي المعاصر صورا حية عن التطورات التاريخية التي شهدتها الجيوش العربية الاسلامية خـلال فترات مختلفـة سواء كان ذلـك التطـور في استراتيجية تلك الجيوش واساليبها الحربية واسلحتها او في فنونهـا الحربية وتنظيماتها المالية والعسكرية او في تركيباتها البشرية •

لم يكن نطاق هذه الدراسة ثورة الزنج وشعاراتها او العوامل التي أدت الى اندلاعها او الآثار التي خلفتها بل مكرس لكل ما لـه علاقـة بالامور العسكرية وفيما اذا كانت الاستعمالات والاساليب الحربية التي سادت في جيش الزنج جديدة ام انها تقليد لتنظيم وتركيب الجيوش فـي الامارات الاسلامية الاخرى •

ولكن قبل ان تندخل في صلب الموضوع لا مندوحة من ذكر كلمة عن علم الحروب عند العلماء المسلمين ، فالمتصفح للتعريفات التي اوردها حاج خليفة في كشف الظنون يجد ان علم الحروب اتخذ مسميات متعددة، فهو من جهة علم الجهاد وقد اعتبره بابا من ابواب الفقه يذكر فيه احكامه الشرعيـة ويبين الفقهـاء أحوالـه العاديـة وقواعـده الحكميـة في كتب[٢] مستقلة • كما اطلق عليه من الجهة الاخرى بعلم ترتيب العساكر ويبحث هذا العلم عن « قود الجيوش وترتيبهـم ونصب الرؤساء لضبط احوالهم وتهيئة ارزاقهم وتمييز الشجاع عن الجبان ••• ويهيء لهـم ألبسة الحروب والسلاح[٣] » ، ويذكره حاج خليفة مرة ثالثة باسم علم التعابي العددية في الحروب « وهو علم يتعرف منه كيفية ترتيب العساكر في الحروب[٤] » • ويشير اليه تحت اسم علم الآلات الحربية الذي يبحث بكيفية اتخاذ الآلات الحربية كالمنجنيق[٥] ، وعلم الرمي[٦] •

---

(٢) حاج خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنـون ج ١ ص ٦٢٢ •

(٣) ن•م• ج ١ ص ٣٩٥ •

(٤) ن•م• ج ١ ص ٤١٥ •

اريد القول من كل هذا ان الحروب وتنظيمات الجيوش وترتيب العساكر واستعمال السلاح مواضيع شغلت بال الكثير من العلماء المسلمين القدامى فألفوا فيه الكتب والرسائل التي ما زال اكثرها مخطوطاً منها على سبيل المثال : رسالة للفيلسوف العربي الكندي عن (السيوف التي كانت عند العرب واجناسها) وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة [٧] ، وكتاب (تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة من الحروب ومن الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء) من تأليف الطرطوسي وقد نشره البروفسور [٨] كاهين ، وكتاب (الحيل والحروب وآلات السلاح وحصار القلاع وصنعة العرب بالسيف والرمي بالنشاب وعمل البارود) ، وكتاب (التذكرة الهروية في الحيل الحربية [٩]) تأليف علي بن ابي بكر الهروي ، وكتاب (تفريج الكروب في تدبير [١٠] الحروب) تأليف عمر بن ابراهيم الاوسي الانصاري ، وكتاب (كشف الكروب في معرفة الحروب) تأليف عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري .

ولم يقتصر هذا الاهتمام المتزايد بالشئون العسكرية عند العرب على العلماء المسلمين القدامى فحسب بل وانعكس ايضا في عدد من مؤلفات الكتاب العرب المحدثين . وهناك عدد غير قليل من الكتب والبحوث تظهر وضعية الجيوش العربية ووحدتها عبر التاريخ ومركزة على

---

(٥) ن٠م٠ ج ١ ص ١٤٥ .

(٦) ن٠م٠ ج ١ ص ٩١٤ .

(٧) اورد الاستاذ احسان هندي مشكورا المعلومات المتعلقة بكتب الحرب والسلاح عند العرب في كتابه « الحياة العسكرية عند العرب » ١٩٦٤ . ورسالة الكندي موجودة في المجلد ١٤ سنة ١٩٥٢ من مجلة كلية الاداب بالقاهرة .

(٨) نشر في مجلة Bulletin d'Etudes Orientales (XII) (1947 - 1948)

(٩) التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، دمشق ١٩٧٢ .

(١٠) تفريج الكروب في تدبير الحروب ، القاهرة ١٩٦١ .

الانتصارات التي تحققت بفضل كفايتها في التدريب والتنظيم واستعمال السلاح وتقدمها على الجيوش البيزنطية والساسانية والصليبية . وهدف هذه الدراسات نبيل ونابع من الواقع القومي لأمتنا ، ودعوة للعرب عموما للتخلص من الاستعمار والاستيطان العسكري الصهيوني . فالقوة الدافعة في تاريخنا والعبرة التي نستلهمها من تراث امتنا العسكري والحربي القائم على الوحدة العسكرية والتفاني ازاء التحديات هما خير ممهد للقضاء على فكرة الاستعلاء عند العدو وبأنه سوف لا يقهر عسكريا . ومن امثال هذه الكتب ، كتاب احسان الهندي عن (الحياة العسكرية عند العرب) وألحقه بعدد من المقتطفات من كتاب الطرسوسي الذي مر ذكره . وكتاب (نظم الحرب في الاسلام[11]) لجمال الدين عياد وقد اقتصره على فترة الرسول الكريم (ص) ، وكتاب (الفن الحربي في صدر الاسلام[12]) تأليف عبد الرؤوف عون ، وكتاب (الدعاية العسكرية عند العرب) تأليف توفيق الفكيكي ، وكتاب (الجندية في الدولة العباسية[13]) تأليف نعمان ثابت، واطروحة الماجستير (تنظيمات الجيش في العصر العباسي[14] الثاني) تأليف خالد جاسم الجنابي ، واطروحة الدكتوراه (التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي[15] الاول ١٣٢ ــ ٢٣٢ هـ) تأليف د . جهاديه القرغولي . هذا بالاضافة الى اهتمام بعض الباحثين الاجانب بهذا الجانب من تاريخنا العربي كما ذكرت ذلك في بداية البحث .

* * *

لم ترد أي اشارة تفيد بأن علي بن محمد صاحب الزنج كان عسكريا او له خلفية عسكرية . فالروايات التي بين ايدينا عن حياته لا تسمح لنا

---

(١١) القاهرة ١٣٧٠ هـ

(١٢) مصر ١٩٦١ .

(١٣) بغداد ١٩٣٩ .

(١٤) بغداد ١٩٧١ .

(١٥) جامعة عين شمس سنة ١٩٧٤ .

القول بأنه كان من الجنود الذين طمعوا في الانفصال عن جسم الدولة العباسية ، في الوقت الذي يهيء لنا التاريخ عددا من الاشارات الصريحة التي تبين بأنه كان رجل قلم وادب دئوبا على نيل المعرفة ، فاعتمادا على ما أورده الصفدي في مخطوط الوافي بالوفيات ان والدة علي بن محمد قالت انه كان « لا يدع احدا عنده ادب ولا رواية الا اخذها[١٦] » ، كما ان بعض المؤرخين والكتاب المسلمين ذكروا انه كان ماهرا بالتنجيم[١٧] والسحر ، وكان معلما للصبيان وشاعرا[١٨] . ولكن علي بن محمد ، وهذا هو المهم ، كان يتحلى بروح ثائرة ونفس وثابة للتغير نحو الافضل . فهو فضلا عن كونه شاعر ومعلم للصبيان فانه كان مخططا ومنذ فترة مبكرة من حياته الى الوثوب على العباسيين . فقد اثبتت الحوادث التي رافقت حياة الثورة الخمس عشرة سنة ان عليا كان يمتلك مقدرة سياسية وكفاية عسكرية واضحة متمثلة باختياره الموفق للقواد والامراء الذين اعتمد عليهم قبل واثناء الوهلة الاولى للحركة ، كذلك في تقسيمه جبهات القتال ، وفي اختياره المواقع والحصون كاتخاذه المختارة عاصمة له وحصنا واقيا للثورة في منطقة جغرافية صعبة وفي اتخاذ قواده تبعا لاستشارته مدينة المنيعة والمنصورة حصونا لهم في البطائح . وتتمثل مهارته العسكرية كذلك باتصالاته المستمرة وتوجيهاته الذكية لقواده في جبهات القتال واستجاباته السريعة لمساعدتهم وتقديم الامدادات اليهم وتتبعه اخبارهم الحربية . ففي بداية الثورة سنة ٢٥٥ ـ ٨٦٨ عندما اراد مهاجمة البصرة وجه قائده المشهور علي بن ابان المهلبي بجيش للقاء البصريين قائلا له « ان احتجت

---

(١٦) مخطوط الوافي بالوفيات ، اسطنبول رقم ٢١ـ٢٩٢٠ أ ورقة ١٦٩ ب وقد حققت الاوراق الخاصة بصاحب الزنج في مجلة المورد المجلد الاول ـ العددان الثالث والرابع ص ١٧ .

(١٧) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك م ٣ سنة ١٧٦٣ ، كذلك العيون والحدائق ، تحقيق نبيلة عبد المنعم ج ٤ ق ١ ص ٤٨ .

(١٨) انظر ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة . م ٢ ص ٣١١ . القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب (القاهرة ١٩٥٣) ج ١ ص ٢٨٨ .

الى مزيد في الرجال فاستمدني [19] » • وفي سنة ٢٥٩ ـ ٨٧٢ طلب علي ابن ابان المهلبي وهو يقاتل في الاهواز من صاحب الزنج ان يمده بعدد من الشذاءات ـ سكن حربية ـ فوجه اليه (١٣) شذاة تحمل جمعا كثيرا من [20] المقاتلين • وفي سنة ٢٦٤ هـ ـ ٨٧٧ طلب سليمان بن جامع قائد الجيش في منطقة البطائح من صاحب الزنج ان يوجه اليه الشذاءات فأرسل اليه (١٠) شذوات [21] • كما ان سليمان هذا طلب من صاحب الزنج بعد ذلك امدادات عسكرية اخرى فأرسل اليه القائد الخليل بن ابان المهلبي بصحبة [22] ١٥٠٠ فارس • وفي سنة ٢٦٧ هـ ـ ٨٨٠ استنجد سليمان بن جامع مرة ثالثة بصاحب الزنج طالبا منه الامداد بعدد من السميريات على ان يكون لكل سميرية اربعون مجذافا ، فأرسل اليه صاحب الزنج خلال (٢٠) يوما اربعين سميرية في كل واحدة مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح [23] والتراس • وفي سنة ٢٦٥ ـ ٨٧٨ كتب سليمان بن جامع الى صاحب الزنج بشأن خطته في كري نهر بالبطيحة يعرف بنهر الزهيري لأهميته في ري سواد الكوفة ، فأرسل اليه صاحب الزنج رجلا خبيرا هو محمد بن يزيد البصري [24] • ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان علي بن محمد وعددا من قواده قد اكتسبوا خبرة عسكرية قبل وصولهم البصرة ، ومن المعروف ان عليا افلح في بث دعوته بين القبائل العربية في البحرين واستطاع ان يحشد الجموع ويضم مناطق متعددة في البحرين •

وفي المقابل فان جموع مؤيدي صاحب الزنج الاوائل ان كانوا من السودان او البيضان لم يكونوا جميعا من الجنود او ممن لهم خبرات

---

(١٩) الطبري م ٣ / ١٧٧٦ •
(٢٠) ن•م• م ١٨٧٨/٣ •
(٢١) ن•م• م ٣ / ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ •
(٢٢) ن•م• م ٣ / ١٩٢٥ •
(٢٣) ن•م• م ٣ / ١٩٥٣ •
(٢٤) ن•م• م ٣ ١٩٢٨ •

عسكرية وانما كانوا يعملون في الزراعة وكسح الاملاح من السباخ وتجميعها وشق الترع والانهار وتجفيف المستنقعات . وقد نجح علي بن محمد في تنظيم تلك الجموع وتوجيههم توجها حربيا لا سيما وانهم كانوا على معرفة دقيقة بجغرافية منطقة البصرة . وعلى الرغم من تواجد هذا النقص العسكري المنظم عند صاحب الزنج وجموع مؤيديه فان التاريخ يسعفنا بعدد من الروايات توضح التلاحم القوي بين القيادة والقاعدة ، وان ما تحقق من انتصارات يرجع الى تصميمهم وايمانهم . فمما اورده الطبري في سنة ٢٦٧ ــ ٨٨٠ م ان الموفق سار مع جيشه للاطلاع على مدينة المختارة تأهبا للهجوم عليها « فرأى من منعتها وحصانتها بالصور والخنادق المحيطة بها ... ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان ، ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ امره . فلما عاين اصحابه ــ أي اصحاب صاحب الزنج ــ ابا احمد ارتفعت اصواتهم بما ارتجت له الارض»[٢٥] . ويقول الطبري ، أيضا خلال حديثه عن هجمات الموفق المتعددة على مدينة المختارة ، واصفا جماعة صاحب الزنج ما يلي « فاشتدت محاماة الفسقة عن ذلك ــ أي عن المسجد في المختارة ــ والذي عنه* بما كان الخبيث يحضهم عليه » ويعلق على استماتهم في الدفاع عن مدينتهم قائلا « حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب احدهم السهم او الطعنة او الضربة فيسقط فيجذبه الذي الى جنبه ويقف موقفه اشفاقا من ان يخلوا موقف رجل منهم فيدخل الخال على سائر[٢٦] أصحابه» . وفي حادثة اخرى اوردها الطبري تفيد بأن احد قواد صاحب الزنج المشهورين بهبوذ بن عبد الوهاب اصيب بجراح في احدى المعارك فوهنت حالته ، ولكن اصحابه دافعوا عنه وفرقوا جيش ابي العباس وانقذوه من موت محتم[٢٧] . هذا فضلا[٢٨] عن تصريح عدد من المؤرخين بصلابة وشجاعة

---

(٢٥) م ٣ / ١٩٨٢ ــ ١٩٨٣ .
* اعتقد ان الاصح الذي بجنبه .
(٢٦) م ٣ / ٢٠٣٤ .
(٢٧) م ٣ / ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥ .
(٢٨) م ٣ / ٢٠٩٢ .

مؤيدي صاحب الزنج وقواده ، فسليمان بن جامع كما يقول الطبري « كان أكثر أصحابه غناء[28] عنه » ، وبهبوذ بن عبدالوهاب كان « أشد حماته بأسا واكثرهم عددا[29] وعدة » ، واحمد بن مهدي الجبائي «كان اعظم اصحابه[30] غنى عنه » ، واحمد البرذعي « كان من اشجع رجال[31] الخبيث » ، وابو النداء من القواد المشهورين بالبأس والنجدة ومن اجلد رجال سليمان بن [32] جامع ، واحمد بن موسى بن سعيد كان قائدا جليلا واحد عدد [33] الناجم ، ودرمويه الزنجي كان «من انجاد الزنج وابطالهم [34] » ، ويقول الطبري عن عميره انه « ذو بأس ونجدة وتقدم[35] في الحرب » ، والمهذب « من مذكوري اصحاب الخبيث ورؤسائهم[36] وشجعانهم » وغيره من الاقوال التي تصرح بقوة مؤيدي الثورة وصلابتهم في الدفاع عنها .

كان علي بن محمد ، وكما هو الحال في الترتيب العسكري لجميع الامارات الاسلامية في العصور الوسطى ، صاحب الزنج والداعي للثورة والقائد الاعلى للجيش ومنذ الايام الاولى لاندلاعها في سنة ٢٥٥ هـ والمشرف على جميع العمليات العسكرية والمعارك التي دارت رحاها بين مؤيديه من جهة وجيش العباسيين والبصريين من جهة ثانية . وهذا امر تقتضيه ضرورة تلك الفترة المبكرة من عمر الثورة ونقص التنظيم والانضباط عند جماعته ، ففي حادثة وقعت في الايام الاولى من سنة ٢٥٥ هـ يقول الطبري ان رجلا من السودان قد قتل من قبل بعض موالي الهاشميين في

---

(٢٩) م ٣ / ١٩٨٤ .
(٣٠) م ٣ / ١٩٦٩ .
(٣١) م ٣ / ١٩٩٩ ، ابني ابي الحديد : م ٢ / ٣٤٢ .
(٣٢) الطبري م ٣ / ١٩٦٦ .
(٣٣) ابن ابي الحديد م ٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .
(٣٤) الطبري م ٣ / ٢٠٩٦ .
(٣٥) ن.م. م ٣ / ١٩٨٥ .
(٣٦) م ٣ / ١٩٩٢ — ١٩٩٣ .

قرية القادسية في منطقة البصرة ، فلما وصل الخبر الزنج طلبوا من علي أن يأذن لهم بانتهاب القرية والقبض على القاتل « فقال : لا سبيل الى ذلك دون ان نعرف ما عند القوم وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسألهم ان يدفعوه الينا فان فعلوا والا ساغ[٣٧] لنا قتالهم » والرواية تشير بوضوح الى ان صاحب الزنج لم يكن همه القتل والنهب وكان يتبع اسلوبا سياسيا وعسكريا ذكيا في التعامل مع مؤيديه القليلي الخبرة العسكرية ومع اهالي القرى غير المنظمة الى دعوته ، وتشير الحوادث ايضا الى انه كان خبيرا باختيار المواقع العسكرية قبل التورط في معارك سريعة يقول الطبري « كان علي ــ اذا سار يتنكب[٣٨] القرى » . ومما يذكر الطبري ايضا ان عليا في احدى الحوادث عبر نهر دجيل ، في البصرة ، باتجاه قرية جبى ولكنه لم يدخلها بل « أقام خارجا منها وارسل الى من فيها فأتاه كبراؤهم وكبراء اهل الكرخ فأمرهم باقامة الانزال له ولاصحابه فأقيم له[٣٩] ما اراد » . وعندما سار صاحب الزنج سنة ٢٥٥ هـ نحو البصرة جرت معارك طاحنة بينه وبين البصريين ، كان النصر فيها للزنج وضعف امر البصريين كثيرا حتى ان الزنج طلبوا من علي بن محمد ان يأذن لهم باقتحام مدينة البصرة لأن لم يكن في وسع اهلها المقاومة « فزبرهم وهجن آراءهم وقال لهم : لا . بل ابعدوا عنها فقد ارعبناهم واخفناهم وامنتم جانبهم ، فالرأي الآن ان تدعو حربهم حتى يكونوا هم الذين[٤٠] يطلبونكم » وان قراءة للاحداث التي اعقبت هذه الحادثة تبين لنا بأن صاحب الزنج كان يتمتع ببعد نظر عسكري وعدم التسرع بدخول البصرة اذ انه لا يريد ان ينشغل اصحابه بنهب المدينة بقدر ما كان يهدف الى اخضاع المناوئين وكسر عزيمتهم . والأهم من هذا كله فانه اعتمادا على رواية الطبري ان اهالي البصرة كانوا قد كاتبوا الخليفة وطلبوا

---

(٣٧) م ٣ / ١٧٥٣ .
(٣٨) م ٣ / ١٧٦٢ .
(٣٩) م ٣ / ١٧٥٣ .
(٤٠) م ٣ / ١٧٨٦ .

منه النجدة ضد الزنج فأرسل اليهم الخليفة جعلان التركي مع امدادات عسكرية . كما انه امر ابا الاحوص الباهلي بالتوجه الى الابلة واليا عليها وأمده بقائد من[41] الاتراك . وعلى هذا فانه بوصول هذه الامدادات العسكرية سيكون موقف صاحب الزنج ضعيفا ومحاصرا من عدة جوانب فارتأى انه من الضروري التعجل بالانسحاب وعدم دخول المدينة والانصياع الى رغبة أصحابه . فالاجراءات التي سبق ذكرها تؤيد ما ذهبنا اليه بأن ظروف هذه المرحلة من الثورة خطيرة وتحتاج الى ترو وتوجيه مستمر لاصحابه واشراف دقيق على الحروب والمعارك وتهذيب لنفوس مؤيديه لذلك صار على صلة وثيقة جدا بتحركات اصحابه وانه كان لا يتوانى باتخاذ قرارات قاسية ضد من يخالف تعليماته ويخرج عن التوجيهات العسكرية العامة فيخبرنا الطبري ان جماعة من جند صاحب الزنج قد هاجم قرية الجعفرية في منطقة البصرة دون اذنه وقتلوا كثيرا من اهلها ونهبوا القرية وجاءوه ببعض الاسرى « فوبخهم وخلى[42] سبيلهم » (أي الاسرى) ثم وجه غلاما له الى من دخل قرية الجعفرية من الزنج فردهم « ونادى الا برئت الذمة ممن انتهب شيئا من هذه القرية او سبى منها احدا فمن فعل ذلك حلت به العقوبة[43] الموجعة » . ومن حوادث السنة ذاتها ايضا انه اتاه خبرا بأن اصحابه الزنج قد انشغلوا بشرب خمور وانبذة وجدوها في قرية القادسية في منطقة البصرة فسار اليهم « واعلمهم ان ذلك مما لا يجوز لهم وحرم النبيذ في ذلك اليوم عليهم وقال لهم : انكم تلاقون جيوشا تقاتلونهم فدعوا شرب النبيذ والتشاغل به[44] » . وقد ظل علي بن محمد على اتصال مباشر بقواده حتى بعد ان نجحت الثورة واتسعت انتصاراتها وهناك عدد من الاشارات

---

(٤١) م ٣ / ١٧٨٦ .

(٤٢) م ٣ / ١٧٥٨ .

(٤٣) ن.م. والصفحة .

(٤٤) م ٣ / ١٧٦٣ .

الهامة التي يمكن اضافتها الى ما تقدم ذكره من معلومات التي تؤيد حسن كفاية صاحب الزنج العسكرية وتتبعه الاحداث والتطورات ، ففي سنة ٢٦٦ هـ ٨٧٩ م طلب والي رامهرمز من علي بن ابان المهلبي قائد الزنج في الاهواز مساعدة عسكرية ضد اكراد الداربان • فكتب علي بدوره الى صاحب الزنج يخبره بالامر لكن الاخير نصحه بضرورة أخذ رهائن من والي رامهرمز كي لا يغدر به • يقول الطبري ان والي رامهرمز ارسل الى علي بن ابان ايمانا وعهودا بان يمنحه جميع الغنائم التي يحصل عليها فوافق المهلبي وارسل المساعدات دون ان يخبر صاحب الزنج بذلك فوقع في الفخ اذ خانه والي رامهرمز وكتب على أثر ذلك الى صاحب الزنج يخبره بالنتيجة فكتب اليه الاخير يعنفه قائلا : « قد كنت تقدمت اليك الا تركن الى محمد بن عبيد وان تجعل الوثيقة بينك وبينه الرهائن فتركت امري واتبعت هواك فذاك الذي ارداك واردى بجيشك [٤٥] » • وأراد أهالي البصرة سنة ٢٥٥ هـ ان يخدعوا علي بن محمد وقتله بارسالهم (٣٠٠) ثلاثمائة من الاعراب وايهامه بانهم يريدون الانضمام اليه ومقابلته فلما عاد رسوله بخبرهم « زجره وقال ان هذا مكيدة ، وأمر السودان بقتالهم » فلما قاتلوهم وصرفوهم التفت الى رسوله محمد بن سلم قائلا « ألم اعلمك انهم ارادوا كيدنا [٤٦] » •

ومع ان علي بن محمد كان قائدا أعلى للجيش والمشرف العام على تحركاته وتوسعاته ومراقبة تصرفات مؤيديه مراقبة دقيقة فانه لم يكن متفردا بشكل مطلق في اتخاذ القرارات ورسم الخطط بل ، واعتمادا على ما أورده الطبري وعدد من المؤرخين ، انه عندما رجع من بغداد الى البصرة عازما على بث دعوته بين صفوف الزنوج اعتمد على عدد من رفاقه القدماء وعددهم ستة رجال وكانوا بمثابة مجلس للثورة • وكما يقول الطبري ان عليا كان يشاور هؤلاء الستة في كل تطور جديد

---

(٤٥) م ٣ / ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ •
(٤٦) م ٣ / ١٧٧٥ •

يواجه الحركة خاصة خلال ايامها الاولى ، فيشير الطبري صراحة ان عليا اذا نزل موضعا من المواضع « اعتزل عسكره باصحابه الستة [٤٧] » . والرجال الستة هم : علي بن ابان المهلبي وهو أحد القادة المشهورين الذين اعتمد عليهم صاحب الزنج كثيرا ، وقد ظل يحارب الى جانب صاحب الزنج حتى نهاية الثورة في سنة ٢٧٠ هـ . وكان صاحب الزنج يستشيره في رسم الخطط العسكرية ، ففي سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ عندما أفلح الموفق بهدم سور المختارة مدينة الزنج ضاق الامر بعلي بن محمد فأشار عليه علي بن ابان ان يفتح الماء على السباخ التي يسلكها جيش العباسيين وبذلك يصعب عليها التقدم كما انه أشار عليه ان يحفر خنادق في مواضع عدة لتعيق جيش العباسيين من دخول المدينة [٤٨] . وبالفعل استطاع صاحب الزنج ان يعرقل جيش العباسيين ويدحرهم باتخاذه توصيات المهلبي . والثاني محمد بن سلم القصاب الهجري ، وكان قد رافق صاحب الزنج منذ ان كان هذا في البحرين ، واعتمد عليه صاحب الزنج كثيرا خاصة في امور تنظيم وبث الدعوة . اذ ان محمد بن سلم كان مثلا احد الرجال الاربعة الذين ظهروا في مسجد عباد بالبصرة داعين بأمر صاحب الزنج ودعوته [٤٩] . والثالث يحيى بن محمد البحراني ، وكان أيضا قد رافق صاحب الزنج من البحرين . والرابع سليمان ابن جامع وهو الآخر كان قد رافقه من البحرين . والخامس والسادس مشرف ورفيق وهما غلامان تركيان كان ليحيى بن عبدالرحمن ابن خاقان انضما الى دعوة صاحب الزنج عندما كان في بغداد [٥٠] . ويبدو أن هؤلاء الستة لم يقتصر عملهم على مناقشة امور الثورة وتطوراتها بل وأيضا قد تحملوا مسئوليات قيادية لمساعدة صاحب الزنج في الاشراف على انصار الحركة وعلى جبهات القتال وكذلك في الحفاظ على انتصارات

---

(٤٧) م ٣ / ١٧٦٠ ، د. السامر : ثورة الزنج ص ٤٧ .
(٤٨) م ٣ / ٢٠٤١ — ٢٠٤٢ .
(٤٩) م ٣ / ١٧٤٥ .
(٥٠) م ٣ / ١٧٤٦ — ١٧٤٧ .

الحركة وتنظيم المؤيدين . فمثلا ان محمد بن سلم احد الرجال الستة هو الذي قام بابلاغ صاحب الزنج بشأن تناول الزنج الخمر في قرية القادسية، وقد توجه صاحب الزنج الى جماعته برفقة اثنين من هؤلاء الستة محمد بن سلم ويحيى بن محمد (٥١) . كما ان اول من ظهر في مسجد عباد داعيـا للثورة هو واحد من هؤلاء الستة (٥٢) ، وقد اعتمد صاحب الزنج على محمد بن سلم في محاولة اقناع البصريين بأمر الحركة وأهدافها (٥٣) . وقد بـذل كل من علي بن ابان وسليمـان بن جامع مجهودا كبيرا في الدفاع عن الحركة منذ بدايتها وحتى مصرعهما في سنة ٢٧٢ هـ ٨٨٥ م.

واعتمادا على رواية ريحان بن صالح عند الطبري ان صاحب الزنج بعد ان تكاثر جمع المنضمين الى دعوته وحصوله على الاسلحـة اتخـذ خطوة عسكرية اخرى اذ عمل على تقويد قواده (٥٥) وترتيب عساكره وذلك بتوزيع الزنوج على اولئك القواد . وهنا لا بد لنا من القـول بأنه بينما كان علي بن محمد زعيما للحركة وقائدا أعلى للجيوش أصبح كل من الرجال الستة قائدا اعلى للجماعة المنضوين تحت لواءه ، وباتساع انتصارات الحركة ازدادت حجوم الجبهات العسكرية التي يشرف عليها هؤلاء الرجال الستـة . فهناك روايات تشير الى ان لعلي بن ابـان قواد تابعين لامرتـه كذلك الحـال بالنسبة الى سليمان بن جامع ويحيى ابن محمـد .

ومع هذا فان تضخم حجم المنضمين الى الثورة وتقويد القـواد وتوزيعهم على جبهات قتال متعددة لم تؤد الى فصم او اضعاف الروابط

---

(٥١) م ٣ / ١٧٦٣
(٥٢) م ٣ / ١٧٤٥ .
(٤٣) م ٣ / ١٧٨٢ .
(٥٤) ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .
(٥٥) الطبري م ٣ / ١٧٧٤ .

بين صاحب الزنج ورجالـه الستة المقربين وبقية قواده بل بقي ، كما مر بنا ، على اتصال مباشر ووثيق بهم اذ انه لم يتخلى عن الاشراف العـام للقيـادة ووضع الخطط العسكرية ومراقبة القواد وتصرفاتهم . وهناك اكثر من دليل يشير الى ان كل قائد أعلى من قواده كان لا يتصرف عسكريا بله اداريا في المنطقة التي يشرف عليها دون ان يتصل بصاحب الزنـج ويحصل على مشورته ونصحـه في قراراته . ففي سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م عندما نزل سليمان بن جامع في قرية تقع على الجانب الشرقي من نهر طهيتا بالبطائح للتحصن بها كتب الى صاحب الزنج يعلمه بما فعل فكتب اليه هذا بتصويب رأيه ويأمره بارسال الميرة والنعم والغنم فانفذ سليمان ذلك اليه [٥٦] . وفي السنة ذاتها كتب احمد بن مهدي الجبائي قائـد السميريات في جبهة البطائح الى صاحب الزنج يخبره بأن البطيحـة خالية من جيش السلطان على أثر سحبها لمجابهة هجوم يعقوب بن الليث الصفار على مدينة واسط . فوجه صاحب الزنج امرا الى القائد الاعلى هناك سليمان بن جامع يقضي بتوجهه وعسكره الى قرية الحوانيت في البطيحة والاستيلاء عليها [٥٧] . وفي سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ م وبعد ان استطاع سليمان بن جامع السيطرة على الحوانيت والبطيحة كتب الـى صاحب الزنج رسالة يطلب فيها ان يأذن له في التوجه اليه « ليحدث به عهدا ويصلح امورا من امور منزله [٥٨] » فجاءه الجواب بالموافقة فحمل معه الاعـلام التي حصل عليهـا اثناء العمليات العسكريـة كدليل علـى انتصاراته [٥٩] . وفي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م كاتب سليمان الشعراني صاحب الزنج عن نتائج المعركة التي وقعت بين جيشه وجيش ابي العباس بن الموفق وانتصار الاخير وانهزام الشعراني الى المذار ، فما كان من صاحب

---

(٥٦) م ٣ / ١٩٠٣ .
(٥٧) م ٣ / ١٨٩٩ .
(٥٨) م ٣ / ١٩١٧ .
(٥٩) م ٣ / ١٩٢٠ .

الزنج الا ان يوجه كتابا الى سليمان بن جامع قائد المنطقة يعلمه فيه بهزيمة الشعراني وحذره من « مثل الذي نزل بالشعراني ويأمره بالتيقظ في أمره وحفظ ما قبله [٦٠] » . وعندما انتصر الموفق على سليمان بن جامع وسيطرته على البطيحة ثم توجهه نحو الاهواز كتب صاحب الزنج الى علي بن ابان وبهبوذ بن عبد الوهاب بالمجيء الى المختارة لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة [٦١] .

كان العدو الرئيس والوحيد لصاحب الزنج في بداية أو الحركة متمثلا بالملاكين البصريين وجيشهم وبجيش العباسيين المرابط في مدينة البصرة لذلك وجدنا علي بن محمد يشارك بنفسه في القتال . ولكن عندما اتسع أمر الحركة فخضعت البصرة والابلة وعبادان والمفتح الى نفوذ صاحب الزنج بات من الضروري تقسيم القتال الى جبهات . وهنا أيضا تظهر حنكة صاحب الزنج في اختياره القواد وتقسيمه الجبهات فسلم الجبهة العسكرية الشرقية المتمثلة بمنطقة الاهواز الى علي بن ابان المهلبي كقائد أعلى ومشرف على القتال فيها ، ولهذا اطلق ابن ابي الحديد على علي بن ابان لقب قائد القواد وامير الامراء [٦٢] . ثم قلد صاحب الزنج المهلبي ولاية المنطقة التي خضعت له في الاهواز [٦٣] . وسلم سليمان بن جامع قيادة الجبهة الشمالية المتمثلة بالبطائح وواسط ، والى سليمان هذا يرجع الفضل في السيطرة العسكرية على جميع القرى والمراكز في منطقة البطائح ، وفضلا عن ذلك صار عاملا عليها [٦٤] .

ويبدو أن الجبهة الواحدة كانت بدورها تقسم الى جبهات أصغر ويقودها قواد تابعون الى القائد الاعلى للجبهة . ففي جبهة البطائح مثلا كان كما قلنا سليمان بن جامع القائد الاعلى بينما يظهر لنا سليمان

---

(٦٠) م ٣/١٩٦٤ ، ١٩٦٥
(٦١) م٣/١٩٧٤ ، ١٩٧٥
(٦٢) ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٥
(٦٣) الطبري م ٣/١٩٠٨ — ١٩٠٩
(٦٤) ن. م. م ٣/١٩١٧ ، ١٩٢٦

ابن موسى الشعراني كقائد لجبهة ضمن المنطقة ذاتها . كذلك كان علي بن ابان قائدا اعلى لجبهة الأهواز في حين كان بهبوذ بن علي بن ابان قائدا لمنطقة اخرى ضمن هـذه الجبهة وفوق هـذا يصبح عاملا على الغندم والباسيان ... الخ ضمن منطقة اشرافه العسكري في الجبهة الشرقية(٦٥). أيضا كان صاحب الزنج يعين نوابا ومساعدين لكل قائد اعلى من تلك الجبهات، اذ يفهم من الروايات التاريخية ان احمد بن مهدي الجبائي مثلا كان مساعدا ونائبا لسليمان بن جامع في الجبهة الشمالية (أي البطائح). والجبائي يعد من أشهر القواد بسالة في المعارك النهرية اذ كان قائـدا للسميريات (٦٦) . بينما كان بهبوذ بن عبد الوهاب مساعدا ونائبا لعلي بن ابان في الجبهة الشرقية (جبهة الاهواز) ، ويبدو ان هناك مساعدا آخر هو محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائي او الكرماني (٦٧) . فضلا عن هذا فان هناك عددا من الاشارات التي يستفاد منها على ان لكل من علي بن ابان وسليمان بن جامع عدد من القواد ويشرفون على عدد من الجنـود منهم مثلا : عمير بن عمـار (٦٨) ، والصقر بن الحسين (٦٩) ، وجعفر بن محمد (٧٠) ، وريـاح القندلي (٧١) ، وابو النداء (٧٢) ، وعبدالله المذوب (٧٣) ، والزنجي بن مهربان (٧٤) ، ولؤلؤ (٧٥) ، وابو دلف (٧٦) ،

---

(٦٥) م ١٩٧٥/٣

(٦٦) م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤

(٦٧) م ٢٠٦٨/٣ – ٢٠٦٩ ، ٢١١١

(٦٨) م ١٨٩٩/٣

(٦٩) م ١٩٢٢/٣ – ١٩٢٣

(٧٠) م ١٩٢٣/٣

(٧١) م ١٩٠١/٣

(٧٢) م ١٩٦٦/٣

(٧٣) م١٩٢٥/٣

(٧٤) م ١٩٢٦/٣

(٧٥) م ١٩٥٧/٣

(٧٦) م ١٩٥٧/٣

ومنتاب [٧٧] ، ونصر السندي [٧٨] ، وهؤلاء كانوا تابعين لسليمان بن جامع واحمد بن مهدي الجبائي في البطائح . ومن القواد التابعين لعلي ابن ابان في الأهواز محمد بن يحيى [٧٩] بن سعيد الكرماني او الكرنبائي ، واحمد البرذعي [٨٠] ، ويحيى بن خلف[٨١] النهربطي ، وابرون [٨٢] ، وفرج المكنى بابي صالح [٨٣] ، واحمد الزرنجي [٨٤] ، وانكلويه[٨٥] ، وجعفروية[٨٦] . من هذا كله يبدو ان الترتيب العسكري عند الزنج كان بصورة عامة يشابه بقية الجيوش الاسلامية بتقسيمها المعتاد الى امير وقائد ونقيب وعريف وجنود ، فالأمير له عشرة قواد ومائة نقيب والف عريف ، والقائد له الف جندي وعشرة نقباء ومائة عريف ، والنقيب له مائة جندي وعشرة عرفاء ، والعريف له عشرة جنود . علما بأنه لم ترد اشارات صريحة عن تعداد الجنود الذين كانوا يتبعون الامير او القائد او النقيب ... الخ عند الزنج . ومع هذا واعتمادا على رواية الطبري كان علي بن ابان يشرف على جيش قوي يقدر بثلاثين الف [٨٧] مما قد يفهم منها ان عليا كان امير الامراء ، وكذلك ترد رواية تفيد بأن ابراهيم بن جعفر الهمداني كان قائدا على جيش تعداده ٤٠٠٠زنجي [٨٨] . ولكن في المقابل يوجد عدد من الاشارات التي يتكرر فيها لقب قائد وعلى

---

(٧٧) م ١٩٨١/٣
(٧٨) م ١٩٥٦/٣
(٧٩) م ١٩١٠/٣ ، ١٩٧٥
(٨٠) م ١٩٩٩/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٤٢ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣٣ — ٣٤
(٨١) الطبري م ١٨٧٥/٣
(٨٢) ن.م. م ١٩٣٤/٣
(٨٣) م ١٩٣٤/٣
(٨٤) م ١٩٣٨/٣
(٨٥) م ١٩١٣/٣ ، ١٩٣٣ — ١٩٣٤
(٨٦) م ١٩٣٤/٣
(٨٧) م ١٩١٠/٣ ، ١٩٧٤ — ١٩٧٥
(٨٨) م ١٩٩٠/٣

عدد قليل أقل بكثير من الرقم السابق (٤٠٠٠) ، فيقول الطبري ان صاحب الزنج كافأ في احدى المرات زنجيا يسمى قاقوية بأن جعله قائدا على مائة من السودان [٨٩] ، ولعل المقصود بذلك نقيب وليس قائـدا بالمعنى المعروف آنذاك في الجيوش الاسلامية . كما انه وردت روايـة اخرى تفيد بأن مصلحا احد قواد الزنج كان له عرفاء تحت امرته[٩٠] . والملاحظ بصورة عامة ان هذا الترتيب العسكري لم يكن يراعى بدقة او لم يكن مستقرا ودائميـا ففي حوادث سنـة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م مثلا انتخب صاحب الزنج ٥٠٠٠ من الزنوج وجعلهم تحت قيادة المهلبي وكان فيهم حسبما تشير الرواية مائتين قائدا [٩١] .

المعروف ان دعوة علي بن محمد قد تركزت في منطقة البصرة لوجود اعداد غفيرة من الزنوج وغيرهم العاملين في الارض وبذلك فانهم شكلوا العمود الفقري للتركيب الاثنولوجي للجيش . وكان هؤلاء العبيـد يستوردون من جهات عدة من افريقيا [٩٢] من زنجبار والحبشة وساحل افريقيا الشرقية ومناطق من افريقيا الداخلية لاغراض انتاجية . فكـان عملهم في منطقة البصرة يتركز على كسـح السباخ وتجميع الامـلاح وشق الانهار والترع والزراعة ، ثم كانوا يعملون على شكل جماعـات كبيرة وصغيرة يتراوح تعدادها بين ٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ زنجي[٩٣] . وكانوا يعيشون احوالا اجتماعية واقتصادية ونفسية وصحية تعيسة ، الامر الذي ساعد صاحب الزنج ان يبشر بدعوته بين صفوفهم . وكما سبق ذكره ان هؤلاء الزنوج لم يكونوا جنودا او ممن لهم خلفية عسكرية ولكـن صاحب الزنج وأصحابه الستة بذلوا الكثير من أجل تنظيمهم وتوجيه قدراتهم وقابلياتهم واستغلال سوء اوضاعهم واستيائهم فصاروا بمرور

---

(٨٩) م ٣/١٧٦٤

(٩٠) م ٣/١٨٦١

(٩١) بن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ٣٣

(٩٢) د. فيصل السامر : ثورة الزنج (بيروت ١٩٧١) ص ٢٢

(٩٣) ن. م. ص ٢٨

الزمن العنصر البارز والكبير في الجيش . وهم كما صنفهم الدكتور السامر اصناف متعددة منهم مثلا الغلمان الشورجيون الذين كانوا يعملون في الشورج أي الملح ، والقرماطيون ، وهؤلاء أيضا كانوا يعملون بالشورج وكانوا يعرفون العربية ، والفراتية وكانوا يعملون في قرى فرات البصرة ، والنوبة ، والزنوج الذين لم يكن يعرفون اللغة العربية ، والغلمان العاملون لحساب التمارين [٩٤] والدباسين . ومما هو جدير بالذكر ان النجاحات الباهرة التي احرزها هؤلاء الزنوج في حروبهم ضد جيش العباسيين المدرب والمنظم يعد خير دليل على مدى تحمسهم واندفاعهم . كما ان معرفتهم الدقيقة لجغرافية المنطقة الجنوبية من العراق تعد عاملا مساعدا آخر في معاركهم ضد جيش العباسيين المتكون من ابن سمعان ، الى ثلاث جبهات . وتم دخول البصرة من ثلاثة أوجه من الاتراك ، لذلك نرى الزنج قد استخدموا استراتيجية عسكرية وخططا عسكرية لم يكن للاتراك دربة عليها وكفاية كما هو الحال مثلا بخطة نصب الكمائن في الانهار والترع وبين الاحراش كما سيأتي ذكره .

ومع هذا فان ما مر لا يعني بأن الجيش كان مقتصرا على الزنوج فقط بل ، وحسبما اورده الطبري صراحة ، ان هناك عنصر البيضان الى جانب السودان . ففي احدى الروايات التي يرجع تاريخها الى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م يذكر الطبري والصفدي ان عدد من وافى الموفق من جيش الزنج يبلغ ٥٠٠٠ رجل من ابيض واسود [٩٥] ، كذلك الرواية التي تفيد بأن منصور بن جعفر ابن دينار الخياط انتصر على علي بن ابان في الأهواز « وقتل من البيضان والزنج خلقا [٩٦] كثيرا » . كما ويتردد ذكر اسماء عدد من الشخصيات العرب وعدد من القبائل العربية المشاركة

---

(٩٤) ن . م . ص ٣٤ — ٣٧

(٩٥) الطبري م ٣/١٨٦٠ ، ١٩٩٣ ، الصفدي : مخطوط الوافي بالوفيات ورقة (١٤٢) ب

(٩٦) الطبري م ٣/١٨٦٠ . عن تركيب الجيوش الاسلامية انظر (Djaysh) في El. (2)

في جيش صاحب الزنج منهم على سبيل المثـال : علي بن ابان المهلبي والخليل بن ابان ومحمد بن ابان ومحمد بن سلـم وسليمان بن موسى ومحمد بن الحارث العمي واسد بن معلى بن اسد العمي ، ومحمد بن ابراهيم ومحمد بن يزيد الدارمي وجعفر بن احمد (٩٧) وغيرهم من اسماء القواد ومؤيدين لصاحب الزنج • فالعمي مثلا يرجع نسبه الى بني العم ابن مره بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة ودخلوا في قبيلة تنوخ بالحلف واستوطنوا البصرة منذ زمن ولاية ابي موسى الاشعري (٩٨) (١٧ ـ ٢٩ / ٦٣٨ ـ ٦٤٩) • والدارمي حسبما يقول ابن دريد يرجع الـى عبدالله بن دارم الذين كانوا بهجر ثم قدموا البصرة مع بني عبدقيس فسموا بالهجريين (٩٩) ، كما ان هناك بطنا كبيرا لقبيلة بني تميم العدنانية يدعى بنو دارم بن مالك (١٠٠) بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم • ومن القبائل العربية الاخرى ورد ذكر بنو ضبيعة والراجح انهم بنو ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل • وقد ذكر كل من السمعاني وابن الاثير وياقوت ان بني ضبيعة سكنـوا محلة بالبصرة اتخذت اسمهم على الرغم من ان ياقوت الحموي قد وقف حائرا بين بني ضبيعة بن قيس أو بني ضبيعـة بن نزار • ولكنه يعود فيعلق على ان الاولى أرجح لأنها أكثر وأشهر (١٠١) • وبنو كجل بن لجيم بن صعب بن

---

(٩٧) انظر : الطبري م ١٧٤٧/٣ ، ١٧٦٠ ، ١٩٢٥ ، ٢١١١ ، ٢٠٦٩ ، ١٩٩٩ ، ١٩٢٣ ، ١٨٤٨ ، ١٩٧٩ ،الطوسي :الفهرست.١٩٦٠ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٣٢ •

(٩٨) انظر الطوسي : الفهرست ص ٥٤ ـ ٥٥ ، النجاشي : الرجال ص ٧٥،٨٢ ـ ٨٣ القهبائي: مجمع الرجال (اصفهان ١٣٨٤هـ) ص ٨٨ ، ٨٩

(٩٩) ابن دريد : الاشتقاق (١٩٥٨) ص ٢٣٤

(١٠٠) السمعاني : الانساب (ليدن ١٩١٢) ص ٢١٨ أ ، ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب (القاهرة ١٣٥٧ هـ) ج١ ص٤٠٤

(١٠١) السمعاني : ص ٣٦٠ أ ـ ب ، ابن الاثير: اللباب ج٢ ص٧٠، ياقوت الحموي : معجم البلدان (ليبزج) ج٣ ص ٤٦٤ •

علي بن بكر بن وائل وينسب اليهم كثير من الأشخاص من بينهم ابو الاشعث المقدام العجلي من أهل البصرة ولبني عجل مواضع عدة تقع على الطريق من البصرة [١٠٢] الى مكة • كذلك بنو تميم وهم قبيلة عدنانية مشهورة وتشكل العمود الفقري لسكان البصرة ، كما أن القبيلة لعبت دورا بارزا في حياة البصرة السياسية[١٠٣] والاجتماعية • وبنو أسد وهؤلاء حسبما يعتقد انهم بنو اسد بن شريك بطن من قبيلة الازد القحطانية وليسوا ببني اسد بن خزيمة العدنانية • وكانت لهم خطة بالبصرة يقال لها خطة بني اسد بينما يقول ، ابن دريد في الاشتقاق والسمعاني ، ليست بالبصرة خطة لبني اسد بن خزيمة[١٠٤] • وبنو باهلة في البطائح ويرجع نسبهم الى باهلة بن اعصر بن سعد بن قيس عيلان من مضر ، ويبدو ان جماعة منهم قد سكن البصرة اذ يقول السمعاني ان ابا بكر محمد بن حيان الباهلي من أهل البصرة [١٠٥] • كما ورد ذكر عشيرة البلالية الذين كانوا في البطيحة ، ومما يجدر ذكره ان البلالية تعد من القبائل الهامة في البصرة وقد كانوا والسعدية من أبرز اعداء صاحب الزنج ، ويرجع البلالية الى ربيعة [١٠٦] • كما وردت اشارة الى طائفة من الاعراب [١٠٧] في الجيش • واشترك في جيش صاحب الزنج من اهالي

---

(١٠٢) السمعاني ص ٣٨٥ أ ، ابن الاثير ج٢ ص ١٢٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٠ ، ٨٧٥ ، ٩٤٦ ، ج٤ ص ٤٢٧ ، ٩٥٤

(١٠٣) نظر د. صالح احمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري (١٩٥٣) ص ٤٦ — ٤٧ ، ٢٩٠ — ٢٩١ ، كذلك Ch. Pellat
«Le Milieu Basrien et la Formation de Gahiz», Paris 1953 p. 24;
Levi Pella Vida (Tamim) in El. (1)

(١٠٤) السمعاني : الانساب ص ٣٢ أ ، ابن الاثير : اللباب ج١ ص٤١

(١٠٥) الطبري م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٢ ، السمعاني ص ٦٤ ب

(١٠٦) انظر الطبري م ١٩٠١/٣ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٩٠٦) ص ١٢٩ — ١٣٠ ،
A.J. Naji : Basra, unpublished Ph. D. thesis 1970, p. 324.

(١٠٧) الطبري م ١٨٤٨/٣ — ١٨٤٩ •

قرية جبى في الأهواز وقيل من قرى البصرة . وقد انتسب عدد من الشخصيات العربية الى جبى منهم ابو علي محمد بن عبد الوهاب وابنه ابو هاشم وابو علي صاحب مقالات المعتزلة وخالد بن حمران بن ابان وهو متكلم أيضا وشيخ المعتزلة [١٠٨] . ويبدو ان هناك عددا كبيرا من الجبائين في جيش الزنج ، ففي رواية للطبري يستفاد منها بأن لصاحب الزنج جيشا معسكرا في الدور وابرسان يتألف من الف وخمسمائة من الزنج والجبائيين[١٠٩] . ولما كنا في صدد الحديث عن التركيب الاجتماعي لجيش صاحب الزنج يعترضنا تساؤل يتعلق بمدى مشاركة أي من العناصر الاجنبية السائدة في الجيش العباسي آنذاك ، أي الاتراك والديلم ، والحقيقة اننا لم نستطع العثور على معلومات كافية توضح ذلك ما عدا اشارة واحدة اوردها الطبري تفيد بأنه عندما قتل تكين البخاري ، احد القواد الاتراك المشهورين في جيش العباسيين ، في الاهواز سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م انحازت فرقة من عسكره الى جيش صاحب الزنج [١١٠] . ولكننا لا نعرف فيما اذا ظلت هذه الفرقة الاجنبية تحارب في صفوف جيش صاحب الزنج ام لا ؟ وهناك ايضا اشارة عن مشرق ورفيق وهما غلامان تركيان دخلا دعوة علي بن محمد حينما كان في بغداد واصبحا من رجاله الستة ومن قواده المشهورين [١١١] . كذلك اورد الطبري في حوادث سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ رواية جاء فيها ان محمد بن عبيدالله ابن ازاذ مرد الكردي متقلد الاهواز قد انضم وبرفقته (٣٠٠) فارس مع علي بن ابان المهلبي قائد صاحب الزنج في الأهواز [١١٢] . غير ان هذا لا يعني انهم استمروا يحاربون الى جانب المهلبي اذ ان الطبري

---

(١٠٨) السمعاني ص ١٢١ أ ، ابن الاثير : اللباب ج١ ص ٢٠٨

(١٠٩) الطبري م ١٩٦٠/٣

(١١٠) الطبري م ١٩٣٥/٣

(١١١) ن. م. م ١٧٤٦/٣ - ١٧٤٧ ، ابن الاثير ج٥ ص ٣٤٧

(١١٢) الطبري م ١٩٠٩/٣

يسعفنا برواية اخرى تفيد بأن محمد بن عبدالله هذا كان قد خدع المهلبي وأراد من انضمامه اليه ان يحقق مآربه (١١٣) .

ان الحديث عن العناصر المكونة لجيش صاحب الزنج يجرنا الى موضوع آخر لا يقل أهمية ذلك المتعلق بحجم الجيش وتعداده . وقبل كل شيء لا بد ان نعترف بأنه من الصعب جدا اعطاء ارقام محددة ودقيقة لذلك الجيش كما هو الحال في الصعوبة التي تواجه الباحث في بقية الجيوش الاسلامية آنذاك ، ولكننا سنقوم بمحاولة لتتبع الحركة منذ أيامها الاولى كي نلمس التطور الذي طرأ على حجم جيشها . بادىء ذي بدء يمدنا الطبري برواية مهمة أخذها عنه أيضا ابن ابي الحديد تتصل بعدد الغلمان الشورجين العاملين بجمع الشورج في منطقة فرات البصرة فيقول انهم كانوا ١٥٫٠٠٠ غلام (١١٤) ، كما ان هناك رواية يفهم منها ان الزنوج كانوا يعملون في القرى على شكل كتل صغيرة وكبيرة يبلغ حجم بعضها ٥٠٠ (١١٥) الى ١٠٠٠ غلام . غير انه لا يمكن الاعتماد على هاتين الاشارتين في تقديم أية احصائية لعدد العبيد العاملين في منطقة البصرة ، غير انهما وكذلك من خلال مجريات الاحداث العسكرية تمكننا القول بأن اعدادهم كانت ضخمة . ففي تاريخ الرسل والملوك والمصادر التاريخية الاخرى روايات عديدة تشير الى ارقام او اعداد المشاركين في الحروب يمكن الاستعانة بها كما يمكن الاستعانة بالروايات الخاصة بعدد الذين استأمنوا من الزنوج الى الموفق على أثر انتصاراته الحربية ، فكانت حصيلة هذا كله احصائيات تقريبية لجيش صاحب الزنج . فضلا عن هذا كله فان الطبري وعدد من المؤرخين يرددون تعبيرات عامة لا يحدها عدد ولكنها تتضمن اشارات عن ضخامة الجيش ، ومن امثال هذه

---

(١١٣) م ١٩٠٩/٣ — ١٩١١

(١١٤) م ١٧٥٠/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣١٣

(١١٥) الطبري م ١٧٤٩/٣ — ١٧٥٠ ، د. فيصل السامر ص ٢٨

التعبيرات : « خلق كثير » او « جمع كثير » او « جمع[116] كثيف » .
فاعتمادا على الطبري ان صاحب الزنج بعد ان نزل منطقة فرات البصرة مبشرا بدعوته قام بجمع العبيد من الوكلاء فاجتمع حوله حوالي ٨٠٠ رجل ثم تزايد بسرعة حتى بلغ حوالي ٢٠٠٠ رجل في الايام الاولى من الحركة[117] ، وهناك عدد من الشواهد العسكرية التي تؤيد ذلك . ففي احدى الروايات يذكر الطبري ان عليا وجه طليعة للتعرف عن خبر البصريين وجيش العباسيين ثم امد الطليعة بالف رجل[118] . وفي رواية اخرى تفيد ان الزنج اندحروا في احدى المعارك ضد البصريين فتفرقوا ولم يبق منهم الا ٥٠٠ رجل لكن العدد تضاعف في اليوم الثاني فوصل الى ١٠٠٠ رجل[119] . وفي سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ م عند دخول الزنج مدينة البصرة ارتفع العدد كثيرا حتى ان الجيش المهاجم قد قسم ، حسبما شاهده زهران والمربد[120] وبني حمان وهي محلات مشهورة في البصرة . ويقول ابن ابي الحديد ان عليا سار الى البصرة بجيش يبلغ الـ ٦٠٠٠ رجل[121] . ومع هذا فانه من الممكن القول ابتداءا من سنة ٢٥٧ هـ فصاعدا يأخذ الطبري ترديد عبارات تدل على تضخم جيش الزنج بشكل أكبر مثلا يذكر ان علي بن ابان كان مقيما في قرية جبي بجمع كثير من[122] الزنج،وكان للزنج في قرية بالبطيحة تسمى الصينية جيش كثيف[123] ..الخ ،

---

(116) الطبري م ٣/١٨٥١ ، ١٨٦٢ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٥ ، ٢٠٠١ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠١٠ ، ٢٠٦٧ ، ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ ، ٢٠٨٣ ، ٢٠٨٨

(117) ن.م. ٣/١٧٤٩ ، ١٧٥١ ، ١٧٦٧ ، ١٧٧٣ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٨ ، العيون والحدائق لمؤلف مجهول ، تحقيق نبيلة عبد المنعم (١٩٧٢) ج ٤ ق١ ص٥٠

(118) الطبري م ٣/١٧٦١ — ١٧٦٢
(119) ن. م. م ٣/١٧٨١
(120) م ٣/١٨٥٢ — ١٨٥٣

(121) شرح نهج البلاغة مجلد ٢ ص ٣١٤ ، د. السامر : ثورة الزنج ص ١٠٣
(122) الطبري م ٣/١٨٦٢
(123) م ٣/١٩٥٦

كما نعثر ابتداءا من تلك السنة على روايات لاعداد كبيرة تختلف عن تلك التي سبق ذكرها . المعروف كما تقدم ذكره ان صاحب الزنج فتح بعد ان ضم البصرة والقرى المجاورة لها جبهتين جديدتين الاولى في البطائح والثانية في الأهواز فضلا عما تتطلبه جبهة البصرة من قوة عسكرية ، فترد في احدى الروايات ان الزنج وضعوا كمينا لابي العباس بن الموفق في برتمرتا ـ موضع في البطيحة ـ يقدر بـ ١٠ر٠٠٠ رجل وفي قس حثا ـ موضع بالبطيحة أيضا ـ يقدر بـ ١٠ر٠٠٠ [١٢٤] رجل ايضا ، فكان بذلك مجموع الكمين فقط ٢٠ر٠٠٠ رجل . وللطبري رواية اخرى تفيد بان صاحب الزنج استدعى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م علي بن ابان من الاهواز وكان هذا مقيما بحوالي ٣٠ر٠٠٠ [١٢٥] رجل . ويحتمل ان سليمان بن جامع كان ايضا مقيما بالبطيحة بمثل ذلك العدد من الجنود ، علما بأن سليمان قد تسلم عددا من الامدادات العسكرية [١٢٦] من صاحب الزنج في أوقات مختلفة . فضلا عن هذا قمت باحصاء ما اورده الطبري عن اعداد الزنوج والآخرين المستأمنين [١٢٧] الى ابي العباس وأبيه الموفق ان كان ذلك في الاهواز او البصرة فكان حوالي ١٨ر٠٠٠ رجل عدا التعبيرات غير المحدودة بعدد من امثال : واسروا « بشرا كثيرا [١٢٨] » أو فانضم الى

---

(١٢٤) م٣/١٩٥١ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٤

(١٢٥) الطبري م ٣/١٩٧٤ ، العيون والحدائق ج٤ ق ١ ص ٩٥ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣١

(١٢٦) الطبري م ٣/١٩٢٣ ، ١٩٢٥ ، ١٩٥٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٣

(١٢٧) فمثلا استأمن في الاهواز ١٠،٠٠٠ رجل ، وفي البصرة سنة ٢٦٧ هـ ٦٠٠٠ رجل ، وفي سنة ٢٧٠ هـ استأمن حوالي ١١،٠٠٠ رجل انظر الطبري م ٣/١٩٧٧ ، ١٩٨٠ ، ١٩٩٣ ، ٢٠٩٤ ، ٢٠٨٨ ، ٢٠٩٤ ، كذلك ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٤٠ يذكر ان مجموع ما استأمن في سنة ٢٧٠ هـ ٧٠٠٠ رجل ، الصفدي : الوافي ورقة ١٤٢ (ب) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٤٤

(١٢٨) الطبري م ٣/١٩٦٣

الموفق خلق كثير من الزنج [129] وغيرهم ، ويذكر ابن كثير ان عدد المستأمنين من الزنج الى الموفق بلغ [130] ٥٠٫٠٠٠ رجل ٠

أما فيما يتعلق الامر بمنطقة البصرة فلقد كان لصاحب الزنج جيش مرابط في المختارة للدفاع عنها ضد هجوم الموفق وفضلا عن ذلك ثلاث قواعد عسكرية في ثلاث مناطق استراتيجية غرضها كما يعتقد مجابهة هجوم جيش العباسيين من جهة وتأمين وصول الامدادات والتجارات من جهة اخرى ٠ وكانت الاولى في موضع حيان روذان تحت اشراف القائد ابراهيم بن جعفر الهمداني وتحت امرته جيش يتكون من ٤٠٠٠ رجل والاخرى في موضع في نهر القندل وتحت اشراف محمد بن ابان المهلبي وتتكون من ٣٠٠٠ رجل والثالثة في ابرسان وتتكون من ١٥٠٠ رجل من الزنج والجبائيين [131] ٠

ومما يذكر ايضا انه بعد انكسار الزنج في البطائح والأهواز انسحبت جيوش هاتين الجبهتين نحو المختارة فتضخمت بذلك الجيوش المدافعة عن المدينة والمتبقية لصاحب الزنج ٠ ففي يوم السبت لاربع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م سار الموفق نحو المختارة بحوالي ٥٠٫٠٠٠ رجل بينما كان عدد جيش الزنج كما يقول الطبري ٣٠٠٫٠٠٠ [132] رجل ٠ وعلى الرغم مما في هذه الرواية من مبالغة واضحة

---

(١٢٩) ن٠ م٠ م ٣/١٩٨٥

(١٣٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٤٤

(١٣١) ميان روذان : جزيرة تحت البصرة وفيها عبادان وفيها نخل وعمارة وقرى (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٠٨-٧٠٩ اما نهر القندل فهو نهر في البصرة يأخذ من شط العرب الى الجنوب من نهر ابي الخصيب ، والقندل موضع بالبصرة على ذلك النهر . انظر سهراب : عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة (ليبزج) ص ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ١٨٣ ، ٨٤٣ . وعن الرواية انظر الطبري م٣/١٩٩٠.

(١٣٢) الطبري م ٣/١٩٨٦ - ١٩٨٧ واورد الرواية ايضا العيون والحدائق ج٤ ص ٩٨ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣٢ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٣٠ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج١ ص ١٥٢

غير انها قد تساعدنا على تثبيت الفكرة المتمثلة بضخامة جيش صاحب الزنج ، ومن المحتمل ان يكون الرقم ٣٠٠٠ر٣٠ رجل أو دون ذلك بدلا من ٠٠٠ر٣٠٠ رجل .

لم ترد اشارات تتعلق بتقسيمات الجيش العسكرية ولكن هنالك روايات متعددة عن عدد من الاشخاص الذين كانوا يحتلون مركز القيادة، ويبدو ان اعداد هؤلاء كان كثيرا فمما يذكر انه في سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م قتل ابن ليثويه قائد العباسيين في ناحية جنبلاء حوالي ٤٧ قائدا وخلقا لا يحصى كثرة [١٣٣] من الزنج . ويذكر الطبري في رواية اخرى ان صاحب الزنج أمر المهلبي في شوال من سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م بالهجوم على الموفق بجيش عدته ٥٠٠٠ رجل بينهم نحو من ٢٠٠ [١٣٤] قائد ، والاعداد المذكورة تدل بحد ذاتها على كثرة عدد جيش صاحب الزنج . واعتمادا على عدد من الروايات يمكن القول بأن الجيش لم يكن مقصورا على الرجالة بل هناك فرسان أيضا فقد ورد في سنة ٢٥٨ هـ ٨٧١ م ان يحيى بن محمد كان في الاهواز في ١٢٠ [١٣٥] فارسا ، وانضم الى علي بن ابان المهلبي في الاهواز حوالي ٣٠٠ فارس [١٣٦] من الاكراد . واستأمن في سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م جمع كثير من الفرسان وغيرهم من الزنج [١٣٧] للموفق . هذا فضلا عن وجود قواد متخصصين في المعارك النهرية وقيادة السميريات امثال احمد بن مهدي [١٣٨] الجبائي ، والصقر [١٣٩] بن الحسين ، والزنجي بن مهربان الملقب بالاشتيام (أي المشرف على شئون [١٤٠] السفن والشذورات) . كما ويظهر من المعلومات التي أوردها الطبري في احدى الروايات ان هنالك تخصصات فرعية اخرى في جيش صاحب الزنج تستند

---

(١٣٣) الطبري م ١٩٢٨/٣
(١٣٤) ن. م. م ١٩٩٤/٣
(١٣٥) ن. م. م ١٨٦٦/٣
(١٣٦) ن. م. م ١٩٠٩/٣
(١٣٧) ن. م. م ٢٠٠١/٣
(١٣٨) ن. م. م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤
(١٣٩) م ١٩٢٢/٣
(١٤٠) لسان العرب مادة شتم

على نوعية السلاح المستعمل كالقاذفين بالمقاليع [١٤١] على الاعداء والرماة بالعرادة والرماة بالمنجنيق ورماة السهام ان كان من القسي الناوكية أو قسي الرجل والرماة بالحجارة [١٤٢] . وهناك من هو مختص بالنعير والصياح [١٤٣] ، واشتركت النساء في العمليات الحربية اما بجمع الاجر وامداد [١٤٤] الرجال بها واما بتشجيع الرجال وحثهم على الاقدام في القتال [١٤٥] .

★ ★ ★

لقد هيأت الطبيعة الجغرافية للمنطقة الجنوبية من العراق ـ منطقة البصرة والبطائح ـ ظروفا استراتيجية ملائمة لتطبيق عدد من الاساليب التعبوية الهجومية والدفاعية من قبل الزنج أثناء معاركهم . ودون الخوض في دراسة السمات الجغرافية للمنطقة بالتفصيل فان السمة الاولى والواضحة هي كثرة الانهار والترع الصغيرة والكبيرة المتفرعة من نهر شط العرب حتى ان الاصطخري وابن حوقل اوردا رواية على الرغم من المبالغة الواضحة فيها تشير الى ان هناك ١٢٠٠٠٠ نهر تجري في جميعها الزوارق [١٤٦] . واشتهرت المنطقة ايضا بوفرة بساتين النخيل وغابات من القصب والاحراش وخاصة في منطقة البطائح . وكان لهؤلاء العاملين من العبيد في هذه

---

(١٤١) والمقلاع يتكون من كفة توضع فيها القذيفة المربوطة بثلاثة حبال تمسك من اطرافها د. جهادية القرغولي : التنظيمات الادارية والعسكرية ص ٢٦٩ .

(١٤٢) الطبري م ٣/٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ . والقسي الناوكية اقواس كبيرة توضع على الاسوار ويصيب السهم الواحد منها عدة اشخاص . الطبري م ٣/١٩٨٢ ، الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب (بيروت ١٩٤٨) ص٦

(١٤٣) الطبري م ٣/١٩٨٧

(١٤٤) ن. م. م ٣/١٧٨٤

(١٤٥) ن. م. م ٣/١٩٨٦ ـ ١٩٨٧

(١٤٦) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٨٠ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٥٩ د. فيصل السامر : ثورة الزنج ص ١٩٣ ، كذلك ص ٩٦ ـ ١٠١

الأراضي معرفة دقيقة بالطرق والمسالك لذلك استطاعوا ان يستفيدوا من هذه الصفات باستعمال استراتيجية جديـدة وناجحـة كاسلوب نصب الكمائن او المهارة في المعارك النهرية في الوقت الذي لم يكن فيه الاتراك في جيش العباسيين على معرفـة بجغرافية المنطقـة فباءت الكثير مـن محاولات القادة الاتراك العسكرية لاحباط او عرقلة انتصارات الزنـج بالفشل تماما كما هو الحال في الفترة البويهية • اذ ظهر في هذه الفترة عمران بن شاهين في البطائح ولم تستطع جيوش البويهيين من الديلـم المشاة والاتراك الفرسان ان تكبح جماح حركته والقضاء على امارتـه • ويرجع سبب فشل الحمـلات العسكرية هـذه الى عدم معرفة جيوش البويهيين بحرب المستنقعات والاحراش [١٤٧] •

وكما هو الحال في بقية الجيوش الاسلامية فان صاحب الزنج اعتمد ومنذ ابتداء أمر الثورة على امرين أولهما بث الجواسيس والاستفسار من القادمين عن بعض الامور الحربية عند الاعداء وثانيهما بالطلائع وارسالهم للتفقد على شئون عسكرية مختلفة عند العدو واخباره بها كي يستطيـع تفاديها في ارساله الجيوش • ففي سنة ٢٥٥ هـ عندما دخل ريحان بن صالح دعوة علي بن محمد استفسر منه عن الاوضاع العسكرية للبصريين وعما اذا كان امره قد شاع في مدينة البصرة ، وسأله عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للغلمان العاملين في الشورج[١٤٨] • وتلمح رواية اخـرى الى ان سيران بن عفو الله كان يأتي بالاخبار الى صاحب الزنج من مؤيديه في البصرة ، وتتناول تلك الاخبار اوضاع البصرة العامة • فقد سأله صاحب الزنج مرة عن الزينبي ، العدو الاول والمشهور لصاحب الزنج في البصرة ، وعن عدة أصحابه وعددهم فأخبره سيران بجيش الزينبي هـذا والعناصر المكونة له واسم [١٤٩] قائده • واهتم صاحب الزنج ايضا بارسال الطلائع

---

(١٤٧) لكاتب المقالة بحث معد للنشر عن امارة عمران بن شاهين

(١٤٨) الطبري م ١٧٤٨/٣

(١٤٩) ن٠ م٠ م ١٧٦٧/٣

قبل البدء بالهجوم ، ففي سنة ٢٥٥ هـ ايضا وجه صاحب الزنج طليعة لمعرفة الموضع الذي نزل فيه البصريون فلما رجعا اليه بالخبر وجه جيشا عدده ٢٠٠٠ رجل المتمركز في سبخة على فوهة نهر برد [١٥٠] الخيار • وعلى الرغم من انه ليس هنالك معلومات توضح العدد الذي تتكون منه الطليعة لكن من الممكن القول بأنه قد يكون شخصا واحدا كما ورد في روايـة ترجع الى سنة ٢٥٥ هـ عندما وجه صاحب الزنج شخصا ليكون طليعة المتعرف على خبر البصريين ، ويقول الطبري انه اختاره « شيخا ضعيفا [١٥١] زمنا لئلا يعرض له » وهي اشارة واضحة تدل على بعد افق صاحب الزنج وذكاءه العسكري • ولم يقتصر هذا الاهتمام على صاحب الزنج فقط بل استعمل ايضا من قبل قواده • اذ يورد الطبري ان احمد بن مهدي الجبائي الذي كان في البطيحـة اعتاد ان يتوجـه في طلائع كل ثلاثـة ايام لمعرفة خبر جيش [١٥٢] العباسيين • وان علي بن ابان وجه في سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م طلائع ليأتونه باخبار ابن ليثويه قائد العباسيين فجاءوه بخبر مفاده ان ابن ليثويه متوجه نحوه وان اوائل خيله قد وصلت قرية [١٥٣] الباهليين •

وبرع صاحب الزنج وقواده الآخرين برسم خطط لنصب الكمائن التي بسببها خسر العباسيون العديد من المعارك الحربية وهنالك أمثلـة عديدة توضح مدى تفنن هـؤلاء في استعمال هـذا الاسلوب الهجومي والدفاعي العسكري • ففي سنة ٢٥٥ هـ عندما جمع البصريون جيشا كثيفا لمهاجمة صاحب الزنج الذي كان مقيما على نهر سلطان ، وجه هذا احد قواده ليكون كمينا في غربي النهر وقائدا آخر ليكون كمينا في الجانب الشرقي منه ، كما امر علي بن ابان ان يلاقي القـوم فيمن معـه وأمره ان يستتر وأصحابه بتراسهم « ولا يثور اليهم منهم ثائر حتى يوافيهم القوم ويوموا

---

(١٥٠) م ١٧٦٢/٣ ، د. السامر : ثورة الزنج ص ١٠٤
(١٥١) م ١٧٦٩/٣
(١٥٢) م ١٩٥٢/٣
(١٥٣) م ١٩١١/٣

اليهم باسيافهم ، فاذا فعلوا ذلك ثاروا اليهم . وتقدم الى الكمينين : اذا جاوزهما الجمع وأحسا بثورة اصحابهم اليهم ان يخرجا من جنبتي النهر . ويصيحا بالناس »[١٥٤] . وفي سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م عندما ضيق اغرتمش قائد جيش العباسيين على سليمان بن جامع في البطيحة نظم هذا كمينا وأمر قائد الكمين « الا يدع احدا من السودان يظهر لأحـد من أهل جيش اغرتمش ، وان يخفوا اشخاصهم ما قدروا ، ويدعوا القوم حتى يتوغلوا النهر الى ان يسمعوا اصوات طبوله ، فاذا سمعوها خرجوا عليهم وقصدوا اغرتمش »[١٥٥] . وفي الرواية التالية تفصيل دقيق لنصب كمين عملـه سليمان بن جامع واحمـد بن مهـدي الجبائي في البطائح سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ أثناء حربهم ضد تكين البخاري قائد جيش العباسيين ، فقد عرض الجبائي على سليمان ان يتوجه بالسميريات لملاقاة جيش تكين ثم يتظاهر بالهرب ، وان ينصب سليمان كمينا في الصحراء « مما يلي ميسرة خيـل تكين ، وأمرهما ـ أي قواد الزنج ـ اذا جاوزهم خيل تكين ان يخرجوا ورائهم . فلما علم الجبائي ان سليمان قد احكم لهم خيله وأمر الكمين رفع صوته ليسمع اصحاب تكين بقوله لاصحابه : غررتموني واهلكتموني وقد كنت امرتكم الا تدخلوا هذا المدخل فأبيتم الا القائي وأنفسكم هذا الملقى الذي لا أرانا ننجو منه . فطمع أصحاب تكين لما سمعوا قوله وجدوا في طلبه وجعلوا ينادون : بلبل في قفص . وسار الجبائي سيرا حثيثا واتبعوه حتى جاوزوا الكمين وقاربوا عسكر سليمان وهو كامن من وراء الجدار في خيله وأصحابه ، فزحف سليمان فتلقى الجيش وخرج الكمين من وراء الخيل وثنى الجبائي صدور سميرياته الى من في النهر فاستحكمت الهزيمة عليهم من الوجوه كلها »[١٥٦] وكان الجبائي ينصب أنواعا اخرى من الكمائن لعرقلة تقدم جيش العباسيين ، فلقد « حفر آبارا فوق نهر سنداد وصير فيها سفافيد حديد وغشاها بالبواري واخفى مواضعها وجعلها

---

(١٥٤) م ١٧٨٤/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣١٥ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(١٥٥) الطبري م ١٩٠٥/٣ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٩

(١٥٦) الطبري م ١٩١٨/٣ ـ ١٩١٩ ، ابن الاثير ج٦ ص ١٠٦ .

على سنن مسير الخيل ليتهور [١٥٧] فيها المجتازون » • وفي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م رسم صاحب الزنج خطة كمين ضد جيش الموفق فاختار ٥٠٠٠ رجل اختفوا في آخر النخل مما يلي السبخة بينما عبر جماعة اخرى من أصحابه في الشذا والسميريات امام جيش الموفق لحربه « فاذا نشبت الحرب بينهم انكب من كان عبر من قواد الخبيث فصار الى السبخة على عسكر ابي احمد وهم غارون مشاغيل بحرب من بازائهم [١٥٨] » •

ونظرا لكثرة انهار المنطقة فقد شكلت المعارك النهرية دورا بارزا في الحروب التي نشبت بين الزنج والعباسيين سواء كان في منطقة البصرة او منطقة البطائح • ففي البطائح على سبيل المثال كان هناك قائد متخصص ومشرف على السميريات والشذوات والحروب النهرية وهو الجبائي الى جانب القائد الاعلى للمشاة والرجالة سليمان بن [١٥٩] جامع • ولعبت حرب الزوارق النهرية دورا اساسيا في انتصارات جيش صاحب الزنج في البطيحة بشكل خاص لذلك عند قراءة تاريخ الطبري وغيره من المصادر يتردد ذكر انواع متعددة وارقام كبيرة للزوارق الحربية التي كان يمتلكها جيش صاحب الزنج ، وبعض تلك الزوارق لها مواصفات معينة يتطلبها الظرف العسكري آنذاك ، ففي رواية طريفة تعود الى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ طلب سليمان بن جامع امدادات من الزوارق السميريات من صاحب الزنج على ان يكون لكل سميرية اربعون مجذاف ، فزوده صاحب الزنج باربعين سميرية ولكل واحدة مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس [١٦٠] • وفي السنة ذاتها امر صاحب الزنج بعمل شذوات فعمل له خمسين شذاة رتب بها الرماة وأصحاب [١٦١]

---

(١٥٧) الطبري م ٣ / ١٩٩٤

(١٥٨) م ١٩٩٤/٣

(١٥٩) م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤

(١٦٠) م ١٩٥٣/٣

(١٦١) م ١٩٩٦/٣

الرماح . ولقد تمرس الزنج على حرب الانهار حتى انهم تفننوا في الهجوم النهري على جيش العباسيين فمما يرويه الطبري عن بهبوذ بن عبد الوهاب وهو احد القواد المشهورين انه قام بهجمات كثيرة على العباسين بالسميريات الخفاف فكان « يخترق الانهار المؤدية الى دجلة فاذا صادف سفينة لأصحاب الموفق أخذها فأدخلها النهر الذي خرج منه فان تبعه تابع حتى توغل في طلبه خرج عليه من النهر قوم من أصحابه قد اعدهم لذلك فاقتطعوه [١٦٢] وأوقعوا به» ، وكان بهبوذ مثارا للفزع في جيش العباسيين لهجماته السريعة والمتكررة حتى انهم أخذوا يتحذرون منه « فلما كثر ذلك وتحرز منه ركب شذاة وشبهها بشذوات الموفق ونصب عليها مثل اعلامه وسار في دجلة فاذا ظفر بعزة من أهل العسكر أوقع بهم فقتل واسر ويتجاوز الى نهر الابلة ونهر معقل وثبق شيرين ونهر الدير فيقطع فيقطع السبل [١٦٣] » .

ولما كنا بصدد المعارك النهرية لعله من المناسب أن نذكر بضعة كلمات عن أنواع الزوارق التي كان يستعملها الزنج ، ولحسن الحظ فقد ورد ذكر بعض هذه الزوارق [١٦٤] والسفن خلال التعرض للحروب والمعارك التي قام بها الزنج منها : السميريات [١٦٥] والحربيات [١٦٦] ،

---

(١٦٢) م ٢٠٢١/٣

(١٦٣) م ٢٠٢٢/٣

(١٦٤) انظر عن الزوارق والسفن في التاريخ الاسلامي
Kindermann, H. Schiff in Arabischen. Zwickau 1934, p. 2, 4, 5, 10, 13.
حبيب الزيات : السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين مجلة لغة العرب (مجلد ١٩٢٧/٥) ص ٤٦١ ـ ٤٦٥

(١٦٥) انظر مادة (سمر) لسان العرب . وهي ضرب من السفن تستعمل للحرب وغير المجالات .

(١٦٦) ورد ذكرها عند الطبري على انها تستعمل للحرب . انظر حبيب الزيات : معجم المراكب والسفن في الاسلام ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ٣٢٧

والمجونحات [١٦٧] والشذوات [١٦٨] ، ويبدو ان هناك انواعا من هذه الشذوات فلقد ورد ذكر الشذا الجنابيات [١٦٩] • ومن السفن الحربية الاخرى الصلغة وهي عبارة عن [١٧٠] سفينة كبيرة ، ولعل الصلغة كانت تستعمل في حمل الحبوب اضافة الى استعمالها الحربي فلقد وردت اشارة الى صلغة كانت تحمل [١٧١] الشعير • وكذلك هنالك الزوارق [١٧٢] وهي ضرب من السفن الحربية ، والحراقات وهي السفن التي فيها مرامي نيران تقذف على العدو [١٧٣] ، والزلالات [١٧٤] • وجاء ذكر نوع من السفن استخدم لحمل الخيول يسمى الرقيات والرقية ضرب من الزوارق التي كانت تصنع من الخوص وخشب النخيل ولها مقدمة [١٧٥] طويلة •

وتظهر الروايات التي أوردها الطبري وغيره ان صاحب الزنج كان يمتلك عددا كبيرا من الزوارق الحربية سواء كانت تلك التي أسرها من جيش العباسيين او التي كانت تصنع في الابلة والمختارة • ولقد قست

---

(١٦٧) هناك الجوانحيات وهي سفن ذات جآجي أي صدور سميت بذلك لانحنائها وميلها ولجوايح فيها كالاضلاع مما يلي الظهر انظر معجم المراكب ص ٣٢٩ انظر الطبري م ٣/١٧٦٠

(١٦٨) استعملت الشذاة في الحروب وكانوا يضعون بها آلات الحرب والسلاح والرماة ويعملون لها مظلات من خشب تغلف بجلود الجاموس وتطلى هذه الجلود بأنواع الادوية كي يمنع احتراقها . خالد جاسم الجنابي : تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني (اطروحة) ص ٦٢ ، ومن الشذوات في جيش الزنج انظر الطبري م ٣/١٨٦٠ ، ١٨٧٨ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٦ ، ١٩٢٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٦٨ .

(١٦٩) الطبري م ٣/١٧٨٣

(١٧٠) الطبري م ٣/١٩٠١ ، ١٩٥٥ ، الزيات : معجم ص ٣٤٧

(١٧١) الطبري م ٣/١٩٥٥

(١٧٢) م ٣/١٩٧٩

(١٧٣) م ٣/٢٠٦٨ ، د. جهادية القرغولي ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

(١٧٤) الطبري م ٣/٢٠٦٨ ، الزيات : معجم ص ٣٣٨

(١٧٥) م ٣/٢٠٧٤ ، المقدسي : احسن التقاسيم ص٣١ ، الزيات : معجم ص ٣٣٨ .

باحصائية بسيطة لعدد السفن التي كانت بحوزة جيش الزنج فكانت حوالي ٣٠٠ سفينة ، اما مجموع السفن والزوارق التي تم اسرها فكان حوالي ٤٠٠ سفينة . وتؤيد بعض الروايات صراحة الى ان الزنج كان لديهم من السفن اكثر مما ذكر ، ففي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ اسر ابو العباس ابن الموفق من الزنج حوالي ٤٠٠ سفينة(١٧٦) . ويقول الطبري في رواية ثانية تعود الى سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ انه على أثر هجوم الموفق على المختارة ونجاحه في السيطرة على السجن « اخرج صاحب الزنج كل ما كان بقي في نهر ابي الخصيب من شذا ومراكب بحرية وسفن صغار وكبار وحراقات وزلالات وغير ذلك من اصناف (١٧٧) السفن » .

ومن الاساليب الهجومية التي اتبعها صاحب الزنج ذلك الذي طبقه عند هجومه على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ . فقد قسم جيشه المهاجم الى ثلاث جبهات وعلى رأس كل جبهة وضع قائدا مشرفا . فكان علي بن ابان قائدا على الفرسان والمشاة للجبهة العسكرية المهاجمة من جهة المربد الى ناحية بني سعد وكانت الجبهة الثانية تحت قيادة يحيى بن محمد البحراني وقد دخل البصرة من جهة الخريبة (تقريبا الجانب الجنوبي الشرقي من البصرة مما يلي نهر عدي) ، اما الجبهة الثالثة فكانت تحت قيادة محمد بن يزيد الدارمي وتتألف من الاعراب ، وقد دخل البصرة من ناحية نهر القندل (١٧٨) .

ومما له علاقة بهذا الموضوع السلاح النفسي الذي استخدمه صاحب الزنج في حروبه . والمعروف ان السلاح النفسي له اثار كبيرة في تصعيد همم المناصرين خاصة في اوقات الازمات . فمما يرويه الطبري ان واحدا من الزنج قد جاءه ليخبره عن هرب الزنج امام جيش ابي احمد بن المتوكل في سنة ٢٥٨ هـ ٨٧١ فما كان من صاحب الزنج الا ان ينتهره ويصيح به

---

(١٧٦) الطبري م ٣/٢٠٠٠

(١٧٧) م ٣/٢٠٦٨

(١٧٨) م ٣/١٨٤٨ ـ ١٨٤٩

قائلا « اغرب عني فانك كاذب فيما حكيت وانما ذلك جزع دخلك لكثرة ما رأيت من الجمع فانخلع قلبك ولست[١٧٩] تدري ما تقول » • ولم يكتف بهذا القول بل امر السجان وهو احد مقربيه ان ينادي بالزنج ويحركهم على الخروج الى موضع الحرب وبذلك تم النصر للزنج واستحوذوا على سميريتين [١٨٠] • كذلك وردت رواية مفادها ان علي بن ابان المهلبي اثناء قتاله مع ابن ليثوية في سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ في الاهواز وقف في جماعته « يعدهم الظفر ويحكي لهم ذلك عن [١٨١] الخبيث » ، وعندما قام صاحب الزنج بمحاولة لكسر حصار الموفق في سنة ٢٦٧ هـ امر بعمل شذوات وقسمها الى ثلاث جبهات وعلى ثلاثة قواد « والزم كل واحد منهم غرم ما يصنع على يديه [١٨٢] منها » •

اما بالنسبة الى الاساليب التعبوية الدفاعية فتتمثل خير تمثيل بذلك الدفاع المستميت الذي اظهره الزنج اثناء دفاعهم عن مدينتهم المختارة ، وفي كفايتهم في استخدام شتى أنواع الخطط العسكرية الدفاعية اذ يحدثنا الطبري في هذا الصدد انه عندما اشتدت هجمات الموفق على المختار ونجاحه في هدم سورها سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ ضاق بصاحب الزنج الامر فأشار عليه المهلبي « اجراء الماء على السباخ التي يسلكها اصحاب الموفق لئلا يجدوا الى سلوكها سبيلا وان يحفر خنادق في مواضع عدة يعوقهم بها عن دخول المدينة • فان حملوا انفسهم على اقتحامها فوقعت عليهم هزيمة لم يسهل عليهم الرجوع الى سفنهم • ففعلوا ذلك من عدة مواضع من مدينتهم [١٨٣] » • وقد تحملوا اثناء حصار الموفق للمختارة الجوع والعوز فيحدثنا الطبري وابن الجوزي ان الزنج حرموا من الخبز اكثر من سنتين حتى انهم اكلوا الجيف ولحوم الناس ونبشوا القبور فأكلوا لحوم

---

(١٧٩) م ٣/١٨٦٤
(١٨٠) ن٠ م٠ م ٣/١٨٦٤
(١٨١) م ٣/١٩١١
(١٨٢) م ٣ / ١٩٩٦
(١٨٣) م ٣ / ٢٠٤٢

الموتى وأكلوا لحوم أولادهم . وتتمثل اساليبهم الدفاعية أيضا بما اظهروه من[184] شجاعة وتفان في صد الهجمات المتكررة التي قام بها الموفق وابنه، وقد تتبعت مسيرة الموفق على المختارة ابتداء باليوم الذي بعث فيه كتابا الى صاحب الزنج يدعوه الى طلب الامان والتوبة وانتهاءا بدخوله مدينة المختارة وقتله صاحب الزنج فوجدت اعتمادا على الطبري وآخرين ان هجومه استغرق حوالي ثلاث سنوات اذ كانت بداية هجماته على المختــارة في العشرين من رجب سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ ونهايتها في يوم السبت لثلاثين حلت من صفرسنة ٢٧٠ هـ ٨٨٣ . وقد ركز الموفق خلال هذه السنوات الثلاث جميع عملياته الحربية في الهجوم على المدينة وهدم اسوارها ودك حصونها بغية الاستيلاء عليها ، وقد وردته الامدادات العسكرية من كل مكان . فضلا عن ان العباسيين قد خصصوا اموالا هائلة لهذه العمليات العسكرية سيما وان الموفق كان الرجل الاول في الدولة العباسية وليس المعتضد . وقد فرض الموفق حصارا سياسيا واقتصاديا منيعا متمثلا باتخاذه الموفقية لمنافسة المختارة وسلبها اهميتها ، وكذلك بقطعه الطرق والمسالك التي تصل عن طريقها المواد الغذائية والاسماك الى المختارة ومع كل هــذه الاجراءات فان احتلالــه للمدينة استغرق ثلاث سنوات تقريبا .

★ ★ ★

لم ترد اية اشارة واضحة تشير الى الطريقة التي اتبعها صاحب الزنج في دفع ارزاق جنده على الرغم من ورود بضعة روايات يشم منها رائحة بأن التوزيع اثناء الحروب كان قائما على اساس تقسيم الغنائم فيما بين المحاربين ففي رواية عن ريحان بن صالح يقول فيها « فلقد رأيت صاحب الزنج يومئذ ينتهب معنا ، ولقد وقعت يدي ويده على جبة صوف مضربة

---

(١٨٤) أنظر الطبري م ١٩٨٢/٣ — ١٩٨٣ ، ٢١٠٩ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٤، ٢٠٤٠ — ٢٠٤١ ، ٢٠٤٢ ، ٢٠٥٠ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٣ . ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص ٦٤

فصار بعضها في يده وبعضها في يدي وجعل يجاذبني عليها حتى تركتها[185] له » . وهناك رواية ادلى بها الصفدي في الوافي بالوفيات مفادها ان اصحاب صاحب الزنج اختلفوا مع قائدهم في مسألة التوزيع اذ حجب عنهم أكثر مما اعطاهم[186] . كما ان هناك رواية غامضة اوردها الطبري جاء فيها ان الموفق ارسل في احدى المرات احد قواده الى مؤخرة عسكر صاحب الزنج لاحراق بيادر له « كان الخبيث يقوت اصحابه منها[187] من الزنج وغيرهم » . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هل هذا يعني ان صاحب الزنج كان يوفر ما يحتاجه جماعته من مواد غذائية وكذلك فعل كل قائد من قواد الجبهات العسكرية التي ذكرناها ؟

كانت أهم مشكلة واجهها صاحب الزنج في بداية أمر الحركة نقص الاسلحة أو بالاحرى انعدامها لذلك عمد آنذاك لغرض الاقتصاص من الوكلاء العباسيين الذين كانوا يسومون الزنج كل أنواع العذاب عن طريق استعمال[188] الشطبة (أي السعف الاخضر الرطب من جريد النخل وجمعها شطب) . بعد ذلك استطاع ان يغنم ثلاثة اسياف فوزعها على عدد من اصحابه الستة ، ثم تزايدت غنائم الزنج ومن بينها الاسلحة فأصبح لديهم السيوف والبالات والزقايات والتراس والمجانيق والمقاليع[189] والعرادات . واستعمل الزنج السهام بأنواعها المختلفة اذ ورد ذكر السهام التي ترمى من القسي الناوكية وهي عبارة عن أقواس كبيرة تنصب على الاسوار والابراج وتسمى الزياد وتحتاج هذه الاقواس في شد وترها الى

---

(١٨٥) الطبري م ٣/١٧٧٣

(١٨٦) فيقول الصفدي « فلما كثرت حاشيته ـ اي صاحب الزنج ـ كف ايدي الزنج عن النخل والمزارع وجبي الخراج منهم » ورقة ١٤٢ أ

(١٨٧) الطبري م ٣/٢٠٧٩

(١٨٨) م ٣/١٧٥٠

(١٨٩) م ٣/١٧٥٤ ، ١٧٥٥ ، ١٧٨٤ ، ١٨٣٤ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٤٢ ، د. السامر ص ١٠٣

عدد من الرجال ، ويصيب السهم الواحد منها عدة اشخاص مرة[190] واحدة . والسهام التي ترمى من قسي[191] الرجل . واستخدموا الرصاص الذائب ، كما استعملوا الاجر[192] والحجارة فيها . لكن بقي علينا ان نعرف فيما اذا كان الزنج يعملون اسلحتهم ام يستوردونها ام انهم اكتفوا بما يحصلون عليها في حروبهم ؟ ومن المؤسف ليس هناك معلومات واضحة عن هذا الموضوع ما عدا روايةواحدة ذكرها الطبري في حوادث سنة ٢٦٩ هـ مفادها ان جيش الموفق انتصر في احدى المعارك على جيش انكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع وتمكن من احراق الجسر على نهر ابي الخصيب وبعد ذلك تجاوز جيش العباسيين « الحظيرة التي كان يعمل فيها شذوات الفاسق وسميرياته وجميع الآلات التي كان[193] يحارب فيها » . ان هذه الرواية تمكننا الى درجة كبيرة من القول بأن الزنج كانوا يعملون اسلحتهم في المختارة .

كلمة أخيرة

نخلص مما تقدم ذكره في هذ البحث ما يلي :

١ ـ بروز الشخصية العربية والطابع العربي في التكوين البشري لجيش صاحب الزنج ابتداءا بالقيادة المتمثلة بزعيم الحركة ، علي بن محمد، ومجلس الستة رجال وانتهاءا بالفرد العادي والعناصر لاخرى المكونة للجيش . لم يكن هذا القول استنتاجا غير مستند على حقائق وأدلة تاريخية بل واقعة واعتمادا على عدد من الاستشهادات والادلة . وبذلك

---

(١٩٠) الطرسوسي: تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب . بيروت ١٩٤٨ ، ص ٦

(١٩١) الطبري م ٣/٢٠٠٤ ، انظر مادة Djaysh في EI بقلم Cahen

(١٩٢) م ٣/١٧٨٤ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٤٢

(١٩٣) م ٣/٢٠٦٢

يحق لنا رد الرأي القائل بأن حركة الزنـج وجيشها كان مقصورا علـى الزنـوج •

٢ ـ صحيح ان جيش صاحب الزنج كان في بداية امر الثـورة غير مدرب وغير منظم عسكريا لكنه نتيجة للممارسات الحربية العديدة ونتيجة لكفاية القيادة صار جيشا لـه تنظيم عسكري واضح وصار له كفايـة وتدريب عسكري متحيز سواء في استعمال الاسلحة او في وضع الخطط العسكرية وتنظيم جبهات القتال • ولما كنا بصدد الحديث عن هذا الموضوع لا بد لي من التعقيب على عدد من الاشارات الواردة في مقالة الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي التي نشرها في مجلة آفاق عربية (عدد ١١ لسنة ١٩٧٦) تحت عنوان « حركة الزنج وموقعها من الاصالة الثورية العربية» •

يذكر الدكتور فاروق (ص ٦٤) ان العباسيين كانوا غير مهتمين بحركة الزنج عند اندلاعها فلم يرسلوا الاقوات رمزية • بينما نرى في الواقع وحسبما اورده الطبري ان هناك سلسلة غير متناهية من الحملات العسكرية التي أرسلها العباسيون تحت قيادة قواد اتراك وغيرهم ومنذ الايام الاولى لاندلاع الحركة ابتداءا بـ (رميس) الى جعلان الى سعيد ابن صالح المعروف بالحاجب الى منصور بن جعفر الخياط الى محمد المولد الى صاعد بن مخلد الى ابي احمد بن المتوكل الموفق نفسه اذ قاد جيشا ضد الزنج سنة ٢٥٨ هـ • ولنقرأ ما كتبه الطبري عن جيش الموفق في تلك السنة المبكرة من عمر الثورة يقول « فعاينت انا الجيش الذي شخص فيه ابو أحمد ومفلح ببغداد وقد اجتازوا بباب الطاق •• فسمعت من مشايخ أهل بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة من الخلفاء فما رأينا مثل هذا الجيش احسن عدة وأكمل سلاحا وعتادا وأكثر عددا [١٩٤] وجمعا » ، غير ان جميع هذه الحملات باءت بالفشل • ومما يلفت النظر ايضا ان الموفق ظل محاصرا مدينة الزنج ، المختارة ، مدة تقارب الثلاث سنوات شن خلالها الحملة تلو

(١٩٤) الطبري م ١٨٦٢/٣

الاخرى وفرض حصارا اقتصاديا صارما تجرع بسببه الزنج شتى صنوف الجوع والفقر والعوز ومع ذلك لم يستسلموا في الوقت الذي وصلت فيه امدادات ومساعدات عسكرية كبيرة الى الموفق من عـدد من القـوى السياسية المعاصرة آنذاك كجيش لؤلؤ صاحب ابن طولـون وجيش عامل ايزج ونواحيها من كور الاهواز ومن اهل البحرين [١٩٥] .

كذلك أورد الدكتور فاروق (ص ٦٥) ما يلي : « وكـان يديـر العمليات العسكرية مع صاحب الزنج اربعة من الشيوخ العرب .. وطبيعي فان هؤلاء الزعماء العرب لا يقودون زنوجا لا يعرفون حمل السلاح ... فهذا مستحيل اضافة الى كونه خطأ تاريخيا ذلك لأن هؤلاء الزعمـاء العرب لا يقودون بالدرجة الاولى الا افراد من قبائلهم وعشائرهم المتمرسين على الحرب والقتال » وهذا الرأي ايضا لا تؤيده الوقائع التاريخية لهذه الحركة وان هناك اشارات تشير الى انه ليس بالمستحيل ان يقود علي بن ابان المهلبي العربي مثلا زنوجا . فقد اورد الطبري نقلا عن محمد بـن سمعان ان عليا بن ابان المهلبي قد دخل البصرة على رأس قوة من الاعراب الفرسان والرجالة [١٩٦] الزنج . ويقول الطبري ايضا ان عليا هذا كـان مقيما في جبي في سنة ٢٥٨ هـ في جمع كثير من الزنج [١٩٧] ، وعندما كان معسكرا في الاهواز كان على رأس جيش يقدر بثلاثين الف من الزنج [١٩٨] . كما أورد الطبري اسماء عدد من القواد الزنج كانوا تحت امرة المهلبي من أمثال البرذعي وحسين المعروف بالحمامي ويحيى بن خلف النهربطي وابرون (انظر ص ١٦ ــ ١٧ من البحث) . وكان محمد بن ابان المهلبي على رأس جيش من ٣٠٠٠ من الزنوج في موضع القندل [١٩٩] .

فضلا عن ذلك فان استنتاج الدكتور فاروق حول عدم معرفة الزنوج

---

(١٩٥) م ٣/٢٠٨٠ ، ٢٠٨٦
(١٩٦) م ٣/١٨٥٣
(١٩٧) م ٣/١٨٦٢
(١٩٨) م ٣/١٩٧٤
(١٩٩) م ٣/١٩٩٠

حمل السلاح قد يكون صحيحا كما ذكرنا سابقا في الايام الاولى من اندلاع الثورة لكنه غير صحيح بالنسبة الى الفترة العامة لها ، وللتدليل على ذلك نكتفي برواية واحدة اوردها الطبري خلال حديثه عن استعدادات الموفق للهجوم على المختارة فيقول « والفاسق ــ يعني صاحب الزنج ــ يومئذ في زهاء ثلثمائة الف انسان كلهم يقاتل او يدافع فمن ضارب بسيف وطاعن برمح ورام بقوس وقاذف ، بمقلاع ورام بطرادة او منجنيق واضعفهم أمر الرماة (٢٠٠) بالحجارة » كذلك انظر الادلة الاخرى الموجودة في متن البحث .



(٢٠٠) م ١٩٨٦/٣ ــ ١٩٨٧

البطل التاريخي بين كارلايل وتوينبي

دكتور محمود اسماعيل
المغرب

من القضايا الشائعة في اوساط المؤرخين ، والتي أشار اليها بين وقت وآخر قضية البحث عن القوى المحركة للتاريخ والمسؤولة عن التحولات والانعطافات الكبرى في تحولـه • وقـد انتهى العلم الحديث ان أن قوانين اجتماعيـة اقتصادية تحكم مسار هذا التطور • وكان ذلك تتويجا لجهـود سابقة بذلها المشتغلون بفلسفـة التاريخ منذ ثيوكيديد وحتى كارل ماركس •

ونحن في غنى عن اثبات ان تصورات فلاسفة التاريخ على تنوعها جاءت معبرة عن ثقافة عصورهم التي كانت كذلك انعكاسـا للاوضاع الاقتصادية الاجتماعية آنذاك ، فالفكر لم ينعزل قط عن الواقع بل مرتبط به في علاقة جدلية دائمة التأثير والتأثر •

ومن تحصيل الحاصل كذلك ان كافة التصورات الفلسفية للتاريخ تندرج تحت نمطين أساسين ، مثالي ومادي • ومن المفهوم المثالي انبثقت كافة التصورات العينية والثيولوجية والاسطورية ، وكلها تقيم وزنا كبيرا للفرد البطل او العبقرية الفذة لمحور العملية الحراك بالتاريخي • سواء أكان هذا البطل نبيا أو قديسا أو حتى مفكرا من طراز فريد ••

وعلى النقيض تقف الرؤية الحاديـة التي تتلمس قوانين حركـة التاريخ في الواقع الاجتماعي ذاتـه وتنتهي الى ان الشعوب هي التي

تصنـــع اقدارهـــا محكومة في ذلك بطبيعـــة اوضاعهـــا السوسيو ـــ اقتصاديـــة •

وفي القرن التاسع عشر بلغ الجدل بين أصحاب الرؤيتين مداه ولا يزال محتدما الى الآن مواكبا للصراع الايدولوجي بين الشرق والغرب ، ومصاحبا للصراع بين النظم العربية المحافظة منها والثورية •

ومن أسف خفتت أصوات دوي الرؤية الاجتماعية في الاونة الاخيرة كنتيجة منطقية لسطوة المد الامبريالي على العالم العربي ، ولا غرو فقد تعرض الكثيرون من أصحاب المدرسة الاجتماعية لمزيد من العنت حتى في حياتهم الاكاديمية (الامر الذي يتطلب وقفة موضوعية من اتحـــاد المؤرخين العرب) ، حفاظا على بارقة الامـــل المنشود في دراسة تراثنـــا التاريخي على اسس علميـــة موضوعيـــة ، ووقف الهجمـــة الشرســـة المحافظـــة ـــ ان صحت التسمية ـــ لتشويهه ومسخه وفق مناهج عقيمة لفظتها روح العصر) •

واذا كنا نحتفل اليوم بذكرى مؤرخنا ارنولـــد توينبي لمواقفـــه السياسية المتعاطفة مع كثير من قضايانا العربية ، فلا بأس ولا تثريب ، لكن ينبغي الا يغيب عن البال ان مؤرخنا يندرج ضمن المدرسة المثالية وحفاوتنا بتخليد ذكراه لاهداف سياسية وقومية لا يجب ان تحفزنا للاخذ بمنهجيته في ميدان البحث التاريخي • ففي تراث الانسانية الكثيرون الذين بزوا توينبي اصالة وعماقـــة ان كنا نبحث عن مثال تستأنس به • ولم نذهب بعيدا وتراثنا التاريخي حافل بنماذج عديدة فذة في هـــذا السبيل وحسبنا ذكر اسماء المسعودي وسكويه وابن خلدون والمقريزي وغيرهم ممن تتلمس في كتاباتهم اصالة الاتجاه الاجتماعي والسبق الى الأخذ بالماديـــة التاريخيـــة ـــ بشكل أو بآخر ـــ قبل ان تصاغ بقرون طويلـــة •

ولا حاجـــة الى القول بأن توينبي المـــؤرخ • رغم شموخ عملـــه من حيث الجهد الكبير الذي يعد حقا اعجازا في الانجاز ـــ أقـــول

توينبي المؤرخ قد هلهل نقوا وتجريحا حتى من قبل مؤربين من بني جلدته ...

ان الفهم الصحيح لفلسفة توينبي التاريخية يكمن في وضعه ضمن اطار المدرسة الانجليزية المحافظة التي تنحو نحوا مثاليا مسرفا ، وتقيم كبير وزن للفرد البطل والعبقري الملهم محرك التاريخ ، والفصول التي كتبها في هذا الصدد استمرار طبيعي ومنطقي لفلسفة توماس كارلايل ، برغم ان مرور نحو قرن من الزمان بينهما . وبرغم التفاوت بين منطلق ومنطق كل منهما .

والغريب حقا ان يترسم توينبي خطى كارلايل في حماسه لتقدير البطولة التي اشهد كارلايل نفسه افلاسها في نهاية المطاف .

واليكم البيان :

بدأ كارلايل في القاء محاضراته عن الابطال والبطولة في التاريخ في مايو من عام ١٨٤٠ على جمهور من عصر فيكتوريا وصفه كاسيرو في أدب بأنه « من ارستقراطي الفكر » . وبديهي ان تستهدف هذه الافكار ارضاء مشاعر الجمهور الارستقراطي النزعة ، فقد كانت كذلك بالفعل، كما لاحظ كاسيرر أيضا . كانت محاولة محمومة لتثبيت روح المحافظة والرجعية امام التأثيرات الليبرالية والثورية التي انجزتها الثورة الفرنسية، وثورات عام ١٨٣٠ في اوروبا . بل انطوت هذه المحاضرات على خطر لم يفطن اليه هذا الجمهور المترف رغم اعجابه الشديد بكارلايل ، وربما لم يفطن كارلايل نفسه الى السموم التي تضمنتها محاضراته . لم تكن تلك السموم الا تقديم اساس اديولوجي بتكريس من التاريخ للنزعات الوطنية السوفيتية والدكتاتوريات المتسلطة ولا غرو فقد اعتبره بعض الدارسين مبررا ومدافعا عن الفاشستية والنازية ، واعتبر البعض الآخر محاضراته بذرة من بذور الفلسفات الامبريالية الحديثة .

فالتاريخ في نظر كارلايل مسيرة للابطال والعظماء . وسجل منقبي لأعمالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة كتاب السير والتراجم .

فبغير العظماء ـ يعتقد كارلايل ـ ليس ثمة تاريخ ، وانجازات الشعوب واسهاماتها في اثراء الحضارة الانسانية المستمرة أمر بعيد جدا عن فكر كارلايل • لا وزن البتة للشعوب ولا تقدير ، وانما الفضل كل الفضل يعزى الى ابطال من نوع خاص اعدتهم العناية الالهية اعدادا خاصا كي يجعلوا للبشرية معنى وبدونهم ليس الا الفوضى •

لذلك من الصعب وضع كارلايل في سجل مفلسفي التاريخ لانه لم يقدم نسقا فلسفيا في تفسير التاريخ • بقدر ما قدم من تصور عفوي انتقائي مضطرب يصعب ادخاله داخل اطار اللهم الا الدعوة لتقديس البطولة وعبادة الابطال •

لقد استغل كارلايل المامه الواسع بتاريخ البشرية في تقديم نماذج على غرار ابطال الاساطير ، معيار بطولتهم اتيان الأعمال الخارقة كالعادة مستهدفا اثلاج صدور جمهوره الارستقراطي • فقد اشترط ان يكون البطل ارستقراطيا ، اما الزعماء الشعبيين وقادة الحركات الثورية فليسوا الا افاقين على حد زعمه • ناهيك عن اتباعهم من الغوغاء والدهماء فليسوا الا رعاعا وعبيدا ، وعلى أحسن الاحوال « جموع من الاشقياء » •

لقد كان كارلايل ـ ومن حسن الحظ لم يكن توينبي ـ نغمة نشاز في عصره الذي اقترن بالتنوير والتثوير • فآلى على نفسه الا رفض الرياح الجديدة وتعويق مسيرة التاريخ • بل العودة بعجلته الى الوراء •

وعلى النقيض كان موقف توينبي في مناصرة الحريات والعدالة وشجب العنصرية والاستعمار ، وتحدي النزعات الارستقراطية الوطنية والنزعات الفكرية المتسامية شأنه في ذلك شأن برتراند راسل • فقد رفض فكرة شائعة بين مثقفي عصره عن « أوروبة الحضارة » ونادى بعالميتها وساهم الشعوب جميعا فيها صرح بنائها •• ولا زلت اذكر اقوالا له

في محاضرة القاها بجامعة القاهرة عام ١٩٦٢ ساوى فيها بين دور الانسان البدائي في مقاومة الوحوش الضارية وبين دور الانسان المعاصر في ارتياد مجاهل الفضاء .. كذا ندد بسخافة فكرة الميزة الخاصة بشعبه ممن تجري في عروقه الدماء الزرقاء ، وكشف عن زيف هذه الاسطورة ضاربا أمثلة عن مواقفه ابان الحرب العالمية الثانية . ناهيك عن مواقفه السياسية والفكرية في مناهضة الصهيونية وكافة الدعاوي العنصرية . اما سلفه فقد ارتمى في احضان الرجعية والارستقراطية على صعيد وطنه ، فكانت محاضراته عن تقديس الابطال حديث « بطل » الى نخبة ابطال عن اسلافهم من الابطال الغابرين لا يحكم الا ارضاء مشاعرهم دون موضوعية أو منطق ..

ومن التجني الحديث عن المنطق والمعقول في أفكار كارلايل المطروحة آنذاك ، فقد سخر بنفسه من المنطق والعقل بالقول في هذا الصدد « نحن لن نوفق في فهم الحياة اعتمادا على المنطق ، ناهيك بحياة البطولة اسمى صور هذه الحياة ... ان المعرفة وادراك حقيقة أي شيء من الافعال الغيبية ، وكل ما تستطيع ابرع السبل المنطقية ان تفعله هو الطفح على سطح الحقيقة » .

فالمنطق الغيبي هذا الذي اشار اليه يمثل حجر الزاوية عنده وعند توينبي كذلك في افكارهما عن البطل والبطولة وان غلب على فلسفة توينبي منطقية الشكل وبراعة المبنى كما نذكر بعد قليل .

ان طبيعة موضوع محاضرات كارلايل ، وكذلك طبيعة سامعيه كانتا من وراء شططه وترديه الى هذا الدرك من التفكير .. فقد املت عليه نهج التأثير لا الاقناع . لذلك لم يقدم فلسفة او تصورا منطقيا للتاريخ قدر تقديم نماذج « بانورامية » لحشد من الابطال ، لعب الخيال الارستقراطي السقيم ودغدغة الغرائز الارستقراطية الفجة الدور الفعال في تشكيلها .. ولا غرو فقد اعترف بدوافعه تلك حين اعلن ان تقديس البطل تعبير عن غريزة وجبلة في الطبيعة البشرية .

ولنا ان نتساءل كيف تسنى لمؤرخ كبير مثل كارلايل كرس عمره لدراسة التاريخ ان يخرج من هذه الدراسة بهذا الحصاد المتواضع ؟؟.
أغلب الظن انها نزوة سيق اليها بفعل اعجابه بفلسفة فيشته التي زودته بميتافيزيقا كاملة عبادة البطولة . كذا مظاهر الاعجاب والاغتباط من قبل جمهوره الخاص اذكى في نفسه نشوة زائفة جعلته يسترسل جامحا لا يلوى على شيء ..

فلما تبخرت تلك النشوة العابرة ادرك تورطه فنقد نفسه نقدا قاسيا ربما غفر له زلته حيث قال :

« لا شيء مما كتبت ساءني على هذا النحو ، فلم يتضمن جديدا ، بل لم ينطوي على شيء ذي اصالة » .

★ ★ ★

بعد حوالي قرن من خرافة ابطال كارلايل ، وبعد ان تقدمت البشرية تقدما هائلا في شتى مناحي المعرفة ومنها العلوم الاجتماعية بطبيعة الحال يأتي توينبي في دراسته للتاريخ مؤكدا كسلفه على مفهوم البطولة متناسيا ما احدثته المادية التاريخية من طفرة في فلسفة التاريخ ، ومتأثرا بشطحات برجسون التصوفية ، ومحاولات فرويد في فهم طبيعة النفس البشرية وان كان قد افاد في عجالة من بعض الدراسات الانثروبولوجية وعلم الاحياء الامر الذي خفف الى حد ما من غلواء انحيازه للبطولة والابطال .

ونعتقد ان هذا الانحياز يرد الى عوامل متعددة زمنها شغفه الطويل بالهيلينيات واعجابه الشديد بلوتارك ، فضلا عن طابع المحافظة الغالب على مدرسة التاريخ الانجليزية . وربما كان لتدينه الشديد وتأثره بحياة المسيح وسير القديسين دخل في تشكيل نظرته . اذ انعكس ذلك كله على تناوله لابطاله الذين كانوا في الغالب انبياء ورسلا وحواريين ورهبانا أو علمانيين حالمين ذوى ميول رومانسية . ولم يكن توينبي في رقته

ووداعته وتواضعه وطلاوة أحاديثه الا استمرارا لأبطالــه .

على ان من الانصاف القول بأن مفهوم البطولة ليس نغمة سائدة في فلسفته ، ففي دراساته يبرز المنظور الحضاري لتاريخ البشرية من خلال دراسات طويلة معمقة أشبه ما تكون بمسح شامل لتاريخ الحضارات ... ولا يملك من يقرأ دراسة توينبي الا التسليم بشموخ هذا العمل علـى الأقل من حيث الجهد الكبير الذي ينوء بانجاز مثله فرد واحد . ولقد واقد قيل بأنه محصلة جهوده وجهود اجيال من تلامذته ، وان صح ذلك، فيمكن تنوع الرؤى وتعدد الاتجاهات داخل العمل ذاته بحيث يصعب الوقوف على نظرية محددة لها مقوماتها المستمدة من العمل كلها . وان وضحت مثـل تلك النظرية مـن الحيث المبني او الشكـل فيما يعرف بميكانيكية تنـوع الرؤى داخـل العمل ذاتـه وعدم الوقوف علـى منظـور محدد بعينه رغم وحدة المبنى فيما يعرف بنظريـة التحـدي والاستجابـة .

ونحن في غنى عن تبيان شموخ هذا الانجاز ، فقد اعترف بذلك كل من طالعه سواء أكان مؤيدا أو معارضا لما تضمنه من أفكار . وما يعنينا هنا هو ان نعرض لتصور توينبي للبطل التاريخي .

لم يستطع توينبي تجاهل الحقيقة القائمة من لدن ارسطو في ان الانسان كائن اجتماعي لكنه يرفض اتجاه المدرسة الاجتماعية في تفسير التاريخ .. ورغم رفضه صراحة اتجاه المقابـل الا ان حصاد دراستـه للموضوع تضعه في النهاية ضمـن الاتجاه الفردي .. فهـو يرى في المجتمع نظاما للكائنات البشرية يقوم فيه الوسيط الاجتماعي بدور ميدان الفعل اما مصدر الفعل بأسره فمرجعه الى الافراد ... وتصبح المقولة مقبولة لو انه قصد كافـة افراد المجتمع ، لكنـه عني قطاعا معينا من الافراد اطلق عليهم « الشخصيات » البطلة العبقرية بالمعنى الحرفي لا المجازي على حد قوله .

ويعود في محاولة لتمييع الموقف فيشرك مع البطل « صفوة مبدعة»

على شاكلة البطل وليس لها سمات البشر العاديين ، وهنا يبدو التأثير المسيحي حيث يقتبس فكرته من حواري السيد المسيح .

« التحدي والاستجابة » تلك الميكانيكية التي انسحبت أيضا على ابطال توينبي فيما عرف بعملية « الانسحاب والعودة » ..

ورغم اعتراف توينبي العابر بأهمية البعد الاجتماعي في تفسير التاريخ ، وكذا رغم اعلانه صراحة رفض الاتجاه الفردي ومحاولة التوفيق بين المائعة بين النظريتين تأتي نتائج دراساته الموضوع لتضعه في قائمة المدرسة الفردية المثالية . فهو يرى في المجتمع نظاما للكائنات البشرية ، أو يرى في الفرد كائنا اجتماعيا لكن المجتمع مجرد وسط او ميدان للفعل الفردي ، وبالتالي تصبح افعال الافراد هي الثقل في عمليات الحراك الاجتماعي ؛ وليته عني في هذا الصدد كافة افراد المجتمع لكنه قصد قطاعا خاصا من الافراد أو « الشخصيات » البطلة ذات المواهب العبقرية بالمعنى الحرفي لا المجازي ، على حد قوله . ويبدو انه أحس بخطورة اندفاعه نحو الاتجاه الفردي فحاول تمييع القضية باشراك « صفوة » أو « أقلية مبدعة » ليس لها سمات البشر العاديين ، واقرب ما تكون الى شاكلة البطل ، عزى اليها القيام بدور مساعد البطل في انجاز مهامه التاريخية . ولعله تأثر في هذا الصدد بتاريخ الانبياء وحوارييهم او صحابتهم كما في المسيحية والاسلام . ولكن لما كان هؤلاء في درجة أدنى حيث لا ترقى طبيعتهم الى طبيعة الابطال يبقى للبطل التأثير الفعال ويصبح العامل الحاسم في التحولات التاريخية .

يفهم ذلك بداهة من دراسة لابطاله ، فعلى ايديهم تتم الطفرة أو النقلة حقبة حضارية الى اخرى اكثر تقدما .

والتطور بهذه الكيفية لا يأتي طبيعيا او تلقائيا .. وانما بفعل عفوي يتوقف على ظهور العبقري البطل .. وقد استعار من برجسون ــ الذي اعجب به ــ كلمة « رجة » أو « هزة » للتوافق مع انجاز البطل ، ولم

يقل بتغيير أو تطور حتى لا ينصرف الذهن الى البحث عن اسبابه داخل المجتمع ذاته .

وبرفضه مفهوم التطور الطبيعي تصبح الانعطافات التاريخية رهينة بفعل عبقرية صادر عن بطل صوفي تولد رسالته من خلال معاناة ذاتية وتجربة صوفية فجة هذه الرسالة فيض علوي معزولة الصلة عن الواقـع الارضي وتجاوز له بل هي حالـة من تخطي حدود الذكاء البشري ، على صاحبها ان ينتقل بحالة مجتمعه الى عالمها أو بالاحرى اعادة تشكيـل الواقع وصياغته على منوال ما صدر من الهام الباطن .. ولا يرى توينبي في تحقيق ذلك ثمة غرابة طالما تحوم ذات الافكـار في ذات الوقت في خواطر من اطلق عليهم « الاقلية المبدعـة » ، فيكون التوافق مـن ثم تكريسا لجهودهم في نصرة الدعوة الجديدة والدعوة اليها وبالتالي تتم النقلة أو الانعطافـة .

قد يبدو من منطق توينبي هذا مقبولا ، لكنه منطق صوري علـى كل حال .. فالتجربة الصوفية الخاصة بالبطل مسألة غاية في الخصوصيـة ولطالما اسفرت عن حالـة تجاوز حدود الذكاء البشري ، فكيف تكرر أو مجرد تحوم بخواطر عدد من البشر في نفس الوقت ؟ اللهـم الا اذا كانت تنطوي على شكل عام تضرب اصوله في الوسط الاجتماعي الـذي يضم البطل وصفوته وجماهيره . كذلك الحال بالنسبة للجماهير بصورة أكثر اعضالا فكيف يمكن ان تتحول الى عالم البطل « بقدرة قادر » الا اذا كانت من صفوة أي شعب كامل من العباقرة ؟ ان هذا المنطق المثالي ــ منطق الافكار الهائمـة الجائلة ــ بين « الاقانية الثلاثة » البطـل ، والصفوة ، والجماهير منطق مرفوض من أساسه .

واذا سلمنا جدلا بصحة هذا المبنى ــ أي القوى الثلاثة ــ يستحيل وقـوع الاستجابة ما لم تكن الاخطار صادرة من القاعدة الى القمـة وليس العكس ، لأن القاعدة هي حجر الزاوية في عملية الحراك التاريخي

وهي المختبر ـ الحقيقي في حركتها او سكونها ـ لنجاح الافكار أو توازيها •• وبالتالي تصبح من خلال تطلعها لتغيير الواقع او تطويره ملهمة للبطل والصفوة معا في التعبير عن تجسيد هذه التطلعات في صورة أخرى من الافكار ، فاذا ما توافق هذا التجسيد مع متطلبات التغيير كانت استجابة الجماهير ايجابية بالضرورة ، والا فالفشل والاخفاق مصير أية أفكار فائضة او صادرة من اعلى كما تصور توينبي •

ان الانعطافات الكبرى في التاريخ تتم من خلال جدل مستمر بين قوى المجتمع ، بين الفكر والواقع ، لا وزن للصفوة ولا مكان للابطال وان وجدوا فلأنهم نسيج في وحدة المجتمع ككل ، لا لكونهم منقطعين عن وسطهم الاجتماعي في عوالم اخرى حتى يحدث التجلي فيعودون الى وسطهم لأحداث الطفرة •

لذلك لم تفلح صيغة « الانقطاع والعودة » التي جسد توينبي فيها تصوره لطبيعة البطل وعمليات التحول التاريخي ، لم تفلح في تقديم نسق فلسفي يفسر تاريخ البشرية • وحتى هذه لا تنبو عن دائرة التفسير الاجتماعي للتاريخ • وحتى هذه الصيغة التوينوبية ليست من فيض عبقرية توينبي ، انما استعارها من ابن خلدون في حديثه عن النبوة والانبياء أصحاب الرسالات يقول ابن خلدون « ان للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللمحات ، وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل ، ثم تعود النفس الى البشرية بعدما تستقبل عن طريق الملائكة الرسالة التي يوكل ابلاغها الى البشر » •• ولا يخفي على المؤرخين الأسباب التي حدت بابن خلدون الى التضارب في فكره بين المادية والمثالية ••

واذا استعار توينبي هذه المقولة وطبقها على حياة موسى وعيسى ومحمد وسير بعض القديسين والرهبان كبولس ونبركت فلا يعني ذلك

نجاحه في تقديم نظريـة تفسر تاريخ البشرية برمته فكيف يمكن تفسير الثورة الفرنسيـة والانقلاب الصناعي والاستعمار وحركة التحرر الوطني والثـورة العلميـة .. الخ وفقا لصيغة « الانقطاع والعودة » ؟؟

لقد حاول توينبي تطبيقها على حياة ميكيافيللي ودانتي وحسب ولكن أين هؤلاء وما مكانتهم في مسيرة الانسانية الطويلة ؟ لم يكونوا وغيرهم الا كما قـال توينبي نفسه « مجرد خميرة في الكتلة البشرية العادية » .

ان الشعوب ـ لا الابطال ـ هي صانعة التاريخ وتلك حقيقـة لا يماري فيها سوى اعداء الشعوب وعبد العباد ..



من وحي مهرجان توينبي

د. محمد حسين فنطر
تونس

مساهمة مني متواضعة في هـذا المهرجان التذكاري الذي يقـام اجلالا لشخصية ارنولد توينبي استسمحكم اخواني وزملائي الافاضل تقويم بعض الخواطر الذاتية أثارتها لدى قراءة بعض ما انتجه ارنولد توينبي خلال حياة في خدمة التاريخ أي في خدمة الانسان .

ان الاهتمام بالتاريخ يفيد الاهتمام بالانسان حيث ما كان ماضيـا وحاضرا ومستقبلا وقد كان توينبي لا يؤمن بمجانية الابحاث التاريخـة والتفتيش عن الماضي بل كان يؤمن بما فيه عمل المؤرخ ويرى انه لمـن واجبـات المؤرخ مواكبة العصر ومساهمة معاصريه في توضيح الرؤية واتخاذ المواقف التي تمليها عليه ما يعتقده الحقيقة وهو مستند الى ملفات جاهزة محققة . مطويا لمؤرخ حاول التحقيق في قضايا الانسان ولم يبخـل بتقديم ما يعتبره الحقيقة والحق . فلم يكن التاريخ عائـق تعرض في قاعات المتاحف ولا مجددات تتحلى لها رفوف المكتبات بل هو عمل انمائي يضاف الى شتى الاعمال الانمائيـة الاخرى غايتهـا يناعـة الانسان الشاملـة .

على أن الخواطر التي أريد تقديمها لكم تتعلق بالانسان والحضارة ان قراءة بعض ما مر به تفكير توينبي جعلني اعتقد راسـخ الاعتقاد ان الحضارة في مدلولها العام الشامل هي نتيجة لقـاء الانسـان بالمحيط

واعطي منا لكلمة حضارة مدلولها الموضوعي دون ما تقييم دون ما حكم لها ولا عليها فهي اذن وليدة الانسان والمحيط بالمعنى الفسيح بابعادة الافقية وابعادة الشاقولية المادية والغير مادية .

فالنتيجة المنهجية التي نستخلصها مما سبق هو أن الحضارة تتحول بتغيبي احدى العنصرين الاساسيين وهما الانسان والمحيط فيما ان تغير احدهما الا وطرأ تغيرا حتميا على الوليد أي على الحضارة .

ففي العصر الحجري القديم السفلي تم لقاء بين المحيط وانسان لم يستكمل اذ ذاك انسانيته فكانت النتيجة حضارة لها ملامحها الخاصة منها مجاراة كيفت وسخرها ذلك ان الانسان البدائي لصالحه وبسط نفوذه على المحيط أو بعض ذلك المحيط . فتلك الحجارة المكيفة المشكولة ان صح هذا التعبير مظهر من مظاهر حضارة ذلك الانسان البدائي . وبتطور ذلك الانسان تتطور الحضارة ظرفا ومظروفا وكذلك الشأن عند تطورالمحيط من حيث المناخ والتضاريس مثلا فكان العصر الحجري الحديث وغزو المعادن والكتابة وكلها نتائج لقاء الانسان بالمحيط ولا فرق مبدئيا بين المواليد جميعها فالحجرة التي كيفها او قد شكلها الانسان البدائي لا تختلف من حيث هي حضارة عن الاقمار الصناعية التي تجوب الفضاء وتقضي على المسافات .

وهذه الرؤية للحضارة تسقط تل الفوارق بين الانسان وأخيه الانسان فهو حيوان حضاري شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وما الفوارق الى عناصر ظرفية مكتسبة واكتسابها ميسر مبدئيا للجميع وهنا نلتقي بقولة أرخميد Arclimede « اعطني نقطة ارتكاز ارفع لك العالم » . ما الفوارق الحضارية من حيث الألوان والأشكال والقدرات لا تتضمن تفوقا جذريا وجوهريا تمتاز به طائفة من البشر على طائفة اخرى أو عرق على عرق وان ثبت علميا ان لا وجود للعرق الصريح باعتبار تمازج السلالات البشرية منذ أقدم عصور تواجدها على هوة الأرض فالحضارة

جوهر ومظاهر فالجوهر هو الانسان والمظاهر ظرفية • وفي الجوهر معنى الخلود والمظاهر الظرفية تزول وتتحول وتكتسب وتضيع ما دام الانسان هو الجوهر فلنجهزه حتى يكتسب ما يكتسب ولا يفرط في مكتسباته ونجعله واعيا ذهنيا وعمليا بقيمة ومفعولية ما لديه وما ليس لديه فهي لعمري رؤية تبدد سحب اليأس وتكسر اغلال مركبات النقص وعدم الايمان بالذات فهي الايمان بالانسان وسمو الانسان بالايمان والمتخلفون قوم خوت قلوبهم من الايمان •

واستنادا الى ما سبق ذكره يتحتم اسقاط تلك النظريات التي تصنف المجتمعات البشرية الى منتجين ومستهلكين جبلة اي الى مجتمعات قادرة جبلة على خلق الحضارة ومجتمعات مقصورة جبلة على استهلاك الحضارة وهذه النظريات الخاطئة الضالة قد قوالبت الدراسات التاريخية طيلة قرون سميا لما تبوأ الغرب الاوروبي عرش السيادة الاقتصادية والتكنولوجية وبالتالي عرش السيادة السياسية فلو استعرضنا على سبيل المثال الرؤية الغربية لتاريخ شمال افريقيا لتبين لنا ان الذين كتبوا تاريخ هذه الرقعة من العالم العربي جعلوا منها مسرحا لحضارات تعاقبت عليها فتراهم يثبتون انها كانت مرتعا للحضارة الفينيقية وللحضارة الرومانية وللحضارة البيزنطية بعد الغزو الوندالي ثم للحضارة الاسلامية وكأن بلاد المغرب العربي الكبير لم تكن سوى وعاء استوعب هذه الحضارات على التداول دون ان يكون لسكانه الاصليين مساهمة تذكر • وكأنهم أخذوا ولم يعطو شيئا وكأنهم اكتفوا باستهلاك ما تقدم اليهم من غذاء حضاري دون ان يساهم في تهيأة ذلك الغذاء لا من حيث عناصره ولا من حيث طهيه ان قراءة كتابات توينبي توحي بطرح تلك النظريات الجائرة وتعطي كل ذى حق حقه وتجعل من الحضارة نتيجة عمل مشترك متعدد الاطراف ونتيجة جهود كتب لها ان تتظافر او حملتها الظروف على التظافر والتعاون والتلاقح •

كانت كتب التاريخ في تونس تقدم لنا الحضارات التي تعاقبت في

بلادنا كالفينيقية والرومانية والعربية الاسلاميـة كالبضاعات الجاهزة أو كالمصنوعات الجاهزة آت بها الاجانب من غـزاة وفاتحين واستخدموها لمصالحهم واستفاد منها أهل البلاد احيانا • ان قراءة ما كتبه توينبي توحي بعكس ذلك بل فيها ما يشير الى مساهمة من وقع غزوهم عسكريا أو حضاريا لان في الأخذ عطاء •

ويترتب على ذلك اعادة قراءة التاريخ حتى يتم ابراز كل العناصر التي يتركب منها النتاج الحضاري وقد تكون دخيلة وقد تكون أصيلـة بل لا يتأصـل النتاج الحضاري في محيط بشره ما الا اذا يساهم ذلـك المحيط في سبكه وقد ترتدي تلك المساهمة اشكالا وألوانا مختلفة وتتبوأ مستويات مختلفة •

كان المؤرخون الغربيون ينكبون على دراسة الحضارة الرومانيـة في تونس باعتبارها حضارة دخيلة لا نصيب منها لأهل البلاد باستثنـاء الاستهلاك وأي استهلاك فعلى ضوء نظرية المساهمة التي أشرت اليهـا من حين تبين ان للحضارة الرومانيـة في تونس مثل ملامحها الخاصـة ملامح اعطتها خصوصية تونسية ان صح هذا التعبير ومعنى ذلك ان لهذه الحضارة الرومانية في تونس عناصر ساهمت في تركيبها الكيماوي تعود الى المحيط التونسي فاذا تمعنت في الهندسـة المعمارية أو في ألـواح الفسيفسـاء أو في الادب أو في المعتقدات لمست فيها ما لا يمكن ارجاعه الى اصول لاتينية يونانيـة بحتة بل هي عناصر من تقويم المحيط بمدلوله الفسيح العميق بل هي مساهمة المجموعة الأقلية • فاستعان بها والمساهمة في سبكها أصبحت الحضارة الرومانية حضارة البـلاد في ذلك العصر السحيق • فالبنايات التي ما زالت أطلالها بيننا وألواح الفسيفساء التي تتحلى بها متاحفنا ومؤلفات القديس أوغستنوس كلها من نتاج المغاربـة الأفارقة سبكوها بعقولهم وعواطفهم وأيديهم ففي كل مظهر من مظاهر هذه الحضارة في بلادها المغربية تجد بصمات المغاربة فهي طابعها الذي يسبي الى مساهمتهم في تصورها وتطويرها فكأنهم أخذوا طفـلا لاتينيا

وأضافوا اليه طفلا محليا ثم صوروه أوعية مختلف الأشكال والوظائف بلمساتهم الخاصة فلا بد للمؤرخ الباحث اذن من التنقيب عن عناصر المولود الحضاري ولا بد له من القيام بعمليات تحليلية كيماوية تساعده على فصل العناصر المختلفة وعزلها حتى يتعرف اليها او يتعرف على هويتها ومغبتها .

وعلى هذا الاساس تبدو الرومنة « La romani te» حضارة انتجتها شعوب مختلفة شأنها شأن النهر الكبير الذي يتزود بمياه روافد مختلفة وعديدة فعلى المؤرخ اذا يقف عند النهر وينسى مساهمات الروافد على ان الخصوصيات والمساهمات المختلفة لا تنفي الوحدة بل في الخصوصيات اثراء والبحث عنها يقرب المؤرخ من الحقيقة وفيه اعتراف بحقوق الانسان ورفع لمنزلته اذ لا يجعل منه المستهلك المتواكل بل يبرز مساهماته مهما كانت متواضعة في رأيه وفي هذا طرد سبعه العنصرية والتفوقية التي تصنف الناس الى منتجين جبلة ومستهلكين جبلة .

من هو مؤلف الروض المعطار في خبر الاقطار

الدكتور صالح الحمارنه
الجامعة الاردنية
كلية الآداب / قسم التاريخ

تعليق على الطبعة الكاملة لكتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تأليف ابن عبد المنعم الحميري ، تحقيق احسان عباس* .

ان اول اشارة الى كتاب « الروض المعطار في خبر الاقطار » في الدراسات الحديثة كان من قبل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال وذلك في مؤتمر المستشرقين العالمي الذي عقد في مدينة ليدن عام ١٩٣١ ، فقد لفت الاستاذ ليفي بروفنسال الانظار الى وجود مخطوط لمعجم جغرافي تاريخي عنوانه : « الروض المعطار في خبر الاقطار » (١) . ثم حقق الاستاذ بروفنسال كل ما يتعلق ببلاد الاندلس (والبرتغال) وجنوب فرنسا ونشره في القاهرة عام ١٩٣٧ تحت عنوان : « صفة جزيرة الاندلس » منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، ثم ترجم النص العربي الى الفرنسية وضمه في كتاب واحد عام ١٩٣٨ (٢) .

ومنذ ذلك الحين حاول عدد من الباحثين ان يحققوا اجزاء اخرى من كتاب الروض المعطار صغيرة كانت او كبيرة ونشرها ومثال ذلك ما قام

---

* صدر عن مكتبة لبنان معجم جغرافي تاريخي بعنوان « كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار » . من تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري . وقد حقق هذا العمل الكبير الدكتور احسان عباس استاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاميركية في بيروت ــ لبنان .

به البرفسور ليفتسكي ، امبزنوريتزيتانو ، وكاتب هذا التعليق [٣] .

اما عمل الاستاذ احسان عباس والذي نحاول هنا ان نقدمه للقارئ الكريم فهو يشمل « كتاب الروض المعطار » كاملا وقد وقع الكتاب في ٧٤٥ صفحة من الحجم الكبير وجاءت الطبعة جيدة وعلى ورق أبيض صقيل وقامت بطبعها دار القلم للطباعة ـ لبنان .

لقد قام الاستاذ المحقق بتقديم الكتاب ببحث عميق وشيق ضمنه خلاصة دراسته لمخطوط الكتاب بشكل شامل وتعرض لاكثر الدراسات التي قام بها الباحثون المحدثون .

ان ابرز شيء في تحقيق الاستاذ عباس لكتاب الروض المعطار هو دراسته الدقيقة للسفر كله فقد تعرف من خلال دراسته لمتن الكتاب على مضمونه وحاول كذلك ان يتعرف على الكاتب نفسه سيما وان التراجم لم تذكر شيئا مهما عن تفاصيل حياة الحميري ولقد استطاع الاستاذ المحقق من خلال هذه الدراسة الدقيقة ان يرد المتن من السفر الى مصادره الاولية التي استقى منها الحميري معلوماته ، وهذا بالذات جهد كبير يستحق كل تقدير ، ثم ان المحقق ساق كثيرا جدا من الملاحظات والتعليقات الغنية والقيمة كلما اقتضى الحال ذلك لتوضيح المعنى وشرح المتن ثم أتبع الاستاذ عباس هذا كله بفهارس عدة اغنت الكتاب وجعلت تناوله على القارئ سهلا وميسورا ..

اما الفهرست الاول فهو في اسماء الاماكن التي جاء ذكرها في الكتاب والثاني في اسماء الاعلام ، والثالث في اسماء القبائل والامم وفهرست في اسماء الكتب التي جاء ذكرها في المتن وفهرست في قوافي الاشعار التي وردت في المتن .

ثم اعقب ذلك كله بقائمة واسعة باسماء المصادر التي استفاد منها المحقق في كتابة المقدمة وفي تحقيقه متن الكتاب .

ان أول قضية اعترضت كل من أراد البحث في كتاب الروض

المعطار .. او التقديم له هي قضية مؤلف الكتاب . ترى من هو مؤلف الروض المعطار الحقيقي ؟

هل هو عبدالله محمد بن محمد الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ؟ ام هو ابو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري ؟ دون ذكر لسنة الوفاة كما جاء في كتاب كشف الظنون (٤) .

لقد عالج هذا الموضوع بشيء من التفصيل كل من الاستاذ ليفي بروفنسال والاستاذ ريتزيتانو وخلص الاستاذ بروفنسال الى القول بوجود مؤلفين اثنين لكتاب الروض المعطار كل منها ينتسب الى حمير . قام اولهما بكتابة صورة اولى من « الروض المعطار » . وقام الثاني بانتحال عمل الاول . وربما اضاف اليه شيئا من دون ان يذكر ما للمؤلف الاول من فضل عليه (٥) .

اما امبرنوريتزيتانو فيقول : « ان مؤلف الروض المعطار .. » شخص واحد هو ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله ابن عبد المنعم الحميري المتوفى ٧٢٣ هـ او ٧٢٧ هـ (٦) والى هذا الرأي يذهب ايضا الاستاذ احسان عباس في مقدمته لكتاب الروض المعطار (٧) .

وحتى تتضح للقارىء هذه النقطة الهامة علينا ان نذكر هنا وبايجاز شديد أهم الدلائل التي أوردها الباحثون السابقون بهذا الصدد .

ذكر القلقشندي صاحب كتاب « صبح الاعشى » الذي انتهى من تأليفه عام (٨١٤ هـ ١٤١٢ م) ، كتاب الروض المعطار واعتمده كواحد من مصادره الجغرافية (٨) . فعليه لا يمكن ان تتأخر وفاه الحميري مؤلف الروض المعطار حتى سنة ٩٠٠ هـ . فاذن لا بد ان يكون مؤلف هذا الكتاب ممن عاش قبل مطلع القرن التاسع الهجري على أقل تقدير ..

يقول الاستاذ عباس : « ان ذكر حاجي خليفة له مرتين يعني انه اطلع على نسختين : احداهما ذكرت اسمه كاملا والاخرى ذكرت اسمه موجزا ولما كان حاجي خليفة ـ وهو منسق ببليوغرافي ـ غير

مسئول عن تحقيق الفرق بين الاسمين فاثباته ما اثبته امانة دقيقة منه في عمله [٩] .

وقد حاول غودفروا ــ ديمومبيين ان يفسر ذكر حاجي خليفة سنة ٩٠٠ هـ تاريخا لوفاة المؤلف ، بان هذا يعود لخطأ شائع في المخطوطات العربية التي تخلط بين كلمة « تسعماية » و « سبعماية » ووافقه على ذلك الاستاذ ريتزيتانو [١٠] .

اذن كل الدلائل تشير الى ان مؤلف كتاب الروض المعطار هو محمد بن عبد المنعم الحميري المتوفي في النصف الاول من القرن الثامن الهجري وهو ذلك الحميري الذي وجد ليفي بروفنسال ترجمة لحياته ولو بسطور بسيطة نزره في كتاب « الاحاطة » للسان الدين ابن الخطيب [١١] . ووجدها ريتزيتانو في سطور أقل منها في كتاب « الدرر الكامنة » لابن حجر والذي يذكر ان وفاة ابن عبد المنعم الحميري كانت سنة ٧٢٧ هـ [١٢] .

ان الذي يتصفح بانتباه كتاب الروض المعطار يرى ان التركيز فيه على الحوادث التاريخية التي وقعت في القرن السابع ومطلع القرن الثامن الهجريين ، ففي بلدان غرب الخلافة يتحدث عن دولتي المرابطين ثم الموحدين وبعض الدويلات الصغرى الاخرى التي قامت في بلدان المغرب . اما في المشرق فهو يتحدث عن الهجوم التتري على بلدان الخلافة الشرقية وفي بلدان السواحل السورية يتحدث عن انحسار الوجود الفرنجي « الصليبي » في الشواطيء السورية الفلسطينية .. من كل ما تقدم نرى انه ليس هناك ما يعطل نسبة الروض المعطار الى ابن عبدالمنعم الحميري وان لم يحاول المؤلف في كتابه ان يبرز موقفه من ناحية الاحداث فالحميري كما يصفه الاستاذ احسان عباس : « لا نجد انسانا شديد الحرص على انكار ذاته كما نجد الحميري ، وكأنه يقول بلسان الحال : أريد ان ارتب معجما جغرافيا معتمدا في ذلك على الانتقاء من عدد معين من المصادر . دون ان يكون لي أي رأي ذاتي او عرض لتجربة خاصة » [١٣] .

غير ان هذا القليل الذي يتعدى فيه الحميري مطلع القرن الثامن للهجري يدعو مع كل ذلك للتساءل فبالاضافة الى ملاحظة حاجي خليفة صاحب كشف الظنون بوجود حميري آخر توفي عام ٩٠٠ هجري ••• فقد ورد كتاب « هداية العارفين » تأليف اسماعيل البغدادي ما يعزز هذا الرأي ، فقد ذكر البغدادي عن الحميري ما يلي : محمد بن محمد بن عبدالله ابن عبد المنعم شمس الدين ابو عبدالله الحميري الذي توفي في سنة ٩٠٠ للهجرة ، كتب الروض المعطار في ذكر المدن والسير والاخبار وهو الكتاب الوحيد الذي وجدته له* (١٤) •

امام صمت التراجم ، ونزر المعلومات عن الحميري وعن حياته وعن أعماله لا نجد امامنا الا الرجوع الى كتابه نفسه « الروض المعطار » علنا نجد فيه ما يفي بالغرض ويشفي الغليل ••

فاذا ما تصفحنا الكتاب فاننا نعثر على بعض زيادات حدثت بعد نهاية القرن السابع الهجري • من هذه الزيادات ما جاء عند ذكر مدينة ايله : « والتي اصلحها الاشرف قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة ** من جملة ما أصلح في طريق الحجاج ، في أواخر عمره قبل العشرين والتسعماية » •

وجدير بالذكر انه يوجد نقش على بوابة قلعة العقبة والتي تقع عند مدخل المدينة فيه اسم قانصوه الغوري وبجانبه تاريخ يرجع الى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م (١٥) •

ونحن نعلم ان قانصوه الغوري اهتم بالعقبة لوقوعها على طريق الحج والتجارة (١٦) •

والحميري يصف مدينة ايله « ينزلها اليوم قوم من بني امية وأكثرهم موالي عثمان رضي الله عنه كانوا سقاة الحاج ، وبها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة ، وهي كثيرة النخل والزرع » • مما يدل على أنها كانت مدينة عامرة نشطة •

في حين ان الادريسي الذي يستقي منه الحميري معلوماته في أكثر

الأحيان يصفها في كتابه نزهة المشتاق وكأنها قرية صغيرة خاملة فيقول : « أيله قرية صغيرة يأتيها البدو لقضاءحاجاتهم » [١٧] .

ويذكر الحميري مدينة الرملة في كتابه مرتين مرة تحت حرف الف ومرة اخرى تحت حرف الراء ـ كما هو مفروض ـ وذكر في الوصف الاول « الرملة احدى مدن الشام وهي مدينة عامرة بها أسواق وتجارات ودخل وخرج ، ومنها الى يافا التي على ساحل البحر نصف يوم ، ومن الرملة الى نابلس يوم ، ومنها الى قيساريه مرحلة » . مأخوذ من نزهة المشتاق كما عودنا الحميري اما الوصف الثاني فهو : « الرملة بالشام ، سمتها الرملة لما غلب عليها الرمل وهي من كور فلسطين وبينها وبين القدس ثمانية عشر ميلا ، ومدينة الرملة واسطة بلاد فلسطين ، وهي مسورة ولها اثنا عشر بابا ، القدس ، وباب عسقلان ، وباب يافا ، وباب يازور ، وباب نابلس ، ولها أربعة أسواق متصلة من هذه الأبواب الى وسطها وهناك مسجد جامعها ، فمن باب يافا يدخل في سوق القماحين حتى يتصل بمسجد جامعها ، وهي سوق حسنة يباع فيها أنواع السلع ويتصل بباب القدس سوق القطانين الى سوق المشاطين الكبار الى العطارين الى المسجد ، الجامع ويتصل سوق الخشابين من باب يازور ثم سوق الجزارين ثم الشاقين الى المسجد الجامع ، ويتصل سوق الخشابين من باب يازور بآخر من أسواقها : سوق الأكافين وسوق الصياقلة ثم سوق الراجحين الى المسجد الجامع ، ويقال ان الرملة اربعة آلاف ضيعة بين الرملة وايليا ثمانية عشر ميلا في صحار ووهاد .. » .

هذا الوصف وجدته يطابق ما جاء في كتاب « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » تأليف ابن مجير الدين المتوفي سنة ١٤٦٣ م ن [١٨] . وان المصادر التي عودنا عليها الحميري لم تذكر ذلك ، فاذا صح ان هذا النص مأخوذ عن ابن مجير الدين فلا شك اذن انه جاء على يد حميري آخر متأخر ..

وعند ذكر مادة زلاقة التي استرسل الحميري في الحديث عنها يقول في النهاية : « قال مؤلف الكتاب رحمة الله عليه : خالفت بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار لحلاوة الظفر في وقت نزول الهمم ووقوعها في الزمن الخامل » .. قال مؤلف الكتاب رحمة الله عليه !! ان استنزال الرحمة على مؤلف الكتاب لا بد أن تأتي من كاتب آخر يترحم على سلفه ألا وهو الحميري الثاني الذي عاش في الزمن « الخامل » هذا الزمن المختلف عن زمن الحميري الأول الحميري الشيخ العمدة الذي كان زمنه زمن تقدم للمسلمين فقد أخذوا فيه يطردون الافرنج الصليبين من البلاد المقدسة وكانت الأندلس ما زالت عامرة وقوية بيد المسلمين ..

في حين ان زمن الحميري الثاني هو زمن خامل فعلا فيه خرج العرب من الأندلس بعد عذاب واضطهاد كبيرين .. وكذلك سقط حكم سلاطين مصر والشام تحت ضربات الأتراك العثمانيين ..

من كل ما تقدم ، واعني من الملاحظة التي ذكرها كل من حاجي خليفة والبغدادي ومن الزيادات الطفيفة التي وردت هنا وهناك في متن كتاب الروض المعطار نستطيع ان نسوق الرأي التالي : ان مؤلف الكتاب الأصيل هو الشيخ العمدة ابو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري الذي فرغ من كتابه أو معظمه مع نهاية القرن السابع الهجري أو بداية القرن الثامن الهجري ..

اما أبو عبدالله محمد بن محمد الحميري والمتوفي حوالي ٩٠٠ هـ فهو ولا شك الذي اضاف بعض الزيادات ونعتقد أيضا انه قام كذلك باختصارات كثيرة اساءت للكتاب الأصيل كثيرا . فقد ادّعى الكتاب لنفسه اذ ربما انه من احفاد الحميري الأصيل وورث نسخة الكتاب فيما ورث عن سلفه وادعاه اعتباطا لنفسه ، ونحن هنا لا نستطيع ان نعده الا في جملة النساخ لا أكثر ولا أقل ..

اما من حيث المخطوطات التي استعان بها الاستاذ احسان عباس

في تحقيق كتاب الروض المعطار فقد اشار الى مخطوطتين كاملتين نسخة موجودة في مكتبة بيرم باشا التابعة لنور عثمانيـة وتحمل رقم (٤٤) والنسخة الاخرى كانت ملك المرحوم الشيخ محمد نصيف بجدة •

وقد نقلت عن نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة وكان الانتهاء من نقل نسخة المدينة سنة ٩٧٠ هـ • والنسختان تتقاربان الى حد بعيد ، وهذا التقارب يوحي بالقـول انهما اعتمدتا على اصل واحد • وهناك أيضا نسخـة اخرى ناقصة لكتاب الروض المعطار لم يشر اليهـا الاستاذ عباس تنتهي عنـد حرف (ز) ومكتوبـة بالخط النسخي علـى الطريقة المغربية وهذه المخطوطة وجدت في مدينة مكنس وهي الآن في معهـد الدراسات الاسلاميـة في جامعـة باريز • هـذا والاستـاذ بروفنســال قد أشار في مقدمته « صفة جزيرة الاندلس » ــ المذكورة سابقا الى وجود عدة نسخ يظهر انها قد اتلفت اثنـاء الحرب العالمية الثانيـة •

وأخيرا لا شك ان الاستاذ عباس قد قـام بعمل جليل في تحقيقه هذا المعجم الجغرافي التاريخي الكبير الـذي يمكن اعتماده ــ رغـم عدم اصالتـه ــ كمصدر هام للاحداث التاريخية خاصة تلك التي وقعت في القرن السابع وبدايـة الثامن الهجريين في شرق الخلافـة كما في غربهـا • ومع هذا أقول مع الاستاذ المحقق : « ليس من الضروري ان نغالي في تقييم « الروض المعطار » • فان مهمته لا تتعدى شيئين :

انه يشبه ان يكون نسخة ثابتة من كل مصدر نقل عنه ، وهو في هذه الحالة يصحح أحيانا بعض النصوص في تلك المصادر، كما انه احتفظ عبارة عزيزة تدور حول أحداث القرن السابع ربما طـال بنا الزمن قبل العثور على مصادرها • وبمادة مما لا يزال مفقودا من مسالك البكري ، وخاصة فيما يتعلـق بجغرافية القارة الاورويـة والاندلس [١٩] • وأيضا فيمـا يتعلق بافريقية •

وبعد •• فهذا عمل مشكور قـام به الاستاذ الفاضل احسان عباس أمد الله في عمره لنرى أعمالا كبارا أخرى له •

الهوامش

1 — E. Lévi-Provençal, Actes du XVIII International Congres des Orientalistes, Leyde 1932, p. 138-40.

2 — E. Lèvi-Provençal, La peninsuie Iberique au Moyen Age d'après le Kitab ar-Rawd al-Mi'tar fi Haber Al-Aktar d'Ibn, Abd-al-Mun'im al-Himyar, Leyde 1938.

3 — Umberto Pizzitano, Kitab al-Rawd al-Mitar li Ibn Abd al-Mun'im al-Himyar, Khassa bi-I-Djuzur wa-I-bika al-Italiyya, fi Mad-jattal Kulliyyat al-Adab, XVIII, Cairo, May 1956.
ch. Pellat, Documents et notices, Extraits d'une notice inedite sur Basra. «Arabica», 1954, t. I, fasc, 2, pp. 213-215.
T. Lewicki, Braga et Miska d'après une source arabe inedite. «Folia Orientalia», time I, fasc, 2 (1959), Cracovie 1960, p. 322.
M. Malecka, La côte Orientale de l'Afrique au Moyen Age d'après le Kiteb ar-Rawd al-Mi'tar de al-Himyar (XXeS.), «Folia Orientaia», tome IV, Cracovie 1964.
S. Hamarneh, The description of Damascus in the ar-Rawd al-Mi'tar by al-Himyar. «Folia Orientalia» tome IX, Cracovie 1968, pp. 275-290. — An unpublished description of Jerusalem in the Middle Ages, «Folia Orientalia», tome IX, Cracovie 1970.

٤ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون تحقيق ليفيقال F. Flügel ص ٥٨٠ .

5 — Saleh Hamarneh: Are There one of two Authors of The work Ar-Rawd al-Mi'tar By Al-Himyari. Folia Orientalia Tome XII Cracow 1970. p. 79.

٦ ـ امبرتوريتزيتانو : منتخبات من كتاب الروض المعطار .. عن مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .
المجلد الثامن عشر جزء اول سنة ١٩٥٦ مايو ص ١٣٥ .

٧ ـ احسان عباس : مقدمة كتاب الروض المعطار .. بيروت صفحة « ل » .

٨ ـ احمد القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ ، جزء ٤ ، ص ١١١ .

٩ ـ احسان عباس ن . م . صفحة ز .

١٠ ــ لفي بروفنسال : مقدمة صفة جزيرة الاندلس . الترجمة الفرنسية ص ١٥ . ومقدمة ريتزيتانو ص ١٣٢ .

١١ ــ لفي بروفنسال : ن . م . ص ٢٧ ــ ٢٨ وكتاب الاحاطة النسخة الكتانية بالرباط رقم ٢٧٠٤ ورمزها (ك) الصفحة ٥٤ .

١٢ ــ ابن حجر ، الدرة الكامنة م : (١٥ رقم ٢٩٥٠ ــ ط القاهرة)

١٣ ــ احسان عباس : مقدمة الروض المعطار صفحة م .

١٤ ــ اسماعيل البغدادي : هداية العارفين اسطنبول ١٩٧١ جزء ١١ ص ٢١٧ .

* ــ ولم يشر الاستاذ عباس الى هذا الكتاب .

** ــ حكم قنصوه الفوري الثاني من ١٥٠٠ ــ ١٥١٦ ميلادي ، ولكن آخر سلاطين المماليك الجراكسة هو الاشرف تومباي الثاني الذي حكم (١٥١٦ ــ ١٥١٧) م .

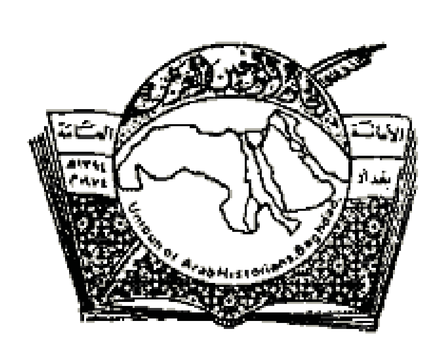
١٥ ــ لانكستر هاردنج : آثار الاردن عمان ١٩٧١ ص ١٧٢ ، تعريب سليمان موسى .

١٦ ــ ابن اياس : بدائع الزهور ٤ : ١٣٣ ، ١٥٢ ، ٥ : ٩٥ .

١٧ ــ الادريسي : نزهة المشتاق . تحقيق براندل ايسالا ١٨٩٤ ص ١٦ ــ ١٧ .

١٨ ــ ابن مجير الدين عبد الرحمان : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ١٨٦٦ . ص ٤١٦ ــ ٤١٧ .

١٩ ــ احسان عباس : المقدمة صفحة ص .



المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثامن ٨

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثامن

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المحتويات

بحوث العدد الثامن من مجلة المؤرخ العربي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة

بين يدي القارىء العربي هذا العدد من مجلة (المؤرخ العربي) في حلة جديدة وهي حافلة بالمواضيع التاريخية التي اتسمت بالموضوعية والصفة العلمية.

ان مجلة المؤرخ العربي برهنت على اصالتها الاكاديمية وعنايتها بالتراث والسعي إلى ابراز الوجه المشرق لتاريخنا القومي .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تتقدم بالتحية إلى جميع المؤرخين العرب في جميع أنحاء الوطن العربي وتعاهدهم على المضي قدماً من أجل تحقيق أهدافنا المرسومة ومن أجل تطوير وازدهار الدراسات التاريخية .

ان الثقة الواسعة التي حصل عليها اتحاد المؤرخين العرب جعلت جميع المسؤولين في الوطن العربي يعملون على تبني مشروعات الاتحاد وتأييد نشاطاته، والموافقة على طبع مجلة المؤرخ العربي على نفقة الحكومات العربية الموقرة ، .... وان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تتقدم باسم المؤرخين العرب ببالغ الشكر والتقدير إلى كل المسؤولين العرب على تأييدهم واسنادهم ومساعدتهم للاتحاد لتمكينه من أداء دوره في المجالين القومي والعلمي وتحقيق أهدافه الثقافية .

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



ارنولد توينبي
المدافع عن العرب في الغرب

بقلم : محمد توفيق حسين
العراق

قليلون هم المؤرخون والمفكرون الذين نالوا في حياتهم ما ناله ارنولد توينبي في حياته المديدة (١٨٨٩ – ١٩٧٥) من شهرة وتقدير، وقليلون أيضاً هم المؤرخون والمفكرون الذين وجه لهم ما وجه له من نقد ، بعضه علمي رصين ، وأكثره لا يخلو من غرض وتحامل . وقائمة الكتب والمقالات التي كتبت عن فكره ، شرحاً ونقضاً وتأييداً ، تؤلف مجلداً . ومن نقاده المتأخرين ايلي كيدوري أستاذ علم السياسة في جامعة لندن . وفي كتابه « تشتم هاوس فيرشن »[1] ، الصادر في لندن سنة ١٩٧٠ ، فصل طويل عقده على نقد توينبي يحمل عنوان الكتاب نفسه. وأريد أن أقف وقفة قصيرة عند بعض ما جاء في هذا الكتاب من مآخذ على توينبي لأنها تكشف ، في رأيي ، عن مكانته مؤرخاً ومفكراً ومناضلاً . وتوضح جانباً من أفكاره الأساسية ، وتجلو مواقفه في عدد من مشكلات العالم المعاصر ، ومن قضايا الأمة العربية . ولن أتعرض لنقد الأستاذ كيدوري لنظرية توينبي في تفسير التاريخ . ففي بحث توينبي في أسباب نشوء الحضارات وانحلالها ، مجال واسع للنقد ، سواء من حيث الأسس التي أقام عليها نظريته والمنهج الذي اتبعه ، أو من حيث الوقائع التي استشهد بها ، والتفاصيل التي أوردها وسأقتصر على ما له علاقة بتاريخ العرب الحديث .

من أفكار توينبي الأساسية التي أعلنها منذ مطلع شبابه ، ونماها ، وطورها ، ودافع عنها ، طوال حياته ، نقده العنيف للغرب الذي غزا البلاد الشرقية ، وأخضعها بالقهر لسلطانه ، واستغل شعوبها ، وعبث بحضاراتها وثقافاتها العريقة . وقد أوضح ذلك وفصله في أول كتاب مهم له نشره ١٩٢١ بعنوان :

« المسألة الغربية في اليونان وتركيا » [٢] وفي سنة ١٩٥٣ نشر كتاباً عنوانه « الغرب والعالم » [٣] شرح فيه اعتداء الغرب على العالم شرحاً وافياً ، مدعماً بالوقائع والشواهد التاريخية . وهذه عبارة منه « سيذكر الروس الغربي قائلين له : ان الجيوش الغربية قد غزت بلادهم براً سنة ١٩٤١ ، ١٩١٥ ، ١٨١٢ ، ١٧٠٩ ، ١٦١٠. وستذكره شعوب أفريقيا وآسيا بأن المبشرين والتجار والجنود الغربيين جاءوا من وراء البحار إلى سواحلهم ، وأخذوا يتوغلون في بلادهم منذ القرن الخامس عشر وسيذكره الآسيويون كذلك بأن الغربيين في الفترة ذاتها ، قد احتلوا معظم ما كان خالياً في الأميركتين وأستراليا ونيوزيلندة وأفريقيا الجنوبية والشرقية . وسيذكره الأفريقيون بأنهم قد أخذوا عبيداً ، ونقلوا قسراً عبر المحيط الأطلسي ، ليخدموا المستعمرين الأوربيين في قارتي أميركا ، وليعملوا أدوات وآلات حية على اشباع جشع أسيادهم الغربيين للمال والثراء . وسيذكره أبناء أميركا الشمالية الأصليون بأن أجدادهم قد اقتلعوا من أرضهم ، وطرحوا جانباً ، لتخلوا الأرض للأوربيين المغيرين ، ولعبيدهم الأفريقيين » [٤].

يرد الأستاذ كيدوري على لائحة الاتهام هذه ، المستندة إلى حقائق وقعت في التاريخ ، بقوله : « ان بقية أجزاء العالم لم تكن بريئة من العنف والخطأ وسوء التصرف ويحاول أن يوهم القارىء بأن آراء توينبي في عدوانية الغرب تستند إلى عقيدة سياسية واقتصادية راجت حيناً من الزمن وأصبحت الآن عتيقة متروكة ، وهو يقول : « يبدو أن توينبي كان قد أخذ بالفكرة المعادية للامبريالية التي قال بها هوسبون ، والتي كان يعتنقها الراديكاليون ، المتطرفون ، الانكليز قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها ، وانه كان يعتقد بأن الدول الغربية كانت تنشىء الامبراطوريات ، وتحافظ عليها ، للحصول على منافع اقتصادية . ويبدو أن توينبي قد أصبح ،على مرور الأيام أشد إيماناً بهذه الفكرة ، كما وأصبح أشد تطرفاً ، وأعظم عناداً في التعبير عن كراهيته للجشع الغربي ، وللاضطهاد الغربي للشعوب » [٥] .

وفي الجزء الأول من « دراسة التاريخ » المنشور سنة ١٩٣٤ يقرع توينبي بني قومه الغربيين على اعتقادهم بتفوق حضاراتهم على الحضارات الأخرى ، ويدينهم على قهرهم للشعوب الملونة . وفي الجزء الثاني المنشور في السنة نفسها

أدان توينبي النشاط الاقتصادي الغربي في الأقطار الآسيوية والأفريقية . « لقد اهتم أصحاب المزارع الغربيون المحدثون بسيلان لا لنشر الحضارة فيها وإنما لكسب الثروات الواسعة بأسرع وقت ممكن »[٦] .

ويلخص توينبي موقفه من عدوانية الغرب في الجزء الأخير من كتابه « دراسة التاريخ » الصادر سنة ١٩٦١ فيقول : « في نظري ان الغرب هو المعتدي الدائم »[٧]. ويعلق كيدوري على عبارات توينبي المدينة لجشع الغربيين واستغلالهم بما يشبه تعليقه السابق فيقول : « ما أدرانا ان مالكي المزارع السينهاليين سيكونون أعظم شفقة بالفلاح السيلاني وأقل استغلالاً واضطهاداً له »[٨] .

يستند توينبي في إدانته لعدوان الغرب على أساس أخلاقي من ايمانه بالمساواة بين الشعوب كافة ، وبحق كل شعب في الحرية والكرامة ، على أساس أن الشر لا يبرر الشر ، والعدوان لا يبيح العدوان ، فعلى أي أساس يستند منتقده كيدوري ؟ لا اضنه إلا مؤمناً بأن الحق للقوة ، وان وجود غزاة مخربين يبيح لكل من يقدر أن يكون غازياً مدمراً . وان وجود مستغلين جشعين يسمح لكل إنسان أن يكون مستغلا نهاباً . يعني أنه يريدنا أن نمحو المثل الانسانية الرفيعة ، والقيم الأخلاقية السامية ، التي توصلت اليها البشرية خلال مسيرتها المضنية الطويلة ، ونعود إلى قوانين الغاب حيث يفترس القوي الباطش الضعيف الوادع .

ويأخذ كيدوري على توينبي موقفه من اليهود واليهودية . فتوينبي يقدر بأن غطرسة الغرب ترجع إلى فكرة اليهود عن « الشعب المختار » وان التعصب الديني ، والشعوب بالاستعلاء العنصري ، عند الغربيين مستمد من « العهد القديم » وزيادة على هذا فإن اليهود هم طائفة متحجرة ، أي جماعة منعزلة من الناس لم تتطور روحياً ، ولم تنتج حضارة عالمية . وما العهد القديم إلا نموذج من الأساطير السريانية ولا يملك كيدوري حجة يدحض بها دعوى توينبي إلا الغضب فيقول : « ان توينبي يجهل ، كل الجهل ، اليهودية بوصفها ديانة حية مارستها أجيال متعاقبة من اليهود منذ أن هدم الرومان الهيكل »[٩] . ونحن نقول للاستاذ كيدوري : إذا كان توينبي جاهلا بالديانة اليهودية فمن هو العالم بها ؟ إن اتهام

عالم مثل توينبي بالجهل ، دون حجة ، لا يضيره ، وإنما يدل على جهل متهمه بآداب الجدل العلمي الرصين .

وخطأ توينبي الآخر ، في نظر كيدوري ، هو إدانته الثابتة لمعاملة بريطانيا للعرب فتوينبي يعتقد جازماً بأن معاملة بريطانيا وفرنسا للعرب لم تكن مستقيمة ولا عادلة ، وان بريطانيا قد خدعت العرب وضللتهم وغشتهم [١٠] . وهذا موقف قديم لتوينبي ففي تشرين الأول سنة ١٩١٨ كتب في تقرير كلفته باعداده وزارة الخارجية البريطانية : « ان وعد بلفور يتناقض مع الوعود التي قطعتها بريطانيا لحسين شريف مكة » [١١] . ويرد كيدوري : « ان توينبي أخطأ فهم الرسائل المتبادلة بين مكماهون والشريف حسين ، وانه لم يحاول ان يفحص وعود مكماهون فحصاً دقيقاً » [١٢] .

ومن أخطاء توينبي ، في نظر كيدوري ، انه كان يؤمن بأن سكان البلاد العربية ، الواقعة في الجزء الآسيوي من الوطن العربي ، كانوا يرغبون في الوحدة السياسية لبلادهم ، وانه يقول : كانت هذه الأقطار العربية ، قبل الحرب العالمية الأولى ، موحدة سياسياً ، ولكن الانكليز والفرنسيين أنشأوا بعد سنة ١٩١٨ حدوداً مصطنعة واعتباطية بشكل يذكرنا بتقسيم بولندا الظالم في القرن الثالث عشر [١٣] ويؤكد توينبي رأيه هذا بوضوح وصراحة فيقول : « ان هذا التقسيم قد فرض على العرب ضد ارادتهم .. وانهم حتى الآن قد رفضوا أن يعترفوا بعدالة أو شرعية هذا الترتيب . وانه لم تكن لهم كلمة مسموعة في الموضوع وهم يعتبرونه مضاداً لمصلحتهم ، وانهم سيمحونه محواً ما ان تتاح لهم الفرصة » [١٤] . ويرد كيدوري بقوله : « هذا يعني أن نتقبل ، دون فحص ، ادعاءات أقلية ضئيلة ، لا تمثل إلا نفسها ، في العالم المتكلم باللغة العربية » [١٥] . صدق توينبي ، ولم يستند رد كيدوري على أساس تاريخي ، وان أراد دليلا فليدرس باخلاص ايمان جماهير الأمة العربية بالوحدة العربية ، ونضالاتها في سبيل تحقيقها .

ولعل أعظم أخطاء توينبي ، بل خطيئته التي لا تغتفر ، في نظر كيدوري ، هو دفاعه عن حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، واعتباره الصهيونية حركة

عدوانية استعمارية ، مساوية النازية ، بل أشد منها سوءاً وعدواناً . ألم يشبه مجازر الصهاينة للعرب في فلسطين بقتل النازيين لليهود (١٦) .

إن ما يثير الأستاذ كيدوري على توينبي هو بالضبط ما يحببه الينا ، ويعلي من شأنه في أنظارنا . فقد دافع عن حقوق الشعوب المضطهدة، وناصر بشجاعة وذكاء حقوق العرب عامة ، وحق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين العربية خاصة . يوم كان أنصار الحق العربي في الغرب قلة .

ولهذا كان الكتاب الصهاينة ، ومن شايعهم وتأثر بفكرهم ، أشد نقاد توينبي تحاملاً وتجنياً وعنفاً . وفيما ذكرته من نقد الأستاذ كيدوري مثل فيه الكفاية وأتركه الآن وأعود إلى بيان الخطوط العامة لرأي توينبي في الصهيونية والقضية الفلسطينية .

درس توينبي التاريخ اليهودي دراسة (١٧) متعمقة تقوم على المكتشفات الآثارية ، والدراسات المقارنة للحضارات المعاصرة لليهود ، وعلى التحليل النقدي للكتب الدينية بوحيه ورسالته ، واختيارهم شعباً خاصاً به من دون الناس أجمعين وأعطاهم ميثاقه وعهده الذي ملكهم به فلسطين وما يحيط بها من البلاد ملكاً دائماً . وخلاصة رأيه أن اليهودية ظاهرة اجتماعية تطورت من بدايات أسطورية ساذجة إلى أن استقرت على عقيدة التوحيد المعروفة . ولم يتوصل اليهود إلى هذه العقيدة بمفردهم ، وإنما كان ذلك انجازاً جماعياً مشتركاً بين اليهودية والزرادشتية والمسيحية والاسلام ، مهدت له الأفكار الدينية في مصر وسوريا وما بين النهرين ولم تسلم عقيدة التوحيد عند اليهود من النواقص والشوائب، وأخطرها آفة التعصب الضيق الذي مارسوه ضد جيرانهم ومخالفيهم في العقيدة والرأي والغرور والتعالي على الأمم والشعوب . « فقد اقنعوا أنفسهم بأن اكتشاف إسرائيل لا له واحد حق قد برهن على أن بني إسرائيل هم شعب الله المختار » . يرفض توينبي كون اليهود شعب الله المختار ، ويعتبرها خطأ علمياً وتاريخياً وأخلاقياً ، ويرفض زعم اليهود بأن الله قد تعهد لهم بتمليكهم فلسطين وتمكينهم من الاستيلاء عليها ، وهو يقول : « أنا لا أعتقد بأن اليهود ، أو الإسرائيليين البريطانيين ، هم شعب الله المختار ، وأنا لا أؤمن ، بالأحرى ،

بأن إعادة إسكان اليهود في فلسطين هو الكمال الذي داب على انجازه جميع التاريخ البشري منذ العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد » .

وقد أنشأ اليهود على أساس عقائدهم هذه ، ونتيجة للمحن التي حلت بهم ، مجتمعاً طائفياً ، مغلقاً ، خاصاً بهم ، وقد أصروا على حفظ هويتهم القومية ، والدينية وعلى أن يبقوا يهوداً في كل الظروف ، وظلوا يحلمون بالعودة إلى أرض الميعاد .

بعد انهيار آخر مقاومة لليهود على يد الرومان سنة ١٣٥ م لم تبق لهم دولة ولم يجمعهم وطن،وعاشوا أقليات منتشرة في أقاليم الشرق الأدنى والامبراطورية الرومانية التي فسحت لهم مجال العيش ، وتركتهم يمارسون عبادتهم بحرية . وفي ظل الدولة الإسلامية ، وجدوا الأمن والحرية والمعاملة الحسنة . ولكن وضعهم في أقطار أوربا الغربية ، منذ العصور الوسطى ، أصبح سيئاً ، بل وكان يزداد سوءاً ، والاضطهاد يلاحقهم جيلاً بعد جيل . وهنا يبدأ فصل جديد في تاريخ اليهود ، هو تاريخ علاقتهم بالغرب حيث نشأت المشكلة اليهودية ، وتعقدت ، وحدث بفاجعة . ولاضطهاد الغربيين لليهود أسباب عديدة : دينية،واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية . فمنـذ العصور الوسطى كان المسيحيون الغربيون يطمحون إلى إنشاء مجتمعات متجانسة من السكان عنصراً ولغة وديناً ، وكان وجود الأقلية اليهودية المتمسكة بهويتها القومية والدينية ، المنغلقة على نفسها ، يبدو عائقـاً دون التجـانس السكاني ، والوحدة القومية ، وكان هذا العامل الاجتماعي كثيراً ما يظهر بمظهر العداء الديني ، وكانت القرائن لتغطية هذه المشكلة الاجتماعية بغطاء ديني قائمـة ميسورة ، فاعتبر اليهود مسؤولين عن الجريمة الكبرى ، جريمة صلب السيد المسيح ، وغير ذلك من المآخذ العقائدية والخصومات اللاهوتية ، ويؤكد توينبي على العامل الاقتصادي في نشوء المشكلة اليهودية فقد كان الاقتصاد في أوربابعد انهيار الامبراطورية الرومانية،اقتصادياً زراعياً متخلفاً فأتاح ذلك الفرصة أمام اليهود للتغلغل في هذا المجتمع ، وذلك انهم زودوه بمـا يحتاجه من الخبرة التجارية ، والمعاملات الماليـة ، والتنظيم الاقتصادي عموماً ، نعم كان اليهود موضع كراهية المسيحيين ، ولكن كان يحد من هذه الكراهية كون اليهود طائفة لا غنى عنها للمجتمع،وقد دفع نجاح اليهود

في التجارة والمال طبقاً من مسيحيي الغرب إلى إتقان المهن الاقتصادية. وما ان استحوزت البورجوازية المسيحية الناشئة لنفسها على مقدار كاف من الخبرة والمهارة ورأس المال حتى سعت إلى انتزاع المكانة التي يحتلها اليهود، واستخدمت جميع إمكاناتها العديدة والسياسية والاجتماعية والدينية لطرد منافسيها اليهود الذين ما كان بإمكانهم أن تتغلب عليهم في المنافسة الاقتصادية.

وقد أرست البرجوازية المسيحية قواعدها، ووطدت مركزها الاقتصادي، لم يعد خوفها التقليدي من المنافسة الاقتصادية يمنعها من الافادة من المقدرة اليهودية في الاقتصاد القومي، وعلى هذا سمحت الدول الغربية بعودة اليهود اليها منذ عام ١٥٩٣ فطالما.

وتلا هذا التحرر الاقتصادي لليهود في الغرب تحررهم الاجتماعي والسياسي نتيجة الثورات الدينية والايدولوجية. وما ان حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود، رسمياً في جميع مجالات النشاط البشري، حقيقة مقررة في أوربا، باستثناء البلاد التي كانت تؤلف فيما مضى المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا والتي ضمت منذ سنة ١٨١٥ إلى الامبراطورية الروسية.

عند هذه المرحلة بدا وكأن المشكلة قد وجدت لها حلاً بامتزاج الجماعتين اليهودية والمسيحية امتزاجاً طوعياً. ولكن الحاجز النفسي ما برح قائماً في الواقع بين المسيحيين الغربيين واليهود. وكان اليهودي وهو يعيش في مجتمع موحد، من الوجهة الرسمية، يجد نفسه شخصاً معاقباً ومنبوذاً بمختلف الوسائل الملتوية. وهذا ما كان يدفع اليهود إلى التكتل وإلى مزيد من الحذر من المجتمع الغربي المسيحي. وكان البورجوازي الغربي المسيحي يطمع في احتلال مركز اليهودي بالاضافة إلى مركزه بينما كان البورجوازي اليهودي ينظر بخوف إلى المستقبل الذي سيحرمه من مركزه الأصلي في الاقتصاد الغربي المتوسع.

وازداد الوضع سوءاً حينما زادت نسبة اليهود العددية إلى مجموع السكان المسيحيين نتيجة للهجرة اليهودية التي تدفقت منذ عام ١٨٨١ من البلاد الواقعة تحت الحكم الروسي. واشتدت نزعة العداء لليهود ضراوة في النمسا وألمانيا نتيجة لهجرة يهودية أخرى وفدت اليها خلال الحرب العالمية الأولى من غاليسيا

وبولندا والمناطق اليهودية في روسيا . لقــد حدث لليهود في روسيا وأوربا الشرقية عموماً ، ما حــدث لهم في الغرب : سمحوا بوجود اليهود عندما كان اقتصادهم زراعيــاً متخلفاً ، وعندما كان اليهود يؤدون وظيفــة اجتماعية واقتصادية ما كان بامكانهم أن يقوموا بها . فلما نما اقتصادهم ، واستطاعوا أن يقوموا بالأعمال التي كان يقوم بها اليهود ، اضطهدوهم وطردوهم من بلادهم . وازداد وضع اليهود سوءاً عندما تحولت المجتمعات الغربية من ليبرالية متفتحة إلى قومية متعصبة كارهة لكل طائفة قومية ودينية منغلقة على نفسها كالطائفة اليهودية .

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر انبعاث النزعة المعادية لليهود بأبشع أشكالها من ذلك مذابح اليهود في سنة ١٨٨١ وما بعدها التي كانت الحكومة الروسية القيصرية تفتعلهاوتحرض عليها لتحول نقمة الشعب علىحكمها المتفسخ إلى اليهود . واشد من ذلك ما حدث في ألمانيــا بين عامي ١٨٧٣ ، و ١٨٩٦ ، وما حدث في فرنسا أثناء قضية دريفوس . كل هذا دفع مفكري اليهود إلى اليأس من حل المشكلة اليهودية في الغرب ، وإلى التفكير في جمع اليهود المشتتين في دولة قومية خاصة بهم لا تضم إلا سكاناً متجانسين من اليهود . وهكذا نشأت الصهيونية التي كان الصحافي النمساوي ثيودور هرتزل أول الداعين لها .

من دراسة تاريخ المشكلة اليهودية استخلص توينبي النتيجة التالية :

المشكلة اليهودية إنما هي مشكلة أنتجتها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والايدلوجية في الغرب ، وعقدهــا اصرار اليهود وعنادهم على الاحتفاظ بهويتهم القومية والدينية المتميزة ، وان العرب خاصة ، والعالم عامة ، لم يكونوا طرفاً فيها ، ولا مسؤولين عنها .

أبقى اليهود تعيين البلد الذي سينشؤون فيه دولتهم العتيدة قضية مفتوحة حتى عرضت عليهم الحكومة البريطانية موطناً لهم في شرقي أفريقيا في آب ١٩٠٣ ولما رفض المؤتمر الصهيوني السابع هذا العرض سنة ١٩٠٥ ، أصبحت فلسطين هدف الحركة الصهيونية ومحورها عملياً .

ولم يكن هدف الحركة الصهيونية باقامة دولة يهودية قومية في فلسطين ليتحقق لولا مساعدة الدول الغربية، وخاصة منذ الحرب العالمية الأولى وبسببها، وكان انهيار الدولة العثمانية، التي كانت تحمي فلسطين، أول خطوة في طريق تحقق مطامع الصهيونية وتلاه سقوط امبراطورية آل رومانوف في روسيا سنة ١٩١٧، إذا كان النظام القيصري في روسيا شديد العداء لليهود، يعارض أية محاولة من جانب حلفائه الدول الغربية لاقامة وطن لليهود في فلسطين، على أساس ان تحويل فلسطين إلى دولة قومية يهودية يدنس هذه الأرض المقدسة. وسقطت القيصرية في ١٢ آذار ١٩١٧، وأعلن وعد بلفور في اليوم الثاني من تشرين الثاني من العام نفسه. ومن الآثار الأخرى للحرب العالمية الأولى على تقوية الحركة الصهيونية اشتداد المنافسة بين الدول المتحاربة على خطب عطف اليهود، إذ كان لديهم نفوذ اقتصادي وسياسي كبير، وكانت لهم الكلمة الحاسمة في ميزان العلاقات الدولية الغربية المهتزة. وكانوا يؤلفون قوة ملموسة في الحياة الداخلية لدول أوربا الوسطى والغربية على السواء، وبدرجة أكبر في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان المتحاربون الأوربيون يدركون ان الكلمة الأخيرة في الصراع الأوربي هي كلمة أميركا، وان كلمة أميركا تتأثر إلى حد كبير بآراء مواطنيها من اليهود. فلما احتلت بريطانيا فلسطين وجدت الوسيلة لارضاء الصهاينة، ومن ورائهم من يهود أوربا وأميركا، فأصدرت وعد بلفور. وفي وعد بلفور يبدأ التطبيق العملي للعدوان الصهيوني، وتبدأ المرحلة الأولى من مأساة فلسطين.

ويشرح توينبي بتفصيل مسؤولية جميع الأطراف الذين ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى بحق الشعب العربي الفلسطيني، ويركز ادانته على المسؤولين الرئيسيين: انكلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والغرب عموماً، والصهيونية العالمية. فلولا ان اليهود كانوا جزءاً من العالم الغربي، الذي بسط على العالم، لما استطاعوا أن يقهروا عرب فلسطين. ولولا الولايات المتحدة الأمريكية واسنادها العسكري والسياسي والاقتصادي للصهيونية، ما كان بالامكان أن تظهر إسرائيل للوجود، ولا أن تستمر على البقاء بعد أن أوجدت. وتنحصر مسؤولية ألمانيا، من حيث الأساس وخاصة في فترة حكم النازيين، في أنها اضطهدت اليهود اضطهاداً وحشياً، فاستغل الصهاينة ذلك في حمل اليهود

على الهجرة إلى فلسطين ، وفي كسب عطف الشعوب الأوربية والأمريكية على اليهود المضطهدين . ويحمل توينبي وطنــه بريطانيا ، وشعبه الانكليزي عموماً ، أكبر قسط من المسؤولية . فبريطانيا هي الــتي أعطت وعد بلفور ، وهي التي شاركت في تنفيذه خطوة فخطوة ، فاستغلت انتدابها عـلى فلسطين فسمحت بهجرة اليهود ، واقطعتهم الأراضي الأميرية ، وتغاضت عن تنظيماتهم العسكرية ، وقضت على انتفاضات وثورات الشعب العربي الفلسطيني بكل ما تملك من قوة عسكرية وارهاب .

والصهيونية ، في نظر توينبي ، هي المسؤولة المباشرة عن جريمة العدوان على فلسطين العربية . وقـد شرح العدوان الصهيوني شرحاً مفصلاً ، وحلل أبعاده وأدانه . ولعل أية جريمة في التاريخ لم تؤثر فيه ، ولم تثره عاطفة وفكراً ، مثل ما أثرت فيه واثارته مذبحة دير ياسين .

وفي المناظرة بـــين توينبي والسفير الاسرائيلي في كندا ياماكوف هرتزوك عرض موجز لدعاوي اليهود وأسلوبهم في عرض هذه الدعاوي ، ولموقف توينبي من هذه المزاعم ورده عليها ، ودفاعه عن الحق العربي . ويحسن أن أختم كلمتي هذه بعرض سريع لبعض ما ورد في هذه المناظرة من أفكار . يقول توينبي : « تقع مأساة اليهود على الجانب اليهودي والجانب المسيحي . ان اليهـود كانوا يشعرون بأن المسيحيين لم يتقبلوهم حقاً في مجتمعهم المسيحي تقبلاً كاملاً . هذا بينما يشعر المسيحيون بأن اليهود لم ينصروا كلية في المجتمع المسيحي » .

يقول هرتزوك : ان لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين. ويرد توينبي : ان حق اليهود في فلسطين قد زال بزوال دولتهم ومجتمعهم من فلسطين على يد الرومان منذ سنة ١٣٥م . وان فلسطين أصبحت من حق الشعب الذي سكنها منذ ذلك التاريخ وما زال يسكنها عندما أعلنت بريطانيا وعد بلفور . ولو سلمنا بصحة دعوى اليهود لكان علينا أن نسلم بحق الويلشيين في بريطانيا . ان علينا في هذه الحال أن نرحل حوالي ٥٠ مليون انكليزي ونطردهم ليكونوا لاجئين. ويقول توينبي : ان السفير يناقض نفسه فهو يطالب بعودة اليهود إلى فلسطين مع انه لم يكن هنالك استقراراً سكاني يهودي ثابت في فلسطين منذ سنة ١٣٥ م وينكر

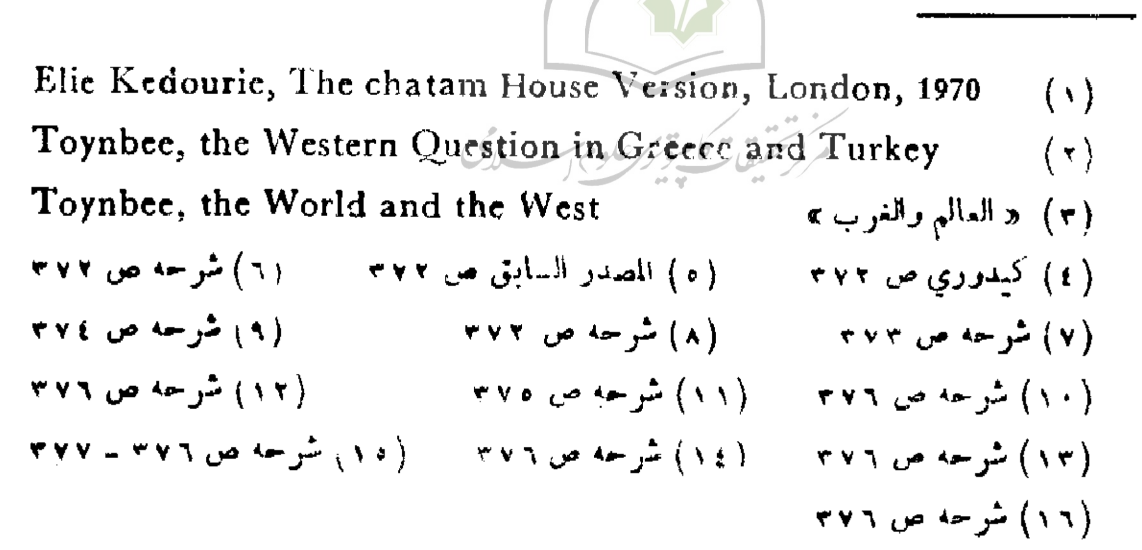
على العرب الفلسطينيين هذا الحق مع انهم طردوا بالقوة من بلادهم منذ عهد قريب ، من سنة ١٩٤٨ .

ويقول هرتزوك : ان اليهود لم يطردوا الفلسطينيين، وإنما ترك الفلسطينيون بلدهم وأصبحوا لاجئين استجابة لنداء زعمائهم . ويرد عليـــه توينبي : ان الفلسطينيين اضطروا على ترك وطنهم نتيجة المذابح الصهيونية ،ونتيجة لانذارات القوات المسلحة الاسرائيلية بأنهم سيذبحون كل فلسطيني يبقى في فلسطين كما ذبحوا النساء والشيوخ والأطفال في دير ياسين ويقول هرتزوك: ان الفلسطينيين قد فقدوا حقهم وأملاكهم في فلسطين نتيجة لخروجهم الطوعى منها، ويرد عليه توينبي : ان خروج العرب من فلسطين سواء كان عن حكمة منهم أو لأنهم هربوا من خطر الموت المحتم ما لم يفقدهم حقوقهم في وطنهم وأملاكهم . وكما ان اليهود الذين هربوا من ألمانيا في عهد هتلر ، وملايين الفرنسيين الذي نزحوا من شمال فرنسا إلى جنوبها بعد الغزو النازي سنة ١٩٤٠ لم يتخلوا عن حقوقهم وأراضيهم وممتلكاتهم وبيوتهم ، فكذلك الفلسطينيون ما زالوا أصحاب الحق في فلسطين . ولهذا ، يقول توينبي : فإنني ما زلت أقول بأن إسرائيل بكاملها لا زالت ،من وجهة شرعية ، ملكا لعرب فلسطين الذين نزحوا عنها أثناء القتال بين الدول العربية من خارج فلسطين وبين الاسرائيليين ، ما عدا الاملاك التي اشتروها شراء قبل ذلك . ولذلك فإن الممتلكات في إسرائيل لا زالت ، من حق هؤلاء العرب بصورة شرعية .. ان ما فعلته إسرائيل هو سرقة ونهب .

يعترض هرتزوك على مساواه توينبي بين مذابح النازيين لليهود وسلوك الصهاينة مع العرب سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . فيرد عليه توينبي قائلا : ان ما نكرهه فيما فعله الألمان هو أن جرائمهم كانت تدرس وتخطط سابقاً ، ثم يجري تنفيذها بدم بارد ، وقوة شنيعة ، وهدف لعين . وأنا موقن أن جميع الصفات تنطبق على مذابح إسرائيل للعرب في فلسطين .

يقول توينبي : زرت اللاجئين الفلسطينيين في مخيماتهم، وشاهدت مأساتهم وسمعت أطفالهم في غزة يقولون : « كانت هذه أرضنا ، ونحن مصممون على العودة » .

صدقت أيها العالم المناضل انك لم تؤرخ في الماضي، وتعالج مشكلات الحاضر فقط، وإنما كنت تستشرق، بفكرك اللماح، أفاق المستقبل. ان الاطفال الفلسطينيين الذين شاهدتهم وسمعتهم قد كبروا وأصبحوا مقاتلين في الثورة الفلسطينية وسيكبر أطفالهم ويقاتلون، حتى تتحرر فلسطين، كل فلسطين العربية، وعند ذلك سينتصر فكرك انتصاره الذي يستحقه.



---

(١) Elie Kedourie, The chatam House Version, London, 1970

(٢) Toynbee, the Western Question in Greece and Turkey

(٣) « العالم والغرب » Toynbee, the World and the West

(٤) كيدوري ص ٣٧٢ (٥) المصدر السابق ص ٣٧٢ (٦) شرحه ص ٣٧٢

(٧) شرحه ص ٣٧٣ (٨) شرحه ص ٣٧٢ (٩) شرحه ص ٣٧٤

(١٠) شرحه ص ٣٧٦ (١١) شرحه ص ٣٧٥ (١٢) شرحه ص ٣٧٦

(١٣) شرحه ص ٣٧٦ (١٤) شرحه ص ٣٧٦ (١٥) شرحه ص ٣٧٦ - ٣٧٧

(١٦) شرحه ص ٣٧٦

(١٧) اعتمدت في استخلاص رأي توينبي في تاريخ اليهود وعقيدتهم وعلاقتهم بالغرب ونشوء المشكلة الصهيونية على الجزئين الثامن والثاني عشر من « دراسة التاريخ » باللغة الانكليزية. وعلى ترجمة الأستاذ طه باقر لموجز سمرفيل « بحث في التاريخ » وترجمة الأستاذ فؤاد محمد شبل « مختصر دراسة التاريخ » وقد فصلت آراء توينبي في دراسة مطولة نشرت في مجلة آفاق عربية، العدد ٧، ١٩٧٦.

(١٨) اعتمدت في هذه الخلاصة على النسخة العربية لكتاب ارنولد توينبي : فلسطين جريمة ودفاع. تعريب أكرم الديراني، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦.

الآثار الإسلامية في الأندلس

للدكتور أحمد فكري
مصر

لست أعرف فناً من الفنون خلد من الآثار مثل ما خلد الفن الاسلامي سواء من حيث العدد أو التنوع ولم يتح إلى اليوم لرحالة أو عالم من علماء الآثار أن يزور الآثار الاسلامية كلها ، فهي تنتشر في جزء كبير من المعمورة ، يمتد من بلاد الهند إلى بلاد الأندلس ، وتحوى كل بلد من البلاد الاسلامية ، عدداً تحده مئات السنين ، ويقصر عن الاحاطة به ، وما وهب الله الانسان من عمر مديد .

ولهذ ، فموضوع الآثار الاسلامية شاسع لا حد له ، والحديث عنها طويل لا نهاية منه ، وقد اخترت أن أحدثكم هذه المرة عن الأندلس ، وعما شاهدته فيها من آثار .

وكلكم يعرف ما أحاط بمدينة الأندلس من قصص وأساطير ، يكاد المرء يحسبها خيالاً ، أو يفترض المغالاة ، فيما ذكرته أحاديث المؤرخين، عمن أظلتهم هذه البلاد ، من رجال ، بارزين في العلم والأدب والدين ، والفن والفلسفة والسياسة ، وفي كل نواحي الحياة والتفكير .

لم يمض قرن على الهجرة ، حتى كانت جيوش المسلمين قد وصلت إلى غرب أوروبا ، واحتلت الجزيرة ، ودانت لها البلاد دون كبير عناء ، وظلت الأندلس أكثر من أربعة قرون ، قوة حيوية عظيمة ، في هذه المنطقة من العالم .

ومضى نصف القرن الأول ، والمسلمون منصرفون إلى تنظيم أمورهم في هذه البلاد ، وتدعيم حكمهم عليها ، فشغلهم ذلك عن العناية بالفنون .

إلا أنه مـا لبثت الفنون ان ازدهرت في الأندلس ، بتولي عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها ، والخلافة عليها ، وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير ، في تاريخ الأندلس ، وفي التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، انها كانت أم المدائن ، وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ، ومعدن العلماء ، وانها كانت أهـلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهيـــة المباني والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين ، وان بها جامعاً ، ليس في بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء ، واتقن صنعة .

ولم يخطىء المؤرخون أو يغـالوا ، فما زال مسجد قرطبة ، أفخم المساجد القائمة وأعظمها .

أقامه عبد الرحمن بن معاوية ، سنة ٧٨٦ ميلادية ، على انقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى في عصر عبد الرحمن الأوسط ، سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية في عصر الحكم المستنصر بالله ، سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة على عهد المنصور ، ولي الخليفة هشام بن الحكم ، بعد ذلك بست وعشرين سنة ، وقـد تضاعفت مساحة المسجد في هاتين المائتين من السنين ، ما يقرب من ثلاث مرات .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها ، سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب ، فعرضه يقرب من ثمانيه أمتار ، ويحف بالأروقة من كل جانب ، صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون ، فالداخل إلى المسجد مـــن صحنه ، يجتاز واحـداً وثلاثين اسكوباً ، حتى يصل إلى المحراب ، وعرض الأساكيب ، يقرب من ثلاثة أمتار لكل منها .

وجدار القبلة في المسجد ، يمتد على مائة وثلاثين متراً ، أما أسواره الجانبية ،

فطول كل منها مائة وثمانون ، أي انه مستطيل ، يزيد طول مجموع أضلاعه ، عن ستمائة متراً .

وبالمسجد تسعة عشر باباً، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة،الباقي إلى البهو. أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده ، لأكثر من خمسة وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد ، لما يقرب من نصف هذا العدد .

وتمتد في بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السقف ، وتظل من تحتها مساحة أربع افدنه ، هي مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام ، تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته، مما لم يصل اليه أي مسجد آخر من مساجد الاسلام ، فان العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ، ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعـــة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، وتدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة لجميع أطرافه ، ويخيل اليـه انه يتجول في غابة شاسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام، وجلب البعض الآخر من بلاد الغرب الأقصى ، ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسي في شيء ، ولكن ابداع هذا الفن يتجلى أولاً في تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجـلال ، ويتجلى ثانياً في ابتكار موفق توصل اليه بناء المسجد الأول ، في عصر عبد الرحمن بن معاوية ، ذلـك أن الأعمدة الـتي استعان بها هذا الأمير في اقامة مسجده،قصيرة،بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هـذه سقف المسجد ، وان امتدت هذه السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء، ولا الهواء ، إلى بيت الصلاة ، إذ انه يخلو من النوافذ ، ولا يصل اليه الضوء إلا من البهو وجدار القبلة ، كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً ، وقد هدى

البحث ببناء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة ، دعائم فيتضاعف ارتفاعها ، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً ، توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة ، وأقام بين رؤوس الأعمدة صفاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم ، وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى ارجاء بيت الصلاة ، حتى بعد امتداد هذا البيت ، وابتعاد المحراب ، عن البهو - الذي هو منبع الضوء لهذا البيت - بما يزيد عن مائة من الأمتار والفضل في هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة ، وهذه الفكرة التي اتبعها البناة في مسجد قرطبة ، عند زيادته في العصور التالية ، لم يكن لها نظير ، في أي بناء سابق .

ولهذا البناء المبتكر شأن كبير في العمارة الاسلامية ، فهو لم يكتف بهذا الابتكار واضاف اليه ابتكار آخر ، ذلك ان الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه في البناء .

فاحتال على ذلك باستخدام الآجر ، ولكنه استعان على وجه جعل عقود مسجد قرطبة ، فريدة في التاريخ ، تتناوب فيها ثمانية قطع من الحجارة البيضاء ، مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر ، وكان لهذا مظهر زخرفي جميل ، انتشر في العمارة الاسلامية وآخذة عنها البناة في أوروبا في العصور الوسطى ، وهذا المظهر الزخرفي من غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب في الألوان ، لم يكن له نظير في أي بناء سابق وبالرغم من بساطة الفكرة ، ففضل ابتكارها يرجع إلى بناء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى .

فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهي الشبيهة بحدية الفرس ، وهي عقود ابتكرها الفن الاسلامي في عناصر العمارة ، وعم استعمالها في بلاد المغرب والأندلس ، حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة في هذه البلاد .

ونلقى من العقود في مسجد قرطبة أشكالاً أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء ، تجزأ العقد إلى ثلاثة فتحات ، أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من

الأزهار ترتسم في الفضاء ، وهذا عنصراً آخر من العمارة والزخارف ، يرجع الفضل إلى الفن الأندلسي ، في تنسيقه ونشره ، وكان هـذا العنصر محبباً إلى رجال الفن وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه في مكان الشرف من مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب ، وحول عقود قبته ، اننا قلما نلقى في العمارة الاسلامية عنصراً أجمل شكلا ، وأنقى حدوداً ، ولا شك في أن الفكرة الأولى في ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار ، فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاث أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر ، ولكن الهندسة تركت المجال للخيال فكأن هـذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوي في ارتقائها إلى القباب ، أو كأنها في الفضاء أهلة ، تعكس الضوء ، وتضيء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها ، من ناحية أخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجمع بأشكالها كلها ، بمثل الابداع الذي اجتمعت به ، في المقصوره المجاورة لمحراب قرطبة ، والتي تنسب اليوم ، إلى القديس فرناندو ، في هذه المقصورة ارتقت العمد ، الواحد فوق الآخر ، كما ارتفعت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر اين تبتديء ، وأين تنتهي ، ونلقي في الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدوة الفرس ، وأخرى على شكل ورقة الزهرة ، المقصوصة إلى ثلاثة وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعاً من العقود المسننة قصى كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام ، من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة ، ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لا يكاد يصدقه العقل ، إلا أن هـذا الخليفة ترك في مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف في تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً ، وأجمل مظهراً في قبة المحراب الذي أقامها هذا الخليفة ، وهي على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين مؤلله ، مهلله كأنها تيجان ، صيغ فيها ياقوت ومرجان ، وابداع هذه القبة يعجز عن وصفها فلم يترك البناء ولم يترك الفنان ، ركنا فيها أوسطحاً إلا وكساه حلية جميلة أو أضاف اليه عنصراً يزيده جمالاً . ان دلت هذه القبة على شيء فهي تدل على

سمة الخيال الفني عند البناء المسلم ، لقد استطاع أن يجعل من القباب وهي عنصر معماري شاق التنفيذ ، ثقيل التكوين، استطاع أن يجعل منها تاجاً محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة ، في هذه القبة ، وفي قبة مجاورة لها هيكلا جعل ما بين ضلوعه حشواً ، أو غلافاً رقيقاً ، هـــذا الخيال الفني يرى الجمال في كل شيء ، ويرى الجمال في الخفة والحركة ، حتى في أشد العناصر تطلباً للثبات وفي أقربهـا للجمهور . ينصب الخيال عليها فيجزئها ، ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها، ويفرض على هذا كله فكرته في الطبيعة فكرة اللا نهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين انه « قـد قوس أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالجرة مقرطق،وبقوس قزح ممنطق وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ، فقد قيل أن الحكم طلب من امبراطور بيزنطة أن يرسل اليه بفسيفساء يحلي بها المسجد فأرسل اليه الامبراطور ما أراد وارسل مع قطع الزجاج المذهبة عاملاً عليماً بسر تنسيقها، وان هـذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس فما لبثا ان تفوقا عليه في صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلي الأندلس مهارتهما ، في تعلم هذا الفن الجديد ، أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذي أحكم اطار المحراب ، وابدع تنسيقه وحلاّه بالرسم وجمّله بالكتابة أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أن يتعلم رصها بمهارة . وهو هذا العامل الأندلسي الذي أعد الجدار المحراب لوحات من الرخام منحوتة برقة فائقة ، ودقة ظاهرة تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، أو كأنها غلالة بديعة التطريز تتدلى على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ،وفي كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحي أمامه ذكرى الجلال والعظمة ، والخـارج إلى

تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التي أحاطت بتجواله في الداخل ، ويرى في رسم العقود وجمال نسبها ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهي تكسو الجدران بثياب ثمينة ، وكان نقوشها توقيعات تحت السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى مـــن باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر ، امام احـدى البواباب التي ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله ، امتلاء المسطحات عـلى بوابة أخرى فلا يقـع نظره إلا عـــلى لون زاهٍ أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو اطار بديـع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع في مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها في حركة دائمة ، وتنوع مستمر يطرد الملل ويثير الاعجاب .

ومثار هذا الاعجاب باق على مضي السنين ، فمسجد قرطبة فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نلقي أثراً مثله ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها ، وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة على قول الشاعر .

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ⁂ من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد ، أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق ، إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوروبا طابع الاسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الاسلامية ، لا يشيب وحدتها ، إلا ما أصابه من الهدم والاضافة عند سقوط قرطبة في ايدي الاسبان ، واقامة كنيسة في وسط بيت الصلاة ، لما رآها الامبراطور شارلمان ، حزن وغضب ، وقال للكهنة « أقمتم هنا ما يرى الناس مثله في كل مكان وهدمتم ما لا نظير له في العالم » .

وقد تعددت المساجد في الأندلس ، وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقر عنه في كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر في

مدينة الزهراء ، وهي التي أقامها عبد الرحمن الناصر ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، واستغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاماً ، وقدرت النفقة فيها ، بثلثمائة ألف دينار في كل عام ، وجلب اليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، وتضمنت العجيب من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كانما أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص،لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها .

أشار المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة ، في وصف بدائعها ، وكشف عن آثارها منذ أعوام ، وقد قرأت لكم ما كتبه المؤرخون عنها ، وكتب أحد علماء الآثار في اسبانيا حديثاً، قال ،« أن الحفائر في مدينة الزهراء ،تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ما رواه المؤرخون » .

وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضع دورها ، وقصورها ، وبساتينها ، وجداولها ، وبركها ، وكثير مما تحدث عنده ابن خلدون وغيره من المؤرخين ، وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وانه ، لم يترك بها حائط ، إلا وألبس حلة من المرمر المسنون ، أو ألواحاً من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت ، بحيث تكون وحدها ، مجموعة شاملة للزخارف الاسلامية ، وأول ما يسترعي النظر فيها ، تصويرها للازهار والنباتات والثمار ، كأنما أراد رجال الأندلس أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة في بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها في دورهم ، فلا يفرغون من التأمل فيها .

ويدلنا هذا ، على ان الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ، فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر وادخال الروعة في القلوب، وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ، فقد اثبتوا أتباع الناس خلفاءهم ، في تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء ، وكانت الرحالة من المسلمين ، يضعون في الصف الأول ، فضائل البلاد التي وصفوها ما كانت تظهر عليه مبانيها ، من العظمة والفخامة وجمال التنسيق

وحسن الهندسة ، ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس، وأطنبوا في ذكر آثارها، وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينها ، سرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن ، ما لم يتبق منه الا طرف تأويها المتاحف . أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعني ببنائه عناية تتضح من آثاره ، ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ، ومن درجة الاتقان والدقة التي صنعت بها، ومن الخفة البديعة التي أفرغت فيها. وقد أخذت يد الفنان تتلاعب في الخطوط بحرية كبيرة ، وأنصب الخيال عليها ، فجعل من الأقواس والخطوط ، شبكة ترتقي على الجدران ، كأنها أغصان وفروع، تتناثر منها الأوراق والأزهار ، وربط الخيال بالحقيقة، إذ أن الزخارف فرغت بالتخريم ، فنفذ اليها الهواء ، فكأنها أغصان ، تهتز ، وتتحرك ، بخفة ، وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة ،إلى قصر الحمراء في غرناطة ، تجلى لنا الابداع بمظهر الثراء والفخامة ، ويخيل بحق أن هذا القصر ، صفوة ما أخرجه الفن الاسلامي في الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس ، مما كان يدور في هذا القصر ، من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلاطين، أقيم في القرن الرابع عشر ، على عهد اسرة بني الأحمر ، أو بني نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعه ، بالرغم مما لحقه في التعديل ، في العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا اينما حللنا به ، وإذا مررنا بقاعة السفراء ، انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف في كل مكان ، حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار في الأشجار ، تتساقط على العمد كأنها أغصان ، وترتقي العقود ، في قاعة الخلافة ، فكأن الطير يسكنها ، وكأنه يغرد ، في كل مكان . وقد شبهت هذه العقود ، بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس في الأفراح . وما أحسب أن العمد في العمارة كانت يوماً ما أبدع مما نراها عليه ، في الأروقة المحيطة ببهو السباع ، ممشوقة المدن ، رفيعة القوام . ولعل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء ، وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف ، الذي بويع صبياً ، ودام حكمه ما يقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لاسرة بني نصر ، بالرغم من الدسائس

والثورات والحروب ، ونلقي صدى هذا الاستقرار ، في قصر الحمراء . اشتق هذا البهو اسمه من نافورة تتوسطه ، يقف عليها اثنا عشر تمثالاً من الرخـــام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجري من فوقـها وحولها ، بشكل يثير الاعجاب . وهذه النفافورة انموذج لما كانت تحـويه قصور الأندلس ، وهي لا شك أقل فخامة من كثير غيرها ، فقد كانت في قصر الزهراء ، الذي ذكرته في أول الحديث ، نافورة صغيرة منقوشة ، ومنحوت عليها واثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، ويقول المؤرخون ،ان هذه التماثيل الذهبية ، كانت صوراً لأثني عشر حيوان وطائر مختلفة ، وكان الماء يخرج من أفواهها .

وجمال هذا البهو في الأروقة المحيطة به ، والـتي تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها ، وطالت أطرافهـــا ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذي يجمع بين هذين الشكلين ،وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ، ومزدوجة تارة أخـرى . وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ،وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت عمداً صغيرة ، تنبت منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .

هذه الزخارف المتناهية رقة واتقاناً ، يزيدها جمالا : تنوع ألوانها ، مـن أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود. وبقصر الحمراء صور آدمية ،رسمت على القباب ، تمثل احداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة مـن أساطير الحب ، وليس للتصوير في الاسلام نظير لهذه الصور .

ولكن الفن الاسلامي في الأندلس ، كان قد مثل الأشخاص قبل ذلـك ، بالتصوير والنحت ، مما اندثرت آثاره ، ولكنه مثلها أيضاً في تحف بديعة من العاج ، ويحاول العلماء أن يجدوا لهذه التحف أصلا اشتقت منه ، ووصلت به إلى هذه الدرجة من الاتقان ، وينتهي بهم البحث إلى الاعتراف بفضل ندين به إلى طائفة مجهولة من رجال الفن في الأندلس ، أبدعوا هذه الصناعة في القرنين العاشر ، والحادي عشر الميلادي . وكان الثراء قد بلغ أقصاه في الأندلس في هذا

العصر ، وكانت القصور تغص بالتحف من كل نوع ، من أخشاب وأقمشة وزجاج ومعادن وخزف، وتحتفظ متاحف العالم بالكثير منها، وقد فاقت شهرة التحف المصنوعة من العاج ، كل ما عداها ، لأن لا نظائر لها في الفنون الأخرى .

وأهم هذه التحف صناديق ، وضعت للخلفاء والأمراء، وتعددت أشكالها، فهي تارة أسطوانية ، غطاؤها مقوس ، وأحياناً مستطيلة الشكل ، غطاؤها مسطح أو اهرامي . وتعددت زخارفها ، ففي صندوق من متحف اللوفر ، نحتت الحيوانات في غابة استبدلت بأشجارها الأزهار ،واستعدت السباع لالتهام فريستها . وفي صندوق من متحف مدريد ، وقفت الطيور على الأغصان ، وانتشرت الأرانب بين النباتات . والغالب أن هذه الصناديق تحمل كتابة كوفية جميلة ، أرخت عليها سنة صناعتها .

ولا تقتصر أهمية هذه التحف على مادتها وزخارفها وأشكالها ، فصناعتها تدل على دقة فائقة ، إذا عرفنا انها قطع صغيرة ، لا يتعدى قطر معظمها ثمانية سنتيمترات . والعاج مادة رقيقة نادرة ثمينة ، تتطلب من الدقة الزيادة ، ومع ذلك ، فصناعة هذه التحف تشهد علاوة على الدقة ، بالجرأة والاعتزاز ، فقد حاول النحات أن يستخلص من هذه المادة الرقيقة ، أقصى ما يمكن أن تؤديه ، وحاول أن يهيء من مسطحاتها المنبسطة ،أشكالاً ، تعبر عن الأحجام والتجسيم . ونحن نعرف أن هذا ليس جديداً في الفنون الاسلامية ، وأن رجال الفن في العصور الفاطمية ، قد توصلوا إلى اتقان ذلك ، في لوحاتهم الخشبية المنحوتة ، ولكن النحت على الخشب غير النحت على العاج ، واستخدام لوحات كبيرة ، غير استخدام صفحات مصغرة ، والشغل على سطح مستقم ، غير الشغل على سطح مستدير ، والخشب سميك ولوحات العاج رقيقة ، كل هذا لم يمنع صناع العاج في الأندلس من أن يمثلوا الانسان والحيوان والنبات ، بشكل يؤدي فكرة التجسم ، وبطريقة التخريم ، التي تحيط الأشكال بظل قاتم ، يخيل إلى الناظر اليها ، أن الفضاء يحيط بها من كل جهة ، وأن جوف اللوحة فارغ يتخلله الهواء . ولم يصل الفن ، حتى في العصور الحديثة ، وبالرغم من اتقان آلات الصناعة ،إلى مثل الدقة والمهارة التي تنطق بها،هذه التحف العاجية .

كانت جرأة هؤلاء الصناع اذن كبيرة ، في اختيار المادة التي أخرجوا منها هذه الصناديق ، وفي اختيار الطريقة التي اتخذوها أداة للتعبير عن فنهم ، وكانت جرأتهم كذلك كبيرة ، في اختيار الأشكال والموضوعات . وقد رأينا أن أبدع ما أخرجوه هـو في تمثيل الانسان والحيوان ، ولكنهم حرصوا أن لا يتعارض فنهم مع ما تمليه عليهم العقيده الدينية ، فالأشخاص ممثلة تحيط بها الطبيعة ، ولكنها تنحصر في اطارات هندسية تقربها إلى الخيال ، وقت وضعت باحجام لا تصل إلى طول الاصبع الواحد ، فهي أبعد ما يكون عن محاكاة الخالـق ، وقد صيغت من مادة ، آلية إلى الزوال ، مفتقره إلى الرم ، منعدمة الروح والحياة .

أن الفن في الأندلس ، كما هو في جميع البلاد ، صورة نقية للجمال ، والحياة ، والمشاعر . هو صورة رفيعة للانسانية والمدنـية . وانطوت صفحة المدنية في الأندلس ، ولكن بدائع الفن فيها ، قد نشرت هذه الصفحة ، وأحيت ذكرى ما كانت هذه المدنية عليه ، من مجد ، وفخامة ، ورخاء .



الحياة السياسية
في بلاد الهند في عهد الملوك والمماليك

الدكتور عصام الدين عبد الرؤوف
قطر

شهد العالم الاسلامي في تاريخه حكاماً من الترك ، كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين ، واشتغلوا بالجندية ، وتدرجوا في سلمها حتى بلغوا مناصب رئيسية ، وقد يحدث في حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافاً ، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركي – الذي كان عبداً للسلطان المتوفي – بانتزاع السلطنة لنفسه ، فسبكتكين كان مملوكاً لألبتكين ولما توفي سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه ، وانفرد بحكم دولة سيده ، ووضع أساس امبراطورية الغزنويين في جنوب غرب آسيا ، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالي قرنين من الزمن ، وعماد الدين زنكي أقام دولة في الموصل على أنقاض دوله سادته السلاجقة ، وقد كان أتابكا لهم[١]، والمماليك في مصر أقاموا دولتهم بعد ضعف سادتهم سلاطين بني أيوب وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا ، إذ أقام المماليك دولة في الهند بعد أن زالت دولة الفور ، وظلت تحكم أربعاً وثمانين عاماً (١٢٠٦ م – ١٢٩٠ م) ويذكر لين بول [٢] في هذا الصدد : أن الجندي الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعها بما في ذلك منصب السلطنة . أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار، فكانت أوضاعهم بجمدة لا تتغير ولا تتبدل ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس، ويقفون منهم موقف المتفرج وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف : دول أتابكة الموصل والجزيرة ص ١٦١ .

(٢) Medieval India

إيرانياً أو هندياً راجبوتياً [١] أو تركياً أو أفغانياً أو مغولياً ، ويسيرون حيث تسير بهم الحيـــاة ، كيفما أراد حكامهم الذين يهبونهم الحياة ، أو ينتزعون حقوقهم فيها .

وسلاطين امبراطورية المماليك في الهند كانوا أرقاء من أجنـــاس مختلفة وصلوا إلى ما وصلوا اليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم باقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة .

وقطب الدين أيبك - أو سلاطين المماليك في الهنـد - كان مملوكاً عند سيده شهاب الدين - سلطان دولة الغور [٢] الافغانية - (٥٩٩ هـ - ٦٠٢م) وهو تركستاني الأصل ، اشتراه قاضي نيسابور ، وأدبه وأحسن تأديبه ، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية ، ولما توفي هذا القاضي ، حمله أحد تجار الرقيق إلى غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغوري ، ولمس فيـه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق ، وعهد اليه بالعمل في الجيش كجندي ، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية في معركة تارين سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٥ م - وهي المعركة التي كانت بين سلطان الغور من ناحية ، والأمراء الراجبوتيين من ناحية أخرى - وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائباً له على ممتلكات الغور في الهند ، فأقام في دلهي وجعلهـا قاعدة لحكمه في بلاد الهند بدلاً من لاهور [٣] .

لم يأل قطب الدين أيبك جهداً في سبيل المحافظة على دولة الغور في بـــلاد

---

(١) ينتمي الأجراء الراجبوتيون إلى جحافل الآريين الذين هاجروا إلى الهنـد قبـل قبائل الهون البيض ، ولقـــد لعبوا دوراً كبيراً في تطور الحياة السياسية في بلاد الهند ، واشتهروا بالبطولة والفروسية، لذلك نسبت الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزاوج الشمس بالقمر، وظل الأمراء الراجبوتيون يسيطرون على شمال الهند حتى أضعفهم الغور ، فلجأوا إلى صحراء النار ، وعاشوا فيها ، وعرفت بعد ذلك باسمهم .

(٢) (Prasad : Medieval India . pp. 30 - 31)
21 Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 273.

(٣) Morel : A Short Hist. of India. p. 152

الهند ، بل عمـــل على ضم المزيد من أراضي الهند إلى دولة الغور ، ففي سنة ٥٩٣ هـ / ١٢٠٠ م استولى أيبك على كواليا ونهرواله ، وضم كالنجـــار[١] إلى حوزته كذلك امتلك بلاد البنغال ، وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور [٢] .

وبقي أيبـك على ولائه لدولة الغور حتى في أشد حالات ضعفها ، فلما ولي غياث الدين محمود – سلطنة الغور سنة ٥٦٢ هـ / ١٢٠٦ م لم يكن هناك اجماع على توليته ، فخرج عليه بعض مماليكه ، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه ، ومن بين هؤلاء المماليك ، تاج الدين يلدز الذي سيطر على غزنه ، وأقام الخطبة فيها لنفسه ، وخلع طاعة سلطان الغور[٣] ، بينما بقي قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الاسلامية في الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود ، وضبط الأمور في الهند وضرب بيد من حديـــد على المفسدين ، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغوري[٤] ، فأرسل إلى يلدز يقبح فعله ، ويأمره باقامة الخطبة للسلطان الغوري ، وهدده بالمسير اليه ومحاربته ، ان لم يعد إلى الولاء والطاعة ولما لم يستجب تاج الدين يلدز ، قام أيبك بالعمل على ضم غزنه إلى مملكة الغور ، وطرد يلدز منها [٥] .

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين ، وسيطر على غزنـــه وحكمها باسم علاء الدين محمـــد خوارزمشاه ، لكنه لم يلبث أن غادر غزنه خوفاً من أن يبطش به السلطان الخوارزمي الذي شك في اخلاصه[٦] ، وتوجه إلى البنجاب ، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك ، فسار أيبك اليه ، وما زال يطارده حتى غادر الهند [٧] .

---

(١) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 273

(٢) Ibid. p 273

(٣) Lane Poole : Medieval India. p. 54

(٤) Morel : A Short. Hist. of India. p. 152

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٣ هـ .

(٦) Lane Poole : Medieval India. p. 68

(٧) Munshi : The Struggle For Empire. p. 131

وبذلك انفرد أيبك بحكم الاقليم الاسلامي في الهند ، وأعلن نفسه سلطاناً في لاهور وأقيمت الخطبة له في بلاد الهند الاسلامية ، ونقش اسمه على السكة ، واتخذ من دلهي قاعدة لدولته .

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من مماليك شهاب الدين مثل التمش وقباجه، وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة فزوج أخته إلى قباجه ، وابنته إلى التمش ، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه ، وعدم التصدي له [١] .

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين في الهند [٢] ، وتمكن هذا السلطان بفضل قدرته وشجاعته وكفاءته الادارية من بسط سيطرته على شمال الهند مدى العشرين عاماً التي حكمها [٣] ، وضبط الأمور في دولته وساس الهنادكة أحسن سياسة ، وضرب من حديد على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين ، وحكم الناس بالعدل ، وعمّ السلام ربوع دولته حتى قيل ان الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد في عهده وساوى في المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم، وهذا أمر لم يتعودوه قبلا [٤] .

عني قطب الدين بالعمارة ، ومن أبرز ما خلفه مسجده المشهور الذي بدأ تشييده سنة ١١٩١ م ، وأكمله التمش سنة ١٢٣٠ م [٥] ولا تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا ، وتسمى منارة قطب الدين ، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدم [٦]، وعلى واجهة أحد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من

---

(١) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274

(٢) K. Ali. A New Hist. of Indo - Pakistan. pp. 47 - 48

(٣) A Short Hist. of Hind - Pakistan. Prepared by Pakistan History Boards.

(٤) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274

(٥) Lane Pool : Medieval India. p. 68

(٦) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 48

الحجر « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعو إلى دار السلام ... » ثم كتب تحت ذلك « جرت هذه العمارة بأمره ... » وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة . أما المنارة فكانت مكونة من سبع طبقـات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، أسس أيبك الطبقة الأولى ، وأقام التمش الطبقتين الثانية والثالثة ، وأتم خلفاؤه الباقي وفي كل طابق نقش على جدرانه آيات قرآنية ، وبعض المراسم السلطانية[١] .

توفي قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠ م وخلفه في الحكم ابنه آرام شاه وكان شاباً صغيراً لا يستطيع القيـــام بعبء الملك [٢] ، لذا عجز عن ادارة شؤون الدولة فاستدعى رجال الدولة التمش [٣] ـ وكان يلي حكم أحد الأقاليم الهندية، وذكرنا سابقاً أنه كان من مماليك شهاب الدين الغوري ، وزوجا لابنه قطب الدين أيبك ـ وطلبوا منـه أن يلي السلطنة [٤] ، فقدم إلى دلهي ، وطرد آرام شاه منها ، وتربع على عرش السلطنة سنة ١٢١١ م[٥] .

يعتبر شمس الدين التمش المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في الهنـد ، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنه وحمله معه إلى الهند ، ولمس فيه نبـل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة ، فجعله رئيساً لحرسه ، ثم أسند اليــه حكم بعض ولايات الهند ، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغوري ، فقد كان التمش لأيبك [٦] .

بعد أن ولي شمس الدين التمش سلطنـة دلهي ، تعرض لمشاكل داخليـــة تستهدف التخلص منه ، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمح في الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت وفاة أيبك ، فاستولى قباجة على الملتان

---

(١) IBID. p. 48
(٢) Munshi : The Srruggle for Empire. p. 181
(٣) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274
(٤) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 183
(٥) Lane Poole : Medieval India. p. 70
(٦) K. Ali : A New Hist. of Hind - Pakistan, 1/2 m 34

والسند ، وتنازع مع تاج الدين يلدز حول السيادة على لاهور كما أن خلفاء بختيار الخلجي سيطروا على بهار والبنغال يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن توليـــه التمش السلطنة ، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هـــذه الاضطرابات والقلاقل واشتغال السلطان في قمعها وتحركوا لنيـل استقلالهم[1].

لم يقف شمس الدين التمش مكتوف اليـــدين ازاء موقف قواد قطب الدين أيبك الترك المناهض له ولحكمه ، والذين لم يرضوا أن ينصب عليهم سلطان هو في الواقع مملوك لمملوك [2] ، بل عوّل على اخضاعهم ، واشتبك معهم في معركة بالقرب من دلهي هزمهم فيها شر هزيمـة ، وأجبرهم على الدخول في طاعته [3] ، وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم التمش ، تاج الدين يلدز الذي سيطر على غزنه بعد انهيار دولة الغور ، وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لغزنه حتى اقترب من خوارزم ، وشن حملات ناجحة على أطراف الهند ، وعلى الرغم من أنه أقام الخطبة للسلطان الخوارزمي في غزنه ، إلا أن هذا السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له،وسار إلى غزنه سنة ١٢١٧ م لانتزاعها من يلدز،وطرد الأتراك منها [4] ، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند ، والتقى بناصر الدين قباجة – والي لاهور – والملتان وديبل ، وغيرها من قبل التمش – في معركة عنيفة ، هـزم فيها قباجة – واستولى على لاهور ، ثم زحف إلى مدينـة دلهي لانتزاعهـا من التمش ، فتصدى له السطان الهندي في معركة عنيفـة على الطريق إلى دلهي ، وهزمه وقتله في تارين سنة ١٢١٧ م [5] .

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين دأبوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية واستولوا على أقاليمهـــا ، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمـــار . ولما توفي السلطان الخوارزمي علاء الدين

---

(١) A Short. Hist. of Hind - Pakistan. p. 134

(٢) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية جـ ١ ص ١٢٤ .

(٣) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 275

(٤) A Short Hist. of India. p. 134

(٥) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. pp. 49 - 50

محمد ، خلفه ابنه جلال الدين منكبرتي ،وعوّل على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتدين ، فسار إلى خوارزم ، لكنه علم أن المغول قد استولوا عليها [١] ، لذلك اتجه إلى خراسان ، وتنقل بين بعض مدنها . ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المرابطة في خراسان في وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه ، فولى وجهه شطر غزنه ، وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلها المغول ، ورحب أهل غزنه بقدمه ورأوا فيه خير منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم ، والتقوا حوله ، ولما سمع الجند الخوارزمي المبعثرين بين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعة على حدود الهند بقدمه ، سارعوا اليه ودخلوا تحت لوائه ، وبذلك كثر جمعه ، وأصبح جيشه يضم ستين ألفاً من المشاة ، وسبعين ألفاً من الخيالة [٢] ، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامي إلى استعادة دولة أبيه التي انتزعها المغول [٣] ، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببروان Parvan في الشمال الشرقي من غزنه ، واشتبك مع المغول في قتال استمر ثلاثة أيام ، أحرز فيه على أعدائه انتصاراً رائعاً ، وقتل المسلمون من المغول كثيرين ، وشجع انتصار جلال الدين البلاد الاسلامية على الوقوف في وجه المغول ، فثار أهل هراة على والي المغول وقتلوه ، وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتي [٤] .

لما علم جنكيزخان بانتصارات السلطان الخوارزمي على جنده ، وانضمام البلدان الاسلامية اليه ،أعد جيشاً كبيراً للقضاء على جلال الدين منكبرتي وجنده وسار على رأس جيشه إلى كابل [٥] ، والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمي في معركة ضارية ، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية ، وغنم المسلمون ما معهم وفكوا أسر الأسرى المسلمين ، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم ، ذلك أن خلافاً ما حدث بين بعض قادة جلال الدين

---

(١) براون : تاريخ الأدب الفارسي جـ ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٣) Cambridge Hist. of Iran. Vol. 5. p. 318

(٤) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276

(٥) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 135

منكبرتي فارق على أثره القائد التركي يفراجق جيش السلطان الخوارزمي واتجه إلى الهند وتبعه من الجند ثلاثون ألفاً كل يريدونه ، وحاول منكبرتي أن يثنيه عن عزمه وألح عليه ، بل بكى بين يديه ، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد في سبيله لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركي فتيلا ، فقد أصر على الانسحاب ، الأمر الذي أضعف الجيش الخوارزمي، وأصبح عاجزاً عن الوقوف في وجه المغول [١] .

كل ذلك حدث بينما جنكيزخان يتجه بجحافله إلى الناحية التي يعسكر فيها جلال الدين وجنده، لذلك لم ير السلطان الخوارزمي بدأ من الانسحاب والمسير إلى الهند ، ولما بلغ السند ، لم يجد من السفن ما يكفي لعبوره هو وقواته . وفي غضون ذلك أدركه جيش المغول ، ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسناً. فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم، ونقصان عتادهم ، دبروا أمر العبور إلى الهند ، بينما عاد المغول إلى غزنه وامتلكوها وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة ما لا مزيد عليه في العبور حتى أنه بلغ الشاطىء الشرقي سالماً ومعه أربعة آلاف جندي كانوا حفاة عراة [٢] .

على أن جلال الدين منكبرتي ، لم يجد استجابة وقبولاً من دولة المماليك في الهند ، فقد توجس التمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين ، لذلك اصطدم جلال الدين بجند التمش في السنوات الثلاث التي قضاها في الهند ، وبدأ هذا الصدام مع قباجة — حاكم السند الذي حاول منعه من الاقامة في السند خوفاً من أن يتعقبه المغول ، ويطيحون به وبولايته، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة وأحبط محاولاته ، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم إلى الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دلهي وأرسل إلى التمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الاقامة في دلهي ، لكن السلطان المملوكي اعتذر اليه بحجة أن حرارة الجو في دلهي لا تناسب الخوارزميين ذلك أن سلطان دلهي خشي أن ينضم

(١) Munshi : The Struggle. For Empire. p. 182

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٥٠ .

جند الترك في دولته إلى سلطان الخوارزميين، وطلب منه الانسحاب من دولته، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمي وجيش ألتمش بالقرب من دلهي ، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهور ، وكثر جمع جلال الدين بما وفد اليه من جند أخيه غياث الدين – حاكم العراق – كذلك انضمت اليه قبائل الكهكرية الناقمين على قباجة – حاكم السند – فازدادت قوته ، وانتزع من والي السند بعض البلدان [١] .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقراً أو مقاماً ، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ثم يستأنف الحرب ضدهم . وواتته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول فقد توفي جنكيزخان ، وأعقبت وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التي تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية ، فعبر نهر السند ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، وقصد إيران ، وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم ، وظلوا يتعقبونه حتى قتل في كروستان سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م [٢] .

لما غادر جلال الدين منكبرتي الهند أمن السلطان ألتمش على دولته من الخطر الخوارزمي ، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أموراً داخلية تمس وحدة دولته ، ومن أبرز هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجي – والي البنغال من قبله – عليه [٣] وأعلن استقلاله عن دلهي ، وأقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة وتلقب بألقاب الملوك ، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دلهي [٤] .

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية عن دولته وسار على رأس جيش قوي إلى البنغال ، ولما رأى الأمير الخلجي عدم استطاعته

---

(١) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٢٦ .

(٣) Lane People : Medieval India . p. 74

(٤) K. Ali : A Short Hist. of Indo - Pakistan. pp. 50 - 51

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 183 - 184

الوقوف في وجه سلطان دلهي أعلن عردته إلى الولاء والطاعة له ، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه [١] ، إلا أنه لم يكن صادقاً في تعهده ، بل كان يزمع انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان ألتمش عن البنغال ، عاد وأعلن الاستقلال ، وسار إلى بهار واستولى عليها ، غير انه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، إذ سار اليه ناصر الدين محمد شـــاه – وإلى أوده من قبل أبيه السلطان ألتمش – وهاجم البنغـال ، وأوقـع الهزيمـة بالخلجي وأنصاره ، وأعاد سيطرة دلهي على اقليم البنغال [٢] .

على أن الأمور لم تستتب في امبراطورية الهند الاسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية في دلهي، ذلك أن قائداً آخر انتقض على سلطان دلهي ، وهو ناصر الدين قباجة ،وكان ألتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها عن دلهي ، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند ، لكن جـلال الدين منكبرتي اشتبك معه وانتزع منه أوكالا والملتان ، ولما انسحب السلطان الخوارزمي من الهند ، عاد قباجة وسيطر على هـذه البلاد ، وحكمها مستقلا عن سلطان دلهي ، فسار اليـه شمس الدين ألتمش ، بينما اتجـه واليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar [٣] ، وظل يتعقبه ، حتى سقط في نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فراراً من خصمه [٤] .

وبذلك قضى السلطان ألتمش على خصومـه ومنافسيه ، واكتسب حكمه الصفة الشرعية حينما أرسل اليه الخليفة العباسي المستنصر بالله تقليداً بحكم دولة الاسلام في الهنـد سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م [٥] ، ولقبـه « ناصر أمير المؤمنين ، حامي الايمان » ، وقدم السلطان ، الخليفة في الخطبة والسكة على نفسه ، وأبرز كذلك الألقاب التي منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التي سكها[٦].

---

(١) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134

(٢) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 156

(٣) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 57

(٤) Lane Poole . Medieval India . pp. 72 - 73

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134

(٦) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276

ومما لا شك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دلهي أكسبه محبة وتقدير واحترام رعاياه المسلمين .

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش أثر كبير في تقوية دولته فخرج يقضي على ما تبقى من خصومه ، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك ، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكله الداخلية ، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم[1]،فسار اليهم ألتمش،واستعاد راشمار وكذلك استرد ماندوار Mandawor في جبال السوالك وفي سنة ٦٢٩ هـ/ ١١٣١ م هاجم جواليار Guwalior ، وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها ، ثم سار إلى ملاوى واستردها كذلك ، واستولى على بهلسا Bhilsa وآجان Ajjan ، وعاد إلى الاشتباك مع الخلجيين الذين حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال ، وتقوية نفوذهم خصوصاً بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه – والي البنغال من قبل أبيه سلطان دلهي [2] .

توفي ألتمش سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م بعد أن وطد نفوذ سلطان دلهي في دولة المماليك في الهند ، وخاض في سبيل ذلك حروباً كثيرة – كما ذكرنا – ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته ، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقي لسلطنة دلهي المملوكية [3] .

ولم تمنع الغزوات المتكررة التي خاضها ألتمش ضد أعدائه ، لم تمنعه من اصلاح أحوال بلاده ، فأعاد تنظيم الجهاز الاداري وهو من هذه الزاويه يعتبر رجل دولة من الطراز الأول ، وقد كان الجهاز الاداري من قبله ينقصه التنظيم وحدد لكل إدارة أو مصلحة اختصاصها ، ورسم لها الخطة التي تسير عليها وبذلك سارت الأعمال الحكومية في عهده بدقة[4] كذلك حرص السلطان ألتمش على اقرار العدالة في بلاده ، ورفع الظلم عن رعاياه ، وباشر بنفسه أمر اقرار

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 135

(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 52

(٣) Ibid. P. 52

(٤) Morel : A Short Hist. of India. p. 160

العدل ورفع الظلم . ولتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمه يلبس ثوب مصبوغ، يميزه عن لباس أهل الهند الأبيض ، فكان متى جلس للناس أو ركب ، ورأى أحداً يرتدي ثوباً مصبوغاً استدعاه اليه ونظر في شكواه ، ورفع عنه مظلمته ، ولكي يتيح الفرصة لأصحاب المظالم برفع شكاواهم اليه أثناء وجوده في داخل قصره ، أقام على باب قصره تمثـــالين لأسدين موضوعين على برجين وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيها جرس كبير ، يدقـه المتظلم ، وحينئذ يسمع السلطان بمثوله بين يديه، ويستمع اليه ، وينظر في أمره[1]. وعني ألتمش بتشجيع العلوم والآداب ، وأنفق أموالاً كثيرة في كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون في متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس وزيّن بلاطه بالشعراء والعلمـاء ، وجعل عاصمته مركزاً هامـاً للعلوم والآداب كذلك أولى الفن المعماري عناية كبيرة ، فأتم بناء مسجد قطب الدين في دلهي، وشيد مسجداً آخر في آجمير [2] .

بوفاة ألتمش يكون قد بقي من عمر سلطنة المماليك في دلهي ثلاثين سنة أثقلت المشاكل كاهلها في خلالها حتى عصفت في النهاية بذلك الصرح الضخم الذي بذل ألتمش جهوداً كبيرة في سبيل تشييده . ومن الأمور التي أضعفت هـذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا عن إدارة شؤون الدولة ، والمنازعات الشديدة التي قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة [3] .

وتفصيل ذلك أن ألتمش عهد إلي ابنته رضية بالحكم من بعده[4] ، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمود توفي في البنغال،وحاول ألتمش تدريب ابنته رضيه على إدارة شؤون الدولة ، وعهد اليها بمباشرة سلطاته أثناء غيابـــه عن دلهي تمهيداً لتوليتها السلطنة من بعده . على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها[5]،ودبروا أمر خلعها،واستدعوا أخاها فيروزمن

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 136

(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan p. 53

(٣) Munshi : The Struggle for Epmire. p. 186

(٤) Morel : A Short Hist. of India. p. 160

(٥) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 277

لاهور وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دلهي بدلاً من أخته، فسار فيروز إلى دلهي، ومكنه رجال الدولة من تولي الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية. على أن هـذا السلطان الجديد لم يستطع ادارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة، بل انصرف إلى اللهو والعبث، وترك مقاليد الأمور في يد أمه شاه تركان، وهي امرأة حقودة وضيعة النشأة وسارت سيرة سيئة في الحكم. لذلك حدثت في الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن، وعوّل حكام الملتـان ولاهور وهانسي وبداون Budaun واوده على انهـاء هـذا الحكم الفاسد، وتحركوا إلى دلهي فعلاً[1]، ففر فيروز من دلهي، وتبعه جنده، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة لكنه لم يستطع الاشتباك معهم في قتـال، ذلك أن جنده انفضوا من حوله، وعادوا إلى دلهي، وأعلنوا خلع فيروز، وتولية رضية، وقبض على فيروز، وزج في السجن[2].

على أن هـــذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دلهي، إذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم، وحاصروا دلهي فعلاً وقطعوا عنهـا سبل الاتصال بالولايات التابعة لها، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة في سحق هؤلاء المناوئين لها[3] فعلى الرغم من أنهـا كانت في قلـــة من الجند[4]، فإنها استطاعت اضعاف أعدائها الأمراء المحاصرين للعاصمة، وذلك ببذر بذور الشقاق بينهم عندئذ واتتها الفرصة للتخلص من أعدائها وهزيمتهم[5]، وردهم على أعقابهم خاسرين وأصبحت سلطانة الامبراطورية بلا منازع، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع[6] دولتها.

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال في أعمالها وتصرفاتها، حتى

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 136

(٢) Munshi : The Struggle for Empire. p. 186

(٣) Ibid. p. 187

(٤) Lane Poole : Medieval India. p. 73

(٥) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India p. 27

(٦) Lane Poole ; Medieval India. pp. 74 - 75

تضفي على نفسها الهيبة أمام الناس ، فتزيت بزي الرجال ، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها ، وشاهدها الناس وهي تركب الفيل على رأس جيشها ، إلا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذي رفع ألتمش من شأنهم ، وقربهم اليه ، وأسند اليهم الأمور الهامة في الدولة [١] ، وأبعدتهم عن التدخـــل في شؤون الحكم ، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها وسوء نواياهم نحوها [٢] .

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجـــل حبشي يعمل أميراً للخيل في بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت [٣] ، وأسندت اليـــه قيادة الجيش بل همت به ، وهم بها، وتزوجت منه فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها ، أو على الأقل تقليص نفوذها ، وقادها ايتيكين – أمير حاجب – لكن رضية أحبطت المؤامرة ، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد ، اذ أعلن حاكم البنجاب الثورة ، فسحقت رضية تمرده [٤] ، أمـــا اختيار الدين التونيا Altunia – حاكم بهاتندا – فقد رفع هو الآخر راية العصيان ، وقادت رضية جيشاً لمحاربته ، لكنه هزمها وأسرها [٥] وقتل ياقوت ، وبينما هي بعيدة عن العاصمة ، وإذا بالأمراء الترك في دلهي يعلنون عزلها ، ويولون بدلاً منهـــا معز الدين بهرام بن ألتمش .

ولمـا ولي بهرام شاه سلطنة دلهي لم يستطع الانفراد بالحكم لضعفـه بل اضطر إلى الخضوع للأمراء الترك ، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحـد منهم هو وزيره اختيار الدين ايتيكين الذي قبض على الأمـور في الدولـة دون السـلطان ، ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذي جعـله اسماً فقط ، فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله ، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه [٦] .

---

(١) Munshi , The Struggle for Empire. p. 188

(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo Pakistan p. 55

(٣) Ma Jumdar : An Advanced. Hitt. of India. p. 279

(٤) Munshi : The Struggle for Empire. p. 188

(٥) A Short Hist. of Hind - Pakis.an. p. 136

(٦) K. Ali : A Short History of Indo Pakistan. p. 55

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا ، ذلك أن – بدر الدين سنقر – أمير حاجب – سيطر على أمور الدولة[1] ، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه ، فقد انتهز ألتونيا – حاكم بهاتندا – فرصة مقتـل ايتيـكين ، وعوّل على المسير إلى دلهي ، والتربع على عرش السلطنة ، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته – رضية – وتزوج منها[2] ، ورأى أن ذلك يعطيه الحق في تحقيق أطماعه الراميـة إلى الاستحواذ على السلطنة ، وتقـدم الاثنان إلى دلهي ، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا ، وشتت شملهم ، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة ، واغتالوها[3]. وبذلك فشلت هذه المؤامرة . على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، شجعت العلوم والآداب [4] ، وكانت تتجول في الأسواق في زي الرجال وتجلس إلى الناس ، وتستمع إلى شكاواهم ، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر – ملكة مصر الشجاعة التي قامت بدور كبير في صد لويس التاسع – ملك فرنسا – عن مصر في الحملة الصليبية السابعة ، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفي أثناء معركة المنصورة ، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور في مصر حتى قدم توران شاه بن الملك الصالح ، وخلف أباه في الملك .

لم تستتب الأمور في دلهي باحباط مؤامرة أمير بهاتندا ورضية ، ذلك أن أمير حاجب ظل قابضاً على زمام الأمور في الدولة .

وبينما تسير الدولة في طريق الاضطراب ، واجهت خطراً آخر ليس من الداخل ولكن من الخـارج ، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١ ، فقاد أمير حاجب جيشاً إلى لاهور لوقف تقدم المغول [5] ، غير انه لم

---

(١) Lane Poole : Medieval India. p. 76

(٢) Munshi : The Struggle for Empire. p. 189

(٣) A Short History of Hind - Pakistan. p. 139

(٤) Ma Jumdar : An Advanced History of India. p. 279

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. p. 189

يلبث أن توجس خيفة من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدي إلى تآمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده ، وعزله عن منصبه ، ومنعه من دخول دلهي ، وانضم اليه الجيش في اعلان التمرد والعصيان على السلطان ، فأرسل اليه بهرام شاه رسولاً من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضي قدماً في طريق الجهاد في سبيل الله ، لكن الشيخ الرسول لم يقم بالواجب الذي كلفه به السلطان ، بل انضم إلى الثوار ، وعادوا جميعاً إلى دلهي ، وتركوا المغـــول يهاجمون لاهور [١] .

أعدّ السلطان العـدة للدفاع عن عاصمة ملكه ، لكن رجال أمير حاجب داخل دلهي ساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة ، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢ م ، وولوا بدلاً منه علاء الدين مسعود — حفيد ألتمش — وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة [٢] .

لم يكن علاء الدين مسعود أسعد حظاً من سابقه ، فقد فوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين ، وجعله نائباً ووزيراً له ، لكنه استبد بالسلطنة دونه ، وأسند الوظائف الادارية الهامة في الدولة إلى أعوانه ، وتآمر السلطان على وزيره وقتله ، وعهد إلى نجم الدين أبو بكر بمنصب نائب السلطان ، وعين بلبن في منصب حاجب الحجاب [٣] .

واجه بلبن صعاباً جسيمة في ضبط أمور الدولة ، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها ، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دلهي ، وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضاً ، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف اليها ، وبلغ من ضعف السلطنة المركزية أن أمراء الولايات الغربية استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها دلهي لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم [٤] .

---

(١) Ibid : p. 190

(٢) Ibid ; p. 190

(٣) Ma Jumdar : An Advanced History of India. p. 279

(٤) Munshi , The Struggle for Empire. p. 191

على أن بلبن لم يستطع أن يمضي في تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف اقصاءه عن الحكم ، ذلك ان الهنادكة عولوا على اقصاء العناصر التركية عن ادارة أمور الدولة ، والحلول محلهم وقاد هذه الحركة عماد الدين ريحان الذي ولي منصب وكيل الدار ، وأفلح في اقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم (١) - وبذلك حل النفوذ الهندوكي محل النفوذ التركي في سلطنة المماليك بدلهي .

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بادارة شؤون حكومة دلهي ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اغتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة في دلهي ، وعقدوا العزم على إعادة بلبن ، وانضم اليه الكثيرون من حكام الولايات الترك ، وطلبوا من السلطان اعادة بلبن (٢) ، وعزل ريحان ، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة ، فخرج السلطان من عاصمته دلهي لسحق تمرد الثوار ، لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دلهي ، وأعادوا بلبن إلى الوزارة ، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤ م ، وأحسن أهالي العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين (٣) .

واجه بلبن مشاكل متعددة لاقرار الأمور في الدولة ، فالبلاد مضطربة ، والثورات متعددة في الامبراطورية ، وخصوصاً قبائل المواتي وأصبحت البلاد تعيش في فوضى شاملة لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة دلهي ، والقضاء على الفتن في الولايات التابعة لها ، وقد فوض اليه السلطان كل هذه الشؤون ، بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدراويش (٤) .

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة في إدارة شؤون الدولة وإعادة الهدوء اليها ، فقضى على الفتن الداخلية ، وأخضع الكهكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثيرة للشغب والفوضى ، وزحف إلى الدوآب Doab وأخضع الأمراء الهنادكة الثائرين

---

(١) Ibid : P. 192

(٢) Ma Jumdar, An Advanced History of India. p. 280

(٣) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 192 - 193

(٤) K. Ali : A New History of Indo - Pakistan. p. 59

بها كما أعاد أوده والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دلهي [١] .

على أن أبرز مواقف هـذا الرجل البطولية تجلت في مقاومته لغزو المغول للهند سنة ١٢٤٥م، فقد هاجموا السند، وضيقوا الحصار على حصن أوكا، فتصدى لهم بلبن ، واشتبك معهم في قتال مرير أوقع بهم هزيمة كبيرة ، وردهم على أعقابهم خاسرين وأنقذ ما وقع في أيديهم من أسرى المسلمين . ذلك أن المغول منذ عهد أوكتاي بن جنكيزخان اتجهوا إلى غزو السند وخصوصاً سنة ١٢٢٩م وفي سنة ١٢٤١ م مدوا نفوذهم إلى لاهور، ودمر المغول البلدة ثم انسحبوا منها وفي سنة ١٢٤٧ م أجبر المغول حاكم لاهور – بعد أن فقد كل مساعدة من جانب دلهي – على دفع الجزية للمغول ، وقبل نوعاً من التبعية لهم ، كذلك بسط المغول سيطرتهم على أوكا والملتان ، لكن بلبن استرد هاتين المدينتين بعد أن انسحب منهما المغول [٢] .

توقف المغول عن محاولة الهجوم على امبراطورية المماليك في الهند على أثر تحسن العلاقات بين بلبن وهولاكو الذي أرسل سفارة إلى دلهي محملة بالهدايا واتفق الطرفان على احترام السيادة الاقليمية لكل منهما ، وانسحب المغول من البلاد الهندية التي كانوا قـــد احتلوها ، كما عزل بلبن حكام الولايات الذين خضعوا للمغول [٣] ، وبذلك أمنت بلاد الهند الغربية من خطر المغول ، وعادت سيطرة دلهي على هذه المنطقة [٤] .

توفي ناصر الدين محمود بعد حكم دام عشرين عاماً ، وكان عادلاً كريماً زاهداً متديناً، يرعى العلوم والآداب ، وقد عهد إلى أبي عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة في بلاطه ، ووضع هذا العالم مؤلفاً كبيراً أهداه للسلطان ، أسماه « طبقات ناصري » وكافأه السلطان مكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير . ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشة الزهد ، وكان يقتات من عمل يده ، إذ كان ينسخ المصاحف ويبيعها ، ويغطي بما يرد اليه من هذا العمل نفقاته الخاصة

---

(١) Munshi : Lhe Struggle for Empire. p. 193

(٢) Munshi : The Struggle for Empire pp. 192 - 193

(٣) K. Ali : A New History of Indo - Pakistan. p. 59

(٤) Munshi : The Struggle for Empire p. 193

كذلك لم يتخذ خدماً في بيته ، إنما كانت زوجته تباشر الشؤون المنزلية بنفسها بما في ذلك اعداد الطعام .

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلى المناصب في امبراطورية المماليك في عهد ناصر الدين محمود ، ولعب دوراً هاماً في تاريخ سلطنة دلهي المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو في حقيقته حلقة من تاريخ بلبن ، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبناء ذكور ، وتزوج بلبن من ابنة ناصر الدين محمود ، الأمر الذي يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦ م ، وكان قد جاوز الستين من العمر [١] .

ينتمي بلبن إلى قبيلة تركية ، كان أبوه من شيوخها ، ووقع بلبن في أسر المغول ، واشتراه الخواجة جمال الدين في البصرة، وبيع في دلهي إلى ألتمش [٢]، وظهرت شجاعته ومقدرته في سلك الجندية ، فأدخله ألتمش في جماعة حرسه ، ولما وليت رضية السلطنة ، أسندت اليه منصب أمير الصيد [٣] ، وأدرك بهرام شاه شجاعته واقدامه ، فولاه بعض الولايات ، فأحسن إدارتها وأعاد اليها الهدوء والاستقرار ، وراجت فيها الزراعة ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة [٤] - كما رأينا .

واجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التي واجهها في عهد ناصرالدين محمود ، فالبلاد مضطربة ، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية فبدأ بتقوية السلطة المركزية ، وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته ، وذلك بأن جعل بلاطه قوياً فخماً كما كان أيام ملوك الفرس القدامى ، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد ، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن [٥] نظام وأضعف من شأن القادة

---

(١) Ibid. p. 194

(٢) A. Ali, A New History of India - Pakistan p. 59

(٣) Morel, A Short. History of India. p. 160

(٤) Ma Jumdar An Advanced History of India p. 281

(٥) Morel, A Short History of India. p. 181

المماليك – موالي ألتمش – وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التي تستهدف تقوية نفوذهم في الدولة على حساب السلطان (١).

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة وإعـــادة الأمن والنظـــام إلى ربوعها (٢)، ولتحقيق ذلك أعـد جهازاً قويـاً للجاسوسية، يحيطه علماً بكل أخبـــار الادارات والمصالح الحكومية، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين، وهؤلاء الجواسيس يراقبون كل مصالح الدولة بما في ذلك الجيش وبلاط السلطان وحتى أبناءه، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس في عملهم، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون في عمله أو في تأدية الواجب المكلف به، ولم يلتزم بالدقة في جميع الأخبار، أو لا يصدق في تبليغها، وبلغ من حرصه على اقرار العدالة، ومنع الظلم أن أحـداً كان لا يجرؤ على ايذاء خدمه ومماليكه (٣).

بعد أن أعاد بلبن تنظيم ادارة الدولة، وأعاد إلى حكومة دلهي هيبتهـا، اتجه إلى القضاء على الفتن الداخلية في الدولة، فضرب بيد من حديد على أهـــالي مواتى، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته، فلما ولي السلطنة قطعوا الطـرق، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضر والأذى خصوصاً في بهار (٤)، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء، واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دلهي فخرج بلبن من دلهي، وسار على رأس جيشه لاخضاعهم وهاجمهم هجوماً عنيفاً، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم (٥)، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال الـــتي كانوا يحتمون بها، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم، وقتل قائدهم، ورأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام في الدولة، فأقـــام الحصون في مختلف البلاد، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطرق (٦)،

---

(١) Munshi, The Struggle for Empire. p. 199
(٢) Lane Poole, Medieval India. p. 81
(٣) K. Ali, A New History of Indo - Pakistan. p. 59
(٤) A. Short History of India - Pakistan p. 140
(٥) K. Ali, A New History of Indo - Pakistan. p. 61
(٦) Ibid. p. 62

وحوّل المناطق التي استأصل منها الغابات إلى أرض زراعية يقيم فيها جنـــد لحراستها من عبث العابثين [١] وبذلك استتب الأمن والنظام في الدولة .

كذلك تعرضت سلطنة المماليك في الهند لخطر آخر من جانب الهندوس في الدوآب ، ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دلهي والبنغـال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا ، وقبض عليهم وأسرهم .

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا على توليتـه الحكم وسعوا إلى الخلاص منه ، وكان سلطانهم قد قوي في عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الاقطاعات الكبيرة ، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية ، وأمعن في عقابهم وقتل كثيراً منهم ، وتخلص من هذه الفئة كلية [٢] . وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطاناً قوياً مهاباً يرعى جانبه رجال الدولة ، ويخشون بأسه .

لم يكد بلبن ينتهي من مشاكله الداخلية ، حتى واجه خطراً خارجياً جسيماً ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد بلاده بعـد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكو خان ، واستولوا على بغداد – حاضرة بني العبـــاس – وقتلوا المستعصم [٣] سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٤ م ، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن ثروتها ، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده ، وبقي في دلهي لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه ، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول ، ولا تقاسي ما قاسته بغداد من ويلات [٤] ، وأعاد بناء القلاع التي دمرت على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة . وأقام تحصينات جديدة مزوده بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات ، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكماً على الملتان ، ووضع ابنـه الآخر بفراخان على حراسة سمنه وسنام [٥] .

---

(١) Lane Poole, Medieval India. p. 84

(٢) Lane Poole, Medieval India. p. 84

(٣) Ma Jumdar, An Advanced Hist. of India p. 281

(٤) Lane Poole, Medieval India. p. 85

(٥) Munshi, The Struggle for Empire. pp. 194 - 195

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير في درء خطر المغول عن ديار الهنـد ، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩ م ، تعقبهم محمد وهزمهم ، ودفع خطرهم عن بلاد الهند . وبذلك سلمت سلطنة المماليك في الهند من خطر المغول وويلاتهم .

على أن انشغال الحكومة الهندية في الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية ، ذلك أن البنغال بقيادة واليها طغرل عادت إلى محاولة الاستقلال عن دلهي ، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين ، وأمره باقامة الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة بدلاً من بلبن ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة أميرخان لاخضاع طغرل وإعادة البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية ، لكن طغرل هزم القائد الهندوكي ، وغضب بلبن من قائده ، وحمله مسؤوليه الهزيمة التي لحقت به ، وحكم عليه بالاعدام [١] ، وأرسل جيشاً آخر إلى البنغال لسحق تمرد طغرل ، لكن هذا الجيش لقي مصير سابقه عندئذ لم ير السلطان بلبن بدأ من المسير بنفسه إلى البنغال لاعادتها إلى حوزته وصحبه ابنه بفراخان ، وحينما اقترب السلطان من البنغال ، أخذ طغرل الجزع والفزع ، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال في جاجنكر ، وأرسل السلطان فرقة من الجيش لتعقب المتمردين ، وعثروا عليهم فعلاً ، وشاهدوهم يشربون ويلهون ، والفيلة تتجول بين الأشجار ، والخيول والمواشي تتغذى على النباتات ، فباغتوهم على حين غفلة منهم ، ومـا زالوا بهم حتى أبادوهم عن آخرهم ، وقتلوا زعيمهم طغرل [٢] .

بعد ذلك اتجـــه السلطان إلى لكمانتي ، وكانت تؤيد طغرل في ثورته ضد دلهي فاختفى أغلب أعيانها ، خوفاً من بطش السلطان لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين [٣] . وبذلك عادت البنغال إلى الولاء والطاعة للسلطان بلبن ، ولكي يضمن السلطان بقاء البنغال على الولاء لدلهي ، عهد إلى ابنه بفراخان بحكم البنغال وحكم بفراخان وأعقابه البنغال أكثر من نصف قرن [٤] .

---

(١) K. Ali. A New Hist. of Indo - Pakistan p. 62

(٢) Ma Jumdar An Advanced Hist. of India p. 283

(٣) Lane Poole : Medieval India pp. 87 - 88

(٤) Morel : A Short Hist. of India p. 161

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دلهي ، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخلجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دلهي وبلادهم ، فضلاً عن المسافة ، وانتشار الأوبئة فيها[١]، وبذل ألتمش جهوداً كبيرة في اخضاع البنغال وحذا طغرل – كما رأينا – حذو الخلجيين في محاولة الاستقلال عن دلهي منتهزاً فرصة انشغال السلطان بلبن في مشاكل الدولة الداخلية والخارجية [٢] .

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة ، فقد توفي ابنه محمود وهو يقاتل المغول [٣] ولم يحتمل صدمة موت ابنه ، وتوفي بعدها في سنة ١٢٨٧ م بعد حكم دام أربعين سنة [٤] .

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند في تاريخها الوسيط ، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التي واجهته ، إذ وقف في وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه ، وقهر العصاة والمفسدين ، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد [٥] واشتد في معاقبة الخارجين على القانون والعدالة ، واتخذ لنفسه – كما ذكرنا – بلاطاً مهيباً له مراسم معينة ، ورجال يرتدون أزياء معينة ، ومظاهر خاصة ، واتخذ رجال أكفاء في إدارة شؤون الدولة ، على أنه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية ، ولم يأل جهداً في سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة [٦] ، وإقرار العدالة ، وبنى داراً أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه ، وتخفيف أعباء الحياة عليهم ، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون ، وإذا كان قد أبعد الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية ، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية في وقت تواجه الدولة فيه خطراً خارجياً .

---

(١) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية جـ ١ ص ١٤٨ .

(٢) Munshi : The Struggle for Empire p. 154

(٣) A Short Hist. of Hind - Pakistan p. 141

(٤) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan p. 65

(٥) Lane Poole : Medieval India. p. 87

(٦) Munshi : The Struggle For Empire. pp. 157 - 158

ولم يأل بلبن جهداً في سبيل رعاية الفنون والآداب ، وحرص على رفع شأن مجتمعه [١] ، فشجع الناس على التحلي بتعاليم الاسلام ، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندي حتى أن المؤرخين يعزون اليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندي من تقاليد رفيعة [٢] .

ومما يجدر ذكره أن السلطان أكرم وفادة الشخصيات الاسلامية الكبيرة التي لجأت إلى الهند فراراً من بطش وجور المغول ، وكان من بين هؤلاء فريق من بني العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم وقد أنزل كل فريق منهم في حصن خاص ، سمي بإسمه ، مثل محلة عباس محلة خوارزمي ، محلة ديلمي ، محلة سنجرى ... الخ .

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخان بتولي الحكم من بعده ، لكن بغراخان رفض ، وآثر البقاء في البنغال ، لذلك عهد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده ، وتولى كيخسرو السلطنة في دهلي سنة ١٢٨٧ م [٣] ، وكان ضعيفاً لا يستطيع القيام بأعباء الحكم ، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحاً استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث ، وأسند المناصب الرئيسية في الدولة إلى رجاله المقربين [٤] .

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه ما علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان ، وعقد معه لقاءاً سنوياً حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة سلطته الحقيقية وأن يستعيد سيرة بلبن في الحكم ، ويباشر مسؤولياته بنفسه ، ونفذ للسلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله [٥] .

---

(١) Prasad : Medieval India. pp. 171 - 172

(٢) Ma Jumdar, An advanced Hist. of India p. 284

(٣) Muushi, The Struggle for Empire. p. 158

(٤) A Short Hist. of Hind - Pakistan p. 144

(٥) Lane Poole, Medieval India pp. 87 - 88

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالحكم طويلاً ، فقد تعرض لمؤامرة أخرى من جانب الأمراء الترك ، إذ قاموا بعزل السلطان وتولية كيقباو - أحد أطفاله الصغار السلطنة (١) - حتى يتيسر لهم الاستبداد بأمور الدولة .

استاء الأمـراء الخلجيون من اضطراب أمور الدولة (٢) ، وجدير بالذكر أن للخلجيين فضـل كبير في اتمام الفتوحات الاسلامية في البنغال والاتجـاه شرقاً (٣) ، وكان الخلجيون يشغلون مناصب كبيرة في دولة المماليك وتوجهوا إلى العاصمة دلهي بقيادة زعيمهم جلال الدين فيروز (٤) ، وهزموا القواد الأتراك وعزلوا السلطان الطفل ، وأعلن الخلجي نفسه سلطانـاً ، وكان ذلك سنة ١٢٩٠ م ، وبذلك انتهى حكم سلاطين المماليك في الهند .

والخلاصة أن سلاطين المماليك حكموا الهند أربعاً وثمانين عاماً من ١٢٠٦ - ١٢٩٠ م وكان عددهم أحـد عشر سلطاناً ، ومن أبرزهم قطب الدين أيبك وشمس الدين ألتمش وبلبن ، يأتي بعدهم في الأهمية رضية وناصر الدين محمود ، والباقي سلاطين ضعاف واشتملت امبراطورية المماليك على شمال الهند وولاياتها كانت آجره وأوده وبهار وجاولار والسند ، وبعض أجزاء من الراجبوتانا ووسط الهند والبنغال .

(١) Lane Poole , medieval India pp. 87 - 88

(٢) Morel, Ashert Hist. of India p. 161

(٣) Ma Jumdar, An advanced Hist. of India p. 285

(٤) A short Hist. of Hind - Pakistan p. 141

(٥) Prasad, Medieval India pp. 171 - 172

المطهر بن محمد الجرموزي
ومؤلفاته عن الدولة القاسمية

دكتور عبد الله بن حامد الحبيد
جامعة الرياض
قسم التاريخ / كلية الآداب

ولد المطهر بن محمد الجرموزي في جمادي الآخرة سنة ١٠٠٣ هـ وتوفي في ذي الحجة ١٠٧٧ هـ [١] ويبدو أن مطولات التراجم اليمنية قد أغفلته فهم لم يظهر في مطلع البدور ومجمع البحور لصديقه القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال ، وأظن الأخير لم يترجم إلا للذين تفقهوا في مذهب الزيدية ، هذا بالرغم من أن صفة العلامة للجرموزي قد ظهرت بعد العنوان في كتابه الجوهرة المضيئة . كما أن محمد بن علي الشوكاني لم يترجم له في كتابه البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وانما هناك تعليق لنسابة اليمن ومؤرخها السيد محمد بن محمد زباره في هامش البدر الطالع جـ ٢ ص ١٨٣ توضيحاً لما كتبه الشوكاني عن ابن المطهر الجرموزي - جعفر - مردداً ما قاله المؤرخ والمعاصر للمطهر الجرموزي يحيى ابن الحسين بن القاسم في تاريخه بهجة الزمن ، من أن المطهر كان متولياً لبلاد عتمه من أول دولة الامام المؤيد بالله محمد بن القاسم من عند استفتاحه لها ، واستمر المذكور متولياً لها إلى تاريخ وفاته في سادس شهر الحجة ١٠٧٦ هـ [٢] .

غير أن هناك ترجمة قصيرة له أوردها محمد المحبي في الجزء الرابع من كتابه

---

(١) المحبي ، محمد ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر جـ ٤ ص ٤٠٦ بيروت .

(٢) الشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ١ ص ١٨٣ القاهرة ١٣٤٨ هـ يوجد هنا فرق سنه في حياة الجرموزي فيما دونه المهلا ويحيى بن الحسن .

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ص ٤٠٦ ، نقلا عن القاضي حسين المهلا ويبدو أن هذه الترجمة في كتاب الأخير بعنوان النفحة حيث ذكر أن المطهر الجرموزي كان من أعيان الدهر وأفراد العصر علماً وعملاً، ونباهة وفضلاً، كما ذكر أن له التاريخ الذي جمع فيه أحوال الأئمة الثلاثة : الامام القاسم وولديه محمد المؤيد ، واسماعيل المتوكل الذي ذكر فيه كثيراً من وقائعهم ، وسيرهم وأحوالهم ومكاتباتهم ، وقد أتت معرفة المهلا للجرموزي من أن الأخير كان صديقاً لوالده ، ودارت بينهما مراسلات ، كما أن المترجم كان صديقاً لأولاد المطهر ولذلك فقد ترجم لهم في كتابه النفحة كأدباء [٣] .

غير أن المتتبع لمؤلف الجرموزي الثاني وهو الجوهرة المضيئة ، وهو سيرة الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد ان ذكر كثيراً عن نفسه كمستشار للامام المؤيد وكحاكم لاقليم عتمه . وكذلك نجد أنه يتحدث عن نفسه في مؤلفه الثالث سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم كمتصل بالامم فهو يقول : وفي العام المذكور أراد الامام عليه السلام كما أخبرني بذلك مكاتبه وشفاها للتقدم إلى محروس شهاره لموجبات أعظم وأعمقها معاهدة تلك المعاهدة المحروسة والمحال المأنوسة [٤] .

قيام الدولة القاسمية :

بعد قتل السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م على يد السلطان سليم الأول العثماني ، أصبح الأخير وريث ممتلكات دولة المماليك الجراكسة ، ولذلك فقد اتجهت أنظاره نحو اليمن لأن القوات الجركسية تحتله في ذلك الوقت منذ سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م في حملة قام بها حسين الكردي قائد الأسطول المملوكي ، وقد استطاع العثمانيون القضاء على بقية الجراكسة سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م حينما تمكن سليمان الخادم من قتل الناخوذة أحمد آخر حاكم

---

(٣) المحبي ، محمد أمين خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٤٠٦

(٤) الجرموزي ، المطهر بن محمد . سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل ص ٢٦٣

جركسي أثناء حفل أقيم للأخير في مدينة المخا [٥] .

وبعد القضاء على الجراكسة في اليمن دخل العثمانيون في حرب شديدة مع الامام شرف الدين ثم مع ابنه المظهر إلى أن تمكن العثمانيون من القضاء على حكم الأئمة الزيدية سنة ٩٩٤ هـ / ١٥٨٥ م حينما استطاعوا القبض على خلفاء الامام المطهر — وهم أولاده — وارسالهم إلى القسطنطينية ليوضعوا تحت مراقبة سلاطين آل عثمان [٦] .

وقد ظن الأتراك العثمانيون أن هذا القبض على زعماء الزيدية في اليمن قد أنهى المشكلة ، وأن احتلالهم لهذا القطر العربي سيدوم طويلا ، غير انه لم يدر بخلدهم أنه سيظهر أئمة آخرون على مسرح المقاومة فكان أولهم الامام المنصور القاسم بن محمد بن علي سنة ٩٦٧ هـ/١٠٢٩ هـ الذي اقترنت باسمه الدولة القاسمية منذ قيامها سنه ١٠٠٦ هـ وذلك حينما قام بثورته ضد الأتراك العثمانيين في ذلك التاريخ واستمرت إلى سنة ١٠٢٨ هـ بعدها عقد معهم هدنة .

واستمرت هذه الهدنة لمدة سنة فقط في حياته توفي بعدها في سنة ١٠٢٩ هـ فتولى ابنه الامام المؤيد محمد بن القاسم ٩٩٠ هـ — ١٠٥٤ الامامة ، فاحترم تلك المعاهدة ، إلا انها انتقضت في سنة ١٠٣٦ هـ حينما قتل الأتراك في صنعاء أحد قضاته ظناً منهم انه كان يقوم بدعاية الامامة في هذه المدينة والواقعة تحت سيطرتهم فقام الامام بثورة عارمة ضدهم ، فكان معتمداً على مساعدة أخوانه والقبائل الزيدية الشديدة البأس ، فتمكن من طردهم سنة ١٠٤٥ هـ .

أما الامام الثالث في الدولة القاسمية والذي سنتعرض له هنا ، فهو المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم « سنة ١٠٥٤ — ١٠٨٧ هـ » وهو أحد عظمائها ، كان عالماً بأصول مذهب الزيدية وفروعه ولم تقف علومه عند مذهب الزيدية وانما

---

(٥) النهروالي ، قطب الدين ، البرق اليماني في الفتح العثماني ص ٨٥ ، الرياض سنة ٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

(٦) يحيى بن الحسين بن القاسم غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ص٧٦٤ القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م .

تمداه فأخذ يقرأ كتب الحديث التي رويت عن أهل السنه ، وله عدة مؤلفات توجد في مكتبة الحكومة الألمانية في برلين ومكتبة الامبروزيانا في ميلان في ايطاليا ، وقد اقترن اسمه بتوسعاته في اليمن الجنوبي كما سنبين ذلك فيما يأتي .

المطهر الجرموزي يؤلف ثلاث سير لحياة الثلاثة الأئمة ومحتوياتها :

تعرض كثير من المؤرخين اليمنيين لتاريخ الدولة القاسمية وأخبارها وما وقع فيها من الأحداث ، وخاصة في فترة حكم هؤلاء الأئمة الثلاثة العظماء السالفي الذكر ومن بين هؤلاء المؤرخين السيد المطهر بن محمد الجرموزي الذي أفرد لكل واحد منهم مؤلفاً خاصاً دون فيه أخبار الامام المترجم له ، وما حدث في اليمن في عصره .

وأول هذه المؤلفات هو « النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة في أخبار .. المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد بن علي » هذه النسخة توجد في مكتبة المتحف البريطاني رقم ٥٤٠٣٣٢٨، وكان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب كما ذكر الجرموزي أنه قد سمع الكثير من أخبار هذا الامام إلا أن النسيان قد أخذ على كثير منها، ولذلك أخذ يدون ما وصل اليه من معلومات ثم وضعها في هذا الكتاب .

بدأ المؤلف بمقدمة للمواضيع التي سيكتب عنها، ثم تطرق إلى نسب الامام إلى أن أوصله إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونشأته وخصائصه وصفاته الأخرى كالشجاعه والعلم والورع والصبر .

كما تضمن هذا المؤلف العديد من الرسائل التي أرسلها الامام إلى الأفراد والمجموعات أو الاجابة عليه، وكذلك العهود وهي عبارة عن تعيينات لأشخاص مهمتهم تولى الحكم في بعض الأقاليم من قبل الامام . ومن قراءة الرسائل والعهود نجد آراء الامام القاسم السياسية في أن أمور الحكم لا تكون إلا في أهل البيت ، وهذه النظرية هي احدى معتقدات الزيدية اذ انه من الواجب

أن يكون الامام المتولي للسلطة منحدراً من أولاد الحسن أو الحسين أبناء علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في أي مكان وأي زمان إذا شهر سيفه مثل الامام زيد بن علي في ثورته ضد هشام ابن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ ، وأن يكون فقيهاً لأن زيد بن علي كان فقيهاً .

وبما أن للشعر أهمية كبري في ذلك الوقت فقد دون الجرموزي الكثير من القصائد للامام نفسه ومن أخصها القصيدة ضد التصوف والصوفية وهي بعنوان « الكامل المتدارك لبيان مذهب المتصوف الهالك » وقد رد عليها السيد محمد بن عبد الله بن الامام شرف الدين بأمر سنان باشا ، كما يوجد الكثير من قصائد المدح وخاصة بعد الانتصارات أو قصائد الرثاء بعد الهزائم أو موت أحد المقربين من الامام كأبنه علي وعمه عامر بن علي الذين قتلهم الأتراك ، وقد سلخوا جلد عامر وحشوه تبناً ليتألم الامام القاسم نفسياً من هذا العمل ومن ثم تصبح هزيمته عسكرياً سهلة ، ويوجد أيضاً كثير من قصائد الرثاء في الامام القاسم الذي مات سنة ١٠٢٩ هـ .

وقد ترجم الجرموزي في هذا المؤلف لأربع طبقات من الرجال : هم علماء عصر الامام من أهل البيت وهم طبقتان: الأولى الذين أيدوه ومن هو في عصره ، والطبقة الثانية منهم الذين تفقهوا في أيام خلافته ولحقوا بالطبقة الأولى في اتباع طريقته . وأما الطبقتان الأخريان فهم أكابر شيعة الامام : الأولى الذين أيدوه في عصره والثانية الذين تفقهوا في خلافته ثم تداركوا الطبقة الأولى واتبعوهم في تأييد الامام .

وأخذت أخبار ثورة الامام القاسم الجزء الأكبر من هذا المؤلف حيث يوجد تفصيل شامل لمقدمات الثورة ، وفي أثنائها إلى عقد الهدنة سنة ١٠٢٨ هـ ، وكانت هذه الثورة على أربع فترات: الأولى من بدء دعوة الامام إلى خروجه من شهاره إلى برط والثانية من خروجه من برط إلى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا ، والثالثة من خروجه علي جعفر باشا بعد موت ابراهيم باشا ، والرابعة خروجه على محمد باشا ثم الهدنة سنة ١٠٢٨ هـ .

ولم يغفل الجرموزي عن ذكر اصلاحات الامام القاسم من بناء المدارس والمساجد أو اصلاح الوديان وشق القنوات لتجري فيها المياه المستخرجة من الينابيع .

اعتمد الجرموزي في مؤلفه هذا على كتابات من سبقه من المؤلفين عن الامام القاسم كالسيد أحمد بن محمد الشرفي الجزء الثالث من كتابه اللآلىء المضيئة في أخبار رائحة الزيدية [٧] ، وقد كان الشرفي أحد حكام الأقاليم في اليمن من قبل الامام . كما اشترك معه في الثورة ضد الأتراك، وكذلك اعتمد الجرموزي أيضاً على ما كتبه السيد عيسى بن لطف الله وأظنه في كتابه روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح [٨] فنجده كثيراً ما يقول وذكر السيد العلامة أحمد بن محمد الشرفي أو قال السيد عيسى بن لطف الله ولتجميع المعلومات لهذا الكتاب اتصل أيضاً بالكثير من الرجال الذين كانوا يشاهدون الوقائع كوالده والامام المؤيد محمد بن القاسم وغيرهم من القادة العسكريين أو الذين عاشوا مع الامام فهو مثلا يقول : « وأخبرني والدي » أو « لنرجع إلى رواية الشيخ ناصر بن عبد الملك»، وهو قد يذكر للرواية عدة أشخاص أو يقول : ونقلت من رسائل الامام القاسم التي جمعها ابنه الامام المؤيد محمد ، وقال في موضع آخر : وأما دعوته وحروبه وطرف من سيرته فمما أخبرني الثقة من جماعة من أصحابه أو وسمعت من القاضي العلامة شمس الدين أحمد بن سعد الدين في مجلس القراءة في الحضرة الشريفة الامامية حضرة الامام المؤيد بالله أنه بعد دخوله حدود المصيمات ...

وقد ألف الجرموزي كتابه هذا بعد وفاة الامام بفترة طويلة اذ ان عمره

---

(٧) توجد نسخة من الجزء الثالث من اللآلىء المضيئة للشرفي في مكتبة بروزيانا في ميلان رقم C 101 ARABO

(٨) توجد نسخة من روح الروح لعيسى بن لطف الله في مكتبة المتحف البريطاني رقم OL ٠٤٥٨٣

في سنة الوفـاة في ١٠٢٩ سبع وعشرون سنة ، وفي آخر الكتاب دلالة على أن الفراغ من تأليفه كان سنة ١٠٦٤ هـ .

أما المؤلف الثاني للمطهر الجرموزي فهو « الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية » هذه النسخة في مكتبة الحكومة الألمانية في برلين، ضمن مجموعة جلازر رقم ١٤٧ ، ويبدو واضحاً أنها مسودة المؤرخ نفسه لأنـه يوجد فيها تقطع في ترتيب المعلومات ، واختلاف في الخطوط فلم تكن على نسق واحد .

تولى الامام المؤيد محمد بن القاسم الامامة بعد وفاة أبيه سنة ١٠٢٩ هـ وأجمع العلماء من السادة والشيعة على مبايعته كما ذكر ذلك الجرموزي الذي كان حاضراً احتفالات تولى الحكم ، وقد عقب على ذلك بقوله : « ولقد رأيت في تلك الأيام عجباً » .

وقد تطرق الجرموزي إلى صفات الامام المتعددة كالكرم، والرفق بالناس، والبعد عن قرناء السوء منذ صغره ، وشجاعته . وروعه وكرم أخلاقه، وصبره ومروءته ، ثم انتقل إلى وصف حياته العلمية كطالب ومدرس في حياة والده وأثناء امامته وأخيراً كمؤلف .

ويضم هذا المؤلف بين دفتيه كثيراً من القصائد الـتي قيلت في مختلف المناسبات من مدح الامام أو مدح الأبطال الذين انتصروا على أعـداء الامام كالأتراك أو الخارجين عليه من غيرهم أو في رثاء أحـــد من البارزين من أقاربه وغيرهم .

وقد أخذت ثورة الامام المؤيد ضد الأتراك الجزء الأكبر من هـذا المؤلف والتي استمرت من سنة ١٠٣٦ هـ إلى طردهم على يديه سنة ١٠٤٥ هـ . وقد أعان الامام في حروبه هذه اخوته الحسن والحسين وأحمد واسماعيل تعضدهم القبائل الزيدية ، كما انه حوى الكثير من ثورات المغامرين في اليمن وعلى رأسها تلك الثورتين اللتين قام بهما أحمـد بن الحسن بن القاسم والملقب في حضرموت بسيل الليل ، ثم بالامام المهدي أخيراً من سنة ١٠٨٧ إلى سنة ١٠٩٢ هـ وكان الأخير ابن شقيق الامام وقد غاضب عمه لعدم اعطائه مناطق نفوذ والده الحسن المتوفي

سنة ١٠٤٨ هـ ، كما أن الجرموزي تطرق في هذا المؤلف أيضاً للصراع الذي دار ، بين الامام المتوكل على الله اسماعيل وأخيه أحمد على تولي الامامة في اليمن بعد موت أخيهم الامام المؤيد محمد سنة ١٠٥٤ هـ .

وقد تخلل الكتاب الكثير من رسائل الامام وعهوده المرسلة إلى الأشخاص والجماعات في اليمن وخارجه والتي ضمنها نصائحه وآراءه في سياسة الحكم .

وقد ترجم الجرموزي في مؤلفه هذا لست طبقات من الرجال وهم طبقتان من علماء أهل البيت فالأولى التي عاصرت والده ثم عاصرت الامام المؤيد نفسه ، والطبقة الثانية الذين تفقهوا في زمانه ثم والوه ، ثم طبقتان أخريان وهم الشيعة وتنطبق أوصافهم على ما في الطبقتين الأولى . أما الطبقة الخامسة والتي ترجم لها الجرموزي فهم علماء الشافعية من القائلين بامامة المؤيد محمد وأخيراً ترجم للطبقة السادسة وهم الأمراء الذين تولوا الحكم في المناطق المختلفة في اليمن أو الذين اشتركوا في للقتال ضد الأتراك أو ضد الخارجين على سلطة الامام من المغامرين اليمنيين ، ثم ختم هذا الكتاب بذكر أولاد وبنات الامام المؤيد بن القاسم .

ويوجد الجزء الثاني من هذا المؤلف في مكتبة الامبروزيانا في ميلان رقم Arabo A ٧٣٠٥ A ١١٥ بعنوان « الجزء الثاني من سيرة مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله ابن المنصور بالله » وقد ظهر هذا الجزء أكثر وضوحاً وترتيباً من الجوهرة المضيئة ، غير أن المؤلف حذف منه طبقات الرجال الست الذين عاصروا الامام المؤيد والذين ذكرهم في الجوهرة المضيئة .

جمع المطهر الجرموزي مؤلفه هذا من ملاحظاته الشخصية فهو كان أحد مستشاري الامام ومعاونيه ، والمتتبع للحوادث في هذا المؤلف يرى ذلك فهو في موضع مثلاً يقول : « وفي هذا العام في شهر القعدة أمرني وغيري ممن وجهه – كما بلغني – بالبقاء وان كمل العمل حتى يأتي رأيه الكريم » كما ان المؤلف كان حاكماً في اقليم عتمة ، فهو على اتصال بالامام أو برجال القصر ، فنراه يقول : « وأخبرني ان الامام أخبره ، وأخبرني أصحابه الذين معه »

وأخبرني مولانا الحسن ، وكان الأخير شقيق الامام والقائد العام لجيشه أثناء الثورة ضد الأتراك .

أما المؤلف الثالث الذي كتبه المطهر الجرموزي فظهر تحت عنوان « سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بن المنصور » وهذه النسخة توجد في مكتبة الفاتكان رقم ٩٧١ وهي التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه ، غير انه لم يظهر هذا العنوان على الكتاب ، ولربما أن الأستاذ Della Vida . G . L. قد وضع هذا العنوان عندمـا أسند اليه تأليف فهرست المخطوطات الاسلامية والموجودة في مكتبة الفاتكان في روما [٩] . وقد ظهر عنوان آخر لنفس الكتاب وهو « نزهة الاسماع والابصار بما في المسيرة المتوكلية من الأخبار » وهذه النسخة موجودة في مكتبة الشعب في المكلا في حضرموت [١٠] .

ويبدو أن نسخة الفاتكان هي مسودة المؤلف غير انه لا توجـــد ثغرات كثيرة ، كما أن الخط واضح ومتناسق ، ولم تظهر هنا حياة الامام الأولى ولا فترة شبابه ، ولا الكيفية التي وصل بها إلى الحكم ، ولربما أن المؤلف اكتفى بما دونه عنه في مؤلفه الجوهرة المضيئة حينما تطرق إلى الصراع على الامامة بينه وبين أخيه أحمد بن القاسم .

بدأ المؤلف سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم سنة ١٠٥٤ هـ إلى ١٠٨٧ هـ بتوسعات الأخير في الحدود الشرقية لليمن (اليمن الجنوبي حالياً) فقوى من قبضته على لحج وعدن سنة ١٠٥٥ هـ، وكان الأمير عبد القادر حاكم أبين قد استولى على المنطقتين بعد طرده للاتراك باسم الامـــام المؤيد محمد بن

---

(9) Della Vida , G . L . , Elenco Die Manoscritti Arabi Islamici Della Biblioteca Vaticana , Rome , 1935 .

(١٠) الحبشي، عبد الاله محمد، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت ، المحافظة الخامسة، عدن ، ١٩٧٥ .

القاسم سنة ١٠٣٦ هـ، وبقيت سيطرة الأخير اسميه إلى أن انتزعها الامام المتوكل على الله اسماعيل في التاريخ السابق من الأمير حسين ابن عبد القادر ، ولم يقف الامام عند هذا الحد وانما انتزع منه مقاطعة أبين فأصبح الأمير طريداً، شريداً بدون مأوى .

وبعد هذا الاستيلاء أخذ الامـــام ومستشاروه في اليمن يراقبون الفرصة المواتية لاحتلال بقية أجزاء اليمن الجنوبي ، وقد حانت تلك الفرصة سنة ١٠٦٥ هـ عندما تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن بن القاسم (سيل الليل) من هزيمة أحـــزاب اليمن الجنوبي في نجد السلف بقيادة حسين الرصاص ، ونتيجة لهذه الهزيمة فقد خضع أقليم يافع، وأرض الرصاص، وأرض الفضلي والواحدة للامام ، وما ان أتت سنة ١٠٧٠ هـ حتى تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن أيضاً من احتلال حضرموت ، ثم في سنة ١٠٧٧ هـ خضع اقليم ظفار لحكم الامام في اليمن بعد أن تمكنت قواته من طرد حاكمه الكثيري .

وتطرق الجرموزي لكل من الثورات التي قامت ضد الامام المتوكل على الله من أهالي اليمن الجنوبي بعد احتـــلال الجيش اليمني لمناطقهم ، وللثورات المحلية في اليمن ، والتي قام بها ضد الامام بعض المغامرين ، ومن بينهم من كان يرسل للامام الرسائل العلمية منتقداً سياسته في الحكم وقد دونها الجرموزي في مؤلفه هذا .

ويعتبر هذا المؤلف سجلاً حافلاً لأعمال الامام الاصلاحية أو تحركاته داخل اليمن ، كما ضم الكثير من رسائله . وعهوده التي أرسلها إلى كثير من الأفراد ، والحكام داخل وخارج اليمن ومن بينها يوجد عهد طريف ثبت فيه الامام حكم آخر سلاطين الهند المسلمين ، ويدعى محمد اوزيك. كما دونت كثير من القصائد التي قيلت في مدح الامام أو في بعض المناسبات .

وتعرض الجرموري لذكر بعض الرحالة أو العلماء الذين وفدوا على الامام في اليمن ، ومن بينهم من زار الهند وأندونيسيا والقسطنطينية ، وقد دون

من أحدهم نظام التعليم في الدولة العثمانية ، كما دون أيضاً الرحلة التي قـام بها القاضي الحسن بن أحمـد الحيمي من المخا إلى جونـــدار عاصمة الملك فاسلداس ملك الحبشة سنة ١٠٥٦ هـ الذي ظن الامام انه سيعتنق الاسلام فأرسل له الحيمي يتلمس ذلك . ولكن تبين أخيراً انه يريد أن يقيم علاقات تجارية مع اليمن وخاصة بعد ان قطع صلته بأوربا بعد طرد المسيحيين الكاثوليك من الحبشة .

كما دون الجرموزي إرتفاع الأسعار أو ظهور بعض الآفات فهو يذكر أن ريحاً شديدة هبت على ذمـار سنة ١٠٥٦ هـ وتساقطت النجوم سنة ١٠٦٠ هـ ، كما ظهرت الجرذان بكثرة في أماكن متعددة سنة ١٠٦٨ هـ مما تسبب عنه أكل المحاصيل الزراعـية ، ونزول صاعقة على شهاره سنة ١٠٦٩ هـ وظهور الجراد سنة ١٠٧٠ هـ .

اعتمد الجرموزي في تأليف هذا الكتاب على مشاهداته الخاصة أو مـــن اتصالاته بالامـام كحاكم لاقليم عتمه أو برجال القصر أو بالقادة العسكريين الذين كانوا يرسلون تقاريرهم أولاً بأول عن نتائج المعارك أو باتصاله شخصياً بالذين شهدوا الحوادث فهو يقول مثلاً : من ذلك ما أخبرني به القاضي العلامة وشمس الدين وخلف السلف الراشدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال أطـال الله بقاه « وكان أحد قضاة الامم المتصلين به على الدوام فهو يعرف الشيء الكثير مما يدور داخل الدولة . وقال في موضع آخر : قال القاضي شمس الاسلام أحمد بن صالح بن أبي الرجال أيده الله فيما كتبه إلى أنه حصل مـع الامام السرور وظهور النعمة ..... بوصول مولانا الصفي » (أي أحمد بن الحسن) ، إلا انه قد اعتمد أيضاً في تدوين بعض المعلومات على عامـة الناس فاستحق أن يطلق عليه المثل القائل « حاطب ليل » فهو مثلاً يذكر أن الامام المؤيد محمد بن القاسم[11] سنة ١٠٤٠ هـ أو سنة ١٠٤١ هـ قد أرسل البهال الأسرى إلى سلطان حضرموت ،

---

(١١) الجرموزي، المطهر بن محمد، سيرة المؤيد محمد بن القاسم حـ ٢ ص ٣٢ أ ، ص ٣٢ ب، سيرة المتوكل على الله اسماعيل ص ٢١ أ ـ ص ٢١ ب.

وقد وصف الجرموزي هذا الرسول بأنه من حذاق العوام ، فدون عنه كلاماً سخيفاً عن العلامة السيد الحسين بن أبي بكر بن سالم عميد أسرة آل أبي بكر بن سالم في مدينة عينات – عندما زاره في منزله في التاريخ السالف الذكر ، وقد تولى هذا العميد خطة مقاومة توسعات الزيدية في اليمن الجنـــوبي مما حـدى بالمطهر الجرموزي في أن يركز هجومه عليه في مؤلفاته .

وإذا القينا نظرة على مؤلفات المطهر الجرموزي نجـد أن التعصب للأئمـة الزيدية وأتباعهم واضح كل الوضوح وقد علل ذلك قائلا : « والله ولي العفو عن المقصرين في حقوق الأئمة الهادين ، نسأله القيام بحقه (أي الامام الذي يكتب عنه) حقوقهم (أي الأئمة الآخرون) . وعلـل أيضاً قائـلا : « فالعقيدة ، صحيحة والحمد لله والمحبة للحق وأهله صريحه » ويعنى هنا بأهل الحق هم الأئمة وأتباعهم من الزيدية .

ونتيجة لهذا التعصب الأعمى فانه أخذ بكيل اللعن والشتم لمن قـام ضد الامام من غير الزيدية ، فهو قد حمل على الأتراك حمله شعواء فـلم تكن هناك مثلبة إلا وذكرها ، وكلما ذكر قائداً منهم قـال لعنة الله ان كان حياً ، ولا رحمه الله ان كان قد مات ، كما تهجم على السلطان عامر بن عبد الطاهري آخر سلاطين الدولة الطاهرية بقوله « الناصبي لعنة الله » وكان هذا السلطان قد توسع في اليمن على حساب الأئمة مما حدى بالمطهر الجرموزي في أن يلعنه حتى ولو كان تحت الثرى .

ولنر الآن ما ذكره النهروالي في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني ص ٣٠ عن هذا السلطان مردداً ما رثى به علامة اليمن ومسندها ومحدثها الشيخ وجه الدين عبد الرحمن الربيع السلطان عامر بعد قتله على يد المماليك الجراكسة ليكون القارىء لمؤلفات المطهر الجرموزي على حذر مما يدونه فيها .

قال الربيع شعراً

اخلاي ضاع الدين بعد عامر	وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمن فقد أخيه بعد صلاحه	من الامن والسلوان في غاية اليأس

وله فيه أيضاً :

تحطم من ركن الصلاح مشيده　　وقوض من بنيانه كل عامر
فما صلاح فيه بعد صلاحه　　ولا عامر والله بعد عامر

وقد عقب النهروالي قائلاً : وفيه مرات كثيرة ، واستمر يرثى بعد تطاول زمان وفاته أيضاً ، بحيث انني سمعت بعد سنة أربعين وتسعمائة (أي بعد أكثر من مرور عشرين عاماً على وفاته) وأهل اليمن ينعونه بمراثي جعلوا لها طرائق يغنون بها .



دور اليمنيين في التاريخ الإسلامي القديم

دكتور هاشم جيت

عدن

ان دراسة الحضارة اليمنية القديمة على أهميتها لا تعارض البتة دراسة دور اليمن في نطاق التاريخ الاسلامي العام ذلك أن الحضارات القديمة عادة ميتة بينما واصل اليمنيون حياتهم إلى اليوم في ركب العروبة والحضارة الاسلامية ثم إن الحضارة اليمنية فيما قبل الاسلام لا تتجاوز حد الحضارات المحلية التي توالت وتعاقبت على الشرق الأوسط في حين برز الاسلام إلى الحياة التاريخية كوثبة عظيمة ذات مطامح عالمية . لذا فإن المساهمة الفعالة للعنصر اليمني في مغامرة الفتوحات ومغامرة خلق حضارة جديدة وثقافة حية من جبال البيرني إلى السند إلى آسيا الوسطى تعد على ما نرى أكبر عملية قام بها نبوغ هذا الشعب في تاريخه. ولعمري لقد كانت هذه المشاركة هامة محضرة بناءة بأتم معنى هذه الكلمات وفي ميادين عدة .

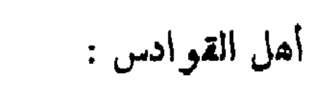
١ – الفتوحات : كثيراً ما نظر في الماضي إلى الفتوحات نظرة تقليدية مشربة من الشعور الديني . الفتوحات هي عملية تعمير وهجرة بالنسبة للعنصر العربي أكثر منها دعوه تبشيرية ووقعت هذه العملية بعد تقويض الامبراطورية الفارسية وتوهين الامبراطورية الرومانية فبسط لواء الحكم العربي على أغلبية بقاع العالم القديم .

وكان للعنصر اليمني الذي هو جزء لا يتجزأ من العنصر العربي دوراً حاسماً في هذه الفتوح التي رسمت إلى اليوم معالم البلاد الاسلامية قاطبة . هذا بالرغم من أن الدولة الحاكمة المدنية كانت شمالية وبالرغم من أن الدفعة أتت من مكة

والمدينة وقعت هذه المشاركة النشطة في عملية فتح العراق وفارس حيث اننا نجد من بين المتطوعين في الجيش العربي قبل القادسية عدداً لا يستهان به من اليمنيين بل كانوا في الأول هم الأغلبية استنفر عمر من العرب قبيلة بجيلة وعلى رأسها جرير بن عبد الله الحميري وهو الذي قام بالعمليات العسكرية الاستطلاعية قبيل القادسيه وفي خصوص التجمع الضخم بالقادسية الذي كان اللقاء الحاسم يروي لنا الطبري أن أول من لبي دعوة سعد بن أبي وقاص (٤٠٠٠ رجل) منهم ثلاث آلاف من اليمن .

– ٧٠٠ من السراة من الأزد .

– ٢٣٠٠ من مذحج من بني منية (أو زبيد) وعلى رأسهم عمرو بن معد يكرب وكذلك من جعفي والصداء وجزء ومسلية والنخع ثم ردفت روادف أخرى إبان المعركة أو بعيدها من همدان – ومراد – ويسمي هؤلاء السابقون في الجهاد مع أخوانهم من تميم وأسد وربيعة – .



أهل القوادس :

ورسمهم عمر في شرف العطاء وشاركوا فيما بعد في فتح جلولدء والمداين واجلاء الحكم الفارسي تماماً في العراق .

الاستقرار في الأمصار :

تم أتت فترة الاستقرار في الأمصار العسكرية التي صارت للعرب دار هجرة ووطناً جديداً . وتكونت الأمصار الواحد تلو الآخر . الكوفة أولا في العراق وتليها البصرة فالفسطاط بمصر فالقيروان بالمغرب فكأن جزيرة العرب قذفت بأبنائها في أرجاء العالم فاستوطنوا وبقوا على شخصيتهم وطبعوا بالطابع العربي إلى اليوم كل ما نسميه الآن بالبلاد العربية فهؤلاء العرب الذين خرجوا من حجازهم ويمنهم ونجدهم وتهامتهم تدين لهم اليوم بهويتنا العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي ولهم تدين الحضارة العالمية بخطى حاسمة في جميع

الميادين قامت على انقاضها أقسام وافرة من العالم المعاصر . وهنا نرجـــع إلى اليمنيين لنرى قوة مشاركتهم في هذه المغامرة ومدى تأثيرهم على كل هـذا (الميكانسم) هم استقروا بأغلبيتهم الساحقة في الكوفة ثم بدرجة ثانية بمصر والمغرب والأندلس .

الكوفة :

لا يخفى عليكم دور الكوفة في القرن الأول ذلك القرن الذي وضع لمدة (١٣) قرن التراكيب الاساسية للحضارة العربية الاسلامية . نرى من خـلال قراءة مدققة للمراجع .. ان القبائل اليمنية الأصلية من أمثال همدان ومذحج وحمير وحضرموت استوطنت بأغلبيتها الساحقة بالكوفة ولم تتفرع ولم تتشعب في في الأمصار كغيرها من القبائل .

وكان الاستيطان بالكوفة الأولى أي إلى زمن زياد (٥٠ من الهجرة) على النمط القبلي والعشائري فكان نصيب همدان في الشمال بينما كان نصيب مذحج بالجنوب مثلاً في حين أن التنظيم الاداري العسكري الذي قسم المقاتلة إلى سبعة أسباع ويبرز أهمية العنصر اليمني في بين هذه الأسباع نجد مـــن النواة اليمنية القديمة : — مذحج وحمير وهمدان في سبع كامل ومن الأطراف اليمنية أي الذين لفوا لف اليمن بجيله وخنشكم وكنده والأزد . ووقعت في زمن زياد أي زمن استقرت فيه الأمصار وتركز الحكم عملية تبسيط في هذه النظم فقسمت الكوفة إلى أربعة أقسام .

١ — أهل المدينة

٢ — مذحج وأسد

٣ — كنده وربيعة

٤ — تميم وهمدان

فجذبت القبائل الكبرى العشائر الصغرى وتقول لنا المراجع مثلاً « دخلت

حمير في همدان وحضرموت في كندة والأشعرون في مذحج الخ الخ ، .. أي انه وقع اندماج لكنه اندماج اداري لم يؤثر على الهوية الأدبية .

أما من الوجه العددي فيمكن لنا أن نحصي عدد المقاتلة بالكوفة إلى ستين ألف وعدد عيالهم ثمانين ألف أي حوالي مئة وأربعين ألف ساكن يوازي عدد اليمنيين منهم الثلث وبداخل الجبهة اليمنية نفسها يتضح ان الأغلبية متركبة من قبيلتين : همدان ومذحج أي أن اليمنيين ليسوا الأغلبية في الكوفة ولكنهم لعبوا دوراً أساسياً لسببين اثنين :

أولاً : تجمعهم في نقطة واحدة بالعراق هي الكوفة خلافاً لتميم وقيس وربيعة .

ثانياً: تزوحهم تزوحاً يكاد يكون مطلقاً بقبائلهم كاملة غير مقطعة وغير منقطعة وغير مفتوحة وأهم دليل على ذلك ما تصفه لنا المراجع حول أشكال استقرار اليمنيين ونوعية توزيعهم في مصرهم الجديد وهي تقسيم بين النواة اليمنية أي القدامى المتحضرين سابقاً . أو أهل القرى والمدن بالرغم من انحطاط اليمن قبيل الاسلام وبين يمنيي الأطراف المتيمنين الجدد من أمثال بجيلة والأزد ونلغي في تحليلنا طبعاً كل من ادعى اليمنية من قاطني الشام « قطاعه ومن لف لفها من كلب » وشكا همك ..

ماذا نرى في الخريطة القبليه أيام الدولة الأموية في الكوفة ؟ نلاحظ الدور الرئيسي عند همدان ببطونها العديدة (شور - شبام) .

الغبائسيون - ناعط القائديون الشبيع أرحب مرهبة وديعة بنو اليام الشاكريون كل هذه بطون كانت لها خططها في شمال الجامع وكذا مساجدها ومقابرها « مثل جبانة الشبيع التي قامت فيها ثورة المختار » وأيضاً رجالتها الذين هم رجالات الكوفة فشبام هي عشيرة مجالدين سعيد المحدث والشبيع ينتسب اليها السيد همدان سعيد بن قيس والوديعي هي عشيرة مسروق بن الأجدع التابعي المحدث وشاكر هو بطن ابن الكامل صاحب المختارين بن أبي عبيد الثقفي كل هذا التحليل يعطي لنا نظرة خاطفة على الطابع الذي طبع به

اليمنيون حياة الكوفة الدينية والاجتماعية والسياسية كذلك فيما يخص مذحج إلا أن مذحج اقل معرفة من همدان في يمنيتها وهي كهمزة الوصل بين قيم حضارة المدن والقرى وقيم البدويين بين قيم قلب الجزيرة وشمالها . وكلنا يعلم أن عمرو بن معدي كرب سيد زبيد أبان الاسلام كان الفارس الشاعر القائد الأوحد والنموذج المثالي للقيم البدوية العربية وهو صاحب قصائد تعد من أقدم القصائد وكذا الا قوه الشاعر وعبد يغوث بن حلائه وقد كان من أصحاب الأيام ومن مبدعين في الفخر لكن مذحج يمنية في الجملة وتمثلها في الكوفة المشائر التالية « جلد مراد سعد العسيرة عنس وخصوصاً النخع وهي كذلك وضعت طابعها على توبوغرافية المدينة وسير حياتها » . قلنا ان النواة اليمنية الأصلية بالكوفة قامت على هاتين القبليتين لكن لا بد من التذكير بأن العناصر القدامى الآخرين اندمجوا ادارياً وفي سكنهم مذحج وكندة الـتي قد تعد قبيلة هاشمية فالحميريون صار عدادهم في همدان إذ كانوا قلة فكان دورهم قد وهن من قبل الاسلام تبعاً لرئاستهم نفسها وكان اليمن في صدر الاسلام يمن جديد نوعاً ما أعني بهذا همدان إلا ان كانت قد شاركت حمير في سيادتها القديمة وبالتبعية لها ولكن انقلب الوضع ، لكن الحميريين الاقحاح موجودون على كل حال (آل ذي حدان — آل ذي رضوان — آل ذي لعوه — آل ذي مران) . والحق أن همدان نفسها تنقسم فيما قبل الاسلام إلى قسمين قسم متحضر بمعنى المستوطن المجرب للحياة القـارة (كناعط) وقسم كان يعيش عيشاً بدوياً ونصف ضامن (كغدريام وشاكر وارحب) والمشكلة الهامة هنا أن نتعرف على مدى تأثير العناصر المتحضرة في همدان وحمير في تخطيط الكوفة وتدريب الشعب العربي عامة على الحياة المدنية الجديدة خارج الجزيرة — هذه مشكلة عظيمة لأن الكوفة كانت نموذج بغداد ولأنها كانت طوال حياتها مدينة عربيه بحتة لم تكد تتأثر بالحضارات العراقية والفارسية القديمة . وما نقوله في همدان يمكن تكراره بخصوص مذحج ومن اندمج فيها من الأشعريين رهط أبي موسى الاشعري — ومـا قلناه في خصوص تأثير الحضارة اليمنية يمكن الاقرار به عند تحليلنا لدور بلحارث أبناء نجران منهم قد صالحو محمداً على نصرانيتهم والقليل منهم على يهوديتهم ثم أجلاهم عمر عن الجزيره فاستوطنوا بالشام وأكثرهم بالكوفة حيث كانت لهـم محلة تسمى

بالنجرانية . وكانـوا أربعين ألف برأسهم العاقب والاسقف ولعلهم لعبوا في حياة الكوفة دوراً اقتصادياً هاماً جداً لتعاطيهم عمليات الصيرفة والقراض بل يذهب المستشرق (ماسينيون) إلى أنهم هم الذين خلقوا الاداة البنكية المالية التي ستنبثق في القرن الثاني للهجرة على شكل رأسمالية ضخمة تلك الرأسمالية التي كونت أدواتها من أمثال الحوا والصفتاحة والصك وما يشبه ذلك مما أخذه الايطاليون في القرن الثاني عشر للميلاد ثم تطور ونتجت عنه تقنية الرأسمالية الحديثة هكذا يظهر التسلسل الخفي للتاريخ .

ولن أطيل عليكم الكلام فاذكر باسباب استقرار ودور القبائـــل اليمنية الهامشية كنده وبجيله والازد على ان كنده اندمج فيها أهل حضرموت وعلى أن الشعور الجماعي ينسبهم اطلاقاً وبدون تمييز إلى اليمن . فروايات البلاذري حول أحوال كندة . انما يرويها عن مشائخ اليمن على حد قوله . ودور كندة هام في حياة الكوفة السياسية والدينية أيام الأمويين فمنهم ظهر حجر بن عدى أول ثائر شيعي ومنهم الاشعث وكذا القاضي شريح كما أن الازد برز منهم عبد الرحمن بن مخنف القائد والمؤرخ المرجع مرجعنا حقاً في كل ما يخص القرن الاول أبو مخنف لوط بن يحيى وفيما بعد أول فيلسوف العربي الكندي ، لن أطيل عليكم القول في كل هذا لان الكلام فيه يحتاج إلى ساعات وساعات لكن علينا أن نوصل هـذا الدور الخطير لليمن بالكوفة فنقول على وجه وضع مشاكل كل امام العلم التاريخي .

١ ـ هم قاموا بدور عظيم في الفتوحات

٢ ـ هم دربوا الشعب العربي على التساكن وعلى الحياة المدنية على نسبة كبيرة .

٣ ـ عدم مشاركتهم في الحكم القائم دفعهم دفعاً نحو التشيع سواء في الفترة الاموية (حركة حجر بن عدى - ثورة المختار قامت أساساً على همدان) أو في الفترة العباسية حيث انقلبت الشيعة من حزب سياسي إلى طائـــفة دينية سياسية فملة دينية بحتة بستيولوجيتها الخاصة . وزمان نضجت الفكرة الشيعية أي في القرن الثالث كان الهمدانيون هم القائمين بالدعـوة . ومركزهم لم يكن سوى قذف لروح الكوفة وحماسها المتألم .

٤ ـ لا بد من رفع التباس حول صراع عدنان اليمن في آخر القرن الاول

وحتى في خلاله وبعده . فهذا الصراع لم يشارك فيه اليمنيون الاصليون بل هو تطاحن بين عناصر دعيه من قضاعة وكلب داخل الحكم القائم وعناصر من قيس مضني داخل الحكم القائم أيضاً فلم يكن الانتساب إلى اليمن سوى شعار يغطي مصالح وكذلك اختيارات سياسية جوهرية بين نظرية اتساعية ترى دوام جبهة الفتوح واستغلال الشعوب المغلوبة ونظرية ترى عكس ذلك (وهو الحزب اليمني) لكن التفاف العدد العظيم والقبائل حول النسبة اليمنية وأو على خطأ يظهر بأجلى مظهر ما كان في هذه الكلمة من الجاذبية والشعور النضاح بأن اليمن هو القطب الآخر للعروبة في أعمق جذورها القادر وحده على معاكسة قدسية العروبة المضرية .

وإذا رجعنا إلى اليمنيين الأصليين لاحظنا تغيبهم عن هذه الصراعات ، وبقدر ما ضجت الكوفة بالدعوة لآل محمد وما يواكبها من شعور بالعدالة وغضب للحق بقدر ما ابتعدت عن تطاحنات الفئات الحاكمة . ولعل هذا التباعد المتكبر عن غوغائية الوقت الذي كان سمة همدان ومذحج هو الذي قربهم من تشيع كان حقاً احتجاجاً مستديماً ولعله هو الذي طبع الكوفة بطابعها الأصيل وبطرافة صارت مع الزمن انكماشاً من سيرها من ثورة سياسية إلى ثورة سياسية وأدى بها إلى الخراب والموت مع بقاء ذكرها وتراثها من علم وأدب وشعر وتصوف ملتصقاً إلى الأبد بالعنصر اليمني الذي كان خميرتها وقلبها النابض .

تكلمت عن الكوفة باسهاب ولكن اسهام اليمن كان أيضاً فعالا بمصر وكذا بالمغرب وبالأندلس ففي المغرب هاجر اليمنيون مع موجة الفتوحات زرافات وكان العنصر الفعال في اقامة لواء العروبة بالقيروان. ولو تصفحنا كتب الطبقات ككتاب أبي العرب والخشني ورياض النفوس للمالكي ومعالم الايمان لابن ناجي لرأينا من حمير (وبالخصوص من رعين) ومن تجيب ومن مذحج ومن المعافر ولعل العشائر اليمنية القديمة اصطفت لنفسها افريقية كوطن ومهاجر لبعدها عن مركز الحكم. ولذا تذكر لنا المراجع وجود اليمنيين بأغلب جهات الأندلس فالأشعريون استوطنوا برياً وعنس بقلعة يحصب وخولان بقرطبة وحضرموت

ومن سلالتهم آل خلدون باشبيلية .

ولا سبيل إلى الاطالة في صيغ اثرائهم للثقافة المغربية فلغتنا الدارجـة فى مدن تونس متأتية منهم والموسيقى الكلاسكية الاندلسية ثم المغربية هم أربابها وفخر تونس والمغرب قاطبة عبد الرحمن ولي الدين ابن خلدون عريق في اليمنية وهو وليد تونس وخريج جامع الزيتونة .

فبأجدادكم الذين هم أجدادنا تلقنا العربية ودخلـنا في العروبة والحضارة الاسلامية وبهم طبع المغرب بطابع حضاري أصيل . فماضينا وماضيكم واحـد لكن علينا جميعاً ان نبني المستقبل على أسس مجددة وأن نتخذ المسافة اللازمة أمام الماضي كي يكون الماضي ماضي الحاضر لا حضوراً للماضي وتبجحاً عقيماً.



تخطيط المدن القديمة في وادي الرافدين

بقلم
الدكتور خالص الاشعب
صنعاء

بادي ذي بدء لا بد من الاشارة إلا أن هنـــاك الكثير من المدن وفي اصقاع متباينة من العالم القديم مما لم يكشف عنها إلا جزئياً . وان مـا نملك من اثار منقبة في مـــدن مثـل أور وأشور وبابـــل وهيراكوبوليس ومنف وطيبة ... الخ . لايتعدى اليسير مما يجب أن نحصل عليه من معلومات حـول تخطيط المدن آنذاك . كما وان المتواجد من مصادر حول هذا الأمر هو الآخر يسير سواء كان ذلك في الدراسات القديمة والـــتي لم تشر تفصيلا إلى تخطيط المدن ، أو في الدراسات الحديثة .

إن هذه الحقيقة لا بـد وأن تدفعنا إلى التصميم على اعادة تقييم ما نملك من مواقع أثرية حضرية أو استيطانية بصورة عامـــة وذلك عن طريق الدراسة العلمية ذات المحتوى التطبيقي والتي لا بد من جعل المسوحات الميدانيـــة محوراً لها .

ان هذا أيضاً وبزخم موجـات التحضر المعاصرة التي يمر بها وطننا العربي ليدفعنا لأن نخطط لسياسة المحافظة على موروثاتنا Conser Nation وفـــق أسلوب يتصف بالعملية الأولوية الشمولية ، وإمكانية التحقيق .

يرجع علم تخطيط المدن Town Planning إلى فترات قديمة جـــداً حيث يمكن القول بأن هذا الحقل قد جذب اليـــه اختصاصات متباينة هندسية ، معمارية ، جغرافية ، اجتماعية ، واقتصادية .

يصح هـــذا على الفترة الأولى التي ظهرت بها أنواع الاستيطان الحضري في العالم وهي المرحلة الـتي تجمع فيها السكان ولأول مرة يمارسوا حياة اجتماعية منظمة في مستوطنات مختلفة .

لقـد لعبت الوظائف المتباينة العسكرية ، الدينيـة ، التجارية ، الادارية (السياسية) والعلميـة دوراً أساسياً في ظهور أول أنواع المراكز الاستيطانية المدنية . ان ممارسة هذه الوظائف مجتمعة أو منفردة بحد ذاتها تدعو إلى خلق مجتمعات بشرية فرضت بدورها انماطـاً معينة من التخطيط الحضري وبالتـالي نماذج مورفولوجية متباينة تفسر تفاعل عوامل معينة تتمثل بالوظيفة أوالوظائف المقدمة ، التركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي للمجتمع وقتئذ والمرحلة الحضارية التي يجتازها وبالتالي خلق الظاهرة المكانية المميزة التي هي المدنية وبغض النظر عن مرتبتها .

إذن لقـد فرضت الوظائف على الناس أن يتجمعوا وبمساكن تتمايش سوية على وحدة المساحة تدور رحى حياتهم اليومية حول بعض المنشاءات العامة التي قد أوجدت في مراكزهذه التجمعات من المصادر المتوفرة (تنقيحات وأدبيات) يمكن الاستنتاج بأن المقياس الانساني Human Seale قد أخذ بنظر الاعتبار بتحجيم مدن الرافدين الأولى سواء من ناحية الامتداد الأفقي حيث تتراوح المساحة السطحية لتلك المدن بين ٣و٠ ـ ٢و٣ ميل ٢ أم من ناحية السكان اللذين لم يزيدوا عن ٣٠ ألف نسمة . وان ذلك يعـني ان مدننا الأولى كانت بسمة يمكن للانسان أن يتحرك فيها ويمارس تفاصيل حياته اليومية وبدون الارهاق الجسمي Within Walking Distance مما يتفق بنفس الوقت ومستوى هاتيك المجتمعات التكنولوجية .

لقد لعب عامل تزايد السكان من ناحية وتنوع حاجـات الانسان نتيجـة لتطوره من ناحية أخرى دوراً أساسياً في عملية التوسع Sprawl الذي اتصفت به تلك المراكز الأولى ومما خلق نماذج لأول أنواع المدن المعروفة في العالم .

إن هذا التجمع البشري ومتطلبات الحياة اليومية ومنها الخدمات بأنواعها

قد ساعدت على زيادة تشابك المصالح مما دفع إلى إيجاد أول أنواع القوانين التي حاولت تنظيم حياة تلك المراكز الاستيطانية الحضرية .

من ذلك يمكن أن نستنتج بأن المدينة والحياة الاجتماعية بمفهومها العصري إنما ظهرا بآن واحد وكتوأمين لا انفصام بينهما .

لقد عاصرت المدينة إذن تطور الانسان الذي ترجم حاجته وممارسة وظائفه إلى وحدات مورفولوجية معينة تواجدت في مدينته مما حول المدينة نفسها إلى أوضح وأصدق أنواع مصادر التاريخ حيث تمثل المدن هنا في الواقع مصنماً للتاريخ نفسه ولكنه تاريخ من نوع خاص تاريخ مركزي للحياة الحضرية وتاريخ عام أسهم في وضع الاطار التاريخي العام للأمة التي يتواجد فيها . فمن المدن كانت السياسات التخطيطية سواء لها أم لغيرها من أجزاء الاقطار التي توجد فيها .

إن التاريخ (الزمن) يعيش في وحدات المدن التخطيطية ، إنه يعيش في أنماط الشوارع وطرز العمارة وبشكل لا يقبل الجدال . لذلك فأصبح بالامكان أن تعتبر المدن ، القديمة منها والحديثة ، مسرحاً يمكن أن نمسح فيه مظاهر التطور أفقياً على وحدة المساحة وراسياً في أعماق الزمن وذلك بما يتواجد من أنماط الأبنية وتفاصيل خطة المدينة . ان فهم هذا المنطق Concept يمكننا أن نتطق مدننا التاريخية مورفولوجياً Morphological phaces وإلى مراحل كل منها تحكي قصة الانسان الذي تعايش فيها ، تمثل طموحاته وأسلوب حياته والاطار المكاني لتحركاته سواء من أجل العمل أو قضاء الوقت المريح ، وان كل مرحلة لتعكس قابليات الانسان ومستواه التكنولوجي الذي حدد إمكانية استثماره لموارد بيئته في البناء والاعمار .

وما دامت كل مدينة قد ظهرت ومرت تحت ظروف تختلف عن الأخرى لذلك فبات بالامكان معرفة هوية كل مدينة قديمة ، هل انها بدائية ، محصنة ، ملكية ، دكتاتورية الخ ...

يمثل ما تبقى من مدن في الواقع أحسن مصادر لتاريخ العمارة والتخطيط تحكي لنا قصة الأجيال وقابلياتهم .

لقد تحددت أنواع التخطيط الحضري الممارسة في العصور القديمة بعوامل معينة تتأثر بمفهومية مجتمع كل عصر لعنصر الجمال ، أنمـــاط حياتهم ، أنواع حاجاتهم ، وادراكهم لمعنى التخطيط . ان لمفهوم التخطيط القديم للمدن علاقة مع تطلعات أولئك السكان، لمستقبلهم وادراكهم لمعنى وحدتي الزمن والمكان.

لقد لعب عامل الدفاع وأهميته دوراً أساسياً في توقيع المدن في مناطق استراتيجية (مرتفعة أو جزرية وما شابه) وكذلك في تخطيطها العام حيث ابتدعت ظاهرة التسوير أو التحصين بالأسوار المرتفعة بدافع توفير أقصى حد من الحماية . ان ذلك قد حدد المعالم الرئيسية لأنماط الشوارع المتواجدة في تلك المدن وبالتالي تسلسل أهمية أجزاء المدينة المختلفة بقدر ما يتوفر من درجة أو سهولة الوصول Accessibility . وما دام الإنسان اجتماعي بالطبع لذلك فقد انعكست هذه الصفة على طبيعة علاقاته بأجزاء المستوطنة الحضرية التي عاش فيها بأن خلقت أبسط أنواع التنطيق Zoning حيث تواجدت أماكن السكن ومناطق التسلية والعبادة والصناعة والتجارة إلى غير ذلك مما كان ضرورياً آنذاك وبدأت تظهر معالم التخصص الوظيفي لأجزاء المدينة . ان خطط المدن القديمة المتوفرة تعكس حقيقة هامـــة وهي أن قصور الملوك أو المسؤولين والمؤسسات ذات الصفة العامة كالمعابد أو القلاع إنما تحتل مواقع مركزية مميزة مما يكسب الأجزاء المتواجدة فيها من المدينة أهمية وظيفية حيث تتمحور جوانب معينة من حياة المدينة حولها. لذلك فتقع مثل هذه المنشآت على الشوارع الرئيسية وفي غالب الأحيان تتفرع الشوارع من أماكن تواجدها . ان أهم ما تتصف به المدينة هو الصفة الداينمية Dynamic . وذلك لأنها في الكثير من النواحي تشبه الكائن الحي Organ . إن ذلك ناتج عن سببين رئيسيين هما التفاعل الوظيفي وتطور التفاعل هذا وتدخل الانسان عن طريق التخطيط أو إعادة التخطيط ، وإن كان على أبسط صورة ، إذ تمثل المدن هنا مسرحاً لعمليات تخطيطية مستمرة ووفق ما يتطلبه كل جيل من مقومات تضمن نجاح حياته وتحقيق كفاية ذاتية .

لقد انعكست على خطة المدينة كذلك مهارات المعماريين والحرفيين بمـا أسبغوه على الوحدات العمارية من معالم وأفانين تميز كل مرحلة من المراحل

المورفولوجية . وفي هذا المجال يجب علينا وعند أية دراسة لتتبع تطور تخطيط المدن ان لا نكون احاديي النظرة بل ان يجب أن نتصف بالشمولية التي تستوعب المدينة ككل . إذ يتجاوز المركز الاستيطاني المدني في واقعه مجرد ما قد بقي من آثار للقطاع العام أو للأثرياء والملوك . ان هذه هي جزء من كل ، وبقية الكل هو للناس وهم الغالبية العظمى من سكان المستوطنة ، لذلك فيجب أن نتابع أنماط حركاتهم الحياتية سواء في السكن أو العمل أو العبادة أو التجارة أو التسلية وحينذاك ستتولد لدينا المعايير الكاملة التي بموجبها يمكن أن نقيم حضارة المجتمع وفي كل مرحلة من مراحل تطوره . تنبع هذه النظرة من الايمان بأن قيمة أي انجاز عماري أو تخطيطي أو علمي إنما بقدر الانتفاع الذي ينتفع به أكبر قطاع من الناس ، لذلك فلفهم التخطيط للمدن القديمة يجب أن ندرس الوحدات التخطيطية والانجازات فيها لا بشكل مجرد ، وإنما بقدر تفاعلها مع بعضها ولخدمة الناس مقاسة بالكفاءة الوظيفية التي من أجل تقديمها قد أنشئت كل وحدة نتيجة التبدل المستمر في الوظائف والمثل او الأسس التي آمن بها المجتمع والتي قد توجهت إلى منشاءات معينة . فإن المؤسسات أو المنشاءات نفسها ستتعرض إما إلى التبدل والتحرير بدرجاته المختلفة أو إلى الزوال لاقامة غيرها وربما يتناسب والوظائف أو المثل والأسس الجديدة التي يؤمن بها المجتمع نفسه (المتطور) أو المجتمع الجديد .

إن من الأسباب الرئيسية لظهور الحضارة في وادي الرافدين إلى جانب غيره من الأقاليم كوادي النيل ووادي السند والكنج ، هو توفر الامكانيات لخلق فائض في الانتاج الزراعي مما يمكن إعالة مجاميع بشرية تمارس أعمالاً لا تتعلق في الأرض وتتجمع لتمارس حياة الحضر في أقدم أنواع المدن . إلى جانب ذلك فقد تكونت دول أو ممالك قوية تحاربت مع بعضها وورثت الواحدة منها الأخرى مما ساعد على اثراء الحضارة وتطورها بفعل الاحتكاك الحضاري .

لقد لعب المسؤولون دوراً أساسياً في إنشاء المدن أيضاً ، حيث أصدروا الأوامر من أجل ذلك . لقد استعمل الطوب المحروق واللبن لبناء مدن وادي الرافدين الأولى . وكانت تبنى بيوت هذه المدن عموماً حول فناء الدار (الحوش) الذي أصبح ميزة تخطيطية توارثتها المدن اللاحقة . وكان ارتفاع

الأبنية يتحدد أو يتناسب مع سعة الشوارع التي تقع عليها وتكنولوجية البناء السائدة .

لقد كانت البيوت عموماً متكونة من طابق أو طابقين وكانت تراعي الظروف الصحية ولوحظت أحياناً حتى صفات المجاري بالنسبة للساكن . لقد تأثرت مدن العصور الوسطى في أنماط التخطيط المتبع في هذه المرحلة كما ويمكن القول بتشابه بيوت عامة الناس مقارنة مع بيوت المتنفذين أو رجال السلطة رغم امكانية وجود بعض التباين الجزئي في وحدات البناء السكنية للعامة . من المميزات السكنية الأخرى لمدن وادي الرافدين القديمة هي تواجد دور الطبقة العالية (المتنفذة سلطوياً واقتصادياً) على الشوارع الرئيسة بينما تنتشر دور الطبقة العامة على شوارع وأزقة أقل أهمية وفي مناطق أكثر هامشية . يمكن القول بأن غالبية البيوت لا تتعدى في مساحتها وكمعدل ٧٠ م٢ .

لقد كان للاحداث التاريخية السلبية (حروب) والعوامل الطبيعية مثل تكرر حالة الفيضان أثر كبير في اندثار العديد من هذه المدن وأول ما أصاب الاندثار هو مساكن الناس الاعتياديين .

لقد وافق ظهور تلك المدن أن تكونت العديد من القرى على امتداد دجلة والفرات وتحول عدد من هذه القرى إلى مدن أثرية لبعض الملوك فيما بعد . لقد كان سكان هذه المراكز من عامة الناس يؤمنون بالمعتقدات والأساطير كما كانوا في وضع اقتصادي ضعيف حيث كان العامل مثلاً يدفع الكثير من أجل توفير مسكن له ، إلا انه قد جرت بعض المحاولات لتنظيم تطوير المدن وضمان العدالة لأبنائها ، فمثلاً شرع حمورابي قوانين قبل ٣٧٦٨ سنة تنظم المباني ومن جملة نصوصها أن يعاقب المعمار الذي لا يقدر مسئوليته ففي حالة سقوط حائط يؤدي إلى قتل ابن ساكن الدار فالعقاب هو قتل ابن البناء على قاعدة العين في العين . لقد مر ذكر الشوارع التي نالت اعتناء السلطات في بابل وغيرها مما يدل على أن التخطيط آنذاك قد تعدى الوحدات السكنية لمن على رأس السلطة . لقد أكد التخطيط آنذاك على الأسوار والتفنن في البوابات كما قد تمت انجازات رائعة بالنسبة للمراحل الزمنية التي ظهرت فيها مثل الجنائن المعلقة أو الزقورات . وهنا لا بد من التنبيه إلا انه بالرغم من المنجزات العمرانية والتخطيطية الضخمة

فقد كان هناك تفاوتاً هائلاً بين حالة الرعية والسلطات مما يدفعنا إلى الايمان بوجود نوع من نظام العبودية والسخرة التي كان يعاني منها سواد الناس . ان ذلك يفسر عزلة قصور الملوك أو مركزيتها في مدن وادي الرافدين مقارنة مع ما كان ظاهراً في مدن جزر بحر إيجه .

ان ازدهار الحياة المدنية في وادي الرافدين ، كما أشرنا قبل قليل ، إنما هو لسيق بتواجد الرافدين اللذان يتكرر فيضانها سنوياً . ان ذلك قد دفع إلى تطور فنون وهندسة الري أيضاً والتي أسهمت في إيجاد فائض من الانتاج الغذائي .

تشير الرسوم الأشورية المنقوشة على الأحجار بأن المدينة الأشورية محصنة عادة بسور محاط هو الآخر بمجرى مائي قد يكون نهراً لزيادة الحماية . يغلب الشكل الرباعي وخاصة المستطيل منه على هذه المدن المسورة التي تحيط بأنواع مختلفة من المساكن . كذلك فتشير هذه النقوش إلى وجود بعض المباني وبعضها عام خارج السور أي في المساحة بين السور والمجرى المائي .

كذلك فبالامكان استنتاج معالم تخطيطية أخرى للمدينة في وادي الرافدين ، من ملاحظة مخطط مدينة نيبور حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد التي تدل أيضاً على تواجد الأسوار وبعض المعابد. إلى جانب ذلك تظهر بعض الخنادق والقنوات . أما إذا انتقلنا إلى مدينة بابل فبالرغم من عدم توفر الكفاية من الأدلة بواسطة التنقيبات الجارية فبالامكان اعتماد المصادر المكتوبة كوسيلة لاستكمال الصورة عن هذه المدينة .

لقد ذكر هيرودوتس بأنه عاش في فترة بدأت فيه تجتذب مراكز القوى من مدن وادي الرافدين . أما مدينة بابل وكما ذكر هيرودتس فقد كانت إحدى المدن العظمى الباقية ومن جملة أوصافه لخطتها هي أنها مربعة الشكل تماماً ، وبخمسة عشر ميلاً للضلع ، أي بمحيط طوله ٦٠ ميلاً . لقد ذكر بأن المدينة مسورة ولزيادة التحصين فقد كانت أسوارها (مثل المدن الأشورية) أيضاً محاطة بخندق مليء بالماء .

لقد استعمل الطابوق المصنوع من الطين النهري . لقد كان يحرق الطابوق هذا قبل استعماله بالبناء كما قد استعملوا مادة القار كملاط مماسك بين الطابوق حالاً محل السمنت في الوقت الحاضر . لقد كانت المدينة مشطورة إلى جانبين بواسطة نهر الفرات . لقد ذكر ان غالب المساكن متكونة من ثلاثة أو أربع طوابق لقد كانت أنظمة الشوارع مستقيمة سواء بالعرض أو الطول . إلى جانب السور الخارجي فلقد كان هناك سوراً داخلياً أقل سمكاً من الأول . كما كان يوجد حصن وسط كل جانب من جوانب المدينة وفي داخل أحد الحصنين تقع قصور الملوك .

لقد استعمل النحاس لصنع أغلب الأبواب كما قد أشير إلى وجود البرج وبثمانية طوابق ويتم الصعود اليه من الخارج بممر يدور حول كل الأبراج كذلك فقد أشير إلى تواجد معبد فوق أعلى الأبراج . ان هذه الاشارات إنما جاءت لمدينة كانت تتعاطى سكرات الموت إلا انه مع ذلك فبالامكان الوصول إلى مزيد من الاستنتاج مما خلفته الآثار نفسها عن المستوى التكنولوجي الذي كان سائداً آنذاك وكذلك عن مواد البناء واستعمال القار كمادة للتماسك والخطة العامة للمدينة .

توفر مدينة أور إحدى المعالم التي قد تزيد معلوماتنا عن تخطيط مدن وادي الرافدين الأولى . تعتبر هذه المدينة الكلدانية من أقدم المدن التي مورس فيها التخطيط بشكل متطور لقد وصفت بأنها واسعة وغنية بمبانيها وترعها ومعابدها . كذلك فقد وردت اشارات إلى وجود شارع السوق . لقد كانت هذه المدينة مسورة هي الأخرى . كذلك فقد توفرت انجازات عمارية رائعة متمثلة بالزقورات ، غالباً ما توقع الأسواق (الوظيفة التجارية) قرب أبواب الأسوار أو على الجبهات المائية حيث تسهل عمليات النقل والتبادل . من كل ما سبق يبدو أن للوظائف وقتئذ الأثر الكبير في الاطار العام لخطط تلك المدن . إن من أهم هذه الوظائف هي الوظيفة الادارية ، السكنية ، وتقديم بعض الخدمات وان الوحدات التخطيطية المبينة فيما يتواجد من مخططات أوأدبيات ونتف الآثار المنقبة لمصدر تأكيد على ذلك . وبتخطيط تلك المدن فيبدو انه

قد لوحظت راحة الانسان حيث ان غالب تلك المدن إنما كانت ضمن الحدود التي يستطيع الإنسان أن يتحرك فيهـــا وبدون ارهاق جسدي وهو ما يدعى بالتخطيط الحديث (Human in Scale) .

لقد كان المعيار الانساني Human Scale مهما جـدا في طبيعة التوزيع الوظيفي والتخصص السكاني لوحدات تلك المـدن إلا أنـه لا يمكننـا الجزم بتفاصيل ذلك نظراً للصعوبات التي ذكرناها في بداية البحث .



المصادر :

1 — Henry Churchil, The City is the People, 1945

2 — A. Kovn, History Builds the Town, 1953

3 — Lewis Mumford, The city in History, 1956

4 — Lewis Mumford, The Culture of cities, 1938

5 — Dr. M. Hammad, Town Planuing and its History, 1965

6 — A. E. Smailes, The Geography of Towns, 1968

7 — R. J. Solomon, Procedures in Townscape Analysis, Annals of the Association of American Geographers, 56 (1966) .

8 — Robert M. Adams, The Origin of Cities. Scientific American, Sept, 1960

9 — Lewis Mumford, The Natural History of Urbanization, in William L. Thomas (ed). Mans Role in Changing the Face of the Earth, Chicago. the University of Chicago Press, 1958.

10 — Dorthy Mackay, Ancient Cities of Iraq, 1926

11 — طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، القسم الأول ، بغداد ، ١٩٥٥

معركة حارم

"التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين زنكي"

"١١٦٤م - ٥٥٩هـ"

دكتور مهدي سعيد عمران
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

يمثل القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري حلقة تعتبر من أخطر حلقات الصراع بين الشرق الاسلامي والغرب الأوربي ، فقد ألقى الغرب بكل ثقله في المنطقه وتمكن من إقامة الإمارات الصليبية في الشام وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى الاسلامية تستجمع قواها لضرب هذه العناصر الدخيلة وطردها من أراضيها تبرز الإمبراطورية البيزنطية محاولة السيطرة على الشرق الإسلامي وبسط نفوذها على المنطقة . وهكذا بات يتصارع على منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ثلاث قوى، أولها ، القوى الإسلامية باعتبارها صاحبة البلاد الأصلية ، وثانيها ، القوى الصليبية الدخيلة التي تمكنت من فرض نفوذها على المنطقة ، وثالثها الامبراطورية البيزنطية .

وتشعبت المشاكل الشرقية إزاء القوى المتعددة في المنطقة من مسلمين وصليبيين وبيزنطيين وأرمن ، ويزيد من تعقيد هذه المشاكل أن المسلمين لم يكونوا تحت قيادة موحدة ، فكثيراً ما نجد الصراع بين سلاجقة الروم وآل دانشمند وحكام الشام المسلمين حيناً والتقارب الظاهري بين هذه الأطراف حيناً آخر ، وما نجده أيضاً من خلافات بين الحكام الصليبيين في وقت ما ، ثم إتفاقهم في وقت آخر ، يضاف إلى ذلك ما دار من صراع بين الحكام الأرمن أنفسهم ، وأخيراً صراع هذه القوى مع بعضها حيناً وتحالفها حيناً آخر .

والبحث الذي بين أيدينا صورة من هـذا الصراع يتمثل في تحالف الامبراطورية البيزنطية مع الصليبيين والأرمن بغرض القضاء على القوة الاسلامية الناهضة المتمثلة في نور الدين زنكي .

وحول التحالف الذي نحن بصدده فقد كان يحكم الامبراطورية البيزنطية الامبراطور مانويل الأول Maneul I (١١٤٣ – ١١٨٠ م / ٥٣٧ – ٥٧٦هـ) كما كان يتولى إمارة أرمينية الصغرى الأمير ثوروس الثاني Thores II (١١٤٤ – ١١٦٧ م / ٥٣٩ – ٥٦٣ هـ) . أما الامارات الصليبية فكان على رأسها عموري الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٣ – ١١٧٣م / ٥٥٧ – ٥٦٩ هـ) وبوهمند الثاني Behemond II أمير أنطاكية (١١٦٣ – ١٢٠١ م / ٥٥٨ – ٥٩٧ هـ) وريموند الثالث Raymond III أمير طرابلس (١١٥٢ – ١١٨٧ م / ٥٤٦ – ٥٨٣ هـ) .

وترجع أسباب هذا التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين زنكي إلى عام (٥٥٨ هـ / ١١٦٣ – ١١٦٤ م) ، عندما قام نور الدين بالتوجه على رأس قواته إلى حصن الأكراد[١] بغرض منازلة مدينة طرابلس[٢] ، تمشياً مع سياسة الجهاد التي وضعها والده عماد الدين ضد الصليبيين . ولعل ما شجع نور الدين على مهاجمة طرابلس في ذلك الوقت هو إحساسه بالنفور القائم بين ريموند الثالث أمير طرابلس والإمبراطور مانويل بعدما قام ريموند بمهاجمة الأملاك البيزنطية لرفض مانويل الزواج من أخته ميلسند Melisend . وعلى أية حال فقد فوجىء نور الدين وهو في طريقه إلى حصن الأكراد بالقوات الصليبية على مقربة منه ، وتضيف بعض المصادر العربية أن قنسطنطين كولمان Constantine·Colman حاكم قيليقية البيزنطية إنضم إلى الصليبيين في هـذه

---

(١) حصن الأكراد : حصن منيع على جبـل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب . ياقوت الحموي – معجم البلدان ، جـ ٢ ص ٢٧٦ . وكانت قلعة هذا الحصن تابعة للفرسان الاسبتارية وهي قلعـة منيعة تحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحدقان بها وقـد استولى عليها الاسبتارية عام ١١١٠ م و ستعادها الظاهر بيبرس عام ١٢٧١ م راجع أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ .

المرحلة ، والواقع أن كولمان إنضم إلى القوات الصليبية في مرحلة لاحقة ، والمهم أن القوات الاسلامية هزمت في هذه المعركة وتمكن نور الدين من النجاة بأعجوبة [١] .

عاد نور الدين بعد هذه المعركة إلى حمص وأخذ يستعد لملاقاة الصليبيين ، وفي الوقت نفسه استعد الصليبيون أيضاً لمحاربة المسلمين وقصدوا مدينة حمص ، ولما علموا بوجود نور الدين بالمدينة خافوا واعتقدوا أن لديه من القوات مايكفي لهزيمتهم لذلك أرسلوا إلى نور الدين يسألونه الهدنة ولكنه لم يجبهم ، لذلك عادوا إلى بلادهم بعدما تركوا حامية عند حصن الاكراد [٢] .

وقد استعد نور الدين بكل قواته لمحاربة الصليبيين كما أرسل في طلب النجدة من أخيه قطب الدين في الموصل وقرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف الإسلامية يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد ضد الصليبيين [٣] ، وكانت وجهة القوات الإسلامية في هذه المرة حارم التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية من الجهة الشرقية [٤] ، وكان السبب في قيام نور الدين بالهجوم على الصليبيين هذه المرة هو أن عموري ملك مملكة بيت المقدس قاد جيشه للهجوم على مصر للمرة الثانية [٥] ، فأراد نور الدين مهاجمة أملاك الصليبيين ليخفف الضغط على مصر ويضطر الصليبيون للعودة إلى بلادهم وإنقاذها من الهجمات الاسلامية [٦] .

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ١٦ لوحة ٣٥٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٦ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٨ .

(٣) إبن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٨ .

(٤) Vitry, History of Jerusalem, p. 94

(٥) Schlumberger, G. Campagnes de Roi Amaury I, pp. 36-48

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٣ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٨ .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه في ذلك الوقت كان الصراع على أشده بين نور الدين والملك عموري على امتلاك مصر بعدما إزدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل ابن رزيك وإبنه وحلول شاور حاكم الصعيد في الوزارة وصراعه مع حاجبه ضرغام [١].

قام نور الدين بمهاجمة حارم ، وفي الوقت الذي كان فيه رينو أف سانت فاليري Reynald of Saint Valery صاحب حارم يستبسل في الدفاع عنها انضم اليه بوهمند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس والأمير ثوروس الأرميني وقنسطنطين كولمان حاكم قيليقية لمساندته ضد نور الدين[٢] ، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك نية سابقة لمهاجمة المسلمين قد أعدت من قبل وأن الملك عموري إشترك في إعداد هذه القوات قبل القيام بحملته على مصر بدليل ما نراه من إصحاب عموري لبعض القوات البيزنطية أثناء عودته من قيليقية بعد مساهمته في القضاء على الفتنة التي أعقبت مقتل ستيفن Stephen [٣] أو أن عموري أحضر هذه القوات للدفاع عن الإمارات الصليبية أثناء غيابه في مصر ، ومن الواضح أن كولمان لم يشترك في مساندة الصليبيين إلا بعد موافقة الامبراطور مانويل الذي أمده ببعض القوات البيزنطية [٤].

وعند هذه النقطة نتوقف قليلاً للايضاح ان انضمام كولمان وثوروس إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود نفور بين الأرمن والبيزنطيين بسبب مقتل ستيفن ، يضاف إلى ذلك أن تقدم كولمان للدفاع عن حارم وهي من ممتلكات إمارة انطاكية ما يدل على اهتمام البيزنطيين بأمر انطاكية باعتبارها واقعة تحت السيادة البيزنطية ، كما أن وجود القوات البيزنطية في المعركة إلى جانب قوات إمارة طرابلس بقيادة ريموند الثالث ما يشير إلى أن حادثة مهاجمة ريموند

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٠ .

(٢) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, II, P. 307.

(٣) Gregoire la pretre, Chrenique, p. 199

(٤) Vitry, op. cit., p. 94

للأملاك البيزنطية بسبب رفض مانويل الزواج من مليسند أخت ريموند [١] ، لم تترك أي أثر في نفس الامبراطور مانويل [٢] ، وأن البيزنطيين والصليبيين والأرمن قد تركوا خلافاتهم جانباً للقضاء على نور الدين .

كان التقاء القوات الاسلامية بالقوات المتحالفة عند حارم في أوائل شهر أغسطس عام ١١٦٤ / أواسط شهر رمضان عام ٥٥٩هـ ، ولما وجد نور الدين ضخامة القوات المتحالفة التي قدرها ابن الجوزي بحوالي ثلاثين ألفاً [٣] ، وأنه يحارب أربعة أمراء في وقت واحد يقودون قوات صليبية وأرمنية وبيزنطية [٤]، انسحب إلى قرية « عم » بالقرب من حارم وطمع في أن تتبعه القوات المتحالفة فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم ، ولكن القوات المتحالفة لم تتبعه وعادت إلى حارم فتبعهم نور الدين في عساكره لقتالهم [٥] . ويشير المؤرخ السرياني المجهول عند هذه المرحلة أن الأمير الأرميني ثوروس نصح الأمراء الآخرين بعدم القتال والانتظار حتى يعود الملك عموري من مصر ولكنهم لم يأخذوا بالنصيحة لذلك هرب ثوروس من المعركة [٦] . ولعل في نصيحة ثوروس هذه ما يشير إلى حسن إعداد نور الدين للمعركة القادمة ، أو أن القوات المتحالفة رغم كثرتها كانت تفتقر إلى حسن الاعداد والنظام ، كما أنها تشير بوضوح إلى انقسام القادة المتحالفين على أنفسهم .

وعلى أية حال فإنه عندما تقاربت القوات الاسلامية والقوات المتحالفة واضطفت للقتال حملت القوات المتحالفة على ميمنة القوات الإسلامية وكان

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 289

(٢) Richard, J., Le Comte de Tripoli, p. 30

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٧ .

(٤) Joseph ben Joshua, Chronicle, I, p. 153

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .

(٦) Anenymous Syriac Chronicle, The First and the Second Crusades, p: 304.

فيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا فانهزم المسلمون [١] ، وعلى ما يبدو أن القوة التي هاجمت الميمنة كانت بقيادة قنسطنطين كولمان وقد أشارت اليه المصادر الاسلامية باسم « الدوقس الرومي » وانه كان أشدهم على المسلمين [٢] . ولكن المعركة مالبثت أن تحولت لصالح المسلمين عندماقام الأمير زين الدين علي كوجك وعساكر الموصل بالانقضاض على القوات البيزنطية وأنزلت فيهم القتل والأسر، الأمر الذي دفع المؤرخ الصليبي جاك دي فتري Jacques de Vitry إلى إتهام القوات البيزنطية بالجبن ووصفها بأنها عناصر غير محاربة [٣] ، وقد ترتب على ذلك أن بقية العساكر الاسلامية قد تشجعت بهذا النصر وأحاطت بالقوات المتحالفة من كل جانب، واشتدت رحى الحرب حتى إنتهى الأمر بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة بعدما قتل منهم عدد كبير قدرته بعض المصادر العربية بعشرة آلاف فارس وراجل [٤] ، كما وقع في أسر المسلمين كل من بوهمند أمير انطاكية وريموند أمير طرابلس وجوسلين الثالث Joscelin III وهيو أف لوزجنان Hugh of Lusignan [٥] ، وحاكم قيليقية البيزنطي قنسطنطين كولمان[٦]، ولم ينج من الأسر من القادة المتحالفين سوى الامير الأرميني ثوروس الذي هرب من ساحة المعركة بعدما تبين له عدم جدوى مقاومة المسلمين [٧] ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٣ .

(٣) Vitry, op. cit., p. 94

(٤) ابن الجوزي : ملخص تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ٩٣هـ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢٠ .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن واصل: المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥، أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٣٣ ، العيني : عقد الجمان (مخطوط) جـ ١٦ لوحة ٣٦٣ .

(٥) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ١٤٧ ،
William of Tyre, op. cit., p. 308

(٦) Cinnamus, J., Epitome Historiarum, p. 216. : Michel le Syrien La Chronique, p. 359

(٧) Anony mous Syriac Chronicle, op. cit., 304

وقد قيدوا هؤلاء القادة بالسلاسل إلى حلب مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم حوالي ستة آلاف [1] .

كانت الهزيمة التي حلت بالقوات المتحالفة هزيمة ساحقة واعتبرت من أعظم الكوارث التي حلت بالقيادة الصليبية الشمالية بوجه خاص [2] ، وترتب عليها نتائج متعددة منها ؛ أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر فتقدموا لمهاجمة حارم وتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد عدة أيام وسقطت في أيدي القوات الاسلامية في الحادي والعشرين من رمضان عام ٥٥٩ هـ / الثاني عشر من أغسطس عام ١١٦٤ م [3] ، كما شجع هذا النصر أيضاً القوات الاسلامية على محاصرة مدينة بانياس ، وكان هذا الحصار ضمن العوامل التي أرغمت القوات الصليبية التي كان يقودها عموري في مصر على الانسحاب والعودة إلى الشام لانقاذ بانياس ولكنها وصلت بعد سقوط المدينة في أيدي القوات الاسلامية [4] ، وهكذا نجح نور الدين في الاستيلاء على حارم وبانياس وساعد على انسحاب الصليبيين من مصر .

كما ترتب على هذه المعركة نتيجة أخرى توضح لنا موقف نور الدين من الامبراطور مانويل الذي كان يرى أن امارة انطاكية الصليبية جزءاً من أملاك الامبراطورية البيزنطية . فرغم الانتصارات التي أحرزها نور الدين على القوات المتحالفة مما جعل الطريق مفتوحاً إلى انطاكية خاصة بعد أسر أميرها بوهمند، إلا أن نور الدين لم يجازف بمهاجمة المدينة لا لعجزه عن الاستيلاء عليها وإنما يرجع ذلك إلى بُعد نظر نور الدين وحسن إدراكه للظروف المحيطة به ، وتفسير ذلك أن سياسة الامبراطور مانويل كانت ترمي إلى إيجاد نوع من توازن القوى بين القوات الاسلامية والقوات الصليبية في الشام ، لأنه بمساندة

---

(١) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٢) King, The Knights Hospitallers, p. 90

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧

William of Tyre, op. cit., p. 308

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٠٤ .

الصليبيين يظهر للعالم الأوربي أنه بمثابة حامي الامارات الصليبية، وفي الوقت نفسه فإنه إذا ترك القوات الصليبية بمفردها فإنها ستلقى هزيمة تلو أخرى على يد القوات الاسلامية ، يضاف إلى ذلك أن حمايته للامارات الصليبية تساعده على التدخل في شؤنها وفرض نفوذه عليها، ومن ثم يستطيع أن يحركها لأغراضه وأطماعه، وأخيراً في محاولته فرض السيادة البيزنطية التامة على إمارة أنطاكية التي كان يعتبرها جزءاً من الأملاك البيزنطية . وأن في مهاجمة نور الدين لمدينة أنطاكية ذريعة قوية لتدخل الامبراطورية البيزنطية في الامارة والسيطرة عليها عسكريا لذلك كان نور الدين يرى عدم الاستيلاء على انطاكية وترك الأمور في هذه الامارة بالذات على حالها حتى لا تلقي الامبراطورية البيزنطية بثقلها العسكري في الامارة وبذلك يصبح عليه أن يواجه الامبراطورية البيزنطية والامارات الصليبية في وقت واحد. ومصداق ذلك أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بالسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها فلم يوافق وقال « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة ولا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بوهمند أحب إلي من جوار ملك الروم »[1] .

ولقد كان نور الدين في منتهى الحكمة عندما رفض مهاجمة انطاكية ، ذلك لأن البيزنطيين كانوا لا يرضون بأي تدخل في إمارة انطاكية حتى ولو جاء هذا التدخل من قبل الأمراء الصليبيين الآخرين ، ذلك أنه بعد عودة عموري من مصر إتجه إلى انطاكية لتدبير أمورها ولعله كان طامعاً فيها ووضعها تحت حكمه المباشر، ولكن البيزنطيين لم يرضوا عن تدخل عموري في شئون انطاكية وقدمت سفارة بيزنطية لتسأل عموري عن أسباب وجوده في المدينة ، ولكن عموري كان لبقاً وأشار أن ذلك بسبب إعداد سفارة لارسالها إلى القسطنطينية لرغبته في الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات [2] ، وهكذا حسم عموري الأمر ، كما يتضح من رد الملك الصليبي تودده للامبراطورية البيزنطية ، ولعل

---

(١) العين : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ٣٦٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٥ .

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 237 - 8

ذلك ما دفع الملك عموري إلى الشكوى للملك لويس السادس LouisVII ملك فرنسا (١١٣٧ – ١١٨٠ م) من تدخل البيزنطيين في أنطاكية [١] .

وعن النتائج التي جاءت من قبل الأسرى فيمكن القول انه إذا كان بُعدنظر نور الدين وحسن إدراكه للظروف المحيطة به جملته لا يوافق على مهاجمة أنطاكية فإن بعد نظره أيضاً دفعه إلى إطلاق سراح قنسطنطين كولمان مقابل مائة وخمسين ثوباً من الحرير [٢] . ولعل في ضآلة هذه الفدية التي قبلها نور الدين ما يشير إلى أن نور الدين لم يكن راغباً في الدخول في صراع مباشر مع الامبراطورية البيزنطية ويفتح على نفسه جبهة أخرى أقوى من الجبهة الصليبية فتتشتت جهوده بين القوتين . أما فيما يتعلق بالأسرى الأرمن فيروي المؤرخ ميخائيل السرياني أن الأمير ثوروس أرسل إلى نور الدين بعض الهدايا مقابل إطلاق سراح الأسرى الأرمن ، ولكن نور الدين رفض هذا العرض الأمر الذي دفع ثوروس إلى مهاجمة مدينة مرعش ونهبها وأسر العديد من المسلمين وعندذلك تحول نور الدين إلى المصالحة وتبودلت الأسرى [٣] . ولعل ما دفع نور الدين إلى هذا التحول أن نور الدين كان لا يرغب في أن يسير قواته إلى الشمال للقتال ضد أرمينية فتخلو الممتلكات الاسلامية من عساكرها وتصبح سهلة المنال للقوات البيزنطية والصليبية خاصة بعد عودة عموري والقوات الصليبية من مصر فاشلة، هذا الفشل الذي ربما يدفع عموري إلى القيام بعمل عسكري لتعويض فشله في مصر .

أما فيما يتعلق بفك أسر الأمير بوهمند صاحب أنطاكية فقد ذكر المؤرخ وليم الصوري أن الصليبيين عملوا على اطلاق سراح بوهمند بعد دفع الفدية وبعد مضي حوالي سنة من وقوعه في الأسر [٤] ، ويضيف ميخائيل السرياني أن بوهمند إتجه إلى القسطنطينية فور الحصول على حريته وما لبث أن عاد إلى انطاكية محملا بالهدايا ومعه البطريق البيزنطي الارثوركس أثناسيوس Athanasius ليكون

---

(١) Analric I, Letter to Louis VII, p. 39

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 216

(٣) Michel le Syrien op. cit., p. 359

(٤) William of Tyre, op. cit., 11 p. 311

بطريقاً على أنطاكيا [١] . ورغم ذلك فالباحث يرى أن الامبراطور مانويل كان له دور في إطلاق سراح بوهمند بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية في أنطاكية عقب أسر بوهمند واستفسار هذه السفارة عن سبب وجود عموري في أنطاكية . وبمعنى ذلك أن بقاء عموري في المدينة أمر غير مرغوب فيه من قبل الامبراطورية البيزنطية في الوقت الذي لا نجد فيه مثل هذه السفارة عقب أسر رينو أف شاتيون Reynold of Chatillon (أرناط) أمير انطاكية (١١٥٣ - ١١٦٠ م / ٥٤٨ - ٥٥٥ هـ) الذي كان لا يزال أسيراً حتى ذلك الوقت ولم يفرج عنه إلا في عام ١١٧٥ م / ٥٧٠ هـ [٢] ، كما ان استفسار السفارة البيزنطية عن أسباب وجود عموري في انطاكية يعني أمراً آخر وهو ان الامارة لا تتبع الملك عموري وليس له الحق في التدخل في شئون الامارة، ويكون ذلك إستناداً إلى أمرين أولها، إما أن تضع الامبراطورية البيزنطية يدها على الامارة وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق هذا الغرض وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية وهو ما لم يحدث ، والأمر الثاني أن بوهمند عائد إلى الامارة عن قريب ولا داعي لوجود عموري ، وإذا كان ذلك ما يتعلق بموقف البيزنطيين والصليبيين من إطلاق سراح بوهمند فإنه استكمالاً لهذه القضية وتأكيداً لما يراه الباحث فالأمر يتطلب القاء الضوء على موقف نور الدين من فك أسر بوهمند . وقد صور لنا المؤرخ الصليبي وليم الصوري موقف نور الدين خير تصوير فروى أن نور الدين لم يتعود إطلاق سراح الزعماء الصليبيين بعد وقت قصير وأن اطلاق سراح بوهمند يرجع إلى بُعد نظر ورجاحة عقل نور الدين وأن ذلك يرجع إلى خوف نور الدين من تدخل القوات البيزنطية أو ان نور الدين رأى اعادة بوهمند ليحكم أنطاكية حتى لا يحل محله في الامارة أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء فيشكل خطورة على الممتلكات الاسلامية [٣] .

وبذلك بات من الواضح أن النفوذ البيزنطي كان له أثره الواضح على النتائج المترتبة على موقعة حارم ، فالنفوذ البيزنطي حال دون تقدم نور الدين لمهاجمة

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 359

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 248 - 414

(٣) William of Tyre, op cit., II, p. 311

أنطاكية وكان لهأثره الواضح في اطلاق سراح حاكم قليقية البيزنطي قنسطنطين كولمان ، كما أن إطلاق سراح بوهمند يرجع في معظم جوانبه إلى الامبراطور البيزنطي مانويل .

تبقى من هذه القضية نتيجتان ، الأولى تتعلق بالناحية الاقتصادية وهي أن نور الدين أطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين مقابل بعض الأسرى المسلمين[١]، أما البقية الباقية من الأسرى الصليبيين فقد بلغت حصيلة فديتهم ستمائة ألف دينار ، وقد استغلها نور الدين في بناء المدارس والربط والمستشفيات وما شابه ذلك[٢] . أما النتيجة الثانية فتتعلق بالنفوذ الديني البيزنطي في أنطاكية ذلك أن بوهمند عاد من القسطنطينية ومعه البطريق الأرثوذكي أثناسيوس الأمر الذي أغضب البطريق الصليبي الكاثوليكي ايمري Aimery الذي احتج على هذا الإجراء وانسحب إلى قلعة القصير[٣] وأغضب أيضاً بقية رجال الدين واحتجوا له لدى البابا اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١م) الذي أيدهم في موقفهم كما ساندتهم كذلك كافة القوى المسيحية في الغرب[٤]، وقد ظل اثناسيوس بطريقاً لانطاكية رغم كل هذه الاحتجاجات حتى عام ١١٧٠ م عندما لقي حتفه من أثر الزلزال الذي دمر جانباً من المدينة ولم يعين بطريقاً أرثوذكياً خلفاً له[٥]. وكلمة أخيرة نسجلها في ختام هذا البحث الخاص بالتحالف الصليبي البيزنطي الأرميني وهي أن هذه المعركة كانت آخر معركة على أرض الشام تشترك فيها القوات البيزنطية في عهد نور الدين ، ورغم النهاية الفاشلة التي منيت بها إلا أنها توضح لنا جانباً من أثر النفوذ البيزنطي على مجريات الأحداث في عهد نور الدين .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٥ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٨ .

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 360

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٦ .

(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 371

حياة الملك الأشرف اسماعيل الغساني "١"
وجهوده الثقافية

دكتور شاكر محمود عبد المنعم
العراق

هو عماد الدين أبو العباس اسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الفتح بن هارون الغساني .

---

(١) وردت ترجمته في :

عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ٧ مجلدات ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٧ ، مجلد ٥ ق ٥ ص ١٠٩٦ - ١٠٩٧ علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢) ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٧١ وما بعدها . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها . الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ميكروفيلم المصورة عن نسخة الجامع الكبير بصنعاء ورقمه فيها (من الكتب المصادرة) ، الورقة : ١٩٨ وما بعدها . أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١) ، صبح الأعشى في كتابة الانشاء ١٤ جزء ، القاهرة (١٣٣١/١٩١٣ - ١٣٣٨/١٩١٩) ، ج ٥ ص ٣١ - ٣٢ . شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقريء (ت ٨٣٧) ، عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ١٤٢٧ ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ ، الورقة ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر المعروف بالديبع (ت ٩٤٤) ، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١١ م تاريخ الورقة ١٣ - ١٤ . قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٤٤ الورقة : ١٠٤ أ - ١١٠ . وانظر أيضا نسخة مكتبة المتحف العراقي رقم (١٧٥٠) ، الورقة ٢٩٢ - ٣٠٩ . عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥١ ، ج ٧ ص ٢٦ . يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٥) ، انباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، الورقة ٩٤ - ٩٩ . كما وردت ترجمته في مصادر أخرى لا مجال لذكرها .

لم تر معلومات دقيقة عن حياة الأشرف قبل أن يصبح ملكا . وكانت بداية حكمه من يوم الجمعة [1] الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهو ابن ست عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما [2] ، وهذه مدة صبا لا ينتظر منها أحداث حافلة ولا انجازات ناضجة في حياة الأفراد الاعتياديين . كما أن المؤرخين في الماضي ركزوا اهتمامهم في الأعم الأغلب ، في تدوين أخبار الملوك اعتباراً من بدء ولايتهم .

وأوضح ابن حجر [3] ان الأشرف كان في ابتداء أمـــره طائشا ثم توقر وأقبل على العالم والعلماء وأحب جمع الكتب وكان يكرم الغرباء ويبالغ في الاحسان اليهم .

أعماله : ان أكثر ما يهمنا من حياة الملك الأشرف تعليمه وشيوخـه والحياة الثقافية في عصره ، وما قام به من أعمال عمرانية تمت إلى الثقافـة بصلة كبناء المدارس والمساجد، وحتى لا يجيء هذا البحث مبتوراً شعرنا بضرورة التحدث عن أعماله الأخرى باقتضاب .

في المجال الحربي لم تذكر المصادر حرباً ذات بال خاض غمارهـــا الملك الأشرف . غير أن اليمن لم يكن موحداً في عصره بكامل أجزائه فكان قسم منه بيد الأئمة الزيديين الذين نشطوا منذ زمن الملك المظفر ثم تتابع نشاطهم في أيام

---

(١) انظر الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ . والتاريخ المذكور هو ذات التاريخ الذي توفي فيه والده الملك الأفضل . وقد وهم زامباور في اعتبار بـــداية ولاية الأشرف في رمضان سنة ٧٧٨ . انظر : معجم الأنساب ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ .

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ١ الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ واحال إلى ابن حجر والعيني . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ واحال إلى ابن حجر .

خلفائه من بعده ، فقاموا بعدة حركات الاستيلاء على مواضع نفوذ الرسوليين . ويلوح لنا من خلال البحث أن ما قاموا به من حركات في مدة حكم الأشرف كانت ضئيلة ومحدودة ، لم يجد صعوبة كبيرة في القضاء عليها . على أن نشاطهم ازداد في أواخر القرن الثامن الهجري وخصوصاً في جبال اليمن [1] .

وكان قسم آخر محدود من اليمن قد سيطر عليه المعازبة [2] وهـؤلاء على ما يبدو لم يكونوا منظمين ، كما أن حركاتهم كانت محدودة فقضى عليها بسهولـة .

وهناك نفر من المتمردين الذين يظهر تمردهم آنياً في اقطاعاتهـم فيعلنون انفصالهم ، ثم لا تلبث اقطاعاتهم بالعودة إلى تبعيتها لملك اليمن [3] .

أما في مجال العمران والبناء ، فانه بنى جامع المملاح [4] على باب زبيـد القبلي سنة ٧٩٠ ، ورتب فيه اماماً ومؤذنيين وأربعة فراشين ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن وخطيباً ومدرساً على مذهب الامام الشافعي ومعيداً ومـدرساً على مذهب الامام ابي حنيفة ومعيداً ومدرساً في الحديث ومقرئاً للقرآن في القراءات السبع ومدرساً في النحو والأدب ومدرساً في الفرائض والحساب ومع

---

(١) بازرير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٠٠

(٢) وكان موطنهم في أطراف وادي زبيد قريباً من القحمة، وكانوا يغيرون على أنحاء اليمن فينهبون ويسلبون ، انظر حركاتهم في العقود اللؤلؤية ، ج ٢ على سبيل المثال : ص ٢٤١ ،ص ٢٥١ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ ، ص ٢٧٣ ، ص ٢٩٩ .

(٣) كما فعل ابن ميكائيل على سبيل المثال حينما استولى على حرض وسردد من مدن اليمن لكنه توفي في السنة الثانية من ولاية الملك الاشرف ، انظر : ابن المقريء ، عنـوان الشرف ، الورقة : ١٢٣ ، ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب .

وانظر عن مثل هذه الانفصالات ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٠ ، ص ٢٨٦ .

(٤) المملاح : موضع خارج عدن أبعد من المكسر بينه وبين المكسر ربع فرسخ .أنظر: تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ص ١٩ - ٢٠ .

كل مدرس جماعة يتعلمون على يديه . ويقول الخزرجي « ثم أشار عليه بعض الجالسين باستمرار الامام والمؤذن والخطيب وان يبطل الباقون إلى ان بنى لهم مدرسة في زبيد ... » [١]

ثم أمر بانشاء مدرسة [٢] في تعز ، وأوقف عليها أوقافاً جيدة وأوصل اليها الماء ، وابتنى فيها حوضاً لمن يستقى الماء وبركة ، ثم رتب فيها اماماً ومؤذناً وقيماً ومدرساً للشريعة ومدرساً للحديث ومدرساً في النحو ومدرساً في الفرائض وفي كل فن عدة من الطلبة وقرر لهم النفقات التي تقوم بكفايتهم [٣] ... وابتنى بها المرافق الخاصة وأوقف فيها عدة من الكتب النفائس في كل فن [٤]. وعرفت بالمدرسة الاشرفية .

وانشأ الأشرف في سنة ٧٩٠ جامعاً في ناحية القوز من زبيد فاقيمت به الجمعة لأول مرة في السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة [٥] .

ولا يصعب على المرء وهو يتابع مسيرة الملك الأشرف أن يتبين اهتمامه بالمساجد والمدارس ، وتشير الدلائل التاريخيه إلى عنايته بعمارة المساجد والمدارس [٦] بزبيد بعد ان كان أكثرها دائراً لا رسم له . فأمر في سنه ٧٩٢ بعمارة واصلاح المدرسة المنصورية لتدريس الفقه الحنفي والحديث والسيفية

---

(١) الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤١٢ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢١ .

(٢) وقد أمر ببنائها في أيام فراغ الخزرجي من جمع كتابه طراز الزمن ، أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٨٥ .

(٣) طراز الزمن ، ج ٢ الورقة ٣٨٥ .

(٤) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٧ .

(٥) ن . م ، ج ٢ ص ١٩٩ .

(٦) جاء في طراز الزمن ، ج ٢ الورقة ٣٨٥ ما نصه « وفي أيامه عمرت جميع المساجد والمدارس في زبيد وما حولها من القرى المنسوبة والمضافة لها وكان ذلك في سنة ٧٩٢ » .

الصغرى والنظامية والعفيفية والميكائيلية ومسجد الاتابك سنقر ومسجد نجم ومسجد الطواشي فاخر ومسجد الطيرة ومسجد السلطان عباس الظفاري ومسجد أزدمر ومسجد السابلط ومسجد بن الهام ومسجد الخيزران ومسجد خيلخان ومدرسة التربية ومسجد الصياد بها ومسجد الرند ومسجد القرتب وسبيلة بالسبيل القاتني على باب سهام وسبيل المنظر وسبيل فشا ، كما أحدث السبيل الذي على باب الجامع بزبيد[1] . وكانت كلها داثرة في زمنه فعمرها .

أما المواضع التي كان معظمها خراباً والقليل منها قائم فأصلحها فهي : المدرسة المنصورية العليا والاشرفية والسابقية والسيفية الكبيرة والتاجية الفقهية ومسجد السابق النظامي ومسجد قنديل ومساجد وسبل أخرى لا مجال لذكرها[2] . وأحصيت المساجد والمدارس في زبيد في زمنه فبلغ عددها مائتين وبضعا وثلاثين موضعاً[3] . وهو عدد لا بأس به حينما نأخذ المدة الزمنية بنظر الاعتبار . وقام الاشرف ببناء القلاع واحدث البساتين واهتم بالزراعة اهتماماً كبيراً[4] .

تعليمه وشيوخه :

لا مجال للادعاء في أن المصادر ذكرت تفاصيل دقيقة عن بدء تعليم الملك

---

(١) انظر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب .

(٢) انظر حولها : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٤ ؛
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ .

(٣) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٤٤ ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٣٢ .

(٤) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٣ ، ص ٢٩٧ . بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب - ١٤ أ .

الأشرف . ولقد ذكرنا أنه أصبح ملكاً بعد والده ولما يبلغ السابعة عشرة من عمره . ولا جدال في أنه نشأ في بلاط ملكي ووسط ثقافي تحدثنا عنه فيما مضى . وجريا على عادة الملوك في تأديب وتعليم أبنائهم ، لا يستبعد انه تتلمذ في هذه المدة على يد شيوخ كفاة [١] ، ولا يستبعد أيضاً أنه قرأ القرآن ودرس الحديث وبعض الفقه والتاريخ والأدب، والراجح أنه تثقف ثقافة خاصة قيضتها له ظروفه الخاصة . ثم لم يلبث في ذلك طويلاً ليجد نفسه أمام واجبات كبيرة، من ادارة وحرب وتنظيم وسياسة وما إلى ذلك . وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه المسؤوليات قضت على طموح الأشرف الثقافي . غير أن هذا الأمر لم يحصل فيما ظهر لنا .

وقد يكون من الضروري أن نشير هنا إلى ثقافة أسلافه من بني رسول ، واهتمامهم بالعلم والعلماء . وظهر من بينهم مؤلفون [٢] وقفنا على أهم مؤلفاتهم. وان كلاً منهم كان مشتهراً بفن أو علم معين وملم [٣] بعلوم أخرى . وعلى العموم فلقد كانوا على معرفة تامة بثقافة عصرهم ، مهتمين ببناء المدارس . وكان والده الملك الأفضل مهتماً بفنون كثيرة لكنه برز في التاريخ والانساب وكانت مؤلفاته مثالاً يحتذى من قبل الأشرف اسماعيل ، بل اعتمد [٤] عليها في تدوين تاريخه الكبير المسمى بالعسجد المسبوك ...

اشتغل الأشرف اسماعيل بكثير من فنون العلم كالنحو والاعراب والآداب

---

(١) إن جده الثالث الملك المظفر اتخذ لولده الاشرف عمر الفقيه بن أسعد الحراري سنة ٦٧٨ معلما فأدبه وعلمه . انظر : العسجد المسبوك ، ج ١ ص ٥٦ .

(٢) انظر مثلا الملك الاشرف عمر : في العسجد المسبوك ، ج ١ ص ٥٦ - ٥٨ .

والملك الأفضل عباس : في ن . م ، ج ١ ص ٦٠ - ٦٢ .

(٣) انظر : ن . م ، ج ١ ص ٥٥ - ٦٤ .

(٤) انظر : ن . م ، ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

والتواريخ والانساب والحساب [1] . وكانت له معرفة بالانشاء والنظم وله أشعار حسنة [2] . ودرس الفقه [3] على الفقيه زين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي [4] وكان شيخ نحاة اليمن .

وسمع الحديث [5] على القاضي مجد الدين محمد [6] بن يعقوب الشيرازي الفيروزا باذي الذي كان متجولاً بين الشام ومصر والقدس واليمن والهند .

---

(١) الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٣) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٤ . طراز الزمن ، ج ٢ ، الورقة : ٤٠٦ . عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١١٦ - ١١٧ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ س ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٤) بفتح الشين المعجمة وسكون الراء بعده جيم . وهو نزيل زبيد وكان بارعاً في العربية مشاركاً في الفقه نظم مقدمة بن بابشاد في الف بيت وشرح ملحة الاعراب وله تصنيف في النجوم. توفي سنة ٨٠٢ . انظر : طاش كبرى زادة (ت ٩٦٨) ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٣ أجزاء تحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور ، القاهرة ، ١٩٦٨ ج ١ س ٢٢٤ .

(٥) أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ . الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٦) كان مجد الدين الفيروزا باذي صاحب القاموس امام عصره في اللغة ويرفع نسبه إلى الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن علي الشيرازي صاحب « التنبيه » المتوفى سنة ٤٧٦ . وعندما ولي القضاء في اليمن ادعى انه من ذرية أبي بكر الصديق ولقب نفسه بالصديقي . وكان قد اشتهر اسمه وهو شاب في الافاق وطلب الحديث وسمع من الشيوخ والكبار كابن الخباز وابن القيم والتقي السبكي وولده تاج الدين وابن نباتة وابن جماعة وآخرين غيرهم . أنظر : طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢٠ .

وعندما دخل زبيد تلقاه [١] الملك الاشرف اسماعيل بالقبول وقرره في قضائها وبالغ في اكرامه ووافق دخوله بها وفاة القاضي جمال الدين الريمي شارح «التنبيه». وصنف الفيروزا باذي كتاب الاصعاد وأهداه للملك الأشرف على اطباق فملأها له فضة [٢]. وكان فقهاء اليمن يجتمعون في منزله بزبيد ويسألونه أن يسمعهم صحيح البخاري فيجيبهم إلى ذلك [٣]. وكان في عصره شيخ الحديث والنحو واللغة والفقه والتاريخ ومشاركا فيما سوى ذلك مشاركة جيدة، وأظهر مترجموه اعجابهم بتفننه في العلوم وكفائته النادرة في عصره، وبلغت مصنفاته ما يزيد على بضع وأربعين مصنفاً [٤].

وفي سنة ٧٩٨ سمع الملك الأشرف عليه صحيح البخاري من حديث رسول الله (ص). وكان ذا سند عال من طرق شتى [٥].

ومن شيوخ الأشرف الفقيه موفق الدين علي [٦] بن عبد الله الشاوري

---

(١) أنظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، (ت ١٠٤١)، ازهار الرياض في أخبار عياض، ٣ أجزاء، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري، ١٣٦١ / ١٩٤٢، ج ٣ ص ٤٩.

(٢) أنظر: العقود اللؤلؤية، ج ٢ ص ٢٩٧. قرة العيون، نسخة مكتبة المتحف العراقي، الورقة: ٣٠٦. مفتاح السعادة، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١. أزهار الرياض، ج ٣ ص ٥٠.

(٣) العقود اللؤلؤية، ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) لا يتسع المجال لذكر مصنفات الفيروزا باذي ولا مناص من تسمية قسم منها: كالقاموس المحيط، واللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، وشوارق الأسرار، وتحبير الموشين وغير ذلك في الفقه والتفسير واللغة والتاريخ. أنظر: مفتاح السعادة، ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣.

(٥) العقود اللؤلؤية، ج ٢ ص ٢٨٦.

(٦) تفقه الشاوري بالفقيه اسحق بن أحمد بن زكريا وبالفقيه جمال الدين الريمي وتفقه به عدة من أهل زبيد وكان باذلاً نفسه للطلبة إلى أن كانت وفاته في يوم الأحد السابع والعشرين من ثمان وتسعين وسبعمائة. أنظر: الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ٢ ص ٢٨٣.

أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن. ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣.

الشافعي ، فأخذ عنه الفقه [1] وقرأ عليه شيئاً من « التنبيه » وكان الشاوري وقتئذ أحد من تدور عليه الفتيا في زبيد .

هؤلاء هم الذين ذكرتهم المصادر من شيوخ الأشرف اسماعيل تصريحاً ، غير اننا نعتقد أنهم أكثر من ذلك ، ومن خلال البحث تبين انه كان يتعلم ويستفيد من كافة الذين عينهم وزراء وقضاة ومستشارين ، وهم نخبة من القضاة والفقهاء والعلماء أمثال الفقيه العلامه جمال الدين محمد [2] بن عبد الله الريمي المتوفى سنة (٧٩٢) ، والقاضي علي [3] بن عمر بن أبي القاسم بن معيبد المتوفى سنة ٧٨٧ .

والقاضي وجيه الدين عبد [4] الرحمن بن محمد النظاري المتوفى سنة (٧٩٥) ،

---

(١) انظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ص ١٥٣ .

(٢) وكان فقيهاً عالماً محققاً مدققاً بارعاً في المذهب وهو الذي صنف شرح التنبيه في أربعة وعشرين مجلداً . وصحب المجاهد ثم ولده الأفضل ، ثم صحب الأشرف فولاه قضاء الأقضية في المملكة اليمنية باسرها . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٤ ، ص ٢١٨ بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب . مفتاح السعادة ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) وكان رجلا كاملا حازماً جواداً ذكياً فهيماً مشاركاً في كثير من العلم محباً للعلم والعلماء .

أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٧٠ . عنوان الشرف الوافي : الورقة : ١٣٤ .

(٤) وكان لبيباً عاقلا شهماً جواداً مشاركاً في فنون العلم .

استوزره الأشرف واستمر إلى سنة ٧٨٤ ثم حصلت منه زلة فخرج لأجل ذلك في البلاد إلى أن توفي سنة ٧٩٥ . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٤٨ . عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ١٣٤ .

والقاضي وجيه الدين عبد[1] الرحمن بن علي بن عباس المقري المتوفى سنة (٧٩٠)، والقاضي زكي الدين أبي بكر[2] بن يحيى بن أبي بكر بن أحمد بن موسى بن عجيل وغيرهم .

اهتمامه بالعلم والعلماء :

اهتم الاشرف اسماعيل بالعلماء[3] وقربهم منه وأدناهم وأكرمهم وشجع أعمالهم . وقد أورد مترجموه أمثلة رائعة في هذا السبيل . وأوجد الاشرف منافسة بين المصنفين باهتمامه البالغ بمصنفاتهم . وبما كان يقدمه لهم من جوائز . ومثل هذا التشجيع لا ينتظر إلا من شخص مدرك لقيمة العلم وفائدته .

وحدث ان صنف القاضي جمال الدين الريمي كتابه المسمى بالتفقيه في شرح التنبيه سنة ٧٨٨ ، وكان أربعة وعشرين مجلداً . ولما حمل هـذا الكتاب إلى الملك الأشرف حباه بثمانية وأربعين ألف درهم تعظيما للعلم ورفعا لدرجته « اذ هو بركة الدنيا والآخرة »[4] وقال ابن الديبع واجـازه السلطان عليه باثني عشر ألف دينار وحصلت بأطباق الفضة ملفوفة بأثواب الحرير والديباج[5].

---

(١) وهو فقيه له مشاركة في كثير من العلوم وكان نبيها عارفاً بارعـاً ذكياً حليماً عارفاً بالشرع والنحو والفرائض ويقول شعراً حسناً وولي كتابة الانشاء في الدولة الأفضلية ثم قضاء القضاة في الدولة الأشرفية . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٠٠ :وعنوان الشرف الوافي . الورقة : ١٣٤ .

(٢) وكان فقيهاً عالماً نبيهاً فطناً لوذعياً المعياً أديباً كامل الأوصاف مشاركاً في عدة من فنون العلم وليس له نظير ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣) أنظر :ابن المقرىء ، عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ١٤٤ .
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ .

(٤) أنظر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٨ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد ، الورقة : ٢٩٨ .

(٥) بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ - ١٤ .

ولقد سبقت الاشارة إلى كتاب « الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد » الذي يقع في أربعة أسفار ، وهو من مؤلفات القاضي مجد الدين الفيروزا باذي . وكان قد ألفه للملك الأشرف في سنة ٨٠٠ [١] فأعطاه جائزة سنية .

وفي مقدمة كتاب عنوان الشرف [٢] قال مؤلفه ابن المقرىء : أمر بتأليف هذا الكتاب وجمعه السلطان الملك الاشرف اسماعيل بن العباس [٣] ... وهو مشتمل مع الفقه على نحو وتاريخ وعروض وقوافي ، والواقع انه كتاب منقطع القرين فأنت تقرأ كلمة كلمة بشكل عمودي تجد التاريخ وتقرأ أفقياً مستمراً تجد أن المعلومات فقهية وتقرأ أول حرف فقط من كل سطر تجد علماً آخر وتقرأ كلمات متفرقة من كل سطر مدونة بحبر خاص تحمل على علم آخر دون أن تشعر بأن عبارات الكتاب نافرة . ومع ذلك فان قيمته تكون في براعة ترتيبه واحتوائه على علوم مختلفة ، أما معلوماته فليست شاذة في أهميتها عما كتبه الآخرون .

---

(١) أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٩٧ . قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، الورقة : ٣٠٦ . مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) واسمه الكامل « عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي » . رأيناه في مكتبة المتحف العراقي ببغداد . وقال عنه صاحب كشف الظنون « كتاب بديع الوصف وان سبب تأليفه أنه كان يطمع في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب القاموس بحيث أن المجد عمل للسلطان الأشرف كتاباً أول كل سطر منه (الف) - فاستعظمه السلطان فعمل الشرف ابن المقرىء كتابه هذا والتزم أن يخرج من أوله وآخره ووسطه علوم غير الفقه الذي وضع الكتاب له لكنه لم يتمه في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر فوقع عنده وعند سائر علماء عصره ببلده موقعاً عجيباً وهو مشتمل مع الفقه على نحو وتاريخ وعروض وقواف . أنظر : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مجلدان ، تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا ، طبع وكالة المعارف ، استانبول ، ١٣٦٠ / ١٩٤١ ، ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ . وقد طبع « عنوان الشرف » طبعة لا تخلو من أخطاء لانها لم تكن مصحوبة بتحقيق دقيق .

(٣) أنظر : عنوان الشرف ، الورقة : ٢ - ٥ . كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦

تلك أمثلة ذكرتها المصادر عن اهتمام الأشرف بالعلم والعلماء وتشجيعه لهم وخلق المنافسة بينهم، في وقت كانت الكفاءة مقياس مهم . ولعل من هذا الباب قيامه ببناء واصلاح المدارس والمساجد وتجهيزها بما تحتاج لتكون مثابة للطلاب ومؤلاً للعلم والتعلم. أما تشجيعه [1] للأدب والشعر فهو واضح فيما وردنا من أشعار قيلت فيه وفي زمنه .

مصنفاته :

أوضحت المصادر ان الأشرف اسماعيل كان مشتغلاً بفنون كثيرة كالنحو والاعراب والآداب والفقه والتواريخ والأنساب والحساب [2] . وهذا ما أجمع عليه مترجموه . وقال ابن حجر وأحب جمع الكتب [3] . غير أن الذي يبدو واضحاً انه اهتم بالتاريخ .

والذي لاحظناه أن المصادر تشير بأن له مؤلفات غير انها توقعنا بحيرة وتساؤل حينما لا تذكر أسماء هذه المؤلفات باستثناء كتابه العسجد المسبوك ، الذي تمت دراسته وتحقيقه قبل ست سنوات ، فقد ذكرته أغلب المصادر . قال الخزرجي « وله عدة تصانيف مشهورة منها كتاب العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك وله العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية وله مصنفات في النحو وفي الأدب ومصنفات في علم الفلك وغير ذلك » [4] .

---

(١) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٩٧ .

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ . ابن المقرىء ، عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٤ . وما بعدها . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٣٠٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ .

(٣) أنباء الغمر بابناء العمر ، نسخة مكتبة الأوقاف ببغداد ، الورقة : ١٩٩ .

(٤) أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ .

لكن من الثابت أن « العقود اللؤلؤية » المذكور هو من مؤلفات الخزرجي نفسه فلماذا نسبه للأشرف [1]؟فقد يقول قائل انه نسبه محاباة أو أنه كان ينتظر مكافأة من الأشرف .. وليكن ذلـــك على سبيل الافتراض . فلماذا لم ينسب الخزرجي اليه كتاباً آخر من مصنفاته غـير العقود اللؤلؤية مثلا ؟ . ان كتاب العقود اللؤلؤية هو قطعاً من مؤلفات الخزرجي كما يستشف ذلـك من أسلوبه ومادته والطريقة التي دون فيها كمـا انه ذكر فيه ترجمة الملك الأشرف كاملة وأعماله وأخباره ووفاته . ولذلك فلعله أراد القول أن الأشرف أوحى بفكرة الكتاب أو ساهم فيه أو أمر بتأليفه أو ان الخزرجي أراد أن يقدمه للأشرف على غرار كتاب « شرح التنبيه » و « الأصعاد » المذكورين آنفاً .

وهناك أمر لا بد من توضيحه ، وهو اننا وجدنا من ينسب كتاب العسجد المسبوك للخزرجي . على أن التشابه وان كان موجوداً بين عنوان [2] كتاب الأشرف اسماعيل وعنوان كتاب الخزرجي إلا انهما يختلفان في المنحى ، وفي المادة التاريخية الواردة في كل من الكتابين . وربما يكون الخزرجي قد نسب

---

(١) كما نسب السخاوي « العقود اللؤلؤية » للاشرف وذكره مع « العسجد المسبوك » الذي هو فعلا للاشرف وأغلب الظن أنه اعتمد في ذلك على الخزرجي . أنظر الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) لقد انتهينا بعد دراسة دقيقة إلى أن عنوان كتاب الأشرف اسماعيل هو العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك وان عنـــوان كتاب الخزرجي العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك . هذا ولما كان كتاب الخزرجي غير كامل وان الموجود منه فقط البابين الرابع والخامس اللذين يشابها في عنوانيهما أيضاً عنواني البابين الرابع والخامس (من القسم الثاني) في منهج كتاب الأشرف . نقول لعل الخزرجي أكمل كتاب الاشرف عندما وصل فيه إلى الباب الثالث من القسم الثاني من كتابه الكبير . وهذا مجرد حدس وتخمين . ولا سبيل لنا غيرهما في الوقت الحاضر .

وتجدر الاشارة إلى أن دراسة وتحقيق العسجد المسبوك قد أنجزتها قبل ست سنوات . وطبعنا الدراسة مع حوادث وأخبار وتراجم من سنة (٥٧٥ هـ - ٦٥٦ هـ) بجـزءين في دار التراث الاسلامي ببيروت سنة ١٩٧٥ .

كتابه العقود اللؤلؤية للاشرف في ذات الوقت الذي نسب فيه كتاب العسجد المسبوك المذكور اليه (للأشرف) حتى يقال أن كليهما من تصنيفه .

ولدى الكشف عن رصيد المكتبات المهمة لم نجد من المؤلفات مما ينسب للاشرف سوى كتاب العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك [1] .

طريقته في التأليف :

تختلف طرائق التأليف عند المؤرخين في التاريخ الاسلامي فلكل طريقته الخاصة ، فهناك من يعتمد النقل الحرفي أساساً في تصنيفه ، وهناك من يختصر كتب الذين سبقوه وهناك من يجمع مادة كتابه من مصدرين أو ثلاثة ، كما أن هناك من يجمع مادته من مصادر عديدة ، بينما ذهب قسم آخر إلى المقارنة بين معلومات المصادر المختلفة ونقدها وهناك من يذكر المادة المنقولة ثم يقوم بتذييلها . أما الملك الأشرف فانه « كان يضع وضعاً ويحد حداً ويأمر من يتمه على ذلك الوضع ثم تعرض عليه فما ارتضاه اثبته وما شذ عن مقصوده حذفه وما وجده ناقصاً أتمه » [2] .

ومهما يكن من أمر فان جمع المادة وترتيبها ونقدها والتعليق عليها وتحليلها أو تفسيرها كلها ضروب من التأليف في التاريخ، لكنها تتباين في أهميتها ومدى فائدتها تباين قدرات المؤلفين وقابلياتهم ومدركاتهم وتعليمهم وما إلى ذلك .

---

(١) وانفرد بروكلمان بذكر كتاب الملك الاشرف تحت عنوان : فاكهة الزمان ، أو مرآة الزمن في تخالف أخبار اليمن واحال إلى الخزرجي انظر : ملحق ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

Brockelmam , op . cit, II . P . 236 - 237

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٦ . ٤ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

ونحن اذ نكتفي هنا بهـذه الاشارة سنرجىء البحث في أسلوب الأشرف في التأليف إلى مقال آخر يتعلق بدراسة منهج الكتاب .

وكان جهاز حكومته الاداري يعتمد على عدد من القضاة والفقهاء الذين كانوا على جانب من الفطنة والذكاء كما ان أغلبهم كانوا من العلماء فأخـذ عنهم تارة واستمزج آرائهم تارة أخرى فاستوزر عدداً من الفقهاء وولى قسما منهم القضاء الأكبر [1] في أنحاء بلاد اليمن. وكان له قضاة آخرون ينتشرون في مدن اليمن . وان استيفاء البحث عنهم يخرجنا عن الهدف الأساسي الذي تدور حوله هذه الدراسة .

سيرته ومقومات شخصيته :

اتفق مؤرخوه على أن سيرته كانت مهدية محمودة ، وتمثل الرخاء باليمن في ايامه ، وكان مهيباً أديباً حليما وادعا كريما عطوفا رحيما واسع الحلم كثير العفو متحرجاً عن سفك الدماء الا بحق ، شديد البأس حسن السياسة كثير الابتسام محبوباً من قبل الرعية [2] . وقال ابن المقرىء ولم يزل قاصداً طريق الحق حسن الطريقة أميناً على الخليفة إلى أن توفي [3] . وكان يكرم الغرباء ويبالـغ في

---

(١) أنظـر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ و ص ١٧٧ و ص ٢١٦ .

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ - ٤٠٦ ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٦٨ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٨

الكفاية والاعلام ، الورقة : ٢٣٦

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، ٣٠٨ - ٣٠٩

أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) عنوان الشرف ، الورقة : ١٣٤ - ١٣٦ .

الاحسان اليهم [1] . واعتبره كل الذين ترجموه من أحسن ملوك اليمن سياسة وضبطاً للامور ، ومدحه جماعة من الشعراء بقصائد عديدة .

وفاتـــه :

في أواخر شهر المحرم من سنة ٨٠٣ حصل للملك الأشرف وعك شديد وقلق اليمنيون لأجله ، ثم من الله عليه بالصحة [2] . ثم عاوده المرض في يوم الخميس الثاني في ربيع الأول فأقام في مدينة حيس أياماً بسبب الألم الذي بجسده . ولا تحدد المصادر نوع مرضه . ثم سار إلى تعز فكان دخوله تعز ليلة الاربعاء الثامن من ربيع الأول فأقام في دار الوعد عشرة أيام مريضاً ثم توفي في ليلة السبت الثامن [3] عشر من الشهر المذكور سنة ٨٠٣ [4] . وتولى غسله بوصية منه القاضي موفق الدين علي بن أبي بكر الناشري وأعانه على ذلك الفقيه جمال الدين محمد بن صالح الدمتي وبعده الفقيه موفق الدين علي بن محمد بن فخر [5] .

---

(١) ابن حجر ، أنباء الغمر ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) الخزرجي ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٦٨ .

العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٦ .

(٣) قال الخزرجي وابن المقرىء . ان وفاته كانت في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣ . انظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٨٥ .

عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) أنظر : ابن حجر ، إنباء الغمر ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ .

الكبسي اللطائف السنية ، الورقة : ٢٠٩ .

وانفرد أبو مخرمة بجعل وفاته سنة ٨٠٤ .

انظر تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢١ .

(٥) الخزرجي ، العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك ، الورقة : ٣٦٨ .

الكفاية والاعلام ، الورقة : ٢٣٦ .

وكان تشييعه إلى تربته والصلاة عليه يوم السبت المذكور فيما بين صلاة الظهر والعصر ودفن في مدرسته الأشرفية التي انشأها في ناحية عدنية بتعز[1] واستمرت القراءة عليه سبعة أيام وصلّي عليه في سائر مدن اليمن وقرىء عليه في كل مدينة سبعة أيام . ورثاه جماعة من الشعراء .



(١) ابن المقرىء ، عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٤ . ابن الديبع . قرة العيون . نسخة المتحف العراقي . الورقة : ٣٠٨ .

يحيى بن الحسين . انباء أبناء الزمن : الورقة ٩٩ .

الكبسي . اللطائف السنية . الورقة : ٢٠٩ .

الاهتمام بمصادر التراث العربي

دكتورة سيدة اسماعيل كاشف
أستاذة التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ
كلية البنات / جامعة عين شمس

ما قيمة تراثنا العربي الآن ؟. سؤال يلح علي دائماً وأنا أحاضر بين طلابي عن حضارتنا العربية العظيمة ، تلك الحضارة التي فقدت أوربا علماً وادبان وفنـــاً وبعدها تقدمت الحضارة الغربية هذا التقدم الرائع الذي نلمسه الآن في كافـــة ميادين العلم والأدب والفن .

هل حضارتنا العربية الاسلامية أصبحت تراثاً فقط ؟ . أم أنها حضارة غير مقطعة ؟. هل سنكتفي بالقول بأننا كنا وكنا؟. أم أن دراسة أصول حضارتنا والرجوع اليها والافادة منها يساعد على نهضة عربية معاصرة عظيمة ؟..

لقد اهتم المستشرقون في أوربا بتراثنـــا وحضارتنا العربية الاسلامية اهتماماً كبيراً فأقبلوا على دراستها وعلى دراسة فضل الحضارة العربيـــة الاسلامية على الحضارة الغربية ومنذ بزوغ النهضة الأوربية قامت المعاهد والمدارس في أوربا للتخصص في اللغات الشرقية والدراسات الشرقية . وعني المستشرقون بالبحث عن المخطوطات العربيـــة والاسلامية وبنشرها ودراستها . ولم ينته اهتمام الغرب بحضارتناعند هذ الحد إذ قامت منذ أوائل القرن التاسع عشر في أوربا الجمعيات السيوية والجمعيات التاريخية . ونشر الأساتذة أعضاء هذه الجمعيات كثيراً من البحوث القيمة والمخطوطات الاسلامية . ثم قامت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر سلسلة من المؤتمرات الدوليـة أقومها للتثبت عن أبحاث ومؤلفـات

قيمة للعلوم الشرقية على اختلاف أنواعها ، كما ظهرت دائرة المعارف الاسلامية باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية .

وسرعان ما انتقل الاهتمام بحضارة الشرق تراث الاسلام إلى جامعات أمريكا ومعاهدها وبيئاتها الثقافية .

واهتمت أمريكا اهتماماً خاصاً بدراسة الثقافة الحديثة للعالم الاسلامي ، ومعرفة أثر التراث الاسلامي القديم في حياة الأمم العربية الاسلامية المعاصرة ، وكيف توفق تلك الأمم بين العقيدة الاسلامية وحضارة الاسلام وتراثه ، وبين الحياة العلمية المدنية الحاضرة ، ثم مدى تأثير حضارة الغرب الآن على الأمم الاسلامية .

ولا ننكر اننا - نحن العلماء والمؤرخين - في الشرق أخذنا من المستشرقين والعلماء الغربيين المنهج العلمي لكتابة التاريخ ، وأفدنا فائدة عظيمة من دراسات المستشرقين للحضارة الاسلامية وأثر تلك الحضارة على حضارة الغرب ، وافدنا من المجهودات العلمية المتنوعة لاعلام المستشرقين والعلماء الغربيين على كل شيء .

وبقي علينا - نحن العرب - أن نقدم لوطننا العربي أصول تراثنا الاسلامي وحضارته وأن نقدم الدراسات العلمية التي تقوم على أساس هذه المصادر والأصول ، وأن ندرس ما تستطيع تلك الحضارة أن تؤديه لحياتنا المعاصرة في كافة نواحي العلوم والحياة حتى يمكن لوطننا العربي الوقوف والصمود والتحرر والنهضة .

ومما لا شك فيه أن العلماء والمفكرين المعاصرين في وطننا العربي الكبير قد يعتقدون فيما بينهم اختلافاً بسيطاً أو عميقاً وذلك بقدر التفاوت في تفهمنا لأصول حضارتنا وتفهمنا لأصول الاسلام وأهدافه وتشريعاته ، وصلة الدين بالحياة وبالحضارة المعاصرة .

ولنذكر أن العرب حين خرجوا من شبه جزيرتهم في ظل الاسلام ، وحين سيطروا على معظم العالم المتمدن في الشرق القديم ، لم يحملوا معهم غير دينهم ولغتهم وأدبهم وسموهم الخلقي والروحي ، لكنهم سرعان ما أقاموا حضارة

عربية اسلامية تميزت عن الحضارات السابقة ، والحضارات اللاحقة . ولنذكر أيضاً أن العرب أخذوا عن حضارات الأمم السابقة ، كما ترجموا الكثير من كتب العلم والفلسفة القديمة ، لكن سرعان ما بنوا هم بناءهم الشامخ ولم تكن حضارتهم اقتباساً ونقلاً وترجمة كما يذهب إلى القول بذلك بعض المستشرقين جهلاً أو - تعصباً .

كذلك أثبت العرب ان اللغة العربية - لغة القرآن - لغة حية علمية عالمية فألفوا بها وكتبوا بها في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب والفلسفة . واستوعبت اللغة العربية الحضارة العربية الاسلامية العظيمة ، وأثبتت قدرتها على التعبير العلمي فاشتقت ألفاظاً من اللغات الأخرى ، كما انها اكسبت ألفاظها معاني جديدة .

وترك لنا العرب تراثاً هائلاً وفيراً في كل أنواع العلوم والفنون والآداب باللغة العربية .

والحقيقة التاريخية التي لا تغيب عن أذهاننا منذ أقدم العصور ان جميع الأمم المتحضرة المتمدنة لم ترتجل حضارتها بدون أساس ، ولم تستأنف مدنيتها استئنافاً مطلقاً فالعقل الانساني قابل للتطور والانتقال من حال إلى حال وهذا شأن أمتنا العربية .

فحضارتنا القديمة لم تبدأ من الصفر ولم تقم بطريقة ارتجالية ، فحين اتصل العرب بالأمم الأجنبية بعد الفتح وصلوا بين القديم والجديد، رربطوا بين أسباب الماضي والحاضر - وطبيعة التطور الحضاري للبشرية تحتم افادة الخلف من جهود السلف - ثم كونوا حضارتهم العربية الاسلامية التي غذت دول الشرق والغرب .

والمعروف ان العرب اتصلوا قبل الاسلام بغيرهم من الأمم اتصال تجاري وسياسي ، ولكن الاسلام دفع العرب دفعاً قوياً إلى التفوق وإلى الحضارة الزاهرة ، بل ان الاسلام نفسه كان الطريق الوحيد لنشر التراث اليوناني والحضارات القديمة بين الشرق والغرب .

وحين غلبت الدولة العربية على أمرها، وحصرت الحضارة العربية في بعض المدارس والمساجد ، انقطع انتاج العقل العربي ووقف نموه . ولهـذا إذا أردنا الاستمرار لحضارتنا العربية الاسلامية ،وجب علينا الاهتمام باحياء تراثنا القديم العربي الاسلامي بالاضافة إلى الأخذ بأسباب المدنية المعاصرة كما فعل أسلافنا العرب تجاه التراث القديم وحضارات البلاد المفتوحة .

ولن تكتمل نهضتنا العربية إلا بعـد أن تصبح اللغة العربية لغـة العلم ولغة التدريس في جميع جامعاتنا ومعاهدنا . ان تاريخنا القريب يشهد بأن الغربيين حين اتجهوا نحو الحضارة الغربية ، اخذوا المئات من المصطلحات والألفاظ العربية وأضافوها إلى لغاتهم الأوربية بل ان اللغة العربية ابان نهضة أوربا كانت لغة العلم والثقافة فيها .

وفي عصرنا الحاضر يقبل علماء أوربا وأمريكا على دراسة حضارتنا العربية الاسلامية وأصول تراثنـا بحرص كبير واهتمام عظيم لا يدركه إلا من يزور المعاهد العلمية في أوربا وأمريكا ويرى اهتمام العلماء بدراسة اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي فضلاً عن بحوثهم ومؤلفاتهم واهتماماتهم في هذا الميدان .

والحق أن الغربيين لا يعتبرون تراثنا ارثاً خلفه الاسلام ، بل يعتبرونه معيناً ومنهلاً .

وقد آن الأوان لنا ــ بعد أن أطلنا النوم ــ أن نستيقظ يقظة الأصحاء الأقوياء القادرين على بعث نهضتهم ووحدتهم العربية . لقد حان الوقت لنتعاون جميعاً في ميادين العلوم والفنون والفلسفة والآداب دون أن نفقد قومياتنا وشخصياتنا الوطنية وحرياتنا ، ودون أن نتخلف عن المسير في ركب المدنية والحضارة .

وقد اخترت لبحثي جانباً من جوانب احياء نهضتنا العربية وهو الاهتمام بمصادر التراث العربي .

المعروف ان مصادر التراث العربي الاسلامي كثيرة ووفيرة ومتنوعة ،وقد

ذكرت انه بالرغم من عناية المستشرقين وعلماء الغرب بهـــذه الأصول والمصادر واهتمامهم بها إلا ان هــذه الأصول والمصادر ما زالت تحتـــاج إلى العديد من الدراسات ، ومــا زال الكثير من مصادر تراثنا العربي يحتاج إلى من يلقي عليه الضوء . وحري بنا – نحن العرب – ان ننظر إلى الأمر بمزيد من الجدية حتى نساهم في نهضتنا العربية الحديثة سواء بنشر هذا التراث أو بالدراسات العلمية القائمة على هذا التراث .

ولن يتأتى لنـــا ذلك بالمجهودات العلمية المتكافئة من المؤرخين وغيرهم من العلماء في سائر العلوم والفنون والآداب .

أما من ناحيـــة الدراسات التاريخية فيجب أن تكون جامعاتنا العربيـــة والاسلامية أكبر الجامعات التي تعني بدراسة حضارة المسلمين وتاريخهم كما يجب أن تقوى الصلات وتزداد بين الجامعات العربية ، والهيئات العلمية ، والجمعيات التاريخيـــة ، ودور الكتب والوثائق القومية ، والأساتذة الذين يشرفون على الوسائل والبحوث العلميـــة المختلفة في وطننا العربي وذلك لاحياء تراثنـــا الغني الوفير .

وهنـــا أحب أن أشير إلى أن بعض الدارسين للتاريخ العربي الاسلامي لا يفطنوا إلى أهمية تاريخ الحضارة في بحوثهم والواقع ان التاريخ السياسي وتاريخ الحضارة لازمان معاً لفهم ماضي العرب وتراثهم كما هو لازم لفهم ماضي أي أمة فهماً صحيحاً يبرز دراسة الماضي للاستعانة به في فهم الحاضر واعداد العدة للمستقبل ، هذا بالاضافة إلى حاجتنا الشديدة لاحياء تراثنـــا وتطوره حتى يلائم عصرنا الحاضر ، ومما يجدر ذكره ان دراسة المجتمع الاسلامي ونظمـــه الاقتصادية والاجتماعية ونواحي تقدمه في العلوم والآداب والفنـــون لم تكون مجهولة عند المؤلفين المسلمين في العصور الوسطى ، فإننا نجد قسطاً كبيراً منهـا ولكننا لا نظفر بها مجموعة أو مركزة عند طائفة معينة منهم ، إذ اننا نعثر عليها في كتب التاريخ والأدب والطبقـات والفقه وكتب الخطط والرحلات وتقويم البلدان. ولهذا لا بد للمشتغلين بتاريخ العرب وتراث المسلمين أن يعنوابمختلف أنواع الكتب العربية القديمة الـتي تكمل كتب التاريخ وهي كتب الخطط ،

وكتب التراجم وكتب الطبقات، وكتب الجغرافية أو تقويم البلدان، ومن الكتب التي يجب أن يهتم بها الباحثون كتب الرحلات. والمعروف أن المسلمين نشطوا في العصور الوسطى في ميدان الرحلات والاستكشافات الجغرافية. وكان من البواعث التي دفعت المسلمين إلى القيام برحلات طويلة روابط الدين واللغه والثقافة التي كانت تجمع بين المسلمين في أطراف دولتهم الكبرى، فضلاً عن الرحلة في طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج، واتساع نطاق التجارة وانتشار قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد.

وكتب المؤلفون العرب كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين الثالث الهجري والتاسع الهجري (التاسع الميلادي والخامس عشر بعد الميلاد) ولكنهم لم يكتبوا رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها الا نادرا، أما معظمهم فقد ادمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو الجغرافية.

وليس من شك في اننا نستطيع أن نستنبط الكثير من الحقائق التاريخية من هذه الكتب. ومن كتب الرحلات الهامة رحلة سليمان التاجر العربي في الهند والصين، والرحلات التي طبعها وترجمها إلى الفرنسية المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى.

ومن الرحلات الهامة أيضاً رحلة ابن فضلان الذي انفذه الخليفة العباسي المقتدر بالله في سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) إلى البلغار باقليم الفولجا وذلك بعد أن اسلم ملكهم وكتب إلى الخليفة رسالة (ان يبعث اليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له).

والمعروف ان شعب البلغار أسس في بداية العصور الوسطى دولتين أقدمهما التي زارها ابن فضلان وانتشر فيها الاسلام في حوض الفولجا الأوسط (أو نهراتل كما تسميه المصادر العربية) والأخرى في حوض الطونه أو الدانوب.

ونشرت رحلة ابن فضلان لأول مرة بعناية المستشرق الألماني فريهن

Fraehn في سنت بطرسبورج (ليننجراد) في روسيا ١٨٢٣ م بعنوان (رسالة ابن فضلان في الروس) .

وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمة المانية وأضاف اليها المستشرق فريهن ما وجده في كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة .

وأفاد من هذه الرسالة المستشرق الروسي بارتولد في المقال الذي كتبه عن البلغار في دائرة المعارف الاسلامية .

ومن الرحلات المشهورة رحلة ناصر خسرو الفارسي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) الذي قام برحلات طويلة في الشرق الأدنى.

ومن الرحالة المشهورين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ابن جبير الأندلس الذي قام بثلاث رحلات من المغرب إلى المشرق زار خلالها مصر والعراق والحجاز وبلدان المشرق والمغرب وصقلية وجزائر البليار وسردانية ومن الرحلات المشهورة كتاب « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وهو وصف رحلة قام بها إلى مصر طبيب عراقي اسمه عبد اللطيف البغدادي وكتب فيها عن وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري (أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) . وامتاز وصف رحلته بالدقة والتعرف لمختلف الشئون العمرانية والاجتماعية . وقد سجل البغدادي رأياً في الآثار يدل على ان قيمة الآثار لم تكن غريبة على المسلمين في العصور الوسطى فقال « وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار ، وتمنع من العبث فيها والعبث بها ، وان كانوا أعداء لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح: منها لتبقى تاريخاً يتنبه به على الاحقاب ، ومنها انها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك ، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه » .

ومن أعظم الرحالة المسلمين ابن بطوطة وهو من أكثر الرحالة طوافاً في الآفاق وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للاخبار وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها . وبدأ ابن بطوطة رحلته من وطنه في

طنجة في القرن الثامن الهجري ٧٢٥ هـ / الرابع عشر الميلادي ١٣٢٥ م ، وبعد رحلة استمرت أكثر من ربع قرن اختار ابن بطوطة الاستقرار في ديار مولاه السلطان ابن عنان المريني في فاس .

وإذا كنا نتحدث عن ضرورة الاستفادة من كتب الرحلات فإنه ينبغي الا يغيب عن اذهاننا ما يمكن أن نفيده من رحلات الأوربيين في العالم العربي الاسلامي مثل ماركو بولو ، ونيبهر Niebuhr ، وفون ملتزان Von Maltzan وبوكوك Pococke ، وبترمان Petermann ، والفاريز Alvarez ، وباومجارتن Baumgaten ،ودوش Doutte ، وسنوك هرجرونيه Snouck Hurgrnoje ، وتافرنييه Tavernier ، وتيفنو Thevenot ، وتورنفرت Tournefort ، وغيرهم .

ومن المصادر التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار القصص الشعبية وكتب الأدب .

أما القصص الشعبية فلا يمكن أن نتجاهلها كمصدر من مصادر تراثنا ولكن استنباط الحقائق التاريخية منها يجب أن يكون بحذر كبير وذلك لأنها اعتمدت في البداية على الرواية الشفوية فحسب ولم تسجل إلا في عصور متأخرة، فضلاً عن ان هدف هذه القصص كان المفاخرة وتسلية السامعين وكسب اعجابهم بمواقف الأبطال وسائر المواقف المثيرة في القصص .

أما الكتب الأدبية القديمة فهي معين لا ينضب للحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى ولا سيما من نواحي الذوق والعادات والمقاييس الخلقية والمثل العليا ومستوى المعيشة والاعياد وأساليب التسلية وأحوال المدن وغير ذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية فضلاعن اننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسي وتراثنا العربي غني بالكتب والموسوعات الأدبية المطبوعة والمخطوطة .

ومن تراثنا العربي الذي يجب أن نهتم به اهتماماً كبيراً كتب الفقه . والفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس

والاجماع. والحق انه لا بد لنا من فهم الاسلام كما فهم في العصر الذهبي للمسلمين، ولا بد للمجتمع العربي الاسلامي المعاصر أن يستند الآن على الدراسات العلمية الجادة في شتى نواحي الحياة بعد أن وصل العالم المعاصر إلى ما وصل اليه من التطور .

والانتفاع بمزايا العلم ليس معناه أن نضحي بالقيم الروحية والدينية ، وهذا الأمر ليس جديداً على العرب أو الاسلام فقد بدأ ذلك حين واجه الاسلام علم الاغريق وفلسفتهم وعلوم وحضارات الأمم التي سيطروا عليها أو اتصلوا بها .

وكان الفقهاء يتجهون في بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب ، وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالاشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية وإلى الاخلاق والعادات وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب .

والواقع ان ما كتبه الفقهاء من هذه البدع وما نقرأه في مؤلفاتهم من الفتاوى في القضايا والحالات المعينة التي يطلب اليهم الفتيا فيها من قبل أولي الأمر والأمراء ، يعتبر مصدراً ثميناً للمعلومات عن الأحوال التي كان المسلمون يعيشون فيها والمشكلات التي كانت تطرأ في حياتهم والعادات التي كانت تنتشر بينهم .

ومع ان كتب الفقه تعتبر من المصادر الرئيسية للمؤرخ العربي فضلا عن أنه لا بد من الاهتمام بها في عالمنا العربي المعاصر، إلا أنه ينبغي على المؤرخ أن يكون حذراً فيما يستنبطه من كتب الفقه ، فإن ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظرياً وبعيداً عن الواقع كما ان الدراسات الفقهية لبعض النظم ليست شاملة جامعة .

ومن مصادر التراث العربي التي لا غنى عن دراستها دراسة علمية كتب الحسبة والحق ان الدراسة العلمية للحسبة في الاسلام تعكس احدى الصور المشرقة لحضارتنا العربية فهي تبين مدى اهتمام أولي الأمر بالاشراف على جميع أنشطة الناس في حياتهم الدينية والاجتماعية والصحية والاقتصادية .

ومن مصادر تراثنا التي لا بد لنا أن نعطيه حقه من الاهتمام ، علم الآثار الاسلامية العربية .

ولا بد لمؤرخ التاريخ الاسلامي أن يكون له إلمام بالآثار الاسلامية ، أو يحسن – على الأقل – استخدام النتائج العلمية التي وصل اليها علماء الآثار الاسلامية وحسبنا أن نذكر ان اعلام المؤرخين للتاريخ الاسلامي من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر كانوا من علماء الآثار الاسلامية مثل مرجليوث ، وتوماس ارنولد ، ولين بول ، ولوسترنج من الانجليز ، ومبكر ، وكالة من الألمان ، وبلوشيه ، وسوفاجيه وفت ، وجورج ماسيه ، وليفي بروفنسال من الفرنسيين .

ولا شك ان ربط الآثار مع كتابات القدماء تساعد في تأييد أقوال المؤرخين أو اثبات أخطائهم ،فضلا عن أن الأدلة المادية قد تكشف لنا في كثير من الأحيان عن حقائق لا تعرض لها كتب الأدب والتاريخ .

أما الدراسات المختلفة التي تؤلف علم الآثار الاسلامية والتي يجب أن نستخدمها لدراسة تاريخنا العربي والافادة من هذه الدراسة فهي :

١ – دراسة الوثائق والأوراق البردية .

٢ – دراسة الكتابات التاريخية الأثرية على العمائر والتحف وشواهد القبور .

٣ – دراسة السكة أو النميات .

٤ – دراسة العمارة والفنون الاسلامية .

والحق أن المستشرقين يعنون عناية وافرة بدراسة هذه الأدلة المادية ، أو بجمعها وتنظيمها والتعليق عليها ، وذلك لما لها من شأن خطير وفائدة جليلة في دراسة الحضارة والمدنية الاسلامية وتطور الحياة العقلية والسياسية والأدبية للامم العربية الاسلامية .

ونلاحظ أن معظم الوثائق الورقية التي حفظت في ديار الاسلام قبل العصر التركي هي وثائق الوقف ، ومعظم هذه الوثائق محفوظ بين وثائق المحاكم والحكومات أو وزارات الأوقاف أو البطركيات أو دور الكتب والوثائق القومية .

أما العقود التي كان يحررها الواقفون والتي وصل الينا منها عدد كبير جدا فهي تضم وصف العقار وأهداف الواقف وأموراً كثيرة نستنبط منها معلومات كثيرة عن المجتمع وعن حياة الناس اليومية ومعاملاتهم وعن المصطلحات المعمارية والقانونية والادارية وعن تربية الايتام والنشء وعن البيمارستانات وعن علم الطب والأطباء وعن العناية بالكتب والمكتبات الخ ...

وقد ذاع نظام الوقف في العصور الوسطى وأقبل الناس عليه إما بدافع من التقوى للقيام بالمشروعات الخيرية كبناء المساجد والمدارس والبيمارستانات والسقايات والمكتبات العلمية الكبيرة ، وضمان الانفاق على صيانتها بعد وفاة المؤسس ، واما للحيلولة دون تجزئة الثروة بسبب الارث إذ يصبح العقار سليما يمكن استغلاله باشراف ناظر الوقف ويوزع الدخل على ذرية الواقف .

ونلاحظ أن بعض المؤرخين والكتاب المسلمين في العصور الوسطى نقلوا صور وثائق حكومية في مؤلفاتهم . ومع أننا قد نفيد من هذه الصور في استنباط كثير من البيانات (أنظر حميد الله الحيدر بادي : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ــ القاهرة ــ ١٩٤١ م ، وجمال الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨ م) ، الا ان مثل هذه الفائدة محدودة لسببين رئيسيين :

الأول : اننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الصور فقد تكون منقولة عن كتب أقدم وليست عن الوثائق الأصلية نفسها ، وقد تكون موضوعة أومنتحلة لتأييد وجهة نظر خاصة ، فضلا عن أن نقلها على يد الكتاب من جيل إلى جيل قد يكون سبباً لادخال كثير من التحريف والتصحيف والحذف والاضافة وما إليها .

أما السبب الثاني فهو أن هذه الصور المنقولة عن الوثائق الأصلية قليلة التنوع فلا تكاد تتجاوز بعض المراسلات والخطب والمحادثات . وعلى رأس المؤلفون العرب الذين نجد في مؤلفاتهم عدداً كبيراً من مثل هذه الوثائق المنقولة القلقشندي في كتابه صبح الاعشى في صناعة الانشا .

أما الأوراق البردية فان كثيرين من مؤرخي التاريــخ العربي الاسلامي لا يهتمون بدراستها فضلا عن أن كثيرين لا يعرفون أي شيء من علم قراءة الأوراق البردية .

ويعتبر المستشرق النمسوي الاستاذ آدولف جرومان A . Grohmann الحجة في دراسة الأوراق البردية إذ وقف جزءاً كبيراً من جهوده العلمية على درس أوراق البردي ونشر أبحاثا وكتبا كثيرة عنها .

وأصدر له دار الكتب المصرية في القاهرة مؤلفاً في سته أجزاء ترجــم الاستاذ المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن جزءاً منه والباقي ترجه الدكتور عبد العزيز الدالي .

كذلك كتب كارابتشك Karabacek وجرومان عن أوراق البردي المحفوظة في مجموعة الارشيدون رينر Rainer بالمكتبة الأهلية في فيينا .

وكتب مارجليوث سفراً ضخماً عما في مكتبه جـــون رايلاندز (بمدينة مانشستر) في انجلترا . وكتب المستشرق الألماني بيكر Becker عن أوراق البردية في مجموعة شوت راينهارد Schott - Reihhardt وكتب أيضاً عن مجموعه افروديت (افروديتوا وافروديت هو الاسم اليوناني لقرية كوم اشقاو في صعيد مصر والتي كانت تعرف في العصر الاسلامي باسم اشقوه) في المتحف البريطاني التي كتب عنها أيضاً بل H . J . Bell وكروم W. E. Crum كذلك نشر كثير مـــن الأوراق البردية على يد هوفمير Hofmeier ودي ساسي De Sacy وماسبيرو Maspero وابوت N . Abbot ويمكن للمؤرخ أن يعرف مثل هــذه البحوث والمقالات وذلـــك بالبحث والاستقصاء في فهارس دور الكتب .

والواقع ان الأوراق البردية لها شأن كبير في دراسة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العربي الزاهر ، اذ أن من بينها نصوصاً تتعلق بالجزية والخراج ، واسناد المناصب ، وأنظمة الادارة ، وطرق التجارة وبنــاء العمائر والمساجد ، وانشاء الاساطيل ، وثمان البضائــع والبيوت والاراضي

الزراعية ، فضلاً عن عقود الزواج ، والبيع والشراء ، وما إلى ذلك من المكاتبات .

والحق ان هذه الأوراق فضلاً عن قيمتها التاريخية بوصفها من المراجع الأصلية فهي تمتاز بأنها معاصرة للحوادث التي تسجلها ومحايدة ، كما انها تصلح بعض النقص الذي يسببه تحيز بعض المؤرخين المسلمين لتاريخ الأسرة التي كتبوا في ظلها ، أو تعصبهم لمذهبها ، كما انها تسد فراغاً كبيراً في بيان النظم الادارية والمالية وأحوال المجتمع .

كذلك يجب أن يهتم مؤرخو التاريخ العربي بالنقوش الكتابية التاريخية الأثرية ، فهي كتابات محايدة في معظم الأحيان ومعاصرة للاحداث التي تسجلها ، ولم تتغير من ناقل إلى ناقل أو من راو إلى راو . وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجد وفي التحف الاثرية وعلى شواهد القبور وفي الأضرحة والتكايا والمنازل وسائر العمائر وعلى المنسوجات . وقد وصل الينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة . والمعروف أن العرب أقبلوا على الكتابة إلى حد كبير كالفراعنة القدماء وذلك لأنهم اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية . ومن باب الحق أن نقول ان الكتابات الأثرية الاسلامية لا تضاهي في قيمتها التاريخية الكتابات الأثرية الفرعونية والسبئية واليونانية واللاتينية وذلك لأن الكتابات في التاريخ القديم لها شأن عظيم بالنسبة إلى قلة المصادر المدونة .

أما الكتابات الأثرية الاسلامية فإنها ليست إلا مصدراً تقف إلى جنبه مئات الكتب التاريخية والأدبية وغيرها مما سبق أن أشرنا اليه والتي تعتبر من المصادر الأساسية في دراسة تاريخنا العربي .

ونلاحظ كذلك أن الكتابات التاريخية العربية ينقصها التنوع ، ويكثر فيها التكرار ، ويغلب عليها كتابة آيات القرآن الكريم والترحم على الموتى أو كتابة الأدعية المختلفة لصاحب التحفة ، أو لمشيدي المساجد والمدارس والسبل والعمائر أو الاشادة بذكر الخليفة أو السلطان أو الأمير مع بيان ألقابه . هذا بالاضافة إلى أن ما وصل الينا من الكتابات التاريخية الاسلامية العربية في

(٩)

بعض أقاليم الدولة العربية نادر بحيث لا يستطيع هذا المصدر أن يفيدنا كثيراً في دراسة تلك الأقاليم . وبرغم كل ما ذكرناه عن الكتابات التاريخية الاثرية فإن ذلك لا ينقص القيمة التاريخية لها بوصفها مصدراً من المصادر الاصلية في دراسة التاريخ العربي . وتمتاز الكتابات التاريخية بأن تواريخها صحيحة ، كما يقل التحريف والتصحيف في الاسماء المختلفة فضلاً عن أنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين وتلقي ضوءاً في بعض الاحيان على الادارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والاقتصادية . كذلك تحدد هذه الكتابات تاريخ التحف والعمائر فتسدي أجل خدمة لتاريخ الفن ولعلم الآثار بوجه عام .

والطريقة المثلى في الافادة من النقوش الكتابية الاثرية هي الموازنة بين نصوصها وبين الحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية ، واظهار ما يمكن استنباطه منها مؤيداً للحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية أو مخالفاً لها . وعلى رأس من قاموا بمثل هذه الدراسات الفنية المستشرق السويسري ماكس فان برشم Max Van Berchem الذي يعتبر بحق رائد المشتغلين بعلم الكتابات الاثرية الاسلامية .

ويعتبر جامع الكتابات الاثرية العربية Corpus Inscriptionum Arabicarum للمستشرق فان برشم وبعض زملائه وتلاميذه والسجل التاريخي للكتابات العربية Repertoire Chronologique D'Epigraphie Arabe للمستشرقين فييت G. Wiet وكومب Et. Combe وسوفاجيه J. Sauvaget وبعض المشتغلين بالآثار الاسلامية والتاريخ الاسلامي ، من المصادر الخطيرة الشأن بما تشتمل عليه من كتابات تاريخية تكشف عن كثير في حياة بناة العمائر وأصحاب التحف ، وفي تطور الانظمة والعادات ، والاحداث السياسية والعلاقات التجارية وغير ذلك ،فضلا عن أنها تكشف عن أسماء بعض المهندسين والصناع والفنيين .

ومن المصادر المادية الهامة التي تكشف عن تراثنا العربي علم النميات أو النقود أو السكة .

وكان ضرب النقود في ديار الاسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية

من خليفـة أو سلطان أو أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام . ودراسة السكة من الدراسات التي يفيد منهاتاريخنا العربي أكبر فائدة ولا سيما التاريخ السياسي . وتشتمل الكتابات المنقوشة على السكة على ألقاب الامراء والحكام وتاريخ الضرب وبعض عبارات خاصة بمذهبهم الديني . فهي بذلك سجـــل للالقاب والاسماء ، كما انها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ومدى هذا الاستقلال . وعلاوة على هذا كله فإن السكة الاسلامية تخلد اسماء مـــدن كانت تضم دوراً لضرب – النقود ممـــا يشهد بما كان لهـــذه المدن من شأن إداري كبير .

كذلك يشير العثور على كميات من السكة الاسلامية في كثير من الاحيان إلى الآفاق البعيدة التي امتدت اليها التجارة الاسلامية ، كما يشير في الوقت نفسه إلى أنواع السكة التي كان الاقبال عليها عظيماً . وحسبنا ذلك العدد الوفير من السكة الاسلامية التي عثر عليها الباحثون والمنقبون في شبه جزيرة اسكندناوه وسيبول روسيا وبلاد الصين وأواسط أفريقية وبعض جزر المحيطات الهندي والهادي والاطلسي وغيرها من أصقاع العالم لنستنتج مدى عظم نشاط العرب في التجارة والرحلات .

والحق أن العرب ابان حضارتهم الزاهرة في العصور الوسطى نشطوا في الرحلة وطلب العلم والتجارة في مختلف البلدان الاسلامية وفي غيرها من البلدان والاصقاع التي لم يسمع الاوربيين بوجودها في العصور الوسطى أو شكوا في وجودها .

وجدير بالذكر أن دراسة السكة الاسلامية ترتبط ببعض المسائل الشرعية مثل الزكاة والدية والصداق . والمعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقر العملة الذهبية والفضيـة الموجودة في عهده . ويتضح لنا من دراسة النصوص القديمة أن سعر الدينـار أو المثقال كان يساوي عشرة دراهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عهد الخلفـاء – الراشدين ولم يكن الدرهم جزءاً من الدينار وإنما كان هذا نقداً على أساس الفضة وذلك نقد على أساس الذهب ولكل من النقدين وحداته .

وطبيعي أن ثمن الدينار والدرهم – إذا اعتبرناهما بالوزن أو سلعة ذهبية أو فضية – قد تغير منذ فجر الاسلام إلى الآن ، كذلك فإن قيمة الدينار والدرهم قد تغيرت تغيراً كبيراً منذ فجر الاسلام إلى الآن وذلك لتغير قوتهما الشرائية .

وقد عني الغربيون كثيراً بما في المتاحف والمكتبات والمجموعات الاثرية الخاصة من قطع العملة الاسلامية فصوروها ونشروا لهاالفهارس العلمية .فكتب لادوسو H. Iavoix عن النقود الاسلامية في المكتبة الاهلية بباريس ، وكتب كاستليوني Castillioni عن المحفوظ منها بمتحف ميلانو وكتب فون فرين Von Fraehn ومار كوف A. De Markof هما في متاحف منت بطرسبورج (لينتجراد) ، ونسلمان G. F. Nesselmann عما في متحف العملة بمدينة كونجن برج بألمانيا ، وستانلي لين بول Lane - Poole عما في المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية . كما ألف هانس J. Hins ، ومولر J. H. Moeller ، وسوفير Sauvaire ، ويتراستسكي J. Pietraszewski وارتين باشا ، واسماعيل غالب ، وأحمد توحيد ، ونلس رايت Wright ، وروجر بك E. T. Rogers ومحمد مبارك ، وماوس Mauss وبونجفلايش Jungfleisch وغيرهم المؤلفات الوافية في هذا الموضوع .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الكتاب القيم الذي أخرجه العالم العراقي الأب انستاس ماري الكرملي البغدادي سنة ١٩٣٩ م في القاهرة وسماه النقود العربية وعلم النميات ومن الكتب المفيدة في النقود أيضاً كتاب الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ، تأليف ناصر السيد محمود النقشبندي ، وهو من مطبوعات المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥٣ م .

أما العمارة والفنون الاسلامية فإنها ذات شأن عظيم في تاريخ المدنية العربية الاسلامية ذلك ان دراسة العمائر والتحف تلقي الضوء على كثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما تكشف عن مستوى المعيشة وازدهار الصناعة أو تدهورها ، كما تبين تطور العلاقات بين الأقاليم المختلفة في ديار الاسلام ، وبينها وبين سائر انحاء العالم . وإذا أردنا أن ندرس الأزياء

والملابس والأسلحة والحلى فلا يكفي أن ندرس ما وصل الينا من المنسوجات الأثرية والأسلحة والحلى القديمة لأن ما وصل الينا منها قليل ، وإنمـــا يجب أن ندرس الرسوم الادمية في الصور الموجوده في المخطوطات وفي الرسوم الموجودة على التحف والرسوم المستقلة ذلك اننا نخرج بأشياء كثيرة لا نجدها في الكتب أو لا تستطع الكتب التعبير عنهـــا . كما ان دراسة الرنوك الاسلامية – أي الشارات التي كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم – على العمائر والتحف تكشف عن كثير من جوانب نظم الفروسية والاقطاع في العصور الوسطى .

ولا شك أن عنـاية الدول العربيـة الاسلامية بعمائرها وفنونها تساعد على حفظ تراثنا العريق كما انها من مصادرنا الأصيلة فضلاً عن أنهـا معين ومنهل غني لحضارتنا العربية المعاصرة .

كذلك يجب على الباحثين في تاريخنـا العربي الاسلامي أن يكونوا على اتصال بالهيئات العلمية المختلفة للوقوف على الكتب والأبحاث المنشورة، وللوقوف على ما يشغل ذهن الغربيين والمستشرقين وأساتذة التاريخ الاسلامي في الشرق من المسائل والنظريات والحلول التي تراها كل مدرسة للمشاكل المعينة فضلاً عن الأحكام التي ينشرها الأساتذة خاصة بالمراجع والأبحـاث المختلفـة ، ليتيسر للباحثين أن يعرفوا الأساتذة والباحثين الذين اختصوا بدراسة النواحي المختلفة في التاريخ العربي الاسلامي .

والمعروف أن المستشرقين في شتى البـلاد الأوربيـة والامريكية أنشئوا المجلات العلمية لنشر أبحاثهم وتسجيل نظرياتهم ويحتوي بعض هذه المجلات على مقالات وأبحاث لها قيمة علمية كبيرة وذلك لأن كتاب هذه الابحاث اما أساتذة في تخصصاتهم أو نوابغ الباحثين الناشئين . وقد ترشد هذه المقالات والابحاث الممتازة جمهور الباحثين إلى كثير من المصادر ، كما انها تمثل جهود علماء يقفون جزءاً كبيراً من وقتهم لبحث إحدى المسائل التي تفوق في أهميتهـا كثيراً من الكتب الضخمة .

ولا شك أن أكثر ما يكتبـه المستشرقون دقيق ومنظم وعلى أساس المنهج العلمي السليم ، أمـا عيوب التعصب فمن السهل على الباحثين إدراكها والتنبيه إلى أن بعض هؤلاء المستشرقين يجحف في تفسير بعض النصوص التاريخية ،أولا

يهمل ما لا يتفق ورأيه ، أو يغض الطرف أحياناً عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية أحكاماً عامة . ومع ذلك فإنه من السهل على الاساتذة والباحثين إدراك عيوب التصعب والحذر من شرها . ومن باب الحسن والانصاف أن نقول أن الروح التي تسود المستشرقين اليوم في الكتابة عن الاسلام وحضارة العرب ليست هي الروح التي كانت تسود أكثرهم في الجيل الماضي ومن ثم فإنهم في الجملة أكثر انصافاً الآن منهم في الماضي .

وبعد فإنه من الواجب على القائمين بدور الكتب في البلاد العربية الاسلامية ضرورة عمل فهارس لها بطريقة علميـة وتبادل هذه الفهارس لكي يعم النفع ويسهل الانتفاع بما تحتويه هذه الدور .

وقبـل أن أختم كلمتي أحب أن أنوه إلى أن معهـد المخطوطات بجامعة الدولة العربية يقوم منذ سنتين باصدار نشرة بعنوان أخبار التراث العربي يحاول فيها التعريف بجوانب النشاط العلمي في البلاد المختلفة التي تضم مخطوطات عربية وإسلامية فضلا على التعريف بالمجلات العلمية التي ترد إلى المعهد وأسماء بعض الباحثين وموضوعات أبحاثهم .

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل لهؤلاء الذين قاموا باعداد هذا المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار فقـد أتاح لنا فرصة اللقاء وتبادل الآراء ونرجو أن يتكرر اللقاء في أماكن مختلفة من الوطن العربي الكبير ونحن نسير قدماً في طريق التحرر والتقدم والنهضة والعزة .

ملامح من النهضة العلمية في العراق في العصر البويهي

الدكتور محمد حسين الزبيدي
كلية الآداب / جامعة بغداد

لقد اشتهر في هذا العصر عدد كبير من علماء الرياضيات . وقد أضاف هؤلاء اضافات جديدة إلى هذا العلم لم تكن تعرف من قبل .

فقد اكتشف العالم البوزجاني بعد الخلل في حركة القمر. كما أوجد الخوارزمي طريقه جديدة في عمل جدول الجيب ودرس الظل وعمل جدولا للقاطع وقاطع تمام .

وقد وجدنا في هذا العصر ولأول مرة عند العرب حلولا للمعادلات غير المحدودة كبقية المعادلات على أساس الطرق التي اتبعها ديوفنطس .

وكذلك بحث أبو الفتح الخازن كيفية ايجاد الكثافة للاجسام الصلبة والسائلة معتمد على كتاب البيروني ، كما اخترع الخازن أيضاً ميزاناً لوزن الأجسام في الهواء والماء . وقد قدّر أيضاً الكثافة لكثير من العناصر والمركبات لدرجة كبيرة من الدقة. وفضلا عن ذلك فقد أشار الخازن إلى مادة الهواء ووزنه وبيّن أن للهواء وزناً وقوة رافعة كالسوائل، وان وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي وان مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء .

وقد ساعدت دراسة الخازن هذه العلماء الاوربيين على اختراع البارومتر ومفرغات الهواء والمضخات وغيرها ، وبهذا يكون الخازن قد سبق : باسكال، تورشلي وبويل وغيرهم .

وقد وضع هؤلاء العلماء كتباً كثيرة في الرياضيات ظلت مرجعاً للباحثين والدارسين عصوراً طويلة ، فقد ألف أبو الوفاء البوزجاني كتابه المشهور : (كتاب في منازل الحساب) وهو كتاب يحتاج اليه العمال والكتاب في صناعة الحساب ، ووضع أيضاً كتاب في الجدول السيني .

كما وضع أبو بكر الكرخي كتبا عدة منها كتابه (الكافي) وكتاب (الفخرى في الجبر والمقابلة) ووضع أبو الفتح الخازن كتابه الشهير (ميزان الحكمة) وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أجنبية وهو الأول من نوعه بين الكتب العلمية القديمة . وقد وصف العالم (سارتون) هذا الكتاب بقوله انه من أجل الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات وأروع ما انتجته القريحة في القرون الوسطى ، ومن علماء الرياضيات في العصر هم .

١ - أبو اسحق الحراني الصابي :

وهو ابراهيم بن سفيان بن ثابت بن قرة الصابي .

ولد في مدينة بغداد سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م وتوفي فيها ١٥ من شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م وقد أدرك العصر البويهي واشتهر بالعلم الغزير والذكاء واشتهر بـ الهندسة والفلك وغيرها من العلوم وهو أبي اسحق ابراهيم بن هلال الصابي الحراني المعروف . ألف أبو اسحق كتب كثيرة هي .

١ - كتاب في حركات الشمس وقد طبع هذا الكتاب ١٩٤٧ م

٢ - كتاب في مساحة قطع المخروط المكاني .

ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب كتب سنة ١١٥٩ هـ وطبع سنة ١٩٤٧ م .

٣ - كتاب في الدوائر المتماسة .

٤ - كتاب في أصول الهندسة ، وهو ترجمة لكتاب المأخوذات في أصول الهندسة لأرشميدس الحكيم .

٥ – ثلاث عشرة مقالة في الهندسة . منها احدى عشرة في الدوائر المتماسة بيّن فيها على أي وجه تتماس الدوائر والخطوط التي تجوز على النقط .

٦ – رسالة في الاسطرلاب . – وقد طبعت في الهند في مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد . الركن سنة ١٩٤٣ م .

٧ – رسالة بيّن فيها الوجه في استخراج المسائل الهندسية بالتحليل والتركيب . وبيّن فيها ما يعرض للمهندسين أو يصيبهم من الغلط والخطاء فيما يسلكون إلى طريق التحليل وقد أوجد أكثر من رسم طريقاً للمتعلمين يشمل على جميع ما يحتاج اليه في استخراج المسائل الهندسية من المهندسين . توجد منها نسخة ناقصة مكتوبة سنة ٦٢٣ هـ بالموصل في عشرين ورقة وتوجد نسخة مصورة لهذه المخطوطات في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية أخذت على نسخة الموصل تحت رقم ١٣٨ رياضيات .

٨ – رسالة في رسم القطوع الثلاثة . شرح فيها كيف توجد نقطة بأي عدد شئنا على أي قطع أردنا وقد سلك فيها طريقاً يختلف عن الطريق الذي سلكه في الثلاثة عشر مقالة وتوجد نسخة مخطوطة في مدينة الموصل كتبت سنة ٦٣٢ هـ نسخت بخط نسخ واضح في ثلاث ورقات وتوجد منها نسخة مصورة في معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية تحت رقم ١٣٦ رياضيات صورت على نسخة الموصل وطبعت هذه الرسالة سنة ٩٤٣ م ذكرها بروكلمان في ج ١ ص ٢١٨ وذكر عباس العزاوي أن في خزانة (باكي فور) توجد نسخة من هذه المخوطات ضمن مجموعة برقم ١٥١٩ كتبت سنة ٦٣١ هـ .

٩ – تفسير المقالة الأولى من المخروطات .

١٠ – آلات الظل .

١١ – كتاب في مساحة قطع المخروط الذي يسمى (المكافيء) وتوجد في مكتبة أيا صوفيا باستنبول مخطوط من هذا الكتاب تحت رقم ٤٨٣٢ ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة من هذا المخطوط فيه أشكال متقنة كتب سنة ١١٥٩ هـ طبع سنة ١٩٤٧ م .

١٢ – مقالة احتوت على احـــدى واربعون مسألة هندسية من المثلثات في الدوائر والخطوط والدوائر المتماسة [١] .

٢ – أبو النصر محمد عبد الله الكلواذي :

وهو من (قرية) كلواذي ببغداد توفي سنة ٣٧٢ هـ – ٩٨٢ م كان عالمـــاً بالخطب والهندسة والهيئة عاش في القرن الرابع الهجري وادرك ولاية عضد الدولة في العراق ويعد من رياضي القرن الرابع الهجري المشهورين وقد أشار القفطي اليه (بأنه مهندساً ومنجماً)[٢] ألف كتب عدة منها .

(١) كتاب التخت والحساب [٣] ويبحث في الأعمـــال الاساسية للحساب والهندسة .

(٢) رسالة في الهندسة وتبحث في تقسيم الأشكال إلى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضة بخط مستقيم ترسم (٢٢) اثنان وعشرون قصة سبع في المثلث وتسع في المربع وست في المخمس .

(٣) كتاب تقسيم الطرح .

٣ – أبو الوفاء محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني : –

(٣٢٨ – ٣٨٨ هـ) (٩٤٠ – ٩٨٨ م)

ولد في مدينة البوزجان من مـدن نيسابور (قرهستان) في رمضان سنة

---

(١) تراجع هذه المراجع :

أ – تذكرة النوادر من المخطوطات العربية . طبعت في مطبعة دائرة المعارف بحيدراباد

ب – فهرس المخطوطات . دار الكتب المصرية ، ج ٥ ص ١٩٧

جـ – معهد المخطوطات المصورة . جامعة الدول العربية ج ٣ ص ٩٠ .

(٢) القفطي . – أخبار العلماء ص ١٨٩ .

(٣) ابن النديم . – الفهرست ص ٣٩٦ . القفطي . أخبار العلماء ص ٢٨٩ .

٣٢٨ هـ وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨ هـ فقرأ العدد والهندسة على أبي يحيى الباوردي وأبي العلاء بن كرنيب وبرز في هـذا المجال ويعتبر أبو الوفاء من مشاهير علماء الرياضيات توفي في بغداد سنة ٢٨٨ هـ [١].

وقد أثنى ابن [٢] خلكان عليه وعلى علمه بقوله انه (أحد الأئمـة المشاهير في علم الهندسة وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها . وقد ألف كتب عدة وله في استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع) وقد أضاف القفطي إلى قول ابن خلكان قائلاً (بلغ المحل الأعلى في الرياضيات وكان نقي الجيب مـن عثرات الدنيا قانعاً بما عنده [٣]). وقد استطاع هذا العالم الجليل أن يضيف اضافات إلى علم الرياضيات والفلك . فقد اكتشف بعد الخلل في حركة القمر . كما اخترع بعض الأدوات الهامة الـتي تستخدم اليوم في الرياضيات وغيرها . كما اخترع المسطرة والبركار والكونيا . كما أجرى عدة شروح على كتب من سبقوه مـن علماء رياضيات اليونان والعرب امثال. اقليدس وابرخر وديوفنطس والخوارزمي وأجد طريقة جديدة في عمل جداول الجيب ودرس الظل وعمل جدولا للقاطع وقاطع تمام وقد أورد لنا ابن النديم عدداً [٤] كبيراً مـن مؤلفاته في مختلف العلوم الرياضية منها .

١ — كتاب في منازل الحساب[٥] كتبه للأمير عضد الدولة البويهي . وهو كتاب يحتاج اليه العمال والكتاب في صناعة الحساب وهـو يحتوي على سبعة فصول سماها منازل . وتبحث المنزلة الأولى في النسبة والمنزلة الثانيه في الضرب والقسمة والمنزلة الثالثة في أعمال المساحات والمنزلة الرابعة في أعمال

---

(١) ابن النديم . — الفهرست ص ٣٩٦ .

(٢) ابن خلكان . — وفيات الأعيان م ٤ ص ٢٥٣ .

(٣) القفطي . — أخبار العلماء ص ١٨٩ .

(٤) ابن النديم . — الفهرست . ص ٣٩٤ - ٣٩٧ . البيهقي . تتمة صوان الحكمة ص ٧٦

(٥) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧١ وحققه الدكتور أحمد سليم سعيدان .

الخراج والمنزلة الخامسة في أعمـــال المقاسمات والمنزلة السادسة في الصروف والمنزلة السابعة في معاملات التجار . وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية [١] بخط عبد الملك بن أحمد البيلقاني فرّغ منها في يوم الجمعة ثالث ذي الحجة . كما توجد نسخة أخرى في مكتبة الرامفورية تحت رقم ٦٤ الموسيقى [٢] .

٢ ـ كتاب المجسطي : ـ جاء في أول المخطوط بعد البسملة العلوم تشرف أما من قبل شرف معلوماتها كالعلم بالباري ذكره وعلم العقل والفن . وآخره الفصل السابع من النوع السادس مركز العلم كان أبعد من العالم وقد بينا اذن أبعد بعده من العالم .

ذكر بروكلمان ج ١ ص ٢٢٣ بأن توجد نسخة مصورة منه في مكتبة باريس تحت رقم ٢٩٤ وتوجد في دار الكتب المصرية نسخة مصورة عليها تحت رقم ٧٣ هيئة ، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة مصورة تحت رقم ١٧٧ فلك [٣] .

٣ ـ زيج البوزجاني / وهو كتاب مهم في علم الفلك وسماه الحـــاج خليفة (الزيج الشامل) وقد وقع في خلط بين زيج البوزجاني وبين الزيج الشامل الأستاذ الابهري . وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة السليمانية في اسطنبول تحت رقم / ١٤٧٩ [٤] .

٤ ـ كتاب فيما يحتاج اليه الصناع من أعمال للهندسة مجرد من العلل والبراهين ـ خدم به الأمير بهاء الدولة البويهي . وكان قريباً لديه كثير الحظوة

---

(١) فهرس المخطوطات ج ٥ ص / ١٨٤

(٢) تذكرة النوادر / ص ١٥٢

(٣) فهرس المخطوطات المصورة / ج ٣ ص ٩٣

(٤) مجلة سومر ، مجلد الرابع والعشرون ص ١٤٩

عنده وقد توخى في كتابته ليكون دليلا يسهل على الصناع أمر المسح .وقد فرد فيه فصلا لتحريف المصطلحات كالمسطرة والبركار والكونيا . توجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة أيا صوفيا باسطنبول تحت رقم ٢٧٥٣ . وقد كتب هذه النسخة لمكتبة جلال الدولة ، الغ بك بهادر [١] .

٥ ــ كتاب تفسير الخوارزمي في الجبر والمقابلة .

٦ ــ كتاب تفسير ديوفنطس في الجبر . وقد ذكره ابن النديم [٢] في كتاب الفهرست باسم صناعة الجبر .

٧ ــ كتاب تفسير كتاب أبرخس في الجبر والمقابلة .

٨ ــ كتاب استخراج ضلع المكعب .

٩ ــ كتاب معرفة الدائرة وذكر (في اقامة البرهان على الدائرة من الفلك من وقت النهار وارتفاع نصف النهار وارتفاع الوقت) وتوجد نسخة منه في مكتبة بانكي مور كتب سنة ٦٣١ هـ تحت رقم ٢٥١٩ [٣] .

١٠ ــ كتاب الكامل ، وهو كتاب جليل يبحث في علم الفلك .

١١ ــ كتاب استخراج الأوتار .

١٢ ــ كتاب في الهندسة .

١٣ ــ كتاب في الجدول السيني .

٤ ــ ابن العميد :

وقد اشتهر في علوم الهندسة اضافة إلى العلوم الأخرى وكان لا يجاريه أحد

---

(١) مجلة سومر ، مجلد الرابع والعشرون ص ١٥٠ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٤ .

(٣) تذكرة النوادر ص ١٥٣ .

في هذا العلم وقد ذكر مسكويه [١] انه (كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى علوم الهندسة والطبيعة وجر الثقل ومعرفة مراكز الاثقال واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة على الفعل وعمل الفعل وعمل الآلات الغريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون).

٥ – علي ابن أحمد العمراني :

من أهل الموصل وكان عالماً بالحساب والهندسة وكان عالماً بالحساب والهندسة وكان فاضلاً جماعاً للكتب يقصده الناس في المواضيع البعيدة للقراءة عليه. توفي سنة ٣٤٤ هـ وقد وضع كتابه الشهير شرح فيه كتاب الجبر والمقابلة لأبي كامل [٢] شجاع بن مسلم الحاسب المصري وكتاب الاختيارات وعدة كتب في النجوم وما يتعلق بها.

٦ – الحسين بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي المهندس :

اشتهر بمعرفته التامة في علوم الهندسة والفلك وهو من أهل قرطبة خرج من الأندلس ٤٤٢ هـ ولحق بمصر ثم باليمن ثم جاء إلى بغداد. واتصل بالخليفة القائم العباسي فنال عنده حظوة كبيرة ودنيا عريضة، وتوفي في اليمن بعد سفره من بغداد سنة ٤٥٢ هـ.

٧ – قشير بن لبان :

وهو أبو الحسن قشير بن لبان بن البشحري الجبلي وكان فارساً اشتغل في الرياضيات والفلك وأوجد شيئاً كثيراً في المثلثات. وكتب كتابه الشهير (الزيج الجامع البالغ) وكتب مقالة في علم التنجيم والحساب.

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٨

(٢) بن النديم . الفهرست ص ٣٩٤ . القفطي . أخبار العلماء ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٣) الزيجة . جمع زيج .

٨ – أبو جعفر محمد بن الحسين :

وكان من مشاهير علماء الرياضيات كتب كتاباً موجزاً عن المثلثات ذات الجذور وايجاد الوسط المتناسب بين خطين بطريقة هندسية كما يسميه العرب بالهندسة الثابتة .

٩ – أبو الجود محمد بن الليث :

وكان من علماء الرياضيات اشتغل في حل مسائل البيروني بطريقة المقاطع المخروطية ورسم المسبع المنتظم وصنف المعادلات .

١٠ – أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي :

نشأ في بغداد في عهد فخر الملك وكان من أعاظم رياضي وألف كتابه (الكافي) في سنتي (٤٠١ هـ – ٤٠٧ هـ) وكان هذا أول كتاب له أهداه إلى الوزير البويهي فخر الملك [١] . وقد فضل الكرخي فيه الطريقة اليونانية على الطريقة الهندية ، ونجد فيه مبادىء الحساب الأولية المعروفة في ذلك العهد وبعض قوانين وطرق حسابية مبتكرة لتسهيل بعض العمليات كالضرب ومن أبحاثه في هذا الكتاب (ضرب بالتربيع والجمع) [٢] . وشرح أيضاً في هذا الكتاب مساحات بعض السطوح وكيفية إيجاد الجذر التقريبي للاعداد التي لا يمكن استخراج جذرها التربيعي بصورة مضبوطة . وترجم العالم الألماني

---

(١) أبو غالب محمد بن علي بن خلف الملقب بفخر الملك وزر لبهاء الدولة البويهي ثم وزر لسلطان الدولة بعد وفاة بهاء الدولة .

(٢) أي أنه ايجاد حاصل ضرب عددين باستعمال المعادلة الجبرية التالية :

$$(ب + جـ) (ب + د) = ب^{٢} + ب (جـ + د) + جـ د$$

وضرب بالتربيع . $ب جـ = (\frac{ب + جـ}{٢})^{٢} + (\frac{ب - جـ}{٢})^{٢}$.

الدومييلي – العلم عند العرب . ص ٢٢٠ .

(هوك هايم / Hock Hiem) هذا الكتاب إلى اللغة الالمانية سنة ١٨٨٠م وترجمة المستشرق الفرنسي (وبيك / Wopek) سنة ١٨٥٣ م . وبعد هذا الكتاب انضج الكتب التي وصفها العرب في الرياضيات وكان مفخرة التراث العربي لما وصل اليه من الرقي الفكري .

(٢) وألف كتابه الثاني (كتاب الفخري) في الجبر والمقابلة وأهـداه إلى إلى الوزير أبو غالب بن محمد علي بن خلف فخر الملك[١] كما ألف كتابـه الثالث سماه .

(٣) (البديع في الحساب) وهو أحسن من كتاب الفخري في الجبر والمقابلة ونجد في كتب هذا العالم لأول مرة عند العرب حلولا للمعادلات غير المحدودة كبقية المحاولات على أساس الطرق التي اتبعها ديوفنطس .

(٤) كتاب أنباط الحياة الخفية .

أوله : (الحمد لله على آلائه ... لما دخلت العراق ورأيت أهلها من الصغار والكبار يحبون العلم ويعظمون قدره ويكرمون أهله صنفت في كل مرده تصنيفاً في الحساب والهندسة .

وآخره : فهذا ما اختصرته في معنى أنباط الحياة وبمعرفته يعرف ما أهملته من تطويل الشرح واكثار البيان ....) نسخه منه كتبت سنة ٦٣٢ بالموصل في ١٨ ورقة وأخرى مصورة عليها في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية تحت رقم ٢٠ رياضيات[٢] .

١١ ـ الخازن : أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني المعروف بالخازن :

نشأ في مرة أشهر مـــدن خراسان وله في سماء البحث والابتكار . اشتهر

---

(١) الصابي ـ أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . ص ٢٩ .

(٢) بروكلمان . ـ ملحق ـ ١ ٣٨٩٠

ببحوثه في الرياضيات وخاصة الميكانيكا والطبيعة والفلك وقد عمل زيجاً فلكياً سماه (الزيج المعتبر السنجاري) نسبة إلى السلطان سنجر وقد أرسل اليه ألف دينار لتصفية هذا الكتاب على يد الأمير شافع الطبيب فردها اليه وقال : – لا أحتاج إلى المال وبقي لي عشرة دنانير ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير [١] .

زيج الصفائح : – خدم بارصاده وزيجه هذا أبا الفضل بن العميد وزير الدولة البويهية وقال القفطي (انه أجل منصف في هذا النوع) .

وفيه حسب مواقع النجوم لسنة ١١١٥ – ١١١٦ أتثم وجمع أرصاد أخرى غاية في الدقة ظلت مرجعاً للفلكيين قروناً طويلة واحتوى هذا الزيج أيضاً على جداول السطوح المائلة والصاعـدة ومعادلات لايجاد الزمن في خطوط العرض لمدينة (مرو) [٢] وضع كتب عديدة في هذه العلوم ومن أشهر كتبه (ميزان الحكمة) وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أجنبية وهو الأول من نوعـه بين الكتب العلمية القديمة القيمة ولا سيما في (الايرستانيكا) وقد وصف سارتون هذا الكتاب بقوله انه أجن الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات وأروع ما انتجه القريحة في القرون الوسطى .

كما اعترف (بلتن) في أكاديمية العلوم الامريكية بما لهـذا الكتاب من شأن كبير في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر عند العرب [٣] وكان الأستاذ (ويدمان) أكثر العلماء الغربيين أعتناء بهذا الكتاب فقد ترجم فصولا عـدة منه وشرحها وعلق عليها .

لقد سبق الخازن (تورشيللي) في الاشارة إلى مادة الهواء ووزنه وبين أن للهواء وزناً وقوة ورافعة كالسوائل . وان وزن الجسم المغموز في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي .

---

(١) البيهقي . – تتمة صوان الحكمة . ص ١٦٦ .
(٢) طوقان . العلوم عند العرب ص ٢٠٠ .
(٣) عبد الحليم منتصر . تاريخ العلم ودور العلماء العرب ص ١٦٤ .

وان مقدار ما ينقصه من الوزن يثبت كثافـــة الهواء . وبيّن أن قاعدة (أرخميدس) لا تسري على السوائل فقط وإنما تسري على الغازات أيضاً وقــد ساعدت هــذه الدراسة العلماء الأوربيين على اختراع البارومتر ومفرغات الهواء والمضخات وغيرها . وبهذا يكون الخازن قد سبق تورشيللي وباسكال ، وبريل وغيرهم ، وبحث الخازن كيفية إيجاد الكثافة للاجسام الصلبة والسائل معتمداً بذلك على كثافة البيروني ، واخترع ميزانـــاً لوزن الأجسام في الهواء والماء له خمس كفات تتحرك احداها على ذراع مدرج وقـــد قدّر الكثافة لكثير من العناصر والمركبات لدرجة كبيرة من الدقة وبحث الخازن في الجاذبية حيث قال بقوة جاذبية جميع جزئيات الأجسام وأوضح أن الأجسام تتجه في سقوطها إلى الأرض وذلك ناتج عن قوة تجذب هذه الأجسام في اتجاه مركز الأرض .

وقد تحدث الخازن عن مراكز الاثقال وشرح بعض الآلات وكيفية الانتفاع بها وتكلم عن الأنابيب الشعرية وقد وصف عدداً من الآلات الفلكية في كتابه « كتاب الآلات العجيبة الرصدية »[1] .

١٢ - أبو القاسم علي بن أحمد الانطاكي :

ويلقب بالمجتبى ، من أهل انطاكية واستوطن بغداد وظل حتى وفاته في ١٣ ذي الحجه سنة ٣٧٦ هـ وكان من أصحاب عضد الدولة البويهي وقـــد نال حظوه كبيره عند هذ الأمير . اشتهر بعلم العدد والهندسة والرياضيات .

ألّف هذا العالم عدداً من الكتب الهامة في الرياضيات مثل[2] :

١ - كتاب التخت الكبير في الحساب الهندي .

كتاب تفسير الارثماطيقي .

٢ - كتاب الحساب على التخت بلا محو .

---

(١) الدميلي : العلم عند العرب ص ٢١٧ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

كتاب استخراج التراجم

٣ – كتاب في المكعبات .

كتاب الموازين العددية ، وهو يبحث في الموازين التي تعمل لتحقيق صحة أعمال الحساب .

٤ – كتاب تفسير اقليدس .

كتاب الحساب بلا تخت بل باليد . يبحث في نوع من الحساب الهوائي المسمى بالعقود .

وشارك في علم الأوائل وله في ذلك كتب وتصانيف كثيرة وقد وصفه القفطي [١] بأنه كان فصيح اللسان عذب البيان إذا سئل ابان واتي بالمعاني الحسان . هذا إلى توقد ذهن وحضور بديهه مما جعل الحكام والرؤساء يجلونه ويكثرون من دعواتهم إياه إلى مجالسهم الخاصة .

١٣ – ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصابي أبو اسحاق صاحب الرسالة :

نشأ إبراهيم في بغداد وتأدب بها وكان له اليد الطولى في علم الرياضيات وخاصة الهندسة والهيئه ، ولما عزم شرف الدولة مع عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد واعتمد في ذلك على ويجن بن رستم القوهي كان من جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن إبراهيم بن هلال ، وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصوره الرصد وأدرك موضع الشمس من نزولها في الأبراج . وقد ألّف في الرياضيات عدة كتب وقد ذكر القفطي بأنه شاهد إحدى كتب إبراهيم بخطه في المثلثات ، كما وضع عدة رسائل في أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا

---

(١) القفطي : أخبار الحكماء ص ١٠٧ .

النوع . هذا وقد خدم الامراء البويهيين في العراق فترة طويلة [1] حتى وفاته سنة ٣٨٤ هـ .

وقد تولى أبو اسحاق ديوان الانشاء في بغداد عن الخليفة وعز الدولة في وقت واحد . ثم تقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ .

١٤ – القاضي أبو الحسن النسوي : وهو أبو الحسن علي بن أحمد النسوي .

نبغ في العلوم الرياضية والفلكية والتنجيم وكان ذا موهبة وملكة قوية ورغبة في تتبع آرائها وميل شديد إلى الأخذ بقواعدها المهمة بصورة لا تعرف الكلل عاش في بغداد ردحاً طويلاً من الزمن وحظى باحترام علمائها وقد أثنى عليه البيهقي ووصفه بأنه « الأستاذ الحكيم المحقق » وأضاف قائلا كان من حكماء الري وله الزيج الذي يسمى (الزيج الفاخر) وكان حكيماً ومهندساً ذا أخلاق مرضية ، وقد قرب عمره من مائة سنة ، وقواه سليمة إلا أن الضعف منعه عن المشي في الأسواق فلزم بيته ... ومن مؤلفاته :

١ – المقنع في الحساب الهندي باللغة الفارسية : – كتبه لأمير الري مجد الدولة أبي طالب رستم الذي ولي امارة الري بعد وفاة والده فخر الدولة بن ركن الدولة في شعبان سنة ٣٨٧ هـ – ٩٨٧ م .

٢ – المقنع في الحساب الهندي : – كتبه في اللغة العربية بطلب من (مشرف الدولة) يوم كان أميراً على العراق على غرار كتابه (المقنع الفارسي) وتوجد نسخة منه في مكتبة (رصد قنديللي) في اسطنبول كما توجد نسخة أخرى منه في خزانة ليدن برقم ٥٥٦ .

٣ – البلاغ : – وهو شرح كتاب أقليدس (الأصول في العدد والهندسة) .
٤ – التجريد في الهندسة : – وهو كتاب ثمين جاء فيه أن القدر الذي

---

(١) القفطي : أخبار العلماء ص ٤٥ .
(٢) فهرست المخطوطات المصورة : ج ٣ ص ٢٢ – ٢٣ .

يكفي من علم الهندسة هو أن يعلم علم التنجيم بالبرهان الهندي الذي ذكره بطليموس في المجسطي فرجع بالتحليل إلى المجسطي ومقدم منه الأشكال المعروفة بالقطاع واستخرج من اقليدس وسائر الكتب أشكالاً لا يحتاج اليها في التعاليم وجمعها فيه بلفظ أسهل . وبراهين أخف وذكر أن من عرفها حق المعرفة وقف على برهان علم المساحة وأصول سائر الصناعات التي لا بد للانسان منها . ويكون أيضاً مدخلا في علم الهندسة ثم من أراد أن يصير متبحراً فيه فسبيله أن يتعلم بعده (كتاب اقليدس) وسائر الكتب فيه . وقد جعل النسوى كتابه هذا على سبع مقالات .

جاء في قوله (... وصنفها سبع مقالات موجزة ...)

حيث جاء في آخره يقول (ويختم المقالة السابعة بهذا الشكل ، والكتاب بهذه المقالة لأن هذا القدر رأينا كافياً لمقصودنا) .

وأهداه إلى أبي الحسن المطهر بن السيد ابن القاسم وزير عضد الدولة البويهي أيام وزارته وقد ذكر في مقدمة كتابه (أرجو أن يكون محموداً كافياً بدولة الأجل الامام المرتضى ذي الفخرين أبي الحسن المطهر بن السيد الزكي الحسين أبي القاسم أدام الله دولته)

(توجد نسخة منه في سالا رجنج بحيدر أباد تحت رقم ٣١٤٢ ونسخة بقلم نسخ جيد كتبها لنفسه أحمد بن محمد بن سنان الرشنسي سنة ٧٢٣ هـ ومنها نسخة مصورة عليها في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية رقم ٢٨ رياضيات) .

٥ - كتاب تفسير كتاب المأخوذات لأرشميدس : - وقد نقل هذا الكتاب ثابت بن قره إلى اللغة العربية [١] وذكره ابن النديم بـ (تحرير كتاب مأخوذات أرشميدس) وذكره بروكلمان ملحق ١ . ٣٨٤/٣٩٠ .

وتوجد نسخة منه كتبها نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي المتوفي

---

(١) زامباور - الأسرات الحاكمة جـ ٢ ص ٣٢٤ .

سنة ٦٧٢ هـ بخط جميل وتوجد نسخة أخرى في أيا صوفيا تحت رقم ٢٧٦٠ - ٧٦١ تحت كتابته سنة ٨٤٥ هـ وتوجد نسخة منه في خزانة كلية بنجاب كما توجد نسخة منه ضمن مجموعة في مكتبة جامعة كولومبيا في نيويورك تحت رقم ١١ من المجموعة [١] .

٦ - كتاب الزيج الفاخر : - ذكره القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء).

٧ - رسالة في المدخل إلى المنطق .

٨ - رسالة في معرفة التقويم والاسطرلاب : - منها نسخة في مكتبة جامعة كولومبيا برقم ٤٥ [٢] .

٩ - مسألة لابن النسوي .

١٠ - جوامع أبي الحسن علي بن أحمد النسوي .

١١ - رسالة الاشباع في الشكل القطاع : - نسخة منها في مكتبة السلطان أحمد الثالث في سراي طوبقبو باسطنبول في مجموعة تحت رقم ٣٤٦٤ .

١٥ - أبو جعفر الخازن :

وهو أبو جعفر محمد بن حسين الخازن من رياضي القرن الرابع الهجري المشهورين ، توفي سنة ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م .

ولـه :

(١) زيج الصفائح : - خدم بارصاده وزيجه هذا أبا الفضل بن العميد وزير الدولة البويهية . وقد أثنى القفطي على هذا الكتاب بقوله (هو أجل مصنف في هذا النوع) . وتوجد من هذا المخطوط نسخة ناقصة تشمل على مسألتين من هذا الزيج في مكتبة ليدن تحت رقم ٩٩٢ .

---

(١) مجلة سومر ح ٢٢١ ص ١٦٤ .

(٢) فهرست المخطوطات العربية في دور الكتب الأمريكية ص ٢٨ .

(٢) شرح (المقالة العاشرة) من اقليدس : —

وتوجد نسخة منه مخطوطة في المهندسخانه البريه الهما يونيه باسطنبول [١] طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن في الهند .

(٣) كتاب المسائل العددية : — رسالة في الحساب .

(٤) شكل القطاع والمغني : — كتبه ينوب عن (شكل القطاع) ويثبت (الشكل المغني) من تلقاء نفسه .

---

(١) مجلة سومر : المجلد الرابع والعشرين ص ١٥٢ .

(٢) آثار باقية ص ١٦٥ .

خصائص وأهمية الحركات الجماهيرية في المشرق العربي قبيل ثورة الاتحاديين

تأليف : ل . ن . كتلوف
ترجمة : الدكتور هاشم صالح التكريتي
العراق

تميزت الانتفاضات الجماهيرية في الولايات العربية من الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالتناقض • لقد كانت نتيجة لاستياء الشغيلة المتزايد من تشديد الاستغلال الاقطاعي ومن سياسة الحكومة العثمانية في مجال الضرائب ومن ادخال الخدمة العسكرية الالزامية وعدم كفاءة الجهاز الاداري وتفشي الرشوة فيه وعجز الامبراطورية الآخذة بالتفسخ عن حماية هذه البلدان من توسع ونهب الاستعمار الاوروبي ، واقترن كل ذلك في اذهان المزارعين ومربي الماشية بالظواهر الجديدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تلك الظواهر المرتبطة بانجذاب الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية الى نظام الاقتصاد الرأسمالي العالمي وبعملية نشوء العلاقات الرأسمالية مع ما تتميز به هذه العملية من ألم • ان التدهور المادي لوضع جماهير الشغيلة الاقتصادي تلك الجماهير التي لم يستطع قسم منها ان يجد مكانا له في الظروف الجديدة وتدهور الوضع الاجتماعي لافراد القبائل والطوائف الدينية والنمو المتسارع في

هذا البحث هو ترجمة حرفيةللجزء الاخير من الفصل الرابع من كتاب للمستعرب السوفياتي المعروف ليف نيكولايفتش كتلوف صدر في ١٩٧٥ في موسكو بعنوان « نشوء حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر ـ ١٩٠٨) » •

جميع مجالات الحياة الاقتادية والاجتماعية والسياسية لاهمية ظواهر غريبة عن المجتمع العربي التقليدي ، كل ذلك تظافر على تعزيز التطورات الراسخة حول « الزمن الغابر الخير » وحول امكانية التخلص من المصائب الجديدة عن طريق المحافظة على الاشكال السابقة من العلاقات الاجتماعية •

وعملت القوة الاستثنائية التي تتميز بها الروابط القبلية والدينية والطابع الابوي « الباترياركي » الذي تتميز به العلاقة بين المنتج المباشر والفئة المستغلة في القبائل والطوائف الدينية ، عملت بدورها على ترسيخ النزوع الى القديم ، الى التقاليد • فقد احتفظ زعماء القبائل والطوائف الدينية بتأثير لا ينازع على عقول وميول الجمهرة العادية من الافراد، فكانوا يتزعمون الانتفاضات الشعبية ويصوغون للاغلبية الساحقة من هذه الانتفاضات مبادءها الايدولوجية وشعاراتها السياسية •

وتبرز من بين الحركات الجماهيرية في الاقاليم العربية من الدولة العثمانية الانتفاضات التي قامت في جبل لبنان وعلى الاخص الانتفاضة الفلاحية في ١٨٥٩ ــ ١٨٦٠ • ففي مجرى نضال جبل لبنان تخلصت شعارات الحركة الفلاحية من تأثير الايدولوجية الاقطاعية ــ الاكليروكية واتخذت طابعا معاديا للاقطاع بشكل واضح • ومما له دلالة في هذا المجال ان الفلاحين انطلقوا لاثبات مطاليبهم من الموضوعات التي تضمنتها مراسيم التنظيمات التي نصت على المساواة امام القانون والمساواة الدينية • وقد تجسد ذلك عند التطبيق في مطالبة الفلاحين في « ان منزلة الشيخ يجب ان تتساوى مع منزلتنا [أي منزلة الفلاحين] في جميع المجالات دون استثناء » • [نقلا عن : ٣١ ، ص ٨٩ ــ ٩٠] *

---

* يشير الرقم الاول هنا وفي ما يقبل من الصفحات الى تسلسل المصدر الذي جرى الاستناد عليه في قائمة المصادر المثبتة في آخر البحث .
المترجم

وفي انشاء الجمهورية الفلاحيــة في كسروان • وحتى نهايــة خمسينات القرن التاسع عشر « بدأ سواد الناس يفهمون المعنى العملي لشعارات الحريــة والمساواة » [نقلا عــن : ٣١ ، ص ٩٢] • وأصبحت مطاليب الجماهير الفلاحيــة في لبنان تتمشى مع مصالح البرجوازيــة الناهضة في المدن •

ومع ذلك ظل المستوى الفكري للحركات الفلاحية واطئا جدا حتى في الفترة التي بلغ فيها النضال التحرري أعلى ذروة له ، فالفلاحون لم يستطيعوا التخلص من ضغط الايدولوجية الدينية القروسطية الاقطاعية من حيث الجوهر ، وكانوا يعانون من التأثير الكبير للفئات الاقطاعية ــ الأكليركية ، وحتى بالنسبة للمشاركين في انتفاضة ١٨٥٩ ــ ١٨٦٠ لــم تتعد ذهنيتهم مصالح الفلاحين الذين يشتركون معهم في الدين ، اذ لــم تطرح عمليــا قضية القيــام باعمال مشتركة مع الفلاحين الدروز وعموم المسلمين ، فالافكار القومية ــ الوطنية التي ظهرت خــلال الانتفاضات اللبنانيــة كانت اتجاهات تحمل طابعا انعزاليــا عربيا ــ مسيحيا أو على الاصح لبنانيا ــ مارونيــا • وفي آخر الامر جرى تحويل الانتفاضات المعادية للاقطاع التي قام بها الفلاحــون اللبنانيون الى نزاعات دينيــة أفضت الى مذبحة ١٨٦٠ •

لقد كانت الأسس الايديولوجيــة والشعارات السياسية لاغلبيــة الحركات الجماهيرية التي قامت في الولايات العربية من الامبراطوريــة العثمانية اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر حتى ثورة ١٩٠٨ ذات طابع تغلب عليه صفة المحافظة ، فعلى الرغم من ان مصالح الشغيلة تركت على هذه الحركات بصماتها لحد معين الا ان تلك الحركات ظلت ضمن اطار النضال من أجل المحافظة على العلاقات الاجتماعية الاقطاعيــة ــ الابوية فالشغيلة وخصوصا الفلاحون لم يكن بمقدورهم ان يتصوروا مجتمعا خاليا من السادة ولهذا فانهم كانوا يحاولون الحد من الاضطهاد فقط •

وكانت شعارات الغالبية العظمى من الانتفاضات الصغيرة شديدة الغموض ، حتى انه كثيرا ما انعكس فيها يشكل غاية في الوضوح ، ما كانت موجهة ضده . لقد لاحظ فريق المزهر آل فرعون ، وهو احد المتحدرين من عائلة شيوخ آل فتلة ، في معرض وصفه لتاريخ تطور الانتفاضات المعادية للاتراك التي قام بها عدد من القبائل العربية بأن شعار « (ان هذه الحكومة ما نريدها) » [١٨ ، ج ١ ، ص ٢٧] ظل لوقت طويل الشعار الوحيد للقبائل . ويذكر عند حديثه عن أسباب هذه الانتفاضات ان من بين اسبابها الأساسية الريبة التقليدية للسكان العرب في الفرات الاوسط من نشاط « الروم » * الذين كانوا يعتبرونهم قوة غريبة لا تحمل لهم الا اتاوات والتزامات واعباء جديدة [١٨ ، ج ١ ، ص ٣٠ ــ ٣١] . لقد ظل نمط الحياة العشائري التقليدي المثل الأعلى لهذه الانتفاضات التي لم تتعد مهماتها الدفاع عن مصالح طوائف محدودة ومنغلقة على نفسها .

غير ان المعارضة الايدولوجية الاوسع تمثلت في الاتجاهات الاصلاحية الجديدة في الدين الاسلامي التي ظهرت على شكل فرق دينية وطرق صوتية . ومن هنا يكون للتكوين الايدولوجي للحركة الرامية الى اعادة الدولة السعودية في أواسط شبه جزيرة العرب دلالة خاصة . فقائد هذه الحركة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود كان كأسلافه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعارض العقائد الاسلامية الرسمية التي يحمل لواءها السلطان ــ الخليفة العثماني بموضوعه « الاسلام الحقيقي النقي » المطهر من البدع بحسب التأويل الوهابي . ويذكر الباحثان العربيان حسن سليمان محمود وسيد محمد ابراهيم في معرض وصفهما للاتجاهات الفكرية لدى سكان شرق شبه الجزيرة العربية في فترة اعادة الدولة السعودية بأن هؤلاء السكان كانوا ، الى

---

* تسمية تتسم بشيء من الازدراء كانت القبائل العراقية ، تطلقها على الاتراك وعلى الاخص على موظفي الحكومة وكذلك على الاجانب عموما .

المنصور محمد في رسالة ارسلها في خريف ١٨٩١ الى مبعوث السلطان في اليمن بأنه لا يبغي اية فوائد دنيوية وانما الشيء الوحيد الذي يقلقه هو ازدراء الادارة التركية كلية لاحكام الاسلام . « اننا نرى ان الموظفين لا ينفذون تعاليم الله ولا يحرصون على ان لا تخرق محرماته ولا يحولون دون ارتكاب المعاصي ولا يفعلون ما أشار به كتاب الله وسنة رسوله . انهم يقومون تجاه الدين بما لا يسمح به الله ويرتكبون الآثام ويدفعون الناس لارتكابها .. لقد علت كلمة اليهود والنصارى وأصبح الأكراد والاحباش يحكمون خلق الله ، ولم تعد هناك رحمة لا للمؤمن ولا للذمي » [٨ ، ص ٥٥] . وبالنسبة للمؤمن الذي يتبع الامام الزيدي كان جمع الضرائب التي لم تنص عليها الشريعة الاسلامية كالتشريع العلماني الذي ادخلته السلطات التركية الى البلاد سواء بسواء ، أمر مخالف للشرع .

وفي الوقت الذي رفض فيه الامام المنصور محمد البدع وقواعد الحياة التركية باعتبارها مخالفة للاسلام ، كان يرى المثل الاعلى للمسلم الحقيقي في الشخص الذي يقدس احكام القرآن والسنة ويقيم الصلاة ويؤدي الصيام والحج ويؤتي الزكاة التي نصت عليها الشريعة . وفي الوقت الذي كان يدعو فيه الى الانتفاضة كان يهيب بشركائه في العقيدة ان يشنوا حربا مقدسة ضد « محرفي الاسلام » ومن أجل بعث « الايمان الصادق » [٨ ، ص ١٠ ، ١٣٥] . وقد تميزت بهذه الروح أيضا النداءات التي وجهها الى الناس الامام المتوكل يحيى الذي خلف المنصور محمد وكذلك وثائقه الاخرى [١٩ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٨ ، ٢٧ ، ص ١٠٨ — ١١٠ ، ١١٧] .

ومما يثير الاهتمام في هذا المجال ان نلاحظ بان ايدولوجيي وقادة هذه الانتفاضات المعادية للاتراك والداعية للتقاليد لم يعترضوا من حيث المبدأ على السياسة الرجعية المتطرفة التي كانت تنتهجها طغمة القصر التي تحيط بالسلطان عبد الحميد الثاني ، فقد ظل السلطان — الخليفة يتمتع

جانب سعيهم الى اعادة « القيم الروحية الحقيقيـــة » ، يساندون عبـد العزيز بن سعود باعتباره المدافع عن هذه القيم [١٦ ، ص ١٠٤] • وابن سعود نفسه كان عندما يتوجه الى انصاره يطلق عليهم لقب « المؤمنون » (رجال التوحيد أي المسلمون الحقيقيون وانصار التوحيد الوحيدون كما كان الوهابيون يعتبرون أنفسهم) ، معارضا بهم ، بهذا الشكل جميـع المرتدين والكفار أي حتى العرب غير الوهابيين [٣ ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ١٦ ، ص ١٠٤] • لقد كانت قوة التأثير الايدولوجي التي يتمتع بهـا زعماء الوهابيين احـد الاسباب المهمـة لانتصارهم في الصراع مع آل رشيد وحلفائهم الاتراك •

وعلى مثال اليمن يمكننا ان تتتبع بشكل أكثر تفصيلا الجوانب الأساسية لايدولوجية الحركات الجماهيرية المعادية للاتراك ولبرامجهـا السياسية • ان اهداف بعض القبائل اليمنية التي انتفضت ضد الاضطهاد التركي لم تتعد ، شأنها في ذلك شأن بقية المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية ، حدود المطالبة بالمحافظة على الامتيازات والحقوق التقليديـة وبالغاء الفروض الجديدة (غير الشرعية) • ان هذه الانتفاضات كانت تجري تحت شعار الاخلاص لوصايا السلف ورفض كل ما هو غريب عن التقاليد العشائرية •وعلى نطاق اليمن ككل كان الأئمة الزيديون الذين وقفوا على رأس الحركة هم الذين صاغوا للانتفاضات المعادية للاتراك أسسها الايدولوجية وأهدافها السياسية •

لقد كانت الشعارات الايدولوجية للحركة على نطاق اليمن ككـل تنطلق في كليتها من الفقه الاسلامي الزيدي ، غير أنه ما من شك في أن هذا الشعار او ذاك كانت تمليه أيضا ضرورات الحياة الواقعية ، لكـن المصالح الدنيوية الملموسة كانت خلال ذلك تقام على أساس من أدلـة دينية عقائدية جامدة • لقد كان الائمة واشياعهم في مراسلاتهم الموظفين الاتراك وفي مواعظهم وأقوالهم وقصائدهم يؤكدون على الدوام علـى الاقتباس من القرآن وأعمال رجال الدين المسلمين • فقد أكد الامـام

من الناحية العملية في نظرهم بالحصانة وتركز كل انتقادهم على مستشاري السوء والولاة الرديئين والموظفين المرتشين [٢٧ ، ص ١٠١ ، ١١٣] • وفضلا عن ذلك كان الائمة الزيديون والزعماء السعوديون وقادة الحركات الأقل أهمية يؤكدون بشكل خاص اخلاصهم للسلطان العثماني [انظر : ٤ ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣] • ورغم ان ذلك يفسر قبل كل شيء باعتبارات سياسية تتعلق بالحالة الراهنة فان موقف عبد الحميد الثاني السياسي والايدولوجي كان دون ريب اكثر قربا وتفهما من أي موقف آخر بالنسبة للفئات الاقطاعية المتنفذة في الاقاليم العربية المتخلفة من الامبراطورية العثمانية • ومما له دلالة في هذا الشأن ان هناك عددا كبيرا من الشواهد يشير الى ان عزل عبد الحميد الثاني في ١٩٠٩ واصلاحات الاتحاديين (ذات الطابع البرجوازي) أثارت رد فعل سلبي لدى القادة العرب [٢٨ ، ص ٥٨ ، ٥ ، ص ٦٢ ، ١١ ج ١ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧ ص ١٣٣ ، ٣٧ ص ٣٣٧] •

ومهما كان أمر الاصطلاحات التي استعملت لتحديد الموقف في هذه القضية * فان الخوف من نشاط « الكفار » يعكس دون شك القلق المتزايد من تشديد التوسع الاستعماري ويشير الى عملية موضوعية هي تعميق التناقضات بين الاستعمار وشعوب الشرق المضطهدة • على ان موضوعة عدم التوافق بين الاسس الاجتماعية في كل من الشرق والغرب اتخذت كنقطة للانطلاق عند تحديد هذا الموقف ، حتى انه ، انطلاقا من وجهة النظر هذه ، جرى ، في الحساب النهائي ، تقييم جميع النشاطات التي كان للاوروبيين علاقة بها وكل العمليات التي جرت نتيجة لتوسع العلاقات الاقتصادية وغيرها مع اوروبا الرأسمالية • ثم انتقلت

---

* اتخذ الامام المنصور محمد مثلا نزاعات الحدود على الخط الفاصل بين الممتلكات الانجليزية والعثمانية حجة لاتهام الادارة العثمانية في انها اوصلت البلد والاسلام الى المذلة امام الكفار [٨ ، ٣٦٨ ــ ٣٦٩ ، انظر ايضا : ٩ ، ص ٨] •

القضية في المجال الايدولوجي الى مستوى العلاقات بين الاديان حيث كان يجري تأكيد على حقيقة ان نشاط الادارة العثمانية أدى الى التضحية بمصالح الاسلام .

لقد رفض الكثير لمجرد انه اعتبر من صنع الاجانب والمخالفين في الدين ولهذا فانه ، على حد زعمهم ، مخالف لمبادىء الاسلام ** . وهذا ما يفسر الى حد كبير معارضة ائمة اليمن الشديدة للتعليم والتشريع العلمانيين وعناصر الثقافة الاوروبية ومظاهر الحياة الاوروبية التي ادخلها الاتراك الى اليمن [٢٥ ، ص ٥٩] . وكان لهذا الموقف ، في وضع احتدم فيه النقاش الحاد في العالم الاسلامي وفي ممتلكات الامبراطورية العثمانية العربية بشكل خاص حول قضية العلاقات بين الشرق والغرب ، مدلوله المحدد تماما ، فأصبحت الاوساط الزيدية الحاكمة في اليمن تساند الجناح الاكثر يمينية من المحافظين انصار التقاليد . وقد اعتنقت أغلبية المجموعات الاقطاعية الاخرى التي كانت تقف على رأس الحركة المعادية للاتراك آنذاك آراء مشابهة ولو بشكل ربما أقل وضوحا وتحديدا .

ولم يكن هذا الموقف في قضية العلاقات مع الغرب الرأسمالي المتطور يعني ابدا بان الجماعات الاقطاعية كانت تستبعد امكانية التقارب مع الدول الاوروبية التي كانت تظهر اهتماما بهذه المنطقة ، وأكثر من ذلك فان الكثير من القادة الاقطاعيين انطلاقا منهم من مبدأ « عدو عدوي صديقي » كانوا يعتقدون بأنهم سيجدون في الدول الاوروبية حلفاء وحماة أقوياء . وهكذا فقد كانت توجد ، حتى بين الفئة العليا من الزيدية

** يجدر بنا ان نشير بهذا الصدد الى رد فعل الامام المنصور محمد على افتتاح دائرة للحجر الصحي في جزيرة قمران للحجاج القادمين الى مكة، فحجته الاساسية (والوحيدة) ضد هذه البدعة هي انها ادخلها «الكفار» وهدفهم الوحيد هو اعاقة المسلمين عن اداء احد أهم فروضهم المقدسة [٨ ، ص ١٦١] .

التي تميزت بموقف لا يلين في هذه القضية ، مجموعة ذات نفوذ ، وان كانت قد لاقت الاندحار فيما بعد ، تحاول ان ترسخ من وضعها بأن تضع نفسها تحت حماية بريطانيا* [انظر : ٢٢] . كذلك أقام السلطان الوهابي عبد العزيز بن سعود علاقات وثيقة مع بريطانيا حيث عقد معها فيما بعد معاهدة تحالف جعلت نجد لفترة طويلة في وضع البلد التابع، هذا اضافة الى ان عددا من قادة جبل الدروز كانوا يعلقون آمالا خاصة على بريطانيا [٢١ ، ج ١ ، ص ١٩١] حيث تشير بعض الاخبار الى ان الممثلين الانجليز مثلا استغلوا الشيوخ الدروز في محاولة لاعاقة الاحتكارات الفرنسية عن تنفيذ عدد من المشاريع الاقتصادية [٣٦ ، ص ٤٠ ــ ٤١] .

وهكذا فان الموقف السلبي الذي اتخذته الاوساط الاقطاعية والدينية الحاكمة من كل ما هو جديد ، هذا الجديد الذي كان يقترن عندهم عادة بكل ما هو اوروبي والذي كان يقوض أسس سيادتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كانت تواكبه علاقات سياسية فعالة للغاية مع الدول الاستعمارية وخصوصا مع بريطانيا** . ومما له دلالة في هذا الشأن ان المبادرة كانت تأتي في كثير من الحالات من الزعماء الاقطاعيين والعشائريين في هذه المنطقة . ان جاذبية مثل هذا « الحلف » تفسر بالاساس باعتبارات تتعلق بالظرف السياسي . غير اننا لا يمكن ان نتجاهل ان بريطانيا التي كانت شبه جزيرة العرب تهمها آنذاك من

---

* مما له دلالة بهذا الخصوص ان الامام يحيى حاول ايضا ان يقيم علاقات مع بريطانيا ، حيث كان يجري تجهيز المناطق الثائرة بالمؤن والسلاح عن طريق عدن : [٢٧ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥] . كذلك ساعد الامام بعض امراء اليمن الجنوبية الذين كانوا تحت حماية بريطانيا : [٥ ، ج ١ ، ص ٤٢١]

** قامت ايطاليا ، اضافة الى بريطانيا ، بنشاط كبير في شبه جزيرة العرب حيث اجرت اتصالات مكثفة مع محمد علي الادريسي الزعيم الديني المؤثر في عسير [انظر : ٢٢] .

وجهة النظر الاستراتيجيـــة العسكرية بالدرجـة الاولى ، كانت تكتفي بالسيطرة غير المباشرة على منطقة نفوذها تاركة لشركائها الصغار الحريـة التامة في تصريف الشؤون الداخلية للمناطق الخاضعة لهم • فقد كان لهذا الاتجاه بالنسبة للزعماء الاقطاعيين افضليات واضحة بالمقارنة مـع السياسة المركزية التي كانت تتبعها الحكومـة العثمانيـة ذلك انه كان يمكنهم ، مع وجود حماتهم الاستعماريين ، من ترسيخ مواقعهم الماديـة والاجتماعية والسياسية • وقد اصبح ذلك نقطة الأنطلاق للتحالف الذي تم فيما بعد بين الاستعمار والرجعية الاقطاعية ذلك التحالف الموجه ضد قوى التحرر الوطني والتقدم •

لقد كانت الانتفاضات الجماهيرية في الاقاليم المتأخرة الواقعة في اطراف الامبراطورية العثمانية منقطعة عن الحركة الاجتماعية في الاقطار العربية الاخرى الاكثر تطورا ، فلم يكن للاتصالات الفردية بين قادة هذه الانتفاضات والشخصيات الاجتماعية في الولايات العربية (تبادل القصائد والرسائل بين الشاعر العراقي جعفر الحلي والامام المنصور محمد مثلا [انظر : ٨ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ ، ١٩ ، ط ٢ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١ ـ آ ، ص ١٩]) أي اهمية تذكر •

لقد كانت مفاهيم : « الشعـب العربي » و « الامـة العربية » و « العرب » مثل مفهوم الوحدة العربية التي كان لها مصالح ومهمات خاصة ، بعيدة عن ايدولوجيي هذه الانتفاضات • فالامام المنصور محمد مثلا كان في مواعظه يدعو لخير « الامة المحمدية » والى تخليصها من الاذى ولا يخص اليمانيين بوجـه خاص او العرب بوجـه عام [٨ ، ص ٥٩] •

ويمكننا ان نحكم على نظرة الامام يحيى الى هذه المسألة مـن موقفه من فكرة التوقيع على معاهدة تحالف بين الحكام العرب المستقلين وهي المعاهدة التي قدم مشروعها في ١٩٢١ أمين الريحاني ، فقد وافـق الامام يحيى على توقيع المعاهدة ولكنه حذف منها العبارة التي تشير الى

البعي الم شعث العرب واستبدلهـا بفقرة حول لم شعث المسلمـين [٥ ، ج ١ ، ص ٢١٩] • صحيح انه ليس من النادر ان يعارض الاعاجم بالعرب في وثائق الحركة اليمنية ولكن ذلك كان يعكس ، دون شك ، التقليد القرآني بالدرجـة الاولى وليس تأثير القوميـة العربية الآخـذ بالتطـور •

وأكثر من ذلك فانه على الرغم من ان الائمة اليمانيين كانـوا في مراسلاتهم مع السلطات التركية يتحدثون باسـم سكان اليمن عمومـا (باعتبارهم خلفا للائمة الذين حكموا البلد بشكل مستقل) ، الا انهم كانوا يضعون مصالح الطائفة الزيدية في المقام الاول [١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٧ ، ٨ ، ص ٦٥] كذلك كان السلطان السعودي يتحدث باسم الطائفة الوهابية والزعماء العشائريون باسم قبائلهم •

وعلى العموم احتفظت انتفاضات العرب الجماهيرية ضد الاضطهاد التركي في هذه الفترة بالصفات التي تميز العصر الاقطاعي ، حيث ان برامج العودة الى اشكال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الباترياركية التقليدية القديمة وتنقيتها من البدع التي ادخلتها السيطرة التركية وعززها تشديد المركزية والخطوات الاولى علـى طريق تطـور الرأسمالية ، لم تكن من حيث الجوهر الا برامج المحافظة على الاشكال الاكثر بدائية للاستغلال الاقطاعي • لقد وجه القادة الذين تزعموا الحركة النضال من أجل اعادة « العصر القديم الخير » باتجاه الكفاح من أجل عودة امتيازات رؤساء القبائل العربية والطوائف الدينية ، تلك الامتيازات التي انتقصت منها السلطات التركية •

وفي المناطق التي كانت تثور فيها قبائل وعشائر منفردة حيث كان يقف على رأس الانتفاضات شيوخ متحدرون من اسر بارزة ، كانت تجري المطالبة بالالتزام بالتقاليـد العشائرية ـ القبلية بما في ذلك مبدأ ملكية القبيلة الجماعية للارض واعفاء القبائل من دفع الضرائب الحكومية التي

كانت هذه القبائل تعتبرها ضرائبا غير شرعية • وتتيجة لعدد من الانتفاضات الناجحة التي قامت بها قبائل الفرات الاوسط ودروز جبل لبنان تضررت الفئات الاجتماعية العليا في هذه المناطق واصابتها خسائر ملحوظة • فوثائق ملكية الارض التي حصل عليها الاشخاص الذين ينتمون الى هذه الفئات بموجب قانون ١٨٥٨ تحولت الى وهم ، كما اضطر بعض الشيوخ الى ترك المناطق التي تقطنها قبائلهم وانتقلت اراضيهم الى افراد قبائلهم • ولكن ذلك لم يكن الا تراجعا موقتا فالجماعة الحاكمة الجديدة بعد ان استولت على المراكز القيادية في قبائلهم تتيجة الانتفاضة أخذت ، كأسلافها ، تركز في ايديها ممتلكات واسعة من الارض • وتقدم لنا سيرة زعيم اتحاد قبائل المنتفك سعدون باشا الذي وصل الى الزعامة تتيجة لاحدى هذه الانتفاضات باعتباره نصيرا للتقاليد القبلية مثلا واضحا على ذلك ، اذ لم تمض بضعة سنوات الا واصبح سعدون باشا هذا واقربائه من كبار ملاك الارض [٢٣ ، ص ٥٥٥ ــ ٥٥٦] •

وفضلا عن ذلك فقد جرى تعويض الخسائر المادية وبربح زائد بمكاسب سياسية حصلت عليها الفئات المتنفذة في القبائل • وقد تجسد ذلك في احيان كثيرة في اعتراف ولاة السلطان رسميا بحقوق خاصة للفئات المتنفذة من القبائل والطوائف في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت في السابق من اختصاص السلطة الحكومية •

وعلى الرغم من ان ممارسة الحكم بواسطة الشيوخ قد الغيت رسميا منذ أواسط القرن التاسع عشر فان الادارة التركية • في الكثير من مناطق سكن القبائل لم تكن تتمتع الا بالاعتراف الصوري فحسب ، حيث ان حكم القبائل الناطقة في العراق الاوسط وفي شرق الاردن والحجاز وعدد من المناطق الاخرى كان يتحقق في واقع الامر بواسطة زعماء هذه القبائل ،وقد اتخذ ذلك في عدد من الحالات شكله الرسمي عن طريق تعيين

الشيوخ كقائمقامين أو في مناصب ادارية اخرى •

لقد أدت سياسة الحكومة العثمانية التي كانت تمنح الفئات الاجتماعية العليا في العشائر والطوائف الدينية حقوقا ادارية وسياسية محددة وبشروط معينة ، الى نتائج خطيرة جدا • ففي وضع كانت تجري فيه عملية تحلل طبقي وتحلل في الملكية متسارعة في داخل القبائل والطوائف ، كانت هذه الحقوق تساعد في الحساب النهائي على ترسيخ الوضع الخاص الذي تتمتع به الفئات الاجتماعية العليا وسيادتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الجمهرة العادية من الافراد • وعلى الرغم من ان التنازلات التي قامت بها الادارة التركية في هذا المجال كانت نتيجة للانتفاضات الجماهيرية فانها كونت وضعا ملائما لتقوية العلاقات بين الادارة التركية والفئات المتنفذة في القبائل والطوائف •

وبعد الاطاحة بنظام آل رشيد الموالي للاتراك اعيد في نجد برئاسة السلطان عبد العزيز نظام الدولة الوهابي الذي كان في خطه الاجتماعي مشابها لنظام آل رشيد •

ولم يكن من النادر خلال الانتفاضات المعادية للاتراك ان تظهر في معسكر خصوم الدولة العثمانية تناقضات حادة بين الجماهير الكادحة والقيادة الاقطاعية ودليل ذلك ظهور اشخاص يدافعون عن الفلاحين بشكل منفرد • فقد ظهر في بداية القرن العشرين في منطقة عفك (في الفرات الاوسط) قاطع طريق يتمتع بشهرة واسعة اسمه سليمان : « انه كان يسلب الاغنياء فقط اما الفقراء فكان سخيا معهم » [٢٤ ، ص ١٤٠] •

ومعروفة أيضا حقائق انتفاضات بعض القبائل ضد السياسة المركزية والضرائبية التي يمارسها سلطان نجد ابن سعود ، وكذلك الاستياء من اجراءات الشيخ مبارك [١٢ ، ص ١٢٧] •

ولكن التناقضات التي ظهرت بشكل أكثر وضوحا في سير

الانتفاضات المعادية للاتراك يمكن تتبعها على مثال اليمن • ففي المرحلة المبكرة من تطور الحركة التحررية كانت هذه الحركة تتميز بانتفاضات تقوم بها قبائل منفردة للدفاع عن حرياتها التقليدية ورغبة منها في الحفاظ على المؤسسات العشائرية ــ القبلية واعراف الحياة الاجتماعية القديمة او اعادتها • وكانت الانتفاضات تحقق في بعض الاحيان نجاحا محددا حيث اضطرت السلطات التركية في بعض المناطق وعلى الخصوص في منطقة السودة الواسعة الى التخلي عن محاولة انشاء مؤسسات ادارية تركية والى الغاء القائم منها والاعتراف بالاستقلال الذاتي الذي كانت القبائل تتمتع به [٧ ، ص ٦٠] •

وقد جابه هذا الاتجاه في تطور الحركة المعادية للاتراك في اليمن منذ البداية مقاومة ضارية من جانب الائمة الزيديين المتعاقبين ومن يلتف حولهم من المزارعين وارستقراطيي المدن والفئة العليا من الطائفة الزيدية • وفي الوقت الذي أصبحت هذه الفئات مركز توحيد تكتلت حوله قوى حركة القبائل التحررية المناهضة للاتراك ، كانت في ذات الوقت تشن هجوما حاسما على الحريات والنظم العشائرية ــ القبلية • وهكذا نجد ان حيزا كبيرا خصص في سيرة حياة الائمة الزيديين وغيرهم من ممثلي الفئة العليا من الطائفة الزيدية لنشاطهم في القضاء على الطاغوت واعادة قواعد الشريعة [٨ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤] ولعملهم في مجال اسكان القبائل • وفي الوقت نفسه فرضت جباية الضرائب والمبالغ التي تنص عليها الشريعة (الزكاة والبدنة وغيرها) [٦ ، ص ٥٣ ــ ٥٤ ، ١٧ ، ص ١٤٢] •

لقد كانت اجراءات الائمة هذه تجاه قبائل اليمن تمس مصالح الارستقراطيــة القبلية والجمهرة العادية من افراد القبائل على السواء • فالقبائل التي تحررت من دفع الضرائب للادارة التركية كانت مجبرة على ان تدفع المبالغ التي قننتها الشريعة الى الامام كذلك فقد شيوخ القبائل وضع الرؤساء غير المسؤولين امام احد •

وكانت عملية تقوية نفوذ الائمة على القبائل تجري عبر صراع حاد

غالبا ما كان يتحول الى صدام مسلح مكشوف . ففي اب ـ ايلول ١٨٩٥ قامت قوات الامام بعمليات تأديبية ضد قبائل منطقة الجبير التي ثارت ضد « الشريعة » ، وفي ربيع ١٩٠٠ وشتاء ١٩٠١ قامت بالعمل نفسه في مناطق بلاد هاجور والشرق وسودة شطب ، وفي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ اشتعلت انتفاضات القبائل ضد الامام في مناطق صعدة وصحار وبارات في منطقة حشد [٨ ، ص ١٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨٧] . ان جميع هذه الانتفاضات قادها زعماء عشائريون ذوو نفوذ كما انها اتخذت في عدد من الحالات طابعا فلاحيا صرفا . ومن بين هذه الانتفاضات يمكن ان نخص بالذكر انتفاضة « عامة الشعب والجهلة » (في منطقة بلاد حبابه) التي تزعمها في١٨٨٧ ـ ١٨٨٨ أحد افراد قبيلةبني الرميمففي الوقت الذي كان الثوار يواصلون فيه عملياتهم الحربية ضد القوات التركية رفضوا ان يعترفوا بسلطة الامام الهادي شرف الدين غير ان قوات الامام نكلت بهم بقسوة والقي قائدهم في السجن ومات فيه [٧ ، ص ٩٥ ـ ٩٦] .

ولكن الغلبة في الصراع بين الاتجاهين داخل الحركة التحررية كانت حتما من نصيب الاتجاه الذي يمثله الائمة ، فالى جانب مكانة الأئمة التي لا جدال فيها باعتبارهم الرؤساء الدينيون للطائفة الزيدية ، لم يكن في تلك الظروف بمقدور القبائل المتعادية ان تتكتل ضد العدو المشترك الا حول هؤلاء الائمة بالذات .

وتكون في سير النضال ضد القوات التركية بالتدريج جهاز اداري بدائي خاضع للامام فكان نواة لجهاز الدولة الذي تكون في اليمن المستقل فيما بعد * وأرسل الأئمة الى مناطق سكن القبائل ولاة مدنيون وقادة

---

* رغم ان جماعة الامام لم تطالب بانشاء دولة مستقلة عن الامبراطورية العثمانية في اليمن الا ان نشاطها الدعائي والعملي كان يشهد على الرغبة في الاستقلال . فشعراء الحاشية مثلا كانوا يعظمون الامام ويطلق عليه لقب « صاحب المسلمين » بل وحتى « امير المؤمنين » وهو ←

عسكريون كما كان هناك من الناحية العملية وحتى في المناطق التي تخضع لسيطرة الاتراك قضاة وحكماء تابعون للامام •

ولم تكن صلاحيات ممثلي الامـام هؤلاء محددة بدقة فالقـادة العسكريون كانوا يقومون بقيادة الفصائل التابعة للامام كما يقـودون أيضا المحاربين من أفراد القبائل الذين يخضعون في الوقت نفسه لشيوخ قبائلهم • واستنادا الى معطيات متفرقة وردت في الاخبار الزيدية ، كانت الادارة المحلية في اغلبية المناطق بيد شيوخ القبائل • فالحكام المدنيون لم يكونوا يعينون الا في المناطق التي كان فيها نفوذ الوالي على درجـة كافية من الرسوخ وغالبا ما كانت اختصاصات الوالي والقائد العسكري في مثل هذه المناطق بيد شخص واحد • اما وضع القضاة والحكماء فكان افتقارا للتحديد حيث كانت أهميتهم يحددها توازن القوى بين الامام وهذه القبيلة او تلك او هذا الزعيم القبلي او ذاك • ففي بعض القبائل كان القاضي يكتفي بمكانة متواضعة باعتباره وكيلا للامام تابعا لزعيم القبيلة في حين كان يقوم في حالات اخرى ببعض الوظائف الادارية الى جانب عمله القضائي منها على سبيل المثال جمع الضرائب التي تقرهـا الشريعة [٢ ، ص ٤٧ ، ٧٤ ، ٨ ، ص ٨ ، ٣١ ، ٣١٥ ، ٣٢١] •

لقد تكون ايضا جهاز حكم مركزي كما ان احد الوجهاء التابعين للامام المنصور محمد وهو شخص يتمتع بثقة خاصة ، كان يحمل لقب

→

اللقب الذي لم يكن يحمله الا العاهل المستقل ، كذلك قام الامام المنصور محمد بسك نقود خاصة به كما خطب له في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بالقرب من صنعاء في خريف ١٨٩١ في مسجد مدينة الروضـة لمدة ثمانية أسابيع متواصلة ، واخيرا فان الائمة (وخصوصا المنصور محمـد والمتوكل يحيى) كانوا في مراسلاتهم مع ممثلي الاتراك يؤكدون باصرار بأنهم الخلفاء الشرعيين لحكام اليمن المستقلين [٢٢ ، ص ١١٢ ، ٨ ، ص ٣٥ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٥] •

(الوزير الاكبر) كذلك كان هذا الامام يعين شخصيا بمنصب شيخ الاسلام تابع له وبعض الموظفين الآخرين الذين يسيرون عمل دوائر الحكم المركزي المختلفة • اما ادارة الخزينة (« بيت المال ») وهي المؤسسة التي تهيمن على جميع الموارد المالية والمواد الغذائية الواردة بشكل ضرائب وعلى السلاح الموجود في ترسانة الامام مباشرة [٧ ، ص ٣٧ ، ٨ ، ص ١٨١ ، ٣١١ ، ٢ ، ص ٤٤ ، ٧٧ ، ١٠٠] • لقد كان عمل هذا الجهاز في البداية منصبا في الاساس على تنظيم وتعبئة الحركة الثورية • غير انه ، بمقدار ما كانت الحركة المعادية للاتراك يضطرد نجاحها والامامة ترسخ مواقعها ، كانت تتقدم الى المقام الاول بشكل متزايد الوضوح الاجراءات الموجهة نحو تقوية مواقع الفئة الاقطاعية والدينية العليا للطائفة الزيدية •

ان مأساة جميع الانتفاضات الجماهيرية الكبيرة في الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، هذه الانتفاضات التي كان أساسها مقاومة الشغيلة لسياسة الحكومة القائمة على النهب ولنظام الجور الاجتماعي والسياسي ، كانت تكمن في ان قيادتها وقعت في ايدي الاقطاعيين والزعماء العشائريين ورؤساء الطوائف الدينية المحليين • وقد استطاعت هذه الجماعات باستغلالها للمزاج النفسي للفلاحين ونزوعهم الى « العصر الماضي الخير » .ان توجه الحركة أيضا ضد بعض الظواهر التقدمية موضوعيا وهي الظواهر المرتبطة بانجذاب تلك الولايات الى نظام الاقتصاد الرأسمالي * ، وبظور عناصر العلاقات الاجتماعية الرأسمالية

---

* لقد أدت انتفاضات القبائل الى تقويض العلاقات الاقتصادية وعرقلت التجارة واعاقت تطور الاقتصاد ، ففي خلال انتفاضة قبائل العراق وشمال غرب شبه الجزيرة العربية عرقل الثوار بشكل فعال عمل السكك الحديدية والمواصلات النهرية في نهر دجلة ولهذا فلم يكن من الغريب ان بعض هذه الانتفاضات أثارت رد فعل سلبي من جانب سكان المدن (وبالاخص من جانب التجار وملاك الارض الذين كانوا يدينون « الفوضى » [٢٠ ، ص ٣٧ ، ١٠ ج ٨ ، ص ٥٦ ، ١٥ ، ص ٣٥ ،٢٦، ج٤ ، ص ١٠٠] •

(التشريع العلماني ، التعليم العلماني ، عناصر الثقافة المعاصرة) ، وقد ترسخت خلال سير الاغلبية الساحقة من الانتفاضات الجماهيرية بشكل كبير مواقع الجماعات الاقطاعية المحافظة التي اصبحت فيما بعد عائقا في طريق التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، كما أن تلك الجماعات الاقطاعية التي تزعمت الانتفاضات المعادية للاتراك كانت في نضالها من أجل السلطة قد توجهت في العديد من الحالات الى الدول الاستعمارية طلبا للمساعدة مضحية باستقلال ممتلكاتها ومسهلة استعبادها الكوليتالي** .

ان نتائج المنطلقات المحافظة للحركات الجماهيرية في الولايات العربية من الامبراطورية العثمانية عبرت عن نفسها بشكل مباشر في نطاق

** لقد كان ولاة الامور الاقطاعيون في شبه جزيرة العرب الذين ارتقوا الى ذرى السلطة على اكتاف الحركة الجماهيرية التي صنعها الرحل والفلاحون وسكان المدن العاديون ، يتزعمون حتى بداية الحرب العالمية الاولى وبعدها أكثر الانظمة تأخرا ومحافظة في المشرق العربي : النظام المطلق في نجد (العربية السعودية) ، واليمن الاقطاعي ـ الثيوقراطي الذي فرضت عليه العزلة والكويت وقطر اللتين استعبدتهما الامبريالية الانجليزية .

ان التنازلات التي اضطرت الى القيام بها السلطة المركزية لصالح بعض القبائل (او الطوائف الدينية الصغيرة) ساعدت على ترسيخ الوضع الاجتماعي والسياسي للفئات الاجتماعية العليا التي تتزعم تلك القبائل او الطوائف ، حيث انتقل اليها بشكل رسمي او غير رسمي قسم من وظائف جهاز الدولة الاداري الامر الذي ادى الى الاسراع بعملية ابتعاد السلطة العامة عن جمهرة افراد القبلية العاديين . وفي فترة السيطرة التركية وكذلك بعد زوال هذه السيطرة (في الاقطار التي خضعت للانتداب الانجليزي والفرنسي وفي الدول المستقلة في شبه جزيرة العرب) كانت تجري عملية متواصلة هي عملية ارتباط جهاز الحكم الاداري في الدولة بعلية القبائل والطوائف الدينية التي ظلت محتفظة بوضعها الخاص . وقد تحولت هذه الفئة الاجتماعية في الحساب النهائي الى سند لاكثر الانظمة السياسية والاجتماعية رجعية .

ضيق بين جماعات عشائرية ودينية منغلقة وفي المناطق المتأخرة اجتماعيا وذلك على الرغم من انه ليس بالامكان طبعا تجاهل أهميتها بالنسبة لأوساط اوسع من تلك . لقد كان ذلك احدى نتائج الانتفاضات الشعبية المعادية للاتراك في الاقطار العربية وليس نتيجتها الوحيدة ، فعلى الرغم من كل جوانبها السلبية التي حتمها قدم العلاقات الاجتماعية الاستثنائي ونفوذ القيادة الاقطاعية فان هذه الانتفاضات اصبحت عاملا مهما ساعد على انتقال الحركة الاجتماعية العربية الى مستوى أعلى .

ولقد ظلت الحركات الجماهيرية مجرد انتفاضات لطوائف دينية وقبلية محدودة بهذه الدرجة او تلك كما اقتصرت ايدولوجيتها وبرنامجها السياسي بشكل عام على مصالح الطائفة المعنية التي كانت في واقع الامر تتعارض مع مصالح الطوائف الاخرى * .

غير ان النزعة الانفصالية لبعض الجماعات أخذت مع سير النضال تضعف تدريجيا وذلك امر لم يكن محسوسا في الظاهر الا قليلا حيث ظهر

---

* ان تأثير النزعة الانفصالية والتناقضات الحادة بين مختلف مجموعات السكان العرب يلاحظ عمليا في جميع مناطق الانتفاضات الجماهيرية ، ولم تكن مذبحة ١٨٦٠ الا انعكاسا واضحا لذلك . كذلك لم يكن من النادر ان توجه القبائل الثائرة في اليمن سلاحها ضد الرعية (الرعية هي تسمية تطلق على السكان دافعي الضرائب في الامبراطورية العثمانية . وتعني ايضا في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية الفلاحين الذين لا يدخلون ضمن القبائل) المستقرة وسكان المدن . فقد تعرض للنهب من جانب القبائل المهاجمة سكان صنعاء (١٨٩١ ـ ١٨٩٢) وسكان الروضة وهي احدى ضواحي صنعاء (١٩٠٠) وسكان بعض المدن الاخرى ايضا . وقد كتب الفاسي عن الاساءات التي قامت بها القبائل التي حاصرت صنعاء قائلا: « لقد اصابت السكان كارثة رهيبة . انهم هربوا من صنعاء خوفا من الخطر فوقعوا في خطر آخر . لقد هربوا من الموت فوقعوا بين يديه » [١٩ ، ط ٢، ص ٢٧٥ ، انظر ايضا : ٨ ، ص ٣٢٤] . لقد اصبحت الصدامات الدموية بين القبائل كوارث يومية استغلتها السلطات العثمانية التي كانت تحرض القبائل بعضها ضد البعض الآخر .

بوجه خاص في حقيقة ان هذه الحركات كانت يؤثر بعضها على البعض الآخر ، تحولت من الناحية الموضوعية الى حركات متحالفة ، فلم يكن من النادر خلال تطور الانتفاضات المعادية للاتراك ان توحد قبائل منفصلة او اتباع طوائف دينية مختلفة جهودها في النضال ضد العدو المشترك . ولقد ظهرت مثل هذه المساندة والمساعدة المتبادلتين بشكل فعال جدا في اليمن (حيث انضمت بعض قبائل الشافعيين الى انتفاضات القبائل الزيدية) وفي انتفاضات القبائل المشتركة في العراق وكذلك في التحالف الكويتي ــ السعودي .

ومما لا شك فيه فان هذا التعاون لم يكن قد تعدى بعد كونه نتيجة للصفقات السياسية الاعتيادية التي كانت تعقد بين القادة الاقطاعيين والعشائريين لا اكثر وغالبا ما كان يحمل طابعا وقتيا . غير انه في وضع كانت تجري فيه عملية مكثفة تؤدي الى تكوين اسواق قومية عامة في حدود اقليمية معينة وتتوثق فيه عرى الوحدة الاقتصادية وتنمو أهمية المصالح السياسية المشتركة للسكان الذين ينتمون الى قبائل ومذاهب دينية مختلفة فان مثل هذا التعاون كان يتضمن البواكير الاولى للتكتل القومي الناشيء . وفضلا عن ذلك فان النضال المشترك لمختلف مجموعات السكان العرب ضد النير التركي ساعد على ايقاظ الوعي القومي لجماهير الشعب الواسعة واعاقها فيما بعد على هضم اسس الايدولوجية القومية الوطنية . فبعد مضي عقدين أو ثلاثة من السنين اشتعلت في سوريا والعراق ثورات قومية تحررية قوية كان السبيل اليها قد مهدته الانتفاضات المحلية التي قامت بها قبائل وطوائف دينية منفردة . وهكذا ادت الحركات الجماهيرية التي قامت في فترة الظلم (أي فترة الحكم المطلق الذي مارسه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٨ ــ ١٩٠٨)) في شبه جزيرة العرب الى قيام دول مختلفة (نجد الوهابية ، الامامة الزيدية في جبال اليمن) أصبحت بعد الحرب العالمية الاولى مراكز لحركات توحيدية قوية .

لقد أثرت الحركات الجماهيرية التي قامت على حدود القرنين التاسع عشر والعشرين بشكل ملحوظ على تكون الايدولوجية القومية العربية الوطنية • ولقد جذب تطور هذه الحركات وعلى الاخص الانتفاضات المعادية للاتراك في اليمن واحداث نشوء الدولة السعودية في نجد انتباه عبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده ونجيب عازوري وكثير غيرهم من المفكرين والشخصيات العربية الاجتماعية والسياسية المعروفة في تلك الفترة • ومما له دلالة ان احدى افكار حركة التحرر القومي العربية ، تلك الافكار التي كانت آنذاك لا يزال يشوبها الغموض وهي فكرة اعادة الخلافة العربية قد ارتبطت في مؤلفات انصارها والداعين لها (الكواكبي ، عازوري ، لويس الصابونجي) بقيادة عرب ذوي نفوذهم اشراف مكة [٣١ ، ص ١٢٢ — ١٢٤] • ربما لم تكن الدوافع لهذه الآراء هي مكانة اشراف مكة باعتبارهم حماة المقدسات الاسلامية والماضي التاريخي فحسب وانما أيضا حقيقة انهم كانوا يتمتعون بنفوذ ملموس بين القبائل البدوية التي كان الكثير من ممثلي الفكر القومي ينظرون اليها على انها العنصر الأكثر ديناميكية في المجتمع العربي • ولم يكن ترشيح اشراف مكة كقادة محتملين لحركة التحرر العربي هو الاتجاه الوحيد في هذا الشأن ، فأعضاء المنتدى الادبي العربي في اسطنبول (الذي تأسس في ١٩٠٩) كانوا يحلمون بالحصول على الحرية بمساعدة امام اليمن يحيى والسلطان الوهابي عبد العزيز بن سعود [١ ، ص ٢٣١] ، في حين كان آخرون يعتقدون بأن حركة التحرر العربي يمكن ان يتزعمها عبد العزيز بن سعود وشيخ الكويت مبارك [١٤ ، ص ٥٦] •

وأخيرا فان انتفاضات الجماهير الشعبية ضد النظم السائدة في الدولة العثمانية ، تلك الانتفاضات التي كانت تجري تحت شعارات محافظة وبقيادة الاوساط الاقطاعية التي تنكر كل جديد كانت تنخر نظام عبد الحميد الثاني الرجعي • ان الحملات التأديبية غير المجدية ضد المناطق المتمردة كانت تقتطع الشبيبة التركية والعربية والكردية من أوطانها وعوائلها وتحكم عليها بالموت في حروب غريبة عنها • ولقد انتهت حملة ١٩٠٤ السيئة الصيت الى نجد باندحار الفيلق التأديبي التركي وموت

القسم الاغلب من جنوده وضباطه [١٠ ، ج ٨ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨] ، كما ان خسائر الجيش التركي بلغت في الحرب في اليمن على الاخص حجما ينذر بالكارثة ، حتى ان احمد فيضي باشا الحاكم التركي العام الذي لم يكن له مصلحة في المبالغة في هـذه الخسائر ذكر في احدى رسائلـه الى الامام المنصور محمد بأن عدد من هلك في المقاطعات الخاضعة لـه بلغ ستة آلاف جندي [٨ ، ص ١٠٣] ، غير أن الخسائر كانت أكثر من ذلك بكثير حيث تؤكد المصادر غير الرسمية بأنه كان يموت في كل سنة من العسكريين الاتراك عشرة آلاف شخص [٣٨ ، ص ٦٥ ، ٣٣ ، ١٩٠٩، رقم ٢ ، ص ٩] . وعلى ذلك فان اليمن لم تحصل على اسم « مقبرة الاتراك » عبثا .

والحقيقة ان رصاص الثوار ليس هو الذي أفرغ صفوف الجيش التركي ذلك ان القوات التركية كانت تعاني على الدوام نقصا في المؤن والملابس نتيجة للنقص الدائم في الاموال وتفشي الاختلاس على نطاق واسع والفوضى التي كانت تكتنف جميع دوائر جهاز الدولة بما في ذلك المؤسسة العسكرية . ان سكان الاقاليم المركزيـة في الامبراطوريـة العثمانية الذين كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية في مناطق اليمن شبـه الاستوائية أو في صحارى وسط شبه جزيرة العرب ومناطق الاهوار في العراق كانوا يعانون بشدة من قساوة الظروف المناخية التي لم يعتادوا عليها ، في حين ان الخدمات الطبية في الجيش التركي لم تكن مؤهلـة لتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها : وهكذا فان خسائر القوات في الولايات العربية كان سببها الرئيس هـو ارتفاع نسبة الوفيات نتيجة للاوبئـة المعدية [٣٢ ، ص ٤٧ ، ٣٣ ، ١٩٠٢ ، رقم ٢ ، ص ٩] . فخلال الحملات التأديبية في سوريا وشمال العراق كانت اعداد كبيرة من الجنود تموت نتيجة للجوع والمرض [٢٩، ص ٧٤ ــ ٧٥] . ولم يكن بمقدور السلطات التركية تعويض الخسائر في القوات عن طريق تدريب وجبات جديدة من المجندين وارسالها الى الاقاليم النائية لهذا فانها كانت تحاول ان تحل القضية عن طريق تمديد خدمة الجنود والضباط في الجيش العامل .

لقد كانت الوحدات العسكرية التي ترسـل في حملات تأديبيـة

وخصوصا الى شبه جزيرة العرب تفقد أهليتها للقتال بسرعة كبيرة [٢٧ ، ص ١١١] كما ان سياسة السلطات التركية القائمة على جمع الضرائب بمساعدة القوة المسلحة وفرض الغرامات الحربية على القبائل والقرى المتمردة كانت تساعد على توسع عمليات السلب والنهب في ميدان القتال حتى ان ذلك غالبا ما كان يصبح الوسيلة الوحيدة لتموين الجنود • وكانت القوات التركية التي تقف على حافة الانهيار المعنوي تعاني الاندحارات العسكرية الواحد بعد الآخر رغم تفوقها في المعدات العسكرية • وحتى في حالة احرازها الانتصارات لم تكن هناك أية ثقة في أن هذه الانتصارات ستؤدي الى تغيير جذري في الوضع العسكري •

واتسع بين الجنود انعدام الثقة والشك في القدرة على الانتصار في الحرب ضد القبائل والأقاليم الثائرة والاستياء من الانظمة العسكرية وأدى ذلك كله في الحساب النهائي الى خرق الانضباط العسكري بشكل مباشر ورفض تنفيذ الأوامر العسكرية بل وحتى رفض الانصياع للسلطان نفسه • وقد ظهر ذلك بوضوح في الوحدات العاملة في اليمن على وجه الخصوص ، حيث كان جنود منفردون ومجموعات كاملة من المقاتلين الاتراك يهربون اثناء العمليات العسكرية ويختفون في المنطقة التي يسيطر عليها الثوار [٢٧ ، ص ١٠٣ ، ١١٢] • غير أن الاحتجاج لم يكن سلبيا فقط ففي صنعاء بدأ في ١٩٠٦ اضراب موظفي التلغراف الذين طالبوا الوالي بارسالهم الى الوطن • وفي الوقت نفسه توجهت وحدات الجيش المرابطة في عمران دون امر الى صنعاء وطالب افرادها بتسريحهم فورا وانضم اليهم جنود من حامية صنعاء ، ثم احتلت القوات الثائرة المسجد الرئيس في صنعاء واعتصمت فيه لمدة اسبوعين حتى اضطر الوالي آخر الأمر الى تنفيذ مطاليبهم • كذلك قامت قوات الاحتياط المرابطة في الحديدة* بانتفاضة مشابهة [١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤] •

---

* لوحظت انتفاضات قوات الاحتياط في الحديدة في تسعينات القرن ←

ولم يكن من النادر ان يؤدي مجرد التهديد بالارسال الى اليمن او الى ولاية عربية اخرى الى الفرار من الجيش او الى هياجات الجنود . ففي ١٩٠٦ تمرد ثمانمائة جندي من حامية اسطنبول .. كذلك اشتعلت في السنة نفسها انتفاضة للجنود في طرابزون احتجاجا على ارسالهم الى اليمن [٣٤ ، ص ٢٢٠] . وقد رفضت بعض الأفواج الكردية من الحميدية تنفيذ الامر بالهجوم على ثوار اليمن وقد فقدت الخدمة في وحدات الحميدية على العموم الكثير من جاذبيتها بعد ان بدأت الحكومة تستخدمها في العمليات العسكرية في اليمن [٣٠ ، ص ١١٥ ـ ١١٧] .

ان الانتفاضات الجماهيرية في الولايات العربية وكذلك في الولايات الاخرى من الامبراطورية العثمانية ، تلك الانتفاضات التي كان عبد الحميد يسعى لان يخمدها بالاستناد الى وسائل الاكراه فقط ، كانت احد العوامل التي ساعدت على تنامي الميول المعادية للحكومة في الجيش [انظر : ١٣ ، ص ٤٠] . ان التذمر الصامت في الجيش والانتفاضات المنفردة كانت تجري بشكل عفوي وغالبا ما كانت اسبابها ذات طابع شخصي غير انها في وضع استحكمت فيه الازمة السياسية العميقة كانت تتخذ بالنسبة للنظام معنى ينذر بالشؤم . لقد اتسعت الهوة التي تفصل جماهير الجنود والضباط العاديين عن علية الجيش ففقد عبدالحميد وعصبة البلاط السيطرة على الجيش ـ أملهم الأساسي والقوة الحقيقية الوحيدة عمليا التي كانوا يستندون اليها في محاولتهم للاحتفاظ بالسلطة. وهكذا تكون داخل القوات المسلحة العثمانية جو في غاية الملاءمة لنشاط المعارضة العثمانية المعادية للحكم المطلق وتهيأت الظروف لتحويل الجيش التركي من ركيزة للحكم المطلق الى احد العوامل الفائقة الأهمية في نجاح

التاسع عشر وفي السنوات الاخيرة التي سبقت ثورة الاتحاديين في ١٩٠٨ . لقد ابدت على الوحدات المرابطة في اليمن وفي الاقاليم العربية الاخرى تأثيرا ثوريا حقيقة ان السلطات العثمانية كانت تنفي الى تلك الولايات « العناصر غير الموثوقة » من الضباط والموظفين .

احدى ثورات عصر « يقظة آسيا » المعادية للحكم المستبد هي ثـورة الاتحاديين في ١٩٠٨ .

لقد كانت الحملات التأديبية الباهضة التكاليف عبئا على الخزينـة العثمانية ليس في مقدورها تحمله فكانت سببا اضافيا لزيـادة الضرائب وساعدت على استمرار تفاقم الازمة المالية والاقتصادية المستديمة فأدت في الحساب النهائي الى تفاقم الازمة السياسية أيضا . ان الاجراءات العسكرية التأديبية كانت في عداد الجوانب المكروهة جدا لسياسة نظام عبد الحميد الثاني الداخلية . فلقد تنامى الاستياء حتى في معسكـر الرجعية المتطرفة التي كان عبد الحميد يستند اليها بسبب اتضاح عـدم أهلية النظـام لتحقيق أي نتائج ايجابية في هذه القضية . حتى رعايا الامبراطورية العثمانية الجهلة والمتأخرون المسحوقون أخذوا تدريجيـا يفقدون الثقة التي زرعت في نفوسهم بشكل مصطنع بالقدرة المطلقـة للسلطان « ظل الله على الأرض » (وهو اللقب الذي كان يطلق علـى السلطان ــ الخليفة تعظيما له) . لقد كانت الاخفاقات في الحرب ضد حركة الثوار في الاقطار العربية واحدا من الاسباب المهمة لانهيار الهيبة المعنوية للنظام .

لقد أصبح التنكيل الوحشي بالسكان الثائرين وخصوصـا فـي ممتلكات الامبراطورية العربية موضوعا للهجوم العنيف من جانب المعارضة العثمانية المعادية للحكم المطلـق ، فخص الاتحاديون لهذا الموضـوع اهتماما كبيرا في نشاطهم الدعائي . وهكذا ادان مؤتمر باريس للمنظمات الاتحادية (كانون الاول ١٩٠٧) سياسة القمع الشامل واشار بشكـل خاص الى « الفظائع الاجرامية في البلاد العربية » [٣٤ ، ص ٢٤٨] ودعا في البيان الذي أقره الى عرقلة استمرار الحملات التأديبية بكل الوسائل الممكنـة .

لقد كانت الحركات الجماهيرية في الولايات العربية مظهرا للازمة السياسية والاجتماعية التي شملت الامبراطورية العثمانية ولكنها اصبحت

بدورها عاملا مهما من عوامل تشديد هذه الازمة واضعاف قوة الرجعية العثمانية وبالتالي انهيار نظام السلطان الدموي . وعلى الرغم من المواقف المحافظة جدا للفئات التي تزعمها بل ورغم نتائجها الرجعية في عدد من الحالات فان انتفاضات الجماهير الشعبية ومقاومتها السلبية في أكثر المناطق تأخرا في المجال الاجتماعي ساعدت على نشوء اتجاهات في الحركة التحررية أكثر نضجا في مستواها الاجتماعي والايدولوجي والسياسي. وفي ظروف ذلك العصر التاريخية المحددة ، في فترة تحطيم أنظمة القرون الوسطى في الشرق ، اندمجت تلك الانتفاضات بالحركة العثمانية العامة الهادفة الى التجديد الاجتماعي والسياسي ولعبت دورها الايجابي في نضال شعوب الامبراطورية العثمانية من أجل التقدم الاجتماعي .



المصـــادر

١ ـ برو ، توفيق علي ، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٠ .

ـ ٢ ـ بطي ، رفائيل ، الصحافة في العراق ، القاهرة ١٩٥٥ .

٢ ـ الجرافي ، القاضي ، العلامة فخر الدين عبدالله بن عبد الكريم، تحفة الاخوان بحلية علامة الزمان ، حليف السنة والقرآن المولى شيخ الاسلام المعمر حسين بن علـي العمري ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .

٣ ـ الخطيب ، عبد الحميد ، الامام العادل صاحب الجلالة الملـك عبد العزيز بن عبد الرحمـن الفيصل آل سعـود ، سيرته ، بطولته ، سر عظمته ، الجزء الاول والثاني ، القاهرة ١٩٥١ .

٤ ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، وضع حواشيه واشرف على تنسيقه يعقوب عبد العزيز الرشيد ، بيروت ، د.ت .

٥ ـ الريحاني ، امين ، ملوك العرب ، رحلة في البلاد العربية م ١ ، ٢ بيروت ١٩٦٠ .

٦ ـ زبارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، انباء عن دولة بلقيس وسبأ ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ .

٧ ـ زبارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، ائمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة ، الامام الهادي شرف الدين (ابن محمد الحسيني) القاهرة ، ١٣٧٦ هـ .

٨ ـ زبارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، ائمـة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة . المجدد للدين امير المؤمنين المنصور بالله رب العالمين محمد بن يحيى حميد الدين ، القاهرة ١٣٧٦ هـ .

٩ ـ العرشي ، القاضي حسين بن احمد ، كتاب بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وامام . تأليف القاضي حسين بن احمد العرشي وقد ختم حوادثه في سنـة ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م . عنى بنشره الاب انستاس ماري الكرملي من اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية واوصل حوادثه الى آخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٥٨ للهجرة ، الموافق لمنتصف ايار (مايو) سنة ١٩٣٩ للميلاد ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

١٠ ـ العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الثامن ،

العهد العثماني الاخير من سنة ١٢٨٩ هـ ـ ١٨٧٢ م الى سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م ، بغداد ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م .

١١ ـ العمري الموصلي ، محمد طاهر ، تاريخ مقدرات العراق السياسية . تاريخ سياسي يبحث عن تطور علاقات الدول الادرياتية في العراق وعن سر القضية الحجازية والقضية العراقية وعن ثورات العراق عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ مفصلا ومستندا الى وثائق رسمية وخصوصية ، المجلدان الاول والثالث ، بغداد ١٩٢٥ .

١٢ ـ الفرحان ، راشد عبدالله ، مختصر تاريخ الكويت وعلاقتها بالحكومة البريطانية والدول العربية ـ ماضي الكويت وحاضرها ـ ١ ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٣ ـ فيضي ، سليمان ، في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي، بغداد ، ١٩٥٢ .

١٤ ـ قلعجي ، قدري ، اضواء على تاريخ الكويت ، بيروت ١٩٦٢ .

١٥ ـ الكوراني ، علي سيدو ، من عمان الى العمادية او جولة في كردستان الجنوبية . عمان ١٩٣٩ .

١٦ ـ محمود ، دكتور حسن سليمان وابراهيم ، سيد محمد ،تاريخ المملكة العربية السعودية في اطار تاريخ الوطن العربي الكبير في العصور الحديثة ، القاهرة ، د.ت .

١٧ ـ مراثي فقيد اليمن والاسلام المرحوم السيد العلامة محمد بن محمد بن يحيى زبارة اليماني الصنعاني رحمه الله ونبذة من تاريخ حياته ، تعز ، د.ت .

١٨ ـ المزهر آل فرعون ، فريق ، الحقائق الناصعة في الثورةالعراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها مزودا بالوثائق وموضحا بالخرائط والصور . الجزء ١ ، ٢ بغداد ، ١٩٥٢ .

١٩ ـ الواسعي اليماني ، العلامة الشيخ عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرحة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ والطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٢٧ م .

20 — Averyanov; Etnografee chesky E voenno-politee chesky obzor aziatskeekh vladenii Ottoman skoy Imperii, SPB., 1912.

21 — Bell, Gertrude Lowthian; The Letters of Gertrude Bell, vol. 1-11, London, 1927.

22 — Bondarevsky G. L. Osvobodeetelnaya borba narodov Emena v Kontse XIX V. E. Pozeetsiya Velee Kobritanii - VI, 1971, iyoom, No. 6.

23 — Dickson H.R.P. the Arab of the Desert. A Glimpse into Bedouin Life in Kuwait and Saudi Arabia, London, 1948.

24 — Geere H. Valentine. By Nile and Euphrates. A Record of Discovery and Adventure, Edinburgh, 1904.

25 — Ingrams Harold. The Yemen Imams, Rulers and Revolutions, London and Southampton, 1963.

26 — «Izvestiya Shtaba Kavkazskovo Voennovo Okruga».

27 — Jacob Harold F. Kings of Arabia. The Rise and Set of the Turkish Sovranty in the Arabian Peninsula, London, 1933.

28 — Kreemsky A. Aravskoe Vosstanie E evo Perspekteeve — «Probleme Veleekoy Rossii» 1916, No. 10.

29 — Kreemsky A. Musulmanstvo E evo budushnost. Proshloe Islama, Sovremennoe Sostoyanie Musulmanskeekh narodov, eekh umstvennie sposobnosti, eekh otnoshenie K evropeiskoy tsivilizatsii M., 1899.

30 — Lazarev M.S. Kordsky vopros (1891-1917) M., 1972

31 — Leven Z.E. Razveetie ocnovneekh techenii obshestvenno — politeecheskoy Misli V Sirii E Egipte (novoe vremia) M., 1972.

32 — Nite E.F. Revolutsionii Perevorot v turtsii (The Awakening of Turkey), CPB, 1914.

33 — «Novoe Vreemia».

34 — Petrosyan, U.A. Mladaturetskoe dvenenie (vtoraya poloveena XIX — nachala XX V.) M., 1971.

35 — Said, Ameen. Vosstaniya Arabov V XX veke, perev. S. Arab., M., 1964.

36 — «Soabsheniya Imperatorskovo Pravoslavnovo Palasteen - Skovo obshestva ».

37 — Ular, Alexander und Insabato Enrico Der Erloschende Halbmond. Turkische Enth ullungen, Frankfort A. M., 1909

38 — «Voorozenie Seeli Turtsy. ch. 1 voenaya podgotovka armii (po dannem K 1 aprelya 1913) ».



مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر



المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر

العدد التاسع

محتويات العدد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمة

ان النجاح الذي احرزته مجلة المؤرخ العربي في مجال البحث التاريخي ، مما شجعنا على المضي قدما في تطوير هذه المجلة التي اتسمت بالروح الموضوعية وجعلها ابدا اثبت المجلات التاريخية وارصنها في تقديم المواضيع التاريخية ومعالجتها بالتحري والدقة وبحيث تكون هذه المجلة من الوثائق المعتمدة وتعتبر من مصادر الدراسة والبحث في الميدان التاريخي •

ان هذا العدد التاسع من مجلة المؤرخ العربي والذي يسهم في اعداده وتحريره نخبة من المؤرخين والباحثين العرب يعطي الدليل الواضح على نجاح اتحاد المؤرخين العرب في توثيق أفضل الصلات بين المؤرخين في الوطن العربي ، وتفاعله معهم تفاعلا ثقافيا يحقق الاهداف التي أقيم من أجله اتحادهم العتيد •

ان مجلة المؤرخ العربي صورة حية للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب . وبكل اعتزاز وفخر اقدم للقارىء الكريم هذا العدد الجديد طافحا بالافكار السامية والآراء البناءة التي قدمتها هذه البحوث الرصينة •

والله أسأل ان يحقق أهدافنا كاملة من أجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالروح النبيلة وبالصفة العلمية وبذلك تبرز الجوانب المشرقة من تاريخنا القومي ، تاريخ الامة العربية المجيدة ، والله ولي التوفيق •

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفلاسفة المسلمون الأوائل وأثرهم في التراث الفكري

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد

امتاز الفلاسفة المسلمون بتفكيرهم الخالص النابع من ذاتهم ، وبابتكاراتهم الصادرة من عقليتهم التي اعتمدت على التفكير المنسق ، واننا اذ نحاول توضيح جوانب الفلسفة الاسلامية واصولها نعتقد ان الفلسفة الاسلامية برمتها طابعا مميزا وواضحا للحضارة الاسلامية ، ففي مناهج البحث الفلسفي الاسلامي والآراء القيمة التي قدمها الفلاسفة المسلمون تعبيرات صادقة للتقدم العلمي الذي وصله المسلمون في القرون الوسطى. ولكي نتبين الجانب الأصيل في الفلسفة الاسلامية لا بد من أن نعرض لموقف الاسلام من مختلف الثقافات الفلسفية التي تكون دائرة معارفهم في تلك الناحية ، وتلك الثقافات يمكن حصرها :

أ ـ الفلسفة الارسطوطاليسية الممزوجة بالافلاطونية المحدثة ، وقد تناول هذه الفلسفة بعض الأوائل من المسلمين بمنهج تنسيقي ، وحاولوا في ضوئه التوفيق بين مختلف المذاهب اليونانية ، واصطنعوا في هذا كل وسيلة ممكنة .

ب ـ التصوف الاسلامي ـ وهو يشمل مجموعة مختلفة من التفكير اليوناني وخاصة الافلاطونية المحدثة ، والتفكير الشرقي وامشاج من المسيحية والاسلامية ويسمى أصحاب تلك المحاولة صوفية الاسلام .

ج ـ علم التوحيد ـ او علم الكلام او علم اصول الدين . ويسمى اصحابه بالمتكلمين او متكلمي الاسلام .

د ـ علم اصول الفقه ـ وهو ادراك القواعد التي نتوصل بها الى استنباط الاحكام الشرعية الفرعية عن ادلتها التفصيلية ، أو هو نفس القواعد الموصلة بذاتها الى استنباط الاحكام وبمعنى أدق هو منهج الفقه او منطقه مقابلا في ذلك لمنهج الفيلسوف ويسمي أصحابه بالاصوليين ، أو علماء اصول الفقه .

ولا شك فان الفلاسفة المسلمين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الفلسفة اليونانية ولكنهم وفقوا الى بعض الابتكارات والتجديدات في ابحاثهم الفلسفية .

والنزاع بين الاسلام والفلسفة اليونانية بدأ منذ اللحظات الاولى التي دخلت فيها تلك الفلسفة في العالم الاسلامي ولكن النزاع بين الاثنين استمر امدا طويلا لم تخمد جذوته حتى بلغ أوجه حين اعلن الغزالي تكفير فلاسفة الاسلام أنفسهم باسم الاسلام .

ويبدو انه كان لا بد من اختلاف الطبيعتين ـ فالاسلام وضع من أوضاع الحياة العملية ، بينما الفلسفة ، بحث مطلق في الوجود من حيث هو وجود ، كانت الفكرة الشائعة ان حركة اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية انما بدأت في عصر العباسيين ، ولكن يبدو ان اتصالا حقيقيا نشأ في العالم الاسلامي اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية في العقود الاسلامية الاولى ، فقد ذكر ابن كثير ان علوم الاوائل انتشرت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري ، والمقصود بعلوم الاوائل الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامي ، ويذكر الفيلسوف الشيرازي في كتاب الاسفار الاربعة ـ عن المطارحات للسهروردي (ان المتكلمين الاوائل في عهد بني امية عرفوا الفلسفة اليونانية ، ولكن ليست من ذلك النوع المشائي الذي عرفه

المسلمون بعد) ويقول ان هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التي عرفوها وجعلوها اساسا لفلسفتهم ، ومن المحتمل ان يكون قد وصل الى المتكلمين في العصر الاول عن طريق مناقشات شفوية مع آباء الكنيسة، أو عن طريق كتب نقلت بعض قواعد الفلسفة الرواقية .. والرواقية ، فرقة من الفلاسفة القدماء منسوبة الى الرواق الذي تحته كان يعلم زينون الذي انشأها أواخر القرن ٤ ق.م. وتنقسم الفلسفة في نظرهم الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق وهو الاهم . الحكم يخضع لناموس الكون ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، ولا يميزون بين المادي والروحي.

وكانت لحركة الترجمة الآثار البعيدة في تعرف المسلمين على كتب الفلسفة اليونانية وأفكار اليونانيين الفلسفية ، وقد عرف المسلمون المعلومات الكافية عن طاليس وانكسمندريس وانكسمانس وفيثاغوراس وانكساغوراس وديموقريطس ، كذلك كانت لهم معرفة واسعة بأفكار سقراط وافلاطون وارسطو أشهر فلاسفة اليونان عند المسلمين .

١ ـ الكندي ـ ولد حوالي سنة ١٨٥ هـ ٨٠١ م ، وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ، نسبة الى كندة القبيلة العربية العريقة التي كان أصلها في أرض اليمن ، وقد نزح منها بطون الى بعض الأقطار فكان لها فروع في العراق والاندلس وبلاد الشام ، ومن اجداد الكندي ، قيس ابن معدي كرب والاشعث بن قيس الذي ينتهي اليه نسب الكندي في الاسلام . ونسبة في الاسلام هو يعقوب بن اسحق بن الصباح بن عمران ابن اسماعيل محمد بن الاشعث بن قيس ، وكان ابوه اسحق بن الصباح شاعرا واميرا على الكوفة في عهد المهدي والرشيد ، واختلفت الروايات عن نشأة الكندي وحياته فقد ذكر بعضهم انه ولد في البصرة ، وقال غيرهم انه ولد في الكوفة عند ما كان ابوه واليا عليها وسواء أكان مولده في البصرة أو الكوفة فهو عراقي المولد والنشأة عربي الثقافة مسلما وتعلم في صغره القراءة والكتابة ودرس القرآن الكريم وعلوم الدين والفصاحة، وقصد بغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت في أيامه مشعلا للعلوم

ومأوى العلماء وملاذ الادباء والكتاب والشعراء وموطن المصنفين والمترجمين ، واقبل يعقوب الكندي على خزائن الكتب في مدارس ومساجد وقصور بغداد وفي بيوت علمائها واعيانها اقبالا عظيما ينتهل من الكتب الوفيرة التي عجت بها بغداد ما كان منها مترجما عن اليونانية والأرامية والفارسية فضلا عن المصنفات العربية الكثيرة في شتى العلوم والمصارف • وأصبح الكندي صاحب اعظم شهرة وأرفع ذكر وأبقى أثر من جميع بني كندة في حياته وبعد وفاته فهو بالاضافة الى المناصب المهمة التي اشغلها في دولة بني العباس خصوصا ايام المأمون والمعتصم كمترجم ومنقح فقد كان منصرفا الى التأليف وترك مئات المؤلفات في شتى العلوم والفنون ، قال عنه ابن النديم « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها » وقال صاعد الاندلسي : « انه لم يكن في الاسلام من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا غير يعقوب » • وقال ابن ابي اصيبعة ، حذاق الترجمة في الاسلام اربعة حنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة وعمر بن الفرحان الطبري •

لقد خاض عالمنا الكبير حقولا شتى من المعرفة وتناول بالتأليف مواضيع مختلفة في علوم الطب والكيمياء والحساب والمنطق والادب والهندسة والعلوم النفسية والسياسية والجدلية وعلمي الفلك والنجوم ووضع الالحان الموسيقية وغير ذلك من البحوث التي تناولت تقلبات الجو والبرد والثلج والضباب والرعد والبرق والصواعق واختلاف الأزمنة والابعاد المتعلقة بالاجرام ومسافات الاقاليم ورؤوس الجبال وبعد مركز القمر عن الأرض والاحجار الكريمة والسيوف والزجاج والالوان والمد والجزر وغيرها كثير •

وكان عالمنا على جانب كبير من الثقافة والفلسفة اليونانيين وكان متمكنا من اللغة اليونانية ، وقد أحصى ابن النديم مؤلفات ومترجمات الكندي بـ ٢٤١ مؤلفا • وقد نشر الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة مجلدين تضمنا خمسا وعشرين رسالة من مصنفاته وسمها

ب ـ (رسائل الكندي الفلسفيـة) ، وقد ترجم بعض المستشرقين بعض مؤلفات الكندي الى اللغة اللاتينية والالمانية وغيرها من اللغات الاجنبية .

ويذكر القفطي في كتابه اخبار الحكماء ان للكندي ٢٤ مؤلفا فـي الطب منها كتـاب الطب الروحاني ، كتاب الطـب البقراطي ، كتاب في الغذاء والدواء . كتاب الابخرة المصلحة للجو من الاوباء ، كتاب كيفية الدماغ ، كتاب في علة نفث الدم كتاب في وجع المعدة والنقرس ، كتاب علاج الطحال ، وغيرها من الكتب التي كان لها الاثر الكبير في تقدم الطب وانتشار علومه في القرون الوسطى .

والكندي يعتبر رائد الحقيقة ، فقد كان يقدس الحق والعلم والعناية بهما ويعتبرها من المميزات الأساسية للاسلام وللروح الاسلامية ، ويعبر الكندي في رسائله عن شكره لكل من جاء بشيء من الحق مهما كـان يسيرا ، لأن معرفة الحقيقة ثمرة تضامن الاجيال الانسانية في عصـور متطاولة ويذكر الاستاذ دي بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الاسـلام (كان الكندي واسع الاطلاع في جميع العلوم وقد تمثل كل ما كان في عصره من علم ، وآراؤه في المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة) . ومن الجائز ان اعتبار الكندي من مؤيدي المعتزلة او من الباحثين في بعض اصولهم فمن المواضيع التي كتب فيها الكندي العدل والتوحيـد ، وان هذين الموضوعين هما من اصول المعتزلة ، كما انه رد على الملحديـن وغيرهم من الذين كان المعتزلة يعارضونهم ويشددون الكلام عليهم ، كما انه كان متصلا ببعض الخلفاء العباسيين من الذين كانوا يؤيدون المعتزلة .

والكندي ينظر الى الفلسفة نظرة غيرية ونظرة ذاتية :

النظرة الغيرية وفيها يحاول ان يتبع كبار الفلاسفة ليستفيد مـن كتاباتهم وما يعنون بكلمة فلسفة . اما النظرة الذاتية ، وفيها يحاول ان يقدم لنا تحديدا شخصيا يستقيه من تعاليم افلاطون وارسطو ، وهو بهذا يقول عن الفلسفة انها (علم الاشياء والحقائق بقدر طاقـة الانسان) وقد

اضاف الكندي ان في علم الاشياء بحقائقها علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة ومن ثم يكون غرض الفيلسوف نظريا وعلميا • فاما الغرض النظري فاصابة الحق ، واما الغرض العملي ، فالعمل به ، وطريق الفلسفة هي (محبة ونظام ونور وتمجيد لقوى العقل والقلب واذا وصل الفيلسوف الى هذه الدرجة أصبح معدا لقبول المعارك التي تهيئه للقيام بوظيفته) أي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ـ وقد طبق الكندي الرياضيات في ابحاثه الطبية في نظريته المتعلقة بالادوية المركبة والواقع انه بنى فعل هذه الادوية كما بنى فعل الموسيقى على نسبة المتوالية الهندسية المتضاعفة ، والامر في الاودية أمر تناسب في الكيفيات المحسوسة وهي الحار والبارد والرطب واليابس ، ويظهر ان الكندي عول على الحواس ولا سيما حاسة الذوق في الحكم على هذا الامر وقد اعتبر كاردان وهو أحد فلاسفة عصر النهضة لقوله بهذه النظرية واحدا من اثني عشر مفكرا هم أنفذ المفكرين عقولا •

ويتفق رأي الكندي مع آراء الفلاسفة الاغريق في نظرية المعرفة والتي تقوم على ركنين أساسيين المحسوس والمعقول ، ويقول الكندي ان معارفنا اما ان تكون حسية واما ان تكون عقلية ، اما ما بين قوتي النفس الحسية والعقلية وهي القوة المتخيلة أو المتصورة ، فتسمى عنده قوة متوسطة ، فالحواس تدرك الجزئي او الصورة المادية على حين ان العقل يدرك الكلي ويدرك الأنواع والأجناس ، أي الصورة العقلية وكما ان المحسوس في النفس هو الحس فكذلك المعقول هو والعقل شيء واحد ونظرية العقل من النظريات التي تتميز بها الفلسفة الاسلامية •

وقد حاول الكندي التوفيق بين الفلسفة والدين ، وقال ان الفسفة علم الحق والدين ، وفي رأيه ان الذي يتنكر للفلسفة انما يتنكر للحقيقة وهو من ثم كافر • ورأيه في حدوث العالم يختلف عن رأي ارسطو وفي ذلك يتبع تعاليم الدين الاسلامي ويجاري آراء المتكلمين في عصره وبرهان الكندي قائم على تحديد معنى الزمان والحركة فهو يثبت ان كل ما في العالم متحرك والحركة هي تبدل الأحوال •

وكان الكندي قد أثر تأثيرا كبيرا في الحياة العقلية الاسلامية فقد كان هذا العالم معلما ومؤلفا بلغ من الشهرة حدا بعيدا ، وكان تأثيره الكبير عن طريق مؤلفاته القيمة في علوم الرياضيات واحكام النجوم والجغرافية والطب وكان من أنبغ طلابه احمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفي ٢٨٦ هـ سنة ٨٩٩ م وقد نبغ السرخسي في الكيمياء واجتهد في تعرف حكمة الخالق وقدرته في عجائب مخلوقاته واشتغل بدراسة التاريخ والجغرافية .

ومن طلابه أيضا ابو معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ . ٨٨٥ م وقد نبغ في علم احكام النجوم . ومن الجدير بالذكر ان الكندي الذي يعتبر فيلسوف العرب الاول ، كان يشارك الفقهاء في بعض المبادىء الكلامية المحافظة وانه ذهب مذهب المعتزلة في بعض آرائهم الاجتهادية او تخطاهم جميعا الى النظر في قضايا تجاوزت مسائل الكلام هي اقرب الى المباحث الفلسفية الصرفة ، فشق بذلك الطريق الى البحث الفلسفي المجرد وعمل الكندي هنا يتجلى في توجيه الفكر العربي بمحاولات كبرى ثلاث هي : ١ ـ توسيع نطاق البحث النظري . ٢ ـ استحداث التعابير ووضع التعاريف الفلسفية . ٣ ـ التقريب بين اصول الشريعة ومبادىء الفلسفة . والخلاصة ، فالكندي عقل من العقليات الاسلامية الفذة والتي عملت على تحفيز المسلمين للاخذ بعلوم الاوائل والتعرف على أفكارهم وآرائهم وانه قام بتقديم آرائه وأفكاره الفلسفية التي بناها على أساس علمي ومنطقي وانه خلف تراثا حيا تفخر به المكتبة العربية كما تظهر بوضوح نضوج العقلية العربية والاسلامية .

تاريخ الآلهة اليمنية والتوحيد الالهي

بقلم ثريا منقوش
باحثة ثقافية في مركز
الابحاث اليمني / عدن

(ان التعاليم التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة اليهودية .. والاسلام) .

لقد جاءكم أهل اليمن وهم قوم أرق قلوبا وألين أفئدة.الايمان يمان والحكمة يمانية .) محمد (صلعم) .

ان الانطلاق في معرفة الدين انما يأتي عن طريق معرفة نشاط الناس الواقعي ووفق صيرورة حياتهم الواقعية .. وان العقائد ليست سوى اصداء للحياة الواقعية وحتى التخيلات الوهمية والسحر والأساطير ما هي الا تصعيدات ناجمة عن صيرورتهم الحياتية المادية) . « ماركس » .

بذلت في هذه الدراسة التي أقدمها جهدا ، لا من حيث تجميع المعلومات أو ربطها ، ولكن من حيث تحليل تلك المعلومات والوقائع التي حصلت عليها من كتب التاريخ لأتمكن من التقاط الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية لتلك المجتمعات . كما حاولت فيها ان اعيد اصل الامور الى اصحابها الحقيقيين ، دون ان أمس اقواما او معتقدات . ولكم أتمنى ان تجد اهتمام العلماء والمؤرخين المجتمعين هنا ... لقد حاولت في هذه الدراسة ان أدلل ببراهين علمية ، على ان فكرة التوحيد بالـه انما هي ذات أصول يمانية تحولت الى شمال الجزيرة العربية لا لكي تنتهي في جنوبها ، وانما لتصبح أداة لتوحيد أقوام تلك الممالك « الكلدانيين والكنعانيين والآشوريين ثم المصريين » بعد ان نجحت الى حد بعيد في

بناء الدولة المركزية في تلك الممالك في جنوب الجزيرة العربية •

لقد اغفلت كتب التاريخ دور اليمانيين في خلق هذه الفكرة كفكرة افترضت نشوءها الظروف والاوضاع الطبيعيه والاجتماعية ، فنسبتها الكتب الدينية الى ابراهيم الخليل (ابرام خل ايل) كما ورد في كتاب الدكتور أحمد سوسه (العرب واليهود في التاريخ) وتطرقت التوراة ، بأن نسبت ابراهيم الى اليهود ناسية او متناسية التسلسل الزمني الاحداث والوقائع . وعمل بعض المؤرخين على تثبيت هذه الفكرة وذهب آخرون الى نسبتها الى ابراهيم الخليل • وهم المؤرخون العرب والمسلمون مدعمين وجهة نظرهم هذه بموقف الاسلام من ابراهيم الحنيف الذي سار محمد « صلعم » على خطاه واقتدى به ، وجعله مثلا أعلى له في توحيده ودعوته الاسلامية لكل شعوب الارض وبقي الشعب اليمني مهضوما من حقه التاريخي . ولم يكلف احد نفسه مشقة البحث في اصول الفكرة فكرة التوحيد باستثناء انجلز وماركس اللذين تمكنا من التقاطها من كتب التاريخ بفكرهما الجلى الوضاح والمنصف للاحداث والوقائع حين حكماها في اطارها العام • ومن خلال الظروف الطبيعية والاجتماعية • فلم يجرداها من علاقاتها بالاحداث الاخرى حتى تصبح مجرد فكره في الوعي المطلق بل جعلاها في اطار اكثر شمولية • الا ان ابراهيم كما يبدو قد اكتسب أهميته التاريخية واستطاع ان يغطي على أصحاب الفكرة الحقيقيين من كونه زعيما روحيا لأقوام عدة (الكلدانيين والكنعانيين والآراميين والآشوريين) فقد ادعت هذه الأقوام نسبته الى نفسها كل على حدة • واعتقدت كل جماعة منهم ان ابراهيم زعيمها الروحي •

ولقد دفع سقوط الحضارة اليمنية وخرابها الكلي أولوية اليمنين التاريخية لهذه الظاهرة التي شكلت منعطفا جديدا في حياة اقوام الجزيرة العربية • ذلك ان السقوط المريع هو الذي أدى الى تحول (فكرة التوحيد) وهي الاساس والعماد الحقيقي لبناء الدولة المركزية آنذاك الى شمال الجزيرة العربية •

ان التركيز على ابراهيم كداعية أول افكرة التوحيد انما جاء من محاولة ابراهيم وقتها ان يصبح زعيما وطنيا للمنطقة العربية كلها • ولم ينتبه أحد الى أن مرونة الديانة اليمنية وقدرتها على التكيف مع الظروف هو الذي مكن القيم الوحدانية التي حملها ابراهيم من ان تسيطر وتستحوذ على شعور الناس تجاه القوة التي تسيطر عليهم والتي أبقتهم لفترة طويلة تكاد تقارب الاربعة آلاف عاما تحت سيطرتها كقوى لا تقاوم • تجسدت في اله غيبي يعيش في أفئدتهم وعقولهم •

ان انصاف الامم يتطلب منا ان نعيد حقها اليها من خلال تاريخها الطويل الذي هو بحاجة الى اعادة النظر فيه بروح علمية حيادية بعيدة عن التعصب والتزمت لجهة دون الاخرى • وحتى يشعر الجميع اننا عندما نكتب ونتحدث عن التاريخ انما هو من اجل العلم والانسان •

تعريف الديـن

الدين حسب تعريف بعض العلماء هو ايمان بكائنات روحية لها قوة فوق الطبيعة والبشر تؤثر في حياة الكون فهي تسير الطبيعة كما تسير حياة الانسان •

ويعرفه آخرون بأنه شعور عند الفرد أو الجماعة تجاه قوة غيبية كما هو عند المسلمين والمسيحيين واليهود •

ولم يستطع العلماء الجزم في حدود الدين فالدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف عن مفهومه عند الشعوب والأقوام المتقدمة • ويختلف باختلاف وجهات النظر لكل من هذه الشعوب تجاه الحياة وقد تدخل امور كثيرة في حدود الدين عند أقوام بينما هي قضايا اخلاقية انسانية عند الآخرين •

وللدين عند مختلف الأقوام شعائر يتمسك بها الاهلون تميزهم عن

غيرهم من اتباع الديانات الاخرى • ويرى بعض العلماء ان لفظة دين هي فارسية الأصل ويذهب آخرون الى انها أرامية (دينو) •

والدين في اللغة البابلية هو القضاء • وديان في الآرامية هي القاضي أو الحاكم ويبدو ان هذا المعنى هو المعنى الصحيح من خلال تصرفات المتدينين بالاديان فهم حين يتعبدون ويؤدون واجبات الطاعة ، انما يردون جزءا من دين عليهم وهو وجودهم في الحياة واستمراريتهم الوجودية بكل متطلباتها التي يعتقدون ان الله يوفرها لهم • فيردوا له جزءا من هذا الدين العظيم بالطاعة والتعبد •

ولكلمة دين في نصوص العربية الجنوبية مفهوم العادة والشأن وقد وردت في نص ثمـودي بهذا المعنى (بدين ود أمت) أي (على دين ود أموت) •

والأديان كما يصنفها العلماء صنفين : اديان بدائية ، وأديان عليا • الا أنهم وقعوا في تناقض مع أنفسهم حين قسموها على اساس احكـام الدين وعقائده وعمق الافكار التي جاء بهـا ، وليس على أساس زمني اجتماعي • وتقوم الاديان البدائية على السحر والاساطير والتقديس المبالغ به •• أما الأديـان العليا وهي السماويـة بالذات فتقوم على احكـام وتشريعات وقوانين وفلسفات اجتماعية •

وتختلف ديانات أهل الجبال عن ديانات اهل السهول والوديان كما ان تطور اشكال المجتمعات قد لعب دورا كبـيرا في تطـور الدين • فالمجتمع الرعوي يختلف تفكيره ونظرته الدينية عن مجتمـع الزراعـة والمجتمع الصناعي اختلفت نظرته الى الدين اختلافا كليا •

اما الدين عند الماديين بما فيهم ماركس وفويرباخ • فله تعريف آخر يختلف عن تعريفات علماء الاديـان المثاليين • حيث يراه فويرباخ (انـه علاقة عاطفية ، علاقـة قلوب البشر فيما بينها والتي ما تزال تبحث حتى

اليوم عن حقيقتها في انعكاس للواقع بواسطة اله واحد أو آلهة متعددة) .

اما الدين كما يراه ماركس « يعيش على الأرض وليس فوق السماء ذلك لأنه ليس ثمرة وحي فوق طبيعي ولا حصيلة خديعة دبرها الكهنة وعلماء اللاهوت ، لذا لا ينبغي الهبوط من السماء الى الارض بل ينبغي فهم السماء انطلاقا من الارض » وننطلق في تفسيرنا هذا للديانة اليمنية من تطورها وتحولها من تفسير وتحليل للواقع التاريخي الذي عاشه الشعب اليمني .

« ان الدين هو الانعكاس الواهم في دماغ البشر للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي . ومن مثل هذا الانعكاس تتخذ القوى الارضية شكل قوى فوق أرضيه » .

وترى الماركسية « ان الانسان هو صانع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الانسان وتؤكد على ان الدين هو وعي الذات والشعور بالذات عند الفرد الذي لم يجد ذاته بعد . او الذي فقدها نتيجة سبب من الاسباب الشخصية » .

ان الذين يفسرون التاريخ على أساس ديني محض ، انما يريدون ان يجعلوا منه شمسا يدور حولها الانسان فيستنزف طاقته والمطلوب ان نقلب الامور لتقف على قدميها فنجعل الانسان شمسا يدور حول نفسه ليكتشف طاقاته وقدراته في ذاته .

ويقسم البعض الاديان الى ثلاثة اقسام اديان قبلية واديان قومية واديان مطلقة عامة .

ويدرس علماء الأديان في دراستهم لتاريخ الاديان وتطورها والادوار التي مرت بها امورا كثيرة ، بعضها اجتماعي وآخر اقتصادي وثالث

تاريخي •• الخ •• وتؤثر تلك العوامل في نمو الافكار الدينية وتطورها، لما لها من تأثير كبير على المجتمعات كما للعوامل الطبوغرافية والمحيط تأثير في تكييف الدين وفي تصور الناس للآلهة التي عبدوها كما أن للسياسه دور كبير في تطور الاديان •

وقد لعبت الاديان دورا كبيرا في توجيه الناس افرادا وقبائل وشعوبا وليس ذلك بغريب فالانسان في احيان كثيرة يعبد ما تصنعه يداه •

ولقد حفظت النصوص العربية اسماء كثير من الآلهة التي كانت تعبد في جنوب الجزيرة العربية قبل اليهودية والنصرانية والاسلام • الا انها اي النصوص العربية الموجودة لم تشرح قضايا اليمنيين الدينية ولا عقادهم او حتى ادعيتهم وصلواتهم واكتفت بذكر اسماء الآلهة • ومن المحتمل وجود نقوش كثيرة تنام تحت ركام الرمال ، ذلك لأن المنطقة ما زالت بحاجة الى مسح جيولوجي كبير •

ولذلك فان البحث في قضية الدين والامور الدينية في مجتمع جنوب الجزيرة يبدو من الصعوبة بمكان لعدم توفر النقوش المطلوبة في هذا المنحى • وما لم يعتمد على تحليل الواقع وهو الطريق السليم والوحيد لمعرفة الكثير من الامور الغامضة علينا • ومن هنا فقد حاولت قدر الامكان الاستفادة مما وجد من آثار وما كتب من حقائق تاريخية في كتب التاريخ واستعنت بهما في عملية التحليل بمنهج المادية التاريخية حتى أتمكن من وضع الامور في محلها الصحيح ولم يكن امامي غير هذا المنهج لتذليل كثير من الصعوبات التاريخية ولتسديد ما قد يوجد من فراغ في السرد للاحداث التاريخية بسبب ضياع بعض النقوش او عدم العثور عليها بعد•

ان الدين الحقيقي لاقوام الممالك اليمنية القديمة كان تقديسا للامة اليمنية والدولة المركزية العظيمة • فلقد كانت جميع الاعمال الكبيرة والجبارة التي تأمر بتنفيذها الدولة من اجل مصلحة الامة اليمنية بأسرها

تنفذ برغبة وحماس يحدوه الامل في رضى الآلهة التي يعد الملك ممثلا لها في الارض • ذلك ان سلطة الملك كانت دينية دنيوية (فالمكرب) أي المقرب الى الآلهة هو الذي يعلن الحرب ويصدر التشريعات والقوانين يأمر بجمع الجباية للمعابد • ولقد حكم معين وحضرموت عدد من هؤلاء المكربين قبل ان تتحول حضرموت الى مملكة ، ومنهم المكرب (يرعش بن اب يشع) • ويبدو ان آخر مكرب من المكاربة الحضارم كان قد زهد في الحكم المزدوج فتنحي عن السلطة الدينية • وانفرد بالحكم الدنيوي وتلقب بلقب ملك بدل المكرب • هذا الملك حسب قائمة فيلبي (صدق ايل) الذي تولى العرش عام (١٠٢٠ ق • م) كما حدد فيلبيي • وهومل•

ولقد كان البناء من اجل ازدهار اليمن وحضارته الذي ولا شك سيؤدي الى انتعاش حياة الانسان اليمني بكل جوانبها هو الدافع الحقيقي الى العمل المتواصل وليس العكس كما يحاول البعض ان يصور الاعمال العظيمة تلك التي قام بها انسان الحضارة اليمنية هي من أجل التقرب الى الاله • اما لماذا يتقرب الى الاله عندما يقدم على تلك الاعمال فليس الا من قبيل الاحترام ورفع المعنويات وحتى تمنحه كما يعتقد هو القوة لانجاز مهامه التاريخية العظيمة • ان الاديان كما يرى ماركس يؤسسها اناس يكابدون هم بالذات حاجة دينية ، ويتحسسون الحاجة الدينية عند الجماهير التي تفرضها عليهم طبيعة ظروفهم الاجتماعية والطبيعية •

لقد استخدم الدين من قبل الدولة في الممالك اليمنية في فترات متقطعة للخلق والابداع • وبناء تلك الحضارة العظيمة فلم يكن بالامكان مخاطبة الناس مباشرة الا باستخدام الدين كسلاح لشحذ الهمة وبناء اليمن الحضاري • واستطاع بالفعل ان يقوم بالدور الموكل اليه •

نبذة عن الالهة التي عبدت عند اليمنيين في تلك الفترة

لقد ادت الآلهة واجباتها نحو الانسان بصورة متعددة فلم تقصر حسب اعتقاده من القيام بما كان مطلوبا منها تأديته آنذاك ، خاصة وان

انسان تلك الحضارة لم يكن مقصرا نحوها فقد عبدها وقدم لها القرابين والنذور توددا وتقربا منها ٠

لقد سخرها الملوك لتحقيق سطوتهم وسيطرتهم على المجتمع آنذاك ٠ وقاموا بتأدية الطاعة لها وارضائها بكل الوسائل فقد ورد في الكتابة رقم (١١٥٠) كما جاء في موسوعة جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ان الملك (اب يدع يشع) تام مع اشراف مدينة قرنوا باصلاح خنادق المدينة وترميم اسوارها تقربا الى آلهـة معين (عشترو قبضم) (عشتر ذو قبض) ومعبده في رصاف القبيلة هوازن ٠ كما عبدوا (ود) و (نكرح) ٠ فقد بنى ملك حضرموت (شهر علف بن صدق آل) حصنا كبيرا ونذره للاله (عشتر ذو قبضم) و (عشتر شرقن) و (ود) و (نكرح) ٠

وفي شكر للاله على نجاة قافلة من الوقـوع في أيـدي الغزاة اضافة الى الالهة السابقة فقد وردت اسماء اخرى (ذات نشق) (عشتر ذي يهرق) و (يثل) ٠ وقد استخدم الملوك ألقاب الآلهة مثل (يثع) المنقذ (صدوق) الصادق او العادل (ذريا) العالي (نبط) المضيء رقه الحبيب أو الاقر (ويشر) المستقيم ٠

وعثتر وهو اله يوجد بموضع يقال له حجر او هجر ٠ وقد اطلـق شعب كمنهو على عثتر لقب الدال أي (الدليل) وكانت من عادات اليمنيين عند انتصار شعب آخر : ان يقدم المطلوب ولاءه للشعب المنتصر علـى شكل عبادة آلهته كما فعل شعب كمنهو عندما قـدم الطاعـة والولاء لملك سبأ وآلهتها ٠ وهـذا يعني اعتراف الشعب بسيادة شعب آخـر وآلهته عليـه ٠

اهتم المعينيون بالمعابد اهتماما خاصا ففرضوا لها جبايات خاصـة وأراضي زراعية واسعة وقفا عليها ٠ وجمعت لها من النذور موارد ضخمة تقدم باسم الاله عند شفاء شخص او عودته من سفر او سقي ارضه أو

نجاة تجارته • وعبر عن هذه النذور والهبات بلفظتي (أكرب) أي اقرب• وهي ما يتقرب بـه الى الآلـه وتعد على الناذر دين للالهة • فيقـال (دين عثتر) •

وقد اتبعت عادة لجمع جباية المعبد يفوض الملك او المعبد رئيس القبيلة أو زعيمها لجمع الجباية او انشاء مشروع باسم الالهة ومن المعروف في عاداتهم انه اثناء اتفاق طرفين على القيام بعمل ما او انشاء مشروع بينهما يعقد الاتفاق باسم الالهة التي تكون قد رضيت بالاتفاق ويخصص لها جزءا من المشروع • كما تعهد المعابد للرؤساء والمشايخ للقيام بالاعمال المطلوبـة لها •

ولقد كان على هذه المعابد بالمقابل اداء بعض الخدمات العامة للشعب مثل انشاء مباني عامة • وتحصين المدن •• ومساعدة الحكومـة فـي تخفيف الضرائب عنها وكانت واردات تلك المعابـد السنوية متساوية مع واردات الحكومة •

ذكر الدكتور جواد علي ان المعابد كانت منتشرة في كل المـدن • وفي بعض الأحيان كان في كل مدينة معبد وأحيانا عدة معابد تخصص لاله واحد وتسمى هذه المعابد باسمه وتنذر له النذور ويقـوم رجـال الدين بادارتها وادارة اوقافها واقامة الشعائر الدينية •

ويعتقد ان (نكرح) آلهة معين انمـا هي الشمس التي يقابلهـا عند السبعين ذات حميم (ذات حمم) •

ويمثل (الاله ود) عند المعينين رجلا شجاعا مقاتلا • وقـد نعت هذا الاله بنعوت كثيرة مثل : الهن (أي الاله) و (الكهلان) أي القدير • وقد وردت في نصوص جنوبية جملة (دم شهرن) أي (ود الشهر) أي (الاب القمر) •

ويبدو ان للمعينين الجنوبين اله لم يكن نفس اله المعينين الشماليين. وقد عثر على كتابات حضرمية تدل على ان اهالي حضرموت عبدوا نفس اله معين كتوثيق للروابط بينهما فقد ورد اسم (شهر علي بن صدق آل) ملك حضرموت • واسم (اب يدع يثع) ملك معين تقربا الى الاله (عثتر ذي قبض) • كما ورد ذكر الاله (عثتر الشارق) و (ود) و (نكرح) لتمتين الروابط بين عرشيهما • ومن المعروف ان أي عمل يقوم به الملك أو القبيلة كان يعمد بذكر اسـم اله ليعطي الطبيعة الشرعية والقانونيـة امام الناس •

آلهـة حضرموت

اكتشفت بعثة بريطانية في الحريضة آثار معبد الاله (سين) ويرمز الى القمر • ويعرف هذا الموضع في الكتابات الحضرميـة التي يرجـع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد كما تقول بعض كتب التاريخ • باسم (مذبم) أي (مذاب) • وعرف باسم (معبد سين ذو مذاب) • تقرب اليه الناس بالنذور ليسنحهم طول العمر والخير والبركة •

وقد اعتمد عليه ملوك حضرموت اعتمادا كبيرا في انتزاع الشريعة لأعمالهم الكبيرة • فها هو الملك (يدع اب) يبني حصنا عظيما ويسور شبوه بسورها الضخم ويرصد لذلك العمل الاموال الطائلة • باسـم الالهتين (ذات حميم) و (ذات حشول) •

ومن عـادات الملـوك الحضارم انهم عندما كانـوا يعمرون المدن ويشيدونها يعطون الاولوية لبناء المعابد كما فعل (بـدع ايل بين) فـي الكتابة الموسومة بسمة Glaser 1623 لبناء معبد (علم) للاله (سين) •

كما كان تتويج الملوك لا يتم الا بعد تقديم القرابين للاله كما فعل (يدع ايل) عند تتويجه ملكا على حضرموت في حصن (أنود) كمـا قدم شكر لها على نصرها اياه في حربه ضد ملوك (سبأ وذي ريدان) •

لقد تعلق ملوك حضرموت أكثر من غيرهم بالآلهة نتيجة اوضاعهم الطبيعية والاجتماعية المتميزة الى حد ما • فالكتابة المرقومة ب (٤٣٣٦) والمنشورة في كتاب (REP EPIG) تشير الى ملك من ملوك حضرموت وهو يقدم الى الاله (سين) تمثالين من الذهب في معبده في (نعلم) • لأنه منّ عليه بالشفاء من جروحه التي اصيب بها في حربه مع ملك (سبأ وامراء خولان) • في مدينة (ثبير) في (ارض يحر) • ومن عادات القبائل اليمنية ان قبيلة عندما تنزح الى مكان آخر في ارض مملكة أخرى تقدم قرابين الى اله القبيلة المالكة للارض ، كما حصل بالنسبة لقبيلة (مقنصم) في تقديسها وقفا الى الآلهة (عثتر وهوبس والمقه) و (ذات حميم) ، وذلك انها نزحت من سبأ الى حضرموت فخضعت لها •

وفي عهد (يدع ايل بين بن رب شمس) كما ورد في النص الموسوم بـ (Philby 84) بني معبد شبوه • فذبح الملك عشرات من الابل والماشية تقربا لها ورغبة في استرضائها بعد ذلك الدمار الذي حل بها نتيجة الحروب التي نشبت بينهم وبين ملك (سبأ وذي ريدان) كما قام بكساء جداره بطبقة من القار حتى تصبح ملساء ويتعذر تسلقها وتحطيمها من قبل الاعداء مرة أخرى • كما قدم حسبما ورد في لوح من النحاس محفوظ في المتحف البريطاني الملك (صدق ذخربران) ووالده (الشرح) نذورا الى الآلهة (سين) و (علم) و (عثتر) •

اذن فأمر تقديم القرابين الى الآلهة كما تشير النصوص يبدأ عند الكاربه والملوك بالدرجة الاولى ثم القبائل والعشائر كما حصل عندما قدمت القبيلة السبئية قرابين الى آلهة حضرموت ثم تأتي بعد ذلك قرابين الافراد ويبدو من ذلك ان ثمة علاقة عميقة قد تولدت بين الملوك والآلهة حتى أصبحوا مرتبطين بها ارتباطا كليا ، فلا يقدموا على عمل الا بعد ان يستشيروها ويقدمون لها القرابين ولا ينتزعون نصرا من خصم عنيد الا

وبادروا في تقديم القرابين لها • ولا يصدرون أمرا الا بعد موافقتها بتقديم القرابين والنذور حتى ترضى فتأذن •

كما آمر الملوك رعاياهم (ويبدو كتكفير عن ذنوب او مشاكل اجتماعية ارتكبوها) بتقديم ولاء الطاعة والتوبة الى الاله في شكل ذبائح أو هدايا كما حصل عندما أمر الملك (العزيلط) (عذ زبن اب انس) وشخصا آخر يدعى (رب آل بن عذم لت) (رب ايل بن عذم لات) وهما من عشيرة (مريهان) بتقديم هدايا للاله (سين ذي علم) في معبده (علم) سبعة تماثيل من الذهب •

وتفانوا في التقرب من الآلهة وتقديم الولاء لها فقد قاموا بذبح حيوانات وحشية كالفهود كما حصل عند تتويج ملك من ملوك حضرموت في حصن (أنود) • ولم يأل الانسان اليمني جهدا في تقديم ما كان يمكن تقديمه الى الآلهة ليثبت لها تودده اليها وتقديسه لها وتنفيذه لرغباتها وأوامرها المطلقة •

تقاليد القتبانيين تجاه آلهتهم

من المعروف ان (عم) هو اله القتبانيين • وقد خضع له فيما بعد الحميريون فسموا (اولاد عم) أي (شعب عم) اله قتبان وأحد النصوص يتحدث عن قبيلة (هوران) وهم يقومون ببناء و (انبي) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) •

وللدلالة على التحالف والاتحاد تقوم القبائل الاخرى باداء يمين الطاعة لاله القبيلة الكبيرة كما فعل الاوسانيون والكحد ودهس وتبني• وكما يبدو من بعض النصوص ان الأراضي القتبانية كانت تتعرض بين الحين والآخر للجفاف • ولذا فقد حاول القتبانيون ارضاء آلهتهم بالقرابين لتقيهم شر المجاعة • وهذه من الاسباب التي جعلتهم يتوجهون فيما بعد الى رب السماء ••

ومن آلهتهم (عثتر) و (حوكم) و (سحرن) و (رحبن) وقد أدوا لها جميعا قرابين الولاء والطاعة . وقامت عدة قبائل من مناطق الجنوب والشمال للدلالة على تمسكهم بها وتعظيمهم لها ، حسب احد النصوص ، بفتح طريق جبلي وعر باسم الآلهة (عم ذو شقرم) و (انبى) و (حوكم) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) ، ويبدو انها ترمز للشمس . وقد كانت تشريعاتهم وقوانينهم والتي يوقع عليها الملك وممثلوا القبائل تعمد بختم الآلهة . كما حصل في القانون الذي اصدره الملك (يدع اب ديبان) وعند اتمام أي مشروع بناء توضع كتابه عند الانتهاء من العمل كدليل لافتتاح المشروع باسم آلهة قتبان كما يشير أحد النصوص.

ويشهد الاله على أي عقد أو اتفاق بين طرفين كما حصل بين الملك (يدع اب ديبان يهرجب بن شهر) وكل أولاد (عم) و (اوسان) و (كحد) و (وهسم) و (تبنو) ، بنو (يسران) . كما حصل اتفاق مع قبيلة (كحد) لجباية الضرائب . وقد سميت الضريبة الخاصة بالمعابد (بعصمم). وتعد كالزكاة أو الصدقة . هذا وقد أصدر الملك (شهر هلل) أمرا ملكيا لجباية الضرائب تنفيذا لمشيئة معبد (حطب) ومعبد (رصاف) ومعبد (ابني) .

من المعروف ان العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي الى اله من الاله تتسمى باسمه وتقيم حول معبده . كما ورد في أحد النصوص (اربي عم دلنج) أي (من طائفة معبد اله عم في ارض لنج) . وتعني ان الطائفة القائمة حوله قامت بجمع الجباية للاله (عم) .

وقد قدم حتى كهنة المعابد القرابين للالهة كما فعلت الكاهنة (بره) عندما قدمت تماثيل من ذهب للاله (عم ذريحو) . اما من أجل الزراعة والامطار فقد قدم القتبانيون القرابين الثمينة والغالية والكبيرة . وكل ما قدموه من أجل حل المشاكل الاجتماعية والطبيعية .

والمكرب عند اليمانيين هو المقرب الى الاله والشفيع اليها والواسطة

بينها وبين الانسان • وهو ان أي المكرب كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الالهة ويتحدث باسمها ، وعندما توسعت سلطات المكرب نتيجة توسع اطراف مملكته وتجاوزها حدود المعبد في القضايا الدنيوية تشعبت المهـام ومتطلبات الحياة المدنية وانصرف الحكم الى خارج المعبد وصار حكما زمنيا وليس روحانيا فقط • لقب المكربيون أنفسهم بالملـوك لتثبيت سعة السلطات والصلاحيات العليا في يد الملك •

وقد وسمت جميع الاعمال الكبيرة باسم الاله ، كما حصل عندما شقت انفاق مرور باسم (عم ذو شقرم) و (حوكم) وغيرهم من الآلهة • والمتبع للحياة الدينية في تلك الممالك من خلال القرابين التي قدمت للالهة وهي شكل من اشكال التعبد والتقرب حفظتها النقوش لنا • وقد وردت في النقوش اسماء كثيرة لآلهـة اليمنين آنـذاك (عم شقرم) و (عم ذو ريمـت) و (انبـي) و (حوكـم) و (ذات صنتـم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) • كما ورد في النص (Glaser 1600) اسـم موضع سمي (مختن ملكن بقلي) أي مختن الملك بموضع (مكي) • بالرغم من اختلاف العلماء حول مفهوم كلمة (مختن) وهل تعني المكان الذي تذبح عليه الضحايا وهي بمعنى (منطقة) ام تعنى موضع ختـان الذكـور •

كما وجدت نقوش عليها تشريعات وأحكام دينية كان يصدرهـا الملك بتعميد من الآلهة • هذه نبذة مختصرة عن الحياة الدينية والآلهة التي عبدت في تلك الممالك والتي نلاحظ كثرتها حتى قال (أوليري) انه كان في تمنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا •

آلهة سبأ وتقاليدها

اما ملوك سبأ الوارد ذكرهم في كل الكتب المقدسة فقد كانت لهم طرقهم الخاصة في عبادة الآلهة ، نتيجة لعراقتهم وقدم حضارتهم حيث

وردت كلمة (Sabu) في نص سومي يعود كما يراه هومل الـى حوالي (٢٥٠٠ ق٠م٠) ٠ فقد قدموا القرابين الى الاله والى زوج الاله الرئيسي (المقه) ٠ كما ورد في الكتابة الموسومة (Glaser9) ٠ ان (يدل ال ذرح) سور بيت المقه وهو معبد للاله في مدينة (صرواح) وقدم بهذه المناسبة قرابين اليه والى زوجه الآلهة (حريتم) (حرق) (حريمت) وان المكرب (يدع آل ذرح) قد بنى للآلهة الثلاثة عثتر والمقـه وذات حميم معابد ٠ ومن خلال قراءتنا للنصوص الجنوبية يتبين لنا ان السبئيين قد قاموا طوال فترات حكمهم بتجديد بناء المعابد ٠ وقـد دون النص المرسوم (Jamme 555) وصاحبه (بن ابكرب) وهو من (شوذبم) أي (بني شهوذب) وكان قينال (يشع امر) ودمر (بكرب ملك) و (سمه على) و (يدع ايل) و (يكرب ملك) عند اتمامه بناء جدار معبد (المقـه) تقربا الى الاله ليبارك في أولاده واسرته واقربائه وليبارك في بيوتـه وأملاكه ٠ كما دوّن بعد ان قدم القرابين تعبيرا عن حمده وشكره لأنه منّ عليه ومنحه كل ما اراده منه ، ولانتصاره مع (سمه على تثف) في حربه التي قام بها ضد قتبان ٠

وفي النص (Jamme 557) قـام (ابكرب بن نبط كرب) بترميم وبناء معبد (المقه) تقربا الى رب المعبد (بعل ادام) الاله (المقه) حتى يكون شفيعه عند الاله وليبارك في ذريته واملاكه ٠

وفي (صرواح) وهي عاصمة السبئين في ايام المكربين يوجـــد معبد (المقه) الـه سبأ وقد بنيت عدة معابـد له منها معبد (يفعان) ٠

وكما عثر على كتابة في (صرواح) تعد من أهم الوثائق ٠ وافتتحت بجمله (هذا ما امر بتسطيره كرب ايل وتر بن بعر على مكرب سبأ عندما صار ملكا وذلك لالهة المقه وشعبه وشعب سبأ تعبيرا عن شكره له ولبقية الالهة على كل نعمها وتوفيقها له بأن هيأته ليصبح ملكا ٠ ولانعامها على شعبه بالعطايا والبركات)٠فنحر الذبائح للاله (عثتر) امتنانا له وتقربا اليه

كما قدم للالهين (عثتر) و (هوبس) الكساء الثمين تقربا اليهما وشكرا لهما على نعمهما عليه • وقام بتمجيد آلهته التي رصت صفوف شعبه • وقدم لها الشكر والثناء لانها وهبت ارض سبأ مطرا عظيما سال في الأودية • كما قدم رؤساء (المزود) رقيقا للاله (سمهت) كقرابين له •

وقدم سكان المناطق والمدن التي هزمت كارض (نسم ورشأي) وجميع المدن والنواحي التابعة (كحد) و (سيبن) والمدن (اتخ) و (ميفع) و (رتمم) ومنطقتي (دات) و (نبرم) وجميع المدن من (تفصن) الى اتجاه (دهس) والسواحل وغيرها من المدن التي جعلها ملكا لسبأ والآلهة سبأ •

كما قدم للاله (عثتر ذي قصد) في مذبح (لقظ) الصيد الذي اصطاده وتمثالا من الذهب •

وفي النص (Jamme 550) ذكر شخص اسمه (تبع كرب) • وكان كاهنا (رشو) للالهة (ذات غضران) وهي كناية عن الشمس • وقد بنى جزء من جدار معبد (المقه) • كما أمر ببناء كل الابراج ، وذلك عن اولاده وأطفاله وأمواله وعن كل ما يقتنيه وعن نخيله • وقد قام بعمله هذا لأن المقه أوعز الى قلبه انه سيهبه غلاما • ولأن (يكرب ملك وتر) اختاره ليشرف على ادارة الاعمال المتعلقة بالحرب مع قتبان وقبائلها • ولأن الاله (المقه) حرس ووقى كل السبئيين والقبائل المتعاطفة معهم •

من هذا يمكن ان نستخلص الاغراض التي من أجلها بنيت المعابد وقدمت القرابين وهي تختلف عن الاغراض التي قدمت فيها القرابين عند كل من الحضارمة والقتبانيين والمعينيين وقد كانت جميعها شكرا للآلهة أما من أجل انتصار او اخضاع القبائل بتقديم رؤسائهم كعبيد لاله سبأ • والملاحظ ان السبئيين اهتموا بعبادة الشمس وبناء المعابد لها ، وتقديم القرابين لها مثلها مثل الاله (المقه) القمر • هذا الاهتمام بالشمس لم يحصل في الممالك اليمنية الاخرى • وقد عوملت الشمس كاله ثانوي

في بقية المناطق • ويبدو ذلك نتيجة للاختلاط مع شمال الجزيرة • وللتأثير المتبادل مع تلك الممالك • كما ان طبيعة المناخ في تلك المنطقة التي قامت عليها الدولة السبئية كان يتطلب التودد الى الشمس لتهب الحياة للمناطق الجبلية الباردة • وكما أورد الاخباريون ها هي بلقيس وهي ملكة سبأ تعبدها • وسبأ يسمي باسمها (سبأ عبد شمس) تقديسا وتقربا منها بالرغم من ان سبأ ورد هناك كاسم ملك الا انه من المحتمل ان يكون القصد بهذه التسمية أقوام مملكة سبأ الذين عبدوا الشمس فنسبوا اليها •

الكواكب الثلاث

يعتقد بعض علماء التاريخ ان تلك الاسماء الكثيرة التي وردت للآلهة ، ما هي الا صفات للثالوث الكوكبي المقدس (الزهرة) (الشمس) (القمر) • وتمثل (الزهرة) الابن • كما تمثل (الشمس) الام ، أما (القمر) فيمثل الأب القوي وهو أصل الاشياء وصانعها ، لقد لفت القمر والشمس نظر الانسان لما لهما من أثر على حياته ولما له من مصلحة اقتصادية مباشرة معها • فللشمس دور كبير في تربية ماشيته وحيوانه وعمله الزراعي والتجاري وفي صحوه ومعرفته فصول السنة • اما القمر فقد احتل المنزلة الاولى والأساسية عند اليمنيين فهو الأب الاكبر لأن عطاياه كثيرة ومتعددة والمرشد الوحيد لقوافلهم التجارية في رحلاتها الى الشام وفلسطين وبابل • وهو السمير والانيس في الليالي الجميلة بعد حر الشمس المحرقة في صحرائهم المترامية الاطراف طوال نهارهم الشاق المضني من تلك الرمال اللاهبة اللاسعة في الصيف ، لذا فقد مثل القمر مصدرا للخير ، فاعطوه من الاسماء والصفات بقدر عطاياه • فسمى الرخ • والسن • والسين • والشهر • وصوروه على هيئة ثور له قرون معقوفة وعبدوا الثور حبا وتقربا للقمر • ولم يخاطبه باسمه مباشرة فقد كان أقدس من السماء واعظم وكان لا بد من واسطة بينه وبين عبدته ، فخوطب بالنعوت الكثيرة التي عرفوه بها ، كسين عند الحضارم والمقه عند

السبئيين (وود) عند المعنيين و (عم) عند القتبانيين ويقوم مقام الاب •

وفي نصوص جنوبية لقب القمر باكهلن وبنعوت وصفات اخرى كالحكيم ، والصديق ، والعليم • وهذه النعوت هي نفسها التي استخدمت في صفات الله ونعوته في الدين الاسلامي • وقد خاطبه القتبانيون (كعم) فقد ورد في النصوص الجنوبية انهم نادوا الاله (ود) ب (ابم ودم) أي (اب ود) •

اذن فقد مثل القمر الاله الرئيسي لليمنيين وذلك لأنه اكثر عطفا ومودة عليهم ورحمة بهم ورعاية لهم ومساعدة على احتمال شدائد نهارهم •

اما الشمس فقد مثلت عند اليمنيين اله ثانويا • فقد كان لها في نظر الانسان اليمني مضار كثيرة لأن الارض اليمنية وجزء كبير من ارض الممالك اليمنية القديمة كانت تخضع لمناخ الصحراء الجاف والحار والذي لعبت الشمس دورا كبيرا في خلقه ، فسماها (ذات الحميم) وعبدها لجملة من الاسباب التي جعلته يعبدها وذلك للتضرع اليها للتخفيف من لهيبها حتى لا تقتل زراعته في الصيف والتي كانت تتحول الى اخشاب يابسة من شدة حرارة الشمس الا انهم كما تذكر حوادث التاريخ قد كرموها في مرحلة من مراحل تاريخهم خاصة ابان حكم بلقيس • فقد ورد في سورة النمل « اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذي يخرج النجب في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » •

لقد فضل اليمنيون القمر على الشمس الا انهم عبدوا الاثنين كما ورد في القرآن سورة النمل فترة طويلة من الزمن امتدت الى عشرات من القرون خاصة في تلك المناطق الجبلية التيكانت بحاجة الى حرارة الشمس

للدفء والتي يعد مناخها مقاربا لمناخ شمال الجزيرة العربية في المرتفعات الجبلية وقد وردت في كتب التاريخ اخبار كثيرة عن هذه العبادة . فالاخباريون يذكرون ان سبأ الاكبر عبدها وتسمى باسمها (عبد شمس بن يشجب بن يعرب قحطان) كما اشار القرآن الى ذلك « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر : لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم تعبدون » لقد حاول الانسان استرضاءها بشتى الطرق والوسائل . ومهدها بالطرق والوسائل فعبدها بالطرق التي رآها مناسبة وسجد على يديه وسبح وقدس باسمها .

وقد أحلها أقوام شمال الجزيرة العربية والعبرانيون محل الصدارة نتيجة لطبيعة أرضهم ومناخهم الجغرافي . فعبدوها كاله رئيسي ، كما أشار العهد القديم الى ذلك . (واباد الخيل التي اعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب ... ومركبات الشمس احرقها بالنار) . وهدموا امامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس التي عليها من فوق قطعها وكسر السواري والتماثيل والمسبوكات . وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض اسرائيل ثم رجع الى (اورشليم) هذا ما فعله يوشيا عندما وجد اورشليم مليئة بتماثيل الشمس والناس يعبدونها بدلا من رب أبيه داود وسميت أماكن عبادتها في مدن يهوذا (بيت شمس) .

أما الزهرة فقد لفتت نظر الانسان اليمني بجمالها وحسن ألوانها فسميت كما ورد في النصوص العربية الجنوبية ب (عثتر) وهي الابنة للشمس والقمر وعطاياها بالدرجة الاولى جمالية ونفسية .

الاسباب التي دعت الى التوحيد (١) النظام المركزي

١ ــ ان الاسباب التي دعت اليمانيين الى التوحيد عديدة خلقتها ظروف بلدهم الطبيعية وأوضاع حياتهم الاجتماعية ذلك ان العوامل الفيزيائية كما يقول مونتسكيو وبالذات المناخ والتربة والأرض ، هي التي

تحدد بسيكولوجيا وعادات وأعراف الناس بل وروح الجماعات الخاصة في تلك البيئة وبالتالي بنية حياتهم الاجتماعية والفكرية . ولن تتطرف هنا كعالم الاجتماع الفرنسي لنجعل من البيئة الجغرافيـــة كل شيء في تحديد قضية التوحيد اليماني والتمسك بوحدانيـــة اله سموه (رب السمـــاء) . الا اننا نرى ان ذلك العامل الجغرافي الى جانب العوامل الاخرى والتي سوف تتطرق اليها ، قد لعبت دورا كبيرا في خلق الاله الواحد عند اليمانيين . لانهم كانوا في حاجة الى عطاياه المتقطعة مـــن رياح غير مدمرة حبلى بالغيوم ، وتلد القطر والمطر وطقس معتدل يسمح ببقاء الزراعة طوال السنة دون صيف شديد القيظ يدحر ويحرق الزرع والنخيل . ومثل هذا الوسط الطبيعي غير المعتمد على الانهار الجاريـــة كدجلة والنيل طوال السنة والامطار غير المتقطعة والمعتمد اعتمادا كبيرا على جهود الانسان الذي جسدته طرق الري الاصطناعي كما يقول انجلز في رسالته الى ماركس « في مثل هذه الاقاليم يغدو نظام الري الاصطناعي هو أهم متطلبات قيام الحياة الزراعية ، وان نظاما مثل هذا ليقوم على المجهودات الجماعية او المديريات اللامركزية او توجيه الحكومة المركزية» . مثل هذا الوضع المناخي المتقلب وغير المنتظم هو الذي دفع الناس الى توحيد جهودهم فخلقت الدولة تلبية لحاجياتها وحاجيات مجتمعاتهـــا . والنظام المركزي الذي كان يطلب محورا روحيا تتجمع حوله الطاقـــات والامكانيات البشرية للاستمرار في خلـــق وضعية لائقـــة بانسان تلك الحضارة . فخلق رب السماء كمحور يجمع الطاقات من ناحية وكمعين للانسان على الطبيعة المتقلبة من ناحية اخرى وترى الماركسية (ان في مرحلة اكثر تقدما وتطورا تنقل جملة الصفات الطبيعية والاجتماعية للالهة الكثيرة العدد الى اله واحـــد كلي القدرة ليس سوى انعكاس للانسان المجرد) .

ان الايمان باله واحد جاء كحاجة ملبية لمتطلبات الواقع الموضوعي والاجتماعي منه والطبيعي وقد عكس بصورة صادقة صافيـــة الواقـــع الموضوعي الذي عاشه الانسان اليمني في ذهنه ووعيه .

ان ازدهار الحضارة اليمنيـــة والتي قامت على الانتـــاج الزراعي والتجاري والصناعي وبالدرجة الاولى والذي كان يتطلب نوعين مـــن العلاقات ــ علاقات الناس بالطبيعة ، وعلاقات الناس ببعضهم البعض • كان لا بد من ان يحدد بصورة مركزية سواء أكان في رب السماء كممثل للطبيعة او في شخص الملك كممثل للمجتمع من جهة ، ومن جهة اخرى ممثل لرب السماء الواحد • فتم الايمان بالاله الواحد الكلي القدرة . بعد تلك الآلهة الكثيرة العدد كانعكاس لذات الواقع الطبيعي والاجتماعي وتمكنت هذه الفكرة من حل التناقض الذي كان بين الانسان اليمني وبين قوى الطبيعة من ناحية وبين الانسان اليمني والدولة من ناحية ثانية •

(٢) المساواة القبلية

ان فكرة المساواة للجماعات المطلوبة مع الجماعات والقبائل الغالبة في تلك الحروب الطويلة التي كانت تنشب بين القبائل اليمنية بين الحين والآخر والتي كانت نتائجها انتصار قبيلة وهزيمة الاخرى ، وجمع افراد القبيلة المغلوبة كأسرى حرب ، ثم العمل على اذابتهم في بطن القبيلـــة الغالبة • وقد فرضت وبالضرورة عبادة آلهة القبيلة الغالبة كما حصـــل عندما عبد الحضارمة اله سبأ (المقه) وكما عبده كذلك القتبانيون • لقد كان من الضروري نتيجة للوضعية القبلية ، وهم ابناء قبائل اخرى لا تقل شدة ولا قوة بل ولا كرامة وانفة ، ان يسلكوا مسلكا يؤدي بهم الى المساواة في الحقوق والواجبات الاجتماعية مع ابناء القبائل او القبيلـــة الآسرة لهم • فقد كان الاحساس باللا مساواة بينهم ، رغم انهم جميعـــا ابناء قبائل ، مصدر قلق روحي ونفسي لهم فكيف الوصول الى ردم هذه الفجوة الاجتماعية التي وجدت نتيجة لانكسارهم الحربي امام القبيلـــة الاخرى ؟ • وكيف يستعيد الفرد فيهم كرامته الشخصية ومكانته القبلية• لذا فقد كان التوجه الى الآلهة ــ آلهة المنتصرين اول الطريق الى احتلال مكانته الاجتماعية ، وكان لا بد من التسليم لآلهه المنتصر • ولذا فقد كان في أحيان كثيرة يتحامل على آلهته وآلهة اجـداده فيحطمهـا لتصوره

واعتقاده انها لم تعد تصلح لأن تعبد فهي سبب انكساره العسكري وانتصار اعدائه عليه • فعبد تلك الآلهة وعندما تطورت عبادة الآلهة الى اله واحد (القمر) في بداية ذات التطور • وهو اله الدولة الغالبة عبد هو هذا الاله الذي اصبح فيما بعد (بعل سين) ثم (ذي سموي) اي رب السماء ، رغبة منه في المساواة مع افراد القبيلة المنتصرة امام الاله كخطوة اولى للدخول الى المساواه الاجتماعية • فاستطاع بذلك ان يضمن لنفسه وضعا اجتماعيا في المجتمع الجديد الذي انتقل اليه • لأن الناس امام الاله الجديد سواسيه من حيث اوضاعهم الاجتماعية والدينية على الرغم من الاستثناء الذي كان حاصلا بالنسبة للمكرب أو الملك أو الكهنة والوسطاء أي الصف الاول في الدولة والذي تمتع بامتيازات كثيرة اجتماعية كانت ام دينية •

ان التقاء الناس حول اله واحد سيكون ولا شك عاملا حاسما في اذابة كثير من الفوارق الاجتماعية • فجميعهم يعبدون الغيب وجميعهم يؤدون نفس الشعائر والطقوس • وليس هناك الها كبيرا ضخما مرصعا بالاحجار الكريمة والمجوهرات يمثل فئة اجتماعية ذات مكانة رفيعة بين القوم وليس هناك الها صغيرا تدل هيئته على فقره وفقر عبدته من الناس• بل اصبح الجميع في الحال الجديدة لا يشعرون بالتمايز فقد تحولت الآلهة الى اله واحد رحيم رحمن يعطف عليهم فينزل لهم المطر ليسقي الزرع ويحيي الأرض • وعطاياه كعبادته ملك لكل الناس بدون أية محاباة لفئة اجتماعية دون الاخرى أو لفرد دون آخر • ومن هنا استطاع اولئك الاسرى ان يجدوا لهم مكانة اجتماعية بين القبيلة الآسرة فيتمتعوا بنفس الحقوق الدينية على الأقل ، والتي عكست نفسها كمسيرة فعلية في تلك الفترة للحياة الاجتماعية فتساووا بواسطة المساواة الدينية في الحقوق الاجتماعية وأحس الانسان بانسانيته وآدميته والتي كان قد فقدها بحكم الاسر •

(٣) تزايد السكان عامل آخر

ونتيجة للتطور الذي استطاع الشعب اليمني الحصول عليه ابان حضارته ، فقد حصل تطور من ناحية الكثافة السكانية قبل تلك الهجرات التي حدثت في التاريخ وأدى هذا التطور الى تطور في الانتاج الزراعي• والصناعي والتعديني والتجاري • ولقد كانت تلك الزيادة في السكان نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وطبيعية اقتصادية • للانتعاش التجاري والتعديني الذي حصلت عليه الممالك ابان استقرارها واجتماعي للهدوء والاستقرار الداخلي وتوفر الحاجات الضرورية للانسان وطبيعي حين تمكن من قهر تقلبات الطقس والمناخ ببناء السدود التي حفظت له زراعة دائمة طوال السنة ، كما أدت الزيادة في عدد السكان الى تطور الانتاج الاجتماعي الا ان هذه الزيادة بالرغم من ايجابياتها الكثيرة فقد ظهرت لها جوانب اخرى سلبية على الصعيد الاجتماعي العقائدي • فلقد خلقت كل فئة اجتماعية من تلك الفئات الكثيرة التي تعايشت في اليمن آلهة تعبدها وتتقرب اليها بالقرابين والذبائح • وأحس القائمون بالامر ـ الدولة والملك بخطورة مثل هذه الظواهر على التماسك الاجتماعي والذي كان قائما قبيل الزيادة المطردة للسكان وتعدد فئاتهم الاجتماعية وكثرة طوائفهم الدينية • حيث عبدت كل طائفة الها حتى قيل انه كان في تسنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا لمختلف الآلهة التي عبدتها مختلف الفئات فأصبحت وحدة المجتمع وتماسكه مهددة بالانهيار • وقدس الناس الآلهة التي خلقوها بأنفسهم • فأصبحت منافسة لاله الدولة الكبير في مكانتها الروحية عند الانسان مما اضطر الدولة الى اعادة النظر في هذه الوضعية الدينية الجديدة التي قللت من شأن اله الدولة الكبير واصبحت ناقوس خطر يهدد سلطة الدولة وهيبتها المعنوية لدى مواطنيها فكان لا بد من حسم لمثل هذه الامور قبل ان تستفحل وتفقد الدولة سلطتها كلية على مواطنيها وان ضبط الامور وانهاء تلك الملابسات والمداخلات الدينية والدنيوية ضرورة تحتمها مصلحة الدولة السياسية ولم يكن في الامكان في تلك الفترة منع الناس من عبادة الالهة أو حتى الحد منها • ولذا

فملاءمة للظروف والاوضاع السائدة كان لا بد من مخرج لمثل تلك الازمة الاجتماعية السياسية دون اتاحة الفرصة لاعداء الدولة في استغلال مثل هذه القضايا ليحولوها الى مشاكل معقدة في وجه السلطة • ولم يكن هناك حل افضل من ذاك الحل الديني • فخلق الاله الواحد تلبية لتلك الحاجة الضرورية لدى الدولة واستجابة لظروفها السياسية وأوضاع المجتمع العقائدي الممزقة • فحصل هذا التطور على ما يبدو عند المعينين والحضارمة أول ما حصل •

(٤) نظام الحكم

ملكية الدولة لوسائل الانتاج (اقطاعية الدولة)

لا أريد هنا ان اتسرع بطرح رأي حول نوعية نظام الحكم في الممالك اليمنية القديمة الا ان كتب التاريخ تشير جميعها الى ان حضارات الشرق لم تتعرف على النظام العبودي والى ان هذا النظام كان فقط سائدا في الشرق واثينا وروما • نتيجة لوجود مصادر كثيرة للرقيق في تلك المجتمعات فما هو نوع النظام اذن في اليمن بالذات ؟ • يرى ماركس ان هذا المجتمع كغيره من مجتمعات الشرق لم يتعرف على الملكية الخاصة للارض نتيجة لنوع مناخ الاقاليم وأثره على طبيعة الأرض وعلى تربتها ، حتى النظام الاقطاعي الفردي كان يبدو من المستحيل قيامه في ظروف طبيعية كهذه • فما هو نوع النظام اذن في اليمن التي كانت تبدو في طبيعة مناخها متقلبة متغيرة كما ان طبيعة تضاريسها الجغرافية التي كانت لا تسمح لقيام ملكية اقطاعية كبيرة للارض هي المتحكمة في نوعية النظام ؟ ويتساءل ماركس اذن كيف تم وأمكن ان لا يتوصل الشرقيون الى وعي قضية الملكية الفردية للارض •• حتى ولو بشكلها الاقطاعي وهذا يعني ان نوعية النظام ستكون نتاجا طبيعيا لهذه الأوضاع الطبيعية • ولنضع ذلك جانبا لنتعرف بصورة موجزة على طبيعة المشاريع التي كانت تنفذ في تلك الفترة • لقد شق اليمنيون الطرق التجارية الطويلة والتي اوصلت اليمن جنوب الجزيرة العربية بشمالها فوق الجبال الوعرة

والصحاري الرملية الشاسعة كما قاموا بشق الانفاق لتكملة هذه المهمة الاقتصادية • وحفروا المناجم في بطون الجبل واستخرجوا منها المعادن ـ الرخيص ومنها الثمين وقاموا ببناء السدود لتخزين المياه وتطويع الطبيعة بدلا من الاستسلام لها ولتقلبات الجو والمناخ • ورووا الصحراء بساء السدود فحولوها الى جنات خضراء وارفة الظلال في وسط صحراء محرقة ملتهبة • وبنوا المدرجات العظيمة فوق الجبال لقلة الأرض الزراعية في المناطق الجبلية وحصنوا المدن بأسوار عالية • وبنوا المعابد العظيمة • من كل هذه الاعمال نشتم رائحة الجهد الجماعي والذي لا شك ان دولة مركزية قد نظمته • وقد اثبتنا في السابق انها ليست ذات صفة عبودية • كما ان هذه الاعمال العظيمة لا يمكن ان يقوم بها الاقطاع الفردي والذي لم تتعرف عليه اليمن عبر تاريخها الطويل في الماضي كما يؤكد ماركس (لم تتعرف على الملكية الخاصة للارض) وكما يقول في مكان آخر : (ان دول الشرق رفضت هذا النوع من النظام • فما هو النظام اذن) دولة مركزية غير عبودية واعمال عظيمة لا يقوم بها الاقطاع الفردي ان ذلك سيوصلنا الى قناعة بأن اليمن في تلك الفترة قد تعرف على شكل متقدم من النظام فوسائل الانتاج من سدود وخزانات وطرق تجارة ومناجم تعد من ملكية الدولة وطالما تشير الدلائل كلها على ان النظام لم يكن عبوديا فهو اقطاعي الا ان غياب الملكية الخاصة التي يشير اليها ماركس وأنجلز في رسائلهما المتبادلة يجعل من النظام اقطاعيا غير فرديا يمكننا ان نطلق عليه تسمية (اقطاعية الدولة) ذلك ان كل وسائل الانتاج ملكية الدولة الغير عبودية وقد فرضت طبيعية الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية آنذاك ان تستحوذ الدولة على كل المرافق العامة فافتراض هذا الوضع وبالضرورة وحدانية العبادة حتى تتمكن الدولة من انجاز مهماتها على اساس من رعاية الاله الواحد والملك الواحد والدولة المركزية الواحدة •

(٥) تعدد التضاريس وقسوتها

لقد لعبت التقسيمات الجغرافية التي احتوتها الارض اليمنية دورا كبيرا في عملية خلق الاله الواحد والتعلق به وبمشيئته القدسية بل وفي عبادته عندما اقتضت الضرورة ذلك •

فالارض اليمنية احتوت الساحل والجبل والسهل والصحراء هـذا التعدد في التضاريس الطبيعية كان يتطلب التوحد الروحاني في نفس الانسان اليمني ووعيه ومشاعره • فالساحل الذي عاش فيه تجثم بالقرب منه أمواج متزعة تهدده في لقمة عيشه وفي قوته اليومي في صيده وفي تجارته وعلاقته ببلدان ما وراء البحار بالهند والصين وشرق افريقيا التي تاجر معها وأخذ منها وتأثر بها في معتقداته وأفكاره • فكيف يقهر تلك الأمواج ويسير سفنه وهو لا يملك الا ادوات ابحار لا تتجاوز السفينة الشراعية والمجذاف ؟ وهل يضحي بعلاقته بعالم الحضارة والتجارة ؟ وماذا يأكل ان استسلم لأمواج المحيط ؟ والبحر يمده بما يحتاج اليه من صيد لا بد ان يقاوم ليأكل ولا بد ان يخضع أمواج البحر ليتاجر • ولا بـد ان يرتبط بعلاقات مع دول العالم المتحضر • ولم يكن يملك حينها أدوات وآليات متقدمة لينفذ مشيئته ورغبته في البقاء والتجارة والازدهار ولم يكن أمامـه سوى اللجوء الى الغيبيات بعد ان عجزت الآلهة المتعـددة على ضبط مثل هذه الامـور المعقدة والصعبة وتذليلهـا بقوة انسانيـة بذلها هو ونسبها الى الآلهة العاجزة فالتجأ الى تلك القوة الروحانية لعلها تذلل الصعوبات امامه وتساعده على القيام بتلك المهمة •

اما قسوة الجبل اليمني بارتفاعه الشاهق ورؤوسـه المدببة فقـد منعته من الزراعة عليها • وصحيـح انه قهر جزء منهـا فبنى المدرجات الضيقة والتي لا تتجاوز امتار عدة في كثير من المرتفعات الجبلية وبقي يزرعها بصعوبة بالغة وكانت الامطار تسحبها فتحرمه من منتوجه الذي بذل الجهد فيه طوال السنة • أوليس هذا الانسان بحاجة الى اله غيبي

يساعده مع أدواته البسيطة على شق الجبال وتسطيحها وتحويلها الى أراضي زراعية بعد ان عجزت الآلهة الكثيرة بل وعجزت حتى الشمس بضوئها وحرارتها وكل عظمتها ان تساعده في الحصول على لقمة عيشه فاتجه اليه هو الاله القادر على كل شيء .

والصحراء المترامية الاطراف المتسعة طولا وعرضا والقاسية الحرارة الشحيحة العطاء هي جزء من أرضه عاش فيها وسكن في قلبها وسير قوافله بها ، وهو يعاني من حرارة شمسها وجفاف جوها وشحة عطائها . أليس بحاجة الى اله غيبي بعد ان عجز حتى القمر رغم تخفيفه لكثير من معاناة انسان الصحراء من نهارها القاسي ؟

وبالرغم من ان القمر قد أدى واجبه في حدود وضعه الطبيعي فساعده كذلك على تسيير قوافله التجارية وآنسه في رحلته الطويلة بين الشام وفلسطين ومصر والعراق واليمن . الا انه لم يستطع ان يتدخل في وظيفة الشمس مما حز في نفسه فذهب يبحث عن اله غيبي يخضع الشمس ويخفف من حرارتها وينعش الارض ويرعى القوافل التجارية فيحرسها من لصوص الصحراء ويضللها بغمائم سحب في النهار من الشمس المحرقة ويساعد المسافر في رحلته المتعبة المضنية فيوقف الرياح وهبوب الرمال والأعاصير في وجهه ، حيث كانت الصحراء تلتهمه عندما يتوه فيها .

انه بحاجة الى اله باذنه تنبت الارض الجافة وترعى الابل والماشية وينمو النخيل ويعطي ثماره . ولن يكون سوى اله كلي القدرة قادر على التحكم في هذه الظواهر الطبيعية . فيخلق المعجزات ويأتي بعظائم الامور فليكن (رب السماء) التي يسقط منها المطر ويتعلق بها الشمس والقمر ويزحف منها الليل والنهار .

اما السهول حيث تجري الأودية وتعد من أخصب المناطق اليمنية ، فقد كانت في بعض الأحيان عرضة للجفاف نتيجة لانقطاع المطر ونضب

المياه في العيون • ورغم جهوده العظيمة الذي بذلها في سبيل بنـــاء السدود حتى لا يقع كلية تحت رحمة الجو المناخ ومواسم المطر، الا انه كان كذلك بحاجة الى من يضبط الامور اكثر فيسقط المطر بانتظام كي لا تخف الاودية ولا تفرغ السدود وخزانات المياه فتصاب الارض بالقحط والزرع بالجفاف والحيوان بالموت والهلاك ولن يكون بهذه القدرة الا الاله الواحد فليخلقه في ذهنه وفكره ومن يدري لعله فعلا يعينه وينجده وقت الحاجة والضرورة الا ان انسان السهل كان أقل حاجة الى هذا الاله لأن طبيعة أرضه أقل صعوبة من طبيعة الاراضي الاخرى الجبلية والساحلية والصحراوية لذا فقد كان حماسه لهذا الاله أقل حرارة من حماسة بقية ابناء المناطق الاخرى فلقد مكنته طبيعة ارضه من ان يتغلب على بعض الصعوبات كقلة الامطـار بناء الخزانات والسدود لحفظها لوقت الحاجة•

ان اله (رب السماء) الذي خلقته الضرورة والحاجة في ذهـن مجموعة متميزة اجتماعيا فرضته في بداية الامر ثم لقي قبولا عند عامة الناس فيما بعد لكونه حسب تصوراتهم مصدر العطاء والرزق فأقاموا صلواتهم وطقوسهم الدينية لتحقيق تلك المطالب الحياتية وصب الاهتمام (برب السماء) من أجل العطايا بالدرجة الاولى أما فكرة الحساب والجزاء والآخرة وغيرها مما لم يكن مفهوما لديهم وغير قادر على تخفيف مشاكلهم وقضاياهم اليومية فليس هنالك ما يشير اليها في النقوش الا اننا لا نستطيع ان نجازف بعدم ورودها في معتقدات اليمنية آنذاك فما زال الكثير من النقوش مجهولا وما زالت المنطقة بحاجة الى المسح الجيولوجي وما زلنا بحاجة الى استنباط الوسائل للتعرف على كثير مـن جوانب الحضارة اليمنية بصورة خاصة •

(٦) التمزق السياسي

ان الاوضاع السياسية الممزقة التي عانى منها اليمنيون وكانت هي الصورة الشاذة في واقع طبيعي اجتماعي واحد قد حملت اليمنيين على

التفكير بها وصب كل جهودهم لانهاء هذه الوضعية المخالفة والمضادة مع أمانيهم وطموحاتهم في تحقيق وحدة الامة اليمنية حيث دعت الضرورة المعيشية والواقع الحياتي للانسان اليمني وللجماعات الى فرض نوع من الهدوء والاستقرار بين الممالك •

لقد شهدت الممالك اليمنية حروب كثيرة اشعلتها بالدرجة الاولى المصالح الاقتصادية لكل مملكة على حدة وللقبائل التابعة لها فالرغبة في تأمين طرق التجارة للقوافل من جهة والاستحواذ على ممتلكات الممالك الاخرى من جهة اخرى سواء أكانت زراعة المر واللبان او الاتجار به او الاستيلاء على مناطق المعادن الثمينة كالذهب والعقيق او تحويل مجرى الأودية الى أراضيها كل هذه الامور كانت مصدر اشعال الفتن والحروب بين الممالك اليمنية بل وفي أحيان كثيرة بين القبائل التابعة لنفس المملكة او الخاضعة لعدة ممالك متجاورة فها هي مثلا جماعة من المغيريين السبئيين يعترضون طريق قافلة معينة وينهبون كل ما بها من أموال ولا يتركونها الا شذر بذر فتضطر الى الالتجاء الى دولتها وتشتعل بين المملكتين حروب مدمرة كما حصل عندما قامت الحرب بين (ذي يمنت) و (ذ شامت) •

ان تتبع الأحداث السياسية والحروب العسكرية بين تلك الممالك اليمنية يتطلب منا وضع دراسة خاصة بذلك ولذا سأكتفي هنا باشارة بسيطة الى تلك الحروب التي قامت بينهم فقط من أجل استخلاص النتيجة التي أرغب في وضعها وهي قضية التوحيد الالهي لقد قامت عدة حروب بينهم كلها بسبب مصالح اقتصادية او اطماع سياسية بقصد التوسع على حساب المملكة المجاورة فها هي مملكة قتبان تضم وتنشأ في مفترق طرق التجارة بين حضرموت ومعين لتشطر معين وحضرموت وتضرب العلاقات الودية التي كانت بينهما وتحتل مسافة واسعة من الصحراء والسهل وتحاول ان تجد لها منفذ بحري فتتوسع وتصل في غزواتها وحروبها الى ساحل عدن كما ورد عند (ياقوت الحموي) • وها هي مملكة

حضرموت تزيل (تمنا) عاصمة قتبان من على خارطة جنوب الجزيرة وتتوسع في غزواتها وتتسع مساحتها حتى تصل الى جوف اليمن وتمد سبأ حدودها الى تخوم الحجاز ونجد وتلتهم معين باسرها تنشأ مملكة وتتحطم الاخرى ويبزغ نور حضارة في بقعة معينة ويأفل نجم اخرى في مكان آخر وتستمر هذه الحالة المؤلمة لنفسية الانسان اليمني حين يقاتل بسبب تلك الحروب أهله وذويه فقد تنشطر قبيلته الى شطرين كل جماعة منها تابعة لمملكة ، وللملك فيتحفز لقتال أهله ويتحفز أهله لقتاله ويشهد التاريخ اليمني حتى يومنا هذا ببؤس هذا المشهد اب يقتل ابنه وابن يقتل أباه او أخ يطعن في قلب أخ له كل تلك المآسي تسببها الاطماع السياسية للسكاربة والملوك والذي أدى الى تمزق المنطقة سياسيا رغم الواقع الطبيعي والاجتماعي الذي يشهد على وحدتها •

ولقد آلمت هذه الوضعية الانسان اليمني الفرد والجماعات ، وقد بدأ يبحث عن مخرج يعود اليه في الشدائد فيخفف من ذاك التمزق والضياع انه بحاجة الى سلطة واحدة ذي قدرة خارقة تقهر التمزق وتعيد وحدة ارضه وبيته وتبعد عنه شبح الحرب مع أهله واستغل هذه الرغبة المكربين والملوك استغلتها الدولة فجهزت الحملات الكبيرة باسم اله واحد (رب السماء) وبالرغم من ان هذا الموضوع بحاجة الى بحث تاريخ منفرد الا اني اميل الى الاعتقاد ان تلك الحملات الكبيرة التي شهدتها الممالك اليمنية قد كانت باسم تثبيت سلطة الاله المتعددة ثم اله الواحد لحاجة الناس الملحة اليه بعد ان استطاعت السلطة ان توجه شعور الناس وتمكنت من اخضاعهم بواسطة هذا الاله لسلطتها المركزية العليا ودخول الملك لنفسه مسئولية التحدث باسم الاله الأكبر واصدار التشريعات والقوانين الموافق عليها من قبله وتمكن بذلك من السيطرة على اطراف مملكته ولقي عند الناس الرغبة الملحة والتقبل النفسي والذي هيئته له تلك الاوضاع مجتمعة الطبيعية والاجتماعية والسياسية فأقبل الناس على (بعل سمن) يتوددون اليه ويقدمون ولاء الطاعة (لذي

سموى) (رب السماء) دون ان يتعرفوا عليه كما تعرفوا من قبل على تلك الآلهة الكثيرة ثم على الكواكب الثلاثة لاعتقاده بأن تلك القوة المجهولة هي التي تمسك وتحرك كل شيء بيدها •

(٧) الاوضاع الاقتصادية

تشير كتب التاريخ الى ان القاعدة المادية للاقتصاد اليمني آنذاك قد قامت على الزراعة بالدرجة الاولى والتجارة والتعدين • ولقد اعتمد الانسان اليمني في انتاجه على وسائل الري الاصطناعي حين بنى السدود التي اوصلت كل مملكة بالاخرى لامتدادها على طول وعرض الممالك فكانت عامل مهم من عوامل الربط بين الممالك كما كانت عامل من عوامل الحروب والفتن بينهم عندما كانت تتم عملية حجز المياه عن مملكة اخرى او تحويلها او استحواذ قبائل دولة من تلك الدول على مياه الامطار دون قبيلة اخرى وقد يجعلها ذلك تضطر الى الاذعان لمطالب القبيلة المجاورة فتسلم بما تريد خوفا من الموت جوعا وعطشا وقد تتودد اليها بتقديم ولاء الطاعة الى آلهتها •

ان توفير المناخ الملائم لازدهار التجارة كان يتطلب وبالضرورة استقرار وأمن بين تلك الممالك المتحاربة فيما بينها على الدوام لاعتقاد كل مملكة بالاحقية التاريخية في أراضي مملكة اخرى وفي انتزاع ذلك العرش من مكانه وتثبيت عرش آخر محله واخضاع اطراف المملكة المتمردة والمطالب بالانفصال بل وفي اوقات كثيرة المنفصل والمؤسس مملكة اخرى اخضاعه للمملكة الشرعية واعادته الى الحظيرة حتى لا يهدد القوافل التجارية بالدرجة الاولى التي كانت في داخل أراضي كثير من الممالك اليمنية فالطريق التجاري الذي يمتد الى شمال الجزيرة العربية كان يمتد من قنا (بئر علي) على الساحل الخضرمي الى (تمنع) عاصمة قتبان (فمأرب) داخل الاراضي السبئية (فقرناو) • المعينية ثم (الديدان) (العلا) وهناك يتفرع في عدة اتجاهات يجري كل طريق منها الى

مملكة من ممالك الشمال ولقد كان على هذه الممالك ان تؤمن سلامة هذه القوافل داخل اراضيها وفي اطراف مملكتها من لصوص الصحراء تثبيتا لقوتها العسكرية وهيبتها السياسية من جهة ومن جهة ثانية حتى يتم تأمين قوافلها هي كذلك والتي كانت تشترك في تلك الرحل الطويلة بين جنوب الجزيرة وشمالها ولقد كان لتجار كل مملكة مصالح في أراضي الممالك الاخرى من هنا فقد تداخلت المصالح التجارية ببعضها وتطلب ذلك حام أعلى يقوم بعملية الحراسة للقوافل والاشراف على التجارة المتحركة من الممالك وما كان يستطيع ان يوفر تلك الحماية غير اله قوي أمين جبار كلي القدرة •

ان مناطق المعادن الثمينة في بعض الممالك اليمنية كالحضرمية والمعينية والسبئية قد ولد اطماع ملوك الممالك المجاورة فرغبت في الاستحواذ عليه ووضع يدها على مناطق استخراجه فجهزت لذلك الحملات الكبيرة وشنت الحروب الطويلة المنهكة باسم الاله التي رغبت في امتلاك تلك المعادن وفرضتها على القبائل المهزومة وتأثرت بعبادات الاقوام المهزومين كما حصل عندما عبد الحضارمة المقه وعبد القتبانيون (عم) آلهة معين وتسمى ملوك حضرموت باسماء ملوك معين التي تبدأ أو تنتهي باسم الاله (ايل) (صدق ايل) اول ملوك حضرموت كل ذلك التقارب في عبادات الآلهة كان العامل الحاسم فيه اشتعال الحروب التي كانت العوامل الاقتصادية هي المتحكمة فيها المؤججة احيانا والمهدئة حين آخر • ولقد وجدوا في الاله الواحد عامل حاسم لاشعال الحماس في النفوس وللالتفاف حول الملك الراغب في غزوة او معركة فدعو باسمه وتبنت الدولة هذه الدعوة وقام عليها الملك وروج لها كهنة المعابد خدمة لمصالحهم الخاصة ومصالح الملك والدولة ثم لقبائلهم وأقوامهم • والتفت جماهير الناس حول الشعار وراحوا يحولونه الى واقع ملموس بتجسيده في صلواتهم وعباداتهم والتمسك به في حروبهم بل وشن الحروب باسمه لغرض سيطرته وسطوته على المناطق التي رغبوا في احتلالها لأجل استخراج معدن ثمين او الاستيلاء على زراعة معينة خاصة تلك الزراعة

التي اشتهرت في ذاك الوقت المر واللبان او المتحكم في منفذ تجاري كل هذه الحوافز والدوافع الاقتصادية هي التي حركت الاطماع السياسية تحت شعار فرض اله القبيلة على بقية القبائل او تحويل عبادة تملك القبيلة من اله الى الــه آخر فيما بعد فرض (ذي سموي) (رب السماء) والذي عثر على اسمه في نصوص المسند في ثمود كما يورد ذلك الدكتور جواد علي في موسوعته التاريخية « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » •

التوحيد اليماني أساس التوحيد العبري .

ان تطور الاديان والذي بدأ بتقديس الظواهر الطبيعية كالرعــد والبرق والمفاهيم العامة المجردة كالخير والشر ثم نزح عليهــا الى عبــادة الاصنام المتعددة الاشكال والاسماء والتي ترمز في النهاية الى الكواكب البائنة في السماء كالزهرة والشمس والقمر ثم المتوصل الى التوحيــد بالــه مجهول الهوية غيبي يسكن فوق السماء قد شهدته اليمن ابــان حضارتها قبل الميلاد •

ولقد تعبد اليمانيون للآلهة فتقربوا اليها واسترضوها بشتى الوسائل والطرق كما اشرت سابقا واختاروا لها الاسماء والصفات وتيمنوا بهــا فوردت اسمائهم بعد اسم الصنم او الاله مثل (ايل يشرح) (ايل يفع) (ايل يثغ) او (يدع ايل) (يسمع ايل) او (سعد ود) (عبد شمس) ويبدو من نقطة ايل المتكررة في اسماء ملوك اليمانيين انها صفة لالــه وتعني القادر (صدق ايل) أي صدق القادر او القوي الجبار • ثم جاءت عقيدة التوحيد بالــه واحد يسير الحياة والعالم . ولقد اختلفت الآراء في مفهوم كلمة الله ولم ترد اللفظة في العبرانية وورد لفظة اله (ايلوه) بالرغم من ان كثيرا من علماء المسلمين ومؤرخيهم من الاخباريين وعلى رأسهم الرازي يعتقدون ان اصل الكلمة سرياني او عبراني ويذهب بعض المستشرقين ان لفظة (الله) التي استخدمت في الاسلام انما هي مــن بقايا الوثنية وهو اسم صنم كان بمكة يعبد من قبل القرشيين ووردت

في الخط المسند كلمة (بعل) معناها مالك او صاحب او رب وكلهـا كلمات ترمز الى الاله (بعل غمدان) التي يراها (روبرتسن سمث) انها مقتبسة من الاقوام السامية التي سكنت طور سيناء • ويراهـا (نولدكه) و (ولهوزف) انها عبادة سامية قديمة عرفت عند قدماء العرب منذ عهود سحيقة في جنوب الجزيرة العربية وقد اطلقت هذه اللفظـة على الارض التي تعتمد في زراعتها على الامطار والري الصناعي وان الساميين سكان الجزيرة العربية بالذات قد خصصوا للالهة المتعددة قطع من أخصب أراضيهم كوقف لتسن عليهم بالخير والبركة فلقـد تحكمت بيئتهم الجغرافية في هذه القضية الى حد كبير فخصصوا للآلهة جزء منها لتكون الارض في حماها وبالتالي حياتهم وازدهارهم وحضارتهم فتحولت كلمة (بعل فلان) عندما انذرها الأهلون للاله الى (بعل سمين) والتي تعني (رب السماء) يقصد بهذا ان تلك الارض هي في ملكوت الـه غيبي هو الذي ينزل المطر عليها ليسقيها ذلك انه اله البركة والخصب الا انها تصب في النهاية في مفهوم واحد هو السقي بالامطار المتقطع والتي كانت تتحكم فيه آنذاك بالنسبة لانسان تلك الفترة قوة واحدة تسقطه متى ما رضيته عنه أي بدون انتظام كما يشهد بذلك الوضع الجغرافي والمناخي في جنوب الجزيرة العربية •

فلقد حاول اليمانيون ان يرجعوا الكثر في الآلهة الى مفهـوم الوحدانية لها فكان التدرج الذي تم في عبادة الاله من شتات عديدة في الاله بلغ اكثر من مئة اسم رغم ان جزء كبير منها نعت وصفات للاله الى حصر لها في كواكب ثلاث ذات تأثير على الانسان الى مفهوم لاله جديد هو (بعل سمين) الى الـه سمي ذي سموى (أي رب السماء) ويبدو ان اللفظة متطورة من (بعل سمن) كما ان فكرة جديدة قد وردت في اللفظة الجديدة فكما يذكر علماء اللغة ان (الرب) هو الله وهو رب كل شيء أي مالكه وليس فقط رب ومالك لقطعة ارض صغيرة انذرت له وباسمه وان هذا الرب له حق الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الارباب ومالك الارض والسماء كلها وعلى الانسان ان يسلم مشيئتـه

اليه والى مسثليه على الارض المتسجد في الملك او المكرب • كما وردت في نصوص المسند كلمة (الرحمن) وهي صفة لرب السماء (ذي سموي) حتى ان أبرهة الحبشي قد استعملها في نص سد مأرب الشهير ولقد قـدم له اليمانيون النذور والعطايا فتعبدت له قبيلة (امر) ليرسل المطر وينشر الخير للناس كما ورد في نص بالمسند (وذ سموي ليزا مقضي شعبهو) أي أن معناها (وليمتع رب السماء شعبه) كما وردت في نصوص قتبانية كلمـة (ال تعلى) ومعناها حسب تفسير علمـاء الآثـار والتاريـخ (الله تعالى) •

ان كل هذه الالفاظ التي وردت في النقوش الى جانب التطـور الذي حصل في عبادة الآلهات ومفاهيم الكلمات التي تطورت هي بدورها بحسب ما اقتضته الضرورة تدل دلالة أكيدة على ان التعاليم الوطنيـة اليمنية قد شكلت بالفعل الخلفية الفكرية والفلسفية للديانات التوحيدية ابتداء بالابراهيمية وانتهاء بالاسلام وان جميع هذه الاديان قد تطورت من المفهوم الاولى للتوحيد اليماني فهي لم تفتعل ولم تخترع ولم تخلق تلك الفكرة بل وجدتها كمساد اولي وأساس في العقيدة التوحيدية واضافة عليها ما أرادت ان تضيفه ليتناسب مع طبيعة ظروفها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • فقد كانت العقائد وكمـا هي ستبقـى الملبي الذهني لحاجيات المجتمع وظروفه ذلك ان التوحيد اليماني قد أدى دوره حسب المتطلبات الاجتماعية للقبائل اليمنية بمرونة لا تحد وكان عليه بعدما انتقل الى شمال الجزيرة ان يتكيف بحسب حاجة أقوام تلك المنطقة ويتغير ويتطور مع نشوء التوحيد المصري (اخناتون) ومع طلـوع الشمس اليهودية ليلبي حاجيات المجتمع الاسرائيلي (العبراني) ثم مع المسيحية وعيسى وأخيرا مع مجتمع الجزيرة العربية في نجد والحجاز من ثم في طول وعرض الجزيرة مع الدعوة المحمدية •

وبحكم العلاقات الاقتصادية التجارية المتبادلة بين شعبي جنـوب الجزيرة العربية وشمالها حيث عاش الآراميون هناك والذين ينتمي اليهم

ابراهيم الحنيف فقد حدثت تأثيرات متبادلة سواء أكانت اجتماعية أو فكرية او سياسية وتأثر الآراميون بفكرة التوحيد اليمانية فاحتضنها وتبناها ابراهيم الحنيف واريد هنا ان اعرج تعريجا طفيفا على كلمة حنيف وأصلها التاريخي كما وردت في كتب التاريخ يرى بعض المستشرقين ان لفظة (حنيف) اطلقت على القائلين بالتوحيد في الجزيرة وقد ظهروا أول ما ظهروا في اليمن ونادوا بالتسليم لرب السماء ودعوا الى عبادة الرحمن وقد تأثرت اليهودية والنصرانية بهذه الديانة اليمنية حيث يراها انجلز انها من التقاليد الوطنية العريقة للشعب اليمني وان جزءا صغيرا منها كان العمود الفقري للديانة اليهودية فيقول بالحرف الواحد (لقد تبين لي بما لا يقبل الشك فيه من الادلة ان كتب اليهود ليست سوى سجل للاعراف والتقاليد الدينية من القبلية اليمنية) ويعتقد ان اليهود قاموا بتحريفها ونسبها اليهم وانكار أهلها الشرعيين ولقد وجدوا في الكوارث التي حلت بالشعب اليمني نتيجة للفتن الداخلية والاهمال لكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والرفاهية الزائدة التي أدت الى الانهيار الاجتماعي وتحول طرق التجارة والهجرات الجماعية قبل الغزو الحبشي الذي أكمل ما تبقى لتلك الحضارة من حياة وجدوا في كل ذلك المدخل للاستلاب التاريخي الذي حل بالحضارة اليمنية وتقاليد شعبها العريقة ليزوروها وينسبوها لأنفسهم فيقول انجلز (وقد حرفت بعد ان شط المزار باليهودية عن اقرباء عصبتهم وجيرتهم بعد تشردهم وانفصالهم عنهم) ويؤكد (على ان مادة النقوش اليمنية بالمأثورات التي اشتملت عليها وكذلك القرآن كل هذه تميط اللثام عن ان اهم محتوياتها الاساسية عربية أصيلة) . لقد انصف ماركس وانجلز التاريخ اليمني برأيهما ذلك والذي كان دراسة عميقة ومستفيضة للتاريخ الانساني عامة وللتاريخ اليمني هنا بصورة خاصة وبالرغم من محاولات اليهودية انكار اقتباسهما للتقاليد اليمنية تلك الا ان حوادث التاريخ والترتيب الزمني الصحيح لها يؤكد ان القبائل والاقوام التي عاشت في اليمن تعرفت على الحضارة قبل ان يكون لليهود كيان بعشرات من القرون وبالرغم من ذلك فانه يمكننا ان

نلمس من التوراة اعتراف ضمني بتلك الحضارة وتقاليدها تكوين (ويطعان ولد الوداد وشالفا وحضرموت ويارح وهدورام واوزال ودقله وعوبال وابيمايل وشبا واوفير وحويله ديوباب جميع هؤلاء بنو يقطعان وكان مسكنهم من ميشا حينما تجيء سفار جبل المشرق هؤلاء بنو سالم حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم حسب امسهم (هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان)اذن فهؤلاء القوم لا شك وانهم حملوا معهم تقاليدهم واعرافهم الى الامم التي اختلطوا بها وتعايشوا معها فأثروا عليها كما تأثروا بها وكانت فكرة التوحيد حسب اخبار الكتب المقدسة موجودة وقائمة وبالرغم من ان الماضي البعيد صعب التحري والتحقيق لذا فالبحث سيشمل الفترة التي بدأت فيها الكتابة بالنقوش والتي ترينا ان لفظة حنفاء قد وردت بالخط المسند وانها تعني التسليم لاله غيبي .

فالاحناف اذن هم الذين سلموا اوجههم (لرب السما) او بالمعنى الاسلامي (لله) حيث ورد في القرآن سورة ابراهيم (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) . والمتحفي كما وردت عند الزبيدي في تاج العروس هو المتعبد المتدين وهو بمعنى التوحيد أي اثبات الفاعلية الدينوي لله.

وأكد القرآن على ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا حيث وردت سورة آل عمران (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) . وتدعم كتب التاريخ رأي القرآن في قضية ابراهيم ومحاولة اليهود تهديده رغم ان كل مؤشرات التاريخ وأحدا ووقائعه تريا ان ابراهيم من أصل آرامي ولد في منطقة الكوفة في العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ويقال ان أهله وذويه قد نزحوا من جزيرة العرب ولا يعرف بالتحديد في أي موضع من الجزيرة عاش آبائه وأجداده الا انه مما لا شك فيه انه قد تأثر بالحضارة اليمنية

والافكار والمعتقدات الوحدانية التي آمن بها اليمانيون ويدعم قولي هذا ببراهين وردت في القرآن (ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) ومن المستشرقين من آكد عبر دراسته للنقوش وجهة نظر الاسلام حيث يقول (نولدكه) ان حنف من أصل عربي وقد وردت لفظة (حنف) في العربية الجنوبية وردت بمعنى (صبأ) أي مال وتأثر بشيء ما وقد اطلقها الأسلام على نابذي عبادة الأصنام ومن وجهة نظر الاسلام وعلماء الاسلام ان هناك من دعي الى نبذ هذه العبادة والتوجه الى (رب السماء) من جنوب الجزيرة العربية وهم اتباع هود وصالح والذين ارسلا الى قوم عاد وثمود قبل ابراهيم الحنيف بقرون عديدة سورة الاعراف (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) هود (والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالك من اله غيره ان انتم الا فاقدون يا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان اجري الاعلى الذي فطرني أفلا تعقلون) قد افلح (ثم انشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون هيهات هيهات لما توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) •

يبدو سكان جنوب الجزيرة قد عرفوا البذخ في حياتهم وعاشوا في نعمة من العيش وفي حضارة لا يضارعها في الجزيرة العربية حضارة وقد ذكر القرآن هذه النعم وهذا البذخ الذي عاشوا فيه حتى بلغ بهم الحد ان استكبروا وعاثوا في الارض فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) ويذكر القرآن بعد ذلك العذاب الذي انزل بهم وهو نوع من التخويف لسكان الجزيرة العربية الذين اراد محمد ان يألف منهم امة واحدة ودولة واحدة وحضارة متماسكة ذات بأس شديد وقوة • (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد) وعاد وثمود قبيلتين سكنت جنوب الجزيرة وأرسل اليها هود وهو كما تذكر كتب الاخباريين انه ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر ابن ثمود بن عابرين ارم بن سام ابن نوح • فقد ورد في سورة النمل (ولقد ارسلنا ثمود اخاهم صالح ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون) ويبدو من هذه الآية ان فتنة

قد نشبت بين اليمنيين الموحدين ومن بقي على عبادة الاصنام او الكواكب أما في نسب ابراهيم فتورد كتب الاخباريين والتوراة ان ابراهيم هو ابن شارخ بن ناحور بن ساردع بن راغوا ابن فالح بن عابر بن شالخ بن ارفخشو بن سام بن نوح) اذن فكتب الاخباريين التي أوردت الاسماء والنسب الى جانب اخبار التوراة وأحاديث القرآن كلها تثبت ان انبياء جنوب الجزيرة العربية منهم هود وصالح قد جاءوا ودعوا الى التوحيد قبل ابراهيم وبصرف النظر عن دقة اخبارهم والانساب الدينية التي وردت عندهم ولم ترد في النقوش الا ان ما يهمنا هو ان ندعم وجهة نظرنا مستفيدين من المصادر في عملية التحليل للواقع اليمني في تلك الفترة التي أدت الى خلق ديانة التوحيد عند اليمنيين قبل غيرهم من الاقوام وقد ورد في الماركسية ما يدعم أخبار القرآن بل (ولقد اولت لهذه الظاهرة عند اليمنيين اهتماما بالغا حيث وردت في رسالة انجلز الى ماركس (عام ١٨٥٣) آراء وأقوال تدعم وجهة نظرنا هو « ان التعاليم التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة اليهودية .. والاسلام) .

ويقول انجلز عن الدين الاسلامي الحنيف الذي انتهج منهج ابراهيم (وفيما يخص الدين الاسلامي يبدو انه ذو صلة واشجة وطيدة بالتعاليم التي جاءت في النقوش اليمنية القديمة وهي التي لا يزال الموجود منها يشير الى ان التقاليد الوطنية العريقة والقائمة على التوحيد هي الطابع السائد). اذن فالاسلام الذي يعتز انه على دين ابراهيم حنيفا انما فكرته التوحيدية من اصل يماني ذلك ان العقيدة الحنفية يمانية . الا ان سقوط الحضارة اليمنية الذي جر الى خراب قضية التوحيد من جنوب الجزيرة وتحولها الى شمالها وليس قتل الناقة ولا عصيان أوامر صالح ولا تمرد الناس على طاعة رب السماء هو الذي جر الى سقوط الممالك اليمنية وتلك الحضارة وتحولها بما فيها من عقائد الى الشمال ونسيان الناس لها كلية .

ان وقائع التاريخ التي اوردناها سابقا والاثباتات المادية التي وردت

هي التي تشهد على صحة ما نذهب اليه ولنسر مع تطور الحوادث التاريخية خطوة خطوة فيبدو لنا من تسمية ابراهيم الخليل وهو المعروف في التوراة (ابرام) وصفة الخليل مقسمة قسمين (الخل ايل) أي المقرب الى الآلهة ايل • والمعروف ان ايل اله معيني عبد في معين قبل الميلاد بما يزيد عن عشرين قرنا وتيمن به اليمنيون في اسمائهم فورد كحام لهذه الاسماء اما بعد او قبل الاسم (صدق ايل) (ايل صدق) في تلك الفترة امتدت سيطرة المعينين حتى تخوم الحجاز بل وتجاوزتها الى المستوطنة (الديدان أي العلا في مفترق طريق الشام وفلسطين) وغني كابراهيم صاحب تجارة واسعة لا بد ان تكون اليمن بلاد المر واللبان قد لفتت نظره كتاجر لذا فمن المحتمل قيامه بسفرات الى هذه المنطقة • وقد تكشف لنا النقوش العربية سواء المدفونة في باطن ارض الجنوب أو الشمال مثل هذه الرحلات وعلى كل اذا سلمنا بعدم زيارته للمنطقة الا اننا نجزم بأن ابراهيم قد سمع عن جنوب الجزيرة كثيرا بل واحتك بمن جاء الى ارض الشام وفلسطين منها متاجرا او داعيا لفكرة ــ وانه قد تأثر بهم وحمل عنهم بعض الافكار والمعتقدات وانتقال اسماء اليمنية والمعينية بالذات الى الشمال وقد ورد في التورات تك (٢٤ / ٣) ذكر الاله (ايل) الذي دعى ابراهيم الى عبادته قبل ان يتعرف على عبادة الكواكب وقبل ان يحس بالانشطار الروحي الذي عانى منه في نفسه الآية الانعام (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ اصناما آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين)ولاختلاف طبيعة المناخ بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها فقد اعطيت الشمس الأهمية العظمى والكبرى في الشمال وعبدت كأعظم الكواكب السماوية لما كان للانسان هناك من فوائد ومصالح مرتبطة بها

وأخيرا رأى ابراهيم الشمس (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم أي بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) كخاتمة المطاف بعد الحيرة في الكواكب الثلاثة .

وتقول كتب التاريخ ان ابراهيم كان يتمتع بمكانة رفيعة بين قومه فها هو يتحدى ملكة النمرود ويحطم الاصنام التي سخرها الملك لخدمة أهدافه ومطامحه في السياسة والحكم (ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) . ويستمر الحوار في تحد بين الطرفين ويتهكم ابراهيم على قومه بعد ان اهتدى هو الى رب السموات والأرض سورة الانبياء (قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق ام انت من اللعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهم وانا على ذلكم من الشاهدين) . ويستمر التحدي بقوة تدل على ثقة ابراهيم بنفسه . لما له من ثقل بينهم وتحديه مع سابق الاصرار على تسفيه عبادة قومه انما تدل على انه كان صاحب جاه ومال كما تشهد بذلك جميع الكتب التاريخية (والله لأكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذارا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون) . اما التوراة فتؤكد على غنى ابراهيم والذي ينتمي الى طبقة الملوك والامراء وان الخلاف الذي حصل بينه وبين الملك نمرود على ما يبدو انه خلاف على المصالح المادية في نفس الطبقة (فصعد ابرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه الى الجنوب وكان ابرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب وسار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل) .

لقد احتلت رحلات ابراهيم وسفراته الطويلة مكانا كبيرا من التوراة لاهميتها بالنسبة لدعوته التوحيدية ولاقامة دولة مركزية لشمال الجزيرة العربية فلقد ترحل بين بابل وفلسطين ومصر في بداية حياته كتاجر ، ونتيجة للظروف السياسية آنذاك والعلاقات الخارجية القائمة بين تلك المماليك

(البابلية ــ والكلدانية والكنعانية والآشورية) فقد اصبحت الدعــوة التوحيدية ضرورة للتوحيديين اولئك الأقوام فما كان يصيب هذه العلاقات من توتر بسبب الحروب التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين تلــك الممالك فتعكس نفسها على الامن فينعكس على تجارته وتجارة غــيره وتتعرض للخطر • من هنا فقد دفعته الرغبة في التنقــل بحريــة وتأمين اجارته وازالة الحواجز والمكوس بين تلك الممالك ولاختمار الفكرة اليمنية من حيث كونها تخدم اهداف سياسية وتسخر الرب الواحد لخدمــة المصالح والاغراض الاقتصادية والاجتماعية فهب يدعو الى الوحدانيــة في المنطقة الواقعة بين النيل والفرات تكوين ١٥ و ١٦ آية (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير الفــرات • القينيين والقنزيين والقدموغيين والحثيــين والفرزيين والرفائيين والاحوريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسين) ان تلك الدعوة التوحيدية لا شك انها انطلقت من ارضية مادية اقتصادية واجتماعية اوحتها اليه المصلحة الشخصية والجماعية الرغبة في التنقــل بحرية وتوفير الامان بغرض الهدوء والاستقرار في ربوع المنطقة وبنــاء كيان موحد للاقوام المتعايشين هناك تحت ظل ممالك مشتته موزعة فمثل تلك الاوضاع الممزقة تقهر طموحات واحلام ابناءهــا وتمزق حياتهــم الاجتماعية والفكريــة وليس هناك أي حل الا بجمــع ذلك الشقــاق واعادة بنائه في كيان موحد ويشعر انسانه بانسانيته وينهي الضياع • الا انه كان لا بد ان تأخذ الدعوة الى الوحدة الاقتصادية والسياسية طابع ديني يتلائم مع تلك المرحلة فدعى الى عبادة الاله الواحد على غرار الدعوة لتوحيد الممالك اليمنية وبناء الدولة المركزية تحت شعار ديني بالرغم من ان الهدف دينوي محلي يتولى السلطة العليا فيها ملك مقرب الى الآلهة والى رب السماء (مكرب) •

ويبدو ان الفكرة اليمانية تلك كانت قد استهوته واستحوذت على مشاعره وأفكاره وهو المنحدر من نفس الطبقة التي كان ينتمي اليهــا مكارب وملوك اليمن فأخذ يعمل طوال بقية حياتــه على تحقيــق تلك

الوحدة واقامة تلك الدولة التي يأتي هو زعيما او ملكا فوق قمة بناءها الهرمي الا ان ابراهيم لم يستطع ان يكمل تلك المهمة ويقيم الدولة المركزية الواحدة نتيجة لطبيعة الظروف التي عاشتها المنطقة آنذاك والتي جعلت من حكم ابراهيم ها وامنيته الوطنية مهمة شاقة وصعبة وحولت الناس من الأخذ بالفكرة الدينوية التي نادى بها متسترا تحت شعار الوحدانية الى الأخذ بفكرة الوحدانية وعبادة الموضوع الذي خلقوه بأيديهم والذي حاول ابراهيم ان يتخذه كوسيلة فقط لتحقيق ذلك الغرض وذاك الطموح المادي الملموس وهو تحقيق وحدة المنطقة اقتصاديا وسياسيا وازالة شبح الحروب المدمرة بين مملكاتها الكثيرة ان خلق تشكيلة واحدة اقتصادية واجتماعية لبناء تلك المنطقة سيذيب ولا شك كل الظواهر السياسية المشتته والممزقة في وحدة عضوية يقوم التأثير فيما بينها الا على اساس الافضلية العرقية وانما على أساس مادي يعتمد على الانتاج والقدرة على الحركة التجارية في طول المنطقة وعرضها .

ان خلق كيان اقتصادي واجتماعي موحد يزيح شبح الفتن والحروب بين اقوام تلك المنطقة كانت اعظم طموحات ابراهيم الخليل الوطنية فعمل من اجل تحقيقها بخلق مفهوم عقائدي واحد يجمع مثل هؤلاء القوام الشتات في وحدة اقتصادية واجتماعية فخلق الاله الواحد تأثرا بالفكرة اليمنية كفكرة لاهوتية لم تستطع ان تحقق حينها الغرض الذي وجدت من اجله الا انها بقية تختمر وتتطور بواسطة الرسل حتى جاء بعد الفي وخمسة عام من بزوغ فجرها في الجزيرة العربية من استطاع ان يحقق ذاك الطموح المشروع ويبني الدولة العربية المركزية الواحدة لأقوام المنطقة العربية لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية فيتحول شتات اولئك الاقوام الى وحدة امة متماسكة قوية ويخلق من اولئك البدو تلك الدولة العظيمة التي أطاحت بالنفوذ الاجنبي الفارسي البيزنطي من الوطن العربي الى غير رجعة ذلك هو محمد بن عبدالله في ثورته الاسلامية تلك التي سارت على

هدى مبادىء ابراهيم الحنيف في التوحيد اليماني •

ان أهمية ابراهيم التاريخية بالنسبة لاقوام تلك المنطقة بل لسكان الجزيرة العربية كلها تكمن في محاولاته العظيمة في توحيدها وبناء دولة مركزية قوية يجد الانسان فيها انسانيته بعد ان بقي ضائعا فوق أرضها الصحراوية بين أنظمتها الكثيرة العديدة المختلفة النوعية ان ابراهيم يعد بطلا قوميا أراد أن يبني كيانا لأقوام ممزقين متحاربين رغم وحدة طبيعة أرضهم الجغرافية وتقارب لغاتهم من بعض وقد كان هناك التركيز على شخصيته في الديانات الثلاث اليهودية (أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا الجمهور من الامم فلا يدعي اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم، لأني اجعلك ابا لجمهور من الامم واثمرك كثيرا جدا واجعلك امما وملوك منك يخرجون) •

واما المسيحية فقد ارجعت جميع الانبياء الى نسل ابراهيم (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا واخوته ويهوذا ولد فارص وزار من تامار وفارص ولد حصرون وحصرون ولد آرام) الى آخره اما الاسلام فيرى فيه الدين الصحيح والخلفية الروحانية والفكرية (يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التورات والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) • وهذه الآيات القرآنية تؤكد على زعامة ابراهيم لأقوام الجزيرة العربية كلها ولا شعوبية الدعوة الابراهيمية وليس كما يحاول البعض ان يجعلوا منه زعيما روحيا فقط • ولا بد لنا ان نزيل الوهم الذي يسيطر على اذهان الناس وعقولهم حتى نتمكن ان نقيم حقيقة هذا العالم كما هي وان نكشف الاشكال المقدسة لأوهام الناس وتخيلاتهم حتى نخدم التاريخ بحق وحقيقة وان ننزع القناع عن المفاهيم الدينية الغيبية التي غلفت التاريخ والحقائق والوقائع المادية بغلافها لفترة تاريخية طويلة وحتى نتمكن من ان نمزق تلك القديسة التي لا تمس والتي

شوهت الحقائق التاريخية وحولتها الى تجريدات ضبابية الرؤيا فلم تتمكن من ان تتعرف على التاريخ كما هو في تطوره المادي ٠

ان التوحيد اليماني والذي شكل الرافد الحقيقي لفكرة الوحدانية الابراهيمية عليها القوام شمال الجزيرة لما كان لابراهيم من مكانة اجتماعية بينهم ٠ هذه الوحدانية التي شكلت الخلفية الفكرية للعقائد السماوية تتطلب معرفتها معرفة للفكرة اليمانية هل اكتفت بالتوحيد الغيبي (لرب السماء) ام تجاوزتها الى فكرة العقاب والمحاكمة التي ستتم خلف هـذا العالم المادي كما بشرت بها وحدانية ابراهيم ومن جاء من بعده مـن الرسل والمعتقدات الدينية ثم كيف كانت تتم عمليـة اخضاع الانسـان بالوحدانية الغيبية هل تلقاها منذ البداية بلا مقاومـة وهل حاجتـه الى الحاجات الضرورية هو الذي شكل المدخل لهذا الايمان وبالرغم من اني أميل الى ان تلك الفكرة قد فرضت عليه من قبل الملك والدولة الا انها جاءت مستجيبة لبعض من حاجياته الضرورية لذا فقد وجدت في نفسه صدى عميقا مكنها من ان تعيش وتنتشر في ربوع اليمن ٠ اذن فالمجتمع والدولة في اليمن هما اللذين انتجا هذه الفكرة والتي مثلت الوعي المقلوب للواقع الموضوعي اليمني والذي يعد عالما مقلوبا بالنسبة لوعي الانسـان المجرد والذي لم يكن يستطيع ان يحاكي الواقع الا بفكره فلم يكن قـد تمكن بعد من اخضاع الطبيعة وقواها ٠

ان التوحيد اليماني يعد النظرية العامة للتوحيد في جميع الاديـان الموحدة ولقد اصبح موضوع اعتزاز لها لذا فانصافا لهذه النظرية وتقديرا لاهلها والذين كانوا المبدعين الحقيقيين لتقاليدها والقيم المتعلقة بها لا بد من اعطائها الاهتمام التاريخي ولتكن هذه الدراسة مجرد مدخل الـى دراسات تاريخية عميقة مدعمـة بكثير من الحقائق الماديـة والوقائـع التاريخية والأحداث الحياتية وان استنباط وسائل حديثة من أجل الحفاظ على آثار الشعوب وتاريخها سوف يساعدنا في المستقبل كثيرا في دراساتنا وبحوثنا والتي نريد بها ان نخدم التاريخ والتاريخ اليمني بصورة خاصة

يتطلب منا التحليل ماديا للاحداث والوقائع واتهاج منهج المادية التاريخية حتى لا نقع في الضبابيات وتضيع منا الرؤيا الواقعية اوضوعية للامور فلا نستفيد من الوسائل الجديدة التي نطمح الى خلقها والابداع لها لـذا لا بد من ربط العلم والمنهج العلمي المادي في تحليل التاريخ حتى تسهل أمامنا كثير من الصعوبات وتتخطى جميع العقبات التي سوف تواجهنـا ونحن نقوم بهذه المهمة التاريخية •



مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومباي

الدكتور عبد الأمير محمد أمين
كلية التربية / جامعة بغداد

تحتوي دار السجلات الحكومية في بومباي على وثائق لعلها تشل أهم وأغزر المواد التاريخية الخاصة بالعراق والخليج العربي في العالم أجمع وسجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي هي في الاساس سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية » The English East India Co. وسجلات السلطات البريطانية التي ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها (١) .

لقد اجازت الملكة اليزابث الاولى هذه الشركة في ١٥٩٩/١٢/٣١ ومنحتها حق احتكار التجارة الانكليزية في « الهند والاقطار المجاورة لها The East Indies » وما هي الا سنوات قلائل حتى ظهرت سفن الشركة في مياه الشرق ، واستقر ممثلوها في أماكن عدة من الهند لرعاية مصالح الشركة وادارة تجارتها .

واتخذت (سورات) مقر رئيسي للشركة في غرب الهند . وفي نهاية القرن السابع عشر حلت بومباي محل سورات وأصبحت مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق . وانيط بها الاشراف على مقرات الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية كتلك التي في منطقتي البحر الاحمر والخليج العربي وكانت الشركة قد مدت نشاطها الى الخليج العربي بعد سنوات قليلة من

قيامها ففي عام ١٦١٦ أسست لها مقرا تجاريا « Factory » في(جاسك) على الساحل الشرقي للخليج العربي • ثم اختارت « كمبرون Gombroon » على الساحل نفسه لتحل محل جاسك • وابدل اسم كمبرون باسم آخر هو « بندر عباس » وازدادت أهمية هذا الميناء الجديد بمرور السنين . بل صار محورا للنشاط الاقتصادي والسياسي في منطقة الخليج العربي خلال المئة والخمسين سنة التالية (٢) •

ولم ينحصر النشاط الانكليزي في بندر عباس ، بل عمدت شركة الهند الشرقية الانكليزية في بعض الاحيان الى فتح « مقيميات Residencies » في أماكن اخرى مثل البصرة وبوشهر واصفهان وبغداد وشيراز ، تابعة الى مقر الشركة الرئيسي « الوكالة The Agency » في بندر عباس •

وترجع صلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بالبصرة الى عام ١٦٤٠ (٣) • فقد دفعت المنافسة الهولندية في بندر عباس الانكليزية الى ارسال بعض سفنهم الى البصرة لعرض بضاعتهم في اسواقها • ثم أخذت السفن الانكليزية منذ ذلك الحين تتردد على الميناء دون ان تؤسس الشركة فيها مقرا دائمة حتى عام ١٧٢٣ •

وفي عام ١٧٦٣ رفعت مقيمية البصرة الى وكالة وحلت بذلك محل بندر عباس • واستمر هذا الوضع الى عام ١٧٧٨ حيث خفضت البصرة مرة اخرى الى مقيمية (٤) •

وكانت تجارة الخليج هي موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من تاريخها • ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر على التجارة في أية فترة من فترات تاريخها الطويل ، بل كثيرا ما تعدتها الى مجالات سياسية وعسكرية • بحجة الرغبة في توسيع تلك التجارة وحمايتها (٥) •

وعلى أثر غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وتحركاته المريبة في منطقة الخليج العربي والعراق وفارس • تبدلت نظرة البريطانيين الى كل هذه المناطق • فلم تعد التجارة هي موضع الاهتمام الأول لهم ، بل طغت وبشكل واضح الاعتبارات السياسية والاستراتيجية على الاعتبارات التجارية • وتشبث البريطانيون منذ ذلك الوقت بمنطقة الخليج العربي كاحدى الطرق المهمة المؤدية الى امبراطوريتهم الواسعة في الهند •

وتخلت شركة الهند الشرقية الهندية في منتصف القرن التاسع عشر عن مسؤولياتها في الهند • وتولت الحكومة البريطانية مباشرة هذه المسؤولية • ولكن هذا لم يغير من الوضع في الخليج العربي ، فقد واصل البريطانيون سياستهم الرامية الى احكام سيطرتهم على الخليج العربي • وقاوموا بكل اصرار طيلة القرن التاسع عشر جميع محاولات الفرنسيين والروس والالمان الرامية الى الاقتراب من الخليج واتخاذ موقع قدم فيه • وما ان أشرف القرن التاسع عشر على نهايته ، حتى كانت منطقة الخليج العربي برمتها ضمن مجال النفوذ البريطاني • وقد وقع رؤساء المنطقة وشيوخها معاهدات مع البريطانيين ضمنت لهؤلاء السيطرة والنفوذ •

ان صلات البريطانيين الطويلة بمنطقة الخليج العربي واهتماماتهم التجارية والسياسية والاستراتيجية ساعدت في تراكم السجلات التي تحتفظ بها في الوقت الحاضر دور الوثائق في كل من بريطانية والهند ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان شركة الهند الشرقية جبلت منذ بداية تأسيسها على ابداء اهتمام بالغ بأوراقها • لقد بذلت الشركة عناية قد تفوق حد التصور في تنظيم سجلاتها وفي المحافظة على تلك السجلات وعدم التفريط بها مهما تقادم عهدها وتضاءلت أهميتها • ومهما انتفت الحاجة المباشرة اليها • لقد كانت الشركة تصر على تدوين كل شأن من شؤونها على الورق ، وبلغ هذا الأمر حدا وصفت الشركة معه بأنها « حكومة أوراق » [٦] ، وكثيرا ما أكدت لمستخدميها ضرورة تدوين كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم • كما كانت تعبر الى أولئك المستخدمين عن

حاجتها الى المعلومات والى مزيد من المعلومات عن كل حدث وعن كل موقع في اماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم •

وبعد هذا كله فلا عجب ان تبلغ سجلات الشركة الملايين من المجلدات والاضابيروحصة بومباي منها كبيرة جدا قد تبلغ ربع مليون من هذه وتلك [٧] من هذه اعداد كبيرة جدا تحتوي على معلومات ثمينة تتصل بكل نواحي النشاط الانساني في العراق ومنطقة الخليج العربي لفترة الثلاثة قرون الماضية وعلى الرغم من هذه الأهمية البالغة لسجلات بومباي فان ما فيها من ثروة لم تستخدم كما يبدو ، من قبل البحاثة والمؤرخين العرب بأي شكل من الاشكال وأرجو ان يوفق هذا البحث في اعطاء فكرة واضحة ومجملة عن هذه « السجلات • ان الوصف الذي تضمنته هذه الدراسة والملاحق الكثيرة التي تضمنتها قد تمهد الطريق للباحث العربي الراغب في الاستفادة من وثائق بومباي كما انها قد تعطيه فكرة مسبقة عما يتوقع الحصول عليه في حالة قيامه بزيارة دار السجلات هناك » •

والمعلومات ذات الصلة بالعراق خاصة ومنطقة الخليج العربي عامة يمكن الحصول عليها في طيات الاصناف التالية من سجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي :

١) يوميات البصرة •

٢) يوميات بوشهر •

٣) يوميات بندر عباس •

٤) سجلات مديرية بومباي الخاصة بالعراق والخليج العربي •

أ ــ القسم العام والقسم السياسي والسري حتى عام ١٨٢٠ •

ب ــ القسم السياسي والسري بعد عام ١٨٢٠ •

٥) سجلات البعثات واللجان .

أ ــ بعثة كاردن الى الخليج العربي .

ب ــ بعثة بغداد .

٦) مختارات مطبوعة من سجلات بومباي :

أ ــ مختارات مطبوعة خاصة بالعراق .

ب ــ مختارات مطبوعة خاصة بالخليج العربي .

يوميات البصرة :

ويوميات البصرة هذه تتألف من عشرين مجلدا فقطي الفترة من عام ١٧٦٣ والى على عام ١٨١١ مع كثير من الفجوات . وليوميات البصرة في دار الوثائق الحكومية في بومباي أهمية خاصة وذلك لعدم وجود نظائر لها في أي محل آخر في العالم «فمكتبة دائرة الهند India Office Library » تفتقر اليها تماما . بل انها تشل حلقــة مفقودة بالنسبة لهذه المكتبــة . ويوميات البصرة بدورها ترد في صنفين :

١) يوميات مقر البصرة التجاري .

٢) يوميات مقيمية البصرة .

وتتألف الاولى من أحد عشر مجلدا تحمل ارقامــا ١٩٣ ــ ٢٠٣ وتغطي الفترة من كانون الثاني عام ١٧٦٣ لغاية عام ١٧٧٥ . وهذه فترة الوكالة الانكليزية في البصرة . وتتميز تلك الفترة بدقتها وأهميتها وذلك من حيث تطور المصالح البريطانية ونموها في منطقة الخليــج العربي . وتضاؤل الوجود الهولندي فيها ، وازدياد نشاط القبائل العربية واشتداد قواها البحرية والصراع بين تلك القبائــل العربية من جهــة ، والفرس والعثمانيين وحلفائهم البريطانيين والهولنديين من جهة اخرى . فمجلــد

رقم ١٩٣ تسجيل للاحداث التي صحبت عمليـة الانسحاب الانكليزي من بندر عباس عام ١٧٦٣ والاستقرار في البصرة المقر الجديد للوكالة • وحالة التجارة وسق الاقمشة الصوفية الانكليزية وتحركات قبائل المنتفك وتمردها على السلطات العثمانية [٩] •

والمجلد الذي يليه (مجلد رقم ١٩٤) يحتوي على معلومات تجارية قيمة وعلى مراسلات الوكيل الانكليزي في البصرة مع باشا بغداد ومـع السفير الانكليزي في اسطنبول وكان الموضوع الاساسي لتلك المراسلات هو محاولة السفير الانكليزي الحصول على موافقة السلطـان العثماني لحصـــول البصرة على « البـراءة » أي شمولهـا « بالامتيــازات Capitulations » [١٠] •

وتغطي معلومات مجلد رقم ١٩٥ مقدمات الصراع بين الانكليز وقبيلة كعب التي كانت متمركزة في شط العرب • ثم الحرب المريرة التي وقعت بين الفريقين والمفاوضات التي سبقتها وقيام التحالف الانكليزي العثماني لتحطيم هذه القبيلة القوية الشكيمة الشديدة البأس • وقد جاء في احدى اليوميات وصف ممتع لغلافات* كعب فهي كبيرة جدا « Very Great » وتحمل الواحدة منها ما بين ستة وثمانية مدافع [١١] •

وتغطي وقائع الحرب مع كعب معظم اجزاء المجلد التالي (مجلد رقم ١٩٦) وقد اعطيت كثير من التفاصيل الخاصة بالقتال وبالقوات البريـة والمائية للفرقاء المتحاربين (الانكليز والعثمانيين وكعب) [١٢] •

ويعطي المجلد رقم ١٩٧ تفاصيل المفاوضات والمراسلات والنشاط الدبلوماسي الذي صحب الحرب بشكل خاص المفاوضات مـع كريم‌خان الذي تدخل في صالح كعب واجبر الانكليز وحلفاؤهم العثمانيين علـى

---

* الغلافة نوع خاص من السفن للتفاصيل انظر عبد الامير محمد امين القوى البحرية في الخليج العربي ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٥٦ .

الانسحاب من أراضي كعب • كما ان هناك مراسلات اخرى مع باشا بغداد ومع بعض الشيوخ العرب [١٣] •

وتستمر قبيلة كعب تحتل مركز الصدارة في الاحداث ، فتغطي المجلدات رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ اخبار تحركاتها ، وفعاليتها وعلاقتها بالانكليز وكذلك تغطي تطور العلاقات بين الانكليز وكريم خان وفيها كذلك اخبار تجارية ومحلية متفرقة [١٤] •

أما المجلدات الاخرى [١٥] : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ففيها معلومات مفصلة عن أحوال البصرة وولاية بغداد وتفشي وباء الطاعون وتهديدات قبائل المنتفك للسلطات العثمانية وتأزم العلاقات بين الانكليز وكريم خان وتطور العلاقات بين الانكليز والعثمانيين وقبيلة كعب وتدهور أحوال البصرة وكساد التجارة فيها ومقدمات للغزو الفارسي لها •

يوميات مقيمية البصرة :

ويوميات مقيمية البصرة هي تسعة مجلدات تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ والى عام ١٨١١ [١٦] (مجلد رقم ٢٠٤ الى مجلد رقم ٢١٢) • واغلب هذه المجلدات التسع منتظمة تبدأ في ١ كانون الثاني وتغلق في ٣١ كانون الاول من العام نفسه •

والمعلومات التي تحتويها كثيرة ومتنوعة • تحتل انباء نقل البريد بين أوروبا والشرق عن طريق البصرة مركز الصدارة فيها • فقد تطلب الامر خلال الحروب النابوليونية ازدياد أهمية الطريق المذكور وزيادة في عدد الوسائل المارة به •

كما ان يوميات مقيمية البصرة تحتوي على نسخ من الرسائل المتبادلة بين سلطات الشركة في لندن ومقراتها في شبه القارة الهندية • وبين سلطات تلك الشركة وممثليها في الخليج العربي وبغداد والبصرة واسطنبول وطهران • فقد شهدت جميع هذه المناطق نشاطا سياسيا انكليزيا

ودبلوماسيا متميزا خلال الفترة التي تغطيها هذه اليوميات وذلك نتيجة للغزو الفرنسي الى مصر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق .

وبالاضافة الى تلك الجوانب السياسية والدبلوماسية فان يوميات مقيمية البصرة تحتوي على معلومات مهمة عن التجارة وأسعار الحاجيات وعن القبائل العربية في العراق ومنطقة الخليج العربي وحركة السفن وأنباء اخرى متفرقة كثيرة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان مجلدات مقيمية البصرة بصورة عامة في حالة رديئة للغاية وقد عملت الرطوبة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعض معالم الكتابة فيها [١٧] .

رسائل البصرة Outwards or Orderbooks

وهناك مجلد واحد من هذا النوع وهو يحمل رقم ٣٠ ويعتبر الاوراق التي يحتويها هذا المجلد من اقدام الأوراق الخاصة بالبصرة فهي ترجع الى عام ١٧٢٥ . ولكن هذا المجلد في حالة سيئة للغاية فالغلاف مهترىء والأوراق تكاد تتبعثر بمجرد لمسها وتصفحها [١٨] .

يوميات بوشهر [١٩] :

وهناك مجلد واحد خاص ببوشهر ويحمل رقم ٣٥ ويضم مجموعة من الرسائل المتفرقة الصادرة والواردة Outwards and Inwards Letters للفترة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٨ .

يوميات بندر عباس (المقر التجاري أو المقيمية) Gombroon Factory or Residency Diories

وهذه سبعة مجلدات تحمل ارقاما ١١٢ الى ١١٨ وتغطي الفترة ١٧٤١

الى آب ١٧٥٧ مع فجوات كثيرة ، فلا توجد يوميات لعام ١٧٤٣ الى جانب فجوات اخرى •

ويوميات بندر عباس مهمة مـن نواحي عدة فخـلال الفترة التي تغطيها هذه المجلدات السبع كانت بندر عباس مقرا رئيسا لكل من الانكليز والهولنديين في منطقة الخليج العربي لذا كانت محورا للنشاط الاقتصادي والسياسي ، كما كانت قاعدة للاسطول الفارسي الذي بناه نادر شاه ومنها انطلقت قطعاته في غزوها لعمان وللشاطيء الغربي للخليج (٢٠) • وحول بندر عباس وفي هذه الفترة بالذات نشطت القبائل العربية مثل القواسم وبني معين والحولة (٢١) •

ومعلومات هذه المجلدات السبـع تغطي كل هـذه الجوانب من النشاطات السياسية والاقتصادية : العربية والفارسية والاوروبية (٢٢) •

رسائل بندر عباس (٢٣) :

وهناك مجلدان من هذه هما مجلد رقم ٣١ وهـو يحتوي علـى Outwards Letters للفترة ١٧٤٤ ومجلد رقم ٤٠ ويحتوي على Inwards Letters للفترة ١٧٣٤ ــ ١٧٤٤ •

سجلات مديرية بومباي Bombay Presidency Records

١) سجلات مديرية بومباي لغاية ١٨٢٠ •

تتوافر معلومات كثيرة تخص العراق والخليج العربي من اقسـام مديرية بومباي المختلفة ولكن المادة الرئيسية نجدها في القسم العـام Public Department للفترة السابقة لعام ١٧٥٥ وفي القسم السياسي والسري Political and Secret Dept. السنين التالية (٢٤) •

ووردت المعلومات في سجلات كلا القسمين القسم العام والقسـم

السياسي والسري ضمن وقائع اجتماعات مجلس المديرية (يوميات ومداولات Consultaions) وهناك ما لا يقل عن مئتين مجلد من مجلدات هذين القسمين تحتوي يومياتها على معلومات تخص ولاية بغداد [٢٥] والبحرين ومسقط والوهابيين والقواسم والخ [٢٦] .

وقد غطت تلك المعلومات فعاليات القبائل العربية في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر . والنشاط الفرنسي في الخليج خلال حروب الثورة الفرنسية ونابليون والصراع الانكليزي الفرنسي في العراق وفارس ومنطقة الخليج العربي والعلاقات البريطانية مع القوى المحلية (حكام فارس وباشا بغداد والامير السعودي وسلطان مسقط ورؤوساء القبائل العربية) [٢٧] .

كما انها تغطي بشكل مفصل جدا ذلك الصراع الطويل والمرير بين البريطانيين والقواسم الذي استغرق اربعة عشر عاما (من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨١٩) وتطلب الامر ارسال ثلاث حملات بحرية وبرية انكليزية كبيرة الى الخليج العربي . الاولى في عام ١٨٠٥ والثانية في عام ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ والثالثة في عام ١٨١٩ [٢٨] .

لقد اجبرت هذه الحملة الاخيرة رؤساء القواسم على القاء السلاح واضطروا الى توقيع معاهدات مع البريطانيين ألزموا بموجبها بانهاء حالة الحرب وبعدم التعرض للسفن الانكليزية في الخليج العربي وفي كانون الثاني عام١٨٢٠ وقع جميع رؤساء القواسم على ما سمي « بالمعاهدة العامة » جعل البريطانيون أنفسهم بموجبها مسؤولين عن حماية الامن في الخليج وحكما بين قبائله . ودفعت بريطانيا في السنوات التالية بقية رؤساء القبائل العربية الى توقيع تلك « المعاهدة العامة » وتغطي سجلات القسم السياسي والسري جميع هذه الجوانب السياسية والعسكرية من ذلك الصراع وتلك التسويات [٢٩] .

سجلات مديرية بومباي (القسم السياسي والسري) بعد عـام ١٨٢٠ :

ابطل نظام اليوميات في عام ١٨٢٠ ، ولم يعد المجلد الواحد في القسم السياسي والسري يضم موضوعات عديدة كما كان سابقا ، بل افرد مجلد خاص لكل موضوع ذي شأن وغالبا ما يكون مجلد واحد لكل عام ولكن كثيرا ما يكون للموضوع المهم أكثر من مجلد واحد خلال العام . وقد صنفت الموضوعات الخاصة بالعراق والخليج العربي تحت عناوين كثيرة منها الخليـج العربي ، البصرة ، بغـداد ، العراق التركي ، البحرين ، الوهابيين ، رأس الخيمة ، فارس ، تجارة الرقيق ، الاسلحة والخ .

ويجد الباحث أوسع المعلومات وأغزرها في هذه المجلدات الخاصـة بكـل قطر من اقطـار الخليـج العربي والمتعلقـة بكل موضوع من مواضيعه [٣٠] .

وقد يقال بشيء قليل من التردد ان هذه الثروة من المعلومات المتصلة بكـل جانب من جوانب النشـاط الانساني ــ السياسي والاقتصادي والاجتماعي قد لا يكون لها مثيل في أي دار من دور الوثائق في العالـم وفي أي مكتبة فيه .

فبالنسبة للعراق توجد هناك اثنان وثلاثون مجلدا جاءت تحت عنوان « العراق التركي Turkish Arabia » [٣١] وخمسة وأربعـون مجلدا وردت تحت عنوان « رسائل البصرة Bussora Despatches [٣٢] وثلاثون مجلدا بعنوان رسائل بغداد « Bagdad Despatches » [٣٣] ، وهناك عـدد من المجلدات وردت بعناوين اخـرى منها حملـة الفرات Euphrates Expeditions ومنها «بواخر الفرات Euphrates Steamers ' وحملة النهروان Nahrawan Expeditions [٣٤]

سجلات البعثات واللجان والمعاهدة الخ :

Particulars of Records of Missions Committees, Institutions etc.

وفي هذا الصنف من السجلات نجد بعثتين تخص منطقة الخليج العربي وهما :

١ ــ بعثة الخليج العربي Persian Gulf Mission

٢ ــ بعثة بغداد Bagdad Mission

١ ــ بعثة الخليج العربي : وقد دونت وقائع هذه البعثة في مجلدين يحملان رقم ٢٨٣ ورقم ٢٨٤ • وكانت مديرية بومباي قد انتدبت في عام ١٧٧٥ كاردن الى الخليج العربي لتسوية الخلافات بين كريم خان والبريطانيين • وكانت قد توترت العلاقات جدا بين الفريقين خلال السنوات القليلة الماضية وكاد ان يؤدي الامر الى حرب شاملة بين الطرفين خاصة بعد ان تعرض حلفاء كريم خان الى السفن الانكليزية في الخليج العربي وأسروا من فيها واحتفظوا بهم رهائن في شيراز •

لقد وصل كاردن الى بوشهر في نيسان عام ١٧٧٥ وبدأ فورا مفاوضاته مع السلطات الفارسية • ونجح كاردن في حمل الفرس على اطلاق سراح المحتجزين البريطانيين وعلى التعهد بحماية الممتلكات البريطانية في البصرة في حالة احتلالها من قبل الفرس وكانوا يحاصرونها في ذلك الوقت • كما تم الاتفاق على اعادة فتح المقر التجاري البريطاني في بوشهر وكان قد اغلق قبلا [٣٦] •

٢ ــ بعثة بغداد :

وهذه هي رحلة السر هارفارد جونز الى بغداد وتقع في ثمانية مجلدات (مجلد رقم ٣٠٠ الى مجلد رقم ٣٠٧) [٣٧] • وكان الغزو الفرنسي لمصر قد أدى الى ردود فعل كثيرة لدى البريطانيين ومن ردود

الفعل لتلك القرار الذي اتخذ في عام ١٧٩٨ بفتح مقيمية بريطانية في بغداد وكان الهدف منها تأكيد النفوذ البريطاني في هذه المدينة والحفاظ على العلاقات الطيبة مع الباشا ومقاومة النفوذ الفرنسي .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية الانكليزية على اختيار هارفرد جونز ليرأس المقيمية ودونت وقائع تعيينه ووقائع ادارته لتلك المقيمية خلال فترة مكوثه في بغداد (١٨٠١ ـ ١٨٠٧) في تلك المجلدات الثمانية • وبالاضافة الى ذلك فهي تحوي معلومات محلية كثيرة •

ولعل أهم ما فيها نسخ الرسائل المتبادلة بين هارفرد جونز والباشا وغيره من الرؤوساء المحليين • ومراسلاته مع السفير البريطاني في اسطنبول ومع الممثل البريطاني في طهران جون مالكولم ومع المقيم الانكليزي في البصرة مانوئيل مونستي[٣٨] وهي بهذا سجل حافل لجزء مهم من النشاط الدبلوماسي الذي شهدته المنطقة خلال تلك السنين الدقيقة والحافلة بالاحداث •

مختارات مطبوعة من سجلات بومباي :

والذي يهمنا من هذه المختارات المطبوعة جزئين احداهما عن العراق والآخر عن الخليج العربي اما الجزء الخاص بالعراق فهو عبارة عن مجموعة من البحوث الشيقة للغاية كان قد اختارها وجمعها ضابط البحرية الهندية جيمس فلكس James Felix ونشرت تحت عنوان : Memoirs وهي ٥٠٠ صفحة[٣٩] • وتحتوي اكثر البحوث على خرائط واشكال ملونة وجميلة •

أما البحوث التي ضمنها هذا المجلد الثمين فهي :

Steam-trip to the North of Baghdad, in April 1846; with notes on various objects of interest en route

Journey for the purpose of determining the tract of the ancient Nahrwan Canal, undertaken in April 1848; with a glance at the past history of the territory of the Nahrwan.

Journey to the Frontier of Turkey and Persia, through a part of Kurdistan.

Researches in the vicinity of the Median Wall of Xenophon, and along the old course of the river Tigris; and discovery of the site of the ancient opis.

Memoir on the Province of Baghdad.

Notes on the Topography of Nineveh, and the other cities of Assyria; and on the General Geography of the Country between the Tigris and the Upper Zab. (1857).

Memoir on the Ruins of Babylon, by William Beaumont Selby, Commander, Indian Navy, and Surveyor in Mesopotamia, with plans (1859).

اما تلك المختارات المطبوعة والخاصة بالخليج العربي فتشتمل على بحوث قيمة جدا تخص عمان وقبائل العتوب والجواسم والبحرين والكويت وعلاقات البريطانيين بقبائل الخليج العربي وجدول باهم الاحداث السياسية الخاصة بمسقط والقبائل العربية ابتداء من ١٧١٦ والى عام ١٨٤٣ ومعلومات وتقارير متنوعة اخرى (٤٠) • ولعل هذه المحتويات تمثل أقدم وأوسع البحوث الخاصة بمنطقة الخليج العربي • للاحاطة بها جميعا نورد عناوينها :

Information connected with the possessions, Revenues, Families, etc., of the Imaum of Muskat; the Ruler of Bahrein; and the Chiefs of the Maritime Arab States in the Persian Gulf.

Historical sketches of the Joasmee, Uttubi, Wahabi, Beniyas, Bee felasa, Ejman and Amulgavine tribes of Arabs, from the year 1716 to the year 1853.

Memoir descriptive of the navigation of the Gulf of Persia; accompanied by brief notices of the manners, customs,

religion, commerce, and resources of the people inhabiting its shores.

Historical and other information connected with the province of Oman, Muskat, Bahrein, and other places in the Persian Gulf.

Report on the Island of Kenn, on Bassadore; the Harbour of Grane; and the Island of Pheleechi.

The rise and progress of and past policy of the British Government towards, the Arab tribes of the Persian Gulf; their resources, localities, etc.

Chronological Table of events from 1716 to 1843 connected with the Government of Muskat and the Arab Tribes of the Persian Gulf.

Rise and progress of the Government of Muskat; and miscellaneous information connected with that Government, from 1694 to 1853.

Treaties, engatements, etc. with the Imaum of Muskat, etc. Notes of a visit to Zanzibar in the year 1834.

المراجع

(١) سبق للباحث ان كتب بحثا بعنوان « مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي » قدمه الى الندوة العالمية الاولى لتاريخ الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في ربيع عام ١٩٧٧ م . ويحاول الباحث تجنب تكرار ما ورد في ذلك البحث ، لذا يفضل الرجوع اليه لاتمام الفائدة علما بانه في مرحلة الاعداد للنشر في مجلة المؤرخ العربي عدد ٥ .

(٢) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه المئة والخمسين عاما انظر ج.ج لورمو ، دليل الخليج ، طبعة جديدة معدلة ومنقحة ، ج ١٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ . ص ٢٠ .

(٤) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه الفترة انظر الدكتور عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليج العربي ١٧٤٧ــ ١٧٧٨ منشورات مركز دراسات الخليج العربي (١٤) ، بغداد ١٩٧٧ .

(٥) نفس المصدر .

6) See Guide to the Records in the National Archives of India, Part I (Introductory), National Archives of India, New Delhi 1959, p. 10.

7) V. G. Digha, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Dept. Series 1755-1820. Bombay: 1954.

(٨) اليوميات سجلات دون ممثلو الشركة فيها كل المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبين مدراء الشركة في لندن وبينهم وبين الحكام المحليين . كما سجلوا فيها المناقشات والمشاورات التي تجري في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والقرارات التي تتخذ تبعا لذلك . واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل ما يقع لهم ، وما يقع في المنطقة التي يقيمون بها من أحداث في يومياتهم وكثيرا ما كتبوا في تلك اليوميات أنباء واخبارا تطرقت الى سمعهم في أماكن بعيدة نسبيا من اماكن اقامتهم .

9) Bombay Government Records, Bussora Factory Diaries vol. 193.

وانظر الملحق رقم (١)

10. Bussora Factory Diaries Vol. 194.

11) » » » » 195.

12) » » » » 196.

13) » » » » 197.

14) » » » » 198.

15) » » » » 199.

16) A. F. Kindersley, A Handbook of Bombay Govt. Records, Bombay: 1921.

ان هذا هو الدليل الوحيد الشامل لسجلات بومباي وهو غير وافي بالغرض ومليىء بالاخطاء ويتميز بعدم الدقة والمعلومات التي اوردها عن مقيمية البصرة ، بشكل خاص ، مرتبكة ولا تتفق مع واقع تلك السجلات ، انظر ملحق رقم (٢) .

(١٧) انظر على سبيل المثال يوميات مقيمية البصرة المجلدات ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

18) Bombay Government Records, Outwards or order books vol. 30.

19) Ibid., Outwards or Orderbook, vol. 35.

20) Ibid. Gombroon Diares, vol. 112-115.

31) Ibid. vols. 113, 115, 116.

وفي مجلد رقم (١١٣) معلومات كثيرة عن حالة الفوضى التي كانت سائدة في أواخر عهد نادر شاه وعن نشاط القبائل العربيـة في الاماكـن المجاورة لبندر عباس ، ولعل امتـع ما فيه وصف دانفرز كريفز لمعسكـر نادر شاه في كرمان .

وكان كريفز مقيما للشركة في (كرمان) وحدث ان زار نادر شاه هذا المدينة في أوائل عام ١٧٤٧ واقـام له معسكرا فيها . وكلف كريفز من قبل رؤوسائه بالذهاب الى معسكر نادر شاه وتقديم التماس الى الشاه يناشده فيه رفع الحيف الذي نزل بتجارة الشركة وفعل المقيم ذلك وحصل مـن الشاه على الامتياز وصف بأنه خير ما حصلت عليه الشركة خلال كل تاريخها الطويل . ولكن اتضح بعد ايام ان نادر شاه لم يكن في وضع اعتيادي ولم يكن يدري ما يفعل وما يقول وقد بلغ حدا من القسوة والعنف لم يسبق له مثيل . لقد ترك لنا كريفز وصفا ممتعـا للغايـة لنادر شاه قبيل اغتياله وجاء هذا الوصف يوما بيوم وساعة بساعـة وباسلوب رائع وصغير الـى أبعد الحدود .

33) Bombay Government Records or Order books, vol. 31; Inwards or Letter books vol. No. 40.

(٢٤) كان القسم السياسي والسري قد انشيء في عام ١٧٥٥ على أثر الصراع بين البريطانيين والامراء الهنود واحتمال تجـدد الحرب مـع الفرنسيين في الهند . وفي عام ١٨٠٩ فصل الى قسمين مستقلين هما القسم السياسي والقسم السري . وعولجت قضايا الخليـج في القسم السياسي حتى عام ١٨١٨ وفي العام المذكور تحولت هذه القضايا الى القسم السري بعد القرار الذي اتخذ بارسال حملة بريطانية ضد القواسم . واستمـر الوضع الى عام ١٨٢٣ حيث ارجع الى القسم السياسي وبقي كذلك حتى عام ١٨٣٧ . وعلى اثر تحرك المصريين والمشاكل مع الفرس . اعتبرت قضايا الخليج العربي خطيرة فنقلت الى القسم السري حتى عام ١٨٤٣ . وبعد هذا العام عولجت قضايا الخليج بشكل عام في القسم السياسي ، ما لم تكن تخص العلاقات مع فارس والدولة العثمانية والقوى المحلية في الخليـج العربي ، والتي تتميز بأهمية خاصة فانها عولجت بالقسم السري .

(٢٥) انظر الملحق رقم (٣) القسم الخاص ببغداد والبصرة .

(٢٦) انظر ملحق رقم (٣) القسم الخاص بالبحرين ومسقط والوهابيين والقواسـم .

(٢٧) نفس المصدر .

(٢٨) انظر ملحق رقم (٣) خاصة ذلك الجزء الخاص برأس الخيمة .

(٢٩) نفس المصدر .

(٣٠) انظر ملحق رقم (٥) والمجلدات الخاصة بالبحرين ومسقط ، وبوشهر وفارس وتجارة الاسلحة وراس والخليج العربي ، والقبائل العربية ، والقرصنة .

(٣١) انظر المجلدات الواردة تحت اسم Turkish Arabia

(٣٢) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Bussora Despatches

(٣٣) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Bagdad Despatches

(٣٤) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Euphrates Expeditions

والمقصود بالحملة هو حملة استكشافية وليست عسكرية .

35) See Bombay Government Records: Particulars of Records of Missions, Committees, Institutions etc. Persian Gulf Mission, vols. 283 - 285.

(٣٦) نفس المصدر .

37) Ibid. Bagdad Mission, vol. No. 300-307.

38) Ibid.

39) Bombay Government Records, Memoirs by Comandes Jones Felix, connected with Bagdad, Nahrawon Canal etc. Bombay: Education Society Press: 1857.

اما الرقم الذي يطلب به فهو $\frac{3857}{9}$ اما تلك الارقام التي وردت في Kendersley فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

40) Bombay Government Records, Miscellaneous Information Connected with the Persian Gulf, Bombay: Education Society Press: 1856.

اما الرقم الذي يطلب به فهو $\frac{3306}{1}$ اما تلك الارقام التي وردت في فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

توينبي

الأستاذ الدكتور جواد علي
بغداد

امتاز توينبي عن نظرائه من مؤرخي التاريخ الحضاري العالمي بميزتين بسعة علمه بمفردات تاريخ العالم ، وبقوله الحق ودفاعه عنه فيما يثبت عنده انه الحق .

وتتجلى الميزة الاولى في هذا السيل المدون في متن كتابه [1] وفي حواشي صفحاته بالاستشهاد بالحوادث والنقول التي اقتبسها من موارد لا يعرفها عادة الا اصحاب الاختصاص ، وبالمامه بالقضايا الفرعية والجزئية الدقيقة من تواريخ شعوب العالم واستخدامه اياها في دراسته المقارنة للحضارات وفي مقابلاته بينها ، مقابلة لا اعرف لها مثيلا في كتب غيره من المؤرخين المشتغلين بدراسة الحضارات وبنائها « Kulturmorphologie » « Culturemorphology » فأنت اذا قرأت كتاب « افول الغرب » « Der Untergang des Abendlandes » [2] للمؤرخ الفيلسوف « اوسوالد شبنكلر » « Oswald Spengler » وهو في بنيات الحضارات وفي ادوار حياتها وتركيبها وقارنته بكتاب توينبي وهو صنوه في هذا الموضوع وفي تأثيره في الناس ، تجد البون بينهما شاسعا جدا في قضية المادة التي عرضها توينبي لتأييده رأيه ، وفي وقوفه على كنه ما أورده من أمثلة واقتباسات واسماء تجدها منثورة في المتن وفي حاشية

---

(١) صدر في اثني عشر جزءا ، طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٣٤ م .
(٢) صدر الجزء الاول منه سنة ١٩١٨ م ،

كل صفحة ، بصورة مذهلة أثارت دهشة جميع قراء الكتاب ، بما فيهم نقاده [1] وأقر الجميع بسعة علمه المدهش بتاريخ العالم .

اما ميزته الثانية ، فتظهر الك في نزعته الانسانية وفي اخلاقيته المتجلية من الانسان على أخيه الانسان منذ أقدم الايام الى يومنا هـذا ، وفي سخريته من هذا الغرور حمل الانسان على تسخير ابدع وأسمى ما اعطى وهو عقله في خدمة حماقاته بالعمل منذ نشوئه على توسيع وتعقيد أجهزة الحرب التي خلقها بيده ، لتدمير ما خلقه الله وما خلقه الانسان بنفسه ، بدلا من ان يستخدمه في خدمة الانسانية وفي تطويرها نحو حياة أفضل ، وفي العمل على نشر مبادىء المحبة والتعاون بين الناس والترويج لمبادىء الحياة المسالمة والاخوة المؤدية الى تكوين عالمية تزيل عن بني الانسان الافكار الغرورية التي تولدت عنده من تقدمه التقني الهائل ، ومن صرفه هذه البلايين من الدولارات التي يجمعها من مجهود البشر ، على قنابل يهدد بها ضعفاء الناس ، بدلا من ان يعرفها على المحتاجين من الناس لرفع مستواهم وعلى مساعـدة الشعوب الضعيفـة لرفع مستواها معاشيـا وعلميا وتقنيا .

ولما نشر « برتراندرسل » كتابه « Has Man a Future » أي «هل للانسان مستقبل؟» علق عليه توينبي في جريدة « Sunday Observer » [2] تعليقا وصف فيه جيلنا هذا بـ « الجيل المجرم » وقال فيه ان رغبتنا في القتال ترسبت من العصور الخالية حين كان الانسان يقاتل الوحوش حتى يكتسب لنفسه البقاء ، ولما أصبح سيد هذه الوحوش أخذ يشبع عادة القتال في حرب يحارب فيها الاخ اخاه ، انها عادة قديمة وشريرة ، بيد ان من الممكن تغيير العادة اذا صمم الانسان على بذل المجهـود الاخلاقي

---

(1) Y. J., Renier, History its Purpose and Method, p., 216, R. G. Collingwood, The Idea of History, pp., 181, 223, 225, 264.

(2) عدد الاحد يوم ٢٦ تشرين الثاني من سنة ١٩٦١ م ، وقد عرّب الكتاب ، عرّبه سمير عبده ونشره سنة ١٩٦٩ .

المطلوب ، ان جيلنا يدرك ان علينا في عصر الذرة ان نعالج غرورنا مـــن عادة شن الحرب اذا أردنا بقاء الانسان ، ولكننا لا زلنا منذ انتهى القـاء قنبلة هيروشيما نقول بويلات الحرب الذريـة . ثم لا نـزال نقتر على المواطنين لندخر المال في سبيل اكتشافه قنابل تكون أشد فتكا بالانسان من تلك القنبلة .

ومن حماقات هذا الانسان وبربريته تصوره انه على منازل ودرجات، وان الله قد خلقه متفاوتا في القابليات وفي العقل ، وهي حماقات قديمة . لا تزال تعيش وقد حمل عليها توينبي وعدها بربرية وثنية ، تعيد الانسان الى همجيته الاولى ، فسخف رأي « كوبينو » « Count de yobineau » القائل بتفوق الانسان « الآري » ولا سيما « النوردي » أي الشمالي منه على بقية الشعوب [1] ، وبعدم تكافؤ الاجناس البشرية وسخر من رأى « هوستن ستيوارت شبرلن » « Hauston Stewart Chamberlain » الانكليزي المتجر من الذي أخذ برأي « كوبينو » في كتابه : « أسس القرن التاسع عشر « Die yrundlégen des 19 Jahrhunderts » ١٨٩٩م وجعل الحضارات حاصل عمل « الرس » « Race » والرس درجات . اعلاها الجرمان : « الجنس المختار » . والجنس النوردي خالق الحضارات الاصيلة [2] ومهد بذلك النازية مثلهـا « Weltamschaung » التي تجسست في شهادة ايمانها التي يجب ان يعمل بها كل نازي هي شهادة الـ « Blut und Boden » [3] أي الاعتقاد بشرف « الدم والارض » ، والدم هو الرس الجرماني والأرض تربـة الوطـن ، أرض الجرمان .

وهي فلسفة اقرها «هتلر» في انجيله « Mein Kampf » «كفاحي»

---

(1) Toynbee, A study of History, Vol. 7, p. 49, 8, p. 81, p., 429, 437, Abridgement, by somerwell, vol., 1, pp., 216.

(2) Schmidt, Philosophes Worterbuch, S., 95

(3) Schmidt, S., 83.

كتاب النازية المقدس ، وعمل فيلسوفه : « الفريد روزنبرك » Alfred Rosenberg على نشرها بين الالمان في كتابه : Der Mythus des 20 Jahrhunderts « اسطورة القرن العشرين ، وفي مؤلفاته الاخرى التي نادى فيها الى تقديس الرس ، واحياء تراثه ، وابقائه صافيا نقيا ، ونادى مع من نادى قبله بفصل العنصر الجرماني عن العناصر الاخرى حتى تم ذلك باصدار قوانين الفصل العنصري المعروفة بقوانين نورنبرك لحماية الدم الالماني وشرف الدم المقدس ، وبجمع شمله من كل مكان بضمه الى ارضه ، التي فيها مجال حياته " Lebens Raum " وبضم كل ما يعده الالمان أرضا المانية اليهم « Anschluss » والتوجه نحو الجبهة الشرقية بصورة خاصة : « Drang nach dem osten » .

وبين هذه الديانة التي تدين بالعنصرية [١] ، وبوثنية القرن العشرين، وبالبربرية الجديدة كما نعتها المؤرخ «توينبي» [٢] وبالاجرامية ، ليقتلها اليهود [٣] ، وبالفصل العنصري المتجلي في قانون نورنبرك ، وباعمدة العقيدة الاخرى التي حرمها الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية : وبين الصهيونية المتحكمة اليوم في السياسة الدولية نسب وصلة بل هي في الواقع « نازية » اليهودية ، تقول بالرس ، وبالدين وبالتربة وبالفصل العنصري ، وبالتوسع لاحياء الـ « Lebens Raum » التي هي « اسرائيل الكبرى » « من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات »[٤] ، عرضا ، ومن الجنوب الى مدخل حماة « وجميع لبنان جهة مشرق الشمس

(1) A Study, Vol., 8, pp. 288, 576, 604, 9, 437.

(2) A Study, Vol., 8, pp., 13, 81, Vol., 9, p., 450.

(3) A Study., Vol., 8, 288.

(٤) التكوين ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٤ ؛ الاصحاح ٢٨ ، الآية ١٣ ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٨ ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٧ الاصحاح ٢٥ ، الآية ١٠ وما بعدها الخروج ، الاصحاح السادس ، الآية ٢ وما بعدها الاصحاح السابع عشر ، الآية ١ وما بعدها .

من بعل جاد تحت جبل حرمون الى مدخل حماة [١] ، مع طرد كل الساكنين بهذه الارضين لان الرب قال : « سأطردهم من وجه بني اسرائيل ، وانت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثا كما امرتك [٢] »

يتحدث الصهاينة في الوقت الحاضر عن حدود آمنة ، وهي حدود لا حد لها في المستقبل ، ما دامت اسرائيل هي دولة فوق الدول . تسير اميركا حسب مشيئتها ، فيقول « بن كوريون » في مقدمته عام ١٩٥٤ لكتاب : « تاريخ الهاكناه » : في الوقت الحالي تتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده ، لكننا سنقول المعرب : ابتعدوا ، فليس في بلادنا مكان الا لليهود ، فاذا لم يوافقوا فسنبعدهم بالقوة وفي آب سنة ١٩٦٧ ، صرح موشى دايان . اننا اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل ان نمتلك ارض الكتاب المقدس [٣] ، فلا بد اذن من التوسع التدريجي كما فعل هتلر من قبل ، ولا بد من خلق اسرائيل الكبرى ، ولا بد من التوسع ومن التدخل في شؤون الدول الاخرى لحملها على اخراج يهودها للنزوح الى اسرائيل .

ونرى « ليفي اشكول » رئيس وزراء اسرائيل السابق ، يقرر ان كل يهود العالم في « الشتات » أي خارج اسرائيل ، هم مواطنون اسرائيليون ، وتحت رعاية وحماية اسرائيل وهذا مما آثار ثائرة اليهود الاميركان الذين يعيشون في الولايات عيشة يحسدها عليهم الاسرائيليون [٣] ، وجعل وزارة الخارجية الاميركية توضح موقفها من هذا القرار الذي يعرض اخلاص اليهود في العالم لأوطانهم الى الامتحان ، ويهدد العرب في أرضهم [٤] .

---

(١) التثنية ، الاصحاح الاول ، الآية ٦ وما بعدها .

(٢) سفر يشوع ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية الاولى وما بعدها ، سفر القضاة ، الاصحاح الثالث ، آية ٣ وما بعدها .

(٣) روجيه جارودي ، « عن الذرائع الدينيةوالتاريخيةالصهيونية » ، بحث ألقاه ببغداد .

(٤) Levi Eshkol, Israel & the Diaspora, Issues, Winter, 1965-66 pp., 13.

ولهذه العقيدة المشتركة ، عدها قوم من اليهود من صنيع النازية[١]، فالعوامل التي خلقت النازية هي نفسها العوامل التي عملت على خلق الصهيونية ، وعلى رأسها الشعور بالقومية المتطرفة ، وبالجنس الخاص المختار [٢] . فنادت بغربة اليهود عن الأقوام التي يعيشون بينها ، وشجعت على ظهور اللاسامية وعلى اثارتها ، لحمل اليهود على مغادرة ارض الشتات « Diaspora » الى ارض فلسطين[٣] ، واشتركت وتعاونت مع النازيين في اخراج اليهود من المانيا وهذا ما كان يريده الالمان ، للتخلص منهم ، ولاحراج البريطانيين بذلك ، اصحاب الانتداب على فلسطين ، بل اتهم بعضهم مثل « كستنر » « Kastner » وغيرهم بمعاونة النازيين في قتل اليهود [٤] وقد اتضح بعد الحرب العالمية الثانية ومن الوثائق السرية ان جماعة من يهود المانية كانت تتعاون مع «هملر» رئيس ال « SS » « اس اس» في امور اليهود وفي خلق جو مرعب من اللاسامية يدفع اليهود على ترك المانية الى فلسطين ولن يسمح لي الوقت للدخول الى تفاصيل ذلك[٥] ، وهكذا ساهم الصهاينة انفسهم بخلق اللاسامية لتحقيق هدفهم في خلق اسرائيل جديدة على نمط دنيوي لا يتفق مع تعاليم التوراة ، وقد عارض « اكودات يسرئيل » « Agudath Israel » وغيرهم من المتدينين الصهيونية لأن مملكة الله لا تكون باعمال الانسان بل بارادة الله [٦] وبالمسيح الموعود من نسل داوود ، فلما ظهر المسيح ، المخلص زال الوعد المعطى في التوراة بظهوره وبعدم ايمان اليهودية به ، كما جاء

---

(1) The Zionist Wish & the Nami Deed, By Benyamin Matovu, in Issues, Winter 1966-1967, pp., 1.

(2) A Study, Vol., 8, pp. 290.

(3) A Study, Vol., 7, pp., 530, 579, 8, 274, Vol. 9, 24, Vol., 10, p. 322.

(4) Issues, Winter, 1966-1967, p., 1.

(5) Heimy Hohne, The Order of the Death's Head, pp. 305, 318, Helmut Krausnick, Martin Brosmat, Anatomy of the State, pp. 35.

(6) Study, Vol., 8, pp. 300, 600.

ذلك في الاناجيل [1] لأن الايمان به أبطل العهد بالختان ، وجعله في المحبة وفي القلب ، ختان القلب [2] ، وعقيدة الشعب المختار عقيدة تذكرنا بنشيد النازية الذي حرم الحلفاء مطلعه Deutschland Deutschland uberalles المانيا فوق كل شيء في العالم لما فيه من نزعة القومية المتطرفة ، وهي عند توينبي من حاصل الانانية ويقول : « أنا لا اؤمن بأن الاها ، هو في نفس الوقت محب وقادر على كل شيء يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلا يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء ، ان هذا التمييز لم يصنعه الله »، وانما يعود الى خطيئة عبادة الذات أي الأنانية والقومية وهو خطأ اخلاقي مثلما هو خطأ علمي ، و « انا لا اعتقد بأن اليهود او الاسرائيليين البريطانيين هم شعب الله المختار ، وأنا لا اؤمن بالاحرى بأن اعادة اسكان اليهود في فلسطين هو الكمال الذي دأب على انجازه جميع التاريخ البشري منذ العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد » [3] وقد دأبت الكنيسة متأثرة بالتوراة على ان كل شيء في هذا العالم قد صنع من أجل الامة اليهودية ، كما قال ذلك « فولتير » في رده على الاسقف « بوسيه » في تاريخه عن العالم [4] ، وهذه العقيدة هي سر تكتل اليهود واستعلائهم عن الغرباء الارجاس ، ونفور الغرباء منهم ، النفور المعروف باللاسامية .

وكما عارض توينبي النازية لعقيدتها البربرية ، عارض الصهيونية للسبب نفسه ، فانها بعقيدتها هذه صارت وريثة للتراث النازي ، فقد اجرمت كما اجرم النازيون حين فصلوا اليهود عن المجتمع الالماني لعرقهم ، وساقوهم الى غرفة الغاز اما الصهيونية ، فقد شردت أكثرية أهل فلسطين

---

(١) رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية ، الاصحاح الثالث ، اعمال الرسل ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٣ وما بعدها ، ٣٢ وما بعدها .

(٢) التثنية ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٦ ارميا ، الاصحاح الرابع ، الآية ٤ .

(٣) آفاق عربية ، العدد ٧ ، آذار ١٩٧٦ م (ص ٢٤) نقل الاستاذ محمد توفيق حسين من كتاب تجارب (ص ١٣٥ وما بعدها) .

(٤) Emery Neff, The Poetry Of History, pp., 11.

هذه الارض من قبل مجيء اليهود مشردين الى فلسطين فيما قبل الميلاد ، وشتت شملهم تشتيتا « Diaspora » فكأنها ارادت بذلك تمثيل دور الذين شتتوهم قبل الميلاد ، وبدلا من ان تحاكي الصهيونية فعل معلمتها النازية بادخال اهل فلسطين غرف الغاز استعملت البنادق والرشاشات في قتل الفلاحين العزل حين عودتهم الى بيوتهم بدير ياسين وبغير هذا المكان[١] وشتت شمل عوائلهم فأثبتت بما فعلته مع أهل فلسطين وبمباغتتها للدول العربية المجاورة لفلسطين انها ليست أقل شرورا من النازية في تصرفاتها وفي سلوكها ، وقد اثبتت عصابة « اركون » « Irgun »[٢] و « الهكانا» و « شتيرن »[٣] : ان سادتها قد اجادوا دروسهم التي تعلموهـــا من الـ « اس اس » « SS » فرقة « هملر » رئيس «الكستابو» بارتكابهم أعمالا فضيعة مع الفلسطينيين استبشعها عدد من اليهود مثل الفيلسوف الفيزيائي « البرت انشتاين » وجماعة من كبار علماء اليهود وبينهم حملة جائزة نوبل ، فلما جاء نبأ قدوم « مناحم بيكـــن » « Menahim Begin » رئيس وزراء اسرائيل الحالي ، الى الولايات المتحدة عام (١٩٤٨) ، احتج هؤلاء العلماء على مجيئه ونشروا احتجاجهم في جريدة نيويورك تايمس في اليوم الرابع من كانون الاول من سنة ١٩٤٨ ، لأنه ارهابي وفاشي ونازي وله حزب سياسي يشبه في تنظيمه وأساليبه وفلسفتـه السياسية وتكوينه الاجتماعي الاحزاب النازية والفاغية ويتكون الحزب من اعضاء ومناصري ايركون زوي ليومي ، وهي منظمة ارهابية يمينية متعصبة قوميا ، وقد مزج في الاوساط اليهودية مزيجا من التعصب القومي وأفكار التفوق العنصري ، والمثال على تصرف هذا الحزب ما جرى في قرية دير ياسين من تقتيل ومـــن السير بالفلسطينيين اسرى في شوارع

---

(1) A Study, Vol. 8, pp. 290.

(2) A Study, Vol. 8, p. 290.

(٣) فلسطين ، جريمة ودفاع (ص ٩٠) .

القدس،لارعاب العرب وحملهم على ترك فلسطين والهجرة الى الخارج[1].

و « بيكن » هذا الارهابي « Terrorist » الذي خجل اولئك العلماء الكبار من مجيئه الى الولايات المتحدة لانه سفاك ، هو نفس « بيكن » الذي دخل القصر الابيض ، باستقبال مهيب عاطفي من رئيس الحكومة الاميركية السيد « كارتر » وقابل زعماء المجلسين ، مع انه لا زال ارهابيا مصمم على اعتبار الضفة الغربية من ارض اسرائيل التاريخية وعلى احياء مملكة اسرائيل الكبرى وعلى منع الفلسطينيين من استرداد وطنهم ، والمجيء الى ديارهم ، وهم اهل البلاد قبل اليهود ، يجري كل ذلك بينما تصر الولايات المتحدة على اعتبار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمة من الارهابيين وهي الام ، تسمح لنفسها بمصافحة الارهابيين ، ذلك لأن لليهود كما هو معلوم نفوذ قوي في الولايات وعدد يزيد على عدد يهود فلسطين بأكثر من الضعف ، ولهم نفوذ قوي هناك تحدث عنه توينبي في مواضع متعددة من كتابه[2] .

كان تشكيل الوطن القومي لليهود للتخلص من الشتات ومن خطى اللاسامية اعظم حجة تمسكت بها الصهيونية في ادعائها بالوطن القومي ، ولما صدر ما يسمى بوعد بلفور لم يهاجر الى فلسطين ما كان يتصوره الصهاينة ، فأخذوا يستعينون بالوسائل المختلفة وفيها الوسائل السرية ، مثل الهجوم على معابد اليهود والحملة عليهم ، لحملهم على الهجرة ، والاتفاق مع النازيين وعلى رأسهم « هتلر » على تهجيرهم الى فلسطين ومع ذلك فقد بقي عدد كبير منهم في المانيا ، وبعد تأسيس الكيان الصهيوني بتدخل شركة « فايرستون » بقي أكثر اليهود مع ذلك في الشتات ولم يتجنس

---

(1) The New York Times, 4 December 1948.

وقد استعنت بالنص العربي المنشور في (صفحة ١١) من مجلة الف باء ، العدد ٤٦٠ من السنة العاشرة ، ١٣ تموز ١٩٧٧ .

(2) A Study, Vol. 8, p. 292, 303, 307, Vol. 9, p. 586.

منهم بالجنسية اليهودية الا الاقلية منهم ، تماما كما وقع في أيام « عزرا » يوم أمره ملك فارس باخراج قومه من سبي بابل الى فلسطين ، فلم يخرج منهم معه الا القلة وبقيت الكثرة في بابل وفي بقية الشتات [١] .

وتجاه هذا الوضع البغيض للصهيونية ، ستسعى الصهيونية العالمية بكل وسائلها وامكانياتها كما نوه بذلك توينبي ايضا في مقال نشره في نشرة « Issues » لصيف ١٩٦٠ ، الى خلق لا سامية جديدة تدبرها هي بنفسها ، وتؤجر عليها رجالا من المرتزقة لاثارة الرعب بين اليهود لحملهم الى الهجرة ، وجمع شتاتهم في فلسطين ، لتتمكن من احياء ارض الجنس المختار [٢] ، فان من الاجرام ترك ما يزيد على ثلاثة ملايين يهودي في مدينة نيويورك مع غنائهم الهائل ، وفلسطين في حاجة اليهم وهذا ما قاله « اخدهام » أحد زعماء الصهيونية في سنة ١٩٢١ م [٣] .

وتجاه مناقشة توينبي الصهيونية فيموضوع الجنس المختار والزرع المقدس ، وارجاعه هذه العقيدة الى خطيئة عبادة الذات ، لأن الخالق لا يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلا يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء [٤]، وتجاه قوله بتحجي اليهودية بوقوفها حيث وقفت [٥] ، وبقوله بانتهاء وعد الرب لابراهيم بظهور المسيح يسوع الناصري [٦] وبما ذكرته من امور رمي باللاسامية وبمعادات اليهودية [٧] ، وبعدم الفهم [٨] ونست

---

(١) راجع اسفار عزرا ، ونحميا ، Issues, Summer 1960,

(٢) راجع مقاله في Issues, Summer 1960, نشرة يصدرها المجلس الاميركي لليهودية .

(٣) Judische Rundschau, 1921, Nr: 83, Alfred Rosenberg, Der Staatsfeindliche Zionismus, 1938, S. 69.

(٤) توينبي ، Experiences, pp., 125.

(٥) أرنولد توينبي ، فلسطين ، جريمة ودفاع (ص ١٥١ وما بعدها).

(٦) A Study, Vol. 12, pp. 484.

(٧) Jewish Chronicle, 31 Oct., 1975.

(٨) Rahinowicy, O. K., Arnold Toynbee On Judaism & Zionism, 1974.

الصهيونية ان توينبي هو من اعدى اعداء اللاسامية بكل اشكالها من قديمة ومن حديثة ، حتى انه انتقد النصرانية لما ظهر منها من عداء نحو اليهود ، ولقولها بخطيئة اليهود في قتلهـا السيد المسيح ، وحمل على الاوربيين وغيرهم لتعصبهم على اليهود [١] . نست كل ذلك وغسلته لأنها ترى ان الناس آحرار في مدح الصهيونية ولكن لا حق لأحد منهم حتى ان كان يهوديا من التعرض لها بالنقد ، لأن نقد الصهيونية هو عمل نازي ، معاد للسامية ومعاداة السامية جريمة حرمها القانون الدولي ، وادخلت عدد ا من مفكري اليهود الاحرار في عداد اللاساميين [٢] ، وحكمت على « المجلس الاميركي لليهودية » The American Council for Judaism ومقره نيويورك بمعاداة اليهود لانه لا يقي الآراء الفلسفية القائمة علـى فلسفة القول بالرس والقومية وبالشتات وبعودة اليهود الى اسرائيل [٣]، فليس اليهود رسا بالمعنى العلمي الانتروبولوجي [٤] .

وقد اتهمه « يا ماكوف هدتزوك » سفير الكيان الاسرائيلي في كندا بتحامله على الصهيونية ، وذلك بحواره معه في مدينة « مونتريال » وحاول السفير اظهار ان توينبي من المتحاملين على الاسرائيليين ومن المتعاطفين مع العرب ، وجرى في هذا الحوار كل المواضع التي أخذتها الصهيونية عليه ، وحاول باسلوب الدبلوماسية افحامـه امام الناس ، فكان جوابه عليـه جواب العالم الهادىء الرصين [٥] .

والواقع ان توينبي كان كما قلت من أشد الناس عداوة للمعادين

---

(1) A Study, Vol., 8, pp. 281.

(2) Zionist & Anti-Semite, Issues, Spring, 1966, pp. 20.

(3) The Challenges of Freedom, In Issues, Summer 1935, pp. 16.

(4) Are Jews A Race ?, Issues, Winter 1961, pp. 34.

(٥) وقد نقلت هذه المحاورة الى العربية بعنوان : فلسطين جريمـة ودفاع ، تعريب : عمر الديراوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ م .

لليهود ، كما كان من أشد الناس كرها للظلم ، ولهذا ندد بمهاجمة بلاده لمصر مع فرنسا واسرائيل سنة ١٩٥٦ م ، وعاب على قومه في سيرتهم الاستعمارية ، وانتقد الولايات المتحدة لسياستها الامبريالية مع انها كانت من المستعمرات في الاصل وكان من اللازم عليها مساعدة الشعوب المستعبدة ودافع عن حقوق السود في الولايات المتحدة وعن الأفارقة ودان تدخل الولايات المتحدة بفيتنام وبالمواضع الاخرى من جنوب شرقي آسيا، فهو رجل انساني العقيدة ، يدين بالسلم ولا يقبل صدور الظلم من أحد .

ومن هذه العقيدة الانسانية دافع عن الفلسطينيين لا عن عداوة للصهيونية وعن حب للعرب وانا متأكد من قولي هذا اعتمادا على اتصالي به ومجالساتي معه في لندن وفي بغداد وفي الولايات المتحدة ، وما كان في طبع توينبي النفاق والدجل فقد كان صريحا يجاهر بما يعتقد ولا يبالي بأحد وقد كلمته في مخاصمة الصهيونية له لا سيما بعد ظهور الجزء السابع والاجزاء التالية له من الكتاب فلم اجد منه ما يشير الى حنقه على الصهاينة او ما يشير الى حقده عليهم ، فقد كان جوابه لي جواب المؤمن الصادق في لهجته : لقد كتبت ما كتبت لا لأجل اثارة حقيقة ، او عن كره وعداء ، او عن طمع في مال اكسبه من رواج الكتاب والذي هاجم النازية مثلي وهاجم قومه وهاجم فرنسا وغيرها لا يصدر منه كره لليهودية ولا يمكن ان يعاديها ، ولكن الصهيونية نازية في ثوب يهودي انها عبادة جديدة تؤمن بالمثل التي اوجدت الديانة النازية وهي كما قال عنها بعد ذلك في كتابه : تجارب استعمار اسرائيلي وجريمة بالاضافة الى كونه مفارقة اخلاقية تنافي مفاهيم عصرنا » [1] .

---

(١) مقتبس من مقال الاستاذ محمد توفيق حسين ، المنشور في مجلة : آفاق عربية عدد (٧) لسنة ١٩٧٦ . (ص ٣٠) .

من هذه الروح الانسانية الضحية تظهر عظمة توينبي ، نصير الشعوب المظلومة لقد كان لدفاعه اثر مهم في رأي العالم لعلمه ولمكانته ولشهرته ، دافع تطوعا ، فلم يذكر اعداؤه عنه انه هاجم الصهيونية لأن العرب شروه بالمال ولو علموا ذلك لما سكتوا وانما الذي اغراه على الدفاع عن اهل فلسطين هو شعوره بأن المؤرخ يجب ان يكون في خدمة الحقيقة والحق.



التراث الطبي العربي بين الأصالة والتجديد

للأستاذ الدكتور مرسي محمد عرب
الاسكندرية

مقدمــة

تتداعى أمام الباحث في موضوع الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد مجموعة من التساؤلات رأيت أن تكون مدخلا لهذا البحث الخاص بالتراث الطبي العربي باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية، وموقف هذا التراث من قضية الأصالة والتجديد .

وبادىء ذي بدىء فانه لا بد من تحديد العلاقة بين الجزء والكل : أي علاقة الطب العربي بالحضارة العربية . فعلم الطب جزء من المعرفة الانسانية ، نشأ منذ بداية خلق الانسان ، ومن تراكم المعرفة الانسانية عبر العصور نشأت الحضارة ولا بد أن الانسان منذ ان سكن الأرض قد فكر في وجوده ، وتأمل ظاهرة الحياة والموت والمرض ، ثم أعمل عقله في الملاحظة والتجربة فحصل على معلومات بدائية في العلاج الذي أمكن اكتشافه فيما يحيط به من أعشاب ونباتات . ثم تجمعت المعلومات وتناقلها الناس عبر الأجيال حتى توفر بعضهم على مزيد من التأمل ثم ممارسة صناعة الطب والعلاج مكتشفين قواعد لهما وباحثين عن المسببات والعلل .

هكذا نجد ان الطب كان ولا يزال أمرا مرتبطا بالحياة والحضارة نشأ بقيامها ، وارتبطت علوم الطب بظواهر المعرفة الاخرى ، ولعل هذا

الارتباط كان أكثر وضوحا عندما كان العلم يمارس بطريقة موسوعية ، أي عندما كان على العالم أن يكون ملما بعلوم الفلسفة والآداب والتاريخ والكيمياء والفلك والطب وغيرها معا ، ثم استلزم التوسع الهائل في كل من هذه العلوم أن يمارس كل فرع منها بعد ذلك ممارسة مستقلة •

ثم تأتي هذه التساؤلات التي نحتاج اليها لتحديد معنى الاصالة والتجديد فيما يتعلق بالتراث الطبي العربي ، ويجدر بنا أن نقسمها الى قسمين : الأول يتعلق بالتراث الطبي من حيث تقييم ماضيه ، والثاني يتعلق بقيمة هذا التراث في حياتنا الحاضرة والمستقبلية •

فالتراث الطبي العربي من حيث هو تاريخ يدفعنا للتساؤل عما اذا كان الطب العربي أصيلا حقا ؟ وهل المقصود بالاصالة هنا أن يكون الطب العربي نابعا من صميم وجدان الامة العربية التي أقامت تلك الحضارة العظمى أم أنه كان دخيلا عليها أو منقولا عن غيرها من الامم ، ثم هل تتعارض الاصالة مع التجديد بحيث لا يمكن أن يجتمعا معا في وصفنا لتاريخ هذا التراث •

أما القسم الثاني الذي يتعلق بالحاضر والمستقبل فان معنى الأصالة والتجديد بالنسبة للطب العربي باعتباره عنصرا من عناصر التكوين الحضاري العربي يستدعي البحث عن ماهية الأصالة في هذا التراث ، ذلك أن العرف السليم لدى كل أهل حضارة هو الابقاء على كل ما هو أصيل من تراثها والعمل على أحيائه والانتفاع به ، وهم على العكس من ذلك لا يفعلون ذلك بما هو دخيل غث • والطب بوجه عام من علوم الحياة المتجددة والمتطورة وقد يكون ما يصلح منه لزمان معين أبعد ما يكون عن ان يجوز لزمان تال ، ومن ثم تنشأ الحاجة الى عملية تجديد لا ينقطع •

هل نشأ الطب العربي أصيلا ؟

مما لا شك فيه ان الطب العربي شأنه شأن سائر الآفاق للمعرفة لم ينشأ من فراغ ، بل كانت له جذورا استمد منها نشأته الاولى •

ولقد نشأ الطب العربي شأنه في ذلك شأن كل مظاهـر الحضارة العربية الاسلامية مع قيام الدولة الاسلامية وفي محيط الامة العربية ، غير أنه من الصعب أن نقول ان ذلك الطب العربي الزاهر الـذي بلـغ أوج عظمته كان هو التطور الزمني الطبيعي لذلك الطبالبدائي الذي كان معروفا لدى العرب قبل الاسلام ، فلقد كان للطب العربي جذورا أخرى متعددة استمد منها عناصر حياته عن طريق النقل من طب الحضاراتالقديمة والمعاصرة وهي الطب المصري القديم والطب اليوناني وما كان معروفـا لدى البابليين والآشوريين ثم الفرس والهنـود والصينيين ، والحق أن الجذور المنقولة عن هذه المصادر كانت أقوى بكثير واخصب من تجارب العرب في الطب قبل الاسلام •

وفي ذلك يختلف الطب العربي مثلا عن الأدب العربي الذي تمثل جذوره الأقوى ما كان متصلا بحياة العرب ذاتها قبل الاسلام •

ومع ذلك فانه ما من شك في أن الاسلام ذاته كان العنصر الحاسم في بداية تكوين التراث الطبي العربي • غير أن هذا الدور يختلف في مجال الطب باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية عن غيره مـن عناصر هذه الحضارة كالتشريع والفلسفة مثلا فهذه العناصر وجدت في الدين موردها الأساسي المباشر أما في الطب وغيره من سائر العلـوم الدنيوية فقد كان للاسلام دوره العظيم بصورة غير مباشرة ، اذ ان قدرا هائلا من المعارف التي نقلها المسلمون عن غيرهم من الشعوب المختلفة ما كان يمكن ان يعبر عن طريق حركة هائلة للنقل والترجمة بدأت في ظل النهضة الاسلامية ثم ينصهر في بوتقة واحدة ، ويعاد تشكيله ، ثم يضاف اليه في مراحل تالية الكثير مما هو أصيل وخلاق لولا مبادىء أتى بها الاسلام ورسخت مع نشأة الدولة العربية الاسلامية • واتسمت هـذه

المبادىء نفسها بالاصالة ، فقد قامت هي من صميم الأمة العربية ولم تكن منقولة عن أحد .

وهكذا يمكن القول أن الطب العربي نشأ منقولا بدرجة كبيرة ، غير أنه تم تشكيله ونما في التربة العربية ذاتها . تغذيه وترعاه مبادىء أصيلة دعا اليها الاسلام وتحميه تقاليد نابعة في داخل الدولة العربية ، حتى اذا استطاع بعد وقت قصير أن يعبر مرحلة النقل والترجمة الى مرحلة الخلق الاصيل حيث ابداع العلماء والاطباء العرب امكانات هائلة من تجاربهم الشخصية أكثر من اعتمادهم على النقل عمن سبقهم من الامم .

وعلى ذلك فاننا نرى أن معالجة قضية الأصالـــة في الطب العربي تستدعي البحث في اتجاهين :

الاول : هو دراسة عميقة لتلك التربة الصالحة التي سمحت باحتضان العلوم القديمة ثم بنمو الطب العربي ورعايته ، وذلك عن طريق القـــاء الضوء على المبادىء والتقاليد والقيم السائدة التي تكون في ظلها ذلـــك التراث الطبي العظيم الذي كان له أثره الواضح في قيام الطب الحديث .

الثاني : هو القاء الضوء على تلك الانجازات الخلاقة التي أضافها العلماء والاطباء العرب في فروع الطب المختلفة فاستحقـوا بذلك أن توصف أعمالهم بالاصالة .

ومن ناحية اخرى فان معالجة قضية الاصالة بهدف البحث عما في تراثنا الطبي من أصيل يستدعي الحرص على احيائه ، دون غيره ما لـــم يعد يتفق من منطق التفكير العلمي والذي لا تقع في كثير أو قليل من التمسك به وبذل الجهد في احيائه ــ نقول ان هذا الجانب من البحث سوف يسوقنا مرة اخرى الى اكتشاف اصالة التقاليد العلمية العربية التي كما كانت هي الأساس المتين لبناء التراث الطبي في الماضي فانها أيضـــا هي التي ما تزال تصلح بعد احيائها ووضعها موضع الدراسة الدقيقـــة

لكي تكون المنطلق لحركة تجديد شامل في الطب العربي المعاصرليس فقط لبلوغ مرحلة مسايرة ركب التطور العلمي بل لاستعادة مركز الريادة بين شعوب الأرض .

ولعلنا من هذه الدراسة أن نلتزم باسلوب ومنهج طالما دعا اليهما الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين أحد رواد البحث العلمي في التراث الطبي العربي من ضرورة البعد عن المبالغة التي شابت كثيرا من الدراسات السابقة ، أو أن تلوى الحقائق قسرا لتحقيق نزعة قومية عن طريق الاصرار مثلا على أن تكشف بالضرورة في علوم السابقين شيئا نجهله اليوم ، فلا يليق في رأيه بمؤرخي العلوم العربية ان يلتمسوا عند العلماء العرب ما يدل على أنهم فاقوا العلماء المحدثين . فان ذلك لا يستقيم مع منطق الامور ، اذ أن لكل علم قديم ملاحظات دقيقة وبه حقائق كثيرة كما أن به أيضا من خرافات البدائيين ما لا يستطيع الصمود امام تيار المعرفة والتقدم ، كما أن من رأي الدكتور محمد كامل حسين ان المؤلفات العربية ليست كلها سواء في أصالتها ، ومن ثم فانه لا بد من التدقيق في اختيار ما نعمل على احيائه من هذا التراث ، فبعض المؤلفات العربية لم تزد على أن تكون مذكرات يدون فيها المؤلف كل ما يعن له أن يدونه مما يسمع ويقرأ ويعلم ، ومن هنا كان بعضها مجرد مجموعة من المعلومات المتناثرة التي لا تربطها وحدة في التأليف ، ولهذا فان نشر مثل هذه المخطوطات التي لا تزيد على كونها كشكولا وضعه المؤلف لنفسه قد لا يكون بذي جدوى للتراث العربي . ولا يصدق هذا بالطبع بالنسبة للمؤلفات ذات الموضوع المحدد ، المنسقة الخالية من التكرار والاضطراد .

أصالة التقاليد العربية :

كانت الدعوة الاسلامية هي المفجر الاول للحضارة العربيةالاسلامية، ولقد دعا الاسلام الى الأخذ بالعلم بوجه عام بما في ذلك بالطبع ما يتصل بأمور الطب ، ولم يقف منه موقف العداء كما وقفت بعض العقائد

في بعض العصور ، بل رفع من قدر العلم والعلماء . ولعل في آيات القرآن الكريم أبلغ دلالة على ذلك فأول القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك ... » وفيه : « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « ويرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » ...

وفي أحاديث الرسول الكريم حث للمؤمنين على طلب العلم : (غدوة في طلب العلم أحب الى الله من مائة غزوة) و (اطلبوا العلم ولو في الصين) وهو يكرم العلماء أبلغ تكريم فيقول : (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء) و (موت قبيلة أفضل من موت عالم) ثم قوله : (لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم) ..

وهكذا وجدت العلوم المنقولة من الحضارات القديمة الى الامة العربية ذرعا ممدودة بالترحيب ، تباركها تعاليم الدين وسنة الرسول .

واستمرت رعاية الاسلام للعلم . ولم نسمع عن اضطهاد أصاب عالما في ظل الدولة الاسلامية لشأن من شئون العلم ، ويمكننا القول بوجه عام ان العمل بالشريعة الاسلامية وما أفضت اليه من اسلوب في الحياة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض يكسب الانسان أسمى مراتب السعادة الصحية والجسمية والعقلية .

وعندما انتقلت ولاية الدولة الى الخلفاء كان هؤلاء حريصين على أن يكونوا أيضا حماة للعلم والعلماء ، فكانت قصورهم مراكز تشع منها الثقافة ، وكعبة يحج اليها العلماء ، وتعقد فيها مجالس العلم . وقد بدأ ذلك بقصر معاوية وازدهر في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك في العصر الأموي ، ثم بلغ هذا التقليد العظيم ذروته في عهد الدولة العباسية ، وبخاصة في عهد المأمون ، الذي يعتبر عصره أزهى فترة تاريخ النهضة العربية ، فقد كان بلاطه يموج ، بجمهرة غفيرة من رجال العلم والأدب والاطباء والفلاسفة الذين شملهم جميعا برعايته .

وعندما انتقل ثقل الحكومات الى الممالك شبه المستقلة لم يكن حكام هذه البلاد في المشرق العربي او المغرب العربي بأقل حرصا على تلك التقاليد الموروثة من أسلافهم •

ثم ان الامراء والوزراء في الدولة الاسلامية كان لهم أيضا شغف بمجالس العلم ورعايتها ، ومن اشهر هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات في عشرينات القرن الرابع الهجري ، ومجلس ابي عبدالله الحسين في سبعينات القرن نفسه • ولعلنا ان تتساءل بعد كل هذا هل كان يمكن أن تكون هناك أرضا أكثر خصبا لاحتضان العلوم وازدهارها من مثل هذا المجتمع الذي يحرص ولاة الامر فيه كل هذا الحرص على رعاية العلم والعلماء •

وفي ظل تلك النظرة السامية للعلم والعلماء اتفقت تقاليد العرب على احترام مهنة الطب باعتباره علما له أصوله بعد أن انفصلت ممارسته عما كان يخالطها قبل الاسلام من السحر والخرافات ، فارتفعت مكانة الأطباء الى أعلى المراتب ، ولم يستثن من ذلك من بقي منهم على غير الاسلام بل شملت هذه الرعاية العلماء والأطباء من مسلمين ومسيحيين ويهود على حد سواء ، فقد دعا الرسول الكريم الى التطبيب على يدي الحارث بن كلدة ، واستعان خلفاء بني امية بالأطباء أمثال « ابن أثال » الذي كان نصرانيا وكان طبيبا لمعاوية الذي كرمه وقربه ، وأبو الحكم الدمشقي وابنه الحكم وحفيده عيسى ، وكان « ابن ماسرجويه » الطبيب المصري سريانيا يهوديا في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أما خلفاء العباسيين فقد كرموا أطباء أسرة بختيشوع الفارسية الأصل ، كما اشتهر في زمنهم أيضا كثير من الأطباء غير المسلمين امثال حنين بن اسحق ، يوحنا ابن ماسويه • وقد بلغوا أسمى مراتب التكريم في زمانهم • وكان من الولاة العرب أيضا من اتخذ طبيب بلاطه من الأطباء اليهود ، كما فعل صلاح الدين الايوبي مع موسى بن ميمون الذي كان رئيسا للطائفة اليهودية في مصر ثم دخل في خدمة السلطان صلاح الدين • ولو لم يكرم الولاة المسلمون العلماء

اليهود لما نبغ منهم احد ، اذ ان كثيرا من الاطباء اليهـود كانوا يلاقون الاضطهاد الشديد في أوروبا ولم يكن لهم حق الدخول في الجامعات حتى وقت قيام الثورة الفرنسية ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن نبوغ أطباء من اليهود في أوروبا في العصـور الوسطى بل وفي الجـزء الاكبر مـن عصر النهضة .

لقد بلغ من تكريم مهنة الطب أن وصل ممارسوها الى أعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب اشتغالهم فكان منهم من ولي الوزارة ــ ولعـل أشهرهم ابن سينا ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغا عظيما ، ومنهم من ولي القضاء ببغداد أمثال القاضي ابن المرخم يحيى بـن سعد الـذي أصبح قاضي القضاة أيام الخليفة المقتضي ، وأفضـل الدين ابو عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر ، كما صار سعد الدين بن البطريق بطريركا بالاسكندرية .

ولقد سمحت تقاليد العرب للنساء بممارسة مهنة الطب والمداواة ، ولم يقف الدين ضد اشتراك المرأة في هذا العمل ، وقد جاء في تاريخ الاسلام الذهبي ان أم عطوة الأنصارية قالت « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهـم واداوي الجرحى وأقوم على المرضى » . وكانت رفيدة الأسلمية تداوي الجرحى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبرعت زينب طبيبة بني أود في صناعة الكحالة ومداواة آلام العيون واشتهرت بذلك بين العرب وكانت أخت الحفيد ابي بكر بن زهر وابنتهـا عالمتين في صناعة الطب ومداواة النساء .

ومع أن الأطبـاء العرب مارسوا الطب الى جانب علوم الشريعـة والفلسفة والكيمياء والصيدلة وغيرها . فقد عرفوا أيضا مبدأ التخصص في المعالجة ، ولعل المجال قد اتسـع لذلك في ممارسة الطب داخـل البيمارستانات ، حيث كان يقوم على كل قسم من أقسام البيمارستان أطباء متخصصون من الباطنيين أو الجرائحين (الجراحين) أو الكحالين (أطباء

العيون) أو المجبرين (لعلاج الكسور) وغيرهم وكان اذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض لاستشارته ٠

ولقد كان من التقاليد التي استنها العرب ما يضمن أداء الخدمات الطبية للمجتمع على خير وجه ، بحيث يحاسب الأطباء ان أخطأوا عن جهل فاضح أو عمد ، ولعل أول صورة لذلك ما جاء في الحديث الشريف من تحديد لمسئولية الطبيب في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (من تطبب ولم يعرف عنه طب فهو ضامن) أي مسئول عن عمله محاسب عليه ٠٠ ثم بلغ تنظيم الرقابة على ممارسة مهنة الطب أوج عظمته في تقاليد الاجازة في الطب ، وفي نظام الحسبة على الاطباء والصيادلة ، فقد كان الأطباء في أول عهد الدولة الاسلامية يمارسون الطب بعد قراءته على أي طبيب من مشاهير الاطباء أو في كتب الأقدمين أو يمارسونه بالوراثة ويباشرون الصناعة بعد ذلك بغير قيود ، واستمر الحال على ذلك حتى نظم الخليفة العباسي المقتدر بالله هذه الممارسة اذ فرض على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحانا لاجازته ، وأمر بأن يكف عن ممارسة الطب جميع الأطباء الا من يمتحنه سنان بن ثابت ، وفي أيام الخليفة المستنجد بالله فوضت رئاسة الطب ببغداد الى أمين الدولة بن التلميذ لامتحان المتطببين ٠

ولقد نظمت الرقابة على الأطباء والصيادلة ، وكان يقوم بها مأمورون يطلق على كل منهم (المحتسب) وهو الذي يأخذ على الأطباء عهد أبقراط ، وعليه أن يتأكد من أن الطبيب لديه جميع آلات الطب بما يلزم له في صناعته ، وان يمتحن الاطباء بما جاء في الكتب الطبية المعترف بها كل فيما يخصه ٠ ونظمت أيضا عملية الحسبة على الصيدلة ٠ بما يضمن أن يراقبوا الله عز وجل في عملهم ٠٠ وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم بالعقوبة ويعتبر عليهم عقاقيرهم كل أسبوع ٠

واذا كان ابقراط هو الذي وضع العهد للطبيب بأن يلزم الطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب ، فقد التزم العرب في ممارستهم للطب

بأخذ هذا العهد على الاطباء غير انهم أضافوا تقنينا أوفى لآداب المهنة ، يظهر جليا في ما جاء عن ابن رضوان من وصف خصال الطبيب من حسن الخلق والملبس والطبع وسلامة العقل والقلب والعفـة والنزاهـة وغيرها من كامل الصفات .

واذا كان في كل ما سبق اشارة الى تقاليد الممارسة « التطبيقية » للطب العربي التي ازدهر في ظلها هذا الطب ، فانه كان للعرب أيضا تقاليد عظيمة في التناول « الأكاديمي » لشئون الطب بما مكن لهذا الطب من أن يبنى تراثا خالدا ، وأصبحوا هم معلموا الطب لكافة الشعوب وانتشرت مؤلفاتهم الطبية وبقيت لعدة قرون هي المصادر الأساسية للتعليم الطبي .

فكان التعليـم الطبي الاكلينيكي يقـوم على مشاهـدة المرضى والاستماع الى شكاواهم واستقصاء أحوالهم وزيارة منازلهم ، ولم يكتف شيوخ الاطباء بتلقين علـوم الطب لتلاميذهم من بطون الكتب ، وانمـا كانوا يقومون معهم بالمرور علـى أسرة المرضى بالبيمارستانات يفسرون أحوال المرضى ويشيرون بالعلاج ، وتلك هي وسيلة التعليم الطبي السليم حتى وقتنا الحاضر .

وكانت المناقشات العلمية أساسا أيضا من أسس التعليم ، فالاساتذة في حلقات المناقشة يجلسون وامامهم الكتب الطبية في قاعات ملحقـة بالبيمارستانات (المستشفيات) يتباحثون مع تلاميذهم ، وكان نظـام تقديم « رسالة » لمناقشتها تمهيدا لحصول الطالب على اجازة علمية مـن ابتكار العلماء العرب . فكان الطالب يناقش في كل ما يتعلـق بما في رسالته من الفن ، فاذا أحسن الاجابة اجازه الممتحن .

وعرف العرب نظاما للمؤتمرات العلمية حيث كانت تعقد الاجتماعات في « بيت الحكمة » ببغداد وهي التي أنشأها المأمون أو « دار الحكمة » بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله ، وكان على الطلبة والعلماء ان يحضروا الى تلك الدور من شتى بقاع الأرض لحضور تلك الاجتماعات .

وفي مجال التأليف العلمي التزم أغلب الأطباء العرب بتقاليد منهجية في كتاباتهم بالحرص على ذكر مصادر ما ورد فيها عمن سبقوهم من المؤلفين ، فنجد الرازي مثلا يذكر في مؤلفاته الباب أو الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبرته الشخصية بلفظة (لي) بعد ما يدونه من هذه الآراء .

أصالة الاضافات العربية :

لقد أجمعت الدراسات المنصفة للتراث الطبي العربي على أن العرب لم يكونوا فقط نقلة للتراث القديم ، وحفظة له من الاندثار بعد أن ضاعت أصوله القديمة او معبرا عبرت عليه الحضارة القديمة الى العصر الحديث. ولو أن ذلك كان فضلهم فحسب لكان فيه كل الفخر لهم ، غير أن الحقيقة الساطعة من الدراسة الامينة تظهر بجلاء أصالتهم في الابتكار والخلق والاضافة في مختلف مجالات الطب وفروعه ، ويطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه الاضافات في شتى المجالات ولا نرى في الواقع داعيا لسرد بيان هذا البحث لتلك الاضافات العربية في التشريح ووظائف الأعضاء والطب الباطني والجراحة وأمراض العيون وأمراض النساء وابتكار الآلات الطبية ونظم الادارة للمستشفيات ورعاية المجانين وغيرها ، فقد يخرجنا ذلك التفصيل عن جوهر ما نقصده من هذه الدراسة كما أن مثل هذا التفصيل قد أفاضت فيه امهات الكتب والمؤلفات التي تناولت التراث الطبي العربي من هذه الزاوية .

أما بيت القصيد في بحثنا فهو يؤكد ان الأصالة الحقيقية والخالدة في التراث الطبي العربي انما هي في القواعد والأسس التي قام عليها هذا الطب ممارسة ، وتطويرا واضافة ، وتعليما ، وهي التقاليد التي تم في ظلها كل ذلك ، من رعاية الدين والدولة وأولى الأمر للعلم وتكريم العلماء من كل جنس ولون ، وفتح مجال الاجتهاد في هذه الصناعة أمام الرجال والنساء ، والتخصص الدقيق في فروع الطب المختلفة وتحديد المسئولية الدقيقة لعمل الأطباء ومراقبة أعمالهم ، والالتزام بآداب المهنة

والأخلاق ثم في بناء تعليمهم الطبي ووضع مؤلفاتهم العلمية من واقع المشاهدة العلمية والبحث وحرية المناقشة والأخذ بنظم الرسائل العلمية والاجازات والمؤتمرات وفي الأمانة العلمية في وضع مؤلفاتهم ..

كل هذه التقاليد العظيمة في نظرنا هي الأصالة التي سمحت بقيام التراث الطبي العربي وهي التي كانت أساسا لنشأة الحضارة العربية الشاملة ، وهي في نظرنا أيضا الأصالة الكامنة في ذلك التراث التي تدعونا دائما للعمل على احيائها والالتزام بأحكامها ، فهي صالحة لعصرنا هذا ولكل العصور وهي الكفيلة حقا بنقل الحضارة العربية بما فيها من طب وغيره . من ظلام التخلف الحاضر الى أوسع آفاق التقدم المأمول في المستقبل ان شاء الله .

المراجع

طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة .

تاريخ البيمارستانات في الاسلام : للدكتور احمد عيسى بك .

لمحات من تاريخ الطب : للدكتورة آمنة صبري مراد .

طب الرازي : للدكتور محمد كامل حسين .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العددالرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .

مجالس العلم والجمعيات العلمية في مختلف العصور : للدكتور عبد الحليم منتصر .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العددالرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .

مكانة الطب في تاريخ العلم عند العرب : للدكتور عبد الحليم منتصر .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .

تقاليد وآداب المهنة الطبية لدى العرب : للدكتور مرسي محمد عرب .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .

هجرة القبائل العربية الى الكوفة في القرن الأول الهجري وأثرها في التنظيمات القبلية

الدكتور محمد حسين الزبيدي
كلية الآداب - جامعة بغداد

تمهيد

لقد بدأت طلائع هذه الهجرة الى الكوفة حينما ارسل ابو بكر الصديق (رض) حملتين الى العراق لمحاربة الفرس في المرحلة الاولى من الفتوحات الاسلامية . تولى الحملة الاولى خالد بن الوليد . عندما أرسل ابو بكر كتابا الى خالد يأمره بالتوجه الى العراق بعد الانتهاء من حروب الردة في اليمن . وطلب ابو بكر من المثنى وحرملة وسلمى وفدعور أن ينضموا الى خالد وان يكونوا تحت قيادته فكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة ومضر وكان هو في الفين فصار جيشه في عشرة آلاف مقاتل وأمر ابو بكر أيضا ان يفتح العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الابله) [1] ثم (البصرة) [2] وكان عدد جنوده في هذه الحملة عشرة آلاف مقاتل .

اما الحملة الثانية تولاها عياض بن غنم حين طلب اليه الخليفة ان يأتي العراق من اعلاه وان يلتقي في الحيرة مع خالد .

وقد وصل خالد الى الحيرة مبكرا ولكن عياض لقي مقاومة شديدة حالت دون وصوله الى الحيرة . فاضطر خالد ان ينقذه وان يفرق عنه

(١) الذهبي : الاعتدال ج١ ص ٣٦٤ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٢ .

الجيوش الفارسية المقاتلة وانصارهم من نصارى العرب ولقد كان جيش خالد بن الوليد يضم الصفوة الممتازة من المسلمين فكان هـذا الجيش خلاصة المهاجرين والانصار الذي حارب بهم اهل (الردة) في انحـاء الجزيرة العربية وكان فيه كثيرا من الصحابة والقراء • وقد أمد ابو بكر جيش العراق بسدد آخر فقد أمد خالد بن الوليد بالقعقاع بن عمر التميمي وأمد عياض بعبد الرحمن بن عوف ثم كتب اليهما ان استنفرا من قاتل من أهل الردة على الاسلام بعد رسول الله (ص) • وترك خالد هذا الجيش اذا اعطيت قيادته الى المثنى بن حارث الشيباني بعد سفره الى الشـام لنجدة المسلمين هناك •

وعندما خرج خالد الى الشام خرجت معه طائفةمن الجيشواستخلف المثنى على من بقي منه وقد خاض المثنى معركـة واحدة في بابل ضـد الجيش الفارسي •

وعندما أحس المثنى بضعف جيشه امام الجيش الفارسي طلب نجدة من ابي بكر ولما استبطىء المدد خرج الى المدينة •

ولما وصلها وجد الناس منشغلين بوفاة ابي بكر وقد ترك ابو بكر وصيته لعمر بن الخطاب ان مندب الناس مع المثنى وأن يرد أصحاب خالد الى العراق ان فتح الله على امراء الشام فانهم اهله وولاة أمره وأهـل الضراوة بهم والجرأة عليهم [1] • وقد انتدب عمر بن الخطاب من المدينة ومن حولها امدادا لجيش المثنى وكان هذا المدد الاول مكون من ألف رجل وقد أمر عليهم عمر أبا عبيد بن مسعود ثم تلاه المدد الثاني وقـد ندب عمر أهل الردة فأقبلوا عليه فأرسلهم الى الشام والعراق • أما الهجرة الثالثة يوم أعلن عمر بن الخطاب (رض) التعبئة العامة بعد مقتل ابي عبيدة ابن مسعود الثقفي في كارثة الجسر سنة ١٣ هـ والتي قتل فيها من قتل من المسلمين وغرق من غرق وهرب من هرب الى المدينة وفي قلوبهم رعب

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٣٨ .

شديد من قتال الفيلة [1] والتي بقي فيها المثنى في عاد قليل من الجند حوالي ثلاثة آلاف ومن أجل هذا نجد ان عمر قد اعلن التعبئة العامة وأخذ يمد العراق بالامدادات الكثيرة التالية :

١ ـ جرير بن عبدالله البجلي في قومه من بني بجيلة وقد اجاب عمر طلبه في جمع من بني بجيلة من قبائل العرب فلما اخرجه الى العراق حتى يلحق بالمثنى ابى الا الشام فأكرهه ثم عوضه لاكراهه ، واستصلاحا له فجعل له (ربع خمس) ما افاء الله عليهم في غزوتهم هذه له ولمن خرج اليه من القبائل [2] .

٢ ـ عصمة بن عبدالله من بني عبد بن حارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة .

٣ ـ ابن المثنى الجشمي ـ جشم سعد، فيمن قدم معه من بني سعد.

٤ ـ ربعي ابن عامر بن خالد العنود في أناس من بني عمرو .

٥ ـ قوم من بني ضنبه جعلهم في فرقتين ، على احد الفرقتين ابن الهوير وعلى الاخرى المنذر بن حسانه [3] .

٦ ـ أنس بن هلال النميري في أناس من النمر [4] .

٧ ـ ابن مردى الفهر التغلبي من أناس من بني تغلب ، وهو عبدالله ابن كليب بن خالد [5] .

٨ ـ نفر من أهل الرده جاؤوا عمر (رض) فأرسلهم الى المثنى [6] .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٤٢ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٤٥ ـ ٦٤٦ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٥) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٦) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

٩ ــ وجمع من بني كنانه والأزد وعددهم سبعمائة قدمــوا الى المثنى [١] .

١٠ ــ هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب [٢] .

١١ ــ ترط بن جماح العبدي في عبد القس [٣] .

١٢ ــ عبدالله بن ذي السهمين في أناس من خثعم [٤] .

١٣ ــ ربعي وابنه شبث في اناس من بني حنظلة [٥] .

وقد حقق المثنى بهذه الامدادات نصر كبير في معركة (البويب) التي تأربها لمعركة الجسر .

الهجرة الرابعــة :

وقد بدأ العرب والفرس استعدادا لمعركة (القادسية) الفاصلة وقــد كتب عمر بن الخطاب (رض) الى عماله في المدن فقال « لا تدعوا أحد له سلاح او فرس او نجدة او رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل » [٦] .

١) خرج مع سعد الى العراق اربعة آلاف فيمن جاء اليه من اليمن والسراة وعلى أهل السراة حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي . وهم بارق والمع وغامد وسائر اخوتهم في سبعمائة من أهل السراة وأهل اليمن الفان وثلاثمائة منهم النخع بن عمرو وجميعهم يومئذ اربعة آلاف مقاتلتهم وذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر في عسكرهم فأرادهم جميعا على العراق

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧
(٢) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧
(٣) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧
(٤) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧
(٥) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧
(٦) الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧

فأبوا الا الشام وابى الا العراق فسرح نصفهم الى الشام ونصفهم الى العراق وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبدالله الهلالي [1] .

٢) كتب عمر الى عماله : (لا تدعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا الا اجلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه) .

٣) كتب عمر الى سعد بن ابي وقاص فيمن كتب اليه عندما كان على صدقات هوازن بانتخاب ذوي الرأي والنجد ، فمن كان له سلاح أو فرس فجاءه كتاب سعد اني قد انتخبت لك الف فارس مؤد كلهم له نجده ورأي وصاحب حيطه يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم اليهم انتهت حسابهم ورأيهم فلشانك بهم [2] .

٤) كتب عمر الى عماله على القبائل ان لا تدعوا أحد له سلاح افرس او نجدة أو رأي .

ثم وجهتموه الي والعجل العجل ، فوافاه أوائل هذا الضرب من القبائل التي طرقها على قلة المدينة فاما من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق فوافاه بالمدينة مرجعه من الحج واما من كان من أسفل ذلك فقد انضموا الى المثنى فاما من واتى عمر فانهم أخبروه عمن وراءهم بالحث .

٥) انتخب سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف . ثلاثة آلاف تميمي والف ربي وانتخب من بين اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى [3] .

٦) وامد عمر سعدا بعد خروجه بألفي يماني وألفي نجدي مؤد من

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٣) الطبري ج ٣ ص ٧

عطفان وسائر قيس . وقدم سعد منطقـة زرود [1] .

٧) انتخب سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف تميمي وألف ربي وانتخب من بني اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى [2] .

٨) كان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة : ستة آلاف من بكر بن وائل والفان من سائر ربيعة أربعة آلاف ممن كان انتخب بعد وصـول خالد واربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر وكان معه من أهل اليمن الفان من بجيلة والفان من قضاعة وطيء ممن انتخبوا الى ما كان قبل ذلك على طيء عدي بن حاتم وعلى قضاعة عمرو بن وبره وعلى بجيلة جرير بن عبدالله [3] .

٩ ــ جاء الى سعد الاشعث بن قيس ومعه الف وسبعمائة من أهل اليمن عندما كان في شراف [4] .

١٠) كتب عمر الى ابي عبيده بصرف اهل العراق وهم ستة آلاف ومن اشتهر أن يلحق [5] بهم وقد بلغ هذا الجيش بضعة وثلاثون الفا . وقد اختلف في عدد هذا الامداد . فمن قـال اربعة آلاف فليخرجهم مع سعد من المدينة . وقال ثمانية آلاف فلاجتماعهم بزرود . ومن قال تسعة آلاف فللحات القيسيين ومن قال اثنى عشر الفا فلدفوف بني اسد مـن فروع الحزن بثلاثة آلاف وجميع من قسم عليه فيىء القادسية نحو من ثلاثين الفا [6] .

١١) وقد تتابعت الامداد لسعد بعد معركة القادسية فقدم هاشم بن

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٧
(٢) الطبري جـ ٣ ص ٧
(٣) الطبري جـ ٣ ص ٧
(٤) الطبري جـ ٣ ص ٧
(٥) الطبري جـ ٣ ص ٧
(٦) الطبري جـ ٣ ص ٧

عتبة من قبل الشام ومعه قيس بن المكثوم الراوي في سبعمائة بعد فتح اليرموك ودمشق فتعجل في سبعين منهم سعيد بن غران الهمداني •

٦ ــ ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الايام ممدّين لأهل القادسية فتوافوا بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء اولهم يوم اغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح وقدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن افناء الناس (١) •

وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة وستة آلاف من بكر ابن وائل وألفان من سائر ربيعة وألفان من أهل اليمن وهي قبيلة بجيلة وألفان من قضاعة وطي ، وكان على طي ، عدي بن حاتم بجيلة جرير بن عبدالله (٢) •

فاجتمع اليه من قبائل عدة منها (قبيلة ، قيس عيلان وبني تميم والرباب ، وبني اسد ، وبني بكر ، وربيعة وغيرها) وولى امر قيادتهم الى سعد بن ابي وقاص • وقد بلغ عدد هذا الجيش الذي خاض معركة القادسية حوالي (ثلاثين الفا) •

وأخذ هذا الجيش يكتسح امامه الجيوش الفارسية ويهد اسوارها حتى انتزع النصر منها في هذه المعركة ، وقد تتبع هذا الجيش فلول الجيش الفارسي الى المدائن فاستولى عليها • وأخيرا خاض هذا الجيش (معركة جلولاء) التي انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا جعلت الامبراطورية الفارسية بعدها حدثا من أحداث التاريخ وخبرا من أخباره •

اثر الفتح في اختلاط ودمج القبائل العربية في المدن :

ان خروج العرب في الحقيقة من الجزيرة العربية الى العراق بسبب

---

(٢) الطبري ج ٣ ص ٧

الفتح مقدمة لعملية اختلاط القبائل العربية مع بعضها البعض بعد ان ظلت محتفظة بطابعها القبلي ووحدتها قرونا عديدة ، فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلا جديدا بعيدا كل البعد عن التجمع القبلي أو العصبية القبلية التي عاشتها القبائل في الجزيرة العربية قرونا طويلة لاول مرة في التاريخ العربي الاسلامي ، فكان الانتداب للحرب او الجهاد لا يتخذ شكلا قبليا كما كان مألوفا عندهم لان الخليفة عندما كان يستنصر القبائل على الجهاد ويرغب الناس فيه ويحثهم عليه ، كانت الجموع تتوافد على المدينة من كل حدب وصوب من انحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود فتعبي وتنظم ثم يرسلها الخليفة الى الجهة المطلوبة التي يراها بحاجة الى المدد فيمدها بالجنود بعد ان يعين أميرا عليهم وذكر الطبري [1] ان (أمير المؤمنين كان اذا اجتمع اليه جيش من أهل الايمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعدة فاجتمع اليه جيش فبعث عليهم مسلمة) .

كان لهذه الفتوحات أثرا كبيرا في مزج القبائل هذه وصهرها في بودقة الاسلام انصهارا كاملا وتكوين طابع جديد لها يميزها تميزا واضحا عن طابعها القبلي القديم الذي تميزت به قرونا عدة ، وليس أدل على ذلك من قول الطبري قول (وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام الذين شهدوا اليرموك ودمشق . ورجعوا ممهدين لأهل القادسية ، فتوافوا بالقادسية ، من الغد وبعد الغد ، وجاء أولهم يوم أغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح قدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن افناء الناس [2]) .

ان هذا يدلنا دلالة واضحة على ان العرب لم يخرجوا للفتح على أساس قبلي أو فردي او على نطاق القبيلة حيث ان (أهل العراق من اصحاب الايام) لم يكونوا قبيلة واحدة وانما كانت من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية جاهدين على نشرها في العالم والدفاع

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٠

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٤

عنها • ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على الاختلاط ان المحاربين في الجيش الاسلامي كانـوا يستصحبون نساءهم الى جهات القتال نظـرا لحاجتهم الماسة اليهن ولا سيما عندما كانت تطول مدة القتال فقال الطبري (لم يكن من قبائل العرب أحدا أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع، وكان في النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة الف وا نهؤلاء وهؤلاء صاهروا احياء العرب وان المهاجرين تزوجوهـن حتى استوعبوهن وان النخع وبجيلة كانت تسمى لذلك اصهار العرب او اختان المهاجرين) [١] •

ان هذا التزاوج أدى بلا شك الى توسيع روابط القبيلة الواحدة بعدد كبير من القبائل واختلاطها بعد ان كانت روابط الزواج تكاد تكون محصورة في القبيلة الواحدة • ان في هذه الحادثة صورة ناطقة لتزواج القبائل واختلاطها وتوسيع افق القبيلة حتى لا تكون وحدة قائمة بذاتها وانما تكون حلقة وصل وترابط بين بقية القبائل في تكوين هذه الامـة التي سكنت الكوفة •

وقد تتابعت مظاهر الاختلاط والتداخل بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطا واضحا كان أعمق مدى وأبعد أثرا لاشتراكها في حياة مدينة واحدة ، حتى ان سلطة القبائل السياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدم التي سادت حياة المجتمع القبلي في الجزيرة العربية تأثرت كثيرا بعـد استقرارها في العصر وخضوعهـا لسلطة الامير العليا التي لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدم • ومـن العوامل الاخرى التي ادت الى وحدة العرب واضعاف الروابط القبلية هو الدين الاسلامي الذي كان من اعظم أسسه الدعوة الى الاخـوة والمساواة بين معتنقيه بصرف النظر عن اصلهم وجنسهم وألوانهم وهذا كان من اعظم اسسه التي قام عليها الدين • وكان هذا اسلوبا آخر للمزج بين القبائل العربية واختلاطها وتحطيم ما كان في الجاهلية من حواجـز

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٢ •

فرضتها عليهم طبيعة الحياة . وكان الدين الاسلامي سبيلا الى التآخي بين افراد المجتمع الجديد في مواجهة الحياة .

ان القاء نظرة واحدة على عدد القبائل واسمائها التي نزلت الكوفة تعطيك صورة جديدة واضحة لذلك الاختلاط . فانك تجد فيها قبائل من جنوب الجزيرة العربية وقبائل اخرى من الشمال واخرى من نجد ومن الحجاز واخرى من حضر واخرى من ربيعة وغيرها .

لقد ظلت عملية الاختلاط والدمج تسير شيئا فشيئا على الرغم من انها نكصت على عقبيها نتيجة بواعث الفتنة وسوء السياسة التي اتبعها بعض ولاة السوء ، وبذلك محت الفروق المكانية بين القبائل وأحيت العصبية القبلية .

كما انها حاولت ان تحمي الفروق الاخرى ، او تخفف من حدتها ، فربطت بين بعض القبائل ، ولم تدع كل قبيلة ان تعيش وحدها فكونت كتلا جديدة تسمى الاسباع حيث قسم سعد بن ابي وقاص سكان المدينة الى سبعة اقسام منفصلة عن بعضها ومما لا شك فيه ان هذا التقسيم الجديد ادى الى صياغة المجتمع الكوفي صياغة جديدة لم تشهدها العصور السابقة من قبل . ولقد ظل المجتمع على هذا التقسيم حتى مجيء الامام علي بن ابي طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ فغير نظام الاسباع ودمج بعض القبائل التي كانت منفصلة فيما بينها .

ونتيجة لهذا الاستقرار والتجمع نجد بأن الروح القبلية بدأت تتضاءل شيئا فشيئا وان وحدة العرب بدأت تتحقق بينهم وهي تلك الغاية البعيدة التي قصد اليها الرسول الاعظم (ص) وهي ان جعل الاسلام الرابطة بين العرب بعد ان كانت العصبية القبلية والشعور الرابطة الوحيدة بينهم .

لقد ظلت الكوفة على هذا النظام حوالي اربعة عشر عاما حتى ولاية

زياد ابن ابيه الكوفة سنة ٥٠ هـ فخطى زياد خطوات واسعة أخرى .

فدمج القبائل مع بعضها بشكل اقوى بكثير مما قام به سعد ، فعدل زياد هذه الاسباع فجعلها ارباعا ، ومزج القبائل المختلفة داخل كل ربع هادفا في ذلك اضعاف الروح القبلية وصار هذا اقرب الى توحيد القبائل وتجمعها ، وقصد زيادة من هذا التقسيم أيضا الى تثبيت دعائم الحكم ونشر الامن والنظام في ربوع الكوفة والمحافظة على وحـدة الجيش وتماسكه والابتعاد به عن العصبية القبلية التي تمزقه وتشتت شملـه اذا ما تفشت به وسيطرت عليه (١) .

ان هذه الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مـع بعضها في الكوفة كان لهما اعظم الاثر في نفوس القبائـل العربية التي سكنت الكوفة حيث اخذت تهيئوها نفسيا لتدرك ان الحياة المدنية شيء آخر غير الحياة البدوية التي تعود عليها العرب في حياتهم الاولى في الجزيرة العربية . فكانت بداية للون جديد من الحياة المدنية تربط بينهـا وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضارية الجديدة (٢) .

ان حياة العرب الاجتماعية في الكوفة لم تبق على ما تركها عليـه زياد في دمج القبائل وانما أخذت تتحول الى شكل جديد آخر بحكـم الحياة الجديدة المستقرة ، ان سكنى القبائل العربية في الكوفة جنبا الى جنب جعلهم يشعرون انهم ابناء مدينة واحدة تفرض عليهم نوعـا مـن العلاقات الاجتماعية جعلتهم يشعرون بأنهم وحدة متجانسة متشابهة الملامح والسمات فبدأ يتسرب الى نفوسهم احساس بالمدينة ولكن هذا الاحساس بالمدينة لم يقض على الاحساس المتأصل بالقبيلة كليا وانما ظل رواسب لاشعورية في اعماق تفكيرها . أي تحولت العصبية القبلية الى عصبيـة

---

(١) يوسف خليف ـ حياة الشعر في الكوفة ص ١٥ .

(٢) يوسف خليف حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني للهجرة ص ١٦ .

للمدينة التي سكنوها [1] ومن هنا بدأت تظهر ظاهرة جديدة حيث تحولت الحياة القبلية الى حياة قبيلة تؤمن بالمدينة تستطيع ان نسميها (الاقليمية) او (التأقلم) وهي ان تسمي القبيلة باسم المدينة مثل تميم الكوفة وتميم البصرة وازد الكوفة وازد البصرة [2] وليس ادل على ذلك من قول المبرد (لقد حدثت فتنة في البصرة بين الازد وربيعة بعد وفاة يزيد وكادت ان تنشب الحرب بينهم وقد استطاع الاحنف بن قيس ان يهدأ هذه الفتنة فقال : يا معشر الازد وربيعة انتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصهر واشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو ، والله لازد البصرة احب الينا من تميم الكوفة وازد الكوفة احب الينا من تميم الشام) [3] !

ولم يقف تطور العرب الى هذا الحد من الشعور بالعصبية القبلية والمدينة معا وانما تعداها الى ابعد من ذلك ، حيث قطع العرب خطوات كبيرة نحو التجمع في الكوفة بعد ان ذابت الفروق المكانية بين القبائل . فصار الشعور بالمدينة وحدها فوق كل اعتبار آخر وان كتب التاريخ تذكر لنا أمثلة كثيرة .

وعلى ذلك فنقول ـ سار أهل الكوفة وجاء أهل البصرة . وقاتل أهل الكوفة أهل البصرة . اننا معشر اهل البصرة . وسلمى بن اليقين على أهل البصرة ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة . وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام [4] . الى غير ذلك من الأمثلة . دون ذكر اسم القبيلة او العشيرة التي تسكن هذا المصر او ذاك .

ان انشاء المدن في الحقيقة تجربة جديدة رائدة في حياة العرب

---

(١) احمد امين ـ فجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) المبرد ـ الكامل ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المبرد ـ الكامل ـ ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) الطبري : ج ٣ ص ٣٠

الاجتماعية وكانت هذه التجربة على الرغم من كل شيء موفقة في مقاصدها ناجحة في اهدافها ومراميها • على الرغم من انها تعرضت كما تعرض غيرها من التجارب الى النكوص على عقبيها في بعض الاحيان لسوء السياسة التي اتبعها بعض الخلفاء والولاة • أو نتيجة لبواعث الفتنة والشقاق التي كانت تؤججها نار السياسة والتحزب والطائفية والمذهبية وغيرها •



أوراق البردي العربي
مصدر أصيل للتاريخ الإسلامي

الدكتور أحمد الشامي
دولة قطر / الدوحة

مقدمة عامة عن نبات البردي وأماكن تواجده وزراعته :

لا شك ان نبات البردى الذي صنعت منه أوراق البردى عرف في مصر منذ عهد الفراعنة فالنقوش المرسومة على المعابد المصرية والتي تمثل اشكالا لهذا النبات ، والسفن التي صنعت من سيقانه والتي تركت رسومها على جدران معبد الدير البحري ، والوثائق الفرعونية المكتوبة على أوراق من البردى بالهيروغليفية او الهيراطيقية او الديموطيقية ، وهي الكتابات المستعملة في اللغة المصرية القديمة ، كل هذه أدلة مادية لا تقبل الشك في أن مصر عرفت هذا النبات منذ فجر التاريخ .

كانت سيقان هذا النبات تنبت طبيعيا في مستنقعات الدلتا ومياهها الراكدة خاصة في الحجر وفي شريط ممتد بالاسكندرية ، واستمرت تربية نبات البردى في مصر مدة طويلة اختلفت المصادر العلمية في تحديدها ، فالمراجع الاوروبية تذكر ان نبات البردى ظل ينبت في مصر حتى منتصف القرن العاشر الميلادي [١] بينما المصادر العربية تقرر ان زراعة نبات البردى استمرت في مصر بعد ذلك التاريخ لعدة قرون ولكنها كانت قليلة ، فأبو العباسي النباتي يذكر ان نبات البردى كان ينمو في مصر حتى سنة ١٢١٦ م ، والقلقشندي يذكر ان هذا النبات ظل موجودا في زراعة مصر الى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، ويذكر جروهمان في مقدمة كتابه

عن علم البردي ان هذا النبات ظل ينمو في دمياط وجهات قليلة اخرى حتى سنة ١٨٢٩ ، بينما يقرر Coumbe (٢) ان المنابع المحلية لنبات البردي في مصر بدأت تجف منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو في هذا يتفق مع ما ذكره ابو العباسي النباتي ، ثم يذكر ان قلة متفرقة من هذه المنابع التي ينمو فيها نبات البردي ظلت تشاهد حتى سنة ١٥٩١ م ، ولكن منذ سنة ١٦٧٤ م انعدمت الاشارات عن وجود ذلك النبات في مصر •

والحقيقة التي أجدها اقرب ما تكون قبولا للعقل هي ان نبات البردي كانت زراعته تزداد وتقل حسب مركز مصر قوة وضعفا ، فان كانت مصر في مركز قوي ازدادت زراعة هذا النبات وتمت صناعة اوراقه التي كانت تصدر الى بلدان منطقة الشرق الادنى والى بلدان ومدن حوض البحر الابيض المتوسط باعتبار مصر مركز الاشعاع الحضاري في هذه المنطقة وهي التي تصدر مادة الكتابة الوحيدة التي عرفها العالم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ البشرية واقصد بها اوراق البردي المصنوعة في مصر والتي كانت تشكل السلعة الرئيسية في صادرات مصر حينذاك كما يشكل القطن السلعة الأساسية لصادرات مصر حاليا •

وان كانت مصر في مركز ضعيف نتيجة لما كان يصيبها احيانا من وقوعها تحت سيطرة اجنبية او بسبب ركود حياتها الاقتصادية فان زراعة وصناعة اوراق البردي كانت تتأثر بذلك وتنكمش الى حد كبير ليس في مصر فحسب بل في حوض البحر الابيض المتوسط ومنطقة الشرق الادنى بأكملها •

ومع ان استعمال ورق البردي في الكتابة قد توقف منذ حوالي ستة قرون ، فقد اعادت مصر زراعة هذا النبات في الستينات من هذا القرن ، وشيدت معهدا لتصنيع ورق البردي من جديد ، ويقوم المعهد بتقليد بعض اللوحات الفرعونية والاسلامية المنقوشة على اوراق بردية او آثار اسلامية ويعرضها على الآلاف من زوار هذا المعهد ومعظمهم من السائحين

الأجانب ، كما ان أكاديمية الفنون المصرية تمنح درجاتها العلمية على هذا الورق المصنوع حديثا من نبات البردى •

يقول بعض المؤرخين ان البردى كان يزرع على نهر الفرات عند مدينة بابل في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكان يتم تصنيعه في مدينة سامراء ، ويستبعد البعض الآخر ذلك القول ويدعم رأيه بأن مصر هي التي كانت تصدر ورق البردى الى العراق طوال فترة التاريخ قديما ووسيطا ، ولكننا نرجح ان العراق وبلدان أخرى قامت بمحاولات لزراعة هذا النبات وتصنيع ورقه واستعماله محليا بل وتصديره منافسة لمصر في جانب حيوي من اقتصادها الذي كان يعتمد على هذه السلعة المهمة جدا ، والتي كانت هي المنبع والمصدر الوحيد لها في العالم ، ودليلنا على هذا ما ذكره الغرناطي [٣] حيث يقول : « وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق وهي كقراطيس مصر لاهل المغرب، وفي بلخ انها شبيهة بالعراق وخراسان والهند » •

ويذكر ابن حوقل [٤] الذي زار بالرمو Palermo فيما بين عامي ١٩٧٢ — ١٩٧٣ م أيضا انه رأى نبات البردى ينمو في جزيرة صقلية وبعض جهات اخرى في جنوب اوروبا ولكنه يقرر ان وجود نبات البردى كان هناك للزينة ولم يكن لتصنيعه ورقا للكتابة ، بينما يقرر Coumbe [٥] ان ملوك الميروفنجيين كتبوا كل وثائقهم في القرن السابع م على ورق من البردى وظلوا يستعملونه بعد ذلك الى ان بطل استعماله تماما في عهد شارلمان وخلفائه في القرن ١٢ م • ومع هذا فان هذه البلدان التي قامت بهذه المحاولات لم تتمكن من التصدي للورق المصري لما كان يمتاز به من خصائص انفرد بها عن الورق المصنوع في هذه البلدان ، ولعل أهم هذه الخصائص تتجلى فيما اثبته الخبير العالمي لصيانة البرديات انطون فاكلمان Fackelmann من أن نبات البردى المزروع في مصر يمتاز باحتوائه على مادة لزجة متشبعة بها انسجة هذا النبات ، هذه المادة اللزجة التي اكتسبها من البيئة الجغرافية التي امتازت بها مصر ومن مياه النيل

هي التي تساعد على تماسك هذه الالياف والتصاقها عند عملية التصنيع، لأن المصري القديم كان يقوم بطرق الشرائح الطولية لسيقان هـذا النبات طرقا خفيفا ثم يقابلها بشرائح اخرى مستعرضة ويكرر عملية الطرق بخفة، وكان السائـل المختزن في الانسجـة يقـوم مقام مادة اللصق حاليـا حيث يساعد على التصاق هذه الشرائح وتماسكها وقد توصل الخبير العالمي فاكلمان ــ الذي شرفت بالعمل معه ومع ابن أخيـه Junge Fackelmann (فاكلمان الصغير) اثناء وجودي بفينا في الستينات ــ الى هذه النتائج بعد ما قـام بزراعة نبات البردى في بيئات مختلفة في النمسا والمانيا الغربية موفرا للتجارب كل الوسائل العلمية التي تساعد على نمو هذا النبات وفعلا نبتت سيقان البردى ولكن عندما اختبرت المادة المختزنة بين الياف النبات وجدت خالية من خاصية اللزوجة التي يمتاز بها نبات البردى المزروع في مصر •

عرف العرب كذلك نبات البردى في عصر ما قبل الاسلام ، فقد ذكره بعض شعراء الجاهلية في أشعارهم مثل قول الاعشى يصف حبيبته بقوله :

« كبردية الغيل وسط الغريف »

ولكنهم اطلقوا على ورق البردى اسم القرطاس ، وجاء ذكره في القرآن الكريم بهذا الاسم في قوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابـا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » ، وفي قوله تعالى « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه في قراطيس تبدونها •• » (٦) •

قصة العثور على مجموعات البردى وسباق الدول الاوروبية الى اقتنائها :

ترجع قصة العثور على أوراق البردى بمجموعاته المختلفة الى سنة ١٨٢٤ م عندما عثر بعض الفلاحين في منطقة سقارة (دير ابو هرميس) على زلعة صغيرة من الفخار وجدوا بداخلها ورقتين من البردى المكتوب

باللغة العربية ، وبطريقة ما تمكن برناردو دروفيتي Bernardo Drovetti قنصل فرنسا الاسبق في مصر الذي كان مغرما بجمع الآثار المصرية من الحصول عليهما ، ولم يلبث إن قدمهما الى البارون سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy قنصل فرنسا في ذاك الوقت ، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن هنري سالت [٧] Henry Salt قنصل انجلترا في مصر من الحصول على ورقتين اخريين قام باهدائهما الى الملك لويس الثامن عشر ، وقد عكف سلفستر دي ساسي على بحث محتويات نصوص هذه الاوراق البردية التي تلقفتها أياديه ، وسرعان ما نشر عنها مقالا في مجلة العلماء Journal des Savants الصادرة في باريس سنة ١٨٢٥ م [٨] وبهذا المقال اصبح دي ساسي مؤسس علم البردى العربي دون ان يدري .

كان هذا المقال هو أول نبأ علم الناس منه موضوع هذه البرديات المكتوبة باللغة العربية والتي وصلت الى اوروبا ، ومنذ ذلك الوقت تنبه المستشرقون الى أهمية اوراق البردى العربي وعكف بعضهم على دراسة نصوص هاتين البرديتين الى جانب البرديتين المهداتين الى الملك لويس الثامن عشر ، وعلى بعض ما عثر عليه بعد ذلك من برديات اخرى حتى تطورت ابحاثهم في غضون الثلث الاول من هذا القرن وأصبحت دراساتهم على اوراق البردى علما ثابتا في جامعات اوروبا كمصدر اساسي لدراسة التاريخ الاسلامي وحضارته على مر العصور في مصر .

مضت فترة زمنية طويلة نسبيا لم يعثر الفلاحون في خلالها على شيء جديد من أوراق البردى الى ان كان صيف عام ١٨٧٧ م فقد عثر الفلاحون على أكوام من ورق البردى في الخرائب المهجورة لأطلال مدينة أرسينوه ومكانها الحالي كوم فارس كما ذكرها شفاين فورت Schweinfurth وعرضت هذه الاوراق البردية للبيع فاسرع جورج ترافرز G. Travers قنصل المانيا في مصر بشراء كميات كبيرة منها خلال عامي ١٨٧٧ — ١٨٧٩ أرسلها من فوره الى القسم المصري بمتحف برلين [٩] وفي شتاء العام نفسه

عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من أوراق البردى في اطلال كوم الحرانية ظفر Travers بمعظمها كذلك . وحصل متحف اللوفر بباريس على قدر من هذه البرديات ، كما تمكن قنصل انجلترا في مصر روجرز E. T. Rogers من شراء بعضها ومعه هـ • بروجش H. Brugsch واستقرت هذه البرديات بوديليانا باكسفورد ، ولم يلبث Stern أن بذل جهده وظفر هو الآخر بما تبقى من هذه المجموعة لحساب المتحف المصري ببرلين لسنة ١٨٨١ م • اصبحت اوراق البردى سلعة رائجة يتكسب منها المعدمون من الفلاحين ويحرص تجار العاديات في القاهرة على اقتناء كل ما يجدونه لدى هؤلاء المعدمين ويعوضونهم عنه البخس القليل من المال ، ولهذا كرس بعض الفلاحين كل وقتهم للبحث عن اوراق البردى في الخرائب والاطلال المهجورة وفي أكوام السباخ ونجحوا في العثور على مجموعات اخرى من ورق البردى في اهناسيا واخميم والاشمونين والبهنسا وكوم اشقوه و (أشقاو) ومنف ودير القديس أرميا بالقرب من سقاره ، وفي ادفو حيث عثر على مخطوط على شكل كتاب كامل من ورق البردى يتضمن كتاب الانساب للسمعاني ، وكتاب الصمت ، وكتاب الخاتم وينسب الى جامعة عبدالله بن وهب ويرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجري (٩ م) وكان هذا الكتاب الفريد من البردى معروضا في متحف دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٢١٢٢ حتى أواخر الستينات من هذا القرن •

أخذ التنافس يشتد بين سفراء الدول الاوروبية خاصة المانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا على شراء ما يعرض من أوراق البردى في اسواق القاهرة، ويرسلون بمندوبيهم الى أسواق مصر يجوبون محلات العاديات المختلفة بحثا عن هذه الثروة العلمية الفريدة في نوعها ، وعلى الرغم من هذا التنافس الذي وصل الى حد الصراع على الظفر بهذا الكنز العظيم بين سفراء هذه الدول فقد وقف سفير النمسا بمعزل عن هذا الصراع ، واكتفى لنفسه ولبلده بموقع المتفرج منذ بداية هذا الصراع في الربع الاول من القرن التاسع عشر حتى بلغ ذروته بعد خمسين سنة تقريبا ، وعلى الرغم

من ان النمسا دخلت هذا الميدان متأخرة جدا فقد تمكنت عن طريق ثلاثة اشخاص ان تفوز بأكبر نصيب من الغنيمة ، وان يصبح لها قصب السبق على من سبقها من الدول الاوروبية بسبب ما أحرزته من مجموعات البردى التي جعلتها على راس العالم أجمع بما في ذلك مصر موطن البردى ومركز تصديره ، ففي المكتبة القيصرية بفينا توجد اليوم أكبر وأغنى مجموعة من أوراق البردى في العالم حيث يبلغ تعدادها مائة ألف بردية مكتوبة بأكثر من ست لغات من ضمنها حوالي عشرة آلاف بردية باللغة العربية .

دراسة موجزة لمجموعات مكتبة البرتينا بجامعة فينا :

هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كان لهم الفضل في أن تفوز النمسا بهذه المجموعات الضخمة من أوراق البردى هم تيودرجراف Theoder Graf نمساوي مقيم في الاسكندرية وكان مديرا لاحد بيوت السجاجيد الايراني الذي لم يذكر اسمه صراحة في الوثائق الموجودة بأرشيف المكتبة القيصرية بفينا هو ذلك المتجر الايراني العظيم الذي كنت أشاهده قائما في شارع فرنسا بالاسكندرية حتى أول الخمسينات من هذا القرن ، والذي كان يعتبر مزارا للملوك والعظماء والوزراء . والرجل الثاني هو المستشرق النمساوي جوزيف كرابتشك Josef Karabacek مدير مكتبة القصر الامبراطوري في فينا الذي لعب دورا بارزا في هذه القصة وتمكن بذكائه من أن يضم اليه الارشيدوق راينر Erzherzog Rainer الذي سيقوم بدفع جميع اثمان مجموعات البردى المجلوبة من مصر لحساب فينا ، وبانضمام الارشيدوق راينر الى كرابتشك وصديقه جراف تتم دائرة الفوز للنمسا حيث حصلت على الكنز العلمي العظيم ، وتكتمل اطراف المأساة بالنسبة لمصر لانها فقدت جزءا عظيما من تراثها ، ومصدرا أصيلا من مصادر تاريخها .

كانت هناك صلة كبيرة بين ثيودرجراف وبين جوزيف كرابتشك

الذي كان هاويا لجمع المنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية ذات القيمة الفنية ، ووصلت اخبار البردى العربي الى مسامع كرابتشك بعد ان وصلت عدة مجموعات منه الى برلين وباريس واكسفورد وعندئذ تحركت الغيرة في قلبه فكتب من فينا الى صديقه جراف الذي يمده بالمنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية من الاسكندرية يغريه ويدفعه للبحث عن ورق البردى الى جانب ما يرسل به من قطع النسيج القديم ، وتمكن جراف من أن يرسل مع بعض خرق النسيج القديمة مجموعة صغيرة من أوراق البردى ، وبدأ كرابتشك يهتم بها وكتب الى صديقه جراف يلفت نظره الى أهمية هذه الاجزاء الصغيرة من ورق البردى ويلح عليه ببذل أقصى جهد للحصول على اكبر كميات منها (١٠) .

نجح ثيودرجراف في وقت قصير بما له من حاسة التاجر الخبير من الحصول على بعض مجموعات من البردى وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت أسوق القاهرة مغمورة ببردى من الفيوم (كوم فارس) ومن اهناس (هرقليوبوليس) فاشترى حوالي عشرة آلاف بردية سافر بها بنفسه من الاسكندرية سنة ١٨٨٢ (١١) الى فينا حيث وضعها بين يدي جوزيف كرابتشك الذي تلقاها وهو لا يكاد يصدق انها بين يديه ،وعندما بدأ بفحصها وجدها في حالة سيئة فقد عبثت الديدان ببعضها الى جانب ما تآكل من اطرافها ، كما ان عدة آلاف منها غطتها طبقات متحجرة من الطين وبذل كرابتشك عناية فائقة في ازالة ما علق بهذه البرديات من طين متحجر وذلك باتباع الطريقة الالمانية التي اتبعت في نظرية وفتح بردى Travers سنة ١٨٧٧ م ، وبعد جهود مضنية ، وعمل مستمر مع حرص زائد حتى لا تتمزق البرديات أو تتعرض للتلف نجح كرابتشك في فرد لفائف البردى وتنظيف الكراسات المتحجرة .

ما لبث كرابتشك ان عكف على دراسة نصوص هذه المجموعة واستعان في ذلك ببعض علماء اللغات ليقف على ما تتضمنه هذه النصوص وقد ظهر بعد الفحص ان المجموعة تضم نصوصا مكتوبة بلغات ستة هي

العبرية والسامية والبهلوية واليونانية والقبطية والعربية التي بلغت وحدها حوالي ثلاث آلاف نص • وتضافرت جهود هؤلاء العلماء من الناحية العلمية مع ما وضع تحت تصرفهم من خبرات فنية وأمكن لهم تجهيز بضع مئات من البرديات التي تم فحصها وتنسيقها وعمل لها كتالوج مصنف ، وأقيم لها معرض في فينا في السابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٣ م، وعرفت هذه المجموعة في الاوساط العلمية باسم مجموعة ثيودرجراف أو مجموعة الفيوم الاولى [١٢] •

بهذه الصورة ، وعلى هذا النحو تكونت نواة أكبر مجموعة للبردي في فينا ، ما لبثت ان نمت اعدادها على مر الايام بما أضيف اليها من مشتريات جديدة ، وبما اهدى اليها من مجموعات او بما حصلت عليه من الحفائر التي قامت بها البعثات النمساوية في مصر ، وأهم ما أضيف الى مجموعة فينا تلك المجموعة الكبيرة التي كان يمتلكها عالم الآثار المشهور Schweinfurth والتي بيعت في القاهرة سنة ١٨٨٦ واشتراها جراف كذلك لحساب فينا • وقد اطلقت الاوساط العلمية على هذه المجموعة اسم مجموعة الفيوم الثانية [١٣] وقد بلغت مجموعة فينا في الوقت الحاضر حوالي مائة الف بردية من ضمنها عشرة آلاف بردية باللغة العربية تمكنت اثناء اقامتي بفينا من الاطلاع على معظمها ودراسة بعضها وتصوير البعض الآخر لعمل دراسات عليه •

ان ما تتضمنه نصوص هذه البرديات العربية على جانب كبير من الأهمية لفروع العلم المختلفة سواء ما يتصل بعلم الشريعة والحديث او ما يتصل بعلم التاريخ والادب والفلك والطب وعلوم الاغذية فهي مجموعة شاملة لفروع العلوم المختلفة ، وتغطي فترة زمنية طويلة من تاريخ مصر الاسلامية تصل الى ٧٥٠ عاما ، فأقدم وثيقة في هذه المجموعة الموجودة في مكتبة البرتنبنا حاليا يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب فهي مدونة في سنة ٢٢ هـ ، واحدث وثيقة في هذه المجموعة يرجع تاريخها الى سنة ٧٨٠ هـ الى عهد السلطان المنصور علي بن الاشرف شعبان آخر

سلاطين المماليك في مصر ويكفي للدلالة على أهمية هذه الوثائق ان اقدم نموذجا تحليليا عن احدى هذه المجموعات التي بلغت في مجموعها ٩٥٠ بردية بيان عهودها التاريخية كالآتي :

١٧ بردية يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وتبدأ ارقامها في سجل البرتينا من ٥٥٠ الى ٥٦٧ A P

٤١ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الاموية وتبدأ من الرقم ٥٦٨ الى ٦٠٨ .

١٨٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة العباسية الاولى (١٣٢ — ٢٥٥ هـ) وتبدأ ارقامها من ٦٠٩ الى ٧٩٣ .

٩٠ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢هـ) وتبدأ بالرقم ٧٩٤ الى ٨٨٣ .

٣٣ بردية يرجع تاريخها الى العصر العباسي الثاني (٢٩٥ — ٣٣٣هـ) وتبدأ بالرقم ٨٨٤ الى ٩١٦ .

١١٣ بردية يرجع تاريخها الى عصر الاخشيديين (٣٣٣ — ٣٥٧ هـ) وتبدأ بالرقم ٩٤٩ الى ١٠٦١ .

٢٢٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) وتبدأ بالرقم ١٠٦٤ الى ١٢٨٧ .

٢٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الايوبية (٥٦٧ — ٦٢٥ هـ) وتبدأ بالرقم ١٢٩٠ الى ١٣١٥ .

٨٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر دولة المماليك (٦٥٧ — ٧٨٣ هـ) وتبدأ بالرقم ١٣١٦ الى ١٤٠٠ .

فاذا علمنا ان ما قرأه جوزيف كرابتشك ورصده في دليل مكتبة البرتينا لم يزد عن ١٤٠٠ وثيقة من هذا العدد الكبير الذي بلغ العشرة آلاف وثيقة التي ما زال معظمها محفوظا ينتظر من يخرجه الى نور الحياة

ويضع نصوصه تحت أيدي العلماء والمؤرخين لامكن لنا ان نقول بأن تتراثا اسلاميا عربيا يمكن ان يضيء الطريق ويهدي السبيل للذين تركوه في ظلمة المخازن اذا هم عنوا به فقد يكون بين نصوصه ما نصحح به فكرة علمية حائرة او نصوب به حكما تاريخيا جائرا او نعدل به جرحا خاطئا في الفقه والحديث او نقوم به اعوجاجا من عاداتنا او نصحح به مفهوما من مناهيمنا او نثبت به تقليدا حميدا من تقاليدنا العربية الاصيلة ، ثم ان هذه الوثائق البردية قبل كل شيء وبعد كل شيء سجل حافل لماضينـا المجيد ، ومشعل مضيء لفترة هامة من تاريخ الامة العربية وهي تمثل بدون شك جزءا هاما من تاريخ البشرية وحضارتها كما انها وثائق حافلة وناطقة بحياتنا الادبية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعيـة والقومية . فبعض نصوص هذه الوثائق يوضح لنا ان فكرة فتح العرب لمصر كانت تحمل طابعا آخر غير الذي قرأناه وتعلمه الكثير منا ، لأن الفاتحين العرب لـم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة من المغامرين من البدو راكبي الجمال كما يصفهم بعض مؤرخي الغرب ، ولكنهم كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحتهم من سيوف ونبال وهي الاسلحة التي عرفها أرقى شعوب الأرض حينذاك ، وكانوا يقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة تشربتها نفوسهم باخلاص . وانهم تركوا حرية العقيدة وطبقوا في حكمهم علـى المسلم والذمي قانون السماء .

وبعض النصوص التي تضمنتها هذه الوثائق الهامة عبارة عن رسائل افراد من عامة الشعب الى حكام أو ولاة أو تجار او ذوي قربى وفيها تتجلى شكاوى الناس وحاجاتهم ، ومدى آلامهم ، ومعاناتهم ، وتشرح عواطفهم ، وتعطي صورة واضحة عن عاداتهم وطريقة حياتهم ومعاملتهم وأذواقهم حتى التذاكر الطبية ووصفات العلاج من الأمراض تبينها هذه الوثائق التاريخية وتعطي الباحث فكرة كاملة عن مدى ما وصل اليـه العرب المسلمون من تقدم في طرق العلاج وتشخيص سليم للامراض ولم تضن علينا هذه الوثائق بطريقة عقود الزواج التي تعطينا شرحا لقيمـة الصداق ، وتقدم نموذجا لعملية التوثيق ، وتبين عدد الشهود الذيـن

يشهدون بصحة هذا الزواج ، وهؤلاء كانت تتراوح اعدادهم ما بين اربعة شهود واربعين شاهدا على حسب المنزلة الاجتماعية للعروسين ، ويكفيني ان اذكر نماذج من هذه الوثائق للتدليل على ما ذكرت .

فالبردية رقم ٦٥٩ A P من هذه المجموعة يرجع تاريخها الى عهد هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) وهي اقرار مصالحة بين زوجين الرجل يدعى ابو سليمن وامرأته سكينة وقد أقر الزوج بأن ما في البيت من أثاث وخلافه يخص زوجته سكينه وتعهد بدفع ما عليه من الصداق وقدره ثلاثون دينارا وعلى الوثيقة اقرار اربعة من الشهود ، والوثيقة رقم ٩١٣ (AP. 16859) يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي القاهر بالله (هو ابو منصور محمد بن المعتضد آخر خلفاء الدولة العباسية الثانية حكم من ٣٢٠ الى ٣٢٢ هـ) وهي عقد زواج المدعو فلان ابن اسحق بن غيامة وزوجته عائشة بنت سعيد وكانت امرأة قائمة على امرها بنفسها والعقد موقع عليه من الشهود كذلك ، والوثيقة رقم ٩٨٦ يرجع تاريخها الى عهد الاخشيديين مدون بها ٣٩ سطرا بالخط النسخي الواضح وهو خطاب مرسل من احد الجنود الذين خرجوا في حملة عسكرية الى منطقة الفيوم وهو يقص على أهله ما حدث لهم من موت الخيل والحمير نتيجة شدة العطش الذي أصاب الحملة كلها وفي آخر الوثيقة دعاء الى السلطان بدوام ملكه وهلاك اعدائه ، والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبدالملك وفيها بيان لميزانية بيت احد الاغنياء والمبالغ المخصصة لنفقات اصطبل خيوله والمتمعن في نص هذه الوثيقة يخرج بصورة واضحة عن مستوى الحياة المعيشية ومقدار دخل الفرد في الحقبة الزمنية التي كتبت فيها هذه الوثيقة ، والبردية رقم ٢٠٧ هـ من عهد المأمون بن هرون الرشيد تشرح لنا مبادلة أصناف من السلع بين تاجرين من اقباط مصر وهي تعطي المؤرخ فكرة واضحة عن الجوانب الاقتصادية وأنواع السلع المتاجر فيها واثمانها ، وكيفية التبادل التجاري بين التجار ، وأهم انواع المواصلات المستعملة في النقل من بلد الى آخر والمدة الزمنية التي يستغرقها نقل هذه

البضائع ، والوسائل التي كانت متبعة في حفظ هذه المواد التجارية سواء كانت ملبوسات أو أطعمة او غيرها •

والبرديتان رقم ١٧٨٨ ، ١٠١٣٦ مدوّن عليهما بعض من آيات القرآن ولا تخلو مجموعة من مجموعات البردى من مثل هذه الوثائق الدينية الهامة •

والبردية رقم ١٩٦ تعتبر فريدة في نوعها لأنها اول مصدر تاريخي عن أول رتبة وظيفية في العهد الفاطمي وهي مكتوبة بالخط القبطي ، وكذلك البرديات رقم ٤٠٦ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، التي تتضمن منشورات ثورية يرجع تاريخها الى سنة ٢٥٣ هـ ٨٦٧ م [١٤] وهو العام الذي سبق وصول احمد بن طولون الى مصر وكانت في تلك الفترة في حالة من الاضطراب الداخلي • حتى الاحصاء عرفته مصر الاسلامية قبل ان تعرفه اوروبا بزمن طويل فالبردية رقم ٥٩٩ من عهد هشام بن عبد الملك تحمل أمرا ديوانيا بعمل احصاء لأهالي بعض القرى وتقرير ثبت بالخراج الواجب اداؤه ، والوثيقة ١٠٦٦ ((Ach: 7710)) عبارة عن ورقتين من أحد كتب الحديث حيث تروى الأحاديث النبوية مسندة الى قائليها ، وتاريخ هذه الوثيقة يرجع الى عهد المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك بعض البرديات التي قرأها ادولف جروهمان واستعان بها في دراساته لاحظت انه صحف بعض الاسماء ودونها خطأ مثل البردية رقم ٢١١/٨١٨٤ الذي قرأها في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١ واثبت انها مرسلة من المدعو عبد الحميد ابن عمر بن بشباشي وصحة الاسم كما صححته في وثائق البرتينا هو مجد الدين يحيى بن بشباشي وكذلك البردية رقم ٢٥٢/٨٢٢٥ حيث صححنا اسم مرسل الوثيقة فقد اثبته جروهمان (من صهر بن العرشي) وصححته كما قرأناه (من صهيب بن العرشي) •

هذه نماذج فقط من أنواع مختلفة من مجموعة بردى الارشيدوق راينر بفينا وقد عايشتها واطلعت على معظمها وقمت بتصحيح عدد غير

قليل من القراءات السابقة لهذه النصوص واثبتهـا بنفسي في سجـلات المكتبة ، وخلاصة القول ان مثل هذه المجموعة الفريدة من الوثائق في مسيس الحاجة الى جهد جماعي من متخصصين في تحقيق التراث لدراسة ما تحتويه من نصوص •

دراســة مجموعة Schott - Reinhardt بجامعة هايدلبرج :

تعتبر مجموعة جامعة هايدلبرج بالمانيا الغربية ثاني مجموعات البردى بعد مجموعـة فينا ٪ من حيث القيمة العلمية والكم العددي ، اذ يبلـغ تعدادها حوالي ٢٠٠٠ بردية بها نسبة كبيرة مكتوبة باللغة العربية والقليل منها مكتوب بالعبرية والقبطية والبهلوية واليونانية ، وتنسب المجموعـة كلها الى عالمين المانيين من جامعة هايدلبرج اولهما الدكتور Reinhardt الذي تمكن من شراء المجموعة الاولى مـن بردى الفيوم والاشمونـين واخميم لحساب الجامعة فيما بين سنـة ١٨٩٧ ، ١٨٩٩ م ، ثم اشترى Reinhardt لنفسه مجموعة اخرى من ورق البردى بلغ تعدادها حوالي ١٠٠٠ بردية كان يفكر في دراستها ونشرها الا ان المنية عاجلته في سنة ١٩٠٣ م وبوصية منه آلت هذه المجموعة الى صديقه د • شوت Schott مدير الجامعة وقتذاك ويبدو ان شرط Reinhardt كان لديه من الاعباء العلمية الاخرى ما يحول بينه وبين دراسة هذه المجموعة والتفرغ لمحتويات نصوصها ، فرأى ان خير وسيلة للحفاظ على هذه الثروة العلمية التـي آلت اليه من صديقه Schott هو ان يهديها الى الجامعة التي ضمتهما معا في محرابها ، وفعلا قام شوت Schott بتقديم المجموعة كهدية منه الى جامعة هايدلبرج في العـام التالي سنة ١٩٠٤ م ، فرأت الجامعة ان تكرم عالميها فأطلقت اسميهما معا على هذه المجموعة تحية وتقديرا لمن اشتراها وذكرى وتكريما لمن اهداها وأصبحت المجموعة تعرف في الاوساط العلمية باسم Schott-Reinhardt وقد اضاف الدكتور

ادولف جروهمان الى هذه المجموعة ٥٩ بردية عربية من الفسطاط اودعها جامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٣٤م، وقد تمت اعداد مجموعة هايدلبرج نتيجة اتفاقية البردى الالمانية وبما اضيف اليها من نتائج حفريات جامعة هايدلبرج والجمعية العلمية بفرايبورج Freiburg (١٥).

ومع ان هذه المجموعة تعتبر من حيث القيمة العلمية والكم العددي في المرتبة الثانية بعد مجموعة فينا الا انها كانت اكثر حظا وأوسع انتشارا في مداها العلمي لكثرة ما قام به المستشرقون الالمان من دراسات عليها. فكارل هنري بيكر C. H. Becker الذي كان مديرا لجامعة هايدلبرج ثم وزيرا للمعارف بالمانيا قام بدراسات موسعة على النصوص المتعلقة بتاريخ الخلافة، الى جانب سلسلة من المحاضرات الجامعية في الدراسات الاسلامية استقى معلوماتها من واقع نصوص أوراق البردى بهذه المجموعة (١٦)، كذلك قام د. بيلابل Dr. Bilabel ود. جراف Dr. Graf بالاشتراك مع جروهمان Dr. A. Grohmann بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة ونشروا كتابا لهم يتعلق بالسحر والشعوذة عند العرب في سنة ١٩٣٤، كما امضى د. سايدل Dr. Seidel الرئيس الأسبق لقسم البردى بمكتبة الجامعة وقتا طويلا في اعداد دراسة موسعة على بعض نصوص هذه المجموعة ولكن القدر لم يمهله لنشر هذه الدراسة حيث توفي في حادث سقوط طائرة اثناء عودته من تركيا في نهاية سنة ١٩٥٩ (١٧)، كذلك قام البروفسور البرت ديتريش Prof. Dr. A. Dietrich مدير معهد الدراسات العربية والاسلامية بجامعة جوتنجن بدراسة نشرها في كتاب له عن (الطب عند العرب) من واقع برديات هذه المجموعة. كما اخرج دراسة موسعة عن الجوانب الادبية والمعاملات بين طبقة العامة في كتاب له بعنوان (خطابات عربية Arabische Brisfe) ولكن معظم نصوص هذه الدراسة كانت من اوراق بردى مجموعة هامبورج Hamburg كذلك قامت الدكتورة كابلوني Frau Dr. Kabloni بدراسة على نصوص البرديات المدونة بالهيراطيقية في المدة ما بين سنة

١٩٦٠ / ١٩٦٥ حيث حصلت على درجة الدكتوراه بهذه الدراسة ، وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٢ الى نهاية سنة ١٩٦٤ قمت بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة تحت اشراف البروفسور البرت ديتريش وهي معدة حاليا للنشر كما شاركت في اعمال ترميم وصيانة البرديات بهذه الجامعة تحت اشراف البروفسور Richard Seider استاذ علم البرديات اليونانية ومدير قسم البردى بالجامعة حيث واصلت ما بدأه دكتور جروهمان من ترقيم وتصنيف لهذه المجموعة وقف به عند سنة ١٩٣٥ م .

وعلى كثرة ما نشره المستشرقون الالمان من دراسات علمية من وثائق هذه المجموعة فما زالت تضم بين جنباتها الكثير من الوثائق ذات القيمة العلمية ، من هذه الوثائق كتاب من ورق البردى عبارة عن كراستين في ٢٧ ورقة مكتوبة على الوجهين ، احداهما تتضمن جزءا من السيرة النبوية العطرة وبعض تفاصيل عن غزوات الرسول ، والثانية تختص بسيرةالنبي داوود عليه السلام ، ويرجع تاريخ هاتين الكراستين الى سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ / ٧٢٩ م) ولشدة ما أصاب الكراستين من تلف كبير قضى على وضوح النص عزف الباحثون عن دراستهما ، ولكن اثناء زيارتي الثانية لقسم البرديات بجامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٦٨ وجدت ان الجامعة العبرية بفلسطين المحتلة أرسلت باحدى مدرساتها المشتغلات بعلم البردى لتقوم على النص الخاص بقصة النبي داوود ولست ادري هل اتمت هذه الدكتورة ما قامت به من دراسات على هذا النص ام لا .

والبردية رقم ٥٢ في هذه المجموعة ذات قيمة دينية وفلسفية كبيرة والنص مدون على الوجهين بخط صغير متشابك ويبلغ طول هذه الوثيقة حوالي ٨٥ سم وعرضها ٣٠ سم ، والبردية رقم ١٧٣٦ خطاب مرسل من يحيى بن عبد السلام الى القاضي الامين المكين تاج الدين ويفهم من النص ان يحيى هذا يرعى اسرة القاضي وأولاده أثناء غيابه وانه على صلة قربى به ، وان القاضي رغم تصدره للقضاء فكان يتجر بماله في بعض السلع الواردة من عيذاب .

والبردية رقم ١٧٣٧ نموذج ادبي رفيع مرسل من مريد الى شيخ الرباط نجد الدين ابو المجد الاشتى ، وهناك المئات من الوثائق المختلفة التي تتصل بفن العمارة وهندسة البناء او عقود بيع وشراء ، بل هناك الآلاف من البرديات المبعثرة في مجموعات اوروبا المختلفة هي عبارة عن المصدر الأساسي للمؤرخين المشتغلين بالتاريخ العربي والاسلامي عامة ونظم الادارة والتاريخ الاقتصادي بصفة خاصة ومن أمثلة ذلك البرديتان رقم ١١٢٣٥ ، ١١٢٣٦ الموجودتان بمعهد اللغات الشرقية بشيكاغو وقد نشرتهما المستشرقة الامريكية نابيا آبوت Nabia Abbott (١٨) ويرجع تاريخهما الى الدولة الاموية وقد عثر عليهما بالفيوم .

دراسة مجموعة القاهرة :

اذا ما انتقلنا الى مصر ام البردى في العالم ، ومصدرة العلوم والحضارة والثقافة على مر عصورها التاريخية نجد انها لم تظفر من كنوزها في هذا الميدان الا بالاقل القليل مما ظفرت به دول العالم الغربي ، فحتى يومنا الحاضر لم تزد مجموعة مصر الموجودة في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا) على ألفي (٢٠٠٠) بردية عربية ، يرجع الفضل في شراء نصفها وتكوين نواة لمجموعة مصر الى B. Moritz (برنارد موريتز) الذي شغل منصب مدير عام دار الكتب في الفترة من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩١١ م ، ثم نمت المجموعة وزادت اعدادها نتيجة لما اضيف اليها من بردى الفيوم والاشمونين والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا وفي الستينات من هذا القرن ترك أحد الأجانب المغرمين بجمع اوراق البردي ويدعى جورج ميخاليدس وكان مقيما في الاسكندرية ترك مجموعة قيمة ونادرة من ورق البردى العربي، وطبقا للقانون الخاص بعدم السماح بخروج آثار مصر للدول الاجنبية فقد تحفظت ادارة الآثار المصرية على هذه المجموعة لدى القضاء للفصل في النزاع القائم بينها وبين ورثة جورج مخاليدس ، ولست ادري اذا ما

كانت هذه المجموعة ضمت الى مجموعـة دار الكتب ام ان ورثة هـذا الأجنبي تمكنوا بوسيلة ما من استعادتها والخروج بها ، واذا كان ما سمعته بنفسي من البروفسور R. Seider عن وصول مجموعة كبيرة مـن ورق البردى من مصر الى جامعة كولون Koln في عقاب نكسـة ١٩٦٧ صحيحا ، فانني ارجح ان اصحاب هذه المجموعة تمكنوا بوسائلهم الخاصة من تسريبها الى المانيا الغربية منتهزين الحالة السيئة التي كانت عليها مصر نتيجة للهزيمة المرة التي اصابتها خاصة وان هناك حالة مماثلـة قام بها ثيودرجراف سنة ١٨٨٢ م حيث خرج بمجموعة الفيوم الاولى وكمية من أندر أنواع السجاجيد الشرقية منتهزا ضرب الاسكندريـة واحتلال مصر بواسطة القوات الانجليزية ، وما زالت هذه السجاجيـد معروضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع في فينـا كما شاهدتهـا بنفسي (١٩) .

وتأتي مجموعة القاهرة في المرتبة العلمية والكم العددي مساويـة لمجموعة هايدلبرج لانها تضم نصوصا على جانب كبير من الأهمية العلمية والقيمة الأثريـة ، فقد قام الدكتور مورتنز الـذي أشرف على تكوين المجموعة بنشر بعض نصوص هذه البرديات واستعان بها في مؤلفه عـن تاريخ الخط العربي (٢٠) وفي مقاله عن الكتابة العربية الذي نشره بدائرة المعارف الاسلامية سنـة ١٩١٠ (٢١) كما قام L. Caetani بنشر بعض النصوص من هذه المجموعة في المجلد الخامس من المجموعة المعروفـة باسم حوليات الاسلام Annali dell' Islam (٢٢) ، كذلك قام كارل هنري بيكر C. H. Becker باعادة دراسة مجموعة البردى الخاصة بعهد قرة بن شريك والتي كان مورتيز قد نشر صورها فقط مـن قبل ، وقدم بيكر دراسة تحليلية لهذه النصوص مع ترجمة كاملة بالالمانية وخرج من دراسته بتقرير مفصل عن حالة مصر الاقتصادية والمالية في تلك الفتـرة التاريخيـة والحقيقـة المـرة التـي لا اكتمها هي الدهشة التي اصابتني حينمـا شاهدت اصـول هـذه البرديات سنـة ١٩٦٢

في مجموعة هايدلبرج ، ولم أتوصل الى اجابة تشفي غليلي ، ترى هل تمكن Becker من الحصول على هذه الوثائق الهامة اثناء زيارته لمصر في فترة رئاسة Moritz لدار الكتب ، ام ان مورتيز نفسه استولى عليها وخرج بها من مصر عند مغادرتها قبيل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م ؟

والحقيقة التي ينبغي على ان اذكرها هي ان الدكتور ادولف جروهمان A. Grohmann تحمل العبء الأكبر في القيام بدراسة وافية لأهم نصوص هذه المجموعة ، وقد استغرقت دراسته لهذه النصوص مدة تزيد عن الأربعين عاما حيث بدأها سنة ١٩٢٥ م وفي سنة ١٩٣٤ م تمكن من نشر المجلد الأول محتويا على ٧٢ نصا في دراسة وافية عن البروتوكول والوثائق القانونية ، وفي سنة ١٩٣٦ م اتبعه بالمجلد الثاني متضمنا ٧٣ نصا مستكملا بها دراسة الوثائق القانونية ، وفي سنة ١٩٣٩ م نشر المجلد الثالث متضمنا ٦٩ نصا في دراسة مستفيضة عن تاريخ النظم الادارية في مصر وقد أكمل هذه الدراسة في المجلد الرابع بعد انتهاء فترة الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٥٣ مستعينا بنصوص ٧٤ بردية ، ثم نشر المجلد الخامس والسادس يضمان نصوص ١٤١ بردية تنصب كلها على دراسة تاريخ الاقتصاد المصري من واقع المكاتبات الحكومية ، وبتكليف من دار الكتب والوثائق القومية قام المرحوم الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ومعه آخر بترجمة هذه المجلدات الستة الى اللغة العربية .

وفي الفترة التي اسند الي فيها رئاسة قسم البردي والوثائق بدار الكتب (من مارس ١٩٦٥ الى نوفمبر سنة ١٩٦٦) تمت الاتصالات بين الدكتور جروهمان وبيني على ان أقوم بالاشراف على تصحيح طبعة المجلد السابع ومقابلته على الاصول الموجودة بدار الكتب ، ويضم هذا المجلد حوالي ٧٠ نصا تختص بنظام الخراج في مصر [٢٣] وهناك اصول ثلاث

مجلدات هي الثامن والتاسع والعاشر وتقوم دراسة نصوصها على الادب واسلوب الكتابة وقد أعدها الدكتور جروهمان وجهزها للنشر ، ولكن ظروفه الصحية التي عايشتها معه في النمسا منعته من استكمال عمله الجليل هذا ، وقد قام الدكتور عبد العزيز الدالي مدير مكتبة جامعة عين شمس بعمل دراسات ادبية ولغوية على هذه النصوص التي أعدها دكتور جروهمان من قبل وحصل بهذه الدراسة على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة القاهرة في صيف سنة ١٩٦٦ م ، ولكن لا تزال هذه المجلدات الثلاثة الأخيرة تنتظر من يقوم بمراجعة اصولها التي أعدها جروهمان من قبل وتقديمها الى الطبع •

هذه عجالة سريعة لدراسة مركزه عن أهم ثلاث مجموعات من أوراق البردى في العالم قدمتها اليوم مع بيان الطريقة التي تم بها تكوين هذه المجموعات ، والسباق الذي دخلته دول اوروبا لكي تفوز كل منها بذخائر تراثنا العلمي من وثائق البردى لأن علماء الغرب قدروا ما لهذه الوثائق الاصيلة من أهمية علمية تمكنهم من معرفة تاريخنا وطريقة حياتنا وعاداتنا ومقومات مفاهيمنا ، بل وقفوا منها على جانب كبير من تشريعنا ونظمنا السياسية والاقتصادية بما يحتويها من جوانب مالية وادارية في فترات التاريخ المختلفة ، كما اعطتهم هذه الوثائق صورة واضحة عن معالم الثقافة العربية وعلوم العرب من ادب ونثري وشعري وعلوم الطب وقوانين الأغذية وطريقة تركيب كثير من أنواع الادوية التي ما زالت مستعملة في يومنا هذا ويرجع اصلها الى نباتات واعشاب تنبت اساسا في البيئة العربية ، ولم يكن هذا هو كل ما احتوته نصوص وثائق البردى بين جنباتها بل وجد من بينها أوراق مدون عليها آيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وبواسطة هذه الوثائق تمكنت مجموعة من المستشرقين من عمل دراسات ومقارنات على اسلوب الكتابة العربية

قديما وحديثا وبحثوا في الناسخ والمنسوخ من هذه الآيات معتمدين في كل ابحاثهم على هذه المصادر العربية الاسلامية الاصيلة التي لا يتطرق اليها الشك او يعتورها التزوير [٧٤] •



الهوامش والملاحظات

(١) هذا الراي ذكره سترابون ونقله عنه معظم المستشرقين الذين تناولوا وثائق البردى بالدراسة منهم جوزيف كرابتشك في مقدمته المحفوظة بارشيف مكتبة البرتينا ثم نحا كارل هنري بيكر نحوه وتابعه في ذلك البرت ديتريسن وادولف جروهمان .

Adolf Grohmann: Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae, III. Series Arabica. B. I, Teil, I-Allgemsine Einfuhrung in die Arabischen Papyri, Wien 1924.

Josef Karabacek: Ded Papyrusfund von el-Fajum Wien 1883.

Carl Wessely: Studien zur Palaegraphie und Papyruskunde

(٢) Encyclopedia Americana; Vol. 21, p. 270 ff.

(٣) الفرناطي ــ ابو احمد الاندلسي : تحفة الالباب ص ١٩٩ وما بعدها . المطبعة الوطنية باريس سنة ١٩٢٥ .

(٤) بحث للمستشرق البريطاني بليني بعنوان : Encyclopedia Britanica; Vol. 17, p. 297 «Later Cultivation»

(٥) Encyclopedia Americana, Vol. 21, p. 270 ff.

(٦) القرآن الكريم ــ سورة الانعام (٦) الآية ٧ ، ٩١ .

(٧) Giovanni d'Athanasi; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt, London 1836.

(٨) Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825, pp. 462-473. 462-473.

(٩) Osterreichische Monatsschrift fur den Orient, B. XI, 1885, S. 161 A. Grohmann: Einfuhrung U. Chrestomathie, S. 21, 43.

وقد اطلق ف . ح . كنيون في كلمة الافتتاح التي القاها في المؤتمر الدولي الخامس لعلم البردى في اكسفورد (٣١ اغسطس سنة ١٩٣٧) على عام ١٨٧٧ عام الكاردينالية بالنسبة لعلم البردى العربي ، وهو يقصد بذلك تعميد هذا العلم ووصوله الى الذروة نتيجة الكثرة الهائلة لموجودات هذه الوثائق .

(١٠) ظلت هذه المكاتبات بين كرابتشك وثيودرجراف في طي الكتمان لا يدري المؤرخون او المشتغلون بعلم البردى عنها شيئا حتى تمكن الدكتور هربرت هونجر من نشرها في كتاب بعنوان :

Herbert Hunger; Mitteelungen aus der papyrus sammlung der Osterreichischen National-bibliothek «Papyrus Erzherzog Rainer» Wien 1962.

نحن بسبيل ترجمته الآن .

(١١) يبدو لي ان ثيودرجراف انتهز فرصة ضرب الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ واحتلال البريطانيين لها وخرج بهذا الكنز العظيم من مصر في هذا الوقت العصيب ، بل اخذ معه مجموعة من أندر السجاجيد الشرقية لم تشاهد فينا لها مثيلا من قبل ؛ وما زالت بعض هذه السجاجيد معروضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع بفينا .

(١٢) راجع مجلة متحف الفنون والصناعات بالمكتبة الامبراطورية بفينا ابريل سنة ١٨٨٣ صفحة ٣٩٤ وما بعدها « مجموعة بردى الفيوم — ثيودرجراف

Monatsschrift für Kunst und Kunstgewerbe: Mitteilungen des Kaiserlichen Osterreichischen Musuems fur Kunst und Industrie. Fuhrer durch Josef Karabacek, die Papyrus Erzherzog Rainer, Wien 1894.

(١٣) Die Papyrus fund von el-Fajum — Der Zweite Fajumer Fund. Vgl. G. Schweinfurth; Reise in das Depressions gebiet im Umkreise des Fajum im Januar 1886 S-98 ff.

(١٤) Mitteilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzher Rainer.

(١٥) راجع أرشيف جامعة هايدلبرج (قسم البرديات ، سنة ١٩١٤ حيث اودعت هذه الاتفاقية بها .

(١٦) C. H. Becker: Veroffentlichungen aus des Heidelberger Papyrus- sammlung III; Papyri schott-Ranhardt, I, Heidelberg 1906

» » Arabische Papyri des Aphroditofundes «Zeitschrift fur Assyrologie und Verwandte Gebiete» B. XX; 1906 S. 68 - 104.

» » Neue arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam, II, 1911, S. 245 - 268.

(١٧) قامت الآنسة Enge - Lora التي كانت تعمل في ترميم وصيانة

البرديات بهذا القسم بتسليم كل ما يتعلق بهذه الدراسات الى اهل د . سابدل ، وهناك محاولات وجهد يبذل من جانب د . ريشارد سايدر الذي أصبح مديرا لهذا القسم واستاذا بالجامعة لعلم البردى اليوناني للحصول على هذه الدراسات ولكنه لم ينجح حتى الآن .

(١٨) Na'ia Abbott; Zeitschrift der deutschen Morgenland ischen esellschaft, XCII, 1938, S. 88 ff.

The Kurrah Papyrie from Aphrodito in the oriental Institute, **Chicago 1938.**

» » ; **The Monasteries of the Fayyum, The Oriental Institute of the University of Chicago**, Chicago 1937.

(١٨) اقمت في فينا حوالي ست سنوات من نوفمبر سنة ١٩٦٦ الى نهاية سبتمبر سنة ١٩٧٢ زرت خلالها معظم معاهد النمسا التعليمية ومتاحفها التاريخية والفنية ، كما قضيت وقتا كافيا في قسم البرديات والوثائق بمجموعة البرتينا وانتهز هذه الفرصة لاقدم جزيل الشكر الى السيدة الدكتورة لوبن شتاين Frau Dr. Loebenstein مديرة هذا القسم وكذلك Herr (Junge) Fackelmann على ما قدماه لي من معاونة فعالة . وكذلك استاذي البروفسور جوتشالك Prof. Dr. H. Gottschalk على كبير نصائحه .

(٢٠) B. Moritz; **Arabic Palaeography; a Collection of Arabic** texts from the first century of the Hidjra till the year 1000, **Cairo 1905.**

(٢١) **Enzyklopadie des Islam, B. I, S. 67 ff. Leiden 1910**

(٢٢) **Annali dell' Islam, vol. V, Paris 1924**

(٢٣) A. Grohmann; **Arabic Papyri in the Egyptian Library 1934, II. 1936;** III 1939, **IV, 1963, V, 1956, VI, 1960, VII, 1966.**

وقد قامت دار الكتب والوثائق المصرية بترجمة المجلدات الستةالاولى الى اللغة العربية .

(٢٤) راجع مقالنا عن تراثنا العربي في اوروبا بمجلة النشرة الصادرة في بون المانيا الغربية العدد ٢١ ، ٢٢ يوليو اغسطس سنة ١٩٧١ .

مراجع البحث

أولا : المراجع العربية :

١ ـ ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ق ١٠ م)
كتاب صورة الارض ـ مكتبة الحياة ، بيروت (بدون)

٢ ـ ابن الفقيه الهمزاني : ابو بكر احمد بن محمد
مختصر كتاب البلدان ـ بريل ـ ليدن سنة ١٣٠٢ هـ

٣ ـ ابو العباس النباتي :
كتاب الاغذية « مقتبسا من مقدمة علم البردى لجروهمان
فينا سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٣ ، ط سنة ١٩٥٥ »

٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ، دار المعرفة ـ بيروت ط ثالثة
سنة ١٩٧٤ .

٥ ـ دائرة المعارف . المعلم بطرس البستاني ج ٥ ط تهران (بدون)

٦ ـ دراساتي الشخصية على مجموعات بردى فينا ، وهايدلبرج ،
والقاهرة .

٧ ـ الغرناطي : ابو احمد الاندلسي
تحفة الالباب ـ المطبعة الوطنية ـ باريس سنة ١٩٢٥

٨ ـ القرآن الكريم

٩ ـ القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي
صبي الاعشى في صناعة الانشاء . نسخة مصورة على الطبعة
الاميرية المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٦٣ القاهرة

١٠ ـ المقدسي : ابو عبدالله محمد بن احمد
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط الثانية ، بريل ـ
ليدن ١٩٠٦

١١ ـ اليعقوبي : احمد بن اسحق بن جعفر
تاريخ اليعقوبي . دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٦١ .

1. Arolf Grohmann; Allgemeine Einfuhrung in die. Arabschen Papyri. Wien 1924.

2. » » ; Einfuhrung und Chrestonathie Zur Arabischen Papyruskunde. Praha 1955.

3. » » ; Arabic papyri in the Egyptian Library, 7 Volumes, 1934 - 1966/1967.

4. Bernard Moritz; Arabic Palaeography; a collection of arabic texts from the first century of the Hidjra till the year 1000, «Khedivial Library» Cairo 1905.

5. Carl H. Becker; Veroffentlichungen aus der Heidelberger Papyrussammlung, III; Papyri Schott-Rienhardt I, Heidelberg 1906.

6. » » ; Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam, II, 1911.

7. » » ; Arabische Papyrie des Aphroditofundes. Zeitschrift fur Assyrologie und verwandte Gebiete, B. XX, 1966.

8. Cart Wessely; Studien zur Palaeographic und papyruskunde «ubergetragen von A. Grohmann; Einfuhrung, S. 35.

9. Encyclopedia Americana; Vol. 21, 1973, Americana corporation - New York.

10. » Britanica; vol. 17. 1973, William Benton Publisher, Chicago - London - Geneva.

11. Enzyklopadie des Islam; B. I, Leiden, 1967.

12. Giovanni d'Athanasi; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt - London 1836.

13. Herbert Hunger; Mitteilungen aus der Papyrussammlung der Osterreichischen National - bibliothek «Papyrus Erzherzog - Rainer » Wien 1962.

14. G. Schweinfurth; Reise in das Depressionsgebiete im Umkreise des Fajum im Januar 1886.

15. Josef von Karabacek; Der Papyrusfund von el-Fajum, Wien 1883.

16. » » » ; Die papyrus Erzheszog Rainer, Wien 1894.

17. » » » ; Mitteilungen aus der Sammlung der papyrus Erzherzog Raines. Wien 1894.

18. OMO; Osterreichische Monatsschrift fur den Orient, B. XI, 1885.

19. Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825.

20. Theodor Graf; Monatsschrift fur Kunstgewerbe. Wien 1894.

21. Nabia Abbott; Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen gesellschaft. CXII, 1938.

22. The Monasteries of the Fayyum, the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago 1937.

سرية نخلة إحدى سرايا الرسول الهامة

عبد الجبار منسي العبيدي
كلية التربية / فرع التاريخ
جامعة بغداد

كلمة السرية لغة تعني قطعة من الجيش ما بين ٥ ــ ٣٠٠ [١] ، أو هي من الخيل نحو اربعمائة ، او قطعة من الجيش على وزن فعيلة بمعنى فاعلة وجمعها سرايا [٢] . واصل التسمية مأخوذة من أنها تسري ليلا في خفية، أي تتحرك في تكتم وتستر لئلا ينذر بها العدو [٣] . وأما افرادها فهم من خلاصة العسكر وخيارهم مأخوذ من الشيء السري أي النفيس [٤] .

أما سرايا الرسول (ص) فهي الحملات او البعوث او المفارز التي بعث بها النبي (ص) للاستطلاع او القتال دون ان يشترك في معظمها ، أي لم يخرج فيها بنفسه ، وأولها سرية حمزة بن عبد المطلب وآخرها سرية أسامة بن زيد الى بني مذحج باليمن [٥] ، وكانت جملة بعوثه وسراياه سبعا واربعين سرية [٦] ، وقد يطلق أحيانا على السرية غزوه ولكن ذلك قليل ، فالغزوة هي التي اشترك فيها الرسول بنفسه ، وهي تسع فقط ، بدر القتال وأحد والمريسع والخندق وقريظة وخيبر والفتح (فتح مكة) وحنين والطائف [٧] .

ومن ضمن هذه السرايا ، سرية عبدالله بن جحش الاسدي ورفاقه الثمانية [٨] الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد . وهذه السرايا كانت أشبه بدوريات أو مفارز استطلاعية قام بها الرسول للاستكشاف والتعرف على الطرق والمسالك المحيطة بالمنطقة (المدينة) والمؤدية الى مكة ، واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة . ويبدو لنا ان هذه السرايا بدأت

فكرتها لديه صلى الله عليه وسلم مع فكرة مقاومة قريش ولادراك مدى استعدادهم للقتال او اعتزامهم على خوض غماره وضرب خطوط تجارتهم الى الشام ، وتجارتها الى الشام تعني مورد الحياة الرئيسي لها ماديـا ومعنويـا [٩] .

وهكذا بدأت السرايا الاولى كسريـة حمزة وعبيـد بن الحارث وغيرهما ، ولكن اغلب هذه السرايا لم تصطدم بقوافل قريش او حتى في حالة الاصطدام ، لم يحدث قتال ولم يهرق دم [١٠] ، لأن هذه السرايا لم يقصد بها القتال في اغلب الأحيان ولأنها غير قادرة عليه ، وحتى او ارادته فهي ضعيفة لا تقوى على الاصطدام ، ولا تصلح لقتال هجومي مطلقا ، لا سيما وان قوافل قريش كانت كبيرة وقـد اخذت لها الحيطـة في حراستها منذ هجرة الرسول الى المدينة ، وخاصة الطرق الساحلية .

والاكثر ترجيحا ان لا يكون القصد من هذه السرايا او المفارز نهب تجارة قريش ، استخلاصا لأموال المهاجرين المتروكـة في مكة ، بـل تهديد طرقها وضرب تجارتها ووضعها في موضع الامتحان ، وقد كان لهذه السرايا تأثير واضح على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في في القتال[١١] . وبهذه السرايا اصبحت قوافل قريش عرضة للمهاجمة ، وحتى الطرق الساحلية المحروسة من قبل قريش اصبحت لا تبعد عن المدينة سوى ثمانين ميلا ، ولكن هذه السرايا كانت تعـود غالبا قبل نجدة مكـة لقوافلهـا [١٢] .

لقد كانت هناك اسباب ودوافع دفعت الرسول (ص) الى تجهيز هذه السرية فبعد ان هاجر الرسول من مكة الى المدينة حيث نظم امورها كي يسود السلام مجتمع المدينة . كان طبيعيا بعد ذلك كله ان يعمـل على تحقيق رسالته في الحياة ، وهو تبليغ الرسالة ، فاتجه بفكره الى قريش وما كانت تتخذه من اجراءات لمقاومة نشر الدعوة ، ثم ما ترتب على هجرة المسلمين من حرمانهم من زيارة البيت الحرام ، وهو واجب ديني مقدس

عندهم ، فلا بد والحالة هذه من عمل ايجابي يقوم به المسلمون ازاء كفار قريش ليفهموهم على الأقل ان مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين ، ولم يكن هذا التفاهم ممكنا ، ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من ابنائها ، وذلك بالضغط عليها اقتصاديا بقطع او تهديد طرق تجارتها ، ولذا عمد محمد (ص) بعد احد عشر شهرا من مقامه في يثرب على تأليف سراياه(١٣)، لتقوم هذه السرايا بأعمال عسكرية مسلحة على الطريق الساحلي الذي يوصل الشام بمكة ، كما حاول في الوقت نفسه موادعة القبائل المقيمة على هذا الطريق والتحالف معها تحالفا يزيد من ضغطه على قريش كي تسرع في التفاهم معه ، وكأن الرسول (ص) كان يرى ببصيرته ان وراء المسلمين كفاحا طويلا شاقا قبل ان يتمتعوا بنعيم حريتهم الدينية .

لقد كانت الظروف التي هاجر فيها الرسول (ص) ظروفا حربية أوجدها زعماء مكة أنفسهم عندما أهدروا دمه وخفروا ذمته (١٤) ، فهذا يعني الحرب ولا شيء سواها ، فطبيعي والحالة هذه ، ان يعمل كل من الفريقين ـ مكة والمدينة ـ عسكريا وسياسيا واقتصاديا الواحدة ضد الاخرى ، فاستعمال السلاح والتهديد والغزو والترصد ، ومعرفة كل جانب ما يدور في الجانب الآخر واضعاف شوكته بأية وسيلة ممكنة ، لهو من الامور البديهية ، فلا يلام فريق اعلنت عليه الحرب وصمم اعداؤه على الفتك به أينما وجدوه ، اذا ما تربص بقريش الدوائر ورسم الخطط لكسر شوكتهم ومنع أذاهم . وهذا ما حصل فعلا بالنسبة لاهداف السرايا والتي من ضمنها سرية عبدالله بن جحش الاسدي الى نخلة (١٥) ، فسرايا الرسول ألفت من أجل الترصد ومعرفةالاخبار والاستطلاع أحيانا والتظاهر بالقوة والتهديد احيانا اخرى (١٦) ، ضد المشركين . فهي معارك جانبية أملتها على المسلمين طبيعة الظروف العسكرية القائمة بينهم وبين اعدائهم .

لقد كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول (ص) حتى معركة بدر الكبرى حوالي تسع عشرة شهرا (١٧) ، وفي هذه الفترة الزمنية لم يحدث أي صدام دام بين مكة والمدينة ، اللهم الا ما حدث في السرية التي

قادها عبدالله بن جحش الاسدي والتي كانت بمثابة الفتيل لاشعال نار الحرب بين الرسول (ص) وخصومه بدليل حدوث معركة بدر مباشرة بعدها بشهرين (١٨) •

والحقيقة ان النظرة التاريخية لاهداف هذه السرايا قصد بها على ما يبدو امور عديدة هي :

اولا ــ هدف استطلاعي ، وذلك باعداد قوات رمزية تطوف ما بين مكة والمدينة مهمتها كشفية استطلاعية حتى تكون المدينة في مأمن من أي هجوم مباغت من جانب قريش •

ثانيا ــ العمل على الاقتراب من قريش في عقر دارها واشعارها بقوة الخصم لها •

ثالثا ــ كما يبدو ، وهو ان الرسول (ص) كان يفكر دائما في اشغال المهاجرين من انصاره الذين ربما يصيبهم الملل والسأم من البقاء في المدينة بلا عمل تاركين ما يملكونه في مكة وليشعرهم بأهمية الهجرة والدعوة معا ووجوب العمل المستمر على انجاحها وتصميمه الأكيد على ذلك ، وفي هذا يجب ان يكون الاستعداد الدائم للحرب النظامية وهذا أكثر اجهادا من القتال نفسه ، وفي هذا كسب معنوي للرسول (ص) وجماعته ، ولهذا الفزع المستمر صداه في مكة وهذه غاية الرسول (ص) من هذا العمل •

ولا بد لنا من الاشارة الى ان هناك دوافع اخرى لهذه السرية بالذات ، منها تهديد تجارة قريش وقد نجح الرسول (ص) في ذلك ، اذ ارغمت أكثر القوافل التجارية على تجنب الطرق المسلوكة منذ ابعد العصور وراحت تتنكب في سبل وعرة عبر الصحراء حينا ومساحلة البحر مع الرقابة الشديدة حينا آخر ، وفي هذا خسارة لقريش من مال وجهد

ووقت [١٩]. وقد يبدو ان هناك شيئا آخرا له من الاهمية نصيب ، وهو ارهاب اليهود الذين يقيموا في المدينة واشعارهم بأن ما يفعله المسلمون خارج المدينة يمكن ان يكون داخل المدينة ، ولو ان اليهود لم يفكروا قط مصارحته العداء في بداية الهجرة خوفا على تجارتهم ومركزهم المالي، لذا حاولوا ان يعملوا ضده بصورة غير مباشرة كالدس وايقاظ الاحقاد القديمة بين الاوس والخزرج ، وقد ظهر ذلك جليا واضحا بعد معركة بدر ثم ما تطور اليه بعد أحد [٢٠] . ناهيك عن قصده (ص) تدريب هؤلاء المجاهدين على القتال واكسابهم الخبرة والسيطرة على عادة الغزو والسطو عند العرب [٢١] ، وايجاد نوع من توازن القوى بين مكة والمدينة وذلك بالعمل على تأكيد سيطرة المدينة على المنطقة الشمالية ، في الوقت الذي تسيطر قريش على المنطقة الجنوبية ، وقد تكون هناك رغبة في الكسب المادي للدولة التي كانت بلا شك بحاجة ماسة للمال لادارة شؤونها ومجابهة الاحتمالات المالية المترتبة عليها مستقبلا .

تلك هي الأسباب والدوافع التي املت على الرسول (ص) تجهيز السرايا بعد ان قام في المدينة وبعد ان لمس ان قريشا لا تصغي لصوت الحجة والدعوة الى الاسلام ، حتى كانت بيعة العقبة الكبرى التي كانت بمثابة مفترق طريق في سياسة الرسول (ص) ، فلقد اذن محمد (ص) لمسلمي مكة بالهجرة الى المدينة تمهيدا لانتقاله اليها واتخاذها قاعدة للعمل الحاسم ضد قريش ، واذن الله لمحمد بالقتال دفاعا عن الدعوة الجديدة [٢٢] .

وتنفيذا لهذه السياسة كانت سرية عبدالله بن جحش الاسدي في رجب من السنة الثانية للهجرة [٢٣] ، مع ثمانية [٢٤] من المهاجرين ليس فيهم أحد من الانصار [٢٥] ، بل كانوا جميعا من المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق ولكل منهم قصته في احتمال الاذى ، وقد عرفوا باخلاصهم وتفانيهم من أجل الرسول (ص) ودعوته الى التي آمنوا به طوعا وعن اقتناع وتحملوا من قريش الكثير ، يضاف الى ذلك رغبتهم

الملحة في ايذاء قريش بأية وسيلة كانت ، وخشية من احتمال اضطراره قتال قريش ، الف هذه السرية من المهاجرين فقط وفقا لنص بيعة العقبة الكبرى مع الانصـار الذين لم يبايعـوه على حرب هجومية خـارج المدينة (٢٦) . والاكثر احتمالا ان الرسول (ص) كان يدرك ما لهذه السرية من مهمة وخطورة بالغة ، لذا كان لا يريـد اشراك شخص لا يتحمـل مسؤولية موته فيما بعد ، بالاضافة الى ظروف أهل المدينـة واستقرار حياتهم بخلاف المهاجرين الذين كانـوا في قريش عدوهم الأول سالـب حريتهم وأموالهم وديارهم وكل ما لهم من سلطة ونفوذ في مكة .

هؤلاء المهاجرين الثمانية هم : سعـد بـن ابي وقاص . واقـد بن عبدالله ، عتبة بن غزوان ، عامر بن ربيعة ، ابو حذيفة بن عتبة ، خالـد ابن البكير . سهيل ابن بيضاء ، وعكاشة بن محصن ، بينما الطبري يستبعد خالد بن البكير ويضع محله عمار بن ياسر ، ويقول عن عامر بن ربيعة عامر ابن فهيرة ، وقائدهم عبدالله بن جحش الاسدي (٢٧) .

اما قائد السرية فهو ابو محمد عبدالله بن جحش بن رباب بن يعمر من بني اسد وامه اميمه بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ص) ، وهو حليف لبني عبد شمس وقيل حليف لحرب بن اميه ، وقد سبق الى الاسلام قبل دخول النبي دار الارقم بن ابي الارقم وهاجر الى الحبشة والمدينة ، واخته زينب بنت جحش زوجة رسول الله (ص) وهو الذي شهد بدرا وقتل يوم أحد وعمره نيف واربعون سنة ودفن مع حمزة عم النبي فـي قبر واحد (٢٨) .

اما الثمانية الآخرون الذين اشتركوا في السرية فهم :

١ ـ سعد بن ابي وقاص ، واسم ابي وقاص مالك بن وهيب بن عبـد مناف ، وامه حمنه بنت سفيان بن اميه بن عبد شمس ، اسلم وعمره سبع عشرة سنة ، وهو أحد الذين شهد لهم الرسول (ص) بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى بعد خلافة عمر ، شهد بدرا وأحدا

والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو من أقارب رسول الله حيث يجتمع معه في عبد مناف وهو قائد القادسية وفاتح المدائن وباني الكوفة ، وقد استماله معاوية بن ابي سفيان اليه ضد الامام علي (ع) فأبى ذلك وتوفي ودفن في العقيق على بعد سبعة أميال من المدينة سنة ٥٤ ، ٥٥ هجرية وكان آخر المهاجرين موتا . وقد استخدمه الرسول (ص) ضمن الذين كان يعتمد عليهم في تلمس الأخبار (٢٩) .

٢ ـ واقد بن عبدالله بن عبد مناف من بني تميم حليف بني عدي بن كعب وهو الذي بعثه الرسول (ص) في هذه السرية ، اسلم قبل دخول النبي دار الارقم ، وهو أول رجل قاتل من المسلمين ، وعمر بن الحضرمي أول مقتول على يده ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) وتوفي في عهد عمر بن الخطاب (٣٠) .

٣ ـ عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب حليف بني نوفل بن عبد مناف وهو سابع سبعة في الاسلام وقد هاجر الى الحبشة وعمره اربعون سنة ثم هاجر الى المدينة مع المقداد اثناء التقاء سرية عبيد بن الحارث مع عكرمة بن ابي جهل ، وقيل انه مات سنة ١٧ هـ بمعدن بني سليم ، وقال المدائني انه مات بالربذة وهو ابن سبع وخمسين سنة ، وقد عين أميرا على البصرة في عهد عمر بن الخطاب (٣١) .

٤ ـ عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك العنزي ، وهو من عنز وائل أخو بكر وتغلب ابني وائل ، وهو حليف آل الخطاب ، اسلم بمكة وهاجر الى الحبشة والمدينة ، وامرأته ليلى بنت ابي حثمة ، وقيل ان ليلى اول امرأة هاجرت الى المدينة ، وهو من الذين شهدوا بدرا وسائر المشاهد مع رسول الله (ص) وتوفي سنة ٣٢ هـ (٣٢) .

٥ ـ ابو حذيفه بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ،

وامه فاطمة بنت صفوان بن اميه ، وهو من السابقين في الاسلام ، وهاجر الى الحبشة والمدينة وقتل يوم اليمامة وعمره خمس وثلاثون وقد أسلـم قبـل دخول النبي (ص) دار الارقم ، ويقال ان اسمه مهشم وقيل هيثم وقيل هاشم وقد مات ابوه كافرا بمكة (٣٣) .

٦ ـ خالد بن البكير بن عيد يا ليل حليف بني عدي بن كعب من السابقين في الاسلام شهد بدرا واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ هـ وهو ابن اربع وثلاثون سنة ، وكان جده حليف لآل الخطاب (٣٤) .

٧ ـ سهيل بن البيضاء ، والبيضاء أمه وأبوه وهيب بن ربيعة بن هلال بن مالك ويقال ان امه هي دعد بنت جحدم بن الحارث بن فهر وهـو ابن عمهـا ، اسلم بمكة ولم يستخف باسلامه أبدا وهاجـر الى المدينة وشهد مع النبي بعض المشاهد ، ومات بعد وفاة الرسول (٣٥) .

٨ ـ عكاشة بن محصن بن مرثان بن قيس بن خزيمة ويكنى بأبي محصن ، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) ومن الذين بعث بهم رسول الله (ص) الى الغمرة (٣٦) في اربعين رجلا ، وقتل في خلافة ابي بكر وعمره احدى واربعون سنة وهو من زمـلاء عبدالله بن جحش في سرية نخلة (٣٧) .

من دراسة حياة هؤلاء الرجـال يبدو لنا جليا ان اختيارهم من قبل الرسول (ص) لم يكن مصادفة او اعتباطا ، بل بطريق الاختيار والمعرفـة الأكيدة من حيث الايمان والولاء للدعوة والبذل والتضحية والفداء في سبيلها ، وبهذا الخصوص يقول الواقدي (٣٨) : ان الرسول (ص) عندما دعا عبدالله بن جحش لتكليفه بأمر السرية كان اتفاقه مسبقا مع هؤلاء الرجـال الذين يعرف معدنهم واخلاصهم ، وكان يدرك تماما ما يفعل وهو الحريص الاول على مصلحة الدعوة ، والماهر الخبير بمن يستخدم لها ، وناحية اخرى تبرز في دراستهم وهي ان اغلب هؤلاء الرجال من قبيلة

واحدة وحلفـــاء فيما بينهم قبليا [٣٩] وقائدهم ينتمي بالنسب الى رسول الله عن طريق الام [٤٠] .

اما بخصوص تعليمات الرسول لقائد السرية فقد ذكر الواقدي، عندما دعا رسول الله (ص) عبدالله بن جحش وكلفه بالمهمة طلب منه ان يأتيه مع الصبح الباكر ومعه سلاحه ، وعند اللقاء به وجد عنده جماعـــة مـــن الرجال سبقوه لمقر الرسول (ص) [٤١] ، وهناك تسلم منه الكتاب الذي هو عبارة عن صحيفة من أديم خولاني [٤٢] ، وأمره ان لا يفتح الكتـــاب حتى مسيرة ليلتين على ان يسلك النجدية [٤٣] ، ولم يفتح الكتاب حتى وصل الى بئر ابن ضميرة [٤٤] في نفس المكان الذي حدده الرسول لفتح الكتاب ، وبعد فتحه للكتاب وجد فيه :

« اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكـــة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارهم [٤٥] » ، يبدو أن الرجل قد نفذ أوامر الرسول تماما ، فعندما فتح الكتاب في المكان المعين له من الرسول (ص) ، اخبر رفاقه بما في الكتاب ثم قال لهم :

ـ ان رسول الله نهاني ان استكره احدا منكم ، فمن كان يريـــد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ، لكن الجميع قد استجابوا له [٤٦] . ولو أن هذه الاستجابة لم تكن وليدة ساعة فتح الكتاب ، لأن ابن جحش لم يكن على اتفاق مسبق معهم ، بل الذي يظهر ان الرسول كان قد اتفق على المهمة ونوع العمل الذي سيقومون به [٤٧] . ويظهر لنا أيضا ان قائد السرية كان يريد بمخاطبته لهم ساعة فتح الكتاب اثارة حوافز الهمة في صدور هؤلاء الرجال وهذا أمر أدركـــه الرسول (ص) كان يعرف من هم هؤلاء الرجال وما مقياس عقيدتهم واستعدادهم للتضحية في سبيل المهمة ، ويظهر لنا ان ترك الخيار لهم في هذا الموطن كان لزيادة الثقة والرضا وليقوموا على عملهم بشهامة ونبل وتضحية ، كما أن عامل التخير لخوض المخاطرة بالرغبة والتطـــوع أنفع من الأوامـــر والسلطـــان .

ومن تعليمات الرسول (ص) لقائد السرية يبرز لنا عامل هام لا بد من الاشارة اليه ، وهو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وذلك للاحتفاظ بسرية الامر الذي وكل اليه ، وليجهل كل فرد في المدينه الى اين يقصد عبدالله بن جحش ، فلا يكتب بهذا لقريشي لأن الرسول نفسه كان يعمل بهذا المبدأ ، مبدأ الحصول على المعلومات (٤٨) ، وهنا تظهر لنا أهمية العناية باستقصاء المعلومات من الاستكشاف واستجواب الاسرى والاحتفاظ بسرية الأوامر والترتيبات للمعركة .

ويظهر ان القسم الهام من هذه الرسالة المختومة كان يتعلق بسريتها وهدفها معا ، فلم يكتف الرسول بتلك السرية الى قائد الحملة التي ضمنها تلك الرسالة والتي لم يعرف محتوياتها سوى الرسول وكاتبه ابن ابي وواحد او اثنين من مستشاريه الثقاة ، وأمر ان تسلك الحملة طريق نجد باتجاه الشرق مع ان هدفها كان ناحية الجنوب ، وقد قام بلا شك بذلك لكي لا يعطي فرصة لجهاز التجسس المكي من ان يعرف هدف المسلمين . وعلى أية حال كان لزاما على الرسول اتخاذ تلك الاحتياطات الهامة حيث تقع نخلة اقرب من مكة منها الى المدينة (٤٩) . فلو حدث ان تسربت أخبار عنها لكان مصيرها الفشل حتما وهذا ما كان يتوخاه (٥٠).

هل خالفت السرية أوامر الرسول ؟

يبدو لنا من دراسة نص الكتاب الذي سلم لعبدالله بن جحش ان الرسول لم يأمر بالقتال ، بل امرهم بالترصد ومعرفة الاخبار (٥١) . حيث لم تذكر كلمة قتال في كتابه . ثم هناك تأنيبه لهم على فعلتهم وقتالهم وايقاف العير والاسيرين وعدم التصرف بهم مما يدل على عدم الرضا عن العمل (٥٢) ، ويظهر هنا ان كلمة ترصد يقصد بها اخذ الحذر والحيطة وليس ايقاع القافلة في الكمين ، وهنا لا تلقى المسؤولية على الرسول بسبب من اريق دمه في ذلك الشهر الحرام ، ولكن ليس هناك من شك في ان الرسول ارسل رجاله المهاجمين في مهمة من المؤكد ان بعض القتلى سيقعون فيها منهم أو من الاعداء وليس لدينا ما يؤكد بأن الرسول

(ص) كان يعلم بالتأكيد بأن تلك القافلة ستمر من هذه المنطقة (نخلة) ولكن من الممكن ان الرسول كان قد وضع في الحسبان بأن قافلة تمر بين مكة والطائف لا تكون مزودة بحراسة شديدة ، وذلك بسبب الامان انسبي لذلك الطريق الذي تسلكه القوافل الى سورية والذي يحتم عليها ان تمر بالقرب من المدينة والاحتمال الاكثر ترجيحا ان الرسول (ص) اعتمد على الاحتمالات العامة وليس على معلومات محددة واضحة (٥٣) • لا بد لنا ايضا من دراسة الظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالرسول وجماعته والحكم على هذا التصرف • فالمشكلة هنا مقاتلة قريش في الأشهر الحرم ، ففي مثل هذه الاشهر لا يحدث قتال ولا يجوز فيها اراقة الدماء (٥٤) • فهل للنبي ان يتقبل هذا العرف على انه قانون ، وهل له ان يتبع تقاليد الجاهلية في القتال باعتباره عربيا يجب ان يخضع للعرف الذي تداولته القرون ، ويبدو أن الرسول أخذ بهذا المبدأ باعتباره ان الله لم يبدل في هذا العرف ولم يأته من الله ما يشير الى الغائه لانه لم يرتح لهذا التصرف ، فهو لم يبعثهم حسب أوامره ــ للقتل أصلا بل لتقصي أخبار قريش ، وما أمرهم ان يقتلوا أو يأسروا أحدا في الشهر الحرام •

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان النقض للقانون القبلي آثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها (٥٥) ، فما كان من الرسول الا ان أظهر عدم رضاه من عمل اصحابه الذي تم وفقا لرغباته بلا خوف وعزاه الى سوء فهم لاوامره ولم يجرؤ على اعلان شرعية الحرب في الاشهر الحرم الا بعد نزول الآية الكريمة « يسألونك عن الشهر الحرام ••• » ، ويظهر ان موقف الرسول لم يمكنه بعد او لم يكن من القوة بحيث يجاهر بقتال قريش في مثل هذه الأشهر المحرمة لأنه ما زال في دور الاعداد والتكوين للقوة المسلحة المناهضة لقريش القوية آنذاك (٥٦) •

لذا وبعد نزول الآية التي أشرنا اليها حدث تطور تشريعي أحل قتال العدو في أي زمان ومكان ما دام العدو مصمما على الفتك بالمسلمين

ودعوتهم واتساع الهوة بين المعسكرين • وصمم المسلمون على ان لا يتركوا فرصة تسنح لهم للايقاع بعدوهم الا اغتنموها (٥٧) ، كما ادرك قادة مكة ان المسلمين مصممون على محاسبتهم عسكريا على كل ما ارتكبوه بحقهم من سيئات ، ومن جهة اخرى ادركت قريش بثاقب بصيرتها ان تجارتها مع الشام وهي العمود الفقري لحياتها أصبحت مهددة تهديدا خطيرا بعد تمركز الرسول في يثرب (٥٨) التي تتحكم في طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام، وهذه هي احدى النتائج التي كانت تخشاها مكة من افلات محمد من قبضتها قبل الهجرة للمدينة • ان النظرة الواقعية لمخالفة عبدالله بن جحش لأوامر الرسول تبرر له ما حدث فالذي يظهر لنا من دراسة أحداث السرية ان الرجل كان في موقف لا يمكن معه ان يفعل غير الذي فعل ، لأن دخول القافلة للحرم المكي ، وهي ليست ببعيدة عنه (٥٩) سوف يجعلها في مأمن من القتال ويمنعهم من مهاجمتها بأية طريقة كانت ، أم انهم ظنوا ان الشهر الحرام قد انتهى ويبدأ شهر شعبان الذي يحل فيه القتال ذلك أمر غير مقبول ، وان الرسول كان يعلم ان الكمين سوف يحدث خلال ذلك الشهر وما قيل عدا ذلك فهو ضرب من التخمين •

اهمية اختيار نخلة وما نتج عن هذا الاختيار :

لقد وصف جغرافيو العرب الارض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة ، لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر ويتخللها طريقان احدهما شرقي محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربي محاذ لساحل البحر (٦٠) • أما الطريق الذي سلكه الرسول وصاحبه من جبل ثور (٦١) الى المدينة فهو الطريق من أسفل مكة ثم مضى الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان (٦٢) وتبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلا اسفل آمج (٦٣) ثم سلك الخرار (٦٤) ثم الجداجد (٦٥) ثم وادي العقيق (٦٦) ، المؤدى الى المدينة • ومن دراسة هذه الرحلة الشاقة من مكة الى المدينة نشاهد ان الرسول سلك الطريق الساحلي مع التعرجات والالتواءات هنا وهناك

خشية كشف أمره ، وقد مكنته هذه الرحلة من معرفة الطرق وأهميتها بالنسبة لخطط المستقبل ناهيك عن ان الرسول كان التاجر الذي يتردد على الشام ، صاحب الخبرة في هذه الطرق التجارية . وقبل دراسة سبب اختيار نخلة لا بد لنا من معرفة هذه المنطقة بالذات . يذكر الهمداني(٦٧)، صفة جزيرة العرب ، ان جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام ليس بجبل واحد ، ان هي جبال متصلة على نسق واحد عرضها اربعة ايام في جميع طولها وتقطعها الاودية ، منها وادي نخلة وفيه الموز والخضر والمياه الغزيرة التي تأتيه من الجنوب ، ويظهر ان مواضع العبادة هي مكة وايلياء واللات بأعلى وادي نخلة . وان الفرع (٦٨) قرية من قرى وادي نخلة ، وهذا الوادي يمتد من الحرة (٦٩) الواقعة شمال عشيرة (٧٠) غربا حتى يجتمع بوادي نخلة اليمانية ثم يكونان واديا يدعى مرّ الظهران (٧١) ويصب في البحر الاحمر جنوب مدينة جدة (٧٢) وفيها بستان ابن عامر . ويقال ان الحجاج الذين يأتون من البحرين وعمان يجتمعون بالبوابة (٧٣) أعلى منطقة نخلة . اذ لا بد لهم قبل ذلك من المرور بمكان الاحرام(٧٤) وهذا يعني ان منطقة نخلة نفسها أرض لا يجوز فيها القتال وهذا قد يفسر لنا سبب حلق عكاشة بن محصن رأسه تمويها لقافلة ابن الحضرمي قبل قتله كي لا تفكر القافلة بأن هؤلاء جاؤا لمهاجمتها (٧٥) ، ووادي نخلة يقع بين مكة والطائف والذاهب اليه يسلك النجدية ، لذا نرى الرسول يوصي قائد السرية بسلوك هذا الطريق ، ومدينة مكة تقع بين شعاب الجبال وطولها من المعلاة الى السفلة نحو ميلين وهذا يدل على ان نخلة من ضمنها (٧٦) . ان المسافة بين مكة وبستان ابن عامر في وادي نخلة مرحلة واحدة(٧٧) ، أي فرسخ واحد ، وهذا يؤيد انها جزء من مكة ، ووادي نخلة من الاودية الخصبة التربة والممتلىء زراعة .

ومن دراسة موضع نخلة والطريق المؤدي اليها ، يظهر لنا ان هدف الرسول من اختيار هذا الموقع يعود لعدة اسباب ، منها انها ممر للقوافل الذاهبة الى مكة واقرب نقطة اليها وهي منطقة ليست في حسبان

قريش من حيث التهديد ولاشعار قريش بقوة وخطر المدينة بالاضافة الى أهمية هذا الموقع واستراتيجيته من الدفاع والهجوم ضد المدينة .

تخلف سعد وعتبة عن السرية :

تجمع اغلب المصادر التاريخية على تخلف سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان عن سرية عبدالله بن جحش الى نخلة (٧٨) ، وقد كانت بداية هذا التخلف من معدن (٧٩) منطقة بحران فوق الفرع وتجمع اغلب تلك المصادر على ان هذا التخلف كان بسبب فقدانهم راحله ضلت الطريق(٨٠)، ويبدو أن جماعة السرية كانوا كل اثنين يركبان بعيرا بالتناوب ، وان سعد وعتبة كانا على راحلة واحدة تعود لعتبة (٨١) . ولما ضلت تلك الراحلة الطريق ظلا يتعقبانها ويفتشان عنها الامر الذي أدى الى تخلفهما عن السرية ، ويبدو ان قائد السرية لم يعر للامر أهمية ، لا سيما وانه اعلمهم مقدما بعدم اهتمامه بمن يرغب في العودة او التأخر حين خيرهم في الرجوع الى المدينة أو في السير معه الى نهاية المهمة (٨٢) .

ويبدو لنا من دراسة ظروف هذه السرية ان ترددا قد حدث عندما تليت رسالة الرسول (ص) عليهم ، رغم استجابتهم جميعا في بداية الامر وهذا التردد قد يعود الى شعورهم بخطورة تلك المهمة التي ارسلوا من اجلها ، وقد يكون من الارجح ان شكا قد ساورهم بأن تلك العملية حرام ، او ما الى ذلك من تصورات اخرى ، فالعربي عندما يفور دمه ويوجد في وسط الخطر فهو جسور مقدام الى حد الاندفاع ، ولكن في لحظات الهدوء والاسترخاء يحاول قدر استطاعته تجنب الخطر (٨٣) . وقد يفسر هذا طلب النبي (ص) من قائد السرية بأن يعيد الى المدينة أي رجل لا تكون رغبته كلية في الذهاب وتنفيذ تلك العملية ، لذا فان رواية التخلف لسعد وعتبة جديرة بالدراسة والاهتمام .

لقد بين الرجلان عند رجوعهما الى المدينة بعد بضعة ايام بأن

راحلتهما قد فقدت (تاهت) في الصحراء ، وقد سبب ذلك انقطاعهما عن جماعة السرية عندما حاولوا البحث واللقاء بهم [٨٤] . وقد يشك في صحة هذه الرواية لأن الحقيقة انهما قضيا وقتا طويلا في ديار بني سليم [٨٥] ، وهي قبيلة ينتمي اليها عتبة بن غزوان ، وان الرسول قد طالب بعودتهما اثناء عملية تبادل الاسرى ، لأن الرسول (ص) لا يعرف مكان سعد وعتبة ، لذا طلب من المشتركين التريث في الحل النهائي لحين عودة صاحبيه سعد وعتبة خوفا من أن يكونا اسيرين أو ما زالا في الطريق وهما في خطر الاعتقال [٨٦] . لكن لم يتوفر لدينا أي دليل على ان الرجلين كانا اسيرين لدى قريش ، والاكثر احتمالا ان التخلف قد حدث عمدا بسبب شكوك كثيرة راودتهما اثناء قراءة الكتاب أو انهما كانا على اتفاق مسبق بالتردد عن هذه المهمة ، ويؤيد هذا ان عملية فقدان الراحلة لم يكن سببا معقولا للتخلف ان كان هناك فقدان للراحلة كانت قريبة من هدف السرية ، ولم نجد ما يشير الى ان الفقدان للراحلة قد تم في المنطقة الصحراوية البعيدة ، ناهيك عن انهما قد خرجا من المليحة [٨٧] ، على شكل نوبه [٨٨] من الناس وهذا يدل على انهما كانا عند تلك الجماعة وعند قدومهما للمدينة وجدا نفرا من قريش قد قدموا في فداء اصحابهم، ولكن الرسول (ص) لم يقبل حتى قدومهما وعندئذ تمت المفاداة [٨٩] . وقد تكون هناك قصص وضعت لتشويه سمعة الرجلين لكن هذا الاحتمال على ما يبدو ضعيف .

ماذا حدث في نخلة ؟

لا بد من الاشارة الى بداية الرحلة المليئة بالاخطار حيث بدأت بالمكان والزمان الذي فتح فيه قائد السرية كتاب الرسول السري ولا بد من تحديد هذا المكان لمعرفة المسافة بينه وبين الهدف (نخلة) ، ويذكر الواقدي [٩٠] ، ان عبدالله ابن جحش قد سلك النجدية ، وقد فتح الرسالة بالقرب من بئر بن ضميره ، ثم توجه الى نخلة فوصلها مع بقية الرهط ، وهناك شاهدوا عيرا لقريش تحمل خمرا وزبيبا وأدما وتجارة فيها عمر بن

الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله وأخوه نوفل (٩١) ، فلما رآهم القوم هابوهم أي احترموهم او خافوهم حتى اقترب منهم عكاشة بن محصن بعد ان حلق رأسه فاطمأنوا (٩٢) ، وقالوا لا بأس عليكم منهم (٩٣) ، وبعد هذا التردد في مهاجمتهم قالوا والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم في الشهر الحرام (٩٤) ، وجرت مناقشة فيما يخص امر الهجوم ام لا ؟ ويبدو ان الامر قد استقر بينهم بضرورة الهجوم على القافلة واخذ تجارتها وابلها ورجالها ان امكن ، ويبدو ان حلق (٩٥) عكاشة لرأسه لابعاد الشبهات عنهم والتظاهر بأنهم حجاج الى البيت ، ولكن لم اجد رغم بحثي المتواصل في العادات العربية القديمة عن حلق الرأس ما يبرر هذا سوى ما يذكره اليعقوبي (٩٦) بهذا الخصوص ولربما كان حلق الرأس لسبب آخر ، وقد تكون هناك عادة عربية كهذا الحلق لا نعرفها ولا نعرف ما يحيط بها من ظروف . وعلى آية حال انتهى الامر بالهجوم عليهم حيث رمى واقد بن عبدالله بن عمر بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وافلت القوم نوفل (٩٧) ، وعاد ابن جحش واصحابه بالعير والاسيرين الى المدينة على الرغم من وصول انباء تلك الغارة الى اعداء الرسول .

هناك ثلاث احتمالات لدينا لا بد من مناقشتها ، اولها وجود اتفاق مسبق وسري بين الرسول وقائد السرية بالقتال ، الا ان نص الكتاب وصراحته لا يؤيد هذا الاحتمال ، والاحتمال الآخر ان عبدالله بن جحش خالف أمر الرسول وقاتل بتصرف عن نفسه ، ويبدو ان هذا الرأي فيه احتمال القبول بسبب امتناع الرسول عن اخذ العير والاسيرين وغضبه وتعنيفه لافراد السرية . والاحتمال الثالث ان قائد السرية وجماعته كانوا مجبرين على القتال بسبب الظروف التي احاطت بهم عند مرور القافلة وكشف أمرهم وظروف قرب المكان من مكة وبعده عن المدينة ، الا ان الامر الاكثر ترجيحا هو الاحتمال الثالث .

اما بالنسبة لموقف الرسول من تصرفات قائد السرية وجماعته فقد بينا سابقا نص كتاب التكليف ، وقصد الرسول من هذا الكتاب الذي اشتمل على الترصد ومعرفة الاخبار [٩٨] الا ان قريشا استغلت الفرصة فأخذت تشهر بالرسول والمسلمين قائلة استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال كما اغتنم كل اعداء المسلمين في المدينة كاليهود الفرصة فتفاءلوا أي فرحوا بهذا التصرف من قبل المسلمين على أمل ان تصبح هذه القضية بداية لنهاية الرسول وأصحابه [٩٩] . والسؤال هنا : لو ان الرسول قصد انتهاك حرمة هذا الشهر المقدس عندهم ، فهل سيجلب هذا الانتهاك الخزي والعار له ولجماعته وما قيمة هذا الارتباط بالقانون الجاهلي ما دام الرسول رافضا لكل ما آمنت به قريش في جاهليتها ، وكيف نفسر تردده في قبول الغنيمة والخمس وهل بهذا التصرف نستطيع ان نعتبر ان الرسول قد تخلى عن رفاقه أو أنه كان خائفا من قريش . ان الامر الاكثر احتمالا وقبولا هو أن التأجيل من البت في تلك القضية هو لشعوره العميق بضرورة دراسة ما قد يترتب على هذا الانتهاك من نتائج في المدينة ولا سيما وان الكثيرين من أهل المدينة من المسلمين كانوا خائفين من أن أمرا سيئا سيحل بهم نتيجة لهذا الانتهاك ، وما قد يقع من تأثيرات على المجتمع كله ان هم قبلوا بهذه الغنيمة [١٠٠] .

ويبدو من الأمر والدراسة وتردد الرسول في هذا الموقف العصيب الذي يتحمل مسؤوليته هو أكثر من أي شخص آخر باعتباره الآمر الناهي للامور آنذاك يبدو أن مسألة انتهاك حرمة الأشهر الحرم كانت مسألة صعبة للغاية في ذلك الوقت ؛ وهذا يفهم من المناقشة التي جرت بين أعضاء السرية قبل الهجوم حول اباحة القتال في الشهر الحرام أم لا [١٠١] ؟ وان هذا التحريم هو تقليد سابق سارت عليه العرب منذ الجاهلية الاولى [١٠٢] ، وهذا ما يفسر الدهشة التي انتابت الرسول لرد الفعل الذي احدثته تلك الغارة بين اهالي المدينة .

وتبرز لنا ناحية لا بد من مناقشتها ، فقد يكون تردد الرسول في

البت في أمر الغنيمة والاسيرين عائد الى ان الرسول (ص) لم يكن لديه أي تشريع يبحث في شؤون الغنيمة والاسرى وكذلك قد يكون تردده منتظرا نزول تشريع من عند الله بهذا الشأن ، وهذا ما حدث حيث نزلت آية الشهر الحرام (يسألونك عن الشهر الحرام ...؟ [١٠٣]) ، وبعد ذلك أصبح لديه تشريع حول القتال في الشهر الحرام ومدى السماح به ولكن الغنيمة والاسرى لم ينزل فيهما شيء ، ومن الآيـة يتضح لدينا تبرئـة أصحاب الرسول من التهم التي وجهت اليهم من قبل المشركين وهو خرق حرمة الشهر الحرام ، ومن هذه اللحظـة الغى وقف القتال في الاشهـر الحرام ، وهنا نلاحظ ان الرسول قد قاتل بعد بدر في الاشهر الحرم [١٠٤]، اما فيما يخص الغنائم وتقسيمها فلم يشرع فيها بآية قرآنية الا بعد بدر وهي [١٠٥] :

« واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولـذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنـا على عبدنا يوم الفرقـان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

موقف أهل المدينة من الدعوة

من أهل المدينـة ؟ هم القبائـل والجماعات التي سكنت مدينـة يثرب [١٠٦] ، الاوس والخزرج الشعب القوي الصلب العود واليهـود من بني قريظة والنضير الذين سكنوا المدينة زمنا طويلا . ولأهل المدينة ديانات سماوية كاليهودية مثلا ، وكانوا يؤمنون بالبعث والحساب [١٠٧]. مما جعلهم أقدر على تفهم الدعوة المحمدية من أهل مكة الوثنيين ، وعلى هذا الاساس نستطيع ان نجمل أهل المدينة بالانصار من الاوس والخزرج والمهاجرين الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، ثم المنافقين من الأوس والخزرج واليهود وبعض الجماعات الاخرى [١٠٨] .

من هذا التقسيم لهذه الفئات نلاحظ ان هناك فئات لم تدخل الدين الجديد ، ولكن موقفها لم يكن عدائيا ، الا أنه لا يفسر انهـم بجانب

الدعوة ، وقد يكون لنمو قوة المسلمين في المدينة أثره في عدم الجهر بالمعارضة من قبل هؤلاء ، الا ان صورة حياة الموادعة التي نشأت بين المسلمين وأهل المدينة أخذت تزداد بالتدريج ولكنها لم تصل الى حد الاعتقاد الكامل بالدعوة ، ويفسر هذا الموقف سرية الاعمال التي قام بها الرسول ، وطلبه عدم فتح كتاب السرية خوفا من ان يبلغوا قريشا بوجه أصحابه فيترصدوا لهم بدلا من أن يترصدوا لها (١٠٩) ، ولذا عندما حدثت الغارة لعبدالله بن جحش في الشهر الحرام (رجب) حدثت ردود فعل شديدة لدى أهل المدينة من تلك الغارة (١١٠) . مما جعلت الرسول يغير من موقفه تماما ويعنف أصحاب السرية ، ولعل مرد ذلك الى أن أهل المدينة أكثر تمسكا بمعتقداتهم الدينيـة القديمة من أهل مكة . أضف الى ذلك ما ساورهم من شكوك الخوف والعقـاب في المستقبل نتيجـة هـذا التصرف ، ناهيك عـن عامـل التحريض والاشاعات من قبـل المنافقين منهم .

الخمس واصل التسمية :

يقول الواقدي كان في الجاهلية المرباع (١١١) ، ويبدو أن هذا التقليد كان موجودا عند العرب منـذ العصر الجاهلي ، والمعروف ان القبائـل العربية كانت تدين بمبدأ الغزو للحصول على الغنائم ، وكثيرا ما لعب الغزو دورا هاما في الانتقال بين القبائل في الجزيرة العربية ، والذي جر الى ويلات وكوارث جسيمة ، الا ان الواقدي يذكر ان عبدالله بن جحش بعد عودته من نخلة قد خمس ما حصل عليه من غنائم ، أي اخرج الخمس للرسول والباقي يوزع على اصحاب السرية ، لذا قيل انه أول من خمس في الاسلام ، وقد يكون هذا الى رغبة قائد السرية في مكافأة جماعته ماديا ورغبة هذه الجماعة في تلك المكافأة ، لا سيما وان العربي متشبع بفكرة الغزو والسلب والحصول على الغنائم في ذلك الوقت ، ولذا كان هـذا التخمين قبل نزول آية الخمس . آية الانفـال (١١٢) : « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » ، والتفسير هنا : ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول » أي أربعة اخماس لمن افاء الله عليهم وخمس لله ولرسوله (١١٣) .

ويبدو واضحا ان قائد السرية وهو العربي العارف بتقاليد العرب وعاداتهم قد أخذ هذا التقليد من الجاهلية ولم يكن ابتكارا منه لكنه خالف الطريقة بجعله خمسا بدلا من المرباع .

نزول آيـة القتـال :

ان النص القرآني الذي نزل به الوحي على رسول الله بعد هـذه الحادثة هو :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عنـد الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون »(١١٤) .

لا شك ان التفسير لهذه الآية الكريمة يبين ان انتهاك حرمة الأشهر الحرم أمر في غاية الخطورة ولكنهـا تذكر المسلمين بأن الجرائـم التي ارتكبتها قريش اكثر خطورة ، فالاستنتاج هنا انه لا بد وان العقـاب سيحل بقريش وليس بالمسلمين ، فكلمة كبير التي وردت في الآية تحمل معنى الاثم أيضا ولكن الآية لا تستبعـد القتال في المستقبل بل تحمـل بشير خير للذي حدث في الماضي وهذا تبرئة لساحة عبدالله بن جحش وجماعته ؛ ورغم هذا النص الا ان الرسول لم يعاود القتـال في الاشهر الحرم ، عدا ما حدث في الأعوام : السادس والسابع والثامن والتاسـع الهجري (١١٥) .

الا ان العلماء والمفسرين يرون ان منع الاقتتال في هذه الاشهر قد أبطل (١١٦) ومن الواضح ان عبدالله بن جحش وأصحابه قد انتهكوا حرمة الأشهر الحرم الا ان الرسول (ص) لم يكن باستطاعته ان يجد المبرر الكافي لهذا الانتهاك وحتى لو سلمنا جدلا بأن الرسول لم تكن لديه المعرفة التامة بشأن الاقتتال في الاشهر الحرم ، لكنه كان لزاما عليه ان يقدر معرفة قطاع كبير من اتباعه لحرمة هذه الاشهر وان يأخذ الحيطة والحذر من التأثير غير المباشر « كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر » الذي كان لربما سيضعف من سلطته البشرية ولكن مهما يكن من أمر وحتى لو ان الرسول كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر ومهما كانت نظرة العرب كان المقصود الكفار الملحدين من أهل مكة .

وبعد نزول هذه الآية استبشر الرسول والمسلمون ، فقبض الرسول العير والأسيرين ثم تمت عمليـة مبادلتهما بعد ان وصل سعد وعتبة بسبب تأخرهما عن السرية . والأسيران هما : الحكم بن كيسان الذي اسلم وقتل في موقعة بئر معونة (١١٧) ، وعثمان بن عبدالله الذي التحق بمكة ومات فيها كافرا (١١٨) .

ويقول ابن هشام في السيرة معلقا على هذه الآية الكريمة (١١٩) أي ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به وعن المسجد الحرام واخراجكم منه وانتم أهله وهذا أكبر عند الله من قتل من قتلتم فيه . والفتنة أكبر من القتل ، أي كانوا يفتنون المسلم عن دينـه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين وحينئذ فرح اولئك المجاهدون وفرح معهم المسلمون بذلك التنزيل الآلهي الذي يقر ان العدوان يدفع بالعدوان ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات .

وكان نزول هذه الآيـة الكريمة تزكية لعمـل عبدالله بن جحش وأصحابه وتقرير لمشروعية عملهم ، وقيل هذه أول غنيمة غنمها المسلمون

وعمر بن الحضرمي اول من قتله المسلمون وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من اسرهم المسلمون (١٢٠) .

ولقد طمع عبدالله بن جحش وأصحابه في الاجر بعد ان برأت ساحتهم فقالوا يا رسول الله انطمع ان تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين فانزل الله فيهم قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١٢١) ، وبذلك وعدهم الله عز وجل في ذلك اعظم الرجاء وان هؤلاء هم خيار هذه الامة وان الله جعلهم أهل رجاء (١٢٢) .

نتائج السرية وتعليق عام :

بعد ان انتهينا من التحدث عن هذه السرية من حيث الدوافع والمشتركين فيها وما رافقتها من أحداث أدت الى تفسيرات كثيرةوكثيرة كادت ان تضعف من الدعوة واندفاعها في ذلك الوقت ، لا نستطيع ان نختتم هذه الصفحات دون ان نقف متمهلين ازاء ناحية مهمة من حياة الرسول وخاصة في الفترة الاولى من دعوته سواء في مكة أو المدينة تلك هي ناحية السيطرة والمهارة التامتين في وضع الخطط وأهدافها وتوجيه الحملات العسكرية في ذلك الوقت .

ولا بد من الاشارة الى التخطيط والاصول التي اتبعها في قيادة الجند وهم قلة من الرجال أقوى ما فيهم قلوبهم المليئة بالايمان ، والحقيقة التي لا شك فيها ان الدعوة الاسلامية من بدايتها قد احتاجت للقتال لفسح الطريق لنشر الدعوة ، ولم يكن الجهاد الا عاملا لهذه الدعوة . ويبدو ان الرسول قد شارك مشاركة فعلية عمليا وعقليا ونظريا في سبيل انجاحها وقد غامر بنفسه كثيرا في سبيلها ، وقد ظهرت براعته في ناحية تظهر فيها مدى قيادته للرجال وزعامته لهم والزعامة ضرورة لازمة . ومما لا شك

فيه اننا اذا استعرضنا التسجيل الذي جاء في كتب السيرة فاننا نجد كثيرا من الخطط العسكرية قد اتبعت وأول هذه الخطط تقوية الروح المعنوية وهي بطبيعة الحال عامل هام ومؤثر في الحروب ، والصورة الاخرى ادراكه لأهمية الاستطلاع والكشف عن تجمعات العدو ونيات قادته ورجاله وكل البعوث والسرايا التي بعث بها واشترك فيها كانت على ما يبدو للكشف ولاستطلاع قوة العدو ، وامكانية الاحتكاك به ؛ وتبدو الحكمة العسكرية في تخيره للاماكن التي يوجه اليها سراياه وتغييره للاماكن مرة بعد اخرى ولهذا نستطيع ان نقول انه بواسطة هذه السرايا كان الرسول على علم تام بنيات اعدائه وتدبيرهم للقتال ، وفي هذه السرايا وخاصة سرية نخلة نجد شيئا هاما هو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وهذا ما تفعله الجيوش العسكرية وقد بعث الرسول (ص) عبدالله بن جحش قبل اربعة عشر قرنا تقريبا ومعه كتاب يجب ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين وذلك ليجهل كل فرد في المدينة الى اين يقصد عبدالله بن جحش فلا يكتب بهذا لقريش .

ثم لا بد من الاشارة الى ادراكه العمل وأهميته على خطوط المواصلات والتموين والتجارة ، وأول ما يبدي هذه الحقيقة نراه واضحا من السرايا التي بعث بها الرسول (ص) فهو بحكم موقع المدينة الجغرافي كان يقف على الطريق بين مكة والشام وهو خط مواصلات قريش وتموينها ، وبهذا استطاع ان يهدد أهم مصدر من مصادر رزقها وتجارتها وقوتها المادية .

ولقد كان الرسول دوما يحتفظ بالفرض ويبحث دائما عن العدو الاساسي وضربه الضربة الحاسمة ، فلقد شغلت قريش كل تفكيره ، ولم يتركها لحظة واحدة هادئة تفكر او تعمل على خداعه ومفاجأته ، ونلاحظ هنا ان نقاطا هامة لا بد من ذكرها نتيجة دراسة هذه السرية :

أولا : كانت سرية نخلة السبب المباشر لغزوة بـدر الكبرى حيث كانت اول أول مرة يهجم فيها المسلمون على المشركين بالقتـل والاسر والنهب كما ان الحملات العسكريـة للسرايا كان لهـا تأثير على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في القتـال واصبحت قريش في موقع الدفـاع بدلا من الهجوم •

ثانيا : ومما لا شك فيه ان الرسول كان يدرك تمام الادراك لمـا لهذه السرايا من تأثير في تدريب الرجال على القتـال والاستعداد المستقبل المنتظر كما انها كانت دافعا للمسلمين بشدة في وجه الكفار ومقاتلتهم كأنهم الند للند وفي مستوى واحد وليسوا أقل منهم قوة وخبرة في القتـــال وكذلك فان الغنيمة التي نالها المشتركون في السرية دفعت المسلمين للذهاب مع الرسول لأخذ القافلة التي كانت مع ابي سفيـان قبل بدر ، مما أدى الى ان يكـون جيش الرسول يوم بدر أكبر بكثير من السرايـا التي خرجت قبل ذلك الجيش مما أفسح المجـال امام هذا الجيش ان ينتصر في بـدر •

ثالثا : هناك غرض هـام للرسول (ص) هو اضعاف قريش ماديـا ومعنويا وكسر حدة المكيين ومعنوياتهم ، ولقد ادرك القرشيون ذلك ، ولكن من الصعب علينا ان نتصور كم كان طموح محمد (ص) آنذاك ، ناهيك عن ان الكسب المادي لعب دورا هاما في مساعـدة الدولة ، وان التنظيـم الجديـد كان بحاجة للمال لمساعدتـه في ادارة المسؤوليات المترتبة عليـه •

رابعا : لقد استطاع المسلمون ان يعرفوا من يؤيدهم من أهل المدينة ومن يقف ضدهم حتى ولو بالدعايـة وليس بالقتال ، وكان لهذا أثـره في المستقبل في غزوة الخندق حيث استطاع الرسول ان يعرف من الذي

يقف الى جانبه اثناء الحصار ومن يقف على الحياد ، ومن من المحتمل ان يساعد اعداءه ضده •

خامسا : كان للصدى الذي نشأ عن خرق الاشهر الحرم نتيجة عكسية بالنسبة لقريش فقد اطلعت القبائل العربية على أسباب ذلك الخرق وعرفت ان هناك أصحاب حق يطالبون ببلدهم وأموالهم في مكة • وتعرفوا على الأسباب التي دفعت هؤلاء المسلمين للخروج من بلدهم وترك أموالهم وعيالهم لكفار قريش تتسامع الناس بالدين الجديد وتساءلوا عن امكانية انتشاره وعن امكانية كونه الدين السليم •

سادسا : ايقاف عادة من عادات الجاهلية وهي التوقف عن القتال في الاشهر الحرم . وذلك بعد نزول الآية للقتال في الشهر الحرام ، وكانت هذه بداية نزع عادات الجاهلية التي تأصلت في النفوس وخاصة في نفوس المسلمين ثم تلاها غيرها من العادات كالخمر والميسر والانصاب والازلام •

سابعا : توسعت سيطرة المسلمين في الجزيرة العربية حتى وصلوا الى حدود حرم مكة ، وهذا يعني تهديد قريش في عقر دارها ، وتحول المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم • ثم ظهور ظاهرة الضبط العسكري والتقيد بالأوامر وهذه صفة لم يألفها العرب المقاتلون سابقا•

وكلمة أخيرة لا بد من الاشارة اليها وهي ان الدعوة الجديدة كانت مفترق طريق بين مكة والمدينة حيث جعلت الفريقين يتناظران بأسا وقوة ، فقد أصبح المسلمون يفكرون جديا في استخلاص ما فقدوه في مكة وتغير الوضع جذريا هناك ، ذلك ان قريشا حاولت اثارة شبه الجزيرة كلها على محمد (ص) وأصحابه لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام حتى لقد أيقن محمد انه لم يبق في مصالحتهم او الاتفاق معهم رجاء •

كما أوضحت لنا أحداث هذه السرية بكل جلاء حرص المسلمين على التمسك بتعاليم دينهم وعدم الخروج عنها ولو كان في ذلك كسب وغنيمة وهذا ما يفسر لنـا امتناع الرسول من أخذ العير والاسيرين من ناحية وتعنيف بقية المسلمين لعبدالله بن جحش وأصحابه من ناحية اخرى .



الفهرست

١ ـ مجمع اللغة ـ الوسيط ٤٣١/١ ، الجزء الاول ، عبد السلام هارون ١٩٦٠ م .

٢ ـ الرافعي ـ المصباح المنير ٣٧٤/١ ، المطبعة الاميرية . القاهرة ١٩٢٨ .
بطرس البستاني ـ محيط المحيط ٩٥٤/١ طبع سنة ١٨٦٧ م .

٣ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ المجلد ٣٨٣/١٤ . بيروت ـ لبنان .

٤ ـ نفس المصدر والصفحة .

٥ ـ ابن اسحق ـ سيرة النبي ـ المجلد ٤/٣ ص ١٠٢٨ تحقيق محيىالدين عبد الحميد ابن حجر الاصابة ٣٥٣/١ القاهرة ١٩٣٩ .

٦ ـ الواقدي ـ المغازي ٧/١ ، بينما يذكر ابن سعد بأن جملة بعوث الرسول وسراياه كانت ثمانية وثلاثين فقط .
ابن سعد ـ الطبقات ـ المجلد الثاني / ٥ ـ ٦ دار صادر . بيروت ١٩٥٧ م .

٧ ـ نفس المصدر والصفحة .
الواقدي ـ المغازي ـ ٧/١ مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦ .

٨ ـ الواقدي ـ المغازي ١٩/١ ، ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الاول (٦٠ ـ ٥ ـ ٦) .
الطبري ـ تاريخ ٤١٠/٢ ، ابن اسحق ـ السيرة ـ المجلد الثاني ـ ٤٣٥

٩ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٤ .
حيث يقول و ت ان السيد الرسول كان يريد كسر حدة المكيين وضرب تجارتهم وتهديدهم اقتصاديا ومعنويا . نفس الصفحة.

١٠ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ٦٩/٢ ، ويشير هنا الى سرية حمزة على ساحل البحر ولقائها بأبي جهل وتدخل مجدي بن عمرو بينهم وانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن قتـال .

١١ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٢ .

١٢ ـ نفس المصدر والصفحة .

١٣ ـ ابن اسحق ـ السيرة ـ المجلد ١ ـ ٤٢٧/٢ ، ويذكر ابن سعد فـي الطبقات الكبرى ـ المجلد الثاني /٦ « ان السرايا بدأت بعـد

سبعة اشهر من الهجرة ، ويؤيد الطبري عن الواقدي هـذا التاريخ » الطبري ــ تاريخ ٤٠٢/٢ .
الواقدي ــ المغازي ٢/١ .

١٤ ــ ابن اسحق ــ السيرة ــ المجلد الثاني / ٣٣٢ . ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد ج ٢ / ٥٢ ــ ٥٣ .

١٥ ــ نخلة ــ وادي لهذيل على ليلتين من مكة ، وهناك نخلة الشامية وهي وادي فيه بستان ابن عامر وعنده يجتمع النخلتين اليمانيـة والشامية وهما من بطن مر ، ياقوت معجم البلدان ــ المجلد الخامس / ٢٧٧ .

١٦ ــ نص كتاب الرسول : « اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارها »
محمد حميد الله ــ الوثائق السياسية ــ وثيقة رقم ٣ ــ ٤٩ ،
اليعقوبي ــ تاريخ ٦٩/٢ ــ ٧٠ .

١٧ ــ اليعقوبي ــ تاريخ ٤٥/٢ .

١٨ ــ الواقدي ــ المغازي ٢/١ .

١٩ ــ و ت ــ محمد في المدينة ص ٢ .

٢٠ ــ اليعقوبي ــ تاريخ ٤٩/٢ .

٢١ ــ و ت ــ محمد في المدينة ص ٢ .

٢٢ ــ اذن الله لمحمد بالقتال لاثنتى عشرة ليلة من صفر في السنة الثانية للهجرة ، وكانت أول آية انزلت في القتال : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » وقد نزلت في المدينة في الوقت الآليق للقتال لانه لو فرض الجهاد على المسلمين وهم قلة في مكة لما قامت للمسلمين قائمة .
سورة الحج ــ الآية رقم ٣٩ ، عبد الباقي ــ المعجم المفهرس صفحة رقم ٢٥ ،

ابن كثير ــ تفسير القرآن الكريم العظيم ج ٣ ٢٢٤١ .

٢٣ ــ الطبرى ــ تاريخ ٢ / ٤١٠ ، البلاذرى ــ الانساب ١ / ٣٧١ ، الواقدى ، المغازى ١ / ١٣ ، ابن كثير ، السيرة ٢ / ٣٧٠ ، ابن سعد ، الطبقات ٢ / ١٠ .

٢٤ ــ هنا تختلف الروايات في عددهم ما بين ٨ ــ ١٢ . انظر اليعقوبي ــ تاريخ ٢ / ٢٦٩ ، الطبري ــ تاريخ ٢ / ٤١٠ ، ابن الاثير ــ الكامل ١١٣/٢ ، الواقدي ــ المغازي ١٩/١ .

٢٥ ـ نفس المصادر والصفحات .

٢٦ ـ محمد حميد الله ـ الوثائق السياسية ـ راجع ٣٩ ـ ٤٧ نص دستور المدينة .

٢٧ ـ الطبري ـ تاريخ ٢/٤١٠ ـ ٤١٥ ؛ ابن كثير السيرة ٢/٣٧٠ ـ ٣٧١.
هذين المصدرين فقط هما اللذان اوردا ذكر عمار بن ياسر من بين الرهط . الواقدي ـ المغازي ١٩/١ .

٢٨ ـ ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢/٢٦٤ ، ابن سعد ـ الطبقات ٣/٨٩ـ٩٠.

٢٩ ـ ابن الاثير ـ اسد الغابة ج ٢ / ٢٩٠ ـ ٢٩٣ .
ابن سعد ـ الطبقات ـ ج ٣ / ١٣٧ ـ ١٣٨ .

٣٠ ـ ابن الاثير ، اسد الغابة ج ٥ / ٧٩ ـ ٨٠ .
ابن سعد ـ الطبقات ج ٣ / ٣٩٠ .

٣١ ـ ابن حجر ـ الاصابة ، المجلد ٣/١١٣ ـ ١١٦ .
ابن الاثير ـ اسد الغابة ، المجلد ٣/٣٦٤ ـ ٣٦٥ .
ابن سعد ـ الطبقات ، المجلد ٣/٩٨ ـ ٩٩ .

٣٢ ـ ابن الاثير ـ اسد الغابة ج ٣ / ٨٠ ـ ٨١ .
ابن سعد ـ الطبقات ج ٣/٢٨٦ ـ ٣٨٧ .

٣٣ ـ ابن الاثير ـ اسد الغابة ج ٥ / ١٧٠ ـ ١٧١ .
ابن سعد ـ الطبقات ج ٣ / ٨٤ ـ ٨٥ .

٣٤ ـ ابن حجر ـ الاصابة ج ١ / ٤٠١ .
ابن الاثير ـ اسد الغابة ج ٢ / ٨٥ .
ابن سعد ـ الطبقات ج ٣ / ٣٨٩ .

٣٥ ـ ابن حجر ـ الاصابة ج ٢ / ١٠٩ ـ ١١٠ .
ابن سعد ـ الطبقات ج ٤ / ٢١٣ .

٣٦ ـ الغمرة : منهل من مناهل طريق مكة ومنزل من منازلها بين تهامة ونجد ، وقال ابن الفقيه : هي من اعمال المدينة على طريق نجد.
ياقوت ـ معجم البلدان ـ المجلد الرابع ـ ٢١٢ .

٣٧ ـ ابن سعد ـ الطبقات ـ ج ٣ / ٩٢ ـ ٩٣ .
ابن حجر ـ الاصابة ج ٢ / ٢٦٤ .

٣٨ ـ الواقدي ـ المغازي ج ١ / ١٣ .

٣٩ ـ الواقد ـ المغازي ج ١ ـ ١٥٢ وما بعدها .

٤٠ ـ ابن عبد البر ـ الاستيعاب ج ٢ / ٢٦٤ .

٤١ ـ قال ياقوت : خولان من مخاليف اليمن ، وخولان قرية كانت بقرب دمشق . فلعل الاديم الخولاني منسوب اليها . الاديم : الجلد.
ياقوت ـ معجم البلدان ج ٣ ص ٤٩٦ .

٤٢ ـ النجدية : من اعمال اليمامة وهو وادي اليمامة .
ياقوت ـ معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٣ .

٤٣ ـ بئر ابن ضميرة : لم اجد في أي معجم او قاموس ما يشير اليه سوى ياقوت يقول : ان ضميران وادي بنجد من بطن قو" .
ياقوت : معجم البلدان مجلد ٣ ص ٤٦٣ .

٤٤ ـ محمد حميد الله : الوثائق السياسية ، وثيقة ٣ / ٤٩ .

٤٥ ـ ابن هشام : السيرة ، مجلد ١ ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ ، الطبري ـ تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٥ .

٤٦ ـ الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٣ .

٤٧ ـ يقول الواقدي : بعث رسول الله (ص) اصحاب الرجيع عيونا الى مكة ليخبروه خبر قريش .
الواقدي : المغازي ج ١ / ٣٥٤ .

٤٨ ـ نخلة : موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب اليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ص ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥ .

٤٩ ـ وات : محمد في المدينة ص ٦ .
الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٣ .

٥٠ ـ انظر نص الكتاب ـ محمد حميد الله ـ الوثائق السياسية وثيقة رقم ٣ ص ٤٩ ، ويقول الواقدي : « ما امرتكم بالقتال في الشهر الحرام » . الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٦ ، ابن الاثير : اسد الغابة ج ٥ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

٥١ ـ الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٤١١ ، الواقدي : المغازي ١٦/١ .

٥٢ ـ وات : محمد في المدينة ص ٧ .

٥٣ ـ اربعة اشهر اتفق العرب على تحريم القتال فيها هي : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، ولشهر رجب حرمة خاصة عندهم وخاصة عند قبائل مضر ، وان هـذا التحريم كان حسب اعتقادهم مرده الى الآلهة التي أمرت به فهو تحريم بأمر الآلهة ، وهذا لا يكون بالطبع الا بوجود شريعة فيها حلال وحرام

وبوجود نواه ومباحات ، وهم يعظمون هذا الشهر ويقيمون الولائم عند ظهور هلاله واغلبهم يؤدون العمرة في شهر رجب .
جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٥/٢٢٢ ، ٢٣٧، ٣٢٩، ٣٣٠ .
الآلوسي : بلوغ الارب ج ٣ / ٧١ .

٥٤ ــ يقول وات ان المدينة كانت أكثر تمسكا بالتقاليد الجاهلية القديمة من مكة بسبب وجود الديانات القديمة فيها . و ت / ص ٨ .

٥٥ ــ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٤٩/٤ .

٥٦ ــ قاتل الرسول المشركين بعد بدر في الاشهر الحرم ، لكن السرايا التي قاتلت في الاشهر الحرم بعد بدر ليس لها تأثير رجعي على شرعية سرية عبدالله ابن جحش . الواقدي : المغازي ج ١ ص ٥ ، ٦ ، ٧ .
كتاب وت / ٩ .

٥٧ ــ يثرب : اول من سكنها يثرب بن سام بن نوح وسميت باسمه ، وسميت كذلك مدينة الرسول لنزول الرسول فيها ، وتسمى كذلك عليه .
يا قوت : معجم البلدان ــ مجلد ٥ / ص ٤٣٠ .

٥٨ ــ نخلة : موضع على ليلة من مكة . والحرم المكي قريب منها ، وهي من مشتملات مكة في الوقت الحاضر .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ١٣٠٤ ــ ١٣٠٥ .
الاصفهاني : بلاد العرب / ٣٢ .

٥٩ ــ اختلفت الروايات حول تاريخ الهجوم ، فالمسلمون يقولون في آخر ليلة من جمادي الآخرة واول ليلة من رجب ، لكن الارجح انه كان في رجب بدليل قول الرسول ما امرتكم بالقتال في الشهر الحرام ، ويؤكد ذلك أيضا من نص المحاورة التي حدثت بين رجال السرية قبل الهجوم .
الواقدي : المغازي ج ١ / ١٦ .
ابن كثير : السيرة ج ٢ / ٣٧١ ــ ٣٧٢ .
ابن هشام : السيرة ج ١ / ٦٠١ ــ ٦٠٥ .

٦٠ ــ ابن هشام : السيرة ج ١ / ١٤٠ ــ ١٠٨ .

٦١ ــ ثور : هو ثور الحمل ، وهو جبل بمكة الذي فيه غار النبي ، ويقال ان اهل المدينة لا يعرفون جبلا اسمه ثور ، وانما ثور بمكة .
البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ / ٣٤٨ ــ ٣٤٩ .

٦٢ ـ عسفان : قرية لبني المصطلق من خزاعة فيها كثرة الآبار ، وهي التي صلى فيهـا الرسول صلاة الخوف ، وهي قريبة من منطقـة مر الظهران .
البكري : معجم ما استعجم ج ٣ ص ٩٤٢ ـ ٩٤٣ .

٦٣ ـ آمج ـ والأمج تعني العطش ـ بلد من اعراض المدينة قرب منطقـة بني سليم .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٧ .

٦٤ ـ الخرار : ماء لبني ضمره ، ويقال وادي الحجاز ، يصب على الجحفة ، اليه انتهت سرية سعد بن ابي وقاص ، وقيل موضع غدير خم يقال لـه الخرار .

٦٥ ـ الجداجد : ارض مستوية صلبة تقع في طريق الهجرة الى المدينة ، ويقال انها منطقة برا قديمة . ياقوت معجم البلدان ج ٢ /٢٧ .

٦٦ ـ وادي العقيق : وادي بناحية المدينة فيه عيون ونخل .
ياقوت : معجم البلدان ـ المجلد ٤ / ١٢٩ .

٦٧ ـ الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب / ٦٧ ، ١٢٧ ـ كحالة جغرافية شبه جزيرة العرب ص ١٠ .

٦٨ ـ الفرع : قرية من قرى وادي نخلة جنوب المدينة بينها وبين المدينة ثمانية وهي عدة قرى اهلة بالسكان والطرق القديمة من المدينة الى مكة انما هي أعلى الفرع . ياقوت معجم البلدان مجلـد ٤ / ٢٥٢ .

٦٩ ـ الحرة : وهي احدى قرى المدينة وهي الشرقية وفيها وقعت موقعة الحرة المشهورة ايام يزيد بن معاوية .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ٢٤٩ تحت مادة حرة واقم .

٧٠ ـ عشيرة : من ناحية ينبع بين مكة والمدينة .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٦ / ١٨١ .

٧١ ـ مر الظهران : موضع على مرحلة من مكة وهو وادي فيه عيون كثيرة ونخل . ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ / ١٠٤ .

٧٢ ـ جدة : بلد على ساحل بحر اليمن ، وهي فرضة مكة ، بينها وبين مكة ثلاث ليال . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ / ١١٤ .

٧٣ ـ الاصفهاني ، بلاد العرب / ٣٧٥ .

٧٤ ـ نفس المصدر والصفحة .

٧٥ ـ لم أجد رغم بحثي في العادات العربية القديمة عن عادة حلق الراس سوى ما ذكره اليعقوبي بهذا الخصوص ، « انهم اذا نسكوا لم يخروا شعثا ولا ظفرا » وقد تكون هناك عادة عربية لحلـق الرأس لا نعرفها . اليعقوبي ـ تاريخ ـ ج ١ / ٢٥٦ .

٧٦ ـ ابن حوقل ، صورة الارض / ٣٠ .

٧٧ ـ المرحلة من ٦ ـ ٧ فراسخ . من مكة الى بستان ابن عامر مرحلة وحدة . من مكة الى المدينة عشرة مراحل .
المقدسي : احسن التقاسيم / ١٠٦ .

٧٨ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول / ٦٠١ ، الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ . الطبري ـ تاريخ ، ج ٢ / ٤١٠ ـ ٤١١ ، ابن اسحق، السيرة ٢ ص ٤٣٦ .

٧٩ ـ معدن : والمقصود هنا معدن بني سليم وهو معدن فرات وهو من اعمال المدينة على طريق نجد . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ١٥٤ .

٨٠ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ ، الطبري ، تاريخ ج٢/٤١١

٨١ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .

٨٢ ـ ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ ، الطبري ، تاريخ ج ١ ص ٤١١ . الواقدي ، المغازي ج ١ / ١٤ .

٨٣ ـ وات ، محمد في المدينة ص ٦ .

٨٤ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٧ .

٨٥ ـ منطقة بني سليم في منطقة بحران ، والرسول غزا بنفسه بني سليم في بحران . الواقدي ، المغازي جـ ١ ٣ ، ٨

٨٦ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ / ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج٢ / ٤١٤ـ٤١٥

٨٧ ـ المليحة : اسم لجبل في غربي سلمى احد جبلي طي ، وبه آبار كثيرة وملح وقيل مليحة موضع من بلاد تميم . ياقوت ، معجم البلدان ٥ / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٨٨ ـ نوبة ، الجماعة ج ٣ ص٧٣٧ .
لسان العرب ، جـ ٣ / ٧٣٧ .

٨٩ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٧ .

٩٠ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٣ ، البلاذري ج ١ ص٣٧١ ـ ٣٧٢ .

٩١ ـ بئر ابن ضميرة ، أشير اليها سابقا ص من البحث.

٩٢ ـ ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ ،الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ ٤١٥ ، ابن كثير ، السيرة ج ٢ / ٣٦٧ ، الذي ذكر ان اسم الحضرمي هو عبد الله بن عياد الصدف .

٩٣ ـ الواقدي ـ المغازى ، جـ ١ / ١٤ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ ٢ / ٤١٠ ـ ٤١٢ .

٩٤ ـ البلاذري ، الانساب جـ ١ / ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، ابن كثير ، السيرة جـ ٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

٩٥ ـ الواقدي ، المغازي جـ ١ / ١٤ ، ابن كثير ، السيرة جـ ٢ / ٣٦٨ـ ٣٦٩ .

٩٦ ـ يقول اليعقوبي : « كانوا يشدون على انفسهم في دينهم ، فاذا انسكوا لم يسلاوا سمنا ولم يدخروا لنا ، ولم يحزوا شعرا ولا ظفرا » .
اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ١ / ٢٥٦ .

٩٧ ـ الثلاثة ، هم : عثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان حول هشام بن المغيرة . ابن هشام ، السيرة جـ ٢ / ٦٠١ ، الطبري تاريخ جـ ٢ / ٤١٠ ـ ٤١٥ .

٩٨ ـ محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣ ص ٤٩ .

٩٩ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني ١١٣ ـ ١١٥ ، ابن هشام ، السيرة ج ٢ / ٦٠١ـ ٦٠٥ . البلاذري ، الانساب ـ ج ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

١٠٠ ـ يقول الواقدي : عند عودتهم من السرية كانت المدينة تفور فور المرجل . الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ .

١٠١ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٤ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ـ ٤١٥ .

١٠٢ ـ وات ، محمد في المدينة ص ٨ .

١٠٣ ـ آية رقم ٢١٧ من سورة البقرة ، المعجم المفهرس .

١٠٤ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٥ ، ٦ . هناك سبع سرايا قاتلت في الاشهر الحرم بعد بدر ، ولكن لم يكن لها تأثير رجعي على سرية نخلة .

١٠٥ ـ آية رقم ٤١ من سورة الانفال ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .

١٠٦ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٣٠ . ذكرنا عن المدينة في موضوع المخالفة .

١٠٧ ـ توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ٤٢٠ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين .

١٠٨ ـ نفس المصدر والصفحة .

١٠٩ ـ ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٣٨ .

١١٠ ـ نفس المصدر ، ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٣ .
وات ، محمد في المدينة ، ص ٨ . الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٦ .

١١١ ـ المرباع : يقصد به ربع الغنيمة الذي كان يأخذه رئيس القبيلة في الجاهلية . الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .
القاموس المحيط ، ج ٢٥/٣ . البلاذري ، الانساب ، ج ١٧٢/١ .

١١٢ ـ سورة الانفال . آية رقم ٤١ ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .

١١٣ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٥ .

١١٤ ـ عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، آية رقم ٢١٧ ، سورة البقرة .

١١٥ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

١١٦ ـ وات ، محمد في المدينة ، ص ٩ .

١١٧ ـ ذكر ياقوت الحموي عن ابن اسحق « ان بئر معونة بين ارض بني عامر وحرة بني سليم ، وقال كلا البلدين منها قريب ، الا انها الى حرة بني سليم أقرب ، وقيل بئر معونة ماء لبني عامر بن صعصعة » وقال الواقدي : بئر معونة في ارض بني سليم وأرض بني كلاب ، وعندها كانت قصة الرجيع .
ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ٣٠٢ .

١١٨ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ .
الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٥ .
الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٥ .

١١٩ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٤ .

١٢٠ ـ ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ٦٠٥

١٢١ ـ رواه ابن كثير عن ابن اسحق ، السيرة ج ٢ ص ٣٦٧ .

١٢٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ ، ابن هشام ، السيرة ج الاول ص ٦٠٥ .

أبو الريحان البيروني
دراسة حول نسبته وشخصيته

بقلم الدكتور جلال شوقي
جامعة القاهرة

البيروني أحد عمالقة علماء العصر الذهبي للحضارة العربية ، عاش في الفترة من عام ٣٦٢ هـ حتى عام ٤٤٣ هـ (٩٧٣ ـ ١٠٥١ م) ، وخلّف وراءه تراثا عربيا ضخما ، فلا عجب ان يصفه المستشرق الألماني ادوارد سخاو ـ الذي حقّق له بعضا من مؤلفاته ـ بأنه « أكبر عقلية ظهرت في التاريخ » .

هذا وقد وصفه مقدّم كتابه « الصيدنة في الطب »[١] قائلا :

« مما جمعه الحكيم الأجل ، الامام العلامة ، أفضل علماء المتقدمين والمتأخرين ، وأعظم فضلاء الرياضيين من الاسلاميين ومن قبلهم من الماضيين ، الاستاذ ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني » ولقد لقب البيروني أيضا ببرهان الحق » .

يروى عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري الحكيم[٢] أنه لم يكن ليترك من يده قلم ، أو يرفع بصره عن كتاب ، او يسمح لفكره أن ينشغل عن حل المسائل والمشكلات الا في يومين اثنين من العام هما يوم النيروز ويوم المهرجان ، وفيهما كان يؤمن ضروريات معيشته ، ويقال

(١) طبعة مؤسسة همدرد الوطنية بكراتشي بباكستان ، سنة ١٩٧٣ م .
(٢) صاحب كتابي « أخبار الحكماء » ، « نزهة الارواح وروضة الافراح » .

ان البيروني كان حتى قبل وفاته بلحظات يستخبر عن مسألة في الهندسة .

حقا ان عبقرية البيروني عبقرية جامعة ستظل خالدة عبر العصور والأزمان ، وانك لتطالع تصانيفه فتجد فيها من الغزارة والشمول والمتعة والجدة والابتكار ، وكأنما توقفت عقارب الساعة منذ الف عام او يزيد .

ولقد اهتمت الاوساط العلمية في العالم أجمع شرقية وغربية بتراث البيروني . فعقدت مؤتمرات كثيرة لتخليد أعماله وذكراه وصدرت مجلدات تضم دراسات عن تصانيفه ، منها المجلد التذكاري الذي اصدرته عام ١٩٥٠ اكاديمية العلوم السوفيتية ، والمجلد التذكاري الذي أصدرته الجمعية الايرانية في كلكتا بالهند عام ١٩٥١ . ولعل أحدث مؤتمر عُقد بمناسبة مرور الف سنة على مولد البيروني هو المؤتمر الدولي الذي عقد في باكستان في الفترة من ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) حتى ١٢ كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٧٣ ، وذلك تحت رعاية حكومة باكستان بالتعاون مع هيئة اليونسكو .

لا عجب أن يحظى أبو الريحان البيروني بهذا الاهتمام البالغ والتكريم الكبير ، ولقد أطلق الاتحاد السوفياتي اسمه على البلدة التي بها ولد ، وتقع حاليا في جنوب روسيا ، كما أقيم له تمثال في متحف جامعة موسكو ، وسُميت جامعة طشقند بأوزبكستان باسمه تخليدا له وتعظيما وتقديرا .

ولقد جمع البيروني المعارف التي توصّل اليها المصريون والروم والرومان ، والهنود والسريان ، والفرس والعبرانيون حتى العصر الذي فيه عاش ، متبعا في ابحاثه ودراساته المنحى العلمي الذي تتبعه اليوم ، فجاءت أعماله اضافة حقيقية لتراث الانسانية جمعاء ..

كان البيروني يصرّح دوما بأنه لا يعرف حقيقة نسبه ، وهو الذي أنشد في هذا المعنى يقول :

« وذاكرا في قوافي شعره حسبي   ولست والله حقا عارفا نسبي

اذ لست أعرف جدي حق معرفة وكيف اعرف جدي اذ جهلت أبي »

وانه وان كان هناك تنازع بين كثير من الدول على نسبة البيروني ، اذ كل دولة تنسبه الى نفسها ، فان النسبة المنصفة له وللثراء الموسوعي الذي خلفه وراءه تهي نسبته الى الانسان الذي شرّفه الله وخلقه على صورته ، نسبته الى الانسان الذي فضّله الله على سائر مخلوقات الأرض وعلّمه الأسماء ، فصارت له حضارة بها يعرف ويتميز .

ترجمة البيروني

ويذكر البيروني عن نفسه أنه ولد في خوارزم شاه يوم الخميس ثالث ذي الحجة من العام الهجري ٣٦٢ الموافق الرابع من ايلول (سبتمبر) سنة ٩٧٣ م . ولم يوضح السبب في تسميته بالبيروني .

ولقد تعلم البيروني ــ بحكم نشأته في خوارزم ــ اللغة الخوارزمية وهي احدى لهجات اللغة الفارسية ، وقد كان البيروني ملما بلغات كثيرة كما يظهر ذلك في انتاجه الضخم ، فالى جانب الفارسية والعربية كان البيروني على دراية باللغات السنسكريتية ، والسريانية واليونانية والعبرية، وكان البيروني مسلما سني المذهب .

أمضى البيروني نشأته الاولى في خوارزم حيث عكف على الدرس والتحصيل لا سيما في مجال العلوم الطبيعية ، وما أن أتمّ مرحلة التحصيل هذه حتى التحق ببلاط الامير مأمون بن مأمون في خوارزم ، وكان البيروني محاطا بالاجلال والتكريم لعلمه وفضله ، وبقي في بلاط الامير حتى اجتاحت خوارزم تغيرات سياسية غير مواتية اضطر على أثرها سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) الى الهجرة الى جرجان حيث عكف على التأليف فأنهى كتابه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (٣) مهديا اياه الى

---

(٣) كتاب يبحث في التقاويم والشهور عند مختلف الامم ، وقد تمّ تأليفه سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) .

حاكم جرجان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي .

وفي حوالي عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) قفل البيروني راجعا الى خوارزم، وصار مستشارا في بلاط الامير مأمون لما كان قد وصل اليه في ذلك الوقت من المنزلة العلمية المرموقة . وأثناء اقامته هذه والتي امتدت لبضع سنين وضع البيروني كتابا ضمنه تاريخ خوارزم وتقاليدها وآثارها والأحداث التي عاصرها وكان شاهدا عليها .

وفي ربيع العام الهجري ٤٠٨ (١٠١٨ م) انتقل البيروني الى مدينة « غزنة » بناء على دعوة وجهها اليه السلطان محمود الغزنوي [٤] ، فكان دوما محل تقدير السلطان كما انه رافقه في أسفاره ورحلاته الى الهند ، وفي هذه الفترة اهتم البيروني بدراسة اللغة السنسكريتية ، كذا علوم الهند وأديانها ، وكان في كل ما قام بدراسته ذا فكر مفتوح ويعد البيروني اول من اشتغل بالدراسة المقارنة للاديان من علماء المسلمين خاصة وربما من علماء العالم عامة ، وقد خرج البيروني من دراساته هذه بكتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، وقد قام المستشرق كارل ادوارد سخاو [٥] بتحقيقه ونشره عام ١٩١٠ م .

وعندما اعتلى مسعود بن السلطان محمود الغزنوي العرش عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) أهدى اليه البيروني كتابه العظيم : « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » ، فما كان من السلطان مسعود الا ان خصص معاشا للبيروني ليعينه على تكريس بقية عمره للتآليف والدراسات العلمية ، ويروى ان السلطان مسعود سيَّر الى البيروني حمل فيل من العملات الفضية مكافأة له على كتابه « القانون المسعودي » ، بيد أن

---

(٤) هو يمين الدولة سلطان محمود بن ناصر الدين سبكتكين ، امتدت فترة حكمه من عام ٩٧٠ حتى عام ١٠٣٠ م .

(٥) C. Edward Sachau : عاش في الفترة من سنة ١٨٤٥ حتى سنة ١٩٣٠ م .

البيروني ـ حسب ذات الرواية ـ قد رد هذا الحمل الى خزانة السلطنة شاكرا ومعتذرا عن قبولها ، وهذا السلوك هو ولا شك من شيم العلماء الصادقين .

ولقد عاصر البيروني تغيرات سياسية عصفت بآسيا الوسطى وافغانستان وايران وغيرها من البلدان المجاورة ، فانعكست بطبيعة الحال على مراحل حياته كذا على اهتماماته ودراساته ، فقد بدأ البيروني نشاطه الفكري في مجالي الرياضيات والفلك ، ثم ما لبث ان تحوّل اهتمامه الى دراسة التاريخ وحضارات الامم السابقة ، كما أنه اتجه في الفترة الأخيرة من حياته الى علم الضوء والطب والصيدنة والبيولوجيا وعلم التطور كذا الى دراسة الأحجار والفلزات .

امتد العمر بأبي الريحان البيروني حتى تعدى سن الثمانين (٨١ سنة هجرية أو حوالي ٧٨ سنة ميلادية) ، ويؤكد ذلك ما ذكره في مقدمة مصنفه : « كتاب الصيدنة في الطب » حيث يقول [٦] :

« وجميع ما أوردته فمحصل مما ذكرت ، والمتروك ما لم يحصل لي منه ، لئلا يحملني الجهل به على نقله من بابه الى باب آخر ، الانافة على الثمانين أفسدت من المتخيلة قوتيها العمليتين ، أعني المدمع والمسمع » .

انطفأت الشعلة المتوهجة حين توقفت حياة البيروني حوالي سنة ٤٤٣ هـ ـ (١٠٥١ م) ، ولا يعرف على وجه التحقيق مثواه الأخير ، الا ان نور علم البيروني لم يخب أبدا بالرغم من مرور مئات السنين على وفاته .

---

(٦) « كتاب الصيدنة في الطب » للبيروني ، تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي ـ طبعة مؤسسة همدرد الوطنية ، كراتشي سنة ١٩٧٣ م ، الصفحة ١٥ .

اساتذته ومعاصروه

بدأ البيروني نشاطه العلمي مساعداً لأحد علماء النبات من اليونانيين ، حيث كان يجمع له البذور والنباتات والأزهار ، وكان البيروني دائم السؤال لاستاذه عما يجمع ، وقد تكون هذه المناسبة من الأسباب التي جعلت البيروني يهتم بدراسة اللغة اليونانية ودراسة علم النبات ، وأدت به في آخريات حياته الى وضع كتابه « الصيدنة في الطب » الذي أورد فيه مسميات الأعشاب والأدوية باللغة اليونانية الى جانب العربية وعدة لغات اخرى • وقد تتلمذ البيروني بعد ذلك على الحكيم عبد الصمد بن عبد الصمد الذي قتله فيما بعد السلطان محمود بن سبكتكين بعد اتهامه اياه بالخروج عن الدين ، ولقد صارت بين البيروني وبين استاذه عبدالصمد الفة ومودة وثيقتين ، وجمعهما حب العلم والمعرفة •

وما أن أتم البيروني العقد الثاني من عمره وسافر الى جرجان حتى التقى بالطبيب المنجم أبي سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني (٧) عالم الرياضيات والفلك فتأثر به أيما تأثر ، ويعد ابو سهل هذا الاستاذ الاول للبيروني ، كذلك أخذ البيروني العلم على يد أبي نصر منصور بن علي بن عراق (٨) مولى أمير المؤمنين القادر بالله (٩) ، وكان ابو نصر هذا قد تتلمذ بدوره على ابي الوفاء البوزجاني (١٠) العالم الرياضي والفلكي الشهير •

ولقد عاصر البيروني الشيخ الرئيس ابن سينا وكانت بينهما مناظرات ومراسلات كثيرة ، كما جمعتهما زمالة مجمع العلوم الذي أسسه أمير

---

(٧) توفي عام ٣٨٩/٣٩٠ هـ (٩٩٩/١٠٠٠ م) .

(٨) توفي قبل عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

(٩) امتدت خلافته من عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م) حتى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .

(١٠) عاش في الفترة : ٣٢٨ ــ ٣٨٨ هـ (٩٤٠ ــ ٩٩٨ م) .

خوارزم مأمون بن مأمون ، وكان يزاملهما أيضا في نفس المجمع المؤرخ العربي ابن مسكويه [11] صاحب كتاب « تجارب الأمم » .

التنازع على نسبته

ان الدرجة العلمية المرموقة التي وصل اليها البيروني بأعماله الخالدة قد جعلت دولا كثيرة تسعى جاهدة الى فضل نسبته اليها ، فلا عجب أن نرى كلا من جمهورية اوزبكستان (بالاتحاد السوفييتي) وايران وباكستان وتركيا تسوق الدلائل والبراهين على أحقيتها في انتماء البيروني اليها ، ونعرض فيما يلي لبعض ما ذكرته المصادر التاريخية عن نسبة البيروني .

(أ) الاتجاه الاول

يقول بعض المؤرخين العرب من أمثال ظهير الدين البيهقي ، وابن ابي أصيبعة وأحمد بن علي القلقشندي ، ان البيروني ينتسب الى « بيرون » على أنها مدينة في السند ، وقد نحى منحاهم ابو القاسم ابن حوقل [12] في كتابه « المسالك والممالك » ، واسماعيل بن علي ابو الفدا [13] في كتابه « تقويم البلدان » ، وحاجي خليفه [14] في كتابه « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » .

يقول الامام ظهير الدين علي بن زيد البيهقي في كتابه « تتمة صوان الحكمة » [15] الذي أتم تأليفه سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) :

---

(١١) توفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

(١٢) توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) .

(١٣) توفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) .

(١٤) توفي سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م) .

(١٥) طبعة البنجاب ــ سنة ١٩٣٥ م ، صفحة ٦٣ .

« أبو ريحان البيروني من أجلّ المهندسين ، وقد سار في بلاد الهند أربعين سنة وصنّف كتبا كثيرة ، رأيت أكثرها بخطه .

وبيرون التي هي منشؤه ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ، ولا غرو فان الدرّ ساكن الهند .. » .

ويذكر ابن ابي اصيبعة (١٦) في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » (١٧) :

« هو الاستاذ ابو الريحان بن احمد البيروني ، منسوب الى بيرون ، وهي مدينة في السند » .

ويقول القلقشندي (١٨) في كتابه « صبح الأعشى في كتابة الانشا » (١٩) ومنها البيرون .

قال في « اللباب » : بكسر الباء الموحدة ، وسكون الباء آخر الحروف ، وضم الراء المهملة ، وبعدها واو ، ونون في الآخر ، وهي مدينة من أعمال الديبل بينها وبين المنصورة ، واقعة في الاقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في « القانون » (٢٠) : حيث الطول اربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

قال ابن سعيد : و هي من فرض بلاد السند التي عليها خليجهم المالح الخارج من بحر فارس .

---

(١٦) عاش في الفترة : ٦٠٠ ــ ٦٦٨ هـ (١٢٠٣ ــ ١٢٦٩ م) .

(١٧) طبعة مصر سنة ١٨٨٢ م ، صفحة ٣٠ .

(١٨) عاش في الفترة : ٧٥٦ ــ ٨٢١ هـ (١٣٥٥ ــ ١٤١٨ م) .

(١٩) طبعة مصر ، الجزء الخامس ، صفحة ٦٤ .

(٢٠) لعله يشير الى كتاب « القانون المسعودي » للبيروني .

قال في « العزيزي » ، وأهلها مسلمون ، ومنها الى المنصورة خمسة عشرة فرسخا [٢١] •

قال ابن سعيد : واليها ينسب أبو الريحان البيروني ، يعني صاحب « القانون » في أطول البلاد وعروضها •

ومنها المولتان •• وهي مدينة من السند فيما ذكره ابو الريحان البيروني ، وان كان ابن حوقل جعلها من الهند ، وعليه جرى في «مسالك الأبصار » ، لأن البيروني أقعد بذلك منه ، لأن السند بلاده ، فهو بها أخبر ، واقعة في الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة •

(ب) الاتجاه الثاني :

نرى جماعة اخرى من المؤرخين العرب ان البيروني صفة مشتقة من كلمة « بيرون » ، وتعني في اللغة الفارسية خارج ، فتكون كلمة بيروني بمعنى من خارج أو ما نسميه « برّاني » ، باعتبار ان البيروني ولد بخوارزم وأقام في « خيوة » أو في « كاث » من ضواحي خوارزم ، فاعتبر من خارج البلد ، ولكن نسبته تكون في هذه الحالة أصلا الى خوارزم ، ومن هنا كانت حجة الفرس في نسبة ابي الريحان اليهم باعتبار أن منشأه في خوارزم وان أقام خارجها •

ويتجه بعض المؤرخين الى ان البيروني ينحدر من اسرة غير مشهورة كانت تشتغل بالتجارة ، ولعلها كانت تقيم خارج مدينة خوارزم كي تتخلص من الضرائب التي تفرض على البضائع عند مرورها الى داخل المدينة ، وان هذه الاقامة خارج المدينة قد تكون السبب في تسميته بالبيروني •

يقول عبدالكريم السمعاني [٢٢] في « كتاب الانساب » [٢٣] :

---

(٢١) الفرسخ = ١٢٠٠٠ ذراعا شرعيا ، أي حوالي ستة كيلومترات.
(٢٢) توفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) .
(٢٣) طبعة لندن ، صفحة ٩٨ .

« البيروني بكسره الباء الموحدة ، وسكون الياء آخر الحروف ، وضمه الراء ، بعده الواو ، وفي آخرها النون •

هذا نسبة الى خارج خوارزم ، فان بها من يكون خارج البلد نفسها يقال له فلان بيروني » •

ويقول ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي (٢٤) في كتابه « معجم الأدباء » :

« محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، وهذه النسبة معناها البراني ، لأن بيرون ــ وبالفارسية ــ معناه برا •

وسألت بعض الفضلاء من ذلك ، فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلا ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بعد الاسم ، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريبا ، وأظنه يراد به ، الا أنه من أهل الرستاق (٢٥) ، يعني انه من خارج البلد » •

فان صح هذا الوصف انتسب البيروني الى خوارزم • ومن ثم تتنازع على نسبته بلاد فارس باعتبار ما مضى ، وجمهورية أوزبكستان في الاتحاد السوفيتي باعتبار الوضع الراهن ، حيث ان مدينة « كييف » عاصمة هذه الجمهورية تقوم على مدينة خوارزم القديمة •

وهناك من يعترض على هذا القول بدعوى ان علماء كثيرين ومعروفين قد عاشوا حول خوارزم أو في ضواحيها بيد أنهم لم ينعتوا بكلمة « بيروني » بمعنى برّاني ، اذ أن الوحيد الذي كان يتصف بهذا النعت هو أبو الريحان ، ومثيروا هذا الاعتراض يؤيدون في الاغلب ــ نسبة

---

(٢٤) هو ياقوت الرومي ، عاش في الفترة : ٥٧٤ ــ ٦٢٦ هـ (١١٧٨ ــ ١٢٢٩ م) •

(٢٥) كلمة « رستاق » تعني في اللغة الفارسية قرية .

البيروني الى ما جاء ذكره على لسان بعض المؤرخين خاصا بمدينة تدعى « بيرون » ، كما تقدم تفصيله ، الا أنه لم يتأكد بعد بالدليل الواقعي حقيقة وجود مثل هذه المدينة في الموقع الذي أشارت اليه بعض الروايات التاريخية •

(ج) الاتجـاه الثالث :

لما كانت عمليات التنقيب لم تسفر حتى يومنا هذا عن وجود مـا وصف بمدينة « بيرون » على بعد خمسة عشر فرسخا [٢٦] من المدينـة القديمة « المنصورة » ، فقد ظهر اتجـاه ثالث مؤداه أن كلمة بيرون قد تكون وصلت الينا محرفة في التنقيط ، وأنه ربما كانت صحتها كلمـة « نيرون » ، وهي مدينة ذكرها الادريسي [٢٧] ، وكانت موجودة في نفس الموقع الذي تقوم عليه حاليا مدينة « حيدر آباد » . وانه ان صح هذا الحدس لانتسب أبو الريحان البيروني لبلاد الباكستان •

(د) الاتجـاه الرابـع :

وهناك رواية اخرى جاءت على لسان جون برجز في كتابه عن قيام السلطة الاسلامية في الهند [٢٨] ، حيث ذكر كنية البيروني بصورة مختلفة من حيث التنقيط وان كانت محتفظة بنفس شكل الحروف ، فبدلا من « أبو الريحان » كتب اللفظ « أنوريخان » (Anvury Khan Khawarizmy) وبذلك أضفى على البيروني صفة تركستانية ، الا ان كلمة الخوارزمي تعيده الى نسبته الى خوارزم •

---

(٢٦) اي حوالي تسعين كيلومترا .

(٢٧) هو ابو عبدالله المعروف بالشريف الادريسي : عاش في الفترة : ٤٩٣ ـ ٥٦٥ هـ (١١٠٠ ـ ١١٧٠ م) ، وهو صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق) .

(٢٨) John Briggs: «History of the Rise of Mohammaden Power in India», Calcutta 1829, volume 1, page 113.

هذا ولا يخلو الأمر من اتجاه الأتراك الى نسبة البيروني اليهم باعتبار نفوذهم السابق على آسيا الوسطى •

شخصية البيروني واخلاقياته :

يتميز البيروني بشخصية علمية حقا بكل ما لهذه الشخصية من السمات الفاضلة التي نعرفها اليوم ، فقد كان البيروني يخضع كل ما يصل اليه من علوم ومعارف الى التفكير العميق المتحرر تماما من أي تعصب أو انقياد ، ولقد دفعه حبه الشديد للوقوف على حقائق الامور وكنهها الى الاشتغال المتواصل بالبحث ، لا تثنيه عن عزمه عقبة ، ولا ينال من حماسه عائق •

مارس البيروني النقد البناء لأعمال من سبقه من العلماء والمفكرين، كما لم يتوان عن النقد الذاتي لاعماله ، وكان مخلصا شديد الاخلاص لعلمه ، شجاعا في الحق ، فانه عندما كان غير متفهم للموضوع الذي كان يتصدى له ، أو كان ملما به بعض الالمام فحسب ، فانه ما كان ليتحرج البتة في التصريح بهذا النقص ، طالبا العفو عن هذا الجهل ، وواعدا القارىء — حتى بالرغم من تقدم البيروني في السن — بتقصي دقائق الموضوع ونشر نتائج دراسته عند تكاملها ، وهذا هو على وجه التحديد سلوك من يعي مسئولية العالم الباحث الذي يحس احساسا عميقا بكامل مسئوليته الأدبية والخلقية ، ويقدر الامانة العلمية حق قدرها •

هذا ولم يكن البيروني ليبخل بما تجمع لديه من علم ومعرفة في أمر من الأمور حتى ولو كانت حصيلته فيه ضحلة ، وكأنما كان يؤمن بالحكمة القائلة بأن العلم يزكو بنشره •

ويستشهد البيروني في مقدمة كتابه عن الهند (٢٩) بآي الذكر

---

(٢٩) كتاب البيروني : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، طبعة لندن سنة ١٩١٠ م • صفحة ٤ .

الحكيم ، وذلك في معرض حديثه عن تقديس الحق ، والسعي الدائب وراءه ، والدفاع القوي عنه :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » •

(سورة النساء : الآية ١٣٥)

ويقول البيروني في مقدمة كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية»:

« وابتدىء فأقول ان أقرب الأسباب الى ما سألت هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم •

ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات ، سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنّحل ، المستعملين لذلك،وتصيير ما همفيه أسّاً بعضهم لبعض ، بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » •

ويقول البيروني أيضا في مقدمة كتابه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » :

« ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل ، وطيهم عنهم كيفية ما أصلوه من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها الى استئناف التعليل ، وفي بعضها الى تكلّف الانتقاد والتضليل ، اذ كان خلد

فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة .

وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من : تقبّل اجتهاد من تقدمه بالمنة ،

وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة ، فيه من مقادير الحركات ، وتخليد ما يلوح له فيها ، تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده .

وقرنت بكل عمل في كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ، ما يبعد به المتأمل عن تقليدي فيه ، ويفتتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه ، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت في حسابه » .



خلاصـــة

ان الشخصيات العظيمة في التاريخ لا شك انها مبعث شرف وفخر للامم التي اليها تنتمي ، فلا عجب أن نرى الأمم العريقة تحفو بعظمائها وتحرص على تأكيد نسبتهم اليها • من هذه الشخصيات الفذة التي عاشت في القرن الرابع الهجري ابو الريحـان البيروني • الــذي خلّف وراءه ما ينوف على مائة وثمانين تصنيفا في ألوان العلوم والمعارف المختلفــة ، ولقد أدّت ظروف نشأة البيروني وتنقلاته وتغير التبعية السياسية للبلدان التي فيها أقام الى قيام تنازع بين هذه الدول عليه ، وحرصها على اقامة الدليل على أحقيتها بانتمائه اليها ، وسعيها الى انشاء مراكز علمية واقامة تماثيل تحمل اسمه ، وعقد مؤتمرات ومهرجانات لتخليد ذكراه . ولقد أوردنا في هذا البحث الاتجاهات المختلفة حول نسبة البيروني . ذلـك العملاق الذي كان يتمتع بشخصية علمية مرموقة ، تؤثر الحق وترحب بالنقد ، وتتفانى في طلب العلم والمعرفة ، شخصيـــة عظيمـــة حقا جعلت البيروني أهلا لكل تقدير واجلال ، وهدفا للتنازع على الانتماء •

ومهما يكن من أمر الروايات المتعددة والاجتهادات المتباينة في نسبة البيروني ، فما من شك في انه الى الحضــارة الاسلامية العربيــة ينتمي وينتسب ، ففي كنفها نشأ وعلا ، ومن نبعها نهل وارتوى ، والى علمائها جلس وتعلم ، وعنهم أخذ وتكلم ، ومعهم تباحث وتراسل ، فهو منهم وبهم. والحضارة العربية به أولى وأحق ، مهما تعددت أسباب النزعات الاقليمية في نسبته اليها ، ومهما تباينت الدعاوى التي تساق تأكيدا لها ، فهو أبدا العالم العربي برهان الحق الاستاذ أبو الريحان البيروني أحد أقطاب العصر الذهبي للحضارة العربية •

مصادر البحث

(١) كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لابي الريحان البيروني ،
نشره ادوارد سخاو في ليبزج عام ١٨٧٨ م . وترجمه الى الانجليزية ادوارد سخاو ونشره في لندن عام ١٨٧٩ م

طبعة سخاو الثانية مع شروح : ليبزج ، عام ١٩٢٣ .

(٢) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » لابي الريحان البيروني .
(يعرف أيضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند)
نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧ م ،
ونشره مترجما الى الانجليزية في جزءين عام ١٨٨٨ م ، كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠ م ،
وطبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧م .
وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤ م .

(٣) كتاب « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » لابي الريحان البيروني .
دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند ، الجزء الاول عام ١٩٥٤ م ، والجزء الثاني عام ١٩٥٥ م ، والجزء الثالث عام ١٩٥٦ .

(٤) كتاب « الصيدنة في الطب » لابي الريحان البيروني .
تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي .
مؤسسة همدرد الوطنية ، كراتشي بالباكستان عام ١٩٧٣ م (صدر بمناسبة مرور ألف عام على مولد البيروني ، والاحتفال الدولي الذي أقيم بكراتشي في ديسمبر عام ١٩٧٣ م بهذه المناسبة) .

(٥) كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » لظهير الدين أبي الحسن البيهقي .
تحقيق محمد كردعلي — مطبعة الترقي بدمشق ، سنة ١٩٤٦ م
كتاب « تتمة صوان الحكمة » لظهير الدين أبي الحسن البيهقي .
تحقيق محمد شفيع ، طبعة لاهور ، سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .

(٦) كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة .
طبعة القاهرة بتحقيق اوجست موللر ، سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) .

(٧) كتاب « صبح الاعشى في كتابة الانشا » لاحمد بن علي القلقشندي .
مطبعة بولاق ، القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م .

(٨) كتاب « تقويم البلدان » لعماد الدين اسماعيل ابي الفـداء ،
طبعة باريس سنة ١٨٤٠ م بتحقيق دي سلان ورينود ـ اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(٩) كتاب « المسالك والممالك » لابي القاسم ابن حوقل ،
طبعة لندن ، سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣ م .

(١٠) كتاب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » لمصطفى بن عبدالله الشهير بكاتب جلبي ، وبحاجي خليفة .
طبعة مصر ، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) .

(١١) كتاب « الانساب » لعبد الكريم بن ابي بكر السمعاني .
طبعة لندن ـ ليدن سنة ١٩١٢ م (سلسلة جب التذكارية) ، تقديم د.س. مارجوليوث . اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(١٢) كتاب « معجم الادباء » او « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » ، لشهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (او الرومي)
طبعة لندن (منشورات جب التذكارية ـ المجموعة السادسة) ، السنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ م . تحقيق د . س . مارجوليوث في ٧ اجزاء ـ اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .
طبعة القاهرة : تحقيق احمد فريد رفاعي ، السنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ م .

(١٣) كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لابي عبدالله المعروف بالشريف الادريسي .
طبعة ليدن بتحقيق دي جوجي ، عام ١٨٨٦ م .
طبعة روما ، سنة ١٩٥٢ م .

14) «History of the Rise of Mohammaden Power in India,»
By John Briggs.
Calcutta, 1829.

الحركة الباطنية في شمال فارس[*] وأثرها السياسي والمذهبي

الدكتورة فضيلة عبد الامير الشامي
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

الباطنية أو الاسماعيلية كما هو معروف حركة سياسية مذهبية تعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد . ولقد مرت هذه الدعوة بمرحلتين حتى استقامت على عودها . ففي المرحلة الاولى بدأت سرية كعادة جميع الحركات المناهضة للحكم حيث كان الدعاة يتخفون في ظل الحكم العباسي المسيطر آنذاك وهم في صومعتهم في سامية يعطون التعليمات والمبادىء لمريديهم وهؤلاء بدورهم ينقلونها الى الناس ليجمعوا بها انصارا ومؤيدين لهم ، ولكن هذه الحركة لم تستمر سرية هكذا اذ انتقلت الى المرحلة الثانية وهي العلنية بعد ان توطدت واستقرت فظهر الفاطميون على المسرح السياسي في مصر وشمال افريقية ، فنافسوا بذلك الخلافة العباسية منافسة كبيرة ، وذاع صيتهم وعلا في الآفاق . اذ انتشرت دعوتهم فشملت مناطق خارج مصر والشام والعراق وبلاد فارس . ففي العراق كان القرامطة وهم فرع من الاسماعيلية ، وفي بلاد فارس أي في المنطقة الشمالية بالذات في اصفهان وما يجاورها على وجه الاخص نشأت هذه الحركة التي هي مدار البحث بطورها الجديد وبفضل شخصية مهمة فيها لعبت دورا بارزا على تركيزها وتوسيعها في تلك الديار ، وهذه الشخصية ونحن بصددها شخصية الحسن الصباح الذي ظهر في أواخر

القرن الخامس للهجرة ، فأكمل بذلك ما بدأه الاسماعيليون من قبل•

ولقد ساعدت الظروف على ظهوره في هـذا القرن بالذات اذ كان السلاجقة يحكمون المنطقة الممتدة بين بلاد فارس والعراق وبلاد الشـام والأناضول • ومع سعة منطقتهم لكنهم كان ينقصهم الضبط وقوة الارادة، اضافة الى الضائقة الاقتصادية التي كانت مخيمة على المجتمع آنذاك ، حيث كثرت الضرائب وزاد الغلاء ، وعم الفقر في البلاد • ومن هنا نؤكد ان اغلب الثورات لا تقـوم الا بدافع العـوز والضيق الاقتصـادي المريـر •

ولقد كان التمزق المؤقت الذي حصـل في الدولـة السلجوقية [١] والاختلافات السياسية ، والتنافر على السلطة أبعد الاثر في تلك الحركة ، كما ان بعد بلاد فارس عن مركز الخلافة العباسية ، ثم وجود التشيـع فيها [٢] وانتشاره ساعد على قيام هذه الحركة الباطنية اذ قويت شوكتهم في عام ٤٩٤ هـ [٣] •

وقبل ان نخوض في بحثنا هذا عن كيفية بدء هذه الحركة وانتشارها يجب ان نعرف ونلم شيئا عن حياة الرجل الذي قاد الدعوة وتزعمها ، وعن صفاته والمؤثرات الخارجية التي لعبت دورا كبيرا في دفعه لتولي الزعامة للحركة الاسماعيلية ، وموطنه الاصلي مدينة مرو [٤] في بلاد ايران • اما نسبه فيعود الى الامام علي بن ابي طالب [٥] وقيل اصله من اليمن وينسب الى ملوك حمير القدماء [٦] كان قد نزح الى بلاد فارس من مدينة

---

(١) لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ١٤ .

(٢) طه شرف : الدولة النزارية ص ١٣ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ ، تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٧ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية (مادة الحسن) .

الكوفة ، ولكن نظام الملك ينفرد في رأيه ان أهل طوس قالوا ان اجداده كانوا يفلحون الأرض في ديارهم [١] .

اما اسمه كاملا فهو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن الصباح الحميري ، ولكن تاريخ مولده فهو مجهول فقد قيل انه ولد عام ٣٤٨ هـ أو في عام ٤٤٥ هـ او ٤٣٢ هـ . وعلى أية حال فانه ولد في حدود القرن الرابع الهجري كما هو متفق عليه فحمله والده وعمره اثني عشر سنة الى بلاد فارس متجولا بين ربوعها حيث وصل بلاد فارس في مرو وتوطن بها .

ومما لا ريب فيه ان والده اهتم بتربيته تربية عالية حيث درسه العلوم المعروفة في زمانه ، وأوكل تثقيفه كما ذكر الموفق النيسابوري في مدينة نيسابور اذ اهتم بتأديبه كثيرا . ولما كبر تولى الكتابة للرئيس عبد الرزاق بن سلام [٢] كما اشتهر بالغنى والثروة .

والواقع ان الحسن يعد من أكبر الشخصيات العلمية التي عرفتها الدعوة الاسماعيلية ، اضافة الى خبرته السياسية والعسكرية ، حيث قدم للدعوة خدمات عديدة وضحى من أجلها في فترة تجاوزت الخامسة والثلاثين عاما ، وفي ظل الدولة السلجوقية بالذات ، فخدم سلاطينها في البداية ، وأصبح أثيرا لدى السلطان السلجوقي ملكشاه فقربه وأكرمه. أما صفاته فكانت السيرة الحسنة النقية والشهامة . ويذكر ابن الاثير[٣] انه كان عالما بالهندسة والحساب وعلم النجوم اضافة الى السحر وتنفيذ الافكار [٤] وربما كان لانتمائه وهو حدث للدعوة [٥] رسخت اخلاصه

(١) المصدر السابق .
(٢) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .
(٣) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .
(٤) غالب : اعلام الاسماعيلية ص ٢٨ .
(٥) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٨ .

لها ، كما كان الداعي الاسماعيلي الامير ضراب وابا نجم السراج ومؤمن لهم أكبر الاثر عليه ، حيث اصبح معتنقا المذهب الاسماعيلي بعد ان كان يدين بالمذهب الاثني عشري • وعلى ذكر اغلى المصادر فقد تثقف مع نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ومع الشاعر المتصوف عمر الخيام ، حيث تزاملوا وتوثقت أواصر الصلة بينهم وكان نظام الملك يكرمه لفضله [1] حيث ألحقه بخدمة السلطان ملكشاه فسما شأنه وازداد ماله [2] •

ويجب ان لا ننسى اثر الداعي الاسماعيلي احمد بن عطاش عليه اذ كانت الدعوة الاسماعيلية منتشرة في بلاد فارس وكان لها دعاة بارزون وعلى رأسهم ابن عطاش الذي لعب دورا كبيرا في حياة الحسن الصباح وكان هذا ، كما يقول ابن الجوزي [3] طبيبا أخذ ابوه في ايام طغرلبك لأجل مذهبه فاراد قتله فأظهر التوبة ومضى الى الري وصاحب النيسابوري وهو متقدمهم هناك ، وصاهره وصنف رسالة في الدعاء الى هذا المذهب سماها العقيقة ، ومات في سواد الري فمضى ولده الى هذه القلعة •

ومما نلاحظه ان الحسن توجه اليه بعد ان اصطدم بالسلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك فاجتمع بابن عطاش فرحب به ، والواقع ان ابن عطاش يعد من الدعاة المبرزين في الحركة الاسماعيلية سياسيا ومذهبيا ، فقد كان يقوم بالدعوة في اصفهان واذربيجان حيث توجه الى الري ثم استولى على حصن دزكوه المجاورة لاصفهان ويسمى حاليا شاهدز فحكمها قرابة اثني عشرة سنة •

اما كيف اصبحت القلعة في يد ابن عطاش فتروي المصادر وأهمها لابن جوزي [4] في روايته التي مردها ان حافظا تركيا صادقه نجار

---

(١) القزويني آثار البلاد ص ٣٠١ .
(٢) عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٤٥ .
(٣) المنتظم : ج ٩ ص ١٥٠ .
(٤) نفس المصدر ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

باطني واهدى له جاريــة وفرسا ومركبا ، فوثق به واستنابــه في حفــل المفاتيح فاستدعى النجار ثلاثين رجلا من اصحاب ابن عطاش وعمل دعوة ودعا اليها التركي وأصحابه وسقاهم الخمر فلما سكروا دفع الثلاثــين بالحبال اليه وسلم اليه القلعة ، فقتلوا جماعة من اصحاب التركي وسلــم وحده فهرب وصارت القلعة بحكم ابن عطاش .

اما بناء هذه القلعة فكما ذكر ان جلال الدولة ملكشاه هو الــذي بناها . وهناك رواية طريفة حول سبب بنائها فتقول انه ورد على السلطان ملكشاه بعض متقدمي الروم وأظهر الاسلام فخرج معه في بعض الايام للصيد فهرب منه كلب معروف بجودة العدو الى الجبل ، فصعد السلطان وراءه وطاف في الجبل حتى وجده فقال له ابن الرومي : لو كان هــذا الجبل عندنا لبنينا عليــه قلعــة ينتفع عليهــا ، ويبقى ذكرهــا فثبت هــذا الكــلام في قلبــه فبناها وانفــق عليها الف الف ومائتي الــف دينــار [1] .

وبعد بنائها عين عليها السلطان ملكشاه احد دعاتــه المسمى دزدارا الذي بقي يحكمها طيلة حياته . وبعد وفاتــه أزيل الدزدارا وانتقلت القلعــة الى شخص ديلمي يسمى زيار في عهد خليفة ملكشاه ومالكــة اصبهان بعــده (خاتون) ثم تملكها من بعــده شخص خوزي (أي من خوزستان) . ويرد ابن الاثير [2] ان احمد بن عطاش داعي الباطنية اتصل به . وكان احمد هذا قد جمع اعدادا كبيرة من الباطنيــة حيث ألبسوه تاجا ، وجمعوا له اموالا وقدموه عليهم ، لأن اباه كان مقدما فيهم . وقد وثق به الدزدارا وقلده الامور . ومع ذلك نجد ان ابن عطاش سرعان ما يستولي على القلعة ويجعلها تحت سطوته حتى سقوطها بيد السلطان محمد ملكشاه الذي اهتم بأمر الباطنية ورعاها فنزل بهذه القلعة وحاصرها

---

(١) انظر ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .

سنة كاملة حتى اذعنوا له بعد ان قتل رئيسها احمد بن عطاش مع ابنه الذي نقل رأسه بعدئذ مع رأس ابنه الى بغداد عام ٥٠٠ هـ [١] .

اما علاقته بالحسن بن الصباح فمما لا شك فيه ان ابن عطاش كان ذا اثر كبير على توجيه الحسن نحو الدعوة فكان الحسن من خيرة تلاميذه اذ حينما قدم الحسن اليه من الري اعجب به كثيرا حيث ارسله الى اصفهان ينشر الدعوة فيها موكلا لابن عطاش [٢] لأنه اتخذه فيما بعد مساعدا له وداعيا اسماعيليا موثقا به في تلك الديار .

علاقة الحسن بالوزير السلجوقي نظام الملك

اما علاقة الحسن بالوزير نظام الملك فكما يروى ان الحسن كان من اقران نظام الملك [٣] وزير السلطان الب ارسلان السلجوقي وابنه ملكشاه واللذان يعدان من كبار ملوك السلاجقة قاطبة وأشهرهم آنذاك كما ان نظام الملك كان يكرمه ويقدره . ويعد نظام الملك من اولاد الدهاقين في بلاد فارس [٤] وقد اهتم بالعلم فأنشأ المدارس والكليات والرباطات والمساجد والمارستانات باسم السلطان ملكشاه حيث كان مفضلا لديه [٥].

ويروي لويس [٦] ان نظام الملك والحسن بن الصباح وعمر الخيام كانوا تلاميذ لاستاذ واحد فتعاهدوا على ابقاء الزمالة فيما بعد ، وقد رضي نظام الملك على ما تعاهدوا عليه اذ منح بعد تسنمه الوزارة عمر الخيام راتبا سنويا ضخما طيلة حياته . اما الحسن فقد عرض عليه

---

(١) المصدر السابق .
(٢) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .
(٣) سيد امير علي : روح الاسلام ج ٢ ص ٢٢٨ .
(٤) ونظام الملك هو الحسن بن اسحاق بن العباس الوزير ابو علي الطوسي المولود عام ٤٨٠ هـ في مدينة طوس .
(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٩٨ .
(٦) الدعوة الاسلامية الجديدة ص ٥٣ .

احدى الولايات الاسلامية لكنه رفض وطلب ان يدخل في خدمة السلطان، فاختلف الزميلان وحصل التنافس بينهما .

اما أسباب هذا الخلاف فهناك روايات متضاربة بصدده فقد قيل ان الحسن كان قد تقرب الى السلطان ملكشاه فرحب به واعتمد عليه وأصبح يستشيره مما أثار ضغينة الوزير نظام الملك [1] . ولكن هناك رواية مردها ان نظام الملك كان قد اساء الحسن اليه من قبل لما كان يعقده من اجتماعات مع دعاة الباطنية [2] الموفدين من مصر . ورواية تقول ان الحسن كان مرشحا للوزارة ولهذا اختلف معه نظام الملك وتآمر عليه وتمكن بطريق الدس ان يحط من شأنه لدى السلطان السلجوقي ، غير ان هناك من يقول ان الاختلاف المذهبي بينهما يعد سببا للخلاف . ومهما تضاربت الروايات فالنتيجة ان السلطان انقلب وتغير على الحسن وطرده من ملكه ثم من خارج البلاد ايضا فتوجه بعدها الى مصر مركز الدعوة الفاطمية .

اما نظام الملك فانه بقي حاقدا على الباطنية جميعا ولم يعش بعد عزل الحسن طويلا اذ توجه السلطان ملكشاه من اصفهان الى بغداد

---

(١) يقول مصطفى غالب ان السلطان اوعز الى الحسن ان ينظم سجلا جامعا للموازنة في الدولة في مدة اقصاها اربعون يوما فتآمر نظام الملك مع احد غلمان الحسن فقلبوا السجل بعد انجازه بالمدة المحددة راسا على عقب ، ولما عرض السجل على السلطان طلب من الحسن حساب احدى الولايات فضاق صدر السلطان عندما اغتنم نظام الملك الفرصة ودس على الحسن فأمر السلطان بالقبض عليه فتمكن من الفرار وتوجه الى الري . اعلام الاسماعيلية ص ٢٢٣ .

(٢) يروي ابن الاثير ان رئيس الري ابو مسلم صهر نظام الملك اتهم الحسن بدخول جماعة من دعاة المصريين عليه فخافه ابن الصباح وكان نظام الملك يكرمه وقال له يوما من طريق الفراسة : عن قريب يصل هذا الرجل ضعفاء العوام . فلما هرب الحسن من ابي مسلم طلبه فلم يدركه . الكامل ج ١٠ ص ٣١٦ .

معولا على قصد مصر لتملكها فلما وصل الى همدان وثب رجل ديلمي من الباطنية على وزيره « خواجة بزرك نظام الملك » فقتله وهرب ساعته فلم يوجد له أثر [١] .

ومما لا شك فيه ان نظام الملك كان يوصف بالعدل والاحسان ، وقد أسف السلطان وتألم جدا عليه . والواقع ان مقتله جاء على رجل باطني يدعي طاهر أو هو كما قيل ابن واعظ سبق ان شغل عدة مناصب دينيـة ارسله الحسن خصيصا لقتله [٢] وقو تزيا بزي أحـد المساكين فأخرج خنجرا من طياة ملابسه طعنه بها طعنة قاتلة .

ولقد حدد مقتله حسب اغلب الروايات عام ٤٨٥ هـ [٣] ثم حاول في عام ٥٠٠ هـ ابن نظام الملك فخر الملك ووزيره السلطان سنجر ان يثأر لأبيه فهاجم قــلاع الاسماعيلية ولكن الحسن ارسل اليه احد فدائيته فطعنـه بطعنة خنجر .

وهكذا يعد مقتل نظام الملك اول حادثة اغتيال لشخصية سياسيـة لعبت دورها في الدولة السلجوقية حيث استفحل امرهم فيما بعـد في اصفهان لا سيما بعد وفاة السلطان ملكشاه ونظام الملك وزيره . حيث اصبح فاتحة لعهد جديد اخذ الباطنيون بموجبه ينشرون الارهاب والعمل السري والعلني .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٢) ينفي براون بقوله ان تاج الملك الذي خلفه في الوزارة كان المحرض الحقيقي في ارتكاب هذه الجريمة التي ظنها البداية ستساعده على تثبيت مكانته وتقوية نفوذه ، ولكنها أدت في الحقيقة الى قتله هو بعد اربعة شهور من قتل نظام الملك قتله جماعة من اتبــاع نظــام الملك سنة ٤٨٦ هـ تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٣٦ .

رحلة الحسن الى مصر واسبابها

من الملاحظ ان الحسن بعد طرده من البلاط السلجوقي توجه قاصدا مركز الدعوة الباطنية في مصر ، اما الأسباب التي دفعته للتوجه الى مصر دون غيرها فتتضارب الآراء حولها فهناك من يرى ان اخلاص الحسن للدولة وتفانيه لها دفعته الى السفر الى القاهرة ليطلع على اصول المذهب الاسماعيلي ويتبحر فيه • وهنا من يرى ان الحسن بعدما اخفق في تحقيق اطماعه في بلاط السلطان ملكشاه رحل الى بلاط الخلافة في القاهرة حيث اطلع على اسرار المحفل الاكبر • كما ان من يرى ان ابن عطاش رئيس الدعوة في فارس هو الذي حرض الحسن على الذهاب الى مصر ليستزيد من علوم المذهب الاسماعيلي ويقضي شئون الدعوة العملية من ينبوعها الاساسي ، كما ان رأيا يرى ان ابن عطاش أمره بالذهاب ليحضى بمقابلة الامام المستنصر ، وقيل ان السلطان في الري اتهمه بايواء العملاء المصريين حيث هرب لينجو من القاء القبض عليه متوجها الى مصر • ولكن الواقع يؤكد ان الحسن لم يدخل الى مصر الا للاطلاع على اصول المذهب الباطني من ينبوعها • ومما يؤكد ذلك دخوله دار الحكمة متفقها فيها ومتعمقا في دراسة المذهب الاسماعيلي وغيره من مجالس الدعوة في القاهرة لكون المذهب يعتمد على السرية المطلقة •

وقبل ذهاب الحسن الى مصر تجول في بلاد فارس مجتازا طريق اذربيجان وميافارقين [1] ، وبزي تاجر ينشر الدعوة فيها ثم مر في طريقه بالموصل وسنجار وسورية وهو خلال ذلك يلقي المحاضرات بين الناس • وحينما وصل حدود مصر سمع به أهاليها فاستقبله العامة باشتياق كبير اضافة الى رجال البلاد وذلك عام ٤٦١ هـ • وكان من مستقبليه

---

(١) يذكر لويس ان الحسن حينما وصل ميافارقين سرعان ما طرده قاضيها بسبب تأكيده ان الامام وحده فقط له الحق في تفسير الديانة . الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ٥٥ .

داعي الدعاة القزويني . ولما دخل على الخليفة الفاطمي المستنصر [1] بالله رحب به ترحيبا كبيرا وجعل له مجلسا للدعوة لمنزلته ولدوره في الدعوة ، كما أكرمه وقيل ان الخليفة افرد له دارا يسكنها طيلة مكوثه البلاد [2] ، وهذا يدل على علو شأنه لدى الدولة الفاطمية لكونه قطبا من اقطاب الدعوة الباطنية التي لها صلتها بالام القاهرة المعزية . ولأن مدارس القاهرة كانت ترسل الدعاة الى بلاد ايران وهي معقل الشيعة وانها تستقبل الكثير من الشخصيات المؤيدة كالكرماني والشيرازي وناصر خسرو ليتلقوا الدعوة فيها .

ومن هنا نستخلص ان الحسن لم يرحل الى مصر الا لتلقي الدعوة من دعاة المذهب ليعود داعية ورأسا فيهم [3] .

ويرد ابن الأثير [4] ان الحسن حينما وصل مصر دخل على المستنصر صاحبها فأكرمه وأعطاه مالا وأمره ان يدعو الناس الى امامته فقال له الحسن : من الامام بعدك ؟ فأشار الى ابنه نزار . (ونزار هو الابن الأكبر للامام المستنصر الذي يعد اولى بالامامة من غيره على عادة تعاليم الاسماعيلية التي تشترط في الامام ان يكون اكبر ابناء ابيه) [5] .

وعلى أية حال فقد بقي الحسن مخلصا للخليفة المستنصر حتى وفاته

---

(١) المستنصر بالله هو ابو تمام معد بن ابي الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام ، وكانت خلافته ستين سنة واربعة اشهر وكان عمره سبعا وستين سنة وهو الذي خطب له البساسيري في بغداد . ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) يرى فريق ان الخليفة المستنصر لم يقابل الحسن خلال وجوده في مصر .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ .

(٤) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٥) محمد سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٩١ .

عام ٤٨٧ هـ • ولقد جاوزت مدة بقائه في مصر ثمانية أشهر [١] تطلع خلالها على المحفل الاكبر • لكنه اصطدم بالقائد بدر الجمالي [٢] بسبب الخلافة، اذ عين المستعلى (ابو القاسم احمد المولود عام ٤٦٧ هـ وهو الابن الاصغر وخليفة المستنصر من بعده بدلاً من نزار الابن والـذي ناصره الحسن الصبـاح) •

ويقول المقريزي [٣] انه لما مات الخليفة المستنصر بالله ابو تميم معد ابن الامام الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله ابي علي منصور بأمر الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي اذ جاء الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر ، فجاءوا اليه فاذا أخوهم احمد وهو اصغرهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا وشق عليهم وامرهم الافضل بتقبيل الارض وقال لهم : قبلوا الارض لمولانـا المستعلي بالله وبايعوه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر بعد وفاتـه بالخلافة من بعده • فامتنعوا من ذلك ، وقال كل منهم ان اباه وعـده بالخلافـة ، وقال نزار لو قطعت ما بايعت من اصغر مني سنـا وخط والدي عندي بأني ولي عهده وانا احضره ، وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى لا يدري به احد وتوجه الى الاسكندرية [٤] •

ومن هنا نرى ان الخلاف قد استفحل بين الحسن وبدر الجمالي ادى

---

(١) يرى لويس ان مدة بقاء الحسن في القاهرة بلغت الثلاث سنوات في الاول في القاهرة وبعدئذ في الاسكندرية . الدعوة الاسماعيلية ص ٥٥ .

(٢) قيل ان المستنصر كان يستكثر من العبيد حيث جعل التنافس والحروب بينهما مما اضطره الى الاستعانة برجال من بلاد الشام كان على راسهم بدر الجمالي وهو ارمني من اصل سوري حيث قتل الكثير من اهل الدولة واقـام بمصر هذا عددا من الارمن . جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٣٥ . وقيل ان بدر الجمالي هو والد زوجة المستعلى . طه شرف : الدولة النزارية ص ٥٤ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٣٥٦ .

(٤) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٥٦ .

بالاخير الى سجنه ثم اخراجه من البلاد نهائيا على ظهر سفينة الى افريقية حيث تحطمت في البحر وانقذ منها باعجوبة فنزل بلاد الشام وهو يدعو لنزار ثم في بغداد وخوزستان واصفهان التي تعد مركزا للاسماعيلية كما توجه الى كرمان وطبرستان ودامغان وقزوين ناشرا الدعوة فيها • كما دخل طاشغر وبلاد ما وراء النهر [1] •

اما نزار فانه هرب ايضا كما يروي الى الاسكندرية وبها القائد افتكين مولى ابيه فقام له بالامر ولقبه ناصر الدولة ، واخذ له البيعة على أهل البلد ويساعده ابن عمار قاضي الاسكندرية ، ولكن بدر الجمالي توجه الى الاسكندرية يحاصر قائدها لكن القائد افتكين هزمه الى القاهرة غير انه حشد له جيشا آخر ونازلها وافتتحها عنوة وقتل أعيان اهلها ، ثم قدم الافضل افتكين ونزار الى القاهرة فقتله المستعلى وبنى حائطا على أخيه نزار عام ٤٨٨ هـ [2] •

استيلاء الحسن على قلعة آلموت

في الحقيقة ان الحسن الصباح حينما خرج من مصر هاربا الى بلاد فارس ثانية وهو يحمل فكرة الدعـوة الى الخليفـة الفاطمي الشرعي والمغتصب نزار ، وكل غرضه من ذلك تكوين دولة اسماعيليـة جديـدة ومنظمة تتركز فيها المبادىء الاسماعيلية ، وجعلها مركز اشعاع في باقي المناطق الاخرى لذا اخذ يسعى الى ذلك حيث استطاع وبسجهود جبـار

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٣١٣ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٣ ، وهناك فريق يرى ان نزار هرب مع الحسن الى بلاد فارس مع ولده الذي لقبه الهادي بعد وفاته اعلام ص ١٢٥ ، ولكن صاحب تاريخ ذيل دمشق يذكر ان ابن نزار خرج من مصر الى خراسان الى بيت الصباح في قلعة آلموت واتصل اليهم واولد هذا الابن من بيت ابن الصباح ، ومات هناك وله ابن نص عليه ليس نزار بل محمد بن نزار . اعلام الاسماعيلية ص ١٢٨ ٩٠

ان يستولي على حصن منيع الا وهو الموت [1] فيجعلها قاعـدة له .

اما كيف تم له ذلك فيروي ابن الاثير [2] ان الحسن حينما رأى قلعة الموت واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطمع في اغوائهم ودعاهم في السر واظهر الزهد ولبس المسح فتبعه أكثر والعلـوي صاحب القلعـة حسن الظن به يجلس اليه يتبرك به فلما أحكم الحسن أمره وضل يوما علي العلوي بالقلعة فقال له : اين الحسن الصباح : أخرج من هذه القلعة . وهكذا اخرج منها الى الدامغان واعطـاه مانـه وملك القلعة وذلـك عـام ٤٨٣ هـ [3] .

وهناك من يري ان هذه القلعة كانت لقماج صاحب ملكشاه وكـان يستحفظها متهما بمذهب المقدم فأخذ الفا ومائتي دينار وسلم اليهـم القلعة [4] . ومما لا ريب فيه ان الحسن حينما استولى على القلعة لـم يجد مقاومة تذكر اذ اهمل الناس شأنه واستفحل امرهم لانشغال أولاد ملكشاه بنفوسهم [5] . وان كان والدهم ملكشاه قد ارسل حملة اليـه في حياته لكنها صدت من قبلهم ـ ومهما يكن من أمر فان الحسن استقر في هذه القلعة قرابة خمس وثلاثين عاما وهو يدعو الناس الى تعيين امام

---

(1) في اللغة الفارسية القديمة تسمى آلموت عش النسر وهو يقـع في احدى القلاع الجبلية المنيعة شمال ايران . احمد امين : روح الاسلام ج٢ ص ٢٢ . وآلموت تعد قلعة حصينة من ناحية رود بار من قزوين وبحر الخزر على قلعة جبل وهو لها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب قبل ان بعض ملوك الديلم ارسل عقابا على الصيد فقعد على موضع آلموت فرآه حصينا فبني عليه قلعة وسماها اله آموت ومعناها بلسان الديلم تعليـم العقاب . ويقال : لذلك الموضع وما يجاورها الطالقان . ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ في ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لانها كتبت في سنة ست واربعين واربعمائة وهي موت . القزويني : آثار العباد ص ٣٠١ .

(2) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(3) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .

(4) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(5) شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .

صادق قائم في كل زمان وتمييز الفرقة [1] . كما ارسل مبعوثين الى منطقة الدامغان حيث سوعدوا هناك من قبل حاكم الدامغان مظفر الذي كان يدين بمذهب الاسماعيلية ثم علت منزلته بين قومه فلقب بشيخ الجبل كما اخذ باحتلال قلاع مجاورة لالموت منها حصن جردكوه (كردكوه) وقلعة طبس وقهقستان وسنسكوه وهي بقرب ابهر وقلعة خليجان وقلعة ازدهن ملكها ابو الفتوح ابن اخت الحسن وقلعة اشنبور وخلاوجان وخوزستان .

وهكذا اخذ ينشر للدعوة الباطنية في معظم بلاد فارس مستغلا النزاع بين اولاد السلطان محمد وأخيه بركيارق . ولقد حاول نظام الملك من قبل صد الباطنية لكنه سرعان ما قتل بأيديهم لذا أصبح المجال مفتوحا امام الحسن للعمل على ترسيخ دعائم الحركة في تلك الديار ، وقتل الامراء الأكابر غيلة فخافه الناس وعظم صيتهم [2] .

غير أن الأحوال تبدلت اذ أخذ السلطان محمد بن ملكشاه يفكر بالقضاء عليهم بعد ان أحس بازدياد أثرهم لذا جهز نحوهم العساكر فحصرها [3] ، لكن تلك العساكر كانت تبوء بالفشل اذ أرسل السلطان محمد قائده انوشتكين شيركو الى آلموت وأمده السلطان باعداد كبيرة من الجيش وحاصر القلعة فاستولى وهو في طريقه على قلاع عدة منها قلعة كلام وقلعة بيرة ثم توجه الى آلموت فحاصرها قرابة خمسة سنوات دون جدوى ولكن بعد وفاة السلطان محمد اضطر انوشتكين الى فك الحصار كما سير السلطان محمد ايضا اليها وزيره احمد بن نظام الملك لقتال الحسن ومن معه من الاسماعيلية ولكن الشتاء هجم عليهم فعادوا فاشلين [4] واستمر هكذا الصراع بين السلاجقة والباطنية فترة

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .
(2) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢٠ .
(3) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .
(4) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣١٨ .

كانت الغلبة لصالح الحسن كما ازدادت معنوية الباطنية خصوصا بعد وفاة السلطان محمد حيث نظموا امورهم ومضوا بعزيمة خارقة يثبتوا الدعوة لنزار دون أخيه المستعلي غير ان السلطان الجديد بركيارق اجتهد في تتبعهم وقتالهم (١) دون جدوى .

وهكذا نلاحظ ان السلاجقة مهما استعملوا من وسائل الشدة لكن الدعوة ثابتة في آلموت حوالي السبع السنين توفي بعدها الحسن بعمر بلغ التسعين مستخلفا اميد رودبار وكميابزرك اميد (٢) .

ولقد توسعت دعوتهم الى اصفهان نفسها وهي احدى عواصم الدولة السلجوقية (٣) فينقل مؤلفات الدعوة ومبادئها هناك وهم يدعون بامامة اسماعيل وبنيه من آل البيت .

اما خلفاؤه فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة وقاموا بقتل امراء السلاجقة وبقي الصراع على أشده بينهما وقد قام جلال الدين منكبرتي ابن خوارزم شاه بمحاصرة آلموت لقتلهم بعض امرائه غيلة وضرب قلاعهم في خراسان (٤) .

ولقد انتهى حكمهم عام اربع وخمسين وستمائة للهجرة وكان عدد

---

(١) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ (ويروي ان قلعة آلموت حوصرت من قبل السلطان السلجوقي حيث ارسل اليه السلطان رسولا يطالب الاستسلام ويدعوه بطاعته فنادى الحسن احد فدائيته وقال له : ألق بنفسك من هذا البرج ففعل . وقال للثاني : اطعن نفسك بهذا الخنجر ففعل . فقال للرسول : اذهب وقل لمولاك انه لدي سبعون الف أمثال هؤلاء الذين يبذلون دمائهم في سبيل عقيدتهم) غالب . اعلام الاسماعيلية ص ٥ .

(٢) فضل الله الهمداني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٨ (ويروى ان ابن الصباح كان له ولد اسمه ايضا الحسن فزعم انه معد ولد نزار ومن ثم طالب بالامامة) (دائرة المعارف الاسلامية مادة الحسن) .

(٣) العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٦١٤ .

(٤) عنان : تاريخ الحركات السرية ص ٥٢ .

ملوكهم ثمانية يذكرها الهمداني [1] وهم الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري وكيابزرك اميد وكان وهو والحسن داعيين ومحمد بزرك اميد ومحمد حسن وجلال الدين بن محمد بن حسن ركن الدين الذي ختمت به الدولة الاسماعيلية .

مبادىء دعوتـه

ومما لا شك فيه ان الحسن الصباح حينما اعتنق المذهب الاسماعيلي أو الباطني فانه تفانى في الاخلاص له اذ لم يزل عن مبادئها مطلقا وبقي ينشر تلك المبادىء في ربوع بلاد فارس وهو يتلقاها من مجالسها الاصلية الاساسية في القاهرة لذا نلاحظ ان الحسن لم يكن الا داعيا للفاطميين أي داعيا اسماعيليا وقد احترمته العامة فكانت تيمية باسم سيدنا . اما اتباعه فكانوا باسم الاسماعيلية او الالموتية مما يـدل على وجـود دعوتـه الاسماعيلية ليس الا ، وكانت تلك المبادىء تقـوم على تأويـل القرآن وتفسيره بقولهم لكل ظاهر باطن ، كما كانوا يقدسون الائمة باعتبارهم هم وحدهم الذين يقومون بتأويل القرآن وليس غيرهم [2] . وكان يترتب المذهب كما هي عادة السبعية الاسماعيلية على سبع درجات : داعي الدعاة وكبار الدعاة المساعدون والدعـاة ثم الرفاق واللاحقون والفدائيـون والمستجيبون .

وكان الحسن نفسه محافظا على سنن الدين والمذهب الاسماعيلي لا يبيح الخمر ولا الموسيقى في دائرة حكمه ويصفه اتباعه بنقاوة السيرة مستقيم حتى انه لم يتورع في قتل ابنه بتهمة الاشتراك في قتل احد الدعاة المخلصين كما قيل انه قتل ابنه الثاني لشربه الخمر سرا .

---

(١) جامع التواريخ ص ٢٥٨ .

(٢) يقول ابن الجوزي: كان الحسن يقول للمستجيب اذا كانت الازارقة والخوارج سمحوا بنفوسهم في قتال بني امية فما سبب بخلك بنفسك في نصرة امامك . تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

أما بالنسبة لاساس الدعوة فان الحسن قسم مراتبها الى قسمين مراتب عالية ومراتب منخفضة فالمراتب العالية يتولاها اضافة الى الامام الداعي الكبير وتشمل على عدد من الدعاة يتولاها اضافة اليه في مقاطعات مختلفة ثم الدعاة العاديون او المساعدون •

اما المراتب المنخفضة فهي مرتبة الرفيق واللاحق والفدائي والمستجيب • والفدائية فرقة احدثها الحسن وانفردت بها الدعوة فتميزت عن غيرها اذ احتاج الصراع السياسي بينه وبين السلاجقة الى احداث فرقة فدائية غايتها الثأر والانتقام من الاعداء ، وباخلاص تام وعقيدة فيضحون بأنفسهم لأجل الدعوة مهما يكن [1] • كما احدث ايضا منصبا جديدا في الدعوة الا وهو منصب شيخ الجبل ، وكان الحسن يسمى بهذا اللقب •

ومن تعاليم دعوته قوله بالحق والباطل والصغير والكبير فيقول : ان في العالم حقا وباطلا ، وان علامة الحق هي الوحيدة وعلامة الباطل هي الكثرة ، وان الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الامام والرأي مع الفرقة المختلفة وهي مع رؤسائهم • وجعل الحق والباطل التشابه بينها من وجه والتمايز بينهما من وجه التضاد في الطرفين والترتب في احد الطرفين ميزانا يزن به جميع ما يتكلم به •

كما تقول الدعوة انه انشأ هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها من النفي والاثبات ، والنفي والاستثناء قال : فما هو مستحق النفي باطل وما هو مستحق الاثبات حق • كما ان كل كلمة تحتاج الى اثبات المعلم وان التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتى يكون توحيدا ، وان النبوة هي النبوة والامامة معا حتى تكون نبوة [2] •

ومن مبادئه ايضا انه لا بد من معلم معتمد صادق وان معرفة الباري

---

(١) يطلق البعض عليهم الحشيشية باعتبار ان الدعاة الباطنية كانوا يأكلون أوراق الحشيش يتخدروا فيقوموا باداء الواجب .

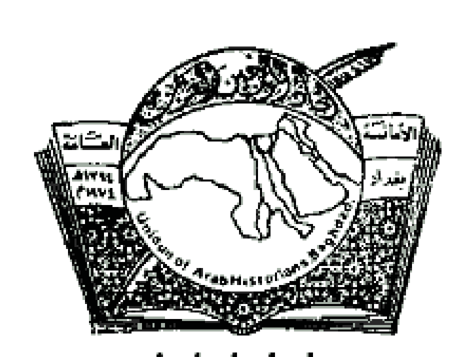
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٥ .

يحتاج الى معلم صادق يجب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه .

وهذا مما لا شك فيه ان الحسن الصباح اسهم في تأليف الكتب المذهبية وبها مبادىء الدعوة الباطنية والتي تعد مقدسة [1] لكنها فقدت جميعها عدا كتاب سركوشت سيدنا ومعناها تاريخ سيدنا . وكان يقوم بتثقيف الناس على اسس هذه الدعوة ومبادئها الفلسفية . ولقد افادت الدعوة منه الكثير حيث استطاع وبدهائه وبمقدرته الحربية والسياسية والفكرية ان ينشأ هذه الحركة في تلك الحصون المنيعة ثم توسيعها الى مناطق اخرى متعددة حيث ينال بذلك شهرة وصيتا لم تحصل لغيره من الدعاة المتأخرين حتى انتهت أخيرا بوفاته اولا ثم بتحطيم قلعته فيما بعد في عهد خلفائه ثانيا وزوالها من عالم الوجود .



(1) ايفانوف : المرشد الى الادب الاسماعيلي ص ١٥ .



المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد العاشر

طبع على نفقة وزارة الثقافة والفنون
في الجمهورية العراقية

مجلة
المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع على نفقة وزارة الثقافة والفنون
في الجمهورية العراقية

كلمة العدد

يسر الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب أن تقدم للباحث والمؤرخ العربي العدد الجديد من مجلته العلمية في مفتتح السنة الجديدة / ١٩٧٩، وهي أذ تهدي هذا المجهود الذي تعاون على أخراجه نخبة خيرة من الباحثين والعلماء من اقطار عربية واجنبية شتى ، لتعتز بالتكامل الواضح في تطور وازدهار هذه المجلة التي اخذت طريقها الى كل الجامعات والمؤسسات الثقافية في العالم .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب لفخورة أيضا بالدعم الكبير من الحكومات العربية والمؤسسات العلمية والتي ما فتئت في تقديم كل عون ممنوي ومادي من أجل اظهار هذه المجلة ببريقها العلمي وشموخها الثقافي وسماتها القومية النبيلة .

تحية الى كل المخلصين من ابناء العروبة الذين عملوا ويعملون على رفع مكانة التاريخ والحفاظ على تراث الامة الخالد .

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أسرة التحرير




مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

محتويات العدد العاشر لمجلة المؤرخ العربي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الدعوة العباسية

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

الدعوة العباسية بحث طريف ، صفحة من صفحات التاريخ الاسلامي تظهر كيف أن أسرة ادعت أنها صاحبة الحق الشرعي وبثت الدعوة ونمت الفكرة بصورة سرية ونشرتها في الآفاق ، وجمعت الأنصار وصارت تتحين الفرص لاعلانها وأخذت الدعوة تقوى شيئا فشيئا وتنتشر بين البلدان والأقطار وانطوى المشرق تحت جناح العباسيين واستعمل شيء كبير من الدهاء ، واستغل بيت آخر لعله أحق من البيت الأول بالخلافة ، أما كيف بدأت الدعوة ؟

فقبل أن نجيب على هذا السؤال ، نسأل كيف تطلع العباسيون الى الخلافة ؟ وهذا موضوع مهم وغريب في الوقت نفسه وكلنا يعلم ان الخلافة في أول أمرها قامت على الشورى وقد انتخب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكانت خلافتهم جميعا صحيحة وشرعية على ما أرى ، على الرغم من وقوع بعض الاختلافات في طريقة انتخاب كل منهم ٠

نلاحظ من سياق الحوادث التاريخية بعد وفاة الرسول محمد (ص) ان العباس بن عبد المطلب عم النبي كان موجودا ولم يفكر أحد في تقديمه الى الخلافة ولم يرشح هو نفسه لذلك المنصب ٠ ثم جاء الأمويون واستحوذوا على الخلافة بالقوة

واستمروا في ذلك وكان هناك فريق من المسلمين يرى ان الأمر سار على غير نظام وان الحكام الامويين انحرفوا عن جادة الطريق الاسلامية ·

وأول من وصلت الينا أخباره انه سعى في مناوأة الأمويين وطلب الحكم هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي وجه الدعاة في الآفاق (١) ، وكان محمد هذا يسكن في « الحميمة » : قرية من القرى التي أبعد الأمويون اليها بعض مناوئيهم وهي تقع في الأردن · وكان قد نزل الحميمة (أبو هاشم) بن محمد بن الحنفية عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي طالب رئيس الشيعة الهاشمية ، ويقال ان أبا هاشم لما طعن في السن وأحس بدنو أجله أوصى لمحمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بالامامة من بعده (٢) ، بعد أن علمه الأسماء والعلوم ودفع اليه كتبه وصرف اليه معظم مؤيديه وأعلمه بكل الخطط التي رسمها للثورة التي يستهدف تنفيذها · ولا زال الغموض يكتنف هذه الرواية التي فيها من عوامل الضعف ما يحملنا على التحفظ وعدم الجزم بصحتها ·

ولاحظ الدعاة وتفهموا ما عليه الناس من الحقد والتذمر من ثقل الضرائب الكثيرة وزيادتها عليهم في مناسبات عديدة كما أخذوا الجزية والخراج ممن كان قد أعفي كالفقراء والرهبان والعاجزين وابتدعوا ضرائب جديدة كالرسوم على الصناعات والحرف وضرائب على من يتزوج وأرجعوا ضرائب ساسانية قديمة مثل هدايا النوروز ، وكان ولاة الأمويين في الغالب قساة في جمع الضرائب وكان لسياستهم المبنية على العنف أثر كبير

---

(١) ابن الاثير / الكامل في التاريخ حـ ٤ ص ١٥٩ .

(٢) المسعودي / التنبيه والاشراف ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

في سكان الولايات • وقد استغل الدعاة الانقسام الذي وقع في صفوف العرب خاصة بين القيسيين واليمانيين ، وظهور روح التعصب القبلي ، ومن الجدير بالذكر أنه قامت بين القبائل العربية منازعات كثيرة في بلاد فارس • وكانت للثورات المتعددة والحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة الأموية آثارها البعيدة في استنزاف موارد الدولة ومقتل الكثير من الجند العربي وانتشار العرب وهجرتهم الى الغرب والشرق ، وهذا بالطبع أضعف العنصر العربي وشتته في الأقطار البعيدة، كما أحس الدعاة بروح التذمر العامة التي سادت نفوس الشعوب المفتوحة ومحاولتهم التخلص من الحكم الأموي •

ويبدو لنا ان شخصية محمد بن علي العباسي كانت قوية ويمتاز بالذكاء وحسن التدبير •وفي سنة ١٠٠هـ أرسل رجلا الى الكوفة يدعى ميسرة (١) كما أرسل الى خراسان محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج (يدعى بأبي محمد الصادق) وحيان العطار وكل هؤلاء من أهل الكوفة وأمرهم بالدعوة له ولآل بيته ، وقد اختار أبو محمد الصادق اثني عشر نقيبا وسبعين داعية وكتب اليهم محمد بن علي كتابا يسترشدون به ويسيرون على نهجه ، وقد انضم الى الدعوة كثير من الرجال لعل من أشهرهم بكير بن ماهان وقد أصبح هذا من كبار الدعاة وحل محل ميسرة بعد وفاته (٢) •

وعندما ظهر نشاط هؤلاء الدعاة أخذ الأمويون يراقبونهم ويتعقبون حركاتهم ، وفي سنة ١١٨هـ أرسل بكير بن ماهان داعية يعرف عمار بن يزيد الى خراسان وقد غير هذا اسمه الى

---

(١) ابن الاثير / الكامل جـ٤ ص ١٥٩ •
(٢) الطبري / جـ٢ ص ١٤٦٧ •

(خداش) (١) ويبدو أن خداشا هذا كان على جانب كبير من النشاط والفعالية ولكنه انحرف عن الدعوة وصار يدعو الى ما دعت اليه الخرمية ونادى باشتراكية النساء وكانت عاقبته أن أمر الوالي بقتله ، وبعد خداش ترأس الدعوة في خراسان سليمان بن كثير الخزاعي (٢) وهذا عربي من قبيلة خزاعة المشهورة ، وتجدر الاشارة هنا ان بعض المؤرخين خاصة المستشرقين منهم غالوا في القول من أن أكثر الدعاة من الموالي أي غير العرب والحقيقة ان المتأمل في التاريخ ونصوصه يجد أن المؤرخين القدامى عند ذكرهم أهل خراسان مثلا لا يقصدون الأعاجم انما كان القصد منها في كثير من الأحايين يراد به القبائل العربية التي كانت تسكن هناك أي في خراسان وقد نسب الكثير من العرب الى المدن الفارسية فاذا ما ولد عربي في مدينة مثل كرمان أو أصفهان أو تبريز نسب الى تلك المدن . ولا ننسى أن الفاتحين الذين فتحوا بلاد فارس كانوا من القبائل العربية ومعظمهم من سكان مدينتي البصرة والكوفة ، فلا عجب اذن أن يكون الكثير من الدعاة من العرب المتحمسين ضد الحكم الأموي ومن المؤيدين لآل علي وآل العباس ، ومن أشهر الدعاة العرب على أساس المثال لا الحصر قحطبة بن شبيب الطائي ، وسليمان ابن كثير الخزاعي وأبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وخالد ابن ابراهيم الذهلي ، وأبو عمر بن حريز المزني والقاسم بن الجيوش وقياداتها كانت بأيد عربية معروفة ، والمهم هنا أننا الجيوش وقياداتها كانت بأيدي عربية معروفة ، والمهم هنا أننا يجب أن نفتش عن الحقيقة تلك التي تظهر الأثر العربي في

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص ١٥٨٨ .

(٢) **ولهاوزن** / الدولة العربية وسقوطها ص ٤٠٧ ترجمة الدكتور يوسف العشي .

الدعوة العباسية على عكس ما يتناقله المستشرقون ومقلدوهم .

لقد انتشر الدعاة في الأقطار خاصة خراسان ، والظاهر ان العباسيين ركزوا اهتمامهم في المشرق وقد لاقى الدعاة من الحكام الأمويين صنوف الاضطهاد والعذاب ، والذي يبدو أن هؤلاء الدعاة لم يبالوا بل مضوا في بث الدعوة بشكل مستميت ، والدعوة مثل رائع عن الصبر في سبيل المبدأ ، فقد صبر هؤلاء أكثر من ربع قرن واحتملوا الأذى من أجل الهدف . وكان الداعية يتزيا بزي التجار المتنقلين أو يفتح دكانا في قرية أو متجرا في مدينة أو يشتغل خادما في بيت أو في محل تجاري ويتعلم أكثر من لغة أجنبية ويتعود بعادات أهل البلد وبتقاليدهم ويقوم بتنفيذ التعليمات بنظام ويقظة وحذر ، وكان المبدأ العام المرسوم للدعوة أنها ظاهريا للعلويين وباطنيا للعباسيين . ومن حديث لمحمد بن علي العباسي الى دعاته أن يكتموا اسمه عن العامة في قوله : « فان سئلتم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم امامنا » . فقد نجح العباسيون في كسب عناصر كثيرة كانت تعطف على العلويين وترى أنهم أصحاب حق مغتصب ، وحاول العباسيون نشر بعض الأفكار التي اتخذوها مثال ذلك أنهم صاروا يروجون أنهم ورثة علم الباطن الذي انتقل من الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وقد قلنا سابقا أن الدعوة انتظمت في خراسان وقد أنتخب اثنا عشر نقيبا وسبعون داعية وهذا الرقم الذي ذكرناه شبيه باختيار الرسول (ص) باثني عشر نقيبا وسبعين داعية من رجال يثرب بعد بيعة العقبة الثانية وان شعارهم الأسود الذي اتخذوه لم يكن الا احياء لراية الرسول (ص) .

وفي سنة ١٢٥هـ توفي محمد بن علي بن عبد الله العباسي

وتولى الامامة ولده ابراهيم (١) الذي أرسل بكير بن ماهان الى خراسان وزوده بالوصية ودخل مدينة مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة فنعى كلهم الامام محمد بن علي ودعاهم الى ابراهيم وسلموا اليه ما جمعوه من المال باسم الامام • وفي سنة ١٢٦هـ توفي بكير بن ماهان وكان بكير قد أوصى أن يكون أبا سلمة الخلال رئيسا للدعوة ، ويعتبر أبو سلمة الخلال من الدعاة النشيطين وهو الذي أظهر الدعوة العباسية من طورها السري الى حالتها العلنية،ونلاحظ أن الكوفةكانت مركزا للامام وكانت أكثر التعليمات تصدر منها الى جميع الدعاة ، ومن الجدير بالذكر ان العرب شاركوا في هذه الدعوة بأعداد كبيرة وكان للفرس عدد لا يستهان به من الدعاة وأكثرهم من أصحاب المصالح من الباعة والتجار وأصحاب الحرف • وكانت الدعوة تسير ببطء • واعتقادنا في هذا ان الحذر والتحفظ والتأني هي العوامل التي جعلت الدعوة تنتشر بهذه الطريقة البطيئة • كما نلمس أن العباسيين رأوا أن تكون دعوتهم تتركز في أشد المناطق حقدا على الدولة الأموية ، لذا نجد أن مركز الدعوة كان في الكوفة الذي يعج بشيعة الامام علي وبالذين يعطفون على العلويين كما كان هذا المركز يزودهم بعناصر المعارضة الشديدة للامويين • كما اتخذت خراسان قاعدة كبيرة تنتشر منها الدعوة العباسية ، وهناك في خراسان تنفذ التعليمات التي تصدر عن المركز العام ــ الكوفة ــ بكل حرية لأن الادارة الأموية على ما يبدو في هذه المنطقة كانت ضعيفة والمعارضة كانت شديدة كما كان هناك جماعة من الرجال العرب والفرس يحقدون على الحكم الأموي ، كما أن اتخاذ الكوفة المركز الرئيسي للدعوة ومقام الامام يؤيد رأينا بقوة العنصر العربي وأهميته وفعاليته في

---

(١) ابن الاثير / حوادث ص ١٢٥ .

الدعوة العباسية ، ذلك أن الكوفة هي من أهم المراكز العربية في العصر الأموي وتعج بالقبائل العربية .

في هذه الفترة يظهر أبو مسلم الخراساني وشخصية هذا الرجل مثيرة وغامضة ولكنها لا تخلو من العبقرية والنشاط وهو يمثل الانسان العصامي الطموح الذي يشق طريق حياته بارادة قوية ، ولد كما تروي الروايات والأخبار التاريخية في مدينة أصفهان من أب من الموالي اسمه (خوكان) وأم جارية فارسية ، كان أبوه في عسر من الحياة وضنك العيش دفعه الى بيع زوجته الحامل الى شخص اسمه عيسى بن معقل العجلي . وقد ولدت الأم طفلا سمي ابراهيم وكني بأبي مسلم ، ومرت به الأيام التي ساقته الى الانخراط في الدعوة العباسية فتوصل الى ابراهيم الامام ولما لاحظ هذا ذكاءه وفطنته مع جانب من الثقافة الفارسية والعربية وتقدير جيد في استغلال الظروف . فوضع الامام شيوخ الدعوة في طاعته وأوصاه ألا يخالف الشيخ سليمان بن كثير الخزاعي وزوده بتعليماته . اذن من الثابت أن أبا مسلم لم يكن عبدا بل كان مولى وهذا ما اتفقت عليه الروايات ، ولو أن تلك الروايات اختلفت في مكان ولادته فابن الطقطقي (١) يذكر أنه ولد في أصفهان بينما يذكر الدينوري أنه ولد بالقرب من أصفهان ويذكر المسعودي أنه ولد في قرية قرب الكوفة . أما الطبري فيذكر أنه ولد بالقرب من خطرنية وهي قريبة من الكوفة ، وكانت هذه القرية مزدحمة بالفرس الذين كثيرا ما يثيرون المشاكل للامويين ، وقد يكون من الجائز أن يكون قد ولد فيها أو نشأ فيها . وهنا تعترضنا مشكلة ذات صلة بسياسة الامام تحتاج الى التفكير ، اذ يروي الطبري أن ابراهيم الامام

---

(١) ابن الطقطقي / الفخري في الاداب السلطانية ص ١٠٠ .

أوصى أبا مسلم الخراساني بوصية هذا نصها : « يا عبد الرحمن انك رجل من أهل البيت فاحتفظ بوصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وأحل بين أظهرهم فان الله لا يتم أمره الا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة فانهم معهم ، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو والقريب الدار فاقتل من شككت في أمره منهم ، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع من نفسه منه شيء • وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » • ان هذه الوصية كما أراها موضوعة لا أساس لها ذلك لأن تصرفات وسياسة أبي مسلم لم تعكس أي جانب من تلك الوصية بل كانت على العكس تصرفاته سياسة وسياسة تقريب الى كل عربي وغير عربي ، ان ابتداء الوصية : انك رجل منا أهل البيت ، فيها نظر فقد يكون الفرس قد دسوا هذه الوصية ليثبتوا أن أبا مسلم فيه قدسية وبركة وأنه من آل البيت وليحيطوه بهالة من التقديس والاحترام أو أن تكون هذه الوصية نشرها الأمويون ليؤلبوا العرب على العباسيين الذين كانوا قد أعلنوا دعوتهم • وأرجو أن تلاحظوا التناقض الموجود في الوصية • ففي أولها يوصي الامام بقوله : (وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمه وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم أمره الا بهم) • وفي نهاية الوصية شيء يناقض البداية في قوله (وان استطعت أن لا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل) (١) وهذا ان دل انما يدل على أن الموصي على جهل بالسياسة وانه في قلق وتناقض ولا أرجح أن الامام ابراهيم العباسي الذي يشرف على ادارة هذه الدعوة في أنحاء العالم الاسلامي والذي يريد تحطيم أقوى دولة في ذلك العهد انه يتصف بهذه الصفات أو يحمل تلك الأساليب التي تؤلب الناس

---

(١) الدينوري : الامامة والسياسة حـ٢ ص ١٢٤ •

عليه وعلى قضيته ، هذا بالاضافة الى أن العباسيين أو الدعوة بحد ذاتها كانت موجهة ضد الحكام الأمويين وليست ضد الشعب العربي ، ومن الجائز أن يتخذ الدعاة أو النقباء أو أي مسؤول عن الدعوة سياسة شديدة ضد المناوئين للدعوة والذين هم بذاتهم خطر على مصير الفكرة العباسية ، ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن رئيس الدعاة في خراسان هو سليمان بن كثير الخزاعي ، وهو عربي من خزاعة التي كانت تمتلك القرى العديدة في واحة مرو • وكان سليمان بن كثير هذا قد اتخذ من قرية سقيدنج (١) مركزا للدعوة العباسية وظلت هذه القرية هكذا حتى اتخذ أبو مسلم قرية مخوان (٢) مركزا للدعوة العباسية ، وسبق أن ذكرنا أن ابراهيم اعتمد على أبي مسلم الخراساني وولاه أمر الدعوة بعد أن كبرت السن بسليمان بن كثير الخزاعي وذكرنا أن ابراهيم الامام أوصى أبا مسلم الخراساني بوجوب طاعة سليمان بن كثير وعدم مخالفته ،وهناك نصوص تاريخية صحيحة تظهر الأثر العربي ودوره الكبير في الدعوة العباسية • ويروي الطبري : ان عدد النقباء اثني عشر نقيبا ، ثمانية منهم من العرب فكيف اذن نستسيغ صحة هذه الوصية مع علمنا بوجود هذه الظروف وتوفر هذه الحالة • ونكرر أن هذه الوصية حسب اعتقادنا مدسوسة لغرض معين ولا أساس لها من الصحة •

كان أبو مسلم الخراساني نشيطا أظهر من الفعاليات ما جعل الناس يلتفون حوله ، والذي يبدو لنا ان الهيأة القيادية للدعوة العباسية كانت على شكل جماعة ، (وأعتقد) أن النقباء الاثني عشر هم الذين يكونون هذه الهيئة القيادية وأرجح أن من

(١) سقيدنج : من قرى مرو .
(٢) وتكتب ماخوان : قرية ابي مسلم الخراساني ومنها خرج بثورته .

واجباتها التخطيط العام للدعوة وتوجيه الدعاة ونشر التعاليم الخاصة بالدعوة بين الناس وطبيعيا ان الرأس لهؤلاء النقباء هو الامام محمد بن علي أو ابراهيم الامام أو أبو العباس ٠

وقد تقرب أبو مسلم الخراساني الى طبقة العبيد وأخذ في استدراجهم وتقريبهم وضمهم الى الدعوة العباسية ولكي يدفعهم بحماس نحو تأييد الدعوة عين أحد الدعاة من أولئك العبيد ، وكانوا يمثلون أعداد كثيرة ٠ ومن فعاليات أبي مسلم الخراساني أنه بعث بدعاته يجوبون الأقطار خاصة نواحي خراسان في زي التجار ٠

وفي هذه الطريقة نجح أبو مسلم في كسب الكثير من الفلاحين والتجار والدهاقين ، هذا في خراسان ، أما في الكوفة فكان فيها داعية كبير هو أبو سلمة الخلال وقد قام بنشاط واضح في العراق وصار يشجع القبائل النازلة قرب الكوفة والبصرة على اثارة القلاقل ضد الحكم الأموي ، وفعلا قامت تلك القبائل باثارة تلك الاضطرابات في تلك المناطق بشكل أربك حكام الأمويين ، وقد قام الأحول الحمداني في منطقة حلوان بطرد العامل الأموي والدعوة الى آل الرسول ٠

وفي سنة ١٢٩هـ أعلنت الثورة في خراسان وقد حاول الوالي الأموي نصر بن سيار تهدئة الأوضاع واخماد تلك الحركة التي ظهرت في ولايته فحاول أن يتقرب الى اليمانية ولكن أبا مسلم الذي عرف بالدهاء واستغلال الفرص تمكن من اقناع الكثير من القبائل العربية للانفضاض من حول نصر بن سيار وشعر الوالي الأموي نصر بالخطر المحدق بعد أن يئس من استجابة حكومة الشام لطلباته المتكررة في ارسال الامدادات والتمسك بالنصائح التي وجهها الى المسؤولين هناك فكتب أخيرا الى الخليفة

مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية أبياتا من الشعر تكاد تكون خير ما يوضح تلك الأحوال :

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
فان لم تطفؤها تجن حربا	مشمرة يشيب لها الغلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوا نياما	فقل : قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي :	على الاسلام والعرب السلام(١)

ويبدو ان الخليفة الأموي طلب من يزيد بن هبيرة مساعدة الوالي نصر بن سيار ، ولكن هذا الوالي تلكأ في تقديم النجدات وتعلل بقلة ولاء العراقيين . وفي خراسان نجح أبو مسلم في أن يحمل الزعيم العربي علي بن جديع الكرماني زعيم القبائل اليمانية على مقاتلة الوالي الأموي نصر بن سيار ، فهجم زعيم اليمانية على مدينة مرو (مركز الوالي) ولكن أبا مسلم ظل بعيدا يترقب مصير المعركة . وهنا تذكر الروايات التاريخية بأن أبا مسلم الخراساني دخل مدينة مرو عاصمة خراسان وأخذ البيعة من الجند وهذا نصها : « أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله والطاعة المرضا من آل بيت رسول الله وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدؤكم به ولاتكم وان كان عدو أحدهم

---

(١) المسعودي / مروج الذهب حـ٣ ص ١٧٠ .

تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم » (١) ٠

نلاحظ على النص السابق للبيعة التي أخذها أبو مسلم الخراساني من الجند في مدينة مرو ان العباسيين أو بمعنى أدق المسؤولين عن الدعوة العباسية لا يزالون في الأسلوب الذي ساروا عليه في بداية الدعوة من حيث كتمان اسم الامام الذي سيكون الخليفة الشرعي للعالم الاسلامي ، كما أنهم ما زالوا في تمويههم للرأي العام المناصر للحركة ٠ ونجد ان أبا مسلم أخذ البيعة للشخص الذي توجب له الطاعة والرضا من آل بيت الرسول (عليه الصلاة والسلام) ٠ وطبيعي ان المعنى القريب بمدلول هذه العبارة يوحي لمعظم الناس أن المقصود من بيت آل الرسول بيت الامام علي عليه السلام ، وكان هذا البيت له القدسية في قلوب المسلمين كما عرف عن رجاله بالصدق وحسن العبادة والنزاهة والاخلاص ، ونلاحظ أيضا على هذه البيعة أن المسؤولين يعدون الرأي العام المناصر بأنهم سينتهجون سياسة منبثقة من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأنهم في هذه البيعة يوجبون الناس جميعا بالطاعة المطلقة للامام الذي سيتولى أمر المسلمين ٠

وأحرزت القوات العباسية الثائرة انتصارات رائعة وطاردت بقيادة أبي مسلم الخراساني جيوش الأمويين في ولاية خراسان فانهزم نصر بن سيار الى مدينة قومس ثم هرب الى مدينة ساوه حيث مات سنة ١٣١هـ (٢) ٠

ومن أبرز القواد العرب الذين كانت لهم قيادة رئيسية قحطبة بن شبيب الطائي وولده الحسن وقد طارد هذا القائد

---

(١) الطبري / حـ٢ ص ١٩٨٧ ٠

(٢) ابن الاثير / حـ٤ ص ٣١٧ ٠

فلول الأمويين وسيطر على الري (مدينة طهران الحاليـة) وهمدان ثم توجه مع ولده الحسن فأخضع نهاوند (بالقرب من همدان وكرمنشاه) ودخل قحطبة وولده العراق (ويدخل عن طريق خانقين وحلوان وهو الممر التاريخي المعروف) ٠ وحاول جيش أموي بقيادة ابن هبيرة أن يصد جيوش قحطبة ولكن قحطبة الطائي كان من المهارة والخبرة والذكاء ما مكنه من تحاشـي الاصطدام بذلك الجيش ، وبالرغم من محاولـة قحطبـة عدم التعرض لذلك الجيش (لأنه يريد أن يصل الى الكوفة وبعد ذلك يرجع لمقابلته) الا أنه اصطدم بذلك الجيش مضطـرا فدارت معركة شديدة انتصر فيها قحطبة الطائي على الجيش الأموي فانسحب ابن هبيرة الى مدينة واسط ٠ ووصلت الجيوش العباسية الى مشارف الكوفة فمات فجأة قحطبة بن شبيب الطائي وكان كبيرا في السن فتولى قيادة الجيش ولده الحسن بن قحطبة فدخل هذا الجيش العباسي دخول المنتصر مدينـة الكوفـة في الحادي عشر من محرم سنة ١٣٢هـ / ٣٠ آب سنة ٧٥٠م (١) ٠

ولما انتشرت فلول الجيش في المدينة خرج أبو العباس الملقب بالسفاح (عبد الله بن محمد بن علي) مع كبير الدعاة أبي سلمة الخلال ونودي بأبي العباس خليفة للمسلمين وأخذ أهل الكوفة يبايعون الخليفة الأول للدولة الجديدة وبذلك قامت دولة بني العباس واتخذوا الكوفة أول عاصمة لهم وكان ابتداء دولتهم في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ (٢) ٠

---

(١) اليعقوبي / البلدان حـ ص ٨٤ ٠
(٢) المسعودي / مروج الذهب حـ٣ ص ١٨١ ٠

حركة الشيخ عز الدين القسام

دكتور فلاح خالد علي
مدرس التاريخ الحديث بجامعة بيروت

ولد الشيخ عز الدين عبد القادر القسام في بلدة جبله الواقعة في قضاء اللاذقية بسوريا سنة ١٨٨٢ ، وتعلم في الأزهر (١) ، وذكر أنه ممن درسوا على الامام محمد عبده (٢) . مارس مهنة التعليم والوعظ في بلده ، وشارك في مقاومة الاحتلال الفرنسي مع صالح العلي ، وعمر البيطار ، حتى اضطر الى ترك سوريا واللجوء الى فلسطين مع اثنين من رفاقه هما الشيخ محمد الحنفي والشيخ علي الحاج عبيد (٣) ، وعمل مدرسا في المدرسة الاسلامية في حيفا ، واماما في جامع الاستقلال .

من خلال نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا ، أدرك الشيخ القسام أنه مهما اختلفت أشكال الاستعمار وأساليبه فهو وحدة لا تتجزأ ، ولكي يتحاشى الأخطاء التي وقعت فيها حركة النضال ضد الاستعمار الفرنسي ، رأى أنه لا بد من الاعداد النفسي للثورة ضد الاستعمار الانكليزي في فلسطين معتمدا

---

(١) خير الدين الزركلي : الاعلام القاهرة — ١٩٥٦ ، ج٧ صفحة ١٤٩

(٢) الشباب ، القاهرة — ١ — ١٧ فبراير ١٩٣٦ .

(٣) صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى (في فلسطين) ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٠ .

النوعية وليس الكمية في اختيار رفاق النضال • يقول أبو ابراهيم الكبير (الشيخ خليل محمد عيسى) أحد رفاق الشيخ القسام : « كان الشيخ القسام في حلقات تدريس المسائل الدينية يركز على ضرورة الجهاد ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية والتصدي لفكرة اقامة وطن قومي يهودي على أرض فلسطين • ولقد استجوبته السلطات البريطانية عدة مرات ، لكن بسبب منزلته الكبيرة بين جميع فئات الشعب لم تتجرأ على اعتقاله • وبسبب وطنية الشيخ القسام وصدق دعوته للجهاد التف حوله جماعة من الرجال بدافع الوطنية والايمان » (١) •

استمرت مرحلة الاعداد النفسي للثورة حوالي ست سنوات ، ثم انتسب الى جمعية الشبان المسلمين في حيفا ، وحصل في الانتخابات التي جرت في الرابع عشر من تموز (يوليو) سنة ١٩٢٨ على غالبية الأصوات ، فعين رئيسا لها (٢) • ويبدو أن حادث البراق الذي وقع في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٨ دفعه ورفاقه أن ينتقل من مرحلة الدعوة الى مرحلة العمل • يقول أبو ابراهيم الكبير : « كان اليهود يبنون بناياتهم على شكل عسكري وكثيرا ما حدثت صدامات بين العرب واليهود • وفيما كان اليهود حاقدين ومحتاطين لأنفسهم ، كان العرب غير محتاطين • ولقد استغل اليهود هذه الميزات كلها ، وكثيرا ما كنا نرى العرب يسقطون قتلى وجرحى • وازاء ذلك طلبنا من الشيخ أن ينتقل من الكلام الى العمل ، وطلبنا أن نتسلح ونتدرب ، وان ذلك تم سنة ١٩٢٨ » • ثم يضيف « اشترينا بندقية ، وأحضرنا مدربا كان اسمه محمد أبو العيون • وكانت تبدأ

---

(١) من حديث لابي ابراهيم الكبير : الثورة الفلسطينية ، ع ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٤٠ •
(٢) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢٠ •

الجلسة بأن يلقي الشيخ دروسه ، ثم تحولت دروس الشيخ من دروس دينية الى تحريض على الجهاد • وكان المدرب يقوم في آخر الجلسة بتدريب الموجودين على البندقية واحدا واحدا (١) » •

تشكلت القيادة الأولى للحركة عام ١٩٢٨ من خمسة أشخاص هم : الشيخ عز الدين القسام ، العبد قاسم ، محمود زعروره ، محمد صالح ، أبو ابراهيم الكبير ، وكان جميع هؤلاء فيما عدا الشيخ عز الدين القسام ، فلاحين أو عمال (٢) • وفي عام ١٩٢٩ بذل الشيخ القسام قصارى جهده كي يعين مأذونا شرعيا في قضاء حيفا كي تتاح له الفرصة للتجول بين الفلاحين والاتصال بهم لانتقاء العناصر الوطنية للحركة متخذا وظيفة المأذون ستارا لعمله • كما رفض الحاج أمين الحسيني أكثر من مرة تعيينه واعظا عاما حتى تتاح له حرية الحركة والانتقال ، مبررا رفضه بأنه يعمل من أجل القضية سياسيا (٣) •

واستمر الشيخ في جهاده السري ، يختار العناصر النشطة والفعالة القادرة على العمل • ويروى أنه « عندما كان يخطب في جامع الاستقلال في حيفا ، كان يراقب جموع المصلين ويدعو من يتوسم الخير فيه لزيارته في منزله ، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل من أجل انقاذ فلسطين مما يهددها من مخاطر (٤) » • وبعد قبول الشخص مبدأ العمل كان يضمه الى حلقة سرية لا تزيد على خمسة أشخاص ، لم يلبث ان ارتفع عدد أعضاء

---

(١) الثورة الفلسطينية ، ع ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .
(٢) الثورة الفلسطينية ، غدد ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .
(٣) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٤) نفس المصدر : ص ٢١ .

الحلقة الى حوالي تسعة أشخاص في أوائل الثلاثينات (١) • ولم ينتقل الشيخ من منزله في الحي القديم في حيفا ، ليكون الى جانب الفلاحين الذين نزحوا من قراهم واضطروا الى العيش في ذلك المستوى المنخفض من الحياة بسبب الهجرة اليهودية ، وعمل الشيخ على تحسين أحوالهم المعيشية ، وبدأ يعمل على محو الأمية في صفوفهم باعطائهم الدروس الليلية • وسرعان ما تعلق به فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها وأصبحوا يكنون له بالغ الاحترام والمودة بفضل زياراته المتكررة لهم وما يتصف به من اصالة في الخلق والتقوى (٢) •

وتشير بعض المصادر العربية (٣) أنه بعد أحداث شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٢٩ التي شارك فيها رفاق القسام ، حدث انقسام داخل حلقات القسام ، اذ انشق بعض من اخوان القسام وعلى رأسهم أبو ابراهيم الكبير ، والسبب في ذلك اختلاف في وجهات النظر بينهم وبين الشيخ القسام ، ففيما رأى هؤلاء بأن الوقت قد حان لاعلان الثورة ، رأى الشيخ بأن الاعداد للثورة لم يكتمل بعد ، وبينما كان المنشقون يدعون لجباية الأموال اللازمة للثورة من الشعب بأية وسيلة ممكنة ، كان القسام يصر على الانتظار ويدعو الى عدم استعمال العنف خوفا من الانقسامات الداخلية منذ البداية ، وان الشعب سوف يدفع تبرعات كافية للثورة بعد اعلانها مباشرة ، وبعد أن يتحقق من أهدافها ويشاهد الانتصارات التي ستحققها •

---

(١) من مقال ابراهيم الشيخ خليل (احد رفاق القسام وتلامذته) : شئون فلسطينية ، ٧٤ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٨ •

(٢) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) • تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٩٣ •

(٣) نفس المصدر : ص ٢٩٢ •

وفي حديث لأبي ابراهيم الكبير نشر في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٩ لم يتضمن أية اشارة الى هذا الانقسام مطلقا ، بل أكد أنه ظل يعمل مع الشيخ القسام حتى حادثة نهلال سنة ١٩٣٣ . ويقول ابراهيم الشيخ خليل ، أحد رفاق وتلامذة القسام : « لم يحدث انشقاق على الاطلاق بين القائد الشهيد واخوانه سنة ١٩٢٩ ، بل كان الوفاق على أتمه . والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا في حياة القائد الشهيد ولا بعد استشهاده أيضا ، والسبب بسيط جدا ، فان القائد الشهيد كان يدعو الى الجهاد على أساس ديني ، والجهاد في سبيل الله ، واستخلاص الوطن ودفع الظلم عن المواطنين . ومفهوم الجهاد على أسس دينية لا يوجد به اشكالات ولا تعقيدات أيديولوجية أو نفسية ، ولا أعماق ولا أبعاد ، وكل ما يتعلق بالجهاد محكوم بآيات قرآنية معروفة . كان هناك شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة : (هذا جهاد ، نصر أو استشهاد) ... والذي حدث بالفعل كان خلافا بسيطا على توقيت اعلان الثورة في أوائل عام ١٩٣٥ » (١)

أما بالنسبة لجمع المال فقد كان يتم عن طريق الاشتراك الذاتي . يقول أبو ابراهيم الكبير : « ولقد كنا نصرف من عملنا الشخصي على عملنا السياسي » ، ويضيف « عندما قررنا أن نشتري السلاح ، بعد أقنعنا الشيخ ، جمعنا من بعضنا النقود ، ورصدنا ما جمعناه لشراء السلاح (٢) » . ويؤكد ابراهيم الشيخ خليل ان جمع المال بأية وسيلة لم يحدث أبدا ، اذ لم يكن الموضوع قد بحث بين القائد الشهيد واخوانه لا من بعيد ولا من قريب . والمال للثورة كان له مصدران : مصدر

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ .
(٢) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

الاشتراك الشهري وكان جيدا ، والمصدر الثاني كـان التبرع الطوعي . والتبرع كان يجري على أسس العقيدة الاسلامية ، ويقع تحت حكم عدة آيات قرآنية كريمة . ويشير الى أن العديد من رفاق الشيخ كانوا يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية وان بعض اخوان القائد الشهيد كانوا على صلات حسنة جدا مع بعض الأثرياء من المواطنين ، وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيب خاطر (١) .

وتشير بعض المصادر العربية أيضا الى آن الشيخ انتسب الى حزب الاستقلال عندما أسس في شهر آب (أغسطس) سنـة ١٩٣٢ (٢) . والواقع ان الشيخ لم يكن بعيدا عن تيار الحركة الوطنية في البلاد ، وكانت له صداقات خاصة مع بعض أركان الاستقلال المقيمين في حيفا ومنهم رشيد الحاج ابراهيم . أما مسألة انتسابه الى الحزب فينفيها ابراهيم الشيخ خليل قائلا : « أما بالنسبة لتبعية القسام وارتباطه بحزب معين ، فان الذي أعرفه معرفة حقيقية ، ويعرفه العديد من اخواني الأحيـاء أمثال أبو ابراهيم الكبير ، والشيخ سليمان أبو حمام ، ومحمد عبد القادر أبو الهيجة وحسن شبلاق ، والحاج حسين حماده ، وأحمد التوسبه ، والشيخ محمد الحنفي ومحمـد علي دلول وغيرهم كثيرون ، بأن القائد الشهيد لم يكن له أي ارتبـاط حزبي مع أي حزب من الأحزاب ، وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الاسلامية وحدها » (٣) .

شارك القساميون في أحداث تشرين الأول (أكتوبر) سنة

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .
صيدا ١٩٥٩ ، ص ١٢٠ — ١٢١ . وعبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، د ، ص ٢٩٢ .

(٢) محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحـديثة ، جزء ٣ ، صيدا ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٣) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٩ .

١٩٣٣ ، وكان من ضمن عملياتهم أن أحدهم وهو فلاح من بلدة صفورية يدعى مصطفى علي الأحمد وضع قنبلة في منزل حرس مستوطنة نهلال الواقعة بين حيفا والناصرة ، فقتل اثنان وأصيب آخران بجراح . وسير القساميون قطيعا من الغنم على الطريق المؤدية الى المستوطنة ، فضاع الأثر . وبعد مضي ستة أشهر على الحادث ، وصلت قوة من البوليس الى بلدة صفورية ، وبعد تفتيش منازل البلدة ، عثرت في منزل مصطفى علي الأحمد على قنبلة مشابهة للقنبلة التي وضعت في المستوطنة ، وكانت السلطات البريطانية قد احتفظت بشظاياها ، فألقت القبض على مصطفى علي الأحمد ، وعلى أحمد الغلاييني الذي صنعها. ويكمل أبو ابراهيم الكبير رواية الحادث فيقول : « لقد اتهمونا نحن بالقنبلة ، رغم أننا لم نكن قد قمنا بها (أي بوضعها) . ألقي القبض على مصطفى علي الأحمد وسجن في الناصرة . كان هناك محام يدعى شريف عبيد ، فاتفق مع حليم بسطه — مساعد مدير الأمن العام الانكليزي — على كشف القضية . ولقد سلطوا المحامي على مصطفى علي الأحمد ، وطلبوا منه أن يعترف ، كما طلبوا منه أن يقول بأنني أنا وأحمد الغلاييني قد اشتركنا معه في هذه العملية . ولما بحثوا عن نوع المسامير التي صنعت منها القنبلة وجدوها عند تاجر يهودي ، فسألوه عمن اشترى من هذه المسامير التي صنعت منها القنبلة فتذكر أن أخا لأحمد الغلاييني هو الذي اشتراها . ولما جاءوا الى دكان الغلاييني وجدوني عنده بالصدفة ، فألقي القبض علينا . ذهب من يبحث لنا عن محام ، فقابل أحد أعضاء الحركة الوطنية الذين يحترفون المحاماة (لم يذكر أبو ابراهيم اسمه) . فقال لنا هذا الرجل (أي المحامي) ان القضية ستكلفكم كثيرا . فذهبت الى المحامي حنا عصفور ، فكلفناه ، وعندما فعلنا ذلك

طلب حليم بسطه منه (أي من حنا عصفور) أن ينتزع منـا اعترافا • فجاء المحامي وقال لنا : أنا محاميكم ، وأريـد أن تخبروني عما حدث معكم • قلنا له : نحن أبرياء ، دافع عنا بكل قوتك • وحاولت السلطات البريطانية أن تأخذ أمر توقيف لنا من حكام الصلح العرب ، فرفضوا اعطاء أمر بتوقيفنا ••• فأخذتنا السلطات البريطانية عند حاكم صلح (آخر) فأعطى أمر بتوقيفنا لمدة ١٥ يوما » (١) • وبقي الثلاثة في السجن رهن التحقيق مدة تسعة أشهر ، ثم حكم على مصطفى علي الأحمد بالاعدام ، وعلى أحمد الغلاييني بالسجن عشر سنوات ، أما أبو ابراهيم الكبير فقد بريء •

استطاع الشيخ عز الدين القسام ورفاقه حتى أوائل سنة ١٩٣٥ ، تنظيم عملهم الثوري وقسموه فروع :

١ ــ فرع الدعوة للجهاد يتمثل بخطباء المساجد من العلماء •

٢ ــ فرع التموين مهمته شراء الأسلحة والعتاد ، وكان أبرز من عملوا في هذا المجال الشيخ حسن الباير والشيـخ نمـر السعدي •

٣ ــ فرع الاعداد والتدريب العسكري يشرف عليه ضباط ومدربون خدموا في الجيش التركي •

٤ ــ فرع استقصاء المعلومات عن اليهود والانكليز للاطلاع على خططهم السرية ، وغالبية العاملين في هذا الفرع من العمال الذين يعملون في الدوائر الحكومية خاصـة دائرة البوليس ، وقسم منهم يعمل مع اليهود وأبرز هؤلاء الشيخ ناجي أبو زيد •

٥ ــ فرع متخصص في العلاقات الخارجية من أجل الاتصالات

---

(١) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ــ ص ٢٦ •

السياسية . ويقول صبحي ياسين : « وقد عرفت من أفراده الشيخ محمود سالم المخزومي الذي اتصل بقنصل ايطاليا في القدس وقنصل تركيا » (١) .

أرسل الشيخ عز الدين القسام الشيخ محمود سالم المخزومي أحد تلامذته ليعلم الحاج أمين الحسيني بقراره القيام بثورة في فلسطين ، وتم الاتصال بين مبعوث القسام وبين الحاج أمين الحسيني عبر أحد أعوانه المدعو الشيخ موسى العزراوي ، ونقل اليه رغبة القسام والتي تتلخص بأن يبدأ الحاج أمين في الاعداد للثورة في القسم الجنوبي من فلسطين ، بينما الشيخ القسام يعد العدة في القسم الشمالي من فلسطين . وجاء رد الحاج أمين الحسيني بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وأن الجهود السياسية التي تبذل كفيلة لحصول عرب فلسطين على حقوقهم (٢) . والغريب في الأمر ان الحاج أمين الحسيني لم يشر في كتابه « حقائق عن قضية فلسطين » الذي طبع عدة مرات ، كما أن كل ما صدر عن الهيئة العربية العليا من كراسات أو مذكرات أو تقارير لم يشر للشيخ القسام ولا لحركته .

وازاء الأحداث التي سادت فلسطين سنة ١٩٣٥ ، قررت القيادة للحركة القسامية الخروج من حيفا الى الريف ، للعمل في أوساط الفلاحين والاعداد للثورة . لقد دخل البلاد في نفس العام ٦١٫٨٥٤ مهاجرا يهوديا (٣) . وأكد المندوب السامي في

---

(١) صبحي ياسين : المصدر السابق : ص ٢٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢١ — ٢٢ .
(٣) Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain to the Concil of the League of Nations on the Administration of Palestine for the year 1935. Colonial No. 112 London 1936, p. 13.

تقريره الى وزارة المستعمرات في السابـع من كانـون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ ، ان هـذا الرقـم يتجـاوز الطاقـة الاستيعابية للبلاد (١) • واشترى اليهود في ذلك العام ٧٢ر٩٠٥ دونما من الأرض العربية (٢) • وجاء اكتشاف حادثة تهريب الأسلحة في يافا في السادس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ مؤيدا لأسوأ المخاوف التي يعانيها عرب فلسطين ، بالاضافة الى الاستفـزازات الصهيونية كالتدريـب العسكـري السافر ومهاجمة الفاشيين اليهود من أتباع جابوتنسكي للقرى العربية (٣) • ولما لم يكن هنالك أمل بأن تستجيـب الحكومة لمطالب عرب فلسطين بشأن الهجرة وبيع الأراضي والحكومـة الذاتية البرلمانية ، أصبح من الواضح أن البديل الوحيد الذي بقي للحيلولة دون اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين هو اللجوء الى الثورة المسلحة • خصوصا بعد أن ظهر عجز وجبن القيادة التقليدية والأحزاب الفلسطينية عن العمل الجاد • وبينما كان السياسيون الفلسطينيون يكشفون عن مواقفهم المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة ، لم يكن أمام القسام ورفاقه الا الخروج •

حدث خلاف بين الشيخ القسام وبين أبي ابراهيم الكبير حول الخروج بالسلاح أو بدونه ، ولم يتعد الخلاف هذا الأمر • وقد شرح أبو ابراهيم الكبير في حديثه المنشور في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٩ هذه المسألة فقال : « كان الشيخ قد أعد جماعـة غيرنا (بسبب سجن أبي ابراهيم الكبير) بعد حادثة نهـلال ، واتفق معهم على الخروج الى الثورة ••• وكنت ذات يوم في البيت عندما جاءني قبل الغياب حسن الباير ، من الذين هيأهم

(١) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

(٢) Report for the year 1935, p. 32.

(٣) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

الشيخ بعد سجننا · قال حسن الباير : أرسلني لك الشيخ في خبر ، قلت : ما هو ؟ قال : الشيخ يريد رأيك في خروجنا · قلت : عندما يقرر الشيخ شيئا علينا التنفيذ · قال : ولكنه يريد رأيك ، فلم أعطه الرأي » · وعلل أبو ابراهيم ذلك بقوله « لأننا كنا تلاميذه » · وأضاف « ولقد عاد الباير وأخبر الشيخ بما حصل · فقال الشيخ : نصلي غدا في جامع الحاج عبد الله ، ونرى أبا ابراهيم ، وفي الفجر التقينا في الجامع وصلينا الفجر ، واجتمعنا في غرفة هناك · قال الشيخ : نريد الخروج فما رأيك ؟ قلت : ليس لي رأي · ولكن الشيخ أصر علي فقلت له : يا شيخ ، ماذا لدينا من السلاح ، نحن خارجون لاعلان الثورة ، وهذا يحتاج الى السلاح والمال ، والثورة تحتاج الى ذخائر كل يوم والى مصروفات كل يوم ، فماذا لدينا من كل ذلك ؟ قال : ليس عندنا من الذخائر والسلاح الا ما في أيدينا · قلت : اننا بما في أيدينا لا نستطيع الوقوف في وجه الانكليز ، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن ، أي القيام بالغارات ليلا والعمل نهارا · قال : نحن لا نريد أن نعلن الثورة ، انما نريد أن نتسلح ونخرج الى القرى كي نحث أهلها على الجهاد · قلت : ولكن يا شيخ فالجواسيس لن يتركونا · قال : سنكون حذرين ، وأردف : سنخرج نحن والجماعة ، أما أنتم فعليكم أن تبقوا حيث أنتم لكي تساعدونا (١) » ·

ويؤكد ابراهيم الشيخ خليل ، في الحديث الذي نشر في آذار (مارس) سنة ١٩٧٢ ، نفس ما أورده أبو ابراهيم الكبير ، فيقول : « في أوائل عام ١٩٣٥ ، رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القساميين مراقبة دقيقة · وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من اخوانه ، ويفسد جميع

---

(١) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين . وكان رأيه الخروج الى الجبال والتجول بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة ، وكان رأي الأخ أبو ابراهيم وبعض الاخوان التريث في الخروج الى الجبال مسلحين ، والتجول بالقرى بدون سلاح ، وتشجيع المواطنين على ما يلزم للثورة . ولكن هذا الخلاف كان بسيطا جدا بحيث أنه عندما صمم القائد الخروج الى الجبال ، كان يوجد في صندوق الجماعة مبلغ من المال قدره مائة جنيه ، فأخذه أبو ابراهيم من الصندوق وأرسله الى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلبي (١) .

عملت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين على مراقبة تحركات الشيخ عز الدين القسام ورفاقه ، فخصصت لذلك عددا كبيرا من رجال البوليس السري كان أبرزهم شخص يدعى أحمد نايف (٢) . وتشير بعض المراجع العربية الى أن خروج الشيخ القسام كان ليلة ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ من حيفا يرافقه نحو ٢٥ من رجاله (٣) . والواقع ان خروجه كان قبل ذلك ، اذ يبدو أنه ترك حيفا ليلة ٢٧/٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ ، بعد الاضراب الشامل الذي شمل أنحاء فلسطين في ذلك الوقت ، احتجاجا على عملية تهريب الأسلحة ، واتجه الى قرية نورس الواقعة شمال المزار في قضاء جنين . ويقول أبو ابراهيم الكبير ان الشيخ القسام ورفاقه تمركزوا في مغارة قرب نورس ومكثوا فيها ما يزيد على عشرين يوما (٤) .

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ .
(٢) قتلة القساميون في حيفا عام ١٩٣٧ .
(٣) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢٧ وعبد الوهاب الكيالي: المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .
(٤) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٨ .

أما عدد الأشخاص الذين غادروا حيفا معه فقد يكون صحيحا ، لكن الذين ذهبوا بصحبته الى قرية نورس لم يتعد عشرة أشخاص، في حين توزع الباقون في القرى المختلفة ، حرصا من الشيخ القسام على عدم اكتشاف أمره وجماعته خصوصا وأنهم كانوا مراقبين من قبل جواسيس الحكومة الانتدابية ·

حصلت الحادثة الأولى التي كشفت عن مركز قيادة حركة القسام في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ · ويصف أبو ابراهيم الكبير الحادثة فيقول : « في احدى الليالي هاجم مجهولون احدى المستعمرات ، وهي مستعمرة عين جارود الواقعة شمال شرقي نورس حيث كان القسام ورفاقه ، ومروا أثناء رجوعهم بالقرب من مركز تواجد الشيخ القسام · وفي الصباح مرت دورية مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، انكليزي ويهودي وعربي ، ومعهم كلب أثر ، وكان محمود سالم ويوسف الزيباوي يقفان حرسا ، فلما رأى محمود سالم الدورية سأل الزيباوي عما يفعل ، فقال الزيباوي اذا اقتربوا منك أطلق النار · فما كان من محمود سالم الا أن أطلق النار ، فقتل الشاويش اليهودي (١) · وعندما سمع الشيخ اطلاق النار ، استفسر عن السبب فأخبروه بما جرى ، فطلب من رفاقه الرحيل فورا حتى لا يصطدموا مع القوات البريطانية ، ومنذ تلك اللحظة بدأت جماعة القسام مسيرتها ، ولكن الجواسيس انتشروا في المكان ، فما ان وصل الشيخ القسام ورفاقه الى أحراش يعبد التي تبعد عن جنين عشرة أميال ، حتى طوقوا من قبل قوات بريطانية أرسلت الى المنطقة (٢) ·

---

(١) وفر الاثنان الى مركز البوليس في قرية جمله بين نورس وجنين لاعطاء خبر عن الحادث .

(٢) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٨ .

وبعد هذه الحادثة ، انتقل الشيخ القسام وجماعته من نورس الى خربة الشيخ زيد الواقعة الى الشمال من يعبد ، وقطعوا مسافة تقدر بأكثر من ٥٥ كيلومترا في خمسة أيام . ومما لا شك فيه أن هذه التحركات لم تكن خافية على سلطات الانتداب البريطاني ، اذ كانت خربة الشيخ زيد التي وصلها الشيخ القسام ورفاقه مطوقة بالفعل . وأعلنت حالة الطوارىء منذ يوم التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) في مدن حيفا وطولكرم وجنين ونابلس ، واتجهت قوات بريطانية قوامها أكثر من ٤٠٠ جندي وبوليس باتجاه خربة الشيخ زيد . وفي صباح يوم الأربعاء العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ (١)، جرت معركة غير متكافئة امتدت من الساعة الثامنة حتى العاشرة صباحا ترتب عنها استشهاد الشيخ عز الدين القسام واثنين من رفاقه ،فيما تفرق باقي رفاقه في الجبال والأحراش المجاورة (٢) .

لقد كان لاستشهاد الشيخ عز الدين القسام على هذه الصورة وقع أليم وحزين في نفوس عرب فلسطين ، وأثر عميق في سائر أنحاء فلسطين وسرعان ما أصبح رمزا للتضحية والبذل والعطاء، حتى ان الشعب أطلق عليه لقب أبو الوطنية . وحملت الجماهير نعشه على الأكتاف الى قرية الباجور الواقعة على بعد عشرة كيلومترات من حيفا حيث دفن ، وشارك في تشييع جثمانه الى مثواه الأخير أكثر من عشرين ألفا (٣) ، كانوا يهتفون بحياة فلسطين وبسقوط الاستعمار البريطاني والوطن القومي اليهودي . ثم رجم المشيعون سيارات البوليس وأفراد البوليس بالحجارة ،

---

(١) Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth and Fifth Series, Vol. 307, Col. 318.

(٢) عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، يافا ١٩٣٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) جريدة المقطم ، ١٩٣٥/١١/٢٢ .

كما وقع صدام أثناء التشييع بين الشباب العرب و بين الانكليز، جرح على أثره ثلاثة من البوليس الانكليز وشخص عربي (١) • أما بالنسبة لموقف الزعماء السياسيين ، فلم يشاركوا في تشييع الجنازة ، وكانت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة ، اذ لم يخطر ببالهم أن حركة القائد الشيخ عز الدين القسام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم ، كما أن تضحيته وتجرده فضحت نفعيتهم وأنانيتهم (٢) •

يرتبط بحركة الشيخ القسام أمران على جانب من الأهمية ، الأمر الاول ما أشارت اليه بعض المصادر العربية من أن خطة الشهيد القسام كانت تتضمن احتلال حيفا (٣) ، وهو أمر يدعو الى الدهشة • فلقد عاش الشيخ القسام في حيفا حوالي أربع عشرة سنة ، شهد فيها مدى ما وصلته من اتساع بحيث أصبحت الميناء الأول في فلسطين ، كما شهد تحولها الى قاعدة حربية بريطانية ترسو فيها السفن الحربية باستمرار بعد أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٥ • فكيف يعقل أن يقدم القسام على احتلال المدينة ، وهو على علم بأن ما جنده لحركته لا يزيد عن ٢٠٠ رجل •

أما الأمر الثاني فهو ما أجراه الشيخ القسام من اتصالات بالايطاليين لضمان تأييدهم (٤) • والواقع ان هذا الأمر يبدو بعيد الاحتمال للأسباب التالية :

١ ــ ان اتصال الايطاليين كان قد تم بالفعل مع الحاج أمين

---

(١) جريدة المقطم ، ١٩٣٥/١١/٢٣ .
(٢) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ص ٢٩٥ .
(٣) سامي الجندي : عرب ويهود ــ العداء الكبير ، بيروت ١٩٦٣ ، ص. ٦٨ .
(٤) ناجي علوش : المقاومة العربية في فلسطين ، ١٩١٧ ــ ١٩٤٨ سلسلة كتب فلسطينية رقم ٦ مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٠٢ .

الحسيني ، وهو الرجل القادر على تحريك عرب فلسطين في ذلك الوقت ٠

٢ ـ لم يكن الشيخ عز الدين القسام وهو رجل دين قد نسي ما قام به الايطاليون من أعمال ضد الزعيم الديني عمر المختار ، وكانت المدة التي مضت على استشهاده لا تتجاوز أربع سنوات ٠

٣ ـ حاجة حركـة الشيخ عز الدين القسام للمال حيث لم يكن في صندوقها عندما خرجت من حيفا في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ سوى مائة جنيه ، بينما كان احسـان الجابري قد سلم الحـاج أمين الحسين سبعـة آلاف جنيه مـن ايطاليا ٠

٤ ـ ان التقرير الرسمي الصـادر عن حكومـة الانتـداب البريطاني لعام ١٩٣٥ لا يتضمن اطلاقا أية اشارة الى أي نوع من الأسلحة الايطالية التي صادرتها واستولت عليها سلطـات الانتداب ذلك العام (١) ٠

وهكذا ألقت حركة الشيخ القسام ظلا كبيرا على المسـرح السياسي الفلسطيني وأصبحت كل محاولة لاقامة أي تقارب بين عرب فلسطين وسلطات الانتداب مصيرها الفشل ٠ ولم يمض شهر على اصطدام جيش السلطة المنتدبة مع القسام ورفاقـه حتى أصبحت دوائر التحقيق الجنائية تعرب عن قلقها من تطور الأحداث ، وعم الحقد والكراهية على حكومة الانتداب البريطاني سائر أنحاء فلسطين ٠ وظهرت كتل سياسية من الشباب بقيادات ثورية جديدة أخذت تحل محل القيادات السياسية القديمة ، التي

---

(١) Report for the year 1935, pp. 125 - 126.

ساءت سمعتها ، ومشت هذه القيادة الشابة بنفس الخط الذي سار عليه الشهيد القائد ، واتخذوا من أسلوبه في الاعتماد على أبناء الريف من العمال والفلاحين • وتشكلت لجان الشباب الثوري في كل منطقة من مناطق فلسطين لتخطو على خطى الشهيد القائد عز الدين القسام الذي لم يلاق أي تجاوب من الزعامة المهادنة ضيقة الأفق والمستجيبة للضغوط السياسية الاستعمارية والصهيونية • وبذلك أصبح الشكل الذي ستتطور اليه الأمور واضحا وغدت المجابهة بين حكومة الانتداب والصهاينة من جهة ، وعرب فلسطين من جهة ثانية مسألة وقت فقط •



مصـــادر البحـــث

المصادر العربية :

١ ـ خير الديـن الزركلي : الاعـلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جزء ٧ ٠

٢ ـ سامي الجندي : عرب ويهود ، العـداء الكبير ، بـيروت ١٩٦٣ ٠

٣ ـ صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى (في فلسطـين) ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٤ ـ عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : تاريخ فلسطين الحديث، بيروت ١٩٧٠ ٠

٥ ـ عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية يافا ١٩٣٧ ٠

٦ ـ محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ، جزء ٣ ، صيدا ١٩٥٩ ٠

٧ ـ ناجي علوش : المقاومـة العربيـة في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ ، سلسلة كتب فلسطينية رقم ٦ ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٧ ٠

الدوريات :

١ ـ الثورة الفلسطينية : عدد ١٩ ، ١٥/٩/١٩٦٩ ٠

٢ ـ شئون فلسطينية : عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ٠

٣ ـ جريدة المقطم : ٢٢/١١/١٩٣٥ ـ ٢٣ـ١١ـ١٩٣٥ ٠

المصادر الأجنبية :

(١)
Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth and Fifth Series, Vol. 307.

(٢)
Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine for the year 1935. Colonial No. 112 London 1936.



اثر المادردي في الفن السلجوقي

بقلم
د. سعاد ماهر / مصر

لما أفضت الخلافة الى الخليفة المعتصم العباسي ٢١٨هـ أدرك أن جند الفرس لا يوثق بهم ولا يعتمد عليهم لكثرة شغبهم وقيامهم على الخلفاء فاستصوب كسرة حدة الفرس بالترك .

ولذلك استكثر من غلمان الترك حتى استطاع الاستغناء بهم عن العرب ، فبذل الأموال في شرائهم ، كما بلغ من عنايته بهم أن ألبسهم الديباج ومناطق الذهب وقيل أن عدتهم بلغت ثمانية آلاف مملوك ، والأشهر عند ابن تغري بردى ، أنهم بلغوا ثمانية عشر ألفا (١) . ولأجلهم شيد المعتصم مدينة سامراء على الطرف الشرقي لنهر دجلة بين بغداد وتكريت ، وبنى بها دارا وأمر عسكره بمثل ذلك حتى صارت أعظم بلاد الله أهلا (٢) سنة ٢٢١هـ .

ولئن جرت من صفات الغلظة والقسوة أشدها وأبشعها على هؤلاء الأتراك بعامة ، الا أنهم لم ينشروا الزندقة بين العرب

---

(١) النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٣٣ .
(٢) البيتي العلوي السقاف : مواسم الاوب ص ١١٥ ، ابن الاثير : تاريخ الكامل ج٧ ص ٥٠ — ٥١ .

المسلمين كالفرس ، فلم يذيعوا عقيدتهم الشامانية أو البوذية اللتين تختلفان عن عقيدة الفرس الزرادشية والمانوية والمزدكية (١) ، أملا منهم في بعث مظهر من مظاهر قوميتهم ومدنيتهم كما فعل الفرس ، وما ذلك الا لأن الترك كانوا أضعف شأنا بالقياس الى الفرس ٠

فما كانت لهم دولة واحدة كدولة الساسانيين التي تعتبر من أعظم الدول في الشرق القديم كما لم تكن لهم حضارة خاصة بالمعنى الصحيح ٠ بل انهم أخذوا عن الشعوب التي جاورتهم وخالطتهم فتأثروا بالصينيين والايرانيين ، وكان شأنهم كذلك في استعارة الأديان والعقائد ٠

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن شعور الترك بالقومية كان شعورا ضعيفا كما أنهم لم يكونوا قبل الاسلام يحبون الحياة الوحشية ، بل كانوا شعوبا على شيء من الحضارة ، لها دولها وأديانها وآدابها ٠ الا أن معالم ذلك كله قد ضاعت في الاسلام ، اللهم الا النزر اليسير من الشعر الشعبي وأساطير النسب ، بل ان مدلول كلمة تركي يتضمن معنى اسلاميا ، فهو مسمى لشعب واحد من شعوب السهول الآسيوية ، أطلق على الأتراك جميعا في ظل الاسلام (١) ٠ وهكذا نستطيع القول بأن طائفة الأتراك التي نشأت وتربت في اطار المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري ، لم يكن لها تأثير يذكر في الحضارة الاسلامية أو المجتمع الاسلامي ٠

---

(١) حسين مجيب المصري : صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٩٥ ٠

(٢)
Bernard Lewis: The emergence of Modern Turkey P. 8 (London, 1968).

وفي أواخر القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، آخذ التاريخ يردد اسم السلاجقة ، وهم في الأصل قبائل تركية عرفوا باسم « الغز » (١) ، أخذت تهاجر من أقصى التركستان تحت ضغط ظروف قاهرة ، فيممت وجهها شطر الغرب واتخذوا الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون ، وكانت منازل طائفة الأتراك المسلمين تسمى « القرلق » (٢) .

وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم « السلاجقة » نسبة الى رئيسها سلجوق بن دقاق (٣) الذي تولى زعامتها وجمع شملها ، وقادها الى تلك المنازل (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) (٤) . ولما كانت منازل السلاجقة ، في ذلك الوقت ، تجاور ممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين (٥) ، وهم دول سنية المذهب ، فقد اعتنق السلاجقة الاسلام وتعصبوا للمذهب السني (٦) . وأخذ نفوذ السلاجقة ينمو نموا مطردا حتى أصبحوا قوة في خراسان (٧) ، واستطاعت القضاء على الدولة الغزنوية وتكوين

---

(١) كانت تسمى « آلاوغوز » وخففت فصارت « الغز » (عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ص ١٦) .

(٢) ابن الاثير : ص ٦٢ حـ٧ .

(٣) دقاق او « تقاق » كلمة تركية معناها القوس الجديد (ابن الاثير في حوادث ٤٣٢هـ) .

(٤) حمد الله مستوفي قزويني : تاريخ كزيده ص ٣٣٤ .

(٥) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .

(٦) الراوندي : راحة الصدور ص ٨٦ (ترجمة ابراهيم امين الشواربي وعبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد سنة ١٩٦٠م) .

(٧) بيهقي : تاريخ بيهقي ص ٦٥٩ .

دولة لهم تحت قيادة « طغرل بك » واتخذ نيسابور قاعدة له (١) (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) . ولم يمض وقت طويل حتى وصل طغرل بك الى بغداد واعترف به الخليفة القائم بأمر الله ، وأمر أن يذكر اسم طغرل بك في خطبة الجمعة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) ، بعد أن أسقط اسم الملك الرحيم من الخطبة (٢) ، وبذلك أسدل الستار على دولة بني بويه المسيطرة على بغداد وحلت محلها دولة السلاجقة (٣) .

وهكذا نرى أن طغرك بك هو المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في ايران والعراق واستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ومجدا عظيما ، أخذ يمتد حتى وصل غربا الى حدود الروم والبحر المتوسط وشرقا الى الهند والصين. وكان مؤسس دولةالسلاجقة ، طغرل بك ، مسلما يحب أهل السنة ويحترم أئمة الدين (٤) احتراما شديدا ويميل الى المتصوفة ويجل شيوخهم فانتشر التصوف في عصرهم ، وظفرت الصوفية باحترام الناس والحكام فارتفع شأن رجالها وعظم تأثيرها في حياة المجتمع الاسلامي في عصرهم . ومن هنا كان تأثرهم بشيخنا الماوردي ، وتأثيره الواضح القوي على كل مظاهر الحضارة في العصر السلجوقي .

وأود قبل أن أتناول أثر الماوردي على الحضارة والفنون السلجوقية بالبحث والدراسة ، أن أذكر في ايجاز حضارة السلاجقة وفنونهم التي أتوا بها من منازلهم الأولى قبل أن تطأ

---

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ١٠ ، الراوندي : راحة الصدور ص ٩٦ .

(٢) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ١٠ .

(٣) ابن الاثير : في حوادث سنة ٤٤٧هـ .

(٤) الراوندي : راحة الصدور ص ٩٩ .

أقدامهم أرض ايران والعراق • ومن المعروف أن السلاجقة عاشوا حياة تغلب عليها سمات البداوة من ميل الى التنقل والارتحال طلبا للرزق ، وسعيا وراء الكلأ والمرعى ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة في أعماق نفوسهم مما أثر في دولتهم وفي حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير •

وكان من الطبيعي أن يلجأ سلاطين السلاجقة الأوائل ، وهم غير مثقفين كما هو معروف ، الى استخدام عدد كبير من الموظفين لاستعمالهم في المهام المختلفة ، ومن ثم برزت طبقة الموظفين من الفرس والعرب ، وازداد نفوذ بعضهم ، وخاصة طبقة الوزراء والحجاب • وقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دورا بارزا موجها في كثير من مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والفنية في العصر السلجوقي ، بل انهم استطاعوا أحيانا أن يسيطروا على سلاطين السلاجقة ويوجهوهم وفق ارادتهم •

ولما كانت ايران والعراق خاضعة للسلاجقة في القرن الخامس ، كما أن معظم أنحائهما كان يدين بالمذهب السني الذي كان يتعصب له السلاجقة ، فقد أدى هذا الى ازدياد صلة ايران بالعراق وبالخلافة العباسية • وظلت هذه الصلة قوية في أثناء حكم السلاجقة ، مما كان له أقوى الأثر وأبعده في اختلاط الايرانيين بالعراقيين وامتزاج حضارة كل من البلدين ، فأصبحا يمثلان معا صورة واضحة صادقة للحضارة الاسلامية في العصر السلجوقي ، الذي امتد من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري •

وهكذا نستطيع القول بأنه ، اذا كان الأتراك الذين أكثر من استخدامهم الخليفة المعتصم بالله ، في بلاطه وجيشه في القرن الثالث الهجري ، والذين نشأوا وتربوا في أحضان المجتمع

الاسلامي ، لم يكن لهم تأثير يذكر في الحضارة أو المجتمع الاسلامي ، الا أن الأتراك الذين وصلوا الى مراكز الحكم في القرن الخامس الهجري في ايران والعراق ، ونعني بهم السلاجقة ، قد أثروا تأثيرا عميقا في الحضارة والمجتمع الاسلامي . بل ان بعض الكتاب المحدثين من علماء الآثار (١) ، ذهب الى أبعد من ذلك ، فقال ، ان حضارة السلاجقة وفنونهم ، هي الدعامة الأولى التي قام عليها الفن العثماني في القرن التاسع الهجري .

والذي أود أن أوضحه هنا ، أنه برغم أن السلاجقة لم يأتوا بحضارة أو فن من موطنهم الأصلي ، اذ أنهم كانوا أقواما رحل ، أقول برغم هذا ، الا أن أثرهم وفضلهم على الحضارة والفنون الاسلامية ، كبير وعميق . ذلك أن تعصبهم لأهل السنة وحرصهم على اداء الفرائض والتقرب من أئمة الدين ، قد ساعد على ازدياد صلة ايران بالخلافة العباسية . وظلت هذه الصلة قوية أثناء حكم السلاجقة لها ، مما كان له أبعد الأثر في اختلاط الايرانيين بالعراقيين ، وامتزاج حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبحا يمثلان معا في العصر العباسي الثاني صورة واضحة المعالم للحضارة الاسلامية ، بعد ان كانت كل منهما تكاد تكون منفصلة عن الأخرى .

ولعل من أقوى الأسباب وأبرزها التي أدت الى ذلك الامتزاج القوي بين الحضارتين الايرانية والعربية في العصر السلجوقي ،

---

1) Claud Cahen: l'Islam (des origines au début de l'Empire Ottoman. p. 209.

هو العامل الديني . فقد كان مذهب المعتزلة (١) الذي ازدهر في عصر الخليفة المأمون ، والذي تطور تطورا خطيرا في العصر العباسي الثاني من أقوى الأسباب التي أدت الى تعصب السلاجقة للمذهب السني . وقد أدى هذا التعصب بدوره الى صبغ كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالصبغة السنية في كل الجهات التي خضعت للسلاجقة . ومن ثم فقد أخذ مذهب المعتزلة في الضعف في نهاية القرن الرابع الهجري ، بفضل أئمة الدين ، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري (٢) الذي حمل على آراء المعتزلة وحاربهم حربا شعواء ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا اليه .

كما جاء الغزالي (٣) وصرع المعتزلة وأعاد لايمان السلف منزلته العالية، فبقي بعده تراث أهل السنة (٤) . وهكذا وجد شيخنا الماوردي وأمثاله من أئمة السنة الجو مهيأ أمامهم لنشر المذهب السني نقيا بعد أن أزالوا عنه كل ما قد شابه من آراء المعتزلة .

واذا كنا قد اخترنا شيخنا الماوردي بخاصة لبيان أثره على حضارة وفنون السلاجقة فذلك لما اتصف به هذا الامام من سعة في الأفق واعتدال في الرأي وأخذ بالأمثل من أحكام السابقين ، ولا أجد للتدليل على ذلك أبلغ مما قدم به كتابه أدب الدنيا والدين ، فهو يقول : باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت الاشارة الى آدابهما على أعدل الأمرين من ايجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وتدقيق

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٦٥ — ٧٥ .
(٢) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٥٥ — ٢٧٨ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي حـ٢ ص ٢١٨ .
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٣ — ٤ .

الأدباء ، فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم ، مستشهدا من كتاب الله عز وجل بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ، ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء ، لأن القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد ·

وبرغم اعتناق الماوردي للمذهب الشافعي ، الا أنه لا يتعصب له بل نجده في كل أحكامه وآرائه وفتواه يورد مذاهب الأئمة الثلاث : الشافعي والحنفي والمالكي متوخيا في ذلك العدل والنفع العام ، كما أشار الى ذلك في كتابه « الأحكام السلطانية » حيث يذكر « امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه وما عليه منها فيوفيه ، توخيا للعدل في تنفيذه وقضائه وتحريا للنصفة في أخذه وعطائه » ·

وعالم فقيه هذه آراؤه ومبادؤه كان لا بد أن يؤثر تأثيرا مباشرا في المجتمع الذي عاش فيه وكتب له وعنه · واذا كان ابن خلدون يعد مؤسس علم الاجتماع فان الماوردي واضع اللبنة الأولى في هذا الميدان · ومن ثم فانني أعتقد أنه لم يجانبني الصواب عندما اعتبرت الفن السلجوقي ثمرة من ثمار آراء وأحكام الماوردي ، لأن الفن هو في الواقع الترجمان الصادق والاصيل لأحاسيس ومعتقدات المجتمع ·

ولما كان الفن الاسلامي ، دون غيره من باقي فنون العالم القديم والحديث ، ينقسم الى قسمين رئيسيين فقط ، ألا وهما فن العمارة الذي يعبر عنه أثريا باسم الآثار الثابتة ، والقسم الثاني الفن الزخرفي ويعرف باسم الآثار المنقولة ، فقد رأيت أن أبين أثر الماوردي وآرائه في كل منهما على حدة ·

أما عن العمارة فهي في الواقع السجل الذي يستقى منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار ، أو تدهور وتخلف ، ومن ثم فقد سجلت لنا العمارة الاسلامية وخاصة الدينية منها تاريخ الدول المتعاقبة ، وأعطتنا صورة صادقة عن منشئها • ذلك ان العقيدة الاسلامية التي تغلغلت في نفوس معتنقيها لسماحتها وملاءمتها لطبيعة النفس البشرية ولحرصها على الاسعاد في الدارين ، ارتبطت ارتباطا وثيقا بعمارة المساجد التي يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله •

ويعمرها الزاهدون ، والمتصوفون ، والذاكرون الله كثيرا ، والعارفون بالله • يعمرها حلقات الدرس من فقه وحديث ومنطق وكلام ، ومجالس الأدب من نحو وبلاغة ونقد ، وندوات الاجتماع التي تتعرض لسائر العلوم ويعمرها العلماء والفقهاء ، والأئمة والأدباء ويقوى بها الضعيف والغريب ويأنس اليها ابن السبيل والمسكين ، ويرفع صوته فيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والداعي الى الخير •

فالمساجد دين وخلق وهدى ونور وصومعة الناسك ومدرسة الدارس ودين وقوة ودرك للعزة في الأولى والفوز العظيم في الآخرة •

على أن الذي يعنينا في بحثنا هذا هي العمائر التي انتشرت في العصر السلجوقي والتي يمكن القول بأن الماوردي وآراءه كان له أثر في انتشارها وفي تصميمها المعماري ونعني بها المدرسة ، على أننا لا ندعي أن المدرسة نشأت في العصر السلجوقي ، فمن المعروف أنه ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في شرق العالم الاسلامي ، أسماء جديدة لأماكن العبادة عرفت

بالمدارس • ثم انتشرت في العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري هذه المنشآت على نطاق واسع حتى أصبحت هـي الاسم الغالب على أماكن العبادة • وهذا التغيير في الاسم لا بـد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر ، كذلك صاحب التغيير في الاسم تغييرات جوهرية في التخطيط المعماري •

وقبل أن نتكلم عن السبب في استخدام اسم المدرسةوتخطيطها المعماري ، يجدر بنا أن نذكر شيئا عن نشأتها • تعتبر مدينة نيسابور هي أول مدينة اسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) ، وكان ذلك في عهد محمود الغزنوي في القرن الرابـع الهجري ، فقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسـة أبو سعيد الاصطرلابي ومدرسة أبو اسحر الأصفراني ، وقـد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية مدة خمسين عاما ثم قضي عليها تماما بعد قتل وزير طغرل بك مؤسس دولة السلاجقة •

الا أنها بعثت من جديد على يد نظام الملك أعظم رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة بل وأعظم وزراء الشرق في عصره ، فقد ظل وزيرا لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه • فقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظـره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي • وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون ادارة الشئون الادارية والثقافية والدينية في دولة السلاجقة •

وقد أنشأ نظام الملك الكثير من المدارس ، التي بلغ عددها عشرة (١) في ايران والعراق وذلك في النصف الثاني من القرن

(١) ناجي معروف : علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي ص٥

الخامس الهجري ، وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس في كل الولايات السلجوقية ·

أما عن التصميم المعماري للمدرسة ، فهو يختلف اختلافا بينا عن تصميم المسجد برغم اشتراك كليهما في الوظيفة الأولى وهي تأدية فريضة الصلاة · فبينما يتكون المسجد من صحن يتوسطه وتحيط به البوائك والأروقة من كل الجهات أو بعضها (لوحة رقم ١) نجد المدرسة تحتوي على صحن مكشوف أو مغطى يتوسطها وتحيط بها أربعة ايوانات (١) من جهاته الأربع أو ايوانين أو ايوان واحد (٢) ·

على أنه من الثابت أن التخطيط الأول للمدرسة في العصر السلجوقي كان عبارة عن ايوان واحد في جهة القبلة ،أما الأضلاع الثلاث الأخرى فكانت تحتوي على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس الأولى كان معظمها لمذهب واحد (٣) ·

وقد نتبين أثر الماوردي غير المباشر في تخطيط المدرسة ذات الايوان الواحد في عصر السلاجقة الأوائل ، اذا عرفنا أن نظام الملك قد بنى المدارس لأصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه

---

(١) لوحة رقم (٢)

(٢) الايوان : لفظ فارسي معرب (ديفان) ومعناه معماريا حجرة ذات ثلاثة جدران على ان يكون مفتوحا من الجهة الرابعة كلية على فناء ، وقد استعمل هذا النظام المعماري في قصور ومنازل الساسان وقد اخذ المسلمون عنهم هذا التصميم في منازلهم لملاءمتها للجو الحار . وفي القرن الخامس الهجري استخدم في تصميم المدارس حتى يستطيع ان ينفرد فيه المدرس في غير أوقات الصلاة بتلاميذه واصحاب مذهبه .

(٣) سعاد مهار : مساجد مصر واولياؤها الصالحون ج ١ ص ٢١ . لقد احصى كزويل ثمانين مدرسة في سوريا ترجع الى القرنين السادس والسابع بينها ٢١ للمذهب الشافعي و ٢٢ للمذهب الحنفي وتسع للمالكية والحنابلة ومن بينها ست مدارس لمذهبين هما الشافعية والحنفية .

ووقف عليهم الوقوف ، وفي ذلك يقول أبو شامة « ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد منها حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لم يأبه لها أحد بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة » (١) ويقول السبكي انه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة وله بيمارستان بنيسابور ، ورباط ببغداد ثم عدد المدارس التي عرفت بالنظاميات فقال ، نظامية ببغداد ثم عدد المدارس التي عرفت بالنظاميات فقال : نظامية وطبرستان (٢) ، واذا أضفنا اليها المدرسة النظامية في جزيرة ابن عمر كانت عشرا (٣) ٠

وقد سار نظام الملك على سيرة ونهج الامام وقاضي القضاة الماوردي ، فقد كان لا يميل الى النزاع الطائفي ولا الى الفتن المذهبية ، بل كان همه الألفة وجمع الكلمة ، يدل على ذلك الخطاب الذي وجهه الى مدرس نظاميته ببغداد ، اسحق الشيرازي جوابا على كتاب منه اليه في معنى الحنابلة الذين كانوا الغالبين على بغداد يومئذ « وليس توجب سياسة السلطان وقضية العدل الى أن يميل في المذهب الى جهة دون جهة ونحن بتأييد السنن أولى من تشيد الفتن ، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة الا لصيانة أهل العلم والمصلحة لا للاختلاف وتفريق الكلمة » (٤) ٠

على أن اعتناق سلاطين ووزراء السلاجقة للمذهب الشافعي، مذهب الماوردي لم يقتصر على العصر الذي عاش فيه ، بل امتد الى نهاية حكمهم في منتصف القرن السابع الهجري ٠ اذ تحدثنا

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين جا ص ٦٢ — ٦٣ .
(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٤ ص ٣١٣ — ٣١٤ .
(٣) ناجي معروف : علماء النظاميات ص ١٠ .
(٤) ابن الجوزي المنتظم ج٨ ص ٣١٢ ٠

المراجع التاريخية عن أبي الفضائل شرف الدولة اقبال الشرابي (١) الذي سطع نجمه في خلافة المستنصر بالله العباسي، وظل نفوذه في ازدياد حتى بلغ الذروة عند وفاة المستنصر (٦٤٠هـ / ١٢٣٢م) وأصبحت له السيادة التامة في خلافة المستعصم بالله · والذي حفلت سيرته بشيء كثير من الاهتمام لما قام به من أعمال تذكر في جميع المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية (٢) على أن الذي يعنينا من أمره في هذا، أنه كان محبا للعلم وأهله مقربا من العلماء، فقد أنشأ في العراق مدرستين كبيرتين للشافعية (٣) الأولى ببغداد والثانية بواسط، كما أنشأ مدرسة ثالثة للشافعية في الحجاز بمكة المكرمة (٤)، ويفهم من تاريخ هذه المدارس الثلاث أنها كانت ذات ايوان واحد لتدريس المذهب الشافعي فحسب، أما باقي مساحة المدرسة فقد كان يشغلها غرف الطلبة والمتصوفة (٥) ·

وكما كان الماوردي متسامحا في غير افراط أو تفريط، فلم يتعصب لمذهبه الشافعي، كذلك نجده واسع الأفق، نافذ البصيرة، فلم يتشدد في أمور الدنيا التي لا ضرر من الاستمتاع بها، ما دامت لا تخرج عن حدود الشريعة · وفي ذلك يقول: ان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه، وبحسب منافعه تجب العناية به، وعلى قدر العناية يكون اجتناء

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦١ ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ٥١ الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣١٠ ، الفخري : الاداب السلطانية ص ٢٦٧ ، شفاء الغرام ج١ ص ٣٣١ ، ابن العمادي : الشذرات ج٥ ص ٢٦١ ، ناجي معروف : المدارس الشرابية ص ٤٣ ، قطب الدين : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨٢ ·

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١١٥ ·

(٣) ابن الساعي : الجامع المختصر ص ٣١٩ ·

(٤) السبكي طبقات الشافعية ج ٥ ص ٢١٣ ·

(٥) النعيمي : الدارس في اخبار المدارس ص ١١٩ ·

ثمرته وأعظم الأمور خطرا وقدرا وأعمها نفعا ورقدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة (١) • ثم يعود فيقول في باب « أدب الدنيا » ان ما يصلح به الدنيا ستة أشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح • ثم يفصل كل فرع من الفروع الست ، فيقول مثلا : فيما يلزم السلطان القاهر ، أن يهتم بعمارة البلد باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها •

كما يفسر العدل الشامل بعبارات ومعان لم يسبق اليها ، اذ يقول : ان العدل مأخوذ من الاعتدال ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل ، وقد قالت الحكماء : الفضائل هبات متوسطة بين خلتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين ، «فالظرف» مثلا واسطة بين الخلاعة والعرامة (٢) •

نخلص من هذه الآراء التي قال بها الماورديوشاعت وانتشرت بين أبناء وحكام عصره من السلاجقة ، أنه يبيح الاستمتاع بالحياة الدنيا فيما لا يتعارض مع الدين والشرع وفي غير افراط أو تفريط • على أننا نستطيع أن نتبين ثمرة آرائه هذه في ظاهرتين فنيتين هامتين في تاريخ الفنون السلجوقية ، الأولى : هي زخرفة واجهات العمائر الدينية (٣) والمدنية بزخارف هندسية ونباتية وكتابية بل وفي بعض الأحيان حيوانية • أما الظاهرة الثانية : فهي توضيح المخطوطات وخاصة العلمية منها بالرسوم والصور •

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢ •

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٩٨ — ١٠٥ •

(٣) Bashkiroff. A.S. : The Art of Daghestan. Carved Stone. p. 93 (Moscow 1931).

أما عن العمارة ، فمن المعروف أن السلاجقة كانوا يشملون الفنون برعايتهم في ايران والعراق وآسيا الصغرى برغم آن تأثيرهم الفني كان ضئيلا ، ذلك أنهم لم يأتوا بطراز فني من عندهم ، فهم قوم رحل كما سبق القول ، هذا بالاضافة الى أن السلاجقة استقدموا أبناء البلاد أنفسهم في الأقاليم الاسلامية المختلفة ، فكانوا يشجعونهم بما يكلفونهم به من أعمال أو يشترونه من تحف فنية • وبرغم ذلك كله فقد نشأ تحت رعايتهم طراز قائم بذاته ، له خصائصه ومقوماته التي تكاد لا تخطئها العين • واذا كان علماء الفنون والآثار لم يستطيعوا اظهار الدوافع التي أدت الى ظهور فن السلاجقة المتميز ، برغم ان أصحابه لم يضيفوا له جديدا يميزه أو يطبعوه بطابع من عندياتهم يعلمه ، فلعل مرجع ذلك ان علماء الآثار لم يعيروا أئمة وعلماء ذلك العصر ، الكثير من العناية فلم يتبنوا الآراء الجديدة التي صبغت العصر بطابع خاص بعيدا عن التزمت الديني والمذهبي ، والقضاء على المعتزلة وأصحابها • كما أنهم لم يدرسوا آراء وكتابات علماء ذلك العصر مثل شيخنا الماوردي الذي سبر غور المجتمع الانساني وغاص في أعماق النفس البشرية فلم يثقل عليها بالتزامات دينية قاسية بل واءم بين خيري الدنيا والآخرة ، ومن ثم فلم أكون مغالية اذا قلت أن الماوردي هو واضع اللبنة الأولى لعلم الاجتماع •

وقد امتاز الطراز السلجوقي بضخامة العمائر واتساعها ومظهرها القوي (١) ، كما امتاز أيضا باستخدام الزخارف المجسمة ولا سيما في واجهات العمائر (٢) • على أنه يبدو أن

---

(١) Diez. E: Churasanische Baudenkmaler. I.P. 18 (Berlin 1918)

(٢) Cohn — Wiener, E: Turan, Islamische Baukunst in Mittelasien. p. 27 (Berlin 1930).

الأساليب التي مهدت للطراز السلجوقي قد قامت في بلاط محمود الغزنوي (أول من احتك بهم السلاجقة) ثم امتدت منها الى ايران ، ومن ثم يمكن اعتبار الفنون التي سبقت الفن السلجوقي مرحلة الانتقال بين الفن الساساني والفن السلجوقي (١) ٠

ومهما يكن من الأمر فان العمائر السلجوقية تمتاز بتفخيم الواجهات وتنوعها حتى أنه كان لكل بناء منها طابعا خاصا في الزخارف الفنية التي تزدحم بها الواجهة ٠ ولذلك فقد أصبحت العناية بالعناصر المعمارية الأخرى ثانوية بالنسبة الى العناية بالواجهات ٠ وقد يتبادر الى الذهن ،أن المقصود بفخامة الواجهات في العبارة السابق الاشارة اليها ، هو في ضخامة حجم المدخل أو الواجهة ، كما نرى ذلك في ايران في العصر المغولي والصفوي وانما الذي نعنيه هنا هو فخامة العناصر الزخرفية ، كالحنيات المزينة بالمقرنصات والدلايات المصفوفة في تنسيق بديع في اطار مستطيل أو مربع من الزخارف الهندسية المختلفة الأشكال ، أنظر لوحة رقم (٣) ٠ وكثيرا ما نجد واجهة العمائر وخاصة الدينية منها مغطاة بأشرطة من الكتابة والزخارف الهندسية المنحوتة نحتا قليل البروز والى جانبها زخارف ونقوش أخرى نباتية كثيرة البروز من مراوح نخيلية ونباتية محورة ومتشابكة وخطوط مضفورة وأخرى معقودة (٢) ، كما يظهر ذلك واضحا في واجهة مدرسة (اينجه مناره لى) بمدينة قونيه بآسيا الصغرى (٣) (أنظر لوحة رقم ٤) ٠ وفي بعض الأحيان تجد الواجهات مغطاة بزخارف بارزة نباتية وهندسية في غير تماثل أو

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٧ .

(٢) Gabriel Rousseau: L'Art décoratif musulman p. 342 (Paris 1934).

(٣) Gabriel A: Monuments turcs d'Anatolie. Vol. II p. 113 (Paris 1931 - 34).

تقابل وخاصة بآسيا الصغرى في المناطق القريبة من أرمينيا ، الأمر الذي جعل بعض علماء الآثار يقول بوجه الشبه بين هذه الزخارف وزخارف بعض واجهات الكنائس في أرمينيا ، وكذا الزخارف الجصية بدير السريان بوادي النطرون • وعلى أية حال فان ذلك يؤكد الرأي الذي ذهبنا اليه ، وهو أن روح التسامح التي سادت العصر السلجوقي كنتيجة لآراء علمائها مثل الماوردي ، جعلتهم يجمعون عناصر فنهم من كل فنون البلاد التي خضعت لهم ثم عادوا يصبغونها بالصبغة الاسلامية (أنظر لوحة ٥) •

ولعل أهم مميزات الفن السلجوقي في زخرفة واجهات العمائر ولم يسبق اليه ، هو استخدام الكائنات الحية ، في أسلوب محور عن الطبيعة ، على النحو الذي عرفته الفنون الاسلامية • فقد أكثر الفن السلجوقي من استخدام النقوش الآدمية والتي تمثل الحيوانات والطيور على العمائر والأسوار والأبواب والقناطر في المدن السلجوقية المختلفة في آسيا الصغرى ولا سيما قونيه وديار بكر والعراق وخاصة الموصل وبغداد •

ومن أبدع واجهات عمائر قونية المنحوتة في الرخام وجه (سلطان خان) الذي يرجع الى (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ، وفي مدينة آمد (١) (ديار بكر) أمثلة طيبة من التماثيل والنقوش المنحوتة في العصر السلجوقي وبين هذه النقوش كثير من الحيوانات والطيور • على أن الزخارف الحيوانية لم تكن كلها لمجرد الزينة فحسب ، بل كان بعضها من رنوك الأمراء وشاراتهم ومما يجدر ملاحظته أن الزخارف الكتابية التي تزين الواجهات

(١) Van Berchem. M. und Strzygowski : Amida. p. 139 (Heidelberg 1910 fig. 59 et. 255).

كانت تقوم على أرضية من الزخارف النباتية المحفورة حفرا دقيقا مفصلا وفي مستوى منخفض عن مستوى الحروف الكتابية. ومن أحسن الأمثلة لذلك مسجد السلطان ملكشاه بمدينة آمد (١) الذي يرجع تاريخه الى (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) .

كما تزخر الموصل بأمثلة كثيرة توضح النقوش التي تزخر بها واجهات العمائر السلجوقية والمحاريب الداخلية . ومن أهمها محرابا ضريح الامام عون الدين (٢) ، وهما مصنوعان من الرخام ويحتويان على رسوم نباتية محفورة حفرا دقيقا وفي عدة مستويات (٣) . والحق أننا نستطيع أن نلاحظ العناية التامة برسوم هذين المحرابين وخاصة في الفروع النباتية الغنية بالسيقان والوريقات فضلا عن الكتابة الزخرفية الجميلة بالخط الكوفي والنسخي ، على أرضية من الرسوم النباتية حينا وحينا آخر متصلة بهذه الزخارف النباتية بحيث تنتهي هامات الحروف وذيولها بتلك الرسوم (٤) (أنظر لوحة ٦) .

ومن الزخارف السلجوقية الجصية البديعة ، لوحة تضم رسوما آدمية في مناظر مختلفة محفوظة في متحف بنسلفانيا ، زخرفت أرضيتها برسوم أشكال نجمية وصليبية مما يستعمل في تغشية الجدران ، وتقوم فوق هذه الأرضية رسوم آدمية أكثر بروزا وأتقن حفرا ، وفيها تفاصيل دقيقة للملابس . ويمثل الموضوع الرئيسي لهذه الزخارف رسم لأمير جالس على عرشه ،

---

(١) Flury-S : Islamische Srhriftbander, Amida-Diarbekr p. 120 (Basel 1920).

(٢) Sarre und Heggfeld; Archàolgische Reise in Eupheral und Tigrit gebielt Vol. II p. 227-263.

(٣) Glieck und Diez: Die Munst des Islam p. 242.

(٤) Dimand. M.S : Studies in Islamic Ornament (Aro Islemica Vol. I. p. 293).

ويحمل العرش فيلان، على غرار العروش التي تحملها الحيوانات في الفن الساساني (١) ، ويعلو هذه اللوحة شريط من الخط النسخي على أرضية مورقة نصها : السلطان الملك الأعظم الملك طغرل العالم العادل القادر ، واعتمادا على أسلوب الخط النسخي ترجح أن تكون هذه الزخارف ترجع الى عصر السلطان طغرل الثاني المتوفى (٥٩٠هـ / ١١٩٤م) (لوحة رقم ٧) .

ولم يقتصر تأثر الفن السلجوقي على آثار الغرب والساسان فحسب ، بل ان فنون الشرق الأقصى قد اتخذت طريقها الى الفن السلجوقي وأثرت فيه ، وخاصة بالنسبة للحيوانات الخرافية ، كالتنين . ومن أجمل الأمثلة لذلك لوح من الرخام (٢) يمكن نسبته الى بلاد الجزيرة في القرن السابع الهجري ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة (لوحة رقم ٨) . وقوام الزخرفة رسم تنينين متقابلين ، فغر كل منهما فاه ، فبدت أنيابه الحادة ولسانه المشقوق ، بينما التف ذيل كل منهما حول الآخر . وفوق التنينين شريط به كتابة بالخط الثلث نصها (السلطان المعظم) .

أما بالنسبة لتوضيح المخطوطات بالرسوم والصور فانه برغم عدم تعرض الماوردي لموضوع التصوير في الاسلام ، في كتبه غير الفقهية القليلة التي بين أيدينا (٣) ، الا أننا نستطيع اعتمادا على آرائه التي أدلى بها في كتاب أدب الدنيا والدين ، أن نفهم ضمنا أنه لا يحرم التصوير على اعتبار أنه من زينة الحياة

---

(١) Survey of Persian Art. Vol. V, PL. 518.

(٢) المرجع السابق حـ٥ لوحة (٥٢٠) ك زكي حسن : فنون الاسلام ص ٦٣٥ .

(٣) ما زلنا لا نعرف الا القليل عما ألفه الماوردي في غير كتب الفقه ، مثل ادب الدنيا والدين ، وادب الوزير والاحكام السلطانية .

الدنيا التي لا غبار عليها ما دامت لا تدخل في باب المحظورات ، كأن تتخذ أصناما أو أيقونة للعبادة • وقد انتهى الى هذا الرأي جمهور الفقهاء (١) على اعتبار آنه لم تتنزل فيه آية قرآنية صريحة (٢) • ولو أضفنا الى ما تقدم ان أول مدرسة للتصوير انتشرت على نطاق واسع كان في عصر السلاجقة (٣) ، وهم ليسوا زاردشتيين أتباع ماني المصور العظيم (٤) ، ولم يعتنقوا المذهب الشيعي مذهب معظم الايرانيين ، بل هم سنيون متعصبون لمذهبهم حريصون على ارضاء رجال الدين تواقون للقيام بما يؤمرون به ويمتنعون عما ينهون عنه •

وقد ازدهرت المدرسة السلجوقية (٥) في التصوير الاسلامي بين القرنين السادس والثامن للهجرة • على أن تصاوير المدرسة السلجوقية لم تكن كلها من انتاج المصورين العراقيين ، بل كثير منها كان ثمرة جهود فنية نشأت في بعض المدن والأقاليم الفنية الأخرى • وكان هذا الانتاج الفني في ديار الاسلام متأثرا بالأساليب التي ازدهرت في عاصمة الخلافة على أيد حكامها السلاجقة ، ثم تعود فتنتشر منها الى سائر بلاد الأمبراطورية • على أن ذلك لا ينفي وجود اتجاهات محلية في المدرسة السلجوقية، ترجع الى ما يؤثره المصورون المحليون عن أسلافهم في البيئات

---

(١) احمد تيمور وزكي حسن : التصوير عند العرب ص ٤ الى ٩ ، بشر فارس : سر الزخرفة الاسلامية ص ٣١ — ٣٣ ، محمد رشيد : تاريخ الامام محمد عبده حـ٥ ص ٤٩٩ — ٥٠١ .

(٢) الثعالبي : لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) Arnold, Painting in Islam p. 8.

(٤) E. Blochet: Musulman painting. p. 19.

(٥) لقد اختلف علماء الاثار من مسلمين ومستشرقين في تسمية هذه المدرسة فالبعض سماها المدرسة العربية لظهور مسحة عربية واضحة في السحن والبعض سماها مدرسة بغداد ولكن افضلها واعمها تسميتها بالسلجوقية .

المختلفة ، والى الاقتباس من الأساليب الفنية الأجنبية (١) ·

وحسبنا أن نذكر أن تزويق المخطوطات بالرسوم والصور التوضيحية ، فن حملت لواءه بغداد في العصر السلجوقي في القرنين السادس والسابع الهجري (١٢ ـ ١٣م) ، ولكنه ازدهر في أماكن أخرى من ديار الاسلام الخاضعة للسلاجقة ، فعرفته الموصل (٢) والكوفة (٣) وواسط (٤) وغيرها من بلاد الرافدين · كما امتد الى ايران (٥) ومصر (٦) والشام (٧) بل امتد تأثيره الى الرسوم الحائطية في البرطيل (٨) بقصر الحمراء في غرناطة والى بعض المخطوطات العربية بالأندلس(٩)· وقد امتد أثر المدرسة السلجوقية الى أبعد من ذلك فقد امتد من شرق ايران الى آسيا الصغرى حتى سماها الأستاذ (Basil Gray)

---

(١) B. Gray : Persian painting p. 36.

(٢) K. Holter: Die Galen-Handschrift und die Makamen Hariri der Wiener Nationalbibliothek. p. 48. (in Jahrbuch XI 1937).

(٣) L. Massignon: The Origin of the Transformation of Persian Iconography by Islamic theology (Survey of Persian Art. III p. 1928 - 36).

(٤) زكي حسن : مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي ص ١١ ·

(٥) P.W. Schulz: Die Persischislamische Miniaturmalerei p. 117; E. Kuhnel: painting and the Art of the Book. p. 27.

(٦) R. Riefstahl: The Date and Provenance of the automata Miniatures p. 206-214 (Art Bulletin XI p. 1929).

(٧) D.S. Rice: A Miniature in an Autograph of Shihab al-Din Ibn Fadhallah al-Umari. p. 861 - 864 (Bull. School of Oriental and African studies XIII 1951.

(٨) جمال محرز : الرسوم الجدرانية الاسلامية في البرطيل بالحمراء ص ٤٣ ـ ٤٧ ·

(٩) U. Monneret de Villard : Un codice arabo-spagnola con miniature (in Bibliofilia XIIII firens, 1942) p. 209-223.

باسم المدرسة الدولية (١) ٠

ومن أشهر الفنانين الذين قامت على أكتافهم مدرسة التصوير السلجوقية المصوران عبد الله بن الفضل (٢) ويحيى بن الحسن ابن كوريها (٣) الواسطي ٠ أما عبد الله بن الفضل فكتب وصور (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) مخطوطة من كتاب خواص العقاقير فيه نحو ثلاثين صورة ، وأشهرها صورة رجلين كل منهما تحت شجرة وبينهما وعاء يحركه أحدهما بعصا في يده ، وتمثل هذه الصورة صناع الرصاص ٠ وهناك صورة أخرى محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك ، تمثل طبيبا يحضر دواء (لوحة رقم ٩) ٠ ولما كان هناك تأثير بيزنطي واضح على تلك الصور التي وقعها عبد الله بن الفضل بامضائه ، لذلك فان الدكتور زكي حسن(٤) يرجح أن ابن الفضل اما كان تلميذا لفنان مسيحي في العراق ، أو أن يكون هو نفسه مسيحيا اختار الاسلام وتسمى باسم عبد الله كما يفعل أغلب المسيحيين الذين يعتنقون الدين الاسلامي ٠

أما الواسطي فربما نشأ في مدينة واسط في القرن السابع الهجري ، وتعلم الرسم منذ نعومة أظفاره حتى حذق الرسم واستطاع أن يرسم صورة بأسلوب اسلامي متميز ٠ فقد استطاع اظهار التعبير على الوجوه من فرح وحزن ورهبة ورغبة وذلك عن طريق نظرات العيون وحركات الأيدي ٠ ومما ساعده على

---

(١) Bi Gray: Persian painting. p. 69.

(٢) زكي حسن : فنون الاسلام ص ١٧١ ٠

(٣) استدل الاستاذ بلوشيه من وجود اسم (كوريها) من بين اسماء الواسطي على انه من أصل ارميني ٠

(Blochet: Musulman Painting p. 21)

(٤) زكي حسن : فنون الاسلام ص ١٧١ ٠

ذلك هو استعماله القلم والمداد الأسود الناتج عن حرق أليـاف الكافور وخلطها بزيت نباتي (الخردل) الذي يساعـد علـى اظهار التفاصيل الدقيقة في الصورة (١) ٠

لقد خلد الواسطي فنه في رسم مخطوط مقامات الحريري (٢) حيث قام بنسخ وتصوير المخطوط متبعا أسلوبا متميزا انفرد به ، فلم يتبع الطريقة التي سار عليها جميع المصورين وهي ترك فراغ يحدده الخطاط أو النساخ للمصور ٠

وفي الوقت نفسه رسم الحشود الصغير للأشخاص والحيوانات داخل اطارها على بعدين في اللوحة وعلى مسافة واحدة منه ٠ وكتب اسمه على الورقة الأخيرة وتاريخ المخطوط (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) (أنظر لوحة رقم ١٠ ـ ١١) ٠

ولعل من أكثر مصوري الاسلام استعمالا لصور النساء هو الواسطي ، فقد عني عناية خاصـة بابراز دور المرأة (٣) في المجتمع الاسلامي في عصره ، فرسمها مرة تغزل الصوف لتنسج الثياب والخيام ومرة تحضر الحطب والمناقشات وثالثة تجلس

---

(١) شاكر حسن سعيد : الخصائص الفنية والاجتماعية لرسـوم الواسطي ص ٥ .

(٢) الحريري : هو ابو محمد القاسم بن علي الحريري البصري ولد في البصرة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤ كان اديبا وعين في ديوان الخلافة في البصرة في منصب صاحب الخبر في البريد . واشهر مؤلفاته هي المقامات وعددهـا خمسون مقامة تناولت جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية والدينية والادبية وتناولها بأسلوب جمع بين الحقيقة الجودة والبلاغة واتسعـت له الالفاظ واتقادت له وفور البلاغة حتى اخذ بأزمتها وملك ريقها فاختار الفاظهـا واحسن نسقها . ويقال أن الحريري كتب بخط يـده سبعمائة نسخـة (شذرات الذهب حـ٤ ص ٥٢ ، ابن خلطان حـ١ ص ٤٢٠) .

(٣) ناهدة عبد الفتاح : المراة في رسوم الواسطي ص ٨ .

للدرس والشرح والافتاء في المسجد • وأحيانا تستجدي المصلين، وتارة تشكو زوجها الى الحاكم ، وأخرى للقاضي ، واذا ما فارق الحياة أحد من أهلها صورها تلطم الخدود وتشق الجيوب ، كما صورها ترقص وتغني في سوق الرقيق ، ثم صورها بجرأة وبواقعية وهي في حالة الوضع ، وذهب كذلك الى الريف مع المرأة فصورها ترعى الابل وتملأ الجرار وتفري الصوف وتعمل في الحقل (لوحة رقم ١٢ ـ ١٣) •

ومما يجدر ملاحظته بالنسبة لملابس المرأة ، أن الواسطي عني باظهار التفاصيل الدقيقة منها ، كما أنه كثيرا ما نجده يغطي رؤوس النسوة الفقيرات بخمار (١) أسود يعرف باسم مقنعة (٢) أو فوطة وهو ضرب مما تعتم به (٣) النسوة الفقيرات • وقد اشتهرت مدينة الكوفة بصناعة هذا النوع من الخمر ولبسه ، وكان الخمار خاصا بالحرائر (٤) ، (أنظر لوحة رقم ١٤) •

أما عن المخطوطات التي وضحت بالصورة في العصر السلجوقي فلعل أقدمها وأهمها كتاب في البيطرة (لوحة رقم ١٥) هو مختصر رسالة لأحمد بن حسن بن الأحنف (٥) جاء في نهايتها ، أنها كتبت في بغداد على يد علي ابن حسن بن هبة الله في آخر

---

(١) الاصفهاني : الاغاني حـ٣ ص ٤٥ .
(٢) الوشاء : الموشي ص ١٢٦ .
(٣) ابن منظور : لسان العرب حـ١ ص ٢٧٣ .
(٤) ففي زمن عمر بن عبد العزيز كتب الى ولاته يقول : لا تلبس امة خمارا ولا يتشبهن بالحرائر . (ابن سعيد : الطبقات : حـ٥ ص ٢٨١) .
(٥) هذه النسخة محفوظة بدار الكتب المصورة وتضم ١٤٨ ورقة
Stchoukinc: Les manuscripts illustrés musulmans de la Bibliotheque du Caire p. 138-140 (gazette des Beaux Arts 6 period XIII 1935).

شهر رمضان سنة (٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) • على أن تصاوير هذه المخطوطة ليست مثالا طيبا للأساليب الفنيـة التي نعرفهـا في المدرسة السلجوقية • ومن الكتب العلمية التي أقبـل علـى تزويقها المصورون من المدرسة السلجوقية كتاب الترياق (١) لجالينوس (لوحة رقم ١٦) وكذا كتاب الحشائش أو خواص العقاقير أو خواص الاشجـار المترجم عـن ديسقوريدس (٢) وكتاب الحيل الميكانيكية لابن الرازي (٣) الجوزي (لوحة رقم ١٧) وعجائب المخلوقات للقزويني (٤) (لوحة رقم ١٨) ، هذا فضلا عن طائفة قليلة من كتب الأدب مثل كليلة ودمنـة (لوحة رقم ١٩ ــ ٢٠) ومقامات الحريري السابق الاشـارة اليها • أما كتب التاريخ ودواوين الشعر فقد ذاع تزويقهـا فيما بعد •

وأود قبل أن أترك موضوع توضيح المخطوطات بالصور ، أن أذكر ، أن الرسوم الآدمية في الفن السلجوقي لم تقتصر على توضيح المخطوطات وزخرفة التحف المنقولة فحسب بل ظهرت على العملة كذلك • ولما كانت العملة في الاسلام شارة مـن شارات الملك لذلك فان ظهور الصور والتصاوير عليها التي لم تكن توجد من قبل ، اللهم الا في أوائل العصر الاسلامي عندما

---

(١) ابن شـاكر : فوات الوفيات ص ٣٦ .

(٢) Florance Day: Mesopotamian Manuscripts of Dioscorides. p. 273 (Bulletin of Metropolitan Museum of Art. VIII 1950).

(٣) احمد تيمور وزكي حسن : التصوير عند العرب ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٨١ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٤٣ ، ٤٤ .
Carra de Vaux: Les penseurs de l'Islam. p. 119.

(٤) Holter. K: Die Islamischen Miniaturhand schriften vor 1350 p. 30 (in Zentralblatt fur Bibliothekwossen LIX 1937.
J. Ruska: Qazwinistudien (Der Islam IV 1913) p. 20.

كان الفرس يسبكون للدولة الاسلامية الدراهم ، وتسبك ببزنطية الدنانير الذهبية (١) ، له قيمته وخطره ، وان دل على شيء فانما يدل على أن التسامح الديني وعدم التزمت في العصر السلجوقي بلغ درجة كبيرة ، أتاحت للرسوم الحيوانية فرصة الانتشار في جميع أنحاء العالم الاسلامي • ولعل من أهم النقود التي ظهرت عليها صور مسكوكة تلك التي سكها بنو الأرتق (٢) والأتابكة (٣) في المشرق والمغرب ، بل وحتى صلاح الدين الأيوبي (٤) وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (لوحة رقم ٢١ ــ ٢٢) •

وكان لآراء الماوردي ومن أخذ برأيهم من أئمة المذهب السني ، بالنسبة لولاية الصدقات والزكاة ، أثر كبير على الفن السلجوقي ولكن بطريق غير مباشر • فقد ذكر الماوردي في هذا الموضوع : والزكاة تجب في الأموال المرصدة للنماء ، اما بأنفسها أو بالعمل فيها ظهرة لأهلها ومعونة لأهل السهمان • ثم قسم الزكاة الى صنفين فيقول : والأموال المزكاة ضربان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة ما لا يمكن اخفاؤه كالزروع والثمار والمواشي ، والباطنة ما أمكن اخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجارة •

ويفسر الماوردي كيف يتم لولي الأمر التصرف في الأموال

---

(١) Walker: A catalogue of the Arab-Byzantine and Post-reform Umaiyad Coins. P. XXXI.

(٢) محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ٦٧ ، ٧٣ ، ١٢٥ .

(٣) عبد الرحمن فهمي : فجر السكة العربية ص ٤٥ . ويذكر جاستون فيت أن صلاح الدين الايوبي قد ضرب سكة ببلاد الجزيرة وعليها رسم يمثله وهو جالس فوق عرشه .

Hautecocur et Wiet: Mosquée du Caire p.p. 176-177.

(٤) فجر السكة العربية ص ٤٤ .

الباطنة ، أي الذهب والفضة فيقول : وليس لوالي الصدقات نظر في زكاة المال الباطن وأربابه أحق باخراج زكاته منه • أما عن شرط من تجب عليه الزكاة فوضحها بقوله : والشروط المعتبرة في هذه الولاية أن يكون حرا مسلما عادلا عالما بأحكام الزكاة (١) •

والذي يهمنا من أمر الزكاة في هذا المجال ، أي بالنسبة للفن ، هو الأموال الباطنة ، أي الذهب والفضة ، فقد فصل الماوردي مقدار ما يجب أن يدفع عنه وقيمة المدفوع فقال : الذهب والفضة من الأموال الباطنة وزكاتهما ربع العشر ، ونصاب الفضة مائتا درهم يوزن الاسلام (٢) خمسة دراهم ، هو ربع عشرها واذا نقصت عن مائتين لا زكاة فيها • ويقول أبو حنيفة : ولا زكاة فيما زاد على مائتين حتى يبلغ أربعين درهما فيجب فيها درهم سادس ، والورق (٣) والنقار (٤) سواء •

---

(١) الاحكام السلطانية ص ٩٩ .

(٢) الذي وزن كل درهم منه ستة دواني وكل عشرة منها سبعة مثاقيل

(٣)كان العرب في الجاهلية ترد عليهم دراهم الفرس فكانوا لا يتابيعون بها الا على انها تبر (ذهب) البلاذري ص ٢٦٣ ، الاب انستاس ماري الكرملي علم النميات ص ١٠ ،

Havoix. H. cataloque des monnais Musulmanes de la Bibliothèque national, Vol. I, pp. I, II.

كما كانت الدراهم والدنانير لا تقبل في معاملتهم عددا وذلك لتنوع الاوزان فقد يكون الدينار ثابت الوزن والمقدار الا انه قد ينقص وزنه اثناء التداول . ولمنع الغش كانوا يعمدون الى الوزن ويطلقون على نقود الذهب كلمة عين وعلى نقود الفضة كلمة « الورق » (جورجي زيدان التمدن الاسلامي ج٧ ص ٩٧) .

(٤)جاء في مجمع البحرين، النقرة او النقار، هي السبكة أي المعدن=

وأما الذهب فنصابه عشرون مثقالا بمثاقيل (١) الاسلام يجب فيه ربع عشره وهو نصف مثقال ، ويستوى فيه خالصه ومطبوعه • واذا اتخذ من الفضة والذهب حليا مباحا سقطت زكاته وذلك في قول الشافعي ومالك ووجبت في قول أبي حنيفة : أما اذا اتخذ منها ما خطر من الحلى والأواني وجبت زكاته في قول الجميع (٢) •

نتبين من الأحكام السابقة بأنه لا زكاة على الفضة المسكوكة اذا قلت عن مائتي درهم كما تسقط الزكاة عن الفضة والذهب المستعملة حليا وتجب على المتخذة أواني • وتهربا من دفع زكاة الذهب والفضة فقد لجأ المسلمون في العصر السلجوقي ، عصر التسامح الديني واستخدام الرخص المتاحة في المذاهب السنية الأربعة دون تعصب أو تزمت ، الى تطور صناعة الحلى من معدني الذهب والفضة ، كما أنهم قسموا ثرواتهم الفضية على جواريهم بحيث لا يزيد ما تحصل عليه الجارية عن مائتي درهم •

= المسبوك والدرهم النقرة من الدينار نصفه وخمسه، وان شئت قلت بسبع اعشاره ، فيكون كل سبع مثاقيل عشرة دراهم (الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ١١٣) وجاء في صبح الاعشى ج٣ ص ٤٤٣ الدرهم النقرة يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس وتطبع بدور الغرب السلطانية والمقصود من عبارة الماوردي (بالورق والنقار) هو ان الفضة تجب عليها الزكاة سواء كانت مصنعة اي مسكوكة او تبر .

(١) كان العرب يتعامل بالدينار وزنا للمبالغ التي لا تزيد عن الاوقية الواحدة ، اما اذا قل عن ذلك يكون بالعدد لا بالوزن ويسمى المثقال من الذهب دينارا (يوسف غنيمة : النقود العباسية ص ١٠٠) .

(٢) الاحكام السلطانية ص ١٠٥ .

فلا شك أن الجواري (١) اللاتي امتلأت بهن قصور العباسيين والسلاجقة كن من العوامل الهامة التي ساعدت على العناية بالحلي والجواهر والاكثار منها ، فقد كن يمثلن طبقة هامة في المجتمع الاسلامي في العصر السلجوقي • وكان ظاهر الأمر بالنسبة للأمير أو صاحب الجواري من الاكثار من اقتناء الحلي ، هو لتجميلهن بالفضة والذهب ، أما ما خفي فهو الهروب من دفع الزكاة لأن الأمة وما تملك ملكا لصاحبها • كما كان صاحب الجواري يوزع عليهم الدراهم بحيث لا تزيد ما تحصل عليه كل واحدة منهن على مائتي درهم في معظم الحالات •

أما عن صناعة الحلي في العصر السلجوقي ، فمن المعروف أن الذهب والفضة قد استخدما في صناعة أنواع شتى من الحلي كالأقراط والأساور والقلائد والخواتم المختلفة • وكان العرب يطلقون على بعض الحلي أسماء تمثل آلات الحرب ومعداته (٢) فمن أنواع الأقراط (الترس) لمشابهته للترس الذي يلبس في الحروب ، وكذلك حلى (الخنجر) على هيئة قبضة الخنجر وحلى (مشرف) الى غير ذلك من الأسماء والأشكال • أما حلى العصر السلجوقي فقد امتازت بأشكالها التي تحوي رسوما على هيئة الحيوانات أو الطيور أو الصور الآدمية (لوحة رقم ٢٣ ـ ٢٤) •

ومن الأساليب الزخرفية التي شاع استعمالها في تزيين الحلي في العصر السلجوقي الميناء ، وهي عبارة عن مادة زجاجية نصف شفافة تتكون من أكاسيد معدنية تذاب في سوائل وأحماض خاصة وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس • فنستطيع

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياحي حـ٢ ص ٣١٤ ، حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٨ .

(٢) ابن منظور لسان العرب ، احمد ممدوح حمدي: معدات التجميل ص ١١٢ .

مثلا أن نحصل بأكسيد القصدير على الميناء البيضاء وبأكسيد الكوبلت على الميناء الزرقاء وبأكسيد النحاس على الميناء الخضراء • وزخرفة الحلى بالميناء تكون على طريقتين ، ميناء ذات فصوص (Émail eloisonne) وفيها تصب الميناء في حواجز رقيقة ذهبية تلصق على المعدن والثانية طريقة الحفر (Email éhamplevé) وفيها توضع الميناء في تجاويف حفرت خصيصا لها على صفحة الحلية المراد زخرفتها ثم يحرق الحلى في النار فتثبت الميناء •

وبرغم افتاء الفقهاء وأصحاب المذاهب بعدم جواز الزكاة على الذهب والفضة المصنوعة للحلى الا أن خلفاء الدولة وسلاطين السلاجقة حرصوا على الحفاظ على حقوق الناس وأموالهم فأنشأوا دار العيار لمراقبة تجارة الحلى • فقد جاء في كتب الحسبة (١) ما نصه : ألا يبيعوا أواني الذهب والفضة والحلى المصنوعة الا بغير جنسها ليحل فيهما التفاصيل ، وان باعها (الصانع) بجنسها حرم فيها التفاصل والنسب والتفرق قبل القبض (٢) •

أما عن التحف المعدنية ، فيورد الماوردي حكم المذاهب فيها فيقول : أما المعادن فمن الأموال الظاهرة وفي قدر المأخوذ من زكاته ثلاثة أقاويل • احداهما ربع العشر كالمقتنى من الذهب والفضة ، والقول الثاني الخمس بالزكاة (٣) ، والقول الثالث ان كثرت مؤونة فضية ربع العشر وان قلت مؤونة فضية الخمس •

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة الباب .
(٢) المقريزي : خطط ج ص ٤١٤ .
(٣) الركازكل : محال وجد مدفونا من حزب الجاهلية في موات في طريق سايل ، يكون لواجده وعليه دفع خمسه للزكاة (الاحكام السلطانية ص ١٠٦)

يفهم من الأحكام السابقة ان المعادن حكمها في دفع الزكاة حكم الذهب والفضة ، وان صياغتها واستخدام معدني الذهب والفضة في صناعتها مما يقلل من قيمة الزكاة الواجبة على تلك المعادن في حالة عدم صياغتها • والواقع ان صناع المعادن قد استفادوا من هذه الأحكام في العصر السلجوقي فائدة كبيرة ، فقد كان هذا العصر فاتحة نهضة جديدة في صناعة التحف المعدنية تجلت في الأساليب الفنية التطبيقية والموضوعات الزخرفية التي تجلت فيها بوضوح الرسوم الحيوانية والآدمية ، التي لم تكن موجودة من قبل ، هذا بالاضافة الى الزخارف النباتية والهندسية •

وقد أجمع المؤرخون والرحالة على اشتهار مدينة الموصل في العصر السلجوقي بصناعة التحف المعدنية ، اذ يقول ابن سعيد (١) الرحالة المغربي في رحلته الى الجزيرة والعراق والموصل (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) : « ان مدينة الموصل كانت فيها صنايع جمة لا سيما أواني النحاس المطعم التي كان يحمل منها الى الملوك » (٢) •ويقول ابن كثير (٣) في حوادث (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) « ان بدر الدين لؤلؤ يبعث في كل سنة الى مشهد الامام علي بالنجف قنديلا ذهبا زنته ألف دينار » •

---

(١)
Muhamad Rashid at feel: Iraq and Al-Jazira as described by Ibn Said al-Maghribi. P. 4 (Baghdad 1962).
لقد كان ابو الفداء يمتلك هذه المخطوطة ، وهي موجودة الان في المكتبة الاهلية بباريس •

(٢) Barrett : Islamic Metalwork in the British Museum p. 14
Rice : Inlaid brasses from the workshop of Ahmed al Dhaki al-Mausili p. 284 (Art Orientalis II 1957).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٣ ص ٢١٤ •

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على قيام هذه الصناعة في كل من العراق وسوريا هو مناجم النحاس (١) الغنية الموجودة في منطقة الخابور وأرغانه (٢) ، أضف الى ذلك تشجيع رجال الدولة لهذه الصناعة والقائمين عليها وذلك باقتنائهم الكثير مما يصنع منها (٣) . وكانت التحف المعدنية في العصر السلجوقي تحتل مركز الصدارة في العمائر الدينية (٤) والمدنية على حد سواء ، فهناك قناديل وتنانير وشماعد المساجد والمدارس وأبوابها المصفحة بالبرنز المكفت بالذهب والفضة . وفي القصور المناضد والموائد والثريات والأطباق والأباريق والكؤوس والطسوت والدكك وما اليها (٥) .

ومن أقدم التحف المعدنية المؤرخة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) وعليها امضاء صانعها ، نقش اسماعيل بن ورد الموصلي (٦) ، كما عثر على مجموعة من التحف المعدنية الجميلة ، على أن أحمد الذكي النقاش (٧) الموصلي ، لعل أهمها الابريق الذي يحمل تاريخ صنعه (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) واسم صانعه (عمل أحمد الذكي النقاش الموصلي سنة عشرين وستمائة والعز لصاحبه) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل حـ ١٠ ص ٢١٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٢ ص ١٩١ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٦ .

(٤) Dimand : Muhamdan Art p. 151.

(٥) Rice : Studies in Islamic Metalwork, Vol. II p. 63

(٦) Wiet : Objets en cuivre. p. 170.

(٧) Rice : Inlaid brasses from al-Dhaki al Mausili

هذا وقد أورد لنا (Mayer) (١) قائمة كبيرة من أسماء الصناع العراقيين الذين نقشوا أسماؤهم على التحف المعدنية التي ترجع الى العصر السلجوقي ·

أما عن طريقة الصناعة التي استخدمت في العصر السلجوقي والتي تؤيد ما سبق ذكره من آن المسلمين استفادوا مما أورده الماوردى من أن الزكاة لا تجوز على المعادن المصنعة والتي يدخل فيها الذهب والفضة ، هي طريقة التكفيت (٢) · والتكفيت أسلوب في زخرفة المعادن قوامه حفر رسوم على سطح المعدن ثم تملأ تلك الزخارف المحفورة بمادة أخرى أغلى منها كالذهب والفضة ومختلفة في اللون كالنحاس الأحمر والأصفر ·

ومما يدل على أن فقهاء الدين والقضاة لم يجدوا حرجا في استخدام الأواني المعدنية المكفتة ، القصة التي ساقها سبط ابن الجوزي (٣) قال : لقد حكى لي المجد في حران ٦١٣هـ قال : رأيت بين يدي القاضي علاء الدين الكردي ، قاضي قضاة الأشرف دواة كانت لي أخذت مني في المصادرة ، وهي مكفتة بالذهب والفضة ، فقلت أنت قاضي المسلمين وتدعي الورع ، كيف تستحل أن تكتب في دواة غصب وهي « مكفتة بالذهب » ،

---

(١) Mayer : L.A. : Islamic Metalworkers and their works (Geneva 1959)

(٢) Herbert Maryon. A History of Technology Vol. II p. 452 (London 1954).

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان حـ ٨ ص ٦٧١ (طبعة الهند ١٣٧٠) ·

أنظر (لوحة رقم ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) .

وبعد فهذا قليل من كثير من أثر الماوردي على المجتمع وفنونه في العصر السلجوقي ممثلة ومسجلة على الآثار التي ما يزال الكثير منها باقيا حتى الآن في ميدان العمارة من المدارس والخواني . أما في الفنون الزخرفية فهي كثيرة ، ولذا فقد اكتفينا بتسجيل المواد الواضحة كتصوير المخطوطات وسك العملة ثم الحلى والأواني المعدنية .



الوثائق البريطانية واهميتها في كشف المصالح البريطانية في جزيرة العرب بعد الحرب العالمية الأولى

(١٩١٨ — ١٩٢٦)

الدكتور مصطفى عبد القادر النجار
مدير مركز دراسات الخليج العربي
جامعة البصرة

قسمت الدبلوماسية البريطانية جزيرة العرب قبيل الحرب العالمية الأولى الى قسمين سياسيين رئيسيين (١) :

الأول : ويشمل الأجزاء الشمالية والغربية وهي ضمن مناطق النفوذ العثمانية ٠

الثاني : ويشمل الأجزاء المتبقية التي يحكمها الشيوخ العرب المحليين (٢) ٠

---

(١) للوقوف على تفاصيل وافية عن المصالح البريطانية قبل الحرب العالمية الاولى ٠ راجع مجموعة الوثائق التي جمعها :Dr. Robin Bidwell

The Affairs of Arabia «1905 — 1906» 2 Vols. «Foreign Office Confidential Print». (London — 1971).

أما تفاصيل المصالح البرياطنية بعد الحرب فقد اعتمدنا بشكل اساسي على وثائق :

F.O. 371/11495, 9037, pp. 165-177 — Colonial Office, 26th Nov. 1926.

(٢) وقد أعطتهم بريطانيا مفهوم (الاستقلال) ٠

وتحددت المصالح البريطانية في القسم الثاني من جزيـرة العرب بمنطقتين متميزتين :

الأولى : عدن والأراضي المحيطة بها .

الثانية : الشريط الساحلي للخليج العربي وخليج عمان .

وتأتي أهمية عدن (المحمية) (٣) من أنها محطة زيت هامة وقاعدة بحرية على طريق الهند والشرق الأقصى .

وعليه فقد وضع الساسة البريطانيون خططا كاملة ومفصلة للحفاظ عليها ضمن الدائرة البريطانية بشكل لا يقبل النقاش .

واذا كان هناك خلاف في وجهات النظر فقد برز حول الأراضي المحيطة بها : هل ان بريطانيا تدخل جميع المناطـق القبليـة المحيطة بعدن ضمن دائرة نفوذها . أم أن المصالح البريطانية تقضي الحفاظ على جزء منها .

وكان الرأي الثاني هو الراجح ، وبحدود حماية عدن من أي هجوم محتمل .

أما وجهة النظر الأولى فقد تلاشت واكتفى بالمعاهدات التي تربط قبائل المنطقة (٤) ببريطانيا والتي يعود أقدمها الى سنة ١٨٣٩ .

أما بالنسبة للمنطقة الأخرى ــ الشريط الساحلي للخليـج العربي وخليج عمان ــ فقد عدتها بريطانيا من المناطق الرئيسية

---

(٣) حددتها بريطانيا بشريط ساحلي طوله (١٣٠) ميلا وبعمق (٥٠) ميلا ، واعتبرت عمقها في القسم الشرقي أكبر منه في القسم الغربي . ومن الجدير بالذكر أن عدن خضعت للاحتلال البريطاني عام ١٨٣٩ .

(٤) الممتدة من حضرموت حتى مسقط شرقا . وكان قد سبق تحديدها من جهة الشمال عام ١٩٠٥ مع العثمانيين .

التي تديرها حكومة الهند بشكل مباشر • وأصبح الحفاظ عليها من أهم مباديء تلك الحكومة (٥) •

وعليه فقد ربطت الامارات على طول ساحل الخليج العربي بسلسلة من معاهدات الحماية •

أما مسقط الواقعة على خليج عمان فقد حدد علاقتها مع بريطانيا تصريح عام ١٨٦٢ الذي تعهدت فيه بريطانيا وفرنسا بوجوب احترام استقلال السلطان المحلي •

ولم تشأ بريطانيا أن تزحف الى داخل جزيرة العرب قبل الحرب وتنشيء فيها علاقات مباشرة ولكنها كانت تراقب الملك عبد العزيز الذي أخذ نجمه يتألق • وقد تابعت توسعاته ـ لا سيما تلك التي من جهة الشرق ـ حيث تفاهمت معه •

وقد أعطت الحرب العالمية الأولى اتجاها « جديدا » للسياسة البريطانية في المنطقة العربية بشكل عام • وجاء قيامها لصالح بريطانيا في جزيرة العرب بشكل خاص •

فقد سارعت بريطانيا للدخول في عدة اتفاقات ومحالفات مع الرؤساء العرب في الجزيرة العربية للتعجيل بهزيمة العثمانيين •

وباشارة من بريطانيا قام شريف مكة ـ فيما بعد الملك

---

(٥)
Lord Lansdowne's Declaration of 1903 (re-affirmed by Sir Edward Grey in 1907).

حيث صرحا ما يلي :

«We should regard the establishment of a naval base or of a fortified Port on the Persian Gulf by any other Power as a very grave menace to British interests and that we should certainly resist it with all the means at our disposal».

حسين ـ بالخروج على العثمانيين عام ١٩١٦ • وأعلن قيام مملكة مستقلة في الحجاز (٦) •

وكانت حكومة الهند ـ قبل ذلك ـ قد طرحت فكرة قيام الملك عبد العزيز بالثورة العربية بوساطة صديقه الكابتن شكسبير (٧) • ولكن مقتل شكسبير في معركة جراب غير الخطة • فحل الملك حسين بدلا من الأول ولورنس بدلا من الثاني •

وقد اكتفى بالتوصل الى اتفاقات مع الملك عبد العزيز حيث تم عقد معاهدة دارين عام ١٩١٥ (٨) • كما قدمت معونات جسيمة له •

وحصل الشيء نفسه مع الادريسي أمير عسير (٩) •

وتكشف الوثائق البريطانية الى أن تلك الاجراءات قد اقتضتها ظروف الحرب وأملتها الضرورة القصوى لمواجهة العثمانيين • وهو أمر لا بد منه لتحقيق النصر البريطاني سواء كان ذلك سليما أم غير سليم • وتعد التعقيدات التي نجمت عنها فيما بعد ثمنا لذلك النصر •

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لعبت بريطانيا دورا بارزا في رسم خارطة سياسية جديدة لجزيرة العرب • وذلك بعد أن

---

(٦) من الجدير بالذكر ان الشريف تعاون مع بريطانيا وفقا لمعاهدة تم عقدها في كانون الثاني ١٩١٦ . F. O. 371/2486.

(٧) تعارفا عندما كان شكسبير مقيما سياسيا في الكويت .

(٨) F.O. 371/11445, No. 9037. p. 172.

لقد تم عقدها في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩١٥ وظلت سارية المفعول حتى ١٩٢٧ . هذا اضافة الى عقد بروتوكولات العقير سنة ١٩٢٢ .

(٩) تم عقد معاهدة معه في (٣٠) نيسان سنة ١٩١٥ . ومن الجدير بالذكر انه سبق أن تحالف مع ايطاليا سنة ١٩١٢ .

قام خبراء متخصصون (١٠) باجراء دراسات مركزة وشاملة ودقيقة أعطوا فيها آراء محددة حول جميع الأوضاع في جزيرة العرب • وطرحت بعدئذ أمام الحكومة البريطانية بغية تنفيذ ما يناسبها •

ومن تتبعنا لتلك الدراسات التفصيلية يمكن أن نعطي صورة عن أهم الجوانب الأساسية التي وردت فيها •

فحول العلاقات بين بريطانيا والملك عبد العزيز استقر الرأي باسناد سلطته التي امتدت الى الاحساء ـ حيث أنهى حكم العثمانيين ـ عام ١٩١٣ • والي حائل ـ حيث أنهى حكم ابن رشيد ـ عام ١٩١٧ • والى الحجاز ـ حيث أنهى حكم الهاشميين ـ عام ١٩٢٤ • وبلغت مملكته أبواب شرق الاردن والعراق • وأصبح أقوى شخصية في الجزيرة العربية (١١) •

ومن أجل الحفاظ على استقرار المنطقة فقد سارعت بريطانيا الى عقد اتفاقيات الحدود بين الملك عبد العزيز وبين الهاشميين في كل من شرق الأردن والعراق لتلافي الأزمات المحتملة وعدم اعطاء أية فرصة لتصاعد الخلافات بين العائلتين مما سيؤثر حتما على استقرار المنطقة وبالتالي على المصالح البريطانية فيها •

---

(١٠) أمثال برسي كوكس وفلبي وغيرهما . راجع عن الاول :
Philip Graves, The life of Sir Percy Cox. (London - 1951).
وراجع عن الثاني :
Elizabeth Monroe, Philby of Arabia, (London - 1973).

(١١) في عام ١٩٢١ اطلق على الملك عبد العزيز لقب (سلطان نجد). وفي عام ١٩٢٧ اصبح لقبه (ملك الحجاز ونجد وملحقاتها) . راجع عن تفاصيل ذلك :
Kenneth Williams, Ibn Sa'ud, The Puritan King of Arabia (London - 1933).

وباستطاعة الباحث الاستنتاج أن تلك الاتفاقيات لم تكن متفقة مع مصلحة أي من الطرفين بقدر اتفاقها مع أكبر قدر من المصالح البريطانية في المنطقة ٠

ومن هنا قررت بريطانيا وجوب اسناد فكرة ضم العقبة ومعان الى شرق الأردن ٠ وكانت تلك المدينتين مثار خلاف بين كل من أمير شرق الأردن وملك الحجاز ٠

ولما ضم الملك عبد العزيز الحجاز الى مملكته انتقل الخلاف هذا اليه بوصفه وريثا لتلك المناطق التي كان يطالب بها الملك حسين (١٢) ٠

وهنا تصدت بريطانيا للأمر ٠ وتشير التقارير السرية البريطانية الى أن بريطانيا أعطت تعليمات الى مفوضها للضغط على الجانب السعودي من أجل جعل الحدود لصالح الجانب الأردني (١٣) ٠

كما أنها وجهت تحذيراتها الى الملك عبد العزيز ليكف عن مطالبته بالمدينتين ، فاستجاب مكرها ٠ واتخذت من جانبها الخطوات اللازمة لضمها لشرق الأردن ٠ وذلك ضمن معاهدة جديدة تعقد بينها وبين الملك عبد العزيز ٠

وقد بررت بريطانيا اجراءاتها تلك ، بأن العقبة مهمة لشرق الأردن بوصفها المنفذ الوحيد له للعالم الخارجي ٠ كما أن ضمها يسهل مهمة اتصال البحرية البريطانية بشرق الأردن ٠

أما معان فأهمية ضمها لا تقل عن أهمية ضم العقبة ، ذلك

---

(١٢) H. St. J.B. Philby, Arabia, p. 298 - 314 (London - 1970).

(١٣) F.O. 371/11445, No. 9037.

أن موقعها على سكة حديد الحجاز يكسبها أهمية خاصة للمصالح البريطانية ·

وبالنسبة للحدود العراقية ـ السعودية · فقد وافق الملك عبد العزيز على مشروع بريطاني لعقد معاهدة جديدة تنظم العلاقات بينه وبين الملك فيصل الأول · والذي يتضمن أيضا وجوب اعترافه بمركز بريطانيا الخاص في العراق وعدم المساس به أو احداث اضطرابات أو اعتداءات عليه (١٤) ·

وقد حصل الشيء نفسه بالنسبة لامارات الخليج العربي الأخرى حيث تعين على الملك عبد العزيز وجوب المحافظة على الوضع الراهن (Stat us quo) الذي وجدته بريطانيا يتفق ومصالحها · وحذرته من عدم النفاذ لتلك المناطق بأي شكل من الأشكال ، وعدم الاشتباك مع شيوخ وأمراء الساحل ·

كما طلبت بريطانيا من الملك عبد العزيز عدم اتخاذ أي موقف معاد مع رعايا الأمبراطورية البريطانية من المسلمين الذين يؤمون مملكته بقصد أداء فريضة الحج ·

وبعد أن اطمأنت بريطانيا على الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية وفرغت من التنسيق بينها وبين الحكام العرب فيها كل على حدة · التفتت الى العلاقات المخلية التي تربط بين الحكام أنفسهم · فوجدت أن مصلحتها تقتضي عدم حل الخلافات القائمة بينهم · وأن يتركوا وشأنهم طالما أن تلك الخلافات لا تؤثر على سير المصالح البريطانية لا بل تزيدها ضمانا (١٥) ·

أما بالنسبة لليمن ، فقد اعتبر امام اليمن يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) نفسه وريثا للعثمانيين في منطقته · وصار

---

(١٤) F.O. 371/8936 — 9240, Najd & Iraq Boundary.

(١٥) F.O. 371/11445, No. 9037. p. 170.

يخطط لضم كل من عدن وعسير لمملكته من أجل اقامة (دولة اليمن الكبرى) (١٦) ٠

ولما كان مخططه هذا يستوجب موافقة بريطانيا أو الدخول معها في مجابهة مباشرة فان الامام فضل الموقف الأول ، وأظهر رغبة متزايدة في عقد اتفاقية يمنية ـ بريطانية توصله الى تحقيق أهدافه ٠

لكن بريطانيا طرحت نوايا الامام على بساط البحث لاجراء دراسات تفصيلية عن شخصيته أولا ، واستراتيجية المنطقة ، وأهميتها بالنسبة للمصالح البريطانية ثانيا ، وتحليل الأوضاع في كل من عسير وعدن ومستقبلهما ثالثا ٠

وتكشف لنا التقارير البريطانية أن نتائج تلك الدراسات أقرت بأن الملك يحيى امام اليمن هو الرجل الثاني في جزيرة العرب بعد الملك عبد العزيز ، وله نفوذ قيادي وسياسي وديني في نطاق دائرته ٠ ومن الصعب جدا أن يظهر أي لين للتنازل عن مطالبه في عسير (١٧) وعدن (١٨) ٠

---

(١٦)
Jacob, H. Kings of Arabia. Mills & Boon, P. 288 — 230 (London - 1923).

ومن الجدير بالذكر ان الامام دخل في اتفاق مع العثمانيين سنة ١٩١١ واستمر كذلك طوال فترة الحرب حتى اذا ما شارفت على نهايتها سلم له الاتراك صنعاء مع الذخائر والمعدات التي كانت تحت أيديهم بوصفه الوارث الطبيعي لهم .

(١٧) يصف فلبي في كتابه : Arabian Highlands (Oxford - 1952), The Middle East Institute ثروة عسير الزراعية ومنتجاتها الغذائية الوافرة ويجعلها من الاسباب الرئيسية لمهاجمة الامام يحيى للامارة . حيث كان الامام ينوي القضاء على الامارة الادريسية واسترداد أملاكه منها .

(١٨) بعد الحرب العالمية الاولى اعتبر الامام ان احتلال بريطانيا لعدن

أما بالنسبة لاستراتيجية المنطقة وأهميتها للمصالح البريطانية فان الوثائق البريطانية توضح لنا أن عسير تحتل موقعا متميزا لدى بريطانيا • ذلك أنها تضم قاعدتين استراتيجيتين بحريتين بريطانيتين في البحر الأحمر : الأولى في خليج قمران • والثانية في جزر فارسان (Farsan) •

وعليه فان مستقبلها يهم بريطانيا أكثر من غيرها • ولذا فانها نالت من لدن الساسة الانكليز دراسة خاصة ، فتوصلوا الى أن حاكمها الادريسي (١٩) رجل وافد الى الجزيرة العربية ولا تربطه بها جذور عريقة • وان الطبيعة الجغرافية لمقاطعته لا تساعده على صد أي هجوم عليه • على الرغم من أن ولاء القبائل في عسير ـ المسلحة بكميات كبيرة من الاسلحة يقف حائلا ضد فكرة الهجوم •

وتستنتج الوثائق البريطانية الى أن الادريسي لا يقوى على مجابهة امام اليمن في حالة تأزم العلاقات بينهما •

ولما كانت اليمن قد فتحت بابها على مصراعيه للنشاط الايطالي السياسي والتجاري ، وقد أقام الامام علاقات تجارية وثيقة مع ايطاليا المتواجدة في أريتريا • فان ذلك النشاط سينتقل حتما الى عسير التي يخطط الامام لضمها اليه • ومعنى

→

جاء اغتصابا وان أسلافه كانوا يحكمونها قبل القرن التاسع عشر . وان مطالبته بها تأتي وفقا لخطة أعدها لاسترجاع اجزاء بلاده المغتصبة . راجع:
Jacob, Kings of Arabia, p. 242.

(١٩) توفى السيد محمد الادريسي في ٢٠ مارس ١٩٢٣ . وحل محله ابنه علي . وكان الادريسي الاب قد ضم الحديدة له منذ بداية عام ١٩٢١ . راجـع :
Survey of International Affairs; Royal Institute of International Affairs, year 1925, Vol. I. P. 323.

ذلك أن القاعدتين البريطانيتين ستكونان تحت رحمة القوات الايطالية • وهنا لا بد من معالجة الأمر معالجة جادة •

ولما كانت بريطانيا لا ترغب في مجابهة مباشرة مع ايطاليا من أجل هاتين القاعدتين فانها فضلت أن تعلن تصريحا دوليا بتحذير أي دولة بحرية من التسلل الى هاتين القاعدتين على غرار تصريح لانسدون (Lord Lansdowne) عام ١٩٠٣ ، بخصوص الخليج العربي (٢٠) ، حيث وجدت أن ذلك أفضل علاج لابعاد الايطاليين عن قاعدتيها في البحر الأحمر •

ومن جهة أخرى حذر رجال الاقتصاد الانكليز بوجوب عدم اندفاع المؤسسات التجارية الانكليزية للحصول على امتيازات في اليمن أو عسير • ذلك ان موارد هذين الاقليمين محدودة لا تستحق المجازفة من أجل جعلهما سوقا للبضائع الانكليزية •

ويترك لنا جاكوب (٢١) الذي كان يشغل منصب المعاون الأول لحكومة عدن تحليلا لوجهة نظر المصالح البريطانية في اليمن حيث يقول : (ان مصالح بريطانيا في هذا الاقليم يمكن أن تركز في تدعيم مركزنا في عدن ، وترك الداخل يتطور في خط عربي • وان بريطانيا يمكنها أن تنجح في بسط نفوذها بوساطة انجاح تجارتها في المنطقة • فهي لم تستطع استغلال كل

---

(٢٠) راجع نصه في :

F.O. 371/10138 - 9155 - Memorandum by Mr. Mullet : «We should regard the establishment of a navel base, or fortified port, in the Persian Gulf by any other power as a very grave menace to British interests, and we should certainly resist it with all the means at our disposal».

(٢١) رأس اول بعثة بريطانية الى اليمن عام ١٩١٩ ولكن البعثة باءت بالفشل . وقد وضع كتابا وصف فيه رحلته وتضمنت اهم ارائه .

طاقتها التجارية بعد فيها) (٢٢) • ثم يقول : (ان سياستنا يجب أن تكون الربح دون الاستيلاء ، العمل دون الوجود الفعلي، التطوير دون السيطرة ، فوقت التدخل قد مضى ، وسياسة فرق تسد أصبحت لا قيمة لها ، وأن الاحتفاظ بالحكام العرب الذين يأخذون المرتبات ليقفوا بوجه حاكم عربي ناهض معناه أن ندفع المسلم ضد المسلم • فعدن فقط هي أرض بريطانية ومعزولة في ركن واحد • وعليه ان تجزئة الأقسام الداخلية لا يهمنا كثيرا) (٢٣) •

وجاكوب هنا ـ شأنه شأن جميع رجالات بريطانيا ـ يعبر عن وجهة نظر مصالح بلاده واخلاصه لها • وهو في تحليله هذا ينظر الى الصورة نظرة ينقصها الانصاف والصدق • ولم يلتفت بأي شكل من الأشكال الى مصالح أهل البلاد •

أما بالنسبة للامارة الادريسية فقد اتخذت بريطانيا قرارا (بأن زوال حكم الادريسي أمر لا مفر منه • ويجب أن يبدأ التفكير في مستقبل امارته) •

وقد تمخض عن ذلك عقد اتفاقية ثنائية بين الملك عبد العزيز وحسن الادريسي في تشرين الأول سنة ١٩٢٦ أصبحت فيها الامارة الادريسية تحت الحماية السعودية • وبذلك أصبح الملك عبد العزيز وجها لوجه أمام الملك يحيى • وبهذا دخلت العلاقات السعودية ـ اليمنية مرحلة جديدة (٢٤) •

---

(٢٢) Jacob, Kings of Arabia, p. 245 (London - 1923).

(٢٣) Jacob, Kings of Arabia, p. 245 (London - 1923).

(٢٤) راجع نص الاتفاقية في :
Survey of International Affairs, 1928, p. 319.

وقد جاء ذلك القرار ضمن خطة شاملة للتسوية وضعتها وزارة المستعمرات Colonial Office لحل مشاكل الحدود في جزيرة العرب بشكل عام (٢٥) ٠

أما فيما يخص مشاكل الحدود بين امام اليمن ومحمية عدن (٢٦) ، فقد وجهت الضغوط على الامام لحمله على الانسحاب من الأراضي المحيطة بعدن ٠ وهددته بريطانيا برفض المعاهدة التي يرغب بعقدها معهم ٠

وقد بذل السير جلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton الذي وصل الى صنعاء في ربيع ١٩٢٦ ـ على رأس بعثة سياسية ـ جهودا مكثفة من أجل اقناع الامام للاستجابة لطلب بريطانيا ، ولكن جميع مساعيه باءت بالفشل ٠

وعليه طرحت عدة حلول للمسألة منها : التدخل العسكري ، ولكن الخبراء العسكريون البريطانيون لم ينصحوا الأخذ به لأن تكاليفه لا توازي الفائدة التي تجنيها بريطانيا من ذلك ٠

كما نصحت لجنتا أركان الحرب والدفاع الأمبراطوري باتباع طريق وسط يتضمن تقوية السلاح الجوي البريطاني في عدن وبالتالي استخدامه في تهديد الامام ، حيث سيؤدي ذلك الى تعقله في اتخاذ المواقف التي تهدد المصالح البريطانية في عدن ٠

---

(٢٥)
Memorandum from Colonial Office, Dated 26 Nov. 1926.

(٢٦) كانت الحدود تتذبذب بين النفوذ البريطاني والنفوذ العثماني في اليمن منذ سنة ١٨٧٣ حتى بداية سنة ١٩٠٢ . ولكنها حددت بين عامي ١٩٠٢ ـ ١٩٠٤ بوساطة لجنة مختلطة بريطانية ـ عثمانية . وفي اتفاقية عام ١٩١٣ العثمانية البريطانية توصل الطرفان الى تسوية شاملة للحدود . ولكن الامام رفضها بعد الحرب العالمية الاولى .

أما السير جلبرت كلايتون فكان من رأيه وجوب اعادة النظر في العلاقات بين بريطانيا والقبائل العربية على وجه العموم في عدن • والعمل على تعديل معاهدات الحماية لتناسب روح العصر والابتعاد عن أي موقف متطرف مع الامام • وقد أخذت الحكومة البريطانية برأي كلايتون هذا ووجدت منه حلا معقولا يخدم مصالحها بشكل أكبر •



ظاهرة الاستعمار الاستيطاني في افريقيا والشرق الاوسط

البروفسور ريتشارد ستيفنز
استاذ العلوم السياسية/جامعة لنكولن/بنسلفانيا

ان استقلال أنغولا في نوفمبر من عام ١٩٧٥ ، وما سبقه من الانحلال الاجتماعي في تلك البلاد التي كانت مهددة مؤقتا بأن تصبح دولة استيطانية على غرار « روديسيا » ، استقلال له مغاز عميقة بالنسبة لظواهر الاستيطان التي ما زالت قائمة في افريقيا والشرق الأوسط ·

فأنغولا بلد غني بالبترول والحديد الخام والماس والمنتجات الزراعية ، وتحقيق الاستقرار الداخلي فيها سوف لا يؤثر فحسب في الأحداث الدائرة في « ناميبيا » الواقعة تحت سيطرة جنوب افريقيا ، بل سيمكنها أيضا ، اذا انضمت اليها تجمعات دول منتجة مثل الأوبك ، من أن تلعب دورا فعالا في الصراع المتزايد مع العالم الصناعي الغربي ·

فقبل خمسة عشر عاما خلت ، انطلقت المقاومة المسلحة لأول مرة ضد البرتغاليين في أنغولا ، وقام الثوار برفض جهود البرتغال الرامية الى انتزاع النخبة الأنغولية من بين الجماهير

بتطبيق سياسة تهدف الى استيعابها ضمن النخبة البرتغالية .
كما تحدى الثوار أيضا رفض البرتغال فكرة السيادة الأنغولية
أو استقلالها المحتمل .

وفي عام ١٩٧٥ ، حاولت البرتغال أن تغطي الطبيعة الاستعمارية لامبراطوريتها التي دامت خمسة قرون . فأعلنت أن كل ممتلكاتها ستصبح « مقاطعات وراء البحار » مرتبطة ربطا أبديا بالبرتغال . ولكن لم تخب الآمال التي كانت تهدف اليها هذه المحاولة فحسب ، بل أن هذه البادرة أدت في النهاية الى سقوط النظام الحاكم في البرتغال آنذاك ، وذلك فان هذه المهاترة الدستورية القانونية قد مكنت حلفاء البرتغال في حلف الأطلسي من أن يؤيدوا ، بضمائر مرتاحة ، طلب البرتغال عام ١٩٥٥ الانضواء تحت لواء الأمم المتحدة . وكان من جراء ذلك أن استمرت الولايات المتحدة وحلفاؤها ، لا سيما فرنسا التي أعطت نفسها حقا مشابها في شمال الجزائر ، في الاعتراف بمطالبة البرتغال للسنوات السبع التالية باعتبار هذه المقاطعات جزءا لا يتجزأ من البرتغال وبالتالي بأنها لا تخضع لمجال اشراف الأمم المتحدة .

وفي هذه الأثناء وبسبب الأحداث في أنغولا ، فان الحركات الثورية التي برزت في غينيا بيساو وموزامبيق رفضت أن ينطلي عليها وجه البرتغال الاستعماري . فانطلق بذلك الصراع الذي أرهق البرتغال وأوصلها الى حافة الهاوية الى أن انتهى الأمر أخيرا في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ الى الاطاحة بمارسلو كاتيانو ـ خليفة سالازار . وبعد ثلاثة شهور من ذلك ، لم تنجح عملية التأخير التي حاولها الجنرال سبينولا . وفي سبتمبر من ذلك العام تم رسميا الاعتراف باستقلال غينيا بيساو الذي كان قد أعلن عنه من قبل . وفي يونيو ١٩٧٥ تم استقلال موزامبيق ، وجزر

الرأس الأخضر وساوتومي وبرنسيبي في يوليو عام ١٩٧٥ ، ولم يبق الا أنغولا لتحقيق استقلالها ٠

واذا نظرنا الى الوراء ، فان الأحداث التي دارت في البلدان الافريقية التي كانت خاضعة للبرتغال ، قد دحضت الزعم الأمريكي والغربي بأن حرب العصابات ليس بمقدورها تحقيق الاستقلال السياسي ٠ وليس أدل على ذلك من اعتراف القادة العسكريين البرتغاليين أنفسهم ، ومنهم الجنرال سبينولا ، الذين كانوا يشرفون على العمليات العسكرية المضادة للثوار في غينيا بيساو ، بأن الثوار قد انتصروا لسبب بسيط ووجيه وهم أنهم لم ينهزموا ٠ وقد كان هذا الزعم هو الذي دفع الولايات المتحدة لمساندة النظام البرتغالي بشكل مباشر أو غير مباشر في عملياته العسكرية في أنغولا ٠ وفي مقابل هذه المساندة ، حصلت الولايات المتحدة من البرتغال على تسهيلات لاستعمال قواعدها في جزر الآزور ٠ فقبل ستة أشهر من سقوط نظام كاتيو ، كانت هذه التسهيلات الممنوحة لأمريكا هي التي مكنت اسرائيل من الحصول على تموينها من الأسلحة بسرعة في وقت محنتها أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٠ واذا ما تذكرنا أن كل حلفاء أمريكا الغربيين الذين لم تعد لديهم مراكز القوى التي كانوا يتمتعون بها سابقا أو الذين أدركوا الواقع الجديد قد أدهشوا الولايات المتحدة برفضهم منحها مثل هذه التسهيلات ، لأدركنا أن موافقة البرتغال على ذلك تكشف مدى اعتمادها على أمريكا وتابعيتها لها ٠ ولكن مثل هذا الاعتماد ، اضافة الى اعتماد ممتلكاتها الافريقية ، لم يكن يتمشى مع طبيعة عقد السبعينات ٠

فمن الناحية التقليدية ، لم ترغب البرتغال في أي وقت من الأوقات بانشاء دولة استيطانية ، كما أن التطور في هذا الاتجاه

لم يكن ليتمشى مع فلسفتها الاستعمارية • ومع أن نفس هذا الرأي ينطبق على معظم القوى الأوروبية التي مضت في هـذا الاتجاه ، الا أن البرتغاليين بدوا أكثر تصميما على منـع الاستيطان وعلى الحفاظ على النمط الاستعماري الذي كـان سائدا في القرن الثامن عشر •

وقد كان قصد البرتغال في منعها قيام دولة استيطانيـة في مستعمراتها هو معالجة العجز الدائم في ميزان مدفوعاتها عن طريق الفائض التجاري مع ممتلكاتها الافريقية • ومـع أن المستوطنين البرتغاليين كانوا يقدمون الى المستعمرات ، الا أن أعدادهم كانت قليلة ، وكانت أنغولا تقتطع أكبر عدد منهـم فلم يبلغ عددهم في النهاية غير نصف مليون برتغالي • وعلاوة على ذلك ، كانت البرتغال طبقا لفلسفتها السلطوية ، تتخـذ الاجراءات الكفيلة بمنع قيام قاعدة استيطانية سياسية قد يصل بها الأمر الى تحدي الحاضرة البرتغالية • ولهذا ، وفي عـام ١٩٧٤ ، وبالرغم من اقتراب الحكومة من الانهيار التام ، فان محاولات المستوطنين المتردة في أنغولا وموزامبيق الاعلان عن استقلالهم عن الحاضرة البرتغالية قد تبخرت بسرعة •

ولم يجد برتغاليو المستوطنات الجرأة الكافية التي يتطلبها اعلان الاستقلال ، لأن في ذلك خروج عن الدور الخانع الذي لعبوه بصفتهم مستفيدين من الاجراءات البرتغالية الاقتصادية والسياسية في المستعمرات •

ان تصميم البرتغاليين على الحفاظ على « مقاطعاتهم فيما وراء البحار » بأي ثمن ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعزوه الى الفوائد المادية المقترنة ببيع العمالة الافريقية الرخيصة الى جنوب افريقيا والتي كانت البرتغال تتقاضى عائدها بالذهب ،

ولا الى العوائد المتوفرة عن المنتجات الزراعية الأولية والمعادن .
ولا الى بيع خدمات النقل والمواصلات الى الدول المجاورة .
فالبرتغال لم تكن مثل القوى الأوروبية الأخرى التي سمحت لمستعمراتها وتوابعها أن تتمتع بالسلطة الرسمية دون اعاقة المصالح الاقتصادية التقليدية ، لأن البرتغال نفسها كانت فقيرة ومتخلفة ومعتمدة اقتصاديا على الآخرين . ولذا فانها كانت تخشى أن يحل الآخرون محلها في مستعمراتها كمستفيدين رئيسيين مما يمكن أن نطلق عليه العلاقة الاستعمارية الجديدة . والحقيقة ، ان عضوية البرتغال في حلف شمال الأطلسي ودعم أمريكا العسكري لها تطلب منذ الستينات دخول رأس مال أجنبي غير برتغالي في المناطق التي كانت تعتبر مناطق خالصة للبرتغاليين ، وخير مثال على ذلك هو وجود شركة غلف أويل في الممتلكات البرتغالية الافريقية .

ان انهيار الامبراطورية البرتغالية ، أقدم أثر أوروبي في افريقيا منذ « عصر الاستكشافات » ، ورائدة حاملي « العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض » ، والسباقة في حمل رسالة أوروبا التمدنية ، ذلك الدور الأوروبي الذي تم تحقيقه على حساب ما بين ثلاثين الى خمسين مليونا من الافريقيين الذين بيعوا عبيدا ، هذا الانهيار لم يكن فجائيا بل جاء في أعقاب انهيارين آخرين لمجتمعين استيطانيين أوروبيين غير مكتملين في كل من كينيا والجزائر .

ومن تجربة كينيا والجزائر ، نستطيع أن نتبين بوضوح أكثر ملامح الظاهرة الاستيطانية ، اذ أن هاتين الحالتين قد بينتا العلاقات الاستعمارية مع المستوطنات من جهة ، ونمو المؤسسة الاستيطانية المستقلة بقرارات قانونية ودستورية عن الحاضرة من جهة أخرى . ولكن كنتيجة للتغير في سياسة الحاضرة

نحو المستوطنات في حالة كينيا والجزائر ، حيث استطاعت الحاضرة أن تدرك عدم جدوى صراع المستوطنين من أجل اقامة مستوطنات مستقلة ، فان اندفاع المستوطنين نحو الاستقلال قد أمكن كبحه • ولأن القوة الحقيقية كانت تتركز عمليا في الحاضرة التي كانت تشغلها أمور أعمق تتعلق بوجودها ، فان ذلك كان السبب الحقيقي لفشل محاولتي الاستقلال الاستيطاني في كل من كينيا والجزائر •

واذا ما بحثنا أمر كينيا ، فاننا نجد أن بريطانيا قد أعلنت عام ١٨٩٥ عن اقامة محمية تابعة لها في تلك المنطقة لتأمين طريقها الى أوغندا منبع النيل الأبيض وذات الخصوبة الزراعية الوفيرة • ولكن خط الحديد الذي أنشأته بريطانيا عبر « كينيا » باستغلال العمالة الهندية الرخيصة وبكلفة تنوف على (٥) ملايين جنيه استرليني آنذاك لم يكن بالامكان ادامته بشكل مربح ، على حد زعمهم ، الا بتواجد المستوطنين البيض • ومع قدوم عام ١٩٠٢ كان استيطان البيض في مرتفعات « كينيا » الباردة سياسة رسمية • وانطلاقا من هذه السياسة ، فان سكرتير المستوطنات في الوزارة البريطانية آنذاك السيد / جوزف شامبرلين ، عرض على الزعيم الصهيوني « تيدور هرتزل » عام ١٩٠٣ جعل أوغندا (كينيا) منطقة للمستوطنات اليهودية •

وقد قبل المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد في « بازل » في سويسرا في أغسطس عام ١٩٠٣ هذا العرض ، الذي تم ربطه ربطا أوثق بالمصالح البريطانية الاستعمارية الاستيطانية في جنوب افريقيا • وكان شامبرلين يعتقد بنجاح سياسة المصالحة بين البيض ، التي تبناها بعيد حرب البوير ، نتيجة للدعم الذي سيلقاه من اليهود • ولمواجهة الأعباء المالية الساحقة التي نتجت عن هذه الحرب ، فان « شامبرلين » كان يرى أن الثروة العظيمة

الصناعية والمعدنية الموجودة في الراند هي وحدها القادرة على اعادة تعمير جنوب افريقيا • ولكن من بين كل المتلكات البريطانية ، كانت جنوب افريقيا هي الوحيدة التي كان اليهود والأموال اليهودية يعيرونها اهتماما • وقد ذكر « جوليان امرى » — كاتب قصة حياة « شامبرلين » بهذا الصدد « ان منطقة الراند ، بشكل خاص ، كانت بأيد يهودية محضة •••• وكان « شامبرلين » و « ميلنر » يعقدان على ازدهارها كل آمالهم من أجل اعادة تعمير جنوب افريقيا وتطويرها في المستقبل (١) •

وقد لاحظ « روبرت وايزبورد » أن جنوب افريقيا قد أصبحت « مرتعا للنشاط العسكري حتى قبل قيام الاتحاد الصهيوني في جنوب افريقيا عام ١٨٩٨ ، يضاف الى ذلك أن بعض أغنى المستثمرين اليهود في مناجم الراند كانوا من الصهاينة » (٢) •

ومن المعلوم أن عرض الاستيطان في « أوغندا » قد شق الحركة الصهيونية حتى الحرب العالمية الأولى ، ولكن لو قبلت المنظمة الصهيونية آنذاك هذا العرض بجدية ، لما كان الطابع الاستيطاني للدولة الصهيونية مثار جدل ، كما تبين « لوايز بورد » ، الذي يقول :

« فيما يتعلق بكينيا ، يمكن للمرء أن يتساءل : هل يساعد وجود مجتمع يهودي له شأنه على احتفاظ بريطانيا بزمام الأمور في تلك المنطقة ؟ أم هل كانت القومية الافريقية

1. Julian Amery, The Life of Joseph Chamberlain, Vol. IV (London, 1951) p. 257.
2. Robert G. Weisbord, African Zion, (Philadelphia, 1968) p. 127.

ستعتبر مثل هذا المجتمع القائم في وسطها استيطانيا ليس له حق في تقرير المصير والوجود القومي ؟ انه من الواضح أن القومية الافريقية كانت ستصطدم بالصهيونية السياسية الحديثة تماما كما فعلت القومية العربية في الشرق الأوسط · ولكانت شرق افريقيا آنذاك ، هي منطقة الصراع ، ولكان « كينياتا » بدلا من « ناصر » هو محط سخط الصهيونية · وفي تلك الحالة ، كان تبرير الصهيونية لوجودها سيفقد المنطق التاريخي والقرائن العاطفية (التي تدعيها الآن في فلسطين) » (٣) ·

ان المعارضة المحلية البيضاء للاستيطان الصهيوني كانت أحد الأسباب التي جعلت فكرة خلق « وطن للرجل الأبيض » في كينيا تبدو مجرد أحلام مدة بضع سنوات · وكان اعتبار لندن أن « كينيا » أصبحت محمية بريطانية من جهة وتساهلها أمام نمو ادارة محلية فيها من جهة أخرى خير مؤشر على أن تطورا مشتركا للعلاقة بين البيض والأفارقة على غرار ما كان يجري في غرب افريقيا قد يصبح مثالا يمكن أن يحتذى · واستجابة لطلبات المستوطنين ، أنشأت لندن عام ١٩٠٧ مجلسا تشريعيا استبعد منه الأفارقة ، مما أثار التوقعات لدى المستوطنين أن هذا الاجراء سيقودهم في النهاية الى أن يرثوا الأمبراطورية البريطانية في « كينيا » كما حدث في مستعمرتي رأس الرجاء الصالح وفي « كندا » اللتين نشأتا حول مثل هذه المجالس التشريعية واستمدتا قوتهما منها · ومنذ انشاء هذا المجلس التشريعي بدأت معالم التفرقة بين البيض والافريقيين تتضح خاصة بعد انتهاج سياسة ترمي الى هدم اقتصاد الأفارقة ·

---

3. Robert G. Weisbord, African Zion, (Philadelphia, 1968) p. 127

أما المكاسب المتلاحقة التي حققها البيض بعد الحرب العالمية الثانية والتي سهلتها التشريعات المرسومة ضد صالح الأفارقة ، فانها أتت أكلها عام ١٩٥٠ عندما هبت قبيلة « كيكويو » الكينية لتصب جام ثورتها بكل قسوة ووحشية على تلك الأوضاع . وفي السنوات القليلة اللاحقة حالت بريطانيا دون نجاح أن تسحق ما أسمته بحركة الماو الماو من خلال حملات استيطانية واعتقالات للزعماء المتهمين ومنهم « كينياتا » ، وارهاب عنيف مارسته ضد هذه الحركة . ولم يكن سبب ذلك ردة الفعل البريطانية المنيفة حماية مصالح المستوطنين فحسب ، بل كانت بريطانيا ترى أن كينيا ضرورية لسياستها الأمبراطورية في منطقتي الشرق الأوسط والمحيط الهندي . ولكنها عندما اقتنعت أخيرا بوجوب فصل سياستها في المحيط الهندي عن سياستها في الشرق الأوسط ، قامت عام ١٩٥٥ بتعيين وزير افريقي . وفي عام ١٩٥٧ ، ومن أجل أن تواجه احتجاج البيض المستوطنين ، سمحت للأفارقة بأن يصبح لهم حق الترشيح والانتخاب لعضوية المجلس التشريعي فالتحق به بعض الأفريقيين نتيجة لذلك . وكان معنى ذلك هو رفض السيادة البيضاء من جهة ، وأن مسألة حكم الأغلبية والاستقلال الذي منحته بريطانيا لكينيا في ديسمبر عام ١٩٦٣ أصبحت مسألة وقت فحسب .

وأثناء هذه التطورات ، تم الحفاظ على العلاقات الاقتصادية التي كانت تربط المستوطنين بكل من المراكز المالية في بريطانيا وجنوب افريقيا وروديسيا . ومع أن آلافا من البيض لم يطيقوا فكرة مساواة الأفارقة بهم اجتماعيا ففروا الى جنوب افريقيا وروديسيا التي كانت مفتوحة لهم ، يحملون معهم كل السيولة النقدية التي استطاعوها ، الا أن الكثير من البيض ظلوا في « كينيا » وكان سبب بقائهم هو أن الخيط الذي انتظم النظام القديم بقي سليما ، وتحولت كينيا مثلها مثل معظم المستعمرات

البريطانية السابقة الى وضع مريح تطغى عليه الصيغة الاستعمارية الجديدة ، وذلك بالرغم من تجربة الماو الماو والارهاب الذي عرضتهم له • وفي هذه الصيغة الجديدة ، أمكن استيعاب العديد من القيادات السياسية الكينية في البنية الاقتصادية السائدة المحكومة من الخارج ، علما بأن بعض هذه القيادات كان يشار اليها بأنها جماعات ارهابية متوحشة الى عهد قريب • وهذه الطبيعة الاقتصادية والسياسية لكينيا هي التي تفسر لنا بقاءها محظية غربية في افريقيا وبها تواجد اسرائيلي قوي •

ولكن اذا كانت ثورة كينيا ضد الاستيطان قد أمكن تطويقها، ولو الى حين ، بواسطة التيارات الاقتصادية القائمة آنذاك ، فان القضية الجزائرية قد اتبعت مسارا آخر • فبعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ، قامت فرنسا بضم الجزء الشمالي منها الى الجسد الفرنسي عام ١٨٧١ على شكل ثلاث دوائر لما وراء البحار على النمط الذي اتبعته البرتغال عام ١٩٥١ •

ومن النقائض التاريخية أن يكون القرار الفرنسي بغزو الجزائر انعكاسا لرغبة الحكومة الضعيفة آنذاك في الحصول على مكاسب تلهي شعبها بها عنها • فان الأحداث في الجزائر بعد تسعين عاما من هذا الغزو ، بما في ذلك ثورة المستوطنين أنفسهم، أدت الى أمور عكسية تماما • فلم تؤد هذه الأحداث الى مجرد انقلاب دستوري في الحاضرة والى الاعتراف باستقلال الجزائر ، بل تعدت آثارها ذلك الى اعادة تشكيل الاتحاد الفرنسي ذاته الى حين ، ثم الى انهياره نهائيا • ومثل ذلك ، فان البرتغال التي ارتبط نشاطها الاستعماري ارتباطا عضويا بنسيجها الداخلي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، قد أدت الأحداث في

مقاطعاتها لما وراء البحار لا الى مجرد الانقلاب الدستوري في الحاضرة ، بل الى مسار من الأحداث لا يمكن التكهن بمنتهاه ٠

أما القرار الفرنسي بضم شمال الجزائر فلم يكن الهدف منه مجرد القضاء على ما تبقى من مظاهر الحياة القبلية هناك ، بل كان يهدف بالدرجة الأولى الى ترسيخ الاستيطان الفرنسي فيها٠ وفي الوضع الاستعماري « العادي » ، تستطيع السلطات التقليدية المحلية سواء أكانت قبلية أم دينية أن تخدم المصالح الاستعمارية٠ ولكن منطق البقاء يفرض سياسة مختلفة ٠ وفي الجزائر ، فان مصادرة الممتلكات لصالح المستوطنين الفرنسيين قد أنزلت السكان المسلمين المحليين عام ١٩٠٠ من مرتبة مزدهرة الى وضع اقتصادي واجتماعي وثقافي منخفض ٠ كما أن القبائل قد تم اذابتها والاقتصاد الوطني قد جرى هدمه بعد ابادة ثلاثة ملايين جزائري ٠ وليس لنا الا أن نشكر حملات « التمدين » الطويلة وحملات « فرض حالة السلم » التي جعلت انتاج الخمور للتصدير يحل محل الانتاج التقليدي للحبوب الذي كان يوفر للجزائريين الكفاية الزراعية الذاتية ٠ فالفلاحون الذين فقدوا أراضيهم بعد اقتلاعهم منها ، صاروا يستخدمون بعد ذلك في فرنسا كأيدي عاملة رخيصة ٠ وأصبحوا في ذلك يشبهون النمط السائد في جنوب افريقيا التي أصبح سكانها المقهورون يمثلون « احتياطيا محليا » يوفر العمالة لخدمات المناجم والزراعة في خدمة الأقلية المسيطرة ٠

وكان يبدو أن مصالح المستوطنين الفرنسيين قد ترسخت ، لا سيما بعد تفويتها عبر عدة أجيال وعن طريق مئات الآلاف من المهاجرين الوافدين من جنوب أوروبا لضمان بقاء المستوطنين٠ ولكن القوى الجديدة التي لها جذورها في تناقض النظام الفرنسي ، كانت تتخمر لتؤدي الى الانهيار التام للبنيان

الاستعماري الاستيطاني • ولم يتمكن دمج المجتمع اليهودي الجزائري الكبير عدديا في المواطنية الفرنسية عام ١٨٧٠ من تقوية القاعدة الاستيطانية ، واعاقة النمو المتزايد للمقاومة الوطنية • ان هذا التطور الذي نجد جذوره فيما لقيه العمال الجزائريون عندما تعرضوا للحياة الغربية في الحاضرة ، وفي ردة الفعل التي تمثلت في الاعتزاز بالنفس عندما وجدوا حضارتهم التقليدية معرضة للهجوم الشامل • ان هذا التطور قد أثبت أنه يفوق كل المحاولات الاستيطانية الفرنسية للتحكم والسيطرة • فبينما اكتسب بعض الجزائريين صبغة « الملتحقين » بفرنسا مقابل انسلاخهم الاجتماعي والثقافي ، كما فعل بعض الأفارقة في المستعمرات البرتغالية وفي المستعمرات الفرنسية جنوب الصحراء الكبرى ، الا أن الجزائري العادي لم يقبل التخلي عن هويته • ولذا فان الجزائريين لم يكونوا معنيين مطلقا باقدام فرنسا عام ١٩٤٤ على انشاء الاتحاد الفرنسي ، في محاولتها عقب الحرب العالمية الثانية للحفاظ على ممتلكاتها الافريقية والامريكية والآسيوية ، ذلك الاتحاد الذي امتدحه المنظر الليبرالي الاستعماري « روبرت دي لافيجنت » وشبهه بقرار الامبراطور الروماني كاراكالا عام ٢١٢م بمنح المواطنية الروحية لكل أحرار العالم (٤) • ان التنازلات الفرنسية في الجزائر ، التي أعاقها تمرد المستوطنين مؤيدوهم في الحاضرة ، قد جاءت متأخرة بحيث لم تنقذ الأقلية البرجوازية الجزائرية التي كانت راغبة في القبول بروابط فيدرالية مع فرنسا • ففي ١ نوفمبر عام ١٩٥٤ أعلنت الثورة ، ولم تقتنع فرنسا أن جذور هذه الثورة جزائرية صرفة مما قادها بعد عامين الى

---

4. Edward Mortimer, France and the Africans 1944-1960 (London, 1969) p. 55.

مغامرة استعمارية أخرى وهي حربها ضد مصر (غزو السويس) • ولكن مصير الاتحاد الفرنسي كان قد تقرر أصلا في بداية عام ١٩٥٩ في الهند الصينية في معركة ديان بيان فو ، ومع انسحاب القوات الفرنسية من القارة الهندية الى الجزائر ، ولذلك ترك للولايات المتحدة أن تقوم بمحاولات عديمة الجدوى لاصلاح ما يمكن اصلاحه من المصالح « الغربية » •

ان انتصار الثورة الجزائرية عام ١٩٦٢ التـي ساعدتها وأدامتها القومية العربية الجديدة التي اتصفت بها الخمسينات • قد تغلب على آخـر نـزع تخريبي للاستعمارية الاستيطانيـة المتلاشية •

وكمحاولـة غير مثمرة للحفـاظ على الجزائر ، جوهـرة المستعمرات الفرنسية ، قامت فرنسا بمنح تونس والمغـرب استقلالهما وحاولت اعادة تشكيل الاتحاد الفرنسي بحيث تستطيع منح المستعمرات بعض الاستقلاليـة السياسيـة والاجتماعيـة والثقافية • ومع أن فلسفة دمج المناطق السوداء في الاتحـاد الفرنسي وهي التي ترعرعت في مارتينيك والسنغال استهدفت حل المشكلة الثقافية القائمة ، الا أن هـذه الخطـة الديغولية تعرضت للتحدي في غينيا التي كـان يقودها سيكوتوري عـام ١٩٥٨ • وأمام هذه الضغوط ، ولمواجهة عدم رضا مؤيـدي الالتحاق بالاتحاد الفرنسي عن سياسة فرنسا ، تم عام ١٩٦٢ منح استقلال ظاهري لكل أجزاء الامبراطورية الفرنسيـة في افريقيا ما عدا الصومال « جيبوتي » وبقيت هذه البلدان معتمدة اقتصاديا على فرنسا •

ومع أن اتفاقية استقلال الجزائر الموجودة في سجلات وقائع اجتماعات ايفيان في ٢٨ مارس ١٩٦٢ قـد رضيت بالهويـة

الاستعمارية الجديدة لفرنسا وأعطتها حق ديمومة استعمال القاعدة البحرية في مرسى الكبير وأعطتها مواقع في الصحراء للقيام بتجاربها النووية ، وحق الهبوط في الموانيء الجوية علاوة على تنازلات أخرى في مجال النفط والغاز الطبيعي ، فان حكومتي بن بيلا وبومدين لا تعتبران هذه التنازلات نهائية ٠

وهكذا ، وتمشيا مع فلسفة ابنها الثوري فرانز فانون ــ ذلك الزنجي من سكان جزر الهند الغربية ، قامت الجزائر بافتتاح مسرح السبعينات عندما حثت القوى الاقتصادية غير الغربية على التكتل لتحدي آخر محاولة مدعومة من الغرب للتدخل في العالم العربي ٠ وفي الوقت ذاته فان هذه القوة الجديدة التي ظهرت في العالم الثالث كانت مهتمة بتغيير عدم التوازن القائم بين اوروبا والبلدان غير الأوروبية الذي كان سائدا في العالم منذ فجر الفترة الصناعية التوسعية ٠

وفي يومنا هذا ، بعد اقتلاع الدويلات الاستيطانية أو الاستيطانية المبطنة في كينيا والجزائر وافريقيا البرتغالية ، وفي عهد تزايد عزة العديد من الدول المستقلة ظاهريا الواقعة تحت نمط الجديد ، لم يبق في أفريقيا من الدول الاستيطانية الا جنوب افريقيا ــ التي تتحكم في ناميبيا ــ وروديسيا ٠ وتمتد الجذور الاستيطانية في جنوب افريقيا الى القرن السابع عشر الذي نشطت خلاله في تلك المنطقة الشركة الهولندية الهندية الشرقية ، والى الانتصار البرتغالي وما أدى اليه من حركة استيطانية خلال الحروب النابوليونية ٠ أما روديسيا ، فلم تكن بها الا حفنة من البيض عند اطلالة القرن العشرين ٠ وفي هاتين المنطقتين ، كان الفضل الاستيطاني يرجع الى السياسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي وضعها النابغة الاستعماري الداهية

سيسيل رودس • فبعد اكتشاف الذهب والماس في منطقة الراند في منتصف القرن التاسع عشر ، أصبحت جنوب افريقيا مرتبطة بشريان النظام الاقتصادي والسياسي البرتغالي • وفي نفس الوقت ، اقتضت الاستراتيجية الامبراطورية الرامية الى الحفاظ على ممتلكاتها في الهند ومن ثم التحكم في قناة السويس ، أن يكون مصير جنوب افريقيا مرتبطا بأولويات الاستراتيجية البريطانية •

وقد تشكلت السياسة البريطانية للمنطقة عام ١٨٥٢ ، حينما تنازلت بريطانيا لمستعمرة رأس الرجاء الصالح لتحكم نفسها بنفسها على أساس غير عنصري لكن تحدده المعطيات الاقتصادية • ومع أن هذه السياسة قد بدت وكأنها نسخة متحررة عما كان يدور في كندا ، الا أن مسار الحكومة المحلية في مستعمرة الرجاء الصالح كان الهدف الواضح منه أن يرعى الأقلية البيضاء • وكان من نتيجة ذلك أن أدى التوسع السياسي والاقتصادي لحكومة رأس الرجاء الصالح وارتباطه بالمصالح الامبراطورية البريطانية ، الى صدام مع النظام الاقتصادي والسياسي للملاك المستوطنين الهولنديين (البوير) • وكان هذا الصدام ذا طابع بدائي عنصري ديني • وكانت الغلبة أثر هذا الصراع الدموي الذي دام من ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢ للمجتمعات الانجليزية ـ الصناعية صاحبة المناجم • ومن ذلك الحين ، وبمساندة بريطانيا واثارة الحماس من قبل الجنرال سماتس والجنرال بوثا الهولنديين اللذين انضما الى جوقة الامبراطورية التي ابتدأها سيسيل رودس ، أخذت جنوب افريقيا تلعب دورها المساند لحركة الاستيطان •

وبالمرور العابر على تطور الدولة الاستيطانية في جنوب افريقيا ، فانه من المهم أن نذكر قرار تشكيل ذلك الاتحاد عام

١٩٣٠ ، الذي منحت بريطانيا بموجبه الاستقلال الى كافة التجمعات البيضاء الانجليزية والهولندية • علاوة على ذلك حافظ الاتحاد على البنية العنصرية في كل من الدولة البرتغالية الحرة * ودولة الترانسفال (الهولندية) وأعد المسرح للقضاء على ما تبقى من حقوق سياسية هامشية لغير البيض في منطقتي الرأس والناتال • ومنذ ذلك الحين ، ظل حكم الأغلبية غير البيضاء خاضعا لرحمة « ممدنيهم » • ومن الطريف في الأمر أن هذا الاتحاد كان ينظر اليه على أنه تجسيد لخصال التسامح والحرية التي نسبتها بريطانيا لنفسها ، وبالتالي فقد باركه على حد سواء كل من الأحرار والاشتراكيين والمحافظين والاستعماريين • وبشكل خاص ، فان ولادة هذا الاتحاد مدينة لتلك الحفنة من السياسيين ، وهم اللورد ميلنر ، واللورد سيلبورن ، وجوزف شامبرلين واللورد بلفور ، الذين قاموا بعد سبع سنوات باصدار وعد باسم آخرهم (بلفور) يساندهم في ذلك الجنرال سماتس ولويد جورج حيث شرعوا فيه قيام دولة استيطانية أخرى ولكن في الشرق الأوسط هذه المرة •

وطوال فترة سيادة بريطانيا على جنوب افريقيا التي دامت حتى الانتصار الانتخابي الذي حققه الجناح الهولندي (الأفريكانز) في مايو ١٩٤٨ ــ وهو عام الانتصار الصهيوني في فلسطين ــ ثم تبنى نظام اقتصادي شامل يعتمد على العمالة السوداء والآسيوية الملونة • وبالتالي ، فان انتصار الأفريكانز عام ١٩٤٨ الذي تبعه اعلان قوانين التفرقة وقوانين عنصرية عديدة أخرى ، لم يمثل سوى التكشف المنطقي للممارسات السياسية السابقة التي كانت مبطنة ببعض المحسنات الليبرالية •

---

* اللون البرتقالي هو شعار البروتستنت في بريطانيا ــ المعرب •

وما انشاء جمهورية جنوب افريقيا عام ١٩٦٠ ، وقطع الروابط الاسمية الصرفة مع بريطانيا الملكية الا مظهر خارجي من مظاهر هذه السياسة على المستوى التشريعي الرسمي ·

واذا كان الانسلاخ الرسمي عن بريطانيا قد سبب امتعاضا وارتباكا ، فانه لم يغير في حقيقة أن الاستثمارات البريطانية في جنوب افريقيا التي قدرت حينها بمبلغ ١٨٢٠ مليون راند بقيت هي المسيطرة ، وان التجارة مع بريطانيا لا زالت تشكل أكثر من ٣٠٪ من التجارة الكلية · أما الاستثمارات في جنوب افريقيا، التي تحقق أعلى عائد في العالم ، فلم تكن لبريطانيا وحدها ، بل تبعتها بسرعة في ذلك كل من أمريكا والمانيا الغربية وفرنسا واليابان · وفي الحين الذي نددت فيه هذه البلدان بسياسة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا ، فان الأهمية الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية لجنوب افريقيا قد فاقت بالنسبة لها كل ما تمثله حقوق الانسان · ومن النقائض أنه بحجة الحفاظ على حقوق الانسان قامت هذه القوى بالزام نفسها بتطويق أخطار الشيوعية · وفي يومنا هذا ، فان جنوب افريقيا التي تمثل المحور الاقتصادي لنصف جنوب القارة ، تشعر بالارتياح وهي مطمئنة الى أن السياسة الأمريكية حسب تصريحات «كيسنجر» لا تنوي مجابهة النظام السائد فيها ·

أما روديسيا ، التي تسلم أقل من نصف مليون من البيض فيها مقاليد الحكم الواقعي منذ ١٩٢٣ ، حينما أعطيت استقلالية شبه تامة ما عدا بعض التحفظات القانونية التي كان القصد منها الدفاع عن حقوق الافريقيين ، تلك التحفظات التي تلاشت واقعيا من قلة استعمال الافريقيين لها ، فقد شهدت استقلالا من طرف واحد عندما أعلنت حكومة الأقلية برئاسة رئيس وزرائها

ايان سميث استقلالها التام بالسلطة عن بريطانيا في نوفمبر ١٩٦٥ ٠ وحينذاك ، لم يكن عدد البيض يتعدى ٢٥٠ ألفا ، ولكن كان تحت تصرفهم قوة عسكرية لها وزنها ، وتحت أمرتهم نظام تشريعي متكامل ٠ وبمساعدة من البرتغاليين وجنوب افريقيا ، قامت هذه الاقلية في روديسيا بترسيخ نظامها الاستغلالي العنصري الخاص ٠

وكل ما عملته بريطانيا ازاء هذا التمرد هو تحويل أمر روديسيا الى الامم المتحدة التي اقترحت سياسة المقاطعة ، ولكنها تجاهلت كل مطالب الدول الافريقية ودول العالم الثالث بسحق هذا التمرد ٠ ولكن الدعم العلني الذي تلقته روديسيا من البرتغال وجنوب افريقيا والتعاون المباشر أو غير المباشر الذي قامت به عدة دول غربية معها ، مكنها من ان تزدهر بالرغم من « عدم شرعيتها » ٠ وعلاوة على ذلك ، فقد كانت هناك مؤشرات قوية عام ١٩٧٤ على قيام تحالف عسكري شامل بين جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا يرتقي الى مستوى التبادل الاقتصادي المتزايد بينها ٠ وقد دخل روديسيا بضع مئات من الجنود من جنوب افريقيا تحت شعار كونهم شرطة تقوم بعمليات مضادة للثوار الافريقيين قبل أن يدفع انهيار البرتغال جنوب افريقيا الى اعادة النظر في سياستها ٠

ان الناس غير العارفين بطبيعة دولة جنوب افريقيا قد تصيبهم الدهشة من جراء دبلوماسية « الحوار » الجديد التي تتبعها هذه الدولة مع افريقيا السوداء ، وازاء تراجعها الظاهري عن مساندة روديسيا ، وفيما يتعلق بتخفيف بعض مظاهر البنية العنصرية ٠ ولكن الحقيقة التي لا شك فيها ، هي أن كلا من هذه الخطوات تهدف الى الحفاظ على الهيمنة البيضاء ٠

ويدلنا تمحيص الحوادث السابقة على أن جنوب افريقيا درجت على سياسة « قبول الحقائق الواقعة » ولكنها في نفس الوقت تخلق « حقائق جديدة » متمشية مع سياسة بقائها • ومن هذا المنطق ، فان جنوب افريقيا لم توافق فحسب ، بل رحبت ، بمنح الاستقلال للمناطق التي كانت تابعة للمفوضية البريطانية في باسوتولاند (ليسوتو) وبيشوانالاند (بوتسوانا) وسوازيلاند، بالرغم من استمرار مطالبة جنوب افريقيا لمدة نصف قرن بضم هذه المناطق لها لتزيد من « رصيدها المحلي » من العمالة البانتوستانية • والسبب في هذا الترحيب ، هو أن وجود هذه الدول التابعة المحيطة بها ، كما هي الحال مع مالاوي في الشمال ، مكن جنوب افريقيا من المضي في ارساء قواعد الوفاق السياسي مع افريقيا السوداء الى حد ما من التوفيق • وانطلاقا من هذا أيضا فقد كان من المتوقع أن تتسامح جنوب افريقيا ازاء استقلال موزامبيق وانغولا ، لأن مخاطر وتكاليف مساندة أنظمة الأقليات البيضاء فيهما كانت عالية جدا ، ولأن اعتماد موزامبيق الاقتصادي عليها والروابط الاقتصادية الوثيقة بينها وبين أنغولا يسهلان الوفاق السياسي مع افريقيا السوداء • وكان هذا هو المضمون الذي دفع رئيس الوزراء فورستر الى تبني سياسة الوفاق في وجه معارضة شديدة من الجناح اليميني المتطرف لحزبه • ولأنه يتوقع أن يتطور موقف الوطنيين الافريقيين (الزمبابوي) بعد أن يتحرروا من الآثار الجذرية التي يطبعهم عليها الصراع الثوري الطويل الى معتدلين ميالين للمصالحة والوفاق ، فقد بدأ فورستر منذ أواخر ١٩٧٤ بالحث على نهج جديد تنتهجه قيادة روديسيا البيضاء ولا زالت هذه سياسته حتى وقتنا الحاضر •

وقد رأينا في السابق مقدرة أيديولوجية حزب البيض الحاكم

في جنوب افريقيا على الانحناء للوصول الى مكاسب عملية ، كما حصل في عامي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ حينما تخلت عن سمتها اللاسامية وتبنت سياسة مؤيدة لاسرائيل لكسب أصوات اليهود في الانتخابات • ولكن بالرغم من ذلك فان أملها البعيد في البقاء كدولة استيطانية لا زال مظلما • ذلك لأنه من الصعب تخيل دوام ظروف الوفاق مع كل الدول الافريقية المستقلة المحيطة بها من جهة ولأن البانتوستانيين المدجنين الآن قد يصبحون في ظروف جديدة مواتية مثل حصان طروادة من جهة ثانية • ومن المستبعد أن يتم أحد هذين التطورين بتنسيق مع شكل من أشكال المعارضة الداخلية للنظام العنصري • ولكن الأهم ، هو أنه بغض النظر عن الاستراتيجية التي ستتبعها الأقلية البيضاء ، فان مجرد رفض الشعب أن يختفي ، ذلك الشعب الذي تصبح الحاجة الى عمالته أكثر أهمية بالنسبة لبقاء الدولة ، ورفضهم اعتبار التحسن الاقتصادي أجرا عن الخنوع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي ، هذا الرفض البسيط سيظل أعظم ضمان لفشل الاستيطان •

وأخيرا ، وكما ذكرنا آنفا ، تم انشاء دولة استيطانية أخرى، بنفس الأسلوب ، وفي نفس الحقبة الزمنية التي شهدت قيام اتحاد جنوب افريقيا والسيادة البيضاء في روديسيا ، لكن هذه المرة في فلسطين • وكان تأييد الصهيونية السياسية متمشيا مع الاستراتيجية الاستعمارية كما صرح الجنرال سماتس وونستون تشرشل ، كما عكس هذا التأييد لدرجة كبيرة تلك الفلسفة الليبرالية التي كانت تبرر ذاتها والتي قامت خلال أربعة قرون بتبرير العبودية أولا ثم تبرير الممارسات الاستعمارية الاستيطانية ، وهي فلسفة مليئة بالمغالطات ، أو كما يقول الشيوعيون ، قد حددتها طبيعة الأنظمة التي تبنتها • ومع أن

المساندة البريطانية للصهيونية السياسية كان نتيجة للاسامية التي كانت احدى جوانب « التطور » الغربي ، الا أن التزام بريطانيا الشرعي المتمثل بوعد بلفور عام ١٩١٧ والذي أيدته القوى الغربية المنتظمة آنذاك في عصبة الأمم المتحدة بالاضافة الى الولايات المتحدة ، هذه المساندة وهذا الالتزام كانا بلا شك سبب النجاح الأولي للصهيونية · وخلال الثلاثينات قامت المجتمعات اليهودية في الولايات المتحدة وجنوب افريقيا ودول غربية أخرى بزيادة مساعدتها للوكالة اليهودية التي كانت تمثل حكومة استيطانية يهودية ، فتمكن الصهاينة بذلك من تحمل انقطاع المساعدة البريطانية بعد نشر الورقة البيضاء عام ١٩٢٩ ·

وفي محاولة لضمان الدعم البريطاني المرتكز على تحديد المصالح المشتركة بين بريطانيا والصهيونية ، قام حاييم وايزمان ـ زعيم الصهيونية في بريطانيا ، بعرض خطة جديدة على الجنرال سماتس عام ١٩٤٣ · وقد اعتبر وايزمان الذي قدر له أن يكون أول رئيس لدولة اسرائيل ، أن بريطانيا لا أمل لها في استعادة مركزها القيادي بعد الحرب العالمية الثانية الا عن طريق اعادة بعث افريقيا من جديد · وبافتراض التعاون مع جنوب افريقيا في هذا المجال ، فقد لمح وايزمان أن فلسطين تحت السيطرة اليهودية تستطيع ······ « أن تصبح المختبر أو الوحدة الانتاجية الرائدة من المصنع الكبير الذي يمكن لافريقيا أن تصبحه (مشروعا زراعيا صناعيا يمكنه انتاج الطاقة من الكاربوهيدرات) · وما من شك في أن هذه الخطة ستجعل فلسطين قادرة على توطين أعداد كبيرة من المهاجرين بشكل منتج · وفي نفس الوقت فان الرابطة التي ستقوم بين افريقيا وفلسطين ستقوى من مركز فلسطين في المحيط العربي ، أو قد

تجعل فلسطين قادرة على الانضمام اقتصاديا وسياسيا الى معسكر افريقي بدلا من الدخول في الاتحاد الفيدرالي العربي المنتظر » (٥) ·

ومع أن هذا الاقتراح لم يثمر لأسباب متعددة ، الا أنه يجعلنا نكشف غوامض العلاقة بين بطل جنوب افريقيا الداعي الى صيانة المصالح البريطانية الاستعمارية وبين القضية الصهيونية · وفي الوقت ذاته ، فانه ينم عن السياسة الافريقية التي اتبعتها اسرائيل مؤخرا عند محاولتها امتصاص عداء جيرانها العرب ·

أما بالنسبة للصهيونية ، فان نجاحها ، اذا نظرنا الى الأمور بمنطقية ، قد تطلب اتباع نفس التكتيكات التي خدمت الدول الاستيطانية الأخرى · فلم تكتف بمحاولة التغلب على رفض « حاضرتها » السابقة لها ـ بريطانيا ـ ولكنها اتخذت خطوات أثناء تعاملها مع السكان الأصليين حملت طابع ضمان هيمنة المستوطنين على المحليين · وبقي هذا الطابع قائما بالرغم من محاولات تعديله أو تخفيضه في بعض الأحيان لارضاء ضمائر بعض اليهود الذين استهجنوا أن يطبقوا ما يتعارض ويتنافى مع قيم الديانة اليهودية · ولكن ، اذا ما لزم ادخال مستوطنين جدد ، فان القدماء يجري خنقهم اقتصاديا وسياسيا ليسلموا بالأمر الواقع · وتمشيا مع منظور الفلسفة الصهيونية فان الأغلبية « المحلية » لم يكتف باخضاعها للأقلية « المتحضرة » القادرة على احياء الصحراء بل تمت تصفيتها بفعالية على غرار

5. Richard P. Stevens, Wizmann and Smuts: A study in Zionist - South African Cooperation (Beirut 1975) Appendix 11 p. 127.

ما حصل للهنود الحمر في أمريكا من خلال فلسفة وجودية مبررة لذاتها كان دعاتها يرفعون أنفسهم الى ما فوق حدود العقلانية عن طريق معتقداتهم الدينية ، ويستغلون العرقية الدينيـة والتقليد اليهودي المسيحي ، فان اليهود ، أقنعوا أنفسهم أكثر مما فعل البيض الهولنديون في جنوب افريقيا ، بأنهم سيحققون ارادة الله ويرثون أرضه • ولذا فان مفاهيم العدالة والحـق وبقاء ذلك الشعب الذي لم يسبق ان انتمى الى أية هوية سياسية معينة ، كانت كلها مرتبطة ببقاء تلك الدولة ، أي أنه قد تم تطويع الدين للدولة لنظريتهم • ونظرا لحداقة القادة الصهاينة، فان تأييد هذه الدولة الجديدة لم يأت مـن اليهود والمسيحيين فقط ، بل جاء من المحافظـين والأحـرار ، من المستعمريـن والاشتراكيين ومن الرأسماليين ومن أعداء السامية ومن الحزب الشيوعي أيضا • ومع أن تبريرات التأييد التي أقنـع العالم الخارجي بها نفسه قد يصيبها أحيانا الارتباك والتناقض الا أن الصهاينة فيما بينهم حافظوا على اتفاقاتهم العامة بشأن أهدافهم النهائية •

وقد كانت الولايات المتحدة ، كما أثبتت الأحداث ، هـي التي قدمت الدعم الرئيسي بعد عام ١٩٤٢ الى الدبلوماسيـة الصهيونية ، كما قدمت الدعم السياسي والاقتصادي الذي أبقى على حياة الدولة اليهودية • واذا كان القول صحيحا بأن الدعم الأمريكي باديء ذي بدء للصهيونية السياسية كان نتيجة للتهيئة التي فرضتها جهود الصهاينة الدائمة على كل نواحي الحيـاة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أمريكا ، فلا ننسى أن هذه الجهود كانت تبذل في مجتمع مستجيب لها سلفا • فالوحشية التي عاملت بها ألمانيا الهتلرية اليهود الأوروبيين أيقظت الشعور بالذنب على كثير من الممارسات الغربية والأمريكية التقليدية ،

كما دفعت بوارثي هذا التقليد أن يكفروا عن ذنوبهم على حساب الآخرين وذلك بدعمهم للبرنامج الصهيوني •

وما أن جاء عام ١٩٦٧ حتى تجاوز الحماس الأمريكي لاسرائيل كل وزن الجهود اليهودية المنظمة • فبينما كانت الولايات المتحدة عام ١٩٥٦ لا تزال مهتمة بالحفاظ على بدائلها السياسية في الشرق الأوسط ومن ثم لم تكتف يومها بالاصرار على الانسحاب الاسرائيلي البريطاني الفرنسي من الأراضي العربية المحتلة بل هددت بطرد اسرائيل من الأمم المتحدة نجد أن اسرائيل قد أصبحت عام ١٩٦٧ بديلا للوجود الأمريكي في المنطقة • ولكونها حلقة وصل غير رسمية بين التحالف الأمريكي مع البرتغال واسبانيا وايطاليا واليونان وتركيا ، فقد عرضت اسرائيل بالاتفاق مع ايران فكرة قيام جسر غربي الى البحر الأحمر والخليج ليكون منطلقا للتحكم في ثروة النفط العربية عند اللزوم • وحتى أولئك القادة العسكريين الذين كانوا يحذرون من مغبة اضعاف الروابط مع الدول العربية ،أصبحوا بين عشية وضحاها ملتزمين التزاما تاما بمساندة الدولة اليهودية • كما قامت عدة مؤسسات أمريكية خاصة بتقوية مركز اسرائيل في العالم بموافقة الحكومات المتعاقبة في أمريكا •وقامت أيضا اتحادات العمال والنقابات القوية الأمريكية ، ولا سيما تلك التي تمولها وكالة الاستخبارات الأمريكية بتشجيع الوجود الاسرائيلي في العالم الثالث ولا سيما في افريقيا ، اذ أنه حيثما وجدت اسرائيل ، وبالمثل الصين الوطنية ، ترحيبا فان المصالح الأمريكية لا تنعدم بل تتحقق بكلفة أقل • واذا ما أقدم أحد على انتقاد هذه السياسات بما تحمل في طيها من تخريب المصالح الأمريكية على المدى الطويل فان العديد من الأكاديميين « الموضوعيين » والمعلقين الصحفيين يسارعون الى دحض هذه

الدعوى واستبعاد هذا الاحتمال . فالشائع في أمريكا مثلا أن منتجي النفط ليسوا قادرين على اتخاذ أي اجراء موحد ودائم . كما أن مختلقي الأعذار لسياسة دعم اسرائيل ، بعد أن آمنوا تماما بالصورة الكاريكاتورية التي رسموها لأنفسهم عن العالم العربي يعتقدون أن منتجي النفط أو من يسمونهم شيوخ النفط سيضعون دائما مكاسبهم المادية قبل التزاماتهم القومية العربية . واذا ما حصلت معجزة ، في رأيهم ، وطبق العرب اتفاقيات المقاطعة ، فان اجراءات العرب ستضر بهم . وأخيرا ، للزيادة في تطمين المواطنين الأمريكيين بعدم أهمية الروابط الوثيقة مع العرب ، فان الشعب الأمريكي قد قيل له أن اعتماد أمريكا على نفط العرب هو من القلة بحيث أن أية محاولة عربية لاستعماله كسلاح سياسي سوف لا يكون لها أثر يذكر .

ولذا ، فلم يكن من المستغرب لهذه الاعتبارات ، أن الحكومة الأمريكية ، والشعب الأمريكي لم يكونا مستعدين مطلقا للمبادرة العربية في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، كما صعقها استعمال العرب لسلاح النفط . وفي الحقيقة فان الاحداث قد تجاوزت ادراك الامريكيين على كثير من المستويات . فمن جهة ، دلت حرب فيتنام على افلاس الدور الذي مثلته أمريكا وهو دور بوليس العالم الذي يساعد العالم الحر . ومن جهة أخرى ، فان انتصار اسرائيل عام ١٩٦٧ قد أضاف سوسة جديدة في الضمير الدولي . فقد برزت اسرائيل التي احتلت مساحات شاسعة وأصبحت مفخرة للعالم الغربي وكأنها صورة حية للدولة البروسية الهيجيلية المنتصرة . وكانت هذه الصورة الجديدة التي تحمس لها معظم الاسرائيليين وأبطالهم الغربيين ، هي التي أثارت تساؤلات لم تكن متوقعة في تلك « القلعة الديمقراطية » المحاصرة « المعزولة » « المهددة » . وعندها قام زعماء سياسيون

يتمتعون بالاحترام ، مثل الرئيس جوليوس نيريري ــ رئيس تانزانيا ــ بمطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة ·

كما لم تكن أمريكا أو حلفاؤها الغربيون مستعدين لظهور « المواطن الفلسطيني » ، ذلك المواطن الذي أثبتت الهزيمة العربية وجوده · فقد رفض الفلسطينيون الدور الذي أعد لهم ، ورفضوا « طي خيامهم » والاختفاء ثقافيا وجسديا اما ضمن المجموعة العربية الاسلامية أو كمجموعة أخرى من اللاجئين الذين فقدوا أرضهم · لقد كان هذا الرفض أو المقاومة الذي استخلص الاعتراف العالمي بالوجود الوطني الفلسطيني هو الذي استدعى اثارة منطق الاستيطان · فتحديات التحركات ، والمحاكمات أمام المحاكم العسكرية ، والمحاكمات والادانات الجماعية ، والطرد ، والمصادرات ، كلها أساليب قد سبق تجريبها في الجزائر وكينيا وجنوب افريقيا وعم تطبيقها في فلسطين · ان تطبيق هذه الأساليب ، كما حدث في الاماكن الاخرى ، لم يفشل في تحقيق أغراضه فحسب ، ولكنه ساهم في ابراز قيادة وطنية فلسطينية أكثر تلاحما ، قيادة قبل بشرعيتها المجتمع العالمي في النهاية ، عدا بعض الاستثناءات ·

وهناك تطور آخر ، ليس منفصلا تماما عن أحداث بداية السبعينات ، يوحي بالشمولية ويعطي الظواهر الاستيطانية أينما وجدت بعدا جديدا · فقد دخل على العالم عهد جديد كانت بدايته تحديات ليبيا الموفقة لشركات النفط عام ١٩٧١ · ان هذا الحدث لم يكن يدور في خلد أحد ، لا سيما اذا تذكرنا الثورات التي حرضتها أمريكا في غواتيمالا وفي ايران وفي غويانا وفي الكونغو في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات بقصد منع أية مواجهة بين المنتجين والمستهلكين سواء أكانت السلعة هي

الموز أو النفط أو البوكسايت أو اليورانيوم • وان اقدام الدول العربية المنتجة للنفط مبدئيا في غمرة حرب أكتوبر على الانضمام الى القوى المناهضة للاستيطان والاستعمار في افريقيا من خلال مقاطعة جنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال ، هذا العمل كان نذيرا لامكانية تغير ذي مغزى في النظام العالمي • فلو استطاع النفط العربي المستقل عن المراكز الغربية ، وهذا احتمال يستبعده المنظرون ، أن يتوحد مع منتجي المواد الخام من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، في الوقت الذي يشتري التكنولوجيا من الغرب ، فان ذلك سيكون بالفعل بشير نظام عالمي جديد •

ان هذه المعالم للنظام العالمي الجديد سوف لا تكتب الفصل الأخير في حياة الدول الاستيطانية في جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل فحسب ، بل الفصل الأخير في حياة العالم الصناعي الغربي أيضا • وفي كلتا الحالتين ، فان المرغوب فيه ليس الفناء، بل البقاء والتوافق • فكما أن السكان التقليديين الأصليين لجنوب افريقيا وروديسيا وفلسطين لا يرغبون في طرد ولا تصفية أولئك الذين يوافقونهم على المشاركة في مصادر الأرض على أساس غير عنصري ، فكذلك الحال مع الدول المنتجة التي ينبغي أن تهدف الى تبادل متناغم ذي مغزى مع العالم الصناعي على أساس المساواة المتبادلة • وكما أن عالم المترفين والمعدمين لا يمكن أن يعيش في عزلة عن بعضهما ، فكذلك الحال مع مؤيدي المستوطنات الباقية الذين يجب أن يعدلوا من التزاماتهم • واذا كانت الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية قد ارتبطت عضويا مع نمو العالم الغربي وتوسعه ، فان انهيارها النهائي سيعكس بلا شك نهاية عهد كما سيعكس ظهور توازن جديد في النظام العالمي • وأن هذا التوازن سيخفف اعتماده على الأيديولوجيات ويزيد اعتماده على واقع البقاء الذي يواجهه ثلاثة أرباع سكان العالم يوميا •

مصادر تاريخ جنوب الجزيرة العربية

ملاحظات حول بعض المخطوطات التاريخية المخزونة في المكتبة القومية بباريس

بقلم الاستاذ راضي دغفوس
قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الانسانية
تونس

تحتوي المكتبة القومية بباريس في فرنسا على بعض المخطوطات التي تهم تاريخ جنوب الجزيرة العربية وخاصة منه تاريخ اليمن في الفترة الاسلامية .

وتعد هاته المخطوطات التاريخية جزءا لا يتجزأ من جملة المؤلفات العديدة التي تتعلق بتاريخ العرب وحضارتهم في جنوب الجزيرة العربية والتي نجدها منتشرة في مكتبات متنوعة عبر أنحاء العالم سواء في البلدان العربية بالذات كاليمن وعمان وحضرموت أو في البلدان الأوروبية وغيرها .

وقد رأينا من الصالح أن نعطي ولو فكرة عامة عن مختلف هاته المخطوطات المخزونة بباريس وأن نقدمها مع الاشارة الى طبيعتها ومحتواها وما الى ما يمكن استغلاله منها لدراسة فترات معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الاسلامي خاصة :

١ ــ فما هي اذن أنواع أو طبيعة هاته المخطوطات ؟

٢ ــ وما هو شكلها وأسلوب المؤرخين في تدوينها ؟

٣ ــ ما هي النواحي التي تتناولها بالبحث وكيف يمكن لنا استغلال محتواها ؟

٤ ــ من هم مؤلفوها وما هي شخصياتهم ؟

١ ــ نوعية المخطوطات :

لا شك أن المخطوطات التاريخية المشار اليها تمثل الشيء القليل من جملة المخطوطات المتعلقة بتاريخ كامل الجزيرة العربية وهذا لسببين :

أولا : من ناحية الكم فلا يبلغ عددها أكثر من ٤٠ أو ٥٠ مخطوطة بينما نجد المائات بل الآلاف من مثل هاته المخطوطات موزعة في أماكن مختلفة من العالم (كما أشرنا الى ذلك منذ قليل) ٠

ثانيا : من ناحية المحتوى فأغلب هاته المؤلفات تهم تاريخ اليمن ، خاصة في الفترة الأخيرة من القرون الوسطى ٠

ومهما يكن من أمر فيمكن لنا حصر هاته المصادر عن تاريخ جنوب الجزيرة في ٥ أنواع :

أ) المؤلفات العامة التي تهم التاريخ اليمني العام أو بالأحرى تاريخ الدول اليمانية التي تداولت الحكم منذ القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ونذكر من جملتها حسب الترتيب الزمني :

ــ « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » لابن عبد المجيد (٥٩٧٧)

وقد حققه بالقاهرة سنة ١٩٦٥ السيد مصطفى حجازي ٠

ــ « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام » لأبي حسن الخزرجي (٥٨٣٢١) وما زال مخطوطا ٠ ونحن بصدد تحقيق قسم من هذا الكتاب ٠

ــ « قرة العيون في أخبار اليمن الميمون » لابن الديبع (٥٨٢١ ــ ٦٠٥٨) ويقوم بتحقيقه ونشره القاضي محمد بن علي الأكوع وقد طبع أخيرا بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ٠

ب) المؤلفات التي تهتم بتاريخ معين لبعض الدول اليمانية نذكر منها ما يلي :

ــ « تاريخ بني رسول » لمؤلف مجهول (٤٦٠٩) ، وقد حققه وطبعه بطوكيو سنة ١٩٧٦ المؤرخ الياباني Hikoichi - Yajima

ــ « مطالع النيران في تاريخ اليمن » وهو تاريخ للعثمانيين في اليمن في القرن العاشر الهجري (١٦٥١) لمؤلف يسمى أحمد بن يوسف بن محمد فيروز ولا نعرف تاريخ وفاته ٠

ج) مؤلفات أكثر دقة لأنها خاصة بمدن معينة مثلا :

ــ « تاريخ صنعا اليمن » للرازي (٥٨٢٤ ــ ١٦٤٣) وقد وقع تحقيقه ونشره بدمشق سنة ١٩٧٤م من طرف السيدين عبد الجبار زكار وحسين عبد الله العمري ٠

ــ « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » لابن الديبع (٥٨٩٧ ــ ٦٠٦٩) وقد نشر قسم منه المستشرق Johansen ولكنه يحتاج الى نشرة أخرى أكثر دقة ٠

ــ « تاريخ ثغر عدن » لأبي مخرمة (٥٩٦٣ ــ ٦٠٦٢) وقد حققه ونشره سنة ١٩٣٦ المستشرق O. Lofgreu بليدن

ونضيف الى هذا النوع من المؤلفات أرجوزة عن زبيد عنوانها « أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك » لابن الديبع (٥٨٣٢) وسنقوم بنشرها في « حوليات كلية الآداب بتونس » ·

د) كتب الطبقات أو بالأحرى كتب التراجم ولنا منها :

ـ « كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك » للجندي (٢١٢٧) ونضيف اليه كتابا للأشرف الرسولي عنوانه : « كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب » (٦٠٦٠) وقد حققه Zetterstein ونشره بدمشق سنة ١٩٤٩ ·

هـ) خامسا : هناك مجموعة أخرى من المؤلفات العامة وجدنا فيها بعض الفصول الخاصة بتاريخ جنوب الجزيرة وشرقيها مثل :

ـ « مرآة الجنان » لليافعي (١٥٩٢) ·

ـ « غربال الزمان » للعامري (١٥٩٣) ·

ـ « أخبار الدول » للقرماني (٥٩٨٠) ·

ـ « تاريخ ينسب الى مسلم اللحجي » (٥٩٨٢٠) ·

(وقد أثبت المستشرق Madelung أنه يكون الجزء الرابع من كتاب « روضة الأخبار » الحاجوري) (٧ ـ ١٣) ·

وقد وجدنا كذلك مخطوطة فيها مجموعة كتب تهم تاريخ اليمن وهي من تأليف عز الدين محمد بن يحيى بن الحسين بن عبد الله الحسيني (٦١٢٨) وفيها :

ـ مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ·

ـ اللواحق النادية للحدائق الوردية ·

ثم قصيدة « البسمات الصغرى » من تأليف بدر الدين محمد

ابن علي بن يوسف بن علي بن الرهيف الفريد . وهي قصيدة مهداة للامام الزيدي عز الدين بن الحسن (١٤٩٤ ـ ١٤٧٤ / ٩٠٠ ـ ٨٧٩) وفيها عرضا ملخصا لتاريخ اليمن حتى سنة (١٥٠٨ / ٩١٤) .

ـ « ملحق للبسمة » لسرم الدين داود بن الهادي بن آحمد بن المهدي بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبرائيل .

كما توجد نسخة مخطوطة لكتاب ابن المجاور : « تاريخ المستبصر » (٦٠٢١) الذي حققه Lofgren ونشره في ليدن سنة ٥٤ ـ ١٩٥١ .

ومخطوطة عنوانها « فتوح اليمن » لأبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الله البكري (١٨١٦) وهي عبارة عن أسطورة تاريخية لفتح اليمن من طرف علي بن أبي طالب .

وأخيرا لا بد لنا أن نشير الى نوع أخير من المؤلفات يقع ضمن « مجموعة رسائل » متبادلة بين السلاطين في مصر وفي نواحي أخرى من العالم الاسلامي خاصة في جنوب الجزيرة العربية (٤٤٤٠) ويقوم الدكتور أحمد دراج بنشر كل هاته المجموعة التي تشتمل على ما يقارب المائة رسالة ـ وطبعا هناك مخطوطات أخرى تهم مثلا تاريخ عمان : تاريخ عمان (٥١٢٦) ـ الفتح المبين (٤٨٥٣) .

٢ ـ طريقة تدوين هاته المؤلفات :

ما هو الأسلوب الذي اتبعه المؤلفون في وضع كتبهم التي كنا بصدد ذكرها وتقديمها ؟ .

اذا ألقينا نظرة ملية على كل هاته المؤلفات التاريخية التي طبع البعض منها وما زالت البقية مخطوطة ـ (ونتمنى آن تحقق

وتنشر في أقرب الآجال لكي يتمكن المهتمون بتاريخ الجزيرة العربية عامة وتاريخ اليمن خاصة من استغلالها) ـ لوجدنا أنها دونت حسب طرق مختلفة وأساليب متنوعة ـ وفيما يلي نذكر بعض أمثلة لذلك :

أ) ـ أولا : الأسلوب الكلاسيكي المعهود الذي نجده في كتب التاريخ العامة وفي العديد من البلدان الاسلامية منذ القرن الثاني والثالث (مثلا : تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ تاريخ خليفة بن خياط ...) : وهو أسلوب الحوليات (Annales) الذي يعتمد على ذكر الأحداث والتعليق عليها سنة بعد سنة . ونذكر من بين المخطوطات الموضوعة على هذا المنوال كتابه اليافعي « مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الانسان » : وهو عبارة عن تاريخ عام لمدة طويلة من الزمن تمتد من السنة الأولى للهجرة حتى نهاية القرن الرابع (٤٠٠ ـ ١٠٠٩) بالنسبة للجزء الأول ومن سنة (٤٠٠ ـ ١٠٠٩) الى سنة (٧٥٠ ـ ١٣٤٩) بالنسبة للجزء الثاني .

نذكر كذلك كتاب العامري (١٨٩٧ ـ ١٤٩١) « غربال الزمان في وفيات الأعيان » وهو مختصر لتاريخ اليافعي يؤرخ لنفس الفترة الزمنية .

ورغم أن هذين الكتابين لا يهمان تاريخ الجزيرة العربية بصفة مباشرة فنجد فيهما أشياء تهم خاصة الجانب السياسي والحزبي لذلك التاريخ .

ولعل أحسن مؤلف يماني يتبع هذا الأسلوب هو يحيى بن الحسين صاحب كتاب « غاية اليماني في أخبار القطر اليماني » (١٦٨٩ ـ ١٦٢٥ / ١١٠٠ ـ ١٠٣٥) .

ب) ثانيا : الطريقة التي اعتمدها بعض المؤرخين للتدوين

لا حسب السنين بل حسب الدول والشخصيات ولعل هذا الأسلوب هو الذي أصبح رائجا في جنوب الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري أي في عهد الدول المستقلة عن النظام المركزي (في بغداد) .

ومن جملة المؤلفات المدونة على هذا المنوال نذكر خاصة كتاب الجندي « السلوك في طبقات العلماء والملوك » وهو عبارة عن مؤلف يدرس فيه صاحبه تاريخ اليمن منذ بداية الاسلام حتى سنة (٧٢٣ ـ ١٣٢٣) وينقسم هذا الكتاب الى عدة أقسام. ففي القسم الأول نجد الجندي يذكر لنا الرسول وأهم العلماء والفقهاء الذين عاصروه ودخلوا اليمن في أيامه ثم يأتي لذكر طبقات العلماء والفقهاء في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس الى أن يصل بنا المؤلف الى سنة (٧٢٠ تقريبا ـ ١٣٢٠) .

والى جانب هذا الكتاب يمكن لنا أن نذكر ٣ أو ٤ أمثلة لكتب تاريخية نسجت على هاته الطريقة :

ـ كتاب ابن عبد المجيد : « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » وهو كتاب يحتوي على ما يقارب العشرين فصلا يذكر فيه صاحبه بعض المعلومات عن اليمن وفضله قبل أن يأتي الى ذكر ولاة النبي (صلعم) ثم ولاة الراشدين والأمويين والعباسيين ـ وقد ركز اهتمامه بعد ذلك لدراسة الدول المستقلة التي قامت باليمن منذ القرن الثالث الهجري (ونذكر منها دولة بني زياد ـ دولة بني نجاح ـ ودولة بني زريع وبني مهدي الى غير ذلك) وأخيرا نجد دراسة أكثر تفصيلا للدولة الرسولية التي عاصرها ابن عبد المجيد ، والملاحظ أن هذا القسم الخاص بالرسولين يساوي ما يقارب نصف الكتاب .

ـ كتاب الخزرجي : « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام » وهو كتاب مبني على نفس الأسلوب بحيث يبتديء المؤلف بذكر اليمن ومن ملك صنعا وعدن وفيه ١٠ فصول الى أن يصل الى باب آخر فيه ١٢ فصلا وهو عبارة عن دراسة خاصة لزبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها ـ ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا الكتاب المعروف « بتاريخ الخزرجي » لا يحتوي الا على البابين الرابع والخامس ولا نعرف شيئا عن الأبواب الثلاثة الأولى له ٠

ـ كتاب ابن الديبع : « قرة العيون في أخبار اليمن الميمون » وهو يشتمل على ثلاثة أبواب وكل باب ينقسم الى عدة فصول وقد درس فيه المؤلف أولا : اليمن من بداية الاسلام حتى القرن الثالث لهجري ٠ وثانيا : الدول المستقلة منذ القرن الثالث حتى القرن العاشر ٠ وقد خصص الجزء الأكبر منه لدراسة تاريخ زبيد في عهد بني رسول وبني ظاهر ٠

من الكتب الأخرى التي دونت على هاته الطريقة نذكر أيضا كتابا آخر لابن الديبع عن زبيد : « بغية المستفيد » وهو دراسة عامة لتاريخ هاته المدينة منذ تأسيسها سنة (٢٠٤ ـ ٨١٩) حتى سنة (٩٠١ ـ ١٤٩٥) ـ ثم كتاب الرازي « تاريخ مدينة صنعا اليمن » وهو من أقدم الكتب نظرا لأن مؤلفه عاش في القرن الخامس وتوفي بعد سنة (٥٠٠ ـ ١١٠٦) ويصل فيه الرازي الى سنة (٤٦٠ ـ ١٠٦٧) وقد ذكر لنا المؤلف في المقدمة أن هذا الكتاب يناسب الجزء الثاني من تاريخه العام ولا ندري أين هو الجزء الأول وما هو محتواه ـ ثم كتاب أبي مخرمة : « تاريخ ثغر عدن » ٠

ج) الأسلوب الثالث هو تدوين التاريخ شعرا عن طريق

القصائد والأراجيز ـ ونذكر في هذا المضمار أرجوزة ابن الديبع « أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك » وتقع هاته الأرجوزة في ١١٩ بيت ـ وهي عبارة عن تاريخ موجز جدا لمدينة زبيد منذ تأسيسها الى عهد الملك الطاهري عامر بن عبد الوهاب وقد وجدنا كذلك ضمن المخطوطات المحفوظات في مكتبة باريس قصيدة أخرى تسمى « البسمات الصغرى » وفيها ذكر لتاريخ ملوك اليمن حتى سنة (٩١٤ ـ ١٥٠٨) وملحق لهاته القصيدة ٠

د) رابعا : أما بقية المؤلفات المشار اليها سابقا فلا تخضع لأسلوب آخر معين ما عدا كتاب الأشرف الرسولي « طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب » الذي يمكن لنا أن نضعه ضمن الكتب التي درس فيها أصحابها الشخصيات وهو مؤلف جاء على منوال كتب الأنساب المعهودة مثل « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم أو « نهاية الارب في معرفة أنساب العرب » للقلقشندي وهو مؤلف مفيد جدا لمعرفة الأنساب في جنوب الجزيرة العربية ٠

٣ ـ ما هي الجوانب التي تتناولها هاته المؤلفات بالدرس :

الملاحظة الأولى التي يمكن لنا أن نشير اليها في هذا المجال هو أن أغلب هاته الكتب تهم جانبا واحدا ألا وهو الجانب السياسي والحربي ـ ولا نجد فيها الا بعض اشارات نادرة للجوانب الأخرى التي لا ينبغي علينا أن نتجاهلها : أعني الجانب الاجتماعي والاقتصادي من ناحية والجانب الثقافي والديني من ناحية أخرى ٠

ثم ان جل هاته المؤلفات تعطينا معلومات أكثر دقة عن الدول المتأخرة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية ٠

وهذا يعني أن دراسة تاريـخ الجزيرة في القرون الأولى للاسلام صعبة جدا نظرا لأن كل المؤلفين الذين ذكرناهم في سياق الحديث عاشوا في القرون الوسطى الأخيرة (القرن السابـع والثامن والتاسع من الهجرة) • وأقدم كتاب في هاته المجموعة هو كتاب الرازي ـ تاريخ صنعا اليمن ـ بحيث أن كل الأحداث السياسية والحربية المنقولة والمدونة في هاته الكتب تهم الدول التي عاصرها المؤلفون وخاصة منها دولة الرسولين ودولة بني طاهر فيما يخص اليمن ـ أو الفترة التركية فيما يخص البلدان الاخرى كعمان مثلا •

بينما لا نجد الا معلومات عامة تكون في أكثر الأحيان مجرد سرد للأحداث وذكر لأسماء الولاة والامراء والذين حكموا جنوب الجزيرة العربية أثناء القرون الثلاثة الأولى للهجرة (أي عندما كانت الجهة تحت ظل الخلافة الاسلامية وتحكم عن طريق ولاة مبعوثين من طرف النظام المركزي) •

ويرجع كل هذا في الحقيقة الى عدم وجود ممارسة للكتابة التاريخية من طرف المؤرخين اليمانيين وغيرهم قبـل القرنين الرابع والخامس للهجرة •

وهنا نقف برهة زمنية لنتعرض بايجاز لمصادر هؤلاء المؤلفين ومراجعهم التي اعتمـدوا عليهـا لتصنيـف ووضـع مؤلفاتهم التاريخية ـ ذلك لأن تلك المصادر من شأنها أن تعطينا فكرة عن مستوى الكتابة التاريخية في الجزيرة العربية بصفة عامة •

فمما لا شك فيه أن أغلب هؤلاء المؤلفين والمؤرخين قـد اعتمدوا في وضع كتبهم على كتب التاريخ القديمة التي كانت معروفة آنذاك خاصة منها تآليف الطبري (تاريـخ الرسـل

والملوك) واليعقوبي وغيرهم • بحيث يمكن اعتبار المعلومات التي يفيدوننا بها عن الفترات الأولى للاسلام في جنوب الجزيرة العربيــة بصفــة عامــة معلومــات ثانوية (De Seconde Main) ثم انها شحيحة من ناحية الكم وواهية في بعض الأحيان من ناحية الكيف •

هنالك أيضا مراجع ومصادر أخرى اعتمدوا عليهــا وهي طبعا كتب الفقه والدين والحديث • ومن الجدير بالذكــر أن واضعي الكتب المشار اليها قد يتعرضون في مقدمات تآليفهم الى أهم الكتب التي استعملوها أو على الأقل نقلوا عليهــا بعض الأحداث المعنية وبعض الاقوال الرائجة عن بلدانهم وأوطانهم وسنرجع الى ذلك عندما نتحدث عن ابن الديبع والخزرجي •

وكيف يمكن لنا اذن استغلال هاته المؤلفات بصفة موضوعية ؟

من المعلوم أن الباحث عندما يطلع على مؤلف ما يجب عليه أن لا يأخذ بصفة قطعية كل ما يجده مدونا بل من الواجب عليه أن يقارن ذلك بما يجده في الكتب الأخرى وفي المؤلفات التاريخية الأخرى بصفة أدق وذلك لكي يتسنى له ضبط الحقيقة واظهار مدى تحيز المؤرخ الفلاني لدى شق معين أو مدى تجاهله لبعض النقاط دون الأخرى وأسباب ذلك •

وهذا طبعا يدخل في نطاق البحث عن الحقائق التاريخيــة التي ربما لا نجدها مسرودة وبوضوح في كل المؤلفات • ثم ان الباحث مطالب كذلك بمعرفة الوسط الذي عاش فيه كل مؤلف لكي يلم بشخصية المؤلفين ويضبط كل ما من شأنه أن يرشده عن البيئة التي نشأ فيها المؤلف ووضع فيها تآليفه •

ولهذا السبب رأينا من الصالح أن نتعرض بايجاز الى هذه النقطة .

٤ ـ شخصية مؤلفي المخطوطات المذكورة أعلاه :

ليس في نيتنا أن ندرس شخصية كل المؤلفين والمؤرخين الذين ذكرنا أسماءهم وعناوين مؤلفاتهم في سياق الحديث ولكننا سنقتصر على مثال واحد أو مثالين لكي نبرز العلاقة بين المؤلف والتأليف من ناحية وبين ما يقال ويسرد من أحداث والحقيقة التاريخية كما يمكن لنا ضبطها بعد بحث وتدقيق ومقارنات عديدة من ناحية أخرى .

أ) أولا : أبو الحسن الخزرجي :

هو موفق الدين أبو الحسن بن أبي بكر ابن الحسن ابن علي ابن وهاس الخزرجي عاش في القرن الثامن وتوفي سنة (٨١٢ ـ ١٤١٠) وهو من مواليد زبيد باليمن ومن كبار مؤرخي اليمن .

وقد خلف لنا هذا المؤرخ العديد من المؤلفات التاريخية عن بلده نذكر من جملتها :

ـ « المسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك » وهو عبارة عن تاريخ عام مرتب على السنوات يحتوي على قسمين ذكر فيه الخزرجي سيرة الرسول كما ذكر الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس (القسم الأول) ثم تعرض بعد ذلك لذكر ملوك مصر والشام وافريقيا والقيروان والأندلس والمغرب وصنعاء وعدن وزبيد .. وقد اعتمد عليه ابن الديبع عندما وضع كتابه « قرة العيون » .

ـ « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملـوك الاسلام » الذي يعرف بتاريخ الخزرجي ولنا منه الباب الرابع والخامس اللذين يغطيان تاريخ اليمن من العهد النبوي الى القرن التاسع ·

ثم ان الخزرجي شهر كذلك بكتابه « العقود اللؤلؤئية في تاريخ الدولة الرسولية » الـذي ترجمه الى الانجليزية العالم (Nicholson) سنة ١٩٠٦ ونشر في القاهرة بالعربية سنـة ١٩١١ في ٣ أجزاء ·

ومما تجدر الاشارة اليه أن الخزرجي اعتمد في وضع كتبه على عدة مؤرخين وعلماء سبقوه نذكر من بينهم ابـن عبـد المجيد ـ الرازي ـ الجندي ـ الأرقي صاحب أخبار مكـة ـ الهمداني البيهقي صاحب دلائل النبوة الى غير ذلك ·

ويعد الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية التي عاصرها والتي حكمت قسما من اليمن من سنـة (٦٢٦ ـ ١٢٢٩) الى سنـة (٨٥٨ ـ ١٤٥٤) ·

ب) ثانيا ـ ابن الديبع :

هو وجيه الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عمـر الشيباني المعروف بابن الديبع وهو من مواليد زبيد ولد سنة (٨٦٦ ـ ١٤٦١) وتوفي سنة (٩٤١ ـ ١٥٣٧) ومن حسن الحظ فقد خلف لنا ابن الديبع في خاتمة كتابه « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » ترجمة ذاتية من شأنها أن تطلعنا على بعض جوانب شخصيته · وجاء على ضوء هاته الترجمة أن مؤلفنا نشأ مدة

هامة من حياته في زبيد وتربى أولا في حضن جده لأمه وذلك لأنه فقد أباه في الهند ـ [ويعلمنا أنه لم يره قط] ـ وسنه آنذاك لا تتجاوز العاشرة (٨٧٦ ـ ١٤٧٣) · ثم نجده في حضن خاله الذي اهتم بتربيته بعد موت جده ·

وقد ذكر لنا ابن الديبع في ترجمته أنه أخذ العلم عن شيوخ وعلماء متعددين نذكر من بينهم الشرجي والسخاوي ودرس عنهم علوم متنوعة مثل الفقه والقرآن والحديث والحساب الى غير ذلك ·

وقد أداه اطلاعه وتعلمه الى التنقل خارج زبيد اذ أنه زار خاصة الحجاز حيث أدى واجب الحج ثلاثة مرات على الأقل سنة (٨٨٣ ـ ١٤٧٩) و (٨٨٥ ـ ١٤٨١) و (٨٩٧ ـ ١٤٩١) ، كما أنه زار كذلك بيت الفقيه ابن عجيل حيث تمكن من الاتصال ببعض الفقهاء وأخذ عنهم علوم الفقه والدين ·

ومن الأشياء الهامة التي ذكرها لنا ابن الديبع في ترجمته انه أقام مدة زمنية في بلاط السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب في مدينة المقرانة وقد استقبل خير الاستقبال وأكرم من طرف هذا الأخير الذي عين لنا في آخر اقامته قراءة الحديث في جامع زبيد ·

وفيما يتعلق بآثاره العلمية فقد خلف لنا ابن الديبع العديد من المؤلفات التاريخية والدينية وصلنا البعض منها بينما لم نعثر على البقية ·

واذا اطلعنا بدقة على تصانيفه التاريخية لرأينا أن ابن

الديبع أرخ خاصة لمواطنه زبيد مما يجعلنا نعتبره بحق « أنموذج المؤرخ المحلي » لكن هذا لا يعني أن مؤلفاته لا تهم جنوب وشرق الجزيرة العربية فنجد فيها بالعكس بعض اشارات وتلميحات من شأنها أن تعيننا على تكوين فكرة ولو عامة على تلك البلدان ٠

ومن ناحية أخرى فابن الديبع بقطع النظر عن مؤلفاته فهو شاهد عيان ازاء قضيتين هامتين آنذاك في القرن العاشر ٠

أولا : مشكلة دخول الجراكسة الى اليمن في آخر أيام بني طاهر وقضائهم على الدولة الطاهرية التي عاش في ظل آخر سلطان لها ٠ وينبغي للمؤرخين المهتمين بتاريخ هاته الفترة أن يعتمدوا على ما قاله ابن الديبع حول هذا الحدث الهام ٠

ثانيا : عاصر كذلك ابن الديبع الدولة الزيدية التي كانت تحكم قسما هاما من اليمن منذ سنة (٢٨٤ ـ ٩٥٨) ومن المعلوم أن موقفه ازاء الزيديين لمن الأهمية بمكان خاصة وأنه كان شافعي المذهب بينما كان الزيديون شيعة ثم انه زبيدي منحاز نوعا ما الى النظام الطاهري الذي يزعم أنه يمت بصلة الى الأمويين ٠

بقي لنا قبل أن نتم الكلام حول ابن الديبع أن نشير ولو بايجاز الى مراجعه التاريخية التي اعتمد عليها لوضع مؤلفاته ـ فمن جملة المؤلفين الذين ذكرهم لنا في مقدمة تآليفه نشير الى الجندي ـ ابن عبد المجيد ـ الخزرجي ـ عمارة اليمني ـ ابن سعرة ـ الأهدل ـ ابن المجاور ـ البيهقي ـ الشريف ادريس الى غير ذلك ـ وهذا يعني أن مؤلفاته التاريخية يمكن لنا أن نأخذها بعين الاعتبار الى حد ما خاصة فيما يخص القرنين التاسع والعاشر

اللذين أعطانا عنهما أخبارا أكثر تفصيلا ودقة من القرون الأخرى .

وعلى العموم يمكن القول أن ابن الديبع والخزرجي اللذين أخذناهما على سبيل المثال في حديثنا عن شخصية المؤرخين بالرغم من أهمية المؤلفات التي خلفاها لنا فلا ننسى أنهما ينتميان الى « طبقة » معينة ألا وهي الطبقة الأرستقراطية ـ ونفس الملاحظة تتعلق بعدة مؤلفين ومؤرخين آخرين ـ ثم ان لهما نزعات شخصية ومواقف طبقية لا ينبغي علينا أن نتجاهلها خاصة اذا أردنا دراسة بعض قضايا مثل « الحركات الشعبية » أو الحركات الثورية التي قامت في جنوب الجزيرة منذ القرن الأول والثاني ونعني بالخصوص الخوارج ـ القرامطة ـ العلويون .

كذلك ان مواقفهما السياسية والدينية ـ وهذا يتعلق أيضا ببقية المؤلفين المذكورين آنفا ـ من الواجب على الباحث أن يدققها اذا أراد اظهار الحقيقة التاريخية غير المشوهة .

★ ★ ★

ومهما يكن من أمر فان معرفة كل المخطوطات التي كنا بصدد تقديمها والتعليق على محتواها وعلى مؤلفيها من شأنها أن تدعم معرفتنا لأطوار معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الاسلامي ـ كما تمكننا من سد بعض الفراغ في تاريخنا وحضارتنا بصفة عامة .

المراجع والمصادر

أولا المراجع والمصادر العربية

ـ ايمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الاسلامي القاهرة ١٩٧٤ .

ـ عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠ .

ـ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين (١٥) جزء دمشق ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ .

ـ الزركلي : الاعلام خمسة عشرة جزء القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ .

ـ حاجي خليفة : كشف الظنون / جزءان .

ـ اسماعيل باشا : هدية العارفين جزءان استانبول ١٩٥١ ـ ١٩٥٥ .

ـ عبد الله محمد الحبشي : مراجع تاريخ اليمن دمشق ١٩٧٢ .

ـ احمد حسن شرف الدين : تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن القاهرة ١٩٦٨ .

ـ حسن سليمان محمود تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي بغداد ١٩٦٩ .

ـ القاضي اسماعيل بن علي الاكوع : اضواء على مؤلفات الخزرجي . مجلة المؤرخ العربي عدد ٤ .

ـ ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ليدن ١٩٣٦ انظر كذلك طبعة بغداد بالاوفست .

ـ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ليدن ١٩٥١ .

ـ عمار اليمني : « المفيد في اخبار صنعاء زبيد » انظر طبعة القاهرة ١٩٦٧ و ١٩٧٧ .

ـــ ابن الديبع : ـــ « بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد » ـــ انظر النسختين المخطوطتين بمكتبة باريس تحت رقمي ٥٨٩٧ ، ٦٠٦٩ .

ـــ « احسن السلوك في نظمي من ولى زبيب من الملوك » ـــ انظر المخطوطتين رقم ٥٨٣٢ ، ٦٠٦٩ بباريس .

ـــ « قرة العيون في اخبار اليمن الميمون » . انظر المخطوطتين رقم ٥٨٢١ ، ٦٠٥٨ بمكتبة باريس .

ـــ ابن عبد المجيد : « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » . انظر مخطوطة باريس رقم ٥٩٧٧ .

ـــ الرازي : « تاريخ صنعاء اليمن » . راجع مخطوطتي باريس رقم ١٦٤٣ ، ٥٨٢٤ .

ـــ الجندي : « كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك » ـــ مخطوطة باريس رقم ٢١٢٧ .

ـــ الاشرف الرسولي : « كتاب طرفة الاصحاب في معرفة الانساب » دمشـــق ١٩٤٩ .

ـــ يحيى بن الحسين : « غاية الاماني في اخبار القطر اليماني » . جزءان القاهرة ١٩٦٨ . تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

ثانيا المصادر الاجنبية :

DE SLANE; Catalogue des manuscrits arabes de la B.N. Paris 1883.

E. BLOCHET: Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisicions Paris, 1929.

Supplement du catalogue des manuscrits arabes.

BROCKELMANN: G. A. L. Leiden - 2 Vol. I (1943) II (1949). Supplement. I (1937) II (1938) - III (1942).

S. LANE. POOLE: Mohammaden dynasties. Paris, 1925.

Encyclopedie de l'Islam. Voir les articles Yemen et Zabid (A.E) Ibn al Dayba' etc... (N.E.).

حروب الفجار : أسبابها ونتائجها

عبد الجبار منسي العبيدي
كلية التربية ـ فرع التاريخ
جامعة بغداد

الفجار بكسر الفاء ، بمعنى المفاجرة ، كالقتال والمقاتلة وذلك أنه كان قتالا في الشهر الحرام ، ففجروا فيه جميعا فسمي الفجار (١) . والتسمية جاءت من وقوع هذه الحروب في الشهور التي يحرمون فيها سفك الدماء وهي أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم (٢) . وهي فجاران الأول ثلاثة أيام وهي ليست حربا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، انما كانت مناوشات ومهاترات وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة انتهت اما

---

(١) ابن هشام . السيرة ، مجلد ١ ، ص ١٨٤ . السهيلي : الروض الانف ، ج١ ، ص ٢١١ . عبد الرحمن الوكيل .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١١٠ . الازرقي : اخبار مكة ، ص ١٩٢ . السهيلي : الروض الانف ، ج١ ، ص ٦٣ — ٦٤ .

بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى (١) .

ففي اليوم الأول ، وقعت الخصومة بسبب تطاول بدر بن معشر الغفاري وهو من كنانة على الناس بأن جلس بعكاظ في الموسم والعرب مجتمعة فيه فمد رجله وقال : « أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف » . ونتيجة لهذا التحدي وثب عليه رجل من هوازن اسمه الأحمر بن هوزان فضربه بالسيف على ركبته فقطعها ، فتحاور الحيان أهل الضارب والمضروب حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، لكنهم تراجعوا بعد أن عرفوا أن المشكلة بسيطة ولا تستحق الخصومة والقتال (٢) ، حتى ان ابن الأثير لم ير في ذكره أمرا يستحق الذكر (٣) .

وفي اليوم الثاني ، وقعت الخصومة والقتال بسبب عبث شباب من قريش وكنانة بامرأة من بني عامر بن صعصعة كانت جميلة ووسيمة وعليها برقع ، فأرادوا كشف برقعها فامتنعت فثارت ونادت الى عامر ونادى الشباب قومهم ، فالتحموا في قتال عاطفي لا يستدعي ذلك ، فوقعت بينهم دماء يسيرة انتهت بتوسط حرب بن أمية والحارث بن أمية باحتمال دماء القوم ودفع الدية (٤) .

---

(١) ابو الفضل ابراهيم : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٠ .

(٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦١ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥١ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٨ .

(٤) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦٢ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٤ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥٢ .

أما اليوم الثالث فوقع بسبب رجل من كنانة كان عليه دين لرجل من بني هوازن ولم يعطه شيئا منه ، ولما لم يجد بدا من تحصيل هذا الدين جاء بقرد الى سوق عكاظ ونادى : من يبيعني بمثل هذا القرد بما لي على فلان بن فلانة الكناني ، فأغاظ الأمر رجلا من كنانة فضرب القرد بالسيف وقتله فاشتبك الطرفان ، كنانة وهوازن حتى تحاجزوا ولم يقع بينهما قتلى فأصلح عبد الله بن جداعان ، أحد أثرياء مكة بينهما (١) .

أما الفجار الثاني فخمسة أيام وقعت في أربع سنين وكانت بعد الفيل بعشرين سنة ، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة ، وانتهت سنة ٥٨٩م (٢) .وتذكر المصادر أن الرسول (ص) حضر يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل ، قال ابن هشام : قال رسول الله (ص) كنت أنبل على أعمامي ، أي أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموا بها (٣) . وقد اختلفت المصادر في تحديد عمر الرسول وقت وقوع هذه الحرب ، فبينما يذكر ابن هشام أن عمره كان ١٤ ـ ١٥ سنة ، يخالفه اليعقوبي فيذكر أن عمره كان بين ١٧ ـ ٢٠ سنة ، أما صاحب الأغاني فيؤكد أن عمره كان أربع عشرة سنة (٤) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩ .
الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦٢ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٥ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥٢ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٩ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ .
الاصفهاني : الاغاني ، مجلد ٢٢ ، ص ٦٣ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٨٦ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٥ .
الاصفهاني : الاغاني ، مجلد ٢٢ ، ص ٦٣ .

والأرجح أن هذه الحروب بدأت والرسول عمره ١٤ سنة وانتهت وهو في التاسعة عشرة أو العشرين .

كان الذي هاج هذه الحروب رجلا خليعا سكيرا فاسقا هو البراض بن قيس بن رافع الكناني (١) . أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منه ، وصار يتنقل من قبيلة الى أخرى يطلب الحماية والجوار ، لكن الجميع لفظوه وتعبوا منه فذهب الى مكة مستجيرا بحرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ولربما أن اجارته من قبل حرب بن أمية كانت فيها مصلحة له لاثارة الخلافات مع مجموعة قبائل قيس عيلان لانتزاع السيطرة منهم على طريق العراق التجاري مع الحجاز . لكنه شرب وعاد سيرته الأولى فخلعه حرب فخرج من مكة وذهب الى الحيرة عارضا على النعمان ابن المنذر حماية لطيمته التي كان يرسلها كل عام الى عكاظ (٢) . وعندما سمع بذلك عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن (٣) ، احتقره وطلب من النعمان أن يجير هو لطيمته فقبل النعمان ، لكن البراض تعقبه وغافله وقتله واستاق اللطيمة الى مكة ولما بلغ هوازن وكنانة مقتل عروة هاج الطرفان واشتبكا في قتال استمر في أربع سنين ، وكانت أيامه خمسة هي : يوم نخلة ، وشمطة والعبلاء وعكاظ والحريرة ، انتهت هذه الحرب بالصلح وعودة العلاقات بين كنانة وقيس عيلان كما كانت في السابق (٤) .

ولا بد لنا من استعراض هذه الأيام الخمسة لنبين دور ثقيف

---

(١) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٨٦ ، تحقيق : عبد السلام هارون .
أبو الفضل : ايام العرب ، ص ٣٢٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٩٠ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ .
(٣) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٨٦ .
(٤) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٩٠ — ٥٩٥ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ .
الاصفهاني : الاغاني ج ٢٢ ، ص ٦٤ — ٧٩ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

في هذه الحروب وسبب اشتراكها فيها ٠

فقد سمي اليوم الأول « يوم نخلة » نسبةً الى موقع نخلة الذي وقع فيه القتال ، وهو موضع على ليلة من مكة فيها نخل وكروم (١) ٠ وقعت هذه الحرب بعد سماع هوازن بمقتل عروة الرحال من قبل البراض بن قيس ، وكان نتيجة القتال آن دخلت قريش الحرم بعد أن أدركت هزيمتها حتى تأمن به ، واعتبر هذا اليوم من أيام قيس عيلان على كنانة وقريش (٢) ٠

أما اليوم الثاني فهو يوم شمطة وهو نسبة الى موضع قريب من عكاظ (٣) ٠ وترأس المقاتلين سادات ذلك الوقت المعروفون ٠ فعلى كنانة كلها « حرب بن آمية » ومعه عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة (٤) ، وعلى هوازن وسليم كلها مسعود بن معتب الثقفي واشتركت معهم قبائل أخرى مثل : بنو نصر وبنو جشم وفهم وعدوان وكلها من مجموعة قبائل قيس عيلان (٥) ٠ وبسبب تجاور منازل هذه القبائل ٠ فبنو نصر كانوا يسكنون وادي لية شرقي الطائف (٦) ، وجشم مواطنهم بين تهامة ونجد (٧) وعدوان كانت منازلهم شرق الطائف (٨) ، وسليم كانت منازلهم في عالية نجد (٩) ٠ هذا التجاور خلق لهذه القبائل

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ، ص ١٣٠٤ — ١٣٠٥ تحقيق مصطفى السقا .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ص ٥٩٢ — ٥٩٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .
ابو الفضل ابراهيم : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٦٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٦) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، مجلد ٣ ، ص ١١٨١ .

(٧) نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٨٩ .

(٨) نفس المصدر ، ج٢ ص ٧٦٢ .

(٩) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٥٤٣ .

تشابها في المصلحة ، لا سيما وأن طريق العراق التجاري كان يمر بأراضي قيس عيلان . وكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن ، لكن صمود هوازن قلب موازين المعركة لصالحها فانكشفت كنانة ، واستمر القتال فيها ، ولم يقتل من قريش أحد ، فكان هذا اليوم لهوازن على كنانة وقريش (١) .

واليوم الثالث ، هو يوم العبلاء ، والعبلاء علم على صخرة بيضاء الى جنب عكاظ (٢) . ولقد عادت هوازن وكنانة الى الحرب ، فجمع القوم بعضهم الى بعض والتقوا على قرن الحول بالعبلاء ، وهو موضع قريب من عكاظ والرؤساء يومئذ على ما كانوا عليه يوم شمطة وفيه انهزمت كنانة (٣) . وفي هذا اليوم قتل العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام . قتله مرة بن معتب الثقفي ، وفي ذلك يقول رجل من ثقيف (٤) :

منا الذي ترك العوام مجندلا تنتاب الطير لحما بين أحجار

أما اليوم الرابع من أيامهم فكان يوم عكاظ وهو يوم استعداد كنانة للانتقام من هوازن على اثر هزيمتها في العبلاء ، فالتقوا في هذا الموضع ، وكان الرؤساء بحالهم ، وحمل عبد الله ابن جدعان يومئذ ألف رجل من كنانة على ألف بعير وخافت قريش أن يجري عليها ما جرى يوم العبلاء من هزيمة ، فقيد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ .
(٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧١ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٣ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٠٧ .
(٣) الاصفهاني : الاغاني ، ج ٢٢ ، ص ٧١ .
جواد علي : المفصل ، ج٥ ، ص ٣٨٣ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٠٧ .
(٤) أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .

حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا لا نبرح مكاننا هذا حتى نموت (١) . وقد اشتركت في هذه الحرب سائر بطون كنانة والأحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة وعليهم الحليس بن يزيد وسفيان بن عوف ، وكذلك سائر بطون قيس عيلان مثل هوازن وثقيف ونصر وفهم وعدوان وسليم ، وكانت حربا ضروسا انتهت بهزيمة مجموعة قبائل قيس عيلان وانتصار كنانة عليها ، وقد اشترك من ثقيف مسعود ابن معتب الثقفي الذي أخرج معه أولاده عروة ولوحة ونويرة والأسود فكانوا يدورون وهم غلمان في قبائل قيس يأخذون بأيديهم الى خباء أمهم ، ذلك الخباء الذي ضربه مسعود بن معتب لتدخله قريش وتأمن على روحها وهو نوع من الاستعلاء والاستصغار بقوة قريش ، وكانت امرأة مسعود هي سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، لكن هذا الخباء كان لقيس بعد هزيمتها ، فقيل لذلك الموضع مدار قيس استهزاء بها (٢) .

أما اليوم الخامس فهو يوم الحريرة ، والحريرة موقع بين الأبواء ومكة قرب نخلة (٣) . والرؤساء بحالهم ما عدا بلعاء ابن قيس فانه قد مات فحل محله أخوه جثامة بن قيس ، وبعد قتال بينهم اتفقوا على الصلح وتسوية الديات وانصرف الناس عن الحرب (٤) . ومن قتلى هذه الحرب العوام بن خويلد

---

(١) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٣ — ٧٤ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٣ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .
(٢) نفس المصادر والصفحات .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٠ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٥ .
ابو الفضل : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٧ .
الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٨ — ٧٩ .
(٤) نفس المصادر السابقة .
بلعاء بن قيس هو من بني الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، وجثامة بن قيس اخوه ، وكان شاعرا وفارسا كبيرا . انظر ابن حزم : الجمهرة ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

وحزام بن خويلد وأحيحة بن أحيحة ومعمر بن حبيب ، ومن قتلى قيس الصمة وهو أبو دريد بن الصمة رجل هوازن المعروف الذي قتل في حنين (١) .

وخلاصة القول ان حرب الفجار الأولى كانت مناوشات ومهاترات ، وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة وانتهت بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى كما بينا سابقا . فان الحرب الثانية لم تحدث لأسباب عرفية بسيطة كما هو معروف ، وانما لعبت عوامل المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية دورا بارزا فيها ، لكن هذه المنافسة أخذت طابع الحرب القبلية بسبب مقتل البراض بن قيس الكناني لعروة الرحال رجل هوازن آنذاك ، ولأن العادات والتقاليد والعرف عند العرب في العصر الجاهلي أن الثأر لا يكون من شخص القاتل الا اذا كان من نفس المكانة وعلى نفس القدر من المكانة والمستوى من المقتول . فالبراض رجل خليع وسكير وفاسق . والخليع في نظر القبيلة فرد منفصل عنها لا تربطه بها آية رابطة ، فكيف تحدث مثل هذه الحرب من أجله ؟ . ان العرف والعصبية القبلية كانتا السبب المباشر لقيام مثل هذه الحرب .

ويذكر الدكتور أحمد الشريف (٢) أن الأخذ بالثأر كان أمرا مفروضا على القبيلة ، مهما كلف ذلك من جهد ومال . ولم يفرقوا بين القتل الخطأ والقتل العمد وأنهم كانوا يعالجون القتل بالقتل ، حتى صار الأخذ بالثأر عقيدة ثابتة ، والغرض منه حماية القبيلة ، فالقبيلة اذا لم تأخذ بثأرها تسقط بين القبائل .

وخلاصة القول أن هذه الحرب دفعت اليها العصبية القبلية

---

(١) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٨ .
الواقدي : المغازي ، ج٣ ، ص ٩١٥ .
(٢) انظر احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٤ وما بعدها .

وطلب الثأر والمصلحة وغير ذلك من الأسباب التي كانت الحرب تقوم بسببها بين قبائل شبه الجزيرة العربية . هذا بالاضافة الى العوامل الاقتصادية .

وأغلب الظن أن هذه الطريق ــ طريق العراق والحجاز ــ كانت تحت سيطرة قيس عيلان وبعد أن أنشأ قصي بن كلاب قوة قريش واستولى على مكة وأقام خلفه عبد مناف ثم هاشم واخوته تنظيم تجارة مكة مع الشام والعراق واليمن وبقية أجزاء الوسط والشمال في شبه جزيرة العرب ، شعرت قيس عيلان بالطمع في الاستيلاء على طريق العراق الذي يخترق أراضيها (١) ، وبخاصة أن التجارة مع العراق تأتي بمكاسب وفيرة ، ولقد كان أبناء عبد مناف هم أصحاب الفضل في تنظيم هذه التجارة ووضع الترتيبات اللازمة مع القبائل التي تمر طرق التجارة في أراضيها ثم مع حكام فلسطين وجنوب الشام من ناحية وبلاد الحيرة والعراق من ناحية أخرى (٢) . ولقد قام هاشم واخوته أبناء عبد مناف بتنظيم هذه التجارة تنظيما كاملا وذلك بالسياسة الماهرة التي رسموها للوصول الى هذه الغاية (٣) والتي تتلخص في :

أولا ــ تحويل مكة الى أكبر مركز للتجارة في شبه جزيرة العرب ، مستندا في ذلك الى المركز الجغرافي الممتاز لمكة في منتصف الطريق التجاري الهام بين اليمن والشام (٤) . هذا الطريق

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٩٠ .
جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٣٨ وما بعدها .
(٢) ابن هشام : السيرة ، المجلد الاول ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ . تحقيق : مصطفى السقا .
أحمد الشريف . مكة والمدينة ، ص ١٣٦ ، ١٥٦ ــ ١٥٧ .
(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٣٨ وما بعدها .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٨٧ ، كلمة مكة .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٩٥ .

الذي استطاع أولاد عبد مناف ترتيب وتنظيم القوافل التجارية فيه ، فأصبحت لها رحلتان هما رحلة الصيف الى الشمال ،ورحلة الشتاء الى اليمن . وقد ذكر القرآن الكريم خبر هاتين الرحلتين في معرض تعداد فضل الله على قريش (١) . قال تعالى : « لايلف قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٢) . وقد كان تجار مكة يحملون بضائع هذا الطريق الى الشام والجنوب بعد خروجهم من مكة ، وقد اعتمد كل من الروم والفرس على هذا الطريق (٣) .

وكذلك الى المركز الديني الممتاز لمكة في شبه الجزيرة كلها ، فوجود الكعبة كان يجتذب اليها الحجاج من كافة نواحي شبه الجزيرة ، حيث ان الحج الى الكعبة فرض الهي قديم ومعترف به ، وان الناس يحجون الى البيت جميعا ، وقد نظم عبد المطلب ابن هاشم هذه الناحية الدينية تنظيما كبيرا ، وكان بنو عبد مناف يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بحماية وادارة البيت الحرام ومنه اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة في مكة كالسقايةوالرفادة والسدانة(٤) وظلت هذه الوظائف متوارثة فيها حتى ظهور الاسلام ، لذا كانت

---

(١) احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٠٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة قريش رقم ١٠٦ ، الايات من ١ — ٤ .

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٠٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة ، المجلد الاول ، ص ١٣٧ ، ٨٥ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢١ .
أحمد كمال : الطريق الى المدائن ، ص ١٨٩ .

قريش تعتبر نفسها هم أهل البيت وأولياؤه(١)٠كما قال تعالى : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٢) ٠

ثم اعتماد الكثير من قبائل وسط الجزيرة على مكة في كل ما كانوا يحتاجون اليه من بضائع ومصنوعات ، لأن مكة اختصت بالتجارة لأنها تقع في واد غير ذي زرع وأنها تعتمد في حياتها على ما يجلب اليها من الخارج وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء ، لذا اختصت مكة بالتجارة ووضع أهلها القوانين لتنظيم الحياة عندهم وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية ما يفد اليها من الأذى (٣) ٠

ثانيا ــ عقد اتفاقات مع كل القبائل التي تمر طرق التجارة في منازلها على أساس أن تسمح هذه القبائل بمرور قوافل التجارة المكية تحت خفارة تلك القبائل ، مقابل أن يقوم رؤساء القوافل المكية بكل العمليات التجارية اللازمة لهذه القبائل(٤)٠

ثالثا ــ عقد الاتفاقيات مع حكام الحيرة وجنوب الشام

---

(١)ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٨٢ ، وما بعدها .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ ، ١٨٦ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الانفال ، آية رقم ٣٤ .

(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ، ١٨٦ ــ ١٨٧ .

(٤)جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

وفلسطين واليمن والحبشة ، لضمان دخول القوافل المكية الى هذه البلاد والقيام بالعمليات التجارية فيها ، وقد رحبت هذه البلاد بذلك لأنها كانت بحاجة الى المتاجرة أو البضائع التي كانت قوافل قريش تأتي بها اليمن وجنوب الجزيرة العربية (١) وبطبيعة الحال ، انضمت الى شبكة الاتفاقات قبائل أخرى كثيرة لم تكن تمر بمنازلها طرق تجارية وذلك للاستفادة من الخدمات التي تقدمها للقوافل المكية ، ومعنى ذلك أن سياسة أبناء عبد مناف جعلت مكة مركز التجارة العربية كلها ، مما زاد في ثراء أهلها وجعل قريشا زعيمة مجموعة قبائل كنانة وهي فرع من الياس بن مضر (٢) ٠ ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تطمع قيس عيلان في أن تحل محل قريش في ذلك المركز ، لذا تصدت لها قريش بزعامة كبار بيوتها وبخاصة بني أمية ، وقد انجلت حرب الفجار الثانية عن تثبيت مركز مكة وقريش كقاعدة للتجارة العربية قبل الاسلام ، وتحول مكة الى أغنى بلاد شبه الجزيرة ، ونتيجة لذلك أصبحت قريش أقوى وأهم قبائل العرب في وسط وشمال وغرب شبه الجزيرة كلها (٣) ٠ زد على ذلك

---

(١) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٥٥ ــ ١٥٩ .
كانت هناك علاقات تجارية مباشرة بين مكة والحبشة وكان ميناء الجار ــ على البحر الاحمر يعتبر ميناؤهم الخاص وكانت منه تخرج السفن الذاهبة الى الحبشة والعائدة منها الى مكة .
انظر ياقوت : معجم البلدان ، المجلد ٢ ، ص ٩٢ ــ ٩٣ ، كلمة جار .
(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ١٠ .
(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ ، ١٥٣ .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٥٠ .
سعيد الافغاني : أسواق العرب ، ص ٢٥ .

أن أهل مكة لم يدعوا الفرصة لأهل الطائف أن ينغصوا عيشهم مرة أخرى حين تمكنوا من التغلغل الى الطائف ، ومن بسط سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالا اقتصادية خاصة ومشتركة وبذلك حولوا هذه المدينة (الطائف) الى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش (١) ٠



(١) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٥ ، ص ٥٥ ــ ٥٦ ، ترجمة : عبد الحميد يونس ٠

جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ١٥٣ ٠

من تأريخ الترجمة عند العرب

الدكتور
نافع توفيق العبود
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

نبذة تاريخية :

مرت الترجمة بدورين أحدهما أسطوري يتصل بالمحاولات الأولى التي قيل أنها جرت في زمن الأمويين ، حيث بدأ العرب وقتذاك يأخذون بالتدريج عن الأمم الاخرى شفاها وبصورة مجملة أول الأمر ، ثم بالترجمة المنظمة التي قام بها الأمير الاموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ ـ ٨٠٤م) (١) ، الذي « أمر جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ... بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة أخرى » (٢) .

نستنتج من هذا ان خالد بن يزيد قد قام بالتنقيب عند كتب الحكمة والكيمياء وعلوم الأقدمين ، وأمر المترجمين أن يترجموها ، ولم يصل الى أيدينا أي مصنف من المصنفات التي ترجمت في عهده ، ويبدو أن عمله في هذا الميدان لم يكن ذا أثر كبير ، اذ لم يعقبه أية حركة أخرى بعده ، وانما هي أخبار

تروى عن خالد اذا صحت الرواية (٣) ٠

ومن الأمور التي يمكن الاشارة اليها في زمن الأمويين ، هي نقل الدواوين الى العربية ، ففي عهد عبد الملك بن مروان وعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، عربت الدواوين في العراق والشام من الفارسية واليونانية الى العربية ٠

أما الآخر فهو تاريخي ، تدعمه أدلة مادية ، وكان ذلك زمن العباسيين حين انتظمت الترجمة وحظيت بتشجيع الخلفاء وذوي البيوتات العلمية ، فترجمت كتب الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق ، على أيدي علماء من العرب والفرس والسريان والهنود ٠ ولما حل القرن الرابع الهجري اتسعت الترجمة فشملت مختلف الآداب التي نقلت في الغالب من أدب الفرس ، لقيام بعض رجالهم وبخاصة الشعوبية والزنادقة منهم بمباراة العرب ومنافستهم وبنشر أمجادهم وآدابهم التي قضى عليها الاسلام مثل آيين نامة (أي نظم الفرس وتقاليدهم وأعرافهم) وكتاب آفستا وكتاب مزدك وكتاب هزار فسانة ٠٠٠ الخ ٠

أسباب الترجمة :

يمكن أن نجمل الأسباب التي دعت العرب الى نقل علوم وآداب الأمم الأخرى بما يأتي :

١ ــ رغبة بعض الخلفاء العباسيين في العلوم كالمنصور والرشيد والمأمون ، فقد أظهر الأول عناية بالترجمة فنقلت له بعض كتب بقراط وجالينوس في الطب (٤) ، وممن نقل له هو جورجس الذي يعتبر أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية (٥) ٠

وقد زادت ترجمة الكتب في عهد الرشيد بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية حيث أمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان ، كما نشطت الترجمة بفضل تشجيع البرامكة الذين اهتموا بعلوم الاغريق اهتماما كبيرا وبذلوا مساع كبيرة لأن يدخلوا الى العرب المعارف المستقاة من المصادر الاغريقية التي كانوا على صلة وثيقة بها مذ كانوا سابقا في مرو ، ونيسابور (٦) ٠

أما في عهد المأمون فقد قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وبخاصة العلوم اليونانية (٧) ، حيث أرسل المبعوث الى القسطنطينية لاحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ٠ روى ابن النديم ان المأمون « كان بينه وبين ملوك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب (اليه) يسأله الاذن في ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل » (٨) ٠

وهكذا نجد المأمون يحذو حذو والده في تشجيع العلم والأدب ، وقد أنشأ في بغداد مدرسة للعلم والترجمة تزخر بمختلف الكتب والمصنفات العلمية والأدبية والفلسفية (٩) ٠

٢ ـ الجدل الديني والمناظرات : ذلك ان المسلمين بدأوا في العصر الأموي يعقدون الحلقات والمجالس في المساجد الجامعة ، ويكثرون من المناقشة والمجادلة في القضاء والقدر ، وفيما اذا كان الانسان مسيرا أو مخيرا ، فانقسموا الى فئتين ، كل فئة تناصر أحد الرأيين ولذلك احتاجوا في العصر العباسي الى معرفة

ما عند الأمم الاخرى مما يفيدهم في تلك المجادلات والمناظرات (١٠) ·

وقد أسهم بعض الخلفاء في تلك المناظرات ، فكان المأمون يجلس للمناظرة مع المتعلمين « من أول النهار الى آخره يتناظرون بين يديه فيرشدهم ويمدهم بالأموال والكتب ويتفقدهم اذا غابوا عنه ويزورهم في بيوتهم مع كثرة العطاء والرغبة في حسن الثناء » (١١) ·

ولعل من الطريف هنا أن نشير الى وصف لأحد مجالسه في المناظرة نقله المسعودي عن يحيى بن أكثم : « فاذا أحضر الفقهاء ومن يناظره (المأمون) من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت قلنسوته عليه فليضعها ، فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها ، وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون » (١٢) ·

ووصف القاضي أبو القاسم أحمد بن صاعد الأندلسي ، ما كانت عليه حال الترجمة ونشاطها في عصر المأمون قائلا : « ··· تمم ما بدأ به المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألتهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاليس وأبقراط وجالينوس وآقليدس

وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستخار لها خيرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قرائتها ورغبهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من أخطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها ، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فاتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيرا من أجزاء الفلسفة ، وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها » (١٣) ٠

ويضيف الكازروني عند ذكره خلافة المأمون والاشادة بتشجيعه للترجمة بقوله : « أخذ من جميع العلوم بقسط واستخرج من الروم كثيرا من كتب الطب وترجمت له، واستخرج كتاب اقليدس وترجم له ، وعقد المجالس للمناظرة بين أهل العلم في الأديان والمقالات » (١٤) ٠

٣ ـ معرفة الفلسفة والمنطق اليونانيين : لقد أدى الجدل والمناظرات بين المسلمين واليهود والنصارى الى أن يرى المسلمون أن اليهود والنصارى يجادلونهم بالفلسفة والمنطق اليونانيين فاضطروا الى دراستهما لاتخاذهما وسيلة للدفاع عن الدين الاسلامي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان النزاع على المسائل الطارئة على الجماعة الاسلامية بسبب الخلافة قد أدى الى ظهور فرق اسلامية مختلفة ، فالخوارج الذين ثاروا على الامام علي (رض) ذهبوا في تعصبهم الى حد تكفير كل مسلم

يقترف احدى الكبائر ، ولقد عارضهم في ذلك المرجئة الذين قالوا بعدم جواز تكفير المسلم وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة في العالم الاخر لله وحده ••• وقد ذهب المعتزلة الى أن المسلم صاحب الكبيرة ليس بالمؤمن وليس بالكافر ولكنه في منزلة بين المنزلتين (١٥) • يضاف الى ذلك فان نظرة المعتزلة في صفات الله جعلهم لم يكن لهم معدى عن اصطناع الطريقة التقليدية المتبعة في الفلسفة اليونانية على الرغم من رفضهم القاطع لنزعة هذه الفلسفة بطبيعة الحال ، وبينما كان ممثلو السنة الخالصة يعتبرون كلمة الله « القرآن » أزلية كالله نفسه ، انتهى التفكير الاعتزالي فيما يتعلق بالصفات الالهية الى الفكرة القائلة ان القرآن ليس أزليا بل مخلوق • ولقد وفق المعتزلة الى أن يثيروا شوق الخليفة المأمون الى هذه العقيدة حتى أعلنها عقيدة الدولة الرسمية وأمر بامتحان جميع الذين يرفضون القول بها (١٦) • وقد شغل المعتزلة وأولعوا بالمناظرة والجدل لأن مذهبهم كله يقوم على الجدل ، وأكثر من هذا فانهم كانوا ينظرون الى من يسمون بالفلاسفة بعين التصغير (١٧) •

٤ ـ التدوين بالعربية : لقد نجم عن اعتناق الأمم الاجنبية للاسلام وانضوائها تحت لوائه ، ان صارت تلك الأمم تدون علومها وآدابها باللغة العربية التي تعلمتها بسبب الدين ، أو تقربا من العرب الفاتحين للاستفادة من الوظائف والمناصب (١٨) •

٥ ـ بعد الفتوحات الاسلامية العربية ، واجه العرب أمما ذات حضارة راسخة ، فكان لهم النفوذ السياسي وصاروا فخورين بأنفسهم ، فقابلهم الفرس مثلا بمظاهر غرور أقوى من فخرهم ، ونعتوا العرب بأشباه المتوحشين في الصحراء ، حديثي النعمة الذين ليس لهم تاريخ يعتز به وليس لهم علم ، وعرفت هذه المجاهرة في عداوة العرب المعبر عنها بصراحة ووضوح بـ

« الشعوبية » ، وهي عبارة عن شعور منظم جريء في كراهية العرب . وكان ابن المقفع (ت حوالي ١٤٣هـ) أنموذجا مثاليا لذلك العصر ، فترجم من الفهلوية آي الفارسية القديمة الى العربية كتاب (كليلة ودمنة) و (خداي نامة) أيضا وهو تاريخ سير ملوك فارس وأطلق عليه في الترجمة (سير ملوك العجم) (١٩) .

٦ ـ ومن الجدير بالذكر أن العناية بالترجمة لم تكن مقصورة على الخلفاء أو الوزراء بل عني جماعة من ذوي اليسار في العصر العباسي بنقل الكثير من الكتب الى العربية ، ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد وأحمد والحسن أبناء ابن شاكر المنجم ، الذين أنفقوا الأموال العظيمة في الحصول على العلوم القديمة وبذلوا « فيها الرغائب وأتعبوا نفوسهم فيها ، وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم ، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة » (٢٠) وشيرشوع بن قطرب ، من أهل جنديسابور ، الذي كان يبر النقلة ويهدي اليهم ، ويتقرب الى تحصيل الكتب منهم بما يمكنه من المال (٢١) كما كان ثادرس الاسقف أحد أساقفة الكرخ ببغداد حريصا على طلب الكتب متقربا الى قلوب نقلتها ، فحصل منها شيئا كثيرا ، وصنف له قوم من الأطباء النصارى كتبا لها قدر وجعلوها باسمه (٢٢) ، وكذلك اشتهر أحمد بن محمد المعروف بابن المدبر الكاتب ، الذي كان يصل الى النقلة من ماله وافضاله شيء كثير جدا (٢٣) . وكان هناك أيضا ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب « حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، مشتملا على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة » (٢٤) .

« تصنيف المترجمين » :

عقد ابن أبي اصيبعة في كتابه « عيون الأنباء » بابا في « النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي » • وعند تحليلنا لقائمة الأسماء التي أوردها في هذا الباب ، وجدنا أنه صنف المترجمين الى درجات أو مستويات متباينة بحسب اتقانهم للترجمة ، فقد اعتبر حنينا بن اسحاق من المجودين في النقل وقال عنه : « كان عالما باللغات الأربع غريبها ومستعملها : العربية والسريانية واليونانية والفارسية ونقله في غاية الجودة » (٢٥) ، كما كان ابنه اسحاق ابن حنين عالما باللغات التي يعرفها أبوه • وهو يلحق به في النقل، ومثلهما كان حبيش الأعسم ناقلا مجودا (٢٦) • وكان هناك عيسى بن يحيى بن ابراهيم تلميذا لحنين بن اسحاق وقد أثنى عليه حنين ورضي نقله وقلده فيه • وكان اصطفن بن يسيل يقارب حنين في النقل ، الا أن عبارة حنين أفصح وأجلى (٢٧) •

ومن بين المترجمين الآخرين من كان متوسط الحال في الترجمة ، فمثلا كان أيوب المعروف بالأبرش قليل النقل متوسطه ، وما نقله في آخر عمره يضاهي نقل حنين (٢٨) ، ومثله كان ابن شهدي الكرخي الذي نقل من السرياني الى العربي (٢٩) ، والحجاج بن مطر الذي نقل للمأمون كتاب اقليدس ، وكذلك سرجس الراسي (من أهل مدينة رأس العين) (٣٠) الذي كان متوسطا في النقل ، وكان حنين بن اسحاق يصلح نقله فما وجد باصلاح حنين فهو الجيد (٣١) • ومن متوسطي النقل الينا ثابت الناقل الذي نقل الكيوسين لجالينوس • وأبو يوسف الكاتب الذي نقل عدة كتب من كتب بقراط (٣٢) •

والى جانب هؤلاء المترجمين المذكورين ، كان هناك تراجمة آخرون لم يتقنوا الترجمة في رأي ابن أبي اصيبعة ، نذكر منهم على سبيل المثال : فثيون الترجمان الذي كان « كثير اللحن ولم يكن يعرف علم العربية أصلا » (٣٣) ، وأبو نصل ناري بن أيوب الذي لم يكن « يعتد بنقله » (٣٤) ، وحيرون بن رابطة الذي ليس له شهرة بجودة النقل (٣٥) .

ونستنتج من قائمة ابن أبي اصيبعة أيضا ان بعض النقلة تتلمذوا على بعض المترجمين المشهورين ، فقد تتلمذ حبيش الأعسم وعيسى بن يحيى بن ابراهيم على حنين بن اسحاق (٣٦) .

والى جانب ذلك نجد أن بعض النقلة المشهورين اتخذوا لهم أعوانا ممن عرفوا بجودة النقل لمساعدتهم في الترجمة . ومثال ذلك أن حنين بن اسحاق استعان بقسطا الرهاوي ، عندما كثرت عليه الكتب وضاق عليه الوقت ، ثم يصلحها بعد ذلك (٣٧) .

أهم مواضيع الترجمة

١ ـ النجوم : كان أبو جعفر المنصور ميالا الى التنجيم ، ومن الجائز أنه حاول أن يتخذ منه أداة لتصيد الأخبار ، اضافة الى أن العقلية السائدة آنذاك كانت تركن الى هذا العلم وجدوته في معرفة المستقبل .

ولعل مما يدل على اهتمام المنصور بالتنجيم ، أنه بعث الى ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها (٣٨) .

وممن خدم المنصور في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم (٣٩) ، وقصده أيضا أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وكان في جملتهم رجل من الهند قيم في حساب (السدهنتا) ، وعرض عليه كتابا في النجوم مع تعديل معمولة على مذاهب الهند ، فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتابا سماه المنجمون (السند هند الكبير) ، وظل أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام المأمون (٤٠) ٠

٢ ـ الطب : ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في أيام المنصور ، الطب ٠ وكان المنصور قد استدعى الى بغداد جورجس ابن بختيشوع السرياني رئيس أطباء جنديسابور ، وكان هذا من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، اضافة الى مهارته في الطب حيث ألف فيه مصنفات باللغة السريانية فضلا عن الفارسية والعربية واليونانية ، فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتبا طبية من اليونانية الى العربية غير ما ألفه في السريانية (٤١) ٠

هذا وان من يلقي نظرة في (عيون الأنباء) لابن أبي أصيبعة ، و (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطي ، يقف على عدد لا يحصى من أسماء المترجمين لكتب الطب من مختلف اللغات السريانية واليونانية والفارسية الى اللغة العربية ٠

٣ ـ الفلسفة والمنطق : لم يقدم المسلمون على ترجمة الكتب الفلسفية الى العربية الا في أيام المأمون لسبب متصل بهذا الخليفة نفسه ، وذلك أنه لما أظهر ميلا الى الاعتزال وأخذ يناظر أصحاب الرأي والقياس ، فقد اهتم بالفلسفة وعلوم الأوائل وجره ذلك الى القول بخلق القرآن (٤٢) ٠ وقد تعلم

المأمون وطالع ما نقل من كتب القدماء الى أيامه ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى أحكام العقل ، وصرح بأقوال لم يكن بامكان المعتزلة التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفي جملتها القول بخلق القرآن ، وعندئذ قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عددا ، ولم يعد في وسع المأمون الرجوع عن قوله ، بل عمل على تأييده بالبرهان ، وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع ، وتأييدا لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية واطلع هو عليها ، فقويت حجته وازداد تمسكا بالاعتزال (٤٣) ٠

ولم يقتصر المأمون على ذلك ، بل جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو في الفلسفة وغيرها ، وابتدأ بترجمة تلك الكتب فأقبل المعتزلة على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها ٠

وعلينا أن لا نبالغ بتأثير الأوامر التي صدرت في أيام المأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها الى العربية ، ونعني بتلك العلوم (علوم اليونان وفلسفتهم) ٠ حيث يذهب بارتولد الى القول بوجود علاقة بين العلم في العهد الاسلامي والعلم اليوناني الذي كان منتشرا في ايران قبل العهد الاسلامي ، ولو ان هذه المسألة لم تدرس بعد درسا وافيا (٤٤) ٠

أشهر المترجمين

كان التراجمة من ملل ونحل مختلفة ، فيهم المسلمون وفيهم النصارى من السريان واليعاقبة وفيهم الصابئة عبدة الكواكب ، ومنهم البراهمة والمجوس واليهود وغير ذلك (٤٥) ٠

وقد ذكرنا سابقا كيف أن المنصور والرشيد والمأمون عضدوا

العلماء الذين ترجموا المؤلفات العلمية عن اللغات اليونانية والسريانية والهندية . وبقي علينا أن نشير الى أشهر المترجمين الذين تألق نجمهم في هذا الميدان والذين ذكرهم المؤرخون .

لما كان المسلمون قد اهتموا بالفلك والرياضيات ، فقد ترجم الى العربية كتاب « السند هند » ويقال أن المترجم له هو ابراهيم الفزاري المنجم ويعقوب بن طارق . وهناك من يشك في ترجمة الفزاري لكتاب « السند هند » في خلافة المنصور وينسب الترجمة الى محمد بن موسى الخوارزمي (٤٦) الذي كان منقطعا الى خزانة كتب الحكمة للمأمون والذي يعول على زيجه الاول والثاني ويعرف بالسند هند (٤٧) .

ومن بين النقلة المشهورين : الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب الذي ترجم ببغداد كتاب « المجسطي » في الجغرافية ، وهناك من يقول أن الذي ترجمه هو سهل بن ربان الطبري من مرو ويقال عنه أنه ترجم الكتاب للرشيد ببغداد ، وهناك ثمة من يقول أن سهل بن ربان ترجم المجسطي وان الحجاج راجعه ، ثم راجع الترجمة بعد ذلك حنين بن اسحاق ثم ثابت بن قرة ، ثم محمد بن جابر بن سنان البتاني المتوفى سنة ٣١٧هـ ـ ٩٢٩م أما ترجمة الحجاج لاقليدس فقد راجعها قسطا بن لوقا في سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ ـ ٩١٣م (٤٨) .

ومن النقلة أيضا : أبو زكريا يوحنا بن ماسويه ، وكان هذا نصرانيا سريانيا في أيام الرشيد ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون ، وقد وضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه ، وخدم الرشيد ، والامين والمأمون ومن بعدهم من الخلفاء الى أيام المتوكل (٤٩) .

ومن أشهر المترجمين الى العربية : حنين بن اسحاق العبادي (٥٠) المتوفى سنة ٢٦٤هـ ـ ٨٧٧م ، وقد نزل حنين في سنة ٢١١هـ ـ ٨٢٦م ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره الى ميدان الترجمة فأصبح فيما بعد زعيم المترجمين من العرب والسريان ٠

كان أصل حنين من الحيرة وكان أبوه نسطوريا درس على يوحنا بن ماسويه في جنديسابور وأصبح صيدليا عنده وتعلم اللغة الاغريقية ، واستقر في البصرة ثم توجه الى بغداد ورعاه أبناء موسى بن شاكر الثلاثة محمد وأحمد والحسن وقدموه الى الخليفة المأمون ٠ ولما كان المأمون يهتم بتشجيع حركة الترجمة ، فقد جعل حنين بن اسحاق على رأس بيت الحكمة ، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلا بمثل ، وكانت الترجمة بالعربية والسريانية ، وكان حنين فصيحا في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي ، وقد اختير للترجمة وائتمن عليها ، وكان المتخير له الخليفة المتوكل على الله ، وجعل له كتابا نحارير عالمين بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا (٥١) ٠ وكان حنين عالما بالعربية والسريانية واليونانية والفارسية (٥٢) ٠

وقد دخل حنين الى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة وتوصل في تحصيلها غاية امكانه ، وأفاد من دخوله الى تلك الجهات في أحكامه اليونانية والحصول على نفائس هذا العلم ، وبعد عودته لازم بني موسى بن شاكر الذين شجعوه على النقل (٥٣) ٠

وقد ترجم حنين بن اسحاق من كتب جالينوس الى السريانية والعربية، كما ترجم من تأليف بقراط وأرسطو وشروحهما (٥٤) ٠

ومن بين الذين عملوا مع حنين ابنه اسحاق المتوفى سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٠م ، وكان في منزلة أبيه في الفضل وصحة النقل من اليونانية والسريانية ، وابن أخته حبيش الاعسم وعيسى ابن يحيى بن ابراهيم (٥٥) ۰

وبعد وفاة حنين قام تلامذته بترجمة معظم كتب بقراط وجالينوس الى العربية ، وخصوصا ابنه اسحاق الذي ترجم بقية كتب أرسطو وشراحه وأهم الكتب الرياضية والبصرية لاقليدس (٥٦) ۰

ويذكر المؤرخون من بين كبار المترجمين أبا يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي (المتوفى بعد سنة ٢٥٧هـ) المسمى بـ (فيلسوف العرب) (٥٧) ، وقد كان حقا أول مسلم اتقن علوم اليونان الى حد يدعو الى الدهشة ۰ ولكن لا يعرف من تراجمه الا شيء قليل جدا هو في جغرافية بطليموس ، ولم تبق لنا أية ترجمة أتمها بنفسه ، حتى ان دوره كمترجم مجهول تماما ، ولكنه كتب في الغالب على التراجم السريانية لعلوم الأوائل قرابة ثلثمائة كتاب من تأليفه في الطب والفلسفة الأرسطالية والفيثاغورية والرياضيات والبصريات وفي الفلك وفي الآثار العلوية والموسيقى والسياسة المدنية والاخلاق وغيرها ، وعن هذا الطريق فتح الطريق للعرب الى علوم الأوائل (٥٨) ۰

وذكر ابن النديم من تلاميذ الكندي : حسنويه ونفطويه وسلمويه وأحمد بن الطيب السرخسي وأبو زيد البلخي (٥٩) ۰

وقد عاصر الكندي مترجم آخر هو قسطا بن لوقا البعلبكي ، وهو فيلسوف شامي نصراني دخل الى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثير وعاد الى الشام ، ثم استدعي الى العراق ليترجم

من اليونانية الى العربية وكان معاصرا للكندي ، وكان لا يطعن عليه في الترجمة فصيحا في اللغة اليونانية جيد العبارة بالعربية (٦٠) ٠

ومن بين الذين اشتغلوا في الترجمة : عبد الله بن المقفع وماسرجيس يوسف القس وابنه عيسى وشهدي الكرخي وأبو بشر متي بن يونس وأبو زكريا يحيى بن عدي المنطقي وأبو علي بن اسحاق بن زرعة وموسى بن خالد وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي كان منقطعا الى الوزير علي بن عيسى ، وعلي بن يحيى المعروف بابن المنجم ومحمد بن عبد الملك الزيات (٦١) ، ويوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون الذي كان أمينا على الترجمة وتولى ترجمة كتب أرسطاليس خاصة وترجم من كتب بقراط مثل حنين وغيره (٦٢) ٠

ومن أشهر النقلة أيضا ثابت بن قرة بن هارون ـ ويقال زهرون (٦٣) ـ الحراني ، وكان ثابت هذا صيرفيا أول حياته في سوق حران ، ولما اتجه الى الفلسفة تقدم فيها تقدما مدهشا وأصبح خبيرا في ثلاث لغات هي الاغريقية والسريانية والعربية (٦٤) ٠ وقد قام بمراجعة وتصحيح الترجمات العربية في المؤلفات الرياضية والفلكية ، وكان غاية في علم الطب والفلسفة والهندسة (٦٥) ، وترجم عددا وافرا من الكتب من تأليف اقليدس وأبلونيوس وبيس ونيقوماخوس وأظولوقس وتادوسيوس وبطليموس الى العربية (٦٦) ، وفيما يلي أشهر ما صنفه ونقله وأصلحه :

كتابه في السكون بين حركتي الشريان مقالتان ، صنف هذا الكتاب سريانيا لأنه أومأ فيه الى الرد على الكندي ونقله الى العربية تلميذ له يعرف بعيسى بن أسيد النصراني وكتابه في

شرح السماع الطبيعي . وكتابه في مقطوع الاسطوانة وبسيطها . وكتابه في السبب الذي جعلت مياه البحر مالحة . وغير ذلك من الكتب (٦٧) .

ومن المترجمين المشهورين أيضا : سنان بن ثابت بن قرة الحراني ، وكان هذا طبيبا مقدما كأبيه اختص به الخليفة المقتدر بالله ، ثم خدم القاهر الذي اعتمد على وصفه وسكنت نفسه اليه ووثق به . ولكثرة اغتباط القاهر به دعاه الى الاسلام فامتنع . وقد نقل سنان الى العربية نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئون . ومن اصلاحه وتهذيبه لما نقله من كتاب يوسف العش من السرياني الى العربي من كتاب أرشيميدس في المثلثات (٦٨) .

وهناك مترجمون كثيرون ذكرهم ابن النديم في فهرسه مع أهم الكتب التي ترجموها ، ومن هؤلاء مترجمين عرب وسريان وهنود وفرس (٦٩) .

وهناك مترجمون كثيرون ذكرهم ابن النديم في فهرسه مع أهم الكتب التي ترجموها ، ومن هؤلاء مترجمين عرب وسريان وهنود وفرس (٦٩) .

ولا بد أن نشير الى أن الترجمة عنيت بالمصطلحات الطبية والرياضية والفلكية لتكون الترجمة دقيقة ، وللوصول الى هذه الدقة كان لا بد من مراجعة الترجمات التي كان يقوم بها النقلة أو التي مر عليها بعض الزمن ، وهذا ما كان يقوم به المراجعون من النقلة كما ذكرنا ، وثمة أمرا آخر مهم وهو أن انتشار المعارف العلمية على نطاق واسع قد أدى الى وضع تعليقات ومؤلفات مهمة لكبار العلماء والنقلة ، ومثال ذلك أن ثابت بن

قرة قد أصلح عددا كثيرا من مترجمات اسحاق بن حنين الفلسفية والرياضية ، ويوجد حتى اليوم عدد من المخطوطات العربية وعليها التعليقات الخاصة بها تصحيحا لها (٧٠) ٠

« بيت الحكمة »

عندما ترجم العرب كتب الحكمة واجتمع عندهم عدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم أن يجمعوا هذه الكتب في أماكن خاصة سميت « بيت الحكمة أو دار الحكمة أو خزانة الحكمة » وكلها بمعنى واحد يراد بها المحل الذي توضع به كتب الحكمة المختلفة ، وقد فعل الخلفاء هذا حبا بنشر العلوم والمعارف بين كافة الطبقات ، وليتيسر لكل فرد أن ينال قسطه من الثقافة ٠

ان أول بيت حكمة وقفنا على أخباره هو الذي أسسه العباسيون ببغداد واشتهر أمره في خلافة الرشيد ومن بعده المأمون ٠

ان بيت الحكمة ببغداد فيما تدل عليه الأخبار التاريخية المختلفة ، يمكن وصفه بأنه كان بناية كبيرة فيها عدد من القاعات والحجرات الواسعة موزعة في أقسام الدار وتضم مجموعة من خزائن الكتب ، في كل خزانة مجموعة من الأسفار العلمية الخاصة التي تنسب في الغالب الى مؤسسها كخزانة الرشيد وخزانة المأمون (٧١) ٠

وكان في بيت الحكمة تراجمة يقومون بترجمة الكتب المختلفة الى العربية ونساخون يشتغلون بنسخ الكتب التي تترجم والتي تؤلف للخزانة ولها مجلدون يجلدون الكتب ويعنون بزخرفتها وتزويقها ٠ وكان يدير بيت الحكمة مديرون وأمناء على

الترجمة ومعهم كتاب حذاق ، كما كـان يشتغل فيه علمـاء ونساخون وخزان ومجلدون مـن مختلـف الاديـان والاجناس والثقافات ومعهم الوارقون ، فصار في بيت الحكمة دوائر علمية منوعة لكل منها علماؤها وتراجمتها ومشرفون يتولون أمورها المختلفة ·

وقد كان يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ ـ ٨٥٧م) يتولى الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من عمورية وأنقرة عندمـا غزا بلاد الروم ، وجعله الرشيد أمينا على ترجمة الكتب المذكورة وعين له كتابا حذاقا يعملون بين يديه ويساعدونه في عمله (٧٢) ·

وممن كان يشتغل في بيت الحكمة للرشيد فيترجـم مـن الفارسية الى العربية أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي ، وهو من أئمة المتكلمين ، كان متضلعا باللغتين الفارسية والعربيـة ومعوله في عمله على كتب الفرس ، وله عدة مؤلفات بعلـوم مختلفة ، ولذا فان هارون الرشيد عهد اليه بترجمة كتب الحكمة الفارسية الى العربية (٧٣) ·

وكان علان الوراق الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة (٧٤) ·

وعندما تولى المأمون الخلافة (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٣ ـ ٨٣٣م) وكان شغوفا بعلوم الحكمة ، وجـه همه الى توسيع دوائرهـا المختلفة ، فأخذ بيت الحكمة يتوسع في زمانه ويزداد عدد كتبه المختلفة التي يجلبها من آسيا الصغرى والقسطنطينية وجزيرة قبرص ، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهـم في الشام وبلاد الجزيرة (٧٥)،فكان سهل بن هارون الدستميساني، فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب ، من

المختصين بخدمة الخليفة المأمون فجعله أمينا على كتب الحكمة (٧٦) .

وكان سعيد بن هارون مشاركا لسهل بن هارون في بيت الحكمة ، وكان بليغا فصيحا مترسلا ، وكان « سلم » أمينا على الكتب التي نقلت الى المأمون من القسطنطينية أرسله لاختيار الكتب والاشراف على نقلها الى بغداد ، ثم صار ينقل مع سهل ابن هارون من الفارسية الى العربية (٧٧) .

وكان يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، أمينا على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية الى العربية ، فتولى ترجمة كتب أرسطو طاليس وأبقراط في الفلسفة وغيرها (٧٨) .

وانقطع أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الى خزانة الحكمة للمأمون ، وهو من أصحاب علوم الهيئة (٧٩) .

وكان بنو موسى بن شاكر المنجم من أنشط العناصر التي اشتغلت في بيت الحكمة ، فقد خدم موسى المأمون وخلف ثلاثة أبناء هم : محمد وأحمد والحسن ، فأوصى المأمون بهم اسحق ابن ابراهيم المصعبي أن يهتم مع يحيى بن أبي منصور المنجم في بيت الحكمة فلازموا التعلم وشبوا مولعين بعلوم الحكمة والهندسة والفلك والحركات والفلسفة ، ولما علا شأنهم أثبتوا في بيت الحكمة مع العلماء المترجمين له (٨٠) .

وكان عمر بن الفرخان الطبري أحد رؤساء التراجمة والمختصين بعلم حركات النجوم وأحكامها ، استدعاه الفضل بن سهل وزير المأمون من بلده ووصله بالخليفة المأمون فترجم له كتبا كثيرة وألف كتبا أخرى في النجوم . وفنون الفلسفة ، ومن

ذلك أنه فسر كتب الاربعة لبطليموس ونقلها له البطريق أبو يحيى بن البطريق وله من الكتب : كتاب المحاسن ، وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب (٨١) ٠

وكان حنين بن اسحاق العبادي من الذين خدموا في بيت الحكمة ، فقد كان يعمل بين يديه عدة تراجمة ، تولاه في زمن المتوكل فسعى في توسيعه وترجم هو ومن يشتغل بين يديه كتبا عديدة في الطب والفلسفة والمنطق وكانت دائرته التي يرأسها في بيت الحكمة لا تقل أهمية عن دائرة بني موسى المار ذكرهم (٨٢) ٠

وتبقى هناك ملاحظة أخرى تجدر الاشارة اليها ، وهي أننا لا نعلم ان كان بيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد ببغداد ، جزء من قصره ، أو كان بناية مستقلة ، فيرجع بعض الباحثين أنه كان دارا خاصة بالكتب ضمن قصور الخلافة (٨٣) ، وقد أشار ياقوت الى دار تتكون من عدد من الحجر والخزائن فيها عدد من الوراقين الذين كانوا يملون على أناس لا يمكن ضبط عددهم لكثرتهم ، مما يدل على أن هذه الدار كانت مكتبة عامة ٠ قال ياقوت : « ان أبا بريدة الوضاحي قال : أمر أمير المؤمنين الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جواري وخدما للقيام بما يحتاج اليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه الى شيء ، حتى أنهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ٠ وبعد أن فرغ من ذلك خرج الى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني (في تفسير القرآن) ، وكان وراقية سلمة بن عاصم ، وأبو نصر بن الجهم ، قال أبو بريدة : فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا

لاملاء كتاب المعاني فلم نضبط عددهم • ولما فرغ من املائه خزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا به وقالوا لا نخرجه لأحد الا لمن أراد أن ننسخه له (٨٤) •

« نتائج الترجمة »

كان من أهم نتائج الترجمة :

اشتغال كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت الى العربية ، اذ لم يكتف العرب بحال الطلب الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى (٨٥) ، بل عملوا على تفسير تلك الكتب المترجمة والتعليق عليها واصلاح أخطائها ، ونخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن اسحاق الكندي (ت ٢٥٧هـ ــ ٨٧٠م) الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم ، وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو وترجم كثيرا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها •

وتوصل العرب الى علم الكيمياء أو ما يعرف بـ (الصنعة) ، ومثل ذلك يقال عن عنايتهم بالطب والفلك والرياضيات ، وولوج المسلمين الى العلوم الفلسفية كاللاهوت والمنطق •

كان من نتائج الترجمة المهمة نشوء الوراقة والوراقين ببغداد ، وانتاج الكتب المترجمة لعدد كثير من الناس الذين كانوا يحرصون على اقتنائها أو بيعها ، كما يعنون بدراستها ومناقشتها في مجالس الأدب والمناظرة •

ولعل من أبرز المزايا التي اتصفت بها الترجمة في العصور العباسية ، أخذها بترجمة الكتب العلمية كالطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفلسفة وعلم النجوم والمنطق والحكمة

والآداب والسير ، يقول ابن خلكان : « ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بتلك الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان ... لا جرم كل كتاب لم يعربوه باق على حاله ولا ينتفع به الا من عرف تلك اللغة » (٨٦) .

ومن النتائج الأخرى ان العرب أخذوا يقرنون العلم بالعمل فقد عملوا آلات الرصد وأنشأوا المراصد في كثير من البلدان أقدمها المرصدان اللذان أمر المأمون بانشائهما ، كان أحدهما في الشماسية ببغداد والثاني بسفح قاسيون بدمشق ، وجهز المرصدان بآلات دقيقة صنعها الفلكيون وأخذوا يرصدون الكواكب ودونوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم فكانت دقيقة الى حد ما (٨٧) .

وبعد أن ترجم العرب كتب الحكمة واجتمع عندهم عدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم أن يجمعوا هذه الكتب في أماكن خاصة سميت « بيت الحكمة » أو « دار الحكمة » أو « خزانة الحكمة » .

الهوامش

(١) سعيد الديوه جي ، الامير خالد بن زيد ٢٠ ـــ ٢٦
د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية : ٤٢٩ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٢ .
(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام : ٢١/٤ .
محمد اسعد طلس ، تاريخ الامة العربية : تاريخ بني امية : ٨٧ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٥) ن. م : ٢٧٩ .

(٦) ن. م : ٢٨١ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٨٠ .

(٨) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٣ .

(٩) د. ابراهيم الشريفي ، التاريخ الاسلامي خلال اربعة عشر قرنا: ١٣٨ .

(١٠) د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية : ٤٣٠ .

(١١) ابن دحية ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : ٤٨ .

(١٢) المسعودي ، مروج الذهب : ١٩/٤ ـــ ٢٠ .

(١٣) صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم : ٧٥ ـــ ٧٦ .

(١٤) الكازروني ، مختصر التاريخ : ١٣٤ .

(١٥) الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٣١٠/٥ .

(١٦) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٧٠ .

(١٧) متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٣٥٧ .
(١٨) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣١ .
(١٩) اوليري : انتقال علوم الاغريق الى العرب : ٢٠٧ .

(٢٠) القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢٠٨ .
(٢١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨٣ .
(٢٢) ن. م. : ٢٨٣ .
(٢٣) ن. م : ٢٨٤ .
(٢٤) ن. م : ٢٨٤ .
(٢٥) ن. م : ٢٧٩ .
(٢٦) ن. م : ٢٧٩ .
(٢٧) ن. م : ٢٧٩ .
(٢٨) ن. م : ٢٨٠ .
(٢٩) ن. م : ٢٨٠ .
(٣٠) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر . (ياقوت ، معجم البلدان : ١٤/٣) .
(٣١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨١ .
(٣٢) ن. م : ٢٨٢ .
(٣٣) ن. م : ٢٨٠ .
(٣٤) ن. م : ٢٨١ .
(٣٥) : ن. م : ٢٨١ .
(٣٦) ن. م : ٢٧٩ .
(٣٧) ن. م : ٢٨٢ .
(٣٨) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٨٠ .
(٣٩) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي : ١٣٨/٣ .
(٤٠) ن. م : ١٣٨ .
(٤١) ن. م : ١٤٠ .
(٤٢) تاريخ اليعقوبي : ٤٦٨/٢ .
(٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٢٢٥/٢ .
(٤٤) بارتولد ، تاريخ الحضارة الاسلامية : ٧٩ .

(٤٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون : ٢/٦٧٦ ــ ٦٨٢ .

(٤٦) اوليري ، انتقال علوم الاغريق العرب : ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(٤٧) القفطي ، اخبار العلماء : ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٤٨) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٣ .

(٤٩) القفطي ، اخبار العلماء : ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٥٠) العبادي : نسبة الى العباد قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة (ابن خلكان : وفيات الاعيان : ٢٠٦/١) .

(٥١) القفطي ، اخبار العلماء : ١١٨ .

(٥٢) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٧٩ .

(٥٣) القفطي ، اخبار العلماء : ١١٩ .

(٥٤) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (مجموعـــة مقالات) ــ ترجمة عبد الرحمن بدوي ٥٨ .

(٥٥) القفطي ، اخبار العلماء : ٥٧ .

ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٧٩ .

(٥٦) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٨ .

(٥٧) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) : مادة الكندي .

(٥٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٩ ــ ٦٠ .

(٥٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٧٩ .

(٦٠) القفطي ، اخبار العلماء : ١٧٣ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨٠ ــ ٢٨٤ .

(٦٢) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٤٨ .

(٦٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٣١٣/١ .

(٦٤) اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب : ٢٢٩ .

(٦٥) ابن الجوزي ، المنتظم : ٢٩/٦ .

(٦٦) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٩ .

(٦٧) القفطي ، أخبار العلماء : ٨١ ــ ٨٣ .

(٦٨) ن.م : ١٣٠ ، ١٣٣ .

(٦٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٤ — ٣٥٦ .

(٧٠) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٤٣٧ — ٤٣٨ .

(٧١) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٧ — ٤٣٨ .

(٧٢) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٤٩ .

(٧٣) ابن ألنديم ، الفهرست : ٣٩٦ .

(٧٤) ياقوت ، معجم الادباء : ٦٦/٥ .

(٧٥) سعيد الديوه جي ، بيت الحكمة : ٣٥ .

(٧٦) ابن النديم ، الفهرست : ١٨٠ .

(٧٧) ن. م : ١٨٠ .

(٧٨) ن. م : ١٨٠ .

(٧٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٩٧ .

(٨٠) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٨٧ .

(٨١) صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم : ٨٧ .

(٨٢) القفطي ، اخبار العلماء ، ٤٧ ، ٥٧ ، ١١٧ — ١٢٢ .

(٨٣) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٨ .

(٨٤) ياقوت ، معجم الادباء : ٢٧٧/٧ .

(٨٥) لوبون ، حضارة العرب : ٤٣٤ .

(٨٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢١٧/٢ .

(٨٧) سعيد الديوه جي ، بيت الحكمة : ٢٧ .

المصادر

ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم بن ابي أصيبعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) .

١. عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت ١٩٦٥) دار مكتبة الحياة.
ابن الجوزي ، علي بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

٢. المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج٦ — ١٠ (حيدر آباد الدكن ١٩٥٩) . ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .

٣. مقدمة ابن خلدون (مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة) .

ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن ابي بكر الشافعي (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١م) .

٤. وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ٨ اجزاء (دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨) .

ابن العبري ، غريغورس ابو الفرج ، هرون الطبيب (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .

٥. تاريخ مختصر الدول ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠)

ابو المحاسن بن تغري بردى ، جمال الدين يوسف ، (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .

٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٦٣) .

ابن النديم ، محمد بن اسحاق ، (ت ٣٨٣هـ / ٩٣٣م) .

٧. الفهرست (مطبعة الاستقامة ، مصر) .

اوليري ، الدكتور دي لاسي .

٨. انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ترجمة متي بيثون ، ويحي الثعالبي ط١ (مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٨) .

بارتولد ، ف.

٩. تاريخ الحضارة الاسلاميـــة ، ترجمة حمزة طاهـــر ط ٣ (دار المعارف ، مصر ١٩٥٨) .

١٠. التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (جمهرة من المستشرقين) ترجمة د. عبد الرحمن بدوي .

بروكلمان ، كارل :

٢. تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس (بيروت ١٩٦٥).

حاجي خليفة ، مصطفى كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) :

١٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (استانبون ١٩٤١).

١٣. دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية للشنتاوي واخرين صدر منها ١٤ جزء . الديوه جي ، سعيد :

١٤. الامير خالد بن يزيد (دمشق ١٣٧٢ هـ) .

١٥. بيت الحكمة ، (بغداد) .

الذهبي ، شمس الدين بن قايماز (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

١٦. تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، نشر منه ٦ اجزاء (نشر مكتبة القدسي) .

زيدان ، جرجي :

١٧. تاريخ التمدن الاسلامي ج٣ (مطبعة الهلال ١٩٣١) .

الاندلسي ، صاعد بن احمد .

١٨. طبقات الامم (طبعة مصر) .

لوبون ، غوستاف :

٩. حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ط٣ (القاهرة) .

محمد كرد علي :

٢٠. خطط الشام ج٤ (مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٢٦) .

محمد اسعد طلس :

٢١. تاريخ الامة العربية عصر الاتساق ، تاريخ بني أمية ط٢ (دار الاندلس ، بيروت ١٩٥٨) .

متز ، آدم :

٢٢. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابو ريدة ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧) .

القفطي ، جمال الدين ابي الحسن القاضي الاشرف يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨ م) :

٢٣. اخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبع مصر ١٣٢٦هـ) .

الكازروني ، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) :

٢٤. مختصر التاريخ من اول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد (مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٧٠) .

الدكتور ناجي معروف :

٢٥. اصالة الحضارة العربية ، (مطبعة التضامن ، بغداد ١٩٦٩).

ياقوت ، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) :

٢٦. معجم الادباء ، المسمى ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، بأعتناء مرغليوث ، (طبعة مصر ١٩٢٣) .

٢٧. معجم البلدان ٥ اجزاء ، (دار صادر ، دار بيروت ١٩٥٧) .

الدكتور ابراهيم الشريفي :

٢٨. التاريخ الاسلامي خلال اربعة عشر قرنا (سنة ومكان الطبع لم تذكر) .

ابن دحية الكلبي ، عمر بن حسن بن علي (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) :

٢٩. النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، صححه وعلق عليه عباس العزاوي (مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٦) .

الدكتور حسن ابراهيم حسن :

٣٠. تاريخ الاسلامي السياسي والاجتماعي والديني والثقافي (مطبعة النهضة المصرية ١٩٦٣) .

المسعودي ، علي بن الحسين بن علي ، (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) :

٣١. مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٣ ج٤ (مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٨) .

أهداف ونتائج التعليم الفرنسي في افريقيا السوداء أثناء فترة الاحتلال

بقلم الاستاذ الدكتور عبد القادر زبادية
استاذ كرسي الدراسات التاريخية
الافريقية الحديثة بجامعة الجزائر

الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الأسباب التي أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة في افريقيا الغربية يمكن اعتباره في صميم الموضوع ، ذلك أنه في خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المئوية ضعيفة فانه استطاع أن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيري بها في كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية في افريقيا الغربية والمدارية(١) .

وأذكر بهذه المناسبة أنه في مؤتمر المؤرخين الافريقيين الذي انعقد في شهر ديسمبر (كانون الثاني) من سنة ١٩٧٥ في ياوندي عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفي افريقيا وخاصة الغربية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه أحد الأساتذة النيجريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي نحو المناطق الخاضعة للاستعمار

---

(١) عرف عن الاستعمار الفرنسي دائما الاسلوب المباشر في حكم المستعمرات وفي مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية في المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباطا وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة المزج او الاندماج . راجع :

D. Bouche, Histoire de l'ENS, dans L'A.O.F., univ. de Paris 1974.

الانكليزي في أيام الاحتلال ورغم أن الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المقنعة الا أنه عندما انتقل الباحث الى الحديث عن الأسباب المتمثلة في طبيعة الاستعمار الفرنسي من حيث كونه استعمارا مباشرا كان قد ضايق الأهالي وخاصة في قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون في شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعي قدحا في الاستعمار الفرنسي لصالح الاستعمار الانكليزي .

يوجد الآن في افريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، وكأن هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين .

ويتم تعيين المتخرجين الجدد في الجامعات بأفريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقى هؤلاء الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة في بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية في أفريقيا .

لا يقبل الأستاذ Haregraves النظرية الشائعة لدى حكام أفريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة المسيحية بدرجة كافية (١) ، والواقع أن اللغة العربية كانت لغة أفريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الأولى،

---

(١) الاستاذ هاريجريفس Haregraves من اقدم الاختصاصيين الباحثين في تاريخ المستعمرات الفرنسية في افريقيا وتطورها الاجتماعي والثقافي ، ويغلب على استنتاجاته التاثر الديني . انظر كتابه :
French West Africa, New York. 1973.

ولعل أول عمل رسمي لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الـذي أصدره حاكم أفريقيا الغربية في سنة ١٩١١ والقاضي بتحريم التحرير بالعربية في المحاكم منذ ذلك التاريخ (١) ٠

لقد كان للوجود الفرنسي في سواحل أفريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين ، ويعود للمفتش جورج هاردي G. Hardy الفضل الكبير في اعطاء الطابع الحقيقي لأهداف اللغة والثقافة الفرنسية في أفريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم في تلك المستعمرات في ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الأولى ٠ ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمـين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية في جنح الظلام حينمـا يفرض وجود المدرسة الفرنسية في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الأعمال ضد تعليم الافريقيين لأن ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظـة في المستقبل قد تؤدي الى الفوضى والضرر بالمصالح التي يجنونها من مستعمراتهم ولكن هاردي وجد من الحكام العامين آذانـا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد الشاسعـة وأعطـى للمعلمين كـل المساعدة الضرورية وراح يختار ذوي الخبرة من بينهم وذوي الجرأة والصبر وقوة العزيمة ٠٠ واعتبر هاردي أن تعليـم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التي سترِبط البلاد نهائيـا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح أخلاقي وثقافي ، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوي معرفة على الشكل الكلاسيكي

(١) Circulaire du gouverneur général ponty en date du 8 Mai 1911.

في أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا في الأطوار النهائية · وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى في هذا التعليم الأولوية لكل ما تحتوي عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقي (١) ·

ويرى هاردي أن جميع الخريجين من الأفارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردي ولأول مرة ، معلمين أفريقيين من بين الخريجين، وفي سنة ١٩١٦ أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا في التعليم الى الدار البيضاء في المغرب الأقصى حيث هيئت لهم وظائف ·

المدرسة الفرنسية ــ الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية في أفريقيا الغربية طابعها النهائي مع بدايات الحرب العالمية الأولى ، وذلك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر ، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائي في أفريقيا الغربية كان في تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التي تأسست في الماضي وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستي تمبكتو وجني اللتين بلغتا

---

(١) راجع :

Georges Hardy, Une Conquite morale, l'enseignement en A.O.F., Paris (A. Colin), 1917.

درجة الجامعات في أيام الأسقيين على الخصوص (١) ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التي انتشرت لها فروع في عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدي دورها كما كانت تعمل في الماضي ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب أبناء الوجهاء والعائلات الشهيرة في المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسي منذ الصغر ، أما التعليم في تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردي دواعيه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد في غرب أفريقيا كما في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ثقافة اسلامية وذلك ما يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التي سبقت وجود حضارتنا ، وأيضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسي فقد كان علينا أن نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمي للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الأولى وقبول الثانية) (٢) .

لقد كانت كل مدرسة عربية ـ فرنسية Ecole Franco - Arabe أو مدرسة Medersa كما كانت تسمى أيضا ، تؤدي خدمة خاصة لانتشار الفرنسية على حساب اللغة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا ، ويتحدث هاردي عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح

---

(١) لمزيد من المعلومات عن جامعة تمبكتو والمدرسة الجامعية في جني، راجع كتابنا (مملكة سنغاي في ايام الاسقيين ١٤٩٣ ــ ١٥٩١) ، الجزائر ١٩٧٤ ، وكذلك عبد القادر زبادية « ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو ، القرن ١٦ » **المجلة التاريخية المغربية** ، تونس ١٩٧٧ .

(٢) Hardy, op. cit., p. 108.

جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ـ عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسي والعلوم الفرنسية بالناصية أكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية ، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة وأصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية ، وبهذا أمكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية ، ثم يستطرد هاردي الى القول :

« ومن ناحية أخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون أصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بأنها أصبحت لا تؤدي أكثر من رموز وذكريات في استعمال الزمن ، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة ، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ في برنامج المدارس الفرنسية ـ العربية أكثر من الدور والمكانة التي تحتلها اللغات الأجنبية في الثانويات الفرنسية » (١) .

وبالاضافة الى هذا فقد ألحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ـ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردي :

« لأنه يوجد أحيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الأفريقية ، ذلك أن مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطني ، وطلابنا في الغرب الافريقي تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية أقل بكثير من تلك المناسبات التي يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (٢) .

---

(١) Hardy, op. cit., p. 110.

(٢) Ibid.

« وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم فهم مساعدو الادارة الفرنسية في شئون الأهالي وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفي هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التي طبقوها في شمال أفريقيا على خريجي المدارس الفرنسية ــ العربية ، وقد عبر هاردي بكل وضوح على الدور الخاص لخريجي المدارس الفرنسية ــ العربية كما كانت تستهدفه المصلحة الفرنسية بقوله :

« .. وبما أن مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوي أو تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والأشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ــ العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة أو كتاب ضبط للمحاكم الأهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الأهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسي قراءة وكلاما، ومن الضرورة كذلك أن يكونوا على معرفة جيدة بأغراضنا الحضارية .. » (١) .

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون في الجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم في آفريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين أفراد تلك الطبقة ، فجعلوا تعليم أولادهم وفق المخطط الفرنسي في المدارس الفرنسية ــ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردي هذه الحقيقة أكثر فيقول :

« بما أنه من المفروض أن المدارس الفرنسية ــ العربية

(١) Hardy, loc. cit., p. 111.

لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية .. وهذا يعني استعمال الطبقات الأرستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات على هذه البلدان الجديدة كضمانات جدية . ومن ناحية أخرى فان المدارس الفرنسية ـ العربية الثلاث في أفريقيا الغربية انما هي في الواقع وقبل كل شيء مدارس لأبناء وبنات الوجهاء ، ان مدرسة تمبكتو التي هي أكثر شبها بمدرسة الجزائر قد أقيمت في منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالي تستقبل أبناء الأمراء والعلماء المشهورين في حوض النيجر (١) ، أما مدرسة بوتليميت (٢) التي وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (٣) ، فهي تجمع أحفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان آباؤهم قد لعبوا أدوارا مهمة في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي .. وتعتبر مدرسة سان لويس أكثر أهمية وهي تمتلىء بشروط مماثلة ، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الأولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والتسريس والماندينغ والسراكوليين والبمبارا (٤) . وهناك ١٢ طالبا على الأقل من أبناء الملوك السابقين في الناحية .. كما تأوي هذه المدرسة الأبناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد أن أمضوا بعض الأشهر في ثانوية الجزائر قدر الحاكم

---

(١) تقع تمبكتو في الشمال الشرقي من مالي الحالية .

(٢) في الجنوب الموريطاني .

(٣) الشيخ سيديا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Stewart, The role of shaykh Sidiyya and the Qandiriyya in southern, Oxford pH.D. thesis, 1970; Hardy, loc. cit; Massignon, (le bibliotheque d'un marabout, le cheikh Sidia,) Revue Africaine, 1921.

(٤) اسماء للقبائل الكبيرة والهامة في غرب افريقيا

Hardy, op. cit., pp. 111-12.

العام لأفريقيا الاستوائية الفرنسية أن يعهد بهم الينا » ، وينتهي هاردي الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد أن تحولت وفق أهداف محددة لأفريقيا الغربية الفرنسية .. تستحق البقاء . وهي الى جانب المدارس الأخرى تكفي لأن تهيء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) (١) .

التاريخ :

في سنة ١٩١٦ صرح نائب لاليه l'Allier في الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيروني Peyronnet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales Coloniales قائلا : (ان هناك مادة أريد أن أرى اختفاءها دون تأسف ألا وهي مادة التاريخ ويكفي أن تعوض أثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطي لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا) (٢) . وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية في البرامج المخصصة لمدارسهم في أفريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردي تقتضي تدريس التاريخ وفق الأهداف التي تبرر الوجود والاحتلال الفرنسي للمنطقة بل وتؤدي الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه ، ولتجسيم هذه الفكرة يقرر هاردي أن المعلم الفرنسي يجب أن يوضع في قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسيم المدفع الذي عياره ٧٥ مم ، وذلك هو التاريخ فان أضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع في تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الأهالي القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره (فان تدريس التاريخ في المستعمرات

---

(١) Ibid, p. 112.

(٢) Annales coloniales, 1916, p. 37.

يجب أن يبتعد عن أي تأثير كان قد عرفه ميشلي Michelet) (١)» •

لقد كانت الادارة الفرنسية في حاجة الى دراسة الأهالي نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء الأقسام العسكرية (chefs des circles Militaires) منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذي يجب أن يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من أشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الأسلوب بول مارتي : Paul Marty وموريس دولافوس . Maurice Delafosse

ففي حين كان الأول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسي فيما يكتبه كان الثاني حاكما لأعالي السنغال والنيجر ثم انتصب أستاذا (حجة) في تاريخ أفريقيا الغربية بباريس • ووفق طريقتهما أصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة الفرنسية بأفريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها أحيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (٢) • ولا يزال لهذه المدرسة أثرها القوي في فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب أفريقيا الغربية الآن أو الاشراف على رسائلهم كل من Hubert Deshamps هيبردي شامب و Y. person ايف بيرسون في جامعة باريس وتضع هذه

(١) هو احد اصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة في كتابة التاريخ .

(٢) cf. P. MARTY, Etudes sur L'Islam et les tribus du Soudan Paris, 1918; Maurice Delafosse, les Noirs de l'Afrique, Paris, 1918; Ba and Daget, L'empire peul de Macina, Paris 1962; Y.S. Martin, La France et le Senegal.. Dakar, 1967.

المدرسة كأساس الطريقة الاثنولوجية نصب أعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل التاريخية المتطاحنة بين الشمال والجنوب وتفسر العلاقة بينها وبين العرب في الشمال على أنها كانت لا تتجاوز في نوعيتها العلاقة الاستغلالية التجارية في أبشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين أفريقيا الغربية وشمالها • وكونت جيش المهارة (أو الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق القوافل • وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال أفريقيا وغربها • وأثناء هذه الحقبة الطويلة التي استمرت حوالي نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليد سودانية خاصة في مجال الديانة ، وذلك بالتدخل المباشر والتمكين لنظام المريدين في الطريقة التيجانية أن يصبح هو السائد ، أما العناصر التي عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضي عليهم بمختلف الأساليب •• ومنها العنف •

الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد في آفريقيا الغربية (١) • وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسي في آخر ذلك القرن ، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية ، كانت أهدفها :

---

(١) H.F.C. Smith, Aneglected theme of West African History - the Islamic revolutions of the 19th century in Journal of African society of Nigeria, Vol. 2, 1961, 184 FF.

١ ـ اصلاح وضعية المسلمين في بلادهم عن طريق احياء الاسلام في النفوس وتكوين دول حسب مفهوم العقيدة الصحيح .

٢ ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

٣ ـ ربط صلات قوية مع العالم الاسلامي وخاصة في شمال أفريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا أن الخلافات التي رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها أثر عكسي خاصة في مناطق نهري النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منذ البداية فعمل أحد البكباي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بأن الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته أحمد الاحتلال الفرنسي أو الانتداب بكل الوسائل،ولما بدأ الفرنسيون في الثمانينيات من ذلك القرن تنفيذ مخططهم التوسعي باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم في سان لويس كان من أشهر من حاربوهم الشيخ ساموري في غينيا بكل تصميم وضراوة ، وأنشأ دولة مستقلة تشبه الدولة التي كان قد أسسها الأمير عبد القادر الجزائري لملائمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين أكثر فتمكنوا من احتلال كامل أفريقيا الغربية مع بداية القرن

العشرين بقوة السلاح (١) ، وقد رفض السكان التجنيد الاجباري رفضا مطلقا في البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في أفريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم في شمال أفريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامي لديهم من أنه لا يجوز التجند في جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية آنذاك قد قررت وتريد تجنيد أبناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الأولى ،فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الأهالي ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة ، وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الأولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح أوضاع السكان في المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الأهالي تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وهنا يبدأ دور الجيل الأخير الذي تكون في المدارس الفرنسية وعاش وترعرع في ظروف الاحتكاك بالفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم أرضيته الثقافية على الخط الفرنسي ، ولكن كانت لا تزال تقف أمامه حواجز دستور الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين أخذ ثقافتهم وأراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الأهداف ، ولذلك كانت مطالب الممثلين الأفريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية التي تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الأهالي (أنديجينا) .

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائري في

---

(١) Jean Suret - Canale, Afrique Noire, Paris, 1961, pp. 123-87.

الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائري ، وقال ميقان أبيثي : Migan Apithy الذي كان يمثل منطقة الداهومي ـ طوغو : (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا أن نقحم أنفسنا فيما هو أساس قضايا الوطن الأم ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر) ، ثم أراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الأفريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسي في القضايا التي تهم الجميع ، هذا الجميع الذي نكونه معهم) (١) · وربما يعتبر ميقان أكثر الممثلين من أفريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض الممثلين من الشمال الأفريقي وزعماء أفريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزي الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتي أو الاستقلال ، وفي غير ذلك فقد كانت الواقعية هي أبرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الأفريقي في الجمعية الوطنية الفرنسية (٢) فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسي في بلاده انبرى Apirthy ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائي قد طالب بالاستقلال في اطار الاتحاد الفرنسي للبلدان التي يمثلونها ، ولكن هذا لا يتعارض مع المباديء التي كنتم قد قبلتموها أنتم أنفسكم وأكدتموها في أحيان كثيرة) (٣) · وحينما تم رفض

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

R. Morgenthau, political parties in French speaking W. Africa, Oxford, 1964; E. Mortimer, France and the Africans, London, 1969.

(٢) Ajayi and Crowder (eds.) In History of West Africa, V. 2, London, 1974, 664ff.

(٣) J. Officiel, debats 2e session, 18 Septembre 1946, p. 380.

المشروع الأول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لأنه كان يتضمن بعض مبادىء للمساواة بالرعاية في المستعمرات قال ياسين ديالو (وكان يمثل غينيا) : (انه فيما يختص بالأفريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل) (١) ٠

حينما أعلنت نتائج الانتخابات في أفريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين في المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية الفرنسية دورها على كل حال ، ومنطقيا كان لا يمكن لنائب أن يؤدي دوره في الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الأشكال بغير الفرنسية ، ولقد كان نواب الغرب الأفريقي حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا ، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب الغرب الأفريقي جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكي الفرنسي أو للحزب الشيوعي الفرنسي وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس في حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية ، ووجدوا في الحزبين الشيوعي والاشتراكي قبولا للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين ، ولم يكن من هم نواب الغرب الأفريقي غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجدوا في البرلمان الفرنسي خطرا واضحا تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار (الممثلة للمستعمرات) وهذا حتى يجدوا ، كغيرهم ، بعض التضامن (٢) ٠ لقد ضمت كتلة النواب لغرب أفريقيا الفرنسية آنذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب ،وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له أبدا علاقة نسبية بالدين ،

---

(١) Ibid., p. 3813.

(٢) MARCEL Chailley, Histoire de l'Afrique occidentale Française, Paris 1968, pp. 474ff.

ففي منطقة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحي المتدين والذي لم يعش في السنغال منذ ١٩٢٨ حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمين غاي ، ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الأخرى ، وهي تمثل أكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت ، لينسجم هو الآخر مع الوازع الديني ، وكان هذا اتجاها جديدا لم تكن لتعرفه أفريقيا الغربية على هذه الصورة في سنة ١٩٠٠ مثلا ولا في السنوات التي بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجباري منذ سنة ١٩١٦ ، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية في فترة ما بين الحربين أخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الذي مثلته نخبة ضئيلة العدد ، ولكنها كانت شديدة الأثر لدرجة أنها جعلت النخبة القديمة المتمثلة في شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها . والحقيقة أن الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير في انتقاء أفراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد ، أما المناهضون فقد أكلتهم فترة الجهاد الأولى وقضي على أنصارهم وتشتت أحفادهم تحت نير الفاقة ، وبقي المناصرون الذين ازداد عددهم بفعل التهجير واعطاء الأولوية في كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا أهداف الادارة مقابل أبهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا في ظلها .

التعليم الديني الفرنسي :

لم يكن في أفريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون أفارقة ، وهذا باستثناء أفراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الأهليات في سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الأولى للجاليات المسيحية من الأهالي في عدة مناطق هي :

١ ـ بلدية السنغال (سان لويس ، داكار ، كوري ، روفيسك ، وتياز) .

٢ ـ في الكازا مانس (السنغال الجنوبي) .

٣ ـ في أعالي السنغال والنيجر (أفراد قلائل من قبائل البمبارا والموسى في سيغو بصورة خاصة) .

٤ ـ بعض الأفراد في باقاس بغينيا .

٥ ـ في ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) .

٦ ـ في الداهومي (في الجنوب الغربي من ذلك الاقليم) .

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح في مدة أربعين عاما ، وقد وجدت ثمارها الأولى في المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا (١) والحقيقة أن الفرنسيين في أفريقيا كما في غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا Gambetta ، ذلك السياسي الفرنسي الشهير : (ان مناهضة أعمال الكنيسة يجب أن لا تكون مادة للتصدير) ، ذلك أن التبشير كان قد منع في فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية في المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكانت مدارس المبشرين في أفريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير

(١) HARDY, op. cit., p. 319.

هاردي (لأنه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسي العميق الذي يؤديه المبشرون) (١) ·

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسي ، ولكنه سمح للبروتستانت أيضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتستانت بين الأهالي المتنصرين هي الغالبة منذ البداية· وبالرغم من أن مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (٢) ، كانت في ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة لافجري التي كان قد جربها في الجزائر ، وهي تعتمد على تربية اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الأفراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم أو عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام (٣) · ثم مال المبشرون في الاتجاه الى الأعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار في جميع المناطق ، وهذه الطريقة هي التي لا يزال يسير عليها المبشرون في أفريقيا الغربية ، وأغلبهم فرنسيون ، حتى الآن (٤) ·

لقد سخرت الادارة الفرنسية في أفريقيا الدين لخدمة أهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية ، واستفادت من الامتيازات التي كان يحصل عليها الأفراد من التعاون مع

---

(١) Ibid. p. 320.

(٢) Les Ecoles des MARABOUT.

(٣) cf. Hardy, op. cit., p. 320; Paul Marty, les ecoles Mouraboutiques du Senegal, Paris, 1914.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيجري ، راجع بصورة خاصة :
LA VIGRIE, Oeuvres choisis (2vs.), Paris, 1884.

تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت في أقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تتوق الى أهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الأجيال السابقة ، وهو عمل كبير لا يمكن لمؤرخ أن لا يلاحظ المجهودات التي بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة في سبيله • وأخيرا فانه لا يمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذي نحن بصدده ، ولكنه ، وهذا هو الهدف الذي كتب من أجله ، اقتراح جدي لعناصر الموضوع، نضعها أمام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم ، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل •



مصادر البحث

— Ajayi and Crowder (eds) in History of West Africa v. 2, London, 1974.

— Annales Coloniales, 1916.

— Ba and Daget, L'empire peul de Macina, Paris, 1962.

— Bouche, D, Histoire de l'ens. en A.O.F. Nancy, 1974.

— Chailley, Marcel, Histoire de l'Afrique occidentale Française, Paris, 1968.

— Circulaure du Gouverneur General ponty. 8 Mai 1911.

— Hardy, Georges, une conquete morale, enseignment en A.O.F., Paris, 1917.

— Larvigerie, MMGR, oevures choisis, 2 v., Paris, 1914.

— Martin, Y.S. la France et Le Senegal. Dakar, 1967.

— Marty, P., Etudes sur L'Islam et les tribus du Soudan, Paris, 1918.

— Massignon, La bibliotheque d'en Marabout, le cheikh Sidia, in Revue Africaine 1921.

— Morgenthou, R., Political parties in French speaking W. Africa. Oxford, 1964.

— Marty Paul, les ecoles Maraboutiques du Senegal, Paris, 1914.

— Mortimer, E, France and the Africans, London, 1969.

— Smith, H.F.C., Aneglected theme of West History, in Journal of African History of Nigeria, Vol., 2. 1961.

— Stewart Charles, the role of shaykh Sidia and the Qadiriyya in Southern Mauritania, Oxford p.H.D., 1970.

— Suret — Canale, Afrique Noire, Paris, 1967.

مطالعات في الكتب

١ ـ « كتـــاب الهاجرية »

تأليف : باتريشيا كرون ـ مايكيل كوك

أصدرت مطابع جامعة كمبرج كتــاب باســم (الهاجرية) للمؤلفين : باتريشيا كرون وميشيل كوك ، والكتاب يقع بـ (٢٦٨) صفحة ويبحث في تاريخ العرب ظاهرا ولكنه مليء بالأخبار المختلفة والأكاذيب والنصوص المزورة • وانه لمــن العجب أن يصدر هذا الكتاب من جامعة لها عراقتها ولها نشاطها العلمي وأثرها الكبير في الجهود العلمية الممتازة وبخاصــة في حقل التراث العربي •

ان الكتاب أحدث ضجة في صفوف المؤرخين العرب والعالم وقد قام الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب بزيارات خاصة لكثير من المؤرخين العالميين واستطلع آراءهم فوجد حقا أن جميعهــم بلا استثناء يستنكر هذا العمل غير العلمي والمتميز بالحقــد والانحياز ، كما أكد الجميع بناء على طلب الأمانة العامة للاتحاد بأنهم مستعدون لفضح الكتاب ونقده علميا والعمل على ايقاف مثل هذه الكتابات التي تسيء الى سمعة العلم وتضيع من هيبة الجامعات والمؤسسات الثقافية ، وسيقوم عدد من الباحثين العرب بزيارات متكررة الى الجامعات الأجنبيــة لالقــاء محاضرات في التراث والحضارة ليبينوا مآثر العرب ومكانتهم في المجتمــع

البشري ومنجزاتهم الحضارية وتعرية تلك المقولات الحاقدة والتي لا تتسم بالعلمية ولا تتصف بالروح الموضوعية ٠

ونقدم الى القاريء الكريم نقد ورأي البروفسور الدكتور مونتجمري وات ـ أشهر مستشرقي العالم ورئيس قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرة وأبعدهم صيتا وأعمقهم دراية ومعرفة بتراث العرب وحضارتهم ، وقد قابله الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب في أدنبرة وتحدث اليه حول قضايا متعددة منها موضوع كتاب الهاجرية ، فالبروفسور مونتجمري وات يستهجن هذا الأسلوب ويشجب هذه الطريقة التي لا تمت الى العلم بصلة٠ والى القاريء الكريم رأي البروفسور وات باللغتين العربية والانكليزية ٠

د٠ حسين أمين

ترجمة كلمة البروفسور مونتجمري وات بالعربية :

جاء في التقديم لكتاب « الهاجرية: تكوين العالم الاسلامي » لمؤلفيه باتريشيا كرون ومايكل كوك (والذي طبع بمطابع جامعة كمبرج ويقع في ٢٦٨ صفحة ويباع بسعر ٧٫٥ باون) ان « الكتاب يطلق نظرية جديدة في اصول الاسلام وتحليلا محدثا لتكوين الحضارة الاسلامية ». وتستند هذه « النظرية الجديدة » كليا الى اسس غير اسلامية . اما اصطلاح « الهاجرية » فللدلالة على ما يفترض بها ان تكون مرحلة فجر الاسلام ، (وهو مستوحى من اشارة الى « الهجري » الكلمة السريانية اي (المهاجرون) والمقصود بها « اولاد اسماعيل ابن هاجر ابن ابراهيم » (ص ١٦٠) .

وبالرغم من كثرة اطلاع المؤلفين فان نظريتهما « الجديدة » خالية من اية قيمة لانها مبنية على فرضيات معينة يرفضها الاسلوب العلمي السليم وهي :

اولا : أن اهمالها للتقليد الاسلامي مبني على حقيقة « عدم وجود اساس خارجي مقنع لقبوله » (ص٣) غير ان هذا المبدأ لو طبق على اي من حضارات العالم العظيمة ، فانه سيؤدي الى رفض شبه قطعي لتاريخها القديم . ويكفي ان نذكر بهذا الصدد الحضارة

اصل كلمة البروفسور مونتجمري وات بالانكليزية

ISLAMIC SCHOLARSHIP ?

According to the blurb to Hagarism: The Making of the Islamic World by Patricia Crone and Michael Cook (Cambridge University Press, £7.50 pp. 268) this book sets out new theory of the origins of Islam and a novel analysis of the formation of Islamic civilization'. The 'new theory' is based entirely on non-Muslim sources. The term Hagarism is used for the presumed original stage in the development of the religion, and is derived from a reference to the Mahgraye (the Syriac rendering of muhajirun) as 'the sons of Ismael bar Hagar bar Abraham' (p. 160). Although the authors show great erudition, their 'new theory' is absolutely valueless because it is based on certain assumptions unacceptable to sound scholarship.

Firstly, their neglect of the Islamic tradition is based on the fact that there are 'no cogent external grounds for accepting it' (p. 3). This principle, however, if applied to any of the great civilizations of the world,

would lead to an almost complete rejection of their early history. One need only mention Greek and Roman civilization Church, and even the pre-exilic period of Israelite history. What account could be given of the beginnings of these from alien sources ?

Secondly, while the authors would probably claim that there are many more external sources for early Islam than for these others, they completely fail to justify their reliance on the credibility of such sources. Yet it is common knowledge that the external Latin mediaeval sources give a picture of Islam that is full of distortions; and some justification is required for holding that these early Syriac and other sources are more reliable

Thirdly, the authors practise what might be called the 'magpie method' of argument. They collect a few facts, on which a specious case can be based, and neglect the main body of facts and especially any contrary facts. Thus they are happy to support their case by some selected points from the Islamic tradition, while neglecting or rejecting that tradition as a whole. This 'magpie method'

اليونانيــة والرومانيــة والكنيســة المسيحية وحتى فترة ما قبل السبي من التاريخ الاسرائيلي . فأية اخبار عن فجر هذه الحضارات من الممكن ان تستقى من مصادر غريبة عنها ؟

ثانيا : في الوقت الذي ربما يدعي فيه المؤلفان بأن هنالك من المصادر الخارجية عن فجر الاسلام اكثر من تلك التي تبحـث في فجر اي مــن الحضارات الاخــرى ، فانهما (اي المؤلفان) قد فشلا قطعا في تبرير اعتمادهما الثقة في مصادر كهــذه، هذا مع انه من المعروف بأن مصادر العصور الوسطى اللاتينية تصــور الاسلام بأسلوب ملــيء بالتشويــه والتحريف . كذلــك فان اعتبــار المصادر السريانية القديمة وغيرهــا اكثر ثقة من تلك ، يحتاج الى بعض التبرير .

ثالثا : ان المؤلفــين يعتمدان ان اسلوب المناظرة الذي يمكن تسميته بأسلوب « الثرثرة بصــوت عال » (او اسلوب العقعق) ، اذ انهمــا يجمعان بعض الحقائق التــي مــن الممكن ان تبنى عليها قضية صورية ويهملان الحقائق المركزية الاساسية وخاصة المناقضة منها ، فهما بذلك مسروران بأنهما يدعمان وجهــة نظرهما بالاستناد الى بعض النقاط المختارة مــن التقليــد الاسلامي في الوقت الذي يهملان او يرفضان فيه ذلك التقليد ككل .

is applied not only in expounding the theory of Hagarism but also in the later parts of the book where they present a very individualistic 'analysis of the formation of Islamic civilization'.

It is sad to see young people frittering away their undoubted talents in such fruitless exercises, and it is surprising that a reputable university press is prepared to publish what can only be described as pseudo-scholarship.

W. Montgomery Watt

لم يكن اللجوء الى اسلوب الثرثرة هذا في تأويل النظرية الهاجرية فحسب وانما طبق ايضا في الاقسام اللاحقة من الكتاب والتي عرض فيها المؤلفان « تحليلا لتكوين الحضارة الاسلامية » كان غاية في الفردية . ان من المحزن ان نرى شبابا يبددون مواهبهم الاكيدة في ممارسات عقيمة كهذه . كذلك فانه من المثير للدهشة ان تقوم جامعة معروفة بنشر دراسة أقل ما يمكن ان يقال عنها انها غير علمية .

البروفسور مونتجمري وات ـ مدير قسم الدراسات العربية بجامعة ادنبرة

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثاني عشر
١٢

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع على نفقة
مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة
الجمهورية العراقية

مطبعة الارشاد - بغداد

مقدمـــة

ان موضوع الخليج العربي ، يحتل مكانة مهمة في تاريخنا العربي عامة ، لما لهذه المنطقة من اهمية استراتيجية كبيرة في السياسة الدولية ٠

ان الامانة العامة للاتحاد بادرت الى اصدار هذا العدد الخاص بالخليج العربي ايمانا منها بما لهذا الموضوع من مكانة أساسية ومهمة في الوضع العربي الراهن وما لاصالته العربية واسهامه الحضـاري في تاريخ الامـــة العربيـــة والتراث الانســاني ٠

من هذا المنطلق الحضاري دعت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب الباحثين والمؤرخين في جميع انحاء الوطن العربي للاسـهام في تحرير هـــذا العدد الذي يبحث في تاريخ هذه المنطقة العربية المهمة سياسيا واقتصاديـا وعسكريا واجتماعيا ، اضافة الى مكانتها الحضارية العريقه ٠

وباسم اتحاد المؤرخين العرب ابارك جهود المخلصين الذين أسهموا في تحرير هذا الجزء من مجلة المؤرخ العربي واتقدم بجزيل الشكر الى رئاسـة جامعة البصرة لتفضلها بالموافقة على تحمل نفقات طباعتـه دعمـا للمؤرخ العربي وتعضيدا لاتحاد المؤرخين العرب ٠

الدكتور حســين امــين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

اللجنة الاستشارية

قائمة باسماء بحوث العدد الثاني عشر الخاص بالخليج العربي

١١ـ الهجرة العمالية والتغير في مجتمع الخليج العربي بالكويت
الدكتور محمد محجوب/مصر

١٢ـ معركة النفط في الخليج العربي
ترجمة الدكتور هاشم صالح مهدي/العراق/بغداد

١٣ـ الوجود التركي في قطر ١٨٧١ ـ ١٩١٥
الاستاذ احمد العناني/قطر

١٤ـ سياسة الفاطميين في الخليج العربي مستمدة من السجلات المستنصرية/وثائق فاطمية معاصرة
الاستاذ عبدالمنعم ماجد/مصر

١٥ ـ القوى الاستعمارية والخليج العربي ١٦٠٠ ـ ١٩١٤
الاستاذ عباس ياسر الزيدي/العراق/بغداد



دراسة تاريخية للخليج العربي

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

برز الخليج العربي كموقع له اهميته الكبيرة في تاريخنا الحديث والمعاصر ، كما صار له دوره المؤثر في توجيه السياسة الدولية ، وانني اذ أقدم هذه الدراسة المختصرة كمقدمة لبحث أقوم بأعداده خدمة للتاريخ وابرازا للحقائق الناصعة التي تضع امامنا الخطوط الرئيسة لفهم تراثنا الخالد .

يقع الخليج العربي في الجنوب الشرقي للوطن العربي الكبير ، ويبلغ طوله ٥٠٠ ميلا وتتفاوت ابعاد عرضه بين ٢٠٠ ميلا الى نحو ٥٠ ميلا ، ويصب في الخليج شط العرب الذى يتكون اصلا من نهري دجلة والفرات ، واهم الاقطار المطلة عليه : العراق والكويت والبحرين والسعودية وقطر والامارات العربية وعمان وايران .

ان هذه المنطقة لها اصالة بعيدة في التاريخ ولعبت دورا مهما في بناء الكيان الحضاري الانساني في العصور القديمة ، ومما لاشك فيه ان العراق يكون الجزء الاصيل والمهم من التكوينات الحضارية الاولى في منطقة الخليج العربي ، حيث قامت اولى الحضارات الانسانية كحضارة السومريين والبابليين والآشوريين ، وظهرت المدن الشهيرة في العصور القديمة كمدينة اور والوركاء وأريدو ولجش وغيرها من المدن التي شهدت مولد تلك الحضارات

والتي أمتدت مظاهرها الى الجنوب الى المستوطنات الحضارية التي كانت في مناطق مختلفة من خليجنا العربي ٠

وعلى امتداد الخليج العربي وبخاصة في المواطن العربية على ساحله الغربي نتلمس الآثار الحضارية التي عرفت في وادي الرافدين متوافرة في فيلكا والبحرين ومناطق عديدة من دولة الامارات العربية وقطر ، وفي عمان٠ ان تلك الآثار ان دلت على شيء فانما تدل على صلة الوصل الاكيدة التي تثبت العلاقات الوطيدة بين العراقيين القدماء صانعي الحضارة العريقة وبين اخوتهم ابناء الخليج العربي ٠

صحيح ان هناك تأثيرات حضارية من مراكز اخرى متوافرة في بعض مناطق الخليج العربي فهذا ان دل على شيء فانما يدل على اهمية هذه المنطقة وانها كانت بلا شك ملتقى الحضارات القديمة فهناك بعض الآثار اليونانية وآثار هندية من حضارة وادي السند وغيرها من المظاهر الحضارية ، الا انها لا تنفي قطعا شدة تأثر المنطقة بالمؤثرات الحضارية التي تميزت بها حضارة وادي الرافدين ، واعتقد ان المستقبل سيكشف عن آثار غاية في الاهمية ستعمل على تغيير الكثير من المفاهيم التاريخية وتساعدنا على التوصل الى حقائق مهمة ٠

وانني ارى ان منطقة الخليج العربي تأثرت في القديم بثلاث حضارات قديمة ، حضارة وادي الرافدين وحضارة الفنيقيين وحضارة اليونانيين ، وهذا لا يمنع المنطقة كما اشرت سابقا من ان تتأثر بالحضارات القديمة الاخرى لما للمنطقة من اهمية كبيرة ، ومن هذا المنطلق اعتقد ان العلماء المختصين سيتوصلون نتيجة جهودهم العلمية الى الكشف عن تلك التأثيرات المهمة ، واني ارى ان الكشف الواسع عنها سيضعنا امام حضارة رائعة جمعت بين اصالة حضارة وادي الرافدين ومظاهر حضارة الفنيقيين وقمة حضارة

اليونانيين وانصهار تلك الحضارة في هذا الجزء المهم من وطننا العربي •

ان المنطقة التي نتحدث عنها كانت موطن العروبة منذ القدم البعيد واستوطنت فيها القبائل العربية التي كان من اشهرها قبيلة الازد ، والتي كان لها الدور الكبير في اظهار الملامح العربية في هذه المنطقة ، وقبيلة عبدالقيس وتميم •

وظهرت الدعوة الاسلامية في مكة ثم هاجر الرسول (ص) الى المدينة ومن هنا بدأ (ص) الاتصال بالعناصر العربية الحضرية في مناطق الخليج ففي سنة ثمان للهجرة بعث الرسول (ص) الصحابي ابا زيد الانصاري وهو احد من جمع القرآن ايام الرسول (ص) وبعث عمرو ابن العاص الى عبيد وجيفر ابني الجلندي بكتاب منه يدعوهما فيه الى الاسلام فاوصلا كتاب الرسول محمد (ص) اليهما فاسلما ودعوا العرب هناك الى الاسلام فاجابوا اليه ورغبوا فيه ، فلم يزل عمرو بن العاص وأبو زيد الانصاري بعمان حتى قبض رسول الله (ص) •

ولما توفي رسول الله (ص) ارتدت الازد وعليها لقيط بن مالك وانحازت الى دبا فوجه ابو بكر (رض) اليهم جذيفة بن محصن البارقي من الازد وعكرمة بن ابي جهل بن هشام المخزومي ، فواقعا لقيط بن مالك ومن معه ، وانتصرت جيوش المسلمين وعادت العرب الى دين الاسلام وولى ابو بكر (رض) حذيفة بن محصن عمان •

وكان الرسول (ص) قد اوفد العلاء الحضرمي الى المنذر بن ساوى التميمي حاكم البحرين من قبل الفرس يدعوه واهل البحرين الى الاسلام ، والتقى العلاء الحضرمي بالمنذر بن ساوى وابلغه الرسالة واوضح له المبادىء الاسلامية النبيلة ، واسلم المنذر كما اسلم اهل البحرين •

وذكر ابن سعد ان الرسول استقبل في المدينة عشرين رجلا من اهل

البحرين وعلى رأسهم عبدالله بن عوف الاشبح وكان معهم بشر بن عمرو المعروف بالجارود ، وكان الجارود من مشاهير رجالات البحرين في عهد الرسول (ص) ، وارتدت البحرين بعد وفاة الرسول وبقي الجارود على الدين الاسلامي وصار يقاوم المرتدين حتـــى وصلته عساكر المسلمين بقيادة العلاء الحضرمي ، وقد انتصر المسلمون في معـارك متعددة علـى المرتدين • ولعل من اشهر ايام الردة هناك يوم (جواثا) وجواثا حصن لبني عبدالقيس وقد استشهد في ذلك اليوم عبدالله بن سهيل بن عمرو وبعد انتصار العلاء الحضرمي امر الخليفة ابو بكر ان يتولى هذا القائـد ولاية البحريـن •

ان المنطقة التي نتحدث عنها تأثرت تأثرا كبيرا بحركة الفتوح العربية الاسلامية وساهم اهلها العرب المسلمون في نشاطاتها كما تأثرت بالحركات الثورية والفكرية التي برزت على مسرح الحوادث وبخاصة في العصرين الاموي والعباسي •

فظهور الخوارج كحركة سياسية في ايـام الامام علي بن ابي طالب في مدينة الكوفة وانتشرت مبادؤهم الى اطراف الدولة وبالاخص الى المنطقة التي نتحدث عنها ، وكان للخوارج نشاط ملحوظ في كل مــن البحرين وقطـر وعمان ، فقد ظهـر سنة ٦٦هـ نجدة بن عامر الحروري الحنفي ايام عبدالله بن الزبير في جماعة من بني قومه وانصاره ومن حملة مذهب الخوارج ، واتى البحرين واستقر بها وتسمى بامير المؤمنين وانتشر عماله في اليمامة وعمان وهجر ، ومن قطر برز اشهر قائد للخوارج هو قطري ابن الفجاءة واسمه جعونه بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي مــن رؤساء الخوارج المعروفين بالازارقة وكان خطيبا وشاعرا وبقي قطري بن الفجاءة ثلاث عشرة سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة وامارة المؤمنين ، قتل في بلاد فارس في احدى معاركه ، ومن اشهر شعره :ـ

اقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لاتراعي
فانك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاع
فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز فيطوى عن اخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي وتسلمه المنون الى انقطاع
ومن لايعتبط يسأم ويهرم وداعيه لاهل الارض داعي
وما للمرء خير من حياة اذا ما عدّ من سقط المتاع

يقول ابن خلكان ان هذه الابيات تشجع اجبن خلق الله وما اعرف في هذا الباب مثلها ، وما صدرت الا عن نفس أبيّة وشهامة عربية •

وقطرى هو الذى عناه الحريرى في المقامة السادسة بقوله :

« فقلدوه في هذا الامر الزعامة ، تقليد الخوارج ابا نعامة » ، وكان والحق رجلا شجاعا مقداما كثير الحروب والوقائع ، قوى النفس لا يهاب الموت •

وكانت قطر من مراكز الانطلاق العربي الاسلامي في الفتوح الاسلامية • فقد كانت من مراكز الانقضاض على الدولة الفارسية بالاضافة الى مراكز العرب الاخرى في جنوب العراق والبحرين ، وقد ابلى اهل قطر البلاء العظيم في معارك الشرف وفي نشر المبادىء الاسلامية السامية ، وكانت سواحل هذا القطر العربي الاسلامي من اهم مراكز الانطلاق كما كانت من اهم مراكز الامداد الحربي في معارك الخليج العربي ايام الفتوحات الاولى •

واشتهرت قطر بالثياب القطرية والتي كانت لها شهرة واسعة في الاسواق وقتذاك ، وهي حمر لها اعلام واليها تنسب النجائب القطريات ،

وكان الرسول (ص) قد ارتدى الثياب القطرية كما كان للخليفة عمر بن الخطاب (رض) ازار قطري مرقوع برقعة من جلد .

ومن الجدير بالذكر ان قطر والتي برزت في العصور الاسلامية كبقعة ممتازة شهدت الكثير من المفاجآت والحوادث ، كانت هذه البقعة ذات تراث حضاري ضخم في الماضي السحيق ، ان هذه البقعة والتي ظهر فيها اكثر من ٢٠٠ موقع اثري يظهر بجلاء الاصالة التاريخية لهذا الموقع الحضاري الممتاز والذي يعبر عن وجود مخلفات انسانية متعددة تعبر عن مميزات واضحة لهذا التراث المادي والفكري وعن التراث الانساني من العصر الحجري مختلف الاطوار ومتعدد النماذج ، وان الآثار التي عثر عليها في دخان وعقلة المناصير وقرب الساحل الشرقي في الوصيل شمال الدوحة وغيرها من المواقع تبرز الوجود الحضاري الاصيل في هذا القطر العربي ، وانني على يقين ان ما تشغله قطر من موقع استراتيجي مهم زاخر بالآثار العديدة وبالتراث الانساني الضخم والذي سيظهر قريبا اذا ما باشرت البعثات العلمية في تنقيباتها ، فان الادوات والاشياء التي التقطت من بعض المواقع لا تتناسب وما لهذا القطر من الدور الحضاري في التاريخ القديم ، وانني على ثقة ان النهضة الحديثة في قطر ستعمل على تحقيق ما يهدف اليه العلم وما يتمناه العلماء من الوصول الى حقائق جديدة تبرز هذا القطر لتجعله في مصاف مراكز الحضارات الممتازة في التاريخ . وانني اعتقد ان هناك مخلفات سومرية وفينيقية ويونانية كثيرة كما انني ميال الى وجود آثار لانسان قطر تفرد شخصته التاريخية الاصيلة .

وتأثرت منطقة الخليج العربي بثورة الزنج والتي برزت في البصرة بشكل خاص ، ففي سنة ٢٥٥هـ ظهر في فرات البصرة علي بن محمد الذي ادعى النسب العلوي وجمع حولـــه العديد من الفلاحين واستغل

اوضاعهم السيئة وقام بثورة عارمة هددت اركان الدولة العباسية ، وقد استمرت هذه الثورة حوالي ١٥ سنة انتهت بانتصار العباسين وخفوت هذه الحركة .

ويذكر المؤرخون ان علي بن محمد صاحب الزنج زار البحرين قبيل اعلان الثورة وفي البحرين ادعى علي بن محمد انه ينتسب الى آل علي وتبعه عدد من اهل هجر ورفضت دعوته جماعة ثانية ، ثم خرج الى الاحساء اثر فتنة دامية بين مؤيديه ومعارضيه ، وقد وجد في الاحساء تأييدا ونجاحا كبيرين وبرز نشاطه هناك بشكل ملحوظ ثم هاجر الى البادية ومن هناك انتقل الى البصرة حيث بدأ بتنظيماته واعداده للثورة ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الثورة كانت لها الآثار البعيدة في أحداث تخلف اقتصادي نتيجة للاضطرابات الشديدة التي قاستها المنطقة ، وكانت البحرين من أشد هذه المناطق تأثرا بعد البصرة بنشاط الزنج .

وتأثرت المنطقة بأفكار جديدة . ففي سنة ٢٧٨هـ ظهر القرامطة على مسرح التاريخ كقوة جديدة تناهض الدولة العباسية ، وقد برز نشاط هذه الدعوة في البحرين بصورة خاصة ، حيث استولى الحسن بن بهرام الجنابي ابو سعيد كبير القرامطة على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ، وانتصر على جيوش الخلافة العباسية وقد قتل الجنابي سنة ٣٠١ هـ ، وتكونت للقرامطة دولة في الخليج العربي استمرت لاكثر من قرن ونصف ، وبعد وفاة الحسن بن احمد القرمطي سنة ٣٦٧هـ صار أمر القرامطة الى الضعف وبدات تظهر على مسرح الحوادث دولة جديدة هي العيونيين نسبة الى عبدالله بن علي العيوني مؤسس امارة العيونيين والذي انتصر على القرامطة بعد حرب استمرت لاكثر من تسع سنوات في ٤٦٩ هـ ، وبذلك الانتصار انتهى حكم القرامطة في البحرين وضعف شأنهم في جميع انحاء الخليج العربي .

وبرز في القرن السادس الهجري بنو نبهان وهم ينتسبون الى العتيك ابن الاسد بن عمران ، وهم الذين سيطروا على عمان وحكموها خمسمائة عام ، وفي القرن الثامن الهجري استولوا على قطر وحكموها فترة من الزمن .

وفي بدايات القرن السادس عشر الميلادي بدأ البرتغاليون في السيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي . ففي سنة ١٥١٧م سيطروا على البحرين وقطر والقطيف ومنذ ذلك الوقت بدأت المنافسات الاستعمارية في هذه المنطقة المهمة من وطننا العربي الكبير . وسوف لا اخوض في الصراع الذي كان سائدا في الخليج بين القوى الطامعة البرتغالية والهولندية والفرنسية والبريطانية والفارسية ، والجهاد العظيم الذي بذله العرب في محاولاتهم العديدة من اجل الحفاظ على ترابهم وتثبيت حقهم التاريخي في المنطقة ، ان ذلك الجهاد الذي ساهمت به كل القوى العربية في عمان والامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والكويت . ان كل تلك الجهود كانت نتيجتها ظهور هذه الدول الفتية والتي اخذت تشق طريقها نحو مستقبل جديد وعالم افضل .

انني اؤكد هنا على ضرورة توحيد الجهود العربية عامة من اجل توحيد الفكر العربي وتثبيت المفاهيم الاساسية لوحدة الشعور من اجل خلق جيل يؤمن بحقه في الحياة وباصالته الحضارية وبمثله المستمدة عبر النضال المرير طوال القرون الماضية .

صحيح اننا قاسينا الكثير من نتائج ضعفنا وتسلط الطامعين علينا ولكن مفهوم التاريخ يحتم علينا ان ندرك الآن موقعنا كأمة لها ماضي عريق وشعب له تراث خالد وان نفهم غاية الفهم الاتجاهات السياسية القائمة في عالمنا وما يخطط له الصديق والطامع ، علينا ان نضع حقائق

التاريخ امامنا ونتفحص عبره وعظاته وان نكون جميعا في مستوى المسؤولية . قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، والمسؤولية هنا ان نعرف حقوقنا وواجباتنا .

ان منطقتنا التي اتحدث عنها لها اهمية استراتيجية كبيرة ، ففضلا عن ثرواتها الهائلة انها تتمتع بكونها ذات موقع جغرافي حيوي رابط بين الشرق والغرب وانها حجر الزاوية لكل هدف في المنطقة . هذا ومما لايخفى ان الاستعمار الذي خرج من المنطقة خلف آثارا متعددة وخطيرة. ان هذه الآثار بلا شك تعمل على تخلف المنطقة وجعلها غير قادرة على ان تؤدي واجبها القومي والحضاري بالشكل المطلوب ، فهذا التخلف الواضح في الثقافة والحضارة والعمران والضعف الواضح في البناء الاجتماعي أدلة بينة تؤيد ما نذهب اليه .

ان امام الامة العربية عامة وامام ابناء الخليج العربي بخاصة مسؤولية كبيرة من اجل العمل على تطوير واحداث نقلة شاملة للمجتمع من واقعه المفكك وحالته المتخلفة ، ان التعليم يجب ان يكون في كل قرية وفي كل بيت وان العملية الحضارية يجب ان يأخذ بها الانسان في كل بقعة من هذا الوطن الكبير ، وان نعي تاريخنا ونحفظ تراثنا ونؤكد على اصالتنا العربية ومبادئنا الاسلامية السامية ، علينا نحن الذين نشتغل في التاريخ ان نعمل على توحيد مناهج تدريس التاريخ في مراحل التدريس المختلفة الابتدائي والثانوى والجامعي فهذه مهمة المؤرخ الحق وهدف اتحاد المؤرخين العرب الذى يسعى اليه اعتقادا منه ان وحدة تدريس التاريخ هي وحدة المدارك التاريخية ومن ثم وحدة الشعور العربي الهادف الى خلق وعي تاريخي منظم وعلى اساس علمي وموضوعي .

علينـا ان نسعى في مهمتنـا كمشتغلين في التـاريخ الى العمـل على تطوير الدراسات التاريخية والعمل على رفع مستوى الباحث العربـي ومساعدته بكل ما نستطيع ماديا ومعنويا ، وتحقيق هدف اتحاد المؤرخين العرب والذى يسعى اليه بشكل منسق ومنظم وهو العمل على كتابـة تاريخ الامة العربية بشكل موضوعي وبروح علمية تبرز الجوانب الايجابية لذلك التراث الذى ورثناه ، وان نعمل على حفظ ذلك التراث وبخاصة المخطوطات المنتشرة فيمكتبات العالم شرقا وغربا وذلك بتصويرها وتحقيق المهم منهـا •

ان ذلك العمل سيحقق اغراضا علمية سامية ويخلد ذلك التراث ويحفظه من العبث والضياع •

انني اذ اتحدث عن هذه المنطقة العربية والتي تعتبر جزءا مهما من وطننا الكبير ، اباركـ هذا التقدم في اقطارها الناهضة وادعو لها بالموفقية ، وارجو ان يكون الخليج العربي مزدهرا قويا ترفرف على سواحلـه رايات الامن والطمأنينة ويكون ابناؤه في وحدة متماسكة وقـوة عظيمـة تردع الطامعين وتحفظ الأرض التي ورثناها من الآباء سليمة طاهرة تسودها العزة والكرامة وتكون نواة للوحدة العربية الشاملة •

الخليـج عنـد اليونان واللاتين

الدكتور جـواد علـي

عرف الخليج عند الآشوريين بـ " Nar Marratu " ، أي البحر المرّ ، « البحر المالح »[١] ، وعرف عندهم وعند الأكاديين بالبحر الجنوبي وبالبحر التحتاني ، وبالبحر الاسفل[٢] ، وتعني لفظة " Naru " في البابلية : « نهر » ، و « طريق مائي » و « قنال »[٣] ولفظة " Marratu " ، مستنقع[٤] ، ولوقوع الخليج جنوب العراق أطلقوا عليه البحر الجنوبي ، وأطلقوا « البحر الاعلى » على « ابحر المتوسط »[٥] او بحيرة « وان »[٦] .

ولم يرد اسمه في الكتابات الفارسية القديمة ـ وذلك حسب علمي ـ

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٥٧٦) .
Ancient Iraq, P., 277, Luckenbill, 1, 624.

(٢) Ancient Iraq, P., 129, W. F. Leemans, Trade in the Old Babylonian Period, P., 4, Leiden, 1960, By: A. Barton, The Royal Inscriptions of sumer & Akkad, New Haven, 1924.

(٣) Erich Ebeling, Ylossar zu den Neubabylonischen Briefen, Munchen, 1955, S., 161.

(٤) المصدر نفسه (ص١٣٩) .

(٥) Paulys - Wissowa, 37 ter Halbband, 1937, 1030, Schroeder, Keilschrifttexte aus Assur, Nr: 92.

(٦) Paulys - Wissowa, 1, Funfte Lieferung, S. 374.

لذلك لا أعرف ماذا كان يسمى عندهم[٧] ، وقد ذكر ياقوت الحموي ان الفرس كانوا يسمون الخليج « زراه كامسير » ، « زره كامسير » ، كما قال ان القوم كانوا يسمون قسما منه – وهو القسم الواقع في مدينة مهروبان الى جوار عبادان – باسم زراه « زره » « افونج »[٨] .

وعرف عند اليونان والرومان بـ " Persikos Kolpos "[٩]
وبـ " Sinus Persicus " " Mare Persicus "[١٠]
وبـ " Persicy Pelagos " وبـ " Persicus Colpos "
وبـ " Persicos Mare " بمعنى الخليج الفارسي البحر الفارسي[١١] .

وقد نسب اليونان الخليج الى فارس لان الفرس كانوا اعرف عند الاغريق واكثر اتصالا بهم من العرب ولانهم كانوا حكومة واحدة قوية لها قوة بحرية به فنسبوه اليهم ، وليس في هذه النسبة دلالة على

---

(٧) Paulys - Wissowa, 37 ter Halbband, 1937, 1030.

(٨) مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الرابع ، (١٩٧٨ م) ، (ص٩٨٢) .

(٩) Stephen of Byzantium, Ethnica, P. 237, (Ed. Meineke).

جواد : تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٢٣) .

(١٠) Wilfred H. Schoff, "Journey, around Parthia, P., 11, Pliny, VI, XXVIII, 108, Vol. 11, P., 420, 421, Paulys - Wissowa, 37ter Halbband, 1937, 1030, Schroeder, Keilschriftexte aus Aussur, Nr. 92.

(١١) جواد : تاريخ العرب (٣/٣٠٦) .

نملك الفرس للخليج ، قال الاصطخري : « وفي هذا البطن من البحر الذي نسبناه خصوصا الى فارس جزاير منها : لافت واوال وخارك وغيرها من الجزاير المسكونة »(١٢) .

فالتسمية اذن انما هي نسبة ، وليس فيها ما يفيد التملك او الاستيلاء .

ومن اليونان والرومان انتقلت هذه التسمية الى غيرهم من الناس ، ومنهم العرب الذين دعوه ب « بحر فارس » و ب « خليج فارس » وب « خليج العجم » وب « بحر العجم » وب « الخليج الفارسي » وب « البحر الفارسي »(١٣) ترجمة للتسمية اليونانية واللاتينية التي اخذوها من الكتب الجغرافية التي نقلوها عن اليونانية الى العربية ولفظة « جغرافيا »

---

(١٢) كتاب الاقاليم (ص١٧) ، (بحر البصرة) ، (الاعلاق النفيسة) (٩٦) .

(١٣) العراق حده في الطول من حد تكريت الى حد عبادان على بحر فارس ، الاصطخري ، كتاب الاقاليم (ص ٤٥) ، «بحر فارس» « بحر الفارسي » كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تأليف شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي شيخ الربوة ، (ص ١٩ ، ٧٧ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٨) « خليج فارس » نخبة (١٥٠) .

« ويخرج منه خليج الى ناحية فارس يسمى الخليج الفارسي » الاعلاق النفيسة ، لابي علي احمد بن عمر ابن رسته ، ليدن ١٨٩١ (ص ٨٤) ، « البحر الفارسى » سهراب ، كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ، (ص ٧٨) ، (ثم يصب الجميع الى بحر فارس « ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (ص ٢٣٣) ويصب دجلة في البحر الفارسي ، كتاب الجغرافيا لابى الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي (ص ١٥٩) .

نفسها لفظة معربة نقلت من اليونانية الى العربية ولا زالت حية مستعملة تدل على ذلك الاثر في العربية ٠

ومن هذا الأثر اليوناني على الجغرافيين المسلمين ، اطلاقهم مصطلح «العربية العامرة» وبلاد الأعراب الخصبة « على جزيرة العرب »(١٤) ، وهو ترجمة لمصطلح «Arabia Felix» و «Arabia Beata» و 'Arabia Eudaiman' الذي يعني : العربية السعيدة والعربية الخصيبة عند اليونان واللاتين ، وكانوا قد قسموا بلاد العرب الى اقسام ثلاثة ، هي : العربية السعيدة والعربية الصخرية "Arabia Petrae". والعربية الصحراوية " Arabia Deserta " (١٥) ٠

وحد شمال جزيرة العرب في اصطلاح الجغرافيين العرب من مصب شط العرب في الخليج حتى ينتهي ب « ايلة » وقد مد بعضهم حد بلاد العرب فأدخل فيها البادية الفاصلة بين العراق وبلاد الشام الى ملتقاها بالفرات(١٦) ٠

وقد جعل بعض العلماء المسلمين حد « بحر فارس » «جبل الجمحة» ، « وهناك جبل اسود شاهق ممدود يسمى الجمحة هو حد بحر فارس فيمر بأوله مع اتصاله بالبحر وكونه بحرا واحدا الى البصرة الى

(١٤ « بلاد العربية العامرة : وهي بلاد اليمن واليمامة والبحرين وعمان » سهراب (ص٤٦) ، (رقم ٥٠٢) ٠

(١٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٦٣/١ وما بعدها) ٠

(١٦) الاصطخري ، كتاب الاقاليم (ص٥ وما بعدها) ، « موضع يعرف بمطارة ، وهو مجمع دجلة والفرات الآن ، اذا انفصلا من البطائح والسيب ، وهناك يكون نهر واحد عظيم يسمى شط العرب » ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر تأليف شيخ الربوة (ص٩٧) ٠

سلماباذان الى خوزستان الى بلد فارس الى كرمان الى مكران وطوران، وهناك آخر حدود بحر فارس »[١٧] ، وذكر شيخ الربوة أن بحر فارس « مثلث الشكل على هيئة القلع احد اضلاعه من البصرة الى رأس الجمجمة من بلاد مهرة ، والاخر من البصـــرة الى تيزمكـــران ، والثـالث يأخـذ من رأس الجمجمة ويمتد على سطح البحر طوله خمس مائة ميل وطول الضلعين الاخرين حيث يبتدىء من تيز مكران الى أن ينتهي الى الحسا والقطيف[١٨] بالبصرة ثم ينعطف الى رأس الجمجمة تسع مائة ميل »[١٩] وذكر « ابن سعيد المغربي أن فم بحر فارس عريض يكون وسعه مـــن صحار الى ساحل الهند »[٢٠] .

وروى أن « حد بحر فارس مما يلي المشرق من فوهة دجلة العوراء وآخره ينتهى الى جزيرة يقال لها : تيزمكران ، ومن هناك يعدّ أول حده السند . وحده مما يلى المغرب من فوهة دجلة العوراء الى أن ينتهى الى غب عدن »[٢١] .

ولم تكن معارف الروم عن الخليج واضحة مثل معارفهم عن الخليج الثاني المسمى عندهم بـ " Sinus Arabicus " " Arabici Sinus " أي « الخليج العربي » ، والذي نسميه : البحر الاحمـر ، وهـي تسمية دخلت الينا من مصطلح : " Mare Erythraeum " الذي يعنى البحر الاحمر ، وتعنى لفظة ، «Erythraeu» في اليونانيـــة

---

(١٧) نخبة الدهر (ص١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦) .
(١٨) « القطيق » هكذا (ص١٦٦) ، وهو خطأ وصوابه القطيف .
(١٩) نخبة (ص ١١٦) .
(٢٠) كتاب الجغرافيا (ص١١٨) .
(٢١) الاعلاق النفيسة لابن رستة (ص٨٧) .

اللون الاحمر وكان الروم يطلقون هذه التسمية على البحر العربى الذى تقع عليه عدن وحضرموت ، ولهذا نجد الخرائط اليونانية القديمة تسمى البحر الاحمر ب " Sinus Arabicus " أي الخليج العربي ، وتسمى البحر العربى في مصطلحنا اليوم ب Mare Erythraeum و " Mare Rebrum " [٢٢] وذلك بسبب أن هذا الخليج كان على مقربة من الروم ، وتحت نفوذهم ، وقد توغل فيه تجارهم قبل الميلاد بزمان طويل ، أما الخليج ، فقد كان بعيدا عنهم ، وتحت نفوذ حكومات العراق التى كانت تتحكم في أمر الابحار به والاتجار معه ٠

ولما قام « الاسكندر » الكبير بحملته الكبيرة على العراق وايران والهند ، عهد الى قائده ، « نيرخس » " Nearchus " بالتوغل في الخليج والتوجه منه الى البحر العربى فالبحر الاحمر حيث يصل الى خليج العقبة فمصر فيدخل بذلك جزيرة العرب في املاكه[٢٣] ، وعهد الى القائد ، « هيرون » ، " Hieron " متابعة السواحل ودراسة احوال سكانها ومواضع المرافىء ، واماكن المياه والمنابت ومواضع الشجر فيها ، وتقاليد العرب وعاداتهم واحوالهم ، لتكون جيوشه على بينة من أمرها ليقدم اليه تقريرا يضع عليه تقديره في كيفية الاستيلاء على جزيرة العرب ، فسار منفذا أمر سيده ، ثم عاد اليه دون ان يشير مؤرخ

---

(٢٢) راجع خريطة : « بطليموس » ٠

(٢٣) تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٧١) ٠

J. Bury, A History of Greece to the Death of Alexander the Great, P., 803, Arrian, History of Alexander and Indica., in 2 Vols, Loeb Classical Library.

الاسكندر « أريان » الى اسم الموضع الذي وصل اليه(٢٤) .

ولم يتمكن جيش الاسكندر الذى كلف بتحقيق المشروع من تحقيق مشروعه ،فقد ذكر « اريان » أنالقائد : « أرشياس » ، " Archias " بلغ جزيرة سماها « تيلس » " Tylus " ولم يتجاوزهـا ، وأن القائد « اندروستينيس » " Androsthenes " بلغ مكانا لم يبلغه ارشياس ، و « هيرون » " Hieron " بلغ مكانا قصيا لم يصل اليه القائدان المذكوران ويظن « ارنولد ولسن » " Arnold Wilson " أنه لم يتجاوز موضع « ماكيته » " Maketa " « رأس الخيمة » ، أي " Ras Musandam " « رأس مسندم » ، كما يسـميه الاوربيون ، وهـو " Mons Asabo " عند بلينيوســس ، أي « رؤوس الجبال »(٢٥) .

وقد نزلت قوات الاسكندر في مواضع من ساحل الخليج ، ولما مات وتراجعت عساكره بقي بعض منهم في مواضعه واقام بها ، مثـل موضـع جزيرة « فيلكه » الذي اظهرت الحفريات التي اجريت فيه عن وجـود حصن فيه من ايام الاسكندر ، وعن العثور على تماثيل للاسكندر ولالهـة الاغريق وعلى قطع من النقود تعود الى ايامه(٢٦) ، وقد استعرب هؤلاء ونسوا اصلهم واندمجوا بالعرب ، كما اندمج غيرهم ممن نزل في مواضـع

---

(٢٤) Anabasis, VII, XX, 8.

(٢٥) تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٧٢ ومابعدها) .
The Persian Gulf, P., 40, 43.

(٢٦) Die Araber, IV, S., 68, E Albrechtsen, Alexander the Great's Visiting Card, Kumb, 19588, 186. P. V. Glob, Investigations in Kuwait, 1958, 170.

اخرى من الساحل بسكان السواحل وصاروا منهم ، ونسوا اصلهم ، وصاروا عربا يشاركون العرب في اطوارهم ، ومن هنا نجد بين اهل الساحل عربا يشبهون الاوربيين في الملامح ومنهم من جاء بهم الفرس قهرا الى هذه الاماكن لاسكانهم بها عقوبة لهم بعد وقوعهم في اسرهم .

وجزيرة « فيلكه » من المواضع المأهولة القديمة ، وقد عثر فيها على آثار سكن وبقايا أبنية وهياكل يرجع عهدها الى الالف الثالثة قبل الميلاد(٢٧) .

وقد مونّت هذه الحملة الباحثين الاغريق في تلك الايام ببعض المعارف عن الخليج ، وكان منهم نفر اشتركوا في حملة رجال الاسكندر على الخليج ، وقد ضاعت ويالالأسف مؤلفاتهم ، وبقيت اسماؤهم في كتاب « جغرافيا » " Geographica " سترابو الذي عاش بين سنة « ٦٤ » قبل الميلاد وسنة (١٩) بعد الميلاد ، حيث أشار الى نقول نقلها من مؤلفاتهم فهي من موارده المهمة القديمة التي رجع اليها في تأليف كتابه « جغرافيا » الذي تحدث فيه في « الكتاب السادس عشر » عن بلاد العرب وعن حملة « اوليوس كالوس » " Aelius Gallus " التي قام بها بأمر القيصر " Julius Caesar " على العربية الغربية والتي بلغ فيها مدينة مأرب " Marsiaba " وكان سترابو نفسه أحد من رافق الحملة في رأي بعض الباحثين ، وكان صديقا للقائد ، فوصفه اذن هو وصف شاهد عيان(٢٨) .

---

(٢٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٥٤٣) .

(٢٨)

The Geography of strabo, Translated by Hamilton, London, 1912, in 3 Vols., Strabo, Geographia, Edited by August Meineke, 3 Ed., Leipzig, 1907 - 1913.

ومن اهم المواضع التى ذكر « سترابون » « سترابو » " Strabo "
انها تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب ، أي الساحل المطل على الخليج
« جرها » " Gerrha " و " Tyre " و " Aradus "
و " Macae " [٢٩] وقد اخذ « سترابو » اخباره عن الخليج
من كتاب « ايراتوستنيس "Erathosthenes" ٢٧٦ـ١٩٦ ق٠م
واخذ « ايراتوستنيس » أخباره المذكورة من أفواه رجال عرفوا الخليج
وعركوه وشاهدوه وكانت لهم ايام فيه ٠ منهم « نيرخس » قائد الاسكندر
و « واندروستنس » ، " Androsthenes " و «ارسطو بولس» ،
" Aristobulus " و « اورثاغوراس » " Orthagoras "
وغيرهم ممن كانوا من مشاهير رجال البحر[٣٠] ٠

أما « جرها » " Gerrha " فمدينة تقع على خليج عميـق ،
وتقع على مسافة (٢٠٠) « اسطاديون » " Stadia " من البحر[٣١]،
وأرضها سبخة ، لذلك زعم اليونان ان بيوتهـا من حجارة الملح ، وان
أهلها يرشون جدرانها بالماء عند ارتفاع درجات الحرارة لمنع قشورها مـن
السقوط[٣٢] ٠ وقد اشتهرت بغناهـا وبتجارتها التي كانـت تصـل الى

---

(٢٩) Strabo, III, P., 188, Book, XVI, III, 5, 1.
تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٤١٧) ٠
(٣٠) Strabo, III, P., 186 - -88, Book, XVI, III, 3 - 6.
(٣١) « اسطاديون » ل " Stadion " . استخدم علماء تقويم البلدان
كلمة « اسطاديون » في مقابل " Stadion " ، فاستعملتها أنا
أيضا ، والاسطاديون مساحة أربع مئة ذراع ، البلدان (١/١٨)،
(تاريخ العرب قبل الاسلام ٢/٤٦٧ وما بعدها) ٠
(٣٢) Pliny 11, P., 448. F.

العراق فتنقل الى " Thapascus " وهي : الدير او الميادين[٣٣] ، والى موانىء البحر الاحمر والمتوسط والىحضرموت حيثتصل في اربعين يوما[٣٤] . ونظرا لغناها هذا ولاشتهار اهلها بالثراء ، طمع فيها الطامعون ونسج الكتاب اليونان حولها نسيجا كثيفا من الاساطير ، فزعموا أنهم اتخذوا آنية من الذهب وجملوا سقوف بيوتهم وأبواب غرفهم بالذهب وبالاحجار الكريمة الغالية ، حملت الملك « انطيوخس الثالث » " Antiochus III " على ارسال حملة عليها للاستيلاء على مافيها . فلما سمعت به أرضته بدفع جزية باهظة ، فأبحر الى جزيرة " Tylos " ومنها الى سلوقية " Selucia " بالعراق[٣٥] .

و " Gerrha " " Gerra " هي " Oppidum Girra " عند بلينيوس وهي مدينة يبلغ محيطها خمسة أميال[٣٦] على زعمه ، ومدينة «Gerra» «Gerra Polis» «Gerraei» عند بطلميوس[٣٧] ، وتقع في أرض سماها : " Gerraei " ذكرها بعد أرض " Attae " وذكر ان من مدن أرض " Gerraei " : " Magindanta "

---

(٣٣) Strabo, III, P., 187, note 1, Musil, Deserta! P. 515, Wilson, P., 30.

(٣٤) Strabo, 111, P., 191, Book, XVI, IV, 4. Wilson, P. 45.

(٣٥) عاصمته في مقابل « طيسفون » ، أي المدائن « سلمان باك » .

(٣٦) Pliny, VI, XXXII, 147-149, Vol. II, P.; 449-451

(٣٧) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٧٨) و Ptolemy, VI, 7. 32.

و "Gerraei" " Bilana " , " Biliana " , " Bilbana "

والى غرب مدينة " Gerra " تقع مدينة " Katara " (٣٨) .

وقد اختلف العلماء في المراد من " Gerrha " فذهب بعض منهم الى انها « العقير » وهي قرية على شاطيء البحر بحذاء هجر(٣٩) ، وتدعى « العجير » في لهجة الناس هناك(٤٠) ، ومنهم من رأى انها الخرائب المعروفة بأبي زهمول مع العقير ، وتكون هذه الخرائب الطرف الثاني من Gerrha الذي يكون الميناء(٤١) ، ومنهم من رأى انها القطيف(٤٢) ، وظن آخرون انها « سلوى » ، الواقعة على ساحل البحر(٤٣) ، ودعاها بعضهم « الجرعاء » وهو موضع قال عنه الهمداني : « وثم ترجع الى البحرين فالاحساء منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم ، وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتابع عليه العرب»(٤٤) وقد كانت " Gerrha " سوقا تتبايع فيه الناس .

ومن رجح «الجرعاء»، يرى ان هذه الكلمة قريبة جدا من "Gerrha" " Gerra " كما أن موضعها قريب من الموضع المذكور ، ولسبب آخر هو ورود اسم « تميم » مع الجرعاء ، وتميم هو "Themi" عند

---

(٣٨) Ptolemy, VI, 7, 32.

(٣٩) البلدان (٦/١٩٨) .

(٤٠) Cheesman, in Unknown Arabia, P., 28, The Empty quarter, P., 3.

(٤١) Cheesman, P., 28.

(٤٢) Forster, II, PP., 216.

(٤٣) Geogr. Journal., CVLI, 142, Febr. 1946, P. 32.

(٤٤) الصفة (ص ١٧٣ سطر ٢٤) ، Glaser, Skizze, II, S. 75.

بطلميوس في نظر بعض الباحثين(٤٥) ٠

وبعد فلابد من التنبيه الى ان بطلميوس قد ميز بين أرض « جرها » وبين مدينة « جرها » فقد سمي الارض باسم " Gerraei " وسمى المدينة باسم " Gerra Polis " "Gerraei Polis" أي مدينة جرها(٤٦) مما يدل على ان التسمية كانت تشمل أرضا واسعة آنذاك ٠

هذا واني أرى احتمال كون " Gerraei " , " Gerrha " , " Gerra " هي « هجر » وهجر تسمية عربية قديمة تعود الى ما قبل الاسلام ، وقد كانت تشمل منطقة واسعة تضم كل ما عرف بالبحرين فيما بعد كما شملت اسم مدينة ، وقد اشتهرت بتمرها ، وقال « شيخ الربوة » عنها : « وبحيرة هجر في بلاد البحرين وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هجر بالبحرين ، وقيل : بل سمي البحرين لان هناك دخلة من الارض في البحر الكبير كالجزيرة وسمي ذلك الموضع البحرين(٤٧) » وقال : « ثم يلي هذا السقع مغربا بلاد البحرين ، ويسمى : القوس ، وهجر اسم واقع على مجموعة وليس باسم مدينة كالشام والعراق وخراسان ومن أمصاره : الاحساء ، وهي القصبة ، وتعرف بأسماء بني سعيد ، يحيط بها غوطة نخل ، والقطيف يحيط بها ساحل البحر ، وساحل هذا السقع يسمى : الخط واليه تنسب الرماح الخطية ، لكنه لا ينبت فيه لانه مكان للتجارة

---

(٤٥) تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/ ٤٢٠) ٠
(٤٦) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/ ٣٧٨) Ptolemy. VI, 7, 32.
(٤٧) نخبة الدهر (ص ١٢١)

بالبضائع »(٤٨)(٤٩) .

وجاء في « تاج العروس » : « وهجر اسم لجميع أرض البحرين » وقال ابن الاثير : بلد معروف بالبحرين ، وقال غيره : هو قصبة بلاد البحرين(٥٠) ويظهر من استعراضنا لآراء العلماء عن هجر ان هذه التسمية القديمة للمنطقة ، ولمدينة كانت بها ، ثم زاحمتها لفظة « البحرين » قبيل الاسلام ،حتى صيرتها فيما بعد في عداد مواضع البحرين .

ولابد وان يكون التجار قد نقلوا التسمية هذه الى اليونان واللاتين وبأسلوب محرف صيرها على الشكل المذكور ، ومع ذلك فجذر هجر موجود في هذه التسمية اليونانية اللاتينية .

وأما " Tyrus " ، " Tyre " فجزيرة من جزر البحرين ، وهي " Tylos " عند « بيلينيوس » " Pliny " (٥١) ، و " Tylus " عند « بطلميوس » من مجموعة جزائر ذكرها معها(٥٢) ويلاحظ وجود شبه بين كلمه " Tylus " وكلمة " Tilmun " أو "Dilmun" الوارده في النصوص الاشوريه ، يحملنا على التفكير باحتمال وجود صله

(٤٨–٤٩) نخبة الدهر (ص ٢٢٠) .

(٥٠) تاج العروس (٢/٦١٢) ، (هجر) .

(٥١) Wilson, The Persian Gulf, P., 5, 26, 27, Ency., I, P., 584.

(٥٢) Ptolemy, VI, 7, 47, Paulys - Wisswa, 17ter Halbband, 821.

بين الاسمين(٥٣) .

وقد ذهب « كلاسر » الى ان جزير " Tyros " ليست جزيرة من جزر البحرين بل هي جزيرة « دلة » ، أو « بليجرد » وحجته في ذلك ان المسافة التي أشار اليها « سترابو » هي أقرب الى جزيرة « بليجرد » من غيرها ، فرجحها لذلك على البحرين وعلى « دلة »(٥٤) .

وأما الجزيرة الثانية ، وهي Aradus فأمرها سهل بين ، فهي جزيرة « أرد » من جزر البحرين(٥٥) ، ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن(٥٦) ، وهي « عراد » عند « شبرنكر »(٥٧) وذهب « فورستر » الى انها جزيرة " Asgilia " وهي « عراد » ودعاها أيضا ب « بني صالح »(٥٨) ، وذهب « فون وزمن » الى انها « المحرق »(٥٩) .

وأما موضع "Macae" المقابل ل " Harmazi " « هرمز » فيعرف أيضا "Macae" " Maceta "(٦٠) وهو " Make "

---

(٥٣) Glaser, Skizze, II, S., 74, Wilson, P., 30.

تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٤٢١) .

(٥٤) Glaser, Skizze, II, S., 76.

(٥٥) Ency., I, P., 584.

(٥٦) Wilson, P., 31, Forster, II, P , 219, 221.

تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٤٢١) .

(٥٧) Sprenger, alte Geogr., S., 119.

(٥٨) Forster, II, P. 221, Paulys - Wissowa, 17ter, Halbband, 826.

(٥٩) Le Museon, 3 - 4, -1967, P. 498.

(٦٠) تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٤٢٢) .

Strabo, III, P. 186, Note 2, Wilson, P. 40.

لدى « بطلميوس » وهو موضع رأس الخيمة ، الرأس البارز في مضيق « هرمز » "Harmozi" .وربما الرأس وكل شبه الجزيرة المتصل بها.
ويعرف هذا الرأس عند الغربيين باسم «رأس Ras Musandam (٦١)

و «هرمز» فرضة كانت مقصودة يقصدها التجار القادمون من افريقية ومن الهند ومن ما وراء الهند ، وهي آخر بلاد كرمان(٦٢) .

ونجد شبها في النطق بين " Maka " " Macae "
و " Magan " " Maggan "

الموضع المذكور مع « ملوخا » في نصوص الآشوريين ، فهل نستطيع أن نستند الى هذا التشابه البعيد أو القريب بين الاسمين ونقول : انهما شيء واحد ، وان المراد بهما موضع واحد ؟ وأما الاختلاف الذي نراه ، فمرده الى التحريف والتغير الذي تقتضيه طبيعة النطق في الآشورية وفي الاغريقية ، وان الاصل واحد ، حرف فأخذ أشكالا شتى .

وتفوق معارف « بلينيوس »" Gaius Plinius Secundus " ٢٣ أو ٢٤ـ٧٩ بعد الميلاد معارف « سترابو » عن بلاد العرب ، فقد ذكر في كتابه : " Naturalis Historia " (٦٣) امورا عنها لم ترد في جغرافية سترابون . وقد استهل « بلينيوس » كلامه عن ساحل جزيرة

---

(٦١) Glaser, Skizze, II, S., 249.

(٦٢) نخبة الدهر (ص ١٧٦) . Glaser, Skizze, II, 249.

(٦٣) اعتمدت على الترجمة الانكليزية التي نشرها "H. Rackham" في سلسلة : The Loeb Classical Library تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٧٤ وما بعدها) .

العرب الشرقي بالاشارةالىموضعقالانه مجرىماءملح Flumen Salsum
ثم أشار بعد ذلك الى موضع من الارض هو رأس بارز في البحر سماه
« رأس كلدون » "Promontorium Chadone"
ثم الى ساحل يمتد خمسين ميلا يليه نهر اسمه نهر « خنم » « أخنه »
" Flumen Achenum " تليه بادية تمتد مئة ميل حتى تبلغ جزيرة
« ايكارم » Insulam Icarum وخليج كيبيوس " Sinus Capeus
تنزل به قبيلتا « جولوبس » "Gaulopes" "Gaulops" و « خطى »
"Gattaei" "Chattaei" ثم خليج « جرا » Sinus Gerraicus
ومدينة « جرا » Oppidum Girra التي يبلغ محيطها خمسة أميال ،
وفيها ابراج مشيدة بحجارة مربعة من الملح . وعلى بعد خمسين ميلا من
الساحل ارض تسمى : « أتينه » " Attene " وتقابلها في البحر
جزيرة تسمى : « تيروس " Tylos " " Tyros " " Tylus " تقع على
بعد خمسين ميلا من الساحل . وهي معروفة مشهورة بكثرة ما فيها من
اللؤلؤ ، وفيها مدينة تسمى باسمها . وعلى مقربة منها جزيرة أخرى
صغيرة تبعد اثنى عشر ميلا ونصف ميل عن رأس « تيروس " Tyros "
وتشاهد على مقربة منها جزر كبيرة يقال انه لم يذهب اليها أحد ، ثم
جزيرة « اسكلية » " Insula Ascliae " فجملة قبائل هي : «نخيطي»
" Nochaeti " و « زرازي » "Zurazi" و « بورجودي »
" Borgodi " واعراب موضع « قطر » Catharrei Nomades "
ثم نهر " Cynos " (٦٤) .

---

(٦٤) Pliny, VI, XXXII, 147-149, Vol. II, P., 449-451, Glaser, Skizze, II, S., 74.

وقصد « بلينيوس » ب " Flumen Salsum " «خوربوبيان» على ما يظن (٦٥) · وأما رأس «كلدونه» "Promontorium Chaldone" فيظن انه اللسان البارز في البحر المسمى ب « رأس الارض » وهو في امارة الكويت(٦٦) ·

وأما نهر « اخنم » فيجوز أن يكون « المقطع » « المكطع » وهو نهير يأخذ مياهه من « عين العبد » ، ويصب في البحر في « خور المعظة » في المنطقة الجنوبية الشرقية من امارة الكويت شمال خط العرض (٢٨)(٦٧) ويجوز أن يكون تحريف « غيل » أو « أغلية » ، أو « أغيل » ، والغيل هو الماء الذي يجري على وجه الأرض(٦٨) · ولبني عبد القيس بالبحرين نهر اسمه « محلم »(٦٩) هل يكون هو النهر الذي قصده « بلينيوس » ؟·

وقد ذهب « شبرنكر » الى ان جزيرة " Insula Ikarum " " Insula Icharum " " Icarus " هي جزيرة « أبو علي » «بوعلي» أما « كلاسر » ، فيرى انها من جزر بحر البنات ولا يستبعد كونها جزيرة « شرارة »(٧٠) · وقد ذكر « بطلميوس » في جغرافيته اسم جزيرة دعاها " Icara " (٧١) وهي هذه الجزيرة ولا شك · وهـذه الجزيرة هي

---

(٦٥) Forster, II, P., 213, Wilson, P., 51.
(٦٦) Forster, II, P. 213, Glaser, Skizze, II, S., 75.
(٦٧) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٩٤) Handbook, I, P. 285.
(٦٨) البلدان (٦/٣١٩) ·
(٦٩) البلدان (٧/٣٩٦) البكري ، معجم (ص ٥١٠) ، طبعه «وستنفلد» ·
(٧٠) Glaser, Skizze, II, 76, Forster, II, P., 214.
تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٢٩٤ وما بعدها) ·
(٧١) Della Geografia di Claudio Tolomeo; Parte Seconda P., 14, Glaser, Skizze, II, S , 76.

جزيرة « خارك » في نظر « ولسن » . ولكن وضع هذه الجزيرة الواقعة على ثلاثين ميلا الى الشمال الغربي من ميناء مدينة « بوشهر » لا ينطبق على موضع جزيرة " Icarus " الذي وصفه « بلينيوس » .

وقد ذكر جزيرة " Tylus " " Tylos " عدد من المؤلفين اليونان، فذكر « سترابون » انها تبعد عن مدينة : " Teredon " الواقعة في جنوب العراق مسيرة عشرة أيام بالسفن ، وذكر انه كانت بها مقامات ومعابد قديمة ، ونزل بها قواد الاسكندر الكبير الذين أرسلهم لاستكشاف جزيرة العرب ، فوجدوا انها ذات مياه عديدة وبها « القطن »(٧٢) .

ويظن بعض الباحثين انها جزيرة المنامة من جزر البحرين ، وقد عرفت سابقا ب « اوال »(٧٣) وقد ذهب « كلاسر » الى انها « دلمه » أو « بليجرد » ، وذلك كما ذكرت قبل قليل(٧٤) .

وأما خليج " Capeus " فيظن بأنه خليج " Abucaei " "Abugaion" "Boukaion" المذكور في جغرافيا « بطلميوس »(٧٥) .

وقد اختلفت آراء الباحثين في المراد بهذا الخليج ، فذهب «فورستر» و « شبرنكر » الى انه خليج القطيف ، أو خليج القطيف مع الخليج الذي

---

(٧٢) Paulys - Wissowa, Zweite Reihe, 14, Halbband, Erste Halfte, S., 1733.

(٧٣) اوال ، معجم ، البكري (ص ١٣١ ، ٧٣٥) (طبعة وستنفلد) .
Sprenger, alte, geogr., S., 116.

(٧٤) Glaser, skizze, II, S., 76.

(٧٥) Glaser, Skizze, II, S., 75.

فيه جزر البحرين[٧٦] ، ويرجح انه نسبة الى « بني عبد القيس » وقد كانوا من سكنة القطيف ومنطقة العروض قبل الاسلام ، واسمهم قريب من اسم هذا الخليج .

ولعل لتسمية "Abucaei" "Bukaei" صلة بقبيلة " Kabie " احدى القبائل الـ «٣٥» المذكورة في عهد « تغلاتبلاسر » « تغلث فلاسر » ٧٤٥ـ٧٢٧ ق.م[٧٧] .

وأما لفظة " Gaulopos " فمن الصعب تعيين مراد « بلينيوس »[٧٨] منها ، ويرى « شبرنكر » انها «خليج القطيف»[٧٩] .

وأما " Gattaei " " Chattaei " ، فانهم : " Chateni " أهل « الخط »[٨٠] ، و « الخط » هو ساحل ما بين عمان الى البصرة ، ومن كاظمة الى الشحر على رأي[٨١] وقد عرف بـ « حطا » في الموارد السريانية ، وهذا ما يقال أيضا بالنسبة الى خطا ، وهي تلك الاراضي الواقعة على ساحل البحر بالقرب من جزائر القطريين ، وهي غنية بالاشجار[٨٢] .

---

(٧٦) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٩٦ وما بعدها) .
Sprenger, alte geographie, S. 149, Forster, II, P.;
214, 216, Ency., II, P., 821, glaser, skizze, II, S.; 75.

(٧٧) Glaser, skizze, II, S., 247.

(٧٨) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٩٧) .

(٧٩) Ency., II, P. 821.

(٨٠) Pliny, VI. XXXII, 147-149, Vol, II, P., 449-451.

(٨١) البكري ، معجم (١/٣١٤) ، (طبعة وستنفلد) ، البلدان (٣/٤٤٩) ، Ency., II, P., 931

(٨٢) التاريخ الصغير ، ترجمة الاب د . بطرس حداد (ص ١٠٥)

وجاء في تاريخ الطبري ان « اردشير » بني بالبحرين مدينة سماها : « فنياذ أردشير » وهي مدينة « الخط »[٨٣] ·

وقد جعل بعض العلماء القطيف والعقير وقطر من قرى الخـــط ، وجعلوا السيف كله ، أي سيف البحر الخط[٨٤] والظاهر ان التسمية كانت أحسن حالا قبل الاسلام منها قبيل الاسلام وفي الاسلام ، اذ غلبت تسمية البحرين على الخط ، وصارت تعم الخط وغير الخط ، فصـار « المشقر » من البحرين[٨٥] ، وصارت « دارين » فرضـة بالبحـرين ، وصارت هجر بالبحرين[٨٦] ، وصارت قرى البحرين : « الخط والقطيف والآرة ، وهجر والفـروق ، وبينونـة » ، والمشقر والزارة وجواثـا ، وسابون ودارين والغابة والشنون[٨٧] ، بينما لا نجد للبحرين ذكر في كتب الاغريق واللاتين ·

وأما Attene " Regio Attene " فيرى البعض انها تحريف للفظة« الخط » وبناء على ذلك يكون المراد من " Chateni " و " Attene " شيئا واحدا · وذكر بطلميوس اسم موضع دعاه " Atta Vicus " يظن انه قصد به « الخط » كذلك[٨٨] ·

---

(٨٣) الطبري (٢/٤١) ، (١/٨٢٠) ، (طبعة ليدن) ·
(٨٤) اللسان (٧/٢٩٠) ، (خطط ، تـاج العـروس (٥/١٢٩) ، (الخط) ·
(٨٥) اللسان (٤/٤٢٢) ، (شقر) ·
(٨٦) اللسان (١٣/١٥٤) ، (درن) المسالك (١٢٥ ، ٢٤٩) ·
(٨٧) المسالك (١٥٢) نخبة (٢٢٠) ، المفصل (٥/٥٨٣) ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٤٠) ·
(٨٨) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٩٧) Ency., II P., 931

وقد ذهب البعض الى ان " Attene " تحريف « عدان » وعدان موضع في ديار بني تميم بسيف « كاظمة » وقيل : هو ساحل البحر كله كالطف[٨٩] .

وجزيرة "Asgilia" "Ascliae" هي جزيرة أرد ، " Aradus " " Arados " " Arathos " على بعض الآراء ، وهي جزيرة « عراد »[٩٠] .

وذهب « شبرنكو » الى ان " Zurazi " " Zurachi " هم سكان « الزارة » على مقربة من القطيف[٩١] . وقد ورد « مرزبان الزارة » في أخبار الفتوح[٩٢] ، وعين الزارة معروفة بالبحرين[٩٣] .

أما « فورستر » ، فيرى ان "Zurachi" "Zurazi" ، هم سكان موضع : "Sarcoa" "Zar" على نهر الزار أو « اللار » الذي ذكره « بطليموس »[٩٤] .

ويقع نهر " Flumen Cynos " ومعناه : « نهر الكلب » بعد قطر " Catharrei " ولا يوجد في الزمن الحاضر نهر بهذا الاسم في قطر أو عمان . وذكر بطلميوس ان في جزيرة العرب نهر اسمه « لار »

---

(٨٩) البلدان (١٢٦/٦) ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٩٧/٣) ، تاج العروس (٢٧٥/٩) ، (عدن) .

(٩٠) «عراد» حافظ وهبة (ص ٩٦) ، Forster, II, P., 221.

(٩١) الزارة ، معجم البكري (ص ٤٣٤) ، (طبعة وتستنفلد) .

(٩٢) البلدان (٣٦٧/٤) .

(٩٣) اللسان (٣٣٨/٤) ، (زور) ، تاج العروس (٢٤٦/٣) (زور) .

(٩٤) Forster, II, P. 222.

" Lar " ورسمه في خارطته للجزيرة[٩٥] فهل قصد بلينيوس هذا النهر ؟ أما فورستر فرأى انــه هو هــذا النهر ، وانــه في شبه جزيرة عمان[٩٦] • وأما شبرنكر فرأى ان مصبه عند موضع « سبخة » ، وأما « كلاسر » فذهب الى انه منحــدر وادي الدواســر[٩٧] • وأظــن ان وادي الدواسر هو الذي قصده « بلينيوس » و « بطلميوس » • ويكــاد يكون موضع هذا النهر في خارطــة « بطلميوس » ينطق بأن المــراد به وادي الدواســر • وفي عمــان موضـــع يعرف ب « خــور كلبــة »[٩٨] • وهو اســم يــكاد ينطبــق على معنــى : Flumen Cynos أي نهر الكلب • أفيجوز لنا اتخاذ هذا التشابه في المعنى سندا للقول انــه هو النهر المذكور في تاريخ « بلينيوس » ؟

وقد تطرق الجغرافي « بطلميوس » وهو من رجال القــرن الثاني للميلاد الى الخليج[٩٩] ، فذكر من مواضعه موضع : « جبال عصبون » "Asabon Mons" وهي جبال عمان تمتد حتى تتصل برأس «عصبون» " Asabon Prom " " Asabarum Prom " وهو الرأس البارز المكون لاحد فكي فم الخليج " Fretum Sini Persi "

---

(٩٥) Della Geografia Di Glaudio Tolomo Aleessandrino, Parte, Seconda, P., 14.

(٩٦) Forster, II, P. 222.

(٩٧) Glaser, skizze, II, S., 76.

(٩٨) Ency., III, P., 975.

(٩٩) كتاب جغرافيا في المعمور وصفة الارض وهذا الكتاب ثمان مقالات ، نقل للكندي نقلا رديئا ثم نقله ثابت الى العربي نقلا جيدا ويوجد سرياني « الفهرست » (ص ٣٨٩) •

ويراد به رأس الخيمة(١٠٠) ويسكن على ساحل هذا الساحل « العصبيون » " Asabonite "، وهناك مدينة سماها بطلميوس « عصب » لا تبعد كثيرا عن الساحل . وجاء في « الصفة » للهمداني و « العصاب : البحرين وأحوازه »(١٠١) ، فهل للعصاب صلة بـ " Asabo "

وتعنى جملة " Mons Asabo " رؤوس الجبال(١٠٢) ، ويراد بها حتى هذا اليوم أرض « رؤوس الجبال » ، المنتهية بـ « رأس مسندم » ، المشرف على مضيق هرمز ، وعلى ذلك تكون هذه المنطقة هي منطقة " Mons Asabon " ويكون موضع " Make " " Macae " " Maceta " " Maketa " هو موضع رأس الخيمة أو رأس « مسندم » ، وتقابل جزيرة « رأس مسندم »(١٠٣) .

وجعل « بطلميوس » لجزيرة العرب جملة أنهر ، أعظمها " Baitio " " Lar " " Styx " " Prionis " " Prion " " Ormano " (١٠٤) .

ونهر « اللاد » هو النهر الذي يصب من بين هذه الانهر في العربية الشرقية وتقع منابعه على مقربة من (Nagara Metrop) وهي مدينة

---

(١٠٠) Glaser, skizze, II, S., 216, Wilson; P, 52.
تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/ ٣٧٤) ، Forster, II, P., 225.

(١٠١) الصفة (١٦٨ سطر ١٣) .

(١٠٢) تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/ ٣٧٣ وما بعدها) .
Wilson, P., 40, 43.

(١٠٣) راجع الخرائط الموضوعة للخليج .

(١٠٤) Ptolemy, VI, 7, 1, 10.

« نجران » على الحافات الشرقيـة لسلسلة الجبـال[١٠٥] ، وهو نهـر " Flumen Cynos " عند « بلينيوس » في رأي بعض الباحثين .

ويصب في أرض : "Nareitae" "Lareitae" الواقعة بين أرض « اكلة السمك » "Ichthyophagi" وأرض : " Attaei " ، وتقع الى الشرق أو على مقربة منه مدينة « رجمة » "Regama" "Regma Polis"

" Rhegama Civitas " و " Cryptos Portus "

جبال معبد الشمس ، ومدينة "Kaspina" "Kapsina Polis"

ومدينة « كابانة » "Kauna" "Kabana"

ويظن ان نهر « اللار » هذا هو وادي الدواسر[١٠٦] . وقد ذكـر الادريسي نهرا يصب في الخليج سماه نهر (النار) وادي النار ، وهو في نظري هذا الوادي الذي دعاه « بطلميوس » باسم نهر اللار .

وجعل « بطلميوس » أرض « اللار » "Lareitae" "Nareitae" عند مصب نهر « اللار » في الخليج . وذكر من مدنها مدينة : « كبانه » " Kabana " " Kauana " " Kabana Polis "

وتقع على الساحل[١٠٧] .

وفي غرب نهر اللار وفي شمال أرض " Bliulaei " وضـع

---

(١٠٥) Ptolemy, VI, 7, 13, Glaser, Skizze, II, S , 22, 77; Hogarth, The Penetration. P., 21, B. Moritz, Arabien, S., 21.

(١٠٦) Glaser, skizze, II, S., 22, 77.

(١٠٧) Ptolemy, VI, 7, 14.

بطلميوس مدينة "Lathea" (١٠٨) وفي شرق مدينة (١٠٩). Larsis

وذكر بطلميوس من المواضع مدينة دعاها "Regma Polis"

اي « مدينـة رجمـة » " Regama " و " Rhegama Civitas "

" Cryptos Partus " وجبال معبد الشمس ومدينة « كابسينه »

" Kapsina Polis " " Kaspina " ومدينة « كابانه »

" Kabana Polis " " Kauana " .

وسمي بطلميوس الارض الواقعة في غرب "Nareitae" "Lareitae"

ونهر « اللار » باسم(Attae) و " Aigae " وفيهـا من المـدن

" Sarcoa Civitas " " Sarkoe Polis " " Sarco Civitas "

" Karad Polis " " Kadara " " Katara "

وقرية تسمى " Atta " (١١٠) " Atta Vicus " (١١١) . وآراء

العلمـاء متباينـة في مـراد « بطلميوس » بمدينـة :

" Regma " " Regma Polis " (١١٢) . وتقع هذه المدينة على

ما ذكره بطلميوس على الساحل ، وهي على حد قوله أول موضع بحري

تتجه منه السفن بعد مضيق «هرمز» و«رأس الخيمة» Cape Mesandum

"Musandam" نحو الساحل الغربي للجزيرة(١١٣)، وهو الموضع

---

(١٠٨) Ptolemy, VI, 7, 35.

(١٠٩) Spenger, alte geogr., 280, Paulys-Wissofa, 23ter Halbband, 908.

(١١٠) راجع خارطة « بطلميوس Glaser, Skizze, II, S., 223.

(١١١) Forster, II, P. 223.

(١١٢) Ptolemy, VI, 7, 14.

(١١٣) Paulys - Wissowa, Zweite Reihe, Erste Halbband, S., 504.

الذي دعـاه اصطيفانوس البيزنطـي " Rygma " وتقع المدينة عنده على ساحل وجون في الخليج يسمى " Rygmatitys " (١١٤) .

وتقع مدينة " Regma "على رأي « شبرنكر » عند رأس الخيمة وقد تكون على رأيه مدينة « جلفار »(١١٥) ، ويرى « كلاسر » انها على مقربة من رأس الخيمة ، ويرى أيضا احتمال كونها « رجمة » المذكورة في كتابات المسند ، أو « رعمة » المذكورة في التوراة(١١٦) ، أما « بلو » " Blau " ، فيرى انها « رجام » وهو موضع يقع على حدود عمان من البحرين(١١٧) .

وذكر شيخ الربوة ان نهر « الفلج » ينبعث من « جلفار » ويجري الى « منح » ثم الى « جلفار » ثم يصب في البحر(١١٨) .

أما "Kabana" "Kabana Polis" "Kauana" الواقعة في أرض " Nareitae " وذلك على الساحل المقابل لجزيرة « ابن كاوان » ، « كافان » وهي « قشم » في الوقت الحاضر(١١٩) فيرى « فورستر » انها

---

(١١٤) المصدر نفسه .

(١١٥) البلدان (٣/١٢٦) ، المقدسي ، أحسن التقاسيم (ص ٦٣) ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٧٦) ، (١/٤٢٢) .
Sprenger, alte geogr. S., 126.

(١١٦) التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٧ ،
Glaser, Skizze, II, S., 78, 252.

(١١٧) البلدان (٤/٢٢٦) ،
Blau, in ZDMG., XXII, S., 666.

(١١٨) نخبة الدهر (ص ٢١٨) .

(١١٩) Ptolemy, VI, 7, 14, Paulys-Wissowa, 20ter Halb-band, S., 1396.

« كلبة »[١٢٠] أما « شبرنكر » فيرى انها الموضع المسمى « ام الكوين » « أم القوين » الواقع في جنوب غربي رأس الخيمة[١٢١] . ولكن أفلا يجوز أن يكون مراد « بطلميوس » من " Kabana " " Kauana " « ابن كاوان » « ابن كافان »[١٢٢] ، وهي جزير معروفة عند علماء الجغرافيا المسلمين وكانت عامرة يقصدها التجار ؟

وتلي أرض " Attae " أرض سماها " Gerraei " وتشرف على خليج " Gerraei " من مواضعها : " Magindanata " ومدينة " Gerra " " Gerra Polis " و " Bilbana " " Bilaina " " Bilana " وفي غرب مدينة " Gerra " أو في شمال غربيها وعلى مبعده نصف درجة منها تقع مدينة تسمى "Katara" في خارطة « بطلميوس »[١٢٣] وهي " Cataraei " عند « بلينيوس »[١٢٤] .

وتتصل بأرض " Gerraei " أرض تدعى : "Thaemae" " Thaimon " وبها خليج اسمه : "Magorum Sinus " "Mogon Kalpos" وموضع " Istriana " ومدينة أخرى .

وتقع مدينة Magindanata في أرض "Gerra" "Gerrha" على الخليج[١٢٥] . ويرى « شبرنكر » انها كلمة مركبة من " Magier " أي « مجوس » ومن كلمة أخرى فارسية هي « استان » " Istan "

---

(١٢٠) Forster, II, 223.

(١٢١) Sprenger, alte geogr., 167.

(١٢٢) المسالك والممالك (٦١) ، نخبة الدهر (ص ١٦٦) .

(١٢٣) Ptolemy, VI, 7, 32.

(١٢٤) Pliny, VI, 28, 147.

(١٢٥) Ptolemy, VI, 7, 16.

أو « دان » ، وان موضعها على خليج العقير[126] ، وذهب كلاسر الى ان موضعها على خليج « القطن » على مقربة من « ياس » أو انها موضع « مجان » " Magan " المذكور في الكتابات الآشورية[127] .

وتتصل بأرض " Gerraei " أرض تدعى " Thaemae " "Thaimon" وبها خليج اسمه "Magorum Sinus" "Mogon Kolpos" وموضع : " Istriana " ومدينة أخرى . ويحتمل على رأي « كلاسر » أن تكون لكلمة " Thaemae " " Thaimon " صلة ب « تيم » ويرى أيضا احتمال كون " Magon " من «مكان» " Magon " أو (مكان) " Makan " وهو اسم أرض ذكرت في النصوص الآشورية مع « ملوخة » ، وهي في نظره " Make " المذكورة في نص « دارا » " Darius " [128] .

أما «فورستر» ، فيرى ان "Thaemae" "Themoi" "Themi" [129] هم « بنو تميم » ، وكانوا يقيمون على خليج " Magorum Sinus " في جنوب " Thar " على نهر " Astan " [130] .

---

(126) Sprenger, alte geogr., S., 134.

(127) Glaser, Skizze, II, S., 225, Paulys - Wissowa, 27 ter, Halbband, S., 399.

(128) Glaser, Skizze, II, S., 223, f., 251.

(129) Ptolemy, VI, 7, 17.

(130) Forster, II, P., 215-216, Paulys - Wissowa, 10ter, Halbband, S., 1700.

وتتصل بأرض " Thaemae " أرض " Laenitae " وبها خليج يسمى بهذا الاسم : " Laenitus Kolpos " وموضع " Itamus Partus " وهو ميناؤها(١٣١) .

ومن مواضع : "Laenitae" " Aalanitae " " Aeanitai "

موضع دعاه « بطلميوس » باسم " Malliada " ويقع على مقربة من رأس "Chersonesos" (١٣٢) وموضع دعاه باسم «سفته» "Saphta" ويقع في العربية الشمالية في شمال شرقي مدينة " Alata Polis " الواقعة عند جبل " Alata " (١٣٣) وفي غرب مدينة " Gerra " أو في شمال غربيها وعلى مبعدة نصف درجة منها تقع مدينة ' Katara ' "Catara" في خارطة « بطلميوس »(١٣٤) . ومدينة " Catara " هي " Cataraei " عند بلينيوس أي قطر(١٣٥) ، ويظهر انها كانت ذات صيت وشهرة قبل الميلاد ، ولم تكن مدينة حسب ، بل كانت مدينة ومصرا كذلك به اعراب ، ذكرهم « بلينيوس » . فقال : «واعراب قطر» "Catharrei Nomades" (١٣٦) وقد عثر فيها على أدوات من حجر

---

(١٣١) Ptolemy, VI, 7, 18, Le Museon, 3 - 4, 1967, P. 494.

(١٣٢) Paolemy, VI, 7, 18.

(١٣٣) Glaser, Skizze, II, S., 252.

(١٣٤) Ptolemy, VI, 7, 32.

(١٣٥) Pliny, VI, 28, 147

(١٣٦) Pliny, VI, XXXII, 147-149, Vol., II p., 449-451.

تعود ما قبل التاريخ ، عثر عليها في مواضع متعددة من أرض قطر مما يدل على انتشار السكن فيها ٠

وقد كانت قطر أرضا ومدينة في أيام الاسلام كذلك ، جاء في لسان العرب « وبالبحرين على سيف وعمان مدينة يقال لها قطر »(١٣٧) ، وليست لعلماء المسلمين فكرة واضحة عنها ، فمنهم من جعلها بالبحرين، ومنهم من جعلها بين البحرين وعمان ، ومنهم من جعلها بين القطيف وعمان ، ومنهم من ذكر انها تمتد من عمان الى الاحساء ٠ وقد اشتهرت باللؤلؤ(١٣٨) ٠

ويقال ان سرجون الاكادي استولى في حوالي السنة « ٢٣٠٠ ق٠م » على البحرين وقطر ، وقد كانت لسواحل الخليج صلة دائمة بالعراق ٠ بدليل هذه المخلفات التي عثر عليها علماء الآثار والتي تشير الى أثر العراق من مختلف طرق الحياة في سواحل الخليج ٠

وقد عرفت شبه جزيرة قطر ب «بيت قطرايي» في السريانية ، وقد كانت لها صلات بالمذاهب النصرانية بعد الميلاد ، اذ اقيمت بها الكنائس، وساهم رجال الدين فيها في المجالس الكنيسية التي انعقدت للنظر في امور اختلاف أوجه نظر رؤساء الكنيسة في اللاهوت وظهر بها علماء مثل جبرائيل وداد يشوع وايشو عياب وايوب وغيرهم(١٣٩) ٠

---

(١٣٧) اللسان (٥/١٠٦) ، (قطر) ٠

(١٣٨) البلدان (٧/١٢٣) ، تاج العروس (٣/٥٠٠) ٠ (قطر) ، الاعلاق النفسية (ص ٨٧) ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٣٩)، نخبة الدهر (ص ٧٧) ٠

(١٣٩) التاريخ الصغير لمؤلف مجهول ترجمة الاب دكتور بطرس حداد (ص ٨١) ٠

وذكر ان الفرس لما حاصروا الاسكندرية بعد استيلائهم على القدس في « ٢٠ أيار ٦١٤ م » وصعب عليهم فتحها ، خرج اليهم رجل اسمه بطرس ، وأصله من « بيت قطرايي » ، أي من قطر فأرشدهم الى موضع اقتحموا منه المدينة وكان هذا الرجل قد جاء الى الاسكندرية لدراسة الفلسفة والعلوم(١٤٠) .

وذكر بصليموس أرض "Abucaei" ومن مواضعها «Coromanis app.» وبها خليج يسمى بخليج «Sinus Capeus» في تاريخ «بلينيوس» وذكر «بطلميوس» اسم خليج في أرض "Abucaei" سماه "Sacer Sinus" عليه مدينة تسمى "Coromanis" (١٤١) .

ويظن « كلاسر » ان قبيلة " Kabie " وهي من القبائل التي كانت في أيام « تغلت فلاسر » الثاني هي قبيلة " Abucaei " (١٤٢) وفي أرض " Abucaei " خليج سماه « بطلميوس » "Sacer Sinus" عليه مدينة تسمى : "Coromanis" (١٤٣) « ويرى فورستي » ان هذه المدينة هي « القرين » « الكرين »(١٤٤) .

ورأى بعض العلماء ان " Abucaei " " Aboukaioon " هم « عبد القيس » سكان البحرين القدماء(١٤٥) .

---

(١٤٠) التاريخ الصغير (ص ٨١) .

(١٤١) راجع خارطة بطلميوس ، Ptolemy, VI, 7, 19.

(١٤٢) Glaser, Skizze, II, S., 247.

(١٤٣) Ptolemy, VI, 7, 19.

(١٤٤) Forster, II, P., 213, Paulys - Wissowa, 22ter Halbband, S., 1422.

(١٤٥) Forster, II, P., 214.

ومن المدن القريبة من البحرمدينة سماها «بطلميوس» " Jucara " " Iukara "، وهي تقع على خليج « ميسانيته » "Mesanites Sinus" " Sinus Mesanites "(١٤٦) ، وقد ذهب « فورستر الى ان " Jukara " " Jucara " « الجهرة » في الزمن الحاضر ، وهي قرية من قرى امارة الكويت ، أرضها خصبة ، تشاهد فيها آثار عمران قديم ، وقد عثر فيها على نقود قديمة وتشاهد فيها بعض التلال تغطي على ما يظهر تلك الآثار(١٤٧) . وقد انفرد « بطلميوس » بذكرها من الكلاسيكيين(١٤٨) ، وذكر معها موضعين آخرين ، هما "Ammaia" و " Idikara "(١٤٩) .

وذكر « بطلميوس » أسماء هذه الجزر : " Ammaia " و "Ichara" ، "Taro" ، "Tylos" ، "Arados" ، "Aradus" على انها قريبة من الساحل(١٥٠) .

أما جزيرة افانا "Apphana Insula" فهي جزيرة «فيلكة»

---

(١٤٦) Ptolemy, V, 19, 4, Ency., I; P.; 43.

(١٤٧) حافظ وهبة (ص ٨٢) تاريخ الكويت (ص ٢٣) .
Forster, II, P., 214.

(١٤٨) Paulys - Wissowa, 19ter Halbband, 1918, 6. f.

(١٤٩)
Ptolemy, V, 19, V, V, 19, Paulys - Wissowa, IX, 1193.

(١٥٠)
Ptolemy, VI, 7, 47, Paulys - Wissowa, 17ter. Halbband, 821.

« فيلجة » ، « فيلكا » من جزر الكويت ، في نظر بعض الباحثين ، وقد عثر فيها على آثار اغريقية تعود الى بقايا رجال حملة الاسكندر الاكبر للاستيلاء على جزيرة العرب ٠

وذهب بعض الباحثين الى ان " Ichara " (١٥٢) هي جزيرة "Icaros" "Ikaros" في « جغرافيا » « سترابون » ٠ وقد ذكر «سترابون» ان هذه الجزيرة معبدا خصص لعبادة « ابولو » Apollo ومنزلا لاستيحاء
" Diana Tauropolus " , " Artemis Tauropolos "
انباء الناس بالمغيبات(١٥٣) ٠ وذكر هذه الجزيرة « اريانوس » كذلك ، وقال : انها على بعد «١٢٠» اسطاديون الى الجنوب من الساحل الذي يصب فيه الفرات في البحر « شط العرب » ، وان بها معبدا لعبادة « ارتيمس » Artemis وان الاسكندر الاكبر هو الذي أمر بتسميتها:
" Icaros " " Ikaros " تخليدا لاسم جزيرة " Ikaros "
من جزر بحر ايجة ، وذكر هذه الجزيرة كتاب آخرون(١٥٤) ٠

وذهب بعض الباحثين ، استنادا الى تقدير « اريانوس » عن بعد

---

(١٥٢) Ptolemy, VI, 7, 47.

(١٥٣) Strabo, XVI, III, 2.

(١٥٤) Arrianus, Anaba., VII, 20, 3.

هذه الجزيرة عن سواحل العراق الجنوبية الى ان هذه الجزيرة هي جزيرة فيلكة ، « فيلجة » « فيلكا »(١٥٥) . وذهب بعض آخر الى انها «بوبيان» بينما ذهب بعض آخر الى انها « أبو علي » «بو علي»(١٥٦) . أما «كلاسر» فذهب الى انها احدى جزر بحر « اليتان » وهي جزيرة «شرار »(١٥٧) ، ورأى آخرون انها « كارو »(١٥٨) .

وأما جزيرة " Tharo " " Ithar " " Tahr " " Taro " فهي جزيرة « تاروت »(١٥٩) .

وذكر « بطلميوس » أسماء جملة مدن تقع في البر ، من هذه المدن : «Softa» ، "Satula" ، "Sata" , "Aina" ، "Lugana" (١٦٠) "Gordo" ، "Marata" "Gaisa" ، "Arre Kome" ، "Digima" (١٦١) ، "Catara" ، "Sata" ، "Mastala" ، "Figia" ، "Alata Polis" ,

(١٥٥) Ritter, Erdkunde, X, 39, Bent, Southern Arabia, 1900, 22, Strabo, III, P., 186, note: 5, (Hamilton Ed.), Le Museon, 3 - 4, P., 494, 1967.

(١٥٦) Paulys - Wissowa, 17ter Halbband, 822. f., le Mueeon, 3 - 4, 1967 P., 494.

(١٥٧) Glaser, skizze, II, S., 76.

(١٥٨) Paulys-Wissowa, 17ter Halbband, 825-826.

(١٥٩) المفصل (١٧٦/١) .

(١٦٠) وكتبت " Lugama " " Zaguna "

(١٦١) أيضا " Digema " , " Disima " , " Dinena " .

"Domana" ، "Attia" ، "Rabana Regia" (١٦٢)"Iirta" ،
"Cabuata" (١٦٣) .

ولا يعني هذا الترتيب للمواضع انها مرتبة ترتيبا جغرافيا منسقا ، وانها متقاربة متسقة فبينها مواضع تقع فيجهات أخرى من جزيرة العرب، وأبرز هذه المواضع وأظهرها هو موضع " Catara " ، الذي هو " Cataraei " عند « بلينيوس »(١٦٤) ، وهو « قطر » . وقد ذكر « ابن خرداذبه » المتوفي في حدود سنة (٣٠٠) للهجرة ، قطر علىطريق البصرة الى عمان ، فذكر ان الطريق من البصرة الى عبادان ، ثم الى الحدوثة ، ثم الى عرفجاء ثم الى الزابوقة ، ثم الى المقر ، ثم الى عصى ، ثم الى المعرس ، ثم الى خليجة ، ثم الى حسان ، ثم الى القرى ، ثم الى مسيلحة(١٦٥) ، ثم الى حمض ، ثم الى ساحل هجر ، ثم الى العقير ، ثم الى قطر ، ثم الى السبخة ، ثم الى عمان ، وهي : « صحار ودبا»(١٦٦) .

وذهب « شبرنكو » الى ان موضع " Masthala " ، هو «المشقر ويقع حصن « المشقر » على تل اسمه « عطالة » وعطالة لفظة قريبة من " Masthala " ولهذا ذهب الى انها " Masthala " (١٦٧) .

---

(١٦٢) «Rauna»

(١٦٣) ريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٨٤) .

(١٦٤) Pliny, VI, 28, 147.

(١٦٥) هكذا في (ص ٦٠) و (القرنتين) في (ص ١٩٣) من كتاب المسالك والممالك طبعة (دي غويه) ، (١٨٨٩م) .

(١٦٦) مسيلحة (ص ٦٠) ، مسلحة (ص ١٩٣) .

(١٦٦) المسالك (ص ٦٠ ، ١٩٣) .

(١٦٧) عن المشقر ، معجم البلدان (٤/٥٤١) « طبعه وستنفلد » .
Sprenger, alte geography, 193, Paulys - W. 28ter Halbband, 2168.

وقد جعل « ابن حبيب » المشقر بهجر ، وذكر انها كانت مقصودة لسوقها التي تقوم أول يوم من جماديالآخرة الى آخر الشهر « فتوافي بها فارس يقطعون البحر اليها ببياعاتهم ، ثم تنقشع عنها الىمثلها من قابل، وكانت عبد القيس وتميم جيرانها • وكان ملوكها من بني تميم • من بني عبد بن زيد ، رهط المنذر بن ساوى »(١٦٨) •

وفي دولة الامارات العربية المتحدة موضع يقال له « العين » عثر على مقربة منه على قبور وآثار وقد قدر تاريخ بعض المدافن بمنتصف الالف الثالث قبل الميلاد(١٦٩)، فهل يمكن اعتبار هذا الموضع هو موضع "Aina" المذكور عند بطلميوس ؟

وقد وقع تبدل خطير في الاوضاع السياسية في الخليج أدى الى ظهور اعلام وتراجع اعلام ، فنجد بروز اسم البحرين عند ظهور الاسلام ، وتغلبه على غيره ، وقد ذكر « ابن خرداذبه » قرى البحرين وهي : « الخط والقطيف والآرة وهجر والفروق وبينونة » ، و « المشقر والزارة وجواثا » و « سابون ودارين والغابة والشنون »(١٧٠) ، وذكر في موضع آخر « والبحرين ــ الرميلة جواثا ، الخط ، القطيف ، السابون ، سوم المشقر ، الدارين ، الغابة(١٧١) ، فيظهر من ذلك ومن أخبار دخول

---

(١٦٨) المحبر (ص٢٦٥) •

(١٦٩) الآثار ، رقم ٣ ، طارق النعيمي ، اصدار وزارة الاعلام والثقافة في دولة الامارات العربية المتحدة •

(١٧٠) المسالك (ص ١٢٥) •

(١٧١) المسالك (ص ٢٤٩) ودارين اسم فرضه بالبحرين ينسب اليها المسك • يقال : مسك داري •

البحرين في الاسلام أيام الرسول ، ان هذه التسمية غطت منطقـة واسعة من ساحل الخليج بينما لا نجد لتسميتها ذكرا في كتب اليونان واللاتين.

وذكر بعض العلماء ان سقع « بلاد البحرين ويسمى القوس ، وهجر اسم واقع على مجموعة وليس باسم مدينة كالشام والعراق وخراسان . ومن أمصاره : الاحساء ، وهي القصبة ، وتعرف باحساء بني سعد يحيط بها غوطة نخل ، والقطيف يحيط بها ساحل البحر وساحل هذا السقع يسمى : الخط ، واليه تنسب الرماح الخطية ، لكنه لا ينبت فيه لانـه مكان للتجارة بالبضائع ، وحمض ساحلية وحبانا ساحلية »(١٧٢) .

واذا راجعنا كتب الجغرافيا العربية المستندة على جغرافيا بطلميوس نراها قد أغفلت ذكر الجـزر التي أشار اليونان وبضمنهم « بطلميوس » اليها على انها من جزر الخليج ، وكذلك أسماء معظم المدن «Polis» والمواضع الاخرى التي وردت في كتب اليونان واللاتين . فانت اذا أخذت كتاب صورة الارض « للخوارزمي » وهو كتاب استخرجه « من كـتاب « جغرافيا الذي ألفه بطلميوس القلوذي »(١٧٣) أو كتاب عجائب الاقاليـم السبعة ، لسهراب(١٧٤) ، وقد استخرج من كتاب بطلميوس أو « كتاب الاقاليم للاصطخري(١٧٥) ، وهو كتاب يستند على « جغرافيا » بطلميوس كذلك ، أو المؤلفات الجغرافية الاخرى المستندة على «جغرافيا» بطلميوس

---

(١٧٢) كتاب نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، لشيخ الربوة ، (ص ٢٢٠) ، تحقيق « ميرن » ، (١٩٢٨ م) .

(١٧٣) تحقيق « هانس فون مشك » ، Hans Von Mzik فينـا (١٩٢٦ م) .

(١٧٤) حققه « فون مشك » أيضا ، وطبع بفينا سنة (١٩٢٩ م) .

(١٧٥) تحقيق " Dr. J. H. Moeller " .

مثل نزهة المشتاق للادريسي ، نرى انها قد أغفلت شيئا كثيرا من الاعلام الواردة في كتاب بطلميوس ، ولم تشر اليها .

خذ فصل : « الجزائر التي في بحر البصرة » ، المدون في كتاب صورة الارض « للخوارزمي » ، تراه يذكر خطوط طول وعرض جزائر لكنه لم يذكر اسم جزيرة واحدة منها ، فلم نستنفد مما كتبه عنها(١٧٦) ، وخذ هذا الفصل المسمى : « الجزائر التي في بحر البصرة ، وهو البحر الفارسي » في كتاب « عجائب الاقاليم » لسهراب ، تجد الشيء نفسه فلا تجد فيه اسم جزيرة واحدة من جزر الخليج(١٧٧) ، مع ان بطلميوس قد دون ذلك في خارطته وفي كتاب جغرافيته ، فهل اسقاط العلماء تلك الاعلام لعدم وقوفهم على المراد منها ؟

وقد ذكر « ابن خرداذبه » ، بعضا من جزر الخليج مثل جزيرة خارك . وجزيرة لاوان وجزيرة ابرون وجزيرة خين وجزيرة كيس وجزيرة ابن كاوان وهي جزر مقابل الساحل المكون لايران(١٧٨) ، وفيه مكران وكرمان(١٧٩) ، وذكر شيخ الربوة ان من جزر الخليج : تسعة منها أربعة عامرة وهي جزيرة خارك وجزيرة « كاس » ، وتسمى جزيرة قيس وجزيرة اوال وهي تجاه البحر بساحل بلاد ، البحرين ، وبينها يوم ، وبها مدينة لها جامع أيضا ، وجزيرة يافت تعرف بجزيرة بني كافان ، وجزيرة فارس ، بازاء خوزستان(١٨٠) .

---

(١٧٦) (ص ١٠٠) .
(١٧٧) (ص ٧٨) .
(١٧٨) المسالك والممالك (ص ٦١ وما بعدها) .
(١٧٩) الاعلاق النفيسة (٨٧) .
(١٨٠) نخبة الدهر (ص ١٦٦) .

النشاط التجاري القديم في الخليج العربي وآثاره الحضاريـة

رضا جواد الهاشمي
استاذ مساعد بقسم الآثار
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقـــــدمة :

على الرغم من الخصائص الطبيعية للخليج العربي وموقعه المميـز بين عدد من مراكز الحضارات القديمة ، والتي تبوأه لاحتـــلال مكانـة مرموقة في الاحداث التاريخية للعالم القديم ، لكن المعلومات عـــن نشاط سكانه القدماء ودورهم الحضاري في رفد الحضارة الانسانية ، كان قليلا جدا لا يزيد عن بضعة أسطر مـــن اشارات عابرة وردت في المصادر اليونانية الاولى .

يقول هيرودتس ، بأن الفينيقيين على أيامه كانوا يدعون بأن أجدادهم سكنوا سواحل الخليج العربي قبل نزوحهم الى ساحل البحر المتوسط [١].

---

(١) Francis R. B. Godelphin, The Greek Historians. Twovolums, New York 1942, Herodotus, VII, 89; I: 1.

واطلق هيرودتس على الخليج العربي اسم « البحر الاحمر » وقد شاع استخدام هذه التسمية في بعض المصادر الكلاسيكية لتشمل الخليج العربي والبحر العربي والبحر الاحمر . كما ترد تسميات معينـة لبعض منها ، مثلما فعل هيرودتس عندما اطلق تسمية « الخليـج العربي » على البحر الاحمر .

ولكن الخليج العربي احتل جزءا كبيرا من اهتمام الاسكندر وخططه لاستكشاف الطرق البحرية التي تربط بين أطراف امبراطوريته ، التي بلغ امتدادها قبيل وفاته في بابل عام ٣٢٣ ق٠م ، من بلاد اليونان غربا والى وادي السند شرقا ٠

فالخليج العربي كان طريق المواصلات البحرية الوحيد الذي يربط بين بابل وبين الهند ، كذلك فهو الطريق الوحيد الذي يوصل من بلاد الرافدين الى مصر ٠ وفي نفس الوقت فهو طريق يتيح التعرف على الجزيرة العربية ويوصل الى منافذها المتعددة ٠ ولا ننسى في هذا الخصوص الاشارة الى رغبة جامحة كانت تغلي في صدر الاسكندر صوب احتلال جزيرة العرب ٠ فبالاضافة الى شهرة خيراتها الزراعية ومنتجاتها الغالية من الطيوب والافاوية ، فقد بقيت البلاد الوحيدة التي لم تذعن لحكم الاسكندر [٢] ٠

وكان من نتيجة الحملات البحرية الاستكشافية التي بعثها الاسكندر للتعرف على الطرق البحرية التي توصل الى جزيرة العرب ، والتي انطلقت من بابل وبدأت مسيرتها الفاشلة في مياه الخليج العربي مساحلة جزيرة العرب ، أن وصلتنا مدونات يونانية ورومانية (المدونات الكلاسيكية) عن نتائج هذه الحملات والمناطق التي مرت بها والتي يشك أنها تعدت رأس مصندام [٣] ٠

الخليج العربي في المدونات الكلاسيكية :

تناقل الكتاب والمؤرخون والجغرافيون أخبار ومعلومات هذه

---

(٢) Arrian, VII, 19-1; 20-9.

(٣) G. F. Hourani, Arab-Seafaring in the Indian Ocean. - Beirut 1963 p. 13.

الرحلات الاستكشافية التي أمر الاسكندر بتنفيذها، كما كشفوا لنا من خلال تسجيلاتهم عن استمرار هذا الاهتمام بالخليج العربي للفترات التي أعقبت موت الاسكندر • وعلى الرغم مما فقد من هذه الاعمال المدونة ، فان ما وصلنا منها يلقي بعض الضوء على أقسام من طريق الملاحة البحرية في الخليج العربي وبعض معالم الحياة خلاله •

ومن بين هؤلاء الكتاب الذين تركوا معلومات واسعة عن الخليج نذكر أريان(٤) وسترابون(٥) وغيرهما كثير •

ان تتبع اشارات المؤلخين والجغرافيين الكلاسيكيين عن الخليج العربي تؤكد صلاحية طريق ساحلة الغربي للملاحة البحرية القديمة ، وهو نفس الطريق الذي سعت الحملات الاستكشافية للتأكد منه وتثبيت المعلومات عنه في تقاريرها التي رفعتها الى الاسكندر •

فالحديث عن الجزر الرئيسية على طريق الرحلة البحرية منطلقة من فم الفرات نحو الجنوب في مياه الخليج العربي ، وتعيين ما تستغرقه الرحلة الى كل منها من الوقت ، وتشخيص بعض الملامح الطبيعية والحياتية فيها ، يوضح القصد الذي تحركت بموجبه هذه الرحلات الاستكشافية ، فتشير المعلومات المتجمعة من تسجيلات الكلاسيكيين الى صلاحية السواحل المتاخمة لجزيرة العرب من مياه الخليج العربي

---

(٤) The Greek Historians. op. cit, "Arrian S'Anabasis of Alexander (66-B.C. - 24 A. D.) and Indica " vol II.

(٥) The Geography of strabo (66-B.C. - 24 A.D.) Translated by Horace Leonard Jones. Book XVI - London, Newyork 1930.

للملاحة البحرية الجيدة الى ما بعد البحرين ، وهي المناطق التي بلغتها الرحلات الاستكشافية •

ولا يخفي الكتاب الكلاسيكيون أسباب اهتمامهم بطرق الملاحة في الخليج العربي عندما يشيرون الى الجرهاء ، ويورد بعضهم حديثا مستفيضا عنها وبالاخص عن تجارتها وثروتها واتصالاتها •

فيذكر بوليبوس Polybus (٢٠٤ – ١٢٢ ق•م•) ان الجرهاء كانت المركز التجاري في جزيرة العرب ، ونقطة انطلاق القوافل التجارية من بلاد البهار والافاوية ، وتتشعب منها الطرق الى مكة والبتراء ، كما كانت على اتصال وثيق بمواني الخليج العربي ، ولها تجارة نشطة مع أغريق سلوقية •

ويضيف أكاثار شيدس Agatharchides بأن أهل الجرهاء كانوا من أغنى سكان العالم آنذاك ، وكانوا ينافسون السبأيين في ثرائهم ، ومرد ذلك الى تجارتهم برا على ظهور القوافل وبحرا في السفن ، وكانوا يصدرون البخور الى بابل بكثرة (٦) •

وبسبب سوق الجرهاء التجارية الكبيرة ، ورغبة في السيطرة على طرق التجارة العالمية في الخليج العربي ، جرد أنطيوخس الثالث حملة عسكرية بحرية لاحتلالها فنزل في دجلة وساحل جزيرة العرب في مياه الخليج يقصد الجرهاء عام (٢٠٥ ق•م•) ، ولكن أهل الجرهاء فاوضوه على تغيير خطته مقابل أموال طائلة دفعوها اليه ، فوافق الملك على

---

(٦) A. Wilson, The persian Gulf, London 1921 p. 46.

فؤاد جميل « الخليج العربي في مدونات المؤرخين – البلدانيين الاقدمين » سومر ١٩٦٦ ص ٥٢ •

ذلك ، وغير وجهة سيره بعيدا عنهم فذهب أولا الى جزيرة تايلوس (البحرين) ثم عاد الى سلوقية (٧) •

كانت هذه المعلومات المتفرقة في مضانها الموحدة في موضوعها تمثل الزاد الاول أمام الباحثين عن تاريخ وحضارة الخليج العربي عامة وعن التجارة وطرقها ونشاطاتها فيه خاصة •

ومما أضافته كتابات الكلاسيكيين أشارات الى مدن وجزر ومواقع وقبائل عديدة ، تطلب البحث عنها وتعيينها جهودا مضنية شارك فيها علماء اللغات القديمة وعلماء الآثار • فبالاضافة الى جزيرتي ايكاروس وتيلوس اللتان وردتا في أخبار أريان ، يضيف بليني عند حديثه عن طريق المواصلات البحرية في الخليج العربي اسم قرية طريدون ، ويرى بأنها تقع أسفل التقاء نهري دجلة والفرات • ونظرا لاهتمام بليني بدراسة النبات فهو يتحدث عن نباتات تايروس (تايلوس ــ البحرين) فيعدد انواع الاشجار المثمرة ، ويؤكد زراعة القطن فيها • كذلك يرجح بليني أن سبب اطلاق لفظة « السعيدة » على قسم من بلاد العرب هو اللؤلؤ الذي يأتي من البحر العربي (٨) •

وفي كتاب « الطواف حول البحر الارتيري » لمؤلف مجهول يظن انه دون في حدود سنة ٨٠ م أو ٥٠ م (٩) • يتم التأكيد على طريق ملاحة

---

(٧) Wilson, op. cit.; Hourani, op. cit., p. 14.

فؤاد جميل ، المصدر السابق ، ص ٥٢ـ٥٣ •

(٨) Pliny (23-79 A.D.) Natural History. XII, 38-39, 84. Translated by : H. Rackham, Loeb Classical Library. London. 1967.

(٩) Hourani, op. cit. P. 18f.

بحرية نشطة بالحركة التجارية تصل في نهايتها عند مدينة أبولوكوس Apologos التي لم يسبق لاحد من الكتاب الكلاسيكيين أن ذكرها من قبل ، ولكنها ذات شهرة كبيرة في المصادر العربية الاسلامية حيث ترد تحت اسم الابلة • وعلى الاغلب أن الابلة حلت محل طريدون في مكانتها التجارية لاستقبال البضائع والسفن الهندية والعربية التي تأتي من خلال الخليج العربي وصولا الى بلاد وادي الرافدين وجنوب غرب فارس ، أو الى سوريا وسواحل البحر المتوسط وقد انشأ المسلمون على أنقاض الابلة مدينة البصرة التي لا تزال بمكانتها التجارية الحالية تحاكي مدن الموانيء السابقة •

ومثلما كانت طريدون والأبلة من بعدها ، ميناء رئيسا عند فم الفرات ودجلة ، فان خاراكس كانت الميناء الرئيسي عند فم دجلة وكارون •
وانها بقيت مدينة تجارية رئيسة منذ تأسيسها على يد الاسكندر والى مطلع القرون الميلادية [١٠] •

تاثير الاوضاع السياسية على النشاط التجاري في الخليج العربي :

شهد القرن الاول قبل الميلاد متغيرات سياسية كبيرة في خارطة العالم القديم فقد اجتاحت الامبراطورية الرومانية آخر معاقل السلوقيين في سوريا عام ٦٤ ق•م • واصبحت سوريا وسواحل البحر المتوسط الشرقية مجالا رحبا لنشاطات الرومان • وكان السلوقيين قبل ذلك قد فقدوا مراكزهم في العراق اثر نجاح الفرثيين عام ١٤٤ ق•م •

وأعقب هذه الاحداث أحتلال مصر من قبل الرومان أيضا عام ٣٠ ق•م• ، بذلك حلت أقوام ـ وهم الرومان ـ لا يقل اهتمامها بالبحر وطرقه ونشاطاته بخاصة التجارية منها ، عن أسلافهم اليونان ـ السلوقيين في

---

(١٠) Pliny, VI, 138.

العراق وسوريا والبطالمة في مصر • ولكن الشقة الشرقية من الامبراطورية اليونانية السابقة والتي ضمت العراق والخليج العربي واقسام من ايران ، أصبحت الان تحت زعامة وسيطرة الفرثيين • والفرثيون أقوام بدوية الأصل وفدت من سهوب آسيا الوسطى ، وكانت علاقتهم بالبحر ونشاطاته ضعيفة جدا ان لم تكن منعدمة • لذلك أصبح النشاط التجاري في الخليج العربي والمحطات التجارية الرئيسية في نهايته بأمرة زعماء مدينة خاراكس العرب كما يخبرنا بذلك بليني[١١] •

ولكن من جانب آخر واصل الرومان جهود اسلافهم بطالمة مصر في في محاولات الاستكشاف للطرق البحرية الجديدة التي توصلهم من مصر الى الهند مباشرة بعد أن فقدوا السيطرة على طريق الخليج العربي ، فنجحت محاولاتهم بعد أن تعرفوا على أسرار هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب صيفا[١٢] •

فلم يعد طريق الخليج العربي طريق الملاحة البحرية الوحيد مع الهند ، وأخذت نشاطاته التجارية تقل تدريجيا أمام تطور وسائط النقل البحرية الرومانية التي أخذت تزيد من رحلاتها وتوسع حجم تجارتها مع الهند من خلال خط تجاري بحري مباشر عبر البحر الاحمر والبحر العربي من مصر الى الهند • وربما يفسر ذلك توجه اهتمام الرحالة والمستكشفين لخطوط الملاحة البحرية صوب البحر الاحمر وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية ، مثلما فعل صاحب كتاب « الطواف حول البحر الارتيري » الذي لم يذكر سوى اشارة عابرة الى مدخل الخليج العربي عند سواحل عمان •

أخذ الفرثيون يوسعون اهتمامهم بالطرق التجارية البرية التي تقدم

---

(١١) Ibid.

(١٢) Hourani, op. cit. P. 24

من الهند والصين عابرة بلاد ايران لتنتهي في مدن الأسواق التجارية شرق البحر المتوسط •

وقد بلغت هذه الطرق أوج ازدهارها على العهد الساساني حيث اشتهر منها مايعرف بخط الحرير • لذلك انصرف الفرثيون والساسانيون عن الاهتمام بالملاحة في الخليج العربي وتجارته البحرية ، فأدى ذلك الى زيادة هيمنة العرب على الطرق التجارية ومراكز الاسواق التجارية في الخليج العربي ومنافذه ، وهذا يؤكده بليني بقوله أن زعامة خاراكس التجارية بأيدي العرب •

ان هذه النشاطات التجارية في الخليج العربي وما تسببه من ثروة وقوة وقدرة ، هي التي حركت عرب الخليج لمهاجمة مملكة الساسانيين ، وكانت البحرين تحتل مكان الصدارة من بين ، المهاجمين • لذلك اضطر شابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩م) الى محاربتهم وايقاف غزوهم للاقسام الجنوبية الغربية من ايران ـ اقليم فارس ـ ونالت البحرين ومنطقة الخط الشيء الكثير من ضربات شابور[١٣] • ولكن هذه الاحداث لم توقف النشاط التجاري في الخليج العربي ، بل يواصل مسيرته الطويلة • وتبلغ نشاطاته اسواقا تجارية جديدة وصلت في حدها الشرقي الاقصى أبواب الصين ، وأصبحت الابله مركزا رئيسا لتجارة الخليج العربي تصلها سفن الهند والصين[١٤] •

ويمكننا أن نستدل من تأسيس المسلمين مدينة البصرة على أنقاض الابلة ، عمق تقديرهم لاهمية الطريق التجاري في الخليج العربي •

---

(١٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٩٢ ـ ٩٣ ، دار صادر بيروت ١٩٦٥ •

(١٤) Hourani, op. cit. P. 45f.

مصادر جديدة لدراسة النشاط التجاري في الخليج العربي :

حاولنا فيما سبق رسم صورة للنشاطات التجارية في الخليج العربي وذلك بموجب المصادر المدونة المتيسرة أمام الباحثين •

ولكن السنوات التي أعقبت أواسط القرن التاسع عشر ، كشفت عن اعداد كبيرة من النصوص المسمارية في مواقع متعددة من مدن حضارة وادي الرافدين منها العواصم الاشورية كنينوى وآشور ونمرود والمدن البابلية كبابل وسبر وكيش ، والمدن السومرية كأور ولجش ونفر والوركاء • وأخذ البحث العلمي في تاريخ الحضارات والشعوب القديمة يعتمد مصادر جديدة لم تكن مألوفة من قبل • ففي الوقت الذي كانت أقدم المصادر المدونة التي تتعرض لتاريخ الشعوب والحضارات القديمة انما ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ، مستفيدة من كتابات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين الذي يأتي في مقدمتهم شيخ المؤرخين هيرودتس، أصبحت المصادر المدونة بعد اكتشاف مراكز الحضارات القديمة والتعرف على مدوناتها الكثيرة في كل من بلاد وادي الرافدين وسوريا والاناضول ومصر تعود بنا الى تاريخ أقدم يرجع الى مطلع الالف الثالث ق•م• •

وليس الفارق الزمني لوحده يفيدنا في دراسة أوجه النشاطات الانسانية القديمة ، بل لان المصادر المدونة القديمة المستكشفة حديثا وضعت بين أيدينا تفصيلات دقيقة عن بعض مظاهر الحياة والحضارة ، لم تكن لتتوفر أمام الباحثين لولا هذه المدونات القديمة •

ومن بين المناطق التي أشارت اليها المدونات العراقية القديمة ـ المسمارية ـ بشيء من التفصيل ـ الخليج العربي[١٥] •

---

(١٥) رضا جواد الهاشمي : « الخليج العربي في ضوء المصادر القديمة » المجلة التاريخية العدد ٤ سنة ١٩٧٥ •

تتناول الكتابات المسمارية شتى الموضوعات ذات الصلة بنشاط وممارسات العراقيين القدماء • ومن هذه الكتابات المسمارية نصوص دينية وسياسية وتذكارية وقصص وأساطير وملاحم وتسجيلات تاريخية وتشريعات وقرارات محاكم وغير ذلك • ولكن من أكثر النصوص المسمارية أهمية وذات علاقة مباشرة بموضوعنا هي تلك المجاميع الكبيرة من النصوص الاقتصادية • وهي التي تتناول شؤون البيع والشراء والقرض والايجار والتجارة وغير ذلك من المعاملات الاقتصادية والمالية والتي يستند ابرامها بين طرفين لعقد قانوني •

ان دراسة النصوص الاقتصادية بامعان يكشف لنا بوضوح المستويات الحضارية للمجتمع بعيدا عن العظمة الفارغة التي تتردد غالبا على ألسنة الحكام وتدون في التسجيلات التذكارية والتاريخية •

وتعرفنا النصوص الاقتصادية ايضا ، وبخاصة التجارية منها ، بالصلات الحضارية بين المراكز المختلفة من حيث الكم والنوع ، وبطرق الاتصال بالعالم الخارجي وسبله ووسائله • وهي في هذا الخصوص تترك لنا أحيانا كثيرة معلومات جيدة عن مسالك التجارة ومناطق المواد المختلفة المستوردة • لذلك فهي تقدم صورة حقيقية للواقع الحضاري ومستوى الحياة في قطر من الاقطار مثلما تعكس لنا معلومات عن الاقطار المجاورة •

ولذلك نعتمد المصادر المسمارية في رسم صورة دقيقة للنشاطات التجارية في الخليج العربي ومراكزه التسويقية الرئيسة وصلاته الحضارية ، حيث نخلص منها الى أن الخليج العربي احتل مكانة فريدة في تاريخ النشاطات العالمية القديمة • ولم تكن محاولات اليونان على عهد الاسكندر الا رغبة في اعادة الحياة الى الشرايين القديمة لتجارة الخليج العربي •

الخصائص الطبيعية والجغرافية للخليج العربي :

قبل البدء باستعراض النصوص المسمارية ذات العلاقة بتجارة الخليج العربي ، يجدر بنا أن نقف قليلا عند بعض الخصائص الطبيعية والجغرافية لمنطقة الخليج لنتبين منها أحوالا مناسبة تهيء لهذه المكانة المتميزة التي تبوأها الخليج العربي في عصوره القديمة على طريق الرحلات التجارية العالميـــة •

الخليج العربي منخفض من الارض يقع بين هضبتين عظيمتين هما شبه الجزيرة العربية من الغرب وايران من الشرق • وقد بدأت مياه المحيط الهندي بغمر هذا المنخفض منذ حوالي (١٢٫٠٠٠) سنة ، وذلك على أثر انتهاء ذروة العصر الجليدي الرابع فيورم Wurm ، ومن خلال المليء التدريجي للمنخفض بلغت المياه في الخليج العربي مستواها الحالي في حدود سنة (٥٠٠٠) ق٠م[١٦]

وترتبط سواحله الغربية وخط أعماق المياه فيه بانحدار بطيء تدريجي يبدأ من قلب هضبة نجد ، ليصل في أعمق نقاطه على مقربة من الشاطيء الايراني • ومقابل الارض ـ المفتوحة في الجانب العربي نشاهد على امتداد الساحل الايراني من حدود بوشهر شمالا والى مضيق هرمز جنوبا سلسلة جبلية وعرة تعرف بجبال كرمان •

يمتد الخليج العربي باتجاه شمالي غربي وينتهي عند السهول الفيضية لجنوب العراق (بلاد سومر قديما) حيث تصب فيه هناك ثلاثة أنهر هي الفرات ودجلة وكارون كانت تفرغ مياهها منفردة في العصور

---

(١٦) Wrner Nutzel, "The Formation of the Arabian Gulf from 14000-3500 B.C." Sumer 1975. P. 101 ff.

القديمة ، بينما تشترك الان في مصب واحد هو شط العرب الذي ينتهي بالخليج العربـي •

يبلغ أقصى عرض للخليج العربي ٣٨٦كم ، وأقصى ضيق له حوالي ١٢٩كم ، ويبلغ طوله من ساحل عمان الى نهايته عند سهول بلاد الرافدين ٧٢٢كم ، وتبلغ مساحته الكلية ١٤٥ر٠٠٠ كم[٢] •

ان مياه الخليج العربي ضحلة بشكل عام ، ولا تزيد أعمق نقطـة فيها عن ١٠٠م وتزداد المياه عمقا كلما اقتربنا من الشواطىء الشرقية وكلما ابتعدنا جنوبا في الخليج العربي •

تنتشر على جانبي هذا الخليج مجموعة من الجزر ، يقترب معظمها من الساحل • وبسبب ندرة المياه العذبة في منطقة الخليج العربي عامة ، فأن مراكز توفر المياه العذبة القليلة تجتذب أناسا كثيرين فزادت كثافـة السكان فيها ، كما في الاحساء (منطقة الهفوف) والبريمي وجزيـرة البحريـــن •

يشهد الخليج العربي هبوب رياح شمالية غربية (الشمال) ويستمر هبوبها (٩) أشهر في السنة • وفي الشتاء يتعرض الخليج العربي وبشـكل مفاجيء وعاصف لرياح شمالية شرقية تشكل خطورة كبيرة بالنسبة الـى وسائط النقل المائية الصغيرة •

كما تهب على الخليج رياح جنوبية غربية تعرف محليا (سويحلي) تصل في شدتها احيانا الى حدود العصف وتنتهي بعد بضعة ساعات مـن هبوبهـا •

واخيرا تبقى الرياح الجنوبية الشرقية التي تمر بقوة على سواحـل خليج عمان لكنها قليلة الضرر بالنسبة للملاحة في الخليج العربي •

ان ضحالة المياه قرب السواحل العربية للخليج مع كثرة التعرجات والخلجان فيها ، هيأت ظروفا طبيعية جيدة للملاحة القديمة • كذلك ساعد توفر ضرورات الحياة وابرزها المياه العذبة ، وبغزارة احيانا في عدد من نقاط الساحل وبعض الجزر على تنشيط الرحلات البحرية بمحاذاة الساحل الغربي للخليج العربي •

يقابل ذلك عمق ملحوظ في مياه الساحل الشرقي للخليج وانعدام مصادر المياه العذبة ، ويضاف الى ذلك الشقة الساحلية الضيقة والخالية من مصادر المياه والمنفصلة عن الاراضي الايرانية الداخلية بسلسلة جبال كرمان الوعرة الخالية من المنافذ •

وتتضح هذه الحقيقة التاريخية حتى في الوقت الحاضر ، ففي الوقت الذي تكثر فيه الموانىء باختلاف حجومها والمرافىء الجيدة ومناطق الاستيطان البشري الواسعة على السواحل والجزر المتاخمة لجزيرة العرب وهي تمتد من البصرة شمالا والى دولة الامارات العربية جنوبا ، يقابل ذلك انعدام الحياة على الساحل الايراني أو في بعض الجزر المتفرقة القريبةمنه ، فيما عدا مركزين هما بندر بوشهر فيالاطراف الشماليةللخليج العربي وبندر عباس عند مضيق هرمز • ومن أبرز الاسباب الجوهرية لقيام هذين المركزين والمينائين الرئيسين لايران على الخليج العربي ، توفر معابر ممكنة في امتدادات جبال كرمان تسمح باتصال هذين المركزين بمراكز اقليم فارس في المناطق الجنوبية الغربية لايران •

ان الاعمال الاثارية التي استكشفت في الخمس والعشرين سنة الماضية مئات المستوطنات القديمة على امتداد السواحل الشرقية لجزيرة العرب المطله على الخليج ، وكذلك في بعض الجزر القريبة من الساحل مثل فيلكة (الكويت) وتاروت (مقابل ساحل القطيف) والبحرين

وشبه جزيرة قطر وجزيرة أم النار (دولة الامارات العربية المتحدة) ، لم تقدم لنا دليلا واحدا على وجود مواقع ساحلية قديمة على الجانب الايراني (١٧) والذي نستطيع اضافته الى العوامل الطبيعية السابقة الذكر ، والتي شجعت وسائط النقل المائية القديمة على ولوج مياه الخليج العربي ، هو أن الخليج العربي ، كان ولايزال يشكل المنفذ المائي الوحيد بالنسبة لمركزي حضارة بلاد وادي الرافدين وايران القديمتين • وتمنح سواحله المفتوحة صوب جزيرة العرب مجالا رحبا للتفاعل بين التجارتين البرية والبحرية •

ومنذ مطلع القرن الحالي يواصل الآثاريون اكتشاف مواد أولية ومصنعة غير عراقية الاصل في المواقع الآثارية العراقية الوسطى أو الجنوبية بشكل خاص • واكتشفت في أور ولجش وكيش وتل أسمر أختام منبسطة مربعة ، ليست غريبة على صناعة الاختام الاسطوانية العراقية فحسب ، بل انها نماذج مطابقة للاختام المربعة السندية التي عثر عليها في خارابا وموهنجدارو (١٨) •

لذلك تأكد للباحثين بأن صلات تجارية – مباشرة أو غير مباشرة – قامت بين مراكز الحضارة العراقية وبين مراكز الحضارة في وادي السند •

وفي ضوء هذه المعلومات بدأ السعي الحثيث لاكتشاف طرق هذه الصلات التجارية بين المركزين ، وكان الخليج العربي بما يوفره من

(١٧) Elisabeth C. L. During Caspers, "Harappan Trade in the Arabian Gulf in the third Millennuium B. C. "Mesopotamia, VII, 1972, P. 170.

(١٨) Sir John Marshall, Mohenjo-Daro and the Indus Civilization. London-1931, vol. II. P. 370 ff.

امكانية رحلات بحرية بالوسائل القديمة ، أفضل الطرق المرشحة الاتصال •

التكامل الاقتصادي بين العراق والخليج العربي :

كان القسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين ـ بلاد سومر قديما ـ موطن الحضارة الاول ، يفتقر الى العديد من المواد الاولية اللازمة في عملية البناء الحضاري •

فالمنطقة خلو من المعادن المختلفة بما فيها النفيسة ، ومن الحجارة الجيدة بما فيها الكريمة ، ومن الاخشاب المستقيمة الصلبة • يقابل ذلك أن أرض جنوب العراق بسبب خصوبتها ووفرة مياهها توفر المنتجات النباتية والحيوانية الى الحدود التي تفيض عن حاجة الاستهلاك المحلي •

ان المنطقة الوحيدة المرشحة لاستيراد هذه المواد من المنتجات النباتية والحيوانية هي منطقة الخليج العربي وذلك بسبب النقص الملحوظ في ثرواتها الزراعية والحيوانية التي تتأثر بالعوامل المناخية ونقص المياه • لذلك قامت بين العراق قديما وبين مناطق الخليج العربي صلات تعزز التكامل الاقتصادي فيما بينهما • ولذلك أيضا نقرأ في قائمة الصادرات العراقية الى الخليج العربي الشعير والزيت النباتي والاصواف والجلود والمنسوجات وبعض المواد المصنعة كالاختام الاسطوانية[١٩] •

ونظرا لكون المواد المصدرة من العراق تكشف ان المستفيدين الحقيقيين منها هم سكان الخليج العربي القدماء ، لذلك تطلب الامر منهم ان يوفروا موادا تجارية تحتاجها السوق العراقية وتطفىء قيمة

---

(١٩) W. F. Leemans : Foreign Trade in the old Babylonian period. Leiden, Brill, 1960 P. 19ff;

مستورداتهم ، فكان النحاس الذي صدر الى العراق بكميات كبيرة ، والحجر بأنواعه المختلفة وبعض ما يفيضه البحر من خيرات خاصة بمنطقة الخليج العربي كاللؤلؤ ، اضافة الى بعض المنتجات الزراعية وبشكل خاص التمر ، والبصل [٢٠] .

ويضاف الى ذلك ان الخليجيين القدماء لعبوا دور الوسيط الكبير في ايصال منتجات شبه القارة الهندية ومناطق جنوب غرب ايران وبلوجستان وافغانستان ، حيث كان الطلب عليها متزايدا في الاسواق العراقية .

وكما سيتضح لنا من عمليات التجارة الواسعة بين العراق وبين الخليج العربي ، تطلب ذلك بالضرورة وجود اسواق ومراكز تجارية رئيسية تشكل في نفس الوقت مرافىء جيدة لرسو السفن التجارية في رحلاتها عبر مياه الخليج العربي .

وقد تأكد اليوم ، وبعد مضي اكثر من خمسة وعشرين عاما على أعمال التنقيب والاستكشاف الآثريين في مناطق الخليج العربي ، تعيين عدد من هذه المراكز التجارية والمرافىء القديمة ، تبدأ بفيلكا مع مطلع الرحلة التجارية من فم الفرات أو دجله أو كارون ، تليها جزيرة تاروت على ساحل القطيف ، ثم جزيرة البحرين ، واخيرا جزيرة أم النار في أقصى جنوب الخليج العربي على مقربة من شواطىء أبو ظبي (العاصمة) .

كما تم التأكد من وجود صلات وثيقة بين هذه المراكز على الخط

---

(٢٠) H. W. F. Saggs : The Greatness that was Babylon, P. 275, London 1962.

البحري للمواصلات وبين مراكز ساحلية على أطراف الارض العربية ، وذلك من خلال التشابه القوي في المواد الاثرية • فشكل وتخطيط وعمارة المدافن الدائرية في جزيرة أم النار تتطابق مع نظيراتها في هيلي وحفيت في أطراف منطقة العين داخل الارض في دولة الامارات العربية المتحدة (٢١) ، وكذلك مع مدافن قرية « بات » القريبة من « عبري » مدينة القوافل التجارية البرية في عمان التي تربط سواحل عمان الشمالية على الخليج العربي (في دولة الامارات المتحدة) وبين أرض البخور في حضرموت (٢٢) •

ان انتشار العناصر الثقافية وأساليب الصناعة وجوانب من الافكار كما تعكسها المخلفات المادية في حدود واسعة تشمل مواقع ساحلية وجزر على مقربة من الساحل في الخليج العربي ، يدفع بعض الباحثين للقول باحتمال وجود وحدة حضارية تضم هذه المناطق ، منها ـ حضارة دلمون ـ (البحرين) ، فهي تضم في نطاق دائرتها الحضارية البحرين وفيلكه ، وتضم بعض الاقسام الساحلية على الارض الرئيسية وبخاصة المنطقة القريبة من الظهران حيث أكتشفت عندها مجموعة من المقابر التلية ـ (Tumuli) ـ على غرار مدافن البحرين المشهورة(٢٣) •

وأمام جملة المعطيات الطبيعية وخصائص الموقع ، وما عزته أعمال

---

(٢١) الآثار في دولة الامارات العربية المتحدة : أعداد ادارة ألآثار والسياحة ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ ١٩٧٥ ص ٢٢ فما بعد •

(٢٢) Karen Frifelt, "Apossible Link Beween the Jemdet Nasr and The Umm an-nar Graves of Oman" in the Journal of Oman studies vol I. p. 57 ff.

(٢٣) Caspers, op. cit. P. 171.

التنقيبات الحديثة في الخليج العربي ، ننتقل بالقارىء لمسح النشاطات التجارية بين العراق والخليج وتعيين موادها وحجمها ووسائل نقلها وكل ما يتعلق بها من اهتمامات بذلها الحكام والتجار العراقيون • وسنعتمد في عملية المسح على النصوص والوثائق الاقتصادية التي تطرقت الى مثل هذه النشاطات مع الخليج العربي •

النشاط التجاري في الخليج العربي في ضوء النصوص المسمارية :

تورد النصوص المسمارية العراقية ذكر بحرين كبيرين يقع أحدهما الى الشمال أسموه « البحر الشمالي » أو « بحر أمورو العظيم » أي البحر الغربي العظيم • وهو البحر المتوسط • وأطلقوا على البحر الثاني تسميات عديدة منها « البحر السفلي » الجنوبي و « بحر شروق الشمس » و « البحر المر » وقصدوا به الخليج العربي(٢٤) وتشير النصوص المسمارية عند حديثها عن الخليج العربي الى ثلاثة مراكز رئيسية فيه ، او يتم الوصول اليها من خلاله • وعندما ترد هذه المراكز سوية في أحد النصوص ، تذكر بالتسلسل التالي : دلمون (تلمون) ـ مكان ـ ميلوخا • مما يدفع للذهن بأن هناك صلة بين هذا التسلسل وبين المسافات التي تفصلها عن مراكز الحضارة العراقية القديمة(٢٥) •

وقد أصبحت البحرين ، بفضل جهود البعثة الدانمركية للتنقيب عن الآثار في الخليج العربي ، تحتل الموضع الجغرافي لدلمون

---

(٢٤) James B. Pritchard : Ancient Near Eastern Texts. Relating to the Old Testament. Third Edition with Supplenent, princeton. New Jersy 1969. P. 267, 278, 281, 297.

(٢٥) Ibid.

القديمة[٢٦] كما يتفق غالبية الباحثين في تحديد عمان او الاقسام الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية مقابل مكان القديمة[٢٧] .

أما بالنسبة الى ميلوخا ، فمعظم الادلة القرينة تشير الى تطابقها مع مناطق في شبه القارة الهندية ، وربما تكون على ساحل مكران ، وقد تمتد داخلا في الاراضي الهندية لتشمل مراكز الحضارة السندية القديمة في موهنجدارو وخرابا [٢٨] .

وبموجب هذا التشخيص للمراكز القديمة ، يكون تسلسل ذكرها في النصوص المسمارية متفقا مع الآراء القائلة بأنها تتطابق مع المسافات التي تفصلها عن مراكز الحضارة العراقية القديمة .

وتوفر الادلة الكافية في النصوص المسمارية التي عنيت بالتجارة مع هذه المراكز بأن طريق المواصلات الذي ربط بينها وبين مراكز الحضارة العراقية ، انما يتمثل بطريق المواصلات البحرية في الخليج العربي . لذلك فهي أسواق تجارية وموانىء رئيسة على طريق التجارة البحرية في الخليج العربي ، وأن طرق التجارة البحرية هذه تمثل جانبا مهما من النشاط الحضاري لهذه المراكز .

---

(٢٦) G. Bibby : Looking for Dilmun. (Proof Edition Book. 1973) p. 91 ff.

(٢٧) A. Hastings, J. H. Humphries and R. H. Meadow : "Oman in the third Millennium B. C." Jos, Vol. II. 9 ff.
Maurizio Tosi : "Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman" Jos, vol. I. P. 187 ff.

(٢٨) Leemans, op. cit., p. 159ff.

فدلمون « رصيف لسفن سومر » في أسطورة أنكــي وننخرساك ، ويرد أيضا ذكر « قارب مكان » في أسطورة الطوفان السومرية[٢٩] •

وفي قصيدة سومرية عنوانها « أنكي ونظام العالـم » يرد مايلي • وملئت قوارب دلمون ، وحملت قوارب مكان بكل سعتها ، ونقلت قوارب ماكليوم (يظن أنها نوع من سفن الحمولة التجارية) الذهب والفضـة من ميلوخا الى نفر »[٣٠] •

ويؤكد أورنمو في مقدمة قانونه أنه « أرجع سفن مكان الخاصة بنار الى القنال المجاورة وجعلها مشهورة في أور »[٣١] •

وتشير مسلسلة لغوية قديمة معروفة بأسم HAR _ ra=hubullum الى أسماء القوارب التالية : « قارب ماري ، قارب آشور ، قارب أور قارب أكد ، قارب تلمون ، قارب مكان ، قارب ميلوخا » فهي اشـــارة واضحة الى الموانىء الرئيسية التي كانت تصلها الرحــلات التجــارية البحرية في الخليج وتكمل مسيرتها في نهر الفرات وصولا الى مارى (تل الحريري عند الحدود السورية العراقية) والى آشــور علــى دجلــة[٣٢] •

فسكان دلمون ومكان وميلوخا ملاحون متمرسون على ركـــوب البحر ، يستقبلون في موانئهم السفن العراقية مثلما ترسو سفنهم في موانىء المدن العراقيــة •

---

(٢٩) J. Pritchard, op. cit. 37-47; S. N. Kramer, The Sumerians, chicago 1964, p. 281 ff.

(٣٠) Kramer op. cit., p. 174 ff.

(٣١) Pritchard, op. cit., p. 523.

(٣٢) Leamans, op. cit. p. 10.

وهكذا تتوضح أهمية هذه المراكز التجارية من النصوص الاسطورية والقصصية ذات الملامح الدينية قبل أن نتناول النصوص الاقتصادية مباشرة • فهذه المراكز تصدر الذهب والفضة ، وأهل ميلوخا يأتون أكد حاملين معهم بضائعهم الغريبة كما تشير الى ذلك مرثية أكد •

لذلك تدفعنا هذه النصوص صوب التسجيلات التاريخية والاقتصادية لنقف من خلالها بوضوح وتفصيل على أبعاد الصلات الحضارية عامة والتجارية بشكل خاص بين العراق والخليج العربي •

ففي نص دون على لسان الامير أورنانشه مؤسس سلالة لجش (في حدود عام ٢٤٥٠ ق•م•) وهو من أقدم النصوص التي تشير الى تجارة الخليج العربي ، يرد فيه أن « قوارب دلمون جلبت الخشب »(٣٣) •

ونظرا لاهمية المواد الاولية التي تأتي من تجارة دلمون ، وربما أيضا بسبب قربها من فم الفرات ، يعمد سرجون الاكدي الى ضمها لنفوذه مع غيرها من المناطق وأنه يبقيها تحت أمرة من يأتي بعده الى الحكم(٣٤) •

ويتأكد عندنا أن رغبة سرجون الاكدي للسيطرة على دلمون وغيرها من المناطق كما يشير النص الذي اقتبسنا منه قبل قليل ، تتمثل في رغبته الشديدة بأحكام السيطرة على تجارة الخليج العربي ومراكزه الرئيسة وتوجيه هذه التجارة الى بلاد وادي الرافدين • فسرجون يريد

---

(٣٣) P. B. Cornwall, "Two Letters from Dilmun" in JCS, VI, no. 4, p. 137.

(٣٤) Pritchard, op. cit., p. 119

من وراء ٣٤ حملة عسكرية ، كما يخبرنا في نص آخر من نصوصه ذات العلاقة بالخليج ، أخضع خلالها جميع المدن بعيدا الى ساحل البحر ، وجعل مزيدا من السفن تقدم من ميلوخا ومكان ودلمون الى ميناء أكد[٣٥] ويواصل نرام سين حفيد سرجون الاكدي الاهتمام بالخليج العربي وتجارته ومراكزه التجارية عندما يزحف « باتجاه بلاد مكان ويلقي القبض على مانود انو ملك مكان »[٣٦] .

ويستمر الطريق التجاري البحرى في الخليج العربي نشطا على عهد كوديا أمير مدينة لجش (حكم في حدود عام ٢١٥٠ ق٠م٠) فقد « جمعت مكان وميلوخا الاخشاب من جبالها (وأرسلتها الى لجش) لاجل بناء معبد ننجرسو » • ويخبرنا كوديا في نص آخر بأنه " تسلم الحجر الاحمر من ميلوخا بكميات كبيرة "[٣٧] •

ونصل الى تقدير عال لاهمية تجارة الخليج العربي عندما نصادف أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (بحدود عام ٢١٠٠ ق٠م٠) يخضع السفن التجارية القادمة من الخليج العربي لرقابة مشددة ، منعا لتسرب تجارتها الى غير الموانىء الحكومية فيذكر في مقدمة قانونه أنه « بقوة ننار - سيد مدينة أور - أرجع سفن مكان الخاصة بننار الى القنال المجاورة وجعلها مشهورة في أور »[٣٨] .

وتصلنا من أور على عهد سلالتها الثالثة أي عهد أورنمو وخلفائه ، نصوصا كثيرة يتوضح من خلالها حجم التجارة المتبادلة مع مراكز الخليج العربي ، وأنواع المواد المستوردة ، حيث يبرز النحاس من بين

(٣٥) Ibid., p. 268.

(٣٦) Pritchard, op. cit., p. 266

(٣٧) Ibid., p. 268-69.

(٣٨) Ibid., p. 523.

المعادن بشكل خاص ، كذلك الاحجار الكريمة والعاج والاخشاب الجيدة والعطور • وتعرفنا النصوص التجارية أيضا على مناشيء هذه المواد ، فالنحاس ونوع من القصب يأتي من مكان ، وتأتي الاخشاب والعاج من ميلوخا • كما أن نوعا من الحجر يأتي من دلمون •

ولكن تجارة أور مع الخليج العربي تقتصر في فترة العهد البابلي القديم (وبخاصة مابعد عام ١٨٠٠ ق•م•) على دلمون • ولكن بعضا من النصوص تواصل تسجيل تجارة مكان بالنحاس • وكانت السفن التجارية تحمل بالاقمشة المختلفة والاصواف ودهن السمسم والجلود والشعير وغيرها من المواد من أور متوجهة نحو مراكز الاسواق والموانيء في الخليج مقابل استيراد النحاس وبعض أنواع الحجر •

ويبدو أن بعض المواد العطرية كانت تصل معبد الآله ننار في أور كهدايا ونذور اعترافا من قبل المنتفعين بالرحلة التجارية بفضل الآله عليهم(٣٩) •

وليس أدل على أهمية الرحلات التجارية البحرية لمدينة أور من نماذج القوارب البحرية الغضية التي كانت تهدى غالبا الى معبد ننكال (زوجة ننار) فرعاية الالهة ننكال لهذه النماذج ستشمل أشكالها الحقيقية وهي في عرض البحر •

كما نستطيع أن نعرف أنواع المواد التي كانت تجارة أور تستوردها من الخليج العربي من خلال الهدايا التي كانت ترسل الى معبد ننكال مع وصول الرحلات التجارية بسلام الى أور • فأحد النصوص يشير الى الفضة واللازورد والعقيق واللؤلؤ (يسمى في النصوص عيون

---

(٣٩) Leemans, op. cit. p. 19-21

السمك) وأنواع من الحجر بأشكال وحجوم مختلفة مما يؤكد استخداماته المتعددة ، وكذلك الذهب ومشط عاجي ومرجان أبيض وأواني مطعمة بالعاج وغيرها من المواد . وهذه المواد كما يذكر النص هي حصة الالهة ننكال من رحلة تجارية نفذها تجار عراقيون الى دلمون .

فذلك دليل على ان هذه القائمة الطويلة من المواد كانت من صلب المستوردات العراقية تستقطع منها حصة الالهة (٤٠) .

أشرنا قبل قليل الى أن دلمون أحتلت مكان الصدارة في تجارة العراق الخارجية مع الخليج العربي . ولكن يرد من بين المواد المستوردة من رحلة تجارية الى دلمون ، مواد تقرن بمكان او ميلوخا ، مما يؤكد أن دلمون أصبحت مع مطلع الالف الثانية ق.م. - وبخاصة بعد سقوط سلالة أور الثالثة - سوقا تجاريا رئيسيا في الخليج العربي . تتجمع عندها المواد التجارية من المراكز الابعد مثل مكان وميلوخا ، حيث تكون في متناول أيدي التجار العراقيين (٤١) .

تطرقنا فيما سبق الى ظروف جغرافية وبيئية خلقت تفاوتا في نتاجات كل من بلاد وادي الرافدين والخليج العربي الزراعية والحيوانية ، لذلك كان التوافق الاقتصادي عاملا مشجعا يضاف الى العوامل الاخرى التي نشطت حركة التجارة البحرية بين العراق والخليج العربي ، وذلك ما كشفته المواد المستوردة والمصدرة ضمن عملية التجارة بين المنطقتين . واتماما للايضاح نورد في أدناه ترجمة لاحد النصوص التجارية :-

---

(٤٠) Leemans, op. cit., p. 23.

(٤١) Saggs, op. cit. p. 273.

« (٢) « من » (المن وزن بابلي يعادل (٦٠) شيقل ، والشيقل وحدة وزن بابلية تعادل (٨) غرام) (٥) «كور» من الزيت (الكور وحدة وزن بابلية للحجوم تعادل (٢٥٢) لتر) و (٣٠) ثوب • أقترضها كل من « لومشلام تائي » و « تلك سيسانبسا » من « أور ننماركا » ، كرأسمال مشارك في رحلة تجارية الى تلمون لشراء النحاس من هناك • وبعد سلامة الرحلة ، فان المقرض سوف لا يتحمل أية خسارة (يتعرض اليها المقترضان) • ووافق (المقترضان) على اعطاء (٤) «من» من النحاس مقابل كل « شيقل » من الفضة » [٤٢] •

ويرد من بين المواد المستوردة من تلمون ، التمر ، وكذلك البصل من مكان • والذي نعتقده بخصوص تمر دلمون انه من انواع متميزة بالجودة يندر وجودها في العراق كان متوفرا في واحات الهفوف وجزيرة البحرين مثلما يحدث في وقتنا الحاضر عندما يصدر نوع متميز من تمر البصرة الى منطقة الفرات الاوسط التي هي الاخرى من مناطق انتاجه الرئيسية في العراق •

وتنفرد عمان اليوم بانتاج وتصدير نوع من الثمار المجففة من صنف الحمضيات يعرف في العراق باسم « لومي بصرة » فربما كان الثمر الذي ترجم « الى بصل » نوعا متميزا من الانتاج الزراعي لعمان « مكان القديمة » •

وتذكرنا تسمية « لومي بصرة » بشيوع بعض التسميات لمواد التجارة القديمة فان مصدر الليمون الحامض المجفف هي عمان دون شك ، ولكن المدن العراقية عرفته عن طريق السوق الرئيسية والميناء

---

(٤٢) Saggs, op. cit. p. 274.

الرئيسي الذي تصله تجارة الليمون ، وهي البصرة ، فيسمى بليمون البصرة • لذلك نرجح الا تكون المناطق التي ورد ذكرها كمصادر تجارة مواد معينة ، هي بالضرورة مراكز انتاج تلك المواد •

فالبحرين مثلا (دلمون) خالية تماما من النحاس ، ولكنها كانت لفترات طويلة المركز الرئيسي لتسويق النحاس وميناء على طريق تجارة النحاس الى بلاد الرافدين ، لذلك ورد في النص المترجم في أعلاه وغيره من النصوص ما يوحي بأنها بلد النحاس •

ان مواد التجارة بين العراق والخليج العربي كما تعرفنا عليها ، تشير معظمها الى كونها موادا ذات أوزان عالية ، وكانت الرحلة التجارية تنقل كميات كبيرة منها ، وعليه كانت أرخص وأيسر واسطة لنقل البضائع ذات الاوزان العالية هي وسائط النقل المائية • ونعرف من أحد النصوص المتعلقة بتجارة النحاس الى نقل كمية (١٣٫٠٠٠) «من» من النحاس ، اي ما يعادل (٥ر٧) طن تقريبا[٤٣] •

أما عن حجم استيعاب السفن التجارية العاملة في الخليج العربي ، فيمكننا استنتاج حجمها عن طريق استيعابها من الحبوب مثلا • فالسفن السومرية من الالف الثالث ق•م• كانت تحمل حوالي (٢٥) طن ، والبابلية من الالف الاول ق•م• تتسع لـ (٤٠) طن • أما أشكالها ، فقد كانت دون شك متعددة ، بحسب المهام الموكلة اليها ، فسفن الرحلات الطويلة تختلف عن سفن المسافات القصيرة • كذلك يختلف شكل وحجم السفينة بموجب المواد التي تتاجر بها والجهة التي تذهب اليها • وبشكل عام ليس لدينا تصور كامل عن أشكال السفن وتفاصيل تقنيتها الا مانستوضحه من نماذج القوارب الطينية أو الفضية التي عثر عليها

---

(٤٣) Saggs : op. cit. p. 275.

في المقبرة الملكية حيث يقوم بينها وبين « البلم » العراقي المعاصر شبه كبير [٤٤] .

ولاجل التأكد من صحة النصوص التجارية نشير الى الكميات الكبيرة من المواد الاولية والمصنعة التي عثر عليها في بقايا الابنية القديمة للمدن العراقية وبخاصة آثار المقبرة الملكية في أور ، حيث تطغي على موادها الذهب والفضة والنحاس والاحجار الكريمة والعاج . وكذلك يتأكد استخدام طريق الخليج العربي في تجارة العراق الخارجية من اكتشاف مجموعة من الاختام المنبسطة الدائرية في أور ، وهي الاختام التي تتميز بصناعتها مراكز الخليج العربي[٤٥] .

واذا كانت بعض المواد الاولية المستوردة من قبل العراقيين تشير الى مناشيء هندية ، فان اكتشاف اختام منبسطة مربعة من الطراز الهندي في لجش وكيش وكذلك بعض الاشكال التقليدية لرسوم الاختام الهندية على الاختام الاسطوانية من أور يؤكد دون شك بلوغ التجارة الخارجية البحرية للعراقيين القدماء مناطق شبه القارة الهندية .

عرضنا فيما سبق لابعاد النشاط البحري التجاري في الخليج العربي خلال الالف الثالث ق.م. ، ولكن ما هو وقع هذه النشاطات على الحياة والحضارة في الخليج العربي ؟ .

توفرت في السنوات الاخيرة بفضل أعمال الاستكشاف والتنقيب

---

(٤٤) Saggs : op. cit. p. 276.

(٤٥) Briggs Buchanan, "Adated Seal Impression Connecting Babylonia and Ancient India" Archaeology, 20, 1967, p. 104 ff.

الاثريين في مناطق الخليج العربي ، معلومات ثرية جدا عن مراكـــز الحضارة الخليجية القديمة ، وعن مراحل تطورها وصلاتهـا بالخارج ، حيث يبرز العراق القديم في مقدمة الاقطار المجاورة أو المطلة على الخليج ، في التفاعل الحضاري العميق بالمنطقة • وكان للبعثة الدانمركية التابعـة لجامعة يارخوس في الدانمرك دور الريادة في هـذا المضمار ، حيـث أستهلت أعمالها سنة (١٩٥٤) في جزيرة البحرين ، واعقبتها في السنوات التالية ، بأعمال واسعة شملت معظم مناطق الخليج العربي من فيلكـا شمالا والى عمان جنوبا ، كما تناولت أعمالها المناطق الساحلية مثلمـا تناولت الجزر المجاورة للساحل العربي مثل فيلكا والبحرين وتاروت وأم النار (٤٧) •

ان خلاصة النتائج التي توصلت اليها أعمال بعثة التنقيب الدانمركية تشير الى نشاط انساني متراكم متطور ، تأخذ بداياته الحضاريـة أشكال مستوطنات صيد ورعي ، وبخاصة الصيد البحري الذي تركـز عـلى اللؤلؤ ، وكان ذلك في حدود الالف الرابع ق•م• ومنذ تلـك الفترات المبكرة وللخليجيين صلات ثقافية ومبادلات سلعية مع سكان جنوب العراق

---

(٤٧) ان نتائج هذه الاعمال تصدر عن البعثة في دورية اسمها KUML كما أصدر واحد من أبرز العاملين في البعثة كتابا ضمنه خلاصة النتائج التي توصلت اليها البعثة منذ بدء أعمالها وحتى سنة ١٩٦٩ وهي سنة اصدار الكتاب الذي عنوانه :

G. Bibby : Looking for Dilmun.

وقدم الاستاذ رضا الهاشمي عرضا باللغة العربية للكتاب في مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد بعنوان « البحث عن دلمون » العدد ١٩ سنة ١٩٧٦ •

من المرحلة الحضارية المعروفة باسم « حضارة العبيد »[48] .

وتتوسع بعض هذه المستوطنات ـ حيثما تكون الظروف مناسبة للتطور ، لتأخذ شكل مدينة تتسع بمرور الزمن . ويمارس سكانها شتى ألوان النشاطات الاقتصادية والمعمارية والفنية وغير ذالك .

وتبقى دلمون التي اكتشفت بقاياها أسفل جدران القلعة البرتغالية « قلعة البحرين » الكائنة في الاقسام الشمالية الشرقية لجزيرة البحرين ، خير نموذج متقدم لمراكز الخليج العربي الحضارية القديمة .

ومثل بقايا دلمون شخصت أسفل المباني الحديثة في جزيرة تاروت (قبالة ساحل القطيف) ، كما كشف عن بقايا معبد قديم من عصر دلمون في فيلكا عثر بين أنقاضه على مواد أثرية كثيرة ثبت من خلالها أن فيلكا كانت ضمن نطاق وحدة حضارية في الخليج العربي تدعى « حضارة دلمون » وعلى الارض الساحلية المقابلة لتاروت والبحرين وفليكا شخصت مئات المواقع القديمة ومعالم الابنية ، كما عينت بضعة مقابر تليه على غرار قبور البحرين قرب الظهران . وكانت المجسات الاختبارية في بقايا مدينة قديمة على أطراف قرية الثاج (تبعد ٧٠ كم عن ساحل القطيف) تؤكد أن هذه المدينة بسورها الحجري المستطيل الشكل ، لابد وأن تضيف جديدا الى معرفتنا بالاحداث التاريخية والحضارية للخليج العربي ويثير اكتشاف حقل واسع للمدافن في واحة جابرين جنوب الاحساء على

---

(٤٨) G. Burkholder, "Ubaid Sitesand pottery in Saudi Arabia" Archaeology, 24, (1972) p. 264 ff.

Joan Oates, " Prehistory in Northeastern Arabia " Antiquity, vol. L, 197 (1976) p. 20 ff.

مسافة ٣٠٠ كم من الساحل ، اهتماما كبيرا بين الباحثين في احتمال انتشار المستوطنات القديمة في الخليج العربي في أعماق الاراضي العربية المجاورة .

أما جزيرة أم النار (على مقربة من أبو ظبي العاصمة) ومنطقة العين وأطراف جبل حفيت ومنطقة هيلي وقرية « بات » بالقرب من مدينة عبري في سلطنة مسقط وعمان ، وعشرات المواقع الاخرى في الاطراف الشمالية الغربية وسلسلة جبال عمان (منطقة الظاهرة) تؤكد جميعها سعة النشاطات الانسانية ، ومنذ فترات مبكرة في هذه المناطق وانها تنتظر مزيدا من الاعمال العلمية الواسعة لا للكشف عن مكنوناتها فحسب ، بل لايجاد الترابط الحضاري فيما بينها وتعيين مساهماتها في النشاطات المختلفة للخليج العربي ، لنصل في نهاية الامر الى صورة واضحة للاحداث التاريخية والحضارية في الخليج العربي بالاستناد الى المخلفات الاثارية .

ان الجهود العربية والاجنبية للسنوات الاخيرة وبخاصة في السبعينات ، تثير التفاؤل ، فقد اتسع نطاق النشاطات العلمية في مناطق الخليج ، ومن أدلة الاهتمام الجديد بهذا الحقل من المعرفة صدور أول مجلة متخصصة في آثار الخليج العربي تصدر عن قطر عربي خليجي هي . The Journal of Oman Studies. تصدرها وزارة الثقافة والاعلام في سلطنة مسقط وعمان . وشهد العدد الاول منها النور عام ١٩٧٥ .

أملنا كبير في مضاعفة الجهود في هذا الميدان ، وأن تتعزز المساهمات العربية الجادة للكشف عن جوانب التاريخ العربي وتوضيح مساهماته الفعالة في رفد الحضارة الانسانية .

العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى

الدكتور : احمد الشامي
مدرس التاريخ والحضارة الاسلامية

ان أهمية الخليج العربي ومدنه ليست قاصرة على عصرنا الحالي ، وهو عصر استخراج البترول من البلدان العربية الواقعة عليه والمحيطة به ، ولكن هذه الاهمية ترجع الى قرون موغلة في التاريخ ، فمنذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحاضر كان ولا يزال للخليج العربي أهميته الكبيرة في جوانب متعددة ، ولكني سأقتصر في هذا البحث على الجانب التجاري والعلاقات التجارية مع العالم الخارجي وخاصة بلدان الشرق الاقصى ، مبينا ما ترتب على هذه العلاقات من تأثيرات مباشرة او غير مباشرة في النواحي الحضارية من حيث التعرض للتغييرات التي حدثت في بعض الجوانب العلمية والدينية بين شعوب البلدان التي تمت بينها هذه العلاقات التجارية ، مما جعل منطقة الخليج العربي محط أنظار الدول القوية في فترات التاريخ المتعاقبة .

فالموقع الجغرافي :

لعب دورا كبيرا في أهمية منطقة الخليج منذ عصوره التاريخية القديمة ، ولكن هذه الاهمية وضحت وبلغت مكانة مرموقة في فترة العصور الوسطى . فالخليج العربي الى جانب كونه حلقة اتصال مباشر بين الشرق الاقصى (الهند والصين وجزر الهند الشرقية) وبين دول

العالم الاسلامي حينذاك ونعني به العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر ، كان كذلك حلقة اتصال غير مباشر بين الشرق الاقصى وشرقي أفريقية ، وجزر البحر الابيض المتوسط وبعض مدن جنوب أوربا • اي أن الخليج العربي كان بمثابة الممر التجاري الذي يربط الشرق بالغرب قبل ان تعرف الطائرات والقطارات •

وكانت سفن التجارة القادمة من الشرق الاقصى ترسو في موانيء مدن الخليج العربي مثل عمان ، وهرمز ، وسيراف ، وقطر ، والبحرين ، وتفرغ حمولتها من التجارات ، وكانت هذه المدن تقوم بتوزيع ما يرد اليها على المدن الداخلية أو تحتفظ بجزء منه لتقوم سفن الخليج بتصديره مرة أخرى اما الى حاضرة العالم الاسلامي (بغداد) او الى شرقي القارة الافريقية (بلاد الزنج) وعلى هذا يمكن القول بان مدن الخليج كانت مراكز رئيسية لتلقى الواردات التجارية من دول الشرق الاقصى ، وهي في نفس الوقت مراكز لتخزين وتصدير هذه التجارات (البضائع) الى بلدان العالم المختلفة •

ولكي تتضح لنا أهمية الخليج التجارية لابد لنا من القاء نظرة سريعة مركزة على الموقع الجغرافي لهذه المدن ، حتى نقف على نشاط السكان في كل مدينة منها •

فاذا ما تناولنا عمان نجد أنها قاعدة الخليج العربي ، تقع على مداخله من الجهة الجنوبية على الشاطيء الغربي ، وفي نفس الوقت تطل على المحيط الهندي ، اي انها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة الرائجة الممتد من الصين الى المدن الواقعة على جانبي الخليج • وعمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من الصين والهند والزنج ، وليس على بحر الخليج مدينة أجل منها ، وهي ديار الازد (١) •

وهي احدى المراكز الرئيسية للتجارة على الساحل الغربي للخليج ، كانت تستقبل السفن الآتية من البصرة متجهة الى الهند والصين وشرقي افريقية أو بالعكس قصبتها صحار وهـــي أعمر مدينة واكثرها مالا بعمان [٢] ، وزاد المقدسي [٣] على هذا القول بانها دهليز الصين ، وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن ، ويصف ابن بطوطة [٤] مزروعاتها وحياة السكان بها فيذكر لنا شجر الكندر وورقه الرقيق الذي يشق فيقطر منه سائل صمغي أبيض هو اللبان ، وانه رآه بكثرة في مرسى جاسك وبيوتهم مبنية من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال ، .. بها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية ، وعادة أهلها انهم يأكلون في صحن المسجد ، فيأتي كل انسان بما عنده ، ويأكل معهم الوارد والصادر [٥] ، وهم أباضيـــة المذهب [٦] ، ومسقط قرية من أعمال عمان تبعد عنها خمسين فرسخا ، ومنها يستقى أرباب المراكب الماء من آبار عذبة بها [٧] .

هرمز :

مدينة على الساحل الى الامام من رأس جسر يمتد الى الشرق فـــي مياه الخليج العربي في مواجهة بندر عباس ، ولذلك فهي تتحكم فـــي المدخل الجنوبي للخليج العربي وتعتبر ذات استراتيجية هامة ، وتسمى كذلك موغ أستان ، ويقابلها في البحر جزيرة هرمـــز (الجديدة) ومدينتها تسمى جرون ، زارها المقدسي في أواسط القرن الرابع الهجري (١٠ م) ووصفها وصفا جيدا [٨] ، معظم تجارها عرب وبعضهم مـــن الفرس ، وكلهم مسلمون يتكلمون العربية ولكن الفرس يتكلمون لغتهم الى جانب العربية ، .. كثير من تجارها اغنياء جدا ، يملكون سفنا عديدة، ومن جملتهم رجل يعرف باسم حسن بن العباس له مراكب تسافر الـــى اقصى بلاد الهند والصين . في مينائها اسواق حافلة لتبادل السلع والتجارات

منها تحمل سلع الهند الى العراقيين وفارس وخراسان ، وهذه المدينة سكنى السلطان [٩] .

كانت هرمز مدينة صناعية الى جانب كونها مدينة تجارة ، فقد ساعدتها البيئة الجغرافية في ذلك لان تكوينات معظم اراضيها من الملح الداراني (سباخ) [١٠] فكان اهل هرمز يصنعون منه الاواني المزينة ، والمنارات التي يضعون السرج عليها ، وطعام اهل المدينة السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ، وكانوا يقولون عنه (خرما وماهي لوت بادشاهي) أي ان التمر والسمك طعام الملوك ، ونستدل من هذه العبارة ان حياتهم الاجتماعية كانت مستقرة .

سيراف :

تقع على الساحل الشرقي للخليج ، كانت بمثابة المركز الدولي للتجارة البحرية وخاصة في القرون الثلاثة الاولى من الهجرة (٧-٩ م) فكان التجار العرب من البصرة يصلون اليها بتجارتهم ثم يبحرون الى بلاد الهند والصين ، وفي كثير من الاحيان كانوا يبحرون الى عمان اولا ثم يواصلون ابحارهم الى الهند والصين والبلخي [١١] يذكر لنا ما كانت عليه سيراف من الاهمية الاقتصادية فيقول « كانت سيراف قبل ذلك مدينة كبيرة مزدحمة بالمتاجر تجارتها الاخشاب ، والطيب والكافور والحرير ، ولكنها فقدت اهمتها التجارية عندما وقعت تحت سيطرة اهل جزيرة قيس ومن يتوجه اليها الآن يقصد الافادة من مينائها أو ربما لاصلاح السفن ، يتغنى المقدسي بجمال هذه المدينة ، ويذكر بيوتها انها مبنية من خشب الساج والآجر واخشاب اخرى تحمل من الشاطىء الافريقي الشرقي ، وهي طبقات على حافة البحر [١٢] كانت سفن الصين تأتي اليها محملة بالتجارات تبادلها بتجارة العرب أو يبيعونها ويبتاعون

بدلا منها ما يروق لهم من سلع وبضائع (١٣) وكانت سيراف ترسل بهذه السلع والتجارات الى المدن الداخلية في ايران مثل شيراز وغيرها ، ويطلق التجار على سيراف اسم (شيلاو) .

وقد شهر اهل سيراف بحبهم للعمل في البحر لدرجة يصفها الاصطخري (*) بأن الرجل ربما يقضي جل عمره في البحر لا يخرج من سفينته الا لضرورة قصوى ، ويقص علينا بعض القصص عن هذا النوع من اهل سيراف ، وان احدهم مكث في سفينته أربعين سنة على الرغم مما كان عنده من أموال طائلة ، وكان أشهر اصحاب السفن في ذلك العهد هو محمد بن شاذان من اهل سيراف ، وكان اكبر اهل صنعته ولهذا طلب ملك الهند ان ترسم له صورة لان عادة ملوك الهند ان يقتنوا صور لاشهر الرجال في كل حرفة (**) .

جزيرة قيس :

بعد ان فقدت سيراف جزءا كبيرا من أهميتها التجارية في القرن الرابع الهجري (١٠ م) انتقل مركز الثقل التجاري على الساحل الشرقي للخليج الى جزيرة قيس ، فكان التجار يقصدونها للبيع والشراء ، ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان القطن والقنب والحنطة والشعير والدخن والارز وسائر انواع الحبوب والبقول واغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار وهي مرفأ مراكب الهند التي كانت تأتي بالتوابل والعطور ، فيها مغاص على اللؤلؤ (١٤) ، وفي أجزاء كثيرة حولها ، يذكرها معظم الجغرافيين العرب في سياق حديثهم عن جزيرة هرمز .

قطر :

شبه جزيرة كبيرة يحيط بها قليل من الجزر الصغيرة ، ولهذا يطلق المسعودي (١٥) عليها جزر قطر ، تقع على الجانب الغربي للخليج ،

حاضرتها الدوحة ويسميها البدو أحيانا (دوحة قطر) ، وقد سميت قطر نسبة الى ما تصنعه من برود حمراء من الصوف (رداء) ويقول ابو عبيد في هذا الصدد :

كساك الحنظلي كساء صوف وقطريا فانت به تفيد ويبدو انها كانت مشهورة قديما باسم البدع وهو اسم الحي الذي نزلت به قبيلة السودان (السويدي) التي جاءت مهاجرة من أبي ظبي ، ومازال هذا الحي موجود أهلا بالسكان [١٧] ، تذكرها المراجع العربية القديمة ولكنها لم تسهب في الحديث عنها وسطح شبه الجزيرة أكثر ارتفاعا من مستوى سطح جزيرة البحرين [١٨] ، بها عيون ماء كثيرة •

الاعمال التجارية كانت تنحصر في صيد اللؤلؤ وتربية البعير والاتجار به ومعيشة السكان تقوم على صيد الاسماك ولكنهم كانوا كذلك تجارا نشطين وملاحين حاذقين يعملون في نقل التجارات الداخلية من والى البحرين وسيراف والبصرة وعمان وكانت مراكبهم تقدر بالمئات تجوب مياه الخليج وتبحر عباب المحيط ، بالاضافة الى مراكب صيد اللؤلؤ ومراكب صيد الاسماك ولم يكن لأهل قطر خبرة بصناعة السفن ولهذا تركوا أهل البحرين وبعض الايرانيين يقومون بتصنيع هذه المراكب لهم ، وقد اتخذ أرباب هذه السفن من قطر مركزا لشن المغامرات البحرية ضد سفن التجارة الواردة من الهند أو القادمة من البصرة •

كانت معظم تجارة قطر الخارجية ترتبط بالبحرين ، ويبدو ان هذا الارتباط هو الذي جعل الجغرافيين والرحالة العرب في العصور الوسطى يتكلمون عن قطر خلال كتاباتهم عن البحرين فصاحب المعجم ينقل عن أبي منصور الازهري خلال حديثه عن قطر قوله :

« في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية

يقال لها قطر واحسب الثياب القطرية تنسب اليها » ويبدو ان بعضا من المشايخ المقيمين في البحرين في العصر الوسيط كانو يجمعون الزكاة من أهل قطر ، واستندوا الى ان اداء الزكاة نوع من التبعية لهم ، وظلوا متمسكين بوجهة نظرهم هذه حتى السبعينات من القرن الماضي (سنة ١٨٧٥) عندما تدخلت بريطانيا ونصحت شيخ البحرين بضرورة فصل مصالحة عن مصالح سكان البر القطري ، وكان لايزال يعطي نفسه حق السيادة عليها [٢١] .

ولكن عندما استقرت الاوضاع في قطر ، وتحددت العلاقة السياسية بينها وبين البحرين واتضحت الرؤيا بأن قطر يقوم على حكمها ، وتصريف شئونها وبذل الجهد في مصالحها ومصالح أهلها شيوخ من قبيلة المعاضيد ، ونعني بهم أسرة آل ثاني الذين احتلوا مكان الصدارة بين شيوخ القبائل الاخرى ادى هذا بطبيعة الحال الى التطور والنمو السريع في جميع نواحي الحياة التجارية والصناعية والثقافية والسياسية في البلاد كما نعيشه في وقتنا الحالي .

البحرين :

جزيرة كبيرة تقع قرب الساحل الغربي للخليج ، الى الشرق من مدينة هجر التي تعرف بالحسا (الاحساء) ، وتحيط بالجزيرة الأم عدة جزائر صغيرة يبلغ عددها **٣٢** جزيرة ، من اهمها أم نعسان ، والمحرق وسترة ، والمنامة حاضرة البحرين ، كثير من العيون العذبة تندفع من مياه البحر ، يزرع بها نخيل البلح والرمان والاترج وقصب السكر ، وكانت هجر تسمى البحرين كذلك ، وكانت مستقر القرامطة من آل ابي سعيد الجنابي [٢٢] . ومعظم سكان البحرين وهجر عرب من قبيلة عبدالقيس ابن قصي [٢٣] ، ويضيف لنا ابن بطوطة [٢٤] كيف شاهد الغواصين ينزلون الى قاع البحر في المنطقة الواقعة بين البحرين وسيراو،

في خور راكد في شهري ابريل ومايو حيث يأتي الى هذه المنطقة الكثير من القوارب وفيها الغواصون وتجار من فارس والبحرين والقطيف ، وبعد ان يحصل السلطان على خمس كمية اللؤلؤ المستخرج وهو نصيبه الخاص ، يقوم التجار بشراء الكمية الباقية منه لكي يصدروه بدورهم الى الهند والصين ، والقليل منه الى الدولة الرومية وبلاد الشام ومصر .

عرفت البحرين ركوب البحر كما عرفته عمان منذ عصر ما قبل الاسلام ، وكان للبحرين وهجر سفنها ، وتجارتها الداخلية مع مدن الخليج ، والخارجية مع بلدان الشرق الاقصى أو شرق أفريقية أو اليمن (عدن) وعقب ظهور الاسلام اخذ العرب يشنون منها الغارات على المدن الفارسية [٢٥] وكانت اولى هذه الغارات بقيادة عثمان بن ابي العاص الثقفي والى البحرين (سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م) الذي قاد المجاهدين من البحرين في غارات جريئة على ساحل بلاد الفرس واستولى على شيراز وجنابه واصطخر وغيرها [٢٦] .

وأهل البحرين خبراء ممتازين في صناعة السفن ، ذاع صيتهم في البحار لمهارتهم الملاحية وشجاعتهم امام العواصف والانواء وكانت أشرعة السفن المصنعة في البحرين لا تقل شهرة عن صيتهم في صيد اللؤلؤ والمرجان وتجارتهما .

البصـــرة :

تقع على ساحل نهر دجلة قريبا من ملتقى النهرين ، بينها وبين الأبلة عشرة أميال احدى امهات العراق الشهيرة الذكر ، ليس في الدنيا اكثر نخلا وتمرا منها ، يصنع العراقيون منه عسلا يسمى (السيلان) وهو طيب [٢٧] ، يروي الاصمعي انه سمع الرشيد يقول : « نظرنا فاذا كل

ذهب وفضه على وجه الارض لا يبلغ ثمن نخل البصرة [٢٨] .

كانت تأتي اليها تجارات الهند والصين وفارس وعمان واليمامة والبحرين لنصبها بدورها في عاصمة الدولة الاسلامية بغداد عن طريق نقلها بالسفن النهرية ، فيروي أن أن الخليفة المنصور قال : « هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما في البحر »[٢٩] .

وبالتالي كانت بغداد ترسل بتجارات بيزنطة والشام ومصر وما يرد اليها من تجارات حوض البحر الابيض المتوسط الى بلدان الشرق الاقصى ، وهذا يعطى دلالة قوية على اهمية موقع الخليج وبالتالي اهمية البلدان الواقعة على جوانبه في العلاقات التجارية بين الشرق الاقصى والشرق الادنى بما في ذلك حوض البحر الابيض المتوسط وقد قيل : « لو سد الخليج العربي لم تكن هناك مطلقا أية اهمية تجارية للقسم الشرقي من حوض البحر المتوسط في التجارة العالمية[٣٠] .

الأبلة :

كورة بالبصرة ، لاتقع الشمس على كثير من اراضيها ولا تبدو قراها من خلال اشجارها ، الجانب الغربي منها مأهول بالسكان[٣١] ، ذكرت في المراجع العربية القديمة انها كانت زمن الفتح العربي الاسلامي مرفأ السفن من الهند والصين وعمان والبحرين[٣٢] وكانت مقصد تجار فارس والهند لعظم سوقها ، ولكنها خربت ، وهي الآن (القرن ١٤م) قرية بها آثار قصور ومباني تدل على عظمتها[٣٣] .

عبادان :

جنوب البصرة على الجانب الشرقي لشط العرب ، يركب منها للابحار في اتجاهين اتجاه الى ناحية البحرين نحو بر العرب ، واتجاه

الى ناحية سيراف وجناية وفارس تسمى ميان روزان (وسط النهرين)[٣٤] كانت حصنا صغيرا عامرا على شط البحر فيه متارس للقطرية وغيرهم من متلصصة البحر ، كان الناس يقصدونها للاقامة بها متعبدين [٣٥] وكان بها على الدوام مرابطون[٣٦] وأكثر اهلها يصنعون الحصر من الحلفاء غير أن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق[٣٧] ، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها[٣٨] .

دور الانسان العربي :

ارتبط سكان منطقة الخليج منذ القدم بالتجارة ، وقد اضطرتهم البيئة الطبيعية التي أحاطت بهم الى الاتجاه نحو البحر بحثا عن وسيلة يستكلمون بها معاشهم ، ويحفظون بها حياتهم ، ولم يجدوا أمامهم سوى ركوب البحر فأصبحوا تجارا نشيطين ، وصيادين حاذقين ، ومغامرين شجعان ، وغطاسين مهرة ينتزعون اللؤلؤ والجواهر من قاع البحر ويقايضون به على ما يحتاجون اليه من المواد الضرورية والكمالية اللازمة لحياة الانسان .

حقيقة ان البعض من هؤلاء السكان احترف رعي الابل والماشية أو الزراعة ولكن قلوبهم كانت تهفوا دائما الى البحر ، وأبصارهم عالقة بشواطئه ، وعقولهم تعمل على ان يركبوا صفحة مياهه ، فكان لابد لهم من مراكب يصنعونها بأيديهم وقد تمكنوا من ذلك وتكونت لديهم أهم صناعة عرفها عالم العصر الوسيط ألا وهي صناعة السفن بأنواعها المختلفة ، واسمائها المتعددة واغراضها الكثيرة واصبحت المدن الواقعة على جانبي الخليج مراكز أساسية في تخريج بحارة مهرة وملاحين أكفاء لهذه السفن التي كانت تعبر البحار وتمخر عباب المحيطات وقد عشق هؤلاء البحارة ركوب البحر ومواجهة الاخطار وتحدي الامواج

والرياح والأنواء والعواصف ونجحوا في ذلك الى أقصى درجات النجاح وقد نبغ بعض الملاحين العرب من أمثال محمد بن شاذان ، وسهيل بن أبان وهما عالمان كبيران بفنون البحار وما يلزمها من علم الفلك ، ثم تبعهما جيل يتمثل في أحمد بن ماجد الذى درس ما خلفه هذين العالمين الى جانب ما وجده من أصول ثابتة لهذا العلم وقواعده في اوراق البردي الايرانية القديمة (راه نامك) التي تناولتها أجيال بعد أجيال بالدراسة والتمحيص والاضافة حتى تكونت مدرسة لتخريج ملاحين مهرة خبراء في علم البحار وعلومها[٣٩] .

لم يكن من السهل مطلقا على الشعب العربي الذي يعيش في مدن الخليج وسواحله أن يستوعب صناعة السفن التي نقل اصولها عن الهند ، والتي ربما تأثرت بعد ذلك ببعض الجوانب المصرية في طريقة تثبيت صواريها وأشرعتها كما يقول البعض ذلك[٤٠] ، دون أن يكون لهذا الانسان دور فعال ، وان يكون لديه القابلية في تقبل علوم وصناعات جديدة لم تعرفها البيئة التي عاش فيها من قبل ، فهو ليس ناقلا لهذا الجديد فحسب ، بل هو مطور ومعدل له الى الاحسن بحيث يتناسب هذا الجديد وحياته العربية وظروفه البيئية ، وسوف تتضح هذه الصورة عندما نتحدث عن تأثر الحضارة العربية بالتجارة . .

كل ما أريد ان اثبته هنا هو أن الانسان العربي ـ كانت ولاتزال ـ لديه القدرة على تلقي العلوم المختلفة وأسباب الحضارات المتنوعة من معينها اذا ما اعطيت له الامكانيات الكافية واتيحت له الظروف المناسبة ، ليس هذا فحسب بل هو كذلك ذلك الانسان المبدع والمجدد فيما يتلقاه حيث بصماته وتأثيراته على كل ما يصل اليه من علوم وحضارة السابقين حتى يستخرج علوما وحضارة جديدة .

هذا الانسان العربي الذي نقل جوانب عديدة من والى الحضارة العربية الاسلامية والتي أثر فيها وطورها ، هو نفسه ذلك الانسان الذي أثبت البحث التاريخي انه صانع الحضارة المعينية في اليمن بعدما انتقل اليها من جزر البحرين[٤١] • وكان للتقارب اللغوي بين العرب عامة وعرب الخليج خاصة وبين سكان العراق القديم دور قوي في وجود صلات تجارية وسياسية وتأثيرات ثقافية وحضارية ظلت قائمة بين شعوب هذه المنطقة قرونا عدة •

ويكفي للدلالة على الدور الكبير الذي لعبه الانسان العربي في هذا المضمار ان نذكر بعض اسماء لرحالة عرب ومسلمين اتخذوا التجارة حرفة لهم ليتمكنوا من السفر والترحال او تجار استهوتهم الرحلات والاسفار فدونوا مشاهداتهم ووصفوا البحار والمحيطات والمدن والبلدان وانواع التجارات ، واسماء السفن وأشكالها واستعمالاتها وتعتبر كتاباتهم بحق الاساس الذي قامت عليه علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والسياسة وهي علوم لا غنى عنها للمشتغلين بالتراث العربي الاسلامي • من هؤلاء نذكر ياقوت الحموي الذى أرسله سيده في تجارة الى جزيرة قشم في الخليج العربي والى عمان وديار الشام فأغرم بالرحلات ومعرفة البلدان فأخذ يتاجر في سبيل ان يرحل ويرحل حتى وضع معجمه الذي يعتبر بحق معجم جامع في تاريخ وجغرافية المدن والبلدان ، ثم المروزي شرف الزمان طاهر الذي عني بالنواحي الاقتصادية في رحلاته واسفاره في منطقة الخليج والهند وكذلك المقدسي المعروف بالبشاري ، واليعقوبي الذي يعتبر بحق اول جغرافي بين العرب يعتمد على ملاحظاته ومشاهداته الخاصة في وصف الممالك ، وابو الفداء الذي ذكر اسماء ٦٠ عالما جغرافيا مشهورا ممن سبقوه وظهروا قبله ؛ والمسعودي الذى ترك بصمات واضحة في هذه العلوم ثم شيخ الرحالة

ابن بطوطه الذى جاب الآفاق وظل أكثر من ربع قرن في ترحاله وترك لنا معلومات قيمة ونادرة عن اماكن ما كان للعرب أن يعرفوها بدون ان يكون للعلاقات التجارية أثرها الكبير في دفع هؤلاء العلماء الى أن يكونوا رحالة تجارا او تجارا رحالة .

الملاحة البحرية وصناعة السفن :

لاشك ان منطقة الخليج عرفت بناء السفن والخروج الى ظهر البحار والمحيطات منذ عصور ما قبل الاسلام عندما نقلوا هذه الصناعة عن التجار والصناع الهنود ، ذلك لان سفن الهند التجارية كانت نصل الى بحر الخليج وتصعد في نهر دجلة حتى المدائن (كتسيفون)[٤٢] ويذكر البلاذري [٤٣] أن الابلة كانت زمن الفتح العربي فرضة البحرين وعمان والهند والصين ، ويقرر الطبري [٤٤] هذه الحقيقة بقوله : « ان الابلة كانت تسمى قبل الاسلام (فرج الهند) وكانت العلاقة البحرية والتجارة بين الابلة والهند وثيقة الى حد كبير ، ولكن لم يمنع هذا من وجود مغامرين (قراصنة) من الهند في البحر (مياه الخليج) ، أخذ حاكم الابلة الفالسي في محاربتهم وربما كان لهؤلاء القراصنة مناطق يحتمون بها على الساحل .

ولكن هناك من المؤرخين الاوربيين من ينكرون على العرب معرفتهم ركوب البحر واتخاذ التجارة حرفة لهم في عصر ما قبل الاسلام[٤٥] ، ويكفينا ردا على هذه الآراء الاشارة الى ما كتبه المؤرخ اللاتيني Ammianus Marcellinus [٤٦] عن الملاحة في الخليج في عصر دولة الفرس الساسانية حيث يقول : « كان الخليج يعج بالملاحة ،والسفن البحرية تختتم رحلاتها في (تيريدون) عند مصب نهر الفرات ، ثم يصف المدن العربية المجاورة لفارس والمطلة على سواحل الخليج بأن

لها موانىء محمية ، ومراسي للسفن ، وان العرب قادرون على استغلال ثروات البر والبحر معا • ويرى Bell [٤٧] في دراسته لاوراق بردى افروديت على عهد قرة بن شريك ان صناعة السفن في الشام والعراق وكل بلاد العرب قد تأثرت الى حد كبير بصناعة السفن في مصر ، وان صناعا من المصريين شاركوا في العمل بهذه البلدان العربية وان مصر هي الاصل الذى نقل عنه العرب في سائر الجهات التي شيدوا بها دورا لصناعة السفن ، كما ان الشعر العربي لم يخل من أدلة تقرر معرفة العرب قبل الاسلام لركوب البحر ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره طرفة بن العبد[٤٨] في قوله :

كأن حدوج المالكية غدوة	خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية او من سفين ابن يامن	يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق عباب الماء حيزومها بها	كما قسم الترب المفايل باليد

ولماذا نذهب بعيدا ، وها هم العرب الذين اسلموا يضطرون للهجرة الى الحبشة وقد ركب هؤلاء البحر في سفن ـ بدون شك ـ عربية انطلقت بهم الى مستوطنهم الجديد ، والا بماذا نفسر ركوب هؤلاء العرب هذه المراكب ، ومن أين جاءتهم !!؟

ان ما يستطيع المؤرخ قوله بهذا الخصوص هو أن السفن العربية سواء في الخليج او في البحر الاحمر قصرت ابحارها على المياه الداخلية دون الخروج الى عرض البحر والمحيط بسبب ما أصاب بلاد العرب عامة ، والاجزاء الجنوبية خاصة ، من اضمحلال أقتصادي شديد في القرن السادس الميلادي قبل ظهور الاسلام لدرجة تمكنت فيها الحبشة من بسط سيطرتها على اليمن (حمير) وظلت كذلك الى مجيء الاسلام •

ولكن مالبث الوضع ان تغير الى أحسن مما كانت عليه السفن العربية أيام قوتها قبل انتكاسها ، بعد اتساع رقعة العالم الاسلامي وانتشار الدين الجديد وبناء أسطول عربي اسلامي قوي بعث في نفوس العرب والمسلمين القوة والامل من جديد ، فأخذت طلائع العرب بسفنهم تظهر في الهند منذ سنة ٦٣٧م على عهد الخليفة عثمان ابن عفان ، ثم خرجت سفن عربية أخرى من عمان والبحرين وتقدمت نحو مصب نهر مران ، وخضع ملك كابل وأدى الجزية للعرب سنة ٦٦٤م ، وفتح العرب السند سنة ٧١١م(٤٩) . حتى اذا كان عهد دولة بني العباس في بغداد أصبحت سفن المسلمين من كل نوع تبلغ الآلاف وتجوب البحار والمحيطات .

كانت السفن تبنى بألواح من خشب التك (الساج) وكانت هذه الالواح تثقب ثقوبا ضيقة وبحذر شديد ، ثم تشد بعضها الى بعض على جانبي الهيكل (العيدان)(٥٠) بواسطة حبال مجدولة من شعر جوز الهند (النارجيل)(٥١) ، وكانت هذه الاخرام تدسر بكوابيل من الخشب الدقيق عوضا عن المسامير التي لم يستعملها أهل الخليج في بناء سفنهم خشية ان تنجذب الى جبال المغناطيس الموجودة في بحر الصين او بحجة ان المسامير تصدأ وتسبب للخشب تلفا ، ولكننا نرى أن عدم استعمال المسامير في صناعة السفن كان لارتفاع اثمانها ارتفاعا كبيرا بسبب ندرة استعمال الحديد في صناعة السفن ، وربما لانها كانت سبب انفلاق ألواح الخشب الجانبية للسفن ، لان العالم لم يكن قد عرف بعد المسمار اللولبي Schranbennasel (٥٢) وقد ظلت طريقة صناعة السفن على هذا المنوال حتى ما بعد القرن السادس عشر الميلادي ، ففي أواخر هذا القرن حضر رالف فتش مع ثلاثة آخرين

من الانجليز وزاروا منطقة الخليج ، وقد وصف فتش رحيله من هرمز الى الهند ، والسفينة التي ركب فيها بقوله : « ومنها ذهبت في سفينة مصنوعة من الخشب المربوط بعضه البعض بحبال مصنوعة من قشر جوز الهند او القنب ، ولهذا كان الماء يدخلها كثيرا[٥٣] ...

ولم يكن استعمال المراكب قاصراً على نقل التجارات فحسب ، سواء كانت داخل مياه الخليج او خارجه ، بل استعملت لنقل الرحالة والتجار والمسافرين كذلك ومنها ما كان يجمع بين كونه مراكب حرب ومراكب نقل ، ومنها ما كان قاصرا على نقل البضائع من موانىء الخليج الى المدن الواقعة في الداخل على الانهار[٥٤] ، ومنها ما كان خاصا لنقل الركاب من مكان لآخر ، أي بمثابة الاتوبيسات النهرية في وقتنا الحالي .

ومن أهم أنواع هذه المراكب :

١ ـ البغله : كانت من أكبر انواع المراكب المعروفة في ذاك الوقت وحمولتها ٢٠٠٠ كيس تمر .

٢ ـ البوم : كانت تستعمل لنقل التجارات وحمولتها ١٢٠٠ كيس تمر .

٣ ـ شوعي : وهي مثل البوم في الحمولة والاستعمال .

٤ ـ البلم : كانت تستعمل لحمل الاخشاب والخضروات من شط العرب الى مدن الخليج .

٥ ـ الجاكر : نوع من السفن الكبيرة لنقل التجارات بين الصين ومدن الخليج .

٦ ـ الاجفان : هذا النوع مخصص لحماية دار السلطان في هرمز اي لنشات حراسة .

٧ ـ الترانكي : كان شائع الاستعمال في الخليج وخاصة في القرنين ١٧ ، ١٨م وكانت تسير بالمجداف والشراع معا ، وتستخدم في الحرب وفي نقل التجارات .

٨ ـ غلافه : استعملها عرب الخليج في حروبهم ضد البرتغاليين وجمعها (غلافات) .

٩ ـ تكنه : سفن صغيرة مسلحة قعرها مسطح ومطلى بالقار .

١٠ـ جنك : ومصدرها الصين ، وهذا دليل آخر على وصول سفن الهند والصين الى الخليج .

١١ـ هناك انواع متعددة من المراكب الصغيرة مثل :ـ الطيارات، الحديديات ، الزبازب (مفردها زبزب) وكان هذا النوع مخصصا لركوب السلطان في بغداد ، السميريات ، القفاف ، الجلبه ، الدوينج ، الزورق ، الصنبوق ، الجلبوت ، الجهازى ، ماشوة ، بقارة وغنجة وغيرها(٥٥) .

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته الى السفن التي عرفها الانسان منذ عهد نوح عليه السلام مثل قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون »(٥٦) .

وقوله تعالى : « وحملنه على ذات الواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر »(٥٧) .

وقوله تعالى : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجون منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »(٥٨) .

وكان لهذه السفن عدة مسارات خارج مياه الخليج ، أما داخل الخليج فلم يكن هناك سوى مسارين ، أولهما ان السفن كلها سواء الآتية

من البصرة او من احدى الموانىء الواقعة على أحد جانبيه كانت ترسو في عمان (مسقط او صحار) حيث تتزود ، بالماء والطعام ، وتحمل ماتريد من بضائع ومنها تتجه الى مالابار حيث ترسوا في كولام وثانيهما ان السفن التى تريد الابحار فى موازاة الساحل الشرقى كانت تبحر من أى مكان داخل الخليج وتلتزم بالسير قريبا من السواحل الشرقية ثم السواحل الجنوبية لايران الى أن تصل الى شواطىء السند ، وبلد السند هى المنصورة وأراضى الزط وما والاها من الملتان ثم تنتهى هذه السفن على سواحل الهند او تتابع السير الى الصين[٥٩] .

أما مسار السفن نحو شرق افريقيا فكان يبدأ من أى من المراكز البحرية المتعددة سواء من البصرة او من سيراف او من عمان الى مدغشقر ، وكانت اليمن (عدن) المركز التجاري الرئيس او بمعنى أصبح مستودع التجارة الواردة من الصين والهند وبغداد وكانت السفن تنقلها من عدن الى شرق افريقية او الى مصر التي كانت ترسل بسفنها عبر البحر الاحمر لتصل الى عدن وتشتري ما تحتاج اليه من سلع مختلفة او من بخور وعطور [٦٠] .

ويحدثنا المسعودي [٦١] انه ركب البحر في سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦م) من زنجبار (قنبلو) على الساحل الشرقي لافريقية مسافرا الى عمان في مركب من سيراف يملكه احمدبن جعفر السيرافي ، وان أقصى ماتصل اليه مراكب المسلمين في اسافل (جنوب) بحر الزنج ، اقليم موزمبيق (سفاله) ، واليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين حيث يشترون العاج ويحملونه الى الصين ، وكان الصينيون يدفعون له اثمانا اكثر من التي تدفع في مثيله من بلاد أتام أو تنج كنج [٦٢] ويؤكد المسعودي انه لولا تصدير العاج الى عمان والهند والصين لاصبح كثيرا في

بلاد الاسلام ، وكانت معظم واردات الهند والصين من الجلود تأتي اليهم من شرق أفريقيا (٦٣) .

والى جانب هذه المسارات البحرية كان هناك مسار بري يبدأ من بغداد التي كانت مشحونة بكل انواع التجارات المختلفة من بلدان الشرق الاقصى ، فكان التجار يحملون بضائعهم على ظهور الدواب وينقلونها الى سوريا ومنها الى موانيء شرقي البحر المتوسط حيث تصدر الى الدولة الرومانية او الى مدن جنوب أوربا واهم ما كان يرسل الى سوريا الحرير الخام وخيوطه ليعالج فيها بالصباغة والزركشة المطبوعة على المنسوجات قبل ان يعرض للبيع والاتجار ، أما بقية البضائع الاخرى فكانت تشمل الفراء والحديد والتوابل والاعشاب النباتية وقد شاعت هذه السلع في مدن حوض البحر الابيض المتوسط (٦٤) .

العلاقات التجارية وأهميتها في العصر العباسي :

احتل الخليج العربي مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية لدولة بني العباس واصبح جزءا مهما من أجزاء العالم الاسلامي بالنسبة لبغداد لاسيما في العصر العباسي الاول الذي تميز بالنشاط والانتعاش التجاري بشكل ملحوظ ذلك لان الحضارة العربية الاسلامية كانت في حاجة كبيرة الى بعض الجوانب المادية (٦٥) ، فالخليفة ورجال البلاط وكبار رجال الدولة والتجار كانوا في حاجة دائمة ألى المواد الترفيهية والكماليات الاجنبية الواردة من الهند والصين وأفريقيا (٦٦) .

وكان لابد لمدن الخليج ان تلعب دورها البارز في توسيع دائرة العلاقات التجارية بين بغداد وبين بلدان الشرق الاقصى لمالهم من قدم راسخة في مياه البحار خاصة وان الخليج هو المنفذ البحري الطبيعي للدولة العباسية التي اتجهت نحو الشرق وبعدت عن مركز الثقل التجاري

الذي كان موجودا في البحر المتوسط على عهد الامويين ، واصبح من الضروري ان ينتقل مركز الثقل التجاري الى الخليج العربي لقربه من حاضرة العباسيين في بغداد ، فنشطت الحركة التجارية نشاطا فائقا بين مدن الخليج وبين الهند والصين على وجه الخصوص واخذت السفن العربية الاسلامية تكثر وتزيد حتى اصبحت التجارة الاسلامية مظهرا من مظاهر أبهة العرب والمسلمين ، واصبح التاجر الغني الذي لديه امكانيات واسعة في الاتجار وامتلاك السفن وتشغيل امواله في الجوانب التجارية المختلفة هو ممثل لجانب مهم من جوانب الحضارة الاسلامية ، ونعني به الجانب الاقتصادي او المادي • وكانت النتيجة المباشرة لازدياد الحركة التجارية بين هذه البلدان أن استعادت مدن الخليج العربي مكانتها السابقة في عالم التجارة والاقتصاد ، فكانت سفن الخليج التجارية تبحر من مياه الخليج وهي محملة بالبضائع التجارية المختلفة من بغداد والبصرة والبحرين وعمان متجه الى الهند والصين أو أفريقية لتعود من هذه البلاد وهي محملة بالبضائع التجارية فتغرق بها اسواق العالم الاسلامي •

وتتمثل انواع التجارات في السلع الاتية ، فمن الصين كان يرد على مدن الخليج اللبان والكافور والقرنفل والعود الهندي ، والقمح وهو كثير جدا والارز والسكر وكان يفضل السكر المصري والبقول مثل العدس والحمص وكثير من انواع الفاكهة (٦٧) • وكثير من المنسوجات الحريرية وهو لباس الفقراء المساكين بالصين ولولا التجار ما كانت له قيمة ، أما المنسوجات القطنية فكانت غالية الثمن • ومما شملته السلع الواردة من الصين الفرند والكيمخا والمسك والسروج والصلبنج والدارصيني والخولنجان وفراء السمور والسنجاب والقاقم ، والجلود المختلفة والشمع •

أما المعادن فكانت تتضمن الذهب والنحاس وكانوا يستخرجونه من أماكن خارج تكدا ، والاسلحة ، وسهام الحرب ، وحراب صيد الاسماك ، وخشب الابنوس ومن الهند كانت ترد كذلك كثير من التجارات مثل الياقوت بالوانه المختلفة من سرنديب (سيلون) وكان يستخرج من شواطىء الجزيرة أو يحفر عليه ، والالماس والعود الهندي والتوابل ، والفلفل ، والنارجيل ، والخيزران ، وزهرات يصنع منها العطور وكذلك البقم وهو نبات عروقه دواء يشفى من لدغة الثعبان وقد جربه البحريون والارز والبهار والافاوية وانواع الادوية والعقاقير .

ومن جزر بحر هركند تحمل مراكب الخليج الكافور والنارجيل وخشب البقم والفيلة بها كثيرة (٦٨) ، حول هذه الجزر يوجد احسن انواع العنبر وهو النوع المدور الازرق النادر وهو كبيض النعام أو دونه (٦٩) . ومن الهند كذلك كانت السفن تأتي محملة بالصندل ، والكافور ، والقرنفل ، والقاقلة (القرفة) والكبابة ، والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والعاج والطيب .

ومن المعادن الرصاص القلعي من كله ، والحديد والنحاس من السردن وقد انحصرت تجارة جزر الهند الشرقية على العنبر والكافور (٧٠) وكان التجار العرب يبادلون به بعض السلع الاخرى من الصين .

وتمثلت صادرات مدن الخليج في اللؤلؤ والجواهر والاحجار الكريمة (٧١) والزيوت التي يحمل منها الى الافاق (٧٢) والخيول العربية من ظفار ، والفضة ، والانك والكبريت ، والنفط ، وماء الورد ، وكان اهل الصين لا يفضلون اي نوع من اللؤلؤ على اللؤلؤ المستخرج من الخليج (٧٣) .

هذه البضائع كلها كانت تأتي الى مدن الخليج التي كانت جميعها

بمثابة مخازن كبيرة لسلع الشرق الاقصى ، ومراكز امداد وتموين تجاري للمدن الداخلية في ايران والعراق والشام وشبه جزيرة العرب وغيرها من دول البحر المتوسط .

وكانت مدينة ظفار (باليمن) تتبع اسلوبا لطيفا في استقبال سفن التجارة الواردة اليها من بلدان الشرق الاقصى ، فاذا وصلت أحدى السفن خرج عبدالسطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، ولكاتب المركب (الكراني) وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثة ايام وبعدها يأكلون بدار السلطان ، وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب (٧٨) .

هذه هي التجارات والسلع التي قامت عليها العلاقات التجارية بين دول الشرق الاقصى وبين مدن الخليج العربي والتي كانت تنقل منها الى كل صقع في العالم الاسلامي ، بل الى كثير من بلدان جنوب أوربا ـ كما ذكرت ـ عن طريق المسار البري الموصل الى سوريا ثم الى شرقي البحر الابيض المتوسط ، ومازالت هذه العلاقات التجارية قائمة الى يومنا هذا بين الجانبين ، وهي وطيدة تسودها روح التعاون الاقتصادي المثمر القائم على الثقة والتفاهم حيث نجد ان معظم واردات مدن الخليج مثل الارز وهو الغذاء الرئيسي لاهالي مدن الخليج ، والحبوب والبقول والفواكه الى جانب كثير من المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية والمصنوعات الميكانيكية والالية الحديثة .. تأتي من الصين والهند وجزر الهند الشرقية وان كانت اليابان ومدن أوربية كبيرة قد دخلت الى هذا الميدان في العصر الحديث .

وكانت طريقة البيع والشراء لهذه السلع التجارية تتم عن طريق المقايضة في اول الامر ويروي لنا الرحالة العربي ابن بطوطة (٧٤) طرائف

عن نظام المقايضة في الصين فكان التجار العرب يذهبون بتجاراتهم الى اسواق مخصصة على حافة ارض الظلمة ويتركونها في هذه الاماكن ثم يأتون اليها في اليوم التالي حيث يجدون بجوارها فراء السمور والسنجاب والقاقم كبديل عن هذه التجارات فان رضي صاحب التجارة حمل الفراء وترك بضاعته وانصرف وان لم توافقه الصفقة ترك كل شيء كما هو الى اليوم التالي فاما يجد ان المشترين من اهل الصين قد زادوه في انواع الفراء واما انهم حملوا فراءهم وتركوا له متاعه (بضاعته) فيأخذه وينصرف .

وقد استخدم اهل الصين واهل فارس والعراق هذه الجلود الفرائية في ملابسهم بوضعها حول العنق لتقيهم شدة البرد .

ولكن عندما تطورت نظم الحياة في العالم عرفت الدول السكة المعدنية والفضية والذهبية واستعملتها في بيعها وشرائها وكانت الصين اول من استعمل العملة الورقية حيث اتخذت لها عملة من الكاغد الصيني في حجم كف اليد وكان كل ٢٥ كاغدا تساوي دينارا (٧٥) .

ولم تكن التجارة معفاة من الرسوم الجمركية ، فقدعرفت بلدانالشرق الاقصى وخاصة الصين نظامالضريبة على التجارةالواردة ، واغلبالترجيح انها نقلته عن نظام العشور الذي كان سائدا في الدولة الاسلامية وقتذاك والذي ربما انتقل الى الصين بعد ان تكونت فيها مراكز تجارة اسلامية كبيرة واستقرت جاليات عربية واسلامية عظيمة ، فالمراجع التاريخية ، وكتب الرحالة والجغرافيين (٧٦) الذين عايشوا هذه الحياة في هذه البلدان يروون لنا كيفية نظام تحصيل ضريبة التجارة الواردة بقولهم ... ومتى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟ ومن ربانه ؟ وما هي شحنته (وسقه) ؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف هذا كله ويعرضه على السلطان فمن كان يستحق ضيافة السلطان استضافه عنده واكرم نزله .

من دراسة هذه النصوص يمكن لنا القول بأن العرب عرفوا منذ بداية العصور الوسطى نظام التفتيش الجمركي والرقابة البحرية وتحصيل ضريبة على البضائع الواردة وهي المعروفة حاليا بالرسوم الجمركية لحماية التجارة الداخلية ، وان بلدان الشرق الاقصى نقلت هذا النظام ولكنها عدلته بما يتلاءم مع طبيعة الحياة فيها ، وان العلاقات لم تكن محصورة في نطاق الجوانب التجارية بل تعدتها الى الجوانب الانسانية حيث كان السلاطين يستضيفون اصحاب المنزلة ممن يكونون على ظهر السفينة .

هذه الجوانب الانسانية في العلاقات التجارية هي التي سمحت لتجار اليهود الموجودين باقليم بروفانس بفرنسا[٧٧] ان يشاركوا بتجارتهم مع دول العالم الاسلامي وبلدان الشرق الاقصى ، على الرغم من سيطرة التجارة العربية الاسلامية واساطيلها التجارية على بحار ومحيطات الشرقين الاقصى والاوسط ، واهم ما كان يجلبه هؤلاء التجار اليهود الى الشرق الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق ، والفراء السمور ، وكانوا يركبون البحر من جنوب فرنسا الى الفرما (بور سعيد الحالية) ثم يحملون تجارتهم على ظهورهم الى القلزم (السويس) ثم يركبون البحر الشرقي (الاحمر) حيث يواصلون ابحارهم الى عدن او الى موانيء الهند في مراكب عربية ، وهناك يبادلون ما معهم من تجارة ويشترون السمك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك ثم يعودون من نفس الطريق وفي بعض الاحيان كان هؤلاء التجار اليهود يسلكون الطريق الثاني المؤدي الى الفرات حيث ينزلون في انطاكية ثم يتجهون برا الى الفرات حيث تنقلهم المراكب العربية الاسلامية من دجلة الى الابلة ومنها يبحرون في مراكب عربية أخرى أكبر من السابقة حيث يصلون عمان أو

الهند أو السند ، وكان هؤلاء يتكلمون العربية والفارسية والتركية الى جانب لغتهم الفرنجية .

ومن المرجح جدا عندي ان هؤلاء التجار من اليهود كانوا يبيعون تجارتهم ويشترون بدلا منها مايريدونه من تجارات موجودة في مراكز التجارة العربية الاسلامية التي كانت بمثابة مستودعات او مخازن كبيرة لبضائع وسلع الهند والصين وغيرها من بلدان الشرق الاقصى والموجودة في الأبلة وهرمز والبحرين وعمان وعدن حتى لا يتحملوا كثرة التكاليف ومشقة السفر في تنقلاتهم وسفرهم بالبحر في سفن عربية اسلامية لاسيما وان سفنهم كانت تأتي بهم فقط اما الى الفرما واما الى انطاكية .

كان من الطبيعي تحت ظروف المنافسة التجارية الشريفة ان لايستمر هؤلاء التجار اليهود في مزاولة تجارتهم ، فقد تمكن التجار العرب الشاميون من بسط سيطرتهم التجارية على حوض البحر الابيض المتوسط في القرن الثالث والرابع الهجريين (٩٠١م) فكسدت تجارة اليهود في منطقة الشرقين واستقروا بحوض نهر الرون وأصبحنا لانجد لهم في هذا العصر وما يليه من العصور الوسطى ذكرا او شأنا ، لان انتشار التجارة العربية الاسلامية ونموها اخرج التجار الاجانب من البحار التي سيطرت عليها سفن التجارة العربية الاسلامية ، لان اوربا لم يكن لها حتى ذلك الوقت أي سلطان على البحر المتوسط ، الذى اطلق عليه لفظ البحر العربي(٧٨).

اثر العلاقات التجارية في بعض الجوانب الحضارية :

ترتب على اتساع رقعة الاتجار انفتاح مجالات واسعة أمام العرب والمسلمين كانت مغلقة امامهم من قبل ، فقد غطت التجارة العربية الاسلامية مساحة عظيمة من عالم العصور الوسطى حيث انتشرت من حاضرة الدولة الاسلامية (بغداد) عبر الخليج العربي وهو المنفذ الطبيعي على البحار

والمحيطات الى أقصى الصين شرقا ، ثم اتجهت الى الغرب فوصلت الى أقصى الشمال من شبه الجزيرة الايبيرية (الاندلس) ، وأصبح في مقدور التجار العرب والمسلمين ان يتنقلوا بين المدن والبلدان يبيعون ويبتاعون دون أن يحول بينهم وبين تجاراتهم حائل[٧٩] واصبحت الرحلة في سبيل التجارة او التجارة في سبيل الرحلة لاكتساب المعرفة اوسع آفاقا وأكثر أمانا واطمئنانا ومن الطبيعي ان هؤلاء الرحالة لم يكونوا ليمرون ببلد أو قطر دون أون يتعرفوا الى أهله ، ويقفوا على احوالهم وعاداتهم وتقاليدهم ومسلكهم مع الغرباء ، فدونوا كل ما رأوه وما عايشوه وقصوا كل ما وقع لهم من نوادر وحكايات وما قابلوه من عقبات وما تخطوه من صعوبات فنقلوا صورة واضحة عن كل جوانب الحياة وتأثرت المجتمعات العربية والاسلامية تأثيرا كبيرا في كثير من نواحي حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والصناعية ، وبالتالي تأثرت الحضارة العربية الاسلامية بهذه المؤثرات ولكنها مع كل هذا فقد أثرت بدورها على كثير من الحضارات الاخرى ، ومن ضمنها الحضارات التي كانت قد تأثرت بها من قبل .

فمما لاشك فيه ان حضارات عالم العصور الوسطى كانت متقاربة ومتأثرة كل بما سبقها او بما عايشها من حضارات نتيجة الاتصالات المختلفة بين الشعوب وخاصة الاتصالات التجارية والبعثات السياسية والاحتكاكات الحربية فحضارة الرومان مثلا تأثرت وأخذت كثيرا من حضارتي الاغريق والفرس ، كما ان حضارة الفرس كانت قد تأثرت بحضارة اليونان من قبل وكذلك بالنسبة للحضارة العربية الاسلامية التي تأثرت في بادىء أمرها بالحضارة الارامية ثم ما لبثت ان تأثرت بالحضارة اليونانية والفارسية والرومانية بل بحضارة الهند والصين وغيرها من البلدان التي اتصل العرب والمسلمون بها عن طريق التجارة والسياسة او الفتح والغزو[٨٠] ، ولكن الحضارة العربية امتازت بأنها مزجت كل هذه

التأثيرات الحضارية واخرجت منها حضارة تتمشى مع الروح والتقاليد والعادات والنظم التي تتمشى مع التشريع الاسلامي(٨١) •

ففي مجال الحياة الاجتماعية نجد ان نواحي ليست بالقليلة في عادات العرب في طعامهم وملابسهم وموسيقاهم وغنائهم قد تغيرت بسبب أختلاط العرب بالموالي(٨٢) الذين قامت على اكتافهم تطورات كبيرة في المجالات التجارية والزراعية والصناعية • فالاسواق التجارية كانت مراكز للبيع والشراء وملتقى كبار التجار حيث الصفقات بين تجار مسلمين وغير مسلمين ، عرب وغير عرب ، وكان التعارف يتم اثناء البيع او الشراء ، وكان كثير من الفرس والعرب يعملون في هذه الاسواق التي اختلطت فيها عناصر مختلفة من هنود وصينيين وظهرت عادات وتقاليد مجلوبة من أماكن قاصية او دانية ، فتأثرت جوانب من حياة العرب (والفرس والهنود والصينيين) الاجتماعية نتيجة هذا الاختلاط فقلدوها في معاشهم ، وحاكوها في سلوكهم وتصرفاتهم اليومية ، وانتقلت هذه العادات من الاسواق الى الامصار ثم الى البيوت والأسر والافراد حتى اصبحت جزءا لا ينفصم من حضارة المجتمع الذي انتقلت اليه •

فالمقدسي يذكر لنا ان أهل سيراف كانوا يمدون شراعات بين الاسطح لتقي التجار لفحة الشمس الحارقة اثناء مزاولة البيع والشراء وقد نقلت هذه العادة مع انتشار حركة التجارة في مدن الخليج كلها ثم ما لبثت ان انتقلت الى اسواق مدن البلدان الاسلامية الاخرى ، ثم استعملها أهل مصر على صحون مساجدهم عند صلاة الجمعة لتقي المصلين حرارة الشمس ، ثم استعملتها مساجد البصرة وشيراز كذلك ويرجح المقدسي ان أصل هذه الشرع يعود الى عصر الحضارة اليونانية في الشرق حيث كانوا يضربونها على حلقات ملاعبهم • ص٢٠٥ ، ٤٣٠ •

ومن أمثلة ذلك في مجتمعنا العربي بمنطقة الخليج نجد ان نظام المائدة قد تغير عن ذى قبل حيث تنوعت اصناف الطعام وكثرت انواع الفاكهة المستوردة من الصين والهند على المائدة اثناء الوجبة الواحدة بعد ان كان العربي لا يحب الا صنفا واحداً من الطعام على مائدته •

واستعمل العربي بكثرة اغلى الثياب المصنوعة في الهند وكان بعضها موشى بالذهب او الفضة واتخذت المرأة العربية في الخليج حليا لزينتها من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة وزينت بيتها بخزائن وزهريات من صنع الهند والصين ملأتها بما يطيب لها من نباتات عطرية(٨٣) •

وفي مجال العمارة نجد ان البناء في عصر صدر الاسلام كان بسيطا وكانت البيوت مكونة من دور واحدة ثم مالبث فن العمارة منذ القرن الثالث الهجري (٩م) ان تأثر من ناحية الشكل والزخرفة والرسوم وما ادخل عليه من حمامات رسمت قاعاتها وما غرس به من حدائق وبساتين ، وانتشر هذا الطراز في العالم الاسلامي العربي بصفة عامة وفي العراق بصفة خاصة وكان لمشاهدات التجار والرحالة العرب وما نقلوه من أوصاف للقصور والابنية التي زاروها أثر كبير على العمارة ، فالخليفة المتوكل على الله أحدث بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري ، وكان أصل هذا البناء يوناني شرقي واصبح هذا النمط متبعا في بناء القصور الكبيرة التي كان لها مقدم او ثلاثة أجزاء اوسطها الباب الاكبر ، والى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكمين) - الاكمام ولم يلبث الناس ان قلدوا هذا الطراز المعماري تيمنا بالخليفة المتوكل(٨٥) •

ولكن حفائر سامراء قدمت للأثريين طرازا آخر من هذا البناء حيث وجد ان الباب الاوسط يزيد على البابين الجانبيين في الارتفاع والاتساع، وهذا طراز هلني متأثر بالحضارة اليونانية في الشرق ، وهو مأخوذ من بوابات الاحياء وأقواس النصر ، وقد بنى احمد بن طولون واجهة قصره

في مصر على هذا النمط ولكنه جعل الأبواب الثلاثة متساوية في الارتفاع والاتساع[٨٦] .

كما نقل طراز سامراء في بناء مئذنة مسجده التي مازالت قائمة تشهد على هذا التأثير الذي استحدثه العراق في معابد الفرس المعروفة باسم زاجورات[٨٧] .

ويذكر HELL ان كثيرا من هذه التأثيرات التي دخلت على فن العمارة في العالم الاسلامي كان مرده استخدام عمال بيزنطيين او من رعايا الشعوب التابعة للدولة الاسلامية ويتضح هذا التأثير في قبة الصخرة على مسجد عمر بن الخطاب التي بنيت في عهد الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان وتشير الدراسات التي أجريت على اوراق البردي ان هذا التأثير شمل المساجد والقصور ولكن ما ادخله العرب المسلمون على التأثيرات البيزنطية من عناصر فنية جديدة مثل الزخرفة بالكتابة ، والنقش والاشكال الهندسية جعل طرز البناء طرازا اسلاميا[٨٨] ويذكر بارتولد ان الفرس والنصارى كانوا يقومون ببناء المساجد وقصور الخلفاء ولهذا تأثرت هذه الابنية بفنونهم[٨٩] .

كذلك ادخل اهل سامراء على الحمامات العامة التي عرفها العرب والمسلمون عن الرومان نوعا من الزخرفة التي عرفوها عن الفرس قبل عهود الاسلام فبدلا من استعمال القاشاني الملون او المزايكو في تزيين ردهات الحمامات وغرفها مثلما استعملها اهل الشام ونقلوها عن حضارة اليونان في عصورها الاخيرة في الشرق[٩٠] نجد ان اهل سامراء كانوا يستعملون الصور في تزيين الردهات والحجرات واكثر ما رسموه في هذه الحمامات صورة العنقاء[٩١] ثم انتشرت هذه الظاهرة في حمامات المدن الاسلامية الاخرى مثل فارس والعراق والشام ويرجع السبب في انتشارها الى العلاقات التجارية التي ازداد نشاطها كثيرا بين دول هذه

المنطقة والتي لعب أهل الخليج فيها الدور الأول بسفنهم ورحلاتهم التجارية •

واستعمل العرب اسلوب الزخرفة والتطعيم بسن الفيل والذهب والفضة فقد استعمل خلفاء بني أمية هذا الاسلوب في قاعات جلوسهم ويروي المؤرخون بعض تفاصيل عن الشجرة الذهبية التي كانت تتوسط منظرة الخليفة والفيل الذهبي ذو العيون الياقوتية وروائع الفن الهندسي في زخرفة التنورات ، وقد اخذت هذه الجوانب عن الهند والصين ، ثم انتشرت في المشرق العربي الاسلامي وخاصة على عهد العباسين حيث عمت مساجد العالم الاسلامي ، ولكن أدخلت على هذه الفنون الزخرفية تعديلات تواكب المجتمع الاسلامي •

وفي الجانب الثقافي وكنتيجة لانتشار حركة التجارة العربية الاسلامية بين مدن الخليج وبلدان الشرق الاقصى نجد ان العرب اتخذوا اللغة الفارسية للتخاطب بها مع تجار هذه المناطق في الهند والصين وجزر جنوب شرقي اسيا ، والجاحظ (٩٢) يذكر لنا ان عامة أهل العراق كانوا يتحدثون بالفارسية رغم انهم عرب ، ويعلل ذلك انهم وجدوها خفيفة على لسانهم ولكني ارى ان السبب في تحدثهم بالفارسية هو مزاولة معظمهم ـ ان لم يكونوا جميعا ـ لاعمال التجارة واضطرارهم للتعامل مع التجار القادمين اليهم من الفرس أو الهند أو الصين وعقد الصفقات التجارية معهم في اسواق مدن الخليج ، فكان لابد لهم من التفاهم مع هؤلاء التجار بلغة يفهمونها وكانت هي اللغة الفارسية •

وقد ترتب على استعمال اللغة الفارسية في الاعمال التجارية والملاحية ان دخلت اعداد غير قليلة من المصطلحات البحرية والكلمات الفارسية في اللغة العربية مثل ناخدا (صاحب السفينة) ، ربان أو معلم

(قائد السفينة) وربما كان اصلها (بان) ، سرهك (مرشـــد الميناء المسئول عن ارساء السفينة) ، ديدبان « حارس المركب » (٩٣) .

وليس معنى هذا ان اللغة العربية لم تؤثر بدورها هـــي الاخرى في اللغة الفارسية واللغات الاخرى فقد دخلت كلمات عربيـــة كثيرة الى لغات هذه الشعوب نتيجة الاتصال التجاري على وجه الخصوص بـــل ان اللغة العربية والخط العربي فرضا نفسيهما على الفرس والرومان فكتبت الفارسية والتركية بالخط العربي ، كما دخلت مصطلحات وكلمات عربية كثيرة في لغات شعوب وسط أسيا وأوربا (٩٤) .

وربما يظن ظان ان الثقافة العربية تأثرت بثقافة اليونان اكثـــر من تأثرها بأي ثقافة اخرى ، وردنا على هذا القول بالنفي الصريـــح ، لان الثقافة العربية تأثرت حقيقة تأثرا كبيرا بالثقافة الفارسية ، لان دولة الفرس انصهرت في الدولة الاسلامية ، ولان حياة الفرس الاجتماعيـــة كانت تحت اعين العرب يعرفونها ويعايشونها فتذوقوا شيئاً منها على عكس الحياة اليونانية التي كانت نائية عن العرب ، ولم يحدث بنيهم وبين العرب اختلاط كما حدث مع الفرس كما ان نظم اليونان تخالف تعاليم الاسلام فهؤلاء لهم نظمهم الاجتماعية والسياسية التي لم يعرفها العرب ، ولهذا نجد انه من العسير ان نجد كلمات او صطلاحات يونانية في الادب العربـــي شعرا او نثرا ، ولا يمكن ان نجد شاعرا من اصل يوناني أو رومانـــي انصهر في البوتقة العربية واخرج للثقافة العربية شيئا ، وعلى العكس من ذلك نجد ان عددا غير قليل ممن اشتغلوا بالادب ، العربي ترجع اصولهـــم الى الفرس ، كما تأثر مؤرخو العرب المسلمين في تلك العهود بطريقـــة الفرس في تدوين الاحداث التاريخية ولم يتأثروا بالنمط اليوناني (٩٥) .

حتى في جانب التعليـــم الاولى (الكتاب) ظهرت آثار العلاقات

التجارية لانه كان من نتائج تطور وازدهار التجارة في منطقة الخليج ان اصبح التجار في حاجة ماسة الى كتبة ومحاسبين يمسكون دفاتر حساباتهم (ز ماماتهم) ويخطون المراسلات الى التجار الذين يتعاملون معهم في بلدان اخرى ، وقد دفعهم هذا الاحتياج الى فتح كتاتيب خاصة لتعليم ابنائهم وابناء الفقراء الذين لا يملكون دفع ما يطلبه الملا أو الملوع (معلم الكتاب) من نفقات وقام كبار التجار بالانفاق من اموالهم الخاصة على هذه الكتاتيب التي كانت تقوم بتعليم علوم مبدئية في علم الخط والقرآن والحساب [٩٦] ومع ان حركة الازدهار كانت تسير بسرعة في المنطقة الا ان هذه الكتاتيب لم ترق الى مرتبة المدارس ، وظلت على حالها طوال فترة العصور الوسطى وجزءا من العصور الحديثة .

وفي محيط الزراعة نجد كذلك ان للعلاقات التجارية اثرا كبيرا حيث جلب التجار انواعا من الفاكهة أو الحبوب فوزعت في بلدان منطقة الخليج ونمت بها ولعبت دورا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى العرب ، فعمان اول بلد عربي اسلامي زرع به النارنج والاترج [٩٧] الذي جلب من الهند ، ويحدد المسعودي [٩٨] الوقت الذى جيء به من الهند والبلاد التي انتقل اليها من عمان فيقول : « ... وكذلك شجر النارنج والاترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة (الهجرية) وغيرها من الثغر الشامي وانطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر » . كذلك جلب القطن وقصب السكر سنة ١٣٣ هـ من الهند [٩٩] وعرفت بعض الدول العربية الاسلامية وخاصة العراق هذه الزارعة ومنها نقلت الى صقلية وقبرص اثناء الحكم العربي لهما ، ومن صقلية نقل العرب الى اسبانيا زراعةالقطن ولا يزال يعرف في اللغات الاوربية باسمه العربي [١٠٠]. وقد اقام العرب معامل لتكرير السكر في جنديسابور ثم في سوريا

وفلسطين ومصر وشمالي افريقية واسبانيا بعد ان عمت زراعة القصب في كل بلدان العالم الاسلامي .

وفي محيط الصناعة نجد اثر التجارة واضحا ، فالصين عرفت صناعة الورق منذ بداية القرن الثاني للميلاد (١٠٥م) ولكنه لم يكن مصقول الصنعة لانهم كانوا يصنعونه من الحشائش كما يذكر القلقشندي[١٠١] ، وظلت الصين تحتكر هذه الصناعة والتجارة الورقية الى أن حاولت سمرقند سنة ٧٥٠م التحرر من حكم العرب لها ، وقام الصينيون بثورة عارمة ولكنها اخمدت ، ويقال ان العرب أسروا بعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر صناعة الورق فافضوا بها الى العرب ، وتأسس أول مصنع عربي[١٠٢] سنة ٧٥١ م ثم انتقلت صناعته الى بغداد سنة ٧٩٤م على عهد الرشيد ثم الى دمشق ومنها الى دمياط بمصر ولم يكد القرن العاشر الميلادي ينتصف حتى تعددت وتحسنت صناعة الورق وكثرت انواعه[١٠٣] ورخصت اثمانه ، وبذلك تحررت الكتابة من احتكار مصر للمادة التي كان يكتب عليها ونعني بها ورق البردي ، وذلك بفضل ما أدخله العرب على هذه الصناعة الهامة التي أحدثت انقلابا في مجال الثقافات والحضارات المختلفة من تعديلات وتحسينات حيث صنعوا الورق من بقايا المنسوجات القديمة (الخرق) وقد استلزم هذا مهارة وحذقا فنيا توفرت مقوماتها عند العرب .

وعن طريق التجارة تأثرت صناعة النسيج في بلاد الفرس فمدينة كازرون ، كانت اكبر مدنها لصناعة الكتان لدرجة انها كانت تسمى (دمياط الاعاجم) وكان الكتان ينقل بطريق البحر وكانت مراكز صناعته في اول الامر المدن الساحلية ومن ضمنها بطبيعة الحال مدن الخليج .

ويفهم مما ذكره المقدسي ان زراعة وصناعة الكتان نقلت الى فارس من مصر قبل ان تقوم فارس بزراعة الكتان عندها[١٠٤] .

ويذكر برتشنايدر [١٠٥] ان الهند كانت مركز زراعة القطن ، وان الصين لم تعرف زراعته حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانت الهند منذ القرن الرابع الهجري (١٠م) تصدر ثيابا مصنوعة من قطن مشهور بالجودة يصنع منه ما يسمى بالسينيّات الى مدن الفرس وبلاد الصين لان القطن حتى ذلك الوقت (٤هـ) لم يكن يزرع بالعراق ولا بخراسان ولا بمصر كذلك[١٠٦] .

كذلك تأثرت صباغة المنسوجات والوان الملابس بفضل التجارة التي كان من اثرها توحيد شكل الملابس والوانها ، ذلك لان البلدان الاسلامية عرفت المادتين الاساسيتين في الصباغة وهما النيلة والقرمز ، التي استعملت اولاهما في الصباغة باللون الازرق وثانيهما في الصباغة باللون الاحمر ، وكان مصدر النيلة بلاد الهند بمدينة كابل[١٠٧] وما حولها ، وكانت ارمينية (اقليم ارارات) مصدر القرمز[١٠٨] .

ادى التوسع في العلاقات التجارية الى التحول من نظام المقايضة الى معرفة السكة (النقود) وتوصلت البلدان التجارية الى استعمالها في البيع والشراء ، وكانت العملة السائدة في بلدان ومدن الخليج العربي هي الدرهم والدينار[١٠٩] ، واستعملت الدراهم بكثرة لان الدنانير كانت قليلة الاستعمال أما الصين فكانت اول بلد في العالم يستعمل العملة الورقية وكانت عبارة عن قطعة من الكاغد بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وكل خمس وعشرون قطعة منها تسمى شست وتساوي دينارا واحدا[١١٠] .

كذلك عرفت انواع من المكاييل والموازين كانت الوحدة السائدة في المعاملات الجارية مثل المن الصغير (٢٦٠ درهما) والمن الكبير (١٠٤٠ درهما) وقد اختلفت موازين بعض البلدان مثل الهند التي كان المن

فيها يوازي ٣٠٠ درهما واصطخر التي كان المن فيها يوازي ٤٠٠ درهما. أما المكاييل فكانت تتضمن الجريب ويوازي ١٦٠ رطلا والقفيز ويوازي ستة عشر رطلا ، والرطل ١٣٠ درهما[١١١] .

وكان من نتائج العلاقات التجارية كذلك ان عرفت البلدان الاسلامية وخاصة بغداد نظام جوازات السفر الذي نقلته عن الصين ، والسبب في ذلك كما يرويه صاحب الاغاني ان هرون الرشيد ارسل قائدا على جسر النهروان يتصفح وجوه الناس الداخلين بغداد ، وان يأتيه بالمؤمل الشاعر ، ومعنى هذا انه حتى القرن الثاني الهجري (٨م) لم يكن بالمشرق العربي نظام لضبط اسماء الغرباء قبل دخولهم من أبواب المدن ، وظل الحال على ذلك حتى القرن الثالث الهجري (٩م) عندما تكلم أحد الرحالة عن نظام جوازات المرور المعروف بالصين[١١٢] ، ولما استقرت الفكرة في الاذهان ادخل السلطان عضد الدولة نظام مراقبة ابواب عاصمة بلاده (شيراز) لاول مرة في القرن الرابع الهجري (١٠م) ويبدو انالناس تضايقوا من أمر هذه الجوازات لاننا نجد المقدسي[١١٣] يعبر عن هذا الضيق بقوله : « ومنع الخارج منها الا بجواز ، وحبسالداخل والمجتاز» .

هناك نتيجة هامة وأثر بارز من آثار العلاقات التجارية في بعض الجوانب الحضارية ونعني به انتشار الدين الاسلامي في بعض جهات من بلدان الشرق الأقصى ، حيث تكونت جاليات عربية واسلامية واستقرت ونمت في كثير من اطراف الصين والهند ، وقد لعبت هذه الجاليات دورا بارزا نشطا في نشر الاسلام بهذه المناطق البعيدة ، كما كانتعاملا فعالا في تهذيب اخلاق الناس ، والحفاظ على اعراضهم وكرامتهم ، فحرمت الاعراض على الغرباء الا بالزواج وكانت قبل ذلك مباحة[١١٤] واصبح شرب الخمر محظورا بعد ان كان يحتسيه الكبير والصغير .

انفردت هذه الجاليات الاسلامية في مدن الهند والصين بسكناهم وكان لهم في كل مدينة حي يقيمون فيه مساجدهم لاقامة شعائرهم الدينية، وكانوا معظمين محترمين ، وكان لكل جالية رئيس منهم يتولى امرهم ، ويقيم القضاء فيهم ، وينظر في شؤونهم ومصالحهم وكانوا لايقبلون غير حكم المسلمين فيهم ، ولا يقبلون الا شهادة المسلمين(١١٥) عليهم .

هذه دراسة موجزة عن العلاقات التجارية واهميتها بين دول الخليج العربي وبلدان ، الشرق الاقصى اوضحت فيها ان العامل التجاري بكل جوانبه كان سببا في نقل بعض الجوانب الحضارية من هذه البلدان البعيدة الى العالم العربي الاسلامي ، وان دور الانسان العربي في تقبل هذه الجوانب الحضارية وهضمها وصهرها في البوتقة العربية الاسلامية واستخراج جديد منها للعالم يتميز عن سابقه من الحضارات السابقة بما يتلاءم مع البيئة العربية والشريعة الاسلامية يرجع الى قدرته الذاتية واستعداده الفطري وتوفر الامكانات ووجود الفرصة المناسبة لذلك .

وغرضي من وراء هذه الدراسة هو تبيان الحقيقة فأنه لا ضير مطلقا على أي حضارة ان تتأثر من حضارات سابقة عليها او معاصرة لها طالما هي تطور هذه الحضارات لمصلحة المجتمع الانساني نفسه بما يتمشى مع روح التقدم والازدهار ، وان الذين يتعصبون لحضارة ما من الحضارات وينكرون تأثرها بأي نوع من الحضارات لا يرفعون بتعصبهم هذا من قيمة ما يتعصبون له ، بل على العكس من ذلك فهم يجعلونه كما لو كان نبتا شيطانيا ليس له جذور أو أصول يستمد منها الحياة . ومع اعترافنا بما للحضارات الاخرى من أثر في الحضارة العربية فاننا نقرر مطمئنين ان الحضاراة العربية الاسلامية قد أثرت في كثير من جوانب الحضارات الاخرى مما نلمس أثره الى يومنا هذا .

هوامش وتعليقات

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٥ ٠
(٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٨ ٠
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٩٢ ٠
(٤) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٦٦_٢٦٧ ٠
(٥) المرجع السابق ص ٢٧١ ٠
(٦) الأباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبدالله بن اباض المري ٠
(٧) المسعودي : مروج جـ ١ ص ١٤٩ ٠
(٨) المقدسي : ص ٤٦٦ ٠
(٩) ابن حوقل : ص ٥٥ ، ابن بطوطة : ص ٢٧٣ ٠
(١٠) مفرده (سبخة) وهي أرض ذات نز وملح ٠
(١١) البلخي : Al-Balkki : Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the Fourtienth Century. Trans. by G Le Strange, PP. 41-43, Royal Society, London 1912.

(١٢) المقدسي : ص ٤٢٦_٤٢٧ ، ياقوت : جـ ٣ ص ٢٩٤_٢٩٥ ٠
(١٣) نقولا زياده : الجغرافيا والرحلات عند العرب ص ١٤٨ ٠

✶ الأصطخري : مسالك الممالك ص ١٣٨ وما بعدها ٠
✶✶ آدم ميتز : الحضارة العربية ص ٤٣٩ ، بزرك بن شهريار : كتاب عجائب الهند ص ٩٨ ٠
(١٤) ياقوت : جـ ٣ ص ٢٩٤ وما بعدها ٠
(١٥) المسعودي : مروج جـ ١ ص ١٠٧_١١٢ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٦٠ ٠
(١٦) ياقوت : جـ ٤ ص ٣٧٣ ٠
(١٧) لوريمر : دليل الخليج جـ ٢ ص ٦٢٨_٦٢٩ ٠
(١٨) المرجع السابق جـ ٦ ص ١٩٤١
(١٩) لوريمر : نفسه جـ ٦ ص ١٩٨٨_١٩٩١ ٠
(٢٠) ياقوت : جـ ٤ ص ٣٧٣ ٠

(٢١) لوريمر : نفسه ج ٥ ص ١٧١٨ ـ ١٧١٩ ، ج ١ ص ٣٨٥ـ٣٨٧ ، ٤٢٩ ٠

(٢٢) حسن سليمان محمود : الكويت ص ١٣٩ ، الطبري : ج ١ ص ١٧٤ ، القزويني : اثار البلاد ص ٧٧ـ٧٨ ويقول ياقوت (ج ٤ ص ١٥٠) عنهم انهم روافض سبائيون لا يكتمون ذلك ٠

(٢٣) المقدسي : ص ٩٣ ٠

(٢٤) راجع ما ذكره ابن بطوطة (الرحـلة ص ٢٧٩ـ٢٨٠) عن ملابس الغواصين وطريقة نزولهم الى البحر ، وما يحملونه معهم من أشياء لوضع اللؤلؤ فيها وقد نقل د٠ نقولا زيادة (ص ٢٣٢) نقلا عن ناصري خسره « سفرنامه ص ٩٢ » ٠

★ ان سلاطين الاحساء كانت تأخذ نصف ما يستخرجه الغواصون ، ولكني أميل الى الرأي القائل بأن السلاطين كانت تحصل على الخمس لانه يتفق ونظام الضريبة (الاخماس) في الاسلام ٠

(٢٥) جورج حوراني : العرب والملاحة ص ١١٤ « مترجم » ٠

(٢٦) حسن سليمان محمود : ص ١٣٨ ٠

(٢٧) ابن بطوطة : ص ١٨٥ـ١٨٦ ٠

(٢٨) القزويني : آثار البلاد ص ٣٠٩ ٠

(٢٩) اليعقوبي : البلدان ص ٢٣٨ ، ٢٥٠ ٠

(٣٠) حسن محمود : ص ٤٠ ٠

(٣١) القزويني : ص ٢٨٦ـ٢٨٧ ٠

(٣٢) البلاذري : فتوح ق ٢ ص ٤٣٨ ٠

(٣٣) ابن بطوطة : ص ١٨٩ ٠

(٣٤) ياقوت : ج ٤ ص ٧٤ـ٧٥ ٠

(٣٥) الجهشياري : الوزراء ص ٧٣ ، ابن بطوطة ص ١٨٩ـ١٩٠ ٠

(٣٦) الاصطخري : ص ٣٣ـ٣٤ ٠

(٣٧) المقدسي : ص ١١٨ ٠

(٣٨) ياقوت : ارشاد الاريب ج ١ ص ٧٧ ٠

(٣٩) احمد بن ماجد : ثلاث أزهار ص ١٧٩ ٠

(٤٠) Bell; Aphrodito papyri (J.H.S.) P. 115; Der Islam, 1953.

(٤١) Grohmann, A; Arabien, München 1963

(٤٢) ابن رسته : الاعلان النفيسة ص٩٥ ٠

(٤٣) البلاذري : ص ٤١٩ ٠

(٤٤) الطبري : تاريخ ج٣ ص ٣٤٨

(٤٥) راجع كل ما كتبه كل من بوري ، وكوزماس انديكوبلوستس عن هذا الموضوع :

(a) Bury, J.B.; History of the Later Roman Empire, London 1932.

(b) Cosmas Indicopleustes; Christian Topography.

(٤٦) مؤرخ لاتيني عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي ، راجع حوراني ص ٩١ ـ ٩٢ ٠

(٤٧) Bell; Aphrodito papyri, P. 115; Der Islam, II

(٤٨) معلقة طرفة بن العبد : الأبيات من ٣ـ٥ ، وكلمة (عدولية) نسبة الى عدوله وهي قرية بجزر البحرين ٠ ياقوت ج ٣ ص ٦٣٣ ٠

(٤٩) البلاذري : ص ٥٣٠ ٠

(٥٠) يسميها النجارون البحريون التقفيصة أو العيدان ٠

(٥١) عبدالرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ص ٢٤٥ ٠

(٥٢) Duden Bild-Worter-Buch 38

(٥٣) Wilson, Arnold; The Persian Gulf, P. 134. Oxford 1928.

(٥٤) يوجد حاليا ما هو قريب من هذا الوصف ومخصص كذلك لنقل البضائع من الموانيء الى المدن الداخلية عن طريق الانهار ويسميه البحارة ماعون (والجميع مواعين) ٠

(٥٥) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه المراكب ارجع الى المصادر الآتية: الطبري ج ٣ ص ٩٥٢ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٤٧٧ ٠ آدم ميتز : الحضارة ج ٢ ص ٣٩٤ ، ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٧٥ ، البغدادي : مراصد الاطلاع ، الجهشياري : الوزارة ، حوراني : ص ١١٥ ، احمد بن فضلان : رسالة بن فضلان

عبدالامير محمد أمين : القوى البحرية ، الاصطخري : مسالك ،
المسعودي : مروج ،
Lorimer, G.G.; Guid of Gulf, Part II, p. 2321.

(٥٦) القرآن الكريم : سورة هود ١١/٣٧/ ، ٤١ ·
(٥٧) القرآن الكريم : سورة القمر ٥٤/١٣ـ١٤ ·
(٥٨) سورة النحل ١٦/١٤ ·
(٥٩) الاصطخري : ص ٣٤ـ٣٥ ·
(٦٠) حوراني : ص ١٠ ·
(٦١) المسعودي : ج ١ ص ٢٣٤ ، ج ٣ ص ٦ وما بعدها ·
(٦٢) Chau-Ju-Kua; Chines and Arab Trade, P. 137

(٦٣) الاصطخري : ص ٢٤ـ٢٥ ، المقدسي ص ١٨٠ ، ٢٠٣ ·
(٦٤) الطبري : ج ٣ ·
(٦٥) آدم ميتز : ج ٢ ص ٣٧٠ـ٣٧١ ·
(٦٦) راجع انتكاسة التجارة في الخليج العربي أديسون : تجارة العصور الوسطى ص ٥٧ ·
Adeson; Medieval Commerce, P. 57, New York Archibald, Lewis; Naval Power and Trade in the Miditerranieean, A. D. 500-1100, P. 171, New Jersey 1951.

(٦٧) ابن خرداذبة ص ٦٤ـ٦٩ ، آدم ميتز ص ٣٧١ ·
(٦٨) المسعودي ج ١ ص ١١١ـ١١٢ ، ١٥٢ ·
(٦٩) المسعودي ج ١ ص ١٥٠ ، ياقوت ج ١ ص ٣٤٣ ·
(٧٠) آدم ميتز ص ٣١٤ نقلا عن سلسلة التواريخ « طبعة · "Renaud" ص ٣٦
(٧٣) ابن بطوطة ص ٦٢٧ـ٦٢٩ ·
(٧٤) المرجع السابق ص ٢٥٩ـ٢٦٠ ، ٣٣٩ ·
(٧٤) المرجع السابق ص ٢٥٩ـ٢٦٠ ، ٣٣٩ ·
(٧٥) المرجع السابق ص ٦٢٩ ·

(٧٦) المروزي : أبواب الصين ص ١٠ ، ابن بطوطة ص ٢٥٤ ·
(٧٧) كان المسلمون يطلقون في القرن الثالث الهجري (٩ م) على التجار

اليهود « تجار البحر » فقط وكان يقال لهم « الرهدانية أو الرذانية»
راجع الهمداني ص ٢٧٠ وابن خرداذبة ص ١٥٣ وما بعدها ·

(٧٨) آدم ميتز : ص ٤٣١ـ٤٣٢ ·

(٧٩) نقولا زيادة : ص ١٤٧ـ١٤٨ ·

(٨٠) محمد كرد علي : ص ١٨٠ ·

(٨١) الخربوطلي : ص ٧٤ـ٧٥ ·

(٨٢) كريمر : الحضارة ص ٧٨ ، الخربوطلي ص ١٠١ ·

(٨٣) Wilson, Arnold; The Persian Gulf, PP. 105-106

وكذلك نقولا زياده ص ٢٤١ ·

(٨٤) الأصطخري : ص ٨٣ ·

(٨٥) المسعودي جـ ٤ ص ٨٧ ، اليعقوبي ص ٢٦٦ ·

(٨٦) المقريزي : الخطط جـ١ ص٣١٥ ·

(٨٧) احمد فكري : مساجد القاهرة ـ المدخل ص ١١١ ، ٢٣٧ـ٢٣٨ ·

(٨٨) Hell., J.; The Arab Cevilisation, pp. 70-71; Geirut 1973..

(٨٩) بارتولد · ف : الحضارة ص ٢١

(٩٠) Sarre U. Herzfeld; Erester Vorlaufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra' S. 24, Berlin 1912.

(٩١) المسعودي : جـ ٣ ص ٢٩ ·

(٩٢) جوستاف لبون : حضارة العرب ص ٦١٤ ·

(٩٣) الجواليقي : المعرب تحت حرف الدال ، والراء ، والنون ، وكذلك قاموس دوزي ، ـ Persich, Deutsch-Worterbuch

(٩٤) Oxford Dictionary; New English Dictionary on Historyical Principles. and Taylor, W. ; Arabic Words in English S. P.E. Tract No. 38.

(٩٥) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣٩ ٠

(٩٦) عبدالمجيد مصطفى : ص ٣١٣ وما بعدها ، حسن محمود : ص ٢٥٢-٢٥٣ ٠

(٩٧) راجع وصف هذه الفاكهة عند ابن حوقل ص ٢٢٨ ٠

(٩٨) المسعودي : جـ ٢ ص ٤٣٨-٤٣٩ ، المقريزي : جـ ١ ص ٢٨ ٠

(٩٩) جوستاف لبون : ص ١٦٩ وما بعدها ويرى ابن حوقل (ص ٢٢٣، ٣٢٨) انه حتى القرن الرابع الهجري (١٠م) لم يكن القطن يزرع بالعراق ولا بخراسان ولا بمصر كذلك ٠

(١٠٠) بارتولد : ص ٤٧٥ ٠

(١٠١) القلقشندي : جـ٢ ص٤٧٥ ٠

(١٠٢) يرى جوستاف لوبون وجورج يعقوب ان العرب هم أول من صنع الورق ، وانهم أول من استعمل الكاغد بدلا من الرق ، ويستدلان على ذلك بالمخطوطة التي عثر عليها في مكتبة الاسكوريال بمدريد المدونة سنة ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن ، ونحن لا نميل الى هذا الرأى اذ الثابت حتى الآن ان صناعة الورق بدأت في الصين سنة ١٠٥م ، وان العرب لم يعرفوا صناعته الا بعد ما يزيد عن ستة قرون ، ولكنهم تمكنوا من تطوير هذه الصناعة ، وادخال تحسينات وتعديلات جذرية عليها منذ القرن ٣ هـ (٩م) حتى ظن البعض ان العرب هم اول من أقام هذه الصناعة ٠

(١٠٣) أدم ميتز : جـ٢ ص٢٠٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، وربما كان هذا القول من قبيل التعميم بدليل أن أوراق البردي العربي ظلت مستعملة في الكتابة الى حوالي القرن ٦ هـ (١٢م) ومجموعات البردي المختلفة بها العديد من الوثائق التي يرجع تاريخها الى هذا القرن ٠ راجع بحثنا عن اوراق البردي العربي ضمن مجموعة هذه البحوث

(١٠٤) المقدسي : ص٤٣٣ - ٤٣٥ ، ٤٤٢ ٠

(١٠٥) Bretschneider Medieval researches. I, PP. 70-71.

(١٠٦) ابن حوقل : ص ٢٢٣ ، ٣٢٨ ٠

(١٠٧) الاصطخري ص١٨٨ ـــ ١٩٠ ٠
(١٠٨) عباس العزاوي : النقود العربية في العراق ٠
(١٠٩) ابن بطوطه : ص ٦٢٩ ٠
(١١٠) الاصطخري : ص١٥٦ ٠
(١١١) الاصفهاني : الاغاني ج١٩ ص ١٤٧ ٠
(١١٢) آدم ميتز : نقلا عن سلسلة التواريخ ص ٤٢ (طبعة Renaud)
(١١٣) المقدسي : ص ٤٢٩ ٠
(١١٤) ابن خرداذبه ص ٦٦ـ٦٧ ٠
(١١٥) ابن حوقل ص ٢٢٥ وما بعدها ، وابن خرداذبه ص ٧٥ ٠



المراجع العربية

١ ــ ابن الاثير : ابو الحسن عز الدين بن الاثير الجزري •
الكامل في التاريخ (١٢ جزءاً) بيروت سنة ١٩٦٧ •

٢ ــ ابن بطوطه : ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي (شمس الدين) •
رحلة ابن بطوطة ــ بيروت سنة ١٩٦٤ •

٣ ــ ابن حوقل : ابو القاسم محمد •
كتاب صورة الارض بيروت (بدون) •

٤ ــ ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله •
المسالك والممالك صورة مصورة على نسخة ليدن سنة ١٨٨٩ •

٥ ــ ابن خلدون : عبدالرحمن •
المقدمة ، القاهرة سنة ١٩٢٢ •

٦ ــ ابن رسته : ابو علي احمد بن عمر •
الاعلاق النفيسة ، ليدن •

٧ ــ احمد امين •
فجر الاسلام ط ٤ النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦ •

٨ ــ احمد بن فضلان •
رسالة ابن فضلان ــ المجمع العلمي العربي ــ دمشق سنة ١٩٥٩ •

٩ ــ احمد بن ماجد •
ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق ستوبوفسكي ترجمة د • محمد منيرموسي عالم الكتب ــ القاهرة سنة ١٩٦٩ •

١٠ ــ أحمد فكري (دكتور) •
مساجد القاهرة (المدخل) القاهرة سنة ١٩٦١ •

١١ ـ آدم ميتز .
الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري (جزءان) ترجمة ابوريده ط ٤ بيروت سنة ١٩٦٧ .
١٢ ـ الاصطخري : ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي .
مسالك الممالك ليدن سنة ١٩٢٨ .
١٣ ـ الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد .
كتاب الاغاني (٢١ جزءا) دار الفكر سنة ١٩٧٠ .
١٤ ـ بارتولد ، ف .
تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ترجمة حمزة طاهر ـ المعارف سنة ١٩٤٣ .
١٥ ـ بدوي : عبدالرحمن (دكتور) .
دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ـ الانجلو مصرية سنة ١٩٦٧ .
١٦ ـ بزرك بن شهريا .
كتاب عجائب الهند .
١٧ ـ البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق .
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع القاهرة سنة ١٩٥٥ .
١٨ ـ البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر .
كتاب فتوح البلدان (ثلاثة اقسام) ، النهضة بمصر سنة ١٩٦٥ .
١٩ ـ الجواليقي : ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد الخضر .
المعرب من الكلام الاعجمي دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٩ .
٢٠ ـ جوستاف لبون .
حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .
٢١ ـ حسن سليمان محمود (دكتور) .
الكويت ماضيها وحاضرها ـ الاهلية بغداد سنة ١٩٦٨ .

٢٢ ـ حوراني : جورج فضلو (دكتور) •
العرب والملاحة في المحيط الهندي ترجمة السيد يعقوب بكــــر ـ القاهرة ١٩٥٨ •

٢٣ ـ الخربوطلي : علي حسني (دكتور) •
العرب والحضارة ـ الانجلو مصرية ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ •

٢٤ ـ زياده : نقولا (دكتور) •
الجغرافيا والرحلات عند العرب بيروت سنة ١٩٦٢ « دار الكتاب اللبناني » •

٢٥ ـ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري •
تاريخ الرسل والملوك (١٠ أجزاء) ، المعارف سنة ١٩٧٠ •

٢٦ ـ طرفة بن العبد •
معلقة طرفة : (ديوان) صادر في بيروت سنة ١٩٦١ •

٢٧ ـ عباس عزاوي •
النقود العربية في العراق بغداد (••) •

٢٨ ـ عبدالامير محمد امين (دكتور) •
القوى البحرية في الخليج العربي في القرن ١٨ م بغداد سنــــة ١٩٦٦ •

٢٩ ـ عبدالعزيز الرشيد •
تاريخ الكويت ـ بيروت سنة ١٩٧١ •

٣٠ ـ عبدالمجيد مصطفى •
دراسات عن الكويت ، القاهرة سنة ١٩٦٤ •

٣١ ـ القزويني : زكريا بن محمد بن محمود •
آثار البلاد واخبار العباد ـ صادر بيروت سنة ١٩٦٩ •

٣٢ ـ القلقشندي : ابو العباس احمد .
صبح الاعشى في صناعة الانشاء (١٤ جزءا) دار الكتب المصرية سنة ١٩١٩ .
٣٣ ـ لوريمر ج ـ ج .
دليل الخليج ـ القسم الجغرافي (٧ أجزاء) ترجمة مكتب سمو امير قطر الدوحة ـ (بدون) .
٣٤ ـ المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي .
مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) التجارية بمصر سنة ١٩٦٤ .
٣٥ ـ مظهر : جلال .
حضارة الاسلام واثرها في الترقي العالمي ، القاهرة (بدون) .
٣٦ ـ المقدسي : ابو عبدالله محمد بن ابي بكر .
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، الطبعة الثانية ليدن سنة ١٩٠٦
٣٧ ـ المقريزي : احمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد .
الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) صادر في بيروت (بدون) .
٣٨ ـ الهمذاني : ابو بكر احمد بن محمد المعروف بابن الفقيه .
مختصر كتاب البلدان ، ليدن سنة ١٨٨٥ .
٣٩ ـ ياقوت : ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي .
معجم البلدان (٥ اجزاء) صادر في بيروت سنة ١٩٥٧ .
٤٠ ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب .
كتاب البلدان طبعة دى جويه ـ ليدن سنة ١٨٩٣ .

المراجــع الاوربية

Europäische Hilfsquellen

1. Adeson; Medieval Commerce, P. 57, New York 1961.
2. Archibald, Lewis; Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100, P. 171, New Jersey 1951.
3. Al-Balkki; Description of the Provence of Fars in Persia at the beginning of the Fourtienth Century. Trans. by Le Strange, G., PP. 41-43 Royal Asiatic Society. London 1912.
4. Bell; Aphrodito papyri (J.H.S.) 115, Der Islam, II 1953.
5. Bretschneider; Medieval researches, 1, S. 70-71.
6. Bury, J. B.; History of the later Roman Empire, London 1923.
7. Chau-Ju-Kua; Chines and Arab Trade in the 12th. and 13th. Centuries. Trans. F. Hirth. W. Rochill, 1914.
8. Duden - Bild - Worterbuch, 3 B.
9. Grohmann, A.; Arabien, München 1963.
10. Hell, Joseph; The Arab Civilization, Beirut 1973.
11. Indicopleustes, Cosmas; Christian Topography.
12. Oxford Dictionary; New English Dictionary on Historical principles.
13. Persisch-Deutsch-Wörterbuch. Berlin 2 Ausgabe.
14. Sarre und Herzfeld; Erester vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen Von Samarra', S. 24, Berlin 1912.
15. Taylor, W.; Arabic Words in English, S.P.E. Tract No. 38.

سامي خوندة في منفاه في
جزيرة هنجام

الدكتور محمد حسين الزبيدي

كلية التربية ـ جامعة بغداد

مقدمـــــة ....

بعد ان فشلت الثورة العراقية الكبرى في تحقيق اهدافها في الحرية والاستقلال أستمرت الحركة الوطنية في معارضتهـــا للانتداب والمعاهدة بطرق سليمة . وأعتقد زعماء هذه الحركة انه لابد من تنظيم صفوفهـــم وتكتيلها في تنظيمات سياسية تقودهم نحو الهدف المنشود فقرر زعمـــاء الحركة تشكيل احزاب سياسية علنية تكـــون أداة لمقاومة المستعمرين . وتقدم هؤلاء بطلباتهم الى الحكومة في طلب الموافقة على تكوين الاحزاب فوافقت على طلبهم واجازتهم وبذلك تألف الحزبان الوطنيان هما :

١ ـ الحزب الوطني العراقي ... ومؤسسوه :

جعفر أبو التمـــن ، وأحمد الشيخ داود ، وحمدي الباجه‌جي ، ومولود مخلص ومحمد مهدي البصـــير وعبدالغفور البدري وبهجت زينل .

وقد اجيز بتاريخ ٢ آب ١٩٢٢ [(١)] .

٢ ـ حزب النهضة العراقية : ومن مؤسسيه :

---

(١) جريدة المفيـد ، ٨ آب ١٩٢٢ ، فاروق صالح العمـــــر : الاحزاب السياسية ص ٦٧ .

أمين الجرجفجي ، محمد حسن كبة ، ومهدي البير واحمد الظاهر وعبدالرزاق الازري •

وقد أجيز بتاريخ ١٩ آب ١٩٢٢ [٢] •

وعندما عزمت بريطانيا على عقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية نشط هذان الحزبان في معارضة المعاهدة ومهاجمتها مهاجمة شديدة وعقد زعماؤهما أجتماعات متعددة مشتركة للاتفاق على سياسة موحدة ومواقف مشتركة• فزادت الحركة الوطنية في معارضتها ضد المعاهدة وتجلت بشكل واضح في الاجتماعات التي عقدت ، وعرائض الاحتجاج التي رفعت الى الملك والمندوب السامي ، وكتابة المقالات في الصحف اليومية وغيرها التي تعارض فيها تلك المعاهدة •

وقد حدث خلاف شديد بين المندوب السامي والملك فيصل بسبب السياسة غير الموالية للانكليز التي أتبعها الملك والتي لا تحقق أطماع بريطانيا في العراق ولاسيما بعد أن علم المندوب السامي البريطاني أن الملك فيصل يتصل بقيادة الحركة الوطنية والصحف المعارضة للسلطة البريطانية ويحرضها على مهاجمة المعاهدة ومقاومة ابرامها • وفي الحقيقة كان الملك فيصل يتصل بالمعارضة فعلا للاستفادة منها في الضغط على بريطانيا في تحقيق بعض المكاسب الوطنية، وقد أيد هذه الحقيقة الصحفي المشهور سامي خوندة فقال لي (عندما كانت تحدث أزمة بين الملك فيصل الاول والانكليز كان الملك فيصل يستعين بالصحف المعارضة يطلب منها مهاجمة الانكليز والانتداب ففي أواخر سنة ١٩٢٢ أرسل الملك في طلبي بصفتي رئيسا لتحرير جريدة

---

(٢) جريدة العراق ، ٩ آب ١٩٢٢ ؛ فاروق صالح العمر : نفس المصدر ص ٧١ • ـ

الرافدين وفي طلب الاخ علي محمود الشيخ علي بصفته من الصحفيين اللامعين الذين يحررون في الجريدة وقال لنا : (أكتبوا في جرائدكم وتكلموا عن حقوق البلاد لاننا نستفيد من كتاباتكم ومطالبتكم في تحقيق مطاليب الشعب وتحملوا ما تلاقون من الصعوبات والاذى في سبيل بلادكم ووطنكم ، وان الامة لا تستطيع ان تحصل على مطاليبها بغير الأذى والتضحيات) [٣] وقد وجد الحزبان « الوطني العراقي ، والنهضة العراقية» في هذا الخلاف فرصة لمهاجمة المعاهدة ونقدها بشدة والاحتجاج ضد الانتداب البريطاني فوحدا مساعيهما ونسقا مواقفهما ، فعقدت قيادة الحزبين برئاسة السيد محمد الصدر اجتماعا [٤] فيمقر الحزبالوطني العراقييومي ٢٠ ، ٢١ آب ١٩٢٢ ، وناقشوا الاوضاع الراهنة واحتمالات تطورها ووضع الحلول لها وقرروا القيام بمظاهرة سلمية يعربان فيها عن أماني الشعب ورغباته وتقديم مذكرة الى الملك فيصل بمناسبة مرور عام على تتويجه يعرضان فيها مطاليب الجماهير • ثم انتخبت لجنة من أربعة أشخاص مثل الحزب الوطني العراقي فيها : جعفر ابو التمن ، وبهجت زينل ومثل حزب النهضة العراقية محمد حسن كبة ، واصف قاسم أغا وقد اوكل الى اللجنة هذه وضع مذكرة أحتجاج الى الملك عن وضع البلاد المضطرب على أن تعرض على اللجنتين التنفيذيتين في جلسة مشتركة • وقد وضعت اللجنة مذكرة وأقرت في جلسة مشتركة • وكانت المذكرة عنيفة وشديدة اللهجة [٥] وقد حملها جعفر أبو التمن ممثلا للحزب الوطني العراقي وأمين الجرجفجي ممثلا لحزب النهضة العراقية وقابلا الملك فيصل في

---

(٣) مقابلة تمت بيننا في منزلة في الوزيرية مساء يوم ٨ـ٨ـ١٩٧٨ م •

(٤) مهدي البصير : القضية العراقية ج٢ ص٤١٣ •

(٥) مهدي البصير : نفس المصدر السابق ج٢ ص ٤١٤ •

البلاط [٦] وقدماها له • وقد تعرضت المذكرة الى الالام والمأسي التـــي يكابدها الشعب العراقي من سوء الادارة الجائرة ، التي تمارسها السلطات الانكليزية بروح عدائية وبعيدة عن اماني البلاد وعن روح الاستقلال الذي ينادي به شعب العراق • وانهم أتخذوا سياسة التفريق والرشوة والاعمال غير المشروعة التي اضرت بالبلاد ومصلحتها وأكدت المذكرة عدم جدوى الشكاوي العديدة التي رفعت الى الملك والحكومة التي لم تسمح للامـــة شكوى • وقد أبعد الموظفون المخلصون الذي كان يؤمل منهم الخير للبلاد واستعيض عنهم باسوء الاشخاص وأتفههم •

ومما قالته المذكرة (انه بالنظر لان المجلس التشريعي لم يؤلف لحد الان ، وان حق مراقبة الوزارة هو عائد للامة رأسا لذلك فأن هيئتي الحزب الوطني العراقي وحزب النهضـــة العراقية رأتا ان الواجب الوطنـــي يقتضي بأن تعرض الامور على الملك وطلبت منه اصـــدار ارادته بتنفيذ المطاليب التالية : ــ

١ ــ منع التدخل البريطاني في الشؤون الادارية •

٢ ــ تأليف وزارة من الوطنيين الاكفاء المخلصين لكي تطمئن الامـــة بأصلاح الحالة ، فيزول الاضطراب وتهدا الخواطر وتعم السكينـــة والراحة في البلاد •

٣ ــ ان لا تعقد اي معاهدة ولا تجري اي مفاوضة فيها قبل تكويـــن المجلس التاسيسي الذي ينتخب اعضاؤه بحرية تامة [٧] •

وفي يوم ٢٣ آب ١٩٢٢ يوم ذكرى تتويج الملك فيصـــل الاول قام الحزبان بمظاهرة سلمية كبيرة سارت في شوارع بغداد وهي تهتف بحياة

---

(٦) جريدة المفيد ٢٢ آب ١٩٢٢ ، كان البلاط الملكي يومها في بنايـــة القشلة الحالية وقد جرفه النهر مؤخرا •

(٧) جريدة المفيد ٢٣ آب ١٩٢٢ ؛ جريدة الرافدين : ٢٣ آب ١٩٢٢ •

الملك فيصل ، وبسقوط الانتداب البريطاني وتطالب بتشكيل حكومة وطنية مستقلة • وكان يتصدر هذه المظاهر جعفر ابو التمن والشيخ احمد الداود • وواصلت مسيرتها حتى وصلت البلاط فاستقبلها فهمي المدرس وادخل الزعماء الاربعة على الملك وبعد التحية والتبريك تقدم جعفر ابو التمن الى الملك ورجاه ان يخرج الى الجموع المحتشدة التي جاءت تحييه هذا اليوم ويستمع الى مطالبهم بخطاب يلقيه احد اعضاء الحزب الوطني في ساحة البلاط ، فاعتذر الملك عن الخروج معهم لانه على موعد مسبق مع المندوب السامي البريطاني (السير برسي كوكس) وطلب الملك من فهمي المدرس كبير امنائه القيام بهذه المهمة ، بالاستماع الى الخطب والمطاليب وتبليغها اليه فخرج فهمي المدرس معهم الى الشرفة المطلة على الجماهير المحتشدة • فوقف الشيخ مهدي البصير يخطب بأسم الحزب الوطني العراقي [٨] •

وقد استهل البصير خطابه بتقديم التهاني الى الملك بهذه المناسبة وأبدى سروره وأغتباطه بتبوؤ الملك فيصل العرش ومما ذكره في خطابه : انه كان يؤمل في هذا اليوم أن يكون مجلس النواب قد أنعقد والمؤسسات التي تمثل الامة تمثيلا تاما قد تألفت واظهر أسفه لعدم تحقيقها حتى الان وقد ذكر الملك والحاضرين بأن أبرام البيعة للملك قبل عام كان قد رافقها طلب بجميع المجلس التأسيسي خلال ثلاثة اشهر ولكن هذه المدن قدأنقضت وأنقضت سنة ولم يلب هذا الطلب • ثم أكد على أهمية جمع المجلس التأسيسي في سن المعاهدة المزمع عقدها مع بريطانيا ولكن يصبح كل ما في هذه الدولة حقا مكتسبا وأمرا واقعا لابد ان يتألف البرلمان لتكون

(٨) جريدة العراق ٢٥ آب ١٩٢٢ ؛ محمد مهدي البصير : القضية العراقية ج ٢ ص ٤١٦ـ٤١٧ •

الحكومة مسؤولة امامه ثم ارجع كل الكوارث والالام الى تاخير عقد المجلس التأسيسي وحمل الوزارة السابقة مسئولة تأجيله • وفي نهاية خطابة طالب الملك بتأليف وزارة صالحة مخلصة حائزة على ثقة الشعب لتطمئن اليها القلوب وتسكن اليها الخواطر •

كما القى محمد حسن كبة خطبة ثانية بالنيابة عن حزب النهضة العراقية[٩] وطلب الى فهمي المدرس نقل محتواها الى الملك وفي هذه الاثناء حضر المندوب السامي السر برسي كوكس الى البلاط لتقديم التهاني الى الملك بمناسبة تتويجه • فلما وصلت السيارة الى مكان الاحتفال كانت الجماهير محتشدة فلم تستطيع سيارته اجتياز الحشود الا بصعوبة بالغة وتقول مس بيل [١٠] بينما كان برسي كوكس يرتقي السلم نحو منصة الملك لتقديم التهاني هتف صوت من بين الجميع بشيء لم يصل الى سمعه ولم اتبينه انا • فأعقب ذلك عاصفة من التصفيق وقد دخلنا غرفة الاستقبال ونحن مرتبكون جدا ، وكان الانفعال يكاد يظهر على وجه الملك •• ولما رجعنا الى المكتب طلب الي برسي كوكس أن أتولى الامر في الحال لاهتدي الى ماحدث فاستلمنا الخبر الذي كنا نريده ، وهو أن الحزبين المتطرفين (الحزب الوطني وحزب النهضة) قاما بمظاهرة والجملة التي اثارت الاستحسان والتصفيق هي (فليسقط الانتداب) •

لقد اثار هذا الهتاف أستياء أعضاء الحزب الوطني العراقي والنهضة العراقية لاعتقادهم أن ذلك يضر بمقاصدهم الوطنية وذكر لي سامي خوندة

---

٩) محمد مهدي البصير : المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٩ ؛ البزاز : العراق من الاحتلال الى الاستقلال ص ١٤٦ •

(١٠) رسائل المس بيل ص٤٣٥ ـ ٤٣٦ •

في لقائي معه[11] أن حسونا ابا الجبن هو الذي هتف بهذه العبارة بوحي من الانكليز حتى يتخذونها وسيلة لضرب الاحزاب الوطنية • أساء هذا الموقف السير برسي كوكس والقى تبعة ذلك على الملك كما أن المندوب أراد أستغلال هذا الموقف لضرب الحزبين الوطنيين فارسل في اليوم الثاني ٨/٢٤ أنذارا شديد اللهجة الى رئيس الديوان الملكي (رستم حيدر) يصف له ذلك المشهد ويحتج فيه بشدة على ما لقيه من معاملة غير لائقة عند حضوره ممثلا لملك بريطانيا في تقديم التبريك وحسبها أهانة شخصية له وهدد الملك فيصل بأنه أخبر لندن بالحادث • وطالب بالاعتذار اليه كما طلب بيانا بالاجراءات التي ينوي الملك أتخاذها ضد الخطيبين اللذين القيا خطبا مهيجة) •

وكذلك أدت هذه الاحداث الى اقالة[12] فهمي المدرس كبير الامناء من منصبه • وقد أكد لي سامي خوندة في مقابلة معه •• أن المندوب السامي أدعى أن فهمي المدرس لم يفسح له المجال في الدخول الى الملك• ولكن الحقيقة ، أن هناك اشخاصا يريدون أبعاد فهمي المدرس عن منصبه نضخموا الامر وجسموه • وكذلك كان المندوب السامي نفسه يرى ضرورة أخراجه من منصبه لاعتقاده أن فهمي له علاقة جيدة بالوطنيين ويبيح لهم أسرار البلاط • ويعتقد سامي خوندة أن لرستم حيدر ضلع في الامر وهو الذي اوغر صدر الانكليز عليه فأقالوه •

أعتذر الملك فيصل بكتاب أرسله الى المندوب السامي أعرب فيه عن اسفه وتأثره للحادث الذي وقع يوم ذكرى تتويجه • ثم أكد الملك أنه سيعمل كل ما هو ضروري لاصلاح الحادث حسب رغائب المندوب

---

(١١) في مقابلة معه في منزلة في ليلة ٨-٨-١٩٧٨ •

(١٢) الحسني : عبدالرزاق : تاريخ الوزارات العراقية ج١ ص٩٥ •

السامي • كما رجا الملك فيصل بأن لايبقى أثر لهذه الحادثة في ذاكرة المندوب السامي التي لم توجه اليه شخصيا[١٣] ولكن المندوب السامي لم يقتنع بذلك •

وفي هذه الاثناء اصيب الملك فيصل بالتهاب الزائدة الدودية وقرر الاطباء أجراء عملية جراحية مستعجلة • وفي صباح يوم ٢٥ أب ١٩٢٢ أجريت له العملية بنجاح ويقول الريحاني : وقبيل أجراء العملية وصل برسي كوكس ومعه كورنواليس مستشار وزارة الداخلية فسلم وأخرج من جيبه أمرا قدمه للملك ليوقعه وهو أمر اعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين وغيرهم من العراق ••• فقال الملك والامر بيده يخاطب السر برسي :ـ

بعد دقائق قليلة أكون بين أيدي هؤلاء الاطباء ، وقد لا أعود من غيبوبتي الى الحياة فهل تطلب مني ياسير برسي أن يكون هذا الامر أخر أعمالي في الدنيا ؟ هل تنتظر مني أن أنفي هؤلاء الناس ، أهل البلاد من بلادهم قبل موتي ؟ لا والله أنه غير ممكن ، قال هذا : ودفع الامر الى المندوب السامي فوضعه في جيبه • وخرج من القاعة دون أن ينوه بكلمة واحدة[١٤] •

وبعد أجراء العملية أصبحت البلاد بغير وزارة ولا رئيس دولة لان الوزارة النقيبة الثانية كانت قد أستقالت فلم تبق في البلد سلطة سوى سلطة المندوب السامي فتولى السلطة بنفسه وبادر في الحال الى أتخاذ اجراءات قمعية فاصدر بيانا في ٢٦ أب ١٩٢٢ اوضح فيه حالة البلاد الراهنة ، وبين فيه أن مسؤولية حفظ الامن والنظام هي مسؤولية مشتركة

(١٣) الحسني : عبدالرزاق : الوزارات ج ١ ص ٩٦ •

(١٤) أمين الريحاني : فيصل الاول ص ١١٨ ـ ١١٩ •

بين الحكومة العراقية والمندوب السامي وطالما أن الوزارة قد أستقالت وأصبحت البلاد بغير حكومة كما أن الملك أصيب بالتهاب الزائدة الدودية وأن الوضع أصبح في حالة خطرة بسبب سلوك بعض السياسيين ومنشوراتهم في العاصمة ، لذلك فقد رأى المسؤولون عن حفظ القانون والنظام وجوب أتخاذ أجراءات سريعة للمحافظة على الامن •

وكذلك تعرض بيان المندوب السامي الى البيان المشترك الذي أصدرته هيئتا حزبي الوطني العراقي والنهضة العراقية في ٢٠-٢١ أب ١٩٢٢ فوصفه بانه يتضمن عداءا صريحا للحكومة والدعوة للاضراب ثم أعتبر المندوب السامي هذه الامور قد اضطرته الى اتخاذ التدابير الاتية (١٥) :

اولا : أقفال الحزب الوطني وحزب النهضة •

ثانيا : تعطيل جريدتي المفيد والرافدان والقبض على مديريهما سامي خوندة ، وابراهيم حلمي العمر وأبعادهم خارج العراق •

ثانيا : القاء القبض على الاشخاص الاتية اسماؤهم وابعادهم عن بغداد الى خارج العراق وهم :-

جعفر أبو التمن ، حمدي الباجهجي ، الشيخ محمد مهدي البصير ، وأربعة أخرون •

رابعا : الزام السيد محمد الصدر والشيخ محمد الخالصي (نجل العلامة مهدي الخالصي) بالخروج من العراق خلال ٢٤ ساعة •

أما الاربعة الاخرون الذين ذكرهم بيان المندوب السامي فهم أحمد الشيخ داود ، عبدالغفور البدري من هيئة الحزب الوطني العراقي (وقد

---

(١٥) عبدالرزاق الدراجي : جعفر ابو التمن : ص ١٩٧ •

أختفيا ولم تصل اليهما السلطة) وأمين الجرجفجي وعبدالرسول كبة من هيئة حزب النهضة العراقية اللذان أعتقلا ونفيا الى هنجام • ثم الحق بهما حبيب الخيزران رئيس قبائل العزة في لواء ديالى • أما ابراهيم حلمي صاحب جريدة المفيد فقد فر الى أيران والقى القبض على سامي خوندة صاحب جريدة الرافدان فنفى الى هنجام[١٦] أما السيد محمد الصدر والشيخ محمد مهدي الخالصي فقد سافرا الى أيران صيانة لمقامها الديني من نفيهما عن طريق القوة اذ غادرا العراق الى أيران في ٢٩ أب •

أما كيفية اعتقال جعفر أبي التمن ونفيه الى هنجام فقد كانت السلطات قد صادرت أوراقا كان نقيب اشراف سامراء قد زود بها الحزب الوطني العراقي لفتح فرع في سامراء وقد جرت المصادرة في محطة القطار حينما كان يريد السفر الى بلده فمنع من السفر • وقد راجع مقر الحزب الوطني العراقي في ٢٦ أب ١٩٢٢ وكانت اللجنة التنفيذية يومها مجتمعة وأخبرهم بما جرى فقررت اللجنة الاحتجاج على هذه التصرفات الشاذة لدى مدير الشرطة العام وعهد الى جعفر ابو التمن وحمدي الباجهجي ابلاغ مدير الشرطة العام بذلك القرار •

فذهب جعفر أبو التمن وحمدي الباجهجي الى دائرة الامن العام وعند خروجهما من الدائرة أركبا بسيار فيها ثلاثة من رجال الشرطة وارسلا الى الاعتقال[١٧] •

كما القي القبض على محمد مهدي البصير • وهكذا فقد أرسل المعتقلون جميعا الى جزيرة هنجام •

---

(١٦) الحسني : عبدالرزاق : الوزارات ج١ ص٩٩ •

(١٧) مهدي البصير : القضية العراقية ج٢ ص ٤٣٩

وأرسلت الطائرات لقصف القبائل المؤيدة للحركة الوطنية في المهناوية والشطرة والدغارة والمنصورية • وصادر المندوب السامي اراضي رؤساء العشائر الموالية للحركة الوطنية وسلمها الى المؤيدين للسياسة البريطانية • وأمر رؤساء العشائر المؤيدين للحركة الوطنية ان يسلموا أسلحتهم الى السلطة(١٨) وبذلك أستطاع كوكس أن يضرب الحركة الوطنية ضربة قاصمة •

وقد أخذت أفتش عمن بقي من هؤلاء الاشخاص الذين أبعدوا الى جزيرة هنجام فوجدت أن خمسة منهم قد توفي ولم يبقى منهم غير أثنان هما السيد سامي خوندة يسكن بغداد والشيخ حبيب الخيزران ويسكن نواء ديالى وكان الاتصال بالسيد سامي خوندة اسهل وأيسر وقد أستطعت الذهاب اليه مع صديقي الاخ أسماعيل الشيخ علي في ليلة ١٩٧٨/٨/٩ الموافق ليلة الخامس من رمضان ١٣٩٨ هجرية • في منزل جميل في منطقة الوزيرية من بغداد ، يسكن رجل تجاوز السبعين من عمره تبدو عليه علامات القوة والفتوة وقد فأجأني منظره الانيق • وقد كنت أظنه رجلا هدمته الايام والسنون وتركت أثارها فيه ولكن شيئاً من هذا لم يحدث وقادنا الرجل الى غرفة واسعة أنيقة تبدو عليها مظاهر الذوق في ترتيب أثاثها التي تحكي لك قصة تاريخها الطويل •

وبعد أستراحة قصيرة بدأت أسجل أجوبته عن الاسئلة الكثيرة التي أمطرته بها واليك خلاصتها :

ينتسب هذا الرجل الى قبيلة المهدية التي يسكن بغداد قسم منها وسميت المحلة (المهدية) باسمها وهي قبيلة من عشيرة العباد العربية

---

(١٨) الحسني : عبدالرزاق : الوزارات ج ١ ص ٩٦ ؛ البصير : نفس المصدر السابق ج٢ ص٤٢٦ •

المعروفة التي لعبت دورا بارزا في طرد الايرانيين عندما أصطدمت بالدولة العثمانية في عصر السلطان مراد الرابع وقد سكنت عائلته محلة قنبر علي مجاورة لخئولتها آل الوتري المعروفين • منذ ان سكن جدهم الاكبر الحاج ابو بكر العبادي المهدي بغداد بعد استردادها من الايرانيين على عهد السلطان مراد الرابع •

غير ان جده لابيه محمود خوندة كان يتعاطى الزراعة ، وقد سكن محلة جديد حسن باشا منفصلا عن أبناء عمومته • وبقي الاخرون يسكنون محلة قنبر علي ومحلة المهدية المجاورة لها •

وقد نال جده الخامس الحاج أبو بكر المهدي وابنه الملا معروف الرتبة العلمية (خوندة) حيث كانت الدولة العثمانية تمنح هذه الالقاب الى العلماء من رجال الدين • كما منحت الدولة العثمانية في عهد مدحت باشا جده معروفا أراضي واسعة على نهر ديالى سميت (العريفية) نسبة إليه (معروف) والان هي تابعة الى قضاء المدائن (سلمان باك) أداريا •

ولد سامي خوندة في ١٧ رمضان ١٣١٧ هجرية ١٩٠٠/١٢/٢٥ ميلادية الذي يصادف يوم عيد ميلاد السيد المسيح في محلة جديد حسن باشا •••

وقد سألته عن حياته الاولى فذكر انه :ـ

دخل المدرسة الابتدائية • ثم المدرسة الحميدية ـ وهي من المدارس الاولية وبعدها دخل رشدية عسكرية (متوسطة عسكرية) ثم دخل اعدادية ملكي ذات السبع سنوات وأستبدلت بمدرسة السلطاني ذات اثنتي عشرة سنة • وقد تخرج منها مع سبعة أخرين من زملائه قبل سقوط بغداد بيد الانكليز • وبعد ثلاثة شهور من تخرجه في كانون الاول ١٩١٦ بالذات دعى الى خدمة الاحتياط ويقول سامي خوندة : أنه سفرنا الى أسطنبول

وهناك التحقت بمدرسة المدفعية وتخرجت منها برتبة وكيل ضابط ثم ملازم .

وقد أرسلت قطعاتنا الى جبهة فلسطين واشتركت في الحرب ضد الانكليز في يافا ورام الله وجرحت مرتين وفي المرة الثانية ارسلت الى مستشفى في حيفا حين سقطت المدينة بيد القوات الانكليزية وأنا جريح في المستشفى العسكري فيها فأخذت أسيرا وأرسلت مع من أرسل من الاسرى الى الاسكندرية في مصر وبقيت تسعة شهور أسيرا في معسكرات الاعتقال هناك .

وفي ١٥ مايس ١٩١٩ عاد سامي خوندة الى بغداد وقد أثرت هذه الاحداث التي مرت به في شخصيته تأثيرا كبيرا وكانت نقطة تحول الى حياة جديدة يدخلها (خوندة) لاول مرة .

فيقول : ـ ولما عدت الى بغداد بدأت العمل السياسي السري وكان في ذلك الوقت قد بوشر بتأسيس حزب سياسي يضم العناصر الوطنية المعادية للانكليز وسمي (حزب حرس الاستقلال السري) . انضم اليه الشباب المثقف التي تشبعت روحهم بحب الوطن ومعاداة الاستعمار ولم يسمح لاحد بالانتساب اليه الا بعد تزكية . فانضممت اليه مع علي محمود الشيخ علي وقد رأس هذا الحزب السيد محمد الصدر واعضاؤه علي البزركان ، وجعفر أبو التمن ، ويوسف السويدي ، ومحمود رامز وجلال بابان وناجي شوكت ومحمد باقر الشبيبي ومحي الدين السهروردي وشاكر محمود وغيرهم وقد تضمن منهاجه مواد مهمة منها : ـ استقلال العراق التام وتأليف حكومة دستورية ملكية تحت ملوكية أحد أنجال الملك حسين ، وبذل الجهد للانضواء الى لواء الوحدة العربية والتعاون مع الجمعيات

العربية الاخرى[19] •

وقد أنضم الى الحزب رجال الدين والشيوخ ذوو الاتجاهات الوطنية مع عدد من الضباط العهديين (الذين ينتمون الى حزب العهد) والذين عادوا من سوريا الى العراق •

ويقول سامي : كان شعارنا يومها (العراق للعراقيين) • ومن أهم اعمال الحزب انشاء المدرسة الاهلية الثانوية (مدرسة التفيض الاهلية فيما بعد) وقد أنتخب مديرا لها علي البزركان أحد اقطاب حزب حرس الاستقلال ، وقد أتخذت مقر للحزب وكانت تعقد فيها الاجتماعات السرية والعلنية في يوم الخميس من كل أسبوع •

وقد اشارت المس بيل في مذكراتها الى هذه الاجتماعات السياسية فقالت (أن هذه المدرسة أصبحت مقرا للوطنيين المتطرفين[20]) في بغداد •

وقال سامي خوندة : في سنة ١٩٢٠ صدرت بعض الصحف العراقية مثل جريدة الاستقلال لصاحبها المرحوم محمد عبدالحسين الكاظمي[21] وجريدة الفرات[22] للمرحوم محمد باقر الشبيبي في النجف الاشرف وكانتا تنشران اخبار الثورة العراقية •

---

(١٩) راجع منهاج الحزبين في كتاب الاحزاب السياسية للدكتور فاروق صالح العمر ص ٥١ •

(٢٠) فصول من تاريخ العراق القريب ص ١٤٦ •

(٢١) صدرت في ٣ تشرين الاول ١٩٢٠ • ويقول الحسني أصدرت منها ثمانية أعداد فقط بعد أن غادر زعماء الثورة البلاد العراقية •

(٢٢) صدرت في ١٢ أيلول ١٩٢٠ وكانت تتحدث باسم زعماء الثورة العراقية واستمرت تنشر اخبار المعارك وقوبلت بحماس شديد وتوقفت بعد صدور عددها الخامس •

وفي بغداد صدرت جريدة الاستقلال البغدادية[٢٣] لصاحبها عبدالغفور البدري وكنت أنا وعلي محمود الشيخ علي ومحمد مهدى البصير والشاعر الرقيق باقر الحلي وأخوان أخرون نشترك في تحرير هذه الجريدة التي كان يرأس تحريرها المرحوم قاسم العلوي • وهنا برزت مواهب علي محمود وأمكاناته الصحفية في تدبيج المقالات القومية والوطنية ، وفي سنة ١٩٢١ تقدمت الى وزارة الداخلية وطلبت اجازة لاصدار جريدة تقف الى جانب الجرائد الوطنية وقد صدرت الاجازة بالموافقة على اصدار جريدة بعنوان الرافدان في ٢١ ايلول ١٩٢١[٢٤] • وعندما صدرت الجريدة أخذ علي محمود يشاركنا في كتابة المقالات السياسية العنيفة يهاجم فيها الاستعمار واعوانه وكان يومئذ تلميذ في مدرسة الحقوق •

وقال سامي خوندة : ومن ذكرياتي عن هذه الحقبة من الزمن ان علي محمود الشيخ علي كتب ذات يوم من سنة ١٩٢١ في جريدة الرافدان التي كنت مسؤولا عنها مقالا بعنوان (فرنسا ••• فرنسا) وقد هاجم فيها فرنسا وانتقد الاعمال الوحشية التي قام بها الجنرال غورو في سوريا عندما هجم بجنوده على دمشق واسقط حكومة فيصل وفي مساء اليوم الذي نشرت فيه المقالة طلب الملك فيصل حضوري وحضور المرحوم علي محمود الشيخ علي كاتب المقال ، بواسطة المرافق العسكري الرئيس توفيق

---

(٢٣) صدرت في بغداد في ٢٨ أيلول ١٩٢٠ وكانت تخدم الثورة العراقية وكانت تصدر ثلاث مرات في الاسبوع وطالبت باطلاق الحريات العامة ، فعطلتها الحكومة يوم ٩ شباط ١٩٢١ والقى القبض على صاحبها وجميع المحررين والقوا في السجن •

(٢٤) صدرات في بغداد يوم الاثنين ٢٦ أيلول ١٩٢١ وكانت جريدة مسايرة للشعور الوطني بكتاباتها الصارمة •

الدملوجي الى داره فذهبنا الى هناك وكان يسكن في قصر شعشوع المطل على نهر دجلة خلف البلاط الملكي السابق • وعندما قابلنا أخذ ينصحنا بعدم التعرض لسياسة فرنسا مهما اساءت الينا نحن العرب لان ذلك يسيء الى العلاقات السياسية التي بيننا • ويعرقل السبل التي من خلالها نصل الى خدمة البلاد • ولما أخذنا ندافع عن وجهة نظرنا في الموضوع قال : مؤشرا بيده اليمنى (أنكم مازلتم في بدء حياتكم السياسية ارجو أن تتريثوا فيما تكتبون وبعد أن شربنا القهوة خرجنا) وقال سامي خوندة أيضا :

في ثاني يوم من الاحتفال لتتويج الملك فيصل ٢٤ / آب ١٩٢٢ بينما كنت في مطبعة (دار السلام) الواقعة مقابل مدرسة الاعدادية المركزية الحالية أصحح مسودات خطاب الحزب الوطني الذي القي يوم ٢٣/آب • القي القبض علي السارجن (دين) وهو شرطي بريطاني مستخدم في شرطة لواء بغداد ومعه مفوض أمن عراقي أسمه (نوري العاني) ذهبا الى غرفة مفتش الشرطة (الميجر جرارد) وبعد مدة قليلة من الزمن نقلت على أثرها الى معسكر الهنيدي (معسكر الرشيد) وأودعت سجن معسكر القوة الجوية البريطانية وبعد أن بقيت ثلاثة أيام في السجن الانفرادي لم أذق خلال الـ ٢٤ ساعة الاولى فيها طعاما • ثم سفرت الى البصرة وأدخلت السجن العسكري في المعقل والتقيت هناك بالحاج محمد جعفر أبو التمن وحمدي الباجهجي والشيخ محمد مهدي البصير وجاءنا بعد ذلك المرحومون أمين الجرجفجي وعبدالرسول كبة ، والشيخ حبيب الخيزران فصار عددنا سبعة • وبعد أن بقينا في هذا السجن حوالي ٢٨ يوما حملتنا الباخرة (باندرا) الى المنفى الذي لا نعلمه ولا ندري الى أي جهة نحن محمولون اليها وقد وضعنا تحت حراسة شلة عسكرية صغيرة انكليزية بأمرة ملازم انكليزي واضاف سامي خوندة قائلا : ــ

وفي اليوم الثالث من ركوبنا الباخرة طلب اليّ رفاقي تقصي معرفة الجهة التي سنذهب اليها من بعض الجنود الانكليز المرافقين لنا أن أمكن وفي اليوم التالي بينما كنت أتخطى على سطح الباخرة مع المرحوم الشيخ مهدي البصير جاء أحد الحراس الانكليز المكلف بحراستنا فتكلمت معه بلطف مستفسرا منه عن الجهة التي هم ذاهبون اليها • فقال لي : غدا نودعكم الى (بوشاير) وذهب عني فرجعت فورا الى زملائي واخبرتهم بذلك وصرنا نسأل أنفسنا أين يقع هذا المكان • حتى قيض الله لنا أحد الخدم وسألناه الى اين تصل الباخرة غدا • فقال لنا : الى بند بوشير • وبذا أنحل لنا أول مجهول ثم قال خوندة : ما أن رست الباخرة في هذا الميناء حتى أستبدلوا الحراس المرافقين لنا في الباخرة من البصرة بجنود هنود وعلى رأسهم ضابط هندي برتبة (جمدار) أي ملازم • وقد سألته عن الجهة التي نحن ذاهبون اليها • فقال لنا (هنجام) وقد ملت الى الاعتقاد بأن الانجليز سوف يخفون عن أهلنا وذوينا الجهة التي سيرسلوننا اليها متقصدين في ذلك ممعنين في الانتقام لتجربة سابقة لي معهم عندما كنت أسير حرب في مصر في الاسكندرية حين كنت ضابط أحتياط برتبة ملازم مدفعي في الجيش العثماني وكنت جريحا راقدا في مستشفى حيفا في ٢٣/أيلول سنة ١٩١٨ وعلى هذا الاساس وبينما كنت في ضحى اليوم التالي على ظهر الباخرة التقيت صدفة مع رجل هندي مسلم عرفناه من لباسه فأبتسم بوجهي عندما تقابلنا معه وجها لوجه فابتسمت له وخاطبنا مستفسرا باللغة الانكليزية ومؤشرا على الشيخ البصير قائلا : من هذا الرجل فقلت له أن هذا أحد الشعراء المعروفين ورجل دين ونحن هنا سبعة أشخاص منفيون من العراق بيد الانكليز ونحن ذاهبون الى جزيرة هنجام للاعتقال بها •

وظل معنا نتجاذب اطراف الحديث الذي كان يدور حول مظالم

الانجليز في العالم كله لاسيما في الهند والعراق وغيرها • فرجوته عندئذ ان يسعفني بظرف وورق وطابع بريدي لاكتب الى أهلي رسالة من بريد الباخرة فرحب بالفكرة والطلب فأحضر لي ما أردت وكتبت الى عائلتي رسالة بتاريخ ٢٥/ أيلول سنة ١٩٢٢ من الباخرة (بانـدرا) وأرسلت الكتاب معنونا الى عمي الحاج رضا الريزه‌لي حتى لا تعرف السلطة البريطانية بانه مرسل مني الى جميل خونده وذلك بقصد التضليل التي أعتقد أنها كانت تراقب كل ما يصدر منا •

وعندما وصل هذا الكتاب الى أهلي كتب عمي وأخي ردا عليه بتاريخ ١١-١١-١٩٢٢ ذكروا فيه بأنهم عرفوا أتجاه سيرنا الى جزيرة هنجام التي ستكون محل أقامتنا الدائم • وقد جاءني هذا الكتاب بواسطة دائرة المندوب السامي البريطاني في بغداد وهي الدائرة التي تنظر في أمور المبعدين السياسيين • وتسلمته بعد وصولنا الى الجزيرة • وعلى أثر هذا جاءنا القنصل الانكليزي العام في بندر (بوشهر) غاضبا • وهو الرجل المسؤول رسميا عن أمورنا • وسألنا من منكم كتب رسالة الى العراق وذكر فيها أنكم ذاهبون الى هنجام • وكنت أنا المترجم لما يقوله الانكليزي الى جماعتي فسألت رفاقي عما يريد القنصل معرفته فأجابوا جميعا بالنفي ومنذ ذلك الحين أصبحت تردنا الرسائل بواسطة هذه الدائرة الى هنجام بشكل علني • ومن المفيد أن نعطي فكرة عن جزيرة هنجام حتى يتسنى للقارىء أن يكون فكرة واضحة عنها •

تقع هذه الجزيرة في مدخل مضيق هرمز في الخليج العربي بمحاذاة الساحل الجنوبي لجزيرة قشم بالقرب من نقطة خارجو ويفصل بينهما مضيق اتساعه ميل واحد وهي تشكل قاعدة بحرية ممتازة لمراقبة التحركات البحرية • وقد عرفت لدى الجيل السابق من البحارة البريطانيين بأسم

أنجوم واحيانا باسم أنجر [٢٥] ويبلغ طولها خمسة أميال ونصف من الشمال الشرقي الى جنوب الجنوب الغربي وعرضها حوالي ثلاثة أميال •

وتتكون الجزيرة من مجموعة من التلال الوعرة التي تتناقص بالتدريج من الشمال الى الجنوب وأعلى قممها هو جبل المائدة ويبلغ أرتفاعه ٣٥٠ قدما ويبعد ميلا واحد عن طرف الجزيرة الشمالي • ومظهرها المتواضع من البحر يوضح حقيقة طبيعتها المتجانسة فهي عبارة عن صخور سوداء قاحلة تتخللها هنا وهناك خيوط حمراء وأخرى بيضاء •

أما مناخها : ففي الصيف تكون الحرارة فيها عالية جدا ولا يمكن أحتمالها الا بصعوبة بالغة وتزيد من وطأتها الرطوبة العالية ولاسيما في حزيران وتموز وآب التي يصبح فيها الجو خانقا لزجا فوق الاحتمال بالقرب من الشاطىء حيث تنبعث الروائح الكريهة الناتجة عن تعفن الحشائش البحرية •

يبدأ المطر في تشرين الاول ، وينتهي في مارس وتنبت في الجزيرة أشجار السنط وبعض الحشائش في موسم المطر • وفي جزيرة هنجام ثلاثة أماكن مأهولة هي : ـ

١ ـ محطة التلغراف البريطانية التي أعيد تأسيسها في الطرف الشمالي للجزيرة في شهر أبريل عام ١٩٠٤ بعد أن أهملت مدة ١٣ عاما وتقع أبنيتها على صخرة تبعد ربع ميل عن الساحل الشمالي للجزيرةويقع جنوب المحطة واد كبير عرضه ٥٥٠ ياردة وبه بئران أو ثلاثة تستعمل المحطة مياه أفضلها • ويبلغ عمق الماء حوالي ١٨ قدما ويتراوح طعمه بين الحلو والضارب للملوحة وتقع الى الشرق من محطة التلغراف قرية أسمها

---

(٢٥) لوريمر : دليل الخليج ج٢ ص٨٠٤ •

(مشة) تتكون من اكواخ قليلة يسكنها مستخدمو أدارة التلغراف من الاهالي الذين جلبوا من جاشك ولكنهم في الاصل من باسيدو •

٢ ـ قرية هنجام : هي أكثر الاماكن سكانا في الجزيرة وتقع في أرض منبسطة على الساحل في الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة ويزرع السهل المجاور له جميعه وهي قرية عربية تماما وهي نظيفة وحسنة البناء •

وتتألف من (٢٠٠) منزلا وبها ١٨ دارا و ٦ بساتين ملأى بأشجار الفاكهة وترويها ابار على عمق ٢٠ الى ٢٥ قامة • ومحاصيلها الرئيسية هي ألقمح والشعير والبصل واليقطين وينتمي عرب هنجام الى قبيلة بني ياس التي تسكن الساحل الغربي من الخليج وتعاملهم مع الساحل العربي وخصوصا مع دبي • وهم يتمتعون بالرجولة والذكاء ولديهم روح الاصالة بالاضافة الى سخائهم المفرط ويزاولون مهنة صيد اللؤلؤ وهي تشكل أهم مصادر رزقهم ويتغيب رجال القرية عنها ويسافرون الى مغاصات اللؤلؤ العربية طيلة الموسم من شهر حزيران الى تشرين الاول كل عام • ولا يعودون للقرية الا بعد أن يبيعوا ما جمعوه من اللؤلؤ الى التجار الهنود في ساحل عمان المتصالح أو في لنجة • وتعمل نساء القرية أثناء هذا الموسم في ميناب والمناطق الاخرى لقطف التمور وجمعها • ويعدن الى بيوتهن بنفس الوقت الذي يبدأ فيه أقاربهن بالعودة من صيد اللؤلؤ • ولذا تصبح قرية هنجام مهجورة تماما في فصل الصيف باستثناء الكهول والطاعنين في السن

٣ ـ قرية غيل : وهي أمتداد لقرية هنجام وتقع على الساحل الغربي على بعد ثلاثة أميال جنوب غرب محطة التلغراف وثلاثة أميال شمالي غربي قرية هنجام وبها ثلاثون منزلا ويعتمد السكان في معيشتهم على صيد اللؤلؤ • وبها بئر مياهها عذبة على بعد خطوات قليلة من شاطيء البحر • ويوجد اربع حدائق مسورة على بعد مئة ياردة من شرق القرية • وتزرع بها أشجار

الفاكهة والبصل وتوجد ثمانية أبار قليلة العمق بين الحدائق وهناك بحيرة أصطناعية بينها وبين القرية لتخزين مياه الامطار • وموارد المياه في غيل كثيرة جدا • وتحصل المراكب المحلية التي ترسو بين هنجام وقشم على المياه من هذه القرية بواسطة المراكب •

ولا توجد بالاضافة الى محطة التلغراف وقريتي هنجام وغيل أي مستوطنة أخرى ويوجد في الجزيرة مرسى مهم يدعى (خليج مشة) بين هنجام وقشم وتتردد عليه معظم مراكب المنطقة لتتزود بالمياه أو لتحتمي من رياح الشمال •

يتولى السلطة الرئيسية في الجزيرة شيخ قرية (هنجام) (٢٦) وحدثنا سامي خوندة عن حياته وحياة رفاقه المعتقلين في الجزيرة وكيف كانوا يقضون أوقاتهم فيها فقال : ـ

« تولى أمر اعاشتنا في هذه الجزيرة متعهد أسمه السيد أبراهيم كلداري وهو من سكنة بندر عباس لتقديم الطعام • وقد خصص لنا طباخ مع معاونه واربعة من الخدم يقومون بما يلزم من تأمين راحتنا من حيث المأكل والمشرب وغسل الملابس وتنظيف السكن وتنظيمة كما خصص لنا أثنان من الهنود يقومان بتنظيف الغرف صباح كل يوم • ولنا مطعم خاص في ساحة أحدى الغرف نتاول وجبات الطعام فيه ، أما نوعية الاكل فكانت من النوع الجيد جدا • وكان المتعهد نفسه يزورنا بين حين واخر للاطلاع على أعمال المشرفين على راحتنا •

وكان يزورنا القنصل الانكليزي في بندر عباس مستفسرا عن راحتنا ومتفقدا أحوالنا المعاشية ولا نذكر أن طلبنا منه في يوم ما شيئا يتعلق بالاكل والشرب وكنا نظهر امامه بعدم الاهتمام واللامبالاة ، وعلى الرغم

---

(٢٦) لوريمر : دليل الخليج ج٢ ص٨٠٥ ـ ٨٠٨ •

من هذا الاعتناء والاهتمام في اعاشتنا فقد منعت عنا الصحف والكتب منعا باتا • سوى أنني أذكر طلبت من القنصل الانكليزي في بندر عباس أن يزودنا بقاموس أنكليزي ـ عربي فجلبه لنا وكان قاموس صغير (قاموس الجيب) وبعبارة أخرى كنا منقطعين عن العالم الخارجي ومنعزلين عنه انعزالا كليا •

واضاف سامي يقول « وفي ليلة ٢٥ / كانون الاول في يوم عيد الميلاد رست باخرة حربية في ساحل الجزيرة فخرج بعض الجنود من الباخرة وقضوا ساعات تلك الليلة في الانس وشرب الخمر حتى صباح اليوم التالي • حيث اقلعت الباخرة الى جهة لا نعرفها وكانت العادة أن نذهب عصر كل يوم الى ساحل الجزيرة مشيا على الاقدام نشم النسيم ونروح عن أنفسنا عناء الغربة ومشقة العزلة •

وفي اليوم الثاني بينما كنا نتخطى على الساحل الذي رست فيه الباخرة عثرنا على بعض قصاصات من جريدة انكليزية فرأيت فيها عنوانا كبيرا يشير الى تشكيل الوزارة البريطانية الجديدة برئاسة بونارلو وانسحاب وزارة لويد جورج وأخذت القصاصات معي فقرأتها على رفاقي وعقدنا جلسة لمناقشة الموضوع والتطورات السياسية التي أوجبت التبدل الوزاري » وقال ايضا :

« بعد أن علم أهلي بمقر اقامتنا حاولوا أن يرسلو لنا ملابس ونقود وبعض اللوازم الاخرى فراجعوا مديرية الشرطة العامة التي كان يرأسها يومها المرحوم السيد اسماعيل الصفار بخصوص التوجيهات لارسال الملابس والفلوس لي ، فلم يتمكن من أجابة طلبهم فراجعوا الميجر جرارد المفتش الانكليزي في هذه الدائرة فرفض طلبهم ايضا وعندئذ رفع عمي بتاريخ ٢٨ / أيلول ١٩٢٢ عريضة الى المندوب السامي

البريطاني المستر كوكس طلب فيها المعونة في حل هذه القضية • وجاء جواب سكرتيرة المندوب السامي بتاريخ ٣/تشرين الاول ١٩٢٢ برفض الطلب •

وهذا نص الجواب

٢ / تشرين أول ١٩٢٢ بغداد

من سكرتيرة فخامة المندوب السامي في العراق

الى جناب جميل أفندي خوندة المحترم

محلة جديد حسن باشا رقم ١ـ٧٧ بغداد

ردا على أستدعائكم المؤرخ ٢٨ أيلول ١٩٢٢ •

أفيدكم مع الاسف بالا يمكنني أن أتوسط في هذه المسألة والسلام

التوقيع

كرترودبل ـ

السكرتير الشرقي لفخامة المندوب السامي في العراق

وقد حدثنا سامي عن الحياة التي كانوا يحيونها وكيف كانوا يقضون أوقات الفراغ فقال :ـ

كنا نقضي أوقاتنا بالمطاردة الشعرية • وقراءة ما نحفظه من أشعار العرب وخطبهم وكنا نطلب من كل واحد منا أن يتحدث عن ماضيه وذكر فيه من مفارقات ومواقف محزنة او مفرحة او غيرها • وكنا نقرأ أيضا في بعض الاحيان في كتاب (بند) أبن الخلفة كما كنا نلعب الورق تارة ونظم الشعر الهزلي تارة أخرى نروح به عن أنفسنا ونخفف به الم الاعتقال وكان

المرحوم الباجه‌جي والشيخ حبيب الخيزران ينظمان شيئا من الشعر الهزلي باللهجة العامية •

وفي مساء يوم الاثنين ٤ تشرين الثاني ١٩٢٢ شهدت الشخص الذي يقوم بخدمتنا وتنظيف غرفنا مهتما للغاية بعمله وقد شاركه فيها أحد الجنود فسألت المنظف الذي اعرفه عن سبب هذا الاهتمام فقال لي (كب صاحب أية كه) أي سيأتي الصاحب الكبير فكررت عليه سائلا ما أسم هذاالصاحب فقال (كوكس صاحب) وعلى أثر ذلك عقدنا الاجتماع السياسي على عادتنا وتداولنا في الامر وأستحضرنا الاجوبة العديدة التي قد يسألنا عنها عند اجتماعه بنا وكانت جلسة سياسيا مضحكة وظريفة جدا •

وما أن حلت الساعة العاشرة صباحا من يوم الثلاثاء ٥ تشرين الثاني • تراءت لنا في الافق باخرة صغيرة بيضاء تسمى (منور) تستخدم في الخليج العربي من قبل الموظفين الانكليز وما ان وصلت الجزيرة حتى خرج منها السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق • وكنا قد تظاهرنا له بعدم الاكتراث وتشاغلنا عنه بعدم معرفتنا بمجيئه حيث كانت جلستنا أعتيادية نلعب الورق ونتسامر فبادرنا بالسلام علينا وعندئذ استقبلناه بتعجب وسألنا عن راحتنا واذا كنا بحاجة الى شيء • فلم نطلب منه أي شيئا • فقال لنا :

(أن الحكومة العراقية تطلب عودتكم)

وكانت الحكومة يومها برئاسة عبدالمحسن السعدون (الوزارة الاولى) التي تشكلت في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢ واردف قائلا « تقرر أن يعود كل من سامي خوندة والشيخ محمد مهدي البصير وامين الجرجفجي وعبدالرسول كبة والشيخ حبيب الخيزران والتفت الى المرحومين : جعفر أبو التمن وحمدي الباجه‌جي وقال لهما اما انتما سيطلق سراحكما على أن

تختارا الجهة التي تريدان الذهاب اليها » مؤقتاً فقالا له (رحمهما الله) أننا نفضل الذهاب الى مصر لان المصريين عرب مثلنا ويتكلمون بما نتكلم فأجابهما « بأن الهند أقرب اليكما من مصر والبواخر مستمرة بين البصرة وبومباي فأرى أن تذهبا الى هذا البلد » فلم يوافقا وبقيا مصرين على طلبهما .

ثم سألنا أيضا عن زمن وصول البواخر التي تمر بالجزيرة فقلنا له كل يوم احد من كل أسبوع قادمة من بومباى الى البصرة وكل يوم ثلاثاء من كل اسبوع تمر بنا قادمة من البصرة الى بومباي . وبعد أن بقي عندنا ساعة تقريبا عاد الى الباخرة ثم الى البصرة .

وقال سامي : ومن الامور التى أذكرها فى هذه المقابلة لبرسى كوكس أن عبدالرسول كبة قال للمندوب السامي « أما تستحي بريطانيا ان تنفي رجلا كهلا مثلي جاوز الثمانين من عمره » فابتسم بوجهه وقال له ستعودون الى بغداد قريبا » وقد استنتجنا من حديثه معنا اننا سنرجع الى العراق قريبا غير ان ذلك لم يتحقق وبقينا على حالتنا هذه حوالي أثنين وخمسين يوما دون أن يرد الينا أى خبر بالعودة .

وبعد أن مضت هذه الايام زار المنفيين القنصل البريطاني العام فى بندر عباس وهو المسؤول الرسمي عن المنفيين والمشرف على أحوالهم ومعه أوراق تعهد وطلب من خمسة من المنفيين وهم : عبدالرسول كبة وأمين الجرجفجي ، وحبيب الخيزران وسامي خوندة ومحمد مهدي البصير التوقيع عليها فوقع عليها بعضهم ووقعها الاخرون بعد تردد واخبرهم بان المندوب السامي سوف يطلق سراحهم بعد تقديم تعهد بمساندة سياسة الملك فيصل وحكومته المستندة على المعاهدة .

وقد سمح للمنفيين الموقعين على التعهد بالعودة الى العراق فغادروا هنجام في ١٠ شباط ١٩٢٣ ووصلوا البصرة بعد عشرة ايام ثم غادروها الى

بغداد عدا محمد مهدي البصير الذي بقي في البصرة ثم سمح له بالعودة الى بغداد في ٢٤ مايس ١٩٢٣ ولم يبق في جزيرة هنجام سوى جعفر أبو التمن وحمدي الباجه‌جي وبقيا على أمل السماح لهما بالذهاب الى مصر ولكن المندوب السامي البريطاني في القاهرة بين أن دخولهم الى مصر ليس مستحسنا • ومن الجدير بالذكر ان السبب الذي حدا بالمندوب السامي البريطاني في القاهرة ان لايوافق على السماح لجعفر ابو التمن وحمدي الباجه‌جي بالمجيء الى مصر يرجع الى ان السلطات المصرية قد اعتقلت في تلك الفترة سعد زغلول للمرة الثانية يوم الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ونفته وصحبه الى جزائر سيشيل(٢٧) • فاستعرت الثورة من جديد ضد سلطات الاحتلال البريطاني • واخذ حزب الوفد يقود هذه الثورة العارمة فاعتقلت السلطات عددا كبيرا من الوطنيين وعطلت بعض الصحف الوطنية وهي : الاخبار ، والمحروسة ، والنظام ، والامة ، والمقطم • وامام هذا الضغط الجماهيري الهائل اضطرت السلطات الى اخلاء سبيل هؤلاء المعتقلين من انصار سعد وقد استقال رئيس الوزراء عدلي يكن لفشله السياسي •

وعلى أثر هذه الاحداث الضخمة صدر تصريح ٢٨/فبراير/شباط ١٩٢٢ لتهدئة الوضع ولكن الحزب الوطني المصري رفض هذا التصريح

---

(٢٧) وهي جزائر نائية في ارخبيل ، تملكها بريطانيا في المحيط الهندي بالشمال الشرقي لجزيرة مدغشقر ويطلق اسم سيشيل على جزائر الارخبيل كله واهمها جزيرة (ماهي) التي نفي اليها سعد وصحبه وهم : فتح‌الله بركات ، عاطف بركات ، مصطفى النحاس ، سينوت حنا ، مكرم عبيد • وقد ابحرت فيهم احدى الناقلات الحربية يوم ٢٩ كانون أول ٩٢١ فاقلتهم الى عدن وبعد ان لبثوا بها قليلا نقلوا الى جزائر سيشيل في مارس وظلوا منفيين بها ثم نقل سعد الى جبل طارق مراعاة لصحته وغادر الجزيرة يوم ١٨ آب ١٩٢٢ • انظر : عبدالرحمن الرافعي : في اعقاب الثورة المصرية ج١ ص٣٠-٣١•

لانه وجده لايحقق لمصر استقلالها ووحدتها مع السودان وسيادتها •

وظل الشعب المصري يعارض الاحتلال الانكليزي لبلاده بكل الوسائل وتشكلت حكومات واستقالت حكومات وظل الرأي العام المصري مضطربا قلقا على مصير البلاد وشمل القلق مصير الدستور ذاته اذ تلاحقت المؤامرات والتدابير للعبث به وتأخير صدوره وقد تشكلت وزارة يحيى باشا ابراهيم في ١٥ اذار/مارس/١٩٢٣ •وكانت مشكلة اصدار الدستور امامها • وبعد مناقشات طويلة استغرقت عدة اشهر من المعارضة صدر الدستور في ١٩ ابريل/نيسان ١٩٢٣ وفي غمرة هذه الاحداث رأت الحكومة البريطانية تحت ضغط الحركة الوطنية ان ليس من الحكمة ولا من حسن السياسة ابقاء سعد في الاعتقال وان استمرار اعتقاله يزيد في الثورة والهياج في مصر ويحول دون تهدئة الخواطر بل وربما كان سببا في كثرة الجرائم السياسية • فقررت الافراج عنه يوم ٢٧/اذار (قبل صدور الدستور) وكـان معتقلا في جبل طارق وتبع ذلك الافراج عن بقية المعتقلين السياسيين في مصر وفي جزيرة سيشيل من جماعة سعد •

واخيرا سمح لحمدي الباجهجي بالعودة الى بغداد في بداية شهر نسان ١٩٢٣ بعد قرار الموافقة على عودته وبقي جعفر أبو التمن وحده في جزيرة هنجام رهن الاعتقال •

وقال سامي خوندة •

والذى اذكره في هذا الموضوع عندما تسرب خبر بقاء المرحوم جعفر أبو التمن وحيدا في جزيرة هنجام الموحشة • عم الحزن والاسى في نفوس الشعب العراقي •

---

(٢٨) الرافعي : عبدالرحمن : في اعقاب الثورة المصرية • ص٥٤ •

وفي يوم لاأذكره جاءني احد المستخدمين في البلاط الملكي وأخبرني شفويا بوجوب مقابلة كبير الامناء فيه • فذهبت في اليوم التالي الى البـــلاط وبعد أن تكلمنا معه في أحاديث شتى نوه لي ضرورة المطالبة بعودة جعفر أبو التمن من منفاه في جزيرة هنجام حيث لايستحسن بقاؤه وحيدا فيها وفهمت من ذلك الحديث أننا يجب أن ننظم وفدا لمقابلة الملك فيصل ونعرض عليه هذا المطلب ملتمسين منه شموله بالموافقة على ذلك وبعد ذلك بايام قـــام الحزب الوطني المنحل بايفاد وفد لمقابلة الملك مكونا من المرحوم عبدالغفور البدري وداود السعدي وقاسم العلوي وسامي خوندة وطالب مشتاق وصادق حبة وأنور النقشلي وعند المقابلة كان أول المتحدثين قاسم العلوي والثاني صادق حبة والثالث (أنا) وكانت أقوالنا كلها تنصب على ضرورة عـــودة السيد جعفر أبو التمن وخطر بقائه في هذه الجزيرة النائية القاحلة وانه لايستحق كل هذه القسوة فوعدنا الملك خيرا وفعلا أطلقوا سراحه بعد ٢١ يوما من مقابلتنا الملك » • وعند هذا الحد انهى سامي خوندة حكايته عن مسيرته الطويلة الى هنجام • ولكن حياته السياسية لازالت فيها صفحات اخرى ربما استطاع المؤرخون – من غيري – تسجيلها خدمة للتاريـــخ والحقيقة •

أن الامم المنهوكة التي أصابها الاستعمار بالضمور والنحول لاتحتاج لشيء مثل حاجتها الى قطرات المداد التي يريقها القلم في وجدانها فتنعشهـا وتبعث الدفىء في أوصالها والحياة في كيانها ووجدانها •

من أجل هذا كله يضع طغاة كل أمة القلم الحر في رأس القائمـــة التي يعدونها للنفي وللسجن والاعدام ويشاء ربك الا أن يجعل النفـــي والسجن والتشريد والاعدام مجال الحياة الذي تنمو وتترعرع فيـــه الاقلام الحرة وتأتي أكلها وثمارها •

المصادر التاريخية لتجارة الخليج العربي خلال العصور الوسطى الاسلامية

الدكتور لبيد ابراهيم احمد
استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الاداب – جامعة البصرة

مقدمـــة :

لم تكن اهمية الخليج الاقتصادية مقتصرة على الحاضر بل انها تمتد الى اعماق التاريخ القديم للمنطقة • فالنصوص الاشورية والبابلية تحدثنا عن عظمة واهمية هذه المنطقة في العلاقات التجارية مع الدولتين الاشورية والبابلية اللتين تعتبران من الدول الكبرى في تاريخنا القديم ، وعن طريق هذه الصلات التجارية تحصل تلك الدول على منتجات وبضائع الخليج من احجار ثمينة ونحاس ورصاص وحديد وبخور ولؤلؤ ومسك وتمور ، وكل ما هو ضروري للتطور الحضاري الذى شهده العراق خلال تلك الفتـــرات •

وفي المتحف العراقي ببغداد نماذج من قوارب شراعية معمولة من الفخار تذكرنا بتلك التي كانت تمخر عباب مياه الخليـج ، كما ان هناك اشكالا اخر من تلك القوارب والسفن الملائمة للتجارة الخارجية ، وهي بدورها تعكس الحركة التجارية الفعالة للمنطقة في التاريخ القديم(١) •

وهناك نصوص ترجع الى فترات مختلفة كفتـرة السلالة الثالثة لسرجون الاكدي وبعض الاشوريين من امثال سنحاريب واشور بانيبال تلقي

الضوء الواضح على متانة العلائق التجارية بينهم وبين مناطق الخليج العربي المختلفة • وفي كتاب التجارة الخارجية للفترة البابلية القديمة[٢] نصوص قديمة عن استيراد النحاس والعاج والاحجار الثمينة والتمور سواء كانت من انتاج مناطق الخليج العربي المختلفة او بضائع مستوردة من بلدان أخر الى منطقة الخليج •

ومما لاشك فيه ان نشاط العلاقات التجارية في المنطقة يرجع بالدرجة الاولى الى الاستقرار السياسي الملحوظ الذي شهدته المنطقة خلال فترة هيمنة الدولتين الاشورية والبابلية على اجزاء واسعة من الشرق • يضاف الى ذلك الحاجة الى استيراد المواد والبضائع نتيجة المتحولات والقفزات الحضارية التي شهدتها هاتان الامبراطوريتان •

اريد القول ان هذه العوامل مجتمعة ادت الى انعاش ملحوظ للمنطقة عموما كما ادت الى بروز عدد من المراكز والمدن احتلت مواقع تجارية واستراتيجية هامة واستفادت من هذا التطور الاقتصادي فاخذت تنمو بسرعة وذاعت شهرتها من امثال منطقة (دلمون) او تلمون و (مكان) او (مغان) او (مجان) •

ودلمون حسب ما اتفقت اقوال المختصين بالتاريخ القديم هي البحرين الحالية وكانت تعد من الاسواق العالمية المشهورة في عالم التجارة اذ كانت تجلب اليها البضائع المختلفة من افريقيا والهند فضلا عما تصدره من تمور جيدة ولؤلؤ واحجار ثمينة ونحاس ومواد غذائية • وفي هـذه المنطقة اشتهرت مدينة (جرها) او الجرعاء في حقل التجارة ، ويقول فؤاد جميل ان سكانها كانوا اغنى سكان العالم القديم ويرجع فضل ذلك الى التجارة ، فهم كانوا يصدرون البخور بكثرة الى بابل وكانت البخور من البضائع التجارية الهامة[٣] •

ويحدثنا المختصون ان مغان او مجان هي عمان الحالية التي لعبت دورا فعالا في الحركة التجارية القديمة بما تصدره من لؤلؤ وعاج واحجار ثمينة ، ويذكر ليمانز ان شهرتها متأتية باعتبارها مصدرا رئيسا للنحاس[٤].

استمرت اهمية الخليج العربي التجارية والاقتصادية بشكل بارز وفعال حتى مجيء الاخمينيين وتصارعهم مع اليونان حول السيطرة على مناطق نفوذ لهم مما ادى بدوره الى حالة من الارتباك والقلق الساسي في المنطقة بشكل عام وهذا بدوره شكل خطرا جسيما على النشاطات التجارية وتجارة الخليج خاصة ويبدو ان الخطوط التجارية خلال فترة القلق السياسي هذه قد تحولت من الخليج الى البحر الاحمر ، لكن هذاالتحول لايعني باية حال موت الحركة التجارية في منطقة الخليج ، وتتضح هذه الاهمية في المخطط الذي رسمه الاسكندر المقدوني اذ انه على الرغم من وضوح هدفه السياسي في السيطرة على الشرق والوصول الى الهند لكنه انما اراد ايضا السيطرة على منابع التجارة التي كانت خاضعة انذاك للتجار العرب ، وبذلك فانه اراد ان يضم المنطقة كي يوجه ضربة الى السيادة العربية على التجارة العالمية ويتجلى ذلك في تأسيسه المدن التي لها صفات وسمات تجارية[٥] وكانت منطقة الخليج العربي من المناطق البارزة في هذا المخطط .

غير ان الصراع الفارسي البيزنطي السياسي هو الاخر يعد عاملا من عوامل اضعاف النشاطات التجارية في منطقة الخليج العربي ، ومن الممكن القول انه بعد ان تم اكتشاف الرياح الموسمية والوصول الى الهند دون وساطة التجار العرب انكمشت مكانة الخليج التجارية الى حد ملحوظ وانتعشت الطرق التجارية على البحر الاحمر .

ومع هذا فان دور التاجر العربي في نقل التجارات عبر الخليج

العربي ثم الى منطقة البحر المتوسط ظل مستمرا ، فكانت مراكز امثال يتلوس ، وجرها ، وغيرها تمثل مراكز تجارية هامة • ففي جرها عثرت بعثة تنقيبية على بقايا لقبور تعكس الى حد كبير مكانة تلك المدينة(٦) •

وقد جاء الفتح العربي الاسلامي للمنطقة بتطورات بالغة الاهمية ليس فقط على الصعيدين الديني والسياسي بل وكذلك على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، فقد استطاعت الجيوش الاسلامية خلال فترة خلافة ابي بكر (رض) ان تدمر حركة الردة التي شهدها ساحل الخليج العربي الغربي وبذلك اخضعت سيطرتها للدولة الاسلامية ، وقد لعبت بعض القبائل العربية في منطقة الخليج كقبيلة عبدالقيس وبكر بن وائل دورا بارزا في المشاركة في فتوح العراق ، وقد تم للعرب السيطرة على منطقة الخليج زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) هذا من الجانب السياسي •

اما من الجانب الاقتصادي والتجاري ، فان منطقة الخليج العربي ظلت تشهد مرحلة انكماش واضحة ، وان الفعالية التجارية كانت متمثلة بالطرق التي تمر عبر البحر الاحمر الى البحر المتوسط سواء كانت بحرية أو برية عبر مكة الى منطقة البحر المتوسط وقد يرجع السبب الى ان موقع السلطة المركزية السياسي كان في المدينة ومكة خلال فترة الخلفاء الراشدين ثم في بلاد الشام زمن الامويين ، وكان لهذا الموقع السياسي اثر واضح في تركز العلاقات التجارية ووجهتها •

فالعلاقات التجارية اتجهت صوب هذه المنطقة ثم نحو الغرب • ولكن منطقة الخليج العربي شهدت للمرة الثانية تحولا واضحا فيمكانتها التجارية ، ودورها في عالم التجارة والاقتصاد برز بعد ان استقرت الدولة العربية الاسلامية واخضعت المناطق المختلفة الواسعة تحت سلطتها في زمن العباسيين • ان العباسيين كما هو معروف اتخذوا بغداد عاصمة لملكهم ،

وانهم شجعوا التجارة والاستيراد نتيجة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي •

ولهذا فأن اتجاه العباسيين نحو استيراد البضائع والمواد تلبية للاحتياجات الكبيرة للبلاط والطبقة الغنية من جهة والتطور الحضاري والعمراني الواضح من جهة ثانية ساعد على نشاط الحركة التجارية وتشابك العلاقات التجارية ليس مع المدن العراقية فقط بل ومع اقطار الخليج والعالم الخارجي ايضا • ان مجرد تصفح للكتيب المنسوب للجاحظ « التبصر بالتجارة » يرينا سعة العمليات التجارية وضخامتها فقد كانت تأتي الى بغداد مواد وبضائع لا تحصى من الهند والصين وافريقيا ومصر والحجاز واليمن والغرب • فمن الهند كان يؤتى بالتمور على اخلاف انواعها والفيلة والياقوت ، ومن الصين المنسوجات الحريرية والتوابل والحبر واواني الذهب والفضة ومن الجزيرة العربية الخيول ، من اليمن الجلود المدبوغة والروائح والصمغ والبن اما ماء الورد والمفروشات الكتانية فكان مصدرها بلاد فارس ومن عمان وساحل الخليج اللؤلؤ (٧) •

وقد اخذت العمليات التجارية المتعلقة بالمصارف ونشاط ومركز التجار واتساع علاقاتهم ، وكذلك بالتبادل البضائعي تسير سيرا سريعا بمرور الزمن ، وعلى الرغم من ان المجال هنا لا يتعلق بهذا الامر الا انه من الممكن القول بان منطقة الخليج العربي شهدت طفرات وقفزات واسعة في تشابك العلاقات التجارية مع الخارج لاستيراد الحرير والعاج والروائح والعبيد والذهب والفضة من اجزاء مختلفة من الامبراطورية الاسلامية •

ان الباحث في العلاقات التجارية الخاصة باقطار الخليج العربي يجد بان هناك العديد من الكتابات التي توضح عمق تلك العلاقة ومتانتها ، اذ

انه عن طريق البصرة مثلا كانت بغداد تتصل بالبحرين بحـــرا وبرا ، وكذلك تتصل باليمامة عن الطريق البري ، وبعمان عن طريق البر والبحر ايضا فضلا عن الطرق البرية والبحرية الاخر التي توصل بغداد بالحجاز واليمن والاجزاء الجنوبية والغربية الاخرى من الجزيرة العربية(٨) •

لقد استمرت هذه النهضة التجارية في منطقة الخليج العربي خـــلال قرون متعددة وحتى القرن الحادي عشر والثاني عشر للميلاد تقريبا •

فكانت الحصيلة المهمة التي تولدت من جراء هـــذا التطور استعادة المراكز اهميتها ومكانتها وسمعتها التجارية التي كانت تتمع بها في الماضي القديم زمن الاشوريين والبابليين فضلا عن ظهور مراكز ومـدن اخـر برزت بسبب وقوعها على الطرق التجارية الآتية من الهند والصين وافريقيا الى بغداد ، اهمها مدينة البصرة ثغر الخليج ومدينة هجـــر وصحار ودبا ودارين ونزوة •• الخ ••

ولم يقتصر دور هذه المراكز التجارية والمدن على ما تقوم به كمناطق ترانسيت لنقل المواد والبضائع واخذ الضرائب على السفن المارة بها ، بـل تعدته الى مرحلة المشاركة الفعالة في انتاج المواد التجارية وفي خلق العديد من التجار العرب الذين ساهموا مساهمة فعالة في العملية التجارية ، او عن طريق ما تنتجه من انتاجات اقتصادية زراعية وصناعية ، أو عـن طريق النشاطات التجارية التي قامت بها •

ان هذه النهضة التجارية الكبيرة التي تولدت نتيجــــة للاستقرار السياسي والحاجة الماسة الى الاستيراد ولدفع الحركة الحضارية والعمرانية التي تشهدها المنطقة اعادت منطقة الخليج الى اهميتها السابقة القديمــة وهيأت مجالا فكريا وعلميا واسعا يتمثل بالاشارات والنصـوص والكتابات المركزة على منطقة الخليج العربي واهم المراكز والمدن الواقعة عليه ، وهي

في حقيقتها تمثل مصدرا رئيسيا للتحدث عن مكانة هذه المنطقة وسماتها الاقتصادية •

مصادرنا عن مكانة الخليج العربي التجارية :

ان اكثر ما يواجهه الباحث في التاريخ الاقتصادي للفترة الاسلامية في العصور الوسيطة ان كان في العراق أو في منطقة الخليج العربي على السواء مشكلة رئيسية تتمثل بقلة الوثائق على عكس ما هو موجود من وثائق عن الفترة التاريخية الحديثة والمعاصرة بل وعلى العكس مما موجود من وثائق البردي ووثائق الجنيزة في مصر خلال العصور الاسلامية الوسطى ، تلك الوثائق التي امتدت زمنيا حتى فترات تاريخية اسلامية مبكرة ، والتي من نتائجها انها غيرت واثبتت العديد من الامور التاريخية في الكتب التاريخية المعروفة [٩] •

ومع هذا كله فان هناك عددا من وثائق الجنيزة قد تعدت حدود مصر فشملت المعلومات التي وردت فيها مراكز خليجية كالبصرة والبحرين مثلا • والمعروف ان الوثائق الجنيزة هذه عبارة عن رسائل متبادلة بين التجار المسلمين واليهود في اجزاء مختلفة من الامبراطورية بشأن الاعمال التجارية ، وانها حفظت حماية لاسم الله تعالى من التلف أو الضرر • وهي كما درسها واختص بها البروفسور كويتاين (Goitein) تتناول قضايا متعددة اهمها النواحي التجارية والاقتصادية كتسمية البضائع التي يحتاجها التجار في كل منطقة يتاجرون بها ، أو انواع ومقادير الضرائب المفروضة على التجارات والمصاعب التي يواجهها التجار في تنقلاتهم وغيرها من المواضيع الاقتصادية [١٠] •

ولكن القليل من هذه الوثائق متعلق كما قلت اعلاه بمنطقة الخليج وهي تحتاج الى جمع وتصنيف وترتيب ودراسة كي يمكن الاستفادة منها•

فهناك بضعة رسائل صدرت من عدد من الشخصيات في الخليج العربي وعدن الى اخوان لهم في القاهرة والهند بشأن امور تتعلق بمشاركاتهم التجارية وبارسال بعض البضائع كالكافور أو المواد الاخر(١١)٠

والى جانب وثائق الجنيزه القليلة هذه فان وثيقة اخرى تشير الى مكانة التجار في منطقة الخليج العربي والتي احتواها كتاب السجلات المستنصرية ، وهي عبارة عن الرسائل التي كان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يرسلها الى دعاته في شتى الارجاء لامور تتعلق بالدعوة الاسماعيلية ولكنها في نفس الوقت تعكس لنا امورا لها اهميتها في هذا المجال ٠ ففي رسالة ترجع الى سنة ٤٨١ هـ ورد ما يلي : « ثم شفعت ذلك بما اعتمده المعروف باسماعيل بن ابراهيم الداعي كان بعمان من التخلي عن الخدمة والركان في طلب التجارة »(١٢)٠

وفي هذا الصدد يمكننا ذكر كلمة عن مصدر اخر لم تستكمل الاستفادة منه على الوجه الاكمل بالرغم من استمرار العمل فيه ذلك هو نتائج التنقيبات الاثرية في منطقة الخليج العربي ٠ والمعروف ان العلماء الاثريين قد افادوا الى درجة كبيرة من النتائج المهمة التي تحققت بفعل التنقيبات التي جرت وتجري في مناطق مختلفة من الخليج بالنسبة للتاريخ القديم للمنطقة ٠ فالبعثة التنقيبية العراقية التي قامت بتنقيبات في مستوطن الدربحانية في امارة رأس الخيمة في دولة الامارات العربية المتحدة قد عثرت على فخاريات ملونة ومحززة ومزججة ، وعلى اواني معدنية ونحاسية وعلى مجموعة من المسكوكات تقدر بمائتي مسكوكة بينها اربعة فضية والباقي نحاسية ٠

كما عثرت البعثة التنقيبية العراقية التي زاولت تنقيباتها في اقليم عجمان واقليم المنامة ، واقليم مصفوت على فخاريات واثار ومسكوكات(١٣)٠
كما تمت تنقبات أثرية فى كاظمة في الكويت ٠ وفي البحرين تم

العثور على فخاريات واثار ترجع - كما يرى الاستاذ جيفري بيبي Bibby في كتابة (looking for Qilmon) [١٤]الى القرن الثاني عشر للميلاد •

وهناك اثار أخر وجدت في موضع (كلوا) ترجع الى القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد • وهذه النتائج مجتمعة تحتاج الى دراسة وبحث لكونها تمثل صفحات مشرقة من تراث هذه المنطقة وبذلك يصبح من الميسور الاستفادة منها في الكتابة عن تاريخ المنطقة الاقتصادية • فالنقود مثلا تعد مصدرا حيويا ومهما لكل باحث في التاريخ الاقتصادي لاية منطقة فهي تعكس امورا هامة تتصل بالحياة التجارية والوضع الاقتصادي لمنطقة الخليج العربي وسعة العلاقات التجارية مع الاقطار الاخر ••• كما ان دراسة قطع الفخار والاواني المعدنية والزجاجيات تمثل بدورها قطاعا اقتصاديا واضحا متمثلا بالصناعات الموجودة في المنطقة• ان ابرز مثال عن شمولية الاستفادة من اللقى والاثار الناتجة عن التنقيبات ، ماتم العثور عليه في البحرين • فلقد عثر على مجموعة من القبور القديمة وخاصة في مدينة جرها او الجرعاء حيث استطاع الباحثون في التاريخ القديم لهذه المدينة ان يستنتجوا من هذه المكتشفات امورا تتعلق برفاهية المدينة وغناها وكثرة الذهب والمعادن فيها وبأنها سوق تجارية مشهورة[١٥] •

واذا ما كان استغلال الباحثين للوثائق واثار التنقيبات في مجمل دراساتهم عن الحياة الحضارية والاقتصادية قليلا لمنطقة الخليج العربي فانهم بالمقابل قد استفادوا فائدة غير قليلة من الاعمال المجيدة والتأليف الكثيرة التي الفها الكتاب المسلمون القدامى •

والحمد لله فان المكتبة العربية غنية بامثال هذه التأليف سواء كانت تاريخية او ادبية او جغرافية او كتب رحلات كتبها مؤرخون عرب

مشهورون ولم يكن هدفهم التحدث عن اقليم من الاقاليم او جـزء مـن الامبراطورية الاسلامية دون غيره من الاجزاء وانما كان هدفهم التحدث عن اجزاء الامبراطورية عموما بصورة متساوية وبمنهج متماثل تقـريبا • وبالتأكيد فقد توفرت لنا معلومات كثيرة خاصة بمنطقة الخليج العربي مـن النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية •

فالمؤرخون الرواد من امثال احمد بن يحيى البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩/٨٩٢ واحمد بن واضح اليعقوبي المتوفي ٢٨٤/٨٩٧ وخليفة بـن خياط المتوفي ٢٤٠ هـ/٨٥٤ والطبرى المتوفي ٣١٠/٩٢٢ ومسكويه المتوفى ٤٢١/١٠٣٠ وصاحب كتاب العيون والحدائق وابن الجـوزى المتوفـي ٥٩٧/١٢٠٠ وابن الاثير المتوفي ٦٣٠/١٢٣٢ ويوسف بن يعقـوب بـن المجاور المتوفي ٦٩٠/١٢٩١ ، وسليل بن رازق وغيرهم من المؤرخين ، يقدمون لنا صورا سياسية متفرقة عن الاحـداث التـي شهـدتها الدولـة الاسلامية عبر قرون عديدة بعضهم يذكرونها حسب السنوات • فالباحث في التاريخ السياسي للبحرين او عمان او العراق مثلا يجـد بالتأكيـد اخبارا ومعلومات متناسقة الى حد كبير في تلك المؤلفات الضخمة ، ومـع هذا كله فان فائدتها قليلة عن الوضع التجارى والاقتصادى للخليج العربي خلال العصر الوسيط او عن المكانة الاقتصادية للمراكز التجارية الواقعة على الخليج من امثال البصرة والبحرين وعمان • غير ان هذا لايعني باية حال خلو تلك المصادر التاريخية من اية اشارة مفيدة عن تلك الامور اذ ان هناك روايات غير قليلة عن بعض الاحداث السياسية ولكنها تلقي بصورة غير مباشرة اضواء مختلفة عن امور اقتصادية مختلفـــة من امثـــال فرض انواع من الضرائب او الغائهـا ، وارتفـاع وارد ايـة منطقـة او انخفاضه ، والوضع المالي للدولة ، والوضع النقدى ، ومدى تشجيـــع الدولة للتجار او بالعكس مدى الاساءة اليهم والتضييق على نشاطاتهم ،

وارتفاع اسعار بعض المواد الغذائية او انخفاضها ، وندرة السلع وشحتها او وفرتها ، وذكرهم الجفاف وحوادث الطاعون والفيضانات .... الخ والامثلة عن هذه المواضيع كثيرة منها على سبيل المثال ان اليعقوبي يذكر في تاريخه ان الخليفة العباسي الواثق فرق على قوم من التجار اموالا جمة ، وبنى لقوم فاسقط ما كان يؤخذ ممن يرد من بحر الصين من العشر[١٦] ويذكر الصابي في كتابه الوزراء ، ومسكوية في تجارب الامم انه في سنة ٣٠١ هـ ابطل الوزير علي بن عيسى المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر بالاهواز وحصن مهدي ونهر السدرة .. الخ [١٧] ويشير ابن الجوزي في سنة ٥٥٥ هـ « اسقطت الضرائب وما كان ينسب الى سوق الخيل والجمال والغنم والبيع في جميع اعمال العراق [١٨] .

ان شحة المعلومات المفصلة المتعلقة بالاوضاع التجارية والاقتصادية في منطقة الخليج العربي لم تقتصر على الكتب التاريخية فقط بل وتعدتها الى الكتب الخاصة بالامور الادبية وكتب التراجم . فالهدف الرئيس لمثل هذه الكتب لم يكن مركزا على الشؤون الاقتصادية وانما على مشاركات الشخصيات الادبية والعلماء والمفكرين الذين يترجم لهم ، وكذلك عن اثارهم ومؤلفاتهم وعن جوانب شتى من حياتهم . ومع كل ذلك فاننا دون شك نجد في اعمال ضخمة ككتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني او معجم الادباء لياقوت الحموي ، او في العقد الفريد لابن عبد ربه حكايات ونصوصا تسلط اضوء هامة على بعض الامور الاقتصادية ويمكن ان تقدم لنا فائدة غير قليلة عن تلك الامور .

ومن الامثلة على مدى الاستفادة من هذه الكتب في الكتابة عن التاريخ الاقتصادي ما اشار اليه البروفسور برنارد لويس من اشارات طريفة لبعض النصوص الواردة في كتاب الاغاني ولبعض الاشعار وما

تعكسه من جوانب اقتصادية فضلا عن الاحوال الاجتماعية[١٩] • وهناك بالاضافة الى ذلك عدد غير قليل من تلك النصوص في امثال تلك الكتب الادبية تفيدنا في موضوع الاحوال الاقتصادية في الخليج العربي منها : يقول الاصفهاني في حديثه عن الرماح الخطية مايلي :

« رماح تنسب الى الخط وهي من جزيرة بالبحرين ترفأ اليها سفن الرماح »[٢٠] وفي مجال اخر يورد رواية عن تاجر قدم من هجر وكان « يبيع الخمر قدم بها من هجر »[٢١] • وفيما يتعلق بهجر ايضا يقول الاصفهاني ان شخصين اقبلا من البحرين ومعهما « انواط – اي جلل – من تمر هجر »[٢٢] • وفي رواية اخرى يشير الاصفهاني خلال حديثه عن العنبر فيقول « اختير عنبرها من شجر عمان[٢٣] » ويتحدث البكري في كتابه معجم ما استعجم عن قطر فيقول انها تشتهر بالابل الجياد ويستشهد بقول جرير :

لدى قطريات اذا ما تغولت

بنا البيد غاولن الحزوم القياقيا

ويذكر ايضا انها تشتهر بالخمر مستشهدا بالشعر الاتي :

تذكر ساداتنا اهلهم

وخافوا عمان وخافوا قطر[٢٤]

ان الاشارات المارة الذكر ربما ليست جديدة كل الجدة اذ اننا نجد امثالها بالكتب الجغرافية مثلا ، لكن المهم ان هذه الاشارات تثبت لنا تلك المعلومات وتعطيها وجها مصدريا جديدا •

ومما يجب قوله في هذا المجال ان المعلومات الجيدة والمفصلة الخاصة بالامور التجارية والاقتصادية لمراكز ومدن الخليج العربي

المشهورة تأتي بصورة خاصة من الكتب والمصادر الجغرافية • والحقيقة فان هناك مكتبة جغرافية اسلامية ضخمة يمكننا تصنيفها الى مايلي : مجموعة كتب المسالك والطرق وهي مجموعة من الكتب الفت عن طرق البريد والتجارة والنقل لابد لاي باحث عن التجارة في منطقة الخليج العربي وغيرها من المناطق ان يرجع اليها للتأكد من المسافات بين اجزاء الامبراطورية والطرق التي تربط بينهما من امثال : مسالك الممالك للاصطخري ومسالك الممالك لابن حوقل ومسالك الممالك لابن خرداذبه ومسالك الممالك للبلخي وغيرها • والمجموعة الثانية هي المعروفة بالكتب الجغرافية الوصفية وهي بدورها تقدم لنا صورا مختلفة عن النشاطات والأحوال التجارية وعن انتاجات المراكز والمدن الواقعة على الخليج العربي وعن العلاقات التجارية بين هذه المراكز والعالم الخارجي وتتطرق ايضا الى انواع الضرائب والمكوس المفروضة على التجار ومقاديرها ، فضلا عن تناولها لبعض الملامح الاجتماعية كتسمية القبائل العربية القاطنة في الخليج مثلا ، ومن بين هذه الكتب كتاب الاقاليم للاصطخري المتوفي سنة ٩٥٧/٣٤٦ وصورة الارض لابن حوقل المتوفي سنة ٩٧٧/٣٦٧ والخراج لقدامة بن جعفر وكتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي المتوفى سنة ٩٨٥/٣٧٥ ومروج الذهب ومعادن الجوهر لابي الحسن المسعودي المتوفى سنة ٩٥٧/٣٤٦ ومعجم ما استعجم لابي عبدالله البكري المتوفى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ومعجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ١٢٢٨/٦٢٦ • وهذه المجموعة مهمة لاي باحث في الامور الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية بشكل خاص •

اما المجموعة الثالثة فهي المتمثلة بكتب الرحلات ، وهي مجموعة لها قيمة عملية كبيرة اذ ان الاوصاف التي تقدم من قبل الرحالة لها من الواقعية والايجابية ، خلال فترة زيارة الرحالة الى هذه المدينة او تلك ،

قدر كبير • فملاحظات ومذكرات سليمان التاجر في الرحلة المشهورة برحلة السيرافي عن الطريق التجاري البحري عبر الخليج العربي الى الهند والصين لها اهميتها في المجال الاقتصادى والتجارى •

وملاحظات ناصر خسرو في كتابه سفرنامه عن البحرين خلال ايام القرامطة والبصرة ، لها قيمة علمية وعملية ايضا ، وكذلك الحال بالنسبة الى ملاحظات ابن بطوطه عن جزيرة (مصيرة) وعن عمان والبحرين والبصرة ، والمعلومات الواردة في كتاب الرحالة الصيني (جان جوكوا) المتعلقة بالتجارة العربية الصينية في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، والمعلومات الواردة في كتاب شرف الزمان المروزي عن الصين والترك والهند •

ولعل من المفيد ان نستشهد بعدد من اقوال كل مجموعة من المجاميع الثلاثة المذكورة اعلاه بالنسبة للحياة الاقتصادية والتجارية في منطقة الخليج العربي فالاصطخرى في المسالك يذكر المسافات فيقول بين عبادان والبحرين مرحلة وبين البحرين وعمان حوالي الشهر[٢٥] ومن ملاحظاته الطريفة عن الطرق يقول ان طريق عمان طريق « يصعب سلوكه في البرية لكثرة القفار بها وقلة السكان وانما طريقهم في البحر الى جدة فان سلكوا على السواحل من مهره وحضرموت الى عدن»[٢٦] ويستمر قائلا « وكذلك مابين عمان والبحرين فطريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب فيما بينهم بها »[٢٧] ويقول عن طريق عبادان ـ البحرين « واما مابين البحرين وعبادان فغير مسلوك وهو قفر والطريق فيها على البحر » [٢٨] •

والاصطخرى يفضل الطريق الساحلي بين البصرة والبحرين قائلا انه يبلغ (١٨) مرحلة « في قبائل العرب ومياههم مسلوك عامر غير انه

مخوف » [٢٩] ويكرر ابن حوقل في كتابه المسالك نفس المعلومات السابقة .

والاصطخري اضافة الى تلك المعلومات يقدم لنا اوصافا بعضها هام فيما يتعلق بالمنطقة فيقول عن (خارك) انها من بين الجزائر التي يضمها البحر [٣٠] ، اي الخليج . وعن جزيرة بني كاوان انها المعروفة بـ (لافت) وبها مدينة [٣١] . ويقول عن عمان انها « كثيرة النخيل والفواكه الجرمية - اي فواكه المناطق الحارة - من الموز والرمان والنبق . وقصبتها صحار وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب » ويتحدث عن اهمية صحار وعمرانها وغناها [٣٢] . اما عن البحرين فيقول ان مدينتها هجر وهي كثيرة التمور [٣٣] وابن خرداذبه يذكر الطريق من البصرة الى عمان مع ذكر المحطات والمراكز التي يمر بها المسافر [٣٤] . وهو في نفس الوقت يقدم لنا معلومات اقتصادية جيدة اذ يقول ان وارد اليمامة والبحرين كما جاء في سنة ٢٣٧ هـ ٥٠٠ر٠٠٠ من العين و ١٠ر٠٠٠ دينار وارتفاع عمان ٣٠٠ر٠٠٠ دينار [٣٥] ويكرر المقدسي نفس المعلومات التي اوردها ابن خرداذبه .

ونشير من المجموعة الثانية الى ابن حوقل في صورة الارض اذ يقول عن (اوال) في البحرين انها جزيرة لابي سعيد بها الضريبة العظيمة على المراكب المجتازة بهم وبها اموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف الى ما يصل اليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة [٣٦] وعن جزيرة (خارك) يقول ابن حوقل انها تقع مقابل جنابة وبه موضع اللؤلؤ يخرج منه الشيء اليسير الا ان النادر اذا وقع من هذا المكان فاق في القيمة ، ويقال ان الدرة اليتيمة وقعت من هذا المعدن [٣٧] . ويذكر ايضا قوله .

« بعمان وبسرنديب في هذا البحر معدنان للؤلؤ » [٣٨] .

وابن الفقيه الهمداني يذكر في كتابه البلدان نقلا عن رحلة سليمان التاجر عن الرحلة من البصرة الى عمان في سفن تسمى بالسفن الصينية فيقول « فاذا عبى المتاع استعذبوا الماء الى موضع يقال له مسقط وهو اخر عمان ... وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن كاوان » (٣٩) .. ويشترك ابن الحائك الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب بوصف البحرين ومدينة القطيف فيقول عنها انها « سوق بني محارب عن عبدالقيس ومنازلها ما دار بها من البحرين فالقطيف موضع نخل وقرية عظيمة الشأن وهي ساحل » (٤٠) . وهناك معلومات مهمة في كتاب احسن التقاسيم للمقدسي منها انه يتكلم عن اللؤلؤ فيقول « المعادن اللؤلؤ في هذا الاقليم بحدود هجر يغاص عليه في البحر بازاء اوال وجزيرة خارك » (٤١) .. ويتحدث عن البحرين فيقول انها كثيرة النخيل وعامرة وهي معدن البحر (٤٢) . اما عن مدينة صحار بعمان فيقول انها قصبة عمان « ليس على بحر الصين اليوم بلد اجمل منه عامر اهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات ... اسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر .. دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن » (٤٣) .

وللبكري في معجم ما استعجم اقوال كثيرة عن قرى ومدن الخليج العربي ومنها انه يقول عن دارون او دارين بانها مرفأ سفن الهند يأتيها انواع الطيب فيقال مسك دارين وطيب دارين وفيها خمر (٤٤) .

ويشير الى قطر بانها بين البحرين وعمان واليها تنسب الابل والجياد (٤٥) . واخيرا فانه لابد من الاستشهاد ببعض ما قاله ياقوت الحموي وابو الفداء في تقويم البلدان عن بعض مراكز الخليج العربي فيقول عن الاحساء انها بلدة ذات نخل كثير (٤٦) . والقطيف على خط البحر وفيها مغاص اللؤلؤ وفيها نخيل ايضا .

«وللقطيف خور من البحر يدخل فيه المراكب الكبار الموسقة»[٤٧] ويكرر ما سبق قوله المقدسي عن صحار ، ويذكر مسقط بقوله انها من نواحي عمان مما يلي اليمن على ساحل البحر [٤٨] • وعن (دبا) في عمان يقول انها مدينة قديمة مشهورة وتعتبر سوقا من اسواق العرب [٤٩] •

ويشير ابو الفداء الى ظفار فيقول انها « مدينة على ساحل خور ••• ولا تخرج المراكب من ظفار في هذا الخور الا بريح البر ••• وظفار قاعدة بلاد الشحر ويوجد في اراضيها كثير من نبات الهند مثل النارجيل » [٥٠] •

ومن المجموعة الثالثة والاخيرة نذكر رحلة سليمان التاجر الذي يصف الطريق من سيراف الى مصر فيقول « ومراكب اهل سيراف اذا وصلت في هذا البحر المقيا من عن بحر الهند فصارت الى جدة اقامت بها ونقل ما فيها من الامتعة التي تحمل الى مصر في مراكب القلزم اذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر » [٥١] • وهي اشارة توضح نشاط الخليج العربي التجاري مع مصر في الوقت الذي يقدم فيه وصفا دقيقا للطريق الذي يربط البصرة بسيراف ثم مسقط في عمان ثم الى الهند المراكب الصينية [٥٢] •

وتحدث الرحالة المروزي عن العلاقة التجارية عبر الخليج العربي الى الصين ومدينتهم المشهورة (خانفو) فيقول ان اكثر من يقصدها من التجار الفرس والعرب والفرس يأتون اليها من سيراف والعرب من البصرة [٥٣] •

والرحالة الصيني (جان جوكوا) يشير الى الصادرات التي تصدر من بعض اقطار الخليج العربي من حبوب الى حيوانات الى تمور وفواكه ولؤلؤ كما ويبين نشاط العلاقات التجارية مع الصين عبر الخليج خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر [٥٤] •

وللرحالة ابن بطوطة اوصاف مهمة فيقول عن البحرين انها « مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين واشجار ... وبها حدائق النخــــل والرمان والاترج .. يزرع فيها القطن » (٥٥) ويقول « ثم سافرنا الى مدينــة هجر .. وهي التي يضرب بها المثل فيقال كجالب التمر الى هجر وبهـا من النخيل ما ليس ببلد سواها .. » (٥٦) .

ويقول عن عمان انها « خصبة ذات انهار وبساتين وحدائق ونخـل وفاكهة كثيرة .. » (٥٧) وعن استخراج الصمغ في عمان يقول « وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق اذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبـه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهـــو كثير جدا هناك » (٥٨) ويذكر ان الارز يجلب اليهم من ارض الهند وهم (اي اهالي مدينــة قلهات) اهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي اليهم في البحر (٥٩) .

الهوامش

١ ـ انظر :

Leemans ; Foreign Trade in Old Babylonian Period (1960) p. 2' 4' 5'

طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١ ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

٢ ـ Leemans, op. cit. p. 2, 121,
Phillips; History of Oman (1964) pp. 1-8.

كذلك طه باقر : علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب ، مجلة سومر ، المجلد ٥ ج٢ (١٩٤٩) ص ١٣٣ ـ ١٣٦ .

٣ ـ فؤاد جميل : الخليج العربي في مدونات المؤرخين والبلدانيين الاقدمين مجلة سومر مجلد ٢٢ ـ ١٩٦٦ ص ٥٢ ، ٥٤ ، محمد أمين واصف . الجرعاء أو الجرعة ، مجلة لغة العرب ج٧ (السنة الرابعة) ص ٤١٧ ـ ٤١٩ ، صفحة من تاريخ الخليج العربي ، مجلة لغة العرب (السنة الثانية) ج١ ص١٢٥ .

٤ ـ Leemans, op. cit p. 2

٥ ـ انظر اسد رستم : تاريخ اليونان ص٣١ ، ارنولد ولسن : الخليج العربي (ترجمة د . عبدالقادر يوسف) الكويت ص ١٢١ .

٦ ـ جزيرة تيلوس وارادوس : مجلة لغة العرب (السنة الرابعة) ج٧ ص ٤٢٠ ، رزوقي عيسى : قبور غريبة ، لغة العرب ص ٢٧٤ .

٧ ـ كتاب التبصر بالتجارة المنسوب للجاحظ في مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ١٢ (١٩٣٢) ص ٣٢٦ ـ ٣٥١ .
وعن انتعاش الخليج في عالم التجارة زمن العباسين انظر كتاب التبصر بالتجارة المنسوب للجاحظ ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ١٢ (١٩٣٢) ص ٣٢٦ ـ ٣٥١ ؛ المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٨ ، ٤٠٥ ، جورج فضلو حوراني .
العرب والملاحة في المحيط الهندي (ترجمة د . يعقوب بكر) ص

١٧٣ ـ ١٧٤ ؛ ارنولد ويلسون · الخليج العربي ص١٢١ـ١٢٣ ·
د · عبدالعزيز الدوري تاريخ العراق الاقتصادي

Thompson : Economic and Social history ot The Middle Ages (1928) p . 355 .

٨ ـ ابن حوقل المسالك والممالك ص ٢١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، الاصطخري ، الاقاليم (١٨٣٩) ص١٥ ؛ ابن الفقية الهمداني : البلدان (ليدن) ص٣٠ ؛ ابن رسته : الاعلان النفيسة ص١٨٠ ، ١٨٤ ؛ ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ص ١٥١ · وعن الطرق بين البصرة واقطار الخليج العربي د · عبدالجبار ناجي : البصرة واقطار العربي : مجلة الخليج العربي جامعة البصرة ١٩٧٣ ص ١٤٣ ·

٩ ـ انظر

Bernard lewis; sources for the Economic History of Middle East in Islam in history (London 1973) p. 83.

١٠ ـ عن هذه الوثائق انظر :

Goitein; studies in Islamic history and institutions (1966) p. 238; idem the Commercial mai service in Medieval Islam in JAOS (1964) idem article (Geniza) in E1. (2) idem Commercial and family partnerships in the countries of medieval Islam, in (Islamic studies) 1964 p. 315.

١١ ـ انظر :

S. shaked; A tentative bibliography of Geniza douments (1964) p. 78, 102, 106, 117.

١٢ ـ السجلات المستنصرية (تحقيق عبدالمنعم ماجد) (١٩٥٤) ص ١٦٨

١٣ ـ ربيع القيس : تحريات وتنقيبات اثرية في دولة الامارات العربية المتحدة (الخليج العربي) ؛ منير يوسف طه : تنقيبات في مستوطن الدربحانية في امارة رأس الخيمة ـ دولة الامارات العربية

المتحدة ، في مجلة سومر مجلد ۲،۱ ، ص۲۸۳ ـ ۳۰۹ ، مجلد ۳۱ ص ۷۵ ـ ۱۵۵ ٠

۱٤ ـ انظر :

J. Bibby; looking for Dilmum (1969) p. 107.

۱٥ ـ رزوق عيسى : قبور غريبة قديمة ، مجلة لغة العرب ، السنة الثانية ج۷ ص۲۷٤ ٠

۱٦ ـ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ليدن ۱۸۸۳ ، ص ٥٩٠ ٠

۱۷ ـ الصابي ، الوزراء ص ۲۸٥ ، مسكويه : تجارب الامم ج۱ ص ۲۸ ٠

۱۸ ـ ابن الجوزي : المنتظم ج۱۰ ص۱۹٤

۱۹ ـ Bernard lewis : op . cit . p . 90

۲۰ ـ ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني (۱۹۳۸) ج۱۰ ص۳۰۳ ٠

۲۱ ـ نفس المصدر ج٦ (۱۹۳٥) ص ۱۲۸ ٠

۲۲ ـ نفس المصدر ج۲ (۱۹۲۸) ص۳۸۹ ،ج۳ (۱۹۲۹) ص٥٤ ٠

۲۳ ـ الاغاني ج۱٦ (۱۹٦۱) ص ۲٥۹

۲٤ ـ البكري : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا (۱۹٤۹) ج ۳ ص ۱۰۸۲ ٠

۲٥ ـ الاصطخري : مسالك الممالك ص۷۹ ٠

۲٦ ـ الاصطخري الاقليم ص ۱٥ ؛ ابن حوقل : المسالك ص ۳٥ ٠

۲۷ ـ الاصخري : الاقليم ص ٥ ؛ ابن حوقل ، صورة الارض ص ٤۷ ٠

۲۸ ـ الاصطخري ، الاقاليم ص ٥ ؛ ابن حوقل المسالك والممالك ص ۳٥ ، صورة الارض ص ٤۷ ٠

۲۹ ـ ابن حوقل : المسالك ص ۳٥ ٠

۳۰ ـ الاصطخري : المسالك ص ۷۰ ٠

۳۱ ـ ن٠م٠ ص ۷۰ ٠

۳۲ ـ ن٠م٠ ص۲۷ ٠

۳۳ ـ ن م٠ ص۲۳ ٠

۳٤ ـ ابن خراداذبه : المسالك والممالك ص ٦۰ ، ۱۹۳ ٠

۳٥ ـ ن٠م٠ ص ۲٤۹ ، ۲٥۱ ؛ المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ۱۰٥ ٠

۳٦ ـ ابن حوقل : صورة الارض (بيروت) ص ۳۳ ٠

۳۷ ـ ن م٠ ص٥۲ ٠

٣٨ ـ ن م٠ ص٥٢ ٠
٣٩ ـ ابن الفقية الهمداني : البلدان (١٨٨٥) ص ١١ ٠
٤٠ ـ الهمداني : صفة جزيرة العـــــرب ، تحقيق الاكوع (١٩٧٤)، السعودية ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ٠
٤١ ـ المقدسي : المصدر السابق ص ١٠١ ٠
٤٢ ـ ن٠م ص٩٣ ـ ٩٤ ٠
٤٣ ـ ن٠م٠ ص٩٢ ـ ٩٣ ٠
٤٤ ـ البكرى : معجم ما استعجم ج٢ ص٥٣٩ ٠
٤٥ ـ ن٠م٠ ج٣ ص ١٠٨٢ ٠
٤٦ ـ ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٩ ٠
٤٧ ـ ن٠م٠ ص ٩٩ ٠
٤٨ ـ ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ٥٢٩ ٠
٤٩ ـ ن٠م٠ ج٣ ص٣٦٩ ٠
٥٠ ـ ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٣ ٠
٥١ ـ مسلسلة التواريخ (باريس ١٨١١) ص١٣٦ ـ ١٣٧ ٠
٥٢ ـ ن م٠ ص ١٥ ـ ٢١ ٠
٥٣ ـ المروزي : شرف الزمان : في الصين والترك والهنـــــد ٠ لندن ١٩٤٢) ص ١٠ ٠
٥٤ ـ Chau - Ju - kua
chinese and Arab trade in the 12th and
13 th centuries (1914) p. 133 - 134
٥٥ ـ ابن بطوطة : رحلة (مصر ١٩٦٤) ج١ ص١٧٧ ٠
٥٦ ـ ن ٠ م
٥٧ ـ ن٠م٠ ج١ ص١٧٢ ٠
٥٨ ـ ن٠م٠ ج١ ص١٦٩ ٠
٥٩ ـ ن٠م٠ ص١٧١ ٠

ـ الشركات التجارية الاحتكارية الانكليزية ـ في منطقة الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (*)

الدكتور عبدالامير محمد أمين
استاذ التاريخ الحديث ـ كلية التربية
جامعة بغداد

دخلت انكلترا مجال الاستكشافات الجغرافية والتجارة العالمية في اواخر القرن السادس عشر وكانت بهذا متأخرة عن سواها من الاقطار الاوربية [1] . فقد سبقتها في ذلك اقطار اخرى مثل اسبانيا والبرتغال . ولم تكن الحكومة الانكليزية تملك القوة التي تمكنها من اخذ المشاريع التجارية والاستكشافية على عاتقها ، كما فعلت حكومتا اسبانيا والبرتغال قبل ذلك بقرن . كما لم يكن بمقدور التجار الانكليز القيام بتلك المشاريع بشكل فردي نظرا للصعوبات الهائلة والمخاطر الجسيمة التي كانت تكتنف سبل التجارة في ذلك الوقت ، ونظرا للاموال الطائلة التي تتطلبها التجارة مع اقطار نائية في الشرق وامريكا .

لقد جاءت الشركات التجارية الاحتكارية الانكليزية لتقوم بمهمة التجارة في بقاع العالم المختلفة موفرة بذلك على الحكومة الانكليزية

(*) سبق ان نشر جزء من هذا المقال في مجلة كلية الاداب عام ١٩٦٣ ونظرا لاعتقاد الكاتب باهمية الموضوع فقد عمد الى اضافة معلومات جديدة اليه ونشره مرة اخرى في هذا العدد الخاص بالخليج العربي ، ليستفيد منه اكبر عدد ممكن من القراء .

(1) W.H. Price, The English Patents of Monopoly, Boston: 1906.

والافراد العناء والجهد الجسيمين • والواقع ان الشركات الاحتكارية الانكليزية تمثل حلا وسطا بين المشاريع التجارية الحكومية كتلك التي قامت بها اسبانيا والبرتغال والمشاريع التجارية الفردية التي عرفها الانسان في كل العصور •

كما ان الشركات التجارية الاحتكارية تمثل من ناحية اخرى نموذجا وسطا بين النقابات الحرفية « اصناف Gilds » التي سادت المدن الاوربية خلال القرون الوسطى ، وبين الشركات بمفهومها الحديث [٢] • فهي من ناحية القيود والضوابط على الممارسات التجارية شأنها بذلك شأن النقابات الحرفية في العصور الوسطى ، وهي في الوقت نفسه تملك قدرا كبيرا من الاستقلال وحرية العمل وتمارس اعمالها بشيء من المرونة بعيدة عن التقليد والجمود [٣] •

وبينما حصلت النقابات الحرفية على رخصها من سلطات المدن وكانت منزلة كل منها واهميتها لا تتخطى حدود المدينة التي هي فيها ، فان الشركات التجارية الاحتكارية ، حصلت على وثائق امتيازاتها من التاج الانكليزي نفسه • وكانت النظرة الى كل شركة منها على اساس انها « مشروع قومي National Enterprise وانها تخدم « هدفا قوميا National Objective » • ولذا حظيت الشركات التجارية باهتمام الدولة ورعايتها ، وقد وفرت لها الحكومة المناخ الملائم للعمل والربح في الداخل ، وساندت مشاريعها في الخارج بكل ما اوتيت من قوة ومقدرة [٤] •

---

(2) W. H. Woodward, The Expation of British Empire (1500-1870) Cambridge 1899.

(3) Ibid.

(4) C.A. Herrick, History of Commerce and Industry, New York 1935. pp. 207-218.

ولعل اهم ميزة حصلت عليها تلك الشركات التجارية من الحكومة الانكليزية هو حقها في احتكار التجارة الانكليزية في بقعة معينة من بقاع العالم دون السماح لمنافس لها سواء كان هذا المنافس شركة تجارية انكليزية اخرى او فرد انكليزي يقوم بالتجارة لحسابه الخاص . وتنفيذا لحق الاحتكار هذا خولت الشركات التجارية في اغلب الاحيان صلاحية متابعة المخالفين والمتجاوزين من الانكليز افرادا وجماعات ومحاكمتهم وابعادهم عن مناطق احتكار الشركات وارجاعهم الى انكلترا لينالوا العقاب هناك . وفي حوالي ١٦٠٠ ، لم تكن هناك سوى فرنسا واسبانيا والبرتغال مفتوحة الابواب لجميع التجار الانكليز دونما مانع أو احتكار [٥] . اما بقية بقاع العالم فكانت كما ذكرنا موزعة بين الشركات التجارية الاحتكارية الانكليزية ، تماما كما تقتسم شركات السكك الحديدية الكبرى القارة الامريكية واوربا في هذه الايام .

ولعل الجدول التالي يعطي فكرة عن تلك الشركات التجارية الانكليزية وعن مناطق امتيازها وطبيعة تجارتها [٦] .

(5) C. Day, A History of Commerce, New York : 1924, pp. 202-204.

(6) Herrick, P. 216.

اسم الشركة	سنة الحصول على الامتياز	منطقة الامتياز	صادرات الشركة	واردات الشركة
١ ـ التجار المغامرون Merchants Adventure	١٥٠٥	الاراضي المنخفة والمانيا	الصوف والاقمشة الصوفية	منسوجات ، شراب صابون ، مصنوعات اخرى
٢ ـ روسيا Russia	١٥٥٣	روسيا	ـــ	ـــ
٣ ـ ارض الشرق Eastland	١٥٦٨	النروج ، السويد بولنده ، وبروسيا	ملابس ، قصدير رصاص ، وبضائع شرقية معادة التصدير	نحاس ، حديد ، خشب فرو ، قنب ، جلود ، سمن ، سمك ، شمع عسل
٤ ـ الشرق الادنى Levant	١٥٨١	تركيا ، سوريا واسيا الصغرى	الملابس الصوفية قصدير ، رصاص وحديد	قطن ، موهير ، اعشاب طبيعة ، قهوة
٥ ـ الهند الشرقية الانكليزية	١٦٠٠	الهند ، بلاد العرب فارس	الملابس الصوفية المعادن ، بعض المصنوعات	التوابل، القطن ،العطور الاحجار الكريمة ، النيلة الحرير ، الاخشاب ، النادرة

وعلى الرغم من ان المجال التجاري الذي تملك فيه الشركة حق الاحتكار منصوص في وثيقة الامتياز الممنوحة لها من قبل التاج الانكليزي فان مشاكل كثيرة وخلافات متكررة قد حدثت بين تلك الشركات والسبب في ذلك يعود الى تداخل مناطق الامتياز والجهل العام السائد في تلك الايام بمدلول وحدود الاماكن والاقطار والممالك التي ذكرت في الامتيازات .

وكان العراق بل الامبراطورية العثمانية وايران ومنطقة الخليج العربي من الاماكن المهمة للصراع بين ثلاث شركات احتكارية انكليزية هي شركة روسيا (The Russia Company) وشركة الشرق الادنى (The Levant Company) وشركة الهند الشرقية الانكليزية (The English East India Company) وان موضوع هذه الشركات ومصالحها المتضاربة على اهميته لم يحظ باهتمام الباحثين ، ولم يتسن للقارىء العربي الاطلاع عليه وتفهمه .

لقد كان الهدف الرئيسي من تأسيس كل من هذه الشركات الثلاث استيراد الحاجات الشرقية كالتوابل على اختلاف أنواعها والعطور والجواهر والحرير والقطن ، من مواطن انتاجها الاصلية وخاصة من الهند بدلا من الاعتماد على بقية الاوربيين كالبرتغاليين والهولنديين لتموين السوق الانكليزية بها وكانت الطرق التجارية الموصلة الى الشرق خلال معظم القرن السادس عشر محتكرة من قبل بقية الاوربيين ، فطريق رأس الرجاء الصالح الذي أصبح أهم الطرق التجارية الموصلة للشرق خلال القرن المذكور كان قد احتكره البرتغاليون ولم يكن الانكليز في وضع يستطيعون فيه تحدي البرتغاليين وقد دفعتهم هذه الظروف الى البحث عن طريق جديد فتوجهوا في بحثهم أول الامر الى شمال شرقي اوربا علّهم يجدون هناك ممراً يوصلهم الى الشرق وان محاولاتهم في هذا الشأن التي قام بها

بعض المغامرين الانكليز في بداية العقد السادس من القرن السادس عشر لم تتكلل بالنجاح اذ لم يكتشف الممر المنشود [٧] ، ولكنها أدت الى تعرفهم على بلاد روسيا • وعلى أثر هذا تأسست شركة انكليزية خاصة عرفت باسم شركة روسيا وقد منحتها الحكومة الانكليزية سنة ١٥٥٥ الحق المطلق في المتاجرة مع روسيا [٨] • وما ان استقرت اعمال الشركة في روسيا حتى عاودت المسؤولين فيها فكرة ايجاد طريق للشرق • وفي هذه المرة لم يبحث الانكليز عن ممر شمالي للشرق بل حاولوا فتح باب المتاجرة مع الهند عبر روسيا وايران • وبين سنة ١٥٦١ أرسل الانكليز ست حملات لهذا الغرض كانت الاولى منها بقيادة الرحالة الانكليزي انتوني جنكنسون Anthony Jenkinson [٩] ولقد اخفقت جميع هذه الحملات بسبب المصاعب الكبيرة التي كانت تكتنف الطرق البرية في ذلك الوقت ثم ان النجاح الذي حققه الانكليز في نهاية القرن بفتح باب التجارة المباشر مع الشرق على يد شركتين انكليزيتين اخريين وهما شركة الشرق الادنى وشركة الهند الشرقية ، صرف نظر الانكليز لفترة طويلة عن مشروع فتح تجارة مع الشرق عبر روسيا •

ففي نهاية القرن السادس عشر نجحت شركة الشرق الادنى في فتح

(7) R. Hakluyt (ed.), The Princeple Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation, London; 1926, Vol. I, p. 254.

(8) Ibid., p. 318.

(٩) وللاطلاع على تفاصيل هذه الحملات راجع

E.D. Morgan And C. H. Coates (ed.), Early voyages and travels to Russia and Persia, London, 1886; George N. Curzon, Persia and the Persian Question, London 1892, Vol. II.

باب المتاجرة مع الامبراطورية العثمانية • وكانت هذه الشركة قد تأسست اثر النجاح الذي حققه بعض التجار لدى السلطان اذ قد حصلوا منه سنة ١٥٨٠ على براءة « امتياز » تكفل للتجار الانكليز الكثير مـــن التسهيلات في ارجاء الامبراطورية العثمانية [١٠] • ان هذا النجاح دفع هؤلاء التجار الذين حصلوا على البراءة المذكورة الى تأسيس شركة تجارية باسم شركة الشرق الادنى ودفعهم كذلك الى مطالبة الحكومة الانكليزية بمنح الشركة امتياز المتاجرة مع بلاد السلطان فاستجابت الحكومة الانكليزية لهذا الطلب ومنحت الشركة سنة ١٥٨١ الحق المطلق في التجارة مع ارجاء الامبراطورية العثمانية المختلفة [١١] • وفي سنة ١٥٩٢ جددت الحكومة الانكليزية امتياز الشركة ولم تكتف هذه المرة بمنحها الحق في احتكار التجارة مع بـلاد السلطان وحسب بل منحتها احتكار التجارة البرية مع الهند عبر هذه البلاد واحتكار استيراد الزبيب وبعض أنواع الشراب الى انكلترا [١٢] • ومنذ التاريخ المذكور [١٣] استمرت الشركة في تجارتها مع الشرق [١٤] لمدة

---

(١٠) للاطلاع على النص راجع : Hakluyt (ed.) III, pp. 57-62.

(11) Ibid, pp. 64-72.

(12) Ibid, pp. 370-387.

(١٣) لمعرفة المزيد عن تاريخ الشركة راجع :

M. Epstein, The Early History of the levant Company, London, 1908; A. wood, A History of the levant Company, London, 1935.

والكتاب الاخير هو خير ما كتب حول الموضوع •

(١٤) كان مقر ادارة الشركة في انكلترا ، وفي الخارج كان يشرف علـــى شؤونها السفير الانكليزي في القسطنطينية وكان لهذا السفـــير مهمة مزدوجة فهو ممثل للشركة يرشح بواسطتها ويتسلم راتبـــه منها وهو في الوقت نفسه ممثل للحكومة الانكليزية في بلاط السلطان• والى جانب هذا السفير كان هناك قناصل ونواب قناصل يشرفون

تزيد على قرنين • وكانت صادراتها من انكلترا تشتمل على الاقمشة الصوفية بالدرجة الاولى يلي ذلك بكميات قليلة النحاس والقصدير ، اما وارداتها الى انكلترا فتشتمل على الحرير الخام والقطن والصوف والتوابل والاعشاب الطبية والزبيب(١٥) • وقد كان الحرير الخام يؤلف المادة الاساسية لواردات الشركة(١٦) • وايران هي البلاد الرئيسة لانتاج هذه المادة ، اذ كانت تكثر في المناطق الشمالية خاصة في منطقة غيلان وكان التجار الارمن يقومون بدور الوسيط بين الشركة والايرانيين ، فهم يحملون الاقمشة الانكليزية الصوفية من حلب والقسطنطينية الى شمال ايران ويقايضون بها الحرير الخام الذي يحملونه الى الاماكن المذكورة اذ تبتاعه منهم الشركة وتصدره الى أوربا • ان اعتماد الشركة على الحرير الايراني اكسب ايران أهمية خاصة بالنسبة الى شركة الشرق الادنى • ودفعتها رغبتها في حماية تجارتها في ايران الى الاشتباك ، كما سنرى ـ بسلسلة من المنازعات مع كل من شركة الهند الشرقية وشركة روسيا • ولما كانت صادرات الشركة يتألف معظمها من الاقمشة الانكليزية الصوفية

على شؤون الشركة في حلب والاسكندرية وغيرها من المدن العثمانية ، وقد اعطيت الشركة منذ سنة ١٦٠٥ صلاحية مطلقة في تعيين القناصل ونواب القناصل الانكليز في أقسام الامبراطورية العثمانية المختلفة راجع :

(١٥) للوقوف على المزيد من تجارة الشركة راجع : Epstein, p. 124.

Transactions of the Royal Historical Society. 4th Ser. Vol. 5, p. 17; D. Macpherson, Annals of Commerce, Manufactures, Fishers and Navigation, London, 1805;

وللفترة التي تلت سنة ١٦٩٧ راجع :

State of Trade of Great Buitain by C. Whit Worth, London, 1776.

ووارداتها تشتمل على الحرير والقطن والصوف وكل واحدة من هذه المواد تدخل في احدى الصناعات الانكليزية المهمة ، فقد حظيت الشركة بتقدير كبير لدى الرأي العام الانكليزي اذ اعتبرت تجارتها ذات نفع للصناعة الانكليزية بعكس تجارة شركة الهند الشرقية •

أما شركة الهند الشرقية هذه فهي ولاريب أهم الشركات الانكليزية التي قامت بالتجارة مع الشرق وقد قدر لها ان تلعب دورا خطيراً جداً في تاريخ السياسة والاقتصاد الانكليزي • ويكفي أن نقول هنا انه على يد هذه الشركة نفسها تم تأسيس الامبراطورية البريطانية في الهند • حصلت شركة الهند الشرقية على امتيازها من الملكة اليزابيث سنة ١٦٠٠ • وكان ضعف البرتغال في هذا الوقت عاملا مهما شجع الانكليز على الاتصال المباشر مع الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أما مجال الشركة التجاري فكان يشمل الهند والاقطار المحيطة بها "The East Indies" وكانت صادرات الشركة تتكون من الاقمشة الصوفية الانكليزية بالدرجة الاولى يليها بالاهمية الحديد والنحاس والقصدير بكميات قليلة ، اما وارداتها من الشرق فكانت تشتمل على التوابل بمختلف انواعها والحرير والقطن والصوف والنيلة والاعشاب الطبية[١٧] ، وتمتاز تجارة شركةالهند

---

(16) Gerald B. Hertz "The English Silk Industry in the Eighteenth Century," "The English Historical Review, Vol. 24, 1909, pp. 710-724

لقد اوضح الكاتب انه في سنة ١٧١٥ كان بين كل ٤٦٥٠ رزمة من الحرير الخام اعتادت انكلترا استيرادها ٢٥٠٠ يأتي لها من الشرق الادنى و ١٣٠٠ من ايطاليا والصين والهند •

(17) Bal Krishna, Commercial Relations Between India and England, London, 1924.

الشرقية بزيادة قيمة الواردات على قيمة الصادرات زيادة كبيرة الامر الذي اضطر الشركة الى ارسال كميات كبيرة من الفضة والذهب سنوياً الـى الشرق لدفع قيمة مشترياتها من الاسواق الشرقية .

ان قلة الصادرات بالنسبة الى الواردات وتصدير الفضة والذهـب سبب نقداً عنيفاً للشركة في انكلترا خلال القرنين السابع عشر والثامـن عشر . فقد كان المذهب التجاري "Marcantilism" سائدا في هذا الوقت وكان هذا المذهب يؤكد على ان تنمية الصناعة الوطنية يجب ان تكون من الاهداف الرئيسة للتجارة الخارجية ويؤكـد كذلك عـلى اهمية زيـادة الصادرات وتقليل الواردات والاحتفاظ بالفضة والذهب وعدم تصديرها خارج البلاد (١٨) . حاولت الشركة اسكات اصوات المعارضة والمنتقدين لتجارتها ببذل المزيد من الجهد لزيادة صادراتها من المصنوعات الانكليزية وخاصة الاقمشة الصوفية ، تلك السلعة التي كان يشتغل بمادتها الاولية وصناعتها وتجارتها نسبة كبيرة من الشعب الانكليزي والتي اعتبر تشجيعها لقرون عديدة من الواجبات الوطنية المهمة (١٩) ، ولسوء حظ شركة الهند

(18) W. Conningham, The Growth of English Industry and Commerce in Modern times, Cambridge, 1907, Vol. II, pp. 463-471; E. Lipson, The Economic History of England, London, 1942. Vol. III, pp. 13-62; Paul Montoux, The Industrial Revolution in the Eighteenth Century. London, 1961, pp. 99-105.

(١٩) للاطلاع على معلومات وافرة عن أهمية الصناعات الصوفية فـي التاريخ الانكليزي راجع :

James Bischoff, A Comprehensive History of the Woolen and Worsted Inlustries 2 Vols. London, 1842; E. Lipson, The History of The Woollen and Worsted Industries, London, 1921; Lipson, The Economic History of England, Vol, II, pp. 10-93.

الشرقية انه لم يكن هناك طلب كبير على هذه السلعة بالذات في الاسواق الهندية نظراً لحرارة الطقس في هذه البلاد ولفقر السكان[٢٠] ، لهذا نرى إن الشركة منذ بداية تاسيسها تتلفت الى الاقطار المجاورة للهند علها تجد مخرجا لها من هذا المأزق •

وقد وجدت شركة الهند الشرقية في ايران مخرجا لها • فبرودة الطقس من جهة[٢١] والعادة الاجتماعية المحليـة التـي كانت تتطلب من الوجيه الايراني ، الالتحاف بملابس جيدة وسميكة من جهة أخـرى ، جعلت ايران خير سوق للاقمشة الانكليزية الصوفية[٢٢] • وفي الوقـت

---

(20) F. Robinson, The Trade of The East India Company From 1709-1813, Cambridge, 1912, pp. 66-67.

(٢١) منذ البداية وجدت الشركة صعوبة كبيرة في تصريف الاقمشـة الصوفية في الهند • وفي سنة ١٦١٤ تلقت سلطات الشركـة في لندن تقريرا من مستخدميها في الشرق يوضح ان ايران هـي القطر الذي يجب الالتفات اليه لتصريف مثل هذه الاقمشة ، فان فصل الشتاء ، في هذه البلاد ، يمتد الى ما يقارب من ستة اشهر • وخلاله يستهلك الرجال والنساء والاطفال الكثير من الاقمشـة الصوفية • راجع :

J.A. Saldanha, Selections From State Papers, Bombay, Regarding The East India Company's Connection With the Persian Gulf, With a Summary of Events, 1600-1800, 1908. p. ii.

(22) India office, Marine Records, Vol, 891, August 15, 1790. Report on the Commarce of Arabia and Persia By Samuel Monesty and Harford Johnes.

وفي هذا التقرير وصف شيق للملابس التي اعتاد الوجيـه الايراني ارتداءها وقد بين كاتبا التقرير ان الاقمشـة الانكليزية ، هي الوحيدة التي يمكن ان تلائم الذوق الايراني

الذي بدأت فيه شركة الهند الشرقية محاولاتها لتصدير الاقمشة الانكليزية الى ايران كانت مثل هذه الاقمشة قد وجدت طريقها فعلا الى الاقسام الشمالية من بلاد الشاه ، وقد سبق أن بينا ان الاقمشة الصوفية التي كانت تجلبها شركة الشرق الادنى الى اجزاء الامبراطورية العثمانية المختلفة كان ينقل قسم منها الى ايران لمقايضته بالحرير الخام وهذا يعني ان أي نجاح تحققه شركة الهند الشرقية في ايران سيكون على حساب شركة الشرق الادنى الى حد ما .

والواقع ان شركة الشرق الادنى كانت قد شعرت بوطأة منافسة شركة الهند الشرقية حتى قبل ان تبدأ الشركة الاخيرة تجارتها مع ايران . ففي سنة ١٦٠٥ لوحظ كساد في أعمال شركة الشرق الادنى وقد عللت الشركة هذا الكساد في أعمالها بأنه نتيجة لكثرة ما استوردته شركة الهند الشرقية من توابل وحرير الى الاسواق الانكليزية[٢٣] . اما وقد قامت شركة الهند الشرقية بالمتاجرة فعلا مع ايران سنة ١٦١٦ ، فقد زاد تململ شركة الشرق الادنى واحتجاجها خاصة بعد أن جعلت شركة الهند الشرقية من بندر عباس على الخليج العربي مركزاً رئيساً لاعمالها في ايران ومنطقة الخليج سنة ١٦٢٢ وبدأت سفنها تتاجر مع البصرة منذ سنة ١٦٣٥ ونجحت في بيع كميات كبيرة من الاقمشة الصوفية سنوياً في ايران ومنافسة شركة الشرق الادنى في شراء الحرير الايراني وتصديره الى انكلترا وقد اتهمت شركة الشرق الادنى شركة الهند الشرقية بان تجارة الاخيرة في منطقة الخليج وايران ما هي الا تجاوز على مجالها التجاري ولم تكتف شركة الشرق الادنى بهذا الاتهام بل انها ضمت صوتها الى اصوات المعارضين لتجارة شركة الهند الشرقية وبدأت تهاجمها على أساس ان تجارتها غير

(23) Epstein, p. 156.

ذات نفع للاقتصاد الانكليزي ، وهنا انبرت شركة الهند الشرقية تدافع عن تجارتها وتفند حجج المنتقدين والمعارضين فأكدت ان تجارتها ذات نفع عميم للبلاد ، فلها الفضل وحدها دون سواها في انخفاض اسعار البضائع الشرقية في الاسواق الانكليزية لكثرة ما تستورده الشركة من هذه البضائع ، هذا ويكفي الشركة فخراً أن تقول انها استطاعت ان تنافس بقية الاوربيين منافسة ناجحة في ميدان التجارة مع الشرق[24] . بل ذهبت الشركة الى أبعد من هذا فأدعت ان وجودها واستمرار تجارتها مع الشرق لهو خير ضمان لبقاء شركة الشرق الادنى نفسها قبل غيرها اذ ان انسحاب شركة الهندالشرقية من ميدان التجارة مع الهند ومنطقة الخليج العربي سيترك الهولنديين سادة لهذه التجارة ، وان هذا سيعطيهم من القوة والنفوذ ما يمكنهم من طرد التجارة الانكليزية في أماكن كثيرة من العالم خاصة في منطقة البحر الابيض المتوسط حيث تتاجر شركة الشرق الادنى[25] . ولم ينته الجدل بين الشركتين الى نتيجة ما وبعد ان سادت العلاقات بينهما فترة من الهدوء في منتصف القرن السابع عشر تجدد النزاع بشكل لم يسبق له نظير من قبل في نهاية القرن المذكور .

جاء النزاع الاخير نتيجة لسياسة تجارية توسعية جديدة كانت قد تبنتها شركة الهند الشرقية في ايران خلال العقدين الاخيرين من القرن

---

(24). T. Mun, A Discoures of Trade From England into East Indies, London. 1621.

ان المؤلف من الشخصيات البارزة في تاريخ الشركة . وكتابه المذكور هو خير ممثل لوجهة نظر الشركة ومن أحسن ما كتب دفاعا عن مصالحها .

(25) Calender of the Court Mintes Etc. of the East India Co. 1635-1639. p. 272. Oxford, 1907.

السابع عشر ، وكان سير جوسيه تشايلد Sir Josiah Childe. على رأس الشركة في هذا الوقت ، وتشايلد هذا من الشخصيات التي لعبت دورا هاماً في تاريخ الشركة • وقد عقد العزم منذ ان انتهى اليه زمام الشركة ،على توسيع تجارتها وتملكته رغبة كبيرة في توسيع تجارة الشركة خاصة مع ايران[٢٦] • فقد اعتقد ان هناك امكانيات كبيرة لزيادة مبيعات الشركة من الاقمشة في ايران ، وخاصة في المناطق الشمالية من هذه البلاد ، اذ كانت هذه المناطق لاتزال تستورد كميات كبيرة من الاقمشة الانكليزية التي تجلبها شركة الشرق الادنى الى الشرق •

وتمشيا مع سياسة شركة الهند الشرقية الجديدة ارسلت الشركة في سنة ١٦٩١ كميات كبيرة من الاقمشة الصوفية الى بندر عباس مع تعليمات مشددة الى وكيل الشركة (The Agent) هناك بضرورة بذل جميع الجهود الممكنة لبيع هذه الاقمشة المرسلة ، وقد أمرت الوكيل بالذهاب شخصه الى اصفهان ، عاصمة ايران في ذلك الوقت للاشراف بنفسه على بيع الاقمشة الصوفية في تلك المدينة ولكي يهيىء أمر السكن لبعض الشبان الذين تعتزم الشركة ارسالهم من انكلترا الى ايران لتعلم اللغة الايرانية والارمنية ليكونوا مؤهلين لادارة اعمال الشركة[٢٧] •

هذا وقد اعتقدت الشركة ان كسب ثقة التجار الارمن وتضامنهم من

---

(٢٦) قد اشتدت هذه الرغبة بعد سنة ١٦٨٨ أي بعد الثورة الجليلة في انكلترا ، وكان لموقف الحكومة غير الودي من الشركة ، لما عرف عنها من محاباة الحكومة قبل الثورة ، سبب مهم في تقوية هذه الرغبة فأرادت الشركة استرضاء الحكومة الجديدة واستدرار عطف الرأي العام بزيادة صادراتها من المصنوعات الانكليزية •

(27) J. Bruse, Annals of The Honourable East-India Company, London, 1810, Vol. III, p. 108.

العوامل المهمة لنجاح هذه السياسة الجديدة • والواقع ان نشاط الارمن ونجاحهم التجاري وسيطرتهم على التجارة بين حلب وايران والهند ومنطقة الخليج العربي كل هذه بهرت الشركة وجعلتها ترغب في محالفتهم وحاولت أول الامر اغراءهم بان سمحت لهم سنة ١٦٩٠ بحمل بضائعهم من بندر عباس الى اوربا على ظهر سفن الشركة[٢٨] • ثم بذلت كل مافي وسعها لاقناعهم على حمل حرير غيلان الى اصفهان والمقايضة باقمشة شركة الهند الشرقية في العاصمة الايرانية بدلا من نقله الى حلب ومقايضته بأقمشة شركة الشرق الادنى[٢٩] • ان سياسة شركة الهند الشرقية الجديدة هذه • لاتترك مجالا للشك في انها كانت ترمى الى القضاء على تجارة شركة الشرق الادنى في ايران قضاء تاما •

لقد كانت شركة الهند الشرقية في وضع تستطيع فيه منافسة شركة الشرق الادنى بنجاح فمن جهة نرى أن تكاليف نقل الاقمشة التي تجلب بوساطة شركة الهند الشرقية عن الطريق البحري المباشر الى بندر عباس وتنقل من هناك الى شمال البلاد ، أقل من تكاليف نقل الاقمشة التي تأتي بها شركة الشرق الادنى الى حلب وغيرها من اجزاء الامبراطورية العثمانية وتنتقل من هناك الى ايران [٣٠] ، وكذلك تدخل أقمشة شركة الهند الشرقية ميناء بندر عباس معفاة من أية ضريبة ، بينما كانت شركة الشرق الادنى ملزمة بدفع ضريبة على الاقمشة التي تجلبها عند دخولها أي ميناء من

---

(28) J. Lorimer, Gazeteer of The Persian Gulf, Oman, and Central Arabia, India, 1908, Vol., I Part 1, p. 618.

(29) Ibid.

(30) Bruce, Vol. II, p. 618.

موانيء الامبراطورية العثمانية(٣١) • ان هذا جعل باستطاعة شركة الهند الشرقية بيع أقمشتها بأسعار أرخص من تلك الاسعار التي اعتادت شركة الشرق الادنى البيع بها ، أضف الى هذا ان الشركة الاخيرة كانت تمر في ظروف هي في غاية الحراجة ، فان الحرب التي كانت دائرة بين انكلترا وفرنسا في ذلك الوقت كانت وبالا على أسطول الشركة وتجارتها في البحر الابيض المتوسط • فقد خسرت الشركة سنة ١٦٩٣ من السفن والحمولة على يد الفرنسيين ، ما قدرت قيمتها بأكثر من نصف مليون باون استرليني وقد ظن ان الشركة لن تستطيع تموين أسواقها في الشرق بالاقمشة وغيرها من البضائع لسنين عديدة بعد هذه الكارثة(٣٢) •

وكانت الكارثة الاخيرة مشجعة لشركة الهند الشرقية على الاجهاز على غريمتها وطردها من السوق الايرانية • لقد تلقى تشايلد انباء الكارثة بسرور تام وود لو كانت القاضية على تجارة شركة الشرق الادنى ليس في ايران فقط بل في ارجاء الامبراطورية العثمانية ايضا لكي تحل شركة الهند الشرقية محلها (٣٣) • هذا وفي سنة ١٦٩٣ حصلت شركة الهند

---

(٣١) ان اعفاء شركة الهند الشرقية من دفع الضرائب على بضائعها الواردة الى بندر عباس يرجع بالاصل الى ذلك الاتفاق الذي تم سنة ١٦٢٢ بين الايرانيين والانكليز لمهاجمة هرمز وانتزاعها من يد البرتغاليين وقد تم بمقتضاه اعفاء الانكليز من الضرائب في هرمز في حالة نجاح العمليات العسكرية ضد البرتغاليين ، هذا وعندما هجرت هرمز وأخذت بندر عباس محلها كمركز رئيسي لتجارة الخليج العربي احتفظ الانكليز بهذا الاعفاء في الميناء الجديد •

راجع : Lorimer pp. 24-30, 35-36.

(32) Sir Shafaat Ahamad Khan, The East India Trade in the XVII Century, p. 248.

(33) Ibid.

الشرقية على تجديد لامتيازها من الحكومة الانكليزية • ولكن هذا الامتياز جاء مشتملا على فقرة جديدة تلزم بتصدير ما يبلغ قيمته ٠٠٠ر١٠٠ باون استرليني سنويا من المصنوعات الانكليزية الى الشرق[٣٤] ، مما حفز الشركة للمضي قدما في سياستها التجارية التوسعية في ايران تنفيذا للفترة المذكورة • وفي السنة نفسها ارسلت كميات كبيرة من الاقمشة الى ايران مع هذه التعليمات الى مستخدميها في الشرق :

١ ـ جمع أكثر ما يمكن جمعه من الحرير الخام • ٢ ـ زيادة مستخدمي الشركة في ايران بحيث يصبح الملاك يشتمل على عشرة مستخدمين • ٣ ـ ان تحتفظ الشركة بمحل تجاري في اصفهان فيصورة دائمة • ٤ ـ ان يترك للوكيل الخيار في أن يبقى مقر الشركة الرئيسي في ايران في بندر عباس أو نقله الى اصفهان • وقد عبرت الشركة مرة أخرى عن رغبتها في اعداد مستخدميها في ايران اعدادا يؤهلهم للقيام بواجباتهم التجارية فأوصت بان يقضي المبتدئون منهم فترة تدريب يعيشون خلالها في بيوت التجار الارمن في اصفهان[٣٥] • وفي رسالة لاحقةعبرت الشركة عن اعتقادها بانه اذا ما اديرت اعمال الشركة في ايران بحكمةفان هذا قد يؤدي الى تحويل ذلك الطريق العتيد لتجارة الحرير بين حلب وايران نحو الجنوب ومن الممكن ان تصبح اصفهان مركزاً لهذه التجارة ومضت تقول :

« يجب ارسال كل الحرير الذي يحصل عليه في اصفهان الى بندر عباس حيث يشحن من هناك الى أوربا • ان هذا سيجعل شركة الهند

---

(34) Lipson, The Economic History of England, Vol, II. pp. 285-286.

(35) Bruce. Vol. II. pp. 140-141.

الشرقية وسيلة لزيادة الملاحة والدخل القوميين•لهذا فان جميع الاجراءات يجب ان تتخذ لبيع أكثر ما يمكن بيعه من الاقمشة الصوفية التي سبق ان أرسلتها الشركة الى ايران لتمكين سلطات الشركة من ارسال كميات كبيرة أخرى من هذه الاقمشة في السنوات القادمة • وبهذا فقط تستطيع الشركة القيام بالتزاماتها الجديدة ، تلك الالتزامات التي نص عليها في وثيقة الامتياز التي حصلت عليها الشركة مؤخرا »(٣٦) •

لقد كان تأثير سياسة شركة الهند الشرقية في شركة الشرق الادنى بليغا • وفي سنة ١٦٩٦ كتب احد تجار الشركة الاخيرة في حلب الى لندن يقول : « لقد ارسلت شركة الهند الشرقية كميات كبيرة من الاقمشة الى ايران لدرجة انها ستدمر تجارة هذه المدينة [حلب] وانها سوف ترغمنا على ترك التجارة والاياب الى الاوطان » • واضاف يقول ان شركة الهند الشرقية « نجحت في اغراق السوق الايرانية باقمشتها وقد كانت هذه السوق تعتمد في تموينها بهذه الاقمشة على ازمير وحلب »(٣٧) • وفي رسالة أخرى كتب التاجر نفسه يقول « ان التجارة الانكليزية في تركيا تكاد تكون في حكم المنتهية »(٣٨)•وعلى كل حال ان شركة الشرق الادنى لم تقف مكتوفة الايدي • انها هاجمت شركة الهند الشرقية بعنف واستعدت الرأي العام الانكليزي والحكومة الانكليزية ضد غريمتها « لم تجد سوقا ملائمة لبضائعها في الهند فاتجهت نحو ايران ذلك القطر الذي كان يمون سابقا بما نرسله نحن من اقمشة الى القسطنطينية والى ازمير خاصة مما كنا نرسله الى حلب »(٣٩) • ان صرخات شركة الشرق الادنى

(36) Ibid. p. 161.
(37) Lipson, Economic History of England, Vol, II, p. 348.
(38) Ibid, p. 349.
(39) Ibid, p. 286.

واحتجاجاتها لم تذهب سدى فقد استمعت الحكومة الانكليزية لشكواها واحيل موضوع النزاع بين الشركتين الى لجنة خاصة لدراسته وقد اوصت اللجنة سنة ١٧٠٠ بعدم السماح لشركة الهند الشرقية بارسال اقمشة صوفية الى ايران اكثر مما كانت ترسله سابقا(٤٠) . والواقع انه ليس بين ايدينا من أدلة تثبت ان الشركة المذكورة كانت قد التزمت بهذه التوصية .

وعلى كل حال فبالرغم من الضجة التي سببتها شركة الهند الشرقية لسياستها التجارية التوسعية في ايران ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها لضمان النجاح لهذه السياسة فان الشركة لم تحصل على الثمرة المرجوة . فمن ناحية ان الكارثة التي أحاقت بشركة الشرق الادنى سنة ١٦٩٣ لم تكن قاضية كما كان يمني تشايلد نفسه اذ سرعان ما فاقت الشركة من صدمتها وسرعان ما أخذت بضائعها تتدفق على اسواق الشرق الادنى وبدأ سيل من الاقمشة يرد على ايران من حلب . فكانت النتيجة ان أغرقت السوق الايرانية بالاقمشة الانكليزية الامر الذي ادى الى قيام منافسة عنيفة بين الشركتين مع انخفاض اسعار هذه السلعة وقد عاد هذا بالضرر البليغ على الشركتين معا (٤١) .

اما جهود شركة الهند الشرقية في التحالف مع التجار الارمن فلم تكلل بالنجاح . والواقع أن مصالح هؤلاء في التجارة القائمة بين حلب وايران كانت أعمق بكثير من مما أدركته سلطات شركة الهند الشرقية . ومنذ سنة ١٩٦٣ بدأ عمال الشركة يظهرون ارتيابهم من ولاء الارمن وصدق نواياهم تجاه شركةالهند الشرقية . في سنة ١٦٩٥ ادعى مستخدمو

---

(40) Ibid.

(41) Lorimer, p. 75.

الشركة بان البعض من تجار الارمن اخذوا يضعون العراقيل في وجـــه مقايضة اقمشة شركة الهند الشرقية بالحرير [٤٢] • وفي احدى المناسبات اظهر المسؤول عن اعمال الشركة في اصفهان استياءه الشديد من تصرفات بعض هؤلاء التجار الامر الذي اضطر الوكيل في بندر عباس الى الذهاب بنفسه الى اصفهان لتسوية الامر • وقد وصل الامر ببعض التجار الارمن الى محاولـــة اقناع الحكومة الايرانية لمنع تصدير الحرير مـــن بندر عباس [٤٣] • يتضح من هذا ان تشبث شركة الشرق الادنى بمصالحها في ايران ومقاومتها لتحدي شركة الهند الشرقية واخفاق الشركة الاخيرة في كسب التجار الارمن الى صفّها ، كان من العوامل الرئيسة لاخفاق السياسة التجارية التي تبناها تشايلد في ايران ، أضف الى هذين العاملين ، ان شركة الهند الشرقية نفسها فقدت حماسها للسوق الايرانية فاستمرار الاضطرابات في البلاد وتعسف الحكومة الايرانية تجاه الشركة كثيرا ما حـــد مـــن تصريف الاقمشة الصوفية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخـــرى لم تعـد الشركة بحاجة كبيرة الى الحرير الايراني وذلك لانها استطاعت تطوير انتاج الحرير في البنغال في الهند وقد أخـــذ حرير البنغال يتدفق عـــى الاسواق الانكليزية منذ بداية القرن الثامن عشر بوساطة الشركة باسعار أقل بكثير من اسعار الحرير الايراني [٤٤] • ان قلة أكتراث شركة الهند الشرقية للسوق الايرانية وضع حدا للنزاع بينها وبين شركة الشرق الادنى لفترة من الزمن والواقع ان وضع الشركتين في ايران عاد تقريبا الى مـــا كان عليه قبيل سنة ١٦٩٠ واستمر بهذا الشكل الى منتصف القرن الثامن

(42) Ibid.

(43) Ibid, pp. 76-77.

(44) Bal Krishna, pp. 140-141.

عشر وفي هذا الوقت بالذات ظهر منافس جديد لكلتا الشركتين وكـــان ذلك المنافس هو شركة روسيا •

ذكرنا فيما سبق ان شركة روسيا حاولت فتــح باب المتاجرة بـين اوربا وايران عبر روسيا منذ بداية تأسيسها في منتصف القرن السادســ عشر ، وكيف ان جميع محاولاتها في هذا الشأن باءت بالفشل • لقد جددت الشركة رغبتها في القيام بمثل هذه التجارة في نهاية القرن السابع عشـــر وتقدمت الى الحكومة الانكليزية بطلب امتياز يخولها القيام بهذا • وقـد رفضت الحكومة الانكليزية هذا الطلب على أساس أن مثل هذه التجـارة قد تؤدي الى تدمير تجارة شركة الشرق الادنى [٤٥] • ولكن قدر لمشروع الشركة الانتعاش بعد فترة من الزمن ، فقد اظهر بطرس الاكبر وخلفاؤه رغبة كبيرة في تشجيع العلاقات التجارية بين روسيا وانكلترا • وفي سنة ١٧٣٤ عقدت معاهدة تجارية بين الحكومة الانكليزية وروسيا وجاء فـــي احدى فقراتها ، ان الحكومة الروسية تسمــح للتجار الانكليــــز بارسال بضائعهم من والى ايران عبـــر روسيا [٤٦] • وقد حاول التجار الانكليز في روسيا الاستفادة من تلك المعاهدة فوفد بعضهم عـــلى ايران للتعرف على الاحوال التجارية هناك • وقد اشتهر من بين هؤلاء الوافدين احد المغامرين الكابتن جون التن"Cap. John Elton"• لقد جاء هذا الى ايران سنة ١٧٣٩ وحظى بمقابلة رضا قلي ميرزا ابن نادر شاه ، الفاتـــح

(45) Lipson, The Economic History of England, Vol, II, p. 349.

(46) J. Hanway, An Histarical Account of The British Trade over The Caspoin Sea : With a Journal of Travels Through Runsia into Persia, etc, London, 1753, Vol, I. pp. 47-48.

الايراني الشهير وحاكم ايران في هذا الوقت ، وحصل منه على بعض الامتيازات للتجارة الانكليزية المزمع القيام بها عبر روسيا [٤٧] • عاد التن الى روسيا سنة ١٧٤٠ ووصف للتجار الانكليز في بطرسبرج الامكانيات الكبيرة لتطوير التجارة الانكليزية مع ايران ، وقدم بهذا الشأن مذكرة شيّقة [٤٨] الى ادوارد فنج "Edward Finch" السفير البريطاني في روسيا ، أوضح فيها أهمية القيام بمثل هذه التجارة والفوائد الكبيرة التي سيجنيها الانكليز منها خاصة فيما يتعلق ببيع الاقمشة الانكليزية الصوفية في المناطق الشمالية من البلاد وقد أكد « ان جميع الايرانيين من أعلى الطبقات الى أوطئها يحبون ويفضلون الاقمشة الصوفية الانكليزية الغالية على مصنوعات بلادهم الحريرية الرخيصة فهم مثلا لا يلبسون مطلقا الجواريب الا اذا كانت مصنوعة من الصوف » • وبيّن التن أهمية مدينة مشهد عاصمة نادر شاه ليس لكونها محلا مهما لاستهلاك الاقمشة الصوفية فقط بل كمركز مهم ممكن ان توزع منها هذه الاقمشة الى بخارى وكابل وقندهار والهند والتبت ، كما ان تكاليف نقل الاقمشة عبر روسيا الى هذه المناطق ، أقل من تكاليف نقلها اليها بوساطة الطرق الاعتيادية التي تسلكها كل من شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الادنى • يضاف الى كل هذه الفوائد المترتبة على بيع الاقمشة الصوفية أكد التن ان هناك حرير غيلان الذي يمكن الحصول عليه وتصديره الى اوربا عبر روسيا •

أرسل فنج هذه المذكرة الى لندن وما ان اطلعت عليها سلطات شركة روسيا حتى صممت على تبني المشروع ووضعه موضع التنفيذ [٤٩] • وهنا

(47) L. Lockhart, Nādir Shah, London, 1938, p. 175, 287.

(48) Hanway. pp. 30-33.

(49) Ibid.

هبت شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الادنى للدفاع عـــن تجارتيهما في ايران في وجه هذا التهديد الجديد وكان رد فعل شركة الشرق الادنى خاصة عنيفا جدا فحاولت شركة روسيا التفاوض معها من أجل حل مقبول لدى الشركتين وبدأت المفاوضات فعلا بينهما حول هذا الشأن غير أنه لم يتم التوصل الى نتيجة ما واخيرا في سنة ١٧٤١ سمح البرلمان الانكليزي لشركة روسيا بالقيام بالمتاجرة مع ايران عبر روسيا وتم ذلك في وجـــه معارضة شديدة من شركة الشرق الادنى [٥٠] • وباشرت شركة روسيا اعمالها التجارية حالا فأقامت مركزا تجاريا في مشهد وبدأت اقمشتهـــا تصل الى اجزاء مختلفة من شمال ايران ووسطها •

أما شركة الهند الشرقية فكان رد الفعل عندها أقل من ذلك الـــذي بدا من شركة الشرق الادنى وذلك لان أعمالها التجارية كانت قد تقلصت كثيراً في ايران خاصة في الاقسام الشمالية من هذه البلاد ، فان الفوضـــى السياسية التي اعقبت الغزو الافغاني في ايران سنة ١٧٢٢ حدّت الكثـــير من نشاط الشركة التجاري حتى أن الشركة أغلقت مقرها في اصفهان سنة ١٧٣٥ [٥١] • اضف الى ذلك ان الشركة قد اوقفت منذ زمن ليســـس بالقليل جميع مشترياتها من الحرير الايراني واعتمدت على حرير البنغال في تموين أسواقها في اوربا اعتمادا تاما [٥٢] ، والحقيقة ان « صـــوف كرمان » كان قد حل محل الحرير مادة رئيسة لواردات الشركة مـــن

---

(50) Wood, p. 146.

(51) India Office, Factory Records, Persia and the Persian Gulf. Gombroon Diary March 28, 1735.

(52) N. K. Sinha, Economic History of Bengal, Calcutta, 1956, pp. 109-111.

ايران (٥٣) • وكانت هذه المادة بعيدة عن منافسة شركة روسيا نظرا لأن منطقة كرمان ، مركز تجارة هذا الصوف ، كانت قريبة نسبيا من الخليج وبعيدة من مراكز نشاط شركة روسيا ويصعب عمليا على الشركة الاخيرة تحويل تجارتها نحو الشمال •

ومهما يكن من امر فان شركة الهند الشرقية لم تقف مكتوفة الأيدي تماما تجاه تحدي شركة روسيا فما أن أخذت اقمشة الشركـــة الاخيرة تصل الى ايران حتى أعادت شركة الهند الشرقية فتح مقرها في اصفهان وذلك في صيف ١٧٤٢ (٥٤) • وقد كتب وكيل الشركة في بندر عباس على اثر ذلك يقول بان اعادة المقر في اصفهان وضع حدا لمبيعات شركـــة روسيا من الاقمشة الصوفية في هذه المدينة (٥٥) ، هذا وعندمـــا اقترح الوكيل على رؤسائه فتح مقر تجاري آخر للشركة في مدينة مشهد أجيب طلبه واعتبرت هذه الخطوة « وسيلة قد يمكن بها احباط مشروع شركة روسيا » (٥٦) •

وعلى كل حال كان نجاح شركة روسيا محدودا اذ تعثر مشروعها

---

(٥٣) ان ما يعرف بصوف كرمان ، ما هو في الحقيقـة الا شعر الماعز • لقد اشتهرت هذه المادة في انكلترا بصلاحيتها لصناعـــة القبعات وللاطلاع على معلومات أكثر عن صوف كرمان وتجارته راجع :

Wi Milburne, Oriental Cemmerce, London, 1813, Vol. I. p. 135; A. G. Raynal, A Philosophical and Political History of The Settlements and Trade of The Europeans in The East and west Indies, London, 1798, Vol. I, p. 271.

(54) Gombroon Diary, Augst 6, 1742.

(55) Ibid. January, 29, 1744.

(56) Ibid. Letter From Bombay dated April 1744.

بصعوبات كثيرة منذ بدايته ، وكانت تصرفات التن الطائشة سببا رئيسا لذلك التعثر • فقد التحق التن بخدمة شركة روسيا ورجع الى ايران سنة ١٧٤٢ ولكنه بدلا من ان يخدم مصالح الشركة شغل نفسه بمشاريع لا تمت بصلة لتلك المصالح • فقد بادر فور وصوله الى مسح الساحل الجنوبي الشرقي من بحر قزوين تلبية لرغبة نادر شاه • ولم يكتف بهذا حسب بل دخل في خدمة الشاه واخذ على عاتقه مهمة بناء اسطول ايراني في بحر قزوين ، المشروع الذي اعتبرت روسيا فيه تهديدا مباشرا لها واحتجت لدى الحكومة الانكليزية مطالبة ايقاف التن عند حده وقد انكرت شركة روسيا ان تكون لها اية علاقة بمشروع بناء اسطول ايراني في بحر قزوين وعبرت عن اعتقادها بان الانباء التي وصلت عن تصرفات التن لا تخلو من المبالغة والتهويل (٥٧) • ان أقوال الشركة هذه لم تقنع روسيا واستمرت في احتجاجها مما اضطر الشركة الى ايفاد جون هانوي "John Hanway" لمعرفة جلية الامر (٥٨) • ولسوء حظ الشركة ان هانوي أكد صحة الانباء المتعلقة بالتحاق التن بخدمة الشاه واقدامه على بناء اسطول له • وأخفقت جميع جهود هانوي لاقناع التن بترك خدمة الشاه (٥٩) • وزاد استياء روسيا واحتجاجها عندما انجز التن أول سفينة لنادر شاه (٦٠) • واخيرا نفذ صبر الحكومة الروسية ففي سنة ١٧٤٦ اتخذت قرارا الغت بموجبه جميع الامتيازات الممنوحة للتجار الانكليز والمتعلقة بنقل بضائعهم من ايران واليها عبر روسيا والتي تضمنتها

---

(57) Lockhart pp. 287-290.

(58) Ibid.

(59) Hanway. Vol, II, p. 34, 47.

(60) Lockhart. p. 287.

معاهدة سنة ١٧٣٤ وقد طلبت من جميع التجار الانكليز في روسيا تصفية اعمالهم في ايران حالا ومن كان منهم في ايران فعليه الانسحاب فورا من هناك اذا رغبوا في الابقاء على تجارتهم في روسيا [٦١] • وهكذا كانت نهاية المشروع •

ولعل آخر وجه من اوجه النزاع بين الشركات الانكليزية في بلادنا والبلدان المجاورة هو ذلك الذي ظهر في العقد السابع من القرن الثامن عشر بين شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الادنى •

كان النزاع الاخير نتيجة لزيادة نفوذ شركة الهند الشرقية في ولاية بغداد (العراق الحديث) وتهديدها لمصالح شركة الشرق الادنى • ان استمرار الاضطرابات في بندر عباس وما حولها بعد وفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧ اضطر سلطان شركة الهند الشرقية الى اتخاذ قرار يقضي بنقل المقر الرئيسي للشركة من الميناء الاخير الى البصرة • وتم هذا الانتقال سنة ١٧٦٣ [٦٢] • وفي الوقت الذي اتخذت فيه هذه الخطوة كان قد طرأ تغير جوهري على طبيعة الشركة في الهند أثر تأثيرا عميقا في سياسة مستخدميها في الشرق • فقد اصبحت الشركة على الرغم من احتفاظها بطابعها التجاري مؤسسة سياسية جبارة تمتلك بيدها مقدرات الجزء الاكبر من شبه القارة الهندية • ان هذا اكسب مستخدمي الشركة الكثير من الثقة بالنفس والطموح • وكانت سياستهم في البصرة مثلا لذلك • فما أن

---

(61) Ibid.

(٦٢) وللوقوف على معلومات أوفر حول تطور الاحداث في الخليج العربي بعد وفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧ راجع :

Abdul Amir Amin British intrests in The Persian Gulf. 1747-1778, (Unpublished Ph. D. Dissetation, University of Maryland, 1962).

استقر المقام بوكيل الشركة في البصـــرة حتى بادر الى محاولة الحصول على امتيازات جديدة من السلطان تكفل للشركة نفوذا سياسيا وتجاريا في الميناء [٦٣] • فقد طلب من السلطان الاعتراف بوكيل الشركـــة قنصلا انكليزيا في البصرة • ولم يكن لوكيل الشركة في منطقة الخليج العربـــي حتى هذا الوقت اية صفة عدا كونه مستخدما لشركة الهند الشرقية • كما طلب من السلطان الاعتراف بالبصرة ميناءاً مشمولا بالامتيازات الاجنبيـــة "Capitulations" وذلك انه على الرغم من وجود مقر دائم لشركة الهند الشرقية في البصرة منذ سنة ١٧٢٣ ، فان الميناء لم يعترف به رسميا انه مشمول بهذه الامتيازات [٦٤] • وتقدم الوكيل بهذه الطلبات الـــى السلطان بوساطة هنري كرنفل "H. Grenville" السفير الانكليزي في القسطنطينية وبعد كثير من الصعوبات والمفاوضات الطويلة التـــي كلفت الشركة كثيرا من المال نجح السفير في الحصول على براءة قنصلية "Consulary Berat" من السلطان فاعترف الاخير بموجبها بوكيل شركة الهند الشرقية قنصلا انكليزيا في البصرةوبالبصرة ميناءاً مشمولا بالامتيازات الاجنبية [٦٥] ، وقد أرسل السفير هذه البراءة الى وكيل الشركة مـــع

---

(63) Ibid. p. 136.

(٦٤) ذلك الصنف من الاتفاقيات التجارية التي عقدتها الدول الاوربيـــة مع البلدان الآسيوية والافريقية والتي أصبح للاوربيين بموجبهـــا امتيازات اقليمية خاصة في هذه البلدان •

J. C. Hwrewitz. Diplomacy in The Near and Middle East, New York, 1958. Vol, I, p. I.

وقد سبق للانكليز وان حصلوا على مثل هذه الامتيازات من السلطان سنة ١٥٩٣ Hakluyt Vol, I. p. 36.

(65) Factory Records, Persia and The Persian Gulf, Vol, 16.

كتاب وصف فيه للوكيل الجهود التي بذلها للحصول عليها وعبر عن أمله بأن تحقق للشركة فوائد جلى (٦٦) • ومع أن هذه البراءة لم تكن تحتوي على امتيازات تجارية مهمة جديدة للشركة فانها كانت ذات أهمية سياسية خاصة • فلأول مرة يصبح وكيل الشركة في منطقة الخليج العربي ممثلا للحكومة الانكليزية بالاضافة الى وظيفته ممثلا لشركة الهند الشرقية • ان هذا عزز مركز الوكيل وزاد من اعتباره في اعين السلطات التركية في ولاية بغداد • وبالتالي كانت عاملا من عوامل تقوية النفوذ الانكليزي في هذه الولاية •

ولعل أكثر من هذه البراءة أهمية في تقوية هذا النفوذ ضعف الاتراك في البصرة وحاجتهم الماسة لمساعدة الانكليز ، وذلك لتزايد قوة قبيلة كعب تحت قيادة شيخ سلمان وتهديدها المستمر للبصرة • والواقع ان الاتراك بين سنة ١٧٦٣ و سنة ١٧٧٣ كانوا معتمدين اعتمادا كليا على اسطول شركة الهند الشرقة في الدفاع عن البصرة في وجه اسطول كعب القوى (٦٧) • ان هذا أدى الى ازدياد النفوذ الانكليزي بشكل لم يسبق له نظير من قبل • وهذا بدوره شجع مستخدمي شركة الهند الشرقية على التدخل في الشؤون الداخلية لولاية بغداد • وارادوا من وراء ذلك تعزيز مركز الشركة التجاري في الولاية ، وليس أحسن مثلا على سياسة مستخدمي الشركة هذه من تدخلهم سنة ١٧٦٤ في أمر خطير كاختيار

---

(66) Ibid, Letter From Grenville to the Est India Company's agent at Basrah, April, 5, 1764.

(٦٧) للوقوف على الدور المهم الذي لعبته قبيلة كعب في تاريخ منطقة الخليج العربي في هذا الوقت بالذات راجع :
Amin, Chapters, 4-5.

الوالي ومحاولتهم عرقلة التجارة القادمة الى بغداد عبر الصحراء ، تلك التجارة التي كان لشركة الشرق الادنى مصالح حيوية فيها . فبعد عزل علي باشا سنة ١٧٦٤ وبقاء كرسي الباشوية شاغراً توسط وكيل الشركة لدى السلطان لتعيين متسلم البصرة (والي البصرة) آنذاك محمد كهيه ، واليا لولاية بغداد أو فصل البصرة عن ولاية بغداد وجعلها ولاية مستقلة . وقد اعتقد الوكيل بأنه في الحالة الاولى سوف لا ينسى الوالي الجديد فضل الشركة عليه وفي الحالة الثانية سوف يستطيع الانكليز زيادة سيطرتهم على شؤون البصرة ، ولم ينجح الوكيل في مسعاه فقد عين السلطان عمر باشا والياً لولاية بغداد ومن ضمنها البصرة (٦٨) . ان فشل الوكيل دفعه الى محاولة اقامة علاقات مباشرة مع عمر باشا الوالي الجديد وتوطيد النفوذ الانكليزي عن طريقه . لذلك قرر تأسيس مقيمية "Residency" للشركة في بغداد وعين روبرت كاردن احد مستخدمي الشركة في البصرة مقيما هناك "Resident" . وأعطى كاردن تعليمات مفصلة حول كيفية ادارة شؤون المقيمية (٦٩) . لقد اوصى بان يكون علاقات شخصية مع عمر باشا وان يراقب بدقة الاحداث الجارية في بلاطه وأهم من هذا ، ان يبذل كل ما في وسعه من جهد لحمل الباشا على وضع حد لتجارة شركة الشرق الادنى وتجارة بقية الاوربيين عبر الصحراء . لقد جاء هذا التهديد لمصالح شركة الشرق الادنى في وقت كانت الشركة تمر فيه بظروف دقيقة ، هي أحوج ما تكون فيها الى تأمين تجارتها هذه ، فقد كانت تواجه منافسة شديدة في حلب والقسطنطينية وازمير من بقية التجار الاوربيين خاصة الفرنسيين ، اذ أصبح باستطاعة هؤلاء حمل كميات كبيرة من الاقمشة الصوفية الى الشرق وذلك لسلامة

---

(68) Ibid.

(69) Ibid, pp. 137-140.

النقل في البحر الابيض المتوسط بعد انتهاء حرب السبع سنوات ١٧٥٦ – ١٧٦٣ (٧٠) .

لقد وجدت الشركة ملاذا من هذه المنافسة في بغداد . فقد قدر سنة ١٧٦٧ ان ما يقارب من ٦٠٠ رزمة من الاقمشة الصوفية تعود معظمها الى شركة الشرق الادنى ، قد حملت الى بغداد عبر الصحراء (٧١) . من هذا يتضح خطورة سياسة مستخدمي شركة الهند الشرقية بالنسبة لمصالح شركة الشرق الادنى في ولاية بغداد . ان موقف شركة الشرق الادنى من هذه السياسة كان حازما . انها لم تناقش حق شركة الهند الشرقية في الحصول على هذه الامتيازات الجديدة في هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكنها ناقشت أيضا حق تلك الشركة في المتاجرة في منطقة الخليج العربي بصورة عامة وفي البصرة بصورة خاصة وقد اثارت لذلك ادعاءها القديم بان المنطقة برمتها تقع ضمن مجالها التجاري . لقد كان النزاع بين الشركتين عنيفا . والفت لجنة خاصة تضم أعضاء من كلتا الشركتين لتسوية الخلاف ، ولكن اللجنة لم تتوصل الى نتيجة واضحة (٧٢) . هذا ومع ان شركة الهند الشرقية دافعت عن حقها في الحصول على امتيازات جديدة في ولاية بغداد وأعادت تأكيدها على حقها في المتاجرة في البصرة وفي منطقة الخليج العربي فانها ارادت ان تتجنب

---

(70) Abdul-Karim Gharaybey, English traders in Syria, 1747-1791 (Unpublished ph. D. Dissertation, University of London 1950), p. 170.

(71) India office, Bombay Public Consultation. Vol. 28, Letter From Basra April 18, 1765.

(٧٢) للاطلاع على تفاصيل هذه المفاوضات راجع :
Factory Records, Persia and The Persian Gulf, Vol, 21,

بقدر المستطاع المشاكل مع شركة الشرق الادنى اذ أن تطور الخلاف بين الشركتين قد يؤدي الى تدخل الحكومة الانكليزية وخلق مصاعب هما في غنى عنها • لهذا أمرت مستخدميها في الشرق بتجنب كل ما يثير النزاع مع شركة الشرق الادنى وأوصتهم بان لا يتقدموا الى السلطان بطلب اي امتيازات جديدة وأمرت الوكيل بعدم قبول البراءة القنصلية والاحتفاظ بوظيفته كمستخدم لشركة الهند الشرقية فقط ، وامرته كذلك بسحب المقيم الانكليزي من بغداد حالا [٧٣] ، والظاهر ان شركة الشرق الادنى اقتنعت بهذه الاجراءات اذ لم يثر الخلاف مرة اخرى •

وكان ذلك خاتمة للنزاع بين شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الادنى والواقع ان الربع الاخير من القرن الثامن عشر شهد تدهورا خطيرا في تجارة الشركتين في منطقة الخليج العربي وايران والامبراطورية العثمانية • فقدت منطقة الخليج العربي وايران الكثير من أهميتها التجارية بالنسبة لشركة الهند الشرقية حتى ان الشركة اتخذت قرارا سنة ١٧٧٧ بسحب جميع مستخدميها من البصرة وغلق مقرها التجاري هناك ولم تعدل عن قرارها هذا الا بعد نشوب الحرب بين انكلترا وفرنسا (حرب الاستقلال الامريكية) وامتداد نار الحرب بين الدولتين الى الهند ، الامر الذي أدى الى ابقائها على بعض مستخدميها في البصرة وذلك للاشراف على نقل الرسائل من والى الهند عبر الصحراء عن طريق بصرة حلب ـ قسطنطينية[٧٤] ولم تكن شركة الشرق الادنى بأسعد حالا من غريمتها ، فان تجارتها هي الاخرى تقلصت في جميع الارجاء التي اعتادت الشركة المتاجرة معها •

---

(73) India office, Despatches to Bombay, Letter to Bombay, dated March 22, 1760.

(74) Amin, pp. 180-190.

التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب

دكتور حسن احمد محمود

الفترة الممتدة من عام ١٤١٥ الى عام ١٥١٧ من أهم الفترات في تاريخ شبه جزيرة العرب فقد أحاطت بها عواصف هوجاء وتعرضت لتهديدات خطيرة كان من الممكن أن تغير وجه التاريخ الاسلامي في مطلع العصر الحديث .

فقد ضعفت دولة المماليك الجراكسة وتمركزت مظاهر هذاالضعف في عهد السلطان الغوري وكانت دولة المماليك تبسط سيطرتها على البحر الاحمر وتحمي الحرمين وتدافع عن ذمار المسلمين وتتمركز في جدة وتتخذها قاعدة بحرية وبرية وكان ضعفها معناه اقتحام البحر الاحمر من بابه الجنوبي .

وكانت القوة الناشئة ـ قوة الاتراك العثمانيين ـ توجه جهدها كله الى الاناضول وشبه جزيرة البلقان ، ثم بدأت تتجه الى الشرق الاسلامي متحدية النفوذ الصفوي في ايران ومناوشة النظام المملوكي عند اطراف الشام توطئة للاندفاع نحو مصر وتقويض هذا النظام من أساسه وترك باب البحر الاحمر مفتوحا على مصراعيه يتدفق منه أي تيار غريب ، قبل أن تتمكن هذه الدولة العثمانية من وراثة نفوذ مصر في هذا الجانب الحيوي من عالم الاسلام وكانت جزيرة العرب تمر بفترة انقسام خطيرة وتفتيت للقوى السياسية فيها ، تلك القوى التي كانت من الممكن أن تسهم في حماية البلاد ودفع الخطب عنها .

فقد كان الطاهريون في اليمن أشد ما يكونون انشغالا بالتصدي

للطامعين في العرش خصوصا في عهد الظافر عامر آخر سلاطين بني طاهر ، كما ازدادت ثورات القبائل وتزايدت مطامع القوى الزيدية • حتى أن حب البقاء دفع بعض سلاطين هذه الدولة المتهاوية الى محالفة اعـــداء العرب المسلمين امساكا لما بقي من رمقهم • وقد اتسم موقف هـؤلاء الطاهريين الاواخر بالعداء السافر للبحرية المصرية التي كانت تخوض معركة البقاء مع الخطر البرتغالي •

خلال هذه الفترة التي أشرت اليها ظهر البرتغاليون ، وأفلحوا فـي الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، ودخلوا مياه المحيط الهنـدي وهددوا مراكز تجارة التوابل وامتدت اطماعهـم الى الخليـج العـربي وسواحل بلاد العرب الجنوبية وتطاولوا الى اقتحام البحر الاحمر وتهديد ثغر عدن والتشوف الى الشمال بتهديد ميناء جدة ، حتى اذا ازاحـوا النفوذ الاسلامي من هذا البحر امكنهم أن يعبثوا بمقدسات الاسلام وتراثه الغالي في مهبط الوحي •

وهذه فترة اذن حافلة بالاحداث الجسام التي وقعت فيها وهي أشـد ماتكون غموضا رغم أهميتها • وهي في حاجـة الى مزيد مـن البحث اعتماد على الدفين من مصادر تاريخ اليمن في هذه الفترة التي لازالـت مخطوطة لم تنشر •

لهذا آثرت أن اختار قطاعا واحدا أو جانبا واحدا من هذهالاحداث العاصفة وهو التهديد البرتغالي لبلاد العرب فأعرض له عـرضا سـريعا منبها الاذهان الى ضرورة دراسته من جديد دراسة واعية متأنية في ضوء المصادر العربية المخطوطة ، ومشيرا الى مصادر الدراسة هذه واهميتهـا والمعلومات الجديدة التي يمكن أن نستنبطها رغم أن تلميذي الدكتـور محمد عبدالعال أحمد علي والدكتور عبدالعظيم حامـد خطاب قـد مسا الموضوع مسا رفيقا ، لان الاول في الرسالة التي حصل بها على درجـة

الدكتوراه في الاداب عام ١٩٧٦ تعرض لتاريخ اليمن في العهدين الرسولي والطاهري ، في حين حصل الثاني على الدكتوراه عام ١٩٧٥ ، وفصل القول من عصر قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام •

عرض سريع لمراحل التهديد البرتغالي اعتمادا على أوثق المصادر العربية :

استئثار البندقية بتجارة البحر الابيض ومصر والشرق الادنى بالاتفاق مع النظام المملوكي في مصر دفع جنوه الى أن تلتمس طريقا آخر مهما كلفها من ثمن خصوصا بعد أن ثارت الحرب بينهما وطردت جنوه من ساحل سوريا واستمر الصراع بينهما في القرن الرابع عشر حتى عقد صلح تورينو عام ١٣٨١ •

فكانت جنوه أولى من حاول الطواف حول ساحل افريقية في سنة ١٢٩١ ، أبحر اوجولينو دي فيفالدو • ugolino di vivaldo من أهل جنوه بسفينتين ، غير انهما غرقتا قبالة الساحل الافريقي ، وقد واصل أهل جنوه جهدهم في اكتشاف بعض اجزاء الساحل الغربي لافريقية في مواجه جزر كناريا •

لكنه في نهاية القرن الخامس عشر فقدت جنوه سيادتها بعد أن أستولى عليها شارل الثامن ملك فرنسا في سنة ١٤٩٤ •

وقد تبنت البرتغال نفس الفكرة التي راودت احلام الصليبين طوال العصور الوسطى وأحلام أهل جنوه وهي اعداد أسطول مسيحي في المحيط لوقف التجارة مع مصر عن طريق عدن •

وقد حدث ذلك في عهد هنري الملاح (١٣٩٩ – ١٤٦٠ م) وقد

بارك البابوات هذا الاتجاه ، فجعل البابا مارتن الثاني (١٤١٧ ـ ١٤٣١) البلاد المكتشفة منحة دائمة للتاج البرتغالي ، وغفر خطايا من يستشهد خلال هذه الرحلات • كما أرسل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) رسالة الى هنري الملاح يحثه فيها على الاتصال بالممالك المسيحية في الشرق لمحاربة المسلمين •

ثم تمكنت البرتغال في عهد ملكها خوان الاول من الاستيلاء على ميناء سبته في سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ وأقطعها لابنه الامير هنرى الملاح •

وقد استخدم البرتغاليون كل ميراث العرب من العلم من معرفة بالمرشدات الملاحية والخرائط البحرية بفضل ما كان لهم من نشاط ملاحي في المحيط الهندي وجزر الملايو وبحار الصين ، فضلا عن البوصلة والاسطرلاب ، وافادوا من كتابات الادريسي وابن بطوطه وغيرهم •

وسعيا وراء الحصول على الخبرة العربية بأي ثمن استخدموا التجار اليهود الذين لجأوا الى البرتغال وكانوا على معرفة باللغة العربية ، وتظاهروا بالاسلام وتوافدوا على مصر وكان على رأسهم الفونسو دي بايفا : Al Fonso Paiva وبيرو دي كوفيلهام Pero de Covilham وقد أبحروا من السويس الى عدن ثم الهند ثم اتجهوا مرة أخرى الى هرمز وزيلع ، وقد حصلوا على خرائط عربية عن المحيط الهندي والتيارات البحرية والرياح الموسمية ، ثم وضعوا ذلك كله في يد البرتغاليين المتشوقين الى الشرق

وقد سلك البرتغاليون مراحل عدة تحقيقا لاهدافهم نوجزها فيما يلي : تمكن بارتلميو دياز من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٨٧/٨٩٢ ، لكنه قطع الرحلة بسبب تمرد البحارة • وفي هذه الفترة استفاد البرتغاليون من الملاحين العرب وما لديهم من معرفة بالمحيط

الهندي ، خصوصا الملاح العربي احمد بن ماجد الشبلي (السناه الباهر ٨ر٧) • ويصف الهزوالي في كتابه البرق اليماني الدوران حـــول افريقية بقوله « ان وصولهم اليها بعد عدة محاولات كان الفشل فيها من نصيبهم ، غير أنهم استعانوا ببحار عربي يقال له أحمد بن ماجد أرشدهم الى الطريق الصحيح للهند ، بأن أمير البحر البرتغالي أسكره ثم سأله عن طريق البحر فقال لهم لاتقربوا الساحل وأوغلوا في البحر فان الامواج لاتأتي لكم •• »

ثم تمكن فاسكو دي جاما في سنة ٩٠٣/١٤٩٧ في عهد ملك البرتغال دوم مانويل (٩٠١/٩٢٨ ١٤٩٥/١٥٢١) من الوصول الى موزمبيـق ثم ابحر الى ممباسا ومالندى ثم اتجه شرقا مع الرياح الموسمية فوصـل بعد ثلاثة وعشرين يوما الى قاليقوط • ثم كانت حملة بـــدرو الفاريز كابرال الذي أفلح في اقامة مركز برتغالي في قاليقوط ٩٠٧/١٥٠١ •

التهديد البرتغالي لبلاد العرب :

وضح هذا التهديد سافرا عندما جاء كابرال الى أمير قليقوت برسالة يحرم فيها على العرب الاقامة داخل حدود مملكته ، ويعرض عليه شـراء مايبيعه للعرب بثمن أفضل (زين الدين : تحفة المجاهدين فـــي بعض احوال البرتغاليين _ لشبونه ١٨٩٨ ص٣٧) •

ثم أسفر البرتغاليون عن وجههم تماما في عام ٩٠٧/١٥٠١ حـين أغرق الاسطول البرتغالي في ميناء قاليقوت سفن التجار المصريين ومنهـا سفينة تابعة للسلطان الغورى كانت على وشك الابحار الى جـده وكانت محملة بالتوابل وترتب على ذلك قلة البضائع الهندية الواصلة الى مصـر والشام ، حتى أن سفن البندقية لم تستطـع أن تحمل فـي العـام التالي ٩٠٨/١٥٠٢ من موانيء مصر والشام سوى نصف القدر الذي تعـودت أن تحمله من قبل •

ثم غدت الاطماع البرتغالية أشد ضراوة عندما ولي فاسكو دي جاما نائبا للملك وحاكما لكلوه في شرق افريقيا ، فقد بدأت المواجهة الصريحة بين البرتغاليين على سواحل الهند . وكان عليه امتثالا لامر حكومته أن يغلق البحر الاحمر والخليج العربي لمنع وصول تجارة الشرق الى مصر وضمان الا تصل السفن المصرية الى الهند حتى تتمكن البحرية البرتغالية من احكام قبضتها على تجارة الهند .

وفي سنة ٩٣٠/٤١٣٥٥ تعرض أسطول المماليك لهزيمة قاسية وأعقب ذلك مهاجمة جاما هرمز واستيلائه على سبع سفن عربية وقتل من بها وترك بعض سفنه بالقرب من باب المندب لاغلاق البحر الاحمر ، ومنع وصول السفن اليه أو خروجها منه كما ترك بعض السفن أيضا عند جزر كوريا ووريا للقيام باعمال القرصنة ثم مضى التخطيط البرتغالي الى خطوات أبعد عندها تولى فرانسيسكو دا الميدا منصب نائب الملك في الهند سنة ٩١١/١٥٠٥ وصدرت له الاوامر بأن يتم استكشاف الساحل الهندي وأن يوطد الادارة البرتغالية في كلوه وأن يحكم السيطرة على المحيط وأن يحول دون تسرب تجارة التوابل الى البحر الاحمر . وقد أبحر من البرتغال في ٢٣ مارس ١٥٠٥ على رأس اسطول عظيم واصطحب معه عددا من الجنويين والبنادقة والالمان وكان ماجلان بين ضباطه .

وفي طريقه الى الهند عمل على تدعيم القواعد البرتغالية في شرق افريقية فأنشأ في اغسطس ١٥٠٥ قلعتين في ممباسا وحرص ملك البرتغال على شد أزر دا الميدا فعززه بحملة بحرية أخرى أبحرت من البرتغال في ابريل ١٥٠٦ ومن ثم أخذ دا الميدا يقطع الطريق على السفن العربية ، وأجبر السفن التي تعبر المحيط الهندي على ضرورة الحصول على تصريح بالمرور في هذه المياه وفرضوا الرسوم العالية وصادروا كل سفينة لا تحمل

هذا التصريح وبذلك تمت السيادة البرتغالية في المحيط الهندي وأضحت التجارة الهندية موردا رئيسيا للدولة ، كما أمرت الحكومة البرتغاليـــة بوضع جزء من دخول أية سفينة آتية من الهند الى مياه هذا البحر وتعقب البرتغاليون السفن العربية فأسروا وأحرقوا وأغرقوا كما نهبوا بضاعتها وقتلوا ملاحيها فلم يجرؤ المسلمون على الظهور أمام الساحل الهندي .

ولم يقتصروا على احتكار التجارة انما عملوا على غزو المسلمين في أعالي البحار ودخلت سفنهم الى البحر الاحمر والخليج العـربي دون انتظار للرياح الموسمية لان السفن البرتغالية كانت أكثر استعدادا لعبور المحيط والتوغل في المياه البعيدة .

بل اضطر تجار عدن الى شراء ما يلزمهم من متاجر شرقية منهم ، وباتت الامور وكأنما قد استقرت لهم في شواطىء الهند وعلى المداخـــل العربية (زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠) .

وقد استولى داكونها سنة ١٥٠٦ على جزيرة سوقطرة الواقعة الـى الجنوب الشرقي من عدن والتي تتحكم في الطريق البحري المؤدي الـى البحر الاحمر ، واتخذت الجزيرة قاعدة لشن الغارات البحرية عـلى سواحل حضرموت وعمان وهرمز .

محاولة البوكيرك الاستلاء على عدن والسيطرة على البحر الاحمر :

ثم وقع النزاع بين السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري وبـين القوى البحرية المصرية التي أرست في جزيرة كمران ، وما أعقب ذلك من تدخل الحملة المصرية في شئون اليمن وانصرافها عـن المضي فـي تحقيق ما بذلته مصر من جهود لحماية الهند والبحار العربية من التدخل البرتغالي ، وما انتهى اليه أمر مهاجمة مدينة زبيد والاستيلاء عليها ونهبها واستيلائها على المدن الساحلية ، وأمتـلأت بـلاد اليمن بالفتن والمذابـح (الديبع : بقية المستفيد ورقة ٥٥ أ ـ ٥٥ ب) .

وكان البرتغاليون يرقبون باهتمام هذا الصراع بين القوى الاسلامية، فلما رفع الحصار المصري عن عدن وعاد الاسطول المصري الى جده قام البرتغاليون في سنة ١٥٠٧/٩٢٣ بمظاهرة بحرية فحشدوا ستة وثلاثين مركبا بقيادة الادميرال لوبو سواريز دي البرجاريا Lopo Soures de albergoria وبعثوا بها الى عدن فلما وصلت عدن أعلن البرتغاليون مساعدتهم لشعب عدن ضد المصريين ، بل أقدم الامير مرجان الظافري على الاحتفاء بمقدم العدو وأجابهم الى ما طلبوه من ربابنه عرب للمشاركة في غزو جده لكنهم وجدوا الاسطول المصري في الميناء ، فعادوا من حيث أتوا على أن البرتغاليين خشية رد الفعل المصري لم يحققوا اهدافهم العدوانية وأخلت حملة سواريز جزيرة كمران بعد أن خربت ميناء زيلع •

رد الفعل المصري في مواجهة الخطر البرتغالي

وحماية البحر الاحمر والذود عن المقدسات الاسلامية

أدرك جميع الذين تعرضوا لهذا العدوان مكانة مصر التي صدت العدوان الصليبي وسيطر اسطولها على البحر الاحمر كله شرقه وغربه من ميناء جده الى عدن بل حتى باضع وزيلع وسواكن ، فقد كان العثمانيون في مرحلة الاتجاه الى الشرق وكانت الدولة الصفويه مشغولة بنزاعها العقيدي ولم تكن تملك اسطولا في الخليج يدفع القوى الاجنبية•

ومنذ أن فطن أمير قاليوت الى اطماع كابرال اتجه الى السلطان الغورى طلبا للمساعدة ، وقد أشار ابن اياس والنهراولى الى ما قام به ملوك الهند من ارسال الرسل الى السلطان الغورى لاغاثة المسلمين من عبث البرتغاليين ونهبهم اموال الناس (ابن اياس حـ ١٩٨/٤) ، اذ بالغوا في ايذاء المسلمين والاستهزاء بهم ، ويشير زين الدين في تحفة المجاهدين الى أن البرتغاليين امتهنوا المصاحف وداسوها باقدامهم واحرقوها وحاولوا

تنصير بعض المسلمين ، واغرائهم بالمال والنساء وقتلوا الحجاج ، أو باعوهم عبيدا نساء واطفالا ولم يأنفوا من قتل العلماء •

وتوالت كتب ملوك الهند في ربيع الاول ٩١٦/١٥١٠ ، كما وصلت كتب من السلطان عامر بن عبدالوهاب صاحب اليمن يطلب امداده بالالآت والمدافع للوقوف في وجه البرتغاليين ، وقد أرسل الغوري الطواشي بشير (ابن اياس ج ٤/١٨٢) الى سلاطين الهند وملوكها في كجرات وقاليقوت لتجميع القوى •

ولم يكن اهتمام المماليك بهذا العدوان الخطير تحدوه نزعة اسلامية فحسب أو مجرد رغبة في الجهاد انما دفاعا عن تجارة الهند الدافقة الى البحر الاحمر ، وما كانت تحصل عليه الدولة المملوكة من أرباح طائلة من تجارة التوابل ، وقد فرض السلاطين في الدولة المملوكية الضرائب على التجارة الآسيوية المارة في اراضي الدولة ، بل فرضوا نظاما احتكاريا قاسيا حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الاوربيين في الاسكندرية ودمياط بسعر يفوق أربعين مرة ثمنها المستورد •

ووضح الخطر في عام ٩٠٧/١٥٠١ ، حين أغرق الاسطول البرتغالي بعض سفن التجار المصريين ومن بينها سفينة تابعة للسلطان الغوري كانت على وشك الابحار لجده وكانت محملة بالبهار ، ثم تمادى العدوان البرتغالي الى أن بلغ ما ذكرناه من اغلاق البحر الاحمر في وجه تجار الهند بل تهديد بلاد العرب نفسها (زين الدين : تحفة المجاهدين ص٤) •

مظاهر الاستعداد المملوكي لخوض المعركة :

حرص المماليك على صد أي عدوان قد يتعرض له ميناء جده فقرروا بناء استحكامات عسكرية في المدينة لحمايتها من الهجوم ، ووضعت قوات مملوكية في ميناء ينبع حتى لا تدهمه قوات معادية •

وقد اجتهد الامير المملوكي في تحصين المدينة فهدم كثيرا من بيوت الناس ، مما يقارب موضع السور لوضع الاساس ، واستخدم عامة الناس في البناء ليتم انجازه بسرعة وضيق على البنائين ، والحجارين وتم بناء السور والابراج في أقل من عام • وكان لهذا السور الحصين بوابتان في الجهة الشرقية وله ستة ابراج وتم ذلك في ذي الحجة سنة ١٥٠٧/٩١٢ (انظر الوصف في مجلة B.S.O A.S. مجلد ٢١ ج ٢ صفحات ٢٥٥ ـ ٢٧٦ ـ مخطوط حسن القرى في اودية أم القرى الورقة ٩ أ،٩ب)•

وبذل السلطان الغوري جهدا كبيرا في الحصول على الاخشاب اللازمة والخبرة الفنية الكافية في شئون الملاحة ، وحصل من البندقية على كميات من الاخشاب ، وقامت ترسانة السويس والروضة وبولاق والجزيرة الوسطى باعداد السفن •

ولما تم اعداد الاسطول عين السلطان الغوري الامير حسين الكردي قائدا للحملة وخرجت تلك الحملة في سنة ١٥٠٥/٩١١ واشترك فيها عدد كبير من المماليك السلطانية وعدد من أولاد الناس (ابناء المماليك) الذين يجيدون استخدام الاسلحة النارية كما انضم الى هذه الحملة عدد من المغاربة الذين لهم خبرة في القتال البحري واستخدام المدافع •

واتجهت هذه الحملة المكونة من خمسين سفينة الى ميناء جده (ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ص٩٦ ـ النهروالي ، البرق اليماني ص١٠ ـ يحيى بن الحسين : غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ج ٢ ص٦٣١ ، مرعي حماد : نزهة الناظرين ص ١٦١) ولم يبحر الامير حسين الكردي من جده الا بعد استعداداته العسكرية وقد استعان بالاموال التي تم تحصيلها من جده من رسوم تجارية لتقوية الحملة وامدادها بالاموال اللازمة •

وفي شهر ذي الحجة سنة ١٥٠٧/٩١٢ ، أقلع الاسطول المملوكي

متجها الى عدن فوصلها في ١٥٠٧/٩١٣ (يحيى بن الحسين : ابناء الزمن ص ١٣ الديبغ ، بغية المستفلد ٤٣ب ، تاريخ ثغر عدن جـ١ ص١٥) •
ثم خرجت الحملة في يناير سنة ١٥٠٨ الى الهند وأرسى الاسطول عند ساحل كوجرات واتحدت أساطيل المسلمين برعاية الامير حسن الكردي ، وباغت الاسطول البرتغالي الى قرب شول ، وقد أفاض مؤرخو اليمن في تفاصيل الحملة المصرية ، ودارت معركة شول في ربيع الثاني ٩١٤/ يوليو ١٥٠٩ ودمر الاسطول البرتغالي وكان يقوده لورنزودا الميدا ، وانتصر الاسطول المتحالف نصرا بينا ، ويفيض ابن اياس في وصف الغنائم الكبيرة التي حصل عليها المسلمون نتيجة انتصارهم في معركة ديو ١٥٠٩/٩١٤ ، ويفيض زين الدين في تحفة المجاهدين (ص٤١) في تفاصيل هذه المعركة ويذكر ان الاسطول البرتغالي قام بمفاجأة الاسطول المصري من الخلف وحدثت معركة بحرية انتصر فيها البرتغاليون وقتلوا الكثيرين من بحارة حسن الكردي •

ويشم زين الدين (تحفة المجاهدين ص ٤١) ، رائحة الخيانة التي أدت الى هذا المصير اذ تم اتصال سري بين البرتغاليين وبين مالك اياس نائب ديو بدليل أن البرتغاليين لم يعرضوا لسفنه بسوء بل ركزوا الهجوم على السفن المصرية ، ومما يؤكد خيانة مالك اياس حاكم ديو انه سلم للبرتغاليين كل الذين كان الامير حسن الكردي قد قبض عليهم وحبسهم من البرتغاليين ، كما أرسل للاسطول البرتغالي المؤن والذخائر حتى لقد هرب أمير البحر المصري من ديو لاجئا لدى سلطان كجرات خشية أن يسلمه أمير ديو للبرتغاليين • وقد أصابت هذه الهزيمة المقاومة المملوكية والاسلامية في الصميم واستشرى الخطر البرتغالي بعد نصرهم في ديو على النحو الذي بيناه •

لكن هذه الهزيمة لم تثن عزيمة الغوري عن اعادة الكرة مرة أخرى

وشرع في انشاء اسطول جديد مزود بالوسائل التي تمكنــــه من الابحار لمسافات بعيده .

وأشار ابن اياس (بدائع الزهور ج٤/٢١٢) الى ما قام به السلطان الغوري من استعراض ما تم تجهيزه من سفن في صفر ٩١٧/ ابريل ١٥١١، كما بالغ المماليك في تحصين جده اكثر من ذي قبل فتم بناء البرج السابع من ابراج تحصينات السور الواقع في جهة البحر ، بل رحل الامير حسن الى الهند يستنصر ملوكها للقيام بجهد مشترك لايقاف العدو عند حده .

بل استنجد الغوري بالسلطان بايزيد العثماني وناشده المعاونة فــي اعداد ما تحتاجه مصر من سفن ، وفي شوال سنة ١٥١١/٩١٦ وصلت عدة سفن عثمانية تحمل الاخشاب والحديد والبارود والبنادق والمكاحــــل والمجاديف والسهام والحبال والمراسي (ابن اياس ج ٢٠١/٤) .

وخرجت الحملة متتابعة الى قاعدة جده ١٥١٥/٩٢١ ، وتجمعت القوة البحرية كلها في جده وظلت بها طوال شهر رمضان ، ثم أبحرت بعد عيد القطــــر في ١١ شــوال ٩٢١ / ١٨ نوفمبــر ١٥١٥، قيادة الامير حسن الكردي يساعده الامير سليمان العثماني الى عــدن وبلغت جزيرة كمران في ١٧ ذي القعدة من نفس السنة .

وكانت الظروف كلها مهيأة لان تجد الحملة كافة التسهيلات فــي كل الموانىء الاسلامية التي تمر بها .

لكن الحملة انصرفت عن غرضها الاساسي وانتهى الامر الى صراع مرير بين الجراكسه وبين السلطان اليمني عامر بن عبــدالوهاب ، وكان ذلك وصمة عار في تاريخ ذلك الصراع التاريخي العنيف ، والتساؤل الذي يحتاج الى اجابة مقنعــة بل الى اعادة بحث واستقصاء هـــــو كل كانت

هذه الكارثة بسبب سوء تصرف قامت به القوات البحرية المصرية في جزيرة كمران وكان الغوري قد أوصى بضرورة ملاطفة أهل اليمن والتودد لهم أم بسبب سوء ظن أو سوء تصرف من جانب المسئولين في اليمن . هل ثمة خيانة أو تآمر ؟

ويبدو مما كتبه يحيى بن الحسين (ابناء ابناء الزمان ص ١١٢ ، والديبع : بغية المستفيد ٤٣ب ، وقرة العيون ص١٤٨ . وبامخرمه : تاريخ ثغر عدن جـ١ / ١١٧) ان تعليمات السلطان الغوري الى قواد البحرية كانت تقضي بالمحافظة على مشاعر الناس والاستئذان عند الدخول الى الموانىء وشراء ما يلزم من الطعام والمؤن .

على كل حال استنادا الى أوثق المصادر يمكن أن نبرز الاتجاهات الآتية :

١ ـ أن خلافا قد وقع بين الامير حسن الكردي والريس سلمان العثماني ، وقد أدى هذا الى انقسام في الاسطول فتوجه سلمان الى زيلع ومنها الى جده في حين عاد الكردي الى جده مارا بالموانىء اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الاحمر (بامخرمه : قلادة النحر جـ٣/١٢٠٢).

وعلى هذا النحو لم يمكن الاسطول المصري مواصلة التقدم الى الهند لتنفيذ المهمة الاساسية التي خصص لها .

ووضح هذا الموقف الخياني للريس سلمان العثماني عندما استولى العثمانيون على مصر وقضوا على دولة الجراكسه ، فانفرد سلمان بقيادة الاسطول المرابط في جده بعد أن نفذ أوامر السلطان سليم بالقبض على الامير حسن الكردي واغراقه في البحر الاحمر امام جده (النهوالي الاعلام ص١٢٨ ـ البرق اليماني ص ٢٦ ـ ٢٧ ـ الطبري اتحاف فضلاء الزمان ص٥٨ ب ، ٥٩ (أ)) .

٢ ـ الموقف الخياني للسلطان اليمني في عدن وزبيد ، فقد امتنع السلطان عامر الثاني عن الوفاء بعهده للغوري بتقديم المساعدات الى الاسطول ورفض أن يتخذ الاسطول المصري قواعد له في اليمن ، واحتجازه السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول الى الاسطول المصري في كمران •

وهذا الموقف دفع قادة الاسطول الى تحقيق ما يريدون عن طريق القوة • وأدى ذلك الى توجيه جزء من القوات المعدة أساسا لمحاربة البرتغاليين للقيام بالسيطرة على بعض الموانيء اليمنية ، ثم تطورت الامور الى غزو لليمن لضرب الطاهريين الذين تسببوا في عرقلة الاسطول المصري عن مواصلة القيام بمهمته الاولى •

ولا يخفى أن عدن بموقعها الاستراتيجي نقطة ارتكاز لتأمين الاسطول المصري في المحيط الهندي ولم يكن في امكان قادة الاسطول التوجه الى الهند دون السيطرة عليها •

٣ ـ الاتصال بالبرتغاليين والتواطوء معهم اما خوفا أو خيانة خصوصا تلك الاتصالات المشبوهة بين الامير مرجان حاكم عدن ، وسواريز قائد الاسطول البرتغالي الامر الذي دفع الاسطول الى الوصول الى سوقطرة عام ١٥١٧ وبدأت المحادثات مع الامير مرجان الذي رحب بالبرتغاليين ، وقدم لهم الضيافة العظيمة ، وطلبوا ربابنه يسيرون بهم الى جده فأجابهم الى طلبهم بل لم يتردد في تلبية جميع مطالبهم حتى لقد عرض عليهم مفتاح المدينة •

وقد غادر سواريز عدن وعبر بأسطوله في ١٧ مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل الى مشارف جده مع حلول فصل الربيع حين تهب الرياح الشمالية ولم يستطيع الوصول بسبب شدة الرياح وفشل البرتغاليون للمرة الثانية في دخول جده •

ومن الجدير بالذكر أن هذه الحملة البرتغالية أقلعت الى جـــده في وقت يدعو للريبة • بل وفقا لتخطيط قد يكون مديرا لاستغلال ظروف مواتيه ، فقد كان العثمانيون قد استولوا على مصر وقضوا على دولـــة الجراكسه لولا أن الاسطول المصري كان رابضا في جده بقيادة الريس سلمان العثماني وكان الجراكسه قد أتموا استحكامات المدينة لتحقـــق للعدو ما أراد •

انظر : يحيى بن الحسين : غاية الاماني ص ٦٥٨ •

زباره : ائمة اليمن جـ١ ص٣٩١ •

الهزوالي : الاعلام ص ١٢٨ •

الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب ٩١ • أ •

بامخرمه : قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠ •

هكذا أسدل الستار على الحقبة التي أشرت اليها باختفاء الجراكـــة واستيلاء العثمانيين على مصر ، ثم اليمن ، وتفتت القوى المسيطرة على اليمن وتناحرها ، واخفاق مشروعات البرتغاليين في البحر الاحمر وتغير موازن القوى في اوروبا بعد فتوحات العثمانيين وانتصارهم على الصفويـين واعادة فتح الطريق الدولي المفضي الى الشرق الاقصى واتجاه الاسباب الـــى العالم الجديد واستهلال العصر الحديث في اوربا •

الولايات المتحدة الامريكية وسلطنــة مسقط وعمان أثناء الحرب العالمية الثانية

« دراسة للمفاوضات بين الطرفين حول استخــدام الولايات المتحـدة لتسهيلات جوية في أراضي سلطنة مسقط وعمان »

دكتــور
رأفت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
جامعتي عين شمس وقطـر

كانت الولايات المتحدة الامريكية منذ فجر استقلالها الذي أعلـــن في الرابع من شهر يوليو عام ١٧٧٦م ، راغبة في ابرام معاهدة وديـــة وتجارية مع دول أوربا وفي فتح التجارة الموصدة في وجهها ، وازالـــة جميع العقبات والقيود المعرقلة لنشر تجارتها ، فصدر قرار الكونجرس الامريكي في الثالث والعشرين من شهر مايو ١٧٨٣ م بناء على توصيـــة جون آدمز John Adams مبعوث السلم الامريكي ، بعقدمعاهدات تجارية مع دول أوربا البحرية وشمال افريقيا [١] .

وحقيقة ان مثل هذه المعاهدات لم تشمل آنذاك أقطار الشرق العربي عامة وأقطار الخليج العربي بصفة خاصة ، فانها على أية حال تمثل بداية لنشاط الولايات المتحدة الامريكية ـ بعد استقلالها ـ مع اقطار العالـــم العربي ، في الوقت الذي كانت فيه هذه الاقطار تخضع للدولة العثمانية ، وان كانت السيادة العثمانية على كثير من هذه الاقطار العربية اسميــة حيث بدت السلطة العثمانية ضعيفة أمام العصبيات المحلية .

ويجب ان يكون واضحا ان الاهتمام الامريكي بالاقطار العربية عامة واقطار الخليج العربي خاصة جاء متأخرا عن اهتمامات الدول الاوربية الاخرى مثل البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا ، حتى الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، ولانها عندما حصلت على استقلالها تمثلت بسياسة مؤسسها جورج واشنطن George Washington الداعية الى العزلة Non entanglement وهي السياسة التي سارت عليها الولايات المتحدة لمدة تزيد على قرن من الزمان [٢] .

ونتيجة لذلك جاء الاهتمام الامريكي بالمنطقة على استحياء ، ويتمشى مع امكانيات الدولة الجديدة ، ومع رغبتها في التفرغ للبناء الداخلي دون تدخل من الغير ودون أن تنغمس في مشكلات الاخرين ، كما أشار الى ذلك الرئيس منرو Monroe في تصريحه الشهير عام ١٨٢٣ م ومن ثم كان الاهتمام الامريكي بالمنطقة متواضعا بالنسبة لنشاط الدولة الاوربية المشار اليها سابقا .

وانطلاقا من خضوع أقطار الوطن العربي للسيادة العثمانية كانت اتصالات الولايات المتحدة الامريكية مع تلك الاقطار تتم عن طريق الآستانة حتى عام ١٩١٨ م ، وعن طريق لندن وباريس بعد عام ١٩١٩ م الى أن استقلت الاقطار العربية ، في الوقت الذي كانت فيه كل من طهران والرياض عواصم لدول ذات استقلال سياسي [٣] وتتم معها الاتصالات الامريكية بصورة مباشرة .

ومن الطبيعي ان تكون أقطار العالم العربي مجهولة للامريكيين فيما عدا ما قرأوه في الكتب مثل « ألف ليلة وليلة » وتاريخ فراعنة وادي النيل، كما أن سكان تلك الاقطار كانوا يجهلون كل شيء عن الامريكيين ، ولذلك جاء الاهتمام الامريكي لاقامة جسر من التعارف المتبادل بين الطرفين .

ومن الامور الجديرة بالملاحظة أن علاقات الولايات المتحدة الدبلوماسية بأقطار الشرق الاوسط بدأت مع ايران وتركيا قبل ان تبدأ مع الاقطار العربية وما يذكر في هذا المجال أن أول وزير - دبلوماسي - أمريكي يصل الى طهران لتمثيل الولايات المتحدة الامريكية في بلاط الشاه في المدة من **١٨٨٣** الى **١٨٨٥**م وجد كثيرا من المسئولين الايرانيين لم يسمعوا من قبل بالولايات المتحدة قبل انشاء المفوضية الامريكية في ايران ، بل ان الشاه نفسه سأل عن كيفية السفر الى أمريكا (٤) وقد تطور الاهتمام الامريكي بالاقطار الخليجية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين من النشاط التجاري فالنشاط التبشيري فالاستثمار في مجال النفط ثم الاهتمام بالجوانب الاستراتيجية وكان أبرز نشاط تجاري للولايات المتحدة في النصف الاول من القرن التاسع عشر تلك الاتفاقية التجارية التي عقدتها مع السلطان سعيد سلطان مسقط وعمان وزنزبار بشرق أفريقيا ومع ذلك فان هذا الاهتمام الامريكي المبكر لم يتخذ لا في الخليج العربي ولا في شرق أفريقيا خطوات عملية أخرى (٥) أكثر من النشاط التجاري المحدود باعتبار هذه الجهات بعيدة جدا عن واشنطن مما يؤثر على فعالية هذا النشاط (٦) واستمراره وتطوره .

وكان انشاء الارسالية العربية في البحرين أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر وجها اخر للنشاط الامريكي في الخليج ، فلقد بدأت هذه الارسالية - والتي تتبع مذهب الاصلاح الديني الهولندي Dutch Reformed Church بمركز في البحرين يشرق عليه مبشرون أمريكيون ثم صارت لها مراكز في كل من البصرة بالعراق ، والكويت ، ومسقط . واتخذت من وسائل التأثير كتقديم الخدمات التعليمية والطبية ، وبيع الكتاب المقدس وغيره من المطبوعات المسيحية باللغتين العربية والفارسية ركائز لنشاطها .

حتى اذا ظهر النفط في منطقة الخليج استحوذ على الاهتمام الاكبر للولايات المتحدة التي أرادت فتح المنطقة دون قيود أمام الاستثمارات الامريكية في هذا المجال الحيوي • وعندما قامت الحرب العالمية الثانية اتجهت الولايات المتحدة الى التفاوض مع المملكة العربية السعودية للحصول على تسهيلات جوية في منطقة الظهران ، ثم مع سلطنة مسقط وعمان للحصول على تسهيلات جوية في أراضي السلطنة •

بداية العلاقة
بين الولايات المتحدة وسلطنة عمان

بدأت العلاقات الرسمية بين الولايات المتحدة الامريكية وسلطنة مسقط وعمان في عهد السيد سعيد بعقد اتفاقية للصداقة والتجارة وقعها عن الولايات المتحدة الكابتن ادموند روبرتس Edmond Robertes مع السيد سعيد سلطان مسقط وعمان في ٢١ سبتمبر ١٨٣٣م ، وكانت أول معاهدة عقدها حاكم عمان مع دولة كبرى مباشرة ، وكانت تلك المعاهدة هي المثل الذي احتذى في معاهدتي عمان مع بريطانيا في سنة ١٨٣٩م وفرنسا في سنة ١٨٤٤م [٧] • وظلت سارية والمفعول حتى سنة ١٩٥٨م حين أبطل مفعولها واستبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والعلاقات الاقتصادية والحقوق القنصلية بين الطرفين [٨] •

وقد أعطت هذه المعاهدة للامريكيين في ممتلكات السلطان العربية ، مسقط والافريقية ـ زنزبار ـ امتيازات لا يتمتع بها غيرهم باستثناء البريطانيين ، فصار التجار الامريكيون الذين يزورون موانىء السلطنة لا يدفعون أكثر من ٥٪ رسوما على البضائع التي يجلبونها الى تلك الموانىء ، وان يعفوا من أية ضرائب أخرى على الصادرات أو الواردات ومن

رسوم الارشاد الملاحي أيضا • ومنح القنصل الامريكي حق الفصل في القضايا بين رعايا دولته •

وقد كان وقع هذه المعاهدة في الولايات المتحدة طيبا وتمت مصادقة كل من الرئيس الامريكي اندرو جاكسون Andrew Jaokson ومجلس الشيوخ دون ابطاء لانها لم تحمل الولايات المتحدة أية التزامات نحو سلطنة مسقط وعمان كما أن الولايات المتحدة قد أصبحت مرتبطة بصداقة احدى القوى الاسيوية التي تفخر بامتلاكها أسطولا أكبر من الاسطول الامريكي اذ كان مؤلفا مما لايقل عن ٧٥ سفينة كل منها مزودة بعدد من المدافع يتراوح مابين ٤ الى ٥٦ مدفعا ، كما لاحظ روبرتس أيضا أن السفن العمانية التجارية كانت تصل حتى الهند وسيلان وجاوه[٩] •

وعلى الجانب الاخر فان السلطان سعيد شعر بأهميته أكثر وبقدرته على الدخول في اتفاقية مع دولة كبرى ، مما جعله يميل الى كسب المزيد من رضا الامريكيين بمنحهم امتيازات تجارية خاصة في شرق أفريقيا على أن يقفوا بجواره ويساعدوه بالسلاح والرجال لاخضاع ذلك الاقليم لسيادته[١٠] • ولم يغضبه عدم تجاوب الامريكيين لمطالبه هذه •

وقد أثارت هذه المعاهدة ثائرة البريطانيين الذين اعتقدوا أن للولايات المتحدة أطماعا في شرق أفريقيا ، ورغم أن الحكومة البريطانية لم تكن مقتنعة بوجود نشاط استعماري أمريكي في أفريقيا ، فان الادميرالية البريطانية أمرت الكابتن هـ • هارت H. Hart قبطان السفينة «أيموجين» التابعة للاسطول الملكي بتقييم طبيعة الاتصال الامريكي في تلك القارة ، وفي فبراير ١٨٣٤ م وصل هارت الى زنزبار ، وفي حين أنه أكد لحكومته تزايد حجم التجارة الامريكية ، فقد كان باستطاعته في نفس الوقت أن يؤكد لها أن الامريكيين لم يكونوا يفكرون باستيطان شرق أفريقيا[١١]

ورغم ذلك التأكيد فقد أظهر هارت للسلطان سعيد عدم قبول النشاط الأمريكي المتزايد في ممتلكات السلطنة • ومن ثم فانه اذا كان سعيد مازال يفكر بكسب المساعدة الامريكية فان وصول السفينة البريطانية «ايموجين» كان بمثابة تحذير له بأن الحكومة البريطانية ستنظر بعداء الى مثل هذه الخطوة ولذلك فان السلطان فاوض الكابتن «هارت» حول معاهدة رسمية مع بريطانيا كانت جوهريا مقتبسة من المعاهدة الامريكية(١٢) •

عملت المعاهدة المعقودة بين الولايات المتحدة وسلطنة مسقط وعمان على ازدهار التجارة الامريكية في ممتلكات السلطنة الافريقية أكثر من ازدهارها في مقر السلطنة بالخليج العربي ، فتزايد عدد السفن الامريكية التي ترسو في زنزبار والتي تحمل قماشا قطنيا أمريكيا متينا سرعان ماشاع استعماله في شرق أفريقيا والخليج والجزيرة العربية الى جانب بيع البارود وفي المقابل تحمل زنزبار العاج ، وصمغ الكوبال الذي يستخدم في تحضير الطلاء ، والقرنفل وغير ذلك من منتجات تلك المنطقة •

ونتيجة لازدياد النشاط التجاري الامريكي في ممتلكات السلطنة بشرق أفريقيا فقد اختارت الحكومة الامريكية أحد رعاياها ويدعى المستر ويتشارد وترز Richard Waters عام ١٨٣٦م ليكون أول قنصل أمريكي في زنزبار تلاه خمسة قناصل اخرين من «سليم» بولاية مساتشوستس عينوا – أيضا – في زنزبار التي غادرها آخرهم سنة ١٨٩١م(١٣) •

وأما في مسقط فقد عينت الحكومة الامريكية مواطنا أمريكيا اخر يدعى هنري ب • مارشال Henry B. Marshall قنصلا للولايات المتحدة في عاصمة السلطنة منذ ١٥ فبراير ١٨٣٨م ، وقد تسلم عمله بمسقط منذ منتصف شهر أكتوبر حيث استقبله ابن السلطان بحفاوة نظرا

لوجود السلطان في زنزبار العاصمة الثانية للسلطنة ، ولـم يمكث مارشال في مسقط أكثر من تسعة أشهر وانتقل الى بومباي تاركا المواطن العربي سعيد بن خلفان مترجم روبرتس سابقا نائبا للقنصل في مسقط ، الـذي ظل يمارس هذا الدور حتى وفاته في يونيو ١٨٤٥ م • وبعدهـــا ألغيت القنصلية من مسقط الى عام ١٨٨٠م حين عين المستر ما جبور Magbour وهو تاجر بريطاني قنصلا للويات المتحدة الامريكية في مسقط ، وفي عام ١٨٨١م اعترفت به فرنسا قنصلا لها أيضا في عمان(١٤) •

ولقد كانت التجارة الامريكية مع مسقط قاصرة على شـراء كميات كبيرة من التمر (البلح) ونقلها الى الولايات المتحدة الامريكية من مينـــاء مسقط ، وظلت هذه المادة تمثل ركنا أساسيا في التجارة بين الطرفين حتـى الحرب العالمية الاولى(١٥) •

ولعل هذا يفسر لنا انشغال السلطان واهتمامه بشرق أفريقيا حيث الامكانيات أكثر ، كما يفسر لنا ازدهار التجـارة الامريكية في ممتلكات السلطان بشرق أفريقيا أكثر من ممتلكاته في الخليج العربي •

وقد ظلت العلاقات بين الولايات المتحدة وسلطنة مسقط وعمان ودية حتى منتصف القرن التاسع عشر حين بدأت تظهر علامات فتور بين الطرفين منها رغبة السلطان في تعديل المادة الثانية من معاهدة الصـداقة والتجـارة المعقودة بين الطرفين عام ١٨٣٣م والتي تنص على أن مـــن حـق التجار الامريكيين دخول كل الموانى الخاضعة للسلطان ورفض حكومة الولايات المتحدة الاستجابة لطلب السلطان ، الى جانب الخلافات حول مدى سلطـة المحكمة القنصلية الامريكية ، وامتداد التجارة الامريكية في شرق أفريقيا دون تحديد للمدى الذي تصل اليه ، بالاضافة الى الوضع القضائي للرعايا الامريكيين الذين يقترفون جرائم قتل ضد المواطنين العرب أو يختلفـون

مع التجار الهنود المعروفين «بالبونايان» والمشمولين بالحماية البريطانية .

ولقد لعب القنصل الامريكي تشارلز وارد Charles Ward الذي تسلم مهام وظيفته في زنزبار بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٤٦م دورا في سوء العلاقة بين السلطان والولايات المتحدة مما أدي الى قطع العلاقة بين البلدين في يوليو ١٨٥٠ م واعتقد وارد أن القنصل البريطاني في زنزبار كان وراء سوء العلاقة بين الولايات المتحدة والسلطنة وتوقع تفكك السلطنة بعد وفاة سعيد ، كما توقع أن الصراع سيدور بين ولديه وبعد أن ينهك كل منهما الاخر في القتال تتدخل الحكومة البريطانية بحجة حماية المصالح البريطانية أو تحت ستار أية ذريعة أخرى لتضع حدا للنزاع وتفرض حمايتها على البلاد(١٦) .

ولكن الولايات المتحدة أرادت ألا تفقد صداقة السلطان فأرسلت الكومودور أوليك مندوبا يحمل رسالة من الرئيس الامريكي للسلطان وغادر وارد السلطنة الى أمريكا وعندما وصل أوليك الى زنزبار في أول ديسمبر ١٨٥١م عرف من التجار الإمريكيين مدى صداقة السلطان وحسن معاملته لهم ، وأنه لم يسيء للعلم الامريكي كما ادعى وارد ، وأنهم يتمتعون بامتيازات في السلطنة تفوق ما يتمتع به غيرهم من التجار الاجانب .

وتوالى القناصل الامريكيون في السلطنة واستمرت التجارة الامريكية مزدهرة بالسلطنة لاكثر من نصف قرن تحت حكم السلطان سعيد ،حتى أن هذه التجارة فاقت التجارة البريطانية في ممتلكات السلطان ، وحتى بعد انقسام السلطنة بين ابني السلطان سعيد ماجد في زنزبار وثويني في مسقط وعمان فقد بقيت مسقط وعمان بعيدة عن أي نزاع استعماري لان سيادتها ضمنتها اتفاقيات دولية ، بينما وقعت زنزبار فريسة للاستعماريين

البريطاني والالماني ، ورغم أن العلاقات بين كل من الولايات المتحدة الامريكية وسلطنة مسقط وعمان خلال الفترة الممتدة من الاتفاقيةالتجارية لعام ١٨٣٣م ، ولمدة مائة عام لم تكن تعتبر ذات أهمية بالغة من وجهة نظر أي من الطرفين ، الا ان وجودها في حد ذاته كان يبشر بعهد جديد في العلاقات الدولية(١٧) .

وليس أدل على ذلك مما أشار اليه تقرير عن السياسة الامريكية الخارجية عام ١٩٤٦م نحو امارات الخليج العربي وسلطنة مسقط وعمان ، بأنه في الوقت الذي تعترف فيه بالوضع الخاص لبريطانيا العظمى في مشيخات الكويت والبحرين وقطر والساحل العماني ، فان سياستنا نحو هذه المنطقة تعتمد على ان الوضع البريطاني الخاص في هذه الامارات لن يؤدي الى الحاق الضرر بالمصالح الامريكية او مصالح السكان المحليين والحكومات القائمة . وأن سياستنا نحو سلطنة مسقط وعمان تستند على واحدة من أقدم معاهداتنا التي مازالت نافذة المفعول وهي معاهدة الصداقة والتجارة الموقعة بين الطرفين في ٢١ سبتمبر ١٨٣٣م(١٨) .

ويضيف التقرير مؤكدا على أهمية العلاقة بين الولايات المتحدة وسلطنة مسقط وعمان مشيرا الى أن الذكرى المئوية لتوقيع المعاهدة المشار اليها والتي احييت في مارس ١٩٣٤ م تميزت بزيارة قامت بها بعثة دبلوماسية أمريكية خاصة لمسقط ، وفي عام ١٩٣٦ م استقبل الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt في واشنطن السلطان سعيد بن تيمور آل بوسعيد سلطان مسقط وعمان كضيفه الخاص (١٩) واختتم التقرير مقارنا بين تلك المعاهدات التي وقعتها الامارات العربية الخليجية مع بريطانيا العظمى ابتداء من القرن التاسع عشر وبين المعاهدة العمانية البريطانية فالامارات العربية الخليجية تعهدت

لبريطانيا منذ عام ١٨٢٠م بمساعدة البريطانيين للقضاء على «القرصنة» ووضع حد لدخول السلاح والرقيق الى بلادهم وعن طريق سلسلة من المعاهدات أعطى الشيوخ (حكام الامارات) للبريطانيين حق استغلال أراضيهم مقابل الحماية البريطانية ، وفيما بين عامي ١٩١٣ ، ١٩٢٣ ربط حكام الامارات الخليجية أنفسهم اكثر بالتعهد بعدم اعطاء امتيازات للبحث عن البترول في اراضيهم لاية دولة أخرى دون موافقة وقبول البريطانيين .

بينما وافق سلطان مسقط وعمان في عام ١٩٢٣م على مجرد استشارة الوكيل السياسي البريطاني وحكومة الهند البريطانية قبل البحث عن البترول في سلطنته ، ومن ثم تمتع السلطان بقدر اكبر من حرية الحركة حرم منها غيره من حكام الامارات العربية الخليجية الاخرى الذين تمتعوا بحماية الحكومة البريطانية وان كانت بلادهم ليست محميات بريطانية[٢٠] .

العلاقات أثناء الحرب العالمية الثانية

أولا : مع المملكة العربية السعودية

اتضح لنا أن سلطنة مسقط وعمان كانت تتمتع باستقلال محدود تمتاز به عن غيرها من امارات الخليج العربية ، رغم وجود نفوذ بريطاني في السلطنة ، ومن هنا ففي الوقت الذي دخلت فيه الولايات المتحدةالحرب الى جانب انكلترا وفرنسا ، واحتاجت الى قواعد حربية في الاراضي العربية ساعدت السلطات البريطانية في تقديم هذه التسهيلات للقوات المسلحة الامريكية ، ومن ثم اتجهت انظار المسئولين العسكريين الامريكيين الى اراضي المملكة العربية السعودية وبعض مناطق في سلطنة مسقط وعمان .

وفيما بين شهري مارس وسبتمبر ١٩٤٢م دارت اتصالات بين كل من الولايات المتحدة الامريكية والحكومة البريطانية والمملكة العربية السعودية بقصد الحصول على تسهيلات جوية بعبور الطائرات الامريكية في سماء بعض مناطق المملكة وكان ذلك راجعا الى حاجة الحلفاء لنقل قواتهم العسكرية الى الشرق الاقصى لمتابعة الحرب مع اليابان ، واحتياجاتهم الى قاعدة كبيرة في منتصف الطريق ، والى تسهيلات جوية ومرور الطائرات في اجواء الاقطار الواقعة في طريق الوصول الى الشرق الاقصى ، فوقع اختيار الامريكيين على الظهران قرب آبار النفط السعودية[٢١] .

وقد شارك في هذه الاتصالات كل من المستر ويليس welles القائم بأعمال وزير الخارجية الامريكية ، والوزير الدبلوماسي الامريكي في القاهرة المستر كيرك Kirk والدبلوماسي الامريكي في المفوضية الامريكي بجدة المستر موس Moose وقد بدأت برسالة المستر ويليس الى المستر كيرك - المسئول عن العلاقات الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية الى جانب مصر رغم وجود وزير مفوض في جده يذكره باهتمام وزارة الحربية الامريكية بانشاء مطار أو أكثر في المملكة العربية السعودية وأن هذا الطلب الامريكي يجيء بعد زيارة المستر كيرك للمملكة العربية السعودية وتسليم الملك عبدالعزيز رسالة ودية من الرئيس روزفلت في فبراير ١٩٤٢ م ، وارسال بعثة زراعية للمملكة ، وانشاء مفوضية أمريكية في جدة في نفس الشهر أيضا .

واضافت رسالة المستر ويليس بأن وزارة الحربية الامريكية ترى أن استخدام المجال الجوي السعودي وأراضي المملكة مناسبة لنزول الطائرات قصيرة المدى بين الخرطوم وكراتشى ، بل وأيضا اكثر أمنا من الطريق عبر القاهرة . وتشعر الوزارة أن أية اتفاقات مع حكومة المملكة العربية

السعودية بخصوص اقامة منشئات عسكريـــــة ، أو اتفاقات دفاعية ، أو انشاءات لقواعد جوية يجب أن تتم بمعاونة المملكـــة المتحدة ، حيث أن المملكة العربية السعودية تقع في منطقة مسئولية الدفاع البريطانية . وعلى هذا فيقترح حث هيئة القيادة الحربية البريطانية لتأخذ على عاتقهـــا القيام باجراءات ضرورية وعملية من اجل انشاء قواعد جوية بالمملكـــة العربية السعودية لصالح الجيش الامريكي ، وأن وزارة الحربية الامريكية لن توصى بتقديم مساعدة للمملكة العربية السعودية بمقتضى قانون الاعارة والتأجير Lend - Lease في شكل مواد حربية ، ولكن ليس لديهـــا مانع من تقديم أية مساعدات مالية كما تقرها وزارة الخارجية وتراهـــا ضرورية ومطلوبة (٢٢) .

ورد المستر كيرك على وزارة الخارجية الاميركية بأن زيارته للمملكة العربية السعودية كانت زيارة تقليدية لتقديم رسالة ودية ، وحيث أنــه لم تصل من وزارة الحربية تفصيلات محددة عن الاقتراحات الخاصـــة بخطوط الطيران الجوية في سماء السعودية وانشاء قواعد جوية في اراضـي المملكة ، فأنني تجنبت اثارة هذه الموضوعات اثناء لقائي بالملـك عبدالعزيز وحديثي معه . وانني علمت قبل مغادرتي القاهرة في طريقي الى جدة أن الوزير الدبلوماسي البريطاني بجدة قد تقدم لوزير المالية السعوديـــة ـ عبدالله سليمان ـ بمذكرة حول موضوع خطوط الطيران والقواعـــد الجوية فـــي تلك المنطقة ، وسمعت أيضا أن « كاسوك » CASOC شركة استاندارد كاليفورنيا العربية للبترول

California Arabian Standar Oil Comp

قد بعثت برسالة الى الملك ترجو السماح لشركة طيران PAN'AIR بالتحليق فوق الاراضي السعودية بما يحقق المصالح البترولية للطرفين .

واضاف كيرك في رسالته أنه بينما كان يتحدث مع وزير الماليـــة

السعودي أدهشه وزير المالية حين تطوع من تلقاء نفسه بالقول بأنه ليس لدى المملكة العربية السعودية ما يمنع من تحليق طائرات الولايات المتحدة في سماء المملكة أو حتى انشاء مطارات على الساحل ، وقدم مناطق معينة باعتبارها صالحة لهذا الغرض ، وقد اشار بصفة خاصة الى « البركة » في الجنوب « والضبّة » في الشمال والاولى في طريق الخط المباشر من الخرطوم الى البحرين ، والاخرى تساهم في تقصير الطريق الى العراق وايران والهند [٢٣] .

وأجاب وزير الخارجية الامريكية المستر هل Hull على رسالة المستر كيرك بأن وزارة الحربية الامريكية تقترح بذل الجهود الدبلوماسية للحصول على موافقة السعودية على عبور خطوط طيران محدود دون توقف عبر وسط شبه الجزيرة العربية من الخرطوم الى البحرين ، ومن الخرطوم الى البصرة ، وكلا الطريقين لتجنب المناطق المحرمة ، وتشمل الحق في الهبوط الاضطراري . واقترح ايضا مسألة الهبوط بالمطارات لطائرات الاستطلاع قصيرة المدى [٢٤] .

وعندما رد كيرك على وزير الخارجية أشار الى رأي المستر موس Moose الوزير المفوض الامريكي بجدة بأن مسألة خطوط الطيران دون توقف أمر ممكن وأما تأمين مطارات للهبوط الاضطراري فأمر مع صعوبته ولكن يمكن تحقيقه ، وان الحكومة البريطانية تقدم للمملكة العربية السعودية هذا العام مساعدة قدرها ٣ ملايين جنيه بينما من المفهوم أن كاسوك CASOC لن تتقدم بمساعدات اضافية ومن ثم يجب علينا أن نساهم مع البريطانيين في تقديم المساعدة اللازمة للسعودية .

وأضاف كيرك أنه يرى أن يقوم المستر موس حاملا تعليمات باستطلاع الرأي النهائي لحكومة المملكة العربية السعودية فيما يتعلق

بالطرق الجوية المحددة والتسهيلات التي تحتاجها وزارة الحربية ، وان تكون مباحثاته مع عبدالله سليمان وزير المالية ، وانه يجب أن تتناول اتفاقات حول مطارات النزول اكثر من مجرد السماح بالطيران دون توقف في سماء الاراضي السعودية (٢٥) •

وما لبث وزير الخارجية Mull أن أجاب بأن شركة CASOC تقدر مبلغ المساعدة البريطانية للمملكة العربية السعودية هذا العام بما يقرب من أربعة ملايين جنيه استرليني ، وتذكر انها ـ الشركة ـ رصدت لهذا الغرض مبلغ ثلاثة ملايين دولار على أقساط كل قسط ٥٠٠ الف دولار كل شهرين (٢٦) •

واقترح كيرك في رسالة اخرى بأنه تبعا للوضع الخاص الذي تتمتع به بريطانيا في المملكة العربية السعودية ، وانه قد سبق للوزير الدبلوماسي البريطاني في جدة (بيرد Bird) أن ناقش مسألة خطوط الطيران والمطارات في المملكة العربية السعودية ، فأنه ـ كيرك ـ يوصي بأن يقوم « موس » بالتعاون مع « بيرد » في التفاوض حول هذه المسألة ، وان اي اجراء غير هذا سوف يؤدي الى الاضطراب والتأخير (٢٧) •

ثم ابرق كيرك الى وزير الخارجية بما قام به المستر موس في جدة بأنه في ٢٨ يوليو تسلم الوزير الدبلوماسي البريطاني رد الملك عبدالعزيز بواسطة وزير ماليته برجاء ابلاغ الرد للمستر موس ، فحوى الرد أن الملك يقبل بأن يسمح للبريطانيين باستخدام الطرق الجوية دون توقف من الخرطوم الى البحرين مارة شمال الخط المباشر من البركة الى البحرين ، ومن الخرطوم الى البصرة ومارة الى الشمال من الخط المباشر من الضبة الى البصرة وانه لن يعترض على استخدام الطائرات الامريكية لهذه التسهيلات الممنوحة للبريطانيين • وانه طلب أن يبقى الموضوع في أقصى درجات السرية (٢٨) •

وحسم الامر في برقية الوزير المفوض الامريكي بجدة مستر موس الى وزير الخارجية الامريكية والتي حملت رد الحكومة السعودية النهائي ـ ذلك العام ـ على المطالب الامريكية ، وقد حمل الرد الشيخ يوسف ياسين نائب وزير الخارجية السعودي ، الذي عبر عن رغبة الملك في التعاون مع الحكومة الامريكية ، وأن الملك وافق على الطيران دون توقف في سماء المملكة العربية السعودية في الخطوط التالية :

أولا : من البحر الاحمر الى «بحاره أو بحره Bahare مرورا بجنوب « بيرك » وبيشه ومن ثم باتجاه شمالي شرقي تاركا « سوليل » الى الجنوب والشرق ، ثم باتجاه شرقي كبير ماراً وسط الطريق بين سوليل وافلاجا أو الافلاج « Aflaja » وثم باتجاه أكثر شمالا الى « بحارة » تاركا الحوطة « الهفوف » (الحوطة Hauta) «والعقير » الى الشمال .

ثانيا : من العقبة مارا عبر منتصف النقطة لوادي « السرحان » مارا شمال الجوف Jauf وجنوب « قريات » Qariyat وثم باتجاه اكثر أو أقل بخط الى وادي « البصرة » .

واقترح ان تطير الطائرات فرادي أو في مجموعات صغيرة وان تطير على ارتفاعات كبيرة كلما أمكن . واعلن الشيخ يوسف ياسين أنه يمكن للطائرات البدء فورا باستخدام هذه الطرق . وفي رأيي ـ موس ـ أن رد الملك قد جعل البريطانيين والامريكيين يعاملون معاملة واحدة(٢٩).

وكان هذا بداية للتفكير في اقامة قاعدة جوية بالظهران تحقق هدفين الاول حماية حقول البترول التي تمتلكها الشركات الامريكية والهدف الثاني تسهيل عمليات نقل المعدات والقوات الامريكية الى ميدان الشرق الاقصى للحرب ضد اليابان ولكن في هذا العام ـ ١٩٤٢ م ـ لم

تحصل الولايات المتحدة من المملكة العربية السعودية اكثر من تسهيلات المرور في خطوط طيران محددة عبر اراضيها حتى عقدت اتفاقية بين الطرفين لانشاء مطار عسكري في الظهران في ٢٧ - ٨ - ١٣٥٤ هـ (٦-٨-١٩٤٥ م) .

وهكذا تحددت التسهيلات التي منحتها المملكة العربية السعودية للطائرات الامريكية للتحليق فوق أراضيها من الغرب الى الشرق أى من ساحل البحر الاحمر الى ساحل الخليج العربي على امتداد الاراضي السعودية في خطين اثنين هما : -

الخط الاول يبدأ من بلدة البركة الواقعة على ساحل البحر الاحمر مقابل المدينة المنورة ويمر بكل من بلدة بيرك (البرك) وبيشة وسوليل (أو سليل أو السليل كما تعرف احيانا) وتقع في منتهى وادي الدواسر ، وافلاجا أو الافلاج كما ينطقونها ، ثم بحارة (أو بحرة) فالهفوف حتى شمال العقير .

ويبدأ الخط الثاني من العقبة الى مدينة الضبّة (أو ضبّا) الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، الى الشمال من الخط الاول ، ويمر هذا الخط بمنتصف وادي السرحان ، فشمال الجوف ، ثم الى الجنوب من قريات (الواقعة في طرف وادي السرحان من الشمال الغربي قرب الحدود الاردنية الحالية) ، حتى وادي البصرة على الخليج العربي .

ثانيا : مع سلطنة مسقط عمان

وبينما المفاوضات دائرة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الامريكية لحصول الاخيرة على تسهيلات جوية بأراضي المملكة ، بدأت ومنذ أغسطس ١٩٤٢ م مفاوضات مماثلة بين الولايات المتحدة وسلطنة مسقط وعمان ورغم أن للولايات المتحدة علاقات خاصة بسلطنة

مسقط وعمان تحكمها اتفاقية التجارة والصداقة لعام ١٨٣٣ م ، الا انه صار لبريطانيا منذ وفاة السيد سعيد سلطان مسقط وعمان وزنزبار عام ١٨٥٦ م واقتسام ولديه ماجد وثويني ممتلكاته مركز خاص ونفوذ قوي في السلطنة .

وقد حاولت الحكومة الامريكية منذ عام ١٩٣٠ م احياء نفوذها في السلطنة بعقد معاهدة جديدة بين الطرفين الا ان الحكومة البريطانية وقفت للمحاولات الامريكية بالمرصاد ، ومع ذلك فقد ظهرت نشاطات أمريكية في السلطنة تمثلت في اتساع نشاط البعثة التبشيرية الامريكية في مجال الصحة والتعليم في كل من مسقط ومطرح ، حتى أنه عند افتتاح المستشفى الجديد التابع للبعثة في مطرح عام ١٩٣٤ م قام الوزير المفوض الامريكي في بغداد بافتتاح هذا المستشفى أثناء زيارته لمسقط احتفالا بمرور مائة عام على توقيع المعاهدة المسقطية الامريكية (٣٠) .

كما تمثلت النشاطات الامريكية في السلطنة وقبل الحرب العالمية الثانية في التطلع للتنقيب عن البترول في السلطنة ، ولما كانت شركة البترول الانجليزية الايرانية قد بدأت منذ عام ١٩٢٤ م بالتنقيب عن النفط في السلطنة فلم تواجه بمنافسات تذكر من جانب الشركات الامريكية اذ كانت المنطقة خاضعة للنفوذ البريطاني . وفي عام ١٩٣٧ م بدأت شركة بترول عمان وظفار المحدودة وهي فرع من شركة نفط العراق وبها رأسمال أمريكي ـ في التنقيب عن البترول بموجب اتفاق وقعته الشركة مع سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان .

وقد حاولت شركات البترول الامريكية استخدام أحد الرعايا الايطاليين ويدعى باستوري Pastori ، واحد البولنديين ويدعى الكونت بروك Prorok للحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في سلطنة مسقط وعمان لصالح الشركات الامريكية الا ان الوكيل البريطاني

في مسقط تشكلت في نشاطهما ومن ثم رفض التصريح لهما بالاقامة في مسقط • وقد ظهر أن باستوري كان يعمل لحساب بثعة ايطالية أمريكية مهتمة بالتنقيب عن النفط كما اوضحت تحريات الوكيل البريطاني على أن بروورك كان بدوره عميلا لشركة الزيت العربية الامريكية التي كانت لا تكف في خلال الثلاثينيات عن محاولاتها للحصول على عقود امتيازات في الساحل الجنوبي الغربي من الخليج [٣١] •

ومعنى هذا أن سلطنة مسقط وعمان صارت تتبع في سياستها الخارجية « النصيحة البريطانية » وهذا يعني أن الولايات المتحدة في محاولاتها التفاوض مع السلطنة بشأن التسهيلات الحربية يجب أن تأخذ في اعتبارها الوضع الخاص لبريطانيا في السلطنة والذي يستلزم دخول بريطانيا كطرف في اى مفاوضات تجريها الولايات المتحدة مع السلطنة • وقد دارت هذه المفاوضات من خلال الوزير المفوض الامريكي في نيودلهي، وسكرتير حكومة الهند للشؤن الخارجية ووزير الخارجية الامريكية واستغرقت الفترة من يونيو الى نوفمبر ١٩٤٢ م •

وتبدأ اثارة هذا الموضوع في رسالة بعث بها الوزير الامريكي في نيودلهي The Officer in Charge الى وزير الخارجية الامريكية جاء فيها أنه منذ يونيو ١٩٤٢ م بعث ببرقية الى البعثة الدبلوماسية الامريكية بالقاهرة ويعود ليؤكد ما جاء بها من أن سكرتير حكومة الهند المسئول عن ادارة الشئون الخارجية قد سبق واقترح بطريقة غير رسمية أنه من المستحسن لحكومة الولايات المتحدة القيام باتصالات دبلوماسية مع سلطان مسقط من أجل الحصول على تسهيلات من السلطنة لصالح القيادة الجوية الامريكية •

واضافت الرسالة بأنه تبعا لما قاله سكرتير حكومة الهند ، فأن السلطان الذي كان في الماضي حياديا ومن السهل اثارة شكوكه عند

تعامله مع البريطانيين صار متعاونا ، ومن اجل هـذا السبب ، فأي مندوب امريكي يذهب الى هناك يجب اختياره بدقة • وهذا ينطبق بصفة خاصة عند الذهاب الى « صلالة » حيث يتخذها السلطان مقرا لاقامته في الصيف ، وملجأ له حين كان في الماضي يبحث عن ملجأ بعيدا عن البريطانيين •

ومضت الرسالة الى القول بأنه طبقا لمعلومات سكرتير حكومة الهند عن الاثر الذي احدثه عند السلطان وصل أربعة موظفين من شركة بان امريكان للطيران Pan American Airways بدون سابق انذار الذين قرروا انهم جاءوا لعمل ترتيبات ضرورية للتسهيلات الارضية •

وتضيف الرسالة بأنه تنفيذا لتوجيهات وزارة الخارجية الامريكية المؤرخة في ٣ يوليو ١٩٤٢ م ، فأنني سألت سكرتير حكومة الهند اذا كانت حكومة الهند لديها الرغبة لاعطاء الممثل البريطاني في مسقط تعليمات للتباحث مع السلطان بهذا الخصوص نيابة عن الحكومة الامريكية وبعد عدة أيام تلقيت اجابة مشجعة فسطرت مذكرة الى السكرتير في ٨ يوليو ١٩٤٢ م أعبر عن الرغبة في الحصول على موافقة السلطان على التسهيلات لجيش الولايات المتحدة شبيهة بتلك التسهيلات المعطاة حاليا للبريطانيين بحيث تشمل هذه التسهيلات استخدام المطارات في مسقط بواسطة الطائرات العاملة في خدمة جيش الولايات المتحدة واقامة الاشخاص سواء كانوا عسكريين أو مدنيين ، اللازمين لخدمة الطائرات ، ولانشاء ولتشغيل محطات اللاسلكي والارصاد الجوية •

وتمضي الرسالة الى القول بأن هناك ثمة تأخير من جانب حكومة الهند في ارسال التعليمات للممثل البريطاني في مسقط نظرا لضرورة التشاور مع السلطات العسكرية البريطانية في القاهرة بخصوص تسهيلات اللاسلكي والارصاد الجوية المطلوبة كما أن الصعوبة أيضا حدثت عند الحصول على وسيلة نقل جوية للوكيل البريطاني السياسي من مسقط

الى صلالة . والمعتاد وجود موظف صغير مساعد للوكيل السياسي في صلالة Salala

وعلى أية حال ـ كما جاء في الرسالة ـ فأنني تلقيت الآن مذكرة مؤرخة في ٢١ اغسطس ١٩٤٢ م من السكرتير المقيم لحكومة الهند تصف نتائج مباحثات الوكيل السياسي ومراسلاته مع صاحب العظمة السلطان ومعطيا اهتماما لملاحظات السكرتير المقيم بهدف تقديم المساعدة المطلوبة وكما ستلاحظ وزارة الخارجية فان صاحب العظمة السلطان قد وافق على التسهيلات المطلوبة ولكن تحت خمسة شروط بموجبها يتوقف عليها اعطاء التسهيلات . ويعتقد السكرتير المقيم لحكومة الهند أن هذه الشروط عادية ومعقولة ، وقرر أن الوكيل السياسي البريطاني ، ومساعد الوكيل السياسي ، سوف يكونان مسئولين اذا رغبت وزارة الخارجية الامريكية عن تدبير أمور الاشخاص الامريكيين كما يقومون بالنسبة للسلاح الجوي الملكي البريطاني [٣٢] .

واختتمت الرسالة بطلب تعليمات برقية حول ما اذا كانت شروط السلطان مقبولة من عدمه لدى وزارة الخارجية الامريكية ، وانه يجب أن يكون مفهوما انه لن تكون هناك صعوبات في سبيل الحصول على التسهيلات المطلوبة في مسقط على أساس مؤقت ، وأرفق الوزير المفوض الامريكي في نيودلهي برسالته هذه ثلاثة مرفقات هي : ـ

جاء بالمرفق الاول انه في السادس من شهر يونيو ١٩٤٢ م تم ابلاغ المستر ميريل بأن حكومة الهند قد تلقت علما بأن قيادة الدفاع الجوي للولايات المتحدة عازمة على انشاء محطات للتوقف في مطارات بأراضي مسقط للطائرات التي تستخدم خطوط الطيران المارة بجنوب الجزيرة العربية في كل من « صلالة » « ورأس الحد » وربما مصيرة وقد اشير الى وجود اتفاقية للصداقة والتجارة بين حكومة الولايات المتحدة الامريكية وسلطان مسقط المعقودة في ٢١ سبتمبر ١٨٣٣ م واقترح انه

من المناسب لتنظيم ذلك أنه قبل ارسال القوات الامريكية التي ستعسكر في المطارات بأراضي مسقط بأن تعمل حكومة الولايات المتحدة الامريكية على الحصول على الموافقة الكاملة لصاحب العظمة السلطان •

وكان واضحا انه تحقيقا لذلك فان الحكومة البريطانية كانت مهتمة وأخذت على عاتقها مهمة الحصول مسبقا على موافقة صاحب العظمة سلطان مسقط على بناء مطارات ، وأيضا استخدام الطائرات لها ، ووجود فنيين أرضيين من أجل صيانة وحماية هذه المطارات • وكان مفهوما أن مستر « ميريل » قد خاطب وزارة الخارجية بذلك •

وانه قد وصلت الان معلومات من « صلالة » بأن أربعة رجال من شركة بان أمريكان للطيران قد وصلوا هناك وقرروا أنهم جاءوا من أجل انشاء محطة مرحلية لخدمة خطوط طيران بان أميريكان بين الخرطوم وكراتشى ، وان رجالا اخرين من الشركة سيفدون خلال أيام قليلة ومعهم معدات لاسلكية وانهم يتوقعون نقل ركاب لهم صفة الخصوصية حسبما تسمح بذلك الاولويات في سجلات الرحلات الحكومية ، وانهم يرغبون في التفاوض مع سلطان مسقط بخصوص بناء معسكر ، واستخدام عمال محليين ، وتدبير المؤن والامدادات اللازمة •

وجاء بالتقرير أن سلطان مسقط شعر بالقلق من وصول هؤلاء الاشخاص المفاجيء ـ دون سابق انذار ـ وفي نفس الوقت أصر على أن هؤلاء الرجال يجب أن يتم الحاقهم بسلاح الجو الملكي البريطاني وأن يرتبطوا بقوانين سلاح الجو الملكي البريطاني •

ان التقرير المقدم من رجال شركة بان أمريكان للخطوط الجوية في صلالة والذي يحمل رغبة الشركة بنقل ركاب خصوصيين اذا سمحت بذلك سجلات الرحلات الحكومية انما يخالف ما أكده ـ تعهد به ـ الكولونيل لويس جونسون Louis Johnson

الممثل الشخصي للرئيس روزفلت في الهند ، في الاجتماع الذي عقد بادارة الشئون الخارجية في السابع والعشرين من أبريل ١٩٤٢م بأن شركة طيران بان أمريكان انما تعمل تحت ظل ادارة وملكية حربية كاملة وان عملياتها تتقرر كليا عن طريق وزارة الحربية الامريكية ، وأن ذلك لم يحدث شيء منه للان ومن ثم فانه سوف يؤدي او قد يؤدي الى تأكيد أو اثبات أو ترتيب حقوق تجارية (٣٣) .

وجاء بالمرفق الثاني رسالة من الوزير المفوض الامريكي بنيودلهي الى السكرتير المقيم لحكومة الهند المسئول عن ادارة الشئون الخارجية . يشير فيها الى المباحثات التي دارت حديثا بوزارة الخارجية بخصوص إستخدام الطائرات وهيئة الموظفين Psrsonnel في دائرة اختصاص جيش الولايات المتحدة في مطارات «صلالة» رأس الحد ، «مصيرة» و «مسقط» ، ومذكرة السكرتير المقيم الموضحة للموضوع بتاريخ ١٣ يونيو ١٩٤٢م تؤكد هذه الامور .

وأن لديه الان ما يمكن اضافته وهو أن حكومة الولايات المتحدة تطلب من حكومة الهند ان تقوم بجهد مكثف لابلاغ الممثل البريطاني في مسقط ليفاتح صاحب العظمة سلطان مسقط في هذا الموضوع لصالح حكومة الولايات المتحدة . وهذه الرغبة من الحكومة الامريكية تهدف الى الحصول على موافقة صاحب العظمة على تسهيلات لجيش الولايات المتحدة مشابهة لتلك التسهيلات الممنوحة للبريطانيين ، تلك التسهيلات التي تشمل استخدام مطارات مسقط بواسطة طائرات تحت مسئولية جيش الولايات المتحدة ، واقامة اقل عدد ممكن من الاشخاص ، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين ، اللازمين لصيانة الطائرات وتشغيلها ، ولاقامة وتشغيل محطات للارصاد الجوية واللاسلكي .

وأن المعلومات المتصلة بالمهمة الجديدة كما وردت من وزارة الحربية الامريكية والاتية قدمت من أجل امكان الاستفادة منها في تقديم تعليمات لممثل بريطانيا العظمى •

فالبريجادير جنرال فيتزجرالد Brigadir General Fitzgerald من جيش الولايات المتحدة قد تعين ليتولى قيادة العمليات الجوية Ferry في الشرق الاوسط وأفريقيا ، وسيكون تحت اشرافه وادارته المباشرة عمليات شركة بان أمريكان للطيران في هذه المناطق • وان الخدمة المقترحة تعتبر ذات أهمية قصوى لاتصالها بنقل المعدات الحربية الاساسية الى كراتشي ، وفي طيران طائرات النقل ، وعودة الملاحين الجويين •

وانطلاقا من ترتيبات متفق عليها مع وزارة الحربية الامريكية ، فأن شركة بان أمريكان للطيران سوف تشغل رحلات جوية من الخرطوم الى كراتشي لنقل معدات عسكرية واشخاص عسكريين ، وفي الحالات التي يكون فيها الفضاء مهيأ ، وعلى أية حال ، وبعد اتمام عملية نقل المعدات الحربية الاساسية ، فانه من المرغوب فيه أن يسمح للطائرات بنقل أي مسافرين غير رسميين تكون سفرياتهم معينة كضرورة ملحة يقررها ممثلو الولايات المتحدة في المنطقة •

وفي عرض هذا الموضوع على حكومة الهند ، أبلغت بأن أوضح التأكيدات الكبيرة على أهمية هذه الخدمة ـ المهمة ـ الجديدة للدفاع عن الهند(٣٤) •

واما المرفق الثالث برسالة ميريل Merrell فجاء موجها من السكرتير المقيم لحكومة الهند الى المستر ميريل ، بانه ورد له تقرير من

وكيل صاحب الجلالة البريطانية السياسي في مسقط يتعلق بنتيجة مباحثاته ومراسلاته مع صاحب العظمة السلطان ، وأنا أقرر الوضع المناسب لمعلوماتك .

★ وافق صاحب العظمة السلطان بأن يمنح حكومة الولايات المتحدة تسهيلات للقوات الجوية التابعة لجيش الولايات المتحدة مشابهة لتلك التسهيلات الممنوحة حاليا للحكومة البريطانية ، وتشمل بالتحديد استخدام المطارات في أراضي مسقط بواسطة الطائرات العاملة ضمن خدمات جيش الولايات المتحدة ، والاذن بانشاء مباني في « صلالة » و « مصيرة » و « رأس الحد » (وتشمل خورجاراما أو جرَمَه Jarame) وعمل محطات نزول لاسراب الطائرات في تلك الاماكن . ومنح الاذن أيضا بنزول أقل عدد ممكن من الاشخاص اللازمين لتشغيل وصيانة هذه الطائرات ، وانشاء وتشغيل محطات لاسلكي وأرصاد جوية ضرورية لسلاح الجو التابع للولايات المتحدة لتدعيم مثل هذه الخدمات القائمة آنذاك والعاملة بواسطة سلاح الجو الملكي البريطاني Royal Air Force والاتفاقات (الامتيازات) الممنوحة من قبل صاحب العظمة تشمل اكثر من ذلك باعفاء من الرسوم الجمركية كل من البترول وزيوت التشحيم اللازمة لطائرات سلاح الجو التابع للولايات المتحدة الامريكية ، وأيضا للامدادات ، التي يتم تخزينها ، والصالحة التي ترد الى أراضي مسقط واللازمة لتشغيل هذه الطائرات .

★ وقد قرن السلطان تحقيق هذه التسهيلات بشروط معينة وهي كما جاءت في كلماته :

(١) يشترط أن توضح الامور لنا مثل : على من تقع المسئولية ومن يجيب على أي سؤال يثار بخصوص تصرف الاشخاص الامريكيين ... الخ .

(٢) الاقرار ببيع الآتـي للسلطنـة اعترافا بما قدمتـه بمنح هـذه التسهيلات :

(أ) ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠,٠٠٠ صندوق من الذخيرة •

(ب) ٢ مدفع ماكينة بقطع غياره وذخيرة كافية •

(ج) ٢ مدفع يدوي بقطع غياره وذخيرة كافية •

(د) ٢ سيارة لوري حجم متوسط والتي تستخدم بواسطـة العسكريين •

(هـ) بعض المهمات الطبية كما يقـدرها أصدقاؤنا بالحكومـة البريطانية •

(٣) التعهد بدفع تعويض عن أية أضـرار يتسبب فيهـا الموظفـون الامريكيون أو الطائرات وتصيب ممتلكاتنا ، أو الاشخـاص أو ممتلكات رعايانا •

(٤) التعهد بأن الموظفين الامريكيين يقبلـون ويلتزمـون بكـل قوانيننا وأحكامنا المحلية ، كما هي أو ما يتم وضعه ، في تصرفاتهم خاصـة تلك التي تتصل بتعيين الحراس لمعسكراتهم أو لاشخاصهم •

(٥) والتعهد بأن حراس المعسكرات الامريكية وحـراس الاشخـاص الذين نمدهم نحن بهم يجب أن يقبلوا وأن تدفع لهم رواتب •

ومن المحتمل أن أجد مناسبا اضافة بعض الايضاحات حـول هـذه الشروط في ضوء الخبرة التي اكتسبتها حكومة الهند في علاقاتها مـع سلطان مسقط •

★ بالنسبة للشرط الاول (١) فان الحقيقة المؤسفة أن شـكوك السلطان المتوارثة في الاجانب قد تدعمت بتصرفات معينة جعلت صاحب العظمة يعترض على هيئة موظفي شركة بان أمريكان للطيران الذين كانوا

لفترة ما في «صلالة» تحت اشراف وادارة غير كافيين • وينصح الوكيل السياسي بأن صاحب العظمة يتمسك بالاهمية العظمى لهذا الشرط ، وأنه من الضروري ارضاءه تماما بالالتزام بهذا الشرط • وأن حكومة الهند ستكون سعيدة أن تقدم مساعدتها في هذا الامر ، وأنه اذا رغبت حكومة الولايات المتحدة ، فانهم سيكونون مستعدين لاعطاء تأكيد للسلطان بأن وكيلهم السياسي ومساعد الوكيل السياسي في مسقط سوف يمثلان سلاح الجو التابع للولايات المتحدة ، تماما بنفس الدرجة التي يمثلان بها سلاح الجو الملكي البريطاني في علاقاتهم بالسلطان •

والشرط رقم (٢) يتفق مع العادات المألوفة للحكام العرب عند اعطاء تسهيلات في أقطارهم لقوى أجنبية ، وأن حكومة الهند لاتشك أن حكومة الولايات المتحدة سوف تقنع بمطالب صاحب العظمة السلطان • واذا أرادت حكومتك ورغبت في تلقي مقترحات حول نوع وكمية الامدادات الطبية التي تكون مقبولة لدى السلطان فان حكومة الهند ستكون مستعدة تماما لكي تحصل على تقرير من الوكيل السياسي وفي ضو الظروف والاحوال المحلية • ويمكن الاضافة هنا أنه بالنسبة لتأكيدات الوكيل السياسي فان الامدادات بالاسلحة وبسيارات النقل ، والمهمات الطبية ، تلك التي طلبها السلطان يمكن أن تتطلب بعض التأجيل وأن السلطان أبلغه بانه لايعتبر امدادهم بأي حال من الاحوال كشرط مسبق لاعطاء التسهيلات المطلوبة •

والشروط رقم ٣،٤،٥ تؤخذ كأسباب تؤدي الى مصاعب خاصة • ان رجال سلاح الجو الملكي البريطاني قد قبلوا قوانين محلية معينة في سلوكهم في أراضي مسقط وبالنسبة لمسألة تعيين الحراس للمعسكرات والاشخاص فهذه لم تكن باهظة من الناحية العملية كما أن هناك أوامر

صارمة بالنسبة لافراد السلاح الجوي الملكي البريطاني الموجودين في مطارات جنوب الجزيرة العربية في أراضي مسقط •

وبالنسبة للشرط الخامس فان الوكيل السياسي في مسقط سوف يعطى تعليمات لاستخدام نفوذه لضمان الا يلجأ السلطان الى مطالب غير معقولة فيما يتصل بعدد الحراس المحليين الذين يطلب استخدامهم أو بالنسبة للاموال التي ستعطى لهم •

ويطلب السكرتير المقيم معرفة ما اذا كانت شروط صاحب العظمة السلطان مقبولة لدى حكومة الولايات المتحدة من عدمه ، فاذا كان الامر كذلك ومطلوب التوقيع على اتفاق مع السلطان فيجب اخطار الوكيل السياسي البريطاني بمسقط حتى يخبر السلطان بذلك[٣٥] •

وجاءت خاتمة الموضوع ـ موضوع التسهيلات الجوية العسكرية الامريكية بأراضي مسقط ـ في رسالة برقية بعث بها وزير الخارجية الامريكي الى المستر (ميريل) وجاء فيها • لقد أبلغت وزارة الحربية وزارة الخارجية بأنها سوف ترد على الشروط العديدة التي فرضها سلطان عمان كما جاءت في المرفق رقم ٣ في الرسالة المشار اليها • وفيما يختص بالشرط الاول تقرر وزارة الحربية بأن البريجادير جنرال فيتزجرالد القائد العام لجناح أفريقيا والشرق الاوسط ، وقائد النقل الجوي بجيش الولايات المتحدة الامريكية ، مع أركان حربه في أكرا وساحل الذهب البريطانية هو الشخص الذى يمكنه الاجابة على أية أسئلة تتصل بتصرفات الاشخاص الامريكيين • وعلى أي حال فاذا رغب السلطان في وجود شخص في أو قريب من أرض عمان فان وزير الحربية سوف يطلب من فيتزجرالد تعيين ضابط له صلاحية من قيادته •

وبالنسبة للشرط الثاني ، تقرر وزارة الحربية ، أنها في مركز

يسمح لها بتقديم وتسليم الأمدادات العسكرية للسلطان خلال فترة زمنية معقولة وأن على حكومة الهند ـ أن يطلب منها ـ لتعيين نوع وكمية المهمات الطبية لتقديمها • وتعتبر وزارة الحربية الشرط الثالث معقول تماما وتقرر أن الشرطين الرابع والخامس مقبولين مع المحافظة على الأوامر الحكيمة الصارمة فيما يتصل بالنقاط التي يعسكر فيها الامريكيون ومن ثم فانها اذا فسرت بطريقة معقولة فلن تكون هناك عقبات في الوقت الحاضر •

وفي ضوء ما سبق ، فان على البعثة أن تطلب من حكومة الهند لتوجيه وكيلها السياسي في مسقط في أن ينقل عن هذه الحكومة ـ الامريكية ـ التأكيدات أو الضمانات الضرورية للسلطان(٣٦) •

وعند هذا الحد توقفت الوثائق الامريكية ، بقبول السلطات الامريكية لشروط سلطان مسقط وعمان ازاء منح تسهيلات جوية في أراضي السلطنة للطائرات الامريكية خلال معارك الحرب العالمية الثانية ، واستعانة المسئولين الامريكيين بزملائهم البريطانيين في الهند من اجل اعطاء السلطان الضمانات التي طلبها •

ومن الجدير بالذكر أن المناطق التي كانت مثار مفاوضات بين الطرفين من أجل التسهيلات الجوية للطائرات الامريكية باراضي سلطنة مسقط وعمان تركزت على الساحل العماني المطل على البحر العربي مثل سلالة (أوزلالة أو صلالة وهو الاسم الغالب) وجزيرة مصيرة ، وخورجاراما (أو جرما) ومثل رأس الحد عند مدخل خليج عمان •

الهوامش والمصادر

١ ـ د . محمود حلمي مصطفى : سياسة الولايات المتحدة الامريكية تجاه الباشوية المصرية رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠م ـ غير منشورة .

Samuel F. Bemis : Diplomatic History of the United States, p. 176.

2. Brock, W. R. The Character of American History (1965).

3. The American Assembly, Columbia University : The United States and the Middle East (1964), p. 1.

4. De Nova, J. A. : American interests and policies in the Middle East 1900-1939, p. 7.

٥ ـ د . رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥ص ١٦٣ .

....

6. Coupland, R. : Exploitation of East Africa, p. 336.

٧ ـ لوريمر ، ج ، ج : دليل الخليج ، القسم التاريخي جـ٢ ص ٧٢٨/٧٢٧ .

٨ ـ د . ريتشارد ستيفنس : أستعراض لبداية العلاقة الامريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة مسقط وعمان (١٨٣٣ ـ ١٨٥٦م) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد يوليو ١٩٧٧م ـ ص١٢٥ .

٩ ـ نفس المرجع ـ ص ١٢٦ .

١٠ـ لوريمر : نفس المرجع ـ ص٧٢٨ .

11. Coupland : op. cit., p. 374.

١٢ـ د . ريتشارد ستيفنس : نفس المرجع ـ ص١٢٧ .

١٣ـ نفس المرجع ـ ص١٢٨ .

١٤ـ لوريمر : المرجع السابق ـ ص٨٠٨ ٠

15. De Nova : op. cit. p. 40.

١٦ـ د ٠ ريتشارد ستيفنس : نفس المرجع ـ ص١٣٢ ٠

١٧ـ نفس المرجع : ص١٣٤ ٠

18. U.S. Documents, Memorandum prepared in the Department of State (Secret), Washington, March 15, 1946, No. 790.00/4-946-current U.S. policy toward the Arab Principalities of the Persian Gulf and the Gulf of Oman.

19. Sanger, R. H. : Arabian Peninsula, (1954), p. 194.

20. U.S. Documents, Memorandum prepared in the Department of State. op. cit.

٢١ ـ د ٠ صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربي،ص٢٧٧٠

22. U.S. Documents, The Acting Secretary of State (Welles) to the Minister in Egypt (Kirk), Washington, April, 15, 1942 - 9 p. m., No, 890 F. 7962/3 a: Telegram.

23. U.S. Documents, The Minister in Egyp t(Kirk) to the Secretary of State, Cairo, May, 19, 1942 - 7 p. m. (Received May 21-5 : 51 p. m.) No. 890 F. 7962/s: Telegram.

24. U.S. Documents, The Secretary of State (Hull) to the Minster in Egypt (Kirk), Washington, July 7, 1942 - 8 p. m. No. 890F. 7962/11 a : Telegram.

25. U.S. Documents, The Minister in Egypt (Kirk) to the Secretary of State, Cairo, July 14, 1942 - 5 p.m. (Received July 15-5 : 47 p. m.) No. 890 F. 7962/13 : Telegram.

26. U. S. Documents, The Secretary of State (Hull) to the Minister in Egypt (Kirk), Washington, July 18, 1942 - 7 p. m., No. 890 F. 51/51 : Telegram.

27. U.S. Documents, The Minister in Egypet (Kirk) to the Secrety of State (Hull), Cairo, July 24, 1942 - 5 p.m. (Received 6 09 p.m.), No. 890 F. 7962/16 : Telegram.

28. U. S. Documents, The Minister in Egypt (Kirk) to the Secretary of State (Hull), Cairo, July 31, 1942 - 10 p.m. (Received July 31 - 6:03 p. m.) No. 890 F. 7962/18 : Telegram.

29. U.S. Documents, The Charge in Saudi Arabia (Moose) to the Secretary of State (Hull), Jidda, August 29, 1942 - 6 p. m. (Received August 31 - 9 : 02 a.m.), No. 890 F. 7962/27 : Telegram. (Repeated to Cairo).

٣٠ـ د ٠ جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ ـ ١٩٤٥م ، ص٣٦٣ ٠

٣١ ـ نفس المرجع ص٩٠٥ ٠

32. U.S. Documents, The Officer in Charge at New Delhi (Merrell) to the Secretary of State (Hull), New Delhi, August 23, 1942 (Received September 14, 1942) No. 26, No. 811. 248/720.

33. U.S. Documents, Enclosure 1, The Joint Secretary to the Government of India in the External Affairs Department (Weightman), to the American Office, in Charge at New Delhi (Merrell,), Aide-Memoire, (File copy not signed) Joint Secretary to the Government of India, New Delhi, 13 June 1942.

34. U.S. Documents, Enclosure 2, The American Officer in

Charge at New Delhi (Merrell) to the Joint Secretary to the Government of India in the External Affairs Department (Weightman), No. 20, New Delhi, July 8, 1942.

35. U. S. Documents, Enclosure 3, The Joint Secretary to the Governments of India in the External Affairs Department (Weightman) to the American Officer in Charge at New Delhi (Merrell), No. 7195-X142, New Delhi, 21 August 1942.

36. U. S. Documents, The Secretary of State (Hull) to the Officer in Charge at New Delhi (Merrell). Washington, November 4, 1942, 6. p. m., No. 811. 248/720 : Telegram.

من هم اقدم سكان الساحل العربي في الخليج منذ فجر التاريخ حتى ظهو الاسلام

هل يصح وجود الفينيقيين بين سكان الخليج كما يقول المؤرخون ؟

جعفر الخليلي

يمتد شاطىء الساحل العربي من الخليج في التاريخ القديم من مصب دجلة والفرات • وكان مصب هذين النهرين يقع بالقرب من (اور) الكلدانية القديمة ، وعلى مقربة من مدينة (الناصرية) الحديثة اليوم •

وكانت دجلة في الالف الثالث وما قبله ق•م• تصب وحدها في الخليج ، كما يصب الفرات وحده رأسا دون ان يلتقي النهران كما هما يلتقيان اليوم في (القرنة) ويصبان في شط العرب •

والخليج اليوم اقصر طولاً مما كان في العهود القديمة في ايام (السومريين) وما قبلهم لان دجلة والفرات قد غمرا بما يحملان من الغرين والترسبات ما يقرب من ٢٦٠ او ٢٨٠ كيلو مترا من شاطئيهما[١]•

اما مستوى سطح الخليج فقد هبط على رأى بعضهم زهاء ١٠ـ٥ اقدام خلال الفي سنة ، وقد تراجعت مياه البحر في هذه السنين[٢] ويتجه الساحل العربي المقابل للساحل الفارسي من الشمال الغربي الى الشرق حتى يبلغ امتداده نهاية (عمان) والغالب ان ارض هذا الساحل المجاورة

---

(١) العصور القديمة ـ الدكتور جيمس هنري بريستد ، خط الامريكانية بيروت ص ٨٠ •

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي ط (١) ص ١١٦ •

للبحر مالحة ، ولا تخلو من السباخ ، وتقل فيها المياه العذبة باستثناء بقاع وجزر سنشير اليها فيما بعد .

وان ما وراء هذا الساحل من الغرب كثبان ورمال وتلال ، كما تتخللها سهول واودية تجري فيها مياه الامطار ، وفي السنين التي يكثر فيها المطر تظل المنحدرات والاودية والمنخفضات من الارض تحتفظ بالمياه لمدة قد تطول ، وتجعل امطار الربيع من سهولها ارضا صالحة للمرعى اذ تكثر فيها الحشائش والازهار والنباتات البرية الى ان يأتي الصيف على اغلبها فتجف الاودية ، وييبس النبات وهكذا حتى ترتبط بقلب جزيرة العرب من الغرب .

« اقاليم الجزيرة العربية »

قسم الجغرافيون العرب اقاليم الجزيرة العربية الى خمسة اقسام هي الحجاز ، ونجد ، واليمن ، وخصوا القسم الرابع بعمان والخامس بالبحرين التي يكاد اسمها وفي ايام العرب خاصة يشمل ساحل الخليج الجنوبي كله بل وما وراءه ، فقد قال هؤلاء الجغرافيون العرب ، ان اسم البحرين يشمل ساحل بحر الهند الذي سمي بالبحر العربي بين البصرة وعمان ، ومعنى ذلك ان هذا الساحل الذي تقوم اليوم عليه الكويت والحسا ، والقطيف ، ودولة قطر ، ودولة الامارات العربية ومدنها ودساكرها وسلطنة عمان كان كله يسمى باسم واحد ويسمى باسم البحرين في ايام العرب .

وقد روى ياقوت ان صاحب الزيج قد عد هذا الاقليم المسمى بالبحرين في الاقليم الثاني وقال ان طوله اربع وسبعون درجة وعشرون دقيقة من المغرب ، وعرضه اربع وعشرون درجة وخمس واربعون

دقيقة ، كما روى ان هذا الاقليم عند قوم اخرين انه من الاقليم الثالث(٣) ويعرف المقدسي الاقليم الثاني بانه الاقليم الذي يكون فيه الظل اذا استوى الليل والنهار عند الظهيرة قدمين وثلاثة اخماس القدم وقال ان من المدن التي تقع في هذا الاقليم مكة ، ويثرب ، واسوان ، وبلاد النوبة ، وطائفة من بلاد السند والهند ـ وفي ضمن هذا يمكن ان يجيء ساحل البحرين •

واما الاقليم الثالث فقد عرفه المقدسي بان اوله حيث يكون ظل نصف النهار ، ثلاثة اقدام ونصفا وعشرا وسدس عشر قدما ، واخره حيث يكون ظل الاستواء فيه نصف النهار في وسط اربع عشرة ساعة ، ووقع وسطه من مدين شعيب في شق الشام ، وصارت بغداد ، وفارس ، وقندهار الهند ، والاردن ، وبيروت ، في حده الادنى ، كما تقع فيه الكوفة ، والبصرة ، وغيرها من المدن (٤) ، ومن الممكن على هذا التعريف ان نعد ساحل البحرين مشمولا بالاقليم الثالث مثلما عددناه مشمولا بالاقليم الثاني •

من اين يؤخذ تاريخ هذا الاقليم ؟

تاريخ هذا الاقليم القديم ـ اقليم الساحل العربي من الخليج ـ لايزال مجهولا من الوجهة العلمية ، وليس بامكان المؤرخين أن يصلوا الى شي يخص طبيعته الموغلة في القدم • كما ليس من السهل الوصول الى طبيعة سكانه القدماء واجناسهم ولا سيما في الالف الرابع قبل الميلاد وما قبله ، بل وكان من الصعب الوقوف تماما على تاريخه حتى في الالف الثالث والثاني ، ذلك لان طوارىء طبيعية بسبب التضاريس ، والتآكل من جهة ، وانحسار مياه الشواطىء من جهة اخرى دعت الى تغير معالم

---

(٣) معجم البلدان ـ ياقوت الحمودي ـ مادة البحرين •
(٤) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ للمقدسي •

هذه الارض مـــن حسن الى سيء ومن اسوأ الى احسن ، ولـم تكن هناك آثار ونقوش وكتابات الا الشيء الذي يكاد لا يذكر من الكتابات المتأخرة بعكس تاريخ العراق ، فارس ، ومصر القديمة الذي تألفت منه سلسلة تكاد تكون محكمة الحلقات عن تاريخ هذه الاقطار وامثالها ، ولم يأتنا عن هذا الاقليم الا اخبار مقتضبـة لا تتجاوز الظنون والاحتمالات باستثناء النزر اليسير الذي حققته النقوش والالواح التي عثر عليها فـي الاطلال السومرية والاكدية والبابلية فجاء ذكر جوانب من هذا الساحل عرضا ، ويحصر المؤرخون المصادر المعول عليها لاستخراج تاريخ جزيرة العرب القديم اجمع ومن ضمنه تاريخ هذا الساحل في اربعة مصـادر وهـي : ـ

١ ـ النقوش والالواح •

٢ ـ التوراة والاساطير •

٣ ـ ما خلفه اليونانيون والسريانيون من الذكر فـي كتاباتهم ، واشعارهم ورحلاتهم وقصص الملاحم •

٤ ـ المصادر العربية التي دونت بعد ظهور الاسلام فحكت جانبـا من تاريخ الجزيرة واخبار قبائلها وسكانها •

وما عدا هذا فكل ما يروي لا يخلو مـن التكهنات ، والحكايات ، والاساطير عن تاريخ جزيرة العرب وفي ضمنه تاريخ هذا الاقليم الـذي الذي نحن بصدد الاحاطة بسكانه القدماء على قدر الامكان •

من اهم المصادر القديمة

ومن اهم المصادر القديمة التـي يعتمدها المؤرخون ما كتبـه (هيرودیت) (٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق•م) وتاريخ (ديودور الصقلي) فـي القرن الاول ق•م وجغرافية (سترابو) حوالي (٥٠ ق•م) وتاريـخ

(فلاڤيوس جوزيف) القرن الاول الميلادي ، واشعار (هوميروس) في الالياذة والاوديسة ، والتوراة التي تحوي الكثير من الاساطير ومنهـــا (جنة عدن) التي دلت الآثار المكتشفة والكتابات على موقعها في الخليـــج وفي (دلمون) وهي البحرين ، وان التوراة قد نقل خبرها من اخبار بابل فعينها في (عدن) ، وما كتبه ايزيب الملقب بابي التاريخ الكنسي والذي قصر كتبه على الاديان في القرن الرابع الميلادي •

ومن المصادر ايضا ما نقلوه من اخبار (سانخو نياتون) ومن غـــير هذه المصادر [٥] ولكن المعول كله في تسجيل تاريخ الجزيرة العربيـــة واقليم الشاطىء العربي من الخليج انما يكون على الاشارات والحكايات الواردة في النقوش والاثار والالواح كما مر ، وهو وان لم يكن كافيـــا ولكنه قد يعطي فكرة عامة أو خاصة أو بعض فكرة على الاقل عن تاريخ هذا الاقليم •

أهم المصادر العربيـــة

وان المصادر العربية التي ورد فيها ذكر يخص تاريخ اقليم الخليج العربي الجنوبي قبل ظهور الاسلام وبعده كثيرة ، وقد اورد عبدالرحمن عبدالكريم النجم في مقدمة كتابه (البحرين في صدر الاسلام واثرهـــا في حركة الخوارج) اهم هذه المصادر من الكتب ، فذكر (البلاذري) و (الدينوري) و (اليعقوبـــي) و (المسعودي) و « الطبري » و « ابن الاثير » و « ابن خلدون » وغيرهم مـــن المؤرخين الذين ورد شيء من تاريخ (البحرين) بصفتها قاعدة هذا الاقليم ، في كتبهم •

ومن الكتب الجغرافية التي تناولت حدود البحرين ، أو وصفهـــا

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي ، ص ٦ ـ ٨٥ •

ومناخها وسكانها ذكر (بلاد العرب) لغذة الاصفهاني وكتاب (المناسك) واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة المنسوب (للحربـــي) و (الاعلاق النفيسة) لابن رسته و (مسالك الممالك) للاصطخري وكتاب (البلدان) لابي الفقيه الهمداني و (كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي و (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، كما ذكر من الرحلات (سفـــــر نامه ناصر خسرو) ورحلة (بنيامين التطيلي) ورحلة (ابن بطوطة) •

ومن كتب الانساب جاء ذكر كتاب (جمهرة النسب) لابن الكلبي ، وكتاب (جمهرة انساب العرب) لابن حزم ، وكتاب (الانباه على قبائل الرواه) لابن عبد البر [٦] وغير ذلك من هذه الكتب التي يمكـــــن اعتمادها في معرفة هذا الاقليم معرفة كافية عن العرب الذين سكنوه قبل الاسلام وبعده ، والتي اشار اليها الدكتور جواد علي في كتابه •

وهناك عدد من الكتب المتأخرة فيما يخصـــص التاريخ والرحلات والتحقيقات عند الرحالة الاجانب والمنقبين والجيولوجيين ، وكتب بالعربية منها كتاب (البحرين درة الخليج العربي) وكتاب (البحرين في صـدر الاسلام واثرها في حركـــــة الخوارج) ، و (عروبة البحرين) وكتاب (البحرين من امارات الخليج العربي) وغيرها من الكتب التـــي جمعت الكثير من حلقات البحوث عن هذا الساحل في سلسلة واحدة كان لهـــا الفضل في تسهيل مهمة الباحثين •

واهم هذه الكتب المتأخرة المستوعبة لابحاث الباحثـين والمستشرقين

---

(٦) (أ) البحرين في صدر الاسلام واثرها في حركة الخوارج ـ المقدمة •
(ب) العرب قبل الاسلام ـ ج (١) ص ٦ـ٨٥ •
(ج) لاحظ معجم الاعلام ، وفهرست الكتب المصنفة ، مـــن فهرست ابن النديم •
(د) معجم البلدان •

والمنقبين في جزيرة العرب جمعاء ومنها اقليم الساحل هـو (كتاب العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي •

أول من سكن هذا الاقليم

وندخل التاريخ على اضواء كل هـــذه المصادر لنتعرف بأول قوم وجدوا في هذا الاقليـــم ، فنرى اننا لا نستطيع أن نتجاوز الالف الثالث قبل الميلاد الا قليلا ، اذن من هم سكان هذا الاقليم في الالف الرابـع أو قبله من الاجناس ؟ •

لقد كثر البحث في الساميين ، والساميون شعب واحد نسبوا ابوتـــه الى سام بن نوح وتفرعت منه شعوب وقبائل متفرقة ، ولقـــد ردتهم الى الاصل السامي اشكالهم وهيئة جماجمهم ، وعاداتهم ، ووجود بعضـــ الجذور من اللغة (الام) السامية في لغتهم ، ولاول مرة وفيما يقرب مـــن منتصف القرن التاسع عشر الميلادي اطلق عليهم اسم (الساميين) لاول مرة حين وجد المؤرخون ما يجمع بينهم من اللهجات وجزور اللغة وتعريفها ، وقسموهم الى مجموعتين :

المجموعة السامية الشمالية •

المجموعة السامية الجنوبية •

والمقصود بالشمالية الكنعانية والفينيقية وبقية سكان الهلال الخصيب اما السامية الجنوبية فهي العربية والحبشية •

وفي موطن الساميين الاول بحوث واراء متضاربة ، منها ان موطـــن الساميين الاول هو ساحل البحرين ، وان جميع الشعوب السامية قـــد تسللوا من هذا الاقليم الى جميع الاقاليم ، ومن حملة هذا الرأي الباحث المستشرق (كيتاني) وبناء على رأيه هذا فان هذا الساحل كان موطنـــا للساميين منذ ابعد التواريخ والى ايام سام بن نوح واحفاده • !! غـــير

ان هذا الرأي يفنده البحاثون الاخرون ومنهم الباحث (موسل) ويروي ان موطن الساميين الاول هو الجنوب من جزيرة العرب المشخص باليمن ، ولا يوافق (موسل) هذا على هجرة الشعوب السامية والقبائل من شرق الجزيرة الى الشمال ويأتي بآراء اصوب من آراء (كيتاني) يرد فيها على (كيتاني) بكون أن رأيه هذا لا يستند على اسس طبيعية ، ولا جغرافية ، وانه مجرد رأي لا يمكن أن يكون حجة [7] .

و (موسل) هذا ممن ينكر انطلاق العبرانيين من جزيرة العرب ، وهو رأي تبناه الدكتور احمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ) صحيح انه ليس هناك من دليل على اعتبار اقليم الساحل العربي والشمال منه من ضفاف الرافدين على الاقل الموطن الاول الموغل في التاريخ للساميين ولكنه يصح ان يكون هذا الاقليم اي الساحل العربي من الخليج من المواطن القديمة جدا لسكنى الساميين الامر الذي حدا بمستشرق شهير مثل (كيتاني) ان يجزم بأنه الموطن الاول للساميين .

وليس لدينا من دليل على وجود السامية في هذا الاقليم قبل (السومرية) فاذا صرفنا النظر عمن سكن هذا الاقليم اولا ، أهم السومريون أو الساميون العرب ؟ فأننا لا نستطيع ان نصرف النظر عن الهجرة السامية من الجزيرة الى الجهات الاخرى ومنها هذا الاقليم بسبب الدواعي التي حتمت هذه الهجرة على الساميين وعلى العرب منهم ، والتي بلغت شدتها بين سنة (٢٥٠٠) و (١٥٠٠) قبل الميلاد ، وهذا ما يؤكد لنا ان الساميين والسومريين كانوا معا يوم امتد نفوذ السومريين على هذا الساحل دون الجزم كليا بأي الشعبين كان اول من سكن هذا الاقليم ، وان كان السومريون هم اول من يتحدث عنهم التاريخ في هذا الاقليم .

---

(٧) تاريخ العرب قبل الاسلام ج (١) ص ١٦٣ .

السومريون

والسومريون : جنس ابيض ولكنه لا يمت الى الآريين ولا الى الساميين ، ولم يستطع المؤرخون ان ينسبوهم الى جنس معين معروف لاختلاف هيكل جماجمهم واختلاف عاداتهم التي تلزمهم بحلق رؤوسهم ، ولبسهم الثياب القصيرة ، وكانت ثيابهم هذه من الصوف الخشن الذي ربما كانت تفرضه عليهم سكناهم الجبال ثم ظلت تلازمهم حتى بعد نزولهم الى رأس الخليج العربي من مواطنهم الجبلية في شرقي وادي الرافدين • وكانوا يستعملون الادوات الحجرية ، كما ظهرت صورهم في الآثار القديمة من العصر الحجري •

ونزل السومريون سهول العراق عند رأس الخليج فيما قبل اربعة الاف سنة قبل الميلاد ، ولما كانت ضفاف نهر دجلة عالية يتعذر سقي الاراضي منه بدون واسطة فقد نزلوا ضفاف الفرات ، وجففوا الارض وسوروها ، ولما كان الفرات يحمل الشيء الكثير من الغرين والطمي في موسم الفيضان فقد تيسر لهم ان يفيدوا من هذه السهول •• والشواطي في زراعة الحبوب وعلى الاخص القمح الذي قيل ان بذوره قد جاءتهم من مصر ، وقد برعوا في الزراعة ، وتفننوا في الادوات التي تستعمل لهذا الغرض ، ونسب لهم المؤرخون ابتكار العجلات والدواليب المستخدمة في الاثقال والعربات ، وما لبث ان انتشرت لهم قرى ودساكر على ضفاف الانهار ، واحسنوا العناية بتربية البقر والغنم ، ولم تقتصر اعمالهم على الزراعة وحدها ، وانما شملت التجارة والصناعة ودعيت منطقتهم باسم (سومر) •

والمهم في الامر ان حكام السومريين كانوا يرون أن من جملة وظائفهم تعهد الزراعة بانفسهم ، ويقول (بريستد) : « ولولا عناية

الحكام بالارض واشرافهم بالذات على اصلاحها لماتت الزراعة ومات يومها السكان جوعا » .

وكما دلت الاثار على براعة السومريين وتفننهم في الزراعة والاستنبات فقد دلت الابحاث على براعتهم في البحث عن النحاس ، وعن طريق الحصول على هذا المعدن عرفوا كيفية خلطه بالقصدير والحصول على البرنز ، ولا يبعد ان يكون تمركزهم في البحرين التي كانت تسمى بـ (دلمون) ليس بسبب المياه الوفيرة والعيون الصالحة للشرب والزراعة بمختلف أنواعها وحده وانما للنحاس الذي اشتهر به البحرين (دلمون) كل الاثر في نزول السومريين بهذا الساحل فقد كانوا يتاجرون بالنحاس ويقايضون بمختلف انواع السلع مما يحصلون عليها من (دلمون) كالحجر والخشب ، والمعادن الثمينة ، ومن المواد التي كانوا يحملونها ويتاجرون بها قد شيدوا (الزقورة) الشهيرة ، لما جاء في رقعة الحضارة سومر وبابل .

وصيد اللؤلؤ كما يستبان قديم في البحرين ، ويستدل الباحثون على قدمه من وجود الاصداف المتحجرة التي ترجع الى عهود بعيدة ، ويقول (بلايتي) العالم : ان صيد اللؤلؤ قد عرف فيما قبل القرن الرابع ق.م. « وقد عثر على لوح حجري مسماري في منطقة (اور) الكلدانية ينص على أن كيسا يحتوي على (عيون السمك) قد جلب من أرض (دلمون) ـ البحرين ـ فاذا كانت هذه (العيون) تعني اللؤلؤ فان الانسان كان يسعى الى استخراج المحار منذ القدم وقبل ذلك الوقت . ولعل حباته الجوهرية البراقة كانت تستعمل لتزيين بشرة الحسان السمراوات من نساء سومر واكد واشور وبابل »[٨] .

---

(٨) البحرين من (امارات الخليج العربي) (مطبعة المعارف ببغداد) (ص) ٢٠ .

والحضارة وان كانت في النصف الاول من الالف الرابع قبل الميلاد حضارة واحدة موزعة في نواحي كثيرة من البحر الابيض الى افغانستان شمالا ، والى حوض نهر السند جنوبا [٩] فان لحضارة سومر طابعا خاصا ظهر جليا فيما ترك السومريون من آثار ، وان من المسلم به ان الحضارة السومرية قد شملت عددا غير قليل من المدن التي اسسوها على شاطيء الخليج فكانت مواقع هذه المدن تؤلف قوس دائرة يقابل شاطيء الخليج الشمالي والتقاء الماء بالارض ، وكانت تلك المدن قديما مدنا بحرية اما اليوم فهي مدفونة في رمال الصحراء ، ولما اجريت الحفائر في هذه المواقع العريقة في القدم بلغت كما ـ يقول ج ٠ كونتنو ـ الى حقيقة يقينية هي ان الحضارة في فجر العصر القديم كانت سومرية ليس الا [١٠] ويضيف (كونتنو) فيقول : ان الضخامة التي بلغتها البحرية في الشرق القديم امر ثابت تدعمه اللوحات السومرية الخاصة بالملاحة ، ثم ان وفرة المصطلحات الفنية البحرية فيها دالة على الدرجة العالية التي بلغتها هذه الصناعة ، وتثبت وضوح هذه الاصطلاحات ، كما تدل سعة مراكب النقل على ان هذه السفن لم تكن مقصورة على الملاحة في القنوات بل كانت قادرة على الملاحة على طول الخليج [١١] ٠

وان هذا الذي استخرج من الالواح والنقوش وما سنورده فيما بعد يثبت ان ساحل هذا الخليج كان (سومريا) ، وان المدن والقرى التي قامت عليه كانت سومرية ، وان الساميين العرب كانوا من اقدم من

---

(٩) الحضارة الفينيقية ـ تأليف ج ٠ كونتنو ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ، شعيرة ، وتحقيق الدكتور طه حسين (ص) ١٧٢ ٠

(١٠) الحضارة الفينيقية ـ تأليف ج ٠ كونتنو ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي شعيرة ، وتحقيق الدكتور طه حسين ٠

(١١) المصدر المتقدم ٠

استوطنوا هذا الساحل ونزلوا مدينة (دلمون) التي سميت فيما بعد بالبحرين ، كما نزلوا سائر المدن السومرية الاخرى واوديتها وسهولها الخصبة ، وسكنوا هذه البقاع وبنى المتحضرون منهم حضارة زاهية على اسس الحضارة السومرية ، ولم يزالوا منذ القدم حتى اليوم هم سكان هذا الساحل واصحابه بعد ان دالت دولة السومريين وذاب شعبهم في الشعب السامي العربي أولا ، والشعب العربي مطلقا يوم عادت القواعد توحد لغتهم العربية وتقضي على اللهجات التي باعدت بينهم وبين لغة الام •

ويستدل من آثار السومريين والاكديين ان هناك قاعدة بين كل مدن الساحل ودساكره وقراه لها وحدها الاهمية الكبرى ، وقد عين الباحثون محلها في الموقع الذي كان يسمى (تدوكي) كما ورد هذا الاسم في الاثار السومرية والاكدية ، ثم جاء ذكر (دلمون) بعد ذلك في هذا الموقع أي (البحرين) وقد وجد في الكتابات المسمارية في اثار العراق من الاسماء والرموز ما يستدل به على ان (دلمون) كانت لا تزال قائمة في الالف الثاني قبل الميلاد كمدينة ذات شأن واهمية بين المدن المعروفة، ونعتقد ان هذه الاهمية التي كسبتها (دلمون) القديمة أو (البحرين) الحالية انما هي نتيجة كثرة عيون المياه في ذلك الزمن وكثرة البساتين والاشجار والنعمة الوافرة ووجود النحاس والاخشاب واستخراج اللؤلؤ حتى لقد نعتها السومريون بالفردوس ، وقال البعض ان المقصود بها جنة عدن •

ودلمون جزيرة تحيط بها المياه وقد ذكرها سرجون ٧٢٢ ـ ٧٠٥ قبل الميلاد ، كما ذكرها (آشور بانيبال) ، ويفهم من اقوالهما انها جزيرة في البحر وان المساحة التي ذكرها (سرجون) بين (دلمون) ومصب نهر الفرات تساوي ما كان بين البحرين ومصب الفرات ،

وهذا ما يفند اقوال الذين عينوا (دلمون) في مواقع اخرى غير البحرين.

ونقل محمود بهجت سنان عن (تاريخ العرب قبل الاسلام) : ان (هومل) قد اشار الى نص ارخ نحو سنة ٤١٧ ق.م وهو نص بابلي ورد فيه اسم ارض دعيت (بردسيو) وهي تقابل كلمة (بلداش) في العبرانية ، وكلمة فردوس في العربية . وان هذا الفردوس يقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين (ماجان) التي هي (مجان دبان) و (بيت نيسانو) التي هي في جزيرة (دلمون) ، وقد حملت هذه التسمية بعض العلماء على التفكير في ان ماورد عن (جنة عدن) في التوراة انما اريد به هذه المنطقة التي تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب ، وعلى سواحل الخليج ، وهذا ما يثبت رأي الذين يعتبرون (دلمون) هي البحرين ، لاسيما وقد جاء وصفها بانها جزيرة تحوطها المياه وبذلك يفند رأي الذين ينكرون ان تكون (دلمون) هي البحرين .

وفي اخبار سرجون الاكدي انه غزا (دلمون) واضاف الارضين المتاخمة الى ملكه ، وان سرجون نفسه يفاخر بانه وصل غابة الارز وجبل القصة (طوروس) وانه جعل سفن (ملوخا) - بلاد العرب - وسفن (ماجان) - عمان - وهي مورد النحاس ، وسفن (دلمون) - جزر البحرين - تلقي مراسيها عند الرصيف امام اكد مما يدل على ان لهذا الساحل سفنا كانت تمخر عباب الخليج العربي حتى تصل الى (اور) .

ويقول ابنه (مانشتوسو) ان سيطرته امتدت حتى مناجم الفضة ، وانه اخذ الحجارة من جبال البحر الادنى لعين (الخليج العربي) وذلك عام ٢٠٠٠ ق.م .

دلون والفردوس

وفي كتاب (الواح سومر) ما يؤكد كون ان (دلمون) كانت تتمتع بكل الخيرات من ثمرات الارض ونعمتها حتى نعتت بالفردوس ، وهي

غاية ما تنعت به ارض مفعمة بالخير والبركات ، فقد جاء في قصيدة سومرية كانت مؤلفة من ٢٧٨ سطرا وهي منقوشة في لوح مؤلف من ستة حقول ، وهو محفوظ الان في متحف جامعة (بنسلفانيا) ويوجد نص مكرر للنص الاول في متحف (اللوفر) سبق ان تعرف عليه (ادوارد كيبرا) ، ويمكن ايجاز موضوع هذه الاسطورة السومرية عن (الفردوس) التي تدور حول الآلهة دون البشر على الوجه الاتي(١٢) .

« كانت بلاد (دلمون) ــ وهي المقصود بها البحرين ــ ارضا طاهرة مشرقة نظيفة ، ارضا معدة للحياة ، وكانت لاتعرف المرض ولا الموت ولكن مع هذا كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات ولذلك نجد اله الماء السومري العظيم (انكى) يأمر (ادتو) آله الشمس أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الارض ، وهكذا تحولت (دلمون) الى حديقة آلهية خضراء بالحقول الملأى بالاثمار والمروج والرياض ، وفي هذا الفردوس الآلهي جعلت الآلهة (ننخرساج) ثمانية انواع من النباتات تنمو وتزدهر ، وان (ننخرساج) هي (الالهة الام) عند السومريين ــ ولعلها الارض الام في اصلها ــ لم تفلح في ان تظهر هذه النباتات الى الوجود الا بعد عملية معقدة شملت ثلاثة اجيال من الالاهات ولدن كلهن من اله الماء » .

... القصيدة ان ولادتهن قد تمت بدون ادنى الم عند المخاض ، ولكن (انكى) وهو اله الماء السومري العظيم ــ اراد ان يذوق طعم تلك النباتات ، فأمر رسوله المسمى (ايسمد) وهو الاله الذي يمثل (بوجهين) ان يقتطف لــه تلك النباتات العجيبة ، حيث قدمها لسيده

---

(١٢) كتاب (الواح سومر) تأليف صموئيل كريمر ــ ترجمة الدكتور طه باقر ، ومراجعة الدكتور احمد فخري .

الذي اكل منها واتى عليها كلها بالترتيب ، ولما علمت (ننخرساج) ـ ام الالهة ـ بالأمر ... غضبت ، ونطقت بلغة الموت على الاله (انكى) ولكيلا تغير في قرارها اختفت من بين الالهة .

والراجح ـ كما مرّ من قبل ـ ان يكون الفردوس الذي جاء ذكره في التوراة هو الفردوس السومري ، أي (دلمون) ، فهي اسطورة نقلتها التوراة من الاثار السومرية .

صفات دلمون

واقتبس (صموئيل كريمر) من القصيدة السومرية المنقوشة في اللوح صفات وصف بها (دلمون) باعتبارها ارض الخلود التي لايوجد فيها مرض أو موت ، وكان بعض ما اقتبس (كريمر) ما يلي :ـ

في دلمون لا ينعق الغراب الاسود .
ولا يفترس الأسد احدا
ولا يفترس الذئب الحمل
ولم يعرف بدلمون الكلب المتوحش الذي يفترس الجدي
ولا احد يقضي على العلة
ولا توجد في دلمون ارملة
وان الحمامة لاتحني رأسها
وليس فيها ـ أي في دلمون ـ ارمد يشكو من عينيه
ولا من يشتكي الصداع
حتى ان عجوز دلمون لايعتورها العجز
ولا تدرك الشيخ الشيخوخة
والمنشد لايعول بالرثاء[١٣]

---

(١٣) مقتبسة من (الواح سومر) ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

الساميون العرب والهجرة

يرى الباحثون في اصول اقوام الشرق الادنى ان اسلاف سكان الجزيرة العربية كانوا يتمتعون في الاصل بحضارة قديمة في الطرف الغربي الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، وقد كانت بلادهم في تلك الازمان عامرة بانهارها الدائمة الجريان وبامطارها الغزيرة الدائمة الهطلان ، الا انها تعرضت الى تغييرات مناخية في نهاية العصر الجليدي الاخير في حدود ٢٠٠٠٠ (عشرين الف سنة) قبل الميلاد الامر الذي ادى الى انحباس الامطار ، واندثار الانهار ، حتى اخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي مما اضطر الانسان والحيوان الى الهجرة ، ومنها اخذوا يتوزعون على اطراف الجزيرة وما يحاددها مما يلتمسون فيه لهم ولحيواناتهم الحياة الرفيهة من حيث الماء والزرع والمرعى في موجات متعاقبة ، وفي ازمان متقاربة حيناً ومتباعدة حينا اخر حسب مقتضيات المعيشة والضرورة التي تدعوهم الى الهجرة[١٤] فمنهم من توجه نحو بلاد الرافدين ، ونحو الفرات بصورة خاصة ومنهم من استقر في فلسطين وفي سوريا ولبنان ، وهناك من توجه غربا نحو طور سيناء واطراف وادي النيل الاسفل الشرقي •

وليس من شك وقد مرّ وصف طبيعة اقليم الساحل ـ ساحل الخليج العربي الجنوبي ـ وما يتمتع به من النعم حتى اطلق عليه السومريون وعلى قاعدته (دلمون) التي سماها العرب بعد ذلك بالبحرين اسم (الفردوس) المحفوف بالخير والبركات والمياه العذبة والاشجار والنباتات حتى جاز للاساطير ان تنسب لـه الامان من الشرور للانسان وللحيوان فتزعم هذه الاسطورة ان الامن وسعادة الانسان والحيوان بلغت درجة ان الاسد لايفترس احدا في هذا الفردوس ، وان الذئب لايفترس

(١٤) الملخص لكتاب (العرب واليهود في التاريخ) جعفر الخليلي ص٢٧ •

الحملان ، بل ولا يشيب المرء في (دلمون) ، ولن تهدد الشيخوخة حياة الانسان ... الخ[١٥] .

وفي معجم البلدان ، برواية للحسن عن رسول الله (ص) قوله : (من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان) ، وهذا دليل على ما كانت عليه عمان التي اعتبرت ضمن اقليم البحرين من الرخاء .

وكانت (اليمامة) التي الحقها البعض بالبحرين او بجوار اقليمها على الاقل قد قيل عنها انها « احسن بلاد الله ارضا ، واكثرها خيرا ، وشجرا ونخلا » .

واذا صعب علينا أن نعيّن تاريخ الهجرة السامية العربية الى ساحل الخليج لاول مرة لعدم وجود مصادر علمية يركن اليها فليس من الصعب ان نجزم بان دواعي الهجرة من جزيرة العرب قد ساقت طوائف من الساميين العرب الى هذا الاقليم وتم اختلاطهم بالسومريين حتى ذاب بعضهم في بعض مثلما ذاب (السومريون) المجهولو الجنسية في الفرات بالبابليين الساميين وصار هذا الساحل موطنا للساميين العرب الذين تأثروا بحضارة السومريين منذ ابعد الاجيال التي لم تحددها المصادر العلمية بعد كما مرت الاشارة الى ذلك .

وهناك ادلة كثيرة على قدم الساميين العرب في هذا الاقليم ، ففي معجم البلدان عن الزجاجي ان (عمانا) انما سميت (عمانا) فلانها منسوبة لعمان بن ابراهيم الخليل ، اما ابن الكلبي فينسبها الى (عمان) حفيد ابراهيم الخليل .

وان (المشقر) حصن بناه (طسم) .

---

(١٥) الواح سومر ص ٢٤٥ .

وان اسم (اليمامة) التي نسبها بعض المؤرخين الى اقليم البحرين انما سميت باليمامة نسبة الى اليمامة بنت سهم بن طسم ، وان طسم وجديس كما يقولون هما من ولد الازد بن ارم بن لاوذ بن سام بن نوح وقد اقاما باليمامة ، وسواء كانت هذه الاخبار ضربا من ضروب الاساطير أو لم تكن فهي تصلح ان تكون دليلا لما كان يجول في الاذهان على الاقل .

واصل كلمة (هجر) التابعة للبحرين كما يجوزه ياقوت الحموي ان يكون من الهجرة ، واصل خروج البدوي من باديته الى المدن وهو بلغة حمير والعرب العاربة يعني القرية .

وفي تاريخ (العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي ان المنقبين على المقابر في البحرين عثروا على بعض الاسلحة البرنزية ، والمؤرخون يذهبون الى احتمال رجوع هذه القبور الى العصر البرنزي في الالف الثالث قبل الميلاد ، وان هؤلاء المدفونين قد وردوا من الاقسام الجنوبية الغربية من بلاد العرب حيث موطن الهجرات السامية .

وسادت اللغة السامية هذا الاقليم بعد ما زال العصر السومري ولكن اثارا من الحضارة السومرية وبعض النظم الادارية بقيت متغلغلة في سكان هذا الاقليم ومنها نظام الامارات وحكومات المدن المجزأة التي يمثلها الشيوخ والحكام والامراء حتى اليوم في الخليج وهو نظام سومري .

فمن ابرز ما كان يتميز به العصر السومري هو نشر فكرة الدولة أو الامارة في الادارة والحكم ، وقد لعبت هذه الدويلات والامارات ادوارا مهمة في طريقة نظام العصر السومري وطرق الحياة العامة بين المواطنين السومريين على امتداد نفوذ السومريين بحيث تناولت الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والصناعية وحتى السياسية . وحتى راح بعض

المؤرخين ينعت العصر السومري (بعصر دويلات المدن السومرية) [١٦] لذلك يسهل الجزم بأن ساحل الخليج العربي كان من بعض تلك الدويلات ••• السومرية التي يستلزم نظامها ان يكون لكل مدينة حاكم ، وامير ، وشيخ مستقل أو غير مستقل تبعا للنظام السومرى ، اضافة الى كونه نظاما اخذ عنه نظام (البلديات) وتطور حتى عم اليوم جميع اقطار العالم •

اللغات السامية

يذهب المؤرخون الممعنون في دراسة اللغات السامية واصولها وما يتعلق بها من الاشتقاقات والعرف ، وما يسودها من اللهجات الى ان كل هذه اللغات كانت في اصلها لغة واحدة هي التي انبعثت منها كل اللغات السامية والمسماة بلغة (الام) وان موطن هذه (الام) كان جزيرة العرب ، وقد اندثرت لغة الام ولم يبق منها الا اثار هي التي تدعى على انها كانت لغة واحدة في الاصل فتفرعت منها لغات كانت منها اللغة العربية ، ويرى البعض من الخبراء ان اللغة العربية التي يتكلم بها بدو الصحراء اليوم هي اقرب اللغات الى اللغة السامية الاصيلة ، بل هي نفسها (ام اللغات السامية) على الاطلاق ، مستندين ، الى بقاء هذه القبائل البدوية منعزلة عن الاختلاط بالشعوب والاقوام الاخر ، واختلف المؤرخون في اسم (العرب) وحتى صار يشمل كل جزيرة العرب ووجدوا ان هذا الاسم قد ظهر في الاثار البابلية ، أي في الالف الثاني قبل الميلاد ، ولكنه ظهر لاول مرة كأسم يشمل جميع سكان جزيرة العرب في القرن الثالث قبل الميلاد، اما قبل ذلك فقد كانت كل قبيلة من العرب تسمى بأسم مساكنها من الجزيرة أو اسم سلالتها ، اما الاسم الشامل قبل ذلك للعرب فقد كان

(١٦) ملخص كتاب (العرب واليهود في التاريخ) ، جعفر الخليلي •

(الاسماعيلية) نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم ، ثم عمّ بعد ذلك اسم العرب كل سكان الجزيرة •

ونقل الدكتور جواد علي عن (فليب حتي) قوله : ان أول من ذكر العرب في أداب اليونان هو (اسكيلوس) ٥٢٥-٤٥٦ قبل الميلاد ثم تلاه (هيرودتس) في نحو ٤٨٤-٤٢٥ ق•م • وان لغة سكان الجزيرة العربية من العرب والاعراب فقد كانت لغة مختلفة في لهجاتها وحتى في الكثير من الفاظها وكلماتها بحيث تختلف لغة منطقة واحدة لقومية واحدة من الاقوام العربية حتي يكاد لايفهم بعضهم لغة بعض وهم سكان منطقة واحدة ، ومن هذه اللغات المختلفة واللهجات الخاصة كانت لغة سكان عمان من العرب الى ان توحدت لهجتهم ولغتهم بسبب التقارب بين القبائل والنازحين من كبد الجزيرة فبادت تلك اللهجات ، وقد كانت اللهجات المختلفة موجودة حتى عند ظهور الاسلام وعلى الأخص عند سكان الشرق الذي يشمل ساحل الخليج العربي اذ كانت لغته ولهجته تختلف كل الاختلاف عند ظهور الاسلام عن لغة ولهجات العرب من قلب الجزيرة العربية واليمن، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : (ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا) •

حتى الخطوط التي استعملها العرب قبل الاسلام كانت خطوطا مختلفة واقلاما غير متشابهة ظهرت بعد اسماعيل[١٧] •

فاذا اختلفت اللغة السامية العربية في ساحل الخليج العربي ولم يستطع المؤرخون أن يعينوا طبيعتها الكاملة بناء على العوامل التي مرت على الجزيرة العربية وغيرت منها لهجاتها والفاظها ومعاني كلماتها ، فلا يعني ذلك ان السكان الاوائل لهذا الاقليم ، اقليم الساحل ، ليسوا من الساميين

(١٧) بلوغ الارب - الجزء الثالث ، ص ٣٦٩ •

العرب بعد كل ذلك الاختلاف الذي استعرضناه بايجاز في لهجات اللغة العربية نفسها .

الغزوات التي تعرض لها الساحل

لقد تعرض هذا الساحل لغزوات من دول وشعوب مختلفة قضت على حكمه نفسه وخضعت للقائمين بتلك الغزوات ولكن ليس لدينا أي دليل على ان تغييرا قد حدث في سكان هذا الساحل ، وان عنصرا قد حل محل الساميين العرب في هذا الاقليم ، فحين قامت دولة الاكديين التي اقتبست حضارتها من حضارة السومريين كتابة ولغة ، وبناء ، وصناعة ، حتى قويت فظهر فيها الملك (سرجون) الكبير الذي اغار على دويلات المدن السومرية واخضعها وأسس منها ومما جاورها مملكة موحدة قوية شملت معظم بلاد الرافدين فتلقب بملك (سومر واكد) ، ليس لدينا هناك حين اخضع مدن الساحل العربي لنفوذه اي دليل على تغيير القومية السامية العربية التي سكنت ساحل الخليج واتخذت منه موطنا لها ، فكان سرجون هذا أول زعيم في تاريخ الجنس السامي ، واول ملك اسس مملكة كبيرة ، وقد ورد في اقدم الاساطير السومرية ما يشير الى هذا الصراع بين ملوك دويلات المدائن ، ويؤكد (ديورانت) مؤلف كتاب (قصة الحضارة) ان النزاع بين السامية وغير السامية لعب دورا مهما في تاريخ الشرق كما ورد في (المختصر من كتاب العرب واليهود في التاريخ) وحين تم خضوع المدن السومرية كلها في الفرات لسرجون في الربع الاول من الالف الثالث قبل الميلاد ضم اليه اقليم ساحل الخليج ، فاخضع (دلمون) لنفوذ البابليين ، وقد ذكر (فراستوس وبلياس) خضوع الساحل لسرجون ، وقال ان سرجون غزا (تولون) ، وتولون هذه اسم احدى جزائر (البحرين) وقال (كوردون تشايلد) ان سرجون ومن جاء من ابنائه وبالاخص حفيده المدعو (نارام سن) قد نهجوا نهج سرجون

في الفتوح وسيطروا على جميع البقاع من البحر الابيض المتوسط ، وكل هذا ليس الى جانبه ما يشير الى تغيير طبيعة سكان هذا الساحل وحلول سكان أخرين محل هؤلاء السكان •

ومن المخطوطات الاثرية ما يشير الى اسم ملك كان على (داعون) يسمى (يوبيري) في ايام سرجون الذي اخضع (البحرين) لحكمه ، فكان سرجون يفتخر بأن (يوبيري) هذا الذي يشبه السمكة في وسط مشرق الشمس - والمشرق هنا يعنونه بالنسبة لمركز بلادهم - بعيدا من البحر ، فيقول سرجون انه كان يخضع لنفوذي ويدفع لي الجزية كما تشير الاثار الى ان ملكا كان على البحرين اسمه (نابو بولاسور) ، وهذا دليل اخر على نظام (دويلات المدن) السومرية الذي يجعل لكل مدينة أو منطقة حاكما أو ملكا •

وكل هذا الخضوع الكامل من سكان الساحل للاكديين البابليين ليس فيه أي دليل على تغيير جنسية هذا الساحل ، بل بالعكس فان دفع الجزية من قبل (يوبيري) دليل على عدم سكنى الاكديين في هذا الساحل •

وما يقال عن خضوع الساحل العربي من الخليج وخضوع قاعدته (دلمون) اي البحرين للبابليين حكما فانه يقال عن خضوعه للاشوريين فقد روى عن سنحاريب الاشوري انه بعد أن اخضع بابل ودمرها واجرى الماء عليها ليزيل معالمها من الوجود ونكل بسكانها جهز اسطولا نهريا كبيرا ضخما وسار به في نهر دجلة وجابه الكلدانيين والعيلاميين ، ودخل باسطوله هذا الخليج عازما على ان يخضع (دلمون) لنفوذه ، وحين اخفق لجأ الى حيلة اشارت اليها النصوص المسمارية فقالت انه ارسل جماعة من الناس بدل جيشه يحملون رمادا للمحروقات البابلية مشيرا بذلك الى ان سطوته كبيرة ، وبطشه عظيم اذا جاءكم ولم تنضموا اليه فاثمرت هذه الحيلة لدى (دلمون) ، وعلم اهل دلمون ان مصيرهم سيكون مصير بابل اذا ما تمردوا

فانضمت (دلمون) تحت لواء الامبراطورية الاشورية التي اقامها سنحاريب العظيم [18] .

وهذا دليل اخر على عدم تغيير جنسية سكان هذا الاقليم اذ ان الخضوع للسلطة لا يدل على نزول الاشوريين في الساحل بحيث تتغلب كثرتهم على سكان الساحل القدماء فتتغير بذلك طبيعتهم كما تغيرت طبيعة السومريين سكان هذا الاقليم القدماء فذابوا في الساميين العرب .

وفي (تاريخ العرب قبل الاسلام) ان اسكندر المكدوني كان ينوي ضم الخليج وجزره الى سيطرته ، وكان يهم بان يسكنها باليونانيين من قومه ، والمقصود بالجزر هي جزيرة (تيلوس) التي قيل انها تعني (البحرين) ، وقد نزل قواد الاسكندر بالفعل في هذه الجزائر ، فقال اليونانيون انها كانت ارضا خصبة تحتوي على مزارع وعيون من المياه ، وكانت اوصافهم لا تنطبق على (المنامة) وهي البحرين التي عرفت باسم (اوال) المعبود الاكبر لهذه المنطقة .

واذا اعتبرنا محاولة الاسكندر غزوه لهذا الاقليم فهي الاخرى لم تترك على سكان هذا الاقليم ما يغير طبيعة سكانه القدماء وقوميتهم ، وقد ظلوا كما هم ساميين عربا مالكين لذلك الاقليم ومعمريه ، وبانيه ، ومؤسسي مدنه ، ومشيدي معابده منذ ان نزحوا من الجزيرة العربية بداوعي الهجرة ، او كانوا قبل الهجرة اذا صح وجودهم في هذا الاقليم قبل الهجرة .

وتمت للفرس السيطرة في عهد الساسانيين على هذا الاقليم وقاعدتيه (البحرين) و (هجر) في عهد (سابور ذي الاكتاف) ، وقام الفرس في هذا الاقليم بتنظيمات ادارية وحربية واقتصادية وكان منها الخندق الذي

---

(١٨) البحرين من امارات الخليج العربي ـ مطبعة المعارف ، بغداد ص١٢ .

يمتد فيما وراء الكويت حتى ينتهي عند البحرين خليج (كاظمة) ، وذلك بأمر (ذي الاكتاف) نفسه لكي يحفظ هذه المنطقة مـــن غزو الاعراب والبدو ، وكبر عدد الجاليات الفارسية التي نزلت هذا الاقليم في عهـــد الساسانيين ، ومع ذلك فلم تفقد العروبة مزيتها ، ولم تترك عاداتها ، ولـــم تتغير جنسيتها منذ ان كانت لغتها لم تتوحد بعد مع اللغة العربية التـــي سادت بعد ذلك جميع انحاء الجزيرة ، ثم حين ظهر الاسلام خرجت اللغة العربية الى المناطق التي دخلت في الاسلام ، دعمت عموم المسلمين فـــي ديارهم بفضل القرآن الكريم والصلاة والطقوس الدينية .

والديانات هل كان لهـــا

تأثير في تغيير طبيعة السكان ؟

واعتنق سكان هذا الاقليم منذ ان عرفتهم هذه البـــلاد عبادة الاصنام وقد اخذوها من السومريين أو ممن جاورهم من البابليين ومما كانوا عليه من قبل ، فتعددت اصنامهم فكان منهـــا الآلهة (لخامو) الهة (دلمون) وكان منها الالهة (انزاك) التي عثر على اسمها في كتابة وجدت فـــي البحرين ، وكانت (عشتار) ، ومن اشهـــر عبادات الوثنية كانت عبادة (اوال) وهو صنم سميت جزيرة البحرين باسمه ، و (المرّق) ، وهـــو الاخر صنم لا يزال يطلق اسمه على جزيرة المحرق في البحرين و (اوال) كانت تعبده بكر بن وائل ، وغير هذه الاصنام والعبادات الوثنيـــة عبادات كثيرة كعبادة الخيل .

والتقلت المجوسية عن طريق الجالية الفارسية الى هـــذا الاقليم ، فكان للمجوس عدد من بيوت النار ، واعتنق بعض القبائل العربية المجوسية ومنهم (تميم) ، وكان من اشهر من اعتنقها من ساداتهـــم (زرارة) و (حاجب بن زرارة) وليست المجوسية الديانة الوحيدة التي دخلت هـــذا

الاقليم ، وانما سبقتها اليهودية التي كانت شائعة بين قبائل عرب اليمن والحجاز ، وقد نشرها في البحرين (الحرث بن عمر الكندي) وهو جد (امرىء القيس) وابن اخت (تبع بن حسان) الذي قد يكون من اوائل من اعتنق اليهودية من العرب ، وكان (الحرث) هو القائم بالحكم يومذاك في البحرين [١٩] .

ودخلت المسيحية هذا الاقليم ، ومن اشهر من اعتنقها من عرب البحرين هم قبائل من تغلب ، وبكر بن وائل ، وعبدالقيس ، وكان (المنذر بن ساوي) — وهو عامل كسري على البحرين — نصرانيا ، وكانت للمسيحية مراكز دينية في البحرين ، وهجر ، ودارين .

يقول ابن الاثير : وكان سكان البحرين يتألفون من العرب والمجوس واليهود والنصارى ، وكانت ولاية البحرين للفرس [٢٠] وقد حكموها في العصر الساساني ، ثم عادوا فحكموها منذ سنة ٧٣٥ — ١٧٨٤ .

كل هذه التيارات المختلفة من العبادات والاديان كان لابد لها ان تحدث اثرها في الاقوام فتغير من اتجاهاتها ، وافكارها وحتى جنسيتها ، ولكن لا هذا ولا غيره من نفوذ الحكام وحتى من اختلاف عادات الساميين قبل أن تتوحد لغتهم العربية ومنذ عهد العرب البائدة الذين سكنوا هذا الاقليم والذين تسموا بـ (جاشم) فكان منهم بنو (اميم) بن (لاوذ) ، وطسم وجديس الذين سكنوا اليمامة وما حولها الى البحرين ، وقد ذكر (التتوني) ان سكان البحرين هم من عمالقة طسم وجديس وهم من العرب البائدة ان كل تلك العوامل لم تستطع أن تغير للسكان قوميتهم وعاداتهم .

---

(١٩) البحر من درة الخليج — ص ٣١ .

(٢٠) الكامل لابن الاثير — ج (٢) ص ٢١٥ — دار صادر ودار بيروت .

وورد في تاريخ اليونان اسماء قبائل عربية غير معروفة كقبيلة (لانـي) التي كانت تقيم بين القطيف وقطر ، وقبائل (نحيطي) و (زرازي) فـي قطر وقبيلة (المائة) وغيرها من القبائل التي كانت تختلف في عاداتهـا وطريقة معيشتها ، وحتى في لهجاتها الامر الذي كان لابد أن يكون عامـلا من عوامل التفكك ويحدث تيارا اخر الى جانب التيارات الدينية فيفقـد الاقوام جنسيتهم وطبائعهم ويحول بين توحيد اللغة ، والجامعـة القومية ، ولكن مثل هذا لم نجد له اثرا في التاريخ لا اليوم ولا قبله ، وبقي هـذا الشعب السامي العربي في اقدم العصور والعربي السامي في عصوره الاخيرة عربيا بحتا باخلاقه وعاداته وتقاليده ولغته وادبه ودينه الاسلام ، فـي حين فقد الساميون العرب في شمال الجزيرة العربية كل مزاياهم العربيـة حتى جاء الاسلام فنزل العرب المسلمون في المواقع التي كـان الساميون يسكنونها ، واسسوا للعرب موطنا جديدا ، وكانت اللغات السامية العربية قد بادت واصبحت من الاثار التي يتدارسها العلماء واهل الخبرة .

فحين جاء الاسلام وجد ان جميع مدن الساحل وسكان بادية هـذا الاقليم كانوا عربا اقحاحا من حيث الطباع والعادات واللغة ، وأهم تلـك القبائل طوائف من (عبد القيس) وطوائف من (بني تميم) وطوائف من (الازد) واخرين من (بكر بن وائل) وقد تغيرت اسماء المدن القديمة الى اسماء عربية فسميت (دلمون) و (آوال) باسم البحرين والساحـل باسم (العروض) وتطورت السامية (الام) بحضارتها ولغتها وعاداتهـا حتى كانت قطعة صحيحة من جزيرة العرب ، وهذه ميزة انفرد بهـا الساحل العربي من الخليج وحق له ان يفاخر بكونه القطر الوحيـد الذي سكنه الساميون العرب وتطوروا وكان لهم وحدهم الفضل فـي الحضارة التي تأسست في مدن الساحل بعد السومريين .

هل ان للفينيقيين يدا في
حضارة الساحل ؟

يذهب المؤرخون الى ان حضارة الساحل العربي من الخليج مدينة للفينقيين في هذا الازدهار من البناء ، وتمصير المدن ، والتجارة ، وحتى في الديانة ، وحجتهم في ذلك ان (كيتاني) يذهب الى ان الفينيقيين قد انبعثوا من الخليج ونزحوا عن طريق البحر الاحمر الى شمال الجزيرة حيث استقروا في سواحل لبنان ، ويستند (كيتاني) في هذا الرأي على ما جاء في تاريخ هيرودتس اليوناني ، وحجة اخرى تقول ان مدينة بناها الفينيقيون باسم (اوفيرا) التي عرفت بما فيها من الذهب ، وان جزيرة في الخليج باسم (تيلوس) وهي (البحرين) ، وكذلك جزيرة باسم (ارادوس) ويذهبون الى ان سكان جزيرة (ارادوس) قدماء يعود العهد بهم الى بداية التاريخ وذلك لوجود مصايد اللؤلؤ فيها ، وان هذه الاسماء هي اسماء فينيقية .

ومن ادلتهم على وجود الفينيقيين في هذا الاقلىم ان (سترابون) وهو أحد الرحالة اليونانيين قال في رحلة عن ساحل هذا الاقليم : (انك اذا سرت في شواطيء الخليج رأيت هياكل تشبه هياكل الفينيقيين) .

وفي السنين الاخيرة قام المنقبون في البحرين بالتنقيب فعثروا على مقابر تتجه مداخلها الى الغرب فقالوا انها تشبه مقابر الفينيقيين ، ومن هؤلاء القائلين بذلك كان (سترابون) .

ومن الادلة التي يعتمدها المؤرخون هي ان اليونانيين قالوا أن في الساحل معابد من بقايا مدن فينيقية .

وان الالهة التي تسمى عشتار أو عشتروت ، أو عشتارت ، التي عبدوها هنا في ساحل الخليج كانت الهة فينيقية .

هذا اهم ما يعتمده المؤرخون في نسبة حضارة هذا الساحل الى الفينيقيين والفينيقيون وان كانوا ساميين عربا في الاصل فالراجح انهم لم ينبعثوا من هذا الاقليم بل وليس لهم أية صلة على ما يستنتج - بالبحرين •

اولا : لان الفينيقيين كنعانيون ، وقد تفرعوا من الكنعانيين الساميين في فلسطين [٢١] وقد سماهم اليونانيون باسم (فينيقيا) لاول مرة ، ويقول (ج • كونتنو) ان الراجح هو ان هذا اللفظ مشتق من اللفظ اليوناني (فوينيكس) [٢٢] ، وقد سموا به وهم في مملكتهم بساحل لبنان ، فما الذي جاء بهم الى ساحل الخليج ، بهذا الاسم ؟ •

ثانيا : لو كان الفينيقيون من سكان الخليج فما هي الدواعي التي دعتهم للهجرة من هذا البلد الذي سمي باسم (الفردوس) لرخائه ووفرة النعمة فيه ؟ واذا سلمنا بان هناك دواعي لا تزال مخفية عنا فان هذا سينفي رأي المؤرخين القائلين بان الفنيقيين كنعانيون وقد انبعثوا من الكنعانيين في فلسطين واسسوا لهم في سواحل لبنان مملكة خاصة بهم وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون •

ثالثا : ان اسم (تيلوس) (ارادوس) وما شاكلها كانت اسماء يونانية على اغلب الظن ، فان لم يصح هذا الظن وثبت ان هذه الاسماء فينيقية فان اطلاقها من الفينيقيين على بعض الجزر والمواقع في الخليج لا يدل بأي وجه على استيطانهم في هذا الساحل ، لان اليونانيين يطلقون على النفوذ مثلا اسم (ارموس) وعلى موضع عند خليج ظفار من عمان اسم (سيكارو) وعلى (تبوك) اسم ثباجا أو (ثابا) و (سينوس جراليوس) وغير ذلك من الاسماء فهل يعني هذا ان اليونانيين قد سكنوا هذه البقاع

---

(٢١) الحضارة الفينيقية •

(٢٢) (الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ) جعفر الخليلي ص ٤٠ •

واستوطنوا فيها ؟ وكانت لهم في قلب الجزيرة العربية وفي الخليج ممالك ومواقع استيطان ؟

رابعا : ان عبادة عشتار لم تكن مقتصرة على الفينيقيين وحدهم وانما كانت معبودة بابل كالهة الحب الاسيوية فلماذا نجزم بأن ساحل الخليج قد اخذ عبادة (عشتار) من الفينيقيين ولم يأخذها من بابل ؟ ثم ان (عشتار) لم تكن معبودة الفينيقيين الوحيدة ، وانما كانت الهة لشمال فينيقية وهي واحدة من عدة آلهة فلماذا خصت بالبحرين من دون جميع الآلهة وهي ترمز عند الفينيقيين الى الخصيب ، وهي الالهة (الام) ، اما في بابل واشور فقد عرفت فوق كونها ، (الام) ، بانها الاهة الحروب والمعارك وهي نظيرة (افروديت) عند اليونان كالهة ، وان عشتار هي عشيقة (ادونيس) ، وان ادونيس هذا هو رب الزراعة والاشجار ، وهو المعبود في جميع انحاء فينيقية فلماذا لم يكن هو المعروف في البحرين ؟ أو لماذا لا يكون اسم (ادونيس) مقرونا بأسم (عشتار) على الاقل ؟ في حين ان عبادته وعبادة عشتار معا ترجع الى ابعد العهود عند الفينيقيين ؟ .

خامسا ـ المعروف ان كثيرا من عبادات اقليم الساحل العربي في الخليج قد اخذ من السومريين والبابليين والاشوريين بصفات واحدة ، واسماء مختلفة ، كما وجدت الى جانبها آلهات اخرى تسربت من المجاورين كان منها عبادة الخيل ، ولم تكن الخيل معروفة في بابل او في ساحل الخليج وانما نقل الكاشيون غير الساميين ، المندفعين من الجبال ـ الخيل الى بابل قبل الفي سنة قبل الميلاد ، فاتخذها سكان الخليج معبودا[٢٣] ، وعبدوها اولا ثم استخدموها في الحرب والصناعة ، فهل يعني هذا ان

---

(٢٣) العصور القديمه ـ جيمس هنري بريستد ـ مطبعة الاميركانية ببيروت ص ١٠٢ .

الكاشيين قد حكموا ساحل الخليج لان الخليج اقتبس عبادة الخيل منهم ؟ هذا اذا كان هذا الاقليم قد اقتبس عبادة (عشتار) من الفينيقيين رأسا وبصورة ما ، ولماذا لا نعزوا اخذ ديانات هذا الاقليم في الاصل الى السومريين الذين تعددت الهتهم ، لاسيما وقد ورد في المخطوطات المسمارية على الاراقم اسم الاله (انزاك) اله بابل الولي هو نفس الاله (نبو) الذي كان يعبده سكان (دلمون) في ذلك العصر ، وغير هذا من اسماء الهة كثيرة قد اقتبسها هذا الاقليم من هنا وهناك ، ويقول (كونتنو) ان الفينيقيين انفسهم لم يخلفوا لنا فيما نعرف الى ايامنا هذه اي ايضاح عن موضوعات الديانات •

سادسا : ومن عقائد الفينيقيين تضحية الاطفال ودفنهم في اركان بيوتهم ، وجوزوا في حالات خاصة ان يضحوا بالحيوانات بدل الابن ، ويدفنوها في مقابر مستقلة ولم يوجد ـ على علمنا ـ في البحرين ما يستدل به على هذه العقيدة في الحفريات التي جرت في هذه القبور أو غيرها ، وكل ما وجد هو ان بعض المدافن لاجداث الادميين كانت تحوي الى جانبها عظام بعض الحيونات ، على ان مدافن الفينيقيين مدافن متنوعة مختلفة حسب عصورها ، وتنوع ديانة كل مدينة ومعبودها وليست لها صفة ثابتة لتقاس عليها المدافن التي وجدت في البحرين •

ولم يعثر المنقبون البلجيكيون الذين قاموا بالتنقيب في مقابر البحرين واثارها القديمة ، لا داخل القبور ولا في النقوش على اي اثر يستدلون منه على معرفة جنسية هذه الاجداث والمقابر ، وذلك لانعدام وجود أية كتابة أو شواهد على القبور مما يستعملها الفينيقيون في الغالب على قبور حكامهم أو شخصايتهم •

وهذه صورة لاكثر المدافن والقبور شيوعا عند الفينيقيين والتي عثر عليها في السواحل اللبنانية لنقارنها بالقبور التي تم العثور عليها في البحرين : ـ

كان الجثمان عند الفينيقيين يوضع في تابوت ، واحيانا تكون التوابيت فوق طبقة من الحصباء ، وتوضع حولها ادوات من الحلي والفخار ، ثم صار في عادتهم التحنيط للميت اذا كان هذا الميت ذا شان وقدرة عندهم ، ولاشك انهم كانوا متأثرين بالمصريين ، ويدل على ذلك كهف كشف في (بيلوس) وهي (جبيل) فيه عدة قبور وفي القبور توابيت يرجع عهدها الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وفيما يلي النص المنقوش على (شاهد) احد القبور كاحدى الوثائق التي تصور اهتمام الفينيقيين بالحياة فيما وراء الموت •

يقول هذا (الشاهد) المنقوش على القبر ما يأتي : ـ

(انا رتا بنيت) كاهن عشتارت ملك (الصيداويين) ـ اهل صيدا ـ أبن (اشحونزر) كاهن عشتارت ملك الصيداويين ، انا ثاو بهذا الصندوق، فايا من تكون ايها الانسان الذي يقع على هذا الصندوق ، لا تفتح قبري ، ولا تقلقني ، فليس لدينا فضة ، ولا ذهب ، ولا أي نوع من الزهريات ، بل مجردا وحيدا في هذا الصندوق فلا تفتح قبري ولا تقلقني ، فان ذلك أمر منكر عند (عشتارت) فاذا تجاسرت على فتح قبري ، وجرؤت على افلاقي فليأذن الرب بان لا يكون لك عقب بين الاحياء وتحت الشمس ولا مهد للراحة عند (الريفاييم) (٢٤) •

أما مقابر البحرين التي قالوا انها تشبه مقابر الفينيقيين ففضلا عن خلوها من (شواهد القبور) باستثناء (شواهد) وجدت في اطراف القطيف وعليها كتابات مبدوءه بعبارة (وكر وقبر) مما ليس لها شبه بشواهد

---

(٢٤) ملخصة من الحضارة الفينيقية تاليف (كونتنو) وترجمة محمد عبدالهادي شعيرة ، ومراجعة الدكتور طه حسين ص ١٥٢ الطبعة الثالثة •

الفينيقيين ، وكل ما وجد في قبور البحرين كانت عظاما بشرية ومثلها عظام حيوانات يظن انها دفنت حية مع اصحبها ، وبعض الحلي الذهبية والخزف، وكذلك وجدت في هذه المقابر جمجمتان بشريتان ، وان بعض الاجداث كانت قد تحللت واصبحت ترابا ، ومما عثر على بعض العظام دليل على انهم دفنوا وهم جلوس ، كما وجدوا اواني واسلحة برنزية استدلوا منها على قدم عهد هذه القبور وكونها تعود الى نحو الالف الثالث قبل الميلاد [٢٥] .

وهذه القبور مبنية على طراز واحد ، فمدخلها يواجه الغرب ، وان البناء مؤلف من طبقتين من صخور مكعبة عني بنحتها ، والطبقة السفلى اكثر ارتفاعا من العليا ، وتوجد على جانبي دهليز - يؤدي الى الشرق - جنبات كانت معدة لتوابيت حجرية يرص الواحد منها فوق الاخر ، والى جانب هذه الجنبات فجوات صغيرة من الواضح ان قضبانا خشبية كان من الممكن وضعها فيها كي تعلق عليها القرابين والنذور [٢٦] .

وعلى ان هذا الوصف يغاير وصف قبور الفينيقيين كما قدمنا مثلا منه فان دائرة المعارف الاسلامية تقول ان هذا النمط يتفق الى حد عجيب مع ما خلفه الفينيقيين مستندة الى رأي (سترابو) .

ثم تقول بعد ذلك : « وليس من السهل انكار ان الحضارة التي ظهرت اثناءها كانت وثيقة الصلة بالحضارة الفينيقية » .

ولكنها تعود فتقول :

« ولم يعثر للاسف في تلك البقعة على شيء يستدل منه على الاصل

---

(٢٥) وقد وقفت انا بنفسي على هذه الحفائر من مقابر البحرين سنة ١٩٦٥ م (جعفر الخليلي) .

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ج (٣) ص ٣٩٣ .

التاريخي لهذه القبور » ، ثم تضيف قائلة « ولن نصل الى الرأي القاطع في هذه المسألة الا بدراسة منظمة لعدد اكبر من القبور التي فتحت الى الآن » •

وجاء في الجزء الاول من كتاب (العرب قبل الاسلام) ان تلالا عثر عليها في مواضيع متعددة من جزيرة العرب وفيها مقابر تشبه مقابر البحرين فهل يعني ذلك انها مقابر فينيقية ايضا ؟ فضلا عن ان هذه المقابر - مقابر البحرين - لا تشبه ، بأي وجه مقابر الفينيقيين •

وماذا كان للفينيقيين من ذكر في الخليج اذن ؟

والمعروف ان السفن التي كان بامكانها ان تمخر عباب البحر في تلك العصور كانت سفنا فينيقية ، وكان ملاحوها فينيقيين يعرفون مقتضيات البحار والاجواء وكيفية مراعاة الجري فيها ، لذلك استخدم (سنحاريب) ملك اشور الفينيقيين كما يقول المؤرخون ، فبنوا له اسطولا حربيا حين أراد القيام بحملته البحرية لمعاقبة القبائل النازلة على ضفاف الخليج ، وقد قام فعلا بهذه الحملة ولكنه اخفق وقفل راجعا ولقد مرت علينا كيفية استسلام البحرين لسنحاريب حين زار البحرين وفد منه يحمل كمية من رماد حرائق (بابل) بصفة انذار ، ومن الجائز ان يكون الملاحون الذين حملوات هذا الوفد في السفن كانوا من الفينيقيين •

ولا يمكن ان نغض الطرف عن حملة (سرجون) الاكدي واخضاعه جزيرة (تلوون) وهي احدى جزر البحرين التي جاء في (دائرة المعارف الاسلامية) انها كانت مسكونة بالناس منذ بداية التاريخ لوجود مصائد اللؤلؤ فيها وان اسم (تلوون) يرجع الى العصر الاشوري وهو يقابل اسم (تيلوس) الذي ذكره (تيوفراستوس) و (يلبناس) ، وذكر

اولهما اسم (ارد) ورسمه (ارادوس) [27] .

ولا نسأل عمن أوصل هل الحملة من (اور) الى البحرين وباية واسطة وصلت ؟ ما دمنا نعلم ان صناعة السفن كان يحتكوها الفينيقيون وان من الجائز ان يكون (سرجون) أول من جلب من الساحل اللبناني صناعا فينيقيين فصنعوا له السفن التي يمكن ان تمخر البحار وتولوا له ملاحتها . وهذا لا ينبغي ان يمر دون ان نسأل عن سفن الاسكندر وملاحيها ، وعمن اقتبس هؤلاء السفانون اليونانيون والملاحون صناعة السفن، فاذا صح لنا ان اقتباس اليونانيين ذلك من الفينيقيين فلا يبعد ان يكون للفينيقيين أثر أو بعض اثر في تجوال سفن الاسكندر في الخليج .

وفي بعض النصوص التاريخية جاء ما يلي : ـ

« ... وقد اظهرت الامبراطورية الفارسية قدرة ممتازة في ايام اتساع سلطتها على التنظيم ، واستغلت خبرة (الفينيقيين) حين استولت على مصر ومواطن الفينيقيين في الملاحة » ، فمن الممكن ان تكون هذه الخبرة بعد ذلك قد استمرت وافاد منها الفرس في الخليج حتى في زمن الساسانيين .

وسواء كان هذا الذكر للفينيقيين وانتقال الصناعة والتجارة عن طريق العراق الى بلادهم ، فان هذا لا يكفي ان يكون دليلا على ان يكون للفينيقيين اتصال سكن ، أو وجود فرض وموان تجارية كما يقول التاريخ اليوناني الذي انتشرت عنه وحده فكرة استيطان الفينيقيين بهذه الجزائر وحتى بناء المدن ، لان مثل هذا الاستيطان والبناء والحضارة ليلزمه استعداد كبير من السفن الذاهبة والآيبة من هذه الجزر .. واليها ، وموجات متعاقبة في الانتقال والهجرة الدائمة أو المؤقتة ، وكل هذا لم نعثر على كيفية حصوله ، واغلب الظن ان هذه التجارة ، تجارة اللؤلؤ ، والخشب ،

---

(٢٧) دائرة المعارف الاسلامية ـ ج ٣ ، ص٣٩٣ .

والنحاس وغير ذلك كان يعبر الى الفينيقيين عن طريق سومر ، وبابل ، وآشور في سفن سومرية وبابلية وآشورية ، حتى وان كان صانعوا هـذه السفن وملاحوها من الفينيقيين ، وانه ليتعذر احتمال وجود سفن خاصة بالفينيقيين كانت تستطيع الوصول من شمال الفرات الى الخليج .

وكل هذا يضاف الى ان ليس في البحرين من الآثار ما نستطيع ان نعين به تاريخا ثابتا وذا لون خاص ، وان ما عثر عليه من القبور في البحرين ، والخطوط المسمارية ، والمعابد ، ليست بالاهمية التي يمكن استخلاص تاريخ علمي ثابت منها ، وذلك لقدم عهودها .

وعند ظهور الاسلام

وعند ظهور الاسلام كان هذا الاقليم تحت سيطرة الساسانيين الفرس ، ومع ان جالية كبيرة من الفرس كانت تنزل في البحرين وهجر بصورة خاصة فقد كانت حضارته في كل مدنه حضارة عربية بحتة موروثة من سكانه الساميين العرب ، بل وجد الاسلام ان الغالبية العظمى من المدن قد تغيرت اسماؤها الى اسماء عربية فلم يبق (لدلمون) و (تودلون) وحتى (آوال) وغيرها ذكر الا في الكتب اليونانية واصبحت اسماء تلك المدن اسماء عربية ، كالعروض الذي يشمل اليمامة والبحرين وقطر ، وكالبحرين ، والخط ، وكاظمة التي اسمها القديم (جوا) ، والمشقر ، والقطيف والمنامة ، والمحرق ، وقد جاء في كتاب (البلدان) لابي الفقيه المؤلف سنة ٢٩٠ هـ « ان من قرى البحرين الحوس ، والكثيب الاكبر ، والكثيب الاصغر ، وارض نوح ، والنار ، والمالحة ، والذرائب والبدي ، والخرصان ، والسهلة ، والجوهر الوجير ، والطربال ، والمنسلخ ، والمرزي ، والمطلع ، والشط ، والقزحاء ، والرميلة والبحر ، والرجراجة ، والعرجة » ، وقال انها من ديار الازد ، ولم يبق من الاسماء الغريبة الا القليل مثل (ابرين) أو (يبرين) و (دارين)

وغيرها . وكانت اللغة العربية قد تكاملت قواعدها على مرور الزمان بما كانت تأتي به موجات الهجرة من سكان جزيرة العرب من القبائل موجة بعد موجة للتردح الى هذا الاقليم العامر بخيراته وعيون مائه وخصب مراعيه حتى إشتهر بالغنى والثروة ، وجاء ان العلاء بن الحضرمي العامل على البحرين بعث الى رسول الله (ص) مالا من البحرين قدره ثمانون الفا ، قالوا ما اتى رسول الله اكثر منه قبله ولا بعده [٢٨] ، وكانت البحرين من الغنى والنعمة بحيث سببت اتهام البعض من ولاتها بالرشوة ، حتى المشهورون منهم بالتقي والزهد وبكونهم من الصحابة ، ومن أولئك كان (ابو هريرة) ، وعن الفائق للزمخشري قال ان الخليفة عمر بن الخطاب (ض) استعمله على البحرين فلما قدم عليه قال ياعدو الله وعدو رسوله سرقت من مال الله ، واخذت منه عشرة الاف درهم والقاها في بيت المال قد قيل ان الخليفة ضربه بالدرة [٢٩] .

وروى محمد بن سيرين عن ابي هريرة قال : (استعملني عمر بن الخطاب (ض) على البحرين فاجتمعت لي اثنا عشر الفا ، فلما قدمت على عمر قال لي : ياعدو الله والمسلمين ، أو قال عدو كتابه ، سرقت مال الله ، قال قلت : لست بعدو الله ولا المسلمين ، أو قال : لست بعدو كتابه ولكن عدو من عاداهما ، قال فمن أين اجتمعت لك هذه الاموال ؟ قلت : خيل لي تناتجت ، وسهام اجتمعت ، قال فاخذ مني اثني عشر الفا ، فلما صليت الغداة قلت : اللهم اغفر لعمر) .

فما بال القارىء بما قيل عن الآخرين ممن تولوا امارة البحرين التي كانوا يحدونها في الاسلام من جنوب البصرة الى عمان ، ويكفي للمثل على خيراتها الكثير ان يقال عن جزيرة (أوال) وحدها أن قطر هذه الجزيرة كان مسيرة يومين من كل جهة ، وبها نحو ٣٠٠ ضيعة ! وبها

(٢٨) الكني والالقاب ج (١) ص ١٧٢ .
(٢٩) معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ج (١) ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

كروم كثيرة للغاية ، ونخيل واترج وبها صحراء ومراع ، ومزروعها على عيون بها [٣٠] ، وهكذا قيل عن المدن الاخرى .

ولم تشتهر بقعة من بقاع النخيل بكثرة نخيلها وانواع تمورها كما اشتهرت هجر ، حتى ضرب المثل للخيبة اذا ما اريد نقل التمر الى هجر قائلين (كمستبضع التمر الى هجر) [٣١] وكل هذا وبعضه يشهد بوجود الدواعي التي اقتضت نزوح العرب من الجزيرة الى هذا الاقليم ، منذ ابعد العصور ، وان هذه الحضارة التي عمت هذا الاقليم لم تكن غير حضارة عربية بحته ورثها الساميون العرب من السومريين وجددوها وبنوا على اسسها حضارة ليس لها نظير في كل جزيرة العرب باستثناء بلاد اليمن ، فالقومية في هذا الخليج كما تنص عليها المصادر كانت قومية عربية لم تعرف البلاد سكانا غيرهم ، ولا بانين للمدن ، ومشيدين للقصور ، والقلاع ، ومزارعين ، وغواصين غير العرب منذ اقدم التواريخ حتى الان .

ولاقليم البحرين فضلا عن المحافظة ، على قوميته طوال هذه الاجيال ميزة ذات أهمية كبرى تستدعي الفخر وهي انها أول اقليم استجاب الدعوة الاسلامية بدون حرب ولا اضطهاد ودون اكراه ، حتى حاكم (هجر) ، و (مرزبانها) المدعو (سيبخت) وقد كان مجوسيا وفارسيا وعلى دين ملوكه الساسانيين قد قبل الدعوة الاسلامية دون الاهتمام بعدم قبولها من قبل سادته الساسانيين فأسلم هو واسلم معه المنذر بن ساوى امير البحرين من قبل الفرس ، وذلك في سنة ثمان للهجرة ، وكان الرسول (ص) قد وجه العلاء بن عبدالله بن عماد الحضرمي بالدعوة الى الاسلام فقبلها هذا الاقليم واسلم جميع العرب وبعض العجم حين اسلم المنذر بن

---

(٣٠) (مجاني الادب في حدائق العرب ، ج (١) المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، اخرجه محمود بهجت سنان) .

(٣١) معجم الامثال للميداني .

ساوى و (سينجت) مرزبان هجر ، واما الذين لم يسلموا من المجوس والبهود والنصارى فانهم قبلوا مصالحة العلاء لهم ، وهذا نص المصالحة :

« بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي اهل البحرين ، صالحهم على ان يكفونا العمل ، ويقاسمونا الثمر ، فمن لا يفي بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » •

وقال قتادة : ولم يكن بالبحرين قتال فقد اسلم بعضهم وصالح بعضهم العلاء على انصاف الحب والثمر •

اشهر من عرفهم التاريخ

من اهل الرواية والحديث والزعامة والادب في البحرين

ولقد كان للبحرين بعد دخول الاسلام وانتشاره في ربوعه اثر غير منسي بمن خدم الاسلام والعروبة فيما روى ، وتتبع ، وانشأ وانشد ، وكان من القدامى من وردت اسماؤهم في امهات الكتب ، كتاريخ الطبري ، وابن الاثير ، والفهرست لابن النديم ، ومعجم البلدان ، فكان من اشهرهم في عمان داود بن عمان ، وابزون بن مهنبرذ النعماني الشاعر ، وابو هارون غطريف النعماني ، وابو بكر قريش بن حيان العجلي واصله من عمان كما يقول ياقوت وقد سكن البصرة وحدث بها •

وممن ينسب الى اليمامة جبير بن الحسن وقد روى عنه (الاوزاعي) ومن مشاهير البحرانيين في التاريخ : صعصعة بن صوحان العبدي ، ورشيد الهجري والحارث بن مرة الذي غزا السند في عهد الامام علي (ع) ومحمد بن معمر البحراني ، وغير هؤلاء الكثيرون من الذين نبغوا في القرون الاسلامية الاولى •

أهـــم المصادر

التي استند عليها البحث

ـــ العصور القديمة ـ للدكتور جيمس هنري بريستد •

ـــ الحضارة الفينيقية ـ تأليف • ج كونتنو ـ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي شعيرة ، وتحقيق الدكتور طه حسين •

ـــ قصة الحضارة في سومر وبابل ـ لديورانت •

ـــ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ للدكتور جواد علي •

ـــ تاريخ العرب ـ لفليب حتي •

ـــ الواح سومر ـ تأليف صموئيل كرومر ، ترجمة الدكتور طه باقر ومراجعة الدكتور احمد فخري •

ـــ معجم البلدان لياقوت الحموي •

ـــ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ للمقدسي •

ـــ تاريخ التمدن الاسلامي ـ لجرجي زيدان •

ـــ بلوغ الارب ـ لمحمود شكري الآلوسي •

ـــ سفر التكوين ـ التوراة •

ـــ الفهرست لابن النديم ـ اعتماد على معجم الاسماء منه ، وفهرست الكتب المصنفة •

ـــ فجر الاسلام لاحمد امين •

ـــ ضحى الاسلام ـ لاحمد أمين •

ـــ البحرين في صدر الاسلام واثرها في حركة الخوارج ـ تأليف عبدالرحمن عبدالكريم النجم • ـ المقدمة •

— البحرين في امارات الخليج العربي •
— الكامل لابن الاثير •
— مجاني الأدب •
— عروبة البحرين •
— مجمع الامثال للميداني •
— المختصر لكتاب (العرب واليهود في التاريخ) ـ جعفر الخليلي •

الهجرة العمالية والتغير في مجتمع الخليج العربي بالكويت
دراسة سوسيو انثروبولوجية في تاريخ الحضر

دكتور محمد محجوب *
استاذ الانثروبولوجيا الاجتماعية المساعد
بجامعة الاسكندرية

يرتبط التغير في بنية المجتمع الكويتي في نوع من التضايف بالهجرة والتغيرات الديموجرافية التي ترتبت على استثمارات النفط واعادة استثمار عائداته في المجال العمراني ، وتطوير أجهزة الخدمات والتطوير الاداري وبناء الدولة الحديثة ، وتحاول هذه الدراسة ان تعني برصد تلك التغيرات الجذرية التي تعرض لها المجتمع الكويتي - والتي تبرز الى حد بعيد أمثلة عديدة لطبيعة المشكلات التي تواجهها منطقة الخليج العربي في الجوانب السكانية والسياسية والاقتصادية ، وهي تعتمد على سلسلة من البحوث الحقلية التي قمنا بها فترة امتدت الى ست سنوات من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٧٤ .

وقد صدرت دراستنا للهجرة العمالية واثرها في تغيير بنية المجتمع الكويتي عن رؤية محددة لمكونات ذلك النسق المتكامل المتساند الذي يكون بنية المجتمع والتي تتمثل في عدد من الركائز الاساسية تضم الظروف

---

* تعتمد هذه الدراسة على كثير من النتائج التي انتهينا اليها في كتابنا بعنوان « الكويت والهجرة دراسة للاثار الاجتماعية للبترول في الخليج العربي » ، المنشور في الهيئة المصرية العامة للكتاب - اسكندرية ١٩٧٧ . مع مراجعة للنتائج الاحصائية الحديثة فيما يتعلق بتطور الزيادة السكانية .

الايكولوجية والتكوين الديموجرافي والثقافة بعناصرها المادية وغير المادية ، حيث تنعكس تلك الركائز في تكوين الانساق المجتمعية كالنسق الاقتصادي والنسق القرابي وانساق الضبط الاجتماعي بنظمها المتخصصة المتمايزة [١].

وحيث اتجهت دراستنا للهجرة والتغير في بنية المجتمع الكويتي الى التزام هذا الاتجاه البنائي الوظيفي الذي ينظر الى النظم الاجتماعية باعتبارها تكون نسقا متساند الجوانب ، والذي يفرض على الباحث السوسيو أنثروبولوجي عندما يتوفر على دراسة نظام اجتماعي معين ان يأخذ في اعتباره كل تلك العلاقات المعقدة التي تربطه ببقية النظم المتمايزة الاخرى في النسق الكلي ، فقد حدد هذا الاتجاه أيضا نوع المعلومات التي كان من الضروري الحصول عليها في دراسة الجوانب التقليدية في بنية المجتمع الكويتي ، فنحن مثلا في دراستنا للنسق الاقتصادي الحديث في الكويت لابد أن نعني بتاريخ هجرة القوى العاملة للاشتغال بالمشروعات الصناعية الحديثة واعادة استثمار الموارد الجديدة في تقديم الخدمات الاجتماعية المتقدمة ، كما كانت هناك حاجة الى جمع معلومات عما ينشأ عن تزايد أعداد المهاجرين والوافدين عن الحاجة الفعلية لسوق العمل ، وتأثير هذا على نظم الاجور والتعاقد وظهور البطالة بصورها المختلفة ، وما ينشأ عن ذلك من مشكلات اجتماعية لم تكن الكويت قد عرفتها في مرحلة ما قبل التغير .

كذلك فقد كانت هناك حاجة لابراز أنواع العلاقات التي تقوم الان بين الفئات السكانية المتنوعة مثلا فيما يتعلق بالعلاقات القائمة بين السكان

---

(١) انظر الفصل الاول بعنوان : « الاتجاه البنائي » في كتابنا « مقدمة في الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي » ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ـ ١٩٧٧ .

الأصليين وجماعات الوافدين بأصولهم العرقية المتنوعة •• وبخاصة فيما يتعلق بموقف السكان في المجتمع الاصلي من الاعمال التقليدية التي كانوا يمارسونها وأسباب اندثارها ، والاشارة الى نوع الاعمال التي قل اقبال الكويتيين على الاشتغال بها وأسباب ذلك وارتباطه بتوفير القوى العاملة الاجنبية الرخيصة مثلا في أعمال الخدمة والاعمال الشاقة في البناء وفي انشاء الطرق ، والدور الذي لعبه هذا الوضع في استمرار بعض المشكلات التي ظهرت في المجتمع الكويتي الحديث مثل مشكلة التسلل ، والاشارة الى نوع الاعمال التي دخل عليها بعض التعديل أو التي أخذت وضعا جديدا ، وارتباط ذلك بتلاشي بعض الاسس التقليدية للتعاون والتضامن ، وكذلك الاشارة الى برامج توجيه القوى العاملة المحلية مثلا في مجال الاعمال التي لا تحتاج الى مهارات فنية عالية أو الاعمال التي تعطي لشاغليها مراكز اجتماعية ممتازة ، وصور تدخل الدولة لتحقيق التوازن في المنافسة التي تقوم بين القوى العاملة المحلية والوافدة التي تتمتع بالكفاءات والمهارات العالية ، أو التي لا تجد حرجا في القيام بالاعمال المبتذلة أو التي لم يعد الكويتيون يقبلون على الاشتغال بها لعوامل متعددة ، وهذا كله في نطاق دراسة النسق الاقتصادي في المجتمع الكويتي الحديث •

وقد اعتمدنا في جمع المعلومات والبيانات المتعلقة بتلك الجوانب التقليدية والحديثة في المجتمع الكويتي على طرق متعددة ، كانت الطريقة الاولى بينها هي الطريقة الانثروبولوجية التي تتطلب الاقامة الطويلة في المجتمع والمشاركة بقدر الامكان في المناشط الاجتماعية المتنوعة وتسجيل الملاحظات والحصول على المعلومات اثناء المشاركة ــ الى جانب الاتصال بكبار السن والعارفين بالتقاليد الاجتماعية بين الجماعات العرقية والقبلية والمهنية المتمايزة • وانتهت هذه الطريقة بالباحث الى الحصول على معلومات كيفية حول عدد من المشكلات والاسئلة وبخاصة فيما يتعلق

بتلك الموجات من الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي في مرحلة ما قبل النفط ، وما تبع استثمارات النفط من تغيرات جذرية في البناء الديموجرافي في المجتمع الكويتي للحديث •

كذلك فقد أفادت تلك الطريقة الانثروبولوجية التقليدية في الحصول على معلومات بالغة الاهمية في التعرف على كثير من خصائص الايدي العاملة الوافدة ومجالات استثمارها في المشروعات الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة • كما أفادت في التعريف بطبيعة عملية الهجرة في المجتمع الكويتي الحديث وهل كانت دائما هجرة خارجية أم كانت هناك بعض الهجرات الداخلية التي تعرض لها المجتمع الكويتي ذاته • وما هي الفئات العرقية والمهنية التي ينتمي اليها المهاجرون • ومظاهر التخطيط لتلك الهجرات وبخاصة في ما يتعلق بحماية العنصر الوطني في سوق العمل ، والظروف التي يعمل خلالها المهاجرون والمشكلات التي نشأت عن استخدامهم في تلك المشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، والدور الذي لعبه هؤلاء المهاجرين في عملية التغير الاجتماعي ، وكيفية تقبل المجتمع الكويتي لتلك الهجرات الثقافية التي صاحبتها ، والى اي حد استمر هذا المجتمع في الانغلاق على نفسه ومدى تمثله لبعض النظم والمظاهر الثقافية التي جاءت اليه ، وهل كان هناك استواء في عملية التغير ام أن هذا المجتمع قد تعرض للتغير في بعض جوانبه بينما لا تزال بعض الجوانب الاخرى تحافظ على شكلها القديم •

وفي نهاية تلك الدراسة الانثروبولوجية الحقلية التي استمرت خلال عامين اعتمد الباحث على تطبيق استمارة بحث تضمنت ما يزيد على الثلاثمائة سؤال • وقد أفادت هذه الطريقة المقننة في الحصول على صورة كمية دقيقة وصادقة إلى حد بعيد للقضايا الكيفية والمعلومات الوصفية

التي أمكن الحصول عليها بالطريقة الانثروبولوجية التقليدية ، كما أفادت هذه الطريقة الاخيرة أيضا في تحقيق كثير من الفروض التي ارتبطت بالتأويلات الشخصية للباحث نفسه ولمصادر المعلومات من العارفين بأحوال المجتمع الكويتي التقليدي والحديث .

وقد تضمنت استمارة البحث التي اعتمد عليها في نهاية تلك الدراسات الحقلية اسئلة تدور حول بعض البيانات الاولية عن الاشخاص الذين تكونت منهم العينة والذين كانوا ينتمون الى الفئات العريقة والمهنية والثقافية المتنوعة من الكويتيين وغير الكويتيين ، كما تضمنت أسئلة عن السكن والخبرات المهنية وظروف العمل والاتجاهات نحو العمل الحالي والحالة الاقتصادية والهجرة والتنقل الاقليمي والحالة الصحية ، كما تضمنت بعض الاسئلة التي تهدف الى قياس بعض الاتجاهات الثقافية في ما يتعلق بقضاء أوقات الفراغ ومدى التوافق مع التغييرات الحديثة في المجتمع الكديتي ، وهي كلها موضوعات تتصل أشد الاتصال بمشكلة الهجرة والتغير البنائي في هذا المجتمع .

وقد صدرت دراستنا للهجرة والتغير في بنية المجتمع الكويتي - وبخاصة في مناطق الجهراء والاحمدي وجزيرة فيلكا ومنطقة أبرق خيطان - عن محاولة لاختبار القضايا التالية :

أ - لقد أدى التغير الاقتصادي الذي ترتب على ظهور النفط واستغلاله في المجتمع الكويتي الى وجود حاجة ملحة الى نوع من الايدي العاملة المزودة بخبرات ومهارات فنية وعلمية لم تتوفر في السكان الاصليين ، وذلك للعمل في مشروعات استغلال النفط وما قام حوله من صناعات وبخاصة في مجال صناعة البناء الى جانب العمل في مشرعات الخدمات التي حرصت الدولة على توفيرها في مجالات الصحة والاسكان والتعليم وغيرها من برامج الرعاية الاجتماعية . كما أوجد هذا التغير

الاقتصادي فرصا جديدة للعمالة التي كان من الممكن توفيرها من بين هؤلاء السكان الاصليين مثلا في مجال الخدمات أو الاعمال التي لا تحتاج الى درجة عالية من الكفاية والخبرة الفنية ، ولكن القوى العاملة المحلية التقليدية لم تستطع ان تكفي طلبات السوق المتزايدة من هذا النوع من العمالة أيضا ـ وذلك على الرغم من تحول الكثير من الاهالي عن تلك المهن التقليدية التي كانوا يمارسونها قبل النفط نتيجة لاضمحلال تلك المهن أو لاندثارها ، أو لانها أصبحت غير مجزية اقتصاديا واجتماعيا بما تتطلبه من مجهود شاق بالمقارنة الى الفرص التي توفرت في العمل بمرافق الدولة والمشروعات الصناعية الحديثة ، وقد ترتب على هذا كله ان تدفقت على المجتمع الكويتي هجرات عمالية من انحاء متفرقة من العالم وبخاصة من دول الشرقين الأوسط والاقصى •

ب ـ لم تتمثل ظاهرة الهجرة في المجتمع الكويتي الحديث فقط في ذلك الزحف الذي تتعرض له الكويت ممن يتوقعون وجود سوق رائجة لقدراتهم وكفاءاتهم وخبراتهم بجانب سلعهم الاقتصادية بل لقد أدى التغير الاقتصادي أيضا الى نوع من الحراك السكاني ـ أو الهجرة الداخلية ـ نحو التمركز في المدينة التي صارت مركزا للمناشط الاقتصادية الحديثة • كما ان هذا الحراك والتغير السكاني قد جعل النسق القبلي التقليدي غير قادر على القيام بوظيفته في امساك الوحدة والتماسك على الفئات العريقة والمهنية المتمايزة في المجتمع الكويتي الحديث الذي أصبحت فيه سلطة الدولة وحقوق المواطنة هي البديل للعصبية القبلية والاشتراك في المسئولية الممتدة والتضامن الاقتصادي والسياسي في النسق التقليدي •

جـ ـ كذلك فقد أدت الهجرة العمالية الى هذا التنوع الهائل في الفئات العريقة والثقافية التي ينتمي اليها السكان في المجتمع الكويتي

الحديث ، وقد ترتب على هذا التنوع لاسباب متعددة ظهور نمط معين للتوزع السكاني والتخصص المهني ، كما أسفر هذا التنوع والتمايز بين الجنسيات المختلفة في المجتمع الكويتي عن نوع من التنافس والصراع الاقتصادي والاجتماعي بين هؤلاء المهاجرين من الجنسيات المختلفة في المجتمع الكويتي الحديث وهذا كله بجانب ان الاوضاع القبلية والعرقية التقليدية والتغيرات السكانية الحديثة قد ساعدت على ظهور كثير من المشكلات من أبرزها مشكلات التجنس والتوطن والتسلل [٢] ، وهي مشكلات لا يتيسر فهمها الا بالرجوع الى البناء القرابي والقبلي التقليدي والأسس التي تقوم عليها حقوق العضوية أو المواطنة في المجتمع الكويتي الحديث ، وما يرتبط بذلك من امتيازات اجتماعية واقتصادية جعلت الكثيرين ممن يرجعون الى أصول قرابية وعرقية مختلفة يسعون للتمتع بتلك الحقوق بطرق متنوعة مشروعة وغير مشروعة ٠

د ــ لقد فرضت الاوضاع السكانية والاقتصادية الجديدة في المجتمع الكويتي ان تعمل الدولة على تطوير نظم الحكم والادارة وتنظيم

---

(٢) لعبت الظروف السكانية والاقتصادية والسياسية المحيطة بالكويت دورا واضحا في ظهور مشكلة التسلل والمتسللين الذين بلغوا حوالي الثلث من العاملين بالقطاع الاهلي في احصاء اجرى عام ١٩٦٣ في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بدولة الكويت ٠ ويتيح التجنس بالجنسية الكويتية للجماعات السكانية المقيمة والواردة الكثير من الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية مما يجعل الجنسية الكويتية أملا يسعى اليه الكثيرون من الوافدين بالكويت ٠ انظر الفصل الخاص بترتيب الفئات الاجتماعية في مجتمع التغاير السكاني بالكويت في كتابنا « الكويت والهجرة » للتعرف على وضع وحجم مشكلة التسلل وامتيازات التجنس بالجنسية الكويتية في المجتمع الكويتي الحديث ٠
محمد عبده محجوب : الكويت والهجر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٧ ٠

علاقات العمل وحقوق المواطنة والاقامة بما يتمشى مع الاسس الدولية المقررة وما يحقق الحماية والامن لجميع السكان بفئاتهم المختلفة ، كما يحقق قدرا من الرعاية التي تساعد المواطن الكويتي على التمتع بظروف ملائمة في مجالات التنافس في سوق العمل ، وهكذا يمكن اعتبار الهجرة كعملية اجتماعية عاملا مؤديا ومصاحبا للتغير في المجتمع الكويتي الذي يعيش منذ بداية الاربعينيات من القرن الحالي فترة التغير الذي نشأ بصفة خاصة نتيجة لظهور النفط وما أسفر عنه من تغير في العلاقات التقليدية بين الامكانيات البشرية والموارد الاقتصادية •

وتبين دراستنا الحقلية للجوانب الاقتصادية والسياسية في بنية المجتمع الكويتي التقليدي ـ وبخاصة فيما يتعلق بالظروف الايكولوجية والمناشط الاقتصادية والتقليدية ، والملكية ونظم تبادلها وحمايتها في النسق التقليدي ، والوحدة السياسية والسلطة التقليدية ، والتقنين العرفي في امارة الكويت ـ عن عدد من الحقائق التي نوجزها فيما يلي :

لقد اتضحت مظاهر التنوع في المناشط الاقتصادية التقليدية وتاثرها بالظروف الجغرافية والايكولوجية ، فقد كانت هناك المناشط الانتاجية التي تنتج المحاصيل النقدية مثل الغوص بحثا عن اللؤلؤ ، وكانت هناك المناشط الاقتصادية الاستهلاكية التي تقوم بغرض توفير الحاجات الاستهلاكية للجماعة ، وقد تمثلت في صيد السمك والزراعة والرعي ـ هذا فضلا عن احتراف النقل البحري بالاساليب التقليدية ، وما ارتبط به ذلك النشاط من احتراف التجارة التي ادخلت موردا جديدا من موارد تراكم الثروة لا يعتمد على الاستغلال المباشر للمصادر الطبيعية •

ولقد كانت الاوضاع القبلية والسياسية التقليدية من العوامل المحددة لطبيعة حيازة الارض وحقوق ملكيتها واستغلالها • فلم يكن هناك نوع من التمركز الاقليمي للوحدات القبلية ـ في الصورة المعروفة في المجتمعات

القبلية الانقسامية التي يتناظر فيها التوزع القرابي القبلي مع التوزع الاقليمي ، وبالتالي ظهور نوع من السيادة القبلية في المناطق الاقليمية المتمايزة ـ ولكن فقد قام حق استغلال تلك الوحدات القبلية الارض وبخاصة ارض المراعي ـ على عنصر السبق وحده في وضع اليد ، كما توقف حق استغلال الاراضي الزراعية على تفويض السلطة المركزية للشيوخ ـ أو ممثليهم في المناطق الاقليمية بالامارة .

ولكن فقد عرف المجتمع التقليدي نظم الملكية الخاصة لموضوعات اخرى من موضوعات الملكية مثل المنقولات وقوة العمل وأدوات الانتاج ـ على الرغم من وجود مظاهر التعاون والتكافل الاجتماعي المختلفة التي كانت تعمل على اعادة توزيع موضوعات تلك الملكية على اعضاء المجتمع اعمالا لقيم اجتماعية معينة ، وذلك مثلا فيما يتعلق بتوزيع حصيلة الصيد أو القيام بعمليات « المفازعة » والتعاون التقليدي .

وقد انعكست في النسق السياسي التقليدي ملامح مركزية السلطة وتوزعها معا ، فقد كانت هناك الوحدات القرابية القبلية الثأرية التي تعتمد على قوتها الذاتية في الحفاظ على حقوقها وفي فرض احترام العرف القبلي بما يتفق ومصالحها الخاصة ومركزها الاجتماعي بين الوحدات الاخرى من نفس الفرع أو من نفس الدرجة ، وقد كانت هناك السلطة المفوضة في المناطق الاقليمية المتمايزة التي تحكم « بالسالفة » ـ العرف ـ وتلتزم بأوامر السلطة المركزية فيما يشجر بين السكان من منازعات . وكانت هذه السلطة تستطيع ان تستخدم القسم لتنفيذ « السالفة » أو القواعد التنظيمية في المناشط الاقتصادية والاجتماعية التقليدية ، وبخاصة فيما يتعلق بتنظيم علاقات العمل في النشاط الاقتصادي البحري في الغوص والسفر .

ولقد كان المجتمع الكويتي ـ وبخاصة فيما بعد الحركة السياسية

التي قام بها مبارك الصباح والتي تمخضت عن ظهور ملامح الادارة الحديثة فيما يتعلق بتقنين السلطة واقامتها على أسس رسمية دون استنادها على العلاقات القرابية أو القبلية ـ مثالا ممتازا لتتبع مراحل النمو السياسي الذي يتخذه ظهور الدولة في المجتمعات التي لم تكن تؤلف دولة • ولقد استمر الازدواج والتعدد في النسق السياسي التقليدي في الكويت الى ان فرضته الظروف الاقتصادية والسكانية ، وبخاصة فيما أسفرت عنه من توافد الهجرات العمالية ، وما تعرض له المجتمع التقليدي ذاته من عمليات للحراك السكاني والهجرة الدخلية ، وقد فرضت هذه الظروف الجديدة أشكالا جديدة من التقنين والتنظيم سوف نحاول التعرض لها بالتفصيل في الصفحات التالية [٣] •

وقد كان للتغير الذي طرأ على مصادر الثروة في المجتمع الكويتي التقليدي وما استتبعه ذلك من تغيرات سكانية نشأت عن الهجرة الداخلية والخارجية ـ آثار هامة في الجوانب الاقتصادية والسياسية في ذلك المجتمع •• وبخاصة فيما يتعلق بنوعية المناشط المهنية للسكان ، ونظم الملكية وتقسيم العمل ، والسلطة والتقنين • فلقد أسفر التدهور الذي أصاب المناشط التقليدية عن تلاشي ذلك التنظيم الذي يقوم على الطوائف الحرفية لجماعات المشتغلين بالغوص والسفر ، وقد اجتذبت فرص العمل بالمشروعات الحديثة القوى العاملة المحلية في الزراعة والرعي والصيد ، وتحول الهدف من العمل عن مجرد توفير الحاجات الاستهلاكية للجماعة القرابية واعمال نظم التعاون والتكافل الاجتماعي التقليدية في توزيع المحصول الى العمل من أجل النقود ، وسيطرت القيم الصناعية الحديثة على عمليات الانتاج •

---

(٣) انظر الجدول التالي الذي يبين التركيب السكاني في كويت ما بعد النفط جدول رقم «١» •

Table One   جدول رقم -١-

Kuwait Population by General Censuses *								
Year	Sex	Population per sq km	Percent			Population		
			Total	Non-Kuwaiti	Kuwaiti	Total	Non-Kuwaiti	Kuwaiti
1957	M	7.8	64.0	35.3	28.6	132058	72904	59154
	F	4.4	36.0	9.7	26.4	74415	19947	54468
	T	12.2	100.0	45.0	55.0	206473	92851	113622
1961	M	11.9	62.4	36.1	26.3	200707	116246	84461
	F	7.1	37.6	13.5	24.1	120914	43466	77448
	T	19.0	100.0	49.6	50.4	321621	159712	161909
1965	M	16.9	61.3	37.2	24.1	286312	173743	112569
	F	10.7	38.7	15.7	23.0	181027	73537	107490
	T	22.6	100.0	52.9	47.1	467339	247280	220059
1970	M	24.8	56.8	33.1	23.7	419881	244368	175513
	F	18.9	43.2	19.9	23.3	318781	146898	171883
	T	43.7	100.0	53.0	47.0	738662	391266	347396
1975	M	32.1	54.7	30.9	23.8	543768	307168	236600
	F	26.7	45.3	21.6	23.7	451069	215581	235488
	T	58.8	100.0	52.5	47.5	994837	522749	472088

* State of Kuwait, Central Statistical Office; Annual Statistical Abstract; Edition XIV, 1977. p.21.

ولما كان النسق التقليدي لتقسيم العمل يرتبط بالحاجات الاساسية والاستهلاكية للمجتمع الذي مطالبه تتميز بالبساطة ، فلقد اسفر التغير عن تعقد تلك المطالب واتساعها ـ وبالتالي اتسعت مجالات العمالة وظهرت الحاجة الى قوى عاملة في تخصصات دقيقة تحتاج الى كفاءات عالية لم تتوافر من داخل المجتمع التقليدي •

وقد أدت هذه الاوضاع الاقتصادية الجديدة الى ان تمثل القوى العاملة الاجنبية الغالبية في سوق العمالة والانتاج في المجتمع الكويتي الحديث [٤] • وكان لظهور تلك الاسس الحديثة لتقسيم العمل ـ التي لا تعتمد على الفوارق الطبيعية أو الانتماءات العرقية أو القبلية وانما تقوم على أساس من المعايير الموضوعية التي تتمثل في المستويات التعليمية والخبرة ـ الى ان تشارك القوى العاملة الوطنية بانصبة غير متكافئة في مجالات النشاط الاقتصادي المتنوعة على الرغم مما تبذله الدولة من جهد لتشجيع تلك الايدي العاملة الوطنية وتدريبها واعدادها بل والتنازل أحيانا عن بعض الشروط الموضوعية التي تشترطها فيمن تستخدمهم من المهاجرين •

ولقد تحولت نظم التكافل الاجتماعي التقليدية الى نظم تهدف الى حماية المصالح الوطنية للمواطنين في مجتمع التغاير السكاني ، وأصبح نظام الكفالة التقليدية عائقا من عوائق استقرار المهاجرين ومحاولتهم اقامة حياة مستقرة في المجتمع الكويتي الحديث ، وقد انعكس هذا على مدى حرصهم على الاسهام في تطوير ذلك المجتمع ـ بل لقد ارتبط مدى قيامهم بالعمل فقط بالقدر الذي يحفظ عليهم اقامتهم أو استمرار عقودهم دون محاولة الابتكار أو التغيير •

كذلك فقد تلاشت مظاهر التعاون التقليدي في المناشط الاقتصادية

---

(٤) انظر الجدول رقم : ٢ ورقم ٣

المتنوعة ، فقد تحول الناس عن نظام « المفازعة » في القيام بالمناشط التي تحتاج الى الكثير من الايدي العاملة ذات المستويات الفنية المتشابهة مثل بناء البيوت أو شق الطرق ، وقد سيطر العمل النقدي على سوق الانتاج الحديث ، وتولت الدولة المسئولية الكاملة في القيام بتقديم تلك الخدمات العامة التي كان الاهالي يتعاونون بوسائلهم التقليدية على توفيرها •

ومع ذلك فقد استمرت بعض القيم التقليدية فيما يتعلق بتوزيع الثروة الوطنية ، فقد استمر الاهالي ينظرون الى مصدر الثروة الجديدة ـ الذي يتمثل في النفط بنفس نظرتهم الى مصادر الثروة في المجتمع التقليدي • وفيما يتعلق بالارض مثلا فقد كانت ملكا للشيوخ ـ يمنحون حقوق استغلالها أو يتنازلون عن حقوق ملكيتها لمن يشأون عن طريق الايجار أو الهبة أو البيع ، وبالمثل فقد نظر الاهالي الى النفط باعتباره حقا للشيوخ الذين عملوا دائما على اعادة توزيع نتاج تلك المصادر للثروة على شعبهم • وتعتبر مشروعات « التثمين » والاسكان والرعاية الاجتماعية التي تقوم بها الدولة الآن بمثابة وسائل حديثة لاعادة توزيع الثروة في المجتمع، ولكن فقد تحولت النظرة الان وأصبح الاهالي يعتبرون ان استفادتهم من هذا المصدر العام للثروة بمثابة نوع من الحق الذي يطالبون به ، بل انهم ينظرون الى الوظيفة في المناشط الحديثة باعتبارها امتدادا لهذا الحق ، فالمعاش الشهري ليس بقدر العمل في الدرجة الاولى ، ولكنه بقدر الحق في التمتع بنصيب في هذا المصدر المشترك للثروة •

وبغض النظر عن التغير الذي كان سيطرأ على الكويت نتيجة للنفط ـ وبالتالي التغير في القيم ومحاولة الكويت بعد ان دخلت في عصر جديد أن تقتبس كثيرا من مظاهر الحياة السياسية والدستورية من الخارج وهي المظاهر التي تتلاءم مع الدولة الحديثة ـ فان وجود عشرات الالاف من الايدي العاملة الاجنبية التي تنتمي الى مجتمعات مختلفة وثقافات مختلفة ،

Table Two جدول رقم - ٢ -

Kuwait Labour Force by Division of Economic Activities in Census Years 1957 and 1975

قوة العمل في الكويت حسب أقسام النشاطات الاقتصادية في ١٩٥٧ و١٩٧٥

Sections of Economic Activities أقسام النشاطات الاقتصادية	1975				1957			
	غير كويتيين Non-Kawaiti		كويتيون Kuwaiti		غير كويتيين Non-Kuwaiti		كويتيون Kuwaiti	
Agriculture, Hunting and Fishing الزراعة والصيد	47.0	3531	53.0	3983	525	446	575	603
Mining and Quarrying المناجم والمحاجر	63.4	3080	35.4	1779	77.6	4194	22.4	[illegible]
Manufacturing Industries الصناعات التحويلية	75.7	22209	24.3	2258	84.4	5582	15.6	1029
Construction التشييد والبناء	94.6	30500	5.4	1756	95.5	8025	45	378
Electricity, Gas and Water الكهرباء والغاز والمياه	720	5237	28.0	2034	–	–	–	–
Wholesale and Retail Trade	84.0	33232	16.0	6327	495	4073	505	4151
Transportations and Communications النقل والمواصلات	70.9	11118	29.1	4567	57.6	2053	42.4	1513
Services الخدمات	61.5	102537	38.5	64265	66.6	29219	33.4	14684
Activities not adequately defined نشاط غير واضح	0.0	–	100	2	42.8	3590	57.2	4807
Total Activity مجموع النشاط	70.9	211444	29.1	86971	66.8	57182	33.2	28373
Inactive عديم النشاط	32.9	103840	63.6	151675	22.5	16610	61.5	45375
Total Population الإجمالي	100	315284	100	238646	100	73792	100	73748

Table Three جدول رقم -٣-

Kuwait Government Civil Servants by Occupations Major Divisions and Nationality (*)

العاملون في الحكومة حسب أقسام المهنة والجنسية

1972

Major Divisions	Foreign N. جنسيات غير عربية		Arab Nations جنسيات عربية		Kuwaitis الكويتيون	
Professional Technical and Related Workers	6.0	1325	66.0	14389	28.0	6093
Administrative and Managerial Workers	0.7	2	10.0	32	89.3	285
Clerical and Related Workers	2.5	396	31.7	5089	65.8	10550
Sale Workers		—		—		—
Service Workers	5.6	1390	60.3	14855	34.1	8391
Agricultural, Animal Husbandry and Fishermen	1.4	22	75.2	1171	23.4	365
Production Workers and Transport Equipment Operators and Labourers	8.6	2200	56.6	14492	34.8	8903
Workers Not Classified	0.0	—	85.7	6	14.3	1
Total		5335		50014		34588

1976

Major Divisions	Foreign N. جنسيات غير عربية		Arab Nations جنسيات عربية		Kuwaitis الكويتيون	
المشتغلون بالمهن العلمية والفنية	6.8	2202	62.1	20082	31.1	10079
المديرون الاداريون ومديرو الأعمال	0.4	2	6.3	31	93.3	460
الموظفون التنفيذيون والكتابيون	2.7	574	30.6	6500	66.7	14181
المشتغلون بأعمال البيع	1.0	1	12.1	13	86.9	93
المشتغلون بأعمال الخدمات	5.0	1387	56.1	15285	39.9	11085
المشتغلون بالزراعة وتربية الحيوان والصيد	4.5	95	80.6	1721	14.9	318
عمال الانتاج والعمال العاديون	10.1	3276	57.3	18513	32.6	10553
غير مبين	—	—		—	—	—
الجملة	6.5	7537	53.4	62145	40.1	46769

(*) State of Kuwait, Centeral Statistical Office, Annual Statistical Abstract, Edition XIV, 1977, p. 109

والتي كان من الصعب امتصاصها في المجتمع القبلي التقليدي لانها جاءت من ثقافات أكثر تقدما - ونظرا لان عددها الهائل الذي يزيد عن عدد السكان الاصليين كان أيضا من العوامل التي تمنع ذلك الامتصاص ويمنع بالتالي من امكان خضوعهم للتنظيم القبلي - ولهذا كله فقد كان على الدولة وعلى المجتمع الكويتي ان يغير من نظمه السياسية لتتلاءم مع الاوضاع السكانية الجديدة .

وهذا يعني بقول اخر ان تغير النظم السياسية التقليدية أصبح ضرورة بعد ظهور النفط واستغلاله ليس فقط لمسايرة التغيرات الحديثة - ولزيادة اتصالات المجتمع الكويتي بالعالم الخارجي - ولكن ذلك التغير جاء لمواجهة الوضع الجديد الناتج عن التعقد السكاني أو التركيب السكاني الجديد والناشيء عن الهجرة . ومن هنا نستطيع ان نقول ان هجرة الأيدي العاملة الى الكويت كانت في حقيقة الامر عاملا من أهم العوامل في تغير النظام السياسي التقليدي ، وقد عرض أحد اقسام هذه الدراسة لمظاهر عديدة لعمليات التقنين والتشريع في جوانب متنوعة من المجتمع الكويتي الحديث ، وبخاصة فيما يتعلق بتنظيم علاقات العمل ، وحقوق المواطنة والاقامة - باعتبارها مظاهر للتغيرات في النظام السياسي في مرحلة بناء الدولة الحديثة في الكويت .

ولقد خلخلت التغيرات الاقتصادية من بعض الاسس المستقرة لترتيب الفئات الاجتماعية وتفاضلها في المجتمع الكويتي التقليدي ، فلقد كان الانتماء القرابي من العوامل المحددة للمرتبة الاجتماعية التي يحتلها الاشخاص والجماعات في نسق الترتيب والتفاضل ، وكان أعضاء نفس الوحدة القرابية يشاركون جميعا في نفس المرتبة الاجتماعية ، ويرث الابناء نفس المرتبة الاجتماعية التي يحتلها الأب ، كما تكون للزوجة نفس المرتبة التي يحتلها الزوج . وقد تميز المجتمع الكويتي التقليدي

بقوة وعمق الروابط القرابية التي لعبت دورا هاما في تحديد فرص العمل والمركز السياسي والامكانيات الاقتصادية للاشخاص • • ولكن التغيرات الاقتصادية قد أثرت في قوة الدور الذي صار الانحدار القرابي يلعبـه في مجال تحديد المراتب الاجتماعية التي يحتلها الاشخاص في النسـق الحديث • ومثال ذلك انه بعد ان كانت القوة الذاتية للجماعة القرابيـة القبلية هي التي تفرض لاعضائها المراكز السياسية الممتازة ، صارت هناك عوامل جديدة مثل التعليم والخبرات بالطرق الحديثة في العمل هي العوامل المحددة في اعتلاء تلك المراكز ، وهذا مـا أدى الى التباين في ردود أفعال الجماعات القرابية والقبلية نحو التغيرات الحديثة متمثلة في ظهور البترول والفرص الجديدة للكسب والعمالة ، بناء على ما أصابه اعضاؤها مـن حظ من التعليم والمهارات الفنية التي تطلبتها السوق الجديدة للعمـل ، وانعكس هذا كله في تغير الاسس التي يقوم عليها التراكـم الاقتصادي للثروة وما يرتبط بها من مركز اجتماعي •

وكذلك فقد ترتب على التغير في المناشط الاقتصادية ومصادر الدخل المتنوعة والمتاحة لكل الكويتيين بفئاتهم القبلية والعرقية المتمايزة في النسق التقليدي ، وما صاحب ذلك التغير من نهضة تعليمية خلقت فرصا جديدة للحصول على مراكز ممتازة في نسق الادارة والانتاج في الكويت ما بعـد النفط ، ان ظهر نسق جديد لترتيب وتفاضل الفئات الاجتماعيـة يتعدى كل حدوود التقاطع والتمايز التقليدية ويعيد ترتيب أعضاء المجتمـع بحسب مراكزهم في النسق الجديد لتقسيم العمل وترتيب المهن عـلى الأسس الصناعية والادارية الحديثة •

وقد تبين خلال الدراسة الحقلية مدى حرص أعضاء الفئات القبلية والعرقية التي احتلت مراكز دنيا في نسق التفاضل التقليدي على الاستفادة من تلك الفرص الجديدة • ولقد صار من المقبول اجتماعيا الآن ان يكون

مدير الوحدة الادارية كويتيا من « الفئة الثانية » يعمل تحت رئاسته موظفون كويتيون من « الفئة الأولى » وقد يكون الرئيس من « الصلب » ويعمل تحت رئاسته موظفون ينتمون الى تلك الفئات القبلية « الاصلية » ، وفي نفس الوقت اصبحت الفئة أو الطبقة المهنية الواحدة تضم اعضاء ينتمون أصول قبلية وعرقية مختلفة في مراتب التفاضل التي تحتلها في النسق التقليدي .

وهذه الظروف الحديثة فضلا عن انها قد غيرت من نمط العلاقات البنائية التي تربط بين الوحدات القبلية والعرقية المتمايزة في النسق التقليدي ـ بناء على مدى اسهام أعضاء تلك الوحدات في المناشط الحديثة واستفادتهم من برامج التعليم والتدريب والتزود بالخبرات الضرورية للحصول على مراكز الادارة في تلك المؤسسات الحديثة ـ فان هذه الظروف ذاتها تطلبت من هؤلاء أن يعيدوا تكييف أنفسهم مع الاوضاع التقليدية المستقرة أو تغيير تلك الأوضاع ذاتها . ولا ينطبق هذا فقط على الشباب من الكويتيين ، ولكنه ينطبق كذلك على الشبان المهاجرين وعلاقاتهم بالمجتمعات التقليدية الاصلية التي أتوا منها .. وبخاصة اذا كان احد الاسباب التي تؤدي بهم الى الهجرة خارج الوطن تتمثل في عجز الموارد المحلية في تحقيق الاشباع لحاجاتهم أو الرغبة من الاسفادة من الامتيازات التي يمنحها المجتمع الجاذب للهجرة أو بسبب الفشل في الحصول على المراكز التي تتناسب مع توقعاتهم ونظرتهم الى كفاءاتهم الشخصية ـ وهي في الغالب كلها أسباب اقتصادية .

أما هؤلاء المهاجرون في سعيهم للحصول على الاجور والامتيازات المتعددة التي تتوفر في سوق العمل في الكويت ، فقد استطاعوا ان يغيروا ليس فقط من مستوياتهم الاقتصادية نتيجة لما يدخروه من الاجور المرتفعة التي يتقاضونها ، ولكنهم استطاعوا كذلك ان يغيروا من المراكز المهنية

التي كانوا يحتلونها في الوطن الأصلي ، فقد وفد الى الكويت الكثير من عمال الزراعة والعمال العاديين ، استطاعوا نتيجة للحاجة الملحة في سوق الاعمال الفنية والحرف الصناعية في الكويت ان يمروا بفترة تدريب قصيرة كانت في أغلب الاحوال أثناء ممارسةالعمل ذاته ، وان يصبحوا في النهاية عمالا صناعيين . وهذا التغير الذي تمثل في زيادة الثروة الفردية والتحول المهني قد جعل من العسير على هؤلاء العمال المهاجرين عند عودتهم الى مجتمعاتهم الاصلية ان يحتلوا نفس المراتب الاجتماعية التي كانوا يشتغلونها في تلك المجتمعات ، فالمزارع والراعي الذي هاجر الى الكويت ثم استطاع ان يتحول الى « سائق » أو « عامل صناعي » أو « حرفي » لا يستطيع العودة الى نفس مركزه في النسق الاقتصادي والاجتماعي في الموطن الاصلي ، وهذا يعني تأثر المجتمعات المحلية التي ينتمي اليها المهاجرون بأحداث السوق والتغير الاقتصادي في المجتمع الطارد للهجرة ذاته .

وقد أدت الهجرة والتغيرات الديموجرافية الى تغاير المكونات السكانية في المجتمع الكويتي وكان من أهم مظاهر هذا التغاير تمايز تلك الثقافات والتجمعات السكانية والثقافية للوافدين الذين كونوا منظمات غير رسمية . وتحتل تلك المنظمات غير الرسمية أهمية تتعدى حدود الخدمات الاقتصادية ، فهي تقوم بوظيفة الربط بين الافراد الذين ينتمون الى وحدات قرابية أو قبلية متمايزة في الموطن الاصلي ولكنهم يكونون في المهجر وحدة اكبر تتعدى كل حدود التمايز التقليدي في ذلك الوطن ، وتتمثل تلك الوحدة في الخضوع الى هيئة تقليدية واحدة للقضاء وتسوية المنازعات طبقا للطرق التقليدية التي تطبق في ذلك الموطن فيما لا يتعارض مع القانون المحلي في المهجر . كما تتعدى مبادىء التكافل الاقتصادي في المهجر كل حدود التمايز التي يقوم عليها التعاون والتكافل الاقتصادي

والتقليدي بين أبناء الوحدة القرابية أو القبلية الواحدة في الوطن الاصلي •

وقد احتفظت بعض جماعات المهاجرين بالسمات البنائية لتنظيم الحياة في أوطانهم الاصلية ، « فالمهرة » والبلوش يكونون في المهجر جماعات يقوم نسق التوزع المهني فيها على نفس الاسس التقليدية في الوطن •• ومع ان البعض منهم قد تخصص في المهجر في أعمال التجارة البسيطة والخدمة في الفنادق « وكصبيان » في البيوت أو اشتغل البعض الاخر كحمالين أو باعة متجولين أو حراس – وهي مناشط اقتصادية جديدة عليهم تقوم على الأسس النقدية ، ولكن فقد احتفظت جماعاتهم بوحدتها اللغوية • وتلك الوحدة اللغوية هي اطار للوحدة القرابية التي تشمل كل المهاجرين منهم • وقد انعكست تلك الوحدة في الكثير من المناشط والعمليات الاجتماعية في بلد الهجرة – وبخاصة فيما يتعلق بعمليات الضبط الاجتماعي وتسوية المنازعات التي تقوم بين الافراد والجماعات ، وذلك للمحافظة على وحدة وتماسك تلك الجماعات اللغوية والقرابية في الوطن الجديد ، كذلك ، فان تلك الوحدة اللغوية قد صارت اطارا لتكوين وحدات اقتصادية تعاونية في المهجر تقوم بتقديم التسهيلات والمساعدات للمهاجرين الجدد لتنظم لهم المأوى المؤقت وتعتمد على علاقاتها بالمجتمع الجديد في ايجاد العمل المناسب لهم •

وهؤلاء المهاجرون من أبناء الجنسيات أو الجماعات العرقية المتمايزة في الكويت لاشك انهم لا يمكن لاي منهم ان يغير من طبيعة انتمائه الى تلك الجنسية أو الجماعة العرقية التي ينتمي اليها الا بالحصول على الجنسية الكويتية وهي تخضع لشروط وظروف تجعل من العسير عليهم الحصول عليها • ومع ذلك فان الانتماء الى جنسية أو جماعة عرقية معينة لا يعني ان تكون تلك الجماعة اطارا لكل المناشط الاجتماعية للشخص ، فهو يسكن في بناية واحدة مع أشخاص ينتمون الى فئات أخرى متمايزة ، وهو

يعمل في المتجر أو الادارة الحكومية مع اناس لا ينتمون اليه بصلات اللغة أو الوطن الاصلي ، وقد يتكلمون لغة مشتركة هي اللغة الرسمية للدولة • كما انه يستطيع الزواج أو الاشتراك في النشاط الاقتصادي الخاص مع من يقدمون له الشروط الافضل بغض النظر عن طبيعة السلالة أو الموطن الأصلي الذي ينتمي اليه ، وهذا يعني باختصار ان انتماء الشخص الى فئة معينة من الفئات المتمايزة على أساس الجنسية أو الاصل العراقي ، لا يعزله عن التفاعل والدخول في علاقات متنوعة مع أعضاء الفئات الاخرى ، كما ان هذه الفئات لا تكون وحدة مهنية مغلقة فالمصريون والهنود والفلسطينيون يشتغلون معا في عديد من المهن المتنوعة والمختلفة في نسق التفاضل المهني ، وبالاضافة الى هذا كله فأن هناك ضرورة للتعاون الرسمي في المناشط الاقتصادية المختلفة •

ولكن هذه العلاقات لم تصل الى مدى العمق الذي يمكن معه مثلا تبادل الزواج فيما بينها ، فقد تبين انه فيما يتعلق بالتزاوج بين الجنسيات المختلفة بين أفراد العينة التي اعتمدت عليها الدراسة ان الكويتيين هم نسبيا فقط الذين ترتفع بينهم نسبة الرجال الذين يتزوجون للمرة الاولى بنساء ينتمين الى جنسية مختلفة عن جنسيتهم الحالية ، فقد بلغ عدد افراد العينة من المتزوجين ٦١ شخصا تزوج منهم تسعة وأربعون بزوجات كويتيات بينما تزوج الاثنى عشر الاخرون (حوالي ٢٠٪) بزوجات من جنسيات أخرى ممن ينتمين الى الجنسية العراقية أو السورية أو الايرانية أو المصرية أو من بدو الصحراء ، وكذلك نجد ان من بين الذين تزوجوا منهم للمرة الثانية وقد بلغ عددهم ١٤ شخصا ان احد عشر شخص قد تزوجوا بكويتيات بينما تزوج الثلاثة الاخرون من نساء عراقيات • ولكن الامر يختلف بين غير الكويتيين من المهاجرين فلم يتزوج احد أفراد العينة الذين بلغ عددهم ٩٦ شخصا ـ وكان بينهم ٢٤ شخصا قد تزوجوا

لمرة أو أكثر ـ لم يتزوج منهم أحد بزوجة لا تنتمي الى جنسيته الاصلية .. فيما عدا حالة زواج واحدة بين طبيب أردني الجنسية وطبيبة عراقية يدينان بالمسيحية .

ولعل من الظواهر الغريبة التي يتميز بها المهاجرون في الكويت انهم يحرصون ـ كما يحرص المجتمع الاصلي ـ على المحافظة على التمايز والتغاير الذي يفصلهم عن المجتمع الاصلي ، ولعل هذا الحرص هو الذي أسفر عن ذلك الاختلال الهائل بين نسبة الذكور والاناث بين المهاجرين حيث تصل نسبة الاناث بينهم طبقا لتعداد عام ١٩٦٥ الى ٣٠٪ فقط . (٥) ويفسر المهاجرون هذا الاختلال بأنهم لا يعتبرون أنفسهم مغامرين يحاولون بداية حياة جديدة خارج الوطن الاصلي ، ولكنهم في العادة قد دفعتهم الحاجات الخاصة أو الضرورة الاقتصادية الى الهجرة ، كانوا ضحايا للضغط السكاني المتزايد على الرقعة المحدودة من الارض الزراعية أو في مناطق الرعي مع قلة الفرص المحلية أو انخفاض مستويات الاجور في الوطن الاصلي ، أو دوافع العروبة والرغبة في المشاركة في بناء النهضة الحديثة في الكويت ما بعد النفط ، وهناك من تتعاقد معهم الدولة للعمل لفترات قصيرة في المشروعات الانشائية ، ولكن الجميع لا يتوقعون ان تكون معيشتهم في المهجر معيشة دائمة .. ولكنهم على العكس ينظرون الى تلك الحياة كحياة مؤقتة يحاولون فيها الحصول على أكبر قدر ممكن من المال في أقصر وقت ليعودوا الى الوطن رجالا أثرياء يدعمون عن طريق مدخراتهم التي جمعوها في الكويت مراكزهم الاصلة في الوطن .

ولقد كانت هناك عوامل موضوعية تدعم هذه النظرة الى طبيعة

---

(٥) انظر الجدول التالي رقم : ٤ .

Table Four جدول رقم ٤:

Kuwait Population by Localities in eash Governorate by Sex Sensoc 1975 *
السكان بالمناطق في كل محافظة حسب النوع

Localities المناطق	Total Population جملة السكان						Non Kuwaitis غير الكويتيين						Kuwaitis الكويتيون					
	Total الجملة		Female أنثى		Male ذكر		Total الجملة		Female أنثى		Male ذكر		Total الجملة		Female أنثى		Male ذكر	
	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد	Per. %	Pop. عدد
Kuwait City مدينة الكويت	100	78116	27.3	21340	72.7	56776	84.9	66339	23.4	15546	76.6	50793	15.1	11777	49.2	5794	50.8	5983
Total Suburbs of Capital Gov. ضواحي العاصمة	100	198240	47.4	93953	52.6	104287	28.1	55775	40.5	22563	59.5	33212	71.9	142465	50.1	71390	49.9	71075
Hawali Gov. محافظة حولي	100	576589	46.8	270007	53.2	306582	60.0	346117	45.0	155755	55.0	190361	40.0	230492	49.6	114251	50.4	116231
Ahmadi Gov. محافظة الأحمدي	100	141256	46.4	65478	53.6	75778	38.6	54518	39.8	21716	40.2	32802	61.4	86738	50.5	43762	49.5	42976
Living Abroad مقيمون بالخارج	100	636	45.8	291	54.2	345	00.0	—		—		—	100	636	45.8	291	54.8	345
Grand Total	100	994837	45.3	451069	54.7	543768	52.5	522749	41.2	215581	58.8	307168	47.5	472088	49.9	235488	50.1	236600

* State of Kuwait, Centeral Statistical Office; Annual Statistical Abstract; Edition XIV, 1977; PP. 23-5.

الهجرة العمالية في الكويت ، فلقد سبقت الاشارة الى ان الدولة ، وهي حريصة ـ ومحقة ـ في المحافظة على مصالح الكويتيين تفضل هؤلاء المواطنين في التعيين والترقية مما يضيق على المهاجرين فرص الترقي وتدعيم مراكزهم الوظيفية في المهجر ، بل هي حريصة على تكويت العمالة في الكويت في أقرب وقت ممكن وهي نشطة في ذلك عن طريق البرامج التدريبية للعمال الفنيين وانشاء المعاهد العلمية الخاصة باعداد المتخصصين في مجالات التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية والاعلام وغيرها •

وهذا كله في نفس الوقت الذي يصعب على هؤلاء الحصول على الجنسية الكويتية مما يؤدي الى انهاء مدة اقامتهم في الكويت فور انتهاء اجال عقودهم التي تستمر لفترات قصيرة وهو ما يجعل غالبية المهاجرين وخصوصا من بين العمال العاديين والمشتغلين بأعمال التجارة والبيع ممن يدخلون الكويت بالطرق غير المشروعة ـ يفضلون ترك زوجاتهم وأولادهم في الوطن الاصلي ليقوموا بزياراتهم كلما حصلوا على اجازات أو عندما تنتهي عقود عملهم بالكويت ، وحتى اذا كان الوضع يختلف بالنسبة الى المشتغلين بالمهن العلمية كالمدارس والاطباء والمهندسين وغيرهم ممن يتمتعون بامتيازات في الاسكان والاجور تشجعهم على احضار زوجاتهم وأولادهم الى الكويت ، الا ان هناك الكثيرين منهم ممن يفضلون قضاء فترة التعاقد أو « الاعارة » بمفردهم حيث تظل الزوجة في الوطن للاشراف على مصالح الاسرة هناك ، وبخاصة حين لا يرغب الاباء في تغيير النظم التعليمية التي ينتظم فيها الابناء ، أو تكون هناك بعض المصالح الاقتصادية أو الالتزامات العائلية التي تتطلب بقاء الزوجة في الوطن •

ولعل تلك الظروف والاوضاع كلها تجعل من المشروع اطلاق لفظ النسق التعددي على النسق الاجتماعي في الكويت الحديثة • ليس فقط

لانه في داخل الحدود الاقليمية لذلك المجتمع تعيش بعض المجتمعات المتمايزة المنعزلة ، ولكن فقد قام بين تلك الجماعات المتمايزة أنواع من الاحتكاك أو التفاعل ، فالجماعات القبلية والعراقية المتمايزة ، حيث تنتقل من حياة البداوة الى التواطن بالقرب من المشروعات الصناعية والتجارية ومراكز الخدمات الحديثة ، وتتقابل في معاملاتها اليومية مع الفئات الكويتية الاصيلة الاخرى وغيرها من الاجانب أو من المهاجرين ، لا تستطيع تلك الجماعات ان تعيش في معزل عن الاحتكاك والتفاعل مع غيرها من الجماعات أو الفئات الاجتماعية ، فالجميع يشاركون في المناشط الاقتصادية وينتظمون تحت رئاسة واحدة في مجالات العمل - ويخضعون لنسق واحد من الجزاءات المقننة - كما يجدون أنفسهم مضطرين الى التعاون وتبادل الخبرات للتغلب على المشكلات في العمل وصعوباته ، وربما يلتقون في كثير من المناسبات الاجتماعية غير الرسمية فيما بعد أوقات العمل ، وهم بالاضافة الى هذا كله يشاركون في الاستفادة من مصادر مشتركة للخدمات.

وقد انتهت تلك الدراسات المتكاملة في المجتمع الكويتي الى عدد من الحقائق التي أبرزت انه على الرغم من ان موضوع هذه الدراسة وعنوانها هو : « الهجرة والتغير في بنية المجتمع الكويتي » الا ان معالجة هذا الموضوع بصورة شاملة قد فرضت التعرض لكثير من ملامح الحياة التقليدية والحديثة التي تبدو للوهلة الاولى على غير صلة بمشكلة الهجرة . وقد كان ذلك بغرض القاء مزيد من الضوء على هذه المشكلة ذاتها تبعا لطبيعة المنهج البنائي الوظيفي الذي ينظر الى البناء الاجتماعي باعتباره يتكون من مجموعة من الانساق والنظم التي يربط بينها نوع من التساند والذي يفترض انه لا يمكن للباحث الانثروبولوجي فهم الدور الوظيفي لاي نظام من النظم الا في علاقته ببقية النظم الاخري في النسق الاجتماعي

الكلي • وقد ظهر لنا في نهاية البحث عدد من النتائج الهامة التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

أ ـ لقد ساعدت الظروف الايكولوجية على تنوع المناشط الاقتصادية التقليدية في المجتمع الكويتي ، فقد عمل السكان بالرعي والزراعة والصيد والغوص والسفر والتجارة ، وقد كانت السنة باعتبارها تمثل المدى الزمني لدورة الحياة الاقتصادية في المجتمع التقليدي تبرز نوعا من التكامل الذي يسيطر على تنوع المناشط الاقتصادية التي كان يقوم بها هؤلاء السكان •• فقد كان البدو يزاوجون بين الاشتغال بالزراعة المتنقلة أو زراعة الحدائق لتوفير المحاصيل الاستهلاكية معتمدين على مياه الامطار القليلة ، ثم ينتقلون في موسم الربيع بأغنامهم أو ابلهم الى المناطق التي يتوفر فيها العشب والمرعى ، ثم يعودون للتمركز حول مصادر المياه أو الجلبان في فصل الصيف ليذهب البعض منهم الى العمل في الغوص •

ب ـ وقد تنوعت أنماط استقرار الجماعات السكانية في ذلك المجتمع التقليدي ، فقد كان أهل الحضر الذين يقيمون في بيوتهم المبنية داخل سور مدينة الكويت أو خارج ذلك السور في المناطق القروية بالجهرة وفيلكا والفحيحل وغيرها وقد عمل هؤلاء بالصيد وزراعة الحدائق أو زراعة الخضروات في المزارع المستقرة والغوص والسفر والتجارة ـ بينما كانت هناك بعض الوحدات القبلية البدوية من أنصاف الرحل •• وقد قامت أنماط معينة من العلاقات التي تربط « أهل البدو » الحضر وبخاصة فيما يتعلق بتبادل المنافع الاقتصادية ـ كما قد انطوت تلك العلاقات في بعض الاحيان عن محتوى سياسي يتمثل في تعهد أهل البدو بتوفير الحماية والدفاع عن بعض تلك الجماعات الحضرية •

ج ـ وكان لظهور النفط وما استتبعه من الحاجة الى ايدي عاملة على درجات متفاوتة من الخبرة والمهارة في عمليات انتاجه ـ وما قام حوله من

صناعات — ان تعرض المجتمع الكويتي التقليدي لعملية هجرة سكانية داخلية واسعة تركت آثارا واضحة في سوق العمل ، فلم يعد السكان الكويتيون يشتغلون مثلا بتلك الاعمال التقليدية مثل الرعي أو الصيد ، وان استمرت بقايا تلك المناشط ذاتها فيما بعد التغير كما هو الحال بالنسبة للصيد والرعي أيضا فقد أخذت تلك المناشط وضعا جديدا ، وصار الكويتيون يستأجرون للقيام بها عمالا من الوافدين ، وتحول الهدف من المناشط عن مجرد توفير الحاجات الاستهلاكية واعادة توزيع المحصول على أساس تعاوني الى اعتبارها عمليات اقتصادية لتحقيق الربح النقدي ، كما تحول الغرض من تربية الحيوان مثلا الى مجرد توفير الحاجة الاستهلاكية وكتعبير عن الاصالة واستمرار التمسك بالاوضاع التقليدية ازاء وطأة التغير الذي يشعر به اعضاء المجتمع الكويتي الحديث •• وفضلا عن هذا فقد حدثت تغيرات في بعض المناشط الاقتصادية الاخرى مثل السفر فقد اعتمد النقل البحري الحديث على الاساليب الفنية المتقدمة في العمل ، واستخدمت في ذلك العمل وسائل تكنولوجية أكثر تقدما وتعقيدا ، وأصبح أغلب القائمين بهذه الاعمال من ذوي الخبرات الفنية من الوافدين •

د — وازاء تلك الظروف الاقتصادية • كان لابد من اعادة توزيع القوى العاملة المحلية على المهن والمناشط الاقتصادية التي تتناسب مع نوع الخبرة والكفاية التي يتمتع بها العامل الكويتي • وقد اجتذب قطاع الخدمات الحكومية وبخاصة في الاعمال الكتابية والشرطة والحراسة • تلك الايدي العاملة الشابة التي تركت العمل بالمناشط التقليدية •• اما لاندثارها — كالغوص والسفر باساليبه التقليدية — أو لقسوتها كالرعي والزراعة •

هـ — ولكن قد كونت قوى العمل الوافدة الغالبية العظمى للعمالة

في المجتمع الحديث • وقد شغل الوافدون كثيرا من المراكز الانتاجية في المناشط العلمية والفنية والادارية والحرفية التي تحتاج الى خبرات علمية ومهارات حرفية لم تتوفر في القوى العاملة المحلية ـ ولكن اذا كانت الكويت قد نجحت في اجتذاب المتخصصين في مختلف المجالات من العرب وغير العرب ، وأعطتهم رواتب مرتفعة تزيد كثيرا من مستوى الرواتب والاجور في دول الشرق الاوسط ، فهي قد اجتذبت في نفس الوقت ألوفا من العمال الغير مهرة المستعدين للاشتغال بأي عمل يدوي ولو كان من الاعمال الشاقة التي أصبح الكويتيون مهما كان مستوى خبراتهم يعزفون عن الاشتغال بها ويعتبرونها أعمالا لا تتناسب مع مرتبتهم الاجتماعية •

و ـ كذلك اسفرت تلك التغيرات الاقتصادية عن تغير في الاسس التي يقوم عليها تقسيم العمل وتوزيعه في المجتمع الحديث ، فقد كانت الوحدة القرابية في المجتمع التقليدي اطارا للتكامل بين الادوار الاقتصادية التي يقوم بها أعضاؤها في المجالات المتنوعة مثل الرعي وزراعة الحدائق والغوص ، أو مثل الصيد والزراعة والغوص والسفر أو في احتراف بعض الاعمال اليدوية والمزاوجة بينها وبين الزراعة القليلة وتربية الحيوان • وكان تقسيم العمل يقوم على بعض العوامل الذاتية والموضوعية التي استمرت في مرحلة ما بعد التغير ، مع الاختلاف في مدى تغلب كل منهما أو الاخرى في النسق الحديث عنه في النسق التقليدي ، فقد تلاشت مثلا الاسس العرقية التي كانت تقصر الاشتغال باعمال الحدادة ـ وما يتصل بها من الحرف اليدوية ـ على جماعات « الصلب » الذين احتلوا مركزا معينا في نسق التفاضل التقليدي وقد اصبحت معاهد التدريب على تلك الحرف اليدوية تجتذب الشبان من الفئات العرقية والقبلية المختلفة ، وان كانت الدولة الان تغلب بعض الاسس الذاتية في عمليات الاختيار المهني لحماية العامل المحلي واعطائه الفرصة للتدريب وزيادة كفايته الانتاجية ، الا ان

هناك بعض المهن الفنية والعلمية التي فرضت استجلاب من يقومون بها من خارج المجتمع الكويتي التقليدي أو الحديث ، وهذا يعبر في حد ذاته عن جانب من جوانب التغير في أسس تقسيم العمل وتوزيعه في المجتمع الحديث • وقد فرضت ادارة المشروعات الحديثة زيادة التخصص الدقيق في تلك الاعمال الجديدة التي تحتاج الى كفاءات عالية ، وأصبحت الدرجات العلمية وسنوات الخبرة معيارا موضوعيا أساسيا في تولي بعض الوظائف وبخاصة في المجالات العلمية والادارية •

ز ـ وقد اخذت بعض العمليات الاقتصادية التعاونية التقليدية وضعا جديدا في مرحلة ما بعد التغير ، فقد تغيرت مثلا الوظيفة الاجتماعية لنظام التكافل التقليدي الذي يتمثل في تحقيق نوع من الحماية الجماعية ضد الازمات الاقتصادية التي يتعرض لها أعضاء المجتمع ، وهي تتمثل في اعطائهم الفرصة لتعويض الخسارة والعودة الى سوق العمل ان تعرضت تجارتهم للخسارة ، أو ابتلع البحر سفنهم ، أو اتت النيران على تجارتهم ، وأصبحت عملية الكفالة في المجتمع الحديث تمثل نوعا من التفرقة أو التمييز بين الفئات السكانية في المجتمع ، بهدف حماية مصالح المواطنين الكويتيين في الدرجة الاولى ، وقد انعكس هذا على أوضاع الجماعات الوافدة من المهاجرين وفي مدى محاولتهم أو حرصهم على الاسهام في تطوير المجتمع الكويتي والافادة بخبراتهم في المجالات المختلفة •

ح ـ كذلك تغيرت النظرة الى المصادر الاساسية للثروة في المجتمع الكويتي فيما قبل التغير وبعده ، فقد كان استغلال الاراضي والزراعة ـ أو استغلال ماء البحر في الصيد والغوص والسفر ـ يرتبط في المجتمع الكويتي التقليدي برضاء الحاكم وموافقته فضلا عن الالتزام بدفع نصيب محدد من انتاج العملية الاقتصادية ، ولم يكن يخرج عن ذلك سوى أراضي الزراعة ، باعتبار ان ماء السماء هو الذي يقوم بالعملية الانتاجية كلها ،

وفيمابعد التغير كان المصدر الاساسي للثروة وهو النفط ينظر اليه ايضا باعتباره ملكا للحاكم الذي يحق له الحصول على عائدات انتاجه •

وقد تنازل الحاكم عن هذا الحق للارتفاع بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي للشعب في صورة مشروعات اجتماعية في مجال التعليم والصحة والاسكان والتنمية وغيرها ، واصبحت للحاكم الان مخصصات ثابتة في ميزانية الدولة التي تعتمد في الدرجة الاولى على هذا النفط ، ولكن حين عمد الحاكم الى اعادة توزيع الثروة على شعبه في صورة تلك الخدمات فقد ترتب على ذلك أن أصبح أفراد الشعب يرون ان لهم الحق في تلك الثروة العامة ، وقد تحكم هذا الحق في سوق العمل والانتاج بحيث صار التضخم الوظيفي مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي في المجتمع الكويتي الحديث •

ط ـ ولقد اسفرت الهجرة الخارجية في المجتمع الكويتي الحديث عن كبر حجم المجتمع وتضارب الثقافات التي تنتمي اليها جماعات المهاجرين ـ وكان التنافس في سوق العمل مجالا لتصادم المصالح ـ ومن ثم فقد نشأت الحاجة الى تعديل أجهزة الحكم والادارة التقليدية لتتلاءم مع الاوضاع الاقتصادية والسكانية الحديثة ، فلم يكن من الممكن اخضاع هؤلاء المهاجرين « للسالفة » التي كانت تحكم النشاط الاقتصادي التقليدي باعتبار ان العمالة الحديثة قد خلقت مشكلات جديدة ، وكان من الضروري ان تتطور نظم الادارة الاقتصادية نتيجة لكبر حجم المشروعات واختلاف نوعية القوى العاملة واتساع دائرة العلاقات الاقتصادية بالعالم الخارجي •

ى ـ كذلك فقد أسفرت الهجرة عن زيادة الاتصال بالعالم الخارجي وساعد ذلك على اقتباس النظم الحديثة في الحكم وادارة المشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك هناك ضرورة للتحول عن التشريع الذي يعتمد على تقنين العرف الى التشريع الحديث الذي يخضع له كل السكان بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو المذهبية ـ الا فيما

يتعلق بالاحوال الشخصية ، والمسائل ذات الاتصال بالعقائد الدينية ـ وقد خضعت له كل الوحدات القبلية والعرقية المتمايزة في المجتمع الحديث كما خضعت له كل فئات المهاجرين ، فلم تعد تلك التشريعات تعتمد على فكرة الخضوع الى قوانين وأعراف الوطن الاصلي ولكنها اتخذت صورة القوانين الصورية التي يخضع لها كل من يقيم في حدود سيادة الدولة الاقليمية .

وبقول آخر فان الهجرة كانت العامل الاساسي في كثير من التغيرات السياسية فقد دفعت نتائجها الاجتماعية باعتبارها مثلا قد عملت على تفكك العلاقات الشخصية التي كانت تؤثر في التكييف القانوني والعرفي للجريمة، ولهذا فقد كان من الضروري ان تقوم قوانين لا شخصية لا تتأثر بهذه العلاقات التي تقوم بين اعضاء المجتمع الحديث وكذلك فان الهجرات العمالية الخارجية وما ادت اليه من تنوع الفئات السكانية وثقافاتها قد ادت الى استحالة خضوعها جميعا للطرق العرفية التي كانت تقدم أسسا واضحة لتسوية كل المنازعات في المجتمع التقليدي ، وبالطبع لم يكن من الممكن اعطاء الفرصة لاعمال القواعد التقليدية لكل فئات السكان في المجتمع الحديث ، ولهذا فكان لابد من توحيد القوانين في الدولة الحديثة ، وهذا يعني ان القانون الحديث في مجتمع ما بعد التغير لم يكن مجرد مظهر وضرورة من مظاهر وضرورات انشاء الدولة ، وانما فرضته في الدرجة الاولى ظروف الهجرة وتنوع فئات المهاجرين .

ك ـ وقد ظهرت في المجتمع الكويتي الحديث مشكلات متعددة لم تكن لتوجد خلال النسق التقليدي ، أو انها اتخذت طابعا جديدا في مجتمع ما بعد التغير ، ومثال ذلك ان كانت الاصول القرابية وأسس الانتماء العرقي تقدم معايير واضحة في تحديد الانتماء السياسي ، ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي اصبحت تحيط بهذا الانتماء في المجتمع الحديث أصبحت تثير مشكلات متعددة ، كما ترتب على التنظيمات الجديدة

للاقامة والعمل ظهور بعض الظواهر الجديدة مثل عمليات التسلل ، كما عرف المجتمع الكويتي الكثير من المنازعات العمالية ، وهي وان كانت مشكلات قد وجدت في نسق العمالة في المجتمع التقليدي ، الا ان القوانين العرفية ، والعلاقات القرابية والعرقية التي تجمع بين الاطراف في علاقة العمل كانت تساعد على الوصول بتلك المنازعات الى تسوية مرضية سريعة ، ولكن فقد تطورت تلك المنازعات مثلا الى أن أخذت صورة الاضرابات أو المنازعات الجماعية أو الطائفية فقط بالمعنى المهني لهذه الكلمة •

ل ـ وقد انعكست أوضاع الهجرة العمالية في المجتمع الكويتي الحديث في نسق الترتيب الاجتماعي والوحدة والتعدد في ذلك المجتمع ، حيث لم يكن المجتمع الكويتي القبلي التقليدي يعرف مظاهر التمركز الاقليمي للوحدات القرابية السياسية كما هو الحال بصورة خاصة في المجتمعات الانقسامية العربية الاخرى ، فقد كانت هناك بعض الظروف الايكولوجية التي تفرض تمركز أعضاء تلك الوحدات القرابية القبلية في مواسم معينة من السنة وبخاصة في أيام الجفاف حول مصادر المياه في الجلبان القليلة ، وكذلك فقد كان التوزيع السكاني في المناطق الحضرية يرتبط الى حد بعيد بروابط القرابة أو الانتماء المذهبي وقد اتضح ذلك فيما يتعلق بالمجتمع التقليدي في فيلكا بصفة خاصة •

م ـ كذلك فقد كان هناك نوع من التوزع التقليدي للوحدات القبلية على المراتب الاجتماعية المتفاضلة ، وقد ارتبطت تلك المراتب في بعض الاحيان بانواع المناشط الاقتصادية التي يتوفر على ممارستها اعضاء تلك الوحدات ـ مثل اشتغال الرشايدة والعوازم بالزراعة ، واشتغال الصلب بأعمال الحدادة ـ وقد كان للتشريعات التي سادت بين السكان من المواطنين في حقوق المواطنة على أسس معينة ـ وما ارتبط بهذا من الاشتراك في الاستفادة ببرامج الخدمات العامة في مجالات الاسكان والتعليم والاستخدام

وبرامج الرعاية الاجتماعية الاخرى - ان تلاشت الى حد كبير مظاهر التمركز الاقليمي في سكنى الوحدات القرابية والعرقية المتمايزة • وحصل أعضاء من مختلف الوحدات القرابية والعرقية التقليدية على بيوت متجاورة في مناطق الاسكان الحديثة ، وأعمال متشابهة في ادارات الانتاج والخدمات •

ن - كذلك فقد كان لظهور المناشط الاقتصادية الحديثة وهي تختلف في طرق تقسيم العمل والترتيب التفاضلي للعاملين فيها عن المناشط التقليدية ، حيث تغلب تلك المناشط الحديثة ، الاسس الموضوعية مثل مستويات التعليم والخبرة والمهارة الفنية في ترتيب العاملين دون ارتباط بنوع الانتماء العرقي أو حجم الثروة الشخصية ، وكان في ذلك عديد من الفرص التي استفاد بها اعضاء الجماعات التي احتلت مراتب دنيا في نسق التفاضل التقليدي ، وقد احتلوا مراكزا ومراتب ممتازة في النسق الحديث ، وان كان هذا لا ينفي استمرار النظرة التقليدية الى أنواع معينة من المهن مثلا أعمال السعاة أو الفراشين أو أعمال الحراسة والشيالة •

ص - ولقد ارتبط نسق التوزع السكاني في المجتمع التقليدي ببعض الجوانب القرابية أو العرقية وقد أدت التغيرات الديموجرافية ، وهي تتمثل في زيادة أعداد الوافدين المقيمين الذين اصبحوا يكونون الغالبية في سوق العمل والعدد الكلي للسكان الى اتخاذ نوع من التميز في التوزع السكاني ، فأصبحت هناك المناطق المغلقة التي يسكنها الكويتيون كما أن الدولة حريصة الان على تكويت بعض قطاعات معينة في سوق العمل ، وذلك لضمان توفير أكبر قدر من الرعاية الوطنية للمواطن الكويتي ، وكانت هذه الاساليب الدفاعية مؤدية الى اضفاء نوع من التماسك والوحدة التي تتعدى كل حدود التمايز والتناقض في المجتمع الكويتي الاصلي •

ع ـ ومن ناحية اخرى ، فقد كونت فئات المهاجرين جماعات تربط بينها عناصر التماسك والتعاون في مجتمع المهجر ، حيث كانت علاقات القرابة أو الانتماء الى نفس الوطن تقوم أساسا لتقديم المساعدات التي يتلقاها المهاجرون الجدد من اقاربهم أو من بني وطنهم الذين سبقوهم الى الهجرة ـ وتتمثل هذه المساعدات في تقديم تسهيلات في المسكن والاستخدام وتتمثل مظاهر التماسك في تبادل الزيارات والهدايا ووجود المعاملات المالية ـ وهذا في نفس الوقت الذي لا تزال تلك الجماعات من المهاجرين ترتبط بأوطانها الاصلية بعلاقات اقتصادية واجتماعية متنوعة باعتبار ان حياة المهجر هي حياة مؤقتة ، وان كانت هناك بعض الفئات التي لا تتوقع ان تغادر الكويت في المدى القريب أو حتى في المدى البعيد ، فان التشريعات التي يخضع لها غير الكويتيين بصفة عامة لا تعطيهم الفرصة لتدعيم ذلك الاستقرار في أحوال كثيرة •

مراجع باللغة العربية حول مظاهر التغير ومشكلاته في المجتمع الكويتي

١ ـ **الكويت بأقلام نسخة من كتاب العرب** ـ دار الكاتب العربي ـ غير مبين سنة النشر ٠

٢ ـ **الكويت المستقلة** ـ اصدار دار الحياة للصحافة والطباعة والنشر بدمشق غير مبين سنة النشر ٠

٣ ـ احمد الشرباصي ـ **أيام الكويت** ـ مطابع دار الكتاب العربي بمصر ـ ١٩٥٣ ٠

٤ ـ أحمد الغندور ـ **الاحوال الشخصية في التشريع الاسلامي مع بيان ما عليه العمل في محاكم الكويت** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٥ ـ أحمد مصطفى ابو حاكمة ـ **تاريخ الكويت** ـ مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٦٩ ٠

٦ ـ أمل يوسف العذبي الصباح ـ **سكان الكويت دراسة تطبيقية في جغرافية السكان** ـ رسالة ماجستير ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٧ ـ جمال زكريا قاسم ـ **مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي المحفوظة في دور السجلات البريطانية** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٨ ـ حسن خلف الشيخ خزعل ـ **تاريخ الكويت السياسي** ـ غير مبين سنة النشر ٠

٩ ـ حسن سليمان محمود ـ **الكويت ماضيها وحاضرها** ـ المكتبة الاهلية ـ غير مبين سنة النشر ٠

١٠ ـ حسن صادق المرصفاوي ـ **شرح قانون الاجراءات والمحاكمات الجزائية في الكويت** جامعة الكويت ـ ١٩٧١ ٠

١١ ـ حسن علي الابراهيم ـ **الكويت : دراسة سياسية** ـ دار البيان للنشر ـ الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

١٢ ـ حصة السيد زيد الرفاعي ـ **أغاني البحر في الكويت** : « النهمة » ـ رسالة ماجستير ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧١ ٠

١٣ ـ حكومة الكويت ـ سجل الكويت اليوم ـ الكويت ـ ١٩٥٦ ٠

١٤ ـ حمد يوسف العيسى ـ **الكويت والمستقبل** ـ منشورات دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦١ ٠

١٥ ـ راسم رشدي ـ **كويت وكويتيون ـ دراسات في ماضي الكويت وحاضرها** ـ بيروت ـ ١٩٥٥ ٠

١٦ ـ راشد عبدالله الفرحان ـ **ماضي الكويت وحاضرها ـ مختصر تاريخ الكويت وعلاقاتها بالحكومة البريطانية والدول العربية** ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ ٠

١٧ ـ رياض الشيخ ـ **النمو الاقتصادي في الكويت : المشكلات والسياسات** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

١٨ ـ زهرة ديكسون فريت ـ **الكويت كانت منزلي** ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت غير مبين سنة النشر ٠

١٩ ـ سعاد أبو الحسن ـ **الكويت أرضنا الطيبة** ـ غير مبين الناشر أو سنة النشر ٠

٢٠ ـ سيف مرزوق الشملان ـ **من تاريخ الكويت** ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ ٠

٢١ ـ شركة نفط الكويت المحدودة ـ **الكويت ماضيها وحاضرها** ـ لندن ـ ١٩٥٥

٢٢ ـ **الكويت ماضيها وحاضرها** ـ الكويت ـ الكويت ـ ١٩٦٣ ٠

٢٣ ـ شريف شرف الدين ـ **الكويت بين الامس واليوم** ـ بيروت ـ ١٩٥٩ ٠

٢٤ ـ عادل خطاب ـ **الكويت الدولة العصرية** ـ مطبوع بطريقة الرونيو ـ ١٩٧٢ ٠

٢٥ ـ عبدالرحمن بن عبدالله القاضي ـ **دولة الكويت بين الامس واليوم** ـ ١٩٦٣ ٠

٢٦ ـ عبدالعزيز الرشيد ـ **تاريخ الكويت** ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ غير مبين سنة النشر ٠

٢٧ ـ عبدالعزيز حسين ـ **محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت** ـ جامعة الدول العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ ٠

٢٨ ـ عبدالله بن خالد الحاتم ـ **من هنا بدأت الكويت** ـ المطبعة العمومية بدمشق غير مبين سنة النشر ٠

٢٩ ـ عبدالله زعيتر ـ **سنوات في الكويت** ـ بيروت ـ ١٩٥٩ ٠

٣٠ ـ عبدالمجيد مصطفى وعثمان حفيظ الله ـ **دراسات عن الكويت والخليج العربي** ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ـ غير مبين سنة النشر ٠

٣١ ـ عبدالواحد أحمد معرفي ـ **الاقتصاد في الكويت** ـ الشركة العالمية للاعلان ـ الكويت ـ ١٩٦٧ ٠

٣٢ ـ عزيز محمد حبيب ـ **الكويت ونهضتها الحديثة** ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ٠

٣٣ ـ علي أحمد الشرقاوي ـ **الكويت واللؤلؤ** ـ الكويت ـ ١٩٥٨ ٠

٣٤ ـ عواطف خليفة العذبي الصباح ـ **الشعر الكويتي الحديث** ـ رسالة ماجستير ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٠ ٠

٣٥ ـ فاضل خلف ـ **دراسات كويتية** ـ الكويت ـ ١٩٦٨ ٠

٣٦ ـ فاضل سعيد عقل ـ **الكويت الحديثة** ـ بيروت ـ ١٩٥٢ ٠

٣٧ ـ فضة أحمد السعود الخالد ـ **الخدمة الاجتماعية في مدارس الكويت** ـ بحث مقدم للحصول على الدبلوم العالي للخدمة الاجتماعية ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ ٠

٣٨ ـ فؤاد البدوي ـ **٣ أيام في الكويت : الدولة التي تسابق الزمن** ـ دراسة وتحليل ـ منشورات دار الصباح ـ بيروت ـ ١٩٦٣ ٠

٣٩ ـ قدري قلعجي ـ **أضواء على تاريخ الكويت** ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٢ ٠

٤٠ ـ **الكويت في موكب الحضارة** ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٢٠

٤١ ـ لوشر ـ أ ـ **الكويت عام ١٩٦٨** ـ ترجمة عبدالله ناصر الصانع ـ الكويت ١٩٥٨ ٠

٤٢ ـ محمد الفرحاني ـ **الكويت بير الامس واليوم** ـ ١٩٥٩ ٠

٤٣ ـ شمس الخليج : أمارة الكويت ـ دمشق ـ ١٩٦١ ٠

٤٤ ـ محمد عبوالوهاب حومد ـ **شرح قانون الجزاء الكويتي (القسم العام)** جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٤٥ ـ محمد عبده محجوب ـ **الهجرة والتغير البنائي في المجتمع الكويتي** ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٤٦ ـ محمود جمال الدين زكي ـ قانون العمل الكويتي ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٤٧ ـ **عقد الايجار في القانون المدني الكويتي** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٤٨ ـ محمود شفيق ـ **القونون التجاري الكويتي** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ ٠

٤٩ ـ محمود قلعجي ـ **الكويت المستقلة ـ الدولة العربية الناشئة** ـ مكتب الخليج العربي ـ بيروت ـ ١٩٦١ ٠

٥٠ ـ محيي الدين الخضري ـ الكويت واحة الحكم الصالح ـ منشورات مجلة الوعد ـ غير مبين سنة النشر ٠

٥١ ـ ـ **الكويت في ظل الاستقلال** ـ منشورات مجلة الوعد ـ غير مبين سنة النشر ٠

٥٢ ـ نجاة عبدالقادر الجاسم ـ **التطور السياسي والاقتصادي ـ الكويت بين الحربين ١٩١٤ـ١٩٣٩** ـ الكويت ـ ١٩٧٣٠

٥٣ ـ هـ٠و٠ب٠ ديكسون ـ **الكويت وجاراتها** ـ الكويت ـ ١٩٦٤ ٠

٥٤ ـ وزارة الارشاد والانباء ـ **الكويت حقائق ومعلومات** ـ الكويت ـ غير مبين سنة البشر ٠

٥٥ ـ يحيى عبدالعزيز الجمل ـ **النظام الدستوري في الكويت مع تقدمه في المبادىء الدستورية العامة** ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧١ .

٥٦ ـ يعقوب عبدالعزيز الرشيد ـ **الكويت في ميزان الحقيقة والتاريخ** ـ ١٩٦٣ .

٥٧ ـ يوسف بن عيسى القناعي ـ **صفحات من تاريخ الكويت** ـ مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٦٨ .

٥٨ ـ يوسف محمد حمد السميط ـ **تجارة الكويت الخارجية ومقدماتها الجغرافية** رسالة ماجستير ـ جامعة الكويت ـ ١٩٧٢ .

1. Beling, W. A. ; "Recent Developments Labour Relations in Bahrayn", Middle East Journal, 13 (2), 1959.
2. Cittle, T. ; "Oil and Abu Dhabi", Arab world, I (new series), 1963.
3. Cressey, E. Crossroads; Law and Life in Soruthern Arabia, N. Y., 1960.
4. Dickson, H. R. P. ;Kuwait and her Neighbours, London, 1968.
5. Hopwood, D. ed. ; The Arabian Peninsula : Society and Politics; Rowan and Littlefield, 1972,
6. Kuwait University; Selected Bibliography on Kuwait and the Arabian Gulf, Kuwait, 1969.
7. Mann, C.E.; Abu Dhabi, Birth of an Oil Sheikhdom; Khayat, Beirut, 1964.
8. Sterens, J. h. ; Changing Agricnltural Practice in an Arabian Oasis, A Case Study of Al-Ain, Abu Dhabi, G. J., 136 (3) 1970.
9. wadyramahi, S. A. ; " Qatar Toward the Welfare Sheikdom" Middle East Journal, 8 (I) 1968.

معركة النفط في الخليج العربي

ليونيد ايفانوفتش مدفيدكو
ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي
جامعة بغداد ـ كلية الاداب

اصحاب النفط يدافعون عن حقوقهم :

كانت نوعية نفط الخليج العربي الجيدة وكمياته الوافرة اضافة الى انخفاض كلفته وسهولة نقله ورخص الايدي العاملة في المنطقة قد جذبت منذ وقت طويل اهتمام الاحتكارات الاجنبية الكبير الى هذه المنطقة •

لقد تجاوز انتاج النفط في العالم في عام ۱۹۷۱ الملياري طـن ، وفي الفترة من ۱۹۷۰ الى ۱۹۷۱ وحدها ازداد انتاج النفط في اقطار الشرقين الادنى والاوسط من ۲ر٦۹۲ مليون طن الى ۷ر۸۰۲ مليون طن وكانـت الزيادة على النحو التالي : في ايران من ۱۹۰ مليون طن الى ۲۲۷ مليون طن وفي السعودية من ۱۷٦ مليون طن الى ۲۲۲ مليون طن وفي الكويت من ۱۳۷ مليون طن الى ۱٤٥ مليون طن وفي العراق من ۷٦ مليون طن الى ۸۳ مليون طن وفي ابو ظبي من ۷ر۳۳ مليون طـن الى ٥ر٤٤ مليون طن وفي قطر من ۳ر۱۷ مليون طن الى ۱۸ مليون طن وفي امارات الخليج الصغيرة الاخرى من ٥ ملايين طن الى ٥ر٦ مليون طن [۱] • لقـد صدرت هذه الاقطار في ۱۹٦۹ كمية من النفط تزيد في مجموعها عـلى

(*) البحث الراهن ترجمة للفصل الثاني من كتاب الباحث السوفياتـي ليونيد ايفانوفتش مدفيدكو الموسوم بـ « رياح التغيير في الخليج العربي» والذي اصدره في موسكو معهد الدراسات الشرقية التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية عام ۱۹۷۳ •

٥٠٠ مليون طن اي ما يعادل ما تستهلكه اقطار اوربا الغربية باجمعها ، علما بان ٩٦٪ من النفط الذي تستهلكه اقطار اوربا الغربية ياتي من منطقة الخليج العربي اضافة الى ان منطقة الخليج تصدر النفط ايضاً الى افريقيا الجنوبية واليابان واستراليا وجنوب شرق اسيا •

ان شركة نفط عملاقة مثل « ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا » الامريكية التي تستخرج النفط من اربعة عشر بلدا وتمتلك فروعا لها في مائة بلد من بلدان العالم تستخرج اكثر من ثلث انتاجها من اراضي اقطار الخليج العربي في حين تستخرج شركة « شل » الانجليزية ما يقرب من نصف انتاجها من اراضي تلك الاقطار ايضا [٢] حيث تكون كلفة الانتاج هناك ارخص بعدة مرات منها في اية منطقة اخرى في العالم • واذا كانت الاحتكارات النفطية الامريكية في ١٩٦٧ تسيطر على ٢٠ مليار طن نفط من احتياطي النفط المستكشف في الاقطار العربية فانها في ١٩٧٠ اصبحت تسيطر على اكثر من ٣٠ مليار طن اي على ما يقرب من ٦٧٪ من جميع ما اكتشف من احتياطي النفط في هذه المنطقة • لقد ازداد احتياطي النفط المكتشف في شبه جزيرة العرب والعائد الى شركة النفط الامريكية ارامكو في ١٩٦٩ وحدها من ١٠ مليارات طن الى ١٩ مليار طن • ان هذه الزيادة غير المألوفة في تاريخ صناعة النفط في العالم الرأسمالي تزيد بمرتين تقريبا على احتياطي النفط المكتشف في الولايات المتحدة نفسها وتساوي تقريبا جميع حقول النفط في نصف الكرة الغربي [٣] •

لقد تطلب الامر لاغلبية الاقطار صاحبة الثروات النفطية التي اتحدت في ١٩٦٠ للدفاع عن مصالحها في منظمة الاقطار المصدرة للنفط (اوبك) [٤] اكثر من اربع سنوات لكي تحصل على ٥٠٪ من ارباح النفط المستخرج • ولكن الاحتكارات النفطية في واقع الامر لم تراع مبدأ «ففتي — ففتي» [*]

(*) اى المناصفة — المترجم •

هذا أبداً فهذا المبدأ الذي يعترف بالتساوي بين الشركاء عند توزيع الارباح تحول في الواقع الى مجرد ستار كانت الاحتكارات النفطية تنهب من ورائه أصحاب الثروات النفطية دون حياء • فالاقطار المصدرة للنفط تخسر سنويا ملايين الدولارات بسبب من ان الاحتكارات النفطية تشتري النفط منها باسعار تقل كثيرا عن الاسعار العالمية فضلا عن ان تلك الاحتكارات نفسها تحقق ارباحا طائلة من تصنيع النفط الخام وبيع المنتجات النفطية • هذا فضلا عن ان الكثير من اتفاقيات الامتيازات نصت على الزام اصحاب الحقول النفطية ببيع حصتهم من النفط المستخرج الى الاحتكارات النفطية التي تستحوذ على اسواق البيع •

في مؤتمر الاقطار العربية النفطي السابع الذي انعقد في اذار ١٩٧٠ ترددت دعوات لاستخدام النفط كسلاح فعال في النضال ضد الاستعمار ومن اجل تعزيز الاستقلال الاقتصادي للدول العربية ، وبدأت تتكون في في عدد من الاقطار العربية كمصر وسوريا والجزائر والعراق وليبيا شركات نفط وطنية اخذت تشارك لا في استخراج النفط فقط وانما في بيعه ايضا •

في اواسط ١٩٧٠ وقعت شركات النفط الوطنية في كل من الجزائر وجمهورية مصر العربية والعراق وليبيا اتفاقية تعاون رباعية ، كما انها كانت قبل ذلك قد قدمت للشركات الاجنبية عددا من المطاليب حول اعادة النظر في شروط الامتيازات السابقة وزيادة حصتها من الربح المتاتي من استخراج النفط وتسويقه وكذلك حول رفع الاسعار • واخذت الاقطار العربية الاخرى الغنية بالنفط تحتذي تدريجيا المثال الذي ضربته هذه الدول الاربع ومن تلك الاقطار الكويت وبعض امارات الخليج العربي التي اعلنت عن اسنادها التام لتلك المطاليب •

في نهاية حزيران ١٩٧٠ قدم حاكم ابو ظبي امتيازا جديدا للتنقيب عن النفط واستخراجه في الجرف القارى يتضمن شروطا تاسبه الى الكونسرسيوم الذي تدخل فيه الشركات التالية : « امريكان بان اوشن اويل » (٦٠٪) و « كاناديان سيراكوز اويل » (٢٠٪) و « اوينكسن انتربرايزس » (٢٠٪) • ويشمل الامتياز المذكور على ما تذكر الصحافة الامريكية ارضا تبلغ مساحتها ٣١٥٠ كم٢ ومدته ٣٥ سنة اي حتى عام ٢٠٠٥ •

وفي الوقت نفسه تقريبا عقد حاكل سلطنة الشارجة اتفاقية امتيازات ملائمة مع شركات : « شل هايدرو كاربون » و « شل مينيرالس » و « بومين » • يشمل اول هذه الامتيازات جزءا من ساحل الامارة الغربي وقد بلغ عربونه حسب المعلومات الامريكية ٥ر١ مليون دولار اضافة الى مبلغ مقداره ٢٥٠ر٨١ دولار يدفع سنويا مقابل استغلال الحقل •

اما الامتياز الثاني فيشمل الساحل الشرقي للامارة ويحدد مبلغا قدره ٢٠٠ ألف دولار يدفع سنويا مقابل استغلال الحقل • وكان حاكم الشارجة قد منح قبل ذلك في كانون الاول ـ ١٩٦٩ ، « كازكومباني اوف كاليفورنيا » امتيازا على الساحل شمل مساحة مقدارها ٩٤٧ كم٢ • وقد استاءت « الفاينانشال تايمس » فكتبت بهذا الشأن تقول « لقد نصح المستشارون المجربون الذين يستحقون الثقة عادة ، الحاكم بان يمنح هذا الامتياز لمجموعة اخرى ولكنه لم يصغ لذلك » •

ومما هو اكثر جدارة بالملاحظة ان حاكم الشارجة لم يجر مفاوضات مع هذه الشركة فقط وانما تفاوض في الوقت نفسه ايضا مع « باتس اويل كومباني » ، وقد استطاع باستغلاله المنافسة القائمة بين الاحتكارات ان يتوصل الى احسن اتفاقية مع هذه الشركة ، فقد بلغ العربون لعقد هذه

الاتفاقية مليوني دولار الى مبلغ سنوي مقداره ١٠٠ ألف دولار مقابل استغلال باطن الارض مع مبلغ اضافي مقابل استخراج النفط بمقادير اقتصادية (قدرت هذه الكمية بـ ٣٥ الف برميل يوميا) مقداره ١٫٣ مليون دولار • لقد اخذ بنظر الاعتبار بان الارباح سوف تقسم على اساس مبدأ « ففتي ففتي » بما يطابق الانظمة المعمول بها في منظمة الاقطار المصدرة للنفط على الرغم من ان الشارجة ليست داخلة في تلك المنظمة •

ولم تكتسب قضية منح امتيازات النفط اهمية اقتصادية فحسب وانما ارتدت اهمية سياسية ايضا • ومن هذا المنطلق بالذات جرى خلال عام ١٩٧٠ تركيز اهتمام كبير على تسوية المنازعات الاقليمية ، وكانت لجان خاصة قد شكلت منذ سنة ١٩٦٩ لحل المنازعات الاقليمية كان من بين مهماتها فض النزاع بين السعودية وابي ظبي حول واحة البريمي وتعيين الحدود بين الكويت والسعودية وتقرير وضع الجزر الواقعة بالقرب من المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت والقضاء على الخلافات بين الشارجة وام القوين حول المياه الساحلية والحدود وما اشبه ذلك • وكان على لجنة خاصة ايضا ان تنظر في الخلافات بين الامارات العمانية وكذلك بين تلك الامارات وبين مسقط وعمان • وقد ابدت البحرين استعدادها للتوسط بين العربية السعودية وامارة أبي ظبي في نزاعهما حول واحة البريمي • وقد كتبت جريدة « اطلاعات » التي تصدر في طهران في ٧ أب ١٩٧٠ تقول بان السعودية جددت مؤخرا مطالبتها بهذه المنطقة المهمة • ولقد طرح بهذا الشأن على ما تقوله الجريدة مبدأ اجراء استفتاء عام قدمت فكرته السعودية مقترحة ان يصار قبل ذلك الى « اعادة » سكان الواحة من السعودية اليها اي الى الواحة •

وعلى الرغم من ان استخراج النفط في منطقة الخليج العربي يزداد من سنة لاخرى (٥) • فقد ظل تقسيم الربح على اساس مبدأ « ففتي –

فقتي » قائما ، هذا مع العلم بان الاقطار المنتجة للنفط في الخليج العربـي ، لم تتسلم في واقع الامر في اي يوم حتى هذا « النصف » المقرر من الربح.

وبدأت في نهاية الستينات بين امارات الخليج العربـي محادثات كان من نتيجتها ان خططت بعض الحدود وسويت المنازعات الاقليمية القديمة . ووقعت اتفاقيات حول تحديد الجرف القاريء . وفي اثناء جميع المحادثات التي جرت بين الامارات نفسها وكذلك في أثناء المشاورات التي كانت تجري مع الاقطار العربية الاخرى في منطقة الخليج العربي حـول قضايا الاتحاد القادم كانت على الدوام تبحث المشاكل الاقليمية .

وهكذا سبقت زيارة حاكم البحرين الرسمية لايران في كانون الاول ١٩٧٠ محادثات لتحديد الجرف القاري في الخليج العربي . وقبل ذلـك كانت ايران قد عقدت اتفاقية مماثلة مع السعودية وقطر واجرت محادثات مع الكويت وابي ظبي وبعض الامارات الاخرى في الساحل العماني وبعد زيارة حاكم البحرين لطهران اكدت صحيفة « اياندیجان » في ٢١ كانون الاول - ١٩٧٠ بانه بعد ان اعلنت البحرين استقلالها سيعقد بين هذيـن البلدين عدد من الاتفاقات الاقتصادية « تتعلق بالدرجـة الاولى بالاستغلال المشترك لابار النفط في مياه الخليج الضحلة » .

لقد ظهر ان الاحتكارات النفطية الكبرى التي تصطرع فيما بينهـا بسبب المنافسة ذات مصلحة في تسويـة المنازعات الاقليمية في شبه جزيرة العرب وفي الخليج العربي على السواء . فاذا كانت بريطانيا في السابـق مثلا تحمي عمان انطلاقا من اعتبارات سياسية بالدرجة الاولى فان تخطيطـا معينا للحدود في الستينات كان عليه ان يضمن لها مستوى معينا من الربـح من النفط ويعيق التغلغل الاقتصادي لاحتكارات الدول الاستعمارية الاخرى وخصوصا الولايات المتحدة في المناطق الواقعة تحت حمايتها .

ان التنافس الانجليزي الامريكي يحدد قسما لا يستهان به مـن

النزاعات والخصومات في منطقة الخليج العربي • لقد كتبت مجلة «تربيون» الانجليزية الاسبوعية في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ في معرض تعدادها للنزعات التي جرت في السنوات الاخيرة في شبه جزيرة العرب والتي لا يزال الكثير منها قائما لم يحل حتى الان ، تقول « تتميز جميع هذه النزاعات بخاصية مشتركة واحدة • انها جميعا حدثت في مناطق لم تتعين فيها الحدود بدقة وفي مناطق تطمح شركات النفط المتنافسة في الحصول فيها على امتيازات استثنائية • وطالما ان الشاه وامارتين عربيتين يعلنون عن احقيتهم في الجزر التي تحتل موقعا ستراتيجيا في مخرج الخليج العربي وان العربية السعودية تطالب بواحة البريمي وبالقسم الاغلب من قاع البحر للتنقيب عن النفط فيتحتم ان تنتظر في المستقبل ايضا مثل هذه الامور المسلية • واذا ما ظلت القوات الانجليزية هناك فان وجودها يمكن أن يعطي لذلك كله مدى أوسع » •

أن هذا الاعتراف الذي اضطرت اليه هذه المجلة العمالية في غمرة انتقادها للمحافظين يعبر عن الواقع بشكل صحيح • فالمصالح السياسية والعسكرية والستراتيجية والاقتصادية لمختلف أقطار منطقة الخليج العربي تتشابك في عقدة واحدة من التناقضات التي تزيد من تعقيدها نتائج العدوان الاسرائيلي الذي لم يزل قائما وعدم حل ازمة الشرق عموما • غير ان الاطماع النفطية للاحتكارات تلعب في هذه القضية الدور الرئيس ولهذا بالذات يكون رد فعل الاستعماريين حادا على اي اجراء يمس بأي درجة مصالحها النفطية •

معركة العمالقة :

لقد ظهر ذلك بشكل واضح على الاخص في أثناء النزاع الذي قام

في بداية ١٩٧١ بين الاحتكارات النفطية والبلدان المصدرة للنفط الداخلة في منظمة الأوبك •

تمكن في نهاية ١٩٧٠ عدد من الاقطار الداخلة في الأوبك ومنهـــا ايران والكويت من التوصل الى توزيع للارباح النفطية اكثر عدالة مـــن السابق حيث أجبرت شركات النفط الاجنبية على ان تكون نسبة الربـــح التي تدفع لها ليس ٥٠٪ كما كان الامر في السابق وانما ٥٥٪ • ولـــم تلبث الحكومة العراقية أن قدمت لشركـــة نفط العراق مطلبا مماثلا • ان تعديل شروط الامتيازات السابقة مكن العراق من زيادة دخله من النفط بمقدار ١٠٠ مليون دولار والكويت بمقدار ١١٥ مليون دولار في ١٩٧٠ مع الاخذ بنظر الاعتبار الزيادة في الانتاج [٦] •

وقد عزز المؤتمر الحادي والعشرون للاوبـــــك الذي انعقد فـــي كاراكاس في ١٢ كانون الاول ١٩٧٠ هذا الانجاز فلم يطلب حســـم ٥٥٪ من ربح بيع النفط الخام فقط وانما طالب أيضا برفع السعر المعلن للنفط والغاء الفرق بين أسعار المصدرين المختلفين وذلك برفعها جميعا الى اعـــلى مستوى امكن تحقيقه • لقد تقرر ايضا الغاء جميع الاستقطاعات التي تقتطع من الاسعار لصالح اصحاب الامتياز ، وانتهاج سياسة موحدة قادرة عـــلى مجابهة الاجراءات التعسفية من جانب اصحاب الامتياز ، وتنظيم استخراج النفط بحيث لا تستنزف احتياطاته • ومن أجل ان تتحقق هذه القرارات بالنسبة لاقطار الخليج العربي فوض المؤتمر ايران والعراق والسعوديـــة استئناف المحادثات مع الشركات الاجنبية في موعد لا يتعدى الشهـــــر الواحد •

لقد كانت قرارات مؤتمر كاراكاس تعني تحولا في العلاقات بـــين الاقطار المصدرة للنفط والشركات الاجنبية • لقـــد اثارت مطاليب دول

الأوبك العادلة قلقا حقيقيا بين رؤساء الاحتكارات النفطية ، فبعد انتهاء مؤتمر كاراكاس بايام قليلة قدم بيكيت وهو أحد كبار رأسماليي النفط معتمد من قبل شركة « شل » الى الحكومة البريطانية خطة للهجوم المضاد على اعضاء الاوبك •

وبادرت لندن على الفور الى الاتصال بثلاث عواصم اخرى وهي العواصم الاكثر مصلحة من غيرها في هذه القضية ونعني واشنطن وباريس ولاهاي حيث نوقشت الخطة المقترحة بصورة عاجلة وجرى تنسيقها وصودق عليها من قبل اعضاء الكارتل النفطي العالمي • ولقد ساندت حكومات فرنسا واليابان وغيرها من الدول الرأسمالية المهتمة بالخليج العربي بفعالية نشاط شركاتها النفطية أيضا •

وتقدم الكارتل ، بموجب خطة بيكيت باقتراح يقضي بعقد اتفاقيات جديدة تقوم بموجبها البلدان المذكورة المصدرة للنفط بتجميد الاسعار المعلنة للنفط لمدة خمس سنوات • وان تمتنع خلال هذه السنوات الخمس عن أية زيادة في الضرائب وعن اعادة استثمار الاموال الاجنبية المتأتية من ارباح النفط محليا •

وتبعا للقرارات المتخذة في كاراكاس بدأت في طهران في ١٢ كانون الثاني ١٩٧١ المحادثات بين اقطار الخليج العربي الستة الاعضاء في الاوبك وهي الاقطار التي كانت تمثل مصالحها ايران والعراق والسعودية وبين ممثلي الشركات النفطية التي تعمل في استخراج النفط في تلك المنطقة • وقد رفض ممثلو الشركات منذ الجلسات الاولى المطالب العادلة للاقطار اعضاء الأوبك •

لقد كتبت الصحيفة اللندنية « الفاينتشال تايمس » في ١٣ كانون الثاني ١٩٧١ تقول « لقد تعرض العمل النفطي لأول مرة بعد الحرب

العالمية الثانية لخطر جدي للغاية ... فالواقع ان الاحتكارات النفطية تجابه لأول مرة مجموعة متحدة من الاقطار المنتجة للنفط والمستعدة لان تجري مفاوضاتها كتلة واحدة ، والاحتكارات النفطية لا تستطيع عمليا ان تجيب على هذا التحدي بشيء ، ذلك انها فقدت بعد الازمة الماضية التي سببها اغلاق قناة السويس وتأميم المؤسسات في الشرق الادنى ، امكانية المناورة ... » .

ولكن الواقع ان هذه الصحيفة التي تنطق بلسان رجال الاعمال الانجليز حاولت بشكواها هذه ان تضعف يقظة البعض ، فامكانيات المناورة لدى شركات النفط ، كانت كما اظهرت ذلك محادثات طهران لا تزال بعيدة عن أن تستنفذ .

لقد حاول ممثلو الكارتل النفطي العالمي الذين كانت تساندهم ايضا خمس عشرة شركة أوربية غربية وامريكية ويابانية « مستقلة » ، قبل كل شيء ان يحدثوا انشقاقا في جبهة اقطار الخليج العربي الموحدة ، بان حاولوا أن يجروا ممثلي ايران والسعودية الى محادثات منفردة . غير ان المندوب الايراني رفض بشكل قاطع أن يفاوض مبعوثي الشركات النفطية خارج اطار المحادثات الرسمية التي تجري على اساس الخط الذي تعتمده الأوبك .

كذلك رفضت اقطار الاوبك اقتراح الاحتكارات النفطية القاضي باجراء المفاوضات مع جميع اعضاء المنظمة في أن واحد واصرت على اجراء المحادثات على اساس اقليمي ، مستندة ، وهي محقة في ذلك ، على اختلاف الظروف بين الاقطار المصدرة وخصوصا اختلاف كلفة الانتاج ونوعية النفط والموقع الجغرافي .

وقدم ممثلو الشركات النفطية بموجب الخطة التي وضعت في لندن

افتراحاتهم المضادة في ۱۹ كانون الثاني ۱۹۷۱ ، وقد تضمنت زيادة قليلة في اسعار النفط المعلنة التي يجري على اساسها حساب حصــــة الاقطار المصدرة • لقد اقترح على اقطار الخليج العربي ثلث المبلغ الذي كانت تلك الاقطار تطالب به فقط ، وكانت الشركات تأمل في أن يركــع المشاركون في المفاوضات امام الضغط الموحـــد الذي يتعرضون لـــــه من جانب الاحتكارات •

غير ان أقطار الشرق الادنى اعضاء الأوبك طالبت من خلال « اللجنة الثلاثية » ان يزيد اصحاب الامتياز الاسعار المعلنة الى نصف المستوى الذي كانوا قد رفعوا اليه اسعار المنتجات النفطية في نهاية ۱۹۷۰ وبداية ۱۹۷۱ على الاقل •

وهكذا وصلت محادثات طهران الى مأزق •

وحاولت الحكومة الامريكية أن تؤثر على سير المفاوضات في طهران نبادرت الى ارسال مساعد وزير الخارجية اروين الى الشرق الادنى بمهمة خاصة حيث كان عليه ان يؤثر عـــلى حكومات ايران والسعودية والكويت الكي تعيد النظر بـ « مطاليبها المتطرفة » •

وسلم اروين بعد أن وصل الى طهران رسالة شخصيـــة لشاه ايران من الرئيس نيكسون تضمنت نصيحة مفادها ان لا يتبع في سياسته النفطيـــة « مثل طرابلس والجزائر السيىء » ، غير ان الشاه كما جاء في مجلـــة « جيون افريك » في ۹ شباط ۱۹۷۱ اعلن للمبعوث الامريكي جوابا عـــلى هذه الرسالة قائلا : « نحن نعلم جيدا بان المطاليب التي قمنا بصياغتهـــا يمكن ان تكون مقبولة من الشركات النفطية تماما ، ان ذلك بالنسبة لنـــا ليس مهما فقط وانما ضروروي بصورة حيوية » •

وقرر اروين بعد ان اصابه الفشل في طهران ان يكون اكثر حزمـا

في الجانب الاخر من الخليج وهكذا لم يعمد في المحادثات التي اجراها مع ملك السعودية وامراء الكويت وبعض الامارات العربية الى الاقناع وانما عمد الى تخويفهم لا بـ « الخطر السوفيتي » كما كان الامر في السابق وانما بنضال الثوار المتصاعد في عمان وظفار الذي يمكن ان ينتقل في اي لحظة الى السعودية وامارات الخليج العربي • وهكذا قال اروين في الرياض « لا ينبغي لكم ان تنسوا ذلك • اننا مازال بامكاننا ان نكون اذوي نفع لكم • حتى هنا في العربية السعودية انتم تعرضتم للخطر مرات كثيرة • واذا ما كنتم تزدهرون فان ذلك بفضلنا فقط ... »[٧] •

غير ان دعوات اروين الملحة هذه لم يكن لها اثر ، فقد اشار من تحدث معهم ، وكانوا منطقيين في ذلك الى انهم هم ايضا بحاجة الى النقود وذكروه بان مصاريفهم بسبب احتمال سحب القوات الانجليزية من هذه المنطقة ينبغي أن تزداد كثيرا طالما انهم سيأخذون على عاتقهم القيام بالمهمات الامنية •

وعاد اروين الى واشنطن خائبا ، وانقطعت المحادثات التي كانت قد وصلت الى طريق مسدود • لقد نفذ ممثلو الاحتكارات النفطية تعليمات رئاستهم فغادروا طهران آملين أنهم بذلك سيطيلون المفاوضات أو يقوضونها • لقد ارادوا بخروجهم من المفاوضات بهذا الشكل التظاهري ان يحققوا هدفا واحدا هو اظهار اصرارهم على المضي في اللعبة وابداء تأثير نفسي على أقطار الخليج العربي • ومع ذلك لم تستطع الاحتكارات ان تخيف تلك الاقطار بمثل هذا التهويل ولا ان تجعلها ، بواسطة الوعود الزائفة ، اكثر تنازلا فتشق جبهتها المتحدة •

ويبدو انه لم يكن من الصدفة ان تسرع الشركات النفطية العاملة في أبي ظبي في نفس اللحظة التي انقطعت فيها المفاوضات في طهران ، الى الموافقة

على زيادة حصة تلك الامارة من ارباح استغلال حقولها النفطية ، من ٥٠ الى ٥٥٪ [٨] • لقد ظهر كما لو انها أرادت بهذه الخطوة ان تظهر لاقطار الخليج العربي الاخرى بانها تستطيع ان تأمل « على اساس فردي » بـ « تنازلات » من جانب الشركات النفطية دون ان توتر العلاقات مع حكوماتها على مستوى الدولة •

وقدمت الأوبك في ١٩ كانون الثاني ١٩٧١ الى شركات النفط انذارا مفاده انه في حالة رفض استئناف المفاوضات ورفض المطاليب المشروعة لأقطار الخليج العربي فان تصدير النفط سيتوقف [٩] ، وكان لهذا التحذير اثره فاسرع ممثلو الاحتكارات بالرجوع الى طهران •

وهكذا تجددت المفاوضات ، وفي حين وافقت الاحتكارات على اعادة النظر باسعار النفط المعلنة ، الا انها ظلت تصر على ان لا يدخل التغيير حيز التنفيذ قبل مرور خمس سنوات وعلى ان تتخلى الاقطار المصدرة خلال هذه المدة عن اية زيادة في الضرائب وعن المطالبة بمبالغ اضافية بسبب تذبذب اسعار المنتجات النفطية أو تغيير سعر العملات التي يجري بها تحديد اسعار النفط • لقد كان هدف الاحتكارات النفطية من اقتراحها هذا القاضي بتجميد الاسعار لمدة خمس سنوات هو المحافظة على ارباحها وكسب الوقت للاستعداد للصراع اللاحق مع الاقطار المنتجة للنفط •

وعندما وافقت شركات النفط رسميا على زيادة اسعار النفط وعلى تغييرها لاحقا تبعا للتغيرات التي تحصل في القيمة الشرائية للعملات الغربية ، قدمت شروطا من شأنها ان تحبط جهود الاقطار المنتجة للنفط • فقد رفضت على وجه الخصوص أن تزيد حصة الجهات المصدرة من مدخولات بيع النفط ورفضت بشكل قاطع مطاليبها في ان تعيد الاحتكارات استثمار جزء من الارباح التي تحصل عليها في الاقتصاد النفطي وفروع الاقتصاد الاخرى •

لقد اعلن ممثل الاحتكارات النفطية اللورد ستراتلموند قبيل احدى سفراته الى لندن لاستلام تعليمات جديدة ، قائلا : « أن مطاليب الأوبك اكثر مما كنا نتوقع » • ولكن كان من الاعدل القول ، كما لاحظت الصحافة الايرانية ، بأن التنازلات التي قدمتها الشركات كانت ضئيلة للغاية ، ففي حين كانت الاقطار المنتجة للنفط تطالب برفع اسعار النفط بمقدار ٦٠ سنتا مع زيادة خمسة سنتات اخرى في كل سنة للبرميل[١٠] ، لم توافق الشركات الا على زيادة لا تتعدى العشرين سنتا للبرميل مع زيادة لاحقة لا تتعدى السنتين في السنة[١١] •

وفي ٢٧ كانون الثاني اعلمت اقطار الاوبك ممثلي الشركات بانه اذا لم تستجب مطاليبهم فانهم سيفرضون بعد ٣ شباط عقوبات سيكون لها عواقب وخيمة ليس فقط على شركات النفط وانما على الاقطار المستهلكة للنفط بوجه عام •

وفي ٢٥ كانون الثاني اعلن شاه ايران في مؤتمر صحفي بانه اذا حاولت الاقطار المعنية ان تبدى المساندة للشركات فان الصدام بين الدول الرأسمالية التي تنهج سياسة الاستعمار الجديد والاقطار النامية سيكون حتميا[١٢] • واكد بان الوضع الذي تكون في قضية النفط « يمكن ان يتحول الى ازمة اذا ما واصلت شركات النفط خداعنا وابداء الضغط علينا »• لقد لاحظ الشاه بأن مفاوضات الأوبك الجارية موجهة نحو تحديد سعر نفط منطقة الخليج ، ومن العبث أن تحاول شركات النفط ان تجري المفاوضات مع جميع اعضاء الأوبك بالشروط نفسها متناسية بان مصالح اقطار الاوبك ومواقعها الجغرافية مختلفة • ان اقطار الخليج اعضاء الأوبك مستعدة لتوقيع اتفاقية السنوات الخمس التي تقترحها شركات النفط ولكن الاسعار يجب أن تتغير تبعا لتغير اسعار البضائع الاستهلاكية •

لقد صادفت مطاليب اقطار الخليج العربي العادلة اسنادا واسعا من

جانب الاقطار الاخرى اعضاء الاوبك • فبعد ان وصل وزير النفط الليبي الى طهران حذر الشركات بان ليبيا ستوقف امداد الغرب بالنفط في حالة فشل المفاوضات • وساند وزير الصناعة النفطية في فنزويلا الذي وصـــل الى طهران في تلك الايام هو الاخر موقف اقطار الخليج العربــــي المصدرة للنفط •

وانعقد في ٣ شباط **١٩٧١** في طهران الاجتماع الثاني والعشريـــن الاستثنائي للاوبك حيث جرت مناقشة القضية واتخذ قرار يقضي بان من حق كل قطر من اقطار الخليج العربي المصدرة للنفط ان يتخذ بعـد **١٥** شباط **١٩٧١** الاجراءات اللازمة لتحقيق الاهداف الموضوعة بما فـــي ذلك التوقف نهائيا عن بيع النفط بواسطة الشركات الداخلة في الكارتـــل النفطي العالمي •

وقد خطب شاه ايران امام المشاركين في أجتماع الاوبك وممثلي مجلس النواب ومجلس الشيوخ فانتقد بشدة مواقف الاحتكارات النفطية مشيرا الى ان ايران نفسها وكذلك اعضاء الاوبك الاخرين يمكن أن تختار الطريق الذي سلكته فنزويلا اى تتخذ اجراءات قانونية من طرف واحد لتطمين مطاليبها بخصوص الاسعار والضرائب المفروضة على الشركات •

ولم يثر الانذار الجديد الذي اعلنته الاقطار اعضاء الاوبـك الخوف لدى شركات النفط فقط وانما اخاف أيضا عددا من حكومات الدول الغربية، فالعقوبات التي اشارت اليها الاقطار النفطية كان بامكانها أن تؤدي الى ازمة حقيقية اذا اقترنت بسحب تلك الاقطار لرؤوس اموالها من البنوك الاوربية • وهكذا اصبحت « الحرب النفطية » تتخذ اكثر فاكثر طابع المجابهـــــة السياسية والصراع بين الاحتكارات الاستعمارية والدول الفتية التي يملؤها العزم على تعزيز استقلالها •

وليس من قبيل الصدفة ان تعمد جريدة « نيويورك تايمس » الـى التشكي فكتبت في ٢ كانون الثاني ١٩٧١ اي قبيل مفاوضات طهران تقول : « يسهل في مثل هذا الوضع السياسي استخدام الضغط الاقتصادي • لقد حققت الاقطار العربية وايران في خريف السنة الماضية زيادة في الضرائب وبدلات الايجار التي تدفعها شركات النفط مقدارها ٧٥٠ مليون دولار • وقد ادت هذه الزيادة الى زيادة التكاليف التي هي كبيرة اصلا بسبب الارتفاع الشديد في اجور النقل البحري نتيجة لاستمرار غلق قناة السويس والنقص في ناقلات النفط • ويطالب العرب والايرانيون باستمرار بتوسيع سيطرتهم على ثرواتهم النفطية الى جانب مطالبتهم بالتسديد • والعزاء الوحيد [كما اعترفت الجريدة اخيرا] هو تنامي الارباح ذلك ان الطلب ازداد بشكل غير متوقع سمح بزيادة اسعار المنتجات النفطية » (١٣) •

وقد اخذت الدوائر النفطية والسياسية في الغرب بعين الاعتبار عدم شعبية الولايات المتحدة بين العرب فقررت في تلك اللحظة الحرجة ان ترسل الى طهران ممثل الحكومة الانجليزية الخاص في منطقة الخليج العربي لوس لمساعدة كبار رجال العمل النفطي • وقد حاول هذا بعد ان وصل الى مطار طهران مباشرة ان يتزلف للعرب والايرانيين فكرر الوعد القديم بسحب القوات الانجليزية من منطقة الخليج العربي ، ولقد بذل لوس جهودا كبيرة خلال المناورات التي جرت وراء الكواليس لا في طهران فقط وانما في عواصم اقطار الخليج الاخرى ، للضغط على حكوماتها واقناعها باعادة النظر في مطاليبها تجاه شركات النفط زاعما ان هذه المطاليب تؤدي الى عواقب غير محمودة •

ومع ذلك انتهت بعثة لوس هي الاخرى بدون نتيجة كبعثة زميله ايروين • ولم يستطع لا لوس ولا ممثل الاحتكارات النفطية اللورد ستراتلموند الذي اسرع بالعودة من لندن ان يمددا مهلة الانذار • فاضطرت

شركات النفط قبل يوم من انتهاء المهلة الى الاعتراف باندحارها والموافقة على تنفيذ اغلبية المطاليب المقدمة لها ٠

وجاء في البلاغ الذي أذيع في ١٤ شباط ١٩٧١ عن المفاوضات التي جرت في طهران لمدة شهر بين اقطار الخليج العربي اعضاء الاوبك وشركات النفط ما يلي : « سوف تزداد الاسعار المعلنة للنفط في منطقة الخليج العربي بمقدار ١٥ سنتا للبرميل الواحد اضافة الى زيادة اخرى مقدارها خمسة سنتات في كل سنة ٠ اما الضريبة على الارباح فقد تقرر ان يكون مقدارها ٥٥٪ في اقطار الخليج العربي كافة ٠ وفضلا عن ذلك توافق كل شركة على زيادة اضافية في السعر المعلن مقدارها ٢ر٥٪ آخذة بنظر الاعتبار التضخم النقدي العالمي ، وذلك ابتداء من الاول من حزيران من هذا العام وفي كل سنة تالية حتى عام ١٩٧٥ » ٠

وأشارت «الفاينتشال تايمس» في ١٣ كانون الثاني ١٩٧١ الى عدم ملائمة الوضع الذي جرت فيه مفاوضات طهران بالنسبة للغرب فقالت : ـ

« لم تستطع الأوبك طيلة عشرة سنوات أن تحقق هدفها الاول ـ زيادة الاسعار المعلنة للنفط ٠ لقد كانت قدرة الصناعة النفطية على المقاومة تستند على سيطرتها على السوق العالمي وعلى توفر فائض في النفط وعلى مدى قدرة الاقطار المنتجة للنفط على التخلي عن مدخولاتها من النفط في حالة حدوث نزاع حاسم ٠ وقد عكست التغييرات التي حصلت في العام الماضي في الاساس التغير التدريجي في وضع السوق العالمي الذي اصبح ملائما للبائعين وليس للمشترين » ٠

والواقع ان سوق النفط العالمي أصبح اعتبارا من بداية ١٩٧٠ يتخذ وضعا غير ملائم لا للشركات النفطية الاوربية الغربية فقط وانما للشركات الامريكية ايضا ٠ فتعطيل الفدائيين الفلسطينيين لانبوب النفط المار عبر شبه جزيرة العرب وتقليص الحكومة الليبية لاستخراج النفط بمقدار ٦٠ مليون

طن سنويا والزيادة الاضافية في اجور النقل ساعدت على زيادة اسعار النفط الذي تستورده اوربا الغربية والولايات المتحدة .

واذا ما كانت حالة سوق النفط الرأسمالي تتميز طيلة سنوات عديدة سابقة بزيادة العرض على الطلب فان الوضع في اواسط ١٩٧٠ اصبح يلائم مصدري النفط . ولقد حدد ذلك كما قالت « الواشنطن بوست » في ٢٦ كانون الثاني ١٩٧١ « روح التعرض المتزايدة والوحدة والسعي الى الهدف لدى الاقطار المنتجة للنفط وعلى الاخص فرصتها في النجاح النهائي » .

وستزداد مدخولات اقطار الخليج العربي المنتجة للنفط في مدة السنوات الخمس التي نصت عليها اتفاقية طهران ، كما اشارت الى ذلك الصحافة الاجنبية ، بمقدار ٣ مليارات دولار بضمنها ١٢٠٠,٠٠٠ دولار في سنة ١٩٧١ وحدها (١٤) . اما مدخولات اقطار الأوبك جميعها فانها ستزداد نتيجة لما جرى في طرابلس وطهران وكاراكاس من اعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النفط ، بموجب حسابات مجلة « فورن افيرس » الاميركية من ٧ مليارات دولار في ١٩٧٠ الى ١٨,٥ مليار دولار في حين ان مدخولات تلك الاقطار كانت ستبلغ عام ١٩٧٥ بموجب الشروط القديمة ما لا يزيد عن ١٠ مليارات دولار .

لقد كتبت « الاوبزرفر » في ٨ شباط ١٩٧١ تقول : « كان على الاقطار المنتجة للنفط أن توافق طيلة عشرات السنين على الشروط التي كان كل من هذه الاقطار بامكانه ان يعمل منفردا للحصول عليها من شركات النفط . اما الان فانها استوعبت المبدأ النقابي القديم بالمساومة الجماعية » . ان خروج واحد أو اكثر من الاقطار الكبرى المنتجة للنفط كان سيعني ان الأوبك لم تستطع استغلال الوضع المناسب ، ولكن ذلك لم يحدث حيث فشلت محاولات الاحتكارات لاثارة الخلاف بين اقطار شمال افريقيا ومنطقة الخليج العربي . فالخط الدؤوب المعادي

للاستعمار الذي تنتهجه حكومتا العراق والجزائر قلل الى حد كبير من امكانية المناورة وحياكة الدسائس السياسية امام الاحتكارات .

استمرار الهجوم على الاحتكارات :

لقد خلق النصر الذي حققته اقطار الخليج العربي المصدرة للنفط الظروف الملائمة للضغط اللاحق على شركات النفط من قبل اعضاء الأوبك الآخرين . ففي شباط ١٩٧١ كانت حكومة الجزائر قد اصدرت مرسوما اممت بموجبه جميع مكامن الغاز الطبيعي وجميع الانابيب . واعلنت في الوقت نفسه عن رفع نسبة مشاركتها في الشركات الفرنسية التي تستخرج النفط الى ٥١٪ .

وبعد اقطار الخليج العربي اصدر البرلمان الفنزويلي في اذار ١٩٧١ قرارا منفردا رفعت فنزويلا بموجبه اسعار النفط بنسبة ٣٣٪ دون أي التزام من جانبها بان لا تتخذ في المستقبل خطوات جديدة للدفاع عن حقوقها المتعلقة باستغلال ثرواتها الطبيعية استغلالا عقلانيا وقبل ذلك اضطرت الاحتكارات ايضا على ان توافق على زيادة فنزويلا لحصتها في الارباح الى ٦٠٪ .

وقدم الكارتل النفطي العالمي تنازلات مهمة في المفاوضات التي جرت مع قطار البحر المتوسط الاعضاء في الأوبك وهي المفاوضات التي جرت في اذار ١٩٧١ في العاصمة الليبية طرابلس . لقد طالبت ليبيا باسم هذه الاقطار بزيادة نسبة الضرائب من ٥٥٪ الى ٦٠٪ وان يؤخذ بعين الاعتبار قرب مصادر النفط من سوق أوربا الغربية فترفع اسعاره الى مستوى اسعار السوق الداخلي في الولايات المتحدة على الاقل ، وبعد مساومات طويلة تحتم على الشركات في اخر الامر ان توقع في ٢ نيسان ١٩٧١ اتفاقية حول رفع الاسعار المعلنة للنفط الليبي الى ٤٦٪ اضافة الى زيادة أخرى خلال خمس سنوات بمقدار ٢ر٥٪ ومبلغ اضافي مقداره ٧٪ للبرميل

في السنة (١٥) . ووافقت الشركات ايضا على اعادة استثمار جزء من رؤوس الاموال التي كانت تحولها في السابق الى البنوك الاجنبية باعتبارها مدخولات لها . ولكن ليبيا لم تستطع رفع نسبة الضرائب الى ٦٠٪ .

وبعد اتفاقية طرابلس زادت الجزائر من اسعار نفطها وحذت حذوها كل من نيجريا واندونيسيا كذلك استطاع العراق والسعودية اللذان ينقل قسم من نفطهما بواسطة الانابيب الى موانىء البحر المتوسط مباشرة ، ان يستغلا اتفاقية طرابلس لغرض زيادة مساوية في اسعار نفطهما المنقول الى البحر المتوسط . ورفع العراق سعر النفط من ٢٫٤١ الى ٣٫٢١ دولار للبرميل الواحد بموجب الاتفاقية المعقودة بين الحكومة العراقية وشركة نفط العراق في ٨ حزيران ١٩٧١ كذلك عقدت في ٢٣ حزيران ١٩٧١ اتفاقية مشابهة بين السعودية وارامكو ارتفعت بموجبها الاسعار من ٣٫١٨ الى ٣٫٣٧ دولار للبرميل الواحد من النفط الواصل الى موانيء البحر المتوسط (١٦) .

« في الفترة القصيرة التي اعقبت صيف ١٩٧٠ قدمت اغلبية الاقطار المنتجة للنفط في طرابلس وكاراكاس وطهران ، ثم في طرابلس مرة أخرى ، لدوائر العمل النفطي مطاليب ادت الى مجابهة دراماتيكية تنطوي على فقدان قسم لا يستهان به من احتياطات النفط ونتج عن ذلك انخفاض محسوس في المؤشرات الاقتصادية لتجارة النفط في الوقت الذي اصبح فيه التوازن العام يميل بشكل ظاهر لصالح منتجي النفط » (١٧) .

لقد كان دخل السعودية ، بموجب حسابات الخبراء ، سيزيد نتيجة لارتفاع اسعار النفط المصدر من موانيء الخليج العربي والبحر المتوسط في ١٩٧٩ بمقدار ٢٨٨ مليون جنيه استرليني بالمقارنة مع السنة السابقة حيث يبلغ رقما قياسيا مقداره ٩١٢ مليون جنيه استراليني مع احتمال كبير بزيادة اخرى في السنوات الاربع المقبلة (١٨) .

ولم تكن نسبة الزيادة في دخل الكويت هي الاخرى لتقل عن ذلك • ففي خلال ١٩٧١ كان على دخلها ان يبلغ نتيجة لزيادة الحسومات من «كويت أويل كومباني» وحدها ٤٦٩ مليون دينار كويتي مقابل ٢٢٩ مليون في عام ١٩٧٠ • واستنادا الى ما ذكرته « الفاينشال تايمس » فانه في ظل « ما نصت عليه اتفاقية طهران من استمرار الانتاج وتواصل ارتفاع الاسعار فان المدخولات من النفط يجب ان تزيد في ١٩٧٥ على ٧٠٠ مليون دينار كويتي » [١٩] اي ما يقرب من مليارى دولار • ان مدخولات الكويت من النفط يجب ان تبلغ في ١٩٧٢ ـ ١ر٧ مليار دولار[٢٠] أما دخل العراق فقد بلغ في ١٩٧١ ـ ٤ر٢ مليار دولار[٢١] •

ومع كل ذلك فان أهمية الانتصار الذي حققته الاقطار المصدرة للنفط على الاحتكارات الامبريالية لا يقتصر على هذه الناحية فقط •

لقد وصف وزير صناعة التعدين الفنزويلي أوريف وهو أحد مؤسسي الاوبك أهمية النتائج التي حققها اعضاء هذه المنظمة في المفاوضات مع شركات النفط فاعلن في ١٣ تموز ١٩٧١ لمجلة « جيون افريك » قائلا : « ••• انه تحققت في طهران عملية مالية مقدارها ٧٥ مليار دولار • ان هذه العملية المالية الاعظم في التاريخ لم تقم بها الولايات المتحدة وانما نفذتها عشرة أقطار لم يكن احد يصغي لرأيها من قبل • ويبدو لي أن ذلك أهم بكثير حتى من الناحية المالية للمفاوضات » •

واضطر الاقتصادي الامريكي المعروف والتر ليفي هو الاخر الى الاشارة الى أن الشيء الرئيس لا يكمن في الاشياء الملموسة التي حصلت عليها الاقطار المنتجة وانما في الطريقة التي حققتها بها ثم كتب يقول : « ان فعالية سياسة الاوبك وتنسيق العمل بين اعضائها ولجوئهم الى التهديد بالحظر، كل ذلك حقيقة يتحتم على شركات النفط وحكومات الاقطار المستهلكة للنفط الآن ان يحسبوا لها الحساب وان يستخلصوا منها الاستنتاجات التي تلائمهم » [٢٢] •

ومع ذلك فمن الخطأ ان نفترض بان شركات النفط قد استسلمت نهائيا ، فهي تبحث عن كل ما يمكن من الطرق للتعويض عما خسرته وذلك بالقاء الزيادة في الاسعار المعلنة على عاتق مستهلكي النفط في الاقطار الغربية والنامية وكذلك بالبحث المحموم عن مصادر جديدة خارج منطقة الشرق الادنى أو بالتوسع الكبير في انتاج النفط في المناطق التي تبدو لها اكثر استقرارا واكثر موثوقية من الناحية السياسية ان هذه المناطق بالنسبة لها هي الاقطار ذات الانظمة الملكية في منطقة الخليج العربي وبالدرجة الاولى السعودية ولهذا بالذات عمدت الشركات الامريكية في نفس الوقت الذي ابرمت فيه اتفاقية زيادة الاسعار المعلنة للنفط المنقول بواسطة الانابيب من السعودية الى موانىء البحر المتوسط الى عقد معاهدة سرية مع الملك فيصل نصت على زيادة لا يستهان بها في انتاج النفط من الحقول السعودية في السنوات القليلة المقبلة •

وقد كتبت المجلة الفرنسية « نوفيل اوبزرفاتور » في ١٤ حزيران ١٩٧١ تصف معنى هذه الخطوة فقالت : « لقد قامت ارامكو التي تكاد تمتلك كل حقوق احتكار استغلال المكامن في العربية السعودية ، بخطوة غير اعتيادية • لقد قامت ارامكو بعد ان وحدت جهود الشركات الامريكية الرئيسية (« ستاندرد اويل كومباني أوف نيو جرسي » و « ستاندرد اويل كومباني اوف كاليفورنيا » و « موبل اويل ») ، بعقد اتفاقية مع الملك فيصل باسناد من الرئيس نيكسون • ان هذه الاتفاقية تسمح لها بأن تضاعف انتاج النفط ثلاث مرات خلال ثلاث سنوات • وبفضل ذلك سيكون لدى الملك فيصل الموالي لامريكا مصدرا للذهب يغترف منه خمسة مليارات دولار سنويا على شكل ايجار الامر الذي يمكنه من تقوية سلطته السياسية على الخمسة ملايين نسمة • وسيكون للارامكو بدورها مصدرا وافرا وموثوقا للنفط سيكون بامكانها ان تنتج منه في

١٩٧٤ ـ ١٥٪ من الانتاج الكلي للنفط في العالم مقابل ٧٫٥٪ وهي نسبة الانتاج في الوقت الحاضر • ان المنافسة التي يشكلها النفط السعودي سوف تكون سلاحا للارهاب بيد الكارتل النفطي يوجهه ضد الاقطار المنتجة ، التي تحاول ان تكرر ما حدث في طهران وطرابلس والجزائر هذا بالطبع الى الوقت الذي تقع فيه في العربية السعودية حوادث ما •• »

وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلتها الدعاية الامبريالية للتقليل من أهمية النجاح الذي حققته بلدان الأوبك في النضال ضد الاحتكارات النفطية فان مفاوضات طهران كانت تشير الى نصر كبير لاقطار الخليج العربي المنتجة للنفط • وكان النصر ، كما اعترفت صحيفة « الاوبزرفر » اللندنية الاسبوعية ، ممكنا بسبب من ان هذه الاقطار ادركت مصالحها المشتركة فهبت لاول مرة بجبهة موحدة ضد الاحتكارات النفطية الاجنبية مستندة الى دعم وتضامن جميع الاقطار الاخرى المصدرة للنفط اعضاء الأوبك •

لقد مكنت النجاحات التي حققتها بلدان الأبك في طهران تلك البلدان من ان تقف موقفا موحدا في المفاوضات المقبلة مع ممثلي شركات النفط وهي المفاوضات التي جرت في فينا وان تتقدم هناك بمطاليب متفق عليها من الجميع حول اسعار صرف العملات المختلفة بسبب من أن قيمة الدولار الامريكي بدأت بالهبوط ، وحول مشاركة اقطار الأوبك في في اعمال شركات النفط • ان هذه المطالب حتمها ، كما اعلن السكرتير العام للأوبك نديم الباجهجي الظرف الجديد الذي نجم عن ازمة الدولار وهو الظرف الذي لم تنص عليه اتفاقيتي طهران وطرابلس • لقد اكد الباجهجي قائلا : « اننا لا نستلم تعويضا كافيا نتيجة للتضخم ولذا ينبغي ان يجري تصحيح مناسب بهدف التعويض عن أي أثر سلبي يحدث بسبب التخفيض الحقيقي للدولار الامريكي » [٢٣] •

ان اهتمام الاقطار المنتجة للنفط بالتعويض عن تضخم العملة اثارته بالدرجة الاولى حقيقة ان الجنيه والدولار الامريكي تنخفض قيمتهما باستمرار مما ينتج عنه انخفاض القيمة الحقيقية لمدخولات الاقطار المصدرة للنفط • فالدولار على الاخص باعتباره الوحدة النقدية التي يجري على اساسها الحساب في التجارة النفطية انخفضت قيمته من ١٩٥٩ الى ١٩٦٩ بمقدار ٢١٪ وهناك اتجاه لتخفيض آخر لقيمته • لقد انخفض في ١٩٦٩ بالمقارنة مع ١٩٦٨ بمقدار ١ر٥٪ وفي ١٩٧٠ بالمقارنة مع العام الذي سبقه بمقدار ٧ر٥٪ • لقد اتضح الانخفاض المتزايد في قيمة الدولار بشكل خاص خلال الازمة النقدية الجديدة التي انتشرت في ايار ١٩٧١ في اوربا الغربية بسبب « مرض التضخم » الذي اصاب الدولار •

ولقد اخذت بلدان الأوبك هبوط قيمة الدولار بنظر الاعتبار فقررت اتخاذ الاجراءات التي يمكن ان تعوضها عن الخسارة ، ذلك ان هذه الخسائر كانت ستبلغ بموجب حسابات سكرتارية الأوبك في الفترة من آب الى كانون اول ١٩٧١ فقط ٥٧٠ مليون دولار (٢٤) •

وعقد في بيروت في ٢٢ أيلول ١٩٧١ اجتماع استثنائي للأوبك اتخذ فيه ممثلو احد عشر قطرا قرارين هامين نص اولهما على زيادة اسعار النفط بالقدر الذي يغطي خسائر بلدان الأوبك الناجمة عن تخفيض قيمة الدولار • وكان على اليابان ان تدفع اكثر من نصف هذا المبلغ الاضافي في حين تدفع المانيا الاتحادية وهولندا قسما ملحوظا منه • ولقد توقعت بلدان الأوبك معارضة اليابان التي كان عليها ان تدفع لاقطار الخليج ، اذا ما اخذت بالحسبان القيمة الجديدة للين بالقياس على الدولار ، مبلغ ٢٤٨ مليون دولار في سنة ١٩٧١ وحدها ، لذا فانها حذرت اليابان بأنها لن تمنح في حالة رفضها أي أمتياز جديد لاستخراج النفط •

اما القرار الثاني فانه يتعلق بمشاركة بلدان الأوبك في اعمال الاحتكارات وهو ما تخشاه شركات النفط • لم يكن من قبيل الصدفة ان تطلق الصحافة الاجنبية التي نشرت القرار عليه اسم قنبلة بطيئة الانفجار » يمكن ان تنفجر فتضعف بشدة مواقع شركات النفط الاجنبية التي تتمتع في عدد من اقطار الخليج العربي باحتكار حق التنقيب عن النفط واستخراجه وتسويقه•وكانت الفرصة قدسنحت لتلك الشركات لتحس باثار انفجار مثل هذه القنابل « البطيئة الانفجار » في الجزائر وليبيا اللتين كانت حكومتاهما قد استحوذت على اغلبية اسهم شركات النفط العاملة في اراضيها •

ولقد احتلت القضايا المتعلقة بتنفيذ القرارات التي اتخذت في بيروت مكانا بارزا في برنامج عمل اجتماع الأوبك الذي عقد في ابي ظبي في ٧ كانون الاول ١٩٧١ •

وفي معرض تعليله لموقف بلدان الأوبك في قضية التعويض عن نقص مدخولات النفط بسبب تخفيض قيمة الدولار اعلن السكرتير العام للأوبك الباجه جي بانه « من غير العدل مطالبة اعضاء الأوبك بتمويل التضخم النقدي في اقطار أوربا الغربية واليابان أو تغطية تكاليف سياساتهم الخاصة التي ليس فقط لا نساند اغلبيتها وانما ندينها بشدة ايضا » (٢٥) •

وناقش المشتركون في الاجتماع ايضا قضية المشاركة في اعمال الشركات التي لها امتيازات في اقطار الخليج العربي الاعضاء في الأوبك • ثم أتخذ الاجتماع قرارا بأن تجري في أقرب وقت ممكن مفاوضات مع ممثلي الشركات الاجنبية حول عدد كبير من القضايا المتعلقة بتخفيض قيمة الدولار الامريكي ومساهمة بلدان الأوبك في الشركات النفطية العاملة في اراضيها • وجرى في البلاغ الرسمي الذي صدر عن الاجتماع تأكيد على انه اذا لم تحقق المفاوضات الهدف منها فستعقد الأوبك اجتماعا

استثنائيا يقرر اجراءات ملموسة بشأن الاعمال التـــي يتفق عليها للدفاع عن مصالح اقطار الخليج العربي الداخلة في الأوبك[٢٦] •

ولقد ادركت الاقطار العربية الثمانية المصدرة للنفط والمشتركـــة في منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط وهي ليبيا والسعودية والكويت والجزائر وابو ظبي والبحرين وقطر ودبي ، الصعوبات الحقيقية التـــي سيتحتم عليها مواجهتها في معركتها المقبلة حـــول النفط مع الاحتكارات الامبريالية فبادرت بعد انتهاء اجتماع الأوبك مباشرة الى عقد اجتماع في ابي ظبي في ٩ كانون الاول ١٩٧١ قررت فيه تعديل ميثاق منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط الذي وضعه الاعضاء المؤسسون لتلك المنظمة وهم ـ ليبيا والسعودية والكويت في ١٩٦٨ ، ونظر الاجتماع كذلك في قبـــول العراق وسوريا ومصر في المنظمة[٢٧] • وقد اكد الميثاق الجديـد علـى ضرورة تنسيق سياسة الاقطار العربية في مجال النفط الذي يكون المصدر الأساس لدخلها القومي • ولقد قيمت الصحافـــة العربية قبول الاعضاء الجدد في منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط واعادة النظر في ميثاقها باعتبارها خطوات مهمة على طريق تعزيز التعاون بـين الاقطار العربية لا في المجال الاقتصادي فحسب وانما في المجال السياسي ايضا وعلى اساس معادي للاستعمار •

واضطرت الاحتكارات النفطية بعد الكثير من التسويف والمماطلـة الى تنفيذ مطاليب بلدان الأوبك بخصوص تعويضها عن الخسائر التـــي تصيبها من جراء تخفيض قيمة الدولار • فقد ازداد السعر المعلـن لنفط الخليج العربي بموجب الاتفاقية التي عقدت في جنيف فـي ٢٠ كانـون الثاني ١٩٧٢ بمقدار ٥ر٨٪ غير ان مطلب اقطار الاوبك بأن تساهم بنسبة ٢٠٪ كشركاء في الامتيازات النفطية وهو المطلب الذي تقدمت به تلـك الاقطار في بداية ١٩٧٢ جوبه بمقاومة عنيفة مـــن جانب الاحتكارات العالمية • على ان السعودية استثنيت من ذلك حيث وافقت ارامكو فـي

اذار ١٩٧٢ مبدئيا على ان يشارك رأس المال السعودي في اعمال الشركة بنسبة ٢٠٪ ٠

ولكي تحقق الاستجابة لمطالبها اعلنت الاقطار المشتركة في الأوبك عن عزمها على اتخاذ اجراءات متطرفة بما في ذلك تخفيض استخراج النفط أو ايقافه ، كما اتخذت في الوقت نفسه قرارا يقضي بانشاء صندوق خاص لمساعدة الاقطار التي يمكن أن تصيبها بعض الخسائر في اثناء صراعها مع شركات النفط ٠ واجابت الاحتكارات على ذلك بهجوم مضاد، فوجهت ضربتها الرئيسية ضد العراق الذي كانت حكومته تثير منذ وقت طويل نقمة كبار رأسماليي النفط بانتهاجها لخط ثابت معادي للاستعمار وقيامها باصلاحات اجتماعية ، اقتصادية تقدمية ٠

وهكذا اخذت شركات النفط المشاركة في شركة نفط العراق تتقصد في انتهاج خط من شأنه ان يؤدي الى قيام ازمة حادة في العراق وذلك عن طريق تخفيض استخراج النفط بشكل مصطنع ٠ ولهذا فعلى الرغم من الانتاجية العالية التي تتميز بها حقول النفط العراقية فان العراق كان في بداية السبعينات وبسبب هذه السياسة يشغل في مجال نمو انتاج النفط واحدا من الاماكن المتأخرة قياسا على اقطار الشرقين الادنى والاوسط الاخرى ٠ ففي الوقت الذي ازداد فيه انتاج النفط في السعودية في الفترة : ١٩٦٩ – ١٩٧١ بمقدار ٧٤ مليون طن وفي ايران بمقدار ٥٩ مليون طن وفي امارة ابي ظبي الصغيرة بمقدار ١٦ مليون طن فانه لم يزدد في العراق الا بمقدار ٨ مليون طن فقط [٢٨] ٠ وابتداء من كانون الثاني ١٩٧٢ اخذت شركة نفط العراق بتخفيض انتاج النفط في حقول كركوك والموصل اكثر من ذلك بحجة قلة الطلب على النفط العراقي المنقول بواسطة الانابيب الى موانيء البحر المتوسط ٠

وهكذا كان على انتاج النفط السنوي في ظل هذه الوتائر المنخفضة

أن يهبط في نهاية ١٩٧٢ بمقدار مرتين تقريبا وكانت الشركة خلال ذلك تحاول ان تبرز ذلك بالزعم بان الاسعار المعلنة المرتفعة للنفط العراقي في موانىء البحر المتوسط وهي الاسعار التي اقرتها اتفاقية طرابلس تجعل من الانسب للشركة ان تشحن النفط من موانىء الخليج العربي ، وقد عمدت من أجل ان تقنع المقابل بصحة هذا الزعم الى ان تزيد بعض الشيء من انتاج النفط في حقول العراق الجنوبية • لكن ذلك لم يكن ليعوض بأي حال عن الخسارة التي تصيب العراق بسبب التخفيض العام في صادراته من النفط وقد بلغت هذه الخسارة في الاشهر الاربعة الاولى من عام ١٩٧٢ اكثر من ٢٨٠ مليون دولار [٢٩] •

وبعد أن جابهت الحكومة العراقية مثل هذا التخريب الصريح من جانب شركة النفط بادرت في ايار ١٩٧٢ وطلبت من الشركة ان تنظر خلال مهلة امدها اسبوعان ، في اقتراحها القاضي بزيادة تصدير النفط المستخرج من المناطق الشمالية ، وبوضع برنامج طويل الامد يقر زيادة متواصلة في استخراجه في السنوات التالية • والى جانب ذلك ذكر العراق شركة النفط بالمطالب التي قدمها بالاشتراك مع بقية اقطار الأوبك بخصوص المشاركة في الامتياز وطرح كذلك قضية ايفاء الشركة لديونها المختلفة والتي بلغت اعتبارا من ١٩٦٤ واحدا وعشرين مليون دولار • لقد اقترحت الحكومة العراقية على الشركة بشكل خاص ان توفي ديونها بالنفط على حساب الفرق بين الانتاج والتصدير أو ان تزيد الانتاج والتصدير في آن واحد ، على ان تشرك شركة النفط الوطنية العراقية • واعلنت الحكومة العراقية أيضا بأنها سوق تعمد في حالة رفض هذه المطاليب العادلة الى تأميم ممتلكات شركة نفط العراق وستقوم باستخراج النفط من المناطق الشمالية وبيعه في الاسواق العالمية بنفسها •

لقد حاول ممثلو شركة نفط العراق اللجوء الى اسلوبهم المفضل أي

المناورة والتسويف مؤملين ان يبدوا ضغطا غير مباشر على العـراق بـان يلوحوا له بخطر العزلة سياسيا واقتصاديا ، فلم تؤد المفاوضات التي بدأت في بغداد الى أية نتيجة فضلا عن انها قطعت قبل انقضاء مهلة الاسبوعـين بسبب ممثلي شركة نفط العراق الذين سافروا الى لندن « للتشاور » • وهكذا لم يكن امام الحكومة العراقية الا ان تستخدم حقها الشرعي وان تأخذ بيدها قضية انتاج النفط وتسويقه في المناطق الشمالية من القطـــر وهي المناطق التي تشملها امتيازات شركة نفط العراق •

وهكذا اصدر مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقيـــة في ١ حزيران ١٩٧٢ قانون تأميم ممتلكات الشركـــة الاجنبية ـ شركة نفط العراق ـ الموجودة في الاراضي العراقية ، فأصبحت بذلك اغـــزر آبـار النفط في الشرق الادنى في منطقة كركوك ومعامل تكرير النفط ومحطات الضخ وأنابيب النفط في حوزة اصحاب الثروة الحقيقيين وهي الثروة التي ربحت الاحتكارات الاجنبية المساهمة في شركة نفط العراق الملايين مـــن استغلالها •

لقد وجه تأميم شركة نفط العراق ضربة محسوسة للمصالح النفطية للدول الامبريالية الغربية لا في العراق وحده وانما في المشرق العربـــي كله ، فهو يدشن مرحلة مهمة جديدة في نضال الاقطار المنتجـــة للنفط ضد تسلط الاحتكارات النفطية الاجنبية الذي اشتد بشكل خاص في بداية السبعينات • وقد ساندت الحكومة السورية اعمال القيـادة العراقيـة بـأن عمدت كدليل للتضامن مع القطر العربي الشقيق الى تأميم ممتلكات شركة نفط العراق الموجودة في الاراضي السورية • كذلك صادف عمـــــل الحكومة العراقية الحازم تفهما تاما واسنادا من قبل الاقطار العربية كافة • كما باركت الجامعة العربية ما قامت به حكومتا العراق وسوريا •

ودعا مجلس الامة الكويتي جميع الاقطار العربيـــة لابداء المساعدة

المادية والمعنوية للعراق في نضاله ضد شركات النفط الاجنبية واتخذ في الوقت نفسه قرارا بمنح العراق وسوريا قروضا كبيرة • كذلك عبر المشاركون في مؤتمر شؤون النفط الثامن الذي عقدته الاقطار العربية في الجزائر في حزيران ١٩٧٢ عن اسنادهم الكامل لتأميم شركة نفط العراق ودعوا الى ترسيخ الوحدة في النضال ضد شركات النفط الاجنبية •

واستجابت منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط لهذه الدعوة فاتخذت باقتراح من الكويت قرارا يقضي بانشاء صندوق خاص لمساعدة الاقطار العربية التي تتضرر من جراء سياسة الاحتكارات النفطية وتقديم المساعدة للعراق وسوريا بواقع ١٤٠ر١ مليون دولار للعراق و٧ر١٧ مليون دولار لسوريا وذلك على شكل قروض بدون فائدة •

واتخذت الأوبك من جانبها في اجتماعها الذي عقدته في فينا في نهاية حزيران ١٩٧٢ قراراً اجماعيا بعدم السماح بزيادة استخراج النفط اكثر من المعتاد في اقطارها للتعويض عن النفط العراقي الذي غاب عن السوق العالمي مؤقتا •

ولقد ساند ممثلو خمسة واربعين بلدا وممثلو المنظمات النقابية الذين اشتركوا في المؤتمر النقابي الذي انعقد في بغداد في اواسط تموز بالاجماع قيام حكومة العراق بتأميم ممتلكات شركة نفط العراق ، وكذلك ساند تلك الخطوة المشاركون في المؤتمر العالمي للتضامن مع الشعب العراقي الذي انعقد هناك ايضا بمبادرة من مجلس السلم العالمي ومنظمة تضامن شعوب آسيا وافريقيا • لقد كان تأميم شركة نفط العراق ، كما اشارت الى ذلك القرارات التي اتخذتها هذه المؤتمرات ، خطوة مهمة على طريق تحرير النفط العربي • ولقد اعتبر المشاركون في هذه الندوات العالمية ان من الواجب ان يوجهوا الشكر للاتحاد السوفياتي لاسناده الفعال والمؤثر للخطوات التي قامت بها الحكومة العراقية على طريق ترسيخ الاستقلال

الاقتصادي للعراق • كما ان رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي أ•ن كوسيجين عمد من جانبه في التحية التي وجهها الى المؤتمر العالمي للتضامن الى التأكيد بان الاتحاد السوفيتي يساند بحزم اجراءات الحكومة العراقية العادلة التي « توجه ضربة جدية لمواقع الاحتكارات الامبريالية في الشرق الادنى » •

لقد اثار تأميم ممتلكات شركة نفط العراق في كل من العراق وسوريا صدى واسعا في العالم كله لانه كان خاتمة المطاف للاحداث الذي كانت قد نضجت منذ فترة طويلة ونعني الاحداث المتعلقة بتفاقم النزاع بين الاقطار المنتجة للنفط والكارتل النفطي العالمي الذي تشترك فيه شركة نفط العراق • فهذه الخطوة الشجاعة من جانب الحكومة العراقية تعني نصرا لها كانت مستلزماته قد هيأتها الاصلاحات الثورية التي جرت في العراق بعد ثورة تموز وكذلك مجرى الحوادث الاخيرة في المشرق العربي والنجاحات التي احرزتها الاقطار المصدرة للنفط في نضالها ضد الاحتكارات النفطية الاجنبية هذا النضال الذي يتخذ اكثر فاكثر طابعا واضحا في معاداة الاستعمار •

وقد وجد قرار الحكومة العراقية بتأميم ممتلكات شركة نفط العراق مع الالتزام في الوقت نفسه بدفع تعويض لها بعد خصم ديونها المعراق اسنادا اجماعيا من لدن جميع الاقطار المشاركة في الأوبك وهي الاقطار التي أملت شركات النفط الاجنبية أن تستغل التناقضات القائمة فيما بينها • فأقطار الاوبك لم تتضامن مع اعمال الحكومة العراقية فحسب وانما اتخذت ايضا عددا من الاجراءات الملموسة تنفذها في حالة مقاطعة الاحتكارات الغربية للنفط العراقي •

ونتيجة لسلسلة من المحادثات التي اجراها ممثلو الحكومة العراقية في فرنسا وايطاليا امكن التوصل الى اتفاق حول بيع النفط العراقي

بالشروط السابقة • فقد وافق ممثلو الشركة الفرنسية « كومباني فرنسيس دي بترول » على شراء ٢٣٫٥٪ من النفط المنتج من الحقول المؤممة لمـدة عشرة سنوات كما وافقت شركة النفط الحكومية الايطالية عـلى زيادة مشترياتها مـن النفط العراقي ، هـذا اضافة الى ان اسبانيا واليابان والهند وعدد من الاقطار الاسيوية والاوربية الاخرى وافقت هي الاخرى على شراء النفط العراقي • وقد كانت مفاوضات بيع النفط العراقي حافزا لتجاوز الاحتكارات الداخلة في الكارتل النفطي العالمي واقامة علاقات مباشرة ثرواتها الطبيعية لترسيخ الاستقلال الذي احرزته •

وهكذا اظهرت الحوادث المرتبطة بتأميم ممتلكات شركة نفط العراق بأن شركات النفط العالمية تفقد احتكارها لا في مجال استخراج النفط وأنما أيضا في مجال تسويق نفط الاقطار العربية التي يملؤها العزم لان تستغل ثرواتها الطبيعية لترسيخ الاستقلال الذي احرزته •

وقد وجهت الاتفاقية التي وقعت بعد مفاوضات طويلة في تشريـن الاول ١٩٧٢ حول مشاركة اقطار الخليج العربي للنفط في الامتيازات ضربة جديدة للاحتكارات حيث أصبح لتلك الاقطار الحق في ان تشـارك بنسبة ٢٥٪ تزداد في المستقبل (خلال عشرة سنوات) الى ٥١٪ (٣٠) •

لقد كان النصر الذي احرزه العراق والاقطار العربيـة الاخرى المنتجة للنفط على الاحتكارات النفطية مشروطا بعدد من الاسباب منهـا الاقتصادية ومنها السياسية ومن بين هذه الاسباب تشير الصحافة الغربيـة عادة الى الوضع الاقتصادي الملائم الذي تكون في سوق النفط العالمـي بعد العدوان الصهيوني على الاقطار العربية في حـزيـران ١٩٦٧ • فنتيجة لاغلاق قناة السويس اصبح ٤٠٪ من النفط المستخرج من منطقة الخليـج العربي ينقل الى اوربا الغربية في ناقلات عملاقة عن طريق رأس الرجاء الصالح • وازدادت اسعار استئجار السفن حتى نهاية ١٩٧١ بمقدار ست

مرات عن المستوى الذي كانت عليه قبل العدوان الصهيوني في ١٩٦٧ فكانت اكثر بمرتين من سعر النفط في الخليج العربي • لذا اخذ ينضج في اقطار أوربا الغربية استياء من الخط الصريح الموالي (لاسرائيل) الذي تنتهجه واشنطن ذلك ان شركات النفط الامريكية برفعها لاسعار النفط كانت تجبر حلفاءها الاوربيين على ان يدفعوا مقابل الدعم الذي تقدمه الولايات المتحدة (لاسرائيل) •

غير انه الى جانب الوضع الاقتصادي الذي تكون بشكل ملائم للعراق واقطار الخليج العربي الاخرى ، ساعدت العوامل السياسية هي الاخرى وبدرجة اكبر على نجاح تلك الاقطار في نضالها ضد شركات النفط التي كانت تقف خلفها حكومات الدول الامبريالية الكبرى التي تمتلك اوسع امكانيات الضغط • ومن بين هذه العوامل ينبغي ان نشير الى التضامن بين قوى الجبهة المعادية للاستعمار بكل فصائلها ، وضعف مواقع الولايات المتحدة وبريطانيا في الشرقين الادنى والاوسط بسبب خطهما الصريح المعادي للعرب في قضية تسوية النزاع العربي الصهيوني ، وكذلك نهوض حركة التحرر الوطني في الوطن العربي وبشكل خاص في جنوب شبه جزيرة العرب ووحدة العمل بين اقطار الخليج العربي التي كانت تتلقى الاسناد من اقطار الأوبك الاخرى •

لقد كان انتصار العراق والاقطار الاخرى المنتجة للنفط في الخليج العربي ممكنا بسبب من ان هذه الاقطار ادركت وحدة مصالحها فهبت لاول مرة في جبهة موحدة ضد الاحتكارات النفطية الاجنبية مستندة على دعم وتضامن جميع الاقطار الاخرى المصدرة للنفط الاعضاء في الاوبك • لقد باءت بالفشل محاولات الاحتكارات اثارة الخلاف بين اقطار شمال افريقيا واقطار الخليج العربي فقد ضيق الخط الثابت المعادي للاستعمار الذي تنهجه حكومات العراق وسوريا والجزائر لدرجة كبيرة من امكانية

الاحتكارات على المناورة وحوك الدسائس السياسية ، كذلك لم يستطع قادة العمل النفطي الامبرياليون استغلال الخلافات بين العراق وايران لاحداث انشقاق بين أقطار الخليج العربي الداخلة في الأوبك • حتى الطريقة المفضلة والمجربة اكثر من مرة من قبل الامبرياليين وهي التخويف بـ « الخطر الشيوعي » الذي زعموا انه يهدد الخليج العربي لم يكن لها هذه المرة أي اثر •

ان سياسة الاتحاد السوفياتي السلمية الثابتة المواجهة نحو اسناد القوى المعادية للاستعمار ودعم حركات التحرر الوطني في العالم كله لعبت كما حدث اكثر من مرة قبل ذلك في حالات مماثلة ، دورا ايجابيا في مجابهة الاقطار العربية خطر التهديد أو التدخل العسكري المباشر الذي يمكن ان تلجأ اليه الدول الامبريالية ضد الاقطار التي كانت مستعمرات بالامس وتمتلك اليوم استقلالها الوطني •

ان حكومة العراق عندما اتخذت قرارها بتأميم ممتلكات شركة نفط العراق كانت تعلم بانها يمكن ان تعتمد على وحدة القوى الوطنية في داخل القطر وعلى اسناد كل المنظومة الاشتراكية • لقد كان خط ترسيخ العلاقات مع الاقطار الاشتراكية وهو الخط الذي وجد انعكاسا واضحا له في معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي ضمانا لنجاح النضال الذي بدأه العراق ضد شركات النفط الاجنبية • فليس من الصدفة أن يؤكد رئيس الجمهورية العراقية السيد احمد حسن البكر في معرض حديثه عن الانجازات التي مكنت العراق من ان يحقق حلم الشعب القديم أي ان يمتلك بنفسه ثروته القومية الاساسية ــ النفط على اهمية عوامل مثل بداية انتاج النفط بمساعدة الاتحاد السوفياتي في ابار النفط في شمال الرميلة وتضامن وأسناد جميع الاقطار المنتجة للنفط والخطوات

الحازمة التي اتخذت في مجال تطوير العلاقات مع الاقطار الاشتراكية ، وعقد معاهدة الصداقد والتعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي •

لقد بدأت مع تأميم شركة نفط العراق في العراق وسوريا مرحلة جديدة مبدئيا في المواجهة بين الدول المنتجة للنفط والاحتكارات النفطية ، مرحلة ، تفتح افاقاً واسعة في ترسيخ الاستقلال الوطني للاقطار النامية وفي استغلالها للنفط كسلاح مؤثر وفعال في النضال ضد الامبريالية ومن اجل التقدم الاقتصادي والاجتماعي •



الهوامش

(١) لقد جرى حساب هذه النسب على اساس الجداول التي وردت في :
"Oil and Gas Juranl", 1971, "Petroleum Press Sarvice", Junuary 1972, "Monthly Bulletin of Statistics" April 1972.

(2) "Jeune Afrique" 2. 2. 1971.

(٣) « الحياة الدولية » ١٩٧٠ العدد ٧ ، ص ٤٣ .

(٤) دخلت في هذه المنظمة عشرة اقطار هي ايران والعربيةالسعودية والعراق والكويت وقطر وابو ظبي وليبيا والجزائر واندونيسيا وفنزويلا ، ستة منها تقع في منطقة الخليج العربي .

(٥) الاحصائيات بالنسبة لمسقط وعمان هي : في ١٩٦٨ ـ ١٢٠١٢ مليون طن وفي ١٩٦٩ ـ ١٦٣٧٠ مليون طن . وكان عدد الابار النفطية العاملة في اواسط ١٩٦٩ خمسين بئرا .

(٦) « البرافدا » ٢٦ـ١٢ـ١٩٧٠ .

(7) "Jeune Afrique" 9. 2. 1971.

(٨) « نشرة فرانس بريس » ١٦ـ١ـ١٩٧١ .

(٩) « اياندیجان » ٢٩ـ١ـ١٩٧١ .

(10) "The Guardian" 1. 2. 1971.

(١١) « العصر الحديث » ١٩٧١ ، رقم ٦ .

(١٢) « أياندیجان » ٢٦ـ١ـ١٩٧١ .

(13) "The New York Times" 2. 1. 1971.

(١٤) « نشرة فرانس بريس » ١٤ـ٢ـ١٩٧١ ؛
"The Financial Times" 15. 2. 1971.

(15) "The Financial Times" 4. 4. 1971.

(16) "Neue Zuricher Zeitung" 23. 7. 1971.

(17) "Foreign Affairs" July, 1971. P. 652.

(18) "The Times" 29. 11. 1971.

(19) "The Financial Times", 13. 12. 1971.

(٢٠) « اليقظة » ٢٤ـ١ـ١٩٧٢ ٠

(٢١) « اطلاعات » ١٩ـ١ـ١٩٧٢ ٠

(22) "Forign Affairs" July, 1971, P. 658.

(23) "The Times" 8. 12. 1971.

(24) "Jeune Afrique" 30. 10. 1971.

(٢٥) « اطلاعات » ٨ـ١٢ـ١٩٧١ ٠

(26) "The Times" 8/12/1971.

(27) "The Kuwait Times" 11/1/1972.

(٢٨) « الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية » ١٩٧٢ ، رقم ٨ ، الملحق ٠

(٢٩) « الحياة الدولية » ، ١٩٧٢ ، رقم ٩ ، ص ٤٦ ٠

(30) "Times" 26/10/1972.



الوجود التركي في قطر

من ١٩٧١ ـ ١٩١٥

احمد العناني

تمهيـــد :

لعل من أشد الفصول امتاعا في تاريخ الدبلوماسية في القرن التاسع عشر ، ومن اوضحها دلالة على طبيعة الاستعمار بعامة ذلك الفصل الممتع الذي يشكله تاريخ شعب كانت الارقام الاجمالية لعدد سكانه تتراوح بين خمسة عشر ألفا وربما خمسة وثلاثين الفا يزيدون وينقصون وفق أوضاع تتحكم في معايشهم من جانب البر المنفتح على الاحساء وجنوبي نجـد ، وجانب البحر الذي كانت تتنازعه قوى محلية متنافسة في ظـلال سيطرة بحرية انجليزية بدأت منذ الربع الاخير من القرن الماضي تحس لاول مرة خلال سبعين سنة احساسا مؤثرا بظهور بوادر خطيرة لتحديات مقبلة ربما عصفت بالترتيبات البطيئة المحكمة التي سهرت عليها بريطانيـا طوال قرن كامل لتنفرد بنفوذ مطلق في مياه الخليج •

الانجليز في الخليج :

ولا يرتبط بالموضوع مباشرة قصة تلك الجهود الانجليزية التي قامت على مجموعة من الوسائل المطبقة في التوسـع الامبراطوري الاستعماري في أيام الامبراطورية الرومانية في ثلاثة القرون التي سبق اثنان منها مولـد المسيح عليه السلام وكان الثالث هو القرن الاول الذي شـاد فيه اغسطس وخلفاؤه امبراطورية الرومان العتيدة •

لقد كان الانجليز يعنون في معاهدهم العلمية والعسكرية الرئيسية في بريطانية عناية بالغة معروفة بالثقافة اللاتينية بخاصة ، وكان تأثير روما الامبراطورية مفكروها وشعراؤها وكتابها وقادتها العسكريون ، في توجيه الثقافة الانجليزية ، ولاسيما ثقافة الطبقة التي يجيىء منها حكامها وضباطها البحريون في الهند والخليج ، اكبر من اي مؤثر ثقافي آخر • ومن يقارن تقدم الاستعمار البريطاني في منطقة الخليج كلها عربيا وفارسيا على السواء بتقدم الدولة الرومانية في البحر الابيض المتوسط يجد تشابها عجيبا في فلسفة الاستعمار واهدافه ووسائل الوصول اليها بين الرومان والانجليز ، حتى ليكاد الامر يتماثل تماما بين البحر المتوسط والخليج لولا امران أثان الانجليز فيهما مبتكرون ومتفوقون اولهما حسن استخدام الانجليز للدعاية والثاني عناية الانجليز الفائقة بالاتصالات السريعة بين مراكزهم في الخليج ومراكزهم في كل من الهند وبريطانيا واسطنبول وطهران بخاصة •

ومن الغريب تماثل القضايا التي واجهها الاستعمار في الحالين وتماثل اوضاع السكان المحليين فاما الامارات أو سمها المشيخات العربية على سواحل الخليج من الكويت حتى رأس مسندم بما كان يثور بينها من احن ومنازعات قبليه تشابه ظروف المدن اليونانية الصغيرة المتنافرة ، كما أن الحوادث البحرية واعتراض الملاحة التجارية كان أمرا كبيرا وواردا في البحر المتوسط وفي الخليج ، وقد خلا الجو للرومان بعد هزيمة قرطاجنة كما خلا الجو للانجليز منذ قضوا على بونابرت ، ولقد طبق الانجليز بمهارة متأنية طريقة الرومان في التفريق بين الوحدات السياسية التي تواجههم كما فعل الانجليز بالعرب وغير العرب في منطقة الخليج ، وقلدوا الرومان في استخدام المال وضرب الاخصام دون ان يتدخلوا تدخلا مباشرا الا عند الضرورة القصوى • كذلك كانوا يصرون

على ان لهم رسالة حضارية لا يتحركون الا لتنفيذها كما كان الرومان يتشبثون بأمور من ذلك القبيل •

الوجود التركي :

كانت اولى علاقات الاتراك بالخليج قد بدأت في وقت مبكر من القرن السادس عشر ، وعلى التحديد في العقد الخامس من ذلك القرن •• وبعد أن اصبح لهم وجود فعال في البحر الاحمر منذ استيلائهم على مصر عام ١٥١٧ وبالتالي على الشاطئين الاسيوي والافريقي لذلك البحر •

ولا تترك قراءة الاوراق العثمانية الباقية من ذلك العهد حتى الان في وثائق رئاسة الوزارة التركية في اسطنبول أدنى شك في الدوافع الاولى للاتراك بأنها رغم كل ما تنطوي عليه من طموح في الغلبه وسيادة الكلمة كانت ايضا تعكس اعتزازهم بالدور الذي تاديهم للقيام به الاستغاثات الواردة اليهم من ثغور شمالي افريقيا المتعرضة عندئذ لهجمات شرسة ومن الاقلية العربية المسلمة المضطهدة في اسبانيا ، ومن منطقة الخليج وبعض الاقاليم الاسلامية في غربي الهند •

ويعتز الكثيرون من الاتراك المحافظين حتى اليوم بالدور الذي لعبه بعض المغامرين من بحارتهم المتطوعين للدفاع عن المسلمين في ثغور افريقيا والخليج على حد سواء وعلى رأس هؤلاء القبطان بير رئيسي • على ان من الحق القول بأن ادوات الحرب البحرية التي خاضها الاتراك انطلاقا من البحر الاحمر فموانيء اليمن ، كانت معظمها أدوات وسفنا عربية وبحارة عربا من سواحل سوريا واسطول المماليك المصري ، كما أنضم لهم في الخليج أخلاط من البحارة العرب في سواحل عمان وقطر والاحساء والبصرة •

ومع ان الاتراك حققوا انتصارات أولية الا ان تمركز البرتغاليين

في الهند ، والتسليح المتقدم لسفنهم الكبيرة قد جعلا معركة الخليج وسواحل الهند في غير مصلحة الاتراك ، بيد أن المركز البري للاتراك كان أفضل من ذلك بكثير ، فقد وقفت سائر القبائل الرئيسية العراقية ولاسيما في منطقة البصرة وجنوب وغربي العراق عموما الى جانب الاتراك ، كذلك دانت لهم منطقة الاحساء فضلا عن معظم نجد ، ومن المعروف أن أربعة من ولاة الاتراك قد حكموا الاحساء فترة الثلثين الاولين من القرن السابع عشر قبل أن يستولي بنو خالد على مقاليد الامور في هذه المنطقة ، ، يمتد نفوذهم بالتالي في قطر وفي شمالي الخليج حتى اطراف الكويت من ناحية البصرة .. لقد كان تركيز الاتراك عندئذ في البلقان وجنوبي روسيا، وكانت نقطة ضعفهم الرئيسية التي تأكدت في معركة نفارينو في نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر هي القوة البحرية ، ولم تتبدل صورة الاهتمام التركي ، فتتحول من اوروبا الى الشرق العربي الا بعد « التنظيمات » وتعيين مدحت باشا بالذات في باشوية بغداد ، فلقد ايقن الاتراك انهم غير واصلين الى أية نتيجة حاسمة دائمة في الغرب نتيجة تضافر القوى الغربية جميعا عليهم في نهاية كل مطاف ... وحسب المرء على سبيل المثال أن يدرس تفاصيل حرب القرم التي وقفت فيها بريطانيا الى جانب تركيا وانتهت بعد خسائر دامية الى هزيمة الروس ومع ذلك فقد اقتطع الانجليز من الاتراك جزيرة قبرص ليكون ذلك هو الربح الذي عاد به الاتراك بعد ما سمي بانتصارهم في القرم . لقد كان هناك تيار قوي في تركيا يدعو الى التنازل عن كل أمل في استمرار الوجود التركي في اوروبا وضرورة التعويض عنه باصلاحات جذرية تنشيء ادارات حازمة واصلاحات واسعة في الولايات الاسلامية الشرقية ولاسيما ولايات شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذه الاماني الزاهية كانت تعترضها صعوبات متنوعة على رأسها ما أصاب الدولة التركية من تفكك نتيجة توالي

الحروب وفساد الادارة وتأخر حركة العلم والصناعة وتغلغل الاجانب وامتيازاتهم وتدخلهم في شؤون الطوائف والاقليات ، وتواجد عناصر غريبة حتى في ديوان السلطان نفسه وتحريض الاوربيين على الثورات في البلقان ، ومطامع القياصرة في الوصول الى البحار الدافئة عن طريق المضائق التركية ، والواقع ان مجالم الخلاف بين العرب والاتراك لم يكن قد وصل حداً خطيرا يشجع على القطيعة المطلقة ، وفي منطقة الخليج بالذات فان ما حققه الانجليز بالعنف الشرس أحيانا كما حصل ضد القواسم وما شرعوا فيه منذ عام ١٨٦٠ شروعا مكشوفا بتصفية سفن العرب الكبيرة بحجج مفتعلة كما فعلوا مع عمان والبحرين بخاصة ، والهيمنة النهائية على سائر تجارة الخليج ، وقيامهم بزراعة أقليات هندية تابعة لهم في المراكز التجارية العربية لاحتكار تجارة اللؤلؤ ، كل ذلك مضافا اليه قيام حركة تبشيرية مستعلنة لاسيما في البحرين لرد الناس عن دينهم كان كافيا لتهيئة مناخ صالح جدا لحركة باشا بغداد الجديد مدحت باشا المعين عام ١٨٦٩ والذي كان ينطوي على همة عالية وصلابة شديدة ومخطط طموح للاصلاح الاداري ، فضلا عن استعادة مركز الدولة العثمانية وهيبتها وانشاء تنظيمات واوضاع تكفل قيام علاقات افضل بين الدولة ورعاياها ..

دور البصرة ورجالاتها :

وما كان لمدحت باشا ان يستطيع تحقيق شيء لولا التفاهم الذي توصل اليه مع نفر من رجالات العراق في بغداد والبصرة على السواء ، وقد ادى ذلك الى تحسين واضح في العلاقات العربية التركية في المنطقة بعامة ، كما بدا واضحا أن اتصالات واسعة قد قامت بين رجالات من البصرة من زعماء قبائل الجنوب العراقي من جهة وبين شخصيات محلية قوية في الاحساء والكويت وقطر وبينهم عناصر قوية كالشيخ مبارك

الصباح والشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في قطر ، وشخصيات من البحرين وبخاصة من الساخطين على نشاط الحركة التبشيرية وعلى تدخلات الانجليز المباشرة في شؤون البحرين . وقد ظهر أثر تلك المساعي والجهود والاتصالات المتضافرة والتي يبدو ان معظمها كان يدور في جو من التكتم الشديد في نجاح حملة الاحساء التي ساهم فيها العراقيون والكويتيون وتلقتها عناصر معينة في الاحساء بالترحاب كما تجاوب معها بحماسة أقوى رجالات قطر في ذلك الوقت الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني والذي تولي بيده رفع الراية العثمانية على قلعته وبيته في البدع .

والواقع ان تعاون عرب الخليج هو الذي مكن من توفير السفن والمؤمن لنقل مهمات الحملة والكثير من تجهيزاتها وجنودها كما مكن للاتراك سرعة التمركز في الاحساء وقطر .

لقد كان السبب المباشر لقيام تلك الحملة الخلاف الذي لم يكن وقوعه مفاجئا في الأسرة الحاكمة السعودية حتى قبل وفاة الامام فيصل بن تركي حيث كان واضحا ان القبائل البدوية كانت تؤيد سعودا بينما يقف السكان المستقرون من الحضر والقرى الى جانب الوريث الشرعي للحكم وهو عبدالله بن فيصل ، ولقد كان ملحوظا تماما ان الانجليز يؤيدون سعوداً ، ومن ينظر في تفاصيل رحلة المقيم السياسي البريطاني بللي الذي لعب دوراً خطيراً في حياة الخليج السياسية ، والذي كان اول رسمي بريطاني يصل الى الرياض في نطاق رحلة ظاهرها الاستكشاف والنزهة ، وهي في حقيقتها رحلة سياسية يعرف بوضوح قلق السلطات الانجليزية لما كان عرف عن مرض الامام فيصل بن تركي ، والنزوع فيهم لتأييد تولي سعود مقاليد السلطة برغم شرعية أخيه عبدالله .

لقد بدأ الانجليز تدخلات مباشرة على نطاق واسع في شئون قبائل

الاحساء منذ عهد مقيمهم السياسي المدعو هينيل ايام خورشيد باشا وآخر الحملات العسكرية التي أوصلت المصريين الى ساحل الخليج ، الامر الذي أثار قلق الانجليز الشديد فبعثوا بهينيل يوزع المال والسلاح على احدى القبائل الكبرى في الاحساء ويغريها بمهاجمة المصريين • وكان من نتائج ذلك مقتل الموظف الاداري الذي بعث به المصريون الى قطر عام ١٨٣٩ ، ونوتر علاقات الانجليز بشيخ البحرين عبدالله بن احمد آل خليفة لموقفه الودي من المصريين ومتابعتهم اياه واولاده من بعده بالعداء الشديد فترة دامت أربعين سنة •

حملة الاحساء عام ١٨٧١ والادارة التركية للاحساء وقطر :

تبين المراسلات الدبلوماسية البريطانية عن حملة الاحساء الناجحه عام ١٨٧١ انه لم يكن في وسع الانكليز التعرض للحملة لسبب واحد رئيسي هو اتحاد كلمة الاتراك والعرب ، خلافا لما يدعى من انهم اخذوا على حين غرة بقيام تلك الحملة • وذلك للاسباب التالية :ـ

أولا : ان الخطر الرئيسي في السياسة الخارجية البريطانية حيال أمبراطورية العثمانيين كان هو العمل على تذويبها تدريجيا من الداخل ، واقحامها في مغامرات وورطات خارجية ثم مد المعونة الديبلوماسية لها وانتظار كل قطعة تتهافت منها بعد ذلك لكي تتلقفها بريطانيا كما حصل في مصر وقبرص وعدن وسواحل البحر الاحمر وعلى ان يجيء ذلك التهافت في وقت تكون فيه بريطانيا جاهزة بحكم ظروفها الدولية والمحلية على الاستئثار بذلك الجزء ، مع مواصلة الادعاء بالصداقه التقليدية والمصالح المشتركة ضد التقدم الروسي ، وقد ظل من الصعب على بريطانيا ان تستجيب لطلبات متكررة من حكومتي بومباي ، وسملا في الهند وأحيانا من مقيميه الخليج الدائمه في بوشهر لاتخاذ مواقف عدائية شديدة من تركيا •

وثانيا : كانت سياسة بريطانية الثابتة الا تتدخل تدخلا مؤثرا في الشئون البرية وان تقصر عملها وتركيزها على معطيات التفوق الحربي البحري ، ولم تلجأ طوال القرن التاسع عشر الى اية حركات حربية برية هامة سوى حربها مع ايران في منتصف القرن والحملات التي شنتها على رأس الخيمة عامي ١٨١٩/١٨٢٠ ٠

وثالثا : وربما كان هذا هو أهم الأسباب فأن الانجليز كانوا مطمئنين الى أن تطور الاحداث بعد الحملة لن يكون في صالح الادارة العثمانية ، فالخزينة التركية لايمكن ان تتحمل الانفاق على تجريده حربية كبير تطيل الاقامة في الاحساء ذات البعد الملحوظ عن البصرة تحت ضغوط المناخ القاسي الذي لم يألفه الاتراك ، والحوادث التي كان محتوما وقوعها بسبب معارضة القبائل الواليه لسعود في الاحساء ، كما انهم كانوا يعولون كثيرا على انقسام التحالف التركي العربي الذي دعم الحملة وجعل ممكنا تزويدها بالمؤن والمهمات ويسر نقل ذلك كله للاحساء ، ثم ان الانجليز لايعدمون الوسائل لاثارة القلاقل في منطقة التواجد التركي كما ان نشاط سفارتهم في أسطنبول ووسائلها كانت تكفي على المدى المعقول لاثارة الخواطر ضد مدحت باشا سواء أحسن أم أساء فلم تكن الاوساط المتنفذة في عاصمة العثمانيين تفتقر الى اناس فاسدي الذمم يتقبلون كل توجيه من اية جهة في سبيل المنافع الانانية والهبات المادية ٠

ولقد صدقت ظنون الانجليز في اكثر ما توقعوه ، ولكن القليل الذي لم يتوقعوه اكتسب عنصر الثبات واقلاق الراحة المستمر لهم ، وأوجد نوعا مبكرا من الحرب الباردة الممضة بينهم وبين الاتراك ٠ لقد صدقت ظنون الانجليز في موضوع المصاعب المالية والمناخية والامنية التي تعرض لها الاتراك فقبل مرور بضعة أشهر على الحملة تبين ان ما يمكن ان توفره واحات الاحساء من الضرائب اقل بكثير مما يحتاجه الابقاء على الوية من

الجيش في الاحساء خصوصا وأن الاخلال بالامن والهجمات على طرق التجارة والحج الهامة بين العقير والهفوف استشرى منذ البداية كما اصطدمت السلطات التركية بقبيلة العجمان ، اما حليفها الامير عبدالله بن الفيصل فقد اختفى عن المعسكر التركي وندم على الاستعانة بالاتراك ومضى يبحث عن عن وسائل أخرى لمناجزة اخيه سعود الذي ظل على مقاومته للاتراك •

أما المصاعب المناخية فكانت قاسية هي الاخرى فقد تكررت اصابة الجنود بالحميات والامراض ، وكان ذلك يتطلب عملية نقل بحرية متواصلة لاستبدال الجنود المرضى بين العقير والبصرة ، ومن سخرية الامور فعلا ان يضطر الاتراك غير مرة الى استئجار سفن تجارية بريطانية لتوصيل المؤن والمهمات الى جنودهم •

كذلك لم يطل الوقت على الانجليز قبل ان يتوفقوا في صدور امر بنقل مدحت باشا من باشوية بغداد قبل انقضاء سنتين على الترتيبات الواسعة التي وضعها لتحسين صورة الاتراك في بلاد العرب واستعادة نفوذ الدولة في المناطق التي أستأثر بها الانجليز في الخليج •

لكن هناك نقطتين لم تجر فيهما الامور وفق توقعات الانجليز وهما اولا ان يتمكن الاتراك على غير العادة من تأسيس تنظيم اداري في الاحساء قائم على تقديرات واقعية صحيحة ، وأن يؤدي هذا التنظيم الذي جعل من الاحساء متصرفية ذات أربعة أقضية منها قضاء قطر على رأس كل منها قائممقام وجهاز اداري على قدر الحاجة الى اقرار النظام وسير الاعمال في المنطقة لاسيما في السنوات الاولى الامر الذي أدى بعد مرور أقل من سنة الى الاعادة التدريجية للجيش الى البصرة وتوفير سائر نفقاته ••ولم يتخلل ذلك النظام الا عنصران مزعجان أحدهما التعيين المفاجيء في اسطنبول لمتصرفين ضعفاء كانت الاحوال تسوء فورا بمجرد شروعهم في نشاطهم المخرب ،.وكان بعضهم مع الاسف يجد اسنادا من بعض البارزين في المنطقة

من العرب الذين كانوا يجرونهم الى التحيز الاداري لصالحهم فى مقابل الهبات او الضغوط عليهم .

تلك نقطة ، واما النقطة الاخرى فهي ان الاتراك لم يتكلفوا جهدا من أي نوع في قطر سوى وضع حامية تراوح عددها طوال الاربع والاربعين سنة التي أقامت خلالها في قطر بين ثمانين جنديا ودركيا من الجندرمة وأربعمائة جندي باستثناء مناسبة واحدة عززت فيها الحامية تعزيزا كثيفاً لفترة بسيطة في مظاهرة لعرض القوة ، ولكن السفينة التي جاءت بالتعزيزات الاستثنائية مالبثت ان عادت بأكثر مما جاءت به ، فعاد حجم الحامية الى ما كان عليه .

قاسم بن محمد آل ثاني

وبالرغم من أن شيخ قطر القوي قاسم بن محمد آل ثاني الذي سبق الحديث عن موقفه من تقدم الاتراك في المنطقة اضطر الى الصدام معهم صداما داميا في عام ١٨٩٣ فى معركة شهرت باسم معركة الوجبة على مسافة تقارب العشرين كليومترا من الدوحة الا أن الرجل حتى في عنفوان الغضب في ذلك الموقف العصيب رفض رفضا قاطعا ان يدخل في معاهدة مع الانجليز على غرار معاهدات الساحل العماني صدورا عن عقيده راسخه عنده بعدم شرعية مثل ذلك التعاقد .. وهذا أمر سوف نعرض له لاحقا .

ولقد كانت النكسة الكبيرة التي وقعت للاتراك فى قطر نتيجة مباشره لفساد ذمة بعض الاداريين الاتراك الذين كانوا متواطئين تواطؤاً تاما مع بعض خصوم الرجل فى المنطقة فبعثوا بتقارير كاذبه يحرضون فيها الحكومة العثمانية على قاسم .. الامر الذي جعله بعد تلك التجربة المرة مضطرا الى الركون الى اصدقاء له في كل من الاحساء والبصرة واسطنبول ليبلغوه اولا بأول عن أية تطورات غير مرضيه نتيجة لمساعي الدساسين .

قائممقامية قطر :

لقد سبق التنظيم الاداري التركي لمنطقة الاحساء مشاورات مع الشيخ قاسم على غرار المشاورات التي سبقت مجيء الحامية التركية واستقرارها في قلعة العسكر بحي البدع (حي قديم في الدولة الحالية) • والواقع أن المشاورات الثانية كانت نتيجة اتفاق ليس له وجود خطي وثائقي وان كانت الاشارة اليه تتكرر بكثرة • ويبدو من تلك الاشارات ومن الرسائل العديدة المحفوظة من عصر قاسم والتي ربما نافت على مئة رسالة طوال فترة حكمه الذي كان يباشره مع وجود والده من ١٨٦٠ حتى ١٨٧٨م ثم منفردا من (١٨٧٨ - ١٩١٣ م) ان النقاط التى لم يتركها غامضة لدى المسئولين الاتراك وعلى رأسهم مدحت باشا تتلخص فيما يلي :-

اولا : أن قطر بلد بحري وان المغاصات التي يغشاها القطريون تمتد جنوبا الى قبالة الساحل العماني وان حياة أهله تتوقف تقريبا بالكامل على أعمالهم البحرية والبحر فى أيدي الانجليز الامر الذي يفرض على قطر وضعا خاصا لاتستطيع معه أن تذهب الى الحد الذي يحرمها مورد حياتها ، ومادام الاتراك لا يملكون تغيير هذا الوضع فانهم يتفهمون بالطبع ظروف قطر هذه •

ثانيا : ان في وسع الانجليز المترسخ نفوذهم فى جنوبي الخليج والبحرين ان يربكوا قطر ببقاء حدودها من ناحيتي عديد فى الجنوب والزبارة في الشمال مفتوحة أمام القبائل المترحلة او ربما الهجمات المرتكزة الى البحرين ولهذا فهو يريد من الادارة التركية ان تبادر فورا لمساعدته في اعمار موقعي الزبارة وعديد ، والواقع أن مراجعات قاسم فى هذا الموضوع كانت متكررة وهي مراجعات خطية وشفوية بلا شك وتمتد من سنة ١٧٨٥ الى نهاية القرن •

والواقع ان الاتراك مروا بظروف كانوا قادرين فيها جدا على تنفيذ هذا المطلب الملح .ولكنهم أهملوا الموضوع مرة بعد مرة ، حتى اذا ما تبينت لهم خطورة الامر وارادوا ذلك وجدوا الانجليز متنبهين للموضوع • ولقد كان قاسم قد مهد في العديد كل شيء أمام الاتراك باتفاقه مع قبيلة القبيسات الذين رفعوا العلم التركي مرارا واعلنو تابعيتهم العثمانية بنصيحة ودعم مادي متكرر من قاسم، ولكن الاتراك لم يتجاوبوا، فلما لاحت الفرصة للانجليز نتيجة صدام شديد بين أبو ظبي والقبيسات أتاحوا لابو ظبي تدمير العديد بحراسة من قطعهم الحربية البحرية طوال فترة الهجوم وظل الاتراك بعد ذلك ثلاثين سنة كاملة يحتجون ، وقد يعمدون الى تعيين مدراء نواح لقطر فيثيرون عاصفة دبلوماسية تنتهي دائما بتأكيد من الانجليز بأنهم مضطرون لمعاودة القول بعدم اعترافهم بأية سيادة اقليمية لتركيا على اي مكان في الشاطيء الغربي من الخليج أبعد من عشرة كيلومترات جنوبي العقير ثم نطوى صفحة الاحتجاجات •

وفي بداية القرن الحالي وعندما أحتدم الصراع الديبلوماسي بشأن مدى نفوذ بريطانيا في الخليج وقام نائب الملك في الهند اللورد كيرزون وألقى خطابا غاية في الكبرياء والتهديد مؤكدا أن لبريطانيا أتعابا وافضالا على سلام منطقة الخليج فهي بذلك لا ترى لاحد أن يزاحمها في تلك المنطقة او يرغمها على أمر لاتريده ، اوعز الى جريدة «اقدام» التركية بأن تسرب انباء مفادها ان تركيا قد عينت مدراء نواح ثلاث في قطر للوكرة والزبار والعديد ، واحتجت بريطانيا على الفور وتملص الاتراك من الموضوع فترة قاموا بعدها بتدبير وصول موظفيهم الى الاحساء فتدخل الانجليز وتراجع الاتراك مرة اخرى •

وليس ذلك وحسب ولكن التفوق الانجليزي البحري عرض قاسما

لمواقف مغيظة ومكلفه فمرة تصل قطع الانجليز الحربية إمام الدوحة تهدد بنسفها ان لم يستجب قاسم لدفع غرامة باهظة كجزاء وتعويض على شر أصاب في سوق البدع بعض رعايا بريطانيا من الهنود ، ومرة أخرى نجد الانجليز يوعزون بمصادرة بضائع من اللؤلؤ وسواه يتجر بهـا البعض لحساب الشيخ قاسم ، وفي مناسبة ثالثة حين توجه آل بن علي لاعمار منطقة الزباره التي كانت موطنا لهم قبل سكناهم المستجدة بحوالي مئة سنة يتدخل الانجليز باسطولهم ويحطموا العديد من السفن ثم يستاقوا مـن قـوارب الصيد أكثر من مئتين وثمانين كلها للقطريين ثم ينتهـي بهم الامر الـى احراقها جميعا ••

ثم ان قاسما اشترط على الاتراك بأنه سيتولى تدبير مبلغ معقول ربما كان منه شخصيا وبالكامل للمساعدة في نفقات الحامية العسكرية التركية ، لكنه لا يريد من الاتراك ان يفرضوا او يفكروا فـي فرض ضرائب عـلى قبائل قطر المحدودة الموارد والتي عانت كثيرا من صراعها الطويل مع القبائل المعادية فضلا عن ضعف امكاناتها الشديدة وتثبت أوراق دار الوثائق التابعة للخارجية التركية في اسطنبول ، ان الاتراك كانو متفهمين لهذه الحقائق • فالتقارير السنوية التي تحمل احصائيات تقريبية لموارد قضاء الاحساء تشير الى قطر بأن مواردها ضئيلة وسكانها من « قبائل الاعراب المترحلين من أهل العوز وممن ينبغي ان يكونوا معفيين على الدوام ، وفيهم بعض صيادي السمك والغائصين على اللؤلؤ ولكن محصولهم ذاك لم يكن هو الاخر يكفي ابسط حاجياتهم •

ولكنا نجد صورة مختلفة تماما اعتبارا من سنة ١٨٨٧ ونجد مطالبات لقاسم بزيادة الدفع لحساب الحامية المقيمة عنده ، كل ذلك يجـرى في الوقت الذي كانت فيه الدوحة تتعرض لهجمات مباشرة من ناحية ابو ظبي من الجنوب ومن تخرشات قبلية على الحدود الشرقية حتى ليقتل في هجمـة

مباغته حوالي سبعة وثلاثين رجل بينهم أعز ابناء قاسم اليه ، والصقهم بقلبه وهو علي الملقب « بالجوعان » وكان مستشار أبيه ويده اليمنى والرجل الذي يبعث به للمهام الصعبة .

والحامية التركية تستقي من عين ماء تحميها لنفسها وأوامرها الصريحة هي الدفاع عن نفسها اذا هوجمت .. وعندما جاء والى البصرة في زيارة تفقدية عام ١٨٨٩ وهو مشبع سلفا بافكار غريبة ويريد تأكيد العزم على تطبيق تنظيمات أدارية جديدة على قطر اهمها بطبيعة الحال افتتاح مركز جمركي في الدوحة يبدو أن قاسما تغاضى عن بيان موقفه من الموضوع جملة وتفصيلا ، حيث ان الكثير مما كان يخططه الاتراك لم يكن يتخذ طريقا الى التنفيذ ، وهذا ما يحصل دائما مع الامم في المرحلة الختامية من حكمها الامبراطوري المتهافت . ويبدو أن الاتراك كانوا يزمعون زيادة عدد حامية القلعة زيادة كبيرة ولكنهم لم يلبثوا ان اعادوا الجنود الى البصرة مع عودة الباشا الوالى .

التنظيم الاداري التركي لقطر :

وان من حق المرء ان يتساءل أي جهاز حكومي يمكن ان يقوم حيث لا جمارك ولا ضرائب . ثم هل تدعي تركيا سيادة اقليمية بغير جهاز وموظفين مسئولين؟ . بالنسبة للسؤال الاول فقد كانت قطر ممثلة في الشيخ قاسم تقدم للاتراك ما يقوم بسائر نفقات الحامية ؟ أما كيف كان يجبيء المبلغ فذلك غير واضح؟ ولكن أغلب الظن ان حصة الاسد فيه كانت من الشيخ؟ ولذا فلم الموظفون اذا كان القطريون سيحملونهم حملا فوق حمل الحامية ؟

على أية حال فان وثائق وزارة الخارجية التركية تحوى نصوصا مبكرة من عام ١٨٧٣ عن التنظيم الاداري لقطر وهي نصوص تنام فترة طويلة ثم

تتجدد ثانية حوالي ١٨٨٧ حين نرى الاتراك يعينون معاونا للقائممقام •

الجهاز الاداري :

يتألف الجهاز الاداري لقضاء قطر :

أولا – من القائممقام : لقد عين الاتراك الشيخ قاسم قائممقام لقطر ولكنه رفض الراتب وقبل اللقب وكانت حركته تلك بارعة وذات دلالة ، فأما البراعة فأن قبوله راتبا على الوظيفة كان يعني مساهمته في اقرار مشروعية الجمارك والضرائب على شعب فقير •• وليس أسهل أن تقول له الدولة : ما شا الله انت تأخذ راتبا وتعترض فمن اين نجيء لك بالراتب ولسواك ما دمت تعترض على الضرائب ؟ •

هذا من ناحية البراعة اما من ناحية الدلالة فان قاسما كان طليق اليد حين دعا الاتراك الى قطر وكان ينزع من قوس الجامعة او الرابطة الاسلامية ، وكان حياته كلها يريد الخير للاتراك ضمن ذلك الاعتبار ثم انه كان في موقف المعطي فلم ينزل الى مرتبة الاخذ ؟

وقبل ان ينعم عليه الاتراك بالترقية الى رتبة «قائممقام كبوجي باشي» وهي مرتبة شرف كبيرة كان في الواقع يضغط بحزم لقبول استقالته معتكفا في بلدة الظعاين على مسافة عشرين كيلومترا ونيف ، حيث كانت له هناك دارة وبستان زرعه بالنخيل واصناف من الشجر كالعنب والرمان وبعض الحمضيات ، ويبدو وكأنها الشئون العامة آخر شيء يعنيه فيما زمام البلد في كل صغيرة وكبيرة هي طوع بنانه •• ولكنها كانت عزلة ناجمة جدا ازاء ضغوط الانجليز والاتراك على السواء •

والواقع ان قاسما بعث بكتاب رسمي باستقالته ولكن الاتراك ألحوا على الا يتعاملوا مع أحد يولونه صفة المسئولية سواه ، وقد كانوا ماهرين في

ذلك حقا فان هيبة قاسم كانت هي الحائل الاساسي دون وقوع المكروه على الحامية التركية هنا وهناك ، ولاسيما في حالات التوتر ، والمداخلات الخفية البريطانية •

ثم نجد الاتراك في بعض الفترات يصرحون بتعيين معاون للقائممقام تركي بالطبع ، ولكن هؤلاء المعاونين قد بدلوا بسرعة شديدة واحداً في آثر الاخر حيث ان أحدا لم يكن يستطيع أن يمارس من النشاط الا على قدر الدائرة التي يفسحها له قاسم •• ولكنا نجد الاتراك اعتبارا من بداية القرن الحالي يتلقون تنسيبا من الشيخ بتعيين وكيل له من اسرته وبالتالي نجد متصرف الاحساء يعامل مثل ذلك الرجل على أساس انه المعاون المعين للقائممقام •• ونجد رسائل توضح بأنه في الحالات التي كان يتأخر فيها قاسم في تسمية وكيل ينوب عنه يلح المسئول التركي في مخاطبة الشيخ بادب شديد ان كان قد قر رأيه على شخص ما من اقاربه ، وان لم يكن فانه يمن عليه باعلامه عنه متى رأى مناسبا أن يسميه لذلك المنصب •

ثم كان هناك ضمن تلك الوحدة الادارية شبه الاسمية كاتب تحريرات أو كاتب رسائل من وظيفة صغيرة ملحقة بوظيفة المعاون ، كما نسب تعيين مساعد لكاتب التحريرات وثلاثة سموا بكتاب النفوس (الاحصاء السكاني)•

ثم كان هناك قاض شرعي عثماني لفترات متقطعة ويبدو ان الذين أشغلوا هذا المنصب من الاتراك كانوا اقرب الى المتطوعين لخدمة الدعوة لله أكثر منهم قضاة موظفين ولا تزال صورة بعض اولئك القضاة في ذاكرة القطريين حميده حتى الان •

وكانت مخططات الادارة تتحدث احيانا عن فتح مدارس ومحال حكومية اخرى ولكن شيئا من ذلك لم يحصل على صعيد الواقع •

ذلك كان كل الجهاز الاداري العثماني لقضاء قطر علما بأن قائد

الحامية التركية في قلعة العسكر بالبدع كان يدخل أحيـاناً في المشاورات السياسية وفي الادارة بأعتباره رجل مسئولية كبيرة والمفروض ان يكون له رأي يحترم •

وبذلك يتضح تماماً أن الوجود التركي في قطـر هو وجـود مقصود لذاته « كمجرد وجود » واشبه ما يكون بشاخص الحدود بين المزارع حيث ان تركيا تصر على امتداد نفوذها حتى مشارف عمان •

بينما يرفض الانكليز ذلك كما قلنا رفضا صريحا اذا ما اضطروا بسير الاحداث الى أعلان ذلك الرفض •

والواقع ان مخططات مدحت باشا كانت تهدف الى استعادة نفـوذ « دولة الخلافة » في البحرين من ناحية وفي صير عمان الساحلي من الناحية الاخرى • وقد جرت محاولة واحدة رئيسية اشرنا لها من قبل في صدد آل بن علي واعمار الزبارة فقد كان التجمع الذى حشـد في الزبـارة وباركه متصرف الاحساء التركي وضم العناصر المنشقة من آل خليفة على بني عمومتهم الحاكمين في البحرين يهدف الى شن هجمة مفاجئـة عـلى البحرين ولكن الانجليز لم يتأخروا عن اللجوء للقوة ومباغتة التجمع البحري القطري بقنابل المدفعية البحرية الثقيلة ، وأخيراً أسر السـفن التي كـان معظمها من قوارب الصيد واغراقها وذلك عام ١٨٩٥ •

اما في اتجاه عمان فقد بارك الاتراك مباركة شفوية حذرة التفاهم الذي قام بين قاسم بن محمد آل ثاني وابن رشيد ، حيث كان ابن رشيد عندئذ هو الرجل الظاهر في حائل ونجد ، والواقع ان الرجلين كانا يشنان حربا نفسية بكل معنى هذه العبارة ، فقد كان قاسم بحاجة الى دعم لموقفه فـي خلافه الحاد مع ابو ظبي نظير الدعم الذى تلاقيه الاخيرة من الانكليز •• وقد أمتلأت المنطقة باشاعات عن حشود يحشدها ابن رشـيد وغـزو كبير

يزمعه هو وقاسم على عمان ، وراح الانجليز يستقرئون الحقيقة عن تلك النوايا من كل مصدر يستطيعون تسخيره في ذلك حتى لقد نقلوا نشاطهم الاستطلاعي الى اسطنبول ، ولكن الحكومة التركية في الواقع كانت زاهدة في مواجهة تواجه بها الانجليز وهي ترى العصبية الواضحة التي يظهرونها تجاه اي تهديد لمصالحهم في المنفذ الجنوبي للخليج •

تأزم الاوضاع الدولية وفشل الضغط التركي على قاسم ـ معركة الوجبه ١٨٩٣

بدأت الاوضاع الدولية في المنطقة تتأزم كثيرا منذ ظهرت قضية محطة النهاية لسكة حديد بغداد على الخليج ، وكانت هذه القضية امتحانا لحقيقة نفوذ الدول في المنطقة ، وكذلك مدى قوة كل زعامة محلية ، ولم تبرز هذه القضية على السطح بروزا حادا الا خلال السنتين الاخيرتين من القرن الماضي ، حيث كانت روسيا تسعى للحصول من الباب العالي على أمتياز يمنح الكونت كابنيست ـ الذي كان يحمل مواطنية روسية ـ حق مد خط حديدي من البحر المتوسط للخليج وينتهي في الكويت كما قامت بعثة المانية بزيارة الكويت للبحث عن موقع مناسب لنهاية خط حديد بغداد المقترح في الكويت •

ذلك كان الوقت الذي تفجرت فيه أزمة الصراع الدولي ولكن الواقع ان سائر القوى كانت تعمل على تحسين مراكزها ربما منذ عام ١٨٨٧، وان مساعي بريطانيا لانتزاع النفوذ في الكويت من تحت أنوف الاتراك قد بدأت قبل عقد المعاهدة المانعة مع الشيخ مبارك عام ١٨٩٩ • ولكي ينام الاتراك جيدا عن مساعي الانجليز لتتم في غاية في الهدوء فقد كتب السير فورد[1] السفير البريطاني في القسطنطينية رسميا الى وزير الخارجية

(١) دليل الخليج ـ الترجمة الحديثة ص ١٥٢٤ •

التركية في نيسان ١٨٩٣ يبلغه ان حكومة صاحبة الجلالة تعترف بحقوق السيادة التركية على طول الساحل من البصرة الى القطيف ، وتجاوب الاتراك جيدا مع ذلك المخدر المناسب ، فيما كانت بريطانيا تشيد علاقاتها مع الرجل القوى الذي اختارت حلفه الا وهو الشيخ مبارك الصباح خطوة خطوة وبهدؤ تام • ثم كان ما كان من خلاف بين مبارك واخويه محمد وجراح وقتلهما • وحين وقف خال القتيلين يوسف الابراهيم للدفاع عن قضيتهما وقفت بريطانيا منه موقف العداء السافر ، وسنرى الرجل بعد ذلك يضم جهوده الى جهود قاسم بن محمد آل ثاني وآل رشيد في المعسكر الذي الذي كان يفترض ان تقف معه تركيا بثبات ، لكن الادارة التركية كانت تتخبط كثيرا وتنقل خطوها في الظلام ، وكيف لاتفعل وان بعض ولاتها ومتصرفيها في الاحساء والبصرة ينقلون لها صورة معكوسة عن الاوضاع في المنطقة ، ولقد كان من نتيجة تلك التقارير ، ومن تودد الانجليز الى الاتراك لصيانة المنطقة من الاحداث والشغب ، وشكاواهم من المنازعات القائمة بين قطر وابو ظبي ان اتجه الاتراك نحو سياسة التشدد في قطر ، فبدأوا منذ عام ١٨٨٨ يحاولون ادخال تنظيمات جديدة ودار للعوائد الجمركية وزيادة الحامية العسكرية ، وبدلا من ان يدعموا قطر المعتدى عليها من أبو ظبي أخذوا دور الوساطة والضراعة ، بل انهم ، وقطر في صميم ازمتها مع ابو ظبي والقبائل الموالين لها راحوا ينشطون مرشحين لحكم قطر بدلا من الشيخ قاسم ، الامر الذي اضطر الشيخ للاعتزال في الظعاين تاركا للاتراك فرصة للتأكد من فشل التنظيمات الجديدة التي اقترحها عاكف باشا سنة ١٨٨٩ والتي عين بموجبها أول معاون تركي لقائمقام قطر سنة ١٨٩١ •

والواقع أن الاتراك كانوا يقطعون الغصن الذي يقفون عليه ، ويخربون مركزهم في قطر بأيديهم فلم يكن في وسع قطر بحال من الاحوال ان

تقدم الاموال لجهاز حكومي وعسكري من مواردها ، ولا كانت القبائل القطرية مستعدة بحال من الاحوال ان تحكم بالطريقة التي خيل للاتراك ان يطبقوها ، بل هم حاولوا بكل حماقة ان يطبقوها عام ١٨٩٣ حين وصل محمد حافظ باشا والي البصرة الممتليء بالدعايا المغرضة ضد الشيخ قاسم ، وفي اعقابه قوة من الكويتيين يسوقها الشيخ مبارك ـ ذلك الرجل المخطط الحذر ـ وتقدم الوالي التركي على رأس ٣٠٠ فارس ، ولكن خطته لاخذ القطريين بالمراغمة والقوة القاهرة فشلت فشلا ذريعا بالرغم من انه احتجز شقيق الشيخ قاسم واثني عشر رجلا من وجهاء القبائل القطرية وقد خسر في الوجبة مئة جندي على الاقل من رجاله ، ولم يتمكن من الاحتفاظ بعين الماء التي كان يستقي منها جنده خلال اقامتهم في قلعة العسكر وهكذا ، وبالرغم من وجود القطعة الحربية التركية الزحاف الراسية في ميناء الدوحة اضطر الوالي الاحمق لاطلاق سراح الرهائن وتقبل الهزيمة المريرة •

وعندما وصل الامر الى هذه الحالة المفجعة كان لابد ان يصل الى السلطان عبدالحميد الثاني الذي اوفد اثنين من كبار الضباط سرا[١] الى قطر ليعودا له بتقرير واقعي عن حقيقة ما جرى ويجرى في قطر ، وبدت الامور واضحة للسلطان الذي أمر بعزل والي البصرة ، وطلب الى وجهاء أسرة النقيب البصرية التدخل لوضع الامور في نصابها •

لقد كان الشرك الذي نصبه الانجليز بتأييد من انصارهم المستترين في المنطقة وعلى رأسهم الاداريون الفاسدو الذمم شركا متقنا ولكن الخطة لم تفشل لما تزعمه المصادر الانجليزية من ان الكولونيل تالبوت المقيم البريطاني في الخليج الذي توجه بسفينة حربية الى الدوحة كان زاهدا في في قبول طلب معاهدة حماية من قطر ، وانما هي فشلت لان قاسما كان

---

(٢) اوراق يلدز الوثيقة رقم ٢٥٠ •

على غير استعداد ، حياته كلها ، لعقد مثل تلك المعاهدة مع الانجليز أيا كانت العاقبة او النهاية • لقد تجرع رحمه الله مرارة المأساة التي نتجت عن حماقة أصدقائه مصرا على ان يعيدهم للصواب ورؤية وجه الحق في الامر كله وقد رأوها أخيرا ولكن بعد الخسائر الدامية •

لقد كان السبب الوحيد والاساسي في استمرار عذاب المعاناة مع الاتراك هو رفض قاسم عروض الانجليز بعقيدة المؤمن الموحد المتمسك بأوامر القرآن الكريم الصريحة القاطعة في هذا الامر ، الذي تكشف الان حقائقه ناصعة كالشمس وثائق الدولة العثمانية ، في الوقت الذي تتحدث فيه المصادر الانجليزية عن كلام شفوي يزعمونه بغير سند على الاطلاق •

والواقع ان الاتراك بعد انكشاف الحقيقة ادركوا خطأهم الفادح وأصروا على ان يحتفظ قاسم بلقب الشرف الذي منحوه له ، ولم يعودوا حتى وفاته عام ١٩١٣ يتحركون أية حركة تعاكس ارادته وتوجيهاته ، فيما كان الانجليز يحاولون جاهدين ان يبحثوا لهم عن متوسل يطلب معاهدة حماية منهم ، ويقوم بارادته وعلى مسئوليته بتصفية الحامية التركية في الدوحة ، ولكنهم اخفقوا اخفاقاً ذريعا في ذلك ، وقد عبر عن تلك الخيبة عام ١٩٠٥ الكابتن بريدو الوكيل البريطاني السياسي في البحرين الذي بعث الى حكومته بما يفيد بأن الشيخ قاسم ، رغم السنوات الخمس التي مرت عليه منذ عام ١٩٠٠ ، وهو مقيم في قرية الوسيل ، في حالة تقاعد الا أنه هو الحاكم الفعلي في قطر حيث لايتم شيء في تلك البلاد دون مشورته •

ويتحدث القطريون حتى اليوم عن الوجود التركي في قطر في هذه المرحلة الاخيرة التي ابتدأت منذ حوادث الوجبة المؤسفة ، فيقولون ان الاتراك كانوا أشبه بالضيوف الدائمين ليس لهم تدخل في شئون الناس ،

وان الامـــــر بينهم وبـــين الناس كان أمـــر صداقة وجيرة وضيافة الى ان دخلت تركيا الحرب الخاســـرة التـــي دخلتهـــا الى جانب المانيــــا القيصـــرية ، فلم يتردد الانجليز في التقدم بقوة بحرية معززة بسرايا من المشاة يريدون أسر الاتراك المقيمين بقلعة الدوحة ، ولكـــن القطريين بتوجيه من الشيخ عبدالله بن قاسم الذي جاء للحكم بعد وفاة والده عام ١٩١٣ سهلوا لأولئك الضيوف ليلة اقتراب الانجليز من الدوحة سبيل مغادرة القلعة من ناحية البر والنجاة بأنفسهم •



المراجـــع :

١ ـ مجموعة اوراق ملف قطر فى مديرية وثائق وزارة الخارجية التركية •

٢ ـ وثيقة اوراق يلدز رقم (٢٥٠) بوثائق رئاسة الوزارة التركية •

٣ ـ دليل الخليج الترجمة الحديثة ص١١٥٠ ـ ١٢٦٦ مجلد ٣ •

٤ ـ الشئون القطرية ١٧٨١ ـ ١٩٠٣ سالدهنا ـ ترجمة العناني •

١ ـ د • عبدالعزيز المنصور ـ نشأة الدولة القطرية •

٦ ـ بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٨٠ كيللي •

٧ ـ الهند ومنطقة الخليج ١٨٥٨ ـ ١٩٠٧ ارفندار كومار •

٨ ـ تاريخ قطر العام ـ محمود بهجت سنان طبعة بغـداد ١٩٦٦ الاستعمار في الخليج د • صلاح العقاد ـ مكتبة الانجلو •

هذه ترجمة اربع ورقات وضعنا على ظهرها ارقام ١ و٢ و٣ و٤ حسب سياق الكلام وفي فراغ الرأس للورقة (٣) جملة ترجمتها (مطابق للصورة المرسلة الى لندره) وفي ذيل الجملة توقيع اسماعيل ممدوح) • وقد توهم هذه الجملة ان الورقة (٣) اولى الورقات مع ان السياق يجعلها الثالثة • وفي رأس الورقة الاولى عنوان مطبوع (الباب العالي ـ نظارة الخارجية) مما يؤيد ذلك • ولكن ليس عليها اسم المرسلة اليه • وليس في آخر الورقة الرابعة تاريخ ولا توقيع • وبين الوثائق وثيقة تذكر انه ارسلت صورة من رسالتين مرسلتين من قيادة نجد • واحدى هاتين الرسالتين صورة رسالة من قائد الجناح الثالث عشر • وفي الوثيقة كلام طويل عن شيخ قطر واولاده واخلاقهم وما يتوقع من نزاعهم عطفا على رسالة اخرى • فيجوز ان تكون هذه الورقات الاربع هي الرسالة الثانية المذكورة في الوثيقة المذكورة •

الباب العالي
نظام الخارجيـــة
المديرية العامة للامور السياسية
قلم الدوائر والولايات

ان الانكليز استغلوا عدم وجود اى شيء لنا واركنو الى مالهم في خليج البصرة من بضع سفن واهية واخذوا يصعدون حركاتهم ويتجاهرون بحرية بما كانوا يقومون به سرا من دسائس • وقد جاء مأمورهم السياسي في البحرين في الخامس عشر من رمضان هذا العام الى شيخ قطر جاسم الثاني وابلغه رغبته في اسكان بعض اهـــالي البحرين في المكان الخـــرب المسمى «زباره» الواقع في الشمال الغربي من ساحل شبه جزيرة قطـــر الذي كان مركز ناحية بهذا الاسم ، والذى قصـــفه الانكليز في زمـــن المتصرف ابراهيم باشا بالمدافع وخربوه • ووعد جاسما بأن يعطيه مقـــابل

سكوته ورضائه عن ذلك سنويا عشر الاف ربية • وطلب منه عقد اتفاق غير ان شيخ جاسم استحضر امام عينه مابدا يظهر من آثار ماعلق تدريجيا في عنق شيخ البحرين عيسى بن علي من اطواق ، فلم يستحسن الميل الى الانكليز • كما ان غيرته الدينية جعلته لايهضم ذلك • فقال للمأمور ان قطر ليست ملكي وانما هي ملك الحكومة العثمانية • وانني فرع من هذه الحكومة • وليس لي اى حق في الكلام في شيء لا في صدد زباره ولا في صدد اي جهة اخرى واني سوف اسأل حكومتي • او فلتطلب حكومتكم الاذن منها بذلك • وحينئذ قال له المأمور انه لا ينبغي ان تسمع الحكومة العثمانية بما تكلمنا به وانني انما راجعتكم في الامر بصفة خصوصية • ثم عاد محتدا الى سفينته التي كانت تنتظره في الساحل • وارسل اليه الشيخ جاسم بضعة رؤوس غنم بعد مغادرته لمنزله حسب عادة العرب فردها • ثم اقلع بسفينته وانصرف •

ان قطر التى مع كونها مهمة جدا والتي لم نبد أهتماما لنكون اصحابها وتركناها على حالها مع قليل جدا من العسكر ، قد غدت مجالا ومطمعا للسياسة الانكليزية بل وللسياسة الافرنسية ايضا •

ونرى اليوم تجارة السلاح الافرنسية فيها تجرى بخطوات جديدة وان كانت ثقيلة (بطيئة) وهذه الامور تجرى بقوة المال • وتحت حماية الشيخ عبدالله بن الشيخ جاسم • واهالي قطر الاخرون الذين يرون تجارة السلاح في بلدهم ويرون وكيل التجارة الافرنسية يندس بقوة تحت جناح عبدالله اخذوا يتململون من الحالة ويراجعون قائد المفرزة في قطر بصورة سرية جدا وينبهون الحكومة الى واجب الانتباه لهذا الامر •

تاريخ	متر	اسامى ٧٥٣٧		قضا	سنجاق	ولايت	
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible] افندى	نائب				١٢١
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible] افندى	نائب				١٢٢
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible]	[illegible]				
		[illegible] افندى	نائب				١٢٣
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible] افندى	نائب				١٢٤
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible] افندى	نائب				١٣١٩
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
		[illegible] افندى	نائب				١٣٢٠
١٩	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
			نائب				
		[illegible] افندى	قائممقام معاونى				١٣٢١
[illegible]	[illegible]	حاكم [illegible] افندى	قائممقام	قطيفه			
			نائب				
			قائممقام معاونى				١٣٢٢
	[illegible]	[illegible]	قائممقام				

[illegible]

قائمقام — حاكم الثاني افندي ديوجي باشي — ١٩

نائب — قطعه صنف ١

قائمقام [illegible] — ١٩

نائب — قطعه صنف ١

قائمقام [illegible] — ١٩

نائب — قطعه صنف ١

قائمقام — حاكم الثاني افندي ديوجي باشي

نائب — قطعه صنف ١

نائب — قطعه

قائمقام — حاكم الثاني افندي ديوجي باشي — ١٩

نائب — قطعه صنف ١

النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها اعتبارا من تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٩

(١) اقامة مهرجانات في جميع انحاء الوطن العربي للاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري لمدة اسبوع من ٢٧-١٢-١٤٠٠هـ ولغاية ٤-١-١٤٠١ هـ

(٢) نشر دراسات تاريخية في مواضيع مختلفة .

(٣) العمل على تنفيذ مشروع تبادل الاساتذة الزائرين بين جامعات الدول العربية .

(٤) اقامة مواسم ثقافية في الحواضر العربية للعمل على تطوير الدراسات التاريخية .

(٥) تطوير مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الامانة العامة للاتحاد وجعلها أكثر ملائمة مع تطوير الدراسات والمفاهيم العلمية .

(٦) اقامة ندوة عالمية في تونس لمناقشة موضوع البحث التاريخي وتحديد المنهجية التاريخية للباحث العربي .

(٧) العمل مستمر في الاعداد والتهيئة لمهرجان التراث العربي في الاندلس والذي سيقام في ٢١-٦-١٩٨١ .

(٨) تنفيذ مقررات مؤتمر تاريخ الامة الذي انعقد في بنغازي وبخاصة موضوع كتابة تاريخ الامة العربية .

(٩) السعي الى ايفاد بعض الاساتذة المتخصصين في الحضارة العربية والاسلامية لالقاء محاضرات في التراث العربي والاسلامي في الجامعات الاجنبية ، لابراز الجوانب المشرقة لتاريخنا الحضاري وتراثنا الخالد ،

(١٠) أقامة مهرجان للشهيد عمر المختار في مدينة بنغازي في ١٠-١١-١٩٧٩ بالتعاون مع جامعة قار يونس . (اقيم المهرجان في تاريخه المقرر).

(١١) دراسة امكانية توحيد مناهج تدريس التاريـخ في الجـامعات العـربية كافة •

(١٢) اقامة مؤتمر (التراث القومي) في دولة قطر وقد وافقت وزارة الاعلام في دولة قطر على عقد المؤتمر على نفقتها بالتعاون مع اتحاد المعرخين العرب •

(١٣) أقامة ندوة عالمية لاحياء مدينة القيروان التاريخية •

(١٤) اقامة مهرجان في التراث العربي في مدينة الحمامات بالجمهوريـة التونسـية •

(١٥) تنظيم مسابقة كبرى لكتابة أحسن ثلاثة بحوث في التراث العربي احياءاً للتراث وتشجيعا للاخوة المؤرخين والباحثين العرب •

(١٦) السعي الى تنظيم لقاء سنوي للمؤرخين العرب في احدى الحواضـر العربية هدفه لقاء الاخوة المؤرخين وتعاونهم والوقوف على احـدث البحوث والنشريات في حقل التاريخ والاستماع الى بعض المحاضرات العلمية بالاضافة الى البرامج الترفيهية وسيكون موعد هذا اللقاء في في الاسبوع الثاني من شهر تموز (يوليو) من كل عام •

(١٧) عقد مؤتمر تذكاري للرحالة العربي ابن بطوطة يقام في المغـرب بالتعاون مع الحكومة المغربية •

(١٨) اقامة ندوة تاريخية في مدينة الاسكندرية تخليدا للمؤرخ المصري الاستاذ عبدالحميد العبادي بالتعاون مع جامعة الاسكندرية •

(١٩) تنظيم مؤتمر يبحث في الحضارة العربية والاسلامية في سلطنة عمان بالتعاون مع وزارة التراث القومي هناك •

(٢٠) اقامـة مؤتمر في كنـدا (بجامعـة كالجري) يبحث في موضـوع العلاقات العربية الكندية والعمل على تطويرها •

(٢١) اقامة مؤتمر لبحث ومناقشة معاهدة كامب ديفيد وبيان مخاطرهـا على الامـة العربية •

سياسة الفاطميين في الخليج العربي مستمدة من السجلات المستنصرية ، وثائق فاطمية معاصرة

دكتور عبدالمنعم ماجد
أستاذ التاريخ الاسلامي
ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب
بجامعة عين شمس

لاشك أن مجموعة الوثائق الفاطمية ، المعروفة باسم « السجلات المستنصرية » [١] تعتبر أكبر مجموعة وثائقية عثر عليها ، تتناول علاقة الفاطميين بأنحاء الجزيرة العربية ، في صورها المتلونة ، اذ انها تشتمل على ست وستين وثيقة ، جميعها تتعلق بعصري الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وابنه المستعلى بالله .

ولعل أهم شيء قد أبرزته هذه الوثائق ، هو ان نجاح سياسة الفاطميين في أقاليم الجزيرة العربية ، يتميز بظهور شخصيات قوية من الدعاة الفاطميين ، أكثر من المجهود الحربي للخلافة الفاطمية ذاتها ، وذلك على عكس ما كان يوجد في نواح أخرى كالشام مثلا ، فهؤلاء الدعاة المخلصون للفاطميين ، في أنحاء الجزيرة العربية ، كانوا هم السبب الاول والأخير في اعلاء شأن الدعوة الفاطمية ، حيث أظهرهم

---

(١) عنوانها بالكامل : سجلات وتوقيعات وكتب ، لمولانا الامام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه الى دعاة اليمن وغيرهم ، قدس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق عبدالمنعم ماجد ، القاهرة سنة ١٩٥٤ .

- على الاطلاق - على بن محمد الصليحي في اليمن ، فجميع هذه السجلات موجهة اليه ، والى أفراد أسرته .

فكان ذلك ينطبق أيضا على بلاد الخليج العربي ، ونقصد بها البلاد الساحلية والداخلية الواقعة على بر العرب [٢] ، الخليج العربي الذي هو جزء من البحر العربي ، شعبة من بحر الهند العظيم ، شاملة البحرين وعمان على الخصوص . وان كان كلاهما قد تغيرت حدوده عبر التاريخ . فالبحرين أصبحت اسما جامعا للبلاد التي تقع من البصرة في الشمال الى عمان في الجنوب ، شاملة مدنا وقرى كثيرة ، أشهرها في زمن المستنصر هجر والاحساء أو لحسا [٣] ، وهذه الاخيرة كان القرامطة في أيام أبي طاهر ، قد جعلوها قصبة لهم أما مدينة البحرين ذاتها ، فكانت وقتذاك جزيرة [٤] . كذلك عمان ، فقد امتدت الى مهرة - على ساحل بحر الهند - وحتى الى قطر [٥] ، شاملة البلاد الساحلية والداخلية أيضا .

فتوجد في مجموعة الوثائق خمس سجلات [٦] ، تختص بعلاقة الفاطميين ، في عهد الخليفة المستنصر بالله ، بهذه النواحي من بلاد الخليج العربي ، بحيث تستطيع أن تقول ان ما تذكره عنها ، لا يوجد في مصدر تاريخي آخر ، مما يبين أهميتها .

● ● ●

ففي هذه السجلات ، يتبين أنه بالنسبة لنواحي البحرين ، فانه

---

(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ٦٩ س ١ .
(٣) معجم البلدان ، ١ ص ١٣٧ .
(٤) سفرنامة ، ص ٩٤ .
(٥) معجم البلدان ، ٢ ص ٦٩ س ١ .
(٦) سجلات : ٤، ٥٠، ٥٤، ٥٨، ٦٣ .

عادت اليها الدعوة الفاطمية في زمن المستنصر بالله بالذات ، بعد أن كانت قد انقطعت عنها ، منذ أن قلب القرامطة ظهر المجن للفاطميين ، مع أن الدعوة الفاطمية والقرمطية كانت واحدة ، وان بقيت بعض الوشائج ، منذ أن عاد اليها حكم السادة أو السادات ، المسمون بالسلاطين ، وهم زعماء القبائل ، ومع ذلك فأن حكمهم قد تعرض لكثير من التذبذب العقائدي . أما بلاد عمان ، فأنها هي الاخرى قد أصبحت مجالا للدعوة الفاطمية ، على الرغم من أنها كانت منذ أيام الامويين خوارج أباضية .

فيوجد في سجل ٤ ذكر لخطاب ورد للمستنصر بالله من على بن محمد الصليحي ، عامله وداعيته الكبير في اليمن من هجر مدينة بالبحرين بتاريخ شوال ٤٥٥ / أكتوبر ١٠٦٣ ، يعلن فيه على الصليحي محاربته لرجل اسمه ابن عراف ، وان المستنصر بالله يشكره على اهتمامه بنشر النفوذ الفاطمي في هذه الانحاء ، ويؤيده في تصرفاته . ويبدو ان ولد أبن عراف قد لجأ الى شريف مكة ، الذي لقبه : الأمير فخر المعالي ذي المجدين ، الا ان هذا الشريف قد أعرض عنه ، وأمره المستنصر بالله بأن يرسل ابن عراف اليه أو الى اليمن ، كما أن المستنصر بالله قد عين في هذه النواحي داعية اسمه عبدالله بن ابراهيم ، بدلا من الذي توفي وهو أسعد ابن عبدالله .

ويبين سجل ٤ أيضا ، أنه بعد موت علي الصليحي ، فأن المستنصر بالله قد جعل حكم هذه الانحاء جميعها لابنه أحمد المكرم ، وذلك بالاشراف على أعمالها : دانيها وقاصيها ، مطيعها وعاصيها ، على أن يكون دعاتها نوابا له فيها . فهو يخبره بأن الأحساء بفضل داعيها ، قد أصبحت موكولة الى نظره ، ويعتبر داعيها نائبا له فيها ، كما يضيف لعمله مدينة عمان ، التي ليست بعيدة عن أعماله اليمنية والحجازية ، ويطلب منه ارسال الرجال بوظائف الخدمة لها . ويبدو أن انشغال أحمد المكرم

بظروف دولته ، قد منعته من الاهتمام بأحوال هذه النواحي ، فما كان من المستنصر بالله الا ان استحثه على الاهتمام بها ، وأرجاعها الى حوزة الخلافة الفاطمية ودعوتها الهادية

ولاشك ، أن اصرار المستنصر بالله على اختيار صليحيي اليمن بالذات ، للاشراف على نفوذ الفاطميين في بلاد الخليج ، راجع بالاولى الى سياسة عامة من قبل الخلافة الفاطمية لاطلاق يد الصليحيين في نشر النفوذ الفاطمي في أنحاء الجزيرة العربية المختلفة ، على أساس أن الصليحيين قد أصبحوا الدعاة المخلصين للفاطميين قلبا وقالبا ، حتى أن المستنصر بالله قد لقب على بن محمد الصليحي بعمدة الخلافة (سجل ٤)، وهو الذي راح ضحية نشر النفوذ الفاطمي في الحجاز ، سيما وان اليمن كانت منذ وقت مبكر ، المركز الرئيس لخروج دعاة الفاطميين الاوائل ، وان الأمامة الفاطمية ، قد فكرت من قبل في أن تتخذها مقرا لخلافتها ، قبل قيامها في المغرب ومصر •

ومع ذلك ، فان المستنصر بالله كان يبذل من ناحيته جهدا خاصا نحو بلاد الخليج العربي • فقد اغدق الألقاب على الدعاة فيها ، واعتبرهم في نفس الوقت ولاتها نوابا عن الصليحيين كما كان يطالب دائما الصليحيين بمطالعته أولا بأول بأخبارها ، وبما يجب أن يصدر من عاصمة الخلافة في القاهرة من مراسيم ولايتهم ، وكل ذلك بقصد الحرص على بقائها ضمن دائرة النفوذ الفاطمي • فنعرف من شخصيات الدعوة في الاحساء ، غير الداعي السابق الذكر ، عبدالله ابن علي العلوي ، الذي كان لقبه : الامير مستخلص الدولة العلوية وعدتها(سجل ٥٤) ، ومن الدعاة في عمان على التوالي : يوسف بن حسين الصدابواري وابنه ، اللذين لقبهما : غرس الدين (سجل ٥٨) •

وقد تكون نواحي البحرين قد سقطت في أيدي السلاجقة ، اذ لم

نعد نسمع عنها بعد ذلك في السجلات المستنصرية ، بينما نسمع أن عمان مازالت تحت اشراف أحمد المكرم ، الذي عين لها داعية جديدا اسمه : أسماعيل بن ابراهيم بن جابر في ٤٧٦/١٠٨٣ (سجل ٦٣) ، ولما انصرف هذا الداعي الى التجارة ، فان الملكة السيدة الحرة ، التي تولت الحكم في اليمن بعد أحمد المكرم ، قد اقترحت تعيين حمزة بن سبط حميد الدين ، فأوعز المستنصر بالله الى وزيره أمير الجيوش بدر الجمالي ، باصدار التقليد في ٤٨١/١٠٨٨ ، كما شكرها على تبنيها لمصالح الدعوة والدعاة في هذه النواحي ، وأكد لها ـ مثلما أكد لاحمد المكرم من قبل ـ النظر في تلك البلاد والاعمال (سجل ٥٠) •

● ● ●

ولاشك ، أن اهتمام الخليفة المستنصر بالله ببلاد الخليج العربي ، ليس فقط على أساس الرغبة في احتوائها ضمن أملاكه ، كبقية أقاليم الجزيرة العربية ، وجعلها منسوبة له مذهبيا ، وانما أيضا لان هذه النواحي كانت في طريق الدعوة الهادية في قارة الهند الكبيرة بأقاليمها وجزائرها ، ونقصد بها السند او المنطقة الغربية من الهند التي يجري فيها نهر السند ، بحيث كان للفاطميين دعاة فيها منذ أيام الدعوة الاولى ، وكون لهم أتباعهم فيها دويلات أشهرها الملتان[7] ، وأن هذه الدعوة قد قويت في أيام المستنصر بالله ، بحيث ان السجلات المستنصرية ، تبين أهمية الخليج العربي ، بالنسبة لشئون الدعوة في الهند ، وان جعل الاشراف على دعاتها فيها للصليحيين أيضا • فيبين السجل (٥٠) وفاة داعية الفاطميين في الهند المسمى مرزبان [8] ، الملقب بغرس الدين ولى

---

(٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، طبع ، ص ٤٨١ ، أنظر •

(٨) تسميته بالكامل : مرزبان بدر أسحق بن مرزبان •

أمير المؤمنين ، الذي خلف ولدين ذوي دين وتقيه ، فان المستنصر قد اختار ابنه الاكبر أحمد ، وان تقليده قد أرسل من قبل وزيره أمير الجيوش بدر الدين الجمالي (سجل ٦٣)

يضاف الى ذلك ، أن المستنصر بالله بحكم مسئوليته كخليفة مسلم عليه أن يرعى احوال الاسلام في ربوع هذه النواحي من الخليج العربي مثلما يرعاها في نواح أخرى ، فيذكر سجل (٤) أن المستنصر بالله قد طلب من أحمد المكرم أن يبذل الجهد للقضاء على الفساد الديني ، ونشر الدعوة الصحيحة ، وذلك نتيجة لانقطاع الدعوة الفاطمية السابقة ، بحيث اختلطت بعقائد باطلة . ويؤيد ذلك ما ورد في قول الرحالة ناصر خسرو ، الذي زار الاحساء في زمن المستنصر في ١٠٥١/٤٤٣[٩] ، من انه قد لوحظ خروج الناس فيها على الشريعة الحنفية ، حتى أنهم كانوا لا يصلون ، ولا يصومون ، ولا يوجد في المدينة مسجد جمعة ، وأن أتباع المذهب كانوا يعتقدون برجعة أبي سعيد الجنابي ـ مؤسس دولة القرامطة وسموا انفسهم بأبا سعيديين .

كذلك اهتم الفاطميون بهذه النواحي اقتصاديا ، بسبب موقعها الجغرافي في طريق التجارة مع الشرق الاقصى ، سيما تجارة التوابل ، حيث تتبين أهمية ذلك من أنه قد أصبح يطلق على دعاة الفاطميين في الهند اسم البهرة لتعني تجارة البهار ، فقد كان الفاطميون يقومون بدور الوسيط في تجارة البهار وغيرها ، بين الشرق والغرب ، واشتهرت في مصر ذاتها وفي اليمن كذلك طبقة متخصصة لها ، عرفت باسم الكارمية أو الكارم ومن المؤكد أن معظم دعاة الفاطميين في هذه النواحي ؛ كانوا ممن احترفوا هذه التجارة اذ ان التجار في ذلك الوقت كانوا أقرب

(٩) سفرنامة ، ص ٩٩ .

الفئات الى قلوب الناس ، لذلك كانوا يجمعون بين السياسة والدين والتجارة ؛ فكانت مدينة عمان على الخصوص الواقعة على الخليج او بحر البنات كما كان يسمى ، مرسى كبير لسفن السند والهند والصين والفرنج [١٠] •

واخيرا فان الاهتمام الفاطمي بهذه النواحي ، راجع الى أن مصر أصبحت وطنا ثانيا لقبائل بحرانية وعمانية كثيرة ، كانت قد خرجت مع القرامطة في مغامرة ، حينما حدث الفتح الفاطمي لمصر والشام ، وبعد عودة العلاقات بين الفاطميين والقرامطة ، فان هذه القبائل انتقلت من الشام الى مصر ، وتكاثرت فيها ، اظهرها قبائل بني هلال وبني سليم ؛ حيث تذكر السجلات المستنصرية ــ مثل سجل (٥) ، كيف أن قبائل بني هلال وسليم قد ارسلت الى المغرب ، لاعادتها الى الطاعة ، كما ان بعض هذه القبائل التي بقيت في مصر ، قد غزت في زمن المماليك أفريقيا الوسطى ، مما كان سببا في نشر الاسلام فيها •

● ● ●

والخلاصة ، أن السجلات المستنصرية تبين ــ لاول مرة ــ النشاط الدبلوماسي الفاطمي في منطقة الخليج العربي ، بمثل هذه التفاصيل والجزئيات •

---

(١٠) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، طبع الخانجي ١٨٤٠ ، ص ٩٩ •

القوى الاستعمارية والخليج العربي

١٦٠٠ ــ ١٩١٤

بقلم
الدكتور عباس ياسر الزيدي
كلية الآداب ــ قسم الاعلام
جامعة بغـــداد

كان نشوء الصلات بين بريطانيا والعراق تلك الصـــلات التي أدت اخيرا الى الاحتلال البريطاني في غضون الحرب ــ ليس الا نتيجـة لنشوء الامبراطورية البريطانية في الهند ، ومع انه كان بعض البريطانيـــين المخاطرين باسفارهم البحرية يعرجون على الخليج العربي قبل سنة ١٦٠٠ ويزورون من حين لاخر سواحـــل العراق وايران ، الا ان الصـــلات الحقيقية التي تألفت بين بريطانيا وسواحل الخليج العربي لـــم تبتدىء الا بعد ان تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ ب م [١] .

وكان الدافع الى تأسيس هذه الصلات انه كانت تزود شركات الهند الشرقية ببضائع كثيرة من التي تجلبها من انكلترا او تضعها في معملها في سورات من اعمال الهنـد ولذلك عزمت على تصريفهـا في الخليج العربي وايران وذلك في سنة ١٦١٦ [٢] . ولقد كانت بريطانيا أقل اقتدارا على از تتبع في وادي دجلة والفرات ، وهما من ممتلكات الامبراطوريـــة العثمانية ، السياسة الشديدة نفسها التي كانت تنتهجها في الخليج العربـي غير انها واصلت المحافظة على مصالحها باعتمادهـــا ، في الغالـب [٣] على نفوذها التقليدي في « الباب العالي » وعلى تعزيز مركزها الممتاز في بـــلاد العرب التركية وهو المركز الذي يرجع تاريخه الى تأسيس أول معمـــل

(١) متي عقراوي ، العراق الحديث ، ص ٢٢ .

(٢) Wilson, The Persian Gulf, pp. 136 -- 139.

(٣) راجع التاريخ الرسمي للحملة البريطانية على العراق ، ص ٧٣ .

في البصرة سنة ١٦٤٣ على اثر اول مغامرة قامت بها شركة الهند الشرقية هناك في ١٦٣٥ [٤] .

على ان كثيرا من النفوذ البريطاني فيما بين النهرين كان نتيجة ما قامت به المؤسسات السياسية التي أسست بمقتضى الاهمية السوقية لكل منها . فقد اكتسبت « مقيمية » بغداد التي حلت محل مقيمية البصرة في ١٨١٠ نفوذا سياسيا لا يستهان به عند السلطات التركية المحلية التي كانت مكرهة على الاستفادة من المساعدة البريطانية ضد معكري صفو الامن من العرب والايرانيين [٥] . ويمكن القول بأن البوادر الاولى لتنفيذ هذه الفكرة في العصور الحديثة جاءت عام ١٦٠٠ عن طريق انشاء شركة الهند الشرقية التي اتخذت لها شريكا في شخص شركة الليفانت البريطانية ـ التركية للتجارة والمؤسسة بدورها سنة ١٥٨١ . وقد فاتحت شركة الهند الشرقية الشركة الاخيرة منذ السنوات الاولى لتكوينها في موضوع انشاء الطريق البري من اوربا نحو الهند غير ان هذه البادرة البسيطة لم نعط اي نتائج ايجابية ولم تثر الفكرة من جديد الا في عام ١٧٨٢ عندما عاد جون سليفان من رحلته الى الهند عبر آسيا الصغرى ووادي الرافدين واقترح على الحكومة البريطانية فكرة انشاء طريق بري نحو الهند [٦] . وكانت تجارة (الهند) وسواحل (الخليج) كذا تجارة (ايران) و (العراق) قبل هذه الفترة وقفا على الملاحين العرب من (عمان) و (اليمن) والسواحل وينتقلون بها بين المحيط الهندي وبين البحر الاحمر وافريقية . فلما ايقنت انكلترا بعظم اهمية هذا الطريق الفت في عام ١٦٠٠ (شركة

---

(٤) لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ٣٧ .
(٥) آيرلاند ، العراق دراسة في تطوره السياسي ، ص ٢٠ .
(٦) لؤي بحري ، سكة حديد بغداد ، ص ١ .

الهند الشرقية البريطانية) التي قامت على دعائمها دولة الانكليز في الهند ، ودفعتها الى منافسة البرتغاليين ومن جاء بعدهم من الهولنديين اصحاب (شركة الهند الشرقية ـ الهولندية) المؤسسة سنة ١٦٠٢ ومن الفرنسيين اصحاب (شركة الهند الشرقية ـ الفرنسية) المؤسسة عام ١٦٤٤ ومن غيرهم حتى مكنتها بعد خصام طويل ان تحل محلهم ، وكانت هذه الشركة قد دفعت لانشاء اول محطة لها في (سورات) في عام ١٦١٢ ولكن لم تكد تحل سنة ١٦١٦ حتى صارت لها اربع محطات كبرى في الهند وهي (اجمير) و (اغرا) و (برهابور) و (سورات) ثم اخذت تعمل بجد ونشاط التثبت قدمها في الهند وما جاورها فعقدت اتفاقا مع شاه ايران في سنة ١٦٢٢ عهد به اليها حماية التجارة في الخليج (٧) فبنت المعاقل والحصول على السواحل وجاءت ببارجتين لتعزيز نفوذها ،وقامت بمفاوضات سياسية طغت اخيرا على اعمالها الاقتصادية ، ولم يكد شارل الثاني يجلس على العرش البريطاني حتى جعل لـ (شركة الهند الشرقية ـ البريطانية) الحق في اعلان الحرب وشن الغارات على من يقف في طريق مصلحتها فكان ذلك فاتحة تقدم عظيم استمر من ١٦٢٢ م الى سنة ١٦٨٩ م وكانت هذه اولى المحاولات التي سعت بها انكلترا الى بسط سلطتها السياسية على الخليج العربي والسعي للاستيلاء على فارس ، وبلاد الرافدين وبانسلاخ هذا الجيل توسعت التجارة الانكليزية وتعدت من الخليج العربي الى البحر الاحمر (٨) .

وقد احرزت تجارة انكلترا مع الهند عبر وادي الرافدين نجاحا في اواخر القرن السادس عشر . غير ان ذلك النجاح كان محدودا اذا قيس بما كان ينتظر من استعمال الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء

---

(٧) عبدالفتاح ابراهيم ، على طريق الهند ، ص ٢٦ .
(٨) هنري فوستر ، تكوين العراق الحديث ، ص ٥٨ .

الصالح • وعلى هذا توجه الأنتباه الى هذا الطريق ، فكانت البداية المهمة على يد شركة الهند الشرقية التي تأسست عام ١٦٠٠ ، وارسلت في السنة التالية بعثتها التجارية الاولى التي كان من جملة بضائعها المستوردة (مازنته مليون باون من الفلفل) • وفي هذا الصدد يروي لنا بروس مؤرخ شركة الهند الشرقية ، ان الربح الصافي لتينك البعثتين بلغ ٩٥٪ فلا غرابة ان تكون تلك التجارة الرابحة قد دفعت بشركة الهند الشرقية الى الاستمرار في سبيلها على الرغم من شدة الاخطار الناجمة عن منافسة البرتغال في ذلك السبيل • وكانت (شركة الهند الشرقية - البريطانية) قد عقدت اتفاقا مع عباس شاه ايران في سنة ١٦٢٢ ، عهد به اليها حماية التجارة في الخليج العربي ، فأسست مركزا تجاريا لها في البصرة سنة ١٦٤٣م• علاوة على المراكز التي اقامتها على بعض سواحل الخليج ، وعين وكيل هذا المركز قنصلا لدولته البريطانية في عام ١٧٦٣ فأصبحت له صفة سياسية الى صفته التجارية واعتبرت (البصرة) مركزا لتوزيع البضائع الانكليزية في العراق وايران [٩] كما ان حكومته المذكورة ارسلت الى (بندر بوشهر) مندوبا دائما يقوم مقام الشركة فيها وتلا ذلك وكيل آخر بالدرجة نفسها وللمقصد نفسه في بغداد فولي هذا المنصب في سنة ١٧٥٥ م رجل أرمني استبدل بعد عشر سنوات بشخص بريطاني فاخذت علاقات القائمين بمركزي بغداد والبصرة مع الولايات تتحسن وتتقدم مع توالي الايام بما كانت تقدمه الشركة المذكورة لهم من السلاح والعتاد بغية حملهم على الاستقلال في البلاد لتثبت اقدامها فيها ، وتصريف تجارتها في نواحيها ، واستعمال انهارها للبواخر من غير ان تلقي اعتراضا من الترك ولكن سرعان ما انقلبت هذه المراكز التجارية الى دوائر سياسية بالتدريج حتى

---

(٩) لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ٢٠٠•

لقد أعطى المقيم البريطاني في بغداد « جميع السلطات القنصلية في عام ١٨٠٢ فاصبحت بغداد منذ ذلك الحين فصاعدا اهم مركز للنفوذ البريطاني حتى انه لما أعلنت الحرب بين انكلترا وتركيا من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨٠٩ بقي الممثلون البريطانيون في العراق مكرمين دون أن يمسوا بسوء ... واصبحت المقيمية البريطانية احسن مجلس اجتماعي محلي وملتقى اكبر الموظفين والاشراف وبيتا مفتوحا للضيوف ونايا للبحوث الاتية »[١٠] .

وهكذا اخذت قدم الانكليز ترسخ في العراق وسلطانهم يقوى ، ونفوذهم يتسع بحيث اصبح لهم حرس كبير من الهنود ومن اهل البلاد ، وصاروا يأتون بدارعة نهرية تقف امام دار القنصلية مما حمل رؤوس القبائل وطبقة الافندية على الاعتقاد بان مستقبل بريطانية في العراق سائر الى الاهمية وانها ستلعب دورا خطيرا تقضي الحكمة بمصافاتها وموالاتها ومنذ تلك الساعة ، فعقدت معاهدة ، ولقد حددت المعاهدة العثمانية ـ الانكليزية سنة ١٦٦٩ ، التي حددت رسوم الاستيراد والتصدير ب ٣٪ من قيمة السلع ، ويصبح اعتبار عقد هذه المعاهدة بداية عهد استمر حتى سنة ١٨٣٨ ، اذ عقدت على غرارها معاهدة (الامتياز الاكبر) بين الدولة وفرنسا سنة ١٧٤٠ ، التي اثبتت النسب المذكورة ونصت على استيفاء الرسم عينا في حالة الخلاف على تعيين القيمة ثم اقرت المعاهدة المعقودة في ١٨٠٢ مع كل من فرنسا وانكلترا الاحكام المتقدمة ، ونصت على امكان عقد معاهدات تجارية مستقلة عن معاهدة الامتياز ، على ان يستمر حكم المعاهدات القائمة بشأن ضرائب التجارة الخارجية الى ذلك الحين[١١] . وللخليج

---

(١٠) لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ٢٧٤.

(١١) مظفر حسين جميل ، سياسة العراق التجارية ، ص ١٢ .

الغربي أهمية بالغة بالنسبة لحكام العراق لا لأنه يشكل جبهة الدفاع الجنوبية فحسب وانما لان اهميته كبيرة من ناحية الملاحة والتجارة البحرية ايضا ذلك لان الخليج العربي هو الطريق الوحيد للتجارة بين الهند والبصرة ، هذه التجارة التي كانت توفر لباشوات بغداد جزءا غير يسير من مواردهم المالية ، والتي كانت تكون ركنا اساسيا من اركان اقتصاديات الولاية . فقد كانت البصرة في ذلك الوقت مركزا تجاريا مهما ، بل كانت من اهم مراكز التجارة في الشرق . فاليها كانت البضائع تأتي من الهند ، وتنقل منها الى ايران وسوريا وجزيرة العرب والاناضول[١٢] .

تغلب بريطانية على البرتغاليين

كان البرتغاليون في خلال القرن السادس عشر اسياد الموقف في الخليج العربي وكانوا مسيطرين على تجارة الحرير مع ايران رغم المحاولات غير الناجحة من الاتراك لعرقلة هذه التجارة . وقد اخذت أنظار الانكليز تتطلع الى امكانية المساهمة في التجارة الغنية بين الهند وايران وذلك في نهاية ذلك القرن[١٣] .

وفي سنة ١٥٨٣ كان المدعو رالف فيج (Ralph Fich) قد أرسل ثلاثة من المغامرين ومعهم رسائل موجهة من الملكة اليزابيث الى ملك كامبوديا وامبراطور الصين . وقد سافروا برا الى البصرة ثم ابحروا في الخليج العربي الى هرمز ومن هناك رجع فيج الى بلاده سنة ١٥٩١ ومعه تقارير مشجعة للغاية عن الامكانيات التجارية العظيمة ، في تلك المناطق والشرق الاقصى . وكانت هذه التقارير هي التي شجعت على قيام شركة

---

(١٢) عبد الأمير محمد امين ، القوى البحرية في الخليج العربي ، ص ٢ .
(١٣) محمود علي الداود ، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ، ص ٣٠ .

الهند الشرقية الانكليزية التي ارسلت اسطولا تجاريا الى الشرق بعد تأسيسها سنة ١٦٠٠ • ويظهر ان اول باخرة تجارية انكليزية ساهمت في تجارة الحرير في الخليج العربي كانت (جيمس) التي حملت كميات كبيرة من الحرير من سوارت الى جسك وقد فشلت محاولات البرتغاليين في ايقافها •

وفي سنة ١٦١٩ تأسست وكالة تجارية بريطانية في جسك واستمرت التجارة البرية الانكليزية مع طهران وفتحت بندر عباس لتلك التجارة في سنة ١٦٢٥ • وبعد ثلاث سنوات تحالف الاسطول الايراني مع الاسطول الانكليزي التابع لشركة الهند الشرقية ضد البرتغاليين وتقدموا نحو هرمز التي اعيدت بعد مدة قصيرة الى الشاه • ونتيجة لهذه المساعدة منح الشاه تسهيلات تجارية الى الانكليز اعطتهم حرية شراء الحرير من اي مركز في داخل البلاد الايرانية بدون ضريبة استيراد • ومنذ تلك الفترة اخذت القوة البرتغالية في الخليج تضعف تدريجيا وحلت محلها القوتين الانكليزية والهولندية • وقد بدأت المنافسة السياسية والتجارية والصناعية بين القادمين الجدد وذلك لرغبة كل منهم في الحصول على احتكار التجارة مع ايران • وبالرغم من ذلك فقد تحالف الانكليز والهولنديون وتوحدت اساطيلهما البحرية لقهر البرتغال • وقد شاهدت الفترة ١٦٤٠ - ١٦٤٩ كوارث خطيرة بالنسبة الى مراكز البرتغال في الخليج العربي • فقد استولى سلطان عمان على صحار (التي كانت في أيدي البرتغاليين منذ عشرين سنة) وفي خلال ١٦٤٨ - ١٦٤٩ حاصر العرب مسقط واستولوا عليها ولم تأت سنة ١٦٥٠ حتى كان البرتغاليون قد خسروا جميع مراكزهم في عمان • وبعد سنتين زال نفوذهم نهائيا من الخليج العربي [١٤] •

---

(١٤) محمود علي الداود ، الخليج العربي والعلاقات الدولية ، ص١٦-١٧ •

ولقد كان البرتغاليون فى اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر اسبق الممالك الاوربية للاهتمام فى ركوب البحار ، وصنع الاساطيل ، والتوسع التجاري والاستعماري في الشرق ، وكانوا بذلك المنافسين الاولين لبريطانية ، وكانت لهم مراكز مهمة فى سواحل عمان ومسقط وغيرها من الامارات والمشيخات ، وكان لهم مركز مهم في البصرة ذاتها • واذا ما اردنا ان نتحرى عن العوامل التي ساعدت بريطانية في التغلب على النفوذ البرتغالى أمكن اجمالها باربع أسباب : ـ

١ ـ ضم البرتغال الى اسبانيا ، وضعف المساعدات الحكومية الى الشركات والوحدات البحرية التي بقيت منفصلة عن المركز •

٢ ـ تردي سمعة البرتغاليين في موانيء البلاد التي حصلت على نفوذ فيها وأقامت بها مراكز تجارية •

٣ ـ مساعدة الايرانيين وخاصة الشاه عباس ، المجدية للانكليز وتعاونهم ضد البرتغاليين •

٤ ـ عداء أمام عمان للبرتغاليين ومحاربتهم اياهم[١٥] •

تغلب بريطانية على الهولنديين

لقد كان الصراع بين الانكليز والهولنديين مستمرا ، وفي سنة ١٦٤٠ ظهر بأن الهولنديين قد استطاعوا الحصول على الافضلية في منطقة الخليج العربي التي استمرت الى نهاية القرن السابع عشر عندما بدأ النفوذ الانكليزي ينمو على حساب الهولنديين وبالتحالف مع الشاه الذي كره اساليب الهولنديين الدبلوسية والعسكرية • ومن الجدير بالذكر بأن شركة فرنسية

(١٥) عبدالرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، ص ٤٥ •

ظهرت على المسرح سنة ١٦٦٤ ، كمنافس في التجارة ، وأسست مركزا لها في بندر عباس ولكنها لم تصادف نجاحا فعليا منذ البداية[١٦] .

وقد اظهر الشاه سنة ١٦٩٩ تحيزا عندما شرفهم بزيارة وكالتهم في أصفهان وقد قلل من الضرائب التي كان من المفروض على التجار الانكليز دفعها على استيراد الحرير . وتعتبر سنة ١٧٠٨ نقطة تحول مهمة بالنسبة للعلاقات الانكليزية مع الخليج العربي وذلك لان الحكومة الانكليزية اعترفت الان بالشركات المتاجرة مع الشرق . وقد صادفت التجارة الانكليزية الكثير من الصعوبات نتيجة لسوء الاحوال السياسية في ايران الامر الذي دفع شركة الهند الشرقية الانكليزية الى نقل مركزها من بندر عباس الى البصرة وقد تأخر هذا الانتقال نتيجة لنشوب حرب السبع سنوات بين بريطانيا وفرنسا عندما هاجمت سفن فرنسية تحت قيادة الاميرال (D. Esting) ميناء بندر عباس وضربوا الوكالة الانكليزية بالمدافع[١٧] .

ولكن سرعان ما اصبح لهولندا نفوذ يقض مضاجع الانكليز ، وخاصة بعد ان تأسست (شركة الهند الشرقية الهولندية) ، وازدادت سفنها ومعاملها ، في الهند وايران والخليج[١٨] . على ان التنافس الحقيقي لم يشتد الا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وقد أغرقت هولندة أسواق البصرة ببضائعها ، واضمحلت على اثر ذلك سمعة الانكليز وتجارتهم فيها .

---

(١٦) محمود علي الداود ، العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ، ص ١٧ .

(١٧) محمود علي الداود ، الخليج العربي والعلاقات الدولية ، ص ١٧ - ١٨ .

Letter from Agent at Basra to the Court :

July 31, 1945, Summary XXII 8 Letters from Surat Presidency to Court. April, 3, 1949, Summary XXII.

ولكن خطر الهولنديين لم يدم طويلا ، اذ انهكت حروب (الوراثة الاسبانية) قوى هولنده ، ثم توحدت انكلترا وهولنده تحت تاج (وليم اوزنج) او (وليم الثالث) فساعدت وحدة التاج على ازالة المنافسة بين الهولنديين والانكليز • ثم اعطت معاهدة (أترخت) البريطانية السيادة البحرية دون منازع ، وهكذا اخذ النفوذ الهولندي يزول امام ضغط بريطانية من جهة ، وهجمات العرب من جهة اخرى ، الى ان احتل العرب آخر حصن لهم في جزيرة (كيرك) سنة ١٧٦٦[١٩] •

ومن الجدير بالذكر ان نشير هنا بأن بريطانية بدأت منذ سنة ١٧٦٦ بالتدخل الفعلي في شؤون الخليج ، واخذت تقاوم (بني كعب) القبيلة العربية التي كانت تسكن جنوب العراق ، وجزءاً مما يعرف بـ (عربستان) من بلاد أيران • وقد تآزرت الحكومتان البريطانية والايرانية على القضاء على ما كان لتلك القبيلة من صولة • وكان شيخ بني كعب قد أستولى على ثلاث سفن بريطانيا بعد ان سرح ضباطها وقد اغاض هذا الامر (حكومة بومبي) فأرسلت اسطولا من ست سفن ، فأحرقت سفينتان بريطانيتان ومنيت الحملة بخسائر فادحة ، مما اضطرها على التراجع[٢٠] •

وعلى كل حال فقد تمكنت الشركة من الانتقال الى البصرة حيث بقيت هناك الى سنة ١٧٧٦ عندما احتل الايرانيون البصرة ، لاغراض سياسية ولكنهم لم يتعرضوا الى التجارة ومع هذا فقد نشط الانكليز في استخدام ميناء بوشهر • ولكن الفرصة اخذت بالتزايد (بعد افول نجم البرتغاليين) حتى غدت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اسلوب

---

(١٩) انظر زكي صالح ، منشأ النفوذ البريطاني بين النهرين ، ص ٣٢ •

(٢٠) انظر كتاب اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ١٦٣ •

المعيشة الوحيد بالنسبة للعرب القاطنين على ساحل عدن • ولم تكن القرصنة مقصورة على العرب بل كان القراصنة الانكليز يجوبون الخليج العربي والبحار الجنوبية رافعين العلم الانكليزي • وكانت السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الانكليزية عرضة لهجمات عرب ساحل عمان الذين كانوا قد اتخذوا قاعدتهم في مسقط وكان المسؤولون الانكليز يخشون سيطرتهم التامة على الخليج العربي برمته •

التنافس البريطاني ـ الفرنسي في الشرق الاوسط

وجدت فرنسا في الدولة العثمانية حليفا قويا لها ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة • وأنشأت فرنسا في الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية عام ١٥٣٥ واخذت المصالح الاوربية تنمو في ولاياتها • ومنحت الدول الاوربية الاخرى امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية • ولم تصبح هذه الامتيازات خطرا على كيان الدولة العثمانية الا بعد ان وضح ضعفها امام الدول الاوربية • واخذت هذه الدول من جانبها تستغل هذه الامتيازات الى أبعد الحدود وتتنافس في الحصول على المركز الممتاز في الدولة العثمانية[٢١] على ان فرنسا بقيت فترة غير قصيرة تتمتع هي الاخرى ، بمركز مهم في العراق بسبب البعثات التبشيرية ، والمؤسسات الدينية التي انشأتها في البصرة وبغداد • وقد كان أسقف بابل يشغل كرسيه الاسقفي ، مع منصب القنصل الفرنسي ، في الوقت ذاته • وكان الموظفون الفرنسيون القنصليون في بغداد والبصرة نشطين ، ولهم بعض البروز المحلي • وعلى هذا اصبح مسموحا للتاجر الفرنسي ان يقوم بالمتاجرة في طول البلاد العثمانية وعرضها ، بينما لم يكن مسموحا بذلك لغيره من تجار الممالك الاخرى الا

(٢١) عبدالعزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ، ص ٢٨٣ •

في ظل (الحماية) الفرنسية • ثم في العقد التاسع من ذلك القرن حدث ان حصلت انكلترا على أقدم امتيازاتها في الدولة العثمانية ، وكان ذلك بواسطة وليم هاربورن ، على الرغم من دسائس المسيو دي جرميني ، السفير الفرنسي في القسطنطينية وعند ذلك حل الانكليز محل الفرنسيين في الحضوة لدى الباب العالي طيلة العقدين الاخيرين من القرن السادس عشر •

على ان الفرنسيين تمكنوا في نهاية القرن من استرجاع ارجحيتهم المفقودة ، وحصلوا سنة ١٦٠٤ على تأييد امتيازاتهم الاولى[٢٢] ، فتأكدت بذلك ضرورة (الحماية) الفرنسية لتجارة الممالك الاخرى ، باستثناء تجار البندقية وانكلترا • وفي هذا الدور الذي أوشكت الامبراطورية العثمانية ان تصبح فيه ميدانا للتنافس الانكليزي ـ الفرنسي حدث ذلك التبدل الخطير الذي ادى الى المتاجرة بين الغرب والشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من طريق الدولة العثمانية • وعلى هذا انتقلت المنافسة الانكليزية ـ الفرنسية في الشرق الى الميدان البحري الجديد •

وفي سنة ١٦٧٩ تعين رئيس الكرملية في البصرة (وهو رجل ايطالي)، قنصلا فرنسيا في هذه المدينة • غير ان ممثلي فرنسا وممثلي انكلترا ايضا لم يكونوا حينذاك يقومون بوجائب مهمة ، وكانوا الى ١٧٤١ تحت رحمة الحاكم هناك على حد سواء[٢٣] • وفي سنة ١٧٥٥ أصبحت (دار الاقامة) الفرنسية في البصرة مؤسسة دائمية ، وعين لها قنصل فرنسي بعد ذلك بعشرين عاما • اما منطقة الصراع بين بريطانيا وفرنسا في سبيل التجارة والمستعمرات فانها كانت في المحيط الهندي وحواشيه ، وكان ذلك ابان

---

(٢٢) زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى سنة ١٩١٤ ، ص ٥٨ـ٥٩ •

(٢٣) Longrigg Faur Centuries of Modern Iraq, p. 157.

حروب أوربية شهيرة ، ، هي حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨)، وحرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، وحرب الاستقلال الامريكي (١٧٧٥ - ١٧٨٣) ، وما اظهرته من تفوق بريطانيا البحري أثر بليغ في توجيه افكار الفرنسيين الى ايجاد طرق برية ملائمة تصل ما بين سواحل البحر المتوسط الشرقية والهند ، حتى انه على أثر ذلك بدأوا البحث في امكان انشاء قناة السويس غير ان الامل في نجاح الفرنسيين عاجلا ظهر عند اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، في محاولتهم السيطرة على مصر وساحل البلاد العربية والتحالف مع المملكة الفارسية • وعلى هذا أشتدت الحركات الفرنسية خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر ، لا في منطقة عمان فحسب بل في مناطق الشرق الاوسط كافة ، وحتى بعض جهات الشرق الادنى ، هذا بينما كان النفوذ البريطاني يتضاءل باطراد تجاه ذلك • وما ان نشبت الحرب بين بريطانيا وفرنسا الثائرة سنة ١٧٩٣ ، حتى أخذت هجمات الفرنسيين تزداد شدة على السفن البريطانية في أرجاء المحيط الهندي • وكان من تعاظم غنائمهم انها غمرت اسواق عمان، وظهر البعض منها للبيع ثانية في كلكته ، محل تصديرها الاول[٢٤] •

غير ان الشيء الجديد الذى ظهر في السنين العشر الاخيرة من القرن الثامن عشر لم يكن يتمثل في تلك الغارات البحرية المتعارفة على الرغم من شدتها ، وانما كان يتمثل فيما يدعي بـ (البعثات) الفرنسية ، التي أخذت تتوافد على بعض الجهات غربي آسيا لاغراض علمية وسياسية ، في سبيل اعلاء شأن الامة الفرنسية بوجه من الوجوه • ولقد كان من نتائج تلك البعثات اقلاق بال الانكليز ، غير ان نتائجها في الحقل الاقتصادي والسياسي

(٢٤) انظر كوتلوف ، الثورة التحررية الوطنية العراقية سنة ١٩٢٠ ، ص ١٤ •

لم يكن شيئا مذكورا • وكان ابرز تلك البعثات التي تعهدتها الحكومة الفرنسية ، قام بها عالمان من علماء الطبيعة ، هما بروغير واوليفير خلال المدة ١٧٩٣ – ١٧٩٨ • ولكم تخوف من هذه البعثة المقيمان البريطانيان المعاصران لها في بوشهر وفي البصرة ، ظناً منهما ان العالمين الفرنسيين كانا يرومان « التغلغل عن طريق بغداد فبلاد فارس فالهند »[٢٥] • غير ان المغامرين الفرنسيين لم يقوما الا بزيارة تركيا ومصر ، وكانت طهران اقصى ما وصلاه شرقا ، وكان وصولهما اليها سنة ١٧٩٦ ، عن طريق حلب فبغداد • وفي الاشارة الى هذه البعثة ذكر اوليفير نفسه انها كانت « ذات اهمية قصوى »[٢٦] ولكن البعثة هذه ، على الرغم من تعهد الحكومة الفرنسية لها ، وتأكيد اوليفير لاهميتها ، وتخوف الانكليز من خطرها ، لم تكن لها خارج الحقل العلمي اهمية تذكر • فبالدرجة الاولى ، وهو ما قد يصدق على غيرها من البعثات ، لم تكن اعمالها تستند الى أساس وخطة مرسومة ، حتى ان زيارتها لفارس ذاتها حدثت نتيجة لفكرة متأخرة • وكانت خلاصة زيارتها للبلاد العثمانية تحبيذها للحكومة الفرنسية للقيام باحتلال مصر ، وهذا ما كان نابليون على وشك القيام به فعلا اما في البلاد الفارسية فلقد فشلت في محاولاتها استعادة معامل مهجورة ، واقامة اخرى جديدة ، وفي سعيها للحصول على شيء من الامتيازات • ولم تكن بأقل من ذلك اخفاقا في محاولتها اغراء الحكومة الفارسية بالتكاتف مع تركية في وجه الدولة الروسية • ولكن العاصفة كانت على وشك ان تعصف ، فبينما كانت (البعثات) تعكر صفو الانكليز ، وتلك الغارات البحرية تشدد في ازعاجهم ، قام نابليون بونابرت بحملته الشهيرة على مصر ، فبلغت اعمال فرنسا خلال

---

(٢٥) Wilson, op. cit. p. 190.

(٢٦) نعيم ابراهيم زبيدة ، ثورة العراق ، ص ١٠٧ •

العقد الاخير من القرن الثامن عشر ذروتها ، ودخلت المنافسة البريطانية ـ الفرنسية فى أعنف ادوارها[٢٧] • وما كان اهم عصر نابليون في تاريخ الشرق ، لا لما حفل به من حوادث فحسب ، بل لما كان لتلك الحوادث من نتائج بعيدة الغور أيضا •

ولقد كان لموقف بريطانيا في وجه تلك الصدمة النابوليونية الاولى من النجاح الباهر ما يدعو الى الاعتقاد بان ارجحية النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط كافة أنما تأصلت منذ نهاية القرن الثامن عشر • ولكن الحقيقة ان تلك الارجحية البريطانية لم تتأصل الا بعد ذلك بعشر سنين مترعة بالحوادث الجسام •

ووجد القنصل الفرنسي في العراق في توتر العلاقات بين نجيب الوالي العثماني في بغداد وورولنسون قنصل بريطانيا في العراق فرصة لكسب ثقة نجيب والتعاون معه في توهين النشاط البريطاني فظهرت المقالات العديدة باللغة الفرنسية في صحيفتهم Journal de Constantinople ـ التى تصدر فى الاستانة ـ تمدح موقف نجيب من الانكليز • على ان الموقف السياسي الدولى كان يتحكم في معظم الاحيان في العلاقات الخارجية لوالي بغداد • فقد كانت حكومة الاستانة واقعة تحت ضغط بريطاني شديد متواصل كان يمنعها فى كثير من الاحيان من أن توقف نمو المصالح البريطانية في ولايتها ، رغم المجهودات التي كانت تبذل فى سبيل الوصول الى هذا الهدف • وكانت الدولة العثمانية غالبا ما تتراجع امام المطالب البريطانية ولذلك لم يستطع نجيب ان يمنع رولنسون من التدخل في أمور الولاية • ومن حسن حظ الانكليز في العراق

---

(٢٧) Admiralty, war staff : 9 Handbook of Arabia, 2 vol., London, 1916 — 1917.

ان الحكومة الفرنسية - بعد ثورة ١٨٤٨ - لم تعن بأمر العراق الا قليلا • ولم تلبث هذه الحكومة ان اصدرت قرارا في ١٨٤٨ بالغاء القنصلية الفرنسية في الموصل وتحولت القنصلية الى مجرد مقيمية • وتولى مصالح الفرنسيين في العراق وكيل سياسي بيد انه كان من اهل البلاد • وما كان لامثاله ان ينجحوا في مراقبة النشاط البريطاني ومقاومته بالدقة نفسها التي كان يقوم بها الممثلون الدبلوماسيون الفرنسيو الاصل ، ولكن صادف ان احتدم النزاع بين المنقبين الفرنسيين والانجليز الذين وفدوا الى العراق بحثا عن الآثار •

وادت هذه المنافسات الى ان تعيد الحكومة الفرنسة النظر في قرارها الخاص بالغاء القنصلية الفرنسية في الموصل وعادت الى افتتاحها وعين بها قنصل فرنسي في ١٨٥١ وهو أحد علماء الآثار الفرنسيين • مما يؤكد لنا ان النشاط السياسي الفرنسي في العراق كان في مرتبة اقل لدى الفرنسيين من التنقيب عن الآثار مما اضطر فرنسا الى تقوية تمثيلها الدبلوماسي في العراق بعد ذلك[٢٨] •

غلبة النفوذ البريطاني واتساعه

ولكن من الملاحظ ان النفوذ البريطاني كان اعمق اثرا واكثر توغلا من النفوذ الفرنسي في هذه الفترة وكان للشركات البريطانية شأن عظيم في مؤازرة (سلمان باشا) في التغلب على خصومه سنة ١٧٨٠ م وحصلت نتيجة ذلك على منافع أقتصادية واضحة ، وبقي هذا الوالي يذكر الجميل للانكليز ، وصار للمقيم البريطاني في بغداد شأن في توجيه سياسته الداخلية عن طريق التوجيه والنصح للوالي ، والتوغل الشعبي بين العشائر وفي المدن

---

(٢٨) عبدالعزيز نوار ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ •

على حدسواء • وبهذا النفوذ العظيم استطاعت بريطانية ان تقضي على النفوذ الفرنسي والمؤامرات النابليونية ، حتى اصبحت بغداد سنة ١٨٠٢ م من اهم المراكز للنفوذ البريطاني ، وازدادت صلة العراق بالهند • وقد اصبح ممثلو بريطانية في العراق وكأنهم ممثلون سياسيون لدى دولة مستقلة لا مقيمون أجانب في جزء من الدولة العثمانية، حتى ان نشوب الحرب بين تركية وانكلترة في اوربا سنة ١٨٠٧ ـ ١٨٠٩ لم يؤثر على العراق ، وبقي فيه الممثلون البريطانيون مكرمين دون ان يمسوا بسوء • وفي ١٨٣٠ بدأت المصالح البريطانية في العراق تأخذ شكلا جديدا ، فقد جاءت بعثة عسكرية من الهند لتدريب الجيش في العراق ، وكان قبل ذلك قد جاء الى العراق بعض الاطباء البريطانيين للعمل فيه • ومن الملاحظ ان العراق في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر ، اصبح موئلا لعدد كبير من الاجانب (بريطانيين وغيرهم) دخلوه بأسم التجارة ، او الفن او اللجان الدولية لاداء بعض المهام ، كتسوية الحدود بينه وبين ايران • واصبح لبريطانية مركز سياسي مرموق، وتحول القنصل البريطاني (التاجر) في القرن الثامن عشر الى (مقيم سياسي) في القرن التاسع عشر • وبينما كان الاول يطالب بحرية التجارة وتيسيرها ، صار الثاني يدعي بالامتيازات السياسية ، وربما نوعا من انواع الحماية غير المعلنة(٢٩) •

وقد ادرك اللورد منتو (الحاكم العام في الهند) أهمية ما قام به هارفورد جونز من مفاوضات مع حكومة فارس ومن عقد معاهدة تمهيدية معها ، واصبح على استعداد لقبول هذه المعاهدة بعدما بدر من معارضة لها واستيائه من بعثة جونز برمتها ولا ادل على تقديره للموقف الجديد مما

---

(٢٩) عبدالرحمن البزاز ، المصدر السابق ، ص ٤٦ •

ورد في كتابه الى جون مالكولم المؤرخ في تموز سنة ١٨٠٩ م ، حيث يقول « ونظرا لتلك العلاقات فقد تخلت فارس عن حلفها مع فرنسا وسحبت وزيرها من باريس - وطرد الشاه سفير فرنسا - والخلاصة انه أثار استياء وغضب اقوى عاهل في العالم • فليس ثمة مجال والحالة هذه ، ان نقول للشاه بأن السر هارفورد جونز تعدى التعليمات التى كان مقيدا بها، وان صلاحياته في المفاوضة والاتفاق عرضة لمصادقة ليست متيسرة »[٣٠] •
ولقد قبل اللورد منتو بتلك المعاهدة التمهيدية على أساس ان يقوم هو بتعيين من يشرف على تنفيذها • وعلى هذا فأنه خاطب جون مالكولم فى كتابه المشار اليه قائلا : «انما هو انت» الذى سيقوم بهذه المهمة الخطيرة•
وتم فعلا تعيين مالكولم لهذاالغرض فتوجه في كانون الثاني سنة ١٨١٠ م الى بلاد فارس للقيام بما كانت في الواقع بعثته الى لندن حيث كانت الحكومة البريطانية نفسها قد تعهدت العلاقات الدبلوماسية بالدولة الفارسية • وعندئذ اصبح ابو الحسن خان ممثل الشاه في البلاط الانكليزي خلال المدة (١٨١٠ - ١٨١١) ، وكان جيمس مورير هو الذى اصبح بعد ذلك سفير بريطانيا في طهران ،وقد صحب الممثل الفارسي الى لندن ذهابا وايابا • وكان الغرض الرئيسي لهذه البعثة الفارسية معرفة مقدار المنحة السنوية المقرر دفعها للشاه بموجب المعاهدة التمهيدية ، ومعرفة طريقة دفعها له • على ان المنافسة بين مالكولم وجونز كانت في الحقيقة منافسة بين حكومة لندن وحكومة الهند حول السيطرة المباشرة على العلاقات البريطانية بالدولة الفارسية • ولم تدخر حكومة الهند وسعها في سبيل نيل غايتها ، غير ان الحكومة البريطانية نفسها عازمة على السيطرة، وبذا خبرت جونز ، فقام هذا بابلاغ الامر الى مالكولم في اليوم الثاني من

---

(٣٠) زكي صالح ، موجز تاريخ العراق ، ص ٩٣ •

شهر تموز . وعلى أثر ذلك قامت وزارة الخارجية البريطانية باستبدال جونز بالسر غور اوزلي ، واودعت في يد السفير الجديد رعاية جميع العلاقات البريطانية ـ الفرنسية ـ فاصبح هذا الترتيب متبعا منذ ذلك الحين . وسرعان ما ادرك مالكولم عبث الاستمرار في محاولاته ، فاخبر اللورد منتو بحقيقة الحال ، وقفل راجعا في غضون شهر واحد . وعندئذ اصبح المجال مفتوحا لقيام ممثل حكومة لندن بمهمته دون عرقلة من جانب حكومة الهند . وكانت مهمة السر غوراوزلي الكبري تنحصر في عقد « معاهدة » لتحل محل (المعاهدة التمهيدية) المنعقدة قبل ذلك بمدة سنة تقريبا . وجرت على الاثر مفاوضات مسهبة اسفرت عن معاهدة جديدة كان التوقيع عليها في طهران بتاريخ ١٤ آذار سنة ١٨١٢ ، فكانت نافذة المفعول منذ يوم انعقادها على شرط ان تعرض على الحكومة في لندن للمصادقة النهائية . فلما عرض النص على هذه الحكومة وافقت عليه باصلاح طفيف ، وتم عندئذ انشاء « معاهدة صداقة وتحالف نهائية » كان التوقيع عليها في طهران بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٤ على يد جيمس موريير الذي اصبح سفيرا في طهران ، وناب عن حكومته في التوقيع على النص الاخير[٣١] .

ظهور الخطر الروسي واستقرار النفوذ البريطاني

وبعد ان استقام نفوذ بريطانية في العراق على الوجه الذي بيناه ، وانفردت به دون سواها من الدول الغربية زهاء ثلث قرن ، تجلى من الشرق خطر جديد وهو ان روسيا سيرا وراء سياستها في السيطرة على مياه دافئة ، كانت تطمع في الوصول الى جنوب ايران ، وتود لو أنها بلغت

(٣١) زكي صالح ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .

الهند (بلد الاحلام) وقد ازدادت مخاوف بريطانيا من روسيا بعد مـــا أشيع في العالم ما زعم انها وصية بطرس الكبير والتي قيل انه جـاء فيها : « اعلموا ان تجارة الهند انما هي تجارة العالم ، وأن من يستحوذ عليهـا دون غيره يصبح سيد أوربا ، فلا تضيعوا فرصة لاثارة الحرب على الدولة الفارسية وتعجيل اضمحلالها والتقدم في الخليج الفارسي والعمل على احياء تجارة الشرق القديمة عبر بلاد الشام»[٣٢] • ومع ان هذه الوثيقة مختلقة فقد كان لها اثر كبير على الرأي العام البريطاني وكان لحرب القـرم سنة ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ ، والحرب التي حدثت بعدها بين تركية وروسيا سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م أثر بليغ في حمل البريطانيين على الاعتقـــاد بأن قياصرة روسيا جادون في تحقيق ما انطوت عليه تلك الوصيـة المزعومة • ان بعض المؤرخين البريطانيين اعتبرها صحيحة وليست موضوعة • فهـــذه الشائعات من جهة ، وقيام روسيا في أواخر العقد الثالث من القرن التاسـع عشر بالتدخل حربيا في شؤون ايران والدولة العثمانية من جهة اخرى، قد ضاعفت من قلق بريطانيا ، وجعلتها تميل ، في فترة من الزمن ، الى مناصرة العثمانيين ضد الروس ، ابقاءاً على « الرجل المريض » ، وحفظا للتوازن الدولي • وكانت المنافسة البريطانية ـ الروسية في الشرق الادنى والاوسط قد ابتدأت حوالي سنة ١٨٣٠ ، وترعرعت بسرعة هائلة خلال العقود الستة التي تلت ذلك ثم خمدت في اواخر القرن ، ادخلت محلها منافسة جديدة (بين بريطانيا والمانيا) وكان للمنافسة البريطانية الروسية التي نحن بصددها آثار بعدة الغور ، واسعة النطاق ، في مجموعة اقاليم مرصوفة ما بين شرقي اوربا وحدود الهند الغربية • فمـا كان من آثارها في معظم اجزاء الامبراطورية العثمانية ، اى في الشرق الادنى اجمالا ،

---

(٣٢) Boulger, England and Russia in Central Asia II p. 339 - 340.

أشارت اليه باسهاب اقلام طائفة متنوعة من الكتاب • وحتى ما كان من آثارها في فارس والافغان ، والاقاليم الصغرى على جانبي بحر خزر ، حظيت بقسط لايستهان به من عناية الباحثين العرب في موضوع المنافسة بين بريطانيا وروسيا(٣٣) •

وكلنا يعلم بأن السياسة الاستعمارية الحديثة التي اقدمت عليها روسيا في الشرق الاوسط ، هي تلك التي اقلقت بريطانيا ، وادت الى ما نشب بين هاتين الدولتين من تنافس • غير اننا لانكاد نجد من يعرف متى ابتدأ هذا التنافس حقيقة • فالمؤرخ (د• س• بولفر) وهو على ما يظهر العالم الوحيد الذي حاول الاجابة على هذا السؤال ، يؤكد بأنه «لم تكن ثمة منافسة بين بريطانيا وروسيا قبل التوقيع على معاهدة كولستان» ونحن اذا ما قبلنا هذه الدعوى فأننا لا نستطيع مطلقاً قبول دعواه في الاشارة الى ان تلك المعاهدة الروسية ـ الفارسية المنعقدة عام ١٨١٣ ، كانت دليلا على (•ولادة) التنافس الذي نحن بصدده • ان الانتصارات التي أحرزها الاسكندر قيصر روسيا حتى عام ١٨١٣ على فارس ـ وعلى تركيا ايضا ـ لم تثر أي استياء في نفس بريطانيا • فلقد كانت بريطانية مشغولة بمكافحة نابليون ، راغبة في استمالة روسيا الى جانبها ، كما أنها لم تكن شاعرة بأي خطر في تلك الانتصارات الروسية • وأنها فيما عقدته من معاهدة تحالف مع فارس ، عام ١٨٠١ ، تجنبت الوعد بتقديم أية مساعدة الى حليفتها في حالة اعتداء روسي عليها • فعندما حدث الاعتداء فعلا بعد عقد المعاهدة باربع سنوات ، وقفت بريطانيا على الحياد تاركة الفرس ومصيرهم • ولم يكن جون مالكولم ، وهو من اساطين السياسة الانكليزية في تلك الربوع يطمح الى اكثر من ايجاد نوع من التفاهم بين الدولتين

---

(٣٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٠

الروسية والفارسية ، ولم يكن يدري بما يجب ان تقوم به بريطانيا اذا ما رفضت روسيا التفاهم المنشود • ولقد شعرت روسيا منذ البداية ان المانيا لاترغب فقط في زيادة وتقوية علاقاتها الاقتصادية مع الامبراطورية العثمانية ، بل انها تريد في الواقع إكتساب مناطق نفوذ المانية في تلك الامبراطورية حسب مفاهيم نظرية او خطة التوسع الالماني نحو الشرق (Drang Nach Osten) الامر الذى يعرقل مساعي روسيا من أجل تحقيق اطماعها في الوصول الى المياه الدافئة على الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط ورأت روسيا في مشروع سكة حديد بغداد مانعا يحول بينها وبين الوصول الى تلك الاهداف •

وللاعتبارات الحربية كذلك أثرها في تقرير سياسة العداء الروسي حيال مشروع السكة منذ بدء المناداة به • فان روسيا كانت تعارض اى تطوير حديث في وسائل النقل والمواصلات في الامبراطورية العثمانية، محتجة بأن طرق المواصلات والنقل الحديثة يمكن ان تستعمل في يوم ما ضد روسيا نفسها في حالة قيام نزاع مسلح بينها وبين تركيا • وهكذا عارضت روسيا مشروع سكة حديد بغداد منذ اعلان السلطان عبدالحميد عن رغبته في اعطاء المصالح الالمانية امتيازاً لمد السكة أي منذ عام ١٨٩٩ تقريبا ، فقد شنت الصحف الروسية في تلك الاونة حملة شديدة ضد المشروع واصفة اياه بالتصرف غير الصديق من جانب المانيا وبكونه مؤثرا على المصالح الاقتصادية لروسيا في المنطقة ، ووصف المشروع كذلك في روسيا بكونه منافسة خطيرة لمشاريع السكك الحديدية الروسية في القوقاس وللمشروع الروسي لسكة حديد ايران بل وحتى لمشروع سكة حديد عبر سيبريا • والى جانب ذلك فأن تحقيق فكرة ربط مشروع سكة حديد الانضول بسوريا تضرب في الصميم الحلم الروسى الخاص بمد سكة حديدية من أرمينيا الى الاسكندرونة لتكون واسطة لربط روسيا بالمياه الدافئة

بصورة مستمرة طوال أيام السنة • أما القسم الخاص بوادي الرافدين من مشروع سكة حديد بغداد ، فقد اظهرت روسيا معارضتها له لانه يفتح ـ كما رأت ـ أمام الاقتصاد الالماني أبواب اسواق الخليج العربي وايران وحتى افغانسان ويضع حقول النفط الغنية في العراق تحت تصرف المانيا مما يشكل ضربة لحقول النفط الموجودة في جنوب روسيا(٣٤) • ويظهر جليا ان هناك عوامل ثلاثة تضافرت على توطيد النفوذ البريطاني في العراق : اولها قيام روسيا خلال سنة ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ باحتلال بعض المناطق الايرانية والعثمانية كما اسلفنا مما حمل على تعزيز نفوذها في هذه البقاع من بلاد الشرق الاوسط درءا لخطر النفوذ الروسي الذي اخذ يتجسم امام ناظرها(٣٥) • وثانيها : قيام بعض الانكليز باجراء تجارب واسعة لاتخاذ نهر الفرات وسيلة سهلة ، وطريقا مختصرا ، الى الهند • فقد انزل (جسني) سفينتين جاء بهما الى نقطة على ساحل البحر الابيض الشرقي في سورية • وبعد أن جرهما نقلهما برا الى الفرات ، وركبهما وانزلهما فيه ، وانحدرتا مع التيار • ولكن سرعان ما اغرقت عاصفة هوجاء احداهما ، واستطاعت الثانية ان تصل الخليج بعد جهد جاهد ونصب عظيم • وقد مكنت الرحلة لتلك الشخصية البريطانية المغامرة فرصة دراسة وادي الفرات من جميع النواحي ، بما في ذلك جمع معلومات طريفة عن العشائر القاطنة على ضفتي الفرات ، ووضع مخطط دقيق للنهر وروافده • وكانت تلك المخططات قد اعتمد عليها الجيش البريطاني عندما احتل العراق ، في الحرب العالمية الاولى(٣٦) • وقد

---

(٣٤) لؤي بحري ، سكة حديد بغداد ، ص ١٧ •

(٣٥) عبدالرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، ص٤٩ •

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ •

مهدت هذه الرحلة لانشاء شركة نقل بريطانية صار لها شأن عظيم فيما بعد في تاريخ العراق الحديث ، وهي معروفة بـ « بيت لنج » • وثالثهما : انتهاء حكم المماليك في العراق ، وعودته من جديد الى الارتباط الفعلي بالباب العالي ، وقد مكن هذا الوضع السياسي لرجال الدبلوماسية البريطانية في الاستانة من الحصول على امتيازات لرعاياهم في العراق عن هذا الطريق مباشرة(٣٧) •

وهكذا نجد النفوذ البريطاني في العراق في مطلع العقد الرابع من القرن التاسع عشر اصبح من الوضوح والجلاء بحيث نجد (جسني) نفسه يقول في تقريره الرسمي الذى كتبه في بغداد ، ورفعه الى حكومته : « ان نفوذنا سائد ومهم الآن في الباشوية » • ويحسن بنا أن نقول كلمة مبسطة عن شركة « لنج » تلك الشركة التي يصح اعتبارها ـ لحد ما ـ بالنسبة للعراق بمثابة شركة الهند الشرقية بالنسبة للهند • فقد ألف هذه الشركة « هنري لنج » بعد ان أغرى اخاه وبعض أفراد اسرته على التعاون معه في انشاء شركة للنقل في نهر دجلة • وقد عرف «هنري لنج» الشيء الكثير عن حوض هذا النهر ، وقام بمسحه ، وتخطيطه ، ودراسته من الوجوه الفنية العديدة الاخرى وادرك صلاحه للنقل النهري ، كما أنه تنبأ بما سيكون للعراق من مستقبل تجاري يصبح النقل البحري من اهم وسائله واربحها وكان « هنري لنج » الساعد الايمن لـ« جسي » في مغامراته الفاشلة في الفرات وبقي في العراق بعده ليتم دراسته ، وخططه الى ان انشأ شركته العتيدة ، التي اصبحت بعد فترة قصيرة من الزمن ، من اربح الشركات ، وكانت على صلة وثيقة بشركة الهند الشرقية • ولم تزل شركة لنج حتى اليوم تعد من كبريات الشركات البريطانية في

---

(٣٧) انظر زكي صالح ، منشأ النفوذ البريطاني فيما بين النهرين ، ص ١٣١ •

العراق وتقوم بالاضافة الى النقل النهري – وقد ضعف اخيرا – باعمال تجارية عديدة ، وتتولى خاصة استيراد معظم المكائن الزراعية التي زاد استهلاكها بصورة مستمرة في العراق[٣٨] .

وبالاضافة الى النفوذ التجاري والاقتصادي المتزايد فقد سعى البريطانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الكشف عن سبل جديدة يلجوا منها في شؤون العراق الداخلية ، فأنشئت مثلا دوائر بريد (بريطانية – هندية) في بغداد والبصرة ، وبقيت هذه الدوائر تمارس اعمالها عشر سنوات دون معارضة رسمية الى ان اشتركت الحكومة العثمانية سنة ١٨٧٨ في اتفاقية الحكومة العثمانية لايصال خط – اسكدار – بغداد باتجاه الهند وعلى ذلك ارسلت حكومة الهند خبيرا لدرس سواحل الخليج بقصد مد اسلاك بحرية تتصل في الفاو بأسلاك برية تربطها بالخط التركي ببغداد . وقد تم هذا العمل سنة ١٨٦٩[٣٩] . وعلى العموم نجد إن بريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت تعني بالعراق بصورة خاصة – بالاضافة الى النواحي الاقتصادية الكامنة فيه في ناحيتين – :

اولاهما : بوصفه طريقا مائيا يمكن ان يقصر المسافة بين انكلتره والهند ، ويخفف الجهد والمخاطر التي كانت تتعرض لها السفن البريطانية بدورانها حول افريقيا والرجاء الصالح ، ولهذا تكررت محاولاتها وتجاربها في نهر الفرات ، عارضت في مشروع قناة السويس عندما بدأ المهندس الفرنسي « فردنان دی لسبس » يدعو له ، باعتباره مشروعا فرنسياً أولا ، ثم على اعتباره قد يضيع أو يقلل من أهمية وادي الفرات التي بنت عليه بعض الشركات والبيوت التجارية الانكليزية بارق الآمال

---

(٣٨) Hoskins, British Routes to India p. 301.

(٣٩) انظر عبدالفتاح ابراهيم ، على طريق الهند ، ص ٤٠ .

والملاحظ ان بريطانية لم تتخل نهائيا عن هذه الفكرة الا بعد ان تم لهـــا الاستيلاء على قناة السويس بشرائها اسهم الخديوي اسماعيل ، وفتحهـا بذلك بابا للتدخل في شؤون مصر الداخلية •

وثانيهما : باعتبار العراق مركزا لمد خطوط السكك الحديدية التي توصل اوربا بالخليج • وبسبب المنافسة في أنشاء السكك الحديد في العراق خاصة بدأ تصادم المصالح البريطانية والالمانية كما سنرى •

نزول المانيا للميدان الشرقـــي

ان الصراع الالماني في الشرقين الادنى والاوسط يكون صفحة مهمة في تاريخ العراق الحديث ، اذ من المعلوم بان المانيا بعد ان تمت لهـــا وحدتها على يد السياسي المحنك الامير «بسمارك» كانت تطمح الى اسواق لمنتوجاتها ، ومناطق لتوغل نفوذها • وكانت سياسة ذلك الشيخ المجرب ترمي الى الاكتفاء بالتوسع في اوربا دون منافسة انكلترا في الشـــــرق وازعاجها • ولكن الملك الناشيء (غليوم الثاني) ما كان ليرضى عن تلك السياسة فأبعد بسمارك عن مقاليد الامور ، وبدأ بسياسته التي صارت تعرف فيما بعد بسياسة (الاندفاع نحو الشرق) • ولا شك بأن بريطانية لـــم تكن لتعارض بشدة التوسع الالماني في الدولة العثمانية في البداية ، بـل لعلها كانت تجد في المانيـا حليفـاً يساعدها على القضاء على نفوذ الروس ومطامحهم ، وهي كذلك ، من دون شك ، قد وجدت في المانيا المتحـدة الناهضة وسيلة للحد من طغيان النفوذ الفرنسي في القارة الاوربية • ولكن النفوذ الالماني لدى الباب العاليّ ، وزيارة الامبراطور «غليوم الثاني» للشرق وتأييده للوحدة الاسلامية ، وموقف الالمان من بريطانية بعـد حـــرب (البوير) في مطلع القرن العشرين ، هذه العوامل وغيرها جعلت الانكليز يفكرون مليا في أمر هذا الخصم العنيف الجديد • وعندما شاع سنـــة

١٩٠٣ بأن سكة حديد ستمتد من اوربا الى الكويت ، وان روسيا هي صاحبة الامتياز اعلن « اللورد لونسدون » تصريحه المشهور الذى القاه في ٥ مايس سنة ١٩٠٣ جاء فيه : « اننا نعتبر تأسيس اى دولة اخرى قاعدة بحرية او ميناء محصنا في الخليج العربي تهديدا خطيرا لمصالح بريطانية، ومن واجبنا ان نعارض ذلك بكل ما لدينا من وسائل »(٤٠) • وقد دفعت هذه الشائعة بريطانيا لعقد اتفاقية جديدة مع شيخ الكويت ، حددت بها تصرف الامارة بأملاكها •

سكة حديد برلين بغداد

بدأت الدول الاوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تجد في انشاء خطوط سكك الحديد في بلادها والبلاد الاخرى • وكانت الامبراطورية العثمانية حقلا مناسبا لاستغلال رأس المال الاوربي وايجاد وسيلة جديدة لتقوية النفوذ الغربي عن هذا الطريق • وقد حاول البريطانيون ان يمدوا سكة حديد من الاسكندرونة وتصل الفرات بعد ان تمر بحلب وتستمر بعد ذلك الى دجلة ومنه الى بغداد(٤١) • وقد جرت عدة تحويرات على هذا المشروع • ولكن اللورد (بالمرستون)عارض فيه وخذله • وفي هذا الاثناء نما النفوذ الالماني نموا مطردا في الدولةالعثمانية، وقامت شركة المانية اخرى ببناء خطوط واسعة في تركية • ثم استطاع الالمان في مطلع القرن العشرين ، الحصول على امتياز لانشاء خط يصل الاستانة ببغداد ، وهذا الخط هو الذي صار يعرف فيما بعد بخط برلين ـ

---

(٤٠) عبدالرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، ص ٥٤ •

(٤١) كتب عن سكة حديد برلين ـ بغداد بتوسع الدكتور لؤي بحري في كتاب (دراسة في تطور دبلوماسية سكة حديد برلين بغداد حتى عام ١٩١٤) والذي صدر في بغداد سنة ١٩٦٧ •

بغداد ، لان الاستانة كانت متصلة ببرلين بخط سكة الحديد ، وكان مقررا ان يمتد الخط من بغداد حتى يصل البصرة والكويت ، وكان قد سبق موافقة السلطة العثمانية على انشاء هذا الخط عدة امور منها وعد الدولة العثمانية شركة سكة حديد الانضول بأن يكون لها الارجحية على غيرها من الشركات في منح الامتياز للخطوط الجديدة في الدولة العثمانية. وبذلت الشركة لذلك جهودا كبيرة ، وصرفت مبالغ طائلة ، في مسح الاراضي التي يمر بها المشروع في آسيا الصغرى وسورية والعراق . وقد كان هذا الخط يحقق مرامي سياسة الدولة العثمانية التجارية ويربط مدن الامبراطورية الكبرى بعضها ببعض . وهو من دون شك مفضل على المشاريع الاخرى التي تقدمت بها الجهات الانكليزية من قبل[٤٢] .

على ان اختيار السلطان عبدالحميد للالمان ، وتفضيلهم في منح هذا الامتياز لم يكن يخلو من مآرب سياسية ، لان امبراطور ألمانيا كان على العموم يساند سياسة الخليفة العثماني ، وكان الشعب الالماني الشعب الاوربي الكبير الوحيد الذي ليس بينه وبين الدولة العثمانية ما يثير العداء ، لان كلا من روسية وانكلترة وفرنسا كانت تحكم الملايين من المسلمين، وكانت لذلك موضع نقمة الشعب الالماني . وطبيعي ان يتلقى الشعب الالماني صدور الارادة الشاهانية سنة ١٩٠٢ بمنح (شركة سكة حديد الانضول) امتياز سكة حديد بغداد بغبطة وامتنان . وقد أبرق قيصر المانيا يشكر السلطان على ذلك ، ويثني عليه ، وكتبت احدى صحف النمسا شبه الرسمية تقول : « اقامة هذه السكة ستكون من الحوادث العظيمة الاثر ، وسيكون للسكة اثر كبير في تنمية قوة تركية الدفاعية »[٤٣].

---

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٤٣) عبدالفتاح ابراهيم ، على طريق الهند ، ص ٧٨

وقد قوبل هذا الخبر ببعض الارتياح في فرنسا ، ولكن الرأي العام في انكلترة قد قابله أول الامر بسرور ، وقد قال (الايرل برسي) في مجلس العموم بهذه المناسبة : « ان المانيا تعمل بتركية ماتعمله انكلترة في بلاد فارس لاصلاح الحالة وترفيه اقتصاديات البلاد ، وان النزاع بين هذه السياسة (التيتونية) وبين السياسة (السلافية) التي تشجع الخمول والتأخر ستعود على الاولى ـ انكلترة والمانيا ـ بالانتصار مادامت على عكس سياسة روسيا بعيدة عن الاثرة وحب الذات » ولكن سرعان ما تغير موقف انكلترة تجاه هذا المشروع فتحولت من تأييد الى سكوت ، ثم الى معارضة • وعلى الرغم من طلب الشركة الالمانية من اصحاب رؤوس الاموال البريطانية والفرنسية المساهمة بهذا المشروع الكبير فأن شيئاً من ذلك لم يحدث فعلا ، على الرغم من تصريح رئيس وزراء بريطانية حينذاك المستر بلفور من ان بريطانية تشجع رؤوس الاموال البريطانية على المساهمة في هذا العمل الخطير • وكان لايرى للمعارضة فائدة ، ويعتقد بنجاح المشروع ، وان من مصلحة انكلترة أن تكون نهايته في (الخليج العربي) في املاك شيخ هو تحت الحماية البريطانية ولكن بلفور قد اضطر تحت تأثير الصحافة والمعارضة ، ان يتراجع ويسحب تأييده للمشروع ويعترف بأنه لايضمن مصالح بريطانية •

ولا شك ان معارضة بريطانيا ترجع لاسباب عسكرية ، لانها لم تكن تريد ان يكون لاى دولة معظمة نفوذ في بلاد الرافدين والخليج لان ذلك يهدد مصالحها في الهند • يقول الاستاذ (هنري فوستر) في كتابه (تكوين العراق الحديث) : « لم تكن المنافسة الاقتصادية بين الدول هي التي أدت الى هذا الوضع بقدر السمعة والحدود والجيوش والاساطيل وتوازن القوى والتحول المحتمل في المحالفات ، ان هذه الامور اثارت المراسلات الدبلوماسية ورفعت درجة الحرارة في الجو الدولي الى درجة الخطر ،

وان خط بغداد هذا كان من الاسباب المهمة للحرب العالمية »(٤٤) • وعلى الرغم من حصول الشركة الالمانية على امتياز مد سكة الحديد في العراق فان الدبلوماسية البريطانية كانت نشطة في ايجاد الوسائل للحيلولة دون توغل أي دولة في جنوب العراق وخليج البصرة • واستطاعت سنة ١٩٠٧ الاتفاق مع روسيا اولا ـ كيما تتفرغ لمقاومة النفوذ الالماني وكانت روسيا بعد مغلوبيتها في الحرب مع اليابان أكثر استعدادا للاتفاق مع انكلتره والتسليم بمطاليبها ـ التي اعترفت بوضع انكلتره الراهن في الشرق الاوسط • وبعبارة اخرى فأن روسيا التى كانت طوال القرن التاسع عشر المنافس الاول لانكلترا في سياستها التوسعية في الشرق الاوسط قد نفضت يدها ، وبذلك ساعدت انكلترا على التفرغ لمنافسها الخطير في القرن العشرين أي ألمانيا •

وفي هذا الاثناء استطاعت بريطانيا ان تحصل على موافقة المانيا على ان يكون لها الحق بأنشاء الخط الواقع بين بغداد والخليج والسيطرة عليه ، وبهذه الصورة ضمنت مفتاح الهند • على ان المفاوضات السياسية في في هذا الشأن قد استمرت فاعترفت المانيا بنفوذ بريطانية في القسم الجنوبي من العراق الممتد ما بين البصرة وبغداد واعترفت مقابل ذلك بريطانية بالنفوذ الالماني في القسم الشمالي من العراق الممتد ما وراء بغداد • وفي سنة ١٩١٣ اتفقت انكلترا والمانيا على ان سكة حديد بغداد برلين تنتهي بالبصرة، ولا يمتد الخط الى ماوراء البصرة الى الخليج (الكويت) الا بموافقة بريطانية ، كما أتفق على ان يكون اثنان من اعضاء مجلس ادارة سكك الحديد من الرعايا البريطانيين ، وهكذا ضمنت بريطانية مصالحها بصورة تامة • وعلى الرغم من المنافسة الدولية والمؤامرات الدبلوماسية والمصاعب

---

(٤٤) See, The Making of Modern Iraq. p. 30 .

المالية ، والمشكلات الفنية ، واضطراب الحكم العثماني ، وتغير نظام الدولة بعد الانقلاب الدستوري العثماني سنة ١٩٠٨ ، فقد استطاع الالمـــان ان يتغلبوا على ما اعتور طريقهم من مصاعب ، وان يبدأوا فعلا في مد هـــذا الخط • وعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى ودخل الانكليز ارض العراق كان الالمان قد أتموا القسم الواقع بين بغداد وبيجي شمال سامراء • وقـــد بقيت مسافة لايستهان بها بين الخط العراقي واتصاله بالخط الســـوري التركي الموصل عبر البلقان الى برلين ، والحواضر الاوربية الاخرى • ولم يتم ذلك الا سنة ١٩٣٧ ، وبذلك اتصلت مدينة الموصـــل لاول مـــرة لا ببغداد فقط ، بل بالعالم الخارجي ايضا • ومنذ ذلك الحين الى اليـــوم استطاعة المرء أن يسافر في القطار من بغداد الى اى بلد اوربي •

أما الدراسات البريطانية المتعلقة بسكة حديد بغداد ، فانها تناولت الطريق الذي تمر به السكة ، او الذي يجب ان تمر به عند اجتيازهـــا البلاد التي (لم يكن احد ينازع رجحان مصالحهم فيها) • ولقـــــد أستندت دراسة كادو الى رحلته التي قام بها سنة ١٩٠٣ في جنوب الفرات، وتعلقت بالمنطقة المحصورة ما بين المسيب والناصرية وهي المنطقة التي أكد أهميتها وقال بضرورة مرور السكة فيها • وفي هذا الجزء من البلاد ، كما يجدر بنا ان نذكر ، كان بعدئذ مرور الخط الحديدي الذى انشـــأه البريطانيون بين البصرة وبغداد ابان الحرب العالمية الاولى ، ثم اصبح ملكا للعراق• ونظرا لاستمرار الاهتمام بالموضوع فقد ظهرت دراسة(كادو) لتلك الناحية الجنوبية في المجلة الجغرافية .Geographical Journal سنة ١٩٠٦ وكان في السنة التالية ان ظهر بحث السر مارك ســـايكس في المجلة نفسها ، وهو البحث الذى سبق وان القاه في الجمعية الجغرافيـــة الملكية تحت عنوان (اسفار في شمال بلاد الرافدين) • وقد ذكر سايكس رأيه في سكة حديد بغداد دون تعصب ، كما يقول : « فيما لو قـــدر

لهذه السكة ان تمر بارض الجزيرة »[٤٥] • واعرب عن اعتقاده بـأن العقبات التي تنجم عن خطر القبائل المتاخمة ، وعن قلة الايدي العاملة ، سوف يمكن التغلب عليها بمرور الزمن عن طريق انشاء السكة نفسها • ثم في سنة ١٩١٣ ، في هذا الوقت المتأخر ، نشرت مجلة الشرق الادنى The Near East رسالة وجيزة بقلم السر وليم ولكوكس الخبير الممتاز في شؤون ري وادي الرافدين والنيل ، اشار فيها الى الطريق الذي يجب ان يمد الخط فيه لكي يأتي بأعظم فوائده لجميع المنتفعين • واضاف قائلا : (أنه لمما يدعو الى الاسف ان يكون التأسيس في نهاية الامر حسب التخطيط الالماني القديم الذي تحاشى كل فدان من الاراضي الزراعية ، والتزم جانب الصحراء[٤٦] •

ان هذه الامثلة وغيرها من الدلائل تشير الى أهتمام الرأي العام البريطاني بمشروع سكة حديد بغداد ، واستمرار اهتمامه بالقضية حتى النهاية • ومن الامثلة البارزة على ذلك ، فضلا عما تقدم ، نذكر مقال (بيرز) الذى ظهر حول الموضوع في المجلة Contemporary Review سنة ١٩٠٨ ، والبحث الذى القاه شرادام في جمعية آسيا المركزية الملكية سنة ١٩١١ ، وكذلك مقال لينج Lunch الذى نشر في المجلة المسماة Fortnightly Review. سنة ١٩١١ أيضا ، ومع ذلك فأن لسنة ١٩٠٣ اهمية فذة في تاريخ المشكلة المتعلقة بسكة حديد بغداد • ذلك ان المشروع نفسه أتخذ تلك السنة حدوده الواسعة مما اهاج الرأي العام البريطاني وأدى الى تشاؤم حكومته وعندئذ اخذت الحكومة البريطانية تعتبر بما كان قد أبداه الخبراء البريطانيون مرارا حول اهمية المشروع ، وخطورة مغزاه •

---

(٤٥) زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤ ، ص ٢٤٧ •
(٤٦) زكي صالح ، المصدر السابق ص ٤٥ •

ومن ثم دخلت المنافسة البريطانية ـــ الالمانية دورها الحاسم الذي ادى الى وفاق على الورق ، وانتهى في ســــوح القتال •

غير ان البداية لم تكن تنم عما آلت اليه القضية من خطورة وتعقيد ، فلقد أستند المشروع في ميدان التأسيس الى مقدمات يرجع عهدها الـــى سنة ١٨٨٨ حينما فكر الالمان في أنشاء خط حديد يصل ما بين برلـــين والقسطنطينية • وكان في ٢٧ ايلول وفي ٤ تشرين اول من السنة ذاتها أن حصلت (شركة حديد الانضول) المؤسسة حديثا على امتياز من تركيا لاستثمار الخط مابين حيدر باشا وازميت ، والقيام بمده الى انقرة • ثم كان في سنة ١٨٩٣ أن حصلت الشركة نفسها على امتياز لمـــد السكة من ازميت الى قونيه (مسافة ٥٣٥ كيلومترا) ، فتم انشاؤها بعـد ثلاث سنين ، واضبحت في الواقع الجزء الاول من سكة حديد بغداد • وبعدئذ أستطاع القيصر في زيارته لتركيا سنة ١٨٩٨ وما تخللها من تفاهم ودي مع السلطان ، او يأخذ منه وعدا ، بمنح الالمان امتياز مد السكة مـــن قونيه الى الخليج العربي • وفي السنة التالية جرت مفاوضات بين الطرفين وتم التوقيع على اتفاق لهذا الغرض ، استقرت من بعده واستنادا اليـــه تفاصيل المشروع في اتفاق سكة حديد بغداد المنعقد بتاريخ ٥ آذار سنـــة ١٩٠٣[٤٧] • فبموجب وثيقة ٥ آذار ١٩٠٣ أصبح يحق لشركة سكة حديد الانضول ان تقوم بمد خط ازميت ـ قونيه في اتجاه الجنوب الشرقي الى بغداد فالبصرة ، وان تنشيء له فروعا يصل احداها الى نقطة ما علـــى الخليج يتعين موقعها فيما بعد • وحصلت الشركة فضلا عن ذلك ، على

---

(٤٧) Geraud, A., "A new German Empire" The Story of the Baghdad Railwy, " The Nineteenth Century" (May-June, 1941,) Vol. 75 p. 938.

حق استخراج المعادن من الاراضي المحاذية للخط مسافة عشرين كيلومترا من كل جانب ، وعلى حق الملاحة في مياه الرافدين للاغراض التي تقتضيها شؤون السكة • ولاجل القيام بتنفيذ المشروع واستنادا الى نص الاتفاق الاخير ، قامت شركة الانضول بتأليف شركة مساهمة تعرف بأسم (شركة سكة حديد بغداد الامبراطورية العثمانية) وهي التى يشار اليها عادة بمجرد شركة سكة حديد بغداد • فاذا ما ذكر المؤرخون بأن سنة ١٩٠٣ كانت زمن تحول في موقف بريطانيا تجاه المشروع الالماني ، فأن أحدا منهم ، على مايبدو ، لم يشر الى حقيقة هذا التبدل او يقارن بين طبيعة الموقف السابق واللاحق • فالمشروع الالماني بدا مقبولا في نظر بريطانيا خلال سنواته الاولى لاعتبارها اياه من طراز (عبء الرجل الابيض) في تحمل تبعات الشعوب المتأخرة ، كما اعتاد ان يتبجح المستعمرون يضاف الى ذلك اعتبارها أياه توسعا اقتصاديا يفيدها ان تساهم فيه ، وهذا هو بيت القصيد • ولعل من ابرز ما يوضح عبء الرجل الابيض في هذا الصدد تصريح ايرل پرسي في البرلمان البريطاني سنة ١٩٠٢ بقوله : « ان المانيا تعمل الآن لتركيا مثلما قمنا نحن بعمله لبلاد فارس في سبيل أصلاح الشعوب المحلية اجتماعيا وتحسين احوالها المادية • وانه فيما اعتقد اذا اصبح كفاح المستقبل بين السياسة السلافية المجبولة على الركود ، والسياسة التيتونية الرامية الى نشر الفضائل النورانية والمدنية فأن النصر سيكون حليف تلك الشعوب التي تناضل عن اخلاص أو انانية ، عن قصد أو غير قصد ، في سبيل الاهداف السامية التي أودع القدر تحقيقها الى العناصر الامبراطورية من العالم المسيحي»[٤٨] •

أما الجانب الاقتصادي في ذلك الدور الاول (١٨٩٩ - ١٩٠٣) فقد

---

(٤٨) سليمان فيضي ، على هامش الثورة العراقية ، ص ٧٥ •

وضح في سياسة وزير الخارجية (الركيز لانسدون) الذي اخبر السفير البريطاني في برلين بأن حكومة صاحب الجلالة « لاتنظر بعين السخط الى المشروع » وانها تأمل أن تساهم فيه بما لا يقل عن حصة أية دولة • وأضاف قائلا بأن المقصود بهذه الحصة « يتعلق برأس المال المستعمل في انشاء الخط وفي ادارته عندما يتم ، وفي تجهيز المواد المقتضية لذلك » (٤٩) فلقد كان اهتمام بريطانية محصورا من وجهة عملية بالفائدة الاقتصادية من المشروع ، إذ لم تكن بعد قد رأت في القضية ما ينذر بخطر جسيم • وما أن تقادمت سنة ١٩٠٣ حتى اشتد اهتمام البريطانيين بالمشروع الالماني ، وأتخذ الوضع طورا تهيمن عليه أعتبارات أستراتيجية من النوع الذى أكد عليه المختصون منذ زمن سكة حديد الفرات التى لم يقدر لها النجاح • فلم تعد روسيا ، بل اصبحت المانيا في هذه الحال مصدر الخطر الماثل ، وكان امتياز سكة حديد بغداد الذي استقر حينذاك على شاكلته المعلومة هو الحافز لهذا التبدل الخطير • ولقد ساهم الرأي العام البريطاني في هذا الاتجاه مساهمة فعالة واتفقت معه الحكومة نهائيا من حيث الاساس• ومما يجدر بالملاحظة ان قادة الرأي العام البريطاني كانوا ممن اشرنا اليهم بالمختصين نظرا لاهتمامهم الجدي بالقضية ، ودراستهم المتعلقة بها • ومن ثم تناول المشروع الالماني في نظر بريطانيا مصير نفوذها في الخليج العربي ورجحان كفتها في وادي الرافدين ، وما لذلك من علاقة وثيقة بمركزها في ربوع الهند وغيرها من بلاد الشرق • ذلك كله بدأ عرضة للخطر الالماني المتمثل في سكة حديد بغداد ، ذلك ما اتفق البريطانيون على ضرورة حمايته • اما المجادلات التي اتسع نطاقها حول المشروع في داخل بريطانيا فأنها تعلقت بالسؤال عما أذا كان يجدر برأس المال البريطاني

---

(٤٩) Britisr Documents on the origins of the war, p. 1977.

ان يساهم فيه ، او لايجدر به ان يفعل ذلك • فكان من بينهم من التزم جانبا في الاجابة على هذا السؤال ، ومنهم من التزم الجانب الآخر • ودارت بين الطرفين مناقشات مسهبة أحياناً • ولكنهم جميعاً التزموا بهدف واحد هو حماية الامبراطورية ، التي زعم البعض انها تقتضي المساهمة في المشروع ، بينما ادعى البعض الآخر بأنها تقتضي الاحجام • ففي مناقشات عام ١٩٠٣ مثلا ، نشر العضو البرلماني بولز رسالته المعززة بالادلة على صفحات التايمز اللندنية ، داعيا فيها الى امتناع الرأسمال البريطاني عن المساهمة في (سكة حديد المانية بحتة من حيث الاساس) ومحذرا بقوله : « أعتقد بأنه في وسعي الادعاء بأن ما جرى منذ ايلول الماضي يؤيد ما جازفت به حينذاك في أعمدة جريدتكم من تحذير أصحاب رؤوس الاموال البريطانية ان يبتعدوا عن هذا المشروع السياسي الالماني» • وكان خلال السنة نفسها ان صرح اللورد فتنر موريس في مجلس العموم البريطاني بقوله « ان الذي جعل المجلس يبدي اهتماماً ملحوظا بالقضية هو الشعور بأن مستقبل السكة قد يكون مرتبطا بمستقبل السيطرة السياسية على مناطق واسعة في آسيا الصغرى ، وعلى وادي الرافدين ، والخليج العربي » •

ثم في سنة ١٩٠٨ حاول السر (ادوين بيرز) أن يبرهن بكل جدارة على ان المصالح البريطانية تحتم جعل سكة حديد بغداد مشروعا دوليا • ومن المناقشات التى دارت في سنة ١٩١١ حول محاضرات شرادام في جمعية آسيا المركزية الملكية ، اتضح رجحان الدعوة الى امتناع الرأسمال البريطاني عن المساهمة في المشروع ولم يشذ عن هذا الاتجاه العام بما يستلفت النظر سوى العضو البرلماني ، العقيد (يلت) الذي اوضح ان العكس هو الصواب • وفي سنة ١٩٢٢ نشر لوفات فريزر في

دفاعـه عن ضرورة احجام رؤوس National Review. المجلة المسماة الاموال البريطانية عن المساهمة وأردف متسائلا : « لماذا نتعجل في المشاركة مع المانيـا في مشروع يراد ، الى جانب مآرب أخرى ، تعزيز المصالح الالمانية في الامبراطورية التركية ؟»[٥٠] •

ولقد ابدت الحكومة البريطانية اهتمامـا خاصا بتلـك المعـــــاني الامبراطورية البليغة دون أن تهمل النظر فيما تعلق انيا بمصالح مواطنيها الاقتصادية •فاتخذت منذسنة١٩٠٣موقفا حازماضداية محاولة ترمي الى اتصال السكة بالخليج العربي ، وضد اى اتجاه لازدياد النفوذ الالماني الى مـــا يقارب نفوذها في بلاد ما بين النهرين • غير ان المانيا كانت اقدر من ان تذعن • ومن ثم نشأت المعضلة التي احيطت بدبلوماسية واسعة النطاق ، ونجم عنها (وفاق) بين مصالح متنافرة الاهداف وانتهى امرها بعدئذ بحرب • ولقد جاهد الاتحاديون كثيرا ، بعد الانقلاب الدستوري ســـنة ١٩٠٨ في استمالة بريطانيا والتقرب اليها ، ونشطت في هذه الفترة الدبلوماسية الانكليزية في (استانبول) كل النشاط ، وكثر عدد الخبراء البريطانيين الذين استعانت بهم الحكومة التركيـة ، ومن أهم أولئـك الخبـراء من وجهة نظر العراق ـ مهندس الري الانكليزي الشهير (وليم ويلكوكس) الذي دعته الحكومة العثمانية للقيام باعداد التصاميم الفنية لاحياء مشاريع الري القديمة في العراق ، وبعد ان مكث فيه زهاء سنتين ونصف ، وضع ـ مع هيئة الفنيين الذين رافقوه ـ خرائط وتصاميم عديدة لمختلف مشاريع الري اللازمة ، ورفع تقريره الى الحكومة العثمانية في نيسان سنة ١٩١١ مـــع الخرائط والتصاميم وتخمين المبالغ اللازمة للقيام بها • ولا شك ان هذه البعثة الفنية من خبراء الانكليز قد تمكنت من دراسة مختلف نواحـــي

---

(٥٠) The (London) Times, April 20, 1903, p. 7.

العراق وطبيعته وارضه واقليمه ، بالاضافة الى مشاريع ريه • وقد حظى (السير وليم ويلكوكس) بسمعة حسنة في العراق ، ولم تزل دوائر الري تعير تقريره اهتماما كبيرا •

ولعل آخر ما حصلت عليه بريطانيا من نفوذ وتوغل قبل اعلان الحرب العالمية الاولى موافقة السلطان سنة ١٩١٤ ان يكون لبريطانيا حق انارة شط العرب والخليج ووضع العوامات فيهما ، والمحافظة عليهما تأمينا لسير السفن[٥١] • ويتضح جليا مما اسلفنا ان جهود بريطانية التي أستمرت زهاء ثلاثة قرون قد بدأت تثمر وتؤتي اكلها قبل اعلان الحرب العالمية الاولى • فقد حولت خليج البصرة الى بحيرة هندية ، واستطاعت ان تجعل من هذه البقاع مواضع لاهتمام الساسة البريطانيين بعد ان كانت مناطق لتوغل التجار • وقد عبر عن هذا المعنى (اللورد كرزن) حينما قال: « بأن العلاقة بين بريطانيا والخليج قد انتقلت من دفاتر التجار الى حقائب الساسة » ولا يستطيع الباحث في تطور النفوذ البريطاني في العراق أن يغفل ذكر « اللورد كرزن » وما قام به من جهود لتحقيق سيادة بلاده على هذا الجزء من المعمورة بوصفه نائب وزير الهند اولا ، ثم بوصفه وزيرا للخارجية ، وبعد ذلك باعتباره نائب الملك في الهند ، بصفته الرسمية او غير الرسمية ، وذلك بما كتب وألف في هذا الخصوص • وكان الدافع الاول لذلك بطبيعة الحال المحافظة على الهند من منافسة الروس بالدرجة الاولى • وهكذا نجده يتساءل وهو يستثير حماس مواطنيه ويستنهض هممهم للعمل بهذا الشأن : « هل نحن مستعدون لنفض ايدينا من السيطرة على الخليج الفارسي ، ونشاطر غيرنا السيطرة على المحيط الهندي ؟ هل نحن مستعدون ان نجعل انشاء خط سكة

(٥١) انظر آيرلند ، ص ٥٦ •

حديد الفرات أو أي مشروع آخر من هذا القبيل مستحيلا بالنسبة لانكلترا وأمرا حقيقيا بالنسبة لروسيا ؟ وهل ستصبح بغداد عاصمة روسية جديدة في الجنوب ؟ وأخيرا هل يطيب لنا ان نرى محطة بحرية قادرة على قصف بومباي ؟ » • ولا شك بأن سياسة بريطانيا ، ورجالها المعنيين بالهند خاصة عملوا ما بوسعهم لتحقيق الغايات البعيدة التي كانوا يستهدفونها وحق للورد كرزن نفسه أن يصرح في مجلس اللوردات بالتصريح الخطير التالي سنة ١٩١١ « انه من الضلال ان يظنّ ان مصالحنا السياسية مقصورة على الخليج ، أنها ليست مقصورة على الخليج ، انها ليست مقصورة على المنطقة الواقعة بين البصرة وبغداد ، بل انها لتمتد قدما حتى تصل بغداد ذاتها »[٥٢] • ان هذا الاهتمام المتزايد في العراق يفسر لنا ما حدث أثناء الحرب وبعدها من محاولات لضم جنوب العراق الى الهند ، وانشاء أدارة بريطانية خاصة تجعل منه أشبه بمستعمرة من مستعمرات التاج ، ويفسر لنا أيضا سياسة المدرسة البريطانية الاستعمارية التي صارت تعرف بالمدرسة الهندية البريطانية • ان هذه المدرسة كانت الموجهة للمعاهدات السرية التي عقدتها بريطانية وفرنسا وروسيا في الخفاء لاقتسام الاجزاء العربية من امبراطورية آل عثمان ، كما تجلت في معاهدة سايكس ـ بيكو بل استطيع ان اجزم ان لتصريح اللورد كرزن شأنا في التحفظات التي ابدتها بريطانية بشأن العراق في المراسلات التي جرت بين الملك حسين والسير هنري مكماهون •

---

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٤٩ •

المصادر العربية

١ ـ زكي صالح ، منشأ النفوذ البريطاني بين النهرين ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٠ .

٢ ـ زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى ١٩١٤ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٨ .

٣ ـ زكي صالح ـ موجز تاريخ العراق ـ مطبعة الرابطة ـ بغداد ـ ١٩٤٩

٤ ـ عبدالرحمن البزاز ـ العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٧ .

٥ ـ عبدالعزيز نوار ـ تاريخ العراق الحديث ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ .

٦ ـ عبدالامير محمد امين ـ القوى البحرية في الخليج العربي ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٥ .

٧ ـ كوتلوف ـ الثورة التحررية الوطنية العراقية ١٩٢٠ ـ موسكو ١٩٥٨

٨ ـ لونغريغ ـ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ ترجمة جعفر خياط ـ مطبعة البرهان ببغداد .

٩ ـ لؤي بحري ـ سكة حديد بغداد ـ المطبعة الاهلية ـ بغداد ١٩٦٧ .

١٠ ـ محمود علي الداود ـ الخليج العربي والعلاقات الدولية ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ .

١١ ـ محمود علي الداود ـ العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦١ .

١٢ ـ متي عقراوي ـ العراق الحديث ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٩٣٦ .

١٣ ـ مظفر حسين جميل ـ سياسة العراق التجارية ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٤٩ .

١٤- نعيم ابراهيم - ثورة العراق - مطبعة التضامن - بغداد - ١٩٣١ ٠
١٥- هنري فوستر - تكوين العراق الحديث - ترجمة عبدالمسيح جويدة بغـــداد - ١٩٣٤ ٠
١٦- يوسف رزق الله غنيمة - تجارة العراق قديما وحديثا - مطبعـة العاني - بغداد - ١٩٢٢ ٠

المصادر الاجنبية

17 - Wilson, The persian Gulf, pp. 136 - 139.

18 - Letter from Agent at Barsalk to the court July 31, 1945, Summary xx 118 letters from surat presidency to the court. April 3, 1649, summary xx II.

19 - Longrigg, Four centries of Modern Iraq, pp. 157.

20 - Admiralty, war staff : A Handbook of Arabia 2 Vols., London, 1916 - 1917.

21 - Hoskins, British Routes to India p. 301.

22 - Geraud, A., "Anew German Empire). The story of the Baghdod Railway, the Nineteeth century, (May - June, 1914, Vol 75 p. 957.

23 - British Documents on the origins of the war, p. 177.

24 - The (London) Times, April 20, 1903, p. 7.



المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الرابع عشر

١٤

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الرابع عشر

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد الرابع عشر المجلة

اللجنة الاستشارية

مقـدّمة

بكل فخر واعتزاز يسعدنا جدا ان نقدم للقارىء الكريم العدد الرابع عشر من مجلته العلمية ـ المؤرخ العربي ـ وهي صورة حية للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب والتي أصبحت محط عناية الاوساط الثقافية في الوطن العربي والعالم أجمع ومنتدى علميا نشيطا لكافة المثقفين العرب •

ان هذه المجلة والتي يسهم في اعدادها وتحريرها نخبة من المؤرخين والباحثين العرب ذوي سمعة علمية في ميادين تخصصهم تعطي الدليل على التزام اتحاد المؤرخين العرب بخطه الواضح الهادف وتفاعله مع المؤرخين تفاعلا ثقافيا لتحقيق أهدافهم العلمية النبيلة •

تحية وفاء وتقدير الى الجهود المخلصة التي يبذلها المؤرخون والباحثون العرب في اخراج مجلتهم في اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها في سمتها الاكاديمية العالية لتحقيق كامل اهدافنا من اجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالروح الصادقة وبالصفة العلمية •

والله ولي التوفيق

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تبادل التأثيرات الحضارية بين مصر والعراق في العصور الإسلامية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

شهدت الانسانية بزوغ شمس الحضارة العربية في العصور الاسلامية عامة وفي العصر العباسي بخاصة ، تلك الحضارة التي شملت مجالات واسعة في ميادين الثقافة والعلوم والفنون والاجتماع وحيث سادت بين الحواضر العربية علاقات نابعة من الروابط الاصيلة الاجتماعية والدينية والسياسية ، تزيد في تلك العلاقات القوة والضعف عوامل وظروف تاريخية مختلفة ، وكانت لتلك العلاقات نتائج ذات اثر واضح في تطور مختلف مظاهر الحياة العربية الاسلامية بوجه خاص والتقدم الانساني بوجه عام ولعل من ابرز وأوضح تلك الصلات والعلاقات الثقافية التي قامت وبرزت بين القطرين العربيين الاسلاميين الخالدين العراق ومصر •

من المعروف تاريخيا ان العراق ومصر فتحا زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ص) وحيث شيدت البصرة والكوفة والفسطاط تلك الامصار العربية الاسلامية الخالدةوالتي لعبت دورا مهمافيتاريخ الثقافة والسياسة

والاجتماع في العصور الاسلامية وكان لها دورها البارز في أبرزالعلاقات وتبادل التأثيرات التاريخية بين القطرين الاسلاميين، وكـان ما يطرأ مـن وضع سياسي في الكوفة كانت اصداؤه المؤثرات واضحة في الفسطاط وما تبرز من فكرة علمية في مسجد البصرة كانت اجـراء مناقشاتهـا ومناظراتها قائمة في مسجد الفسطاط .

في السنوات الاولى من قيام الدولة العباسية بدأ بانشـاء بغداد سنة ١٤٥ هـ ٧٦٣ م وكمل بناؤها سنة ١٤٩ هـ واصبحت من اشهر عواصم الدنيا وابهاها في القرون الوسطى وانتشرت في ارجائها المساجد العامرة والمدارس الكبيرة والقصور المنيفة والحدائق الغناء وصارت كعبة القصاد من رواد العلم والادب والفن ، وظلت كذلك حاملة مشعل حضارة العرب والمسلمين ما يزيد على القرنين من الزمان ، الى ان شيد القائد المظفـر جوهر الصقلي المدينة المعزية ـ عاصمة الفاطميين والتي سميت فيما بعد بالقاهرةواخذتفي النمو مبلغا كبيرا وفي الاتساعحدا شاسعا وتسامتفيها المباني وانتشرت في ارجائهـا المساجد المباركـة ودور العلم المشهـورة والرياض ـ والبساتين والدور والقصور ، كما اصبحت مطمع انظـار الادباء والعلماء وحملت هي الاخرى مشعلا للعلم ظل منيرا يهتدي اليه كل طالب للعلم والادب .

وشهدت القرون الوسطى علاقات وثيقة بين بغداد عاصمة العباسيين والقاهرة المعزية عاصمة الفاطميين ، وكان من ابرز مظاهر تلك العلاقات ما ساد من روابط ثقافية بين هاتين المدينتين الخالدتين المجيدتين ، وهنـا في بحثي هذا ارجو ان اوفق الى تحقيق ما يجيش في صدري فأصـل الى الحقائق التاريخية التي تساعدني على ابراز عوامل تلك العـلاقات الثقافية واهم نتائجها التاريخية ان المتتبع لتاريخ المركزيـن الحضاريين

الاصيلين ، وادي النيل ووادي الرافدين يجد هنالك في قديم الزمـان علاقات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية سحيقة في القدم ، وقـد تبادل هذان المركزان عوامل الحضارة اجتماعيـا وثقافيا واقتصاديـا ، واستمرت تلك العلاقات في مسيرة هذين القطرين التاريخية تؤثر فيها العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتزويدهما جذبا وطردا مـن حيث شدة فعل تلك العوامل وضعفها ، وبذلك خضعت تلك الصـلات بمجموعها الى الظروف ودرجة فعالياتها ، ومن الجدير بالقول هنـا ان التأثيرات الحضارية عمومـا والثقافية بشكل خاص كانت على قوتهـا وشدتها في طوارىء الوركاء وجهدة نصر ، حيث برزت التأثيرات الحضارية العراقية في العمارة المصرية القديمة كما انتشرت الاختام الاسطوانيـة التي استعملها القدامى وارجع ان تلك التأثيرات انتقلت بواسطة التجارة. وبالطبع فان الشعبين العريقين تبادلا التأثيرات الحضارية في العصـور القديمه وكانا من اكبر العوامل في نشر مظاهر الحضارة الانسانية فـي تلك العهود .

الا ان اوضح ماتم من العلاقات بين الشعبين العراقي والمصري هي تلك التي قامت في العصور الاسلامية ، والتي تميزت بالفتوح العربيـة الاسلامية وبوحدة العقيدة والفكر ولا غرور فان العقيدة والفكر ، من اسس التكوين الثقافي لاي امة من الامم وركيزة التربية القومية لاي شعب من الشعوب ، والنهضة العربية الاسلامية التي انبثقت من جزيرة العرب بزعامة سيدنا محمد (ص) والتي بشرت بتحرير الانسان العربـي من براثن الذل والعبودية اعتمدت قاعدة لتوحيد التفكير الانساني على اساس وحدة الدين والعدالة الاجتماعية ، وبفتح العراق ومصر واضـواء كل منهما تحت راية الاسلام ومعنى ذلك وحدة الفكر الانساني المنبعثة

من روح الدعوة السامية وقد سادت هاتين المنطقتين العربيتين وانتشرت فيهما مظاهر الاسلام ، ففي العراق شيد المسلمون مسجد الكوفة الخالد وفي مصر مسجد ــ الفسطاط المجيد ، وقد تنقل الصحابة والتابعون الكرام بين الكوفة والفسطاط وهم في تلك التنقلات يحملون معهم أفكار مصر الاسلامية الى العراق العربي الاسلامي فانتقل الولاة والقضاة والقادة والتجار بين هذين القطرين العربيين ومعهم عوامل الثقافة العربية الاسلامية •

ولعل ابرز مثل لهذه الرحلات الثقافية رحلة الامام الشافعي الى المدينة الخالدة بغداد سنة ١٩٥ حيث اقام بها سنتين وخرج الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة ١٩٨ حيث اقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر حيث توفي سنة ٢٠٤ هـ • وفي هذه الفترة التي تعتبر من اروع فترات الحضارة الاسلامية حيث اتسعت ميادينها وازدهرت فروعها ونضجت الفنون والاداب والعلوم ، وتحققت للثقافة الانسانية أسمى ما تصبو اليه النفوس ، فقامت بين المدينتين الخالدتين القاهرة وبغداد علاقات ثقافية رائعة •

ولعل من ابرز العلاقات الثقافية التي سادت بين بغداد ومصر انتقال التأثير الجامع العراقي الى مصر ، واوضح الشواهد لذلك التاثير الجامع الطولوني ، والذي شيده احمد بن طولون المولود ببغداد سنة ٢٢٠ هـ • وترعرع في سامراء وكان والده من المقربين الى الخليفة العباسي المتوكل المقتول سنة ٣٤٧ هـ • وفي سنة ٢٥٢ تولى ابن طولون امر مصر ، ولما كان ابن طولون قد نشأ في سامراء وعاصر جامعها الكبير ذا المأذنة الملوية « الحلزونية » فنقل هذا الطراز من البناء الى مصر وقد لعب هذا المسجد دوره العظيم في بعث وتطوير الثقافة الاسلامية ولم يقتصر هذا

الجامع على تدريس العلوم الدينية واللغوية « بل ان القراءات والطب والميقات قد ورست فيه [1] .

وانتقل الى مصر من بغداد في هذه الفترة عدد كبير من العلماء ومن اشهرهم العالم المفسر والمؤرخ والفقيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري والفقيه الشافعي الكبير وامام عصره في الفتوى والتدريس ، ابو اسحق ابراهيم المروزي وقد صنف كتبا عديدة وبقي في بغداد مدة يدرس ويفتي ، ثم ارتحل الى مصر فأدركه آجله بها فتوفي سنة اربعين وثلثمائة [2] ، وكذلك رحل الى مصر من بغداد ابو الحسن محمد بن علي الماسرجسي الشافعي ، وكان من اعرف علماء الشافعية في اصول المذهب في خراسان وسمع بمصر من اصحاب المزني ويونس بن عبد الاعلى ثم عاد بعد مدة الى بغداد وتوفي سنة ٣٨٤ هـ [3] .

وفي سنة ٣٥٨ هـ شيدت مدينة القاهرة الخالدة فجاءت غاية في الحسن وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها ، واسمها الخالد جدير حقا بما اقترن بها من عزة وقوة ومنعة ، وانتشرت في هذه المدينة المساجد العامرة ودور العلم الكبيرة والمدارس الكثيرة ، واصبحت كعبة القصاد ومحط انظار العلماء وطلاب العلم ومهبط التجار واصحاب الحرف والفنون . ومع التطور العظيم الذي أصابته مدينة بغداد والازدهار الكبير الذي بلغته مدينة القاهرة المعزية نمت وازدهرت علاقات وثيقة بين هاتين الحاضرتين الاسلاميتين ، كانت سداها الثقافة العربية الاسلامية

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ٤ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٤٠ .

ولحمتها الاداب والعلوم والفنون الانسانية الخلاقة المبدعة •

وكانت بغداد والقاهرة في القرون الوسطى مركزين عظيمين للاداب والعلوم والفنون وموئل العلماء والادباء والافذاذ ، فقد تجمعت في بغداد ثقافه الشرق بأصالتها وعمقها وتنوع موضوعاتها واحتضنت القاهرة ثقافة الأسلام مع مزاج من الثقافة العربية من التراث اليوناني والروماني، المعروف بسعه ميادينه في صنوف العلم والمعرفة ، فسار طلبة العلم مشرقين ومغربين بين القاهرة وبغداد وانتقلت كتب ورسائل علماء كل من المدينتين الى الاخرى وذاع صيت مشاهير اولئك ، فرحل اليهم من اراد الأستزادة في العلم والاحاطة باداب وعلوم وفنون جديدة ، ويجدر بنا ان نورد هنا بعض الشواهد على تنقل علماء المسلمين بين هاتين المدينتين لنتعرف على مدى اهتمام اولئك الافذاذ بزيارتهما والارتشاف من مناهل علومهما وآدابهما • فعالم محمد بن الحسن المعروف بابن الهيثم من اهل البصرة ومن المشهورين بعلم الهندسة قد زار مصر ايام الخليفة الفاطمي الحاكم وكانت تجول في ذهنة فكرة اقامة سد على النيل يعمل على السيطرة في ايام فيضانة والافادة من الارواء والسفن • والعالم ابو عبد الله محمد بن ابي نصر الازدي الحميدي الاندلسي ، واصله من ريض الرصافة ، رحل الى المشرق سنة ثمان واربعين واربعمائة ، وسمع بمصر والشام والعراق واستوطن بغداد وقد الف كتابه المشهور (جذوة المقتبس) في تاريخ علماء الاندلس ومات في بغداد سنة ٤٨٨ هـ [١] •

وظهر في الاندلس عالم كبير هو ابو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي الاشبيلي مر بالقاهرة ولقي جماعة من المحدثين ، ودخل

---

(١) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤١٠ •

بغداد وسمع بها من جماعة ولقي ابا بكر الشاشي وابا حامد الغزالـي وغيرهما من العلماء ثم عاد الى مصر ومن هناك انتقل الى اشبيلية وتوفي سنة ٥٤٣ هـ .(١)

وقدم من واران وهي من قرى تبريز ابو الخير مظفر بن ابي الخير اسماعيل بن علي الملقب بالامير (٢) ، الى بغداد وتفقه بها على الامـام ابي القاسم بن فضلان وغيره من العلماء حتى حصل طرفا من المذهـب والخلاف والاصول وتكلم في المسائل وتولى الاعادة بالمدرسة النظامية مدة ، ثم خرج من بغداد مسافرا الى الديار المصرية فاقام بها مدة وتولى التدريس بها بالمدرسة الناصرية والمعروفة ايضا مدرسة ابن زين التجار ، ويضيف ابن الصابوني في كتابه تكملة اكمال الاكمال ان اهلها اي مصر استفادوا منه واخذوا عنه ، وتوفي بشيراز سنة ٦٢١ هـ .

وانتقل الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي النوقاني ، من مدينة طوس الى تبريز وسمع بها من ابي منصور محمد بن اسعد حفدة العطاري الطوسي ، ورحل الى بغداد وسمع بها من فخر النساء شهـدة بنت ابي نصر الابري وابي المعالي عبد المنعم بن عبد الله الغراوي وابـي القاسم عبد الرحيم بن اسماعيل النيسابوري الصوفي (٣) وغيرهم مـن علماء بغداد وقدم مصر وسكن بالقرافة بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وحدث بها وتوفي سنة سبع وثلاثين وستمائة بمنزله بالمدرسة المذكورة ، ودفن بالقرافة .

---

(١) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٢) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٥٣ .

(٣) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٣٥٣ .

وكان ابو الحسن علي بن ابي الحسين ، المعروف بابن القصار اللغوي من الادباء المشاهير قرأ الادب على الشريف ابي السعادات ابن الشجري وابو منصور بن الجواليقي وقد برع فنه واقرأ الناس زمانا ، ورحل الى مصر واجتمع بابي محمد بن برى والموفق بن الحلال كاتب الانشاء ، ويذكر ابن خلكان : انه كان عارفا بديوان ابي الطيب المتنبي علما ورواية وقراءة عليه جمع كثير في العراق والشام ومصر وكتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب ، وتوفي ببغداد سنة ست وسبعين وخمسمائة ودفن بمقابر الشونيزي [١] .

والتبريزي ، ابو زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب ، كان من كبار علماء الادب ، قرأ على ابي العلاء المعري وابي القاسم عبد الله بن علي الرقي ، وابي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الادب ، وروي عنه الخطيب البغدادي وابو منصور بن الجواليقي وغيرهما من العلماء ، وقد شغل هذا العالم الاديب كرسي موضوع الادب بالمدرسة النظامية ببغداد ، وكان التبريزي الخطيب قد زار مصر في عنفوان شبابه فقرأ عليه بها الشيخ ابوالحسن طاهر بن بابشاذ النحوي وغيره من علماء النحو. وتوفي التبريزي سنة اثنين وخمسمائة ببغداد [٢] .

ويمثل ابو اسحق ابراهيم بن منصور ، الفقيه الشافعي المصري المعروف بالعراقي ، وضوح العلاقات الثقافية بين القاهرة وبغداد بشكل بين وجلي ، فقد ولد هذا العالم في مصر وتفقه على القاضي ابن المعالي

---

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣ ، ياقوت : ارشاد الاديب ج ٧ ص ٢٨٦ .

مجلي بن جميع الارسوقي المصري الشافعي وكان هذا من اعيان الفقهاء وصنف في الفقه كتاب « الذخائر » ، وانتقل ابو اسحق الى بغـداد واشتغل بها مدة فنسب اليها وقرأ بها الفقه علي ابي بكر محمد بن الحسين الاموي وكان من اصحاب الشيخ ابي اسحق الشيرازي ، وعلي ابـي الحسن محمد بن المبارك بن الخل البغدادي وكان يعرف ببغداد بالمصري فلما رجع الى مصر قيل له العراقي . وتوفي سنة ست وتسعون وخمسمائة ودفن بسفح المقطم [١] .

وفي سنة ٦٣٠ هـ شيد الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة التي عرفت بالمدرسة المستنصرية والتي كانت من اوسع المدارس الاسلاميـة في القرون الوسطى وابهاها وانظمها [٢] ، وجعلها للمذاهب الاربعة ، وروعي في اختيار المدرسين ان يكونوا من المشايخ الفضلاء والمتبحرين في اصول الدين والمذهب وتعذر على المسؤولين وقتذاك العثور عـلى مدرس يشغل كرسي المذهب المالكي فوقع الاختيار على الشيخ سراج الدين عبد الله بن الشرمساحي المالكي ، وكان هذا العالم قد نشأ فـي الاسكندرية وكان من ائمة المالكية وله تصانيف في الفقه والنظر والخلاف ووصل بغداد فاكرمه الخليفة المستنصرية وولاه تدريس المستنصرية [٣].

ونشأت علاقات ثقافية بين القاهرة وبغداد ، وكانت المستنصريـة والنظامية اللتان انشئتا في بغداد سنة ٤٥٩ تشغلان معظم تلك الروابط العلمية والادبية ، فقد رحل من مصر الى بغداد عدد كبير من طلبة العلم

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ٥ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٣ .
(٢) راجع كتاب المستنصرية : الدكتور حسين امين .
(٣) حسن المحاضرة : ج ١ ص ١٩٤ .

وشيوخه للحصول على ثقافات جديدة او للاشتغال في مدارس بغداد الشهيرة فالفقيه عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ، الذي تفقه في بلده دمياط وانتقل الى القاهرة واجتمع بالحافظ ابي محمد عبد العظيم المنذري وجالسه سنين طويلة واخذ عنه علم الحديث وكتب عنه جماعة كثيرة واقبل على هــذه الصناعة وارتحل الى بغداد [1] وقــد سمع الحديث من ابــي الهدينة [2] .

وممن تفقه في مدارس بغداد صقة بن ابي الكرم اليعقوبي وقدم الى مصر وولى القضاء باعمال الاشعونين ثم رجع الى بغداد واعاد بالنظامية وولى قضاء يعقوبا .

واشهر من تفقه في مدارس بغداد ، بن شداد ابو المحاسن يوسف ابن رافع ، والذي اقام معيداً بالمدرسة النظامية ببغداد اربع سنين ، ومن اشهر كتبه « ملجأ الحكام عند التباس الاحكام » واتصل بن شــداد بالسلطان صلاح الدين الايوبي وصار من معتمديه ورجال دولته الاكفاء. كذلك العالم ابو عبد الله محمد بن صفي الدين ابو الفــرج المعروف بالعماد الاصفهاني ، وتفقه ببغداد بالمدرسة النظامية وهو الاخر من الذين وثق بهم السلطان صلاح الدين الايوبي ، واعتمد عليهم واصبح مــن جملة الصدور المعدودين يضاهي الوزراء [1] ومن اشهر تصانيفه كتاب فريدة القصر وكتاب البرق الشامي وكتاب الفيح القسي فـ يالفتــح

---

(1) السلامي / بغداد ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن خلكان : ج ٦ ص ٨٤ .

القدسي وتوفي العماد الاصفهاني في رمضان سنة ٥٩٧ هـ [١] . وتفقه بنظامية بغداد ، عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط ولد بدمياط وتوجه الى بغداد ، فتفقه على الربيع الواسطي مدرس النظامية وتميز في الفقه والخلاف وسمع الحديث ثم رجع بلده واقام بها قاضيا ومدرسا مدة ، ثم ولي قضاء مصر والوجه القبلي وسار فيه سيرا حسنا ، ثم عزل واعيد الى دمياط ومات سنة ٦١٩ هـ [٢] .

ومن المشاهير الذين كان لهم الفضل في حمل التاثيرات الحضارية بين مصر والعراق العالم عبداللطيف البغدادي والمعروف بابن اللباد وبابن نقطة من فلاسفة الاسلام واحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والادب ، مولده ووفاته ببغداد واقام مدة في حلب وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وفلسطين والحجاز وغيرها من البلدان الاسلامية ومن اشهر كتبه « الافادة والاعتبار بما في مصر من اثار » وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ١٢٣١ م .

وممن تفقه بالمدرسة المستنصرية في بغداد احمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن عسكر المالكي القاضي شرف الدين البغدادي الاصل ، وولى القضاء بمدينة دمياط ثم دمشق وولي بالقاهرة ونظر الخزانة [٣] .

ومن الذين تنقلوا بين بغداد والقاهرة عالم جليل ومحقق كبير ، الحافظ المدقق محمد بن محمد محمود الدين البابرتي ، وكان بارعا في

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٨ .
(٢) السيوطي / حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩١ .
(٣) السلامي /علماء بغداد ص ٨٩ .

الحديث وعلومه ذا عناية باللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان ، اخذ الفقه عن قوام الدين المالكي عن حسام الدين حسن السغناقي عن حافظ الدين الكبير محمد البخاري ، وله تصانيف عديدة ، منها شرح الهداية وشرح تجديد الطوسي وغيرها من المؤلفات المهمة ، رحل الى حلب وأخذ من علمائها ثم رحل الى القاهرة وأخذ من شمس الدين الاصفهاني وابن حسيان (محمد بن يوسف بن علي بن حيان الاندلسي) ، وعرض عليه القضاء مرارا [1] وقال عنه السيوطي انه علامة المتاخرين وخاتمة المحققين برع وساد ودرس وافاد .

ومن العلماء الذين درسوا في بغداد العالم أمير كاتب العميد ابن امير غازي قوام الدين الاتقاني الفارابي ، وكان مدرسا في مدرسة مشهد ابي حنيفة وقدم مصر فاكرمه الامير صرغتش وبنى له المدرسة الصرغتمشية [2] ودرس فيها اول ما فتحت وكان راسا في مذهب الحنيفة بارعا في الفقه واللغة العربية [3] . وآخر من وصلت لنا أخباره من مدرسي المستنصرية ببغداد ، محب الدين احمد بن نصر الله بن احمد بن محمد بن عمر البغدادي الحنلي ، المعروف بالمحب ، ولد ببغداد سنة ٧٦٥ ودرس على والده جلال الدين ، الفقه والاصول سنة ٧٨٦ وزار بيت المقدس وتوجه الى القاهرة وقطن فيها واخذ عن المشايخ الكبار فيها ، ومنهم زين الدين العراقي وابن الملقن وسراج الدين البلقيني ، وصار فقيه الحنابلة وعالمهم . ثم تولى أبوه تدريس الحديث بمدرسة الملك الظاهر برقوق واخذ يتناوب مع والده في التدريس ثم استقل بذلك

---

(١) طبقات الحنفية : ص ١٩٥ .
(٢) طبقات الحنفية : ص ٥٠ .
(٣) حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٠٠ .

بعد موت والده سنة ٨١٢ ايضا تدريس الحنابلة بالمؤيدية وبالمنصورية .

هذه بعض النماذج من صور العلاقات الثقافية بين المدينتين الخالدتين بغداد ومصر على الصعيدين الشعبي والرسمي ، وهناك عدد كبير متوفر في كتب التراجم والتاريخ العام من الشخصيات العربية الاسلامية التي لعبت دورا كبيرا في توطيد العلاقات الحضارية وكانت عاملا مهما في نقل الافكار التعليمية بين بغداد والقاهرة وعملت على ازدهار الثقافة العربية الاسلامية .

وتتيجة لتلك العلاقات انتشرت في بغداد والقاهرة اسماء مشاهير العلماء من مصر والعراق كما انتشرت مصنفاتهم وتآليفهم وتبادل اوائك العلماء المجهودات الادبية والعلمية ومنح بعضهم البعض الاجازات العلمية، اعترافا منهم بالجهود العلمية ودليلا ناصعا على دافع العلاقات الثقافية الاصلية .

فقد اجيز عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي من العالم الفقيه عبد المؤمن بن خلف الديمياطي [١] وذكر المنذري في ترجمة الصالح بن محمد عبد العزيز بن دلف البغدادي بانه قد حصل منه على اجازة[٢]

وكتب التراجم كذلك متوفر فيها اسماء الكثيرين من العلماء الذين اجيزوا في القاهرة من علماء بغداد وبالعكس . ولعل من ابرز النتائج انتقال المدرسين العراقيين الى القاهرة ورحلة المدرسين المصريين الى بغداد للعمل في مدارسها كمدرسين او زائرين، وكان لهذا اثر كبير في توحيد

---

(١) تاريخ علماء بغداد ص ١٢٢ .

(٢) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ج ٥٥ ص ٢٤٩ .

البرامج الثقافية وتعميق الدراسات الادبية والدينية .

ان ظهور الحركة المدرسية في المشرق الاسلامي على عهد الوزير نظام الملك السلجوقي عامة وفي العراق خاصة وما تبعها من تطور لتلك الحركة وتوسيع وتنظيم ، كان له الاثر الكبير في انتقال تلك الفكرة الى الاقطار الاسلامية ولاسيما مصر والشام ، ويجد الباحث المدقق ان هناك الكثير من المدارس التي بنيت في القاهرة زمن السلطان صلاح الدين الايوبي، الذي سار على غرار سياسة نظام الملك السلجوقي في نشر المدارس الاسلامية والعمل على تشجيع تشييدها ، وان تلك المدارس التي شيدت في القاهرة كانت هي الاخرى اتجهت وجهة الفكرة العراقية ، فصارت المدارس تشيد لتدريس فقه مذهب من المذاهب ، فالمدرسة الناصرية التي اقيمت بجوار الجامع العتيق بمصر ويذكر المقريزي ، انها عرفت اولا بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين النجار احد اعيان الشافعية درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في ذي القعدة سنة اخرى وتسعين وخمسمائة للهجرة ثم عرفت بالمدرسة الشريفة وكانت هذه المدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، كما شيدت المدرسة القمحية سنة ٥٦٦ هـ وكانت خاصة بالفقهاء المالكية ، كما اوقف السلطان صلاح الدين الايوبي المدرسة السيوفية على الحنفية . وهذا كما نلاحظ تماما كما كان سائدا في بغداد ، فالنظامية في بغداد كانت برسم الفقهاء الشافعية ، ومدرسة ابي حنيفة كان قد اوقفها مؤسسة على الفقهاء الحنفية ومدرسة عبد القادر الجيلي بباب الأزج كانت خاصة لفقهاء الحنابلة ، فلا غرو اذن ان الاتصال السياسي والاقتصادي والثقافي الذي كان يسود المنطقة الاسلامية وعلى الاخص العراق ومصر ، وكان عاملا مهما في نقل الفكرة المدرسية الى القاهرة .

وفي سنة ٦٣١ افتتحت المدرسة المستنصرية ببغداد تلك التي شيدها الخليفة بالله العباسي ، وجعلها موقوفة على المذاهب الاربعة ، وصار لكل مذهب من المذاهب السنية ركن خاص وله مدرسوه ومعيدوه وطلبته ، كما درست علوم الطب والادوية في هذه المدرسة العظيمة [١] وفي سنة ٦٤١ هـ شيد الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل ، مدرسة عرفت بالمدرسة الصالحية ، وكان بها قاعات لكل مذهب من المذاهب السنية ، ويبدو انها انشئت على غرار المستنصرية ببغداد ، والصالحية هي اول مدرسة اقيمت لتدريس المذاهب السنية الاربعة ، يؤيد قولنا هذا ما ذكره المقريزي عن هذا العمل اذ قال : وهو اول من عمل بديار مصر دروسا اربعة في كل مكان [٢] .

ومما لا شك فيه ان المدارس التي نهضت في بغداد وانتشرت انتشارا واسعا كانت تخدم فكرة نشر المذهب السني والعمل على تقويته والدفاع عن اصحابه ، وان انتقال الفكرة المدرسية الى مصر ايام الحكم الفاطمي معناه ، العمل في مصر على اضعاف الدولة الفاطمية الشيعية واسناد المذهب السني،وفعلا عملت المدارس السنية خاصة تلك التي انشأها السلطان صلاح الدين الايوبي ، عملها المؤثر البالغ في اظهار المذاهب السنية وضعف وانزواء المذهب الشيعي الذي كان المتنفذ والسيطر على مصر باسرها ، ولعل هذه من النتائج الكبيرة للعلاقات الثقافية التي كانت سائدة بين القاهرة وبغداد والتي كانت حصيلة نشر المدارس في أرض الكنانة .

---

(١) المستنصرية : للدكتور حسين امين ص ٥٦ .
(٢) المقريزي / الخطط ج ٤ ص ٢٠٩ .

ان بغداد والقاهرة لعبتا دورا مهما في تاريخ العرب الحضاري في ميادينه الواسعة ولكننا نجد العلاقات الثقافية تبرز بوضوح بين المدينتين العربيتين الخالدتين فاصالة الحضارتين بين الشعبين العراقـي والمصري وارومة العروبة الرابطة بينهما ووحدة الدين الحنيف والمصالح التاريخية المشتركة ، روابط اساسية لقيام تلك العلاقات الحضارية التي برزت بشكل بين العصور الاسلامية ، وكان لها الاثار البعيدة في نشر الاداب والعلوم والفنون ، وتطور الحضارة الانسانية وازدهارها .



دراسة لرحلة برتراندون دي لا بروكيير
إلى فلسطين ولبنان وسورية
"١٤٣٢م"

الدكتور محمود زايد
أستاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة
الأميركية ببيروت

١ ـ آخر محاولة برغندية للقيام بحرب صليبية ورحلة بروكيية

كان سقوط عكا في أيدي المماليك (١٢٩١) نقطة فاصلة فـي تاريخ الحروب الصليبية، اذ لم تلبث المراكز الباقية للصليبيين أن تساقطت كاوراق الخريف تحت وطأة الضربات التي وجهها اليها المماليك ، ولاذ من كتبت لهم النجاة بالفرار الى قبرص. وشهد القرن الرابع عشر تطورات في اوربا وفـي الشرق الادنى جعلت مـن قضية استرجاع الاراضي المقدسة حلما باهظ التكاليف عسير التحقيق (١) .

فالروح القومية التي كانت آخذة في النمو في اوروبا خلال ذلـك القرن ، وتنافس الدول القومية ، وحروب السنين المئة بين فرنسا وانجلترا،

والموت الاسود ، وانصراف الجمهوريات الايطالية الى تنمية علاقاتها التجارية مع المماليك وما طرأ على تفكير الكتاب من تحول تجاه موقف الغرب النصراني من الشرق الاسلامي مؤداه ان الغرب يجب ان يعمل على تنصير المسلمين بدلا من قتلهم ـ كل هذه التطورات لم تكن تساعد على الحرب في سبيل استعادة الاراضي المقدسة •

وكذلك شهد الشرق الادنى الاسلامي تطورات جعلت من تجدد تلك الحروب في الديار المقدسة والبلدان المجاورة امرا غير عملي ومصيره الفشل في الاغلب • فالسلطنة المملوكة كانت قوية وآخذة في التوسع، وتتمتع بازدهار عظيم • واستطاعت بتوسعها ان تتجاوز ضم سوريا الى الاستيلاء على ارمينيا الصغرى التي كانت تمثل كاخر نصر للكاثوليكية في الشرق • ثم كان هناك الزحف التركي الذي أثار موجة قوية من الخوف والذعر في اوروبا • ويذهب الاستاذ عطية الى أن توسع الاتراك أدى الى تغيير مفهوم الحرب الصليبية • ويجد مبررا لاعتبار معركة نيقوبوليس نهاية فصل وبداية آخر في تاريخ تلك الحروب والدعوة لها اذا أدى زحفهم الى نقل ميدان المعركة بين الشرق والغرب الى اوروبا ذاتها والى تحول الاوروبيين من الهجوم الى الدفاع •

لكن بالرغم من هذا كله فان فكرة القيام بحملات صليبية اخرى ظلت تراود اذهان عدد من ملوك اوروبا وقادتها • فقد كان وقوع عكا قد اثار الكثير من الخوف والغضب في اوروبا • وكانت قبرص قد اعلنت الحداد وحتى بعد سقوط تلك المدينة بقرن لاحظ الرحالة مرتوني (١٣٩٤) ان نساء قبرص يلبسن عباءات لاتكشف شيئا سوى عيونهم «بسبب الأسى والحزن العميق اللذين ولدهما ضياع عكا وغيرها من المدن السورية » [٢] • وتلا سقوط عكا تدفق أدب الدعوة الى حروب أخرى

من اقلام الحجاج والادباء الذين انبروا يحرضون الامراء والبابوات على استرجـاع تراث المسيح والقضاء على سلطان المماليك ، ووقف زحـف الاتراك • ومن اقدم ماوصلنا من كتب الدعوة هـذه بعد سقوط عكـا ما كتبه ثاديو النابولي الذي وصف سقوط المدينة ووجه رسالة الى الامم النصرانية لاثارة حماستها ودفعها الى استئناف الحرب الصليبية • وكان بين المحرضين على الحرب ليو السادس الذي فقد مملكته في ارمينيـة الصغرى (١٣٧٥) وبيير الاول لوزنيان الذي فقد قبرص •

وكان من اشد المتحمسين للحرب الصليبية دوقات برغندية الذين كانوا يحكمون اغنى مقاطعات اوروبا ويتخذون بلاطا اسبغوا عليه مـن الفخامة والابهة ما اثار دهشة أهل غرب اوروبا وجعلهم يرون فيه نهضة مزدهرة تضاهي النهضة الايطالية [٣] •

وشهد بلاط فيليب الطيب (١٤١٩ ـ ١٤٦٧) آخر محاولة قام بها دوقات برغندية لتجريد حملة صليبية • ففي مستهل القرن الخامس عشر لفتت الهزائم التي الحقها المغول بقيادة تيمورلنك بالاتراك العثمانيـين انظار الاوروبيين • اذ اجتاح تيمورلنك آسيا الصغرى وسوريا كالاعصار ناشرا الخراب والدمار اينما حل • وبالرغم من أن هذه الموجة المغوليـة الطاغية لم تلبث ان انحسرت بسرعة ، فقد بعثت في صدور الاوروبيين الامل في صد الخطر التركي ، وحفزت بعض قادتهم على التفكير بتجريد حملة صليبية •

وكان من اعظم المتحمسين لهذا المشروع هنري الخامس ملك انجلترا، وفليب الطيب دوق برغندية • وكانت لديهما حوافز متشابهة • كان كلاهما طموحا يسعى الى تحقيق ما يعجز غيرهما عن تحقيقة • وكان والد هنري

الخامس قد سقط في الميدان وهو يحارب من اجل الصليب ووقع والد فليب اسيرا في يد الاتراك خلال معركة نيقو بوليس ، فصار فليب ينظر الى تلك المعركة لا على انها اذلال لسيجسمند صاحب المجر فحسب ، بل لبرغندية ايضا .

ومن اجل التمهيد للقيام بحرب صليبية ، أوفد هنري الخامس وفليب الطيب جلبرت دى لانوي الى الشرق الادنى لزيارة مصر وسوريا، وذلك في عام ١٤٢١ . وكان جلبرت حاجبا عند الدوق فليب . وحالف التوفيق هنري وفليب في اختياره . اذ كان قد قام بالحج الى القدس وسيناء . اما في هذه المرة فقد سافر بوصفه سفيرا . وعرج على بروسيا وبولندا وروسيا ووزع عددا من الهدايا الثمينة التي ارسلها هنري الخامس معه .

واشتمل تقرير لانوي على معلومات ذات اهمية عسكرية كبيرة، ضمنها وصفا للموانىء تطرق فيه الى صلاحيتها لاستقبال السفن ووصف الاسوار والقلاع وقوة المماليك . على ان هنري الخامس توفي قبل عودة لانوي . ولم يعكر صفو ساعاته الاخيرة سوى فشله في تحرير الاراضي المقدسة. فحمل عبء التفكير في الحرب المقدسة فليب الطيب الذي كان يطمح الى النجاح في ميدان فشل فيه غيره .

ووقع اختيار فليب على فارس من دوقية جبين اسمه برتراندون دي لا بروكيية للقيام بهذه المهمة [٤] . ويظهر اسم هذا الفارس لاول مرة في سجلات الدوقات البرغنديين عام ١٤٢١ ، وهو يحمل لقب المشرف على السماط السلطاني الذي يقابل لقب « خوان سلار » عند المماليك . وفي السنوات التالية كلفه فليب الطيب بالقيام بمهمات سرية في بلاطات

الامراء والملوك الاوربيين كافأه الدوق عليها بمنحه قصر فيوشاتو .

اوضح برتراندون الغرض من رحلته في مستهل ما دونه عن رحلته التي بداها عام ١٤٣٢ م بقوله (٥) :

«حفزا لهم النبلاء الذين يرغبون في الاسفار ، واجابه لأمر سيدي المعظم القدير المرهوب الجانب فليب الذي هو ، بنعمة الله ، دوق برغندية وبرابانت ولمبور ولوتييه ، وكونت الفلاندرز وأرتوا وبرغندية ، وسيد هينو وهولندا وزيلند ونامور ، ومركيز الامبراطورية المقدسة ، وصاحب سالين ومالين ،

« أنا برتراندون دي لابروكييه ، المولود في دوقية جيين ، وسيد فيوشاتو ، ومستشار دوق برغندية المعظم ، والمشرف على سماطه (خوان سلار)، قد دونت تلك الرحلة المتواضعة التي قمت بها ، طبقا لما اسعفتني به الذاكرة ، وما كنت قد سجلته بسرعة على شكل مذكرات ، حتى اذا رغب ملك او امير مسيحي في ان يفتح القدس ، وان يزحف عليها برا بجيش ضخم ، او حدث بأحد النبلاء الرغبة في الذهاب اليها والعودة منها ، كان على معرفة بالبلدان والمدن والاقاليم والمناطق والانهار والجبال والممرات في مختلف الاقطار ، وبأصحاب الامر فيها ، وذلك ابتداء من القدس حتى الوصول الى برغندية » (٦) .

وقام بروكييه بمهمته خير قيام ، وتغلب الجانب العسكري في رحلته على الجانب الديني،وجاءت دراسته للاتراك على جانب كبيرمن الاهمية، فقد عرض لاسرار قوتهم ، وهي طاعتهم التامة للسلطان ، وحسن دربة افراد الجيش واسلحتهم الخفيفة . ويورد بروكييه الشروط التي لا بد من توفرها اذا ما اريد توجيه حملة عسكرية الى بلاد الاتراك . فيرى ان الملك الذي يقوم بحملة صليبية يجب الا يهدف الى الكسب الشخصي،

وان يؤمن وجود المال اللازم لهذه الحملة ، وان يتألف جيشه من فرنسيين وانجليز ، وأن يطيع افراد الجيش قائدهم اطاعة تامة .

وقد لقيت رحلة بروكييه اهتماما كبيرا لدى الدوق فيليب . وحدث في تلك الاثناء ان استغاث الامبراطور البيزنطي به ، وطلب منه المساعدة بواسطة جان تورزلو . فقدم الدوق طلب الامبراطور لبروكييه لدراسته وتقديم التوصيات اللازمة بشأنه واستجاب بروكييه لطلب الدوق ، وقدم تقريرا موجزا ضمنه رأيه بشأن مشروع ارسال حملة ضد الاتراك . ولكن آراء بروكييه في هذا الموضوع جاءت مخيبة لامال الدوق . اذ يظهر ان بروكييه قد اكد ان غزو تركيا ليس بالامر الهين ، وان استعادة البلاد المقدسة بطريق البر امر غير عملي .

لكن الدوق فيليب لم يرجع عن عزمه . فاوفد الاسقف جان جرمين الى بلاط شارل السابع ملك فرنسا يدعوه للاشتراك في رد خطر الاتراك « فالمنتصر عليهم ياتي في الدرجة الثانية بعد داود وقسطنطين وشارلمان» . الا ان نفوذ الدوق وبلاغة الاسقف لم تستطيعا التأثير على الملك الذي كان أمر تنظيم مملكته يستحوذ عليه ويصرفه عن توجيه اي قسط من نشاطه لغزو الاتراك .

وجاءت اخيرا الضربة التي قضت على تنفيذ القيام باي حرب صليبية جديدة وهي سقوط القسطنطينية في يد الاتراك في ٢٩ ايار ١٤٥٣ . وكانت الصدمة قوية لفيليب الذي اعتبر الحادثة اهانة شخصية له . ولكنه مع هذا لم يفقد الامل مطلقا في القيام بالحرب الصليبية فقام بدعوة فرسان اوروبا الى احتفال اظهر فيليب خلاله استعداده لغزو الاتراك بل وحتى « لمبارزة السلطان اذا رغب في ذلك » ولكن دعوته لم تجد اذنا صاغية . وهكذا انتهت اخر محاولة دوقات برغندية بالفشل .

٢ ـ سير الرحلة

غادر بوكيبه بلاط سيده ، الدوق فيليب الطيب دوق برغندية ، في غنت في فبراير (شباط) من سنة ١٤٣٢م وسافر الى روما برا ومن ثم الى البندقية • وفي الثامن من مايو (ايار) ركب السفينة مع عدد من الحجاج الى يافا مارا ببولا وزارا وكورفو ومودون ورودس وقبرص •

ووجد بروكييه يافا خربة ، وسار الى الرملة وكانت غير مسورة • وعرج في طريقه على اللد ثم واصل سيرة الى القدس فوصلها بعد يومين • وبعد ان قام بالزيارات المعتادة ذهب الى الاردن حيث عمد المسيح ، كما زار بيت لحم •

وفي القدس اتصل بروكييه بكبير التراجمة ، ويدعوه نانخاردين (وقد يكون اسمه نصير الدين) ليرتب له زيارة الى دير القديسة كاترينة في سيناء • ولكنه لم يواصل سفره الى مصر • اذ يظهر ان رحلته كانت ستقتصر على البلاد الاسلامية في الشرق الادنى باستثناء مصر • وعليه فان تقرير لانوي جاء أفضل من تقريره وأوسع منه • ويشير بروكييه الى القسوة التي كان يعامل بها الحجاج في غزة • ومر خلال عودته الى القدس بعسقلان • ولم يتمكن من مغادرة القدس قبل التاسع عشر من اغسطس •

وكان في هذه الاثناء ، قد فكر في العودة الى فرنسا بطريق البر على الرغم مما كان سيتعرض له من خطر • ولكنه قام ببعض الزيارات قبل عودته • فغادر القدس الى يافا ثم الى عكا التي لم يكن فيها عندئذ اكثر من ثلاثمئة بيت • وواصل سفره الى بيروت مارا بصور وصيدا • ووجد

ميناء بيروت في حالة حسنة . ثم توجه الى دمشق اهم مدينة في السلطنة بعد القاهرة من حيث اهميتها وغناها فوصلها بعد يومين . ولاحظ في دمشق وجود العديد من التجار النصارى الذين كانوا يلجأون الى خاناتهم عند غروب الشمس ، ولا يعودون الى فتحها الا في اليوم التالي عند شروقها . وغادرها بروكييه الى بيروت وقام بزيارة الناصرة وجبل طابور، ثم عاد الى دمشق حيث التقى بعربي اسود كان قد وصل من القاهرة على جمل في مدة ثمانية ايام فقط .

ولما كان بروكييه قد اعتزم العودة الى اوروبا برا فقد قدم نفسه لرئيس قافلة الحج العائدة من مكة واسمه هويارباراخ (خوجابرق؟) وادعى انه يود زيارة اخ في بروسه . فقبل رئيس القافلة ان يضمه الى مماليكه على ان يلبس مثلهم .

وقبل ان تغادر القافلة دمشق ، قام بروكييه بزيارة دير السيدة صيدنايا حيث شاهد الصورة التي يقطر منها زيت . وتحركت القافلة في ٦ اكتوبر من سنة ١٤٣٢ ، ومرت بحمص . فوجد بروكييه المدينة جميلة محاطة باسوار وخنادق . وفي حماه تعرف بروكييه على تاجر بندقي يدعى لورانت سوارنز . فاحسن هذا وفادته وتجول معه في انحاء المدينة .

ويدخل بروكييه بعد ذلك ارمينية ، وكانت عاصمتها انطاكيا . فوجد اسوارها في حالة جيدة اما بيوتها فلم تكن تزيد عن ثلاثمئة بيت . ويضيف ان صناعة اهلها الرئيسية هي تربية الماشية .

ثم يقطع بروكييه اسيا الصغرى ويصف حياة الاتراك ويعدد صفاتهم. ويقول بانهم قوم مرحون ، ولهذا ينبغي على من يريد ان يعيش بينهم

الا يكون عبوسا ، ثم يشيد بروكييه بكرمهم .

ويواصل بروكييه سفره الى بروسة التي هرع اهلها لاستقبال القافلة . وهناك قام بعض المستقبلين بتقبيل يد بروكييه ظنا منهم بانه احد الحجاج . ويصف بروكييه اهمية بروسة فيقول انها كانت مركزا تجاريا وان فيها مقبرة السلاطين وسوقين كبيرتين .

ويتابع بروكييه رحلته الى القسطنطينية ، ملتقى التجار من امم عديدة اهمها البنادقة ، الذين كان يتولى تنظيم امورهم هناك مشرف خاص وهو امتياز كانوا قد حصلوا عليه منذ زمن طويل . ويحزفي نفس بروكييه انه لم يبق للامبراطور البيزنطي الا ظل من مجده السابق ، وانه يدفع للاتراك جزية تبلغ عشرة آلاف دوكة .

وغادر بروكييه القسطنطينية في ٢٣ يناير (كانون الثاني) من عام ١٤٣٣ الى ادرنة ، فيذكر انها مدينة تجارية مأهولة بالسكان قائمة على نهر ماريزا وتبعد مسيرة ستة ايام من القسطنطينية .

وقد تجول بروكييه في القسم الاوروبي الخاضع للاتراك . وامدنا بمعلومات قيمة عن الجيش التركي . ويغادر بروكييه ادرنة في الثالث عشر من مارس (اذار) من سنة ١٤٣٣ الى مقدونيا ثم الى صوفيا التي رآها احسن مدن بلغاريا عندئذ .

ويعود بروكييه الى بلاط سيده دوق برغندية ويقدم له حصانه ولباسه العربي والقرآن وحياة النبي باللغة اللاتينية .

٣ ــ دراسة للرحلــة

أ ــ الرحلة وأدب الرحلات :

يمكن القول ان بروكييه استهل برحلته عام ١٤٣٢ فترة جديدة في أدب الرحلة الى الاماكن المقدسة ، وهي فترة الانتقال من الرحلات الوصفية السائدة في العصور الوسطى الى الرحلات الحديثة • وقد بلغت فترة الانتقال هذه ذروتها برحلتي فيلكس فابري الذي زار الشرق مرتين بين سنتين ١٤٨٠ و ١٤٨٣ (٧) •

كان الحافز الاكبر لزوار الديار المقدسة من الاوروبيين منذ اوائل العصور الوسيطة الى أوائل القرن الرابع عشر هو الحافز الديني لا حافز حب الاستطلاع وزيادة المعرفة بدراسة البلاد دراسة متعددة الجوانب ودراسة عادات اهلها وحياتهم السياسية والاجتماعية • وعليه فان اهتمامهم كــان يتركز في زيارة الاماكن المقدسة ووصفها ومحاولة تعيين الاماكن ومسارح الاحداث الواردة في التوراة • ولم تكن النظرة النقدية بعد قد تطورت عند الرحالة واستخدمت في محاكمة كثير من المفهومات والمعلومات الشائعة •

ومنذ اوائل القرن الرابع عشر نجد عند الرحالة حوافز اخرى للرحلة الى جانب الحافز الديني مثل حب الرحلة ، والمجازفة ، والسعي في سبيل تشجيع التجارة ، والكسب المادي والتبشير • الا ان مدوناتهم لم تخرج من حيث جوهرها عن مدونات من سبقهم •

وجاءت رحلة بروكييه في اوائل القرن الخامس عشر تحمل عــددا

من سمات الرحلات الوصفية الحديثة • اذ يكاد قارىء رحلته ان لا يعرف ان القائم بها هو احد حجاج العصور الوسطى • فهو لا يعير الاماكن المقدسة ووصفها من الالتفات بقدر ما يعير قافلة الحجاج العائدة من مكة • وعلى الرغم مما كان يسيطر عليه من تحامل على اهل البلاد فلم يمنعه هذا من تعدي حدود المعرفة السطحية مع من تعرف اليهم ، وعقد صداقة متينة مع مسلمين • ولعل بروكييه اول مسيحي انضم الى قافلة الحجاج ليتمكن من العودة الى اوروبا برا بالرغم من تحذير من استشارهم في الامر من الاقدام على تلك المغامرة •

ومما يستلفت نظر القارىء الرحلة هو دقة ملاحظة بروكييه واهتمامه بامور كثيرة لم تكن لتستلفت أنظار كثيرين ممن سبقوه من الرحالة • ولهذا جاءت رحلته غنية بوصف عدة جوانب من الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى في القرن الخامس عشر • فلم يفت بروكييه ان يسجل وصف الخيمة وطريقة نصبها • ويصف طريقه نعل الحصان ، واحتفال اهل بيروت بالعيد ، وحفلة لشرب النبيذ •

ونجح بروكييه في اجتذاب القارىء واثارة اهتمامه بتسجيله للمصاعب والمخاطرات الشخصية التي تخللت رحلته • فتراه يطيل في وصف الحيوان الذي لقيه في الصحراء يقول :

« ولم نر ونحن نجتاز الصحراء مما يستحق الذكر غير حيوان كنت اول مرة من شاهده صبيحة احد الايام ، كان يعدو على اربع ، ولا يتجاوز ارتفاعه طول الكف ، ويبلغ طوله ثلاث اقدام • فهرب ادلاؤنا العرب لدى رؤيته ، وعدا هو ايضا هاربا • فنزل السيدان اندريو وفولدري وقد استلا

سيفيهما . فلما اقتربا منه اخذ يصرخ كالقطة عندما يلحق بها الكلب . فضربه فولدري برأس سيفه على ظهره، ولكنه لم يصبه بأذى بسبب ما يكسوه من زوائد كثة تشبه زوائد السمك البحري، فوثب الحيوان عليه، فعالجه بضربة من سيفه اصابت عنقه، فقطع مقدار ربعها او ثلثها ، فانقلب على ظهره ومات . وكان له ذنب طويل يشبه ذنب السحلية الخضراء الكبيرة ، واقدام كيدي الطفل ، ورأس ارنب بري كبير . وكان ترجماننا ومن معنا من العرب يقولون انه حيوان شديد الخطر » (٨) .

ولا يظهر بروكييه اهتماما بتقصي ما يسمعه من اخبار فيما عدا ما يختص بالهدف الاساسي من رحلته وهو الناحية العسكرية . فهو يخلط بين نهري الفرات وجيحون ، وبين طبرية والسامرة ، وبين مكة والمدينة . ويقبل ما يسمعه من اخبار غير صحيحة عن الديانة الاسلامية مثل خبره عن الحجاج الذين يفقأون عيونهم بعد زيارة قبر الرسول صلوات الله عليه ، ولكنه في الوقت ذاته يتقصى اخبار قلعة دمشق ويبحث في اسرار ما يحرزه الاتراك من انتصارات في حروبهم . ومعلوماته في هذا الصدد صحيحة .

على ان السجل الذي خلفه فيلكس فابري لرحلته بقصد الحج الى الاراضي المقدسة اقرب الى الرحلات الحديثة من الاثر الذي خلفه لنا بروكييه . فقد اسهب فابري في وصف المشاهد التي زارها الى حد انه ترك لنا صورة اقرب ما تكون الى الكمال للاماكن المقدسة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذا فضلا عن استخدامه للنقد في وصف ما شاهده . وربما كانت محاولته لاستخدام النقد التاريخي الاصيل في بحث موقع القبر المقدس اول محاولة من نوعها في العصور

الوسيطة • وبفابري بلغت فترة الانتقال من رحلات العصور الوسيطة الى الحديثة ذروتها •

ب ـ بروكييه وحياة السكان الاجتماعية :

وصل بروكييه الى الشرق الادنى الاسلامي وهو متحامل على سكانه شأن أكثر الحجاج المسيحيين الأوروبيين خلال العصور الوسيطة • ويتجاوز بروكييه التلميح الى التصريح عن هذا التحامل ، فتراه في اكثر من مناسبة يسجل ما يسمعه مثل قوله : « ولما اوصيت بان لا اثق في العرب من هذه الملة الضالة » ويقول في مكان آخر « واورد هذه الحادثة لا بين أن سكان دمشق قوم اشرار على الانسان ان يتجنب المشاجرة معهم » ويقول في مكان ثالث : « لكن البعض حذروني من خداع العرب وعدم وفائهم بعهودهم • واذكر هذا لفائدة من يتعاملون مع العرب لأن هؤلاء هم بالفعل كما وصفوا لي » •

ويعود هذا التحامل في الاكثر الى ما كان يرد في تقارير الرحالة السابقين عن الصعوبات التي كان الحجاج يلقونها خلال زياراتهم للاماكن المقدسة ، والى وصية الرئيس الفرنسيسكان باللاتينية والايطالية للحجاج قبيل مغادرتهم الرملة الى القدس • وكانت هذه الوصية تتضمن قواعد وارشادات للحجاج عليهم اتباعها خلال اقامتهم في البلاد المقدسة •كان يوصيهم بان لايثقوا بالعرب حتى بمن تودد منهم الى الحجاج •

لكن لا يلبث بروكييه ان يمتدح العرب وحسن استضافهم للغريب بعد ان جرب ذلك بنفسه • ففي طريقه الى غزة استضافه بعض العرب • ويذكر ان العرب الذين كلفوا بالعناية به بالغوا في السهر على راحته • ويضيف الى ذلك انهم لم يسلبوه ماله وامتعته • وفي موضع آخر ينوه

باستضافة عربي له وهو في طريقه الى طبرية ، ولكنه لم يدرك ان العربي فعل ذلك بدافع الكرم لا طمعا في النبيذ الذي كان يحمله • وحماه احد افراد القافلة التي انضم اليها للعودة برا من تركمانيين • يقول :

« ولما رأى التركمانيان جودة ملابسي وحصاني الفاخر وسيفي الجميل وجعبتي الكاملة اقترحا على (صاحبي) المملوك ، كما اخبرني فيما بعد عندما افترقنا ، ان يجهزوا علي نظرا لانني نصراني غير جدير برفقتهم • فأجابهما المملوك بان مثل ذلك العمل يعتبر جرما كبيرا طالما أنني بحسب العرف قد شاركته خبزه وملحه ، وأن الله خالق العرب والنصارى على السواء • أما انا فلم اشعر بشيء من ذلك •

ويسهب بروكييه في وصف قافلة الحج العائدة من مكة الى دمشق ، ويذكر انها كانت تتألف من ثلاثة الاف جمل • ويظهر ان بروكييه استقى معلوماته عن الحج من المملوك عبدالله الذي تعرف اليه في دمشق • فقد ذكر له هذا المملوك ان عدد افراد قافلة الحج يبلغ سبعمائة الف • وفي هذا الرقم مبالغة كبيرة • فمحمل الحج الذى كان يخرج من دمشق لم يكن يمثل العالم الاسلامي كله ، فقد كانت تخرج من العالم الاسلامي اربع محامل سلطانية من القاهرة ودمشق وبغداد وتعز كل على انفراد • وتنقص معلومات بروكييه عن شعائر الحج وامكنتها الدقة • اما وصفه لاستقبال المحمل فدقيق، فقد لاحظ الفرق بين الجمل الذي يحمل الكسوة وبين المحفة التي كانت تحمل في العادة على جملين او بغلين •

ويظهر بروكييه اهتماما كبيرا بالخيل • ومعلوماته عنها دقيقة • فهو يؤكد اهتمام العربي بها ، ويذكر ان الاغنياء من العرب يتحدثون مع

ضيوفهم في الاسطبل،الامر الذي يحرصون من أجله على نظافته ورطوبته وكان هذا امرا طبيعيا في عصر المماليك اعتمد فيه على الخيل في الحرب • ونجد ان الاسطبلات السلطانية كانت تحت ادارة خاصة عرفت باسم « الركاب خاناه » وكان « نظر الاسطبلات » من الوظائف العامة في الدولة • ويقول المقريزي في هذا الصدد بان هذه الوظيفة « جليلة القدر » [٩] ويذكر بروكييه ان ثمن الحصان كان يبلغ مئة وخمسين دوكة • ولكن اثمان الخيول الكريمة كانت تبلغ اضعاف هذا المبلغ، ويذكر المقريزي ان ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا بلغ الستين الف درهم والسبعين الف درهم • وكان السلطان يخلع الخيول على الامراء والمقربين اليه مرتين في السنة : الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله ، والثانية عند لعبه الكرة في الميدان [١٠] •

ويبدي بروكييه اهتماما خاصا بالنسبة أهل البلاد من عامة وجند • ويصف بدقة لباس عربيين لقيهما في طريقه الى طبرية • ويذكر ان كلا منهما كان يلبس على راسه كلوته بدون عمامه ، وللكلوتة قرنان منعطفان الى أسفل يمنة ويسرة • وهي مصنوعة من الصوف الاحمر • ويقول المقريزي بان تلك الكلوتات بالجركسية • ويظهر ان هذين العربيين كانا من عامة الجند لان أكمام قباءيهما ، كما لاحظ بروكييه ، كانت عريضة • وكانت العادة عندئذ ان يتميز الامراء والمقدمون واعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام •

وفي اكثر من مكان يعلق بروكييه على احوال النصارى من اهل البلاد فيشير الى انهم كانوا يخضعون لحكامهم المسلمين خضوعا تاما وانهم يعاملون بذات القسوة التي كان الحجاج يلقونها • ولهذا فانه رأى « ان خضوع القدس لحكم العرب القاسي يلحق العار بالعالم المسيحي

ويحزنه » • ويجدر بنا ان نذكر هنا كلام بروكييه هذا يناقض تجاربه مع أصحاب السلطة في البلاد • « فحاكم » غزة أنصفه ثلاث مرات ، وكذلك فعل « حاكم » دمشق الذي اطلق سراحه بعد ان تبين انه كان قد سجن بطريق الخطأ • وشمله رئيس القافلة المتجهة الى تركيا بعطفه • واستطاع ان يتزيا بزي المسلمين « لان السلطان كان قد سمح للافرنج بالتزيي بازياء المسلمين اثناء تجوالهم وذلك حرصا على سلامتهم » •

ولو اقتصر بروكييه على اسناد القسوة الى التراجمة والمكارة والادلاء الذي كان بعضهم يحاول انتزاع اكبر قدر من المال من الحجاج والزائرين ، والى افراد من اهل البلاد ، لجأ كلامه اقرب الى حقيقة الامر • فهو نفسه يعترف بانه سجن في دمشق بسبب وشاية ترجمان اراد ابتزاز المال • ونشأت المشاكل في غزة بينه وبين افراد من الشعب وبخاصة المكارة الذين ارادوا اجباره على استئجار حميرهم لنقله الى دير القديسة كاترينة • وكان الذي اعتدى عليه عند مدخل دمشق سوري من العامة اطار بعصاه قبعته ذات الاطار العريض •

وعند فيلكس فابري وغيره من الرحالة مثل كاسولا تفصيلات اكثر عن مصدر هذه القسوة التي كان يلقاها الحجاج • كان اول ما يجري عند نزولهم البر هو تسجيلهم لدى السلطات • فاذا تم ذلك سيقوا الى احد المباني ذات الاقبية والى احد الكهوف • ويبدو ان تلك المباني والكهوف لم تكن في مستوى يليق بالحجاج • وكان لا يكاد الحجاج يستقرون في المكان حتى يفد عليهم جيش من الباعة واكثرهم من الفقراء ويحملون سلعا ومواد غذائية متعددة لبيعها • وكان هؤلاء بالطبع يستخدمون كل وسيلة لبيع ما يحملون ، مما كان يضطر الحجاج احيانا الى استخدام حارس يحول بين الباعة وبين الوصول اليهم [11] •

على ان اشد المضايقة كانت تتأتى من المارة الذين كانوا يهرعون الى المكان بدوابهم رجاء ان يظفر الواحد منهم بحاج ينقله الى الرملة في طريقه الى القدس • فحرصا من هؤلاء المكارة على الظفر بهؤلاء الحجاج، كانوا يهجمون عليهم ويحاول كل منهم ان يمسك بحاج يجره عنوة الى دوابه ، دون مراعاة لتقدمه في السن • وكان يحدث ان يتوقف المكارى عن السير ويطلب اجرا اكبر من الاجر المعين • ويصف فيلكس فابرى هذه التجربة فيقول بان رجلا متهجم الوجه عليه علائم القسوة البالغة •

« قبض على يدى اليمنى بيمناه ، وأخذ يجرى لان الجميع كانوا قد ركبوا دوابهم • وكنت وهو يجري اميل بيمنة ويسرة متخبطا لانه كما ذكرت كان يشد يدي اليمنى بيمناه ، وهكذا أخذ يعدو راكضا وهو ممسك بي فوق حجارة اصطدمت بها عدة مرات وانا اميل ذات اليمين وذات الشمال حتى سقطت » •

ج ـ الجانب العسكري للرحلة :

كان الغرض الاساسي من رحلة بروكييه هي جمع المعلومات اللازمة لاعداد حملة لغزو البلاد والاستيلاء على الاراضي المقدسة ومن اجل هذا الغرض نراه يركز اهتمامه على الموانىء والمدن التي يمر بها وتحصيناتها ودرجة مناعتها في وجه أي هجوم خارجي • ثم في وصف الاسلحة التي يراها •

وقد جاءت معلوماته عن الموانىء والمدن ذات عون كبير لدراسة المنطقة في القرن الخامس عشر من النواحي السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية• وجد يافا ــ وهي الميناء الذي كان يستقبل الحجاج الوافدين بطريق البحر ــ خربة لا مساكن فيها غير الكهوف التي يلجأ

اليها الحجاج هربا من الحر • ولاحظ ان مدينة الرملة ومدينة غزة بلا اسوار • ولم يجد في عكا سوى حوالى ثلاثمئة بيت منتشرة على احد أطراف البلدة ولكن ميناءها كان مسورا • وموانيءعكا وصور وصيدا كانت صالحة لرسو السفن • ورأى في بيروت قلعة يقوم جزء منها على مينائها وهو جيد وعميق وملجأ أمين للسفن •

ويتوسع بروكييه اكثر عندما يصل الى وصف قلعة دمشق فيقول :

« وفي دمشق قلعة جميلة حصينة تقوم في السهل وتحيط بها الخنادق الواسعة العميقة ، وتظفر بعناية تامة • ويشرف على القلعة نائب يعينة السلطان مباشرة ولا يسمح بدخولها لنائب دمشق نفسه بالرغم من ان هذا هو رئيسه الاداري • وسبب هذا الاحتياط هو ان نائب دمشق اقوى حاكم في سورية ومصر بعد السلطان ، وقد يخرج عليه كما حدث سابقا • ولهذا تحرس القلعة المذكورة ، وتبقى مستقلة عنه (نائب دمشق) للحيلولة دون تكرر ذلك » •

وسمع بروكييه بان سكان دمشق يبلغون حوالى مئة الف نسمة • ووجد بروكييه مدينة حمص مسورة ومحاطة بخنادق عميقة وعلى طرفها قلعة تقوم على تل مرتفع ينحدر الى طرف سور لا يعلو كثيرا عن الارض • ويلاحظ بروكييه ان يد التخريب امتدت الى قرى حماه والى احدى قلاعها • ثم يصف قلعتين احداهما داخل المدينة والاخرى على طرف المدينة من الجهة الشرقية •

اما اهتمام بروكييه بالاسلحة فظاهر من وصفه نصنع السيوف في دمشق ، وللدبابيس التي كان يتسلح بها بعض الجند ، وتروسهم

وبالمرايا التي تعكس الاشعة وتشعل النار ، وبالقذائف النارية التي كانت تطلق في بيروت بمناسبة الاحتفال باحد الاعياد . وتحرى عن صانع هذه القذائف وعن طريقة صنعها . وقدم رشوة في سبيل الوصول الى سر صنعها ، فوقف على السر وحمل معه احد المقذوفات.واسترعى القوس اهتمامه فتحرى عن طريقة استعماله ، واشترى ختيعة للف الاصبع عند الرمي ، وجعبة للسهام .



حاول كاتب هذه السطور ان يبرز بعض النواحي الهامة التي يشتمل عليها ذلك القسم من رحلة بروكييه الذي يتناول البلاد المقدسة . على ان الرحلة غنية بما فيها من اشارات اخرى لاحوال البلاد في القرن الخامس عشر .



الهوامش

(١) تجد بحثنا مفصلا لهذه العوامل في الفصل الأول من
Atiya , Aziz Surial : *The Crusades in the Later Middle Ages* (London , 1938) pp. 3 - 29 .

(٢) Ferber, Elizabeth : «The Kingdom of Cyprus, 1191-1291,» in Seeton , K.M. (ed.) *A History of the Crusades* (U.S.A. , 1962) Vol. II , P. 618 .

(٣) راجع عن دوقات برغندية وموقفهم من الحروب الصليبية :
Cartellieri , Otto : *The Court of Burgundy - Studies in the History of Civilization* (London , 1929)

(٤) توجد دراسة مفصلة لحياة برتراندون دي لا بروكييه في مقدمة
Schefer, Ch., (ed.) : *Le Voyage d'outremer de Bertrandon de la Broquiere,* in Recueil de voyages et de documents pour servir a l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'a la fin du XVIe siecle , XII (Paris , 1892) .

(٥) قام كاتب هذا المقال بترجمة قسم من رحلة بروكييه الى العربية وهو القسم الذي يصف فيه رحلته في سورية ولبنان وفلسطين ونشره في « مجلة الابحاث » التي تصدرها الجامعة الاميركية ببيروت في الجزء الثالث السنة ١٥ ، سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ ، ص ٢٩٩ ــ ٣٣٥ . ولا بد للكاتب من أن ينوه بالمساعدة القيمة التي تفضل الأب فريد جبر

بتقديمها له وبخاصة في مراجعة الترجمة العربية على النص الفرنسي .

(٦) **المصدر ذاته** : ص ٣٠١ .

(٧) Prescott, H.F.M. : *Once to Sinea-The Further Pilgrimage of Friar Felix Fabri* (London, 1957) pp. 17 -22 .

(٨) «رحلة برتراندون دي لا بروكييه» **مجلة الأبحاث** ، ص ٣٠٩ .

(٩) المقريزي : **المواعظ والاعتبار في ذكـر الخطط والآثار** ، ج ٢ (مصر ١٣٢٥ هـ .) ص ٣٦٥ .

(١٠) **المصدر ذاته** .

(١١) Prescott, H.F.M. : *Jerusalem Journey - Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteen The century* (London , 1954) pp. 108 - 109 .



الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
مصر

رغم أن الجزيرة العربية تقع في قلب العالم القديم ، وبجانب الطريق الاساسي لتجارته ، فقد ظلت شبه مجهوله للرحالة الاجانب حتى القرن التاسع عشر ، وكان السبب في ذلك أنها ظلت حتى ذلك التاريخ قليلة العطاء الاقتصادي مما جعل التجارة العالمية تكاد لا تأبه بها ، وهي في الوقت نفسه وعرة المسالك مما جعل الطواف حولها بحرا أكثر يسرا من سلوك طرقها ودروبها • ومع ذلك فقليلة هي المناطق التي لعبت في تاريخ البشرية دورا يشبه دورها أو يدانيه •

والجزيرة العربية كتلة مترامية الاطراف تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة، تمتد بين البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، ويحددها في كل الجهات عدد من الصدوع واضحة المعالم الا في الشمال حيث تتدرج الهضبة الى ارض الحماد السورية ، ثم في بعض اجزاء من الشمال الشرقي حيث تنتهي الى سهول الخليج العربي •

ويقع معظم وسط الجزيرة العربية وغربها على ارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ متر و ٩٠٠ متر فوق سطح البحر ، وان تكن هناك جروف تزيد عن ذلك كثيرا . وقد مالت الهضبة حتى أصبحت حافات الجانب الغربي أكثر ارتفاعا من حافات الجانب الشرقي ، وتسود الصخور النارية على طول الجانب الغربي من جنوب غرب سورية حتى عدن . وادى تدفق الطفوح على طول خطوط الانكسارات الى رفع مستوى السطح في بعض الجهات وتكوين هضاب بازلتية واسعة تعلوها أحيانا مخروطات بركانية قد يتجاوز ارتفاعها ١٥٠٠ متر ولكن هذه الآثار البركانية تقل كلما اوغلنا في اليابس حتى تكاد تختفي في القسم الشرقي من شبه الجزيرة .

وتتغطى الهضبة بصفة عامة بتكوينات رملية ، وهي أرض صحراوية جافة تخلو من الانهار ولكن يقطعها عدد من الاودية العميقة الجافة ، أكثرها نضجا هي تلك التي تتبع ميل الهضبة في الشرق وفي الشمال الشرقي ، ومن ثم تنفتح على الخليج العربي وحوض الفرات .

وليس من هدف هذا البحث ان يفصل الحديث عن جغرافية الجزيرة العربية ، وحسبنا ان نشير الى ان التضاريس الوعرة التي عليها الجزيرة والمساحة الشاسعة التي تشغلها ، وقلة موارد الماء التي تتميز بها ، كل اولئك جعلها مجهولة من العالم الخارجي بل والعالم القريب منها .

وفي القرنين الآخرين فقط نشطت الدول الاستعمارية على اطرافها وتوافد عليها في القرن التاسع عشر الرواد من جميع الجهات لاختراق داخلها وجمع المعلومات عن هذا الداخل الغامض لا حبا في العلم أو بحثا عن المعرفة ولكن لاغراض استعمارية ، حتى خلصت السيطرة على معظم سواحلها لدولة بحرية استعمارية هي بريطانيا .

وهكذا وفد الى الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر كثير من الرحالة من امثال دكتور سيتزن (١٨١٠) Steezen الذي زار الجهات الجنوبية من بلاد العرب ، والرحالة السويسري يوهان لود فيج بوركهارت (١٨١٤) الذي زار الحجاز في زي حاج منتحلا اسم ابراهيم بن عبد الله . والضابطان ولسيتد J. R. Welseeted وكروثندن C. Cruthender (١٨٣٥) اللذان قاما بأول محاولة لاجتياز حضرموت، وأدولف فون فردي « ١٨٤٣) Adolf Von Werde الذي استطاع الوصول الى وادي دوغان وتوغل حتى بلغ اطراف الربع الخالي.وجورج أوغسطس والين George Augustus Wallin (١٨٤٥)الذي زار نجد وكتب عنها والصيدلي الفرنسي توماس يوسف أرنو (١٨٤٥) Thomas Joseph Arnoud الذي قام برحلة الى اليمن (١٨٥٤) والسير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton وقد زار الحج متنكرا مع الحجاج كما فعل بوركهارت من قبل . وبالجريف W. G. Balgrave (١٨٦٢ — ١٨٦٣) الذي زعم انه زار بريدة والرياض والخرج والأفلاج وكانت رحلته محل شك . ويوسف هاليفي Joseph Halevey (١٨٦٩) اليهودي الفرنسي الذي دخل اليمن في هيئة يهودي متسول من اهل القدس. وتشارلس دونتي (١٨٧٧) Charles M. Dougnty الذي وضع كتابا عن اسفاره في الجزيرة وكان متعصبا ضد الاسلام ولكنه لم يستطع ان ينكر الفضائل التي يتحلى بها البدو . والسيدة آن بلنت (١٨٧٩) Anne Blunt التي تجولت في شمال بلاد العرب وبلغت أرض نجد ، وغير هؤلاء كثيرون مما لا يتسع المجال لذكرهم .

ورغم الكثرة لرحالة القرن التاسع عشر وما تلاه ، فان الامر

لم يكن كذلك في القرن الثامن عشر وما سبقه من قرون • ولعل اول من تعرف من الرحالة القدماء الذين زاروا جزيرة العرب هو الجغرافي المؤرخ استرابون Strabon فقد رافق الحملة التي قام بها صديقه القائد الروماني أوليوس جالاس Aelius Gallus لغزو الجزيرة لاول مرة في التاريخ سنة ٢٥ قبل الميلاد ووصل الى نجران ولكنه هزم عند نسكة Nesca التي يظن انها خربة البيضا الخالية • وقد خصص استرابون فصلا خاصا في الجزء السادس عشر من كتابه لوصف الاحوال الاجتماعية والاقتصادية لجزيرة العرب كما شاهدها •

ثم يصادفنا من بعد استرابون رحالة يوناني لا نعرف اسمه وضع في نهاية القرن الاول للميلاد كتابا بعنوان « الطواف حول ارتريا »وهو البحر الاحمر Periplus or de Nari Erythraes ويبدو انه كان تاجرا يطوفه بالسواحل فلم يهتم بشيء سواها • أما الأقسام الداخلية من بلاد العرب فلم يكن يعرف عنها شيئا فيما يبدو •

وتصمت المصادر بعد ذلك ، فلم نعد نسمع عن رحالة وفدوا على الجزيرة العربية وكانها قد انعزلت عن العالم فلم يعد لها به صلة • وهو أمر نشك فيه ، فالقرآن الكريم يقص ان كانت قريش تقوم بنقل متاجر اليمن والبلاد الحارة الى الشام والمناطق الخاضعة للروم • « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » • وهو يبين في موضع آخر ان العرب كانوا على علم بانقسام العالم على ذلك العهد الى قوتين عظيمتين هما الفرس والروم : « الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فاذا كان هذا هو شأن العرب كما جاء في كتاب الله وهو اصدق القائلين فهل نستبعد أن يكون بعض المغامرين

من رحالة الروم قد زاروا جزيرة العرب وتوغلوا فيها ؟ انه افتراض ليس لدينا عليه دليل مكتوب ، ولكنه أمر غير مستبعد على اي حال .

وتشيخ الحضارة الرومانية وتتقوض اركانها امام غزاة البرابرة من وسط اوروبا في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، فيبربرون روما بدلا من ان تصقلهم هي بحضارتها ، وتسقط روما ولكن تبقى القسطنطينية عاصمة للامبراطورية في الشرق حتى عام ١٤٥٣ . أما في الغرب فقد لفظت نفسها الأخير وران على اوربا ظلام العصور الوسطى التي امتدت نحو تسعة قرون انبعث خلالها نور الاسلام، ولم يمض قرنان على ظهوره حتى كان قد شرق حتى بلغ حدود الصين ، وغرب حتى انتهى الى سواحل بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وعبر مضيق الزقاق (جبل طارق) واوغل في اوربا حتى نهر اللوار ثم توقف في بواتييه .

وعادت اوربا تتعرف الى العرب الذين جاءوا بذلك الدين السمح وتلك الحضارة الزاهرة ، ولكنها لم تحفل بالبلاد التي جاءوا منها بعد ان اصبحت مراكز الحضارة العالمية في بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وليس في مكة والمدينة ، بل ونما نوع من الحقد في نفوس الاوربيين على البلاد التي ولد فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى الدين الذي جاء به . وتجلى هذا الحقد في الحروب الصليبية ، وحاول احد امرائهم وهو رينولد دي شاتيون صاحب الكرك غزو الاجزاء الشمالية من جزيرة العرب ولكنه باء بالفشل سنة ١١٨٢ حيث هزمته جيوش صلاح الدين على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة .

وجاء عصر النهضة الاوربية ونشطت حركة الكشوف الجغرافية وكان البرتغاليون اسبق شعوب اوربا الى الاسهام في هذه الكشوف ،

وكانت جزيرة العرب من البلاد التي سمعوا بها دون أن يروهـا • ومن ثم فقد وفد اليها سنة ١٤٨٧ على عهد ملكهم جون رجل منهم يحسن الكـلام بالعربيـة يدعـى بيتـر دى كويـلان Peter de Couillan (Pero de Couilha) روى عنه انه زار مكة والمدينة وهي رواية تحوم من حولها الشكوك وسواء صحت او لم تصح فنحن لا نعرف عن رحلتـه سوى ما روي عنه وعنها فهو لم يكتب عن الرحلة أي شيء •

بعد ستة عشر عاما من هذه الرحلة قام لود فيكودي فارتيمـا Ludvico de Varthima برحلته وكان مغامرا بولنديا فيما يقال وان انكر عليه بعض الكتاب هذا الأصل وزعموا انه كان نبيلا رومانيا ادعى البولندية ، ولا تهمنا جنسيته بقدر ما تهمنا مذكراتـه التي كتبها عـن رحلته الى جزيرة العرب ، تلك المذكرات التي صادفت من الرواج عند صدورها أكثر مما صادفت كتب رحلات أخرى حتى لقد ترجمت الـى كثير من اللغات • وكان الدافع لفارتيما الى رحلته حب المغامرة والرغبة في كشف المجهول كما يروي هو في صدر مذكراته حيث يقول انـه قد عقد العزم على زيارة البلاد التي لم يقم اسلافه بزيارتها من قبل • وقد ابحر فارتيما من البندقية في سنة ١٥٠٣ فزار القاهرة وبيروت وطرابلس وحلب ثم استقر في دمشق قرابة عام يتعلم فيها اللغة العربية ، وتعرف فيها على ضباط من المماليك عهد اليه والى كتيبته بحراسة الحج الشامي، وبطريقة ما استطاع ان يلتحي بالكتيبة وتزيى بزي المماليك وتحدث العربية بعجمتهم •

وسارت القافلة فمرت بأرض حوران حيث أقامت ثلاثة أيـام في بلدة المزيريب وسجل فارتيما في مذكراته انطباعاته عن بـدو حوران

وشجاعتهم وركوبهم الخيل بلا سروج • ثم واصلت القافلة رحلتها ، ولم يذكر الرحالة اسماء المواقع التي نزلت بها واكتفى بذكر المزيريب ومكة والمدينة • ولكن يبدو من كتاباته أن القافلة قد اجتازت صحراء النفود فهو يذكر أنها اخترقت منطقة قاحلة هلك فيها من العطش ثلاثون شخصا بالاضافة الى عدد من المحتضرين تركوا على جوانب الطريق •

وبعد مسيرة اثنين وعشرين يوما تمر القافلة بما يسميه مدينتي « سدوم وغموره » ويروي ما قرأه في التوراة عن هاتين المدينتين التي حاقت بهما اللعنة التي أصابت قوم لوط ، ولا شك أن صاحبنا كان مخطئا فيما ذهب اليه فالمدينتان تقعان في نواحي البحر الميت وليس في جنوب صحراء النفود • وأغلب الظن أنه شاهد خرائب مدائن صالح والعلا فاختلط عليه الأمر وروى ما رواه •

ثم تتحدث مذكرات الرحالة عن منطقة يسكنها قوم من اليهود يبلغ عددهم قرابة الخمسة آلاف ، يجاهرون بيهوديتهم ويكرهون المسلمين كرها شديدا ويعيشون شبه عراة واصواتهم شبيهة باصوات النساء ولاشك ان هؤلاء هم بقايا يهود خيبر الذين كانوا ينزلون غير بعيد من المدينة •

وتبلغ القافلة المدينة المنورة ويدهش فارتيما دهشة بالغة عندما يرى قبر الرسول فقد كان اعتقاده أن جثمانه الطاهر معلق في الهواء فهكذا كانت الخرافات التي تروى في اوربا عن الاسلام والمسلمين، ويصحح فارتيما لاوربا خطأها • ويكتب في وصف مسجد المدينة وكيف يضم بجانب قبر الرسول قبري أبي بكر وعمر ولكنه يخطىء عندما يذكر ان المسجد يضم كذلك قبور عثمان وعلي وفاطمة الزهراء والتاريخ الثابت يروي ان عثمان

دفن بالبقيع وان عليا كان النجف مثواه الأخير ، ويسهب فارتيما في وصف المسجد النبوي وشكله المربع واعمدته الاربعمائة ومصابيحه التي تربو على ثلاثة آلاف وتظل مضاءة بالليل والنهار •

ويصل فارتيما الى مكة المكرمة ويعجب بالمدينة المقدسة ويصف ما يحيط بها من جبال وكيف انها تقع في واد غير ذي زرع تهوي اليه افئدة الناس مما جعلها مركزا للتجارة تتجمع فيها تجارة الهند والبنغال وفارس ومصر وسورية وبلاد الحبشة ، وتمتلىء اسواقها بالجواهر والعطور والمنسوجات القطنية والحريرية وتحيط المتاجر بأبواب المسجد ، وتزدحم المدينة بالناس بشكل لم ير له فارتيما مثيلا من قبل •

ويصف الرجل الحرم المكي وصفا دقيقا ويعجبه مظهره فيقارن بينه وبين مدرج الكوليزيوم في روما ، ثم يعرج على وصف الكعبة واستارها الحريرية السوداء وبابها المصنوع من الفضة الخالصة والذي وضع على جانبيه اناء مملوء بالعطر ، ثم يتكلم عن مناسك الحج من طواف القدوم والصعود الى عرفات والنزول الى منى ، والاضحية وكيف توزع لحومها، ورمي الجمرات وطواف الافاضة ، وهكذا لا يترك منسكا الا وصفه وكانما هو يضع دليلا للحجاج • ولا يفوته ان يتحدث عن حمام الحرم وكيف يحرم ذبحه ويعلل ذلك بان هذا الحمام هو من نسل الحمامة التي عششت على النبي في الغار • ومما يدعو الى الدهشة ما يذكره من أنه رأى في جانب من جوانب الحرم اثنين من حيوان وحيد القرن لا يؤذيان احدا • ولا نستطيع ان نفسر مثل هذا القول من رحالة اتسمت كتابته بالموضوعية وكان صادق الرواية الى حد كبير •

وتنتهي مناسك الحج ويتأهب الحجاج للعودة الى دمشق ، ولكن

فارتيما لا يريد ان يعود فهو لا يزال متلهفا الى ان يرى عن بلاد العرب أكثر مما رأى ، وإن يصل الى ذلك الجزء الذي عرف باسم العربية السعيدة Arabia Felix وكان هو كل بلاد العرب في نظر الاوربيين • ولكن انى له هذا والأبواق تتعالى بدعوة المماليك للالتحاق بكتيبتهم وصوت المنادي ينذر المتخلفين بالاعدام شنقا ؟ ! ولكن الحظ يواتيه عندما يرسله سيده الضابط الى السوق لشراء بعض لوازمه ، ففي السوق احتك به احد الاشخاص واتهمه في اسلامه اذ سبق له ان رآه في روما • ومع انه حلف بأغلظ الايمان انه على دين الاسلام فلم يصدقه متهمه ، ولم يجد مفرا من ان يصحب الرجل الى منزله عساه يتمكن من اقناعه بعيدا عن اعين الناس ، وفعلا اقتنع الرجل بعد أن شرح له فارتيما انه اسلم في القاهرة وانخرط في سلك المماليك • ونشأت بين الرجلين صداقة استغلها فارتيما في أن يختبىء بمنزله حتى رحلت قافلة الحج الشامي فودع صديقه العربي ورحل الى جدة فقضى فيها اسبوعين ملازما لمسجدها لا يبرحه الا ليلا لشراء الطعام •

ومن جدة اقلع فارتيما في سفينة متجهةالى بلاد فارس ويصف رحالتنا في مذكراته رحلة البحرية هذه فيتحدث عن شعاب المرجان القريبة من سطح الماء والتي تمثل خطرا على الملاحة فيما بين جدة وجزر قمران• وترسو السفينة في ميناء جيزان الذي يعد فيه نحو خمسين سفينة ويدهش لجمال الميناء ومن البلدة التي لم يكن يتصور ان يجد فيها كل انواع الفاكهة التي رآها • وتقلع سفينتة من جيزان فتصل الى عدن التي يصفها بانها من أقوى المدن تحصينا ولم ير في حياته ما يدانيها في حصونها اذ تحيط بها الجبال والاسوار العالية وتقوم على حمايتها خمس قلاع • وهي شديدة الحر حتى أن الأسواق تقام فيها بعد منتصف الليل • وترسو في مينائها

كثير من السفن ومان ترسو سفينة حتى يهرع اليها رجال السلطان لتحصيل المكوس ، وينزعون اشرعتها وسكانها ليحولوا دون هربها قبل دفع المكوس المتوجبة عليها .

وكانت عدن في مطلع القرن السادس عشر قد بدأ يهددها البرتغاليون الذين اصبحت لهم السيادة على سواحل شبه الجزيرة العربية قبل ان تظهر شركة الهند الشرقية الهولندية ونظيرتها البريطانية في القرن التالي . وكان طبيعيا ان يتشكك اهل عدن والحالة هذه في ركاب السفن التي ترد الى فرضتها . وقد احاطت الشكوك بفارتيما فاتهم بالنصرانية والجاسوسية معا والقي القبض عليه ثم افرج عنه بعد شهور في قصة يرويها ولا نشك في انها من نسج خياله . واستطاع بعد اطلاق سراحه ان يزور الحج وتعز وصنعاء وزبيد ، وتحدث عن الخصومة بين الشوافع والزيود ولكنه لم يفهم طبيعة هذه الخصومة وما كان له ان يفهمها وهو يجهل تاريخ الاسلام . ويبدي الرحالة اعجابه بصنعاء واسوارها وينابيعها وبساتينها ، ثم ينتهي به المطاف الى عدن مرة اخرى ومنها يركب البحر فيزور اثيوبيا وبلاد فارس والهند وفيها ينضم الى جيش البرتغال ويحارب معه بعض المعارك ومن ثم ينعم عليه ملك البرتغال بلقب فارس عندما يعود الى لشبونة في سنة ١٥٠٨ ومن لشبونة يرحل الى روما ويعيش في كنف اسرة سفورزا التي ساعدته على نشر مذكراته . وكما نجهل بداية حياته نجهل خاتمة هذه الحياة . ولكن الذي نعرفه ان الرجل كان دقيق الملاحظة الى حد كبير في كل ما سجله من وقائع رحلته . ولم يكن لود فيكودي فارتيما جغرافيا بطبيعة تكوينه فكان اكثر اهتماما بمغامراته الشخصية منه بالمسرح الذي مثلت عليه ولكن كانت له هنا وهناك ملاحظات بارعة .

ويأتي من بعد فارتيما رواد زاروا بعض اجزاء الجزيرة العربية وبخاصة

المناطق الساحلية منها ولم يكن غرضهم الرحلة لذات الرحلة والسعي وراء المعرفة ، وانما لأغراض اخرى فقد تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين الذين سبقوا غيرهم في الوصول الى الشرق وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية ، وأخذت كل من الشركتين تسعى لاقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي كتلك التي انشأها البرتغاليون، خاصة وان البن قد عرف ، وبدأت القهوة تنتشر كمشروب في اوربا، واصبحت جزيرة العرب في نظر الاوربيين بلاد البن قبل أي شيء آخر ، وارسلت الشركة الهولندية فان دي بروكه ثلاث مرات الى سلاطين الجنوب العربي واستطاع بمعاونة هؤلاء السلاطين التجول في بلاد اليمن وارسلت الشركة البريطانية الكابتن الكسندر شاربي (١٦٠٩) Alexander Sharpey الى عدن والبحر الاحمر ثم ارسلت من بعده هنري ميدلتون Henry Middleton فزار عدن والمخا حيث أسر وارسل به الى صنعاء التي يسميها Zenan ويصفها بأنها اكبر من برستول ومبانيها من الحجر وفي الجانب الشرقي منها القلعة وفي الغرب تنتشر البساتين • ويفك أسره فيعود الى المخا مارا بذمار التي يصفها بأنها حسنة البناء وتتكون كغيرها من القرى من خمسة احياء منفصلة •

ولم تقف فرنسا بمعزل عن تجارة البن بعد ان شاع استعمال القهوة فيها حتى تغنى شعراؤها بذلك المشروب الأسود الوافد من الشرق فأسس تجار سان مالو St.Malo شركة لاستيراد البن من مصدره الأصلي في اليمن فأرسلوا لهذا الغرض بعثتين في مطلع القرن الثامن عشر كانت اهمها الرحلة الثانية التي كان على رأسها الجراح باربييه Barbier والضابط دي لا جريلوديير Major de la Grelaudière ولم يصلنا التقرير الذي قدماه عن الرحلة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ولكن قصة الرحلتين

قد سجلها لاروك La Roque ونشرها في كتاب بعد عودة الرحلة الاخيرة ببضع سنوات •

وفي القرن الثامن عشر زاد رخاء اوربا لما تدفق عليها من خيرات المناطق التي استعمرها ، ومع الرخاء تتسع آفاق العلم وتزداد الرغبة في المعرفة • وتنشط حركة الاستشراق في كثير من البلاد الاوربية وتوجه العناية الى دراسة التراث العربي والوقوف على احوال العرب وبلادهم وتاريخهم وادابهم • وفي سنة ١٧٥٩ تظهر في اوربا لأول مرة فكرة ارسال بعثة علمية لدراسة الجزيرة العربية •

كان صاحب الاقتراح هويوهان ديفيد ميخائيلس استاذ الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن Gottingen وقد استطاع ان يقنع الكونت برنشتروف J. H. E. Bernstroff وزير خارجية فريدريك الخامس ملك الدنمرك بضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق بعض المسائل الجغرافية التي وردت في الكتاب المقدس (التوراة) خاصة بجزيرة العرب ، وكانت الدنمرك في ذلك الوقت من الدول ذات المركز المرموق في اوربا • وصادف الاقتراح قبولا لدى الملك وكان من مظاهر اهتمامه به ان شارك في رسم خطة العمل للبعثة المقترحة وفي وضع قائمة بالمشكلات المطلوب الوصول الى حلها •

وفي صباح اليوم الرابع من يناير سنة ١٧٦١ أبحرت الباخرة الحربية « جرينلند » من ميناء كوبنهاجن في طريقها الى الشرق وعلى متنها خمسة من العلماء لكل منهم تخصصه ومعهم خادمهم الدنمركي الذي كان من جنود سلاح الفرسان السويدي المسرحين •

كان هؤلاء العلماء الخمسة الذين تكونت منهم البعثة هم :

١) الاستاذ بيتر فورسكال Prof . Peter Forskall وهو سويدي مولدا ومن تلاميذ العالم الكبير ليناوس Linnaeus ومع أن مهنته الطب فقد كانت له دراية واسعة بعلم النبات •

٢) الدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Christian Carl Cramer وهو دينمركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان •

٣) الاستاذ فريدريك كريستيان فون هافن Pref . Friedrich Christian Ven Haven وهو دينمركي كذلك متخصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية •

٤) الهرجورج ولهلم بورنفيند Herr . George Welheim Baurenfeind وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس •

٥) المهندس كارستن نيبور Carsten Nieouhr الألماني الذي بدأ حياته فلاحا يساعد والده في الحقل ثم هوى المساحة العلمية والتحق بجامعة جوتنجن يدرس الفلك والرياضيات •

لم يكن لأحد من هؤلاء الرئاسة على الآخرين ، فكلهم لـه مؤهلاته ومكانته ، وبهذا قضت تعليمات الملك ، واذا كان لأحد منهم أفضلية فهو لفورسكال وفون هافن لاجادتهما اللغة العربية • وطلب الى كل منهم أن يعاون زملاءه ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيقدم عنه تقريرا عند عودته • ولكن مع الأسف لم يعد سوى واحد منهم هو كارستن نيبور الذي قدر له أن يبقى على قيد الحياة فيعود الى الدنمرك ويقدم تقريرا عن رحلته ويضمنه الملاحظات غير الكاملة التي سجلها رفاقه •

ولسنا هنا في حاجة الى تتبع البعثة الدنمركية في رحلتها من مرسليا الى استنابول والاسكندرية والقاهرة • كل ما يعنينا هو أن البعثة وصلت جدة في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٧٦٢ ودهش اعضاؤها للمعاملة الكريمة التي لقوها من الأهالي• ومن جدة ساروا الى القنفدة فاللحية وهم يرتدون الملابس الوطنية ، ويقولون عن أنفسهم أنهم في طريقهم الى الهند• ولكنهم أخذوا يتجولون بين المدن اليمنية فذهبوا اولا الى بيت الفقيه وكانت انذاك أكبر مراكز تجارة البن ، ومنها تفرقوا فقرر نيبور أن يرتاد اقليم تهامة ، وصعد فورسكال في الهضبة يجمع نماذج من النباتات ، وأوغل الآخرون في الداخل فبلغوا تعز وزبيد ، ثم عاد الجميع فاجتمعوا وبداية الصيف في بيت الفقيه ، ومنها هبطوا الى المخا وكان كرامر المتخصص في علم الحيوان قد جمع بعض الثعابين واحتفظ بها في أواني مملوءة بالكحول مما أدى الى ان يرتاب فيه رجال الجمارك وأن يتلفوا مقتنياته• وفي المخا توفي فون هافن فحرمت البعثة من أكثر أعضائها علما باللغة العربية وقررت ان تترك المخا وتنتقل الى تعز حيث المناخ اكثر ملاءمة للصحة • وفيها تلقوا دعوة من امام اليمن لزيارة صنعاء • وفي الطريق اليها هلك فورسال • ولم يقضوا في صنعاء سوى عشرة أيام عادوا بعدها الى المخا حيث استقلوا مركبا متجهة الى الهند وعلى ظهرها توفي الرسام بورنفيند ثم لم يلبث أن تبعه الخادم السويدي• ثم لحق بهؤلاء كارل كرامر بعد أن بلغت البعثة بومباي بأيام قلائل •

بقي كارستن نيبور وحيدا بعد وفاة رفاقه• ولكن هذا الموقف الأليم لم يفت من عضده ، فقرر العودة الى الجزيرة العربية ليتم مهمته ، وقفل عائدا الى عمان فوصل مسقط في يناير سنة ١٧٦٥ ، ولم يمكث طويلا بعمان ليجوب جهاتها المختلفة اذا كانت المدة التي حددها الملك الدنمركي للبعثة قد انتهت • ومن ثم سافر نيبور وفقا لخطة السير التي وضعها الملك

من قبل فزار بلاد فارس والعراق والشام وتركيا ودول اوربا الوسطى حتى انتهى الى كوبنهاجن فوصلها في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧ بعد أن غاب عنها ما يقرب من سبع سنين • وكان الملك فردريك الخامس قد مات ، فلم يحفل أحد بعودة نيبور من رحلته ولكن الكونت برنشتروف يقدمه للملك الجديد فيجد من الرعاية لديه ما يشجعه على كتابة قصة الرحلة •

عكف نيبور على كتابةمذكراته باللغة الألمانية ونشر الجزء الأول منها في سنة ١٧٧٢ وفيه يروى قصة الرحلة من كوبنهاجن حتى بومباي • ثم عمد الى نشر مذكرات فورسكال في السنة التالية • وأتبعها بنشر ما أعده بورنفيند من رسوم للنباتات والطيور والاحياء المائية وفاء منه لذكرى رفيقيه • ثم نشر الجزء الثاني من مذكراته • واستنفدت هذه الاعمال كل ما بقى لديه من مال فبقى الجزء الباقي من المذكرات مخطوطا حتى نشر في سنة ١٨٠٨ • وترجمت مذكرات نيبور فيما بعد الى اللغتين الفرنسية والانجليزية •

ويهمنا في هذا البحث الجزء الأول الذي نشر في كوبنهاجن بالألمانية بعنوان وصف بلاد العرب « Beschreibung Von Arabien, » Copenhagen ,1772 . والذي ترجمه الى الانكليزية سيلي ونشرت الترجمة في سنة ١٧٨٩ C. W. H. seely , « Discription of Arabia » Bombay , 1789 . ولما كانت هذه الطبعة ناقصة فقد اعيد نشرها في عام ١٧٧٤ في مجلدين بعنوان رحلات الى الجزيرة العربية
« Reisebeschreibung nach Arabian » Copenhagen , 1774 - 8
وقد ترجمها ملخصة الى الانجليزية هيرون ونشرها في ادنبره سنة ١٧٩٢•
« R. Heron : Travels in Arabia » 2 Vols . Edinburgh , 1792 .
لم يمكث نيبور كما تروى مذكراته أكثر من اثني عشر شهرا في الجزيرة

العربية، ولم يزرسوى جزء محدودمنها كان معظمه مماسبق للاوربيينمعرفته ونعني به اليمن وما جاورها • فما الذي جعل لهذه المذكرات ما بلغته من الأهمية ؟ ! ان السر في هذا يرجع الى عقلية الرجل نفسه وطريقته في جمع المعلومات • فقد كان يسأل كل من يصادفه وكان قد تعلم من العربية ما يكفي للسؤال والفهم • وكان لديه من الأسئلة ما يدور حول كل شيء • وكان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بقصد تنقيتها ، ويمحص كل ما يثبت من حقائق • وكان يلقي نفس السؤال على عدة أشخاص من مختلف المستويات ليتأكد من صحة الجواب • ولهذا جاءت كتابته ممتازة في نوعيتها دقيقة في أخبارها • ومنها نعرف الشيء الكثير عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر عن السكان وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية وعاداتهم في المأكل والملبس والمسكن وأسلوبهم في الاستقبال والتحية ، وعن الحياة الاقتصادية وما تنتجه البلاد من غلات •

ولا شك أن نيبور قد عرف اليمن أكثر مما عرف غيرها من جهات الجزيرة العربية ، فوصفها وصفا دقيقا جغرافيا وتاريخيا وصور تجزئتها السياسية وكيف انقسمت الى عدد من الامارات المستقلة منها صنعاء وعدن وأبو عريش والجوف ونجران وبلاد حاشد وبكيل ، ونهم ، وخولان ، وكوكبان • وكيف ان تاريخ الحضارة اليمنية كله تصوره أربعة مدن هي صنعاء التي تعرف بالمدينة لعظم نفوذها،وتعزذات الرياض الزاهرة والزروع اليانعة حتى لقبت بالروضة ، وزبيد ذات الثقافة المزدهرة والدراسات الاسلامية الواسعة ،ثم زمار التي اشتهرت بخيولها العربية الاصيلة • وقد رسم نيبور خريطة لليمن صححت كثيرا من الاخطاء • ولو أنه تمكن من زيارة سائر انحاء الجزيرة العربية لجاءنا بخارطة تفوق كل ما سبقها من خارطات فقد كان الرجل مساحا بارعا يجيد استخدام ما لديه من ادوات الرسم والقياس •

وتحدث نيبور عن المشيخات العديدة التي وجدها على ساحل الخليج العربي وعن الخصومات القائمة بين حكامها ، وعن النزاع الدائر بين امير الكويت المتمسك باستقلاله وامير الحسا الطامع في ضم هذه الامارة الى املاكه ، وعن خراب قرى البحرين بسبب الحروب المتتالية حتى لم يبق بها سوى خمسين قرن وكان بها من قبل ٣٥٠ مدينة وقرية يعمل معظم سكانها في استخراج اللؤلؤ •

ويشير الى ان الحسا يحكمها شيخ عشيرة بني خالد ، وهي من اقوى العشائر العربية ويدين لها بالولاء عدد من العشائر الصغيرة وسكان الحساسنة وشيعة ، فالسنة هم اهل القرى والبادية اما الشيعة فهم سكان المدن ، ويخطىء الرجل حينما يذكر ان من بين السكان عدد من الصابئة واليهود •

ومع ان نيبور لم يزر جدة فان حديثه عنها يدل على فطنته ودقة معلوماته • فهو عندما كان في الجزيرة العربية كانت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية قد اخذت تنتشر ، فيدرك أهمية هذه الدعوة ، ويصور الحالة المؤسفة التي كانت الجزيرة قد وصلت اليها فأثارت سخط الامام المصلح • ويتنبأ بنجاح الدعوة ويرى ان معظم ما يقال عنها هي مزاعم باطلة يروجها اعداء الاصلاح ، وينسبون اليها بالباطل أمورا هي ابعد ما تكون عنها •

لقد كان نيبور مثال الرحالة الفطن والكاتب المنصف • كان يتنقل في الجزيرة العربية ممتطيا حمارا ، ومرتديا زيا عربيا ، ومنتحلا اسم عبد الله لشيوعه بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومحاولا ان يكون كاحد ابناء البلاد في سيرته وتصرفاته ، ونجده يحذر من يريد التجول في الجزيرة العربية الا يظنها رحلة نزهة • وعلى الشبان الذين يحبون الرفاهية

والاكل الجيد ومعاشرة النساء الا يفكرون في الرحلة الى هذه البلاد ، فالرحلة اليها تحتاج الى جلد وصبر •

وكان نيبور منصفا للعرب على عكس كثير من الكتاب الأوروبيين، فهو يرى ان لكل شعب فضائله ونقائصه ، وان ما ينسب الى عرب من نقائص لا يختصون بها وحدهم ولكنها شائعة في اوربا ذاتها ، وان لهم من الفضائل الشيء الكثير ، فهم قوم ودودون يستطيع المرء ان يتجول بينهم في حرية كاملة شريطة الا يمس احساساتهم ، وهم يحبون الصدق ويكرهون الخداع ، وهم يعرفون انهم لم يخلو من نقائص وعيوب ولكنهم لا يغفرون لاحد ان يسخر من هذه النقائص • وهم يختلفون عن شعوب اوربا جميعا في انهم يساعدون الاجنبي على تعلم لغتهم ، ولا يسمحون لانفسهم بالسخرية منه اذا هو اخطأ التعبير بل يجدون في هذا شيئا من الفكاهة ، ويحاولون ان يردوه الى الصواب •

هكذا كان كارستن نيبور الرحالة المثالي المنصف والكلف بالمعرفة الصحيحة ، فلا عجب ان كان اشهر من كتب عن الجزيرة العربيه في القرن الثامن عشر ، وفتح باب الرحلة العلمية الاصلية لمن جاء من بعده من الرحالة والجوابين •

الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني

الدكتور سلطان ناجي
اليمن

سيحاول هذا البحث مناقشة ثلاث قضايا أساسية هي : ـ

أولا : وضع المرأة في اليمن الطبيعية منذ القديم وحتى قيام ثورتي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء و ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ م في عدن وذلك من خلال النصوص والاشارات التي استطعت التقاطها من مصادر يمنية مختلفة وسيتبين لنا بأن أوضاع المرأة اليمنية في كثير من الاحيان تختلف باختلاف الاوضاع الجغرافية للمنطقة • فأوضاعها في تهامة تختلف عن اوضاع أختها في الهضاب والمرتفعات ، كما أن أوضاعها في المدن تختلف عن اوضاعها في البوادي والاودية وقس على ذلك الاختلافات الناتجة عن المحيطات الطبقية أو المذهبية والطائفية والسياسية التي كانت سائدة في المجتمع اليمني الى وقت قريب •

وثانيا : وضع المرأة في اليمن بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن وتأسيس « الجمهورية العربية اليمنية » وكذلك بعد قيام ثورة اكتوبر في جنوب اليمن ١٩٦٣ واستقلال هذا الجزء عن الاستعمار البريطاني

ثم تأسيس « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » وبالذات بعد صدور الدستور عام ١٩٧٠ م الذي ضمنت بالذات مادته رقم « ٣٦ » الحقوق المتساوية للرجال والنساء في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتوفير بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة ، ثم اعقب ذلك من صدور القانون رقم « ١ » لعام ١٩٧٤ م بشأن الأسرة والذي يكاد يكون فريدا في نوعه في بعض مواده .

وثالثا : النتائج العملية المترتبة عن هذه التشريعات والتجربة الجديدة في هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية بهدف ان يأتي هذا البحث مكملا أو موضوعا للمقارنة مع الابحاث الاخرى التي تبحث في وضعيةأخت المرأة اليمنية ، شقيقتها في المجتمع العربي .

١

على العموم لعبت المرأة اليمنية دورا بارزا في التاريخ اليمني ، فقد برز الكثير منهن على المسرح السياسي قبل الاسلام وبعده ، كما ظهرت أخريات في عالم الفكر والثقافة وكان لهن الاسهامات المبدعة في هذا المجال . ويكفي القول بأن منهن من كانت أعظم ملكة عربية قبل الاسلام وبعده كبلقيس وأروى . فملكة سبأ مذكورة في القرآن الكريم وكذلك في العهد القديم من الكتاب المقدس ، ورغم أن القصة في كلا الكتابين مختصرة الا أنها تشير الى مكانة تلك الملكة الرفيعة والى عظمة ملكها وبسط سلطانها وممارستها الشورى مع قومها . ومعظم الملكات المسلمات اللوائي جئن بالذات بعد القرن الرابع الهجري عند بداية نشوء الدويلات اليمنية المستقلة عن دار الخلافة قد اصبح يطلق عليهن « حفيدات بلقيس » .

وهذه هي أسمـاء بعض مشاهير النساء اليمنيات خـلال الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث عشر الهجريين • فمثلا عند بداية تدهـور سلطة الدولة الزيادية في أواخر القرن الرابع نجد ان هند بنت أبي الحجش ابن زياد تصبح هي الكافلة لابن اخيها الامير القاصر وصاحبة الكلمة الاولى والسلطة الحقيقية للدولة خلال أربعين سنة كاملة وبدفنها حية مـن قبل أحد عبيدها الاحباش انتهت الدولة الزيادية في اليمن وقامت على انقاضها الدولة الحبشية النجاحية • وحتى الدولة الحبشية هذه عرفت ايضا بعض النساء الشهيرات (كالحرة أم فاتك) التي كانت في زمانها الملكة الفعلية وكان وزرائها اذا حضروا بين يديها يصغرون خدودهم بالأرض اكراما لها •

أما الدولة الصليحية (٤٣٩ ــ ٥٣٣ هـ) وكانت اشهر الدول الفاطمية في اليمن فالحقيقة ان تاريخها هو تاريخ المرأتين العظيمتين فيهـا وهمـا (أسماء بنت شهاب ، زوجة مؤسس تلك الدولة الداعي علي الصليحي والمشاركة له في الحكم و (أروى بنت احمد) زوجة ابنهما المكرم والتي حكمت اليمن أكثر مـن خمسين عاما • وقد بلغ مـن علو شأن السيدة (أسماء)ومكانتها في دولة زوجها أنه كان يخطب لها على المنابر ، فيخطب أولا للمستنصر الخليفة الفاطمي في مصر ، ثم لعلي الصليحي ثم لزوجته أسماء فيقال : اللهم وادم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنـين •

وكانت اذا حضرت مجلسا لا تستر وجهها عن الحاضرين ، وفيهـا قـال أحد شعراء زمانها •

رسمت في السماح سنة جود ... لم تدع مـن معالم البخـل رسما
قلت اذ عظموا لبلقيس عـرشا ... دست أسماء من ذرى النجم أسمى

وأما أروى بنت أحمد (٤٤٠ ــ ٥٣٢ هـ) فقد وصفها المؤرخـون

بأنها « أعظم ملكات العرب في الاسلام » وقال آخرون بأنه كان يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها • ومن أوصاف المؤرخ اليمني عمارة لها بأنها كانت«قارئة ، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ» وقد شاركت الملكة الحرة أروى زوجها في أمور الدولة ولما استروح الى السماع والشراب فوض الأمر لها • ويقول عمارة بأنها « استعفته في نفسها وقالت له أن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير فدعني وما أنا بصدده فلم يفعل » • وبعد موت زوجها وصراعها مع الأمراء الصليحيين المنافسين ، عينها الخليفة المستنصر ملكة بدون منازع على اليمن ومارست السلطة الكاملة على كل من شؤون الدولة والدعوة الفاطمية حوالى خمسين عاما • وقد رفعها الخليفة المستنصر الى مقام الحجج في سلسلة الدعوة الفاطمية وهي مرتبة فوق الدعاة ، فقام من يعترض على رفع أنثى الى مرتبة الحجة ، وناهض هؤلاء أنصار لها قاموا يدافعون عن كرامة الاناث ، وان لهن فضلا لا ينكر اذا تميزن بالصفات الحميدة المرغوبة • ومن أعمال هذه الملكة العظيمة بناء الطرقات، واهتمامها بالزراعة،وتحصين نسل الأبقار ، ونقل العاصمة من صنعاء الى ذي جبلة ، حيث كان هناك الاهتمام بالعمل والانتاج والزراعة ، بدلا من الحرب ولمع السيوف• كما أن أوقافها الزراعية على العلم والمدارس لا تزال تعرف الى الآن •

وكما أفرز المناخ السياسي والاجتماعي في العهد الصليحي الفرصة لظهور النساء البارزات في الحياة العامة فقد أوجد المناخ السياسي أيضا في عهد الدولة الرسولية (٦٢٧ ـ ٨٥٨ هـ) والتي تعتبر أشهر الدول اليمنية في العصور الوسطى الفرصة لقيام امرأتين شهيرتين في حياة تلك الدولة • فبعد قتل مؤسس تلك الدولة من قبل مماليكه وادخال المملكة في صراع مرير من أجل السلطة تصدت للموقف ابنة السلطان المقتول المعروفة بكنيتها (دار الشمس) وقامت تجمع الرجال وتحصن

العاصمة حتى تم الانتصار لها ونصبت أخاها الصغير سلطانا • وقد قدر لهذا السلطان وهو الملك المظفر أن يكون من أعظم ملوك بني رسول وملك ٤٧ سنة ، وكان لأخته مقام كبير في دولته ، كما كان لها مشاركة في الحكم والتدبير ولما ماتت في نهاية القرن السابع الهجري قال امام الزيدية في اليمن وقتذاك « ماتت بلقيس الصغرى » •

والمرأة الرسولية الأخرى هي ام الملك المجاهد الذي تولى الحكم وعمره اربع عشر سنة ، وكان التدبير في ملكه لأمه المعروفة كناية (بجهة صلاح) • وعندما قبض أمير الركب المصري على المجاهد أثناء حجة عام ٧٥١ هـ وأخذه أسيرا الى مصر ، وسارت هذه الأميرة مع رجالها وجنودها الى مكة واسترجعت كثيرا من أموال ابنها المنهوبة ، ثم عادت الى اليمن وألقت القبض على ابني ابنها خشية أن يخطر لأحدهما القيام على أبيه الغائب والاستيلاء على الملك • وبقيت تسوس البلاد وتسير الجند لتقاتل الخارجين وتنشر الأمن في البلاد حتى عاد السلطان المجاهد الى اليمن • ويقول الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية بأن حكمها كان فترة عدل واحسان وخصب وأمان وان لها آثارا حسنة في الدين ، وكانت تحب العلماء والصلحاء وتكرمهم وتجلهم وتعظمهم • وكانت تدور بيوت الناس تتفقدهم بالعطايا الوافرة •

واذا استعرضنا بعض أسماء النساء اليمنيات الشهيرات في مجال العلم والثقافة فسنجد أيضا أسماء لامعة تنافس الرجال في هذا المضمار • فهذه صفية بنت المرتضي (ت ٧٧١ هـ) تصدرت للتدريس والفتوى في الأمور العلمية ولها كتابات جيدة منها رسالة (الوجيز على صاحب التجويز) ودهما بنت يحيى (ت ٧٣٧ هـ) لها مؤلفات كثيرة منها كتاب (الانوار في شرح كتاب الازهار) و (شرح منظومة الكوفي في المواريث)

و (كتاب شرح ابن الحاجب في الاصول) و (كتاب الجواهري في علم الكلام) أما فاطمة بنت أحمد بن يحي (ت ٨٤٠ هـ) فقد شهدوا لها بأنها كانت ترجع الى نفسها في استنباط الأحكام الفقهية . وقد أشار لها والدها بقوله

نساؤنا فاقت أئمتنا   في الفضل والتدريس والأخلاق [٢]

وكما اشتهرت هؤلاء النسوة في شمال اليمن فقد اشتهرت مثيلات لهن في شرق اليمن أو حضرموت في القرن التاسع الهجري أيضا . فممن اشتهرن بالصلاح والتقوى والمعرفة أمثال العارفة بالله (سلطانة بنت علي الزبيدي)و(السيدة وزيرة بنت الشيخ عبد الرحيم بن سعيد باوزير)[٣]. أما في مجال الحكم والسياسة فكانت هناك (بنت معاشر) والدة السلطان المهري (أبو دجانة) الذي قام في أواخر القرن التاسع الهجري بغزو عدن في حملة بحرية . الا أن حملته باءت بالفشل ووقع أسيرا بيد الطاهريين . وقد بقي ابو دجانة مقيدا بمدينة عدن الى أن وصلت والدته (بنت معاشر) وكانت « امرأة كاملة ذات حزم وعزم» وهي التي ضبطت الشحر في غيبته . وقد سعت عند السلطان الطاهري في فكاكه على أن تسلم للطاهرين الشحر مقابل ذلك . وبعد تسليم الشحر انتقلت الى مينائها الآخر (حيريج) . كما أن جزيرة سقطرى كانت تحكمها امرأة في بداية القرن السادس عشر عندما زارها فاسكودي جاما .

ويمكننا ان ننهي هذه العجالة المستقراة من التاريخ اليمني حول الوضع العام للمرأة اليمنية بنموذجين متأخرين من النساء الشاعرات احداهن في الشعر الفصيح والأخرى في الشعر الشعبي وبالذات شعر

الأحكام منه • فمن شعر زينب بنت محمد الشهاري (ت ١١١٤ هـ) هذه الأبيات عن مدينتها شهارة :

يا مـن يفضل صنعا غـير محتشم   على شهارة ذاك الفضل عن كمل
شهـارة الرأس لا شيء يماثـلها   في الارتفاع وصنعا الرجل في السفل
اليس صنعاء تحت الظهر مع ضلع   اما شهارة فـوق النحر والمقـل

ومن شعرها التي تستعطف به زوجها قولها :

ان الكرام اذا ما استعطفوا عطفوا   والحر يفضي ويهفو وهـو معترف
والصفح خير وفي الأغضاء مكرمة   وفي الوفاء لا خـلاق الفتى شرف
والعفو بعـد اقـتدار فعـله كرم   والهجر بعد اعتراف فعـله سرف
عاقب بما شئت غير الهجر أرضى به   فالهجر منك لا خوان الهوى تلف[٤]

أما الشاعرة الأخرى فهي غزالة المقدشية من شعراء الاحكام ويرجح أنها من مواليد النصف الأول من القرن التاسع عشر في المنطقة الوسطى من اليمن« وكانت شاعرة تنتمي الى أسرة ريفية متوسطة الحال ويبدو أن أمها كانت تنحدر مـن فئة متواضعة اجتماعيا تدعى في عـرف التقاليد اليمنية بأهل الخمس وتقع نهايـة التركيب الطبقي أو الفئوي لليمنيين • وتضم هذه الطبقة أو الفئة بالأصح الحلاقين والجزارين والدواشين » • وقد شنت غزالة المقدشية حربا شعواء ضد الوان التفرقة عندما قالت :

قالوا غزال وامها سرعة بنات الخمس   ما به خمس يا عباد الله ما به سدس
من قد ترفع لوا رأسه وعـد البقش   وقال لابأس كم يحبس؟وما يحتبس
سواء سواء يـا عبد الله متساوية   ما حد ولد حر والثاني ولد جارية
عيال تسعة وقالـوا بعضنا بيت ناس   وبعضنا بيت ثاني عينه ثانية (*)

٢

هناك من الدلائل بأن المـرأة في بعض المناطق اليمنية كانت تتمتع بحريات خاصة عبر تاريخها الطويل ففي مؤتمر الاستشراق الذي عقد في باريس في أواخر أغسطس ١٩٧٣ م ظهرت بعض الآراء الجديدة حـول العلاقات الاجتماعية في اليمن قبل الاسلام • ومـن ضمن الذين حضروا هذا المـؤتمر ـ كما يقول ذلـك مكسيم رودنسون لرئيس تحرير مجلة الحكمة اليمنية ـ المؤرخ الألماني الغربي أوستن • فقد جـاء بوجهة نظر جديدة تقول أن تعـدد الأزواج في اليمن ظل قائما في ظـل الحضارات اليمنية • وقـد سأل رئيس تحرير الحكمة المستشرق مكسيم رودنسون هل يقصد تعدد الزوجات ؟ فأجاب رودنسون لا ، يقصد أن من حق المرأة أن تتزوج في وقت واحد أكثر من رجل (٥) •

كما وأن الكاتبة البريطانية نوكس ماور تخبرنا بأن سلطـان لحج السابق علي عبد الكريم كان قـد أخبرها في أواخـر الخمسينات وهما يسيران معا خارج العاصمة اللحجية عندما قابلا بعض النساء الراعيات في طريقهما وهن يحملن العصى،لقد أخبرها السلطان بأن تلك النسوة يضربن أزواجهن أيضا بنفس تلك العصى (٦) •

وبين قبائل القرا وبعض قبائل ظفار فان المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية فالرجل « يستطيع أن يطلق امـرأته بعد أن يعطيها هـدية مغادرة كذلك فيمكن للمرأة أن تطلق زوجها على أن تعيد له هـدية الزواج •• وفي حالة الزواج بثانية على الزوج أن يهدىء من خاطـر زوجته الأولى باعطائها هدية موازية لهدية الزوجة الجديدة •• وتنيجة لمثل هذه الحرية التي تتمتع بها المرأة فان العلاقات غير الشرعية تكاد تكون مجهولة • وفي

حالة حدوث مثل ذلك فأن البنت تطرد فقط من قبيلتها ولكنها لا تقتل من قبل أقاربها كما هي العادة في داخلية عمان » (٧) .

ومثل هذه العادة في اعطاء المرأة حرية الطلاق موجـودة أيضا في بادية المهرة ، أما في الساحل فـان الحرية أو تكريم المرأة تأخـذ شكل تدليعها الى حد كبير بحيث أن الزوج هو نفسه الذي يقوم بخدمتها . ولذا فهناك مثل يقول بأن اسعد اثنين هما زوجة المهرى وبقرة البانيان .

وبالنسبة لجزيرة سقطري فيقول مساعد المستشار البريطاني المستر براون في تقرير رسمي له حول الجزيرة بأن « كثيرا مـن نساء الباديـة ينزلن الى السهل ويصبحن محضيات للرجـال هناك بمهر يتراوح بـين ٥ ــ ١٥ ريالا . ثم يوفر لهن الحد الادنى من الملابس والأكل لتقديم مثل هذه الخدمات . ولا تعتبر هذه الاتصالات كنوع من الزواج ، فالمـرأة تستطيع ان تترك الرجل متى أرادت ، كما أنه لا يلجأ الى أي نوع مـن الطلاق عندما يقرر الزوج انهاء الارتباط . ويعتبر هذا النظام عادة متبعة ولا توصم المـرأة المعنية بأي عار من جرائـه . ان التزاوج الفعلي يكاد يكون معدوما وهكذا هي طريقة حياتهم . أما ما سيكون مصير الاولاد، ان وجدوا ، نتيجة هذه العملية فلم أستطع أن اكتشف ذلك » (٨) .

وقد يبدو غريبا أن يوجد الأبناء غير الشرعيين في المجتمع القبلي في الجنوب اليمني ، ففي بعض اجزاء المجتمعات القبلية ، كان التوريد ، أو مسألة تزويد الضيف بامرأة معمولا به . ولا شك أن السلوك الجنسي كان هناك جاهليا أكثر منـه اسلاميا . فمثلا كانت الاجـراءات المتبعة وسط القبائل الواقعة شرق شقرة بالنسبة للفتاة المتزوجة التي تصبح حاملة مثيرة للغاية . فـأولا تسأل عن من هو الرجـل الذي ذهب معها وعندما يعرف

اسمه يطلب منه أن يتزوج بها فاذا « يعجز بالحرمة » على الرغم من أنه حبلها فما عليه اذن الا ان « يكسرها » بمعنى أن يعطيها « كسيرة » وهي عبارة عن عدد معلوم من « الجلبة » أو الأغنام معمولا الى الولد بأمه وانما يعرف مثلا « بصالح الزنو » ويوصف بأنه « حلال بين صفوفهم » ولا يفقد الطفل اعتباره ولربما يكون الولد « المدلل » عند جده أكثر من افادة الشرعيين • وينتسب الطفل الى قبيلة أمه ، وفي حالة الحرب مع قبيلة أبيه وحارب ضده حتى لو أدى ذلك الى قتل أبيه • وهناك فرع من قبيلة « الجعبري » معروفين بـ « أهل الزنو » وفي حالة زواج العشيق بالفتاة يبقى الطفل أولا مع أمه ، الا أنه في فترة لاحقة تأخذه عائلة الفتاة فاذا تزوجت الفتاة يبقى « الزنو » مع جده لأمه • ويسمى الطفل « ابن السلقة » أي « الفراش » أو « ابن الحرمة » •

وفي الحالة العادية عندما يأتي الطفل خارج نطاق الزوجية ، ويتوفى أبوه فيما بعد ، ينشأ الطفل من قبل أمه ويسمى باسمها كما حدث مثلا لأسلاف « أهل مريم » من قبيلة النخعي في منطقة الفضلي « المحافظة الثالثة » حاليا ، وهذا يمكن أن يفسر وجود أسماء النساء في الانساب العربية قبل الاسلام • الا أن النظريات التي تقول بأن وجود أسماء النساء في سلسلة الانساب مما يدل على بقايا نظام المرحلة الامومية السابقة ، ان مثل هذه النظريات ، اذا ما أخذت في اطارها العربي ، دائما ماتتراءى لي مستبعدة للغاية (٩) •

ومن العادات الهامة المتبعة هو أنه من أجل المحافظة على « شرف » العائلتين المرتبطين بالزواج فان الرجل اذا ما تزوج بفتاة حاملة من غير علمه فيبقيها معه لمدة عام ثم يطلقها وذلك حتى لا يجلب العار لأبيها • أما اذا أعجبته الفتاة فلربما يبقيها هي وطفلها •

أما اولئك الناس الذين يعيشون في بيوت في أبين فهـم لا يتبعون عادة القبائل الموجودة في شرق شقرة ، ولكنهم يعطون الفتاة الحاملة دواء مجهضا ويبقون الموضوع مكتوما • ثم يحاولون تزويجها بالشخص المعني أو شخص آخر قبل أن يتكشف أمر حملها • ويظهر ان الناس الموجودين في غرب شقرة ، وكذلك العواذل ، يتبعون نفس هذه الاجراءات • أمـا قبائل ربيز الكازمي فيعملون مثل ما تعمل قبائل الفضلي • ان وجود مثل هذه الاعراف وسط هذه القبائل ، التي هي بعيدة عن التأثيرات الخارجية ان وجود هذه الاعراف التي تعتبر الطفل يتبع فراش أبيه تجعل الانسان يفترض بنوع من الثقة بأنها عادة جاهلية (١٠) •

وعلى اية حال فان التسامح في قضية الأولاد غير الشرعيين في هذه المناطق وعدم تعريض الفتاة الى العقاب الصارم ، يعكس نفسه من خلال الزيارة السنوية التي كانت تقام في « الكثيب الابيض » في منطقة أبين حيث كان يوجـد الى عهد قريب ما يسمى « بحجر الزنـوان » أو حجر البراءة•فكل من كان يستطيع أن يحبو تحت ذلك الحجر الذي كان موضوعا فوق أحجار أخرى ــ ويخرج من الجانب الآخر ، كان يعتبر ولدا شرعيا أما من لم يستطع ذلك فيعتبر أنه قد جاء من خارج نطاق الزوجية • الا أن الموضوع برمته كان في الأساس يؤخذ من باب الممازحة • فاذا حدث أن توقف الشخص عن الحبو تحت الحجرة ــ مما يدل على انه ولد غير شرعي ــ يطلق شخص آخـر بندقيته لكي يمكنه الخروج مـن الجانب الآخر من الحجرة ولا شك أن صوت البندقية المفاجىء يساعد الجسم على التحرك والخروج من ورطته (١١) •

ومن ظواهر حرية المرأة في بعض المناطق اليمنية هو قبول المجتمع في أن تشارك الرجل في الرقص والاختلاط • فيوشك السفور أن يكون

عاما في القرى وفي البادية • ففي عسير مثلا يقول أحد الرحالة الذين زاروا المنطقة بأن من « الأمور الجديرة بانعام النظر في أهل هذه البلاد سفور نسائها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال من الأقارب أبناء البلاد أو الغرباء والأجانب • وتشترك النساء في أحاديث الرجال في مجالسهم ، مهما كان نوعها سواء كن ابكارا أم ثيبات » (١٢) ثم يضيف هذا الرحالة قائلا : «عجبت باديء الأمر من هذا الاختلاط من رفع الكلفة بين الجنسين ، ولكني أدركت أن نساء هذه البلاد قد اعتدن عدم الاحتراز من مخالطة الغرباء بفضل الزمن والعادات المتوارثة ولا يرين في ذلك بأسا (١٣) •

وقد لاحظت أيضا طبيبة نساء ألمانية زارت كلا من شمال اليمن وجنوبه في أواخر الاربعينات وبداية الخمسينات بأن المرأة مثلا في حضرموت «تتمتع باحترام يفوق ما تتمتع به شقيقتها في اليمن المتوكلية• وقد تبينت هذه الحقيقة فور وصولي ، اذ عرفت أن النساء لايعشن في طبقات تقع دون الطبقات من المنزل التي يعيش فيها الرجال ، بل في طبقات أعلى منها ، وكان في وسعي أن أتحدث الى الرجل عن زوجته أو بناته ، وأن أذكر حتى أسماءهن ، ولم يكن هنا مجهولات كل الجهل في الحياة العامة ، وكان الرجال يسمحون لنسائهم بأن يلعبن دورا أكثر في حياتهم مما أدى الى أن افكار المرأة هنا كانت أكثر اتساعا وأن آفاقهن أوسع شمولا • (١٤)

كما لاحظ نزيه العظم في الثلاثينات أن النساء في تهامة كن يتمتعن بحرية شبيهة بحرية الرجل في الملبس « فبعض الرجال كانوا عارين من الثياب خلا مئزر في وسطهم •• وبعضهن كن كالرجال عاريات الا من مئزر بسيط ، وبعضهن لابسات أكماما قصيرة •• وبعضهن وضعن على رؤوسهن قبعة مصنوعة من قش القمح والشعير لترد شمس تهامة المحرقة،

وهي من صنعهن • وقد علمتهن الحاجة التي هي ام الاختراع أن لا يتقيدن بعادة أو قانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن • ثم يضيف العظم قائلا « ومن الطف ما سمعت عن نساء اليمن في جهة نجران أنهن يرقصن مع الرجال أزواجا على نغمات الرباب وضرب الدفوف•وقد الفن هده العادة من أجيال عديدة وتشارك بعض نساء اليمن رجالهن في شرب القشر وتخزين القات » (١٥) •

وتمارس حرية الرقص سوية أيضا في مناطق أخرى من اليمن •• ففي يافع ، خاصة أثناء مواسم الأعياد والزواج والزيارات العامة،يرقص الرجال والنساء معا • ويتبارى الشعراء بأشعارهم المرتجلة لترددها النساء داخل الحلبة بأصواتهن المنغمة الجماعية • وكذلك في جزيرة سقطري فان كثيرا من الليالي تصرف في الرقص بين الرجال والنساء • وقد شاهدت بنفسها ذلك احدى زوجات القضاة الانجليز في مستعمرة عدن التي زارت منطقة لحج في أواخر الخمسينات • وكانت تلك الرقصات المختلطة أثناء الاحتفال السنوي لعمال محلج القطن هناك • « عندما وصلنا الى المحلج وجدنا أن المحتشدين قد قسموا أنفسهم الى حوالى ست مجموعات ، وكل مجموعة كانت تحيط برقصة مختلفة • وفي وسط مجموعة من الناس قريبة منا كان رجل وامرأة يرقصان سوية • وهذا شيء لا يمكن رؤيته في المستعمرة حيث نظام الحجاب يطبق بصرامة • ان النساء والرجال هنا يعملون جنبا الى جنب في المزارع ولا تحتجب الا نساء الطبقات العليا • وكان الرجل والمرأة يرقصان بمنتهى الأناقة وذراعه اليمنى ملتفةحول خصرها بينما استرخى رأسها فوق كتفه وهما يدوران سوية » (١٦) •

الا أنه يجب ألا يغرب عن البال بأن هذه الحريات التي قد تسمح بها بعض المناطق للمرأة فان عوائـق كثيرة أخرى بالمقابل ، قـد قيدت حريات المرأة نتيجة لأسباب كثيرة منها المغالاة في الحجاب خاصة في المدن وبين نساء المجتمعات الطبقية الحادة كالعلويين فـي حضرموت والسادة عموما في اليمن . وهناك الكثير من الأشعار والأمثال التي كانت تعبر عن النظرة الفوقية للمجتمع تجاه المرأة . وهـذه هي بعض أبيات أحـد شعراء الاحكام في حضرموت :

يقول أبو عامر / ولا تأمن من النسوان راس
لا تأمن العذراء ولا الفـارق ولا حتى النفاس
يقول أبو عامر / ومرثاتي لمـن نسله بنـات
يدعي لهن بالموت لو حتى عرائس مسندات. (١٧)

فظاهرة الحجاب ما زالت تنتشر في اليمن وخاصة في المدن . والى عهد قريب مثلا في المدن الشمالية كان لا يسمح أن تخرج من البيت الا في صحبة أمها وذلك لزيارة الأقارب فقط أو شراء بعض الحاجيات(١٨).

وكثير من النساء يشبن داخل الجدران ويحجبن ليس عن أزواجهن فقط وانما ايضا في بعض الحالات عن غيرهن من البنات . وبالطبع فان درجة الحجاب تختلف كثيرا باختلاف المناطق والتركيبات الاجتماعية . ففي كثير من القبائل فان المرأة تتحرك بحرية تامـة وتمشي وهي سافرة وتتكلم مع الرجل . وهذا لا ينطبق على نساء البـدو فقط وانما أيضا على نساء الطبقات الفقيرة في المجتمعات الزراعية . أما الحجاب الصارم فيطبق بوجه خاص وسط العائلات الموسرة . وفي بعض الحالات قد لا

يسمح للرجل أن يظهر على زوجة أخيه على الرغم من أنهما يكونان تربا معا كأطفال • فحالما تحجب الفتاة فلا يظهر عليها الا أقرب أقربائها من النساء والبنات ، كما لا يسمح لها بمخالطة قريناتها من البنات غير المتزوجات وذلك خوفا من أن يكشفن عن عيوبها وبذلك يعرضن فرص زواجها للخطر • وفي محمية عدن الغربية قد يزوجون الفتاة وعمرها لايزال بين ٩/١٠ سنوات وذلك درءا لأن تتعرض فرصة زواجها للتقلبات » [١٩] •

« وفي أوساط الطبقات العليا المرفهة في تريم في حضرموت ، عندما « تدخل العذراء في السن » حسب تعبيرهم ، تصبح محجوبة »• ولا يسمح لها لعدة سنوات أن تخرج من المنزل ، وتبقى في الطابق العلوي منه معظم وقتها متجنبة معاشرة النساء المتزوجات • وهذه العادات تنطبق أيضا على الساحل • ومن ناحية أخرى فان نساء الطبقات الدنيا في تريم يمشين سافرات ، ولكن لا أستطيع أن أقول أين يكمن الخط الفاصل ، الا أنه يجب أن نتذكر بأن الحجاب هو علامة مرتبة اجتماعية ولا يكون مضايقا للكثير من النساء العربيات كما قد تتخيل ذلك النساء الغربيات » [٢٠] •

ونتيجة لحياة النساء بين الجدران وحجبهن عن الأنظار ، فان الكثير من الرجال كانوا يتحرجون عن نطق أسماء زوجاتهم أمام الآخرين• وهذه دكتورة نساء أجنبية تصف تجاربها في هذا المجال فتقول : « من النادر أن بعث لي أحدهم بخادمة لاستدعائي ، اذ كان يجيئني دائما الزوج نفسه الى رؤية « بيته » أو يوفد الي أحد خدمه من الرجال • ولو كنت قد تحدثت اليه عن « زوجته » بدلا عن « بيته » لكان هذا الحديث خطيئة اجتماعية كبرى •• وفي حالة وجود أكثر من زوجتين له

يرد علي قائلا : « بيتي القديم » أو « بيتي البدين » أو « بيتي الصغير» واذا كان لا بد من اعطاء اسم معين فان الاسم الأول لقريب المرأة الذكر هو الذي يعطى دائما . وحتى النساء أنفسهن ولا سيما في عائلات السادة ، يلقبن بعضهن بعضا باسم الرجال كقولهن « السيد أحمد » و « السيد محمد » (٢١) .

وعندما ترسل الأمهات في القرى الرسائل الى أبنائهن المهاجرين في المدن اليمنية أو في الخارج فانهن يتحرجن عن ذكر أسمائهن وانما عادة تمهر الأم باسم والدها قائلة المخلص / أبوك فلان بن فلان .

كما فرض الحجاب والحياة المنعزلة على النساء قبول الطاعة العمياء من أزواجهن أو أقاربهن وقد نقلت الينا زوجة المستشار البريطاني تساؤل احدى نساء حضرموت حول طاعة الأوربيات لأزواجهن « هل تطيعين زوجك أو هو الذي يطيعك ؟ » وقبل أن أتمكن من الاجابة عليها ذهبت تحدثني عن الطاعة . فكأرملة تستطيع أن تعمل ما تشاء، ولكن كل هؤلاء النسوة لا بد أن يستأذن من أزواجهن اذا ما أردن الخروج من المنزل فان قال الزوج لا وجب عليهن البقاء في البيت (٢٢) .

الا أن بعض الأوربيات اللواتي اختلطن كثيرا بالنساء اليمنيات يعتقدن بأن العزلة المفروضة عليهن قد تؤدي الى اهتمامهن ببنات جنسهن بدلا من أزواجهن وفي بعض الأحيان الى العلاقات العاطفية والجنسية خاصة في الأماكن التي تكثر منها هجرة الأزواج الى الخارج.

فعن تجاربها في صنعاء تقول الدكتورة الفرنسية كلودي فايان :

«وهكذا تقضي النساء اوقات فراغهن بعيداعن الرجال في الصباح

واثناء الغذاء وبعد الظهر . والمدهش المحير ان هؤلاء النسوة لسن في الدير . انهن أنيقات مخضبات يرقصن ويعرضن مجوهراتهن ولكن لا لاسعاد الرجال .. فالرجال لا يشاهدون أبدا هذ االبهاء .. وكثيرا ما سألت احداهن «ولكن هل سيراك زوجك بهذا الجمال وهذه الزينة هذا المساء هل رآك ترقصين ؟ فترد دهشة مستغربة كلا » (٢٣) .

أما السيدة انجرامز ــ وكانت ساحة تجربتها حضرموت فتقول: « ان هذا التسلط من قبل الرجال قد جعل النساء خاليات البال وليس لهن مشاكل كبيرة تذكر فالأزواج قد اوجدوا لهن ولم يكن ملزمات بالخروج والعمل او منافسة الرجل بطريق أو بآخر . وعلى الرغم من أن حياتهن محصورة فهي على نمط واحد وهن يعرفن تماما ماذا يستطعن أو لايستطعن عمله دون موافقة الرجل . ولم يكن يبدو على وجوههن مثل ذلك القلق الذي دائما ما يظهر على وجوه النساء في البلدان الاكثر تطورا . وعلى العكس فقد كن أشبه بالراهبات ويبدو عليهن هدوء البال والسكينة والصفاء كما هو الحال بالنسبة لحياة الدير . ولكن بسبب عزلتهن عن مجتمع الرجال فان ذلك يعود في بعض الأحيان الى علاقة ــ بل الى علاقة عاطفية ــ مع النساء الأخريات » (٢٤) .

ويرتبط بقضية عزل المرأة عن المجتمع الرجالي استماتة الرجال في عدم تمكن المرأة من التعليم وذلك خوفا من أن تستغل معرفتها بالقراءة والكتابة في الاتصال بالرجل من وراء الحجاب . ومن الطريف أن نجد نظرة الرجل في اليمن لا تختلف عن نظرة شقيقه في العراق تجاه هذه المسألة . فقد كتب الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ما يلي :

« ان مشكلة تعليم البنات (في العراق) كان أشق وأصعب لأن

نظرة المجتمع آنذاك لم تمكن تقبل للبنات أن يتعلمن القراءة والكتابة.
ومن طريف الآراء في هذا الخصوص الرأي الذي أبداه المرحوم خير الدين الألوسي في كتابه الموسم : (الاصابة في منع البنات عن الكتابة) الذي كتبه سنة ١٨٩٧ قال : « فاما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله ، اذ لا أرى شيئا أضربهن ، لأنهن لما كن مجبولات على الغدر،كان حصولهن على هذه الملكةمن أعظم وسائل الشر والفساد وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على كلام بها ، فانه يكون رسالة الى زيد ، ورقعة الى عمرو ، وبيتا من الشعر الى عزب ، وشيئا آخر الى رجل آخر .

فمثل النساء والكتب والكتابة، كمثل شرير سفيه، تهدي اليه سيفا، أو سكير تعطي له زجاجة خمر . فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهذا هو أصلح لهن وانفع (٢٥) .

وعلى نفس المنوال أعلاه تقريبا سجلت لنا السيدة انجرامز هذا الحوار مع أحد أصدقائها بشأن قضية تعليم المرأة القراءة والكتابة . كان حواره هذا بعد زيارتها الى مقصورة نساء بيته . « قال لي أن النسا العربيات ليست لديهن أخلاق ، عليك أن تخبريهن كيف يجب أن يسلكن انهن يحتجن الى تعليم » فأجبت : من المؤسف بأنهن لايستطعن القراءة والكتابة . فقال أنا لا أقصد ذلك . انهن في حاجة لتعليم الأخلاق . فاذا تعلمن القراءة والكتابة فسيبدأن في الحال بمراسلة الرجال (٢٦) .

الا أن الأسباب الحقيقية لعدم تعليم المرأة أعمق وأشمل « لقد سمعت الرجال مرارا يرددون قائلين انهن لسن أفضل من الاغنام .

ولكن ذنب من ذلك ؟ ان الرجال يخافون في أنه اذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة فستطالب بحرية أكثر وبمزيد من الحرية ستنتهي الأخلاق . ان أفكارهم عن الفساد الاخلاقي هي دائما انعكاس لما يعتقدونه عن سلوك المرأةالغربية التي تقبل أمام الأنظار وتلبسالملابس غير المحتشمة، وعموما تسلك بطريقة لا يريد الرجل المسلم أن تقلدها ابنته » (٢٧) .

٤

وقد عرف المجتمع اليمني كغيره من المجتمعات الأخرى وجود الجواري في العصور الوسيطة والحديثة ولكن ليس بالشكل الحاد كبقية مناطق الجزيرة والخليج العربي . وتصف لنا كلودي فايان تجربتها في هذا المضمار في صنعاء في أوائل الخمسينات فتقول :

« نزل سفير للمملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء وأراد أن يشتري جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية الى سيده ابن سعود وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقل الي الخبر في تكتم شديد ، بل وأحضر معه العقد الذي وقعوه ، والثمن الذي اتفقوا عليه وهو ألف وثمانمائة ريال (٧٠٠ د) ولكن الصفقة كانت متوقفة على الفحص الطبي الذي سأقوم به .

واذا كانت الفتاة تكلف هذا المبلغ الكبير فلانها من الجنس الأبيض ، أما الجواري الأخريات اللائي أعرفهن فانهن من أصل أفريقي .. وطلبوا مني أن أفحصها فحصا باطنيا دقيقا (وكان عمرها ١٥ سنة) حتى يتأكدوا من أنها خالية من كل الأمراض التناسلية .. وفي ذعر واحساس بالعار هاجت وحاولت التخلص ولكن الأمير كان يخضعها

بالقوة • لقد كان مشهدا جارحا مؤلما •• واذا تحدثت عنه اليوم خارقة بذلك قسم هيبوقراط فما ذلك الا بفعل نظرتها في تلك اللحظات الرهيبة• وقد تعمدت أن أذكر لهم تفاصيل شنيعة عن أعـراض المرض الجلدي المعدي المستعصي •• وغـادر الأمير السعودي المطار ولم يأخـذ معه جسما محجبا صغيرا بعيدا عن وطنه •

ان على أصدقائي اليمنيين أن يدركـوا أن الانسان ليس حيوانا يباع • (٢٨) وفي كتاب ابن المجاور الدمشقي (ت ١٢٩٠ م) الذي كان رحالة طوافـا زار الهند وبلاد فـارس والحجاز واليمن ، وصف فريد لعادات الناس في المساكن والزواج والأخلاق العامة ، ولو كانت قبيحة قد يتحرج غيره من ذكرها ولكنها على أية حال مـن جوانب الحضارة الانسانية تستحق أن تعرف • ويظهر من وصفه لأخلاق بعض نساء ميناء عدن ــ ومعظمهن أجنبيات ــ أو لبيع الجواري فيه ، ان وضع المـرأة آنذاك قد بلغ دركه الأسفل •

والحقيقة أن الأمر لم يقتصر على ميناء عدن وحده وانما على بقية الموانىء اليمنية فمثلا هناك اشارة الى أنه عند غزو البرتغاليين لميـناء الشحر في مطلع القرن السادس عشر كان في الميناء عـدد من حـانات الشراب الذي يعصر محليا • وفي المدينة ماخور ومرقص يديرهما أحد الهنود بالاشتراك مع بعض أهالي الشحر والراقصات يجلبن من الهند ومن لامو ثم يعدن الى موطنهن الأصلي ، والبعض منهن يوالـين السفر الى عدن والحجاز • والربان بأسباع يطلق على الماخور والمرقص اسم « محلات الغرام والهيام والمدام » (٢٩) •

أما وصف ابن المجاور لعملية بيع الجواري في عدن فكان كالتالي:

« تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادي بيدها ويدور بها في السوق وينادي عليها ، ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرتها وصدرها ونهدهـا . ويقلب ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود وان كان عليها ثياب خلعها وقلب وأبصر (ثم يذكر أشياء فاحشة لا نريد ذكرها) فاذا قلب ورضي واشترى الجارية تبقى عنده مـدة عشرة أيام زائـد وناقص . فاذا رعي وشبع ومل وتعب وقضى وطره قال زيـد المشتري لعمرو البائع : بسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضر عند الحاكم ، فيدعي عليه العيب [٣٠] .

وفي حالة أخرى يقول ابن المجاور : « حدثني قال اني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده سبعة أيام . فلما شبع استعيب فيها وأحضرني الى الحاكم وادعى عليها بالعيب . فقال الحاكم. وما عيبها ؟ (ثم يذكر عيبا فاحشا [٣١] . لا نود أن نذكره هنا) .

أما وصف ابن المجاور لوقاحة بعض النساء الأجنبيات في شوارع ميناء عدن آنذاك فهو يقول . « اذا تخاصم بعض النساء البرابر مـع أخرى تخلع ما عليها من الثياب وتلطم صدرها ، وتصفق وتقفز وتسلق عيناها في وجه صاحبتها ، وتغدو كل واحدة منهما تارة تنام وتارة تنحني وتارة تضحك وتبكي وتارة تعبس وتارة تلطم (ثم يذكر تصرفات مشينة لا نريد ذكرها) ثم ينهي ابن المجاور كلامه : وايش ما عملت احداهن عملت الأخرى مثل الأولى . فما رأيت أوقح ولا أوسخ ولا أقـل حياء من البرابر لا جزاهم الله عن الاسلام خيرا » [٣٢] .

وفي كثير من الأحيان كانت المرأة تعامل وكأنها سلعة لا غير . فها

هو آحد سيوف الاسلام في اليمن المتوكلية يعامل زوجـاته الشرعيات وكأنهن سلعة جنسية قابلة للتبادل . وهذا وصف لما لمسته كلودي فايان في صنعاء تقول الدكتورة فايان : « ودعنا الأمير (ع) بعد الغذاء للانتقال الى المفرج ولكنه قبل هذا تركني وحدي مـع الأمير (ب) وأخـذ معه المهندس (صديق فايان) الى مقر الحريم ، أجل الى الحريم . مسكين المهندس .. انه شارد الفكر ، تائه بوضوح وصف لي ما رأى فيما بعد فقال : ساقني الأمير الى الحجرة المجاورة وفيها ثلاثة سرر كبيرة . وكنا أمام الزوجات الشرعيات وهن في أجمل ثيابهن وكامل زينتهن ، وقـد زاغت عيونهن . كن مستعدات لكل شيء .. عدا أصغرهن .. فقـد خانتها شجاعتها أمام هذا الرجل الغريب ففرت واختفت تحت السرير .

ثم شرح لي صديقي ما حدث . قال له الأمير . دبر لنا (الحكيمة) ــ يعني فايان ــ وتستطيع أن تختار من تشاء من حريمنا [٣٣] .

كذلك تعطينا الطبيبة الفرنسية لقطة أخرى فتقول : « وهـا نحن للمرة الثانية في الطابق العلوي ، في البيت الكبير . كانت نساء الأمير في غليان وفوران وقد رقدت سيدة عارية فوق احدى السرر الثلاثة ، والقت أخـرى بنفسها في أحضاني وتعلقت برقبتي وهمست في أذني « كونياك » .. طبعا كونياك .. هكذا دائما . وطلب الأمير أن أفحص المريضة ودعا المهندس للدخول الى الغرفة بـل وطلب من المهندس أن يفحص المريضة بعدي : ولم تكن مصابة بشيء على الاطلاق » [٣٤] .

ويشير فؤاد حمزة الى ظاهرة معاملة المرأة كسلعة في عسير فيقول. «وقد لاحظت أنواعا من الزواج كانت المساومة فيه أساسا له وكان المال سببا لاتمامه . ولم يستكف أهل هذه البلاد عن تزويج بناتهم من الجنود برغم علمهم بقصر مدة اقامتهم بين ظهرانيهم . وهذا التساهل في اختيار

الأزواج أو بالأحرى في بيع النساء للرجال بثمن بخس وبدراهم معدودة قد لفت نظري الى هذه الظاهرة الاجتماعية الخطرة » (٣٥) .

وبالطبع فان معاملة المرأة بهذا الشكل قد جعل النساء وليس لهن الا مشاغل تافهة صغيرة«عواطف سفلية وضيعة . فالرجال يستخدمونهن هنا كسلعة ، سلعة للذة والتسلية أو آلات لانتاج الأطفال ، والشيء الذي يعامل كسلعة يصبح شيئا وضيعا » (٣٦) .

كذلك بسبب تلك الأوضاع التي كانت تعيشها المرأة ، تجد زوجة أحد قضاة المحكمة العليا في عدن ابان الحكم البريطاني ، والذي كان مسؤولا عن البت في قضايا الزواج والطلاق ، بموجب (المنهاج) بأن الحقيقة التي لا تصدق تبقى بأن في كل (١٠) حالات زواج في المستعمرة كانت (٧ ــ ٨) حالات طلاق يتم تسجيلها في سجل الطلاق في المحكمة. وأن هذه النسبة العالية تجعل حالات الزواج والطلاق في هوليود لا شيء يذكر أمامها . ثم تمضي الكاتبة قائلة بأن نسبة الطلاق قد بلغت ذروتها في منتصف الخمسينات عند مجيء فريد الاطرش لاحياء الحفلات الغنائية في عدن . فقد استطاع ذلك الحدث أن يجمع النساء كما لم يستطع أي شعار آخر ، في طريق تحرير المرأة فقد تدافعن بالمئات لحضور حفلات الأطرش دون رضا أزواجهن أو أقاربهن . وكانت النتيجة ارتفاع نسبة الطلاق آنذاك في المستعمرة (٣٧) .

٥

بالنسبة لاجراء الخطبة واختيار الزوجة فتختلف العادة من مكان لآخر ففي البعض تتم الخطبة بموافقة الفتاة ، وفي البعض الآخر يتم

اختيار العروس بواسطة الأهل . الا أنه في الكثير من المناطق اليمنية هناك حق الأفضلية لأبن العم في الزواج من ابنة عمه . « ان حقوق بني العم شيء ثابت بموجب الأعراف . فالفتاة يجب أن تتزوج بأقرب أبناء عمومتها كابن عمها . واذا لم يكن لعمها ولد أو لجدها أخوة ينتقل الحق الى أقرب ذرية جدها الأكبر . وحتى اذا لم يطلب ابن عمها الزواج بها، فان موافقته على زواجها بآخر لا بد من الحصول عليه . ولا يسقط حقه الا في حالة تزويج أبيها لها مقابل زوجة جديدة له . واذا ما توفي أبوها وطالب بها ابن عمها فيمكن للفتاة أن تستعطفه لكي يتركها حرة لتختار الزوج الذي تريده الا أنه لا يمكن أن يفرض عليه اعطاؤها حريتها في الاختيار . فاذا رفض فما عليهما والرجل التي اختارته الا أن يهربا ويطلبا حماية رئيس قبيلةقوية أخرى ، ولكنهما سيعيشان في خوف مستمر من أن يثأر بهما. فاذا قتلها ابن عمها فلن يكن ملزما بدفع ديتها، أما اذا قتل الرجل نفسه فعليه أن يدفع نصف الدية فقط » (٣٨) .

وفي عسير السراة أيضا فابناء عم العروس « أولى بها من الغرباء، ولهم عليها حق الأفضلية ، ولذا يجب التثبت من عدم معارضتهم في الزواج أو ارضاؤهم للتخلص عنه قبل اتمامه » (٣٩) .

وعلى أية حال فان الخطبة ــ كأي ظاهرة اجتماعية أخرى ــ ترتبط بظروف المجتمع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيه ونجد ذلك واضحا في ظاهرة الخطبة في المجتمع اليمني ، فهي ترتبط بالعلاقات الدينية ممثلة في ظاهرة الحجاب وعدم السماح باختلاط الجنسين وخاصة في المدن الرئيسية وترتبط بالتمرتب الاجتماعي والعلاقات الطبقية ، وكذلك ترتبط بالعلاقات الاقتصادية والحاجة الى أيد عاملة (٤٠) .

فالأب في الظاهر هو الذي يقرر في شئون الزواج ولكن الحقيقة أن النساء هن اللائي يقمن بعقد الزواج ، فالشاب يعلق أهمية كبرى على رأي أمه وأخوته لأنهن يعرفن الزوجة المقترحة .. وهكذا يتوقف الزواج على مدى حكمة نساء الأسرة (٤١) .

وهذا وصف أحد الشباب العدنيين المتعلمين لكاتبة أجنبية ، عن كيفية اختيار عروسه بواسطة قريباته من النساء .

« وفي الأخير تجمعت لدي قائمة بتسع مرشحات مع كل تفاصيل وجوهن وهيئاتهن وأصواتهن وشخصياتهن الخ الخ . وبدأت في عملية الاختيار ولك أن تتصوري صعوبة الاختيار طالما أن عيني لم تقع مطلقا على أحد منهن . وعلى كل حال فبغياب الصور ، لأن ذلك كان ممنوعا تماما ، كان علي أن أمتد على فراشي في الظلام وابدأ اتخيل هيئة كل واحدة منهن حسب الأوصاف التي أعطيت لي اني أعرف أن هذا قد يبدو غير معقول . الا أن كل واحدة منهن مع الوقت قد صارت في ذهني شخصا حقيقيا وواضحا » وفي الأخير ينهي هذا الشاب حديثه حول الزواج فيقول « أنه أشبه بالقمار . وما على الانسان الا أن يتقبل مصيره » (٤٢) .

الا أنه في أماكن أخرى من اليمن فان حرية اختيار الزوجة تتم بموافقة الجانبين . فاختيار العروس في عسير السراة ، لا سيما القرويات والبدويات ، يقع كما يقول أحد الرحالة ، في « أحد مكانين السوق أو البئر . وعلى الراغب في الزواج الا أن يرتدي أحسن ثيابه يوم السوق ويشرع في ذرعه ذهابا وجيئة الى أن يقع نظره على فتاة تعجبه ، فيتقدم اليها خاطبا باللغة المعلومة «أنا ميدك» و «أنا ميد» و «أنا ليس ميد »

ويستدل على ولي الفتاة ، وتتم الخطبة في نهار واحد . وهناك المهر ، وهناك الضيفة ، وهناك الشرهة ، وهناك الأستاذ مأذون الزواج ، بسم الله من حلل النكاح وحرم السفاح مبارك يا عريس » (٤٣) .

وفي بعض الأحيان وعوضا عن استعراض الفتيات في السوق فان الراغبين يتصيدون الفتيات من بعيد في طريقهن الى السوق قبل وصولهن اليه حتى لا يزاحمهم مزاحم أو ينافسهم منافس . أو أنهم يذهبون الى البئر الذي يجمع فتيات الحي والقرية حيث هناك الفرصة الحسنة للحديث معهن فيحصل التعارف والاتفاق الضمني على البئر ، ثم يعقب ذلك اجراءات الخطبة الرسمية في البيت (٤٤) .

ويشير ابن المجاور الى وجود عادة شبيهة لذلك في منطقة ذمار ، في أواسط اليمن ، في القرن السابع الهجري . ففي الفصل الموسوم (صفة نكاح أهل هذه الأعمال) يقول ابن المجاور :

« اذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيد لعمرو . أريد أشاهد جمال كريمتك . فيقول عمرو : أقدم الى السوق الفلاني فانها تتوعد به . شاهدها في بيعها وجمالها . فيقدم زيد الى السوق الذي دله عمرو فيقعد على قارعة الطريق فتقبل خطيبته وعلى ظهرها كارة قدر شيلها تحط في السوق فتبيع ما معها وتشتري حوائجها ، وترفع كارتها على ظهرها . ويرجع خطيبها ورآها تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل واللين والوعر . وهذا كله ولم تحط الكارة من ظهرها ولم تسترح . فاذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على شيل الثقيل فعند ذلك يملك بها ويدخل عليها وتبقى على شغلها ذلك الى الممات » (٤٥) . وكما هو واضح من هذا

النص فان الاعتبارين الأساسيين هما جمال الفتاة وقدرتها على العمل ، بمعنى قيمتها الاقتصادية .

وفي وسط قبائل القرا في الجنوب فان أبا الفتى الذي ينوي الزواج لأول مرة « لا يتكلم فقط مع أبي الفتاة وانما عادة مع الفتاة ذاتها وأمها مطريا صفات ابنه في نفس الوقتوفي بعض أقسام قبائل المهرة والمناهيل فان الرجل يسمى باسم أمه كأن نقول محمد بن مريم . وفي قبائل المناهيل والحموم وبعض القبائل الجنوبية الأخرى فان الرجل لا يتزوج الا بزوجة واحدة ويقوم الرجل بخطبة الفتاة مباشرة » (٤٦) . ومن الجدير بالذكر أن الأعراف في قبائل الحموم كانت تسمح بما يسمى « التفريخ » وهو أن تحمل الفتاة من غير زوجها . ولا ترى القبيلة في ذلك ضيرا خاصة اذا كان ذاك الرجل معروفا بالشجاعة ، لأن القبائل دائما تريد الفتيان الشجعان .

٦

وكما أن هناك قيود الخطبة التي تحد من عملية اختيار الزوجة ، فان قيود الكفاءة في الزواج لهي أشد وأقسى في بعض المناطق اليمنية كحضرموت التي كان يمارس فيها الى وقت قريب نظام الطبقات . فعموما بينما يمكن للرجل أن يتزوج من أيةطبقة اجتماعية الا أنه لا يمكن للمرأة أن تتزوج من طبقة أدنى من طبقتها (٤٧) .

وكل العلويين في حضرموت متفقون على موضوع الكفاءة في الزواج ، بمعنى أنهم لن يسمعوا بتزويج بناتهم الا لسيد أو شريف. وهم في هذه القضية أكثر صرامة من أبناء عمومتهم زيود شأن اليمن . وقد

نتج عن قضية الكفاءة هذه أن انقسم المجتمع الحضرمي الى فريقين في بداية هذا القرن ، أو بما عرف فيما بعد بالصراع العلوي/الارشادي . وتعود جذور الصراع حول هذه المسألة الى ١٩٠٥ عندما وقف السادة العلويون باصرار في وجه زواج هندي مسلم في سنغفورة بسيدة علوية . وقد أصر العلويون بعدم الكفاءة في الزواج على الرغم من أن رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة أفتى بوجوبه لسبب بسيط وهو أن الاسلام يؤمن بالمساواة . وقد نتجت عن هذه القضية المظاهرات في جاوة وهاجم الارشاديون دور السادة في نظام الطبقات وأنهم يستخدمون الدين ليحافظوا على مكانتهم العالية في المجتمع ليبرزوا عدم المساواة المناقضة لروح الاسلام . ثم أضاف الارشاديون بأن «السادة ليس لديهم الحق في أن يمارسوا سياسة الزواج التميزية لأن جميع المسلمين متساوون ويستطيعون الزواج بحرية »(٤٨) .

ويعتقد البروفيسور سارجنت أن الكفاءة في الزواج ، كما تطبق في حضرموت مبنية على المبادىء الجاهلية لطبقة الاشراف قبل الاسلام، كما أنها ــ أي قضية الكفاءة ــ في الاسلام تطبق تطبيقات مختلفة . ثم يضيف سارجنت قائلا : « وفيما بينهم أخبرت بأن السادة يعتبرون عارا اذا ما تزوج أحدهم بفتاة من طبقة أدنى من طبقتهم على الرغم من أن ذلك مسموح به من ناحية الشرع .. وقد عرفت حالة في تريم حيث كانت الأم المسكينة تتكلم عن ابنتها الشريفة » (٤٩) . أما الأم المسكينة المتزوجة فلن يرتفع مركزها الاجتماعي كبقية النساء من السادة وانما أطفالها فقط هم الذين ينتقل اليهم دم السادة العلويين (٥٠) .

ان اطار النسب في حضرموت يقسم الناس الى ثلاث طبقات . فكل شخص يرث نسبه من أبيه ولا يمكن المحافظة على مثل هذا النظام

الا عن طريق نمط من الزواج معروف • وقضية الزواج في حضرموت تعتمد على الكفاءة،بمعنى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج الا من تساويه في النسب ، فان لم يتمكن من ذلك يجوز له عندئذ أن يتزوج من هي أقل منه نسبا • وتبقى الأفضلية دائما للزواج الأفقي من نفس الطبقة (٥١) •

والحقيقة أن تفسير الكفاءة في الزواج في حضرموت بالمفهوم العلوي « أصبح أمرا واقعا وذلك بسبب قوة السادة وثرائهم • فهم لم يرضوا أن يزوجوا بناتهم الى المساكين » كما أن نظام الكفاءة في الزواج «لا يعني أن العرائس داخل الطبقة الواحدة متساويات•فهناك تقسيمات داخلية بحيث تكون الأفضلية للاهل قبل الطبقة لأنهم يفضلون الزواج من العائلات صاحبة الثروة المماثلة ، وهدفهم من هذا هو من أجل ابقاء الثروة داخل العائلة ومن أجل تدعيم وحدة العائلة » (٥٢) •

وتتكون الطبقة الدنيا في حضرموت من الحرثان والأخدام والصبيان • فمن ناحية نظرية ، كل طبقة المساكين لهم مركز واحد ، الا انماط زواجهم تعارض هذا النظام المثالي القاضي بأن جميع الأشخاص ذوي النسب الواحد يمكنهم أن يتزوجوا فيما بينهم • فالواقع يدحض ذلك ، فمثلا زواج الحرثان بامرأة خادمة عمليا يعتبر زواجا رأسيا بين مسكين أدنى (المرأة الخادمة) وبين مسكين أعلى (الزوج المسكين) والسبب في ذلك هو أن كل جماعة من المساكين تحاول أن تدعم مركزها الوظيفي بالمقارنة مع جماعة مساكين أخرى • وتعبر عن هذا « النسب » الجديد بواسطة الزواج •

وبما أن الحرثان كانوا هم الوحيدين من المساكين الذين كان

باستطاعتهم امتلاك الأرض في الماضي فقد كانوا لا يزوجون نساءهم الى بقية طبقة المساكين خوفا من تحويل الوريثة فيما لو تم الزواج . وقد توصل الدكتور البجرة من دراسته الميدانية هذه الى « أن أنماط الزواج تبين أن كلا من مركز النسب والعوامل الأخرى تؤخذ بعين الاعتبار عند اختيار الزوجة ، وما هو الا اعادة بيان للهيكل الاجتماعي ودعما للفروق في الثروة وذلك خوفا من أن تنتقل نتيجة الزواج . كما أن الزواج الأفقي قد حافظ على مر الأجيال في أن تنفرد كل جماعة وتحافظ على كيانها داخل الهيكل الاجتماعي . وفي الحالات التي تم فيها الزواج من أدنى الى أعلى فقد أبقى على التأكيد الرمزي للمركز . فأولاد الزواج في مثل تلك الحالات يأخذون نسب أبيهم . وأما الزوجة فتستمر تعتبر في مركزها الواطيء ، وكيفما كان الأمر فان الزواج الرأسي غير المتساوي لا يساعد بأي حال على الحراك الاجتماعي » (٥٣) .

كذلك في شمال اليمن فان طبقة السادة لم تكن تسمح بأن تزوج بناتها من أبناء الطبقات الأخرى ، وكذلك لم تكن تسمح بزواج ابنائها من هذه الطبقات وان كانت تتساهل فيما تتعلق ببنات المشائخ والعقال ورجال القبائل . ويزداد التمسك بهذه التقاليد في شمال اليمن ويقل في وسطه .

وبالنسبة للقبائل فان « هذه الطبقة لا تسمح لفتياتها بالزواج من غير قبيلي ، وقد تزوج فتياتها من هاشميين ، انما دون ذلك فلا يمكن أن تتزوج الفتاة القبلية من أبناء الأسر التي يمارس أفرادها بعض الأعمال الصناعية كأن يكون الفرد حلاقا أو مغنيا أو صاحب مقهى أو صانع أحذية أو دباغ جلود ــ بنو الخمس الذين سبق أن ذكرناهم ــ أما الأخدام فهم طائفة منبوذة لا يمكن أن يتزوج أي فرد من الطبقات

الأخرى مـن بناتها أو أن يتـزوج أي فـرد مـن فتيات الطبـقات الأخرى » [٥٤] .

أما في عسير فلا يهتم أهلها بالكفاءة في النسب فيما عدا عائلات الأفراد والأعيان التي لا تتزوج بناتها لغير الكفء ويقول فؤاد حمزه بأنه قد شاهد حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة [٥٥] .

وبالطبع فان نتائج تطبيق الكفاءة في الزواج بمثل تلك الصرامة كثيرة وأهمها أن بنات العلويين قد يفوتهن قطار الزواج بسبب عـدم توفر الرجال من طبقتهن ويصبحن أرامل أو عوانس . وفـي دراسته للتركيب الطبقي في مدينة حريضة في حضرمـوت يسجل لنا الدكتور البجرة بروز الصراع بين طبقتي السادة والمساكين الى السطح بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء . وهذا تسجيل لما شاهده .

« وسرعان ما تصلبت المواقف أكثر في حريضة . فمثلا أصبحت مواقف بعض شباب الأخدام أكثر عدوانية ، وبدأوا يندوون بالمكشوف بسيطرة الفريق الأول وغلب على نكاتهم الطابع السياسي والاستهزاء الواضح . ومما قيل أن بعض أراملهم يسمعن وهـن يتمتمن مرحبات بالثورة عندما تأتي الى حريضة ستحضر معها حرية الزواج » [٥٦] .

٧

ومن الظواهر التي كانت سائـدة في المجتمع اليمني هـو زواج الفتيات في سن مبكر . وهذا بدوره يعكس اهتمام المـرأة بالنواحي الجنسية وذلك « ثمرة نشوئهن في بلاد ألف أهلها تزويج بناتـهم في

سن تتراوح بين العاشرة والرابعة عشرة ولم يكن من غير المألوف على أي حال في اليمن أن عجوزا في السبعين من عمره أو يزيد ، يبنى بفتاة في العاشرة لتحول كما يقولون بينه وبين الشيخوخة بما تحمله من نظرة الشباب ويفاعته . ولا تكون الفتاة في هذه البلاد وهي في العاشرة أو حتى الرابعة عشرة من عمرها أكثر نموا بدنيا وعقليا من مثيلاتها في هذا السن في أوربا ولكنها تكون أكثر ثقافة في الناحية الجنسية اذ أنها نشأت على التطلع الى الزواج المبكر .. وذلك لأن الرجال والنساء على حد سواء كثيري الصراحة في الأحاديث الجنسية ولا يتورعون مطلقا على التحدث بجميع دقائق الحياة الجنسية » [٥٧] .

وترى طبيبة أجنبية أخرى أنه لا يوجد ضرر كما يظن من الزواج المبكر وانما ضرره يكمن في تأثيره على اعاقة النمو العقلي المتكامل لدى الفتاة فيما بعد وكذلك على اهتمامها المتزايد بالجوانب الجنسية. « لقد عرفت الكثيرات من صغيرات السن مزوجات ومخطوبات ولم أتبين لذلك ضرر ، ويندر أن تحمل الفتاة خلال المرحلة الأولى لبلوغها. وعسر الولادة ينتجعن سوء التغذية أكثر مما ينتج على النمو الجنسي غير الكامل للام الشابة .. وفي نظام الحريم تعد الفتيات الصغيرات اعدادا نفسيا ممتازا .. ويعرف الأزواج كيف يحصلون على ما يريدونه من متع ولذات » [٥٨] ثم تضيف هذه الطبيبة في مكان آخر قائلة : « وزواج الفتاة الصغيرة ليس فيه خطر من الناحية الجسمية ، بل أنه جانب فتان في غالب الأحوال .. الا أن هناك أمرا في غاية الأهمية ، وذلك أن وضع الفتيات تحت رعاية الرجال وهن في سن مبكرة.. يحول بينهن وبين النمو العقلي المتكامل » .

وظاهرة تعدد الزوجات في اليمن تختلف من منطقة الى اخرى .

فالعظم الذي زار شمال اليمن في العشرينات والثلاثينات قد لاحظ تعدد الزواج فقال : « ويكثر الرجال في اليمن من الزواج وقلما يجد الانسان رجلا متزوجا بأقل من زوجتين أو ثلاثة ، وكثيرا ما يطلق الزوج زوجاته ويتزوج من غيرهن ، وربما بلغ عدد زوجات بعضهم من مطلقات وغير مطلقات الثمانية أو العشرة أو أكثر . وقد روى لي أحدهم عن نفسه أنه تزوج من تسع زوجات طلق منهم ستا وبقي عنده ثلاث . وقد رزقه الله من جميع زوجاته (٢٥) ولدا مات منهم (١٦) وبقي عنده تسعة . فسألته وكيف كان بامكانه أن يعدل بينهم فقال « ان الأمر سهل جدا لأن النساء في اليمن قد ألفن تعدد الزوجات فلا تجد الغيرة اليهن سبيلا ولايؤخذن رجالهن على الزواج ولا يلمنهم وتعيش غالبية زوجات الرجل في منزل واحد دون ان يحدث بينهن شجار أو خصام » [٥٩] .

أما ما لاحظته كلودي فايان حول هذا الموضوع في بداية الخمسينات فكان بدرجة أقل ولكنها أيضا أيدت العظم في استنتاجه حول تأثير تعدد الزوجات فقالت « واذا توفرت الامكانيات فان واحدا من كل رجل تتعدد زوجاته ، اذ أن أرجح الأزواج عقلا وحنكة يشعرون وهم في سن الأربعين بحنين ورغبة الى جسد بعض جديد ، وزوجاتهم يعرفن كل هذا ويتقبلنه كما لا تتقبله المرأة في أي بلد آخر وذلك لأن الاسلام يقره أولا ولأن كرامة الزوجة لن تمس بهذا الزواج تماما كزواجها وهي ليست نتيجة للحب. انها لاتخشى العواصف التي تقلب الحياة العائلية رأسا على عقب في البلاد التي تتعارف فيها الرجال بالنساء . وهي أخيرا ستجد صديقة أجنبية تساعدها وتأخذ عنها جزءا من العمل المنزلي » [٦٠] .

كما أكدت هذه الطبيبة الفرنسية في مكان آخر بأن « تعدد الزوجات يحمي الى حد كبير استقرار البيوت التي يوجد بها أطفال . فلا وجود هنا

للبيوت المنهارة مثل الغرب . ولعل المرأة الغربية التي هجرها زوجها والتي تبحث عبثا عن نفقتها من زوج هارب وليس عندها ما تعيش به ، لعل مثل هذه المرأة تكون أقل تعاسة في مجتمع فيه تعدد الزوجات ولا سيما والأب هو الذي يتكفل دائما بنفقة الأولاد وتنشئتهم » (٦١) .

وفي تريم في حضرموت فقد لاحظ البرفسور سارجنت بأن العلوي اذا ما تزوج بأكثر من واحدة فانه يضع كلا منهن في بيت مستقل تجنبا لنشوء أية متاعب وأنه حتى بالنسبة لطبقة المساكين اذا تزوج أحدهم بأخرى فسيحاول أيضا توفيرها ببيت آخر . ثم يضيف سارجنت قائلا . « أعرف حالة في مدينة أخرى حيث كانت الزوجتان تعيشان في منزل واحد ، الا أن الرأي العام كان ضد ذلك . كما أعرف علويا ثريا كان متزوجا على الأقل بسبع زوجات . وكن كالآتي . الأولى شريفة ولها عدة أطفال ، والثانية قروية ، والثالثة شيخة من آل بافضل ، والرابعة سيدة شريفة والخامسة قروية من عائلة المشائخ ، والسادسة شريفة ، والسابعة صينية . وعلى العموم فان الزوجة الأولى في العائلة يكون لها المركز الأول ، الا أنه في حالة زواج العلوي بشيخة أولا ثم بشريفة بعد ذلك فان الشريفة ستكون لها المركز الأول وتكون الأسبقية لأبنها » (٦٢) .

٨

ولا شك أن تعدد الزوجات في اليمن قد قل الآن نتيجة للتطور الاجتماعي الذي نتج بعد قيام ثورتيه في بداية الستينات ، وفي كتاب أخير تعرض لهذه الظاهرة في شمال اليمن يقول مؤلفه « ولا نستطيع الآن ، تحديد مدى انتشار ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع اليمني ، لأننا في الدراسة الحالية لم نأخذ سوى عينات قليلة في أماكن محدودة لا تصلح

للتعميم ، ومن هذه الدراسة الجزئية أستطيع القول أن تعدد الزوجات غير شائع في المجتمع اليمني بحيث أن نطلق عليها كلمة (ظاهـرة اجتماعية) تسود المجتمع ، كما يمكن القول أيضا أن التعدد يوجد في الحضر بأكثر مما يوجـد في الريف ويرجع ذلـك لزيادة الدخـل في المدن عنـه في القرى » (٦٣) .

وبسبب تكرر ظاهرة الطلاق فقد كان ينتج عنها الكثير مـن المآسي وأهمها رمي الأطفـال الى الشارع ودخـول النساء المطلقات ، خاصة في الموانيء ، عالم البغاء . وتقول جون نوكس ماور أن حوالى ٧٠ ٪ مـن المطلقات في عدن كن يضطرن الى ممارسة البـغاء وذلك لأنهن لـم يكن قادرات بأن يتزوجن ثانية كما أنهن لم يكن صالحات للقيام بأي عمل ولذلك كانت ممارستهن للبغاء سبيلا لكسب الرزق (٦٤) . وبالطبع فمما كان يساعد على سهولة ممارسة البغاء في الموانيء والمدن الساحلية السماح بممارسته ابان الاستعمار البريطاني في احياء معروفة من المستعمرة .

وفي أول كتاب رسمي عـن مستعمرة عـدن ، ألفه مساعـد المقيم السياسي البريطاني قبل حوالى مئة عام ، يتعرض الكاتب الى أخلاق سكان المستعمرة ــ وكان معظمهم من الأجانب المستوردين ــ فيقول . « وفـي الختام فمن الجدير ملاحظته أن أخلاق السكان ليست من المستوى العالي. وهذا نتيجة الغياب المستمر للازواج المهاجرين كالصوماليين في رحـلات تجارية خارج المستعمرة . وعادة لا يحضر الهنود معهم زوجاتهم عندمـا يأتون الى عدن ، كما انهم لا يستطيعون الزواج بالفتيات العذارى ، وانما بالمطلقات فقط ومثل هذه التغييرات المستمرة في الأزواج بالاضافة الى ما جبلن عليه النساء الصوماليات من حوك الدسائس ، كأن يؤدي دائما الى ممارسة الزنا من جانب الجنس اللطيف » (٦٥) .

كذلك فقد كان من نتائج طلاق الأمهات رمي أطفالهن الى الشارع فقد كان من عادة الرجال المهاجرين في الموانىء أن يطلقوا زوجاتهم بعد عودتهم الى بلدانهم الأصلية مما يضطر الزوجات المطلقات الى الزواج ثانية ولكنهن عموما كن يتركن أطفالهن وهم في سن ٤ ـ ٥ سنوات فيضطر أولئك الأطفال الى أن يقيتوا أنفسهم أما عن طريق الاستجداء أو السرقة أو الخدمة (٦٦) •

٩

ومن المشاكل التي كانت تعترض عملية الزواج المبالغة في المهور وتكاليف الزواج • وبسبب بروز المشكلة فقد كانت هناك محاولات كثيرة للحد منها • فمثلا عقدت اتفاقية في تريم في حضرموت عام ١٨٩٥ بين السادة والمشائخ وأهل الجوف حول ماذا يجب أن يصرف للزواج حسب العادة • كما وقعت اتفاقية مشابهة لذلك في شبام في بداية الخمسينات •

وفي الدولة القعيطية صدر منشور رقم (١٠) لعام ١٩٥٩ من أجل معالجة تكاليف الزواج • وقد جاء في مقدمة ذلك المنشور الديباجة التالية :

«أما بعد نظرا لما هو واقع من الضرر دينيا واقتصاديا وخلقيا بسبب التنافس في مؤن وشؤون الاعراس وتقاليدها من لباس وجهاز وغيرهما من العوائد التقليدية الخارج كل ذلك عن حدود الاعتدال الى حد الاسراف، قرر مولانا صاحب العظمة السلطان في المجلس ما يلي وذلك كقرار مجلس الدولة رقم ١ تاريخ ١٠ شوال الموافق ١٨ أبريل ١٩٥٩ م) وقد حدد

المنشور العادات المتبعة من بداية الخطبة حتى ليلة الزواج بعشرين مرحلة، وحدد لها القواعد والضوابط .

وفي السلطنة العوذلية قننت تكاليف وشروط الزواج عام ١٩٦١ ، كذلك حدثت ترتيبات مماثلة في دثينة . أما في عدن فقد تعرضت الجرائد للمشكلة منذ بداية الخمسينات وهاجمت « مغالات أهل الفتاة في المهور والجهاز » ، كما هاجم الشيخ محمد سالم البيحاني في كتابه « أستاذ المرأة » الصادر في عدن عام ١٩٥٠ أزمة المساكن وأزمة الآثاث وارتفاع المعيشة وارتفاع المهور . وفي عددها رقم ٢٢ بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٦١ نشرت جريدة صوت الجنوب العدنية «أوبريت الدفع» (٦٨) .

١٠

وترتبط الخطبة والزواج في كثير من المناطق اليمنية بالقيمة الاقتصادية للمرأة . فكلما زادت مهارة الفتاة في الريف زاد مهرها . فالمرأة في هذه المناطق تخطب لنشاطها ومهارتها في العمل وليس لجمالها أو حسبها أو نسبها . ان الدافع الأساسي لديهم في تزويج أبنائهم هو الحصول على أيد عاملة فالأسرة تريد شابة تتقاسم مع ربة البيت الأعباء الشاقة التي تضطلع بها .. بل كثيرا ما يتزوج الشاب ثم يسافر للعمل أو الدراسة في المدينة ويترك زوجته تخدم أبويه (٦٩) .

ان الحياة في الريف اليمني في شمال اليمن بالذات قاسية شديدة القسوة فأغلب الزراعة تكون على مدرجات الجبال أو قاع الوديان بوسائل بدائية ، الأمر الذي يتطلب جهودا جبارة في الزراعة والعناية بالمزروعات، ويقع على عاتق المرأة جزء كبير من هذا العمل . وهي بالاضافة الى القيام

بأعمال المنزل العادية تساعد زوجها في الحرث والبذر وخدمة المحاصيل ، وكذلك تقوم برعي مختلف أنوع الماشية والعـناية بها وتربية الدواجـن وأيضا تذهب الى السوق في عمليات البيع والشراء واذا فرغت من اعمال زوجها فقد تعمل بالأجر في حقول الآخرين ، ويصدق ذلك بوجـه خاص على الأسر الفقيرة ٠٠ كما أنها تزاول مهنة الخياطة وغزل الكوفيات والطواقي وأيضا بعض الصناعات التي تقوم على الخامات المحلية ٠٠ ويختلف مدى مشاركة المرأة اليمنية من منطقة الى أخرى ، ويرجع ذلك أكثر ما يرجع الى طبيعة هذه المناطق ، فهي تقوم بنقل المحاصيل عند تعذر استخدام الدواب، وكثيرا ما تهبط المرأة جبلا بل عدة جبال أحيانا لجلب الماء ثم ترجع تصعد هذا الجبل أو هذه الجبال وهي تحمل المياه وكذلك لجمع الحطب (٧٠) ٠

ان المرأة في الطبقات الدنيا هي مكسب اقتصادي وليست ترفا ماديا٠ فالنساء الفقيرات عادة ما يزدن من دخل العائلة عندما يعملن في المزارع ، أو يجمعن ويبعن الأحطاب والمـاء أو يصنعن الحصر والسلال والأدوات الأخرى ٠ وبعضهن قد يعملن في البيوت ويكونن العائد الرئيسي لأفراد الأسرة « أما زوجات البدو في جنوب الجزيرة فهن اللواتي يرعين الماشية ويغزلن ويحيكن الأصواف ، وهن في أحيان كثيرة لا يكلفن أية مصاريف منزلية ، لأنهن يبقين متجولات في البراري مع بقية أفـراد الأسرة وراء الكلأ والمرعى» (٧١) ٠ وبالنسبة لرجـال القبائل في الماضي فقـد حلوا انتقال الميراث الى خارج القبيلة عن طريق تجريد المتزوجـات الى الخارج من الميراث وذلك بحكم الأعراف أو حكم الطاغوت من القبائل ٠ وكما هو معروف فقد شن الامام يحي حروبه على القبائل القويـة كحاشد وبكيل بحجة عدم توريثهم النساء بسبب اتباعهم حكم الطاغوت بدلا من الشريعة الاسلامية ٠

وهناك اشارات الى بعض العادات الوحشية التي كانت تلحق بالمرأة ليلة عرسها في بعض المدن اليمنية كزبيد وحرض وعدن . واذا كانت هذه الممارسات تعكس شيئا فهي النظرة الاحتقارية التي كان يكنها المجتمع للمرأة . ففي زبيد وحرض يقول ابن المجاور ما نصه « من يوم تدرك البنت الى يوم تعرس لم يمكنوها من النتف وتربيها الى أن تضفرها دبوقة ، ويقال أنه يدهن ويسرح ويغسل بالسدر والطين فاذا كان ليلة عرسها ظفرت دبوقتان وتشد كل دبوقة منها في احدى فخذها وتجلى على زوجها . فاذا خلا بها وقعد منها مقعد الرجل مع المرأة فحينئذ يمسك الرجل تلك الدبوقتين ولا يزال يمدهما الى أن يقلعهما من الاصل فاذا قلعهما استنفضها بعد ذلك . فاذا أصبحت من الغد يزورنها قرابتها ومع كل واحدة منهن صحن زبد وتداوي الموضع بالزبد ليبرد عنها الالم لأنه يقلع الشعر مع الجلد »(٧٢) . (لم نثبت من النص التعابير النابية جدا).

أما في عدن فحتى الستينات من هذا القرن كانت هناك عادة قبيحة بدائية تمارس ليلة العرس خاصة بين أفراد الطبقات غير المتعلمة .. ففي ليلة دخول الزوج بزوجته تجلس تحت سرير العروسين (المعروف بالناموسية والمرتفع عن الارض كثيرا) امرأة تكون عادة مسنة تعرف بالمكدية ، ويكون عملها اعطاء الاشارات للعروسة العذراء كيف تتصرف أثناء العملية. ثم تأخذ المنشفة الملطخة ببقع الدم الناتجة عن عملية الافتضاض وتذهب بها الى أقرباء العروسة الذين يكونون مجتمعين في بيت العروسة . ثم تقوم المكدية تغطرف (أي تزغرد) بصوتها كي يسمعها الجيران ويعرفوا أن العريس قد قضى وطره وأن العروسة كانت بكرا بالفعل . وفي الصباح

يأتي الجيران للتهنئة • ويعلق البروفسور سارجنت على هـذه العادة بأنها لا شك أن تكون جاهلية وأن الاسلام يمقتها [٧٣] •

١٢

والحق أنه منذ بداية الثلاثينات وظهور حركة الاصلاح الاجتماعي في عدن قام الكثيرون بالدعوة الى تعليم البنات والى اصلاح أحـوالهن الاجتماعية والثقافية ويدعو أول كتاب فكري صدر في عـدن في العصر الحديث الى المطالبة بمثل هذه الحقوق• وبما أن الحركة التبشيرية المسيحية كانت أول من فتح المدارس للبنات الأجنبيات ، كمـا أن نساء بعض المسؤولين البريطانيين كن هن اللوائي حاولن تشجيع النساء العربيـات على الانخراط في النوادي النسائية ، فقد طلب المصلحون العدنيون في ترقية شؤون المرأة عن طريق المبادرات الأجنبية ففي كتاب (نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة) يقول مؤلفه الأستاذ الاصنج، والذي كان في الوقت نفسه رئيسا لنادي الاصلاح ، ما نصه : « لا توجد في عدن مدرسة للبنات يعلمن فيها القراءة والكتابة والدين ، كما يتعلمن الخياطة والتطريز والنسيج • ولهذه المناسبة انتهزت الفرصة جميعة التبشير بالدين المسيحي وفتحت مدرسة لبنات المسلمين يتعلمن فيها الخياطة والتطريز، وهناك يتشربن المبادىء المسيحية شيئا فشيئا ويتثقفن فـي التمدن المعكوس على الطراز الأوربي وهـو التبرج والذهـاب الى المنتزهـات والتطلع على لوحـة السينما » [٧٤] •

وفي مكانين آخرين من نفس الكتاب الى تعليم البنت ، والى ضرورة الالتزام بالحقوق الزوجية من كلا الجانبين [٧٥] • وفي عام ١٩٤٣ هاجم بعض الكتاب العدنيين الطريـقة التي يتم بهـا الزواج وهـذه المجموعة

ومعظمهم من الصحفيين والأدباء تكلمت عن الاصلاح الاجتماعي • وفي جمعية مخيم ابي الطيب الأدبيــة أدان الأستاذ محمد علي لقمان ، تعــدد الزوجات ، كما اتهم عبد الرزاق فكري العدنيين لعــدم معرفتهم الحقيقة لمعنى الزواج (٧٦) •

وفي عام ١٩٥٠ أصدر الشيخ محمد سالم البيحــاني أحد رجال الدين المشهورين ، كتابا أسماه (أستاذ المرأة) وضع فيه القواعد السلوكية للمرأة المسلمة بما يتناسب مع الظروف السائدة آنــذاك ولكن على ضوء المبادىء الاسلامية • فمثلا استنكر عادة عــدم صهور الخطيــب على المخطوبة ، بل وعدم معرفته لها ، الا ليلة العرس واعتمــاده الكــلي في معلوماته عنها على أمه أو الماشطة (أو المكدية التي سبق أن تكلمنا عنها) والتي لايهمها الا المسحة والعطايا التي تحصل عليها من أهل العروسة •

وفي عام ١٩٦٠ أصدر الصحفي محمد شفيق كتيبا بعنوان (ثــورة المرأة على الحجاب)•والحقيقة أنه نتيجة لتعليم البنات في الداخل والخارج والىالحملات الصحفيةالتي كانتتشن ضد الحجابفياواخر الخمسينات وضرره على الجسم والعقل معا ، فقد ثار جدل عام حول الموضوع بــين الداعين له من الشباب والمتنورين ، وبين خصومه من رجال الدين كالشيخ باحميش • وقد أدى الأمر في النهاية الى أن سارت ست فتيات بقــيادة رضية احسان في مظاهرة في شوارع عــدن وهن سافرات فــي ملابس غريبة وكان أقاربهن من الرجال يرافقوهن في مسيرتهن • وقد زرن دور الصحف العدنية وأعلن عن رمــي الحجاب نهائيا (٧٧) • وتعتقد كاتــبة بريطانية أن حكومة المستعمرة كانت تود منذ مدة الغاء الحجاب وادخال السفور ولكنها لم تتجرأ أن تفعل ذلك لخوفها من أن تتهم بهجومــها على

الشريعة الاسلامية (٧٨) . ولهذا كانت المرأة العدنية الى قبيل الاستقلال تسافر في جواز بدون صورة لها .

وبالمقارنة مع بقية المناطق اليمنية فـان المرأة في عدن قـد دخلت المدارس في تاريخ مبكر . ففي منتصف الثلاثينات كانت هناك مـدرسة مزدهرة للبنات ، كما بدء وقتذاك في انشاء مدرسة ثانوية . وكانت هناك مدرسة تبشيرية فيها عدد لا بأس به من البنات اليمنيات ، الا انه على الرغم من ذلك ـ كما تقـول المسز انجرامز ـ « فـلم تتجرأ على الخروج الى الشارع بدون حجاب في منتصف الثلاثينات سوى واحدة أو اثنتين وحتى اولئك لم يتجرأن على اسقاط الخمار الأسود كـله وانما ذاك الجزء فقط الذي كان على وجوهن » ثم تضيف السيدة انجرامز قائلة :

«ان النساء المتحررات في المستعمرة كن آل حسنعلي وبنات عمومتهن من آل جعفر وهؤلاء أنفسهن كن ذوات أصول فارسية . وواحدة منهن بالذات هي نبيهة كانت أول النساء الرائدات في العمل الاجتماعي في عدن. فقد التحقت بعدة جمعيات خيرية ، واستطاعت مع رحيمة جعفر وأخواتها بأن تساعدني في تجميع عـدد لا بأس به مـن النساء لصنع الضمادات للمرضى من الجرحى . كما ان المجلس البريطاني فتح ناديا للنساء العربيات بهدف زيادة مشاركتهن في الأعمال الاجتماعية الا أن المشروع أثبت فشله لأن القليل من الرجال كانوا يسمحون لنسائهم بمثل تلك الحرية كالالتحاق بالنوادي » (٧٩) وبمساعدة رحيمة جعفر أيضا حاولت زوجـة المستشار البريطاني تشجيع نساء المكلا لتكوين نـادي للنساء والمساهمة فـي عمل الضمادات لجرحى الحرب العالمية الثانية أو فتـح صفوف لتعليم الكبار . وكانت أول مدرسة للبنات تفتح في المكلا يديرها الشيخ عبد الله الناخبي

الذي استطاع أن يقنع عددا من الآبـاء بأن يرسلوا ببناتهـم ليقوم هو وزوجته وابنته بتعليمهن [٨٠] •

١٣

وعلى اختلاف اختها المرأة في الخليج العربي والجزيرة العربية ، فان المرأة اليمنية تقاسي باستمرار فراغا نفسيا وعاطفيا من جراء هجرة زوجها الى مختلف بقاع العالم جريا وراء الرزق منذ أمد طويل • وفيما عـدا المنطقة الشمالية من صنعاء فتكاد تكون الهجرة عامة في كل المناطق• وكل ما في الأمر أن اتجاهات الهجرات اليمنية هي التي تغيرت وهي الآن مركزة أكثر في المملكة العربية السعودية ومنطقة الخليج العربي بدلا من بلدان الشرق الأقصى والهند وشرق أفريقـيا وأمريكا وبريطانيا كما كانت عليه في السابق •

وفي الماضي كان الزوج المهاجر قد يبقى بعيدا عن زوجته أو أطفاله في بعض الأحيان ما بين ١٥ ــ ٢٠ سنة ، وبعضهم كانوا يضطرون للزواج في مهاجرهم ثم يعودون الى زوجاتهم الأصليات بعد كل تلك المدة • ومثل هذا الفراق بين الزوجة وزوجها لا شك وأنه كان يولد الفـراغ العاطفي عند كليهما وبالذات عند الزوجة • ولقد لاحظت ذلك الآنسة فرياستارك في منتصف الثلاثينات في وادي دوعن في حضرموت « جاءت الينا امرأة جميلة اسمها عطية من القرية السفلى وكان زوجها ، الذي تزوجته قريبا ، قد غادرها الى بلاد الصومال •• وبدأت تغني لنا قصيدة من تأليفها تتمنى لزوجها أن يعود لها بالسلامة • وفيها تقول عد فابنة عمك وحيدة كل ليلة وضحكت البنات اللواتي كن جالسات حوالينا • فمدت عطية يديها وقالت وعيناها تلمعان برقة • هل ما قلته خطأ ؟ أليس هو زوجي ؟ الا يجوز لي

أن أدعو له بالعودة ؟ ولكن كم سيبقى بعـيدا عنك ؟ فأجابت . آه مـن يدري ربما عشر سنوات اذا أراد الله ثم تنهدن جميعا . وهذا هو حزن جميع من يعيش في هذه الأودية » (٨١) .

ويزخر الشعر اليمني بالقصائد المـؤثرة حـول الهجرة ومردوداتها النفسية بل وهناك من القصائد حول هذا الموضوع ما تعتبر من روائـع الشعر العربي والانساني كقصائد الشاعر اليمني محمد أنعم غالب وبالذات قصائد (الغريب) و (الطريق) و (قطرة بن) (٨٢) . وهذه بعض الأبيات الشعرية في اللغة العامية من اليمن الاسفل والتي لا يعرف قائلها ولكنها جميعا تعبر عما يختلج في صدور زوجات المهاجرين من حزن وأسى وتشوق . وهذه الأبيات مما ترددهـا النساء ويغنينها أثـناء عملهن في الحقول أو البيوت :

ليلي أهيم أحصي النجوم وحـدي
والدمـع تشوي مهجتي وخـدي

العيد أتى كـل مـن حـزب وعيـد
وانـا بحـبسك واحبـيب مقيـد

خرجت نص الليل ولا معـك صوت
فرق الأحـبة مثـل نزعـة المـوت

خلي سرح مدينـة خلف مدينـة
شأرزم على قلبي حجر وطينـة

ليـتك تـرى حبيبي بحالـي
شتبكي النهـار وشتقهد الليالي

بالله عليك يا شمس لا تغيبي
توقعي حينا شصل حبيبي

الا أنه نتيجة لهذا الفراغ العاطفي من جراء افتراق الزوج عن الزوجة في المهجر لمدة طويلة فقد وجدت زوجة مستشار بريطاني سابق ، كانت لها علاقات وطيدة مع بعض النساء في منطقة حضرموت ، لقد وجدت هذه الزوجة أن الفراق يؤدي عادة الى انشاء علاقات جنسية بين النساء ذاتهن كتعويض لما فقدنه بسبب عدم وجود الأزواج .

« في حضرموت يعتقد الرجل أنه ما دام ليست هناك فرص للنساء في أن يقابلن الرجال فانهن سيحيين حياة عفاف .. ولكن عندما تثار عواطف البنات عن طريق الزواج المبكر وبعدها يصد من نتيجة الطلاق أو هجرة أزواجهن ، فليس من المستغرب ، ما دام ليس أمامهن أي مخرج حتى ولو كان غزلا بسيطا مع الرجال ، الا أن يتجهن نحو بنات جنسهن » (٨٣) .

وفي مكان آخر من كتابها ، تصف لنا هذه الكاتبة أن ذلك ما كان يحدث لاثنتين تعرفهما تماما فهذه الأولى « ذات النظرات التي تخلب الألباب كأنها نجمة سينمائية ، والتي يمكنها أن تكون كذلك فيما لو نشأت وترعرت في بيئةاخرى لقد كنت اشاهدها وانا مشدوهة بجمالها وصفاء قسماتها والتي كانت تخفي تحت طياتها ذكاء واهتماما بالعالم الذي حولها لربما كان بلا شك قادها الى حياة غنية ترضي بها اكثر فيما لو كانت تعلمت وتحررت . ولكنها كانت تضيع مواهبها ، غير المشكوك فيها ، في المزاح مع الحريم . لقد كانت مثل الاخرى تعزى نفسها بسبب فقدانها لزوجها الذي ذهب الى المهجر ، في عشق النساء الأخريات . (٨٤) .

الا ان الهجرة من ناحية ايجابية قد ساعدت المرأة اليمنية في أن تأخذ على عاتقها بعض المسؤوليات التي كانت من مهام الرجل. فالهجرة الكبيرة للرجال قد جعلت المرأة الممثل البالغ الوحيد للاسرة . فرحيل رب الأسرة وغيره من رجالها البالغين يلقي على عاتق الزوجة أيضا مسؤوليات جديدة. فكونها رب الاسرة المؤقت يجعلها تلتزم بمهام جديدة تخلى عنها رب الاسرة المهاجر . وتنطوي احد هذه المهام على قدر كبير من مسؤولية اتخاذ القرارات التي كانت وقفا على الرجل . وهكذا فأن الدور التي تلعبه المرأة في اقتصاد الاسرة قد توسع بشكل جوهري .. وبهذا الشكل تصبح الزوجة أثناء غياب زوجها في مرتبة اجتماعية مساوية على الاقل لمرتبة الابن الاكبر في الاسرة اذا كان دون سن الزواج من حيث السلطة ضمن العائلة . (٨٥) .

ومما ساعد المرأة على القيام بالواجبات التي كانت اساسا من مهام الرجل كالزراعة ، هو انه بفضل ادخال بعض المكتشفات الحديثة من الآلات كمكائن طحن الحبوب والقوارير الخوائية ، ومكائن الخياطة والسيارات قد قلص كثيرا من وقتها الذي كانت تصرفه يوميا لانجاز تلك المهام التقليدية اليومية الواجب عليها انجازها .

وبالمقارنة مع ما أحدثته الهجرة بالنسبة للمرأة في الريف العماني في هذا المجال فاننا نجد ان دورها لم يتغير كثيرا هناك كدور شقيقتها في اليمن وذلك بسبب ان الهجرة في اليمن أقدم وأشمل ، هذا من جهة ومن جهة ثانية لأن أي تغير يحدث في عمان يكون بخطوات رتيبة بسبب المذهب الاباضي المتزمت هناك نوعا ما . ففي دراسة ميدانية اخيرة اجريت

في عمان عن أثر الهجرة في تغيير دور المرأة في الريف هناك ، يخلص الباحثان الى انه على الرغم من اتساع آفاق النشاطات التي تشارك فيها المرأة فما زالت هناك قيود واضحة أمامها .

«ان دور المرأة في المجتمع العماني في الريف مازال محدودا للغاية، ومع ذلك فان هناك اتجاها تدريجيا نحو تخطي القيود اذ تأخذ المرأة على عاتقها الآن وبشكل متزايد ، بعض المسؤوليات المنزلية ، الخاصة برب الأسرة الغائب عن المنزل وهذا بالضرورة لا يعني توقف المرأة عن اداء مهامها التقليدية لكي تقوم بالمهام الجديدة بل يعني احتواء هذه المسؤوليات الجديدة . غير ان هذا التوسع في دور المرأة لم يؤد الى ارتفاع مكانتها وذلك لان القبول العرفي بالمكانة الاجتماعية المتدنية ما زال سائدا ، وهو يمثل عقبة رئيسية في وجه توسيع دور المرأة في حياة المجتمع ومساهمتها الفعلية في الحياة الاقتصادية للمناطق الريفية . ومن غير المستطاع التغلب على هذه العقبة خلال جيل واحد . وما لم يقتنع المجتمع بأن باستطاعة النساء المشاركة في الحياة العامة بشكل كامل ، فلن يستطعن تقديم المساهمة التي بمقدورهن » (٨٦) .

اما في اليمن فان دور المرأة في العمل بارز للعيان وهو ناتج عن أسباب موضوعية كثيرة منها الهجرة ذاتها . وهذه ملاحظة احد الرحالين العرب الذين زاروا أواسط اليمن قبل حوالى اربعين عاما بشأن مشاركة المرأة الفعالة في أعمال الرجل :

« وفي أثناء الطريق كان يمر بنا كثيرا من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو مع رجالهن الى الحقول والجبال لقضاء الاعمال المختلفة . والنساء القرويات في اليمن يقمن بمعظم اعمال الرجال من زراعة وحراثة

ونقل وذهاب الى الاسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره الى غير ذلك من الاعمال الخشنة • وعلاوة على مشاركتهن في هذه الاعمال فانهن يقمن بأعمال منزلهن خير قيام ويعنين« بتربية أطفالهن • وقد لاحظت أنهن نشيطات جدا على العمل ويشتغلن ليل نهار دون كلل أو ملل ولا يتناولن من الراحة الا قسطا يسيرا » (٨٧) •

١٥

لقد قامت ثورةالسادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن واطاحت بالنظام الامامي الكهنوتي الذي استمر حوالي الالف عام وأقامت على أنقاضه حكما جمهوريا أعلن عن أهدافه العصرية كأي نظام جمهوري آخر في الوطن العربي ويهمنافي هذا المجال ان نذكر ان الفتاة والمرأة في شمال اليمن بدأت منذ قيام الثورة تعرف طريقها الى المدرسة والمصنع • فقد اصبحت مدارس البنات تغطي الآن كل مراحل التعليم • والفتاة اليوم تلتحق بالجامعات خارج اليمن وفي جامعة صنعاء ذاتها جنبا الى جنب مع زميلها الطالب اليمني • فقد بدأت ظاهرة الحجاب تختفي ايضا في المدن اليمنية ذاتها ، كما ان برامج محو الامية قد قطعت أشواطا لا بأس بهافي طريق تحرير المرأة من الجهل • أما في مجال العمل فان معظم عمال مصنعالغزل والنسيج في صنعاء هم من النساء العاملات • فالمرأة تعمل الان في التدريس والتمريض والاعمال الكتابية وفي الاذاعة والتلفزيون • وفي حكومة المقدم ابراهيم الحمدي بدأ التفكير في معالجة قضايا الزواج والمهور بما يتناسب وضع المرأة الجديد بعد قيام الثورة • الا ان التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي للمرأة في شمال اليمن ليس بنفس الدرجة الذي هو عليه في جنوب اليمن كما سنرى •

وذلك لأسباب كثيرة منها أن تعليم المرأة واطلالها على المديـنة الحديثة كان أسبق في الجنوب منه في الشمال هذا من جهة ، ومن جهة أخـرى فهناك اختلاف بين النظامين السياسيين في شمال اليمن وجنوبه ، ونظرة كل منها الى الدور الحقيقي للمرأة اليمنية في المجتمع الجديد •

أما في جنوب اليمن فعندما قامت ثورة الرابع عشر مـن أكتوبر ١٩٦٣ م بكفاحها المسلح ضد الوجود البريطاني فان شوط لابأس به من تعليم المرأة كان قد قطع في هذا المضمار • ففي أواخر الخمسينات كان التعليم الثانوي للبنات قد ترسخ نوعا ما ، كما أن عددا من النساء كـن يعملن في التدريس والتمريض • وقد شاركت أعـداد منهن في الحركة الوطنية في ذلـك الوقت وأرسلت بعضهن للدراسة في الخارج • ولـم يقتصر تعليم البنات على فتيات مستعمرة عدن وانما شمل أيضا بعض مدن محمية عدن الشرقية في حضرموت •

وقد سبق أن رأينا أن المناداة في اصلاح أوضاع المرأة والبنات في عدن قد بدأ فـي الثلاثينات ، وأن الحركة انتهت الى المناداة الصريحة للسفور في أواخر الخمسينات وخروج بعض الفتيات بالفعل في مظاهرة لذلك الغرض •

وعند قيام حركة الكفاح المسلح نجد أن بعض النساء كن يشاركن مشاركة فعالة في المظاهرات ، وتهريب الاسلحة ، وايـواء الثوار ، بعد قيامهم بعملياتهم الفدائية ، في البيوت في عدن •• وحتى في جبال ردفان حيث كانت بداية الثورة المسلحة نجد أن المرأة تشارك أخاها في حمـل البندقية لمحاربة جنود الانجليز ، ومـن أشهر الاضرابات التي قامت بها الفتاة اليمنية اضراب طالبات كلية البنات فيعدن والذي أدى الى انتشار

الاضرابات الطلابية التي استمرت منتشرة الى أن خرج الانجليز من عدن واستقل الجزء الجنوبي من اليمن .

وبعد الاستقلال مباشرة لم تحدث أية تطورات جذرية في وضع المرأة وانما ازدادت مشاركتها بشكل ملحوظ في الأعمال المكتبية والطباعية وذلك بسبب ان كثيرا من تلك الوظائف كانت تشغل من قبل الأجنبيات قبيل الاستقلال . وبسفر تلك الأجنبيات ، ثم ادخال اللغة العربية بدلا من الانجليزية في تلك الأعمال ، أصبح المجال مفتوحا لاستيعاب عدد كبير من النساء والفتيات في هذه الوظائف . كما أن الفرص للدراسة الجامعية في الخارج بعد الاستقلال أصبحت متوفرة فذهبت اعداد منهن للتحصيل العلمي .



١٦

ان التطورات الجذرية لحقوق المرأة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد حدث بعد حركة ٢٢ يونيو ١٩٦٩ م التصحيحية ، وبالذات بعد صدور برنامج مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، والدستور الوطني الديمقراطي الصادر في نوفمبر ١٩٧٠ م حول المساواة بين الرجل والمرأة . فقد جاء في البرنامج ما يلي :

« ان التغيير الجذري لطبيعة الحياة المختلفة التي تعيشها المرأة اليمنية ومساواتها بالرجل ، والدفع بها لأن تأخذ مكانها الطبيعي في الحياة العامة والسياسية والاجتماعية الجديدة ، وكذلك مشاركتها في عملية الانتاج ودعم وتشجيع منظمة الاتحاد العام لنساء اليمن وحركة المرأة اليمنية في الاقليم وما تطرحه في نشاطاتها الاجتماعية من برامج

ومخططات تهدف الى تطوير المرأة والأسرة اليمنية ، سوف يضيف قوى جديدة عاملة الى صفوف الثورة تساهم بامكانيات كبيرة في خدمة الثورة وتطورها » •

كما أن المادة (٣٦) من الدستور قد نصت بأن «تضمن الدولة حقوقا متساوية للرجال والنساء وتوفر بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة » [٨٨] ومنذ عام ١٩٧١ م وضعت مسودة قانون الأسرة للمناقشة بين صفوف التنظيم واللجان الشعبية والمستشارين القانونيين وفي الصحافة • ثم شكلت وزارة العدل لجنة مهمتها أن تحمل مشروع قانون الأسرة وتطوف به على الناس في مختلف أرجاء البلاد • وقد ضمت اللجنة مأذونين شرعيين وأئمة مساجد ومسؤولين من وزارة العدل ، ثم انضم الى هذه اللجنة ممثلات عن اتحاد نساء اليمن • واشترك في مناقشة القانون المحافظون ونقابات العمال والطلاب وبقية المؤسسات الجماهيرية• وكانت هذه المناقشات تتم في اجتماعات جماهيرية مفتوحة مع اللجنة •

ومن الجدير بالذكر أنه قبل مناقشة مسودة الدستور واصداره في عام ١٩٧٤م قام المسؤولون في المحافظة الثالثة في منطقة زنجبار باصدار منشور قبل حوالى ثلاثة أعوام تقريبا من صدور القانون وأصبحوا يسيرون بموجب بنوده في المحاكم الشرعية بالنسبة لقضايا الزواج والطلاق • وسنجد أن كثيرا من بنود هذا المنشور المستحدثة ستكون من المواد الجديدة في قانون الأسرة الذي سيصدر عام ١٩٧٤ م •

فمثلا حدد المنشور أن المهر يجب ان لا يزيد عن (٢٠٠) دينار وبضرورة موافقة الفتاة على الزواج ، وان سن الرشد «١٥» عاما ، وان الطلاق يجب أن لا يتم الا في المحكمة وأن تكون الأسباب وجيهة لذلك•

كذلك جعل المنشور الزواج من زوجة واحدة ، الا في حالات استثنائية، كما خول للمحكمة الطلاق في حالة غياب الزوج أكثر من عامين وبعد أن ينذر في ذلك [٨٩] .

ان الهدف السياسي والاجتماعي من صدور قانون الأسرة رقم (١) لعام ١٩٧٤ بشأن الأسرة في اليمن الديمقراطية واضح وهو تحقيق المهام السياسية والاجتماعية التي يطمح لتحقيقها النظام الجديد والتي سبق أن حددها برنامج مرحلة الثورة الديمقراطية والدستور الوطني كما ذكرنا أعلاه . « لقد عمد القانون أولا الى رفض التقاليد السائدة في المجتمعات القبلية والعشائرية ، كما عمد ثانيا الى استحداث نصوص من شأنها أن تحقق المساواة بين المرأة والرجل . والقصد الأساسي من ذلك كله هو أن خطط التنمية والتغيير التي تقصد السلطة اليمـنية الى تحقيقها لا يمكن أن تنجز الا بتحرير نصف قوى الشعـب العاملة من قيود الحجـاب . فارتفع القانون بالمرأة الى مستويات لم يسبق أن حققها أي مجتمع لـه خلفيات تاريخية مماثلة للمجتمع اليمني . وحكمة القانون من ذلك كله ، هي أن ينتقل باليمن من مجتمع منفصل الى مجتمع متكامل يتساوى فيه الناس من ذكور واناث » [٩٠] .

وهذه أهم ميزات قانون الأسرة :

١ ــ لم يشترط القانون الكفاءة في الزواج ، وانمـا نص بأن « الزواج عقد بين رجل وامرأة متساويـين في الحقوق والواجبـات » المادة [٢] .

٢ ــ منع القانون أهل الفتاة المراد خطبتهـا من الانفراد بالموافقة على الخطبة دون استشارتها وأخذ موافقتها . المادة (٣) .

٣ ــ الغى القانون التمييز بين المرأة والرجل في الشهادة في عقد الزواج ، وكل مايتطلبه القانون هو حضور شخصين عاقلين بالغين ولم يشترط الذكورة أو الانوثة المادة (٨) [٩١] •

٤ ــ وضع القانون سنا محددا لاهلية الزواج لكل من الرجل والمرأة ــ ١٨ سنة للرجل و١٦ سنة للمرأة ــ كما أنه وضع حدا لفارق السن بين الرجل والمرأة وهو عشرون عاما الا اذا بلغت المرأة (٣٥) سنة من العمر • المادة (٩) •

٥ ــ جعل القانون الزواج من زوجة واحدة هي القاعدة العامة ، وجعل الزواج من ثانية الاستثناء ، وقيده بضرورة الحصول على اذن كتابي من المحكمة المختصة اذا ثبت لها عقم الزوجة ومرضها مرضا مزمنا أو معديا وذلك بتقرير طبي المادة (١١) •

٦ ــ نص القانون على اشتراك الزوجين في تحمل نفقات الزواج، وتوفير متطلبات الحياة الزوجية ، وتحمل تكاليف حياتها المشتركة بعد الزواج فاذا كان أحدهما غير قادر على ذلك كان الآخر ملزما بالانفاق وبحمل أعباء الحياة الزوجية • المادتان (١٧) ، (٢٠) • [٩٢]

٧ ــ وضع القانون حدا أعلى للمهر لايجوز أن يزيد بشطريه المعجل والمؤجل عن مائة دينار • المادة (١٨) •

٨ ــ منع القانون الطلاق من طرف واحد وبأن لايعتد بالطلاق الا بعد الحصول على اذن من المحكمة الجزئية ، والتي لن تصدر الاذن الا بعد احالة القضية الى اللجنة الشعبية ، كما أنه لايجوز للمحكمة أن تأذن بأكثر من طلقة واحدة في كل مرة ، واعتبر القانون كل طلاق رجعيا الا المكمل للثلاث طلقات المتفرقات المأذون بها من قبل المحكمة ، وباستطاعة الرجل والمرأة على حد سواء التقدم للمحكمة بطلب انهاء

العلاقة الزوجية • وحدد القانون الاسباب التي تبرز الطلاق والتفريق القضائي كالاصابة بمرض غير قابل للشفاء ، وغياب احدهما عن الآخر لمدة تزيد عن ثلاث سنوات ، وامتناع القادر منهما عن الانفاق على الآخر ، أو تفاقم الشقاق بينهما • المواد (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٩) •

٩ ـ نص القانون أنه في حالة ان وجدت المحكمة أن الزوج هو المتسبب في الشقاق الذي أدى الى الطلاق جاز لها أن تحكم للمطلقة بتعويض مناسب لايزيد في كل الاحوال عن نفقة سنة • المادة (٣٠) •

١٧

وبعد صدور قانون الاسرة انعقد المؤتمر العام الاول لاتحاد نساء اليمن • كما انعقد مؤتمر ثان في شهر اكتوبر ١٩٧٨م ، وفي كلا المؤتمرين اتخذت القرارات المؤيدة لضرورة ممارسة المرأة كل حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سواء بسواء مع الرجل • والواقع أن المرأة الآن تشارك مشاركة فعالة في كل مجالات الحياة في اليمن الديمقراطية • فسياسيا هي منخرطة في صفوف الحزب من مرتبة عضوة في المنظمة القاعدية الى مرتبة عضوة في اللجنة المركزية • كما أن المرأة ممثلة أيضا في أعلى هيئة تشريعية هو مجلس الشعب الاعلى وفي هيئة رئاسة المجلس ولجانه الدائمة • فللمرأة الآن حق الانتخاب والترشيح لمجالس الشعب المحلية ولمجلس الشعب الاعلى الذي تم انتخابه لاول مرة عن طريق الانتخابات المباشرة في ديسمبر ١٩٧٨ م •

وفي مجال الانتاج والعمل فهي تكون في بعض المصانع ، كمصانع الغزل والنسيج وغيره ، الجزء الاكبر من العمال • كما أنها تعمل بجنب

الرجل في التعاونيات ومزارع الدولة بل وحتى في البناء ، وقد عملت المرأة منذ بداية السبعينات قاضية في المحاكم ولربما تكون في هـذا المضمار أول قاضية في الوطن العربي • وهناك الآن الطبيبة والمستشارة القانونية ، والمحاضرة في الكليات ، والكاتبة والاديبة • وحتى النساء الاميات اللواتي لم يعرفن العمل قبل الاستقلال ، أو عرفن فقط الخدمة في بيوت الموسرين والاجانب أصبحن الآن ـ خاصة بعد تحررهن من الامية ـ يعملن في الاماكن التي تناسبهن • فنتيجة لخطط التنمية فلم تعد هناك عطالة بأي شكل من الاشكال وانما هناك الحاجة الى أيدي عاملة أكثر من التي هي موجودة • وتشارك المرأة أيضا في المجالات العسكرية ، فهي تعمل في الجيش وفي الشرطة الشعبية ، فهناك فرق خاصة من ميليشيا النساء • وفي المدرسة لم يعد الاختلاط فقط في المرحلة الجامعية وانما أصبح معمولا به الآن في كل المراحل الابتدائية، والاعدادية والثانوية والجامعية •

وبالطبع فانه على الرغم من محاولة تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في اليمن الديمقراطية ، الا أنه وجب القول بأن على المرأة أن تناضل من أجل رفع وعيها وممارسة حقوقها الباقية التي عملت الدولة على اعطائها اياها • أن تقدم أي مجتمع يقاس بمدى حرية المرأة وبطبيعة نظرة الرجل اليها، وأن العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة تكشف جانبا كبيرا وهاما من جانب حرية المرأة وطبيعة النظرة اليها عمليا على صعيد الواقع • ومن الخطأ النظر الى الحرية الاجتماعية أو معالجتها بمعزل عن الحرية الاقتصادية والسياسية •

وبديهي أن العمل هو من حق المرأة والرجل على حد سواء ، وأن تحرير المرأة اقتصاديا شرط أساسي لتحررها اجتماعيا وسياسيا، فاذا لم

تتح الفرصة للمرأة للدخول الى ميادين العمل الانتـاجي ومشاركتهـا الفعلية في الجبهة الاقتصادية وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، فان تبعية المرأة للرجل في كل شيء تظل قائمـة وتظـل خضوعها له أمرا واردا لا مفر منه مهما كانت هذه التبعية وهذا الخضوع غير ظاهرين للعيان وعندئذ يصبح الحديث عن حرية المرأة مجـرد ثرثرة فارغة وغير ذي موضوع • (٩٣)

وفي المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي اليمني المنعقد في ١١ـ١٣ اكتوبر ١٩٧٨م جاء في برنامج الحزب مايلي بشأن المرأة •.

« ان الاتحاد العام لنساء اليمن مدعو الى زيادة دوره في النضال لحل القضايا المشتركة مع جميع المنظمات الجماهيرية اليمنيـة والمسائل الخاصة بالحركة النسائية على حد سواء • ويتمثل الاتجـاه الاساسي لنشاط الاتحاد في الظروف الراهنـة في اشراك النساء اليمنيات على نطاق واسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبـلاد وفي النضال الدؤوب من أجل تثبيت وتحقيق وصيانة الحقوق التي منحـت للمرأة وتطوير امكانياتها وكفاءاتها واشتراكها في مجـال بناء الحياة الجديدة » • (٩٤)

الهوامش والمصادر :

١ ــ انظر الدكتور محمود الغول . **حفيدات بلقيس** .مجلة العربي ، العدد ٦٢ ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ ــ ٣١ .

٢ ــ انظر عبدالله الحبشي . **دراسات في التراث اليمني** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٧٣ ــ ٨٣ .

٣ ــ سعيد عوض باوزير . **الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي** . ١٩٦١ ص ٩٩ .

٤ ــ محمد بن محمد زبارة . **نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الالف**،القاهرة، ١٣٥٩ هـ . القسم الاول ، ص ٧٠٩ ــ ٧١٩ .

* د . عبـد العزيز المقالـح . **شعر العامية في اليمن** . دار العـودة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ .

٥ ــ عمر الحاوي ، **حديث مـع المستشرق التقدمي مكسيم رودنسون** ، مجلة الحكمة ، عدن ، العدد (٢٥) ديسمبر ١٩٧٣ م ، ص ٩ .

٦ ــ Knox - Mawer . *The Sultans cam . to tea* . Jhon Murray , 1961 . P. 56 .

٧ ــ Naval Intelligence Div . *Western Arabia and the Red Sea* . (for official only) . London, 1946 . P. 436 .

٨ ــ G. H. Brown . *Social and Economic Conditions and possible* Development *in Socotra* . (in stencil) 1966 . Beduin p. 2 .

٩ ــ R. B. Serjeant . *The White Dune at Abyan . An Ancient Place of Pilgrimage in Southern Arabia* . J. S. S. 1971 , Vol. 16 . pp. 80 - 1 .

١٠ ــ *Ibid* p. 82 .

١١ — *Ibid* . pp. 76 - 80 .

١٢ — فؤاد حمزة . **في بلاد عسير** ، مطبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٥١ ، ص ٨٠ — ٨١ .

١٣ — **المصدر ذاتـه** . ص ١٣١ .

١٤ — الدكتورة ايفاهويك .**سنوات في اليمن وحضرموت** . ترجمة خيري حمـاد ، دار الطليعة ، ١٩٦٢ ص ١٥٧ .

١٥ — نزيه مؤيد العظم .**رحلة في بلاد العرب السعيدة** . ج ١ ، مطبـعة عيسى البابي ط ١٩٣٧ ، ص ٤٧ — ٩١ .

١٦ — Knox - Mawer . The Sultans came to tea . p. 140 .

١٧ — د . عبد العزيز المقالح . **شعر العامية في اليمن** (رسالة دكتوراه) دار العودة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٩٩ .

١٨ — د . محمد مصطفى الشعيني ، **اليمن الدولة والمجتمع** . النهضة ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ .

١٩ — *Western Arabia and the Red Sea . pp. 436 - 7* .

٢٠ — R. B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation from Mukalla with Notes* on Marriage Customs. 1962. pp. 493-4.

٢١ — دكتورة ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٣٦ .

٢٢ — Doreen Ingrams . *A time in Arabia* . Jhon Murray , 1970 . p. 24 .

٢٣ — دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمـن** . دار الطليعـة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤١ .

٢٤ — Doreen Ingrams . *op. cit* . pp. 28 - 29 .

٢٥ — عبد الرزاق الهلالي . **حقائق وطرائف من تاريخ التعليم في العراق**. مجلة آفاق عربية ، العدد ١١ تموز ١٩٧٨ ، ص ٩٨ — ١٠٥ .

٢٦ — Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 26 .

٢٧ — *Ibid* . p. 62 .

٢٨ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

٢٩ ــ محمد عبد القادر بامطرف . **الشهداء السبعة** . بغداد ١٩٧٤ ، ص ٣٣ .

٣٠ ــ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز** .تحقيق اوسكر لوففرين ليدن ، ١٩٥١ ، ج ١ ، ١٤٥ .

٣١ ــ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . ج ١ ، ص ١٤٦ .

٣٢ ــ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . ج ١ ، ص ١٣٤ ــ ٥ .

٣٣ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٨٧ .

٣٤ ــ **المصدر ذاته** . ص ١٧٩ .

٣٥ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣١ .

٣٦ ــ فايان . **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

٣٧ ــ Knox - Mawer . *op. cit* , p. 92 .

٣٨ ــ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 434 .

٣٩ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٣ ــ ١٣٤ .

٤٠ ــ الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨٠ .

٤١ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٠ .

٤٢ ــ Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 95 - 7 .

٤٣ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٢ .

٤٤ ــ المصدر ذاته ، ص ١٣٣ .

٤٥ ــ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** . ج ٢ . ص ١٩١ ــ ١٩٢ .

٤٦ ــ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 436 .

٤٧ ــ Ibid . p. 431 .

٤٨ ــ A.S. Bujra . *The politics of Stratification* . (ph. d. thesis) Oxford , 1971 , p. 131 .

٤٩ — R.B. Serjeant . *The Saiyids of Hadhramawt* . London , 1957 , pp. 21 - 22 .

٥٠ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 494 .

٥١ — A.S. Bujra . *Op. cit* . p. 93 .

٥٢ — *Ibid* . p. 95 .

٥٣ — *Ibid* . p. 104 .

٥٤ — محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٥٥ — فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ٨١ .

٥٦ — A.S. Bujra . op. cit . p. 181 .

٥٧ — دكتوره ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٢٥ .

٥٨ — دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩ .

٥٩ — نزيه العظم . **رحلة في العربية السعيدة** . ص ٩٠ .

٦٠ — د. كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٢ .

٦١ — **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ .

٦٢ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 496-7 .

٦٣ — د. محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٧٤ .

٦٤ — Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 92 - 3 .

٦٥ — F. M. Hunter . *An Account of the settlement of Aden* . London , 1877 , p. 43 .

٦٦ — *Ibid* p. 42 .

٦٧ — See text in Sergeant's . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 472 - 98 .

٦٨ — *Ibid* .

٦٩ — الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٧٠ **المصدر ذاته** • ص ٧٩ •

٧١ — *Western Arabia and the Red Sea* . p. 433 .

٧٢ — ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** ج ١ ، ص ٥٦ •

٧٣ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 495 .

٧٤ —احمد محمد سعيد الأصنج.**نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة**.
١٩٣٤ مطبعة الثورى بمصر ص ٢٨ — ٢٩ •

٧٥ — **المصدر ذاته** • انظر ص ٩ — ١٤ ، ٨٣ — ٨٩ •

٧٦ — Serjeant . *op. cit* . pp. 490 - 8 .

٧٧ — Faroul Luqman . *Local Customs* . in Welcome to Aden .
1963 p. 208 .

٧٨ — Knox - Mawer . *op. cit* . p. 92 .

٧٩ — Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 126 .

٨٠ — *Ibid* . pp. 127 - 8 .

٨١ — Frya Stark. *The Southern Gates of Arabia.* 1957, p. 126 .

٨٢ — محمد انعم غالب . **غريب على الطريق** (ديوان شعر . مؤسسة ١٤
اكتوبر ، ١٩٧٤ ، عدن •

٨٣ — Doreen Ingrams . *op. cit* . 62 - 63 .

٨٤ — *Ibid* . p. 26 .

٨٥ — س. ليتس ،د. بيركس . **دور المرأة في الريف العماني** ، مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ١٠ ، ابريل ١٩٧٧ ، ص
١٠٥ — ١٠٦ •

٨٦ — الانسة س . ليتس ود . بيركس . **دور المرأة في الريف العماني** .
مجلة دراسات الخليج العربي ص ١١١ •

٨٧ — نزيه مؤيد العظم . **رحلة في بلاد العربية السعيدة** • ص ٨٩ •

٨٨ ـ في الدستور المعدل الصادر في ١٢ / ١٩٧٨ م ، أضيفت الى المادة «وتعمل الدولة كذلك على خلق الظروف التي تمكن المرأة من الجمع بين المشاركة في العمل الانتاجي ودورها في نطاق الحياة العائلية وتعطي للمرأة العاملة رعاية خاصة للتأهيل المهني » .

٨٩ ـ أنظر سليم زبال . **تحقيق حول دلتا أبين** . مجلة العربي ، العدد ١٦٢ ، مايو ١٩٧٢ م ، ص ١٠٨ ـ ١٣٠ .

٩٠ ـ د. انيس فوزي قاسم . **تقرير** . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، أكتوبر ١٩٧٦ م ، ص ١٩٨ .

٩١ ـ **المصدر ذاته** . ص ١٩٩ تعتبر هذه المادة « انعطافا جذريا في مجال التشريع في الاحوال الشخصية » .

٩٢ ـ See. I. Ghanem . A note on Law No. 1 . of 1974 . Arabian Studies . III . 1976 . p. 195 .

حيث يقول عن هذه المادة ما ترجمته بأن لها نكهة اشتراكية مميزة لأن النفقة في التشريع الاسلامي محتمة على الزوج .

٩٣ ـ **حول بعض مايكتب وما يقال عن تحرير المرأة** . صحيفة ١٤ أكتوبر ، عدن ص ٥٤٤ يناير ١٩٧٩ م

٩٤ ـ **برنامج الحزب الاشتراكي اليمني** . المؤتمر الأول ١١ ـ ١٣ اكتوبر ١٩٧٨ م ، ص ٣٤ .

القرن ١٦ وحركة التعليم في تمبكتو
مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب

الدكتور عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
جامعة الجزائر

١ ـ نحو الأوج

كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التي بلغت خلالها الحضارة العربية الاسلامية أوجها بالسودان الغربي ، أما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الأوج هذه [1] .

---

١ ـ بدات اول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الاسلام الى غرب السودان في القرن السابع الميلادي فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عقبه بن نافع الفهري ارسل فرقة صغيرة من جيشه الى الجنوب الغربي ، وذلك حينما بلغ برقة في حدود ٦٧٦م . وقد وصل رجال تلك الفرقة الى جبال الطومو ، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس) ، وموقع ذلك المكان في الوقت الراهن عند حدود فزان النيجر .

ولا نميل الى الاعتقاد بأن هجومات المرابطين في القرن الحادي عشر على بعض المناطق المحاذية لنهر السنغال من ناحية الشمال ،

ومنذ استقرار الاسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميلادي ، بدأت تتكون بها عدة تنظيمات حكومية ، ظلت تتخطى الشكل القبلي القديم بالتدريج ، وقد وصلت الى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر [٢] .

كان لها اثر كبير في حمل الناس على الاسلام ، لان المرابطين مالبثت عنايتهم ان تعلقت بالشمال ، ولم تبق منهم بالجنوب الا جماعة صغيرة ، ما لبثت أن توقفت عن النشاط هي الاخرى، وذلك حينما وصلت منطقة (كمبى صالح) في حدود سنة ١٠٧٦م .

ولعل الأثر الاكثر اهمية في اعتناق السودانيين للاسلام كان قد حصل نتيجة لاسلام المغاربة، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا ، ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى ، كان من اثرها المباشر اقبال امراء وسلاطين السودان على اعتناق الاسلام ، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريبا .

٣ ــ خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى ، فقد ظهرت في البداية مملكة غانا (في منطقة شمال السنغال وجنوب موريتانيا حاليا) ، وقد اثبتت دراسات الاستاذ (بازل دافدسن) ، انها قامت منذ البداية في شكل قبلي صرف ، طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل ، وفرضت عليها الخضوع لحكمها . وبنفس الطريقة اقامت قبائل الماندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولكن نوعا من الكونفدرالية ظهر على مالي منذ القرن الثالث عشر ، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة .

ثم قامت مملكة سنغاي في عهدها الاول في شكل قبلي ايضا ، الا ان الاسقيا محمد الاول (١٤٩٣ ــ ١٥٢٨) ادخل عليها تعديلات

وقد اعتمد استقرار الاسلام منذ البداية على عنصرين أساسيين ، هما : التجارة والتعليم ، وظلت المظاهر الحضارية في كل السودان الغربي انما تزداد ازدهارا في كل حقبة بالمدن التي تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها ، بالدرجة الاولى [٣] .

جوهرية ، فأبعدها عن الشكل القبلي وأعطاها صبغة وطنية ، بحيث أصبحت تشترك في تسيير المملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها . وقد اضطر من اجل الوصول لذلك الهدف الى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاي الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم في الحكم ، ولما انتصر عليهم ، كان ذلك ايذانا بتخطي الاشكال القبلية القديمة، وذلك لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر .

لزيادة التفاصيل ، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة، وهي :

- دافيدسن ، بازل ، افريقيا تحت اضواء جديدة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٦٣ ، (ترجمة م. أحمد) .
- قداح ، نعيم ، افريقيا الغربية في ظل الاسلام ، مطبعة الوحدة ، دمشق (دون تاريخ) .
- عبد القادر ، زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ، الجزائر ، ١٩٧٣ .

- J. FAGE . *Introduction to the history of West Africa* , Cambridge , 1955 .
- A. DIOP , *L'Afrique Noire , pré-coloniale* . Paris . 1960 .
- J. Suret-Canale , *Afrique Noire , Géog . Civilisations* , Histoire , Paris , 1961 .

٣ ـ ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر، هي المدن التي كان يأتي اليها أو يقطنها كثير من تجار الشمال ، أما البوادي والقرى ، فقد ظلت تعيش على الاساليب البدائية القديمة. ويرى الاستاذ (ديبوا) أنه لا يوجد في تاريخ السودان الغربي اثر

وكان القرن السادس عشر قد قيض خلاله لمدينة تمبكتو ان تصبح محطة القوافل الاولى في كل بلاد السودان ، فسكنها كثير من التجار وقصدها جم غفير من العلماء والطلاب ، مما بوأها اثناءه مكانة المدينة الاولى للعلم والثقافة في السودان الغربي كله [٤] . وفي تلك الحقبة

حضاري وثقافي الا في المدن التي كانت تتوارد عليها القوافل ، وبهذه الصورة قامت (والاتا) في البداية كمركز ثقافي وحضاري كبير ، ولما ظهرت الاضطرابات في منطقتها كنتيجة لتوسع مالي خلال القرن الثالث عشر ، ضعفت والاتا بسرعة منذ ذلك الحين ، وهاجرها العلماء الى (تمبكتو) التي اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهم ، انظر

F. Dubois , *Tombouctou la mystérieuse* Paris , (Flammarion) , 1897 . p. 263 .

٤ ـ يعود تأسيس مدينة تمبكتو الى القرن الحادي عشر ، وقد أسسها طوارق (ايمغراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ . اما خلال الصيف فانهم يعودون الى (أروان) حيث مرابعهم الاصلية، ويقال ان اسمها أخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا اليها بالبقاء في ذلك المكان ، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية ، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت . ثم ما لبث بعض التجار ان عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع ، وبذلك اخذت المدينة طريقها الى النمو التدريجي ، ولكن دون نظام ، وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بنى له فيها قصر فخم ، كما اسس أول مساجدها المسمى (دنقريبر) ، وقد بناهما الشاعر الساحلي ، وهو مهندس غرناطي استقدمه كنكان موسى معه حين عاد من الحج حوالي سنة ١٣٢٦م . وفي تلك الاثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافي الاول في غرب السودان حتى ذلك الحين)، وسكنوا تمبكتو ، فزادها ذلك ازدهارا ، اما التجارة فقد اخذوا

وصفت بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة أو في العمران والتجارة (٥) .

٢ ـ من مظاهر الازدهار

خلال القرن السادس عشر أصبح سكان تمبكتو يزيدون على خمسة وثلاثين ألف ساكن ، وربما لم تعد تفوقها آنذاك في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في غرب افريقيا ، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو آنذاك احدى مدنها الهامة (٦) .

←

يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج ، وما أن أطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجارة الواسعة والنشاط الثقافي المتزايد ، وقد بلغت فيهما مرحلة الاوج خلال الفترة ١٤٩٦ و ١٥٩١ وفي تلك الاثناء انتظمت شوارع المدينة ، واكتسبت معظم أبنيتها شكلها الهندسي على النمط المغربي ـ الاندلسي ، كما نقله اليها الساحلي يقول السعدي : « وما تكامل البناء (في تمبكتو) في الالتصاق والالتئام الا في أواسط القرن العاشر ، في مدة اسقيا داود) . انظر :

ـ السعدي : عبد الرحمن ، تاريخ السودان ، (ميزوناف) باريس، ١٩٤٦ . (تحقيق هوداس وبونوا) ، ص ٢٢ .

- Dubois , F., *op.cit.*, pp. 313 - 318 .

٥ ـ *Ibid* , p. 252 .

٦ ـ جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو ، وقد احتد النقاش بين الفريقين حول أي من المدينتين أكثر بيوتا ، مما أدى بهما الى عد بيوت كل من المدينتين على حدة ، وقد استدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين ألف ساكن ، انظر :

ـ كعت ، محمود ، تاريخ الفتاش ، ميزوناف ، باريس ، ١٩٦٤ (تحقيق هوداس) ص ١٤٥ .

Mauny R., *Tableau géographique de L'Ouest African* , Dakar . 1961 p. 491 .

وفي تلك الاثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانية للامبراطورية في ميداني الاقتصاد والثقافة معا [٧] . وقد انتظمت شوارعها ، واحيطت المدينة بسور ، اما المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة تربطها الى حيطان البيوت سياجات [٨] . وقد احتوت تمبكتو في تلك الأثناء على ثلاث مساجد كبيرة (جوامع)، مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن السودان الغربي آنذاك[٩] . وأخذت

---

٧ ـ في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على ان تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة اخرى ، لكثرة العلماء والطلاب بها ونشاطهم المتزايد . اما في ميدان الاقتصاد فان امراء سنغاي ، كانوا حينما يحتاجون للمال في اوقات الشدة يلجأون للاقتراض من تجار تمبكتو ، كما ان بعضهم زوج بناته بأغنياء التجار في تمبكتو ، ولم يحصل هذا مع غيرهم ، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة ، وكثرة بضائعها ، مما جعله يعتبرها امارة قائمة بذاتها ، انظر :

ـ السعدي ، عبد الرحمن ، نفس المصدر ، ص ٢٢ .

ـ احمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، فاس ، ١٣٧١ هـ ، ص ٤١ .

- Jean Léon l'African . *Description de L'Afrique* Trad . Schefer et Cordier , Paris . (Burdin) , 1898 , T. 3, p. 292 .

٨ ـ يذكر السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨ ، ان تمبكتو كانت حين نشأتها الاولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها ، وفي أيام الاساقي أصبحت تتوفر على ذلك السور كما أن البيوت لم تعد مكشوفة ، ثم يذكر انه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام ، اما في القرن السادس عشر ، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع .

٩ ـ وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما ، كان يشير الى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الاحياء ، والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة ، هي : غاو ، جنى وتمبكتو . اما جنى فقد كان بها مسجدان احدهما صغير، وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد،

أسواقها طابعها الاسلامي ، [١٠] كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها، [١١] وسكنتها جماعة من التجار الاغنياء،أما حركة التبادل، فانها كانت تمر بفترة من النشاط معتبرة [١٢] . واذا كان القرن السادس عشر قد ظهرت خلاله تمبكتو مدينة السودان الاولى في علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر ، فان ذلك القرن ، هو الذي أصبحت خلاله تلك المدينة أيضا ، مركزا هاما من مراكز الانتاج الثقافي ضمن ميدان الحضارة الاسلامية الفسيح ، وبذلك لم يقتصر دورها في هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العالم الاسلامي وانما تجاوزه الى استيعاب ما انتجه العالم الاسلامي ككل ، والمشاركة في تنميته ونشره

→

واما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي : أ) مسجد الونكريين (دنكربير) ب) مسجد سنكري ـ ج) مسجد سيدي يحيى .

١٠ ـ كان يغلب على نظام الاسواق في المدن الاسلامية الكبرى ، تقسيمها الى اقسام ، ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع ، مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع ، في شكل نقابيات ، ينظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ ـ لانستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر ، اما في القرن الرابع عشر ، وكان اقل من السادس عشر نشاطا بدون شك، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج ٧ ، ص ٤٣٥ ط. بيروت ، ١٩٦٣) حجم كل قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا ، وذهب الى ان كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه السودان .

١٢ ـ Cf. J. L. l'African . *op. cit.*. pp. 292 - 96 ; Dubois . *op. cit.*. chap. XIII .

بين أمم السودان الغربي وشعوبه [١٣] .

٣ ـ حركة التعليم

رأت تمبكتو في القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بحركة التدريس ، وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والاساتذة ، كما رأت لأول مرة في تاريخ السودان الغربي ، اتساع التعليم الجامعي ، وتوارد عليها في تلك الأثناء عدد من الاساتذة من بلدان المغرب ، فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه [١٤] ، وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الانتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي الفت خارج السودان ، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم ، واخذه طابعا عاما ، كانت له مميزاته وخصائصه [١٥] .

---

١٣ ـ Incyclopédie de l'Islam. T. IV (S - Z). Leyde. 1934, p. 816
غير أن صاحب الدراسة يذكر أن تمبكتو قد احتلت من قبل المغاربة في أيام الاسقيا داود ، والواقع غير هذا ، لان المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين الا في اخر عهد الاسقيا اسحاق الثاني ١٥٩١ .

١٤ كان من أبرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة في تلك الاثناء : محمد بن عبد الكريم المغيلي ، سيدي يحيى التادلسي ، مخلوف البلبالي وابراهيم الزلفي ، وكذا عدد هام من علماء توات .
ـ ينظر السعدي ، المصدر المذكور ، صفحات ٢١ ـ ٤٥ ، وعن المغيلي خاصة ينظر تحقيقنا لاسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٥ ـ من الجدير بالذكر هنا أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفها السودان الغربي في ميدان الحضارة ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الاولى ، وبالنظر للعوامل الجغرافية ، فان المغاربة كانوا أكثر تأثيرا من المصريين . أما الاوروبيون فأنهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر ←

أ) مراحل التعليم

كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، يقسم الى ابتدائي وثانوي وعال ، وكان التعليم الابتدائي تتجسم فيه المرحلة الاولى الاساسية لكل الطلاب ، [١٦] هذا بالاضافة الى ان مرحلته هي الوحيدة التي يبدو انه كان يراعى فيها الى حد ما ، مستوى السن ، فكان التلاميذ في السلك الابتدائي لا يتجاوزون في أغلبيتهم مرحلة الصبا [١٧] .

←

بقي اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما ، والسودان الغربي بشكل خاص ، للعرب وحدهم ، ولعل أول محاولة اوروبية للوصول الى المناطق الواقعة جنوب المغرب الاقصى، كانت هي رحلة الاخوين (فيفالدي) من جنوى، اللذين حاولا الاوصول الى ريو دي اور (وادي الذهب) سنة ١٢٩١م ولكن غابت اخبارهما من ساعتئذ . وفي ١٤٤٧ حاول الرحالة (مالفانت) الايطالي الوصول الى تمبكتو عن طريق توات ، ولكنه لم يتمكن فبقي أياما في تلك الواحة ثم عاد ، ومن هنا ، فاننا نميل الى الاعتقاد بأن كل تقدم أحرزه السودان الغربي في ميدان التعليم ، ظل اسلاميا وبتأثير من الحضارة العربية وحدها ، وهذا حتى بداية القرن العشرين .

لزيادة التفاصيل ، يراجع بصورة خاصة :

Coquery . Catherine . La *découverte de l'Afrique* . Paris , 1915 .

De Zuraca, C.E., *Chronique de Guinée* (Trade. Bourdon). Paris, 1841, Chap. 9, p. 56 .

Ca de Mosto, *Relation de voyage à la Côte occidentale de l'Afrique*, (Trad. Schefer), Paris. 1895. pp. 49 - 51 .

De Baross. J.. De Asia. *Lisbonne 1778.* T. I. Chap. 2 .

١٦ ــ كان الاساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية ، لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة ، ولذا كان على كل طالب أن يدخل المدرسة الابتدائية أولا ، ليتزود بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل وهذا قبل ان يجلس في حلقة أي استاذ كان .

١٧ ــ لا يشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة

→

وبعد ان ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي ، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي ، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن ، كما أن الفروق بينهما لم تكن واضحة ، ولعل مرد ذلك الى ان هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة [١٨] ، أما في المرحلة الابتدائية ، فلا شك أن الآباء هم الذين كانوا يقودون أبناءهم الى معلمي الصبيان ، ويجبرونهم على الدوام ، كما يراقبون مدى استيعابهم [١٩] . وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها ، هي الكتب المبسطة ، وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الاشياخ)[٢٠]

الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) . ينظر مثلا :

ـ كعت ، نفس المصدر ، صفحات ٩٥ ـ ١٧٨ ـ ١٨٠ .

ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ١٩ ـ ٢٢ ـ ١٣٠ .. الخ .

١٨ ـ كان الاساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ، ويتحلق حولهم الطلاب ، ويجلس الطالب في حلقة ما ، حسب رغبته في المادة التي يكون الاستاذ بصدد تدريسها أولا ، ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب .

١٩ ـ تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ ابنائهم القرآن وتعليمهم الاخلاق منذ الصغر ، ويذكر من أمثلة ذلك عن أحدهم أنه كتف ابنه بحبل يوم العيد ، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض اليه في ذلك ، حتى لحفظ الجزء الذي يطلب منه . ولم يؤثر لنا شيء عن تغير تلك العادة لديهم ، فيما بعد .

٢٠ ـ تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني الاسقيا داود فسماه بـ (الشيخ) ، وتحدث كل من السعدي وأحمد بابا عن عدد ممن أخذوا عليهم ، فوصفا من درسوهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما ، مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الاساتذة) . ووصفا اللذين كانا قد اخذا عليهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية بـ (الاشياخ) . وهناك فريق ثالث كانا قد أخذا عليهم ، مثل الاجرومية والالفية معا، أو الرسالة

ويبدو أن الأشياخ في العرف العام آنذاك ، كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للاستاذة ، ولكن عددا من الاساتـذة تعاطوا ايضا تدريس مثل هـذه المؤلفات ، وهذا مما يجعل الانفصال بين المرحلتين واضحا للباحث ، لأن أولئك الاساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون الى ذلك ، تدريس أمهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع ، ويبدو أنهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار ، فيدرسون مثلا في الصباح لطلاب في مستوى الثانوي ، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس [٢١] ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل ، ووجود منهج قار لكل مرحلة .

ب) المنـاهج

رأت مناهج التدريس منحى وحدويا بين كل البلدان الاسلامية ، وخاصة في القرن الرابع الهجري [٢٢] . وكان العرف السائد والجاري به العمل ، هو ان التلميذ يدخل الكتاب اولا ، لتعلم القراءة والكتابة والخط ويحفظ شيئا من القرآن ، وقد تساعد امكانيات المعلم علـى تلقينه أوليات في الفرائض والحساب واللغة أيضـا . على أن امكانيات هذا كان قليل الحصول في بلاد المغرب على ما يظهر ، وظل يغلب على منهج المغاربة في المرحلة الابتدائية الاقتصار على تحفيظ القرآن مـع تعليم الكتابة والخط [٢٣] .

وخليل ، فوصفاهما بـ (شيخي واستاذي) . ينظر :
ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ٢٠ ـ ٣٣ ـ ٩٤ .
ـ احمد بابا ، نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

٢١ ـ احمد بابا ، المصدر نفسه ، والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٤.

٢٢ ـ ينظر شلبي ، أحمد ، تاريخ التربية الاسلاميـة ، دار الكشـاف ، بيروت ، ١٩٥٤ صفحات ١١٧ ـ ١٨٦ .

٢٣ ـ يذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه اختلافا بين المغاربة والمشارقة في هذا الميدان ، فحواه ان المغاربة يبداون بتحفيظ القرآن قبل اي

وبما أن السودانيين أخذوا أساليب التعليم مباشرة عن المغاربة فان منهج هؤلاء هو الذي يبدو أنه ظل يجري به العمل لديهم (٢٤) .

أما مناهج المرحلتين : الثانوية والعالية ، فقد كانت واسعة حقا ، وكانت المواد الاساسية فيها ، هي : النحو وفقه اللغة ، الحديث والفقه ، التفسير والتجويد، التوحيد والمنطق، ثم الحساب وشيء من العروض٢٥ . وكانت المناهج في المرحلتين مرتبطة ببعضها غالبا ، بمعنى أن الطالب يدرس المؤلفات المبسطة في موضوع ما ، خلال المرحلة الاولى (الثانوية)، ثم يتدرج الى دراسة المؤلفات المفصلة مع شروحها وحواشيها بعد ذلك وفي نفس الموضوع . (٢٦)

شيء آخر ، في حين كان المشارقة يجمعون الى ذلك بقية الفعاليات التي توصل التلميذ الى الفهم .

٢٤ ـ يذكر عبد الرحمن السعدي ان كل معلمي الكتاب في تمبكتو حين قدوم محلة الباشا جودار سنة ١٥٩١م . كانوا مجرد (معلمي قرآن) ـ انظر ، السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٢٥ ـ أحمد بابا ، نفس المصدر ص ١٧٩ ، والسعدي ، نفس المصدر، ص ٢٠ . هذا وان المصادر لم تسعفنا بما يؤكد أو ينفي الافتراض بان الطب كان من المواد التي تحتويها المناهج ، مع وجود اشارات الى تداول كتاب السيوطي في الطب بين الناس ، كما ان عددا من مرضى العيون كانوا يقصدون الاساتذة المشهورين ب (قدح العيون) على حد تعبير محمود كعت ، وكانوا حينما يجدون على أيديهم الشفاء يقدمون لهم كثيرا من الهدايا ، اما العروض فبالرغم من انه كان من المواد التي تدرس ، الا ان انتاج السودانيين في ميدان الشعر ظل ضعيفا في تلك الفترة . ولعل مرد ذلك الى أن أساس الانتاج الشعري لا تكفي فيه معرفة القواعد وحدها .

٢٦ ـ مما يلفت النظر أن عددا من المؤلفات المغربية عرفت في تمبكتو خلال تلك الفترة ، ولم تعرف في المشرق ، مثل جامع المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي في المنطق ، فقد كانا من بين المصنفات التي كان يتناولها المدرسون بالشرح لطلابهم في مساجد تمبكتو ،

ومن المؤكد أن المناهج كانت تشمل صفوة ما بلغته الحضارة الاسلامية في ميدان المعارف ، غير أنه لا يبدو أن تلك المناهج قد عصمت بالناس من بعض الانحراف ، ذلك أن المتتبع لسيرة غالبية المدرسين في تمبكتو خلال تلك الفترة ، يجد لديهم نوعا من الصوفية المبالغ فيها ، مما جعل الكثيرين من بينهم يعتقدون بالغيبيات ، ويعملون لحمل الناس على تصديقهم ، وكان المتخرجون على أيديهم يتطبعون بتلك الروح في الغالب . (٢٧)

د) أمكنة التدريس

كانت أمكنة التدريس الاساسية هي المساجد والجوامع ، وكان من أشهرها وأكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين ، خلال القرن

في حين أن كتب المشارقة عرفت كلها ، سواء في المغرب أو في السودان الغربي . ينظر أحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

٢٧ ـ زخرت كتابات كل من أحمد بابا وعبد الرحمن السعدي ومحمود كعت ، أثناء الحديث عن أشياخهم وأساتذتهم ، بذكر كل ما كان يدعى معظمهم الانصاف به من (معرفة الغيب) و (انطباق مايرونه في المنام على واقع المستقبل) ، و (توقيفهم لنزول المطر عن طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء) ، أو ك (انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لأحدهم حين الحج) ، و (انشقاق مياه النيجر الى شطرين اثناء عبور آخر النهر) ، وغير ذلك ، وهم يفسرون هذا دائما بكون اولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (أولياء الله) .
ولعل مرد ذلك كله الى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس، وليس لما ذهب اليه الاسقيا محمد في رسالته الى المغيلي مثلا ، من أن العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيدا ، ثم يؤدي بهم الادعاء الى القول بما ليس في القرآن ، لان اولئك المدرسين كان يبدو من أعمالهم التضلع الكافي بما يدرسون ، وقد ترك أغلبهم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيدها عليهم طلابهم ، وبقيت موجودة حتى الان وهي تؤكد تضلعهم في العربية وفي المواد التي كانوا يدرسونها .

السادس عشر ، جامع (سنكورى) [٢٨] وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو ، وقد بنته سيدة فاضلة ، قيل أنها كانت من الموسرات ، [٢٩] ثم جامع (دنفربير) ، وكان قد بناه في الاصل أحد الاندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي ، [٣٠] ثم أدخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته مرتين خلال القرن السادس عشر ، وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين ، ويبدو أن تكاثر الازدحام عليه ، هو الذي كان يدعو باستمرار الى العمل على

---

٢٨ ـ أصبح جامع سنكوري في تلك الفترة ، بمثابة جامعة للسودان الغربي كله ، وقد توارد عليها جماعة من الاساتذة اللامعين ، وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق . ينظر بصورة خاصة :

- Delafosse. *M.. Haut Sénégal-Niger.* Paris, 1912, T. 2, p. 346 .
- Péfontan (Lieut.) « Histoire de Tombouctou » *in Bull. de l'Afrique occidentale, 1922,* (Tirage à part) .

٢٩ ـ بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر ، ويمكن أن نذكر من أمثلة ذلك أيضا ، بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامعة القرويين ، كما ان عددا من الخاتونات هي اللائي كن بنين عددا من المساجد في العراق والشام ومصر ، ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق أو المغرب على السواء .

٣٠ ـ الاندلسي ، هو ابو عبد الله الساحلي أحد شعراء غرناطة ، وكان معماريا ، ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الاول ، فاستقدمه معه الى السودان الغربي حوالي ١٣٢٦م وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك ، كما بنى في (ينى) عاصمة مملكة مالي انذاك ، قصرا اخر ، ويقال انه منذ ذلك الوقت اخذ الاسلوب المغربي ـ الاندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان .

توسيعه.[31] ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى ، وقد بني تخليدا لأحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، فاجتهدوا في تعليمهم وأفادوا النـاس .[32] والى جانب هذه المساجد الثلاث ، كان يوجد جامع خالـــد، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه ، كان كبيرا نسبيا ، الا أن الدراســة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط .[33]

وقد كانت بعض الجوامع تحتوي على مراحل التعليم الثـلاث ، فيجلس في جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميــذهم ، ويجلس في

---

٣١ ـ وسع جامع سنكوري مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الاخيرة حوالى ١٤٨٥ وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى الينا انه كان يصرف على الاشغال من ماله الخـاص ، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم الحاحهم عليه مشاركتهم له في الانفاق، الا أشياء رمزية فقط ، ومهما يكن فان اعمال التوسيع في حـد ذاتها تشير الى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكوري ، مما جعلــه يحتل المرتبة الاولى بين جوامع تمبكتو في تلك الاثناء . انظر كعت ، نفس المصدر ، ص ٤١ .

٣٢ ـ هو يحيى التادلسي ، وقد سكن تمبكتو ، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس . ويقول كعت : ان أهل تمبكتو (كانوا يعتقدون فيه) . فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد. وقد تحول سريعا الى جامع كما يبدو لتكاثر سكـان الحي الموجود به ، ولازدهار التدريس في المدينة ككـــل ، مما جعـــل الطلبة والمدرسين يملأون كل الرحاب .

٣٣ ـ لا يذكره محمود كعت الا كجامع صغير ، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون ، ويفهم من كلامه انه كـــان يوجد بالمدينــة آنذاك ، كثير من المساجد الصغيرة غيره ، ينظر كعـــت ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

فنائه وقاعاته غالبا اشياخ التعليم الثانوي وأساتذة التعليم العالي .[٣٤] ولكن طلبة القرآن في الغالب ، كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم أو يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة ،[٣٥] كما أن بعض الاساتذة وكذلك الاشياخ ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس في منازلهم ، الا أن هذا كان في حالات قليلة ، أما غالب جلوسهم ، فقد كان في رحاب المساجد والجوامع .[٣٦]

هـ) طريقة التدريس

كانت المناقشة بين الاستاذ وطلابه جاريا بها العمل ،[٣٦] أما التواضع ولين الجانب للطلبة ، فقد كانا من شيم الاساتذة اللامعين بتمبكتو في تلك الفترة ،[٣٧] وكان صبر الاستاذ على تفهيم طلبته

---

٣٤ _ هذا ما يفهم من كلام السعدي أثناء الحديث عن تمبكتو في عهد الاسقيا داود ، انظر السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٧ .

٣٥ _ كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمي الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت في تلك الفترة بين مائة وخمسين ، الى مائة وثمانين مكتبا ، وكان معظمها يحتوي على العديد من التلاميذ ، وقد ذكر عن واحد من بينها، وهو مكتب المعلم (علي تكريا) انه كان يضم في سنة ١٥٩١م أكثر من ١٢٣ تلميذا . (ينظر كعت، المصدر السابق ، ص ١٨٠) .

٣٦ _ يشير الى ذلك بوضوح كل من احمد بابا والسعدي ، أثناء الحديث عن أساتذتهما وأشياخهما . (انظر السعدي ، المصدر السابق ، صفحات ١٩ _ ٤٦ ، وأحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٢٧٩).

٣٦ _ السعدي ، المصدر المذكور ، ص ٤٦ .

٣٧ _ المصدر نفسه .

يعتبره الناس من صفات الاساتذة الناجحين في مهنتهم ، [٣٨] وكانت الطريقة الشائعة في الدرس ، هي أن يبدأ الاستاذ باملاء رأيه في المسائل على طلبته ، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الاستاذ ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما يشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الاستاذ كجواب على استفساراتهم . [٣٩]

ويبدو أنه أثناء الشرح كان الاساتذة يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون . [٤٠] ولعلنا اذا أردنا أن نوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك ، فاننا ربما نجد في أبيات المرثية التالية ، وهي من تلك الفترة ، خير معبر عن ذلك : [٤١]

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي يثير هموم القلب من كل وافد ؟
يثير هموم القلب فقد سميدع فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الاستاذ مؤدب ذي النهى رباطا صبارا أمره في التزايد

ويضاف الى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم، لم يكونوا

---

٣٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

٣٩ ــ احمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

٤٠ ــ المصدر نفسه ،والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

٤١ ــ الابيات للشيخ يحيى التادلسي ، الذي كان أحد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك ، اما المرثي، فهو محمد الكابري احد المدرسين الكبار في جامعة (سنكري) في تلك الاثناء . وقد اقتصرنا هنا على ايراد الابيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابري في التدريس ، وقد أورد المرثية كاملة السعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها، بل انهم كانوا يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة ، ولكنهم لا يدرسون الا المواد التي يكونون قد اتقنوها وأجيزوا فيها . (٤٢)

و) الاجازات

عرف المدرسون والطلاب في تمبكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات ، كما عرفته البلاد الاسلامية الاخرى ، وبما أن طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة ، فيما يتصل بالطلاب ، فانه يبدو أن الاساتذة ايضا ، كانوا لا يجيزون الطلاب الا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم . (٤٣)

أما طريقة الاجازة ، فقد كانت بسيطة ، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة الحصيفة التي تستند الى تأكد الاستاذ من أن الطالب يكون قد أحرز على التمكن الكافي في مادة بعينها ، ذلك أن الاستاذ لا يراعي أية شكليات في منح الاجازة لطالب العلم على يديه ، ولكنه يراعي

٤٢ ـ لعل مما يجدر ذكره هنا ، ان طريقة الاختصاص بمادة واحدة ، لم يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخه . أما في السابق فان اسلوب (الموسوعات) هو الذي كان يجري به العمل عند كل الامم .

٤٣ ـ ذكر كل من احمد بابا والسعدي عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد اخذا عليهم العلم ، ولكنهما لايشيران لمن اجازوهما من بين اولئك الاساتذة ، على كثرتهم ، الا للقليل ، بحيث لايتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط .

بدقة ، مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها.[٤٤] وقد كانت الشهادات تعطى فردية ، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الاستاذ ، في المواد التي يتقنها ذلك الاستاذ ويتعاطى تدريسها ، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى . وبناء على هذا ، فان الشهادات كانت في شكل انطباع يسجله الاستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو أكثر ، بعد أن يكون هذا الاخير ، قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة في موضوعها ، وايجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها .[٤٥]

ومن ناحية أخرى ، فقد كان الاساتذة يتحرون في العبارات التي

---

٤٤ ـ يجد المتتبع لحالات الاجازات في ذلك الوقت ، ان الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الاستاذ لفترة طويلة ، وأصبحوا حجة في المواد التي يدرسها استاذهم هم وحدهم الذين اعطيت لهم الاجازة في تلك المواد ، وبعض الذين اعطيت لهم شهادات ، كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن ، جعلت استاذهم يضطر احيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها ، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم .
ينظر أحمد بابا ، (نفس المصدر ، ص ٧٩ ، والسعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٦) .

٤٥ ـ يقول احمد بابا عن أحد الاساتذة الذين أجازوه : « حضرت انا عليه أشياء عدة ، وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لي بخط يده » ، نيل الاتهاج ، ص ٧٩ . ولعل بهذا تثبت امامنا صورة الشهادة كما كانت تعطى . أما عبد الرحمن السعدي ، فيقول عن استاذه الذي أعطاه اجازة : « باحثته كثيرا في المشكلات، وراجعته في المهمات ، وبالجملة فهو شيخي واستاذي ، ما نفعني احد كنفعه وبكتبه .. وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه »، تاريخ السودان ص ٤٦.

يكتبون بها الشهادات للطلاب ، بحيث ينحصر محتواهـــا في نطـاق المعلومات التي يتقنها الاستاذ المدرس ، ولا يتجاوزها لغيرها [٤٦]. ومن هنا يتضح مدى الدقة في نظام تلك الاجازات ، رغم بساطته .

ز) تنقلات الاساتذة والطلاب

كان توارد الاساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد أخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر . وكانت نسبة كبيـرة من المدرسـين بتلك المدينة من بلدان المغرب . [٤٧] أما الطلبة فقد كانت لهـم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم ، وأكثر الذين كانوا يردون على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية . [٤٨] وكثير من الطلبـة

---

٤٦ ـ المصدر نفسه ، صفحات ٢٠ ـ ٤٨ .

٤٧ ـ منذ القرن الثالث عشر ايتقل عدد من علماء (والاتا) الـى تمبكتو ، كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي ، الـى تلك المدينة ، وكانوا في اغلبهم من صنهاجة ومسوفـة ، وهمـا قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارف الصحراء في عصور سابقة. والى قبيلة صنهاجة ينتسب احمد بابا، ويقال أن نهر السنغال أخذ اسمه من اسم صنهاجة . اما خلال القرنين الرابع والخامس عشـر ، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو يطيب لهم البقاء بـين أهلها ، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيـرا على دروسهم ، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة في القرن الرابع عشـر وجـد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس ، اما في القرن السادس عشر ، فان معظم من ذكرهم أحمد بابا والسعدي كأساتذة لامعين في تمبكتو كانوا من أصول مغربية ، ويسجل محمود كعـت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات ، وأقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن .

٤٨ ـ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

كانوا حينما ينهون دراستهم في تمبكتو ، ينتقلون الى المغرب الاقصى أو المشرق . أما الى المغرب ، فانهم كانوا يذهبون الى مدينــة مراكش بالدرجة الاولى ، وبعضهم كان يقصد فاس .(٤٩) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة أثناء ذهابهم الى المشرق ، فيجالسون العلمـاء اللامعين بمصر والحجاز ، وقد تطول اقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون الى تمبكتو الا بعد أن يكونوا قد حصلوا على عدد من الاجازات (٥٠). وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم (٥١) ، وقـد كان لأولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعــة في ولائــم الافراح والجنائز . (٥٢)

ن) التعليم المهني

لا يوجد في كتابات المؤرخين من تلك الفترة ما يشير الى وجود تعليم مهني منظم في تمبكتو الا في ميدان الخياطة . (٥٣) وهذا بالرغم من وجود دكاكين يبدو أنها كانت عديدة ومتنوعة يشغلهـــا اصحاب

---

٤٩ ــ احمد بابا ، نفس المصدر ، صفحات ٨٤ ــ ٧٩ ــ ٢٧٣ .

٥٠ ــ السعدي ، المصدر السابق صفحات ٢٠ ــ ٤٣ .

٥١ ــ نفس المصدر .

٥٢ ــ كعت ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، والسعدي ، المصدر السابق، ص ٢٢ .

٥٣ ــ عرفت بلاد المغرب في تلك الفترة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكة والخياطة والنجارة وبعض الحرف الاخرى المشابهة لها . ــ ينظـر (ابن مريم ، المديوني ــ البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ــ تحقيق ابن أبي شنب) (م. الثعالبية) الجزائر ١٩٠٨ ص ٦٣.

الحرف المختلفة في تلك المدينة .(٥٤) أما في ميدان الخياطة ، فانه يبدو أن المدينة كان بها تعليم منظم الى حد ما ، وكان طلابه كثيرين ، فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالى (ستة وعشرون بيتا من بيوت الخياطين) ، وكلها من النوع المتخصص في تعليم مهنة الخياطة ، وكانت تسمى باللهجة المحلية (تند) بكسر الاول والاخير وسكون الوسط ، (٥٥) وكان كل بيت من بينها يتراوح عدد الطلبة فيه بين خمسين الى سبعين طالبا ، ويتولى التدريس في كل بيت من بينها معلمون متخصصون في تعليم تلك المهنة، يدعى كل واحد منهم (الشيخ الرئيس) . (٥٦) ولا ندري كيف كان يقبل الطلبة في كل مدرسة من تلك المدارس ، غير اننا اذا قارنا بما كان يوجد في الجزائر آنذاك ، لان تمبكتو كانت كثيرا ما تقلد المغاربة ، نجد أنهم ربما كانوا يدخلون تلك المدارس المهنية ليشتغلوا بدون أجرة ، وذلك حتى يتقنوا الحرفة ويحذقونها . أما قبل الوصول الى مثل هذه الغاية ، فان أجرتهم انما تقابل في العادة بما يتعلمونه مجانا .(٥٧)

خاتمة

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، بما لم تحظ

---

٥٤ — J. Léon l'Africian, *op. cit.*, p. 293 .

٥٥ — كعت ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

٥٦ — لا ندري أصل هذه التسمية ، غير أن المعروف عن ابن سينا ، الفيلسوف الطبيب ، انه كان قد لقب بمثل هذه العبارة ، ولعل اطلاقها كان يختص بمن يتقنون حرفة ما ، ويعلمونها للناس .

٥٧ — ابن مريم ، نفس المصدر ، ص ٦٣ — ١٦٩ .

به مدينة أخرى في غرب أفريقيا في ذلك الوقت • وكـــان من أبـرز العوامل التي هيأت لها ذلك ، ازدهار الحركة التعليمية بهـــا في المقام الاول • [٥٨] ولـــذا أخـــذت نوعـا من (القداسـة) في نظـر الناس ، [٥٩] مما حمل الحكومة على اسناد جميع امور النـاس فيهـا للقاضي • [٦٠] وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطـــلاب من جميع بلاد السودان ، كما توارد عليها بعض الطلبــة من مراكش أيضا • [٦١] اما الاساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة ، [٦٢] وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشـــر الثقـــافة في سهوب السودان الغربي كلها ، كما أصبحت من بين المراكز الهــامة في العالم الاسلامي جمعيه وأسفر ذلك عن تحضر السكان بها ولـــين عريكتهم وصلاح حالهم • [٦٣] ولكن الباحث رغم ذلك كله ، لايستطيع اجـلاء

---

٥٨ ــ يقول كعت انها أي تمبكتو كانت « يومئذ (١٥٩١م) لا نظير لها في البلدان ، من بلاد السودان الى أقصى بــلاد المغرب » ، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافية فيقول عن أهلها ، انهم كانوا من أكثر النـاس (تلطفا بطالبة العلم واعانتهم ... كثر قراؤها وادباؤها من كوكي الى جني) (المصدر السابق ، ص ١٧٩) .

٥٩ ــ W. R. Juiy, *A History of the African people,* London (Faber), 1970, p. 68 .

٦٠ ــ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٦١ ــ السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٤ .

٦٢ ــ واعتمادا على هذا يقول السعدي ابن تنبكت الذي أحبهـــا من كل قلبه : (ما أتتها العمارة الا من المغرب ، سـواء في الديانـــات أو المعاملات) ، نفس المصدر ، ص ٢١ .

٦٣ ــ يقول كعت في هذا المعنى : (الا من خص الله به أهـــل تمبكتو ، ونرى من بينهم مائة رجل ليس لأحد منهـــم حريش ولا سيف ولا مدية) . نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

كل المعلومات الكافية حول الازدهار الاكيد الذي عرفته المدينة في حقل التعليم ، ولا يعود ذلك فقط لشح المصادر الموجـــودة حول هـــذا الموضوع ، وانما يعود أيضا لندرتها • ولنا الامل في أن يسفر النشاط الواسع الذي يقوم به الباحثون حاليـا في مختلف جامعـات العـالم ومؤسسات البحث المنتشرة في أرجائه ، عن نتائج طيبــة في موضوعات التاريخ الافريقي جميعها ، وكلها لا يزال الغموض يكتنف العـديد من جوانبها حتى الآن •

د • عبد القادر زباديـة

استاذ بقسم التاريخ
معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

سجلات "يوميات مقيمية البصرة"

١٧٩٨ - ١٨١١

الدكتور عبدالأمير محمد أمين
كلية التربية - جامعة بغداد

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباي بعدد كبير جدا من السجلات ذات الصلة بتاريخ العراق والجزيرة العربية والخليج العربي [١] . ولعل تلك السجلات الموسومة بـ « يوميات البصرة Bussora Diaries » هي من اكثرها تميزا من حيث وفرة المادة وغزارتها [٢] . وهناك صنفان من هذه اليوميات هما :
« يوميات مقر البصرة التجاري Bussora Factory Diaries
« ويوميات مقيمية البصرة Bussora Residency Diaries » .

وتغطي مجلدات الصنف الاول ، البالغ عددها أحد عشر مجلدا مرقمة ١٩٣ ـ ٢٠٣ ، الفترة من ١٧٦٣ الى عام ١٧٧٧ ، وهي فترة تميزت بازدياد نشاط القبائل العربية في الخليج العربي وشط العرب ، وبرزت فيها قبيلة كعب كأقوى قبيلة بحرية عربية في المنطقة . وكانت الحرب سجالا بين تلك القبيلة العربية الشديدة البأس من جهة وأساطيل

شركة الهند الشرقية الانكليزية والجيوش العثمانية والايرانية من جهة اخرى • وجاءت « يوميات مقر البصرة التجاري » طافحة بالمعلومات عن تلك القبيلة وعن صلاتها الحربية والسلمية بالانكليز والعثمانيين والايرانيين • كما احتوت تلك اليوميات على معلومات أخرى كثيرة تخص بقية القبائل العربية والاقطار المحيطة بالخليج ، بالاضافة الى تلك المعلومات الخاصة بالتجارة وبنواحي النشاط البشري الاخرى •

أما الصنف الثاني من سجلات « يوميات البصرة » وهو « يوميات مقيمية البصرة » والتعريف بها هو هدف هذا البحث ، فيبلغ عدد مجلداتها تسعة ، تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ الى عام ١٨١١ • وهذه اليوميات منتظمة بشكل عام • فكل مجلد من المجلدات التسعة يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني وينلق في الواحد والثلاثين من كانون الاول من العام نفسه ، مع وجود بعض الاستثناءات لهذا الانتظام • منها ان المجلد رقم ٢٠٥ يضم يوميات عامين كاملين فيبدأ في الاول من كانون الثاني عام ١٧٩٩ في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٠ [٣] • كما أن المجلد رقم ٢٠٨ يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٣ وينتهي في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٦ اذ توجد فجوات في يومياته • فهناك فجوة تبدأ في ٥ نيسان عام ١٨٠٣ وتمتد الى الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٤ • ثم هناك فجوة أخرى تبدأ من ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٠٤ وتمتد الى ٨ أيلول عام ١٨٠٦[٤] • ويلاحظ هناك تقديم وتأخير في المجلد رقم ٢١٠ خاصة بالنسبة ليوميات الاشهر : تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول[٥] • كما أن يوميات المجلد رقم ٢١١ تبدأ في الاول من شهر كانون الثاني عام ١٨١٠ وتنتهي في ١٢ كانون الثاني عام ١٨١١[٦] •

ومما تجدر الاشارة اليه أن مجلدات مقيمية البصـــرة ، بصورة خاصة ، في حالة رديئة للغاية وقد عملت الرطوبـــة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعضـ معالم الكتابة فيها • لذا فان مبادرة مركز دراسات الخليـج العربي في تصوير اليوميات والاحتفاظ بها ، لهي خطوة هامة لضمان الاستفادة من معلوماتها الغزيرة ومن مادتها الوفيرة •

والحقيقة ان للفترة التي تغطيها « يوميـــات مقيمية البصـرة » (١٧٨٩ ــ ١٨١١) أهمية خاصة في تاريخ منطقة الخليج العربي • فهـي من ناحية تميزت بازدياد النشاط السياسي والعسكري البريطاني بشكل لم يسبق له مثيل • وقد كان ذلك رد فعل للحملة الفرنسية على مصـر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق • فتوالت البعثـات السياسيـة البريطانية الى ايران ومسقط وبغداد ، وفتحت المقيميـــات البريطانية هنا وهناك ، وازدادت تحركات الاساطيل البريطانية في ميـــاه المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج العربي(٧) •

وباضافة الى ذلك النشاط الاوروبي خلال الفترة الآنفـة الذكر ، فان القبائل العربية استمرت في اظهار حيويتها وفعاليتهـــا في الخليج العربي ، بل ان تلك السنين بالذات شهدت أول مراحل المجابهة الطويلة والمريرة بين البريطانيين وقبائل القواسم القوية الشكيمـــة والشديدة البـأس •

والى جانب كل تلك النشاطات السياسية والعسكرية العربية منها والاوروبية فقد شهدت منطقة الخليج العربي ازدهارا تجاريا ملموسـا خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشـر •

ان التقارير المفصلة التي كتبها بعض البريطانيين عن حالة التجـــارة في أقطار الخليج العربي والاقتراحات الكثيرة التي تقـــدموا بها لتشجيع التجارة البريطانية هناك ، والفصول الطويلة الـــتي كتبهـــا الرحالة الاوروبيون عن التجـارة خلال هذه الفتـــرة انمـــا هي أدلـــة على ازدهار التجارة وانتعاشها وعلى ازدياد اهتمام الاوروبيـــين بها [٨] • وكان لاستقرار الاوضاع في ايران في عهد القاجاريين من جهة ، وتمتع العراق بشيء من الامن والهدوء في عهد سليمان باشا الكبير من جهـة أخرى ، الجوانب أثرهما في تحسن وضع التجارة في منطقة الخليج •

وسجلات « يوميات مقيمية البصرة » توفر المعلومات الكثيرة عن كل جانب من الجوانب السياسية والعسكريـــة والاقتصاديـــة الآنفة الذكر • فقد سبق أن بينا في بحث سابق اهتمام شركة الهند الشرقيـــة الانكليزية الكبير بالحفاظ على سجلاتهـــا وولعهـــا الشديـــد بجمـــع المعلومات التي تخص كل جزء من أجزاء الشرق كانت قد امتدت تجارتها اليه وكانت لها مصلحة فيه • لقد كانت الشركة تصـــر على مستخدميها بتدوين كل شأن من شؤونها على الورق [٩] • وبلغ هـــذا الامر حـــدا وصفت الشركة معه بانها « حكومة أوراق » • وكثيرا ما حثت الشركة مستخدميها على تزويدها بالمعلومات وبمزيد من المعلومات عن كل موقع وعن كل حدث يقع في أماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلـــك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم • ولعل النص الذي نورده هنـــا وهو جزء من تعليمات جهز بها هارفرد جونز عندما عين مقيما في بغداد عام ١٧٩٨ خير نموذج لسياسة الشركة في هذا المجال •

وعليك أن تحاول الاهتمام بكل الوسائل المتوفرة لديك أن تجمـــع كل المعلومات الخاصة بعدد السكان والقوة العسكريـــة وموارد الثروة

والتجارة في كل البلاد التابعة لباشا بغداد أو لأي شيخ أو أمير تابع له. وكذلك عليك أن تبعث لنا بمثل تلك المعلومات عن البلاد الخاضعة للحكومتين الايرانية والمصرية ، أو تلك التابعة لأي أمير مستقل يقطن الجزيرة العربية أو يحكم بلدا في الشرق يحتمل أن تتعرض الهند الى غارة عن طريقه . سواء كان مصدر تلك الغارة قوة محلية شرقية أم أوروبية أجنبية .

وخلاصة الأمر ، يتحتم عليك جمع شتى أنواع المعلومات التي ترى أنها قد تكون مفيدة بأي شكل من الاشكال أو لأي شأن من الشؤون سواء كانت تلك الفائدة تخص شركة الهند الشرقية أم أنها تخص حكومة جلالته (١٠) .

ومثل هذا الاهتمام بجمع المعلومات يفسر المادة الغزيرة التي يجدها الباحث في سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية اينما وجدت وبكل أصنافها ولا تشذ سجلات « يوميات مقيمية البصرة » عن ذلك . فجاءت طافحة بالمعلومات التي تخص كل جانب من جوانب النشاط البشري في العراق والخليج العربي والجزيرة العربية .

وتحتل أخبار البريد المار بالبصرة حيزا مهما في جميع تلك اليوميات (١١) . والحقيقة أن تاريخ طريق البريد البري المارة بالبصرة يرجع الى ما قبل هذه الفترة بزمن طويل . على الرغم من أن الاتصال بين أوروبا والهند كان يتم عادة عبر الطريق الطويل والبطيء حول رأس الرجاء الصالح . ومن بين أسرع الطرق التي كان يسلكها أحيانا الاوروبيون ــ البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانكليز ــ الطريق الذي كان يمر برا عبر بلاد الرافدين (١٢) . فقد كان هذا الطريق

ولا يزال اقصر الطرق التي تربط البحر الابيض المتوسط بالخليج العربي ، أو بعبارة اخرى ، اوروبا بالهند والشرق الاقصى • وقد صار هذا الطريق في الواقع طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر البديل السريع والامين الوحيد للطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح • وغدا هذا الطريق البري مهما بشكل خاص للبريطانيين وذلك بعد قيام امبراطوريتهم في الهند، وكانت أهميته لهم تزداد ابان صراعهم وحروبهم مع الهولنديين والفرنسيين • ومن ذلك ما حدث خلال حرب الوراثة الاسبانية ، وحرب الوراثة النمساوية وحرب السبع سنوات وحرب الاستقلال الاميركية • حيث كان للانباء المبكرة تأثير كبير على سير العمليات العسكرية • أما في وقت السلم فان الاخبار المبكرة حول وضع السوق والطلب المتوقع ورحيل السفن وايابها كلها أمور مهمة للتجارة ونجاحها (١٣) • ولذا طور البريطانيون خلال القرن الثامن عشر وسائل أمنية نسبيا لنقل البريد ، وصار نقل الرسائل بين البصرة وحلب وساحل البحر الابيض المتوسط وبين البصرة والهند اكثر دقة وانتظاما • لقد نظمت المراحل عبر طول الطريق واحسن اختيار السعاة وصار المقيم الانكليزي في البصرة مسؤولا ، بالاضافة الى واجباته التجارية ، عن الاشراف على البريد وذلك باختيار السعاة وتوفير أفضل السبل لنقل الرسائل وحمايتها (١٤) • وخلال الحرب النابليونية ، وفي خضم ذلك الصراع المصيري الذي كان يخوضه البريطانيون ضد اعدائهم الفرنسيين ، صار للطريق البري ، وللبصرة بشكل خاص ، أهمية تفوق كل ما كان لهما من قبل • لقد كانت الرسائل ترد الى البصرة من حلب واسطنبول وبغداد وطهران وبوشهر ومسقط وبومباي وكلكتا ومن قادة الاساطيل البريطانية وربابنة السفن في الخليج العربي والبحر

الاحمر والمحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ومنها توزع الى كل تلك الاماكن والاشخاص (١٥) . وكان المقيم الانكليزي في البصرة منهمكا في تدبير شؤون هذا البريد . والواقع أن « يوميات مقيمية البصرة » هي السجل الدقيق لكل الرسائل المتبادلة بين أوروبا والشرق والسالكة طريق البر . وهناك معلومات عن كل رسالة تقريبا من حيث طبيعتها ومصدرها ووجهتها والطريقة التي سلمت بها وتلك التي سترسل بواسطتها الى الجهة المعنية .

وتحوي « يوميات مقيمية البصرة » الى جانب أنباء البريد البري، معلومات سياسية وعسكرية واقتصادية مستفيضة سواء منها تلك الخاصة بتحركات الفرنسيين وردود الفعل البريطانية لها أم فعاليات القبائل العربية في الخليج العربي أو النشاطات التجارية هناك .

فمنذ عام ١٧٩٨ صارت منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي أحد ميادين الصراع بين البريطانيين والفرنسيين . وكانت جزر موريشيوس قاعدة للفرنسيين في المياه الشرقية . ومنها انطلقت التهديدات الفرنسية لخطوط المواصلات البريطانية ، بل لقد وصلت السفن الفرنسية الى مياه الخليج العربي نفسه . واضطر البريطانيون الى ابقاء جزء من اسطولهم في باب المندب والبحر الاحمر وسواحل الهند الغربية لحماية خطوط مواصلاتهم . واستمر ظهور السفن الفرنسية في هذه المياه واستمرت الاجراءات البريطانية ضدها حتى أواخر عام ١٨١٠ ، حيث استولى البريطانيون على جزر موريشيوس وحيث اثبتت الجهود الدبلوماسية الفرنسية فشلها في طهران واسطنبول وكابل ، بل وفي كل مكان آخر في الشرق . ولكن الجهود الدبلوماسية والعسكرية

البريطانية كانت مكثفة في كل تلك الاماكن وطيلة الفترة التي تغطيها « يوميات مقيمية البصرة » [١٦].

ففي عام ١٧٩٨ بادر البريطانيون الى فتح مقيمية لهم في بغداد واسند منصب المقيم فيها الى شخصية هامة هو هارفرد جونز (الذي حصل على لقب سير بعد ذلك) . وهذه الخطوة بحد ذاتها تمثل توجها جديدا يوضح ازدياد الاهمية السياسية والاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي بشكل عام والعراق بشكل خاص بالنسبة للبريطانيين .

لقد اقتصر اهتمام الانكليز في منطقة الخليج العربي طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر على الناحية التجارية . وكان بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية هو الهدف الاساس لشركة الهند الشرقية الانكليزية . وعندما تدهورت التجارة في أواخر القرن الثامن عشر لم تتردد الشركة من اتخاذ قرار في عام ١٧٧٧ يقضي بالانسحاب من منطقة الخليج . ووصل هذا القرار الى الشرق في الوقت الذي كانت فيه انكلترا متورطة بحرب مع فرنسا وذلك بسبب حرب الاستقلال الاميركية . فقرر مستخدمو الشركة في الشرق الابقاء على وجود لهم في الخليج ، وذلك لحاجتهم الماسة الى الاحتفاظ بمقرهم بالبصرة لما لهذه المدينة من أهمية كاحدى المحطات الرئيسية لبريدهم البري . ولكنهم في الوقت نفسه خفضوا درجة مقرهم التجاري من وكالة الى مقيمية وأبقوا فيه مستخدما بريطانيا واحدا فقط [١٧] . أما بالنسبة الى بغداد فلم يسبق لشركة الهند الشرقية أن كان لها أي نوع من التمثيل في هذه المدينة ، عدا فترة قصيرة في عام ١٧٦٥ وذلك عندما أقدم مستخدمو الشركة في الشرق على تأسيس مقيمية في بغداد . وقد اعترض مدراء الشركة في لندن على هذه الخطوة وأمروا مستخدميهم بغلق المقيمية

نظرا لقلة الفوائد التجارية المرجوة منها من ناحية وللاحتجاجات الشديدة التي تقدمت بها شركة The Levant Company من ناحية اخرى [١٨] .
وفي عام ١٧٨٣ أقرت الشركة تكليف أحد سكان بغداد بالاشراف على شؤون الشركة التجارية لقاء أجر شهري محدد . وجــاءت الآن هذه الخطوة التي تضمنت اقامة مقيمية بريطانية في بغـــداد وتعيين شخص بريطاني ذي خبرة معروفة بشؤون المنطقة . وجاء التعيين بعد مفاوضات طويلة وتنسيق تام بين شركة الهند الشرقية والحكومـــة البريطانية .
وأعلن عن هذا التعيين في لندن في ٥ تموز عام ١٧٩٨ . وجاء في كتاب التكليف :

« انه لسبب الاحوال الراهنة والاشاعــات التي انتشـــرت بان الفرنسيين يحاولون أن ينفذوا الى الهند اما عن طريق البحر الاحمر أو عن طريق الخليج العربي فانه يجب تعيين شخص في بلاط باشا بغداد .
وقد تم اختيارك لهذا الغرض ».

وتمثل التعليمات التي صدرت الى هارفرد جونز السياسة البريطانية الجديدة خير تمثيل :

عليك أن تبلغ الباشا خبر وصولك الى بغـــداد باسلوب مناسب .
وعليك أن تقدم له الهدايا الملائمة . وبعد أن يتم هذا يتحتم عليــك أن تعلمه بان شركة الهند الشرقية قد أوفدتك الـــى عاصمتـــه لتعزز أواصر الصداقة التي كانت قائمة دائما بين سعادته والشـــركة . وتـــحذره في الوقت نفسه من العواقب الوخيمة التي ستصيب اراضي باشويتـــه بل ، أراضي الامبراطورية العثمانية كلها في حالة افساحه المجال للفرنسيـــين للتغلل في أي جـــزء من أجزاء تلـــك الامبراطوريـــة ، وفي حـــالة

السماح باتخاذ موطن قدم لهم فيها عليك أن تبـذل كل ما في وسعـك لاحباط المحاولات الفرنسية الرامية الى التغلغل والتوسع • وعليـك أن تقنع الباشا بتقديم التعهدات اللازمة بمنع تلك المحاولات بكل الوسائل المتوفرة له (١٩) •

ويتضح من كل ما سبق الاهمية السياسيـة والاستراتيجية التي أخذ البريطانيون ينظرون اليها نحو العراق • فلم تعد التجـارة هـي الرائد الاساسي • ولم يعد بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية في بغـداد والبصرة هو الهدف الرئيسي لوجودهم في المنطقـة • هـذا وتغطي « يوميات مقيمية البصرة » أنباء المقيمية والظروف المحيطة بها وفعاليات المقيم هارفرد جونز (٢٠) •

وتحرك البريطانيون في جهة اخرى • فقد أرسلـت السلطـات البريطانية في الهند مهدي علي خان مندوبا عنها الى منطقـة الخليج العربي• وقد عهد اليه تشجيع التجارة البريطانية في المنطقـة واحبـاط مؤامرات الفرنسيين في ايران والحيلولة دون قيـام الافغانيين بتهديد حدود الهند • ونجح مهدي علي خان في ابرام معاهدة مع امام عمان في تشرين الاول عام ١٧٩٨ • تعهـد فيها الامـام بالوقـوف في صف البريطانيين ضد اعدائهم الفرنسيين •

ولم تكتف السلطات البريطانية في الهند بالنجـاح الذي حققته بعثة مهدي علي خان ، بل عمدت الى ارسال بعثة أخرى ، كـان على رأسها الكابتن جون مالكولم وهو شخصية مرموقة في حكومة الهند • واستطاع الكابتن مالكولم في كانون الثاني عام ١٨٠١ تجديد الاتفاقية السابقة التي عقدها مهدي علي خان مع امام عمان • كما استطـاع في

كانون الثاني عام ١٨٠١ عقد معاهدة مع شاه ايران ، تعهد الاخير بعدم السماح للفرنسيين باتخاذ أية قاعدة لهم في ايـران والتعـاون مع البريطانيين للتصدي لهم في بلاده• وقد مر مالكولم بالعراق ولقي ترحيبا من باشا بغداد (٢١) •

ولم يكن الحماس والاندفاع لينقص الفرنسيين في هذا الوقت • فقد كانت مراسلاتهم مستمرة مع الشاه • وقـام نابليون بونابرت في ١٨٠٥ في ارسال عدة مبعوثين الى طهران • كما أرسل الشاه من ناحيته مبعوثا الى باريس • وقد عقدت فعلا معاهدة فنكنشتين بين الطرفين في أيار عام ١٨٠٧ • وكان غرض الشاه من هذا التقارب مع الفرنسيين هو ضمان مساعدتهم ضد الروس أعدائه التقليديين •

كما وصل الى مسقط في عام ١٨٠٣ مندوبا فرنسيا كان غرضـه اقناع الامام في الموافقة على فتح قنصلية فرنسية في مسقط • ولم يوفق المندوب الفرنسي في مسعاه هذا • واستمرت محاولات الفرنسيـين في هذا الاتجاه • ونجحوا في عام ١٨٠٨ في اقناع الامام بعقـد معاهدة صداقة معهم ، افتتحت بموجبها قنصلية فرنسية • وقد أثار هذا النجاح الفرنسي حفيظة البريطانيين وجدد مخاوفهم •

وعلى أثر النجاح الذي حققه الفرنسيون في ايران وعمان ، أرسلت بعثتان بريطانيتان في آن واحد الى المنطقة • فقـد قامت السلطـات البريطانية في لندن بارسال السير هارفرد جونز الى الخليـج • وفي الوقت نفسه قامت حكومة الهند بارسـال جون مالكولم (وقد صار الآن جنرالا) على رأس بعثة جديدة الى منطقة الخليـج العربي • وقد نشب صراع وتنافس شديد بين البعثتين • ووصل جون مالكولم مسقط

في أوائل عام ١٨٠٨ ثم نزل في بوشهر في أيار من نفس العام • وكـان النفوذ الفرنسي على أشده في ايران في هذا الوقـــت • ولم يوفق في ازلة ذلك النفوذ أو في تقليله • وكانت الحكومة الايرانيـــة على علم بمخطط السلطات البريطانية في الهند الخاصـــة باحتـلال بعض جزر الخليج العربي ، الامر الذي أثار مخاوفها وشكوكها تجـاه الجنرال مالكولم • ولم يستطع الجنرال مالكولم تحمل هذا الجو المتوتر ، فعاد الى الهند في تموز عام ١٨٠٨ •

وفي أوائل عام ١٨٠٩ وصلت بعثة سير هارفرد جونز الى ايران • وكان الجو قد تغير في صالح البريطانيين هناك ، فقـــد تضاءلت امام الشاه فرص التعاون مع الفرنسيين ضد اعدائـه الروس • وأصبحت فرنسا وروسيا حليفتين حميمتين في أوروبا بعد عقد معاهدة تيلست • وأيقن الشاه ان الفرنسيين يضللونه ، وانه لا فائدة ترتجى منهم •

ونجح جونز حيث فشل مالكـــولم • وفي آذار عام ١٨٠٩ وقع الشاه معاهدة مع البريطانيين ، ألغى الشاه بموجبها كل تعهداته السابقة تجاه الامم الاوروبية الاخرى • وتعهد بالحيلولة دون غزو الهنـد عن طريق ايران • وحصل الشاه لقاء كل ذلك على تعهدات بريطـانية ببعض المساعدات المالية والعسكرية • وفي نيسان عام ١٨٠٩ غـادر آخر دبلوماسي فرنسي طهران، وأخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل بسرعـــة من المنطقة كلها • وفي أواخر عام ١٨١٠ اغلقت القنصليـــة الفرنسيـة في مسقط •

ولم تكتف حكومة الهند بكل هذا النجاح ، بل عمدت الى ارسال الجنرال مالكولم مرة أخرى في عام ١٨١٠ على رأس بعثـــة كبيرة الى

منطقة الخليج العربي ، ولم يكن هدف حكومة الهند الحقيقي هذه المرة التصدي للفرنسيين الذين لم يعد لهم نفوذ يذكر ، بل لاستعادة هيبتها وكرامتها التي جرحت بفشل بعثة مالكولم السابقة والنجاح الكبير الذي حققه منافسه السير هارفرد جونز مبعوث السلطات البريطانية في لندن. وأحاطت حكومة الهند بعثة مالكولم الجديدة بكل مظاهر الأبهة . وقد عهدت اليه بمهمة القيام بدراسة جغرافية واقتصادية شاملة لمنطقة الخليج العربي اضافة الى مهمته السياسية التي يفترض أنه جاء من أجلها . وصحب الجنرال مالكولم هذه المرة نخبة من الضباط الاكفاء والخبراء المرموقين ولم تحقق بعثة مالكولم هذه شيئا معينا . وقد شغلت بالرسميات والمجاملات واكتفت بحرارة الاستقبال وحفاوة التوديع .

تمثل الصفحات السابقة عرضا موجزا للتحديات الفرنسية والمواقف البريطانية . وهي ما عنيت به ، الى حد كبير « يوميات مقيمية البصرة »، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن نشاطات القوى المحلية المتمثلة بالقبائل العربية والايرانيين والعثمانيين ، وردود الفعل لبريطانيا لها . فانه مما يميز تاريخ الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها تلك اليوميات هو استمرار حيوية القبائل العربية وازدياد فعاليتها واشتداد مقاومتها للسيطرة الاوروبية المتمثلة بالبريطانيين والهيمنة المحلية المتمثلة بالايرانيين والعثمانيين . لقد كانت القبائل العربية فعالة ومندفعة في كل زاوية من زوايا المنطقة : في حوض نهر كارون وشط العرب حيث قبيلة كعب . وفي البحرين والكويت . وفي عمان وعلى امتداد الساحل العماني وعلى طول الساحل الشرقي للخليج ، برزت قبائل القواسم في هذه الفترة بالذات ، أكثر الجميع قوة وأشدها بأسا .

لقد ظهرت قوة القواسم ، لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر

حيث كانت قد غنمت بعض قطعات من الاسطول الكبير الذي أسسه نادر شاه[٢٢]. واستمرت قوة هذه القبائل في النمو خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ووصلت تلك القوة ذروتها في أواخر القرن الذي تلاه . وكانت الحرب سجالا بين القواسم والعمانيين . فبينما اهتم الاخيرون بالتجارة ، وتوسعوا في عملياتهم التجارية في كل اجزاء الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق أفريقيا والهند ، اندفع القواسم الى الحرب والنضال .

وحدث تطور هام كان له أبعد الأثر في تاريخ الخليج العربي ، عندما اعتنق القواسم الدعوة الوهابية . فقد زادتهم هذه قوة واندفاعا . وقد وجد فيهم السعوديون خير حلفاء لهم ، وصار امام عمان في وضع لا يحسد عليه ، فبينما كانت القوات السعودية تهاجمه وتضيق الخناق عليه من البر ، كان القواسم يشددون الخناق عليه من البحر .. وقد وجد هذا حلفاء له في الانكليز . فان تعاظم قوة القواسم وتحالفهم مع السعوديين وازدياد نفوذهم في الخليج العربي ، أثار مخاوف الانكليز ودفعهم الى التحالف مع خصومهم العمانيين . وتعرض القواسم لبعض السفن الانكليزية . فاتخذ الانكليز من ذلك ذريعة لشن الحرب عليهم وتحطيم قواتهم البحرية ، تلك القوة التي كانت تخيف الانكليز وحلفاءهم العمانيين أكثر من أي شيء آخر .

لقد كان الصراع بين القواسم والانكليز صراعا طويلا وقاسيا[٢٣]. وقد تمثل في قيام الانكليز بارسال عدة حملات برية وبحرية الى منطقة الخليج وفي استماتة القواسم وبلاءهم بلاء حسنا في الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم وسيادتهم ، وفي حزيران عام ١٨٠٥ بدأت الحرب بين الطرفين وقامت حملة انكليزية عمانية بشن تلك الحرب ، واستطاعت هذه

محاصرة جزء كبير من اسطول القواسم قرب جزيرة قشم • ولـكن لم يقع صدام حاسم بين الفريقين وانتهى الامر بتوقيع معاهدة بينهما في ٦ شباط عام ١٨٠٦ • تعهد القواسم بموجبها بعـدم التعرض للسفـن الانكليزية في المستقبل •

ولم تنه الحملة البريطانية الآنفة الذكر ولا معاهـدة الصلح التي تلتها ، الصراع وسرعان ما تردت العلاقات وتجددت الحرب [٢٤]• وقام القواسم بالمهاجمة والاستيلاء على عـدد كبيـر من السفن العمانية والانكليزية والهندية • وكان اسطول القواسم مؤلفا في هذا الوقت من ٦٣ سفينة مسلحة تسليحا جيدا وعدد كبيـر من السفن الصغيرة التي تحمل كل منها بضع مدافع ، وقدر عدد محاربي القواسم بـ (١٩٫٠٠٠) رجل • وقام الانكليز في عام ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ بحملتهم البحرية الثانيـة ضد القواسم ، وقد اشتركت في هذه الحملة قطع مهمـة من الاسطول الملكي البريطاني الى جانب اسطول شركة الهند الشرقية • وكانت رأس الخيمة ، الهدف الرئيسي للحملة • وقد قصفت في يـوم ١٢ تشرين الثاني وسقطت في اليوم التالي • ودار قتال عنيف انتقل من بيـت الى بيت واحرقت ثلاثون سفينة من سفن القواسم كانت راسية في الميناء • وفي ١٤ منه علم البريطانيون أن قوة سعودية تتجـه نحـو الساحل فسارعوا الى الانسحاب من رأس الخيمة فعاد القواسم لاحتلال مدينتهم• وتجول الاسطول البريطاني في الخليج باحثا عن سفن القواسم ، مدمرا كل ما يعثر عليه منها ثم عاد الى الهند دون أن يحقق نصرا حاسما ودون أن يستطيع تحقيق هدفه الرئيسي ، وهو تدمير قوة القواسـم • ولم يكترث القواسم كثيرا بما لحق بهم من أذى ولم يعترفوا بالهزيمة كمـا أنهم لم يقدموا هذه المرة ، أي تعهد بشأن سلوكهـم في المستقبل •

وتنتهي الانباء الخاصة بالقواسم وبغيرهم من قبائل الخليج وباحداث الخليج والمنطقة عامة في « يوميات مقيمية البصرة » عند هذا الحد .

يتضح لنا مما تقدم الاهمية الكبيرة لـ « يوميات مقيمية البصرة » كمصدر للتاريخ الدبلوماسي والسياسي والعسكري لمنطقة الخليج العربي للفترة بين عامي ١٧٩٨ و١٨١١ . ولكن أهمية اليوميات لا تقف في الواقع ، عند هذا الحد ، بل تعداها الى المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فالمعلومات الاقتصادية والاجتماعية المبعثرة بين طياتها غزيرة جدا . وهي تصلح لتكون أساسا لكثير من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة وللعراق بشكل خاص .

فالتجارة ، وما يتصل بها ، بشكل مباشر او غير مباشر، تحتل حيزا واسعا في مجلدات تلك اليوميات . فهناك المعلومات السنوية الدقيقة في أغلب الاحيان ، الخاصة بالتجارة الاوروبية عامة وبالتجارة البريطانية بشكل خاص مع اقطار الخليج اذ كثيرا ما تتوفر جداول سنوية مفصلة بالصادرات البريطانية وعلى رأسها الاقمشة الصوفية الانكليزية . مع وصنف دقيق لتلك الاقمشة من حيث الكميات والالوان والانواع ، ويصح القول عن بقية الصادرات الانكليزية وعن وارداتهم من منطقة الخليج العربي [٢٥] .

واذا تركنا التجارة الانكليزية والاوروبية جانبا ، وهي لم تكن في تلك الازمنة الا جزءا ضئيلا من تجارة الخليج العامة ، فهناك أنباء التجارة الكبيرة والمهمة بين الهند والصين وغيرهما من أقطار شرق آسيا وبين أقطار حوض البحر الابيض المتوسط واوروبا عبر العراق والخليج العربي [٢٦] . هذا الممر التجاري الحيوي الذي احتل مركز الصدارة

بين طرق الاتصال التجاري والحضاري بين الشرق والغرب عبر جميع عصور التاريخ .

وبالاضافة الى كل ما سبق ، فيوميات البصرة طافحة بالمعلومات عن التجارة المحلية ونعني بها التجارة بين أقطار الخليج بعضها مع بعض والحركة التجارية النشطة بين موانيه وعلى رأسها البصرة ومسقط وبوشهر والكويت والبحرين والمحمرة (٢٧) .

والمعلومات الآنفة الذكر تتناول ، في الواقع ، كل جانب من الجوانب . فهناك أنباء السلع التجارية الرئيسية ، مثل السكر والشاي والقهوة والتوابل بأنواعها والاقمشة الاوروبية والمعادن من حيث واردات المنطقة والتمور واللؤلؤ من حيث صادراتها الى جانب المئات من السلع التجارية الاخرى التي كانت تدخل في النطاق التجاري . وكثيرا ما نجد المعلومات الخاصة بكميات تلك السلع وأنواعها وأسعارها (٢٨).

ثم هناك الاخبار المتعلقة بأحوال السوق وتقلباته والعوامل التي كانت تتحكم فيه والتجار وأصنافهم وانتماءاتهم العنصرية (عرب ، فرس ، أرمن اوروبيين) والدينية : (مسلمون ، مسيحيون ، يهود ، هندوس) (٢٩).

واذا تجاوزنا أخبار السلع والصادرات والواردات والتجارة ، فهناك أنباء السفن وتحركاتها وأنواعها وأثمانها وأسعار الشحن فيها ، وأسماء ربابنتها والشيء الكثير عن حياة ملاحيها (٣٠) .

ثم هناك المعاملات التجارية ووسائلها وأساليبها، وموقف السلطات الحاكمة في كل ميناء من التجارة والتجار ، هل هي متسامحة ومتعاونة،

أم أنها جائرة ومتعسفة وما هو أثر كل من هـــذا وذاك في الحركـة التجارية ؟ (٣١).

ويجد الباحث معلومات مبعثرة هنا وهناك عن الضـــرائب التي تفرض على التجارة والتجار في الموانىء ومن تلك الضرائب ما تكون ، من وجهة نظر التجار طبعا عادلة ومقبولة ، ومنهـــا ما تكون كثيـــرة وظالمة . والشيء نفسه يقال عن الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود ، ففي منطقة الخليج العربي ، وفي موانيه خليط عجيـــب من كل هذه . ويستطيع الباحث أن يستخلص المعلومات المفيـــدة والثمينـــة من كل ذلك (٣٢) .

وتبقى هناك امور اخرى جديرة بالاهتمام يمكن أن يلتقطها المرء من « يوميات مقيمية البصرة » ، فهناك الاشارات العابرة الـتي ترد في تلك اليوميات ذات الصلة بقضايا النقل النهـــري في شط العرب ونهر الكارون ودجلة والفرات(٣٣) .

لقد كان للنقل في هذه الانهر أهمية بالغة تفوق أهميتها الحاضرة. وكانت القوارب والسفن بأنواعها المختلفة شيدت بشكـــل يتلاءم مع الملاحة في الأنهر الآنفة الذكر . وقد اكتسبت بعض الاماكن في وسط وجنوب العراق سمعة خاصة ببناء تلك السفن والقوارب .

لقد كان الجزء الاكبر من السلع التجارية والمسافرين بين البصـرة وبغداد والمدن الاخرى يتم نقلها بواسطة النقل النهري وبواسطـة سفن كبيرة نسبيا ، كما كانت هناك قوارب خاصة تقوم بنقل الركـــاب بين البصرة وقراها الكثيرة وضواحيها ، بل بين أجزاء مدينة البصرة نفسهـا ـ بين البصرة والعشار ـ ويعرف القـــارب من هـــذا النوع بالبلم

العشاري . وهكذا كانت القوارب والسفن تقوم مقام السيارات والعربات والشاحنات والقاطرات في هذه الايام .

وأسماء القوارب والسفن ، والاجور التي يتقاضاها أصحابها والعاملين بها ، كل ذلك يرد ذكره بهذا الشكل أو ذاك في تلك الصفحات من اليوميات .

ولا تقل أهمية من أنباء النقل النهري تلك الانباء الخاصة بتحركات القوافل ، تلك القوافل التي تقدم الى البصرة ، والتي تنطلق منها . فالسلع الهندية تصل الى البصرة في أشهر معينة ، وذلك وفقا لهبوب الرياح الموسمية . ومن البصرة توزع تلك السلع في اتجاهات متعددة. وتقوم القوافل بنقل جزء كبير منها . وتذهب أغلب السلع الهندية الى بغداد ، ومن بغداد يبدأ التوزيع على نطاق واسع . فتغادرها القوافل الى بلاد الشام عن طريق البادية لتذهب الى حلب أو الى دمشق ، وهناك قوافل كبيرة تتجه الى أصفهان وجورجيا وكردستان والاناضول. ويصل قسم كبير من البضائع الهندية عن طريق هذه القوافل الى الاسكندرونة والقسطنطينية ، ومن هناك تنقل برا وبحرا الى أقطار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا .

ولعل أكثر القوافل اثارة للخيال والشوق تلك القوافل التي تخترق الصحراء من البصرة الى حلب بشكل مباشر ، دون أن تقترب من الفرات ، ودون أن تمر باماكن السكنى بأي شكل من الاشكال ، ويعرف هذا الطريق : بطريق ـ الصحراء الكبير ـ ويتميز بأنه أقصر الطرق وأسرعها ، ولا تسير القوافل فيه الا في أوقات معينة ومحدودة من السنة [٣٤]. كما تتميز القوافل التي تسلكه بكبرها وبكثرة الابل

التي تستخدم فيها وبمهارة الأدلاء الذين يتولون تسييرهـــا وتقاليدها وأعرافها الخاصة التي نمت وتكونت عبر القرون • وبالاضافـــة الى طريق ــ الصحراء الكبير ــ هناك طريق اخرى للقوافل بـــين البصرة وحلب تسير عادة محاذية ومتقاربة لمجرى الفرات ، وتمر بكثير مـــن المدن ومواطن السكنى •

وتستقبل البصرة في الوقت نفسه القوافل القـــادمة من بغـــداد وحلب ، وتحمل مثل هذه القوافل مختلف أنواع السلـــع من أقطـــار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا وبلاد الاناضول وبلاد الشـــام وايران •

وتبقى هناك معلومات كثيرة ترد بشكل عرضـــي في اليوميات ، وباستطاعة الباحث استخلاص مادة لها غاية الاهمية في مجالـــي البحث الاقتصادي والاجتماعي • وسنكتفي بايراد بعض الأمثلة :

فهناك الجداول الخاصة بتجهيزات السفن الراسية في شط العرب، فقـــد اعتادت المقيمية البريطانية فـــي البصرة تجهيز سفن شركـــة الهند الشرقية الانكليزية القادمة الى البصرة بما تحتاج اليه من المواد الغذائية وغيرها ، واعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بتلك المواد وبكمياتها وأسعارها [٣٥] • ومن تلك المواد على سبيل المثال : الـــرز واللحـــوم والماشية والملح والخضروات والشعير والدقيق •• الخ •

واستعراض هذه الجداول الكثيرة جدا في « يوميات مقر البصرة التجاري » و « يوميات مقيمية البصرة » والتي تغطي فترة نصف قرن، تساعد الباحث ، من غير شك على تتبع تطورات الاسعـــار بمثل تلك المواد • وهذا أمر لا يستغني الباحث الاقتصادي عن معرفته •

وما يقال عن جداول تجهيزات السفن يمكن أن يقال عن تلك الجداول الخاصة بهيئة موظفي المقيمية في البصرة وفي المؤسسات الانكليزية الاخرى في الخليج العربي [٣٦] • فقد اعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بالموظفين والمستخدمين من الانكليز وغيرهم من السكان المحليين ـ في البصرة وبوشهر وبغداد ومسقط ـ ويجد الباحث في تلك الجداول المرتبات والعلاوات السنوية لأولئك الموظفين والمستخدمين • كما يجد فيها معلومات اخرى مفيدة وطريفة كالمبالغ المدفوعة لايجار بعض الدور وأجور بعض صغار المستخدمين ـ القهوجي والبستاني والسقا والحارس والبلام ••• الخ ـ ، وهذه المعلومات وأمثالها تلقي من غير شك شيئا من الضوء على بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلى مستويات المعيشة بشكل خاص •

ثم هناك المعلومات المتعلقة بما يعرف بـ « الرسوم القنصلية »[٣٧] (The Consulaye) ، وهذه ضريبة خاصة تأخذها شركة الهند الشرقية الانكليزية بنسبة مئوية معينة • وتفرض على جميع التجار الانكليز الذين يقيمون بالمتاجرة لحسابهم الخاص • وذلك لقاء سماح الشركة لهم بممارسة هذه التجارة من جهة وللحماية التي توفرها لهم من جهة أخرى •

ومن تلك « الرسوم القنصلية » التي تعطى سنويا عادة في « يوميات البصرة » يمكن معرفة مقدار التجارة الانكليزية الخاصة • وكانت مثل هذه التجارة تكون الجزء الأعظم من التجارة الاجمالية لمنطقة الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها « يوميات البصرة » لذا فان « الرسوم القنصلية » ذات فائدة كبيرة للباحث في التاريخ الاقتصادي لتلك الحقبة من الزمن •

واخيرا ما هو دور « يوميات البصرة » بشكل عــام بالنسبـة للدراسات الاجتماعية وللجواب على هذا السؤال ، يمـكن القول : ان المعلومات المتنوعة والكثيرة التي توفرها اليوميات والتي تتنـاول كل جانب من جوانب النشاط البشري والتي فيها ذكرا عرضيـا لمعامـلات وممارسات الافراد والجماعات في مختلف المجالات والميادين وعلى كل المستويات (٣٨)• كل هذه تجهز الباحث المختص ، من غير شـك ، بمادة غزيرة ونادرة للدراسات الاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة والعراق خاصة لتلك الفترات الغامضة والمظلمة التي تعوزنـا فيهـا المصـادر التاريخية الاخرى •



الهوامش

١ ـ لمعرفة المزيد عن هذه الدار وعن سجلاتها انظر :
الدكتور عبد الامير محمد أمين والدكتور مصطفى عبد القادر النجار، دور السجلات الهندية ومحفوظاتها من وثائق العراق وبقية اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي (٢٠) بغداد : ١٩٧٨ .

٢ ـ لقد قام الباحث بالاشتراك مع الدكتور مصطفى عبد القادر النجار والسيد عبد الوحيد خان بفهرسة هذه اليوميات . وكتاب الفهرسة في مرحلة الطبع الان . وسيكون في جزءين الاول منهما يخص « يوميات مقر البصرة التجاري ١٧٦٣ ـ ١٧٧٧ » والثاني يخص « يوميات مقيمية البصرة ١٧٩٨ ـ ١٨١١ » .

(3) See Bombay Government Records , Records of Factories and Residencies . Bussora Residency Diaries , Vol. 205 .

(4) Ibid . Vol . 208 .

(5) Ibid . Vol . 210 .

(6) Ibid . Vol . 211 .

٧ ـ انظر صالح محمد جاسم العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد ، ١٩٧٨ .

٨ ـ انظر على سبيل المثال India Office Library , Marine Records Vol 89 Aug . 15 , 1790 .
تقرير حول تجارة الجزيرة العربية وفارس وضعه كل من صاموئيل مونستي وهارفرد جونز ، G. A. olivier , Voyage dans l'Empire ottoman, l'Egypte , et la perse . 3 Vols . 1801 .

٩ ـ الدكتور عبد الامير محمد أمين « مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومباي » مجلة المؤرخ العربي ، العدد التاسع .

(10) J. G. Lorimer , Gazetteer of the Persian Gulf , Oman , and Centeral Arabia , 2 Vols . calcutta : 1908 , Vol , 1 Part 1 , p. 1621 .

(11) Bussora Residency Diaries Vols . 204 - 212 .

١٢ ـ للمزيد من المعلومات عن هذه الطريق انظر :

H. Furber « The overland route to India in the Seventeenth and Eighteenth Centuries » . Journal of Indian History , Vol . XXIV , 1951 .

عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليج العربي ، بغداد : ١٩٧٧ .

١٣ ـ نفس المصدر

١٤ ـ نفس المصدر .

(15) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

١٦ ـ العابد ، نفس المصدر .

١٧ ـ محمد أمين ، المصالح البريطانية في الخليج العربي ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

١٨ ـ انظر : عبد الامير محمد امين « التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » مجلة كلية الاداب العدد ٦ سنة ١٩٦٣ . كانت الشركة المذكورة تؤكد أن بغداد تقع ضمن مجالها التجاري وانه لا يحق لشركة الهند الشرقية المتاجرة معها .

(19) Lorimer , op. cit . p. 1621 .

(20) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

(21) Ibid .

٢٢ ـ عبد الامير محمد أمين ، القوى البحريـــة في الخليـج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ .

٢٣ ـ انظر صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليـــج العربي ، ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد : ١٩٧٦ .

٢٤ ـ نفس المصدر .

(25) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .

(26) Ibid .

(27) Ibid .

(28) Ibid .

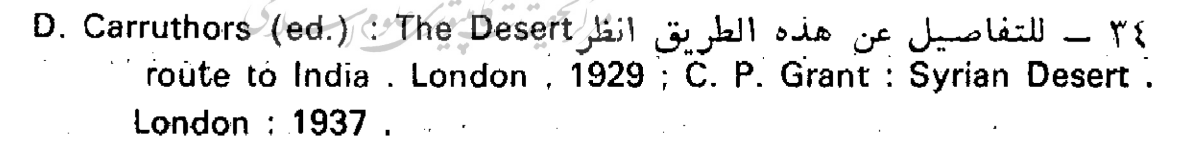
(29) Ibid .

(30) Ibid .

(31) Ibid .

(32) Ibid .

(33) Ibid .



٣٤ ـ للتفاصيل عن هذه الطريق انظر D. Carruthors (ed.) : The Desert route to India . London , 1929 ; C. P. Grant : Syrian Desert . London : 1937 .

(35) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .
انظر الجداول الخاصة بتجهيزات السفن .

(36) Ibid . انظر الجداول الخاصة بموظفي الشركة ومستخدميها .

(37) Ibid . انظر الجداول الخاصة بالرسوم القنصلية .

(38) Ibid , Vols . 204 - 212 .

بدء تحديث السودان عام ١٨٢١

سعاد عبد العزيز أحمد
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الخرطوم

نعني بالتحديث الخروج من المجتمع المحلي الضيق والانفتاح على العالم الخارجي العريض ، كما نعني به استخدام طرق ووسائل جديدة في الاقتصاد ، والسياسة ، وطرق الانتاج ، والمواصلات والنقل، مستمدة من تلك التي تستعمل في الدول الاوروبية والتي تحسن طرق المعيشة التي كانت سائدة في المجتمع التقليدي المتخلف • أما السودان فنعني به الاجزاء التي تكون السودان الحالي • وعملية التحديث تمت في فترة مبكرة كانت نتيجة مباشرة للفتح التركي المصري ١٨٢٠-١٨٢٢ وكانت عناصر التغيير في هذه الفترة العثمانيين والاتراك والناطقين بالعربية في أملاك محمد علي • أما في المرحلة الثانية والتي كانت بين حكم اسماعيل وتفجير الثورة المهدية ، فكانوا أوروبيين •

لنبدأ بالمجتمع السوداني التقليدي قبل فتح محمد علي للسودان نجده غاية في البساطة ويضم عدة مجموعات تختلف بعضها عن بعض في طرق الحياة واللغة والعادات والدين • ومن حيث الأثر الاسلامي نجد

مجتمعين مختلفين أحدهم في الجنوب والآخر في الشمال ونلاحظ أن فصائل المجتمع الشمالي كانت تتمتع بنصيب من المعرفة وأبجديات الثقافة ونجد تأثير لحضارة العرب الاسلامية من الشرق الاوسط عليها كـان أعظم من تأثيرها على المجتمعات في الجنوب فهم قد تعربوا كثيرا وكان هناك زواج بين البدو والعرب والسكان الاصليين والنوبة والبجـا في البحر الاحمر وأصبحت اللغة العربية هي السائدة على اللغات الاصليـة في الشمال ما عدا البجا [١] . والنفوذ العربي واضح من ادعاء الفونـج وحتى البجا بأنهم أصلا من سلالة الرسول . الروابط الاسلامية القوية ربطت الناس في شما لالسودان بصورة فعليـــة أكثر من أي تنظيـم سياسي . والولاءات الاقليمية والقبلية كانت قوية . وكـــان انتشار الاسلام تدريجيا . أما المناطق الجنوبية فقد انتشرت بها الوثنية . يشمل هذا الفونج أنفسهم . وانتشار الاسلام كان على يد رجال الدين الذين أقاموا المذهب المالكي والطريقة القادرية . أسس هؤلاء العلماء «كتاتيب القرى» وأصبح لها نفوذ روحي وسياسي مما أضـــاف عامـلا آخـر للاستقرار . وكان اتباعهم مخلصين ومطيعين . ثم ادخلـت السمانيـة والختمية في القرن الثامن عشر ولكنهما سرعان ما ذابتا فـي التركيب والطبقات الصوفية التقليدية . كان الاقتصاد في المجموعتين معيشـي . وقد ربطت الطرق التجارية الهامة بين افريقيا والاراضي الساحليـة في البحر الابيض والاحمر وهناك قوافل تجارية بين سنار أو دارفور ومصر . خط آخر يمر من الغرب الى الشرق خدم التجارة والحجاج من غـــرب بلاد السودان الى الحجاز [٢] . تستغرق الرحلة زمنا طويـــلا ، وقد

---

(1) ed. Holt P.M : of Modernization in the Middle East : (America 1968) , *Modernization and reaction in the 19 thc: Sudan, P.403*

(2) Ibid , P. 404 .

يستقر المسافرون • وكانت شندى مركزا تجاريا كبيرا ، شمل نشاطها التجاري الرقيق الذي كان بعضه يعمل في المنازل والحقول وبعضه يعمل كقوة محاربة في جند الزعماء •

ظلت بلاد السودان مغلقة عن العالم الخارجي أجيالا طويلة • قبل أن تدخلها جيوش اسماعيل بن محمد علي سنة ١٨٢١ • ومن ارتادها قبل ذلك كان جهده من تلقاء نفسه كرحالة ومكتشفين ، كجيمس بروس وبراون ومحمد بن عمر التونسي ومؤخرا رحلات بيكو لاكتشاف منابع النيل • وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان السودان تحت سيطرة العرب الذين مدوا سلطاتهم حتى السوباط وبحر الغزال ، وتركوا في البلاد اثارا اجتماعية وسياسية واقتصادية فانتشر الاسلام تدريجيا ، فضعفت المسيحية والوثنية • وصاحب ذلك نهضة اسلامية غذاها الكثير من الرواد المسلمين من الاقطار الاسلامية المختلفة • كما انتشرت التجارة وقامت عدة ممالك في سنار ودارفور وبورنو ووداى • ولكن دولة الفونج الاسلامية التي قامت في سنار في أوائل القرن السادس عشر على يد عمارة دنقس وعبد الله جماع من عرب القواسمة كانت أهم تلك الممالك • وكانت هذه المملكة اسلامية وفد اليها الكثير من العلماء المسلمين ، فدرسوا وارشدوا وحمل تلاميذهم الرسالة من بعدهم • ورحل بعض المفقهين السودانيين الى الاقطار الاسلامية للتزود من العلوم الدينية ، وخاصة مصر حيث الجامع الأزهر • كما كانت سنار طريقا للمبشرين الكاثوليك للحبشة تحت اشراف قنصل فرنسا العام في القاهرة • وقد كانت دولة الفونج قوية استطاعت صد غزو الاحباش في سنة ١٧٤٤ وغزت اقليم كردفان • وكانت تحكمه قبيلة المسبعات تحت سيادة ملوك الفور في دارفور وضمها لأملاك السنار ولكن غزو كردفان

أدى الى عزل بادي ابو شلوخ ، وتولية ابنه تحت سيطرة الهمج بقيادة محمد أبولكيلك • وسرعان مانشبت الحروب الداخلية والخلافات والمنافسة على السلطة بين الهمج ، وتفككت الدولة ، وانعدمت الرابطة بين قبائلها مما سهل دخول جيوش اسماعيل الى السودان •

ولا بد لنا أن نذكر أن الطرق الصوفية والزعامات الدينية كانت من أهم دعامات المجتمع السوداني خاصة في عهد الفونج • ذلك بجانب الرابطة القبلية • فرجال الدين وحولهم آلاف الطلبة حظوا باحترام زعماء الفونج • فكثيرا ما خصصت لهم الاراضي واعفوا من الضرائب • كما كان السودانيون عامة قد جذبتهم كرامات هؤلاء الاولياء فانتشر انصار ومريدو الطرق الدينية في كل أنحاء السودان • أما القبيلة فقد كانت الوطن الصغير وكل سوداني لا بد أن ينتمي الى قبيلة لها دارها، مهما سافر واغترب في اقليم آخر فهو يظل منتميا لقبيلته • وبما أن مطالب العيش بسيطة فالرجل ليس بحاجة لان يفارق دياره وموطنه لذلك لم يعرف في تاريخ هذه الحقبة هجرة الى خارج السودان الا في طلب العلم والتجارة • وحتى في داخل السودان فالهجرة الفردية نادرة الوقوع [1] • والحياة الاجتماعية بسيطة لم يكن هناك طبقات أو تفاوت كبير بين حياة الاثرياء وبقية أفراد الشعب ، فاللبس أبيض خفيف صنع بالأيدي من القطن ، والبيوت من الطين والقطاطي المبنية من القش والقصب في المناطق ذات الامطار الغزيرة• اللبن والعصيدة والدخن هو الغذاء الرئيسي • ومما دعم نظرية عدم وجود الطبقات وجود الرقيق بكثرة

---

(١) شبيكة ، مكي : **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ١٢ •

وسهولة الحصول عليه • عرف السودان الاتجار مع الخارج خاصة مصر منذ عهد الفراعنة • وكان درب الاربعين من دارفور الى أسيوط أحد الطرق لذلك ، وهناك طريق آخر من دنقلا حتى الواحات ثم يتصل بطريق الاربعين • وكان ميناء سواكن منفذ السودان الوحيد للبحر ، خلال هذه الطرق حمل التجار الى السودان العطور الهندية (الروائح والصابون) ، المنسوجات والبهارات يستبدلونها بالرقيق والصمغ وسن الفيل وغيرها •

تتكون مملكة سنار من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة • والوراثة كانت أحد عوامل الشهرة والزعامة الا أن اظهار المقدرة في قيادة القوم في الحروب ، والكرم والعطف على أفراد القبيلة في زمن السلم أيضا من الأهمية بمكان • أما الحكومة فكانت قليلة النفقات قليلة الضرائب • والمجتمع « ديمقراطي » دون طبقات ، تغلب عليه المساواة ، والاسلام هو العقيدة يميل الى التصوف ، وزعماء الدين بدرجة عظيمة من الاحترام والاجلال• في سلطنة سنار لم يسك السلاطين عملة سودانية ، فالتجارة الداخلية كانت بالمقايضة وهي وسيلة بدائية ولكننا نجد بالسودان في ذلك الوقت عملات متداولة • ففي شرق السودان كان الروبال النمساوي متداولا في ميناء سواكن ومصوع • كان نقدا ثابتا في تجارة البحر الاحمر والحبشة ، وثمة نقود أخرى من الذهب والفضة كانت متداولة على الساحل وفي الداخل أيضا •

كانت دارفور قد قامت بها مملكة في نفس الوقت الذي قامت فيه دولة سنار تقريبا • وتعاقب عليها سلسلة من السلاطين ظلوا يحكمون على أساس اسلامي ، ودخلت في حروب مع جيرانها كما اشتبكت مع سنار كثيرا بسبب المنافسة بينهما لامتلاك كردفان ، مما انهك قوى

المملكتين • كما أن تجارة الرقيق قد انتشرت وأصبحت بعض المدن كسنار وشندي وبارة مثلا أسواقا لهذه التجارة ، فسارت القوافل بالرقيق الى جانب السلع الاخرى من هذه الاسواق الى الحبشة ومصر وسائر الاقطار الافريقية في الشمال والغرب • ولكن هذه القوافل كثيرا ما تعرضت للسلب والنهب • ففي الشرق كانت العبابدة والحلانقة وبنو عامر يهاجمون القوافل بين شاطىء البحر الاحمر والنيل • أما في الغرب في الطريق الصحراوي فقد تعرضت القوافل لهجوم البقارة والكبابيش والغديات وغيرهم • وفي الشمال كان الشايقية مصدر رعب وفزع لهذه القوافل وكان الشايقية كثيرا ما استقلوا ولكنهم لم يؤلفوا حكومة ثابتة مستقرة• وقد أكثروا من الاغارة على سلطنة دارفورد ، منذ أن أخذ الضعف يدب فيها في أواخر القرن الثامن عشر • بجانب الشايقية كان هناك العبدلاب كما كانت مشايخ خشم البحر شرق النيل الازرق ومملكة فازوغلي جنوب خشم البحر ومشيخة الحمده على الدندر ولكنها مشايخ شبه مستقلة • وهناك مملكات خضعت للفونج عن طريق العبدلاب كالجعليين والجموعية والميرفاب والرباطاب وغيرها • ولكن جميع هذه المشايخ والممالك استغلت ضعف مملكة سنار ودخلت في منافسة مع بعضها البعض • بل ازدادت الحروب الداخلية من أجل التنافس على السلطة • فانتشرت الفوضى والاضطراب • وانحصر النزاع على السلطة بين الوزير عدلان ومنافسه حسن ودرجب • وتفاقم الامر حتى سيطر الهمج على السلطة فامتنع الشايقية عن دفع الجزية • وتحررت الهدندوة وبني عامر والحلانقة من سلطنة سنار • كما تمكن العبدلاب بقيادة محمد الامين بتأييد من سلطان سنار عدلان من تحقيق قدر كبير من الاستقلال بعد أن هزموا

الهمج وقتلوا زعيمهم بادي ودرجب في سنة١٧٨٠م كما صارت الشكرية أعظم قوة في البطانة .

من كل هذا نخلص الى أن المجتمع في السودان كان قبل سنة ١٨٨٢ مجتمعا قبليا ، رابطة القبيلة هي الاساس ، وليست الوحدة القومية والى يومنا هذا مازالت بعض بقايا هذه النعرة العنصرية والقبلية موجودة . أيضا كانت سلطة الحكومة في سنار في اضمحلال واضح . وانتشر التطاحن بين الدويلات والمشايخ واختل الامن نتيجة لغارات القبائل الكبرى كالعبابدة والشايقية على القوافل التجارية .

تلك كانت الحالة عندما عزم محمد علي على فتح السودان . وقد خبر محمد علي خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليها . وجاءه الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر، وشرح له حال سنار وهون اليه أمر الفتح[1] . وأيضا جاءه رجل من عائلة الزبير المالكة في أرقو وأخبره بحال دنقلا ، وعبث المماليك فيها . ومحمد علي أراد أن تكون لمصر شخصية مستقلة ويكون هو قويا على رأسها . وكان قد سمع عن خيرات السودان مما ذكره الرحالة والمكتشفون الذين زاروا السودان، ومما أغراه بفتح السودان. ورغبة الزعماء المصريين لامداد ملكهم جنوبا لم يبدأها محمد علي . فقد بدأت منذ الفراعنة ، بلغت قمتها وصارت فتحا حقيقيا منذ عهد تحتمس الاول في المملكة المصرية الحديثة . وبما أن محمد علي أراد تكوين دولة قوية عظيمة في مصر فقد كان عليه تكوين جيش قوي يحميه ولكن كان يواجهه العجز المالي لذا كان تفكيره

---

(١) شقير ، نعوم : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٤٩١ .

قد اتجه جنوبا الى اراضي السودان ، حيث الرجال الاقوياء لجيشه . والسود السودانيون عرفوا بطاعتهم وولائهم لقادتهم وشدة بأسهم . كما أراد الاستيلاء على الذهب في فازوغلي وبني شنقول ، والتي طغت شهرتها الآفاق ، وهذا سيمكنه من تحقيق هدفه . كما أراد استئصال شأفة المماليك الذين فروا للسودان بعد مذبحة القلعة ، وشكلوا خطرا على مصر بعد أن قويت شوكتهم في شمال السودان . كما ذكر أنه أراد اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية . ولكنني أرى أن محمد علي لم يرد نفع العلم بمحاولته لكشف المنابع انما أراد فائدة الزراعة المصرية . فاهتمامه بالمنابع أتى متأخرا حين أرسل سليم قبودان سنة ١٨٣٩ أي بعد الفتح بعشرين سنة . كما أراد توسيع التجارة المصرية . والانتفاع بموارد التجارة السودانية . أيضا هدف وحرص على سلامة مصر ووحدتها السياسية . وذلك بالاستيلاء على مجرى النيل ، اذن محمد علي كان يضع مصلحة مصر ومصلحته الشخصية في المقام الاول في تفكيره لفتح السودان .

بالفعل كان محمد علي قد تأكد من سوء الاحوال في سنار ، ومن ضعف الحكومة فيها اذ أرسل وفدا لهذا الغرض ولكنه تظاهر بأنه وفد صداقة ، لتحريض الملك على طرد المماليك الذين لجأوا اليه من مصر وفي الباطن أتى الوفد لاستطلاع أحوال البلاد « وما يلزم من الجند لفتحها » [1] . وفي أثناء ذلك أرسل محمد علي المسيو فردريك كايو العالم الفرنسي الى الصحراء الشرقية لاكتشاف الزمرد والذهب الذي دلت التواريخ العربية على وجوده . ووصلها فردريك ووجد فيها كهوفا

---

(١) شقير ، نعوم : **المرجع السابق** ، ص ٤٩٣ .

قديمة ، وحفائر ودهاليز ، وآلات شتى وآثارا تـــدل على استخراج المعادن هناك . فالتقط بعض قطع الزمرد فقويت بها آمال محمد علي . وبعث به مرة ثانية ومعه نفر من الأورام والارناؤوط ولكنه عاد بعد قليل بلا فائدة .

تضافرت عدة عوامل لأن يسير محمد علي حملـــة الى السودان لادخاله في نطاق النظام السياسي الذي أوجده محمـــد علي ووضـع قواعده في سنة ١٨٠٧ ، سنة ١٨١١ على اساس الحكومـــة المستبدة المستنيرة في الداخل . والتوسع شرقا وجنوبا في الخـارج لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية بسيطة الى باشوية وراثية سواء كانت منفصلـة عن جسم الدولة العثمانية أم داخلها اذا تعذر الانفصال أو الاستقلال . ويقول محمد فؤاد شكري [١] أنه « من أكبر العوامل شأنـا في ارسال حملة السودان مطالبة أهل السودان أنفسهم بانشاء حكومة قوية على يد مصر تقضي على أسباب الفوضى المنتشرة وتستبدل بها عهـدا من الامن والنظام والرخاء والانتعاش الاقتصادي » . ولكن من الواضـــح ان هؤلاء الزعماء قد لجأوا الى محمد علي لتحقيق مطـــامع وأهـداف شخصية . فمثلا الملك بشير ود عقيد الجعلي كـــان قد هرب للقاهرة واستنجد بمحمد علي لان الملك نمر كان قد وشى به لدى ملك سنار ، الذي أرسل اليه من يقتله .

كان محمد علي يرى ضرورة المحافظة على وحدة الوادي لأسباب عدة منها ايمانه بأن لمصر رسالة في السودان لا يمكن التخلي عنها . ومن

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **مصر والسودان** (القاهـرة ، ١٩٥٨) ص ٨٠ .

أحاديث محمد علي مع الزعماء المحليين في فازوغلي ، وتوجيهاته للحكام المسؤولين واضح اهتمامه بتأمين الاهالي على أرواحهم وأرزاقهم وبمنع اعتداءات الاحباش عليهم ، واعتداءات أهل سلطنة دارفور ثم حثه الناس على استغلال موارد بلادهم وتعليم ابنائهم ، وأبدى اهتماما فائقا بشؤون السودان . كما أنه رأى أن الاحتفاظ بالسودان سيضمن لمصر توفير المياه . كما أراد انتعاش التجارة بعد أن أوقفتها الفوضى التي انتشرت في السودان بسبب عدم قيام الحكومة الموحدة ، وهذا الضعف أيضا اطمع الاحباش في مقاطعات سنار المتاخمة لحدودهم . زد على ذلك أنه كثيرا ما كانت تختمر في رؤوس الاحباش فكرة تحويل مجرى النيل بعد خروج مائه من منابعه في الحبشة ، بأن يحفروا قناة كبيرة تذهب بمياهه صوب الشرق بدلا من جريانها في النيل الازرق وعطبره وغيرهما من الروافد [1] . هذا ان حدث سيحرم مصر من المياه ، ولكن بما أن الاحباش لا طاقة لهم بذلك فالخوف كان من توسع صلات الاحباش بالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، والخطورة في أن تستطيع احدى هذه الدول التوغل في الحبشة ثم في السودان لضعف سنار ، وهذا يهدد مصر وأمنها الاقتصادي . كما أن محمد علي استند على نظرية « الخلو » في حقه في السودان . وفحواها أنه عندما فتح السودان لم يكن يملكه أحد . ولكن ذلك ليس بالامر الصحيح اذ أن السلطة كانت في يد سلطان سنار ، وان سيطر عليها الهمج . اذن السودان لم يكن خاليا عند فتح محمد علي له .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ – ١٨٣٩ . ص ٣٠ .

جمع الوفد الذي أرسله محمد علي الى سنار المعلومات وبعدها أعد محمد علي حملتين الاولى بقيادةابنه اسماعيل ووجهها نحو سنار،والثانية بقيادة صهره الدفتردار توجهت نحو كردفان ودارفور ٠ فسار اسماعيل بجيشه من الاتراك والالبان والمغاربة مزودين بالاسلحة النارية ، ومعهم ممثلين للمذاهب الاربعة لبث الدعاية ولاقناع الناس بان الخضوع لسلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني ٠ لم يجد اسماعيل مقاومة الا في اقليم الشايقية ٠ فحاورهم لتسليم أسلحتهم ودفع الجزية ولكنهم رفضوا تسليم أسلحتهم ، مع استعدادهم لدفع الجزية فحاربهم اسماعيل وتغلب على معظمهم وهرب بعضهم جنوبا الى شندى ٠ وما لبث أن أتته القبائل تقدم الولاء والتسليم ٠ فسلم الجعليون ٠ وفي شندى تصالح مع الشايقية ، الذين فروا بعد المعارك وانخرطوا في جيشه كباشبوزق ٠ وتوجه اسماعيل بعد ذلك الى سنار المتهالكة وفشلت مقاومة محمد ودعدلان باغتياله ، فسلمت له بقيادة بادي ٠ وهكذا لم يجد اسماعيل صعوبة في زحفه بعد هزيمته للشايقية في كورتي ، فالبلاد مفككة ، وفوق ذلك لم يكن هناك قومية عامة تربط الجميع وتجعلهم يتكتلون ضد أي غزو أجنبي ٠ وهكذا زال ملك دام اكثر من ثلاثة قرون، حفظ للاسلام والعروبة اسمهما وتقاليدهما في حوض النيل الادنى وروافده ٠

أما الدفتردار فقاد حملة كردفان ، واشتبك مع المقدوم مسلم حاكمها في بارا ٠ وانتصر عليه وضم كردفان الى أملاك محمد علي ، كما ضمت سنار من قبل ٠ ثم بعث محمد علي ابنه ابراهيم ليساعد أخاه اسماعيل لوضع خطة لتنفيذ أهداف الحملة ، لجلب السود الصالحين المجندية وهو هدف رئيسي لمحمد علي ولتوجيه الغزوات ولكنهم لم يأتوا بالعدد الكافي ٠

ثم بدأوا في فرض الضرائب وكانت باهظة لم يألفها الناس ، فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد ، والروبالات المتداولة بين الناس قليلة . وتتيجة لذلك كانت بوادر الثورة في منطقة سنار ومهاجمة الحاميات المنعزلة وهروب الاهالي الى الشرق والى الحبشة . رغم محاولات اسماعيل لتخفيفها الا أن الحال لم تتغير مما زاد من الكراهية للحكم المصري . لعدم ملاءمة مناخ سنار نقل اسماعيل العاصمة الى ودمدني وبنى بها ثكنات . وطمع اسماعيل في أن تكون عودته للقاهرة عودة الفاتحين والابطال . وهو في طريق عودته الى القاهرة وفي منطقة الجعليين يبدو أنه طلب منهم مطالب لا تسمح مواردهم المحدودة بايفائها ، فاعتذروا له فأهانهم وكانت النتيجة مقتله. ومن هنا كانت حملات الدفتردار العنيفة انتقاما لمقتل اسماعيل وكانت نقطة سوداء في تاريخ الحكم التركي المصري في السودان . عين عثمان بك مأمورا لاقليم سنار وأعجبته الخرطوم فنقل اليها العاصمة ، وتلاه محو بك واتبع سياسة لين ومسالمة لمحو بعض ما علق بنفوس الناس نتيجة للضرائب التي فرضت وحملات الدفتردار .

ثم كان خورشيد وعهده عهد استقرار الادارة والأخذ باسباب العمران . وفي فترة حكمه على سنار اتبع سياسة أرجعت الفارين للسودان . واستعان في ذلك ببعض كبار السودانيين كالشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزبير وشيد مسجدا بالخرطوم ومباني الحكومة وثكنات الجيش ، وفرق الاخشاب على الاهالي تشجيعا لهم على عمرانها ، وتوسعت الخرطوم وازداد عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر ألف نسمة في ١٨٢٤ [١] . وصارت الخرطوم من أهم المراكز

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** (القاهرة ، ١٩٤٧) . ص ٢١ .

التجارية • اذ جاءها التجار من مختلف انحاء العالم خاصة من مصر والقسطنطينية • كما بذلت الجهود لزيادة انتاج البلاد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية ، وذلك بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات وادخال الطرق الحديثة في كليهما • وارسال الخبراء المختصين من أجل الغرض فارسل محمد علي مع خورشيد آغا ما ينوف عن المائة من الفلاحين ليعلموا الاهالي عمليا أحدث وأنفع طرق الزراعة. ووصل الخبراء في زراعة الأفيون والدباغة وأعمال الجبس والجير • ولفشلهم رأى محمد علي أن يستعيض عنهم بالسودانيين يرسلون الى مصر لتعليم بعض الصناعات والحرف ليعودوا ويمارسونها في السودان. أيضا طلب خورشيد عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقي المصرية لتروي أراضي الجعليين بعد أن فكر في الاعتماد على الري المستديم بدلا عن الامطار • وطلب عمالا لحفر الترع لاستغلال مياه الفيضان • وأغرى السكان البعيدين عن النيل في الجزيرة بأن يبنوا بيوتهم على النيل وينشئوا السواقي هنالك • كما استحضر أغراس الاشجار المثمرة من مصر لتزرع في السودان ، وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر والقطن والقمح الذي نجحت زراعته في مديريتي بربر وسنار ، فأنشأت الحكومة مزرعة قصب سكر ضخمة في الكاملين على النيل الازرق ومعها مصنع للسكر [١] • ولتحسين نسل الماشية الموجودة بالسودان طلبت كباش ممتازة من مصر •

عموما تميزت الادارة الجديدة بعد هدوء الاحوال واستقرار الامن بنهوض عام هدفه زيادة الانتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية •

---

(1) Hill, R. : Egypt in the Sudan (London 1959) ' P. 54 .

واستطاع عدد من الرحالة الاجانب القدوم للسودان ، وكـــان من بين هؤلاء هاي وهوشت فقد زارا السودان عام ١٨٢٤ وبلغا موضعا قريبـا من موقع مدينة الخرطوم الحالية وفي عام ١٨٢٧ قام البلجيكـي أدولف لينان دي بلفون برحلته المشهورة الى النيل (أو البحر) الابيض علـى نفقة الجمعية الافريقية البريطانية . وكان أول اوروبي استطاع اعتـلاء هذا النهر منذ العصور القديمة [١] حتى تمكن الكاشف الاغريقي داليون من السير في النيل الى ما بعد موقع الخرطوم. وفي ١٨٢٩ قام ادوارد روبل برحلة علمية الى السودان وعبر الصحراء من دبة الى الابيض وكان بذلك أول اوروبي زار كردفان [٢] . أمــا هوسكنس فقـد وصف ما شاهده في بربر فتحدث عن مصنع النيلة الذي أنشأه محمد علي دون أن يستخدم لأدارته اوروبيا واحدا ، وكيف ازدهـــرت حتى كان من المستطاع الحصول على أربعة عشر أقة من النيلة سنويــا . اذن فقد توسعت الزراعة وانتعشت وادخلت الصناعة ويقول محمد فؤاد شكري في هذا ان هذه الزراعة قد « ادخلت في بلد لم يعرف معنى الزراعة ولم يسبق لأهله الاشتغال بالصناعة [٣] » وكأنما اراد شكري بقوله هذا أن يعطي المصريين فضل ادخال الزراعة في السودان . وهذا ينافي الواقع اذ ان السودان قد عرف الزراعة منذ العصر المروي أي القرن الثالث قبـل الميلاد اذ أدخلها الاغريق وكان النشاط الرئيسي لمعظم المرويين حيـث مارسوا انواعا متعددة من الزراعة ، فزرعوا الذرة وقد اكتشفت بقايـا ملابس من القطن في مروى تشير الى أن هذا المحصول قد زرع أيضـا

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

وقطع من الكتان وهذه ان لم تزرع فربما تكون نتيجة التجـــارة مع مصر . أما الري فبجانب الامطار قد استعمـــل الشادوف لرفع الميــاه من النهر واستعملت الساقية أيضا (١) .

أما الذهب والمعادن فقد جرى التنقيب عنها في سنار وكردفان وبني شنقول وفازوغلي وقد ارسل محمد علي المهندسين لاستخراجه . كمـا أنه فكر في رحلته للسودان لذلك الغرض ، اذ ذكـر للقنصل الروسي الكونت ميدوم في أغسطس ١٨٣٨ ... « أما اذا عـدت من فازوغلي ومعي مركب محمل بالذهب أصبح من الميسور انهاء كل هذه الخلافات بشكل يحقق جميع آمالي لانه ان كان لدى المرء مـــال فانه لن يعدم اصدقاء أو جيوشا تجعل مهمة الوصول الى اتفاق سهلة ميسورة.(٢)» وربما كان أحد هذه الآمال الحصول على الذهب حتى يعرض على تركيا مبلغا ضخما من المال تستعيض به عما كان يدفعه لهـــا من جزية سنوية حتى يستميل كبار السياسيين باوروبا (٣) . أرسلت البعثات للتنقيب عن الذهب وغيره من المعادن ولكن كمياته كانت ضئيلة لم تتناسب والجهود التي بذلت لاستخراجه . والسودانيون أنفسهم عارضوا هذه البعثات . أما الحديد فقد اكتشف بكميات قليلة في كردفان .

رسمت خطة واضحة للتعليم ، وأعيد بناء ما تهـــدم من المساجد وقد كانت آنذاك دور التعليم وموئل الثقافة الاسلامية وشيدت مساجد

---

(١) Shinnie , P.L. : **Meroe, A Civilization of the Sudan,** (London 1967) ' PP. 158 - 160 .

(٢) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ١٩٤٦ ، **« صفحة من تاريخ السودان الحديث »** ، ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق . ص ٣٦ ـ ٣٧ .

اخرى . ونظم القضاء وقبل مجيء الحكم التركي المصري كان السودان المسلم لا يعرف شيئا في مجال القوانين ، غير تعاليم الشريعة الاسلامية، ولم يكن لدى السودانيين في الأغلب الأعم معرفة أو المام بقليل أو كثير من القوانين الوضعية وحتى الشرع الاسلامي لم يتمكن من معرفته معرفة حقة الا القليلون . لم يكد محمد علي يفتح السودان حتى ادخل فيه القوانين المدنية والعسكرية المتأثرة بالنظم الغربية . وقد سعت الحكومة لكسب الفقهاء والعلماء المسلمين فاستجاب هؤلاء مع غيرهم من المتعلمين للوضع السياسي القائم ، لانهم مدينون له برواتبهم وقد آخذت هذه الفئة مكانها مع القضاة والعلماء المبعوثين من مصر وكونوا طبقة موالية للحكومة . من هؤلاء القضاة الشرعيون الذين كانوا يعالجون كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية التي تهم المواطنين من أمور الزواج والطلاق والميراث وما الى ذلك . أما في المدن الصغيرة فكان ينظر في هذه المسائل نواب شرع تابعون للجهاز القضائي وهناك المفتي وعلى رأس هؤلاء جميعا رئيس القضاء . كان لكل مجلس محلي محكمة ، رئيس وثمانية أعضاء من الاعيان وبعض التجار. وهناك مجلس الاحكام بالخرطوم ويخضع هذا المجلس للمحكمة العليا بالقاهرة . أيضا زاد الاهتمام بالمذهب الحنفي . أما غارات الحبشة فقد ردت وتوسعت عمليات الكشف عن منابع النيل. رغم كل هذه الاصلاحات فقد انتشرت الرشوة والاختلاس وقد عوقب من ثبتت عليه التهمة كما حدث في بربر ودنقلا . كان العبيد يدفعون بدلا عن المرتبات ولكن ضغط الدول الاوروبية جعل محمد علي يأمر بالغاء ذلك .

استمرت التنظيمات واصلاحات خورشيد في عهد خلفه أحمد باشا ابوودان . فخصبت الاراضي ورخصت الاسعار حتى صار اردب الذرة بخمسة قروش .وعندما تضخمت مصروفات محمد علي من

الناحية العسكرية نتيجة لاحتلاله لسوريا بدأ يطالب بارسال الصمغ من السودان حتى تفرج الضائقة المالية • أيضا ضمت التاكا في شرق السودان بعد مقاومة من الهدندوة • وانشيء سد من التراب لتحويل مياه فيضان القاش الى اراض جديدة لزراعتها وانشئت مديرية التاكا هنالك كما أسس مدينة كسلا • وفي عهد خلفه أحمد باشا ابوودان استمر التوسع الزراعي خاصة في زراعة قصب السكر • وزادت العناية بتنظيم مالية السودان وشؤون الحكم والادارة وتثبيت دعائم الحكم في التاكا وقد انشئت الصناعة وأنشأ نور الدين افندي ـ احد المصريين ـ عدة مصانع كما أسس رجل الماني يدعى باور مضنعا للصابون والكونياك ، وكان يدير احد ابناء الغرب مصنعا للسكر والنيلة كما استطاع استخراج الكونياك من البلح وقصب السكر [1] •

عهد المنكلي هو بداية اللامركزية في فترة الحكم التركي المصري • وقد كان محمد علي حريصا على أن يبقى السودان وممتلكاته في يده حرصه على مصر نفسها فقسمت المديريات ، وعين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التي وسعت حدودها حتى المتمة وشندي ، وأمين باشا للجهات العليا وتبدأ من المتمة وشندي ، وتشمل الخرطوم والنيل الابيض والجزيرة حتى ودمدني والاقسام الشرقية للنيل الازرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهي من ودمدني جنوبا حتى حدود فازوغلي وشرق النيل الازرق ، وسليم باشا لمديرية فازوغلي ، وفرهاد باشا لمديرية التاكا ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان • وامتازت فترة المنكلي باهتمام واسع في ترحيل المواشي من كردفان والبحر الابيض الى مصر •

---

(١) شكري ، فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٢٧

وجهزت محطات على النيل وعددها خمس وتسعون • كما نشطت حركة التجارة في النيل الابيض بالمراكب• وطلب الاجانب الدخول في الجنوب لجلب سن الفيل والريش • ولكن هذه الفترة شهدت أيضا خلافات بين المنكلي وبين المديرين وبينه وبين مدير الخرطوم ونتيجة لذلك أعاد محمد علي المركزية مرة أخرى • وبعد انشاء التاكا ضمت سواكن ومصوع نظير مبلغ من المال وكثيرا ما التجأ اليها الفارون من الضرائب والاعباء الحكومية الاخرى خاصة سكان الشمال ، وفي دنقلا بالذات • ومنهم من فر الى كردفان وسنار والخرطوم والنيل الازرق • هؤلاء الفارون رغم فقد مناطقهم لهم فقد نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الارض الى الاقاليم التي استوطنوها فزادوا انتاجها •

أما اللغة الرسمية للمكاتباب بين والي مصر والمسؤولين في السودان فكانت التركية كما يقول ريتشارد هل ، الا أن الكثيرين من المسؤولين كخورشيد كثيرا ما استعملوا العربية التي أصبحت اللغة الطاغية بعد وفاة محمد علي ، ومحمد علي نفسه كان تركيا • السودان لم يفتحه مصريون عرب فليس من بين الجنود الذين فتحوا السودان مصري واحد كما يقول هل •

هذه هي أعمال محمد علي في السودان ، أجريت على يد أبنائه وحكمدارية الذين اصطفاهم حتى يتمكن من تثبيت دعائم حكمه في مصر السودان وبالتالي يقوى ويدعم مركزه في مصر • فهو لتنفيذ أغراضه من فتح السودان أرسل البعثات والاداريين والمشرفين ، كما زاره بنفسه وهو في السبعين من عمره وبقي فيه خمسة شهور • والسودان في رأيي مدين لمحمد علي في جعله حوض النيل الى فشودة وحدة ادارية لأول مرة • فهو أزال الى حد كبير الفوارق التي كانت موجودة بين

الممالك الصغيرة التي كانت موجودة قبل فتحه للسودان . ووضع حداً للحروب التي كانت تنشب بين القبائل ، وأمن المواصلات. بسبب الوحدة الادارية قلت العصبية القبلية وطغى الشعور بأن الجميع تحت ظل حكومة قوية ذات «هيمنة»، وتدفق السياح على السودان فاتصل بالعالم الخارجي متأثرا بالمدنية الموجودة آنذاك . وبينما كان في الخرطوم عمل على ازالة أسباب الشكوى . وقابل المشايخ والزعماء وقلد سليمان بك ملك ابو رملة الحكم من الخرطوم والى فازوغلي ، وقلد رؤساء سنار وكردفان الحكم في أقاليمهم كذلك[1]. وعندما وصل فازوغلي اعجبته قرية فامكة وموقعها فأمر المهندس الفرنسي دارنو أن يبني بها قصرا ويبني المهندسون بيوتا بجوار القصر وثكنات لاقامة الجند وتأسست من ثم مدينة محمد علي . أما السياسة العمرانية فقد كانت رشيدة هدفت الى تحسين الزراعة وطرق الري وزيادة الانتاج الحيواني فجلب العمال المهرة وحفرت الترع وأقيمت السواقي الجديدة وسلالات الحيوانات والاشجار المثمرة وتقاوي المزروعات الجديدة وغيرها من الاصلاحات التي ذكرتها من قبل .

ولكن هذه الادارة الجديدة كان لها توابعها اذ عرف السودان جشع الحكام والرشوة والاختلاس وادخل نظام جديد للضرائب لا قبل للسودانيين به . أما الادارة المالية فقد كانت على أساس تجاري بحت فمحمد علي كان يريد استغلال موارد السودان الزراعية ، التجارية والبشرية وهو لم يرد أبدا أن يكون السودان عبئا اقتصاديا على مصر ولا يحتمل أن تزيد مصروفات حكومته في السودان عن ايراداتها .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ ، **« صفحة من تاريخ السودان الحديث »** ، ص ٤٠ .

أما السودان في عهد عباس فلم يجد العناية التي وجدها في عهد محمد علي . ولكن لعباس اصلاحاته التي أدخلها . وقد وجد الزعماء الوطنيون والمشايخ حظوة عظيمة في عهد عباس . فقد قلد عباس الشيخ عبد القادر ود الزين وظيفة معاون الحكمدارية ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقلد الشيخ عدلان محمد مشيخة جبال الفونج ، وعهد الى حسين خليفة مشيخة العتمور . وعومل شيخ الشكرية أحمد ابو سن أحسن معاملة . واشترك الزعماء الوطنيون في شؤون الحكم والادارة فاصبح الشيخ علي جلابي والشيخ محمد نور ضيف الله بمجلس الدعاوى وهو بمثابة محكمة عليا . كما عين الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتيا للمحكمة . كما صدرت لائحة في عهد الحكمدار عبد اللطيف باشا يسير العمل بمقتضاها في السودان وهي أن من يخدم في دنقلا يبقى ثماني سنوات وفي الخرطوم ست سنوات وفي كل من سنار وفازوغلي وكردفان والتاكا أربع سنوات، ولا يسمح أن يغادر أي موظف مقر خدمته قبل أن يأتي خلفه ، ولا يسمح له بالذهاب الى مصر أثناء تلك المدة الا بشهادة طبية . كما أجريت بعض التعديلات في المديريات، فادمجت فازوغلي في سنار وفصلت دنقلا عن بربر . وجعلت كل منهما مديرية مع اضافة بلاد الجعليين الى بربرة ، ودعمت الادارة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والاطباء والاجزاجية . وزاد الاهتمام بتجميل الخرطوم فانشأ ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والاجزخانة وقشلاقات الطبجية وكلها بالطوب الاحمر. كما شهد هذا العهد دخول الرهبان المبشرين السودان . وأنشئت القنصليات بالخرطوم أولها القنصلية النمساوية وبدأ تبشيرها وتعليمها في الانتشار . كما نشط التجار الاوروبيون خاصة في النيل الابيض وشملت هذه التجارة الصمغ والرقيق وغيره والغى عباس منذ عام

١٨٤٩ احتكار تجارة الصمغ بين مصر والسودان، وأبطل العمل في منجم الذهب لعدم جدواه وتم الغاء مصلحة المواشي السودانية ، وقد كانت هذه المواشي تموت في الطريق الى مصر وتموت في مصر نفسها لعدم ملاءمة المناخ .

وفي مجال التعليم فقد وجدت معاهد التعليم الديني في السودان اهتماما وتشجيعا وأصلحت المساجد وعمرت ، وهي اذ ذاك دور العلم والدرس وبيوت العبادة وآداء الفريضة الدينية . وأجري على القائمين بها الرواتب ، وأكرم الفقهاء وشجع منهم من أراد الدراسة بالازهر ومن هؤلاء الشيخ محمد السنوسي والشيخ ابو بكر محمد. كما انشئت أول مدرسة نظامية في السودان في عام ١٨٥٣ تتسع لنحو خمسين ومائتين من التلاميذ . وكانوا يدرسون القرآن الكريم واللغة العربية والتركية وقليلا من الرياضيات . ولادارة هذه المدرسة اختيرت نخبة من الاساتذة كمحمد بيومي واحمد طائل وخليفة محمود وجعل رفاعة رافع الطهطاوي ناظرا عليها . وقد كان رفاعة مديرا لمدرسة الترجمة بالقاهرة. هذه المدرسة لم تبق الا سنوات قليلة ولم تلعب دورا يذكر في تعليم النشء بالسودان .

نال السودان في عهد سعيد نصيبا من اهتمامه ، ففي أول عهده عين علي باشا شركس حكمدارا على السودان ، وأوفد الامير عبدالحليم للتفتيش على ادارته واصلاح شؤونه . ولما زار سعيد باشا ، السودان في عام ١٨٥٧ التقى بالاعيان الذين قدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ومظالم الحكام ، فاستمع لهم ، وقيل أنه فكر في اخلاء السودان الا أن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا له أن يعدل عن رأيه محتجين بان اخلاء السودان سيؤدي الى تفاقم الحال فيه فعدل عن رأيه،

واعتزم اصلاح حاله ، فألغى الضرائب الجمركية على التجارة بين مصر والسودان . وأمر باعفاء الاهالي من المتأخر من الاموال ، وخفض الضرائب ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بان جعلها تتبع عدد السواقي في الاطيان لان السواقي تبين مبلغ خصب الارض ودرجة انتاجها . كما قرر عزل الموظفين الاتراك الذي شكا الاهالي سوء معاملتهم . واعتزم تعويد الاهالي حكم أنفسهم بانشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات . وأصدر مرسوما بالغاء السخرة [1] وأمر مديري الاقاليم بأن يحسنوا معاملة الاهالي خاصة في جباية الضرائب تقضي بألا يعهد للجنود تحصيلها لما اشتهروا به من القسوة . كذلك أمر بالغاء الغزوات ضد الرقيق . وأيضا انشأ محطات في صحراء كروسكو لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف انحاء السودان لضمان اتصال المديريات بعضها ببعض وبمصر ٦ وأنشأ محطات الجمال (البريد) فأسس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة . وأنشأ نقطة عسكرية على نهر السوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين . ولما عاد الى مصر عهد الى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين حلفا والخرطوم فرأى موجيل ضرورة انشاء سكة حديد . ووضع مشروعا لذلك ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات . وقد أبطل منصب الحمكدار وجعل السودان خمس مديريات مستقلة في ادارتها بعضها عن بعض ولكنها ترجع في كل شؤونها الى وزارة الداخلية شأن مديريات مصر . وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعليها أراكيل بك مديرا حتى يشرف على الاصلاحات التي قررها . كما أنه أصدر

---

(١) السخرة : اجبار الناس على اداء أعمال شاقة بدون أجر .

تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق في منازلهم [1] • وأمر أن لا تفرض أموال على الاطيان التي تغرس بالاشجار المثمرة • ورأى سعيد باشا ان استقلال مديري الاقاليم جعلهم يجنحون الى الاستبداد والظلم ويسيئون معاملة الاهالي فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب الحكمدار مرة أخرى ، وجعل موسى باشا حمدي حكمدارا • وكان من أعظم ولاة السودان وله فيه اصلاحات جمة منها انه عين من الاهالي نظار أقسام (مأموري مراكز) ومعاونين • وكون رؤساؤهم مجلساء وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب وتسهيل جبايتها • وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية في انحاء السودان فكثر عدد المكتشفين في عهده ، ولكنه لم يحذ حذو ابيه في ايفاد بعثات مصرية كالبعثة التي أنفذها محمد علي الى السودان بقيادة البكباشي سليم قبودان أحد ضباط البحرية المصرية بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الاجانب •

مع بداية عهد اسماعيل بدأت السدنة الفعلية واشراك السودانيين اشراكا فعليا في الحكم وادارة بلادهم ، حيث عقد اسماعيل عقب توليته اجتماعا في الخرطوم مع المديرين ومشايخهم لاستشارتهم وابلاغهم مايريد أن يختطه من سياسة • وهذه أول مرة يستشار فيها الزعماء السودانيون لتخطيط السياسة • وكانت هذه خطوة الى الامام اضافة لمحاولات سعيد من قبله لاشراك السودانيين • فبعد تعيين المصريين الاصليين مديرين بالاقاليم تم تعيين السودانيين في الوظائف الهامة • وكان منهم مديرون ونظار اقسام ومشايخ قبائل واعضاء في المجالس المحلية التي عمت السودان ، ووصل جماعة منهم أعلى الرتب

---

(1) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٤٤

العسكرية • وازدهرت السودنة فعين الشيخ أحمد ابوسن زعيم الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وبقي في وظيفته عشر سنوات كانت فترة هدوء وعدم اضطراب في منطقة نفوذه • وأظهر كفاءة عالية في التوفيق بين جميع المهام التي كان عليه القيام بها • ونجاحه دلل على كفاءة السوداني ومقدرته الادارية • وأجرى موسى حمدي اصلاحات في الجيش حيث أدخل عليه عنصر جديدا من الشبان واستغنى عن خدمات الطاعنين في السن والمعوقين وقوى الجهاز العسكري بتجنيد عدد من شبان قبائل الدينكا والشلك • وقبائل فازوغلي ، وهذا الدعم استلزم مصروفات اضافية كانت على حساب الاهالي ، اذ ازدادت الضرائب واتبعت الوحشية في جمعها • أيضا توسع نطاق السودان ، ففتحت فشودة وضمت سواكن ومصوع نهائيا ، وفتحت أقاليم خط الاستواء وبحر الغزال ، ودارفور وجنوبا حتى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا الى البحر الاحمر وخليج عدن وغربا الى حدود وداي • فشودة كانت هامة اقتصاديا وسياسيا وبشأنها نشب الصراع السياسي بين انكلترا وفرنسا سنة ١٨٩٨م •

ضم سواكن ومصوع نهائيا كان له أثره في زيادة المشاكل الادارية ، فبذل اسماعيل محاولات متعددة لتعديل الادارة عله يجد مخرجا للمشاكل المالية ، ففكر في تقسيم السودان الى ثلاث مناطق يحكم كل منها حكمدار مستقل يتعاونون جميعا على المصالح المشتركة • كذلك فكر في جعل الغرب وحدة ادارية قائمة وكذلك الشرق ويقسم السودان الاوسط الى قبلي وبحري • عمرت سواكن ومصوع وذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر فوصل بينها وبين اليابسة بجسر في عام ١٨٧٢ ، فاتسعت المدينة وبني بها ديوانا للمحافظة وآخر للجمرك ، ومساكن الموظفين وشيدت بها قلعة متينة • وانشئت ترعة

صغيرة لتوصيل المياه العذبة الى سواكن وهذه الترعة تستمد المياه من خزان أقيم لجمع مياه الامطار في سطح جبل قريب من المدينة [1] •

غندكرو عندما فتحها محمد علي كان فتحا مؤقتا بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فيها لتعزيز سلطة الحكومة فيها ، واسماعيل هو الذي فكر في ضمها نهائيا ولكنه فعل ذلك على يد أجانب كبيكر وغودون • والاول كان قد حاول من تلقاء نفسه قبل ذلك اكتشاف منابع النيل فاكتشفت بحيرة البرت • وفي ١٨٦٩ صحب بيكر الامير ادوارد ولي عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس • ورغب الامير الى الخديوي اسماعيل ان يعهد الى بيكر بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية • ولم يتردد اسماعيل في قبول الطلب اذ كان يود التودد الى الحكومة البريطانية بجانب أهداف أخرى في فتح البحيرات • فعهد لبيكر بسط النفوذ المصري في جهات غندكرو ، وتنظيمها ، ونشر التجارة بها ، ومطاردة تجارة الرقيق، وانشاء الحاميات الحربية فيها وجعله حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات • وجهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة • وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة للخرطوم بصعوبة اذ لم يكن في استطاعة البواخر اجتياز الشلالات فنقلتها الابل • وبعد الخرطوم سارت الحملة بالسفن • وعند وصوله ملتقى السوباط بالنيل بنى بيكر محطة سماها « التوفيقية » • ورفع العلم المصري على غندكرو ، وأنشأ بها حصونا • ثم بعد انتهاء مدته عاد بيكر الى بلاده عن طريق القاهرة • وبلغت نفقات الحملة ٨٠٠٫٠٠٠ جنيها تحملتها خزانة مصر في وقت اشتد بها الضيق المالي •

---

(١) الرافعي ، عبد الرحمن : **عصر اسماعيل** ، الجزء الأول ،(القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١١٤ •

أما غودون فقد أرسله الخديوي للسودان عام ١٨٧٤ ووصل الى فشودة على رأس حملة • وسار حتى وصل بحيرة ألبرت حيث أنشأ ترسانة لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة • وبالفعل تم تركيب أول باخرة استقلها غودون وحاشيته • وكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن التجارية وكان منظر الباخرة موضع دهشة الاهالي• أنشأ غودون عدة نقاط عسكرية في السوباط والرجاف والناصر وغيرها•

كان الرقيق في عهد محمد علي ممنوعا ولكن هذا المنع ظل اسميا وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة الى عهد سعيد تحت عين الحكومة وسمعها وبتأييد موظفيها • وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر في حاصلات السودان وفي الرقيق وتربح من كل ذلك الارباح الطائلة • وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون في مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكزا للتجارة واصطياد الرقيق • احتلال فشودة في عام ١٨٦٥ سد طريق النيل في وجه تجار الرقيق من بحر الغزال وخط الاستواء فاستمرت محاولات اسماعيل لمحاربتها واتبع أشد الطرق لمقاومتها دون اللجوء الى السياسة مما زاد السخط على الادارة المصرية لان الرقيق كان مصدر ثروة التجار وأعيان البلاد ، كما أن الرقيق يشكلون معظم الايدي العاملة في الزراعة ورعي الماشية الا أن اسماعيل كان قد حاول الاتفاق مع أصحاب الزرائب للتخلي عنها مقابل تعويضات تدفع لهم، كما فرض اسماعيل ضريبة « الوبركو » على كل تاجر وعامل يعمل في المراكب التي تصعد على النيل الابيض ، وشددت الوابورات الحكومية الحراسة على النيل • ولكن مصادر الرقيق ظلت خارجة عن سلطة الحكومة • كذلك فرض اسماعيل رقابة على توريد الاسلحة والذخائر التي تستعمل في الغزوات الى السودان • وطلب من قناصل الدول

الاجنبية أن يساعدوه في حملته ضد تجار الرقيق الاوروبيين الذين كانت لهم امتيازات اقتضت أن لا يحاكموا الا بواسطة القناصل أنفسهم ، فطلب منهم أن يرفعوا الحماية عن التجار . هذه الاجراءات نجحت الى حد كبير في تخفيف حدة نشاط تجار الرقيق في مناطق النيل الابيض . وقد قدم اسماعيل بعمله هذا خدمة جليلة للسودانيين .

كان الحال قد ازداد سوءا بتذمر وثورة الجهادية السود بكسلا حين تأخرت رواتبهم فاستدعى ذلك اصلاحات أخرى في الجيش كالغاء الآليات السودانية وابقاء اورطة واحدة منها مكونة من ثمانية بلوكات ثم تعيين جعفر باشا مظهر حكمدارا لاصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية . كما أحدث تطورات ادارية وعمرانية في الخرطوم، ونشطت الحركة الفكرية ، وبدأ التوسع جنوبا في بحر الغزال وخط الاستواء ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وطلب الى حكومة القاهرة أن تعهد الى رفاعة رافع الطهطاوي اتمام ترجمة كتاب الجغرافية العمومية لملطبرون وارسال الترجمة الكاملة للسودان كي يفيد منها أهل البلاد [1] . وقرب علماء السودان وكرمهم ، وانشأ محاكم عدة للفصل في منازعات الناس ، واهتم بعمران وتجديد الخرطوم فازداد السكان ونمت حركة التجارة فأنشأ ضبطيات قضائية تقوم بمهام البوليس في المدن كالخرطوم ودنقلا وبربر وغيرها ، وأصدر أوامره على أن تكون المباني متفقة مع قوانين الصحة وفن الهندسة ، وترغيبا للناس في العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها أن تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للاهالي بالثمن الاساسي

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٧٢

دون ربح ، الا أن السياسة المالية التي اتبعتها أد تالى أن يفر الكثيرون عن أراضيهم وسواقيهم ٠

اهتم مدير بربر حسين بك خليفة بالزراعة في بربر وأدخل ري الحياض بالترع والسيالات ٠ وأدخل زراعة القطن في مديريته ، وشهدت طوكر وكسلا ومصوع تطورا كبيرا خاصة في زراعة القطن ٠ وعندما عين مديرا على قبلي السودان وسع نشاطه واهتمامه بالزراعة، وعمل على دراسة السودان « جميعه » من حيث الاراضي الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدر ما يمكن زراعته في مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوع ما يربو على المليون من الافدنة [١] ٠

وفي عهد ممتاز باشا خطت السودنة خطوات أوسع عندما اعتزم مدير قبلي السودان تنظيم المجالس المحلية وتعميمها، اذ أراد أن يجعل من مكتب العرضحالات في مديرية التاكا مجلسا خصوصيا يرأسه الشيخ حامد موسى ناظر قسم بني عامر السابقة ٠ كما أجرى تعديلا في مجالس مصوع وكسلا المحلية بحيث أصبح من اختصاصها بحث المنازعات التجارية الى جانب النظر في العرضحالات المقدمة اليها ، وعلى أن يكون أعضاؤها من أعيان البلاد وتجارها ينتخبهم الاهالي والاعيان والعمد ٠ وعين قاسم أفندي من « أهالي السودان » وكيلا لمجلس استئناف لرؤية قضايا السودان [٢] ٠ وأيضا تكونت أربع بلوكات من العساكر السودانية لاستخدامها في مأمورية في النيل الابيض ، ورقي ضباطها الثلاثة عشر الى مختلف الرتب العسكرية ٠ وفي عام ١٨٧٢ قرر المجلس

---

(١) شبيكة : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٦

(٢) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٧٩

الخصوصي في القاهرة انشاء مجلس سواكن • ثم صارت قضايا مجلس كسلا تستأنف أمام مجلس سواكن وقضايا سواكن أمام مجلس مصوع وقضايا مصوع أمام مجلس كسلا • ويقول شكري «ان سياسة السودنة واشراك العناصر الوطنية في الحكم والادارة قد جذبت زعماء السودانيين ورؤساءهم فاطمأنوا الى حكومة المصريين وعمدوا الى الانضواء تحت رايتها وآية ذلك أن الزبير رحمة الجميعابي على الرغم من ذلك الملك العتيد الذي شيده في بحر الغزال ما لبث حتى قدم فتوحه هدية لحكومة الخرطوم بمجرد أن تحرجت علاقاته مع عربان الزريقات المنتشرين على حدود مملكته الشمالية كما تحرجت مع ابراهيم سلطان دارفور المنحاز للعربان ضده [1] • وقوله أن السودنة جذبت السودانيين للحكم المصري اذ اطمأنوا له صحيح الى حد بعيد ، ولكنني أختلف معه في ايراده الزبير باشا كمثال اذ أن الزبير باشا كان قائدا ماهرا وسياسيا كبيرا فقد قدر عواقب انتصاراته على الحكومة ثم تمكنه من فتح دارفور وغيرها ، وعلم مقدار الخطأ الذي سيقع فيه ان هو واصل سياسة معاداة الحكومة وهو تاجر كبير يخاف ويخشى تدهور تجارته سر ثرائه وبالتالي قوته فرأى أن لا بد من مهادنة الحكومة ليأمن جانبها فاتبع ما رأى وكانت مكاسبه أكثر وأوسع • كما أن حديثه يناقض نفسه اذ نرى من حديثه ان الزبير قدم فتوحه للحكومة لان علاقاته قد تحرجت مع الزريقات والفور وليست كما ذكر من أن سياسة السودنة قد طمأنته للحكومة ففكر في الانضواء تحت لوائها •

شهدت البلاد على عهد حكمدارية موسى باشا حمدي عام ١٨٧٣

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٨٦

نهضة تعليمية فأنشأت خمس مدارس لنشر المعارف والعلـــوم بأمر من الخديوي اسماعيل في عام ١٨٦٣ ـ ١٨٦٥ • وفتحت مدرسة الخرطوم الاولية في عام ١٨٦٧ • وفي العام التالي فتحت مدارس مماثلة في بربر، دنقلا ـ الابيض وكسلا على غرار المدارس التي كانت بمصر آنـذاك على اساس أن تسع كل مدرسة زهاء المائة تلميذ • كما فتحت مدرســة في مديرية النيل الابيض لتعليم أبناء الزنوج الـــذين فك أسرهم من تجار الرقيق ليلتحقوا بعد اكمال المرحلة الدراسية بالخدمة العسكرية• وقد وصل التلاميذ في هذه المدارس بعد ثلاث سنوات مستوى لا بأس به في القراءة والكتابة والحساب أهلهم للالتحاق بدواويـن الحكومة كمحاسبين وكتبة وموظفين تلغراف وعمال بترسانة الخرطوم وبهم نهض الادب والثقافة •

كمـا رأى ممتاز تأمينـا لسياستـه القطنيــة أن يبعـث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكيــة حتى يديروا ماكينات الحلج وكبس الاقطان في بلادهم • كما اقترح ارسـال بعض خريجي هذه المدارس الحكومية الى مصر لتعلم الطب والصيدلة الا ان ذلك لم يتم لعدم توفر الكفاءة المطلوبة • كان جعفر باشا مظهـر قد أعد مشروعا لتعليم عشرين من السودانيين الطب والصيدلة في مدرسة الخرطوم الابتدائية تحت اشراف طبيب مستشفى الخرطوم وبمـا أن قيام استاذ واحد بتعليم هذا العدد الكبير تعليما مثمرا كان أمرا متعذرا لصعوبة علوم الطب والصيدلة ولعدم وجود الوسائل اللازمة لتدريسها على خير وجه رأى اسماعيل أن يبعث الى السودان بالعدد الكـافي من الاطباء «المهرة» والصيادلة المدربين • وكانت مهمة هؤلاء تطعيم الاهالي ضد الجدري والامراض الوبائية ، والاشراف على المستشفيــات التي انشئت في دنقلا والتاكا وبربر وسنار والخرطوم وبـذلك تحسنت

الخدمات الصحية لدى السودانيين • أما الخلاوي والمساجد التي تدرس العلوم الدينية فقد بذلت لها الاعانات والاحسانات وخصصت للعلماء مواهي شهرية بلغت الاربعمائة قرش شهريا وكذلك راتب ذرة للطلبة • وربطت كل المدن الهامة بخطوط التلغراف مع بعضها ، وطلبت الاعمدة من غابات السودان وعندما ثبت عدم صلاحيتها في بعض المناطق التي تكثر فيها «الارضة» استعيض عنها بأعمدةحديثة طلبت من انجلترا [1]• وفي عام ١٢٨٦ هـ اتصلت الخرطوم بالقاهرة وتم الاتصال بدارفور عند نقطة الفوجة وكان لهذا الاتصال بدارفور أثره في فتوحاتها اذ أصبحت الاتصالات سهلة • وبدأ العمل في السكة الحديد بين السودان ومصر •

وفي ظل حكمدارية محمد رؤوف باشا كان الحكمدار نفسه مشرفا على تفقد الاحوال وحل مشاكل الحدود خاصة مع الحبشة وثورات امراء الفور في دارفور • وظل يغدق الرتب والنياشين على كبار السودانيين ومشايخ القبائل ، وعين بعضهم في مناصب ادارية كبرى في الاقاليم ظنا منه أن العنصر التركي الذي بأيديه السلطة هو أساس الفساد • ولكنه سرعان ما تخلى عن السودانيين وأحل الاوروبيين محلهم خاصة في المديريات الجنوبية وفي دارفور • كما عمل على الغاء الرقيق ووضع مشروعا لذلك اعترفت فيه الحكومة بتمليك الرقيق الحالي لمالكيه ، ويستمر الملك اثنتي عشرة سنة يصبح بعدها المملوك حرا ، وأيضا يكون حرا اذا ثبت سوء معاملة المالك له • هذا المشروع أحدث ضجة في أوساط الناس لان الرقيق كان عنصرا أساسيا في المجتمع في ذلك الحين •

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٩

هكذا رأينا أنه منذ عام ١٨٢١ بدأ في السودان نشـــاط عظيم وواسع ساعد في تغيير وجه الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية والبدائية فيه ونقلها الى مستوى أرقى ومتمدن . كما وأدخلـــت نظم ادارية وقضائية وماليـــة في السودان لأول مرة ، فتركـــزت الادارة السودانية، وانتشرت الطمأنينة والاستقرار، وكان هدف محمد علي ومن خلفه الاستفادة من البلاد ثم افادة أهلها . وأراد محمد علي ذلك بالرفق واللين حتى أنه عاتب ابنه اسماعيل لأخـذه الشايقيـة بالشـدة منـذ البداية [١] . وانتشر التعليم في البلاد وانشأت المدارس كمدرســة عباس الاولى في الخرطوم ، وكانت النواة الاولى للتعليـــم المدني في السودان . وترقى الجنود السودانيين في الوظائف . واتبع الحـكم الذاتي أو اللامركزية في أكثر من مرة ، ونظام اللامركزية هـذا أعطى بعض السودانيين الفرصة للمشاركة في الحكم فأظهروا الكفـاءة ونالوا الخبرة . وتوسعت البلاد خاصة في عهد اسماعيل . عمرت المنـــاطق المفتوحة . وعمل السودانيون في المناصب الكبيرة . كما أن المركزية في البلاد وسريان سلطاتها على كل الاقاليم أعطى السودان وحـدته بعد أن كان امارات ومشيخات لكل حكمها الذاتي وقليلا ما خصصت لسلطـة مركزية . ورغم التنقل بين اللامركزية والمركزية فقد كانت البلاد تـدار وتحكم من الخرطوم بواسطة الحكمدار وينوب عنـه مديـــرون في الاقاليم ، والمدير يشرف على نظار الاقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الاخطاط . أما القبائل الرحل فلها شيخها يتصل بالمديريـــة رأسا . أما الضرائب فقد كانت دائما سببا للثورات والمشاكل رغم المحاولات التـي بذلت لتحقيقها وتسهيل طرق جمعها . وازداد حجم التجارة الخارجية .

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ٩٠

وصار استعمال النقود على نطاق واسع ضرورة لا محيد عنها لـــذا وجدت مجموعة من قطع النقود الاوروبية ذهبية وفضيـــة من ذوات الفئات العالية متداولة بين الايدي في المدن الكبرى . أمـا في الجنوب خاصة جنوب كاكا في أعالي النيل فانه حتى عام ١٨٦١ لم تكـــن هناك عملة قابلة للتداول. وكان القضاء في الاموال الشخصية يمارس بمقتضى الشريعة الاسلامية ،ويقوم عليه قضاة ومفتون من عواصـم المديريات ، والقانون الهمايوني أساس المحاكمات في القضايا المدنية والجنائية. وفي كل مدينة مجلس محلي من التجار والاعيان للنظر في القضايا الصغيـرة واعضاء المجلس لا يعطون أجرا الا بعض رؤساء المجـالس في المدن الكبرى ، وشملت العضوية الضباط والموظفين . أما القضايـا الكبرى فيبت فيها المديرون أنفسهم وبعضها يحال الى القـاهرة . وكونت في المدن ضبطيات قضائية تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة ، والجيش ضم جنودا مصريين وسودانيين . العنصر السوداني يتزايد في السنين الاخيرة من العهد حتى رأينا أن معظم الحاميات كان يقوم علـى حراستها جنود سودانيون قبل اشتعال الثورة المهدية أما التجـارة مع الخارج فقد ظلت تتبع طرق القوافل التقليدية الى مصـر أو الى ميناء سواكن ، وتصدر البلاد العاج ، ريش النعام والتمر هندي ، السنامكي، الجلود ، النيلة ، المسك ، قرون الخرتيت ، الزيوت ، السمسم ، العسل، الذرة والملح وغيرها . وتستورد المنسوجات القطنية والالات الحديثـة القاطعة ، الروائح والعطور وغيرها . وظلت مدارس العلـم والقرآن تؤدي رسالتها كما كانت ، وظل مشايخ الصوفيـة يرشـدون الناس ويأخذون عليهم النعرة القبلية التي كانت ظاهرة المجتمـع بالرغم من أن العهد جعل الادارة مركزية ممعنة فيها . وقد سودت حملات الدفتردار الانتقامية والطرق الوحشية لجمع الضرائب ، وجه هذا العهد ، وشاعت

حوادث الرشوة والاختلاس والفساد السياسي والاداري حيث اشترك الحكمداريون والنظار في اصطياد الرقيق والاتجار به سواء كان ذلك لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والادارة في السودان تدفع مرتبات بعض الجند • ولكن محمد علي لم تكن له يد مباشرة في هذا فهو كثيرا ما كان ينصح من يعينهم بل يأمرهم بالعمل لخير السودان ورفاهية أهله وأن « الجيش والمدفعية التي تتقدم في بلادهم ولا تحمل الى قراهم سوى السلام والسكينة [1]» •

الملاحظ أن معظم الاداريين المصريين في السودان أظهروا عدم رغبة وكفاءة في خلق حكومة من عدم لانهم كانوا مدفوعين للحكم دفعا ولانهم كانوا مرغمين فتعددت أخطاؤهم • وقد كانت الادارة في يد العسكريين فلم تكن لهؤلاء النظرة البعيدة المطلوبة في آداء المهام المختلفة •

في رأيي أن محمد علي لم يفتح السودان اطلاقا لتحديث السودان لذا عملية تحديث السودان كانت تلقائية أو نتيجة لجهود محمد علي التي بذلها للاستفادة من خيرات السودان• فهو اتبع من الوسائل والاجراءات ما يكفل له تحقيق أغراضه ، ونتيجة لما بذله في ذلك انتقل السودان الى درجة أرقى ومستوى أفضل في مختلف الجوانب • وعموما فقد بدأ تحديث السودان في عام ١٨٢١م بدخول محمد علي واجراءاته واصلاحاته للسودان وقد سارت بداية التحديث في خطوات تدريجية معقولة بدأت بالفتح ومحاولة تثبيت دعائمه ، ثم كانت فترة العمران

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، ص ٤٠ •

والاصلاحات والتعديلات الادارية وبداية السودنة ، وأخيرا مواصلة العمران والتوسع والفتح .

ورغم أن بداية التحديث كانت على يد أجنبية الا أن السودان بدأ يتخذ وضعه الجغرافي الحالي منذ عام ١٨٢١ . وتعرف السودان على العالم الخارجي الحديث أو عرف هذا السودان وانفتح على الغرب وبدأ نظام اداري «حديث» يختلف عن الذي كان سائدا قبل ذلك فخففت الفوارق بين الممالك التي كانت موجودة ، وقلت العصبية بفضل الادارة الموحدة. وأدخل السلاح الناري والمراكب النيلية وبدأت نهضة اجتماعية وثقافية اقتصادية في البلاد .



المرجـــع

(أ) كتب باللغة العربية :

١ ـ زاهر رياض : **السودان المعاصر منـذ الفتح المصري حتى الاستقلال ١٨٢١ ـ ١٩٥٣** (القاهرة ، ١٩٦٦)

(٢) حسن احمد ابراهيم : **محمد علي في السودان** (الخرطوم بلا تاريخ)

(٣) محمد فؤاد شكري :

(١) **الحكم المصري في السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥** (القاهرة ١٩٤٧)

(٢) مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩

(٣) **مصر والسودان** (القاهرة ١٩٥٨)

(٤) مكي شبيكة :

(١) **السودان عبر القرون** (بيروت ١٩٦٥)

(٢) **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ١٩٦٣)

(٥) نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ١٩٦٧)

(٦) عبد الرحمن الرافعي : **عصر اسماعيل** ، الجـزء الأول (القاهـرة ، ١٩٣٢)

البيروني ومنهجه في البحث التاريخي

الدكتور سيد رضوان علي
أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة
الاسلامية في كلية الآداب
جامعة قاريونس - بنغازي

من المعلوم أن أبا الريحان البيروني كان أحد عباقرة العلم في كثير من العلوم البحتة والتطبيقية كالفلك والرياضيات والجغرافيا والطبيعة وغيرها ، ولكن هل كان البيروني مؤرخا وهل له منهج تاريخي ؟ حتى نستفيد منه في اعادة كتابة تاريخ الامة العربية ؟ هـذا ما سأحاول أن أجيب عليه في هذا البحث المتواضع .

الحقيقة أن شهرته كعالم فلكي رياضي طبيعي طغت على شهرته كمؤرخ ، ومن ثم خلت الكتب التي تتحدث عن المؤرخين عن ذكره قديما وحديثا [1] ولم يدرك أهميته كمؤرخ الا القلائل من الناس ،

---

(١) انظر مثلا الضوء اللامع للسخاوي ، ودراسات عن المؤرخين العرب لمارجوليث ترجمة د . حسين نصار ، ومصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه للسيدة اسماعيل كاشف ، ومنهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان .

ومرجع ذلك في اعتقادي أمران اثنان : الفكرة الشائعة عن التاريخ بأنه أخبار الدول والملوك والفتوح أو التاريخ السياسي بتعبير آخر الأمر الثاني عدم وصول بعض كتبه التاريخية الينا وعدم اشتهار ما وصل منها وطبع في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الا لدى الخاصة مثل كتابيه العظيمين : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، « تحقيق ما للهند من مقولة » . ثم وصفهما من قبل بعض الباحثين وصفا ضيقا أي في نطاق التقاويم وذكر الاعياد والعقائد والعلوم .

ولكن اذا سلمنا بأن مدلول التاريخ ليس مجرد تاريخ سياسي أو أخبار السلاطين والملوك وانجازاتهم بل هو تتبع لحياة الشعوب في نشاطاتها المختلفة الفكرية والعملية من عادات وتقاليد ، وثقافة وعلم ، وديانة وشريعة فان المرء الذي ينظر في هذين الكتابين المذكورين لا يجد مناصا من القول بان البيروني كان مؤرخا ، بل مؤرخا ناقدا نافذ البصيرة ، نهج منهجا جديدا في البحث التاريخي في عصره ، بل بعد عصره الى ظهور ابن خلدون .

هذا وقد ألف البيروني كتبا تاريخية أخرى بالمعنى المتعارف المشهور منها مثل « أخبار القرامطة والمبيضة [١] » و « المسامرة في أخبار خوارزم [٢] » واللذان لم يعثر عليهما حتى الان حسب معرفتي ، كما ألف كتابا بعنوان « تنقيح التواريخ » والذي ضاع فيما ضاع من كتبه الكثيرة أصولا ومسودات حسب تصريحه في فهرست كتبه الذي ضمه سخاو الى مقدمته للاثار الباقية وذلك بسبب تنقلاته الكثيرة ،

---

(١) البيروني ، الاثار الباقية ص ٢١١ ، ٢١٣ .

(٢) ذكره ياقوت في معجم الادباء ٣١١/٦ ، واقتبس منه ابو الفضل البيهقي في تاريخه عن الدولة الغزنوية المعروف بتاريخ البيهقي .

والتقلبات السياسية التي عانى منها البيروني • ولعل هذا الاخير كان من أهم كتبه في موضوع النقد التاريخي كما يظهر من اسمه •

ولعل المستشرق فرانز روزنتال كان ، بعد سخاو أول من استأنس ببعض آرائه في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، كما كان الدكتور علي الشابي أول باحث عربي كتب عن المنهج التاريخي عند البيروني في أطروحته للدكتوراه بعنوان « الادب الفارسي في العهد الغزنوي [1] » •

اذن فالبيروني بجانب كونه عالما فذا في العلوم البحتة والتطبيقية مؤرخ وصاحب منهج في البحث التاريخي كما سنتبينه عما قليل •

عصره وحياته الشخصية :

عاش البيروني العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الرابع الهجري والعقود الأربعة الاولى من القرن الخامس الهجري ، وهو عصر التفكك السياسي واضمحلال القوة السياسية المركزية للخلافة العباسية في بغداد، ولكنه بالرغم من ذلك كانت فترة ازدهار علمي حيث أن الدويلات التي قامت في أطراف الخلافة العباسية شرقا وغربا ظلت تحمل تلك الرسالة الحضارية العلمية التي كانت من مميزات الخلافة العباسية منذ نشأتها • بل شهدت هذه الفترة ظهور قوة سياسية جديدة ، في منطقة جديدة في الشرق أي الدولة الغزنوية وفتوحها في داخل الهند • واحتك البيروني بأمراء بعض هذه الدول الصغيرة والكبيرة وشاهد التقلبات السياسية ، وتعرض لحياة التشرد وعدم الاستقرار احيانا ، ولكنه ظل يؤدي رسالته العلمية بهدوء وثبات ، وتفان في العلم غريب •

---

(١) طبع في تونس عام ١٩٦٥ م •

وشهدت هذه الفترة ظهور ثلاثة من عباقرة العلم بالنسبة لتاريخ العلم العالمي ابن سينا وابن الهيثم والبيروني ، ولكن سمي هذا العصر بعصر البيروني من قبل مؤرخ العلوم الشهير جورج سارتون [1] ، لانه أكبر شخصية عاشت في ذلك الوقت .

ولد ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني في ٣٦٢هـ (٩٧٣م) خارج مدينة خوارزم (المعروفة الآن بخيوة) في ضاحية من ضواحيها ، ومن ثم اشتهر بالبيروني وبيرون معناه بالفارسية (خارج) . ولا صحة لما جاء في بعض كتب كطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة أن بيرون هذه مدينة في السند . ويقرر البحث أنها قرية كاث في اقليم خوارزم . وتقديرا لمكانة البيروني العلمية أطلقت حكومة جمهورية أزبكستان السوفياتية اسم مدينة البيروني على تلك القرية [2] .

وتوفي البيروني في مدينة غزنة [3] في رجب ٤٤٠ هـ [4] بعد حياة دامت سبعا وسبعين سنة . وتنقسم حياة البيروني الى فترتين رئيسيتين : الفترة الاولى من ولادته حتى ٤٠٨ هـ في اقليم خوارزم وجرجان ، والفترة الثانية من انتقاله الى غزنة في صحبة السلطان محمود الغزنوي في ٤٠٨ الى حين وفاته بها . وهكذا فنشأة

---

(١) المدخل الى تاريخ العلم بالانجليزية .

(٢) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف حكمت نجيب عبد الرحمن (الموصل ١٩٧٧) ص ٢٢٠

(٣) وأخطأ قدري طوقان في ذكر وفاته بمدينة خوارزم في كتابه العلوم عند العرب في ترجمة البيروني ص ١٧٢ .

(٤) حسب رواية تلميذه وخادمه الخاص ابي الفضل السرخسي صاحب كتاب جوامع التاريخ ، سخاو في مقدمة الاثار .

البيروني كانت في خوارزم وليست في غزنة كما ذكر فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب المطول (ص ٤٦٠) • ولا يعرف عن نشأته واساتذته الا قليلا جدا ، ويتأكد من بعض أبياته الشعرية أنه كان من أسرة عادية جدا ، ولعله حرم من والديه في فترة مبكرة من حياته ، وكان مائلا الى العلم ، محبا للتعلم منذ الصغر كما حدث بنفسه وتعلم اللغة اليونانية من عالم يوناني جاء الى بلاده بطريقة مباشرة أي بالسؤال عن أسماء النباتات والاشياء التي كان يحضرها له [1] ، كما تعلم العلوم الكثيرة من أبي نصر منصور بن علي بن عراق واعترف بذلك في احدى قصائده:

وآل عراق قد غذوني بدرهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا [2]

وعرف من أساتذته أيضا عبد الصمد بن عبد الصمد الأول حسب كلام ياقوت في معجم الأدباء (٦/٣١١) •

وكان يتمتع بذكاء فطري خارق وموهبة عظيمة في الفهم فنبغ مبكرا ، وبدأ يقوم بأعمال الرصد في موطنه الاول وعمره ١٨ سنة ثم في جرجانية (اوركانج حاليا) ونتيجة لهذا النبوغ المبكر حرص أمراء تلك المنطقة دعوتهم اليه فعاش في كنف امارة آل عراق أولا ثم بعد سقوطها انتقل الى امارة آل مأمون بخوارزم أيضا ، حيث ظل يتابع أعماله وتجاربه في الرصد ، وفي حوالى ٣٨٩ انتقل الى مدينة جرجان بدعوة من أميرها العالم الاديب شمس المعالي قابوس بن وشمكير حيث ألف أول كتبه « الآثار الباقية » في ٣٩٠ هـ باسمه ، ولكنه بسبب شراسة أخلاق الامير قابوس وخلافه معه عاد في ٤٠٠هـ الى خوارزم • وبعد

---

(١) علي احمد الشحات : ابو الريحان البيروني ص ٧٣ •

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٣١٣/٦ •

فترة من حياة الشترد ، حيث أكرمه أمير آل مأمون أبو العباس المأمون ابن المأمون غاية اكرام وجعله مستشارا له ، ثم بعد سقوط هذه الامارة أثر هجوم السلطان محمود الغزنوي وحرصه على جمع العلماء في بلاطه انتقل الى غزنة في ٤٠٨هـ .

وفي هذه الفترة الثانية ذهب البيروني عدة مرات الى الهند في صحبة السلطان محمود وبقي بها طويلا [١] وجال في كثير من بقاعها البنجاب والسند وكشمير وحتى نيبال ، حيث تعلم اللغة السنسكريتية العلمية وعددا من اللغات واللهجات المحلية ودرس علوم الهند ومجتمعها، وعلم الهنود الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان الاخرى وكان من نتاج رحلاته الكتاب المعروف « تحقيق ما للهند من مقولة » .

وبعد وفاة السلطان محمود استقر في ٤٢١هـ في غزنة يؤلف ويقوم بتجاربه في الرصد وصنع بعض الالات العلمية ، ومنها آلة لمعرفة القبلة وأخرى لمعرفة ضغط الماء والهواء ، وذلك في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأخيه مودود ، وألف باسمهما البيروني بعض كتبه كالقانون المسعودي في الفلك ، والجماهر في معرفة الجواهر باسم السلطان مودود . .

وتحدث البيروني عن اتصالاته بالامراء المذكورين في قصيدة ذكرها ياقوت قطعة منها في الارشاد ، وطبيعة علاقاتهم معه [٢] ، وأولها:

مضى أكثر الايام في ظل نعمة   على رتب فيها علوت الكراسيا

---

(١) ولكن ليس اربعين سنة كما تذكر كثير من الكتب الحديثة والقديمة . وهو خطأ ظاهر من ناحية التاريخ .

(٢) الجزء السادس ، ص ٣١٢ .

وقبل الانتقال الى الكلام عن مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي ينبغي الوقوف عند نقطتين من سيرة البيروني ، وهما معتقداته الدينية ونظرته القومية حيث أن بعض العلماء من الغرب والشرق وقفوا موقفا معاديا من البيروني حولهما ، وتجنوا على الحقيقة ، واتهموا البيروني جزافا اتهامات باطلة ، ونخص بالذكر منهما المستشرق الروسي المشهور بارثولد في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية حيث اتهم البيروني بعصبيته للقومية الايرانية وميله الى المانوية ، واتباعه المذهب الشيعي ، وتابعه في ذلك فيليب حتى في تاريخه في القول بتشيعه ، وزاد أنه كان يميل الى اللاأدرية وافتتن بفلسفة الهنود أو الهندوس على الأصح •

ويستغرب المرء من هذه الاتهامات الباطلة ازاء أقواله المبثوثة في مختلف كتبه التي تدل على تدينه الصحيح واتباعه للمذهب السني بل وانتقاده لمذهب ماني الايراني ، وفلسفة الهند ، وحبه للثقافة العربية ، وغلوه في هذا الحب الى حد اسراف• ومرجع ذلك كما يبدو عدم امعان النظر في مؤلفاته أو محاولة خلق الانشقاق بين الصفوف الاسلامية وبذر بذور الكراهية والبغضاء بين المسلمين وهو خط دأب على السير فيه كثير من المستشرقين وأتباعهم •

ونرد هذه الاتهامات من كلام البيروني نفسه • يقول في كتاب « الصيدنة في الطب » بصراحة لاغموض فيها : « ديننا والدولة العربية توأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية • وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة الجيل والديلم في الباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم تنفق لهم في المراد سوق ، ومادام الاذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا ، وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف

الأئمة صفا صفا ، ويخطب لهم في الجوامع بالاصـلاح ، كانوا لليدين والفم وحبل الاسلام غير منفصم ، وحصنه غير منثلم [1] » .

فهل بعد هذا يصح اتهامه بالمانوية والعصبية الايرانية ؟

ثم هو القائل فى كلام منطقي عند المقارنة بين اللغة العربية والفارسية ثم في اندفاع وتحمس بالغ للعربية : « فانا فى كل واحدة دخيل ، ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسيـــة ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارس قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به اذ لاتصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسماء الليلية [2] » .

صحيح انه انتقد قتبة بن مسلم فى كتابه « الاثار الباقية » لتدميره مدينة خوارزم واحراق الكتب فيها ، ولكنه في هذا الانتقاد كان مدفوعا بحبه للعمران وللعلم ايا كان واينما كان . ولعل بارتولد انخدع ببحث البيروني عن كتاب ماني « سفر الاسرار » اكثر من اربعين عاما ، ولكن كان ذلك تلبية لرغبته الجامحة فى الاطلاع على تراث الامم الاجنبية من الفرس واليهود واليونان والهنود حسب منهجه فى دراساته المقارنة فى التاريخ والاديان والافكار كأي باحث حق نزيه لكي يصل من تلك المقارنة الى درجة الايقان الكامل فى معتقداته وافكاره عن اقتناع عقلى منطقى ، الامر الذى يتجلى بوضوح فى كتابيه الجليلين « الاثار الباقية » و « كتاب الهند » فى مختلف فصولهما .

---

(١) نقله علي أحمد الشحات في كتابه ابو ريحان البيروني ص ٧٤ .
(٢) كراتشوفسكي ، الأدب الجغرافي ص ٢٥١ ، وانظر ايضا على الشابي المصدر المذكور ص ٣٣٨ .

ولقد حكم بعد حصوله على كتاب « سفر الاسرار » لما في نتيجة بحثه المتواصل له وقراءته اياه قائلا ووجدت الله صادقـــا في قوله : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (الآية الكريمة) ، « ثـــم اختصرت ما في تلك الاسرار من الهذيان البحث والهجر المحض ليطالعها مأووف بأفتى ، وسيجعل الشفاء منها كفعلى [1] » .

وتبرأ من ابي بكر الرازي المغرم بكتب ماني والمنكر للنبوات رغم احترامه لعلمه [2] . وانتقده انتقادا مرا .

هذا يلاحظ من قرأ كتب البيروني انه يكثر من ايراد الآيات القرآنية فيها حتى في الكتب التى لا يتصور المرء فيها وجود مثل هذه الايات ككتاب الجماهر في معرفة الجواهر والاثار الباقية . ولا يتسع المجال لضرب الامثلة هنا .

وقال في الجماهر « وفي اخبار الفرس التى لا تخلو من زيادتهم تفخم أمر الاكاسرة وتفضيل ملكهم والمملكة التي لهم » ، ولا يقول هذا الكلام من يتعصب لقوميته ثم هو الذى الف بحثا بعنوان « رأي العرب في مراتب العدد افضل من رأي الهند » فهل يقال عن مثل هذا انه افتتن بالعلوم الهندية .

اما بالنسبة لاتهامه بالتشيع فيبطل هذا الاتهام من اقوال البيرونى فـــى « الاثار الباقية » حيث رفض رد الشمس لسيدنا علي حتى يصلى

---

(١) مقدمة الاثار الباقية ، رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي صفحة ٣ بالرقم اللاتيني .

(٢) نفس المصدر في نفس الصفحة .

صلاة العصر بقوله : « ومثل ذلك في ردها يحكيه بله الشيعة في أمير المؤمنين علي بن ابي طالب [1] وكذلك أنكر على الشيعة في موضع آخر من هذا الكتاب دعواهم في معرفة الهلال بطريقة حسابية خاصة سرية قائلا : « وعلى ما ذكرنا عملت الفرقة المدعية لبواطن الامور المنتحلة لتشيع الال زعمت انه من اسرار النبوة » • ومثل هذا الكلام لا يصدر عن رجل شيعي • قال هذا الكلام وهو في بلاط قابوس بن وبوشمكير في جرجان ، واما بعد انتقاله الى غزنة الى بلاط السلطان محمود الغزنوي المتعصب لاهل السنة فلا يتصور ان يصحبه في مجالسه وأسفاره رجل شيعي •

كان البيروني بعيدا كل البعد عن التعصب المذهبي ، وذكر قصة طريفة في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر عند الكلام على نوعين من الحجر : الخماهن والكرك ، احداهما ابيض اللون والآخر اسود فقال : « ان الشيعة كانت تتختم بأبيضها والنواصب بابيضها مكان العقيدة والمذهب ، وكنت اجمع بين هذين الفصين في زوج خاتم كيادا للفريقين معا [2] » •

كما قرر الاستاذ المحقق سالم كرنكو الالماني انه كان من أهل السنة [3] •

مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي :

أطلق العلماء القدماء لقب « الاستاذ الرئيس » على البيروني كما

(۱) نفس المصدر السابق ص ٢٤٨ •
(۲) الجماهر ص ٢١٥ •
(۳) الجماهر ، خاتمة الطبع ص ۳ •

عرفه الاوربيون (Maitre Aliboron) وهـي ترجمة لنفس اللقب .
ويجمع المختصون في تاريخ العلوم قديما وحديثا على نبوغه وعبقريته
في عدد من العلوم الفلكية والرياضية والطبيعية والجغرافيا وغيرها ،
وسبق الكلام أن جورج سارتون مؤرخ العلم الشهير سمى العصر الذي
عاش فيه عصر البيروني رغم وجود علماء أفذاذ آخرين في نفس العصر،
أما سخاو ناشر كتبه الاول في القرن التاسع عشر فقد اعتبره أعظم عقلية
عرفها التاريخ وظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية ولا مجال لسرد
آرائهم هنا ، والقارىء يجد هذه الآراء مبثوثة في الكتب الكثيرة عن
تاريخ العلوم في اللغة العربية واللغات الاجنبية ، مثل كتب قدري
طوقان وكتاب الدوميلي ، وعلم الفلك عند المسلمين لنللينو وتاريخ
الادب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي وتاريخ الرياضيات لكاجوري
وغيرها ، وجمع الكثير من هذه الآراء الاستاذ علي أحمد الشحات في
كتابه الحديث عن حياة البيروني [1] ، وهو كتاب قيم فيما يتصل بشرح
بعض نظرياته العلمية ووصف مؤلفاته المطبوعة ، وألف البيروني في
عشرة علوم حسب كلامه في فهرس كتبه ، والقليل يعرفون أنه ألف حتى
في الشعر العربي مثل كتاب مختار شعر أبي تمام ، وفي أدب التسلية
من الروايات الشعبية والتاريخية أو ما يسميه هو « ما يجري مجرى
الأحماض » .

وهكذا كان البيروني غزير الانتاج متنوعه، وظل يؤلف طوال نصف
قرن من ٣٩٠ هـ الى حين وفاته . وشاء حظ التاريخ أن يكون أول
كتبه من ناحية التأليف والطبع والترجمة الى الانكليزية كتابا في

---

(١) البيروني حياته ومؤلفاته ، ص ٢٢٨ ــ ٢٣١ .

موضوع تاريخي أقصد « الاثار الباقية عن القرون الخالية » وهو أحد مؤلفاته الثلاثة الهامة . الآخران « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » المعروف أيضا بكتاب الهند او تاريخ الهند (١) ونشر ادورد سخاو الالماني هذين الكتابين وترجمهما الى اللغة الانكليزية ، الاولى في ١٨٧٨م ، والثانية في ١٨٨٧ وترجمهما الى الانكليزية بعد نشرهما مباشرة ، وله الفضل في تعريف هذا العبقري وانتاجه في العلوم الانسانية الى العالم في العصر الحديث ، أما الثالث فهو القانون المسعودي ، ألفه البيروني باسم السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، وهو في رأي كارلو نللينو المستشرق المتخصص في علوم الفلك أكبر وأدق موسوعة في علوم الفلك والجغرافية الرياضية . نشرته دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد (الهند) في ثلاثة مجلدات .

ويربو عدد مؤلفات البيروني من الكتب الكبيرة والرسائل الصغيرة أو الابحاث العلمية على ١٨٠ كتابا ورسالة والفهرس الذي وضعه البيروني نفسه لمؤلفاته وأبحاثه في ٤٢٧هـ يشمل ١٠٣ كتابا كما ذكر ثماني كتب اخرى وهو في سبيل اتمامها من مسوداتها (٢) وكان من دقته العلمية أنه ذكر عدد أوراق الكثير من هذه الكتب والرسائل ، الامر الذي يفيد الباحث في تقدير انتاجه العلمي تقديرا صحيحا ، فمنها مثلا كتاب الوساطة بين الخوارزمي وأبي الحسن الاهوازي الفلكي في ٦٠٠ ورقة أي ١٢٠٠ صفحة وكتاب جمع الجوامع في شرح السند هند أو الرياضيات الهندية في ٥٠٠ ورقة ، ورسالة في تقاسيم الاقاليم ٣٠ ورقة ، وايضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة ٢٥ ورقة ، وتسطيح

---

(١) واخطأ خير الدين الزركلي في اعتباره كتابا مستقلا عن تحقيق ما للهند كما ذكر من كتبه تاريخ الامم الشرقية وليس له .

(٢) انظر هذا الفهرس في مقدمة الاثار الباقية بقلم سخاو .

الصور وتبطيح الكور في ١٠ ورقات • ونشرت ما لايقل عن عشرة كتب أخرى في الموضوعات العلمية وترجم بعضها الى اللغات الاوروبية •

وتنافست الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثـانية في تكريم البيروني باحياء ذكراه بطرق شتى من اصدار مجلدات تذكارية واقامة الندوات العلمية في الهند وتركيا وروسيا السوفياتية وافغانستان وباكستان وآخرها المؤتمر العالمي الذي عقد في كراتشي في ١٩٧٣م بمناسبة عيد ميلاده الألفي ، كما أطلقت روسيا السوفياتية اسمه على جامعة حديثة في طاشقند ، ونصب تمثـال له في المتحف الجيولوجي بجامعة موسكو ، لان البيروني ولد ، وعاش فترة طويلة من الزمن في المناطق التي تخضع لروسيا كأزبكستان وتركمانستان أو بلاد ما وراء النهر القديمة •

ومنهج البيروني في البحث التاريخي كمنهجه في البحث العلمي ، وهو عين المنهج الذي يسير عليه البحث العلمي في العصر الحديث ، أي الاحتكام الى العقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد والمقارنة • وأصاب الدكتور علي الشابي التونسي في قوله : « بانه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة لا تقبل الرفض أو التعديل الا بقدر ما تسمح به الحقائق العلمية (١) واذا قارنا منهجه بمنهج الطبري والمسعودي ومسكويه وغيرهم من المؤرخين المعروفين أدركنا أنهم لم يوفقوا الى المنهج المتكامل لان ثقافتهم كانت مبنية على العلوم النقلية فقط ، بينما وفق البيروني الى ذلك لمعرفته الشاملة ويقظته

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ •

العقلية وحسه النقدي الدقيق في معالجة كثير من قضايـــا التاريـخ واستكناه عللها والربط بينها .

وأوضح البيروني بعض ملامح منهجه في مقدمة الآثـــار الباقية بقوله : ان أقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفـــة أخبار الامم السالفة وأنباء القرون الماضية لان أكثرهـــا أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهـة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك، وتصيير ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبـات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصـب والتضافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك [1] ».

وبعد التأكيد على منهجه في البحث التاريخي هـــذا من وجوب الرجوع الى المصادر الاصلية والأخذ بالأخبـــار والآراء بعد المقارنـة بموضوعية ونزاهة دون الوقوع تحت وطأة التعصب والافتخار الشخصي أو القومي يؤكد صعوبة هذا المنهج قائلا : « على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعـــده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الأباطيل الـــتي تدخل جمـل الاخبار والاحاديث » ولكنه يقرر في نفس الوقت بعقل منطقـــي علمي عدم رفض الاخبار لمجرد هذا السبب العارض بقوله : « وليست كلهـا داخلة في حد الامتناع ، فتميز وتهذب، لكن ما كان منها في حد الامكان

(١) الاثار الباقية ص ٤

جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر بل قد يشاهد وشوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكي مثلها عن زمان بعيد عهدنا به ثبتنا الحكم على امتناعها [١] » •

ولقد طبق البيروني منهجه هذا بدقة في جميع كتبه التاريخية والعلمية وخاصة في الآثار وكتاب الهند من حيث الرجوع الى المصادر الأصلية في تواريخ مختلف الشعوب ، والنقد التحليلي والمقارنة ونجد في كتابه الاثار الباقية ذكر عشرات الكتب من تراث الامم المختلفة كالمجوس والمانوية واليهود والمسيحيين السريان والأقباط واليونان والعرب وكذلك في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ويمكن استخراج تواريخ هذه الشعوب الاجتماعية من الاعياد والمواسم الموجودة الباقية التي ذكرها البيروني • وأثبت بعد المقارنات العديدة والاستقصاء ما أمكن جداول السلالات الحاكمة في ايران قبل الاسلام وكذلك الملوك الكلدانيين واليونان والروم والبيزنطيين ، وناقش في أصول بعض السلالات الاسلامية الحاكمة في عهده من بني بويه والزباريين والفاطميين ، وأثبت عدم صحة نسبة بني بويه الى الساسانيين ونسبة الفاطميين الى آل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يمنعه الخوف من بطش قابوس بن وشكمير الذي ألف له كتاب الاثار أن ينكر صحة نسبه الى « أصول السيادة [٢] » •

كما أنه وقف من قضايا التاريخ القديم في الأصول الاسلامية موقفا جديدا اثباتا ونفيا ،ومنها مثلا قضية هوية ذي القرنين المذكور

---

(١) نفس المصدر ص ٥

(٢) انظر الاثار الباقية ص ٣٨ و ٣٩

في القرآن الكريم ، وهو عند معظم المؤرخين والمفسرين كالطبري والمسعودي وأبي حنيفة الدينوري والقرطبي والكتاب والجغرافيين كأبن خرداذبة وجعفر بن قتيبة والاسكندر المقدوني بينما اعتبره علماء اليمن القدامى كمحمد بن حبيب في كتابه المحبر والهمداني في الاكليل أحد ملوك اليمن وحدوده بمصعب الهمال الحميري . والبيروني بعد استقصاء هذه الاقوال وغيرها مال الى القول بانه أبوكرب شمر يرعش ، واحتج بظاهر اللقب الذي يكثر في ملوك اليمن المعروفين بالأذواء [1].

ورفض كلام ابن خرداذبة بعد مناقشة علمية من النقد الداخلي في كون سد ياجوج وماجوج في منطقة بحر قزوين الغربية .

وبحث في موضوع التاريخ الهجري فقرر بعد المقارنة والنقاش لأقوال مختلفة أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في الثامن من ربيع الأول ولا يجوز كونها في الثاني والثاني عشر من هذا الشهر لعدم وقوع يوم الاثنين من الناحية الحسابية الا في ذلك التاريخ، وكذلك رفض وقوع عاشوراء عيد اليهود في العاشر من المحرم، والأخبار المروية في صوم النبي عليه السلام في هذا اليوم لأنه يوم نجاة موسى وبني اسرائيل من الغرق بطريقة رياضية عجيبة مقنعة ، واعتبر الروايات الواردة في هذا الموضوع من عمل محدثي العوام أو مسالمة أهل الكتاب [2] .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠ ـ ٤١ ، ويعتبره المرحوم مولانا ابو الكلام ازاد في تفسير للقرآن الكريم باسم ترجمان القران الملك الايراني القديم كوروش أو سائرس ، وكذلك رأى مولانا ابي الاعلى المودودي في تفسيره تفهيم القرآن ببعض التحفظ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ٣٣٠ .

وهكذا أخضع تواريخ الاحداث لعملية رياضية للتثبت منهـا وما أحوجنا الى مثل هذا الاسلوب العلمي الرياضي في كثيـر من قضايا تاريخية .

ومن ناحية أخرى طبق أصول البحث في الطبيعة في بعض قضايا تاريخية أخرى ولم يرفضها لمجرد غرابتها ، ومنها قضية الاعمار الطويلة في الامم السالفة ، وما ورد منها في القرآن الكريم مثل عمر نوح فأثبت صحة عمره الطويل الوارد في القرآن بطريقة علمية بحتة دون الاعتمـاد على الروايات والتفاسير ، واعتبر اولئك الـذين يرفضون مثل هـذه القضايا من أغمار الحشوية ونوكي الدهرية ولا يتسع المجال هنا لايراد مناقشته فليراجع كتابه الاثار الباقية (ص ٧٨ ـ ٨٠) .

كما أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الاجنبية في البحث العلمي عامة والبحث التاريخي فتعلم عددا من اللغات كاليونانية والعبرية والسريانية بجانب اللغة التركية والفارسية والعربية ويذكر أسماء الاحجار الكريمة في هذه اللغات المختلفة في كتابه الجماهـر في معرفـة الجواهر ، وهو الوحيد من بين علماء العرب والاسلام في عصره وقبل عصره من تعلـم اللغة السنسكريتية واللغات الهندية الاخرى لدراسـة آداب وتقاليد وعلوم الهند ليقدم لنا دراسة فذة رائعة في الموضوع في كتابه الجليل « تحقيق ما للهند من مقولة » . ويترجم العديد من كتب السنسكريتية، ويعيد ترجمة كتاب سدهاتنا أو السند هند .

وهو في كتابه هذا لم يكن مجرد ناقل كما قال البعض ، ولا مفتتنا بعلوم الهند بل مؤرخا عالما ناقدا بصيرا مستقل التفكيـر . وهو القائل بمناسبة ذكر آراء علماء الهند في الأرصاد في كتـابه تحديد نهايـات

الاماكن « ويجب أن أعير هذا الكلام بجميع وجوهـــه ، فاني لا آبي قبول الحق من أي معدن وجدته »[1] .

وانتقد منهج علماء الهنود قائلا : « ومن طالع أعمالهم وجدها من البعد عن التحقيق بحيث لا يثق في أرصادهم بادعـــاء تدقيق ، ولكن القوم بسبب نزوح ديارهم وشدة كتمانهم ، وضنهم على الشـــيء النزر يراحون رائحته ، واعتقاد العامة فيهم الحكمة مع خلوهم عنها ، وسهولة تلك الاعمال بالقياس الى المحققة ، قد كثر متعصبوهم الذين لا يلتفتون الى عيان ولا يكترثون ببرهان ، ومنهم محمد بن علي المكي على ما ذكر في المدخل الى أحكام النجوم »[2] .

وفضل البيروني منهج علماء اليونان في البحث العلمي على منهج الهنود في آخر كتاب الهند ، وذكر أيضا سبب تأليف كتابه هذا قائلا : « فقليل منهم من يشتغل بالتحقيق اشتغال الطبيعيـــين من اليونانيين ، بالبحث عنها وعن مائية الاثار العلوية ، وانهم لا يخلون بكـــلام القوام بملتهم ، ونستغفر الله في الحكايات الا عن حق ، ونستوثـــق للاعتصام بما يرضيه ، ونسترشده الى الوقوف على الباطل لنتقيه »[3] .

وأختم كلامي بنصيحة هذا العالم العبقـــري والمـــؤرخ الحق ، وجهها الى الفلكيين ولكنها نبراس لكل باحث يعمل في أي حقل علمـــي حيث قال : « ويجب أن يتيقظ الراصد ويديم في أعماله ، واتهام نفسه ، ويقلل العجب بها ، ويزيد في الاجتهاد ولا يسأم »[4] .

والله ولي التوفيق .

---

(١) تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات الاماكن ص ٨٣ .
(٢) نفس المصدر في نفس المكان .
(٣) تحقيق ماللهند من مقولة ص ٥٤٧ .
(٤) تحديد نهايات الاماكن ص ٨٠ .

مراجع البحث

أ) كتب البيروني :

١ ـ الاثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق ادورد سخاو

٢ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م

٣ ـ تحديد نهايات المساكن لتصحيح مسافات المساكن ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ انقرة ١٩٦٢ م

٤ ـ الجماهر في معرفة الجواهر ، تحقيق سالم كرتكو ـ حيدر آباد ، الهند

٥ ـ التفهيم لاوائل صناعة التنجيم، طبعة رمزي رايت المصورة معالترجمة الانجليزية ١٩٣٤ م

ب) الكتب الاخرى :

السخاوي : الضوء اللامع

ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء

ياقوت : ارشاد الاديب طبعة مارجوليوت

محمد بن حبيب : المحبر ، حيدر آباد ـ الهند

حمزة الاصفهاني : تاريخ سني ملوك الارض ـ بيروت ١٩٦١ م

الطبري : تاريخ الطبري . طبعة دار المعارف ، القاهرة

المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد

خير الدين الزركلي : الاعلام (١٠) أجزاء

نللينو : علم الفلك عند المسلمين ــ روما ١٩١١ م

كراتشوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم

فرانزروزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلي

قدري طوقان : العلوم عند العرب

قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات

قدري طوقان : مقام العقل عند العرب

بارتولد : الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر

فيليب حتى : تاريخ العرب المطول

الشحات علي احمد ، ابو الريحان البيروني ، حياته ومؤلفاته ، القاهرة ١٩٦٨ م

علي الشابي : الادب الفارسي في العهد الغزنوي تونس ١٩٦٥م

حكمت نجيب هاشم : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ م

المراجع الأجنبية

Ameer Ali , History of Saracens . London .

Bernard Lewis and P.M. Holt , Historians of the Middle East . London . 1964 .

Brockelman, C and Widman . Article al - Biruni in Encyclopedia of Islam . New edition . London .

Bosworth, C.E. The Ghaznawids , 2nd ed . Beirut . 1973 .

Nasr, Hussein, Islamic Science . London . 1976 .

Elgood, C. Islamic Science in Lagasy of Persia ed. by A.J. Arbery . London .

Savory, R.M. Islamic Civilisation . London . 1976 .

Savory, R.M. Article : Land of the Lion and the Sun in the World of Islam ed. by Bernard Lewis . London 1976 .

حول طبيعة الاستشراق

ساجدة عمر فوزي
العراق

صدر في لندن عن دار راتلج في الشهر الماضي كتاب الاستاذ ادوارد سعيد عن« الاستشراق » • وقد أثار الكتاب حال صدوره ضجة علمية وصحفية سبقها في أن هذا الكتاب يمثل أول مبادرة عربية علمية تتصدى لمعاهد الغرب الفكرية والتي ادعت لنفسها مهمة احتكار تدريس وتفسير وتصحيح أفكار العرب والمسلمين • وعليه فقد شعر كتاب الغرب بالقلق [١] وبات لديهم أن هذا الكتاب هو بادرة أولية لمثقفي المشرق في محاولة الأخذ بزمام مصائرهم واعادة النظر في تاريخهم وما كتب عنهم •

والاستاذ أدوارد سعيد غني عن التعريف فهو فلسطيني الأصل مقيم حاليا في الولايات المتحدة ويعمل كاستاذ الادب المقارن والنقد الادبي في جامعتي برنستون وكولومبيا • وقد شغل قبل ذلك وظيفة

---

(١) راجع مراجعة باتريك سييل في الاوبزرفر
P. Seal : in the Observer .

استاذ زائر للادب المقارن في جامعة هارفارد • ويحمل رسالة معهـــد الدراسات البشرية المتقدمة في ستانفورد •

وقد حصل كتاب ادوارد سعيد الموسوم « الاغراض والمقاصد في علم البدايات » الصادر في عام ١٩٧٦ على جـــائزة لينونيل تريلينـــك السنوية التي تمنحها جامعة كولومبيا لبحوث الدراسات النقدية •

وكتاب « الاستشراق »يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجـم الكبير • ويتصدى لبحث المعضلة التالية : ـ

أولا : ان الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب خاصة وان بدايات «علم» الاستشراق ظهرت وتطورت أثنـــاء الضعف السياسي والحضاي للشرق •

ثانيا : ان الاستشراق هو «تقليد» وليس علم • أو بكلمة أحسن ان الاستشراق يقوم على مجموعة تقاليد رافقـت فترات الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات هذه التقاليد التي عززت الطـابع العنصري والعداء الديني «للاقوام» (Nations) المستعمرة ••

ثالثا : ان تطور الاستشراق وتحوله على الشكـل العلمي النهائي أوقع المستشرقون في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية الـتي تفتقرها طبيعة البحوث الاجتماعية • وحتى اذا ما سلمنـا بامكانيـــة التجرد والموضوعية (وهذا مستحيل حيث يقع الباحث الاجتماعي تحت طائلـة الالتزام الادبي أو الاستمتاع الشخصي • كما تلعـب القيود الاجتماعية والالتزامات السياسية دورا مكملا تمنح مسألـــة الموضوعية والتجرد التي تتحلى بها بحوث الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية) • فان الاساس

التقليدي لبحوث الاستشراق يتنافى على الاطلاق مع مسألة التجرد العلمي •

ويعود ادوارد سعيد هنا ليؤكد أن التحيز العلمي أو البعد عن الموضوعية هو أمر قد لا يكون سيئا في جميع الاحوال •

ولبحث هذه المقولة ينصب الكتاب وينقسم الى ثلاثة أقسام متبعة التسلسل التاريخي لنشوء الاستشراق : كما يصاحب هذا التحليل التاريخي دراسة نظرية موازية لدوافع الاستشراق • ينتهي في النهاية الى أن الشرق هو جزء اساسي لتراث الغرب المادي وحيث أعطى الشرق للغرب من المقارنة والهوية التفوقية للحضارة الغربية • كما حصر سعيد دراساته على الاستشراق الانكلو ـ فرنسي والمدارس الاستشراقية الاميركية المعاصرة • وبذلك حرم الكاتب نفسه (وحرم القارىء كذلك) من فرصة دراسة الاستشراق الروسي والمدرسة الالمانية • ويبرر سعيد هذا (القصور !!) من أن الاستشراق هو وليد علاقة عضوية (اساسها الهيمنة والتسلط السياسي ـ والحضاري) بين الغرب والشرق • وان مثل هذه العلاقة تنقص الالمان وفقهاء الروس • ولذلك فان المثال الكامل للاستشراق يكمن في العلاقة البريطانية الشرقية التي سادها جو التملك (فالبريطاني مثلا يعتبر نفسه مسؤولا عن تثقيف وفهم السكان المحليين نظرا لكونه السيد المالك) من جهة والعلاقة الفرنسية الشرقية التي تمتاز بالنزعة التصوفية نظرا لعقدة الحرمان التي لاقاها الساسة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر والتخلي عن «جواهر» الشرق • وبالتالي فان الفرنساوي يعتبر أن دوره في دراسة الاستشراق هو دور الباحث عن الحقيقة وليس غيره •

لقد رافقت حملة نابوليون على مصر من جهة وبدايـات الطموح البريطاني في السيطرة على أجزاء الجسم العثماني المريض دعوة لدراسة وفهم طبائع وأذهان وعادات سكان وأجناس هذه المناطق • وبذلك نصب الغربي نفسه واليا وشفيعا ليفتي ويتفقه ويكون النظريات حـول طبائع السكان •

لقد اقترن الشرق وفكرة الشرق بمفهوم الخطر الاسلامي الداهـم ولذلك فان الطابع الدفاعي لهذه الدراسات والحـاجة الى الاقتصاص والثأر من العرب والمسلمين صبغت تلك الدراسات القـديمة وأثرت في تكوين الفكر الاستشراقي الحالي •

وهذا يفسر الهجوم الشرس الذي مارسه كتاب تلك الفترة والذي اقتصر على العرب والمسلمين دون سواهم من شعوب هذه المنطقة •

لقد أورد ادوارد سعيد مقتطفات عديدة جـدا من دراسات تلك الحقب وخلص منها الى كيفية صياغة الجذور الاساسية لعلم الاستشراق: ففي « البليوغرافيا الشرقية » لـ داربيلو والمنشورة في ١٦٩٧ جاء تعريف الاسلام بما يلي (الاسلام : هو اسم لمدعي النبوة والذي سمي فيما بعد بمحمد وهو مؤلف الهرطقة المعروفة والمسماة باسمه) •

والذي يهم ادوارد سعيد هنا هو أن كلمة المحمديين لم تطلـق الا بقصد تجريد الاسلام من أي محتوى والصاقه فيما بعد باسم شخصي • والسبب هو غيظ وكره المستشرقين من ادعاء « شعوب هـذه المنطقة » بأي اجتهاد روحي •

لقد تكون الشرق عن طريق خيال الغرب ، منهـم الذين صاغوه

وكونوه وكل ما كتب في تلك الحقبة وحتى بدايـــات القرن العشرين انما جاء ليؤكد ويثبت الصورة التقليدية • واذا ما كان هناك اختـلاف بين حقيقة الشرق وما كتب عنهم في الغرب فذلـــك مرده الى خطأ في الشرق وليس لسوء فهم الغرب •!! أما اختلاف المستشرقـين فليس الا تأكيدا لماهية وشخصية الشرق •

وعندما زار برتون فلسطين ولاحظ اختلاف الواقع عن ما قرأه عمد فجأة الى وصف فلسطين بانها المكان الذي يسوده المـوت • ان تعريف الموت هنا يشير الى خيبة برتون في العثور على ما يدلـــل على جمود المسلمين وتفسخ العرب (المعهود !!) ولذلك وبـــدلا من أن يقـرر الحقيقة ، عمد هذا الى الرجوع الى ذاكرته وبدأ يصف ويؤكد خيـال الغرب دون حاجة الى فتح عينيه ورؤية الواقع •

لقد انتقل الاستشراق الى مجال البحث (العلمي) في بدايات القرن الثامن عشر باحد ثلاث طرق : ــ

١ ــ الترجمة المباشرة وتصنيف المواد المترجمة ويرجع الفضل هنا الى سلفستر دساسي الفرنساوي وادوارد وليم لين • وساهم الاول في وضع قواعد اللغة العربية ومؤلفه معروف كما ألف مؤلفات قصيـرة عن «ديانات العرب والدروز» • لقد وصف هذا روعة الشعر العربي بأنـه يقصر عن اللحاق بالتكامل الغربي الذي بلغ من الكمال ذروته •

أما ادوارد لين مترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» الى الانكليـزية ، والذي يهم هنا أن هؤلاء باحتكارهم فهم « دين الاهالي » وتمكنهم من المنطق بلغات مختلفة ركزوا الصورة العنصرية المتخلفة للشـرق وأصبح الشرق ملكا للغرب بصورته النهائية وعند بداية تطور علم اللغة واللفظ

وجد «المستشرقون» في شخص رينان فرصـــــة في تصنيف وترتيب الشرق • وذلك عن طريق ارجاع اللغات الى جذور معينـة أولا وربط حضارات الاقوام بتلك الجذور ثم عملية مقارنة مدى وحشية وبدائيـة هذه الاقوام مقاسة ببدائية جذور لغاتهم خلص في نهايتها رينان الى أن الحضارة السامية تعتبر بدائية جدا اذا ما قورنت بالحضارة الاوروبية • حيث يقول : (ان الفرق «بيننا وبينهم» هو كالفرق بين الصورة الزيتية و «شخابيط قلم الرصاص •••!!»

وهذا يفسر تقدم موضوع علم اللغات الشرقيـــة في مـدارس الغرب •

لقد تركز علم الاستشراق وتطور فبعد أن استخدم تكنيك التحليل اللغوي في تصنيف الاجناس اكتشف الغرب أهمية (علم الجغرافيـا في تطبيقه على أقوام المنطقة) وقامت حركة واسعة لمسح الاراضي ووضـع الحدود لكل قبيلة وشعب وذلك للحفاظ عليها من الضياع •

ويصف الاستاذ سعيد في الفصول النهائية من الكتـاب مهمـة المستشرق في انتقاله من دور الباحث العلمي الى دور المستشـار الذي يضع علمه في خدمة الامبراطورية ويساهم في استقرار وازدهار المنطقة كما يساعد تجنب «الفتن» في الانتقال من المرحلـة الكولونيالية الى الاستقلال الذاتي •

وهنا ينتقل الاستشراق من مرحلة الصراع الفكـري والتسلط القبيح الى دور التعاون الودي والدعوة الى فهـم « الاسـلام » والمسلمين•

لقد لعب كلا من «هاملتون جب» و«ماسنيون» الدور الاساسي والهام في اغناء تراث الاستشراق كما ألفت كتابات هؤلاء حجر الاساس ومصدرا ضخما وقيمة علمية كبيرة جدا .

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد واعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهروه في دراستهم للاسلام فان له ملاحظات يمكن حصرها بما يلي : ـ

لقد طبعت دراسات « جيب » وارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية كما أنها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعلائي ، كما أن اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى . ان مقتطفات سعيد عن جب ، وخاصة بالخلاصة التي مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الاوسط للاستفادة من تمدن الغرب وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ، ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة .

أضف الى هذا ارتباط السيد هاملتون جب بالمعاهد المشبوهة مما يقلل من وثوق وصلابة التزامه العلمي . أما ماسنيون فلم يتخلص هذا من ميوله «الكاثوليكية» التي تتجلى في اصراره على اعتبار الحلاج كمسيح جديد بثوب اسلامي ومحاولة المسلمين الى التشبه بالمثل المسيحية في التضحية .

وفي الفصل الاخير تكمن قيمة هذا الكتاب . لقد ابرز سعيد موقف المستشرقين المعاصرين العدائي والمغلف بالطابع العلمي لكل ما هو عربي واسلامي خاصة بعد حرب ١٩٦٧وظهور العرب كقوة اقتصادية دولية .

ولم يكف المستشرقون ــ كما يقول ادوارد سعيــــد ــ وخاصة برنارد لويس عن الطعن بالاسلام « الاسلام أداة عنصرية » ، والتسخيف بالقيم الحضارية الحديثة «كاصرار لويس على القول بأن الثورة هي من « ثوران وهيجان » التي لها محتوى « جنسي وحشي » • ومهما بالغنا في السرد فلسوف نظل قاصرين عن ابراز أهمية هذا الفصــل • خاصة في فضح دور المستشرقين المحدثين أمثـــال فاتوكيوتوس ولويس في تجريد المفهوم القومي العربي من أي محتوى ومن ثم الانقضاض علــى الاسلام كرمز وحشي ينبغي تثقيفه • وخير مثـــال هو ما أورده سعيد (ضمن أمثاله العديدة جدا) حول مفهــوم فاتوكيوتوس « بان الثورة العربية هي مفهوم جنوبي تمتاز به الشعوب الجـائعة الفقيـــرة • وان الفكرة القومية المستوردة التي يتبجح بها العرب ما هي الا خطر يهــدد كيانهم وصحتهم !! » •

ويخلص الكتاب الى ما يلي : ــ

١ ــ انه لا زال التسلط الحضاري قائما بدلالة الاتجاه الثقافي الى الغرب عن طريق المبعوثين والوفود •

٢ ــ بدأت الآن بوادر الانتقال المكاني للاستشراق الى الولايــات المتحدة بعد زيادة عدد طلبة دراسات اللغة العربية والتاريخ الاسلامــي الموفدين الى اميركا •

٣ ــ ان العالم الشرقي لا مكان له في الغرب وأكثــــر مايقوم به هناك هو دور المعرف والمخبر تاركا دور البحـــث والتحري الى سيده الغربي •

ان هذا الكتاب جدير بالدراسة وهو ضرورة لكـــل من يــروم الذهاب الى الغرب لدراسة تراث الشرق !!!•

العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام

١٩٠٠ - ١٩١٤

الدكتوراه سميليانسكايا
معهد شعوب آسيا وافريقيا - اكاديمية العلوم السوفياتية - موسكو
ترجمة : الدكتور نوري عبد البخيت
جامعة البصرة

بدأ الاهتمام باسواق بلاد الشام كسوق لتصريف المصنوعات والبضائع الروسية منذ نهاية القرن التاسع عشر فقد شهدت روسيا في تلك الفترة تطورا سريعا في الانتاج الصناعي مما دفعها للبحث عن اسواق خارجية لتصريف منتجاتها الصناعية • وكانت بلاد الشام احدى تلك المناطق التي اتجهت انظار البرجوازية الروسية اليها • وقد شهدت العلاقات التجارية ما بين روسيا وبلاد الشام نتيجة لذلك نموا متزايدا باعتبارها جزءا من نمو العلاقات التجارية الروسية العثمانية • وفي سنة ١٩١٠ كانت تجارة بلاد الشام تكون سدس التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية، اما بعد خروج سلانيك ومجموعة جزر الارخبيل من الامبراطورية العثمانية فقد ارتفعت نسبة تجارة بلاد الشام الخارجية الى الربع مما يشير الى أهمية السوق السورية بالنسبة للسوق العثمانية • ويوضح الجدول الآتي أهمية التجارة الروسية في أسواق بلاد الشام

البلد المصدر	الاسكندرية	طرابلس	بيروت	صيدا	عكا	حيفا	يافا	اللاذقية	المجموع
انكلترا	٥٢٥٩٦٤	٤٠٩٢٢	٧٠٦٧٠١	١٢٢١٨	٩٤٨	٦٠١١٥	٧٥٥٠٨	٢٥١	١،٤٢٢،٦٢١
مصر	١١٢٦٦٢	٥٤٤٩٩	١٥٣٧١٦	١١٤٩٨	٧٧٦٣	١٨١٨٥	٩٣٣٠٦	٣٠٨٠	٤١٩٧٠٩
النمسا	١٣٢٩٨٩	٢٠٤٦٠	٢٣٤٠٧٥	٥٤٠٩	—	٢٤٣٢٧	٨٣٢٩٧	١٤٥٨	٥٠١٠١٥
فرنسا	٧٤٤٩٣	٩٧١٥	٢٩٣٦٨٩	٦١٣	٧٩٨	١٢١٧٤	٥٢٨١٥	١٢٦٣	٤٤٥٥٦٠
روسيا	٣٧٧٩٠	٥٢٧٥٠	١١٤٧٦٣	٤٠٩٦	٤٤٠٨	١٣١٤٩	١٠٨١٠٧	١٨٤	٣٣٥٢١٧
ايطاليا	٥١٤٨٩	٨٥٦٠	١٦٤٣٨٩	٩٠	٣٤٩	١٦٠٨٩	٤٥٨٠٩	—	٢٨٦٧٦٨
المانيا	٢٩٥٠٠	٦٨٧٣	١١٣٩١٥	—	١٦٨	٤٤٥٦	٤٦٥٥٣	٢٦١	٢٠١٧٣٤
بلجيكا	٢٤٨٧٥	٦٢٧١	٩٣٣٤٢	١١٧١	—	٩٤٣٥	٣٧٧٥٤	٢٥١	١٧٣٠٩٩
هولندا	٦٢٥٤	—	٣٥٧٩١	—	—	٧٥٧	١٠٢٥٢	—	٥٣١٥٤
رومانيا	٥٣٢١	١٨٣٤	—	٧٣٢٠	١١٨٣	٦٠٥٨	٢٧٢٣٨	—	٤٨٩٥٤
الولايات المتحدة	٧٧٧	٨٥٠	—	—	—	٢٢	٨٦٦٥	—	١٠٣١٤
حكومات اخرى	٢٨١٩	—	٦٦٢٧	١٨٨٥	١٠	٩٩	٦٨١٦	٤٦٦	١٨٨٤٢

بالنسبة لبقية الدول الاوروبية[1] اذ يظهر ان التجارة الروسية قد احتلت المرتبة الخامسة في تسلسل تلك الدول التي لها علاقة تجارية مع بلاد الشام فقد احتلت انكلترا المكان الأول ثم النمسا وفرنسا ومصر وروسيا • ولقد شكلت الصادرات الروسية الى بلاد الشام في الفترة من ١٩١٠ ـ ١٩١١ نسبة ١٣٪ من مجموع الصادرات الروسية الى بقية أرجاء الامبراطورية العثمانية • واذا أخذ بنظر الاعتبار أن مجموع الصادرات الروسية الى كافة أجزاء الامبراطورية العثمانية في عام ١٩١١ كانت نسبتها ١ر٢٪ من مجموع الصادرات الروسية بصورة عامة فان مكانة سوق بلاد الشام بالنسبة لتجارة روسيا الخارجية تمثل الحد الادنى • ولكن هذه الارقام لا تعطي فكرة عامة واضحة عن سوق بلاد الشام بالنسبة لعدد كبير من المنتجات الصناعية الروسية فان انخفاض الصادرات الروسية للامبراطورية العثمانية توضحها الصفة الغالبة على التجارة الروسية الخارجية والتي تكون المواد الزراعية نسبة عالية فيها خصوصا اذا علمنا بان بعض اقطار الامبراطورية العثمانية تصدر في بعض الاحيان ما يفيض عن حاجتها من منتجات زراعية • ان المنتجات الصناعية الروسية المصدرة للاسواق العثمانية مثل السكر والكحول وصناعة الفلزات والاحذية المطاطية والاقمشة تحتل الدرجة الاولى ضمن قائمة الصادرات الروسية للاسواق العثمانية ويندرج تحت هذه القائمة نفط باكو الذي تعتبر الدولة العثمانية سوقا هامة له • لقد بدأت الصادرات النفطية الروسية للاسواق العثمانية في التطور بعد الثمانينات من القرن التاسع عشر • ومنذ سنة ١٩١٤ دخلت الشركات النفطية الروسية في صراع عنيف مع المؤسسات النفطية الاميركية مثل « ستاندر

---

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٢٢ ورقة ١٠١ •

اويل كومبني » . وكذلك مع شركات نفط غاليسيا ورومانيا . وعلى الرغم من انخفاض كميات انتاج النفط في روسيا فقد ازدادت الكميات المصدرة منه للاسواق العثمانية بعد عام ١٩٠٤ وحتى سنة ١٩١٤ ، حيث وصلت هذه الزيادة الى الضعف . وقد بلغت نسبة الواردات من النفط الروسي للاسواق العثمانية ١١٪ من مجموع الواردات العامة للامبراطورية العثمانية سنة ١٩٠١ وارتفعت نسبته الى ٤٢٪ سنة ١٩٠٨ والى ٣١٪ في عام ١٩١٢ . وقد احتل النفط الروسي المركز الاول في اسواق الدولة العثمانية للفترة الممتدة من ١٩١٠ ـ ١٩١١ فقد اصبحت نسبته تكون ٧٠٪ من مجموع الواردات العثمانية من النفط . وقد انعكست الحالة نفسها في أسواق بلاد الشام ، فحتى الثمانينات من القرن التاسع عشر كان النفط الاميركي يحتل المكانة الاولى هناك . وبعد هذه الفترة بدأ نفط باكو يأخذ مكانة في اسواق بلاد الشام بكميات كبيرة ولكن النفط الاميركي والروماني والهنغاري بدأ ينافس النفط الروسي في سنة ١٩٠٥ ، ومع ذلك فقد حافظت المنتجات النفطية الروسية على موقع الصدارة في أسواق بلاد الشام . ويوضح الجدول الآتي كميات النفط المصدرة الى بلاد الشام والدول المصدرة بآلاف البود [١] للفترة الزمنية ١٩١٠ ـ ١٩١٣ .

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤٨ ورقة ٢٧ .

البلد المصدر	السنة ١٩١٠	النسبة المئوية	السنة ١٩١١	النسبة المئوية	السنة ١٩١٢	النسبة المئوية	السنة ١٩١٣	النسبة المئوية
روسيا	٢٩٧١٦٩٠٠	٧٢,٥	٢٣٥٣٩٩١٥	٥٤	١٢٧٧٢٤٩١٥	٥٤,٥	٣٦٤٧٦١٨٠	٦٧
امريكا	٤٤٢٥١٩٠	١١,٥	١٠٤٤٤١٤٠	٢٤	١١٢٢٠٩٠	٤,٩	٨٥٠٦٢٦٠	١٦
رومانيا	٥٩٩٤٣٢٠	١٥,٠	٩٤٠٨٥٢٥	٢٢	٨٩٨٥٤٩٠	٤٠,٦	١٣٠٧٢٢٩٥	١٧
النمسا	—	١,٥	—	—	—	—	—	—
المجموع العام	٤٠٣٦٤١٠	١٠٠	٤٣٣٩٢٥٨٠	١٠٠	٢٢٨٣٢٤٩٥	١٠٠	٥٨٠٥٤٧٣٥	١٠٠

ومن هذا يتضح ان روسيا القيصرية قد حافظت على موقع الصدارة بالنسبة للصادرات النفطية الى اسواق بلاد الشام حتى الحرب العالمية الاولى .

ومن المواد الغذائية المصنعة يحتل السكر الناعم ضمن الصادرات الروسية موقعا مهما في اسواق بلاد الشام فقد تطورت صناعة السكر في روسيا بعد الثمانين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ففي ١٨٨٠ ـ ١٩٠٣ ازدادت كميات السكر المنتجة من ١٢ر٤٠٠ بود الى ٦٣ر٥٣٨ ألف بود . وفي سنة ١٩١٣ وصل الانتاج الى ٩٣ر٠٩١ بود [٣] . وقد جاءت هذه الزيادة في انتاج السكر نتيجة لازدياد الطلب على السكر في السوق الداخلية اضافة الى ازدياد الطلب عليه في الاسواق العالمية . وكان السوق العثماني جزءا من تلك الاسواق العالمية والتي تستهلك حوالى ٩ ملايين بود من السكر في السنة [٤] . يوضح الجدول الآتي تطور صادرات السكر الروسي الى الاسواق العثمانية [٥] .

صادرات السكر من روسيا بآلاف البود

السنة	مجموع المستورد من السكر الروسي للاسواق العثمانية	مجموع السكر المصدر من روسيا بصورة عامة
١٩٠١	١٥٣٩	٤٩٢٥
١٩١١	٤٢١١	٢٣٢٢٩
١٩١٢	٣٢٠٣	١٧٨٨٣

(٣) خراموف ـ التطور الاقتصادي في روسيا في القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، موسكو ١٩٥٠ ص ١٩٤ (باللغة الروسية)
البود ـ وحدة وزن مصرية تساوي ١٦ر٣٨ كغم .

(٤) ليسنكا ـ الشرق الادنى ص ٢١٩ .

(٥) استعراض تجارة روسيا الخارجية في آسيا وأوروبا حتى سنة ١٩١٢ ، بتروغراد ١٩١٣ ص ١٢ .

ويتضح من الجدول السابق أن روسيا القيصرية سدت حاجة ثلث السوق العثماني من مادة السكر في عام ١٩٠١ • وبحلول عام ١٩١١ ازدادت نسبة السكر المصدر الى بلاد الشام بحوالى ٢ر٧ مرة مع العلم أن صادرات روسيا من السكر انخفضت بصورة عامة حتى أصبحت تشغل خمس مجموع الصادرات العامة • وشغل السكر الروسي المرتبة الثانية في أسواق بلاد الشام بعد السكر المستورد من امبراطورية النمسا والمجر ففي بيروت ودمشق وطرابلس وحيفا كان نصف السكر المستورد يأتي من روسيا • وتستورد الاسواق العثمانية مواد مصنعة اخرى من روسيا أشهرها الكحول المستوردة من جنوب روسيا • فقد بلغت نسبة الكحول المصدرة الى هذه الاسواق في سنة ١٩١١ ٥٠٪ من مجموع صادرات روسيا من هذه المادة [٦] • وشغل الكحول الروسي في سنة ١٩٠٩ نسبة ٨٠٪ من مجموع الكحول المصدرة للدولة العثمانية [٧] • ولكن هذا الوضع تغير في سنة ١٩١٢ بسبب منافسة الكحول النمساوي ــ المجري للكحول الروسي في أسواق الامبراطورية العثمانية • وحتى سنة ١٩١٢ سيطر الكحول الروسي على اسواق بيروت ودمشق فقد صدر الى بيروت في عام ١٩١٠ من مجموعة ٤٨ر٨٠٠ بود كانت حصة روسيا من ذلك ٣٩٢١٤ بود وبلغ مجموع المستورد من الكحول في سنة ١٩١١ ، ٦٦ر٥٣٨ بود ، كان الكحول

---

(٦) استعراض تجارة روسيا الخارجية مع اوروبا وآسيا (بالنسبة للسكر الناعم) •

(٧) مجلة الصناعة والتجارة سنة ١٨٠٩ عدد ١٨ بتروغراد ١٩١٩ حتى سنة ١٩١٢ بتروغراد سنة ١٩١٣ ص ١٣ •

الروسي يؤلف ٥٤٢٤٢ بود منه • في سنة ١٩١٢ فلم يصل الى دمشق الا الكحول الروسي فقط [٨] •

وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى ضعف مركز الدقيق الروسي في الاسواق العالمية لكن اسواق بلاد الشام لم تتأثر بذلك فقد بلغت قيمة الدقيق المصدر الى بلاد الشام للفترة ١٩١٠ – ١٩١١ اربعة ملايين قرش وكان ثلث المبلغ من نصيب روسيا [٩] علما بان سعر الدقيق الروسي كان أغلى من سعر الدقيق المستورد من البلدان الاخرى •

ولقد ازداد عدد الطواحين البخارية في بلاد الشام منذ بداية القرن العشرين واخذت بلاد الشام تصدر الفائض من انتاجها المحلي من الدقيق ، وذكر القنصل الروسي في دمشق ان الدقيق الروسي اختفى من أسواق بلاد الشام وفي سنة ١٩٠٨ كان كل ما وصل الى ميناء بيروت لا يزيد عن ٨٠٠ كيس من الدقيق فقط [١٠]• وفي سنة ١٩٠٨ كان مجموع ما وصل الى ميناء بيروت ١٥٨٠٧ بود من الطحين المشحون من ميناء اوديسا الروسي [١١] وعلى هذا الاساس فان المواد المصنعة في جنوب روسيا وأهمها السكر والكحول والمعجنات والطحين والصناعات المعدنية من القفقاس وخاصة النفط كان لها مكان متميز في أسواق الامبراطورية العثمانية والتي تعتبر أسواق بلاد الشام جزءا منها ، وأما

---

(٨) ليسنكا – الشرق الادنى ص ٢٢٨ – ٢٢٩ • الشرق الادنى كسوق لبضاعة الروسية ١٩١٣ بتروغراد •

(٩) ليسنكا – الشرق الادنى ص ٢١١ •

(١٠) مجلة المال والصناعة والتجارة بتروغراد ١٩٠٨ عدد ٢٧ .

(١١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤١ ورقة ٥ .

بقية الصناعات الروسية فكان لها دور ضعيف في اسواق الامبراطورية العثمانية • فقد سيطرت الاخشاب النمساوية على أسواق بلاد الشام على الرغم من العروض الكثيرة التي قدمتها وزارة التجارة الروسية حول تصدير الاخشاب الى بلاد الشام من مختلف المناطق الروسية وحتى من الشرق الاقصى (١٢) • وفي سنة ١٩٠٩ تسلمت وزارة التجارة الروسية طلبا لشراء الاخشاب لأعمدة التلفونات ولسكة حديد الحجاز• وفي سنة ١٩١١ نفدت هذه الطلبات عندما وصلت كميات كبيرة من الاخشاب الروسية (١٣) ولم يطرأ أي تحسن على الصادرات الروسية من الاخشاب للاسواق العثمانية حتى بعد بناء مخازن للاخشاب الصنوبرية لنهر الفولغا الروسي في استانبول ، فقد كتب القنصل الروسي في استانبول بان الاخشاب الروسية تتمتع بسمعة غير طيبة في اسواق الامبراطورية العثمانية لسوء نشرها وقطعها •

اما صادرات الحديد الروسي لاسواق بلاد الشام فقد اشتهر الاتفاق بين مؤسسة التجارة الروسية والشركة الروسية البلجيكية حول التعامل مع معامل « ماريابوليا » من أجل صناعة ثمانية الاف طن من قضبان السكك الحديدية والف طن مشد «قفيص» لسكة حديد الحجاز (١٤) وتوجد في أرشيف القنصلية الروسية في بيروت الكثير من العروض التي تقدمت بها معامل صناعات الحديد في روسيا حول امكانية

---

(١٢) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٦ ورقة ٢١، ٢٦، ٢٨ .

(١٣) مجلة التجارة والصناعة ، بتروغراد سنة ١٩١٠ عدد ٥ •

(١٤) مجلة أخبار الصناعة والتجارة ، بتروغراد سنة ١٩٠٦ العدد ١٣ .

تصدير الصناعات المعدنية الى بلاد الشام [١٥] . وهناك طلبات عديدة تقدم بها تجار بلاد الشام لاستيراد السمنت الروسي ومصنوعات شبه جزيرة البلقان [١٦] . غير ان الصناعات المعدنية الروسية لم تتمكن من فرض سيطرتها على اسواق الشام حتى الحرب العالمية الاولى . وقد وصل السماور الروسي الى أسواق دمشق والذي استفاد منه الحجاج المسلمون كما وصلت المناديل الروسية والشال من بخارى كما وصلت الخزفيات وأثاث الكنائس وفراء الحيوانات ومن الجدير بالذكر أن بعض المصنوعات الروسية كان قد نقلها تجار بلاد الشام من استانبول .

اما واردات روسيا من الدولة العثمانية فلم يكن لها شأن يذكر فقد شغلت روسيا في عام ١٩١٢ المرتبة الثامنة في سلسلة الدول المستوردة من الدولة العثمانية والدرجة السادسة بالنسبة للدول المستوردة من بلاد الشام في سنة ١٩١٠ ، اذ استورد التجار الروس من بلاد الشام البرتقال والفستق والليمون والكرز المجفف والسجاد والبسط والاثاث الشرقي « منتجات الصناعات الخشبية » وقد اهتمت البرجوازية الروسية بالدولة العثمانية وبلاد الشام كسوق لتصريف منتجاتها وليس للحصول على المواد الاولية في الصناعة . وعلى هذا الاساس فان تطور العلاقات التجارية مع الشرق الادنى وبضمنها بلاد الشام ، كان يخدم مصلحة معظم فصائل البرجوازية الصناعية الروسية المالكة لآبار النفط ومعامل السكر والمشروبات الروحية ومصانع الحديد في وسط روسيا وأصحاب البنوك ورؤوس الاموال المساهمة في

---

(١٥) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤٣ ورقة ٧ وثيقة ٢٤٧ ورقة ١ .

(١٦) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٢ .

مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية المؤسسة عام ١٨٥٧م • ولعبت هـذه المؤسسة دورا كبيرا في العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام •

وقد عمدت السلطة القيصرية في روسيا الى تحقيـق أهدافهـا السياسية في العلاقات الدولية عن طريق هذه العلاقـات التجارية مع الامبراطورية العثمانية ، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر اصبـح الشرق الادنى مركزا للصراع السياسي بين الدول الاوروبية وكـان التغلغل الاقتصادي من الوسائل التي اتبعتها هذه الدول لتوسيـع نفوذهـا السياسي في الدولة العثمانية ولهذه الاسباب زاد اهتمـام الحكومة الروسية في تطوير العلاقات التجارية مع أسواق الامبراطورية العثمانية وتوظيف رأس المال الروسي في البنوك العثمانية ومسانـدة المحاولات الاولية لهذه العملية بكل قوة • وتعتبر العلاقات التجـارية الروسية العثمانية وبضمنها بلاد الشام ضعيفة فيما اذا قورنت مع بقيـة الـدول الاوروبية التي لها علاقات تجارية مع الامبراطورية العثمانية• ومرد ذلك الى التخلف الاقتصادي الروسي وانخفاض الانتـاج وارتفـاع اسعار البضاعة اذ تزيد اسعارها على اسعار البضاعة للدول الاوروبية الاخرى بنسبة ١٥ــ٢٠ ٪، يضاف الى ذلك ارتفاع اجور الشحن البحري الذي احتكرته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية والاعمال غير الدقيقة والعطل المستمر لبواخرها• كل هذه الاسباب عرقلت العلاقات التجارية بين روسيا والاسواق العثمانية ، ولقد ساعدت الصعوبات في العـلاقات التجارية الروسية العثمانية على تحسن العلاقـات التجارية الانكليزية والفرنسية والايطالية والنمساوية والهنغارية واليونانية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى • وأسست معظم هذه الدول ملحقيات تجارية لها في العاصمة العثمانية والمدن العثمانية الاخرى • وكان من اهداف هـذه الملحقيات تطوير علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية ، فكانت تعرض قوائم بأسماء

البضائع التي يمكن تصديرها للاسواق العثمانية وتقوم بدور الوساطة في العلاقات التجارية ، اما روسيا القيصرية فلم تفتح لها ملحقية تجارية في العاصمة العثمانية الا في سنة ١٩١٣ في الوقت الذي قامت فيه بعض الدول الاوروبية بتنظيم معارض تجارية لها في المدن العثمانية ويصحب هذه المعارض التجار والسماسرة الذين يجمعون الطلبات حول رغبة التجار العثمانيين في البضاعة المستوردة . أما التجار الروس فقد نظموا صفقاتهم التجارية عن طريق المراسلات ودفعوا أجور عمولة كما دفعوا مبالغ لقاء خزن بضائعهم في مخازن البضاعة التابعة للدولة العثمانية أو المخازن التابعة للدولة الاجنبية في الامبراطورية العثمانية . وكان للشركات التجارية الكبرى الاخرى ممثلون في المدن العثمانية ، بينما لا تملك الشركات التجارية الروسية مثل هذه الممثليات باستثناء شركة النفط الروسية « براتيانوبيل » التي فتحت لها في سنة ١٩١٠ ممثليات ووكالات في معظم المدن العثمانية ففي بلاد الشام كان لها وكلاء في كل من دمشق والاسكندرية وحلب وطرابلس وعكا وحيفا ويافا والقدس وغزة ونابلس وصفد . ومنذ بداية القرن العشرين اشتد الصراع بين الاحتكارات العالمية للسيطرة على الاسواق العثمانية ولقد تمكن اتحاد السكر النمساوي من بسط سيطرته على الاسواق العثمانية وبضمنها بلاد الشام ولعب بنك تريستا دورا فعالا في هذا المجال اذ انه كان يملك مشروعات متعددة في المدن العثمانية ، كما سيطرت مؤسسة السنديكات النمساوية الرومانية على تجارة الاخشاب في الاسواق العثمانية (١٧) . وسيطر الكحول الروسي على الاسواق العثمانية حتى سنة ١٩١٢ . ولكن بعد هذه الفترة مباشرة تغير الموقف عندما بدأت الشركات النمساوية

---

(١٧) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٠، ورقة٤٤

تصدر الكحول الى الاسواق العثمانية باسعار منخفضة[١٨] ولعبت البنوك الاجنبية دورا فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الاجنبية فكان لهذه البنوك في بلاد الشام مشاريع متعددة فقد كان هناك فرع لبنك التسليف اليوناني والبنك النمساوي والانكليزي الفلسطيني والنمساوي الفلسطيني والعثماني وبنك سلانيك . وقامت هذه البنوك بتسهيل عملية التبادل التجاري بين الدول الاجنبية والاسواق العثمانية في الوقت الذي تأخر فيه رأس المال الروسي في هذا المجال بصورة واضحة ، فلم يكن هناك في كافة أرجاء الامبراطورية العثمانية الا فرع واحد لبنك العلاقات الخارجية الروسية المؤسسة في سنة ١٩٠٩ في العاصمة العثمانية ويفتقر موظفوا هذا البنك للخبرة والممارسات ويجهلون أهمية أسواق بلاد الشام وشجعت الدول الاوروبية مؤسساتها التجارية على توسيع علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية فخفضت اجور الشحن والضرائب كما خصصت لهم الجوائز والمكافآت المالية . اما العلاقات التجارية الروسية العثمانية ونظام القنصليات والنقل البحري والمكوس فكان اسلوبها في التعامل قديما لا يلائم المرحلة التاريخية الجديدة اذ أنها كانت قد انشئت وفق معاهدة عام ١٨٦٢ والمعدلة لمعاهدة سنة١٨٨٣ ولم تفكر الحكومة الروسية باعادة النظر في اتفاقياتها التجارية مع الدولة العثمانية بعد أن أقدمت السلطات العثمانية على زيادة المكوس على التجارة الخارجية من ٨ بالمئة الى ١١ بالمئة ولم تملك روسيا ملحقيات تجارية في خارج بلادها ولذا فقد أعطت المؤسسات والشركات التجارية اعمالها الى القنصليات الروسية التي تعوزها الخبرة في المسائل

---

(١٨) الشرق الادنى . ص ٢٢٥ .

التجارية (١٩) • وقام القنصل الروسي بتزويد التجار الروس بالمعلومات المطلوبة حول حالة السوق والطلبات والحاجيات المرغوبة في الوقت الذي كانوا يفتقرون فيه الى المعلومات الكافية حول التجارة • وهذا مما ساعد على اضعاف التجارة الروسية في صراعها مع تجارة بقية الدول الاوروبية في أسواق بلاد الشام حتى أصبحت روسيا مهددة بالخروج من الاسواق العثمانية • وفي سنة ١٩٠٢ اقدمت الحكومة الروسية على خطوة موجهة لتقوية العلاقات التجارية مع الدولة العثمانية وهي افتتاحها خطا للملاحة البحرية بين الموانىء الروسية على سواحل البحر الاسود وموانىء الخليج العربي بعد الاتفاق مع مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وتم الاتفاق على أن يمر خط الملاحة بالموانىء الآتية : القسطنطينية ، أزمير ، بيروت ، يافا ، بورسعيد ، السويس ، جدة ، جيبوتي ، عدن ، مسقط ، بندر عباس ، لنجه ، بندر بوشهر ، البصرة • وتعهدت الحكومة الروسية بمساعدة الشركة بمبلغ ١٥٠ ألف روبل في الرحلة الواحدة • وقامت وزارة الخارجية الروسية منذ بداية القرن العشرين باصدار نشرات دورية لها طابع اقتصادي وتجاري معتمدة على تقارير قناصلها في الخارج لغرض الدعاية للمنتجات والتجارة الروسية • وفي سنة ١٩٠٢ عقد مؤتمر لممثلي صناعات التعدين في جنوب روسيا لدراسة أسواق الفحم في الدولة العثمانية ومصر ومناطق الشرق الادنى الاخرى (٢٠) •

---

(١٩) كانت هناك قنصليات روسية قبيل الحرب العالمية الاولى في كل من بيروت وحلب ودمشق والقدس، صيدا، حيفا ، طرابلس، حماة ، انطاكيا والاسكندرية .

(٢٠) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت . وثيقة ٢٣٥ ورقة ١٢

وقد انتعشت العلاقات التجارية الروسية العثمانية بعد الحرب الروسية اليابانية وبعد ثورة عام ١٩٠٥ . ولكن أصابها الضعف مرة أخرى في الفترة ١٩٠٨ ــ ١٩٠٩ نتيجة للركود الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد الروسي واحتوت أرشيفات القنصليات الروسية في الامبراطورية العثمانية وفي بلاد الشام على طلبات كثيرة ، للتصدير الى الاسواق العثمانية . وأخذت المؤسسات التجارية الروسية المختلفة تبدي رغبتها واستعدادها لاقامة العلاقات التجارية مع أسواق الشرق الادنى. وحاولت البرجوازية الصناعية الروسية تنظيم تجارتها الخارجية عن طريق تأسيس شركات مساهمة للتصدير ، فظهرت مثل تلك المؤسسات في سنة ١٩٠٨ في موسكو واوديسا وكان اشهرها المؤسسة التجارية الروسية للشرق ، ومؤسسة الصداقة الروسية للتصدير [٢١] . ولم يترك تأسيس هذه الشركات أثرا ملموسا على تطور العلاقات التجارية بين روسيا والشرق الادنى لضعف خبرة هذه المؤسسات وعدم مساندتها من جانب الحكومة الروسية . ومنذ سنة ١٩٠٨ أخذت البضاعة الروسية تصل أسواق الامبراطورية العثمانية عن طريق مؤسسات التصدير .

ومما ساعد على تقوية العلاقات التجارية بين روسيا والدولة العثمانية المعرض الصناعي الزراعي المتجول الذي نظمته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية سنة ١٩١٠ . وكان الهدف الاساسي من وراء تنظيم هذا المعرض هو اطلاع التجار العثمانيين على المنتجات الصناعية والزراعية في روسيا وقد ساهم في المعرض ما يزيد على ١٥٠ شركة

---

(٢١) ساهمت في هذه الشركات مؤسسة النقل البحري والتجارة الروسية بنسبة ٥٠ بالمئة من مجموع الاسهم .

ومؤسسة صناعية ، فعرضت مختلف أنواع المكـائن والزجاجيات والاقمشة والجلود والفراء واللعب والحبوب والشاي والسكر والاحذية والاثاث المنزلي والمزهريات والكتب .

وقد أقيم هذا المعرض على ظهر الباخرة المسماة «نيقولا الثاني» وتعتبر هذه الباخرة من أحسن البواخر التي تمتلكها مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وقد ساهمت وزارة الصناعة والتجـارة في قسط كبير من تكاليف تنظيم المعرض . وقد بدأ المعرض المتجول رحلته بمدينة فارنا البلغارية مـارا بالقسطنطينية وسلانيك والإسكندرية وبورسعيد وحيفا وبيروت وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون . وقـد حقق المعرض نتائج غير متوقعة ، اذ تعـدى مسألة تعرف شعوب الشرق على المنتجات الروسية وبدأ التجار المحليون العثمانيون يسجلون طلباتهم على المنتجات الروسية [٢٢] . كما أشادت الصحافة العربيـة في بيروت بأهمية البضاعة الروسية المعروضة [٢٣] . وفي سنة ١٩١٠ عقـد في موسكو مؤتمر لممثلي الصناعات التجارية والزراعية لمناقشة سبل زيادة الصادرات الروسية للخارج وما حققه المعرض مـن نجاحات . وناقش المؤتمر النقاط التالية :

١ ــ تقرير حول تاريخ الصادرات الروسية للشرق الادنى .

٢ ــ تتائج قيام المعرض .

---

(٢٢) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت، وثيقة ٤٦٥، ورقة ١٧.

(٢٣) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٤٥٦ ورقة ١٨.

٣ ـ تقارير المؤسسات المساهمة في المعرض حول أصناف البضاعة الممكن تصديرها للشرق الادنى .

٤ ـ تقرير حول السبل لنجاح التجارة الروسية للشرق الادنى وتقارير اخرى حول معوقات التجارة الروسية في الشرق الادنى .

وحاولت البرجوازية الروسية استغلال المؤتمر كوسيلة لتوجيه السياسة الاقتصادية للحكومة القيصرية لخدمة مصالح البرجوازية الاقتصادية فاتخذ المؤتمر عدة قرارات وتوصيات مهمة كانت لها آثارها على سياسة الحكومة الاقتصادية وعلى تطور التجارة الروسية مع بلدان الشرق الادنى . اذ أوصى المؤتمر بتخفيض أجور الشحن بالسكك الحديد وبالطرق البحرية وبتخفيض ضريبة الموانىء وفتح مخازن البضاعة الروسية في الشرق الادنى وفتح خطوط ملاحة بحرية جديدة لمؤسسة الملاحة والتجارة الروسية الى سواحل القفقاس وروسيا الجديدة لتقدير الدقيق الروسي والاسمنت واعادة تنظيم ميناء ماريو بولسكي ★ وتعميق مضيق « كيرجين » ★ لتسهيل عملية تصدير المنتجات الروسية وتخفيض الضرائب على المواد الاولية المستوردة من الخارج والتي تحتاجها الصناعة الروسية . وبذلك فقد اتخذ المؤتمر الكثير من القرارات لتسهيل عملية الصادرات الخارجية . وكان على الحكومة الروسية أن تصغي الى مقررات المؤتمر ، وبالفعل بدأت الحكومة الروسية سنة ١٩١١ بتنفيذ بعض تلك المقررات فتم تنظيم قسم

---

* ميناء ماريوبولسكي : احد الموانىء الروسية في شبه جزيرة كولا ـ شمال غرب الاتحاد السوفياتي

* مضيق كيرجين : في شبه جزيرة القرم على سواحل البحر الاسود .

الاستعلامات للعلاقات التجارية الخارجية في وزارة التجـــارة وقامت اللجنة التجارية في السفارة الروسية في القسطنطينيـــة بتنظيم معرض تجاري بحري متجول . وتم فتح مكتب تجاري في القسطنطينية وبدأت وزارة التجارة تفكر في امكانية فتـــح مثل هذه المكاتب في بقيـــة القنصليات الروسية في المدن العثمانية الاخرى منذ سنة ١٩١٣ (٢٤) . كما خفضت الحكومة اجور الشحن البحري والبري . وفي سنة ١٩١٢ أرسلت وزارة التجارة والصناعـــة بعثة الى الشـــرق الادنى لدراسة احتياجات الاسواق العثمانية هناك وقدمت هذه اللجنة تقـــارير مفيدة استفاد منها التجار الروس . وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى نظمت معارض تجارية روسية في المدن العثمانية المهمة مثل القسطنطينية وأزمير وبيروت . كما أسس بعض التجار الروس وكالات تجارية خاصة بهم في بعض المدن العثمانية . كما شجعت روسيا مشاركة رأس المـــال الروسي في البنوك العاملة في أرجاء الامبراطورية العثمانية ففي سنـــة ١٩١٣ جرت محادثات من أجل مساهمة أحد البنوك الروسية في بنـــك سلانيك . وقد انعكست محاولات الحكومة الروسية الهادفة الى تقوية علاقاتها التجارية مع الامبراطورية العثمانية على بلاد الشـــام . فانهالت الطلبات الكثيرة للمؤسسات والشركات الروسيـــة على القنصليـــات الروسية في بلاد الشام طلبا لتصدير منتجاتها الى اسواق بـــلاد الشام . وبالعكس ازدادت طلبات تجار بلاد الشام لاستيراد البضاعة الروسية . وقد بلغ عدد المؤسسات التجارية في بلاد الشام والتي لهـــا علاقـــات تجارية مـــع روسيا حتى سنة ١٩١٢ ، ٤٢ مؤسسة تجارية . وظهر فـــي بيروت بعض التجار الذين يملكون تبعية روسية وقد لعب هؤلاء دورا

---

(٢٤) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت . وثيقة ٢٣٠. ورقة ٣٣

فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين بلاد الشام وروسيا • حتى ان بعضهم ساهم في المعرض التجاري الروسي المتجول [٢٥] • وفي سنة ١٩١٢ تأسست في بيروت مؤسسة التجارة الروسية الشرقية ، كان مساهموها من التجار الذين لهم علاقات تجارية مع روسيا [٢٦] • وفي السنة نفسها تم تأسيس شركة الصادرات النفطية الروسية العثمانية السورية والتي تولت عملية استيراد النفط الروسي وطرق بيعه وتحديد أسعاره • ان تأسيس هذه الشركات التجارية وخاصة النفطية منها مما زاد من قوة العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام وخاصة صادرات النفط الروسي وبذلك تكون روسيا قد صدرت الى أسواق بلاد الشام بضاعة مصنفة ومنتجة في المناطق الجنوبية في روسيا والتي أصبح لها مركز واضح في أسواق بلاد الشام •

---

(٢٥) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٨١٩ ورقة ٣٨.

(٢٦) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٣٣.

كتب جديدة :

نشأة الحركة الاباضية

تأليف الدكتور عوض خليفات
الاستاذ المساعد في كلية الآداب
الجامعة الاردنية

كتاب في نشأة حركة من حركات الخوارج ، وفيها تقص الاستاذ المؤلف نشوء تلك الحركة وتطورها ، ونجح نجاحا كبيرا في ابراز الدور السياسي والفكري للحركة الاباضية على الرغم من ندرة المصادر وقلة ما كتب عنها . وقد اثبت الدكتور خليفات ان مؤسس هذه الحركة هو جابر بن زيد الازدي وان ابن اباض لم يكن الا واحدا من اتباعه، وتتبع المؤلف نشاط جابر بن زيد في البصرة وغيرها من المناطق ، حيث ازداد الاعوان والانصار وصارت الحركة ذات أثر فعال في العصر الاموي . كما بين المؤلف انتقال الاباضية الى عمان واستقلالهم هناك واعلان امامتهم .

ان الكتاب صفحة مشرقة من صفحات تراثنا الخالد ، ورائعة من روائع البحث العلمي المجرد ، وتكريما لجهود الدكتور خليفات وتقديرا لروحيته العلمية فقد قامت الامانة العامة للاتحاد بتعضيده ودعمه .

العراضة في الحكاية السلجوقية

أصدر المؤرخان العربيان الدكتور حسين امين والدكتور عبد النعيم محمد حسنين كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية وقد قاما بترجمته عن اللغة الفارسية وتحقيقه تحقيقا علميا ، فجاء الكتاب تحفة من تحف التراث العربي والاسلامي .

مؤلف الكتاب الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام الحسيني المتوفي سنة ٧٤٣ هـ ، ويبحث الكتاب في تاريخ السلاجقة منذ تاسيسهم وحتى انفراط عقدهم وزوال سيطرتهم .

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية يعتبر من اجل كتب التاريخ التي اختصت بتاريخ السلاجقة ودونت لسلاطينهم وحروبهم ، وقد كتب الكتاب أصلا بلغة فارسية عالية اتسمت بالاسلوب الادبي الراقي، وحاول المترجمان جعل الكتاب المترجم بنفس الروح التي سارت عليه منهجية اسلوب الكتاب .

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية اضاف للمكتبة العربية تحفة جديدة من المواضيع التاريخية المهمة لا يستغنى عنها الباحثون والدارسون ، ومن جدير بالذكر ان الكتاب طبع على نفقة جامعة بغداد .

والحق يقتضي تقديم الشكر والامتنان للاستاذين المؤرخين الكبيرين الذين بذلا من الجهد الكبير ما جعل الكتاب يخرج بهذه الحلة الرائعة، ونرجو الله ان يوفقهما لخير العلم واحياء كتب التراث .

حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور

مؤلف الكتاب عالم وباحث عربي كبير هو الاستاذ الدكتور احمد سوسة عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو المجمع العلمي العراقي .

ان المؤلف معروف بدأبه العلم وصبره على الدرس والبحث وكتابه هذا دليل واضح على الجهد الكبير المبذول من اجل ابراز تراث الامة الخالد .

لقد تقص الباحث في كتابه عن الساميين وأصل تسمية العرب ، وازدهار حضارة العرب في اقدم مراحل تطورها ، واكد ان جزيرة العرب هي المهد الاول للحضارات السامية ، ثم بحث في الهجرات السامية الى الهلال الخصيب ، وبين ان المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب هي الوطن الاصل للساميين وان اللغة العربية هي اللغة الام ، وذكر اراء بعض العلماء في هجرات القبائل العربية ، ثم عرج على موضوع الجفاف ، وابان ان اقدم وجود للساميين هو في وادي الرافدين .

وتناول الدكتور مواضيع حضارية في وادي الرافدين ووادي النيل وكذلك في بلاد اليمن .

ان الكتاب أضاف معلومات قيمة للمكتبة العربية واتسم بالروح العلمية وقامت وزارة الاعلام العراقية بنشره اسهاما في دعم الحركة العلمية واحياء التراث العربي .